

البحر المختار في علم العروض

في عصور العرب الزاهرة

للشيخ الأول

العصر الجليل، عصر صدر الإسلام

تأليف

أحمد زكي صفيوت

استاذ اللغة العربية بدار العلوم

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م / رقم ٤٩٤

كل الحقوق محفوظة

إشرافه: محمد بن عمران

۵۳۵

تفہیم

تفہیم

تفہیم

۵۴

تفہیم

تصدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم على ما أوليتني من نعمك السابغة ، وآلائك الضافية ، وأصلى
وأسلم على رسولك المجتبي ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .
• وبعد : فلإمراء أن خطب العرب في عصور ازدهار اللغة مرآة يتجلى فيها
مأجابهام الله من ذلاقة اللسان، وعذوبة البيان ، ومعرض يتمثل فيه نتاج قرائحهم ،
وثمرات ألبابهم ، في كثير من مناحي القول ، وإنها لتعدّ - بعد القرآن الكريم
والحديث الشريف - مثلاً سامياً للبلاغة العربية ، ونموذجاً قوياً يحتذيه المتأدب
في تقويم قلمه المروع ، وشحذ لسانه الكليل ، وهي فوق ذلك معين فياض
يستقى منه مؤرخ الأدب العربي ما يعين له من آراء ، ومادة غزيرة يستنبط منها
ما يقفه عليه البحث من فكر .

وقد نظرت فوجدت تلك الخطب مبشرة مثورة في كتب الأدب والتاريخ ،
لا يؤلف بينها نظام ، ولا يضم أشباتها كتاب ، فإذا ما شئت أن تعرف صورة
الخطابة في عصر من العصور ، أو تترجم لخطيب من خطباء العربية ، ألفت
الطريق أمامك وعرة شائكة ، وأنفقت وقتاً مديداً في التنقيب عن خطبه في

والعافية ، حتى أصدر ما اعتزمت إصداره بعد تمام هذا الكتاب إن شاء الله ،
وهو كتاب :

جمهرة رسائل العرب ، في عصور العربية الزاهرة

كى تكمل حلقة النثر العربى فى تلك العصور، إنه المستعان ، عليه توكلت
وإليه أنيب من

أحمد زكى صفوت

حرر بالقاهرة فى ربيع الآخر سنة ١٣٥٢ هـ
يوليو سنة ١٩٣٣ -



فهرس

مآخذ الخطب في هذا الجزء

-
- الأمالى : لأبى على القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « الرابع - السابع - الثامن - الحادى
عشر - الرابع عشر - الخامس عشر »
صبح الأعشى لأبى العباس القلقشندى : الجزء الأول - الثانى
نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « الثالث - الخامس - السابع
عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول - الثانى
العقد الفريد : لابن عبد ربه : « » - الثانى - الثالث
زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرمى : « »
البيان والتبيين : للجاحظ : « » - الثانى - الثالث
نهج البلاغة : للشريف الرضى : « »
شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى - الثالث - الرابع
أمالى السيد المرتضى : الجزء الأول - الثانى
تجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « - »
جمهرة الأمثال : لأبى هلال العسكري : « - »
خزانة الأدب : لعبد القادر البغدادى : « »

تاريخ الأمم والملوك : لأبي جعفر بن : الجزء الثاني - الثالث - الرابع - الخامس -

جرير الطبري : السادس

تاريخ الكامل : لابن الأثير : الجزء الأول - الثاني - الثالث

مروج الذهب : للمسعودي : » » - الثاني

الإمامة والسياسة : لابن قتيبة : » »

المختصر في أخبار البشر : لأبي الفداء : » »

معجم البلدان : لياقوت الحموي : » الثامن

سيرة النبي ﷺ : لابن هشام : » الأول - الثاني

السيرة الحلبية : لابن برهان الدين الحلبي : » »

إعجاز القرآن : لأبي بكر الباقلاني :

بلاغات النساء : لابن أبي طاهر طيفور :

سرح العيون ، سرح رسالة ابن زيدون :

لابن نباتة المصري :

أنباء نجباء الأبناء : لابن ظفر المسكي :

المحاسن والأضداد : للجاحظ :

الشعر والشعراء : لابن قتيبة :

شرح قصيدة ابن عبدون : لابن بدرون :

بلوغ الأرب : للسيد محمود شكري : الجزء الأول - الثالث

الألوسی :

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح :

الباب الأول

الخطبة الوصايا

في

العصر الحجلي

اصلاح مرثد الخير

يَبْنَى سُبَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ ، وَبَيْنَ مَيْثَمِ بْنِ مُثَوَّبِ

كان مرثد الخير بن ينكف قبيلاً ، وكان حديباً على عشيرته ، مجباً لصلاحهم ، وكان سُبَيْعِ بْنِ الْحَارِثِ (١) ومَيْثَمِ بْنِ مُثَوَّبِ بْنِ ذِي رُعَيْنِ تنازعا الشرف ، حتى تشاحنا ، وخيف أن يقع بين حبيهما شرٌّ ، فیتفانى جذماهما (٢) ، فبعث إليهما مرثد ، فأحضرهما ليصلح بينهما ، فقال لهما :

[١] أخو علس ، وعلس هو ذو جدهن .

[٢] الجذم : الأصل ، وكذا الجذر

١ - مقال مرثد الخير

إِنَّ التَّخَبُّطَ ^(١) وَأَمْتِطَاءَ الْمَهْجَاجِ ^(٢) ، وَاسْتِحْقَابَ ^(٣) الْأَجَاجِ ، سَيَقْفُكُمْ
عَلَى شَفَا هُوَّةٍ ، فِي تَوَرُّدِهَا ^(٤) بَوَارِ الْأَصِيلَةِ ^(٥) ، وَانْقِطَاعِ الْوَسِيلَةِ ، فَتَلَاوِيًا
أَمْرًا كَمَا قَبْلَ أَنْتِكَاتِ ^(٦) الْمَهْدِ ، وَانْحِلَالِ الْعَقْدِ ، وَتَشْتُّتِ الْأَلْفَةِ ، وَتَبَايُنِ
السُّهْمَةِ ^(٧) ، وَأَنْتَمَا فِي فُسْحَةِ رَافِهِةٍ ^(٨) ، وَقَدَمِ وَاطِدَةٍ ^(٩) ، وَالْمَوَدَّةِ مُثْرِيَةٍ ^(١٠) ،
وَالْبُقْيَا مُعْرِضَةٍ ^(١١) ، فَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنْبَاءَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْعَرَبِ : مِمَّنْ
عَصَى النَّصِيحَ ، وَخَالَفَ الرَّشِيدَ ، وَأَصْنَعَى إِلَى التَّقَاطُعِ ، وَرَأَيْتُمْ مَا آتَى إِلَيْهِ
عَوَاقِبُ سُوءِ سَعْيِهِمْ ، وَكَيْفَ كَانَ صَيُورُ ^(١٢) أُمُورِهِمْ ، فَتَلَاوُوا الْقُرْحَةَ ^(١٣)
قَبْلَ تَفَاقُمِ الثَّأْيِ ^(١٤) ، وَاسْتِفْحَالَ ^(١٥) الدَّاءِ ، وَإِجْوَازِ الدَّوَاءِ ، فَإِنَّهُ إِذَا سُفِكَتِ
الدِّمَاءُ ، اسْتَحْكَمَتِ الشَّخْنَاءُ ، وَإِذَا اسْتَحْكَمَتِ الشَّخْنَاءُ ، تَقَضَّبَتِ ^(١٦) عَرَى
الإِبْقَاءِ ، وَشَمِلَ ^(١٧) الْبَلَاءُ .

٢ - مقال سبيع بن الحرث

فَقَالَ سَبِيعُ : « أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّ عَدَاوَةَ بَنِي الْمَلَاتِ ^(١٨) لَا تُبْرِئُهَا الْأَسَاةُ ^(١٩) ،

[١] التخبط : ركوب الرجل رأسه في الشمر خاصة ، أو السير على غير هدى . [٢] ركب فلان هجاج (غير مصروف) ، ووهاج منبأ على الكسر : أى ركب رأسه . [٣] الاستحقاب : استفعال من الحقية أو من الحناب ، فأما الحقية ، فما يجعل الرجل فيه متانته من خرج أو غيره ، والحناب : بريم تشد به المرأة وسطها (والبريم خيط فيه لوانان) ، وهذا مثل : إما أن يكون أراد أنه احتزم بالهجاج أو جعله في وعائه . [٤] التورد : الإشراف على الماء وغيره ، دخله أو لم يدخله . [٥] الأصل . [٦] انتقاص : (والأنكات جمع نكت ، وهو ما نقض من الحبال ليعاد ثانية) . [٧] القراية . [٨] ناعمة من الزفاهية . [٩] ثابتة . [١٠] متصلة . [١١] ممكنة قد أمكنت من عرضها ، أى من جنبها وناحيتها ، يقال قد أعرض لك الطي فارمه ، أى أمكك من عرصه . [١٢] طاقبة . [١٣] الجرح . (١٤) كالسمى والثرى : الإفساد والجراح والقتل ونحوه . [١٥] اشتداده ، وهو أن يصير مثل الفحل . [١٦] تقطعت . [١٧] من بابي فرح ونصر . [١٨] العلة : الصرة ، وهو الملأت بنو أمهات شتى من رجل واحد ، (والأخفاف : من أمهم واحدة والآباء شتى) . [١٩] جمع آس ، وهو الطبيب .

وَلَا تَشْفِيهَا الرُّقَاةُ ، وَلَا تَسْتَقِيلُ^(١) بِهَا الكُفَاةُ ، وَالْحَسَدُ الكَامِنُ ، هُوَ الدَّاءُ
الْبَاطِنُ ، وَقَدْ عَلِمَ بَنُو أَيْدِنَا هُوَ لَاءُ ، أَنَا لَهُمْ رِذِيَّةٌ^(٢) إِذَا رَهَبُوا ، وَغَيْثٌ إِذَا
أَجْدَبُوا ، وَعَضُدٌ إِذَا حَارَبُوا ، وَمَفْزَعٌ إِذَا نُسِكَبُوا ، وَأَنَا وَإِيَاهُمْ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :
إِذَا مَا عَلَوْا قَالُوا أَبُونَا وَأُمَّنَا وَإِنْسَ لَهُمْ عَالِينَ أُمَّ وَلَا أَبُ »

٣ - مقال ميثم بن مشوب

فَقَالَ مِثْمٌ : « أَيُّهَا الْمَلِكُ : إِنَّ مَنْ نَفَسَ عَلَى ابْنِ أَبِيهِ الزَّعَامَةَ ، وَجَدَّ بَهُ^(٣) »
فِي الْمَقَامَةِ^(٤) ، وَأَسْتَكْتَرَ لَهُ قَلِيلَ الْكِرَامَةِ ، كَانَ قَرِيفًا^(٥) بِالْمَلَامَةِ ،
وَمُؤَنَّبًا عَلَى تَرْكِ الْأَسْتِقَامَةِ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا نَعْتَدُ لَهُمْ بِيَدٍ إِلَّا وَقَدْ نَاهَهُمْ مِنَّا
كِفَاؤُهُهَا ، وَلَا نَذْكُرُ لَهُمْ حَسَنَةً إِلَّا وَقَدْ تَطَلَّعَ مِنَّا إِلَيْهِمْ جَزَاؤُهَا ، وَلَا
يَتَفَيَّأُ لَهُمْ عَلَيْنَا ظِلٌّ نِعْمَةٍ إِلَّا وَقَدْ قُوبِلُوا بِشَرِّهَا^(٦) ، وَنَحْنُ بَنُو فَحْلٍ
مُقْرَمٌ^(٧) ، لَمْ تَقْعُدْ بِنَا الْأُمّهَاتُ وَلَا بِهِمْ ، وَلَمْ تَنْزِعْنَا أَعْرَاقُ السُّوءِ وَلَا إِيَاهُمْ ،
فَعَلَامَ مَطَّ^(٨) الْخُدُودِ ، وَخَزَرُ الْعِيُونِ^(٩) وَالْجَخِيفِ^(١٠) وَالتَّصَعْرُ ، وَالْبَأْوُ
وَالشَّكْبُرُ؟ الْكِرَّةَ عَدَدٍ ، أَمْ لِفَضْلِ جَلَدٍ ، أَمْ لِطُولِ مُعْتَقِدٍ^(١١)؟ وَإِنَّا
وَإِيَاهُمْ لَكَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

لَا هِ ابْنُ عَمِّكَ ، لَا أَفْضَلْتَ فِي حَسَبٍ عَنِّي ، وَلَا أَنْتَ دَيَّانِي فَتَخْرُونِي^(١٢)
وَمَقَاطِعُ الْأُمُورِ ثَلَاثَةٌ : حَرْبٌ مُبِيرَةٌ^(١٣) ، أَوْ سَلْمٌ قَرِيرَةٌ ، أَوْ مُدَاجَاةٌ وَغَفِيرَةٌ^(١٤) »

[١] تنهض بها وتحملها . [٢] عون . [٣] عابه . [٤] المجلس . [٥] حليفاً .
[٦] مثلها . [٧] الفرم : السيد ، وأقرمه : جعله قرماً . [٨] مد . [٩] الحرر أن
ينظر الرجل إلى أحد عرضيه . يقال إنه ليتحاررلى : إذا نظر لآليه يؤخر عينه ولم يستقبله بنظره .
[١٠] التكبر ، وكذا البأو . [١١] اعتقد ضيعة ومالا : اقتداهما . [١٢] لاه : أراد الله ، فخدق
اللام الحافضة اكتفاء بالتي تليها ، والديان القائم بالأمر ، وتخزوني : تسوسى . [١٣] مهلكة .
[١٤] مسطرة وغفران .

٤ - مقال مرثد الخير

فَقَالَ الْمَلِكُ : « لَا تُنْشِطُوا ^(١) عُقْلَ الشَّوَارِدِ ، وَلَا تُلْقِحُوا الْعُونَ الْقَوَاعِدَ ^(٢) ، وَلَا تُورِّثُوا ^(٣) نِيرَانَ الْأَحْقَادِ ، فَفِيهَا الْمَتَلَفَةُ الْمُسْتَاصِلَةُ ، وَالْجَائِحَةُ ^(٤) وَالْأَلِيلَةُ ^(٥) ، وَعَفَّوْا بِالْحِلْمِ ، أَبْلَادَ ^(٦) الْكَلَمِ ، وَأَنْبِئُوا إِلَى السَّبِيلِ الْأَرْشَدِ ، وَالْمَنْهَجِ الْأَقْصَدِ ، فَإِنَّ الْحَرْبَ تُقْبَلُ بِزَبْرِجِ ^(٧) الْغُرُورِ ، وَتُدْبَرُ بِالْوَيْلِ وَالشُّبُورِ ، ثُمَّ قَالَ الْمَلِكُ :

أَلَا هَلْ أَتَى الْأَقْوَامَ بِذُلَى نَصِيحَةً
وَقَلْتُ أَعْلَمَا أَنَّ التَّدَابُرَ غَادَرْتُ
فَلَا نَقْدَحَا زَنْدَ الْمُقَوِّقِ وَأَبْقِيَا
وَلَا تَجْنِيَا حَرْبَا تَجْرُهُ عَلَيْكَا
فَإِنَّ جُنَاةَ الْحَرْبِ لِلْحَيْنِ عُرْضَةٌ
حَذَارِ ، فَلَا تَسْتَنْبِئُوهَا ، فَإِنِهَا
فَقَالَا : لَا ، أَيُّهَا الْمَلِكُ . بَلْ نَقْبَلُ نُصْحَكَ ، وَنُطِيعُ أَمْرَكَ ، وَنُطْفِئُ النَّارَةَ ^(٨)
وَنَحْلُلُ الضَّغَائِنَ ، وَنُثَوِّبُ إِلَى السَّلَامِ .
(الامالى ١ : ٩٢)

[١] نشط العقدة عقدها ، وأنشطها حاما ، والعقل ككتف جمع عقال ، وهو الحل .
[٢] هو مثل ، وأسله في الإيل ، يقال : لقت الناقة إذا حملت ، وألقحها الفحل ، ثم ضرب ذلك مثلا للحرب إذا ابتدأت ، والعون جمع عون ، وهو الثيب . يقال للحرب عون إذا كان قد قوتل فيها مرة بعد مرة :
[٣] تدكوا . [٤] الاستئصال . [٥] الشكل . [٦] الأبلاد : الآثار ، جمع بلد (كالدويع جمع ندب) . [٧] السحاب الذى تسفره الريح . [٨] النابغ . [٩] تفوقهم : تسقيهم الفواق (وهو ما بين الحلبين) والدطاف : السم أو سم ساعة (وسم ذئاف) والمقشم : المخلوط .
[١٠] هو مثل ، أى لا تخرجوا نبيتها ، وهو ما يخرج من البئر إذا حفرت : يريد لا تثيروا الحرب . ومكشما : مقطوعاً . [١١] العداوة والشجاء .

٥ - طريف بن العاصي والحارث بن ذبيان يتفاخران عند بعض مقال حمير

اجتمع طريف بن العاصي الدوسي ، والحارث بن ذبيان (وهو أحد
المعمرين) عند بعض مقال^(١) حمير ، فتفاخرا . فقال الملك للحارث : يا حارث ،
ألا تخبرني بالسبب الذي أخرجكم عن قومكم حتى لحقتم بالنمر بن عثمان ؟ فقال :
أخبرك أيها الملك . خرج هجينان^(٢) منا يرعيان غنما لهما ، فتشاولا^(٣) بسيفيهما ،
فأصاب صاحبهم عقب صاحبنا ، فعاث^(٤) فيه السيف ، فترف ،^(٥) فثات ،
فسألونا أخذ دية صاحبنا دية الهجين ، وهي نصف دية الصريح^(٦) ، فأبى
قومي ، وكان لنا رباه^(٧) عليهم ، فأيننا إلا دية الصريح ، وأبوا إلا دية الهجين ،
فكان أسم هجيننا ذهين بن زبراء ، وأسم صاحبهم عنقش بن مهييرة ، وهي
سوداء أيضاً^(٨) ، فتفاقم الأمر بين الحيين ، فقال رجل منا :

خُلُومَكُمُ يَا قَوْمَ لَا تُعْزِبُنَّهَا
وَأَدُّوا إِلَى الْأَقْوَامِ عَقْلَ ابْنِ عَمِّهِمْ
وَأَدُّوا إِلَى الْأَقْوَامِ عَقْلَ ابْنِ عَمِّهِمْ
فَإِنَّ ابْنَ زَبْرَاءِ الَّذِي فَادَّ لَمْ يَكُنْ
فَإِنَّ لَمْ تُعَاطُوا الْحَقَّ فَالسَّيْفُ بَيْنَنَا
وَلَا تَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمُ بِالتَّدَابُرِ^(٩)
وَلَا تُرْهَقُوهُمْ سُبَّةً فِي الْعِشَائِرِ^(١٠)
بِدُونِ خَلِيفٍ أَوْ أَسِيدٍ بِنِ جَابِرِ^(١١)
وَيَدِينَكُمُ ، وَالسَّيْفُ أَجُورُ جَائِرٍ

[١] جمع مقول ، والقول والقليل هو الذي دون الملك الأعظم . [٢] الهجين : عربي ولد من
أمة ، أو من أبوه خير من أمه (والمقرب : الذي أمه عربية ، وأبوه ليس بعربي) .
[٣] تشاربا . [٤] أوسد . [٥] نرف الرجل إذا سال دمه حتى يصف . [٦] الصريح
الحالس النسب . [٧] زيادة . [٨] كذا في الأصل ، ولم يتقدم الحكم على شيء بالواد ، ولعل الأصل :
« ذهين بن زبراء وهي سوداء » . [٩] لا تبعدها - وأعرب بعد وأبعد . [١٠] العقل : الدية ،
يقال : عقلت فلاناً إذا غرمت ديتيه ، وعقلت عن فلان إذا غرمت عنه دية جبايته . وأرهمته عسراً :
كأنه ذلك . [١١] فاد يفرد : طات (وفاد يفيد : تبخر) .

تتظافروا^(١) علينا حسداً، فأجمع ذوو الحِجْبِي منا أن نلحق بأمنع بطن من الأزد،
لحقنا بالنعم بن عثمان، فوالله ماقت^(٢) في أعضادنا، فأبناعنهم، ولقد أثارنا^(٣)
ساحبنا وهم راغمون .

فوثب طريف بن العاصي من مجلسه، فجلس بإزاء الحرث، ثم قال :
تالله ما سمعتُ كاليوم قولاً أبعد من صواب، ولا أقرب من خطل^(٤)،
ولا أجلب لقتدع^(٥)، من قول هذا؛ والله أيها الملك ماقتلوا بهجيتهم بدجاً^(٦)، ولا
رقوا به درجاً، ولا أنطوا^(٧) به عقلاً، ولا اجتفتوا^(٨) به خشلاً^(٩)، ولقد
أخرجهم الخوف عن أصلهم، وأجلاهم عن محلهم، حتى أستلانا وخشونة الإزعاج،
ولجئوا إلى أضيق الولاغ^(١٠) : فلا وذلاً .

فقال الحرث : أسمع يا طريف، إني والله ما إخالك كافاً غريب^(١١) لسانك،
ولا مُنهنها^(١٢) شيرة نزوانك، حتى أسطوبك سطوبة تكف طماحك، وترد
جياحك، وتكبت تترعك^(١٣)، وتقمع تسرعك .

فقال طريف : مهلا يا حرث، لا تعرض لطحمة^(١٤) استناني، وذرب^(١٥)
سناني، وغزب شبابي، وميسم^(١٦) سبابي، فتكون كالأظل^(١٧) الموطوء،
والعجب الموجه^(١٨) .

[١] تظافروا . [٢] أذهن وأضعف . [٣] أثارت : أدركت منه تأري (وأصله اثتأر) . [٤] خطأ .
[٥] الكلام المبيح ، أقتدع له إذا أسمعته كلاماً قبيحاً . [٦] البذج : الحرث ، فارسي معرب .
[٧] لمة في أعطوا . [٨] صرخوا . [٩] الحشل : شجر المقل (الدوم) وهذه أمثال كلها ، يريد
أنهم لم يبالوا تأريه . [١٠] الولاغ الباب، وجمعه الولاغ، وهي أيضاً الدواحي والأزقة . [١١] غريب الشيء حده .
[١٢] نهته عن الأمر فنهته كفه وزجره مكف ، والشيرة : الحدة ، والنزوان : الوثوب . [١٣] الترسخ
إلى الشر . [١٤] طحمة السيل دفنته ، واستن الفرس قس وعدا لمرحه ونشاطه شوطاً أو شوطين ،
والاستنان النشاط ، استن الفرس جرى في نشاطه على سننه في جهة واحدة . [١٥] الذرب الحدة ،
وكذا العرب . [١٦] المكواة . [١٧] الأظل : أسفل حف العير . [١٨] العجب : أصل الذنب
والموجه المدقوق (من وجأ النيس : دق عروق خصييه بين حجرين ولم يخرجهما) شيباً بالحاء .

فقال الحرث: إياي تخاطب بمثل هذا القول ؟ فوالله لو وطئتكَ لَأَسَخْتِكَ^(١) ،
ولو وَهَصْتِكَ^(٢) لَأَوْهَطْتِكَ^(٣) ، ولو نَفَخْتِكَ^(٤) لَأَفَدْتِكَ .

فقال طريف متمثلاً :

وَإِنَّ كَلَامَ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ لَسَكَ النَّبْلُ تَهْوِي لَيْسَ فِيهَا نِصَالُهَا
أَمَّا وَالْأَصْنَامِ الْمَحْجُوبَةِ ، وَالْأَنْصَابِ^(٥) الْمَنْصُوبَةِ ، إِنَّ لَمْ تَرْبِعْ عَلَى ظَلْمِكَ^(٦) ،
وَتَقِفْ عِنْدَ قَدْرِكَ ، لَأَدَعَنَّ حَزَنَكَ سَهْلًا ، وَغَمْرَكَ ضَحْلًا^(٧) ، وَصَفَاكَ^(٨) وَحَلَا .
فقال الحرث : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ رُمْتُ ذَلِكَ لَمُرَّغْتَ بِالْحَضِيضِ^(٩) ، وَأَغْضِضْتَ
بِالْجَرِيضِ^(١٠) ، وَضَاقَتْ عَلَيْكَ الرَّحَابُ ، وَتَقَطَّعَتْ بِكَ الْأَسْبَابُ ، وَلَا لَقِيْتَ
لَقِي^(١١) تَهَادَاهِ الرَّوَامِسِ^(١٢) ، بِالسَّهْبِ الطَّامِسِ .^(١٣)

فقال طريف : دون ما ناجتكَ به نفسك ، مُقَارَعَةً أَبْطَالُ ، وَحِيَاضُ
أَهْوَالُ ، وَحَفْزَةٌ^(١٤) إِعْجَالُ ، يُمْنَعُ مَعَهُ تَطَامُنُ الْإِمْتِهَالِ .
فقال الملك : إِيهًا^(١٥) عَنْكُمَا ، فَمَا رَأَيْتَ كَأَيُّومٍ مَقَالَ رَجُلَيْنِ لَمْ يَقْصِبَا^(١٦) ،
وَلَمْ يَثْلِبَا^(١٧) ، وَلَمْ يَلْصُقَا^(١٨) ، وَلَمْ يَقْفُوا^(١٩) . (الأمل ١ : ٧٣)

[١] أساخه : جعله يسبح (أو يسوخ في الأرض) أي يفوس . [٢] كسرتك .
[٣] صرعتك صرعة لا تقوم منها . [٤] نفعه بسيفه : تناوله . [٥] الأنصاب : حجارة كانت
حول الكعبة تنصب فيهل عليها ويذبح لغير الله تعالى ، وقيل الأنصاب حجارة نصبت وعبدت من دون الله
جمع نصب ، وقيل النصب جمع نصاب . [٦] ربيع يربع : كفف ، وظلع ظلماً غمز في مشيه ، واربع على
ظلْمِكَ أي إنك ضعيف فانتبه عما لا تطيقه وكف . [٧] الغمر : الماء الكثير ، والصحل : الماء القليل
(وكذا الضحاح) . [٨] الصفا جمع : صفاة وهي الحجر الصلد الضخم أو الصفا بمعنى الصفو .
[٩] أسفل الجبل . [١٠] الجريض : الغصنة من الجرض ، وهو الريق يفص به يقال جرض بريقه
يجرض ائلمه بالجهد على هم وحزن ، وفي المثل : حال الجريض دون القريس ، يضرب للأمر يقدر عليه أخيراً
حين لا ينفع . قاله جوشن الكلابي حين منعه أبوه من الشهر فرض حزناً حتى أشرف ، فرق له وقال
انطق بما أحببت ، فقال ذلك . [١١] اللقي : اللقي المطروح . [١٢] الروامس : الرياح التي ترمس
أي تدفن [١٣] المستوى من الأرض ، والطامس . الدارس (كالتاسم) [١٤] الحفر : الدفع .
[١٥] إيهًا : كلمة زجر بمعنى حسبك (وإيه . أمر . كلمة استزادة واستنطاق) . [١٦] لم يقصبا .
قصبه يقصبه إذا وقع فيه وأصله القطع . [١٧] ثلبه : طابه . [١٨] لصاه : قذفه . [١٩] قماه :
قذفه بأمر عظيم .

٦ - منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين

لَمَّا أَسَنَّ أَبُو بَرَاءَ : عامر بن مالك بن جعفر بن مُلَاعِبِ الْأَسِيَّةِ ، تنازع في
الرِّيَاسَةَ عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر ، وَعَلَقَمَةَ بنِ عُلَاثَةَ بنِ عَوْفِ بنِ
الأَحْوَصِ بنِ جَعْفَرٍ .

فقال علقمة : كانت لجدِّي الأَحْوَصِ ، وإِنَّمَا صارت لعمك بسببه ، وقد
قعد عمك عنها ، وأنا استرجعتها ، فَأَنَا أَوْلَى بِهَا مِنْكَ ، فَشَرِيَّ (١) الشَّرُّ بَيْنَهُمَا ،
وَسَارَا إِلَى الْمَنَافِرَةِ . فقال علقمة : إِنْ شِئْتَ نَافَرْتُكَ ، فقال عامر قد شئت .
وَاللَّهِ إِنِّي لَأَكْرَمُ مِنْكَ حَسَبًا (٢) ، وَأُثْبِتُ مِنْكَ نَسَبًا ، وَأَطُولُ مِنْكَ قَصَبًا (٣)
فقال علقمة : وَاللَّهِ لَأَنَا خَيْرُ مِنْكَ لَيْلًا وَنَهَارًا ، فقال عامر : وَاللَّهِ لَأَنَا أَحَبُّ
إِلَى نِسَائِكَ أَنْ أُصْبِحَ فِيهِنَّ مِنْكَ ، أَنَا أَنْحَرُ مِنْكَ لِلْقَاحِ (٤) ، وخير منك في
الصباح ، وَأَطْعَمُ مِنْكَ فِي السَّنَةِ الشَّيَاحِ (٥) .

فقال علقمة : أَنَا خَيْرُ مِنْكَ أَثَرًا ، وَأَحَدُ مِنْكَ بَصْرًا ، وَأَعَزُّ مِنْكَ نَفَرًا ،
وَأَشْرَفُ مِنْكَ ذِكْرًا . فقال عامر : لَيْسَ لِبَنِي الأَحْوَصِ فَضْلٌ عَلَى بَنِي مَالِكٍ فِي
العَدَدِ ، وَبَصْرِي نَاقِصٌ ، وَبَصْرُكَ صَحِيحٌ ، وَلَكِنِّي أَنَا فَرَكٌ ، إِنِّي أُسَمِّي مِنْكَ
سُمَّةً (٦) ، وَأَطُولُ مِنْكَ قِمَّةً ، وَأَحْسَنُ مِنْكَ لِمَةً (٧) ، وَأَجْعَدُ مِنْكَ مُجَّةً (٨) ،

[١] استطار . [٢] الحسب : ما تده من مفاخر آبائك ، أو الشرف الثابت في الأبناء أو الكرم
أو الشرف في الفعل أو الفعال الصالح . [٣] القصب : عظام اليدين والرجلين ونحوهما كناية عن طول
قامته . [٤] الابل : واحدها لقوح . [٥] الشياح : القحط . [٦] السمة : القرابة ،
ويروى أنا أشرف منك أمة ، أي أكثر قوما . [٧] اللمة : للشعر الخاوز شحمة الأذن .
[٨] مجتمع شعر الرأس

وَأَسْرَعُ مِنْكَ رَحْمَةً ، وَأَبْعَدُ مِنْكَ هِمَّةً . فَقَالَ علقمة : أَنْتَ رَجُلٌ جَسِيمٌ ، وَأَنَا رَجُلٌ قَصِيفٌ ^(١) ، وَأَنْتَ جَمِيلٌ ، وَأَنَا قَبِيحٌ ، وَلَكِنِّي أَنَا فَرَكُ بَابَائِي وَأَعْمَامِي . فَقَالَ عامر : آبَاؤُكَ أَعْمَامِي ، وَلَمْ أَكُنْ لِأَنَا فَرَكُ بِهِمْ ، وَلَكِنِّي أَنَا فَرَكُ ، أَنَا خَيْرٌ مِنْكَ عَقَبًا ، وَأَطْعَمُ مِنْكَ جَدًّا . فَقَالَ علقمة : قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ لَكَ عَقَبًا ، وَقَدْ أَطْعَمْتَ طَيْبًا ، وَلَكِنِّي أَنَا فَرَكُ ، إِنِّي خَيْرٌ مِنْكَ ، وَأَوْلَى بِالْخَيْرَاتِ مِنْكَ .

فَخَرَجَتْ أُمُّ عَامِرٍ - وَكَانَتْ تَسْمَعُ كَلَامَهُمَا - فَقَالَتْ : يَا عَامِرُ نَافِرُهُ ، أَيَكُمَا أَوْلَى بِالْخَيْرَاتِ . قَالَ عَامِرٌ : إِنِّي وَاللَّهِ لَأَرْكَبُ مِنْكَ فِي الْحُمَاةِ ، وَأَقْتُلُ مِنْكَ لِلْحُمَاةِ ^(٢) ، وَخَيْرٌ مِنْكَ لِلْمَوْلَى وَالْمَوْلَاةِ . فَقَالَ لَهُ علقمة : وَاللَّهِ إِنِّي لَبَرٌّ ، وَإِنَّكَ لَفَاجِرٌ ، وَإِنِّي لَوْلَدٌ ، وَإِنَّكَ لِعَاقِرٌ ^(٣) ، وَإِنِّي لَمَعْفٌ ، وَإِنَّكَ لِعَاهِرٌ ، وَإِنِّي لَوَفِيٌّ ، وَإِنَّكَ لِعَادِرٌ ، فَقِيمٌ تَفَاخَرُ نِي يَا عَامِرُ ؟ فَقَالَ عَامِرٌ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَنْزَلُ مِنْكَ لِلْقَفْرَةِ ^(٤) ، وَأَنْحَرُ مِنْكَ لِلْبَكْرَةِ ^(٥) ، وَأَطْعَمُ مِنْكَ لِلْمَهْبَرَةِ ^(٦) ، وَأَطْعَمُ مِنْكَ لِلنُّغْرَةِ . فَقَالَ علقمة : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَكَلِيلُ الْبَصْرِ ، نَسَكِدُ النَّظَرَ ، وَثَابُ عَلَيَّ جَارَاتِكَ بِالسَّحَرِ .

فَقَالَ بَنُو خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ - وَكَانُوا يَدُومُونَ مَعَ بَنِي الْأَحْوَصِ عَلَيَّ بَنِي مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ - لَنْ نَطِيقَ عَامِرًا ، وَلَكِنْ قُلْ لَهُ أَنَا فَرَكُ بِخَيْرِنَا وَأَقْرَبْنَا إِلَى الْخَيْرَاتِ . فَقَالَ لَهُ علقمة هَذَا الْقَوْلُ ، فَقَالَ عَامِرٌ : عَيْرٌ ^(٧) وَتَيْسٌ ، وَتَيْسٌ وَعَنْزٌ . فَذَهَبَتْ مِنْهَا . نَعَمْ ، عَلَيَّ مِائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ إِلَى مِائَةٍ مِنَ الْإِبِلِ يُعْطَاهَا الْحَكَمَ ، أَيُّنَا نَفَرَ

[١] نحيف من القضب ، وهو النحافة . [٢] جمع كمي ، وهو التجماع . [٣] رجل عامر

لم يولد له ولد . [٤] القفرة : القفرة . الحلاء من الأرض . [٥] البكرة : الفتية من الإبل .

[٦] المهبرة : قطعة مجتمعة من اللحم . هبره قطعه قطعاً كبيراً ، وهبر له من اللحم هبرة قطع قطعاً .

[٧] العير : الحمار وغاب على الوحشي ، وهو أقوى من التيس ، أي مثلي وإياك كالعير والتيس ، أو على

الأقل كالتيس والعنز إذ التيس أقوى على النطح من العنز ، وفي المثل : « كان عنزا فاستتيس » أي صار

تيساً . يضرب للدليل الضعيف بصير عزيزاً توباً .

عليه صاحبه أخرجها ، ففعلوا ذلك ، ووضعوا بها رهنًا من أبنائهم على يدي رجل يُقال له خزيمة بن عمرو بن الوحيد ، فسمى « الضمين » .

وخرج علقمة ومن معه من بني خالد ، وخرج عامر فيمن معه من بني مالك ، وجعلا منافرتهما إلى أبي سفيان بن حرب بن أمية ، فلم يقل بينهما شيئًا ، وكره ذلك لهما وحال عشيرتهما ، وقال أنما كركبتى البعير الأذرم^(١) ، قالاً : فأينا اليمين؟ قال كلا كما يمين ، وأبي أن يقضى بينهما . فانطلقا إلى أبي جهل بن هشام فأبى أن يحكم بينهما - وقد كانت العرب تحاكم إلى قریش - فأتيا عيينة بن حصن بن حذيفة ، فأبى أن يقول بينهما شيئًا ، فأتيا غيلان بن سلمة الثقفي ، فردّهما إلى حرمة بن الأشعر المرسي ، فردّهما إلى هرم بن قطبة بن سنان الفزاري ، فانطلقا حتى نزلا به ، وقد ساقا الإبل معهما حتى أشدت وأرْبعت ، لا ياتيان أحداً إلا هاب أن يقضى بينهما ، فقال هرم : لعمرى لأحكمن بينكما ثم لأفصِلنَّ ، فأعطيتاني موثقاً أطمئن إليه أن ترضيا بما أقول ، وتُسَلِّما لما قضيتُ بينكما ، وأمرهما بالانصراف ، ووعدهما ذلك اليوم من قابل ، فانصرفا ، حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه ، وأقام القوم عنده أياماً .

فأرسل هرم إلى عامر فاتاه سرّاً لا يعلم به علقمة ، فقال يا عامر : قد كنت أرى لك رأياً ، وأن فيك خيراً ، وما حبستك هذه الأيام إلا لتصرف عن صاحبك ، أتنافر رجلاً لا تفخر أنت وقومك إلا بأبائه ! فما الذي أنت به خير منه ؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم أن لا تفضل عليّ علقمة ، فوالله لئن

[١] درم العظم : واره اللحم حتى لم ين له حجم ، وامرأة درماه لانتين كموها ومرافقها ، وكل ماغطاء اللحم واللحم وحق حجه فند درم .

فعلت لا أفليح بعدها أبداً . هذه ناصيتي فاجزؤها واحتكم في مالي ، فإن كنت لا بد فاعلا ، فسوّ بيني وبينه ، قال : انصرف ، فسوف أرى رأيي . فخرج عامر وهو لا يشك أنه ينقره ^(١) عليه ، ثم أرسل إلى علقمة سرّاً لا يعلم به عامر ، فأتاه ، وقال له مثل ما قال لعامر ، فرد عليه علقمة بما رد به عامر ، وانصرف وهو لا يشك أنه سيفضّل عليه عامراً . ثم إن هرما أرسل إلى بنيه وبنى أبيه : إني قائل غداً بين هذين الرجلين مقالة ، فإذا فعلت فليطرد بعضكم عشر جزائر ، فلينجرها عن علقمة ، ويطرد بعضكم عشر جزائر ، ينجرها عن عامر ، وفرقوا بين الناس لا تكون لهم جماعة ، وأصبح هرم فجلس مجلسه ، وأقبل الناس ، وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا ، فقام هرم فقال : يا بني جعفر ، قد تحاكمتما عندي ، وأنتما كركبتي البعير الأدرم : تقمان إلى الأرض معا ، وليس فيكما أحد إلا وفيه ماليس في صاحبه ، وكلاكما سيد كريم ، وعمد بنوهرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر ، فنحروها حيث أمرهم هرم ، وفرقوا الناس ، ولم يفضل هرم أحداً منهما على صاحبه ، وكره أن يفعل ، وهما ابنا عم ، فيجلب بذلك عداوة ، ويوقع بين الحيين شرا .

(الأغانى ١٥ : ٥١ ، وصح الأعشى ١ : ٣٨٢ ، وشرح الديون ١٠٦ ، والعمدة ١ : ٢٨)

أشرف العرب بين يدي كسرى

قال كسرى ^(٢) للنعمان بن المنذر يوماً : هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة ؟ قال نعم ، قال فبأي شيء ؟ قال من كانت له ثلاثة آباء متواليّة رؤساء ، ثم انصل ذلك بكامل الرابع ، فالبيت من قبيلته فيه ، ويدسب إليه ، قال فاطلب ذلك ، فطلبه فلم يصبه إلا في آل حذيفة ابن بدر ، وآل حاجب بن زُرارة ، وآل ذى الجديين ، وآل الأشعث بن قيس بن كِنْدَة ،

[١] أنقره عليه ونقره عليه : قضى له عليه بالغبلة .

[٢] • وكسرى أبو شروان حكم من سنة ٥٣١ إلى ٥٧٨ ميلادية .

فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائهم ، وأقعد لهم الحكام والعدول ، وقال : ليتكلم كل منكم بماثر قومه وليصدق ، فكان حذيفة بن بدر الفزاري أول متكلم ، وكان السن القوم ، فقال :

٧ - مقال حذيفة بن بدر الفزاري

« قد علمت العرب أن فينا الشرف الأقدم ، والأعز الأعظم ، ومأثرة^(١) للصنيع الأكرم ، فقال من حواه : ولم ذاك يا أبا فزارة ؟ فقال : أسنا الدعائم التي لا ترام ، والعز الذي لا يضام ، قيل صدقت ، ثم قام شاعرهم فقال :

فَزَارَةُ بَيْتِ الْعِزِّ ، وَالْعِزُّ فِيهِمْ فَزَارَةُ قَيْسٍ ، حَسْبُ قَيْسٍ نِضَالُهُمَا
لَهَا الْعِزَّةُ الْقَمَسَاءُ وَالْحَسْبُ الَّذِي بَنَاهُ لِقَيْسٍ فِي الْقَدِيمِ رِجَالُهُمَا
فَهِيَهَاتِ قَدِ أَعْيَا الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ مَاثِرُ قَيْسٍ مَجْدُهَا وَقَمَالُهَا
وَهَلْ أَحَدٌ إِنْ هَزَّ يَوْمًا بِكَفِّهِ إِلَى الشَّمْسِ فِي مَجْرَى النُّجُومِ يَنَالُهَا
فَإِنْ يَصْأُحُوا يَصْلُحُ لِذَلِكَ جَمِيعُهَا وَإِنْ يَفْسُدُوا يَفْسُدُ مِنَ النَّاسِ كَالْهَامَا

٨ - مقال الأشعث الكندي

ثم قام الأشعث الكندي - وإنما أذن له أن يقوم قبل ربيعة وتميم لقربته من النعمان بن المنذر - فقال : قد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر ، وزحفها الأكبر ، وإنا إغيات الكرمات ، ومعدن المكرمات ، قالوا : ولم يا أبا كندة ؟ قال : لأنا ورثنا ملك كندة ، فاستظلنا بأفيائه^(٢) ، واتقلدنا منكبه الأعظم ، وتوسطنا بمجوحه الأكرم ، ثم قام شاعرهم فقال :

إِذَا قَسَتْ أَيْبَاتُ الرِّجَالِ بَيْتِنَا وَجَدْتَ لَنَا فَضْلًا عَلَى مَنْ يَفَاخِرُ

[١] الأثرة بالفتح والضم : المكرمة المتوارثة . [٢] جمع في ، وهو ما كان شمسًا ويندعه الظل .

فَنَ قَالَ كَلًّا ، أَوْ أَنَا بِمُخْطَئِهِ يُنَافِرُنَا فِيهَا فَنَحْنُ نَخَاطِرُ
تَعَالَوْا قَفُوا كَيْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَيُّنَا لَهُ الْفَضْلُ فِيمَا أَوْرَمْتَهُ الْأَكْبَارُ

٩ - مقال بسطام الشيباني

ثم قام بسطام الشيباني ، فقال : قد علمت العرب أنا بناة بيتها الذي لا يزول ، ومغرس عزها الذي لا يحول ، قالوا ولم يا أخا شيبان ؟ قال لأننا أذركم للثار ، وأضربهم للملك الجبار ، وأفومهم للحكم ، وألدنهم للخبيم ، ثم قام شاعرهم ، فقال :

لعمري بسطام أحق بفضلها	وأول بيت المـ عز القبائل
فسائل - أبيت اللعن - عن عز قومها	إذا جد يوم الفخر كلُّ مُناقِلِ ^(١)
أسنا عز الناس قوماً ونصرة	وأضربهم للكباش بين القبائل ^(٢)
وقائع غر كلها ربعية	تذل لها عزا رقب المحافل
إذا ذكرت لم ينكر الناس فضلها	وعاذ بها من شرها كل وائل ^(٣)
ولنا ملوك الناس في كل بلدة	إذا نزلت بالناس إحدى الزلازل

١٠ - مقال حاجب بن زرارة

ثم قام حاجب بن زرارة التيمي ، فقال : قد علمت معدُّ أنا فرع^(٤) دعامتها ، وقادة زحفها ، قالوا : ولم ذلك يا أخا بني تميم ، قال : لأننا أكثر الناس عديدا ، وأنجبهم طرا وليدا ، وأنا أعطاهم للجزيل ، وأحملهم للنقيل ، ثم قام شاعرهم ، فقال :

[١] أبيت اللعن : تحية في الجاهلية ، أي أبيت أن تأتي أمرا تلعن عليه . والمناقلة و المنطق : أن تحدث آخر ويحدثك . [٢] الكباش : سيد القوم وفاندم . [٣] لاجيء ، من وأل لايه يثل وألا . [٤] نوع كل شيء : أعلاه .

لقد علمت أبناء خندف أننا لنا العزُّ قديماً في الخطوب الأوائل (١)
 وأنا كرام أهل مجد وثروة وعزٍّ قديم ليس بالمتضائل
 فكم فيهم من سيد وابن سيد أغرَّ نجيب ذي فعالٍ ونائل (٢)
 فسائل (أبيت اللعن) عنا فاننا دعائم هذا الناس عند الجلائل (٣)

١١ - مقال قيس بن عاصم السعدي

ثم قام قيس بن عاصم السعدي ، فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم في
 المكرمات دعائم ، وأثبتهم في النائبات مقاديم ، قالوا : ولم ذلك يا أبا بني سعد ؟
 قال : لأننا أدرَكهم للشار ، وأمنعهم للجبار ، وأنا لا ننكحل (٤) إذا حملنا ،
 ولا نرام إذا حملنا ، ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمت قيسٌ وخندفُ أننا وجُلُّ تميم والجميعُ الذي ترى (٥)
 بأننا عمادُ في الأمور وأنا الشرف الضخم المرَّكبُ في الندى
 وأنا ليوثُ الناس في كل مأزق إذا جزَّ بالبيض الجماجم والطلا (٦)
 فن ذا يوم الفخر يعدل عاصماً وقيساً إذا ررت ألوف إلى العلا
 فهيهات قد أعياء الجميع فمالهم وقاهوا يوم الفخر مسعاةً من سعى

فقال كسرى حينئذ : ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنى حبياءهم ،

وأعظم صلاتهم ، وكرم ما بهم . (صح الأعتى ١ : ٣٧٧)

[١] خندف : هي أم مدركة وطابخة وقعة أبناء الياس بن مصر بن تزار بن معد بن عدنان .

[٢] العمال : اسم الفعل الحسن ، والكرم . [٣] أي الأمور الجلائل جمع جليلة .

[٤] لا تكس ولا نجين . [٥] قيس بن سيلان بن مصر . [٦] الطلا : جمع طليعة ،

وهي العنق .

وفود العرب على كسرى

قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى فارس ولا غيرها ، فقال كسرى - وأخذته عزّة الملك - يا نعمان ، لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت في حالة من يقدّم على من وفود الأمم ، فوجدت للروم حظاً في اجتماع ألفتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنياتها ، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ، ويردّ سفهها ، ويقيم جاهلها ، ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبها ، منع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعتها ، وطيب أسجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها ، وكذلك الصين في اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها ، وفروسياتها وهمتها في آلة الحرب ، وصناعة الحديد ، وأن لها ملوكاً يجمعها ، والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش ، وقلة الرّيف (١) والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، لهم ملوك تضمّ قواصمهم ، وتدبر أمرهم ، ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا ، ولا حزم ولا قوّة ، ومع أن مما يدلّ على مهانتها وذلتها ، وصغر همتها محبّلتهم (٢) التي همّ بها مع الوحوش النافرة ، والطيور الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها ، فأفضل طعام ظفّر به باعهم لحوم الابل ، التي يعافها كثير من السباع ، لنمّاتها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها ، وإن قرى أحدهم ضيقاً عدّها مكرمة ، وإن أطعم أكله عدّها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما خلا هذه النوحية التي أسس جدّي اجتماعها ، وشدّ مملكتها ، ومنعها من عدوّها ، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا ، وإن لها مع ذلك آثاراً ولجوساً (٣) ، وقرى وحصوناً ، وأموراً تشبه بعض أمور الناس - يعني اليمن - ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الدّلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن

[١] الريف : أرض فيها زرع وخصب ، والسعة في المأكل والمشرب . [٢] حل المكان وبه يحل بالكبر والنعم . [٣] الدرع . . .

تنزلوا فوق مراتب الناس ، قال النعمان : أصلح الله الملك . حُقِّقَ^(١) لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ، ويمظم خطبها ، وتعلو درجاتها ، إلا أن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك ، في غير ردّ عليه ، ولا تكذيب له ، فإن أمتنى من غضبه نطقت به ، قال كسرى : قل فأت آمن .

١٢ - خطبة النعمان بن المنذر

قال النعمان : أما أمتك أيها الملك ، فليست تتنازع في الفضل ، أو وضعها الذي هي به : من عقولها وأحلامها ، وبسطة محلها ، وبمحبوبة عزّها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الأمم التي ذكرت ، فأى أمة تقرّئها بالعرب إلا فضلتها . قال كسرى بماذا ؟ قال النعمان : بعزّها ، ومنعتها ، وحسن وجوهها ، وبأسها ، وسخائها ، وحكمة أسنتها ، وشدة عقولها ، وأنفتها ، ووفائها . فأما عزّها ومنعتها ، فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ، ووطدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حسن وجوهها وألوانها ، فقد يُعرف فضلهم في ذلك على غيرهم : من الهند المنخرقة ، والصين المنخفة ، والترك المشوّهة ، والرّوم المقشّرة .

وأما أنسابها وأحسابها ، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها ، حتى إن أحدهم يُسأل عن وراء أبيه دُنِيّاً^(٢) ، فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فاباً ، حاطوا بذلك

[١] حق لك أن تفعل كذا وحققت أن تعمله بمعنى . [٢] هو ابن عمي دياً بضم الـدال وكسرهما مع النون ، وكسرهما بلا نون : أي الحما .

أَحْسَابَهُمْ ، وَحَفِظُوا بِهِ أَنْسَابَهُمْ ، فَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ فِي غَيْرِ قَوْمِهِ ، وَلَا يَنْتَسِبُ إِلَى غَيْرِ نَسَبِهِ ، وَلَا يُدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ .

وأما سخاؤها ، فإن أدنانهم رجلا ، الذي تكون عنده البكرة والثاب^(١) ، عليها بلاغ^(٢) في جموله^(٣) وشبعه^(٤) ورية^(٥) ، فيطرقة الطارق ، الذي يكتفى بالفلذة^(٦) ، ويجتزى بالشربة ، فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدثة وطيب الذكر .

وأما حكمة ألسنتهم ، فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم ، وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم الأشياء ، وضربهم للأمثال ، وإبلاغهم في الصفات ، ما ليس لشيء من السنة الأجناس ، ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونسائهم أعف النساء ، وإباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجزع^(٧) ، ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها سفر ، ولا يقطع بتلها بلد قفر .

• وأما دينها وشريعتها ، فإنهم متمسكون به ، حتى يبلغ أحدهم من نسكه بيته أن لهم أشهراً حرماً ، وبلداً محرماً ، وبيتاً محجوجاً ، ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثاره ، وإدراك رغمه^(٨) منه ، فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى .

[١] الناقة : المسنة . [٢] البلاغ : السكامية . [٣] المول والأحبال جمع حمل . [٤] القطعة من الشيء . [٥] الجرع ويكسر المرر ليماني الصبي ، فيه سواد وبياض ، تشبه به العيون . [٦] الدال .

وأما وفاؤها ، فإن أحدهم يَلْحَظُ اللحظة ، وَيُؤَمِّئُ الإِيمَاءَةَ ، فَهِيَ وَثْقٌ (١) وعقدة ، لا يَحُلُّهَا إِلَّا خُرُوجُ نَفْسِهِ ، وَإِنْ أَحَدُهُمْ يَرْفَعُ عِوْدًا مِنَ الْأَرْضِ فَيَكُونُ رَهْنًا بِدَيْنِهِ ، فَلَا يَغْلِقُ (٢) رَهْنُهُ ، وَلَا تُخْفَرُ (٣) ذِمَّتُهُ ، وَإِنْ أَحَدُهُمْ لِيَبْلُغَهُ أَنْ رَجُلًا اسْتَجَارَ بِهِ ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ نَائِيًا عَنْ دَارِهِ ، فَيَصَابُ ، فَلَا يَرْضَى حَتَّى يُفْنِيَ تِلْكَ الْقَبِيلَةَ الَّتِي أَصَابَتْهُ ، أَوْ تَفْنَى قَبِيلَتَهُ ، لَمَّا أَخْفَرَ مِنْ جِوَارِهِ ، وَإِنَّهُ لِيَلْجَأُ إِلَيْهِمُ الْمُجْرِمَ الْمُخْدِتُ ، مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا قَرَابَةٍ ، فَتَكُونُ أَنْفُسُهُمْ دُونَ نَفْسِهِ ، وَأَمْوَالُهُمْ دُونَ مَالِهِ .

وأما قولك أيها الملك يَثِدُونَ أولادهم ، فَإِنَّمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يَفْعَلُهُ مِنْهُمْ بِالْإِنَاثِ أَنْفَةً مِنَ الْعَارِ ، وَغَيْرَةٍ مِنَ الْأَزْوَاجِ .

وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل - عَلَى مَا وَصَفْتَ مِنْهَا - فَمَا تَرَكَوْا مَا دُونَهَا إِلَّا احْتِقَارًا لَهَا ، فَعَمَدُوا إِلَى أَجْلَاهَا وَأَفْضَلِهَا ، فَكَانَتْ مَرَكَبَهُمْ وَطَعَامَهُمْ ، مَعَ أَنَّهَا أَكْثَرُ الْبَهَائِمِ شَحُومًا ، وَأَطْيَبُهَا لِحُومًا ، وَأَرْقَاهَا أَلْبَانًا ، وَأَقْلَاهَا غَائِلَةً (٤) ، وَأَحْلَاهَا مَضْنَجَةً ، وَإِنَّهُ لَا شَيْءَ مِنَ اللَّحْمَانِ يُعَالَجُ مَا يُعَالَجُ بِهِ لَحْمُهَا إِلَّا أُسْتَبَانَ فَضْلُهَا عَلَيْهِ .

وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضًا ، وَتَرَكَهُمْ الْإِنْقِيَادَ لِرَجُلٍ يَسُوسُهُمْ وَيَجْمَعُهُمْ ، فَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مَنْ يَفْعَلُهُ مِنَ الْأُمَمِ إِذَا أُنْسِتْ مِنْ نَفْسِهَا ضَعْفًا ، وَتَخَوَّفَتْ شُرُوضَ عَدُوِّهَا إِلَيْهَا بِالزَّحْفِ ، وَإِنَّهُ إِذَا كَانَ يَكُونُ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَظِيمَةِ أَهْلُ بَيْتٍ وَاحِدٍ ، يُعْرِفُ فَضْلَهُمْ عَلَى سَائِرِ غَيْرِهِمْ ، فَيَلْتَقُونَ إِلَيْهِمْ أُمُورَهُمْ ،

[١] عهد . [٢] غلق الزمن : استحققه المرتين ، وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط .

[٣] خفر به وأخفزه : نقض عهده وغدره . [٤] شرأ :

وينقادون لهم بأزمتههم ، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين ، مع أنفتهم من أداء الخراج والوطث^(١) بالعسف .
وأما اليمن التي وصفها الملك ، فإنما أتى جدّ الملك إليها الذي^(٢) أتاه ، عند غلبة الحبش له ، تلى ملك مُتَسِقٍ ، وأمر مجتمع ، فأتاه مسلوباً طريدا مستصرخاً ، ولولا ما وُتِرَ به من يايه من العرب ، لمال إلى مجال ، ولوجد من يجيد الطعان ، وينضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار .

فمجب كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : إنك لاهل لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك ، ثم كساه من كسوته ، وسرّحه إلى موضعه من الحيرة .
فلما قدم النعمان الحيرة ، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى ، من تنقّص العرب ، وتهجين^(٣) أمرهم ، بعث إلى أكرم بن صيفي ، وحاجب بن زُرارة التميميين ، وإلى الحرث بن عبّاد ، وقيس بن مسعود البكرين ، وإلى خالد ابن جعفر ، وعنقمة بن غلّانة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، وإلى عمرو بن الشريد السلمي ، وعمرو بن معديكرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المرّي .
فلما قدموا عليه في الخورنق ، قال لهم : ود عرفتم هذه الأعاجم ، وقرب جوار العرب منها ، وقد سمعت من كسرى مقالات ، تخوّفت أن يكون لها غور ، أو يكون إنما أظهرها الأمر أراد أن يتخذ به العرب خوفاً ، كبعض طمّاطمته^(٤) ، في تأديتهم الخراج إليه^(٥) ، كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله ، فاقصص عليهم مقالات

[١] الوطث : العرب الشديد بالرجل على الأرض . [٢] هو سيف بن ذي يزن . [٣] تبيح واستهجان ، والهجة من الكلام ما يبيه . [٤] رحن طمطم وطمطي « بكسر الطاءين » وطمطن . « بضمها » : في لسانه عجمة . [٥] كان الفرس يفتون عرب الحيرة من دفع الأتوة مقابل أن يقوموا بحماهم من كل عارة من نواحيهم .

كسرى ، وما ردّ عليه ، فقالوا: أيها الملك ، وفقك الله ! ما أحسن ما رددت ! وأبلغ ما حججته به ! فرنا بأمرك ، وادعنا إلى ماشئت . قال : إنما أنا رجل منكم ، وإنما ملكت و عززت بمكانكم ، وما يتخوف من ناحيتكم ، وليس شيء أحبّ إلى مما سدّد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام به عزّكم ، والرأى أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط ، وتنطلقوا إلى كسرى ، فإذا دخلتم نطق كلّ رجل منكم بما حضره ، ايعلم أن العرب على غير ما ظنّ ، أو حدّثته نفسه . ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه ، فإنه ملك عظيم السلطان ، كثير الأعوان ، متّرف ، معجّب بنفسه ، ولا تنخزلوا ^(١) له انخزال الخاضع الذليل ، وليكن أمرٌ بين ذلك ، تظهر به وثافة حلومكم ، وفضلُ منزلتكم ، وعظيم أخطاركم ، وايكن أوّل من يبدأ منكم بالكلام أكرم بن صيفي ، ثمّ تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها ، فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم ، علمي بميل كلّ رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه ، فلا يكون ذلك منكم ، فيجدّ في آدابكم مطّعنا ، فإنه ملك متّرف ، وقادر مُسَاط ، ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلال الملوك ، كل رجل منهم حلة ، وعمّامة عمامة ، وختمه يافوثة ، وأمر لكلّ رجل منهم بنجبية مهريّة ^(٢) وفرس نجبية ، وكتب معهم كتابا : « أما بعد : فإن الملك ألقى إلى من أمر العرب ما قد علم ، وأجبتة بما قد فهم ، مما أحببت أن يكون منه على علم ، ولا يتلجّج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجرت دونه بمملكته ، وسمّت ما يليها بفضل قوتها ، تبلغها في شيء من الأمور ، التي يتعزّز بها ذوو الحزم والقوّة والتديروا والمكيدة ، وقد أوفدت أيها

[١] الانخزال : مشية في تناقل . [٢] النجبية : البعير والهرس إذا كانا كريمين عتيقين ، والمهريّة :

نسبة إلى مهرة بن حيدان ، هي تنسب إليه الإبل النجبية .

الملك رهطا من العرب ، لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم ،
فليسمع الملك ، وَلْيُعْمِضْ عن جفاء إن ظهر من منطقهم ، وَايْكُرْمَنِي بِإِكْرَامِهِمْ ،
وتعجيل سراحهم ، وقد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائهم » .
نخرج القوم في أهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب
النعمان فقرأه ، وأمر بانزالهم إلى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم ، فلما أن كان
بعد ذلك بأيام ، أمر مرازبته ^(١) ووجوه أهل مملكته ، فحضرُوا وَجَلَسُوا عَلَى
كراسي ، عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الْوِلَاءِ ^(٢) والمراتب التي وصفهم النعمان
بها في كتابه ، وأقام الترجمان ^(٣) إيؤدّي إليه كلامهم ، ثم أذن لهم في الكلام .

١٣ — خطبة أكتثم بن صيفي

فقام أكتثم بن صيفي فقال :

« إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ،
وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدوها ، الصدق منجاة ، والكذب
مهوأة ، والشر حاجة ^(١) ، والحزم مرّ كَبْ صعب ، والعجز مركب وطىء ، آفة
الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخبر الأمور العسير ، حسن الظنّ ورطه ،
وسوء الظنّ عسبة ، إصلاح فساد الرئية خير من إصلاح فساد الراعى ، من
فسدت بطانته كان كالغاصّ بالماء ، شرّ البلاد بلاد لا أمير بها ، شرّ الملوك من
خافه البرىء ، المرء يعجز ^(٥) لالْمَحَالَّةِ ^(٦) ، أفضل الأولاد البررة ، خير الأعوان

[١] جن مرزبان ، فتح الميم وضمّ الراى ، هو الرئيس من الفرس . [٢] التناج والتوالى ،
مصدر والى . [٣] ترجان : بفتح الغاء وضمّ الحيم وضمها وبتحتها . [٤] أى أصله اللجاجة ،
وهي تماحك الحصين وتماديها . [٥] من باى ضرب وسمع . [٦] المحالة : الخيلة .

من لم يُراء بالنصيحة ، أحقُّ الجنود بالنصر من حسُنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغمك المجل ، حسبك من شر سماعه ، الصمت حكم^(١) وقليل فاعله ، البلاغة الإيجاز ، من شدد نَفراً ، ومن تراخى تألف .

فتعجب كسرى من أكرم ، ثم قال : وَيُحَكِّمُ^(٢) يَا أَكْرَمُ مَا أَحْكَمَكَ وَأَوْثَقَ كَلَامَكَ ! لولا وضعك كلامك في غير موضعه . قال أكرم : الصدق ينبيء عنك لا الوعيد . قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . قال أكرم : رب قول أنفذ من صول .

١٤ - خطبة حاجب بن زرارة

ثم قام حاجب بن زرارة التيمي فقال :

« وَرَى^(٣) زَنْدَكَ ، وَعَلَتْ يَدُكَ ، وَهَيْبَ سُلْطَانِكَ ، إِنَّ الْعَرَبَ أُمَّةٌ قَدْ غَلَطَتْ أَكْبَادَهَا ، وَاسْتَحْصَدَتْ^(٤) مَرَّتَهَا ، وَمُنِعَتْ دِرَّتَهَا^(٥) ، وَهِيَ لَكَ وَامِقَةٌ مَا تَأَلَّفَتْهَا ، مَسْتَرْسَلَةٌ مَا لَا يَنْتَهَى ، سَامِعَةٌ مَا سَامَحَتْهَا ، وَهِيَ الْعَلْقَمُ مَرَارَةٌ ، وَالصَّابُ^(٦) غَضَاضَةٌ^(٧) ، وَالْعَسَلُ حَلَاوَةٌ ، وَالْمَاءُ الزُّلَالُ^(٨) سَلَاسَةٌ^(٩) ، نَحْنُ وَفُودُهَا إِلَيْكَ ، وَأَسْنَتُهَا لَدَيْكَ ، ذَمَّتْنَا مَحْفُوظَةً ، وَأَحْسَابُنَا مَمْنُوعَةٌ ، وَعِشَائِرُنَا فِينَا سَامِعَةٌ مَطِيعَةٌ ، إِنْ نَوَّيْتُ لَكَ حَامِدِينَ خَيْرًا ، فَلَكَ بِذَلِكَ عَمُومٌ مَحْمَدَتْنَا ، وَإِنْ نَذَمْتُ لَمْ تُنْخَصْ بِالذَّمِّ دُونَهَا . »

[١] الحكم : الحكمة (وآتيناه الحكم صبياً) . [٢] ويح : كلمة رحمة ، (وويل : كلمة عذاب) ، وقيل هما بمعنى واحد . [٣] ورى الزند بفتح الراء وكسرها وريا ورية فهو وار وورى : خرجت ناره . وأوريتته ووريتته واستوريتته ، والرند : العود الذى يقدح به للارجمة زناد وأزند وأزناد . [٤] استحصده الجبل : استحكم ، والمره : طاقة الجبل ، والنوة : العقل . كناية عن قوتهم . [٥] الدر : اللبن كالدر . [٦] عصارة : شجر مر . [٧] هى احتمال السكره . والدلة والمنقصة . [٨] ماء زلال : سريع المر فى الحلق بارد عذب صاف سهل سلس . [٩] سهولة . السلس السهل اللبن المنقاد .

قال كسرى : يا حاجب ، ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها ، قال حاجب :
بل زئير الأسد بصورتها ، قال كسرى : وذلك .

١٥ - خطبة الحارث بن عباد

ثم قام الحارث بن عباد البكريّ ، فقال :
دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها ، وعلوّ سنائها ، من طال رشاؤه^(١) ،
كثُرَ متَّحُهُ^(٢) ، ومن ذهب ماله ، قلَّ منَّحُهُ . تناقل الأقاويل يُعرِّفُ اللُّب ،
وهذا مقام سيّوجِف^(٣) بما ينطق به الرُّكْبُ ، وتعرف به كُنْهَ حَلْنَا العَجَمِ
والعرب ، ونحن جيرانك الأدنون ، وأعوانك المعينون ، خيولنا حَجْمَةٌ ، وجيوشنا
نخمة ، إن استنجدتنا فغير رُبُض^(٤) ، وإن استطرقتنا^(٥) فغير جُهْض^(٦) ، وإن
طلبتنا فغير غُمُض^(٧) ، لا ننتنى لِدُعْر ، ولا نَتَنَكَّرُ لدهر ، رماحنا طوال ،
وأعمارنا أقصار .

قال كسرى : أنفس عزيزة ، وأمة ضعيفة ، قال الحارث : أيها الملك وائي
يكون لضعيف عِزَّة ، أو لصغير مِرَّة ! قال كسرى : لو قَصَرَ عمرُكَ ، لم تَسْتَوِلِ
عَلَى لسانك نَفْسُكَ . قال الحارث : أيها الملك إنَّ الفارس إذا حمل نفسه على

[١] الرشاء : الجبل . [٢] الملح : نزع الماء من البئر . [٣] وجف الفرس والبعير عدا ،
وأوجفته : أعديته . يقال : أوجف فأعجف (فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) أي ما أعلمتم .
[٤] يقال : رجل ربيض من الخايات لا ينهض فيها ، وهو هنا جمع ربوض بالفتح من ربضت الشاة
كبركت الناقة أي لا تتقاهص من نصرتك ولا تنجم . [٥] استطرقته فلا : طلبه منه ليضرب في إبله ، هذا
هو الأصل ، والمراد استعننت بنا . [٦] أجهضت الناقة والمرأة ولدها أسقطته ناقص الخلق ، والسقط :
حميض ، وجمه جهض ، أي أن فلما إذا ضرب البياق (بكحها) لم تأت بجهض بل تنتج ، والمراد أنه
إن استنجد بهم أئمر ذلك الاستنجد ولم يجب . [٧] من النهض ، وهو النوم ، يقال ما غمضت ،
ولا أغمضت ، ولا اغتمضت ، فالوصف من الأول غامض ، والمبالغة غموض ، والجمع غمض أي فلا نام
عن نصرتك .

الكتيبة مُعَرِّراً بِنَفْسِهِ عَلَى الْمَوْتِ ، فَهِيَ مَنِيَّةٌ اسْتَقْبَلَهَا ، وَجِنَانٌ اسْتَدْبَرَهَا ،
والعرب تعلم أَنِّي أَبْعَثُ الْحَرْبَ قُدُماً ^(١) ، وَأَحْبَسَهَا وَهِيَ تَصَرَّفُ بِهَا ، حَتَّى إِذَا
جَاشَتْ نَارُهَا ، وَسَمَعَتْ لُظَاهَا ، وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ، جَعَلْتُ مَقَادِمَهَا رُمْحِي ،
وَبَرَقَهَا سِنِي ، وَرَعَدَهَا زَبِيرِي ، وَلَمْ أَقْصِرْ عَنْ خَوْضِ خَضْخَضِهَا ^(٢) ، حَتَّى
أَنْغَمَسَ فِي غَمَرَاتِ لُجَجِهَا ، وَأَكُونَ فُلُكًا لِفِرْسَانِي إِلَى مُجْبُوحَةِ كَبْشِهَا ^(٣) ،
فَاسْتَمَطَرَهَا دَمًا ، وَأَتْرُكُ مُجَامِئَهَا جَزَرَ ^(٤) السَّبَّاعِ وَكُلَّ نَسْرِ قَشْعَمٍ ^(٥) . ثُمَّ قَالَ
كَسْرِي لِمَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْعَرَبِ : أَمْ كَذَلِكَ هُوَ ؟ قَالُوا : فَعَالَهُ أَنْ نَطُقَ مِنْ لِسَانِهِ .
قَالَ كَسْرِي : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ وَفِدَاءً أَحْشَدَ ، وَلَا شَهُودًا أَوْفَدَ .

١٦ - خطبة عمرو بن الشريد

ثُمَّ قَامَ عَمْرُو بْنُ الشَّرِيدِ السَّلَمِيِّ ، فَقَالَ :

« أَيُّهَا الْمَلِكُ ، نَعِمَ بِالْكَلِمَةِ ! وَدَامَ فِي السَّرُورِ حَالُكَ ! إِنْ عَاقَبَةُ الْكَلَامِ مُتَدَبِّرَةٌ ،
وَأَشْكَالُ الْأُمُورِ مُعْتَبِرَةٌ ، وَفِي كَثِيرٍ ثِقَلَةٌ ، وَفِي قَلِيلٍ بُلْغَةٌ ، وَفِي الْمُلُوكِ سَوْرَةٌ ^(٦) الْعِزِّ ،
وَهَذَا مَنَظُوقٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ ، شَرَفٌ فِيهِ مَنْ شَرَفَ ، وَخَمَلٌ فِيهِ مَنْ خَمَلَ ، لَمْ نَأْتِ لِضِيْمِكَ ،
وَلَمْ نَقِدْ لِسَخَطِكَ ، وَلَمْ تَعْرِضْ لِرِفْدِكَ ^(٧) إِنْ فِي أَمْوَالِنَا مُنْتَقَدًا ^(٨) ، وَعَلَى عِزِّنَا
مُعْتَمِدًا ، إِنْ أَوْرَيْنَا ^(٩) نَارًا أَمْتَقَبْنَا ، وَإِنْ أَوَدَ ^(١٠) دَهْرٌ بَنَانًا ، إِنْ أَمْنَا مَعَ هَذَا
لِجَوَارِكِ حَافِظُونَ ، وَبَيْنَ رَامِكِ كَاخُونٌ ، حَتَّى يُحْمَدَ الصَّدْرُ ^(١١) وَيُسْتَطَابُ الْخَبْرُ . »

[١] القدم : المضي أمام أمام ، وهو يمضي القدم : إذا مضى في الحرب . والقدم : المقدم الشجاع . وفي الحديث « طوبى لعبد غفر قدم في سبيل الله » . [٢] الخضاخض : تنط أسود رقيق تهناً به الأبل الحرب (ولعله خضاخضها) بضم الخاء ، والخضاخض : المكان الكثير الماء . [٣] سيد القوم وقائدهم . [٤] أي قطعا . [٥] مسن . [٦] سورة المجد أثره وعلامته ، وسورة السلطان : سطوته (والسورة المنزلة) بالصم . [٧] الرغد : العطاء . [٨] اتقيد الدرهم قبضها . [٩] أوقدنا . [١٠] اعوج . [١١] الرجوع .

قال كسرى : ما يقوم قصدُ مَنْطِقِكَ بإفراطك ، وَلَا مَدْحُكَ بِذَمِّكَ ، قال عمرو : كفى بقليلِ قصدي هادياً ، وَبِأيسرِ إفراطِي مُخْبِراً ، وَلَمْ يُلِمَّ مَنْ غَرَبَتْ نَفْسُهُ عَمَّا يَعْلَمُ ، وَرَضِيَ مِنَ الْقَصْدِ بِمَا بَلَغَ . قال كسرى : ما كلُّ ما يعرف المرء ينطق به . اجلس .

١٧ - خطبة خالد بن جعفر الكلابي

ثمَّ قام خالد بن جعفر الكلابي فقال :

« أَحْضَرَ اللَّهُ الْمَلِكُ إِسْعَادًا ، وَأَرْشَدَهُ إِرْشَادًا ، إِنَّ لِكُلِّ مَنْطِقٍ فُرْصَةً ، وَلِكُلِّ حَاجَةٍ غُصَّةٌ ، وَعَى الْمَنْطِقُ أَشَدَّ مِنْ عَى الشُّكُوتِ ، وَعِثَارُ الْقَوْلِ أَنْكَأٌ ^(١) مِنْ عِثَارِ الْوَعْتِ ^(٢) . وَمَا فُرْصَةُ الْمَنْطِقِ عِنْدَنَا إِلَّا بِمَا نَهْوَى ، وَغُصَّةُ الْمَنْطِقِ بِمَا لَأْنَهْوَى غَيْرُ مُسْتَسَاغَةٍ ^(٣) ، وَتَرَكِي مَا أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي ، وَيُعَلِّمُ مِنْ سَمْعِي أَنْبَى لَهُ مُطِيقٌ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ تَكْفِي مَا أَتَخَوَّفُ وَيَتَخَوَّفُ مِنِّي ، وَقَدْ أَوْفَدْنَا إِلَيْكَ مَلِكَنَا النِّعْمَانَ ، وَهُوَ لَكَ مِنْ خَيْرِ الْأَعْوَانِ ، وَنِعْمَ حَامِلُ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ ، أَنْفَسْنَا بِالطَّاعَةِ لَكَ بِاخِعةٍ ^(٤) ، وَرَقَابْنَا بِالنَّصِيحَةِ خَاضِعَةً ، وَأَيْدِيْنَا لَكَ بِالْوَفَاءِ رَهِيئَةً . »

قال له كسرى : نطقت بعقل ، وَسَمَرْتِ بِفَضْلِ ، وَعَلَوْتِ بِذَنْبِ .

١٨ - خطبة علقمة بن علاثة العامري

ثمَّ قام علقمة بن علاثة العامري فقال :

« نَهَجْتِ ^(٥) لَكَ سَبِيلَ الرِّشَادِ ، وَخَضَعْتِ لَكَ رِقَابَ الْعِبَادِ ، إِنْ لِلْأَقَاوِيلِ

[١] نكأ العسود ونكاه نكاية : قتل وجرح ، وأنكأ : أى أشد نكابة وقهراً . [٢] الوعت : المكان السهل الدهس تغيب فيه الأقدام والطريق السر . [٣] أساغ العصاة ابتلعها ، وساع الشراب : سهل مدخله في الخلق . [٤] خاضعة ومقرة ، بنج بالحق أقرب به وخصم له . [٥] وضعت .

مناهج ، وللآراء مَوَاجِلُ^(١) ، وللمويص مخرج ، وخير القول أصدقهُ ، وأفضل
الطلب أنجحهُ ، إنا وإن كانت المحبة أحضرتنا ، والوفادة قرّبتنا ، فليس من
حضرك منا بأفضلَ مِمَّنْ عَزَبَ عَنْكَ ، بل لو قِسْتَ كلَّ رجلٍ منهم ، وَعَلِمْتَ
منهم ما علمنا ، لوجدت له في آبائه دُنْيَا ، أنداداً وأكفاء ، كلهم إلى الفضل
منسوب ، وبالشرف والسؤدد^(٢) موصوف ، وبالرأى الفاضل والآدب النافذ^(٣)
معروف ، يَحْمِي حِمَاه ، وَيُرْوِي نَدَامَاه^(٤) ، وَيَدُوذُ أَعْدَاه ، لَا تَحْمُدُ^(٥) نَارَهُ ،
وَلَا يَحْتَرِزُ مِنْهُ جَارَهُ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ : مَنْ يَبْلُغُ الْعَرَبُ يَعْرِفُ فَضْلَهُمْ ، فَاصْطَنِعْ^(٦)
الْعَرَبَ ، فَإِنَّهَا الْجِبَالُ الرَّوَاسِي عِزًّا ، وَالْبِحُورُ الزَّوَاخِرُ طُمِيًّا^(٧) ، وَالنُّجُومُ الزَّوَاهِرُ
شَرَفًا ، وَالْحَصَى عَدَدًا ، فَإِنْ تَعْرِفْ لَهُمْ فَضْلَهُمْ يَعِزُّوكَ ، وَإِنْ تَسْتَصْرِخَهُمْ^(٨)
لَا يَخْذُلُوكَ .

قال كسرى - وخشى أن يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه - حَسْبُكَ
أَبْلَغْتَ وَأَحْسَنْتَ !

١٩ - خطبة قيس بن مسعود الشيباني

ثمَّ قام قيس بن مسعود الشيباني ، فقال :

«أَطَابَ اللَّهُ بِكَ الْمَرِاشِدُ! وَجَنَّبَكَ الْمَصَائِبَ! وَوَقَّكَ مَكْرُوهَ الشَّصَائِبِ!»^(٩)

[١] مداخل جمع مولى : كجلس ، ولج يلح ولوجا ولجة . [٢] السودد بفتح الدال والسؤدد بضمها
والسود والسيادة . [٣] الظاهر أثره . [٤] ندأى : جمع ندمان ، وهو النديم ، وجمع النديم ندماء ،
وناديه : جالسه على الشراب (ندمان بمعنى منادم مصروف ، لأن مؤنثه ندمانة ، أما ندمان بمعنى ندم
فلا يصرف لأن مؤنثه ندى

كلّ فعلاّت فزوا أتاه فعلى غير وصف النديم بالندمان)

[٥] خد : كصر وسبع . [٦] اختر واصطف . [٧] طمى الماء يطمى طميا علا ، والنبت طال
والبحر امتلا ، وهنّه علت . [٨] تستنجد بهم . [٩] جمع شصية ، وهى الشدة

مَا أَحَقَّنَا - إِذَا أَتَيْتَاكَ - بِإِسْمَاعِكَ مَا لَا يُحْنِقُ صَدْرَكَ ، وَلَا يَزْرَعُ لَنَا حِقْدًا فِي قَلْبِكَ ! لَمْ تَقْدَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ لِإِسَامَاةَ ، وَلَمْ نَنْتَسِبْ لِمَعَادَاةَ ، وَلَكِنْ لَتَعْلَمِ أَنْتَ وَرَعِيَّتِكَ وَمَنْ حَضَرَكَ مِنْ وَفُودِ الْأُمَمِ ، أَنَا فِي الْمَنْطِقِ غَيْرِ مُحْجَمِينَ ، وَفِي النَّاسِ غَيْرِ مُقَصَّرِينَ ، إِنْ جُورِينَا فغَيْرِ مُسْبُوقِينَ ، وَإِنْ سُومِينَا فغَيْرِ مَغْلُوبِينَ »

قَالَ كَسْرَى : غَيْرَ أَنْكُمْ إِذَا عَاهَدْتُمْ غَيْرَ وَافِينَ (وَهُوَ يُعَرِّضُ بِهِ فِي تَرْكِهِ الْوَفَاءَ بِضِمَانِهِ السَّوَادَ ^(١)) قَالَ قَيْسٌ : أَيُّهَا الْمَلِكُ مَا كُنْتُ فِي ذَلِكَ إِلَّا كَوَافٍ غُدِرَ بِهِ ، أَوْ كَخَافِرٍ أَخْفَرَ بِذِمَّتِهِ قَالَ كَسْرَى : مَا يَكُونُ لِضَعِيفٍ ضِمَانًا ، وَلَا لِذَلِيلٍ خَنْمَارَةً . قَالَ قَيْسٌ : أَيُّهَا الْمَلِكُ : مَا أَنَا فِيهَا أَخْفَرٌ مِنْ ذِمَّتِي أَحَقُّ بِالزَّامِي الْعَارِ مِنْكَ فِيمَا قَتَلَ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَأَنْتُهِكَ مِنْ حَرَمَتِكَ ، قَالَ كَسْرَى : ذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ أَيْتَمِنِ الْخَانَةَ ^(٢) ، وَأَسْتَنْجِدُ الْأُمَّةَ ، نَالَهُ مِنَ الْخَطِيئَةِ مَا نَالَنِي ، وَابْتَغَى كَلَّ النَّاسِ سِوَاءَ ، كَيْفَ رَأَيْتَ حَاجِبَ بْنَ زُرَّارَةَ ، لَمْ يُحْكِمِ قَوَاهِ ، فَيُبْرِمَ ، وَيَعْهَدُ فَيُؤْفِي ، وَيَعِدُّ فَيُنْجِزُ ، قَالَ وَمَا أَحَقُّهُ بِذَلِكَ ، وَمَا رَأَيْتُهُ إِلَّا لِي ، قَالَ كَسْرَى : الْقَوْمُ يُزَلُّ ^(٣) فَأَفْضَلُهَا أَشَدُّهَا

٢٠ - خطبة عامر بن الطفيل العامري

ثُمَّ قَامَ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ الْعَامِرِيُّ فَقَالَ :

« كَثُرَ فَنُونُ الْمَنْطِقِ ، وَلَبَسَ الْقَوْلُ أَعْمَى مِنْ حَنْدِسٍ ^(٤) الظَّمَاءِ ، وَإِنَّمَا الْفَخْرُ فِي الضَّمَالِ ، وَالْعَجْزُ فِي النَّجْدَةِ ، وَالسُّودَدُ مَطَاوَعَةُ الْقُدْرَةِ ^(٥) ، وَمَا أَعْلَمَكَ بِقُدْرَتِنَا ، وَأَبْصَرَكَ بِفَضْلِنَا ، وَبِالْحَرَى ^(٦) إِنْ أَدَاكَ ^(٧) الْأَيَّامُ ، وَثَابَتَ الْأَحْلَامُ

[١] أَيْ سِوَادِ الْعِرَاقِ . [٢] الْخَانَةُ وَالْحَوْنَةُ : جَمْعُ خَائِنٍ . [٣] الْبَازِلُ : الْجَمَلُ فِي السَّنَةِ النَّاسِئَةِ ، وَالرَّجُلُ الْكَامِلُ فِي تَجْرِبَتِهِ جَمْعُ بَزَلٍ وَبَزَلٌ . [٤] الْبَيْلُ الْمَظْلَمُ وَالظَّلْمَةُ . [٥] أَيْ أَنْ يَأْتِيَ الْمَرْءَ بِمَقْدَرٍ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَبْلُغُهُ السُّودَدُ . [٦] خَلِيقٌ وَجَدِيرٌ . [٧] نَصْرَتَنَا .

أَنْ تَحْدِثَ لَنَا أُمُورًا لَهَا أَعْلَامٌ^(١) . قَالَ كَسْرَى : وَمَا تَمْلِكُ الْأَعْلَامُ ، قَالَ مُجْتَمِعٌ^(٢) .
الْأَحْيَاءُ مِنْ رَبِيعَةٍ وَمُضْرٍ ، عَلَى أَمْرٍ يَذْكَرُ . قَالَ كَسْرَى : وَمَا الْأَمْرُ الَّذِي يَذْكَرُ ؟
قَالَ مَالِي عِلْمٌ بِأَكْثَرِ مِمَّا خَبَّرَنِي بِهِ مَخْبَرٌ ، قَالَ كَسْرَى مَتَى تَسْكَهَنْتَ يَا بَنَ الطَّفِيلِ ؟
قَالَ : لَسْتُ بِكَاهِنٍ ، وَلَكِنِّي بِالرَّمْحِ طَاعِنٌ ، قَالَ كَسْرَى : فَإِنْ أَتَاكَ آتٌ مِنْ جِهَةِ
عَيْنِكَ الْعَوْرَاءِ ، مَا أَنْتَ صَانِعٌ ؟ قَالَ : مَا هَيَّيْتِي فِي قَفَايَ بِدُونِ هَيْبَتِي فِي وَجْهِهِ ،
وَمَا أَبْذُوبُ عَيْنِي عَيْتٌ^(٣) ، وَلَكِن مَطَاوِعَةَ الْعَبَثِ .

٢١ - خطبة عمرو بن معديكرب الزبيدي

ثُمَّ قَامَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرْبِ الزُّبَيْدِيِّ ، فَقَالَ :

« إِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ : قَلْبُهُ وَلسَانُهُ ، فَبِلَاغِ الْمَنْطِقِ الصَّوَابِ ، وَمِلَاكِ
النُّجْمَةِ^(٤) الْارْتِيَادِ ، وَعَفْوِ الرَّأْيِ خَيْرٌ مِنْ اسْتِكْرَاهِ الْفِكْرَةِ ، وَتَوْقِيفِ الْخُبْرَةِ
خَيْرٌ مِنْ أَعْتِسَافِ الْخَيْرَةِ ، فَأَجْتَبَيْدُ^(٥) طَاعَتِنَا بِلَفْظِكَ ، وَآكْتَضَمَ بَادِرَتِنَا
بِحَلْمِكَ ، وَالْإِنْ لَنَا كَنْفَكَ يَسْلَسُ لَكَ قِيَادَنَا ، فَإِنَا أَنَا سٌ لَمْ يُوقَسْ^(٦) صَفَاتِنَا قِرَاعُ
مَنَاقِيرِ^(٧) مِنْ أَرَادَ لَنَا قَضَا^(٨) ، وَلَكِنْ مَنَعْنَا حِمَانًا مِنْ كُلِّ مَنْ رَامَ لَنَا هَضْمًا . »

٢٢ - خطبة الحارث بن ظالم المري

ثُمَّ قَامَ الْحَارِثُ بْنُ ظَالِمِ الْمَرِيِّ ، فَقَالَ :

« إِنْ مِنْ آفَةِ الْمَنْطِقِ الْكُذْبُ ، وَمِنْ لَوْمِ الْأَخْلَاقِ الْمَلَقُ ، وَمَنْ خَطَلِ
الرَّأْيِ خِيفَةَ الْمَلِكِ الْمُسَلِّطِ ، فَإِنْ أَعْلَمْنَاكَ أَنْ مَوَاجِهْتِنَا لَكَ عَنْ أَيْتِلَافٍ ، وَأَنْقِيَادِنَا^(٩) »

[١] أى مشهورة . [٢] اجتماع . [٣] الإفساد . [٤] النجمة : طب الكلاوى موضعه .

[٥] اجتذب . [٦] الوقس : انتشار الجرب فى البدن ، والتوقيس : الإجراء ، أى لم يتحدث

صفاتنا وبؤثر فيها . [٧] جمع مقار ، وهو حديدة كالقاس ، فر بها . [٨] أصله الأكل
بأطراف الأسنان .

لك عن تصّافٍ ، فما أنت لقبول ذلك منا بخلق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ،
ولكن الوفاء بالعهود ، وإحكام وُلثِ العقود ، وَالْأمر بيننا وبينك معتدل ، ما لم
يأت من قبيلِكَ ميل أو زَلَل .

قال كسرى : من أنت ؟ قال الحرث بن ظالم ، قال إن في أسماء آبائك لدليلاً
على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالعدر ، وأقرب من الوزر . قال الحرث : إن
في الحقِّ مَغْضَبَةً ، والسَّرْوُ التَّغَافُلُ^(١) ، وإن يستوجب أحدُ الحلمِ الإمعانِ القدرة ،
فَلْتَشْبِهْ أفعالَكَ مجلسَكَ ، قال كسرى : هذا فتى القوم .

ثم قال كسرى : قد فهمت ما نطقت به خطبائكم ، وَتَفَنَّنَ فِيهِ مَتَكَلِدُوكُمْ ،
ولولا أنى أعلم أن الأدب لم يُثَقَّفْ أودكم ، ولم يُحْكَمْ أمركم ، وأنه ليس لكم ملك
يجمعكم ، فتنتطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة ، فنطقتم بما استولى على
ألسنتكم ، وغلب على طباعكم ، لم أَجِزْ لَكُمْ كَثِيراً مما تكلمتم به ، وإني لأكره
أن أُجِبَّه وفودي ، أو أُحْنِقَ صدورهم ، والذي أحب من إصلاح مُدَبَّرِكُمْ ،
وَتَأَلَّفَ شواذِكُمْ ، والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم ، وقد قبلت ما كان في منطقتكم
من صواب ، وَصَفَحْتَ عَمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ خَلَلٍ ، فانصرفوا إلى ملككم ، فأحسنوا
موازرتة ، وَالتزموا طاعته ، وَارَدَعُوا سفهاءكم ، وَأَقِيمُوا أودهم ، وَأَحْسِنُوا أديهم ،
فإن في ذلك صلاح العامة .

(العقد المرید ١ : ١٠١)



وفود العرب

يعزون سلامة ذا فائش بابن له مات

نشأ لسلامة ذى فائش ابن كأكمل أبناء الأقال ، وكان مسروراً به ، يرشحه لموضعه ، فركب ذات يوم فرساً صعباً ، فكبا به ، فوقمه (١) ، فجزع عليه أبوه جزعاً شديداً ، وامتنع من الطعام ، واحتجب عن الناس ، واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه ، فلامه نصحاؤه في إفراط جزعه ، فخرج إلى الناس فقام خطبائهم يؤشونه (٢) ، وكان في القوم الملبب بن عوف ، وجعادة بن أفلاح ، فقام الملبب فقال :

٢٣ - خطبة الملبب بن عوف

أيها الملك ، إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطي لتأخذ ، وتجمع لتشتت ، وتُحلى لتُمِر ، وتزرع الأحزان في القلوب ، بما تفجأ به من استرداد الموهوب ، وكل مصيبة تخطأئك جال (٣) ، مالم تُدِن الأجل ، وتقطع الأمل ، وإن حادثاً ألم بك ، فاستبد (٤) بأقلك ، وصفح عن أكثرك ، لمن أجل النعم عليك ، وقد تناهت إليك أنباء من رزى فصبر ، وأصيب فاغتر ، إذ كان شوى (٥) فيما يُرتقب ويُنذر ، فاستشعر اليأس مما فات ، إذ كان ارتجاعه مُمتنعاً ، ومرامه مُستصعباً ، فليشىء ما ضربت الأسي ، وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء .

٢٤ - خطبة جعادة بن أفلاح

وقام جعادة فقال : « أيها الملك ، لا تُشعر قلبك الجزع على ما فات ، فيعقل

[١] وقص عنه : كسرهما . [٢] أساء تأسية عزاءه ، وأصله : أن يقول له لك أسوة بفلان وفلان . [٣] الجلال العظيم والحقير وهو هنا بالمعنى الثاني . [٤] البدة بالضم : النصيب ، واستبد به : جملة نصيبه . [٥] الشوى : الهين اليسير ورذال المال .

ذهنك عن الاستعداد لما يأتي ، وَتَاضِلْ عَوَارِضَ الْحَزَنِ بِالْأَنْفَةِ عَنْ مِضَاهَاةٍ (١)
 أفعال أهل وهي (٢) الْعُقُولِ ، فَإِنَّ الْعِزَاءَ لِحُزْمَاءِ الرِّجَالِ ، وَالْجَزَعَ لِرَبَّاتِ
 الْحِجَالِ (٣) ، وَلَوْ كَانَ الْجَزَعُ يَرُدُّ فَائِتًا ، أَوْ يُخْبِي تَالِفًا ، لَكَانَ فِعْلًا دَنِئًا ،
 فكيف وهو مجانبٌ لأخلاق ذوى الألباب ، فارغب بنفسك أيها الملك عما
 يتهافت (٤) فيه الأردلون ، وصن قدرك عما يركبه المخسوسون ، وكن على ثقة أن
 طمعك فيما استبدت به الأيام ، ضِلَّةٌ كأحلام النيام . (الأمل ٢ : ١٠١)

٢٥ --- أ كثم بن صيفى يعزى عمرو بن هند عن أخيه

وعزى أ كثم بن صيفى عمرو بن هند ملك العرب عن أخيه فقال له :
 « إِنَّ أَهْلَ هَذِهِ الدَّارِ سَفَرٌ لَا يَحْمِلُونَ عَقْدَ الرَّحَالِ إِلَّا فِي غَيْرِهَا ، وَقَدْ أَتَاكَ
 مَا لَيْسَ بِمَرْدُودٍ عِنْدَكَ ، وَارْتَحَلَ عِنْدَكَ مَا لَيْسَ بِرَاجِعٍ إِلَيْكَ ، وَأَقَامَ مَعَكَ مَنْ
 سَيَظُنُّ عِنْدَكَ وَيَدْعُوكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا ثَلَاثَةٌ أَيَّامٌ ، فَأَمْسِ عِظَةً ، وَشَاهِدْ عَدْلًا ،
 فَجَمَعَكَ بِنَفْسِهِ ، وَأَبْقَى لَكَ وَعَلَيْكَ حِكْمَتُهُ ؛ وَالْيَوْمَ غَنِيمَةٌ ، وَصَدِيقُ أَتَاكَ وَلَمْ تَأْتِهِ ،
 طَالَتْ عَلَيْكَ غَيْبَتُهُ ، وَاسْتَسْرَعَ عِنْدَكَ رِحْلَتُهُ ؛ وَغَدَ لَا تَدْرِي مَنْ أَهْلُهُ ، وَسَيَأْتِيكَ
 إِنْ وَجَدَكَ ، فَمَا أَحْسَنَ الشُّكْرِ لِلْمَنْعَمِ ، وَالتَّسْلِيمِ لِلْقَادِرِ ، وَقَدْ مَضَتْ لَنَا أَصُولُ
 نَحْنُ فُرُوعُهَا ، فَمَا بَقَاءَ الْفُرُوعِ بَعْدَ أَصُولِهَا ، وَاعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ مِنَ الْمَصِيبَةِ سُوءُ
 الْخَلْفِ مِنْهَا ، وَخَيْرٌ مِنَ الْخَيْرِ مَعْطِيهِ ، وَشَرٌّ مِنَ الشَّرِّ فَاعِلُهُ .

(العقد المربد ٢ : ٣٥ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٤)

٢٦ - خطبة عبد المطلب بن هاشم

يهنى سيف بن ذى يزن باسترداد ملكه من الحبشة

لما ظفر سيف بن ذى يزن بالحبشة ، أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها

[١] مشاكلة . [٢] ضمف . [٣] والحجال جمع حجلة (بفتحين) ، وهي القبة وموضع يزين
 بالستور ، والنياب للعروس . [٤] التهافت : التتابع .

تهنئة وتمدحه ، ومنهم وفد قريش ، وفيهم عبد المطلب بن هاشم ، فاستأذنه في الكلام فأذن له ، فقال :

« إن الله تعالى - أيها الملك - أحلك محلاً رفيعاً ، صعباً منيعاً ، باذخاً^(١) شامخاً ، وأنبتك منبتاً طابت أرومته^(٢) ، وعزت جزئومته^(٣) ، وثبت أصله ، وبسق^(٤) فرعه ، في أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت - أبيت اللعن - رأس العرب وربيعها الذي به تُخصب ، وملكها الذي به تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومَعْقِلِهَا^(٥) الذي إليه يلجأ العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدم خير خلف ، ولن يهلك من أنت خلفه ، وإن يخمل من أنت سلفه ، نحن أيها الملك أهل حرَم الله وذمته ، وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجك بكشف الكرب الذي قدحنا^(٦) ، فنحن وفد التهنئة ، لا وفد المرزئة^(٧) » .

(العقد المرید ١ : ١٠٧ ، وأبواب نجاة الأبناء ص ١١)

٢٧ - خطبة هاشم بن عبد مناف

يحث قريشاً على إكرام زوار بيت الله الحرام

كان هاشم بن عبد مناف يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيُسَئِدُ ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيخطب قريشاً ، فيقول :

« يا معشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوهاً ، وأعظمها أحلاماً ، وأوسطها^(٨) أنساباً ، وأقربها أرحاماً ، يا معشر قريش ، أنتم جيران بيت الله ، أكرمكم بولايته ، وخصمكم بجواره ، دون بني إسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ما حفظ .

[١] عالياً من بدخ بذخا : كفرح . [٢] أرومة : بالصم والفتح أى أصل . [٣] أصله أيضاً . [٤] علا وطال . [٥] اللجأ . [٦] أنقلنا . [٧] رزأه ماله : يجعل وعلم أصاب منه شيئاً رزأه ، كارتزأه ماله ، ورزأه رزأ ومرزئة أصاب منه خيراً . أى لسنا وافدين للعزاء . [٨] خيرم : الوسط من كل شيء أعدله (فال أوسطهم وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) .

جارٍ من جاره ، فأكرموا ضيفه ، وزوّارَ بيته ، فإنهم يأتونكم شعشعاً^(١) غُبْرًا من كل بلد ، فَوَرَبَّ هذه البنية^(٢) ، لو كان لي مال يحمل ذلك لكفيتكموه ، ألا وإني مخرج من طيبٍ مالي وحلاله ، ما لم يُقْطَع فيه رَحِمٌ ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ، فواضعهُ ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بِحُرْمَةِ هذا البيت ألا يُخْرَج رجل منكم من ماله ، لكرامة زوّار بيت الله ومعونتهم إلا طيباً ، لم يؤخذ ظالماً ، ولم يُقْطَع فيه رَحِمٌ ، ولم يفتصب .

(شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ : ٤٥٨)

٢٨ - خطبة كعب بن لؤي

وخطب كعب بن لؤي (وهو الجد السابع للنبي صلى الله عليه وسلم) فقال: « اسمعوا وعُوا ، وتعلموا تعلموا ، وتفهموا تفهموا ، ليل ساجٍ^(٣) ، ونهار صاجٍ^(٤) ، والأرض مهّاد ، والجبال أوتاد ، والأولون كالآخرين ، كل ذلك إلى بلاء ، فصلوا أرحامكم ، وأصلحوا أحوالكم ، فهل رأيتم من هلك رجع ، أو ميتاً نُشِر ، الدار أمامكم ، والظن خلاف ما تقولون ، زينوا حرمكم وعظموه ، وتمسكوا به ولا تفارقوه ، فسياتي له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم ، ثم قال :

نهارٌ وليلٌ واختلافٌ حواديثٍ	سواءٍ علينا خلوها ومريرها
يثوبانٍ بالأحداثِ حتى تأوبا	وبالنعم الضافي علينا ستورها ^(٥)
صروفٌ وأنباءٌ تقلب أهلها	لها عقدٌ ما يستحيل مريرها
على غفلةٍ يأتي النبيُّ محمدٌ	فيخبرُ أخباراً صدوقاً خبيرها

[١] جمع أشتت : وهو ملبد الشعر مفبره [٢] الكعبة : (والبنية بكسر الباء وضها وسكون النون ما بنيته) . [٣] الساجي الساكن والدائم . [٤] لعله ضاج من ضح القوم صاحوا وأجلبوا . [٥] الأوب الرجوع .

نمَّ قَالَ :

يَا لَيْتَنِي شَاهِدُ خَوَاءَ دَعْوَتِهِ حِينَ الْعَشِيرَةِ تَبْغِي الْحَقَّ خِذْلَانَا (١)
(صح الأعتى ١ : ٢١١)

٢٩ - تساؤل عامر بن الظرب وحممة بن رافع

عند أحد ملوك حمير

اجتمع عامر بن الظرب العدواني ، وحممة بن رافع الدؤسى عند ملك من ملوك حمير ، فقال : تساءلاً حتى أسمع ما تقولان . قال عامر لحممة : أين تحب أن تكون أيديك ؟ قال : عند ذى الرثية (٢) العديم ، وذى الخلة (٣) الكريم ، والمعسر الغريم ، والمستضعف الهضم . قال من أحق الناس بالوقت ؟ قال : الفقير المختال ، والضعيف الصوال ، والعيى القوال . قال فمن أحق الناس بالمنع ؟ قال : الحريص الكاند (٤) ، والمستמיד (٥) الحاسد ، والمُلجف الواحد . قال فمن أجدر الناس بالصنعة ؟ قال : من إذا أعطى شكر ، وإذا منيع عذر ، وإذا موطئ صبر ، وإذا قدم العهد ذكر . قال : من أكرم الناس عشرة ؟ قال : من إن قرُب منحه ، وإن بعد مدح ، وإن ظلم صفح ، وإن ضويق سمح ، قال : من أأم الناس ؟ قال : من إذا سأل خضع ، وإذا سئل منع ، وإذا ملك كنع (٦) ، ظاهره جشع (٧) ، وباطنه طبع (٨) . قال : فمن أحلم الناس ؟ قال : من عفا إذا قدر ، وأجل إذا اتصر ، ولم تُطغهِ عزّة الظفر . قال : فمن أخزم الناس ؟ قال : من أخذ رقاب الامور بيديه ، وجعل العواقب نُصبَ عينيه ، ونبذ التهيّب

[١] فحوى الكلام وخوؤه مناه ومذهبه . [٢] الرثية وجمع المفاصل واليدين والرجلين (الرومازم) . [٣] الخلة الحاجة . [٤] الكاند الذى يكتر النعمة والسكود الكفور : (إن الانسان لربه لكدود) . [٥] المستميد والمستمير السعطي . [٦] تمنع . تمنع جلده إذا تقبض أى مسك بخيل . [٧] الجشع : أسوأ الحرص . [٨] الدنس .

دَبَّرَ أُذُنِيهِ^(١) . قال : فمن أخرق الناس ؟ قال : من ركب الخِطَارَ^(٢) ، واعتسف^(٣) العِثَارَ ، وأسرع في البِدَارِ ، قبل الاقتدار . قال : فمن أجود الناس ؟ قال : من بذل المجهود ، ولم يَأْسَ على المجهود . قال فمن أبلغ الناس ؟ قال : من جَلَّى المعنى المَزِيزَ^(٤) باللفظ الوجيز ، وَطَبَّقَ^(٥) المَفْصِلَ قبل التحزير . قال : فمن أنعم الناس عيشاً ؟ قال : من تَحَلَّى بالعفاف ، ورضى بالكفاف ، وتجاوز ما يخاف إلى ما لا يخاف . قال : فمن أشقى الناس ؟ قال : من حسد على النعم ، وتسخط على القسَمِ ، واستشعر الندم ، على فوت ما لم يُحْتَمَمْ . قال : من أغنى الناس ؟ قال : من استشعر اليأس ، وأبدى التجمل للناس ، واستكثر قليل النعم ، ولم يَسْخَطْ على القسمِ . قال : فمن أحكم الناس ؟ قال : من صَمَّتْ فَأَدَّ كَرَّ ، ونظر فاعتبر ، ووَعِظَ فازدجر . قال : من أجهل الناس ؟ قال : من رأى الخُرْقَ مَعْتَمًا ، والتجاوز مَعْرَمًا .

(الأمل ٢ : ٢٨٠)

٣٠ - خطبة قس بن ساعدة الإيادي

خطب قُسُّ بن ساعدة الإيادي بسوق عُكَاظَ ، فقال :

« أيها الناس : اسمعوا وَعُؤُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ آتٍ ، ليل دَاجٍ^(٦) ، ونهار سَاجٍ ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تَزْهَرُ^(٧) ، وبحار تَزْخَرُ^(٨) ، وجبال مُرْسَاةٌ ، وأرض مُدْحَاةٌ^(٩) ، وأنهار مُجْرَاةٌ ، إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لخبراً ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أَرْضُوا فَأَقَامُوا ، أم تركوا فناموا ؟ يقسم قُسُّ بالله قسماً لا إثم فيه : إن لله ديناً هو أرضى له ، وأفضل

[١] جعلت الشيء دبر أذني : إذا لم ألت إليه . [٢] جمع خطر ، وهو الإشراف على الملاك .

[٣] الاعتساف : ركوب الطريق على غير هداية وركوب الأمر على غير معرفة . [٤] الصعب .

[٥] النطيق : أن يصيب السيف المفاصل فيفصلها لا يماوزها . [٦] مظلم . [٧] تنوء وتتلألأ .

[٨] تنوء وترتفع . [٩] مدحوة : أي مبسوطة ، وإنما قال مدحوة مراعاة السجع .

من دينكم الذي أتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكراً. وَيُرْوَى أَنْ قَسَا أَنْشَأَ
بعد ذلك يقول :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الأَكْبَرِ والأصغر
لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقيين غابر (١)
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

(صبح الأعشى ١ : ٢١٢ ، إجاز القرآن ١٢٤ ، البيان والنبين ١ : ١٦٨ ،
الأغاني ١٤ : ٤٠ ، المعجم الفريد ٢ : ١٥٦ ، وجمع الأسماء للميداني ١ : ٧٤)

٣١ - خطبة المأمون الحارثي

قعد المأمون الحارثي في نادي قومه ، فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم أفكر
طويلاً ، ثم قال : «أرعوني أسماعكم ، وأصغوا إلي قلوبكم ، يَبْلُغُ الوعظ منكم حيث
أريد ، طَمَحَ^(٢) بالأهواء الأشر ، وَرَانَ^(٣) على القلوب الكدر ، وطخطخ^(٤) الجهل
النظر ، إن فيما ترى لَمُعْتَبِراً لمن أُعْتَبِرَ ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس
تَطْلُعُ وتَغْرُبُ ، ونجوم تسرى فتعزب ، وقر تطلعه النجور ، وتتحققه أديار
الشهور ، وعاجز مثير ، وَحَوْلُ^(٥) مُكْدٍ ، وَشَابٌ مُخْتَضِر^(٦) ، وَيَفَنَ قد غَبَرَ ،
وَراحلون لا يثوبون ، وموقوفون لا يُفَرِّطُونَ^(٧) ، وَمَطَرٌ يرسل بقدر ، فيحيي
البشر ، وَيُورِقُ الشجر ، وَيُطْلِعُ الثمر ، وينبت الزهر ، وماء يتفجر ، من الصخر

[١] مقيم . [٢] ارتفع وعلا وذهب . [٣] غلب . [٤] أظلم . [٥] رجل حوّل :
شديد الاحتيا ، وأكدى : لم ينح ، وأصله من أكدى إذا حفر فصادف الكدية (بضم الكاف) وهي
الصفاء العظيمة الشديدة . [٦] الذي يموت حدثاً ، وهو مأخوذ من الحضرة كأنه حصد أخضر ، واليفن
الشيخ الكبير . [٧] يقدمون .

الأَبْرَّ (١) ، فيصدع المدر ، عن أفنان الخضر ، فيُخَيِّ الأنام ، وَيُشْبِع السَّوَامَ ، وَيُنْمِي الأنعام ، إن في ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر ، البارئ المصور ، يأبها العقول النافرة ، والقلوب الثائرة (٢) ، أَنِّي تُؤَفِّكُونَ ، وعن أى سبيل تَعْمَهُونَ ، وفي أى حيرة تهيمون ، وإلى أى غاية تُوفِّضُونَ (٣) ، لو كُشِفَتِ الاغطية عن القلوب ، وتجلَّت الغشاوة عن العيون ، لصرَّح الشك عن اليقين ، وأفاق مِنْ نَشْوَةِ الجهالة ، مَنْ أُسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الضلالة . (الأمل ١ : ٢٧٦)

٣٢ - خطبة هاني بن قبيصة الشيباني

قال هاني بن قبيصة الشيباني يُحَرِّضُ قَوْمَهُ يَوْمَ ذِي قَارِ (٤) :

« يَا مَعْشَرَ بَكْرٍ ، هَالِكٌ مَعْدُورٌ ، خَيْرٌ مِنْ نَاجٍ فَرُورٌ ، إِنَّ الْحَذَرَ لَا يُنْجِي مِنَ الْقَدَرِ ، وَإِنَّ الصَّبْرَ مِنْ أَسْبَابِ الظَّفَرِ ، الْمَنِيَّةُ وَلَا الدَّيْنِيَّةُ ، اسْتِقْبَالُ الْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ اسْتِدْبَارِهِ ، الطَّمَعُنُ فِي ثَغْرِ (٥) النُّجُورِ ، أَكْرَمُ مِنْهُ فِي الْأَعْجَازِ وَالظُّهُورِ ، يَا آلَ بَكْرٍ ، قَاتِلُوا فَمَا لِلْمَنِيَا مِنْ بُدٍّ . (الأمل ١ : ٩٢)

٣٣ - خطبة عمرو بن كلثوم

أما بعد : فإنه لا يخبر عن فضل المرء أصدق من تركه تركية نفسه ، ولا يعبر عنه في تركية أصحابه أصدق من اعتماده إياهم برغبته ، وائتمانه إياهم على حرمة .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٩)

[١] الصلب . [٢] النائرة الناعرة ، نارت نوراً بفتح الون ، ونوارا بفتحها وكسرهما ، نرت .
[٣] تسرعون . [٤] كان من أعظم أيام العرب وأبلغها في توهين أمر الأعاجم ، وهو يوم لبي
شيبان ، وكان أبرويز أغزاهم جيشاً ، فظفر بنو شيبان ، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب من العجم .
[٥] جمع ثغرة بالضم : وهي ثغرة النحر بين الزقوتين (والثغرة بالفتح : كل هورة مفتحة) .

٣٤ - خطبة أبي طالب

في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة

خطب أبو طالب حين زواج النبي صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة فقال :
« الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بلداً
حراماً ، وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكم على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله ابن
أخي من لا يُوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه: براً وفضلاً، وكرماً وعقلاً ،
ومجداً ونُبلاً^(١) ، وإن كان في المال قُلٌّ^(٢) ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية^(٣)
مُسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبةٌ ، ولها فيه مثلُ ذلك ، وما أحببتم
من الصّداق فعلى » .

(صح الأعرابي ١ : ٢١٣ ، وإعجاز القرآن ١٢٦ ، وتهذيب الكامل ١ : ٤ ، والسيرة الحلبية ١ : ١٣٣)

٣٥ - حديث بعض مقال حمير مع ابنه

وما دار بينه وبينها من المسألة حين كبرت سنه

كان رجل من مقال حمير ابنان، يقال لأحدهما عمرو، والآخر ربيعة، وكانا
قد برعا في الأدب والعلم ، فلما بلغ الشيخ أقصى عمره ، وأشقى^(٤) على
الفناء ، دعاهما ليَبْلُو^(٥) عقولهما ، ويعرف مبلغ علمهما ، فلما حضرا . قال لعمرو
- وكان الأكبر - أخبرني عن أحبّ الرجال إليك ، وأكرمهم عليك . قال :
« السيد الجواد ، القليل الانداد ، الماجد الأجداد ، الراسي الأوتاد ، الرفيع
العماد ، العظيم الرماد ، الكثير الحُساد ، الباسل الذوّاد^(٦) ، الصادر الوَراد »
قال ما تقول يا ربيعة ؟ قال : ما أحسن ما وصف ! وغيره أحب إلى منه ،

[١] دكاء ونجابة . [٢] قلة . [٣] ما يستعار ، مشددة وقد تخف . [٤] أشقى عليه :

أشرف . [٥] ليختبر . [٦] من زاد عنه إذا دفع .

قال ومن يكون بعد هذا ؟ قال : « السيد الكريم ، المانع للحريم ، المفضل الحليم ، القمقام ^(١) الزعيم ، الذي إن هم فعل ، وإن سُئِلَ بذل .
قال أخبرني يا عمرو بأبغض الرجال إليك . قال : البرم ^(٢) اللثيم ،
المُسْتَخْذِي ^(٣) للخصيم ، المِبْطَان ^(٤) النهيم ، العِي أَنبَكِيم ، الذي إن سئل منع ،
وإن هُدِّدَ خضع ، وإن طلب جَشِعَ ^(٥) . قال ما تقول يا ربعة ؟ قال : غيره
أبغض إلىَّ منه . قال : ومن هو ؟ قال : النُّؤوم الكذوب ، الفاحش الغضوب ،
الرَّغِيب عند الطعام ، الجبان عند الصِّدَام .

قال أخبرني يا عمرو : أى النساء أحب إليك ؟ قال : الهِرَّةُ كَوَالَةٌ ^(٦)
اللفاء ^(٧) ، المَمْكُورَةُ ^(٨) الجيِّدَاء ، التي يَشْفِي السقيمَ كَلَامُهَا ، وَيُبْرِئُ الوَصِيبَ ^(٩)
إِلْمَامُهَا ، التي إن أحسنت إليها شكرت ، وإن أسأت إليها صبرت ، وإن
استعتبتها ^(١٠) أُعْتَبَت ، الفاترة الطَّرْف ، الطَّفَلَةُ ^(١١) الكف ، العميمة الرِّدْف .
قال : ما تقول يا ربعة ؟ قال : نَعَتَ فَأَحْسَنَ ! وغيرها أحب إلىَّ منها . قال :
ومن هي ؟ قال : « الفتانة العينين ، الأسيلة ^(١٢) الخدين ، الكعاب ^(١٣) الثديين ،
الرِّدَّاح ^(١٤) الوركين ، الشاكرة للقليل ، المساعدة للليل ^(١٥) ، الرِّخِيمة ^(١٦)
الكلام ، الجماء ^(١٧) العظام ، الكريمة الأخوال والأعمام ، العذبة اللثام ^(١٨) ،

[١] السيد (ويضم) . [٢] البرم : من لا يدخل مع القوم في الميسر . [٣] الحاضع المستكين ،
والخصيم الخاصم . [٤] من هم بطنه ، أو الرغب لا ينتهي من الأكل . [٥] الجشع : أسوأ الحرص .
[٦] المرتجة الأرداف . [٧] الملتفة الجسم . [٨] المطوية الخلق من النساء والمستديرة
الساقين ، والجيِّدَاء من الجيد بالتحريك وهو طول الرقبة ، أو دقتها مع طول . [٩] المريض .
[١٠] استعتبه طلب إليه العتي (الرضا) وأعتبه أعطاه العتي . [١١] الناعمة . [١٢] الأسيل من
الحدود الطويل المسترسل . [١٣] كعب الثدي نهد . [١٤] الثبيلة المعجيرة الضحمة الوركين .
[١٥] الزوج . [١٦] اللينة الكلام . [١٧] التي ليس لعظامها حجم . [١٨] المراد موضع اللثام
فهو على هدف مضاف .

قال : فأى النساء إليك أبغض يا عمرو ؟ قال : القَتَّانَةُ ^(١) الكذوب ،
الظاهرة العيوب ، الطَوَّافَةُ ^(٢) الهَبُوب ، العابسة القَطُوب ، السَّبَّابَةُ ^(٣) الوَثُوب ،
التي إن ائتمنها زوجها خانتها ، وإن لان لها أهانتها ، وإن أرضاها أغضبتة ، وإن
أطاعها عصته ، قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : بئس والله المرأة ذكر ! وغيرها
أبغض إلى منها . قال : وأيتهن التي هي أبغض إليك من هذه ؟ قال : السَّلِيْطَةُ ^(٤)
اللسان ، المؤذية للجيران ، الناطقة بالبهتان ، التي وجهها عابس ، وزوجها
من خيرها آيس ، التي إن عاتبها زوجها وترته ^(٥) ، وإن ناطقها انتهرته . قال
ربيعة : وغيرها أبغض إلى منها . قال : ومن هي ؟ قال : التي شقى صاحبها ، وخزى
خاطبها ، واقتضح أقاربها . قال : ومن صاحبها ؟ قال : مثلها في خصالها كلها ،
لا تصلح إلا له ، ولا يصلح إلا لها . قال : فصفه لى . قال : الكَفُور غير
الشُّكُور ، اللئيم الفُجُور ، العَبُوس الكالِح ^(٦) ، الحرون الجامح ، الراضى
بالهوان ، المختال المَنان ، الضعيف الجنان ، الجَمْدُ ^(٧) البنان ، القَتُول غير الفَعُول ،
المَلُول غير الوَصُول ، الذى لا يَرِعُ ^(٨) عن المحارم ، ولا يرتدع عن المظالم .
قال أخبرنى يا عمرو : أى الخيل أحب إليك عند الشدائد ، إذا التقى الأقران
للتجالد ؟ قال : الجواد الأنيق ، الحصان العتيق ، الكَفَيْت ^(٩) العَرِيْق ،
الشديد الوثيق ، الذى يفوت إذا هرب ، وَيَلْحَقُ إذا طلب . قال : نعم الفرس
والله نعمت ! قال فما تقول يا ربيعة ؟ قال : غيره أحب إلى منه . قال : وما هو ؟
قال : الحصان الجَوَاد ، السَّلِس القِيَاد ، الشَّهْم الفَوَاد ، الصَّبُور إذا سرى ،
السابق إذا جرى .

[١] النمامة . [٢] الكثيرة الانقباه والهبوب الريح المثيرة للغبار . [٣] الطويلة .
[٤] أحفظته وأغضبتة . [٥] كالخ : تكسر و عبوس . [٦] كناية عن البخل .
[٧] ورع : كورث كف . [٨] السريع .

قال : فأى الخيل أبغض إليك يا عمرو؟ قال : الجَمُوحُ الطَّمُوحُ ، النَّكُولُ (١) الأَنُوحُ (٢) ، الصَّنُولُ (٣) الضَّعِيفُ ، المَلُولُ العَنِيفُ ، الذى إن جاريتَه سبقتَه ، وإن طلبته أدركته . قال : ما تقول يا ربيعة ؟ قال : غيره أبغض إلىَّ منه . قال : وما هو ؟ قال : البَطِيءُ الثَّقِيلُ ، الحَرُونُ الكَلِيلُ ، الذى إن ضربته قَصَّ ، وإن دنوت منه شَمَسَ (٤) ، يدركه الطالب ، ويفوته الهارب ، وَيَقْطَعُ بالصاحب . قال ربيعة : وغيره أبغض إلىَّ منه . قال : وما هو ؟ قال : الجَبُوحُ الحَبُوطُ (٥) ، الرَّكُوضُ الحَرُوطُ (٦) ، الشَّمُوسُ الضَّرُوطُ (٧) ، القَطُوفُ (٨) فى الصعود والهبوط ، الذى لا يُسَلِّمُ الصاحب ، ولا ينجو من الطالب .

قال : أخبرنى يا عمرو أى العيش أذُّ؟ قال : عيش فى كرامة ، ونعيم وسلامة ، واغتياق (٩) مُدَامَةٍ . قال : ما تقول يا ربيعة؟ قال : نَعِمَ العَيْشُ والله وصف ! وغيره أحبُّ إلىَّ منه . قال : وما هو؟ قال : عيش فى أمن ونعيم ، وَعَزٍّ وَغْنَى عَمِيمٍ ، فى ظل نجاحٍ ، وسلامةٍ مَسَاءً وَصَبَاحٍ ، وغيره أحبُّ إلىَّ منه . قال : وما هو؟ قال : غِنَى دَائِمٍ ، وعيش سالمٍ ، وظلٌّ نَاعِمٍ .

قال : فما أحبُّ السيوف إليك يا عمرو؟ قال : الصَّقِيلُ الحُسَامُ ، الباتر المِجْدَامُ (١٠) ، الماضى السِّطَامُ (١١) المُرْهَفُ (١٢) الصَّمَمُصَامُ (١٣) ، الذى إن هز زته لم يَكْبُ (١٤) ، وإذا ضربت به لم يَنْبُ (١٥) . قال : ما تقول يا ربيعة؟ قال :

[١] النكول : الذى ينسكل عن قرنه . [٢] الأَنُوحُ : الكثير الزَّحِير . [٣] الصَّنُولُ : وصئيل الفرس صهيله . [٤] شمس الفرس ، منع ظهره : فهو شامس وشموس . [٥] الكثير الحبط : وهو السير على غير هدى . [٦] الحروط الدابة الجوح تجتذب رسنها من يد ممسكها ثم تمضى . [٧] الكثير الضراط . [٨] قطفت الدابة : ضاق مشيها بهى قطوف . [٩] اغتياق : شرب الفبوق وهو ما يشرب بالمشى والمدامة الحمر كالدِّمَامِ . [١٠] من الجدم : وهو النقطع . [١١] الحد . [١٢] رهف السيف ، وأرهفه رفقته . [١٣] السيف لا يثنى كالصمصامة . [١٤] لم يكثر . [١٥] لم يكمل عن الضربة .

نعم السيف نعت ! وغيره أحبُّ إلىَّ . قال وما هو ؟ قال : الحسام القاطع ،
ذو الرُّونق اللامع ، الظمآن الجائع ، الذى إن هزرتَه هتَكَ (١) ، وإذا ضربت به
بتَكَ (٢) . قال : فما أبغض السيوف إليك يا عمرو ؟ قال : الفُطَّار (٣) الكَهَام (٤) ،
الذى إن ضرب به لم يقطع ، وإن ذُبح به لم يَنْخَع (٥) . قال : فما تقول ياربعة ؟
قال : بئس السيف والله ذكر ! وغيره أبغض إلىَّ منه . قال : وما هو ؟ قال :
الطَّبِيعُ (٦) الدَّدَانُ (٧) ، المِعْضَدُ (٨) المَهَانُ .

قال : فأخبرنى يا عمرو : أى الرِّمَّاح أحبُّ إليك عند المِرَّاس ، إذا أعتكر
البَّاس ، وأشتَجَرَ الدَّعَّاس (٩) ؟ قال : أحبها إلىَّ المَارِنُ (١٠) المُنْقَفُ ، المَقْوَمُ
المُخْطَفُ (١١) ، الذى إذا هزرتَه لم ينمطف ، وإذا طعنت به لم ينقصف . قال :
ما تقول ياربعة ؟ قال : « نِعَمَ الرِّمَّاح نعت ! وغيره أحبُّ إلىَّ منه . قال وما هو ؟
قال : الذَّابِلُ (١٢) العَسَّالُ ، المَقْوَمُ النَّسَّالُ ، الماضى إذا هزرتَه ، النافذ إذا همزته .
قال : فأخبرنى يا عمرو عن أبغض الرِّمَّاح إليك . قال : الأَعْصَلُ (١٣)
عند الطعان ، المثلَّم السَّنَانُ ، الذى إذا هزرتَه انمطف ، وإذا طعنت به انقصف .
قال : ما تقول ياربعة ؟ قال : بئس الرِّمَّاح ذكر ! وغيره أبغض إلىَّ منه . قال : وما هو ؟
قال : الضَّعِيفُ المَهْزُ (١٤) ، اليباس الكَزُّ (١٥) ، الذى إذا أكرهته انحطم ، وإذا
طعنت به انقصم . قال انصرفا ، الآن طاب لى الموت » . (الأمل ١ : ١٥٢)

[١] مرَّقى . [٢] قطع . [٣] الذى لا يقطع ، وهو مع ذلك حديث الطبع . [٤] سيف
كهام كبير . [٥] لم يبلغ النخاع . [٦] من الطمع أى الصدا . [٧] الذى لا يقطع .
[٨] القصير الذى يتهن فى قطع الشجر وغيرها . [٩] الطعان : دعه إذا طعنه . [١٠] المارن :
مالان من الرمح ، والمنقف : المسوى بالثقاف ، وهو ما تسوى به الرماح . [١١] الحطف بضم فسكون
الصحر ، وإخطاف الحشى انطاوؤه ، ومنه فرس مخطف الحشى أى ضامره ، ورجل مخطف كذلك ورمح
بمخطف أى دقيق . [١٢] قنا ذابل : أى دقيق لاصق بالليط (بكسر اللام ، والليطة : قشر الفأرة) ،
والعسال : الشديد الاضطراب إذا همزته ومنه العسلان بالتحريك ، وهو عدو فيه اضطراب ، والسنلان قريب منه .
[١٣] المتوى : الموج . [١٤] مهزه كنهه : دفعه . [١٥] الكزازة : اليبس والانباض كرفهوكر .

٣٦ - قيس بن خفاف البرجمي وحاتم طيء

أتى أبو جُبَيْل قيس بن خُفَّافَ البرُّجُمِي حاتم طيء، في دماء حملها عن قومه ، فأسلموه (١) فيها ، وعجز عنها ، فقالَ والله لآتين من يحملها عنى ، وكان شريفاً شاعراً ، فلما قدم عليه قالَ : « إنه وقعت بين قومي دماء فتواكلوها ، وإني حملتها في مالي وأملي ، فَقَدَّمْتُ مالي ، وكنتَ أُملي ، فَإِن تَحْمِلُهَا فرب حق قد قضيته ، وهم قد كفيتَه ، وإن حال دون ذلك حائل لم أذم يومك ، ولم أياس من غدك . ثم أنشأ يقول :

حملت دماءً للبراجم جَمَّةً فجئتك لما أسلمتني البراجم (٢)

وقالوا (سفاها) لم حملت دماءنا فقلت لهم يكفى الحمالة حاتم (٣)

متى آتته فيها يقل لي مرحباً وأهلاً وسهلاً أخطأتك الأشائم (٤)

فيحملها عنى ، وإن شئت زادنى زيادة من حنت إليه المكارم

يعيش الندى ما عاش حاتم طيء فإن مات قامت للسقاء ماتم

ينادين مات الجود معك فلا نرى مجيباً له ما حام في الجود حاتم

وقال رجالٌ أنهمب العام ماله فقلت لهم إني بذلك عالم (٥)

ولكنه يعطى من أموال طيء إذا جلتف المال الحقوق اللوازم (٦)

فيعطى التي فيها الغنى وكأنه لتصغيره تلك العطية جارم (٧)

بذلك أوصاه عدى وحشرج وسعدته وعبد الله تلك القمام (٨)

[١] خذلوه . [٢] البراجم من تميم . [٣] السفاه : السفه . والحمالة : الدية يحملها قوم عن قوم . [٤] الأشائم : ضد الأيامن . [٥] أنهمب المال : جعله نهبا يفار عليه . [٦] أى جرده وانتقمه . [٧] جرم الرجل (بفتحين) : أذنب كأجرم . [٨] جمع قمام وهو السيد .

فقال له حاتم : إن كنت لأحب أن يأتيني مثلك من قومك ، هذا بره باعى^(١) من الغارة على بنى تميم ، نخذه وافراً ، فإن وني بالحمالة ، وإلاً أكلمتها لك ، وهو مائتا بعير سوى بنيتها وفصالها ، مع أني لأحب أن تويس قومك بأموالهم ، فضحك أبو جُبَيْل وقال : لكم ما أخذتم منا ، ولنا ما أخذنا منكم ، وأى بعير دفمته إليّ ، ايس ذنبه في يد صاحبه ، فأنت منه برىء ، فدفعها إليه وزاده مائة بعير ، فأخذها وانصرف راجعاً إلى قومه . فقال حاتم في ذلك :

أَتَانِي الْبُرْجِيُّ أَبُو جُبَيْلٍ	لَهُمْ فِي حَمَالَتِهِ طَوِيلٌ
فَقُلْتُ لَهُ خُذِ الْمِرْبَاعَ رَهْوًا	فَإِنِّي لَسْتُ أَرْضِي بِالْقَلِيلِ ^(٢)
عَلَى حَالٍ ، وَلَا عَوَّدْتُ نَفْسِي	عَلَى عِلَاتِهَا عِلَلِ الْبَخِيلِ
نَخَذَهَا إِنِّهَا مَائَتَا بَعِيرٍ	سَوْى النَّابِ الرَّذِيَّةِ وَالْفَصِيلِ ^(٣)
فَلَا مَنِّ عَلَيْكَ بِهَا ، فَإِنِّي	رَأَيْتُ الْمَنَّ يُزْرِى بِالْجَزِيلِ
فَأَبِ الْبُرْجِيِّ وَمَا عَلَيْهِ	مِنَ أَعْبَاءِ الْحَمَالَةِ مِنْ فَتِيلِ
يَجْرُ الذَّيْلُ يَنْفُضُ مَذْرَوِيَهُ	خَفِيفَ الظَّهْرِ مِنْ حَمَلٍ ثَقِيلِ ^(٤)

(ديل الأمالى ٢٢ ، والأغانى ٧ : ١٤٥)



[١] الرباع : ربع الغنيمة ، وكان يختص به قائد الغارة وفارسها . [٢] يقال : آتيتك به رهوا أى آتيتك به عمواً سهلاً لا احتباس فيه . [٣] الناقة المسنة ، والرذية : مؤنث الردى ، وهو الضعيف من كل شيء ومن أثقله المرض . [٤] المذروان : أطراف الألية بلا واحد أو هو المذرى ، ومن الرأس ناحيته ، ويقال جاء يفض مذرويه . أى باغيا متهددا .

الوصايا

٣٧ - وصية أوس بن حارثة لابنه مالك

عاش الأوس بن حارثة دهرًا ، وليس له ولد إلا مالك ؛ وكان لأخيه الخزرج خمسة : عمرو ، وعوف ، وجشم ، والحريث ، وكعب فلما حضره الموت . قال له قومه قد كنا نأمرك بالتزويج في شبابك ، فلم تزوج حتى حضر الموت ، فقال الأوس : « لم يهلك هالك ، ترك مثل مالك ، وإن كان الخزرج ذا عدد ، وليس لمالك ولد ، فاعل الذي استخرج العذق^(١) من الجريمة^(٢) ، والنار من الوثيمة^(٣) ، أن يجعل لمالك نسلا ، ورجالا بسلا^(٤) ، يمالك ، المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد لا التبلد ، وأعلم أن القبر خير من الفقر ، وشر شارب المشت^(٥) ، وأقبح طاعم المقتف^(٦) ، وذهاب البصر خير من كثير من النظر ، ومن كرم الكريم ، الدفاع عن الحریم ، ومن قل ذلك ، ومن أمر^(٧) فل ، وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة ، والدهر يومان ، فيوم لك ، ويوم عليك ، فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر ، فكلاهما سينحسر^(٨) ، فإنما تعز^(٩)

[١] العذق: النحلة بحملها والعنق (بكسر العين) القومنها . [٢] النواة . [٣] الوثيمة : الحارة ، وثمة : كسره ودقه . ووثم الأرض : رجمها بجوائره . (ومن أيمان العرب لا والذي أخرج العذق من الجريمة . والنار من الوثيمة ، وقولهم : لا والذي شقهن خمسا من واحدة يعنون الأصابع ، وقولهم : لا والذي أخرج قاذبة من قوب يعنون فرخا من بيضة . لا والذي وجهي زمم بينه (بالتجريك) أى قصده وحده . [٤] شجعانا : جمع باسل . [٥] المستصى : اشتفت ما فى الإيذاء شربه كله . واشتفت إذا شرب الشفاة (بالضم) ، وهى البقية تبقى فى الإيذاء . [٦] الآخذ بعجلة ، ومنه سعى القفاب وهو من يسرق الدراهم بين أصابعه . [٧] أمر كفرح أمرا وأمرة : كثر وتم فهو أمر (وأمره الله وأمره كمنصره كثره : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها . أى كثرنا . [٨] ينكسر . [٩] تملب . عزه . يعزم : كمنصره عزًا ، وعزّ يعزّ كضرب عزًا وعزة صار عزيزًا .

من ترى ويعزك من لا ترى ، ولو كان الموت يُشترى ، لسلم منه أهل الدنيا ،
ولكن الناس فيه مستوون ، الشريف الأبلج ، واللئيم المعلنج^(١) ، والموت
المفيت ، خير من أن يقال لك هيت^(٢) ، وكيف بالسلامة ، لمن ليست له
إقامة ، وشر من المصيبة سوء الخلف ، وكل مجموع إلى تلف ، حيّاك إلهك .
(الأماي ١ : ١٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٥٤)

٣٨ - وصية ذي الإصبع العدواني لابنه أسيد

لما أختضر^(٣) ذو الإصبع دعا ابنه أسيداً ، فقال له : يا بني إن أباك قد فني
وهو حي ، وعاش حتى سئم العيش ، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في
قومك ما بلغت ، فاحفظ عني . ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم
يرفموك ، وأبسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك ،
وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يُكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ،
واسمح بمالك ، وأحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعز من أسمعان بك ، وأكرم
ضيفك ، وأسرع النهضة في الصريح^(٤) ، فإن لك أجلاً لا يعدوك ، وصن وجهك
عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتم سوؤدك .
(الأمان ٣ : ٦)

٣٩ - وصية أكرم بن صيفي لبنيه ورهطه

وصى أكرم بن صيفي بنيه ورهطه ، فقال : « يا بني تميم لا يفوتنكم
وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي ، إن بين حيزومي^(٥) وصدري لكلاماً لا أجديله
مواقع إلا أسمعكم ، ولا مقارراً إلا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب واعية ،

[١] المتسامي في الدناءة والؤم . [٢] الأحمق الضعيف . [٣] حضره الموت . [٤] أي في
وقت الصريح وهو نداء المستغيث . [٥] الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام .

تَحْمَدُوا مَغْبِئَتَهُ ، الهوى يقظان ، والعقل راقد ، والشهوات مُطْلَقَةٌ ، والحزم معقول (١) والنفس مهملة ، والروية مُقَيَّدَةٌ ، ومن جهة التواني وترك الروية ، يتلّف الحزم ، ولن يعدّم المشاور مرشداً ، والمستبدّ برأيه موقوف على مَدَاحِضٍ (٢) الزلل ، ومن سمع شمع به ، ومصارع الرجال تحت بروق الطّمع ، ولو اعتُبرت مواقع المحن ما وُجِدَت إلا في مقاتل الكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سلك الجَدَد (٣) أَمِن العثار ، ولن يعدّم الحسود أن يُتعب قلبه ، وَيَشْغَلَ فِكْرَهُ ، وَيُورِّث (٤) غِيظَهُ ، ولا تجاوز مَضْرُوتَهُ نَفْسَهُ .

يا بنى تميم : الصبر على جرّع الحلم أعذب من جنّ ثمر الندامة ، ومن جعل عِرْضَهُ دون ماله أَسْتَهْدَفَ للذم ، وَكَلَّمَ المِسانَ أَنْكِي من كَلَّمَ السنان ، والكلمة مرهونة ما لم تنجّم من الفم ، فَإِذَا نَجَمَتْ فَهِيَ أَسَدٌ مُحْرَبٌ (٥) ، أو نار تلهّب ، ورأى الناصح اللبيب دليل لا يجوز ، ونفاذ الرأى فى الحرب ، أجدى من الطمن والضرب « . (شرح ابن الحديد ٤ : ١٥٥ ، وشرح العيون ١٥)

٤ . — نصيحة أكرم بن صيفى لقومه

ونصح قومه فقال : « أَقِلُّوا الخِلافَ على أمرائكم ، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل ، والمرء يعجز لا محالة ، يا قوم تثبتوا فإن أحزم الفريقين الرّاكِن (٦) وربّ عَجَلَةٍ تَهَبُّ رِيثًا (٧) ، وَأُتْرِرُوا للحرب ، وَأَدْرِعُوا الليل ، فإنه أخفى للويل ، ولا جماعة لمن اختلف « . (الأغانى ١٥ : ٧٠)

[١] محبوس . [٢] جمع مدحمة ، وهى المزلة . [٣] الأرض المستوية . [٤] يوقد . [٥] التحريب : التحريش والتحديد ، والمحرّب والتحرّب الأسد . [٦] الرزين . [٧] بطنا .

٤١ - وصية عمرو بن كلثوم لبنيه

أوصى عمرو بن كلثوم التَّغْلِي ، فقال : يَا بَنِيَّ إِنِّي قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْعَمْرِ مَا لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مِنْ آبَائِي وَأَجْدَادِي ، وَلَا بَدَّ مِنْ أَمْرٍ مُقْتَبِلٍ ، وَأَنْ يَنْزِلَ بِي مَا نَزَلَ بِالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، وَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَوْلَادِ ، فَاحْفَظُوا عَنِّي مَا أُوصِيكُمْ بِهِ : إِنِّي وَاللَّهِ مَا عَيَّرْتُ رَجُلًا قَطُّ أَمْرًا إِلَّا عَيَّرَ بِي مِثْلَهُ ، إِنْ حَقَّ فِقْمًا ، وَإِنْ بَاطَلَ فَبَاطِلًا ، وَمَنْ سَبَّ سَبًّا ، فَكَفُّوا عَنِ الشَّتْمِ فَإِنَّهُ أَسْلَمَ لِأَعْرَاضِكُمْ ، وَصَلُّوا أَرْحَامَكُمْ ، تَعَمَّرُوا دَارَكُمْ ، وَأَكْرَمُوا جَارَكُمْ يَحْسُنُ ثَنَاؤُكُمْ ، وَزَوَّجُوا بَنَاتِ الْعَمِّ بَنِي الْعَمِّ ، فَإِنْ تَعَدَّيْتُمْ بِهِنَ إِلَى الْغُرَبَاءِ ، فَلَا تَأَلُّوا بِهِنَ الْإِكْفَاءَ ، وَأَبْعَدُوا بِيُوتِ النِّسَاءِ مِنْ بِيُوتِ الرِّجَالِ ، فَإِنَّهُ أَغْضُّ لِلْبَصْرِ ، وَأَعْفَى لِلذِّكْرِ ، وَمَتَى كَانَتْ الْمَعَايِنَةُ وَاللِّقَاءُ ، فَفِي ذَلِكَ دَاءٌ مِنَ الْأَدْوَاءِ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَنْغَارُ لغيرِهِ ، كَمَا يَنْغَارُ لِنَفْسِهِ ، وَقَلَّ مَنْ أَنْتَهَكَ حَرَمَةَ لغيرِهِ إِلَّا أَنْتَهَيْتَ حَرَمَتَهُ ، وَأَمْنَعُوا الْقَرِيبَ مِنْ ظَلَمِ الْغَرِيبِ ، فَإِنَّكَ تَذَلُّ عَلَى قَرِيبِكَ ، وَلَا يَحِلُّ بِكَ ذَلُّ غَرِيبِكَ ، وَإِذَا تَنَازَعْتُمْ فِي الدِّمَاءِ فَلَا يَكُنْ حَقِّكُمْ لِلِقَاءِ ، فَرُبَّ رَجُلٍ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ ، وَوَدَّ خَيْرٌ مِنْ خَلْفِ ، وَإِذَا حَدَّثْتُمْ فَعَمُّوا ، وَإِذَا حَدَّثْتُمْ فَأَوْجِزُوا ، فَإِنَّ مَعَ الْإِكْثَارِ يَكُونُ الْإِهْذَارُ^(١) ، وَمَوْتَ عَاجِلٌ خَيْرٌ مِنْ ضَنْئِ آجِلٍ ، وَمَا بِكَيْتٍ مِنْ زَمَانٍ إِلَّا دَهَانِي بَعْدَهُ زَمَانٌ ، وَرَبَّمَا شَجَانِي مَنْ لَمْ يَكُنْ أَمْرُهُ عَنَانِي ، وَمَا عَجِبْتُ مِنْ أُحْدُوثةٍ إِلَّا رَأَيْتُ بَعْدَهَا أُعْجُوبَةً ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَشْجَعَ الْقَوْمِ الْعَطُوفُ ، وَخَيْرُ الْمَوْتِ تَحْتَ ظِلَالِ السِّيُوفِ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا رُويَةَ لَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَلَا فِيمَنْ إِذَا عُوْتِبَ لَمْ يُعْتَبِ^(٢) ، وَمَنْ

الناس من لا يُرْجى خيره ، ولا يخاف شره ، فَبَكَوْهُ ^(١) خير من دَرَّه ،
وعقوقه خير من برّه ، ولا تُبَرِّحوا في حُبكم ، فإنه من برّح في حب ، آل ذلك إلى
قبيح بغض ، وكم قد زارني إنسان وزرته ، فانتقلب الدهر بنا فَبُرِّتَه ^(٢) ، واعلموا
أن الحكيم سليم ، وأن السيف كلیم ، إني لم أمت ولكن هرمت ، ودخلتني ذلة
فسكت ، وضعف قلبي فَأَهْتَرْتُ ^(٣) ، سالمكم ربكم وحياكم .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٥٥)

٤٢ - وصية الحرث بن كعب لبنيه

وأوصى الحرث بن كعب بنيه فقال :

« يا بَنِيَّ قَدْ أَتَى عَلَيَّ مِائَةٌ وَسِتُونَ سَنَةً ، مَا صَاحَتْ يَمِينِي غَادِرًا ، وَلَا
قَنَعْتُ لِنَفْسِي بِخُلَّةٍ ^(٤) فَاجِرًا ، وَلَا صَبَوْتُ بِابْنَةِ عَمٍّ وَلَا كَنَنَةٍ ^(٥) ، وَلَا بُحْتُ
لصديقٍ بسراً ، وَلَا طَرَحْتُ عَنْ مُوسِمَةِ قِنَاعًا ، وَلَا بَقِيَ عَلَى دِينِ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ
- وروى : علي دين شعيب - من العرب غيري وغير تميم بن مرة ، وأسد بن
خزيمة ، فموتوا على شريعتي ، واحفظوا وصيتي ، وإلهكم فاتقوا ، يكفكم ما أهمكم ،
ويصلح لكم حالكم ، وإيّاكم ومعصيته ، فَيُجِلْ بِكُمْ الدَّمَارَ ، وَيُوحِشْ مِنْكُمْ الدِّيَارَ ،
كونوا جميعاً ولا تفرّقوا ، فتكونوا شيعاً ، وَبُرُّوا قَبْلَ ^(٦) أَنْ تُبَزَّوْا ، فموت في عزٍّ
خير من حياة في ذلٍّ وعجزٍّ ، وكل ما هو كائن كائن ، وكل جمع إلى تباين ، والدهر

[١] بكأت النابتة بكنا قل لبنيها . [٢] باره : حرّبه . [٣] اغتر بالفم ذهاب العقل من كبر أو
مرض أو حزن وقد اهتر بهومتهتر بفتح التاء شاد وتيل اهتر بالبناء للمجهول . [٤] الخلة : الصداقة المختصة لا خلل
فيها تكون في عفاف وفي دطارة (والخلة أيضا الصديق للدكر والأنثى والواحد والجمع) . [٥] الكنة :
امرأة الابن أو الأخ جمعه كنان . [٦] بزّه : سلبه ، وفي النثر من عزّ برّ ، أي من غاب سلب .

صَرْفَان ، صَرْف بلاء ، وصَرْف رضاء ، واليوم يومان ، يوم حَبْرَة ، ويوم عَبْرَة ،
والناس رجلان ، رجل لك ، ورجل عليك ، زوَّجوا النساء الأَكْفَاء ، وإلَّا
فانتظروا بهن القضاء ، وليكن أطيب طيبهن الماء ، وإياكم وَالْوَرَهَاء ^(١) ، فإنها
أدوأُ الداء ، وإن وَلدها إلى أفن ^(٢) يكون ، لا راحة لقاطع القرابة ، وإذا اختلف
القوم أمكنوا عدوهم ، وآفة العدو اختلاف الكلمة ، والتفضل بالحسنة ، يقي
السيئة ، والمكافأة بالسيئة دخول فيها ، وعمل السوء يزيل النعماء ، وقطيعة الرحم تورث
الهم ، وانتهاك الحرمة ، يزيل النعمة ، وعقوق الوالدين يُعقِب النكد ، ويخرب
البلد ، وَيَحَقِّق العدد ، والإسراف في النصيحة ، هو الفضيحة ، والحقْد يمنع الرِّفْد ،
ولزوم الخطيئة ، يعقب البلية ، وسوء الدعة ، يقطع أسباب المنفعة ، والضغائن
تدعو إلى التباين ، يَا بَنِي ، إني قد أكلت مع أقوام وشربت ، فذهبوا وَغَبَرَتْ ،
وَكَأَنِّي بِهِمْ قَدْ لَحِقْتُ ، ثم قال :

أكلت شيبابي فأفنيه	وأبليت بعد دهور دهورا
ثلاثة أهلين صاحبتهم	فبادوا وأصبحت شيخا كبيرا
قليل الطعام ، عسير القيام	قد ترك الدهر خطوي قصيرا
أبيت أراعي نجوم السماء	أقلبُ أمرى بطونا ظهورا

(شرح ابن أبي الحديد : ٤ : ١٥٤)



[١] المكافأة : من وره كفرح : حتى فهو أورره .

[٢] ضعف الرأي والعقل .

الباب الثاني

الخطبة والوصايا

في

عصر صدر الإسلام

خطبة النبي صلى الله عليه وسلم

٤٣ - أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إِنَّ الرَّأْيَ (١) لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، وَاللَّهِ لَوْ كَذَّبَتْ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَّبَتْكُمْ ،
وَلَوْ غَرَّرْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا غَرَّرْتُكُمْ ، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ خَاصَّةٌ ، وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةٌ ، وَاللَّهُ لَتَمُوتُنَّ سَيِّئًا نَامُونَ ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا
تُسْتَبْقِظُونَ ، وَلَتَحَاسِبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ ، وَلَتَجْزَوُنَّ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا ، وَبِالسُّوءِ
سُوءًا ، وَإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدًا ، أَوْ لِنَارٍ أَبَدًا » .

(السيرة الحلبية ١ : ٢٧٢ ، والكمال لان الأثير ٢ : ٢٧)

٤٤ خطبته يوم فتح مكة

وقف على باب الكعبة ثم قال : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ ، أَلَا كُلُّ مَأْثُورَةٍ ^(١) أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدْعَى ، فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ ، إِلَّا سِدَانَةَ ^(٢) الْبَيْتِ ، وَسِقَايَةَ الْحَاجِّ ، أَلَا وَقَتْلُ الْخَطَا مِثْلُ الْعَمْدِ بِالسُّوْطِ وَالْعَصَا ، فِيهِمَا الدِّيَةُ مُغْلَظَةٌ ، مِنْهَا أَرْبَعُونَ خَلِيفَةً ^(٣) فِي بَطُونِهَا أَوْلَادُهَا ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنْ اللَّهُ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتَعَظُمَهَا ^(٤) بِالْآبَاءِ ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تَرَابٍ ، ثُمَّ تَلَا : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُهُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الْآيَةَ . يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ (أَوْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ) مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ قَالُوا خَيْرًا ، أَخُ كَرِيمٌ ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، قَالَ : أَذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ .»

(تاريخ الطبري ٣ : ١٢٠ ، وإعجاز القرآن ص ١١٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٢١ ،

وسيرة ابن هشام ٢ : ٢٧٣)

٤٥ — خطبة له عليه الصلاة والسلام

« أَيُّهَا النَّاسُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا قَدْ كُتِبَ ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا قَدْ وَجَبَ ، وَكَأَنَّ الَّذِي نُشَيِّعُ مِنَ الْأَمْوَاتِ سَفَرُهُ ، عَمَّا قَابِلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ، نَبِؤُهُمْ أَجْدَانُهُمْ ، وَنَأْكُلُ مِنْ تَرَائِمِهِمْ . كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ ، وَنَسِينَا كُلَّ وَاعِظَةٍ ، وَأَمِنَّا كُلَّ جَائِحَةٍ ^(٥) ، طُوبَى ^(٦) لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ ، طُوبَى لِمَنْ أَنْفَقَ مَالًا أَكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَجَالَسَ أَهْلَ الْفِقْرِ وَالْحِكْمَةِ ، وَخَالَطَ أَهْلَ

[١] المكرمة . [٢] خدمه الكعبة . [٣] الحلقه : الحامل من الياقوت . [٤] تعظم : تكبر .

[٥] الجوح : الإهلاك والاستئصال كالاجتياح . [٦] مؤنث أظلم ، والمسنى والمير وشجرة و

الذل والمسكنة، طُوبَى لِمَنْ زَكَتْ وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ، وَطَابَتْ سَرِيرَتُهُ،
وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ، طُوبَى لِمَنْ أَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ
قَوْلِهِ، وَوَسِعَتُهُ السُّنَّةُ، وَلَمْ تَسْتَهْوِهِ الْبِدْعَةُ . (صح الأعمش ١ : ٢١٣)

٤٦ — خطبة له عليه الصلاة والسلام

« أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَوَبُوا إِلَى رَبِّكُمْ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا، وَبَادِرُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ
قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا، وَصَلُّوا الَّذِي بِيَدَيْكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ بِكَثْرَةِ ذِكْرِكُمْ لَهُ، وَكَثْرَةِ الضَّدْقَةِ
فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، تُرْزَقُوا وَتُوجَرُوا وَتُنَصَّرُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ
اقْتَرَضَ عَلَيْكُمْ الْجُمُعَةَ، فِي مَقَامِي هَذَا، فِي عَامِي هَذَا، فِي شَهْرِي هَذَا، إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ، حَيَاتِي وَمَنْ بَعْدَ مَوْتِي، فَمَنْ تَرَكَهَا وَلَهُ إِمَامٌ، فَلَا جَمَعَ اللَّهُ لَهُ شَمْلَهُ، وَلَا
بَارَكَ لَهُ فِي أَمْرِهِ، أَلَا وَلَا حَجَّ لَهُ، أَلَا وَلَا صَوْمَ لَهُ، أَلَا وَلَا صَدَقَةَ لَهُ، أَلَا وَلَا
بِرَّ لَهُ، أَلَا وَلَا يَوْمٌ أَعْرَابِيٌّ مُهَاجِرًا، أَلَا وَلَا يَوْمٌ فَاجِرٌ مُؤْمِنًا، إِلَّا أَنْ يَقْهَرَهُ
سُلْطَانٌ يَخَافُ سَيْفَهُ أَوْ سَوْطَهُ . (إعجاز القرآن ص ١١٠)

٤٧ — خطبة له عليه الصلاة والسلام

« إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ رُؤُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ
أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، قَدْ أَفْلَحَ
مَنْ زَيَّنَّهُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَدْخَلَهُ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْكُفْرِ، وَاخْتَارَهُ عَلَى مَا سِوَاهُ مِنْ
أَحَادِيثِ النَّاسِ، إِنَّهُ أَصْدَقُ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغُهُ، أَحِبُّوا مَنْ أَحَبَّ اللَّهُ، وَأَحِبُّوا اللَّهَ
مِنْ كُلِّ قَلْبِكُمْ، وَلَا تَمَلُّوا كَلَامَ اللَّهِ وَذِكْرَهُ، وَلَا تَقْسُوا عَلَيْهِ قُلُوبَكُمْ، اعْبُدُوا اللَّهَ

وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ^(١) ، وَصَدَّقُوا صَالِحَ مَا تَعْمَلُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَتَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ بَيْنَكُمْ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

(إعجاز القرآن ص ١١٠)

٤٨ - خطبة له عليه الصلاة والسلام

ومن خطبه أيضا أنه خطب بعد العصر فقال :

« أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ خُلُوعَةٌ ، أَلَا وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظَرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا ، وَاتَّقُوا النَّسَاءَ ، أَلَا لَا يَمْنَعُنَّ رَجُلًا مَخَافَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ إِذَا عَلِمَهُ وَلَمْ يَزَلْ يَخْطُبُ حَتَّى لَمْ تَبْقَ مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا حُمْرَةٌ عَلَى أَطْرَافِ السَّعْفِ فَقَالَ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيهَا مَضَى إِلَّا كَمَا تَقَى مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيهَا مَضَى . »

(إعجاز القرآن ص ١١٣)

٤٩ - خطبته بالخيف

وخطب بالخيف من منى فقال :

« نَصَرَ ^(٢) اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ، ثُمَّ أَذَاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، فَرُبَّ حَامِلٍ فَقِيهِ لَا فَقِيهَ لَهُ ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَقِيهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ ، ثَلَاثٌ لَا يَنْعَلُ ^(٣) عَلَيْهِنَّ قَلْبُ الْمُؤْمِنِينَ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ ، وَالنَّصِيحَةُ لِأَوْلَى الْأَمْرِ ، وَلِزُومُ الْجَمَاعَةِ ، إِنَّ دَعْوَتَهُمْ تَكُونُ مِنْ وَرَائِهِ ، وَمَنْ كَانَ هَمُّهُ الْآخِرَةُ جَمَعَ اللَّهُ شِمْلَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَمَّتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَ هَمُّهُ الدُّنْيَا فَرَّقَ اللَّهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ . »

(إعجاز القرآن ص ١١٢)

[١] التقاة : التقوى . [٢] من النصرة والنصاره ، وهي الحسن .

[٣] غلّ صدره يغلّ كصرب غللاً ، وهو الحقد والضغن .

٥٠ - خطبة له عليه الصلاة والسلام

« أيها الناس ، إن لكم مَمَآلِمَ ^(١) فانتهاوا إلى مَمَآلكم ، وإن لكم نهايةً فانتهاوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين ، أَجَلٍ قد مضى لا يدري ما الله فاعِلٌ فيه ، وَأَجَلٍ باقٍ لا يدري ما الله قاضٍ فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوالذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ ^(٢) ، ولا بعد الدنيا من دارٍ إلا الجنةُ أو النار .
(تهذيب الكامل ١ : ٥ ، إجاز القرآن ١١٠ ، البيان والنبين ١ : ١٦٥ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣١)

٥١ - أول خطبة خطبها بالمدينة

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس فَقَدَّمُوا لأنفسكم ، تَعَلَّمْنَ والله لَيُصْعَقَنَّ أَحَدُكُمْ ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم يقولن له ربه وليس له ترهجان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآيتك مالا ، وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ؟ فليظرن يمينا وشمالا ، فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فن استطاع أن يبق وجهه من النار ، ولو بشق من تمره فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تُجْزَى الحسنةُ عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ^(٣) ، والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته . (سيرة ابن هشام ١ : ٣٠٠)

[١] جمع معلم كذهب ، وهو الأثر يستدل به على الطريق ، والمراد حدود الشريعة المطهرة .

[٢] استعته أعطاه العتي (وهى الرضا والصفح) وطلب إليه العتي .

[٣] ضعف الشيء مثله وضعفاه مثلا ، أو الضعيف المثل إلى ما زاد ، ويقال لك ضعفه يريدون مثليه .

وثلاثة أمثاله لأنه زيادة غير محصورة .

٥٢ - خطبته في أول جمعة جمعها بالمدينة

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره
وأعادي من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً
عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترّة من الرسل ، وقلة من
العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من
الأجل ، من يضع الله ورسوله فقد رشده ^(١) ، ومن يعصهما فقد غوي وفرط ،
وصلّ ضلالاً بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن
يخضع على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ،
ولا أفضل من ذلك نصيحة . ولا أفضل من ذلك ذكراً ، وإن تقوى الله لمن
عمل به على وجل وخافه من ربه . عونٌ صديق على ما تبغون من أمر الآخرة ،
ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السرّ والعلائية ، لا ينوى بذلك إلا
وجه الله . يكن له ذكراً في عاجل أمره . وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء
إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يودّ لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم
الله نفسه ، والله رءوف بالعباد ، والذي صدق قوله ، وأنجز وعده لا خلف
لذلك ، فإنه يقول عز وجل : « مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ ، وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » .
فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السرّ والعلائية ، فإنه من يتق الله يكفر عنه
سيئاته ، ويعظم له أجراً ، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، وإن تقوى الله
يوقى مقته ، ويوقى عقوبته ، ويوقى سُخْطَه ، وإن تقوى الله يبيّض الوجوه ،
ويرضى الربّ ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله ، قد

علمكم الله كتابه ، وَنَهَجَ لَكُمْ سَبِيلَهُ ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ،
فَأَحْسِنُوا كما أحسن الله إليكم ، وَعَادُوا أَعْدَاءَهُ ، وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ
اجْتَبَاكُمْ وَسَمَا كُمْ الْمُسْلِمِينَ ، لِيُنْزِلَ لَكُمْ مِنْ هَلَكٍ عَن بَيْتِنَا ، وَيُخَيِّمَ مِنْ حَيْثُ عَنَّا بَيْنَهُ ،
وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، فَأَكْثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ ، وَأَعْمَلُوا مَا بَعْدَ الْيَوْمِ ، فَإِنَّهُ مَنْ يُصْلِحْ
مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ يَكْفِهِ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ يَقْضِي عَلَى النَّاسِ ،
وَلَا يَقْضُونَ عَلَيْهِ ، وَيَمْلِكُ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا قُوَّةَ
إِلَّا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ . (تاريخ الطبري ٢ : ٢٥٥)

٥٣ . خطبته في حجة الوداع

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور
أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلِّله فلا هادي
له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ،
أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، وأستفتح^(١) بالذي هو خير ،
أما بعد : أيها الناس اسمعوا مني أيين لكم ، فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي
هذا في موقفي هذا . أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، إلى أن تلقوا
ربكم ، كحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بِلَدِكُمْ هَذَا . أَلَا هَلْ بَلَغْتُ ؟
اللهم أشهد ! فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدِّها إلى من ائتمنهُ عليها ، وإن ربا
الجاهلية موضوع ، وإن أول رباً أبداً به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن
دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث
ابن عبد المطلب^(٢) ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السِّدَّانَةِ وَالسَّقَايَةِ ، وَالْعَمْدُ

[١] . الاستفتاح : الافتتاح والاستنصار . [٢] وكان مسترضعاً في بني ليث فقتله بنو هذيل .

قَوَد^(١) ، وَشَبِهَ الْعَمْدَ مَا قُتِلَ بِالْعَصَا وَالْحَجْرِ وَفِيهِ مِائَةٌ بَعِيرٌ ، فَمِنْ زَادَ ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ، ولكنه^(٢) قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تُحَقِّرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا النَّسِيءُ^(٣) زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَإِنْ الزَّمَانُ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَإِنْ عِدَّةُ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ، يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ثَلَاثَةٌ مَتَوَالِيَاتٌ ، وَوَاحِدٌ فَرْدٌ : ذُو الْقَعْدَةِ ، وَذُو الْحِجَّةِ ، وَالْمَحْرَمِ ، وَرَجَبٌ^(٤) الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ ، أَلَا هَلْ بَلَغْتَ ؟
اللهم اشهد !

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقًا ، ولكم عليهنَّ حق ، لكم عليهن
أَلَا يُؤْتِئْنَ فَرَشَكُمْ غَيْرِكُمْ ، وَلَا يُدْخِلُنَّ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ بِيُوتِكُمْ إِلَّا بِإِذْنِكُمْ ،

[١] القود : القصاص ، أى من قتل عمدا يقتل . [٢] ورواية الكامل لابن الأثير : «إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه يطاع فيما سوى ذلك ، وقد رضى بما تحمرون من أعمالكم » .
[٣] أى تأخير حرمة شهر إلى آخر ، وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا إذا جاء شهر حرام ، وهم عاربة أو ربيعة أو لخم ، وحرموا مكانه شهراً آخر فيحلون الحرم ، ويحرمون صفاً ، فإن احتاجوا أحلوه وحرموا ربيعة أو لخم ، وهكذا حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها ، وكانوا يعتدون في التحريم بمجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة ، وأول من أحدث ذلك حنادة بن عوف الكلابي كان يقوم على جبل في الموسم فينادى : إن آهنتكم قد أحلت لكم الحرم فأحلوه ، ثم ينادى في القائل : إن آهنتكم قد حرمت عليكم الحرم . فحرموه - زيادة في الكفر ، أى كفر آخر ضممه إلى كفرهم . ليواطئوا أى يوافقوا عدة الأشهر الأربعة المحرمة ، وكانوا ربما زادوا في عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليقتسح لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حراماً أيضاً ، ولذا نص على العدد المبين في الكتاب والسنة ، وكان وقت حجهم يختلف من أجل ذلك ، وكان في السنة التاسعة التي حج فيها أبو بكر بالناس في ذي القعدة ، وفي حجة الوداع في ذي الحجة ، وهو الذي كان على عهد إبراهيم الخليل ومن قبله من الأنبياء ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام « إن الزمان قد استدار . . . الخ » - راجع تفسير الألوسي ج ٣ ص ٣٠٥
[٤] قالوا في تلبية رجب وشعبان رجبان للتليب .

ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن^(١) وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان^(٢) لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد ! فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده ، كِتَابَ اللَّهِ ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلُّكم لِآدَمَ ، وآدمُ من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد ! قالوا نعم . قال فليبلغ الشاهد الغائب .

أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا يجوز لو ارث وصية ، ولا يجوز وصية في أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر^(٣) ، من ادعى إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل^(٤) ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(البيان والتبيين : ٢ : ١٥ ، العقد المفيد : ٢ : ١٣٠ ، إيجاز القرآن : ١١١ ، شرح ابن أبي الحديد : ٤١ : ٤ ، تاريخ الطبري : ٣ : ١٦٨ ، الكامل لابن الأثير : ٢ : ١٤٦ ، سيرة ابن هشام : ٢ : ٣٩٠)

[١] العصل : الخيس والنصيبي . [٢] جمع عانة من عان ، أى خضع وذل ، والعانى : الأسير . [٣] وللعاهر : أى الرانى ، أى لاحق له فى النسب ولا حظ له فى الولد ، وإنما هو لصاحب الفراش ، أى لصاحب أمّ اولد وهو زوجها أو مولاها ، وهو كقوله الآخر : له التراب ، أى لاشئ له .

[٤] الصرف : التوبة والعدل العدية ، وقيل الصرف القيمة والعدل للثل ، وأصله فى المدينة يقال : لم يقبلوا منهم صرفاً ولا عدلاً ، أى لم يأخذوا منهم دية ولم يقتلوا بقتيلهم رجلاً واحداً ، أى طلبوا منهم أكثر من ذلك ، ثم جعل بعد فى كل شئ حتى صار مثلاً فيمن لم يؤخذ منه الذى يجب عليه وألزم أكثر منه .

٥٤ -- خطبته في مرض موته

عن الفضل بن عباس قال : جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت إليه فوجدته مَوْعُوكًا قد عَصَبَ رأسه ، فقال خذ بيدي يا فضل ، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ، ثم قال ناد في الناس ، فاجتمعوا إليه ، فقال :

« أما بعد : أيها الناس فإني أحمدُ إليكم الله الذي لا إلهَ إلا هو ، وإنه فدنا مني خُفُوقٌ^(١) من بين أظهركم ، فمن كنتُ جلدتُ له ظهرًا ، فهَذَا ظَهْرِي فَلَيْسَتْ قَدِ^(٢) منه ، ومن كنتُ شتمتُ له عرضًا . فهَذَا عِرْضِي فَلَيْسَتْ قَدِ منه ، ومن أخذت له مالًا فهذا مالي فليأخذ منه ، ولا يَخْشَ الشَّخْنَاءَ مِنِّي قَبِيلِي ، فإنها ليست من شأني ، أَلَا وَإِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ مَنْ أَخَذَ مِنِّي حَقًّا إِنْ كَانَ لَهُ ، أَوْ حَلَّلَنِي فَلَقِيْتُ رَبِّي وَأَنَا طَيِّبُ النَّفْسِ ، وَقَدْ أَرَى أَنْ هَذَا غَيْرُ مُعْنٍ عَنِّي حَتَّى أَقُومَ فِيكُمْ مَرَارًا . »

ثم نزل فصلي الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقاتته الأولى ، فادعى عليه رجل بثلاثة دراهم ، فأعطاه عوضها ، ثم قال : « أيها الناس ، من كان عنده شيء فليؤدِّهِ وَلَا يَظَلْ فُضُوحُ الدُّنْيَا ، أَلَا وَإِنْ فَضُوحُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ فَضُوحِ الآخِرَةِ » ثم صلى على أصحاب أحدٍ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ ، ثم قال : « إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده ، فبكي أبو بكر ، وقال : فدينناك بأنفسنا وآبائنا . »

(تاريخ الطبري ٢ : ١٩١ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٥٤) .

[١] خفق النجم يخفق خفوقاً غاب والظائر طار والليل أكثره . [٢] فليقتص (بن القواد) وهو القصاص ، أماد القاتل بالقتيل قتله به ، واستنقاد المالك سأله أن يقيد القاتل بالقتيل .

خطب يوم السقيفة

لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فقالوا نُؤَلَّى هذا الأمر بعد محمد عليه الصلاة والسلام سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ، وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض ، فلما اجتمعوا قال لابنه أو بعض بني عمه ، إني لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم كلامي ، ولكن تَلَقَّ مني قولي فَأَسْمِعْهُمْهُ ، فكان يتكلم ويحفظ الرجل قوله : فيرفع صوته ، فيسمع أصحابه :

٥٥ - خطبة سعد بن عبادة

فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« يا معشر الأنصار ، لكم سابقة في الدين ، وفضيلة في الإسلام ، ليست لقبيلة من العرب ، إن محمداً عليه الصلاة والسلام لبث بضعة عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وَخَلَعَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْتَانِ ، فَمَا آمَنَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا رَجَالٌ قَلِيلٌ ، وَمَا كَانُوا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَنْعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَلَا أَنْ يُعْزُوا دِينَهُ ، وَلَا أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ضَيْماً مُعْثَوْا بِهِ ، حَتَّى إِذَا أَرَادَ بِكُمْ الْفَضِيلَةَ سَاقَ إِلَيْكُمْ الْكِرَامَةَ ، وَخَصَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ ، فَرَزَقَكُمْ اللَّهُ الْإِيمَانَ بِهِ وَرَسُولَهُ ، وَالْمَنْعَ لَهُ وَالْأَصْحَابَةَ ، وَالْإِعْزَازَ لَهُ وَلِدِينِهِ ، وَالْجِهَادَ لِأَعْدَائِهِ ، فَكُنْتُمْ أَشَدَّ النَّاسِ عَلَى عَدُوِّهِ مِنْ غَيْرِكُمْ ، حَتَّى اسْتَقَامَتِ الْعَرَبُ لِأَمْرِ اللَّهِ طَوْعًا وَكَرْهًا ، وَأَعْطَى الْبُعَيْدُ الْمَقَادَةَ صَاحِرًا دَاخِرًا ^(١) ، حَتَّى أَمْخَنَ ^(٢) اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا لِرَسُولِهِ بِكُمْ الْأَرْضَ ، وَدَانَتْ بِأَسْيَافِكُمْ لَهُ الْعَرَبُ ، وَتَوَفَاهُ اللَّهُ وَهُوَ عَنْكُمْ رَاضٍ ، وَبِكُمْ قَرِيرٌ عَيْنٍ ، اسْتَبَدُّوا بِهَذَا الْأَمْرِ دُونَ النَّاسِ ، فَإِنَّهُ لَكُمْ دُونَ النَّاسِ »

[١] صاغرا ذليلا : من دخر كنع وفرح دخورا ودخرا بالتحريك .

[٢] 'أَمْخَنَ' فلانا : أومنه ، والمراد أخضع .

فأجابوه بأجمعهم أن قد وُفِّقَتَ في الرَّأْيِ ، وَأَصْبَتَ في القَوْلِ ، ولَنْ نَعْدُوَ ما رَأَيْتَ ، نُؤَلِّيكَ هذا الأَمْرَ ، وأتى عمرَ الخَبْرُ ، فأقبلَ إلى أبي بكرٍ فقال : « أما علمتَ أنَّ الأنصارَ قد اجتمعوا في سقيفةِ بني ساعدة ، يريدون أن يولوا هذا الأَمْرَ سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ ؟ وَأَحْسَنُهُمْ مَقَالَةً من يقول : مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْ فُرَيْشٍ أَمِيرٌ » ففضيا مسرعين نحوهم ، فلقيا أبا غبيدةَ بنَ الجراحِ فمَاشَوْا إِلَيْهِمْ ثَلَاثَتُهُمْ ، فجاءوا وهم مجتمعون فقال عمر : أتيناكم وود كُنتَ زَوَيْتَ (١) كلاماً أردت أن أقوم به فيهم ، فلما أن دُفِعتَ إليهم ذهبْتَ لِأَبْتَدِئُ المَنْطِقَ . فقال لى أبو بكر : رَوَيْدًا حَتَّى أَتَكَلِّمَ ، ثُمَّ انطِقْ بَعْدُ بما أَحْبَبْتَ ، فنطق . فقال عمر : فما نِئى كُنتَ أردت أن أقوله إلا وقد أتى به أوزادُ عليه .

٥٦ - خطبة أبي بكر رضى الله عنه

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا رَسولًا إلى خَلْقِهِ ، وشَهِيدًا على أُمَّتِهِ ، لِيَعْبُدُوا اللهَ وَيُوحِّدُوهُ ، وهم يَعْبُدُونَ من دُونِهِ آلِهَةً شَتَّى ، وَيَزْعُمُونَ أَنها لَهُم عِنْدَهُ شَافِعَةٌ ، وَلَهُم نَافِعَةٌ ، وَإِنما هِيَ من حَجَرٍ مَنحوتٍ ، وَخَشَبٍ مَنجورٍ (٢) ، ثُمَّ قرَأَ : « وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمُ ولا يَنْفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ هُوَ لَأَن شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ، وَقَالُوا ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى » فَعَظَّمَ على العَرَبِ أن يَتْرَكُوا دِينَ آبائِهِمْ ، نَخَصَّ اللهُ المَهاجِرِينَ الأَوَّلِينَ من قومِهِ بِتَصَدِيقِهِ ، وَالإِيْمانِ بِهِ ، وَالْمُواساةِ لَهُ ، وَالصَبْرِ مَعَهُ ، على شِدَّةِ أَذى قومِهِم لَهُمْ ، وَتَكْذِيبِهِم إِيَّاهُمْ :

[١] زواه يزويه جمعه ، والمراد أعددت . ورواية العفد المرید (٢ : ٢٠٤) زورت كلامي مسمى وزور الشيء حسنه وقومه ، والمراد أيضا هيأت وأعددت . [٢] النحر : نحت الخشب .

وكلُّ الناس لهم مخالفٌ زارٍ^(١) عليهم ، فلم يَسْتَوْحِشُوا لِقَلَّةِ عِدَدِهِمْ ، وَشَنَفَ^(٢) الناس لهم ، وَإِجْمَاعِ قَوْمِهِمْ عَلَيْهِمْ ، فَهَمُّ أَوْلَى مَنْ عَبَدَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ ، وَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ، وَهَمُّ أَوْلِيَاؤِهِ وَعَشِيرَتِهِ ، وَأَحَقُّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَلَا يَنَازِعُهُمْ ذَلِكَ إِلَّا ظَالِمٌ ، وَأَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَنْ لَا يُنْكَرُ فَضْلُهُمْ فِي الدِّينِ ، وَلَا سَابِقَتُهُمْ الْعَظِيمَةُ فِي الْإِسْلَامِ ، رَضِيَكُمْ اللَّهُ أَنْصَارًا لِدِينِهِ وَرَسُولِهِ ، وَجَعَلَ إِلَيْكُمْ هِجْرَتَهُ وَفِيكُمْ جَلَّةُ أَرْوَاجِهِ وَأَصْحَابِهِ ، فَيَسَّ بَعْدَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ عِنْدَنَا بِمَنْزِلَتِكُمْ ، فَنَحْنُ الْأَمْرَاءُ ، وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ ، لَا تُفْتَاتُونَ بِمَشُورَةٍ وَلَا تُقْضَى دُونِكُمْ الْأُمُورُ »

« هذه رواية الطبري لتلك الخطبة ، وأوردها غيره بنص آخر ، وهاك »

٥٧ - نص آخر لخطبة أبي بكر يوم السقيفة

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : نحن المهاجرون ، أوَّلُ الناس إسلامًا ، وأكرمهم أحسابًا ، وَأَوْسَطُهُمْ دَارًا ، وَأَحْسَنُهُمْ وَجُوهًا ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ وِلَادَةً فِي الْعَرَبِ ، وَأَمْسَهُمْ رَحِمًا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَسَامَنَا قَبْلَكُمْ ، وَقَدَّمْنَا فِي الْقُرْآنِ عَلَيْكُمْ ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ » فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين ، وَشُرَكَائُنَا فِي النَّفْسِ^(٣) . وَأَنْصَارُنَا عَلَى الْعَدُوِّ ، أَوْيْتُمْ وَوَأَسَيْتُمْ ، جُزَاؤَكُمْ اللَّهُ خَيْرًا ، فَنَحْنُ الْأَمْرَاءُ ، وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ ، لَا تَدِينُ الْعَرَبُ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ فَرِيشٍ ، فَلَا تَنْفَسُوا^(٤) عَلَى إِخْوَانِكُمْ مَا مَنَحَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ . »

(العقد الفريد ٢ : ١٣٠ - ٢٠٤ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٣ ، البيان والنبين ٣ : ١٤٧)

[١] زرى عليه زراية عابه . [٢] شنف له كمرح أبعسه وتكره فهو شنف .
[٣] العيبة والحراج . [٤] نفس عليه بحير (كمرح) حسده ، ونفس عليه الشيء بماسة لم يره أهلاه .

٥٨ - خطبة الحباب بن المنذر

ثمَّ قام الحُباب بن المنذر بن الجموح فقال :
« يا معشر الأنصار : املكوا عليكم أمركم ، فإن الناس في فيئِكُمْ وفي
ظلكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ، ولن يصدّر الناس إلا عن رأيكم ،
أنتم أهل العزِّ والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ،
وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ،
وينتقض عليكم أمركم ، فإن أبي هؤلاء إلا ماسمعتم ، فإنا أمير ومنهم أمير .

٥٩ - خطبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

فقال عمر : « هيهات لا يجتمع اثنان في قرن ^(١) ، والله لا ترضى العربُ
أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت
النبوة فيهم ، وتولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجةُ
الظاهرة ، والسلطان المبين ، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ، ونحن أولياؤه
وعشيرته إلا مدلٍ بباطل ، أو متجانف ^(٢) لاثمٍ ، أو متورط في هلكة ؟ »

٦٠ - خطبة أخرى للحباب بن المنذر

فقام الحباب بن المنذر ، فقال :

« يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه ،
فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا عليكم ما سألتوه ، فأجلوهم عن
هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحقُّ بهذا الأمر منهم ،

فإنه بأسيا فكم دان لهذا الدين من دان ، ممن لم يكن يدِين ؛ أنا جُذَيْلها
المُحَكَّك ، وَعُذَيْتُهَا المُرَجَّب (١) ، أما والله لئن شتتم لنعيدنها جَدَعَةً (٢) .

فقال عمر : إذن يقتلك الله ، قال : بل إياك يقتل ، فقال أبو عبيدة :
يا معشر الأنصار : إنكم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدّل وغير .

٦١ - خطبة بشير بن سعد

فقام بشير بن سعد - أبو النعمان بن بشير - فقال :
« يا معشر الأنصار ، إنا والله لئن كُنَّا أولي فضيلة في جهاد المشركين ،
وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ،
فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عَرَضًا ، فإنَّ
الله وليُّ المِنَّةِ علينا بذلك ، ألا إن محمدًا صلى الله عليه وسلم من قريش ، وقومته
أحقُّ به وأولى ، وإيم الله لا يراني الله أنزعهم هذا الأمر أبدًا ، فاتقوا الله ولا
تخالفوهم ولا تنازعوهم » .

فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأَيُّهما شتتم فبايعوا ، فقالا
لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما
في النار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا
ينبغي له أن يتقدّمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك ، أبسط يدك نبايعك ، وقام
الناس إليه فبايعوه .
(تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٧ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٥٨)

[١] الجذيل : تصغير الجذل (بالكسر) ، وهو أصل الشجرة ، وعود ينصب للإبل الجري لتحمك به وتترس ،
والمحكك الذي تحمك به ، والمديق تصغير المدق (بالفتح) ، وهو النخلة ، والمرجب الذي جعل له رجة ، وهي
دعامة تبنى حولها من الحجارة ، وذلك إذا كانت النخلة كريمة وطالت تخوفوا عليها أن تقهر من الرياح
العواصف ، والتصغير هنا يراد به التكبير والتعظيم ، وهو مثل ، والمراد أنه رجل يستشق برأيه وعقله
[٢] الجذعة : الشابة الفتية ، يريد الحروب والمارات .

خطب أبي بكر الصديق

رضي الله عنه

٦٢ - خطبته يوم قبض الرسول صلى الله عليه وسلم

دخل أبو بكر الصديق رضوان الله عليه ، على النبي عليه الصلاة والسلام وهو مُسَجَّى^(١) بثوب ، فكشف عنه الثوب ، وقال :

« بأبي أنت وأمي ! طِبْتَ حَيًّا ، وَطِبْتَ مَيِّتًا ! وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة ، فَمَظُمْتَ عن الصفة ، وَجَلَلْتَ عن البكاء ، وَخَصَّصْتَ حتى صرت مسلاة^(٢) ، وَعَمَمْتَ حتى صرنا فيك سَوَاءً^(٣) ، ولولا أن موتك كَانَ اختياراً منك^(٤) ، لَجُدْنَا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نَهَيْت عن البُكَاء ، لَأَنفَدْنَا عليك ماء الشُّعُونِ^(٥) ، فَأَمَا مَا لَا نَسْتَطِيع نَفِيَهُ عَنَا ، فَكَمَدُّهُ وَإِدْنَانُ^(٦) ، يَتَخَالَفَانِ وَلَا يَبْرَحَانِ . اللهم فَأَبْلِغْهُ عَنَا السَّلَامَ ، اذْكَرْنَا يَا مُحَمَّدُ عِزَّكَ رَبِّكَ ، وَانكُنْ مِنْ بَالِكَ ، فَلَوْلَا مَا خَلَّفْتَ مِنَ السَّكِينَةِ لَمْ نُقِمِّ لِمَا خَلَّفْتَ مِنَ الْوَحْشَةِ ، اللَّهُمَّ أَبْلِغْ نَبِيكَ عَنَا ، وَاحْفَظْهُ فِينَا ! »

ثم خرج إلى الناس وهم في شديد غمراتهم ، وعظيم سكراتهم ، فخطب خطبة قال فيها :
« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً

[١] تمجبة الميت : تطيبه . [٢] خمر الشيء من باب قدح خصوصاً فهو خاص : خلاف عم ، مثل اختص (وكلا الفعلين يستعمل متمدياً ولازماً) ، والمعنى إنك يا رسول الله قد صرت بموتك مسلاة للناس ، فإنك مع ما اخصصت به من مناقب السوة قد نزل بك الموت ، فللعباد فيك أسوة حسنة .
[٣] أي عمت مصيبتك جميع المسلمين فصرنا نحن وقرابتك سواء في الحزن عليك والفرح لفقدك .
[٤] يشير إلى قوله عليه السلام : « لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخبر » قالت عائشة : سمعته وقد شخص بصره ، وهو يقول : « في الرقيق الأعلى » فعلمت أنه خير ، فعلمت أنه لا يخترنا إذن ، وقلت هو الذي كان يحدتنا وهو صحيح . [٥] جمع شأن ، وهو مجرى الدمع إلى العين .
[٦] دنف المريض كمرح ، وأدنف : نعل ، والنمس : دنت للزروب واصفرت .

عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حَدَّث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ... في كلام طويل ، ثم قال : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، وإن الله قد تقدم إليكم في أمره ، فلا تدعوه جزأ ، وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم ، وقبضة إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابه . وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ (١) ، وَلَا يَشْغَلَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ بِمَوْتِ نَبِيِّكُمْ ، وَلَا يَفْتِنَنَّكُمْ عَنْ دِينِكُمْ ، فَمَا جُلُوهُ بِالذِّي تُعْجِزُونَهُ ، وَلَا تَسْتَنْظِرُوهُ فَيَلْحَقَ بِكُمْ»
(زهر الآداب ١ : ٣٥)

٦٣ - خطبته بعد البيعة

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس : إني قد وُلِّيتُ عليكم واست بخيركم ، فإن رأيتوني على حق فأعينوني ، وإن رأيتوني على باطل فسدّدوني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم ، ألا إن أقوام عندي الضعيف حتى أخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحق منه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » .

(العقد المرید ٢ : ١٣٠ ، وإعجاز القرآن ص ١١٥ ، وصيون الاخبار م ٢ : ٢٣٤ ، وتهذيب الكامل ١ : ٦ ، تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٣ ، ابن أبي الحديد م ٢ : ٨ ، وم ٤ : ١٦٧ ، سيرة ابن مشام ٢ : ٤٣٠)

٦٤ - خطبة أخرى له بعد البيعة

وقال الطبري : نادى منادى أبي بكر من بعد الغد من متوفى رسول الله

صلى الله عليه وسلم لِيَتِمَّ بَعثُ أُسَامَةَ : أَلَا لَا يَبْقَيْنَ بِالْمَدِينَةِ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِ أُسَامَةَ إِلَّا خَرَجَ إِلَى عَسْكَرِهِ ، وَقَامَ فِي النَّاسِ ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا أَنَا مِثْلُكُمْ ، وَإِنِّي لَا أُدْرِي لِعَلَّكُمْ سَتَّ كَلَّفُونِي مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُطِيقُ . إِنْ اللَّهُ اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَعَصَمَهُ مِنَ الْآفَاتِ ، وَإِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ ، فَإِنْ أُسْتَقِمْتَ فَتَابِعُونِي ، وَإِنْ زِغْتَ فَقَوِّمُونِي ، وَإِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبِضَ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَطْلُبُهُ بِمِظْلَمَةٍ ^(١) ضَرْبَةَ سَوْطِ فَمَا دُونَهَا ، إِلَّا وَإِنْ لِي شَيْطَانًا ^(٢) يَعتَرِينِي ، فَإِذَا غَضِبْتَ فَاجْتَنِبُونِي ، لِأَوْثَرُ فِي أَشْعَارِكُمْ وَأَبْشَارِكُمْ ^(٣) ، أَلَا وَإِنَّكُمْ تَعْدُونَ وَتَرُوحُونَ فِي أَجَلٍ قَدْ غُيِّبَ عَنْكُمْ عِلْمُهُ ، فَإِنْ أُسْتَعْطِمَ الْأَيُّمِيُّ هَذَا الْأَجَلَ إِلَّا وَأَنْتُمْ فِي عَمَلٍ صَالِحٍ فَافْعَلُوا ، وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، فَسَابِقُوا فِي مَهَلِ آجَالِكُمْ ، مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسَلِّمَ آجَالِكُمْ إِلَى انْقِطَاعِ الْأَعْمَالِ ، فَإِنْ قَوْمًا نَسُوا آجَالَهُمْ ، وَجَعَلُوا أَعْمَالَهُمْ لِغَيْرِهِمْ ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ ، الْجِدُّ الْجِدُّ ، وَالْوَحَا ^(٤) وَالْوَحَا ، وَالنَّجَاءُ ^(٥) وَالنَّجَاءُ ، فَإِنْ وَرَاءَكُمْ طَالِبًا حَيْثَا ^(٦) ، أَجَلًا مَرَّةً سَرِيعًا ، أَحْذَرُوا الْمَوْتَ ، وَأَعْتَبَرُوا بِالْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانَ ، وَلَا تَغْبِطُوا ^(٧) الْأَحْيَاءَ إِلَّا بِمَا تَغْبِطُونَ بِهِ الْأَمْوَاتَ » .

(تاريخ الطبري ٣ : ٢١١ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١٦٧)

[١] الظلّامة . [٢] قال ابن الحديد : وأراد بالشیطان العصب ، ولم يرد أن له شیطاناً من مردة الجن يعتریه إذا غضب ، ولو كان له شیطان من الجن يعتاده وينوبه لكان في عداد المصروعين من الجن ، وما ادّعى أحد على أبي بكر هذا لامن أوليائه ولا من أعدائه . [٣] أبشار جمع بشر ، وهو جمع بشرة وهي ظاهر الجلد . [٤] العجلة والإسراع ، وحى وتوحى : أسرع ، ووحاه : مجله . [٥] الإسراع أيضاً . [٦] سريعاً . [٧] غبطه : تمنى مثل حاله من غير أن يريد زوال نعمته عنه .

٦٥ - خطبة أخرى

قال الطبري : وقام أيضاً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه ، فأريدوا الله
بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحفظ
ظفر^١ ثم به ، وضرائب أديتموها ، وسلف قدمتموه ، من أيام فانية لأخرى باقية ، حين
فقركم وحاجتكم ، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم . أين
كانوا أمس ؟ وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ وأين الذين كان لهم ذكر القتال والغلبة
في مواطن الحروب ؟ قد تضيع بهم الدهر ، وصاروا رمياً ، قد تركت عليهم
القاتل^(١) الخيئات ، وإنما الخيئات للخيئين والخيثون للخيثات ، وأين الملوك
الذين أثاروا الأرض وعمروها ؟ قد بعدوا ، ونسي ذكرهم ، وصاروا كالأشياء ، ألا وإن
الله قد أبقى عليهم التبعات ، وقطع عنهم الشهوات ، ومضوا والأعمال أعمالهم ،
والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خلفاً من بعدهم ، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا ، وإن
أغتررنا كنا مثلهم ، أين الوضاء^(٢) الحسنة وجوههم ، المعجبون بشبابهم ؟ صاروا
تراباً ، وصار ما فرطوا فيه حسرة عليهم ، أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ،
وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم
في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزاً^(٣) ؟ أين من
تعرفون من أبنائكم وإخوانكم ؟ قد انتهت بهم آجالهم ، فوردوا على ما قدموا ،
فخلوا عليه ، وأقاموا للشقوة وللسعادة فيما بعد الموت ، ألا إن الله لا شريك له

[١] القول : في الخير ، والقال والقليل والقالة : في الشر . [٢] الوضاء جمع وضيء وهو الحسن
والنظيف ، وهو أيضاً وضاء بضم الواو وتشديد الضاد ، وجمعه وضاءون . [٣] الصوت الخوي .

ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ، ولا يصرف عنه به سوءاً
إلا بطاعته واتباع أمره ، واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وأن ما عنده لا يُدْرَك
إلا بطاعته ، أما وإنه لا خيرَ بخيرِ بعده النارُ ، ولا شرَّ بِشَرِّ بعده الجنةُ .
(تاريخ الطبری ٣ : ٣١١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١٦٧)

٦٦ - خطبة له

ومن خطبه : « حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ، ثم قال :
« إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك ، فرغ الناس رءوسهم ، فقال :
مالكُم يأمـرُ شـرَّ النَّاسِ ؟ إنكم لـطـعـانـون عـجـابـون ، إن من الملوك من إذا ملك زهدَهُ
الله فيما في يده ، ورغبةً فيما في يَدَيْ غـيـره ، وانـتـقـصـه شـطـرَ آجـله ، وأشـرَبَ قـلـبـه
الإشفاق ، فهو يُحْسِدُ على القاتل ، وَيَتَسَخَطُ ^(١) الكثير ، وَيَسَامُ الرخاء ، وتنقطع
عنه لذة البهاء ، لا يستعمل العبرة . ولا يسكنُ إلى الثقة ، فهو كالدرهم القسبي ^(٢) ،
وَالسَّرَابُ الخادع ، جَذِلُ الظاهر ، حزين الباطن ، فَإِذَا وَجِبَتْ ^(٣) نفسه ،
وَنَضَبَ عمره ، وضحا ظِلُّهُ ^(٤) ، حاسبه الله فأشدَّ حسابَهُ ، وَأَفْلَّ عَفْوُهُ . ألا إن
الفقراء هم المرحون ، وخير الملوك من آمن بالله ، وحكم بكتاب الله وسنة نبيه
صلى الله عليه وسلم ، وإنكم اليوم على خلافة نبوة ، ومفرق محجة ، وسرور
بمدي مُلْكَكَ عَضُوضاً ^(٥) ، وأمة شعاعاً ^(٦) ، وَدَمًا مُفَاحاً ^(٧) فَإِنْ كَانَتْ لِلْبَاطِلِ
تَرْوَةٌ ^(٨) ، ولأهل الحق جَوْلَةٌ ، يعفولها الأثرُ ، وتموت السنن ، فالزموا المساجد ،

[١] تسخط عطاءه : استقله ولم يقم منه موقماً . [٢] الزائف . [٣] مات ووجبت الشمس
عابت ، والعين غارت . [٤] مات أيضاً . [٥] الموض : ما يعص عليه ، وملاك عضوض فيه
عسف وظلم . [٦] متبرقة . [٧] أفاحه : أراقه . [٨] ومة .

واستشيروا القرآن ، والزموا الجماعة ، وليكن الإبرام بعد التشاور ، والصفقة بعد طول التناظر ، أي بلاد خرسنة^(١) إن الله سيفتح عليكم أقصاها كما فتح أديانها .

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٣ ، والبيان والتهيين ٢ : ٢١ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٣١ ، وصح الأعرشى ١ : ٢١٣ ، وزهر الآداب ١ : ٣٩) .

٦٧ - خطبة له

وخطب أيضاً فقال :

« الحمد لله ، أحمده ، وأستعينه ، وأستغفره ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، وأستهدى الله بالهدى ، وأعوذ به من الضلالة والردى ، ومن الشك والعمى ، من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فإن تجد له وليا مرشداً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، يُعزُّ من يشاء ، ويذلُّ من يشاء بيده الخير ، وهو على كلِّ شئ قدير ؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، إلى الناس كافة ، رحمة لهم ، وحجة عليهم ، والناس حينئذ على شرِّ حال في ظلمات الجاهلية ، دينهم بدعة ، ودعوتهم فرية ، فأعزَّ الله الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وألَّفَ بين قلوبكم أيها المؤمنون ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، فأطيعوا الله ورسوله ، فإنه قال عزَّ وجل : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » .

أما بعد أيها الناس : إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كلِّ أمر ، وعلى كلِّ حال ، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم ، فإنه ليس فيما دون الصدق من

[٢] خوسنة : بلد بالروم ، والمراد بلاد الروم .

الحديث خير، مَنْ يَكْذِبْ يَفْجُرْ ، وَمَنْ يَفْجُرْ يَهْلِكْ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفَخْرَ ، وَمَا فَرُّوا
من خلق من التراب ، وَإِلَى التراب يعود؟ هو اليوم حى ، وَغَدًا مَيِّتٌ ، فاعملوا
وَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ فِي الْمَوْتِ ، وَمَا أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ فَرَدُّوهُ إِلَى اللَّهِ ، وَقَدِمُوا
لَأَنْفُسِكُمْ خَيْرًا تَجِدُوهُ مُحْضَرًا ، فَإِنَّهُ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ
مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا
بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ » . فاتقوا الله عباد الله وراقبوه ،
واعتبروا بمن مضى قبلكم ، وأعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم ، وَالْجَزَاءُ بِأَعْمَالِكُمْ :
صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ، إِلَّا مَا غَفَرَ اللَّهُ ، إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ؛ فَأَنْفُسَكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، وَالْمُسْتَعَانَ
اللَّهُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ ، أَفْضَلَ
مَا صَلَّيْتَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ ، وَزَكَّنَّا بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، وَأَلْحَقْنَا بِهِ ، وَأَحْسَرْنَا فِي
زُجْرَتِهِ ، وَأَوْرَدْنَا حَوْضَهُ ، اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى طَاعَتِكَ ، وَانصُرْنَا عَلَى عَدُوِّكَ .

(العقد الفريد ٢ : ١٣١)

٦٨ - خطبة له

وَخُطِبَ أَيْضًا ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَأَنْ تُدْنُوا عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَأَنْ تَخْلِطُوا الرِّغْبَةَ
بِالرَّهْبَةِ ، وَتَجْمَعُوا الْإِلْحَافَ بِالسَّأَلَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ أَثْنَى عَلَى زَكَرِيَّا وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ فَقَالَ :
« إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » .
ثم أعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم ، وَأَخَذَ عَلَى ذَلِكَ مَوَاقِفَكُمْ ،
وَعَوَّضَكُمْ بِالْقَلِيلِ الْفَانِي الْكَثِيرَ الْبَاقِي ، وَهَذَا كِتَابُ اللَّهِ فِيكُمْ لَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ ،

ولا يُطْفَأُ نوره ، فَثِقُوا بقوله ، وَانْتَصِحُوا^(١) كتابه ، واستبصروا فيه ليوم
الظلمة ، فإنه خلقكم لعبادته ، وَوَكَل بِكُمْ الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون^(٢) .

(العقد الفريد ٢ : ١٣١ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٢)

٦٩ - خطبة له في ندب الناس لفتح الشام

وَخَطِبَ يندب الناس لفتح الشام ، فحمد الله وَأثنى عليه ، وصلى عَلَى رسوله ، وقال :
« أَلَا إِنَّ لِكُلِّ أَمْرٍ جَوَامِعَ ، فَمَنْ بَلَغَهَا فَهِيَ حَسْبُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ لَهِ كِفَاةَ
اللَّهِ ، عَلَيْهِمُ بِالْجِدِّ وَالْقَصْدِ ، فَإِنَّ الْقَصْدَ أَبْلَغُ ، أَلَا إِنَّهُ لَا دِينَ لِأَحَدٍ إِلَّا بِإِيمَانٍ لَهُ ،
وَلَا أَجْرَ لِمَنْ لَا حِسْبَةَ لَهُ ، وَلَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ ، أَلَا وَإِنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ
الثَّوَابِ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، كَمَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَحِبَّ أَنْ يُخَصَّ بِهِ ، هِيَ
التَّجَارَةُ الَّتِي دَلَّ اللَّهُ عَلَيْهَا ، وَنَجَّى بِهَا مِنَ الْخِزْيِ ، وَأَلْحَقَ بِهَا الْكِرَامَةَ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » (تاريخ الطبري ٤ : ٢٠)

٧٠ - خطبة له في الأنصار

ووصل إليه مال من البحرين ، فسأوى فيه بين الناس ، فغضبت الأنصار ،
وقالوا له فَضَّلْنَا ، فقال أبو بكر صدقتم ، إن أردتم أن أفضلكم صار ما عملتموه للدنيا ،
وإن صبرتم كان ذلك لله عز وجل ، فقالوا : والله ما عملنا إلا لله تعالى وانصرفوا ،
فرقى أبو بكر المنبر ، فحمد الله وَأثنى عليه ، وصلى عَلَى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ : إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَقُولُوا إِنَّا أَوْيْنَاكُمْ فِي ظِلِّ آلِنَا ، وَشَاطَرْنَاكُمْ
فِي أَمْوَالِنَا ، وَنَصَرْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا ، قَلْتُمْ ، وَإِنْ لَكُمْ مِنَ الْفَضْلِ مَا لَا يُحْصِيهِ الْعَدَدُ ،

[١] انتصح فلان : قبل النصيحة ، يقال : انتصحني فأني لك ناصح . [٢] ورد عقب ذلك « ثم
اعلموا عباد الله أنكم تفتنون وترواحون في أجل قد غيب عنكم علمه . . . الخ » مما أورده ابن جرير
الطبري في الخطبة التي أسلفنا ذكرها ص ٦٨

وإن طال به الأمدُ ، فنحن وأنتم كما قال طفيلُ الغنويُّ :
 جزى الله عنا جعفرًا حين أزلقتُ بنا نملنا في الواطئين فزلتِ
 أبوا أن يملّونا ، ولو أن آمنّا تلاقى الذي يلقون منا مللتِ
 هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ظلال بيوت أدفات وأظلتِ
 (زهر الآداب ١ : ٢٩)

وصاياها

٧١ - وصيته لأسامة بن زيد

وأوصى أسامة بن زيد وجيشه حين سيره إلى أبيه^(١) ، فقال :
 « يا أيها الناس : قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا^(٢)
 ولا تغدروا^(٣) ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ،
 ولا تقمروا^(٤) نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مشمرة ، ولا تدبحوا شاة
 ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كلة^(٥) ، وسوف تمرثون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في
 الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية
 فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء ، فاذكروا اسم الله عليها ،
 وتلقون أقواماً قد فخصوا أوساط رءوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب ،
 فاخفقوهم^(٦) بالسيف خفقا ، اندفعوا باسم الله^(٧) . »

(تاريخ الطبري ٣ : ٢١٣ ، والكمال لابن الأثير ٢ : ١٦٢)

[١] موضع بقرب مؤتة بمشارك الشام قتل به والده زيد بن حارثة . [٢] غلّ يغلّ كنصر : حان
 كأغلّ ، وغلّ صدره يغلّ كصرب غليلاً وغلّا حقد . [٣] غدوره وغدر به كنصر وضرب وسمع .
 [٤] قعر النحلة : كنع فانتعرت قطعها من أصلها فسقطت . [٥] المأكلة ما أكل .
 [٦] خفقه ضربه بشيء عريض . [٧] وأورد العقد الفريد هذه الوصية وذكر أنها وصية من

٧٢ - وصيته لعمر و بن العاص والوليد بن عقبة

وشيع عمرو بن العاص والوليد بن عقبة مَبْعَثَهُمَا عَلَى الصَّدَقَةِ ، وَأَوْصَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِوَصِيَّةٍ وَاحِدَةٍ :

« اتق الله في السرِّ والعَلَانِيَةِ ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ، وَيُعْظِمِ لَهُ أَجْرًا ، فَإِنْ تَقْوَى اللَّهَ خَيْرٌ مَا تَوَاصَى بِهِ عِبَادُ اللَّهِ ، إِنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ سَبَلَ اللَّهَ ، لَا يَسْمَعُ فِيهِ إِلَّا ذَهَانٌ^(١) وَالتَّفْرِيطُ وَالغَفْلَةُ عَمَّا فِيهِ قَوَامُ دِينِكُمْ ، وَعَصْمَةُ أَمْرِكُمْ فَلَاتَنْ ، وَلَا تَفْتُرْ . »
(تاريخ الخلفاء ٤ : ٢٩)

٧٣ - وصيته لخالد بن الوليد

وقال لخالد بن الوليد : « سر على بركة الله ، فإذا دخلت أرض العدو ، فكن بعيداً من الحملة ، فإنني لا آمن عليك الجولة ، وأستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاء ، ولا تقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات ، فإن في العرب غيرة ، وأقلل من الكلام ، فإن مالك ما وعى عنك ، واقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله في سريرتهم ، وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه . »
(العقد المربد ١ : ٤٠)

٧٤ - وصيته ليزيد بن أبي سفيان

ووصى يزيد بن أبي سفيان حين وجهه لفتح الشام :
« إني قد وليتك لِأَبْلُوكَ وَأَجْرَبَكَ وَأَخْرَجَكَ ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ رَدَدْتُكَ إِلَى عَمَلِكَ وَزِدْتُكَ ، وَإِنْ أَسَأْتَ عَزَلْتُكَ ، فَعَمَلِكَ بِتَقْوَى اللَّهِ ، فَإِنَّهُ يَرَى مِنْ بَاطِنِكَ

[١] الأذهان : الدامنة والنش .

مثل الذى يَرَى من ظاهرك ، وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له ، وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله ، وقد وليتك عمل خالد^(١) فإياك وعيبة^(٢) الجاهلية ، فإن الله يُبغِضُها وَيُبغِضُ أهلها ، وإذا قَدِمْتَ عَلَى جنودك فأحسِنْ مُخَبَّاتِهِمْ ، وابدأهم بالخير ، وَعِدْهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجِزْ ، فإن كثير الكلام يُدسِي بَعْضُهُ بَعْضاً ، وَأَصْلِحْ نَفْسَكَ يَصْلُحْ لَكَ الناس ، وَصَلِّ الصَّلَوَاتِ لِأوقَاتِهَا بِإِتِمَامِ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَالتَّخَشُّعِ فِيهَا ، وإذا قَدِمَ عَلَيْكَ رُسُلُ عَدُوِكَ فَأَكْرِمِهِمْ وَأَقِلِّ لُبَّيْهِمْ حتى يَخْرُجُوا مِنْ عَسْكَرِكَ وَهم جاهلون به ، وَلَا تُرِيْهِمْ^(٣) فَيَرَوْا خَلَّكَ ، وَيَعْلَمُوا عِلْمَكَ ، وَأَنْزِلْهم فِي ثَرْوَةِ عَسْكَرِكَ ، وَامْنَعْ مِنْ قِبَلِكَ مِنْ مَحَادِثِهِمْ ، وَكن أنت المتولَّى لِكَلَامِهِمْ ، وَلَا تَجْعَلْ سِرَّكَ لِعَلَانِيَتِكَ ، فَيَخْتَلِطُ أَمْرُكَ ، وَإِذَا اسْتَشْرْتَ فَاصْذُقِ الْحَدِيثَ تُصَدِّقِ الْمَشُورَةَ ، وَلَا تَخْزُنْ عَنِ الْمَشِيرِ خَبْرَكَ ، فَتُؤْتِي مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ ، وَاسْمُرْ بِاللَّيْلِ فِي أَصْحَابِكَ تَنَاتِكَ الْأَخْبَارَ ، وَتَنْكَشِفْ عِنْدَكَ الْأَسْتَارَ ، وَأَكْثِرْ حَرَسَكَ وَبَدِّدْهم فِي عَسْكَرِكَ ، وَأَكْثِرْ مَفْاجَأَتِهِمْ فِي مَحَارِسِهِمْ بغير علم منهم بك ، فَمَنْ وَجَدْتَهُ غَفَلَ عَنْ مَحْرَسِهِ ، فَأَحْسِنِ أَدَبَهُ وَعَاقِبَهُ فِي غير إفراط ، وَعَقِّبْ^(٤) بَيْنَهُم بِاللَّيْلِ ، وَاجْعَلِ النَّوْبَةَ الْأُولَى أَطْوَلَ مِنَ الْأَخِيرَةِ ، فَإِنَّهَا أَيْسَرُهَا لِقَرَبِهَا مِنَ النَّهَارِ ، وَلَا تَخَفْ مِنَ عَقُوبَةِ الْمُسْتَحَقِّ ، وَلَا تَلِجَنَّ فِيهَا ، وَلَا تُسْرِعْ إِلَيْهَا ، وَلَا تَخْذَ لَهَا مُدْقِعاً^(٥) ، وَلَا تَغْفُلْ عَنِ أَهْلِ عَسْكَرِكَ فَتُفْسِدَهُ ، وَلَا تَجَسَّسْ عَلَيْهِمْ فَتَفْضَحَهُمْ ، وَلَا

[١] هو خالد بن سعيد بن العاص ، وكان أبو بكر سيره إلى الشام أولاً ثم عرله . [٢] العيبة : الكبر والفخر ، وفي الحديث : (إن الله قد وضع عنكم عيبة الجاهلية) يعنى الكبر . [٣] من الريث وهو الإبطاء . [٤] عقبه تعقباً : جاء بعقبه . [٥] لا تخذ : من خذا تخذو كنصر وخذى يخذى كرضى إذ استرضى ، والمدقع : الهارب أو أشد الهزلى هزلاً ، أى ولا تضعف ، ولا تبين أمام تنفيذ العقوبة وهو مقابل لقوله : ولا تسرع إليها .

يكشِف الناس عن أسرارهم ، واكتفِ بعلايتهم ، ولا تجالس العيَّائين
وجالس أهل الصدق والوفاء ، واصدُقِ اللِّقاء ، ولا تجبُنْ فيجبُنْ الناس ، واجتنب
الغُلُول^(١) ، فإنه يقربُ الفقر ، ويدفع النصر ، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم
في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له . (تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ١٩٦)

٧٥ - وصيته لعمر رضى الله عنهما عند موته

« إني مستخلفك من بعدى ، وموصيك بتقوى الله ، إن لله عملاً بالليل
لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدَّى
الفرِيضة ، فإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في
الدنيا و ثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما
خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ،
وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً ، إن الله ذكر أهل الجنة
فذكرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إني أخاف
ألا أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر
حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء ، وذكر آية
الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، ولا يتمنى على الله غير الحق ،
ولا يلتقى بيده إلى التهلكة ، فإذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب إليك
من الموت وهو آتيك ، وإن ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض إليك من
الموت ولست بمعجز الله . »

(البيان والبيان ٢ : ٢٢ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٠٨ ، والعقد الفريد ١ : ٢٩٨)

٧٦ - كلامه لعبد الرحمن بن عوف في علته التي مات فيها

وقال عبد الرحمن بن عوف :

دخلت يوماً على أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، في علته التي مات فيها ، فقلت له : أراك بارئاً يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «أما إني على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد على من وجعي ، إني ولّيت أموركم خيركم في نفسى ، فكلكم وريم أنفقه أن يكون له الأمر من دونه ، والله أتتخذن نضائده^(١) الدّيباج وستور الحرير ، واتألمنّ النوم على الصوف الأذربى^(٢) ، كما يألّم أحدكم النوم على حسك السعدان^(٣) ، والذي نفسى بيده ، لأن يقدّم أحدكم فتضرب عنقه في غير حدّ خير له من أن يخوض غمرات الدنيا ، يا هادى الطريق جرّت إنما هو والله الفجر أو البجر^(٤) .»

فقلت خفض عليك يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا يهيبضك^(٥) إلى ما بك ، فوالله ما زلت صالحاً مصلحاً ، لا تأسى على شيء فاتك من أمر الدنيا ، ولقد تخلّيت بالأمر وحدك فما رأيت إلاّ خيراً .

(تهذيب الكامل ٦: ١ ، وإيجاز القرآن ١١٦ ، والعقد المرید ٢: ٢٠٨ ، وتاريخ الطبرى ٤: ٥٢)

[١] جمع نضيدة ، وهى الوسادة وما ينضد من المتاع . [٢] نسبة إلى أدريجان .

[٣] نبت كثير الحسك ، تأكله الإبل فتسمن عليه ويبدوها غذاء لا يوجد في غيره ، وى المثل : مرعى

ولا كلسدان . [٤] الشر والأمر العظيم . يقول : إن انتظرت حتى يعىء لك الفجر والطريق أبصرت

فصدك ، وإن خبطت الظلام ، وركبت المشواء ، هجما بك على المكروه ، وضرب ذلك مثلاً لغمرات الدنيا

وتحبيرها أهالها . [٥] هاس العظم : كره بعد الجبور .

خطب عمر بن الخطاب

رضى الله عنه

٧٧ - خطبته حين ولي الخلافة

لما استخلف عمر رضى الله عنه صعد المنبر فقال : « إني قائل كلمات فأمنوا عليهن » فكان أول منطق نطق به حين استخلف ، قال :
« إنما مثل العرب مثل جمل أنف^(١) اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده
وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٥٤ ، والكمال لابن الأثير ٢ : ٢٠٨)

٧٨ - خطبة أخرى

وقال ابن قتيبة فى عيون الأخبار : لما ولى عمر صعد المنبر فقال :
« ما كان الله ليرانى أرى نفسى أهلاً لمجلس أبى بكر ، ثم نزل عن مجلسه
مرّاه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « اقرءوا القرآن تعرّفوا به ، واعملوا به
تكونوا من أهله ، إنه لم يبلغ حَقُّ ذى حَقِّ أن يطاع فى معصية الله ، ألا وإنى
أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة والى اليتيم ، إن أستغنيتُ عفت ، وإن افتقرت
أكلت بالمعروف ، تَقَرَّم^(٢) البهمة^(٣) الأعرابية ، القضم لا الخضم^(٤) .

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٤ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٣٢)

[١] أنف البعير : اشكى أسفه من البرة فهو أنف وأنف ، وى الحديث : « المؤمن كالجلل الأنف إن قيد انقاد ، وإن استنجح على صخرة استناخ » وذلك لالوجع الذى به فهو دلول مفاد .
[٢] تَقَرَّم الصبيّ أكل أكلا ضعيفاً ، وذلك وى أول أكله . [٣] البهمة أولاد العسان والمعز والبقر .
[٤] القضم : الأكل بأطراف الأسنان والخضم الأكل بأقصى الأضراس .

٧٩ - خطبة له

وذكر الطبري أنه خطب فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكر الناس بالله عز وجل واليوم الآخر ، ثم قال :
« يا أيها الناس : إني قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم استضلاعاً^(١) بما ينوب من مهمم أموركم ، ما توليت ذلك منكم ، ولكني عمرٌ مهمماً مخزناً انتظاراً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف أخذها ، ووضعها أين أضعها ، وبالسير فيكم كيف أسير ، فربى الاستعان ، فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأيدته .
(تاريخ الطبري ٥ : ٢٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٣ ص ١٢٤)

٨٠ - خطبة له

ثم خطب فقال :

« إن الله عز وجل قد ولاني أمركم ، وقد علمت أنفع ما بحضوركم لكم ، وإني أسأل الله أن يعينني عليه ، وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره ، وأن يبلهمني العدل في قسمكم كالذي أمرني به ، وإني امرؤ مسلم وعبد ضعيف ، إلا ما أعان الله عز وجل ، وإن يغير الذي وليت من خلافتكم من خلقي شيئاً إن شاء الله ، إنما العظمة لله عز وجل ، وليس للعباد منها شيء ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر تغير منذ ولي ، أعقل الحق من نفسي ، وأتقدم وأبين لكم أمري ، فأيا رجل كانت له حاجة ، أو ظلم مظلمة . أو عتب علينا في خلق فليؤذني ، فإنما أنا رجل منكم ، فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانياتكم وحرُماتكم وأعراضكم ، وأعطوا الحق من

[١] الذي وكتب اللغة « اضطلاع » يقال هو مضطلع بهذا الأمر ، أي قوى عليه .

أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلى ، فإنه ليس بيني وبين أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلى صلاحكم ، عزيز على عنتكم ، وأنتم أناسٌ عامتكم حصر في بلاد الله ، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع ، إلا ما جاء الله به إليه ، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة ، وأنا مستول عن أمانتي وما أنا فيه ، ومطلع على ما بحضرتي بنفسى إن شاء الله ، لا أكله إلى أحد ، ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للامة ، ولست أجعل أمانتي إلى أحد سواهم إن شاء الله . (تاريخ الطبرى ٢٦٠:٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٣ : ١٢٤)

٨١ - خطبة أخرى

وقال ابن عبد ربه : وخطب إذ ولى الخلافة : صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أيها الناس ، إني داع فأمّنوا ، اللهم إني غليظ فليّن لأهل طاعتك ، بموافقة الحق ، ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك ، وأهل الدعارة^(١) والنفاق ، من غير ظلم منى لهم ، ولا اعتداء عليهم ، اللهم إني شحيح ، فسخني في نوائب المعروف ، قصداً من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة ، واجعلني أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهم ارزقني خفض الجناح ، ولين الجانب للمؤمنين ، اللهم إني كثير الغفلة والنسيان ، فألهمني ذكرك على كل حال ، وذكّر الموت في كل حين ، اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك ، فارزقني النشاط فيها ، والقوة عليها ، بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك

[١] العجور .

وتوفيقك ، اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى ، وذكر المقام بين يديك ، والحياة منك ، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عنى ، والمحاسبة لنفسى ، وإصلاح الساعات ، والحذر من الشبهات ، اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهم له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت ، إنك على كل شىء قدير .

(العقد الفريد ٢ : ١٢٣)

٨٢ - خطبة له

وخطب أيضاً ، فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي ﷺ :

« أيها الناس ، إن بعض الطمع فقر ، وإن بعض اليأس غنى ، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون ، وتأمّلون ما لا تُدرّكون ، وأنتم مؤجّلون فى دار غرور ، كنتم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحي ، فمن أمرنا شيئاً أخذ بسريرته ، ومن أعلن شيئاً أخذ بعلايته ، فأظهرنا لنا أحسن أخلاقكم ، والله أعلم بالسرائر ، فإنه من أظهر لنا قبيحاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً ، واعلموا أن بعض الشحّ شعبة من النفاق ، فأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يؤقّ شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون . أيها الناس أطيبوا مشواكم ، وأصلحوا أموركم ، واتقوا الله ربكم ، ولا تلبسوا نساءكم القباطى^(١) فإنه إن لم يشفّ فيه يصفّ . أيها الناس : إني لو ددت أن أنجو كفافاً لالى ولا على ، وإني لأرجو إن عمّرت فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله ، وأن لا يبقى أحد من المسلمين وإن كان فى بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله

[١] القباطى (بضم الأول وتشديد الآخر ، أو القباطى بفتح الأول وتخفيف الآخر) ثياب كتان بيض رفاق كانت تعمل فى مصر جمع قبطية (بضم القاف نسبة إلى القبط على غير قياس وقد تكسر) وشفّ الثوب يشفّ رقّ حكي ما تحته ، ونوله : فإنه يصفّ أى ما تحته من أجزاء البدن ويحدها لرقته وطرارته .

وإن لم يُعمل إليه نفسه ، ولم يُنصب إليه بدنه ، وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ، ولقليل في رفق خيرٌ من كثير في عنف ، والقتل حتف من الختوف ، يصيب الأبرَّ والفاجر ، والشهيد من احتسب نفسه ، وإذا أراد أحدكم بعيراً فليعتمد إلى الطويل العظيم فليضربه بعضاً ، فإنَّ وجده حديد الفؤاد فليشتره » .

(تاريخ الطبري ٥ : ٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ١٢٥)

٨٣ - خطبة له

وخطب أيضا فقال :

« إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ، ولا رغبة منكم فيه إليه ، فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئا ، لنفسه وعبادته ، وكان قادرا أن يجعلكم لأهون خلقه عليه ، فجعل لكم عامة خلفه ، ولم يجعلكم لشيء غيره ، وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمته ظاهرة وباطنة ، وحملكم في البرِّ والبحر ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ، ثم جعل لكم سمعا وبصرا ، ومن نعم الله عليكم نعم عمَّ بها نبي آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ ، خاصة إلا لو قسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها ، وفدحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مستخلفون في الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم ، فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم إلا أئمان ، أمة مستعبدة للإسلام وأهله ، يتجرون لكم ، تستصفون^(١) معايشهم وكدائحهم ورشع جباههم ، عليهم المثونة

[١] استصفى الشيء : أخذ منه صفوه .

ولكم المنفعة ، وأمة تنتظر وقائع الله وَسَطَوَاتِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، قَدْ مَلَأَ اللهُ
فُلُوبَهُمْ رَعْبًا ، فَلَيْسَ لَهُمْ مَعْقِلٌ يَلْجِئُونَ إِلَيْهِ ، وَلَا مَهْرَبٌ يَتَّقُونَ بِهِ ، قَدْ دَهَمَّتْهُمْ
جُنُودُ اللهِ عِزَّ وَجَلَّ ، وَنَزَلَتْ بِسَاحَتِهِمْ مَعَ رِفَاعَةِ^(١) الْعَيْشِ ، وَاسْتِفَاضَةَ الْمَالِ ،
وَتَتَابَعِ الْبِعُوثِ ، وَسَدِّ الشُّغُورِ بِإِذْنِ اللهِ فِي الْعَافِيَةِ الْجَلِيلَةِ الْعَامَةِ ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ هَذِهِ
الْأُمَّةُ عَلَى أَحْسَنِ مِنْهَا مَذْكَانَ الْإِسْلَامِ ، وَاللهُ الْمَحْمُودُ مَعَ الْفَتْوحِ الْعِظَامِ فِي كُلِّ
بَلَدٍ ، فَإِعْسَى أَنْ يَبْلُغَ مَعَ هَذَا شُكْرُ الشَّاكِرِينَ ، وَدِكْرُ الذَّاكِرِينَ ، وَاجْتِهَادُ
الْمُجْتَهِدِينَ ، مَعَ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا يَحْصِي عِدْدَهَا ، وَلَا يَقْدِرُ قَدْرَهَا ، وَلَا يَسْتَطَاعُ
أَدَاءَ حَقِّهَا ، إِلَّا بِعَوْنِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ وَلَطْفِهِ ، فَنَسْأَلُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الَّذِي
بَلَّغَنَا هَذَا ، أَنْ يَرْزُقَنَا الْعَمَلَ بِطَاعَتِهِ ، وَالْمَسَارِعَةَ إِلَى مَرْضَاتِهِ ، فَذَكُرُوا عِبَادَ اللهِ
بِلَاءِ اللهِ عِنْدَكُمْ ، وَاسْتَمُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، وَفِي مَجَالِسِكُمْ مَثْنَى وَفُرَادَى ، فَإِنَّ اللهَ
عَرَّوَجَلٌ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : « أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ
بِأَيَّامِ اللهِ » وَقَالَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ
مُسْتَضْعَنُونَ فِي الْأَرْضِ » فَلَوْ كُنْتُمْ إِذْ كُنْتُمْ مُسْتَضْعَفِينَ مُحْرَمِينَ خَيْرَ الدُّنْيَا
عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ الْحَقِّ تَوَمَّنُونَ بِهَا ، وَتَسْتَرِيحُونَ لِيهَا ، مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ وَدِينِهِ ، وَتَرْجُونَ
بِهَا الْخَيْرَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، لَكَانَ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَشَدَّ النَّاسِ مَعِيشَةً ، وَأَعْظَمَ
النَّاسِ بِاللَّهِ جِهَالَةً ، فَلَوْ كَانَ هَذَا الَّذِي ابْتَلَاكُمْ بِهِ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ حِظٌّ فِي دُنْيَاكُمْ ،
عَبْرًا أَنَّهُ ثِقَةٌ لَكُمْ فِي آخِرَتِكُمْ ، الَّتِي إِلَيْهَا الْمَعَادُ وَالْمُنْقَابُ ، وَأَنْتُمْ مِنْ جَهْدِ الْمَعِيشَةِ
عَلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ ، كُنْتُمْ أَحْرِيَاءَ أَنْ تَشِحُّوا عَلَى نَصِيبِكُمْ مِنْهُ ، وَأَنْ تُظْهِرُوهُ عَلَى

[١] رَفَعُ عَيْشِهِ كَكْرَمِ رِفَاعَةٍ : ائْتِج ، وَالرِفَاعَةُ وَالرِفَاعِيَّةُ : سَعَةُ الْعَيْشِ وَالْحَسْبُ وَالسَّعَةُ .

غيره ، فَبَيْلَهُ^(١) ما أنه قد جمع لكم فضيلة الدنيا ، وكرامة الآخرة ، أولمن شاء أن يجمع له ذلك منكم ، فأذكرم الله الحائل بينكم وبين قلوبكم ، إلا ما عرفتم حق الله فَعَمِلْتُمْ له ، وَقَسَرْتُمْ أنفسكم على طاعته ، وجمعت مع السرور بالنعيم خوفاً لزلواها ولا تتقالها ، ووجلاً من تحويلها ، فإنه لا شيء أسلب للنعمة من كفرانها ، وإن الشكر أمن للغير ، ونماء للنعمة ، واستجلاب للزيادة ، وهذا الله على من أمركم ونهيكم واجب . (تاريخ الطبري ٥ : ٢٧ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٣ ص ١٢٥)

٨٤ - خطبة له

وخطب أيضاً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس : من أراد أن يسأل عن القرآن ، فليأت أبي بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض ، فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني . فإن الله جعلني له خازناً وقاسماً ، إني بادئ بأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهن ، ثم المهاجرين الأوائل ، الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، أنا وأصحابي ، ثم بالأنصار الذين تبوءوا الدار والدين من قبلهم ، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء ، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء ، فلا يلومن رجل إلا من أخاه راحلته ، إني قد بقيت فيكم بعد صاحبي ، فابتليت بكم ، وابتليت بي ، وإني لن يحضرنى من أموركم شيء فأكله إلى غير أهل الجزاء والأمانة ، فلئن أحسنوا لأحسن إليهم ، ولئن أساءوا ولأنككن بهم » . (العقد الفريد ٢ : ١٣٢)

[١] بلة : اسم فعل بمعنى دع واترك ، فما بعدها منصوب ، ومصدر بمعنى الترك ، فما بعدها مجرور بالاضافة ، واسم مرادف لكيف فما بعدها مرفوع بالابتداء .

٨٥ - خطبة له

وخطب أيضاً فقال :

« الحمد لله الذي أعزَّنَّا بالإسلام ، وأكرمنا بالإيمان ورحمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ، فهدانا به من الضلالة ، وجمعنا به من الشتات ، وألَّف بين قلوبنا ، ونصرنا على عدونا ، ومكَّن لنا في البلاد ، وجعلنا به إخواناً متحابين ، فاحمدوا الله على هذه النعمة ، واسألوه المزيد فيها والشكر عليها ، فإن الله قد صدَّقكم الوعد ، بالنصر على من خالفكم ، وإياكم والعمل بالمعاصي ، وكفَّر النعمة ، فقاما كفر قوم بنعمة ، ولم ينزِعوا إلى التوبة ، إلا سلبوا عزِّهم ، وسُلِّطَ عليهم عدوُّهم ، أيها الناس : إن الله قد أعزَّ دعوة هذه الأمة ، وجمع كلمتها ، وأظهر فلجها ^(١) ونصرها وشرفها فحمدوه عباد الله على نعمه ، واشكرووه على آلائه ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين »
(المد الفريد ٢ : ١٣٢)

٨٦ - خطبة له

وخطب أيضاً فقال :

« أيها الناس : إنه أتى عليَّ حين ، وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد به الله وما عنده ، ألا وإنه قد خيلَ إليَّ أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس ، ألا فأريدوا الله بقراءتكم ، وأريدوه بأعمالكم ، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل ، وإذ النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، فقد رُفِعَ الوحي ، وذهب النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنما أعرَّفكم بما أقول لكم ، ألا فمن أظهر لنا خبراً ظننَّا به خيراً ، وأثنينا به عليه ، ومن أظهر لنا شراً ظننَّا به شراً ، وأبغضناه

عليه ، أَقْدَعُوا^(١) هذه النفوس عن شهواتها ، فَإِنِهَا طُلَعَةٌ^(٢) وَإِنكُمْ إِلَّا تَقْدَعُوهَا
تَنْزِعُ بِكُمْ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ ، إِنَّ هَذَا الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ^(٣) ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ
وَبِيءٌ^(٤) ، وَتَرَكُ الْخَطِيئَةَ خَيْرٌ مِنْ مَعَالِجَةِ التَّوْبَةِ ، وَرَبُّ نَظْرَةٍ زَرَعَتْ شَهْوَةً ،
وَشَهْوَةً سَاعَةً أَوْرَثَتْ حَزَنًا طَوِيلًا .

وفى رواية صاحب العقد : « أَلَا وَإِنِّي إِنَّمَا أُبْعَثُ عَمَالِي لِيَعْلَمُوَكُمْ دِينَكُمْ
وَسُنَّتَكُمْ ، وَلَا أُبْعَثُهُمْ لِيَضْرَبُوا ظُهُورَكُمْ ، وَيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ ، أَلَا مِنْ رَابِهِ شَيْءٌ
مِنْ ذَلِكَ فَلْيَرْفَعَهُ إِلَىَّ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَقْصِنُكُمْ مِنْهُ ، فَقَامَ عَمْرُو بْنُ
الْعَاصِ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتَ عَامِلًا مِنْ عَمَالِكَ ، فَأَدَّبَ رَجُلًا
مِنْ رَعِيَّتِكَ فَضْرَبَهُ ، أَتَقَصُّهُ مِنْهُ ؟ قَالَ نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسُ عَمْرِ بْنِ يَدِهِ لَا أَقْصِنُهُ مِنْهُ ،
فَقَدْ رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْصُ مِنْ نَفْسِهِ^(٥) . »

(الإبان والبيّن ٣ : ٧١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٣٢)

٨٧ - خطبته عام الرمادة

وخطب عام الرمادة^(٦) بالعباس رحمه الله :

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ
إِلَيْكَ ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَتَقَرَّبُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ وَبِقِيَّةِ آبَائِهِ وَكِبَارِ رَجَالِهِ ، فَإِنَّكَ تَقُولُ :
(وَقَوْلُكَ الْحَقُّ) « وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ

[١] قدعه كمنعه : كفه . [٢] نفس طاعة : تكثر التطلع إلى الشيء . [٣] حميد العاقبة .
[٤] وخيم العاقبة . [٥] انظر خطبته صلى الله عليه وسلم رقم ٥٤ ص ٦٠ [٦] في السنة الثامنة
عشرة أصابت الناس مجاعة شديدة بالمدينة وما حولها فكانت تسوق إذا رحمت تراباً كالرماد ، فسمى ذلك العام
عام الرمادة (الطبري ٤ : ٢٢٣)

كَتَزُّ لهُمَا ، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا » فحفظتهما لصلاح أبيهما ، فاحفظ اللهم نبيك في عمه ، اللهم اغفر لنا إنك كنت غفاراً ، اللهم أنت الراعي لا تُهمل الضالَّة ، ولا تدع الكسيرة بمضيعة ، اللهم قد ضرع الصغير ورق الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، اللهم اغثهم بنبيائك ، قبل أن يَقْنَطُوا فَيَهْلِكُوا ، فإنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون «
فما برحوا حتى علقوا الحذاء ، وقلصوا المآزر ، وطفق الناس بالعباس يقولون :
« هنيئاً لك يا ساقى الحرمين » . (العقد الفريد : ١٣٢)

ندب الناس لقتال فارس

كان المثنى بن حارثة الشيباني أمير جيش العراق قدم على أبي بكر بالمدينة يستمده فألفاه مريضاً ، ووصى أبو بكر عمر بالمبادرة إلى إرسال الجيوش معه ، فكان أول ما عمل به عمر ، أن ندب الناس مع المثنى إلى أهل فارس ، قبل صلاة الفجر ، من الليلة التي مات فيها أبو بكر - وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم ، وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم ، وشوكتهم ، وعزهم ، وقهرهم الأمم - وجعل يندبهم ثلاثة أيام فلا ينتدب أحد إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فنذب الناس إلى العراق ، فكان أول مندب أبو عبيد بن مسعود النقي - والد المختار - وتتابع الناس ، وتكلم المثنى بن حارثة فقال :

٨٨ - خطبة المثنى بن حارثة الشيباني

« أيها الناس : لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فانا قد تبججنا^(١) ريف فارس ، وغلبناهم على خير شقى السواد ، وشاطرناهم ونلنا منهم ، واجترأنا من قبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها » .

[١] تبجج : تمكن في المقام والحلول كبحج ، والدار توسطها .

٨٩ - خطبة عمر رضی الله عنه

وقام عمر في الناس فقال :

« إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النُّجعة^(١) ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك ، أين الطُّرءاء^(٢) المهاجرون عن موعود الله ، سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » والله مُظْهِر دِينِهِ ، وَمُعِزِّ نَاصِرِهِ ، وَمَوْلِي أَهْلِ مَوَارِيثِ الْأُمَمِ ، أين عباد الله الصالحون . . . ؟ فلما اجتمع له البعث أمرَ عليهم أولهم ابتداءً^(٣) وهو أبو عبيد وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المَكِيثُ^(٤) الذي يعرف الفرصة والكفَّ » .

(تاريخ الطبري ٤ : ٦٠ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢١١)

٩٠ . خطبة له وقد شيع جيش سعد بن أبي وقاص

وشيع جيش سعد بن أبي وقاص ، حين وجهه لحرب العراق ، فقام في الناس خطيباً فقال :

« إن الله تعالى إنما ضرب لكم الأمثال ، وصرف لكم الأقوال ، ليُخَيِّبَ بها القلوب ، فإنَّ القلوب ميتة في صدورها حتى يُحْيِيهَا اللهُ ، من علم شيئاً فلينتفع به ، وإنَّ للعدل أماراتٍ وتباشيرَ ، فأما الأمارات : فالحياء ، والسخاء ، والهين ، واللين . وأما التباشير : فالرحمة ، وقد جعل الله لكل أمر باباً ، وَيَسِّرَ لكل باب مفتاحاً . فباب العدل الاعتبار ، ومفتاحه الزهد ، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات ،

[١] طاب السكلاء في موضعه . [٢] جمع طاري من طرأ عليهم كمنع أتمام من مكان أو خرج عليهم منه فجأة . [٣] نذب القوم إلى الأمر : دعاهم وحثهم ، وانتدبوا إليه أسرعوا . [٤] الرزين .

والاستعداد له بتقديم الأعمال ، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبّله حق ،
وتأدية الحق إلى كل أحد له حق ، ولا تُصانِع في ذلك أحداً ، واكتف بما
يكفيه من الكفاف ، فإن من لم يكفه الكفاف ، لم يُغنه شيء ، إني بينكم وبين
الله ، وليس بيني وبينه أحد ، وإن الله قد ألزمني دفع الداء عنه ، فأنتهوا شكاتكم
إلينا ، فمن لم يستطع ، فإلى من يُبَلِّغُنَاها ، نأخذ له الحق غير مُتَمَتِّعٍ .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٨٥)

٩١ - خطبته وقد بلغه أن قوماً يفضلونه على أبي بكر

و بلغه أن قوماً يفضلونه على أبي بكر الصديق ، فوثب مُغَضَّباً حتى صعد
المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أيها الناس : إني سأخبركم عنى وعن أبي بكر ، إنه لما توفى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب ، ومنعت شاتها وبعيرها ، فأجمع رأينا كلنا
أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن قلنا له يا خليفة رسول الله : إن رسول الله كان
يقاتل العرب بالوحى والملائكة ، يُمدّه الله بهم ، وقد انقطع ذلك اليوم ، فالزم
بيتك ومسجدك ، فإنه لاطاقة لك بقتال العرب ، فقال أبو بكر : أو كلكم رأيه
على هذا ؟ فقلنا نعم ، فقال : والله لأن أخرج من السماء ، فتخطفنى الطير ، أحب
إلى من أن يكون رأيي هذا ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله وكبره ، وصلى على نبيه
صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل على الناس فقال :

« أيها الناس : من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله
فإن الله حي لا يموت ، أيها الناس : أن أكثر أعدائكم ، وقل عددكم ، ركب
الشیطان منكم هذا المركب ؟ والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ، ولو

كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ، قَوْلُهُ الْحَقُّ ، وَوَعْدَهُ الصِّدْقُ ، بَلْ تَقْدِفِ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ
فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَكَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ
الصَّابِرِينَ ، وَاللَّهُ أَيُّهَا النَّاسُ : لَوْ مَذَّوْنِي عِقَالًا^(١) لَجَاهَدْتَهُمْ عَلَيْهِ ، وَاسْتَعْنَتْ
عَلَيْهِمْ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ مَعِينٍ « ثُمَّ نَزَلَ . (تَهْذِيبُ الْكَامِلِ ١ : ٨)

وصاياہ

٩٢ - وصيته للمجاهدين

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول عند عقد الألوية :
« بِسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ ، وَعَلَى عَوْنِ اللَّهِ ، اَمْضُوا بِتَأْيِيدِ اللَّهِ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ ، وَلِزُومِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ ، فَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ كُفْرٍ بِاللَّهِ ، وَلَا تَعْتَدُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَلَا تَجَبُّنُوا عِنْدَ الْإِقَاءِ ، وَلَا تَمْتَلُوا عِنْدَ الْقُدْرَةِ ، وَلَا تُسْرِفُوا
عِنْدَ الظُّهُورِ^(٢) ، وَلَا تَقْتُلُوا هَرِمًا وَلَا أُمَّرَأَةً وَلَا وِلِيدًا ، وَتَوَقَّوْا قَتْلَهُمْ إِذَا التَّقَى
الزُّحْفَانِ ، وَعِنْدَ شَنْ^(٣) الْغَارَاتِ » . (العقد الفريد ١ : ٤٠)

٩٣ - وصيته لسعد بن أبي وقاص

وصى سعد بن أبي وقاص حين أمره على حرب العراق فقال :
« يَا سَعْدُ سَعْدُ بَنِي وَهَيْبٍ ، لَا يَغْرُنْكَ مِنْ اللَّهِ أَنْ قِيلَ خَالَ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَصَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ
وَلَكِنَّهُ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَبٌ إِلَّا طَاعَتُهُ ،

[١] العقول : زكاة عام من الإبل والغنم ، أو المراد به الحبل مبالغة في الشدد . [٢] العلبة .

[٣] شَنْ الدارة عليهم : صبها من كل وجه .

فالناس شَرِيفُهُمْ وَوَضِيْعُهُمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ سَوَاءٌ ، اللَّهُ رَبُّهُمْ وَهُمْ عِبَادُهُ ، يَتَفَاضِلُونَ بِالْعَافِيَةِ ، وَيَدْرِكُونَ مَا عِنْدَهُ بِالطَّاعَةِ ، فَانظُرِ الْأَمْرَ الَّذِي رَأَيْتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ مِنْذُ بُعِثَ إِلَى أَنْ فَارَقْنَا فَأَلْزَمَهُ ، فَإِنَّهُ الْأَمْرُ ، هَذِهِ عِظَتِي إِيَّاكَ إِنْ تَرَكْتَهَا وَرَغِبْتَ عَنْهَا حَبِطَ عَمَلُكَ ، وَكُنْتَ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٨٤ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٠)

٩٤ - وصيته لسعد بن أبي وقاص أيضا

ولما أراد أن يسرّحه دعاه فقال :

« إني قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتي ، فإنك تقدم على أمر شديد كريبه ، لَا يُخَلِّصُ مِنْهُ إِلَّا الْحَقُّ ، فَمَوِّدُ نَفْسِكَ وَمَنْ مَعَكَ الْخَيْرَ وَأَسْتَفْتِيحُ بِهِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ عَادَةٍ عِتَادًا ^(١) ، فَعَتَادُ الْخَيْرِ الصَّبْرُ ، فَالصَّبْرَ الصَّبْرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ أَوْ نَابَكَ ، يَجْتَمِعُ لَكَ خَشْيَةُ اللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ خَشْيَةَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ فِي أَمْرَيْنِ : فِي طَاعَتِهِ ، وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ ، وَإِنَّمَا أَطَاعَهُ مَنْ أَطَاعَهُ بِبُغْضِ الدُّنْيَا وَحُبِّ الْآخِرَةِ ، وَعِصَاهُ مِنْ عِصَاهِ بِحُبِّ الدُّنْيَا وَبُغْضِ الْآخِرَةِ ، وَلِلْقُلُوبِ حَقَائِقُ يُنْشِئُهَا اللَّهُ إِنْشَاءً ، مِنْهَا السِّرُّ ، وَمِنْهَا الْعِلَانِيَةُ . فَأَمَّا الْعِلَانِيَةُ فَأَنْ يَكُونَ حَامِدُهُ وَذَاؤُهُ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، وَأَمَّا السِّرُّ فَيَعْرِفُ بِظُهُورِ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ وَبِمَحَبَّةِ النَّاسِ ، فَلَا تَزْهَدْ فِي التَّحَبُّبِ ، فَإِنَّ النَّبِيِّينَ قَدْ سَأَلُوا مَحَبَّتَهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَبِيبَهُ ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا بَغْضَهُ ، فَاعْتَبِرْ مَنَزَلَتَكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَنَزَلَتِكَ عِنْدَ النَّاسِ مِمَّنْ يَشْرَعُ مَعَكَ فِي أَمْرِكَ .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٨٥)

٩٥ - وصية أخرى كتبها إلى سعد بن أبي وقاص

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضى الله عنهما ومن معه من الأجناد :

« أما بعد : فَإِنِ آمُرُكَ وَمَنْ مَعَكَ مِنَ الْأَجْنَادِ بِتَقْوَى اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، فَإِن تَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ الْعُدَّةِ عَلَى الْعَدُوِّ ، وَأَقْوَى الْمَكِيدَةِ فِي الْحَرْبِ ، وَآمُرُكَ وَمَنْ مَعَكَ أَنْ تَكُونُوا أَشَدَّ احْتِرَاسًا مِنَ الْمَعَاصِي مِنْكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، فَإِنِ ذُنُوبُ الْجَيْشِ أَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، وَأَنْتُمْ يُنْصَرُّ الْمَسَامُونَ بِمَعْصِيَةِ عَدُوِّهِمْ لِلَّهِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لَنَا بِهِمْ قُوَّةٌ ، لِأَنَّ عِدَدَنَا لَيْسَ كَعِدَدِهِمْ ، وَلَا عُدَّتُنَا كَعُدَّتِهِمْ ، فَإِنِ اسْتَوَيْنَا فِي الْمَعْصِيَةِ ، كَانَ لَهُمُ الْفَضْلُ عَلَيْنَا فِي الْقُوَّةِ ، وَإِلَّا نُنْصَرُّ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِنَا لَمْ نَغْلِبْهُمْ بِقُوَّتِنَا ، فَاعْلَمُوا أَنَّ عَلَيْكُمْ فِي سَيْرِكُمْ حَفَظَةَ مِنَ اللَّهِ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ، فَاسْتَحْيُوا مِنْهُمْ وَلَا تَعْمَلُوا بِمَعَاصِي اللَّهِ وَأَنْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا تَقُولُوا إِنَّا عَدُوٌّ نَا شَرٌّ مِنَّا ، فَلَنْ يُسَلِّطَ عَلَيْنَا ، فَرُبَّ قَوْمٍ سَلِّطَ عَلَيْهِمْ شَرٌّ مِنْهُمْ كَمَا سَلِّطَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ (لَمَّا عَمَلُوا بِمَسَاخِطِ اللَّهِ) كُفَّارُ الْمُجُوسِ ، فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَوْنَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، كَمَا تَسْأَلُونَهُ النَّصَرَ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى ذَلِكَ لَنَا وَلَكُمْ ، وَتَرَفَّقَ بِالْمَسَامِينَ فِي مَسِيرِهِمْ ، وَلَا تَجَشَّمْهُمْ مَسِيرًا يُتَعَبُهُمْ ، وَلَا تُقَصِّرْ بِهِمْ عَنْ مَنَزِلِ يَرْفُقُ بِهِمْ ، حَتَّى يَبْلُغُوا عَدُوَّهُمْ (وَالسَّفَرُ لَمْ يَنْقُضْ قُوَّتَهُمْ) فَإِنَّهُمْ سَاطِرُونَ إِلَى عَدُوِّ مُقِيمٍ ، حَامِي الْأَنْفُسِ وَالْكَرْبِاعِ (١) ، وَأَقِمْ بِنِ مَعَكَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ يَوْمًا وَلَيْلَةً ، حَتَّى تَكُونَ لَهُمْ رَاحَةً يُحْيُونَ فِيهَا

[١] الكرواع من كل شيء طرفه واسم يجمع الخيل .

أَنْفُسَهُمْ ، وَيَرْمُونَ ^(١) أَسْلِحَتَهُمْ وَأَمْتَعَتَهُمْ ، وَنَحَّ مِنْزَلَهُمْ عَنْ قُرَىٰ أَهْلِ الصَّلْحِ وَالذِّمَّةِ ، فَلَا يَدْخُلُهَا مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَّا مَنْ تَشَقَّ بِدِينِهِ ، وَلَا يَرْزَأُ ^(٢) أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا شَيْئًا ، فَإِنْ لَهُمْ حُرْمَةٌ وَذِمَّةٌ ابْتَلَيْتُمْ بِالْوَفَاءِ بِهَا ، كَمَا ابْتُلُوا بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا ، فَمَا صَبَرُوا لَكُمْ فَتَوَلَّوْهُمْ خَيْرًا ، وَلَا تَسْتَنْصِرُوا عَلَىٰ أَهْلِ الْحَرْبِ بِظَلْمِ أَهْلِ الصَّلْحِ ، وَإِذَا وَطِئْتَ أَرْضَ الْعَدُوِّ فَأَذْكُ ^(٣) الْعَيُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْكَ أَمْرُهُمْ ، وَلِيَكُنْ عِنْدَكَ مِنَ الْعَرَبِ ، أَوْ مِنَ أَهْلِ الْأَرْضِ مَنْ تَطْمَئِنُّ إِلَىٰ نَصْحِهِ وَصَدَقِهِ ، فَإِنَّ الْكُذُوبَ لَا يَنْفَعُكَ خَبْرُهُ ، وَإِنْ صَدَقَكَ فِي بَعْضِهِ ، وَالغَاشِ عَيْنَ عَلَيْكَ ، وَلَيْسَ عَيْنًا لَكَ ، وَلِيَكُنْ مِنْكَ عِنْدَ دَنُوكَ مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ أَنْ تُكْثِرَ الطَّلَاعُ ، وَتَبُتَّ السَّرَايَا ^(٤) بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، فَتَقْطَعَ السَّرَايَا أَمْدَادَهُمْ وَمَرَافِقَهُمْ ، وَتَتَّبِعَ الطَّلَاعُ عَوْرَاتِهِمْ ، وَتَنْقَى ^(٥) لِلطَّلَاعِ أَهْلَ الرَّأْيِ وَالْبَأْسِ مِنْ أَصْحَابِكَ ، وَتَخَيَّرَ لَهُمْ سَوَابِقَ الْخَيْلِ ، فَإِنْ لَقُوا عَدُوًّا كَانَ أَوْلَىٰ مَا تَلْقَاهُمُ الْقُوَّةُ مِنْ رَأْيِكَ ، وَاجْعَلْ أَمْرَ السَّرَايَا إِلَىٰ أَهْلِ الْجِهَادِ ، وَالصَّبْرِ عَلَىٰ الْجِلَادِ ، وَلَا تُخْصِ بِهَا أَحَدًا بِهَوًى ، فَتَضِيعَ مِنْ رَأْيِكَ وَأَمْرِكَ ، أَكْثَرَ مِمَّا حَاطَيْتَ بِهِ أَهْلَ خَاصَّتِكَ ، وَلَا تَبْعَثْ طَلِيعَةً ، وَلَا سَرِيَّةً ، فِي وَجْهِ تَتَخَوَّفُ فِيهِ غَلْبَةً ، أَوْ ضَيْعَةً وَنِكَايَةً ، فَإِذَا عَايَنْتَ الْعَدُوَّ ، فَاصْطَمِمْ إِلَيْكَ أَقْصِيكَ وَطَلَاعَكَ وَسَرَايَاكَ ، وَاجْمَعْ إِلَيْكَ مَكِيدَتَكَ وَقُوَّتَكَ ، ثُمَّ لَا تَعَايِنْهُمْ الْمَنَاجِزَةَ ، مَا لَمْ يَسْتَكْرِهْكَ قِتَالُ ، حَتَّىٰ تُبْصِرَ عَوْرَةَ عَدُوِّكَ وَمَقَاتِلَهُ ، وَتَعْرِفَ الْأَرْضَ كُلَّهَا كَعَرَفَةِ أَهْلِهَا ، فَتَصْنَعْ بِعَدُوِّكَ ، كَصَنْعِهِ بِكَ ، ثُمَّ أَذْكُ أَحْرَاسِكَ عَلَىٰ عَسْكَرِكَ ، وَتَيَقِّظُ مِنَ الْبَيَاتِ جُهْدَكَ ، وَلَا تُؤَوِّتِي

[١] رمه يرمه : أصلحه . [٢] رزاه ماله : أصاب منه شيئاً . [٣] أذكي عليه العيون : إذا أرسل عليه الطلائع . [٤] جمع سرية ، وهي من حسنة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة . [٥] تنقاه وانتقاه : اختاره .

بأسير ليس له عَقْدٌ^(١) إلا ضربت عنقه ، اِثْرَهَبَ به عدوُّ الله وعدوك ، والله ولى أمرك ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوِّكم ، والله المستعان .

(العقد المرید ١ : ٤٠)

٩٦ - وصيته للخليفة من بعده

وأوصى الخليفة من بعده ، فقال :

« أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأوّلين خيراً ، أن تعرّف لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأَنْصار خيراً ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئتهم ، وأوصيك بأهل الأَمْصار خيراً ، فإنهم رِذءُ العدوِّ ، وجُباةُ النِّيءِ ، لا تحمل فيهم ، إلا عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنهم أصل العرب ، ومادّة الإسلام ، أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم ، فتردّ على فقرائهم ، وأوصيك بأهل الذمة خيراً ، أن تقاتل من ورأهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً ، أو عن يدٍ وهم صاعغرون ، وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ، ومخافة مقتته ، أن يطّلع منك على ريبة ، وأوصيك أن تخشى الله في الناس ، وتخشى الناس في الله ، وأوصيك بالعدل في الرعية ، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم ، ولا تؤثّر غنيهم على فقيرهم ، فإن ذلك باذن الله سلامة لقلبك ، وحصنٌ لوزرك ، وخير في عاقبة أمرك ، حتى تُفضي من ذلك إلى من يعرف سريرتك ، ويحول بينك وبين قلبك ، وآمرك أن تستد في أمر الله ، وفي حدوده ومعاصيه ، على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذك في أحد رافة حتى تنتهك منه ، مثل ما انتهك من حرمة الله ، واجعل الناس عندك سواء ،

لا تبالي على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والأثرية
والمحابة فيما ولأك الله ، مما أفاء الله على المؤمنين ، فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك
من ذلك ما قد وسعه الله عليك ، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة ،
فإن اقترفت لذنباك عدلاً وعفة عما بسط الله لك ، اقترفت به إيماناً ورضواناً ،
وإن غلبك الهوى ، اقترفت به سخط الله ، وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا
لغيرك في ظلم أهل الذمة ، وقد أوصيتك وحضضتك ونصحتك ، فابتغ بذلك
وجه الله والدار الآخرة ، واخترت من دلائلك ما كُنْتُ دالاً عليه نفسي وولدي ،
فإن عملت بالذم وعظمتك ، وانتهيت إلى الذي أمرت به ، أخذت به نصيباً وافراً ،
وحظاً وافياً ، وإن لم تقبل ذلك ، ولم يهَمْك ، ولم تُنزل معازم الأمور عند الذي
يرضى الله به عنك ، يكن ذلك بك انتقاصاً ، ورأيك فيه مدخولاً ، لأن الأهواء
مُشتركة ، ورأس كل خطيئة إبليس ، وهو داع إلى كل هلكة ، وقد أصلت
القرون السالفة قبلك ، فأوردتهم النار ، ولبئس الثمن أن يكون حظ امرئ وموالاته
عدو الله الداعي إلى معاصيه ، ثم اركب الحق وخض إليه الغمرات ، وكن راعظاً
لنفسك ، أنشدك الله لما ترخمت على جماعة المسلمين ، فأجللت كبيرهم ، ورحمت
صغيرهم ، ووقرت عالمهم ، ولا تضربهم فيذلوها ، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتبغضهم ،
ولا تحرمهم عطاياهم عند محالها فتفقروهم ، ولا تجمروهم^(١) في البعوث ، فتقطع
نسلهم ، ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم ، ولا تغلق بابك دونهم ،
فيا كل قويهم ضعيفهم . هذه وصيتي إياك ، وأشهد الله عليك ، وأقرأ عليك السلام .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٢)

[١] جر الجيش : حبسهم في أرض العدو ولم يقبلهم .

خطب يوم الشورى

بعد دفن عمر اجتمع أهل الشورى ، وهم : عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله - وكان طلحة عائياً - فبدأ عبد الرحمن بن عوف بالكلام ، فقال :

٩٧ - خطبة عبد الرحمن بن عوف

« يا هؤلاء ، إن عندى رأياً ، وإن لكم نظراً ، فاسمعوا تعلموا ، وأجيبوا تفقهوا ، فإن حايياً^(١) خير من زاهق^(٢) ، وإن جرعة من شراب^(٣) بارد ، أنفع من عذب موب^(٤) ، أنتم أئمة يهتدى بكم ، وعلماء يُصدّر^(٥) إليكم ، فلا تفلأوا المدى بالاختلاف بينكم ، ولا تغمدوا السيوف عن أعدائكم ، فتوتروا^(٦) تآركم ، وتؤولتوا^(٧) أعمالكم ، لكل أجل كتاب ، وكل بيت إمام ، بأمره يقومون ، وبنيه يرعون^(٨) ، قلدوا أمركم واحداً منكم ، تمشوا الهوينى ، وتلحّقوا الطلب ، لولا فتنة عمياء ، وضلالة حيراء ، يقول أهلها ما يرون ، وتُحلّهم الحبوكرى^(٩) ، ماعدت نياتكم معرفتكم ، ولا أعمالكم نياتكم ، احذروا نصيحة الهوى ، ولسان الفرقة ، فإن الحيلة فى المنطق أبلغ من السيوف فى السكلم ، علّقوا أمركم رخب الذراع فيما حلّ ، مأمون الغيب فيما نزل ، رضىً منكم وكلكم رضىً ، ومُقتراً^(١٠) »

[١] الخابى من السهام : مايزحف إلى الهدف . [٢] السهم الزاهق : ما جاوز الهدف .
[٣] الشراب والشريب والشروب : ما يشرب . [٤] أصله موبى مسهل عن موبى .
[٥] يرجع . [٦] قال فى اللسان : « دل الأزهرى : هو من الوتر (التآر) يقال : وثررت فلاناً إذا أصبته بوتر ، وأوترته أوجدته ذلك (أى أظفرت به ، أوجدت فلاناً مطلوبه أى أظفرت به) قال : والتآر هاها العود لأنه موضع التآر ، والمعنى : لا توجدوا عدوكم الوترى أمسكم »
[٧] أنه : حقه يأنه وآله نفضه . [٨] ورع يروع : كورث من الورع ، وهو التقوى
[٩] رمل يضلّ فيه السالك ، والداهية . [١٠] مختاراً .

منكم وكلكم منتهى ، لا تطيعوا مُفسداً يتنصّح^(١) ، ولا تخالفوا مرشداً ينتصر ،
أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .
ثم تكلم عثمان بن عفان ، فقال :

٩٨ - خطبة عثمان بن عفان

« الحمد لله الذى اتخذ محمداً نبياً ، وبعثه رسولا ، صدقه وعدّه ، ووهب له
نصره ، على كل من بعد نَسباً ، أو قرب رَحماً صلى الله عليه وسلم ، جعلنا الله له
تابعين ، وبأمره مُهتدين ، فهو لنا نور ، ونحن بأمره تقوم عند تفرُّق الأهواء ،
ومجادلة الأعداء ، جعلنا الله بفضلِه أئمةً ، وبطاعته أمراء ، لا يخرج أمرنا منا ،
ولا يدخُل علينا غيرنا ، إلا من سفه الحق ، ونكِل عن القصد ، وأحر بها يا بن
عوف أن تُترك ، وأجدر بها أن تكون ، إن خولف أمرُك ، وتُرك دعاؤُك ، فأنا
أول مجيب لك ، وداع إليك ، وكفيل بما أقول زعيم ، وأستغفر الله لى ولكم .
ثم تكلم الزبير بن العوام بعده فقال :

٩٩ - خطبة الزبير بن العوام

« أما بعد : فإن داعى الله لا يُجْهَلُ ، وحجبه لا يُخْذَل ، عند تفرُّق الأهواء ،
ولى الأعناق ، ولن يقصر عما قلت إلا غوى ، ولن يترك مادعوت إليه إلا شقى ،
لولا حدود الله فرضت ، وفرائض الله حُدَّت ، تُراح^(٢) على أهلها ، وتحيا لامتوت ،
لكان الموت من الإمارة نجاةً ، والفرار من الولاية عِصْمَةً ، ولكن لله علينا
إجابة الدعوة ، وإظهار السنة ، لثلاث مئة عُمِّيَّة^(٣) ، ولا نَعْمَى عَمَى الجاهلية ،

[١] تنصح : تشبه بالنصحاء . [٢] أراح - قه عليه : رده عليه .

[٣] العمية : الكبر أو الضلال .

فأنا مجيبك إلى ما دعوت ، ومعينك على ما أمرت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ،
وأستغفر الله لي ولكم .

١٠٠ - خطبة سعد بن أبي وقاص

ثم تكلم سعد بن أبي وقاص فقال :

« الحمد لله بديئاً ^(١) كان ، وآخرأ يعود ، أحمده لما نجانى من الضلالة ،
وبصّرني من الغواية ، فبهدي الله فاز من نجا ، وبرحمته أفلح من زكا ، وبمحمد
ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم أنارت الطرق ، واستقامت السبل ، وظهر كل
حق ، ومات كل باطل ، إياكم أيها النفر وقول الزور ، وأمنيّة أهل الغرور ، فقد
سلبت الأمانى قوماً قبلكم ، ورثوا ما ورثتم ، ونالوا ما نالتم فاتخذهم الله عدوا ،
واعنهم لعنا كبيراً ، قال الله عز وجل : « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ
عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا
لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » إني نكبت ^(٢) قرّني ،
فأخذت سهمي الفالج ^(٣) ، وأخذت لطلحة بن عبيد الله ما ارتضيت لنفسى ، فأنا
به كفيل ، وبما أعطيتُ عنه زعيم ، والأمر إليك يا بن عوف بجهد النفس ،
وقصد النصح ، وعلى الله قصد السبيل ، وإليه الرجوع ، وأستغفر الله لي ولكم ،
وأعوذ بالله من مخالفتكم .

١٠١ - خطبة علي بن أبي طالب

ثم تكلم علي بن أبي طالب فقال :

« الحمد لله الذي بعث محمداً منا نبياً ، وبعثه إلينا رسولاً ، فنحن بيت النبوة ،

ومعدن الحكمة، وأمان أهل الأرض، ونجاة لمن طلب، لنا حق إن نُعْطَه
نأخذه، وإن نُنَمِّعَه نركب أعجاز الإبل، ولو طال الشرى، لو عهد إلينا رسول الله
صلى الله عليه وسلم عهداً لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت،
لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق، وصلة رحم، ولا حول ولا قوة إلا بالله،
اسمعوا كلامي، وعُوا منطق، عسى أن ترَوْا هذا الأمر من بعد هذا المجمع،
أُذِتَّتْصَى^(١) فيه السيوف، وتُخَان فيه العهود، حتى تكونوا جماعة، ويكون
بعضكم أئمة لأهل الضلالة، وشيعة لأهل الجهالة، ثم أنشأ يقول :

فإن تك جاسم^(٢) هلكت فإني بما فعلت بنو عبد بن ضنخم

مطيع في الهواجر كل عي بصيرم بالنوى من كل نجم

(تاريخ الطبرى ٥ : ٣٨ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٣٦)

خطب عثمان بن عفان

رضى الله عنه

١٠٢ - خطبته حين بايعه أهل الشورى

روى الطبرى قال : « لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو أشدم
كأبة ، فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخطب الناس ، فحمد الله وأثنى
عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :
« إنكم في دار قلعة^(٣) ، وفي بقية أعمار ، فبادرُوا آجالكم بخير ما تقدرُونَ
عليه ، فلقد أتيتم ، صبَّحْتُم أو مُسَّيْتُم ، ألا وإن الدنيا طُوِيَتْ على الغرور ، فلا

[١] نسل . [٢] بنو جاسم حتى قديم . [٣] أى اقلع ، ومنزلاً منزل قلعة « بتسكين اللام
وضمها ونتمها » أى ليس بمستوطن أو لا نملكه أو لاندرى متى تتحوّل عنه .

تَعْرِفُكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ ، اَعْتَبُوا بِمَنْ مَضَى ثُمَّ جِدُّوا وَلَا تَغْفُلُوا ، فَإِنَّهُ لَا يُغْفَلُ عَنْكُمْ ، أَيْنَ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا وَإِخْوَانُهَا الَّذِينَ آثَرُوهَا وَعَمَّرُوهَا ، وَمُتَّعُوا بِهَا طَوِيلًا ، أَلَمْ تَلْفِظْهُمْ ؟ أَرْمُوا بِالدُّنْيَا حَيْثُ رَمَى اللَّهُ بِهَا ، وَاطْلُبُوا الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ ضَرَبَ لَهَا مَثَلًا ، وَالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ، الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) . وَأَقْبَلِ النَّاسَ بِبِإِعْوَانِهِ .

(تاريخ الطبري ٥ : ٤٣)

١٠٣ - خطبته بعد البيعة

وقال أيضاً : خطب عثمان الناس بعد ما بويع ، فقال :
 « أما بعد ، فإنني قد مُحِّمْتُ وَقَدْ قَبِلْتُ ، أَلَا وَإِنِّي مُتَّبِعٌ ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ ، أَلَا وَإِن لَكُمْ عَلَيَّ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثًا : اتِّبَاعَ مَنْ كَانَ قَبْلِي فِيمَا اجْتَمَعْتُمْ عَلَيْهِ وَسُنَّتِي ، وَسُنَّةَ سُنَّةِ أَهْلِ الْخَيْرِ فِيمَا لَمْ تَسُنُّوا عَنْ مَلَأٍ ، وَالْكَفَّ عَنْكُمْ إِلَّا فِيمَا اسْتَوْجَبْتُمْ ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا خَصِرَةٌ قَدْ شَهَّيْتُ إِلَى النَّاسِ ، وَمَالٌ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، فَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الدُّنْيَا ، وَلَا تَتَّقُوا بِهَا ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِثِقَةٍ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهَا غَيْرُ تَارِكَةٍ إِلَّا مَنْ تَرَكَهَا » . (تاريخ الطبري ٥ : ١٤٩)

١٠٤ - خطبة أخرى

وقال ابن قتيبة : لما ولي عثمان صعد المنبر ، فجلس على ذروته ، فرماه الناس بأبصارهم ، فقال :

« إن أولَ مَرَكَبٍ صَعِبَ ، وَإِن مَعَ الْيَوْمِ أَيَّامًا ، وَمَا كُنَّا خُطْبَاءً ، وَإِدْنَعِشْ لَكُمْ تَأْتِيكُمْ الْخُطْبَةُ عَلَى وَجْهِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » .

(عيون الأخبار م ٢ ص ٢٣٥ ، والعمد الفريد ٢ : ١٣٣)

فإنكم مجتلبون بهذا الأمر إن قتلتموني دماً » فانصرفوا عنه ، واذنوه بالحرب .
(تاريخ الطبرى ٥ : ١٢١ ، والكمال لابن الأثير ٣ : ٨٤)

١٠٨ - خطبته وقد اشتد عليه الحصار

ولما اشتد الحصار عليه أرسل إلى على وطلحة والزبير فحضروا ، فأشرف عليهم ، فقال :

« يا أيها الناس : اجلسوا ، فجلسوا : المحاربُ والمسلمُ ، فقال لهم يا أهل المدينة ، أستودعكم الله ، وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى ، ثم قال أنشدكم بالله هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ، ويجمعكم على خيركم ؟ أتقولون إن الله لم يستجب لكم ، وهُتتم عليه ، وأنتم أهل حقه ؟ أم تقولون هان على الله دينه ، فلم يبال مَنْ وَلى ، والدين لم يتفرق أهله يومئذ ؟ أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة ، إنما كان مكابرة ، فوكل الله الأمة إذ عصته ، ولم يشاوروا فى الإمامة ، أم تقولون إن الله لم يعلم عاقبة أمرى ؟ أنشدكم بالله أتعلمون لى من سابقة خير ، وقدم خير ، قدّمه الله لى يَحِقُّ على كلِّ من جاء بعدى أن يعرفوا لى فضلها ؟ فهلا لا تقتلونى ، فإنه لا يحل إلا قتل ثلاثة : رجل زنى بعد إحصانه ، أو كفر بعد إيمانه ، أو قتل نفساً بغير حق ، فإنكم إذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ، ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً » . (تاريخ الكامل لابن الأثير ٣ : ٨٤)

١٠٩ - آخر خطبة خطبها عثمان

« إن الله عزّ وجلّ إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يُعطيكموها لتركونوا إليها ، إن الدنيا تَفْنَى والآخرة تبقى ، فلا تُبْطِرَنَّكم الفانية ، ولا تشغلنكم عن الباقية ، فأترؤوا ما يبقى على ما يفتنى ، فإن الدنيا منقطعة ، وإن المصير إلى الله ،

١٠٥ - خطبته حين نقم عليه الناس

وخطب حين نقم الناس عليه ما تقموا ، فقال :
« إن لكل نبي ، آفة ، وإن لكل نعمة عاهة ، في هذا الدين عيَّابون
ظَنَّانُونَ ، يظهرون لكم ما تحبون ، وَبُسرُّونَ ما تكرهون ، يقولون لكم ويقولون ،
طَغَامٌ ^(١) . بل النعام ، يتبعون أول ناعق ، أَحَبُّ مَوَارِدِهِمُ إِلَيْهِمُ النَّازِحُ ^(٢) ، لقد
أفررتم لابن الخطاب بأكثر مما تقمتم عليَّ ، ولكنه وَقَمَّكُمْ ^(٣) وَقَمَّكُمْ ^(٤) ،
وزجركم زجر النعام المخزَّمة ^(٥) ، والله إني لأقرب ناصرًا ، وأعز نهارًا . وَأَقْنُ - إن
ولت هلمَّ - أن تجاب دعوتي من عمر ، هل تفقدون من حقوقكم سببًا ، فما لي
لا أفعل في الحق ما أساء ؟ إذن فلم كنت إمامًا ؟ »

(إيجاز القرآن ص ١١٨ ، صبح الأعشى ١ : ٢١٤ ، البيان والبيان ١ : ٢٠٠)

١٠٦ - خطبته التي نزع فيها ، وأعطى الناس من نفسه التوبة

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فوالله ما عاب من عاب منكم شيئًا أجهله ، وما جئت
شبهًا إلا وأنا أعرفه ، ولكنني مننتني نفسي وكذبتني ، وَضَلَّ عَنِّي رَشْدِي ، ولقد
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (مَنْ زَلَّ فَلْيَتَّبِ ، وَمَنْ أَخْطَأَ
فَلْيَتَّبِ ، وَلَا يَتِمَّادَى فِي الْهَلَاكَةِ ، إِنْ مَنْ تَمَّادَى فِي الْجَوْرِ ، كَانَ أَبْعَدَ مِنْ
الطَّرِيقِ) فَأَنَا أَوْلُ مِنْ اتْعَظُ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا فَعَلْتُ ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ ، فَنَلِي نَزَعَ

[١] أوعاد الناس الواحد والجمع وبه سواء ، أو راحده كسجاية . [٢] المورد النارج : الذي نزع
ماؤه ، أي عاص وقلَّ أو بعد . [٣] وقم الدابة : يجذب عابها ، ووقه : قهره وأدله ، أوردته :
أفتح الرد وحرته أسدًا الحرن . [٤] قعه : صرته بالقبعة وتهره وأدله . [٥] خرم البعير :
جعل في حاب محرره الحزامه والطير كلها محرومة ومحرومة لأن وترات أثره فيها منقوية ، وكذا العمام .

وتاب ، فإذا نزلت فليأتني أشرفكم ، فليُرُونِي رَأْيَهُمْ ، فوالله لئن رَدَدْتَنِي الْحَقَّ
عَبْدًا ، لَأَسْتَتِنَنَّ بِسُنَّةِ الْعَبْدِ ، وَلَا ذَلَّيْنِ ذُلَّ الْعَبْدُ ، وَلَا كَوْنَنَّ كَالْمَرْفُوقِ ، إِنْ مُلِكَ
صَبْرًا ، وَإِنْ عُتِقَ شُكْرًا ، وَمَا عَنِ اللَّهِ مَذْهَبٌ إِلَّا إِلَيْهِ ، فَلَا يَعْجِزَنَّ عَنْكُمْ خِيَارُكُمْ
أَنْ يَدْنُوا إِلَيَّ ، لئن أبْتِ يَمِينِي لَتتَابِعَنِي شِمَالِي .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١١١ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٨٠)

١٠٧ - خطبته في الرد على الثوار

وقال يرد على الثوار :

« الحمد لله ، أحمدده ، وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ،
ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ، أما بعد : فإنكم لم تعدلوا فى المنطق ،
ولم تُنصِفُوا فى القضاء ، أما قولكم تخلع نفسك ، فلا أنزع قيصا قَمَصِيهِ اللهُ عزَّ
وجلَّ ، وأكرمنى به ، وخصنى به على غيرى ، ولكنى أتوب وأنزع ، ولا أعود
لشيء عابه المسلمون ، فإنى وألله الفقير إلى الله ، الخائف منه . »

قالوا : إن هذا لو كان أول حَدَثٍ أَحْدَثْتَهُ ثم تبت منه ، ولم تُقِمْ عليه ،

لكان علينا أن نقبل منك ، وأن ننصرف عنك إلى آخر ما قالوا .

فقال عثمان : « أما أن أتبرأ من الإمارة ، فإن تصلبوني أحبُّ إليَّ من أن

أتبرأ من أمر الله عزَّ وجلَّ وخلافته ، وأما قولكم تقتاتلون من دونى ، فإنى لا أمرُ
أحدًا بقتالكم ، فمن قاتل دونى فإنما قاتل بغير أمرى ، ولعمري لو كنت أريد
قتالكم ، لقد كنت كتبت إلى الأجناد ، فقادوا الجنود ، وبعثوا الرجال ، أو لحقت
بعض أطرافى بمصر أو عراق ، فالله الله فى أنفسكم ، فأبقوا عليها ، إن لم تبقوا على ،

اتقوا الله جلَّ وَعَزَّ ، فإن تقواه جُنَّةٌ من بأسِهِ ، ووسيلةٌ عنده ، واحذروا من الله الغَيْرِ ، والزموا جماعتكم ، لا تصيروا أحزاباً ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً . (تاريخ الطبري ٥ : ١٢٦ ، ١٤٩)

خطب الوفود

١١٠ - خطبة عطار د بن حاجب بن زرارة

بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة عَطَّارِدُ بن حاجب ابن زرارة، في أشرف من بنى تميم، فلما دخل الوفد المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحُجُرَاتِ : أن اخرج إلينا يا محمد ، فأذى ذلك من صياحهم رسول الله ﷺ فخرج إليهم ، فقالوا يا محمد ، جئناك لنفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال نعم ، قد أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام إليه عطار د فقال :

« الحمد لله الذي له علينا الفضلُ ، وهو أهله ، الذي جعلنا ملوكاً ، ووهب لنا أموالاً عظيماً ، تفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق ، وأكثره عدداً ، وأيسره عدداً ، فمن مثلنا في الناس ، أسنا برء وس الناس وأولى فضلهم؟ فمن يفاخرنا فليعدد مثل ما عددنا ، وإننا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإننا نعرف بذلك ، أقول هذا الآن لتأثونا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا ، ثم جلس . »

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشَّامِ ، قم فأجب

الرجل في خطبته ، فقام ثابت فقال :

١١١ - خطبة ثابت بن قيس بن الشماس

« الحمد لله الذي ، السموات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ، ووسع كرميئة علمه ، ولم يك شيء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً ، واصطفى من خير خلقه رسولاً ، أكرمهم نسباً ، وأصدقهم حديثاً ، وأفضلهم حساباً ، فأنزل عليه كتابه ، وأتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان ، فأمن برسول الله ﷺ المهاجرون من قومه وذوى رحمته ، أكرم الناس أنساباً ، وأحسن الناس وجوهاً ، وخير الناس فعلاً ، ثم كان أول الخلق استجابة لله ، حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن ، فنحن أنصار الله ، ووزراء رسوله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً ، وكان قتلنا يسيراً ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات ، والسلام عليكم . »

ثم قالوا يا محمد : ائذن لشاعرنا ، فقال نعم ، فقام الزبير بن بدر ، فأشاد قصيدة في الفخر ، وبعث النبي ﷺ إلى حسان بن ثابت فرد عليه ، فقال الأقرع بن حابس التميمي : إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ، فلما فرغ القوم أساموا ، وجوزهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأحسن جوائزهم .

(تاريخ الطبري ٣ : ١٥٠ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٣٩ ، وسيرة ابن هشام ٢ : ٢٦٣)

١١٢ - عمرو بن الأهتم والزبير بن بدر

بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسأل رسول الله ﷺ عمرو بن الأهتم عن الزبير بن بدر (١) فقال عمرو :

« مطاع في أذنيه ^(١) ، شديد المعارضة ^(٢) ، مانع لما وراء ظهره » فقال الزبرقان :
 « والله يا رسول الله ، إنه ليعلم مني أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي »
 فقال عمرو : « أما لئن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمرَ
 المروءة ^(٣) ، أحق الوالد ، لثيم الخال ، حديث الغني » فلما رأى أنه خالف قوله
 الآخر قوله الأول ورأى الإنكار في عين رسول الله ﷺ ، قال يا رسول الله :
 رضيت ، فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت
 في الأولى ، واقد صدقت في الأخرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند
 ذلك : « إن من البيان لسحرا » .

(البيان والدين ١ : ٣١ ، والعقد الفريد ١ : ١١٧ ، ومجمع الأمال للعبداني ١ : ٥)

١١٣ - خطبة طهفة بن أبي زهير النهدي

بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قدمت وفود العرب على النبي ﷺ قام طهفة بن أبي زهير النهدي فقال :
 « يا رسول الله أتيناك من غوري ^(٤) تهامة بأكوار الميس ، ترمي بنا العيس ^(٥)
 نستحلب الصببر ^(٦) ، ونستجلب الخبير ^(٧) ، ونستعضد ^(٨) البرير ، ونستخيل
 الرهأم ^(٩) ، ونستحيل الجهم ^(١٠) ، من أرض غائلة النطاء ^(١١) ، غليظة الوطاء ،

[١] أي في الأذنين . من أي الأفريين ، وأصله أدين حدثت نونه لإصاوته إلى الصمير .
 [٢] المعارضة : قوة الكلام وتنقيحه والرأي الجيد . [٣] قليل الروءة . [٤] العمور : كل
 ما انحدر معرباً عن تهامة ، والأكوار جمع : كور بالضم ، وهو الرجل أو بأدائه ، والميس : شجر عظام ،
 أي بالأكوار المصنوعة منه . [٥] العيس جمع عيساء : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة .
 [٦] الصببر : السحاب الكثيف . [٧] العشب . [٨] استعضد الثمرة : اجتناعها ، والبرير معر
 الأراك ، وكانوا يأكلونه وقت الجذب لقلّة الزاد . [٩] الرهأم جمع رهمة بالكسر ، وهي المطر الضعيف الدائم
 ونستخيل نخال ونظن وسحابة مخيلة بضم فكسر أي تحسبها مطرة . [١٠] الجهم : السحاب قد أراق
 ماؤه . [١١] النطاء : البعد ، أي بعيدة بعداً مهلكاً .

نَشِيفَ الْمُدْهُنِ ^(١) ، وَيَيْسَ الْجَعْنَيْنِ ^(٢) ، وَسَقَطَ الْأُمْلُوجَ ^(٣) ، ومات
 الْمُسْلُوجَ ^(٤) ، وهلك الْهَدْيِيَّ ^(٥) ، ومات الْوَدِيَّ ^(٦) ، بَرِثْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ
 الْوَتَنِ وَالْعَتَنِ ^(٧) ، وما يحدث الزمن ، لنا دعوةُ السلام ، وشريعةُ الإسلام ،
 ما طَمَى ^(٨) البحر ، وقام تِعَارٌ ^(٩) ، ولنا نَعَمٌ ، هَمَلٌ ^(١٠) ، أَغْفَالٌ ، مَا تَبِضُّ ^(١١)
 بِيَلَالٍ ، وَوَقِيرٌ ^(١٢) كثير الرِّسَلِ ^(١٣) ، قليل الرِّسْلِ ، أصابتها سُذْيَةٌ حمراءٌ مُؤْزِلَةٌ ،
 ليس بها عَلَلٌ ولا تَهْلٌ .

١١٤ - رده صلى الله عليه وسلم

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اللهم بارك لهم في مَحْضِهَا ^(١٤) وَمَخْضِهَا وَمَذْقِهَا ، وَأَبْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدَّثْرِ ^(١٥)
 بِيَانِعِ الثَّوَرِ ، وافْجُرْ لَهُ الْعَمَدَ ^(١٦) ، وبارك له في المال والولد ، من أقام الصلاة
 كَانَ مَسَامًا ، ومن آتَى الزَّكَاةَ كَانَ مُحْسِنًا ، ومن شهد أن لا إله إلا الله كَانَ
 مَخْلُصًا ، يا بني نهد ، ودائع ^(١٧) الشرك ، ووضائع الْمَلِكِ ، لَا تَلْطِطُ فِي الزَّكَاةِ ،
 وَلَا تُلْجِدُ فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا تَتَأَقَّلَنَّ عَنِ الصَّلَاةِ » . (العقدة الفريدة ١ : ١١٣)

[١] مستنقع الماء : أو كل موضع حفره سيل ، ونشف الحوض الماء : شربه . [٢] أصل الذنات .
 [٣] ورق كورق السرو لشجر بالبادية . [٤] ملان واخصر من القصان وعسلجت الشجرة :
 أخرجته . [٥] ما يهدى إلى مكة لينجر . [٦] الفسيل (النخل الصفار) . [٧] الصنم
 الصنير . [٨] ابتلاً وعلا . [٩] جبل ببلاد قيس . [١٠] مهمل والأعمال جمع غفل بالضم ، وهو
 مالا سمة عليه من الدواب . [١١] بض الماء يبض : سال قليلاً قليلاً ، والبلال : البلل ، والمراد قلة
 اللبن . [١٢] القطيع من الغنم . [١٣] الرِّسَل : القطيع من كل شيء ، والرسل اللبن ، وسنية :
 تصغير تعظيم لسنة ، وهي الفحط والجماعة ، وجراء أي شديدة ، ومؤزلة ذات أزل بسكون الزاي ، وهو الضيق
 والشدة . [١٤] اللبن الحالمس ، ومخض اللبن : أخذ زبده . والمذيق اللبن المزوج بالماء ، مذقه فامتدق .
 [١٥] الدثر : المال الكثير . وقيل هو الكثير من كل شيء ، وأراد به هنا الحصب والذبات الكثير .
 [١٦] الماء القليل لامادة له ، أو ما يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف . [١٧] أي النائم التي تغتم
 من المشركين وتودع بيت مال المسلمين ، ليقبوا بها على شئونهم ، والوضائع جمع وضاعة ، وهي ما يأخذها السلطان

١١٥ - خطبة ظبيان بن حداد

بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم

وفد ظبيّان بن حدّاد في سرّاة مَذْحِجٍ على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثناء على الله عزّ وجل بما هو أهله : « الحمد لله الذي صدّع^(١) الأرض بالنبات ، وفتق السماء بالرجع^(٢) ، ثم قال : نحن قوم من سرّاة مَذْحِجٍ من يُحَايِر^(٣) بن مالك ، ثم قال : فتوقّلت^(٤) بنا القِلاصُ من أعلى الحَوْفِ وراء وس الهضاب ، يرفعها عُرُرُ^(٥) الرُّبَا ، ويخفّضها بُطنان الرّقاق ، وتلحّقها دياجي الدُّجى ، ثم قال : وسرّوات الطائف كانت ابني مهلّايل بن قينان ، غرسوا وديانته ، وذللّوا خيشانه^(٦) ورعوا قرّبانه ، ثم ذكر نوحًا حين خرج من السفينة بمن معه ، قال فكان أكثر بنيّه نباتًا ، وأسرعهم نباتًا ، عادٌ وثمود ، فرماهم الله بالذمّاق^(٧) ، وأهلكهم بالصواعق ، ثم قال :

من الحراج والعشور. يريد أن يقول لهم : إن موارد المال للأمة الإسلامية هما هذان اركان ، العنّام ، وارتكّاة ، فلا تعطلوا الرّكاة ، ولدا عغب ذلك القول بقوله : لا تلطط في الزكاة أي لا تمنعها ، لططت حقه جحدته كألططت ، ولا تلحد في الحياة : أي لا يمرى منكم بل عن الحقّ ما دمتم أحياء ، ولا تناقل عن الصلاة ، أي عن أدائها في وقتها ، ويروى : ولا ياطط في الرّكاة ، ولا يلحد في الحياة (بالباء للمجهول) ، ولا تناقل عن الصلاة . [١] شق . [٢] المطر بعد المطر . [٣] هو مراد بن مالك (وهو مَذْحِج) ابن أد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان . [٤] توّقل في الجبل : صعد ، والقلاص جمع قلوص ، وهي النانة الشابه أو الباقية على الير ، والحوف : بلد بيمان . [٥] في الأصل : «عوار» ولا معنى له هنا ، وأرى أن صوابه «عور» جمع برّة كقبة وعرة السنام : التهمة العليا ، أي دروته وأعلامه ، أي أمها تسير في أعلى الرُّبَا وذراها ، وربما كان الأصل «تراعر» بفتح العين الأولى جمع عرعة بصحها ، وعرعة الجبل والسام وكلّ شيء رأسه ، ويطنان جمع باطن ، وهو الدامض من الأرض ، أي المطمئن منها ، والرقاق جمع رقّ بالفتح ، وهي كلّ أرض إلى جنب واد ينسبط الماء عايبها أيام المد ثم ينضب ودياجي الليل حنادسه كأنه جمع ديجاة ، والديج جمع دجبة ، وهي الظلمة . [٦] الحشن والأخشن : الأخرش من كلّ شيء جمعه خشان . [٧] الأملس : المستدير من الحجارة .

وَكَانَتْ بَنُو هَانِيٍّ مِنْ ثَمُودَ تَسْكُنُ الطَّائِفَ ، وَهُمْ الَّذِينَ خَطُّوا مَشَارِبَهَا ،
وَأَتَوْا جَدَاوِلَهَا ^(١) ، وَأَحْيَوْا غِرَاسَهَا ، وَرَفَعُوا عَرِيشَهَا ، ثُمَّ قَالَ : وَإِنْ حَمِيرٌ
مَلَكَوا مَعَاقِلَ الْأَرْضِ وَقَرَّارَهَا ، وَكُهُولَ النَّاسِ وَأَغْمَارَهَا ^(٢) . وَرءِ وَسِ الْمَلُوكِ
وَعَرَّارَهَا ، فَكَانَ لَهُمُ الْبِيضَاءُ وَالسُّودَاءُ ، وَفَارِسَ الْحَمْرَاءَ ، وَالْجَزِيَّةَ الْصَفْرَاءَ ^(٣) ،
فَبَطَرُوا النِّعْمَ ، وَاسْتَحَقُّوا النُّقْمَ ، فَضَرَبَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، ثُمَّ قَالَ : وَإِنْ
قَبَائِلٌ مِنَ الْأَزْدِ نَزَلُوا عَلَى عَهْدِ عَمْرٍو بْنِ عَامِرٍ ، فَفَتَحُوا فِيهَا الشَّرَائِعَ ^(٤) ، وَبَنَوْا فِيهَا
الْمِصَانِعَ ^(٥) ، وَاتَّخَذُوا الدِّسَائِعَ ^(٦) ، ثُمَّ تَرَامَتْ مَذْحِجٌ بِأَسْنَتِهَا ، وَتَنَزَّتْ ^(٧)
بِأَعْتَتِهَا ، فَغَلَبَ الْعَزِيزُ أَذْلَهَا ، وَقَتَلَ الْكَثِيرَ أَقْلَهَا ، ثُمَّ قَالَ : وَكَانَ بَنُو عَمْرٍو بْنِ
خَالِدِ بْنِ جَذِيعةٍ يَخْبِطُونَ عَضِيدَهَا ^(٨) ، وَيَأْكُلُونَ حَصِيدَهَا ، وَيَرشُّحُونَ ^(٩)
خَضِيدَهَا .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « إِنْ نَعِيمَ الدُّنْيَا أَقْلٌ وَأَصْفَرُ عِنْدَ اللَّهِ
مِنْ خُرءٍ بُعِيضَةٍ ، وَلَوْ عَدَلَتْ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحُ ذَبَابٍ لَمْ يَكُنْ لِكَافِرٍ مِنْهَا خَلَاقٌ ،
وَلَا لِمُسْلِمٍ مِنْهَا لِحَاقٌ » . (العهد المرید ١ : ١١٠)



[١] أُنِي الْمَاءُ تَأْتِيَةٌ سَهْلٌ وَأَصْلَحُ مَحْرَاهُ ، أَيْ سَهَلُوا طَرُقَ الْمِيَاءِ إِلَيْهَا . [٢] جَمْعُ عَمْرَمَثَ الْفَيْنِ ، وَهُوَ
الْحَدِيثُ لَا تَجْرِبَةُ لَهُ ، وَالْعَرَارُ : الرَّفْعَةُ وَالسُّودُودُ . [٣] أَيْ الذَّهْبِيَّةُ . [٤] جَمْعُ شَرِيعَةٍ ، وَهِيَ مُورِدٌ
الشَّارِبَةُ كَالْمَفْرَعَةِ . [٥] الْمَبَانِي مِنَ الْقُصُورِ وَالْحُصُونِ . [٦] جَمْعُ دَسِيعَةٍ ، وَهِيَ الْبُقْعَةُ وَالْدَسِكْرَةُ .
[٧] تَنْزَى : تَوَثَّبَ وَتَسَرَّعَ [٨] الْعَضِيدُ : مَاقِطَعٌ مِنَ الشَّجَرِ ، أَيْ يَضْرِبُونَهُ لِيَسْقُطَ وَرَقُهُ فَيَتَّخِذُونَهُ
عَلْفًا لِإِبْلَاهِمِ . [٩] التَّرشِيعُ : التَّرِييَةُ وَحَسَنُ الْقِيَامِ عَلَى الْمَالِ ، وَالْحَضِيدُ : مَا خُذَ مِنَ الشَّجَرِ وَنَعْمَى
عَهُ ، وَكُلُّ مَا قَطَعَ مِنْ عَوْدٍ رَطْبٌ (فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ) أَيْ يَصْلِحُونَهُ وَيَقُومُونَ بِأَمْرِهِ .

خطب الوفود

بين يدي عمر بن الخطاب

لما قدمت الوفود على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قام هلال بن بشر^(١) فقال :

١١٦ - خطبة هلال بن بشر

« يا أمير المؤمنين : إنا غُرَّةٌ مَنْ خَلَفْنَا مِنْ قَوْمِنَا ، وَسَادَةٌ مَنْ وَرَاءَنَا مِنْ أَهْلِ
مِصْرِنَا ، وَإِنَّكَ إِنْ تَصَرَّفْنَا بِالزِّيَادَةِ فِي أُعْطِيَاتِنَا ، وَالْفُرَائِضِ لِعِيَالَتِنَا ، يَزِدُّ بِذَلِكَ
الشَّرِيفُ تَأْمِيلاً ، وَتَكُنْ لَهُمْ أبا وَصُولاً ، وَإِنْ تَكُنْ مَعَ مَا نَمَتَّ^(٢) بِهِ مِنْ
وَسَائِلِكَ ، وَتُدَلِّي بِهِ مِنْ أَسْبَابِكَ كَالْحَدَلِ^(٣) ، لَا يُحْمَلُ وَلَا يُرْتَحَلُ ، نَرْجِعُ بِأَنْوْفِ
مِصْلُومَةٍ^(٤) ، وَجِدُودِ عَائِرَةٍ ، فَحِنَا^(٥) وَأَهَالِيْنَا بِسَجَلٍ^(٦) مُتْرَعٍ مِنْ سِجَالِكَ الْمِتْرَعَةِ »

١١٧ - خطبة زيد بن جبلة

وقام زيد بن جبلة فقال :

« يا أمير المؤمنين ، سَوِّدَ الشَّرِيفَ ، وَأَكْرَمَ الْحَسِيبَ ، وَازْرَعْ عِنْدَنَا مِنْ
أَيْدِيكَ مَا تَسُدُّ بِهِ الْخِصَاصَةَ ، وَتَطْرُدُ بِهِ الْفَاقَةَ ، فَإِنَّا بِقُفِّ^(٧) مِنْ الْأَرْضِ يَا بَسْ

[١] وفي البيان والتبيين : ابن وكيع . [٢] تتوسل به . [٣] في البيان والتبيين « كالجدّة »
وفي نهاية الأرب « كالجدل » ولا معنى لهما هنا ، وأرى أن صوابه « كالحدل » بحاء مفتوحة ودال
مكسورة ، وصف من الحدل بفتححتين وهو الذي أشرف أحد طائفيه على الآخر ، أو المائل العنق من خفة
أو وجع لا يملك أن يقبضه ، وارتحل البعير ورحله : حطّ عليه الرجل ، وإذا كان البعير حدلا فهو لا يرتحل
لعدم توازن المدلين عليه ، وكذا لا يحمل من مبركه ايرتحل فهو إذن لا يستخدم ولا يفتتح به ، فالمعنى أنك إن
لم تعطنا تكن كالبعير الحدل المديم الجدوى . [٤] المقطوعة من أصلها . [٥] الميخ : الإعطاء .
[٦] الدلو العظيمة مملوءة (مذكر) ومترع : مملوء . [٧] ما ارتفع من الأرض كالثقة .

الأكناف ، مُقَشَّعِرِ الدَّرْوَةِ ، لَا مُتَّجِرَ وَلَا زَرَاعَ ، وَإِنَّا مِنَ الْعَرَبِ الْيَوْمَ إِذْ أَتَيْتَاكَ بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ .

١١٨ - خطبة الأحنف بن قيس

فقام الأحنف فقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِن مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ بِيَدِ اللَّهِ ، وَالْحِرْصُ قَائِدُ الْحِرْمَانِ ، فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا لَا يُعْنِي عَنْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَيْلًا وَلَا قَالًا ، وَاجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رِعْيَتِكَ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ شَيْئًا يَكْفِيكَ وَفَادَةَ الْوَفُودِ ، وَاسْتِمَاحَةَ الْمُتَمَاتِحِ ^(١) ، فَإِنَّ كُلَّ أَمْرٍ يُجْمَعُ فِي وَعَاثِهِ إِلَّا الْأَقْلَ مِمَّنْ عَسَى أَنْ تَقْتَحِمَهُ الْأَعْيُنُ فَلَا يُوقَدُ إِلَيْكَ »
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٧١)

١١٩ - خطبة الأحنف بن قيس

بين يدي عمر بن الخطاب

قدم الأحنف بن قيس التيمي على عمر بن الخطاب رضى الله عنه في أهل البصرة وأهل الكوفة ، فتكلموا عنده في أنفسهم ، وما ينوب كل واحد منهم ، وتكلم الأحنف فقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِن مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ بِيَدِ اللَّهِ ، وَقَدْ أَتَيْتُكُمْ وَفُودَ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَإِنْ إِخْوَانُنَا مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ نَزَلُوا مَنَازِلَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ، وَالْمُلُوكِ الْجَبَابِرَةِ ، وَمَنَازِلَ كَسْرَى وَقَيْصَرَ وَبَنِي الْأَصْفَرِ ، فَهَمُّ مِنَ الْمِيَاهِ الْعَذِيبَةِ ، وَالْجَنَانِ الْمُخْصِبَةِ فِي مِثْلِ حَوْلَاءِ السَّلَى ^(٢) وَحَدَقَةِ الْبَعِيرِ ، تَأْتِيهِمْ ثَمَارُهُمْ غَضَّةً قَبْلَ أَنْ

[١] استماحه : سأله الطاء والامتياع الإيعطاء . [٢] الحولاء : جلدة خضراء مملوءة ماء تخرج مع الولد فيها أغراس وخطوط حمراء وخضراء وتزولوا في مثل حولاء الناقة . يريدون الحصب وكثرة الماء والحصرة ، والسلى جلدة فيها الولد (من الناس والمواشى) .

تتغير ، وإنا نزلنا أرضاً نشاشة^(١) طَرَفَ في فلاة ، وطَرَفَ في ملح أجاج^(٢) ،
جانبٌ منها منابت القصب ، وجانب سَبَخة نشاشة لا يحف ترايبها ، ولا يثبت
مرعاها ، تأتينا منافعها في مثل مَرِيء النعامة ، يخرج الرجل الضعيف منا
يَسْتَعذِب^(٣) الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك ، تُرْتَقُ^(٤) ولدها
ترقيق العنز تخاف عليه العدو والسبع ، فالأ ترفع خَسِيستنا^(٥) وَتُنْعِشَ رَكِيستنا^(٦)
وَتَجْبِرُهُ فاقتنا ، وتزيد في عيالنا عيالاً ، وفي رجالنا رجالاً ، وَتُصَفِّرُ^(٧) درهمنا ،
وتكبر قَفِيرنا^(٨) ، وتأمُر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء هلكننا .

قال عمر : هذا والله السيد ، هذا والله السيد . قال الأحنف : فما زلت

(العقد المرید ١ : ١١٦ ، وشرح العيون ٦٨)

أسمعها بعدها

خطب رجال من الفاتحين

بين يدي يزيد جرد ملك الفرس

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على فتح العراق يأمره أن يبعث
إلى يَزْدَجِرِدَ ملك الفرس رجالاً من أهل المنطرة^(٩) والرأي والجلد يدعونه ، فاخترهم وأنفذهم
إليه بالمدائن ، فلما دخلوا عليه أمر التَّزْجَانَ بينه وبينهم فقال : سلمهم ماجاء بكم وما دعاكم
إلى غزونا والولوع ببلادنا ، أمن أجل أنا أجمعناكم^(١٠) وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

[١] سبعة : نشاشة لا يجم تراها ولا يثبت مرعاها ، والسبعة بفتح الباء وسكونها أرض ذات تر و ملح .

[٢] ملح مر . [٣] استعذب : استقى عذباً . [٤] التريق : إدامة النظر . [٥] رفعت من

خسيسة اعلت به فعلا فيه رفعه . [٦] الر كس : قلب أول الشيء على آخره ، وار تكس انكس ووقع .

[٧] صفرة : صبه صفرة ، أي تدلنا بالدرهم الأبيض ديناراً أصفر وتجعل فضلتنا ذهباً .

[٨] مكيال . [٩] المنظر . [١٠] من أجم الماء إذا تركه يجتمع ، أي أرحناكم وانصرفنا عنكم .

فقال لهم النعمان بن مقرن : إن شئتم أحببت عنكم ، ومن شاء آثرته ، فقالوا : بل تكلم ، فتكلم النعمان فقال :

١٢٠ - خطبة النعمان بن مقرن

« إن الله رَحِمَنَا فَأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير، ويأمرنا به ، ويعرِّفنا الشر ، وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدعُ إلى ذلك قبيلةً إلا صاروا فرقتين : فرقة تُقَارِبُه ، وفرقة تُبَاعِدُهُ ، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواصُّ ، فكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن يذبذ إلى من خالفه من العرب . وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعا على وجهين : مُكْرَه عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد ، فعرَّفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه ، من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يليقنا من الأمم ، فنَدَعُوهُمْ إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حَسَنَ الحَسَن ، وَقَبِيحَ القَبِيحِ كُلُّهُ ، فإن أبيتُم فأمرُ من الشر ، هو أهون من آخر شر منه ، الجزاء ^(١) ، فإن أبيتُم فالمناجزة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقناكم عليه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم . »



فقال يزدجرد : إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد نوكل بكم قري الضواحي فيكفونناكم ، لا تغزوكم فارس ، ولا تطمعون أن تقوموا لهم ، فإن كان غر ور لحقكم ، فلا يغرنكم منا ، وإن

كَانَ الْجَهْدُ دَعَاكُمْ ، فَرَضْنَا لَكُمْ قُوْتًا إِلَى خِيَابِكُمْ ، وَأَكْرَمْنَا وَجُوهَكُمْ ، وَكَسَوْنَاكُمْ ،
وَمَلَكْنَا عَلَيْكُمْ مَلَكَ يَرْفُقُ بِكُمْ ، فَقَامَ الْمَغِيرَةُ بْنُ زُرَّارَةَ فَقَالَ :

١٢١ - خُطْبَةُ الْمَغِيرَةَ بْنِ زُرَّارَةَ

أَيُّهَا الْمَلِكُ : إِنْ هُوَ لَاءُ رِءُوسِ الْعَرَبِ وَوَجُوهِهِمْ ، وَهُمْ أَشْرَافُ يَسْتَحْيُونَ
مِنَ الْأَشْرَافِ ، وَإِنَّمَا يَكْرُمُ الْأَشْرَافَ الْأَشْرَافُ ، وَيَعْظُمُ حَقُوقَ الْأَشْرَافِ
الْأَشْرَافُ ، وَيَفْخَمُ الْأَشْرَافَ الْأَشْرَافُ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا أُرْسِلُوا بِهِ جَمْعُوهَ لَكَ ،
وَلَا كُلُّ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ أَجَابُوكَ عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَحْسَنُوا وَلَا يُحْسِنُ بِمَثَلِهِمْ إِلَّا ذَلِكَ ،
فَجَاوِبِي لِأَكُونَ الَّذِي أَبْلَغَكَ ، وَيَشْهَدُونَ عَلَى ذَلِكَ ، إِنَّكَ قَدْ وَصَفْتَنَا صِفَةً لَمْ
تَكُنْ بِهَا عَلَمًا ، فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ سُوءِ الْحَالِ ، فَمَا كَانَ أَسْوَأَ حَالِنَا ، وَأَمَّا
جُوعُنَا فَلَمْ يَكُنْ يَشْبَهُ الْجُوعَ ، كَمَا نَأْكُلُ الْخَنَافِسَ ، وَالْجِعْلَانَ ^(١) وَالْعَقَارِبَ
وَالْحَيَّاتِ قَتَرِي ذَلِكَ طَعَامِنَا ، وَأَمَّا الْمَنَازِلُ فإِنَّمَا هِيَ ظَهْرُ الْأَرْضِ ، وَلَا نَبْلِسُ
إِلَّا مَا غَزَلْنَا مِنْ أَوْبَارِ الْإِبِلِ ، وَأَشْعَارِ الْغَنَمِ ، دِينِنَا أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُنَا بَعْضًا ، وَيُغَيِّرَ
بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُنَا لِيَدْفِنَ ابْنَتَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ كَرَاهِيَةٌ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ
طَعَامِنَا ، فَكَانَتْ حَالِنَا قَبْلَ الْيَوْمِ عَلَى مَا ذَكَرْتَ لَكَ ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَجُلًا
مَعْرُوفًا نَعْرِفُ نَسَبَهُ ، وَنَعْرِفُ وَجْهَهُ وَمَوْلَاهُ ، فَأَرْضُهُ خَيْرُ أَرْضِنَا ، وَحَسَبُهُ خَيْرُ
أَحْسَابِنَا ، وَبَيْتُهُ أَعْظَمُ بَيْوتِنَا ، وَقَبِيلَتُهُ خَيْرُ قَبِيلَتِنَا ، وَهُوَ بِنَفْسِهِ كَانَ خَيْرِنَا فِي
الْحَالِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا ، أَصْدَقْنَا وَأَحْلَمْنَا فِدْعَانَا إِلَى أَمْرٍ ، فَلَمْ يَجِبْ أَحَدًا أَوَّلَ مَنْ
تَرَبَّ كَانَ لَهُ ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَقَالَ وَقَلْنَا ، وَصَدَّقَ وَكَذَبْنَا ، وَزَادَ وَتَقَصَّنَا

[١] جَمْعُ جَعَلٍ بِضَمِّ فَتْحٍ ، وَهُوَ الْحَرَبَاءُ .

فلم يقل شيئاً إلا كان ، فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا إن ربكم يقول : إني أنا الله وحدي لا شريك لي ، كنتُ إذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء ، وإلى يصير كل شيء . وإن رحمتي أدرتكم ، فبعثت إليكم هذا الرجل ، لأدلكم على السبيل التي بها أنجيكم بعد الموت من عذابي ، ولأجلدكم داري دار السلام ، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابعكم على هذا ، فله مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبي فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبي فقاتلوه ، فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتي ، ومن بقي منكم أعقبته النصر على من ناواه ، فاختر إن شئت الجزية عن يدٍ وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجي نفسك » فقال يزدجرد : أتستقباني بمثل هذا ؟ لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندي ، ثم قال : اثنوني بوقر^(١) من تراب ، فقال أحملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن .

(تاريخ الطبري ٤ : ٩٢ ، والكمال لابن الأثير ٢ : ٢٢٣)

١٢٢ - مقال ربعي بن عامر عند رستم قائد جيش الفرس

وأرسل رستم قائد جيش الفرس ، إلى سعد بن أبي وقاص ، أن ابعت إلينا رجلاً نكلمه ويكلمنا ، فبعث إليه ربعي بن عامر ، فلما انتهى إليه قال له التَّزْجَان (واسمه عبود من أهل الحيرة) ما جاء بكم ؟ قال : « الله ابتعثنا ، والله جاء بنا ، لنخرج من شاء من عبادة العباد ، إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا

[١] الوقور : الحمل الثقيل أو أعم .

بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ، ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبي قاتلناه أبداً ، حتى نُفْضَى إلى موعود الله ، قال وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبي ، والظفر لمن بقي .
(تاريخ الطبرى ٤ : ١٠٦ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٧)

١٢٣ - خطبة المغيرة بن شعبة في حضرة رستم

وبعث إليه أيضاً المغيرة بن شعبة ، فتكلم بحضرته ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« إن الله خالق كل شىء ورازقه ، فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه والذي له ، وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء ، والتمكن فى البلاد ، وَعَظَمَ السلطان فى الدنيا ، فنحن نعرفه ، ولسنا ننكره ، فالله صنعه بكم ، ووضع فىكم ، وهو له دونكم ، وأما الذى ذكرت فىنا من سوء الحال ، وضيق المعيشة ، واختلاف القلوب ، فنحن نعرفه . ولسنا ننكره ، والله ابتلانا بذلك ، وصيرنا إليه ، والدنيا دُول ، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرِّخاء ، حتى يصيروا إليه ، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد ، حتى تنزل بهم ، ويصيروا إليها ، ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوى شكر ، كَانَ شُكْرُكُمْ يَقْضُرُ عَمَّا أُوتِيتُمْ ، وَأَسَاءَ كُمْ ضَعْفُ الشكر إلى تغير الحال ، ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر ، كَانَ عَظِيمَ مَا تَتَابَعُ عَلَيْنَا ، مُسْتَجَلِبًا مِنْ اللَّهِ رَحْمَةً يُرْفَهُ بِهَا عَنَّا ، وَلَكِنْ الشَّأْنُ غَيْرَ مَا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ ، أَوْ كُنْتُمْ تَعْرِفُونَنَا بِهِ ، إِنْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ فِينَا رَسُولًا ، ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ » .
(تاريخ الطبرى ٤ : ١٠٩ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٢٨)

١٢٤ - خطبة خالد بن الوليد فى وقعة اليرموك

وإلى خالد بن الوليد جيوش المسلمين ، وقد اجتمعوا باليرموك لحرب الروم .

وأراد قوادها الخروج إلى الرُّوم متساندين ،^(١) فخطبهم خالد ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية ، على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وإن من ورائكم من لو يعلم علمكم ، حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به ، بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبتة » .

قالوا فهات ، فما الرأي ؟ قال : « إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر^(٢) ، ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم ، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيتهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله ، فقد أفرِدَ كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ، ولا يزيد عليه أن دانوا له ، إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ، ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيئوا ، وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردُّهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلتعاور^(٣) الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلكم ، ودعوني أتأمر اليوم » فأمرُّوه وهم يرون أنها كخَرَجاتهم ، فكان فيها النصر المبين للمسلمين .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٣٣ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ٢٠٠)

[١] أى تحت رايات شتى لاتجتمعهم راية أمير واحد . [٢] التياسر : التساهل .

[٣] تتعاقب عليها .

١٢٥ - خطبة عتبة بن غزوان بعد فتح الأبلّة (١)

حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فإن الدنيا قد تولت حذاء^(٢) مُدْبِرَةً ، وقد آذنت أهلها بِصَرْمٍ^(٣) ،
وإنما بقي منها صُبَابَةٌ^(٤) كَصُبَابَةِ الْإِنَاءِ يَصْطَبُّهَا صَاحِبُهَا ، أَلَا وَإِنَّكُمْ مَفَارِقُوهَا
لَا مَحَالَةَ ، ففارقوها بأحسن ما يحضركم ، أَلَا وَإِنْ مِنَ الْعَجَبِ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : إِنْ الْحَجْرَ الضَّخْمَ يُبَلِّغُنِي فِي النَّارِ مِنْ شَفِيرِهَا^(٥) ،
فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا^(٦) ، وَلِجَهَنَّمَ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ مَا بَيْنَ الْبَايِنِ مِنْهَا مَسِيرَةٌ
خَمِيسًا مِائَةَ سَنَةٍ ، وَلَتَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا سَاعَةٌ وَهِيَ كَظِيظٍ^(٧) بِالزَّحَامِ ، وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَابِعَ سَابِعَةٍ ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْبِشَامِ^(٨) ، حَتَّى
قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا ، فَوَجَدْتُ أَنَا وَسَعْدُ بْنُ مَالِكِ تَمْرَةً ، فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ
نَصْفَيْنِ ، وَالتَّقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، فَأَتَرَزْتُ بِنَصْفِهَا ، وَأَتَرَزَ بِنَصْفِهَا ،
وَمَا مِنَّا أَحَدٌ الْيَوْمَ إِلَّا وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبْوَةَ قَطٍ
إِلَّا تَنَاسَخَتْهَا^(٩) جَبْرِيَّةٌ ، وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا ، وَفِي
أَعْيُنِ النَّاسِ صَغِيرًا ، وَتَسْتَجْرِبُونَ الْأَمْرَاءَ مِنْ بَعْدِي ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٦ ، والبيان والبيين ٢ : ٢٧ ، والكامل لابن الأثير ٢ : ١٨٨)

[١] موضع قرب البصرة . [٢] السريعة الماصية التي لا يتعلق بها شيء . [٣] آذنت : أعلنت ،
والصرم : القطع . [٤] الصبابة : بقية الماء في الإناء . [٥] الشفير : حرف كل شيء .
[٦] سنة : والمراد أنها بعيدة الأقطار شاسعة الأرجاء . [٧] من كراه الطمام ملاء حتى لا يطبق
النفس ، ورجل كظّ وكظيط ومكطوط تبهظه الأمور حتى يعجز عنها . [٨] البشام : شجر عطر
الرائحة يستاك به . [٩] في الحديث « لم تكن نبوة إلا تناسخت » أي تحوّل من حال إلى حال ،
يعني أمر الأمة وتناير أحوالها ، والجبرية الجبروت .

١٢٦ - خطبة سعيد بن العاص حين قدم الكوفة واليا عليها
عزل عثمان رضى الله عنه الوايد بن عقبة بن أبى مُعَيْط من إمارة الكوفة ،
وكان قد اتهم بشرب الخمر وولى مكانه سعيد بن العاص سنة ٣٠ هـ ، فلما قدم
الكوفة صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
«والله لقد بُعثت إليكم وإني لكاره ، ولكنى لم أجد بداً إذ أمرت أن أتمم ،
ألا إن الفتنة قد أطلعت خُطْمها^(١) وعينها ، والله لأضربنَّ وجهها حتى أقمها
أو تُعَيِّنِي^(٢) ، وإني لرأى^(٣) نفسى اليوم» ثم نزل . (تاريخ الطبرى ٥ : ٦٣)

١٢٧ - الخنساء تحرض أولادها على القتال

حضرت الخنساء حربَ القادسية ومعها بنوها أربعة رجال ، فقالت لهم :
« يا بَنِيَّ ، أنتم أسلمتم طائمين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله غيره ،
إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ماخِذْتُ أباكم ، ولا فضحت
خالكم ، ولا هَجَّجْتُ^(٤) حَسْبِكُمْ ، ولا غَبَّرْتُ^(٥) نَسْبِكُمْ ، وقد تعلمون ما أعدَّ الله
للمسلمين من الثواب العظيم فى حرب الكافرين ، وأعلموا أن الدار الباقية خير
من الدار الفانية ، يقول الله عزَّ وجلَّ : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا
وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » فإذا أصبحتم غداً ، فاغدوا إلى قتال
عدوكم مستبصرين ، والله على أعدائه مستنصرين .
فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم ، فتقدّموا واحداً بعد واحد ،

[١] الحطم . جمع خظام ، وهو ما وضع فى أنف البعير ليقناده به ، والمراد ظهورها ونشوبها .
[٢] أى تعجزنى . [٣] الرود : الطلب . [٤] النهجين : التقيح . [٥] غره : لطخه
بالفئار ، أى دنست .

يُنشِدُونَ الْأَرَاغِيزَ ، فقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً ، فلما بلغها الخبر قالت : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمة » . فكان عمر رضي الله عنه يعطيها أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد منهم مائة درهم ، حتى قبض وماتت الخنساء . (خزائن الأدب ١ : ٣٩٥)

١٢٨ - خطبة عبد الله بن الزبير حين قدم بفتح إفريقية (١)

قدم عبد الله بن الزبير على عثمان بن عفان بفتح إفريقية ، فأخبره مشافهة ، وقصَّ عليه كيف كانت الواقعة ، فأعجب عثمان ما سمع منه ، فقال له : أتقوم بعنل هذا الكلام على الناس ؟ فقال يا أمير المؤمنين : إني أهيب لك مني لهم ، فقام عثمان في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس : إن الله قد فتح عليكم إفريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله ، وكان عبد الله بن الزبير إلى جانب المنبر ، فقام خطيباً - وكان أول من خطب إلى جانب المنبر - فقال :

« الحمد لله الذي ألف بين قلوبنا ، وجعلنا متحابين بعد البغضة ، الذي لا تُجحد نعمائه ، ولا يزول ملكه ، له الحمد كما حمد نفسه ، وكما هو أهله ، انتخب محمداً صلى الله عليه وسلم ، فاختره بعلمه ، وأتمنه على وحيه ، واختار له من الناس أعواناً ، قذف في قلوبهم تصديقه ومحبه ، فأمنوا به وعزروه (٢) وقرَّوه ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، فاستشهد (٣) الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح ، والبيع الرابع ، وبقى منهم من بقي ، لا تأخذهم في الله لومة لائم .

[١] فتحها عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٦ هـ ، وأمدته عثمان بجيش يرأسه عبد الله بن الزبير .
[٢] التعزير : التفخيم والتعظيم والإطانة ، وهو أيضاً صرب دون الحد أو هو أشد الصرب ضد .
[٣] استشهد (مبنياً للمجهول) قتل في سبيل الله .

أيها الناس : رحمكم الله ! إنا خرجنا للوجه الذي علمتم ، فكننا مع وال حافظ ،
حفظ وصية أمير المؤمنين ، كَانَ يَسِيرُ بِنَا الْأَبْرَدِينَ ^(١) ، وَيَخْفِضُ ^(٢) بِنَا فِي
الظَهَائِرِ ، وَيَتَّخِذُ اللَّيْلَ جَمَلًا ، يُعَجِّلُ الرَّحْلَةَ مِنَ الْمَنْزِلِ الْجَدْبِ ، وَيَطِيلُ اللَّبْثَ
فِي الْمَنْزِلِ الْخِصْبِ ، فَلَمْ نَزَلْ عَلَى أَحْسَنِ حَالَةٍ نَعْرِفُهَا مِنْ رَبِّنَا ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى
إِفْرِيقِيَّةَ ، فَزَلْنَا مِنْهَا حَيْثُ يَسْمَعُونَ صَهِيلَ الْخَيْلِ ، وَرُغَاءَ الْإِبِلِ ، وَقَعَقَةَ
السَّلَاحِ ، فَأَقْنَا أَيَّامًا ، نُجْمِ كُرَاعِنَا ^(٣) ، وَنُصَلِّحُ سِلَاحِنَا ، ثُمَّ دَعَوْنَا إِلَى الْإِسْلَامِ
وَالدَّخُولِ فِيهِ ، فَأَبْعَدُوا مِنْهُ ، فَسَأَلْنَا هِمَّ الْجَزِيَّةِ عَنْ صَغَارٍ أَوْ الصَّلَاحِ ، فَكَانَتْ
هَذِهِ أَبْعَدَ ، فَأَقْنَا عَلَيْهِمْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَيْلَةً نَتَانًا ، وَتَخْتَلِفُ رِسَالُنَا إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا
يَأْتِسُ مِنْهُمْ قَامَ خَطِيبًا ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَذَكَرَ فَضْلَ الْجِهَادِ ، وَمَا لِصَاحِبِهِ
إِذَا صَبَرَ وَاحْتَسَبَ ، ثُمَّ نَهَضْنَا إِلَى عَدُونَا ، وَقَاتَلْنَا أَسَدَ الْقِتَالِ ، يَوْمَنَا ذَلِكَ ،
وَصَبَرَ فِيهِ الْفَرِيقَانِ ، فَكَانَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ قَتْلَى كَثِيرَةٌ ، وَاسْتَشْهَدَ اللَّهُ فِيهِمْ
رِجَالًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَبِتْنَا وَبَاتُوا ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دَوِيٌّ بِالْقُرْآنِ كَدَوِيٌّ النَّحْلِ ، وَبَاتَ
الْمُشْرِكُونَ فِي خَمُورِهِمْ وَمَلَاعِبِهِمْ ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا أَخَذْنَا مِصَافِنَا الَّتِي كُنَّا عَلَيْهَا
بِالْأَمْسِ ، فَزَحَفَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، فَأَفْرَغَ اللَّهُ عَلَيْنَا صَبْرَهُ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا نَصْرَهُ ،
فَفَتَحْنَاهَا مِنْ آخِرِ النَّهَارِ ، فَأَصْبَحْنَا غَنَائِمَ كَثِيرَةً ، وَفَيْئًا وَاسِعًا ، بَلَغَ فِيهِ الْخَمْسُ
خَمْسَمِائَةَ أَلْفٍ ، فَصَفَّقَ ^(٤) عَلَيْهَا مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ ، فَتَرَكْتَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ قَرَّتْ
أَعْيُنُهُمْ ، وَأَغْنَاهُمُ النَّفْلَ ، وَأَنَا رَسُولُهُمْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبَشِرُهُ وَإِيَّاكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ

[١] الأبردان : الغداة والعشي . [٢] خفض بالمكان : أقام ، والظواهر جمع ظهيرة .

[٣] الكراع : جماعة الخيل ، وأجم الفرس : ترك ركوبه . [٤] صفق الباب يصفقه وأصفقه

أغلقه أى أغلق عليها باب الخزان .

من البلاد ، وأذل من الشرك ، فاحمدوا الله عباد الله على آلائه ، وما أحل بأعدائه ، من بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين .

ثم سكت فنهض إليه أبوه الزبير ، فقبل بين عينيه وقال : « ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » يا بنى ما زلت تنطق بلسان أبي بكر حتى صمت .
(العقد المرید ٢ : ١٤٩)

١٢٩ — خطبة السيدة عائشة فى الانتصار لابيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواماً يتناولون أبا بكر رضى الله عنه فأرسلت إلى أزفلة^(١) من الناس ، فلما حضروا أسدلت^(٢) أستارها ، وعلت وسادها ، ثم قالت :

« أبى وما أبىه ، أبى والله لا تعطوه^(٣) الايدى ، ذاك طود^(٤) مُنيف ، وفرع^(٥) مديد ، هيهات كذبت الظنون ، أنجح^(٦) إذأ كديتم^(٧) ، وسبق إذ ونيتم ، سبق الجواد إذا استولى على الأمد^(٨) ، فتى قريش ناشئاً ، وكهفها^(٩) كهلاً ، يفك عانيها ، ويريش^(١٠) مُمْلِقِهَا ، ويرأب^(١١) شَعْبَهَا ، وَيَلْمُ شَعْنَهَا ، حتى حلّيته^(١٢) قلوبها ، ثم استشرى^(١٣) فى دين الله ، فما برحت شكيمته^(١٤) فى ذات الله عز وجل ، حتى اتخذ بفنائنه مسجداً ، يحيى فيه ما أمات المبطلون ،

[١] جماعة . [٢] سدله يسدله : كنصر وصر وأسدله أرخاه . [٣] تناولوه .

[٤] الطود : الجبل ، والديف : المشرف . [٥] فرع كل شىء أعلاه ، ومن القوم شريهم .

[٦] أنجح : صار ذا نجح . [٧] الكدية : بضم فسكون الأرض الغليظة ، والصفاء العظيمة الشديدة

وحفر فأكدى إذا صادها فلا يمكنه الحفر (وسأله فأكدى وجده مثلها) ، وونيتم أى فترتم وضعتم .

[٨] العاية والنتهى . [٩] الكهف : الوزر والملجأ ، والكهمل من جاوز الثلاثين أو أربعاً وثلاثين

إلى إحدى وخمسين . [١٠] راش السهم يرشهُ أرق عليه الريش كرشه ، والمراد بينه ويساعده .

[١١] يصلح والشعب الصدع . [١٢] حلى الشىء : استعلاه . [١٣] غضب ولج .

[١٤] الشكيمة الأنفة وى اللجام الحديدية المعترضة فى فم العرس . وهو شديد الشكيمة أنف أبى لاينقاد .

وكان رحمه الله غزير الدّمة ، وقيد^(١) الجوانح ، شجى النّشيج^(٢) ، فانقضت إليه نسوان مكة وولدائها ، يسخرون منه ويستهنّون به « الله يستهنّى بهم » ، ويمدّهم في طغيانهم يعمهون^(٣) فأكبرت ذلك رجالات من قريش ، فحنت قسيها ، وفوقت^(٤) سهامها ، وامتلوه^(٥) غرضاً ، فما قلوا له صفاة^(٦) ، ولا قصفوا له قناة ، ومرّ على سيسائه^(٧) ، حتى إذا ضرب الدين بجرانه^(٨) ، ورست أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجاً ، ومن كل فرقة أرسالاً^(٩) وأشتاتاً ، اختار الله لنبيه ما عنده ، فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رؤاقه^(١٠) ، ومدّ طنّبه^(١١) ، ونصب جباله ، وأجلب^(١٢) بخيله ورجله ، واضطرب جبل الإسلام ، ومرّج^(١٣) عهده ، وماج أهله ، وبغى الغوائل ، فظننت رجال أن قد أكثبت^(١٤) أطماعهم ، ولات حين الذي يرجون ، وأنى والصدّيق بين أظهرهم ، فقام حاسراً مشمراً ، لجمع حاشيتيه^(١٥) ، ورفع قطريه^(١٦) ، فردّ رسن^(١٧) الإسلام على غرّبه^(١٨) ، ولمّ شعّته بطبه ، واتناش^(١٩) الدين فنعشّه ، فلما

[١] الوقيذ : الصريع والشديد المرض المشرف . [٢] الشجى : الحزين ، والشيخ : صوت البكاء
شجى الباكي ينشج كجلس عصّ بالبكاء في حاقه من غير انتحاب . [٣] العمه بفتحتي الردد في الضلال .
[٤] فوق السهم : جعل له فوقاً ، وهو موضع الوتر من السهم . [٥] امتلوه : مثلوه .
[٦] الحجر الصلد : الضحم . [٧] شدّته . حمله على سيساء الحق أى على حدّه ، والسيساء : عظم
الطهر ، والعرب تصربه مثلاً لشدّة الأمر . [٨] جران البعير : مقدم عقه من مذبحه إلى منخره .
[٩] جمع رسل بفتحتي ، وهو القطيع من كلّ شيء . [١٠] نسطاطه . [١١] جبل طوبل
يشدّ به سرادق البيت أو الوتد . [١٢] أجلب : صاح ، والحيل : الحيلة ، ومنه ياخيل الله اركبي ،
والرّحل : اسم جمع راحل كالصحب والرك ، أى صاح بالركاب والمشاة وترى ورجلك بكسر الجيم وضمها .
[١٣] المرج : بفتحتي الفساد والقلق والاختلاط والاضطراب (وإعما يسكن مع الهرج) .
[١٤] أكثب : قرب ، والنهز جمع نهزة بضم النون وهى الفرصة . [١٥] حاشية كلّ شيء :
جانبه وطره . [١٦] القطر : الناحية . [١٧] الجبل . [١٨] الغرب : حدّ الشيء .
[١٩] انقلش ونعشه الله كأنعشه ، ونعشه : رفعه .

أراح^(١) الحَقَّ على أهله ، وقرَّر الرءوس على كواهلها^(٢) ، وحقن الدماء في
 أهبها^(٣) ، أنته منيته ، فسد ثلمته بنظيره في الرحمة ، وشقيقه في السيرة والمعدلة ،
 ذاك ابن الخطاب ، فله دَرَّ أُمَّ^(٤) حملت به ، ودَرَّت عليه ، لقد أوحدت^(٥) به ،
 ففتح^(٦) الكفرة ، وديحها^(٧) ، وشرد الشرك شَذَرَ مَذَرَ^(٨) ، وبَجَّ^(٩) الأرض
 وبَجَّعها^(١٠) ، فقاعت أَكْلَهَا^(١١) ولفظت خَبَأها ، ترأمة^(١٢) وَيَصْدِف عنها ،
 وَتَصَدَّى^(١٣) له ويأبأها ، ثم وزع فيها فيثها ، وودَّعها كما صحبها ، فأروني ، ماذا
 ترتثون ، وأى يومئى أبى تنقيمون ، أيوم إقامته إذ عدل فيكم ، أم يوم ظعنه إذ نظر
 ليكم^(١٤) ؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، ثم أقبلت على الناس بوجهها ،
 فقالت أنشدكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئاً ، قالوا : اللهم لا .

(صح الأعمى ١ : ٢٤٨ ، والمعقد المرشد ٢ : ٢٠٦ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٣٠)

١٣٠ - رثاؤها لأبيها

لما توفى أبو بكر رضى الله عنه ، وفقت عائشة على قبره فقالت :
 « نضر^(١٥) الله وجهك يا أبتى ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت
 للدنيا مُذِلًّا بإدبارك عنها ، وللآخرة مُعِزًّا بإقبالك عليها ، ولئن كان أجلّ الحوادث
 بعد رسول الله صلى عليه وسلم رُزُوك ، وأعظم المصائب بعده فقْدُك ، إن كتاب

-
- [١] أراح على فلان حقه : ردّه عليه . [٢] الكاهل : مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق .
 [٣] جمع إهاب ، وهو الجلد ، والمراد الأجسام . [٤] الدرّ : الابن والنفس والعمل .
 [٥] أوحدت المرأة : ولدت واحداً ، أى جاءت به منفرداً لانظير له . [٦] أذلّ وقهر .
 [٧] داخ البلاد : ودوخها ، وديحها : تهرها واستولى على أهلها . [٨] تفرّقوا شذروا منر :
 ذهبوا فى كلّ وجه . [٩] سقمها : كناية عن الصبح . [١٠] قهر أهلها و- - - - - : طرح ما فيها من
 الكنوز وأموال الملوك . [١١] الأكل : ما يؤكل ، أى أخرجت خيراتها . [١٢] تعطف
 عليه ويصدق أى يعرض . [١٣] تتمرّض . [١٤] أى فيها صلحكم فولى عليكم عمر .
 [١٥] من النضرة والضارة بفتح النون وهى الحسن .

الله لِيَعِدُّ بِحَسَنِ الصَّبْرِ فِيكَ حُسْنَ الْعَمَاضِ مِنْكَ ، وَأَنَا أَسْتَنْجِزُ مَوْعِدَ اللَّهِ تَعَالَى
بِالصَّبْرِ فِيكَ ، وَأَسْتَقْضِيهِ ^(١) بِالْأَسْتِغْفَارِ لَكَ ، أَمَا لَنْ قَامُوا بِأَمْرِ الدُّنْيَا ، لَقَدْ قَتَّ
بِأَمْرِ الدِّينِ ، لَمَّا وَهَى شَعْبُهُ ^(٢) ، وَتَفَاقَمَ صَدْعُهُ ^(٣) ، وَرَجَفَتْ ^(٤) جَوَانِبُهُ ،
فَعَمَلِكَ سَلَامُ اللَّهِ تَوَدِيعَ غَيْرِ قَالِيَةٍ ^(٥) لِحَيَاتِكَ ، وَلَا رَارِيَةٍ ^(٦) عَلَى الْقَضَاءِ فِيكَ .
(زهر الآداب ١ : ٤٠ ، العمدة المفيدة ٢ : ٧ ، نهاية الأرب ٥ : ١٦٧ ، البيان والذبيح ٢ : ١٦٠)

١٣١ - خطبتها حين أنبتت بقتل عثمان

كانت السيدة عائشة خرجت إلى مكة للحج وعثمان محصور ، ثم خرجت
من مكة تريد المدينة ، فلما كانت بِسَرِفٍ أنبتت بمقتل عثمان ، فانصرفت إلى
مكة ، فقصدت الْحِجْرَ ، فسترت فيه ، واجتمع إليها الناس ، فقالت :
« أيها الناس : إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة ،
اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظالماً بالأمس ، وتقموا عليه استعمال من حدثت
سنته ، وقد استعمل أمثالهم قبله ، ومواضع من الحمى ^(٧) حماها لهم فتابعهم ،
ونزع لهم عنها ، فلما لم يجدوا حجة ، ولا عذراً ، بادروا بالعدوان ، فسفكوا الدم
الحرام ، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، والله لأصبع
من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ، والله لو أن الذي اعتدوا به عليه ، كان

[١] أطلب قضاءه . [٢] وهي ضعف ، والشعب الجمع . [٣] الصدع : الشو .

[٤] اضطربت . [٥] مبغضة . [٦] عاتبة ولائمة . [٧] من المطاعن التي وجهت إلى
عثمان رضي الله عنه أنه حمى الحمى عن المسلمين مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعاهم سواء في الماء
والكلاء ، ولما سئل في ذلك قال إنما مات ذلك لإيبل الصدقة ، وقد أطلقته الآن ، وأنا أستغفر الله ، وروى
الواقدي أن عثمان كان يحمى الرّبة والشرف والبيع ، فكان لا يدخل الحمى بعير له ولا فرس ولا لبني أمية ،
حتى كان آخر الزمان ، وكان يحمى الدمرف لإيبله ، وكافت ألف بعير وإيبل الحاكم بن أبي العاص ، ويحمى
الرّبة لإيبل الصدقة ، ويحمى البيع لحيل المسلمين وخبله وخيل بني أمية - شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٢٣٥

ذنباً لخالص منه كما يخلص الذهب من خبثه ، أو الثوب من دَرَنه ، إذ ماصوه ^(١)
كما يُمَاص الثوب بالماء . (الكامل لابن الأثير ٣ : ١٠٢)

فتنة أصحاب الجمل

ولما قدمت السيدة عائشة رضی الله عنها البصرة ، لالطلب بدم عثمان ، خرج إليها من أهلها من أراد أن يكون معها ، واجتمع القوم بالمربد ، وجعلوا يشوبون ، حتى غصَّ بالناس ، فتكلم طلحة ، فأنصتوا له :

١٣٢ - خطبة طلحة

حمد الله وأثنى عليه ، وذكر عثمان رضی الله عنه وفضله ، والبلد وما أُسْتُحِلَّ منه ، وعظم ما أتى إليه ، ودعا إلى الطلب بدمه وقال :

« إن في ذلك إغزازَ دين الله عزَّ وجلَّ وسلطانَه ، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم ، فإنه حدٌّ من حدود الله ، وإنكم إن فعلتم أصبتم ، وعاد أمركم إليكم ، وإن تركتم لم يقم لكم سلطان ، ولم يكن لكم نظام . »

وتكلم الزبير بمثل ذلك ، ثم تكلمت السيدة عائشة وكانت جهَّورِية الصوت

١٣٣ خطبة السيدة عائشة بالمربد

حمدت الله عزَّ وجلَّ ، وأثنت عليه وقالت :

« كَانَ النَّاسُ يَتَجَنَّوْنَ ^(٢) عَلَى عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَيُزْرُونَ ^(٣) عَلَى عَمَالِهِ ، وَيَأْتُونَنا بِالْمَدِينَةِ ، فَيَسْتَشِيرُونَنا فِيمَا يَخْبِرُونَنا عَنْهُمْ ، فَنَنْظُرُ فِي ذَلِكَ فَنَجِدُهُ بَرِيًّا ،

[١] الموص : غسل ابن والدك باليد . [٢] تجنى عليه : ادعى ذنباً لم يفعله . [٣] زرى عليه : طابه كالأزرى لكنه قليل .

تقياً وفيأ ، ونجدهم فَجَرَّةَ غَدْرَةٍ كَذْبَةٍ ، يحاولون غير ما يُظهرون ، فلما قووا على المكاثرة كأثروه ، فاقحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام ، والمال الحرام ، والبلد الحرام ، بلا تِرة^(١) ولا عذر ، ألا إن مما ينبغي ، لا ينبغي لكم غيره ، أخذَ قَتْلَةَ عثمان رضى الله عنه ، وإقامة كتاب الله عز وجل : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ) الآية .
(تاريخ الطبرى ٥ : ١٧٥ ، والكاثل لابن الأثير ٣ : ١٠٥)

١٣٤ - خطبة عدى بن حاتم

يستنفر قومه لنصرة الإمام عليّ

لما شَخَّصَ الإمام عليّ كرم الله وجهه من المدينة إلى البصرة وقد علم بمسير طلحة والزبير وعائشة إليها ، قام عدى بن حاتم إليه فقال : يا أمير المؤمنين لو تقدمتُ إلى قومي أخبرهم بمسيرك ، وأستنفرهم ، فإن لك من طيء مثل الذى معك ، فقال عليّ نعم فافعل ، فتقدم عدى إلى قومه ، فاجتمعت إليه رؤساء طيء ، فقال لهم :

« يا معشر طيء : إنكم أمسكتُم عن حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشُّرك ، ونصرتُم الله ورسوله فى الإسلام على الرِّدَّة ، وعلى قادمٍ عليكم ، وقد ضَمِنْتُ لهُ مثلَ عِدَّةٍ مَنْ مَعَهُ مِنْكُمْ ، نَخَفُوا^(٢) مَعَهُ ، وقد كنتم تقاتلون فى الجاهلية على الدنيا ، فقاتلوا فى الإسلام على الآخرة ، فإن أردتم الدنيا فعند الله مغامٌ كثيرةٌ ، وأنا أدعوكم إلى الدنيا والآخرة ، وقد ضَمِنْتُ عنكم الوفاء ، وباهيت بكم الناس ، فأجيبوا قولى ، فإنكم أعز العرب داراً ، لكم فضلٌ معاشكم وخيلكم ، فاجعلوا فضل

المعاش لِلْعِيَالِ^(١) ، وفضول الخيل للجهاد ، وقد أظلم علىّ والناس معه من المهاجرين والبدرين^(٢) وَالْأَنْصَار ، فكونوا أكثرهم عدداً ، فَإِنْ هَذَا سَبِيلٌ لِلْحَى فِيهِ الْغَنَى وَالسَّرُور ، وللقَتِيل فِيهِ الْحَيَاة وَالرِّزْق .

فصاحت طيبي نعم نعم ! حتى كاد أن يُصَمَّ من صياحهم .

(الإمامة والسياسة ١ : ٤٥)

١٣٥ - خطبة زفر بن زيد

يستنفر قومه لنصرة عليّ أيضاً

وقام إلى عليّ زفر بن زيد الأسدي - وكان من سادة بني أسد - فقال : يا أمير المؤمنين ، إن طيئاً إخواننا وجيراننا قد أجابوا عدياً ، ولى في قومي طاعة ، فأذن لي فأتيتهم ، قال : نعم ، فاتاهم فجمعهم ، وقال :

« يا بني أسد : إن عدي بن حاتم ضمّن لعليّ قومه ، فأجابوه ، وقضوا عنه ذمّته^(٣) ، فلم يمتلئ الغني بالغني ، ولا الفقير بالفقر ، وواسى بعضهم بعضاً ، حتى كأنهم المهاجرون في الهجرة ، والأنصار في الأثرة^(٤) ، وهم جيرانكم في الديار ، وخلطواؤكم^(٥) في الأموال ، فأنشدكم الله لا يقول الناس غداً :

نصرت طيبي ، وخذلت بنو أسد ، وإن الجار يُقاس بالجار ، كالنعل بالنعل ، فإن خفتهم فتوسّعوا في بلادهم ، وانضموا إلى جباهم ، وهذه دعوة لها ثواب من

الله في الدنيا والآخرة . (الإمامة والسياسة ١ : ٤٦)

[١] جمع عيال (بكيد) وهو من يجب الإتيان عليه . [٢] أي الذين حضروا وقعة بدر .

[٣] العهد والحزمة . [٤] أي يؤثر كل منهم أخاه على نفسه وبفضله كما فعل الأنصار بالمهاجرين

« وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » [٥] الحاطا . جمع خليط وهو الشريك

١٣٦ - خطبة سعيد بن عبيد الطائي

ولما نزل الإمام عليّ كرم الله وجهه بالرّبذة^(١) ، أتته جماعة من طيبيّ ، فقبل لعلّيّ : « هذه جماعة من طيبيّ قد أتتك ، منهم من يريد الخروج معك ، ومنهم من يريد التسليم عليك » قال : « جزى الله كلاً خيراً ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » ثم دخلوا عليه ، فقال عليّ : ما شهدتمونا به ؟ قالوا شهدناك بكلّ ما تحبّ ، قال : « جزاكم الله خيراً ، فقد أسلمتم طائعين ، وقاتلتم المرتدين ، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين » فنهض سعيد بن عبيد الطائي فقال : « يا أمير المؤمنين : إن من الناس من يُعبّر لسانه عما في قلبه ، وإني والله ما كلُّ ما أجد في قلبي يُعبّر عنه لساني ، وسأجهّد (وباللّٰه التوفيق) أما أنا فساأصح لك في السّرّ والعلانيّة ، وأقاتل عدوك في كلّ موطن ، وأرى لك من الحق ما لا أراه لأحد من أهل زمانك ، لفضلك وقرابتك » .

قال : رحمك الله ! قد أدّى لسانك عما يُجِنُّ^(٢) ضميرك ، فقتل معه بصفين رحمه الله !

(تاريخ الطبري ٥ : ١٨٤)

١٣٧ - خطبة أبي موسى الأشعري المتوفى سنة ٥٢ هـ

وكتب الإمام عليّ من الرّبذة أبا موسى الأشعري - وكان عاملاً على الكوفة - ليستنفر الناس لقتال عائشة ومن معها ، فثبّطهم وخطبهم ، فقال :

[١] قرب المدينة ، وكان الامام حين بلعه خبر خروج عائشة وطلحة والزبير ، وأنهم قد توجهوا نحو العراق ، [خرج من المدينة يبادر وهو يرجو أن يدركهم ويردهم ، فلما انتهى إلى الرّبذة أتاه أنهم قد أمعنوا فأقام بالرّبذة أياما . [٢] يجن : أي يستر ويخفي .

« أيها الناس : إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين صحبوه في المواطن ، أعلم بالله جلَّ وعزَّ و برسوله صلى الله عليه وسلم ممن لم يصحبه ، وإن لكم علينا حقاً ، فأنا مؤدَّيه إليكم ، كأن الرأي ألاَّ تَسْتَخِفُّوا بساطان الله عزَّ وجلَّ ، ولا تجترثوا على الله عزَّ وجلَّ ، وكان الرأي الثاني أن تأخذوا من قديم عليكم من المدينة فتردوهم إليها ، حتى يجتمعوا ، وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ، ولا تكلفوا الدخولَ في هذا ، فأما إذ كان ما كان ، فإنها فتنة صمَاء ، النائمُ فيها خير من اليقظانِ ، واليقظانُ فيها خير من القاعد ، والقاعدُ خير من القائمِ ، والقائمُ خير من الراكب ، فكونوا جرثومة^(١) من جرائم العرب ، فأغمِدُوا^(٢) السيوف ، وَأَنْصِلُوا^(٣) الأسنة ، واقطعوا الأوتار ، وآوُوا المظلوم والمضطهد ، حتى يلتئم هذا الأمر ، وتنجلي هذه الفتنة » . (تاريخ الطبري ٥ : ١٨٧ ، والكمال لابن الأثير ٣ : ١١٣)

١٣٨ - خطبة أخرى له

وخطب أيضاً في هذا الصدد ، فقال :

« أيها الناس : أطيعوني تكونوا جرثومة من جرائم العرب ، يا أوى إليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف ، إنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أعلم بما سمعنا . إن الفتنة إذا أقبلت شبَّهت ، وإذا أدبرت بُيِّدت ، وإن هذه الفتنة باقرة^(٤) كداء البطن ، تجري بها الشمال والجنوب ، والصبا^(٥) والدبور ، فتسكن أحياناً ، فلا يُدرى من أين تؤتى ، تذر الحليم كآبنِ أمس ، شيهوا^(٦) سيوفكم ، وقصِّدوا^(٧)

[١] جرثومة الشيء : أصله . [٢] غمد السيف بغمده كنعن وصر ب وأغمده : جعله في الغمد .

[٣] أنصل السهم ونصله بالتشديد : جعل فيه نصلاً وأزاله عنه - ضد - . [٤] فتنة باقرة صادعة

للأفة شاقة للعصا . وفي الكامل لابن الأثير : فاقرة بالفاء ، وهي الداهية تكسر فقار الطهر .

[٥] الصبا : ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار . والدبور : ريح تقابها .

[٦] شام سيفه يشيمه : غمده واستله ضد . [٧] التقصيد والقصد : الكسر بأي وجه كان أو

رماحكم ، وأرسلوا سهامكم ، واقطعوا أوتاركم ، والزمووا بيوتكم ، خلوا قريشاً إذا
 أبوا إلا الخروج من دار الهجرة ، وفراق أهل العلم بالإمرة ، ترقق^(١) ففتقها ،
 وتَشَعَّب^(٢) صدعها ، فإن فعلت فلا نفسها سَعَت ، وإن أبت فعلى أنفسها جنت ،
 سمئها تُهْرِيق في أديعها ، استنصحوني ولا تستغشوني ، وأطيعوني يسلم لكم دينكم
 ودنياكم ، ويشقى بحرّ هذه الفتنة من جناها .

١٣٩ - خطبة زيد بن صوحان

فقام زيد بن صوحان ، فثال^(٣) يده المقطوعة ، فقال :

« يا عبد الله^(٤) بن قيس ، رُدَّ الفُرات عن أدراجه^(٥) ، أَرُدُّه من حيث
 يجيء ، حتى يعود كما بدأ ، فإن قدرت على ذلك ، فستقدر على ما تريد ، فدع عنك
 ما لست مُدْرِكَه ، ثم قرأ : (الم ، أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا
 وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ
 الْكَاذِبِينَ) سيروا إلى أمير المؤمنين ، وسيد المسلمين ، وَأَنْفِرُوا^(٦) إليه أجمعين ،
 تصيبوا الحق . »

١٤٠ - خطبة القعقاع بن عمرو

فقام القعقاع بن عمرو فقال :

« إني لكم ناصح ، وعليكم شفيق ، أحب أن ترشُدوا^(٧) ، ولأقولن لكم

بالصف ورمح قصد كفرح وقصيد وأقصاد متكسر . [١] رقق الفتق : سده . [٢] الشعب :
 الإصلاح والإفساد والجمع والتفريق ، ضدّ . [٣] رفع ، قطعت يده يوم جلواء ، وقيل بالقادسية . في
 قتال الفرس ، وقتل يوم الجمل (أسد الغابة ٢ : ٢٣٤) . [٤] هو اسم أبي موسى .

[٥] جمع درج بفتحين وهو الطريق . [٦] اذهبوا . وكانت السيدة عائشة قد كتبت إليه كتاباً
 تأمره فيه بملازمة بيته أو نصرتها ، فقال أمرت أن تقر في بيتها ، وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ،
 فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت ما أمرنا به . [٧] رشد : كنصر وفرح .

قولاً هُوَ الحق ، أما ما قال الأمير فهو الأمر ، لو أن إليه سبيلاً ، وأما ما قال زيد فزيد عدوُّ هذا الأمر ، فلا تستنصحوه ، فإنه لا ينتزع أحد من الفتنة طعن فيها ، وجرى إليها ، والقول الذى هو الحق أنه لا بدَّ من إمارة تنظيِّم الناس ، وتترع^(١) الظالم ، وتُعزِّم المظلوم ، وهذا على يلى بما ولى ، وقد أنصف فى الدعاء ، وإنما يدعو إلى الإصلاح ، فانفروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع .

١٤١ - خطبة سيحان بن صوحان

وقال سيحان :

« أيها الناس : إنه لا بدَّ لهذا الأمر ، وهؤلاء الناس من وال ، يدفع الظالم ، ويُعزِّم المظلوم ، ويجمع الناس ، وهذا واليكم يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه^(٢) ، وهو المأمون على الأمة ، الفقيه فى الدين ، فمن نهض إليه ، فإننا سائرُونَ معه .

١٤٢ - خطبة الحسن بن على

وقام الحسن بن على رضى الله عنه ، فقال :

« أيها الناس : أجيئوا دعوة أميكم ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لأن يلميه أولو النهى أمثلُ فى العاجلة ، وخير فى العاقبة ، فأجيئوا دعوتنا ، وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتكم ، وإن أمير المؤمنين يقول : قد خرجت مخرجى هذا ظالماً أو مظلوماً ، وإني أذكر الله رجلاً رعى حق الله إلا نفرَ ، فإن كنت مظلوماً أعاننى ، وإن كنت ظالماً أخذ منى ، والله إن طلحة والزبير لأول من بايعنى ، وأول من غدر ، فهل استأثرت بجال ، أو بدلت حكماً؟ فانفروا ، فمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر .

(تاريخ الطبرى ٥ : ١٨٨ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ١١٤)

١٤٣ - وفادة القعقاع بن عمرو إلى أصحاب الجمل

ولما نزل الإمام عليّ كرم الله وجهه بنى قارٍ، دَعَا القَعْقَاعَ بنَ عمرو، فأرسله إلى أهل البصرة، وقال له: اِلْتَقَ هَذِينَ الرَّجُلَيْنِ - طَلْحَةَ وَالزَّيْبِرَ - يَا بَنَ الحَنْظَلِيَّةِ، « وَكَانَ القَعْقَاعُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » فَادْعُهُمَا إِلَى الأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَعَظَّمْ عَلَيْهِمَا الفُرْقَةَ، وَقَالَ لَهُ: كَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ فِيمَا جَاءَكَ مِنْهُمَا، مِمَّا لَيْسَ عِنْدَكَ فِيهِ وَصَاةٌ^(١) مَنِي؟ فَقَالَ: نَلْقَاهُمْ بِالذِّيْ أَمَرْتُ بِهِ، فَإِذَا جَاءَ مِنْهُمَا أَمْرٌ لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْكَ فِيهِ رَأْيٌ، اجْتَهِدْنَا الرَّأْيَ، وَكَلِّمْنَاكُمْ عَلَى قَدْرِ مَا نَسْمَعُ وَنَرَى أَنَّهُ يَنْبَغِي، قَالَ: أَنْتَ لَهَا .

فَخَرَجَ القَعْقَاعُ حَتَّى قَدِمَ البَصْرَةَ . فَبَدَأَ بِمَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فَسَلَّمَ عَلَيْهَا، وَقَالَ: أَيُّ أُمَّةٍ: مَا أَشْخَصَكَ وَمَا أَقْدَمَكَ هَذِهِ البَلَدَةَ؟ قَالَتْ: أَيُّ مُبْنَى: إِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ، قَالَ: فَابْعَثِي إِلَى طَلْحَةَ وَالزَّيْبِرِ، حَتَّى تَسْمَعِي كَلَامِي وَكَلَامَهُمَا، فَبِعِثْتِ إِلَيْهِمَا فَجَاءَا، فَقَالَ: إِنِّي سَأَلْتُ أُمَّ المُؤْمِنِينَ مَا أَشْخَصَهَا وَأَقْدَمَهَا هَذِهِ البَلَادَ؟ فَقَالَتْ: إِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ، فَمَا تَقُولَانِ أَنْتُمَا؟ أُمَّتَابِعَانِ أُمَّ مُخَالَفَانِ؟ قَالَا: مُتَابِعَانِ، قَالَ: فَأَخْبِرَانِي، مَا وَجَهَ هَذَا الإِصْلَاحَ؟ فَوَاللَّهِ لئن عَرَفْنَاهُ لَنُضْلِحَنَّ، وَلئن أَنْكَرْنَاهُ لَأَنْضَلِجَ، قَالَا: قَتَلَهُ عُمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَإِنَّ هَذَا إِنْ تُرِكَ، كَانَ تَرْكَاً للقرآن، وَإِنْ حُمِلَ بِهِ، كَانَ إِحْيَاءً للقرآن، فَقَالَ: قَدْ قَتَلْتُمَا قَتَلَةَ عُمَانَ مِنْ أَهْلِ البَصْرَةِ، وَأَنْتُمْ قَبْلَ قَتْلِهِمْ أَقْرَبُ إِلَى الاستِقَامَةِ مِنْكُمْ اليَوْمَ، قَتَلْتُمْ سِتْمَائَةَ إِلا رَجُلًا، فَغَضِبَ لَهُمْ سِتَّةَ آلَافٍ، وَاعْتَزَلُوكُمْ، وَخَرَجُوا مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ، وَطَلَبْتُمْ ذَلِكَ الذِّي أَفْلَتَ - يَعْنِي حُرْقُوصَ بَنِ زُهَيْرٍ - فَمَنْعَهُ سِتَّةَ آلَافٍ

وهم على رجل ، فإن تركتموه كتمت تاركين لما تقولون ، فإن قاتلتموهم والذين
اعتزلوكم فأدبوا^(١) عليكم ، فالذي حذرتم وقربتم^(٢) به هذا الأمر أعظم مما
أراكم تكرهون ، وأنتم أحميتهم مضرّ وريعة من هذه البلاد ، فاجتمعوا على حربكم
وَخِذْلَانِكُمْ نُصْرَةً لِهَؤُلَاءِ ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدّ العظيم ،
والذنب الكبير .

فقلت أم المؤمنين : فتقول أنت ماذا ؟ قال : أقول ، هذا الأمر دواؤه
التسكين ، وإذا سكن اختلجوا^(٣) ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير ، وتباشير
رحمة ، وَدَرَكٌ بِئَارِ هَذَا الرَّجُلِ ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أنتم أيتمت إلا
مكابرة هذا الأمر واعتسافه ، كانت علامة شرّ وذهاب هذا النّار ، وبعثة الله في
هذه الأمة هزاهزها^(٤) ، فَأَثِرُوا العافية تُرْزَقُوهَا ، وكونوا مفاتيح الخير ، كما
كتمت تكوون ، ولا تمرّضونا للبلاء ، ولا تعرّضوا له ، فَيَصْرَعَنَا وَإِيَّاكُمْ ، وَإِيْمُ
اللّهِ إِنِّي لَأَقُولُ هَذَا وَأَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنِّي لَخَائِفٌ الْآيَتِمْ حَتَّى يَأْخُذَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا
حاجته من هذه الأمة ، التي قلّ متاعها ، ونزل بها ما نزل ، فإن هذا الأمر الذي
حدث ليس يُقَدَّرُ ، وليس كالأمور ، ولا كقتل الرّجلِ الرّجل ، ولا النفر الرّجل ،
ولا القَبِيلَةَ الرّجلِ .

فقالوا : نعم ، إذن قد أحسنت وأصبت المقالة فارجع ، فإن قدّم عليّ ، وهو
على مثل رأيك ، صلح هذا الأمر ، فرجع إلى عليّ فأخبره ، فأعجبه ذلك ، وأشرف
القوم على الصلح^(٥) . (تاريخ الطبري ٥ : ١٩١)

[١] أي غلبوكم وانتصروا عليكم . [٢] قربه (كسمع) قرب منه (ككرم) .
[٣] اضطربوا وتفككوا . [٤] الهزيمة والهزائم : تحريك البلايا والحروب الناس .
[٥] ولكن السبّيين أحبطوا مساعي الصلح ، إذ خرجوا في الغلس دون أن يشعر بهم أحد فقصدهم مضرّم
مضر البصرة ، وريعتهم ربيعة البصرة ، وبعينهم البصرة ، ووضعوا فيهم السلاح . فشارك قوم في وجوه
أصحابهم ، ودارت رحى القتال بينهم ، وكلا الفريقين لا يعلم بكنه تلك المكيدة ، وكان بينهما ما كان .

١٤٤ - خطبة علي بن أبي طالب

فلما رجع القعقاع من عند أم المؤمنين وطلحة والزبير ، جمع الإمام عليّ الناس ، ثم قام على الغرأر ، فحمد الله عزّ وجلّ ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر الجاهلية وشقآها ، والإسلام والسعادة ، وإنعام الله على الأمة بالجماعة ، بالخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الذي يليه ، ثم الذي يليه ، ثم حدّث هذا الحدّث ، الذي جرّه على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا ، حسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة ، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها ، والله بالغ أمره ، ومُصِيبٌ ما أراد ، ألا إني راحلٌ غدًا فارتحلوا ، ألا ولا يرتهنن غدًا أحدٌ أعان على عثمان رضى الله عنه بشيء ، في شيء من أمور الناس ، وليُغن السفهاء عن أنفسهم . (تاريخ الطبري ٥ : ١٩٤)

١٤٥ - خطبة السيدة عائشة يوم الجمل (توفيت سنة ٥٧ هـ)

وخطبت السيدة عائشة رضى الله عنها أهل البصرة يوم الجمل فقالت :
« أيها الناس : صه صه ، إن لى عليكم حقّ الأمومة ، وحرمة الموعظة ، لا يتهمنى إلا من عصى ربه ، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري^(١) ونحري ، فأنا إحدى نسائه فى الجنة ، له ادخرنى ربي ، وخلصنى من كل بضاعة ، وبنى ميزّ مناقم من مؤمنكم ، وبنى أرخص الله لكم فى صعيد الأبواء^(٢) ، ثم أبى

[١] السحر : الرثة . [٢] الصعيد : التراب أو وجه الأرض ، والأبواء : قرية بها قبر آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم ، تشير إلى ما حدث ببركتها من ترخيص المولى (جلّ وعلا) للمسلمين فى التميم إذا لم يجدوا ماء يتوضئون به ، وفى الحديث : « عن عائشة رضى الله عنها : قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بدات الجيش انقطع عقد لى ، فأقام رسول الله على التماسه ، وأقام الناس معه وليسوا على ماء ، فأتى الناس إلى أبى بكر الصديق فقالوا ألا ترى ما صنعت

ثاني اثنين الله ثالثهما ، وأول من سُمِّي صِدِّيقًا ، مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم راضياً عنه ، وطوّقه أعباء الإمامة ، ثم اضطرب جبل الدين بعده ، فمسك أبي بطرفيه ، ورتق لكم فتق النفاق ، وأغاض نبع الرّدة ، وأطفأ ما حشّ^(١) يهود ، وأنتم يومئذ جُحظُ العيون ، تنظرون الغدرة ، وتسمعون الصيحة ، فرأب^(٢) الثأى^(٣) ، وأود^(٤) من الغلظة ، وانتاش من الهوة ، وأجتحي^(٥) دفين الداء ، حتى أعطن^(٦) الوارِدُ ، وأورد الصّادرُ ، وعَلَّ^(٧) الناهل ، فقبضه الله إليه ، واطنًا على هامات^(٨) النفاق ، مُذْكِيًا^(٩) نار الحرب للمشركين ، فانتظمت طاعتكم بحبله ، فوالى أمركم رجلاً مُرْعِيًا إذا رُكن إليه ، بعيد ما بين اللَّابَتَيْنِ^(١٠) ، عُرْكَةً للأذاة بِجَنْبِهِ^(١١) ، صَفُوحًا عن أذاة الجاهلين ، يقظان الليل في نصرة الإسلام ، فسلك مسلك السابقة ، ففرق شمل الفتنة ، وجمع أعضاد ما جمع القرآن ، وأنا نُصِبُ المسألة عن مسيرى هذا ، لم أتمس إثمًا ، ولم أونس فتنة أوطئكموها ، أقول قولي هذا صدقًا وعدلاً ، وإعذارًا وإنذارًا ، وأسأل الله أن يصلي على محمد ، وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين . (العقد الفريد ٢ : ١٥٦ - ٢٢٦)

عائشة ، أامت رسول الله صلى الله عليه وسلم والداس ، وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فجاء أبو بكر ورسول الله قد نام ، فقال حبست رسول الله والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فقالت عائشة دعاني أبو بكر ، وقال ماشاء الله أن يقول ، وجعل يطعنني بيده في خصرتي ، فقام رسول الله حين أصبح على غير ماء ، وأنزل الله آية التيمم ، فتييموا ، فقال أسيد بن الحضير (بصيفة التصغير) ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ، قالت فعمنا البعير الذي كنت عليه فأصبنا العقد تحمه . (راجع الحديث كاملاً في باب التيمم من صحيح البخارى ١ : ٧٠ ، وصحيح مسلم ١ : ١٤٦) . [١] حش النار : أوقدها . [٢] الثأى والثأى بسكون الهمزة وفتحها : الإفساد . [٣] أود : فتأود : عطفه فامطف . [٤] اجتجاه : استأصله . [٥] أعطن الابل : حبسها عنده الماء . [٦] العَلَّ والعَلل : (بفتحين) الشرب بعد الشرب تباعاً عل يعمل بكسر العين وضهما ، والنهل : أول الشرب نهل ينهل كفرح . [٧] جمع هامة وهي الرأس . [٨] مشعلا . [٩] اللابة : الحرة بفتح الحاء (أرض ذات حجارة نخرة سود) ولابتاً المدينة حرتان تكتنفانها ، أرادت أنه واسع الصدر واسع العطن فاستعارت له اللابة كما يقال رحب السماء واسع الجنب . [١٠] أى يمرك الأذى بجنبه أى يحتمله . وفى هذه الخطبة تحريف شديد في الأصل وقد اصلحته كما يتبين بالمراجعة .

١٤٦ - خطبة زفر بن قيس

وكتب الإمام على كرم الله وجهه ، مع زفر بن قيس إلى جرير بن عبد الله البجليّ - وكان على ثغر همدان استعمله عليه عثمان - كتاباً يخبره فيه بما كان بينه وبين أصحاب الجمل ، وما أوتى من الانتصار عليهم ، واستعمال ابن عباس على البصرة ، فلما قدم زفر على جرير بكتاب علىّ وقرأه جرير ، قام زفر خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إن عليّاً كتب إليكم بكتاب ، لا تقول بعده إلا رَجِيماً ^(١) من القول ، إن الناس بايعوا عليّاً بالمدينة غير محابةٍ ببيعتهم ، لعلمه بكتاب الله ، وَيُرَى الحق فيه ، وإن طلحة والزبير نقضاً بيعة عليّ على غير حَدَثٍ ، ثم لم يرضيا حتى نَصَبَا له الحرب ، وألبأ ^(٢) عليه الناس ، وأخرجوا أم المؤمنين عائشة من حِجَابِ ضربه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم عليها ، فاقبيها فأعذر في الداء ، وَخَشِيَ البغي ، وَحَمَلَ الناس على ما يعرفون ، فهذا عِيَان ^(٣) ما غاب عنكم ، وإن سألتهم الزيادة زدناكم . »

(الإمامة والسياسة ١ : ٦٩)

١٤٧ - خطبة جرير بن عبد الله البجليّ

وقام جرير بن عبد الله البجليّ خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : هذا كتاب أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، وهو المأمون على الدين والدنيا ، وكان من أمره وأمرِ عدوه ما قد سمعتم ، والحمد لله على أفضيئته ، وقد بايعه السابقون الأولون ، من المهاجرين والأنصار ، والتابعون بإحسان ، ولو

[١] الرجيع : كل مردّد . [٢] حرّضاً . [٣] مصدر طين الشيء إذا رآه بعينه .

جعل الله هذا الأمر شورى بين المسلمين لكان عليّ أحقّ بها ، ألا وإن البقاء في الجماعة ، والفناء في الفرقة ، وَعَلِيٌّ حَامِلِكُمْ مَا اسْتَقَمْتُمْ لَهُ ، فَإِنْ مِلْتُمْ أَقَامَ مَيْلَكُمْ .
قال الناس سمعاً وطاعة ، وَرِضَانًا رِضًا مَنْ بَعْدَنَا .

(الإمامة والسياسة ١ : ٦٩)

١٤٨ - خطبة زياد بن كعب

وكتب الإمام عليّ كرم الله وجهه ، إلى الأشعث بن قيس - وكان عاملاً بأذربيجان ، استعمله عليها عثمان - بمثل ما كتب به إلى جرير بن عبدالله ، ووجه بالكتاب مع زياد بن كعب ، فلما قرأ الأشعث كتاب عليّ ، قام زياد بن كعب خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَكْفِهِ الْقَلِيلُ ، لَمْ يَكْفِهِ الْكَثِيرُ ، وَإِنَّ أَمْرَ عَثْمَانَ لَمْ يَنْفَعْ فِيهِ الْعِيَانُ ، وَلَمْ يَشْفِ مِنْهُ الْخَبْرُ ، غَيْرَ أَنَّ مَنْ سَمِعَهُ لَيْسَ كَمَنْ عَايَنَهُ ، وَإِنَّ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ بَايَعُوا عَلِيًّا رَاضِينَ بِهِ ، وَإِنْ طَلْحَةَ وَالزَّيْبِرَ نَقَضَا بَيْعَةَ عَلِيٍّ عَلَى غَيْرِ حَدَثٍ ، وَأَخْرَجَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى غَيْرِ رِضَا ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَنْلَهُمْ ، فَتَرَكَهُمْ وَمَا فِي نَفْسِهِ مِنْهُمْ حَاجَةٌ ، فَأَوْرَثَهُ اللَّهُ الْأَرْضَ ، وَجَعَلَ لَهُ عَاقِبَةَ الْمُتَّقِينَ » .

(الإمامة والسياسة ١ : ٧٠)

١٤٩ - خطبة الأشعث بن قيس

فقام الأشعث بن قيس فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ عَثْمَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَلَأَنِّي أَذْرَبِيحَانَ ، وَهَلَاكٌ وَهِيَ فِي يَدِي ، وَقَدْ بَايَعَ النَّاسُ عَلِيًّا ، وَطَاعَتُنَا لَهُ لَازِمَةٌ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ عَدُوِّهِ مَا قَدْ بَلَّغَكُمْ ، وَهُوَ الْمَأْمُونُ عَلَى مَا غَابَ عَنَّا وَعَنْكُمْ مِنْ ذَلِكَ » . (الإمامة والسياسة ١ : ٧٠)

فتنة معاوية

استطلاع الامام على كرم الله وجهه آراء أصحابه

وقد أراد المسير إلى الشام

لما أراد الامام على كرم الله وجهه المسير إلى الشام ، دعا من كان معه من المهاجرين والأنصار فجمعهم .

١٥٠ - خطبة الامام على

ثم حمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد : فإنكم مَيَّامِينُ الرَّأْيِ ، مَرَّاجِيحُ الْحَلْمِ ، مُبَارِكُو الْأَمْرِ ، مَقَاوِيلُ الْحَقِّ ، وقد عزمنا على المسير إلى عدونا وعدوكم ، فأشيروا علينا برأيكم . »

١٥١ - خطبة هاشم بن عتبة

فقام هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد - يا أمير المؤمنين - فأنا بالقوم جِدُّ خَيْرٍ ، هُم لَكَ وَلِأَشْيَاعِكَ أَعْدَاءُ ، وَهُم لِمَن يَطْلُبُ حَرَّتَ^(١) الدُّنْيَا أَوْلِيَاءُ ، وَهُم مَقَاتِلُوكَ وَمَجَادِلُوكَ ، لَا يُبْقُونَ جُهْدًا ، مُشَاحَّةً^(٢) عَلَى الدُّنْيَا ، وَضِنًا^(٣) بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْهَا ، لَيْسَ لَهُمْ إِزْبَاقَةٌ^(٤) غَيْرُهَا ، إِلَّا مَا يَتَّخِذُونَ بِهِ الْجُهَّالَ ، مِنْ طَلَبِ دَمِ ابْنِ عَفَّانَ ، كَذَبُوا ! لَيْسُوا لِدَمِهِ يَنْفِرُونَ^(٥) ، وَلَكِنَّ الدُّنْيَا يَطْلُبُونَ ، انْهَضْ بِنَا إِلَيْهِمْ ، فَإِنْ أَجَابُوا إِلَى الْحَقِّ ،

[١] أى متاعها . [٢] بخلا عليها وحرصا . [٣] ضن ضنا : بالكسر وضنائة بالفتح بخل .

[٤] الإزبقة : الأرب . [٥] نفر للأمر : ذهب له .

فليس بعد الحق إلا الضلال ، وإن أبوا إلا الشقاق ، فذاك ظني بهم ، والله ما أراهم يبايعون ، وقد بقي فيهم أحد ممن يُطاع إذا نهى ، ولا يسمع إذا أمر .

١٥٢ - خطبة عمار بن ياسر

وقام عمار بن ياسر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين ، إن استطعت أن لا تُقيم يوماً واحداً فافعل ، اشخص بنا قبل استعمار^(١) نار الفجيرة ، واجتماع رأيهم على الصدود والفرقة ، وادعهم إلى حظهم ورشدهم ، فإن قبلوا سعدوا ، وإن أبوا إلا حررنا ، فوالله إن سفك دماءهم ، والجِدِّ في جهادهم ، لقربةٌ عند الله ، وكرامةٌ منه . »

١٥٣ - خطبة قيس بن سعد بن عبادة

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين : انكش^(٢) بنا إلى عدونا ولا تُعرج ، فوالله لجهادهم أحبُّ إلى من جهاد الترك والروم ، لإدهانهم^(٣) في دين الله ، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله ، من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، إذا غضبوا على رجل حبسوه وضربوه وحرّموه وسيرّوه^(٤) ، وفيننا لهم في أنفسهم حلالٌ ، ونحن لهم فيما يزعمون قطين^(٥) . »

فقال أشياخ الأنصار ، منهم خزيمية بن ثابت وأبو أيوب وغيرها : لم تقدّمت أشياخ قومك ، وبدأتهم بالكلام يا قيس ؟ فقال : أما إني عارف

[١] أى اشتعال . [٢] انكش وتكش : أسرع . [٣] الادمان : المداينة والعش .

[٤] المراد أبعده . [٥] القطين : الرقيق والخدم .

بفضلكم ، مُعْظَم لَشَأْنِكُمْ ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُ فِي نَفْسِي الضَّغْنَ الَّذِي فِي صُدُورِكُمْ ، جَاشَ حِينَ ذَكَرْتُ الْأَحْزَابَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : لِيَقُمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ ، فَلْيُجِيبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامَ عَنْ جَمَاعَتِكُمْ .

١٥٤ - خطبة سهل بن حنيف

فَقَامَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : نَحْنُ سَلِمٌ لِمَنْ سَأَلْتَهُ ، وَحَرْبٌ لِمَنْ حَارَبْتَهُ ، وَرَأَيْنَا رَأْيَكَ ، وَنَحْنُ يَمِينُكَ ، وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ تَقُومُ فِي أَهْلِ الْكُوفَةِ ، فَتَأْمُرُهُمُ بِالشُّخُوصِ ، وَتُنْخَبِرُهُمْ بِمَا صُنِعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَضْلِ ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْبَلَدِ ، وَهُمْ النَّاسُ ، فَإِنْ اسْتَقَامُوا لَكَ ، اسْتَقَامَ لَكَ الَّذِي تَرِيدُ وَتَطْلُبُ ، فَأَمَّا نَحْنُ فَلَيْسَ عَلَيْكَ خِلَافٌ مِنَّا ، مَتَى دَعَوْتَنَا أَجْبَنَّاكَ ، وَمَتَى أَمَرْتَنَا أَطَعْنَاكَ » .

١٥٥ - خطبة الامام علي

وَقَامَ الْإِمَامُ عَلِيُّ خَطِيبًا عَلَى مَنبَرِهِ ، يَحْرُضُ النَّاسَ وَيَأْمُرُهُمُ بِالْمَسِيرِ إِلَى صِفِّينَ ، لِقِتَالِ أَهْلِ الشَّامِ ، فَقَالَ :

« سِيرُوا إِلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ ، سِيرُوا إِلَى أَعْدَاءِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ ، سِيرُوا إِلَى بَقِيَّةِ الْأَحْزَابِ ^(١) ، وَقَتَلَةَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » .

فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِزَارَةَ فَقَالَ لَهُ : أَتُرِيدُ أَنْ تَسِيرَ بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ تَقْتُلُهُمْ كُفْلًا ، كَمَا سَرَتْ بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَقَتَلْتَهُمْ كُفْلًا ؟ هَا اللَّهُ ^(٢)

[١] يشير إلى الأحزاب التي تألقت وظهرت على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش ، وغطفان ، وبنى مرة ، وبنى أشجع ، وبنى سليم ، وبنى أسد في غزوة الأحزاب - غزوة الخندق - التي كانت سنة خمس للهجرة ، وكانت عدّة الجميع عشرة آلاف مقاتل وقادهم العام أبو سفيان .

[٢] هي ها التنيبه ، وهي تدخل على اسم الله في القسم عند حذف الحرف ، تقول : ها الله بقطع الهمزة ووصلها ، وكلامها مع إثبات ألفها وحذفها .

إذن لا نفعل ذلك ، فقام الأشتر فقال : من هذا المارق ؟ فَهَرَبَ الْفَزَارِيُّ ، واشتد الناس على أثره ، فَلَجِحَ فِي مَكَانٍ مِنَ السُّوقِ ، تباع فيه البراذين^(١) ، فوطئوه بأرجلهم ، وضربوه بأيديهم ونعال سيوفهم ، حتى قُتِلَ ، فَأَتَى عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فقيل له : يا أمير المؤمنين قُتِلَ الرَّجُلُ ، قال : ومن قتله ، قالوا قتله همدان ومعهم شَوْبٌ^(٢) من الناس ، فقال : قَتِيلٌ عَمِيَّةٌ^(٣) لَا يُدْرِي مَنْ قَتَلَهُ ، دِيَّتُهُ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، فقام الأشتر فقال :

١٥٦ - خطبة الأشتر النخعي

« يا أمير المؤمنين : لَا يَهْدِيَنَّكَ مَا رَأَيْتَ ، وَلَا يُؤَلِّينَكَ مِنْ نَصْرِنَا مَا سَمِعْتَ مِنْ مَقَالَةِ هَذَا الشَّقِيِّ الْخَائِنِ ، إن جميع مَنْ تَرَى مِنَ النَّاسِ شِيعَتِكَ ، لَا يَرِغِبُونَ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِكَ ، وَلَا يُحِبُّونَ الْبَقَاءَ بَعْدَكَ ، فَإِنْ شِئْتَ فَصِرْ بِنَا إِلَى عَدُوِّكَ ، فَوَاللَّهِ مَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ ، وَلَا يُعْطَى الْبَقَاءَ مِنْ أَحَبِّهِ ، وَإِنَّا لَعَلَى بَيْئَةِ مَنْ رَبَّنَا ، وَإِنْ أَنْفُسُنَا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى يَأْتِيَ أَجْلُهُمَا ، وَكَيْفَ لَا تَقَاتِلُ قَوْمًا هُمْ كَمَا وَصَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ وَثَبَتْ عِصَابَةٌ مِنْهُمْ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَمْسِ ، وَبَاعُوا خَلَاقَهُمْ^(٤) بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا يَسِيرٍ . »

فقال عليٌّ : « الطَّرِيقُ مُشْتَرَكٌ ، وَالنَّاسُ فِي الْحَقِّ سَوَاءٌ ، وَمَنْ اجْتَهَدَ رَأْيَهُ

فِي نَصِيحَةِ الْعَامَّةِ ، فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ » ثُمَّ نَزَلَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ .

[١] البراذين : الدواب جمع برذون . [٢] خايط . [٣] قتل صميا بكسر العين والميم مشددة مع تشديد الياء ثم يدر من قتله . [٤] الحلاق : النصب الوافر من الخير .

١٥٧ - مقال من ثبطوه عن المسير

ولما أمر الإمام بالمسير إلى الشام ، دخل عليه عبد الله بن المُعْتَمِّم العَبْسِيُّ ، وَحَنْظَلَةُ بن الرَّبِيع التَّمِيمِي ، في رجال كثير من غَطَفَانَ وبنى تميم ، فقال له حَنْظَلَةُ : « يا أمير المؤمنين : إنا قد مشينا إليك في نصيحة فاقبلها ، وَرَأَيْنَا لَكَ رَأْيًا فلا تردنه علينا ، فَإِنَا نَظَرْنَا لَكَ ولمن معك ، أَقِمْ وَكَاتِبْ هَذَا الرَّجُلَ ، وَلَا تَعَجَلْ إلى قتال أهل الشام ، فَإِنَا والله ما نَدْرِي ولا نَدْرِي لِمَنْ تَكُونُ الْعَلْبَةُ إِذَا انْتَقَيْتُمْ ، وَلَا عَلَى مَنْ تَكُونُ الدَّبْرَةُ ^(١) »

وقال ابن المعتمم مثل قوله ، وتكلم القوم الذين دخلوا معها بمثل كلامهما .

١٥٨ - رد الامام عليهم

فحمد علي عليه السلام الله وأثنى ، ثم قال : « أما بعد : فَإِنَّ اللَّهَ وَارِثُ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ ، وَرَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعِ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، يُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ إِشَاءِ ، وَيَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ إِشَاءِ ، وَيُعِزُّ مَنْ إِشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ إِشَاءُ ، أَمَا الدَّبْرَةُ ، فَإِنَّهَا عَلَى الضَّالِّينَ الْعَاصِينَ ، ظَفِرُوا أَوْ ظَفِرَ بِهِمْ ، وَإِيْمُ اللَّهِ إِنِّي لِأَسْمَعَ كَلَامَ قَوْمٍ مَا أَرَاهُمْ يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا ، وَلَا يُنْكَرُونَ مُنْكَرًا » .

فقام إليه معقل بن قيس الرياحي فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن هؤلاء والله ما آثروك بنصح ، ولا دخلوا عليك إلاَّ

بغش ، فاخذرهم ، فإنهم أدنى العدو » .

[١] الدبرة بسكون الباء وفتحها الهزيمية في القتال

وقال له مالك بن حبيب : « إنه بلغني يا أمير المؤمنين أن حنظلة هذا يكتب معاوية ، فادفعه إلينا نجبسه ، حتى تنقضي غزاتك وتتصرف » .
وقام من بني عبس قائدُ بن بكير ، وعيَّاش بن ربيعة ، فقالا :
« يا أمير المؤمنين ، إن صاحبنا عبد الله بن المغمم قد بلغنا أنه يكتب معاوية ، فاجبسه أو مكنا من حبسه ، حتى تنقضي غزاتك ثم تتصرف » .
فقالا : « هذا جزاء لمن نظر لكم ، وأشار عليكم بالرأى فيما بينكم وبين عدوكم ؟ »
فقال لهما عليُّ عليه السلام : « الله بيني وبينكم وإليه أكلدكم ، وبه أستظهر عليكم ، اذهبوا حيث شئتم » ^(١) .

١٥٩ - خطبة عدى بن حاتم الطائي

وقام عدى بن حاتم الطائي ، بين يدي عليِّ عليه السلام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :
« يا أمير المؤمنين ، ما قلت إلا بعلم ، ولا دعوت إلا إلى حق ، ولا أمرت إلا برشد ، ولكن إذا رأيت أن تستأني ^(٢) هؤلاء القوم وتستديعهم ، حتى تأتيهم كتبك ، وتقدم عليهم رُسُلك ، فعلمت ، فإن يقبلوا يُصيبوا رُشدهم ، والعافية أوسع لنا ولهم ، وإن يتجادوا في الشقاق ، ولا ينزعوا عن الغيِّ ، نسر إليهم ، وقد قدمنا إليهم العذر ، ودعوناهم إلى ما في أيدينا من الحق ، فوالله لهم من الحق أبعد ، وعلى الله أهون من قوم قاتلناهم أمسٍ بناحية البصرة ، لما دعوناهم

[١] هذا وقد خرجا إلى معاوية في رجال من قومهما ، ولكنهما لم يقاتلا معه واعتزلا الفريقين جميعاً

[٢] تنتظر .

إلى الحق فتركوه ، ناوخنهم بَرَاكَاءَ القتال^(١) ، حتى بلغنا منهم ما نحب ، وبلغ الله منهم رضاه .

١٦٠ - خطبة زيد بن حصين الطائي

فقام زيد بن حُصَيْنِ الطائي - وكان من أصحاب البرانس المجتهدين - فقال :
« الحمد لله حتى يَرْضَى ، ولا إله إلا الله رَبُّنَا ، أما بعد : فوالله إن كنا في شك في قتال من خالفنا ، ولا نَصْلُحُ لنا النِّيَّةُ في قتالهم حتى نستديهم ونستأنهم ، فما الأعمال إلا تَبَاب^(٢) ، ولا السعى إلا في ضلال ، والله تعالى يقول : « وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » إننا والله ما ارتبنا طَرْفَةَ عين فيمن يتبعونه ، فكيف بأتباعه القاسية قلوبهم ، القليل من الإسلام حَظُّهم ، أعوان الظلمة ، وأصحاب الجور والعدوان ؛ ليسوا من المهاجرين ولا الأنصار ، ولا التابعين بإحسان .
فقام رجل من طيء فقال : « يا زَيْدُ بنَ حُصَيْنِ ، أكلامُ سيدنا عدِيّ بن حاتم يَهْجَن^(٣) ؟ » فقال زيد : « ما أتم بأعرَفَ بحق عدِيّ مني ، ولكني لا أدع القول بالحق وإن سَخِطَ الناس . »

١٦١ - خطبة أبي زينب بن عوف

ودخل أبو زينب بن عوف على الإمام عليّ فقال :
« يا أمير المؤمنين ، لئن كنا على الحق لأنت أهدانا سبيلا ، وأعظمنا في الخير نصيباً ، ولئن كنا على ضلال إنك لأثقلنا ظهراً^(٤) ، وأعظمنا وزراً ، قد

[١] براكاء القتال وبروكاء : موضع اصطدام القوم ، وناوخنهم مفاعلة من أناخ الإبل إذا أبركها ، والمعنى التقينا وإيام في ساحة القتال . [٢] خميران . [٣] يقبح . [٤] لأنه حينئذ يكون أكثرهم ذوباً .

أمرتنا بالمسير إلى هذا العدو ، وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الولاية ، وأظهرنا لهم
العداوة ، نريد بذلك ما يعلم الله تعالى من طاعتك ، أليس الذي نحن عليه هو
الحق المبين ، والذي عليه عدونا هو الحوب ^(١) الكبير؟»

فقال عليه السلام : « بلى ، شهدت أنك إن مضيت معنا ناصراً لدعوتنا ،
صحيح النية في نصرنا ، قد قطعت منهم الولاية ، وأظهرت لهم العداوة ، كما
زعمت ، فإنك ولي الله تسبح في رضوانه ، وتركض في طاعته ، فأبشره أبا زينب »
وقال له عمار بن ياسر : « أثبت أبا زينب ، ولا تشك في الأحزاب أعداء الله
ورسوله » فقال أبو زينب : « ما أحب أن لي شاهدين من هذه الأمة ، شهدا
لي عما سألت من هذا الأمر الذي أهمني مكانكما » .

١٦٢ - خطبة يزيد بن قيس الأرحبي

ودخل يزيد بن قيس الأرحبي ^(٢) على علي عليه السلام فقال :
« يا أمير المؤمنين : نحن أولو جهاز ^(٣) وعدة ، وأكثر الناس أهل قوة ،
ومن ليس به ضعف ولا علة ، فر مناديك فليناد الناس يخرجوا إلى معسكرهم
بالنخيلة ، فإن أخوا الحرب ليس بالسثوم ولا النثوم ، ولا من إذا أمكنته الفرص
أجلها ، واستشار فيها ، ولا من يؤخر عمل الحرب اليوم لغد ، وبعد غد » .

١٦٣ - خطبة زياد بن النضر

فقال زياد بن النضر :

« لقد نصح لك يزيد بن قيس يا أمير المؤمنين ، وقال ما يعرف ، فتوكل

[١] الحوب بالفتح والضم : الإثم . [٢] نسبة إلى أرحب : وهي قبيلة من همدان .

[٣] جهاز المسافر والعروس والبيت (بالكسر والفتح) ما يحتاجون إليه .

على الله وثق به ، واشتخص بنا إلى هذا العدو راشداً مُماناً ، فإن يُرد الله بهم خيراً لا يتركوك ، رغبةً عنك إلى من ليس له مثلُ سابقتك وقدمك ، وإلاً يُنبيوا وَيَقْبَلُوا ، وأبوا إلا حَرْبَنَا نجد حَرْبَهُم علينا هُنَّ ، ونرجو أن يَصْرَعَهُم اللهُ مصارع إخوانهم ثم^(١) بالأمس . »

١٦٤ — خطبة عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي

ثم قام عبد الله بن بُدَيْل بن وَرْقَاءِ الخَزَاعِي فقال :

« يا أمير المؤمنين ، إن القوم لو كانوا ، الله يريدون ، والله يعملون ، ما خالفونا ، ولكن القوم إنما يقاتلوننا فراراً من الأسوة^(٢) ، وحُباً للأثرة^(٣) ، وَضِنًا بسطانهم ، وكرهاً لفراق دنياهم التي في أيديهم ، وعلى إحن^(٤) في نفوسهم ، وعداوةٍ يجدونها في صدورهم ، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة ، قتلت فيها آباءهم وأعوانهم » ثم التفت إلى الناس فقال : « كيف يبايع معاوية علياً ، وقد قتل أخاه حَنْظَلَةَ ، وخاله الوليدَ ، وَجَدَّهُ عْتَبَةَ ، في موقف واحد^(٥) ؟ والله ما أظنهم يفعلون ، وإن يستقيموا لكم دون أن تُقْصَفَ فيهم قننا المران^(٦) ، وَتُقْطَعَ على هامهم^(٧) السيوفُ ، وتثر حواجبهم بِعُمْدِ الحديدِ ، وتكون أمور حجة بين الفريقين . »

[١] هناك يريد البصرة . [٢] الأسوة بالضم والكسر القدوة : أي فراراً من أن يكونوا تابعين لك مسودين وأن تكون لهم إماماً وسيداً . [٣] استأثر على أصحابه اختار لنفسه أشياء حسنة ، والاسم الأثرة . [٤] جمع إحنة ، وهي الحقد والعداوة . أي ويقاتلوننا على إحن : أي من أجلها . [٥] هو جدُّه لأمه عتبة بن أبي ربيعة ، وقد قتلهم على يوم بدر . وفي كتاب بعث به الامام إلى معاوية يقول : « فأنا أبو حسن قاتل جدك وخالك وأخيك شذا يوم بدر وذلك السيف معي » . [٦] القنا : الرماح جمع قناة ، والمران : الرماح الصلبة اللدنة الواحدة مرانة ، وشجر ، والإضافة على المعنى الأول على حد قولته تعالى « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ » — إن فسر العرم بالمطر الشديد — (وفسر أيضاً بالأحباس والسدود تسمى الأودية ، وبالجرذ ، وبواد جاء السيل من قبله) وعلى المعنى الثاني : أي القنا للتحفة من الشجر . [٧] الهام جمع هامة : وهي الرأس .

١٦٥ - أدب الامام على ، وكرم خلقه

وخرج حُجْر بن عَدِيٍّ ، وعمرو بن الحَمِقِ ، يُظْهِرَانِ البراءة من أهل الشام ، فأرسل علىّ عليه السلام إليهما أَنْ كُفِّمَا عما يبلغنني عنكما ، فأتياه فقالا : « يا أمير المؤمنين : ألسنا مُحَقِّقَيْنِ ؟ » قال : بلى ، قالا : « أو ليسوا مُبْطِلَيْنِ ؟ » قال : بلى ، قالا : « فإِلِمَ مَنْعَتِنَا من شتمهم ؟ » قال :

« كَرِهْتُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا لِعَانِينَ شَتَّامِينَ ، تَشْتُمُونَ وتَبْرءُونَ ، ولكن لو وصفتهم مساوئ أعمالهم فقلتم : من سيرتهم كذا وكذا ، ومن أعمالهم كذا وكذا ، كَانَ أَصْوَبَ فِي الْقَوْلِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ ، وَقَلْتُمْ مَكَانَ لِعَنِكُمْ إِيَّاهُمْ ، وبراءتكم منهم : اللهم احقن دماءهم ودماءنا ، وأصلح ذات بينهم وبيننا ، واهدهم من ضلالتهم ، حتى يعرف الحق منهم مَنْ جَهَلَهُ ، ويرعوى عن الغي والعدوان منهم مَنْ لَهَجَ بِهِ ، لَكَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ ، وَخَيْرًا لَكُمْ . »

فقالا : يا أمير المؤمنين ، نقبل عظمتك ، وتؤادب بأدبك .

١٦٦ - مقال عمرو بن الحمق

وقال له عمرو بن الحمق يومئذ :

« وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنِّي مَا أَحْبَبْتُكَ وَلَا بَايَعْتُكَ عَلَى قَرَابَةِ بَيْتِي وَبَيْنِكَ ، وَلَا إِرَادَةِ مَالِ تَوْأَتَيْنِيهِ ، وَلَا التَّمَّاسِ سُلْطَانِ تَرْفَعُ ذِكْرِي بِهِ ، وَالْكُنِّي أَحْبَبْتُكَ بِخِصَالِ خَمْسٍ ، إِنَّكَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَوَصِيهِ ، وَأَبُو الذَّرِيَّةِ ، الَّتِي بَقِيَتْ فِينَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَسْبَقَ النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَأَعْظَمَ الْمُهَاجِرِينَ سَهْمًا فِي الْجِهَادِ ، فَلَوْ أَنِّي كَلَّفْتُ نَقْلَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي ، وَنَزَحَ

البحور الطوامي^(١) ، حتى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي فِي أَمْرٍ أَقْوَى بِهِ وَوَلِيَّكَ ، وَأَهِينِ
عَدُوَّكَ ، مَا رَأَيْتَ أَنِّي قَدْ أَدَيْتَ فِيهِ كُلَّ الَّذِي يَحِقُّ عَلَيَّ مِنْ حَقِّكَ » .
فَقَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « اللَّهُمَّ نَوِّرْ قَلْبَهُ بِالتَّقَى ، وَاهْدِهِ إِلَى صِرَاطِكَ
الْمُسْتَقِيمِ ، لَيْتَ أَنْ فِي جَنْدِي مِائَةٌ مِثْلَكَ » . فَقَالَ حَجْرٌ : إِذْنِ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
صَحَّ جَنْدُكَ ، وَقَلَّ فِيهِمْ مَنْ يَنْفُسُكَ .

١٦٧ - مقال حجر بن عدى

وقام حجر بن عدى فقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَحْنُ بَنُو الْحَرْبِ ، وَأَهْمَا الَّذِي نُثَلِّقُهَا^(٢) وَنُثَنِّجُهَا ، قَدْ
ضَارَسْتَنَا^(٣) وَضَارَسْنَاهَا ، وَلَنَا أَعْوَانٌ وَعَشِيرَةٌ ذَاتُ عَدَدٍ ، وَرَأَى مَجْرَبٌ ، وَبَأْسُ
مُحَمَّدٍ ، وَأَزِمَّتِنَا مِنْ قَادَةِ لَكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنْ شَرَّقَتْ شَرَّقْنَا ، وَإِنْ غَرَّبَتْ
غَرَّبْنَا ، وَمَا أَمَرْتَنَا بِهِ مِنْ أَمْرٍ فَعَلْنَا » .

فَقَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَكَلَّ قَوْمَكَ يَرَى مِثْلَ رَأْيِكَ ؛ » قَالَ مَا رَأَيْتُ
مِنْهُمْ إِلَّا حَسَنًا ، وَهَذِهِ يَدِي عَنْهُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَحَسَنِ الْإِجَابَةِ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ
عَلَيْهِ السَّلَامُ خَيْرًا .

١٦٨ - مقال هاشم بن عتبة

وقال زياد بن النضر الحارثي لعبد الله بن بُدَيْلِ الْخَزَاعِيِّ :

« إِنْ يَوْمَنَا لِيَوْمٍ عَصَبَبَ^(٤) ، مَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا كُلُّ مُشْبَعِ الْقَلْبِ ،
صَادِقِ النِّيَّةِ ، رَابِطِ الْجَأَشِ ، وَإِيْمِ اللَّهِ مَا أَظُنُّ ذَلِكَ الْيَوْمَ يُبْقِي مِنْهُمْ وَلَا مِنَّا

[١] جمع طامى . طامى البحر إذا امتلأ . [٢] أصله من ألقح الفحل الناقة . [٣] ضرسته
[٤] عصببته ، وضارس الأمور : جربها وعرفها . [٤] أى شديد .

إلا الرَّذَالُ^(١) » فقال عبد الله بن بديل : أنا والله أظن ذلك ، فبلغ كلامهما علياً عليه السلام ، فقال لهما : « ايكن هذا الكلام مخزوناً في صدوركما ، لا تُظهراه ، ولا يسمعه منكما سامع ، إن الله كتب القتل على قوم والموت على آخرين ، وكل آتية مَنِيَّتُهُ كما كتب الله له ، فطوبى للمجاهدين في سبيله ، والمقتولين في طاعته » فلما سمع هاشم بن عُثْبَةَ ما قاله أتى علياً عليه السلام فقال :

« سر بنا يا أمير المؤمنين ، إلى هؤلاء القوم القاسية قلوبهم ، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعملوا في عباد الله ، بغير رضا الله ، فأحلوا حرامه ، وحرّموا حلاله ، واستهوى^(٢) بهم الشيطان ، ووعدهم الأباطيل ، ومنّاهم الأمانى ، حتى أزاعهم عن الهدى ، وقصد بهم قصد الردى ، وحبّب إليهم الدنيا ، فهم يقاتلون على دنياهم رغبةً فيها ، كرغبتنا في الآخرة ، واتتجاز موعده ربنا ، وأنت يا أمير المؤمنين أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله رحماً ، وأفضل الناس سابقةً وقدماً ، وهم يا أمير المؤمنين يعلمون منك مثل الذى نعلم ، ولكن كُتِبَ عليهم الشقاء ، ومالت بهم الأهواء ، وكانوا ظالمين ، فأيدينا مبسوطه لك بالسمع والطاعة ، وقلوبنا منشحة لك ببذل النصيحة ، وأنفسنا تنصرك على من خالفك ، وتوَلَّى الأمر دونك ، جَذَلَةٌ ، والله ما أحب أن لى ما على الأرض فما أقلت^(٣) ، ولا ما تحت السماء فما أظلمت ، وأنى واليت عدواً لك ، وطاديت وإياً لك .

فقال عليّ عليه السلام : « اللهم ارزقه الشهادة في سبيلك والموافقة لنبيك »

[١] الدّون : الحسيس أو الردىء من كل شىء . [٢] استهوا : استماله والفعل متعدّ ومفعوله هنا محذوف : أى استهوى الشيطان أتباعهم بهم - فالباء للسببية - . [٣] أى حكت .

١٦٩ - خطبة الامام علي

ثم إن عليا عليه السلام صعد المنبر ، فخطب الناس ودعاهم إلى الجهاد ، فبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ثم قال :

« إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته ، فانصبوا أنفسكم في أداء حقه ، وتجزوا موعوده ، واعلموا أن الله جعل أمرا^(١) الإسلام متينة ، وعراه وثيقة ، ثم جعل الطاعة حظاً الأنفس ورضا الرب ، وغنيمة الأكياس^(٢) عند تفريط العجزة ، وقد حملت أمر أسودها وأحمرها ، ولا قوة إلا بالله ، ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه^(٣) نفسه وتناول ما ليس له ، وما لا يدركه ، معاوية وجنده ، الفئة الطاغية الباغية ، يقودهم إبليس ، ويبرق لهم يبارق تسويفه ، ويدلهم^(٤) بغروره ، وأنتم أعلم الناس بالحلل والحرام ، فاستغنوا بما علمتم ، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان ، وارغبوا فيما عنده من الأجر والكرامة ، واعلموا أن المسلوب من سلب دينه وأماته ، والمغرور من آثر الضلالة على الهدى ، فلا أعرفن أحداً منكم تقاعس^(٥) عنى ، وقال في غيرى كفاية ، فإن الذود إلى الذود إبل^(٦) : (وَمَنْ لَا يَذُذْ عَنْ حَوْضِهِ يَتَهَدَّم)

ثم إنى أمركم بالشدة في الأمر ، والجهاد في سبيل الله ، وأن لا تغتابوا مسلماً ، وانتظروا النصر العاجل من الله ، إن شاء الله .

[١] جمع مرس بفتحين ، ومرس جمع مرسة بفتحين أيضا : وهو الجبل . [٢] جمع كيس : وهو ضد الأحمق . [٣] أصله سفهت نفسه ، فلما حوّل الفعل إلى الرجل انتصب ما بعده بوقوع الفعل عليه لأنه صار في معنى سفه نفسه بالتشديد ، ومثله : رشد أمره وبطر عيشه . [٤] أى يحطهم عن منزلاتهم . قال تعالى : « قَدْ لَآهُمَا بِغُرُورٍ » [٥] تأخر وتقاعد . [٦] الذود : ثلاثة أبعرة إلى العشرة أو خمسة عشر أو عشرين أو ثلاثين وهو مثل : أى إذا جعت القليل مع القليل صار كثيرا فألى بمعنى مع .

١٧٠ - خطبة الحسن بن علي

ثم قام بعده ابنه الحسن رضى الله عنه فقال :
« الحمد لله لا إله غيره ، ولا شريك له ، ثم قال : إن مما عظم الله عليكم من
حقه ، وأسبغ عليكم من نعمه ، ما لا يُحصى ذِكْرُهُ ، ولا يُؤدَّى شكرُهُ ، ولا يبلغه
قول ولا صفة ، ونحن إنما غضبنا الله ولكم ، إنه لم يجتمع قوم قطُّ على أمرٍ واحد
إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدهم ، فاحتشدوا في قتل عدوكم معاوية وجنوده ،
ولا تحاذلوا ، فإن الخذلان يقطع نياط ^(١) القلوب ، وإن الإقدام على الاسنة
نخوة وعصمة ، لم يتمنع قوم قطُّ إلا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح الذلة ،
وهدام إلى معالم الملة ، ثم أنشد :

والصلاح تأخذ منه ما رضيت به والحرب يكفيك من أنفاسها جُرْع

١٧١ - خطبة الحسين بن علي

ثم قام الحسين رضى الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يأهل الكوفة : أنتم الأحبة الكرماء ، والشعار ^(٢) دون الدثار ، جدوا في
إطفاء ما وتر ^(٣) بينكم ، وتسهيل ما توغرَّ عليكم ، ألا إن الحرب شرها وريع ^(٤) ،
وطعمها فظيع ، فمن أخذ لها أهبتها ، واستعد لها عدتها ، ولم يَألم كلومها ^(٥)
قبل حلولها ، فذاك صاحبها ، ومن عاجلها قبل أوان فرصتها ، واستبصار سعيه
فيها ، فذاك قمن ^(٦) أن لا ينفع قومه ، وأن يهلك نفسه ، نسأل الله بقوته أن
يُدعّمكم بالفيئة ^(٧) » ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٢٧٨)

[١] عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين ، جمعه أنوطة . « والوتين عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه
جمعه أوتنة » . [٢] الشعار : ما يلبس على شعر الجسد ، والدثار : ما فوق الشعار من الثياب .
[٣] الوتر والوتر : النار ، وتره يتره ، ووتره حقه : قصه إياه ، ووتره : أدركه بكرهه .
[٤] الوريح : الكاف . أى أن شرها عظيم يدعو الناس إلى أن يكونوا عن خوض غمارها .
[٥] كلوم : جمع كلم ، وهو الجرح . [٦] جدير وحقيق . [٧] الفيئة : بفتح الفاء وكسرهما ،
والى : النسيئة ، أى نسأل الله أن يقويكم بما تمنون من عدوكم .

وفد على على معاوية

بعد أن نزل الإمام على كرم الله وجهه بصفين ، دعا بشير بن عمرو بن مَحْصَن الأنصاري ، وسعيد بن قيس الهمداني ، وشبث بن ربعي التيمي ، فقال : ائتوا هذا الرجل ، فادعوه إلى الله ، وإلى الطاعة والجماعة ، فقال له شبث بن ربعي : يا أمير المؤمنين : ألا تُظْمِئُهُ في سلطان توليه إياه ، ومنزلة يكون له بها أثرٌ عندك ، إن هو بايعك ؟ فقال على : ائتوه فالتقوه واحتجوا عليه ، وانظروا ما رأيه ؟ - وهذا في أول ذي الحجة سنة ٣٦ هـ - فأتوه ، ودخلوا عليه .

١٧٢ - خطبة بشير بن عمرو

فحمد الله أبو عمرة بشير بن عمرو ، وأثنى عليه ، وقال :
« يا معاوية : إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله عز وجل محاسبك بعملك ، وجازيك بما قدمت يداك ، وإني أنشدك الله عز وجل أن تفرِّق جماعة هذه الأمة ، وأن تسفك دماءها بينها .
فقطع عليه الكلام ، وقال : هلا أوصيت بذلك صاحبك ؟ فقال أبو عمرة :
« إن صاحبي ليس مثلك ، إن صاحبي أحقُّ البرية كلها بهذا الأمر ، في الفضل ، والدين ، والسابقة في الإسلام ، والقربة من الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال : فيقول ماذا ؟ قال : يأمرك بتقوى الله عز وجل ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك في دنياك ، وخير لك في عاقبة أمرك .
قال معاوية : « وَنُطِلَ دم عثمان رضى الله عنه ! لا والله لا أفعل ذلك أبداً ، فذهب سعيد بن قيس يتكلم ، فبادره شبث بن ربعي ، فتكلم :

١٧٣ - خطبة شبت بن ربيع

فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :

« يا معاوية ، إني قد فهمت ما رددت على ابنِ مُحَصَّن ، إنه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب ، إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم ، إلا قولك : « قُتِلَ إمامكم مظلوماً ، فنحن نطلب بدمه » ، فاستجاب له سفهاء طغام ، وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل ، لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ، ورُبُّ متمنى أمر وطالبه ، اللهُ عزَّ وجل يحول دونه بقدرته ، وربما أُوتى المتمنى أمنيته ، وفوق أمنيته ، والله ما لك في واحدة منهما خير ، لئن أخطأت ما ترجو ، إنك لشر العرب حالاً في ذلك ، وإن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحق من ربك صِلي^(١) النار ، فاتق الله يا معاوية ، ودع ما أنت عليه ، ولا تنازع الأمر أهله .

١٧٤ - خطبة معاوية

فحمد الله معاوية وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن أول ما عرَفْتُ فيه سفَهك ، وَخِيفَةَ حِمَمِك ، قَطَاعك على هذا الحسيب الشريف سيِّدِ قومه منطقتَه ، ثم عُنيَت بَعْدُ فيما لا علم لك به ، فقد كذبت وَلُوِّمْتُ^(٢) ، أيها الأعرابي الجِلْف^(٣) الجافي ، في كل ما ذكرت ووصفت ، انصرفوا من عندي ، فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف »
وغضب وخرج القوم وشبت يقول : أفعلينا شهْوَل بالسيف ؟ أقسم بالله

[١] صلى النار : كرمى ، وصلى بها صلوا بكسر الصاد وصيها ، قامى - رها .

[٢] لومه لوماً : عدله ، وألامه ولوومه للبالغة . [٣] الجلف : الرجل الجاني .

لِيُعْجَبَنَّ بِهَا إِلَيْكَ ، فَأَتَوْا عَلِيًّا ، وَأَخْبَرُوهُ بِالذِّي كَانَ مِنْ قَوْلِهِ ، فَأَخَذَ عَلِيٌّ يَأْمُرُ الرَّجُلَ ذَا الشَّرْفِ فَيُخْرِجُ مَعَهُ جَمَاعَةً ، وَيُخْرِجُ إِلَيْهِ مِنْ أَصْحَابِ مَعَاوِيَةَ آخَرَ مَعَهُ جَمَاعَةً ، فَيَقْتَتِلَانِ فِي خَيْلِهِمَا وَرِجَالِهِمَا ، ثُمَّ يَنْصَرِفَانِ ، وَكَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَلْقَوْا بِجَمْعِ أَهْلِ الْعِرَاقِ أَهْلَ الشَّامِ ، لَمَّا يَتَخَوَّفُونَ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ الْاِسْتِئْصَالَ وَالْهَلَاقَ .
(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٤٢)

وفد عليّ الى معاوية أيضا

ولما دخلت سنة ٣٧ هـ توادعا عليّ ترك الحرب في المحرم إلى انقضائه، طمعاً في الصلح واختلفت فيما بينهما الرسل في ذلك دون جدوى ، فبعث عليّ عدىّ بن حاتم ، ويزيد بن قيس ، وشبث بن ربعيّ ، وزيايد بن خصفة إلى معاوية .

١٧٥ - خطبة عدىّ بن حاتم

فاما دخلوا حمد الله عدىّ بن حاتم ، ثم قال :
« أما بعد : فإننا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عزّ وجلّ به كلمتنا وأمّتنا ، ويحقن به الدماء ، ويؤمن به السُّبُل ، ويصلح به ذات البين ، إن ابن عمك سيّد المساميين ، أفضلها سابقاً ، وأحسنها في الإسلام أثراً ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله عزّ وجلّ بالذّي رأوا ، فلم يبق أحدٌ غيرك وغير من معك ، فانتبه يا معاوية ، لا يصبك الله وأصحابك بيومٍ مثل يوم الجمل » .

١٧٦ - جواب معاوية

فقال معاوية : « كأنك إنما جئت متهدداً ، لم تأت مُصلحاً ! هيهات

ياعدى ، كلاً والله ، إني لأبئنُ حَرْبٍ^(١) ما يُقَعِّعُ^(٢) لى بالشَّانِ ، أما والله إنك لمن
المُجْلِبِينَ على ابن عفان رضى الله عنه ، وإني لأرجو أن تكون
ممن يَقْتُلُ^(٣) الله عزَّ وجلَّ به ، هَيْهَاتَ يا عَدِيَّ بْنَ حَاطِمٍ ، قد حَلَبْتُ بالسَّاعِدِ
الأشدَّ^(٤) .

فقال له شَبَثُ بن ربيعى وزياد بن خَصَفَةَ - وتنازعا جواباً واحداً -
« أتيناك فيما يصلحنا وإياك ، فأقبلت تضرب لنا الأمثال ، دع ما لا يُنتفع
به من القول والفعل ، وأجبتنا فيما يَعْمُنَا وإياك نَفَعُهُ » .

١٧٧ - خطبة يزيد بن قيس

وتكلم يزيد بن قيس فقال :

« إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بُعِثْنَا به إليك ، وَلِنُؤدِّيَ عنك ما سمعنا منك ،
ونحن - على ذلك - لن ندعَ أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظنننا أن لنا عليك به
حُجَّةٌ ، وأنتك راجع به إلى الألفة والجماعة ، إنَّ صاحِبِنَا من قد عَرَفْتَ وعَرَفَ
المسامون فضله ، ولا أظنه يخفى عليك ، إن أهل الدين والفضل لن يَعْدِلُوا بعلَى ،
ولن يُعَيَّلُوا^(٥) بينك وبينه ، فاتق الله يامعاوية ، ولا تخالف علياً ، فإننا والله ما رأينا
رجلاً قطُّ أعملَ بالتقوى ، ولا أزهَدَ فى الدنيا ، ولا أجمعَ لخِصالِ الخير كلها منه » .

١٧٨ - خطبة معاوية

فحمد الله معاوية وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] هو جدّه . [٢] القعقة : تحريك الشيء اليأس الصلب مع صوت ، والشان جمع شى بالفتح ،
وهو القرية البالية ، وإذا قعق بالشان للإبل نقرت ، وهو مثل يضرب لمن لا يروعه ما لا-قيمة له .
[٣] أى يقتله . [٤] يعنى بذلك قوّة استعداده للقتال وتأهبه له .
[٥] التميل بين الشيئين ، كالترجيح بينهما .

« أما بعد : فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة ، فأما الجماعة التي دعوتم إليها فَمَعْنَاهُ ، وَأما الطاعة لصاحبكم فَإِنَّا لَا نَرَاهَا ، إِن صاحبكم قَتَلَ خَلِيفَتَنَا ، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا ، وَآوَى ثَمَارَنَا ^(١) وَقَتَلْتَنَا ، وَصاحبكم يزعم أَنه لم يقتله ، فنحن لانرد ذلك عليه ، أَرَأَيْتُمْ قَتَلَهُ صاحبنا ، أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ صاحبكم ؟ فَلْيَدْفَعْهُمْ إِلَيْنَا فَلْنَقْتُلْهُمْ بِهِ ، ثُمَّ نَحْنُ نَجْبِيكُمْ إِلَى الطاعة والجماعة . » .
 فقال له شيبث : أَيْسُرُكَ يَا مَعَاوِيَةَ أَنَّكَ أَمْكِنْتِ مِنْ عَمَّارٍ ^(٢) تَقْتُلُهُ ؟ . فقال

[١] الثَّارُ : قَاتِلُ حَمِيكَ .

[٢] هُوَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَحَدُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَقَدْ عَذَّبَهُ الْمُشْرِكُونَ فِي بَدَأِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَاحْتَمَلَ الْعَذَابَ ، وَكَانَ يَعْذِبُ هُوَ وَأَخُوهُ وَأَبُوهُ وَأُمُّهُ بِالنَّارِ ، فَرَّبَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « صَبِرَا آلُ يَاسِرٍ فَوَعَدَكُمْ الْجَنَّةَ . اللَّهُمَّ اعْفِرْ لآلِ يَاسِرٍ » وَصَرَّاحٌ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ إِجْرَاجِ مَعَاوِيَةَ . اِقْوَلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِعَمَّارٍ : « تَفْسَلُكَ الْعِثَّةُ الْبَاغِيَّةُ » : أَيِ إِلَيْكَ يَا مَعَاوِيَةَ إِنْ قَتَلْتَ عَمَّارًا - وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ - كَسْتِ مِنَ الْعِثَّةِ الْبَاغِيَّةِ ، وَتَفْصِيلُ الْخَبَرِ فِي ذَلِكَ مَارُوتُهُ أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَتْ : « لَمَّا بَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسْجِدَهُ بِالْمَدِينَةِ أَمَرَ بِاللَّيْنِ نَضْرِبُ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَامَ فَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي ذَلِكَ الْمَهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَضَعُوا أَرْبَابَهُمْ وَأَكْسَبْتَهُمْ يَرْتَجِزُونَ وَيَقُولُونَ وَيَعْمَلُونَ . »

لَمَّا قَدَّمْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ذَلِكَ لِذَنْ أَعْمَلِ مِثَالِ

قَالَتْ : وَكَانَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَجُلًا نَظْمًا مُنْتَظَمًا ، وَكَانَ يَحْمِلُ اللَّبْنَةَ وَيَحْمِي بِهَا عَنْ ثَوْبِهِ ، فَأَذا وَضَعَهَا نَفَضَ كَفِيهِ ، وَنَظَرَ إِلَى ثَوْبِهِ ، فَأَذا أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنَ التَّرَابِ نَفَضَهُ فَمَطَرَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَسَدَ :

لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ الْمَسَاجِدَ يَدَّابُ فِيهَا رَاكِعًا وَسَاجِدًا

وَقَاعًا طَوْرًا وَطَوْرًا قَاعًا وَمَنْ يَرَى عَنِ التَّرَابِ حَائِدًا

فَسَمَّهَا عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ جَعَلَ يَرْتَجِرُهَا وَهُوَ لَا يَدْرِي مِنْ يَمَنِ ، فَسَمَّاهُ عُثْمَانُ فَقَالَ : يَا بَنِي سَمِيَّةَ (وَسَمِيَّةُ أُمُّهُ) مَا أَعْرَفَنِي مِنْ تَعْرِضٍ ، وَمَعَهُ جَرِيدَةٌ ، فَقَالَ لَتَسْكُنَنَّ أَوْ لِأَعْتَرِضَ بِهَا وَجْهَكَ ، فَسَمَّاهُ النَّبِيُّ وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ حَائِطٍ فَقَالَ : « عَمَّارُ جِلْدَةٌ مَا بَيْنَ عَيْنِي وَأَنْفِي » فَمَنْ بَلَغَ ذَلِكَ مِنْهُ فَقَدْ بَلَغَ مِثْرًا ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ فَوَضَعَهَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَكَفَّ النَّاسَ عَنْ ذَلِكَ ، وَقَالُوا لِعَمَّارٍ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ غَضِبَ فِيكَ ، وَنَخَافُ أَنْ يَنْزِلَ فِيْنَا قُرْآنٌ ، فَقَالَ : أَمَا أَرْضِيهِ كَمَا عَصَبَ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَالِي وَالْأَصْحَابُ كَيْفَ ؟ قَالَ : مَالًا وَهُمْ ؟ قَالَ يَرِيدُونَ قَتْلِي ، يَحْمِلُونَ لَبْنَةً وَيَحْمِلُونَ عَلِيَّ لِبْنَتَيْنِ ، فَأَخَذَ بِهِ وَطَافَ بِهِ فِي الْمَسْجِدِ وَجَعَلَ يَمْسَحُ وَجْهَهُ مِنَ التَّرَابِ وَيَقُولُ « يَا بَنِي سَمِيَّةَ لَا يَفْتَكُ أَصْحَابِي ، وَلَكِنْ تَفْتَكُ الْعِثَّةُ الْبَاغِيَّةُ » فَلَمَّا قَتَلَ بَصَيْنِ ، وَرَوَى هَذَا الْحَدِيثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ ، قَالَ مَعَاوِيَةُ : هُمُ قَتَلُوهُ ، لِأَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ إِلَى الْقَتْلِ ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا قَالَ : وَنَحْنُ قَتَلْنَا أَيْضًا حَزْرَةَ لَأَنَّا أَخْرَجْنَاهُ (العقد الفريد ٢ : ٢٣٧)

معاوية : وما يعنى من ذلك ؟ والله لو أمكنت من ابن سُمَيَّة ما قتلته بعثمان
رضى الله عنه ، ولكن كنتُ قاتِلُهُ بناتِلِ مولى عثمان ، فقال شبت :

« وَإِلَهَ الْأَرْضِ وَإِلَهَ السَّمَاءِ ، مَا عَدَلْتَ مَعْتَدِلًا ^(١) ، لَا وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ،
لَا تَصِلُ إِلَى عَمَّارٍ ، حَتَّى تَنْدَرَ ^(٢) الْهَامُ عَنْ كَوَاهِلِ الْأَقْوَامِ ، وَتَضِيقَ الْأَرْضُ
الْفَضَاءَ عَلَيْكَ بِرُحْبِهَا ^(٣) » فقال له معاوية : « إنه لو قد كان ذلك كانت الأرضُ
عليك أضيقَ » وتفرَّق القوم عن معاوية ، فلما انصرفوا بعث معاوية إلى زياد
ابن خَصَفَةَ التَّمِيمِي نِفْلًا بِهِ .

فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد يا أخا ربيعة ، فإن علياً قطعَ أرحامنا ، وآوى قتلَةَ صاحبنا ، وإني
أسألك النصرَ بِأَسْرَتِكَ وَعَشِيرَتِكَ ، ثم لك عهدُ الله جلَّ وعزَّ وميثاقُهُ أن أوليك
إذا ظَهَرْتُ ^(٤) أَيُّ الْمَصْرِيِّينَ أَحْبَبْتَ ، قال زياد : فلما قضى معاوية كلامه حمِدَتْ
الله عزَّ وجلَّ وأثنت عليه ثم قلت : « أما بعد فإني على يَدِّئَةٍ مِنْ رَبِّي ، وَبِمَا
أَنْعَمَ عَلَيَّ ، فَلَنْ أَكُونَ ظَهْرِيًّا ^(٥) لِلْمَجْرِمِينَ » ثم قت . (تاريخ الطبري ٦ : ٢)



[١] أى إلك إذ عدلت عماراً بناتل مولى عثمان أى سويت بينهما لم تكن معتدلاً فى حكمك .
[٢] ندو الشيء كندصر ندورا : سقط من خوف شيء أو من بين أشياء فظهر ، والهام الرءوس :
جمع هامة . [٣] ارحب بالضم : الانساع . [٤] أى علبت وانتصرت . [٥] معينا وناصرا .

وفد معاوية الى علي

وبعث معاوية إلى عليّ حبيب بن مسلمة الفهري ، وشرحبيط بن السمط ، ومعن بن يزيد بن الأخنس ، فدخلوا عليه .

١٧٩ - خطبة حبيب بن مسلمة

فحمد الله حبيب وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان خليفة مَهْدِيًّا ، يعمل بكتاب الله عزَّ وجلَّ ، وَيُنِيبُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، فاستنقلم حياته ، واستبطنتم وفاته ، فعَدَوْتُمْ عَلَيْهِ ، فقتلتموه رضى الله عنه ، فادفع إلينا قتلة عثمان - إن زعمت أنك لم تقتله - نقتلهم به ، ثم اعتزل أمر الناس ، فيكون أمرهم شورى بينهم ، يُؤَلَّى الناس أمرهم من أجمع عليهم رأيهم » .

فقال له عليّ بن أبي طالب : « وما أنت لا أم لك والعزل ، وهذا الأمر ؟ اسكت ، فإنك لست هُنَاكَ ، ولا بأهل له » فقام وقال له : « والله لترينى بحيث تكره » فقال عليّ : « وما أنت ولو أجلبت بخيالك ورجلك ؟ لا أبقى الله عليك إن أبقيت عليّ ، أَحْقَرَةٌ^(١) وسوءاً ، أذهب فصوب وصعد ما بدا لك » وقال شرحبيل بن السمط : « إني إن كلمتك فاعمرى ما كلامى إلا مثل كلام صاحبي قبل ، فهل عندك جواب غير الذى أجبته به ؟ فقال عليّ : نعم . لك ولصاحبك جواب غير الذى أجبته به .

[١] فى كتب اللغة : حقره حقراً بفتح الحاء وحقرية يضمها وتشديد الياء ولم أجد كلمة « حقرة » وأرى أنها مثل هزأة وضحكة ، يقال رجل هزأة يضم الهاء وسكون الزاى أى يهزأ به وضحكة كذلك أى يضحك منه ، فالعنى أنكون حقرة أى حقيراً وتسوءنى سوءاً .

١٨٠ - خطبة علي بن أبي طالب

فحمّد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله جلّ ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق ، فأنتقد به من الضلالة ، وانتاش^(١) به من الهلكة ، وجمع به من الفرقة ، ثم قبضه الله إليه ، وقد أدّى ما عليه ، صلى الله عليه وسلم ، ثم استخلف الناس أبا بكر رضى الله عنه ، واستخلف أبو بكر عمر رضى الله عنه ، فأحسننا السيرة ، وعدلنا في الأمة ، وقد وجدنا^(٢) عليهما أن توليا علينا ، ونحن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغفرنا ذلك لهما ، وولى عثمان رضى الله عنه فعمل بأشياء عابها الناس عليه ، فساروا إليه فقتلوه ، ثم أتاني الناس وأنا معتزلٌ أمورهم ، فقالوا لي : بايع ، فأبيت عليهم ، فقالوا لي : بايع ، فإن الأمة لا ترضى إلا بك ، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس ، فبايعتهم ، فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني^(٣) ، وخلاف معاوية ، الذي لم يجعل الله عزّ وجلّ له سابقة في الدين ، ولا سلف صدق في الإسلام ، طليق^(٤) بن طليق ، حزب^(٥) من هذه الأحزاب ، لم يزل الله عزّ وجلّ ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين عدواً ، هو وأبوه ، حتى دخلا في الإسلام كارهين ، فلا عرو^(٦) إلا خلافتكم معه ، وانقيادكم له ، وتدعون آل نبيكم

[١] انتشل وأخرج . [٢] وجد عليه غضب . [٣] يعنى طلحه والزبير وما كان منهما من الخلف عليه ، وانضمامهما إلى السيدة عائشة . [٤] الطلقاء : هم الذين عفا عنهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة بمال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء . [٥] حزب بدل من طليق الثاني : أى ابن حزب من هذه الأحزاب التي تألبت وتظاهرت على حربه صلى الله عليه وسلم من قريش ، وغطفان ، وبنى مرة ، وبنى أشجع ، وبنى سليم ، وبنى أسد (في غزوة الأحزاب ، وهي غزوة الخندق سنة ٥ هـ) وكانت عدّة الجميع عشرة آلاف مقاتل ، وفأندمهم الامام أبوسفينان . [٦] ملاحرو : أى لا عجب ، وقوله إلا خلافتكم معه : أى خلافتكم علىّ معه ، أو هو « خلافتكم معه » بالحاء أى مخالفتكم له ، وما صرتمكم إياه .

صلى الله عليه وسلم، الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم، ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً، ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإمارة الباطل، وإحياء معالم الدين، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، ولكل مؤمن ومؤمنة، ومسلم ومسلمة» .

فقالا: «شهد أن عثمان رضى الله عنه قتل مظلوماً» فقال لهما: «لا أقول إنه قتل مظلوماً، ولا إنه قتل ظالماً». قالا: «فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً، فنحن منه برآء» ثم قاما فانصرفا، فقال علي: «إنك لا تسمع الموتى، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين، وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا، فهم مسلمون» . (تاريخ الطبرى ٦ : ٤)

التحريض على القتال من قبل معاوية

١٨١ - خطبة عمرو بن العاص (المتوفى سنة ٤٣ هـ)

لما بلغ معاوية أن الإمام علياً (كرم الله وجهه) يجهز الجيوش لقتاله، دعا عمرو بن العاص، فاستشاره، فقال: «أما إذ بلغك أنه يسير فسر بنفسك، ولا تغيب عنه برأيك ومكيدتك». قال: «أما إذا يا أبا عبد الله فجهز الناس». فجاء عمرو فحضر الناس، وضعف علياً وأصحابه، وقال:

«إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم، وأوهنوا شوكتهم، وفلوا حدم، ثم إن أهل البصرة مخالفون اعلى، قد وترهم وقتلهم، وقد تفانت صنائدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار في شردمة قليلة، منهم من قد قتل خليفكم، فالله الله في حكم أن تضيعوه، وفي دمكم أن تطلوه» .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٢٣٦)

١٨٢ - خطبة أخرى لعمر بن العاص

وخطب عمرو بن العاص قبل الوقعة العظمى بصفين ، يحرض أهل الشام

« وقد كان منحنيًا على قوس » فقال :

« الحمد لله العظيم في شأنه ، القوي في ساططانه ، العليّ في مكانه ، الواضح في برهانه ، أئتمده على حُسن البلاء ، وتظاهر النعماء ، في كل رزية من بلاء^(١) ، أوشدة أورخاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، ثم إنا نحتسب عند الله ربّ العالمين ما أصبح في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، من اشتعال نيرانها ، واضطراب خيلها ، ووقوع بأسها بينها ، فإننا لله وإنا إليه راجعون . والحمد لله ربّ العالمين .

أو لا تعلمون أن صلاتنا وصلاتهم ، وصيامنا وصياهم ، وحجنا وحجهم ، وقبلتنا وقبلتهم ، وديننا ودينهم واحد ؟ ولكن لأهواء مختلفة . اللهم أصاح هذه الأمة بما أصلحت به أولها ، واحفظ فيما بيننا ، مع أن القوم قد وطئوا بلادكم ، وبغوا عليكم ، فجدثوا في قتال عدوكم ، واستعينوا بالله ربكم ، وحافظوا على حرّماتكم^(٢) » ثم جلس . (شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٥٠٤)

١٨٣ - خطبة معاوية بن أبي سفيان يحرض أهل الشام

وقام معاوية في أهل الشام خطيبًا ، فقال :

« أيها الناس : أعيرونا جماجمكم وأنفسكم^(٣) لا تقتلوا^(٤) ، ولا تتخذوا^(٥) ،

[١] البلاء : يكون عنة ، ويكون محنة . [٢] جمع حرمة ، وهي ملا يجل انتهاكها .

[٣] أي جودوا براءتكم ، ولا تبجلوا بنفوسكم على القتل . [٤] في الأصل « لا تقتلوا » على أن الفعل مجزوم بلا التامة ، وأراه محروفاً ، وإنما هو « لا تقتلوا » مجزوم في جواب الأمر ، أي إن تسخروا ببذل رءوسكم وبنفوسكم وتقاتلوا مستبسلين تنحوا من القتل . [٥] في الأصل « ولا تتخذوا » وأراه مصحفاً عن « ولا تتخذوا » أي لتتعاونوا ، ولا يخذل بعضكم بعضاً .

فإنَّ اليومَ يومُ أخطارٍ، ويومُ حقيقةٍ وحِفاظٍ^(١)، إنكم لعلي حقّ، وبأيديكم حُجّةٌ، إنمّا تقاتلون من نكث البيعة، وسفك الدم الحرام، فليس له من السماء عاذرٌ، قدّموا أصحاب السلاح المُستأثمة^(٢)، وأخروا الحاسر^(٣)، واحملوا بأجمعكم، فقد بلغ الحقّ مقطّعه، وإنمّا هو ظالم ومظلوم.

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٨١)

١٨٤ - خطبة ذى الكلاع الحميرى^(٤)

وطلب معاوية إلى ذى الكلاع الحميرى أن يخطب الناس، ويحرضهم على قتال عليّ رضى الله عنه ومن معه من أهل العراق، فعقد فرسه « وكان من أعظم أصحاب معاوية خطراً^(٥) » وخطب الناس فقال :

« الحمد لله حمداً كثيراً ، نامياً واضحاً مُنيراً ، بُكْرَةً وأصيلاً ، أحمده وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، وكفى بالله وكيلاً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالعرفان إماماً ، وبالهدى ودين الحق ، حين ظهرت المعاصى ، ودَرسَتِ^(٦) الطاعة ، وامتلات الأرض جوراً وضلالة ، واضطربت الدنيا نيراناً وفتنة ، وورِكَ^(٧) عدوُّ الله إبليسُ على أن يكون قد عبِدَ في أكنافها ، واستولى على جميع أهلها ، فكان محمد صلى الله عليه وآله هو الذى أطفأ الله به نيرانها ، وتزعج به أوتادها ، وأوهن به قوى إبليس ، وآيسه مما كان قد طمع فيه من ظفّره بهم ، وأظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون .

[١] أى يوم يحافظ على الأرواح والأعراض والأموال ودفاع عنها . [٢] استلام : لبس اللأمة ، وهى الدرع . [٣] الحاسر من لامفر له ، ولادرع ، أولاجنة له . [٤] هو ذى الكلاع الأصغر سمع بن مأكور بن عمرو بن يعفر بن ذى الكلاع الأكبر يزيد بن النعمان وهما من أذواء اليمن . [٥] أى شأناً ، وقدراً . [٦] اتحت . [٧] ورك على الأمر وروكا : قدر .

ثم كَانَ من قضاء الله أن ضمَّ بيننا وبين أهل ديننا بصِفِّين ، وإنا لنعلم أن فيهم قوماً ، قد كانت لهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله سابقة ذات شأن وخطر عظيم ، ولكنى ضربت الأمر ظهراً وبطناً ، فلم أَرِيسعنى أن يهدر دم عثمان ، صهر نبينا صلى الله عليه وآله ، الذى جهز جيش المُسرة^(١) ، وألحق فى مُصلى رسول الله صلى الله عليه وآله بيتاً ، وبني سقاية^(٢) ، وبأبيع له نبيُّ الله بيده. البيني على اليسرى^(٣) ، واختصه بكرمته أمّ كلثوم ورُقِيَّة^(٤) ، فإن كان

[١] وذلك أنه فى عزوة تبوك - وكانت سنة تسع للهجرة - أتت فى تجهيز المعانلة من المسلمين عشرة آلاف دينار ، وأعطى ثمانمائة بعير بأحلاسها وأقاربها (والأحلاس جمع جلس بالكسر وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة ، والأقارب جمع قتب بالتحريك وهو ما يوضع على سنام البعير) وحسين فرساً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم ارض عن عثمان ، فإنه راض عنه » وكان ذلك فى زمن عسرة الناس وجذب البلاد ، وسدة الحرّ ، قال تعالى : « لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ » أى وقتها ، وهى حالم فى تلك العزوة ، ذكروا أن الرّجلين كانا يقسمان تمر ، وأن العسرة كانوا يعصبون البعير الواحد . [٢] وذلك أنه اشترى بئر رومة (بضم الراء : بئر بالمدينة) ثم تصدّق بها على المسلمين ، وكان رشأؤه فيها كرشاء أحدهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « من حفر بئر رومة لله الجنة » وأشرف عثمان رضى الله عنه على الثوّار حين حصره ومعوا الماء عنه ، فقال : « أنشدكم الله ، هل علمتم أنى استررت رومة من مالى يسعدت بها ، خعلت رشأئى منها كرشاء رجل من المسلمين ؟ قيل : نعم ، قال : فما يعنى أن أشرب منها حتى أفطر على ماء البحر ؟ ثم قال : أنشدكم الله هل علمتم أنى اشتريت كذا وكذا من الأرض فرددته فى المسجد ؟ قيل : نعم ، قال : فهل علمتم أحداً من الناس مع أن يصلى فيه قلبى ؟ ثم قال : أنشدكم الله ، هل سمعتم بى الله صلى الله عليه وسلم يذكر كذا وكذا - أشياء فى شأنه ، جعل الناس يقولون : مهلا عن أمير المؤمنين .

[٣] وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قصد إلى مكة فى عزوة الحديبية (سنة ست للهجرة) بعث عثمان بن عفان إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه إنما جاء زائراً لايت ومعظماً لحرمة ، يخرج عثمان إلى مكة وبلغ الرسالة ، واحتاسته قريش عندها ، فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا تبرح حتى : اجز القوم ، ودعا المسلمين إلى البيعة على الموت ، وكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وبأبيع عليه الصلاة والسلام لعثمان ، فضرب بيده البيني على يده اليسرى وقال : هذه يد عثمان .

[٤] تزوّج عثمان السيدة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ماتت جزع عثمان عاها وقال يا رسول الله انقطع صهرى منك ، قال : إن صهرك منى لا يقطع ، وقد أمرنى - بربل أن أروّجك أختها بأمر الله : السيدة أمّ كلثوم .

قد أذنب ذنباً ، فقد أذنب من هو خير منه ، قد قال الله سبحانه لنبيه: (لِيَغْفِرَ
لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) وقتل موسى نفسه^(١) ، ثم استغفر الله
فغفر له ، وقد أذنب نوح^(٢) ، ثم استغفر الله فغفر له ، وقد أذنب أبوكم آدم^(٣) ،

[١] وذلك أنه في إبان أشأته بمصر دخل مدينة ميف ذات مرة ، فوجد فيها رجلين يقتتلان قبضاً يسخر
إسرائيلياً ليحمل حطباً إلى مطح فرعون ، فاستعانه الإسرائيلي ، فقال موسى للقبطي خل سبيله ، فقال له
لقد هممت أن أحمله عليك ، فوكره موسى (أي ضربه بجمع كفه) وكان شديد القوة والبطش فقتله ، ولم
يكن يقصد قتله (وذكروا أنه كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة) وقد اغتم لذلك خوفاً من عقاب الله ،
ومن اتصاف فرعون واستغفر الله فغفر له ، وفي ذلك يقول الله تعالى : « وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ
غَمَلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ،
فَأَسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَّرَهُ مُوسَى وَقَضَى عَلَيْهِ ، قَالَ هَذَا
مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ، فَإِنَّ رَبَّ إِيَّيْ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَأَغْفِرْ لِي فَعَرَّرَهُ
إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ » (سورة القصص) وقال تعالى : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ » (سورة طه).

[٢] يشير إلى ما كان من نوح عليه السلام بشأن ابنه كنعان حين حدث الطوفان ، قال تعالى :
« وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ، يَا بُنَيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا ، وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ،
فَالَ سَاوِيَ إِلَى جِبَلٍ يَظَعُمُونِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ،
وَخَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُوقِينَ » إلى أن قال : « وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ
إِنَّ أَبِي بِنِي مِنْ أَهْلِي (أي وقد وعدتني بنجاتهم) وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ
الْحَاكِمِينَ ، قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنْ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ
مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . » (سورة هود)

[٣] وذلك أنه إذ أسكه الله هو وزوجه حواء الجنة وأباح لهما أن يأكلا من حيث شاءا ، نهاه أن
يقرب شجرة عينها له ، فوسرس له إبليس أن يأكل منها فأطاعه ، وفي ذلك يقول الله تعالى :
« وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ، فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ
الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ

ثم استغفر الله فغفر له ، ولم يَأْمُرُ أَحَدَكُمْ مِنَ الذَّنُوبِ ، وَإِنَّا لَنَعْلَمُ : قَدْ كَانَتْ لَابْنِ أَبِي طَالِبٍ سَابِقَةٌ حَسَنَةٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَالًا^(١) عَلَى قَتْلِ عَثْمَانَ فَقَدْ خَذَلَهُ ، وَإِنَّهُ لِأَخُوهُ فِي دِينِهِ ، وَإِبْنُ عَمَّتِهِ^(٢) ، وَسَلِيفُهُ^(٣) ، وَإِبْنُ عَمَّتِهِ^(٤) ، ثُمَّ قَدْ أَقْبَلُوا مِنْ عِرَاقِهِمْ ، حَتَّى نَزَلُوا شَامَكُمْ وَبِلَادَكُمْ وَيَبِضْتَكُمْ^(٥) ، وَإِنَّمَا عَامَّتْهُمْ بَيْنَ قَاتِلٍ وَخَاذِلٍ ، فَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ، فَلَقَدْ ابْتُلَيْتُمْ أَيُّهَا الْأُمَّةُ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُمْ فِي مَنَامِي فِي لَيْلَاتِي هَذِهِ ، لَكُنَّا وَأَهْلَ الْعِرَاقِ أَعْتَوَرْنَا^(٦) مُصْحَفًا نَضْرِبُهُ بِسَيْوفِنَا ، وَنَحْنُ فِي ذَلِكَ جَمِيعًا نُنَادِي : وَيَحْكُمُ اللَّهُ ! وَمَعَ أَنَا وَاللَّهِ لَا نَفَارِقُ الْعَرِصَةَ^(٧) حَتَّى نَمُوتَ ، فَعَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَلِيَكُنِ الثَّبَاتُ لِلَّهِ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « إِنَّمَا يُبْعَثُ الْمُقْتَلُونَ عَلَى الثَّبَاتِ » أَفَرِغَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ الصَّبْرَ ، وَأَعَزَّ لَنَا وَلَكُمْ النُّصْرَ ، وَكَانَ لَنَا وَلَكُمْ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٨٤)

١٨٥ - خطبة يزيد بن أسد البجلي

وقام يزيد بن أسد البجلي في أهل الشام يخطب الناس بصفين ، وعليه قباه

سوءاً انهما وقال ما تمها كما ربك كما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . «سورة الأعراف» [١] ناصر وشايع . [٢] عثمان بن عفان بن أبي العاص

ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وعلي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف .

[٣] الساف بفتح فسكس وبكسر فسكون من الرجل : زوج أخت امرأته وقد علمت أن عثمان تزوج

السيدة ربيعة أخت السيدة فاطمة زوج الإمام علي . [٤] أم عثمان هي أروى بنت كرز بن ربيعة

ابن حبيب بن عبد شمس ، وأمها البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب بن هاشم عم النبي صلى الله عليه وسلم .

[٥] البيضة : ساحة القوم . [٦] اعتوروا الشيء : تداولوه . [٧] العرصة : كل بقعة بين

الدور واسعة ليس فيها بناء .

من خَزِيٍّ وعمامة سوداء ، آخذاً بقاءم سيفه ، واضعاً نَصْلَ السَّيْفِ فِي الْأَرْضِ
متوكئاً عليه ، فقال :

« الحمد لله الواحد الفرد ، ذى الطَّوْلِ ^(١) والجَلَالِ ، العزيز الجَبَّار ، الحكيم
الغَفَّار ، الكبير الْمُتَعَال ، ذى العَطَاءِ والْفَعَال ^(٢) ، وَالسَّخَاءِ وَالنَّوَال ، والبهاء
والجمال ، وَالْمَنِّ وَالْإِفْضَال ، مَالِكِ الْيَوْمِ الَّذِي لَا يَبِيعُ فِيهِ ^(٣) . وَلَا خِلَالَ ^(٤) ،
أُحْمَدُهُ عَلَى حَسَنِ الْبَلَاءِ ، وَتَظَاهُرُ النُّعْمَاءِ ، وَفِي كُلِّ حَالٍ مِنْ شِدَّةٍ أَوْ رِخَاءٍ ،
أُحْمَدُهُ عَلَى نِعْمَةِ التَّوَامِ ، وَآلَاءِهِ الْعِظَامِ ، حَمْدًا يَسْتَنِيرُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَلِمَةَ النِّجَاتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعِنْدَ الْوَفَاةِ ، وَفِيهَا
الْخِلَاصُ يَوْمَ الْقِصَاصِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى ، وَإِمَامُ
الرَّحْمَةِ وَالْهُدَى ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

ثم كَانَ مِنْ قِضَاءِ اللَّهِ أَنْ جَمَعْنَا وَأَهْلَ دِينِنَا فِي هَذِهِ الرُّقْعَةِ مِنَ الْأَرْضِ ،
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ كَارِهًا لَدُنْكَ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُبْلِعُونَا رِيقَنَا ، وَلَمْ يَتْرَكُونَا نَرْتَادُ
لَأَنْفُسِنَا ، وَنَنْظُرَ لِمَعَادِنَا ، حَتَّى تَرَلُوا بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، وَفِي حَرِيمِنَا وَبَيْضَتِنَا ^(٥) ، وَقَدْ
عَامِنَا أَنْ فِي الْقَوْمِ أَحْلَامًا ^(٦) وَطَغَامًا ، وَلَسْنَا نَأْمَنُ طَغَامَهُمْ عَلَى ذَرَارِيَّتِنَا وَنِسَائِنَا ،
وَلَقَدْ كُنَّا نَحِبُ أَنْ لَا نَقَاتِلَ أَهْلَ دِينِنَا ، فَأَخْرَجُونَا حَتَّى صَارَتِ الْأُمُورُ إِلَى أَنْ
قَاتَلْنَاهُمْ عِدَا حِمِّيَّةٍ ^(٧) ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

[١] الطول : الفصل والقدرة والفي . [٢] الفعال : اسم الفعل الحسن ، والكرم .

[٣] لا يبيع فيه فيبتاع المصير ما يتدارك به تقصيره ، أو يفدى به نفسه . [٤] الخلالة والمحالة مصدر

خال : المصادقة ، أى ولا محالة فيه فيندفع لك خليلك . [٥] البيضة : ساحة القوم .

[٦] الحلم بالكسر : الأناة والعقل وهو حليم ، والجمع حلماء وأحلام ، والطغام : أود الناس .

[٧] الحمية : الأنفة (وى الأصل عداء ، وأرى صوابه عداء أى أعداء) .

أما والذي بعث محمداً بالرسالة لَوَدِدْتُ أَنِي مِتُّ مِنْذُ سَنَةٍ ، وَلَكِنْ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا لَمْ يَسْتَطِعِ الْعِبَادُ رَدَّهُ ، فَسْتَعِينُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِكُمْ .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤١٥)

التحريض على القتال

من قبل الإمام عليّ أيضاً

١٨٦ - خطبة الامام علي

وخطب الإمام عليّ كرم الله وجهه أصحابه ، متوكئاً على قوسه ، وقد جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله عنده فهم يَلُونَهُ ، كأنه أحبّ أن يعلم الناس أن الصحابة متوافرون معه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد : فَإِنَّ الْخِيَلَاءَ ^(١) مِنَ التَّجْبِرِ ، وَإِنَّ النَّخْوَةَ ^(٢) مِنَ التَّكْبُرِ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوًّا حَاضِرًا ، يَمِيدُ كَمَا الْبَاطِلُ ، أَلَا إِنَّ الْمُسْلِمَ أَخُو الْمُسْلِمِ ، فَلَا تَنَابَذُوا ، وَلَا تَخَازِلُوا ، أَلَا إِنَّ شَرَائِعَ الدِّينِ وَاحِدَةٌ ، وَسُئِلَهُ قَاصِدَةٌ ^(٣) ، مِنْ أَخْذِهَا بِهَا لِحَاقٍ ^(٤) ، وَمَنْ فَارَقَهَا مُحِقٌّ ^(٥) ، وَمَنْ تَرَكَهَا مَرَقٌ ^(٦) ، لَيْسَ الْمُسْلِمُ بِالْخَائِنِ إِذَا أَوْثَمِنَ ، وَلَا بِالْخَائِفِ إِذَا وَعَدَ ، وَلَا بِالْكَذَّابِ إِذَا نَطَقَ ، نَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ الرَّحْمَةِ ، وَقَوْلُنَا الصِّدْقُ ، وَفِعْلُنَا الْفَضْلُ ، وَمَنَا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَفِينَا قَادَةَ الْإِسْلَامِ ، وَفِينَا حَمَلَةَ الْكِتَابِ ، أَلَا إِنَّا نَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَإِلَى رَسُولِهِ ، وَإِلَى جِهَادِ عَدُوهِ ، وَالشَّدَةِ فِي أَمْرِهِ ، وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ ، وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَتَوْفِيرِ الْفِيءِ عَلَى أَهْلِهِ ، أَلَا وَإِنْ مِنْ عَجَبِ الْعَجَائِبِ أَنْ مُعَاوِيَةَ بْنَ

[١] الخيلاء : الكبر . [٢] النخوة : الافتحار والتعظيم . [٣] اقصد : استقامة الطريق .

[٤] أي أدرك رضا الله وثوابه . [٥] محقه : محام ، ومحق الله الشيء ذهب ببركته .

[٦] أي خرج عن الدين ، وأصله من مرق السهم من الرمية مروفاً إذا خرج من الجانب الآخر .

أبي سفيان الأموي، وعمر بن العاص السهمي، أصبحا يُحَرِّضَانِ النَّاسَ عَلَى طَلَبِ
الدِّينِ بِزَعْمِهِمَا ، وَلَقَدْ عَامَتُمْ أَنِّي لَمْ أُخَالِفْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَطُّ ، وَلَمْ
أَعْصِهِ فِي أَمْرٍ ، أَقْبِيهِ بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَنْكُصُ ^(١) فِيهَا الْأَبْطَالُ ، وَتُرْعَدُ
فِيهَا الْفَرَائِصُ ^(٢) ، بِنَجْدَةِ أَكْرَمَنِي اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِهَا وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَلَقَدْ قُبِضَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَإِنَّ رَأْسَهُ لَفِي حِجْرِي ، وَلَقَدْ وَايَتِ غُسْلَهُ بِيَدِي
وَحَدِي ، تُقَلِّبُهُ الْمَلَائِكَةُ الْمُقْرَبُونَ مَعِي ، وَإِيمَ اللَّهِ مَا اخْتَلَفَتْ أُمَّةٌ قَطُّ بَعْدَ نَبِيِّهَا ،
إِلَّا ظَهَرَ أَهْلُهَا عَلَى أَهْلِ حَقِّهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨١)

١٨٧ — خطبة أخرى له

وروى أن الإمام علياً قال في هذه الليلة : حتى متى لانا هض القوم
بأجمعنا ؟ فقام في الناس فقال :

« الحمد لله الذي لا يُبْرَمُ ما نَقَضَ ، ولا يُنْقَضُ ما أُبْرِمَ ، لو شاء ما اختلف
اثنان من هذه الأمة ، ولا من خلقه ، ولا تنازع البشر في شيء من أمره ، ولا
جحد المفضول ذاك الفضل فضله ، وقد ساقتنا وهؤلاء القوم الأقدار ، حتى ألفت
بيننا في هذا الموضع ، ونحن من ربنا بمرأى ومسمع ، ولو شاء أعجل النعمة ،
ولكان منه النصر ، حتى يكذب الله الظالم ، ويعلم المحق أين مصيره ، ولكنه
جعل الدنيا دار الأعمال ، والآخرة دار الجزاء والقرار ، « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا
بِمَا عَمَلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » ألا إنكم لاقوا العبدو غداً إن شاء الله ،

[١] نكص عن الأمر : أحجم عنه .

[٢] جمع فريضة ، وهي لجة بين الجنب والكتف لانزال ترعر .

فَأَطِيلُوا اللَّيْلَةَ الْقِيَامَ ، وَأَكْثَرُوا تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الصَّبْرَ وَالنَّصْرَ ،
وَالْقَوَاهِمَ بِالْجِدِّ وَالْحَزْمِ ، وَكُونُوا صَادِقِينَ . (شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٤٨١)

١٨٨ — ومن كلام له كرم الله وجهه

كان يقوله لأصحابه في بعض أيام صهين

« مَعَاشِرَ الْمَسَالِمِينَ : اسْتَشْعِرُوا ^(١) الْخَشْيَةَ ، وَتَجَلَّبَبُوا السَّكِينَةَ ، وَعَضُّوا
عَلَى الْفَوَاجِدِ ^(٢) ، فَإِنَّهُ أَنْبَى لِلسَّيْفِ عَنِ الْهَامِ ^(٣) ، وَأَكْمَلُوا الْأُمَّةَ ^(٤) ، وَقَدِّقُوا
السَّيْفَ فِي أَغْمَادِهَا ، قَبْلَ سَلِّهَا ^(٥) ، وَالْحَظُّوا الْخَزَرَ ^(٦) ، وَاطْمَعِنُوا الشَّرَرَ ^(٧) ،
وَنَافِحُوا بِالظُّبَا ^(٨) ، وَصَلُّوا السَّيْفَ بِالْخَطَا ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ بَعَيْنِ ^(٩) اللَّهُ ، وَمَعَ
ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَعَاوَدُوا الْكُرَّ ، وَاسْتَحْيُوا مِنَ الْفَرِّ ،
فَإِنَّهُ عَارٌ فِي الْأَعْقَابِ ، وَنَارٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ، وَطَيَّبُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ نَفْسًا ، وَامشَوْا إِلَى
الْمَوْتِ مَشْيًا سَنَجِحًا ^(١٠) ، وَعَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ ^(١١) الْأَعْظَمِ ، وَالرَّوَاقِ الْمُطَنَّبِ ^(١٢) ،
فَاضْرَبُوا مَبْجَهَ ^(١٣) . فَإِنَّ الشَّيْطَانَ كَامِنٌ فِي كِسْرِهِ ^(١٤) ، قَدْ قَدَّمَ لِلْوُثْبَةِ يَدًا ،

[١] استشعر : لس الشعار وهو ما يلبى البدن من الثياب ، وتحلبت : لبس الجلباب ، والمراد : لارموا
الخشية والسكينة . [٢] الواحد جمع ناجد : أقصى الأصراس ، وبعض المرء نواخذة حين يشترده
عيطه ، والمراد : استجمعوا كل قوتكم . [٣] فإنه الضمير فيه يعود على المصدر المفهوم من الفعل
السابق أي فإن المضى على الواجد أنبي للسيوف ، أي أدعى إلى نوتها عن رء وسكم ، نا السيف عن
الضريبة : كل ، والهام : الرءوس جمع هامة . [٤] الأمة : الدرع ، ويجوز أن يعبر بالأمة عن
جميع أدوات الحرب ، يريد أكلوا السلاح . [٥] محافة أن تستعصى عن الخروج وقت سلها .
[٦] الخزر : النطر في أحد الثقبين ، وتلك أمارة العضب . [٧] الطمن في الجوانب يمبياً وشمالاً .
[٨] ناخفوا : كالغوا وضاربوا ، والطبا : جمع طبة ، وهي حد السيف . [٩] أي ماجوظين بها .
[١٠] اللابن السهل . [١١] العدد الكثير . يعى جمهور أهل الشام . [١٢] الرواق : نكسر
الراء وضمها الفسطاط ، يريد به مضرب معاوية المطنب ، أي المشدود بالأطناب (جمع طناب بضمين ، وهو
الجل) وكان معاوية في مضرب عليه قبة عالية وحوله صناديد أهل الشام .
[١٣] أي وسطه . [١٤] جانبه .

وَأَخَّرَ لِلنَّكُوصِ رِجْلًا ، فَصَمَدًا صَمَدًا^(١) ، حَتَّى يَنْجَلِيَ لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ ، وَأَنْتُمْ
الْأَعْلَوْنَ ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ ، وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ^(٢) أَعْمَالِكُمْ . (نهج البلاغة ١ : ٥٧)

١٨٩ - خطبة أخرى للإمام

وخطب الإمام على ذلك اليوم أيضاً ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ ، قَدْ دَلَّكُمْ عَلَى تِجَارَةِ تَنْجِيكُمْ مِنَ الْعَذَابِ ،
وَتُشْفِي^(٣) بَكُمْ عَلَى الْخَيْرِ ، إِيمَانٍ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، وَجَمَلِ ثَوَابِهِ
مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ ، وَمَسَاكِينِ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ،
وَأَخْبَرَكُمْ بِالَّذِي يَجِبُ قَقَالَ : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ،
كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوعٌ) فَسَوْوُوا صَفُوفَكُمْ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوعِ ، وَقَدِّمُوا الدَّارِعَ ،
وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ ، وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ ، فَإِنَّهُ أَنْبَى السِّيُوفِ عَنِ الْهَامِ ، وَأَرْطَ
لِلْجَاشِ ، وَأَسَكَنَ لِلْقُلُوبِ ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتِ ، فَإِنَّهُ أَطْرَدَ لِلْقَتْلِ ، وَأَوْلَى بِالْوَقَارِ ،
وَالتَّوَمُّوا فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ ، فَإِنَّهُ أَمُورٌ^(٤) لِلْأَسِنَّةِ ، وَرَايَتِكُمْ فَلَا تُتَمَلَّوْهَا ، وَلَا
تُرَيَلُوْهَا ، وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شَجْعَانِكُمْ ، الْمَانِعِي الذَّمَّارِ^(٥) ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ نَزُولِ
الْحَقَائِقِ ، أَهْلُ الْحِفَاظِ الَّذِينَ يَخْفُرُونَ^(٦) بِرَايَتِكُمْ وَيَكشِفُونَهَا ، يَضْرِبُونَ خَلْفَهَا
وَأَمَامَهَا ، وَلَا يُضَيِّعُونَهَا ، أَجْزَأُ كُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ قِرْنُهُ^(٧) ، وَوَأَسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ ،
وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ ، فَيَجْمَعُ عَلَيْهِ قِرْنَهُ وَقِرْنَ أَخِيهِ ، فَيَكْسِبُ بِذَلِكَ اللَّائِمَةَ ،
وَيَأْتِي بِهِ دِنَاءَةً ، أَنَّى هَذَا ، وَكَيْفَ يَكُونُ هَكَذَا ؟ هَذَا يُقَابِلُ اثْنَيْنِ ، وَهَذَا مُمْسِكٌ

[١] الصمد : القصد ، صمده من باب نصر قصده . [٢] لن ينقصكم منها شيئاً .

[٣] أشفى عليه : أشرف . [٤] اسم تفضيل من مار ، سهم مائر : أى حفيف ناهد داخل في
الأجسام . [٥] ما يلزمك حفظه وحمايته . [٦] خفروه وبه وعليه يخفرون بكسر الفاء ، وضماها أجاره
ومنه وآمنه . [٧] القرن : كفؤك في الشجاعة (أو طام) وأجرأه : أعناه وكماه .

يَدَهُ ، قد خَلَّى قرنه إلى أخيه هارباً منه ، أو قائماً ينظر إليه ؟ من يَفْعَلُ هذا مقتته الله ، فلا تَعَرَّضُوا لمقت الله ، فَإِنَّمَا مَرَدُّكُمْ إلى الله ، قال الله تعالى ، لقوم عابهم : (لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ، وَإِذَنْ لَا تُنْتَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا) وإيم الله إن فررتم من سيف الله العاجلة ، لا تسامون من سيف الآخرة ، استعينوا بالصدق والصبر ، فإنه بعد الصبر يُنْزِلُ النصر .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٣)

١٩٠ - خطبة للإمام علي

وصراً للإمام علي كرم الله وجهه على جماعة من أهل الشام ، فيها الوليد بن عتبة وهم يشتمونه ، فخبّر بذلك ، فوقف فيمن يليهم من أصحابه ، فقال : « انهدوا ^(١) إليهم ، عليكم السكينة والوقار ، وقار الإسلام وسيمي الصالحين ، فوالله لأقرب قوم من الجهل قائدهم ومؤذنيهم ^(٢) معاوية وابن النابغة ^(٣) وأبو الأعور السلمي ، وابن أبي مُعَيْط ، شارب الحجر ، المجلود حدا في الإسلام ، وهم أولى من يقومون فينقضوني ويجدوني ^(٤) ، وقبل اليوم ما قاتلوني ، وأنا إذ ذاك أدعوهم إلى الإسلام ، وهم يدعونني إلى عبادة الأصنام ، الحمد لله ، قديماً عاداني الفاسقون ، فعبدهم ^(٥) الله ، ألم يفتنخوا ^(٦) ؟ إن هذا هو الخطب الجليل ، إن فساقاً كانوا غير مرصيين ، وعلى الإسلام وأهله متخوفين ، خدعوا شطراً هذه الأمة ، وأشربوا قلوبهم حب الفتنه ، واستمالوا أهواءهم بالإفك والبهتان ،

[١] نهى الرجل : نهضه ، ونهى لعدوه : صمد له . [٢] الأذنين والأذن : الرعي .
[٣] هو عمرو بن العاص ، والناجعة : لقب أمه سلمى بنت حرمة . [٤] الحدب بالتسكين : العيب .
[٥] ذلهم ، المعد : المذال من الطريق وغيره . [٦] الفتح بالسكون : الفهر ، والعلبة والتذليل كالفتيح (وفي الأصل : « ألم يفتنخوا » وهو تصحيف) .

قد نصبوا لنا الحرب في إطفاء نور الله عز وجل ، اللهم فافضُضْ خَدَمَتَهُمْ^(١) ،
وَشَدَّتْ كَلِمَتَهُمْ ، وَأَبْسَلَهُمْ^(٢) بِخَطَايَاهُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَدِيكُ مِنْ وَالِيَتَ ، وَلَا يَعْرِزُ
من عادية . (تاريخ الطبري ٦ : ٢٤)

١٩١ - خطبة أخرى له

ومرّ بأهل راية ، فرآهم لا يزولون عن موقفهم ، فخرّض عليهم الناس ،
- وَذُكِرَ أَنَّهُمْ غَسَّانٌ - فقال :

« إن هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن درّاك^(٣) ، يُخْرِجُ مِنْهُمْ
النَّسَمَ^(٤) ، وَضَرْبٍ يُفْلَقُ مِنْهُ الْهَامُ^(٥) ، وَيَطِيحُ^(٥) الْعِظَامَ ، وَتَسْقُطُ مِنْهُ
الْمَعَاصِمُ^(٦) ، وَالْأَكْفُ ، وَحَتَّى يُصَدَّعَ جِبَاهُهُمْ بِعُمْدِ الْحَدِيدِ ، وَتَنْتَشِرَ
حَوَاجِبُهُمْ عَلَى الصُّدُورِ وَالْأَذْقَانِ ، أَيْنَ أَهْلُ الصَّبْرِ ، وَطَلَّابُ الْأَجْرِ ؟ » .
(تاريخ الطبري ٦ : ٢٥)

١٩٢ - خطبة عبد الله بن عباس

وخطب عبد الله بن عباس أهل العراق بصفين ، فقال :
« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الَّذِي دَعَا^(٧) تَحْتَنَا سَبْعًا ، وَوَسَمَكَ^(٨) فَوْقَنَا سَبْعًا ،
وَخَلَقَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ خَلْقًا ، وَأَنْزَلَ لَنَا مِنْهُنَّ رِزْقًا ، ثُمَّ جَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرًا يَبْتَلِي

[١] يقال فضّ الله خدمتهم أي فرق جماعتهم ، الخدمة بالتحريك سير عليط مضمفور مثل الحلقة يشدّ في
رسغ البعير ، ثم يشدّ إليه سرايح النعل (أي سيورها : جمع سريحة) فإذا انقضت الخدمة انحلت السرايح
وسقطت النعل نصرب ذلك مثلاً لدهاب ما كانوا عليه وتفرقه وشبه اجتماع أمرهم واتساقه بالحلقة المستديرة .
[٢] أبسله : أسله للهلكة ، أي أهلكهم . [٣] جمع نسمة ، وهي نفس الروح (بفتح الفاء)
ثم سميت بها النفس (بالسكون) . [٤] جمع هامة ، وهي الرأس . [٥] يصحّ أن يكون مضارع
طيح بالتشديد : طيح بثوبه : رمى به في مصيعة ، وطيح الشيء : ضيعه ، وأن يكون مضارع أطاح : أطاح
شعره أسقطه ، والشيء أفناه وأذمبه ، وأن يكون مضارع طاح : طاح يطيح ويطوح هلك أو أشرف على
الهلاك وذهب وسقط وتاه في الأرض . [٦] جمع مصم بكسر الميم ، وهو موضع السوار أو اليد .
[٧] دحا الله الأرض يدحوها ويدحأها : بسطها . [٨] أي رفع .

وَيَفْتَنِي ، غير وجهه الحى القيوم ، الذى يحيا ويبقى .

إن الله تعالى بعث أنبياء ورُسُلًا ، فجعلهم حُجَجًا على عباده عُدُورًا وَنُذُرًا^(١) ،
لَا يُطَاعُ إِلَّا بِعَمَلِهِ وَإِذْنِهِ ، يَمُنُّ بِالطَّاعَةِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، ثُمَّ يُثِيبُ عَلَيْهَا ،
وَيُعْصَى بِعِلْمٍ مِنْهُ ، فَيَعْفُو وَيَغْفِرُ بِحِلْمِهِ ، لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ ، وَلَا يُبْلَغُ شَيْءٌ مَكَانَهُ ،
أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، إمام الهدى والنبي المصطفى .

وقد ساقنا قَدْرُ اللَّهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ ، حَتَّى كَانَ مِمَّا اضْطَرَبَ مِنْ حَبْلِ هَذِهِ
الْأُمَّةِ ، وَانْتَشَرَ مِنْ أَمْرِهَا ، أَنَّ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ وَجَدَ مِنْ طَغَامِ النَّاسِ أَعْوَانًا
عَلَى ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصِهْرِهِ ، وَأَوَّلِ ذَكَرٍ صَلَّى مَعَهُ ، بَدْرِيٍّ^(٢) قَدْ
شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كُلِّ مَشَاهِدِهِ الَّتِي فِيهَا الْفُضْلُ ، وَمَعَاوِيَةَ
مُشْرِكًا كَانَ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَالَّذِي مَلَكَ الْمَلِكُ وَحْدَهُ ، وَبَانَ بِهِ وَكَانَ أَهْلَهُ ، لَقَدْ
قَاتَلَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : صَدَقَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ ، وَمَعَاوِيَةَ يَقُولُ : كَذَبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ : فَعَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالْجِدِّ وَالْحَزْمِ
وَالصَّبْرِ ، وَاللَّهِ إِنْ لَعَلَّمْنَا إِنْكُمْ لَعَلَى حَقٍّ ، وَإِنْ الْقَوْمُ أَعْلَى بَاطِلٍ ، فَلَا يَكُونُنَّ أَوْلَى
بِالْجِدِّ عَلَى بَاطِلِهِمْ مِنْكُمْ فِي حَقِّكُمْ ، وَإِنْ لَعَلَّمْنَا أَنَّ اللَّهَ سَيُعَذِّبُهُمْ بِأَيْدِيكُمْ أَوْ بِأَيْدِي غَيْرِكُمْ ،
اللَّهُمَّ أَعِنَّا وَلَا تَحْذُنَا ، وَانصُرْنَا عَلَى عَدُونَا ، وَلَا تَحُلْ عِنَّا ، وَاقْتَحِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ » (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٥٠٤)

[١] هما مصدران : عذره يعذره عذراً بضم فكور وبضمتين وأندره إنذاراً ونذراً بضم وسكون
وبضمتين ، أو جمعان : العذر بضمتين جمع عذير وهو العاذر ، والدور بضمتين جمع ندير وهو النذر .
[٢] أى حضر عروة بدر الكبرى التى نثبت بين رسول الله عليه الصلاة والسلام وبين مشركي قريش
فى السنة الثانية للهجرة .

١٩٣ - خطبة عبد الله بن بديل الخزاعي

وقام عبد الله بن بُدَيْل الخَزَاعِي في أصحابه فخطبهم ، فقال :
« إن معاوية ادّعى ما ليس له ، ونازع الأمرَ أهله ، ومن ليس مثله ،
وجادل بالباطل ، لِيُدْحِضَ ^(١) به الحق ، وصال عليكم بالأعراب والأحزاب ،
وزينَ لهم الضلالة ، وزرع في قلوبهم حُبَّ الفتنة ، وأبَسَ ^(٢) عليهم الأمور ،
وزادهم رجسًا ^(٣) إلى رجسهم ، وأنتم والله على نور وبرهان ، قاتلوا الطغمان الجفأة ،
قاتلوه ولا تخشوه ، وكيف تخشونهم ؟ وفي أيديكم كتابٌ من ربكم ظاهر مُبين ،
قوله سبحانه : (اتَّخَشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ،
قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ
قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) لقد قاتلتهم مع النبي صلى الله عليه وآله ، والله ما هم في هذه بأزكى
ولا أتقى ولا أبرّ ، انهضوا إلى عدو الله وعدوكم . »

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٨٣)

١٩٤ - خطبة أبي الهيثم بن التيهان

وكان أبو الهيثم بن التيهان يسوّى صفوف أهل العراق ، ويقول :
« يا معشر أهل العراق ، إنه ليس بينكم وبين الفتح في العاجل ، والجَنَّةِ
في الآجل ، إلا ساعةٌ من النهار ، فأرْسُوا أقدامكم ، وسوُّوا صفوفكم ، أعيروا
ربكم جماجمكم ، واستعينوا بالله إلهكم ، وجاهدوا عدو الله وعدوكم ، واقتلوهم قتلهم
الله وأبادهم ، واصبروا ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . »

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٨٤)

[١] دحست الحجة : بطلت ، وأدحضتها : أبطلتها . [٢] التلبيس : التحليط .

[٣] الرجس : القدر والمأثم وكل ما استقدر من العمل ، والعمل المؤدّي إلى المذاب .

١٩٥ - خطبة للامام عليّ

وخطب عليّ عليه السلام بصفين أيضاً فقال :

« الحمد لله على نعمه الفاضلة على جميع من خلق من البرّ والفاجر ، وعلى حُجْبِهِ البالغة على خلقه من أطاعه منهم ومن عصاه ، إن يَرْحَمَ فبفضله ومنّه ، وإن عَذَّبَ فما كَسَبَتْ أيديهم ، وإن الله ليس بِظَلَامٍ للعبيد ، أحمدهُ على حسن البلاء ، وتظاهر النعماء ، وأستعينه على ما نابنا من أمر الدنيا والآخرة ، وأتوكّل عليه ، وكفى بالله وكيلاً ، ثم إنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ارتضاه لذلك وكان أهله ، واصطفاه لتبليغ رسالته وجعله رحمةً منه على خلقه ، فكان علمه فيه رءوفاً رحيماً ، أكرم خلق الله حسَباً ، وأجلهم منظرًا ، وأسخاهم نفساً ، وأبرّهم لوالد ، وأوصلهم لرحم ، وأفضلهم علماً ، وأثقلهم حِلماً ، وأوفاهم لعهد ، وآمنهم على عقد ، لم يتعلق عليه مسلم ولا كافر بِمَظْلَمَةٍ قطُّ ، بل كان يُظلم فيَغْفِر ، ويقدر فيَصْفَح ، حتى مضى صلى الله عليه وآله مطيعاً لله ، صابراً على ما أصابه ، مجاهداً في الله حقَّ جهاده ، حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وآله ، فكان ذهابه أعظم المصيبة على أهل الأرض البرّ والفاجر ، ثم ترك فيكم كتاب الله يأمركم بطاعة الله ، وينهاكم عن معصيته .

وقد عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عهداً ، فلست أحمدهُ ، وقد حضرتكم عدوكم ، وعلمتم أن رئيسهم منافق يدعوهم إلى النار ، وابن عمّ نبيكم معكم

وَيُنِزُ أَظْهُرَكُمْ يَدْعُوَكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِلَى طَاعَةِ رَبِّكُمْ، وَالْعَمَلِ بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ، وَلَا سِوَاءَ^(١) مَنْ صَلَّى قَبْلَ كُلِّ ذَكَرٍ، لَا يَسْبِقُنِي بِصَلَاةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ أَحَدٌ، وَأَنَا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، وَمَعَاوِيَةَ طَلِيقٍ، وَاللَّهُ إِنَّمَا عَلَى الْحَقِّ، وَإِنَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ، فَلَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَتَفَرَّقُوا عَنْ حَقِّكُمْ، حَتَّى يَغْلِبَ بَاطِلُهُمْ حَقِّكُمْ، قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا يُعَذِّبَهُمْ بِأَيْدِي غَيْرِكُمْ» .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٥٠٣)

١٩٦ - خطبة سعيد بن قيس

وقام سعيد بن قيس يخطب أصحابه بقنصرين^(٢)، فقال :

« الحمد لله الذي هدانا لدينه، وأورثنا كتابه، وامتنَّ علينا بنبيه، فجعله رحمةً للعالمين، وسيد المرسلين، وقائد المؤمنين، وختاماً للنبيين، وحجة الله العظيم، على الماضين والغابرين، ثم كان مما قضى الله وقدره - وله الحمد على ما أحببنا وكرهنا - أَنْ ضَمَّنَا وَعَدُّوْنَا بِقُنَاصِرِينَ، فَلَا يَجْمَلُ بِنَا الْيَوْمَ الْحِيَاصُ^(٣)، وليس هذا بأوان انصراف، ولات حين مناص^(٤)، وقد خصَّنا الله بمنَّه برحمته لا نستطيع أداء شكرها، ولا تقدُّر^(٥) قدرها، إن أصحاب محمد صلى الله عليه

[١] أى ولا مثل من صلى . [٢] قال صاحب اللسان والقاموس : قنصرين موضع بالشام ، ولم يذكره ياقوت و معجمه .

[٣] حاص عنه يحمي حيصاً ومحيصاً ومحصاً عدل وحاد ، والحياص والحياصة : مفاعلة من الحيص أى العدول والهرب . قال صاحب اللسان : وفي حديث مطرف (بتشديد الراء المكسورة) أنه خرج من الطاعون ثقيل له في ذلك ، يقال : « هو الموت نحايصه ولا بد منه » « قال أبو عبيد معناه : نروغ عنه » وليس بين العبد والموت مفاعلة ، وإنما المعنى أن الرجل في فرط حرصه على الفرار من الموت كأنه يباريه ويمالبه ، فأخرجه على المفاعلة لكونها موضوعة لإفادة المبارة والمعالبة بالفعل ، كقوله تعالى : « يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ » فيقول معنى نحايصه إلى قولك نحصر على الفرار منه اه .

[٤] النوص والمناص : التأخر والفرار ، ناص عن قرنه ينوص : فرّ وراغ ، أى وليس الوقت وقت تأخر وفرار . [٥] قدر الشيء قدره من التقدير وبابه صرب ونصر « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » أى ما عظموه حق تعظيمه .

وآله الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ معنا وفي حَيْرِنَا ، فوالله الذي هو بالعباد بصير ، أَنْ لو
كَانَ قَائِدَنَا رجلاً مَخْدُوعًا ، إِلَّا أَنْ معنا من البدرين سبعين رجلاً ، لكان ينبغي
لنا أَنْ تَحْسُنَ بصائرنا ، وتطيبَ أَنْفُسَنَا ، فكيف وإنما رئيسنا ابن عم نبينا ،
بَدْرِيٌّ صِدْقٌ ، صَلَّى صغيراً ، وجاهد مع نبيكم ﷺ كثيراً ، ومعاوية طليقٌ من
وَثَاقٍ (١) الأَسَارَى ، إِلَّا أَنَّهُ أَخُو جُفَاةٍ ، فأوردهم النارَ ، وأورثهم العارَ ، والله
مُحِلٌّ بِهِمُ الذِّلَّ وَالصَّغَارَ (٢) ، أَلَا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ عَدُوَّكُمْ غَدًا ، فعليكم بتقوى الله من
الْجِدِّ وَالْحَزْمِ وَالصَّدَقِ وَالصَّبْرِ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ، أَلَا إِنَّكُمْ تَفُوزُونَ بِقَتْلِهِمْ ،
وَيَشْقَوْنَ بِقَتْلِكُمْ ، وَاللَّهِ لَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْكُمْ رَجُلًا مِنْهُمْ إِلَّا أَدْخَلَ اللَّهُ الْقَاتِلَ جَنَاتِ
عَدْنٍ ، وَأَدْخَلَ الْمَقْتُولَ نَارًا تَلْظِي ، لَا تَفْتُرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهَا مُبْلِسُونَ (٣) ، عصمنا
الله وإياكم بما عصم به أوليائه ، وجعلنا وإياكم ممن أطاعه وَاتَّقَاهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ
العظيم لي ولكم والمؤمنين . (شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٨٣)

١٩٧ - خطبة يزيد بن قيس الأرحبي

وحرص يزيد بن قيس الأرحبي أهل العراق بصفين ، فقال :
« إن المسلم من سلم دينه ورأيه ، وإن هؤلاء القوم والله ما إن يقاتلوننا على
إقامة دين رَأَوْنَا ضِيَعْنَاهُ ، ولا على إحياء حقِّ رَأَوْنَا أَمْتَنَاهُ ، ولا يقاتلوننا إِلَّا
على هذه الدنيا ، ليكونوا فيها جَبَابِرَةً وَمُلُوكًا ، ولو ظَهَرُوا عَلَيْكُمْ - لا أراهم الله

[١] الوثاق بالفتح ويكسر : ما يشد به ، وأوثقه في الوثاق شدة « فَشَدُّوا الْوُثَاقَ »

[٢] الذل والصغار . [٣] من أبلس إذا بئس وتبحر .

ظهوراً ولا سروراً - إذن لوليكم مثل سعيد^(١) والوليد^(٢) وعبد الله بن عامر^(٣) السفية ، يحدث أحدهم في مجلسه بذيت وذيت^(٤) ، ويأخذ مال الله ، ويقول : لا إثم على فيه ، كأننا أعطى ثرائه من أبيه ، كيف ؟ إنما هو مال الله ، أفاءه علينا بأسيافنا ورماحنا ، قاتلوا : عباد الله : القوم الظالمين ، الحاكمين بغير ما أنزل الله ، ولا تأخذكم فيهم لومة لائم ، إنهم إن يظهروا عليكم ، يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم ، وهم من قد عرفتم وجرّ بتم ، والله ما أرادوا باجتماعهم عليكم إلا شراً ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم »

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٠ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٥)

١٩٨ - خطبة هاشم بن عقبة المرقال

وَشَدَّ هَاشِمُ بْنُ عَثْبَةَ الْمُرْقَالُ^(٥) فِي عِصَابَةِ مَنْ أَصْحَابِهِ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ مَرَاراً ، فَلَيْسَ مِنْ وَجْهِ يَحْمِلُ عَلَيْهِ ، إِلَّا صَبَّرَ لَهُ ، وَقَاتَلَ فِيهِ قِتَالاً شَدِيداً ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ :

[١] هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، قتل أبوه العاص يوم بدر كافراً ، قتله علي بن أبي طالب ، وقد استعمل عثمان بن عفان سعيداً على الكوفة بعد الوليد بن عقبة ابن أبي معيط ، وولاه معاوية في خلافته المدينة ، فكان يوايه إذا عزل مروان بن الحكم عن المدينة ، ويولى مروان إذا عزله . [٢] هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط ابن بن أبي عمرو ذكوان بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف ، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه (أمه أروى بنت كرز بن ربيعة بن حبيب ابن عبد شمس) وولاه عثمان الكوفة بعد سمع بن أبي وقاص ، ثم عزله حين اتهم بشرب الخمر ، واستعمل بعده سعيد بن العاص . [٣] هو عبد الله بن عامر بن كرز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف ، وهو ابن خال عثمان بن عفان ، استعمله عثمان على البصرة بعد أبي موسى الأشعري ، وولاه أيضاً بلاد فارس بعد عثمان بن أبي العاص ، ولم يزل والياً على البصرة إلى أن قتل عثمان ، وقد وولاه معاوية البصرة ثلاث سنين . [٤] زيت وذيت مثناة الآخر ، أى كيت وكيت .

[٥] هو هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وهو ابن أخي سعد بن أبي وقاص ، ولقب بالمرقال لأن علياً رضى الله عنه أعطاه الراية بصفين ، وكان يرقل بها أى يسرع ، وهو الذى انتح جلولاء من بلاد الفرس ، وكانت جلولاء تسمى فتح الفتوح ، وفقت عينه يوم اليرموك بالشام ، وقتل في وقعة صفين ، قطعت رجله يومئذ ، فجعل يقاتل من دنا منه وهو بارك .

« لا يَهْوُلَنَّكُمْ مَا تَرَوْنَ مِنْ صَبْرِهِمْ ، فَوَاللَّهِ مَا تَرَوْنَ فِيهِمْ إِلَّا حِمِيَّةَ الْعَرَبِ ،
وَصَبْرَهَا تَحْتَ رَايَاتِهَا ، وَعِنْدَ مَرَاكِزِهَا ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى الضَّلَالِ ، وَإِنَّكُمْ لَعَلَى الْحَقِّ ،
يَا قَوْمِ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَاجْتَمِعُوا ، وَامشوا بنا إلى عدونا ، على ثَوْدَةٍ رُوَيْدًا ،
ثُمَّ اثْبُتُوا وَتَنَاصَرُوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ ، وَلَا يَسْأَلُ رَجُلٌ أَخَاهُ ، وَلَا تُكْفِرُوا
الْإِتِّفَاتِ ، وَاصْمُدُّوا ^(١) صَمْدَهُمْ ، وَجَاهِدُوا مُحْتَسِبِينَ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . » (تاريخ الطبري ٦ : ٢٣)

١٩٩ - خطبة عمار بن ياسر

وقام عمار بن ياسر يوم صفين ، فقال :

« انهضوا معي : عبادَ الله : إلى قوم يزعمون أنهم يطلبون بدمِ ظالمٍ ، إنما
قتله الصالحون المنكرون للعدوان ، الآمرون بالإحسان ، فقال هؤلاء الذين
لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم ، ولو دَرَسَ ^(٢) هذا الدينُ ، لِمَ قتلتموه ؟ فقلنا :
لِأَحْدَاثِهِ ، فَقَالُوا : إِنَّهُ لَمْ يُحْدِثْ شَيْئًا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مَكْنَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا ، فَهَمُّ
يَأْكُلُونَهَا وَيَرْعَوْنَهَا ، وَلَا يَبَالُونَ لَوِ انهدمت الجبال ، وَاللَّهِ مَا أَظْنَهُمْ يَطْلُبُونَ بَدْمَ ،
وَلَكِنِ الْقَوْمَ ذَاقُوا الدُّنْيَا ، فَاسْتَحْلَوْهَا وَاسْتَمَرَّءَ وَهًا ^(٣) ، وَعَلِمُوا أَنَّ صَاحِبَ الْحَقِّ
لَوْ وَلِيَهُمْ لِحَالٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَأْكُلُونَ وَيَرْعَوْنَ مِنْهَا ، إِنْ الْقَوْمَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ
سَابِقَةٌ فِي الْإِسْلَامِ ، يَسْتَحِقُّونَ بِهَا الطَّاعَةَ وَالْوَلَايَةَ ، نَحْدَعُوا أَتْبَاعَهُمْ بِأَنَّ قَالُوا :
قُتِلَ إِمَامُنَا مَظْلُومًا : لِيَكُونُوا بِذَلِكَ جَبَابِرَةً وَمَلُوكًا ، تَلِكُ مَكِيدَةٌ قَدْ بَلَّغُوا بِهَا مَا
تَرَوْنَ ، وَلَوْلَاهَا مَا تَابَعَهُمْ مِنَ النَّاسِ رَجُلٌ ، اللَّهُمَّ إِنْ تَنَصَّرْنَا ، فَطَالَمَا نَصَّرْتَ ،

[١] أي افسدوا جهنم [٢] اعشى . [٣] استمرأ الطعام : وجده مريناً أي هنيئاً حميد المعبة .

وإن تجعل لهم الأمر فادّخِرْ لهم بما أحدثوا لعبادك العذابَ الاليمَ .
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٥٠٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٢١ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ١٢٣)

٢٠٠ - خطبة الأشتر النخعي

وقام الأشتر يخطب الناس بِقُنَاصِرِينَ ، وهو يومئذ على فرس أدّمَ مثل
حَلَاكٍ ^(١) العراب ، فقال :

« الحمد لله الذي خالق السموات العُلى ، الرحمن على العرشِ اسْتَوَى ، له ما في
السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، أحمده على حسنِ البلاء ،
وتظاهر النعماء ، حمداً كثيراً ، بُكْرَةً وأصيلاً ، من هداه الله فقد اهتدى ،
ومن يضلّ فقد غوى ، أرسل محمداً بالصواب والهدى ، فأظهره على الدين كله
ولو كره المشركون ، صلى الله عليه وآله .

ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقَدَّرَ ، أن ساقتنا المقاديرُ إلى أهل هذه
البلدة من الأرض ، فَلَفَّتْ بيننا وبين عدو الله وعدونا ، فنحن بحمد الله ونعمه
ومنه وفضله ، فريرةٌ أعيننا ، طيبةٌ أنفسنا ، نرجو بقتالهم حُسْنَ الثواب ،
والأمن من العقاب ، معنا ابن عم نبينا ، وسيف من سيوف الله على بن أبي
طالب ، صلى مع رسول الله ﷺ ، لم يسبقه إلى الصلاة ذكر ، حتى كان شيخاً
لم يكن له صبوةٌ ^(٢) ، ولا نبوةٌ ^(٣) ، ولا هفوةٌ ، ولا سقطّة ، فقيهٌ في دين الله
تعالى ، عالم بحدود الله ، ذورأيٍ أصيل ، وصبرٍ جميل ، وَعَفَافٍ قديم ، فاتقوا الله
وعليكم بالحزم والجد ، واعلموا أنكم على الحق ، وأن القوم على الباطل ، إنما تقاتلون

[١] الحلاك : شدة السواد ، وفي الأصل : «حثل» وهو تحريف . [٢] الصبوة : جهلة الفتوة .

[٣] نبا السهم عن الهدف : قصر ولم يصبه ، والمراد أنه لا يعرف عنه تقصير في الدين ولا وهم .

معاوية وأنتم مع البدرين قريبٌ من مائة بدرى ، سوى مَنْ حَوْلَكُمْ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ، أَكْثَرُ مَا مَعَكُمْ رَايَاتُ قَدْ كَانَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَمَعَاوِيَةَ مَعَ رَايَاتٍ قَدْ كَانَتْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَمَنْ يَشُكُّ فِي قِتَالِ هَؤُلَاءِ ؟ إِلَّا مَيَّتَ الْقَلْبُ ، أَنْتُمْ عَلَى إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ، إِمَّا الْفَتْحَ ، وَإِمَّا الشَّهَادَةَ ، عَصَمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِمَا عَصَمَ بِهِ مِنْ أَطَاعِهِ وَاتَّقَاهُ ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمْ طَاعَتَهُ وَتَقْوَاهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . (شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٨٤)

٢٠١ - خطبة الأشتر في المنهزمين من الميمنة

ولما انهزمت ميمنة العراق ، قال له عليّ : يا مالك ، قال : لبيك ، قال : أنت هؤلاء القوم فقل لهم : « أين فراركم من الموت الذي لن تُعجزوه ، إلى الحياة التي لن تبقى لكم » فمضى فاستقبل الناس مننهزمين ، فقال لهم هذه الكلمات ، وقال : إلى أيها الناس ، أنا مالك بن الحارث ، أنا مالك بن الحارث ، ثم ظن أنه بالأشتر أعرف في الناس ، فقال : أنا الأشتر ، إلى أيها الناس ، فأقبلت إليه طائفة ، وذهبت عنه طائفة ، فنادى : أيها الناس ، عَضَضْتُمْ بِيَهْنِ (١) آبَائِكُمْ ، مَا أَقْبَحَ مَا قَاتَلْتُمْ مِنْذَ الْيَوْمِ ! أَيُّهَا النَّاسُ : أَخْلِصُوا إِلَيَّ مَذْحِجًا (٢) ، فأقبلت إليه مذحج فقال :

« عَضَضْتُمْ بِصُتْمِ (٣) الْجَنْدَلِ ، مَا أَرْضَيْتُمْ رَبَّكُمْ ، وَلَا نَصَحْتُمْ لَهُ فِي عَدُوِّكُمْ ، وَكَيْفَ بِذَلِكَ وَأَنْتُمْ أَبْنَاءُ الْحُرُوبِ ، وَأَصْحَابُ الْغَارَاتِ ، وَفَتِيانُ الصَّبَاحِ (٤) ،

[١] الهن : اسم يكنى به من الفرج . [٢] كان الأشتر من النخع (بالتحريك) ، وهي قبيلة كبيرة من مذحج باليمن . [٣] الصتم : جمع صنمة (كفرصة) ، وهي الصخرة الصلبة كالصقيفة . [٤] الغارة .

وَفُرْسَانَ الطَّرَادِ ، وَحُتُوفَ الأَقْرَانِ ، وَمَذْحَجَ الطَّعْمَانِ ، الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا يُسْبِقُونَ
بِأَرْهَمَ ، وَلَا تُطَلُّ دِمَاؤُهُمْ ، وَلَا يُعْرَفُونَ فِي مَوْطِنٍ بِمُخَسَفٍ ^(١) ، وَأَنْتُمْ حَدُّ أَهْلِ
مِصْرَكم ، وَأَعَزُّ حَيٍّ فِي قَوْمِكُمْ ، وَمَاتَفَعَلُوا فِي هَذَا الْيَوْمِ ، فَإِنَّهُ مَأْثُورٌ بَعْدَ الْيَوْمِ ، فَاتَّقُوا
مَأْثُورَ الأَحَادِيثِ فِي غَدٍ ، وَأَصْدُقُوا عَدُوَّكُمْ اللَّقَاءَ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ ، وَالَّذِي
نَفْسَ مَالِكٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ هَوْلَاءَ (وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ) رَجُلٌ عَلَى مِثَالِ
جَنَاحِ بَعُوضَةٍ مِنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَنْتُمْ مَا أَحْسَنْتُمْ الْقِرَاعَ ^(٢) ، اجْلُؤُوا
سَوَادَ وَجْهِي ، يَرْجِعُ فِي وَجْهِي دَمِي ، عَلَيْكُمْ بِهَذَا السَّوَادِ الأَعْظَمِ ، فَإِنَّ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ لَوْ قَدْ فَضَّهَ ، تَبِعَهُ مِنْ بِحَانِيهِ كَمَا يَتَّبِعُ مُؤَخَّرَ السَّيْلِ مُقَدَّمَهُ .
قَالُوا خذ بنا حيث أحببت .

(تاريخ الطبري ٦ : ١١ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٨٧)

٢٠٢ - خطبة أخرى له فيهم

وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ عَظْمٌ مِّنْ كَانَ انْهَزَمَ عَنِ الْمِيمَةِ حَرَّضَهُمْ ،
ثُمَّ قَالَ :

« عَضُّوا عَلَى النَّوَاجِدِ مِنَ الأَضْرَاسِ ، وَاسْتَقْبَلُوا الْقَوْمَ بِهَامِكُمْ ، وَشَدُّوا
عَلَيْهِمْ شِدَّةَ قَوْمِ مَوْتُورِينَ ^(٣) ، نَارًا بِآبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ، حِنَاقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ ، قَدْ
وَطَنُوا عَلَى الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ ، كَيْلًا يُسْبِقُوا بِوَتْرٍ ، وَلَا يُلْحَقُوا فِي الدُّنْيَا عَارًا ، وَآيْمُ
اللَّهِ مَا وَتَرَ قَوْمٌ قَطُّ بِشَيْءٍ أَشَدَّ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يُوتَرُوا دِينَهُمْ ، وَإِنْ هَوْلَاءَ الْقَوْمِ
لَا يَقَاتِلُونَكُمْ إِلاَّ عَنِ دِينِكُمْ ، لِيُمَيِّتُوا الشُّنَّةَ ، وَيُحْيُوا البِدْعَةَ ، وَيُعِيدُواكُمْ فِي ضَلَالَةٍ
قَدْ أَخْرَجَكُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهَا بِحَسَنِ البَصِيرَةِ ، فَطَيَّبُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنْفُسًا بِدِمَائِكُمْ

[١] الحسف : الدل . [٢] المفارعة والمناضلة . [٣] وتره : إذا أصابه وتر ، وهو النار .

دون دينكم ، فإن ثوابكم على الله ، والله عنده جنات النعيم ، وإن الفِرَار من الزحف فيه السَّلْبُ للعز ، والغلبةُ عَلَى النَّفْسِ ، وذلَّ المَحْيَا والمَمَات ، وعارُ الدنيا والآخرة ، وسخط الله وأليم عقابه .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٧)

٢٠٣ — خطبة على فيهم وقد عادوا إلى موافقهم

ولما رأى الإمام كرم الله وجهه ميمته قد عادت إلى موافقها ومصافها ، وكشفت من يازأها من عدوها ، حتى ضاربوهم في موافقهم ومراكزم ، أقبل حتى انتهى إليهم فقال :

« إني قد رأيت جَوْلَتكم وانحيازكم عن صفوفكم ، يَحُوزكم الطُّغَاةُ الجُفَاةُ ، وأعرابُ أهل الشام ، وأنتم لهَامِيم ^(١) العرب ، والسَّئَامُ الأعظم ، وعُمَّار الليل بتلاوة القرآن ، وأهل دعوة الحق إذ ضل الخاطئون ، فلولا إقبائكم بعد إدباركم وكرهكم بعد انحيازكم ، وجب عليكم ماوجب على المُوَلَّى يومَ الزحفِ دُبْرُهُ ، وكنتم من المالكين ، ولكن هَوَّنَ وجدِي ، وَشَفَى بَعْضَ أَحَاحٍ ^(٢) نفسى ، أنى رأيتم بأخْرَةَ ^(٣) حَزَمْتوهم كما حازوكم ، وأزَلْتوهم عن مصافكم كما أزالوكم ، تَحْسُوْتهم ^(٤) بالسيوف تركب أولاهم أخراهم كالإبل المطرودة الهيم ^(٥) ، فالآن فاصبروا نزلت عليكم السكينة ، وثبتتكم الله عز وجل باليقين ، وليعلم المنهزم أنه

[١] اللهم ، والهميم (بكسر اللام والميم وبهما) : الساق الجواد من الحيل والناس .

[٢] الأحاح : البيط وحرارة الغم . [٣] يقال جاء أخرة وبأخرة محركتين وقد يضم أولهما .

أى آخرأ . [٤] من الحس بالفتح : وهو القتل والاستئصال . [٥] العطاش : جمع أهيم وهيماء .

(والهيام بالضم : أشد العطش) .

مُسَخِّطٌ رَبَّهُ ، وَمُؤَبِّقٌ^(١) نَفْسَهُ ، إِنْ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةٌ^(٢) اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ ،
وَأَلَّذَلُ الْإِلْزَامُ لَهُ ، وَالْعَارَ الْبَاقِي ، وَاعْتَصَارَ الْفِيءَ مِنْ يَدِهِ ، وَفَسَادَ الْعَيْشَ عَلَيْهِ ،
وَإِنْ الْفَارُّ لَا يَزِيدُ الْفِرَارَ فِي عَمْرِهِ ، وَلَا يُرْضَى رَبَّهُ ، فَهَوَتْ الْمَرْءُ مُحِقًّا قَبْلَ إِتْيَانِ
هَذِهِ الْخِصَالِ ، خَيْرٌ مِنَ الرِّضَا بِالتَّلْبُسِ بِهَا وَالْإِضْرَارِ عَلَيْهِ .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٣ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٨)

٢٠٤ - خطبة خالد بن معمر

ولما ولى الإمام خالد بن معمر راية ربيعة ، وحمل عليها أهل الشام حملة
شديدة ، وانهمز ناس من قومه ، صاح بمن انهزم ، وقال يومئذ :
« يا معشر ربيعة : إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَتَى بِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِنْ مَنبِتِهِ ،
وَمَسَقَطِ رَأْسِهِ ، لَجْمَعِكُمْ فِي هَذَا الْمَكَانِ جَعَالِمٌ يَجْمَعُكُمْ مِثْلَهُ مُنْذُ نَشَرَكُمُ فِي الْأَرْضِ ،
فَإِنْ تُمْسِكُوا أَيْدِيَكُمْ وَتَنْكَلُوا^(٣) عَنْ عَدُوِّكُمْ ، وَتَزُولُوا عَنْ مَصَافِكُمْ ، لَا يَرْضَى
اللَّهُ فَعْلَكُمْ ، وَلَا تَعْدَمُوا مِنَ النَّاسِ مَعِيرًا يَقُولُ : فَضَحْتَ رِيبَةَ الدَّمَارِ^(٤) ،
وَحَاصَتِ^(٥) عَنِ الْقِتَالِ ، وَأُتَيْتَ مِنْ قِبَلِهَا الْعَرَبُ ، فَيَاكُمْ أَنْ تَتَشَاءَ بِكُمْ الْعَرَبُ
وَالْمَسَامُونَ الْيَوْمَ ، وَإِنَّكُمْ إِنْ تَمَضُوا مُقْبِلِينَ مُقَدِّمِينَ ، وَتَصَبَرُوا مُحْتَسِبِينَ ، فَإِنَّ
الْإِقْدَامَ لَكُمْ عَادَةٌ ، وَالصَّبْرَ مِنْكُمْ سَجِيَّةٌ ، وَاصْبِرُوا وَنِدَّتْكُمْ أَنْ تُؤْجَرُوا ، فَإِنَّ
ثَوَابَ مَنْ نَوَى مَا عِنْدَ اللَّهِ شَرَفُ الدُّنْيَا وَكَرَامَةُ الْآخِرَةِ ، وَلَنْ يُضَيِّعَ اللَّهُ أَجْرَ مَنْ
أَحْسَنَ عَمَلًا » . (تاريخ الطبري ٦ : ١٩ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٩٦)

[١] مهلك . [٢] أى غضبه . [٣] أى تنكصوا وتجنبوا .

[٤] ماتجب حمايته ولفظه . [٥] هربت وفرت .

٢٠٥ - خطبة عقبة بن حديد النمرى

وقال عُقْبَةُ بْنُ حَدِيدِ النَّمَرِيِّ يَوْمَ صَفِينٍ لِأَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ :

« أَلَا إِنَّ مَرَعَى الدُّنْيَا قَدْ أَصْبَحَ هَشِيمًا ^(١) ، وَأَصْبَحَ شَجَرُهَا خَضِيدًا ^(٢) ،
وَجَدِيدُهَا سَمَلًا ^(٣) ، وَخُلُوها مُرٌّ الْمَذَاقُ ، أَلَا وَإِنِّي أَنْبِئُكُمْ نَبَأَ أَمْرٍ صَادِقٍ : إِنِّي قَدْ
سَمِيتُ الدُّنْيَا ، وَعَزَفْتُ ^(٤) نَفْسِي عَنْهَا ، وَقَدْ كُنْتُ أَتَمَنَّى الشَّهَادَةَ ، وَأَتَعَرَّضُ
لَهَا فِي كُلِّ جَيْشٍ وَغَارَةٍ ، فَأُبَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَنْ يُبَلِّغَنِي هَذَا الْيَوْمَ ، أَلَا وَإِنِّي
مَتَعَرِّضٌ لَهَا مِنْ سَاعَتِي هَذِهِ ، قَدْ طَمَعْتُ أَلَّا أُحْرَمَهَا ، فَاتَنْتَظِرُونَ ، عِبَادَ اللَّهِ
بِجِهَادٍ مَنِ عَادَى اللَّهَ ، أَخَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ الْقَادِمِ عَلَيْكُمْ ، الزَّاهِبِ بِأَنْفُسِكُمْ لِأَمْحَالَةٍ ؟
أَوْ مِنْ ضَرْبَةٍ كَفَّ بِالسَّيْفِ ؟ أَتَسْتَبَدِّلُونَ الدُّنْيَا بِالنَّظَرِ فِي وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ،
وَمِرَافِقَةِ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ ، وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي دَارِ الْقَرَارِ ؟ مَا هَذَا
بِالرَّأْيِ السَّيِّدِ ! » .

ثم مضى فقال : « يَا إِخْوَتِي إِنِّي قَدْ بَعَثْتُ هَذِهِ الدَّارَ بِالنِّبَاتِ أَمَامَهَا ، وَهَذَا
وَجْهِي إِلَيْهَا . لَا تُبْرَحْ وَجُوهُكُمْ ، وَلَا يَقْطَعْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رِجَاءَكُمْ » فَتَبِعَهُ
إِخْوَتُهُ وَقَالُوا : « لَا نَطْلُبُ رِزْقَ الدُّنْيَا بِعَدِّكَ ، فَتَقْبَحَ اللَّهُ الْعَيْشَ بِعَدِّكَ : اللَّهُمَّ
إِنَّا نَحْتَسِبُ أَنْفُسَنَا عِنْدَكَ » . فَاسْتَقْدَمُوا فِقَاتَلُوا حَتَّى قَتَلُوا .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٥ ، شرح ابن أبي الحديد ص ١ ص ٤٩٠)

٢٠٦ - خطبة خنثر بن عبيدة بن خالد

وكان من « مُحَارِبِ » . رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ خَنْثَرٌ بْنُ عُبَيْدَةَ بْنِ خَالِدٍ ، وَكَانَ مِنْ

[١] الحشيم من النبات : اليابس المنكسر . [٢] مقطوعاً ، خصده : كضربه ، فهو خضيد ومخضود .

[٣] السمل : الخلق من الثياب . [٤] انصرفت .

أشجع الناس ، فلما اقتتل الناس يوم صفين ، جعل يرى أصحابه منهزمين ، فأخذ ينادى :

« يا معشر قيس ، أطاعةُ الشيطانِ آثرٌ ^(١) عندكم من طاعة الرحمن ؟ ألا إنَّ الفرار فيه معصية الله سبحانه وسخطه ، وإن الصبر فيه طاعة الله عز وجل ورضوانه ، أفتختارون سخط الله تعالى على رضوانه ، ومعصيته على طاعته ؟ ألا إنما الراحة بعد الموت لمن مات محاسباً نفسه ، ثم قال :

لَا وَاللَّهِ نَفْسُ امْرِئٍ وَوَلَّى الدُّبُرِ ^(٢) أَنَا الَّذِي لَا يَنْثَنِي وَلَا يَفِرُّ
وَلَا يُرَى مَعَ الْمَعَاذِلِ الْغُدْرِ ^(٣)

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٨ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٩٥)

٢٠٧ — تحريض معاوية أيضاً

وخطب معاوية الناس بصفين فقال :

« الحمد لله الذى دنا فى علوه ، وعلا فى دنوه ، وظهر و بطن ، وارتفع فوق كل ذى منظر ، هو الأول والآخِر ، والظاهر والباطن ، يقضى فيفصل ، ويقدر فيغفر ، ويفعل ما يشاء ، إذا أراد أمراً أمضاه ، وإذا عزم على شىء قضاه لا يؤامر ^(٤) أحداً فيما يملك ، ولا يُسأل عمماً يفعل وهم يسألون ، والحمد لله رب العالمين على ما أحببنا وكرهنا .

وقد كان فيما قضاه الله أن ساقتنا المقادير إلى هذه البقعة من الأرض ، ولَفَّت بيننا وبين أهل العراق ، فتنحن من الله بمنظر ، وقد قال الله سبحانه وتعالى :

[١] أفضل . [٢] وأل : طلب النجاة ، وخلص . [٣] المعاذيل : جمع معزال بكسر الميم ، وهو الضعيف الأحمق (ومن لاسلاح معه ، ومن يعتزل أهل الميسر لؤماً) ، والغدر : جمع غدور مبالغة من عادر . [٤] أى لا يشاور .

« وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ » انظروا يا أهل الشام ، إنكم غداً تَلْقَوْنَ أهل العراق ، فكونوا على إحدى ثلاث خصال : إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله في قتال قوم بَعَوْا عليكم ، فَأَقْبَلُوا من بلادهم حتى نزلوا في بَيْضَتِكُمْ ^(١) ، وإما أن تكونوا قومًا تطلبون بدم خليفتم وصهر نبيكم ، وإما أن تكونوا قومًا تَدْبُونُ عن نسائكم وأبنائكم ، فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل ، وأسألوا الله لنا ولكم النصر ، وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الفاتحين » (شرح ابن أبي الحديد م ١١ ص ٤٩٧)

٢٠٨ - ماخاطب به النعمان بن بشير قيس بن سعد

في وقعة صفين

وقف النعمان بن بشير الأنصاري بين الصَّفِّينِ بِصِفِّينِ فقال :

« يَا قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ ، أما أنصفكم من دعاكم إلى ماضي أنفسه ؟ إنكم يا معشر الانصار ، أخطأتم في خذل عثمان يوم الدار ، وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وإقحامكم ^(٢) على أهل الشام بصفين ، فلو كنتم إذ خذلتهم عثمان خذلتهم علياً ، كان هَذَا بهذا ، واكنتم خذاتم حقاً ، ونصرتهم باطلاً ، ثم لم ترضوا أن تكونوا كالأناس ، سَعَلْتُمْ ^(٣) الحرب ، ودعوتهم إلى البراز ، فقد والله وجدتم رجال الحرب من أهل الشام سراعاً إلى برازكم ، غير أنكاسي ^(٤) عن حربكم ، ثم لم ينزل بعلي أمره

[١] ساحتم . [٢] قحم في الأمر : رمى بنفسه فيه من غير روية ، وأقحمت الفرس النهر : أدخلته

فيه فاضعم واقتحم . [٣] شعل النار ، وأشعلها : ألهبها .

[٤] أنكاس : جمع نكس (بالكسر) ، وهو الضعيف المقصر .

قَطُّ إِلهٍ هَوَّيْتُمْ عَلَيْهِ المصيبة ، و وعدتموه الظفر ، وقد والله أخلفتموه ، وهان علينا بأسمكم ، وما كنتم لتُخْلُوا به أنفسكم من شدتكم في الحرب ، وقد رتكم على عدوكم ، وقد أصبحتم أذلاءً على أهل الشام ، لا يرون حربكم شيئاً ، وأنتم أكثر منهم عدداً ومدداً ، وقد والله كآثروكم بالقلّة ، فكيف لو كانوا مثلكم في الكثرة ، والله لا تزالون أذلاءً في الحرب بعدها أبداً، إلا أن يكون معكم أهل الشام ، وقد أخذت الحرب منا ومنكم ما قد رأيتم ، ونحن أحسن بقيةً ، وأقربُ إلى الظفر ، فاتقوا الله في البقية » فضحك قيس وقال :

٢٠٩ - جواب قيس بن سعد

« والله ما كنت أراك يا نعمان تجترئ على هذا المقام ، أما المنصف الحق فلا ينصح أخاه من غش نفسه ، وأنت والله الغاش لنفسه ، المبطل فيما نصح غيره ، أما ذكر عثمان فإن كان الإيجاز يكفيك نخذه ، قتل عثمان من لست خيراً منه ، وخذله من هو خير منك ، وأما أصحاب الجمل فقاتلناهم على النكث ، وأما معاوية ، فلو اجتمعت العرب على بيعته لقاتلتهم الأنصار ، وأما قولك إنا لسنا كالناس ، فنحن في هذه الحرب كما كنا مع رسول الله ، تلقى السيوف بوجوهنا ، والرماح بنحورنا ، حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، ولكن انظريا نعمان ، هل ترى مع معاوية إلا طليقاً أعرابياً ، أو يمانياً مستدرجاً^(١) ، وانظرا ين المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ثم

[١] استدرجه : خدعه وأذناه .

انظر هل ترى مع معاوية غيرك وَصَوِّحِيكَ^(١) ، ولستما والله بدريّين
ولا عَقِيَّين^(٢) ، ولا لكما سابقة في الإسلام ، ولا آية في القرآن .

(الإمامة والسياسة : ١ : ٨٣)

خطب الشيعيات في وقعة صفين

٢١٠ - خطبة عكرشة بنت الأطرش

دخلت عكرشة بنت الأطرش على معاوية متوكئة على عُكَّاز ، فسلمت
عليه بالخلافة ثم جلست ، فقال لها معاوية : الآن يا عكرشة صرت عندك أمير
المؤمنين ؟ قالت نعم ، إذ لا علىّ حيّ ، قال : أَلَسْتَ المتقلدة حمائل السيوف
بصفين ، وأنت واقفة بين الصفين تقولين :

« أيها الناس : عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم ، إن الجنة
لا يرحل من أوطانها ، ولا يهزم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها
بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها ، وكونوا فوماً مستبصرين في دينهم ،
مستظهرين^(٣) بالصبر على طلب حقهم ، إن معاوية ذلف^(٤) إليكم بعجم العرب ،
غُلف^(٥) القلوب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ،
واستدعاهم إلى الباطل فلبّوه ، فالله الله عباد الله في دين الله ، إياكم والتواكل
فإن ذلك ينقض عرا الإسلام ، ويظني نور الحق ، هذه بذر الصغرى ،

[١] أراه يعني به عمرو بن العاص ، وقد كان أكبر أعوان معاوية ونصرائه ، عاقده على نصرته ، على أن
يجعل له مصر طعمة . [٢] أي لا تمن حضروا وقعة بدر مع الرسول صلى الله عليه وسلم ولا ممن
بايعوه في العقبة .

[٣] مستعنين . [٤] ذلف : عشي . عشي المقيد ، وفي التعبير به إيماء إلى ضعف معاوية ووهن قوته .

[٥] جمع أغلف وقلب أغلف كأنما عشي بملاف فهو لا يمي .

وَالْعَقَبَةَ^(١) الأخرى ، يامعشر المهاجرين والأنصار ، امضوا على بصيرتكم ،
واصبروا على عزيمتكم ، فكأني بكم غدا ، وقد لقيتم أهل الشام كالحُمُرِ الناهقة ،
تصقَعُ^(٢) صَقَعِ البعير .

فكأني أراكِ على عصاكِ هذه ، وقد انكفأ عليك العسكران ، يقولون هذه
عكرشة بنت الأطرش بن رَواحة ، فإن كدتِ لَتَقُلِّينِ أهل الشام لولا قدر الله ،
وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، فما حملك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين بقول الله
جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ .
الآية » وإن اللبيب إذا كرهَ أمراً لا يُحبِ إعادته ، قال صدقت ، فاذا كرى
حاجتك ، قالت : إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا ، فترد على فقرائنا ، وإنا
قد فقدنا ذلك ، فما يُجَبِّرُنا كسير ، ولا يُنْعَشِ لنا فقير ، فإن كان ذلك عن
رأيك ، فمثلك تنبه من الغفلة ، وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك ، فما
منلك من استعان بالخَوَنة ، ولا استعمل الظلمة ، قال معاوية : يا هذه إنه ينوبنا
من أمور رعيتنا أمور تنبثق^(٣) ، وبحور تنفهِق^(٤) ، قالت : يا سبحان الله !
والله ما فرض الله لنا حقاً ، فجعل فيه ضرراً على غيرنا ، وهو علام الغيوب . قال
معاوية : يأهل العراق ، نبهكم على بن أبي طالب ، فلم تُطَاقوا ، ثم أمر بردَّ
صدقاتهم فيهم ، وإنصافهم . (العقد الفريد ٢ : ١٣١ ، وصح الأعمى ١ : ٢٥٣)

[١] تشير إلى بيعة العقبة (الأولى والثانية) حين بايع المسلمون الأولون من الأنصار النبي صلى الله عليه وسلم بالعقبة على نصرته : أى أن هذه الموقعة دفاع عن الإسلام ونصرة له كتلك .

[٢] الصقع: رفع الصوت، صقع بصوته رفعه . وى صح الأعمش تصقع تصع البعير . من قصح الجبل بجرته

ردّها إلى جوفه . [٣] انبثق : انفجر ، وانبثق السيل عليهم أقبل ولم يحسبوه . [٤] تنسع .

٢١١ - خطبة أم الخير بنت الحريش

كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سُرَاقَةَ البارقي برحلها ، وأعلم أنه مجازيه بالخير خيراً ، وبالشر شراً بقولها فيه ، فلما ورد عليه كتابه ، ركب إليها ، فأقرأها كتابه ، فقالت : أما أنا فغير زائفة عن طاعة ، ولا معتلة بكذب ، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين ، لأمر تختلج في صدري . فلما شيعها ، وأراد مفارقتها ، قال لها يا أم الخير : إن أمير المؤمنين كتب إليّ أنه مجازيني بقولك فيّ بالخير خيراً ، وبالشر شراً ، فإلى عندك ؟ قالت يا هذا ، لا يُطمعك برك بي ، أن أسرك بباطل ، ولا يؤيسك معرفتي بك ، أن أقول فيك غير الحق ، فسارت خير مسير ، حتى قدمت على معاوية ، فأنزلها مع الحرّم ، ثم أدخلها في اليوم الرابع وعنده جلساؤه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! فقال لها : وعليك السلام يا أم الخير ! بحق ما دعوتني بهذا الاسم ؟ قالت : مه يا أمير المؤمنين ، فإن بديهة ^(١) السلطان مدحضة ^(٢) لما يجب علمه ، ولكل أجل كتاب ، قال صدقت ، فكيف حالك يا خالة ، وكيف كنت في مسيرك ؟ قالت لم أزل يا أمير المؤمنين في خير وعافية ، حتى صرت إليك ، فأنا في مجلس أنيق ، عند ملك رقيق . قال معاوية : بحسن نيتي ظفرت بكم . قالت يا أمير المؤمنين : يعيدك الله من دحض ^(٣) المقال ، وما تُردى عاقبته ، قال : ليس هذا أردنا ، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قُتل عمّار بن ياسر ؟ قالت لم أكن والله زورته ^(٤) قبل ، ولا رَوَيْته بعد ، وإنما كانت كلمات نفمها لساني

[١] البديهة أول كل شيء وما يفجأ منه . [٢] المدحضة : المزلة . [٣] دحضت الحجة دحضاً من باب تقع بطلت ورجله زالت وكان دحض زلق . [٤] زور الشيء : حسنه وقوّمه وهذبه .

عند الصدمة ، فإن أحيبت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت ، فالتفت معاوية إلى جلسائه ، فقال : أيكم يحفظ كلامها ؟ فقال رجل منهم أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين . قال هات ؟ قال كَأَنِّي بَهَا بَيْنَ بَرْدِينَ زَيْبَرِيَّيْنِ^(١) كشيبي النسيج ، وهي على جبل أُرْمَك^(٢) ، ويدها سوط منتشر الضفيرة ، وهي كالفحل يَهْدُر^(٣) في شِقْشِقَتِهِ تقول :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ : اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنْ زَلَزَلَتِ السَّاعَةُ شَيْءَ عَظِيمٍ ، إِنْ اللَّهُ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ الْحَقَّ ، وَأَبَانَ الدَّلِيلَ ، وَبَيَّنَّ السَّبِيلَ ، وَرَفَعَ الْعِلْمَ ، وَلَمْ يَدْعِكُمْ فِي عَمَيَاءِ مُدْهِمَةٍ ، فَأَيْنَ تَرِيدُونَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ ؟ أَفَرَارًا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمْ فَرَارًا مِنْ الزَّحْفِ ، أَمْ رَغْبَةً عَنِ الْإِسْلَامِ ، أَمْ ارْتِدَادًا عَنِ الْحَقِّ ، أَمَا سَمِعْتُمْ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يَقُولُ : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ » ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول : اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، ويديك يارب أزمة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله ، هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والرضى التقي ، والصديق الأكبر ، إنها إْحَن^(٤) بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أُحْدِيَّة^(٥) وثب بها معاوية حين الغفلة ، ليدرك ثارات بنى عبد شمس ، ثم قالت : « قَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يُنْتَهُونَ » صبراً يامعشر المهاجرين والأنصار

[١] الرئير : ما يملو الثوب الجديد كالذي تراه في القטיפه . وفي رواية أخرى : عليها برد زيدي نسبة إلى زييد (فتح الزاي) بلد باليمن . [٢] من الرمكة بالضم وهي لون الرماد . [٣] بصوت والشقشة شيء كالرثة يخرج البعير من فيه إذا هاج . [٤] جمع لحنة : وهي الضئينة والحمد تومء إلى ما كان من قتل علي يوم بدر أخا معاوية (حنظلة بن أبي سفيان) وجده لأمه (عتبة بن ربيعة) وخله (الوليد بن عتبة) . [٥] تشير إلى ما حدث من همد زوج أبي سفيان (أم مارية) في غزوة أحد إذ بقرت بطن حمزة ثم النهي صلى الله عليه وسلم بعد قتله وأخذت كبده لتأكلها فلا كتها ثم أرسلتها .

قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، فكأنى بكم غداً ، وقد لقيتم أهل الشام كحُمُرٍ مستنفرة فرّت من قسورة^(١) ، لا تدرى أين يُسلك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وعمّا قليل ليصبحنّ نادمين ، حين تحل بهم الندامة ، فيطلبون الإقالة ، ولات حين مناص ، إنه من ضلّ والله عن الحق وقع في الباطل ، ألا إن أولياء الله استقصوا عمر الدنيا فرفضوها ، واستطابوا الآخرة فسَعَوْا لها ، فالله الله أيها الناس ، قبل أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ، وتقوى كلمة الشيطان ، فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصهره ، وأبى سبطيه ، خلق من طينته ، وتفرع من نَبَعَتِهِ^(٢) ، وجعله باب دينه ، وأبان ببنغضه المناقين ، وهاهو ذامُفَلَق الهام ، ومكسر الأصنام ، صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أُحُدٍ ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خيبر ، وفرق به جمع هوازن ، فيالها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً ، وورْدَةً وشقاقاً ، وزادت المؤمنين إيماناً ، قد اجتهدت في القول ، وبالغت في النصيحة ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله !

فقال معاوية : يا أم الخير ، ما أردت بهذا الكلام إلا قتلى ، ولو قتلتك ما حَرَجْت^(٣) في ذلك . قالت والله ما يسوءنى يابن هند أن يجرى قتلى على يَدَيَّ من يُسَعِدُنِي الله بشقاقه . قال هيهات يا كثيرة الفضول ! ما تقواين في عثمان ابن عفان رحمه الله ؟ قالت وما عَسَيْت أن أقول في عثمان ؟ استخلفه الناس وهم به

[١] الأسد والرماة من الصيادين ، والواحد تسور . [٢] النبعة في الأصل واحدة النع : شجر الصي والسهام . [٣] أمنت .

راضون ، وقتلوه وهم له كارهون . قال معاوية : يا أم الخير هذا ثناؤك الذي تُتْنين ؟ قالت لكن الله يشهد ، وكفى بالله شهيداً ، ما أردت بعثمان تقصاً ، ولقد كان سباًقاً إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة غداً . قال فإنا نقولين في طلحة بن عبيد الله ؟ قالت : وما عسى أن أقول في طلحة ؟ اغتيل من مأمنيه ، وأتى من حيث لم يحذر ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة . قال فإنا نقولين في الزبير ؟ قالت وما أقول في ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ^(١) ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وأنا أسألك بحق الله يا معاوية ، (فإن قريشاً تحدثت أنك أحامها) أن تُعفيني من هذه المسائل ، وتسألني عما شئت من غيرها . قال : نعم وَنِعْمَةٌ ^(٢) عَيْنٍ ، قد أعفيتك منها ، ثم أمر لها بجائزة رفيعة ، وردها مكرمة .

(العقد الفريد ١ : ١٣٢ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤١ ، وصبح الأدهى ١ : ٢٤٨)

٢١٢ - خطبة الزرقاء بنت عدى الهمدانية

وذُكرت الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية عند معاوية يوماً ، فقال لجلسائه : أيكم يحفظ كلامها ؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين . قال فأشيروا علىّ في أمرها ، فأشار بعضهم بقتلها ، فقال بثس الرأي ، أيحسن بثلى أن يقتل امرأة ! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوى محارمها ، وعدّة من فرسان قومها ، وأن يمهد لها وطاءً ^(٣) لينا ، ويستُرّها بِسِتر خَصِيف ^(٤) ، ويوسع لها في النفقة ، فأرسل إليها ، فأقرأها الكتاب ، فقالت : إن

[١] الحواريّ : الناصر أو ناصر الأنبياء . [٢] أى أفل ذلك إنعاما لعينك وإكراما .

[٣] الفراش . [٤] أصله من خصف النمل يخصفها كقرب ظاهراً بعضها على بعض وخرزها وهي

نمل خصيف ، وكل ما طورق بمغه على بعض فقد خصف .

كان أمير المؤمنين جعل أنخيار إلى فإني لا آتية ، وإن كان حَتِّم ، فالطاعة أولى ، فحملها وأحسن جهَّازها ، على ما أمر به ، فلما دخلت على معاوية . قال مرحباً بك وأهلاً ! قَدِمْتَ خيرَ مَقْدَمٍ قَدِمَهُ وافد ، كيف حالك ؟ قالت بخير يا أمير المؤمنين ، أدام الله لك النعمة . قال : كيف كنت في مسيرك ؟ قالت ربيبة بيت ، أو طفلاً مُمَهَّدًا . قال بذلك أمرناهم . أتدرين فيم بعثت إليك ؟ قالت وأنى لي بعلم ما لم أعلم ؟ قال : ألسنت الراكبة الجمل الأحمر ، والواقفة بين الصفيين بصيَّتين ، تحضين على القتال ، وتوقدين الحرب ؟ فما حملك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين ، مات الرأس وَبُتِرَ الذنب ، ولن يعود ما ذهب ، والدهر ذو غير^(١) ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر . قال لها معاوية أنحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت لا والله لا أحفظه ، ولقد أنسيته . قال : لكنى أحفظه ، لله أبوك حين تقولين :

« أيها الناس : ارعَوْوا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم في فتنة غَشَّتْكُمْ جَلَابِيبَ الظلم ، وجارت بكم عن قصد المَحَجَّة^(٢) ، فيالها فتنة عمياء صماء بكاء ، لا تسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها ، إن المصباح لا يضيء في الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه . أيها الناس : إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص ، فكأن قد اندمل شَعْبُ الشَّتات ، والتأمت كلمة الحق ، ودمغ الحق الظلَّمة ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف وأنى ؟ ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، ألا وإن خِضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، ولهذا

[١] أحداث جمع غيرة بالكسر أو مفرد ، وجمعه أغيار . [٢] حادة الطريق .

اليوم ما بعده : والصبر خير في الأمور عواقباً :

إيهاً^(١) في الحرب قَدْماً غير نا كصين ، ولا متشا كسين »

ثم قال لها : والله يا زرقاء لقد شَرِكْتُ عليكِ في كلِّ دم سفك . قالت أحسن الله بشارتك ، وأدام سلامتك ! فثلك بَشْرٍ بخير وسرٍّ جليسه . قال أويسرك ذلك ؟ قالت نعم . والله لقد سُرِرْتُ بالخَبْر ! فأنى لي بتصديق الفعل ! فضحك معاوية ، وقال : والله لو فاءؤكم له بعد موته أعجب من حِكْمِ له في حياته ، اذ كرى حاجتك . قالت يا أمير المؤمنين : آيت على نفسى ألاَّ أسأل أميراً أعنت عليه أبداً ، ومثلك أعطى عن غير مسألة ، وجاد عن غير طلبية . قال صدقت ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكساً . (العقد الفريد ١ : ١٣٠ ، وصحح الأعشى ١ : ٢٥٢)

اختلاف اهل العراق في المواعدة

وذكروا أنه لما اشتد الأمر ، واستعزَّ القتال . قال رأسٌ من أهل العراق لعلى : إن هذه الحرب قد أكلتنا ، وأذهبت الرجال ، والرأى المواعدة . وقال بعضهم : لا بل نقاتلهم اليوم على ما فاتلناهم عليه أمس ، وكانت الجماعة قد رضيت المواعدة ، وجنحت إلى الصلح والمسألة ، فقام على خطيباً ، فقال :

٢١٣ - خطبة الامام على كرم الله وجهه

« أيها الناس : إنه لم أزل من أمرى على ما أحب ، حتى فدَحَتكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركت ، وهى لعدوكم أنْهَكُ ، وقد كنتُ بالأمس أميراً ،

[١] إيهاً : كلمة زجر بمعنى حسك (وإيه بالكسر منونة وغير منونة كلمة استعادة واستنطاق) والتقدم المعنى أمام وهو يشي القدم إذا مضى في الحرب ، ورجل قدم : أى شجاع . وفي الحديث « طوبى لعبد مغرّباً قدم في سبيل الله » القدم الاقدام ، أقدم على قرنه لإقداما وقدما تقدّم عليه بجرأة صدر .

فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً ، فأصبحت اليوم مَنهياً ، فليس لى أن أحكم على ما تكرهون . »

٢١٤ - خطبة كردوس بن هانىء

وقام كردوس بن هانىء ، فقال :

« إنه والله ما تولينا معاوية منذ تبرأنا منه ، ولا تبرأنا من على منذ توليناه ، وإن قتلنا لشهيد ، وإن حيينا لفائر ، وإن علياً على يئنة من ربه ، وما أجاب القوم إلا إنصافاً ، وكل مُحق مُنصِف ، فمن سلّم له نجا ، ومن خالفه هوى . »

٢١٥ - خطبة سفيان بن ثور

وقام سفيان بن ثور ، فقال :

« أيها الناس : إنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله ، فردوه علينا فقاتلناهم ، وإنهم دعونا إلى كتاب الله ، فإن رددناه عليهم ، حلّ لهم منا ، ما حلّ لنا منهم ، ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ورسوله ، وإن علياً ليس بالراجع الناكص ، وهو اليوم على ما كان عليه أمس ، وقد أكلتنا هذه الحرب ، ولا نرى البقاء إلا في المودعة . »

٢١٦ - خطبة حريث بن جابر

ثم قام حريث بن جابر فقال :

« إن علياً لو كان خلوا من هذا الأمر لكان المرجع إليه ، فكيف وهو قائده وسائقه ، وإنه والله ما قبل من القوم اليوم إلا الأمر الذى دعاهم إليه أمس ، ولورده عليهم كتم له أعيب ، ولا يلحد في هذا الأمر إلا راجع على عقبية ، أو مستدرج مغرور ، وما بيننا وبين من طعن علينا إلا السيف . »

٢١٧ - خطبة خالد بن معمر

ثم قام خالد بن معمر فقال :

« يا أمير المؤمنين : إنا والله ما أخرجنا هذا المقام أن يكون أحد أولى به منا ، ولكن قلنا أحب الأمور إلينا ما كُفينا مَمُوتَه ، فأما إذ استغينا ، فإننا لا نرى البقاء إلا فيما دعاك القوم إليه اليوم ، إن رأيت ذلك ، وإن لم تره فأريك أفضل »

٢١٨ - خطبة الحصين بن المنذر

ثم قام الحُصَيْن بن المنذر وكان أحدث القوم سنًا ، فقال :

« إنما بُنيَ هذا الدين على التسليم ، فلا تدفعوه بالقياس ، ولا تهديموه بالشبهة ، وإنا والله لو أنا لا تقبل من الأمور إلا ما نعرف ، لأصبح الحق في الدنيا قليلاً ، ولو تُركنا وما نهوى ، لأصبح الباطل في أيدينا كثيراً ، وإن لنا راعياً قد حمدنا ورده وصدره ، وهو المأمون على ما قال وفعل ، فإن قال لا ، قلنا لا ، وإن قال نعم ، قلنا نعم . »

٢١٩ - خطبة عثمان بن حنيف

ثم قام عثمان بن حنيف ، وكان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وكان عاملاً لعلي على البصرة وله فضل ، فقال :

« أيها الناس : اتَّهَمُوا رأيكم ، فقد والله كنا مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم بالحديبية يوم أبي جندل^(١) ، وإنا ليريد القتال إنكاراً للصالح حتى ردنا

[١] هو أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، وقصته : أنه لما كانت غزوة الحديبية (سنة ست للهجرة) بعث قريش من قبلها سهيل بن عمرو ليكلم الرسول صلى الله عليه وسلم في الصلحة ، وقد جرى بينهما

عنه رسول الله ﷺ وإن أهل الشام دعونا إلى كتاب الله اضطراراً ، فأجبناهم إليه إعداراً ، فلسنا والقوم سواء ، إنا والله ما عدلنا الحى بالحى ، ولا القليل بالقتيل ، ولا الشامى بالعراقى ، ولا معاوية بعلى ، وإنه لأمر منعه غير نافع ، وإعطاؤه غير ضائر ، وقد كَلَّتْ البصائر التى كنا نقاتل بها ، وقد حمل الشك اليقين الذى كنا نتول إليه ، وذهب الحياء الذى كنا نغارى به ، فاستظلموا فى هذا الفناء (١) ،

الصلح وكتبت صحيفته ، وكان من شروطه ، وضع الحرب عن الناس عشر سنين يكف بعضهم عن بعض على أن من أتى محمداً من قريش نير إذن وليه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردّوه عليه ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب الكتاب هو وسهيل إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف والحديد قد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان المسلمون حين خرجوا لا يشكرون فى الفتح لرؤيا رأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع دخل عليهم من ذلك أمر عظيم ، ولما رأى سهيل ابنه أبا جندل قام إليه فصر به وأخذ بتلابيه « بفتح التاء : ما فى موضع اللب (أى البحر) من الثياب » ثم قال : يا محمد قد لجت القسية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال صدقت ، جعل ينثره بتلابيه ويجرّه ليردّه إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ فراد الناس إلى ما بهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناكم على ذلك وأعطينا عهد الله وإنا لا نغدر بهم ، ورتب صمر بن الخطاب مع أبى جندل يمضى إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون . وإنما دم أحدهم دم كلب . ويدنى قائم السيف منه . قال عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ففض الرجل بأبيه ونفذت القسية .

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد وكان ممن حبس بمكة ، فبعث قريش فى أثره رجلين يطلبان تسليمه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بصير إنا قد أعطينا القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . فانطلق إلى قومك . قال يا رسول الله : أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى ؟ قال يا أبا بصير انطلق ، فانطلق معهما حتى إذا كان فى بعض الطريق عدا على أحدهما قتله وهرب الآخر ، ورجع أبو بصير إلى المدينة فقال يا رسول الله وقت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتني ورددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم ، وخرج أبو بصير إلى ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذون عليها إلى الشام ، وخرج المسلمون الذين كانوا حبسوا بمكة إليه ، وانفك إليه أبو جندل بن سهيل ، فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلاً منهم ، وضيقتوا على قريش لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ، ولا تمر بهم غير الا اقتطعوها ، حتى كتبت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله بأرحامها إلا آوام ، فلا حاجة لهم بهم ، فأوام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تقدموا عليه المدينة . [١] الوء : ما كان شمساً فينسه الظل .

واسكنوا في هذه العافية ، فإن قتلتم تقاتل على ما كنا نقاتل عليه أمس ، فهيهات هيهات ذهب والله قياس أمس وجاء غد .

٢٢٠ - خطبة عدى بن حاتم

ثم قام عدى بن حاتم فقال :

« أيها الناس : إنه والله لو غيرُ عَلِيٍّ دَعَانَا إلى قتال أهل الصلاة ما أجبناه ، ولا وقع بأمر قط إلا ومعه من الله برهان ، وفي يديه من الله سبب ، وإنه وَقَفَ عن عثمان بشبهة ، وقاتل أهل الجمل على النَّكْتِ ، وأهل الشام على البغى ، فانظروا في أموركم وأمره ، فإن كان له عليكم فضل فليس لكم مثله ، فسلموا له وإلا فنازعوا عليه ، والله لئن كَانَ إلى العلم بالكتاب والسنة إنه لأعلم الناس بهما ، ولئن كَانَ إلى الإسلام إنه لأخو نبيِّ الله والرأسُ في الإسلام ، ولئن كَانَ إلى الزهد والعبادة إنه لأظهر الناس زهداً ، وأنهمكهم عبادة ، ولئن كَانَ إلى العقول والنجائز ^(١) إنه لأشد الناس عقلاً ، وأكرمهم نجيزة ، ولئن كَانَ إلى الشرف والنجدة إنه لأعظم الناس شرفاً ونجدة ، ولئن كَانَ إلى الرضا لقد رضى عنه المهاجرون والأنصار في شُورى عمر رضى الله عنهم ، وبايعوه بعد عثمان ، ونصروه على أصحاب الجمل وأهل الشام ، فما الفضل الذي قرَّبكم إلى الهدى ، وما النقص الذي قرَّب به إلى الضلال ؟ والله لو اجتمعتم جميعاً على أمر واحد ، لأتاحت الله له من يقاتل لأمر ماض ، وكتاب سابق .»

فاعترف أهل صفين لعدى بن حاتم بعد هذا المقام ، ورجع كلٌّ من تشعب

على عليّ رضى الله عنه .

[١] الحجيزة : الطبيعة .

٢٢١ - خطبة عبد الله بن حجل

ثم قام عبد الله بن حجل ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، إنك أمرتنا يوم الجمل بأمر مختلف ، كانت عندنا أمراً واحداً ، فقبلناها بالتسليم ، وهذه مثل تلك الأمور ، ونحن أولئك أصحابك ، وقد أكثر الناس في هذه القضية ، وإيم الله ما المكثير المنكر بأعلم بها من المقل المتترف ، وقد أخذت الحرب بأنفاسنا ، فلم يبق إلا رجاء ضعيف ، فإن تجب القوم إلى مادَعَوْكَ إليه ، فأنت أولنا إيماناً ، وآخرنا بنبي الله عهداً ، وهذه سيوفنا على أعناقنا ، وفلوربنا بين جوانحنا ، وقد أعطيناك بقيتنا ، وشرحنا بالطاعة صدورنا ، ونفذت في جهاد عدوك بصيرتنا ، فأنت الوالي المطاع ، ونحن الرعية الأتباع ، أنت أعلمنا بربنا ، وأقربنا بديننا ، وخيرنا في ديننا ، وأعظمنا حقاً فينا ، فسدد رأيك نتبعك ، واستخر الله تعالى في أمرك ، واعزم عليه برأيك ، فأنت الوالي المطاع . »

فسرّ على كرم الله وجهه بقوله ، وأثنى خيراً .

٢٢٢ - خطبة صعصعة بن صوحان

ثم قام صعصعة بن صوحان فقال :

« يا أمير المؤمنين : إنا سبقنا الناس إليك ، يوم قدوم طلحة والزبير عليك ، فدعانا حكيم^(١) إلى نصرة عاملك عثمان بن حنيف^(٢) فأجبناه ، فقاتل عدوك ، حتى أصيب في قوم من بني عبد قيس عبدوا الله حتى كانت أكتفهم مثل

[١] هو حكيم بن حبل . [٢] كان عامل على البصرة ، وقد نشب القتال بينه وبين أصحاب عائشة

حين قدموا البصرة .

أَكْفَ الْإِبِلَ ، وَجِبَاهَهُمْ مِثْلَ رُكْبِ الْمَعَزِ ، فَأَسْرَحْنِي ، وَسَلِّبِ الْقَتِيلَ ، فَكُنَّا أَوْلَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ ، ثُمَّ رَأَيْتُ بِلَاءَنَا بِصَفِينِ ، وَقَدِ كَلَّتِ الْبِصَاطِرُ ، وَذَهَبَ الصَّبْرُ ، وَبَقِيَ الْحَقُّ مَوْفُورًا ، وَأَنْتَ بَالِغٌ بِهَذَا حَاجَتِكَ ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ مَا أَرَاكَ اللَّهُ فَرَّ نَابَهُ .

٢٢٣ — خطبة المنذر بن الجارود

ثم قام المنذر بن الجارود فقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أَرَى أَمْرًا لَا يَدِينُ لَهُ الشَّامُ إِلَّا بِهَلَاكِ الْعِرَاقِ ، وَلَا يَدِينُ لَهُ الْعِرَاقُ إِلَّا بِهَلَاكِ الشَّامِ ، وَلَقَدْ كُنَّا نَرَى أَنْ مَا زَادَنَا نَقْصَهُمْ ، وَمَا نَقَصْنَا أَضْرَهُمْ ، فَإِذَا فِي ذَلِكَ أَمْرَانِ ، فَإِنِ رَأَيْتَ غَيْرَهُ ^(١) فَفِينَا وَاللَّهِ مَا يُفْلَكُ بِهِ الْحَدُّ ^(٢) ، وَيُرْدُّ بِهِ الْكَلْبُ ^(٣) ، وَلَيْسَ لَنَا مَعَكَ إِيرَادٌ وَلَا صَدْرٌ .

٢٢٤ — خطبة الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، فقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنْ النَّاسَ بَيْنَ مَاضٍ وَوَاقِفٍ ، وَقَائِلٍ وَسَاكِتٍ ، وَكُلٌّ فِي مَوْضِعِهِ حَسَنٌ ، وَإِنِ هُوَ لَوْ نَكَلَ الْآخِرَ عَنِ الْأَوَّلِ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ الْيَوْمَ ، مَا قَدِ قِيلَ أَمْسَ ، وَلَكِنَّهُ حَقٌّ يُقْضَى ، وَلَمْ تَقَاتِلِ الْقَوْمَ لَنَا وَلَا لَكَ ، إِنَّمَا قَاتَلْنَا اللَّهَ ، فَإِنْ حَالَ أَمْرُ اللَّهِ دُونَنَا وَدُونَكَ فَاقْبَلْهُ ، فَإِنَّكَ أَوْلَى بِالْحَقِّ ، وَأَحْقْنَا بِالتَّوْفِيقِ ، وَلَا أَرَى إِلَّا الْقِتَالَ .

[١] أى فان رأيت غير رأين « وهو الذى عبر عنه بقوله : إني أرى أمرا . . الخ » وفى الأصل

« غيرك » وأراء محرفا . [٢] أى ففينا من البأس ما يفل به حد الأعداء وقتوتهم .

[٣] الكلب : داء يشبه الجنون يأخذ الكلاب فتعقر الناس ويمتري الناس أيضا من عضها ، وقد

استعاره هنا لطمع الأعداء فيهم وغارتهم عليهم .

٢٢٥ - خطبة عمير بن عطار

ثم قام مُحمَّد بن عَطَّارِ د، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن طلحة والزبير وعائشة كانوا أحب الناس إلى معاوية ، وكانت البصرة أقرب إلينا من الشام ، وكان القوم الذين وثبوا عليك من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيراً من الذين وثبوا عليك من أصحاب معاوية اليوم ، فوالله ما منعنا ذلك من قتل المحارب ، وَعَيْبِ الواقف ، فقاتل القوم ، إنا معك . »

٢٢٦ - خطبة علي بن أبي طالب

ثم قام علي خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنه قد بلغ بكم وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغوا منكم ما بلغوا ، وأنا غادٍ عليهم بنفسى بالغداة ، فأحاكمهم بسيفي هذا إلى الله . »

وأشار عمرو بن العاص على معاوية أن يدعو علياً إلى تحكيم كتاب الله ، فأصبح أصحاب معاوية ، وقد رفعوا المصاحف على الرماح ، وقلدوها أعناق الخيل يقولون : « هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم . »

٢٢٧ - مقال عدى بن حاتم

فقام عدى بن حاتم ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن أهل الباطل ، لا تُعَوَّقُ أهل الحق ، وقد جزع

القوم حين تأهبت للقتال بنفسك ، وليس بعد الجزع لإماتحب ، ناجز القوم »

٢٢٨ - مقال الأشر النخعي

ثم قام الأشر فقال :

« يا أمير المؤمنين ، ما أجبنك لدنيا . إن معاوية لاخلف له من رجاله ، ولكن بحمد الله الخلف لك ، ولو كان له مثل رجالك ، لم يكن له مثل صبرك ، ولا نصرتك ، فافرج^(١) الحديد بالحديد ، واستعين بالله » .

٢٢٩ - مقال عمرو بن الحمق

ثم قام عمرو بن الحمق فقال :

« يا أمير المؤمنين ، ما أجبنك لدنيا ، ولا نصرناك على باطل ، ما أجبنك إلا لله تعالى ، وما نصرناك إلا للحق ، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا إليه ، لكثرفيه اللجاج ، وطالت له النجوى^(٢) ، وقد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا معك رأى »

٢٣٠ - مقال الأشعث بن قيس

ثم قام الأشعث بن قيس فقال :

« يا أمير المؤمنين ، إننا لك اليوم على ما كنا عليه أمس ، ولست أدري كيف يكون غداً ، وما القوم الذين كلوك بأحمد لأهل العراق مني ، ولا بأوتر^(٣) لأهل الشام مني ، فأجب القوم إلى كتاب الله ، فإنك أحق به منهم ، وقد أحب الله البقييا »

[١] أي شقّ سلاحهم ومزقه بسلاحك . [٢] السارّة . [٣] أي ولا أشدّ وترا . من وتره إذا أدركه بمكروه .

٢٣١ — مقال عبد الرحمن بن الحارث

ثم قام عبد الرحمن بن حارث فقال :

« يا أمير المؤمنين ، امض لأمر الله ولا يَسْتَخْفِئُكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ، أَحْكُمُ
بعد حكم ، وَأَمْرٌ بِعَدْوٍ مَضَتْ دِمَاؤُنَا وَدِمَاؤُهُمْ ، وَمَضَى حُكْمُ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ . »

٢٣٢ — مقال عمار بن ياسر

فلما أظهر على أنه قد قبل التحكيم قام عمار بن ياسر فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أما والله لقد أخرجها إليك معاوية بيضاء ، من أقرَّ بها
هلك ، ومن أنكرها ملك ، مالك يا أبا الحسن ، شككتنا في ديننا ، ورددتنا
على أعقابنا ، بعد مائة ألف قُتِلُوا مِنَّا وَمِنْهُمْ ، أَفَلَا كَانَ هَذَا قَبْلَ السَّيْفِ ؟ وَقَبْلُ
طَلْحَةَ وَالزَّيْبِرَ وَعَائِشَةَ قَدْ دَعَوْكَ إِلَى ذَلِكَ فَأَيُّتِ ، وَزَعَمْتَ أَنَّكَ أَوْلَى بِالْحَقِّ ،
وَأَنْ مَا خَالَفْنَا مِنْهُمْ ضَالٌّ حَلَالُ الدَّمِ ، وَقَدْ حَكَّمَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذَا الْحَالِ مَا قَدْ
سَمِعْتَ ، فَإِنْ كَانَ الْقَوْمُ كُفَارًا مُشْرِكِينَ ، فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَرْفَعَ السَّيْفَ عَنْهُمْ حَتَّى
يَفِيئُوا ^(١) إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، وَإِنْ كَانُوا أَهْلَ فِتْنَةٍ فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَرْفَعَ السَّيْفَ عَنْهُمْ حَتَّى
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، وَاللَّهُ مَا أَسَامُوا ، وَلَا أَدَّوْا الْجِزْيَةَ ، وَلَا فَاءُوا
إِلَى أَمْرِ اللَّهِ وَلَا طَفِئَتْ ^(٢) الْفِتْنَةُ » فقال علىّ والله إني لهذا الأمر كاره

ثم كثر اللجاج والجدال في الأمر ، وجعل علىّ يبين لهم أنها خُدعة
ومكيدة يرام بها توهين قوتهم ، وتشثيت جمعهم ، وهم لا يستمعون لقوله ، ولا
يذعنون لنصحه ، وأقبل الأشعث بن قيس في ناس كثير من أهل اليمن ، فقالوا
لعليّ : « لا تردّ ما دعاك القوم إليه ، قد أنصفك القوم ، والله لئن تقبل هذا

[١] يرجعوا . [٢] أي انطفأت .

منهم لا وفاء معك ، ولا نرمي معك بسهم ولا حجر ، ولا نقف معك موقفاً «
وغلا أنصار التحكيم في تطرفهم فقالوا « يا عليّ أجب إلى كتاب الله إذ
دعيت إليه ، وإلّا نَدْفَعُكَ بِرُمَّتِكَ إلى القوم ، أو نَفْعَلُ كما فعلنا بابن عفان » فلم
يربداً من الإذعان وقبول التحكيم . (الإمامة والسياسة ١ : ٨٩)

التحكيم بين علي ومعاوية

٢٣٣ - كلام عبد الله بن عباس لابي موسى الأشعري

ولما أجمع أهل العراق على طلب أبي موسى الأشعري وأحضره للتحكيم
على كُرهِهِ من عليّ عليه السلام ، أتاه عبد الله بن العباس ، وعنده وجوه الناس
وأشرافهم ، فقال له :

« أبا موسى : إن الناس لم يرضوا بك ، ولم يجتمعوا عليك ، لفضل لا تُشَارِكُ
فيه ، وما أكثر أشباهك من المهاجرين والأنصار المتقدمين قبلك ، ولكن
أهل العراق أبوا إلا أن يكون الحكمُ يَمَانِيّاً ، ورأوا أن معظم أهل الشام يمانٍ ،
وأيمُ الله إني لأظن ذلك شرّاً لك ولنا ، فإنه قد ضُمَّ إليك داهيةُ العرب ، وليس
في معاوية خَلَّةٌ ^(١) يستحق بها الخلافة ، فإن تَقَدَّفَ بحقك على باطله ، تُدْرِكُ
حاجتك منه ، وإن يطمع باطله في حقك ، يُدْرِكُ حاجته منك ، واعلم يا أبا موسى
أن معاوية طليقُ الإسلام ، وأن أباه رأس الأحزاب ، وأنه يدّعي الخلافة
من غير مشورة ولا بيعة ، فإن زعم لك أن عمر وعثمان استعملاه ، فلقد

صدق ، استعمله عمر وهو الوالى عليه بمنزلة الطيب يحميه ما يشتهي ، وَيُوجِرُهُ^(١) ما يكره ، ثم استعمله عثمان برأى عمر ، وما أَكْثَرَ من استعمال ممن لم يَدَّعِ الخِلافةَ ، واعلم أن لعمرٍ مع كل شيءٍ يَسُرُّكَ خَبَأٌ^(٢) يسوءك ، ومهما نسيت فلا تنسَ أن علياً بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وأنها بيعة هُدَى ، وأنه لم يقابل إلا العاصين والناكثين «

فقال أبو موسى : « رحمك الله والله مالى إمام غير عليّ ، وإني لواقف عند مارأى ، وإن حق الله أحبُّ إلى من رضا معاوية وأهل الشام ، وما أنت وأنا إلا بالله .
(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٥)

٢٣٤ - وصية شريح بن هانى لأبي موسى الأشعري

ولما أراد أبو موسى المسير ، قام إليه شريح بن هانى الحارثى ، فأخذ بيده وقال :

« يا أبا موسى : إنك قد نصبتَ لأمرٍ عظيمٍ لا يُجْبَرُ صدعُهُ ، ولا تُسْتَقَالُ فلتته ، ومهما تَقُلْ من شيءٍ لك أو عليك ، يَثْبُتُ حَقُّهُ ، وَيُرَى صِحَّتُهُ ، وإن كان باطلاً ، وإنه لا بقاء لأهل العراق إن ملكهم معاوية ، ولا بأسَ على أهل الشام إن ملكهم عليّ ، وقد كانت منك تَثْبِيطَةٌ^(٣) أيام الكوفة والجل ، فإن تَشَفَعَهَا بِمَثَلِهَا يكن الظن بك يقيناً ، والرجاء منك ياساً ، ثم قال :

أبا موسى : رُمِيتَ بِشَرِّ خَصْمٍ فلا تُضِعِ العراقَ (فَدَتِكَ نَفْسِي)
وَأَعْطِ الْحَقَّ شَامِمًا وَخِذْهُ فإن اليومَ فى مَهَلٍ كَأَمْسِ

[١] وجره الدراء (كوعده) وأوجره إياه : حمله فى بيته ، وأوجره الرمح : طعه ، ووجره : أسمه ما يكره . [٢] الحب : ماخي . [٣] أى تعرق .

وَإِنْ غَدَاً يَجِيءُ بِمَا عَلَيْهِ كَذَاكَ الدَّهْرُ مِنْ سَعْدٍ وَنَحْسٍ
وَلَا يَخْذَعُكَ عَمْرُو ، إِنْ عَمْرًا عَدُوُّ اللَّهِ مَطْلَعُ كُلِّ شَمْسٍ
لَهُ خُدَعٌ يَحَارُ الْعَقْلَ مِنْهَا مُمَوَّهَةٌ مَزْخَرَفَةٌ بِلَبْسٍ
فَلَا تَجْمَلُ مَعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ كَشِيخٍ فِي الْحَوَادِثِ غَيْرِ نِكْسٍ^(١)
هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ قَرْدًا سَوَى عَرَسٍ^(٢) النَّبِيِّ ، وَأَى عَرَسٍ ؟

فقال أبو موسى : « ما ينبغي لقوم اتهموني أن يرسلوني لأدفع عنهم بالطلا ،
أو أجزء إليهم حقاً » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٥ ، والإمامة والسياسة ١ : ٩٩)

٢٣٥ - وصية الأحنف بن قيس لأبي موسى الأشعري

ولما خكّم أبو موسى الأشعري أتاه الأحنف بن قيس ، فقال له :
« يا أبا موسى ، إن هذا مسير له ما بعده ، من عز الدنيا أو ذلها آخر الدهر ،
ادع القوم إلى طاعة علي ، فإن أبوا فادعهم أن يختار أهل الشام من قريش العراق
من أحبوا ، ويختار أهل العراق من قريش الشام من أحبوا ، وإياك إذا لقيت
ابن العاص أن تصافحه بنية ، وأن يقعدك على صدر المجلس ، فإنها خديعة ، وأن
يضمك وإياه بيت ، فيمكن لك فيه الرجال ، ودعه فليتكلم ، لتكون عليه بالخيار ،
فالبادئ مستغلق^(٣) ، والمجيب ناطق » .

فما عمل أبو موسى إلا بخلاف ما قال الأحنف ، وأشار به ، فكان من الأمر

[١] كشيح : يريد به الإمام علياً ، والسكس : الضعيف والمهصر عن غاية الكرم .
[٢] أي زوجه ، يريد السيدة خديجة رضى الله عنها ، وأي عرس : أي وأي عرس هي . استههام
المراد به العظيم .
[٣] أصله من تولهم : استغلق في بيعه لم يجعل لي خياراً و ودّه أي أن البادئ ليس له الخيار في رد ما قال .

ما كان ، فلقية الأحنف بعد ذلك ، فقال له : « أدخل وألله قدميك في خُفٍّ واحدة » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، الإمامة والسياسة ١ : ٩٩ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٦)

٢٣٦ - وصية معاوية لعمر و بن العاص

وقال معاوية لعمر و :

« إن أهل العراق أكرهوا علياً على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون عنك ، وأرجو في دفع هذه الحرب قوةً لأهل الشام ، وفرقةً لأهل العراق ، وإمداداً لأهل اليمن ، وقد ضمُّمٌ إليك رجل طويل اللسان ، قصير الرأي ، وله على ذلك دين وفضل ، فدعه يقول ، فإذا هو قال فاصمُتْ ، واعلم أن حسن الرأي زيادةٌ في العقل ، إن خوفك العراق نخوفه بالشام ، وإن خوفك مصر نخوفه باليمن ، وإن خوفك علياً ، نخوفه بمعاوية ، وإن أتاك بالجميل فأته بالجميل » .

٢٣٧ - رد عمرو بن العاص عليه

فقال عمرو :

« يا أمير المؤمنين . أقلل الاهتمام بما قبلي ، وأرجُ الله تعالى فيما وجهتني له ، إنك من أمرك على مثل حدِّ السيف ، لم تنل في حربك ما رجوت ، ولم تأمن ما خفت ، ونحن نرجو أن يصنع الله تعالى لك خيراً ، وقد ذكرت لأبي موسى ديناً ، وإن الدين منصور ، أرايت إن ذكر علياً وجاءنا بالإسلام والهجرة واجتماع الناس عليه ما أقول ؟ »

فقال معاوية : « قل ما تريد وتري » . (الإمامة والسياسة ١ : ٩٩)

٢٣٨ - مقال شرحبيل بن السمط لعمر و

ولما ودَّعه شَرَحْبِيلُ بنُ السَّمْطِ قالَ له :

« يا عمرو إنك رجل قريش ، وإن معاوية لم يبعثك إلا لعله أنك لا تُؤثقي من عجز ولا مكيدة ، وقد علمت أن وطأة هذا الأمر لك ولصاحبك ، فكن عند ظننا بك » (شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٦ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٠)

٢٣٩ - خطبة أبي موسى الأشعري

ولما التقى الحكمان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص بدومة الجندل ، ودار بينهما من الحوار مدار ، أقبلوا إلى الناس وهم مجتمعون ، فتقدم أبو موسى ، فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نرَ أصحَّ لأمرها ، ولا أَلْمَ لِشَعْمِهَا ، من أمرٍ قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر ، فَيُولَّوْا مِنْهُمْ من أحبوا عليهم ، وإني قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولَّوْا عَلَيْكُمْ من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً (١) » .
ثم تنحى .

٢٤٠ - خطبة عمرو بن العاص

وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

[١] وفي رواية ابن قتيبة في الإمامة والسياسة : « وإني رأيت وعمراً أن يخلع علياً ومعاوية ونجطها لعبد الله بن عمر فإنه لم يبسط في هذه الحرب يداً ولا لساناً » وفي رواية المسعودي في مروج الذهب : « وقد خلعت علياً كما خلعت حماتي هذه (وأهوى إلى عمامته نخلها) واستخلفنا رجلاً قد صح رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصح أبوه النبي صلى الله عليه وسلم ، يبرز في سابقه ، وهو عبد الله بن عمر ، وأطراه ورغب الناس فيه » .

« إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ،
وإثبت صاحبي معاوية ، فإنه وليّ عثمان بن عفان رضى الله عنه ، والطالب بدمه ،
وأحق الناس بمقامه . »

فقال أبو موسى : « مالك - لا وققتك الله - غدرت وفجرت ! إِنَّمَا مَثَلُكَ
كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِذَا تَحْمَلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ ، أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ^(١) » قال عمرو :
« إِنَّمَا مَثَلُكَ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . »

(تاريخ الطبرى ٦ : ٤٠ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٨ ،
والامامة والسياسة ١ : ١٠١ ومروج الذهب ٢ : ٢٢)

٢٤١ - خطبة الامام على بعد التحكيم

وخطب الامام على كرم الله وجهه بعد فشل التحكيم فقال :
« الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح ، ^(٢) وَالْحَدَّثَ ^(٣) الجليل ، وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله ،
صلى الله عليه وآله ، أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب ، تُورث
الحسرة ، وتُعقبُ الندامة ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، ونخلت
لكم مخزون رأبى ، لو كان يُطاعُ لِقَصِيرٍ ^(٤) أمرى ، فأبيتم على إباء المخالفين الجفأة ،
والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصحُ بِبُصْحِهِ ، وَضَنَّ الزُّنْدُ بِقَدْحِهِ ، فكنت
وإياكم كما قال أخوه هَوَازِنُ ^(٥) :

أمرتكم أمرى بِمُتَعَرِّجِ اللَّوَى فلم تستبينوا النَّصِيحَ إِلَّا ضَحَى الْغَدِ

[١] لث الكلب كقطع : أخرج لسانه من العطش أو التعب ، وكذا الرجل إذا أهيا .
[٢] من فدحه الدين أى أنقله . [٣] الحادث . [٤] قصير : هو مولى حذيفة الأبرش ، وكان
قد أشار على سيده أن لا يأمن الزباء ملكة الجريرة ، وقد دعته إليها ليتزوجها ، بخالفه وقصد إليها ، فقال
قصير « لا يطاع لقصير أمر » فذهبت مثلاً . [٥] هو دريد بن الصمة .

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حَكَمَيْنِ قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما ، وأحييا ما أمات القرآن ، واتبع كل واحد منهما هواه ، بغير هدى من الله ، فحكما بغير حُجَّة بَيِّنَةٍ ، ولا سُنَّة ماضية ، واختلفا في حكمهما وكلاهما لم يرشداً ، فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . اسْتَعِدُّوا وتأهبوا للمسير إلى الشام .
(نهج البلاغة ١ : ٤٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٤٣ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٥)

٢٤٢ - خطبة الحسن بن علي

وقال الإمام عليّ : ثم يا حسن فتكلم في أمر هذين الرجلين أبي موسى وعمر ، فقام الحسن فتكلم فقال :

« أيها الناس ، فداً أكثرتم في أمر أبي موسى وعمر ، وإنما بُعِثا ليحكما بالقرآن دون الهوى ، فحكما بالهوى دون القرآن ، فمن كان هكذا لم يكن حكماً ، ولكنه محكوم عليه ، وقد كان من خطأ أبي موسى أن جعلها لعبد الله ابن عمر ، فأخطأ في ثلاث خصال : خالف (يعني أبا موسى) أباه عمر إذ لم يرضه لها ، ولم يره أهلاً لها ، وكان أبوه أعلم به من غيره ، ولا أدخله في الشورى إلا على أنه لا شيء له فيها ، شرطاً مشروطاً من عمر على أهل الشورى ، فهذه واحدة ، وثانية : لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار ، الذين يعقدون الإمامة ، ويحكمون على الناس ، وثالثة : لم يستأمر الرجل في نفسه ، ولا علم ما عنده من رد أو قبول . ثم جلس .

٢٤٣ - خطبة عبد الله بن عباس (توفي سنة ٦٨ هـ)

ثم قال عليّ لعبد الله بن عباس : قم فتكلم ، فقام عبد الله بن عباس وقال :
« أيها الناس : إن للحق أناساً أصابوه بالتوفيق والرضا ، والناس بين راض

به ، وراغب عنه ، وإنما سار أبو موسى بهدى إلى ضلال ، وسار عمرو بضلال إلى هدى ، فلما التقيا رجع أبو موسى عن هداه ، ومضى عمرو على ضلاله ، فوالله لو كنا حكاماً عليه بالقرآن لقد حكا عليه ، ولئن كنا حكاماً بهما على القرآن ، ولئن مسكا بما سارا به ، لقد سار أبو موسى وعلیٌّ إمامه ، وسار عمرو ومعاوية إمامه» ثم جلس .

٢٤٤ - خطبة عبد الله بن جعفر

فقال علیٌّ لعبد الله بن جعفر : قم فتكلم ، فقام وقال :
«أيها الناس : هذا أمر كان النظر فيه لعلی ، والرضا فيه إلى غيره ، جئتم بأبي موسى ، فقلتم قد رضينا هذا فارض به ، وإيم الله ما أصاحا بما فعلا الشام ، ولا أفسدا العراق ، ولا أماتا حقَّ علیٌّ ، ولا أحييا باطل معاوية ، ولا يذهب الحقُّ قلةً رأى ، ولا تفخةً شيطان ، وإنا لعلیُّ اليوم كما كنا أمس عليه » ثم جلس .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٠٢)

فتنة الخوارج

٢٤٥ - مناظرة عبد الله بن عباس لهم

لما رجع الإمام علیٌّ كرم الله وجهه من صفين إلى الكوفة - بعد كتابة صحيفة التحكيم بينه وبين معاوية - اعتزله جماعة من أصحابه ممن رأوا التحكيم ضلالا ، ونزلوا حروراء^(١) في اثني عشر ألفاً ، وأمر وا على القتال شبت بن ربعي

[١] بظاهر الكوفة .

وعلى الصلاة عبد الله بن الكوّاء ، فبعث إليهم على عبد الله بن عباس ، فقال لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك ، فخرج إليهم حتى أتاهم ، فأقبلوا يكلمونه ، فلم يصبر حتى راجعهم فقال :

« ما نَقَمْتُمْ مِنَ الْحَكَمِينَ ؟ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا »^(١) فكيف بأمة محمد ﷺ ؟ فقالت الخوارج : قلنا أمّا ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له ، فهو إليهم كما أمر به ، وما حكم فأمضاه ، فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم في الزاني مائة جلدة ، وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا ، قال ابن عباس : فإن الله عز وجل يقول : « يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ »^(٢) فقالوا له : أو تجعل الحكم في الصيد ، والحديث يكون بين المرأة وزوجها. كالحكم في دماء المسلمين ؟ وقالت الخوارج قلنا له : فهذه الآية بيننا وبينك ، أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ، ويسفك دماءنا ؟ فإن كان عدلا فلسنا بعدول ، ونحن أهل حرب ، وقد حكمتم في أمر الله الرجال ، وقد أمضى الله عز وجل حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا^(٣) ، وقبّل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عز وجل

(١) الآية في الصلح بين الزوجين « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ ، وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ، إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا » .

(٢) الآية في حكم قاتل الصيد وهو محرم « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ » . (٣) يشيرون إلى قوله تعالى : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

فأبوه ، ثم كتبتهم بينكم وبينه كتاباً ، وجعلتم بينكم وبينه الموادة والاستفاضة^(١) وقد قطع الله عز وجل الاستفاضة والموادة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة ، إلا من أقر بالجزية » (تاريخ الطبري ٦ : ٣٦ ، والكامل للمبرد ٢ : ١٢٠)

٢٤٦ - مناظرة الامام علي لهم

ثم خرج إليهم علي حتى انتهى إليهم وهم يخاصمون ابن عباس ، فقال : اتته عن كلامهم . ألم أنهك رحمك الله ؟

ثم تكلم فحمد الله عز وجل وأثنى عليه ، ثم قال :

« اللهم إن هذا مقام من أفلج^(٢) فيه كان أولى بالقلنج يوم القيامة ، ومن

نطق فيه وأوعث^(٣) فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ثم قال لهم : من

زعيمكم ؟ قالوا : ابن الكواء ، قال علي : فما أخرجكم علينا ؟ قالوا حكومتكم يوم

صفين . قال أنشدكم بالله أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف ، فقلتم نجيبهم إلى

كتاب الله ، قات لكم إني أعلم بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ،

إني صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا ، فكانوا شررا أطفالا وشررا رجالا ، امضوا على

حكم وصدقكم ، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة وإدهانا^(٤) ومكيدة ،

فرددتم علي رأبي ، وقتلتم لا بل تقبل منهم ، فقلت لكم اذكروا قولي لكم

ومعصيتكم إياي ، فلما أيتتم إلا الكتاب ، اشتربت على الحكيم أن يحيا

ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن ، فليس لنا أن

[١] استفاض المكان استفاضة : اتسع وهي هنا مرادفة للموادة .

[٢] الفلج والإملاج : الظفر والفوز . [٣] أوعث : وقع في الوعث (الوعث بالكون المكان السهل

الدهس تغيب فيه الأقدام والطريق المسر) . [٤] الإدهان : النش .

نخالف حكماً يُحكّم بما في القرآن ، وإن أياً فنحن من حكمهما بُرّاء . قالوا له :
نخبرنا أترأه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء ؟ فقال : إنا لسنا حكمنا الرجال ، إنما
حكمنا القرآن ، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق ، إنما
يتكلم به الرجال قالوا : نخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟ قال : ليعلم
الجاهل ، ويتثبت العالم ، ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة ،
ادخلوا مصركم رحمكم الله ، فدخلوا من عند آخرهم .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٣٧ ، الكامل المبرد ٢ : ١٢٨)

٢٤٧ - صورة أخرى

وروى صاحب العقد المناظرة بين عليّ وبين الخوارج بصورة أخرى وها كها :
« قالوا إن عليّاً لما اختلف عليه أهل النهروان والقرى وأصحاب البرانس ،
وتزلوا قرية يقال لها حرّوراء - وذلك بعد وقعة الجمل - رجع إليهم عليّ بن أبي
طالب ، فقال لهم : يا هؤلاء من زعيمكم ! قالوا : ابن الكواء ، قال : فليبرز إلىّ ،
نفرج إليه ابن الكواء ، فقال له عليّ : يا ابن الكواء ، ما أخرجكم علينا بعد رضاكم
بالحكّامين ، ومُقامكم بالكوفة ؟ قال : قاتلت بنا عدوا لا نشكّ في جهاده ،
فزعمت أن قتلانا في الجنة ، وقتلهم في النار ، فبينما نحن كذلك إذ أرسلت منافقا ،
وحكمت كافراً ، وكان من شكك في أمر الله أن قلت للقوم حين دعوتهم :
كتاب الله بيني وبينكم ، فإن قضى عليّ ببايعتكم ، وإن قضى عليكم بايعتموني ،
فلولا شكك لم تفعل هذا ، والحق في يدك ، قال عليّ : يا ابن الكواء ، إنما
الجواب بعد الفراغ ، أفرغت فأجيبك ؟ قال : نعم ، قال عليّ : أمّا قتالك معي
عدوا لا نشكّ في جهاده فصدقت ، ولو شككت فيهم لم أقاتلهم ، وأمّا قتلانا

وقتلام ، فقد قال الله في ذلك ما يُستغنى به عن قولي ، وأما إرسالى المنافق
وتحكيمة الكافر ، فأنت أرسلت أبا موسى مبرنساً ، ومعاوية حَكَمَ عَمراً ،
أتيت بأبي موسى مبرنساً ، فقلت : لا نرضى إلا أبا موسى ، فهلا قام إلى رجل
منكم فقال : يا على لا تُعْطِ هذه الدَّيَّةَ فإنها ضلالة ؟ وأما قولي لمعاوية : إن جرّني
إليك كتابُ الله تَبِعْتُكَ ، وإن جرّك إلىّ تبعني . رحمتَ أنى لم أعط ذلك إلا من
شك ، فقد علمت أن أوثق ما في يديك هذا الأمر ، فخذني وَيْحَكَ عن اليهودي
والنصراني ومُشْرِكِي العرب ، أهُمُ أقربُ إلى كتابِ الله أم معاوية وأهل الشام ؟
قال : بل معاوية وأهل الشام أقرب ، قال علىّ : أفرسول الله صلى الله عليه وسلم
كان أوثقَ بما في يديه من كتابِ الله أو أنا ؟ قال : بل رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، قال : أفرأيتَ الله تبارك وتعالى حين يقول : « قُلْ فَأَنُوبَا بِكِتَابِ مِنِّي
عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » . أما كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يعلم أنه لا يؤتَى بكتاب هو أهدى مما في يديه ؟ قال : بلى ،
قال : فلم أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم القومَ ما أعطاهم ؟ قال : إنصافاً
وحجة ، قال : فإني أعطيت القوم ما أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال
ابن الكواء : فإني أخطأت هذه واحدة زِدْني ، قال علىّ : فما أعظمُ ما نَقَمْتُم
علىّ ؟ قال : تحكيم الحكّمين ، نظرنا في أمرنا ، فوجدنا تحكيمهما شكا وتبذيراً ،
قال علىّ : فمتى سُمِّي أبو موسى حَكَمًا ، حين أُرسِلَ ، أو حين حَكَمَ ؟ قال : حين
أُرسِلَ ، قال : أليس قد سار وهو مسلم ، وأنت ترجو أن يَحْكَمَ بما أنزل الله ؟
قال : نعم ، قال علىّ : فلا أرى الضلال في إرساله ، فقال ابن الكواء ، سُمِّي
حكماً حين حَكَمَ ، قال : نعم إذن فإن إرساله كان عدلاً ، أرايتَ يا ابن الكواء لو أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث مؤمناً إلى قوم مشركين يدعوهم إلى كتاب الله ، فارتدّ على عقبه كافرًا ، كان يَصُرُّ نبيَّ الله شيئًا ؟ قال : لا ، قال علي : فما كان ذنبِي إنْ كَانَ أبو موسى ضالًّا ، هل رضيتُ حكومته حينَ حَكَمَ ، أو قوله إذ قال ؟ قال ابن الكواء : لا ، ولكنك جعلت مسالمًا وكافرًا يحكمان في كتاب الله ، قال عليّ : ويحك يا ابن الكواء ! هل بعث عمرًا غير معاوية ؟ وكيف أحكمتُ وحكمتُ على ضرب عتقى ، إِنَّمَا رَضِيَّ بِهِ صَاحِبُهُ ، كما رضيتَ أنت بصاحبك ، وقد يجتمع المؤمن والكافر يحكمان في أمر الله ، أرايت لو أن رجلاً مؤمناً تزوج يهودية أو نصرانية ، تخافا شقاق بينهما ، ففزع الناس إلى كتاب الله ، وفي كتابه « فَأَبْمَشُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ ، وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا » فجاء رجل من اليهود ، أو رجل من النصارى ، ورجل من المساميين ، اللذين يجوز لهما أن يحكما في كتاب الله فحكما . قال ابن الكواء : وهذه أيضًا ، أمهلنا حتى ننظر ، فانصرف عنهم عليّ . فقال له صعصعة بن صوحان : يا أمير المؤمنين ، ائذن لي في كلام القوم ، قال : نعم ما لم تَبْسُطْ يَدًا ، فنأدى صعصعة ابن الكواء ، فخرج إليه فقال : أنشدكم الله يا معشر الخارجين أن لا تكونوا عارًا على من يغزو لغيره^(١) ، وأن لا تخرجوا بأرض تسمون بها بعد اليوم ، ولا تستعجلوا ضلال العام خشية ضلال عام قابل ، فقال له ابن الكواء : إن صاحبك لَقِينَا بِأَمْرٍ ، قولك فيه صغيرٌ فأمسك . قالوا إن عليًا خرج بعد ذلك إليهم ، فخرج إليه ابن الكواء ، فقال له عليّ : يا ابن الكواء ، إنه من أذنب في هذا الدين ذنبًا يكون في الإسلام حَدَثًا ، اسْتَدْبَنَاهُ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ بَعِينَهُ ، وَإِنَّ تَوْبَتَكَ أَنْ تَعْرِفَ هُدًى مَا خَرَجْتَ مِنْهُ ، وضلال ما دخلت فيه . قال ابن الكواء : إننا لا ننكر أننا قد فُتِنَّا ، فقال له

[١] أى لغير منفعة الشخصية بل للم شعث المسلمين وجمع كلمتهم يعنى عليا وأصحابه .

عبد الله بن عمرو بن جرموز: أدركنا والله هذه الآية « أَلَمْ ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ » - وكان عبد الله من قراء أهل حروراء ، فرجعوا فَصَلَّوْا خَلْفَ عَلِيِّ ٱ الظَّهَرَ ، وانصرفوا معه إلى الكوفة ، ثم اختلفوا بعد ذلك في رجعتهم ولام بعضهم بعضاً ، ثم خرجوا على علي ، فقتلهم بالنهر وان .

(العقد الفريد ٢ : ٢٤٠)

٢٤٨ - مناظرة ابن عباس لهم

فأما استقروا بالكوفة أشاعوا أن علياً رجع عن التحكيم ، وتاب منه ، وراه ضللاً ، فأتى الأشعث بن قيس علياً ، فقال يا أمير المؤمنين : إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضللاً ، والإقامة عليها كفرًا وتبت ، فخطب علي الناس فقال :

« من زعم أني رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضللاً فهو أضلُّ منها ، فخرجت الخوارج من المسجد فحكمت ، فقبل لعلي إنهم خارجون ، فقال لا أقاتلهم حتى يقاتلوني ، وسيفعلون ، فوجه إليهم عبد الله بن العباس .

فأما سار إليهم رحبوا به وأكرموه ، فرأى منهم جباها فرححت أطول السجود ، وأيديا كَثَفِنَاتٍ ^(١) الإبل ، وعليهم قُمْصٌ مَرَحَضَةٌ ^(٢) وهم مشرؤون . قالوا : ما جاء بك يا ابن عباس ؟ قال : جئتكم من عند صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه ، وأعلمنا بربه وسنة نبيه ، ومن عند المهاجرين والأنصار . فقالوا : إنا أتينا عظيماً حين حكمتنا الرجال في دين الله . فإن تاب كما تبنا ، ونهض لمجاهدة عدونا رجعنا ، فقال ابن عباس : نَشَدْتُمْ اللَّهَ إِلَّا مَا صَدَقْتُمْ أَنْفُسَكُمْ . أما علمتم أن

[١] ثفنة البعير : ركبته . [٢] قمص جمع قميص ، ورحض الثوب : غسله .

الله أمر بتحكيم الرجال في أرنب تساوى ربع درهم تصاد في الحرم ، وفي شقاق امرأة ورجلها ، فقالوا اللهم نعم ، قال فأنشدكم الله هل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك عن القتال ، للهدنة بينه وبين الحديبية^(١) ، قالوا: نعم ولكن عليا محبا نفسه من خلافة المسلمين ، قال ابن عباس: أذلك يزيلها عنه ؟ وقد محار رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه من النبوة ، قال سهيل^(٢) بن عمرو لو علمت أنك رسول الله ما حاربتك ، فقال للكاتب^(٣) اكتب محمد بن عبد الله وقد أخذ على الحكمين أن لا يجورا ، فعلى أولى من معاوية وغيره ، قالوا: إن معاوية يدعى مثل دعوى على قال: فأيهما رأيتموه أولى فولوه قالوا: صدقت ، قال ابن عباس : ومتى جار الحكيم فلا طاعة لهما ، ولا قبول لقولهما .

فاتبعه منهم ألفان وبقى أربعة آلاف ، فلم يزالوا على ذلك حتى اجتمعوا على البيعة لعبد الله بن وهب الراسبي . (المقد الفريد ١ : ٢١٢)

٢٤٩ - خطبة يزيد بن عاصم المحاربي

وخرج الإمام على كرم الله وجهه ذات يوم يخطب ، فإنه لفي خطبته ، إذ حكمت^(٤) المحكمة في جوانب المسجد ، فقال على : الله أكبر ، كلمة حق يراد بها باطل ، إن سكتوا عممناهم ، وإن تكلموا حججناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم ، فوثب يزيد بن عاصم المحاربي فقال :
« الحمد لله غير مؤدع^(٥) ربنا ولا مستغنى عنه ، اللهم إنا نعوذ بك من

[١] أى وبين أهل الحديبية ، والحديبية بئر قرب مكة ، وكانت غزوة الحديبية ستة ست هجرية .
[٢] النائب عن قريش في عقد الصلح مع المسلمين . [٣] وكان على بن أبي طالب كرم الله وجهه .
[٤] أى قالوا لاحكم إلا الله ، ويسمى الحوارح المحكمة : أى الذين يمنعون التحكيم .
[٥] أى غير متروك ولا مقطوع : أى حمدا دائما .

إعطاء الدنيّة^(١) في ديننا ، فإن إعطاء الدنية في الدين إذهان^(٢) في أمر الله عز وجل ، وذل راجع بأهله إلى سخط الله ، يا على أباقتل تُخَوِّفنا ؟ أما والله إني لأرجو أن نضربكم بها عما قليل غير مُصَفَّحات^(٣) ، ثم لتعلمنَّ أيُّنا أولى بها صلياً^(٤)»
ثم خرج بهم هو وإخوة له ثلاثة هو رابعهم ، فأصيبوا مع الخوارج بالنهر ،
وأصيب أحدهم بعد ذلك بالتُّخيلة . (تاريخ الطبري ٦ : ٤١)

٢٥٠ - خطبة عبد الله بن وهب الراسبي

ولما بعث الإمام على أبا موسى الأشعري لإفناذ الحكومة ، لقيت الخوارج بعضها بعضاً ، فاجتمعوا في منزل عبد الله بن وهب الراسبي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويُنبئون إلى حكم القرآن ، أن تكون هذه الدنيا - التي الرضا بها والركون إليها ، والإيثار إياها عناءٍ وتَبَارُ^(٥) - آثرَ عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقول بالحق ، وإن من^(٦) وُضِرَّ ، فإنه من يُمِنُّ وَيُضَرُّ في هذه الدنيا ، فإن ثوابه يوم القيامة رضوانُ الله عزَّ وجلَّ ، والخلودُ في جناته ، فاخرجوا بنا إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها ، إلى بعض كُور^(٧) الجبال ، أو إلى بعض هذه المدائن ، منكرين لهذه البدع المضلَّة »

[١] يريد بها قول التحكيم . [٢] الإذهان والمداهة : إظهار ما يصدر . [٣] أي نضربكم بمحدها لابعرضها ، صربه بالسيف مصعاً : أي بمرضه . [٤] صلي النار وبها صلياً : فاسى حرّها . [٥] هلاك . [٦] أي قطع وهجر . [٧] جمع كورة بالقم ، وهي المدينة والصقع .

٢٥١ - خطبة حرقوص بن زهير السعدى

فقام حُرْقُوصُ بن زُهَيْرِ السَّعْدِيِّ فقال :

« إن المتاع بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وَشِيكَ^(١) ، فلا تدعوا نكم زِينَتَهَا وبهجتها إلى المقام بها ، ولا تَلَفْتِنَنَّكُمْ عن طلب الحق وإنكار الظلم ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »

٢٥٢ - خطبة حمزة بن سنان الأسدى

فقام حمزة بن سنان الأسدى فقال :

« يا قوم إن الرأى ما قد رأيتم ، والحق ما قد ذكرتم ، فولوا أمركم رجلا منكم فإنه لا بد لكم من عماد وسناد ، وراية تحفون بها ، وترجعون إليها » .
فعرضوها على زيد بن حُصَيْنِ الطائى فأبى ، وعلى حُرْقُوصِ بن زهير فأبى ، وعلى حمزة بن سنان ، وشُريح بن أُوْفَى العَبْسِى فأيما ، وعلى عبد الله بن وهب فقال : « هاتوها ، أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ، ولا أدعها فرقا^(٢) من الموت » فبايروه (لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ هـ) .

٢٥٣ - خطبة شريح بن أوفى العبسى^(٣)

ثم اجتمعوا فى منزل شُريح بن أُوْفَى العبسى ، فقام شريح فقال :
إن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا على الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ،
والقول بالحق ، والجهاد فى تقويم السبيل ، وقد قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة

[١] سريح . [٢] جزعاً وخوفاً . [٣] قال ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة : « ثم اجتمعوا فى منزل زهير بن حُصَيْنِ الطائى ، فقالوا : إن الله أخذ عهودنا ومواثيقنا . . . إلى آخر الخطبة ، ولم يذكر قائلها ، وكر الطبرى فى تاريخه : أنهم اجتمعوا فى منزل شريح بن أوفى العبسى ، وذكر الفترات الأخيرة من هذه الخطبة وعزاها إلى شريح » .

والسلام : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » وقال : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » فاشهدوا على أهل دَعْوَتِنَا أَنْ قَدْ اتَّبَعُوا الْهَوَىٰ ، وَنَبَذُوا حَكْمَ الْقُرْآنِ ، وَجَارُوا فِي الْحُكْمِ وَالْعَمَلِ ، وَأَنْ جَاهَدَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَرَضَ ، وَأَقْسَمَ بِالَّذِي تَعْنُو^(١) لَهُ الْوَجْوهَ ، وَتَخْشَعُ دُونَهُ الْأَبْصَارَ ، لَوْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ عَلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ ، وَقِتَالِ الْقَاسَطِينَ^(٢) مُسَاعِدًا ، لَقَاتَلْتَهُمْ وَحْدِي فَرَدًّا حَتَّى أَلْقَى اللَّهُ رَبِّي ، فِيرَى أَنِّي قَدْ غَيَّرْتُ (إِرَادَةَ رِضْوَانِهِ) بِلِسَانِي ، يَا إِخْوَانِنَا ، اضْرِبُوا جِبَاهَهُمْ وَوَجْوهَهُمْ بِالسَّيْفِ ، حَتَّى يُطَاعَ الرَّحْمَنُ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنْ يُطَعِ اللَّهُ كَمَا أَرَدْتُمْ أَنَا بِكُمْ ثَوَابَ الْمُطِيعِينَ لَهُ الْأَمْرِينَ بِأَمْرِهِ ، وَإِنْ قُتِلْتُمْ فَأَي شَيْءٍ أَعْظَمَ مِنَ الْمَسِيرِ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ وَجَنَّتِهِ ؟ وَاعْلَمُوا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ خَرَجُوا لِإِقْصَاءِ حَكْمِ الضَّلَالَةِ ، فَاخْرَجُوا بِنَا إِلَى بَلَدٍ تَتَّعِدُ فِيهِ الْجَمَاعَةُ مِنْ مَكَانِنَا هَذَا ، فَإِنَّكُمْ قَدْ أَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَةِ رَبِّكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُ الْحَقِّ بَيْنَ الْخَلْقِ ، إِذْ قُلْتُمْ بِالْحَقِّ ، وَصَمَدْتُمْ لِقَوْلِ الصِّدْقِ ، فَاخْرَجُوا بِنَا إِلَى « الْمَدَائِنِ »^(٣) نَسْكُنُهَا فَنَأْخُذُ بِأَبْوَابِهَا ، وَنُخْرِجُ مِنْهَا سَكَانَهَا ، وَنَبْعَثُ إِلَى إِخْوَانِنَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، فَيَقْدَمُونَ عَلَيْنَا .

٢٥٤ - مقال زيد بن حصين الطائي

فقال زيد بن حصين الطائي :
« إِنَّكُمْ إِنْ خَرَجْتُمْ مُجْتَمِعِينَ أَتْبَعْتُمْ ، وَلَكِنْ اخْرَجُوا وَحِدَانًا مُسْتَخْفِينَ ،

[١] تدل وتخضع . [٢] الجائرين . [٣] على نهر دجلة شرقاً .

فأما المدائن ، فإن بها قوماً يمنعونكم منها ، ويمنعونها منكم ، ولكن اكتبوا إلى إخوانكم من أهل البصرة ، فأعلموهم بخروجكم ، وسيروا حتى تنزلوا جسر النهروان^(١) .

قالوا : هذا هو الرأي ، فاجتمعوا على ذلك ، وكتبوا به إليهم .

(تاريخ الطبرى ٥ : ٤٢ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٠٤)

٢٥٥ - خطبة عليّ في تخويف أهل النهروان

فلما نزلوا بالنهروان ، وأتوا بها ما أتوا من الأحداث^(٢) ، أتاهم الإمام عليّ

كرّم الله وجهه ، فوقف عليهم فقال :

« أيتها العصابةُ التي أخرجها عداوةُ المراءِ واللجاجَةُ ، وصدّها عن الحق

الهوى ، وطَمَحَ بها التزق^(٣) وأصبحت في اللبسِ والخَطْبِ العظيم ، إني نذير

لكم أن تُصَبِّحُوا تُلْفِيكُمْ الأمةُ غداً صَرَعى بأثنا^(٤) هذا النهر ، وبأهضام^(٥)

هذا العائط^(٦) ، على غير بينة من ربكم ، ولا سلطان مبین معكم ، وقد طَوَّحَتْ

بكم الدار ، واحتبلكم^(٧) المقدار .

[١] النهروان : بليدة بالقرب من بغداد ، نحو أربعة فراسخ . [٢] من ذلك أنهم لقوا عبد الله ابن خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه امرأته وهي حبلى متمّ (أى دنا ولادها) فقالوا : ماتقول في أنى بكر وصمر ؟ فأثنى عليهما خيراً ، قالوا : ماتقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها ؟ قال : إنه كان محقاً في أولها وفي آخرها ، قالوا : فما تقول في عليّ قبل الحكيم وبعده ؟ قال : إنه أعلم بالله منكم وأشدّ توقياً على دينه وأنفذ بصيرة ، فقالوا : إنك تتبع الهوى ، وتوالى الرجال على أسمائها ، لا على أفعالها ، ثم قرّبوه إلى شاطئ النهر فذبحوه ، وسال دمه في الماء ، وبقروا بطن امرأته ، وقتلوا ثلاث نسوة من طيء ، وقتلوا أم سنان الصيداوية ، وأصابوا مسلماً ونصرانياً ، فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني خيراً ، وقالوا : احفظوا ذمة بيبيكم ، وأرسل إليهم قلى رسولا ينظر فيما يلغنه عنهم قتلوه ، فبعث إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم بقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكافّ عنكم حتى ألقى أهل الشام ، ففعل الله يقب قلوبكم ويردّكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم ، فبعثوا إليه ، فمالوا كلما قتلهم ، وكلنا نستحلّ دماءهم ودماءكم . [٣] الطيش . [٤] جمع نبي بالكسر أى منعطافاته . [٥] جمع هضم (بالفتح وبكسر) وهو المظلم من الأرض . [٦] العائط المظلم الواسع من الأرض . [٧] أوقعكم في الحباله .

ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة ، وأخبرتكم أن طلب القوم إياها منكم
دَهْنٌ ^(١) ومكيدة لكم ؟ ونبأتم أن القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأنى
أعرف بهم منكم ؟ (عرفتهم أطفالا ورجالا ، فهم أهل المكر والغدر) وأنكم إن
فارقتم رأيي جانبتم الحزم ؟ فعصيتموني وأكرهتموني حتى حكمت ، فلما أن
فعلتُ شرطتُ واستوثقتُ ، فأخذت على الحكيم أن يُحييا ما أحيا القرآن ،
وأن يميتا ، ما أمات القرآن ، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة ، وعملا بالهوى ،
فنبذنا أمرهما ، ونحن على أمرنا الأول ، فما الذى بكم ، ومن أين أتيتم ؟ » .

قالوا : « إنا حكمنا ، فلما حكمنا أئمتنا ، وكنا بذلك كافرين ، وقد تبنا .
فإن تبت كما تبنا ، فنحن منك ومعك ، وإن أيدت فاعتزنا ، فإننا منا بذوك
على سواك ^(٢) إن الله لا يحب الخائنين » .

فقال على : « أصابكم حاصب ^(٣) ، ولا بقى منكم وابر ^(٤) ، أبعث إيماني
برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهجرتي معه ، وجهادى فى سبيل الله ، أشهد
على نفسى بالكفر ؟ لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ، فأوبوا شر مآب ^(٥) ،

[١] دهن الرجل إذا نافع . [٢] هو من قوله تعالى « وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْزِلْ
إِلَيْهِمْ عَلَى سِوَاءِ إِنْ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » ومعناه إذا هادنت قوما فعلت منهم النقض للمهد ،
فلا توقع بهم سائبا إلى النقض حتى تدلهم أنك نقضت المهد ، فتكونوا فى علم النقض مستتبون لئلا يتهموك
بالفسد ، ثم أوقع بهم . [٣] الحاصب : الريح الشديدة تثير الحصباء (الحصى) ، وحصبه :
رماء الحصباء . [٤] أى أحد ويروى آبر ، وهو الذى يأبر النخل أى يصلبه ، ويروى آثر ، وهو
الذى يآثر الحديث أى يرويه ويحكيه ، ويروى آبر ، وهو الواجب . [٥] أى ارجعوا شر مرجع .

وارجعوا على أثر الأعقاب^(١) أما إنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً، وسيئفاً قطعاً،
وأثره^(٢) يتخذها الظالمون فيكم سنة^(٣)»

٢٥٦ - صورة أخرى

وفي رواية أخرى أن علياً قال لأهل النهر :

« يا هؤلاء : إن أنفسكم قد سَوَّلت لكم فراقَ هذه الحكومة ، التي أنتم
ابتدأتموها وسألتموها^(٤) وأنا لها كاره ، وأنباتكم أن القوم سألوكموها مكيدة
ودهنًا ، فأيتتم على إباء المخالفين المنابذين ، وعدلتم عنى عدول النكداء^(٥) ،
العاصين ، حتى صرفت رأيي إلى رأيكم ، وأنتم والله معاشرُ أخفاء الهام^(٦) ،
سُفهاء الأحلام ، فلم آت (لا أبا لكم) بُجْرًا^(٧) ، ولا أردت بكم ضراً ، والله
ما خبَلتكم^(٨) عن أموركم ، ولا أخفيت شيئاً من هذا الأمر عنكم ، ولا أوطأتكم
عشوة^(٩) ، ولا دنيت^(١٠) لكم الضراء ، وإن كان أمرنا لأمر المسلمين ظاهراً ،
فأجمع رأي ملتكم على أن اختاروا رجلين ، فأخذنا عليهما أن يحكما بما في القرآن
ولا يعبدوا ، فتأها^(١١) وتركنا الحق وهما يُبصرانه ، وكان الجور هواهما (وقد سبق
استيثاقنا عليهما في الحكم بالعدل) والصدُّ للحق بسوء رأيهما وجور حكمهما ،

[١] الأعقاب جمع عقب (بكسر القاف) : وهو مؤخر القدم ، وهو مأخوذ من قوله تعالى :
« وَرُدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ » يدعو عليهم بانكاس حالهم وارتدادهم وعودهم من العز
إلى الذل . [٢] أى استبداداً عليكم باليأس والغنائم .
[٣] المراد : سألتونى أن أحيب إليها . [٤] رجل نكد (بكسر الكاف وفتحها وسكونها) وأنكد
أى عسر ، وقوم أنكاد وماكيد ، ولم أر فى كتب اللغة جمعه على نكداء . [٥] أخفاء : جمع خفيف
والهام : الرءوس ، وهو كناية عن قلة العقل . [٦] البجر ، بالضم والفتح : الشر والأمر العظيم ،
ويروى حراما . [٧] منعتمكم وحبستكم . [٨] العشوة مثلثة : ركوب الأمر على غير بيان ،
والفتح الطامة ، ويقال : أوطأه عشوة ، أى غررته وحملته على أن يركب أمراً غير مستبين الرشيد ، وربما
كان فيه عطبه . [٩] دناء وأدناه : قرّبه . [١٠] ضلا .

والثقة في أيدينا لأنفسنا حين خالفا سبيل الحق ، وأتيا بما لا يُعْرَف ، فيئِنُوا
لنا بماذا تستحلون قتالنا ، والخروج من جماعتنا ؟ أن اختار الناس رجلين (١) أحلَّ
لكم أن تضعوا أسيافكم على عواتقكم ، ثم تستعرضوا الناس تضربون رقابهم ،
وتسفكون دماءهم ؟ إن هذا هو الحسران المبين ، والله لو قتلتم على هذا دجاجة
لَعَظَمَ عند الله قتلها ، فكيفَ بالنفس التي قتلها عند الله حرام ؟ »

فَتَنَادُوا لَا تَخَاطَبُوهُمْ وَلَا تَكَلِّمُوهُمْ ، وَتَهَيَّئُوا لِلْقَاءِ الرَّبِّ ، الرَّوَّاحَ الرَّوَّاحَ إِلَى
الْجَنَّةِ ، فزحف عليهم على فأنفهم ، وقتل ابن وهب في المعركة ، ولم يُفْلِتْ منهم
إلا عشرة (وكان ذلك سنة ٣٧ ، وقيل سنة ٣٨ هـ) .

(تاريخ الطبري ٦ : ٤٧ ، والامامة والسياسة ١ : ١٠٩ ونهج البلاغة ١ : ٤٤ - ٥٤)

٢٥٧ - خطبة المستورد بن علفة

واجتمع بعد وقعة النهروان بالثخيلة جماعة من الخوارج ، ممن فارق عبد الله
ابن وهب ، وممن لجأ إلى راية أبي أيوب (٢) ، وممن كان أقام بالكوفة فقال :
لا أقاتل علياً ولا أقاتل معه ، فتواصوا فيما بينهم وتعاضدوا وتأسفوا على خذلانهم
أصحابهم ، فقام منهم قائم يقال له المستورد بن علفة من بني سعد بن زيد مناة ،
فحمِدَ الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : « إن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أتانا بالعدل تحفُّق راياته ، مُعَلِّناً مَقَالَتَهُ ، مُبَلِّغاً عن ربه ، ناصحاً لأُمَّتِهِ ،

[١] همزة الاستفهام . مقبرة قبل أن ، أي هل اختار الناس رجلين أحل لكم ذلك .

[٢] وذلك أن الإمام قبل أن يزحف عليهم في وقعة النهروان نصب لهم راية أمان مع أبي أيوب
الأنصاري ، فنَادَاهُمْ أَبُو أَيُوبَ : « من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف
منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن ، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب ثلثة
إخواننا منكم في سفك دماءكم » .

حتى قبضه الله مُخَيَّرًا مُخْتَارًا ، ثم قام الصديق فَصَدَقَ عن نبيه ، وقاتل من ارتدَّ عن دين ربه ، وذكر أن الله عز وجل قرَن الصلاة بالزكاة ، فرأى أن تعطيل إحداهما طَعْنٌ على الأخرى ، لابل على جميع منازل الدين ، ثم قبضه الله إليه موفوراً ، ثم قام الفاروق فَفَرَّقَ بين الحق والباطل ، مُسَوِّياً بين الناس في إعطائه ، لا مُؤَثِّرًا لِأَقْرَبِهِ ، ولا مُحَكِّمًا في دين ربه ، وهاتم تعامون ما حدث ، والله يقول : « وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » فكلُّ أَجَابٍ وبائع^(١) .

(الكامل للبرد ٢ : ١٥٤)

خور أصحاب الامام وتقاعسهم عن نصرته

٢٥٨ - خطبة عبد الله بن عباس في أهل البصرة

ورأى الإمام على كرم الله وجهه بعد فشل التحكيم أن يعضى لمناجزة معاوية وأهل الشام ، فكتب إلى عبد الله بن عباس - وكان على البصرة - أن يُشَخِّصَ^(٢) إليه مَنْ قَبْلَهُ مِنَ النَّاسِ ، فأمرهم ابن عباس بالشخص مع الأحنف ابن قيس ، فَشَخَّصَ مَعَهُ مِنْهُمْ أَلْفَ وَخَمْسَمِائَةَ رَجُلًا ، فاستقلهم ابن عباس ، فقام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ : قد جاءني كتاب أمير المؤمنين يأمرني بإشخاصكم ، فأمرتكم بالمسير إليه مع الأحنف بن قيس ، فلم يشخص إليه منكم إلا ألف وخمسمائة ، وأنتم

[١] وقد وجه إليهم الإمام على ، عبد الله بن عباس داعياً فابوا ، فسار إليهم فطحنهم جيماً لم يفلت منهم إلا خمسة منهم المستورد . [٢] شخص كنع شخصاً : خرج من موضع إلى غيره ، وأشخصته أنا .

في الديوان^(١) ستون ألفاً، سوى أبنائكم وعبيدكم^(٢) ومواليكم، ألا فانقروا^(٣)، ولا يجعل امرؤ على نفسه سبيلاً، فإني موقِعٌ بكلِّ من وجدته تخلف عن دعوته، عاصياً لإمامه، حُزناً يُعقِبُ ندماً، وقد أمرت أبا الأسود بحشدكم، فلا يلم امرؤ جعل السبيل على نفسه إلا نفسه» .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٠٦ ، تاريخ الطبري ٦ : ٤٤)

٢٥٩ - خطبة الامام وقد أراد الانصراف من النهروان

ولما أراد الإمام الانصراف من النهروان ، قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه

ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله قد أحسن بلاءكم ، وأعز نصركم ، فتوجهوا من فوركم هذا إلى معاوية وأشياعه القاسطين ، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، « وَاشْتَرَوْا بِهِ تَمَتُّنًا قَلِيلًا ، فَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

٢٦٠ - مقال الأشعث بن قيس

فقام الأشعث بن قيس فقال :

« يا أمير المؤمنين : نَقِدْتَ نِبَالَنَا ، وَكَلَّتْ سِيوفُنَا ، وَنَصَلَتْ^(٤) أَسِنَّةُ رِمَاحِنَا

[١] الديوان : الكتاب الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء ، وهو فارسي معرب . قال القافشندي في صبح الأعشى ١ : ٩٠ « وقد حكى الماوردي في الأحكام السلطانية في سبب تسميته بذلك وجهين : أحدهما أن كسرى ذات يوم اطلع على كتاب ديوانه في مكان لهم ، وهم يحسبون مع أنفسهم فقال « ديوانه » أي مجازين فسمى موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ، ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفاً فقبل ديوان ، والثاني : أن الديوان بالفارسية اسم للشياطين ، وسمى الكتاب بذلك لحذقهم بالأمر ، ووقوعهم على الجلي منها والحقى « اه ، ومنه ترى أن الديوان كان يطلق في الفارسية على موضع الكتاب الحاسبين وعلى جماعة الكتاب ، وقد أطلق في العربية على جريدة الحساب ، ثم أطلق على الحساب ، ثم على موضع الحساب ، ثم على طائفة الكتاب ، وكان ذلك عهد في عصر الدولة العباسية ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أوّل من دوّن الدواوين في العرب سنة ٢٣ أي رتب الجرائد للعمال ورجال الجيش فيها أسماءهم ومراتبهم في النسب وأرزاقهم (انظر تاريخ الطبري ٥ : ٢٣) . [٢] جمع عبد .

[٣] نمر إلى الشيء : أسرع إليه . [٤] سقطت .

وعادَ أكثرها قَصِيداً^(١) فارجع بنا إلى مصرنا ، فَلنستَعِدَّ بأحسن عُدَّتنا ، واملأ أمير المؤمنين يزيد في عَدَدنا مثل من هلك منا ، فإنه أقوى لنا على عدونا .
فأقبل على الناس حتى نزل بالأنخيلة^(٢) ، ثم دخل الكوفة .

(الامامة والسياسة ١ : ١١٠ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٥١ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٨ ،
وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٧٩)

٢٦١ — خطبة الامام بالكوفة بعد قدومه من حرب الخوارج

يستنفر الناس لقتال معاوية

وخطب الناس بالكوفة بعد قدومه من حرب الخوارج فقال :
« أيها الناس استعدوا لقتال عدوِّ ، في جهادهم القربةُ إلى الله عز وجل ،
ودركُ الوسيلة عنده ، قوم حيارى عن الحق لا يبصرونه ، موزعين^(٣) بالجور والظلم
لا يعدلون به ، جفاة عن الكتاب ، نكب^(٤) عن الدين ، يعمهون^(٥) في الطغيان
ويتسكعون^(٦) في نعمة الضلال ، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن
رباط^(٧) الخيل ، وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلاً »
فا نفرأوا ولا تيسرأوا ، فتركهم أياماً حتى إذا أيس من أن يفعلوا دعا
رؤساءهم ووجوههم ، فسألهم عن رأيهم ، وما الذي ينظرون^(٨) ، ففهم المعتل ،
ومنهم المتكبره ، وأقلهم من نشيط ، فقام فيهم خطيباً فقال :

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٧٩ ، والامامة والسياسة ١ : ١١٠ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٥١)

[١] رمح : قصد ، وفصيد ، وأفصاد أى متكسر . [٢] وعسكر بها حين نزلها ، وأمر الناس أن يلزموا معه مسكرهم ، وبوطنوا على الجهاد أنفسهم ، وأن يقولوا من زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسسبوا إلى عدوم من أهل الشام . فجعلوا يتسللون ويدخلون الكوفة ، حتى تركوه وما معه إلا نفر من وجوه الناس يسير ، وبقي المسكر خالياً ، فلا من دخل الكوفة خرج إليه ، ولا من أقام معه صبر ، فلما رأى ذلك دخل الكوفة . [٣] أوزعه بالشىء : أغراه فأوزع به بالضم . [٤] من نكب عن الطريق : أى عدل ومال . [٥] من العمه (محرمة) : وهو التحير والتردد في الضلال . [٦] تسكع : مشى مشياً متعصفاً ، وتحير . [٧] اسم للخيل التي تربط في سبيل الله ، فعال بمعنى مفعول أو مصدر سمي به كالمرابطة أو جمع ربيط فصيل بمعنى مفعول . [٨] يؤخرهم .

٢٦٢ - خطبة له أيضا في استنفارهم لقتال معاوية

« عبادَ الله : مالكم إذا أمرتكم أن تَنْفِرُوا في سبيل الله اناقلتم ^(١) إلى الأرض ! أَرْضَيْتُمْ بالحياة الدنيا من الآخرة بَدَلًا ، وبالذل والهوان من العزخلفًا ؟ أو كلما نذبتكم إلى الجهاد دارت أعينكم ، كأَنكم من الموت في سكرة ، وكأن قلوبكم مَأْلُوسَةٌ ^(٢) فأنتم لا تعقلون ، وكأنَّ أبصاركم كَمَةٌ ^(٣) فأنتم لا تُبْصِرُونَ ، لله أنتم ! ما أنتم إلا أسود الشرى ^(٤) في الدعة ^(٥) ، وثمانبُ رَوَاغَةٌ حين تُدْعَوْنَ إلى البأس ! ما أنتم لي بثقةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي ^(٦) ، ما أنتم بِرَكَبٍ يُصَالُ بكم ، ولا ذِي عِزٍّ يُعْتَصَمُ إليه ، لعمركم الله لبئس حُشَّاشٌ ^(٧) الحرب أنتم ، إنكم تُسْكَادُونَ ولا تَكِيدُونَ ، وَتَنْتَقِصُ أَطْرَافَكُمْ ولا تتحاشون ^(٨) ، ولا يُنَامُ عنكم وأنتم في غفلةٍ ساهون ، إن أخوا الحرب اليقظانُ ذو العقل ، وبات لذلِّ مَنْ وَاَدَعَ ، وغلب المتخاذلون ، والمغلوب مقهور ومسلوب ، ثم قال :

« أما بعد : فإن لي عليكم حقًا ، وإن لكم عليَّ حقًا ، فأما حقُّكم عليَّ فالنصيحة لكم ما صحبتم ، وتوفيرُ فيئكم عليكم ، وتعليمكم كيلا تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعلموا ، وأما حقِّي عليكم ، فالوفاء بالبيعة والنُّصْحُ لي في الغيبِ وَالْمَشْهَدِ ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين أمركم ، فإن يُرِدِ اللهُ بكم خيرًا تَنْزِعُوا عَمَّا أكره ، وترجعوا إلى ما أحب ، تنالوا ما تطلبون وتدرِكوا ما تأملون . »

(تاريخ الطبري ٦ : ٥١ ، الإمامة والسياسة ١ : ١١٠)

[١] تناقلتم . [٢] من الألس : كشمس ، وهو الجنون واختلاط العقل ، ألس (كس) فهو مألوس . [٣] كمة : جمع أكمة بن كمة نصره (كفرح) اعترته ظلمة تطمس عليه . [٤] الشرى : موضع تنسب إليه الأسد ، قيل هو شرى الفرات وناحيته وبه عياض وآجام ومأسدة . [٥] أي في وقت الدعة والحفض . [٦] يقال : لا آتيك سجيس الليالي : أي أبدأ . [٧] جمع حاشٍ اسم فاعل من حشَّ النار : أي أوقدها [٨] أي ولا يتبعدون عن ذلك وتتلافونه بالدفاع عنها من حاشية الشيء وهي ناحيته كما تقول تنحى عنه : أي تباعد عنه من الناحية .

وروى الشريف الرضى هذه الخطبة في نهج البلاغة بصورة أخرى وهي :

٢٦٣ - صورة أخرى

«أَفَّ لَكُمْ ، لَقَدْ سَمَّيْتُمْ عِتَابَكُمْ ، أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ عِوَضًا ،
وَبِالذَّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلْفًا ؟ إِذَا دَعَوْتُمْ إِلَى جِهَادِ عَدُوِّكُمْ دَارَتْ أَعْيُنُكُمْ ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ
فِي غَمْرَةٍ ^(١) ، وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ ، يُرْتَجِحُ ^(٢) عَلَيْكُمْ حَوَارِي قَتَمَمَهُونَ ! فَكَأَنَّ
قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ فَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ ! مَا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّيَالِي ، وَمَا أَنْتُمْ بِرُكْنِ
مَيْمَالٍ بِكُمْ ^(٣) ، وَلَا زَوَافِرٍ ^(٤) عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ ، مَا أَنْتُمْ إِلَّا كَكَابِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا ،
فَكَلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرٍ ، لِبَيْسٍ لِعَمْرِ اللَّهِ سَعْرٌ ^(٥) نَارِ الْحَرْبِ
أَنْتُمْ ، تُكَادُونَ وَلَا تَكِيدُونَ ، وَتُنْتَقِصُ أَطْرَافَكُمْ فَلَا تَتَمَعِّضُونَ ^(٦) ، لَا يَنَامُ
عِنكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ ، غُلِبَ وَاللَّهِ الْمُتَخَاذِلُونَ ، وَآيَمُّ اللَّهُ إِنِّي لِأُظَنُّ بِكُمْ أَنْ
لَوْ حَمَسَ ^(٧) الْوَغَى ، وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتَ ، قَدْ انْفَرَجْتُمْ عَنْ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ ، انْفِرَاجَ
الرَّأْسِ ^(٨) ، وَاللَّهُ إِنْ أَمْرًا يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْزُقُ ^(٩) لِحْمَهُ ، وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ ،
وَيَفْرِي ^(١٠) جِلْدَهُ ، لِعَظِيمِ مَعْجَزَةٍ ، ضَعِيفٌ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ جِوَانِحُ صَدْرِهِ ، أَنْتَ
فَكُنْ ذَلِكَ إِنْ شِئْتَ ^(١١) فَأَمَّا أَنَا : فَوَاللَّهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرِفِيَّةِ ^(١٢)
تَطِيرُ مِنْهُ فَرَّاشٌ ^(١٣) الْهَامِ ، وَتَطْيِیحُ السُّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامِ ، وَيَفْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ .

[١] الغمرة : الشدة . [٢] يغلغ : والحوار : المحاوره . [٣] أى يستند إليكم ويمال على
العدو بقوتكم . [٤] جمع زامرة ، والزامرة من البناء ركنه ، ومن الرجل هشيرته .
[٥] من سحر النار والحرب : كمنع أوقدها مصدر بمعنى اسم الفاعل ، أو هو جمع ساعر ، كقولهم : قوم
كظم للنيظ جمع كظم . [٦] أى فلا تمعضون . [٧] اشتد ، وكذا استحر ، وأصل الوغى :
الصوت والجلبة ، ثم سميت الحرب وغى لما فيها من الأصوات والجلدة . [٨] أى انفراجا لا الشام بعده .
[٩] عرق العظم عرقا : أكل ما عليه من اللحم ، كتعرقه . [١٠] يمزق . [١١] الخطاب عام
لكل من أمكن عدوه من نفسه . [١٢] السيوف ، نسبة إلى مشارف الشام ، وهي قرى من أرض
العرب تدنو من الرّيف . [١٣] عظامها الرقيقة .

أيها الناس : إن لي عليكم حقاً ، ولكم عليّ حقٌ ، فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم وتوفيرُ فيثكم عليكم ، وتعليمكم كيلا تجهلوا ، وتأديبكم كيما تعلموا ، وأما حقّي عليكم فالوفاء بالبيعة ، والنصيحةُ في المشهدِ والمغيب ، والإجابةُ حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم . (نهج البلاعة ١ : ٤٢)

· وزاد ابن قتيبة في الإمامة والسياسة :

« والله يا أهل العراق ، ما أظن هؤلاء القومَ من أهل الشامِ إلا ظاهرين^(١) عليكم ، فقالوا : « أبِعلم تقول ذلك يا أمير المؤمنين ؟ » فقال :

« نعم والذي فلق الحَبَّة ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، إني أرى أمورهم قد علّت ، وأرى أموركم قد خبّت^(٢) ، وأراهم جادّين في باطلهم ، وأراكم وانين^(٣) في حقكم ، وأراهم مجتمعين ، وأراكم متفرقين ، وأراهم لصاحبهم معاوية مطيعين ، وأراكم لي عاصين ، أما والله لئن ظهرُوا عليكم بعدى ، لتجدنهم أربابَ سوء ، كأنهم والله عن قريب قد شاركوكم في بلادكم ، وحملوا إلى بلادهم منكم ، وكأني أنظر إليكم تكشون^(٤) كشيّش الضباب ، لا تأخذون لله حقاً ، ولا تمنعون له حرمةً ، وكأني أنظر إليهم يقتلون صلحاءكم ، ويؤخّفون علماءكم ، وكأني أنظر إليكم يحرمونكم ويحجبونكم ، ويؤذنون الناس دونكم ، فلو قد رأيتم الحرمان ، واقتيمت الذل والهوان ، ووقع السيفُ ، ونزل الخوفُ ، لنديتم وتحسرتم على تفریطكم في جهاد عدوكم ، وتذكرتم ما أنتم فيه من الخفض والعافية ، حين لا ينفعكم التذكار .

[١] منتصرين . [٢] من خبت النار ، أي سكنت وانطفأت .

[٣] من وني إذا فتر وضعف . [٤] كشّ الصب كشيّشاً : صوت

٢٦٤ - خطبة أبي أيوب الأنصاري

ثم قام أبو أيوب الأنصاري فقال :

« إن أمير المؤمنين - أكرمه الله - قد أسمع من كانت له أذن واعية ، وقلب حفيظ ، إن الله قد أكرمكم به كرامة ما قبلتموها حق قبولها ، حيث نزل بين أظهركم ابنُ عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير المسلمين وأفضلهم وسيدهم بعده ، يُفَقِّهَكُمْ في الدين ويدعوكم إلى جهادِ المُحِلِّين ، فوالله لَكَا نَكَمٌ صُمٌّ لا تسمعون ، وقلوبُكم غُلْفٌ^(١) مطبوعٌ عليها ، فلا تستجيبون ، عبادَ الله أليس إنما عهدُكم بالجورِ والعدوانِ أمسٍ ، وقد شمل العباد وشاع في الإسلام ، فذو حق محرومٌ مشتومٌ عرضُهُ ، ومضروب ظهرُهُ ، وملطوم وجهه ، وموطوء بطنه ، ومُلْتَقَى بالأعْرَاءِ^(٢) ، فلما جاءكم أمير المؤمنين صدعَ بالحق ، ونشَرَ العدل ، وعَمِلَ بالكتاب ، فاشكروا نعمة الله عليكم ، ولا تتولَّوا مُجْرِمِينَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ، اشحذوا السيوف ، وجددوا آلة الحرب ، واستعدوا للجهاد ، فإذا دُعِيتُمْ فأجيبوا ، وإذا أمرتم فأطيعوا ، تكونوا بذلك من الصادقين » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١١٢)

٢٦٥ - خطبة الامام وقد أغار النعمان بن بشير على عين التمر

وفي سنة ٣٩ هـ فرق معاوية جيوشه في أطراف على ، فبعث النعمان ابن بشير الأنصاري في ألفين ، فأتوا عين التمر^(٣) فأغاروا عليها ، وبها عامل

[١] جمع أغلف ، وقلب أغلف كأنما غمى غلافا فهو لا يمي . [٢] الأعراء : القضاء لا يستتر فيه بئى . [٣] بلد على الفرات شمالى الكوفة .

لعلّي في ثلثمائة ، فكتب إلى عليّ يستمده ، فأمر الناس أن ينهضوا إليه فثاقلوا ، فصعد المنبر فشهد ثم قال :

« يا أهل الكوفة : كلما سمعتم عَمْسِرَ ^(١) من مناسر أهل الشام أظلكم ، انجَحَرَ ^(٢) كل امرئ منكم في بيته ، وأغلق بابَه ، انجَحَرَ الضَّبُّ في جُحْرِهِ ، والضبُّعُ في وِجَارِهَا ^(٣) ، المغرور من غرّ رموه ، وَاَمَّنْ فاز بكم فاز بالسهم الأخبب ، لا أحرارٌ عند الهداء ، ولا إخوانٌ ثقةٍ عند النجاء ^(٤) ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! ماذا مُنيت به منكم ؟ عُمى لا تبصرون ، وَبُكْمٌ لا تنطقون ، وَصُمٌّ لا تسمعون ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٧٧)

وروى الشريف الرضى في نهج البلاغة هذه الخطبة بصورة أخرى وهى :

٢٦٦ - صورة أخرى

مُنيت ^(٥) بمن لا يُطيع إذا أمرتُ ، ولا يجيبُ إذا دعوتُ ! لا أبالكُم ، ما تنتظرون بنصركم رَبِّكُمْ ؟ أمادِينُ يجمعكم ، ولا حَمِيَّةٌ تُحمِشكم ^(٦) ؟ أقوم فيكم مُسْتَضْرِحًا ، وأناديكم مُتَغَوِّثًا ^(٧) ، فلا تسمعون لى قولاً ، ولا تُطيعون لى أمرًا ، حتى تَكشِفَ الأمور عن عواقب المساءة ؟ فما يُدركُ بكم ثأر ، ولا يُبلغُ بكم مَرَامٌ ؟ دَعَوْتِكُمْ إلى نصر إخوانكم ، فَجَرَ جَرَّتُمْ ^(٨) جَرَ جَرَّةَ الجمل الأَسْرَ ^(٩) واثاقلتم

[١] المنسر : تظعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير . [٢] من انجحر العيب : أى دخل جحره .
[٣] الوحار بالكسر والفتح : جحر الضبع وغيرها . [٤] النجاء : السرعة في السير ، نجات
نجاه أى أسرعت وسبقت ، وقالوا : الجاء النجاء ، والجا النجا فدوا وقصروا . [٥] بليت .
[٦] تعضبكم . [٧] فائلا واغوثا . [٨] الجرجرة : صوت يردده البعير في حنجرته ،
وأكثر ما يكون ذلك عند الاعياء والتعب . [٩] المصاب بداء السرر (بالتحريك) ، وهو وجع في
الكركرة (رضى زور البعير) .

تثاقُلَ النَّضْوُ ^(١) الْأَذْبَرَ ، ثم خرج إلى منكم جُنَيْدٌ مُتَذَائِبٌ ^(٢) ضَعِيفٌ ، كَأَنَّهَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .
(نهج البلاغة ١ : ٤٦)

٢٦٧ — خطبة الامام وقد أغار الضحّاك بن قيس على الحيرة ^(٣)

ووجه معاوية الضحّاك بن قيس فأغار على الحيرة وغنم من أموال أهلها ، وبلغ ذلك عليّاً فاستصرخ الناس ، فتقاعدوا عنه ، فقام فيهم خطيباً فقال :
« أيها الناسُ المجتمعَةُ أبدانهم ، المختلفةُ أهواؤهم ، كلامكم يُوهي الضمَّ ^(٤) الصّلابَ ، وفعلكم يُطمعُ فيكم الأعداء ، تقولون في المجالس كَيْتَ وكَيْتَ ^(٥) ، فإذا جاء القتال قَلِمَ حَيْدِي حِيَادٍ ^(٦) ، ما عَزَّتْ دَعْوَةٌ مِنْ دَعَاكُمْ ، ولا استراح قلب من قاساكم ، أعاليلُ بأضاليلَ ^(٧) ، دفاعَ ذِي الدِّينِ المَطُولِ ^(٨) ، هيهات لا يمنع الضيمُ الدليلُ ، ولا يُدْرِكُ الحقُّ إلا بِالْجِدِّ ، أَيُّ دارٍ بعد داركم تمنعون ؟ ومع أَيِّ إمامٍ بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله مَنْ غَرَّرْتَمُوهُ ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخبِيبَ ، ومن رَمَى بكم فقد رمى بأفوقَ ناصِلٍ ^(٩) ، أصبحتُ والله لأصدق قولكم : ولا أطمع في نصركم ، ولا أُوعدُ العدوَّ بكم ، ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟

[١] النضو : البير المهزول ، والأدبر : المدبور أى الجروح . [٢] جنيد : تصغير جند ، وتذائب : أى مضطرب من قولهم : تذابت الرياح ، أى اضطرب هبوبها ، ومنه سمي الذئب ذئباً لاضطراب مشيته . [٣] شمالي الكوفة . [٤] يوهي : يشق ويحرق ، والضمّ : جمع أصمّ ، وهو الحجر الصلب المصمت . [٥] بفتح آخرهما وبكسر : أى كذا وكذا . [٦] حيدى حياذ : كلمة يقولها الهارب العارّ ، من حاد حيدانا بمعنى مال وانحرف ، أى ابعدى وتنحى عى أيتها الحرب ، وهى نظيره قولهم (يبحى فياح) أى اتسمى . [٧] الأضاليل : جمع أصولة بالضم ، وهى الضلال ، وفى كتب اللغة : العلالة « (بالضم) والتعلة (كتحية) ، والعلة (بالفتح) ما يتعلل به » ولم أجد فيها كلمة أعاليل ولا مفردا ، ولا بدّ أن تكون جمع أصولة بالضم : كأضاليل وأعاجيب والأعيب . الخ ، والمعنى إن أقوالكم هذه تملل بأباطيل لاجدوى لها . [٨] مبالغة فى ماطل . [٩] سهم أفوق مكسور الفوق (بضم الفاء) والفوق : مدخل الوتر من السهم ، والناصل : العارى عن النصل .

ما طِبُّكُمْ؟ القومُ رجالٌ أمثالكم! أقولُ لا بنير علم ، وغفلةٌ من غير ورع ، وطمعاً في غير حق ! »

وزاد ابن قُتَيْبَةَ في الإمامة والسياسة :

« فرَّقَ اللهُ بيني وبينكم ، وأعقبني بكم من خيرٍ لي منكم ، وأعقبكم بعدي من شرِّ لكم مني ، أما إنكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً ، وسيافاً قاتلاً ، وأثرةً يتخذها الظالمون بعدي فيكم سنةً ، تفرِّقُ جماعتكم ، وتبكي عيونكم وتُدخلُ الفقر بيوتكم ، تمنَّونَ والله عندها أن لو رأيتموني ونصرتموني ، وستعرفون ما أقول لكم عمماً قليل .

استنفرتكم فلم تنفروا ! ونصحتُ لكم فلم تقبلوا ! وأسمعتكم فلم تعوا ! فأنتم شهود كأغياب ، وصمٌ ذوو أسماع ، أتلو عليكم الحكمة ، وأعظكم بالموعظة النافعة ، وأحثكم على جهاد المُحِلِّين^(١) ، الظلمة الباغين ، فما آتى على آخر قولي ، حتى أراكم متفرقين ، وإذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حلقاً^(٢) عزيز^(٣) ، تضربون الأمثال ، وتناشدون الأشعار ، تربت^(٤) أيديكم ، وقد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة عن ذكرها ، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل . »

(نهج البلاغة ١ : ٣٩ ، والإمامة والسياسة ٢ : ١١١ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٦)

٢٦٨ - خطبة الامام

وقد أغار سفيان بن عوف الغامدي على الأنبار

ووجه معاوية سُفْيَان بن عَوْف الغامذي في جيش ، فأغاروا على الأنبار^(٥)

[١] أي الذين خرجوا على إمامهم واستحلوا قتاله . [٢] الحلق : محرقة جمع حلقة (سكون اللام) وحلقة القوم : الذين يجمعون مستديرين . [٣] جمع عزة (بالكسر) : وهي الطائفة من الناس . [٤] دعاء عليهم : أي خسرتهم ولا أصاتم خيراً ، وأصله من ترب الرجل : أي افتقر كأنه لصق بالتراب . [٥] بلد على الفرات .

وَقَتَلُوا عَامِلَ عَلِيٍّ عَلَيْهَا وَهُوَ حَسَّانُ بْنُ حَسَّانِ الْبَكْرِيِّ ، وَاحْتَمَلُوا مَا كَانَ فِي
الْأَنْبَارِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَأَمْوَالِ أَهْلِهَا ، وَانْتَهَى الْخَبْرُ إِلَى عَلِيٍّ نَجْرَجَ مُغْضَبًا ، حَتَّى أَتَى
النَّخِيلَةَ ، وَاتَّبَعَهُ النَّاسُ فَرَقِيَ رِبَاوَةَ ^(١) مِنَ الْأَرْضِ ، فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى
عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، فَتَحَهُ اللَّهُ لِمَنْ خَاصَّ أَوْلِيَاءَهُ ،
وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى ، وَدِرْعُ اللَّهِ الْحَصِينَةَ ، وَجُنَّتَهُ ^(٢) الْوَثِيقَةَ ، فَمَنْ تَرَكَ رَغْبَةً
عَنْهُ ، أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ الذِّلِّ ، وَشَمَلَهُ الْبَلَاءُ ، وَدِيَّتُ ^(٣) بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءِ ^(٤) ،
وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ ^(٥) ، وَأَدِيلَ ^(٦) الْحَقِّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ ، وَسِيمَ
الْحَسْفِ ^(٧) ، وَمُنِعَ النِّصْفَ ^(٨) ، أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ
لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَسِرًّا وَإِعْلَانًا ، وَقُلْتُ لَكُمْ اغْزَوْهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَغْزَوْكُمْ فَوَاللَّهِ مَا غَزَى
قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ ^(٩) دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا ، فَتَخَذَاتُمْ وَتَوَاكَلْتُمْ وَثَقُلَ عَلَيْكُمْ قَوْلِي ،
وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ، حَتَّى شُدَّتْ ^(١٠) عَلَيْكُمْ الْغَارَاتُ ، وَمَثَلِكُمْ عَلَيْكُمْ
الْأَوْطَانُ ، هَذَا أَخُو غَامِدٍ ^(١١) قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ ، وَقَتَلَ حَسَّانُ بْنُ حَسَّانٍ
الْبَكْرِيُّ ، وَرَجُلًا مِنْهُمْ كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَاحِلِهَا ^(١٢) .

[١] الربوة والرباوة مثلثين : ما ارتفع من الأرض . [٢] وفايته . [٣] ذل ، وأصله من
دات الشيء من باب باع لان وسهل ومنه الديوث ، وهو الرجل الذي لاغيرة له على أهله ، والصغار : الذل .
[٤] قأ : كجمع وكرم ، قناءة : ذل وصعر . [٥] هكذا في رواية ابن أبي الحديد من أسهب بالضم
أى ذهب عقله ، وفي نهج البلاغة : (طبع الشام) بالأسداد . [٦] من أداله الله من عدوه ، أى
نصره عليه ، والباء في قوله « بتضييع الجهاد » السببية . [٧] أى أولى الذل والضميم ، وفي رواية
المبرد « وسيمى الحسف » بالإضافة ، والسيمى : العلامة قال المبرد : هكذا حدثونا وأظنه سيم الحسف
من قول الله عز وجل « يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » [٨] النصف بالكسر وبنات ، والنصف
والنصفه محركين الإيضا . [٩] وسطها وأصلها . [١٠] شن الغارة عليهم : صيها من كل
وجه ، من شن الماء على رأسه إذا صبه . [١١] يريد سفيان بن عوف الغامدى فأند الحملة على الأنبار .
[١٢] جمع مسلحة بالفتح : وهى الثفر

والذى نفسى بيده ، لقد بلغنى أنه كان يُدْخَلُ على المرأة المسلمة ، والأخرى
المُعاَهَدَةَ^(١) ، فَيُنْتَزَعُ حِجْلُهَا^(٢) وَقَلْبُهَا^(٣) ، وَقَلْبُهَا وَرُغْمُهَا^(٤) ، مَا تَمْتَنَعُ مِنْهُ إِلَّا
بِالاسْتِرْجَاعِ^(٥) وَالاسْتِرْحَامِ ، ثُمَّ انصرفوا وافرین^(٦) ، ما نال رجلاً منهم كَلِمٌ^(٧) ،
وَلَا أُرِيقُ لَهُمْ دَمٌ ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ دُونَ هَذَا أَسْفًا ، مَا كَانَ عِنْدِي فِيهِ
مَلُومًا ، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا .

يَا عَجِبًا كُلَّ الْعَجَبِ ! عَجِبُ يُمِيتُ الْقَلْبَ ، وَيَشْغَلُ الْفَهْمَ ، وَيُكْثِرُ الْأَحْزَانَ !
مَنْ تَضَافُرَ^(٨) هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ ، وَفَشَلِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ ، حَتَّى أَصْبَحْتُمْ^(٩)
غَرَضًا تُرْمَوْنَ وَلَا تَرْمُونَ ، وَيُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ ، وَيُعْصَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
فِيكُمْ وَتَرْضَوْنَ ، إِذَا قَلتَ لَكُمْ اغزوه في الشتاء ، قَلتُمْ هَذَا أَوْانِ قُرٌّ^(١٠) وَصِرٌّ ،
وَإِنْ قَلتَ لَكُمْ اغزوه في الصيف ، قَلتُمْ هَذِهِ حَمَارَةٌ^(١١) الْقَيْظِ ، أَنْظِرْنَا^(١٢)
يَنْصَرِمِ الْحَرْعَنَا ، فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ تَفْرُونَ ، فَأَنْتُمْ وَاللَّهُ مِنَ السَّيْفِ
أَقْرُ ! يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالِ ! وَيَا طَعَامَ^(١٣) الْأَحْلَامِ ! وَيَا عَقُولَ رَبَّاتِ

[١] المُعاَهَدَةُ : ذات المهد ، وهى الذمية . [٢] الحجل بالكسر والفتح : الحلحال ، وسمى القيد
حجلاً لأنه يكون مكان الحلحال . [٣] القلب : سوار المرأة . [٤] الرغمة بالفتح : القرط ، والجمع
رعات بالكسر ، وجمع الجمع رعث بصمتين . [٥] قول : إنا لله وإنا إليه راجعون .
[٦] أى تأمين ، وفى رواية المبرد : « موهورين » أى لم يبل أحداً منهم بأن يردأ فى بدن ولا مال .
[٧] جرح . [٨] تعاون وتناصر . [٩] وفى رواية نهج البلاغة : « نجباً لكم وترحاً
حين صرتم غرضاً يرمى » وزادت رواية الجلاحظ بعد ذلك : « وفيما ينهب » ، والترج : محرمة الهمة ،
والعرض : الهدف . [١٠] انقر مثله القاف : البرد ، والصر : شدة البرد ، وفى النهج : « وإذا
أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء ، قلم هذه صبارة انقر » أهملنا : ينسلخ عنا البرد « وصبارة الشتاء بتشديد
الراء : شدة برده . [١١] شدة الحر . [١٢] أى أهملنا حتى ينسلخ الحر ، وفى رواية النهج :
« أهملنا يسخ عنا الحر » بتشديد الباء المفتوحة أى يخف ويسكن ، وكل من خفف عنه شئ فقد سبغ عنه ،
ومنه قولهم : اللهم نسح عنى الحمى : أى خففها . [١٣] أوغاد الناس ومن لاعقل له ولا معرفة عنده ،
والأحلام العقول : جمع حلم بالكسر ، ويجمع أيضاً على حلوم ، وفى رواية النهج : « حلوم الأطفال » .

الْحِجَالُ^(١) ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أُرْكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ ، مَعْرِفَةٌ وَاللَّهُ جَرَّتْ نَدْمًا ، وَأَعْقَبَتْ سَدَمًا^(٢) ! قَاتَلَكُمْ اللَّهُ ! لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحًا^(٣) ، وَشَحْتَمَ صَدْرِي غَيْظًا ، وَجَبَّرَ عَظْمُونِي نُبْغَ التَّهْمَامِ أَنْفَاسًا^(٤) ، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعَصِيَّانِ وَالْحِذْلَانَ ، حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قَرِيشٌ : إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شَجَاعٌ ، وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لَهُ فِي الْحَرْبِ ! اللَّهُ دَرَّهُمْ^(٥) ! وَمَنْ ذَا يَكُونُ أَعْلَمُ بِهَا مِنِّي ، أَوْ أَشَدَّ لَهَا مِرَاسًا ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتَ الْعَشْرِينَ ، وَلَقَدْ نَيْفْتُ^(٦) الْيَوْمَ عَلَى السَّتِينِ ، وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ (يَقُولُهَا ثَلَاثًا) .

فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ وَمَعَهُ أَخُوهُ^(٧) فَقَالَ :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَا وَأَخِي هَذَا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي) فَرُّنَا بِأَمْرِكَ ، فَوَاللَّهِ لَنَنْتَهِيَنَّ إِلَيْهِ ، وَلَوْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ جَمْرُ الْغَضَا^(٨) ، وَشَوْكُ الْقِتَادِ^(٩) » فَدَعَا لَهُمَا بِخَيْرٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا : « وَأَيْنَ تَقْعَانُ مِمَّا أُرِيدُ ؟ » ثُمَّ نَزَلَ .

(نهج البلاعة ١ : ٣٥ ، الكامل للبرد ١ : ١١ ، البيان والنبى ٢ : ٢٥ ، والأغانى ١٥ : ٤٣)

[١] الحجال : جمع حجلة بالتحريك ، وهى الفبسة ، وموضع يزين بالستور والثياب للعروس — كناية عن النساء . [٢] السدم : الهم ، أو مع ندم ، أو غيط مع حزن . [٣] اتقيح : ما يكون فى القرحة من صديدها ، وشحتم : ملأتم ، وفى رواية الكامل : « ولقد ملأتم جوفى غيظاً » . [٤] النغب : جمع نغبة بالفتح والضم ، وهى الجرعة ، والتهمام : الهم ، وأنفاساً أى جرعة بعد جرعة ، يقال : اكرع فى الإناه نفسين أو ثلاثة . [٥] لله دره : أى صله ، والدر أيضاً : اللبن ، أى لله الذى الذى رضعه ، وهو تعجب أريد به التهكم ، وفى رواية النهج : « لله أبوم » ! [٦] نيمت : زدت ، ورواية النهج : « وهأنذا قد ذرّفت على الستين » أى زدت أيضاً . [٧] الرجل وأخوه : يعرفان بابنى عفيف من الأنصار . [٨] شجر جره يبقى طويلاً . [٩] شجر صلب له شوك كالإبر .

٢٦٩ - خطبة للحسن بن علي في يوم الجمعة

اعتل الإمام علي كرم الله وجهه يوماً ، فأمر ابنه الحسن رضي الله عنه أن يصلي بالناس يوم الجمعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله لم يبعث نبياً إلا اختار له نفساً ورهطاً وبيتاً ، فوالذي بعث محمداً بالحق ، لا يَنْتَقِصُ من حقنا أهل البيت أحدٌ ، إلا تقصه الله من عمله مثله ، ولا يكون علينا دولةٌ ، إلا وتكون لنا العاقبة ، ولتَعْلَمَنَّ نبأه بعد حين » .

(مروح الدم ٢ : ٥٣)

٢٧٠ - خطبة معاوية وقد بلغه هلاك الأشتر

ولما نمتي إلى معاوية هلاك الأشتر النخعي^(١) ، قام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أما بعد : فإنه كانت لعلي بن أبي طالب يدان يمينان ، وقُطِعَتْ إحداهما يوم صفين (يعني عمار بن ياسر) ، وقُطِعَتْ الأخرى اليوم (يعني الأشتر) » .

(تاريخ الطبری ٦ : ٥٤)

[١] هو مالك بن الحارث بن عبد يعوث النخعي توفي سنة ٣٨ هـ . روى المؤرخون أنه مات مسموماً سمه معاوية ، وذلك أن الأمام علياً كان قد ولي على مصر محمد بن أبي بكر فهدت عليه ، وخرحت عليه بها خوارج ، فبعث إليها الأشتر وأتت معارفة عيونته فأخبروه بولاية الأشتر ، فعظم ذلك عليه ، وقد كان طمع في مصر ، فعلم أنه إن قدمها كان أشد عليه من ابن أبي بكر ، فبعث إلى الجايسار (رجل من أهل الحراج) ، فقال له إن الأشتر قد ولي مصر ، فإن أنت كفيته لم آخذ منك خراجاً مابقيت ، (وقيل قال له أترك خراجك عشرين سنة) فاحتل له بما قدرت عليه ، وخرج الأشتر من العراق إلى مصر ، فلما انتهى إلى القلزم استقبله الجايسار ، فقال : هذا منزل وهذا طعام وعلف ، وأنا رجل من أهل الحراج ، فذل به الأشتر ، وسأل الدهقان أي الطعام والشراب أحب إليه ؟ قيل العسل ، فأهدى له عسلاً قد جعل فيه سمّاً وقال : إن من شأنه كذا وكذا ، فتناول منه شربة ، فما استقرت في جوفه حتى تاف ، وأتى من كان معه على الدهقان ومن معه ، فبلغ ذلك علياً ، فقال : « للبدن والنم » وبلغ معاوية ، فقال : « إن لله جنوداً منها العسل » .

فتنة البصرة

تسيير معاوية عبد الله بن عامر الحضرمي إليها ومقتله

لما قُتل محمد بن أبي بكر بمصر وظهر معاوية عليها (سنة ٣٨ هـ) دعا عبد الله ابن عامر الحضرمي ، فقال له : « سِرْ إِلَى البصرة فإِنَّ جُلَّ أَهْلِهَا يرون رأينا في عثمان ، وَيُعْطِمُونَ قَتْلَهُ ، وقد قُتِلُوا فِي الطلب بدمه ، فهم مَوْتُورُونَ حَنَّةُونَ لِمَا أَصَابَهُمْ ، وَذُؤَالُو يَجِدُونَ من يدعُوهم ويجمعهم ، وينهض بهم في الطلب بدم عثمان ، ودفع إليه كتاباً ، وأمره إذا قدم أن يقرأه على الناس (١) ، ففضى حتى نزل البصرة في بني تميم ، فسمع بقدمه أهل البصرة ، فجاءه كل من يرى رأى عثمان ، فاجتمع إليه روس أهلها .

٢٧١ — خطبة عبد الله بن عامر الحضرمي

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فإنَّ إمامكم إمامَ الهدى عثمانَ بن عفان ، قتله على بن أبي طالب ظلاماً ، فطلبتُم بدمه ، وقاتلتُم من قَتَلَهُ ، فجزاكم الله من أهل مصر خيراً ، وقد أُصِيبَ مِنْكُمْ المَلَأُ الأَخْيَارَ ، وقد جاءكم اللهُ بِإِخْوَانِ لَكُمْ ، لهم بَأْسٌ مُيَقَّنٌ ، وعددٌ لا يُحْصَى ، فلقُوا عدوكم الذين قتلوكم ، فبلغوا الغاية التي أرادوا

[١] وكان الذي سدّد لمعاوية رأيه في تسيير ابن الحضرمي كتاب كتبه إليه عباس بن صهار العبدى ، وفيه : « أما بعد : فقد بلدنا وقعتك بأهل مصر الذين بعوا على إمامهم ، وقتلوا خليفتهم طمعاً وبعياً ، فقررت بذلك العيون ، وشفيت بذلك النفوس ، وبردت أفئدة أقوام كانوا اقتل عثمان كارهين ، ولعدوّه معارقين ، ولكم موالين ، وبك راضين ، فإن رأيت أن تبعث إلينا أميراً طيباً ذكياً ذا عفاف ودين إلى الطلب بدم عثمان فعلت ، فإنني لا إخال الناس إلا يجمعين عليك ، وإن ابن عباس عائب عن المصر والسلام » كتب إليه معاوية « أما بعد : فقد قرأت كتابك ، فعرفت نصيحتك ، وقبلت مشورتك . رحك الله وسددك ، اثبت هداك الله على رأيك الرّشيد ، فكأنك بالرجل الذي سألت قد أتاك ، وكأنتك بالجيش قد أطل عليك ، فسررت وحييت والسلام .

صابرين ، وَرَجَعُوا وَقَدْ نَالُوا مَا طَلَبُوا ، فَالْتَمُوا^(١) وَسَاعَدُوهُمْ ، وَتَذَكَّرُوا ثَارَكُمْ ،
لِنَشْفُوا صُدُورَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ .

٢٧٢ — خطبة الضحاک بن عبد الله الهلالي

فَقَامَ إِلَيْهِ الضَّحَّاكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْهَلَالِيُّ فَقَالَ :

. . « قَبَّحَ اللَّهُ مَا جِئْتَنَا بِهِ ، وَمَادَعَوْتَنَا إِلَيْهِ ، جِئْتَنَا وَاللَّهِ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ صَاحِبَاكَ :
طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ ، أَتْيَانَا وَقَدْ بَايَعْنَا عَلِيًّا وَاجْتَمَعْنَا لَهُ ، فَكَلَمْتُنَا وَاحِدَةً ، وَنَحْنُ عَلَى
سَبِيلِ مُسْتَقِيمٍ ، فَدَعَاؤَنَا إِلَى الْفُرْقَةِ ، وَقَامَا فِينَا بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ ، حَتَّى ضَرَبْنَا
بَعْضُنَا بِبَعْضٍ عُدُوَانًا وَظُلْمًا ، فَاقْتَلْنَا عَلَى ذَلِكَ ، وَإِيمَ اللَّهِ مَا سَلِمْنَا مِنْ عَظِيمٍ وَبِالِ
ذَلِكَ ، وَنَحْنُ الْآنَ مُجْمَعُونَ عَلَى بَيْعَةِ هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ ، الَّذِي أَقَالَ الْعَثْرَةَ ، وَعَفَا
عَنِ الْمَسِيءِ ، وَأَخَذَ بَيْعَةَ غَائِبِنَا وَشَاهَدَنَا ، أَفْتَأْمُرُنَا الْآنَ أَنْ نَخْتَلِعَ أَسْـَٔيَافِنَا مِنْ
أَنْعِمَادِهَا ، ثُمَّ يَضْرِبَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ، لِيَكُونَ مَعَاوِيَةَ أَمِيرًا ، وَتَكُونَ لَهُ وَزِيرًا ،
وَنَعْدِلَ بِهَذَا الْأَمْرِ عَنْ عَلِيٍّ ؟ وَاللَّهِ لَيَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ عَلِيٍّ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَآلِهِ ، خَيْرٌ مِنْ بِلَاءِ مَعَاوِيَةَ وَآلِ مَعَاوِيَةَ ، لَوْ بَقُوا فِي الدُّنْيَا ، مَا الدُّنْيَا بِأَقِيَّةٍ^(٢) .

فَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَازِمِ السُّلَمِيِّ ، فَقَالَ لِلضَّحَّاكِ : « اسْكُتْ فَلَسْتُ بِأَهْلٍ أَنْ
تَتَكَلَّمَ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ » ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ ، فَقَالَ : « نَحْنُ يَدُكَ وَأَنْصَارُكَ ،
وَالْقَوْلُ مَا قُلْتَ ، وَقَدْ فَهِمْنَا عَنْكَ ، فَادْعُنَا أَنْتِي شِئْتَ » فَقَالَ الضَّحَّاكُ لِابْنِ حَازِمٍ :
« يَا بَنَ السُّودَاءِ^(٣) ، وَاللَّهِ لَا يَعِزُّ مَنْ نَصَرْتَ ، وَلَا يَدِيكَ بِخِذْلَانِكَ مَنْ
خَذَلْتَ » فَتَشَاتَمَا

[١] سَاعَدُوهُمْ . [٢] مَا ظَرْفِيَّةٌ ، أَيْ مَا دَامَتِ الدُّنْيَا بِأَقِيَّةٍ .

[٣] وَكَانَتْ أُمُّهُ سَوْدَاءَ حَبَشِيَّةً يُقَالُ لَهَا عَجَلِي .

٢٧٣ - خطبة عبد الرحمن بن عمير القرشي

فقام عبد الرحمن بن مُعَمِّر بن عثمان القرشي التيمي فقال :

« عبادَ الله : إننا لم ندعكم إلى الاختلاف والفُرقة ، ولا نريد أن تقتتلوا وتتنازروا ^(١) ، ولكننا إنما ندعوكم إلى أن تجمعوا كلمتكم ، وتوازرُوا إخوانكم الذين هم على رأيكم ، وأن تلمؤا شعثكم ، وتصلحوا ذات بينكم ، فههلاً مهلاً رحمكم الله ، استمعوا لهذا الكتاب ، وأطيعوا الذي يقرأ عليكم . »

فاما قرئ عليهم الكتاب ، قال معظمهم : « سمعنا وأطعنا » وقال الأحنف ابن قيس : « أما أنا فلا ناقة لي في هذا ولا جمل ^(٢) » ، واعتزل أمرهم ذلك ، وقال عمرو بن مرحوم من عبد القيس : « أيها الناس ، الزموا طاعتكم ، ولا تنكثوا ببعثكم ، فتقع بكم واقعة ^(٣) ، وتصيبكم قارعة ^(٤) ، ولا يكن بعدها لكم بقية ، ألا إني قد نصحت لكم وأكن لا تحبون الناصحين » .

* * *

ثم إن الناس أقبلوا إلى ابن الحضرمي وكثر تبعه - وكان الأمير بالبصرة يومئذ زياد ابن أبيه استخلفه عبد الله بن عباس وقدم الكوفة على علي عليه السلام يعزيه عن محمد بن أبي بكر - فأفزع ذلك زياداً وهاله ، وخلى قصر الإمارة ، واستجار بالأزد فأجاروه ، وكتب إلى ابن عباس بالأمر ، وطلب إليه أن يرفع ذلك إلى أمير المؤمنين ، ليرى فيه رأيه ، وغلب ابن الحضرمي على ما يليه من البصرة وجباها ، وأجمعت الأزد على زياد ، وأعدوا له منبراً وسريراً وشُرطاً .

[١] النزب : محركة اللب ، والتناز : التعابر والتداعي بالألقاب . [٢] أصل المثل للحارث بن عباد البكري حين قتل جساس بن مرة كليباً ، وهاجت الحرب بين بكر وتعلب (حرب البسوس) وكان الحارث قد اعتزلهما ، والقصة مشهورة . [٣] داهية .

٢٧٤ - خطبة زياد بن أبيه

فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر الأزد : إنكم كنتم أعدائي ، فأصبحتم أوليائي وأولى الناس بي ، وإني لو كنت في بني تميم ، وابن الحضرمي فيكم ، لم أطمع فيه أبداً ، وأنتم دونه ، فلا يطمع ابن الحضرمي فيّ وأنتم دوني ، وليس ابن آكلة الأكباد - في بقية الأحزاب وأولياء الشيطان - بأدنى إلى الغلبة من أمير المؤمنين في المهاجرين والأنصار ، وقد أصبحت فيكم مضموناً ، وأمانة مؤداة ، وقد رأينا وقعكم يوم الجمل ، فاصبروا مع الحق صبركم مع الباطل ، فإنكم لا تحمدون إلا على النجدة ، ولا تمذرون على الجبن » .

٢٧٥ - خطبة شيان الأزدي

فقام شيان الأزدي - ولم يكن شهد يوم الجمل وكان غائباً - فقال :

« يا معشر الأزد : ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر ، وقد كنتم أمس على علي عليه السلام ، فكونوا اليوم له ، واعلموا أن إسلامكم^(١) له ذل ، وخذلانكم إياه عار ، وأنتم حتى مضماركم الصبر ، وعاقبتكم الوفاء ، فإن سار القوم بصاحبهم فسيروا بصاحبكم ، وإن استمدوا معاوية فاستمدوا علياً عليه السلام ، وإن وادعوك فوادعوهم » .

٢٧٦ - خطبة صبرة بن شيان

ثم قام صبرة ابنه ، فقال :

« يا معشر الأزد : إنا قلنا يوم الجمل نمنع مضرنا ، ونطيع أمنا ، ونطلب دم

خليفتنا المظلوم ، فجددنا في القتال ، وأقننا بعد انهزام الناس ، حتى قُتِلَ منا مَنْ لا خير فينا بعده ، وهذا زياد جاركم اليوم ، والجار مضمون ، ولسنا نخاف من عليٍّ ما نخاف من معاوية ، فَهَبُوا لَنَا أَنْفُسَكُمْ ، وامنعوا جاركم ، أو فأبلغوه مأمنه .
فقلت الأزد : « إنما نحن لكم تبع فأجبروه » .

٢٧٧ - خطبة الامام عليّ

واستنفر عليّ بنى تميم أياماً لينهض منهم إلى البصرة مَنْ يكفيه أمر، ابن الحضرمي ، ويردّ عادية بنى تميم الذين أجاروه بها ، فلم يجبه أحد ، فخطبهم وقال :
« أليس من العجب أن ينصرني الأزد ^(١) ، وَتَمَخُّذُنِي مُضَرًّا؟ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ تَقَاعُدُ تَمِيمِ الْكُوفَةِ بِي ، وَخِلَافُ تَمِيمِ الْبَصْرَةَ عَلَيَّ ، وَأَنْ أُسْتَجِدَّ بِطَائِفَةٍ مِنْهَا تَشَخَّصَ إِلَى إِخْوَانِهَا فَتَدْعُوهُمْ إِلَى الرَّشَادِ ، فَإِنْ أَجَابَتْ وَإِلَّا فَالْمُنَابَذَةُ وَالْحَرْبُ ، فَكَأَنِّي أَخَاطَبُ مُصَمًّا بِكُمْ لَا يَفْقَهُونَ حِوَارًا ، وَلَا يُجِيبُونَ نِدَاءً ، كُلُّ هَذَا جُبْنًا عَنِ الْبَأْسِ ، وَحُبًّا لِلْحَيَاةِ ، لَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا ، وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا ^(٢) ، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا ، وَتَسْلِيمًا ، وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقْمِ ^(٣) ، وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلْمِ ، وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنْنا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُونَا يَتَصَاوَلَانِ ^(٤) تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ ، يَتَخَالَسَانِ ^(٥) أَنْفُسَهُمَا ، أَيُّهُمَا يَسْتَقِي صَاحِبَهُ كَأَسَى الْمُنُونِ ، فَرَّةٌ لَنَا مِنْ عَدُونَا ،

[١] م من العرب اليمانيين . [٢] قتلهم الأقارب في ذات الله كثير ، قتل عليّ عليه السلام الجهم العفير من بنى عبد مناف وبنى عبد الدار في يوم بدر وأحد وهم عشيرته وبنو عمه ، وقتل عمر بن الخطاب يوم بدر خاله العاص بن هاشم بن المغيرة ، وقتل حمزة بن عبد المطلب شعبة بن ربيعة يوم بدر وهو ابن عمه ، ومثل ذلك كثير مذكور في كتب السيرة . [٣] لقم الطريق : الجادة الواضحة منها .

[٤] التصاول : أن يصول كل من الفريقين على صاحبه .

[٥] التحالسان : التسالب ، أي يبي كل أن يسلب روح الآخر .

وَمَرَّةً لَعَدُونَا مِنَّا ، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بَعْدُونَا الْكَبْتَ^(١) ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ^(٢) ، وَمُتَبَوِّئًا أَوْطَانَهُ ، وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ ، مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ، وَلَا اخْضَرَ لِلْإِيمَانِ عُودٌ ، وَإِيمَ اللَّهِ لَتَخْتَلِبُنَّهَا دَمًا^(٣) ، وَاتَّبِعْنَهَا نَدْمًا .

فَقَامَ إِلَيْهِ أُعَيْنُ بْنُ ضَبِيْعَةَ الْمُجَاشِعِيُّ^(٤) فَقَالَ :

« أَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَكْفِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا الْخَطْبَ ، وَأَتَكْفِلُ لَكَ بِقَتْلِ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ ، أَوْ إِخْرَاجِهِ عَنِ الْبَصْرَةِ » فَأَمَرَهُ بِالتَّهْيِؤِ لِلشَّخْصِ ، فَشَخَّصَ إِلَى الْبَصْرَةِ .

٢٧٨ - خُطْبَةُ أُعَيْنِ بْنِ ضَبِيْعَةَ

فَلَمَّا قَدِمَهَا دَخَلَ عَلَى زِيَادٍ ، وَهُوَ بِالْأَزْدِ مُقِيمٌ فَأَخْبَرَهُ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ خَرَجَ فَاتَى رَحْلَهُ ، فَجَمَعَ إِلَيْهِ رِجَالًا مِنْ قَوْمِهِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

« يَا قَوْمَ : عَلَى مَاذَا تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ، وَتُهَرِّيقُونَ دِمَاءَكُمْ ، عَلَى الْبَاطِلِ مَعَ السَّفَهَاءِ الْأَشْرَارِ ؟ وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا جِئْتُكُمْ حَتَّى عُيِّنَتْ إِلَيْكُمْ الْجُنُودُ ، فَإِنْ تُنْثَبُوا إِلَى الْحَقِّ يُقْبَلْ مِنْكُمْ وَيُكْفَ عَنْكُمْ ، وَإِنْ أُيْتِمَ فَهُوَ وَاللَّهِ اسْتِنْصَالُكُمْ وَبَوَارِكُمْ » .

فَقَالُوا بَلْ نَسْمَعُ وَنَطِيعُ ، فَنَهَضَ بِهِمْ إِلَى جَمَاعَةِ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ ، فَخَرَحُوا إِلَيْهِ مَعَ ابْنِ الْحَضْرَمِيِّ وَوَأَفْفَهُمْ عَامَةً يَوْمَهُ يَنَاشِدُهُمُ اللَّهُ وَيَقُولُ : « يَا قَوْمَ لَا تَنْكُثُوا بَيْعَتَكُمْ ، وَلَا تُخَالِفُوا إِمَامَكُمْ ، وَلَا تَجْعَلُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ سَبِيلًا ، فَقَدْرَأَيْتُمْ وَجَرَّتْ بَيْعَتُكُمْ كَيْفَ

[١] الإذلال . [٢] جران البعير : مقدم عنقه ، وهو كناية عن التمكن كالعير ياتي حرانه على الأرض . [٣] يقال لمن أسرف في الأمر : لتحتلبن دما ، وأصلها الناقة يفرط في حلبها فيحلب الحالب الدم . [٤] مجاشع بن دارم أبو قبيلة من تميم ، وأعين بن ضبيعة ، هو الذي نقر الجمل الذي كانت عليه مائنة يوم الجمل .

صنع الله بكم عند نكثكم يبعثكم وخلافكم»
فكفوا عنه وهم في ذلك يشتمونه وينالون منه فانصرف عنهم ، فلما أوى
إلى رحله تبعه عشرة نفر يظن الناس أنهم خوارج فقتلوه ، وكتب زياد إلى
الإمام بذلك ، فأشخص إليهم جارية بن قدامة .

٢٧٩ — خطبة جارية بن قدامة

فلما دخل البصرة بدأ زياد ، فواجه ساعةً وسأله ، ثم خرج من عنده ،
فقام في الأزدي فقال :

« جزاكم الله من حَيٍّ خيراً ، ما أعظم غناءكم ^(١) ، وأحسن بلاءكم ،
وأطوعكم لأمركم ، لقد عرفتم الحق إذ ضيعةً من أنكره ، ودعوتم إلى الهدى
إذ تركه من لم يعرفه » ثم قرأ عليهم كتاب عليّ عليه السلام ، فقام صبرة بن
شيمان ، فقال : « سمعنا وأطعنا ، ونحن لمن حارب أمير المؤمنين حرب ، ولن
سالم سلم ، إن كفيت ياجارية قومك بقومك فذاك ، وإن أحببت أن ننصرك
نصرك » وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ، فلم يأذن لأحد منهم أن يسير
معه ، ومضى نحو بني تميم .

٢٨٠ — خطبة زياد

فقام زياد في الأزدي فقال :

« يا معشر الأزدي : إن هؤلاء كانوا أمسِ سلماً ، فأصبحوا اليوم حرباً ، وإنكم
كنتم حرباً فأصبحتم سلماً ، وإني والله ما اخترتكم إلا على التجربة ، ولا أقت
فيكم إلا على الأمل ، فما رضيتم أن أجرتوني ، حتى نصبتكم لي منبراً وسريراً ،

[١] أي كفايتكم ونفعكم .

وجعلتم لى شُرطا وأعوانا ومُناديا ومُجمعة ، فافقدت بحضرتكم شيئا إلا هذا
الدرهم لا أجبيه اليوم ، فإن لم أجبه اليوم أجبه غداً إن شاء الله ، واعلموا أن
حربكم اليوم معاويةَ أيسرُ عليكم فى الدنيا والدين من حربكم أمسٍ علياً ، وقد قدم
عليكم جاريةُ بن قدامة ، وإما أرسله على ليصدع أمر قومه ، والله ما هو بالأمر
المطاع ، ولو أدرك أمّله فى قومه لرجع إلى أمير المؤمنين ، ولكان لى تبعاً ، وأنتم
الهامةُ العظمى ، والجَمرةُ الحامية ، فقدّموه إلى قومه ، فإن اضطرّ إلى نصركم ،
فسيروا إليه إن رأيتم ذلك » .

٢٨١ - خطبة أبى صبرة شيان

فقام أبو صبرة شيان فقال :

« يا زياد ، إني والله لو شهدت قومي يوم الجمل رجوت ألا يقاتلوا علياً ، وقد
مضى الأمر بما فيه ، وهو يوم بيوم ، وأمر بأمر ، والله إلى الجزاء بالإحسان
أسرع منه إلى الجزاء بالسّيئ ، والنوبة مع الحق ، والعفومع الندم ، ولو كانت هذه
فتنةً لدعونا القوم إلى إبطال الدماء ، واستئناف الأمور ، ولكنها جماعةٌ ، دماؤها
حرام ، وجروحها قصاصٌ ، ونحن معك نحبُّ ما أحببت »
فمجب زياد من كلامه ، وقال : « ما أظنُّ فى الناس مثل هذا »

٢٨٢ - خطبة صبرة بن شيان

ثم قلم صبرة ابنه فقال :

« إنا والله ما أصبنا بمصيبة فى دين ولا دنيا ، كما أصبنا أمسٍ يوم الجمل ،

وإنا لندرجو اليوم أن يُمَحَّصَ^(١) ذلك بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، وأما أنت يا زياد ، فوالله ما أدركتَ أملكَ فينا ، ولا أذركنا أملنا فيك ، دون ردك إلى دارك ، ونحن رادوك إليها غدًا إن شاء الله تعالى ، فإذا فعلنا فلا يكن أحد أولى بك منا ، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يُشبهك ، وإنا والله نخاف من حرب عليّ في الآخرة ، ما لا نخاف من حرب معاوية في الدنيا ، فقدّم هواك ، وأخر هوانا ، فنحن معك وطونُك .

٢٨٣ — خطبة خنفر الحماني

ثم قام خنفر الحماني فقال :

« أيها الأمير : إنك لو رضيت منا بما ترضى به من غيرنا ، لم نرضَ ذلك لأنفسنا ، سر بنا إلى القوم إن شئت ، وإيم الله ما لقينا يوماً قط إلا اكتفينا بمَقُونَا^(٢) دون جُهدنا ، إلا ما كان أمس »

أما جارية فإنه كلم قومه فلم يجيبوه ، وخرج إليه منهم أوباش فناوشوه بعد أن شتموه ، فأرسل إلى زياد والأزد يستصرخهم ، فسارت الأزد بزياد ، وخرج إليهم ابن الحضرمي وعلى خيله عبد الله بن حازم السلمي ، فاقتلوا ساعة ، فالبثوا بني تميم أن هزموا ، وحصر ابن الحضرمي في إحدى دور البصرة ، في عِدَّة من أصحابه ، وحرقت جارية الدار عليهم ، فهلك ابن الحضرمي في سبعين رجلاً ، وسارت الأزد بزياد ، حتى أوطنوه قصر الإمارة ومعه بيت المال ، وقالوا له : هل بقي علينا من جوارك شيء ؟ قال : لا ، فانصرفوا عنه ، وكثب زياد بذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام . (شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٣٤٨ ، ونهج البلاغة ١ : ٥٣)

[١] من محس الذهب بالنار كقطع أخلصه مما يشوبه . [٢] المغو : الريادة .

٢٨٤ - صعصعة بن صوحان ومعاوية

أرسل على كرم الله وجهه إلى معاوية بالشام كتاباً مُحِبَّةً صعصعة بن صوحان ، فسار به حتى أتى دمشق ، فأتى باب معاوية ، فقال لِأَذِنِهِ ، اسْتَأْذِنُ لِرَسُولِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - وَبِالْبَابِ جَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ - فَأَخَذَتْهُ النَّعَالُ وَالْأَيْدِي ، لِقَوْلِهِ « أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » ، وَكَثُرَتْ عَلَيْهِ الْجَلْبَةُ ، فَاتَّصَلَ ذَلِكَ بِمَعَاوِيَةَ ، فَأَذَّنَ لَهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا بَنَ أَبِي سُفْيَانَ ، هَذَا كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَتْ الرِّسْلُ تُقْتَلُ فِي جَاهِلِيَّةٍ أَوْ إِسْلَامٍ لَقَتَلْتِكَ ، ثُمَّ اعْتَرَضَهُ مَعَاوِيَةُ فِي الْكَلَامِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَخْبِرَهُ ، لِيَعْرِفَ طَبْعًا أَوْ تَكَلُّفًا ، فَقَالَ لَهُ مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ قَالَ مِنْ نِزَارٍ ، قَالَ وَمَا كَانَ نِزَارٌ ؟ قَالَ كَانَ إِذَا غَزَا انْكَمَشَ ^(١) ، وَإِذَا اتَى افْتَرَشَ ^(٢) ، وَإِذَا انْصَرَفَ احْتَرَشَ ^(٣) ، قَالَ فَمَنْ أَيْ أَوْلَادِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ مِنْ رَبِيعَةَ ، قَالَ وَمَا كَانَ رَبِيعَةَ ؟ قَالَ : كَانَ يَطِيلُ النَّجَادَ ^(٤) ، وَيَعْمَلُ الْعِبَادَ ، وَيَضْرِبُ بِيَقَاعِ الْأَرْضِ الْعِمَادَ ، قَالَ : فَمَنْ أَيْ أَوْلَادِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ مِنْ جَدِيدَةَ ، قَالَ وَمَا كَانَ جَدِيدَةَ ؟ قَالَ كَانَ فِي الْحَرْبِ سَيْفًا قَاطِعًا ، وَفِي الْمَكْرُمَاتِ غِيثًا نَافِعًا ، وَفِي اللَّقَاءِ لَهَبًا سَاطِعًا ، قَالَ فَمَنْ أَيْ أَوْلَادِهِ أَنْتَ ؟ قَالَ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ ، قَالَ وَمَا كَانَ عَبْدِ الْقَيْسِ ؟ قَالَ كَانَ حَسَنًا أَيْضًا ^(٥) وَهَابًا ، يُقَدِّمُ لِضَيْفِهِ مَا وَجَدَ ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا قَدَّ ، كَثِيرَ الْمَرْقِ ، طَيِّبَ الْعَرَقِ ، يُقِيمُ لِلنَّاسِ مَقَامَ الْغَيْثِ مِنَ السَّمَاءِ ، قَالَ وَيَحْكُ يَا بَنَ صُوحَانَ ! فَمَا تَرَكْتَ لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قَرِيشٍ مَجْدًا وَلَا نَجْرًا ؟ قَالَ بَلَى وَاللَّهِ يَا بَنَ أَبِي سُفْيَانَ ! تَرَكْتَ لَهُمْ مَا لَا يَصْلِحُ

[١] انكمش وتكدهش : أسرع والكميش الرجل السريع . [٢] افترش فلانا : غلبه وصرعه .

[٣] احترش الشيء : جمعه وكسبه . [٤] حائل السيف ، وهو كناية عن طول القامة .

[٥] أي أبيض اللون كناية عن أنه حرّ لارتقيق أو أبيض العرض فيه .

إلّا لهم ، تركت لهم الأحمر والأبيض والأصفر^(١) ، والسرير والمنبر^(٢) ، والملك إلى المحشر ، ففرح معاوية ، وظن أن كلامه يشتمل على قریش كلها ، قال صدقت يا بن صوحان ، إن ذلك لكذلك ، فعرف صعصعة ما أراد ، فقال ليس لك ولا لقومك في ذلك إصدار ولا إيراد^(٣) ، بعدتم عن أنف^(٤) المرعى ، وعلوتم عن عذب الماء ، قال ولم ذلك ؟ ويلاك يا بن صوحان ! فقال الويل لأهل النار ، ذلك لبني هاشم ، قال قم ، فأخرجوه . فقال صعصعة : الوعد بيني وبينك لا الوعيد ، من أراد المناجزة ، يقبل المناجزة^(٥) ، فقال معاوية لشيء ما سؤده قومه ، وودت أنى من صلبه ، ثم التفت إلى بنى أمية فقال : هكذا فلتكن الرجال !
(صبح الأعشى ١ : ٢٥٤ ، ومروج الذهب ٢ : ٧٧)

* * *

وروى أبو على القالى هذا الخبر فى الأمالى بصورة أخرى ، قال :
« دخل صعصعة بن صوحان على معاوية أوّل ما دخل عليه - وقد كان يبلغ معاوية عنه ، فقال معاوية : ممّن الرّجل ؟ فقال رجل من نزار ، قال : وما نزار ؟ قال : كان إذا غزا المحوش^(٦) ، وإذا انصرف انكش ، وإذا لقي افترش ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من ربيعة ، قال : وما ربيعة ؟ قال : كان يغزو بالخيّل ، ويغير بالليل ، ويجود بالنيل ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من أمهر^(٧) ،

[١] الأحمر : الذهب ، والأبيض : الفضة (والسيف أيضا) والأصفر : الذهب . كناية عن العنى والثروة (وقد كان لقریش فى الجاهلية مركز تجارى هام) . [٢] كناية عن الملك والقدرة الحطائية . [٣] أورد إبله الماء . وأصدرها ردّها وأرحمها . [٤] روضة أنف لم ترع . [٥] ومروج الذهب : « من أراد المشاجرة قبل المحاورة » والوارى فى الأمثال : « المناجزة قبل المناجزة فى القتال ، يصرب لمن يطلب الصلح بعد القتال . [٦] لم أجد هذه الكلمة فى كتب اللغة ، وأرى أنها محرفة عن (احترش) كما ورد فى رواية صبح الأعشى ، وإن اختلف تأليف الجمل فى الروایتين . [٧] ومروج الذهب : « من أسد ، قال وما أسد ؟ »

قال : وما أمره ؟ قال : كان إذا طلب أفضى ^(١) ، وإذا أدرك أَرْضَى ، وإذا آب
أَنْضَى ^(٢) ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من جدَيْلَةَ ، قال : وما جدَيْلَةُ ؟
قال : كَانَ يُطِيلُ النَّجَادَ ^(٣) ، وَيَمِدُّ الْجِيَادَ ، وَيُجِيدُ الْجِلَادَ ، قال : فمن أىّ ولده
أنت ؟ قال : من دُعْمِيٍّ ، قال : وما دُعْمِيٍّ ؟ قال : كَانَ نَارًا سَاطِعًا ، وَشَرًّا قَاطِعًا ،
وَخَيْرًا نَافِعًا ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من أَفْصَى ، قال : وما أَفْصَى ؟
قال : كَانَ يَنْزِلُ الْقَارَاتِ ^(٤) ، وَيَكْثُرُ الْغَارَاتِ ، وَيَمْحِي الْجَارَاتِ ، قال : فمن أىّ
ولده أنت ؟ قال : من عبد القيس ، قال : وما عبد القيس ؟ قال : أَبْطَالٌ ذَادَةٌ ^(٥) ،
جَحَاجِحَةٌ ^(٦) سَادَةٌ ، صِنَادِيدٌ قَادَةٌ ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من أَفْصَى ،
قال : وما أَفْصَى ؟ قال : كَانَتْ رِمَاحُهُمْ مُشْرَعَةً ^(٧) ، وَقُدُورُهُمْ مُتْرَعَةً ^(٨) ،
وَجِفَافُهُمْ مُفْرَعَةً ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من لُكَيْزٍ ، قال : وما لُكَيْزٍ ؟
قال : كَانَ يَبَاشِرُ الْقِتَالَ ، وَيَعَانِقُ الْأَبْطَالَ ، وَيُبَدِّدُ الْأَمْوَالَ ، قال : فمن أىّ ولده
أنت ؟ قال : من عَجَلٍ ، قال : وما عَجَلٍ ؟ قال : اللَّيْوْثُ الضَّرَّاعِمَةُ ^(٩) ، الْمَلُوكُ
الْقَمَاقِقَةُ ^(١٠) ، الْقُرُومُ الْقَشَائِمَةُ ^(١١) ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من كَعْبٍ ،
قال : وما كَعْبٍ ؟ قال : كَانَ يُسَعِّرُ ^(١٢) الْحَرْبَ ، وَيُجِيدُ الضَّرْبَ ، وَيَكْشِفُ
الْكَرْبَ ، قال : فمن أىّ ولده أنت ؟ قال : من مَالِكٍ ، قال : وما مَالِكٍ ؟ قال :

[١] أفضى إلى الشيء : وصل إليه . [٢] أنضى بعيره : هزله ، وأضى الثوب : أبلاه .
[٣] حائل السيف . [٤] القارات : جمع قارة ، وهي الخيل الصبير . [٥] جمع ذائد ،
وهو المدافع . [٦] جمع جمعح : وهو السيد ، كالجحاح . [٧] مسددة . [٨] مملوءة .
[٩] جمع ضرغام ، وهو الأسد . [١٠] جمع ققام بالفتح ويضم ، وهو السيد .
[١١] القروم ، جمع قرم : كشمهم ، وهو السيد ، والقشائمة : جمع قشعم ، كجعفر ، وهو الرجل المسن
(كناية عن كثرة التجربة) والأسد . [١٢] سحر الحرب : كثر ، وسعرها : أوقدها .

هو الهُمَامُ للهمام ، وَالْقَمَقَامُ للقمام ، فقال معاوية : ما تركت لهذا الحَيِّ من قريش شيئاً ، قال : بل تركتُ أكثره وأحبَّه ، قال : وما هو ؟ قال : تركت لهم الوَبَرَ وَالْمَدَرَ ^(١) وَالْأَبْيَضَ وَالْأَصْفَرَ ، وَالصَّفَا وَالْمَشْعَرَ ^(٢) ، وَالْقُبَّةَ وَالْمَفْخَرَ ، وَالسَّرِيرَ وَالْمِنْبَرَ ، وَالْمُلْكَ إِلَى الْمَحْشَرِ ، قال : أما والله لقد كان يسوءني أن أراك أسيراً ، قال : وأنا والله لقد كان يسوءني أن أراك أميراً ، ثم خرج فبعث إليه ، فَرُدُّ ، ووصله وأكرمه . (الأمل ٢ : ٢٣٠)



وروى المسعودي في مروج الذهب قال :

« قال معاوية يوماً وعنده صعصعة ، وكان قدِمَ عليه بكتاب عليّ ، وعنده وجوه الناس : « الأرض لله ، وأنا خليفة الله ، فما آخذُ من مال الله فهو لى ، وما تركت منه كان جائزاً لى » فقال صعصعة :

تَمَنِّيكَ نَفْسُكَ مَا لَا يَكُونُ جَهْلًا ، مُعَاوِيَةَ لَا تَأْتُمُ .

فقال معاوية : يا صعصعة تعلمتَ الكلام ، قال : العلم بالتعلم ، ومن لا يعلم يَجْهَلُ ، قال معاوية : ما أحوجك إلى أن أذيقكَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، قال : ليس ذلك بيدك ، ذلك بيد الذى لا يُؤَخَّرُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، قال : ومن يَحْمُولُ بينى وبينك ؟ قال : الذى يَحْمُولُ بين المرء وقلبه ، قال معاوية : اتسع بطنك

[١] كناية عن البادية ، والمدر : المدن والحضر . [٢] شعار الحج بالكسر : مناسك وعلاماته ، والشميرة والشعارة بالفتح ، والشعر موضعها ، والشعر الحرام : بالزدلفة .

للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير، قال : اتسع بطن من لا يشبع^(١) ، ودعا عليه من لا يجمع^(٢) . (مروج الذهب ٢ : ٧٩)

٢٨٥ — خطبة عبد الله بن مسعود (المتوفى سنة ٣٢ هـ)

أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العُرَا كلمة التقوى . أكرم الممل ملة إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم . خير الأمور أوسطها ، وشر الأمور مُحدثاتها . ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . خير الغنى غنى النفس ، وخير ما ألقى في القلب اليقين . الحمرِ جماعُ الآثام . النساءُ حِبالُ الشيطان . الشباب شعبة من الجنون . حب الكفاية مفتاح المعجزة . شر الناس من لا يأتي الجماعة إلا دُبُرًا ، ولا يذكر الله إلا هَجْرًا^(٣) . أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، سباب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . من يتألَّ^(٤) على الله يكذبه ، ومن يغفر يغفر له . مكتوب في ديوان المحسنين : من عفا عفا الله عنه . الشقي من شقى في بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره . الأمور بعواقبها . وِلاك العمل

[١] يعرض بماوية إذ كان مبطانا (أى أكلوا) وذن أيضاً بطينا (أى عظيم البطن) ، وقد قال به سيدنا على في وثمة صفيق :

أصربهم ولا أرى ماويه الماحط العين العظيم الماويه

(والماوية ما تحوى من الأمعاء أى العظيم البطن) . [٢] دعا عليه : معطوف على لا يشبع أى اتسع بطن من دعا عليه من لا يجمع ، والمراد من لا يجمع النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد دعا على معاوية بالنهم وعدم الشبع ، ومعنى لا يجمع أى لا يجمع الدنيا ولا يجمع إليها ، وهو تعريض آخر بماويه ، أما دعاء رسول الله عليه فقد روى ابن الأثير في أسد الغابة — ٤ : ٣٨٦ — قال : « عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كنت ألب مع الصبيان غداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتواريت خلف باب ، قال غداء ، فخطاني حطاة — والخطو : تحريك الشيء من عجزاً — وقال اذهب فادع لى معاوية ، قال فحُتت فقلت هو يأكل ، ثم قال : اذهب فادع لى معاوية ، قال : فحُتت فقلت هو يأكل ، فقال : لا أشبع الله بطنه ، أخرج مسلم هذا الحديث بعينه لمعاوية » . [٣] المجر ككتف الذى يمشى مثقلاً صاعياً : أى لا يعرف الله إلا وقت الشدة . [٤] تألى : أقسم .

خواتيمه . أشرف الموت الشهادة ، من يعرف البلاء يَصْبِرُ عليه . ومن لا يعرف
البلاء ينكره . (إعجاز القرآن ١٢٢ ، العقد الفريد ٢ : ١٥٦ ، البيان والتبيين ٢ : ٢٧)

٢٨٦ — وصية دريد بن الصمة

قال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ لِمَالِكِ بْنِ عَوْفِ النَّصْرِيِّ قَائِدِ هَوَازِنَ يَوْمِ حُنَيْنٍ^(١) :
« يا مالک ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم له ما بعده من
أيام ، مالى أسمع رُغَاءَ البعير ، وتَهَيِّقَ الحمير ، وبكاء الصغير ؛ ويُعَارِ^(٢) الشاء . قال :
سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال ولم ؟ قال : أردت أن أجعل خلف
كل رجل أهله وماله ، ليقاتل عنهم ، فَأَنْقَضَ بِهِ^(٣) ، ثم قال راعى^(٤) ضأنٍ والله ،
وهل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك ، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ،
وإن كانت عليك ، فُضِحَتْ في أهلك ومالك ، ويحك ، إنك لم تصنع بتقديم
الْبَيْضَةِ^(٥) بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم ، وعلّياهم
قومهم ، ثم ألق الصبأ^(٦) على متون الخيل ، فإن كانت لك ، لحق بك من وراءك ،
وإن كانت عليك ، كنت قد أحرزت أهلك ومالك . قال لا والله ما أفعل ، إنك قد
كبرت وَذَهَلَ عقلك . قال دريد هذا يوم لم أشهده ، ولم يَفْتُنِي ، ثم أنشأ يقول :

[١] غزوة حنين كانت بين المسلمين وبين هوازن وثقيف سنة ثمان بعد الفتح انهزم فيها المسلمون أو لا
ثم لموا شعهم وشدوا على عدوهم فهزمهم . [٢] اليعار : صوت الغنم أو المعزى أو الشديد
من أصوات الشاء . [٣] يقال أنقض أصابعه : ضرب بها لتصوت ، وأنقض بالدابة : الصق لسانه
بالحنك ثم صوت في حانتيه : [٤] يضرب به المثل في الحق فيقال : « أحقق من راعي ضأن » .
[٥] بيضة القوم : جماعتهم وأصلهم ، وفي الحديث : « ولا تملط عليهم عدواً من عدوهم فيستبيح بيضتهم »
يريد جماعتهم وأصلهم . [٦] أى ذوى الصبا : أى الشبان .

ياليتنى فيها جَدَعٌ أَخْبٌ فِيهَا وَأَضَعٌ^(١)
أقود وطفاء الزَّمَعِ كأنها شاة صدَعٌ^(٢)

(سيرة ابن هشام ٢ : ٢٨٩ ، العقد الفريد ١ : ٤١)

٢٨٧ - وصية عمير بن حبيب الصحابي لبنيه

. أوصى عمير بن حبيب بنيه فقال :

« يا بني إياكم ومخالطة السفهاء ، فإن مجالستهم داء ، وإن من يحلم عن
السفيه يسر بحامه ، ومن يُجِبِّه يندم ، ومن لا يقرّ بقليل ما يأتي به السفيه ، يقر
بالكثير ، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف ، أو ينهى عن المنكر ، فليوطن قبل
ذلك على الأذى ، وليوقن بالثواب من الله عز وجل ، إنه من يوقن بالثواب من
الله عز وجل لا يجد مسّ الأذى » . (الأمل ٢ : ٦٠)

٢٨٨ - وصية قيس بن عاصم المنقري لبنيه

أوصى قيس بن عاصم المنقري بنيه فقال :

« يا بني ، خذوا عني ، فلا أحد أصلح لكم مني ، إذا دفتمونني فانصرفوا إلى
رحالكم ، فسودّوا أكبركم ، فإن القوم إذا سودّوا أكبرهم خلّفوا أباهم ، وإذا
سودّوا أصغرهم ، أزرى ذلك بهم في أكفأهم ، وإياكم ومعصية الله ، وقطيعة
الرحم ، وتمسكوا بطاعة أمرائكم ، فإنهم من رفعوا ارتفع ، ومن وضعوا اتّضع ،
وعليكم بهذا المال فأصلجوه ، فإنه منبهة للكريم ، وجنة لعرض اللئيم ، وإياكم

[١] الجب : ضرب من العدو ، ووضعت الناقة وأرضعت : أسرعت في سيرها .

[٢] الوطف : كثرة شعر الحاجبين والعينين ، والزمع جمع زمعة ، وهي هنة زائدة وراء الطلف أو

الشمرات المدلاة في مؤخر رجل الشاة ، والصدع : من الأوطال والإبل الفتى الشاب أقوى .

والمسألة ، فإنها أُخِرَ^(١) كَسَبَ الرجل ، وإن أحداً لم يسأل إلا ترك الكسب ، وإياكم والنياحة ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عنها ، وادفونى فى ثيابى التى كنت أصلى فيها وأصوم ، ولا يعلم بكر بن وائل بمدفنى ، فقد كانت بينى وبينهم مشاحنات فى الجاهلية والإسلام ، وأخاف أن يُدْخِلُوا عليكم بى عاراً ، وخذوا عنى ثلاث خصال : إياكم وكلَّ عِرْقٍ لثيم أن تلبسوه ، فإنه إن يسُرُّكم اليوم ، يسُوِّكم غداً ، واكظّموا الغيظ ، واحذروا بنى أعداء آبائكم ، فإنهم على منهاج آبائهم ، ثم قال :

أحيا الضغائنَ آباءٍ لنا سلفوا فلن تبيدَ وللآباءِ أبناءُ

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٥٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١١)

٢٨٩ - وصية العباس بن عبد المطلب (المتوفى سنة ٣٢ هـ)

لابنه عبد الله

قال عبد الله بن عباس : قال لى أبى :

يا بُنَيَّ ، إني أرى أمير المؤمنين قد اختصك دون من ترى من المهاجرين والأنصار ، فاحفظ عنى ثلاثاً : لا يُجْرَبَنَّ عليك كذباً ، ولا تَقْتَبْ عنده مُسَلِّماً ، ولا تُفْشِيَنَّ له سِرّاً . قال فقلت يا أبه . كلَّ واحدة منها خير من ألف ، فقال : كلَّ واحدة منها خير من عشرة آلاف . (تهذيب الكامل ١ : ١٥)

٢٩٠ - خطبة أكرم بن صيفى يدعو قومه إلى الاسلام

لما ظهر النبي عليه الصلاة والسلام بمكة ، ودعا الناس إلى الإسلام بعث أكرم بن صيفى ابنه حُبَيْشاً ، فأتاه بخبره ، فجمع بنى تميم وقام فيهم خطيباً فقال :

[١] أخر بقصر الهذرة لاغير : أى أدنى وأردل ، ومن رواه بالمدّ أخطأ .

« يا بني تميم : لَا تُحْضِرُونِي سَفِيهَا ، فَإِنَّهُ مَنْ يَسْمَعُ يَحَلَّ (١) ، إِنْ السَّفِيهِ
يُوهِنُ مَنْ فَوْقَهُ ، وَيَتَبَّبُ مَنْ دُونَهُ (٢) . لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ . كَبُرَتْ سِنِّي
وَدَخَلْتَنِي ذِلَّةً ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنِّي حَسَنًا فَاقْبَلُوهُ ، وَإِنْ رَأَيْتُمْ مِنِّي غَيْرَ ذَلِكَ فَقَوِّمُونِي
أَسْتَقِيمَ . إِنْ أَبِي شَافَهُ هَذَا الرَّجُلَ مَشَافَهَةً ، وَأَتَانِي بِخَبْرِهِ ، وَكُتَابَهُ بِأَمْرِ فِيهِ
بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيَأْخُذُ فِيهِ بِحَسَنِ الْأَخْلَاقِ ، وَيَدْعُو إِلَى
تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَخَلَعَ الْأَوْثَانَ ، وَتَرَكَ الْحَلْفَ بِالنَّيْرَانِ ، وَقَدْ عَرَفَ ذُوو الرَأْيِ
مِنْكُمْ أَنَّ الْفَضْلَ فِيمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ، وَأَنَّ الرَأْيَ تَرْكُ مَا يَنْهَى عَنْهُ ، إِنْ أَحَقَّ النَّاسُ
بِعَمَلَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمُسَاعَدَتِهِ عَلَى أَمْرِهِ أَنْتُمْ ، فَإِنْ يَكُنْ الَّذِي
يَدْعُو إِلَيْهِ حَقًّا ، فَهُوَ لَكُمْ (٣) دُونَ النَّاسِ ، وَإِنْ يَكُنْ بَاطِلًا كُتِمَ أَحَقُّ النَّاسِ
بِالْكَفِّ عَنْهُ وَبِالْإِسْتِرْعَاءِ عَلَيْهِ ، وَقَدْ كَانَ أُسْقُفُ نَجْرَانَ يُحَدِّثُ بِصِفَتِهِ ، وَكَانَ سُفْيَانَ
ابْنَ مُجَاشِعٍ يُحَدِّثُ بِهِ قَبْلَهُ ، وَسَمَّى ابْنَهُ مُحَمَّدًا ، فَكَوْنُوا فِي أَمْرِهِ أَوْلَا ، وَلَا تَكُونُوا
آخِرًا ، ائْتُوا طَائِعِينَ قَبْلَ أَنْ تَأْتُوا كَارِهِينَ ، إِنْ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَوْلَمْ يَكُنْ دِينًا كَانَ فِي أَخْلَاقِ النَّاسِ حَسَنًا ، أَطِيعُونِي وَاتَّبِعُوا
أَمْرِي ، أَسْأَلُ لَكُمْ أَشْيَاءَ لَا تُنْزَعُ مِنْكُمْ أَبَدًا ، وَأَصْبَحْتُمْ أَعَزَّ حَيٍّ فِي الْعَرَبِ ،

[١] خال : ظن ، ومصارعه إخال بالكسر وهو الأفصح ، وبنو أسد يقولون أحل بالفتح وهو القياس ،
وقوله « من يسمع يحل » مثل ، معناه من يسمع أخبار الناس ومعاييرهم يقع في نفسه عليهم المذكور .
[٢] في مجمع الأمثال « ويثبت من دونه » من أثبتته أي أنخذه بالجراح ، والمعنى يصعب ويوهن ،
ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ »
ليثبتوك أي ليجرحوك جراحة لا تقوم معها أو ليجسوك ، و« سرح العيون » و« يتبب من دونه »
من تببه بالتشديد أي أهلكه ، ومنه قوله تعالى : « وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَدَبُّبٍ » .

[٣] يريد للعرب .

وأكثرهم عدداً، وأوسعهم داراً ، فإنى أرى أمراً لا يجتنبه عزيزٌ إلا ذلك ، ولا يلزمه ذليل إلا عزٌ ، إن الأول لم يدع للآخر شيئاً ، وهذا أمرٌ له ما بعده ، من سبق إليه غمر المعالي ^(١) ، واقتدى به التالى ، والعزيمة حزم ، والاختلاف عجز .
 فقال مالك ^(٢) بن نُوَيْرَةَ : قد خَرَفَ شيخكم ، فلا تتعرضوا للبلاء ، فقال أكرم : ويل للشجى من الخلى ، وَالْهَنَفِ عَلَى أَمْرٍ لَمْ أَشْهَدْهُ وَلَمْ يَسْعَنِ ^(٣) .
 ثم رحل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فمات فى الطريق ، وبعث بإسلامه مع من أسلم ممن كان معه ^(٤) . (مجمع الأمثال ٢ : ٢١٨ ، شرح الميوس ص ١٤)

٢٩١ - وصية أبى طالب لوجوه قريش عند موته

لما حضرت أبى طالب ^(٥) الوفاة ، جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال :
 « يا معشر قريش : أنتم صفوة الله من خلقه ، وَقَلْبُ الْعَرَبِ ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدم الشجاع ، الواسع الباع ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا أحرزتموه ، ولا شرفاً إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به إليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب ، وعلى حربكم ألب ^(٦) ، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البديعة - يعنى الكعبة - فإن فيها مرصاة للرب ، وقواماً

[١] من عمره الماء : أى غطاه . [٢] وقد أسلم ثم ارتد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فى بعض بى تميم ، وسار إليه خالد بن الوليد فقتله ، وقصته فى التاريخ مشهورة .

[٣] وفى شرح الميوس : ولم يسبقنى [٤] وذكر عن ابن عباس أن قوله تعالى : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ

بَيْتِهِ مَهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ ، عَلَى اللَّهِ » نزل فى أكرم ومن تبعه من أصحابه . [٥] توفى فى السنة العاشرة من النبوة وهو ابن بضع وثمانين سنة ، وإسلامه

مختلف فيه « اقرأ فصلاً طويلاً فى ذلك فى شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٣١١ » .

[٦] أى ذوو ألب ، والألب : التديير على العدو من حيث لا يعلم .

للمعاش ، وثباتاً لِلوَطْأَةِ ، صَلُّوا أرحامكم فَإِنِ فِي صَلَاةِ الرَّحِمِ مَنَسَأَةٌ ^(١) فِي الْأَجَلِ ،
وزيادة فِي العدد ، اتركوا البَغْيَ والعقوق ، ففيهما هلكت القرون قبلكم ، أجبوا
الداعي ، وأعطوا السائل ، فَإِنِ فِيهِمَا شَرَفَ الحِياةِ والممات ، وعلِّمكم بصدق
الحديث ، وأداء الأمانة ، فَإِنِ فِيهِمَا مَحَبَّةٌ فِي الخِصِّ ، وَمَكْرُمَةٌ فِي العامِّ .

وإني أوصيكم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين في قريش ، وَالصَّدِّيقُ فِي العرب ،
وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ، وقد جاءنا بأمرٍ قَبْلَهُ الْجَنَانُ ^(٢) ، وأنكره
اللسان ، مخافة الشَّنَانِ ^(٣) ، وَأَيُّمُ اللَّهِ كَأَنِّي أَنْظِرُ إِلَى صَعَالِيكَ العرب وأهل
الأطراف وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ النَّاسِ قد أجابوا دعوته ، وَصَدَّقُوا كَلِمَتَهُ ، وَعَظَّمُوا
أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ، وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنانا ،
وُدُّورِهَا خِرَابًا ، وَضَعْفَاؤُهَا أَرْبَابًا ^(٤) ، وَإِذَا أَعْظَمَهُمْ عَلَيْهِ أَحْوَجُهُمْ إِلَيْهِ ، وَأَبْعَدَهُمْ
مِنَهُ أَحْظَاهُمْ عِنْدَهُ ، قد مَحَضَّتَهُ ^(٥) العرب وداها وأصفت له بلادها ، وأعطته
قِيَادَهَا ، يامعشر قريش : كونوا له وُلاةً ، وَلِحِزْبِهِ حُمَاةً ، وَاللَّهُ لَا يَسْلُكُ أَحَدَ سَبِيلَهُ
إِلَّا رَشِدًا ، وَلَا يَأْخُذُ بِهِدْيِهِ أَحَدًا إِلَّا سَعِدَ ، وَلَوْ كَانَ لِنَفْسِي مَدَّةٌ ، وَفِي أَجَلِي
تَأخِيرٌ ، لَكَفَفْتُ عَنْهُ الْهَزَاهِرَ ^(٦) ، وَلِدَافَعْتُ عَنْهُ الدَّوَاهِيَّ .

(بلوغ الأرب ١ : ٣٢٧)

٢٩٢ - خطبة مالك بن نمط

بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم

وقدم وفد همدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيهم مالك بن نمط

أبو ثور فقام بين يديه ثم قال :

[١] أى فسحة وامتداداً من نساء أى آخره . [٢] القلب . [٣] البغض والكرهية .
[٤] سادة . [٥] محضه الود ، وأعضه : أخلصه . [٦] الهزاهز والهزهزة : تحريك البلايا
والهروب الناس .

« يا رسول الله ، نَصِيَّةٌ ^(١) من هَمْدَانَ ، من كل حَاضِرٍ وَبَادٍ ، أَتَوَكَّ عَلَى قُلُوصِ نَوَاجٍ ^(٢) ، متصلةٌ بحبال الاسلام ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، من مِخْلَافٍ ^(٣) خَارِفٍ ^(٤) ، وَيَامٍ ، وشَاكِرٍ ، أهل السَّوَادِ والقُرَى ، أجابوا دعوة الرسول ، وفارقوا آلِهَةَ الْأَنْصَابِ ^(٥) ، عهدهم لا يُنْقَضُ ، ما أقام لَعْلَعٌ ^(٦) ، وما جرى الْيَعْفُورُ بِصُلْعٍ ^(٧) . » (صح الأعتى ٢ : ٢٤٤)

٢٩٣ - سفانة بنت حاتم

بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

حَدَّثَ الْإِمَامُ عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ قَالَ : لَمَّا أَتَيْنَا بِسَبَايَا طَيْئٍ ، كَانَتْ فِي النِّسَاءِ جَارِيَةً جَمِيلَةً - وَهِيَ سَفَّانَةُ بِنْتُ حَاتِمٍ ^(٨) - فَلَمَّا رَأَيْتَهَا أُعْجِبْتُ بِهَا ، فَقُلْتُ لِأَطْلُبَنَّهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَجْعَلَهَا مِنِّي ، فَلَمَّا تَكَلَّمْتُ أُنْسِيْتُ جَاهِلَهَا ، لَمَّا سَمِعْتُ مِنْ فَصَاحَتِهَا ، فَقَالَتْ :

« يَا مُحَمَّدَ : هَلَكَ الْوَالِدُ ، وَغَابَ الْوَالِدُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُخَلِّيَ عَنِّي ، فَلَا تُشْمِتْ بِي أَحْيَاءَ الْعَرَبِ ، فَإِنِّي بِنْتُ سَيِّدِ قَوْمِي ^(٩) . كَانَ أَبِي يَفُكُّ الْعَانِي ^(١٠) ، وَيُخَمِّي الدَّمَارَ ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ ، وَيُشْبِعُ الْجَائِعَ ، وَيُفَرِّجُ عَنِ الْمَكْرُوبِ ، وَيَطْعَمُ الطَّعَامَ ، وَيُفْشِي السَّلَامَ ، وَلَمْ يَرُدِّ طَالِبَ حَاجَةٍ قَطُّ ، أَنَا بِنْتُ حَاتِمِ طَيْئٍ »

[١] النصية من القوم : الحيار ، وهمدان : من عرب اليمن . [٢] القلوص : جمع قلووس ، وهي من الإبل الشابة أو الباقية على السير ، والنواجي : جمع ناحية ، وهي المسرعة في السير . [٣] المِخْلَاف : الكورة . [٤] خارف : لقب مالك بن عبد الله أبي قبيلة من همدان ، ويام ، وشاكر ، قبيندان من همدان باليمن . [٥] الأنصاب : جمع نصب بضمين ، وهو حجر نصب وعبد من دون الله ، وقيل النصب جمع واحدا نصاب ، قيل هي الأصنام وقيل غيرها . [٦] اسم جبل . [٧] اليعفور : ولد البقرة الوحشية ، والصلع : الموضع لاينبت شيئا . [٨] سفانة في الأصل : اللؤلؤة . [٩] جواب الشرط محذوف وهذا تعليل له أي فافعل فإني ... [١٠] العاني : الأسير .

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترجمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أبها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق » . (الأغانى ١٦ : ٩٣)

٢٩٤ - خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء

. روى أن أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في عام جدب ، فقال : أتيناك يا رسول الله ، ولم يبق لنا صبي يرتضِع ، ولا شاربٌ (١) تجترهُ ، ثم أنشده :
 أتيناك والعدراء يدعى لباثها (٢) وقد شغلت أم الرضيع عن الطفل
 وألقى بكفيه الفتى لاستكائه من الجوع حتى ما يمير ولا يُحلي (٣)
 ولا شيء مما يأكل الناس عندنا سوى الحنظل العامي والعلمهز الفسل (٤)
 وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرارُ الناس إلا إلى الرُّسل ؟

فقام النبي ﷺ يجرُّ رداءه حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال :
 « اللهم أسقنا غيثاً مُغيثاً ، مريئاً هنيئاً مريعاً (٥) ، سحاً سجالاً (٦) ، غدقاً (٧) طبقاً (٨) ، ديماً درراً (٩) ، تُحبي به الأرض ، وتُنبتُ به الزرع ، وتُدِرُّ به الضرع ،

[١] الشارف من النوق : المسة الهرمة كالشارفة . [٢] أى يدمى صدرها لامتئابها نفسها في الخدمة حيث لا تجد ما تعطيه من يخدمها من الجذب وشدة الرمان . [٣] أى ما يفر وما ينفع ، أو ما يأتي بكلمة ولا فعلة مرة ولا حلوة . [٤] العامي : الذى أتى عليه عام ، قال الشاعر : « من أن شباك ظل طامى » والعلهر : طعام من الدم والوركان يتخذ في الجاعة ، والمسلى : الردى . الردل من كل شيء .
 [٥] الريح الخصب ، أى تخصب به الأرض التى يربو عليها . [٦] أى متداولاً بين البلاد ، ينال كل منها نصيبه منه ، والسجل بالفتح : النصيب والدلو المملوءة العظيمة ، ويقال الحرب سجال : أى نصرتها بين القوم متداولة سجل منها على هؤلاء وآخر على هؤلاء . [٧] الغدق : الماء الكثير .
 [٨] أى مائتاً للأرض مغطياً لها ، يقال غيث طبق : أى عام واسع يطبق الأرض .
 [٩] هو جمع درة بالكسر يقال للسحاب درة : أى صب واندفاق ، وقيل الدرر : الدار ، كقوله تعالى : « دِيناً قِيماً » أى قائماً .

واجعله سُقْيَا نَافِعَةً ، عاجلاً غيرَ رَائِتٍ (١) ،

فوالله ما ردَّ رسول الله صلى الله عليه وآله يده إلى نَحْرِهِ ، حتى أَلْقَت السماء
أَرْوَاقَهَا (٢) ، وجاء الناس يَضِجُونَ : الغرقَ الغرقَ يا رسول الله ، فقال : اللهم
حَوِّالَيْنَا ولا عَلَيْنَا ! فانجَاب (٣) السحاب عن المدينة ، حتى استدار حولها
كألاِ كليل ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه (٤) .
(شرح ابن أبي الحديد م ٣ ص ٣١٦)

٢٩٥ - أبو زيد الطائي يصف الأسد

قال عثمان بن عفان رضى الله عنه يوماً لأبي زبيد : حَرَمَلَةٌ بن المنذر الطائي
- وكان نصرانياً - يا أختا تبع المسيح ، أسمعنا بعض قولك ، فقد أنبئت أنك تجيد ،
فأنشده قصيدة له في وصف الأسد ، فقال عثمان : تالله تفتاً تذكر الأسد
ما حييت ! والله إنى لأحسبك جباناً هراًباً ، قال : كلاً ، يا أمير المؤمنين ، ولكنى
رأيت منه منظراً ، وشهدتُ منه مشهداً ، لا يبرحُ ذكرُهُ يتجدد ويترددُ في
قلبي ، ومعدور أنا يا أمير المؤمنين غيرُ ملوم ، فقال له عثمان : وأنى كان ذلك ؟ قال :
« خرجت في صِيَابَةٍ (٥) أشرافٍ من أبناء قبائل العرب ، ذوى هيئة
وشارة (٦) حسنة ، ترمى بنا المهارى (٧) بأكسائها (٨) ، ونحن نريد الحارث
ابن أبي شمر النَسَّانى ملك الشام ، فاخرَوط (٩) بنا السير في حَمَارَةٍ القَيْظِ ، حتى

[١] أى غير بطيء . [٢] أَلْقَت السحابة أدواقها أى مطرها ووبلها .

[٣] انكشف . [٤] النواجذ : أقصى الأضراس .

[٥] الصيابة بالتشديد وتخفف : الخالص والصميم والحيار من الشيء . . . [٦] الشارة : الهيئة واللباس
والزينة ، والجمال . [٧] مهرة بن حيدان (بفتح الميم والماء) : حتى تنسب إليه الإبل المهرية ،
وجمها مهارى (بفتح الميم والراء) ومهار (منقوصاً) ومهارى . [٨] الأكساء : جمع كساء
(كقفل وعنق) وكساء كل شيء : مؤخره . [٩] اخروط بهم الطريق : طال وامتد .

إذا عُصِبَتِ الأفواه ، وَذُبُلَتِ الشِّفَاهُ ، وشالت^(١) المياه ، وأذكتِ الجوزاءِ المعزاءِ^(٢) ، وذاب الصَّيْهَبُ^(٣) ، وَصَرَ الْجُنْدُبُ^(٤) ، وأضاف المصْفُور الضَّبَّ في وَكْرِهِ ، وجاوره في جُحْرِهِ ، قال قائل : أيها الركب ، غُورُوا^(٥) بنا في دَوْحِ هذا الوادى ، وإذا وادٍ قد بدلنا كثير الدَّغْلِ^(٦) ، دائم الغلَلِ^(٧) ، أشجاره مُغْنَةٌ^(٨) ، وأطيَّره مُرْنَةٌ^(٩) ، فَخَطَطْنَا رِحَالَنَا بِأَصُولِ دَوْحَاتِ كَنْهَبِلَاتِ^(١٠) ، فَأَصْبَنَّا مِنْ فِضَالَتِ الْمَزَاوِدِ ، وَأَتْبَعْنَاهَا الْمَاءَ الْبَارِدَ ، فَإِنَّا لَنَصِيفُ حَرَّ يَوْمِنَا وَمَمَاطِلَتِهِ ، إِذْ صَرَ أَقْصَى الْخَيْلِ أَذْنِيهِ^(١١) ، وَخَفَصَ الْأَرْضَ بِيَدَيْهِ ، فوالله ما لبث أن جال ، ثُمَّ تَحَمَّجَمَ^(١٢) فبال ، ثم فعل فعله الفرسُ الذى يليه واحدا فواحدا ، فتضعضت الخيل ، وتكتمكمت^(١٣) الإبل ، وتقهقرت البغال ، فَمِنْ نَافِرٍ بِشِكَالِهِ^(١٤) ، وناهض بعقاله ، فعلمنا أنأقد أتينا ، وأنه السبع لاشك فيه ، ففرع كل واحدنا إلى سيفه ، فاستله من جُرْبَانِهِ^(١٥) ، ثم وقفنا رَزْدَقًا أَرْسَالًا^(١٦) ، وأقبل أبو الحارث من

[١] قلت . [٢] أذكت : أشعلت ، والمعزاء من المعز بالتحريك : وهو الصلابة ، مكان أمعر وأرض معزاء ، كناية عن اشتداد الحر . [٣] الصيهب : الصخرة الصلبة والموقع الشديد وكل موضع تحمى عليه الشمس حتى يشوى اللحم عليه . [٤] نوع من الجراد ، وصر : صوت . [٥] الغور والغور : الدخول في الشيء ، والدوح : جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة . [٦] الدغل : الشجر الكثير الملتف ، واشتراك البت وكثرته . [٧] الغلل والعليل والغلة : العطش أو شدته أى دائم العطش إلى الماء . [٨] أغن الذباب صوت ، ويقال : واد مغن وهو الذى صار فيه صوت الذباب ، ولا يكون الذباب إلا فى واد محصب معشب ، والعمة (بالصم) صوت فى الحيشوم ، والأغن : الذى تتكلم من قبل خياشيمه عن يعن بالفتح فهو أغن ، ومنه قالوا واد أغن أى كثير العشب لأنه إذا كان كذلك أله الذباب وفى أصواتها غنة ، وروسة عناء كذلك ، أو تمر فيها الرياح غير صافية الصوت لكثافة عشبها . [٩] رنت وأرنت : صاحت . [١٠] الكنهل : شجر عظام ، والمزاد : جمع مرود كنبر ، وهو وطاء الزباد . [١١] صر الحمار بأذنه وصرها وأصر بها : سواها ونصبها للاستماع . [١٢] الخجمة ولتحمم : صياح الفرس حين يقصر فى الصهيل ويستعين بنفسه ، وصوته إذا طلب العلف . [١٣] خافت وفرعت ، كتمكته فتكتمكع : جيبته وخوته . [١٤] الشكال : الحبل الذى تشد به قوائم الدابة . [١٥] الجربان : نغمد السيف . [١٦] الرزدق : الصف من الناس ، والأرسال : جمع رسل كسبب وهو التقطيع من كل شيء .

أَجْتَه ، يتظالم ^(١) في مَشِيَّتِه ، كأنه مَجْنُوبٌ أَوْ فِي هِجَارٍ ^(٢) ، لِيَصْدُرَهُ نَحِيْطٌ ^(٣) وِلِبْلَاعِهِ غَطِيْطٌ ^(٤) ، وَلِيَطْرَفُهْ وَمِيْضٌ ، وَلَأَرْسَاغِهِ تَقِيْضٌ ^(٥) ، كَأَنَّمَا يَخْبِيهِ هَشِيْمًا ، أَوْ يَطَأُ صَرِيْمًا ^(٦) ، وَإِذَا هَامَةً كَالْمَجْنُنِ ^(٧) ، وَخَدُّهُ كَالْمِسْنِ ، وَعَيْنَا سَجْرَاوَانِ ^(٨) كَأَنَّهُمَا سِرَاجَانِ يَتَّقِدَانِ ، وَقَصْرَةٌ رَبِيْلَةٌ ^(٩) ، وَلِهْزِمَةٌ رَهْلَةٌ ^(١٠) وَكَتْدَةٌ مُغْبِطٌ ^(١١) ، وَزَوْرٌ مُفْرَطٌ ^(١٢) وَسَاعِدٌ مُجْدُولٌ ، وَعَعْضُدٌ مُفْتُولٌ ، وَكَفٌّ شَثْنَةٌ الْبَرَائِنِ ^(١٣) إِلَى مَخَابِبِ كَالْمَحَاجِنِ ^(١٤) ، فَضْرِبَ بِيَدِيهِ فَأَرْهَجَ ^(١٥) وَكَشَرَ ^(١٦) فَأَفْرَجَ عَنِ أَنْيَابِ كَالْمَعَاوِلِ ، مَصْقُولَةٌ ، غَيْرُ مَفْلُولَةٌ ، وَفَمٌّ أَشْدَقُ ^(١٧) كَالْفَارِ الْأَخْوَقِ ^(١٨) ، ثُمَّ تَمَطَّى فَاسْرَعَ بِيَدِيهِ ، وَحَفَزَ ^(١٩) وَرَكِيهَ بِرَجْلِيهِ ، حَتَّى صَارَ ظِلُّهُ مِثْلِيهِ ، ثُمَّ أَقْبَى ^(٢٠) فَاقْشَعَرَ ، ثُمَّ مَثَلَ فَاقْفَهَرَ ^(٢١) ، ثُمَّ تَجَهَّمَ فَازْبَارَهُ ^(٢٢) فَلَا وَذُو ^(٢٣) يَبْتُهُ فِي السَّمَاءِ ، مَا اتَّقَيْنَاهُ إِلَّا بِأَخٍ لَنَا مِنْ فَرَازَةَ ، كَانَ ضَنْخِ

- [١] من ظلم كنع إذا غمز في مشيه . [٢] جنبه : قاده إلى جنبه ، فهو حنيت ومجنوب ومجنب والمهجار : حمل يشد في رسغ رجل البعير ثم يشد إلى حقوه ، وإن كان مرحولا شد إلى الحقب .
- [٣] المحيط : الزبير ، والناحط : من يعمل شديداً . [٤] غط البعير غطيظا هدر ، والنائم صوت وكدا المدبوح والمخنوق . [٥] تقيض الأصابع والأضلاع والمفاصل : أصواتها .
- [٦] ثمر صريم : أي مقطوع . [٧] المجن : الرس . [٨] عين سجرأ : خالطت بياض حمرة . [٩] القصرة : أصل العنق ، والربالة بالفتح : كثرة اللحم وهي رللة ومتربلة .
- [١٠] اللهرمتان نبتان تحت الأذنين ، والجمع لهازم ، ورهل لجه : كفروح اصمغ وورم من غير داء
- [١١] الكتد : مجتمع الكتفبين ، أو السكاهل ، أو ما بين السكاهل إلى الظهر ، وأعبط النبات غطى الأرض ، وكشف وتداني ، وأرس مبطنة بفتح الباء ، أي وكاهل معطى بالشعر .
- [١٢] من أفرطه إذا ملأه حتى أسال الماء فهو مفرط . [١٣] شثنة : أي غليظة خشنة ، شثنة كفه : كفروح وكرم ، والدرائن : جمع برثن كبرقع وهو مخلب الأسد . [١٤] المحاجن : جمع محجن كذا ومكنسة : العصا المعوجة ، وكل معطوف معوج . [١٥] أرهج : أثار الفار ، والرهج (كشمس وسبب) الفبار . [١٦] كشر عن أسنانه : أبدى . [١٧] من الشدق (كسب) وهو سـ الشدق . [١٨] من الحوق (كسب أيضا) وهو السعة ومنه مفازة خوقاء . [١٩] حفزه دفعه . [٢٠] أقبى : جلس على استه مفترشا رجله ناصبا يديه . [٢١] فام منتصبا والمكفهر من الوجوه : الضارب لونه إلى الزبرة مع غلط ، والمتعبس . [٢٢] تجهمه ووجهه (كذ) وسمع) استقبله بوجهه كربه ، وازبار : تنفث . [٢٣] ذو : بمعنى الذي في لغة طيء :
- « لحيي من ذو عندهم ما كفاينا » .

الجزارة (١) ، فَوَقَصَهُ (٢) ، ثم نَقَضَهُ نَقْضَةً ، ففَضَّقَضَ (٣) مَتْنِيَهُ ، فجعل يَلْغُ في دمه ، فَذَمَّرَتْ (٤) أَصْحَابِي ، فَبَعْدَ لَأْمِي (٥) مَا اسْتَقْدَمُوا ، فَهَجَّجْنَا (٦) بِهِ ، فَكَّرَ مَقْشَعِرَ الزُّبْرَةِ (٧) ، كَأَن بِهِ شَيْهَمًا (٨) حَوْلِيًّا ، فَاخْتَلَجَ (٩) رَجُلًا أَعْجَرَ ذَا حَوَايَا ، فَنَقَضَهُ نَقْضَةً تَزَايَلَتْ مِنْهَا مَفَاصِلُهُ ، ثُمَّ هَمَّهِمْ فَفَقَّرَ قَر (١٠) ، ثُمَّ زَفَرَ فَبَرَّبَرَ (١١) ، ثُمَّ زَارَ بَجْرَ جَر (١٢) ، ثُمَّ لَحِظَ ، فَوَاللَّهِ لَخَلَّتْ الرِّقُّ يَتَطَايِرُ مِنْ تَحْتِ جَفْوَنِهِ ، عَنْ شِمَالِهِ وَيَمِينِهِ ، فَأَرُغِشَتِ الأَيْدِي ، وَأَصْطَطَكَّتِ الأَرْجُلُ ، وَأَطَّتْ (١٣) الأَضْلَاعُ ، وَارْتَجَّتِ الأَسْمَاعُ ، وَشَخَّصَتِ (١٤) العيونُ ، وَتَحَقَّقَتِ الظُّنُونُ ، وَانْحَزَلَتْ (١٥) المَتُونُ ، وَلَحِقَتْ الظُّهُورُ بِالبَطُونِ ، ثُمَّ سَاءَتِ الظُّنُونُ ، فَقَالَ لَهُ عَثْمَانُ : اسْكُتْ قَطَعَ اللهُ لِسَانَكَ ! فَقَدْ أَرَعِبْتَ قُلُوبَ المَسَامِينِ . (الأغانى ١١ : ٢٣ ، والحامس والأصداق ص ١١٢)

٢٩٦ - تتمة في الحكم (١٦)

من كلام أبي بكر الصديق رضى الله عنه :
« إن الله قرَنَ وعده بوعيده ليكون العبدُ راغبًا راهبًا . ليست مع العزَاءِ مُصِيبَةٌ . الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله . ثلاث مَنْ كُنَّ فِيهِ كُنَّ عَلَيْهِ :

[١] الجزارة : بالصم اليدان والرحلان والعنق . [٢] وقص عقه : كسرهما . [٣] من نقض البناء أى هدمه ، وقصقض : مرق . [٤] الدمس : الملامة ، والحض والنهد . [٥] اللأى : الإبطا ، والاحتباس . [٦] هجج بالأسد : صاح . [٧] البربة (كمرصة) هى الشعر التى بين كتفى الأسد . [٨] الشيهم : ما عظم شوكة من ذكران اقتفاد ، والحولى : ما أتى عليه حول . [٩] اختلج : جذب وانزع ، والأعجر : السمين ، عجر : كعرج غلظ وسمن وصخم بطنه ، والحوايا : جمع حاوية ، وهى ما تحرى من الأمعاء أى استدار ، والمعنى أنه عظيم البطن . [١٠] الهمهمة : تردد الرئير فى الصدر ، وكل صوت معه بحج ، والفرقرة : هدير البعير . [١١] البريرة : الجلبة والصلباح . [١٢] الجرجرة : صوت يردده البعير فى حنجرتة . [١٣] الأطيعط : صوت الرجل والإبل إذا أنت نعباً أو حذياً ، وصوت الإظهر ، والجرف من الجوع . [١٤] شحص بصره كنع : فتح عينيه وجعل لا يطرف ؟ [١٥] الانحزال والخنزل : مشية فى تناقل . ومتنا الظهر : مكسفا الصلب عن يمينه وشماله . [١٦] فى كتب الحديث الشريف مأثور أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وجوامع كلبه ، وفى نهج البلاغة ، وشرح ابن أبى الحديد عليه وغيرها كثير من حكم الإمام على كرم الله وجهه فأقرأها هناك .

الْبَغْيُ ، وَالنُّكْثُ ، وَالْمَكْرُ . ذَلِكُمْ قَوْمٌ أَسْنَدُوا أَمْرَهُمْ إِلَى امْرَأَةٍ ، لَا يَكُونُنَّ قَوْلُكَ لَعْنًا فِي عَفْوٍ وَلَا عَقُوبَةٍ . إِذَا فَاتَكَ خَيْرٌ فَأَدْرِكْهُ ، وَإِنْ أَدْرَكَكَ شَرٌّ فَامْسِكْهُ .
إِنْ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ عَيْونًا تَرَكَ . احْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ تُوهَبَ لَكَ الْحَيَاةُ . - قَالَ لِحَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ الرَّدَّةِ - رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً أَعَانَ أَخَاهُ بِنَفْسِهِ . أَطْوَعُ النَّاسَ لِلَّهِ أَشَدَّهُمْ بَغْضًا لِمَعْصِيَتِهِ . إِنْ اللَّهُ يَرَى مِنْ بَاطِنِكَ مَا يَرَى مِنْ ظَاهِرِكَ ، إِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِاللَّهِ أَشَدَّهُمْ تَوَلِيًّا لَهُ . لَا تَجْعَلْ سِرَّكَ مَعَ عَلَانِيَتِكَ ، فَيَمْرُجُ (١) أَمْرُكَ ، خَيْرَ الْخَاصِلَتَيْنِ لَكَ أَبْغَضُهُمَا إِلَيْكَ . صِنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ .
وَمِنْ كَلَامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

« مِنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَ الْخِيَارُ فِي يَدِهِ . أَشَقَى الْوَلَاةَ مَنْ شَقِيَّتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ . اتَّقُوا مِنْ تُبْغِضُهُ قُلُوبَكُمْ . أَعْقَلُ النَّاسِ أَعْذَرُهُمْ لِلنَّاسِ . لَا تَوَجَّلْ عَمَلُ يَوْمِكَ لَعْدِكَ . مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ كَانَ جَدِيرًا أَنْ يَقَعَ فِيهِ . مَا الْحَمْرُ صِرْفًا بِأَذْهَبَ لِلْعَقُولِ مِنَ الطَّمَعِ . قَلِمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ . مُرُّ ذَوِي الْقَرَابَاتِ أَنْ يَتَزَاوَرُوا وَلَا يَتَجَاوَرُوا . نَحْمِضُ عَنِ الدُّنْيَا عَيْنَكَ وَوَلَّ عَنْهَا قَلْبَكَ . وَإِيَّاكَ أَنْ تُهْلِكَ كَمَا أَهْلَكَتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ ، فَقَدْ رَأَيْتَ مَصَارِعَهَا ، وَعَايَنْتَ سُوءَ آثَارِهَا عَلَى أَهْلِهَا ، وَكَيْفَ عَرَى مِنْ كَسْتٍ ، وَجَاعٍ مِنْ أَطْعَمْتِ ، وَمَاتَ مِنْ أَحْيَيْتَ . احْتَفِظْ مِنَ النِّعْمَةِ احْتِفَاطَكَ مِنَ الْمَصِيبَةِ ، فَوَاللَّهِ لَهِيَ أَخَوْفُهُمَا عِنْدِي عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَدْرِجَكَ وَتَخْدَعَكَ . الدُّنْيَا أَمَلٌ مَخْتَرَمٌ وَأَجَلٌ مُنْتَقِصٌ ، وَبَلَاغٌ إِلَى دَارٍ غَيْرِهَا ، وَسِيرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَيْسَ فِيهِ تَعْرِيجٌ ، فَارْحَمِ اللَّهُ امْرَأَةً فَكَّرَ فِي أَمْرِهَا ، وَنَصَحَ لِنَفْسِهَا ، وَرَاقِبْ رَبَّهُ ، وَاسْتَقَالَ ذَنْبَهُ . إِيَّاكُمْ وَالْبَطْنَةَ فَإِنَّهَا مَكْسَلَةٌ عَنِ الصَّلَاةِ ، مَفْسَدَةٌ لِلْجَوْفِ ، مُؤَدِيَةٌ إِلَى السُّقْمِ . رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً أَهْدَى إِلَى عَيْوَبِي ، أَفْلَحَ مِنْ حَفِظَ مِنَ الطَّمَعِ وَالغَضَبِ وَالْهَوَى نَفْسَهُ . »

ومن كلام عثمان رضى الله عنه :

« مَا يَزَعُ ^(١) اللهُ بِالسُّلْطَانِ أَكْثَرَ مِمَّا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ . يَكْفِيكَ مِنَ الْحَاسِدِ

أَنَّهُ يَغْتَمُ وَقْتُ سُرُورِكَ . أَنْتُمْ إِلَى إِمَامٍ فَعَالٍ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَوَّالٍ - قَالَ يَوْمَ صَعَدَ الْمَنْبَرَ فَأُتِيَ عَلَيْهِ . »

ومن كلام ابن عباس رضى الله عنه :

« بِصَاحِبِ الْمَعْرُوفِ لَا يَقَعُ ، فَإِنْ وَقَعَ وَجَدَ مُتَّكِمًا . الْحِرْمَانُ خَيْرٌ مِنَ

الامتنان . مِلَّاكَ أَمْرِكُمُ الدِّينَ ، وَزِينَتِكُمُ الْعِلْمَ ، وَحِصُونُ أَعْرَاضِكُمُ الْأَدَبَ ، وَعِزُّكُمْ الْحِلْمَ ، وَحَلِيَّتِكُمُ الْوَفَاءَ . الْقَرَابَةُ تُقْطَعُ ، وَالْمَعْرُوفُ يُكْفَرُ ، وَلَمْ يُرَ كَالْمُودَةِ . لَا تُتَمَارِ

سَفِيهَاً وَلَا حَلِيمًا ، فَإِنَّ السَّفِيهَ يُؤْذِيكَ ، وَالْحَلِيمَ يَقْلِبُكَ ^(٢) ، وَاعْمَلْ عَمَلًا مِنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَجْزِيٌّ بِالْحَسَنَاتِ ، مَا خُوذَ بِالسَّيِّئَاتِ . »

ومن كلام ابن مسعود رضى الله عنه :

« مَا أَلْدَخَانَ عَلَى النَّارِ بِأَدَلٍّ مِنَ الصَّاحِبِ عَلَى الصَّاحِبِ ، الدُّنْيَا كُلُّهَا غَمُومٌ ،

فَمَا كَانَ مِنْهَا فِي سُرُورٍ فَهُوَ رِيحٌ . »

ومن كلام المغيرة بن شعبان :

« إِنْ الْمَعْرِفَةَ لَتَنْفَعُ عِنْدَ الْكَلْبِ الْعَقُورَ ، وَالْجَمَلَ الصَّئُولَ ^(٣) ، فَكَيْفَ

بِالرَّجْلِ الْكَرِيمِ ! » .

ومن كلام أبي الدرداء :

« السُّؤْدَدُ اصْطِنَاعُ الْعَبْشِيرَةِ ، وَاحْتِمَالُ الْجَرِيرَةِ ، وَالشَّرْفُ كَفُّ الْأَذَى ،

وَبَذْلُ النَّدَى ، وَالغِنَى قَلَّةُ التَّمَنَّى ، وَالْفَقْرُ شَرُّهُ النَّفْسُ »

[١] يكف . [٢] يفضك . [٣] صؤل الجمل : وائب الناس أو صار يقتلهم ويهدو عليهم .

ومن كلام أبي ذرٍّ :

« إن لك في مالك شريكين : الحِدَثَانُ^(١) والوارث ، فإن قَدَرْتَ ألا تكون

أخسَّ الشركاءَ حِظًا فافعل » . (مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٢٧٦ ، ونهاية الأرب ٣ : ٤)

استدراك مافات من .

العَصْرُ الجَاهِلِيّ

سقط بعض الموضوعات من العصر الجاهلي في أثناء الطبع ، ولم أتنبه لها إلا بعد البدء في طبع عصر صدر الإسلام ، فرأيت إرجاءها إلى آخر الجزء محافظة على انتظام سلسلة الترقيم ، وهامى ذى :

٢٩٧ — خطبة هاشم بن عبد مناف في قريش وخزاعة

تنافرت قريش وخزاعة^(٢) إلى هاشم بن عبد مناف ، فخطبهم بما أذعن

له الفريقان بالطلعة ، فقال في خطبته :

« أيها الناس ، نحن آل إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وبنو النَّضْرِ بنِ كِنَانَةَ^(٣)

و بنو قُصَيِّ بنِ كلاب ، وأرباب مكة ، وسُكَّانَ الحَرَمِ ، لنا ذروة الحَسَبِ ، ومعدن

المجد ، ولِكُلِّ فِي كُلِّ حِلْفٍ^(٤) يجب عليه نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا مادعا

[١] حدثان الدهر : نوبه وأحداثه . [٢] خزاعة : حى من الأزد ، سماوا بذلك لأنهم تخزعوا

عن قومهم (أى تخلفوا عنهم وانقطعوا) في إقبالهم من اليمن ، وذلك أنه لما تفرقت الأزد من اليمن في البلاد

نزل بنو مارن على ماء بين زبيد وزمع ، وأقبل بنو عمرو بن طامر فأنحروا عن قومهم فزلوا مكة .

[٣] النضر : الحد الثاني عشر للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقصى الجد الرابع . [٤] الحلف : العهد

بين القوم والصدقة ، والصديق يخاف لصاحبه أن لا يعدر به ، وقوله « لكل في كل » أى لكل في

صاحبه صديق يجب عليه نصرته .

إلى حقوق عشيرة ، وَقَطَعَ رَحِمَ ، يابني قصى : أنتم كغصنى شجرة أيهما كسِرَ
أوحشَ صاحِبَهُ ، والسيف لا يسان إلا بِعِمْدِهِ ، ورامى العشيرة يصيبه سهْمُهُ ،
وَمَنْ أَفْحَكَهُ ^(١) اللجأجُ أخرجهُ إلى البغى .

أيها الناس ، الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كثر ، والجود سُودُودٌ
والجهل سَفَهٌ ، والأيام دُولٌ ، والدهر غير ^(٢) ، والمرء منسوب إلى فعله ، وماخوذ
بعمله ، فاضطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تُجَانِبِكُمُ السفهاء ،
وأكرموا المجلس يعمرُ نادِيكم ، وحاموا الخليط يُرْغَبُ في جواركم ، وأنصفوا
من أنفسكم يُوثَقَ بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق
الدنيئة فإنها تضيع الشرف ، وتهدم المجد ، وإن تهتبه ^(٣) الجاهل أهون من
جريرته ^(٤) ، ورأس العشيرة يحمل أثقلاها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به .
فقال قريش : « رضينا بك أبا نضلة » ، وهى كنيته .

(بلوغ الأرب ١ : ٢٢٢)

٢٩٨ — منافرة عبد المطلب بن هاشم و حرب بن أمية ^(٥)

تنافر عبد المطلب بن هاشم و حرب بن أمية إلى النجاشى ملك الحبشة ، فأبى

[١] أغضبه . [٢] أى ذو غير ، وغير الدهر : أهدائه المعيرة ، جمع غيرة بالكسر ، أو مفرد
وجمه أغيار . [٣] نهبه عن الأمر : كفه وزحره . [٤] فى الأدل « حزيرته » ، وفى
كتب اللغة : « حزرة المال ، وحزيرته : خياره » ولامعى لها هنا ، وأرى أنها مصحفة عن « حزيرته » .
[٥] وسبب ذلك أن عبد المطلب كان له جار يهودى يقال له أذينة ، يتجر وله مال كثير ، فعاظ ذلك
حزب بن أمية ، وكان نديم عبد المطلب ، فأعزى به تياتاً من قريش ليقتلوه ، ويأخذوا ماله ، فقتله عامر بن
عبد مناف بن عبد الدار ، وصهر بن عمرو بن كعب التيمي ، جدّ أبى بكر رضى الله عنه ، فلم يعرف
عبد المطلب قاتله ، فلم يزل يبحث حتى عرفهما ، وإذا هما قد استجارا بحزب بن أمية ، فأتى حرباً ولامه
وطلبهما منه فأخفاهما ، فتناظرا فى القول ، حتى تنافرا الى النجاشى فلم يدخل بينهما ، فجعل بينهما نفيل بن
عبد العزى حدّ عمر بن الخطاب فنقر عبد المطلب عايه ، فترك عبد المطلب متادمة حرب ، ونادم عبد الله بن
جدعان التيمي ، وأخذ من حرب مائة ناقة ، فدمعها إلى ابن عم اليهودى ، وارتجع ماله لإشيتاً هلك ، فمرمه
من ماله .

أن ينفّر^(١) بينهما ، فجعل بينهما نُفَيْلُ بن عبد العزى بن رياح ، فقال لحرب :
 « يا أبا عمرو : أتنافر رجلا هو أطول منك قامةً ، وأعظم منك هامةً ،
 وأوسم منك وسامةً^(٢) ، وأقل منك ملامةً ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل عَفْدًا^(٣)
 وأطول منك مِدْوَدًا^(٤) ، وإني لأقول هذا وإنك لبعيدُ الغَضَبِ ، رفيعُ الصَّوْتِ
 في العرب ، جلدُ المَرِيرَةِ^(٥) ، جليل العشيرة ، ولكنك نافت مُنْفَرًا » .
 فغضب حرب وقال : إن من انتكاس^(٦) الزمان أن جعلت حكا ..

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٦ ، وتاريخ الطبرى ٢ : ١٨١)

٢٩٩ — مقال قبيصة بن نعيم لامرى القيس بن حجر

قدم على امرئ القيس بن حُجْر الكِنْدِي بعد مقتل أبيه رجال من قبائل
 بنى أسد ، وفيهم قبيصة بن نعيم يسألونه العفو عن دم أبيه^(٧) ، فخرج عليهم في
 قبَاءٍ وَخُفٍّ وعمامة سوداء - وكانت العرب لا تعتمُّ بالسواد إلا في الترات -
 فلما نظروا إليه قاموا له ، وَبَدَرِ إليه قبيصة فقال :

«إنك في المحلِّ والقَدْر ، والمعرفة بتصرف الدهر ، وما تُحْدِثُه أيامه ، وتندقل
 به أحوالُه ، بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ ، ولا تبصير من مجرب ،
 ولك من سُودِدَ مَنْصِبِكَ ، وَشَرَفَ أَعْرَاقِكَ^(٨) ، وكرم أصلِكَ في العرب ،
 مَحْتَدٍ^(٩) يحتمل ما مُجْمَلٍ عليه ، من إقالة العثرة ، ورجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز

[١] نفره عليه : قضى له عليه بالغبية . [٢] الوسامة : الحسن والجمال . [٣] الصغد : العطاء .
 [٤] اللذود : اللسان . [٥] المريرة : الحبل الشديد الفتل ، والمزيمة . [٦] أى انقلاب الزمان
 من انتكس أى وقع على رأسه ، وفى الطبرى : انتكاث بالثاء من انتكاث الحبل وهو انتقاخه .
 [٧] وكانت بنو أسد (وهم بن الضرية) خاضعة للملوك كندة ، وآخر ملك عليهم هو حجر أبو
 امرئ القيس ، وقد ثاروا عليه وتلوه لأنه كان قد عسف فى حكمه لهم ، واشتتط عليهم فى الإتاوة التى
 يؤدونها إليه . [٨] الأعراق : جمع عرق وهو أصل كل شىء . [٩] المخذ : الأصل .

الهمم إلى غايةٍ إلا رَجَعَتْ إليك ، فوجدتُ عندك من فضيلة الرأي ، و صيرة
الفهم ، وَكَرَمَ الصَّفْحِ ، ما يطول رَغْبَاتِهَا ، ويستغرق طَلِبَاتِهَا ، وقد كَانَ الذي
كَانَ من الخَطْبِ الجَلِيلِ ، الذي تَمَّتْ رزيتُهُ نِزَاراً واليمين ، ولم تُخْصَصْ بذلك
كِندةٌ دوننا ، للشرف البارِعِ كَانَ لِجُجْرٍ ، التاجُ والعمَّةُ فوق الجبين الكريمِ ،
وإخاء الحمد وطيب الشِّيمِ ، ولو كَانَ يُفْقِدُ هالكاً بالانفس الباقية بعده لما بَخَت
كَرَائِمُنَا بها على مثله ، ولكنه مَضَى به سبيلٌ لا يرجع أُخْرَاهُ على أولاه ، وَلَا
يَلْحَقُ أَقْصَاهُ أدناه .

فأحمد الحالات في ذلك أن تعرف الواجب عليك في إحدى ثلاث :
إمَّا أَنْ اخْتَرْتَ من بنى أسد أَسْرَفَهَا بيتاً ، وأَعْلَاهَا في بناء المَكْرُمَاتِ صوتاً ،
فَقُدْنَاهُ إِلَيْكَ بِنِسْمَةٍ ^(١) ، تذهب مع شَفَرَاتِ حُسَامِكَ بِبَاقِي فَصْرَتِهِ ^(٢) ،
فنقول : رجل امتَحِنَ بهالكِ عزيزٍ ، فلم يَسْتَلَّ سَخِيمَتَهُ ^(٣) إِلَّا تَمَكَّنَتْهُ من الانتقام ،
أوفداه بما يروح ^(٤) على بنى أسد من نَعَمِهَا ، ذَهَى أَلُوفٌ تَجَاوَزُ الحِسْبَةَ ، فَكَانَ ذَلِكَ
فِدَاءً رَجِمَتْ بِهِ القُضْبُ ^(٥) إِلَى أَجْفَانِهَا ، لم يرددها تسليط الإِحْنِ ^(٦) على البرَاءِ ،
وإمَّا أَنْ وَادَعْتَنَا إِلَى أَنْ تَضَعَ الحَوَامِلَ ، فَتُسَدَّلَ الأُزُرُ ، وَتُعَقَّدَ الحُمُرُ فوق الرايات .
فبكى امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

٣٠٠ - رد امرئ القيس عليه

« لقد علمت العرب أنه لا كُفَّءَ لِجُجْرٍ في دمٍ ، وأنى إن أعتاضَ به جَمَلًا وَلَا

[١] النسم : سهر عريض تُشدُّ به الرحال ، والقطعة منه نعمة . [٢] الفصرة : أصل العق .
[٣] السخيمة : الحقد . [٤] يرجع ، وأراح الإبل : ردها إلى المراح بالضم أى المأوى ، والعم :
الإبل والشاء أَرخاض بالإبل ، وهو المراد هنا . [٥] السيوف . [٦] الإحن : جمع لحنة ،
وهى الحقد .

ناقة ، فأكتسب به سبة الأبد ، وفَتَّ العَضُدِ (١) ، وأما النظرة (٢) فقد أوجبتها الأجنَّةُ في بَطُونِ أمَّهاتِها ، وإن أكون لعَطَبِها سبباً ، وستعرفون طلائع كِنْدَةَ من بعد ذلك ، تحمل في القلوب حنقاً ، وفوق الأسننة عَلَقاً (٣) :
 إذا جالت الحرب في مَازِقِ تُصَافِحُ فِيهِ المَنَايا النَفُوسَا
 أتقيمون أم تنصرفون ؟ »

قالوا : « بل ننصرف بأسوأ الاختيار ، وأبلى الاجترار ، بمكروه وأذية ، وحرب وبليّة » ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :
 لعلك أن تستوخيمَ الوِرْدَ إن غَدَتِ كَتَابُنَا فِي مَازِقِ الحَرْبِ تُطْمِرُ (٤)
 فقال امرؤ القيس : « لا والله ، ولكن أستعذبه ، فرؤيدا ، ينفرج لك دُجَاهَا
 عن فُرسَانِ كِنْدَةَ وكتائبِ حَمِيرٍ ، ولقد كان ذكرُ غيرِ هذا بي أولى ، إذ كنت
 نازلاً برَبْعِي (٥) ، ولكنك قلتَ فأوجبت » فقال قبيصة : « ما يتوقع فوق
 قدر المعاتبة والإعتاب (٦) » فقال امرؤ القيس : « هو ذاك » .

(صبح الأعشى ٢ : ٢١٦ والأغانى ٨ : ٧٢)

٣٠١ — بين مهلهل بن ربيعة ومرة بن ذهل بن شيبان
 لما قتل جَسَّاس (٧) بن مُرَّة بن ذهل الشَّيبَانِي كَلَيْب (٨) بن ربيعة التغلبيّ ،

[١] فته : كسره ، وهو كناية عن الصعف والوهن . [٢] الإمهال . [٣] أى دماً .
 [٤] تستوحه : أى تحده وخبها . [٥] الريع : المنزل .
 [٦] أعتبه : أرضاه . [٧] وسبب ذلك أن البسوس بنت بنقد التميمية خالة جساس كان لها جار من جرم يقال له سعد بن شمس ، وكانت له ثقة يقال لها سراب ، وكان كليب قد حمى أرضاً من أرض العالية ، في أنف الريع ، فلم يكن يرعاه أحد إلا لابل جساس لمصاهرة بينهما — وكانت جلييلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب — فخرجت سراب في لابل جساس ترعى في حمى كليب ، ونظر إليها كليب فأنكرها فرماها بهم فأصاب ضرعها ، فوكت حتى بركت بفناء صاحبها وضرعها ينحب دماً وليناً ، فلما نظر إليها صرخ بالذل ، فخرجت البسوس فضربت يدها على رأسها ، ونادت وادلاء وسمها جساس فسكتها ، وقال لها : ليقتلن غداً من أعظم من ناقة جارك ، ولم يزل يتوقع غرة كليب حتى أمكنته منه الفرصة فقتله ، ونشبت من أحل ذلك الحرب (حرب البسوس) بين بكر وتغلب ابني وائل أربعين سنة « وبنو شيبان بطن من بكر » .
 [٨] اسمه وائل بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل

تشمّر أخوه مُهلِل^(١)، واستعد لحرب بكر، وجمع إليه قومه، فأرسل رجالاً منهم إلى بنى شيبان، فأتوا مرة بن ذهل بن شيبان (أبا حساس) وهو في نادي قومه، فقالوا له :

« إنكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كليباً بناب^(٢) من الإبل، فقطعتم الرّحيم، وانتهكتم الحرّمة، وإنا كرهنا العجّلة عليكم دون الإعذار إليكم، ونحن نعرض عليكم خلالاً أربعا، لكم فيها نخرج، وإنا فيها مَقْنَع، فقال مرة : وما هي ؟ قالوا : تُحْيِي لَنَا كَلِيبًا، أو تدفع إلينا حساساً قاتله فنقتله به، أو هَمَامًا^(٣) فإنه كُفٌّ له، أو تمكّننا من نفسك، فإن فيك وفاة من دمه، فقال : « أمّا إحيائي كليباً، فهذا ما لا يكون، وأمّا حساس فإنه غلام طعن طعنةً على عجل، ثم ركب فرسه، فلا أدري أيّ البلاد احتوى عليه، وأمّا همام فإنه أبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة، كلهم قُرُسان قومهم، فلن يسلموه لي، فأدفعه إليكم يُقتلُ بِجَرِيرَةٍ^(٤) غيره، وأمّا أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جولةً غدًا، فأكون أول قتيل بينها؟ فما أتعجل الموت، ولكن لكم عندي خصلتان، أما إحداهما فهؤلاء بنى الباقون، فعلقوا في عنق أيّهم شتمت نسيعةً، فانطلقوا به إلى رحالكم، فاذبحوه ذبحَ الجزور، وإلا فألف ناقة سود الحدق، مُحْرُ الوَبَر، أقيم لكم بها كفيلاً من بنى وائل، فغضب القوم وقالوا : لقد أسأت، تبذل لنا ولدك، وتسومنا اللبن من دم كليب؟ ونشبت الحرب بينهم » .

(العقد الفريد ٣ : ٧٨ ، والسكامل لابن الأثير ١ : ١٩٠ ، والأطاني ٤ : ١٤١)

وإنما لقب كليباً لأنه كان إذا سار أخذ معه جروكاتب، فإذا صار بروضة أو موضع بعجه، صر به ثم ألفاه في ذلك المكان وهو يصيح ويبوي، فلا يسمع عواجه أحد إلا نجسه ولم يقربه، وكان يقال كليب وائل ثم اختصروا فقالوا كليب فعلم عليه . [١] اسمه عدى بن ربيعة، وإنما قيل له المهلهل لأنه أزل من هاهل الشعر أي أرقه . [٢] الناقة المسنة . [٣] هو همام بن مرة أخو حساس، وكان نديناً لمهلل . [٤] الجريرة : الجريمة .

٣٠٢ - ما دار من الحديث بين المنذر بن النعمان الأكبر

وبين عامر بن جوين الطائي

وقد عامر بن جوين الطائي على المنذر بن النعمان الأكبر ، جد النعمان بن المنذر ، وذلك بعد انقضاء ملك كِنْدَةَ ، ورجوع الملك إلى نَحْم ، وكان عامر قد أجاز امرأ القيس بن حُجْر ، أيام كان مقيماً بالجَبَلَيْنِ (١) ، وقال كلمته التي يقول فيها :

هَذَاكَ لَا أُعْطِي مَلِيكَ ظُلَامَةً وَلَا سُوقَةً حَتَّى يَثُوبَ ابْنُ مَنْدَلَةَ (٢)

[١] الحلان : سلمى وأجأ (بكبل) شرق المدينة ، وهما لطيم ، قال رجل من بني سلامان جاور في طيم :
ألفت مساكن الجابين إني رأيت العوث يأتمها العريب
(والعوث قبيلة من طيم) . [٢] قال صاحب اللسان : « ابن مندلة رجل من سادات العرب ، قال عمرو بن جوين فيما زعم السيرافي ، أو امرؤ القيس فيما حكى الفراء :
وآليت لا أعطى مليكا مفادتي ولا سوقة حتى يثوب ابن مندلة »
وقال الميداني في شرح المثل « لا غزو إلا العقيب » - ج ٢ : ص ١٣١ - : « يقال عقب الرجل : وهو أن يعز مرة ثم نهي من سبه ، وأول من قال ذلك حجر بن الحارث بن عمرو آكل المرار (أبو امرئ القيس) وذلك أن الحارث بن مندلة ملك السأم ، وكان من ملوك سليح من ملوك الضجاعم (سليح كبريج قبيلة باليمن ، والصداعم كانوا ملوكاً للشأم) وهو الذي ذكره مالك بن جويس الطائي في شعره فقال :
هَذَاكَ لَا أُعْطِي رَيْبَسًا مَقَادَةَ وَلَا مَلِيكَ حَتَّى يَثُوبَ ابْنُ مَنْدَلَةَ
وكان قد أعار على أرض نجد ، وهي أرض حجر بن الحارث هذا ، وذلك على عهد بهرام جور ، وكان بها أهل حجر فوجد القوم حلوقاً ، (الخلوق بالضم : الذين ذهبوا من الحمى ، ومن حضر منهم أيضاً) ووجد حجراً قد غزا أهل نجران ، فاستاق ابن مندلة مال حجر ، وأخذ امرأته هند الهنود (وهي هند بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية) ووقع بها فأعجبها ، وكان آكل المرار شجاعاً كبيراً ، وابن مندلة شاباً جليلاً ، فقالت له : النجاء النجاء ، فإن وراءك طالباً حثيثاً ، وجمعاً كثيراً ، ورأياً صليباً ، وحرماً وكيداً ، فخرج ابن مندلة منذاً إلى الشأم (أى سمرقند) فلما رجع حجر وجد ماله قد استيق ، ووجد هنداً قد أخذت ، فقال : من أعار عليكم ؟ قالوا ابن مندلة ، قال : مذكم ؟ قالوا : ثمانى ليال ، فقال حجر : لا غزو إلا العقيب ، فأرسلها مثلاً بمعنى غزوه الأول والثاني .

ثم حدث في طلب ابن مندلة ، حتى دفع إلى واد دون مبرل ابن مندلة فكمين فيه ، وبعث سدوس ابن شيدان ، فقال له : اذهب متكرراً إلى القوم حتى تعلم لنا علمهم ، فانطلق حتى انتهى إلى ابن مندلة ، ثم رجع إلى حجر فحدثه بمحدث امرأته مع ابن مندلة ، فضرب حجر بيده على المرار (والمرار كقراب : شجرة

وكان المنذر ضغنًا عليه ، فلما دخل عليه قال له : يا عامر ، لَسَاءَ مَثْوَى أَثْوَيْتَهُ رَبِّكَ وَتَوَيْكَ^(١) ، حين حاولت إصْبَاءَ طَلْتِهِ^(٢) ومخالفته إلى عشيره ، أما والله لو كنت كريمًا لأثويته مُكْرَمًا مُوَقَّرًا ، ولجانبته مُسَامًا ، فقال له : آيَتَ اللَّعْنِ^(٣) لقد عَلِمْتَ أبناءُ أَدَدَ^(٤) إني لأعزُّها جارًّا ، وأكرمُها جوارًّا ، وأمنعها دارًّا ، ولقد أقام وافرًا ، وزال شاكرًا ، فقال له المنذر : « يا عامر ، وإنك لتخالُ هُضَيْبَاتِ أَجَا ذَاتِ الْوَبَارِ^(٥) ، وَأَفْنِيَاتِ سَمَى ذَاتِ الْأَغْفَارِ^(٦) ، مَا نِعْمَاتِكَ مِنَ الْمَجْرِ^(٧) الْجَرَّارِ ، ذِي الْعُدَدِ الْكُثَارِ^(٨) ، وَالْحُصْنِ وَالْمِهَارِ^(٩) ، وَالرِّمَاحِ الْجَرَّارِ^(١٠) ، وكل ماضى الْفَرَّارِ^(١١) ، بيد كل مسعرٍ كريم النَّجَّارِ^(١٢) ؟ قال عامر : آيَتِ اللَّعْنِ ، إن بين

مرّة إذا أكل منها الإبل تقلصت مشاورها) فأكل منها من العضب ، فسقطت العرب آكل المرار ، (وقيل : آكل المرار هو أبوه الخارث) ، ثم خرج حتى أغار على ابن مندله فقتله ثم قتل هنداً وأنشأ يقول :
إن من يأمن النساء بشيء سعد هند لجاهل مفرور
كل أنثى وإن تبينت منها آية الحب ، حبها خيتهور
(والخيتيمور : كل شيء لا يدوم على حالة واحدة ، ويصحل كالسراب ، وكالذي ينزل من الهواء في شدة الحر كمنسج العسكوت) .

وذكر أبو الفرج الأصبهاني هذه القصة في الأذنى (١٥ : ٨٢) ولكنه روى أن الذي أغار على حجر هو زياد بن الهبولة قال : « ثم إن زياد بن الهبولة بن عمرو بن عوف بن ضحيم بن حماطة بن سعد ابن سليح الفصاعي أغار عليه وهو ملك في ربيعة بن نزار ، وكان قد غزا بريهة البحرين فبلغ زيادا غزاته فأقبل حتى أغار في مملكة حجر فأخذ مالا كثيرا وسبي امرأة حجر إلى آخر القصة » .

[١] ثوى المكان وبه : نزل ، وأثواه : أضاعه ، والمثوى : المنزل ، والثوى : كنى البيت المهيأ له ، والضيف وهو المراد هنا . [٢] الطلة العجوز ، وصا الرجل مال إلى الجهل والفتوة وأصبته المرأة ، والمراد حاولت رد عره السالف إليه . [٣] آيَتِ اللَّعْنِ نحية جاهلية أى آيَتِ أَنْ تَأْتَى مَا تَأْتَى بِهِ .

[٤] هو أدد بن زيد بن يشجب (يضم الجيم) بن عريب (بفتح العين) بن زيد بن كهلان بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وبنو أدد : هم مذحج وطى والأشعر .

[٥] الوبار : شجرة حامضة شائكة . [٦] الغمر بالتحريك صغار الكلاب .

[٧] الحجر : الجبش العظيم . [٨] الكثير . [٩] الحصن : جمع حصان وهو الفرس الذكر

والمهار : جمع مهر وهو ولد الفرس . [١٠] الحرار والأحرار : جمع حر وهو خيار كل شيء .

[١١] الفرار : حده الرمح والسهم والسيف . [١٢] يقال هو مسعر حرب أى موقد نارها كأنه

آلة لسعر الحرب أى إيقادها ، والنحار : الأصل .

تلك الهُضَيْبَاتِ وَالرَّعَانِ ^(١) ، والشَّعَابِ وَالْمُصَّدَانِ ^(٢) ، لَفْتِيَانًا أَبْطَالًا ، وكهولا
أزوالا ^(٣) ، يضربون القَوَانِسَ ^(٤) ، ويستنزلون الفوارس ، بالرماح المداعس ^(٥)
لم يَتَّبِعُوا الرَّعَاءَ ^(٦) ، ولم تُرَشِّحَهُمْ ^(٧) الإِمْاءَ ، فقال الملك : يا عامٍ لو قد تجاوزت
الخليل في تلك الشعاب صهيلا ، كانت الأصوات قَمَعَةً ^(٨) وصليلا ، وَفَغَرَ
المَوْتُ ^(٩) ، وأعجز الفوتُ ، فتقارشت الرِّمَاحُ ^(١٠) ، وَحَمَى السِّلَاحُ ، لَتَسَاقَى
قَوْمُكَ كَأَسَا لَا صُخُورَ بَعْدَهَا ، فقال : مهلاً أبيت اللعن ، إن شَرَابِنًا وَبَيْلًا ،
وَحَدَّنَا أَلِيلَ ^(١١) ، وَمَعَجَمَنَا صَلِيبَ ^(١٢) ، ولقاءنا مَهِيْبَ ، فقال له : يا عامٍ ، إنه
لقليلٌ بقاءُ الصَّخْرَةِ الصَّرَاءِ ^(١٣) على وقع المَلَّاطِيسِ ^(١٤) ، فقال : أبيت اللعن ،
إِنَّ صَفَاتِنَا عِبْرُ المَرَادِيسِ ^(١٥) ، فقال : لَأَوْقِظَنَّ قَوْمَكَ مِنْ سِنَةِ الغفلة ، ثم
لَأُعْقِبَنَّهُمْ بَعْدَهَا رَقْدَةً لَا يَهْبُ رَاقِدَهَا ، ولا يَسْتَيْقِظُ هَاجِدَهَا ^(١٦) ، فقال له

- [١] الرَّعَانُ : جمع رعن (كشمس) وهو أنف يتقدم الجبل ، والجبل الطويل ويجمع أيضاً على رعون .
[٢] الشَّعَابُ : بالفتح الجبل وبالكسر الطريق في الجبل ، ومسيل الماء في بطن أرض ، أو ما انفرج
بين الجبلين ، المصد (كشمس وكتف) والمصاد (كسحاب) الهضبة العالية وجهه أمصدة ومصدان .
[٣] أزوال : جمع زول ، وهو الشجاع . [٤] القوانس : جمع قوس كجمر ، والقوس
والقونوس : أعلى بيضة الحديد . [٥] المداعس جمع مدعس ، وهو الرمح الذي لا يثني .
[٦] الرعاء : بالضم والكسر ، الرعاة : جمع راع . [٧] الترشيح : الزرية .
[٨] القمعة حكاية صوت السلاح ، وتحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت .
[٩] أي وفتر الموت فاه : أي فتحه . [١٠] تقارشت الرماح تداخلت في الحرب .
[١١] حاد ، وألله تأليلاً حدده . [١٢] عجم العود كنصر إذا عضه ليعرف صلابته من خوره
والمعجم اسم مكان منه وصلب أي صلابة وهو كناية عن شدتهم ومنعتهم . [١٣] صخرة صراء : صماء .
[١٤] اللطس : كبير ، واللطاس : المعول الغليظ لكسر الحجارة .
[١٥] الصفاة : الحجر الصلب الصخيم ، ويقال ناقة عبر أسفار (بتثنية العين) أي قوية على السفر نشق
مامرت به ، تقطع الأسفار عليها ، وكذا الرجل الجريء على الأسفار الماصي فيها القوي عليها ، والمردس
والمرداس : شيء صلب عريض تدك به الأرض ، وردسها دكها به ، وردس الحجر بالحجر (كنصر وضرب)
كسره ، ومعنى العبارة إن صفاتنا تحمل ذلك المراديس فلا تنحطم تحتها ، كناية عن صلابتهم وشدتهم .
[١٦] الهجود : النوم .

عاصم: إن البغي أباد عمراً^(١)، وصَرَخَ حُجْرًا^(٢)، وكانا أعزَّ منك سلطاناً، وأعظم شائناً، وإن لقيتينا لم تَلقَ أنكاساً ولا أغساساً^(٣)، فهَبَّشْ وصانِعَكَ وصانِعَكَ^(٤)، وهَلُمَّ إذا بدالك، فنحن الألى قَسَطُوا^(٥) على الأملاك قبلك، ثم أتى راحلته فركبها، وأنشأ يقول:

تَعَلَّمْ (أَيَّتَ اللَّعْنِ) أَنْ قَنَاتَنَا تَزِيدُ عَلَيَّ نَعْمَ الثَّقَافِ تَصَعُّبًا^(٦)
أَتُوبِعِدُنَا بِالْحَرْبِ؟ أُمُّكَ هَابِلٌ رُوَيْدُكَ بَرَقًا، لَأَبَالِكَ، خُلْبًا^(٧)

[١] هو عمرو بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة، وكان يلقب مضرط الحجارة لشدة ملكه، وقوة سياسته (وهو عمرو بن هند) وأمه هند بنت الحارث بن عمرو عمة امرئ القيس بن حجر بن الحارث، وكان سبب قتله أنه قال يوماً لجلسائه: هل تعلمون أن أحداً من العرب يأتي أن يخدم أمه أمي؟ قالوا: ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التعلبي، فإن أمه ليلى بنت مهامل بن ربيعة، وعمها كليب وائل، وزوجها كلثوم بن عتاب، وابنها عمرو، فسكت مضرط الحجارة على ما في نفسه وبعت إلى عمرو بن كلثوم يستريه، ويسأله أن تزور أمه أمه، فقدم عمرو بن كلثوم في مرساة من بني تغلب، ومعه أمه ليلى، فنزل على شاطئ الفرات، وبلغ عمرو بن هند قدومه، فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته، فصنع لهم طعاماً، ثم دعا الناس إليه فقرب إليهم الطعام على باب السرادق، وجلس هو وعمرو بن كلثوم وخوادم أصحابه في السرادق، ولأمه هند قبة في حاب السرادق، وابلي أم عمرو ابن كلثوم معها في القبة، وقد قال مضرط الحجارة لأمه إذا فرغ الناس من الطعام ولم يبق إلا الطرف فتجى خدمك عنك، فإذا دعا الطرف فاستحدمي ليلى ومريها فتناولك الشيء بعد الشيء، فعملت هند ما أمرها به ابنها، فلما استدعى الطرف، قالت هند لليلى: ناولي ذلك الطبق. قالت لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فألحت عليها، فقالت ليلى وادلاه يا آل تغلب فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم، مثار الدم في وجهه والقوم يشربون، فمرف عمرو بن هند الشر في وجهه، وثار ابن كلثوم إلى سيف ابن هند وهو معلق في السرادق وليس هناك سيف غيره فأخذ، ثم ضرب به رأس مضرط الحجارة فقتله، وخرج نادى يا آل تغلب فانتبهوا ماله وخيله، وسبوا الذئب، وساروا فلاحقوا بالحيرة (تاريخ الكامل لابن الأثير ١: ١٩٧)

[٢] هو حجر بن الحارث (أبو امرئ القيس) وقد تقدم خبره.
[٣] الانكاس: جمع نكس بالكسر وهو الضعيف والأعس: جمع غس بالصم وهو الضعيف أيضاً.
[٤] هبش: جمع، والوضائع: جمع وضيفة، أعمال القوم وما يأخذه السلطان من الحراج والمتور، والصنائع: جمع صنيفة: يقال هو صنيفة فلان، وصديقه إذا اصطغمه وأدبه وخرجه ورناه، والمعنى: فتحجز للحرب، واجمع الأموال اللازمة لذلك واحشد رجالك المدرجين على القتال. [٥] أي جاروا.
[٦] الثقف: ما تسوى به الرماح. [٧] هبلته أمه (كفرح) فقدته، والبرق الحلب: المطمع الخلف.

إِذَا خَطَرْتُ دُونِي جَدِيلَةً بِالْقَنَا
 أَيْدَتْ التِّي تَهْوَى ، وَأَعْظَيْتُكَ التِّي
 فَإِنْ شَدَّتْ أَنْ تَزْدَارِنَا فَاتِ تَعْتَرِفْ
 وَإِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَهُمْ فِي مَجَالِهِمْ
 وَذَكَرَكَ الْعَيْشَ الرَّخِيَّ جِلَادُهُمْ
 فَأَغْضِ عَلَى غَيْظٍ وَلَا تَرْمِ التِّي
 وَحَامَتِ رِجَالُ الْعَوْتِ دُونِي تَحْدُبًا (١)
 تَسُوقُ إِلَيْكَ الْمَوْتَ أَخْرَجَ أَكْهَبًا (٢)
 رِجَالًا يُذِيلُونَ الْحَدِيدَ الْمُعْقَرَبًا (٣)
 رَأَيْتَ لَهُمْ جَمْعًا كَشِيفًا وَكَوْكَبًا (٤)
 وَمَلْهَى بِأَكْنَافِ السَّيْرِ وَمَشْرَبًا (٥)
 تُحْكِمُ فِيكَ الزَّاعِيَّ الْمُحْرَبًا (٦)
 (ذيل الأمل ص ١٧٩)

٣٠٣ — قيس بن رفاعه والحارث بن أبي شمر الغساني

كَانَ قَيْسُ بْنُ رِفَاعَةَ يَفْدُ سَنَةً إِلَى النُّعْمَانَ اللَّخْمِيِّ بِالْعِرَاقِ ، وَسَنَةً إِلَى
 الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شَمْرِ النَّسَّانِيِّ بِالشَّامِ (٧) ، فَقَالَ لَهُ يَوْمًا وَهُوَ عِنْدَهُ : يَا بْنَ رِفَاعَةَ ،
 بَلِّغْنِي أَنَّكَ تَفْضِلُ النُّعْمَانَ (٨) عَلَيَّ ؟ قَالَ :

[١] خطر الرجل بسيفه ورمحه رفعه مرة ووسعه أخرى ، وجديلة والعوت من طيء ،
 وتحذب به تعلق ، وتحذب عليه تعطف . [٢] الحرج كسبب لوان من بياض وسواد خرج كفرح فهو
 أخرج ، وظلم أخرج وهو الذي لون سواده أكثر من بياضه كلون الرماد ، والكهبة: الدهمة (السواد)
 أو عبرة مشربة سوادا ، كهت كمرح وكرم فهو أكهت وكاهب . [٣] ازداره : راره (افتعل من
 الريارة) واعترف الشيء عرفه ، وأدال ثوبه إذا أطال ذيله قال كثير :

على ابن أبي العاصي دلاص حصينة أجاد المسدي سردها فأذالها

والحديد : الدروع ، وشيء معقرب : أي معوج معطوف ، يريد أنها دروع مررودة (الرد والسرد
 بالفتح تداخل حلق الدرع بعضها في بعض) والمعنى تحمد أبطالا قد لبسوا الدروع السابعة المزرودة ، وماك
 معنى آخر وهو : يقال أذال فرسه إذا أهانه ، والحديد : أي الفرس الحديد السير أي السريع ، والمعقرب
 الشديد الحلق الختمه . وجمار معقرب الحلق أي ملوز مجمع شديد ، فالهبي : تحمد أبطالا يجهدون في ميدان
 القتال أفراسهم كرا وصولا على الأعداء . [٤] السكوكبة : الجمادة . [٥] السدير والخورتق :
 قصران بناهما النعمان الأكبر بالحيرة . [٦] الرمح الزاعي : هو الذي إذا هز كأن كعوبه يجرى
 بعضها في بعض لينه ، والمخرب : الحدد .

[٧] كان المناذرة ملوك الحيرة من لحم ، والنساسنة : ملوك الشام من الأزدي . فكلاهما من أصل يعني ،
 وكان بينهما أحقاد وأضغان وحروب . [٨] النعمان بن المنذر .

« وكيف أفضله عليك أبيت اللعن ؟ فوالله لآقفاك أحسن من وجهه ،
ولأثمك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من جميع قومه ، ولشمالك أجود من
يمينه ، ولجزمانك أنفع من نداءه ، ولقليلك أكثر من كثيره ، ولثمادك^(١) أغزر
من غديره ، ولكرسيك أرفع من سريريه ، ولجدولك أغمر من بحوره ، وليومك
أفضل من شهوره ، ولشهرك أمد من حوله ، ولحولك خير من حقه^(٢) ، ولزاندك
أورى من زنده ، ولجندك أعز من جنده ، وإنك لمن غسان أرباب الملوك ، وإنه
لمن لحم الكثيرى النوك^(٣) ، فكيف أفضله عليك^(٤) ؟ » .

(الأمالى ١ : ٢٦١ ومروج الذهب ١ : ٢٩٨)

٣٠٤ - قس بن ساعدة عند قيصر

وكان قس بن ساعدة يفتد على قيصر ويذوره ، فقال له قيصر يوماً : ما أفضل
العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه ، قال : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند
علمه ، قال : فما أفضل المرأة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال : فما
أفضل المال ؟ قال : ما فُضي به الحقوق . (الأمالى ٢ : ٩٣)

٣٠٥ - رواد مذحج يصفون ما ارتادوا من المراعى

عن أشياخ من بنى الحرث بن كعب قالوا :
« أجذببت بلاد مذحج فأرسلوا رواداً^(٥) ، من كل بطن رجلاً ، فبعثت
بنوزيد رائداً ، وبعثت النخع رائداً ، وبعثت جعفي رائداً ، فلما رجع الرواد قيل

[١] الثماد : الماء القليل لأمادة له . [٢] الحب بالضم وبصوتين : ثمانون سنة أو أكثر ،
والدهر ، والسنة أبعاً . [٣] النوك بالضم والفتح : الحق . [٤] وذكر المسعودى أن هذا
الحديث كان بين حسان بن ثابت الأمبارى ، وبين الحرث بن أبي شمر .
[٥] الرواد : جمع رائد ، وهو المرسل فى طلب الكلاء .

لرأئدِ بنى زبيد ما وراءك ؟ قال : رأيت أرضاً مؤشمةً ^(١) البقاع ، ناتحة النقع ^(٢) ،
مستحلسة الغيطان ^(٣) ضاحكة القرينان ^(٤) واعدة ^(٥) وأخر بوفائها ، راضية أرضها
عن سمائها . وقيل لرأئد جعفي : ما وراءك ؟ قال : « رأيت أرضاً جمعت السماء ^(٦)
أقطارها ، فأمرعت أصبارها ^(٧) ، ودبت أوعارها ^(٨) ، فبطنانها غمقة ^(٩) ،
وظهرانها غدقة ^(١٠) ، ورياضها مستوسقة ^(١١) ، ورقاقها رائخ ^(١٢) ، وواطئها
سائخ ^(١٣) ، وماشيا ^(١٤) مسرور ، ومضرمها ^(١٥) محسور . وقيل للنخعي
ما وراءك ؟ فقال : « مداحي ^(١٦) سيل ، وزهاء ^(١٧) ليل ، وغيل ^(١٨) يواصي غيلاً ،
قد ارتوت أجزاؤها ^(١٩) ، ودمت عزازها ^(٢٠) ، والتبدت أقوازها ^(٢١) ، فرأئدها

- [١] أوشم الأرض : إذا بدا فيها شيء من النبات (وأوشمت السماء : إذا بدا فيها برق) .
[٢] النقع : جمع نقع (كشمس) وهو الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء ، وناتحة : أى
راشحة ، من الترح وهو خروج العرق من الجلد .
[٣] الغوط ، والعيط ، والعاط ، والعائط المطنن الواسع من الأرس وجمعه عرط (باضم) وأعواط
وغيطان ، وغياط ، واستحلست البت إذا غطى الأرس أو كاد يعطيها . [٤] القرينان : مجارى الماء
من الربو إلى الرياس جمع قرى كعمى . [٥] أى تبدت تمام نباتها وخيرها ، وأخر : أحلى .
[٦] السماء هنا المطر ، يريد أن المطر جاد بها ، فطال البت ، فصار المطر كأنه قد جمع أكسافه .
[٧] مرع الوادى مثل الراء مراعة وأمرع : أعش وأحصب فهو مرع ومرع ، وأصبارها : نواحيها
جمع صبر بالكسر والضم . [٨] دبث : لبت . [٩] الطنان : جمع نطن ، وهو العامض من
الأرض أى المطنن منها ، وغمقة : ندية . [١٠] الظهران : جمع ظهر ، وهو ما ارتفع يسيراً ، وغدقة :
كثيرة البلل والماء . [١١] منتظمة . [١٢] الرقاق : الأرس اللينة من غير رمل ، ورائخ : مفرط
اللين ، يقال : ربحت العجين إذا كثرت ماءه ، ورائح العجين يربخ . [١٣] أى تسوخ رجلاه فى الأرض
من لينها ، وتسوخ وتتوخ واحد . [١٤] الماشى : صاحب المشية ، مشى الرجل وأمشى : كثرت
ماشيته . [١٥] المصرم : الفقير المقل . [١٦] مداحى : جمع مدحى اسم مكان من دحا الأرس يدحوها
ويدحاها دحوا : أى بسطها . [١٧] أى الزهاء الشخص وإنما جعل نباتها زهاء ليل لشدة خضرته .
[١٨] الغيل : الماء الجارى على وجه الأرس ، ويواصي : يواصل . [١٩] الأجزاء : جمع جزر
(بصوتين) وهى التى لم يصبها المطر ، أو التى قد أكل نباتها ، أو التى لا تبت . [٢٠] دمت : ابن
(وروى دمت كفرح) ودمت لان ، والعزاز : الأرس الصلبة . [٢١] الأوار : جمع قوز
(كشمس) وهو المستدير من الرمل .

أَنْقِ (١) وِرَاعِيهَا سَنْقِ (٢) فَلَا قَضَضَ (٣) وَلَا رَمَضَ ، عَازِبُهَا (٤) لَا يُفْرَعُ ،
وَوَارِدُهَا لَا يُنْكَعُ (٥) ، فَاخْتَارُوا مَرَادَ (٦) النَّحْمَى . (الأملئ ١ : ١٨٣)

٣٠٦ - إحدئ ملكات الئمن وخطبونها

وذكروا أن ملكة كانت بسبأ (٧) ، فأتاها قوم يخطبونها ، فقالت : ليصف
كل رجل منكم نفسه ، وليصدق وليؤجز ، لأتقدم إن تقدمت ، أو أدع إن
تركت ، على علم ، فتكلم رجل منهم يقال له مُدْرِك ، فقال : « إن أبى كان في
العز الباذخ (٨) ، والحسب الشامخ ، وأنا شرس الخليقة ، غير رعيدي (٩) عند
الحقيقة » قالت : لا عتاب على الجندل فأرسلتها مثلاً (١٠) ، ثم تكلم آخر منهم
ويقال له ضبيس بن شرس فقال : « أنا في مال أثبت (١١) ، وخلق غير خييت ،
وحسب غير عيث (١٢) ، أأخذو النمل بالنمل ، وأجزئ القرض (١٣) بالقرض »
فقالت : لا يسرك غائباً من لا يسرك شاهداً ، فأرسلتها مثلاً . ثم تكلم آخر
منهم ، يقال له شماس بن عباس فقال : « أنا شماس بن عباس ، معروف بالندى
والباس ، حسن الخلق في سجيئة ، والعدل في قضيئة ، مالى غير محظور على التل
والكثر ، وبابى غير محجوب على العسر واليسر » قالت : الخير متبع والشر محذور

[١] أى معجب بالمرعى . [٢] من سنق كفرح أى شم واتخم ، وراعيها : الذى يرعاها .
[٣] القفض : الحصى الصغار ، يريد أن السبات قد غطى الأرض فلا ترى هناك قصصاً ، والرمض : أن
يحمى الحصى والحجارة من شدة الحر ، يعول : ليس هناك رمض لأن السبات قد غطى الأرض .
[٤] العازب : الذى يعزب بأبله أى يبعد بها فى الموعى . [٥] أى لا يمنع . [٦] أى مرعى .
[٧] سبأ : بلدة بالئمن . [٨] العالى . [٩] الرعيدي : الجبان . [١٠] قال الميدانى :
« يضرب فى الأمر الذى لذة وقع لامرد له ، قاله أبو عمرو » . [١١] كثير : عظيم .
[١٢] لم أجد فى كتب اللغة وصفاً من مادة عث على معيل ، وإنما الذى فيها « رحل عث بمتع الدين أى
ضئيل الجسم » وسياق الفواصل يرجح أن الوصف الذى هنا فعيل ، وأرى أن معناه مشين معيب من دشت
الشة الصوف إذا أكلته فهو دشت بمعنى معثور . [١٣] القرض : القطع .

فأرسلتها مثلاً . ثم قالت : اسمع يا مدرك ، وأنت يا ضييس ، لن يستقيم معكما معاشره اعشير حتى يكون فيكما لين عَرِيكَةً ^(١) ، وأما أنت يا شماس ، فقد حَلَّتْ منى محل الأهرع ^(٢) من الكِنَانَةِ ، والواسطة ^(٣) من القِلَادَةِ ، لِدمَانَةِ ^(٤) خلقك ، وكرم طباعك ، ثم اسع بِجِدِّ أودعْ ، فأرسلتها مثلاً ، وتزوجت شماساً .
(مجمع الأمثال ٢ : ١١٨)

٣٠٧ — خطبة عامر بن الظرب العدواني وقد خطبت ابنته

خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظرب العدواني ابنته عَمْرَةَ فقال :
« يا صعصعة إنك جئت تشتري منى كبدي ، وأرحم ولدي عندي ، منعتك ، أو بعتك ، النكاح خير من الأئمة ^(٥) ، والحسيب كفاء الحسيب ، والزوج الصالح أبٌ بعد أبٍ ، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك ، أفر من السر إلى العلانية ، أنصح ابناً ، وأودعُ ضعيفاً قوياً ، ثم أقبل على قومه فقال :
« يا معشر عدوان : أخرجت من بين أظهركم كريمتكم ، على غير رغبة عنكم ، ولكن من خُطَّ له شيء جاءه ، رب زارعٍ انفسه حَاصِدٌ سواه ، ولولا قَسَمُ الحظوظ على قدر الجدود ، ما أدرك الآخر من الأول شيئاً يعيش به ، ولكن الذي أرسل الحياء ^(٦) ، أنبت المرعى ، ثم قَسَمَهُ أَكْلاً ^(٧) ، لكل فَمٍ بَقْلَةٌ ، ومن الماء جرعة ، إنكم ترون ولا تعلمون ، لن يرى ما أصف لكم إلا كل ذى قلبٍ واعٍ ^(٨) ،

[١] العريكة : الطبيعة ورجل ابن العريكة : أى سلس الحلق . [٢] الأهرع آخر سهم في الكنانة رديفاً كان أو جيداً أو هو أفضل سهامها لأنه يدخر لشدة أو هو أردؤها ، والراد هنا الثاني .
[٣] واسطة القند : الجوهرة الفاخرة التي تجعل وسطه . [٤] الدمانة : السهولة .
[٥] الأيامي : الدين لأزواج لهم من الرجال والنساء الواحد منهما ، أيم تجيد سواء كان تزوج من قبل أم لم يتزوج ، وامرأة أيم بكرة كانت أو ثيباً ، وقد آمت ثيباً أيماً وأيمه وأبوماً ، وفي الحديث : « أنه كان يتعود من الأئمة » . [٦] الحياء : المطر . [٧] الأكل : ما يؤكل والرزق .
[٨] حافظ .

ولكل شيء راعٍ ، ولكل رزق ساعٍ ، إما أكيسٌ وإما أحمقٌ ، وما رأيت شيئاً إلا سمعت حسبه ، ووجدت مسه ، وما رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً ، وما رأيت جائباً إلا داعياً ، ولا غانماً إلا خائباً ، ولا نعمة إلا ومعها بؤس ، ولو كان يُميتُ الناسَ الدائم ، لأحياهم الدواء ، فهل لكم في العلم العليم ؟ قيل ما هو ؟ قد قلت فأصبت ، وأخبرت فصدقت ، فقال : أموراً شتى ، وشيئاً شياً ، حتى يرجع الميت حياً ، ويعود لا شيء شيئاً ، ولذلك خلقت الأرض والسموات ، فتولوا عنه راجعين ، فقال : وَيُؤمُّهَا (١) نصيحة لو كان من يقبلها .

(مجمع الأمثال ١ : ٢١١ ، البيان والتبيين ٢ : ٣٧ ، والعقد الفريد ٣ : ٢٢٣)

٣٠٨ - وصية عامر بن الظرب العدواني لقومه

وَكَانَ عَامِرُ بْنُ الظَّرْبِ العَدَوَانِي سَيِّدَ قَوْمِهِ ، فَمَا كَبُرَ وَخَشِيَ عَلَيْهِ قَوْمَهُ أَنْ يَمُوتَ ، اجتمعوا إليه ، وقالوا : إنك سيدنا وقائلنا وشريفنا ، فاجعل لنا شريفاً وسيداً وقائلاً بعدك ، فقال :

« يا معشر عدوان : كلفتموني بغيّاً ، إن كنتم شرّتموني فإني أريتم ذلك من نفسي ، فأني لكم مثلي ؟ افهموا ما أقول لكم ، إنه من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له ، وكان الباطلُ أولى به ، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل ، ولم يزل الباطل ينفر من الحق .

يامعشر عدوان : لَا تَشْمَتُوا بِالذَّاتَةِ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِالْعِزَّةِ ، فَبِكُلِّ عَيْشٍ يَعِيشُ الْفَقِيرُ مَعَ الْغَنِيِّ ، وَمَنْ يَرَى يَوْمًا يُرَى بِهِ (٢) ، وَأَعِدُّوا لِكُلِّ أَمْرٍ جَوَابَهُ ، إِنْ مَعَ

[١] يقال للمستجد ويله : أى ويل لأمه ، كقولهم : لا ب لك يريدون لا أب لك مركبه وجملوه كالقضى الواحد . [٢] أى من رأى يوماً على عدوه رأى مثله على نفسه .

السفاهة الندامة ، والعقوبة نكال وفيها ذمامة ^(١) ، ولليد العليا ^(٢) العاقبة
وَأَقْوَد ^(٣) راحة ، لالك ولا عليك ، وإذا شئت وجدت مثلك ، إن عليك كما أن
لك ، وللكثرة الرعب ، وللصبر الغلبة ، ومن طلب شيئاً وجدته ، وإن لم يجده
يوشك أن يقع قريباً منه . (مجمع الأمثال ٢ : ١٨٣)

٣٠٩ — وصية دويد بن زيد لبنيه

لما حضرت دُوَيْدَ ^(٤) بن زيد الوفاة قال لبنيه :

« أوصيكم بالناس شراً ، لا تَرَحْمُوا لهم عَبْرَةً ، ولا تُقِيلُوهم عَثْرَةً ^(٥) ، قَصِّرُوا
الأعِنَّةَ ، وَطَوَّلُوا الأَسِنَّةَ ، واطعنوا شَزْرًا ^(٦) ، واضربوا هَبْرًا ^(٧) ، وإذا أردتم
المحاجزة ، فقبل المناجزة ، والمرء يَعْجَزُ لا المحالة ، بِالْجَدِّ ^(٨) لا بِالْكَدِّ ، التجلد
ولا التبلد ، والمنية ولا الدنية ، ولا تأسوا على فائت وإن عزَّ فقده ، ولا تَحْنُوا
إلى ظاعن وإن أَلِفَ قُرْبَهُ ، ولا تطعموا قَطَبَعُوا ، ولا تَهِنُوا فَتَخْرُعُوا ^(٩) ، ولا
يكوننَّ لكم المثل السوء « إن الموصين بنو سهوان ^(١٠) » إذا مِتُّ فَأَرْحَبُوا ^(١١)

[١] الدمامة بالفتح ويكسر ، والذمة : العهد ، والسكفالة ، والحق ، والحرمة . [٢] اليد العليا :
المعطية ، والسفلى : السائلة ، وفي الحديث : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، وهو حث على الصدقة .
[٣] القود : القصاص . [٤] هو دويد بن زيد بن نهد الحميري ، وكان من المعمرين . قيل عاش
أربعمائة وستاً وحمدين سنة ، (قالوا : ولا يمد العرب معمرأ إلا من عاش مائة وعشرين سنة فصاعداً) .
[٥] أمال الله عثرته : ردمه من سقوطه . [٦] الطعن في الجواب يعبأ وشمالا .
[٧] هبر اللحم : قطعه قطعاً كبيراً ، والهبرة (بالفتح) القطعة المجتمعة منه وضرب هبر وهبير هابر :
أى يقطع اللحم . [٨] الطبع محركة : الدنس . [٩] الوهن : الضعف ، والحراة : (كنباهة)
اللين والرخاوة خرع : ككرم ، وخرع كفرح ضعف ، فهو خرع ، وخريع ، وانكسر .
[١٠] قال الميداني في مجمع الأمثال « ١ : ٦ » : « هذا مثل تحبب في تفسيره كثير من الناس ، قال بعضهم :
لأنما يحتاج إلى الوصية من يسهو ويفعل ، فأما أنت فغير محتاج إليها لأناك لا تسهو ، وقال بعضهم : يريد
بقوله بنو سهوان جميع الناس لأن كلهم يسهو ، والأصوب في معناه أن يقال : إن الذين يوصون بالشيء
يستولى عليهم السهو حتى كأنه موكل بهم ، يضرب لمن يسهو عن طلب شيء أمر به ، والسهوان : السهو ،
وبجور أن يكون صفة أي بنو رجل سهوان ، وهو آدم عليه السلام حين عهد إليه فسما ونسى ، يقال رجل
سهوان وساه ، أي إن الذين يوصون لا بد أن يسهوا لأنهم بنو آدم عليه السلام » . [١١] أرحبه : وسعه .

خَطَّ مَضْجَعِي ، وَلَا تَضْنُوا عَلَيَّ بِرُحْبٍ (١) الْأَرْضِ ، وَمَا ذَلِكَ بِمُؤَدِّ إِلَيَّ رَوْحاً (٢) ، وَلَكِنْ حَاجَةٌ نَفْسٍ خَافَتْهَا الْإِشْفَاقُ .

قال أبو بكر بن دُرَيْدٍ فِي حَدِيثٍ آخِرٍ إِنَّهُ قَالَ :

الْيَوْمَ مُنِنِي لِذُوَيْدِ بَيْتُهُ يَارُبَّ نَهَبٍ صَالِحِ حَوَيْتُهُ
وَرُبَّ قِرْنٍ بَطِلٍ أَرْدَيْتُهُ وَرُبَّ غَيْلٍ حَسَنٍ لَوَيْتُهُ (٣)
وَمِمِّصَمٍ مَخْضَبٍ ثَنَيْتُهُ لَوْ كَانَ لِلدَّهْرِ بَلِيٌّ أَبْلَيْتُهُ (٤)
أَوْ كَانَ قِرْنِي وَاحِداً كَفَيْتُهُ

(أُمَالِي السَّيِّدِ الْمَرْتَضَى ١ : ١٧١)

٣١٠ - وَصِيَّةُ زُهَيْرِ بْنِ جَنَابِ الْكَلْبِيِّ

وَأَوْصَى زُهَيْرُ بْنُ جَنَابِ الْكَلْبِيِّ (٥) بَنِيَهُ فَقَالَ :

« يَا بَنِيَّ : قَدْ كَبُرَتْ سِنِّي ، وَبَلَغْتَ حَرَسًا (٦) مِنْ دَهْرِي ، فَأَحْكَمْتَنِي
التَّجَارِبَ ، وَالْأُمُورَ تَجْرِبَةً وَاخْتِبَارًا ، فَاحْفَظُوا عَنِّي مَا أَقُولُ وَعَوِّدُوا ، إِيَّاكُمْ وَالْخَوَارِ
عِنْدَ الْمَصَائِبِ ، وَالتَّوَاكُلَ عِنْدَ النُّوَابِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَاعِيَةٌ لِلْغَمِّ ، وَشِمَاتَةٌ لِلْعَدُوِّ ،
وَسُوءُ ظَنِّ بِالرَّبِّ ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا بِالْأَحْدَاثِ مَفْتَرِينَ ، وَلَهَا آمَنِينَ ، وَمِنْهَا
سَاخِرِينَ ، فَإِنَّهُ مَا سَخَّرَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا ابْتَلَوْا ، وَلا كُنْ تَوَقَّعُوهَا ، فَإِنَّمَا الْإِنْسَانُ فِي
الدُّنْيَا غَرَضٌ (٧) تَعَاوَرَهُ الرُّمَاتُ ، فَتَقَصَّرُ دُونَهُ ، وَتَجَاوُزُ لِمَوْضِعِهِ ، وَوَأَقَعُ عَنِ يَمِينِهِ
وَشِمَالِهِ ، ثُمَّ لا يَبْدُو أَنَّهُ مَصِيبُهُ . »

(أُمَالِي السَّيِّدِ الْمَرْتَضَى ١ : ١٧٣)

[١] الرُّحْبُ : بِالضَّمِّ مَصْدَرٌ ، وَبِالْفَتْحِ وَصْفٌ . [٢] أَي رَاحَةٌ ، أَوْ هُوَ بِالضَّمِّ أَي وَمَا ذَلِكَ بِمُؤَدِّ إِلَيَّ رَوْحاً . [٣] الْبَيْلُ : الْمَاعِدُ الرِّبَايَ الْمَمْتَلِيُّ . [٤] الْمَعْصَمُ : مَوْضِعُ السَّوَارِ أَوْ الْيَدِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا . [٥] هُوَ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابِ بْنِ هِجَلِ الْكَلْبِيِّ ، قَبِيلُ طَائِفِ مَائِئِينَ وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَقَبِيلُ مَائِئِينَ وَخَمْسِينَ ، وَقَبِيلُ أَرْبَعِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ ، وَكَذَلِكَ يَدْعِي الْكَاهِنُ لَصِحَّةِ رَأْيِهِ . [٦] الْحَرَسُ مِنَ الدَّهْرِ : الطَّوِيلُ ، وَالْحَرَسُ : كَسْبُ عَاشٍ زَمَانًا طَوِيلًا . [٧] الْغَرَضُ : الْهَدَفُ ، وَتَعَاوَرَهُ (تَعَاوَرَهُ) أَي تَدَاوَلَهُ .

٣١١ - وصية النعمان بن ثواب العبدى لبنيه

كَانَ لِلنُّعْمَانِ بْنِ ثَوَابِ الْعَبْدِيِّ بَنُونَ ثَلَاثَةٌ: سَعْدٌ وَسَعِيدٌ وَسَاعِدَةٌ ، وَكَانَ أَبُوهُمْ ذَا شَرَفٍ وَحِكْمَةٍ ، وَكَانَ يُوصِي بَنِيهِ ، وَيُحْمَلُهُمْ عَلَى أَدْبِهِ ، أَمَا ابْنُهُ سَعْدٌ فَكَانَ شَجَاعًا بَطْلَانًا مِنْ شَيَاطِينِ الْعَرَبِ ، لَا يُقَامُ لِسَبِيلِهِ ، وَلَمْ تَفْتُهُ طَلِبَتُهُ قَطُّ ، وَلَمْ يَفِرَّ عَنْ قِرْنٍ ؛ وَأَمَا سَعِيدٌ فَكَانَ يُشْبِهُ أَبَاهُ فِي شَرَفِهِ وَسُودَدِهِ ؛ وَأَمَا سَاعِدَةٌ فَكَانَ صَاحِبَ شَرَابٍ وَنَدَامَى وَإِخْوَانٍ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّيْخُ حَالَ بَنِيهِ دَعَا سَعْدًا ، وَكَانَ صَاحِبَ حَرْبٍ ، فَقَالَ :

« يَا بُنَيَّ إِنْ الصَّارِمَ يَنْبُو ، وَالْجَوَادَ يَكْبُو ، وَالْأَثَرَ يَعْفُو ^(١) ، فَإِذَا شَهِدْتَ حَرْبًا ، فَرَأَيْتَ نَارَهَا تَسْتَعِرُّ ، وَبَطْلَهَا يَخْطُرُ ، وَبِحَرْهَا يَزْخَرُ ، وَضَعِيفَهَا يُنْصَرُ ، وَجَبَانَهَا يَجْمُرُ ، فَأَقْلِلِ الْمُسْكْتَ وَالْإِنْتِظَارَ ، فَإِنَّ الْفِرَارَ غَيْرُ عَارٍ ، إِذَا لَمْ تَكُنْ طَالِبَ نَارٍ ، فَإِنَّمَا يُنْصَرُونَ هُمْ ^(٢) ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ صَيِّدَ رِمَاحِهَا ، وَنَطِيعَ نِطَاحِهَا .
وَقَالَ لِابْنِهِ سَعِيدًا ، وَكَانَ جَوَادًا : « يَا بُنَيَّ لَا يَخْلُ الْجَوَادُ ، فَايْذَلِ الطَّارِفَ وَالتَّلَادَ ^(٣) ، وَأَقْلِلِ التَّلَاحَ ^(٤) ، تُذْكَرُ عِنْدَ السَّمَاحِ ، وَأَبْلُ ^(٥) إِخْوَانِكَ ، فَإِنَّ وَفِيهِمْ قَلِيلٌ ، وَاصْنَعِ الْمَعْرُوفَ عِنْدَ مُحْتَمَلِهِ » .

وَقَالَ لِابْنِهِ سَاعِدَةَ ، وَكَانَ صَاحِبَ شَرَابٍ : « يَا بُنَيَّ إِنْ كَثُرَ الشَّرَابُ ، تُفْسِدَ الْقَلْبَ ، وَتَقْلَلِ الْكَسْبَ ، وَتُجِدَّ اللَّعِبَ ^(٦) ، فَأَبْصُرْ نَدِيمَكَ ، وَاحْمِرْ حَرِيمَكَ ، وَأَعِزَّ غَرِيمَكَ ^(٧) وَاعْلَمْ أَنَّ الظُّمَأَ الْقَامِحَ ^(٨) ، خَيْرٌ مِنَ الرَّيِّ الْفَاضِحِ ، وَعَلَيْكَ بِالْقَصْدِ فَإِنَّ فِيهِ بَلَاغًا » .
(بحج الأمثال ١ : ٤٨)

[١] عفا الأثر : درس واحي . [٢] أى طلاب النار . [٣] الطاروف والطريف : المال المستعدت ، والتالذ ، والليذ ، والتلاد ، والتلذ : المال القديم الأصلي الذى ولد عندك .
[٤] التلاحى : التنازع ، ولاجاه ملاحاة ولحاء تارعه . [٥] اختبر . [٦] أى تجعله جدأ ، والجدد (بالكسر) صد للهزل . [٧] الريم : المدين (وهو الدائن أيضا) . [٨] معناه العطش الشاق خير من رى يفضح صاحبه ، ووقع العير قوحاً : رفع رأسه عند الحوض وامتنع من الشرب فهو قامح ، ووقع البعير : اشتد عطشه حتى فتر شديداً .

٣١٢ - وصية قيس بن زهير لبني النمر بن قاسط

جاور قيس بن زهير العبسي^(١) بعد يوم الهبأة النمر بن قاسط ، وتزوج

منهم ، وأقام فيهم حتى ولد له ، فلما أراد الرحيل عنهم قال :

« يا معشر النمر : إن لكم عليّ حقاً ، وأنا أريد أن أوصيكم ، فأمركم بخصال ،

وأبناكم عن خصال ، عليكم بالأناة ، فإن بها تُدْرِكُ الحاجة ، وتُنالُ الفرصة ،

وتسويدٌ من لا تُعابون بتسويده ، وعليكم بالوفاء ، فإن به يعيش الناس ، وبإعطاء

من تريدون إعطاءه قبل المسألة ، ومنع من تريدون منعه قبل الإلحاح ، وإجارة

الجار على الدهر ، وتنفيذ المنازل عن بيوت اليتامى ، وخطط الضيف بالعيال .

وأبناكم عن الغدر ، فإنه عار الدهر ، وعن الرّهان ، فإنني به تكلمت مالكا

أخي ، وعن البغي ، فإنه قتل زهيراً أبي^(٢) ، وعن الإعطاء في الفضول ، فتعجزوا

[١] هو صاحب حرب داحس والغبراء ، وكان من قصته أنه تراهن هو وحذيفة بن بدر سيد بني ديان على فرسيهما داحس (فرس قيس) والغبراء (فرس حذيفة) - وقيل إنهما تراهنا على داحس والغبراء فرسى قيس ، والحطار والحفاء فرسى حذيفة - وتواصما الرهان على مائة بعير ، ثم قادوهما إلى رأس الميدان ، وفي طرف الغاية شعاب كثيرة ، فأكن حمل بن بدر في تلك الشعاب فتيانا على طريق المرسين ، وأمرهم إن جاء داحس سابقاً أن يردوا وجهه عن الغاية ، فأرسلوهما فأحصرا ، فلما شارف داحس الغاية ودنا من الفتية ، وثبوا في وجهه فردوه عنها ، وعلم قيس بذلك ، ومث حذيفة بن بدر ابنه مالكا إلى قيس بطلب مه حق السبق ، فقال قيس كلا لأمطلقك به ، فتناول ابن حذيفة من عرض قيس وشتمه وأغلط له ، وكان إلى جنب قيس ربح قطعته به فدق صلبه ، واجتمع الحيان وأدوا دية المقتول ، وأخذها حذيفة دفما للشر ، ثم إن قومه ندموه فعاد الشر بينهم ، وقامت الفتى بين الحيين ، وعدا حذيفة على مالك بن زهير أن يسي قيس فقتله ، وكان الربيع بن زياد عمهما معتزل الحرب ، فلما سمع بمقتل ابن أخيه مالك شق ذلك عليه وقاتل بني ديان ، ثم تواتت أيام الحروب بينهم ، وكان أعطها يوم الهبأة حتى أصلح بينهم الحرث بن عوف وهرم بن سنان المرياني ، وحلا ديات القتلى ثلاثة آلاف بعير .

[٢] وسبب مقتل زهير بن جذيمة العبسي أبي قيس ، أن هوازن بن منصور كانت تؤتى الإتاوة زهير ابن جذيمة - ولم تكثر عامر بن صعصعة بعد - فأنت مجوز من هوازن إلى زهير بسمن ونمى (الحى كحمل الزق ، أو ما كان للسنن خاصة) فاعتذرت إليه ، وشكبت السنين اللواتي تابن على الناس ، مداته فلم يرض طعمه ، فدعها أي دفعها بقوس في يده فسقطت فبدت عورتها ، فغضبت من ذلك هوازن وحقدته إلى ما كان وصدرها من الفيض ، وكانت يومئذ قد كثرت بنو عامر بن صعصعة فثاروا إليه فقاتلوه حتى قتلوه .

عن الحقوق ، وعن السَّرَفِ في الدماء ، فإن يوم الهَبَاءِ ^(١) أَلزَمَنِي العار ، وَمَنَعَ الحُرْمَ إِلا مَن الأ كفاء ، فإن لم تصيبوا لَهْنَ الأ كفاء ، فإن خير مَنَّا كَهَنُ القبور ، (أو خير منازلها) ، واعلموا أني كنت ظالماً مظلوماً ، ظلمني بنو بدر بقتلهم مالكا أخي ، وظلمتهم بأن قتلت من لا ذنب له .

(العقد الفريد ٣ : ٢٢٤ ، وأمل السید المرتضى ١ : ١٤٩ ، وشرح البيون ص ٩٠)

٣١٣ - نصيحة الجمانة بنت قيس بن زهير لجدتها الربيع بن زياد

كان قيس بن زهير العبسي قد اشترى من مكة درعاً حسنةً ، تسمى ذات الفضول ، ووردَ بها إلى قومه ، فرآها عمه الربيع بن زياد ، وكان سيد بني عبس ، فأخذها منه غصباً ، فقالت الجمانة بنت قيس لأبيها : دعني أنأظرِ جدِّي ، فإن صلح الأمر بينكما ، وإلا كنتُ من وراء رأيك ، فأذن لها ، فأتمت الربيع فقالت :

« إذا كان قيسُ أبي ، فإنك يا ربيعُ جدِّي ، وما يجب له من حق الأبوَّةِ عليّ ، إلا كالذي يجب عليك من حق البنوَّةِ لي ، والرأيُ الصحيحُ تبعته العنائةُ ، وتجملي عن محضه النصيحةُ ، إنك قد ظلمت قيساً بأخذ درعه ، وأجدُّ مكافأته إياك سوء عزمه ، والمعارضُ منتصرٌ ، والبادي أظلم ، وليس قيسٌ ممن يُخوَّفُ بالوعيد ، ولا يرُدُّعه التهديدُ ، فلا تركننَّ إلى منابذته ، فالحزمُ في متاركتِهِ ،

[١] وكان حذيفة بن بدر وأخوه نزلا مع أصحابهما في جفر الهباءة ، فاتبهم قيس ومن معه حتى أدركهم فيه ، وقد أرسلوا خيولهم ونزعوا سلاحهم (وكان حذيفة قد أخذ علامين من بني عبس ، فقتلتهما ، وهما يستغيثان يا أبتاه حتى ماتا) فشد قيس والربيع ومن معهما عليهم ، وهم ينادون ليكم ليكم ، يعي أنهم يجيئون نداء الصبية لما قتلوا ينادون يا أبتاه ، فنادوهم الله والرحم ، فلم يقلوا منهم ، وقتلوا حذيفة وحلأ أخاه ، ومثلوا بحذيفة فقطعوا مذاكيره وحملوه في فيه وجعلوا لسانه في استه ، وأسرف قيس في النكابة والقتل ، وكانت فزارة تسمى هذه الوقعة البوار ، ولكن قيساً ندم بعد ذلك ورثي حمل بن بدر ، وهو أول من رثي مقتوله .

والحربُ مَتَلَفَةٌ للعباد ، ذَهَابَةٌ بالطَّارِفِ والتَّلَادِ ، والسَّلْمُ أَرْخَى للبال ، وَأَبْتَقَى لِأَنْفُسِ الرِّجَالِ ، وَبِحَقِّ أَقُولُ : لَقَدْ صَدَعْتُ بِحُكْمِي ، وَمَا يَدْفَعُ قَوْلِي إِلَّا غَيْرُ ذِي فَهْمٍ ، ثُمَّ أَنْشَأْتُ تَقُولُ :

أَبِي لَا يَرَى أَنْ يَتْرَكَ الدَّهْرَ دِرْعَةً وَجَدِّي يَرَى أَنْ يَأْخُذَ الدَّرْعَ مِنْ أَبِي
فِرَائِي أَبِي رَأَى الْبَخِيلَ بِمَالِهِ وَشَيْمَةُ جَدِّي شَيْمَةُ الْخَائِفِ الْأَبِي

(بلاغات النساء ص ١٢٥)

٣١٤ - وصية حصن بن حذيفة لبيته

وأوصى حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري بني بدر فقال :

« اسمعوا مني ما أوصيكم به : لَا يَتَّكِلَنَّ آخِرُكُمْ عَلَى أَوْلَادِكُمْ ، فَإِنَّمَا يُدْرِكُ الْآخِرُ مَا أَدْرَكَهُ الْأَوَّلُ ، وَأَنْكِحُوا الْكُفَّاءَ الْغَرِيبَ ، فَإِنَّهُ عِزٌّ حَادِثٌ ، وَإِذَا حَضَرَكُمْ أَمْرَانِ ، فَخُذُوا بِخَيْرِهِمَا صَدْرًا^(١) ، فَإِنَّ كُلَّ مَوْرِدٍ مَعْرُوفٍ ، وَاصْحَبُوا قَوْمَكُمْ بِأَجْلِ أَخْلَاقِكُمْ ، وَلَا تُخَالَفُوا فِيمَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْخِلَافَ يُزْرِي بِالرَّئِيسِ الْمَطَّاعِ ، وَإِذَا حَادَثْتُمْ فَأَرْبَعُوا^(٢) ، ثُمَّ قُولُوا الصَّدَقَ ، فَإِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي الْكُذْبِ ، وَصُونُوا الْخَيْلَ فَإِنَّهَا حُصُونُ الرِّجَالِ ، وَأَطِيلُوا الرِّمَاحَ فَإِنَّهَا قُرُونُ الْخَيْلِ ، وَأَعِزُّوا الْكَبِيرَ بِالْكَبِيرِ ، فَإِنِّي بِذَلِكَ كُنْتُ أَغْلِبُ النَّاسَ ، وَلَا تَغْزُوا إِلَّا بِالْعَيْونِ^(٣) ، وَلَا تَسْرَحُوا حَتَّى تَأْمَنُوا الصَّبَّاحَ^(٤) ، وَأَعْطُوا عَلَى حَسَبِ الْمَالِ ، وَأَعْجَلُوا الضَّيْفَ بِالْقَرِيِّ^(٥) ، فَإِنَّ خَيْرَهُ أَعْجَلُهُ ، وَاتَّقُوا فُضِيحَاتِ الْبَغْيِ ، وَفَلَتَاتِ الْمِزَاحِ ،

[١] الصدر : الرجوع . [٢] ربع : كنع انتظر وتحبس ، وربع الخيل : قتله من أربع طاقات ، والمعنى إذا حدثتم فتأنوا وتمهلوا ، أو فأحكموا القول . [٣] العيون : جمع عين وهي خيار كل شيء . [٤] الصباج الغارة : أي ولا تسرحوا مقاتلتكم حتى تأمنوا الغارة . [٥] قرى الضيف يقريه قرى : أحسن إليه ، والقرى أيضاً ما قرى به الضيف .

ولا تجيروا على الملوك ، فإن أيديهم أطول من أيديكم » .

(أمالي السيد المرتضى ٢ : ١٦٨)

٣١٥ - وصف عصام الكندية أم إياس بنت عوف بن محم الشيباني

لما بلغ الحارث بن عمرو ملك كِنْدَةَ جمالاً أمَّ إياس بنت عوف بن محم الشيباني ، وكألها وقوة عقلها ، أراد أن يتزوجها ، فدعا امرأة من كِنْدَةَ ، يقال لها عصام ، ذات عقل ولسان ، وأدب وبيان ، وقال لها : اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف ، فضت حتى انتهت إلى أمها أُمَامَةَ بنت الحارث ، فأعلمتها ما قدمت له ، فأرسلت أُمَامَةَ إلى ابنتها وقالت : أي بُنْيَّةُ ، هذه خالتك أتت إليك لتنظر إلى بعض شأنك ، فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجهه وخلق ، وناطقياً فيما استنطقتك فيه ، فدخلت عصام عليها ، فنظرت إلى ما لم ترَ عينيها مثله قطُّ بهجةً وحسناً وجمالاً ، فإذا هي أكمل الناس عقلاً ، وأفصحهم لساناً ، فخرجت من عندها وهي تقول : (تَرَكَ الْخِدَاعَ مَنْ كَشَفَ الْقِنَاعَ) فذهبت مثلاً ، ثم أقبات إلى الحارث فقال لها : (ما وراءك يا عصام) ؟ فأرسلها مثلاً ، قالت : (صَرَخَ الْمَخْضُ عَنِ الزُّبْدِ ^(١)) ، فذهبت مثلاً . قال أخبريني ، قالت : أخبرك صدقاً وحقاً :

« رأيت جبهة كالمراة الصقيلة ، يزينها شعر حالك ، كأذئاب الخيل المصفورة ^(٢) ، إن أرسلته خيلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عنا قيد كرم جلاها الوابل ^(٣) ، وحاجبين كأنهما خطاً بقلم ، أو سوداً بحمم ^(٤) قد تقوساً على

[١] مخض الابن : أخذ زبده ، والتصرخ : تبين الأمر ، وهو مثل يضرب للأمر إذا انكشف وتبين

[٢] في الأصل « المصفورة » وهو تحريف وصوابه « المصفورة » . [٣] المطر الشديد الضخم

القطر . [٤] الحُم : الفعم .

عنى الظبية العَبْهَرَة (١) ، التى لم يرُعْها قانص ، ولم يُذْعِرْها قَسْوَرَة (٢) ، بينهما
أنف كَحَدِّ السيف المصقول (٣) ، لم يَخْنِس (٤) به قِصْر ، ولم يَمِض (٥) به طول ،
حَفَّتْ به وَجْتَان كالأزجوان (٦) ، فى بياضٍ مَحْضٍ كالجمان (٧) ، شُقَّ فيه فم
كأخاتم ، لذيد المُبْتَسَم ، فيه ثَنَايا غُرٌّ ، ذوات أُشْرٍ (٨) ، وأسنانٌ تبدو كاللُّدْر ،
وريقٌ كالخمر له نَشْرُ الرّوضِ بالسَّحَرِ ، يتقلب فيه لسانٌ ، ذو فصاحة وبيان ،
يحرّكه عقلٌ وافر ، وجواب حاضر ، تلتقى دونه شَفَتَان حراوان كالورد ، يَجْلِبَان
ريقاً كالشَّهْدِ ، تحت ذلك عنق كإبريق الفِضَّة ، رُكْبَ فى صدر كصدرِ تَمثال
دُمِيَة (٩) ، يتصل بها عَضْدَان ممتلئان لحمًا ، مُكْتَنِزَان (١٠) شَحْمًا ، وذراطان
ليس فيهما عظمٌ يُحَسُّ ، ولا عِرْقٌ يُحَسُّ ، رُكْبَتٌ فيهما كَفَّان ، دقيقٌ
قَصْبُهُمَا ، لَيْنٌ عَصْبُهُمَا ، تُعْقَدُ إن شئتَ منهما الأنامل ، وَتُرْكَبُ الفصوصُ فى
حُفْرَ المفاصل ، وقد ترَبَّعَ فى صدرها حُقَّان ، كأنهما رُمَّانان ، يَخْرِقَان عليها ثِيَابَهَا ،
تحت ذلك بطنٌ طَوِيٌّ كَطِيٍّ القُبَاطِيٍّ (١١) المُذْمَجَةِ ، كُسْبَى عَكْنًا (١٢)
كالقراطيس المُدْرَجَةِ (١٣) تحيط تلك العُكْنُ بِسِرَّةِ كَمْذُهْنٍ (١٤) العاجِ المَجْلُوءِ ،
خلف ذلك ظهرٌ كالجَدُولِ ، ينتهى إلى خَصْرِ ، لولا رَحْمَةُ اللهِ لَأَنْبَتَرَ ، تحتَه كَفَلٌ (١٥)

[١] العبهره والعبهر : الرقيقة البشرة الراضة البياض ، والسمينة المتلثة الجسم .

[٢] القسورة : الرماة من الصيادين ، الواحد قسور .

[٣] فى مجمع الأمثال « الصنيع » وهو السيف الصقيل المحرب . [٤] خنس عنه كضرب وكرم :
تأخر « والخنس : محرّكة تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة ، خنس كفرح فهر أخنس
وهى خنساء » . [٥] وفى جمهرة الأمثال « ولم يخنس » . [٦] الأرجوان : صنع أحمر .

[٧] الجمان : اللؤلؤ ، أو حنوت أشكال اللؤلؤ من فضة . [٨] أشر الأسنان : التحزب الذى فيها .

[٩] الدمية : الصورة المنقشة من الرخام أو طام . [١٠] اكتنز : اجتمع وامتلاء .

[١١] القباطى (بضم الأول مع تشديد الآخر) وقاطى (بفتح الأول مع تخفيف الآخر) جمع قبطية
(بالضم على غير قياس وقد تكسر) : ثياب كتان بيض رفاق كانت تعمل فى مصر .

[١٢] العكن : جمع عكنة (كفرصة) وهى ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا . [١٣] الطلوة .

[١٤] المدهن : قارورة الدهن . [١٥] مجز .

يُقْعِدُهَا إِذَا نَهَضَتْ ، وَيُنْهَضُهَا إِذَا قَعَدَتْ ، كَأَنَّهُ دِعْصٌ ^(١) رَمَلٍ ، لَبْدَةٌ سَقُوطُ
الطَّلِّ ، يَحْمَلُهُ نَفِذَانِ لَفَاوَانٍ ^(٢) ، كَأَنَّهُمَا نَضِيدُ الْجَمَانِ ، تَحْتَهُمَا سَاقَانِ ، خَدَلْتَانِ ^(٣)
كَالْبَرْدِيِّ ، وَشَيْتًا بِشَعْرٍ أَسْوَدَ ، كَأَنَّهُ حَلَقَ الزَّرْدِ ، يَحْمِلُ ذَلِكَ قَدَمَانِ ، كَحَذْوِ
اللِّسَانِ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ ، مَعَ صَفَرِهَا كَيْفَ تَطِيقَانِ حَمْلَ مَا فَوْقَهُمَا ، فَأَمَّا مَا سِوَى
ذَلِكَ . فَتَرَكْتُ أَنْ أَصْفَهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَحْسَنُ مَا وَصَفُهُ وَاصْفَ بِنَظْمٍ أَوْ نَثْرٍ ، فَأَرْسَلُ
الْمَلِكَ إِلَى أَبِيهَا نَخَطِبُهَا ، فَزَوْجُهُ إِيَّاهَا ^(٤) .

(العقد الفريد ٣ : ٢٣٥ ، وجمع الأمثال ٢ : ١٤٣ ، وجمهرة الأمثال ٢ : ٢٧)

٣١٦ - وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إيّاس

فلما مُحِلَّتْ إِلَى زَوْجِهَا قَالَتْ لَهَا أُمُّهَا أَمَامَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ .

« أَيُّ بِنِيَّةٍ : إِنْ الْوَصِيَّةُ لَوْ تَرَكْتُ لِفَضْلِ أَدَبٍ ، تَرَكْتُ لَذَلِكَ مِنْكَ ،
وَلَكِنِّي تَذَكِّرُكَ لِلْغَافِلِ ، وَمَعُونَةٌ لِلْعَاقِلِ ، وَلَوْ أَنَّ أَمْرًا اسْتَعْنَتْ عَنِ الزَّوْجِ
إِنِّي أَبُوِيهَا ، وَشِدَّةٌ حَاجَتُهُمَا إِلَيْهَا ، كُنْتُ أَغْنِي النَّاسَ عَنْهُ ، وَلَكِنِ النَّسَاءُ
لِلرِّجَالِ خُلِقْنَ ، وَلَهُنَّ خُلِقَ الرِّجَالُ :

أَيُّ بِنِيَّةٍ : إِنَّكَ فَارَقْتِ الْجَوْ الَّذِي مِنْهُ خَرَجْتِ ، وَخَلَفْتِ الْعُشَّ الَّذِي فِيهِ
دَرَجْتِ ، إِلَى وَكْرٍ لَمْ تَعْرِفِيهِ ، وَقَرِينٍ لَمْ تَأَلْفِيهِ ، فَأَصْبِحِي بِمِلْكِهِ ^(٥) عَلَيْكَ رَقِيبًا
وَمِلِكًا ، فَكُونِي لَهُ أُمَّةً يَكُنْ لَكَ عَبْدًا وَشِيكًا ^(٦) . يَا بِنِيَّةُ : احْمَلِي عَنِّي عَشْرَ

[١] الدعص : السكيب من الرمل المجتمع . [٢] اللفاء : الفخذ الضخمة (والضخمة الفخذين) .

[٣] ساق خدلة : ممتلئة ضخمة (والجدلة المرأة الغليظة الساق المستديرتها وفي العقد : « خدلجان »)

(بفتح الحاء والذال وتشديد اللام) والجدلة : المرأة المتلثة الذراعين والساقين .

[٤] في مجمع الأمثال وجمهرة الأمثال ، أن الذي تزوج أم إيّاس هو الحارث بن عمرو ، والحارث هذا

هو حد امرئ القيس ، وذكر صاحب العقد أن الذي تزوجها هو عمرو بن حجر ، وأنها ولدت له الحارث

ابن عمرو جد امرئ القيس غير أنا نلاحظ أنه قال في مقدمة هذا الوصف : « ثم أقبلت عصام إلى الحارث

فقال لها ما وراءك يا عصام ؟ . . . الخ » . [٥] أم ملكة إيّاس : زوجه ، فلعلها ملكة مثلك الميم .

[٦] الوشيك : السريع ، أي يكن عبداً سريع الإجابة .

خصال تكن لك ذُخْرًا وذكراً ، الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلا تَقَعْ عينه منك على قبيح ، ولا يَثْمَمَ منك إلا أطيّب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيّب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عنه عند منامه ، فإن حرارة الجوع مَلْهَبَةٌ ، وتنقيص النوم مَفْضَبَةٌ ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وَحْشَمَهُ وِعْيَالَهُ ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل نُحْسِنِ التَّيْدِيرَ ، ولا تَفْشَى له سرًّا ، ولا تَعْصِي له أمرًا ، فَإِنَّكَ إِنِ أَفْشَيْتَ سرّه ، لم تَأْمَنِ غَدْرَهُ ، وَإِنِ عَصَيْتَ أمره ، أو غَرَّتْ صدره ، ثم اتقى م ذلك الْفَرَحَ إِنِ كَانَ تَرِحًا ، والا ككتابَ عنده إن كَانَ قَرِحًا ، فَإِنَّ الْخَصْلَةَ الْأُولَى مِنَ التَّقْصِيرِ ، والثانية من التَّكْدِيرِ ، وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا ، يكن أشد ما يكون لك إكرامًا ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما تكونين له مُرَافَقَةً ، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين ، حتى تُؤَثِّرِي رضاه على رضاك ، وهو اه على هواك فيما أحببت وكرهت ، والله ينجير لك .

(مجمع الأمثال ٢ : ١٤٣ ، والعقد البريد ٣ : ٢٢٣)

٣١٧ - لبيد بن ربيعة يصف بقلة

وفد على النعمان بن المنذر عامر بن مالك مُلَاعِبِ الْأَسِنَّةِ فِي رَهْطٍ مِنْ بَنِي جَعْفَرِ بْنِ كَلَابٍ ، فِيهِمْ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ ، فَطَعَنَ فِيهِمُ الرِّبِيعُ بْنُ زِيَادِ الْعَبْسِيِّ ، وَذَكَرَ مَعَايِبَهُمْ - وَكَانَ نَدِيمًا لِلنُّعْمَانِ ، وَكَانَتْ بَنُو جَعْفَرٍ لَهُمْ أَعْدَاءٌ - فَلَمْ يَزَلْ بِالنُّعْمَانِ حَتَّى صَدَّهُ عَنْهُمْ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ يَوْمًا ، فَأَرَا مِنْهُ جَفَاءً - وَقَدْ كَانَ يَكْرَهُهُمْ وَيَقْرَبُهُمْ - فَخَرَجُوا غَضَابًا ، وَلَبِيدٌ مَتَخَلِّفٌ فِي رِحَالِهِمْ ، يَحْفَظُ مَتَاعَهُمْ ، وَيَعْدُو بِأَيْدِيهِمْ كُلِّ صَبَاحٍ يَرعَاهَا - وَكَانَ أَحَدُهُمْ سَنًا - فَأَتَاهُمْ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُمْ يَتَذَاكَرُونَ

أمر الربيع ، فسألهم عنه فكتموه ، فقال : والله لا حَفِظْتُ لَكُمْ مَتَاعًا ، ولا سَرَّحْتُ لَكُمْ بَعِيرًا ، أو تخبروني فيم أنتم ؟ وكانت أم لبيد يتيمة في حِجْر الربيع ، فقالوا : خالك قد غلبنا على الملك ، وَصَدَّ عَنَّا وَجْهَهُ ، فقال لبيد : هل تقدرُونَ على أن تَجْمَعُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، فَأَزْجِرَهُ عَنكُمْ بِقَوْلِ مُمَضِّ مَوْئِلٍ ، لا يلتفت إليه النعمان بعده أبدًا ؟ قالوا : وهل عندك شيء ؟ قال : نعم . قالوا : فَإِنَّا نَبْلُوكُ . قال : وما ذلك ؟ قالوا : تَشْتَمُ هَذِهِ الْبَقْلَةَ - وَقَدْ آمَهَمُ بِقَلَّةِ دَقِيقَةِ الْقَضْبَانِ ، قَلِيلَةَ الْأَوْرَاقِ ، لاصِقَةَ بِالْأَرْضِ ، تَدْعَى التَّرْبَةَ - فقال :

« هذه التربة التي لا تُذْكَرُ (١) نَارًا ، ولا تُؤْهِلُ (٢) دَارًا ، ولا تُسْرُجَارًا ، عُوْدَهَا ضَنْبِيلٌ ، وَفَرَعُهَا كَلْمِيلٌ (٣) ، وخيرها قليل ، أقبح البقول مَرْعَى ، وأقصرها فَرَعًا ، وأشدّها قَلْعًا ، فَتَعَسَا لَهَا وَجَدْعًا (٤) ، بلدها شاسع (٥) ، وَنَبْتُهَا خَاشِعٌ ، وَآكِلُهَا جَانِعٌ ، والمقيم عليها قانع (٦) ، فآلِقُوا بِي أَخَا بَنِي عَبَسَ ، أَرُدَّهُ عَنكُمْ بِتَعَسٍ (٧) وَنُكْسٍ ، وأتركه من أمره في لبس . »

فلما أصبحوا غَدَوْا به معهم إلى النعمان ، فذكروا حاجتهم ، فاعترض الربيع ، فرجز به لبيد وَجَزَأَ مَا لَبِثَ مَعَهُ النُّعْمَانُ أَنْ تَقَرَّزَ مِنْهُ ، وَأَمْرَهُ بِالْأَنْصَرَفِ إِلَى أَهْلِهِ . (مجمع الأمثال ٢ : ٣٣ ، جهرة الأمثال ٢ : ١١٦ ، الأغاني ١٤ : ٩١ ،

أبناء نجباء الأبناء ص ١٧١ ، وأمالى السيد المرتضى ١ : ١٣٥)

٣١٨ - محالس بن مزاحم وقاصر بن سلمة عند النعمان بن المنذر
كان مُحَالِسُ بْنُ مَزَاحِمِ الْكَلْبِيِّ ، وَقَاصِرُ بْنُ سَلَمَةَ الْجُدَيْمِيِّ . يباب النعمان

[١] تذكى : تشعل . [٢] أى ولا تؤدم أهل دار من الإهالة (ككتابة) وهو كل ما يؤدم به ، ويقال ثريدة مأهولة : أى فيها إهالة . [٣] ضعيف . [٤] قطعاً . [٥] يعبد . [٦] أى سائل . [٧] التمس : الهلاك .

ابن المنذر، وكان بينهما عداوة، فأتى قاصر إلى ابن فرّتنى وهو عمرو بن هند أخو النعمان بن المنذر، وقال: إن مخالسا هجاك، وأنشده فى ذلك أياتا، فلما سمع عمرو ذلك أتى النعمان، فشكا مخالسا وأنشده الأبيات، فأرسل النعمان إلى مخالسا، فلما دخل عليه قال: « لا أمّ لك! أتهجو امرأ هو ميتا خير منك حيا، وهو سقيما خير منك صحيحا. وهو غائبا خير منك شاهدا؟ فبحرمة ماء المزن^(١)، وحقّ بأبى قابوس^(٢)، لأنّ لاح لى أن ذلك كان منك، لأنزِعَنَّ غلصمتك من قفاك، ولأطعمنك لحمك » .

قال مخالسا: « أبيت اللعن؟ كلا، والذي رفع ذرّوتك بأعمادها، وأمات حسادك بأكادها، ما بلغت غير أقاويل الوشاة، ونمائم العصاة، وما هجوت أحدا، ولا أهجو امرأ ذكرت أبدا، وإنى أعوذ بجدك الكريم، وعزّ بيتك القديم، أن ينالنى منك عقاب، أو يفاجئنى منك عذاب، قبل الفحص والبيان، عن أساطير أهل البهتان » .

فدعا النعمان قاصرا فسأله، فقال قاصر: « أبيت اللعن! وحقك لقد هجاه وما أروانيها سواه » فقال مخالسا: « لا يأخذنّ أيها الملك منك قول امرئ أفك^(٣)، ولا تورّدنى سبيل المهالك، واستدلّ على كذبه بقوله: إنى أرويته مع ما تعرف من عداوته »، فعرف النعمان صدقه فأخرجهما .

فلما خرجا، قال مخالسا لقاصر: « شقي جدك، وسقل خدك، وبطل كيدك، ولاح للقوم جرّمك، وطاش عنى سهمك، ولأنت أضيق حجرا من

[١] المزن: السحاب أو أبيضه أو ذو الماء، جمع مزنة . [٢] يعنى نفسه وأبو قابوس كنيته .

[٣] كذاب .

فَدَرَفَتْ^(١) ، إِنَّ أُمَامِي مَالاً أُسَامِي^(٢) . رَبِّ سَامِعٍ بِخَبْرِي لَمْ يَسْمَعْ بِعُذْرِي .
 كُلُّ زَمَانٍ لِمَنْ فِيهِ . فِي كُلِّ يَوْمٍ مَا يُكْرَهُ . كُلُّ ذِي نُضْرَةٍ سَيُخَذَلُ . تَبَارُوا
 فَإِنَّ الْبِرَّ يَنْمِي^(٣) عَلَيْهِ الْعَدَدُ . وَكُفُّوا أَلْسِنَتَكُمْ فَإِنَّ مَقْتَلَ الرَّجُلِ بَيْنَ فِكْيِهِ .
 إِنَّ قَوْلَ الْحَقِّ لَمْ يَدْعُ لِي صَدِيقًا . لَا يَنْفَعُ مَعَ الْجَزَعِ التَّبَقُّ . وَلَا يَنْفَعُ مِمَّا هُوَ
 وَاقِعُ التَّوَقُّ . سَتَسَاقُ ، إِلَى مَا أَنْتَ لَاقٍ . فِي طَلْبِ الْمَعَالِي يَكُونُ الْعَنَاءُ . الْاِقْتِصَادُ
 فِي السَّعْيِ أَبْقَى لِلْجَمَامِ^(٤) . مَنْ لَمْ يَأْسَ^(٥) عَلَى مَا فَاتَهُ وَدُعَ بَدْنُهُ ، وَمَنْ قَنِمَ بِمَا
 هُوَ فِيهِ قَرَّتْ عَيْنُهُ . التَّقَدُّمُ قَبْلَ التَّنَدُّمِ^(٦) . أَصْبِحُ عِنْدَ رَأْسِ الْأَمْرِ أَحَبُّ إِلَى مَنْ
 أَنْ أَصْبِحَ عِنْدَ ذَنْبِهِ . لَمْ يَهْلِكْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظْتَكَ . وَيَلُ لِعَالَمِ أَمْرٍ مِنْ جَاهِلِهِ .
 يَتَشَابَهُ الْأَمْرُ إِذَا أَقْبَلَ ، فَإِذَا أَدْبَرَ عَرَفَهُ الْكَيْسُ وَالْأَحْمَقُ . الْوَحْشَةُ ذَهَابُ
 الْأَعْلَامِ^(٧) . الْبَطْرُ عِنْدَ الرِّخَاءِ مُحَقَّقٌ وَالْعِجْزُ عِنْدَ الْبَلَاءِ أَفْنٌ^(٨) . لَا تَغْضَبُوا مَنْ
 الْيَسِيرِ ، فَرَبَّمَا جَنَى الْكَثِيرِ . لَا تُجِيبُوا فِيهَا لَمْ تُسْأَلُوا عَنْهُ . وَلَا تَضْحَكُوا مِمَّا
 لَا يُضْحِكُ مِنْهُ . حِيلَةٌ مِنْ لَا حِيلَةَ لَهُ الصَّبْرُ . كُونُوا جَمِيعًا فَإِنَّ الْجَمْعَ غَالِبٌ ،
 تَثَبَّتُوا . وَلَا تَسَارِعُوا فَإِنَّ أَحْزَمَ الْفَرِيقَيْنِ الرَّكِينُ . رَبُّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا . اذْرِعُوا
 اللَّيْلَ وَاتَّخِذُوهُ جَمَلًا . فَإِنَّ اللَّيْلَ أَخْفَى لِلْوَيْلِ . وَلَا جَمَاعَةَ لِمَنْ اخْتَلَفَ . تَنَاءُ وَافِي
 الدِّيَارِ وَلَا تَبَاغَضُوا . فَإِنَّهُ مَنْ يَجْتَمِعُ يَتَقَعَّقُ^(٩) عَمْدُهُ . أَلْزَمُوا النِّسَاءَ الْمَهَابَةَ^(١٠)

[١] ذرعت عينه كضرب : سال دمعها ، وذرف العين دمعها أسالته ، وهو مثل يضرب لمن رأى الأمر

رف حقيقته . [٢] ساماه : باراه في السمو . [٣] يزيد وي جمع الأمثال « يبق » .

[٤] أي أبقى للقرّة ، من حم الفرس جما (بالفتح) ترك الضراب فتجمع مؤه ، وجم الماء يجم بضم

يم وكسرهما جوما كثر واجتمع ، والبتر تراجع ماؤها ، والجمام بالفتح أيضاً : الراحة . [٥] يحرن .

[٦] أي ففكر في التقدم قبل أن تندم . [٧] الأعلام جمع علم وهو سيد القوم .

ينصف الرأي والمقل ، وفي الأصل أمن وهو تحريف . [٩] تقع : اضطرب

بصرك ، وفي الأصل يهتده وهو تحريف ، وهذا مثل معناه لا يد من الافتراق بعد الاحتجاج ،

والمعنى يهتدون اليوم ويقاربوا وقع بينهم الشر فتفرقوا ، أو من غبط بكثرة العدد واتساق الأمر فهو

يعرض الزوال والانتعاش . [١٠] أي أن يهابوكم ويوقروكم ، وفي الأصل « المهابة » وهو تصحيف .

نِعْمَ لَهُوَ الْغُرَّةُ ^(١) الْمَنْزِل . إِنْ تَعِشْ تَرَ مَا لَمْ تَرَهُ . قَدْ أَقْرَ صَامِتٍ . الْمِكْثَارِ
 كحَاطِبٍ ^(٢) لَيْلٍ . مِنْ أَكْثَرِ أَسْقَطٍ ^(٣) . لَا تَجْعَلُوا سِرًّا إِلَى أُمَّةٍ . لَا تَفَرَّ قَوَا فِي
 الْقِبَائِلِ ، فَإِنَّ الْغَرِيبَ بِكُلِّ مَكَانٍ مَظْلُومٌ ، عَاقِدُوا الثَّرْوَةَ ^(٤) . وَإِيَّاكُمْ
 وَالْوَشَائِظَ ^(٥) فَإِنَّ مَعَ الْقِلَّةِ الذَّلَّةَ : لَوْ سُئِلَتِ الْعَارِيَةُ قَالَتْ أُنْبِي لِأَهْلِي ذُلًّا .
 الرَّسُولُ مُبَلِّغٌ غَيْرُ مَلُومٍ . مِنْ فَسَدَتْ بَطَانَتُهُ غَصَّ بِالْمَاءِ . أَسَاءَ سَمْعًا فَأَسَاءَ
 جَابَةً ^(٦) . الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كِفَاعُهُ . إِنْ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أَوْعَفِ الْمَسْكِنَةِ . قَدْ تَجْوَعُ
 الْحُرَّةُ وَلَا تَأْكُلُ بِشَدِيدِهَا ^(٧) . لَمْ يَجْرُ سَالِكُ الْقَصْدِ ، وَلَمْ يَعْمَ قَاصِدُ الْحَقِّ . مِنْ

[١] الشريفة . [٢] الحاطب : الذي يجمع الحطب ، وهو حطب ليل : أى مغلط في كلامه .

[٣] أسقط كلمة ، وأسقط في كلمة أى أخطأ .

[٤] عاقدوا : حالفوا ، والثروة : كثرة العدد من الناس . [٥] يقال هم وشيطة في قومهم أى
 حشوفهم . [٦] جابة بمعنى إجابة ، اسم وضع موضع المصدر ، ومثلها الطانة والظانة والغارة والمارة ،
 قال المفصل : أول من قال ذلك سهيل بن عمرو ، وكان تزوج صفية بنت أبي جهل بن أنى هشام ، فولدت
 له أنس بن سهيل ، نخرج معه ذات يوم ، فوقف بحزورة مكة (والحزورة كفسورة : الرابية الصغيرة)
 فأقبل الأخنس بن شريق الثقفي ، فقال : من هذا ؟ قال سهيل : ابنى ، قال الأخنس : حياك الله يافتي !
 قال : لا ، والله ما أمى في البيت ، اطلقت إلى أم حطلة نحن دقيفاً ، فقال أبوه : أساء سمعاً فأساء جابة
 فأرسلها مثلاً . [٧] أى لا تعيش بسبب ثديها وبما يفلان عليها من أجره الإرضاع ، يضرب في
 صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب ، وذكروا أن أول من ذله الحارث بن سليل الأسدي ، وكان شيخاً
 كبيراً وكان حليفاً لعلمة بن خصمة الطائي ، فراره فنظر إلى ابنته الزباء ، وكانت من أهل أهل دهرها
 فأعجب بها ، فقال له : أتيتك خاطباً ، وقد يذبح الحاطب ، ويدرك الطاب ، ويمنج الراغ ، فقال له
 علمة : أنت كعب كريم يقبل ملك العفر ، ويؤخذ منك العفو ، فأتم تنظر في أمرك ، ثم انكفاً إلى أمها
 فقال إن الحارث بن سليل سيد قومه حسباً ومنصباً وبنياً ، وقد خطب إلينا الزباء ، فلا ينصرفن إلا بمحاجته
 فقالت امرأته لابنتها : أى الرجال أحب إليك ؟ الكهل الجعجاج (أى السيد) ، الواصل المناح ، أم الفتى
 الواضح ؟ قالت : لا ، بل الفتى الواضح ، قالت : إن الفتى يعيرك ، وإن الشيخ يعيرك ، وليس الكهل
 الفاضل ، الكثير النائل ، كالحديث السن ، الكثير المن ، قالت : يا أمتاه ، إن الفتاة تحب الفتى كح
 الرعاء أتيق الكلاء ، قالت : أى بنية ، إن الفتى شديد الحجاب ، كبير العتاب ، قالت إن الشيخ يبلى شبابه ،
 ويدنس ثيابه ، ويشمت بي أنزاني ، فلم تزل أمها بها حتى غلبتها على رأيها ، فتزوجها الحارث على مئة وحسين
 من الإبل وخادم ، وألف درهم ، فأبى بها ثم رحل بها إلى قومه ، فبينما هو ذات يوم جالس ببناء قومه وهي
 إلى جانبه إذ أقبل إليه شباب من بني أسد يمتلجون ، (أى يتصارعون ويتقاتلون) فتفتت الصمداء ، ثم
 أرخت عينها بالبيكاء ، فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : مالي وللشيوخ ، الناهضين كالفروخ ، فقال لها :
 شكلك أملك تجوع الحرمة ولا تأكل بشديها ، الحق بأهلك فلا حاجة لي فبك .

شَدَّدَ نَفْرًا ، ومن تراخى تَأَلَّفَ . الشرف التناقل . أَوْفَى القَوْلُ أَوْجَزُهُ . أصوب
الأمور تَرَكَ الفُضُولَ . التفرير مِفْتَاحُ البؤس . التواني والعجز ينتجان الهلكة .
لكل شيء ضَرَاوَةٌ ^(١) . أحوج الناس إلى الغنى من لا يُصْلِحُهُ إلا الغنى ، وهم
الملوك . حُبُّ المدح رأسُ الضياع . رِضَا الناس غاية لا تُبْلَغُ . لا تَكْرَهُ سُخْطَ
مَنْ رِضَاهُ الجَوْزُ . معالجة العَفَافِ مَشَقَّةٌ فتعوذ بالصبر . اقْضُرْ لسانك على الخير
وأخِرْ الغضب ، فَإِنَّ القُدْرَةَ من ورائك . من قَدَرَ أزمع . أَمْرٌ أعمال المقتدرين
الانتقام . جَازٍ بالحسنة ولا تكافئ بالسيئة . أغنى الناس عن الحِقْدِ مَنْ عَظُمَ عن
المجازاة . مَنْ حَسَدَ مَنْ دُونَهُ قَلَّ عُدْرُهُ . من جعل لِحُسْنِ الظن نصيباً رَوَّحَ عن
قلبه . عِيٌّ الصمت أحمد من عي المنطق . الناس رجلان محترس ومحترس منه .
كثير النُصْحِ يَهْجُمُ على كثير الظَّنِّ ^(٢) . من أَلَحَّ في المسألة أَبْرَمَ ^(٣) . خير السخاء
ما وافق الحاجة . الصمت يكسب المحبة . إن يغلب الكذب شيئاً إلا غلبَ
عليه الصدق . القلب قد يُتَّهَمُ وإن صدق اللسان . الانقباض عن الناس مَكْسَبَةٌ
للعداوة ، وتقريبهم مكسبة لقرين السوء . فكن من الناس بين القرب والبعد .
فإن خير الأمور أوساطها . فُسُولَةٌ ^(٤) الوزراء أضرم من بغض الأعداء . خير
القرناء المرأة الصالحة ، وعند الخوف حُسْنُ العمل . من لم يكن له من نفسه
زاجرٌ لم يكن له من غيره واعظ . وتمكَّنَ منه عدوه على أسوأ عمله . إن يَهْلِكَ
امرؤ حتى يملَّ ^(٥) الناس عَتِيدُ فعله ويشتد على قومه . وَيُعْجَبُ بما ظهر من

[١] يقال: ضرى الكلب بالصيد (كفرح) صراوة أى تعود ، وكاب صار ، وأضراء صاحبه عوده
وأضراء به : أغراء ، وضراء أيضاً تضرية . [٢] التهمة . [٣] أبرمه : أضمره وأله .
[٤] فسل فسولة فهو فسل أى رذل لامروءة له ، والوزراء ، جمع وزير وهو النصير والظهير .
[٥] فى الأصل « يملك » وأرى صوابه يمل .

مروءته . ويغتر بقومه . والأمر يأتيه من فوقه . ليس للمختال في حسن الثناء نصيب . لأنما مع العدم . إنه من أتى المكروه إلى أحد بدأ بنفسه . العي أن تتكلم فوق ما تسد به حاجتك . لا ينبغي لعامل أن يثق بإخاء من تضطره إلى إخائه حاجة . أقل الناس راحة الحقوق . من تعمّد الذنب لا تحل رحمته دون عقوبته ، فإن الأدب رفق ، والرفق يمن .

(جهرة الأمثال ١ : ٣٢٠ ، وجمع الأمثال ٢ : ١٤٥)

٣٢١ - وصية أكرم بن صيفى لطي

وقال أكرم بن صيفى فى وصية كتب بها إلى طي :

« أوصيكم بتقوى الله وصلة الرّحيم . وإياكم ونكاح الحمقاء ، فإن نكاحها غرر^(١) ، وولدها ضياع . وعليكم بالخيل فأكرموها ، فإنها حصون العرب ، ولا تضعوا رقاب الإبل فى غير حقها . فإن فيها ثمن الكريمة^(٢) ، ورّقوة الدم^(٣) ، وبألبانها يتحف الكبير^(٤) ، ويغذى الصغير ، ولو أن الإبل كُلفت الطحن لطحنت . ولن يهلك امرؤ عرف قدره . والعدم^(٥) العقل ، لا عدّم المال . ولرجل خير من ألف رجل . ومن عتب على الدهر طالت معتبته . ومن رضى بالقسم^(٦) طابت معيشته . وآفة الرأى الهوى . والمادة أملاك^(٧) . والحاجة مع المحبة خير من البغض مع الغنى . والدنيا دُول ، فما كان لك أتاك على ضعفك ، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك . والحسد داء ليس له دواء . والشامة تُعقب . ومن ير يوماً

[١] الغرر : الخطر ، عرر بنفسه تفريراً : عرضها للهلكة والاسم الغرر . [٢] يريد مهرها .
[٣] رقاً الدم : جف وسبكن ، والرقوة كصبور ما يوضع على الدم ليرقته ، والمعنى أنها تنطى و الديان فتحن بها الدماء . [٤] التحفة : البر واللاطف والطرفة ، وقد أتحفته تحفة . [٥] العدم بالضم وبضمين وبالتحريك الفقدان وغلب على فقدان المال . [٦] القسم : القدر .
[٧] وى رواية : « المادة أملاك من الأدب » .

يُرَبِّهِ . قبل الرِّمَاءُ مُتَمَلِّئًا الْكِنَانُ (١) . الندامة مع السفاهة . دِعَامَةُ الْعَقْلِ الْحَلْمُ .
 خَيْرُ الْأُمُورِ مَغَبَّةُ الصَّبْرِ . بقاء المودة عَدْلٌ (٢) التعاهد . من يَزُرُّ غِبًّا يَزِدُّ حَبًّا .
 التفرير مفتاح البؤس . من التواني والعجز تُتَجَّتِ (٣) الهَلَكَةُ . لكل شيء
 ضَرَاوَةٌ . فَضَّرَ لِسَانَكَ بِالْخَيْرِ . عَيَّ الصَّمْتَ أَحْسَنَ مِنْ عَيِّ الْمَنْطِقِ . الحزم حفظ
 مَا كُفِّتَ وَتَرَكْتُ مَا كَفَيْتَ . كثير النصح يَهْجُمُ عَلَى كَثِيرِ الظَّنَّةِ . من ألحف، نى
 المسألة ثَقُلَ . من سأل فوق قدره استحق الحرمان . الرَّفْقُ يُمْنٌ ، وَالْحُرْفُ شَوْمٌ .
 خَيْرُ السَّخَاءِ مَا وَافَقَ الْحَاجَةَ . خَيْرُ الْعَفْوِ مَا كَانَ بَعْدَ الْقُدْرَةِ « (بمع الأمثال ٢ : ٨٧)

٣٢٢ - أمثال أ كثم بن صيفي (وَبُزْرَجِيهِ) الفارسي (٤)

« العقل بالتجارب . الصاحب مناسب (٥) . الصديق مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ (٦) .
 الغريب من لم يكن له حبيب . رب بعيدٍ أقربُ من قريب . القريب من قُرب
 نفعه . لو تكاشفتُم ما تدافتُم . خَيْرُ أَهْلِكَ مِنْ كِفَاكَ ، خَيْرُ سِلَاحِكَ مَا وَقَاكَ . خَيْرُ
 إِخْوَانِكَ مَنْ لَمْ تَخْبُرْهُ . رب غريبٍ ناصح الجيب (٧) ، وابنِ أبٍ متهم الغيب ، أخوك

[١] الرماء مصدر رامى كالرماءة ، والكنان جمع كنانة وهي جمعة السهام ، وهو مثل معناه : تؤخذ للأمر
 أهبتة قبل وقوعه ومثله قولهم « قبل الرمي يراش السهم » أى يوضع له الريش . [٢] العدل : الاستقامة
 أى بقاء المودة فى استقامة التعاهد والحرص على سلامة شروطه . [٣] ويروى نتجت الفاقة .
 [٤] هكذا فى العقد المرید ، وليس من الميسور تمييز أمثال أحدهما من أمثال الآخر إلا فى القليل ، على
 أنه قد ورد بينها أمثال لغير أ كثم ، (ولعله تمثل بها) وأخرى له قد وردت فى ثنايا كلامه الذى أوردته
 آنفاً ، ولكى آثرت إيراد المقال برمته كما جاء فى العقد ، وبزرجيه : مركب من بزرج معرب بزرك
 أى الكبير ، ومهر أى الروح وهو بزرجيه بن البحتكان وزير كسرى أنوشروان ملك الفرس ، وكان
 سيد الفكر ، حصيف الرأى . [٥] المناسب والنسيب : القريب ، من النسبة (بالكسر والضم)
 وهى : القرابة ، وبينهما مناسبة أى مشاكلة ، هذا يناسب ذاك أى يقاربه شبيهاً .
 [٦] فى الأصل « من صدق غيبه » رهو محرف ، وأراه من صدق غيبه أو غيبته أى من صدق فى
 مودته ، وحفظ الأخاء ، فى الغيبة لا فى المحضر لحسب . [٧] جيب القميص طوقه ، وهو ناصح الجيب
 أى الملب كناية عن أنه خالص الطوية لا غش فيه .

مَنْ صَدَقَكَ ، الأَخَ مَرَاةَ أَخِيهِ إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهَنْ (١) . مُكْرَهُ أَخَاكَ لَا بَطْلَ (٢) .
 تَبَاعَدُوا فِي الدِّيَارِ وَتَقَارَبُوا فِي الْمَحَبَةِ . أَيُّ الرِّجَالِ الْمَهْذَبُ (٣) ؟ مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ
 كُلُّهُ . إِنَّكَ إِنْ فَرِحْتَ لَأَقِ فَرَحًا . أَحْسِنْ يُحْسِنَ إِلَيْكَ أَرْحَمَ تُرْحَمَ . كَمَا
 تَدِينُ تُدَانَ (٤) . مَنْ يَرِ يَوْمًا يُرِ بِهِ ، وَالدهِرُ لَا يُغْتَرُّ بِهِ ، عَيْنٌ عَرَفَتْ
 فِدْرَفَتْ (٥) . فِي كُلِّ خِبْرَةٍ عِبْرَةٌ ، مِنْ مَأْمَنِهِ يُؤْتَى الْحَذِرُ . لَا يَعْدُو المَرءُ رِزْقَهُ
 وَإِنْ چَرِصَ . إِذَا نَزَلَ القَدْرُ عَمِيَ البَصْرُ ، وَإِذَا نَزَلَ الحَيْنُ نَزَلَ بَيْنَ الأُذُنِ
 وَالعَيْنِ (٦) . الحُرْمَةُ مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ . العِنَاءُ رُقِيَّةُ الزَّانِءِ (٧) . القِنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ .
 خَيْرُ العِنَى غِنَى النَفْسِ . مَنْ سَاقَ إِلَى مَا أَنْتَ لَاقٍ . خِذْ مِنَ العَافِيَةِ مَا أُعْطِيَتْ .
 مَا لِلإِنْسَانِ إِلاَّ القَلْبُ وَاللِّسَانُ . إِنَّمَا لَكَ مَا أَمْضَيْتَ . لَا تَتَكَلَّفْ مَا كُفِيَتْ .
 القَلَمُ أَحَدُ اللِّسَانِينَ . قَلَّةُ العِيَالِ أَحَدُ اليَسَارِينَ ، وَبِمَا ضَاقَتِ الدُّنْيَا بِأَثْنِينَ . لَنْ

[١] في الميداني : هذا المثل لهديل بن هيرة التلعبي ، وكان أطار على بنى صبة فغنم فأقبل بالعامم . فقال له أصحابه قسمها بيننا ، فقال إني أخاف إن شاذلتم بالاقترام أن يدرككم الطلب فأبوء ، فعندهما قال : « إذا عزَّ أخوك فهن » ثم نزل فقسم بينهم الغنائم ، ومماها : مياسرتك صديقك ليست بضميرك منه فتدخلك الحمية به ، إنما هو حسن خلق وتفصل ، فإذا طاسرك فياسره .

[٢] قاله أبو حنبل : وذلك أن رجلاً من بنى ذرارة يقال له بيهرس أحبر أن ناساً من أشجع في ذر يشربون فيه - وكانوا قد قتلوا لإخوته الستة - فاطلق بحال له يسمى أبا حنبل ، فقال له هل لك في غار فيه ظباء لعلنا نصيب منها - ويروى : هل لك في فنيمة باردة - ثم اطلق به حتى أقامه على دم العار ، ودفنه فيه فقال : صرباً أبا حنبل ، فقال بعضهم : إن أبا حنبل لبطل ، فقال أبو حنبل : مكره أحاك لا بطل ، فأرسلها مثلاً . [٣] في الميداني : أول من قاله النابغة الذبياني حيث قال :

ولست بمسئوب أخاً لا تله على شعث : أي الرجال المهذب ؟

[٤] الدين بالكسر : الجزاء دانه يدينه ديناً بالفتح ويكسر ، ومعنى المثل كما تجاري تجازي : أي كما تعمل تجازي ، إن حسناً فحسن ، وإن سيئاً فسيئاً ، وقوله تدين : أراد تعمل فسمى الابتداء جراً للمطابقة والمواقة ، وعلي هذا قوله تعالى : « فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا آعْتَدَى عَلَيْكُمْ » . ويجوز أن يجري كلاهما على الجزاء أي كما تجازي أنت الناس على صنيعهم كذلك تجاري على صنيعك .

[٥] في الأصل « عين رقت » وهو تشويه ، وصوابه « عين عرفت فذرفت » .

[٦] الحين : الهلاك ، وقوله : نزل بين الأذن والعين أي يسمع ومرأى من نزل به لا مختفياً عنه .

[٧] زنى يزنى زنى وزناه .

تَعَدَّم الحسنة ذاماً^(١) . لم يَعَدَّم الغاوى لائماً . لا تَكُ في أهلك كالجنازة^(٢) .
لا تَسْخَرَنَّ من شيء فيجوز بك ، أخر الشر فإذا شئت تعجَّلتَه . صغير الشر
يوشِكُ أن يكبُر . يُبْصِر القلب ما يعمى عنه البصر . الحُرُّ حُرٌّ وإن مَسَّهُ الضرُّ .
العبد عبدٌ وإن ساعدَه جدُّ^(٣) . من عَرَفَ قَدْرَه استبان أمرَه . من سرَّه بنوه
سأته نفسه . من تعظَّم على الزمان أهانه . من تعرض للسلطان آذاه ، ومن
تطامن له تخطَّاه . من خطا يخطو^(٤) . كل مبذول تملول . كل ممنوع مرغوبٌ
فيه . كل عزيز تحت القدرة ذليلٌ . لكل مقام مقال . لكل زمان رجال .
لكل أجل كتابٌ . لكل عمل ثوابٌ . لكل نباٌ مستقرٌ . لكل سرٌّ مستودع .
قيمة كل إنسان ما يُحْسِن . اطلب لكل غلق^(٥) مفتاحاً . أكثره في الباطل
يكن حقاً . عند القنط^(٦) يأتي الفرج . عند الصباح يُحمَد السرى^(٧) .

[١] الدام : والذيم العيب ، قال الميداني : « وأول من تكلم بهذا المثل فيما زعم أهل الأخبار حي بنت مالك بن عمرو العدوانية (وحى : بضم الحاء ، وتشديد الباء المفتوحة) وكانت من أجل النساء ، فسمع بجماله ملك غسان يخطبها إلى أبيها ، وحكمه في مهرها ، وسأله تمجيلها ، فلما عزم الأمر ، قالت أمها لتباعها : إن لنا عند الملامسة رشحة فيها هنة ، فإذا أردت إدخالها على زوجها ، فطينها بما في أصدافها ، فلما كان الوقت أمجلمن زوجها ، فأغفلن تطيبها ، فلما أصبح قيل له : كيف وجدت أهلك : طروقتك ، البارحة ؟ فقال ما رأيت كالليلة قط لولا رويحة أنكرتها ، فقالت هي من خلب الستر » لا تعدم الحسنة داما » فأرسلتها مثلاً .

[٢] الحنازة بالكسر : الميت ، ويفتح ، أو بالكسر الميت ، وبالفتح السرير ، أو عكسه ، أو بالكسر السرير مع الميت ، والمراد هنا الميت ، وهذا المثل والمثلان قبله في الأصل مشوهة مختلطة مكذبة : « لن تعدم الحسنة ما لم يعدم الغاوى لا يعلأ بك في أهلك كالجنازة » . [٣] الجد : الخط .

[٤] يريد : من حاول الخطو وعالجه استطاعه ومرن عليه ، أى أن من أراد أمراً وتحيل له وأخذ في معالجته وممارسته ، تم له ما يبغي ، وهو كقولهم : إنما العلم بالتعلم ، « ورفع يخطو في المثل حسن لأن الشرط ماص » . [٥] الملق : الفقل كالملاق . [٦] القنط والقنوط : اليأس .

[٧] السرى : السير ليلاً ، ويروى « عند الصباح يحمَد القوم السرى » وهو مل يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة ، وفي الميداني : « أن أول من قال ذلك خالد بن الوليد لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنهما وهو باليمامة أن سر إلى العراق ، فأراد سلوك المغازة ، فقال له رافع الطائي : قد سلكتها في الجاهلية ، هي خمس للإبل الواردة (فلاة خمس بكسر الحاء : بعد وردما حتى يكون ورد النعم اليوم

الصدق مَنجاة ، والكذب مَهْوَاة . الاعتراف يهدم الاقتراف . ربّ قول أنفذُ
 من صَوَّل . رب ساعة ، ليس بها طاعة . رب عَجَلَةٌ تُعَقِّبُ رَيْثًا^(١) . بعض الكلام
 أقطعُ من الحسام . بعض الجهل أبلغ من الحليم . ربيع القلب ما اشتهى . الهوى
 شديد العمى . الهوى الإله المعبود . الرأى نائمٌ ، والهوى يقظان . غلب عليك من
 دِعا إليك . لا راحة لحسود ولا وفاء . لا سرورَ كَطِيبِ النَّفْسِ . العمر أقصر من أن
 يحتمل إلهَجْر . أحق الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة . خير العلم ما نفع . خير القول
 ما أتبع البِطْنَةَ^(٢) تُذهب الفِطْنَةَ . شر العمى عمى القلب . أوثق العُرَى كلمة
 التقوى^(٣) . النساء حبايل الشيطان . الشباب شُعبَة من الجنون . الشقى من شَقِيَ
 في بطن أمه . السعيد من وُعظ بغيره . لكل امرئ في بدنه شُغل . من يَعْرِفِ
 البلاءَ يَصْبِرْ عليه . المقادير تُريك ما لا يخطر ببالك . أفضل الزاد ما نُزُوِدَ للمعاد .

الرابع سوى اليوم الذى شربت فيه) ولا أظنك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء ، فاشترى مائة شارف
 (الشارف النافذة المسنة) فمطشها ثم سقاها الماء حتى رويت ، ثم سلك المعازة ، حتى إذا مضى يومان
 وخاف العطش على الناس والحيل ، وخشى أن يذهب ما فى بطون الإبل نحر الإبل ، واستخرج ما فى
 بطونها من الماء ، فسقى الناس والحيل ومضى ، فلما كان فى الليلة الرابعة . قال رابع : انظروا هل ترون
 سدرأ عظماً (السدر بالكسر شجر النبق) فإن رأيتموها وإلا فهدم الهلاك ، فنظر الناس فرأوا السدر
 فأخبروه فكبر وكبر الناس ، ثم هجموا على الماء فقال خالد رجزاً منه « عند الصباح يحمد القوم السرى »
 [١] الريث : الإبطاء ، ويروى تهب ريثاً ، وفى الميدانى : « أن أول من قال ذلك مالك بن عوف
 ابن أبى عمرو بن عوف بن محلم الشيباني ، وكان سنان بن مالك بن أبى عمرو بن عوف بن محلم شام غيماً ،
 فأراد أن يرحل بأمرانه وهى أخت مالك بن عوف ، فقال له مالك : أين تظمن يا أختي ؟ قال : أطلب موقع
 هذه السعابة . قال : لا تفعل فإنه ربما خيلت ، وليس فيها قطر ، وأنا أخاف عليك فأبى ، ومضى معرض
 له مروان الفرظ بن زباع العبسى ، فأعجله عنها وانطلق بها ، وجعلها بين بناته وأحوته ولم يكشف لها سترها
 فقال مالك بن عوف لسنان : ما فعلت أختي ؟ قاله : فتتى عنها الرماح ، فقال مالك : « رب عجلة تهب
 ريثاً . ورب فروقة يدعى ليثاً ، ورب غيث لم يكن غيثاً » ، فأرسلها مثلاً ، يضرب للرجل بشد حرصه على
 حاجة ، ويخرق فيها حتى تذهب كلها » .

[٢] البطنة : الامتلاء الشديد من الطعام . [٣] انظر خطبة عبد الله بن مسعود .

الفَحْلُ أُنْحَى لِلشَّوْلِ (١) . صاحبُ الحِطْوَةِ غَدًا ، من بلغ المَدَى . عواقب الصبر محمودة . لا تُبَلِّغِ الغَايَاتُ بِالأَمَانِي . الصَّرِيعةُ (٢) على قدر العزيمة . الضيفُ يُثْنِي أو يَذُمُّ . من تفكر اعتبر . كم شاهدٍ لك لا ينطق . ليس منك من غَشَّكَ . ما نظر لأمرٍ مثلُ نفسه . ما سد فقرك إلا ملكُ يمينك . ما على عاقل ضيعةٌ . الغنى في العُربَةِ وطَن . المُقِلُّ في أهله غريب ، أول المعرفة الاختبار . يَدُكَ منك وإن كانت سَلَاءً . أنفُكَ منك وإن كان أجَدَعٌ (٣) . من عُرِفَ بالكذب جاز صدقه (٤) . الصحة داعية السَّقَم . الشباب داعية الهرَم . كثرة الصيَّاح من الفشل . إذا قَدُمَتِ المصيبةُ تُرَكَّتِ التعزية . إذا قَدُمَ الإخاءُ سُمِّجَ الثناء . العادة أملك من الأدب . الرفقُ يُنَمِّنُ وألحرقُ شؤم . المرأةُ رِيحانةٌ وليست بقَهْرَمَانَةٍ (٥) .

[١] الشول : جمع شائلة وهي من الإبل ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر خف لبنا ، وأحمى : أعمل من الخاية . [٢] الصريعة : قطع الأمر (والعزيمة) . [٣] وبروى « منك أمك وإن كان أجدع » وفي الميداني : « أول من قال ذلك قنفذ بن جمونة المازني للربيع بن كعب المازني ، وذلك أن الربيع دفع فرساً كان قد أبرّ على الخيل (أى زاد) كرمًا وجوده إلى أخيه كيش ليأتي به أهله ، وكان كيش أنوك مشهوراً بالحق ، وكان رجل من بني مالك يقال له قراد بن جرم قدم على أصحاب الفرس ليصيب منهم عرة فيأخذها ، وكان داهية فكث فيهم مقما لا يرفون نسبه ولا يظهره هو ، فلما نظر إلى كيش راكباً الفرس ركب ناقته ثم عارضه ، فقال يا كيش : هل لك في عانة لم أر مثلها سمناً ولا عظماً (المانة : القطيع من حمر الوحش) وغير معها من ذهب ؟ فأما الآن (بضمين جمع أمان) فتروح بها إلى أهلك فتملأ قدورهم ، وتمرح صدورهم ، وأما العير فلا انتقار بعده ، قال له كيش : وكيف لنا به ؟ قال : أملك به ، وليس يدرك إلا على فرسك هذا ، ولا يرى إلا بليل ، ولا يراه غيره ، قال كيش : فدونك ، قال : نعم وأمسك أنت راحلتي ، فركب قراد الفرس وقال : انتظرنى في هذا المكان إلى هذه الساعة من غد ، قال : نعم ومضى قراد : فلم يزل كيش ينتظره حتى أمسى من غده وحاح ، فلما لم ير له أنراً انصرف إلى أهله وقال في نفسه : إن سألتني أخى عن الفرس قلت تحول ناقة ، فلما رآه أخوه الربيع عرف أنه خدع عن الفرس ، فقال له : أين الفرس ؟ قال : تحول ناقة ، قال : فما فعل السرج ؟ قال : لم أذكر السرج فاطلب له علة ، فصرعه الربيع ليقتله ، فقال له قنفذ بن جمونة : اله عما فانتك ، فإن أنفك منك وإن كان أجدع ، فذهبت مثلاً .

[٤] في مجمع الأمثال (٢ : ١٧٥) : « من عرف بالصدق جاز كذبه ، ومن عرف بالكذب لم يحز صدقه » . [٥] القهرمان : هو كالحازن والوكيل الحافظ لما تحت يده ، والقائمُ بأمور الرجل بلمة الفرس .

الدالّ على الخير كفاعله . المحاجزة قبل المناجزة . قبل الرّماية تملأ الكنائن . لكل ساقطةٍ لاقطةٌ . مَقْتَل الرجل بين فكّيه . تَرَكَ الحركة غفلة . الصمت حُبْسَة . مَنْ خَيْرَ خَيْرٍ . إن تَسْمَعَ مُنْطَر (١) . كفى بالمرء خيانةً أن يكون أميناً للخونة . قَيَّدُوا النِّعَمَ بالشكر . من يزرع المعروف يحصد الشكر . لا تغتر بمودة الأمير إذا غشك الوزير . أعظم من المصيبة سوء الخلف منها . من أراد البقاء فليوطن نفسه على المصائب . لقاء الأحبة مسلاةٌ للهَمِّ . قطيعة الجاهل كصلة العاقل . من رضى على نفسه كثيرَ الساخط عليه . قتلت أرضٌ جاهلها ، وقتل أرضاً عارفها . أدوا الداء الخلق الدني ، واللسان البدي . إذا جعلك السلطان أخاً فاجعله رباً . احذر الأمين ولا تأمن الخائن . عند الغاية يُعرف السبُّ . عند الرّهان يُحمد المضار . السؤال وإن قلّ ، أكثر من النوال وإن جَلَّ . كافيّ المعروف بمثله أو انشره . لا خُلةٌ (٢) مع عيّلة . لا مروءة مع ضرّ ، ولا صبر مع شكوى . ليس من العدل ، سرعة العذل (٣) . عبدٌ غيرك حرٌّ مثلك . لا يَعمَد الخيَّار ، من استشار . الوضيع من وضع نفسه . المهين من نزل وحده . من أكثر أهجر (٤) . كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع . (العقد الفريد ١ : ٢٧٢)

* *

ومن أمثال أكثم بن صيفي أيضاً :

« في الجريرة تشترك المشيرة (٥) . . إذا قرع الفؤاد ذهب الرقاد . هل

[١] أى إن تمتع أذنته للأقاويل تمطر وابل منها .

[٢] الخلة : الصداقة الملتصقة لا تخلل فيها ، والعيلة الفقر . [٣] اللوم .

[٤] الامهجار : الاغشاش وهو أن يأتي في كلامه بالفحش .

[٥] مثل يضرب في الحث على المواساة .

يُهْلِكُنِي فَقَدْ مَا لَا يَعُودُ؟ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ يَرْمِيَنِي أَمْرٌ وَبَدَائِهِ . رَبُّ كَلَامٍ ، لَيْسَ فِيهِ
 اِكْتِتَامٌ . حَافِظٌ عَلَى الصَّدِيقِ ، وَلَوْ فِي الْحَرِيقِ . لَيْسَ يَبْسِيرٌ ، تَقْوِيمُ الْعَسِيرِ .
 إِذَا أَرَدْتَ النَّصِيحَةَ ، فَتَاهَبِ لِلظَّنَّةِ . مَتَى تَعَالَجَ مَالٌ غَيْرَكَ تَسَامُ . غَثُّكَ خَيْرٌ مِنْ
 سَمِينِ غَيْرِكَ . لَا تَنْطَحُ جَمَاهُ ^(١) ذَاتَ قَرْنٍ . قَدْ يُبْلَغُ الْخَضَمُ بِالْقَضْمِ ^(٢) . قَدْ صَدَعَ
 الْفِرَاقُ ، بَيْنَ الرَّفَاقِ . اسْتَأْنَوْنَا ^(٣) أَخَاكُم ، فَإِنْ مَعَ الْيَوْمِ غَدًا . الْحُرُّ عَزُوفٌ ^(٤)
 لَا تَطْمَعُ ، فِي كُلِّ مَا تَسْمَعُ . (جمهرة الأمثال ٢ : ١٠٣)

٣٢٣ — كلمات هند بنت الحس الإيادية

أَتَى رَجُلٌ هِنْدَ بِنْتِ الْحُسِّ الْإِيَادِيَّةِ يَسْتَشِيرُهَا فِي امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا ، فَقَالَتْ :
 « انظُرْ رَمَكَا ^(٥) جَسِيمَةً ، أَوْ بِيضَاءَ وَسِيمَةً ، فِي بَيْتِ جَدِّ ، أَوْ بَيْتِ حَدِّ ،
 أَوْ بَيْتِ عَزٍّ » قَالَ : مَا تَرَكْتِ مِنَ النِّسَاءِ شَيْئًا ، قَالَتْ : « بَلَى ، شَرَّ النِّسَاءِ تَرَكْتِ ،
 السُّوَيْدَاءَ الْمِرَاضِ ^(٦) ، وَالْحُمَيْرَاءَ الْمُحِيَاضِ ^(٧) الْكَثِيرَةَ الْمُظَاطِ ^(٨) .
 وَقِيلَ لَهَا : أَيُّ النِّسَاءِ أَسْوَأُ ؟ قَالَتْ : « الَّتِي تَقْعُدُ بِالْفِنَاءِ ، وَتَعْمَلُ الْإِنَاءِ ،
 وَتَعْتَدُقُ ^(٩) مَا فِي السَّقَاءِ » قِيلَ : فَأَيُّ النِّسَاءِ أَفْضَلُ ؟ قَالَتْ : « الَّتِي إِذَا مَشَتْ
 أَغْبَرَتْ ^(١٠) ، وَإِذَا نَطَقَتْ صَرَّصَرَّتْ ^(١١) ، مُتَوَرِّكَةً جَارِيَةً ^(١٢) ، فِي بَطْنِهَا
 جَارِيَةً ، يَتْبَعُهَا جَارِيَةً ^(١٣) . »

[١] الجماء : الشاة بلا قرن مؤنث الأجم . [٢] القضم : الأكل بأطراف الأسنان ، والخصم : الأكل
 بأقصى الأضراس ، ومعنى المثل : قد تدرك الغاية البعيدة بالرفق . [٣] انظروا .
 [٤] من عزفت نفسه عنه إذا زهدت فيه وانصرفت عنه أي أنف راعب عن الدنيا .
 [٥] الرمكاء : السمراء ، والرمكة كحمر لون الرماد . [٦] المراض : البسقام .
 [٧] الكثيرة الحيض . [٨] المظاظ : المنازعة والمشاراة . [٩] تمزج .
 [١٠] أثار الفبار في مشيتها . [١١] أحدثت صوتها . [١٢] أي حاملة لها على وركها .
 [١٣] أي هي مثنات .

قيل : فأى الغلمان أفضل ؟ قالت : « الأَسْوَقُ الأَعْنَقُ ^(١) ، الذى إن شَبَّ كأنه أحق » قيل : فأى الغلمان أفضل ^(٢) ؟ قالت : « الأَوْيَقِصُ ^(٣) القصير العَضُدُ ، العظيم الحاوية ^(٤) ، الأَغْيِيرُ العِشَاءُ ، الذى يُطِيعُ أمَّهُ ، وَيَعْصِي عَمَّهُ .
(الأملال ٢ : ٢٦٠)

* * *

وقيل لها : أى الرجال أحبُّ إليك ؟ قالت : السَّهْلُ النَجِيبُ ، السَّمْحُ الحَسِيبُ ، النَّذْبُ ^(٥) الأَرِيبُ ، السيد المَهِيْبُ ، قيل لها : فهل بقى أحد من الرجال أفضل من هذا ؟ قالت : نعم ، الأَهْيَفُ الهَفْهَفُ ^(٦) ، الأَنْفُ العِيَّافُ ، المُفِيدُ المُتَلَّافُ ، الذى يُخَيِّفُ ولا يُخَافُ ، قيل لها : فأى الرجال أَبْغَضُ إِلَيْكَ ؟ قالت : الأَوْرَهُ ^(٧) النَّثُومُ ، الوَكَلُ السُّثُومُ ، الضَّعِيفُ الحَيْزُومِ ، اللِّيمُ المَلُومُ ، قيل لها : فهل بقى أحد شر من هذا ؟ قالت : نعم ، الأَحْمَقُ النَّزَّاعُ ، الضَّاعِ المُضَاعُ ، الذى لا يُهَابُ ولا يُطَاعُ ، قالوا : فأى النساء أحبُّ إليك ؟ قالت : البيضاء العَطْرَةَ ، كأنها ليلة قَمَرَةٍ ^(٨) ، قيل : فأى النساء أَبْغَضُ إِلَيْكَ ؟ قالت : العِنْفِصُ ^(٩) القصيرة ، التى إن اسْتَنْطَقْتَمَهَا سَكَتَتْ ، وإن سَكَتَتْ عَنْهَا نَطَقَتْ .
(ذيل الأملال ص ١٢٠)

[١] الأسوق : الطويل الساق ، والأعناق : الطويل العنق .

[٢] أفضل من فسل : ككرم وعلم وعى فسالة وفسولة وهو فسل أى رذل لا مروءة له .

[٣] الأويقص : تصغير أوقص وهو الذى يدنو رأسه من صدره .

[٤] ما تحوى من الأمعاء أى استدار .

[٥] الذب : الخفيف فى الحاجة الظريف النجيب ، والأريب : العاقل . [٦] الأهيف وصف من

الهييف بالتحريك ، وهو ورقة الخاصرة ، والقميص الهففاف ، أى الرقيق الشفاف . [٧] الأوره :

الأحق من وره كفرح . [٨] ليلة قمره وقراء ومقبرة : فيها القمر . [٩] العنفس : المرأة

البديهة القليلة الحياء ، والقليلة الجسم الكثرة الحركة .



وقال لها أبوها يوماً : أى المال خير؟ قالت : « النَّخْل ، الرَّاسَخَاتُ فِي
الْوَحْل ، الْمُطْعِمَاتُ فِي الْمَحْل ^(١) » قال : وأى شيء؟ قالت : « الضَّان ، قَرْيَةٌ
لَا وَبَاءَ بِهَا ، تُنْتَجِبُهَا رِخَالًا ^(٢) ، وَتَحْلِبُهَا عِلَالًا ^(٣) ، وَتَجْزُّ لَهَا جُفَالًا ^(٤) ، وَلَا
أَرَى مِثْلَهَا مَالًا » قال : فالإبل مالكِ تُؤَخَّرُ مِنْهَا؟ قالت : « هِيَ أَذْكَارُ الرَّجَالِ ،
وَإِرْقَاءُ الدَّمَاءِ ، وَمُهِوْرُ النِّسَاءِ » قال : فأى الرجال خير؟ قالت :

خير الرَّجَالِ الْمُرْهَقُونَ كَمَا خَيْرُ تِلَاعِ الْبِلَادِ أَوْطَوْهَا ^(٥)

قال : أيهم؟ قالت الذى يُسْأَلُ وَلَا يَسْأَلُ ، وَيُضَيَّفُ وَلَا يُضَافُ ، وَيُصْلِحُ وَلَا يُصْلَحُ .
قال : فأى الرجال شرٌّ؟ قالت : « الشُّطَيْطُ النَّطِيطُ ، ^(٦) الذى معه سُويَطٌ ^(٧) ، الذى
يقول أذركونى من عبْدِ بنى فلان ، فَإِنِى قَاتِلُهُ أَوْ هُوَ قَاتِلِى » . قال : فأى النساءِ
خير؟ قالت : « التى فى بطنها غلامٌ ، تحمل على وَرِكِهَا غلامًا ، يَمْشِى وَرَاءَهَا
غلامٌ » قال : فأى الجمال خير؟ قالت : « السَّبْحَلُ الرَّبْحَلُ ^(٨) ، الرَّاحِلَةُ الْفَحْلُ » .
قال : أَرَأَيْتَكَ الْجَذَعُ ^(٩) ، قالت : لَا يَضْرِبُ ، وَلَا يَدَعُ ، قال : أَرَأَيْتَكَ الثَّنِي ^(١٠)
قالت : يَضْرِبُ ، وَضِرَابُهُ وَفِي ^(١١) ، قال : أَرَأَيْتَكَ السَّدَسَ ^(١٢) ، قالت
ذاك الْعَرَسَ ^(١٣) . (ذيل الأمل من ١٠٨)

[١] الحِل : الشدة والجذب واقطاع المطر . [٢] الرخال جمع رخل كحمل وكتف وهو الأنتى من
أولاد الصان . [٣] يقال عالت الناقة ، وهو أن تحلب أول النهار ووسطه وآخره ، والاسم
علال ككتاب . [٤] الجفال : الكثير من الصوف .
[٥] المرهق : من يغشاه الناس والأضياف . [٦] النطيط : الذى لا الحية له ، والنطيط :
الهدريان (بكسر الهاء والراء) وهو الكثير الكلام يأتى بالخطأ والصواب عن غير معرفة .
[٧] تصغير سوط . [٨] السبحل والرّبحل : البعير الضخم الكثير اللحم . [٩] أرايتك : كلمة
تقولها العرب بمعنى أخبرنى ، الجذع : البعير إذا كان فى السنة الخامسة . [١٠] البعير إذا كان فى السادسة
وألقى نثيته . [١١] قال أبو على : الصواب أنى أى بطيء . [١٢] السدس : البعير إذا كان فى
الثامنة . [١٣] العرس : الأسد .

وقيل لها : أى الخيل أحب إليك ؟ قالت : « ذو الميعة الصنيع ^(١) ،
السليط التليع ^(٢) ، الأيّد الضليع ^(٣) ، المذهب ^(٤) السريع » فقيل لها : أى
الغيوث أحب إليك ؟ قالت : « ذو الهيدب المنبعق ^(٥) ، الأضخم المؤتلق ^(٦)
البصخب المنبتق ^(٧) » وقيل لها : ما مائة من المعز ؟ قالت : مؤيل يشف الفقر
من ورائه ، مال الضعيف ، وحرّفة العاجز » قيل : فما مائة من الضأن ؟ قالت
« قرية لاجمى بها » قيل : فما مائة من الإبل ؟ قالت : « بئح ^(٨) ، جمال ومال ،
ومنى الرجال » . قيل : فما مائة من الحيل ؟ قالت : « طغى من كانت له ولا
يوجد » قيل : فما مائة من الحمُر ؟ قالت : « عازبة ^(٩) الليل ، وخزى المجلس ، لا لبن
فيخلب ، ولا صوف فيجزّ ، إن ربطت عيظها ^(١٠) أدلى ، وإن ترك ولى ، وقيل
لها : من أعظم الناس في عينك ؟ قالت : « من كانت لي إليه حاجة » .
(شرح العيون ص ١٨٤)

[١] ماع المرس يبيع : جرى ، وصنعة الفرس : حسن القيام عليه ، صنعت فرسى صنماً وصنعة (بفتح
الصاد وبهما) والصنيع ذاك الفرس . [٢] السليط : الشديد ، والحديد من كل شيء ، والتليع :
الطويل العنق من التلع بفتح العين وهو طول العنق . [٣] الأيّد ككيس : القوى ، من آد يئيد أيداً
أى قوى واشتدّ ، والضليع وصف من ضلع كفصح ضلاعة ، وهى القوة وشدة الأصلاع .
[٤] هو الذى يجتهد فى عدوه حتى يثير المبار ، من أهب . [٥] الهيدب : السحاب المتدلى ،
والمنبعق : الانبج بالمطر . [٦] الضخم : كشمس وسبب وأحمد وغراب : العظيم من كل شيء ، واثلق
البرق وتألّق : لمع . [٧] الصخب : وصف من الصخب كسبب وهو شدة الصوت ، والمنبتق : المنفجر .
[٨] بئح كقر : أى عظم الأمر ونظم ، تقال وحدها وتكرر ، بئح بئح الأول منون مكسور ، والثانى مسكن ،
ويقال فى الأفراد : بئح ساكنة الخاء ، وبئح مكسورة ، وبئح مكسورة منونة ، وبئح منونة مصومة ، ويقال
بئح بئح مسكين ، وبئح بئح منونين مكسورين ، وبئح بئح مكسورين مشددين منونين كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء .
[٩] يقال : جل طازب : أى لا يروح على الحمى من العزوب وهو الغيبة والذهاب ، وقولها : خرى
المجلس ، أى بما تمدته من التهيق المزعج والإدلاء . [١٠] الدير : الحمار (وغلب على الوحشى) ،
وأدلى : أى أخرج قضيه ليبول أو يضرب .

وقالت: « أخبثُ الذئب ذئب الغنصا^(١) ، وأخبثُ الأفاعى أفعى الجذبِ ،
وأسرعُ الظبَاءُ ظبَاءَ الحُلْبِ^(٢) ، وأشدُّ الرجالِ الأعجفُ^(٣) ، وأجملُ النساءِ الفخمةُ
الأسيلة^(٤) ، وأقبحُ النساءِ الجهمةُ القفيرة^(٥) ، وآكلُ الدوابِّ الرغوثُ^(٦) ،
وأطيبُ اللحمِ عُوذُهُ^(٧) ، وأغلظُ المواطئُ الحصى على الصفا ، وشرُّ المالِ مالا
يزكى^(٨) ولا يذكى^(٩) ، وخيرُ المالِ سكةُ مأبورة^(١٠) ، أو مهرةُ مأمورة^(١١) »
(مجمع الأمثال ١ : ١٧٤)

خطب الكهان

٣٢٤ — الكاهن الخزاعي يُنقِرُ هاشم بن عبد مناف
على أمية بن عبد شمس

وَلِي هاشم بعد أبيه عبد مناف ، ما كان إليه من السقاية والرفادة^(١٢)

[١] الغنصا : شجر له جمر يبقى طويلا . [٢] الحلب : نبت ، قال حمزة : « العرب تسمى ضروباً من البهائم بضروب من المراعي تنسبها إليها ، فيقولون : ظبي الحلب ، وتيس الربله (والربل محرّكة نبات شديد الخضرة) ، وشيطان الحماطة (والحماطة كسحابة : شجر شبيه بالتين ، أحب شجر إلى الحيات) . الخ وذلك كله على قدر طباع الأمكنة والأغذية الماملة في طباع الحيوان . [٣] من المعجف بالتحريك وهو ذهاب السمن . [٤] الطويلة المسترسلة . [٥] الجهمة : مؤنث الجهم وهو الوجه الغليظ المجتمع السميح ، والقفرة : القليلة القفر بالتحريك أى الشعر . [٦] الرغوث : كل مرضعة كالمرغث . [٧] ما طاذ بالعظم من اللحم . [٨] زكي كرضى نما وزاد كزكا يزكو . [٩] ذكى تذكية : سمن وبدن (بضم الدال) . [١٠] السكة : السطر من النخل ، والمأبورة : المصلحة ، من أبرت الحبل أبره إذا لقحته وأصلحته . [١١] مأمورة : أى كثيرة الولد ، من أسرها الله أى كثراها ، وكان يفبى أن يقال مؤمرة ، ولكنه أتبع مأبورة — اقرأ في كتاب بلاغات النساء ص ٨ فصلا طويلا في كلام هند بنت الحس وأختها جمعة .

[١٢] السقاية : هى إسقاء الحجيج الماء العذب ، والرفادة : خرج كانت تخرجه قريش في كل موسم من أموالها ، فتدفعه إليه ، فيصنع به طعاماً للحجاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد .

ففسده أمية بن عبد شمس بن عبد مناف على رياسته وإطعامه ، وكان ذا مال ، فتكلف أن يصنع صنيع هاشم ، فعجز عنه ، فشمت به ناس من قريش ، فغضب ونال من هاشم ، ودعاه إلى المنافرة ، فكره هاشم ذلك لِسِنِّه وقدره ، فلم تدعه قريش حتى نافره على خمسين ناقة سُود الحَدَقِ يَنَحِّرُهَا بِيَطْنِ مَكَّةَ ، والجلاء عن مكة. عشر سنين ، فرضى بذلك أمية ، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعيّ - وهو جد عمرو بن الحَمِقِ ، ومنزله بِعُسْفَانَ^(١) ، وكان مع أمية هَمَّهْمَةٌ بن عبد العزى الفِهْرِيّ ، وكانت ابنته عند أمية ، فقال الكاهن :

« والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والنمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم^(٢) مسافر ، من مُنْجِدٍ وَغَاثٍ^(٣) ، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر ، أولّ منه وآخر ، وأبوهممة بذلك خابر .»

فقضى لهاشم بالغلبة ، وأخذ هاشم الإبل ، فنحرها وأطعمها ، وغاب أمية عن مكة بالشأم عشر سنين ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٦ ، والسيرة الحلبية ١ : ٤ ، وتاريخ الطبري ٢ : ١٨٠)

٣٢٥ — عوف بن ربيعة الأسدي يتكهن بمقتل حجر بن الحارث

كان حُجْرُ بن الحارث (أبو امرئ القيس) ملكَ بني أسد ، وكان له عليهم إتاوة^(٤) كل سنة لما يحتاج إليه ، فبقي كذلك دهرًا ، ثم بعث إليهم من ينجي ذلك منهم ، ونفجر يومئذ بتهمامة ، فطردوا رسله وضربوهم ، فبلغ ذلك

[١] عسفان : موضع على مرحلتين من مكة . [٢] العلم : ما نصب في الطريق يهتدى به .

[٣] أنجد : أتى نجدًا ، وثار وأغار : أتى غورًا . [٤] خراج .

حجراً ، فسار إليهم ، فأخذ سرّواتيهم^(١) وخيارهم ، وجعل يقتلهم بالعصا (فسئوا عبيد العصا) وأباح الأموال ، وصيرهم إلى تهامة ، وجلس جماعة من أشرافهم منهم عبيد بن الأبرص الشاعر ، فقال شعراً يستعطفه فيه ، ومنه قوله :

أنت المليك عليهمُ وهم العبيد إلى القيامة

فرق لهم وعفا عنهم ، وردهم إلى بلادهم ، فلما صاروا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة بن عامر الأسدي ، فقال لهم : يا عبادي ، قالوا : لبيك ربنا ، فقال : « من المليك الصلّيب^(٢) ، الغلاب غير المغلب^(٣) ، في الإبل كأنها الربرب^(٤) ، لا يقلق رأسه الصنّيب^(٥) ، هذا دمه ينثعب^(٥) ، وهو غداً أول من يستلب^(٦) » قالوا : ومن هو ؟ ربنا . قال : « لولا تجيش^(٦) نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حُجْر ضاحية^(٧) » .

فركبوا كل صعب وذلول ، حتى بلغوا عسكر حجر ، فهجموا عليه في

قته فقتلوه . (تاريخ الكامل لابن الأثير ١ : ١٨٣ ، والشعر والشعراء ص ٣١ ، والأغانى ٨ : ٦٣)

٣٢٦ - كاهن بني الحارث بن كعب يحذرهم غزو بني تميم

كان بنو تميم قد أغاروا على لطيمة^(٨) لكسرى ، فيها مسك وغبر وجوهر كثير ، فأوقع كسرى بهم ، وقتل المُقاتلة ، وبقيت أموالهم وذراتهم في مساكنهم لا مانع لها ، وبلغ ذلك بني الحارث بن كعب من مذحج ، فمشى

[١] سرّوات جمع سرّاة بالفتح وهي اسم جمع سرّى كنى من سرّوا وهو المروءة و شرف .
[٢] حجر صلّيب : شديد صلّب ، والصلّيب أيضاً : الشديد من الإبل ، والرجل الطويل ، وفي الشعر والشعراء والأغانى « الأصهب » ومن معانيه الأسد . [٣] المغلب : المغلوب مراراً (وهو أيضاً المحكوم له بالغلبة . ضد) . [٤] الربرب : القطيع من بقر الوحش . [٥] ينثعب . يتفجر . [٦] جاشت النفس وتجيشت ارتفعت من حزن أو فزع . [٧] حلانية ، يقال فعله ضاحية : أى علانية . [٨] اللطيمة : المير تحمل الطيب وبرزّ التجار .

بعضهم إلى بعض ، وقالوا اغتصموا بنى تميم ، فاجتمعت بنو الحارث وأحلافها من
بند وحزم بن رزيان في عسكر عظيم ، وساروا يريدون بنى تميم ، فحذرهم كاهن
كان مع بنى الحارث واسمه سلمة بن المغفل ، وقال :

« إنكم تسيرون أعقاباً ^(١) ، وتغزون أحباباً ^(٢) ، سعداً ورباباً ، وتردون
مياهاً جباباً ^(٣) ، فتلقون عليها ضراباً ، وتكون غنيمتكم تراباً ^(٤) ، فأطيعوا
أمرى ولا تغزوا تميماً » ولكنهم خالفوه وقتلوا بنى تميم ، فهزموا هزيمة نكراء .
(تاريخ الكامل لابن الأثير ١ : ٢٢٧ ، والأغانى ١٥ : ٧٠)

٣٢٧ - أحد كهان اليمن يفصل في أمر هند بنت عتبة

كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحد قتيان قريش ، وكان قد تزوج هند
بنت عتبة ، وكان له بيت للضيافة ينعشاه الناس فيه بلا إذن ، فقال ^(٥) يوماً في
ذلك البيت ، وهند معه ، ثم خرج عنها وتركها نائمة ، فجاء بعض من كان ينعش
البيت ، فلما وجد المرأة نائمة ولّى عنها ، فاستقبله الفاكه بن المغيرة ، فدخل على
هند وأنبهها ، وقال : من هذا الخارج من عندك ؟ قالت : والله ما انتبهت حتى
أنبهتني ، وما رأيت أحداً قط ، قال : الحق بأبيك ، وخاض الناس في أمرهم ،
فقال لها أبوها : يا بنية العار ^(٦) وإن كان كذباً ، بثيني شأنك ، فإن كان الرجل
صادقاً دسست عليه من يقتله ، فيقطع عنك العار ، وإن كان كاذباً حاكمته إلى

[١] أى يسير بكم عنكم بعض ، فريقاً في إثر فريق ، وقد ذكر ابن الأثير أنهم كانوا نحو ثمانية
آلاف ، ولا يعلم في الجاهلية جيش أكثر منه ومن جيش كسرى بذي قار ومن يوم جيلة ، وروى
أبو الفرج الاصبهاني أنه اجتمع من منجج ولقها اثنا عشر ألفاً . [٢] هذه العاصلة والعاصلتان قبلها ،
وردت في الأصل بحرفه هكذا : « إنكم تسيرون أعياناً ، تغزون أحياناً ، سعداً ورباناً » .

[٣] الجباب والأجباب جمع جب ، وهو الثر الكثيرة الماء الجيدة القعر . [٤] أورد صاحب الأغاني
من هذه القعر الست ، الفقرة الأولى والرابعة والسادسة ، وعراها إلى المأمور الحارثي وهو كاهن أيضاً .
[٥] قال قتيلا وقيلولة ومقيلاً : نام في القائلة وهي نصف النهار . [٦] أى اتقى العار .

بعض كهان اليمين ، قالت : والله يا أبتِ إنه لكاذب ، فخرج عتبة فقال :
إنك رميت ابنتي بشيء عظيم ، فإما أن تُبيِّن ما قلت ، وإلا فإنا كمنني إلى
بعض كهان اليمين ، قال : ذلك لك ، فخرج الفاكه في جماعة من رجال قريش ،
ونسوة من بني مخزوم ، وخرج عتبة في رجال ونسوة من بني عبد مناف ، فلما
شارفوا بلاد الكاهن تغير وجه هند ، وكسف بالها ، فقال لها أبوها : أي بنية ،
الآن كان هذا قبل أن يشتهر في الناس خروجنا ؟ قالت : يا أبت والله ما ذلك
لمكروه قبلي ، ولكنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب ، ولعله أن يسميني بسمة
تبقى على السنة العرب ، فقال لها أبوها : صدقت ، ولكني سأخبره لك ، فصفر
بفرسه ، فلما أدلى عمده إلى حبة بُرٍ ، فأدخلها في إحليله ، ثم أوكى (١) عليها
وسار ، فلما نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم ، فقال له عتبة : إنا أتيناك في
أمر ، وقد خبنا لك خبيثة ، فما هي ؟ قال : بُرة ، في كمرّة (٢) ، قال : أريد
أبين من هذا ، قال : « حبة بُرٍ » ، في إحليل مُهرٍ ، قال : صدقت ، فانظر في أمر
هؤلاء النسوة ، فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن ، ويقول : قومي لشأنك ،
حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها ، وقال : « انهضى غير رقحاء (٣)
ولا زانية ، وستلدين ملكاً يسمى معاوية » .

فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها ، فنثرت يده من يدها ، وقالت : إليك
عني ، والله لأحرصن أن يكون ذلك الولد من غيرك ، فتزوجها أبو سفيان ،
فولدت له معاوية .

(العقد البريد ٣ : ٢٢٤ ، وصبح الأعمى ١ : ٣٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ١١١)

[١] الوكاء ككتاب : حبل يشد به رأس القرية ، ووكاها وأوكاها وأوكي عليها شدتها بالوكاء .
[٢] الكمرّة : رأس الذكر . [٣] الرقحاء : البني التي تكسب بالفجور ، من الرقاعة كفصاحة
وهي الكسب والتجارة ، هذا ما ورد في ابن أبي الحديد ، وفي غيره « رسحاء » والرسحاء : القبيحة ،
والرسحاء أيضاً : القليلة لحم العجز والمعدن والأول أنسب .

٣٢٨ - خمسة نفر من طيِّ يمتحنون سواد بن قارب الدوسي

خرج خمسة نفرٍ من طيِّ من ذوى الحِجَابِ والرأى ، منهم بُرْجُ بن مُسْهِرٍ ، وهو أحدُ المُعَمَّرِينَ ، وأُنَيْفُ بن حارثة بن لأمٍ ، وعبد الله بن سعد بن الحَشْرَجِ أبو حاتم طيِّ ، وعارف الشاعر ، ومُرَّة بن عَبْدِ رُضَى ، يريدون سَوَادَ بن قاربِ الدَّوْسِي ، ليمتحنوا علمه ، فلما قرَّبوا من السَّرَاةِ ، قالوا : أَيَخْبَأُ كلُّ رجلٍ منا خَيْبَةً ، ولا يُخْبِرُ به صاحبه ، ليسأله عنه ، فإنَّ أصابَ عَرَفْنَا عِلْمَهُ ، وإنَّ أخطأَ ارتحلنا عنه ، نَخْبَأُ كلُّ رجلٍ منهم خَيْبَةً ، ثم صاروا إليه ، فأهدوا له إبلاً وطرفاً من طَرْفِ الحَيْرَةِ ، فضرب عليهم قبة ، ونَحَرَ لهم ، فلما مضت ثلاثُ دعا بهم ، فدخلوا عليه .

فتكلم بُرْجُ - وكان أسنهم - فقال : « جَادَكَ السَّحَابُ ، وَأَمْرَعُ لَكَ الجَنَابُ ^(١) ، وَضَفَّتْ عَلَيْكَ النِّعَمُ الرَّغَابُ ^(٢) ، نَحْنُ أَوْلُو الآ كَالِ ^(٣) ، وَالْحَدَائِقُ وَالْأَغْيَالِ ^(٤) ، وَالنِّعَمُ الجُفَالِ ^(٥) ، وَنَحْنُ أَصْهَارُ الأَمْلاَكِ ، وَفُرْسَانُ العِرَاكِ - يُورِي عَنْهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ بَكْرَيْنِ وَائِلٍ - » .

فقال سواد : « وَالسَّمَاءُ والأَرْضُ ، وَالغَمْرُ وَالْبَرَضُ ^(٦) ، وَالقَرَضُ

[١] أمرع : أخصب ، والجَنَابُ : ماحول الدار . [٢] الصاق : السابغ الكثير ، يقال : خير فلان صاف على قومه : أى سابغ عليهم ، والرضايب : الواسعة الكثيرة جمع رغبة . [٣] الآ كَالِ : جمع أكل (كقفل وعنق) الرزق والمط من الدنيا . [٤] الأغيال جمع غيل كشمس : وهو الماء الجارى على وجه الأرض . [٥] الجفال : الكثيرة . [٦] العمر : الماء الكثير ، ويقال : رجل غمر الحماق إذا كان واسع الخلق سخيا ، والبوض : الماء القليل ، ويقال : فلان يتبرض حقه : أى يأخذه قليلا قليلا .

والفَرَضِ^(١) ، إنكم لأهلُ الهَضَابِ الشَّمِ^(٢) ، والنخيلِ العُمِّ ، والنَّخُورِ الشَّمِ^(٣) من أجأ العَيْطَاءِ ، وسَمِي ذَاتِ الرَّقَبَةِ السَّطَمَاءِ^(٤)

قالوا : إنا كذلك ، وقد خَبَأَ لك كل رجل منا خبيئاً ، لتخبرنا باسمه وخبيئته ، فقال لبرج : « أقسم بالضياء والحللك^(٥) ، والنجوم والفلك ، والشروق والدلك^(٥) ، لقد خَبَأَتْ بُرْثُنَ فَرْنِ^(٦) ، في إعْلِيْطِ مَرْنِ^(٧) ، تحت آسِرَةِ الشَّرْنِ^(٨) » قال : ما أخطأت شيئاً ، فمن أنا ؟ قال : أنت بُرْجُ بنِ مُسْهِرِ ، عُصْرَةَ المُمْعِرِ^(٩) ، وَثَمَالُ المَحْجَرِ^(١٠) .

ثم قام أنيف بن حارثة ، فقال : ما خبيئى وما اسمي ؟ فقال : « والسحاب والتراب ، والأصباب والأحداب^(١١) والنعم الكُثَابِ^(١٢) ، لقد خَبَأَتْ قُطَامَةَ فَسِيْطِ^(١٣) ، وقُدَّةَ مَرِيْطِ^(١٤) ، في مَدْرَةِ من مَدِيِّ مَطِيْطِ^(١٥) » قال : ما أخطأت شيئاً ، فمن أنا ؟ قال : « أنت أنيف ، قارى الضيف ، ومُعْمَلِ السيف ، وخالطُ الشتاء بالصيف » .

[١] الفرس : ماتعطيه لتقضاء ، والفرس : ما فرضته على نفسك فوهبته أوجدت به لغير ثواب .
[٢] الشم : الطوال ، وكذا العم . [٣] أجأ وسلمي : جلاطي ، والعيطاء : الطويلة ، وكذا السطماء . [٤] الحللك : شدة السواد . [٥] دلكت الشمس دلوكاً : عربت أو اصفرت ، والدلك : وقت الدلوك . [٦] البرثن : ظفر كل مالا يصيد من السباع والطيور مثل الحمام والضب والفأرة فإذا كن مما يصيد ، قيل لظفره محلب . [٧] المرح : شجر تقدح منه النار ، والإعْلِيْطِ : وعاء ثمر المرح ، والعرب تشبه به آذان الحيل . [٨] الآسرة والإيسار : القد الذي يشد به خشب الرجل ، وشرخا الرجل حاناه . [٩] المعمر : الذي ذهب ماله ، والعصرة : اللجأ والمجاة .
[١٠] الثمال : الفيات الذي يقوم بأمر قومه ، والمحجر : اللجأ (بصيغة اسم المفعول) المضيق عليه .
[١١] الأصباب : جمع صب كسبب : وهو ما انخمس من الأرض ، والأحداب جمع حدب كسبب أيضاً : وهو ماعلا . [١٢] الكثرة . [١٣] القطامة : ما قطنته بفيك ، والقطم بأطراف الأسنان ، والفسيط : فلامه الظفر . [١٤] القذة : الريشة ، والمريط من السهام : الذي قد تمرط ريشه أى تنف [١٥] المدرة : قطعة طين يابسة ، والمدى : جدول صغير يسيل فيه ما هريق من ماء البثر ، والمطيطة : الماء الخائر في أسفل الحوض .

ثم قام عبد الله بن سعد . فقال : ما خبيثي وما اسمي ؟ فقال سواد : « أقسم
لِسَوَامِ الْعَازِبِ ^(١) ، وَالْوَقِيرِ الْكَارِبِ ^(٢) ، وَالْمُجَدِّ الرَّاكِبِ ، وَالْمُشِيحِ
الْحَارِبِ ^(٣) ، لَقَدْ خَبَّاتُ نُفَاثَةٌ قَنَّ ^(٤) ، فِي قَطِيعِ قَدَمَرْنَ ^(٥) ، أَوْ أَدِيمٍ قَدْ
جَرَنَ » . قال : ما أخطأت حرفاً ، فمن أنا ؟ قال : أنت ابن سعدِ النَّوَالِ ، عَطَاوُكُ
سِجَالٍ ^(٦) ، وَشَرُّكَ عُضَالٍ ، وَعَمَدُكَ طَوَالٍ ، وَيَيْتُكَ لَايْنَالٍ » .

ثم قام عارف ، فقال : ما خبيثي وما اسمي ؟ فقال سواد : « أقسم بِنَفْنَفِ
الْأُوْحِ ^(٧) ، وَالْمَاءِ الْمَسْفُوحِ ^(٨) ، وَالْفِضَاءِ الْمَنْدُوحِ ^(٩) ، لَقَدْ خَبَّاتُ زَمْعَةٌ طَلًّا
أَعْفَرَ ^(١٠) ، فِي زِعْنِفَةٍ ^(١١) أَدِيمٍ أَحْمَرَ ، تَحْتَ حِلْسِ نِضْوٍ أَدْبَرَ ^(١٢) » قال :
ما أخطأت شيئاً ، فمن أنا ؟ قال : « أنت عارف ذو اللسان العَضْبِ ، وَالْقَلْبِ
النَّدْبِ ^(١٣) ، وَالْمَضَاءِ الْغَرْبِ ^(١٤) ، مَنَاعِ السَّرْبِ ^(١٥) ، وَمُبِيحِ النَّهْبِ » .

ثم قام مِرَّةُ بْنُ عَبْدِ رُضَى ، فقال : ما خبيثي وما اسمي ؟ فقال سواد :
« أقسم بِالْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَالْبُرُوجِ وَالْأَنْوَالِ ^(١٦) ، وَالظَّلَامَةِ وَالضِّيَاءِ ، لَقَدْ خَبَّاتُ
دِمَّةً ^(١٧) ، فِي رِمَّةٍ ^(١٨) ، تَحْتَ مَشِيْطِلِمَّةٍ ^(١٩) » . قال : ما أخطأت شيئاً ، فمن أنا ؟

[١] السوام : المال الراعى من الإبل ، والمازب : البعيد . [٢] الوقير : القطيع من الغنم ،
والكارب : القريب . [٣] المشيح : الجاد ، في لغة هذيل ، وى غيرها الحاذر ، والحارب : السالب ،
حربه حرباً كطلبه طلاً : سلته ماله . [٤] النفائة : ماتفته من فيك ، والفتن : واحد أمان
الأشجار وهى أغصانها . [٥] القطيع : ما يقطع من الشجر ، ومرن وحرن : لان .
[٦] أى يتداول بين الناس ، لكل فريق منه نصيب . [٧] الغنف والووح واحد ، وهما الهواء
وإنما أضاف لما اختلف اللغزان ، فكأنه أضاف الشيء إلى غيره . [٨] المصبوب .
[٩] الواسع . [١٠] الطلا : ولد الظبي ساعة يولد ، والصغير من كل شىء ، والأعفر من الطاء :
ما يعلو بياضه حمرة ، والزمعة : الشعرات المتدلّيات في رجل الأرنب . [١١] زطاف الأديم : أطرافه
مثل اليدين والرجلين ، ومالا خير فيه جمع زعنفة بئسر الزاى والنون ، ومنه قيل لردال الناس الرطاف .
[١٢] الحلس للبعير كالبرذعة للحافر ، والنضو : المهزول من الإبل وغيرها ، والأدبر : الذى أصابه
الدبر (بالتحريك) وهو قرحة الدابة . [١٣] الدكى : الحد . [١٤] الحد : السرب بالفتح :
الماشية كلها ، وبالسكر القطيع من الطباء والنساء وغيرها . [١٥] السرب بالفتح :
النجم : مال للغروب . [١٦] الأنواء : جمع نوء (كسهم)
النجمة : مال للغروب . [١٧] الدمة : القملة . [١٨] الرمة : العظام الدالية .
[١٩] اللمة : الشعر المجاوز لشحمة الأذن ، والمشيط : المشوط .

قال : « أنت مُرَّة ، السريع الكُرَّة ، البَطِيء الفرَّة ، الشديد المِرَّة ^(١) » .
 قالوا : فأخبرنا بما رأينا في طريقنا إليك ، فقال : « والناظر من حيث
 لا يُرَى ، والسَّامِع قبل أن يُتَاجَى ، والعالم بما لا يُدْرَى ، لقد عَنَّت لكم
 عُقَابٌ مَعْجَزَةٌ ^(٢) ، في شِعَابِيبٍ ^(٣) دَوْحَةٌ جَرْدَاءٌ ، تحمل جَدَلًا ^(٤) ، قماريتم ^(٥)
 إِمَائِدًا وإِمَارَجَلًا » فقالوا: كذلك ، ثم مه؟ قال : « سَنَحَ لكم قبل طلوع الشَّرْق ^(٦) ،
 سِيدٌ أَمَقٌ ^(٧) ، على ماء طَرَقَ ^(٨) » قالوا : ثم ماذا؟ قال : « ثم تيس أفرق ^(٩) ،
 سَنَدٌ في أْبْرَقٍ ^(١٠) ، فرماه الغلام الأزرق ، فأصاب بين الوابلة ^(١١) والمِرْفَقِ » .
 قالوا : صدقت ، وأنت أعلم من تحمل الأرض ، ثم ارتحلوا عنه . (الأمل ٢ : ٢٩٢)

٣٢٩ — حديث مصاد بن مذعور القيني

كَانَ مَصَادُ بْنُ مَذْعُورِ الْقَيْنِيِّ رَئِيسًا ، قَدْ أَخَذَ مِرْبَاعٌ ^(١٢) قَوْمِهِ دَهْرًا ، وَكَانَ
 ذَا مَالٍ ، فَتَدَّ ذَوْدُهُ ^(١٣) مِنْ أَذْوَادِهِ ، فَخَرَجَ فِي بِنَائِهَا ^(١٤) ، قَالَ : فَإِنِّي لِنِي
 طَلَبِهَا ، إِذْ هَبَطْتُ وَادِيًا شَجِيرًا ^(١٥) كَشِيفَ الظَّلَالِ ، وَقَدْ تَفَسَّخْتُ أَيْنًا ^(١٦) ،
 فَأَنْخَتُ رَاحَتِي فِي ظِلِّ شَجْرَةٍ ، وَحَطَطْتُ رَحْلِي ، وَرَسَعْتُ ^(١٧) بَعِيرِي ، وَاضْطَجَعْتُ

[١] المرَّة : اقوة . [٢] المعراء : التي ابيض ذنبا ، (وغير هذا الموضع : التي كبرت عجيزتها) .
 [٣] الشغازب جمع شغوب كمصفور وهو الغصن الناعم الرطب ، والدوحة : الشجرة العظيمة .
 [٤] الجدل : العصو وجمعه جدول . [٥] تبادلم . [٦] الشرق : الشمس ، والرب تقول
 لا أفعل ذلك ماطلع شرق ، وشرقت الشمس : طلعت ، وأشرقت : أضاءت . [٧] السيد : الذئب ،
 والأمق : الطويل . [٨] الطرق : الماء الذي بولت فيه الإبل ، يقال : ماء طرق ومطروق .
 [٩] الأفرق من الشاء : العيد ما بين خصبيه . [١٠] سند في الجبل : صعد ، والأبرق والبرقاء
 والبرقة كفرصة : غلظ من الأرض فيه حجارة وورل ، وجبل أبرق : إذا كان فيه لوانان .
 [١١] الوابلة : رأس العضد الذي يلي المنكب .
 [١٢] المربع : ربع العنينة ، وكان يختص به الرئيس في الجاهلية [١٣] ندَّ : شرد ، والذود :
 ثلاثة أبعرة إلى العشرة ، أو خمسة عشر ، أو عثمرون ، أو ثلاثون [١٤] طلبها
 [١٥] كثير الشجر . [١٦] تمباً وكلالا . [١٧] شددت رسفه

في بُرْدِي ، فَإِذَا أَرْبَعُ جَوَارٍ ، كَأَنَّهُنَّ اللَّالِي ، يَرَعَيْنِ بَهْمًا لَهْنًا ، فَلَمَّا خَالَطَتْ
عَيْنِي السَّنَةُ ، أَقْبَلْنَ حَتَّى جَلَسْنَ قَرِيبًا مِنِّي ، وَفِي كَفِّ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ
حَصِيَّاتٌ تَقْلِبُهُنَّ ، نَخَطَّتْ إِحْدَاهُنَّ ثُمَّ طَرَقَتْ ^(١) ، فَقَالَتْ : « قَلْنِ يَا بَنَاتِ
عَرَافٍ ، فِي صَاحِبِ الْجَمَلِ النَّيَافِ ^(٢) ، وَالْبُرْدِ الْكُثَافِ ^(٣) ، وَالْجَرِمِ ^(٤)
لِلْخُفَافِ ^(٥) » ، ثُمَّ طَرَقَتْ الثَّانِيَةَ ، فَقَالَتْ : « مُضِلُّ أَدْوَادٍ عَلَا كِدِّ ^(٦) ، كُومِ
صَلَاحِيهِ ^(٧) . مِنْهُنَّ ثَلَاثٌ مَقَاحِدِ ^(٨) ، وَأَرْبَعٌ جَدَائِدُ ^(٩) ، شُسُفٌ صَمَارِدُ ^(١٠) » ،
ثُمَّ طَرَقَتْ الثَّلَاثَةَ فَقَالَتْ : « رَعَيْنِ الْفَرَعِ ^(١١) ، ثُمَّ هَبَطْنَ الْكَرَعِ ^(١٢) ، بَيْنَ
الْعَقِدَاتِ وَالْجَرَعِ ^(١٣) » فَقَالَتْ الرَّابِعَةَ : « لِيَهْبِطِ الْعَائِطُ الْأَفِيحُ ^(١٤) ، ثُمَّ لِيُظْهَرَ
فِي الْمَلَأِ الصَّحَّصَحِ ^(١٥) ، بَيْنَ سَدِيرٍ وَأَمْلَحِ ^(١٦) ، فَهَنَّاكَ الذَّوْدُ رِتَاعٌ بِمُنْعَرَجِ
الْأَجْرَعِ » قَالَ : فَقَمْتُ إِلَى جَمَلِي فَشَدَدْتُ عَلَيْهِ رَحْلَهُ وَرَكِبْتُ ، وَوَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُنَّ
مَنْ هُنَّ وَلَا يَمَنَّ هُنَّ ؟ فَلَمَّا أَدْبِرْتُ ، قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ : « أَبْرَحُ ^(١٧) فَتَيِّ
إِنْ جَدَّ فِي طَلْبِ ، فَهَالَهُ غَيْرُهُنَّ نَشَبِ ^(١٨) ، وَسَيُثُوبُ عَنْ كَثَبِ ^(١٩) ،

[١] الطرق : ضرب الكاهن بالحصي . [٢] جبل نياف ككتاب وشداد : طويل في ارتفاع .
[٣] الكثيف . [٤] الجسد . [٥] الحفيف . [٦] أضل دابته : قدما ، والعلاكد :
الصلاب الشداد جمع علكد (بكعفر وزبرج وقنند) . [٧] بغير أ كوم ، وناقه كوما : عظيمة السنم
والجمع كوم ، والصلاح : العظام الشداد ، واحدها صلاحد بانغم . [٨] المقاحد جمع مقحاد ، وهي الفليضة
السنم (والفحدة كرقبة : السنم أو أصله) . [٩] الجدائد جمع جدود كصبور : وهي التي انقطع لبنها
[١٠] شسف جمع شاسف : وهو الياس صمرا وهزالا ، والسمارد جمع صمرد كزبرج : القليلة اللبن
[١١] الفرع جمع فرعة وهي أعلى الجبل . [١٢] الكرع : ماء السماء ينزل فيسقط ، وسمى كرطا
لأن المشاية تكرع فيه . [١٣] العقيدات جمع عقدة : وهي مائة قدم من الرمل ، والجرع جمع جرعة
بالسكون وبحرك : للزملة إلمادية التبت لاوعوثة فيها ، أو الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل أو الدعص
لا يثبت ، أو الكتيب جانب منه رمل وحانب حجارة كالأجرع والجرطاء . [١٤] العائط : المطش
من الأرض ، والأفيح : الواسع . [١٥] الملا : الفضا ، والصحصح والصحصاح ولصحصاحان :
ما استوى من الأرض . [١٦] سدير وأملح : موضعان . [١٧] أشد . [١٨] المال الأصيل من
الناطق والسمات . [١٩] يثوب : يرجع ، والكثب : القرب .

ففرَّع قلبي والله قولها ، فقلت : وكيف هذا ، وقد خلَّفت بَوَادِيَّ عَرَبًا
عُكَامِسًا ^(١) ؟ فركبتُ السَّمْتَ ^(٢) الذي وُصف لي ، حتى انتهيت إلى الموضع ،
فإذا ذُوْدِي رَوَاتِعُ ، فضربت أعجازهن ، حتى أشرفت على الوادي الذي فيه إبلي ،
فإذا الرَّعَاءُ تدعو بالويل ، فقلت ماشاً نكم ؟ قالوا : أغارت بهراء على إبلك ،
فَأَسْحَقْتَهَا ^(٣) ، فأمسيت والله مالي مال غير الذود ، فرمى الله في نواصيهم
بالرُّغْسِ ^(٤) ، وإني اليوم لَأَكْثَرُ بنى القين مالا . (الأملئ ١ : ١٤٣) .

٣٣٠ - حديث خنافر بن التوئم الحميرى مع رثيّه شصار

كَانَ خُنَافِرِ بْنِ التَّوْءَمِ الْحَمَيْرِيِّ كَاهِنًا ، وَكَانَ قَدْ أُوتِيَ بِسَطْرَةٍ فِي الْجِسْمِ ،
وَسَعَةً فِي الْمَالِ ، وَكَانَ عَاتِيًا ، فَلَمَّا وَقَدَّتْ وَفُودَ الْبَيْنِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَوَظَّهَرَ الْإِسْلَامَ ، أَغَارَ عَلَى إِبْلِ لِمُرَادٍ فَكَتَسَحَهَا ، وَخَرَجَ بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ ، وَوَلَّحِقَ
بِالشَّجْرِ ، فَخَالَفَ جَوْذَانَ بْنَ يَحْيَى الْفِرْضِيِّ ، وَكَانَ سَيِّدًا مَنِيْعًا ، وَنَزَلَ بِوَادٍ مِنْ
أَوْدِيَةِ الشَّجْرِ ، مُخَصَّبًا كَثِيرَ الشَّجَرِ مِنَ الْأَيْكِ وَالْعَرِينِ ^(٥) ، قَالَ خُنَافِرُ : وَكَانَ
رَثِيِّي ^(٦) فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَكَادُ يَتَغَيَّبُ غَنِيًّا ، فَلَمَّا شَاعَ الْإِسْلَامَ فَقَدَّتْهُ مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ ،
وَسَاءَنِي ذَلِكَ ، فَبَيْنَا أَنَا لَيْلَةٌ بِذَلِكَ الْوَدَايِ نَائِمًا ، إِذْ هَوَى هُوِيَّ الْمُعْقَابِ ، فَقَالَ :
خُنَافِرُ ؟ فَقُلْتُ : شِصَارُ ؟ فَقَالَ : ائْتَمِعْ أَقْلًا ، قُلْتُ : قُلْ أَشْمَعُ ، فَقَالَ : «عِهِ تَعْنَمُ ،
لِكُلِّ مَدَّةٍ نِهَآيَةٌ ، وَكُلُّ ذِي أَمَدٍ إِلَى غَايَةٍ ، قُلْتُ : أَجَلٌ ، فَقَالَ : كُلُّ دَوْلَةٍ إِلَى

[١] العرج : نحو حسامة من الإبل ، والكماس والعكاس : الكثير . [٢] الطريق .

[٣] استأصلها . [٤] الرغس : البركة والنعاء .

[٥] الأيك : الشجر الملتف الكثير ، والغيضة تبت السدر والأراك ، أو الجماعة من كل الشجر ،

والعرين : جماعة الشجر . [٦] الرثى : ما يترأى للإنسان من الجن فيجب .

أجل ، ثم يُتَّاح لها جَوْلٌ^(١) ، أُنْتُسِخَتْ النَّحْلُ ، وَرَجَعَتْ إِلَى حَقَائِقِهَا الْمِلَلُ ،
 إِنَّكَ سَجِيرٌ^(٢) مَوْصُولٌ ، وَالنُّصْحُ لَكَ مَبْدُولٌ ، وَإِنِّي آانَسْتُ^(٣) بِأَرْضِ الشَّامِ
 نَفْرًا مِنْ آلِ الْعُدَامِ^(٤) ، حُكَّامًا عَلَى الْحُكَّامِ ، يَذْبُرُونَ^(٥) ذَارِوَاتِنِي مِنَ الْكَلَامِ ،
 لَيْسَ بِالشَّعْرِ الْمُؤَلَّفُ ، وَلَا السَّجْعِ الْمُتَكَلَّفُ ، فَأَصْنَعْتُ فَرْجِرْتُ ، فَعَاوَدْتُ
 فَظَلِّفْتُ^(٦) ، فَقُلْتُ : بِمِ تَهَيَّنِمُونَ^(٧) ، وَإِلَّامَ تَعْتَرُونَ^(٨) ؟ قَالُوا : « خِطَابُ
 كُبَّارِهِ^(٩) ، جَاءَ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ ، فَاسْمِعْ يَا شِصَارُ ، عَنْ أَصْدَقِ الْأَخْبَارِ ،
 وَاسْأَلْكَ أَوْضَحَ الْأَثَارِ ، تَنْجُ مِنْ أَوَارِ^(١٠) النَّارِ » ، فَقُلْتُ : وَمَا هَذَا الْكَلَامُ ، فَقَالُوا :
 « فُرْقَانٌ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ، رَسُولٌ مِنْ مُضَرَ ، مِنْ أَهْلِ الْمَدَرِ ، ابْتُئِثَ فَظْهَرُ ،
 بِنِجَاءِ بَقُولِهِ قَدْ بَهَرَ ، وَأَوْضَحَ نَهَجًا قَدْ دَثَرَ ، فِيهِ مَوَاعِظٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ ، وَمَعَاذٌ لِمَنْ
 اذْدَجَرَ ، أُلْفَ بِالْأَيِّ الْكُبَّرِ » قُلْتُ : وَمَنْ هَذَا الْمَبْعُوثُ مِنْ مُضَرَ ؟ قَالَ :
 « أَحْمَدُ خَيْرِ الْبَشَرِ ، فَإِنْ آمَنْتَ أُعْطِيتَ الشَّجَرَ^(١١) ، وَإِنْ خَالَفتَ أُصْلِيتَ سَقَرَ ،
 فَأَمَنْتَ يَا خِنَافِرَ ، وَأَقْبَلْتَ إِلَيْكَ أَبَادِرَ ، فِجَانِبِ كُلِّ كَافِرٍ ، وَشَايِعِ كُلِّ مُؤْمِنٍ
 طَاهِرٍ ، وَإِلَّا فَهُوَ الْفِرَاقُ ، لَا عَنْ تَلَاقٍ » ، قُلْتُ : مِنْ أَيْنِ أَبْنِي هَذَا الدِّينَ ؟ قَالَ :
 مِنْ ذَاتِ الْأَحْرَيْنِ^(١٢) وَالنَّفَرِ الْيَمَانِيِّ ، أَهْلُ الْمَاءِ وَالطِّينِ » قُلْتُ : أَوْضِحْ ،
 قَالَ : « الْحَقُّ يَمْتَرِبُ ذَاتِ النَّحْلِ ، وَالْحَرَّةُ ذَاتِ النَّعْلِ^(١٣) ، فَهِنَاكَ أَهْلُ الطَّوْلِ

[١] الحول : التحول . [٢] السجير : الصديق ، والشجير : الغريب ، وقيل يقال السجير
 والشجير للصديق . [٣] أبصرت . [٤] العدم : قبيلة من الجن ، كذا قيل .
 [٥] ذبرت الكتاب : قرأته (وذبرته أيضا : كتبه كزبرته) . [٦] منعت .
 [٧] الهينة : الصوت الحى . [٨] تنتهبون . [٩] كبير . [١٠] الأوار : حر النار .
 [١١] ما يشر بالسكون : الخير وحرك للسجع . [١٢] الحرّة (بالفتح) أرض ذات حجارة نخرة سود
 وتجمع على حررات وحرار وحرّين وأحرّين . [١٣] النعل : المكان الغليظ من الحرّة .

والفضل ، والمواساةِ وَالْبَذْلِ ، ثم اَمَلَسَ^(١) عني ، فبت مذعوراً أُرَاعِي الصبَاحَ ،
فلما بَرَقَ لِي النور ، امتطيت راحتي ، وَأَذَنْتُ^(٢) أَغْبُدِي ، واحتملتُ بأهلي ،
حتى وَرَدَتِ الْجَوْفَ ، فَرَدَدْتُ الإِبِلَ على أربابها ، بِحُؤُلِهَا وَسِقَاءِهَا^(٣) ، وأقبلت
أريد صنعاء ، فأصبت بها مُعَاذَ بنِ جَبَلٍ أميراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فبايعته على الإسلام ، وَعَلَّمَنِي سُوراً مِنَ الْقُرْآنِ ، فَرَنَّ اللهُ عَلَيَّ بِالْهُدَى بعد الضلالة ،
والعلم بعد الجهالة . (الأمل ١ : ١٣٣)

٣٣١ — شافع بن كليب الصدفي يتكهن بظهور النبي صلى الله عليه وسلم
قَدِمَ عَلَيَّ تَبِعِ الْآخِرِ ملك اليمين ، قبل خروجه لقتال المدينة^(٤) ، شافع بن
كَلَيْبِ الصَّدْفِيِّ^(٥) ، وكان كاهناً ، فقال له تَبِعْ : هل تجد لقوم ملكا يوازي
ملكى ؟ قال : لا ، إِلَّا مُلْكَ غَسَّانَ ، قال : فهل تجد ملكاً يَرِيدُ عليه ؟ قال :
« أَجِدُهُ لِبَارٍ مَبْرُورٍ ، وَرَائِدٍ^(٦) بِالْقَهُورِ^(٧) ، وَوَصْفٍ فِي الزُّبُورِ ، فَضَلَّتْ

[١] أفك . [٢] أعلمت . [٣] الحول جمع حائل وهي الأثني من أولاد الإبل ، والسقاب جمع
سقف كشمس وهو الذكر .

[٤] قال ابن إسحق : « كان تبع الآخر حين أقبل من المشرق بعد أن ملك البلاد جعل طريقه على
على المدينة ، وكان حين مر بها في بدايته لم يهجم أهلها ، وخلف بين أظهرهم ابناً له ، فقتل غيلة ، فقدمها
وهو يجمع على تخريبها واستئصال أهلها ، فجمع له الأنصار حين سمعوا ذلك وخرجوا لقتاله ، فترجم الأنصار
أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار وبقرونه بالليل ، فيعجبه ذلك منهم ، ويقول : والله إن قومنا لكرام ، فبينما هو
على ذلك إذ جاءه حبران من أحبار اليهود من بني قريظة طالمان راسخان في العلم ، فقالا له : قد سمعنا
ما تريد أن تفعل ، وإناك إن أبيت إلا ذلك ، حيل بينك وبينه ، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة ، فقال :
ولم ذلك ؟ قالا : إنها مهاجر (بفتح الجيم) نبي يخرج من هذا الحرم من قريش تكون داره وقراره ،
فانتهى عما كان يريد ، وأعجبه ما سمع منهما ، واتبعهما على دينهما ، وكان هو وقومه أصحاب أوثان ، وخرج
متوجهاً إلى اليمن ، فدعا قومه إلى اليهودية فأبوا عليه ، ثم أطبقوا على دينه ، فمن هنالك وعن ذلك كان
أصل اليهودية باليمن (سيرة ابن هشام ١ : ١١ ، والكامل لابن الأثير ١ : ١٤٦) .

[٥] الصدفي نسبة إلى صدف كسكتف : بطن من كندة . [٦] الرائد في الأصل : المرسل في طلب
الكلأ من الرود وهو الطلب ، يعني به نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقد كان رائداً لأمته يرتاد لها الخير
قال عليه الصلاة والسلام في أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه : « إن الرائد لا يكذب أهله » .

[٧] جاء في معجم البلدان : « القهر (كشمس) أسافل الحجاز مما يلي نجداً من قبل الطائف ،

أُمَّتِهِ فِي الشُّفُورِ^(١) ، يَفْرِجُ الظُّلْمَ بِالنُّورِ ، أَحْمَدُ النَّبِيِّ ، طَوَّبَ لِأُمَّتِهِ حِينَ يَجِي ،
أَجْدُ بَنِي لُؤَيٍّ ، ثُمَّ أَحَدُ بَنِي قُصَيٍّ .

فنظر تبع في الزبور ، فإذا هو يجد صفة النبي صلى الله عليه وسلم .
(تاريخ الكامل لابن الأثير ١ : ١٤٦)

٣٣٢ - سَطِيحُ الذَّنْبِيِّ^(٢) يَعْبُرُ رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ نَصْرِ اللَّخْمِيِّ

وَرَأَى رَبِيعَةَ بْنَ نَصْرِ اللَّخْمِيِّ مَلِكَ الْبَلَدِ - وَقَدْ مَلَكَ بَعْدَ تَبَعِ الْآخِرِ - رُؤْيَا
هَالَتْهُ ، فَلَمْ يَدْعُ كَاهِنًا ، وَلَا سَاحِرًا ، وَلَا عَائِفًا ، وَلَا مَنْجَمًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ إِلَّا
جَمَعَهُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ رُؤْيَا هَالَتْني وَفَطَمْتُ^(٣) بِهَا ، فَأَخْبَرُونِي
بِهَا وَتَأْوِيلَهَا ، قَالُوا لَهُ : اقْضُضْهَا عَلَيْنَا نَخْبِرَكَ بِتَأْوِيلِهَا ، قَالَ : إِنِّي إِنْ أَخْبَرْتَكُمْ
بِهَا لَمْ أَطْمَئِنُّ إِلَى خَبْرِكُمْ عَنْ تَأْوِيلِهَا ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ تَأْوِيلَهَا إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا قَبْلَ أَنْ

وَأَنشَدَ لِحَدَاشِ بْنِ زَهْرٍ :

دَعَا جَانِبِي ، إِنِّي سَأَنْزِلُ جَانِبًا لَكُمْ وَاسْعَأْ بَيْنَ الْيَمَامَةِ وَالْقَهْرِ

وَأَقُولُ : هَذَا الْوَصْفُ يَنْطَبِقُ عَلَى مَكَّةَ فَهِيَ رَاقِعَةٌ جَنُوبِي الْحِجَازِ . . . الخ فالعنى : « أجْدُ مَلِكًا يَزِيدُ عَلَى
مَلِكِكَ لِرَأْيِهِ يَظْهَرُ بِتِلْكَ الْقَاعِ » أَمَا كَلِمَةُ الْقَهْرِ فَلَمْ أَجِدْهَا فِي مَعْنَى ، وَلَعَلَّ الْكَاهِنَ جَمْعُ « الْقَهْرِ »
عَلَى قَهْوَرٍ ، لِإِقَامَةِ الْفَاصِلَةِ ، أَوْ هُوَ عَلَى حَدِّ قَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ :

يَزِلُ الْغَلَامُ الْخَفَّ عَنْ صَهْوَاتِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمَنْزِلِ

[١] السَّفَرُ (كَحَمَلِ) الْكِتَابِ الْكَبِيرِ ، أَوْ جِزْءٍ مِنْ أَجْرَاءِ التَّوْرَةِ ، وَوَيْ كَتَبَ اللَّسَّةَ أَمَّا تَجْمَعُ عَلَى
أَسْفَارٍ ، وَلَعَلَّ جَمْعُهَا عَلَى سَفُورٍ لِلْمَحَافِظَةِ عَلَى السَّجْعِ أَيْضًا .

[٢] اسْمُهُ رَبِيعَةُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ مَسْعُودِ بْنِ مَازَنِ بْنِ ذُنَيْبِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ مَازَنِ بْنِ غَسَّانٍ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ الذَّنْبِيُّ
نِسْبَةً إِلَى ذُنَيْبِ بْنِ هَدْيٍ ، وَكَانَ مِنَ الْمَعْرُوفِينَ قَبْلَ طَاشِ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَقِيلَ سَبْعِمِائَةً ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ
رَأْسٌ وَلَا عُنُقٌ ، وَأَنَّ وَجْهَهُ كَانَ فِي صَدْرِهِ ، وَأَنَّهُ كَانَ جَسَدًا مَلْقَى لَا جَوَارِحَ لَهُ ، وَكَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى
الْجُلُوسِ إِلَّا إِذَا غَضِبَ ، فَإِنَّهُ يَنْتَفِخُ فَيَجْلِسُ ، وَكَانَ لَهُ سُرْبَرٌ مِنَ الْجَرِيدِ وَالْحَوْصِ ، إِذَا أُرِيدَ نَقْلُهُ إِلَى مَكَانٍ
يَطْوَى مِنْ رِجْلَيْهِ إِلَى جِجِجَتَيْهِ كَمَا يَطْوَى الثَّوْبَ فَيُوضَعُ عَلَى ذَلِكَ السَّرْبَرِ ، وَإِذَا أُرِيدَ اسْتِخْبَارُهُ لِيُخْبَرَ عَنْ
الْمَغِيَّاتِ يَحْرُكُ كَمَا يَحْرُكُ سَقَاءُ اللَّبَنِ فَيَنْتَفِخُ وَيَمْتَلِئُ وَيَمْلُؤُهُ النَّفْسُ فَيَسْأَلُ فَيُجِبُّهُمَا بِسؤالٍ عَنْهُ ، (كَذَا)
وَأَنَّ كَاهِنَتَهُ بِنْتُ سَعْدِ بْنِ هَدِيمٍ وَكَانَتْ بِأَطَالِي الشَّأْمِ لَمَّا حَضَرَتْهَا الْوَفَاةُ طَلَبَتْ سَطِيحًا وَشَقَا (وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ)
وَتَفَلَّتْ فِي فَهْمِهَا ، وَذَكَرْتُ أَنَّ سَطِيحًا يَخْلُفُهَا فِي كَهَانَتِهَا ، ثُمَّ مَاتَتْ فِي يَوْمِهَا ذَلِكَ .

[٣] فَطَمَ بِالْأَمْرِ كَمَرْحِ فِطَامَةٍ : إِذَا هَالَهُ وَغَلَبَهُ .

أخبره بها ، فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا ، فليبعث إلى سَطِيحٍ وشِقِّ ، فإنه ليس أحد أعلم منهما فيها ، يُخبرانه بما سأل عنه ، فبعث إليهما ، فقدم عليه سَطِيح قبل شِقِّ ، فقال له : إني قد رأيت رؤيا هالتي وقَطَعْتُ بها ، فأخبرني بها ، فإنك إن أصَبْتها أصَبْتَ تأويلها . قال : أفعل « رأيت مُحَمَّةً ^(١) ، خرجت من ظُأمة ^(٢) ، فوقعت بأرض تهمة ^(٣) ، فأكلت منها كل ذاتِ جُجُمة ^(٤) » ، فقال له الملكُ : ما أخطأتَ منها شيئاً يا سَطِيح ، فما عندك في تأويلها ؟ فقال : « أحلفُ بما بين الحرَّتين ^(٥) من حَفَش ، لِيَهْبِطَنَّ أرضكم الحَبَشُ ، فليَمَلِكَنَّ ما بين أُبين ^(٦) إلى جُرَش ^(٧) » فقال له الملك : وأبيك يا سَطِيح . إن هذا لنا لغائظٌ مُوجِع ، فتى هو كائن ، أفي زمانى هذا أم بعده ؟ قال : « لا ، بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين » قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟ قال : « لا ، بل ينقطع ليضع وسبعين من السنين ، ثم يُقتلون بها أجمعين ، ويخرجون منها هارين » قال : ومن يلي ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟ قال : « يليه إرم ^(٨) ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن » قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع ، قال : ومن يقطعه ؟ قال نبي زكى ، يأتيه الوحي من قبل العليّ »

[١] الحمة وتجمع على حم : الفحمة والرماد وكل ما احترق من النار ، وتطلق الحمة على الجمر مجازاً باعتبار ما يشول إليه وهو المراد هنا . [٢] الظلمة : الظلام ، وسترى في تعبير الرؤيا أنها إشارة إلى الأبحاش السود . [٣] التهمة بالتحريك : الأرض المتصوّبة إلى البحر ، كالتهم محرّكة أيضاً كأنهما مصدران من تهامة ، لأن التهام متصوّبة إلى البحر (ويقال أيضاً : أرض تهمة كفرحة أى شديدة الحر ، من التهم بالتحريك وهو شدة الحر) وى ابن الأثير « بهمة » بالباء يقال : أرض بهمة كفرحة أى بكثيرة البهيمى ، والبهيمى بالضم اسم نبت ، والضبط الأول عندى أرجح . [٤] أى كل نفس . [٥] الحرّة : أرض ذات حجارة سود نخرة ، [٦] مخلاف باليمن منه مدينة عدن . [٧] مخلاف باليمن من جهة مكة . [٨] الإرم كغيب وكتف : العلم (بالتحريك) أو خاص بعاد ، والعلم سيد القوم ، أى يتولاه سيد بنى ذى يزن ، وهو سيف بن ذى يزن .

قال : وممن هذا النبي ؟ قال : « رجل من ولد غالب بن فهر ، بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى آخر الدهر » قال : وهل للدهر من آخر ؟ قال : « نعم ، يوم يُجمَع فيه الأولون والآخرون ، يَسْعَد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون . »
قال : أحقُّ ما تُخبِرنا يا سطيح ؟ قال : « نعم ، والشَّفَقِ ، وَالغَسَقِ (١) ، وَالْفَلَقِ (٢) إذا انشَقَّ ، إن ما أنباتك به لحقَّ » .

٣٣٣٠ - شق أنمار (٣) يعبر رؤيا ربيعة بن نصر أيضاً

ثم قدم عليه شقٌّ ، فقال له كقولهِ لسَطِيح ، وكتمه ما قال سطيح ، لينظر أيتفقدان أم يختلفان ، قال : « نعم ، رأيت حُمَّمة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين رَوْضَة وأَكَمَة ، فأكلت منها كلَّ ذات نَسَمَة » . فلما سمع الملك ذلك قال : ما أخطأت يا شقُّ منها شيئاً ، فما عندك في تأويلها ؟ قال : « أَحْلِفُ بِمَا بين الحرَّتينِ من إنسان ، لَيَنْزِلَنَّ أَرْضَكُم السُّودَانُ ، فَلَيَغْلِبَنَّ عَلَى كُلِّ طِفْلة (٤) البنان ، وَلَيَمْلِكَنَّ ما بين أْبَيْنَ إلى نَجْران (٥) » فقال له الملك : وأبيك يا شقُّ ، إن هذا لنا لغائظ مُوجِع ، فتى هو كائن : أفي زمانى أم بعده ؟ قال : « لا ، بعده بزمان ، ثم يستنذكم منهم عظيم ذوشان ، ويذيقهم أشدَّ الهوان » قال : ومن هذا العظيم الشأن ؟ قال : « غلام ليس بدني ولا مدن (٦) ، يخرج عليهم من

[١] الشفق : الحمرة في الأفق من العروب إلى قريب العتمة ، والغسق : ظلمة أول الليل .
[٢] الفلق : الصبح أو ما انفاق من عموده . [٣] هو شق بن مصعب بن بشكر بن رهم بن أقرن ابن قيس بن عجر بن أنمار بن ثزار ، وزعموا أنه كان شق إنسان (أى نصفه) له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة . [٤] . مؤنث طفل : وهو الرخصى الناعم من شيء . [٥] مخلاف شمالي اليمن .
[٦] اللقي : مسهل عن دنى ، والمدني : القصر عما ينبى له أن يفعله ، وفي ابن الأثير « من بالزاي والزنن : المنهم ، من أزننته بكدا أى اتهمته به .

بيت ذى يَرَن (١) « قال أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع برسول
مُرْسَل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون المُلْك في قومه
إلى يوم الفصل » . قال : وما يوم الفصل ؟ قال : « يوم تُجْزَى فيه الولاية ، يدعى
فيه من السماء بِدَعَوَات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، وَيُجْمَع فيه بين الناس
للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات » قال : أحق ما تقول ؟
قال : « إى وربّ السماء والأرض ، وما بينهما من رَفَع وَخَفَض ، إن
ما أنبأتك به لحق ما فيه أمض (٢) »

فوقع في نفس ربيعة بن نصر ما قالوا ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما
يصلحهم ، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس ، يقال له سابور فأسكنهم
الحيرة ، فمن بقية ولده النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وهو النعمان بن المنذر بن
النعمان بن المنذر بن عمرو بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى بن ربيعة بن نصر .
(سيرة ابن هشام ١ : ٨ ، والكامل لابن الأثير ١ : ١٤٦)

٣٣٤ — وفود عبد المسيح بن بقبيلة على سطيح

عن ابن عباس رضى الله عنه قال :

« لما كان ليلة ولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ارتجح إيوان كسرى ، فسقطت

[١] وخبر ذلك أن زرعة بن كعب الملقب بنى نواس أحد ملوك التبايسة باليمن (وكان قد تهوّد
وتمصب لليهودية وحمل عليها قبائل اليمن) اصطهد نصارى نجران لأن يهوديا بنجران عدا أهلها
على ابنين له فقتلوهما ظلماً ، فتوسل إلى ذى نواس باليهودية ، واستنصره عليهم ، فحمى له ولدينه وغزاهم ،
ويقال إن رجلا من أهل نجران أهدت من القتل ، وسار إلى قيصر الروم يستنجده على ذى نواس ، فبعث
قيصر إلى نجاشي الحبشة يأمره بنصرة النصارى ، فجهز نجاشياً إلى اليمن ، فركبوا البحر إليها ، ولقيهم ذو
نواس فيمن معه فدارت الدائرة عليه ، وملك الحبشة اليمن ، ولما طال اللأء من الحبشة على أهلها خرج
سيف بن ذى يزن الحميرى وقدم على قيصر يوستنتيان يستنجده على الحبشة وأبى ، وقال : الحبشة على دين
النصارى ، فرجع إلى كسرى أوشروان واستعانه ، فأمدّه بجيش ممن كانوا في سجونهم ، فقاتلوا الأحباش
وهزمهم ، واسترد سيف عرش آباءه على فريضة يؤديها كل عام للمرس حتى قتل ، فأرسل كسرى عاملاً
على اليمن واستمرت حملته إلى أن كان آخرهم باذان فأسلم ، وصارت اليمن إلى الإسلام في عهد الرسول
صلى الله عليه وسلم . [٢] أى شك أو باطل .

منه أربع عشرة شُرْفَة ، فعظم ذلك على أهل مملكته ، فما كَانَ أوشك أن كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوَة ^(١) غاضت تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة ^(٢) انقطع تلك الليلة ، وكتب إليه صاحب طَبْرِيَّة أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية ، وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران تَحَدَّت تلك الليلة ، ولم تَحْمَد قبل ذلك بألف سنة ، فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل مملكته فأخبرهم الخبر ، فقال الموبدَان ^(٣) : أيها الملك إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتي ، قال له : وما رأيت ؟ قال : رأيت إبلا صعبا ، تقود خيلا عِرابًا ، قد اقتحمت دِجْلَة وانتشرت في بلادنا ، قال : رأيت عظيما ، فما عندك في تأويلها ؟ قال : ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ، ولكن أرسل إلى عاملك بالبحيرة يوجّه إليك رجلا من علمائهم ، فإنهم أصحاب علم بالحِذْثان ، فبعث إليه عبد المسيح بن مُبَقَيْلَة الغَسَّاني ، فلما قَدِم عليه أخبره كسرى الخبر ، فقال له : أيها الملك ، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء ، ولكن جَهَّزني إلى خال لي بالشام يقال له سَطِيح قال : جهزوه ، فلما قَدِم إلى سطّيح وجده قد أَحْتَضِر ، فناداه فلم يجبه ، وكلمه فلم يرد عليه ، فقال عبد المسيح :

أَصْمٌ أَمْ يَسْمَعُ غَطْرِيفُ الْيَمَنِ يَا فَاصِلَ الْخُطَّةِ أَعَيْتَ مَنْ وَمَنْ ^(٤)

أَتَاكَ شَيْخُ الْحَيِّ مِنْ آلِ سَنَنْ أَيْضُ فَضْفَاضِ الرَّدَاءِ وَالْبَدَنْ ^(٥)

[١] هكذا في العقد الفريد ، وفي السيرة الحلبية . « وورد عليه كتاب من صاحب إيليا (بالتمام) يخبره أن بحيرة ساوَة غاضت تلك الليلة » وفي معجم البلدان : « ساوَة مدينة حسنة بين الرى وهمدان في وسط ، بينها وبين كل واحد من همدان والرى ثلاثون فرسعا ، وفي حديث سطّيح في أعلام النبوة : « وجدت نار فارس ، وطارت بحيرة ساوَة . . . الخ » ومنه يستفاد أنها في فارس .

[٢] موضع بين الكوفة والشام . [٣] الموبدان والموبد : فقيه الفرس وحاكم الخوس .

[٤] الغطريف : السيد الشريف . [٥] الفضفاض : الواسع .

رسول قيل الْمُعْجَمِ يَهْوِي لِلْوَتْنِ لَا يَرْهَبُ الرَّعْدَ وَلَا رَبِيبَ الزَّمَنِ (١)
 فرفع إليه رأسه وقال : « عبد المسيح ، على جبل مُشِيح (٢) ، إلى سَطِيح ، وقد
 أوفى على الضَّرِيح (٣) ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاج الإيوان ، وخمود
 النيران ، ورؤيا الموبدآن ، رأى إبلا صِعَابًا ، تقود خَيْلًا عِرَابًا ، قد اقتحمت في
 الواد ، وانتشرت في البلاد . يا عبد المسيح : إذا كثرت التلاوة (٤) ، وظهر
 صاحب الهراوة (٥) ، وفاض وادي السماوة ، وَغَاضَتْ بِحِيرَةَ سَاوَةَ ، وخذت
 نار فارس ، فليست بابل للفرس مُقَامًا ، ولا الشام لسطيح شامًا ، يملك منهم
 ملوك وَمَلِكَات (٦) ، عدد سقوط الشرفات ، وكل ما هو آت آت » ثم قال :
 إِنْ كَانَ مُلْكُ بَنِي سَاسَانَ أَفْرَطَهُمْ فَإِنْ ذَا الدَّهْرِ أَطْوَارًا دَهَارِيرُ (٧)
 مِنْهُمْ بَنُو الصَّرْحِ بِهَرَامٍ وَإِخْوَتُهُ وَالْهَرْمُزَانَ وَسَابُورَ وَسَابُورَ
 فَرَبَعًا أَصَابِحُوا يَوْمًا بِمَنْزِلَةٍ تَهَابُ صَوْنَهُمُ الْأَسْدُ الْمَهَاصِيرُ (٨)
 حَثُّوا الْمَطِيَّ وَجَدُّوا فِي رِحَالِهِمْ فَمَا يَقُومُ لَهُمْ سَرَجٌ وَلَا كُورُ (٩)
 وَالنَّاسُ أَوْلَادَ عِلَاتٍ فَنَ عَلِمُوا أَنْ قَدْ أَقَلَّ فَمَحْتُورٌ وَمَهْجُورُ (١٠)
 وَالْخَيْرَ وَالشَّرَّ مَقْرُونَانِ فِي قَرْنٍ فَالْخَيْرُ مُتَّبِعُ وَالشَّرُّ مَحْذُورُ

[١] القيل : الملك ، أو هو دون الملك الأعلى . [٢] حادّ سريع . [٣] أى القبر ، والمراد الموت . [٤] أى تلاوة القرآن . [٥] الهراوة : العصا الضخمة ، وصاحبها هو النبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان يمسك العصا كثيراً عند مشيه . [٦] قال صاحب البيرة الحلبية : « لم أفد على أنه ملك منهم من النساء إلا واحدة وهى بوران ، ملكت سنة ثم هلكت » .

[٧] أفرطهم : تركهم وزال عنهم ، قال تعالى : « لَأَجْرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّابِ ، وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ » أى متروكون فيها ، ودهر دهارير : أى شديد (كليلة ليلاء ويوم أيوم . [٨] المهاصير جمع مهبصار أو مهبير وهو الأسد من الهصر وهو الكسر والجذب والإمالة . [٩] الكور : الرجل بأدائه . [١٠] أولاد العلات : أولاد أمهات شتى من رجل واحد .

ثم أتى كسرى فأخبره بما قاله سطيح فغمة ذلك ، ثم تعزى ، فقال : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً يدور الزمان ، فهلكوا كلهم في أربعين سنة ، وكان آخر من هلك منهم في أول خلافة عثمان رضى الله عنه .

(المقد الفريد ١ : ١٠٨ ، والسيرة الحلبية ١ : ٧٠ ، والمختصر في أخبار البشر لأبي العلاء ١ : ١١٠)

٣٣٥ - شق وسطيح ينبئان بأصل ثقيف

عن ابن الكلبي قال : « كَانَ قَسِيٌّ - وهو ثقيف ^(١) - مقيماً باليمن ، فضاق عليه موضعه ونبأ ^(٢) به ، فأتى الطائف ، وهو يومئذ منازل فهم وعدوان بنى عمرو بن قيس بن عيلان ، فانتهى إلى الظرب العدواني ، فوجده نائماً تحت شجرة فأيقظه ، وقال : من أنت ؟ قال : أنا الظرب ، قال : على ألية ^(٣) ، إن لم أقتلك ، أو تحلف لى لتزوجنى ابنتك ، ففعل ، وانصرف الظرب وقسى معه ، فلقية ابنه عامر بن الظرب ، فقال : من هذا معك يا أبت ؟ فقص قصته ، قال عامر : لله أبوه ! لقد ثقف ^(٤) أمره ، فسمى يومئذ ثقيفاً ، وغير الظرب بتزويجه قسيّاً ، وقيل زوجت عبداً ، فسار إلى الكهان يسألهم ، فانتهى إلى شق بن مضعب البجلي ، وكان أقربهم منه ، فلما أنهى إليه قال : إنا قد جئناك فى أمر فما هو ؟ قال : « جئتم فى قسى ، وقسى عبد إباد ، أبى ^(٥) ليلة الواد ، فى وج ^(٦) »

[١] هو أبو القبيلة المشهورة ، وهو ثقيف بن منه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة ابن قيس بن عيلان بن نضر ، وقد اختلف النسابون فى نسب ثقيف ، فقال قوم : لهم من هوارن ، وهو القول الذى يزعمه الثقفيون ، وعليه جمهور الناس ، ويرعم آخرون أن ثقيفا من إباد بن نزار بن معد بن عدنان ، وأن النجع أحوه لأبيه وأمه ، ثم افترقا ، فسار أحدهما فى عداد هوازن والآخر فى عداد مذحج ، وقال قوم آخرون إن ثقيفا من بقايا ثمود من المرسل القديمة التى نادت وانقرصت . قال الزجاج على المنبر : يزعمون أنا من بقايا ثمود فقد كذبهم الله بقوله : « وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى » وقال مرة أخرى : واتى كئنا من بقايا ثمود لما نجا مع صالح إلا خيارهم - اقرأ كلمة عن نسب ثقيف فى شرح ابن أبى الحديد م ٢ ص ٣٩٢ ، والعقد الفريد ٣ : ٨ ، والاغاز ٤ : ٧٤ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٨ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٣ . [٢] نبأه منزله : لم يوافق . [٣] الألية : اليمن . [٤] ثقف ككرم وفرح صار حاذقاً خفياً فطناً وثق الشيء كفرح : ظممه . [٥] هرب . [٦] وج : اسم واد بالطائف .

ذاتِ الأنداد ، فوالى سعداً اِيْفَادَ ، ثم لوى بغير معاد « يعنى سعد بن قيس ابن عَيْلَانَ بن مضر ، ثم توجه إلى سطيح الذئبي حتى من غَسَّان - ويقال إنهم حتى من قُضَاعَةَ تُرُؤُل في غَسَّان - فقالوا : إنا جئناك في أمر فها هو ؟ قال : « جئتم في قسيّ ، وقسيّ من ولد ثمود القديم ، ولدتها أمه بصَحْرَاءَ تَرِيمٍ (١) ، فالتقطه إياد وهو عَدِيم ، فاستعبده وهو مُلِيم (٢) » ، فرجع الضرب وهو لا يدري ما يصنع في أمره ، وقد وكّد عليه في الحَلِيفِ والتزويج ، وكانوا على كفرهم يُوفون بالقول ، فهذا يقول من قال إن ثقيفاً من ثمود ، لأن إياداً من ثمود .

(الأغاني ٤ : ٧٥)

٣٣٦ - تنافر عبد المطلب بن هاشم والثقفين إلى عزي سلمة الكاهن

كان لعبد المطلب بن هاشم مال بالطائف يقال له : ذوالهَرَم (٣) ، فقلبه عليه خِنْدِف بن الحارث الثَّقَفِيّ ، فنافروهم عبد المطلب إلى عَزِيّ سلمة الكاهن - أو إلى نُفَيْل بن عبد العزّي جد عمر بن الخطاب (٤) - فخرج عبد المطلب مع ابنه الحارث ، وليس له يومئذ غيره ، وخرج الثقفيون مع صاحبهم ، وحربُ بن أمية معهم على عبد المطلب ، فنقد ماء عبد المطلب ، فطلب إليهم أن يسقوه ، فأبوا ، فبلغ العطش منه كل مَبْلَغ ، وأشرف على الهلاك ، فبينما عبد المطلب يُشِير بعيره ليركب ، إذ فجّر الله له عيناً من تحت جرائه ، فحمد الله وعلم أن ذلك منه ، فشرب وشرب أصحابه رِيَّهم ، وترودوا منه حاجتهم ، ونقد ماء الثقفين ، فطلبوا إلى عبد المطلب أن يسقيهم فأنعم عليهم ، فقال له ابنه الحارث لا نُحْنِئَنَّ

[١] رام يريم ريماً : تباعد . [٢] الام فهو مليم : أتى ما يلام عليه

[٣] ضبطه في القاموس المحيط بفتح فسكون ، والصحيح أنه بالتحريك كما يدل على ذلك الأسجاع الآتية

[٤] وصارة معجم ياقوت : « فنافروهم عبد المطلب إلى الكاهن القضاعي وهو سلمة بن أبي حية :

فخرجوا إليه إلى الشام » .

على سيفي حتى يخرج من ظهري ، فقال عبد المطلب : لا سقينهم فلا تفعل ذلك بنفسك فسقام ، ثم انطلقوا ، حتى أتوا الكاهن ، وقد خبئوا له رأس جرادة ، في خُرْزَةِ مَزَادَةٍ (١) ، وجعلوه في قِلَادَةِ كَابٍ لَهِمْ يُقَالُ لَهُ سَوَّارٌ ، فلما أتوا الكاهن إذا هم ببعرتين تسوقان بينهما بَحْرَجًا (٢) كلتاها تزعم أنه ولدها ، وُلِدَتَا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَأَكَلَ النَّمِرُ أَحَدَ البَحْرَجَيْنِ ، فهما ترأمان (٣) الباقي ، فلما وقفنا بين يديه . قَالَ الكاهن : هل تدرون ما تريد هاتان البقرتان ؟ قالوا : لا . قَالَ الكاهن : « ذهب به ذوجسدٍ أَرْبَدٌ (٤) ، وَشِدْقٌ مُرْمَعٌ (٥) ، وَنَابٌ مُعَلِقٌ (٦) ، مَا لِلصغرى فِي وَلدِ الكبرى حَقٌّ » فقضى به للكبرى ، ثم قال ما حاجتكم ؟ قالوا : قد خبأنا لك خبئًا ، فأنبئنا عنه ، ثم نخبرك بحاجتنا ، قال : « خبأتم لي شيئًا طار فسطع ، فتصوَّب فوقه ، في الأرض منه بُقَعٌ ، فقالوا : لآدَه ، أَى يَبْنَه . قَالَ : « هُوَ شَىءٌ طَار ، فَاسْتَطَار ، ذُو ذَنْبٍ جَرَّارٌ ، وَسَاقٌ كَالْمُنْشَارِ ، وَرَأْسٌ كَالْمَسْمَارِ » فقالوا : لآده ، قَالَ : « إِنْ لآدَه فَلآدَه (٧) ، هُوَ

[١] المرادة : الراوية ، والحُرْزَةُ : السير يخرز به .

[٢] الخرج : ولد النقرة . [٣] رُمْتُ ولدها : عطفت عليه ولزمته . [٤] من الريدة (كصفرة) : لون إلى الغبرة . [٥] رمع كنعن رومانًا (بالتحريك) وترمع : تحرك واضطرب ، وقوله رمع : اسم فاعل من رمع المصعف ، يشير إلى أنه مفترس كاسر . [٦] من أعلق الصائد إذا عاق الصيد في حياته أى نشب . [٧] روى ابن الأعرابي إلهة فلاده ساكن الهاء ، ويربى إلهة فلاده مكسور الهاء منوبة ، قال ياقوت في معجمه : « يقول إن لم يكن قولى بياناً فلا بيان » وقال الزمخشري في المستقصى : « إن لآده فلاده بفتح الدال ويكسر ، وهى كلمة فارسية معناه الضرب قد استعملتها العرب في كلامها ، وأصله أن الموتور كان يلقي وائره فلا يتعرض له فيقال له ذلك ، والمعنى إنك إن لم تضربه الآن فلا تضربه أبداً ، والتقدير إن لا يكن ده فلا يكون ده أى إن لا يوجد صرب الساعة ، فلا يوجد صرب أبداً ، ثم اتسعوا فيه ، فصار يرمع مثلاً في كل شىء لا يقدم عليه الرجل ، وقد حان حينه ووجب إحدائه من قضاء دين قد حل أو حاجة طلبت ، أو ما أشبه ذلك من الأمور التى لا يسوغ تأخيرها » . وقال المذرى : « قالوا معناه إلهة فلا هذه ، يعنى أن الأصل إلهة فلاذه فالذال المعجمة ، فعربت بالذال غير المعجمة كما قالوا يهوداً ثم عرب فقيل يهودا .

رأس جرادة ، في خُرَزْ مَزَادَة ، في عُتُقِ سَوَارِ ذِي الْقِلَادَة ، قالوا : صدقت ، فأخبرنا فيمَ اختصمنا إليك ؟ قال : « أَحْكُمُ بِالضِيَاءِ وَالظُّلْمِ ، وَالْبَيْتِ وَالْحَرَمِ ، أَنْ الْمَالِ ذَا الْحَرَمِ ، لِلْقُرَشِيِّ ذِي الْكُرَمِ » ، ففُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَرَجَعُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ عَلَى حُكْمِهِ . (مجمع الأمثال ١ : ٣٠ ، ومعجم البلدان ٨ : ٤٦٠)

* *

وروى الجاحظ لعزى سلامة أنه قال :

« وَالْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَالْعُقَابِ وَالصَّقَمَاءِ ^(١) ، وَاقْعَةَ بَيْقَعَاءِ ^(٢) ، لَقَدْ نَفَرَ

الْمَجْدُ بَنِي الْعُشْرَاءِ ^(٣) ، لَاهِجِدَ وَالسَّنَاءَ ^(٤) . (البيان والتبيين ١ : ١٥٩)

٣٣٧ — ما أمر به عبد المطلب بن هاشم في منامه من حفر زمزم

وَلِيَّ عَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ هَاشِمِ السَّقَايَةَ وَالرَّفَادَةَ بَعْدَ عَمِّهِ الْمَطْلَبِ ، وَشَرَفَ فِي

قَوْمِهِ ، وَعَظَّمْ شَأْنَهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ حَفَرَ زَمْزَمَ ، وَهِيَ بئرُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، الَّتِي أَسْقَاهُ اللَّهُ مِنْهَا ، وَكَانَتْ جُرْهُمُ قَدْ دَفَّتْهَا ^(٥) ، وَكَانَ سَبَبُ حَفْرِهِ إِيَّاهَا أَنَّهُ قَالَ :

« بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ بِالْحِجْرِ إِذْ أَتَانِي آتٍ فَقَالَ : احْفَرِ طَيْبَةً ، قُلْتَ : وَمَا طَيْبَةٌ ؟

فذَهَبَ وَتَرَكَنِي ، فَلَمَّا كَانَ الْعَدُوُّ رَجَعَتْ إِلَى مَضْجَعِي ، فَنَمْتُ فِيهِ ، فَجَاءَنِي فَقَالَ :

[١] الصقمة بالصم : بياض في وسط رءوس الطير وغيرها ، وهو أصقع ، وهي صقعاء (والصقعاء أيضاً الشمس) . [٢] البقعاء : اسم ماء . [٣] إمشراء : قوم من فرارة ، ونفروا عليه : قضى له عليه بالغلبة . [٤] السناء : الرعدة .

[٥] وذلك أن جرهما لما استخفت بأمر البيت الحرام ، وارتكبوا الأمور العظام ، قام فيهم رئيسهم مصاص بن عمرو خطيباً ووعظهم فلم يراعوا ، فلما رأى ذلك منهم عمد إلى غزاليين من ذهب كانا في الكعبة وما وجد فيها من الأموال أي السيوف والدروع التي كانت تهدي إليها ، ودقنها في بئر زمزم ، وكانت قد نصب ماؤها فخرها مصاص بالليل وأعمق الحفر ودفن فيها ذلك وطم البئر ، وما زالت مطموهه إلى زمن عبد المطلب .

احفر برّة ، قلت : وما برّة ؟ فذهب وتركني ، فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني فقال : احفر المذنونة ، قلت : وما المذنونة ؟ (١) فذهب عني ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه ، فجاءني فقال : احفر زمزم ، إنك إن حفرتها لا تندم ، فقلت : وما زمزم ؟ قال : « تراث من أيك الأعظم ، لا تُنزف أبداً ولا تُذمّ » (٢) ، تسقى الحجاج الأعظم ، مثل نعام جافل لم يقسم (٣) ، ينذر فيها ناذر لمنعم ، تكون ميراثاً وعقد محكم ، ليس كبعض ما قد تعلم ، وهي بين الفرت والدم (٤) ، عند نقرة الغراب الأعصم (٥) ، عند قرية النمل .

فلما بين له شأنها، ودله على موضعها، وعرف أنه قد صدق ، غدا بمعوله ومعه ابنة الحارث ليس له ولد غيره ، فحفر بين أساف ونائلة، في الموضع الذي تنحر فيه قريش لأصنامها ، وقد رأى الغراب ينقر هناك ، فلما بدا له الطوى (٥) كبر ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته .

(تاريخ الكامل لابن الأثير ٢ : ٥ ، والسيرة الحلبية ١ : ٣١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ٩٠)

خطب الكواهن

٣٣٨ - الشعثاء الكاهنة تصف سبعة إخوة

كانت عثمة بنت مطرود البجالية ذات عقل ورأى مستمع في قومها ، وكانت

[١] طيبة ، وبرة ، والمذنونة : أسماء لزمزم . [٢] نزت البئر : تزحت كنزت بالصم ، وبثدمة بالفتح وذميم وذميمة قليلة الماء لأنها تدم . [٣] جفل النعام : أسرع وذهب في الأرص ، ولم يقسم : لم يفرق . [٤] أي في محلها ، والفرت : السرجين في الكرش ، وذلك بين إساف ونائلة ، (وأساف ككتاب وسحاب : صنم وضعه عمرو بن لحي على الصفا ، ونائلة على المروة تجاه الكعبة) ، وكانت قريش تهج عندها ذبايحها التي تنقر بها . [٥] الأعصم : قيل أحمر المنقار والرجلين ، وقيل أبيض البطن ، وقيل أبيض الجاحين ، وقيل أبيض إحدى الرجلين . [٦] الطوى : البئر .

لها أخت يقال لها خَوْد ، وكانت ذات جمال وَمِيسَم^(١) وعقل ، نخطب سبعة إخوة غُلْمَة من بطن الأزْد خودا إلى أبيها ، فَأَتَوْه وعليهم الحلال اليمانية ، وتحتهم النجائب الفُرّه^(٢) ، فقالوا : نحن بنو مالك بن غُفَيْلَةَ ذِي النَّحْيَيْنِ ، فقال لهم : انزلوا على الماء ، فنزلوا ايلتهم ، ثم أصبحوا قَادِينَ فِي الحَلَلِ والهيئة ، ومعهم رَيْبَةَ^(٣) لهم يقال لها الشَّعْثَاءُ : كَاهِنَةٌ ، فَرَّوْا بِوَصِيدِهَا^(٤) يتعرضون لها ، وكلهم وَسِيمٌ جميل ، وخرج أبوها ، فجلسوا إليه ، فَرَحَّبَ بهم ، فقالوا : بلغنا أن لك بنتاً ، ونحن كما ترى شَبَابٌ ، وكلنا يَمْنَعُ الجانب ، وَيَمْنَعُ الراغب ، فقال أبوها : كلكم خِيَارٌ ، فأقيموا نرى رأينا ، ثم دخل على ابنته ، فقال : ما تَرَيْنِ ، فقد أَتَاكِ هؤلاء القوم ؟ فقالت : « أَنْكِحْنِي على قدرى ، ولا تَشْطُطْ فِي مَهْرِي ، فَإِنْ تَخْطِئْنِي أَحْلَامُهُمْ ، لا تَخْطِئْنِي أجسامهم ، لعل أُصِيبَ وَلَدًا ، وَأَكْثُرُ عَدَدًا » فخرج أبوها ، فقال : أخبروني عن أفضلكم .

قالت ربيبتهم الشعثاء الكاهنة : « أَسْمَعُ أَخْبِرْكَ عَنْهُمْ : هم إخوة ، وكلهم أُسْوَةٌ^(٥) . أما الكبير فإليك ، جَرِيءٌ فَاتِكٌ ، يُتَوَّبُ السَّنَابِكُ^(٦) ، ويستصغر المهالك . وأما الذي يَلِيهِ فالعمر ، بحرٌ غَمْرٌ^(٧) ، يَقْصُرُ دُونَهُ الفخر ، نَهْدٌ^(٨) ، صَقْرٌ . وأما الذي يَلِيهِ فَعَلْقَمَةٌ ، صَلِيبُ المَعْجَمَةِ^(٩) ، مَنِيْعُ المَشْتَمَةِ^(١٠) ، قليلُ الجَمْعَةِ^(١١) .

[١] الميسم والوسامة : أثر الحسن . [٢] النجائب جمع نجيب : وهو البير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين ، والفره : (كقفل وركع وكتب) جمع فاره ، وهو من الدواب الجيد السير النشيط الحفيف . [٣] الريبة : الحاضرة . [٤] الوصيد : الفناء (بالكسر) والعتبة . [٥] الأسوة : القدوة . [٦] السنايك جمع سنك كقنفذ : وهو طرف الحافر ، أى أنه يجهد الحيل في حومة الوغى . [٧] الغمر : معظم البحر ، والكريم الواسع الحلق . [٨] النهد : الأسد والكريم . [٩] من عجم العود إذا عضه ليعرف صلابته من خوره . [١٠] المشتمة : مصدر شتم ، والمعنى : أنه في حرز من أن يشتم ويسب عرضه ، لحسن فعله وكرم خلقه . [١١] الجمجمة : إخفاء الشيء في الصدر .

وأما الذي يليه فعاصم ، سيّد ناعم^(١) ، جلد صارم ، أبي حازم ، جيشه غانم ،
وجارُه سالم . وأما الذي يليه فتّواب ، سريع الجواب ، عتيد الصواب^(٢) ، كريم
النّصاب^(٣) ، كذبت الغاب . وأما الذي يليه فمذرك ، بذول لما يملك ،
عزوب^(٤) عما يترك ، يفتى ويهلك . وأما الذي يليه فجندل ، لقرنه مجدل^(٥) ،
مقل^(٦) لما يحمل ، يُعطى ويبدل ، وعن عدوه لا ينكل^(٧) .

فشاورت أختها فيهم ، فقالت أختها عثمة : « ترى الفتيان كالنخل ،
وما يدريك ما الدخل ؟^(٨) » اسمى منى كلمة ، إن شرّ الغريبة يُعلن ، وخيرها
يُدفن ، أنكحى في قومك ولا تغررك الأجسام ، فلم تقبل منها ، وبعثت إلى
أبيها : أنكحني مدركا ، فأنكحها أبوها على مائة ناقة ورعاتها ، وحملها مدرك ،
فلم تلبث عنده إلا قليلا ، حتى صبّحهم فوارس من بني مالك بن كنانة ، فاقتلوا
ساعة ، ثم إن زوجها وإخوته وبني عامر انكشفوا ، فسبّوها فيمن سبّوا ،
فيينا هي تسير بكت ، فقالوا : ما يُفكيك ، أعلى فراق زوجك ؟ قالت : قبّحه
الله ، قالوا : لقد كان جميلا ! قالت : قبّح الله جمالا لا نفع معه ، إنما أبكى على
عصياني أختي ، وقولها : « ترى الفتيان كالنخل ، وما يدريك ما الدخل »
وأخبرتهم كيف خطبوها . فقال لها رجل منهم يُكنى أبا نواس شاب أسود
أفوه^(٩) مضطرب الخلق : أترضين بي ، على أن أمنعك من ذئاب العرب ؟
فقالت لأصحابه : أ كذلك هو ؟ قالوا : نعم ، إنه مع ما ترين ليمنع الحليلة^(١٠) ،

[١] نعم كسمع ونصر وصرب فهو ناعم : أي ذو تنعم وترفه . [٢] العتيد : الحاضر المهيأ .
[٣] النصاب : الأصل . [٤] بعيد . [٥] جدله : صرعه على الجدالة (كسحابة) وهي الأرض .
[٦] حامل . [٧] نكل عنه كضرب ونصر وعلم : نكص وجبن . [٨] الدخل : ما يظن في
الشيء ، وهو مثل يضرب للرجل له منظر ولا يخبر له . [٩] الأفوه : وصف من العوه بالتحريك
وهو سعة الفم . [١٠] الزوجة .

وَتَتَّقِيهِ الْقَبِيلَةَ ، قالت : هذا أجمل جمال ، وأكمل كمال ، قد رضيت به ،
فزوجوها منه . (مجمع الأمثال للبيداني ١ : ٩١)

٣٣٩ - طريفة الخير تتكهن بسيل العيم وخراب سد ما رب

قال عبد الملك بن عبد الله بن بَدْرُون في شرح قصيدة الوزير عبد المجيد
ابن عبدون ، التي قالها في رثاء دولة بني الأفطس بالأندلس :

كَانَ أَوَّلَ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْبَيْتِ فِي أَوَّلِ تَمْزِيقِهِمْ ، عَمْرُ بْنُ عَامِرٍ مُزَيَّقِيَاءَ ^(١) ،
وَكَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِ ، أَنَّهُ كَانَتْ لَهُ زَوْجَةٌ كَاهِنَةٌ ، يُقَالُ لَهَا « طَرِيفَةُ الْخَيْرِ » ،
وَكَانَتْ رَأَتْ فِي مَنَامِهَا أَنَّ سَحَابَةَ غَشِيَتْ أَرْضَهُمْ فَأَرَعَدَتْ وَأَبْرَقَتْ ، ثُمَّ صَعَقَتْ ،
فَأَحْرَقَتْ كُلَّ مَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ ، فَفَزِعَتْ طَرِيفَةُ لِذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا ، وَأَتَتْ الْمَلِكَ
عَمْرًا ، وَهِيَ تَقُولُ : « مَا رَأَيْتُ الْيَوْمَ ، أَزَالُ عَنِ النَّوْمِ ، رَأَيْتُ غَيْمًا رَعَدَ
وَبَرَقَ ^(٢) ، طَوِيلًا ثُمَّ صَعَقَ ، فَمَا وَقَعَ عَلَيَّ شَيْءٌ إِلَّا أَحْتَرَقَ » ، فَلَمَّا رَأَى مَا دَاخَلَهَا
مِنَ الْفَزَعِ سَكَّنَهَا ، ثُمَّ إِنَّ عَمْرًا دَخَلَ حَدِيقَةَ لَهُ ، وَمَعَهُ جَارِيتَانِ مِنْ جَوَارِيهِ ،
فَبَلَغَ ذَلِكَ طَرِيفَةَ ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ وَخَرَجَ مَعَهَا وَصِيفٌ ^(٣) ، لَهَا اسْمُهُ سِنَانٌ ، فَلَمَّا
بَرَزَتْ مِنْ بَيْتِهَا عَرَضَ لَهَا ثَلَاثُ مَنَاجِيدَ مُنْتَصِبَاتٍ عَلَى أَرْجُلِهَا ، وَاضْعَاتُ
أَيْدِيهَا عَلَى أَعْيُنِهَا - وَهِيَ دَوَابٌّ تُشْبِهُ الْبِرَّايِعَ ^(٤) - فَقَعَدَتْ إِلَى الْأَرْضِ وَاضْعَةً
يَدَيْهَا عَلَى عَيْنَيْهَا ، وَقَالَتْ لَوْصِيفِهَا : إِذَا ذَهَبْتَ هَذِهِ الْمَنَاجِيدَ فَأَخْبِرْنِي ، فَلَمَّا
ذَهَبَتْ أَعْمَاهَا ، فَانْطَلَقَتْ مَسْرَعَةً ، فَلَمَّا عَارَضَهَا خَلِيجُ الْحَدِيقَةِ الَّتِي فِيهَا عَمْرُ ،

[١] لقب بذلك ، لأنه كان يلبس كل يوم حلتين ، ويمزقهما بالعتى ، يكره العود مبهما ، ويأنف أن
يلبسها غيره . [٢] رعدت السماء وبرقت (كنصر) ، وأعدت السماء وأبرقت ، وأنكر الأصمعي
الرباعي فيها . [٣] الوصيف : الخادم والحادمة . [٤] البريوع : دويبة نحو الفأرة لكن ذنبه
وأذناه أطول منها ، ورجلاه أطول من يديه عكس الزرامة .

وثبت من الماء سُلْحَفَاة ، فوقعت في الطريق على ظهرها ، وجعلت تروم
 الانقلاب فلا تستطيع ، وتستعين بذنبها ، فتَحْثُو التراب على بطنها من جَنَبَاتِه ،
 وتقذف بالبول قذفاً ، فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة
 إلى الماء ، مضت إلى أن دخلت على عمرو ، وذلك حين انتصف النهار في ساعةٍ
 شديدة الحرِّ ، فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح ، فلما رآها عمرو استحيا منها ، وأمر
 الجاريتين بالتنحي ، ثم قال لها ياطريفة : فكهننت وقالت : « والنور والظلماء ،
 والأرض والسماء ، إن الشجر لهالك ، وليعودن الماء كما كان في الزمان السالك » .
 قال عمرو : ومن خبرك بهذا ؟ قالت : « أخبرتنى المناجد ، بسنين شدائد ، يقطع
 فيها الولد الوالد » قال : ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول النَّدَّمان لهفًا ، لقد رأيت
 سُلْحَفَا (١) ، تجرُّف التراب جرُّفًا ، وتقذف بالبول قذفاً ، فدخلت الحديقة ، فإذا
 الشجر من غير ريح يتكفأ » قال عمرو : وما ترين ؟ قالت : « داهية دهياء ،
 من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة » قال : وما هو ؟ وَيَلَك ! قالت : « أجل ،
 إن فيه الويل ، ومالك فيه من قَيْل (٢) ، وإن الويل فيما يجيء به السيل » فألقى
 عمرو نفسه عن فراشه ، وقال : ما هذا ياطريفة ؟ قالت : « هو خطب جليل ،
 وحزن طويل ، وخلف قليل » . قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت : « اذهب
 إلى السد ، فإذا رأيت جرِّدًا يُكثِرُ يديه في السدِّ الحفْرَ ، ويقلب برجليه من
 أجل الصخر ، فاعلم أن عمَرَ النَعْمَر (٣) ، وأن قد وقع الأمر » . قال : وما هذا
 الذي تذكرين ؟ قالت : « وعدُّ من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكل ،

[١] يقال : سلحفاة وسلحفاء وسلحفا ، ويقال أيما سلحفا ساكنة اللام مفتوحة الحاء .

[٢] قلبيلا : نام في القائلة وهي نصف النهار ، والمراد هنا الإقامة والمكث .

[٣] النعمر : الماء الكثير .

فبغيرك يا عمرُ وفليكن الشَّكْلُ ^(١) ، فانطلق عمرو فإذا الجرذ يقلب برجليه
صخرة ما يقبها خمسون رجلاً ، (كذا) فرجع إلى طريفة فأخبرها الخبر وهو يقول:
أبصرت أمراً عادني منه ألمٌ وهاج لي من هوله برحُ السَّقَمِ ^(٢)
من جرذ كفحل خنزير الأجمِ أو كبشٍ صرزمٍ من أفاريق الغنمِ ^(٣)
يسحبُ صخرًا من جلاميد العرمِ له مخالبٌ وأنيابٌ قضمٌ ^(٤)
ما فاتهُ سَحْلًا من الصخرِ قَصَمٌ ^(٥)

فقلت طريفة : وإن من علامات ما ذكرت لك أن تجلس فتأمر بزجاجة
فتوضع بين يديك ، فإن الريح تملؤها من تراب البطحاء ^(٦) ، من سهلة ^(٧)
الوادي ورملة ، وقد علمت أن الجنان مُظلمة لا يدخلها شمس ولا ريح ، فأمر
عمرو بزجاجة فوضعها بين يديه ، ولم يمكث إلا قليلا حتى امتلأت من تراب
البطحاء ، فأخبر عمرو طريفة بذلك وقال لها : متى يكون هلك السدِّ ؟ قالت
له : فيما بينك وبين سبع سنين . قال : ففي أيها يكون ؟ قالت : « لا يعلم بذلك
إلا الله ، ولو علمه أحد لعلمته ، ولا تأتي على ليلة فيما بيني وبين سبع السنين إلا
ظننت الهلاك في غدها ، أو في مساءها ، ثم رأى عمرو في نومه سيل العرم ،
وقيل له : آية ذلك أن ترى الحصباء في سَعَف النخل ، فنظر إليها ، فوجد
الحصباء فيها قد ظهرت ، فعلم أن ذلك واقع ، وأن بلادهم ستخرَّب ، فكتم ذلك

[١] الشكل كسبب ونقل : الموت والهلاك . [٢] البرح : الشدة . [٣] الأجم جمع أجة وهي
الشجر الكثير اللثف ، والصرم : الجماعة ، والفرقة تجمع على فرق ، وجمع الجمع أفراق ، وجمع الجمع الجمع
أفاريق ، والجلاميد جمع جلهود كصفرور : الصخر . [٤] العرم : السد يمترض به الوادي (ومن معانيه
أيضا المطر الشديد ، والجرذ ، وواد جاء السيل من قبله) [٥] سحله كنعج : قشره ونعته ، وقصمه كسره
[٦] البطحاء والأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى . [٧] السهلة بالكسر : تراب كالرمل
يجيء به الماء ، وأرض سهلة كفرح : كثيرتها .

وأخفاه ، وأجمع على بيع كل شيء له بأرض مأرب^(١) وأن يخرج منها هو وولده^(٢) ، فخرج ثم أرسل الله تعالى على السد^(٣) السيل فهدمه .

(شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ص ٩٨)

*
* *

وقال أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني :

• • وسارت القبائل من أهل مأرب حين خافوا سيل العرم ، وعليهم مزيقياء ،
ومعهم طريفة الكاهنة ، فقالت لهم :

[١] مأرب : مدينة باليمن ، وكانت في الزمان الأول قاعدة التبابعة ، وهي مدينة بلقيس ، بينها وبين صنعاء نحو أربع مراحل ، وتسمى سبأ باسم بابنها سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

[٢] وقد خشى أن يستنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعو إليه أن يتأبى عليه ، وأن يفعل ذلك به في الملاء من الناس ، وإذا لطمه ، برفع هو يده ويأطمه ، ثم صنع طعاماً وبعث إلى أهل مأرب أن عمراً صنع يوم مجد وذكر ، فاحضروا طعامه ، فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذي أمره بما أمر ، فجعل يأمره بأمر فيتأبى عليه وينهاه فلا ينتهي ، فرفع عمرو يده فلطمه على وجهه فلطمه ابنه ، وكان اسمه ملكاً ، فصاح عمرو وادلاه يوم نحر عمرو يهيج صبي وبصر وجهه ، وحلف ليقتلته ، فلم يزالوا بعمرو يرغبون إليه حتى تركه ، فقال : والله لا أقيم بموضع صنع بي فيه هذا ، ولأبيعن أموالى حتى لا يرث منها بعدى شيئاً ، فقال الناس بعضهم لبعض : اغتموا غضب عمرو واشتروا منه أمواله قبل أن يرصى ، فابتاع الناس منه كل أمواله التي بأرض مأرب ، وفشا بعض حديثه فيما باعه من شأن سيل العرم ، فقام ناس من الأزدي فباعوا أموالهم ، فلما أكتروا البيع استنكر الناس ذلك فأمسكوا أيديهم عن الشراء ، ولما اجتمعت إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم ، ولما خرج عمرو من اليمن خرج لخروجه منها بشر كثير ، فزلوا أرض عك حاربتهم عك ، فارتحلوا عنها ، ثم اصطاحوا وبقوا بها حتى مات عمرو بن عامر ، وتفرقوا على البلاد ، فمنهم من صار إلى الشام ، وهم أولاد جفنة بن عمرو بن عامر ، ومنهم من صار إلى يثرب ، وهم أبنا قبيلة الأوس والخزرج ، وأبوها حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وصارت أزد الشراة إلى أرض الشراة ، وأزد عمان إلى عمان ، وصار ملك ابن فهم إلى العراق ، ثم خرجت بعد عمرو يدسيرة من أرض اليمن طيء فزلت جبل طيء أجأ وسلمى ، ونزلت ريبة ابن حارثة بن عمرو بن عامر تهامة ، وسموا خزاعة لا تخزاعهم من إخوانهم وتمزقوا في البلاد كل ممزق .

[٣] كان السد فيما يذكر قد بناه لقمان الأكبر بن عاد ، وكان رصفه لحجارة السد بالرصاص والحديد ، ويقال إن الذي بناه كان من ملوك خيبر ، وذلك أن الماء كان يأتي أرض سبأ من الشجر وأودية اليمن ، فردموها ردماً بين جيلين وحبسوا الماء ، وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث ، فأخصبوا وكثرت أموالهم ، فلما كذبوا رسولهم أرسل الله عليهم سيل العرم .

« لَا تَوْمُوا مَكَّةَ حَتَّى أَقُولَ ، وَمَا عَلَّمَنِي إِلَّا الْحَكِيمَ الْمُحَكَّمُ ، رَبُّ جَمِيعِ الْأُمَمِ ، مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ » قَالُوا لَهَا : مَا شَأْنُكَ يَا طَرِيفَةُ ؟ قَالَتْ : خَذُوا الْبَعِيرَ الشَّدَقَمَ ^(١) ، نَحْضِبُوهُ بِالْדَّمِ ، تَكُنْ لَكُمْ أَرْضٌ جُرْهُمُ ^(٢) ، جِيرَانِ بَيْتِهِ الْمُحَرَّمِ . (الْأَغَانِي ١٣ : ١٠٥)

* * *

وروى الميداني في مجمع الأمثال قال :

« أَلَقْتُ طَرِيفَةَ الْكَاهِنَةَ إِلَى عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ الَّذِي يُقَالُ لَهُ مَزِيْقِيَا بْنُ مَاءِ السَّمَاءِ ، وَكَانَتْ قَدِ رَأَتْ فِي كَهَانَتِهَا ^(٣) أَنْ سَدَّ مَأْرِبَ سَيْخَرَبَ ، وَأَنَّهُ سَيَأْتِي سَبِيلَ الْعَرَمِ ، فَيُخَرَّبُ الْجَنَّتَيْنِ ^(٤) ، فَبَاعَ عَمْرِو بْنُ عَامِرٍ أَمْوَالَهُ ، وَسَارَ هُوَ وَقَوْمُهُ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَكَّةَ ، فَأَقَامُوا بِمَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا ، فَأَصَابَتْهُمْ الْحُمَّى ، وَكَانُوا يَبْلُدُونَ لَا يَدْرُونَ فِيهِ مَا الْحُمَّى ، فَدَعَا طَرِيفَةَ فَشَكَوْا إِلَيْهَا الَّذِي أَصَابَهُمْ ، فَقَالَتْ لَهُمْ : قَدْ أَصَابَنِي الَّذِي تَشْكُونَ ، وَهُوَ مُفَرَّقٌ بَيْنَنَا . قَالُوا : فَمَا تَأْمُرِينَ ؟ قَالَتْ :

« مِنْ كَانَ مِنْكُمْ ذَا هَمٍّ بِعِيدٍ ، وَجَمَلٍ شَدِيدٍ ، وَمَزَادٍ ^(٥) جَدِيدٍ ، فَلْيَلْحَقْ بِقَصْرِ عُمَانَ الْمَشِيدِ ^(٦) ، فَكَانَتْ أَزْدُ عُمَانَ ، ثُمَّ قَالَتْ : مِنْ كَانَ مِنْكُمْ ذَا جَلْدٍ

[١] الواسع الشدق . [٢] وكانوا يسكنون مكة ، فأرسل إليهم عمرو أن أفسحوا لنا في بلادكم حتى نقيم قدر ما نستريح ونرسل رواداً إلى الشام وإلى الشرق ، فحينما بلغنا أنه أمثل لحقنا به ، فأبى ذلك جرم إباء شديداً ، وقالوا : لا والله ما نحب أن ينزلوا فيضيقوا علينا مرايعنا ومواردنا ، وكانت الحرب بين العريقين ، وانتهزت جرم فلم يفلت منهم إلا الشريد .

[٣] كهن كهانة بالفتح فهو كاهن ، وحرته الكهانة بالكسر .

[٤] قال تعالى : « لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَهُمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَيْنَ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ » .

[٥] المزاد والمزاید جمع مزادة وهي الراوية . [٦] المشيد : المرفوع ، قال مسلم بن الوليد في رثاء المشيد : أما هدت لمصرعه نزار ؟ بلى ، وتقوض الحمد المشيد .

وَقَسْرٌ^(١) ، وَصَبْرٌ عَلَى أَزْمَاتِ الدَّهْرِ ، فَعَلِيهِ بِالْأَرَاكِ^(٢) مِنْ بَطْنِ مُرٍّ^(٣) ، فَكَانَتْ خُزَاعَةَ ، ثُمَّ قَالَتْ : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الرَّاسِيَّاتِ فِي الْوَحْلِ ، الْمُطْعِمَاتِ فِي الْمَخَلِّ^(٤) ، فَلْيَلْحَقْ بِثَرِبِ ذَاتِ النَّخْلِ ، فَكَانَتْ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ ، ثُمَّ قَالَتْ : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الْخَمْرَ الْخَمِيرَ ، وَالْمَلِكَ وَالتَّامِيرَ ، وَيَلْبَسُ الدِّيَابِجَ وَالْحَرِيرَ ، فَلْيَلْحَقْ بِبُصْرَى وَغَوَيْرِهَا ، (وَهَا مِنْ أَرْضِ الشَّامِ) ، فَكَانَ الَّذِينَ سَكَنُوا مِنْ آلِ جَفْنَةَ مِنْ غَسَّانَ ، ثُمَّ قَالَتْ : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الثِّيَابَ الرَّقَاقَ ، وَالخَلِيلَ الْعِتَاقَ ، وَكُنُوزَ الْأَرْزَاقِ ، وَالِدَّمَ الْمُهْرَاقَ ، فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِ الْعِرَاقِ ، فَكَانَ الَّذِينَ سَكَنُوا مِنْ آلِ جَذِيمَةَ الْأَبْرَشِ ، وَمَنْ كَانَ بِالْحَيْرَةِ وَآلِ مُحَرَّقٍ^(٥) .

(مجمع الأمثال : ١ : ١٨٦)

٣٤٠ — حديث زبراء الكاهنة مع بني رثام من قضاة

كَانَ ثَلَاثَةٌ أَبْطُنٍ مِنْ قُضَاةٍ مُجْتَوِرِينَ^(٦) بَيْنَ الشَّحْرِ وَحَضْرَمَوْتَ : بَنُو نَاعِبٍ ، وَبَنُو دَاهِنٍ ، وَبَنُو رِثَامٍ ، وَكَانَتْ بَنُو رِثَامٍ أَقْلَهُمْ عَدَدًا ، وَأَشَجَّهُمْ لِقَاءً . وَكَانَتْ لِبْنِي رِثَامٍ عَجُوزٌ تَسْمَى خُوَيْلَةَ ، وَكَانَتْ لَهَا أُمَّةٌ مِنْ مُوَلَّدَاتِ الْعَرَبِ تَسْمَى زَبْرَاءَ ، وَكَانَ يَدْخُلُ عَلَى خُوَيْلَةَ أَرْبَعُونَ رَجُلًا ، كُلُّهُمْ لَهَا تَحَرَّمٌ ، بَنُو إِخْوَةٍ وَبَنُو أَخَوَاتٍ ، وَكَانَتْ خُوَيْلَةَ عَقِيًّا ، وَكَانَ بَنُو نَاعِبٍ ، وَبَنُو دَاهِنٍ مَتَظَاهِرِينَ عَلَى بَنِي رِثَامٍ ، فَاجْتَمَعَ بَنُو رِثَامِ ذَاتَ يَوْمٍ فِي عُرْسٍ لَهُمْ ، وَهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا ، كُلُّهُمْ شَجَاعٌ بَيْسٌ^(٧) ، فَطَعَمُوا وَأَقْبَلُوا عَلَى شَرَابِهِمْ ، وَكَانَتْ زَبْرَاءُ كَاهِنَةً فَقَالَتْ لَخُوَيْلَةَ : ائِطْلِقِي بَنِي قَوْمِكِ أَنْذِرَهُمْ ، فَأَقْبَلَتْ خُوَيْلَةَ تَتَوَكَّأُ عَلَى زَبْرَاءَ

[١] قسره على الأمر : قهره . [٢] الأراك : القطة من الأرض ، وموضع بعرفات ، وجبل بهذيل .
[٣] مر بنو أد بن طابخة . [٤] المخل : الشدة والجذب . [٥] هو عمرو بن هند لأنه حرق مائة من بني تميم . [٦] متجاوزين . [٧] البيس : الشجاع ، من بؤس ككرم بأسا .

فلما أبصرها القوم ، قاموا إجلالاً لها . فقالت : « يَا ثَمَرَ الْأَكْبَادِ ، وَأَنْدَادَ ^(١) الأُولَادِ ، وَشَجَا ^(٢) الْحُسَادِ ، هَذِهِ زَبْرَاءُ ، تَخْبِرُكُمْ عَنْ أَنْبَاءِ ، قَبْلَ انْحِسَارِ الظُّلَمَاءِ ، بِالْمَوْئِيدِ ^(٣) الشَّنْعَاءِ ، فَاسْمَعُوا مَا تَقُولُ » . قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت :

« وَاللُّوحِ ^(٤) الْخَافِقِ ، وَاللَّيْلِ الْفَاسِقِ ^(٥) ، وَالصَّبَاحِ الشَّارِقِ ، وَالنَّجْمِ الطَّارِقِ ^(٦) ، وَالْمُزْنَ الْوَادِقِ ^(٧) ، إِنْ شَجَرَ الْوَادِي لَيَأْتِدُ وَخْتَلًا ^(٨) ، وَيَحْرُقُ أَنْبِيَاءَ عَصَلًا ^(٩) ، وَإِنْ صَخَرَ الطُّودِ لَيُنْذِرُ تُكْلًا ^(١٠) ، لَا تَجِدُونَ عَنْهُ مَعْلًا ^(١١) »

فوافقت قومًا أشاري ^(١٢) سُكَارَى ، فقالوا : « رِيحٌ خَجْبُوجٌ ^(١٣) ، بِعَيْدَةٍ مَا بَيْنَ الْفُرُوجِ ، أَتَتْ زَبْرَاءَ بِالْأَبْلَقِ الشُّوجِ ^(١٤) » .

فقالت زبراء : « مَهْلًا يَا بَنِي الْأَعْزَةِ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَشْمُ ذَفَرَ ^(١٥) الرِّجَالِ تَحْتَ الْحَدِيدِ » فقال لها فتى منهم يقال له هُذَيْلُ بْنُ مُنْقِدٍ : « يَا خَذَاقِ ^(١٦) ، وَاللَّهِ

[١] أنداد : جمع ند بالكسر وهو المثل والنظير . [٢] الشجا : ما عترض في الخلق من عظم ونحوه .
 [٣] المؤيد : الداهية والأمر العظيم . [٤] اللوح بالضم والفتح (والضم أعلى) : المرء بين السماء والأرض . [٥] غسق الليل بكس : اشتدت ظلمته . [٦] الطارق : في الأصل ، كل من أتى ليلاً ، ثم استعمل في النجوم لطلوعها ليلاً . [٧] المرن : السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ، والواديق : من ودق المطر كودق : قطر . [٨] أدوت له أدو أدوا إذا ختلته وخذعته (ودأيت له ، ودألت له أيضاً) والحتل : الحدع . [٩] حرق أنبياءه : إذا حك بعضها ببعض ، والعرب تقول عند المضرب يفضبه الرجل على صاحبه : « هو يحرق على الأرم » والأرم كسكر : الأصراس ، والمعصل : المعوجة جمع أعصل . [١٠] الطود : الجبل ، والشكل : الفقد . [١١] المعل : المعجى .
 [١٢] الأشرمركة : المرح . [١٣] الخجوج : السريمة المر . [١٤] الأبلق : وصف من البلق محرمة وهو ارتفاع البياض في قوائم الفرس إلى الفخذين ، والأبلق لا يكون تتوحاً ، والعرب تضرب هذا مثلاً للشيء الذي لا يتأثر ، تقول « طلب الأبلق المقوق ، فلما فأنه أراد بيض الأنوق » والمقوق كصبور : الحامل ، والأنوق كصبور أيضاً : الذكر من الرخم ولا يبيض له ، هذا قول بعض اللغويين ، فالعنى أنه طلب ما لا يمكن ، فلما لم يجد طلب أيضاً ما لا يكون ولا يوجد ، وعامتهم يقولون : الأنوق الرخمة وهي تبيض في مكان لا يوصل فيه إلى بيضها إلا بعد عناء ، فالعنى أنه طلب ما لا يقدر عليه ، فلما لم يزل طلب ما يجوز أن يناله .
 [١٥] الدفر : حدة الريح ، يكون في النتن والطيب (والدفر لا يكون إلا في النتن) .
 [١٦] خذاق : كناية عما يخرج من الإنسان ، يقال : خذاق ومزق وزرق .

ما تَشْمَيْنِ إِلَّا ذَفَرَ إِبْطِيكَ » فانصرفت عنهم ، وارتاب قوم من ذوى أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون رجلاً ، وبقي ثلاثون ، فَرَقَدُوا فِي مَشْرَبِهِمْ ، وَطَرَقْتَهُمْ بنو داهن وبنو ناعب ، فقتلهم أجمعين ، وأقبلت خُوَيْلَةَ مع الصباح ، فوقفت على مصارعهم ، ثم عمّدت إلى خناصرهم ، فقطعتها وانتظمت منها قِلَادَةً ، وألقتها في عُنْقِهَا ، وخرجت حتى لحقت بمرضاوى بن سَعْوَةَ المَهْرِيّ ، وهو ابن أختها فأناخت ، بفنائها ، فاستعدته على بنى داهن وبنى ناعب ، فخرج في منسِرٍ^(١) من قومه ، فطرقهم فأوجع فيهم .

(الأملك ١ : ١٢٦)

٣٤١ — كاهنة ذى الخلصة تتكهن بما فى بطن رقية بنت جشم زعموا أن رُقِيَّةَ بنت جُشَمِ بن معاوية ولدت مُتَمَيَّرًا وَهَلَالًا وسواءة ، ثم اعتاطت^(٢) ، فأتمت كاهنة بذى الخَلِصَةِ^(٣) ، فأرثها بطنها ، وقالت : إني قد ولدت ثم أَعْتَطْتُ ، فنظرت إليها ومَسَّتْ بطنها ، وقالت :

« رَبُّ قِبَائِلِ فِرْقِي ، وَجَبَائِلِ حَلْقِي ، وَظُغُنُّ^(٤) حُرْقِ^(٥) ، فى بطنك زُقٌّ^(٦) »

[١] المنسر من الحبل : ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، أو من الأربعين إلى الخمسين ، أو إلى الستين ، أو المائة إلى المائتين ، وقطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .

[٢] اعتاطت المرأة : لم تحمل سنين من غير عقر . [٣] ذى الخلصة محرّكة وبعضين : بيت كان يدعى الكعبة الليمانية لحنم ، كان فيه صنم اسمه الخلصة . [٤] الظمن والظمان جمع ظمينة : وهو الهرج سواء كان فيه امرأة أم لا ، والمرأة مادامت فى اليهودج ، ويقال : الظمينة فى الأصل وصب للمرأة فى هودجها ثم سميت بهذا الاسم وان كانت فى بيتها ، لأنها تصير مظعونة (أى يظمن بها زوجها ، فهى فعيلة بمعنى مفعولة) . [٥] الحزق والحزقة (بكسر الحاء) والحازقة والحريق والحزيقة والحزاقة (بالفتح) الجاعه ، والجمع حزائق وحزيق وحزق (بضمحيتين) . [٦] أى وضع وأصل الرق : رمى الطائر بدرقه ، والمعنى : رب جنين تنشعب منه قبائل متفرقة ، ويتناسل منه ذكرا يتحلّقون فى المجالس والأندية وجماعات من الذنوة ، قد أودع بطك .

فلما نَحَّضَتْ^(١) بريعة بن عامر^(٢) ، قالت : إني أعرف ضَرِطِي بهلال ،
« أي هو غلام ، كما أن هلالا كان غلاماً » . (مجمع الأمثال ١ : ٣٢١)

٣٤٢ - رأى سلمي الهمدانية في حريم المرادي

أغار رجل من « مُرَادٍ » يقال له « حَرِيم » على إبل عمرو بن بَرّاقه
الهُمْدَانِيّ وخيل له ، فذهب بها ، فأتى عمرو سألني الهمدانية ، وكانت بنت
سَيِّدِهِمْ ، وعن رأيها كانوا يَصْدُرُونَ ، فأخبرها أن حريماً المراديّ أغار على إبله
وخيله ، فقالت : « وَالْخَفْوُ وَالْوَمِيضُ^(٣) ، وَالشَّفَقُ كَالْأَحْرِيضِ^(٤) ، وَالْقُلَّةُ
وَالْحَضِيضُ^(٥) ، إن حريماً لم ينعُ الحيز^(٦) ، سَيِّدُ مَرِيزٍ^(٧) ذُو مَعْقِلٍ حَرِيزٍ ، غير
أني أرى الحُمَّةَ^(٨) سَتَظْفَرُ مِنْهُ بِمَثْرَةٍ ، بِطَيْئَةِ الْجَبْرَةِ ، فَأَغْرَ وَلَا تُنْكَعُ^(٩) »
فأغار عمرو ، فاستاق كلَّ شيءٍ له ، فأتى حريم بعد ذلك يطلب إلى عمرو أن
يرد عليه بعض ما أخذ منه ، فامتنع وَرَجَعَ حريم . (الأمل ٢ : ١٢٣)

٣٤٣ - تنافر العجفاء بنت علقمة وصواحباتها إلى الكاهنة السعدية

روى أن العَجْفَاءَ بنتَ عَلْقَمَةَ السَّعْدِيّ ، وثلاث نِسوةٍ من قومها ، خرجن
فَاتَعَدْنَ بِرَوْضَةٍ يتحدثن فيها ، فَوَافَيْنَ بِهَا لَيْلًا فِي قَرَزَاهِرٍ ، وَلَيْلَةً طَلَّقَةً سَاكِنَةً ،
وَرَوْضَةً مُعْشَبَةً خِصْبَةً ، فلما جلسن قلن : ما رأينا كَاللَّيْلَةِ لَيْلَةً ، وَلَا كَهَذِهِ

-
- [١] نَحَّضَتْ كَسَعٍ وَمَنَعٍ وَعَنِ : أَخَذَهَا الطَّاقُ .
[٢] هُوَ بَرِيعةُ بِنِ عامرِ بِنِ صَمِصمةِ بِنِ معاويةِ بِنِ بكرِ بِنِ هوازنِ بِنِ منصورِ بِنِ عكرمةِ بِنِ خِصْفَةَ بِنِ
قيسِ بِنِ عيلانِ بِنِ مضرٍ ومن نسله بنو كلاب بِنِ ربيعةِ بِنِ عامرٍ وبنو جعفر بِنِ كلابِ بِنِ ربيعةِ .
[٣] الخفو : اللعان الضعيف ، والوميض : أشد من الخفو . [٤] الأحرِيضُ : العصفُر .
[٥] القلّة : أعلى الرأس والجبل وكل شيء ، والحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .
[٦] الناحية . [٧] مَرِيزٍ : فاضل ، من قولهم هذا أمر من هداي أي أفضل منه .
[٨] الحُمَّةُ القدر (محرّكة) ، وقيل هي واحد الحمام (بالكسر) .
[٩] نكعه عن الأمر (كنع) رده ودفعه .

الروضة روضةً أطيبَ ريحاً ولا أنضر ، ثم أفَضْنَ في الحديث ، فقلن : أئِ
النساء أفضل ؟ قالت إحداهن : الخُرُود ^(١) الوَدُود الوُدُود . قالت الأخرى :
خيرهن ذات الغنَاء ^(٢) ، وطيبِ الثناء ، وشدة الحياء . قالت الثالثة : خيرهن
السَّمُوعُ الجَمُوع ، النَّفُوعُ غير المَنُوع . قالت الرابعة : خيرهن الجامعةُ لأهلها
الوَادعةُ الرَّافعة ، لا الواضعة . قلن : فأى الرجال أفضل ؟ قالت إحداهن : خَيْرُهُم
الْحَظِي ^(٣) الرَّضِي ، غير الحَظِل ^(٤) البَطِي . قالت الثانية : خيرهم السيد
الكريم ، ذو الحَسَبِ العميم ، والمجدِ القَدِيم . قالت الثالثة : خيرهم السَّخِي ،
الوَفي الرَّضِي ، الذي لَا يُعِير ^(٥) الحُرَّة ، ولا يتخذ الضَّرَّة . قالت الرابعة : وأيكن ،
إن في أبي لَنَعْتَكُن ، كَرَمِ الأخلاق ، والصدقَ عند التَّلَاق ، والفَلَج ^(٦) عند
السَّبَاق ، ويحمده أهل الرفاق . قالت المعجفاء عند ذلك : كل فتاة بأبيها مُعْجَبَةٌ .
وفي بعض الروايات أن إحداهن قالت : إن أبي يُكْرَمُ الجار ، وَيُعْظَمُ
الْحِطَار ^(٧) ، وَيَنْجَرُ العِشَار ^(٨) ، بعد الحَوَار ^(٩) ، وَيَحْمِلُ الأمور الكبار ، ويأْنف
من الصغار ، فقالت الثانية : إن أبي عظيم الحَظَر ، منيع الوَزَر ^(١٠) ، عزيز النَّفَر ،
يُحْمَدُ منه الوِرْدُ وَالصَّدْر ، فقالت الثالثة : إن أبي صدوق اللسان ، حديد الجنان ،

[١] الخرود والحريد والحريدة : الحية الطويلة السكوت الحافظة الصوت المنتمة .

[٢] الكفاية والمنفعة . [٣] الحظي : ذو الخطوة والمكانة عند زوجه ، والحطية كذلك .

[٤] رجل حظل ككتف وشداد وصبور : مقتر محاسب أهله بما ينفق عليهم ، وفي مجمع الأمثال « غير

الخطال ، ولا التبال » والتبال بالتشديد من التبل (بفتح فسكون) وهو الحقد .

[٥] أغار امرأته : تزوج عليها . [٦] الفوز والظفر .

[٧] الخطار جمع خطر كسب وهو السبق يتراهن عليه . [٨] العشار جمع عشراء كفساء وهي من

النوق التي مضى لملها عشرة أشهر أو ثمانية . [٩] الحوار بالضم وقد يكسر : ولد الناقة ساعة تضعه

أولاً أن يفصل عن أمه . [١٠] الوزر : الملبأ .

رَذُومٌ^(١) الجِفَانُ ، كثير الأعوان ، يُزَوِي السَّنَانَ ، عند الطَّعْمَانِ . قالت الرابعة :
إن أبي كريم النَّزَالِ ، مُنِيفُ المَقَالِ ، كثير النِّوَالِ ، قليل السُّوَالِ ، كريم الفِعالِ .
ثم تنافرن إلى كَاهِنَةٍ معهن في الحَى ، فقلن لها : اسمي ما قلنا ، واحكى
بيننا واعدلي ، ثم أَعَدَّنَ عليها قولهن ، فقالت لهن : « كل واحدة منكن
مَارِدَةٌ^(٢) بأبيها واجدة^(٣) ، على الإِحْسَانِ جَاهِدَةٌ ، لِصَوَابِحَاتِهَا حَاسِدَةٌ ، ولكن
اسمعي قولي : خَيْرُ النِّسَاءِ المُبْقِيَةِ على بَعْلِهَا ، الصَّابِرَةُ على الضَّرِّاءِ مَخَافَةٌ أن ترجع
إلى أهلها مُطَلَّقَةٌ ، فهي تُؤَثِّرُ حَظَّ زوجها على حَظِّ نَفْسِهَا ، فتلك الكريمة
الكاملة ، وخير الرجال الجَوَادُ البَطَلُ ، القليل الفَشَلُ ، إذا سأله الرجل ، ألفاه
قليل العِلَلِ ، كثير النَّفْلِ^(٤) » ، ثم قالت : كل واحدة منكن بأبيها مُعْجَبَةٌ .
(مجمع الأمثال ٢ : ٥٤ ، وجهرة الأمثال ٢ : ١٣٣)

٣٤٤ - عفراء الكاهنة تعبر رؤيا مرثد بن عبد كلال

روى أن مرثد بن عبد كلال قفل من غزاة غزاها بغنائم عظيمة ، فوفد
عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهتثونه ، فرفع الحجاب عن الوافدين
وأوسعهم عطاء ، واشتد سروره بهم ، فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا في
المنام أخافته وأذعرتة وهالته في حال منامه ، فلما انتبه أنسبها حتى لم يذكر منه
شيئا ، وثبت ارتياؤه في نفسه بها ، فانقلب سروره حزنا ، واحتجب عن الوفو
حتى أساءوا به الظن ، ثم إنه حشر الكهَّان فجعل يخلو بكاهن كاهن ، ثم يقو
له : أخبرني عما أريد أن أسألك عنه ، فيجيبه الكاهن بأن لا علم عندي ، حتى
يدع كاهنا عامَّةً إلا كان إليه منه ذلك ، فتضاعف قلقه ، وطال أرقه ، وكأ :

[١] الرذوم : القصة الممتنة تتصبب جوانبها . [٢] أي قد بلغت العاية .

[٣] وجد به (بالكسر) أحبه . [٤] النفل : الهبة .

أمه قد تكهنت ، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك ، إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه ، لأن أتباع الكواهن من الجان ، أطف وأظرف من أتباع الكهّان ، فأمر بحشر الكواهن إليه ، وسألهن كما سأل الكهّان ، فلم يجد عند واحدة منهن علماً مما أراد عمله ، ولما يئس من طلبته سأل عنها ، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد ، فأوغل في طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرُفعت له آيات من ذرّاً^(١) جبل ، وكان تدافعهُ الهجير ، فمدل إلى الآيات ، وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنها ، فبرزت إليه منه عجوز ، فقالت له : أنزل بالرحب والسعة ، والأمن والدعة ، والجفنة المدعدة^(٢) ، والملبة المترعة^(٣) ، فنزل عن جواده ، ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس ، وخفقت عليه الأرواح^(٤) ، نام فلم يستيقظ حتى تصرّم الهجير ، فجلس يمسح عينيه ، فإذا هو بين يديه فتاة لم ير مثلها قواماً ولا جلالاً ، فقالت : « أبيت اللعن أيها الملك الهمام ! هل لك في الطعام ؟ » فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لما رأى أنها عرفتُهُ ، وتصامّ عن كلمتها ، فقالت له : « لا حذر ، فذاك البشر ، فذاك الأكبر ، وحظنا بك الأوفر » . ثم قربت إليه ثريداً وقديداً وخيساً^(٥) ، وقامت تدبُّ عنه ، حتى انتهى أكله ، ثم سقته لبناً صريفاً^(٦) وضرريباً^(٦) ، فشرب ما شاء ، وجعل يتأملها مقبلةً ومُدبرةً ، فلأت عينيه حسناً ، وقلبه هووى ، فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : اسمي غفيرا ،

[١] أى فى كسبه وستره . [٢] الجفنة : القصة ، والمدعدة : التى ملكت بقوة ثم حركت حتى تراس ما فيها ، ثم ملكت بعد ذلك . [٣] الملبة : قدح ضخم من جلود الابل أو من خشب يجلب فيها ، والمترعة : المملوءة . [٤] الأرواح ، والرياح جمع ربح . [٥] القديد : اللحم المقدد ، أو ما قطع منه طولاً ، والحيس : تمر يخلط بسمن وأقط ، فيعجن شديداً ثم يدر منه نواه (والأقط شىء يتخذ من الخيض النوى) . [٦] الصريف : اللبن ساعة حلب ، والضريب : اللبن يجلب من عدة لفاح فى إناء .

فقال لها : يا عفراء ، من الذى دَعَوْتِهِ بِالْمَلِكِ الْهَمَامِ ؟ قالت : « مَرَّئِدُ الْعَظِيمِ الشَّانِ ، حَاشِرُ الْكُوهَانِ وَالْكُهَّانِ ، لِمَعْضِلَةِ بَعْدِ عَنْهَا الْجَانَّ » ، فقال يا عفراء : أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : « أجل أيها الملك ، إنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث ^(١) أحلام » . قال الملك : أصبت يا عفراء ، فما تلك الرؤيا ؟ قالت : « رأيت أعاصير ^(٢) زَوَابِعَ ، بعضها لبعض تابع ، فيها لهب لاعم ، ولها دُخَانٌ ساطع ، يَقْفُوها نهر مُتَدَاْفِعٌ ، وسمعت فيما أنت سامع ، دُعَاءَ ذِي جَرَسٍ ^(٣) صَادِعٌ : هَامُوا إِلَى الْمَشَارِعِ ^(٤) ، فَرَوَى جَارِعٌ ^(٥) ، وَغَرِقَ كَارِعٌ ^(٦) » - فقال الملك : أجل ، هذه رؤياي ، فما تأويلها يا عفراء ؟ قالت : « الأعاصير الزوابع ، ملوك تباع ^(٧) ، والنهر علم واسع ، والداعى نبي شافع ، والجارع وليّ تابع ، والكارعُ عدو منازع » . فقال الملك : يا عفراء ، أَسَلِمَ هذا النبي أم حرب ؟ فقالت : « أَقْسَمُ بِرَافِعِ السَّمَاءِ ، وَمُنْزِلِ الْمَاءِ مِنَ الْعَمَاءِ ^(٨) ، إِنَّهُ لِمُطِلُّ الدَّمَاءِ ^(٩) ، وَمُنْطَقُ الْعِقَائِلِ نُطْقَ الْإِمَاءِ ^(١٠) » . فقال الملك : إلام يدعو يا عفراء ؟ قالت : « إلى صلاة وصيام ، وَصِلَةِ أَرْحَامٍ ، وَكَسْرِ أَصْنَامٍ ، وَتَعْطِيلِ أَزْلَامٍ ^(١١) ، واجتناب

[١] أضغاث أحلام : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها . [٢] الأعاصير جمع إعصار وهو الريح التي تهب من الأرض كالعمود نحو السماء ، أو التي فيها العصار بالكسر وهو الغبار الشديد .
[٣] الجرس : الصوت . [٤] المشارع جمع مشرعة وهي مورد الشاربة . [٥] جارع فاعل من جرع الماء كسمع ومنع إذا بلعه . [٦] كارع فاعل من كرع في الماء كسمع ومنع تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا ياماه . [٧] التباع جمع تبع كسكر : ملوك اليمن .
[٨] العماء : السحاب الكثيف . [٩] انظر قوله عليه الصلاة والسلام في خطبته في حجة الوداع « وإن دماء الجاهلية موضوعة » . [١٠] العقائل : كرائم النساء جمع عقيلة ، والسطق جمع نطق ككتاب والنطاق والمنطقة : ما تشد به المرأة وسطها للهنة ، ونطقها تنظيها : ألبسها النطاق فتنطقت وانتطقت ومنطق النساء أى يسيهن فيشدون النطق على أوساطهن للخدمة كالإماء . [١١] الأزلام جمع زلم كذب : قداح كان العرب يستقسمون بها في الجاهلية (أى يطلبون معرفة ما قسم لهم) وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فلا من تجارة أو سفر أجلوا ثلاثة قداح (القداح جمع قدح بالكسر وهو السهم قبل أن يراش) وكانت عند أصنامهم ، أحدها مكتوب عليه : أمرئ ربى ، والثانى : نهاني ربى ، والثالث : ذفل ، فإن خرج الأول مضوا في الأمر ، أو الثانى أحجموا عنه ، أو الثالث أجالوها ثانية حتى يخرج أحد الأولين .

آثام» فقال الملك : يا عفياء ، إذا ذبح قومُهُ فمن أعضاده ^(١) ؟ قالت : أعضاده
غَطَارِيفُ ^(٢) يَمَأُونُ ، طَائِرُهُمْ بِهِ مَيِّمُونَ ، يُغْزِيهِمْ فِيغْزُونَ ، وَيُدَمِّتُ ^(٣) بِهِمُ
الْحَزُونَ ، وإلى نصره يَتَتَرُونَ . فأطرق الملك يُؤامِرُ ^(٤) نفسه في خِطْبَتِهَا ،
فَقَالَتْ : « أَيُّدِ اللِّعْنِ أَيُّهَا الْمَلِكُ ! إِنْ تَابَعِي غَيُورٌ ، وَلَأْمَرِي صَبُورٌ ، وَنَاكِحِي
مَثْبُورٌ ، وَالْكَالْفُ بِي ثُبُورٌ ^(٥) » . فنهض الملك وجال في صَهْوَةٍ ^(٦) جَوَادِهِ ،
وَانْطَلَقَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا بِمِائَةِ نَاقَةٍ كَوْمَاءَ ^(٧) . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٩٦)

[١] الأعضاد : الأنصار جمع عضد ، والذبح معروف ، والمراد هنا إذا قطعوه وتركوا نصرته .
[٢] الغطاريف جمع غطريف وهو السيد الشريف . [٣] يسهل ، والحزون جمع حزن كشمس
وهو ما غلط من الأرض . [٤] يشاور . [٥] الثبور : الهلاك . [٦] الصهوة : مقعد
الفارس من ظهر فرسه . [٧] الكوماء : الناقة العظيمة السنام .

اتتهى الجزء الأول

ويليه

الجزء الثاني وأوله : الباب الثالث في خطب ووصايا

العصر الأموي

فهرس

الخطبة الأولى

من جمهرة خطب العرب

الباب الأول

الخطب والوصايا في العصر الجاهلي

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
إصلاح مرثد الخير بين سبيع بن الحارث وبين ميثم بن مثوب		١
مقال مرثد الخير	١	٢
مقال سبيع بن الحرث	٢	٢
مقال ميثم بن مثوب	٣	٣
مقال مرثد الخير	٤	٤
طريف بن العاصي والحرث بن ذيخان يتفاخران عند بعض مقاول حمير	٥	٥
منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين	٦	٨
أشراف العرب بين يدي كسرى		١١
مقال حذيفة بن بدر الفزاري	٧	١٢
مقال الأشعث الكندي	٨	١٢
مقال بسطام الشيباني	٩	١٣
مقال حاجب بن زرارة	١٠	١٣
مقال قيس بن عاصم السعدي	١١	١٥

الخطبة أو الوصية

رقم
الخطبة

رقم
الصفحة

وفود العرب على كسرى

١٥.

خطبة النعمان بن المنذر	١٢	١٦
» أ كثم بن صيفي التيمي	١٣	٢١
» حاجب بن زرارة التيمي	١٤	٢٢
» خطبة الحارث بن عباد البكري	١٥	٢٣.
» عمرو بن الشريد السلمي	١٦	٢٤
» خالد بن جعفر السكلابي	١٧	٢٥
» علقمة بن علاثة العامري	١٨	٢٥
» قيس بن مسعود الشيباني	١٩	٢٦
» عامر بن الطفيل العامري	٢٠	٢٧
» عمرو بن معديكرب الزبيدي	٢١	٢٨
» الحارث بن ظالم المري	٢٢	٢٨

وفود العرب يعزون سلامة ذا فائش بابنه

٣٠

خطبة الملبب بن عوف	٢٣	٣٠
خطبة جمادة بن أفلح	٢٤	٣٠
تعزية أ كثم بن صيفي لعمرو بن هند عن أخيه	٢٥	٣١
خطبة عبد المطلب بن هاشم	٢٦	٣١
خطبة هاشم بن عبد مناف	٢٧	٣٢
خطبة كعب بن لؤي	٢٨	٣٣
تساؤل عامر بن الظرب وحممة بن رافع عند أحد ملوك حمير	٢٩	٣٤
خطبة قس بن ساعدة الأيادي	٣٠	٣٥
خطبة المأمون الحارثي	٣١	٣٦
خطبة هاني بن قبيصة الشيباني	٣٢	٣٧

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة عمرو بن كلثوم	٣٣	٣٧
خطبة أبي طالب في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة	٣٤	٣٨
حديث بعض مقاول حمير مع ابنه	٣٥	٣٨
قيس بن خفاف البرجمي وحاتم طي	٣٦	٤٣
وصية أوس بن حارثة لابنه مالك	٣٧	٤٥
« ذى الاصبع المدواني لابنه أسيد	٣٨	٤٦
« أ كثم بن صيفي لبنيه ورهطه	٣٩	٤٦
نصيحة أ كثم بن صيفي لقومه	٤٠	٤٧
وصية عمرو بن كلثوم لبنيه	٤١	٤٨
وصية الحرث بن كعب لبنيه	٤٢	٤٩

[تفييه] بقية خطب العصر الجاهلي ستأتي بعد من صفحة ٢٧٢ إلى الآخر .

الباب الثاني

الخطب والوصايا في عصر صدر الإسلام

خطب النبي صلى الله عليه وسلم

أول خطبة خطبها بمكة حين دعا قومه
 ٤٣ | ٥١ |

خطبته يوم فتح مكة
 ٤٤ | ٥٢ |

خطبة له عليه الصلاة والسلام
 ٤٥ | ٥٢ |

» » » »
 ٤٦ | ٥٣ |

» » » »
 ٤٧ | ٥٣ |

» » » »
 ٤٨ | ٥٤ |

خطبته بالخيف
 ٤٩ | ٥٤ |

خطبة له عليه الصلاة والسلام
 ٥٠ | ٥٥ |

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

أول خطبة خطبها بالمدينة

٥١

٥٥

خطبته في أول جمعة جمعها بالمدينة

٥٢

٥٦

خطبته في حجة الوداع

٥٣

٥٧

خطبته في مرض موته

٥٤

٦٠

خطب يوم السقيفة

خطبة سعد بن عبادة

٥٥

٦١

خطبة أبي بكر رضي الله عنه

٥٦

٦٢

نص آخر لخطبة أبي بكر يوم السقيفة

٥٧

٦٣

خطبة الحباب بن المنذر

٥٨

٦٤

» عمر بن الخطاب رضي الله عنه

٥٩

٦٤

» أخرى للحباب بن المنذر

٦٠

٦٤

» بشير بن سعد

٦١

٦٥

خطب أبي بكر رضي الله عنه

خطبته يوم قبض الرسول صلى الله عليه وسلم

٦٢

٦٦

خطبته بعد البيعة

٦٣

٦٧

خطبة أخرى له بعد البيعة

٦٤

٦٧

» »

٦٥

٦٩

» له

٦٦

٧٠

» »

٦٧

٧١

» . »

٦٨

٧٢

خطبة له في ندب الناس لفتح الشام

٦٩

٧٣

خطبة له في الأنصار

٧٠

٧٣

وصاياہ

وصيته لأسامة بن زيد	٧١	٧٤
وصيته لعمر بن العاص والوليد بن عقبة	٧٢	٧٥
وصيته لخالد بن الوليد	٧٣	٧٥
وصيته ليزيد بن أبي سفيان	٧٤	٧٥
كلامه لعبد الرحمن بن عوف في علمته التي مات فيها	٧٥	٧٧

خطب عمر بن الخطاب رضی اللہ عنہ

خطبته حين ولي الخلافة	٧٧	٧٩
خطبة أخرى	٧٨	٧٩
خطبة له	٧٩	٨٠
خطبة له	٨٠	٨٠
خطبة أخرى	٨١	٨١
خطبة له	٨٢	٨٢
خطبة له	٨٣	٨٣
خطبة له	٨٤	٨٥
خطبة له	٨٥	٨٦
خطبة له	٨٦	٨٦
خطبته عام الرمادة	٨٧	٨٧

ندب الناس لقتال فارس

خطبة المثني بن حارثة الشيباني	٨٨	٨٨
عمر رضی اللہ عنہ	٨٩	٨٩

الخطبة أو الوصية

الخطبة	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة له وقد شيع جيش سعد بن أبي وقاص	٨٩	٩٠
خطبته وقد بلغه أن قوماً يفضلونه على الصديق	٩٠	٩١

وصاياه

وصيته للمجاهدين	٩١	٩٢
» لسعد بن أبي وقاص	٩١	٩٣
» لسعد بن أبي وقاص أيضاً	٩٣	٩٤
» أخرى كتبها لسعد بن أبي وقاص	٩٣	٩٥
» للخليفة من بعده	٩٥	٩٦

خطب يوم الشورى

خطبة عبد الرحمن بن عوف	٩٧	٩٧
» عثمان بن عفان	٩٨	٩٨
» الزبير بن العوام	٩٨	٩٩
» سعد بن أبي وقاص	٩٩	١٠٠
» عليّ بن أبي طالب	٩٩	١٠١

خطب عثمان بن عفان رضى الله عنه

خطبته حين بايعه أهل الشورى	١٠٠	١٠٢
خطبته بعد البيعة	١٠١	١٠٣
خطبة أخرى	١٠١	١٠٤
خطبته حين تقم عليه الناس	١٠٢	١٠٥
خطبته التي نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة	١٠٢	١٠٦
خطبته في الردّ على الثوار	١٠٣	١٠٧

الخطبة أو الوصية

	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبته وقد اشتد عليه الحصار	١٠٨	١٠٤
آخر خطبة خطبها عثمان	١٠٩	١٠٤
خطب الوفود		
خطبة عطار بن حاجب بن زرارة بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم	١١٠	١٠٥
خطبة ثابت بن قيس بن الشماس	١١١	١٠٦
عمرو بن الاهتم والزبرقان بن بدر بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم	١١٢	١٠٦
خطبة طهفة بن أبي زهير النهدي	١١٣	١٠٧
ردّه صلى الله عليه وسلم	١١٤	١٠٨
خطبة ظبيان بن حداد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم	١١٥	١٠٩
خطب الوفود بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه		
خطبة هلال بن بشر	١١٦	١١١
» زيد بن جبلة	١١٧	١١١
» الأحنف بن قيس	١١٨	١١٢
» الأحنف بن قيس	١١٩	١١٢
خطب رجال من الفاتحين		
بين يدي يزيد جرد ملك الفرس		
خطبة النعمان بن مقرن	١٢٠	١١٤
» المغيرة بن زرارة	١٢١	١١٥
مقال ربي بن عامر عند رستم قائد جيش الفرس	١٢٢	١١٦
خطبة المغيرة بن شعبة في حضرة رستم	١٢٣	١١٧
» خالد بن الوليد في وقعة اليرموك	١٢٤	١١٧

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة	رقم الخطبة	
١١٩	١٢٥	خطبة عتبة بن غزوان بعد فتح الأبله
١٢٠	١٢٦	» سعيد بن العاص حين قدم الكوفة والياً عليها
١٢٠	١٢٧	الخنساء تحرض أولادها على القتال
١٢١	١٢٨	خطبة عبد الله بن الزبير حين قدم بفتح أفريقية
١٢٣	١٢٩	» السيدة عائشة في الانتصار لأبيها
١٢٥	١٣٠	رثاؤها لأبيها
١٢٦	١٣١	خطبتها حين أنبتت بقتل عمان

فتنة أصحاب الجمل

١٢٧	١٣٢	خطبة طلحة
١٢٧	١٣٣	» السيدة عائشة بالمربد
١٢٨	١٣٤	» عدى بن حاتم يستنفر قومه لنصرة الإمام علي رضي الله عنه
١٢٩	١٣٥	» زفر بن زيد يستنفر قومه لنصرة الإمام علي رضي الله عنه
١٣٠	١٣٦	» سعيد بن عبيد الطائي
١٣٠	١٣٧	» أبي موسى الأشعري
١٣١	١٣٨	» أخرى له
١٣٢	١٣٩	» زيد بن صوحان
١٣٢	١٤٠	» القعقاع بن عمرو
١٣٣	١٤١	» سيحان بن صوحان
١٣٣	١٤٢	» الحسن بن علي رضي الله عنه
١٣٤	١٤٣	وفادة القعقاع بن عمرو إلى أصحاب الجمل
١٣٦	١٤٤	خطبة علي بن أبي طالب رضي الله عنه
١٣٦	١٤٥	» السيدة عائشة يوم الجمل
١٣٨	١٤٦	» زفر بن قيس

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة جرير بن عبد الله البجلي ١٤٧ ١٣٨

» زياد بن كعب ١٤٨ ١٣٩

» الأشعث بن قيس ١٤٩ ١٣٩

فتنة معاوية

استطلاع الإمام عليّ كرم الله وجهه آراء أصحابه

وقد أراد المسير إلى الشام

خطبة الإمام عليّ ١٥٠ ١٤٠

» هاشم بن عتبة ١٥١ ١٤٠

» عمار بن ياسر ١٥٢ ١٤١

» قيس بن سعد بن عبادة ١٥٣ ١٤١

» سهل بن حنيف ١٥٤ ١٤٣

» الإمام عليّ ١٥٥ ١٤٢

» الأشتر النخعي ١٥٦ ١٤٣

مقال من ثبطوه عن المسير ١٥٧ ١٤٤

رد الإمام عليهم ١٥٨ ١٤٤

خطبة عدى بن حاتم الطائي ١٥٩ ١٤٥

» زيد بن حصين الطائي ١٦٠ ١٤٦

» أبي زينب بن عوف ١٦١ ١٤٦

» يزيد بن قيس الأرحبي ١٦٢ ١٤٧

» زياد بن النضر ١٦٣ ١٤٧

» عبد الله بن بديل الخزاعي ١٦٤ ١٤٧

أدب الإمام عليّ كرم الله وجهه ١٦٥ ١٤٩

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

مقال عمرو بن الحق

١٤٩

١٦٦

» حجر بن عدى

١٥٠

١٦٨

» هاشم بن عتبة

١٥٠

١٦٩

خطبة الامام على

١٥٢

١٧٠

» الحسن بن عليّ

١٥٣

١٧١

» الحسين بن عليّ

١٥٣

وفد عليّ إلى معاوية

خطبة بشير بن عمرو

١٧٢

١٥٤

١٧٣

» شبيب بن ربيّ

١٥٥

١٧٤

» معاوية

١٥٥

وفد عليّ الى معاوية أيضا

خطبة عدى بن حاتم

١٧٥

١٥٦

١٧٦

جواب معاوية

١٥٦

١٧٧

خطبة يزيد بن قيس

١٥٧

١٧٨

» معاوية

١٥٧

وفد معاوية الى عليّ

خطبة حبيب بن مسلمة

١٧٩

١٦٠

١٨٠

» عليّ بن أبي طالب

١٦١

التحريض على القتال من قبل معاوية

خطبة عمرو بن العاص

١٨١

١٦٢

١٨٢

» أخرى لعمرو بن العاص

١٦٣

١٨٣

» معاوية بن أبي سفيان يحرض أهل الشام

١٦٣

الخطبة أو الوصية

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة ذى الكلاع الحميرى	١٨٤	١٦٤
« يزيد بن أسد البجلي	١٨٥	١٦٧
التحريض على القتال من قبل الامام علىؑ		
خطبة الامام على	١٨٦	١٦٩
« أخرى له	١٨٧	١٧٠
من كلام له كرم الله وجهه كان يقوله لأصحابه فى بعض أيام صفين	١٨٨	١٧١
خطبة أخرى للامام	١٨٩	١٧٢
« للامام علىؑ	١٩٠	١٧٣
« أخرى له	١٩١	١٧٤
« عبد الله بن عباس	١٩٢	١٧٤
« عبد الله بن بديل الخزاعى	١٩٣	١٧٦
« أبى الهيثم بن التيهان	١٩٤	١٧٦
« للامام على	١٩٥	١٧٧
« سعيد بن قيس	١٩٦	١٧٨
« يزيد بن قيس الأرحبى	١٩٧	١٧٩
« هاشم بن عتبة المرفال	١٩٨	١٨٠
« عمار بن ياسر	١٩٩	١٨١
« الأشتر النخعى	٢٠٠	١٨٢
« الأشتر فى النهزمين من اليمين	٢٠١	١٨٣
« أخرى له فيهم	٢٠٢	١٨٤
« على فيهم وقد عادوا إلى مواقفهم	٢٠٣	١٨٥
« خطبة خالد بن معمر	٢٠٤	١٨٦
« عقبة بن حديد النمرى	٢٠٥	١٨٨

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة	رقم الخطبة	
١٨٧	٢٠٦	خطبة خنثر بن عبيدة بن خالد
١٨٨	٢٠٧	تحريض معاوية أيضاً
١٨٩	٢٠٨	ماخاطب به النعمان بن بشير قيس بن سعد في وقعة صفين
١٩٠	٢٠٩	جواب قيس بن سعد
١٩١		خطب الشيعة في وقعة صفين
١٩١	٢١٠	خطبة عكرشة بنت الأطرش
١٩٣	٢١١	» أم الخير بنت الحريش
١٩٦	٢١٢	» الزرقاء بنت عدى الهمدانية
١٩٨		اختلاف أهل العراق في الموادعة
١٩٨	٢١٣	خطبة الإمام عليّ كرم الله وجهه
١٩٩	٢١٤	» كردوس بن هاني
١٩٩	٢١٥	» سفيان بن ثور
١٩٩	٢١٦	» حريث بن جابر
٢٠٠	٢١٧	» خالد بن معمر
٢٠٠	٢١٨	» الحصين بن المنذر
٢٠٠	٢١٩	» عثمان بن حنيف
٢٠٢	٢٢٠	» عدى بن حاتم
٢٠٣	٢٢١	» عبد الله بن حجل
٢٠٣	٢٢٢	» صعصعة بن صوحان
٢٠٤	٢٢٣	» المنذر بن جارود
٢٠٤	٢٢٤	» بالأحنف بن قيس
٢٠٥	٢٢٥	» عمير بن عطار
٢٠٥	٢٢٦	» عليّ بن أبي طالب

الخطبة أو الوصية

رقم الخطبة	رقم الصفحة
٢٢٧	٢٠٥
مقال عدى بن حاتم	
» الأشتر النخعي	٢٢٨
» عمرو بن الحمق	٢٢٩
» الأشعث بن قيس	٢٣٠
» عبد الرحمن بن الحارث	٢٣١
» عمار بن ياسر	٢٣٢

التحكيم بين عليّ ومعاوية

كلام عبد الله بن عباس لأبي موسى الأشعري	٢٣٣	٢٠٨
» » » وصية شريح بن هاني	٢٣٤	٢٠٩
» » » الأحنف بن قيس	٢٣٥	٢١٠
» معاوية لعمر بن العاص	٢٣٦	٢١١
رد عمرو بن العاص عليه	٢٣٧	٢١٢
مقال شرحبيل بن السمط لعمر	٢٣٨	٢١٢
خطبة أبي موسى الأشعري	٢٣٩	٢١٢
» عمرو بن العاص	٢٤٠	٢١٢
» الإمام بعد التحكيم	٢٤١	٢١٣
» الحسن بن عليّ	٢٤٢	٢١٤
» عبد الله بن عباس	٢٤٣	٢١٤
» عبد الله بن جعفر	٢٤٤	٢١٥

فتنة الخوارج

مناظرة ابن عباس لهم	٢٤٥	٢١٥
» الإمام لهم	٢٤٦	٢١٧

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة	رقم الخطبة	
٢١٨	٢٤٧	صورة أخرى
٢٢١	٢٤٨	مناظرة ابن عباس لهم
٢٢٢	٢٤٩	خطبة يزيد بن عاصم المحاربي
٢٢٣	٢٥٠	« عبد الله بن وهب الراسبي
٢٢٤	٢٥١	« حرقوص بن زهير السعدي
٢٢٤	٢٥٢	« حمزة بن سنان الأسدي
٢٢٤	٢٥٣	« شريح بن أوفى العبسي
٢٢٥	٢٥٤	مقال زيد بن حصين الطائي
٢٢٦	٢٥٥	خطبة الإمام في تخويف أهل النهروان
٢٢٨	٢٥٦	صورة أخرى
٢٢٩	٢٥٧	خطبة المستورد بن علفة
خور أصحاب الإمام وتقاعسهم عنه		
٢٣٠	٢٥٨	خطبة ابن عباس في أهل البصرة
٢٣١	٢٥٩	« الامام وقد أراد الانصراف من النهروان
٢٣١	٢٦٠	مقال الأشعث بن قيس
٢٣٢	٢٦١	خطبة الامام يستنفر لقتال معاوية
٢٣٣	٢٦٢	« » » » »
٢٣٤	٢٦٣	صورة أخرى
٢٣٦	٢٦٤	خطبة أبي أيوب الأنصاري
٢٣٦	٢٦٥	« الامام وقد أعار النعمان بن بشير على عين التمر
٢٣٧	٢٦٦	صورة أخرى
	٢٦٧	خطبة الإمام وقد أعار الضحاك على الخيرة
٢٨٩	»	« وقد أعار سفيان بن عوف على الانبار

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٢٤٣	٢٦٩	خطبة للحسن بن عليّ في يوم الجمعة
٢٤٣	٢٧٠	» معاوية وقد بلغه هلاك الأشتر
٢٤٤		فتنة البصرة
٢٤٤		تسيير معاوية عبد الله بن عامر الحضرمي إليها ومقتله
٢٤٤	٢٧١	خطبة عبد الله بن عامر الحضرمي
٢٤٥	٢٧٢	» الضحاك بن عبد الله الهلالي
٢٤٦	٢٧٣	» عبد الرحمن بن عمير القرشي
٢٤٧	٢٧٤	» زياد بن أبيه
٢٤٧	٢٧٥	» شيان الأزدي
٢٤٧	٢٧٦	» صبرة بن شيان
٢٤٨	٢٧٧	» الامام عليّ
٢٤٩	٢٧٨	» أعين بن ضبيعة
٢٥٠	٢٧٩	» جارية بن قدامة
٢٥٠	٢٨٠	» زياد
٢٥١	٢٨١	» أبي صبرة شيان
٢٥١	٢٨٢	» صبرة بن شيان
٢٥٢	٢٨٣	» خنفر الحمانى
٢٥٣	٢٨٤	صعصعة بن صوحان ومعاوية
٢٥٧	٢٨٥	خطبة عبد الله بن مسعود
٢٥٨	٢٨٦	وصية دريد بن الصمة
٢٥٩	٢٨٧	» عمير بن حبيب الصحابي لبنيه
٢٥٩	٢٨٨	» قيس بن عاصم المنقري لبنيه
٢٦٠	٢٨٩	» العباس بن عبد المطاب لابنه عبد الله

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة أكرم بن صيفي يدعو قومه إلى الاسلام	٢٩٠	٢٦٠
وصية أبي طالب لوجوه قريش عند موته	٢٩١	٢٦٢
خطبة مالك بن نمط بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم	٢٩٢	٢٦٣
سفانة بنت حاتم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم	٢٩٣	٢٦٤
خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء	٢٩٤	٢٦٥
أبو زيد الطائي يصف الأسد	٢٩٥	٢٦٦
تتمة في الحكم	٢٩٦	٢٦٩

بقية العصر الجاهلي

خطبة هاشم بن عبد مناف في قريش وخزاعة	٢٩٧	٢٧٢
منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية	٢٩٨	٢٧٣
مقال قبيصة بن نعيم لامرئ القيس بن حجر	٢٩٩	٢٧٤
رد امرئ القيس عليه	٣٠٠	٢٧٥
بين مهلهل بن ربيعة ، ومرة بن ذهل الشيباني	٣٠١	٢٧٦
مادار من الحديث بين المنذر بن النعمان الأكبر وبين عامر بن جوين الطائي	٣٠٢	٢٧٨
قيس بن رفاعه والحارث بن أبي شمر الغساني	٣٠٣	٢٨٢
قس بن ساعدة عند قيصر	٣٠٤	٢٨٣
رواد مذحج يصفون ما ارتادوا من المراعي	٣٠٥	٢٨٣
إحدى ملكات اليمن وحاطبوها	٣٠٦	٢٨٥
خطبة عامر بن الظرب العدواني وقد خطبت ابنته	٣٠٧	٢٨٦
وصية عامر بن الظرب العدواني	٣٠٨	٢٨٧
« دويد بن زيد لبنيه	٣٠٩	٢٨٨
« زهير بن جناب الكلبي	٣١٠	٢٨٩
« النعمان بن ثواب العبدي لبنيه	٣١١	٢٩٠

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة	رقم الخطبة	وصية أو نصيحة
٢٩١	٣١٢	وصية قيس بن زهير لبني النمر بن قاسط
٢٩٢	٣١٣	نصيحة الجماعة بنت قيس بن زهير لجدّها الربيع بن زياد
٢٩٣	٣١٤	وصية حصن بن حذيفة لبنيه
٢٩٤	٣١٥	وصف عصام الكندية أم إياس بنت عوف بن محلم الشيباني
٢٩٦	٣١٦	وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس
٢٩٧	٣١٧	لبيد بن ربيعة يصف بقلة
٢٩٨	٣١٨	مخالس بن مزاحم ، وقاصر بن سلمة عند النعمان بن المنذر
٣٠٠	٣١٩	ضمرة بن ضمرة عند النعمان بن المنذر
٣٠١	٣٢٠	وصية لأكرم بن صيفي
٣٠٥	٣٢١	« أكرم بن صيفي لطيف »
٣٠٦	٣٢٢	أمثال أكرم بن صيفي وبزر جهر الفارسي
٣١٢	٣٢٣	كلمات هند بنت الحس الأيادية

خطب الكهان

٣١٦	٣٢٤	الكاهن الخزاعي ينفر هاشم بن عبد مناف على أمية بن عبد شمس
٣١٧	٣٢٥	عوف بن ربيعة الأسدي يتكهن بمقتل حجر بن الحارث
٣١٨	٣٢٦	كاهن بني الحارث بن كعب يحذرهم غزو بني تميم
٣١٩	٣٢٧	أحد كهان اليمن يفصل في أمر هند بنت عتبة
٣٢٠	٣٢٨	خمسة نفر من طي* يمتحنون سواد بن قارب الدوسي
٣٢٤	٣٢٩	حديث مصاد بن مذعور القيني
٣٢٦	٣٣٠	« خنافر بن التوهم الحميري مع رثيه شصار
٣٢٨	٣٣١	شافع بن كليب الصدفى يتكهن بظهور النبي صلى الله عليه وسلم
٣٢٩	٣٣٢	سطيح الذئبي يعبر رؤيا ربيعة بن نصر اللخمي
٣٣١	٣٣٣	شق أعمار يعبر رؤيا ربيعة بن نصر أيضاً

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
وفود عبد المسيح بن بقيلة على سطيح	٣٣٤	٣٣٢
شق وسطيح ينبئان بأصل ثقيف	٣٣٥	٣٣٥
تنافر عبد المطلب بن هاشم والثقيفين إلى عزي سلمة الكاهن	٣٣٦	٣٣٦
ما أمر به عبد المطلب بن هاشم في منامه من حفر زمزم	٣٣٧	٣٣٨
خطب الكواهرن		
الشعناء الكاهنة تصف سبعة إخوة	٣٣٨	٣٣٩
طريقة الخير تتكهن بسيل العرم ، وخراب سد مأرب	٣٣٩	٣٤٢
حديث زبراء الكاهنة مع بي رثام	٣٤٠	٣٤٧
كاهنة ذى الخلصة تتكهن بما في بطن رقية بنت جشم	٣٤١	٣٤٩
رأى سلمى الهمدانية في حریم المرادى	٣٤٢	٣٥٠
تنافر العجفاء بنت عاقمة وصواجباتها إلى الكاهنة السمعية	٣٤٣	٣٥٠
عفراء الكاهنة تعبر رؤيا مرثد بن عبد كلال	٣٤٤	٣٥٢



فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

— أ —	
أوس بن حارثة ٤٥	أبو أيوب الأنصاري ص ٢٣٦
— ب —	أبو بكر الصديق رضي الله عنه ٦٢ - ٦٣ -
بسطام الشيباني ١٢	٦٦ - ٦٧ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ -
بشير بن سعد ٦٥	٧٤ - ٧٥ - ٧٧ - ٧٨ - ٢٦٩ -
بشير بن عمرو ١٥٤	أبو زيد الطائي ٢٦٦
— ث —	أبو زينب بن عوف ١٤٦
ثابت بن قيس بن الشماس ١٠٦	أبو طالب بن عبد المطلب ٣٨ - ٢٦٢ -
— ج —	أبو موسى الأشعري ١٣٠ - ١٣١ - ٢١٢ -
جارية بن قدامة ٢٥٠	أبو الهيثم بن التيهان ١٧٦
جرير بن عبد الله البجلي ١٣٨	الأحنف بن قيس ١١٢ - ٢٠٤ - ٢١٠ -
جماعة بن أفلح ٣٠	الأشتر النخعي ١٤٣ - ١٨٢ - ١٨٣ -
الجمانة بنت قيس ٢٩٢	١٨٤ - ٢٠٦ -
— ح —	الأشعث بن قيس الكندي ١٢ - ١٣٩ -
حاجب بن زرارة ١٣ - ٢٢ -	٢٠٦ - ٢٣١ -
الحارث بن ذبيان ٥	أعين بن ضبيعة ٢٤٩
الحارث بن ظالم المزني ٢٨	أكثم بن صيفي ٢١ - ٣١ - ٤٦ - ٤٧ -
الحارث بن عباد ٢٣	٢٦٠ - ٣٠١ - ٣٠٥ - ٣٠٦ - ٣١١ -
الحارث بن كعب ٤٩	أمارة بنت الحارث ٢٩٦
	أم الخير بنت الحريش ١٩٣

- ذ -

ذو الأصبع المدواني ٤٦

ذو الكلاع الحميري ١٦٤

- ر -

ربي بن عامر ١١٦

- ز -

زبراء الكاهنة ٣٤٧

الزبير بن العوام ٩٨

الزرفاء بنت عدى ١٩٧

زفر بن قيس ١٢٩ - ١٣٨

زهير بن جناب الكلبي ٢٨٩

زياد بن أبيه ٢٤٧ - ٢٥٠

زياد بن كهب ١٣٩

زياد بن النضر ١٤٧

زيد بن جبلة ١١١

زيد بن حصين الطائي ١٤٦ - ٢٢٥

زيد بن صوحان ١٣٢

- س -

سبيع بن الحارث ٢

سطيح الذئبي ٣٢٩ - ٣٢٢ - ٣٣٥

سعد بن أبي وقاص ٩٩

سعد بن عبادة ٦١

سعيد بن العاص ١٢٠

٦٤ الجباب بن المنذر

١٦٠ حبيب بن مسلمة

١٥٠ حجر بن عدى

١٢ حذيفة بن بدر الفزاري

٢٢٤ حرقوص بن زهير

١٩٩ حويث بن جابر

الحسن بن علي ١٣٣ - ١٥٣ - ٢١٤ - ٢٤٣

١٥٣ الحسين بن علي

٢٩٢ حصن بن حذيفة

٢٠٠ الحصين بن المنذر

١٢٤ حمزة بن سنان

٣٤ حمزة بن رافع الدوسي

- خ -

٢٥ خالد بن جعفر الكلابي

١٨٦ - ٢٠٠ خالد بن معمر

١١٧ خالد بن الوليد

١٨٧ خنثر بن عبيدة

١٢٠ الخنساء

٢٥٢ خنفر الحامي

د

٢٥٨ دريد بن الصمة

٢٨٨ دويد بن زيد

- ط -

- طريف بن العاصي ٥
طريفة الكاهنة ٣٤٢
طلحة بن عبيد الله ١٢٧
طهفة بن أبي زهير النهدي ١٠٧

- ظ -

- ظبيان بن حداد ١٠٩

- ع -

- عائشة رضي الله عنها ١٢٣ - ١٢٥
١٢٦ - ١٢٧ - ١٣٦
عامر بن جوين ٢٧٨
عامر بن الطفيل ٨ - ٢٧
عامر بن الظرب ٢٨٦ - ٢٨٧
عبد الرحمن بن الحارث ٢٠٧
عبد الرحمن بن عمير ٢٤٦
عبد الرحمن بن عوف ٩٧
عبد الله بن بديل بن ورقاء ١٤٨ - ١٧٦
عبد الله بن جعفر ٢١٥
عبد الله بن حجل ٢٠٣
عبد الله بن الزبير ١٢١
عبد الله بن عامر الحضرمي ٢٤٤
عبد الله بن عباس ١٧٤ - ٢٠٨
٢١٤ - ٢١٥ - ٢٢١ - ٢٣٠ - ٢٧١

- سعيد بن عبيد الطائي ١٣٠
سفانة بنت حاتم ٢٦٤
سفيان بن ثور ١٩٩
سلمى الهمدانية ٣٥٠
سهل بن حنيف ١٤٢
سواد بن قارب ٣٢١
سيحان بن صوحان ١٣٣

- ش -

- شافع بن كليب الصدفي ٣٢٨
شيث بن ربيعي ١٥٥
شرحبيل بن السمط ٢١٢
شريح بن أوفى ٢٢٤
شريح بن هانيء ٢٠٩
الشعثاء الكاهنة ٣٣٩
شق أنمار ٣٣١ - ٣٣٥
شيان الأزدي ٢٤٧ - ٢٥١

- ص -

- صبرة بن شيان ٢٤٧ - ٢٥١
صمصمة بن صوحان ٢٠٣ - ٢٥٣

- ض -

- الضحاك بن عبد الله الهلالي ٢٤٥
ضمرة بن ضمرة ٣٠٠

٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ =

٢٣٩ - ٢٤٩

٢٠٧ - ١٨١ - ١٤١ عمار بن ياسر

٧٩ - ٦٤ عمر بن الخطاب رضى الله عنه

٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٥ - ٨٦

٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢

٩٣ - ٩٥ - ٢٧٠

١٠٦ عمرو بن الأهمم

١٤٩ - ٢٠٦ عمرو بن الحق

٢٤ عمرو بن الشريد

١٦٢ - ١٦٣ - ٢١١ - ٢١٢ عمرو بن العاص

٣٧ - ٤٨ عمرو بن كلثوم

٢٨ عمرو بن معديكرب الزبيدي

٢٥٩ عمير بن حبيب

٢٠٥ عمير بن عطار

٣١٧ عوف بن ربيعة الأسدي

— ق —

٢٩٨ فاصر بن مسلمة

٢٧٤ قبيصة بن نعيم

٣٥ - ٢٨٣ قس بن ساعدة

١٣٢ - ١٣٤ القعقاع بن عمرو

٤٣ قيس بن خفاف البرجمي

٢٨٢ قيس بن رفاعة

٢٧٢ - ٢٥٧ عبد الله بن مسعود

٢٢٣ عبد الله بن وهب

٣٣٨ - ٣١ عبد المطلب بن هاشم

١١٩ عتبة بن غزوان

٢٠٠ عثمان بن حنيف

١٠٠ - ٩٨ عثمان بن عفان رضى الله عنه

٢٧١ - ١٠٤ - ١٠٣ - ١٠٢ - ١٠١

٣٥٠ عجماء بنت علقمة

عدى بن حاتم

٢٠٥ - ٢٠٢ - ١٥٦ - ١٤٥ - ١٢٨

٣٣٦ عرى سلمة

٢٩٤ عصام الكندي

١٠٥ عطارد بن حاجب بن زرارعة

٣٥٢ عفراء الكاهنة

١٨٧ عقبة بن حديد النمرى

١٩١ عكرشة بنت الأطرش

٢٥ - ٨ علقمة بن علاثة

على بن أبى طالب كرم الله وجهه

٩٩ - ١٣٦ - ١٤٠ - ١٤٢ - ١٤٤

١٤٩ - ١٥٢ - ١٦١ - ١٦٩ - ١٧٠

١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٤ - ١٧٧

١٨٥ - ١٩٨ - ٢٠٥ - ٢١٣ - ٢١٧

٢١٨ - ٢٢٥ - ٢٢٨ - ٢٣١ - ٢٣٢

مصاد بن مذعور القيني ٣٢٤
 معاوية بن أبي سفيان ١٥٥ - ١٥٦ -
 ١٥٧ - ١٦٣ - ١٨٨ - ٢١١ - ٢٤٣
 المغيرة بن زرارة ١١٥
 المغيرة بن شعبة ١١٧
 الملبب بن عوف ٣٠
 المنذر بن الجارود ٢٠٤
 ميثم بن مثوب ٣

- ن -

النعمان بن بشير ١٨٩
 النعمان بن ثواب العبدى ٢٩٠
 النعمان بن مقرن ١١٤
 النعمان بن المنذر ١٦ - ٢٧٨
 نقييل بن عبد العزى ٢٧٣

- ه -

هاشم بن عبد مناف ٣٢ - ٢٧٢
 هاشم بن عتبة ١٤٠ - ١٥٠ - ١٨٠
 هانىء بن قبيصة الشيباني ٣٧
 هلال بن بشر ١١١
 هند بنت الحس الإيادية ٣١٢

- ي -

يزيد بن أسد البجلي ١٦٧
 يزيد بن عاصم الحاربي ٢٢٢
 يزيد بن قيس ١٤٧ - ١٥٧ - ١٧٩

تم فهرس أعلام الخطباء

٢٩١ تيس بن زهير
 قيس بن سعد بن عبادة ١٤١ - ١٩٠
 قيس بن عاصم السعدى ١٤
 قيس بن عاصم المقرئ ٢٥٩
 قيس بن مسعود الشيباني ٢٦

- ل -

٣١٨ كاهن بنى الحارث بن كعب
 ٣٤٩ كاهنة ذى الخلصة
 ٣١٦ الكاهن الخزاعي
 ٣١٩ الكاهن النبي
 ١٩٩ كردوس بن هانىء
 ٣٣ كعب بن لؤى

- ل -

٢٩٧ لبيد بن ربيعة

- م -

٣٦ المأمون الحارثي
 ٢٦٣ مالك بن النبط
 ٨٨ المثني بن حارثة الشيباني
 سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ -

٥٦ - ٦٧ - ٦٠ - ١٠٨ - ٢٦٥ -

٢٩٨ مخالس بن مزاحم
 ٢٧٦ مرّة بن ذهل
 ٥٤ - ٥٢ مرثد الخير
 ٢٢٩ المستورد بن علفة

جدول الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
الرَّحَاب	الرَّحَاب	٨	٧
نَكَدُ	نَكَدِ	١٢	٩
رَجَالُهَا	رَجَالَهَا	٩	١٢
لَغِيَاث	لَغِيَاث	١٦	١٢
تُنَازِع	تَنَازِع	٦	١٦
أُمَّة	أُمَّة	٨	١٦
وَجَنَّتْهُمْ ، وَعَدَّتْهُمْ	وَجَنَّتْهُمْ ، وَعَدَّتْهُمْ	١٣	١٦
وَأُصُولُهَا	وَأُصُولُهَا	١٨	١٦
الذَّاقَةُ الْمَسْنَةُ	الذَّاقَةُ : الْمَسْنَةُ	١	١٧
تَخْفَرُ	تَخْفَرُ	٣	١٨
كَلَّ	كَلَّ	١١	٢٠
شَرَّ	شَرَّ	٢	٢٢
وَأَتْرَكَ	وَأَتْرَكَ	٦	٢٤
وَيَسْتَطَابُ	وَيَسْتَطَابُ	١٦	٢٤
يَعْرَضُ	يَعْرَضُ	٥	٢٧
تَفْجَأُ	تَفْجَأُ	١٠	٣٠
الْحَرِيصُ	الْحَرِيصُ	١١	٣٤
الْأَيْرُ	الْأَيْرُ	١	٣٧

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٧	٣	الثائرة	الذائرة
٥٠	٨	الدعة	الرعة (١)
٥٥	٣	الضعيف	الضعف
٦٨	٩	استعظتم	استطعتم
٨٧	٩	اتقصه	اتقصه
٩٤	٩	الطلائع	الطلائع
١٥٠	٨	وأهها	وأهلها
١٥٠	١٠	وأزمتنا	وأزمتنا
١٥٠	١٢	اكل	اكل
١٨٠	٩	عقبة	عتبة
١٩٧	١	حتم	حتم
١٩٨	٦	أعجب	أعجب
٢٠٤	١	فأسر	فأسر
٢٤٠	٢	على	على
٢٦٧	١٦	الغلل : العطش أو شدته الخ	الغلل : الماء الذي يجرى بين الشجر

[١] يقال : هو حسن الرعة والتورع ، أى حسن الطريقة .

To: www.al-mostafa.com

لجوه خزانة العرب

في عصور العرب الزاهرة

الجزء الثاني

العصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفوت

أستاذ اللغة العربية بدار العلوم

الطبعة الأولى

١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م / رقم ٤٩٤

كل الحقوق محفوظة

إشرطبه : محمد أمين عمران

بإشراف
مدير
دار
العلوم
بدمشق
١٩٣٣ م

تصدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبدأ بحمدك اللهم على ما أوليتني من جزيل تفضلتك ، ومزيد تطولك ، وأصلى
وأسلم على رسولك الأمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .
وبعد : فهذه « الجزء الثاني - من جمهرة خطب العرب » أصدره حاوياً
ما وصل إلينا من خطب العصر الأموى ووصاياه ، وما دار بمجالس الخلفاء
والأمراء والرؤساء من حوار ومجاوبة ، وهو كما ستراه أحفل أجزاء الكتاب
الثلاثة ، وأغزرها مادة ، لتوافر دواعى الخطابة فى هذا العصر ، وتفاق سوقها .
وقد نهجت فيه نهجى فى سالفه ، من التوفيق بين الروايات ، وتحرير
الألفاظ وضبطها وشرحها ، والتعليق عليها بما يعيط اللثام عن خفايا مراميها ،
وغوامض مغازيها ، فجاء بحمده تعالى وافياً مرضياً ، والله نسأل أن يكلاًنا
برعايته ، وأن يمنّ علينا بالتوفيق للعمل الصالح ، إنه خير مرتجى ، فنعم المولى
ونعم النصير

أحمد زكى صفوت

حرر بالقاهرة فى
رجب سنة ١٣٥٢
نوفبر سنة ١٩٣٣

فهرس

مأخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبى على القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « الثانى - السابع - الثالث عشر -
الخامس عشر - السابع عشر - الثامن
عشر - العشرون - الحادى والعشرون
صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : الجزء الأول - التاسع
نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « الخامس - السابع
عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول - الثانى
العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
نهج البلاغة : للشريف الرضى : « الأول
شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى - الثالث - الرابع
أمالى السيد المرتضى : الجزء الأول
جمهرة الأمثال ، لأبى هلال العسكري : « الأول
مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول - الثانى
تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « السادس - السابع - الثامن - التاسع
تاريخ الكامل : لابن الأثير : « الثالث - الرابع
مروج الذهب : للمسعودى : الجزء الثانى

- الإمامة والسياسة : لابن قتيبة : الجزء الأول - الثاني
معجم البلدان : لياقوت الحموى : « الثالث
أسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير : « الثالث
النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة : « الأول
لابن تغرى بردى :
وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول - الثاني
معاهد التنصيص : لعبد الرحيم العباسي : « الأول -
نفع الطيب ، للمقرئ : « الأول
بلوغ الأرب : للسيد محمود شكرى الألوسى : « الثالث
مواسم الأدب : للسيد جعفر بن السيد : « الثاني
محمد البيهقي العلوي

سيرة عمر بن عبد العزيز : لأبي الفرج بن الجوزي .

« « « « : لابن عبد الحكم

شرح العيون : شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصري

أنباء نجباء الأنبياء : لابن ظفر المكي

الحسن البصرى : لابن الجوزي

الفخرى : لابن طباطبا

بلاغات النساء : لابن أبي طاهر طيفور

دستور معالم الحكم : للقضاعى

إعجاز القرآن : لأبي بكر الباقلانى

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح

جدول الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
بر	بر	٨	١٠
البراءة من عليّ واللعن له	البراءة من عليّ له	٢٠	٤٧
لا يفلّ	لا يفلّ	٥	٩٣
القارة	القارة	٤	١١٥
أخى	آخى	٢	١٢٢
مثلكم	مثلكم	١١	١٢٤
شهرت	شهرت	١١	١٤١
يرثني	يرثني	١٥	١٤٢
رتق	رفق	٢٠	١٥٥
وصلني على نبيه	وصلني نبيه	١	١٦٢
ياحياء	ياحياء	١٠	٢٠٨
ووليّ	ووليّ	٩	٢١٩
حمامة	جماعة	٢٠	٢٥٤
زياد	زياداً	١١	٢٦٤
معرّتنا	معرّتنا	١٤	٢٦٤
بها	يها	١٣	٢٦٩
بين	بين بين	٢٤	٢٦٩
خاتم	خاتم	٣	٢٧٠

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
بالرّجال	بالرّجال	١١	٢٧١
محمد أخيه	محمد وأخيه	١٧	٢٨٥
فُضُول	فُضُول	١٥	٣٠٣
تُجَمَّرُوا	تُجَمَّرُوا	١٢	٣١١
القَرِيَّة	القَرِيَّة	١	٣٢٩
ييد	بيدك	٥	٣٥٥
الحروبَ	الحروبُ	٧	٣٦٠
عرّضتاني	عرّضتاني	٧	٣٦٥
ياللرجال	ياللرجال	٥	٣٦٧
توبة	توبة	١٧	٣٩٢
حجرها	حجرها	١	٣٩٧
أمية	أمية	٤	٤١٢
أمية	أمية	٩	٤١٥
غلامًا	غلامًا	٨	٤١٦
أمية	أمية	١٦	٤١٦
جهة	جهة	١٥	٤٢٤
لا يرون	لا يرون	١٣	٤٤٥
التروية	التروية	١٤	٤٤٨

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٤٦٢	٣	في ظلمها	في ظلمها
٤٦٧	٧	حسناتهم	حسناتهم
٤٧٧	٨	بشكايتہ	بشكايتہ
٤٨٨	٩	شاعت	شاعت



الباب الثالث

الخطبة والوصايا

في

العصر الأموي

خطب بنى هاشم وشيعتهم وما يتصل بها

١ - خطبة الحسن بن عليّ بعد وفاة أبيه (١)

خطب الحسن بن عليّ رضي الله عنهما بعد وفاة أبيه فنعاها فقال :

« لقد قتلت ليلة رجلا في ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رُفِعَ عيسى بن مريم

عليه السلام ، وفيها قتل يوشع بن نون ، فتى موسى عليهما السلام ، والله ما سبقه

أحدٌ كان قبله ، ولا يُدْرِكُه أحدٌ يكون بعده ، والله إن كان رسول الله صلى الله

[١] في السّمايل لابن الأثير (٣ : ١٩٧) أن الحسن بن عليّ توفى سنة ٤٩ هـ وفي ابن أبي الحديد (م : ٤ ص ٤) أنه توفى سنة ٥٠ هـ وفي الإمامة والسياسة (١ : ١٢٧) أنه توفى سنة ٥١ هـ .

عليه وسلم لبيعه في السرية^(١) ، وجبريل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يتناع بها خادماً لأهله ، ثم خنقته العبرة فبكى ، وبكى الناس معه ، ثم قال :

« أيها الناس : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد

رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت ، الذين أذهب الله عنهم الرجس^(٢) وطهرهم تطهيراً ، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَمِنْ تَرْتِيبِ ذَلِكَ نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا » ، فاقراف الحسنة مودتنا أهل البيت .

فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبيد الله بن العباس بين يديه ، فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة ! فبايعوه ثم نزل من المنبر .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ ص ١١ ، والعقد الفريد ٢ : ٦)

تعبثته الجيوش لقتال معاوية

سار معاوية بجيوشه فاصداً إلى العراق ، وبلغ الحسن خبره ، ومسيره نحوه ، فأمر بالتهيؤ للمسير ، ونادى المنادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس يشوبون ويجمعون ، فخرج الحسن ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

٢ - خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد

أما بعد : فإن الله كتب الجهاد على خاقه ، وسماه كرهاً^(٣) ، ثم قال لأهل

[١] السرية من خمسة أناس إلى ثلثمائة أو أربعمائة . [٢] الرجس : العذر والمأثم ، وكل ما استعذر من

العمل ، والعمل المؤدى إلى العذاب .

[٣] يشير إلى قوله تعالى « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهًا لَكُمْ »

الجهاد من المؤمنين : « أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » فاستم إليها الناس نائمين ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون ، بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه ، فتحرك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة ، حتى ننظر وتنظروا، ونرى وترى « - وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له - فسكتوا ، فما تكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف ، فلما رأى ذلك عدى بن حاتم ، قام فقال :

٣ - مقال عدى بن حاتم

« أنا ابن حاتم ، سبحان الله ! ما أقيح هذا المقام ! لا تُجيبون إمامكم ، وابن بنت نبيكم ! أين خطباء مُضَرَّ الذين أَسِنْتُهُمْ كالمخاريق في الدَّعة ^(١) ، فإذا جَدَّ الْجِدُّ فرَوَّاغون كالثعالب ، أما تخافون مقت الله ! ولا عَيْبَهَا وعارها ^(٢) ! » . ثم استقبل الحسن بوجهه فقال : « أصحاب الله بك المرآشد ، وجنَّبك المكاره ، ووفَّقك لما تحمد وروده وصدوره ، قد سمعنا مقاتلتك ، وانتهينا إلى أمرت ، وسمعنا لك ، وأطعناك فيما قلت وما رأيت ، وهذا وجهي إلى معسكركى . فمن أحب أن يُوافيني فليواف » ثم مضى لوجهه ، إلى النخيلة .

وقام ثلاثة آخرون من أصحاب الحسن ، فأنبوا الناس ولا موهم وحرصوهم . وكلوا الحسن بمثل كلام عدى بن حاتم ، فقال لهم : صدقتم رحمكم الله ، ما زلت أعرِّفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيراً ، ثم نزل ، وخرج الناس فمسكروا ونشيطوا للخروج ، وسار الحسن في عسكر عظيم ، وعدة حسنة .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١٤)

[١] جمع محراق بالكسر : السيف (وهو أيضاً المنديل ياف ليصرب به) وى الدعة : أى و وقب الدعة : أى الحفض والسلم . [٢] أى عار فملتكم هذه : وهى تناصهم عن إجابة الحسن إلى مادعاهم إليه ، وى الأصل : « وعاريتها » وأراه محرِّفاً إذ العارة هى العارية ولا معنى لها .

٤ - خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية

ثم نزل الحسن ساباط^(١) ، فلما أصبح نادى في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصعد المنبر ، فخطبهم فقال :

« الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، أرسله بالحق ، وأتمنه على الوحي ، صلى الله عليه وآله ، أما بعد ، فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه ، وأنا أنصح خاقه لخاقه ، وما أصبحت محتملا على مسلم ضغينة ، ولا مريدا له بسوء ولا غائلة^(٢) ، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة . ألا وإنى ناظر لكم خيرا من نظركم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردوا على رأيى ، غفر الله لى ولكم ، وأرشدنى وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله » ثم نزل . فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا ما ترّونه يريد بما قال ؟ قالوا نظنه يريد أن يصالح معاوية ويكل الأمر إليه ، كفر والله الرجل ، ثم شدوا على فسطاطه فانتهبوه ، حتى أخذوا مُصَلَّاه من تحته ، وشد عليه بعضهم ، فنزع مُعْتَرَفَه^(٣) عن عاتقه ، فبقى جالسا متقلداً سيفاً بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحرق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراد ، ولا موه وضعفوه لما تكلم .

فلما مرّ في مُظَلِّم^(٤) ساباط ، قام إليه رجل من بنى أسد يقال له جرّاح بن سنان ، ويده معول^(٥) ، فأخذ بلجام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن ! أشرك أبوك ،

[١] ساباط كسرى بالمدائن . [٢] النائلة : الشر والفساد والدامية . [٣] رداء من خز مربع ذو أعلام . [٤] مظلم مضاف إلى ساباط التي قرب المدائن : موضع هناك . [٥] المعول : الفأس العظيمة التي يقر بها الصخر ،

ثم أشركت أنت ! وطعنه بالمعول ، فوقعت في فخذه فشقتُهُ ، حتى بلغت أُرَيْبَتَهُ^(١) ،
وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان بيده واعتنقه
نخرا جميعاً إلى الأرض . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٤)

٥ - خطبته يبرر مصالحته لمعاوية

لما رأى الحسن رضى الله عنه تفرق الأمر عنه ، بعث إلى معاوية يطلب
الصلح ، فبعث معاوية إليه رسولين ، قدما عاياه بالمدائن ، فأعطياه ما أراد ،
وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف - في أشياء
اشترطها - ثم قام الحسن في أهل العراق فقال :

« يا أهل العراق ، إنه سخى بنفسى عنكم ثلاث : قَتَلَكُمُ أَبِي ، وَطَعَنَكِ

إِيَّائِي ، وَاتَّهَى بِكُمْ مَتَاعِي » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٩٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣)

٦ - خطبته في الصلح بينه وبين معاوية

وقدم معاوية الكوفة لإيقاد الصلح بينه وبين الحسن (سنة ٤١ هـ) .
وكان عمرو بن العاص حين اجتمعوا بالكوفة ، فدكلم معاوية ، وأمره أن يأمر
الحسن أن يقوم ويخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال ما تريد إلى أن
أخطب الناس ؟ فقال عمرو : لكنى أريد أن يبدو عِيَهُ للناس^(٢) ، فلم يزل عمرو
بمعاوية حتى أطاعه ، فخرج معاوية فخطب الناس ، ثم نادى الحسن ، فقال : يا
يا حسن فكلم الناس ، فتشهد في بديهة أمرٍ لم يُروَ فيه ، ثم قال :

[١] الأريية : أصل الفخذ . [٢] روى أبو الفرج الاصبهاني أنه كان و لسان الحسن نهل

أف : (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١١) .

« أما بعد أيها الناس : فإن الله قد هدى أولكم بأولنا ، وَحَقَّنَ دماءكم بأخرنا ، وكانت لي في رقابكم بيعةٌ ، تحاربون من حاربتُ ، وتسالمون من سالمْتُ ، وقد سالمت معاوية وبايعته فبايعوه ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُول ، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم « وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » وأشار إلى معاوية ، فلما قالها قول معاوية اجلس ، فلم يزل ضَرِمًا (١) على عمرو ، وقال هذا من رأيك » ولحق الحسن بالمدينة .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٩٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣ ، والامامة والسياسة ١ : ١٢٠ ، وأنباء نبينا، الأبا. ص ٥٦)

٧ - خطبة له بعد الصلح

روى المدائني قال : سأل معاوية الحسن بن عليّ رضی الله عنه بعد الصلح أن يخُطب الناس ، فامتنع ، فناشده أن يفعل ، فوضع له كرسي فجلس عليه ، ثم قال : « الحمد لله الذي توحد في ملكه ، وتفرد في ربوبيته ، يُؤثني الملك من يشاء ، وينزعُه ممن يشاء . والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أولكم ، وَحَقَّنَ دماء آخركم ، فبلاؤنا عندكم قديمًا وحديثًا أحسن البلاء (٢) ، إن شكرتم أو كفرتم . أيها الناس : إن ربّ عليّ كان أعلم بعلي حين قبضه إليه ، ولقد اختصه بفضل لم تعتدوا مثله ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فهيهات هيهات ، طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم ، وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخواتها ، جرّعكم رَنَقًا (٣) ، وسَقَاكم عَلَقًا (٤) ، وأذلّ رقابكم ، وأشرقكم بريقكم ، فلستم بملومين

[١] صرم عليه كفرح اخدم غضبا فهو صرم . [٢] البلاء يكون منحة ويكون محنة ، وهو هنا بالمعنى الأول . [٣] ماء رقيق وكثف وجبل كدر . [٤] العلق : الدم ودويبة في الماء تمصّ الدم .

على بغضه ، وإيم الله لا ترى أمةً محمد خَفَضًا ما كانت ساداتهم وقادتهم بنى أمية ،
ولقد وجه الله إليكم فتنةً لن تَصْدُرُوا عنها حتى تَهْلِكُوا ، لطاعتكم طواغيتكم (١) ،
وانضواثكم (٢) إلى شياطينكم ، فعند الله أختسبُ ما مضى ، وما ينتظر من سوء
دَعَتِكُمْ ، وَحَيْفٌ (٣) حَكَمِكُمْ ، ثم قال :

« يا أهل الكوفة لقد فارقكم بالأمس سهم من مراعى الله ، صائب على أعداء
الله ، نكالٌ على نجار قریش ، لم يزل آخذًا بجناجرها ، جاثمًا على أنفاسها ، ليس
بالملومة في أمر الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، ولا بالفروقة (٤) في حرب أعداء
الله ، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجابته ، وقاده فاتبعه ، لا تأخذه في
الله لومة لأئم ، فصلوات الله عليه ورحمته » ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ عجلٌ أو كاد ، وأصاب متثبتٌ أو كاد ، ماذا أردت

من خطبة الحسن ؟ (شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١٠)

٨ - خطبة لمعاوية في أهل الكوفة

وروى المدائني قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله
الكوفة وصالح الحسن رضى الله عنه ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن
يخرج ، فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركت قتالك - وهو
لى حلال - لصلاح الأمة وألفتهم ، أفترانى أقاتل معك ؟ نخطب معاوية أهل
الكوفة فقال :

[١] الطواغيت جمع طاغوت : وهو الشيطان وكل رأس ضلال . [٢] انضمامكم .

الحيف : الظلم : [٤] الفروق والفروقة : شديد الفزع .

« يا أهل الكوفة ، أترانى ، قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت
أنكم تصلون وتزكون وتحججون ، ولكننى قاتلتكم لا تأمر عليكم وعلى رفا بكم ، وقد
آتانى الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كل مال أودم أصيب فى هذه الفتنة
فطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدمى هاتين ، ولا يصلاح الناس إلا ثلاث :
إخراج العطاء عند محله ، وإقفال^(١) الجنود لوقتها ، وغزو العدو فى داره ، فإنه
إن لم تغزوهم غزؤكم » ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦)

٩ - رد الحسن بن علىّ على معاوية حين نال منه ومن أبيه

وخطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين رضى الله عنهما
جالسان تحت المنبر ، فذكر علياً عليه السلام . فقال منه ثم نال من الحسن ،
فقام الحسين ليرد عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :
« أيها الناكر علياً : أنا الحسن ، وأبى علىّ ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ،
وأبى فاطمة ، وأمك هند ، وجدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدك عتبة
ابن ربيعة ، وجدتى خديجة ، وجدتك قتيبة ، فلعن الله أئمننا ذكراً ، والأئمننا
حسباً ، وشرنا قديماً وحديثاً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً »

فقال طوائف من أهل المسجد آمين . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ١٦)

١٠ - خطبة سليمان بن سرد فى استنكار الصلح

وذكروا أنه لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق ، وانصرف راجعاً إلى الشام ،
أتى سليمان بن سرد - وكان غائباً عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم -

فدخل على الحسن فقال : السلام عليك يا مُذِلَّ الْمُؤْمِنِينَ ، فقال وعليك السلام ،
اجلس لله أبوك ، جلس سليمان ، ثم قال :

« أما بعد : فَإِنْ تَعَجَّبْنَا لَا يَنْقُضِي مِنْ بَيْعَتِكَ مَعَاوِيَةَ ، وَمَعَكَ مِائَةُ أَلْفٍ
مُقَاتِلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، وَكُلُّهُمْ يَأْخُذُ الْعَطَاءَ ، مَعَ مِثْلِهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَمَوَالِيهِمْ ،
سِوَى شِيعَتِكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَأَهْلِ الْحِجَازِ ، ثُمَّ لَمْ تَأْخُذْ لِنَفْسِكَ بَقِيَّةً فِي الْعَهْدِ ،
وَلَا حَظًّا مِنَ الْقَضِيَّةِ ، فَلَوْ كُنْتَ إِذْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ ، وَأَعْطَاكَ مَا أَعْطَاكَ بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، كُنْتَ كَتَبْتَ عَلَيْكَ بِذَلِكَ كِتَابًا ، وَأَشْهَدْتَ عَلَيْهِ
شَهُودًا مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَكَ مِنْ بَعْدِهِ ، كَأَنَّ الْأَمْرَ عَلَيْنَا
أَيْسَرَ ، وَلَكِنَّهُ أَعْطَاكَ هَذَا ، فَرَضِيَتْ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَزَعَمَ عَلَى رءِوسِ
النَّاسِ مَا قَدْ سَمِعْتَ : إِنِّي كُنْتُ شَرَطْتُ لِقَوْمٍ شُرُوطًا . وَوَعَدْتُهُمْ عِدَاتٍ ،
وَمِنِّيَّتُهُمْ أَمَانِيَّ ، إِرَادَةَ إِطْفَاءِ نَارِ الْحَرْبِ ، وَمُدَارَاةَ لِهَذِهِ الْفِتْنَةِ ، إِذْ جَمَعَ اللَّهُ لَنَا كَلِمَتَنَا
وَأَلْفَتَنَا ، فَإِنْ كُلُّ مَا هُنَاكَ تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ . وَوَاللَّهِ مَا عَنَى بِذَلِكَ إِلَّا نَقْضَ
مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، فَأَعْدِ الْحَرْبَ جِدَّةً ^(١) ، وَأُذِنَ لِي أَشْخَصُ إِلَى الْكُوفَةِ ، فَأُخْرِجُ
عَامِلَهُ مِنْهَا ، وَأُظْهِرُ فِيهَا خَلْعَهُ ، وَأَنْبِذُ إِلَيْهِ ^(٢) عَلَى سَوَاءٍ ، إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي كَيْدَ
الْخَائِبِينَ . »

ثم سكت ، فتكلم كلٌّ من حضر مجلسه بمثل مقالته ، وكلهم يقول : ابعث سليمان
ابن سرد وابعثنا معه ، ثم الحقنا إذا علمت أننا قد أشخصنا عامله ، وأظهرنا خلعته .

(الإمامه والسياسة ١ : ١٢٠)

[١] هي في الأصل خدعة ، وصوابها جذعة : أي فيه . [٢] . معناه إذا هادنت قوما ، فعلت منهم
النقض للعهد ، فلا توقع بهم سابها إلى الغش ، حتى تعلمهم أنك بعصت العهد ، ويكونوا في علم الغش مستوين ،
ثم أوقع بهم .

١١ - خطبة الحسن يرد على مستنكرى الصالح

فتكلم الحسن فحمد الله ثم قال :

« أما بعد فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا ، وللدنيا أعمل وأنصب ، ما كان معاوية بأأس مني وأشد شكيمه ، ولما كان رأي غير ما رأيتم ، لكني أشهد الله وإياكم أني لم أريد بما رأيتم إلا حَقْنَ دِمَائِكُمْ ، وإصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله ، وارضوا بقضاء الله ، وساموا الأمر الله ، والزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برّ ، أو يُستراح من فاجر ، مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سيَلِي الأمر ، فوالله لو سرنا إليه بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر^(١) ، إن الله لامعقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، وأما قولك يا مُذِلَّ المؤمنين ، فوالله لأن تَذِلُوا وتُعَافُوا أحبُّ إليّ من أن تَعَزُّوا وتُقْتَلُوا ، فإن رَدَّ اللهُ علينا حَقَّنَا في عافية ، فَبَلْنَا وسألنا الله العَوْن على أمره ، وإن صَرَفَهُ عنا رَضِينَا وسألنا الله أن يبارك في صَرَفِهِ عنا ، فليكن كل رجل منكم حِلْسًا^(٢) من أحلاس بيته ، مادام معاوية حيًا ، فإن يَهْلِك ، ونحن وأنتم أحياء ، سألنا الله العزيمة على رشدنا ، والمعونة على أمرنا ، وأن لا يَكِلَنَا إلى أنفسنا : فَإِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١٢ - خطبة له في عهد خلافته

ومن خطبه رضى الله عنه في أيامه في بعض مقاماته أنه قال :

[١] يفل . [٢] الحلس بساط البت ، وفلان حلس من أحلاس البيت : للذي لا يبرح البيت ، وفي الحديث : « في الفتنة كن حلساً من أحلاس بينك حتى تأتيك يد خاطئه ، أو منية قاضية » أى لا تبرح

« نحن حزب الله المفلحون ، وَعِترَةٌ ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون ، أهل بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين ^(٢) اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثاني كتاب الله ، فيه تفصيل كل شيء ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والمعول عليه في كل شيء ، لا يُخْطِئنا تأويله ، بل نتيقن حقائقه ، فأطيعونا ، فأطاعتنا مفروضة ، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة ^(٣) : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ » « وَرُدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ أَعْلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ » ، وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فتكونون كأولياءه الذين قال لهم : « لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاتِ الْفِتْيَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ » فَتَلْقَوْنَ لِلرَّمْحِ أَزْرًا ^(٤) ، وللسيوف جزراً ^(٥) ، وللعمد حطاً ، وللسهام غرصاً ، ثم : لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .

(مروج الذهب ٢ : ٥٣)

[١] العترة : رهط الرجل وعشيرته الأذنون . [٢] الثقل : كل شيء عس ومصون ، وفي الحديث « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي » .

[٣] يشير إلى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » .

[٤] الأزر : جمع إزار وهو اللدفة وكل ما وارك وسترك : أي تكونون أجربة للرمح تعيب في أبدانكم وتستر ، أو هو الأزر بفتح فسكون وهو الطهر : أي تركيبكم الزمخ وتعلوكم ، والمراد تطعنون وتضرون بها والأول أوجه . [٥] أي قطعاً .

[٦] عمد بهتئين ، وعمد بضمين : جمع عمود ، وهي من الآلات التي كانت تسعمل في القتال .

١٣ - خطبة أخرى له

ومن خطبه رضى الله عنه :

« اعلموا أن الحلم زين ، والوقار مودة ، والصلة نعمة ، والإكثار صلف ^(١) والعجلة سفاهة ، والسفاهة ضعف ، والقلق ورطة ، ومجالسة أهل الدناءة شين ومخالطة أهل الفسوق ريبة » . (صبح الأعشى ١ : ٢١٥)

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن علي ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة ،
وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة بحضرة معاوية

قال ابن أبي الحديد : روى الزبير بن بكار في كتاب المفاخرات قال :
« اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة بن أبي معيط ،
وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وقد كان بلغهم عن الحسن بن علي علينا
السلام قوارص ^(٢) ، وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا يا أمير المؤمنين ، إن الحسن
قد أحيا أباه وذكره ، وقال فصّدق ، وأمر فأطيع ، وخفقت ^(٣) له النعال ،
وإن ذلك كرافعه إلى ما هو أعظم منه ، ولا يزال يبلغنا عنه ما يسوئنا . قال
معاوية فما تريدون ؟ قالوا ابعث إليه فليحضر لنفسه ونسب أباه ونعيه ونوبخته
ونخبه أن أباه قتل عثمان ونقره بذلك ، ولا يستطيع أن يغير علينا شيئاً من

[١] الصلف : التكلم بما يكرهه صاحبه والتمدح بما ليس عندك أو مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبراً . [٢] القوارص من الكلام التي تنفصك وتؤلمك . [٣] الحق صوت النعل .

ذلك . قال معاوية إني لا أرى ذلك ولا أفعله ، قالوا عزمنا عليك يا أمير المؤمنين لتفعلن ، فقال ويحكم لا تفعلوا ، فوالله ما رأيته قط جالساً عندي إلا خفت مقامه وعيبي لي ، قالوا ابعث إليه على كل حال . قال إن بعثت إليه لأنصفنه منكم ، فقال عمرو بن العاص : أتخشى أن يأتي باطله على حقنا ، أو يرهبني قوله على قولنا ؟ قال معاوية : أما إني إن بعثت إليه لآمرته أن يتكلم بلسانه كله . قالوا مره بذلك ، قال : أما إذا عصيتموني وبعثتم إليه وأبيتم إلا ذلك ، فلا تمرضوا^(١) له في القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يعيهم العائب ، ولا يلصق بهم العار ، ولكن اقدفوه بحجره ، تقولون له إن أباك قتل عثمان ، وكره خلافة الخلفاء من قبله ، فبعث إليه معاوية ، فجاءه رسوله ، فقال إن أمير المؤمنين يدعوك . قال : من عنده ؟ فسأهم ، فقال الحسن عليه السلام ما لهم ؟ خرّ عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، ثم قال : يا جارية ابغيني ثيابي ، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم ، أدرأ^(٢) بك في نحورهم ، وأستعين بك عليهم ، فاكفنيهم كيف شئت ، وأني أتت ، بحول منك وقوة ، بأرحم الراحمين ، ثم قام ، فلما دخل على معاوية أعظمه كرمه ، وأجلسه إلى جانبه ، وقدارتاد^(٣) القوم ، وخطر^(٤)وا خطران الفحول ، بيك في أنفسهم وعُلوا ، ثم قال : يا أبا محمد ، إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني ، فقال لحسن عليه السلام : سبحان الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ، والله ن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم ، إني لأستحيي لك من الفحش ،

[١] تمرض : ضعف في أمره . [٢] أدفع . [٣] الارتياح : الذهاب والمجيء .

[٤] خطر الرجل في مشيته : رفع يديه ووضعهما واهتز وتجتز وخطر بسيفه ورمحه : رفعه مرتة ووضعته أخرى خطراً (بالتحريك) وخطر الفعل بذنبه : ضرب به يميناً وشمالاً .

وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحيي لك من الضعف ، فأيهما تُقر وأيهما تُنكر؟ أما إني لو علمت بمكانهم جئت معي بمثلهم من بني عبد المطلب ، ومالي أن أكون مستوحشاً منك أو منهم؟ إن وليي الله وهو يتولى الصالحين ، فقال معاوية : يا هذا إني كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له ، وإن لك منهم النصف^(١) ومنى ، وإنما دعوناك لنقرررك أن عثمان قُتِلَ مظلوماً ، وأن أباك قتله ، فاستمع منهم ثم أجبههم ، ولا تمنعك وحدثك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك ، فتكلم عمرو بن العاص :

١٤ - مقال عمرو بن العاص

فحمد الله وصلى على رسوله ﷺ ثم ذكر علياً عليه السلام ، فلم يترك شيئاً يعيبه به إلا قاله ، وقال إنه شتم أبا بكر ، وكره خلافته ، وامتنع من بيعته ، ثم بايعه مكرهاً ، وشرك في دم عمر ، وقتل عثمان ظالماً ، وادّعى من الخلافة ما ليس له ، ثم ذكر الفتنة يعيره بها ، وأضاف إليه مساوى ، وقال : إنكم يا بني عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك ، على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ، ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا لله ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك ، وتركك أحق قريش ، يُسخر منك ، ويهزأ بك ، وذلك لسوء عمل أبيك ، وإنما دعوناك لنسبك وأباك ، فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك في أيدينا ، نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثم من الله ، ولا عيب من الناس ، فهل تستطيع أن ترد علينا وتكذبنا ؟

فإن كنت ترى أنا كذَبنا في شيء ، فاردده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

١٥ - مقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط

ثم تكلم الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط فقال :

« يا بني هاشم : إنكم كنتم أخوال عثمان ، فنعم الولدُ كان لكم ، فَعَرَفَ حقكم ، وكنتم أصهاره ، فنعم الصَّهرُ كان لكم يُكرِّمكم ، فكنتم أول من حسده ، فقتله أبوك ظلماً ، لا عذرله ولا حُجة ، فكيف ترون الله طلب بدمه ، وأنزلكم منزلتكم ، والله إن بني أمية خير لبني هاشم من بني هاشم لبني أمية ، وإن معاوية خير لك من نفسك .

١٦ - مقال عتبة بن أبي سفيان

ثم تكلم عُتْبة بن أبي سفيان فقال :

« يا حَسَنُ : كان أبوك شرَّ قريش لقريش ، لِسَفْكِهِ لدمائها ، وقطعِهِ لأرحامها ، طويلَ السيف واللسان ، يقتل الحى ويعيب الميت ، وإنك ممن قَتَلَ عثمان ونحن قاتلوك به ، وأما رجاؤك الخلافة فلست في زندها ^(١) قادحاً ، ولا في ميزانها راجحاً ، وإنكم يا بني هاشم قتلتم عثمان ، وإن في الحق أن نقتلك وأخاك به . فأما أبوك فقد كفانا الله أمره ، وأقاد ^(٢) منه ، وأما أنت فوالله ما علينا لو قتلناك بعثمان إثم ولا عدوان .

١٧ - مقال المغيرة بن شعبة

ثم تكلم المغيرة بن شعبة ، فشتم عليا وقال : والله ما أعيبه في قضية يخون ، ولا في حكم يعيل ، ولكنه قتل عثمان ، ثم سكتوا .

[١] الزند : العود الذي يقدح به النار . [٢] أهدد القاتل بالقتيل : قتله به .

١٨ - رد الحسن بن عليّ عليهم

فتكلم الحسن بن عليّ عليه السلام ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أما بعد يامعاوية ، فما هؤلاء شتموني ، ولكنك شتمتني ، فُحْشًا أَلْفَتْهُ ، وسوء رأى عُرِفَتْ به ، وَخُلُقًا سَيِّئًا ثَبَّتَ عَلَيْهِ ، وَبَغْيًا عَلَيْنَا ، عداوة منك لمحمد وأهله ، ولكن اسمع يامعاوية واسمعوا ، فَلَأَقُولَنَّ فِيكَ وَفِيهِمْ مَا هُوَ دُونَ مَا فِيكُمْ ، أَنشُدْكُمْ اللَّهُ أَيُّهَا الرَّهْطُ ، أَتَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي شَتَمْتُمُوهُ مِنْذُ الْيَوْمِ صَلَّى الْقِبْلَتَيْنِ ^(١) كَلْتَيْهِمَا ، وَأَنْتَ يَامَعَاوِيَةَ بِهَمَا كَافِرٌ ، تَرَاهَا ضَلَالَةً وَتَعْبُدُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ^(٢) غَوَايَةَ ، وَأَنْشُدْكُمْ اللَّهُ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ بَايَعَ الْبَيْعَتَيْنِ كَلْتَيْهِمَا بَيْعَةَ الْفَتْحِ ^(٣) وَبَيْعَةَ الرَّضْوَانِ ^(٤) ، وَأَنْتَ يَامَعَاوِيَةَ بِإِحْدَاهُمَا كَافِرٌ ، وَبِالْآخَرَى نَاكِثٌ ، وَأَنْشُدْكُمْ اللَّهُ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَوَّلَ النَّاسِ إِيمَانًا ، وَأَنْتَ يَامَعَاوِيَةَ وَأَبَاكَ مِنَ الْمُؤَاَفَةِ قُلُوبِهِمْ ، تُسِرُّوْنَ الْكُفْرَ وَتُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ ، وَتُسْتَمَالُونَ بِالْأَمْوَالِ ، وَأَنْشُدْكُمْ اللَّهُ أَلَسْتُمْ

[١] كان صلى الله عليه وسلم يستقبل الكعبة وهو بمكة ، فلما هاجر إلى المدينة أمر أن يستقبل بيت المقدس تألفاً لليهود ، فصلى إليه ستة أو سبعة عشر شهرا ثم حول . [٢] اللات : صنم تقبب بالطائف ، والعزى : أكبر صنم لقريش ، وكان يبطن نخلة .

[٣] روى الطبرى فى تاريخه - بعد أن أورد خبر فتحه صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان للهجرة ، وخطبته حين وقف على باب الكعبة - قال : « ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام فجلس لهم - فيما بلنى - على الصفا ، وعمر بن الخطاب تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسفل من مجلسه يأخذ على الناس ، فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم والطاعة لله ورسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعة من بايع رسول الله من الناس على الإسلام ، فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من نساء قريش فيهن هند بنت عتبة « أم معاوية » . . . إلى آخر القصة - تاريخ الطبرى ٣ : ١٢١ - وكان معاوية من أسلم بعد الفتح . [٤] بيعة الرضوان كانت سنة ست هجرية فى غزوة الحديبية حين دعا الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين للبيعة على القتال فبايعوه دلى الموت تحت شجرة هناك سميت بعد بشجرة الرضوان .

تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وأن راية
المشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ؟ ثم لقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه
راية رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعك ومع أبيك راية الشرك ، وفي كل
ذلك يفتح الله له ، وَيُفْلِحُ^(١) حجته ، وينصر دعوته ، ويصدق حديثه ، ورسول
الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلها عنه راض ، وعليك وعلى أبيك
ساخط ، وَأَنْشُدُكَ اللهُ يَا معاوية أتذكر يوماً جاء أبوك على جمل أحمر ، وأنت
تسوقه ، وأخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال :
« اللهم العن الرَّاكِبَ والقائدَ والسائقَ » . أتُنسى يا معاوية الشعر الذي كتبتَهُ
إلى أبيك - لما همَّ أن يُسَلِّمَ - تنهاه عن ذلك :

يَا صَخْرُ لَا تُسَلِّمَنَّ يَوْمًا فَتَفْضَحَنَا بَعْدَ الَّذِينَ يَبْدُرُ أَصْبَحُوا مِرْقًا^(٢)
خَالِي وَعَمِّي وَعَمُّ الْأُمِّ ثَانَهُمْ وَحَنْظَلُ الْخَيْرِ قَدْ أَهْدَى لَنَا الْأَرْقًا^(٣)
لَا تَرَكَنَّ إِلَى أَمْرٍ تُكَلِّفُنَا وَالرَّاقِصَاتِ بِهِ فِي مَكَّةَ الْخَرْقًا^(٤)
فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْ قَوْلِ الْعُدَاةِ «لَقَدْ حَادَ ابْنُ حَرْبٍ عَنِ الْعُزَّى إِذَا فَرِقًا»^(٥)

الله لما أخفيتُ من أمرِك ، أكبر مما أبديت ، وأنشدكم الله أيها الرهط ،
أتعلمون أن علياً حرَّم الشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وآله ، فأنزل فيه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ » .
وأن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث أكبر أصحابه إلى بني قريظة ، فنزلوا

[١] ينصر . [٢] الزرق : جمع مزقة بالكسر ، وهي القطعة من الثوب وغيره .

[٣] أي لشدة الحزن والأسى . [٤] الخرق بحركة الألف يحسن الرجل العمل والنصرف في

الأمور ، والحق . [٥] فرق : فزع .

من حصنهم فهزموا ، فبعث علياً بالرّاية ، فاستنزلهم على حكم الله ، وحكم رسوله ،
 وفعل في خيبرٍ مثلاً ، ثم قال : يا معاوية أظنك لا تعلم أنى أعلم ما دعا به عليك
 رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما أراد أن يكتب كتاباً إلى بني جذيمة ^(١) ،
 فبعث إليك ونهّمك ^(٢) إلى أن تموت ، وأنتم أيها الرهط ، نشدتكم الله ألا تعلمون
 أن رسول الله صلى الله عليه وآله لعن أبا سفيان في سبعة مواطن ، لا تستطيعون
 ردّها ؟ أولها يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وآله خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو
 تقيفاً إلى الدين ، فوقع به ، وسبه ، وسفّهه ، وشتمه ، وكذّبه ، وتوعده ، وهم أن يبطن
 به ، فلعنه الله ورسوله وصرف عنه ، والثانية يوم العير ^(٣) إذ عرض لها رسول الله
 صلى الله عليه وآله وهي جائية من الشام ، فطردها أبو سفيان وساحل ^(٤) بها ، فلم
 يظفر المسلمون بها ، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه ، فكانت

[١] في الأصل « خريمة » ، وهو تحريف ، وهم بنو جذيمة بن عامر بن عبد مائة بن كنانة ، وقد
 بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد حين امتنع مكة داعياً ، ولم يعثه مقاتلاً ، فلما
 رآه القوم أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضعوا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضعوه أمر بهم خالد فندد
 ذلك فكفروا ، ثم عرصهم على السيف فقتل من قتل منهم - وكان بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهلية
 عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف ، والفاكه بن الفيرة عم خالد ، وكانا أقبلتا تاجر بن من اليمن
 حتى إذا نزلا بهم قتلوها وأخذوا أموالهما - فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يده
 إلى السماء ثم قال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا علي بن أبي طالب ، فقال يا علي
 اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج علي حتى جاءهم ومعه
 ماله قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم به فودى لهم الدماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه
 ليدي ميلة الكعب ، (والميلة بالكسر : الإناه يبلغ فيه الكعب) حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال
 إلا وداه بقيت منه بقية من المال . قال لهم : هل بقي لكم دم أو مال لم يود إليكم ؟ قالوا لا ،
 قال فإني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم ولا تعلمون
 فعمل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال أصبت وأحذت ، ثم استقبل القبلة
 قائماً شاهراً يديه ، وهو يقول : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ، ثلاث مرات .

[٢] الذي في كتب اللغة : « نهّمه : زجره ، وحذفه بالخصى وغيره » ومراده هنا أنه دعا عليه بالنهم
 وعدم الشيع ، وقد تقدم الكلام عليه . [٣] العير الإبل تحمل الميرة . [٤] أي بها ساحل البحر .

وقعة بدر لأجلها ، والثالثة يوم أُحُد ، حيث وَقَفَ تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وآله في أعلاه ، وهو ينادى **أَعْلُ هُبَلُ** ^(١) مراراً فلغنه رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مراتٍ ، ولغنه المسلمون ، والرابعة يوم جاء بالأحزاب وَغَطَفَانِ وَالْيَهُودِ ، فلغنه رسول الله صلى الله عليه وآله وابتهل ، والخامسة يوم جاء أبوسفيان في قريش ، فصعدوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد والهدى معكوفاً **أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ** ^(٢) ، ذلك يوم الحديبية ، فلعن رسول الله صلى الله عليه وآله أباسفيان ، ولعن القادة والأتباع ، وقال ملعونون كلهم وليس فيهم من يؤمن ، فقيل يا رسول الله أفما يُرْجَى الإسلام لأحد منهم فكيف باللغنة ؟ فقال لا تصيب اللعنة أحداً من الأتباع ، وأما القادة فلا يُفْلَحُ منهم أحد ^(٣) ، والسادسة يوم الجمل الأحمر ، والسابعة يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله في العقبية ليستنفروا ناقته ، وكانوا اثني عشر رجلاً ، منهم أبوسفيان ، فهذا لك يامعاوية .

وأما أنت يا بن العاص ، فإن أمرك مشترك ، وضعناك أمك مجهولاً ، من **عَمَّهَر** ^(٤) **وَسِفَاح** ، فتحاكم فيك أربعة من قريش ، فغلب عليك جزأرها ، الأمامهم

[١] أى اعل وانتصر ياهل وهو صنم كان في الكعبة . [٢] والهدى معطوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والهدى ما يهدى إلى مكة ، ومعكوفاً أى محبوساً وهو حال . أن يبلغ محله أى مكانه .
 [٣] لا يتعارض مع هذا أن أباسفيان أبلح بعد وأسلم ، إذا التى فيه إلا ، وليس النقى بلن . [٤] حور : ذكروا أن البابعة أم عمرو بن العاص كانت أمة لرجل من عنزة بالتحريك) فسويت : فاشتراها عبد الله بن جدعان التيمي بمكة ، فكانت بغياً ، ثم أعتقها ، فوقع عليها بولهب بن عبد المطاب ، وأممية بن خلف الجهمي ، وهشام بن المغيرة المخزومي ، وأبوسفيان بن حرب ، العاص بن وائل السهمي في طهر واحد ، فولدت حمرا ، فادعاه كلهم ، فحكمت أمة فيه ، فقالت هو من عاص بن وائل ، وذاك لأن العاص كان ينفق عليها كثيرا ، قالوا : وكان أشبه بأبي سفيان ، وى ذلك فول أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب في عمرو بن العاص :

أبوك أبو سفيان لاشك قد بدت لنا ديك منسه بينات الشمائل

يقال إنه جعل لرجل ألب درهم على أن يسأل حمرا وهو على المنبر : من أمه ، فسأله فقال : أمى سلمى

حسباً ، وأخبثهم منّصيباً ، ثم قام أبوك فقال : أنا شاني محمد الأبتري^(١) فأُنزل الله فيه ما أنزل ، وقاتلت رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع المشاهد ، وهجوته وآذيته بمكة ، وكِدته كيدك كله ، وكنت من أشد الناس له تكذيباً وعداوة ، ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة ، لتأتي بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة^(٢) ، فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائباً ، وأكذبك واشياً ، جعلت حسدك على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به إلى النجاشي ، حسداً لما ارتكب من حليلته^(٣) ، ففضحك الله وفضح صاحبك ، فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية

بنت حرمة تلقب بالنابغة من بني عزة أصابتها رماح العرب فبيعت بكاهن ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت فأنجبت ، فإن كان جعل لك شيء يؤذنه . (ورأى فيما روى من نسب عمرو بن العاص أن الإسلام يجب ما قبله) .

[١] الثاني المبغض ويسهل ، وذلك أن العاص بن وائل سمي النبي صلى الله عليه وسلم أبتري عند موت ابنه القاسم ، فنزل فيه « إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أي المقطع عن كل خير ، الذي لا يفوز بالذكر الحسن بعد موته ، وأما أنت يا محمد فسيتقى حسس ذكرك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة وهو الأبتري لا أنت . [٢] يشير إلى هجرة الحبشة الثانية ، وقد هاجر إليها من المسلمين نحو ثلاثة وثمانين رجلاً وثمان عشرة امرأة ، وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب ، ولما رأته قریش ذلك أرسلت في أثرهم عمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد ، بهدايا إلى النجاشي وبطارقته ، ليسلم المسلمين ، فرجعا خائبين ، وأبى النجاشي أن يخفر ذنبه . [٣] وذلك أن حمرا وعمارة ركبوا البحر إلى الحبشة كما قدمنا - وكان حمارة جليلاً وسيماً تهواه النساء ، وكان مع عمرو بن العاص امرأته - فلما صاروا في البحر ليلى أصابا من خمر معهما ، فانتشى عمارة فقال لامرأة عمرو قبلي ، فقال لها عمرو قبلي ابن عمك ، فقبلته ، وهويها عمارة ، وجعل يراودها عن نفسها ، فامتنعت منه ، ثم إن حمراً جالس على منجاف السفينة يبول « منجاف السفينة هو سكانها الذي تعدل به » فدفعه حمارة إلى البحر ، فلما وقع عمرو سبوح حتى أخذ بمنجاف السفينة ، ووضف عمرو عليه في نفسه وعلم أنه كان أراد قتله ومضياً حتى نزل الحبشة ، فلما اطمأن بها لم يلبث حمارة أن دب لامرأة النجاشي فأدخلته ، فاختلف إليها وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يخبر حمرا بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ، فلما أكثر عليه حمارة بما كان يخبره ، ورأى عمرو من حاله وهيئته وميئته عندها حتى يأتي إليه مع السحر ما عرف به ذلك ، قال له إن كنت صادقاً فقل لها فاندعك يدهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره ، فأبى أعرفه وأتني بشيء منه حتى أصدقك ، قال أفعل فسألها ذلك فدعت منه وأعطته شيئاً في فارورة ، فقال عمرو أشهد أنك قد صدقت لقد أصبت شيئاً ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، امرأة المالك ! ما سمعنا بمثله هذا ، ثم سكت عنه حتى اطمأن ودخل على النجاشي فأعلمه شأن عمارة وقدم إليه الدهن ، فلما أثبت أمره دعا بعمارة ، ودعا نسوة آخر فجردوه من ثيابه ثم أمرهن ينفضن في إحليله ثم خلى سبيله ففرج هارباً .

والإسلام ، ثم إنك تعلم ، وكل هؤلاء الرهط يعلمون ، أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتاً من الشعر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم إني لأقول الشعر ولا ينبغى لى ، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة . فعليك إذن من الله ما لا يُحصى من اللعن ، وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سَعَرْت (١) عليه الدنيا ناراً ، ثم لحقتَ بِفِلَسْطِينِ ، فلما أتاك قتله قلت : « أنا أبو عبد الله إذا نكأتُ قرحة أدميتها » ثم حبست نفسك إلى معاوية ، وبعث دينك بديناه ، فلسنا نلومك على بغضٍ ، ولا نعاتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثمان حياً ، ولا غَضِبْتَ له مقتولا ، ويحك ابن العاص ! ألسنت القائل في بنى هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي :

تقول ابنتي : أين هذا الرحيل ؟	وما السَيْرُ منى مُسْتَنْكَر
فقلت : ذريني فإني امرؤ	أريد النجاشي في جعفر
لأَكْوِيَهُ عنده كِيَّة	أقيم بها نخوة الأَصْعَر (٢)
وَشَانِي أَحْمَدَ مِنْ بَيْنِهِمْ	وَأَقُولُهُمْ فِيهِ بِالْمُنْكَر
وَأَجْرِي إِلَى عُتْبَةَ جَاهِداً	ولو كَانَ كَالذَّهَبِ الْأَحْمَر (٣)

[١] سحر النار : كنع أوقدها . وكان عمرو أول خلافة عثمان والياً على مصر - منذ خلافة عمرو بن الخطاب - ثم إن عثمان ولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وهو أخو عثمان من الرذاع - خراج مصر ولى عمرو بن العاص على الجند فلم ينفقا ، فجمع لعبد الله الحراج والجند وعزل عمراً ، فلما قدم عمرو دينة جعل يطعن على عثمان ويؤاب عليه ، وخرج عمرو بمدئ حتى انتهى إلى أرض له بفلسطين ، وكان قول : أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها ، والله إن كنت لألقى الراعي فأحرضه عليه (نكأ قرحة : قمرها قبل أن تبرأ فنديت) . [٢] الصعر : محرمة الليل في الحد ، صعر : كفرح وهو صعر ، وصعر خده تصعيراً : أماله من الكبر . [٣] كان من بين المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة تبة بن غزوان ، وهو من بنى نوفل بن عبد مناف ، وعتبة بن مسعود (وهو أخو عبد الله بن مسعود) من هذيل من حلفائهم ، وأظنه يعنى عتبة بن غزوان ، وقوله : ولو كان كالذهب الأحمر : أى في صعوبة وصول إليه .

ولا أنتنى عن بنى هاشم وما أسطعت في الغيب والمخضّر
فإن قبيل العتب منى له وإلا لويت له مشفري (١)

فهذا جوابك ، هل سمعته ؟

وأما أنت يا وليد ، فوالله ما ألومك على بغض عليّ ، وقد جلدك ثمانين في
الخر (٢) ، وقتل أبك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله صبراً (٣) ، وأنت
الذي سماه الله الفاسق ، وسمى عليّاً المؤمن ، حيث تفاخرتما ، فقلت له اسكت
يا عليّ ، فأنا أشجع منك جناناً ، وأطول منك لساناً ، فقال لك عليّ اسكت
يا وليد ، فأنا مؤمن وأنت فاسق ، فأنزل الله تعالى في موافقة قوله : « أَفَن كَانَ

[١] المشفر للبعير : كالشمة للإنسان ، وقد يستعمل في الناس . [٢] وذلك أن عثمان
رضي الله عنه بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص من إمارة الكوفة ، ولى عليها الوليد بن دحية - وهو
أخوه لأبيه - ورووا أنه شرب الخمر بالكوفة وسكر حتى دخل عليه ، وأخذ خاتمه من أصبعه وهو لا يعلم
وأنه تكلم في الصلاة والفت إلى من يفتنون به فيها وهو سكران وقال لهم : أزيدكم ؟ فالوا لا قد قضينا
صلواتنا ، وشهد الشهود عليه بذلك عند عثمان في وجهه فأدخله بيتاً وأراد أن يحده حول إذا نعت إليه
رحلا من قریش ليضربه ناشده الوليد ألا يقطع رحمه ، فلما رأى عليّ ذلك أخذ السوط ودخل عليه فجلده به
[٣] القتل صبراً : أن يحبس الرجل ويرمى حتى يموت ، وكان عقبة بن أبي معيط شديد الإيذاء لرسول
الله صلى الله عليه وسلم عظيم الاستهراء به . صنع مرة ولية ودعا إليها كبراء قریش وفيهم رسول الله ص
الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا آكل من طعامك حتى تؤمن بالله ، فتشهد ، فبدا
ذلك أبي بن خلف الجمحي ، وكان صديقاً له ، فقال ماشىء بلاني عنك ؟ قال لاشيء . دخل منزلي رح
شريف ، فأبى أن يأكل طعامي حتى أنشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فتشهدت له ، ف
أبى : وجهي من وجهك حرام إن نقيت محمداً فلم تطأ عنقه، وتبزيق في وجهه، وتلطيم عينه ، فلما رأى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك ، فأنزل الله فيه « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ
يَا لَيْدَنِي أَن تَحَدَّثْتُمْ مَعَ الرَّسُولِ سَكِيلًا » وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعلى في حجر الكه
مأقبل عقبة فوضع ثوبه في عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر فأخذ
بذنبه ودفعه عن الرسول ، وقال : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ » فلما كانت غزوة بدر كان عقبة من أسراها وقد قتله عليه الصلاة والسلام
وهو راجع .

مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ» ثم أنزل فيك على موافقة قوله أيضاً :
« إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ^(١) » ويحك يا وليد ! مهما نسيت فلا تنس قول
الشاعر فيك وفيه :

أنزل الله (والكتابُ عزيزٌ) في عليّ وفي الوليد قرأنا ^(٢)
فتبّوا الوليد إذ ذاك فسقاً وعليّ مَبْـُوءاً إيماناً ^(٣)
ليس من كان مؤمناً (عمرك الله) كمن كان فاسقاً خوفاً
سوف يُدعى الوليد بعد قليل وَعَلِيٌّ إِلَى الْحِسَابِ عِيَاناً
فعلِيّ يُجْزَى بِذَلِكَ جِنَاناً ووليدٌ يَجْزَى بِذَلِكَ هَوَاناً
رب جدّ لعقبة بن أبان لابس في بلادنا ثبّاناً ^(٤)

وما أنت وقريش ، إنما أنت عِلْجٌ من أهل صفورية ^(٥) ، وأقسم بالله لأنت
أكبر في الميلاد وأسن ممن تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة : فوالله ما أنت بِحَصِيفٍ ^(٦) فأجيبك ، ولا عاقلٍ
فأحاورك وأعاتبك ، وما عندك خيرٌ يرجى ، ولا شرٌّ يُتَّقَى ، وما عقلك وعقل

[١] وذلك أن النبيّ عليه الصلاة والسلام كان قد بعث الوليد بن دقبة إلى بني المصطلق لأخذ
الصدقات - وكان بينه وبينهم ترة في الجاهلية - فلما سمعوا به استقبلوه لحسبهم مقاتليه فرجع ، وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم قد ارتدوا ومنعوا الزكاة، فقاتلهم ، فأتوه منكربين ما قاله عنهم ، فزك
الآية « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ
فَتُضْحِكُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » . [٢] مهمل عن « قرآنًا » . [٣] فتبوا مهمل
عن « فتبوا » . [٤] أبان : هو والد أبيه عقبة ، وهو الوليد بن دقبة بن أبي ميط أبان بن أبي عمرو
ذكوان بن أمية بن عبد شمس ، والتبّان سراويل صغير مقدار شهر يستر العورة المفلغة فقط يكون للملايين .
[٥] صفورية بلد بالأردن (بضم الهمزة والدال وتشديد النون) ، والمعلج : الرجل من كفار العجم ، وذلك
أن جدّه ذكوان كان يلقب بالصفوري ، ذكر جماعة من النساء أن ذكوان هذا كان مولى لأمية بن عبد
شمس فتبناه وكناه أبا عمرو ، فبنوه موال وليسوا من بني أمية أصله (شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٥٤)
[٦] حصيف : ككرم استحکم دقله فهو حصيف .

أمتك إلا سواء ، وما يضر علياً لو سبته على رؤوس الأشهاد ؟ وأما وعيدك إياي بالقتل ، فهلا قتلت الأحياني إذ وجدته على فراشك ؟ أما تستحي من قول نصر ابن حجاج فيك :

يَا لِلرَّجَالِ وَحَادِثِ الْأَزْمَانِ وَلسِبَّةِ تُخْزِي أَبَا سُفْيَانَ (١)

نُبِّئْتُ عُتْبَةَ خَانَهُ فِي عَرْسِهِ جِنْسٍ لَتِيمِ الْأَصْلِ مِنْ لِحْيَانِ (٢)

وبعد هذا ما أربأ بنفسى عن ذكره لفحشه ، فكيف يخاف أحدٌ سيقتك ولم تقتل فاضحك ، وكيف ألومك على بغض عليّ ، وقد قتل خالك الوليدَ مبارزةً يوم بدر ، وشرك حمزة في قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حنظلة في مقام واحد .

وأما أنت يا مغيرة : فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل البعوضة إذ قالت للنحلة : « استمسكي فإني طائرةٌ عنك » . فقالت النحلة وهل علمت بك واقعة عليّ ، فأعلم بك طائرةٌ عنى ؟ والله ما نشعر بعداوتك إيانا ، ولا اغتمنا إذ علمنا بها ، ولا يشق علينا كلامك ، وإن حد الله في الزنا لثابت عليك ، واقد درأ عمر عنك حقاً ، الله سائله عنه ، ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا ، لعلمه بأنك زان ، وأما نخركم علينا بالامارة ، فإن الله تعالى يقول : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا (٣) مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا » .

[١] السبّة : العار . [٢] همس الرجل : امرأته ، وبنو لحيان : حمى من هذيل ، وهو لحيان ابن هذيل بن مدركة . [٣] أى كثرتنا ، أمره : كنعصره ، وأمره : كثره ، (وفي قراءة : أمرنا) أو المعنى أمرناهم بالطاعة ففسقوا وعصوا ، وقد يكون من الإمارة أى جعلناهم أمراء .

ثم قام الحسن فنفض ثوبه فانصرف ، فتعلق عمرو بن العاص بثوبه وقال
يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله في وقذفه أئى بالزنا ، وأنا مطالب له بحد القذف .
فقال معاوية : خلّ عنه ، لاجزالك الله خيراً ! فتركه ، فقال معاوية : قد أنبأتكم
أنه ممن لا تطاق عارضته ، ونهيتكم أن تسبوه فعصيتموني ، والله ما قام حتى أظلم
على البيت ، قوموا عني ، فلقد فضحككم الله وأخزاكم بترككم الحزم ، وعدواكم
عن رأى الناصح المشفق ، والله المستعان . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ ص ١٠١)

١٩ - رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن

لمامات الحسن بن عليّ رضي الله عنهما ، أدخله قبره الحسينُ ومحمدُ بن
الحنفية^(١) ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، ثم وقف محمد علي قبره ،
وقد اغرّ وورقت عيناه ، وقال :

« رحمك الله أبا محمد ، فلئن عزّت حياتك ، لقد هدّت وفاتك ، ولنعم
الروحُ روحٌ تضمّنه بدنك ، ولنعم الجسدُ جسدٌ تضمّنه كفنك ، ولنعم
الكفنُ كفنٌ تضمّنه لحدك ، وكيف لا تكون كذلك ، وأنت سليل الهدى ،
خامس أصحاب الكساء^(٢) ، وخلفُ أهل التقوى ، وجدك النبي المصطفى ،

[١] هو محمد بن علي بن أبي طالب ، والحنفية أمه ، وهي امرأة من بني حنيفة بن لجم وتسمى خولة بنت
جعفر ، وتوفى سنة ٨١ ، وقيل سنة ٨٣ ، وقيل سنة ٧٢ ، وقيل سنة ٧٣ . [٢] الكساء : هو
كساء آل محمد صلى الله عليه وسلم الذي يصابون إليه ، يقال : « آل الكساء » وهم النبي عليه الصلاة
السلام ، وعلي ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين رضي الله عنهم ، قال ديك الجن :
والخمسة الفر أصحاب الكساء معاً خير البرية من عجم ومن عرب
قال أبو عثمان الخالدي :

أعاذل إن كساء التقى كسانه جي لأهل الكساء
ومن قصة هذا الكساء ماروت الرواة من أن وفدا من نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم
فكان ماجرى بينهم وبينه أن قالوا : يا محمد لم تعيب عيسى وتسميه عبداً ؟ فقال : أجل عبد الله ورسوله

وأبوك على المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء ، وعمك جعفر (١) الطيار في جنّة

وروحه وكلته ألقاها إلى مريم ، قالوا : فأرنا مثله ، يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين كهيئة الطير ، وبإذننا على أنه ابن الله ونحن نبأبعك على أنك رسول الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن يكون لله ولد أو شريك ، فما زالوا يحاجونه ويلاعنونه ، حتى أنزل الله : « فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ (أى فى عيسى) مِنْ بَدَدٍ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ قَلَّ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ »

فقال لهم : إن الله أمرنى إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم — والمباهلة الملاعنة — فقالوا يا أبا القاسم : بل نرحب فنسطر فى أمرنا ثم نأتيك ، فلما رجعوا قالوا للعاقب وكان دا رأبهم « وهو أحد رؤسائهم ، قال ياقوت فى معجمه : ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب ، والعاقب واسمه عبد المسيح ، والأسقف وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مباهلتهم فامتنعوا ... الخ » يا عبد المسيح ماترى ؟ فقال « والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمداً نبيّ مرسل ، ولقد جاءكم بالكلام الحق فى أمر صاحبكم « أى عيسى » والله ما باهل قوم نبياً قط ، فماش كبيرهم ولانيت صغيرهم ، واتن فعلمت لكان الاستئصال ، فإن أبيتهم إلا الإصرار على دينكم ، والإقامة على ما أتمت عليه ، فوادعوا الرجل واصرفوا إلى بلادكم » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود « والمرط بالكسر كساء من صوف أوحز » وفد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول « إذا دعوت فأموا » فقال أسقف نجران : « يامعشر النصارى إنى لأرى وجوهاً لو سألتوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله لها ، فلا تماهلوا فتهلكوا ، ولا يبق على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة » ثم قالوا يا أبا القاسم : « رأينا أن لا نباهلك وأن نترك على دينك » فقال عليه الصلاة والسلام : « فإذا أبيتهم المباهلة فاسلموا ، يكن لكم مالمسلمين وعليكم ما على المسلمين » فأبوا ، فقال : فإنى أناجزكم القتال ، فقالوا مالنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصلحك على أن لا تنزونا ولا تردنا عن ديننا ، على أن نؤدى إليك فى كل عام ألبى حلة ، ألفاً فى صفر ، وألفاً فى رجب ، وثلاثين دراهم حادية من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : « والذى نفسى بيده ، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران ولولاءوا المسحوا قرده وخنازير ، ولاضطرم عليهم الوادى ناراً ، ولاستأصل الله نجران وأهله ، حتى الظ على رءوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام لما خرج فى المرط الأسود جاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم على رضى الله عنهم ، ثم قال : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » فن ذلك الوقت سمي الحسة أصحاب الكساء (أنظر كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب لأبى طالب ص ٤٨٣ وتفسير الفخر الرازى مفاتيح الغيب ٢ : ٦٩٩)

[١] هو جعفر بن أبى طالب ، وقد استشهد فى غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة ، وكان يقول حين آخر الراية من زيد بن حارثة الذى استشهد قبله فى هذه الغزوة :

ياحبذا الجنة واقترابها طيبة وبارداً شرايبها

ولقب بالطيار لما روى عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت الجنة

المأوى ، وغذتكَ أكفَّ الحق ، ورُيِّت في حِجْرِ الإسلام ، ورضعت ثدى الإيمان ، فَطَبَّتَ حياً وميتاً ، فلئن كانت الأنفس غيرَ طيبةٍ لفراقك ، إنها غير شاكَّةٍ أن قد خيرَ لك ^(١) ، وإنك وأخاك لسيدا شبابِ أهلِ الجنة ، فعليك أبا محمد منا السلام .

(زهر الآداب ١ : ٦٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٥١ ، والعقد الفريد ٢ : ٧)

مقتل الحسين بن علي

رضى الله عنه

تأبىه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة

لما ولى الخلافة يزيدُ بن معاوية (في هلال رجب سنة ٦٠ هـ) كتب إلى أمير المدينة الوليد بن عُتْبَةَ بن أبي سُفْيَان أن يأخذ الحسين ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رُخْصَةٌ ^(٢) ، فبعث الوليد إلى الحسين رضى الله عنه ونعَى له معاوية ودعاه إلى البيعة ، فقال الحسين : « إن مثلى لا يعطى بيعته سراً ، ولا أراك تجتزئ بها منى سراً ، دون أن تُطهرها على رهوس الناس علانيةً ، فاذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس ، فكان أمراً واحداً » فقال له الوليد - وكان يحب العافية - « فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس » .

فلما كان من الغد بعث الرجال إلى الحسين عند المساء ، فقال : « أَصْبِحُوا ثم ترون ونرى » فكفوا عنه تلك الليلة ولم يُأخُوا عليه ، فخرج الحسين من تحت ليلته (ليومين بقيا من رجب سنة ٦٠ هـ) ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه وجُلُّ أهل بيته إلا محمد بن الحنفية ، فانه قال له :

البارحة ، فرأيت جعفرأ يطير مع الملائكة وجناحاه مفرجان بالدم » - راجع الروض الأنف شرح السيرة النبوية لابن هشام ٢ : ٢٥٨ - . [١] خار الله لك في الأمر : جعل لك فيه الخير .
[٢] الرخصة : التسهيل .

٢٠ - نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما

« يا أخى : أنت أحبُّ الناسِ إلىَّ ، وأعزُّهم علىَّ ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحقَّ بها منك ، تنحَّ بِتَبَعَتِكَ ^(١) عن يزيد بن معاوية ، وعن الأمصار ما استطعت ، ثم ابعث رُسُلَكَ إلى الناس ، فادعُهُم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك حَمَدَتَ الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقصِ الله بذلك دينَكَ ولا عقلك ، ولا يُذهِبِ بهِ مروءتك ولا فضلك ، إني أخاف أن تدخلَ مصرا من هذه الأمصار ، وتأتى جماعة من الناس ، فيختلفوا بينهم ، فمنهم طائفة معك ، وأخرى عليك ، فيقتتلوا ، فتكون لأوّل الأسيئة ، فإذا خيرُ هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً أضيعَها دَمًا ، وأذلَّها أهلاً . »

قال له الحسين : « فإني ذاهب يا أخى » . قال : « فانزل مكة ، فإن اطمانت بك الدار فسبيلٌ ذلك ، وإن نبتت ^(٢) بك لحقت بالرمال ، وشعف ^(٣) الجبال ، وخرجت من بلد إلى بلد ، حتى تنظر إلام يصير أمر الناس ، وتعرف عند ذلك الرأى ، فإنك أصوبُ ما يكون رأياً ، وأحزمُهُ عملاً ، حتى تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكلاً منها حين تستدبرها استديباراً ، قال : « يا أخى قد نصحت فأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً مؤوقفاً » وسار إلى مكة ، فأتاه أهل الكوفة ورسلمهم ، إنا قد حبسنا أنفسنا عليك : ولسنا نحضُر الجمعة مع الوالى فاقدم علينا ^(٤) - وكان النعمان بن بشير الأنصارى على الكوفة -

[١] تبعة جمع تابع . [٢] ضاقت . [٣] الشعف جمع شمعة محرّكة ، وهى رأس الجبل .
[٤] اجتمعت الشيعة بالكوفة فى منزل سليمان بن صرد ، فذكروا هلاك معاوية لخدموا الله عليه ، وقال سليمان : « إن معاوية قد هلك ، وإن حسيناً قد تقبض على اقوم بييعته ، وقد خرج إلى مكة ، وأنه

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

فبعث الحسين إلى ابن عمه مسلم بن عقيل ، فقال له :
« سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلى ، فإن كان حقاً خرجنا إليهم ،
نخرج مسلم إلى الكوفة ، ونزل دار المختار بن أبي عبيد ، وأقبلت الشيعة تختلف
إليه ، فقرأ عليهم كتاب الحسين فأخذوا يبكون .

٢١ - خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري

فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

شيعته وشيعة أبيه ، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا إليه ، وإن خفتم الوهل
(بالتحريك : الصعف والفرع والقتل) فلا تمروا الرجل من نفسه « قالوا « لا ، بل نقاتل عدوه وقتل
أنفسنا دونه » قال : فاكتبوا إليه ، فكتبوا إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحسين بن علي من
سليمان بن سرد ، والمسيب بن نجبة ، ورفاعة بن شداد ، وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين
من أهل الكوفة ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذي قسم عدوك
الجبار العنيد الذي اتزى (وثب) على هذه الأمة ، فأبزها أمرها ، وغصبها فيهما ، وتأمر عليها بغير رضا
منها ، ثم قتل خيارها ، واستنق شرارها ، وحمل مال الله دولة بين جبارتها وأغنيائها ، فبعداً له كما بعدت
شهود ، لأنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة ،
عسنا نجتمع معه في جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا أمك قد أقبلت إلينا أخرجناه ، حتى تلحقه
نام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك » وكتبوا إليه أيضاً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحسين بن
، من شيعته من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : خيم لا (أي أقبل) فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأى
م في غيرك ، فالمجل العجل والسلام عليك » وكتبوا : « أما بعد : فقد اخضر الجنب ، وأبعت
نار ، وطمت الجمام ، (الجمام : بالكسر جمع جم بالفتح وهو معظم الماء ، وطمى الماء : علا ، وطم :
ر) فإذا شئت فاقدم على جندك مجند ، والسلام عليك » فكتب إليهم : « بسم الله الرحمن الرحيم ،
حسين بن علي إلى الملائمة من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فإن هاشماً وسعيداً (وهما هاشم بن هاشم
سعيد بن عبد الله) قدما علي بكتيكم ، وكانا آخر من قدم علي من رسلكم ، وقد فهمت كل الذي
صصتم وذكرتم ، ومقالة جالسكم لأنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق ،
د بهت إليكم أخى وابن عمي وثقتي من أهل بيتي ، وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم ،
ن كتب إلى أنه قد أجمع رأي مثلكم وذوى الفضل والحجا منكم على مثل ما قدمت علي به رسلكم
نرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله ، فاعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط
لداث بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله والسلام .

« أما بعد ، فإنني لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم ما في أنفسهم ، وما أغرك منهم ، والله أحَدَثَكَ عما أنا موطنٌ نفسي عليه ، والله لأجيدنَّكُمْ إذا دعوتهم ، ولأقاتلنَّ معكم عدوكم ، ولأضربن بسيفي دونكم ، حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلا ما عند الله »

فقام حبيب بن مظاهر الفقعسي فقال :

« رحمك الله قد قضيت ما في نفسك بواجبٍ من قولك » ثم قال : « وأنا والله الذي لا إله إلا هو على مثل ما هذا عليه » وقال غيرها مثل قولهما .
فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فخرج فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

٢٢ — خطبة النعمان بن بشير

« أما بعد ، فاتقوا الله عباد الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإن فيهما يهلكُ الرجال ، وتُسْفَكُ الدماء ، وتُنْصَبُ الأموال - وكان حليما ناسكا يحب العافية - قال : إني لم أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أتبُّ على من لا يتبُّ عليّ ، ولا أشاتمكم ، ولا أتحرشُ بكم ، ولا آخذ بالقرفة^(١) ولا الظنَّة ولا الشَّهْمَةَ ، ولكنكم إن أباديتم صَفَحْتُمْ^(٢) لي ، وَنَكَّثْتُمْ بيعتكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبتت قائمته في يدي ، ولو لم يكن لي منكم ناصر ، أما إذ أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يُرْذِيهِ الباطلُ »

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أمية ، فقال :

[١] القرنة : التهمة ، وقرفه بالشيء : اتهمه . [٢] أي جاهرتموني بالمداوة .

« إنه لا يُصْلِح ما ترى إلا الغشم^(١) ، إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأى المُسْتَضْعَفِينَ » فقال : « أن أكون من المُسْتَضْعَفِينَ في طاعة الله أَحَبُّ إِلَيَّ من أن أكون من الأَعَزِّينَ في معصية الله » ثم نزل .

وكتب عبد الله بن مسلم وغيره إلى يزيد أن يبعث إلى الكوفة رجلاً قويا غير النعمان ، فبعث إلى عُبيد الله بن زياد - وكان على البصرة - وضم إليه الكوفة ، فسار إليها ، فلما نزل القصر نودي الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخرج إليهم .

٢٣ - خطبة عبيد الله بن زياد

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين (أصلحه الله) وَلَآئِي مِصْرِكُمْ وَتَغْرَمُكُمْ^(٢) »

وأمرني بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدّة على مُرِيبيكم وعاصيكم ، وأنا مُتَّبِعٌ فيكم أمره ، وَمُنْفَذٌ فيكم عهده ، فأنا لمحسنتكم ومطيعكم كالوالد الأبرّ ، وَسَوَاطِي وَسِيفِي على من ترك أمرى ، وخالف عهدي ، فليُبْقِ امرؤ على نفسه ، الصدق يُنْبِيءُ عنك لا الوعيد .

نزل فأخذ العُرْفَاءَ^(٣) والناس أخذاً شديداً ، وبلغ ذلك مسلم بن عقيل ، فخرج ، دار المختار، حتى انتهى إلى دارهاني بن عُرْوَةَ المُرَادِيَّ لا تُدْأَبُهُ ، وَنَحَى خَبْرَهُ إِلَى زياد ، فبعث إلى هاني فجاءه ، فأمره أن يأتيه بمسلم ، فقال لا والله لا أجيئك أبداً ، أنا أجيئك بضيفي تقتله ! وطال بينهما اللجاج في ذلك ، فضربه ابن زياد ضيَبٌ ، فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده ، حتى كسر أنفه ، وَسَيَّلَ الدَّمَاءَ

[١] الغشم : الظلم ، والمراد الشدّة . [٢] الثغر : موضع الخافة من فروج البلدان .
[٣] جمع عريف ، وهو رئيس القوم سمي لأنه عرف بذلك أو القريب وهو دون الرئيس .

على ثيابه ، وثر لحم خديه وجبينه على لحيته ، حتى كسر القضيب ، ثم أمر بحبسه .

٢٤ - خطبة أخرى له

ولما ضرب عبيد الله هائناً وحبسه ، خشي أن يثب الناس به ، فخرج فصعد المنبر ومعه أشرف الناس وشروطه وحشمه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس : فاعتصموا بطاعة الله وطاعة أئمتكم ، ولا تختلفوا ولا تفرقوا ، فتهلكوا وتذلوا وتقتلوا ، وتجفوا وتجرموا ، إن أخاك من صدقك ، وقد أعذر من أندر »

وبلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب هاني وحبسه ، فأمر أن ينادى في أصحابه وكان قد بايعه من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، وأقبل نحو القصر ، فتحرز فيه ابن زياد ، وغلق الأبواب ، وبعث إلى الأشراف فجمعهم إليه ، ثم قال : « أشرقوا على الناس ، فمنا أهل الطاعة الزيادة والكرامة ، وخوفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة ، وأعلموهم فصول^(١) الجنود من الشام إليهم » .

٢٥ - خطبة كثير بن شهاب

فتكلم كثير بن شهاب أول الناس فقال :
« أيها الناس : الحقوا بأهاليكم ، ولا تعجلوا الشر ، ولا تعرضوا أنفسكم للقتل فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت ، وقد أعطى الله الأمير عهداً اتممت^(٢) على حربته ، ولم تنصرفوا من عشيئتكم أن يحرم ذريتكم العطا ويفرق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع ، وأن يأخذ البر

[١] فصل من البلد فصولاً خرج منه . [٢] يقال : تمت على الأمر ، أى استمرت عليه .

بالسقيم ، والشاهد بالغائب ، حتى لا يبقى له فيكم بقيةٌ من أهل المعصية إلا أذاقها
وبال ما جرّت^(١) أيديها .

وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا ، فلما سمع الناس مقاتلهم أخذوا
يتفرقون وينصرفون عن ابن عقيل ، حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون نفساً ، فخرج
متوجهاً نحو أبواب كيندة ، فبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة ، ثم خرج من الباب
وإذا ليس معه إنسان ، فمضى على وجهه في أزقة الكوفة ، حتى انتهى إلى باب
عجوز فسألها أن تؤويه ، فأوته في دارها .

٢٦ - خطبة عبيد الله بن زياد

ولما انفضت جموع ابن عقيل ، خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد ،
وأمر فنودي : « أَلَا بَرَّئْتِ الذِّمَّةَ مِنْ رَجُلٍ صَلَّى الْعَتَمَةَ^(٢) إِلَّا فِي الْمَسْجِدِ » ،
فلم يكن إلا ساعة حتى امتلأ من الناس ، فصلى بهم ، ثم قام فحمد الله وأثنى
عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن ابن عقيل السفيف الجاهل ، فدأني ما قد رأيت من الخلاف
الشقاق ، فَبَرَّئْتِ ذِمَّةَ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ وَجَدْنَاهُ فِي دَارِهِ ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَلَهُ دِيَّتُهُ ،
بِإِذْنِ اللَّهِ عِبَادَ اللَّهِ ، وَالزَّمُوا طَاعَتَكُمْ وَبِعْتَكُمْ ، وَلَا تَجْعَلُوا عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ سَبِيلًا .
يَا حُصَيْنُ بْنُ نُعَيْرٍ^(٣) ، ثَكَلْتِكَ^(٤) أَمَكَ إِنْ صَاحَ^(٥) بَابَ سِكَّةٍ مِنْ
بِكَ الْكُوفَةِ ، أَوْ خَرَجَ هَذَا الرَّجُلُ وَلَمْ تَأْتِنِي بِهِ ، وَقَدْ سَلَّطْتُكَ عَلَى دُورِ أَهْلِ

[حرّ جرة : اجترم جريمة . [٢] العتمة : وقت صلاة المشاء .

[وكان على شرط ابن زياد . [٤] ثكته : فقدته .

[صاحبه يصوحه فانصاح : أي شغفه فانشق ، والمراد : فتح باب سكة وهرب .

الكوفة ، فابتعت مُرَاصِدَةً على أفواه السكك ، وَأَصْبَحَ غَدًا وَأَسْتَبِرَ^(١) الدُّورَ
وَجُسْنَ خِلَالَهَا ، حتى تأتيني بهذا الرجل . ثم نزل .

وأصبح ابن تلك العجوز التي آوت مسالماً ، فدل على مكانه ، فبعث ابن زياد
محمد بن الأشعث في ستين أو سبعين رجلاً فأتى به ، وأمر به ، فأصعد إلى أعلى
القصر ، وضرب عنقه ، فهَوَى رَأْسَهُ إلى الأرض ، وَأَتْبَعَ جَسَدَهُ رَأْسَهُ ، ثم أمر
بهانئ بن عروة ، فأخرج إلى السوق ، فضربت عنقه .

وكان مسلم حيث تحول إلى دار هانئ ، كتب إلى الحسين : « إني قد
بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فعَجَل الإقبال حين يأتيك كتابي ، فإن
الناس كلهم معك ، ليس لهم في آل معاوية رأى ولا هوى » .

فسار الحسين من مكة (في ٨ من ذي الحجة سنة ٦٠ هـ) متوجهاً إلى
الكوفة ، وهو لا يعلم بحال مسلم .

خروج الحسين الى الكوفة

٢٧ - نصيحة ابن عباس له

ولما أجمع الحسين بن عليّ رضي الله عنه المسيرَ إلى الكوفة ، أتاه عبدا
ابن عباس ، فقال : « يا ابنَ عَمِّمَّ إنك قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراف
فَبَيِّنْ لي ما أنت صانع ؟ » قال : « إني قد أجمعت المسير في أحد يومَيَّ ها
إن شاء الله تعالى » ، فقال له ابن عباس : « فإني أعيذك بالله من ذلك ، أخبرني - رح
الله - أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم ، وَضَبَطُوا بلادهم ، وَنَفَوْا عَدُوَّهُمْ ؟ فإن
قد فعلوا ذلك فسير إليهم ، وإن كانوا إنما دَعَوْكَ إليهم ، وأميرهم عليهم ، قاهرٌ له

[١] سبر الجرح وغيره واستبره : امتنع غوره .

وَعَمَّالُهُ تَجَنَّبِي بِلَادِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ ، وَلَا آمَنُ عَلَيْكَ أَنْ يَغْرُوكَ وَيَكْذِبُوكَ وَيُخَالِفُوكَ وَيَخْذُلُوكَ ، وَأَنْ يُسْتَنْفَرُوا إِلَيْكَ ، فَيَكُونُوا أَشَدَّ النَّاسِ عَلَيْكَ » فَقَالَ لَهُ حُسَيْنٌ : « وَإِنِّي أَسْتَخِيرُ اللَّهَ وَأَنْظُرُ مَا يَكُونُ » .

فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَتَاهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ ، فَخَدَّتهُ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : « مَا أَدْرِي مَا تَرَكْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَكَفَّضْنَا عَنْهُمْ ، وَنَحْنُ أَبْنَاءُ الْمُهَاجِرِينَ ، وَوُلَاةُ هَذَا الْأَمْرِ دُونَهُمْ ، خَبَّرَنِي مَا تَرِيدُ أَنْ تَصْنَعُ ؟ » فَقَالَ الْحُسَيْنُ : وَاللَّهِ لَقَدْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَيَّانِ الْكُوفَةِ ، وَاقْدَ كَتَبَ إِلَيَّ شِيعَتِي بِهَا وَأَشْرَافُ أَهْلِهَا ، وَأَسْتَخِيرُ اللَّهَ » فَقَالَ لَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ : « أَمَا لَوْ كَانَ لِي بِهَا مِثْلُ شِيعَتِكَ مَا عَدَلْتُ بِهَا » ، ثُمَّ إِنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّهَمَهُ فَقَالَ : « أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَقَمْتَ بِالْحِجَازِ ، ثُمَّ أَرَدْتَ هَذَا الْأَمْرَ هَاهُنَا مَا خُوفَ عَلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ ، فَقَالَ الْحُسَيْنُ : « هَا ، إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْءٌ يُؤْتِنَاهُ مِنَ الدُّنْيَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ أُخْرَجَ مِنَ الْحِجَازِ إِلَى الْعِرَاقِ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ مَعِيَ شَيْءٌ ، وَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْدِلُوهُ ^(١) بِي ، فَوَدَّ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا لَتَخْلُوَ لَهُ » .

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَشِيِّ أَوْ مِنَ الْغَدِ ، أَتَى الْحُسَيْنَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ ، فَقَالَ : « يَا بَنَ عَمِّ ، إِنِّي أَتَّصَبَّرُ وَلَا أَصْبِرُ ، إِنِّي أَتَخَوَّفُ عَلَيْكَ فِي هَذِهِ الْوَجْهَةِ الْمَهْلَاكِهَ لِاسْتِنْفَالِ ، إِنْ أَهْلَ الْعِرَاقِ قَوْمٌ غُدُرٌ ^(٢) ، فَلَا تَقْرَبْنَهُمْ ، أَقِمْ بِهَذَا الْبَلَدِ ، كَيْ سَيِّدُ أَهْلِ الْحِجَازِ ، فَإِنْ كَانَ أَهْلُ الْعِرَاقِ يَرِيدُونَكَ كَمَا زَعَمُوا ، فَارْتَبِعْهُمْ فَلْيَنْقُضُوا عِدْوَهُمْ ، ثُمَّ اقْدَمْ عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ أُيِّدَتْ إِلَّا أَنْ تَخْرُجَ ، فَسِرْ إِلَى الْيَمَنِ ، بِهَا حِصُونًا وَشِعَابًا ^(٣) ، وَهِيَ أَرْضٌ عَرِيضَةٌ طَوِيلَةٌ ، وَلَا يَبُكُّ بِهَا شَيْعَةٌ » ،

[١] أي لم يسووه . [٢] جمع غدور كصبور .

[٣] الشعب بالكسر : الطريق في الجبل ، وما انفرج بين جبلين .

وأنت عن الناس في عزلة ، فكتب إلى الناس وترسل وتبت دُعَاكَ ، فَإِنِ
أرجو أن يأتيك عند ذلك ، الذي تحبُّ في عافية .

فقال له الحسين : « يابن عم ، إني والله لأعلم أنك ناصح مُشفق ، ولكني
قد أزمعت وأجمعت ^(١) على المسير » فقال له ابن عباس : « فَإِنِ كُنْتَ سَائِراً .
فلا تَمِرْ بنسائك وصبيتك ، فوالله إني لخائف أن تقتل كما قُتِلَ عثمان ، ونساؤه
وولده ينظرون إليه » ، ثم قال ابن عباس : « لقد أقررت عينَ ابن الزبير بتخليتك
إياه والحجاز ، والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحد معك ^(٢) ، والله الذي
لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك ، إذا أخذتُ بشعرك وناصيتك حتى يجتمع على
وعليك الناس أطعنتي ، لفعلتُ ذلك » ثم خرج ابن عباس من عنده ، فرأى
بعبد الله بن الزبير ، فقال : قررت عينك يابن الزبير ! ثم قال :

يَا لِكِ مِنْ قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ خَلَا لِكَ الْجَوْفِ بِيضِي وَأَصْفِرِي
وَنَقَرِي مَا شِئْتِ أَنْ تُنْقَرِي ^(٣)

هذا حسين يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز .

[١] يقال : أجمعت السفر ، وأجمعت عليه ، وأزمعت السفر ، وعليه ، عزمت عليه وثبت عليه هي

[٢] أي مع وجودك .

[٣] القبرة واحد العبر : ضرب من الطير ، ويقال القنبراء : بضم القاف والباء ، والجمع قنابر .
صاحب القاموس : ولا تقل قبرة (كقعدة) أي هي لينة ، وقال صاحب اللسان والصحاح : « وا
تقول : القبرة وقد جاء ذلك في الرجز » ورويا شاهداً عليه أنشده أبو عبيدة ، والمعمر : المنزل الكثير
والكلأ ، وهو مثل وأول بن فالة طرفة بن العبد ، وذلك أنه كان مع عمه في سفر وهو صبي ،
على ماء ، فذهب طرفة بهنيج له ، فنصبه قنابراً وتقى عامة يومه فلم يصمد شيئاً ، ثم حمل نفه ورد
عمه ، وتحملوا من ذلك المكان ، فرأى القنابر يلقطن ما نثر لهن من الحب ، فقال ذلك ، يضرب في
يمكن منها صاحبها .

٢٨ - نصيحة أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له

ودخل أبو بكر عمر بن الرحمن بن الحارث بن هشام^(١) على الحسين رضى الله عنه ، فقال :

« يا بن عمِّ ، إن الرَّحِمَ يُظَاثِرُنِي^(٢) عليك ، ولا أدري كيف أنا في النصيحة لك ، فقال يا أبا بكر : ما أنت مِمَّنْ يُسْتَعَشَّسُ ، فقال أبو بكر :

« كَانَ أبوك أَشَدَّ بَأْسًا ، والناس له أَرْجَى ، ومنهُ أَسْمَعُ ، وعليه أجمع ، فسار إلى معاوية ، والناس مجتمعون عليه - إلا أهل الشام - وهو أعزُّ منه ، فخذلوه وتناقلوا عنه حرصًا على الدنيا وَضِنًا بها ، فجرَّعوه الغيظ وخالفوه ، حتى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه ، ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا ، وقد شهِدْتَ ذلك كله ورأيتُهُ ، ثم أنت تريد أن تسير إلى الذين عدَّوا على أبيك وأخيك ، تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ، ومن هو أعدُّ منك وأقوى ، الناس منه أخوف ، وله أرجى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطغفوا الناس موال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من .. أَلَا إِلَهَ مِمَّنْ يَنْصُرُهُ ، فاذا كر الله في نفسك » .

١ . ابن عمِّ ، فقد أجهدك رأيك ، ومهما يقض

١ . عمر بن مخزوم القرشي .
٢ . وأظأرنى وظأرنى

٢٩ - خطبة للحسين رضى الله عنه

ولما بلغ عبيد الله بن زياد أمير الكوفة إقبال الحسين بعث الحصين ابن تميم النيمي ، فأمره أن ينزل القادسية ، وأن يضع المسالِح^(١) ، وقدم الحرّ ابن يزيد التميمي بين يديه ، في ألف فارس من القادسية ، فيستقبل حسيناً ، وكان الحسين قد سبقه إلى ذى حُصم ، ونزل به ، فسار إليه الحرّ حتى وقف هو وخيله مُقابله في حر الظهيرة ، وحضرت صلاة الظهر ، فخرج الحسين ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أيها الناس : إنها معذرةٌ إلى الله عز وجل وإليكم : إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ، وقدمت على رُسُلكم أن أقدم علينا ، فإنه ليس لنا إمام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى . فإن كنتم على ذلك فقد جئتم ، فإن تُعطوني ما أطمئنُ إليه من عهودكم ومواثيقكم أفدّم مِحْرَمكم ، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدّمى كارهين ، انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه إليكم » فسكتوا عنه ، ثم أقيمت الصلاة ، فقال الحسين للحر : أتريد أن تصلى بأصحابك ؟ قال : لا بل تصلى أنت ونصلى بصلاتك ، فصلى بهم الحسين .

٣٠ - خطبة أخرى له

فأما كان وقت العصر ، أمر^١

مناديه ، فنادى بالعص

وأثنى عليه ، ثم قال

[١] المسالِح جمع مسالِح

« أما بعد : أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله ، يكن أَرْضَى
لِلَّهِ ، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس
لهم ، والسائرين فيكم بالجورِ والمُعدوان ، وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقا ، وكان
رأيكم غير ما أتتني كتبكم ، وقدمت به على رسلكم انصرفت عنكم » .
فقال له الحر : إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب التي تذكر ؟ فأخرج له
الحسين خُرُجَيْن مملوئين مِصْحُفًا ، فنشرها بين أيديهم ، ثم سار الحسين في أصحابه
والحرُّ يسايره .

٣١ - خطبة أخرى له

وقام الحسين رضى الله عنه بنى حُصْم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« إنه قد نزل من الأمر ما قد تروون ، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت ،
وأذبر معروفها ، واستمرت^(١) جدًّا ، فلم يبق منها إلا صُبابَة كصُبابَة الإِناء ،
وخسيس عيشٍ كالمرعى الوَيْيل ، ألا ترون أن الحق لا يُعْمَلُ به ، وأنَّ الباطل
لا يُتْنَاهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله مُحِقًّا ، فإنى لا أرى الموت إلا شهادة ،
ولا الحياة مع الظالمين إلا برَمًا^(٢) » .

٣٢ - خطبة زهير بن القين البجلي

فقال زهير بن القين البجلي ، فقال لأصحابه : تَكَلِّمُون أم أتكلّم ؟ قالوا : لا ،
فقال : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] في كتب اللغة : « مرّ الشيء يمرّ بضم الميم وفتحها مرارة وأمر » ولم أر فيها بناء « استمر »
لما منع منه على أنّ الهمزة والسين والتاء للصيرورة أى صارت مرّة ، ونظيره استعجر الطين ، واستحصن
ر (صار حصاناً) واستعرب القوم ، وفي الأمثال : « إنّ البغات بأرضنا يستنسر » « كان صرّاً
ستيس » « قد استنوق الجمل » . [٢] البرم : السامة والضجر برم به كفرح .

« قد سمعنا (هداك الله) يابن رسول الله مقاتلك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية ، وكنا فيها مُخَلَّدِينَ ، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك ، لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها » فدعا له الحسين ، ثم قال له خيراً .

٣٣ — خطبة للحسين أيضاً

وخطب الحسين أصحابه وأصحاب الحرِّ بالبيضة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى سلطاناً جائراً مُستجِلاًً لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يُغيّر عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن يُدخله مُدْخَلَهُ » . ألا وإن هؤلاء قد لزمو طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالنفء ، وأحلوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا أحق من غيري ، وقد أتتني كتبكم وقدِمَت عليّ رسلكم ببيعكم ، أنكم لا تُساموني ^(١) ولا تخذلوني ، فإن تَمَمْتُمْ علي بيعكم تُصيبوا رُشدكم ، وأنا الحسين بن عليّ ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى مع أنفسكم ، وأهلى مع أهليكم ، فلكم في أسوة ، وإن لم تفعلوا وتقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتى من أعناقكم ، فلعمرى ما هى لكم بُنْكَرٌ ^(٢) ، لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم ، والمغرور من اغتربكم فحفظكم أخطائكم ، ونصيبكم ضيعتكم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغزو الله عنكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

[١] أسلمه : خذله . [٢] النكر بضم وبضمتين : المنكر .

٣٤ - خطبته ليلة قتله

وسير إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، فعدل الحسين إلى كره بلاء ، وكانت بينهما مقابلات غير مُجديّة (١) ، فنهض عمر إليه عشية الخميس (٩ من المحرم سنة ٦١ هـ) فجمع الحسين أصحابه عند قرب المساء فقال :

« أثنى على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء ، وأحمدُه على السَّراء والضَّراء ، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وعلمتنا القرآن ، وفقهتنا في الدين ، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة ، ولم تجعلنا من المشركين ، أما بعد : فإنني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيتٍ أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي ، فجزاكم الله عنى جميعاً خيراً ، ألا وإني أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً ، ألا وإني قد رأيت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حلّ ، ليس عليكم مني ذمام ، هذا الليلُ قد غَشِيكم فاتخذوه جملاً ، ثم ليأخذُ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم ، حتى يفرِّج الله ، فإن القوم إنما البونى ، ولو قد أصابوني لهوًا عن طلب غيري »

[١] التقى عمر بن سعد والحسين مراراً ثلاثاً أو أربعاً ، وكتب عمر بعدها إلى عبيد الله بن زياد : أما بعد : فإن الله قد أطفأ النائرة ، وأصلح أمر هذه الأمة ، هذا حسين قد أعطاني أن أجمع إلى المكان الذي منه أتى ، أو أن أسيره إلى أي ثمر من ثغور المسلمين شئنا ، فيكون رجلاً من لعين له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده فيرى فيما بينه وبينه رأيه ، هذا لكم رضا وللأمة صلاح » فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأمره وفق على قومه نعم قد قبلت ، ولكن شمر بن ذي الجوشن ثناه عن القبول ، فكتب إلى عمر بن سعد تائباً يقول فيه : « أما بعد ، فإنني لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ، ولا لتنيه السلامة قاء ، ولا لتعقد له عندى شافعاً ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى لما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوط بل صدره وظهره فإنه طاق مشاقّ قاطع ظلوم » .

٣٥ رد أهل بيته عليه

فقال له أهل بيته : « لِمَ تَفْعَلُ؟ لِنَبِيِّ بَعْدَكَ؟ لا أرانا الله ذلك أبداً »
فقال الحسين : « يا بني عَقِيل حَسْبِكُم من القتل بمسلم ، اذهبوا قد أذنت لكم »
قالوا : « فما يقول الناس ؟ يقولون إنا تركنا شيخنا وسيدنا وبنى عمومتنا خير
الأعمام ، ولم نَرَم معهم بسهم ، ولم نَطْعن معهم بِرُمح ، ولم نَضرب معهم
بسيف ، ولا ندرى ما صنعوا ، لا والله لا نفعل ، ولكن تقديك أنفسنا وأموالنا
وأهلونا ، ونقاتل معك حتى نَرِدَ مَوْرِدَكَ ، فقبح الله العيش بعدك . »

٣٦ - رد أصحابه

وقام إليه مسلم بن عَوْسَجَةَ الأَسَدِي فقال :
« أَنَحْنُ نُخَلِّي عَنْكَ وَلَمَّا نُعْذِرُ إِلَى اللَّهِ فِي أَدَاءِ حَقِّكَ؟ أَمَا وَاللَّهِ حَتَّى أَكْسِرَ
فِي صَدُورِهِمْ رِجْحِي ، وَأَضْرِبَهُمْ بِسَيْفِي مَا ثَبَّتَ قَائِمُهُ فِي يَدِي ، وَلَا أَفَارِقُكَ ، وَلَوْ لَمْ
يَكُنْ مَعِيَ سِلَاحٌ أَقَاتَلَهُمْ بِهِ ، لَقَدَفْتَهُمْ بِالْحِجَارَةِ دُونَكَ حَتَّى أَمُوتَ مَعَكَ . »
وقال سعد بن عبد الله الحنفي : « وَاللَّهِ لَا نُخَلِّيكَ حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَا -
حَفِظْنَا غَيْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيكَ ، وَاللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ أَنِّي أُقْتَلُ ،
أَحْيَا ، ثُمَّ أُحْرَقُ حَيًّا ، ثُمَّ أُذَرَّ ، يُفْعَلُ ذَلِكَ بِي سَبْعِينَ مَرَّةً ، مَا فَارَقْتُكَ حَتَّى الْقَوَا
حَمَى دُونَكَ ، فَكَيْفَ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا هِيَ قَتْلَةٌ وَاحِدَةٌ ، ثُمَّ هِيَ الْكِرَامُ
الَّتِي لَا انْقِضَاءَ لَهَا أَبَدًا . »

وقال زهير بن القين : « وَاللَّهِ لَوْ دِدْتُ أَنِّي قُتِلْتُ ، ثُمَّ نُشِرْتُ (١) ، ثُمَّ قُتِلْتُ

حتى أقتل كذا ألف قتلة ، وأن الله يدفع بذلك القتلَ عن نفسك ، وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك .

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يُشبه بعضه بعضاً في وجه واحد ، فقالوا : « والله لا نفارقك ولكن أنفسنا لك الفداء ، تقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا ، فإذا نحن قُتلنا كُنَّا وفينا ، وقضينا ما علينا » .

٣٧ — خطبته غداة يوم قتله

« وخطب الحسين غداة اليوم الذي استشهد فيه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا عباد الله ، اتقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حذر ، فإن الدنيا لو بقيت على أحد ، أو بقي عليها أحد ، لكانت الأنبياء أحقَّ بالبقاء ، وأولى بالرضاء ، وأرضى بالقضاء ، غير أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء ، فجديدها بال ، ونعيمها مُضمحل ، وسرورها مكفهر ، والمنزل تلمعة ^(١) ، والدار قلعة ^(٢) ، فترودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

٣٨ — دعاؤه وقد صبحته الخيل

ولما صبحته الخيل رفع يديه فقال :

« اللهم أنت ثقتي في كل كرب ، ورجائي في كل شدة ، وأنت لى في كل أمرٍ نزل بي ثقةً وعدةً ، كم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد ، وتقل فيه الحيلة ،

[١] التلمعة : مجرى الماء ، من أعلى الوادى الى بطون الأرض ، والنزول بالتلمعة محوف ، لأن من نزلها فهو على خطر ان جاء السيل جرفه . [٢] الدنيا دار قلعة أى انقلاع ، وهو على قلعة أى رحلة ، ومانزلنا منزل قلعة أى ليس بمستوطن ، أو لانملكه أو لاندرى متى تتحول عنه .

وَيَخْذُلُ فِيهِ الصَّدِيقُ ، وَيَشْمَتُ فِيهِ الْعَدُوُّ ، أَنْزَلْتُهُ بِكَ ، وَشَكَوْتُهُ إِلَيْكَ ، رَغْبَةً
مَنِي إِلَيْكَ عَمَّنْ سِوَاكَ ، فَفَرَّجْتَهُ وَكَشَفْتَهُ ، فَأَنْتَ وَلِيُّ كُلِّ نِعْمَةٍ ، وَصَاحِبُ
كُلِّ حَسَنَةٍ ، وَمُنْتَهَى كُلِّ رَغْبَةٍ .

٣٩ — خُطْبَتُهُ وَقَدْ دَنَا مِنْهُ الْقَوْمُ

ولما دنا منه القوم دعا براحلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته :

« أَيُّهَا النَّاسُ : اسْمَعُوا قَوْلِي ، وَلَا تُعْجَلُونِي حَتَّى أَعْظِمَ كُمْ ، بِمَا لَحِقَ لَكُمْ
عَلَيَّ ، وَحَتَّى أَعْتَذِرَ إِلَيْكُمْ مِنْ مَقْدَمِي عَلَيْكُمْ ، فَإِنْ قَبِلْتُمْ عَذْرِي ، وَصَدَّقْتُمْ قَوْلِي ،
وَأَعْطَيْتُمُونِي النِّصْفَ ، كُنْتُمْ بِذَلِكَ أَسْعَدَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَلَيَّ سَبِيلٌ ، وَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوا
مَنِي الْعَذْرَ ، وَلَمْ تَعْطُوا النِّصْفَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ . فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ
لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ، إِنْ وَلىَّ اللَّهُ
الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

فأما سمع أخواته كلامه هذا صحن وبكين وبكى بناته ، فارتفعت أصواتهن ،
فأرسل إليهن أخاه العباس بن عليّ وعليّاً ابنه ، وقال لهما : أَسْكِتَاهُنَّ ، فَلَعْمَرِي
لَيَكْثُرَنَّ بكاؤهن .

٤٠ — خُطْبَةٌ أُخْرَى

فأما سكتن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر الله بما هو أهله ، وصلى على محمد
صلى الله عليه وعلى ملائكته وأنبيائه ، ثم قال :

« أَمَا بَعْدُ : فَانْسِبُونِي فَاَنْظُرُوا مَنْ أَنَا ؟ ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِكُمْ وَعَاتِبُواهَا ،
فَاَنْظُرُوا هَلْ يَحِلُّ لَكُمْ قَتْلِي ، وَاتِّهَاكُ حُرْمَتِي ؟ أَلَسْتُ ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَابْنُ وَصِيَّهِ وَابْنُ عَمِّهِ ! وَأُولِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ ، وَالْمُصَدِّقِ لِرَسُولِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ أَوَلَيْسَ حَمْرَةُ سَيِّدُ الشَّهَدَاءِ عَمَّ أَبِي ؟ أَوَلَيْسَ جَعْفَرُ الشَّهِيدِ الطَّيَّارِ ذُو الْجَنَاحِينَ عَمِّي ؟ أَوَلَمْ يَبْلُغْكُمْ قَوْلُ مُسْتَفِيضٍ فِيكُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِي وَلِأَخِي : هَذَا سَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ فَإِنْ صَدَقْتُمُونِي بِمَا أَقُولُ - وَهُوَ الْحَقُّ - وَاللَّهُ مَا تَعَمَّدَتْ كَذِبًا مَذْعَمَتٌ أَنْ اللَّهُ يَمُوتَ عَلَيْهِ أَهْلُهُ ، وَيَضُرُّ بِهِ مَنْ اخْتَلَقَهُ ، وَإِنْ كَذَبْتُمُونِي فَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ إِنْ سَأَلْتُمُوهُ عَنْ ذَلِكَ أَخْبَرَكُمْ : سَأَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ ، أَوْ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ، أَوْ سَهْلَ بْنَ سَعْدِ السَّاعِدِيَّ ، أَوْ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ ، أَوْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ، يُخْبِرُوكُمْ أَنَّهُمْ سَمِعُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِي وَلِأَخِي ، أَفَمَا فِي هَذَا حَاجِزٌ لَكُمْ عَنْ سَفْكَ دَمِي ؟ «
ثُمَّ قَالَ : « فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ ، أَفْتَشْكُونَ أَثْرًا ^(١) مَا أَنِّي ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ابْنُ بِنْتِ نَبِيٍّ غَيْرِي مِنْكُمْ ، وَلَا مِنْ غَيْرِكُمْ ، أَنَا ابْنُ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ خَاصَّةً ، أَخْبَرُونِي أَتَطْلُبُونَنِي بِقَتِيلٍ مِنْكُمْ قَتَلْتَهُ ! أَوْ مَالٍ لَكُمْ اسْتَهْلَكْتَهُ ؟ أَوْ بِقِصَاصٍ مِنْ جِرَاحَةٍ ؟ »

فَأَخَذُوا لَا يَكْلُمُونَهُ ، فَنَادَى يَاسِبْتُ بْنُ رَبِيعِيٍّ ، وَيَاحِجَّارُ بْنُ أَبِيجَرَ ، وَيَافِيْسَ ابْنَ الْأَشْعَثِ ، وَيَازَيْدُ بْنُ الْحَارِثِ ، أَلَمْ تَكْتُبُوا إِلَيَّ أَنْ قَدْ أَيْنَعْتَ الثَّمَارُ ، وَأَخْضَرَ الْجَنَابُ ، وَطَمَّتِ الْجِمَامُ ، وَإِنَّمَا تَقْدَمُ عَلَيَّ جُنْدُكَ مَجْنُونًا ، فَأَقْبِلْ ؟ قَالُوا لَمْ نَفْعَلْ ، فَقَالَ : سَبِحَانَ اللَّهِ ! بَلَى ، وَاللَّهِ لَقَدْ فَعَلْتُمْ ، ثُمَّ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ : إِذْ كَرِهْتُمُونِي فَدَعُونِي أَنْصَرِفَ عَنْكُمْ إِلَى مَا أَمَنِي مِنَ الْأَرْضِ » . فَقَالَ لَهُ قَيْسُ بْنُ الْأَشْعَثِ :

[١] أثرًا منصوب على نزع الحائض ، أي أفتشكون في أثر ، وما زائدة ، وأى ابن بنت نبيكم بدل من أثرًا .

أولاً تنزل على حكم بنى عمك ؟ فإنهم لن يُرُوك إلا ما تحبُّ ، ولن يصل إليك منهم مكروه ، فقال له الحسين : « أنت أخو أخيك ، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل ؟ لا والله لا أعطيهم يدي إعطاء الذليل ، ولا أقرّ إقرار العبيد ، عباد الله ، إني عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرُجُونِ ، أَعُوذُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ » ، فأقبلوا يرحفون نحوه .

٤١ - خطبة زهير بن القين

فلما زحفوا قبّله خرج إليهم زهير بن القين على فرس له ذنوب^(١) شاك^(٢)

في السلاح فقال :

« يا أهل الكوفة ، نذاري لكم من عذاب الله نذاري ، إنَّ حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم ، ونحن حتى الآن إخوة ، وعلى دين واحد ، وملة واحدة ، مالم يقع بيننا وبينكم السيف ، وأنتم للنصيحة منا أهل ، فإذا وقع السيف انقطعت العِصمة^(٣) ، وكنا أمة وأنتم أمة ، إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، إنا ندعوكم إلى نصرهم ، وخذلان الطاغية عبْدِ الله ابن زياد ، فإنكم لا تُدرّكون منها إلا بسوء ، مُعمر سلطانها كله ، لَيْسَ مُلَانٍ^(٤)

[١] الذنوب : الفرس الوافر الذنب . [٢] يقال رجل شاك السلاح وشاك في السلاح (بتشديد الكاف فيهما) وهو اللابس السلاح التام ، من شك في السلاح أي دخل ، شك فيه (كرد) شكا أي لبسه تماماً لم يدع منه شيئاً ، ويقال : رجل شاك السلاح ، وشاكي السلاح ، وشاك في السلاح (كراض) وهو ذو الشوكة والحد في سلاحه ، والشاك : من شك الرجل يشاك شوكاً (كلام نوياً) أي ظهرت شوكته وحدته - والشوكة : حدة السلاح - والشاكي مقلوب من شاك ، ويقال أيضاً رجل شاك ، السلاح (بضم الكاف) فإن أردت معنى فاعل قلت شك (كراض) وإن أردت معنى فعل (كفرح) قلت شك (بضم الكاف) وهو مثل حرف هار (كراض) وهار (كنار) كما يقال رجل أمال ونل (بالضم) من المال والنوال واما هو مائل ونائل . [٣] العِصمة : الفلادة ، أي تفرّيت وحدتها ، وانقرط عقد جماعتنا . [٤] سمل عينه : فقأها بمحديدة محماة .

أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ، وَيُمَثِّلَانِ بِكُمْ ، ويرفعانكم على جذوع النخل ،
ويقتلان أمثالكم وقرءاءكم ، أمثال حُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ ^(١) وأصحابه ، وهانئ بن عروة
وأشباهه » .

فسبوه ، وأثنوا على عبيد الله بن زياد ، ودعوا له ، وقالوا : والله لا نبرح حتى
نقتلَ صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سِلَماً .

فقال لهم : « عباد الله ، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحقُّ بالود والنصر
من ابنِ سُمَيَّةَ ، فإن لم تنصروهم ، فأعيدكم بالله أن تقتلوهم ، نخلوا بين هذا الرجل
وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، فلعمري إن يزيدَ أيرضى من طاعتكم بدون
قتل الحسين » .

فرماه شمر بن ذى الجوشن بسهم وقال : « اسكت أسكت الله نَأْمَتَكَ ^(٢) ،
أبرمتنا بكثرة كلامك » فقال له زهير : « يا ابن البوال على غقبه ، ما إياك
أخاطب ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تُحْكِمُ من كتاب الله آيتين ، فأبشِر
بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم » فقال له شمر : « إن الله قاتلك وصاحبك

[١] هو حجر بن عدى بن جيلة الكندي من كبراء الشيعة بالكوفة ، وذلك أن زياد بن أبيه لما
جمعت له الكوفة والبصرة بلعه أن حجراً يجتمع إليه الشيعة ويظهرون لمن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى
معاوية في أمره ، فكتب إليه معاوية أن شده في الحديد ثم أحمله إلى ، فشده في الحديد وحمل إلى معاوية ،
وأشهد عليه شهوداً أنه خلع الطاعة ، وفارق الجماعة ، ولعن الخليفة ، ودعا إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه
الجموع يدعو إلى نكث البيعة وخلع معاوية ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب ، وحمل
معه كبار أصحابه ، فكانوا أربعة عشر رجلاً ، فلما قدموا على معاوية شفع في بعضهم ثلثي سبيلهم ، وقال
رسول معاوية للباقيين : إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من على له ، فإن دعتم تركناكم ، وإن أبيتم
قتلناكم ، فإرءوا من هذا رجل نخل سبيلكم ، فأبوا وقالوا بل تتولاه وتبترأ ممن تبترأ منه ، فقتلوا وقتل
حجر وستة معه ، وكان ذلك سنة ٥١ هـ . [٢] الأمانة : الصوت

عن ساعة « قال : « أفبالموت تخوِّفني ؟ فوالله ألموت معه أحبُّ إليَّ من الخلد معكم » .

ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال : « عباد الله، لا يَغُرُّنكم مِن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه ، فوالله لا تنال شفاعتهُ محمد صلى الله عليه وسلم قوماً هراقوا دماء ذريته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم ، وذَبَّ عن حريمهم » .
فناداه رجل فقال له : « إن أبا عبد الله يقول : « أُقْبِل ، فلعمري لئن كان مؤمناً آل فرعون نصح لقومه ، وأبلغ في الدعاء ، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ » .

٤٢ - خطبة الحرِّ بن يزيد

ولما زحف عمر بن سعد قال له الحرُّ بن يزيد : « أصلحك الله : مقاتل أنت هذا الرجل ؟ » قال : « إي والله قتالا أيسرُهُ أن تسقط الرءوس ، وتطيح الأيدي » قال : « أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضا ؟ » قال عمر : « أما والله لو كان الأمر إليّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك » .
ثم ضرب الحر فرسه ، ولحق بالحسين عليه السلام وانحاز إليه ، واستقدم أمام أصحابه ثم قال :

« أيها القوم : ألا تقبلون من حسين خصلةً من هذه الخصال التي عرض عليكم ، فيعافىكم الله من حربه وقاتله ؟ قالوا : هذا الأمير عمر بن سعد فكأتمه فكأتمه بمثل ما كلبه به من قبل ، وبمثل ما كلم به أصحابه » فقال عمر : « قد حَرِصت لو وجدت إلى ذلك سبيلاً فعلت » .

فقال : « يَأْهَلِ الْكُوفَةَ : لِأُمَّكُمْ الْهَبْلَ وَالْعَبْرَ ^(١) إِذْ دَعَوْتُمُوهُ ، حَتَّى إِذَا
 أَنَاكُمْ أَسْلَمْتُمُوهُ ^(٢) ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ قَاتَلُوا أَنْفُسَكُمْ دُونَهُ ، ثُمَّ عَدَوْتُمْ عَلَيْهِ لِتَقْتُلُوهُ ،
 أَمْسَكْتُمْ بِنَفْسِهِ ، وَأَخَذْتُمْ بِكَطْمِهِ ^(٣) ، وَأَحْطَمْتُمْ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَفَنَعْتُمُوهُ
 التَّوْجَةَ فِي بِلَادِ اللَّهِ الْعَرِيضَةَ ، حَتَّى يَأْمَنَ وَيَأْمَنَ أَهْلُ بَيْتِهِ ، وَأَصْبَحَ فِي أَيْدِيكُمْ
 كَالْأَسِيرِ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا ، وَلَا يَدْفَعُ ضَرًّا ، وَحَلَّاتُمُوهُ ^(٤) وَنَسَاءَهُ ^(٥) وَأَصَيْبِيَّتَهُ ^(٥)
 وَأَصْحَابَهُ عَنِ مَاءِ الْفَرَاتِ الْجَارِي ، الَّذِي يَشْرَبُهُ الْيَهُودِيُّ وَالْمَجُوسِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ ،
 وَتَمَرَّغُ فِيهِ خَنَازِيرُ السَّوَادِ وَكَلَابُهُ ، وَهَامَ قَدْ صَرَعَهُمُ الْعَطَشُ ، بِنَسَاءِ خَلْفَتُمْ مُحَمَّدًا
 فِي ذَرِيَّتِهِ ، لَا أَسْقَاكُمْ اللَّهُ يَوْمَ الظَّمِّ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا ، وَتَنْزِعُوا عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، مِنْ
 يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي سَاعَتِكُمْ هَذِهِ . »

ثم نشب القتال بين الفريقين ، واستمات أصحاب الحسين في القتال ، حتى
 قُتِلُوا ، وَقَتَلَ الْحُسَيْنَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، قَتَلَهُ سِنَانُ بْنُ أَنَسٍ (وَكَانَ قَتَلَهُ بِالطَّفِّ ^(٦)
 يَوْمَ عَاشُورَاءَ سَنَةَ ٦١ هـ) وَأَمْرُ ابْنِ سَعْدٍ أَصْحَابَهُ أَنْ يُوْطِئُوا خِيْلَهُمُ الْحُسَيْنِ ،
 فَوْطِئُوهُ بِخِيْلِهِمْ ، ثُمَّ حَمَلَ النِّسَاءَ وَرَأْسَهُ إِلَى يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ بِدِمَشْقٍ .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٨ الى ٢٧٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٨٦ ، وزهر الآداب ١ : ٧١)

[١] الهبل : الشكل ، هبلته أمه كفرح تركته وفقدته ، والبر والعبر (كسبب وقفل) سحنة في العين
 تبيها ، عبرت العين كفرح حرى دمها ، يقال لأمه الهبل ، ولأمه العبر ، والعبر : دعاه عليه .
 [٢] خذلتموه . [٣] الكطم : مخرج النفس . [٤] حلاه عن الماء تحليفاً وتحشة طرده ومعه .
 [٥] مصير صبية على غير قياس . [٦] الطف : أرض من صاحبة الكوفة في طارق البرية ، وقال
 عبد الله بن الأحمر من قصيدة :

فأضحى «حسين» للرماح دريئة وغودر مسلوباً لدى الطف ثاويًا
 ديايقتي إذ ذاك كنت شهيدته فصارت عنه الشاشين الأعاديًا
 سقى الله قبراً ضمن المجد والنقى بعريسة الذاب الغمام الغواديًا

طلب التوايين بدم الحسين رضى الله عنه

وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة واتفقوا الاجتماع بالنخيلة للمسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن عليّ رضى الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مقتله تلاقوا بالتلاؤم والتندثم ، ورأوا أنهم قد أخطئوا خطأ كبيراً بدعائهم إياه إلى النصره وتركهم إجابته ، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُغسل عارهم والإثمُ عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه وتابوا مما فرط منهم في ذلك ، « فسموا التوايين » وفزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة : إلى سليمان بن صرد الخزاعيّ - وكانت له حبة مع النبي صلى الله عليه وسلم - وإلى المسيب بن نجبة الفزارى ، وإلى عبد الله بن سعد بن نقييل الأزديّ ، وإلى عبد الله بن وال التيميّ ، وإلى رفاعه بن شداد البجليّ ، ثم إن هؤلاء نفر اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد ، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجههم ، فبدأ المسيب بن نجبة بالكلام فتكلم :

٤٣ - خطبة المسيب بن نجبة الفزارى

فحمّد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد ، فإننا قد ابتلينا بطول العمر ، والتعرّض لأنواع الفتن ، فترغبُ إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول له غداً : « أَوْلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُْ الذِّكْرُ » فإن أمير المؤمنين قال : « العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كنا مغرّمين بتزكية أنفسنا ، وتقرّيط شيعتنا ، حتى بلا الله أختيارنا ، فوجَدنا كاذبين في موطين من مواطن ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغتنا قبل ذلك كتبته ،

وَقَدِمَتْ عَلَيْنَا رَسَلُهُ ، وَأَعْذَرْنَا إِيْنَا يَسْأَلُنَا نَصْرَهُ ، عَوْدًا وَبَدْءًا ، وَعِلَانِيَةً وَسِرًّا ، فَبَخَلْنَا عَنْهُ بِأَنْفُسِنَا ، حَتَّى قُتِلَ إِلَى جَانِبِنَا ، لَا نَحْنُ نَصْرُنَاهُ بِأَيْدِينَا ، وَلَا جَادُنَا عَنْهُ بِأَلْسِنَتِنَا ، وَلَا قَوَّيْنَاهُ بِأَمْوَالِنَا ، وَلَا طَلَبْنَا لَهُ النُّصْرَةَ إِلَى عَشَائِرِنَا ، فَمَا عَظُرْنَا إِلَى رَبِّنَا ، وَعِنْدَ لِقَاءِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَقَدْ قُتِلَ فِينَا وَلَدُهُ وَحَبِيبُهُ وَذَرِيَّتُهُ وَنَسْلُهُ ، لَا وَاللَّهِ لَا عُذْرَ دُونَ أَنْ تَقْتُلُوا قَاتِلَهُ وَالْمُؤَالِينَ عَلَيْهِ ، أَوْ تُقْتَلُوا فِي طَلْبِ ذَلِكَ ، فَعَسَى رَبَّنَا أَنْ يَرْضَى عَنَّا عِنْدَ ذَلِكَ ، وَمَا أَنَا بَعْدَ لِقَائِهِ لِعَقُوبَتِهِ بِآمِنٍ ، أَيُّهَا الْقَوْمُ وَثُّوا عَلَيكُمْ رَجُلًا مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَدَّ لَكُمْ مِنْ أَمِيرٍ تَفْزَعُونَ إِلَيْهِ ، وَرَايَةَ تَحْفُونَ بِهَا ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

فَبَدَرَ^(١) الْقَوْمَ رِفَاعَةَ بْنَ شَدَّادٍ بَعْدَ الْمَسِيبِ الْكَلَامِ .

٤٤ - خطبة رفاعة بن شداد

فَحَمْدُ اللَّهِ وَأَثْنِي عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ هَدَاكَ لِأَصْوَابِ الْقَوْلِ ، وَدَعَوْتَ إِلَى أَرْشَادِ الْأُمُورِ ،
بَدَأْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالشَّاءِ عَلَيْهِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَدَعَوْتَ إِلَى
جِهَادِ الْفَاسِقِينَ ، وَإِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ ، فَسَمِعْتُ مِنْكَ ، مُسْتَجَابٌ
لَكَ ، مَقْبُولٌ قَوْلُكَ ، قُلْتَ وَثُّوا أَمْرَكُمْ رَجُلًا مِنْكُمْ تَفْزَعُونَ إِلَيْهِ ، وَتَحْفُونَ بِرَايَتِهِ ،
وَذَلِكَ رَأْيٌ ، قَدْ رَأَيْنَا مِثْلَ الَّذِي رَأَيْتَ ، فَإِنْ تَكُنْ أَنْتَ ذَلِكَ الرَّجُلَ تَكُنْ عِنْدَنَا
مَرْضِيًّا ، وَفِينَا مُتَنَصِّجًا ، وَفِي جَمَاعَتِنَا مُحِبًّا ، وَإِنْ رَأَيْتَ (وَرَأَى أَصْحَابُنَا ذَلِكَ)
وَأَيْنَا هَذَا الْأَمْرَ شَيْخَ الشَّيْعَةِ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَذَا
السَّابِقَةَ وَالْقَدَمَ سَلِيمَانَ بْنَ صُرْدٍ ، الْحَمُودَ فِي بَأْسِهِ وَدِينِهِ ، وَالْمَوْثُوقَ بِحُزْمِهِ ،

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

ثم تكلم عبد الله بن وائل ، وعبد الله بن سعد ، فحمدا ربهما وأثنيا عليه ،
وتكاما بنحو من كلام رفاعة بن شداد ، فذكر المسيب بن نجبة بفضله ، وذكر
سليمان بن سرد بسابقته ورضاها بتوليته ، فقال المسيب بن نجبة : « أصبتم
ووفقتم ، وأنا أرى مثل الذي رأيتم ، فولوا أمركم سليمان بن سرد » .

٤٥ - خطبة سليمان بن سرد

قال حميد بن مسلم : والله إنى لشاهد بهذا اليوم يوم ولوا سليمان بن سرد^(١)
وإنا يومئذ لأكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة ووجوههم في داره ، قال
فتكلم سليمان فشدد ، وما زال يردد ذلك القول في كل جمعة حتى حفظته ،
بدأ فقال :

« أثنى على الله خيراً ، وأحمد آلاءه وبلاءه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ،
وأن محمداً رسول الله ، أما بعد : فإنى والله لخائف ألا يكون آخرنا إلى هذا
الدهر (الذى نكبدت فيه المعيشة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجور
أولى الفضل من هذه الشيعة) لما هو خير ، إنا كنا نمدُّ أعناقنا إلى قدوم آل
نبينا ، وننمئهم النصر ، ونحتمهم على القدوم ، فلما قدموا ونيدنا وعجزنا وأذهننا
وتربصنا ، وانتظرنا ما يكون حتى قتل فينا ولدنا ، ولد نبينا وسلالته وعصارتها
وبضعة^(٢) من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخ ويسأل النصف^(٣) فلا يعطاه ،
اتخذوه الفاسقون غرضاً للثبيل ، ودريئة^(٤) للرماح ، حتى أقصدوه^(٥) ، وعدوا

[١] وقد سمي أمير التوابين . [٢] البضعة بالفتح وقد تكرر : القطعة من اللحم .

[٣] الإصاف . [٤] مهمل عن دريئة ، والدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرمي عليها .

[٥] أقصد السوم : أصاب فقتل مكانه ، وأقصد فلاناً : طعنه فلم يخطئه .

عليه فسلبوه ، ألا انهضوا فقد سخطَ ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل ^(١) والأبناء حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضياً دون أن تُناجزوا من قتله أو تَبِيرُوا ^(٢) ، ألا لاتهابوا الموت ، فوالله ماها به امرؤ قطُّ إلا ذلٌّ ، كونوا كالأولى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم : « إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ » فما فعل القوم ؟ جثوا على الرُّكَبِ والله ، ومدُّوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبرُ على القتل ، فكيف بكم لو قد دُعِيتُم إلى مثل ما دُعِيَ القوم إليه ؟ اشخذوا السيوف ، وركبوا الأَسنة « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ^(٣) » حتى تُدْعُوا وَتُسْتَنْفَرُوا .

٤٦ - خطبة خالد بن سعد بن نفييل

فقام خالد بن سعد بن نفييل فقال : « أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلى نفسى يُخْرِجُنِي مِنْ ذَنْبِي ، وَيَرْضَى عَنِّي رَبِّي لَقَتَلْتَهَا ، وَلَكِنْ هَذَا أَمْرٌ بِهِ قَوْمٌ كَانُوا قَبْلَنَا وَنَهَيْنَا عَنْهُ ، فَأَشْهَدُ اللَّهَ وَمَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ كُلَّ مَا أَصْبَحْتَ أَمْلِكُكَ سِوَى سِلَاحِي الَّذِي أَقَاتِلُ بِهِ عَدُوِّي صَدَقَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَقْوِيَهُمْ بِهِ عَلَى قِتَالِ الْقَاسِطِينَ ^(٤) » .

وقام أبو المعتمرِ حَنْشُ بْنُ رِبِيعَةَ الْكِنَانِي ، فقال : « وأنا أشهدكم على مثل ذلك » فقال سليمان بن صرد : « حَسْبُكُمْ ، مَنْ أَرَادَ مِنْ هَذَا شَيْئًا فَلْيَأْتِ بِمَالِهِ

[١] جمع حليلة وهي الزوجة . [٢] بار يبور بواراً : هلك .

[٣] اسم للخيل التي تربط في سبيل الله فعال بمعنى مفعول ، أو مصدر سمي به كالمراطة ، أو جمع ربيط

فمبيل بمعنى مفعول . [٤] الجائرين ، قسط بكلس قسوطاً جارٍ وعدل عن الحق .

عبد الله بن وال التيمي تيم بكر بن وائل ، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون إخراجه من أموالكم ، جهّزنا به ذوى الخلة^(١) والمسكنة من أشياعكم .

٤٧ - خطبة سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان بن سرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمدائن كتاباً يستنهض فيه همهم إخوانه هنالك ، ويدعوهم أن يجثوا ويستعدوا ، وضرب لهم غرة ربيع الآخر سنة ٦٥ أجلا يلقونه فيه ، والنخيلة موطناً يوافونه إليه ، فبعث سعد إلى من كان بالمدائن من الشيعة ، فقرأ عليهم كتاب سليمان بن سرد ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإنكم قد كنتم مجتمعين مزمعين على نصر الحسين ، وقتال عدوه فلم ينجأكم أول من قتله ، والله مُثيبكم على حُسن النية ، وما أجمعتم عليه من النصر أحسن المثوبة ، وقد بعث إليكم إخوانكم يستنجدونكم ويستمدونكم ، ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجون لكم به عند الله أفضل الأجر والحظ ، فماذا ترون ؟ وماذا تقولون ؟ »

فقال القوم بأجمعهم : « نجيبهم ونقاتل معهم ، ورأينا في ذلك مثل رأيهم » .

٤٨ - خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي

فقام عبد الله بن الحنظل الطائي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإننا قد أجبنا إخواننا إلى ما دعونا إليه ، وقد رأينا مثل الذي قد

رأوا ، فسرخني إليهم في الخيل » .

فقال له : « رويدا لا تعجل ، استعدوا للعدو ، وأعدوا له الحرب ، ثم نسير

[١] الخلة : الحاجة والفقر ، وفي المثل : « الخلة تدعو إلى السلة » بفتح السين أى إلى الاستئلال والسرقه .

وتاسيرون» وكتب سعد إلى ابن سرد بإجابة دعوته ، وأنهم في انتظار أمره .

٤٩ - خطبة عبيد الله بن عبد الله المري

وحدث رجل من مُزَيِّنَة قال : « ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبلغ من عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله المُرِّيِّ في منطِق ولا عِظَة ، وكان من دُعاة أهل المصر زمان سليمان بن سرد ، وكان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم ، بدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول :

« أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه بنبوته ، وخصه بالفضل كله ، وأعزكم باتباعه ، وأكرمكم بالايان به ، فحقن به دماءكم المسفوكه ، وآمن به سبلكم المخوفة : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(١) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فهل خلق ربكم في الأولين والآخريين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرساين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ، ما كان ولا يكون ، لله أتم ! ألم ترؤا ويبلغكم ما أجتريم^(٢) إلى ابن بنت نبيكم ؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمة ، واستضعافهم وحدثه ، وترميلهم^(٣) إياه بالدم ، وتجزأره هُموة على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم ! اتخذوه للنبل غرضاً ، وغادروه للضباع جزراً^(٤) ، فَلَله عيناً من رأى مثله ! ولله حسين بن عليّ ! ماذا غادروا به ؟ ذا صدق وصبر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ، ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن بنت رسول رب

* [١] الشفا : حرف كل شيء . [٢] ارتكب وانترف . [٣] دمله : لطفه بالدم . [٤] قتلماً .

العالمين ، قَلَّتْ مُحَمَّاتُهُ ، وَكَثُرَتْ عُدَاتُهُ ^(١) حوله ، فقتله عدوه وخذله وليُّهُ ، فويل للقاتل ، وملامة للخاذل ، إن الله لم يجعل لقاتله حجةً ، ولا لخاذله معذرةً ، إلا أن يُنصَحَ لله في التوبة ، فيجاهد القاتلين ، وينابذ القاسطين ، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ، وَيُقِيلَ الْعَثْرَةَ ، إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد المُجِلِّين والمارقين ، فَإِنْ قُتِلْنَا فما عند الله خير الأبرار ، وإن ظَهَرْنَا رددنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبينا »

قال : « وَكَانَ يَعِيدُ هَذَا الْكَلَامَ عَلَيْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ حَتَّى حَفِظَهُ عَامَّتَنَا » .

* * *

وكان الشيعة بالكوفة منذ قتل الحسين رضی الله عنه (سنة ٦١ هـ) يَجِدُونُ فِي جَمْعِ آلَةِ الْحَرْبِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْقِتَالِ وَدَعَاءِ النَّاسِ فِي السَّرِّ مِنَ الشَّيْعَةِ وَغَيْرِهَا إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِهِ حَتَّى كَثُرَ تَبَعَهُمْ ، وَكَانَ النَّاسُ إِلَى اتِّبَاعِهِمْ بَعْدَ هَلَاكِ يَزِيدِ بْنِ مَعَاوِيَةَ (فِي ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤ هـ) أَسْرَعَ مِنْهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ .

وقدم المختار بن أبي عبيد الثقفي الكوفي في النصف من رمضان سنة ٦٤ ، وقد اجتمعت رءوس الشيعة ووجوهها مع سليمان بن صرد ، فليس يعدلونه به ، فكان المختار إذا دعاهم إلى نفسه وإلى الطلَبِ بِدَمِ الْحُسَيْنِ ، قالت له الشيعة : « هذا سليمان بن صرد شيخ الشيعة قد اتقادوا له واجتمعوا عليه » فأخذ يقول للشيعة : « إني قد جئتكم من قبَلِ المهديِّ محمد بن عليِّ (ابن الحنفية) مؤتمناً مأموناً ، مُنْتَجِياً ^(٢) ووزيراً » فزال بهم حتى انشعبت إليه طائفة تُعْظِمُهُ وتجيئه وتنتظر أمره ، وَعَظُمُ الشَّيْعَةُ مَعَ سُلَيْمَانَ بْنِ صَرْدٍ .

[١] العداة جمع عاد ، وهو المدوّ . [٢] المنتجب : المختار .

وقدم عبد الله بن يزيد الأنصاري من قبيل عبد الله بن الزبير أميراً على الكوفة على حربها وَثَغْرَهَا ، وقدم معه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله التيمي أميراً على خراجها ، (وذلك بعد مَقْدَمِ المختار بثمانية أيام) ، وكان سليمان ابن سرد وأصحابه يريدون أن يَثْبُوهَا بالكوفة ، ونمى إلى عبد الله بن يزيد اعتزام الشيعة الخروج ، فخرج حتى صعد المنبر ثم قام في الناس .

٥٠ - خطبة عبد الله بن يزيد الأنصاري

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد بلغني أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذي دعاهم إلى ذلك ماهو ؟ فقيل لي زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله ذُلِّتْ على أماكنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ابدأهم قبل أن يبدءوك ، فأبيت ذلك ، فقلت إن قاتلوني قاتلتهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ، وعلام يقاتلونني ؟ فوالله ما أنا قتلت حسيناً ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصِبتُ بمقتله رحمة الله عليه ، فإن هؤلاء القوم آمنون ، فلْيُخْرِجُوا ولينتشروا ظاهرين ، لِيَسِيرُوا إلى من قاتل الحسين ، فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير ^(١) ، هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل خياركم وأماثلكم ، قد توجه إليكم عهدُ العاهد به ^(٢) على مسيرة ليلة من جسر مَنبِج ^(٣) ، فقتاله والاستعداد له

[١] معين . [٢] وذلك أن عبيد الله بن زياد لما هاجت الفتنة بالبصرة بعد وفاة معاوية الثاني (سنة ٦٤ هـ) لحق بالشأم ، وكان مروان بن الحكم قد أراد أن يبايع ابن الزبير لما رأى من إطباق الناس على مبايعته وإجابته له ، وبلغ ابن زياد ذلك ، فقال له : استحييت لك مما تريد ، أنت كبير قریش وسيدها تصنع ما تصنمه ! وشدت من عزيمته حتى نهض في طلب الخلافة وتمت له فبوجع بها ، فلما استوتقت له الشأم بالطاعة بعث جيشاً إلى العراق عليه ابن زياد ، وجعل له حين وجهه إلى العراق ماغلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو ظهر بأهلها ثلاثاً . [٣] بين حلب والفرات .

أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضهم بعضاً ، وَيَسْفِكَ بعضكم دماء بعض ، فيلقاكم ذلك العدو غداً وقد رَقَقْتُمْ ^(١) ، وتلك والله أمنيّةُ عدوكم ، وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم ، مَنْ وَلىَ عليكم هو وأبوه سبع سنين لَا يُقْلِعَان عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذى قتلكم ، وَمِنْ قَبْلِهِ أُتَيْتُمْ ، والذى قتل من تَثَارُونَ بدمه قد جاءكم ، فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم ، واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم ، إني لم آلكم نصحاً ^(٢) ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أئمتنا .

٥١ - خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة ^(٣)

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أيها الناس : لا يفرّركم من السيف وَالغَشْم ^(٤) مقالةٌ هذا المداهن المودع ، والله لئن خرج علينا خارج لقتلته ، ولئن استيقننا أن قوماً يريدون الخروج علينا ، لَنَاخُذَنَّ الوالد بولده ، والمولود بوالده ، ولناخذن الحميم ^(٥) بالحميم ، والعريف ^(٦) بما فى عرافته ، حتى يَدِينُوا للحق ، وَيَذِلُّوا للطاعة . »

٥٢ - رد المسيب بن نجبة

فوثب إليه المسيب بن نجبة فقطع عليه منطقه ، ثم قال :

« يا بن الناكثين ^(٧) : أنت تهددنا بسيفك وغشمك ؟ أنت والله أذلُّ

من ذلك ، إنا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك ^(٨) وجدك ، والله إني لأرجو

[١] ضعتم . [٢] أى لم أقصر فى نصحكم . [٣] مات سنة عشر ومائة عن أربع وسبعين سنة ، وكان يسمى أسد قريش . [٤] الظلم ، والمراد هنا القوة والأخذ بالشدّة .
[٥] حميمك : قريبك الذى تهتمّ لأمره . [٦] العريف : رئيس القوم ، سمي لأنه عرف بذلك ، أو النقيب ، وهو دون الرئيس ، عرف ككرم وضرر عرافة صار عريفاً . [٧] يشير إلى ما كان من جدّه طلحة بن عبيد الله إذ بايع الإمام علياً ثم نكث ببعته ، وقد اعتذر عن ذلك بأنه بايع والسيف على عقبه . [٨] قتل محمد بن طلحة يوم الجبل مع أبيه وصربه على ، فقال هذا رجل قتل به أباه وطاعته .

أن لا يُخرجك الله من بين ظَهْرَانِي أهلِ المِصرِ حتى يثَلِّثُوا بك جدك وأباك ،
وأما أنت أيها الأمير ، فقد قلت قولاً سديداً ، إني والله لأظن من يريد هذا
الأمر ^(١) مستنصحاً لك ، وقابلاً قولك »

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة : « إِي وَاللَّهِ لِيَقْتَتَنَّ وَقَدْ أذْهَنَ ثُمَّ أَعْلَنَ » .

٥٣ - ردّ عبد الله بن وال التيمي ،

فقام إليه عبد الله بن وال التيمي ، فقال :

« ما اعتراضك يا أخا بني تميم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا ؟ فوالله ما أنت
علينا بأمير ، ولا لك علينا سلطان ! إنما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك ،
فلعمرك الله لئن كنت مفسداً ، ما أفسد أمر هذه الأمة إلا والدك وجدك
الناكثان ، فكانت بهما اليَدَانِ ^(٢) ، وكانت عليهما دائرة السوء » .

ثم أقبل المسيب بن نجبة . وعبد الله بن وال على عبد الله بن يزيد فقالا :
« أما رأيك أيها الأمير فوالله إنا لنترجو أن تكون به عند العامة محموداً ،
وأن تكون عند الذي عَنَيْتَ واعتريت مقبولاً » .

ثم نزل عبد الله بن يزيد ودخل .

فلما استهلّ هلال ربيع الآخر سنة ٦٥ شَخَّصَ سليمان بن سرد في
وجوه أصحابه ، وقد كان واعد أصحابه عامة للخروج في تلك الليلة للمعسكر
بالثخيلة ، وأقام بها ثلاثاً يبعث ثقاته من أصحابه إلى من تخلف عنه يذكّرهم الله
وما أعطوه من أنفسهم ، فقام إليه المسيب بن نجبة ، فقال : « رحمك الله إنه

[١] أي الطلب بدم الحسين رضي الله عنه . [٢] تهول العرب : كانت به اليَدَانِ ، أي فعل الله
به ما يقول لي ، ومرقوم من الحوارج يقوم من أصحاب عليّ وهم يدعون عليهم ، فقالوا : بكم اليَدَانِ أي
حاق بكم ماتدعون به وتبسطون أيديكم .

لا ينفك الكاره ، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية ، فلا تنتظرن أحدًا ،
واكش^(١) في أمرك » قال : « فَإِنَّكَ وَاللَّهِ لَنِعِمًّا رَأَيْتَ » فقام سليمان بن سرد
في الناس متوكئًا على قوس له عربية فقال :

٥٤ — خطبة سليمان بن سرد

« أَيُّهَا النَّاسُ : مَنْ كَانَ إِنَّمَا أَخْرَجْتُهُ إِرَادَةً وَجَهَ اللَّهُ وَثَوَابُ الْآخِرَةِ ، فَذَلِكَ
مَنَا وَنَحْنُ مِنْهُ ، فَرَحِمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ حَيًّا وَمَيِّتًا ، وَمَنْ كَانَ إِنَّمَا يَرِيدُ الدُّنْيَا وَحَرَمَهَا^(٢)
فَوَاللَّهِ مَا نَأْتِي فَيَمُوتُ نَسْتَفِيئُهُ ، وَلَا غَنِيمَةً نَعْنَمُهَا ، مَا خَلَا رِضْوَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ،
وَمَا مَعْنَا مِنْ ذَهَبٍ ، وَلَا فِضَّةٍ ، وَلَا خَزٍّ ، وَلَا حَرِيرٍ ، وَمَا هُوَ إِلَّا سَيُوفُنَا فِي
عَوَاتِقِنَا ، وَرِمَاحِنَا فِي أَكْفُنَا ، وَزَادُ قَدْرِ الْبُلْغَةِ^(٣) إِلَى لِقَاءِ عَدُونَا ، فَمَنْ كَانَ غَيْرَ
هَذَا يَنْوِي فَلَا يَصْحَبْنَا » .

٥٥ — خطبة صخير بن حذيفة بن هلال

فقام صُخَيْرُ بْنُ حُذَيْفَةَ بْنِ هَلَالِ بْنِ مَالِكِ الْمُرَزِيِّ فَقَالَ :
« آتَاكَ اللَّهُ رَشْدَكَ ، وَلَقَاكَ حُجَّتَكَ ، وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَالَنَا خَيْرٌ فِي
صِحْبَةٍ ، مَنِ الدُّنْيَا هِمَّتْهُ وَنَيْتُهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا أَخْرَجْتَنَا التَّوْبَةَ مِنْ ذُنُوبِنَا ،
وَالطَّلَبُ بِدَمِ ابْنِ ابْنَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَيْسَ مَعْنَا دِينَارٌ وَلَا دَرَاهِمٌ ، إِنَّمَا
نَقْدَمُ عَلَى حَدِّ السُّيُوفِ وَأَطْرَافِ الرِّمَاحِ »
فتنادى الناس من كل جانب : « إِنَّا لَا نَطْلُبُ الدُّنْيَا وَلَيْسَ لَهَا خَرَجُنَا »

[١] أسرع ، كش ككرم كحاشة فهو كش (كشهم) وكشش ، أى سريع .

[٢] أى كسبها ومتاعها . [٣] ما يبلغ به .

٥٦ - ما أشار به عبد الله بن سعد

وكان الرأى بادئ الأمر أن يسيروا إلى عبيد الله بن زياد ، فقال له عبد الله ابن سعد ، وعنده رءوس أصحابه جُلوسٌ حوله :
« إني قد رأيت رأياً ، إن يكن صواباً فالله وفقَّ ، وإن يكن ليس بصواب فمن قبلي ، فإني ما آلوكم ونفسي نُضحاً ، خطأ كان أم صواباً ، إنما خرجنا نطلب بدم الحسين ، وقتلته الحسين كلهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، ورءوس الأرباع^(١) وأشرف القبائل ، فأتى نذهب ها هنا ونُدع الأقتال والأوتار^(٢) ؟ »

فقال سليمان بن سرد : فماذا ترون ؟ فقالوا : « والله لقد جاء برأى ، وإن ما ذكر لكما ذكر ، والله ما نلقى من قتلة الحسين ، إن نحن مضينا نحو الشام غير ابن زياد ، وما طلبتنا إلا ها هنا بالمصر » .

٥٧ - رأى ابن سرد

فقال سليمان بن سرد : « لكن أنا ما أرى ذلك لكم ، إن الذي قتل صاحبكم ، وعبي الجنود إليه ، وقال لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأمضى فيه حكمي ، هذا الفاسق ابن الفاسق ، ابن مَرَجَانة ، عبيد الله بن زياد ، فسيروا إلى عدوكم على اسم الله ، فإن يُظهِرَكم الله عليه ، رجونا أن يكون من بعده أهون

[١] كانت الكوفة مقسمة أربعة أقسام لكل ربع رئيس : ربع تميم وهمدان ، وربع ربيعة وكندة ، وربع مذحج وأسد ، وربع أهل المدينة ، (وتنسب المدينة أرباعاً لا يزال إلى اليوم في بعض بلاد القطر المصري ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام كل قسم ثمن ، وحرقت في المائة فماتوا «تمن» ، وأطلق عليه بالتركية قره قول (كراكون) ويعمن أن يستعمل له كلمة مخفر « ككتب » .
[٢] الأقتال جمع قتل بالسكر وهو المدوّ والمقاتل ، والأوتار جمع وتر : الجناية والتأر ، أي ونُدع أعداءنا وذري ثاراتنا .

شوكته منه ، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية ،
فتنظرون إلى كل من شريك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تغشيموا^(١) ، وإن
تستشهدوا فإنما قاتلتم المحلّين ، وما عند الله خيرٌ للأبرار والصدّيقين ، إني لأحب
أن تجعلوا حدكم وشوكتكم بأول المحلّين القاسطين ، والله لو قاتلتم غداً أهل
مصركم ، ما عديم رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه ، أو رجلاً لم يكن
يريد قتله ، فاستخبروا الله وسيروا » قتهياً الناس للشخص .

وبلغ عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن سرد
وأصحابه فرأيا أن يأتيهم ، فخرجا إليهم في جماعة من أصحابهما ، فلما انتهىا إلى
ابن سرد دخلا عليه .

٥٨ - خطبة عبد الله بن يزيد

فحمد الله عبد الله بن يزيد ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« إن المسلم أخو المسلم ، لا يخنونه ولا يغشيه ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا ،
وأحبُّ أهل مصرٍ خلقه الله إلينا ، فلا تفجعونا بأنفسكم ، ولا تستبدوا علينا
برأيكم ، ولا تنقضوا عدونا بخرؤكم من جماعتنا ، أقيموا معنا حتى نتيسر ونتهيأ ،
فإذا عامنا أن عدونا قد شارف بلدنا ، خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم » .
وتكلم إبراهيم بن محمد بنحو من هذا الكلام .

٥٩ - خطبة سليمان بن سرد

فحمد الله سليمان بن سرد وأثنى عليه ، ثم قال لهما :
« إني قد علمت أنكما قد تحضتما^(٢) في النصيحة ، واجتهدتما في المشورة ،

[١] غشه : كضرب ظلمه . [٢] محضه الود وأحضه : أخلصه .

فنحن بالله وله ، وقد خرجنا لأمر ، ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد ، والتسديد لأصوبه ، ولا ترانا إلا شاخصين ، إن شاء الله ذلك » .

فقال عبد الله بن يزيد : « فأقيموا حتى نمي معكم جيشاً كشيفاً فتلقوا عدوكم بكثف^(١) ، وجمع وحدٍ » فقال له سليمان : « تنصرفون ونرى فيما بيننا ، وسيأتيكم إن شاء الله رأى » .

وانصرف عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد إلى الكوفة ، وأجمع القوم على الشخوص ، واستقبال ابن زياد .

٦٠ - خطبة أخرى له

ثم إن سليمان بن سرد قام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد أيها الناس ، فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطلبون ، وإن للدنيا ثجاراً ، وللآخرة تجاراً ، فأما تاجر الآخرة فساع إليها متنصب^(٢) بتطلابها ، لا يشتري بها ثمناً ، لا يرى إلا قائماً وقاعداً ، وراكعاً وساجداً ، لا يطلب ذهباً ولا فضة ، ولا ديناً ولا لذة ، وأما تاجر الدنيا ، فكيب عليها ، راع فيها ، لا يبتغي بها بدلاً ، فعليكم (يرحمكم الله) في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل ، وبذكر الله كثيراً على كل حال ، وتقرّبوا إلى الله جل ذكره بكل خير قد رزتم عليه ، حتى تلقوا هذا العدو ، والمحلّ القاسط فتجاهدوه ، فإنكم إن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سنام العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين

[١] الكثيف : الجماعة . [٢] أي قد نصب نفسه طالباً لها ، نصب الشيء رفعه

فانتصب وتنصب .

على اللأواء^(١) وإنا مُدْجُون^(٢) الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله فأذِلجوا .
فأدِلج عشية الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر سنة ٦٥ للهجرة ، وما زال
يسير حتى انتهى إلى عَيْنِ الوردة^(٣) فنزل في غريبها .

٦١ - خطبة أخرى

وأقبل أهل الشام في عساكرهم ، حتى كانوا منها على مسيرة يوم وليلة ، قال
عبد الله بن غزيرة ، فقام فينا سليمان فحمد الله فأطال ، وأثنى عليه فأطنب ، ثم
ذكر السماء والأرض ، والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاء الله
ونعمه ، وذكر الدنيا فزهد فيها ، وذكر الآخرة فرغب فيها ، فذكر من هذا ما لم
أُحصيه ، ولم أقدر على حفظه ، ثم قال :

« أما بعد فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء^(٤) الليل
والنهار ، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ، ولقاء الله مُعْذِرِينَ ، فقد جاءوكم
بل جئتموهم أنتم في دارهم وحيزهم ، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم ، واصبروا إن الله
مع الصابرين ، ولا يوليئهم امرؤ دُبره إلا مُتَحَرِّفًا^(٥) لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا^(٦) إلى
إلى فِئَةٍ ، لَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا ، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَسِيرًا مِنْ أَهْلِ
دَعْوَتِكُمْ^(٧) إِلَّا أَنْ يِقَاتِلَكُمْ بَعْدَ أَنْ تَأْسِرُوهُ ، أَوْ يَكُونَ مِنْ قِتْلَةِ إِخْوَانِنَا بِالطَّفِّ
رَحْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ هَذِهِ كَانَتْ سِيرَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي أَهْلِ
هَذِهِ الدَّعْوَةِ . »

[١] الشدة . [٢] أدلج : سار من أول الليل ، فإن سار من آخره فأدِلج بالتشديد .
[٣] هي رأس العين : بلد في وسط الجزيرة . [٤] آناء الليل : ساطئه واحدها لاني (كليل)
أولاني (كليل) أو لاني كذلك . [٥] أي منمطفاً يريد الكسر بعد الفر وتفرير العدو ، فإنه من
مكايد الحرب . [٦] أي منحاذاً إلى جماعة على القرب ليستنجد بهم . [٧] ملنكم .

ودارت رحى الحرب بينهم وبين جيوش عبيد الله بن زياد واستشهد في المعركة سليمان بن صرد، بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضاً من رءوس أصحابه : المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن نضيل، وعبد الله بن والٍ، فلما رأى من بقي من التوآيين أن لا طاقة لهم بمن يازأهم من أهل الشام انحازوا عنهم وارتحلوا ، وعليهم رفاة بن شداد البجليّ .

(وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ) (١) .

٦٢ - خطبة عبد الملك بن مروان

وأتى عبد الملك بن مروان ببشارة الفتح ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الله قد أهلك من رءوس أهل العراق مُلَقِحَ (٢) فتنة ، ورأسَ ضلالةٍ ، سليمانَ بن صرد ، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاريْفَ (٣) ، ألا وقد قتل من رءوسهم رأسين عظيمين ضالّين مُضِلّين : عبد الله بن سعد أبا الأزد ، وعبد الله بن والٍ أبا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحدٌ عنده دِفَاعٌ ولا امتناع . »

(تاريخ الطبرى ٧ : ٤٧ - ٨٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٠)

[١] وقال السعوى في مروج الذهب : « وقيل إن وتعة الوردة كانت في سنة ٦٦ » .

[٢] أصله : من ألقح النحلة ، وألقح الفحل الناقة ، والريح الشجر . [٣] تركت السيوف رأسه

خذاريْف : أى قطعاً كل قطعة كالحذروف ، والحذروف : كصفر شيء يدوره الصبي بحيط في يديه فيسمع له دوىّ (النحلة) .

طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي

بدم الحسين رضى الله عنه

٦٣ - خطبته حين قدم الكوفة

وقدم المختار بن أبي عبيد الثقفي^(١) الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ هـ ، فأتاه بعض الشيعة ليلاً ، فسألهم عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صرد الخزاعي ، وإنه لن يلبث إلا يسيراً حتى يخرج .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فإن المهدي بن الوصي ، محمد بن علي ، بعثني إليكم أميناً ووزيراً ،
وَمُنْتَجَباً وأميراً ، وأمرني بقتال المُلحدِّين ، والطلب بدماء أهل بيته ، والدفع
عن الضعفاء » .

[١] هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي ، وقد قدمنا في الجزء الأول أن أوّل ما عمل به عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين ولي الخلافة أن ندب الناس مع المنى بن حارثة الشيباني لقتال أهل فارس ، وجعل يندبهم ثلاثة أيام ، فلا يندب أحداً إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس ، فكان أوّل منتدب أبو عبيد بن مسعود والد المختار ، ولم يكن المختار في تشييعه لآل علي بالخلمس ، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه في أمر الحسن بن علي رضى الله عنه يوم طعن في ظلم ساباط وحمل إلى المدائن - وكان عم المختار ، وهو سعد بن مسعود عاملاً على المدائن - فقال له المختار : هل لك في الفنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أئب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوثقه ! بثس الرجل أنت ، ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضى الله عنه نزل دار المختار فبايعه المختار فيمن بايعه من أهل الكوفة ، وناصحه ودعا إليه ، ثم ظفر ابن زياد بمسلم وقتله ، وأمر بالمختار فسجن ، وبعث المختار إلى عبد الله بن عمر بالمدينة ، يسأله أن يشفع له عند يزيد بن معاوية - وكانت صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر - فكتب ابن عمر إلى يزيد يسأله أن يخلى سبيله ، فشفعه فيه ، وخلى ابن زياد سبيله وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وبايع ابن الزبير ، وقاتل معه حين حاصر مكة جيش يزيد - وكان تحت إمرة الحصين بن نمير السكوني - وأقام مع ابن الزبير بعد مهلك يزيد حتى قدم الكوفة في منتصف رمضان سنة ٦٤ هـ .

وأقبل يبعث إلى الشيعة ، فيقول لهم : « إني قد جئتكم من قبل وليّ الأمر ،
ومعدن الفضل ، ووصي الوصي ، والإمام المهدي ، بأمرٍ فيه الشفاء ، وكشفُ
الغطاء ، وقتلُ الأعداء ، وتعمُّمُ النعماء ، إن سليمان بن صرد يرحمنا الله وإياه ،
إنما هو عَشْمَةٌ ^(١) من العشم ، وحِفْشٌ ^(٢) بالٍ ، ليس بذى تجربة للأمور ، ولا
له علمٌ بالحروب ، إنما يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم ، إني إنما أعملُ
على مثالٍ قد مُثِّلَ لي ، وأمرٍ قد مُيِّنَ لي ، فيه عزٌ وليكم ، وقتلُ عدوكم ، وشفاءُ
صدوركم ، فاسمعوا مني قولي ، وأطيعوا أمري ، ثم أبشروا وتباشروا ، فإنني لكم
بكل ما تأملون خيرٌ زعيم » .

فما زال بهذا القول ونحوه ، حتى استمال طائفة من الشيعة ، وعظّمهم
يومئذ مع سليمان بن صرد ، فلما خرج ابن صرد نحو الجزيرة ، خاف عبد الله بن
يزيد الأنصاري - أمير الكوفة من قبل ابن الزبير - أن يثب المختار عليه ، فزجّه
في السجن . (تاريخ الطبري ٧ : ٦٤)

٦٤ - ما كان يردده على زائريه في سجنه

وكان يردّد على زائريه في سجنه هذا القول :

« أما وربّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه ^(٣) والقفار ، والملائكة
الأبرار ، والمصطفيين الأخيار ، لأقتلنَّ كلَّ جبّار ، بكلِّ لدنٍ خطّارٍ ^(٤) ،

[١] المشمة: الشيخ الثاني للذكر والأنثى أو المتقارب الخطو المنحى الظهر، وكان عمر ابن صرد حين قتل
٩٣ سنة . [٢] احفش: الشيء البالي ، والجواني العظيم البالي ، وما كان من أسقاط الآنية
كالقوارير وغيرها ، وأحفاش البيت: رذال متاعه .

[٣] المهامه: جمع مهمه كجمفر ، وهو البلد المنقر ، والغازة البعيدة . [٤] الرمح اللدن: اللين ،
وذلك صفة جودة فيه لأن اللدن لا يقصف ، وقد لدن ككرم لدانة ولدونة ، والرمح: الخطار أي المهتز
خطر كضرب خطرانا .

وَمُهَنْدٍ بَتَّارٍ^(١) ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بِمَيْلٍ أُنْغَمَارٍ^(٢) ، ولا بِعُزْلِ^(٣) أشرار ، حتى إذا أقتت عمود الدين ، ورأبت شُعب^(٤) صدع المسلمين ، وشقيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بئار النبين ، لم يكبر على زوايا الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى .

ثم خلى عبد الله بن يزيد سبيله ، بشفاعة عبد الله بن عمر فيه ، واختلفت إليه الشيعة بعد خروجه من السجن ، واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل أصحابه يكثرون ، وأمره يقوى ويشتد ، حتى عزل ابن الزبير عبد الله ابن يزيد عن الكوفة ، وولى عليها عبد الله بن مطيع العدوي .

(تاريخ الطبري ٧ : ٦٥)

٦٥ - خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة

وقدم عبد الله بن مطيع العدوي الكوفة (لخمس بقين من رمضان سنة ٦٥) فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد : فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثنى على مضركم وثغوركم ، وأمرني بجباية فيكم ، وأن لا أجهل فضل^(٥) فيكم عنكم إلا برضا منكم ، ووصية عمر ابن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته^(٦) ، وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها في المساهين ، فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا ، وخذوا على أيدي سفهائكم ،

[١] المهند : السيف المطبوع من حديد الهند ، والبتار : القطاع .

[٢] ميل : جمع أميل ، وهو الجبان ، ومن يميل على السرج في جانب ، ومن لاترس معه أو لاسيف أولارم ، والأغمار : جمع غمر (مثلث ويحرك) من لم يجرب الأمور . [٣] العزل : جمع أعزل ، وهو من لاسلاح معه . [٤] الشعب : الصدع أي الشق ، ومن معانيه الإفساد ، وهو المراد هنا ، ورأب الصدع : أصله . [٥] الفضل : الزيادة . [٦] انظر وصيته للخليفة من بعده . ج ١ : ص ٩٥

وإلا تفعلوا فلو موا أنفسكم ولا تلوموني ، فوالله لأوقعن بالسقيم العاصي ، ولأقيمن
دراً^(١) الأصغر^(٢) المرتاب .

٦٦ - رد السائب بن مالك الأشعري عليه

فقام إليه السائب بن مالك الأشعري - وهو من رءوس أصحاب
المختار - فقال :

« أما أمرُ ابن الزبير إياك ألاّ تحملَ فضلَ فيئنا عنا إلا برضانا ، فإننا نُشهدك
أنا لا نرضى أن تحملَ فضلَ فيئنا عنا ، وأن لا يُقسَمَ إلا فينا ، وأن لا يُسارَ فينا
إلا بسيرة عليّ بن أبي طالب ، التي سار بها في بلادنا هذه ، حتى هلكَ رحمةُ الله
عليه ، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا ، فإنها إنما كانت
أثرةً وهوىً ، ولا في سيرة عمر بن الخطاب في فيئنا ، وإن كانت أهونَ السيرتين
علينا ضرراً ، وقد كان لا يألو الناسَ خيراً » .

فقال يزيد بن أنس الأسدي : صدق السائب بن مالك وبرّ ، رأينا
مثلُ رأيه ، وقولنا مثل قوله ، فقال ابن مطيع : نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها
وهو يتموها ، ثم نزل . فقال يزيد بن أنس : ذهبتَ بفضلها ياسائب ،
لا يعمدك المسلمون ! (تاريخ الطبري ٧ : ٩٥)

٦٧ - خطبة عبد الرحمن بن شريح

وبعث المختار إلى أصحابه ، فأخذ يجمعهم في الدور حوله ، وأراد أن يثب

[١] الدرأ : الميل والعوج في القناة ونحوها . [٢] الصعر محرّكة : ميل في العنق وانقلاب في الوجه
إلى أحد الشقين ، صعر كفرح فهو أصعر ، وربما كان الانسان أصعر خافقاً ، وصعر خده بالتشديد : أماله
عن الناس إغراضاً وتكبراً .

بالكوفة في المحرم ، فجاء رجل منهم يقال له عبد الرحمن بن شريح ، فلقى جماعة من إخوانه ، واجتمعوا في منزل أحدهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، فإن المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ، ولا ندرى أُرسله إلينا ابن الحنفية أم لا ؟ فانهضوا بنا إلى ابن الحنفية فلنخبره بما قدم علينا به ، وبما دعانا إليه ، فإن رخص لنا في اتباعه اتبعناه ، وإن نهانا عنه اجتنبناه ، فوالله ما ينبغي أن يكون شيء من أمر الدنيا آثرَ عندنا من سلامة ديننا »

فقالوا له : أرشدك الله ، فقد أصبتَ ووُفِّقتَ ، اخرج بنا إذا شئت ، فأجمع رأيهم على أن يخرجوا إليه ، فلما قدموا عليه بدأ عبد الرحمن بن شريح ، فتكلم :
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٨ - خطبة أخرى له

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإنكم أهل بيتٍ خصكم الله بالفضيلة ، وشرّفكم بالنبوة ، وعظّم حقكم على هذه الأمة ، فلا يجهلُ حقكم إلا مغبونُ الرأي ، محسوس النصيب ، قد أصبتم بحسين رحمة الله عليه ، عظمت مصيبة ! ما قد خصكم بها ، فقد عمّ بها المسلمون ، وقد قدم علينا المختار بن أبي عبيد ، يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء ، فبايعناه على ذلك ، ثم إنا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه ، ونَدَبنا له ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه . »

ثم تكلموا واحداً واحداً بنحو مما تكلم به صاحبهم وهو يسمع حتى إذا فرغوا
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٩ - خطبة محمد بن الحنفية

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فأما ما ذكرتُم مما خصَّصنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتية
من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، فله الحمد ، وأما ما ذكرتُم من مصيبتنا
بمحسين ، فإن ذلك كان في الذكر الحكيم ^(١) ، وهي ملحمة ^(٢) كتبت عليه ،
وكرامة أهداها الله له ، رفعَ بما كان منها درجات قومٍ عنده ، ووضعَ بها
آخرين ، وكان أمر الله مفعولاً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وأما ما ذكرتُم من
دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا
بمن شاء من خلقه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم »

نخرجوا من عنده ، وهم يقولون : قد أذن لنا ، قد قال : « لوددت أن الله
انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه » ولو كره لقال : « لا تفعلوا » .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٠ - خطبة المختار

وبلغ المختار نخرجهم فشق ذلك عليه ، وخشى أن يأتوه بأمر يُخذل الشيعة
عنه ، فكان يقول :

« إن نقيراً منكم ارتابوا ، وتحيرُوا وخابوا ، فإن هم أصابوا ، أقبلوا وأنابوا ، وإن هم
كَبَوْا وهابوا ، واعترضوا وانجابوا ^(٣) ، فقد تَبَرُّوا ^(٤) وَخَابُوا ^(٥) » وأقبل القوم

[١] يريد أنه سبق به قضاء الله تعالى . [٢] الملحمة : الواقعة العظيمة القتل .
[٣] انجابت السحابة : انكشفت ، والمعنى : وإن هم انسأخوا منا وانشقوا علينا . [٤] تبر ، كقعد
تبوراً : هلك . [٥] حاب : أثم ، والحبوب بالفتح والضم : الإثم ، وفي الأصل خابوا ، وأرى أن
تكون بالحاء لتقديم كلمة خابوا في أول قوله .

فدخلوا على المختار ، فقال لهم : ما وراءكم ؟ قد فُتنتم وارتبتم ، فقالوا له : قد أمرنا بنصرتك ، فقال : الله أكبر ! أنا أبو إسحق ! اجمعوا إلى الشيعة ، فجمع له منهم من كان منه قريباً فقال :

« يا معشر الشيعة : إن نفرًا منكم أحبوا أن يعلموا مصداق ما جئت به ، فرحلوا إلى إمام الهدى ، والنجيب المرتضى ، ابن خير من طشى^(١) ومشى ، حاشا النبي المجتبي^(٢) ، فسألوه عما قدمتُ به عليكم ، فنبأهم أني وزيره وظهره ، ورسوله وخليته ، وأمركم باتباعي وطاعتي فيما دعوتكم إليه ، من قتال المحلّين ، والطلب بدماء أهل بيت نبيكم المصطفين » . (تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧١ - خطبة عبد الرحمن بن شريح

فقام عبد الرحمن بن شريح فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا معشر الشيعة فإننا قد كنا أحيدينا أن نستثبت لأنفسنا خاصة ، ولجميع إخواننا عامة ، فقدمنا على المهدي بن علي ، فسألناه عن حربنا هذه ، وعمادعانا إليه المختار منها ، فأمرنا بمظاهرتة وموازرتة ، وإجابته إلى مادعانا إليه ، فأقبلنا طيبة أنفسنا منسرحة صدورنا ، قد أذهب الله منها الشك والغل والرئيب ، واستقامت لنا بصيرتنا في قتالنا عدونا ، فليبلغ ذلك شاهدكم غائبكم ، واستعدوا وتأهبوا » ثم جلس .

[١] هكذا في الأصل ، ولم أجد كلمة « طشى » في كتب اللغة ، وفي لسان العرب « تطشى المريض برى » وليست مناسبة هنا ، وأرى أن العبارة « ابن خير من مشى وطشى » بتأخير طشى ، وأنه لا يتبع للفعل قبله لتقويته وتوكيده ، وهو كثير في كلام العرب ، كقولهم : حسن بسن ، وعفريت نفریت ، وعطشان نطشان ، وشحيج بحيج ، وكثير بشير ، وحيالك الله وبيالك - وإن قيل إن الإتياع لا يكاد يكون بالواو - انظر باب الإتياع في المزهرة للسيوطي (١ : ٢٤٤) وفي الأمالي (٢ : ٢١١) .

[٢] المختار .

وقاموا رجلاً فرجلاً فتكلموا بنحو من كلامه فاستجمعت له الشيعة
وحدّبت^(١) عليه . (تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٢ - خطبة المختار في دار إبراهيم بن الأشتر

ومضى المختار في بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه إلى دار إبراهيم
ابن الأشتر^(٢) يدعوهم أن يناصروه ، فاستأذن عليه فأذن له ، وألقى لأصحابه وسأله
فجلسوا عليها ، وجلس المختار معه على فراشه ، فقال المختار :
« الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصلى الله على محمد والسلام عليه ،
أما بعد : فإن هذا كتاب إليك من المهدي محمد بن أمير المؤمنين الوصي ، وهو
خير أهل الأرض اليوم ، وابن خير أهل الأرض كلها قبل اليوم ، بعد أنبياء الله
ورسله ، وهو يسألك أن تنصرنا وتوازرنا ، فإن فعلت اغتبطت ، وإن لم تفعل
فهذا الكتاب حجة عليك ، وسيغني الله المهدي محمدًا وأولياءه عنك^(٣) »
فبايعه إبراهيم .

[١] عطف . [٢] وكان أصحاب المختار قد دعوه أن ينضم إليهم فقال : إني قد أحببتكم إلى
مادعوتوني إليه على أن تولوني الأمر ، فقالوا هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدي ، وهو الرسول والمأمور
بالتعال وقد أمرنا بطاعته ، فسكت عنهم ابن الأشتر ، وانصرفوا إلى المختار فأخبروه بما رآه عليهم .
[٣] ثم دمع إليه الكتاب ففرض حاتمته وقرأه ، فإذا هو : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدي إلى إبراهيم
ابن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإني قد بعثت إليكم
بوزير ، وأميني ، ونجيب الذي ارتضيت له نفسي ، وقد أمرته بقتال عدوي ، والطلب بدماء أهل بيتي ،
فأنهض معي بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فأنت إن نصرته وأجبت دعوتي ، وساعدت وزيره كانت لك
عندي بذلك فضيلة ، ولك بذلك أمة الحيل ، وكل جيش غار ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما
بين الكوفة وأقصى بلاد أهل الشام ، على الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فعلت ذلك نكبت به عند الله أفضل
الكرامة ، وإن أبيت ملكك هلاكاً لانتقبله أبداً ، والسلام عليك » . فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب ،
قال : قد كتب إلي ابن الحنفية وقد كتب إلي قبل اليوم ، فما كان يكتب إلي إلا باسمه واسم أبيه ، قال
له المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فمن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلي ؟ فشهد من
معه بأنه كتاب ابن الحنفية إليه ، فقال إبراهيم : بسط يدك أبايكم فبسط المختار يده فبايعه إبراهيم .

— وجعل المختار وأصحابه يدبرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ ، فثاروا بالكوفة ، ونشب القتال بينهم وبين جند ابن مطيع . (تاريخ الطبري ٧ : ٩٨)

٧٣ - خطبة يزيد بن أنس الأسدي

ولما حملت خيل ابن مطيع على أصحاب المختار ، خطبهم يزيد بن أنس الأسدي محرّضاً ، فقال :

« يا معشر الشيعة : قد كنتم تُقتلون وتُقَطَّع أيديكم وأرجلكم ، وتُسَمَل أعينكم ، وترُفعون على جذوع النخل ، في حُبِّ أهل بيت نبيكم ، وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوكم ، فما ظنُّكم بهؤلاء القوم إن ظهروا عليكم اليوم ؟ إذن والله لا يدعون منكم عيناً تطرف ^(١) ، وليقتلنكم صبراً ^(٢) ، وتترؤن منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموت خيرٌ منه ، والله لا ينجيكم منه إلا الصدق والصبر والظعن الصائب في أعينهم ، والضرب الدراك على هامهم ، فتيسرُوا للشدة ، وتهيئوا للحملة ، فإذا حركت رايتي مرتين فاحملوا » .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٤)

٧٤ - خطبة عبد الله بن مطيع

وحمل أصحاب المختار على جند ابن مطيع فكشفوهم وهزموهم ، فخرج ابن مطيع فقام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إن من أعجب العجب عجَزَكم عن غضبةٍ منكم ، قليلٍ عددها ، خبيثٍ دينها ، ضالةٍ مضلّةٍ ، اخرجوا إليهم ، فامنعوا منهم حريمكم ، وقاتلوهم عن

[١] طرف البصر (كضرب) تحرك ، وطرف بصره (كضرب أيضاً) أطبق أحد جفنيه على الآخر .

[٢] قتل صبراً : هو أن يجلس ويرى حتى يموت .

مصركم ، وامنعوا منهم فيثكم ، وإلا ليشارككنكم في فيثكم من لا حق له فيه ، والله لقد بلغنى أن فيهم خمسمائة رجل من محرريكم عليهم أمير منهم ، وإنما ذهاب عزكم وسلطانكم ، وتغير دينكم حين يكثرون . ثم نزل .
(تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٦)

٧٥ - تحريض ابن الأشر أصحابه

واستنفر ابن مطيع الناس لقتال المختار وصدده ، وأقبل إبراهيم بن الأشر في أصحابه فقال لهم :

« قربوا خيولكم بعضها إلى بعض ، ثم امشوا إليهم مُصْلِتِينَ ^(١) السيوف ، ولا يهولنكم أن يقال : جاءكم شَبَثُ بن رِبْعِي ، وآل عَتَيْبَةَ بن النَّهَّاس ، وآل الأشعث ، وآل يزيد بن الحارث ، وآل فلان - فسَمَى بيوتات من بيوتات أهل الكوفة - ثم قال : إن هؤلاء لو قد وجدوا بهم حر السيوف قد انصفقوا ^(٢) عن ابن مطيع انصفاق المعزى عن الذئب » ثم قال لأصحابه شدوا عليهم ، فِدَاءَ لكم عمى وخالى .

فما لبثهم أن هزمهم ، فركب بعضهم بعضاً ، ومضى بأصحابه في آثارهم حتى دخلوا السوق والمسجد ، وحصروا ابن مطيع ثلاثاً . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٧)

٧٦ - خطبة ابن مطيع وهو محصور

فلما اشتد الحصار على ابن مطيع وأصحابه ، أشار عليه شَبَثُ بن رِبْعِي أن يخرج من القصر لا يشعر به أحد ، حتى ينزل منزلاً بالكوفة عندهم يستنصحه ، ويثق به ، ولا يعلم بمكانه إلى أن يخرج فيلحق بصاحبه (ابن الزبير) .

[١] أصوات السيوف : جرده من عمده [٢] انصفق : انصرف .

وفي مساء اليوم الثالث دعا ابن مطيع أصحابه فذكر الله بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وقال :

« أما بعد : فقد علمت الذين صنعوا هذا منكم من هُم ، وقد علمت إنما هم أراذلكم وسُفهاؤكم وطغامكم وأخسأؤكم ، ماعدا الرجل أو الرجلين ، وأن أشرافكم ، وأهل الفضل منكم لم يزلوا سامعين مطيعين مناصحين ، وأنا مُبلغ ذلك صاحبي ، ومُعالمه طاعتكم وجهادكم عدوه ، حتى كان الله الغالب على أمره ، وقد كان من رأيكم وما أشرتم به على ما قد علمتم ، وقد رأيت أن أخرج الساعة » فقال له شَبَث : « جزاك الله من أمير خيراً ، فقد والله عَفَقَتَ عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصحت لصاحبك ، وقضيت الذي عليك ، والله ما كنا لنفارقك أبداً ، إلا ونحن منك في إذن » فقال : جزاكم الله خيراً ، ثم خرج ، وخلي القصر ، وفتح أصحابه الباب ، فقالوا : يا ابن الأشر ، آمنون نحن ؟ قال : أنتم آمنون ، فخرجوا فبايعوا المختار . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٨)

٧٧ - خطبة المختار بعد هرب ابن مطيع

وجاء المختار حتى دخل القصر فبات به ، وأصبح أشرف الناس في المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختار ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال : « الحمد لله الذى وعد وليه النصر ، وعدوه الخسر ، وجعله فيه إلى آخر الدهر ، وعداً مفعولاً ، وقضاء مقضياً ، وقد خاب من اقترى ، أيها الناس : إنه رُفعت لنا رايةٌ ، ومُدَّت لنا غاية ، فقيل لنا فى الراية أن ارفعوها ولا تَضَعُوهَا ، وفى الغاية أن اَجْرُوا إليها ولا تَعْدُوهَا ، فسمعنا دعوة الداعى ، ومقالة الواعى ، فكم

من ناعٍ وناعيةٍ ، لِقَتْلِي فِي الْوَاعِيَةِ (١) ، وَبُعْدًا لِمَنْ طَفَى ، وَأَدْبِرْ وَعَصَى ،
وَكَذَّبْ وَتَوَلَّى ، أَلَا فَادْخُلُوا أَيُّهَا النَّاسُ فَبَايَعُوا بَيْعَةَ هَدَى ، فَلَا وَالَّذِي جَعَلَ
السَّمَاءَ سَقْفًا مَكْفُوفًا (٢) ، وَالْأَرْضَ جِجَاجًا (٣) سُبُلًا ، مَا بَايَعْتُمْ بَعْدَ بَيْعَةِ عَلِيٍّ
ابْنِ أَبِي طَالِبٍ وَآلِ عَلِيٍّ أَهْدَى مِنْهَا .

ثم نزل فدخل ، ودخل عليه أشرف الناس ، فبسط يده وابتدره الناس
فبايعوه ، وجعل يقول : تبايعونني على كتاب الله وسنة نبيه ، والطلب بدماء
أهل البيت ، وجهاد المحلّين ، والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتلنا ، وسلم من
سالمنا ، والوفاء ببيعتنا ، لَا تُقِيلُكُمْ وَلَا نُسْتَقِيلُكُمْ « فَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ نَعَمْ : بَايَعَهُ .
ثم وثب المختار بمن كان بالكوفة من قتلة الحسين رضى الله عنه والمشايخين
على قتله ، فقتل من قدّر عليه منهم ، وهرب من الكوفة بعضهم فلم يقدر عليه ،
وكان ممن قتلهم عمر بن سعد بن أبي وقاص وابنه . وبعث برأسيهما إلى محمد
ابن الحنفية . (تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٨ — خطبة المختار وقد استنصره ابن الحنفية

ولما كتب محمد بن الحنفية رضى الله عنه إلى المختار يعلمه بما ناله هو ومن
معه من ابن الزبير من سجنهم وتوعدهم بالقتل والتحريق بالنار إن لم يبايعوا له (٤)

[١] الواعية : الصراخ على الميب ونعيه (ولا فعل له) والمعنى : كم من ناع وناعية لأناس قتلوا بسبب
نعيهم وصراخهم على من قتل من الحسين وأصحابه ، فهو يستثيرهم لطلب الدار من أعدائهم الذين لم تكفهم
ما اقترفوه من قتل الحسين وشيعته ، بل ضموا إلى جرمهم أن قتلوا من هم هؤلاء الشهداء وبكم .
[٢] الكفة بالكسر ويضم : حباله الصائد ، وكل مستدير . [٣] الفجاج : جمع فح ، وهو
الطريق الواسع .

[٤] وذلك أن محمد بن الحنفية كان عد أي أن يبايع ابن الزبير إذ ذكره البيهقي لم تجتمع عليه الأمة —
وكان ابن الزبير يبغيه ويحسده على أيده وقوته — حبسه مع أربعة عشر رجلا من بني هاشم في سجن عارم
وقال : لتبايعن أو لأحرقنكم ، وأعطى الله عهداً إن لم يبايعوا أن ينفذ فمهم ما توعدهم به ، وضرب لهم في

نادى المختار في الناس ، وقرأ عليهم الكتاب وقال :

« هذا كتاب مهديكم ، وصریح ^(١) أهل بيت نبيكم ، وقد تُرِكُوا
مَحْظُوراً ^(٢) عليهم كما يُحْظَرُ على الغنم ، ينتظرون القتل والتحريق بالنار، في آناء
الليل وتارات ^(٣) النهار، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مُؤَزَّراً ^(٤) ، وإن لم
أسرّب إليهم الخيل في إثر الخيل ، كالسَّيْلِ يتلوه السيل ، حتى يَحُلُّ بابن
الكاهلية ^(٥) الويلُ » . (تاريخ الطبري ٧ : ١٣٦)

ذلك أجلا ، وكتب ابن الحمية إلى المختار مستصرخا ، فوجه إليه جماعة من أصحابه ، وكانوا يسرون الليل
ويكمنون النهار ، حتى انتهوا إلى مكة ، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم ، وكان قد بقي من الأجل
يومان . فكسروا سحن طارم واستخرجوا منه ابن الحنفية ومن معه ، وفالوا له : خل بيننا وبين عدو الله
ابن الزبير ، فقال لهم : إني لأستحل القتال في حرم الله ، وخرج هو وأصحابه إلى شعب على .
[١] الصريح : الحالس من كل شيء . [٢] حظر الشيء وتليه (كقتل) منعه وحجر ، ويقال لما
حظر به على العم وغيرها ليمسها ويحفظها خطيرة . [٣] جمع تارة وهي هنا الحين .
[٤] نصر : مؤزر أى بالغ شديد من التأزير وهو التقوية .

[٥] ابن الكاهلية ، هو عبد الله بن الزبير ، والكاهلية أم أبي جده ، وهو عبد الله بن الزبير بن العوام
ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب ، والكاهلية أم خويلد بن أسد ، واسمها زهرة بنت
عمرو بن خنثر بن رويبة بن هلال من بني كاهل بن أسد بن خزيمه ، وروى أن عبد الله بن فضالة بن شريك
الوالي الأسدي - من بني أسد بن خزيمه - أتى ابن الزبير فقال له : « نفدت نفقتي ، ونفقت راحلتي
(نفق الحف كفتح رق) قال : أحضرها فأحضرها ، فقال : أقبل بها أدبر بها فعل ، فقال : « ارفعها
بسبت ، واخصفها برب ، وأخذ بها يبرد خفها ، وسر البردين تصح » (والسبت كحمل كل جلد مدبوغ
والهلب كقفل الشعر أو ماغلظ منه أو شعر الدب أو شعر الخنزير الذي يخرز به ، والبردان بفتح الباء
وسكون الراء ، والأبردان : الغداة والعشى) فقال ابن فضالة : إني أتيتك مسحلا ، ولم آتتك مستوصفاً
فلعن الله ناقة حملتني إليك (مستحلا أى طالباً أن تحملني على ناقة أخرى تعطينيها) قال ابن الزبير : « إن
وراكبها » (وإن هنا حرف جواب بمعنى نعم كأنه إقرار بما قال ، ومثله قول ابن قيس الرقيات :

ويقلن شيب قد صلا لك وقد كبرت فقلت إنه)

فانصرف عنه ابن فضالة ، وقال فيه شعراً مه قوله :

أقول لعلني شدوا ركابي أجاوز بطن مكة في سواد

فألى حين أقطع دات عرق إلى ابن الكاهلية من معاد

فقال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر : « علم أنها شر أمهاتي فعيرني بها وهي خير صماته » - انظر الألفاظ
« ١ : ٨ » وشرح ابن أبي الحديد « م ٤ : ص ٤٩٥ » وجمع الأمثال للبيداني (١ : ٧٥) وفيه

٧٩ — خطبته وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد^(١)

وخرج يشيع^(٢) إبراهيم بن الأشتر حين شخص لقتال عبيد الله بن زياد^(٣)

فقال للناس :

« فلما بلغ الشعر ابن الزبير قال : لو علم لي أما الأم من عمته لسبى بها » وبهذه المناسبة قول : إن ابن الزبير كان شديد البخل وكان ذلك من أعظم أسباب إخفاقه وانقراض الناس من حوله ، رووا أنه كان يطعم جنده تمرأ ويأمرهم بالحرب ، فإذا فروا من وقع السيوف لامهم وقال لهم : أكتمتمى ، وعصيتم أمرى ، فقال بعضهم :

ألم تر عبيد الله والله غالب على أمره يبغي الخلافة بالتمر

وكسر بعض جنده حمة أرماع في صدور أصحاب الحجاج ، وكلما كسر رعباً أعطاه رعباً ، فشق عليه ذلك ، وقال : خمسة أرماع ! لا يحتمل بيت مال المسلمين هذا ، وجاءه أعرابي سائل فردده ، فقال له : لقد أحرقت الرمضاء قديمي فقال : بل عليهما يردا ، (ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٧) وقدم عليه معن بن أوس بمكة ، فأنزله دار الصيفان — وكان ينزلها الغرباء وأثناء السبيل والصيفان — فأقام يومه لم يطعم شيئاً ، حتى إذا كان الليل جاءهم ابن الزبير بتيس هرم هزيل ، فقال : كلوا من هذا وهم نيب وسبعون رجلاً ، فعضب معن وخرج من عنده ، فأتى ابن عباس فقراه وحمله وكساه ثم أتى عبد الله بن جعفر فأعطاه حتى أرساه ، وأقام عنده ثلاثاً حتى رحل ، فقال معن في ذلك :

رما أبو بكر (وقد طال يومنا) بيس من الساء الحجارى أعفر
وقال : اطعوا منه « ونحن ثلاثة وسبعون إنساناً » فبالؤم محبر
فقلنا له : لا تقربا ، فأماننا جعان ابن عباس العسلا وابن جعفر
وكن آماً وارفق بتيسك إنه له أعز ينزو عليها ، وأبشر

« الأغاني ج ١٠ : ص ١٥٧ »

وقال عبد الملك بن مروان : « ما أعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى ، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ، ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائماً » « تاريخ الطبرى ج ٨ : ص ٥٨ »

[١] قدمنا لك أن مروان بن الحكم لما تمت له البيعة بعث إلى العراق جيشاً عليه عبيد الله بن زياد ، وعلمت ما كان من أمره وأمر التوابين من الشيعة بعين الوردية من أرض الجزيرة ثم التقى به ابن الأشتر على شاطئ نهر خازر من أرض الموصل . [٢] وقد خرج يشيمه ماشياً ، فقال له إبراهيم : اركب يا أبا إسحاق ، فقال : إني أحب أن تغبر قدمى في نصره آل محمد صلى الله عليه وسلم مشيعة فرسحين .

[٣] وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حمماً بيضاً ضحماً ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا ودعوهما ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها ، فلما التقوا كانت على أصحاب إبراهيم الدائرة وأول النهار ، فأرسل أصحاب المختار الطير ، فنصيح الناس : الملائكة ! فتراجعوا واقتتل الناس حتى اختلط الدلام ، وأسرع القتل في أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيوف فيهم حتى أفنوا ، وقال ابن الأشتر : لقد صربت رجلاً على شاطئ هذا النهر ، فرجع إلى سبي فوجدت منه رائحة المسك ، ورأيت إقداماً وجرأة نصرته ، فدهبت يده قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب ، فانظروه فالتسوه فإذا هو عبيد الله بن زياد ، وكان مقتله سنة ٦٧ هـ .

« إن استقمتم فبصر الله ، وإن حصتم حيصة ^(١) فإنى أجد فى مُحكم الكتاب ، وفى اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بلائكة غضاب ، تأتى فى صور الحمام دوين ^(٢) السحاب » . (الكامل للمبرد ٢ : ١٦٩)

٨٠ - خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير

ولما بلغ المختار مسير مصعب بن الزبير إليه من البصرة ^(٣) ، قام فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل الكوفة ، يا أهل الدين ، وأعوان الحق ، وأنصار الضعيف ، وشيعة الرسول ، وآل الرسول ، إن قرأكم الذين بغوا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين فاستغفروهم عليكم ، ليمنصح ^(٤) الحق ، وينتمش الباطل ، ويقتل أولياء الله ، والله لو تهلكون ما عبد الله فى الأرض إلا بالفري ^(٥) على الله ، واللعن لأهل بيت نبيه ، أتدبوا ^(٦) مع أحر بن شميظ : فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قتل عاد ^(٧) وإرم » .

وتزاحف الجندان ، وانهمز أصحاب المختار ، وقتل (فى رمضان سنة ٦٧) ^(٨)
(تاريخ الطبرى ٧ : ١٤٨)

[١] خاص يجبس حيصاً : عدل وهرب . [٢] مصغر دون : أى تريباً منه .

[٣] وكان أخوه عبد الله بن الزبير معه تلما (سنة ٦٧ هـ) بعد عزل التابع عنها (والقباع كشجاع هو الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة الخزومي أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر) فقدم على مصعب سبث بن ريمي ، وجاءه أشرف الناس من أهل الكوفة ، وأخبروه بما اجتمعوا له وبما أصيبوا به ، ووثوب عبيدوم ومواليهم ، وشكوا إليه وسألوه النصر لهم ، والسير إلى المختار معهم .

[٤] منصح كنع : ذهب وانقطع ، والثوب أخلق ، والنبات ولّى لون زدره ، والغل قصر .

[٥] فري الكذب كرمى : اختلقه كفتراه . [٦] اتدب إليه : أسرع .

[٧] أى أبتدوهم كما باد هؤلاء .

[٨] قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ١٦٧) وكان المختار لا يوقف له على مذهب كان خارجياً ، ثم صار رافضياً فى ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمر تكون ، ثم يجتال فيوقعها ،

٨١ - خطبة محمد بن الحنفية

يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام

« خطب ابن الزبير فنال من الإمام على كرم الله وجهه ، فبلغ ذلك ابنه

فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل ، فن ذلك قوله ذات يوم : « لَتَنْزِلَنَّ مِنَ السَّمَاءِ ، نَارٌ دَهْمَاءٌ ، فَتَحْرِقَنَّ دَارَ أَسْمَاءِ » فذكر ذلك لأسماء بن خارجه ، فقال : أوقد سبع أبو إسحق ؟ هو والله مرقق داري ، فتركه والدار وهرب من الكوفة ، وقال في بعض سجمه : « أَمَا وَالَّذِي شَرَعَ الْأَدْيَانَ ، وَجَنَّبَ الْأَوْثَانَ ، وَكَرَّهَ الْعَصِيَانَ ، لِأَقْتَانِ أَزْدِ دُعْمَانَ ، وَجُلِّ قَيْسِ عَيْلَانَ ، وَتَمَيَّا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، حَاشَا النَّجِيبِ ظَبْيَانَ » وكان ظبيان النجيب يقول : لم أزل في عمر المختار أتقلب آمناً .

وقال ابن عبد ربه في المقد الفريد (٢ : ٢٦٥) : « ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة ، وصر ابن سعد جعل يفتن قتلة الحسين بن علي ومن خذله فقتلهم أجمعين ، فلما أدناهم دانت له العراق ، ولم يكن صادق النية ، ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك نغيته أظهر للناس قبح نيته ، فادعى أن حبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحي من الله ، وكتب إلى أهل البصرة « بلغني أنكم تكذبونني وتكذبون رسلي ، وقد كذبت الأنبياء من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم » فلما انتشر ذلك عنه كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير (يعني مصعباً) وهو بالبصرة فخرج إليه ، وبرز إليه المختار فأسلمه إبراهيم بن الأشتر ووجوه أهل الكوفة ، فقتله مصعب وقتل أصحابه .

وقال الشهرستاني في الملل والنحل (١ : ١٥٣) : « ومن مذهب المختار أنه يجوز البدء على الله تعالى ، والبدء له معان ، البدء في العلم وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبدء في الإرادة وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبدء في الأمر وهو أن يأمر بشيء ثم يأمر بسده بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبدء ، لأنه كان يدعي علم ما يحدث من الأحوال ، لما يوحى إليه ، ولما برسالة من قبل الإمام (ابن الحنفية) ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وقد تبرأ ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس بأنه من دعائه ورجاله ، وتبرأ من الضلالات التي ابتدئها من التأويلات الفاسدة ، والمخاريق الموهمة ، فن مخاريقه أنه كان عنده كرسي قديم قد غشاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبني إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يضعه في براح الصف ، ويقول : فاتلوا ولكم الظفر والنصرة ، وهذا الكرسي عمل فيكم عمل التابوت في بني إسرائيل ، وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم يرلون مدداً لكم (أخذاً من

محمد بن الحنفية رضى الله عنه ، فأقبل حتى وُضِعَ لَهُ كُرْسِيٌّ قَدَامَهُ ، فعلاه وقال :
 « يا معشر قريش ، شاهت الوجوه ^(١) ، أَيُنْتَقَصُ عَلَيَّ وَأَنْتُمْ حُضُورٌ؟ إِنْ عَلِيًّا كَانَ
 مَهْمًا صَادِقًا ، أَحَدًا مَرَامِي اللهُ عَلَى أَعْدَائِهِ ، يَقْتُلُهُمْ لِكُفْرِهِمْ ، وَيُهَوِّعُهُمْ ^(٢)
 مَا كَلِمَتُهُمْ ، فَتَقْتُلُ عَلَيْهِمْ ، فَرَمَوْهُ بِصِرْفَةِ ^(٣) الْأَبَاطِيلِ ، وَإِنَّا مَعْشَرٌ لَهُ عَلَى نَهْجِ ^(٤)
 مِنْ أَمْرِهِ بِنُورِ الْحِسْبَةِ ^(٥) مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَإِنْ تَكُنْ لَنَا الْأَيَّامُ دَوْلَةً نُنْشِرُ عِظَامَهُمْ ،
 وَنُحْسِرُ ^(٦) عَنْ أَجْسَادِهِمْ ، وَالْأَبْدَانُ يَوْمُئِذٍ بِأَلِيَّةٍ : وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ
 يَنْقَلِبُونَ » .

فعاد ابن الزبير إلى خطبته وقال : « عذرت بنى الفواطم يتكلمون ، فما
 بال بنى الحنفية ؟ » فقال محمد : « يابن أم رومان ^(٧) ، ومالي لا أتكلم ؟ أليست
 فاطمة بنت محمد حليّة ^(٨) أبي وأم إخوتي ؟ أليست فاطمة ^(٩) بنت أسد

قوله تعالى : « وَفَالْهَلُمُّ نَبِيَّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ
 مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » ويقال إنه اشتراه بدرهمين من نجار - انظر قصته في تاريخ
 الطبري (٧ : ١٤٠)

[١] شاه وجهه : فيج . [٢] هو عه ما أكل : قيام إياه . [٣] مؤنث صرف ، والصرف :
 الخالص من كل شيء ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والأباطيل : جمع أطولة بضم الهزرة أو
 إبطالة بكسرها أو هو جمع باطل على غير قياس . [٤] النهج : الطريق الواضح .

[٥] الحسبة : الاحتساب (طلب الأجر) في الأعمال الصالحات ، وعند المكروهات دو البدار إلى
 طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والصبر ، أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلباً
 للثواب المرجو بها . [٦] حصره كنصر وضرب : كشفه . [٧] أم رومان بنت عامر هي زوج
 أبي بكر رضى الله عنه وأم السيدة عائشة . [٨] زوجته .

[٩] هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أم الإمام عليّ كرم الله وجهه ، وقد أسلمت بعد
 عشر من المسلمين فكانت الحادى عشر ، وهي أول امرأة بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء .

ابن هاشم جدّتي؟ أو ليست فاطمة^(١) بنت عمرو بن عائذ جدّة أبي؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد^(٢) ما تركت في بني أسد عظماً إلا هشمته، وإن نالتني فيه المصائب صبرت». (مروج الذهب ٢: ١٠٢)

٨٢ — عبد الله بن عباس ومعاوية

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قريش، فلما سلم وجلس، قال له معاوية: «إني أريد أن أسألك عن مسائل» قال: «سل عما بدالك». قال: «ما تقول في أبي بكر؟» قال: «رحم الله أبا بكر، كان والله للقرآن تالياً، وعن المنكر ناهياً، وبذنبه عارفاً، ومن الله خائفاً، وعن الشبهات زاجراً، وبالمعروف آمراً، وبالليل قائماً، وبالنهار صائماً، فاق أصحابه ورعاً وكفافاً^(٣)، وسادهم زهداً وعفافاً، فغضب الله على من أبغضه وطعن عليه». قال معاوية: «إيهاً^(٤) يابن عباس، فما تقول في عمر بن الخطاب؟» قال: «رحم الله أبا حفص عمر، كان والله حليف الإسلام، وماوى الأيتام، ومنتهى الإحسان، ومحل الإيمان، وكهف^(٥) الضعفاء، ومعتل الحنفاء^(٦)، قام بحق الله عز وجل صابراً محتسباً^(٧)، حتى أوضح الدين، وفتح البلاد، وأمن العباد، فأعقب الله على من ينقضه اللعنة إلى يوم الدين». قال: «فما تقول في عثمان؟» قال: «رحم الله أبا عمرو وكان والله أكرم الجعدة^(٨)، وأفضل البرّة، هجّاداً^(٩)

[١] هي فاطمة بنت عمرو بن عمران بن مخزوم أمّ أبي طالب، وهي أمّ عبد الله والد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. [٢] هي زوج النبي صلى الله عليه وسلم وعمّة الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد. [٣] أي رضا بالكفاف، والكفاف من الرزق ما كفى عن الناس وأغنى. [٤] أي بالسكرت أي حسبك. [٥] الكهف: الملجأ، وكذا المعتل. [٦] جمع خنيف، وهو الصحيح الليل إلى الإسلام الثابت عليه. [٧] احتسب بكذا أجراً عند الله: اعتده ينوي به وجه الله. [٨] الكرام، يقال للكرام: جسد بفتح فسكون، فأما إذا قيل فلان جعد السيدين أو جعد الأنامل فهو البخيل، وربما لم يذكروا معه اليد. [٩] الهجّاد والهجود: بفتح الهاء، والتهجد: المصلى بالليل.

بالأسحار ، كثير الدموع عند ذكر النار ، نهائاً عند كل مكرمة ، سبأً إلى كل منحة ، حياً أياً وفيها ، صاحب جيش العسرة^(١) ، وختن^(٢) رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأعقب الله على من يعنه لعنة اللاعنين ، إلى يوم الدين » قال : « فما تقول في علي ؟ » قال : « رضى الله عن أبي الحسن ، كان والله علم الهدى ، وكهف الثقي ، وتحمل الحجا^(٣) ، وبحر الندى ، وطود النهى^(٤) ، وكهف العلا ، للورى داعياً إلى المحجة^(٥) ، متمسكا بالعروة الوثقى ، خير من آمن واتقى ، وأفضل من تقمص وارتنى ، وأبر من اتعل وسعى^(٦) ، وأفصح من تنفس وقرا ، وأكثر من شهد النجوى - سوى الأنبياء والنبي المصطفى - صاحب القبطين ، فهل يوازيه أحد ؟ وأبوالسبطين^(٧) فهل يقارنه بشر ؟ ، وزوج خير النسوان^(٨) ، فهل يفوقه قاطن بلد ؟ للأسود قتال ، وفي الحروب ختال^(٩) ، لم ترعيني مثله ولن ترى ، فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد ، إلى يوم التناد^(١٠) » قال : « إيهما يا بن عباس ، لقد أكثرت في ابن عمك . قال : « فما تقول في أبيك العباس ؟ » قال : « رحم الله العباس - أبا الفضل ، كان صنو^(١١) نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وقرّة عين صفي الله ، سيد الأعمام ، له أخلاق آباءه الأجواد ، وأحلام أجداده الأعجاد ، تباعدت

[١] تقدم شرحه في خطبة ذي الكلاع الجبرى . راجع الجزء الأول ص ١٦٤

[٢] أى صهره وقد تزوج السيدة رقية والسيدة أم كلثوم ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[٣] الحمل في الأصل : شقان على البير يحمل فيهما العديلان ، والحجا : العقل والفتنة .

[٤] الطود : الجبل ، والنهى العقل . [٥] الطريق الواضح . [٦] في الأصل « واسعا »

وهو تحريف . [٧] الحسن والحسين رضى الله عنهما وهما سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(والسبط ولد الولد) . [٨] السيدة فاطمة رضى الله عنها . [٩] خداع من الحمل وهو الخداع

والمراد أنه ذو بصر بالحروب . [١٠] يوم القيامة .

[١١] الأصل فيه أنه إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو والاثنتان

صنوان والجمع صنوان برفع النون .

الأسباب في فضيلته ، صاحب البيت والسّاقية والمّشاعر^(١) والتلاوة ، ولم لا يكون كذلك ، وقد ساسه أكرم من دبّ^(٢) ؟ فقال معاوية : « ابن عباس ، أنا أعلم أنك كَلَمَانِي^(٣) أهل بيتك » قال : « ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم فقّههُ في الدين ، وعَلَّمهُ التّأويل . »

ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام : « يا معاوية ، إن الله جل ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه ، خصّ محمداً صلى الله عليه وسلم بصحابةٍ آثروه على الأنفس والأموال ، وبذلوا النفوس دونه في كل حال ، ووصفهم الله في كتابه فقال : « رَحْمَاءٌ يَنْبَهُمُ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَاهُكُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ » ، قاموا بمعالم الدين ، وناصحوا الاجتهاد للمسلمين ، حتى تهذبت طرقة ، وقويت أسبابه ، وظهرت آلاء^(٤) الله ، واستقرّ دينه ، ووضّحت أعلامه ، وأذل الله بهم الشرك ، وأزال رُوحه ، ومحا دعائمه ، وصارت كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة العالية ، فقد كانوا في الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء أصحياء ، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها ، وخرجوا من الدنيا وهم بعدُ فيها » ، فقطع عليه معاوية الكلام ، وقال : إِيهًا ابن عباس ، حديثاً في غير هذا .

(مروج الذهب ٢ : ٨٤)

[١] شعار الحج بالكسر : مناسكه وعلاماته ، والشعيرة والشعارة بالفتح ، والشعر : موضعها ، والمشرع الحرام بالمزدلفة . [٢] في الأصل : « من دبّ » أي مشى والمعنى عليه صحيح ، ولكني أرجح أنه « من أدب » لقوله « وقد ساسه » . [٣] رجل كلماني بسكون اللام وفتحها وكلماني بكسرتين مشدد اللام ، وبكسرتين مشدد الميم ، وتكلام وتكلاوة بكسرتين وتشد لهما : جيد الكلام فصيح . [٤] الآلاء : النعم جمع إلى (بفتح أوله وكسره) وألو (بفتح أوله) وألى (بفتح ثانيه وفتح أوله او كسره) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان جريئاً على معاوية حَقَّاراً له ^(١) ، فبلغه عنه بعض ما غمّه ، فقال معاوية :

٨٣ - مقال معاوية

رحم الله أبا سفيان والعباس ، كَانَا صَفِيَّيْنِ ^(٢) دون الناس ، خَفِظْتُ المِيتَ في الحى ، والحى في الميت ، استعملك على يابن عباس على البصرة ، واستعمل عبِيدَ الله أخاك على اليمن ، واستعمل أخاك ^(٣) على المدينة ، فلما كَانَ من الأمر ما كان ، هَنَأْتِكُمْ ^(٤) ما فى أيديكم ، ولم أ كَشِفِكُمْ عما وَعَتَ غرأركم ^(٥) ، وقلت آخذ اليوم وأعطى غداً مثله ، وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة الكرم ، ولو شئت لأخذت بحلاقيمكم وقيأتكم ما أكلتم ، لا يزال يبلغنى عنكم ما تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم ، خذاتم عثمان بالمدينة ، وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وطار بتمونى بصيفين ، ولعمري لَبَنُوا تَيْمَ وَعَدِيَّ ^(٦) أعظم ذنوباً منا إليكم ، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسنؤا فيكم هذه السنّة ، فحتى متى أَغْضَى الجفون على القذى ^(٧) ، وأسحب الذبول على الأذى ، وأقول لعلّ الله وعسى ! ما تقول يابن عباس ؟

[١] أى كثير التحقير له . [٢] الصقّ : الحبيب المصافى . [٣] لما جاء عليا الخبر عن طلحة والزبير وعائشة أُمّر على المدينة تمام بن العباس ، وبعث إلى مكة فثم بن العباس (ثم كعمر) وخرج لايهم [٤] هنأه كنع وصرّب : أطعمه وأعطاه . [٥] جمع غرارة بالكسر وهى الجوائق (التوال) . [٦] يعنى يبنى تيم أبابكر الصديق (وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى) ويعنى يبنى عدى صمر بن الخطاب (وهو من عدى بن كعب بن لؤى) . [٧] القذى : ما يقع فى العين والشراب .

٨٤ — مقال ابن عباس

فتكلم ابن عباس فقال :

« رحم الله أبانا وأباك ، كنا صفيين متفاوضين ^(١) ، لم يكن لأبي من مال إلا ما فَضَلَ لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبي ، ولكن من هنا أباك بإخاء أبي أكثر ممن هنا أبي بإخاء أبيك ، نصر أبي أباك في الجاهلية ، وَحَقَنَ دمه في الإسلام ^(٢) ، وأما استعمال عليّ إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجالا لهواك لا لنفسك ، منهم ابن الحضرميّ على البصرة فقتل ، وبُسْر بن أرطاة على اليمن نغان ، وحبيب بن مرة على الحجاز قرْد ، والضحّاك بن قيس الفهري على الكوفة فحُصِبَ ، ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا ، وليس الذي يبلغك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك ، ولو وُضِعَ أصغر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمَحَقَّها ، ولو وُضِعَ أدنى عذرنا إليكم على مائة سيئة لحَسَنَّاها ، وأما خذلنا عثمانَ فلو لَزِمْنَا نَصْرَهُ لَنَصَرْنَاه ، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل ، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه ، وأما حربنا إياك بصفين ، فعلى تركك الحقَّ وادِّعائك الباطل ، وإما إغراؤك إيانا بتيمة وعدى فلو أردناها ما غلبونا عليها » وسكت . (العقد الفريد ٢ : ١١٠)

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٥ — مقال معاوية لابن عباس

أقبل معاوية يوماً على ابن عباس ، فقال :

« لو وليتمونا ما أتيتم إيانا ما أتينا إليكم من الترحيب والتقريب وإعطائكم

[١] التفاوض : الاشتراك في كل شيء والمساواة . [٢] يشير إلى ما كان من العباس إذ شفع عند النبي عليه الصلاة والسلام في أبي سفيان يوم فتح مكة .

الجزيل ، وإكرامكم على القليل ، وصبري على ما صَبَرْت عليه منكم ، إني لا أريد أمراً إلا أظمأتم صدره^(١) ، ولا آتى معروفاً إلا صغرتم خطره^(٢) ، وأعطيتكم العطية فيها قضاء حقوقكم ، فتأخذونها متكارهين عليها ، تقولون قد نَقَصَ الحَقَّ دون الأمل ، فأى أمل بعد ألف ألف أعطيها الرجل منكم ، ثم أكون أسراً بإعطائها ، منه بأخذها؟ والله لئن انخدعت لكم في مالي ، وذَلَّتْ لكم في عرضي ، أرى انخداعي كرماً ، وذَلِّي حِلماً ، ولو وليتمونا رضينا منكم بالانتصاف ، ولا نسألكم أموالكم لعلمنا بحالكم وحالنا ، ويكون أبنغضها إلينا أحبها إليكم أن نُعْفِيَكُمْ .

٨٦ - مقال ابن عباس

فقال ابن عباس :

« لو وَلِينَا أحسنًا المِوَأَسَاةَ ، وَاَمْتَنْنَا بِالْأَثَرَةِ^(٣) ، ثُمَّ لَمْ نَعْفِمْ^(٤) الحى ، وَلَمْ نَشْتُمْ المِيتَ^(٥) ، فَلَسْتُمْ بِأَجْوَدَ مِنَّا كُفًّا ، وَلَا أَكْرَمَ أَنفُسًا ، وَلَا أَصْوَنَ لِأَعْرَاضِ المِروءَةِ ، وَنَحْنُ وَاللَّهِ أَعْطَى لِلاَخِرَةِ مِنْكُمْ لِلدُّنْيَا ، وَأَعْطَى فِي الحَقِّ مِنْكُمْ فِي البَاطِلِ ، وَأَعْطَى عَلَى التَّقْوَى مِنْكُمْ عَلَى الهَوَى ، وَالْقَسَمَ بِالسُّوِيَّةِ وَالْعَدْلِ فِي الرِّعْيَةِ يَا تِيَّانَ عَلَى المَنَى وَالْأَمَلِ ، مَا أَرْضَاكُمْ مِنَّا بِالكِفَافِ ، فَلَوْ رَضَيْتُمْ مِنَّا لَمْ نَرْضَ بِأَنفُسِنَا بِهِ لَكُمْ ، وَالْكَفَافُ رِضًا مِنْ لَاحِقٍ لَهُ ، فَلَا تُبَخِّلُونَا^(٦) حَتَّى تَسْأَلُونَا ، وَلَا تَلْفِظُونَا حَتَّى تَدُوقُونَا . »

(العقد الفريد ٢ : ١١١)

[١] يقال ورد الماء ليستقى ثم صدر عنه أى رجع ، صدرأ « يسكون الدال » وصدوراً والاسم منه الصدر « بفتحين » أى أصدرتم ورددتم واردة ظمان لاريان ، يريد أنهم دائبون على مخالفته فى كل أمر ، يرون ضد رأيه . [٢] قدره وشأه . [٣] استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة والاسم الأثرة ، والمعنى وامتنا أى وتفضلنا وأنعمنا بما نستأثر به . [٤] غشمة غشياً : ظلمه . [٥] يعرض به فى سبه عليا على المنابر . [٦] لازمونا بالبخل (بجمله بالنشديد : رماه بالبخل ، وأبخله : وجدته بخيلاً) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٨٧ - مقال معاوية لبني هاشم

اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال :

« يا بني هاشم : والله إن خيري لكم لمنوح ، وإن بابي لكم لفتوح ، فلا يقطع خيري عنكم علةٌ ، ولا يُوصدُ^(١) بابي دونكم مسألةٌ ، ولما نظرت في أمري وأمركم رأيت أمراً مختلفاً ، إنكم لترون أنكم أحق بما في يدي مني ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقكم قلم أعطانا دون حقنا ، وقصّر بنا عن قدرنا ، فصرت كالمسلوب ، والمسلوب لا حمد له ، وهذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم »

٨٨ - مقال ابن عباس

فأقبل عليه ابن عباس فقال :

« والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه ، ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك ، لله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفرن أنفسنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسامين ، ولنا في كتاب الله حَقٌّ : حق في الغنيمة ، وحق في النى . فالغنيمة : ما غلبنا عليه ، والنى : ما اجتبيناه ، ولولا حقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر ، يحمله خُفٌ ولا حافر ، أ كفاك أم أزيدك ؟ قال : كفاني فإنك لا تُعزُّ^(٢) ، ولا تُشجُّ^(٣) . »

(العقد الفريد ٢ : ١١١)

[١] أى ولا يفتق « وفي الأصل ولا يوجد » وهو تحريف . [٢] لا تعز أى لا تغلب ، عزه

يعزه (كنصره) عزا (بالفتح) غلبه « وفي الأصل لا تعز » وهو مصحف .

[٣] شج رأسه : جرحه ، والمراد لا تغلب ولا تهزم .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٨٩ - مقال معاوية

وقال يوماً معاوية وعنده ابن عباس : « إذا جاءت بنوهاشم ^(١) بقديعها وحديثها ، وجاءت بنو أمية ^(٢) بأحلامها وسياستها ، وبنو أسد ^(٣) بن عبد العزى بوافدها وديانها ، وبنو عبد الدار ^(٤) بحجابتها ولوائها ، وبنو مخزوم ^(٥) بأموالها وأفعالها ، وبنو تميم ^(٦) بصديقتها وجوادها ، وبنو عدى ^(٧) بفاروقها ومتفكرها ، وبنو سهم ^(٨) بأرائها ودهائها ، وبنو جحج ^(٩) بشرفها وأنوفها ^(١٠) ، وبنو عامر ابن لؤى بفارسها وقريعتها ^(١١) فمن ذا يحمل مضارها ، ويجرى إلى غايتها ، ما تقول يا ابن عباس ؟

[١] بنوهاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة الخ . [٢] بنو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف

[٣] بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب .

[٤] بنو عبد الدار بن قصي ، والحجاية سدانة البيت الشريف أى تولى مفاتيحه وخدمته ، واللواء راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى محاربة عدو فيجتمعون تحتها ويقاتلون عندها ، وكان قصي بن كلاب قد ولى البيت الحرام وأمر مكة والحكم بها ، وابنى داراً بها وهى دار الندوة ، وكانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ، وقد ولد له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد ، فلما كبر قصي ورق ، مال لابنه عبد الدار - وهو أكبر ولده ، وكان فيما يزعمون ضعيفاً ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه ، وذهب كل مذهب ، وعد العزى ، وعبد - « أما والله لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها ، ولا يعقد لقريش لواء الحرب إلا أنت بيدك ، ولا يشرب رجل بمكة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاماً إلا من طعامك ، ولا تقطع قريش أموراً إلا في دارك ، فأعطاء داره دار الندوة ، وأعطاء الحجابة ، واللواء والندوة ، والسقاية ، والرفادة ، (وكانت الرفادة خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي به فيصنع طعاماً للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد من يحضر الموسم) . [٥] بنو مخزوم بن يقظة (بالتحريك) بن مرة بن كعب بن لؤى . [٦] بنو تميم بن مرة بن كعب بن لؤى .

[٧] بنو عدى بن كعب بن لؤى . [٨] بنو سهم بن هميم (كزبير) بن كعب بن لؤى ، وسهم

صمرو بن العاص السهمي . [٩] بنو جحج بن هميم بن كعب . [١٠] جمع أنف وهو السيد .

[١١] القريع : المقارع .

٩٠ - مقال ابن عباس

قال : « لا أقول ليس حتى يَفْخَرُونَ بأمرٍ إلا وإلى جنبهم من يشرَكهم إلا قُرَيْشًا ، فإنهم يَفخرون بالنبوة التي لا يشاركون فيها ، ولا يُساوون بها ، ولا يُدفعون عنها ، وأشهد أن الله لم يجعل محمداً من قريش إلا وقريش خير البرية ، ولم يجعله في بني عبد المطلب إلا وهم خير بني هاشم ، يريد أن يفخر عليكم إلا بما تفخرون به ، إنَّ بنا فُتِحَ الأمرُ و بنا يُنختم ، ولك مُلْكٌ مُعجَّل ، ولنا ملكٌ مُوجَّل ، فإن يكن ملككم قبل ملكنا ، فليس بعد ملكنا ملك ، لأنَّ أهل العاقبة ، والعاقبة للمتقين . (المقد الفريد ٢ : ١١٢)

٩١ - عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

لما بلغ معاوية نعى الحسن بن علي رضي الله عنه أظهر الفرح والسرور ، حتى سجد وسجد من كان معه ، فبلغ ذلك عبد الله بن عباس ، وكان بالشام يومئذ ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية : يا بن عباس هلك الحسن ابن علي ، فقال ابن عباس :

« نعم هلك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ترجيعاً مكرراً ، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ماسد جسده حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله في عمرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أُصِبتنا به لقد أُصبتنا بمن كان خيراً منه ، جدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجبر الله مصيبتَه ، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة » ثم شهق وبكى ، وبكى من حضر في المجلس ، وبكى معاوية . (الإمامة والسياسة ١ : ١٢٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٢)

٩٢ - عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

قال عُتْبَةُ بن أبي سَفِيَّانَ لابن عباس : « ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحَكَمين ؟ » قال : « منعهُ والله من ذلك حاجز القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء ، أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مَدَارِجِ نَفْسِهِ ، نَاقِضًا لما أبرم ، ومبرمًا لما نقض ، أُسِفٌ ^(١) إِذَا طَارَ ، وَأَطِيرُ إِذَا أَسَفَ ، ولكن مضى قدر ، وبقى أسف ، ومع يومنا غد ، والآخرة خير لأمر المؤمنين من الأولى » . (عجاز القرآن ١٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٩٥ ، وأمالى المرتضى ١ : ٢٠٧)

مخاصمة

بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

قال ابن أبي الحديد : « روى المدائني قال : وقد عبد الله بن عباس على معاوية مرة ، فقال معاوية لابنه يزيد . ولزيد بن سُمَيَّةَ . وعُتْبَةَ بن أبي سفيان . ومروان بن الحكم . وعمرو بن العاص . والمغيرة بن شُعْبَةَ . وسعيد بن العاص . وعبد الرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس . وما كان شَجَرٌ ^(٢) بيننا وبينه وبين ابن عمه ، ولقد كان نَصَبَهُ للتحكيم فدُفِعَ عنه ^(٣) ، فخرَّ كوه على الكلام لنبلغ حقيقة صفته ، ونقفَ على كنهه معرفته ، ونعرف ما صُرفَ عنا من شَبَابٍ ^(٤) حدِّه . ووُورِيَ عنا من دهاء رأيه ، فربما وُصِفَ المرء بغير ما هو فيه . وأُعْطِيَ من النعت والاسم ما لا يستحقه . ثم أرسل إلى عبد الله ابن عباس . فلما دخل واستقر به المجلس . ابتدأه ابن أبي سفيان فقال : يا ابن عباس ما منع عليا أن يُوجِّهَ بك حكما ؟

[١] أسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه .

[٢] شجر بينهم الأمر : تنازعوا فيه . [٣] لما رأى على إصرار من قبلوا التحكيم من قومه وتشبههم

قبوله أشار عليهم أن يختاروا ابن عباس أو الأشتر النخعي حكماً من قبلهم فأبوا إلا أبا موسى الأشعري .

[٤] الشبا جمع شبابة ، وهي حد كل شيء .

٩٣ - جواب ابن عباس

فقال : « أما والله لو فعل لقرن عمرًا بصعبة من الإبل ، يُوجع كتفيه
مِرأسها^(١) ، ولأذهلت عقله ، وأجرضته بريقه^(٢) ، وقد حث في سويداء قلبه ،
فلم يُبرم أمرًا ، ولم ينفض ترابًا إلا كنت منه برأى ومسمع ، فإن نكته
أرمت^(٣) قواه ، وإن أرمه فصمت^(٤) عراه ، بغرب^(٥) مقول لا يفل حده ،
وأصالة رأي كمتاح^(٦) الأجل لا وزرمنه ، أصدع^(٧) به أديمه ، وأفل به
شبا حده ، وأشحد به عزائم المعتز^(٨) ، وأزيح به شبه الشاكين . »

٩٤ - مقال عمرو بن العاص

فقال عمرو بن العاص : « هذا والله يا أمير المؤمنين نجوم^(٩) أول الشر ،
وأقول آخر الخير ، وفي حسمه قطع مادته ، فبادره بالجملة ، وانتهز منه الفرصة ،
واردع بالتنكيل به غيره ، وشرده من خلفه . »

٩٥ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « يابن النابغة ، ضل والله عقلك ، وسفه حلمك ، ونطق
الشیطان على لسانك ، هلا تواليت ذلك بنفسك يوم صفيين ، حين دُعيت

[١] أى علاجها وقيادتها . [٢] جرض بريقه كمرح ابتاعه بالجهد على م ، وأجرضه بريقه :
أغصه . [٣] أرم الجبل : قتله شديداً .
[٤] حلت . [٥] الغرب : حد كل شيء ، والمقول : اللسان . [٦] من إضافة الصفة
للموصوف أى كالأجل المتاح أى المنذر والوزر الملقب . [٧] أشق ، والأديم : الجلد ، وهو كناية
عن غلبته إياه وانتصاره عليه . [٨] فى الأصل « انتقيز » وقد بحث فى كتب اللغة عن مادة
« قيز » فلم أجد هذه المادة ، فقلبت الكلمة على الأوجه التى يظن أنها معرفة عنها ، ورجح لدى أنها
معرفة عن « المعتز » من اعتز : أى تنحى وانفرد ، يريد الذين تنحوا عن الفتنة والنزاع بين على
ومعاوية وكانوا محايدين . [٩] ظهور (مصدر نجم) .

نَزَالٍ^(١) وتكافح الأبطال ، وكثرت الجراح ، وتقصفت الرماح ، وبرزت إلى أمير المؤمنين مصاولاً ، فأنكفأ نحوك بالسيف حاملاً ، فلما رأيت الكواثر^(٢) من الموت ، أعددت حيلة السلامة قبل لقائه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه ، ففتحته رجاء النجاة عورتك ، وكشفت له خوف بأسه سوءتك ، حذراً أن يصطامك^(٣) بسطوته ، أو يلتهمك بحملته ، ثم أشرت على معاوية كالناصح له بمبارزته ، وحسنت له التعرض لمكافحته ، رجاء أن تكتفي بثوته ، وتمدم صورته ، فعلم غل صدرك ، وما انحنت عليه من النفاق أضلعك ، وعرف مقر سهمك في غرضك ، فاكف غرب لسانك ، وأقع عوراء^(٤) لفظك ، فإنك بين أسد خادر^(٥) ، وبحر زاخر ، إن تبرزت للأسد اقترسك ، وإن عممت في البحر قسك^(٦) .

٩٦ - مقال مروان بن الحكم^(٧)

فقال مروان بن الحكم : « يابن عباس إنك لتصرف^(٨) بنابك ، وتورى نارك ، كأنك ترجو الغلبة ، وتؤمل العاقبة ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، لتناولكم بأقصر أنامله ، فأوردكم منهلاً بعيداً صدره^(٩) ، ولعمري لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم ، ولئن عفا عن جرأركم لقد يمًا ما نُسب إلى ذلك » .

[١] نزال اسم فعل بمعنى انزل أى حين قال الأبطال بعضهم لبعض نزال . [٢] جمع كوثر ، وهو الكثير من كل شيء والنهر . [٣] اصطله : استأصله . [٤] العوراء : الكلمة أرفعلة الفيحة . [٥] الحدر : أجة الأسد ومنه قيل أسد خادر . [٦] غمسك وأغرنتك . [٧] هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة ، واستعمله معاوية على المدينة ومكة والطائف ، وولى الخلافة بعد موت معاوية الثاني سنة ٦٤ هـ ومات بالشام في ٣ رمضان سنة ٦٥ ، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . [٨] صرفت البكرة تصرف كضرب صرفاً : صوتت عند الاستقاء وهو أيضاً صرير الباب وناب البعير . [٩] الصدر : الرجوع .

٩٧ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « وإنك لتقول ذلك يا عدو الله ، وطريد رسول الله ^(١) صلى الله عليه وسلم ، والمباح دمه ^(٢) ، والداخل بين عثمان ورعيته بما حملهم على قطع أوداجه ^(٣) ، وركوب أثباجه ^(٤) ، أما والله لو طلب معاوية ثأره لأخذك به ، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره ، وأما قولك لى : إنك لتصرف بنايبك ، وتورى نارك ، فسل معاوية وعمراً يخبراك ليلة الهريير ^(٥) كيف ثباتنا للمثلات ^(٦) ، واستخفافنا بالمعضلات ، وصدق جلاذنا عند المصاولة ، وصبرنا

[١] يريد « وياطريد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبيك » أو « وياين طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فإن المحقق أن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوه الحكم بن أبي العاص ، وذلك أنه قدم المدينة بعد الفتح - وكان قد أسلم يوم الفتح - فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وقال : « لانسأ كنى في بلد أبدأ » لوقيته فيه ، قيل : كان يتسمع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلع عليه من باب بيته ، وإنه هو الذى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفقأ عينه بمدري في يده لما اطلع عليه من الباب ، وقيل كان يحكى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيته وبعض حركاته - وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيته - فالتفت يوماً فرآه وهو يتحلمج في مشيته ، فقال « كن كذلك » فلم يزل يرتعش في مشيته من يومئذ وطرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعنه وأبعده حتى صار مشهوراً بأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل منفياً حياة النبي صلى الله عليه وسلم فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليرده إلى المدينة ، فقال : « ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكذلك عمر فلما ولي عثمان الخلافة - والحكم صم - رده ، وقال : « كنت قد شفعت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدنى برده » وقد توفى في خلافة عثمان . أما مروان فلم ير النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه خرج إلى الطائف طملاً لايقل لما نبي النبي أباه - وقد ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة - وقيل إنه ولد بالطائف لابان نبي أبيه بها .

[٢] أى في فتنه عثمان ، وذلك أن الثرار بعد أن هدا الإمام على ثأرتهم خرجوا عن المدينة ، ولكنهم في أثناء رجوعهم ضبطوا غلام عثمان ، ومعه كتاب إلى طامل مصر يأمره فيه بقتلهم ، فعادوا إلى المدينة ثانية وكانوا يعتقدون أن مروان هو الذى كتب ذلك الكتاب ، وقد سألوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فأبى أن يسلمه وخشى عليه القتل . [٣] جمع ودج (محرمة) وهو عرق الأخدع الذى يقطعه الداح ، فلا يبقى منه حياة . [٤] جمع نبيج (محرمة) وهو ما بين الكاهل إلى الظهر . [٥] هى ليلة العاشر من صفر سنة ٣٧ ، وفيها حمل جيش على جيش معاوية في وقعة صفين حملة عنيفة ، واقتتلوا تلك الليلة كلها حتى الصباح ، وأوشك جيش على أن تكرون له الغلبة . [٦] جمع مثلة (كفرقة) من مثلت بالقتيل اذا نكلت به .

على اللأواء^(١) والمطاولة ، ومصأفخنأ بآبأهنأ السآوف المرهفة^(٢) ، ومبأشرفنأ بنحورنأ حدأ الأسنة ، هل آمنأ^(٣) عن كرفأم تلك المواقف ؟ أم لم نبذل مهآبنأ^(٤) للمتألف ؟ وآلس لك إذ ذاك فهفأ مآمأم محمود ، وآ يوم مشهود ، وآ أثر معدود ، وإنهنأ شهدأ مآلوشهدت لأقلآك ، فآربع على ظلآك^(٥) ، وآ تتعرض لمآ لس لك ، فآنك كآلمفروز فف صفة^(٦) ، لآ يهبط برآل ، وآ آرفقأ^(٧) آفد .

٩٨ - مآل آفد

فقال آفد : « آبن عبأس ، إنف لأعلم ، مآ منع آسنأ وآسفنأ من الوفود معك على أمفر المؤمنفن إلف مأسولت لهما أنفسهما ، ورفهما به من هو عند البأساء فسفهما^(٨) ، وآفم الله لو ولفئفهمأ لأدأبأ^(٩) فف الرآلة إلف أمفر المؤمنفن أنفسهما ، ولقل بمآنهما كبئفهمأ » .

٩٩ - آواب ابن عبأس

فقال ابن عبأس : « إذن وآ الله فقفصردونهما بآعك ، وآ فضفق بهما ذرآعك ، ولو رومت ذلك لوجدت من دونهما ففة صدقأ صبرأ^(١٠) على البلاء ، لآ آآفمون عن اللقاء ، فلعرآوك بكلآكلهم^(١١) ووطنوك بمنأسفهم^(١٢) وآوآررك^(١٣) مشق رماآهم ، وشفآر^(١٤) سفوفهم ، وآ وآنرأسفئهم ، آف آشهد بسوء مآ آفئت ،

[١] اللأواء : الشدة . [٢] المرقة . [٣] آام ٤٤ بآفم : آبن ونكس .
[٤] آمع مهآة وهف الدم أو الروح . [٥] ربح كآع وقف وآنظر وآحبس ، وظلع ظلمأ كآع آمز ف مشفه ، وآ ربح على ظلمك آف إنك ضعف فآنه عمآلآ آطفقه وآسكت على مآ ففك من عفب .
[٦] الصفة : الففد ، وف الأبل « كآلمفروز فف صفة » وآرآ « كآلمفرون فف صفة » .
[٧] آف فصفد وفعلو : رقأ فف الدرجة صعد : فقال رقآت ورقفب (كرفضفب) وآترك الهمة أكثر .
[٨] أسله : آذله . [٩] آآهدأ وآنعبأ . [١٠] آف ذآ صدف وآصبر على البلاء أو هو « صدقأ صبرأ » بضمفبن آمع صدوق وآصبور . [١١] آمع كلشكل وهو الصدر . [١٢] آمع منسم (كآجلس) وهو آف البعفر . [١٣] أوآره الرمح : طعنه به فف ففه ، وآ المشق سرعة فف الطعن وآضرب أو هو بمعنف مفعول ، قصب ممشوق آف طولب دقفق . [١٤] آمع شفرة وهف حد السفب .

وتتبين ضياع الحزم فيما جنيت ، فحذارِ حذارٍ من سوء النية ، فإنها ترد الأمانة ، وتكون سبباً لفساد هذين الحيين بعد صلاحهما ، وسعيًا في اختلافهما بعد اتلافهما ، حيث لا يضرهما إيناسك^(١) ، ولا يُغني عنهما إيناسك .

١٠٠ - مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم :

« لله درُّ ابن مُلجَم^(٢) ، فقد بَلَغَ الأملَ ، وأَمَّنَ الوَجِلَ ، وأَحَدَ الشَّفْرَةَ ، وألانَ المُهْرَةَ ، وأدركَ الثَّارَ ، وَتَنَّى العارَ ، وفازَ بالمنزلة العُلَيَا ، وَرَقَى الدرجة القصوى .»

١٠١ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« أما والله لقد كَرَعَ^(٣) كَأْسَ حَتْفِهِ يده ، وَعَجَّلَ اللهُ إلى النارِ برُوحه ، ولو أبَدَى لأمير المؤمنين صَفْحَتَه ، لخالطةُ الفحلِ القَطِمِ^(٤) ، والسيفِ الخَدِمِ ، وَلَا لَعَقَه صاباً^(٥) ، وسقاه سِماماً^(٦) ، وألحقه بالوليد وَثْبَةً وَحَنْظَلَةً^(٧) ، فكلهم كان أشدَّ منه شَكِيمَةً^(٨) ، وأمضى عزيمةً ، فَقَرَى بالسيفِ هامَهُم^(٩) ، وَرَمَلَهُم^(١٠) بدمائهم ، وَقَرَى الذَّنَابَ أَشْلَاءَهُم^(١١) ، وفرق بينهم وبين أحبائهم ،

[١] الإيناس : التلذذ بالنافذة وقت حلبها بأن يقال لها بس بس (بفتح فسكون) تكيناً لها .
[٢] هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنه الله قاتل الإمام عليّ . [٣] كرع في الماء : تناوله بفيه من مودعه . [٤] قطم الفحل كفرح فهو قطم اشتغى الضراب . [٥] عصارة شجر مرّ .
[٦] جمع سم مثلث السين . [٧] الوليد بن عتبة خال معاوية ، وعتبة بن ربيعة جده لأمه ، وحنظلة ابن أبي سفيان أخوه ، وقد قتلهم عليّ يوم بدر . [٨] الشكيمة : الأنفة ، وهو شديد الشكيمة أي أنف أبي لاسقاد . [٩] هام جمع هامة وهي الرأس .
[١٠] رمل الثوب : اطحه بالدم ، ويموز أن يكون وزمهم أي لنهم بدمائهم (على المجاز) .
[١١] أشلاء جمع شلو وهو العضو ، وقري الضيف قري (بالكسر) : أضافه .

أولئك حصَّب^(١) جهنم لها واردون ، فهل تحسب منهم من أحدٍ أو تسمع لهم
ركزاً^(٢) ؟ ولا غزو إن ختل ، ولا وصمة إن قتل ، فإننا لآكما قال دُرَيْدُ
ابن الصَّمَّةِ :

فإنَّا للآخِمْ السَّيْفِ غيرَ مُكْرَهٍ وَنُدَجِمُه طوراً وليس بذي نُكْرٍ^(٣)
يفار علينا وارين فيشْتَقِي بنا إن أصبنا أو تُغير على وترٍ^(٤)

١٠٢ - مقال المغيرة بن شعبة

فقال المغيرة بن شعبة :

« أما والله لقد أشرتُ على عليّ بالنصيحة ، فأثر رأيه ، ومضى على غلوائه^(٥) ،
فكانت العاقبة عليه لاله ، وإني لأحسب أن خلفه يقتدون بمنهجه » .

١٠٣ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« كَانَ والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلمَ بوجوه الرأي ، ومعاقد الحزم ،
وتصريف الأمور ، من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه ، وعنف عليه ، قال سبحانه
وتعالى : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ^(٦) اللَّهَ

[١] الخطب وما يرى به في النار . [٢] الصوت الخفى . [٣] ألمه : أطمعه اللحم .

[٤] الوتر : الأثر ، وقد وتره يتره .

[٥] الغلواء : الغلوة ، وذلك أن المغيرة جاء علياً بهد مقل عثمان ، وقال له : ان النصح رخيص وأنت
بقية الناس وأنا لك ناصح ، وأنا أشير عليك أن ترد عمال عثمان طامك هذا ، فاكتب إليهم بانياتهم على أعمالهم
فإذا بايعوا لك ، واطمأن أمرك عزلت من أحببت ، وأقررت من أحببت ، فقال له : والله لا أداهن في
ديني ، ولا أعطى الرياء في أمري ، قال : فإن أبيت فآزرع من شئت وارك معاوية فإن له جراءة وهو في
أهل الشام مسدوع منه ، ولك حجة في إنباته فقد كان عمر ولاء الشام كلها ، فقال له : لا والله لا أستعمل
معاوية يومين أبداً . (وقد كان ابن عباس يرى إنبات معاوية حتى يبائع ، وقال لعليّ : فإن بايع لك فعلىّ
أن أقلعه من منزله ، فقال عليّ : لا والله لا أعطيه إلا السيف) . [٦] حاده : غاضبه وطأه وخالفه .

وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » ولقد وقفك على ذكر مبین ، وآية متلوّة ، قوله تعالى : « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا » . وهل كان يسوغ له أن يُحَكِّم في دماء المسلمين ، وفِيء المؤمنين ، من ليس بمأمون عنده ، ولا موثوق به في نفسه ؟ هيهات هيهات ، هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يُبَيِّن خلاف ما يُظْهِر إلا للتَّيْقِيَّة (١) ، ولات حينَ تقيّةٍ ، مع وضوح الحق ، وثبوت الجنان ، وكثرة الأنصار ، يمضي كالسيف المُصَلَّت (٢) في أمر الله ، مؤثِّراً لطاعة ربه والتقوى ، على آراء أهل الدنيا .

١٠٤ - مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد بن معاوية :

« يا بن عباس ، إنك لتنطق بلسان طليق (٣) ، ينبئ عن مكنون قلب حرق (٤) ، فاطو على ما أنت عليه كشحاً (٥) ، فقد محاضوء حقناً ظلمة باطلكم » .

١٠٥ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« مهلاً يزيد ، فوالله ما صفت القلوب لكم ، منذ تكدرت بالعداوة عليكم ، ولا دننت بالمحبة إليكم ، مذ نأت بالبعضاء عنكم ، ولا رضيت اليوم منكم ، ماسخطت بالأمس من أفعالكم ، وإن تُدِل (٦) الأيامُ نستقض ما شدنا ، ونسترجع

[١] التقيّة : المحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء إذا كانت العداوة بسبب الدين .

[٢] السلول . [٣] لسان طلق : (بسكون اللام وكسرها) ذلق .

[٤] الحرق المحروق : وفي الحديث « الحرق شهيد » وفي رواية « الحريق » أي الذي يقع في حرق

النار (بفتحين) فيلتهب ، والحرق محرّكة النار ولهبها ، وفي الحديث « الحرق والمرق والشرق شهادة » وحرقت شمره كفتح تقطع ونسل :

[٥] الكشح ما بين الحاصرة إلى الضلع الخلاب ، وطوى كشحه على الأمر أضمره وستره .

[٦] أداله الله بن عدوه : نصره عليه .

ما ابتز^(١) منا ، كئيلًا بكيل ، ووزنًا بوزن ، وإن تكن الأخرى ، فكفى بالله وليًا لنا ، ووكيلا على المعتدين علينا .

١٠٦ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« إن في نفسي منكم لحزازات يابني هاشم ، وإني لخليق أن أدرك فيكم النار ، وأنبي العار ، فإن دماءنا قبلكم ، وظلامتنا فيكم . »

١٠٧ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« والله إن رمت ذلك يا معاوية ، لتثيرن عليك أسدًا مُخْدَرَةً^(٢) ، وأفاعى مُطْرِقَةً ، لا يفثوها^(٣) كثرة السلاح ، ولا تعضها نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ، يضربون قُدُماً قُدُماً من ناوأهم^(٤) ، يهون عليهم تُباح الكلاب ، وعواء الذئاب ، لا يفاتون بوتر ، ولا يُسبِقون إلى كريم ذكر ، قد وطئوا على الموت أنفسهم ، وسمت بهم إلى العلياء همهم ، كما قالت الأزدية .

قومٌ إذا شهدوا الهياج فلا ضربٌ مِينَهُمْ وَلَا زَجْرٌ^(٥)

وكانهم آسادٌ غِيْنَةٌ قد غرثت وبل متوتها القطر^(٦)

فلتكونن منهم بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب فرسك ، وكان أكبرهمك سلامة حُشاشة^(٧) نفسك ، ولولا طعام^(٨) من أهل الشام وقوك بأنفسهم ،

[١] ما سلب . [٢] أخدر للأسد : لزم الأجمة ، وأخدر العرين الأسد ستره فهو مخدر (بكسر

الذال وفتحها) . [٣] فثأ الفضب كنع سكه وكسره ، والقدر سكن غليانها .

[٤] القدم : الشجاع والمضى أمام أمام ، وناوأم عادم .

[٥] نهيه عن الأمر : كفه وزجره . [٦] النينة : بالكسر الأجمة ، والفينة بالفتح الأشجار المنفة

في الجبال وفي السهل بلاماء ، فإذا كانت بجاء فهي غيضة ، وغرث : كفرح جاع فهو غرثان .

[٧] الحشاشة : بقية الروح في الرئس والجريح . [٨] الطعام : أوغاد الناس .

وبذلوا دونك مُهَجِّم ، حتى إذا ذاقوا وخز الشُّقَار ، وأيقنوا بحلول الدِّمار ،
رفعوا المصاحف مستجيرين بها ، وعائذين بعصمتها ، لكنك شلوا مطروحاً
بالعراء^(١) ، تسنى عليك رياحها^(٢) ، ويعتورك ذئابها ، وما أقول هذا أريد
صرفك عن عزيمةك ، ولا إزالتك عن معقود نيّتك ، لكن الرِّحِم التي تعطف
عليك ، والأوامر التي توجب صرف النصيحة إليك .

فقال معاوية : « لله درك يا بن عباس ، ما تكشف الأيام منك إلا عن
سيف صقيل ، ورأى أصيل ! وباللّٰه لو لم يلد هاشم غيرك ، لما نقص عددكم ، ولو لم
يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثّرهم » ثم نهض فقام ابن عباس وانصرف .
(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٥)

عبد الله بن عباس وعمر بن العاص

قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم العرب ، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبنى
أمية ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مشاهدته بصفين ، واجتمعت قريش فأقبل عبد الله
ابن عباس على عمرو فقال :

١٠٨ - مقال ابن عباس

« يا عمرو إنك بعت دينك من معاوية ، وأعطيته ما بيدك ، ومناك ما بيد
غيره ، فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك ، والذي أخذت منه دون
الذي أعطيته ، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى^(٣) ، فاما صارت مصر في يدك كدّرها

[١] العراء : البضاء لا يستر فيه شيء . [٢] سفت الريح الغراب تسفيه ذرته أو حمله .
[٣] وذلك أن عمرا لما لحق بمعاوية بعد أن بلغه مقتل عثمان سأله معاوية أن يتبعه ، قال عمرو فاكتب
لي مصر وكورها طعمة فكتب له ، وقال عمرو في ذلك :

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل به منك دنيا فانظرن كيف تصنع
فإن تعطيني مصرأ فأرجح صفة أخذت بها شيئا يضر وينفع

عليك بالعزل والتنغيص^(١) ، حتى لو كانت نفسك في يدك ألقيتها ، وذكرت يومك مع أبي موسى ، فلا أراك نَحَرْتِ إِلَّا بِالْعَدْرِ ، وَلَا مَنَنْتِ إِلَّا بِالْفَجُورِ وَالنَّشِ ، وذكرت مشاهدك بِصِفَيْنِ ، فوالله ما ثقلت علينا وَطْأَتَكَ ، ولقد كَشَفْتَ فِيهَا عَوْرَتَكَ ، وَإِنْ كُنْتَ فِيهَا لَطْوِيلَ اللِّسَانِ ، قَصِيرَ السِّنَّانِ ، آخِرَ الخَيْلِ إِذَا أَقْبَلْتَ ، وَأُولَهَا إِذَا أَدْبَرْتَ ، لك يدان : يد لا تَبْسُطُهَا إِلَى خَيْرٍ ، وَأُخْرَى لَا تَقْبِضُهَا عَنْ شَرٍّ ، ولسان غرور ذو وجهين : وجهٍ مُوَحِّشٍ ، ووجهٍ مُؤَنِّسٍ ، ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لَحْرِيٌّ أَنْ يَطْوِلَ عَلَيْهَا نَدْمَهُ ، لك لسان وفيك خَطَالٌ ، ولك رأى وفيك نَكَدٌ ، ولك قدر وفيك حَسَدٌ ، وَأَصْفَرُ عَيْبِ فَيْكَ أَعْظَمُ عَيْبٍ فِي غَيْرِكَ .

١٠٩ - رد ابن العاص

فأجابه عمرو بن العاص : « والله ما في قریش أثقلُ عليَّ مسألةً ، ولا أمرٌ جواباً منك ، ولو استطعتُ أَلَّا أَجِيبَكَ لَفَعَلْتُ ، غير أنني لم أبع ديني من معاوية ، ولكن بعث الله نفسي ، ولم أنس نصيبي من الدنيا ، وأما ما أخذت من معاوية

ثم إنه سنة ٣٨ في جيش لغزومصر ، وكان عليها محمد بن أبي بكر من قبل الإمام عليّ فهزمه وقتله ، وصارت مصر في حوزة معاوية فولاه عليها أميراً .

[١] روى ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير (ج ٤ : ص ٥) قال :

« لما صار الأمر في يدي معاوية استكثر طعمة مصر لعمرو ما عاش ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبتيديره وعنائه وسميه فيه ، وظن أن معاوية سيزيده الشام مع مصر ، فلم يفعل معاوية ، فتنكر عمرو لمعاوية فاختلفا وتغالظا . وتميز الناس ، وظنوا أنه لا يجتمع أمرهما ، فدخل بينهما معاوية بن حديج وأصلح أمرهما ، وكتب بينهما كتاباً ، وشرط فيه شروطاً لمعاوية ، وعمرو خاصة ، وللناس عليه ، وأن لعمرو ولاية مصر سبع سنين وعلى أن على عمرو السمع والطاعة لمعاوية ، وتوافقا وتماهدا على ذلك ، وأشهدا عليهما به شهوداً ، ثم مضى عمرو بن العاص على مصر والياً عليها ، وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين ، فوالله ما مكث بها إلا سنتين أو ثلاثاً حتى مات . »

وأعطيته فإنه لا تُعَلَّمُ الْعَوَانُ الْخِمْرَةَ (١) . وأما ما أتى إلى معاوية في مصر فإن ذلك لم يغيّرني له ، وأما خفة وطأتي عليكم بصفين ، فلما استثقتكم حياتي واستبظّأتم وفاتي . وأما الجبن فقد علمت قريش أني أول من يبارز ، وآخر من ينازل . وأما طول لساني ، فإنني كما قال هشام بن الوليد لعثمان بن عفان رضى الله عنه :

لساني طويل فاحترس من شدّاته عليك ، وسيفي من لساني أطول (٢)
وأما وجهي ولساني ، فإنني ألقى كل ذي قدر بقدره ، وأرى كل ناجح بحجره ، فمن عرف قدره كفاني نفسه ، ومن جهل قدره كفيته نفسي ، ولعمري ما لأحد من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية ، فما ينفعني ذلك عندك ، وأنشأ عمرو يقول :

بني هاشمٍ مالي أراكم كأنكم	بني اليوم جهالٌ؟ وليس بكم جهل
ألم تعلموا أني جسور على الوغى	سريعٌ إلى الداعي إذا كثر القتل
وأول من يدعو «نزأل» . طبيعة	جُبلتُ عليها ، والطّباع هو الجبل (٣)
وأني فصّلت الأمر بعد اشتباهه	بدومة إذ أعيأ على الحكم الفصل (٤)
وأني لا أعيأ بأمرٍ أريده	وأني إذا عجّت بكاركم فحل (٥)

(المقدم الفريد ٢ : ١١٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٩٦)

١١٠ - عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً

حج عمرو بن العاص فرّاً بعبد الله بن عباس ، فحسده مكانه وما رأى من

[١] في المثل « إن العوان لا تعلم الخمرة » والعوان من النساء التي كان لها زوج ، والخمرة اسم من

الاختمار ، واختمرت المرأة لبست الخمار بكسر الخاء (الطرحة) يضرب للرجل ا رب .

[٢] الشذاة : الحدة ، والشدا والشذا بالذال والذال حد كل شيء .

[٣] أي نازلوني أيها الأقران ، والطباع : الطبيعة والسجية جبل عليها الإنسان ، والجبل : مصدر جبل .

[٤] هي دومة الجندل التي اجتمع فيها الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري .

[٥] البكار : جمع بكرة (بالفتح) وهي الناقة الفتية ، ومجت أي صاحت ورفعت صوتها .

هَيْبَةُ النَّاسِ لَهُ، وَمَوْقِعُهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ ، فَقَالَ لَهُ يَا بَنَ عَبَّاسِ : «مَالِكٌ إِذَا رَأَيْتَنِي وَلَيْتَنِي الْقَصْرَةَ»^(١) ، وَكَانَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ دَبْرَةٌ^(٢) ، وَإِذَا كُنْتَ فِي مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ كُنْتَ الْهُوَاهَاةَ^(٣) الْهُمَزَةَ ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : «لَأَنْتَ مِنَ اللَّثَامِ الْفَجْرَةِ ، وَقَرِيشُ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ ، لَا يَنْطِقُونَ بِبَاطِلٍ جَهْلَوهُ ، وَلَا يَكْتُمُونَ حَقًّا عَلِمُوهُ ، وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ أَحْلَامًا ، وَأَرْفَعُ النَّاسِ أَعْلَامًا . دَخَلْتَ فِي قَرِيشٍ وَلَسْتَ مِنْهَا ، فَأَنْتَ السَّاقِطُ بَيْنَ فِرَاشِينَ ، لَا فِي بَنِي هَاشِمٍ وَرَحْلِكَ ، وَلَا فِي بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ رَاحِلَتِكَ ، فَأَنْتَ الْأَثِيمُ الزَّئِيمُ»^(٤) الضَّالُّ الْمُضِلُّ ، حَمَلَكِ مَعَاوِيَةَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، فَأَنْتَ تَسْطُو بِحَمَلِهِ ، وَتَسْمُو بِكِرْمِهِ « فَقَالَ عَمْرُو : أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَمَسْرُورٌ بِكَ ، فَهَلْ يَنْفَعُنِي عِنْدَكَ ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : حَيْثُ مَالُ الْحَقِّ مِلْنَا ، وَحَيْثُ سَلَكْتَ قَصَدْنَا .

(القمد الفريد ٢ : ١١٢)

١١١ - مفاخرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس

تزوج عبد الله بن الزبير أمَّ عمرو بنت منظور بن زَبَانَ الْقَزَارِيَّةَ ، فَلَمَّا دَخَلَ بِهَا قَالَ لَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ : أَتَدْرِينَ مِنْ مَعَكَ فِي حَجَلَتِكَ^(٥) ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ الزَّبِيرِ بْنِ الْعَوَّامِ بْنِ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى . قَالَ : لَيْسَ غَيْرَ هَذَا ؟ قَالَتْ : فَمَا الَّذِي تَرِيدُ ؟ قَالَ : مَعَكَ مِنْ أَصْبَحٍ فِي قَرِيشٍ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، لَا بِلَ بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ . قَالَتْ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ بَعْضَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ

[١] القصرة : أصل العنق في مركبه و الكاهل ، ويقال لعنق الإنسان كله قصره ، والمعنى وابتني عتقك لإعراضاً عنى . [٢] الدبرة : بسكون الباء وفتحها الهزيمة و القتال وهو اسم من الأدبار والمراد بها هنا الاغضاء وعدم الاقبال . [٣] قال صاحب اللسان ، وفي حديث عمرو بن العاص : « كنت الهوَاهَاةُ الهِزَّةُ » الهراهة الأحمق ، وقال أيضاً : « رجل هوهاه وهواهة وهواهة بفتح الأول ضعيف الفؤاد جبان ، ورجل هوهاه بضم الأول جبان أيضاً . [٤] الزئيم المستلحق في قوم ليس منهم والدعوى . [٥] الحجلة كالقبة ، وموضع يزين بالثياب والستور للعروس .

حَضْرِكَ ، لِقَالَ لَكَ خِلَافٌ قَوْلِكَ ، فَغَضِبَ وَقَالَ : الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ عَلَيَّ حَرَامٌ حَتَّى أُحْضِرَكَ الْمَاشِمِينَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَذَلِكَ إِنكَارًا ، قَالَتْ : إِنْ أَطَعْتَنِي لَمْ تَفْعَلْ ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ وَشَأْنُكَ ، فَخَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَرَأَى حَلْقَةً فِيهَا قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، مِنْهُمْ : عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَصِينِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، فَقَالَ لَهُمُ ابْنُ الزَّيْبِرِ : أَحِبُّ أَنْ تَنْطَلِقُوا مَعِيَ إِلَى مَنْزِلِي ، فَقَامَ الْقَوْمُ بِأَجْمَعِهِمْ ، حَتَّى وَقَفُوا عَلَى بَابِ بَيْتِهِ ، فَقَالَ ابْنُ الزَّيْبِرِ : يَا هَذِهِ اطْرَحِي عَلَيْكَ سِتْرَكَ ، فَلَمَّا أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ دَعَا بِالْمَائِدَةِ فَتَغَدَّى^(١) الْقَوْمُ ، فَلَمَّا فَرَّغُوا قَالَ لَهُمْ : إِنَّمَا جَمَعْتُمْ لِحَدِيثٍ رَدَّتهُ عَلَيَّ صَاحِبَةُ السِّتْرِ ، وَزَعَمْتُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ بَعْضُ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حَضَرَنِي لَمَّا أَقَرُّ لِي بِمَا قُلْتُ ، وَقَدْ حَضَرْتُمْ جَمِيعًا ، وَأَنْتَ يَا بَنِي عَبَّاسٍ مَا تَقُولُ ؟ إِنْ أُخْبِرْتُمَا أَنْ مَعَهَا فِي خِدْرِهَا مَنْ أَصْبَحَ فِي قُرَيْشٍ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، لَا يَلُ بِمَنْزِلَةِ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ ، فَردَّتْ عَلَيَّ مَقَالَتِي .

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَرَأَيْكَ قَصَدْتَ قَصْدِي ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَقُولَ قَلْتُ ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَكْفَّ كَفَفْتُ . قَالَ : بَلْ قُلْ ، وَمَا عَسَى أَنْ تَقُولَ ؟ أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ أَبِي الزَّيْبِرَ حَوَارِيُّ^(٢) رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَأَنْ أُمِّي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ذَاتِ النَّطَاقَيْنِ^(٣) ؟ وَأَنْ عَمَّتِي خَدِيجَةُ سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ؟

[١] تغدى : أكل أول النهار ، والغداء : الطعام الذي يؤكل أول النهار ضد العشاء ، (وسمى السحور غداء ، لأنه للصائم بمنزلة الغداء للفطر) . [٢] الحواري : الناصر أو ناصر الأنبياء . قال عليه الصلاة والسلام : « الزبير بن العوام ابن عمتي ، وحواري من أمتي » .

[٣] كان يقال لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ذات النطاقين ، قيل : لأنها كانت تطارق نطاقا على نطاق (طارق بين ثوبين : طابق) وقيل : إنه كان لها نطاقان تلبس أحدهما ، وتحمل في الآخر الزاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه وهما في النار . قال الأزهري : وهذا أصبح

وَأَنْ صَفِيَّةٌ عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَدَّتِي ^(١) ؟ وَأَنْ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ خَالَتِي ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ لِهَذَا إِنْكَارًا ؟

قال ابن عباس : لا ، ولقد ذكرتَ شرفاً شريفاً ، ونفراً فاخراً ، غيرَ أنك تفاخر من يفخره نفرتَ ، وبفضله سموت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تذكر نفراً إلا برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا أوتى بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئتُ لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوة . قال ابن عباس : قد أنصف القارةَ من راماها ^(٢) ، نشدتكم الله أيها الحاضرون ، أعبدُ المطلبَ أشرفُ أم خوَيْلِد في قريش ؟ قالوا : عبدالمطلب . قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد ؟ قالوا : بل هاشم . قال : أفعبد مناف أشرف أم عبد العزّي ؟ قالوا : عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تُنَافِرُنِي يَا بَنَ الزَّبِيرِ ! وَقَدْ قَضَى عَلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ لَا قَوْلَ هَازِلٍ

القوانين ، وقيل : إنما شقت نطاقها نصفين ، فاستعمت أحدهما وجعلت الآخر شداداً لرادهما ، وجاء في المقد الفريد (ج ٢ ص ٢٧٠) أن الحجاج لما حصر ابن الزبير بمكة ناداه وذاك يابن ذات النطاقين ، أقبل الأمان ، وادخل في طاعة أمير المؤمنين ، فدخل على أمه أسماء ، فقال لها سمعت رجلك الله ما يقول انقوم ، وما يدعوني إليه من الأمان ؟ قالت : سمعتهم لعنهم الله ! فما أجهلهم ! وأعجب منهم إذ يعيرونك بذات النطاقين ، ولو علموا ذلك لكان ذلك أعظم نورك عندهم ، قال : وما ذلك يا أمّاه ؟ قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره مع أنى بكر (وروى عن عائشة رضي الله عنها أنه خرج معه مهاجرين كما جاء في لسان الرب) فهيات لها سفرة ، فطلبا شيثا يربطانها به فما وجداه ، فقطعت من مؤزري لذلك ما احتلجا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إن لك به نطاقين في الجنة ، وفي انقاموس المحيط : لأنها شقت نطاقها ليلة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، فجعلت واحدة لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأخرى عصاماً لقربته . [١] هي جدته لأبيه .

[٢] القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة ، وبزعمون أن رجلين النبيا ، أحدهما قارى ، فقال القارى : إن شئت صارحك ، وإن شئت ساجتلك ، وإن شئت راميتك ، فقال الآخر : قد اخترت المراماة ، فقال القارى : قد أنصفتي ، وأنشأ يقول :

قد أنصف القارة من راماها إنا إذا فئسة نلقاها
نرد أولاهنا على أخراها

ثم انتزع له بسهم ، فشك به فؤاده .

ولو غيرنا يابن الزبير فخرته **وَلَكِنَّا سَامَيْتَ شَمْسَ الْأَصَابِلِ** ^(١)
 قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالفضل في قوله : « ما افتقرت فرقتان إلا
 كنت في خيرهما » فقد فارقتك من بعد قصى ^(٢) بن كلاب ، أفنحن في فرقة
 الخير أم لا ، إن قلت نعم خصمت ، وإن قلت لا كفرت ، فضحك بعض
 القوم ، فقال ابن الزبير : أما والله لولا تحرثك ^(٣) بطعامنا يابن عباس لأعرت ^(٤)
 جبينك قبل أن تقوم من مجلسك . قال ابن عباس : ولم أباطل ؟ فالباطل
 لا يغلب الحق ، أم بحق ؟ فالحق لا يخشى من الباطل .

فقال المرأة من وراء الستر : إني والله لقد نهيتك عن هذا المجلس فأبى إلا
 ماترون ، فقال ابن عباس : مه أيتها المرأة ، اقنعي ببعلك ، فما أعظم الخطر ،
 وما أكرم الخبر ، فأخذ القوم بيد ابن عباس وكان قد عمى ، فقالوا : انهض أيها
 الرجل فقد أفحمتك غير مرة ، فنهض وقال :

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا لغفا وناما ^(٥)

فقال ابن الزبير : يا صاحب القطا أقبل على ، فما كنت لتدعني حتى أقول :
 وأيم الله لقد عرّف الأقسام أنى سابق غير مسبوق ، وابن حواري وصدّيق ،
 متبجح ^(٦) في الشرف الأنيق ، خير من طليق ^(٧) وابن طليق ، فقال ابن عباس

[١] الأصائل جمع أصيل وهو الشئ « ما بعد صلاة العصر إلى الغروب » .

[٢] كان من أولاده عبد العزيز بن قصى (ومن سلالة ابن الزبير) وعبد مناف بن قصى (ومن سلالة بنو هاشم) . [٣] تحرم منه بجمرة تمتع وتحمى بدمه .

[٤] أى لذكرت لك من المساوى ما يهرق له جبينك ويندى خجلا . [٥] عفا وأغنى : نام نومة خفيفة . [٦] من تبجح به إذا افتخر وتعظم ، وأرجح أنه « متبجح » من تبجح أى تمكن والمقام والمول

[٧] يمرض بأبيه العباس بن عبد المطلب ، وكان خرج مع المشركين في غزوة بدر الكبرى ووقع أسيرا ،

وقد أطلقه عليه الصلاة والسلام بعد أن أخذ منه الفدية « ويروى أنه لما طلب منه الفداء قال : علام يؤخذ مني الفداء ، وكنت مسلما ؟ ولكن القوم استكروهونى ، فقال له صلى الله عليه وسلم : الله أعلم بما تقول

إن يك حقا ، فإن الله يجزيك ، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا » .

رُسِغْتَ بِجُرَّتِكَ^(١) فلم تُبْقَ شيئاً ، هذا الكلام مردود ، من امرئ حَسُودٍ ، فإن كنتَ سابقاً فإلى من سبقتَ ؟ وإن كنتَ فاحراً فبمن نَحَرْتَ ، وإن كنتَ أدركتَ هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا . وإن كنتَ إنما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، وَالْكَشْكُوتُ^(٢) في فك وبيدك ، وأما ما ذكرتَ من الطَّلِيقِ ، فوالله لقد ابْتُلِيَ فَصَبَرَ ، وَأُنْعِمَ عَلَيْهِ فَشَكَرَ ، وَإِنْ كَانَ وَاللهَ لَوْفِيًّا كَرِيمًا ، غيرَ نَاقِضٍ بَيِّنَةً بعد توكيدها ، ولا مُسْلِمٍ كَتِيبَةً بعد التأثر عليها^(٣) ، فقال ابن الزبير : أتعير الزبير بالجبين ؟ والله إنك لتعلم منه خِلافَ ذلك ، قال ابن عباس : والله إنى لأعلم إلا أنه فرَّ وما كَرَّ ، وحارب فما صَبَرَ ، وباع فاستتمَّ ، وقطع الرَّحِمَ ، وأنكر الفضلَ ، ورام ما ليس له بأهل^(٤) :

وأدرك منها بعض ما كان يرتجى وقصر عن جرئ الكرام وبلداً

وما كان إلا كالهجين أمامه عتاق ، فجراه العتاق فأجهداً^(٥)

فقال ابن الزبير : لم يبقَ يابني هاشم غيرُ المشاعة والمضاربة ، فقال عبد الله بن الحصين بن الحرث ، أقناه عنك يابن الزبير ، وتأبى إلا منازعته ؟ والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ، ما كنتَ إلا كَالسَّفِيبِ^(٦) الظمان ، يفتح فاه

[١] الجرة بالضم والفتح : عصا تربط إلى حباله ، تعيب في التراب للظي يعطاد بها ، فيها وتر ، فإذا دخلت يده في الحباله انعقدت الأوتار في يده ، فإذا وثب ليفك فمد يده ، ضرب بتلك العصا يده الأخرى ورجله فكسرها ، ورسغ البعير شد رسغ يديه بخيط ، والمعنى وقعت في حبالك ، وعاد ما نخرت به حجة عليك لا لك ، وفي الأصل « رسعت » بالعين ، ولا يستقيم المعنى بذلك (يقال : رسع الصبي كنع : شد في يده أو رجله خرزاً للدفع العين ، ورسعت أعضاؤه : فسدت واسترخت) وربما كان الأصل « رصعت » من رصعه بالرمح إذا طعنه طعنا شديداً غيب السنان كله فيه ، أى طعنت بسهمك وارتدت إليك حجتك ، ومعناه كالأول . [٢] الكشكوت (بفتح الكافين وكسرهما) : التراب وفنات الحجارة .

[٣] يعرض بالزبير وقد بايع الامام ثم نكث ببعته ، وخرج لقتاله مع أصحاب الجمل ثم اعتزلهم .

[٤] أى رام الخلافة ، وقد قال للإمام حين حاوره قبل نتوب وقعة الجمل : « لا أراك لهذا الأمر أهلاً ولا أولى به منا » . [٥] فرس هجين : إذا لم يكن عتيقاً ، وفرس عتيق أى كريم والجمع عتاق ، وفي الأصل « عتاق » بالون ، وهو تصحيف . [٦] الجائم .

يستزيد من الرِّيح ، فلا يَشْبَع من سَنَب^(١) ، ولا يَرَوَى مِنْ عَطَش ، فقل إن شئت أو قدَّع ، وانصرف القوم . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ٥٠١)

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

وكان يوضع إلى جانب سرير مروان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة - سرير آخر أصغر من سيره ، فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل ، وتوضع الوسائد فيما سوى ذلك ، فأذن مروان يوماً للناس ، وإذا سرير آخر قد أُحْدِثَ تَجَاهَ^(٢) سرير مروان ، فأقبل ابن عباس فجلس على سيره ، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المُحْدَث ، وسكت مروان والقوم ، فإذا يد ابن الزبير تتحرك ، فعلم أنه يريد أن ينطق ، ثم نطق فقال :

١١٢ - مقال ابن الزبير

« إن ناساً يزعمون أن بيعة أبي بكر كانت غلطاً وقلتةً ومُغَالَبَةً ، ألا إن شأن أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ! ويزعمون أنه لولا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم ، والله ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحدٌ أثبت إيماناً ، ولا أعظم سابقةً من أبي بكر ، فمن قال غير ذلك فعليه لعنة الله ، فأين هم حين عقَد أبو بكر لعمر فلم يكن إلا ما قال ، ثم ألقى عمر حظهم في حظوظ ، وجدهم في جدود ، فقسمت تلك الحظوظ ، فأخر الله سهمهم ، وأدحض جدَّهم ، وولى الأمر عليهم من كان أحقَّ به^(٣) منهم ، فخرجوا عليه خروج اللصوص

[١] جوع . [٢] تجاهه ووجهه مثلين : تلقاء وجهه .

[٣] يشير إلى اختيار عمر رضى الله عنه أصحاب الشورى السنة ، وفيهم الامام على كرم الله وجهه ، وما كان من مبايعة عثمان رضى الله عنه بالخلافة .

على التاجر خارجاً من القرية ، فأصابوا منه غيرة^(١) فقتلوه ، ثم قتلهم الله به كل قتيلاً ، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب .

١١٣ — مقال ابن عباس

فقال ابن عباس : « على رسلك^(٢) أيها القائل في أبي بكر وعمر والخلافة، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئاً ، إلا وصاحبنا خيرٌ ممن نالا ، وما أنكرنا تقدم من تقدم لعيب عينا عليه ، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلاً وفوق الأهل ، ولولا أنك إنما تذكر حظَّ غيرك ، وشرف امرئ سواك لكلماتك ، ولكن ما أنت وما لاحظ لك فيه ؟ اقتصر على حظك ، ودع تيناً لتيم ، وعدياً لمدى^(٣) وأمية لأمية ، ولو كامن تيمى أو عدوى أو أموى ، لكلمته وأخبرته خبر حاضر عن حاضر ، لا خبر غائب عن غائب ، ولكن ما أنت وما ليس عليك ؟ فإن يكن في أسد بن العزى شيء فهو لك ، أما والله لنحن أقرب بك عهداً ، وأبيض بك يداً ، وأوفر عندك نعمة ، ممن أمسيت تظن أنك تصول به علينا ، وما أخلق ثوبُ صفة بعدد ، والله المستعان على ما تصفون . »

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٤٩٠)

١١٤ — خطبة عبد الله بن عباس

يرد على عبد الله بن الزبير وقد عاب بنى هاشم

لما كشف عبد الله بن الزبير بنى هاشم ، وأظهر بغضهم وعابهم ، وهم بما هم به في أمرهم ، ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبه ، لا يوم الجمعة ولا غيرها ، عاتبه على ذلك قوم من خاصته ، وتشاءموا بذلك منه ، وخافوا عاقبته ،

[١] غفلة . [٢] الرسل : الرفق والتؤدة . [٣] تيم رهط أبي بكر الصديق ، وعدى رهط عمر الفاروق .

فقال : « والله ما تركت ذلك علانيةً إلا وأنا أقوله سرًّا وأكثير منه ، لكنني رأيت
 بنى هاشم إذا سمعوا ذكره ، أشربأبوا^(١) واحمرَّت ألوانهم ، وطالت رقابهم ، والله
 ما كنت لآتي لهم سروراً وأنا أقدر عليه ، والله لقد هممت أن أحظر لهم حظيرةً ،
 ثم أضرمها عليهم ناراً ، فإني لا أقتل منهم إلا أنما كفاراً سحاراً ، لا أنعام الله ،
 ولا بارك عليهم ! بيت سوء لا أول لهم ولا آخر ، والله ما ترك نبي الله فيهم
 خيراً ، استفرغ^(٢) نبي الله صدقهم ، فهم أكذب الناس ، فقام إليه محمد بن سعد
 ابن أبي وقاص فقال : « وفقك الله يا أمير المؤمنين ! أنا أول من أعانك في
 أمرهم » . فقام عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي فقال : « والله ما قلت صواباً ،
 ولا هممت برشد ، أرهط رسول الله صلى الله عليه وآله تعيب ، وإياهم تقتل ،
 والعرب حولك ؟ والله لو قتلت عدتهم أهل بيت من الترك مسامين ، ما سوغته
 الله لك ، والله لو لم ينصرهم الناس منك لنصرهم الله بنصره ، فقال : اجلس أبا
 صفوان فلست بناموس^(٣) ، فبلغ الخبر عبد الله بن العباس ، فخرج مغضباً ومعه
 ابنه ، حتى أتى المسجد ، فقصد قصد المنبر .

فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أيها الناس : إن ابن الزبير يزعم أن لا أول لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا آخر!
 فيأعجبا كل العجب ، لا قترأته وتكذبه^(٤) ! والله إن أول من أخذ الإيلاف^(٥)

[١] اشربأب إليه : مد عنقه لينظر أوارتفع . [٢] في الأصل « استفرغ » وهو تحريف . يقال
 استفرغ فلان مجهوده إذا لم يبق من جهده وطاقته شيئاً ، والمراد أنه حوى ما فيهم من صدق فلم يبق لهم
 منه شيء ، فهم أكذب الناس (كذا) . [٣] الناموس : الحاذق ، وهو أيضاً صاحب السر المطلع
 على باطن أمرك . [٤] تكذب : تكاف الكذب .

[٥] روى أبو طي القالي في أماليه قال :

« كانت قریش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، إنما تقدم عليهم الأعاجم

وَحَمَى عِيبَاتٍ^(١) قريش لهاشيم^٢ ، وإن أول من سقى بمكة عذبا ، وجعل باب

بالسَّلَع ، فيشترونها منهم ، ثم يتبايعونها بينهم ، ويبيعونها على من حولهم من العرب ، فكانوا كذلك ، حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام ، فنزل بقيصر ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويصنع جَفْنَةَ تَرِيد ، ويجمع من حوله فيأكلون ، وكان هاشم من أجل الناس وأتَمَّهُم ، فذُكِرَ ذلك لقيصر ، فقيل له : هاهنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم - وإنما كانت المعجم تصب المرق في الصَّحَاف ثم تأدم بالخبز - فدعا به قيصر ، فلما رآه وكله أُعْجِبَ به ، فكان يبعث إليه في كل يوم ، فيدخل عليه ويحادثه ، فلما رأى نفسه تمكن عنده ، قال له : « أيها الملك إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت أن تكتب لي كتابا تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يُسْتَطَرَف من أدم الحجاز وثيابه فتباع عندهم فهو أرخص عليكم » فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مرَّ بحَيٍّ من العرب بطريق الشام أخذ من أشرفهم إيلافا - والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف ، إنما هو أمان الطريق - وعلى أن قريشا تحمل إليهم بضائع ، فيكفونهم نُحْمَلَانِها ، ويؤدون إليهم رءوس أموالهم وربحهم ، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة ، فأناهم بأعظم شيء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم بجوزهم ، يؤفقيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب ، حتى أوردتهم الشام ، وأحلهم قراها ، ومات في ذلك السفر بغزوة ، وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن ، فأخذ من ملوكهم عهدا لمن تجر إليهم من قريش ، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم ، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف ، وكان يسمى الفيض ، وهلك بردمان من اليمن ، وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة فأخذ إيلافا كفعل هاشم والمطلب ، وهلك عبد شمس بمكة فقهره بالحجون ، وخرج نوفل ابن عبد مناف ، وكان أصغر ولد أبيه ، فأخذ عهدا من كسرى لتجار قريش ، وإيلافا من مرَّ به من العرب ، ثم قدم مكة ورجع إلى العراق فمات بسلمان ، واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها ، فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش مئة

في الجاهلية والإسلام » - ذيل الأمالي ص ٢٠٤ .

[١] العير بالكسر الأبل تحمل الميرة : بلا واحد من لفظها ، أو كل ما امتير عليه لإبلا كانت أو حميرا أو بالاً وجمعه كعنبات ويسكن .

الكعبة ذهاباً ، لَعَبْدُ الْمُطَلَبِ (١) والله لقد نشأت ناشتتنا مع ناشئة قريش ، وَإِنْ كُنَّا لَقَالَتْهُمْ (٢) إِذَا قَالُوا ، وخطباءهم إِذَا خَطَبُوا ، وَمَا عُدَّ مَجْدٌ كَمَجْدِ أَوْلَانَا ، وَلَا كَانَ فِي قَرِيشٍ مَجْدٌ لغيرنا ، لأنها في كفر ماحقٍ ، ودين فاسقٍ ، وَضِلَّةٌ (٣) وَضَلَالَةٌ ، فِي عَشْوَاءٍ (٤) عَمِيَاءٍ ، حتى اختار الله تعالى لها نوراً ، وبعث لها سراجاً ، فانتجبه (٥) طيباً من طيبين ، لَا يُسَبُّ بِمَسَبَّةٍ ، وَلَا يُبَغَى عَلَيْهِ غَائِلَةٌ ، فكان أَحَدَنَا وولدنا وعمنا وابن عمنا ، ثم إنَّ أَسْبَقَ السَّابِقِينَ إِلَيْهِ ، مِنَّا وَابْنُ عَمَّنَا (٦) ، ثم تلاه فِي السَّبْقِ أَهْلُنَا وَلُحْمَتُنَا (٧) واحداً بعد واحد ، ثم إنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَهُ أَكْرَمُهُمْ أَدْبَارًا ، وَأَشْرَفُهُمْ حَسَبًا ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ رَجْمًا .

واعجباً كلَّ العجب لابن الزبير ! يعيب بنى هاشم ، وإنما شرف هو وأبوه وجده بمصاهرتهم ، أما والله إنه لمصلوب قريش ، ومتى كان العوام بن خويلد يطمع في صفة بنت عبد المطلب ؟ قيل للبغل : من أبوك يا بغل ؟ فقال : خالي الفرس « ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد م ٣ : ص ٤٨٩)

١١٥ - خطبة ابن الزبير يتنقص ابن عباس

وخطب ابن الزبير بمكة على المنبر ، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر ،

[١] قال الطبري : « وعبد المطلب هو الذي كشف عن زمزم بثرا سمعيل بن إبراهيم ، واستخرج ما كان فيها مدوناً ، وذلك غزالان من ذهب كانت جرم دفنهما فيما ذكر حين أخرجت من مكة وأسياف قلعية » ومرج القلعة محرقة موضع بالبادية إليه تنسب السيوف « وأدراع ، فجعل الأسياف باباً للكعبة ، وضرب والباب النزالين صفاً من ذهب ، فكان أول ذهب حلقتة فيما قيل الكعبة « تاريخ الطبري ٢ : ١٧٩ » [٢] القالة جمع فائل . [٣] الضلالة والضلالة ضد الهدى . [٤] أي في جهالة وفتنة عشواء ، من العشى (كعصا) وهو سوء البصر بالليل والنهار ، وقيل ذهاب البصر . عشى يعشى (كفرح) فهو أعشى وهي عشواء (والعشواء أيضا الناقة التي لا تبصر أمامها فهي تخط بيدها كل شيء ، لأنها ترفع رأسها فلا تنهد . واقع أخفافها) . [٥] انتجبه : اختاره . [٦] جنى الإمام علياً كرم الله وجهه [٧] اللحمة القرابة .

فقال : « إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا قَدْ أَعْمَى اللَّهُ قَلْبَهُ . كَمَا أَعْمَى بَصَرَهُ ، يَزْعَمُ أَنَّ مُتَعَةَ النِّسَاءِ حَلَالٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَيُفْتِي فِي الْقَمَلَةِ وَالنَّمْلَةِ ، وَقَدْ احْتَمَلَ بَيْتَ مَالِ الْبَصْرَةِ ^(١) بِالْأَمْسِ ، وَتَرَكَ الْمُسْلِمِينَ بِهَا يَرْضَخُونَ ^(٢) النَّوَى ، وَكَيْفَ الْوَمُءُ فِي ذَلِكَ : وَقَدْ قَاتَلَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحَوَارِيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَنْ وَقَاهُ يَبْدَهُ ^(٣) . »

١١٦ - رد ابن عباس عليه

فقال ابن عباس لقائده سعد بن جبّير مولى بني أسد بن خزيمية - وكان

[١] ذكر بعض المؤرخين أن ابن عباس كان من أحب الناس إلى عمر ، وكان يقدمه على أكابر الصحابة ، ولم يستعمله قط ، فقال له يوماً : كدت أستعملك ، ولكن أخشى أن تستحل النوى على التأويل ، فلما صار الأمر إلى عليّ استعمله على البصرة ، فاستحل النوى على تأويل قوله تعالى « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى » ، واستعمله لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : وما ابن عباس على أبي الأسود الدؤلي فقال : لو كنت من البهائم لكنت رجلاً ، ولو كنت راعياً ما بلغت من المرعى ولا أحسنت مهته و المشى ، فكتب أبو الأسود إلى عليّ كتاباً يقول فيه : « إن ابن عمك قد أكل ما تحت يديه غير علمك ، فلم يسمنى كتبك ذلك ، فانظر رحمتك الله فيما هنالك » فكتب عليّ إلى ابن عباس « أن ارفع إلىّ حسابك » فرد عليه ابن عباس : « إن كل الذي بلك باطل » . فكتب إليه عليّ : « إنه لا يسمى تركك ، حتى تلمى ما أخذت من الجزية ، من أين أخذته ، وما وضعت منها ، أين وضعت » . فلما رأى أن علياً غير مقلع عنه كتب إليه « ابث إلى عمك من أحببت ، فإني ظاعن عنه » ورحل عن البصرة ، وقد حمل ما كان في بيت مالها حتى قدم الحجاز فزل مكة ، وتبذرت الكتب بين عليّ وبينه ثانية ، وكانت خاتمها أن كتب إليه ابن عباس : « والله إن لم تدعى من أساطيرك لأحلته إلى معاوية يقاتلك به » فكف عنه عليّ ، — انظر المقدم الفريد ج ٢ : ص ٢٤٢ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ٨١ ، ونهج البلاغة ج ٢ : ٤٦ —

وقال آخرون : إن ابن عباس مافارق علياً ولا يابنه ، ولم يزل أميراً على البصرة إلى أن قتل عليّ وبعد مقتل عليّ حتى صالح الحسن معاوية ، ثم خرج حيثئذ إلى مكة ، وليس هذا موضع بحث تلك المسألة — انظر كلمة عنها في شرح ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٦٤ ، وأمالى السيد المرتضى ج ١ ص ١٢٣ .

[٢] رضح النوى (كنع وضرب) كسره ، وفي لسان العرب : « فظلوا يترضخون أى يكسرون الحزب فياً كلونه ويتناولونه » ولم أجد في كتب اللغة « يترضخ » بهذا المعنى ، وإنما الذى جاء « وهو يترضخ لكفة عجمية إذا نشأ معهم ثم صار إلى العرب ، فهو ينزع إلى العجم في ألفاظه ولو اجتهد » وقول ابن الزبير كناية عن شدة الفحط والمافة . [٣] كان طلحة بن عبيد الله ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحامى عنه في وقعة أحد وقد انهزم المسلمون ، ووقاه بيده من سيوف المشركين ، وقد رمى بسهم في يده فبيست ، وقال عليه الصلاة والسلام يومئذ « اليوم أوجب طلحة الجنة » .

ابن عباس قد كُفَّ بصره - استقبلَ بي وجهَ ابن الزبير وارتفع من صدرى ،
فاستقبل به قائدُهُ وجه ابن الزبير وأقام قامته ، فَحَسَرَ عن ذراعيه ، ثم قال :
« يا ابن الزبير :

قد أنصف القارَةَ من راماها إنا إذا مافِئَةً نَلَقَها

نردُّ أولَها على أُخراها حتى تصيرَ حَرَضًا دَعَوَها (١)

يا ابن الزبير : أما العمى ، فإن الله تعالى يقول : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ
وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » ، وأما فُتَيَاىَ فى القملة والنملة ، فإن فيها
حُكْمين لا تعلمهما أنت ولا أصحابك ، وأما تخلى المال ، فإنه كان مالا جبيناه ،
فأعطينا كلَّ ذى حق حقه ، وبقيت بقيةٌ هى دون حقنا فى كتاب الله ، فأخذناها
بحقنا ، وأما المتعة فسئل أمك أسماء إذ نزلت عن بُرْدَى عَوْسَجَةَ ، وأما قتالنا أمَّ
المؤمنين ، فبنا سُمِّيت أمَّ المؤمنين ، لآبك ولا بأبيك ، فانطلق أبوك وخالك (٢)
إلى حجابِ مَدَّةِ الله عليها ، فهتَكَاه عنها ، ثم اتخذها فتنةً يقاتلان دونها ، وصانا
حلائلها فى بيوتها ، فما أنصفا الله ولا محمداً من أنفسهما أن أبرزا زوجة نبيه
وصانا حلائلها ، وأما قتالنا إياكم ، فإننا لقيناكم زَحْفًا ، فإن كنا كفاراً فقد
كفرتم بفراركم منا ، وإن كنا مؤمنين فقد كفرتم بقتالكم إيانا ، وإيم الله لولا
مكانُ صفيةَ فيكم ، ومكان خديجةَ فينا ، لما تركتُ لبنى أسد بن عبد العزى
عظما إلا كسرته .

[١] المرض : الفساد فى المذهب والمقل والبدن . [٢] يبنى طلحة وهو ابن عم جده أبى بكر
الصديق ، فهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عبيد الله بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب
ابن لؤى ، وأبو بكر هو عبد الله بن أبى قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب . . . الخ ، وإنما جله
خاله باعتبار القرابة النسوية .

فلما عاد ابن الزبير إلى أمه سألتها عن بُرْدَى عَوْسَجَةَ ، فقالت : ألم أنْهَكَ عن ابن عباس ، وعن بني هاشم ؟ فإِنَّهُمْ كُفُّوا^(١) الجواب إذا بُدِّهوا^(٢) » فقال : بَلَى وَعَصَيْتُكَ ، فقالت : يا بني احذر هذا الأعمى الذى ما أطاقته الإنس والجن ، واعلم أن عنده فضائح قريش ومخازيها بأسرها ، فأياك وإياه آخر الدهر .
ورواية صاحب العقد : « أن ابن عباس قال لِعِكْرِمَةَ : أقم وجهى نحوه يا عكرمة ، ثم قال :

إن يأخذ الله من عَيْنِي نورَها ففى فؤادى وعقلى منهما نور
وأما قولك يا ابن الزبير : إني قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك ، وبنا سميت أم المؤمنين ، فكنا لها خيرَ بنين ، فتجاوز الله عنها ، وقاتلت أنت وأبوك علياً ، فإن كان على مؤمناً فقد ضللتكم بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافراً فقد بُؤْتُم بسخط من الله بفراركم من الزحف . وأما المتعة فإنى سمعت على بن أبي طالب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص فيها فأفتيتُ بها ، ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها^(٣) .

[١] كم البعير كنع شد فاه لكلا يعص أو يأكل ، والكمام ككتاب : ما يجعل على فمه ، والجمع كعم ككتب ، والمعنى أنهم ذور أجوبة مسكنة مخرسة تلجم أفواه مناظرهم . [٢] بدمه بأمر كنعته : استقبله به أو بدأه به .

[٣] جاء فى المصباح المنير : « المتعة اسم التمتع ، ومنه متعة الحج ، ومتعة النكاح ، ومتعة الطلاق ، ونكاح المتعة هو المؤقت فى العقد ، وقال فى العباب : كان الرجل يشارط المرأة شرطاً على شىء إلى أجل معلوم ، ويعطيها ذلك فىستحل بذلك فرحها ، ثم يخلى سبيلها من غير تزويج ولا طلاق ، وقيل فى قوله تعالى « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » المراد نكاح المتعة ، والجمهور على تحريم نكاح المتعة ، وقالوا معنى قوله : « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ » فما نكحتم على الصريضة التى فى قوله تعالى : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أى عاقدين النكاح ، واستمتمت بكذا وتمتمت : اتفقت ، ومنه تمتع بالعمرة إلى الحج ، إذا أحرم بالعمرة فى أشهر الحج وبعد تمامها يحرم بالحج فإنه بالفراغ من

وأول مجمر^(١) سَطَعَ فِي الْمُتَعَةِ مَجْمَرِ آلِ الزَّيْبِرِ^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ٤٨٩ ، والعقد المرید ٢ : ٢٦٩ - ١١٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٣)

١١٧ - عبد الله بن جعفر (المتوفى سنة ٨٠ هـ) وعمرو بن العاص

قال ابن أبي الحديد : روى المدائني قال :

« بينا معاوية يوماً جالساً وعنده عمرو بن العاص إذ قال الآذن : قد جاء

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فقال عمرو : والله لأسوأناهُ اليوم ، فقال معاوية :

لا تفعل يا أبا عبد الله ، فإنك لا تتصف منه ، ولعلك أن تُظهر لنا من منقَبته^(٣)

ما هو خفي عنا ، وما لا نحب أن نعلمه منه ، وغشيتهم عبد الله بن جعفر ، فأدناه

معاوية وقرَّبه ، فقال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فقال من علىّ عليه السلام

جهاراً غير سائر له ، وَثَلَبَهُ ثَلَباً^(٤) قبيحاً ، فامْتَقِع^(٥) لون عبد الله ، واعتراه أفكَل^(٦) ،

حتى أرعدت خصائله^(٧) ، ثم نزل عن السرير كالْفَنِيْقِ^(٨) ، فقال عمرو : مه

يا أبا جعفر ، فقال له عبد الله : مه لا أم لك ، ثم قال :

أظن الحلمَ دلَّ على قومي وقد يتجهل الرجل الحليم

ثم حَسَرَ عن ذراعيه ، وقال :

أعمالها يحل له ما كان حرم عليه ، فن ثم يسمى متمتعا « اه وجاء في التفاسير : « وقيل نزلت الآية في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتحت مكة ثم نسخت لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أناحها ، ثم أصبح يقول : « يا أيها الناس إنى كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة » وهي النكاح الموقت بوقت معلوم ، سمي بها إذ الغرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة وتمتيعها بما تعطى ، وجوزها ابن عباس رضى الله عنهما ثم رجع عنه .

[١] الحجر : العود ، واستحمر بالحجر : تبخر بالود . [٢] قال المسعودي في مروج الذهب :

« وقد تنازع الناس في ذلك ، فمنهم من رأى أنه عنى متعة النساء ، ومنهم من رأى أنه أراد متعة الحج ، لأن الزبير تزوج أسماء بكراً في الإسلام ، وزوجه أبو بكر معلماً ، فكيف تكون متعة النساء ؟ »

[٣] المنقبة : المفخرة . [٤] ثابه : عابه . [٥] تغير لونه . [٦] الأفكَل : الرعدة .

[٧] جمع خصيلة وهي لحم الفخذين والمضدين والذراعيين أو كل عصبية فيها لحم غليظ .

[٨] الفنيق : الفعل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب .

« يامعاوية ختَامَ نتجرِّع غيظَكَ ، وَإِلَى كَمِ الصبرِ على مكروه قولك ،
 وسيءٌ أدبكَ ، وذميمٌ أخلاقك ، هَبِلْتَ الهَبُولُ ^(١) ، أما يزجرك ذِمَامُ ^(٢)
 المجالسة عن القَدْعِ ^(٣) لجليسك ، إذا لم تكن لك حُرْمَةٌ من دينك تنهاك عما
 لا يجوز لك ، والله لو عطفتك أو اصِرُّ ^(٤) الأرحام ، أو حاميت على سهمك من
 الإسلام ، ما أرعيتَ بنى الإِماءِ المُتَكِّ ^(٥) ، والعبيدِ السُّكِّ ^(٦) أعراضَ قومك ،
 وما يجهل موضعَ الصَّفْوَةِ ^(٧) إلا أهلُ الجفوة ، وإِنَّكَ لَتَعْرِفُ وشائِجَ ^(٨) قریش ،
 وصفوة غرائزها ، فلا يدعُونَكَ تصويبَ ما فرَطَ من خطئِكَ في سفكِ دماءِ
 المسامِينِ ، ومحاربة أمير المؤمنين ، إلى التماذى فيما قد وضع لك الصواب في
 خلافه ، فاقصدِ لمنهج الحق فقد طال عمهك ^(٩) عن سبيل الرشد ، وخبطك في
 دَيْجُورٍ ^(١٠) ظامة الغى ، فإن أبيت أن لاتتابعنا في قبج اختيارك لنفسك ، فأغفنا
 عن سوء القالة ^(١١) فينا ، إذا ضمنا وإياك الندي ^(١٢) ، وشأنك وما تريد إذا خلوت ،
 والله حسيبك ، فوالله لولا ما جعل الله لنا في يديك لما أتيناك ، ثم قال : إن
 كلَّفْتَنِي ما لم أطق ، ساءك ما سُرِّرْتَنِي من خلق . »

[١] هبلته أمه : نكته ، والهول : المرأة لا يعيش لها ولد . [٢] الذمام : الحرمة .

[٣] قذعه وأفذه رماه بالمحش وسوء أقول . [٤] جمع آصرة وهي القرابة وحبل صغير يشد به أسفل الحياء . [٥] المتك جمع متكاء (كحمراء) وهي البظراء والمفصاة والتي لاتمسك البول .
 [٦] السك جمع أسك من السك (مركبة) ، وهو صفر الأذن ولزوقها بالرأس أو صغر فوف الأذن
 وضيق الصماغ . [٧] أى صفوة القوم وسادتهم .

[٨] فى الأصل « وشائك » وقد بحثت فى مادة « وشك » فوجدت فيها « والوشيك السريع
 والقريب ، وامرأة وشيك أى سريعة » فلما وجدنا وشائك جمع وشيكة « أو وشيك على البيت » لم يستقم
 معنى العبارة ، وأراه محرفا عن « وشائج » بالجم . جمع وشيجة وهى عرق الشجرة ، فمعنى وشائج قریش
 أصولها وعروقها « والعرق أصل كل شئ » أى وإِنَّكَ يامعاوية لتعرف أصول قریش الكريمة الزاكية
 التى تأبى الضيم ولا تحتل اللب والامامة « والوشيج أصا شجر الرماح » ونظير هذا التعبير قول الفرزدق
 « مشتقة من رسول الله نبعته » - والبيع شجر تتخذ منه القسي والسهام .

[٩] العمه محرقة : التردد فى السلال . [١٠] الديجور : الظلام . [١١] انقرل فى الخير والقال
 والغيل والقالة فى الشر . [١٢] النادى .

فقال معاوية : يا أبا جعفر نغير الخطأ ، أقسمت عليك لتجلسن ، لعن الله من أخرج صبب صدرك من وِجَارِهِ^(١) ، محمول لك ماقلت ، ولك عندنا ماأملت ، فلولم يكن محتدك^(٢) ومنصبك لكان خلقتك وخلقتك شافعين لك إلينا ، وأنت ابن ذى الجناحين وسيد بنى هاشم ، فقال عبد الله : كلا بل سيد بنى هاشم حسن وحسين لاينازعهما فى ذلك أحد ، فقال أبا جعفر : أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كائنة ما كانت ، ولو ذهبت بجميع ما أملك ، فقال : أما فى هذا فى المجلس فلا ، ثم انصرف ، فأتبعه معاوية بصره فقال : والله لكانه رسول الله صلى الله عليه وآله مشيه وخلقه وخلقه ، وإنه لمن مشكاته^(٣) ، لو ددت أنه أخى بنفيس ما أملك .

ثم التفت إلى عمرو فقال : أبا عبد الله ما تراه منعه من الكلام معك ؟ قال : ما لاخفاء به عنك . قال أظنك تقول : إنه هاب جوابك ؟ لا والله ولكنه ازدراك واستحقرك ، ولم يرك للكلام أهلا ، أما رأيت إقباله على دونك ، ذاهبا بنفسه عنك ؟ فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددت له لجوابه ؟ قال معاوية : أرغب إليك أبا عبد الله ، فلات حين جواب فيما يرى اليوم ، ونهض معاوية وتفرق الناس . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٤)

١١٨ - الحسن بن على وعمرو بن العاص

وَوَفَدَ الحسن بن على رضى الله عنه على معاوية ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين إن الحسن رجل أفه^(٤) ، فلو حملته على المنبر فتكلم وسمع

[١] جهره . [٢] أصلك . [٣] المشكاة : الكوة التى ليست بنافذة .

[٤] أفه : وصف من الفهاة وهى المي ، وفله فه كفرح ، وقياس الوصف منه أنه على أفضل لأنه يدل على خلقه « عيب » كعور وهى وعرج ، ولكن الذى فى كتب اللغة : فه كعذب وفهيه وفهفه

الناس كلامه عابوه وسقط من عيونهم ففعل ، فصعد على المنبر وتكلم فأحسن ، ثم قال : أيها الناس لو طلبتم ابناً لنبيكم ما بين جابرُس إلى جابلُق (١) لم تجدوه غيرى وغير أخى : وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فساء ذلك عمراً ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له : أبا محمد ، هل تنعت الرُّطَب (٢) ؟ فقال : « أَجَلٌ تُلْقِيهِ الشَّمَالُ ، وَتُخْرِجُهُ الْجَنُوبُ ، وَيُنْضِجُهُ بَرْدُ اللَّيْلِ ، بِحَرِّ النَّهَارِ (٣) » قال : أبا محمد ، هل تنعت الخِرَاءة (٤) ؟ قال : « نعم ، تُبْعِدُ الْمَعْشَى فِي الْأَرْضِ الصَّحْصَحِ (٥) ، حَتَّى تَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ ، وَلَا تَسْتَقْبِلُ الْأَقْبَلَةَ ، وَلَا تَسْتَدْبِرُهَا ، وَلَا تَسْتَنْجِ بِالرَّوْثَةِ ، وَلَا الْعِظَمَ ، وَلَا تَبْكُنْ فِي الْمَاءِ الرَّاكَدِ » وأخذ في كلامه .

(العقد الفريد ٢ : ١١٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ١٧٢ ، ومعجم البلدان ٣ : ٢٢)

١١٩ — الحسن بن علي و مروان بن الحكم

بينما معاوية بن أبي سفيان جالسٌ في أصحابه إذ قيل له : الحسنُ بالباب ، فقال معاوية : إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه ، فقال له مروان بن الحكم : ائذن له ، فإنى أسأله ما ليس عنده فيه جَوَابٌ ، قال معاوية : لا تفعل ، فإنهم قوم قد أَلْهَمُوا الْكَلَامَ ، وأذن له ، فلما دخل وجلس ، قال له مروان : أسرع الشيب إلى

[١] جارس : مدينة بأقصى المشرق ، وجابلق : مدينة بأقصى المغرب ، وضبطها ياقوت في معجمه بسكون اللام ، وفي الفاموس ولسان العرب بفتحها ، قال ياقوت : « وفي رواية : جابلص » وضبطها صاحب اللسان بفتح اللام ، وفي الفاموس بفتح اللام أو سكونها : بلد بالمغرب ليس وراءه انسى ، وفي العقد الفريد : « لو طلبتم أبناء أبيكم ما بين لابتيها » ولابتا المدينة : حرتان تكتنمانيها .

[٢] يسأله هذا وما بعده تمجيذا له . [٣] وفي العقد : « وتنضجه الشمس ، ويصبغه القمر » .

[٤] خرى كسمع خراءة بفتح الحاء وكسرهما : سلاح . [٥] الصحصح : ما استوى من الأرض ،

وفي العقد الفريد « للصحیح » وهو تحريف .

شاربك يا حسن، ويقال إن ذلك من الخرق^(١)، فقال الحسن: ليس كما بلغك، ولكننا معشر بني هاشم، أفواهنا عذبة شفاهها، فساونا يُقبلن علينا بأنفاسهن وقبلهن، وأنتم معشر بني أمية فيكم بخز^(٢) شديد، فساؤكم يصرفن أفواههن وأنفاسهن عنكم إلى أصدانكم، فإنما يشيب منكم موضع العذار^(٣) من أجل ذلك. قال مروان؟ إن فيكم يا بني هاشم خصلة سوء. قال: وما هي؟ قال: الغلظة^(٤). قال: أجل، نزع الغلظة من نساءنا، ووضعنا في رجالنا، ونزعت الغلظة من رجالكم، ووضعنا في نساءكم، فاقام لاموية إلا هاشمي، فغضب معاوية وقال: قد كنت أخبرتم، فأيتتم حتى سمعتم ما أظلم عليكم بيتكم، وأفسد عليكم مجلسكم». (العقد الفريد ٢: ١١٥)

١٢٠ - عقيل بن أبي طالب ومعاوية

وكان عقيل بن أبي طالب قد خرج إلى معاوية، مغاضباً لأخيه الإمام عليّ كرم الله وجهه^(٥)، فأكرمه معاوية، وقرّبه إليه، وقضى حوائجه، وقضى عنه دينه، ثم قال له في بعض الأيام: «والله إن عليّاً غير حافظ لك، قطع قرابتك، وما وصلك، ولا اصطنعك» قال له عقيل: «والله لقد أجزل العطية وأعظمها، ووصل القرابة وحفظها، وحسن ظنه بالله إذ ساء به ظنك، وحفظ أمانته، وأصلح رعيته، إذ ختمت وأفسدتهم وجرتهم، فاكفف لأبائك، فإنه عما تقول بمعزل».

[١] الخرق كسبب: الخلق وألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور والاسم الخرق كقفل.
 [٢] البخر: التبن في النمل وغيره. [٣] العذار: جانب اللحية. [٤] الغلظة: شدة المشوة كالشبق بالتحريك.
 [٥] وكان قد قدم عليه بالكوفة، فسأله أن يقضى عنه دينه، قال: وكم دينك؟ قال: أربعون ألفاً، قال: ما هي عندي، ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فإنه أربعة آلاف فأدعه إليك، قال: بيوت المال بيدك وأنت تسوفني بعتائك؟ قال: أنا أمرني أن أدفع إليك أموال المسلمين وقد ائتموني عليها؟ قال: فإني أت معاوية، فأذن له فقدم عليه «انظر أسد الغابة ٣: ٤٢٣ والمحرى ص ٧٦» - اقرأ أيضاً كلمة في هذا لصدد في شرح ابن أبي الحديد م ٣: ٨٢ وفي ترجمة عليّ بن أبي طالب للمؤلف ص ٨٣.

وقال له معاوية يوماً : « أبا يزيد ، أنا لك خير من أخيك عليّ » قال : « صدقت ، إن أخى آثرَ دينَه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير لي من أخى ، وأخى خير لنفسه منك ^(١) » .

وقال له مرة : « أنت معنا يا أبا يزيد » قال : « ويوم بدر قد كنت معكم ! » وقال له يوماً : إن علياً قد قطعك ووصلتكَ ، ولا يُرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر . قال : أفعلُ ، فأصعدُ فصعد ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعنَ عليّ بن أبي طالب ، فآلَعَنُوهُ ، فعليه لعنةُ اللَّهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين » ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبتين - أبا يزيد - مَنْ لعنتَ بيني وبينه . قال : والله لا زدتُ حرفاً ، ولا نقصتُ آخر ، والكلام إلى نية المتكلم .

ودخل عقيل على معاوية ، وقد كف بصره ، فأجلسه على سريرهِ ، ثم قال له : « أنتم معشرَ بنى هاشم تُصابون في أبصاركم » قال : « وأنتم معشر بنى أمية تصابون في بصائركم » .

وقال له يوماً : ما أبينَ الشَّبَقَ في رجالكم يا بنى هاشم ! قال : لكنه في نسائكم أبينُ يا بنى أمية .

وقال معاوية يوماً : « ي أهل الشام ، هل سمعتم قول الله تبارك وتعالى في كتابه : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ^(٢) وَتَبَّ » ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنَّ أبَا لهبِ عمه ،

[١] وفي البيان والتبيين أن معاوية قال : هذا أبو يزيد ، لولا أنه علم أني خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه ، فقال له عقيل : « أخى خير لي في ديني ، وأنت خير لي في دنياي » .

[٢] هو أبو لهب بن عبد المطلب عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان شديد الأيذاء له ، يرمى القدر على بابه .

فقال عقيل : « فهل سمعتم قول الله عز وجل : « وَأَمْرًا تُهَيِّئُ لِمَنْ يَكْفُرُ الْكَلْبَ الْمُتَلَوِّ » ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنها عمته ، ثم قال : « يا معاوية ، إذا دخلت النار ، فاعدل ذات اليسار ، فإنك ستجد عمي أبا لهب ، مفترشاً عمتك حمالة الحطب ، فانظر أيهما خير ؟ »

وقال له معاوية يوماً : والله إن فيكم لخصلة ما تُعجبني يا بني هاشم . قال : وما هي ؟ قال : لين فيكم . قال : لين ماذا ؟ قال : هو ذاك . قال : إيانا تُعير يا معاوية ؟ أجل والله إن فينا لليناً من غير ضعف ، وعزاً من غير جبروت ، وأما أنتم يا بني أمية ، فإن لينكم غدر ، وعزكم كفر . قال معاوية : ما كل هذا أردنا يا أبا يزيد .

وقال معاوية لعقيل : لم جفوتنا يا أبا يزيد ؟ فأنشأ يقول ؟

إني امرؤ مني التكرُّمُ شِيمةٌ إذا صاحبي يوماً على الهون أضمرًا

ثم قال : « وايم الله يا معاوية ، لئن كانت الدنيا ممدتك مهأدها ، وأظلتك بحذافير^(٢) أهلها ، ومدت عليك أطناب سلطانها ، ما ذاك بالذي يزيدك مني رغبة ، ولا تخشعاً لرهبة » قال معاوية : « لقد نعتها أبا يزيد نعتاً هس لها قلبي ، وإني لأرجو أن يكون الله تبارك وتعالى ما رداني برداء ملكها ، وحباني بفضيلة عيشها ، إلا الكرامة أدخرها لي ، وقد كان داود خليفة ، وسليمان ملكاً ، وإنما هو المثال يُحتذى عليه ، والأمور أشباه ، وايم الله يا أبا يزيد ، لقد أصبحت علينا كريماً ، وإلينا حبيباً ، وما أصبحت أضمر لك إساءة . »

(المقدم الفرید ٢ : ١١٠ - ١١٩ ، البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

[١] هي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ، وقيل لها حمالة الحطب ، لأنها كانت تحمل الشرك والسعدان وتلقيه في طريق النبي عليه الصلاة والسلام إيذاء له وكانت جارته ، أو هو النيمة ، إذ كانت تسمى عليه بالنائم وتوقد بذلك نار الخصومة ، أو حطب جهنم ، فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاداته ، وتحمل زوجها على إيذائه . [٢] الحذافير جمع حذفور أو حذفار (كصفور وقرطاس) وهو الجانب .

١٢١ — خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة

بعد مقتل الحسين عليهم السلام

لما قُتل الحسين بن عليّ عليهما السلام ، وأدخِلَ النَّسوةَ من كَرْبلاءَ إلى الكوفة ، جعلت نساؤها يلتدمن^(١) ، وَيَهْتِكُنَ الْجُيُوبَ عَلَيْهِ ، فرفع عليّ بن الحسين عليهما السلام رأسه ، وقال بصوت ضئيل - وقد نحَل^(٢) من المرض - :
يا أهل الكوفة إنكم تبكون علينا، فمن قتلنا غيركم؟ وأومات أم كلثوم بنت عليّ عليهما السلام إلى الناس أن اسكتوا ، فلما سكنت الأنفاس ، وهَدَّاتِ الأجراس^(٣) ، قالت :

« أبدأ بِحَمْدِ اللَّهِ ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى أَبِيهِ^(٤) ، أما بعد : يا أهل الكوفة ، يا أهل الخثر^(٥) والخذل ، لا ، فلا رَقَاتِ^(٦) العبرة ، ولا هَدَّاتِ الرِّئَةِ^(٧) ، إنما مَثَلَكُم كَمَثَلِ الَّتِي تَقْضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ أَنْكَائِ^(٨) ، تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا^(٩) يَبْنِيكُمْ ، أَلَا وَهَلْ فِيكُمْ إِلَّا الصَّلَفُ^(١٠) وَالشَّنْفُ^(١١) ، وَمَلَقُ^(١٢)

[١] لدمت المرأة (كضرب) ، والتدمت : لطمت وصربت صدرها في النياحة ، ويهتك : يمزقن ، والجيوب جمع حيب : وهو طرق الفميص . [٢] كنع وعلم وصر وكرم .
[٣] الأجراس جمع حرس كشمس : وهو الصوت . [٤] تريد جدما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية : « والصلاة على جدى سيد المرسلين » . [٥] الغدر والحديمة ، أو أُنْبِج الغدر . [٦] رقاً الدمع : جف وسكن ، والعبرة : الدمة قبل أن تفيض .
[٧] الرنة : الصوت . [٨] أنكائاً جمع مكث كحمل وهو ما تفض لي عزل ثانية - حال من غزلها ، أو مفعول ثانٍ لقصت لأنه بمعنى صيرت - وقيل هي ربطة بنت سعد بن تيم انقرشية ، وكانت خرقاء تنزل طول يومها ثم تنقصه . [٩] الدخل : ما يدخل في الشيء وليس منه ، وما داخل من فساد في دقل أو جسم ، والغدر والمكر والحديمة . [١٠] الصاف : التمدح بما ليس عندك ، أو مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا . [١١] الشنف : النظر بمؤخر العين ، أو النظر إلى الشيء كالمترض عليه ، أو كالمعجب منه ، أو كالكاره له ، وشنف له كفرح فرحا : أبغضه وتكره .
[١٢] ملق الجارية : مجامعتها ، أو هو ملق بالتحريك ، والملق : التلق .

الإماء ، ونمزُّ الأعداء ، وهل أنتم إلا كمرعَى على دِمنة ^(١) ، وكفِضَّة على ملحودة ^(٢) ، ألا ساء ما قدَّمت أنفسكم أن سَخِطَ اللهُ عليكم ، وفي العذاب أنتم خالدون ، أتبكون؟ إى والله فابكوا ، وإنكم والله أحرى بيا ^(٣) بالبكاء ، فابكوا كثيراً ، واضحكوا قليلاً ، فلقد فزتم بعارها وسنارها ^(٤) ، ولن تُرْحِضوها ^(٥) بغسلٍ بعدها أبداً ، وأنى تُرْحِضُونَ قتلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النبوَّة ، ومعدنِ الرسالة ، وسيدِ شبَّانِ أهلِ الجنة ، ومنازِ محجَّتكم ، ومِدْرِهِ ^(٦) حُجَّتكم ، ومُفْرِحِ ^(٧) نازلتكم ، فَتَعَسَا وَنُكْسَا ^(٨) ، لقد خاب السعى ، وخسرت الصَّفقة ^(٩) ، وبؤتتم ^(١٠) بغضبِ من الله ، وضربت عليكم الذُّلَّةُ وَالْمَسْكِنَةُ ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ^(١١) ، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ ^(١٢) مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ، أَتَدْرُونَ أَى كَبِدٍ لِرَسُولِ اللهِ فَرَيْتُمْ ، وَأَى كَرِيمَةٍ لَهُ أُبْرِزْتُمْ ، وَأَى دَمٍ لَهُ سَفَكْتُمْ ؟ لقد جئتم بها شوهاً خرَّ قاء ^(١٣) ، شرَّها طِلاعُ ^(١٤) الأرض والسماء ، أفعجبتهم أن قَطَرَتِ السَّمَاءُ دَمًا ، وَأَمَدَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ، فلا يستخفُّنكم المهلُّ ، فإنه لا تحفزه المبادرة ^(١٥) ، ولا يخاف عليه فَوْتُ النارِ ،

[١] الدمنة : آثار الدار بعد الرحيل عنها من البعر والرماد وغيرهما ، أخذت هذا القول من قول جدِّها عليه الصلاة والسلام : « إياكم وخضراء الدمن » وهى المرأة الحسنة فى منبت السوء .
 [٢] ملحودة : مدفونة فى لحدها ، تريد أنهم لا ينتفع بهم . [٣] جديرون .
 [٤] السنار : أقبح العيب . [٥] رحضه كنعته وأرحضه : غسله . [٦] دره عن انقوم كنع إذا تكلم عنه ودفع فهو مدره . [٧] أى مذهب ومزيل ، يقال : « أفرخ روعك » - على الأمر وبضم الراء من روعك - أى اسكن وأمن ، والروع : القلب . [٨] التمس : الهلاك ، ونكسه نكساً : قلبه على رأسه ، والنكس بالضم عود المرض بسد النقه ، ويقال : تمسأ له ونكساً ، بضم النون وقد يفتح ازدواجاً . [٩] البيعة . [١٠] رجعتهم . [١١] أى فظيماً منكراً .
 [١٢] ينشقن ، وتخر : تسقط ، هذا : أى تهدت هذا . [١٣] بيا أى بفعلتكم هذه ، وخرقاء من الحرق : وهو ألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور . [١٤] طلاع الشيء : ملؤه .
 [١٥] أى لا تدفعه إلى العقوبة المبادرة إلى الذنب ، والضمير لله تعالى .

كلا ، إن ربك لنا ولهم لبايرصاد^(١) « ثم ولت عنهم ، فظل الناس حيارى ، وقد ردوا أيديهم إلى أفواههم ، وقال شيخ كبير من بني جُفنيّ - وقد أخضلت^(٢) لحيته من دموع عينيه - :

كُوهلهم خير الكهول ، ونسلهم إذا عدّ ، نسل لا يبور ولا يخزى

(بلاغات النساء : ص ٢٧)

١٢٢ - خطبة السيدة زينب بنت عليّ عليهما السلام بين يدي يزيد ولما وجه عبّيد الله بن زياد آل الحسين عليه السلام إلى يزيد بدمشق ، ومثّلوا بين يديه أمر برأس الحسين فأبرز في طست ، فجعل ينكت ثناياه بقضيب في يده ، وهو يقول من أبيات^(٣) :

ليت أشياخي بيذر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل^(٤)

لأهلوا وأستهلوا فرحاً ثم قالوا : يا يزيد لا تشل^(٥)

فجزيناهم بيذر مثلها وأقمنا ميل بدر فاعتدل^(٦)

فقالَت زينب بنت عليّ عليهما السلام : صدق الله ورسوله يا يزيد ! « ثمّ كان عاقبة الذين أساءوا والشؤى أن كذبوا بآيات الله ، وكانوا بها يستهزئون » أظننت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء ، فأصبحنا

[١] المرصاد : الطريق والمكان يرصد فيه العدو ، ورصده : رقبه ، أي يرصد أعمال العباد فلا يفوته منها شيء . [٢] ابتلت . [٣] تمثل يزيد بهذه الأبيات وهي لعبد الله بن الزعري ، قالها في غزوة أحد ، وهو يومئذ مشرك ، وكان يهجو المسلمين ، ويحرض عليهم كفار قريش في شعره ، ثم أسلم بعد فتح مكة . [٤] كانت العلبة يوم بدر للمسلمين ويوم أحد للمشركين ، والأسل : الرماح والنبل ، والخرج قبيلة من الأنصار . [٥] كلّ من رفع صوته فقد أهل إهلالاً واستهلالاً ، وشلت يده تشل كتمب يتعب ، وأشلت وشلت مبذين المجهول : يبست وهي جملة دعائية ، يقال في الداء : « لا تشل يدك ولا تشل » - والبيت من قول يزيد - . [٦] لانفس ما قدناه لك من أن عليا كرم الله وجهه كان قد وتر آل أبي سفيان بيذر ، فقل حنظلة بن أبي سفيان أبا معاوية ، والوليد بن عتبة خله ، وعتبة بن ربيعة جده لأمه .

نَسَاقٌ كَمَا يَسَاقُ الْأُسَارَى ، أَنْ بِنَا هَوَانًا عَلَى اللَّهِ ، وَبِكَ عَلَيْهِ كَرَامَةٌ ؟ وَأَنْ هَذَا
لِعَظِيمِ خَطَرِكَ ؟ فَشَمَخْتَ بِأَنْفِكَ ، وَنَظَرْتَ فِي عِطْفَيْكَ ^(١) ، جَذَلَانَ فَرَحًا ، حِينَ
رَأَيْتَ الدُّنْيَا مُسْتَوْسِقَةً لَكَ ^(٢) ، وَالْأُمُورَ مُتَسِّقَةً عَلَيْكَ ، وَقَدْ أُمِّهَلْتَ وَنُقِّسْتَ ^(٣)
وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ نِعْمَتِي ^(٤) لَهُمْ خَيْرٌ
لِأَنْفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُنْعِمُ لَهُمْ لِيُزِدُوا إِيمَانًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » أَمِنْ الْعَدْلِ ، يَا بِنَ
الطُّلُقَاءِ تَخْدِيرِكَ ^(٥) نِسَاءً كَ وَإِمَاءً كَ ، وَسَوَاقُكَ بِنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
قَدْ هَتَكَتَ سِتُورَهُنَّ ، وَأَصْحَلْتَ ^(٦) صَوْتَهُنَّ ، مَكْتَبَاتِ تَخْدِي ^(٧) بِنِ الْأَبَاعِرُ ،
وَيَحْدُو ^(٨) بِنِ الْأَعَادِي ، مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، لَا يُرَاقِبُنَّ وَلَا يُؤَوِّدُنَّ ، يَتَشَوَّفُهُنَّ ^(٩)
الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ ، لَيْسَ مَعَهُنَّ وَليٌّ ^(١٠) مِنْ رَجَالِهِنَّ ، وَكَيْفَ يُسْتَبْطَأُ فِي بَغِضَتِنَا
مَنْ نَظَرَ إِلَيْنَا بِالشَّنْفِ ^(١١) وَالشَّنَّانَ ، وَالْإِخْنَ وَالْأَضْغَانَ ؟ أَتَقُولُ :
« لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدُرُ شَهْدَاؤًا غَيْرَ مُتَأَمِّمٍ وَلَا مُسْتَعْظِمٍ ؟ وَأَنْتَ تَنَكَّتْ ثَنَائَا أَبِي عَبْدِ اللَّهِ
بِمِخْصَرَتِكَ ^(١٢) ، وَلَمْ لَا تَكُونَ كَذَلِكَ وَقَدْ نَكَاتَ ^(١٣) الْقَرْحَةَ ، وَاسْتَأْصَلْتَ
الشَّافَةَ ^(١٤) ، يَا هَرَاقَكَ دِمَاءَ ذَرِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَنُجُومِ الْأَرْضِ

[١] أى جابيك ، وهو كناية عن إعجابك بنفسه . [٢] من استوسقت الإبل : أى اجتمعت ،
ومتسقة : منتظمة . [٣] أى أسح لك فى أمرك ، من نفس الله كربتة : فرجها .
[٤] نعمل . [٥] صوتهن فى خدورهن . [٦] أبجحته ، صحل صوته كفرح : بجم .
[٧] خدى البعير والهرس كجرى : أسرع وزج بقوائمه ، أو هو صرب من سيرهما .
[٨] يسوق . [٩] يتناول وينظر ليهن ويشرف عابهن . [١٠] قريب أو نصير .
[١١] سبق تفسيره ، وفى الأصل « بالشنق » وهو تحريف (والشنق : أن تكف البعير بزمامه حتى
تلق ذنرا بقدامه الرجل ، والذفرى بكسر الدال : العظم الشاخص خلف الأذن) ، والشنان : الكراهية ،
والإخن : الأحقاد . [١٢] المخرصة : ما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب . [١٣] نكأ القرحة ،
كنح : قشرها قبل أن تبرأ فنديت ، كناية عن نبشه مما كاد ينسى من العداوة بين بنى هاشم وبينى أمية .
[١٤] الشافة : قرحة تخرج فى أسفل القدم فنكوى فتذهب ، واستأصل الله شأفته : أذهب كما تذهب
تلك القرحة

من آل عبد المطلب ، وَلَتَرِدَنَّ عَلَى اللَّهِ وَشِيكَاً ^(١) مَوْرِدَهُمْ ، وَلَتُودَنَّ أَنْكَ تَحْمِيَتِ
 وَبِكِمَّتِ وَأَنْكَ لَمْ تَقُلْ : « فَاسْتَهْلُوا وَأَهْلُوا فَرِحًا » اللَّهُمَّ خذْ بِحَقِّنَا ، وَانْتَقِمِ
 لَنَا مِمَّنْ ظَلَمْنَا ، وَاللَّهُ مَا فَرَيْتَ إِلَّا فِي جِلْدِكَ ، وَلَا حَزَزْتَ إِلَّا فِي لِحْمِكَ ،
 وَسَتَرِدْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِرَنِّمِكَ ^(٢) ، وَعِثْرَتُهُ وَلُحْمَتُهُ فِي حَظِيرَةِ
 الْقُدُسِ ^(٣) ، يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمْلَهُمْ مَأْمُومِينَ مِنَ الشَّعَثِ ^(٤) ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ
 وَتَعَالَى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
 يُرْزَقُونَ » وَسَيَعْلَمُ مِنْ بَوَّأِكَ ^(٥) وَمَكَّنِكَ مِنْ رِقَابِ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا كَانَ الْحَكَمَ
 اللَّهُ ، وَالْحَصَمَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَجَوَارِحُكَ شَاهِدَةٌ عَلَيْكَ ، فَبَيْتُكَ
 لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا - أَيُّكُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ، مَعَ أَنِّي وَاللَّهُ يَا عَدُوَّ اللَّهِ
 وَابْنَ عَدُوِّهِ ، أَسْتَصْغِرُ قَدْرَكَ ، وَأَسْتَعْظِمُ تَقْرِيْعَكَ ^(٦) ، غَيْرَ أَنَّ الْعَيُونَ عَبْرِي ^(٧) ،
 وَالصُّدُورَ حَرِّي ، وَمَا يَجْزِي ذَلِكَ أَوْ يُعْنِي عِنَا ، وَقَدْ قَتَلَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
 وَحِزْبُ الشَّيْطَانِ ^(٨) يَقْرَبْنَا إِلَى حِزْبِ السُّفَهَاءِ ^(٩) ، لِيُعْطُوهُمْ أَمْوَالَ اللَّهِ عَلَى انْتِهَاكَ
 مَحَارِمِ اللَّهِ ، فَهَذِهِ الْأَيْدِي تَنْطِفِ ^(١٠) مِنْ دِمَائِنَا ، وَهَذِهِ الْأَفْوَاهُ تَتَحَلَّبُ ^(١١) مِنْ
 لِحُومِنَا ، وَتَتَلَبَّسُ الزَّوَاكِي ^(١٢) ، يَعْتَامُهَا عَسَلَانُ الْفَلَوَاتِ ، فَلَمَّا اتَّخَذْتَنَا
 مَعْنَا لِنَتَّخِذَنَّ مَعْرَمًا ، حِينَ لَا تَجِدُ إِلَّا مَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ، تَسْتَصْرِخُ ^(١٣) :

[١] سريعا . [٢] الرعم : الدل . [٣] العترة : رهط الرجل وعشيرته الأذنون ، واللحمة :
 القرابة ، والقدس : الطهر ، - أي في الجنة - . [٤] التفرق . [٥] أي أهلك في كرسى
 الخلافة وهو معاوية . [٦] التقرع : التأنيب . [٧] عين عبري : حرت عبرتها ، والصدور حرري :
 شديدة الحرارة ، كناية عن شدة الحزن . [٨] تريد عبيد الله بن زياد ورجاله .
 [٩] أي إلى يزيد وشيعته . [١٠] نطف الماء كنعصر وضرب : سال ، ونطف كفرح وعنى :
 تلتطح ببعب . [١١] تحلب العرق : سال ، وتحلب بدنه عرقا : سال عرقه . [١٢] الزواكي جمع
 زواكية من زكا إذا صلح وتنعم ، واعتام : أخذ العيمة بالكسر وهي خيار المال ، وعسل الذئب عسلا ما جرى
 جريانا : أعنى وأسرع ، والماسل : الذئب وجمعه كركع وفوارس ، والراد هنا معنى الجمع لا المصدر ، أي
 ذؤبان الفلوات ، ولم أجد في كتب اللغة لماسل جمعا غير هذين ، إلا أن يراد بالمصدر الوصف .
 [١٣] تستعيث .

يابن مرجانة ، وَيَسْتَصْرخ بك ، وتتعَاوَى وأتباعك عند الميزان ، وقد وجدت أفضلَ زَادٍ زوَدَكَ معاويةُ قَتَلَكَ ذريةَ محمدَ صلى الله عليه ، فوالله ما اتقيتُ^(١) غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكَذِّكِيكَ ، وَأَسعِ سَعِيكَ ، وَنَاصِبِ جُهْدَكَ^(٢) ، فوالله لا يُرْحَضُ عَنْكَ عَارٌ ما أَتَيْتَ إلينا أبداً ، والحمد لله الذى ختم بالسعادة والمغفرة لساداتِ شَبَّانِ الجِنانِ ، فأوجِبَ لَهُمُ الجنةَ ، أسأل الله أن يرفع لهم الدرجاتِ ، وأن يوجب لهم المَزِيدَ من فضله ، فإنه ولىّ قديرٌ .

(بلاغات النساء ص ٢٥)

١٢٣ — رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام

وقال الحسين بن عليّ عند قبر أخيه الحسن ، عليهما السلام :

« رَحِمَكَ اللهُ أبا محمد ، إن كنت لتناصرِ الحَقِّ مَظَانَهُ^(٣) ، وَتُوَثِّرُ اللهُ عِنْدَ تَدَاخُضِ^(٤) الباطل ، فى مَوَاطِنِ التَّقِيَّةِ بِحُسْنِ الرويَّةِ ، وَتَسْتَشِفُّ^(٥) جليلَ مَعَاطِمِ الدنيا بعينٍ لها حاقِرَةٌ ، وَتُفِيضُ عليها يداً طاهرةَ الأطرافِ ، نَقِيَّةَ الأَسِرَّةِ^(٦) ، وَتَرَدِّعُ بِادِرَّةِ غَرَبِ أعدائكِ ، بأيسرِ المِثُونَةِ عليك ، ولا غَرَوَ وَأَنتِ ابنُ سُلالةِ النبوةِ ، وَرَضِيْعُ لِبَإَنِ الحِكْمَةِ ، فَإِلى رَوْحِ وَرَيْحَانِ وَجَنَّةِ نَعِيمِ ، أعظمَ اللهُ لنا ولكم الأجر عليه ، وَوَهَبَ لنا ولكم السَّلْوةَ وَحُسْنَ الأَسَى^(٧) عنه .

(عيون الأخبار م ٢٠ : ص ٣١٤)

[١] أى لا أخاف إلا الله . [٢] ناصبه العدو : أظهرها له .

[٣] فى الأصل « لتناصر » بالياء وأراء بالنون ، وقوله « مظانه » أى فى مظانه ، أو هو بدل .

[٤] هى تفاعل من الدخض ، دحض برجله كنع : خص بها ، ودحضت رجله : زلفت ، والمعنى : عند تطاحن

الباطل ومخالفة بعضه بعضاً . [٥] استشفه : نظر ما وراءه . [٦] الأسرة جمع سرار ككتاب :

الخطوط التى تبدو فى ظاهر اليد والجمجمة . [٧] الأسى بضم الهمزة وكسرهما جمع أسوة بالضم والكسر

أيضاً : بما يتعزى به .

١٢٤ - عبدالله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص في مجلس معاوية

روى المسعودى في مروج الذهب قال :

« لما قُتِلَ على كَرَمِ اللهِ وجهه ، كَانَ في نفس معاوية من يوم صِفِّين على هاشم بن عُتْبَةَ بن أَبِي وَقَّاصِ المِرْقَالِ وولده عبد الله بن هاشمٍ إِحْنًا ، فَمَا استعمل معاويةُ زيادًا على العراق ، كَتَبَ إليه : « أما بعد : فانظر عبد الله بن هاشم ابن عُتْبَةَ فشدَّ يده إلى عنقه ، ثم ابعث به إلى » ؛ فحمله زياد من البصرة مُقَيَّدًا مَغْلُولًا إلى دِمَشْقِ ، وقد كَانَ زيادٌ طَرَقَهُ بالليل في منزله بالبصرة ، فدخل إلى معاوية ، وعنده عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمرو بن العاص : هل تعرف هذا؟ قال : لا . قال : هذا الذي يقول أبوه يوم صِفِّين ^(١) :

إِنِّي شَرَيْتُ النَّفْسَ لَمَّا اعْتَلَّأُ وَأَكْثَرَ اللَّوْمَ وَمَا أَقْلَأُ ^(٢)

أَعُورٌ يَبْنِي أَهْلَهُ مَحَلًّا قَدْ عَالَجَ الحَيَاةَ حَتَّى مَلَأُ ^(٣)

لَا بَدَّ أَنْ يَقْلُ أَوْ يُفْلَأُ يَتْلَهُمُ بِنْدِي الكُؤُوبِ تَلًّا ^(٤)

لا خيرَ عندي في كريمٍ ولى

[١] وذلك أن عمار بن ياسر جاء إلى هاشم بن عتبة (وكان هاشم أعور ، فقمت عينه يوم اليرموك بالشأم) فقال : يا هاشم ، أعورا وجننا لا خير في أعور لا يغشى البأس ، اركب يا هاشم ، فركب ومضى معه وهو يرتجز : إني شريت النفس . . . الخ . وعمار يقول : تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت تحت أطراف الأسل ، وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين ، اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه . [٢] شريت النفس : أي بستها في سبيل الله ، واعتله : تجنى عليه (أي ادعى ذنبا لم يفعله) ، وقاعله ضمير عمار بن ياسر ، فعنى لما اعتلأ أي لما رمانى عمار بالجبن .

[٣] يبنى أهله محلا أي يبنى مثل أهله أي يطلب مصير أهله الذين استشهدوا في سبيل الله فسكنوا جنات الخلد ، فهو يبنى لمام والاجتماع بهم هنالك . [٤] يفل : يهزم ويغلب ، وتله صرعه أو ألقاه على عنقه وخده (وفي الأصل : أسلمهم بندي الكعوب سلا وهو تحريف ، إذ رواية الطبري ، وابن الأثير يتلهم بالناء ، أو هر صحيح على معنى : أسل أرواحهم وانزعها) ، وذو الكعوب : الرمح ، وكعوب الرمح : النواشر في أطراف الأنايب .

فقال عمرو وممثلا :

وقد يَنْبُتُ المَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى وتبقى حزازاتُ النفوس كماهيا ^(١)
 « دونك يا أمير المؤمنين الضبُّ الضبُّ » ^(٢) ، فاشخُبْ أودجَه ^(٣) على أسباجه ^(٤) ،
 ولا تردّه إلى أهل العِراق ، فإنه لا يصبر على النفاق ، وهم أهل غَدْرٍ وشقاق ، وحزبُ
 إبليسَ ليومِ هَيَّجَانِهِ ، وإن له هَوَى سَيُودِيهِ ^(٥) ، ورأياً سَيُطْغِيهِ ^(٦) ، وَبِطَانَةٌ
 سَتُقَوِيهِ ، وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .

فقال عبد الله : « يا عمرو وإن أُقْتِلَ فرجلٌ أسلمه ^(٧) قومه ، وأدركه يومه ،

[١] الدمن جمع دمنة وهي ما اسود من آثار الدار بالبر والرماد وغيرها ، وقد تمثل بهذا البيت زفر بن الحارث الكلابي في قصيدة قالها ، وقد قتل ابنه يوم وقعة مرج راهط ، التي نشبت بعد موت معاوية الثاني بين مروان بن الحكم وبين من حالف على الأموية ودعا الى الزيرية من السحاك بن قيس الفهري وأتباعه ، ومنهم زفر الكلابي ، وقد دارت عليهم الدائرة ، وقتل الضحاك « انظر تاريخ الطبري ، ومروج الذهب ، والعقد الفريد » .

[٢] الضبُّ : حيوان برى يشبه الورل ، وهو يتلون ألوانا بجزر الشمس كما تتلون الحراة ، وقد صرب به المثل فقالوا : « أخذع من ضبِّ » ، وذلك أنهم كانوا يصيدونه ، فيأتي الحارث (حرش الضبِّ واحترشه : صاده) ويحرك يده على باب جحره ليظه حية فيخرج ذنبه ليضربها بأحده ، ولكن الضبُّ شديد الحذر فإنه يعمد بذنبه على باب جحره ليضرب به حية أو شيئا آخر ان جاءه ، فيجىء المحرش ، فإن كان الضبُّ مجربا أخرج ذنبه الى نصف الجحر ، فإن دخل عليه شيء صربه والا بقي في جحره ، وهذا هو خدعه - يعنون به شدة حذره - وقيل إن معناه أن جحره فلما يخلو من تقرب ، لما بينها من الألفة والاستماعة بها على المحترش ، فإذا أدخل المحترش يده لدغته وأشدوا :

وأخذع من ضب اذا جاء حارش أعسد له عند الدنابة عقربا

ويقولون : « فلان خبِّ ضبِّ » (والخبِّ بالفتح ويكسر المحادع) فيشبهون الحقد الكامن في قلبه الذي يسرى صرره ، بخدع الضبِّ في جحره (ومن أمثالهم فيه أيضا) « أعتق من ضبِّ » - يريدون الأثني ، وعقوبتها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن الصبة اذا باصت حرست بيضها من كل ما قدرت عليه من ورل وحية وغير ذلك ، فإذا نقت أولادها ، وخرجت من البيض ، ظنتها شيئا يريد بيضها ، فوثبت عليها تقاطها ، فلا ينجو منها إلا الشريد - وقالوا : « أعتق من ذبِّ الضبِّ » ذكروا أن فيه احدى وعشرين مقدة - « وأجن من ضبِّ » ، « وأبلد من ضبِّ » ، « وأحيا من ضبِّ » - أي أطول عمرا .

[٣] الأوداج جمع ودج بالتحريك : هرق في العنق ، وشخبت أوداج القتل دما من ناني قتل ونقع : جرت ، وشخب اللبن وكل مائع : درّ وسان ، وشخبته أنا يتعدى ولا يتعدى .

[٤] الأسباج جمع سبجه « كفرصة » وسبجة القميص لبنه - بنيقته .

[٥] أي وان له ميلا الى آل علي سيهلكه . [٦] طغى : جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر

وأسرف في العاصي والظلم . [٧] خذله .

أفلا كان هذا منك إذ تحميد عن القتال ، ونحن ندعوك إلى النزال ، وأنت تلوذ
بشمال النطاف ^(١) ، وعقائق الرصاف ^(٢) ، كالأمة السوداء ، والنعجة القوداء ^(٣)
لا تدفع يد لأمس .

فقال عمرو : « أما والله لقد وقعت في لهاذم ^(٤) شدقم للأقران ذي لبد ،
ولا أحسبك منقلبتا من مخاليب أمير المؤمنين . »

فقال عبدالله : « أما والله يابن العاص ، إنك لبطر في الرخاء ، جبان عند اللقاء ،
غشوم ^(٥) إذا وليت ، هيّاب إذا لقيت ، تهدير ^(٦) ، كما يهدير العود المنكوس ،
المقيد بين مجرى الشول ، لا يستعجل في المدة ، ولا يرتجى في الشدة ، أفلا
كان هذا منك ، إذ غمرك أقوام لم يعنفوا صغاراً ، ولم يمزقوا كباراً . لهم أيد
شداد ، وأسنّة حداد ، يدعمون العوج ^(٧) ، ويذهبون الحرج ^(٨) ، يكثرون
القليل ، ويشفون الغليل ، ويعزّون الذليل ؟ »

-
- [١] الطاف جمع نطفة (كمرصة) وهي الماء الصافي ، قل أو أكثر ، وفي الحديث « قطعنا اليوم هذه
النطفة » أي البحر وماءه ، وفي حديث عليّ : « وليهما عند النطاف والأعشاب » يعني الابل والماشية .
يريد أنها إذا وردت على المياه والعشب يدعها لترد وترعى .
- [٢] الرصفة بالتحريك : الحجارة التي يرصف بعضها إلى بعض في مسيل فيجتمع فيها ماء المطر ، والعقائق :
القدران . يقال لكل مسيل شقه ماء السيل فأنهره ووسعه حقيق ، والجمع أعقة وعقائق ، وقيل العقائق هي
الرمال الحمر . [٣] مؤنث الأنود وهو اللؤلؤ المتقاد .
- [٤] جمع لهزم كجعفر وهو القاطع من الأسنه ، والشدقم الأسد ، والواسع الشدق ، وشدقم للأقران أي أسد
متلع للأقران ، واللبد جمع لبد بالكسر ، ولبد الأسد ما تلبد من شعره على منكبيه ، وكنيته « ذو
لبد » ويكنى أيضاً أبا الأبطال ، وأبا شبل ، وأبا العباس ، وأبا الحارث ، وأبا حفص ، وأنا الزعفران .
- [٥] ظلوم ، عشمه كضربه غشما ظلمه . [٦] هدر البعير وهدير بالشديد صوت ، وفي المنل « كلمهدير
في المنة » والمنة بضم العين وتشديد النون : الحظيرة ، يضرب لمن يصيح ويحلب ولا ينفذ قوله ولا فعله ،
كالبعير يحبس في الحظيرة ممنوعاً من الضراب وهو يهدير ، والعود : المسن من الابل ، والمنكوس الذي طوده
المرض بعد النقه ، والشول جمع سائلة ، وهي من الابل ما آتى عليها من حملها أو وضها سبعة أشهر نجف لبنها .
- [٧] الموج بالفتح في كل ما كان منتصباً مثل الانسان والعصا والعود وشبهه ، والموج بالكسر ما كان
في بساط أو أرض أو معاش أودين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، ودعه (كمنه) مال فأقلمه .
- [٨] حرج صدره كفرح حرجاً ضاق .

فقال عمرو : « أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تخفق ^(١) أحشاؤه ، وتبُق ^(٢) أمعاؤه ، وتضطرب أصلاؤه ^(٣) ، كأنما انطبق عليه ضمُد ^(٤) »

فقال عبد الله : « يا عمرو ، إنا قد بلونك ومقاتك ، فوجدنا لسانك كذُوباً غادراً ، خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجندٍ لا يسأمونك ، ولورمت المنطق في غير أهل الشام ، لَجَحَظ ^(٥) إليه عَقْلُكَ ، وتلجلج لسانك ، ولاضطرب نَحْدَاكَ اضطراب القعود ^(٦) الذي أثقله حمله » .

فقال معاوية : « إيهياً ^(٧) عنكما ، وأمر بإطلاق عبد الله ، فقال عمرو لمعاوية :
 أَمْرُهُ تَكَّ أَمْرًا حَازِمًا فَعَصَيْتَنِي وَكَانَ مِنَ التَّوْفِيقِ قَتْلُ ابْنِ هَاشِمٍ
 أَلَيْسَ أَبُوهُ (يَامَعَاوِيَةَ) الَّذِي أَعَانَ عَلِيًّا يَوْمَ حَزِّ الْغَلَاظِمِ ^(٨)
 فَلَمْ يَنْتَنِي حَتَّى جَرَّتْ مِنْ دِمَائِنَا بِصِفِّينَ أَمْثَالُ الْبُحُورِ الْخَضَارِمِ ^(٩)
 وَهَذَا ابْنُهُ ، وَالْمَرْءُ يُشْبِهُ سِنَخَهُ وَيُوشِكُ أَنْ تَقْرَعَ بِهِ سِنَّ نَادِمِ ^(١٠)
 فقال عبد الله يجيبه :

مُعَاوِيَةَ : إِنَّ الْمَرْءَ عَمْرًا أَبَتْ لَهُ ضَغِينَةٌ صَدْرٍ غِشْمًا غَيْرُ نَائِمِ

[١] تضطرب . [٢] تخرج ، بق البت بقوقا : طلع . [٣] جمع صلا بالفتح وهو وسط الظهر من الانسان ومن كل ذى أربع ، وقيل هو ما انحدر من الوركين . [٤] ضمد جرحه : شده بالضاد والضادة (بالكسر) أى العصابة ، والجمع ضمد ككتب .
 [٥] من جحطت العين جحوظا إذا برزت مقلتها ، والمراد اضطرب عقلاك وشرد ولم يسلس لك قياد التفكير .
 [٦] القعود من الإبل الذى يقتمده الراعى فى كل حاجة . [٧] أمر بالسكوت .
 [٨] الغلاصم جمع غاصمة بفتح الغين والصاد ، ومع رأس الخلقوم — الموضع الناقى فى الحاق — أو أصل اللسان . [٩] الخضارم جمع خضرم بكسر الحاء والراء : البحر العظيم . واثبات الياء فى يئى مع الجازم لغة أو للضرورة أو إشباع والحرف الأصيل محذوف للجازم .
 [١٠] قرع فلان سنه : حرته ندما (حرق نايه — كنصر وضرب — سعه حتى سمع له صريف) وسكن الفعل للضرورة ، والسرخ الأصل من كل شىء ، (وفى الأصل شيخه وهو تصحيف)

يَرَى لَكَ قَتْلِي (يَا بَنَ هِنْدِ) وَإِنَّمَا
عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أَسِيرَهُمْ
يَرَى مَا يَرَى عَمْرُو مُلُوكُ الْأَعَاجِمِ
إِذَا مُنِعَتْ مِنْهُ عَهْدُ الْمُسَالِمِ
وَقَدْ كَانَ مِنَّا يَوْمَ صِفِّينَ نَعْرَةً^(١)
عَلَيْكَ جَنَاهَا هَاشِمٌ وَابْنُ هَاشِمِ
قَضَى مَا انْقَضَى مِنْهَا، وَلَيْسَ الَّذِي مَضَى
وَلَا مَا جَرَى إِلَّا كَأَضْغَاثِ حَالِمِ^(٢)
فَإِنْ تَعَفُّ عَنِّي تَعَفُّ عَنِ ذِي قَرَابَةٍ
وَإِنْ تَرَ قَتْلِي تَسْتَحِلُّ تَحَارِي^(٣)
فَقَالَ مَعَاوِيَةَ :

أَرَى الْعَفْوَةَ عَنْ عَلِيًّا قَرِيشٍ وَسَيْلَةَ^(٤)
وَلَسْتُ أَرَى قَتْلَ الْعُدَاةِ ابْنَ هَاشِمِ
إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْعَصِيبِ الْقُمَاطِرِ^(٥)
بِإِدْرَاكِ تَأْرِي فِي لُؤْيٍ وَعَامِرِ^(٦)
بَلِ الْعَفْوَةَ عَنْهُ بَعْدَ مَا بَانَ جُرْمُهُ
وَزَلَّتْ بِهِ إِحْدَى الْجُدُودِ الْعَوَائِرِ
فَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صِفِّينَ جَمْرَةَ
عَلَيْنَا فَأَرَدْتَهُ رِمَاحُ نَهَابِرِ^(٧)
١٢٥ — عَبْدُ اللَّهِ بْنِ هَاشِمٍ فِي مَجْلِسِ مَعَاوِيَةَ

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية :
« مَنْ يُخْبِرُنِي عَنِ الْجُودِ وَالنَّجْدَةِ وَالْمُرُوءَةِ » ؟ فقال عبد الله : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَمَّا الْجُودُ : فَابْتِدَالُ الْمَالِ ، وَالْعَطِيَّةُ قَبْلَ السُّؤَالِ ؛ وَأَمَّا النَّجْدَةُ : فَالْجَرَاءَةُ عَلَى

[١] نمر القوم كنع ماجوا واجتمعوا في الحرب ، ونمر الرجل خالف ، وفي الأصل « نقرة » وهو تصحيف . [٢] قضى : مات وذهب ، وأضغاث حالم : رؤيا لا يصح تأويلها لاحتلاطها .
[٣] كان عبد الله بن هاشم من أقرباء معاوية إذ هو ابن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مارك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، فهو يجتمع مع معاوية في جده كلاب .
[٤] يوم عصيب : شديد ، ويوم قاطر وقطير شديد أيضا . [٥] العداة جمع طاد وهو العدو ولؤي هو الجد التاسع لمعاوية وعبد الله بن هاشم (والجد الثامن للنبي عليه الصلاة والسلام) وطامر هو ، طامر بن لؤي . [٦] النهابر : الممالك جمع نهبرة بضم النون والباء ، وكذا النهابير جمع نهبرة .

الإقدام ، والصبر عند ازورار الأقدام^(١) . وأما المروءة فالصلاح في الدين ،
والإصلاح للحال ، والمحاماة عن الجار» . (مروج الذهب ٢ : ٥٧)

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

ودخل قيسُ بن سعد بن عبادة بعد وفاة عليٍّ ووقوع الصلح ، في جماعة من الأنصار
على معاوية ، فقال لهم معاوية :

١٢٦ - مقال معاوية

« يا معشر الأنصار ، بيمَ تطلبون ما قبلي ؟ فوالله لقد كنتم قليلا معي ،
كثيراً مع عليٍّ ، ولقد فلأنتم حدّى يوم صفين ، حتى رأيت المنايا تلطّى^(٢) في
أسننتكم ، وهجوتوني في أسلافي بأشدّ من وقع الأسنة ، حتى إذا أقام الله منا
ما حاولتم ميّله ، قنم ارنع فينا وصية رسول الله^(٣) صلى الله عليه وسلم ، هيهات
يأبى الحقيير الغدرة » .

١٢٧ - رد قيس بن سعد

فقال قيس : « نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله ، لا بما نمتُّ
به إليك من الأحزاب . وأما عداوتنا لك فلو شئت كفتها عنك . وأما هجاؤنا
إياك فقولٌ يزول باطله ، ويثبت حقه . وأما استقامة الأمر فعلى كرهٍ كان منا .
وأما فلأنا حدّك يوم صفين ، فإننا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعةً ، وأما وصية
رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ، فمن آمن به رعاها بعده . وأما قولك يا بى الحقيير

[١] أى عند انحرافها وترزلهما . [٢] تلطّى أى تتهب . [٣] وقد وصى عليه الصلاة والسلام
بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم .

الغدرة ، فليس دون الله يد تحجزك منا يا معاوية .

فقال معاوية يمّوه : « ارفعوا حوائجكم » .

(مروج الذهب ٢ : ٦٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١٢١)

١٢٨ - معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء

روى المسعودى فى مروج الذهب قال :

حبس معاوية صعصعة بن صوحان العبدى ، وعبد الله بن الكواء اليشكري .

ورجالاً من أصحاب على ، مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوماً ، فقال :

« نشدتكم بالله إلا ما قاتم حقتاً وصدقا ، أى الخلفاء رأيتموني » ؟ فقال ابن

الكواء : « لولا أنك عزمت علينا ما قلنا ، لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله فى

قتل الأخيار ، ولكننا نقول : إنك - ما علمنا - واسع الدنيا ضيق الآخرة ^(١) ،

قريب الثرى بعيد المرعى ^(٢) ، تجعل الظلمات نوراً ، والنور ظلمات » . فقال

معاوية : « إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام ، الذابن عن بيضته ، التاركين

لمحارمه ، ولم يكونوا كأمثال أهل العراق ، المنتهكين لمحارم الله ، والمحلين ما حرم

الله ، والمحرمين ما أحل الله » . فقال عبد الله بن الكواء : « يابن أبى سفيان ،

إن لكل كلام جواباً ، ونحن نخاف جبروتك ، فإن كنت تطلق ألسنتنا ذبنا

عن أهل العراق ، بألسنة حداد ، لا يأخذها فى الله لومة لائم ، وإلا فإننا صابرون

حتى يحكم الله ويضعنا على فرجه » . قال : « والله لا يطلق لك لسان » .

ثم تكلم صعصعة فقال : « تكلمت يابن أبى سفيان فأبلغت ، ولم تقصر

[١] أى لملك ذو حظ وافر فى الدنيا وليس لك من ثواب الآخرة من نصيب .

[٢] قريب الثرى : قريب الحول فى الثرى : أى قريب الأجل ، وبعيد المرعى كناية عن أنه بعيد

الأمل ، والمعنى أنك واسع الآمال بعيد مرعى الأمان ، مع يمينك أن الارتحال عن هذه الدار وشيك .

عما أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أننى يكون الخليفةَ مَنْ مَلَكَ النَّاسَ قَهْرًا ، ودانهم ^(١) كِبْرًا ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرًا ؟ أما والله مالك فى يوم بدر مَضْرَبٌ ولا مَرَمَى ^(٢) ، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لَا حُلَى وَلَا سِيرَى » ، ولقد كنت أنت وأبوك فى العير والنفير ^(٣) ممن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أنت طليق بن طليق ^(٤) ، أطلقك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأئن تصلح الخلافة لطليق ؟ ، فقال معاوية : « لولا أنى أرجع إلى قول أبى طالب حيث يقول :

قَابِلَتْ جَهْلَهُمْ حَامًا وَمَغْفِرَةً وَالْعَفْوُ عَنْ قُدْرَةٍ ضَرَبٌ مِنَ الْكَرَمِ
لَقَتَلْتُمْ . (مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٢٩ — صعصعة بن صوحان ومعاوية

ودخل صعصعة بن صُوحان على معاوية ، فقال له : « يا بن صوحان ، أنت ذو معرفة بالعرب وبحالها ، فأخبرنى عن أهل البصرة ، وإياك والجل على قوم لقوم » قال : « البصرة واسطة ^(٥) العرب ، ومُنْتَهَى الشرف

[١] دانه : ملكه وأذله واستعمده . [٢] أى مالك ضرب ولا رمى .
[٣] العير الابل تحمل الميرة ، والمراد بها هنا عير قريش التى كان يقودها أبو سفيان بن حرب — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحين الصرافها من الشام — فلما دنا أبو سفيان من المدينة ، وعرف أن عيون رسول الله صلى الله عليه وسلم ترصده ساحل بعيره (أنى بها الساحل) وترك بدرا يسارا ، وقد كان بهت إلى قريش حين فصل من الشام يخبرهم بما يخافه من محمد ، فأقبلت قريش من مكة ، فأرسل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد أحرز العير (أى حصنها) ويأمرهم بالرجوع ، فأبت قريش أن ترجع ، ورحمت بنو زهرة وعدلوا إلى الساحل منصورين إلى مكة فصادفهم أبو سفيان فقال : يا بنى زهرة لا فى العير ولا فى النفير (فذهبت مثلا) قالوا أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع ، ومضت قريش إلى بدر فقاتلهم النبي وأظفره الله بهم ، والنفير القوم يستنفرون للحرب وهم هنا مشركو مكة الذين خرجوا يستنقذون العير ، وكان رئيسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه .
[٤] الطلقاء هم الذين عفا عنهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، فقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء .
[٥] هو على التشبيه بواسطة النقد وهى الجوهرة الفاخرة التى تجعل وسطه .

والسُّودَدَ ، وهم أهل الحِطَطِ^(١) في أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سرّوات^(٢) العرب كدَوْران الرّحى على قُطْبها ، قال : فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : « قُبّة الإسلام ، وَذُرْوَة الكلام ، وَمَصَانُ ذوى الأعلام - إلا أن بها أجلافاً^(٣) تمنع ذوى الأمرِ الطاعة ، وتخرجهم عن الجماعة - وتلك أخلاق ذوى الهيئَة والقناعة » . قال : فأخبرني عن أهل الحجاز ، قال : « أسرعُ الناس إلى فتنة ، وأضعفهم عنها ، وأقلهم غناءً^(٤) فيها ، غير أن لهم ثباتاً في الدين ، وتمسكاً بعُرْوَة اليقين ، يتبعون الأئمة الأبرار ، ويخْلَعون الفسقة الفُجّار » فقال معاوية : مَنْ البررة والفسقة ؟ فقال : « يابن أبي سُفيان ، ترك الخِداع ، مَنْ كَشَفَ القناع ، على أصحابه من الأئمة الأبرار ، وأنت وأصحابك من أولئك » . ثم أحب معاوية أن يمضى صعصعة في كلامه ، بعد أن بان فيه الغضب ، فقال : أخبرني عن القُبّة الحمراء في ديار مَضَرَ^(٥) ، قال : « أسدٌ مُضَرٌ بسلاءٍ بين غيلين^(٦) ، إذا

[١] الحطط جمع خطة بالكسر : وهي الأرض تنزل من غير أن يزلها نارل قبل ذلك ، ومنه خطط الكوفة والبصرة ، وقد خطها لنفسه واختطها وهو أن يلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها .
 [٢] السرو بالفتح : الروعة في شرف ، سرو فهو سرى وجمعه أسرياء وسرواء كفضلاء والسرارة بالفتح اسم جمع وجمعه سروات . [٣] جمع جلف بالكسر وهو الرجل الجاني . [٤] غناء : كفاية [٥] ذكروا أن نزار بن ممد لما حضرته الوفاة جمع بينه : مضر ، وإيادا ، وربيعة ، وأنمارا ، فقال : يابني ، هذه القبة الحمراء - وكانت من آدم - وهذا الفرس الأدم والحباء الأسود لربيعة ، وهذه الخادم - وكانت شطاء - لإياد ، وهذه البدرة (بالفتح : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار) والمجلس لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تقنسمون ، فأتوا الأدمي الجرهمي ، ومنزله بنجران ، فتشاجروا في ميراثه ، فاختصموا إلى الأدمي الجرهمي ، وهو حكم العرب ، فقصوا عليه قصتهم ، وأخبروه بما أوصى به أبوم فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالدناير والابل الجر ، فسمى مضر الحمراء لذلك ، وقال : وأما صاحب الفرس الأدم والحباء الأسود ، فله كل شيء أسود ، فصارت لربيعة الحيسل الدم ، فقبل ربيعة الفرس ، وما أشبه الخادم الشطاء فهو لإياد ، فصار له المشاية البلق من الحبايق والنقد (الحلبق : بفتح الحاء والياء وتشديد اللام : غنم صفار لا تكبر ، أو قصار اللز ودمامها ، والنقد كسبب : جنس من الغنم قبيل الشكل) فسمى إياد الشطاء ، ونفى لأنمار بالدراهم وبما فضل ، فسمى أنمار الفضل فصدروا من عنده على ذلك . - مجمع الأمثال ١ : ١٠ .
 [٦] بسلاء جمع باسل : وهو الأسد والشجاع والغيل بالكسر ويفتح : الشجر الكثير اللثف والأجمة .

أَرْسَلْتَهَا افْتَرَسَتْ، وَإِذَا تَرَكْتَهَا احْتَرَسَتْ. فقال معاوية: « هنالك يابن صوحان، العز الراسي، فهل في قومك مثل هذا؟ » قال: « هذا لأهله دونك يابن أبي سفيان، ومن أحب قوماً حُشِرَ معهم » قال: فأخبرني عن ديار ربيعة، ولا يَسْتَخْفِنُكَ الْجَهْلُ، وسابقة الحمية بالتعصب لقومك^(١)، قال: « والله ما أنا عنهم براص، ولكني أقول فيهم وعليهم، هم والله أعلام الليل، وأذئاب في الدين والميل، لن تُغْلَبَ رايتهَا إِذَا زُشِحَتْ، خوارج الدين، برازخ اليقين، من نصره فَلَجَ^(٢)، ومن خذلوه زَلَجَ^(٣) ». قال: فأخبرني عن مضر، قال: « كِنَانَةٌ^(٤) العرب، وَمَعْدِنُ الْعَزِّ وَالْحَسَبِ، يقذف البحر بها آذِيَهُ^(٥)، وَالْبَرْءُ رَدِيَهُ^(٦)، ثم أمسك معاوية، فقال له صعصعة: سَلْ يَا مَعَاوِيَةَ، وَإِلَّا أَخْبَرْتُكَ بِمَا تَحْمِيدُ عَنْهُ، قال: وما ذلك يابن صوحان؟ قال: « أهل الشام »، قال: « فأخبرني عنهم »، قال: « أطوع الناس لمخلوق، وأعصاهم للخالق، عُصَاةُ الْجَبَّارِ، وَخَلِيفَةُ^(٦) الْأَشْرَارِ، فعليهم الدمار، ولهم سوء الدار ». فقال معاوية: « والله يابن صوحان، إنك لحامل مُدَّتِكَ مِنْذُ أَرْمَانَ^(٧) » إلا أن حلم ابن أبي سفيان يردُّ عنك، فقال صعصعة: « بل أمر الله وقدرته، إن أمر الله كَانَ قَدَرًا مَقْدُورًا ».

(مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣٠ — صعصعة بن صوحان وعبد الله بن عباس

وروي المسعودي في مروج الذهب أيضاً، قال:

« عن مصقلة بن هبيرة الشيباني قال: سمعت صعصعة بن صوحان وقد

[١] وكان صعصعة من بني عبد القيس بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار .
 [٢] فلج على خصمه: ظفر وفاز . [٣] زلق وزل . [٤] الكنانة في الأصل: جمجمة السهام
 [٥] الأذى: الموج . [٦] الخلفة في الأصل: ما عاق خلف الراكب، والمراد بها هنا أتباع .
 [٧] كناية عن مجاهرته بالعداوة .

سأله ابن عباس : ما السُّودَدُ (١) فيكم ؟ فقال : « إطعامُ الطعام ، ولينُ الكلام ، وَبَذْلُ النَّوَالِ ، وكفُّ المرءِ نَفْسَه عن السؤال ، والتودُّدُ للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك شَرَعًا (٢) » . قال : فما المُرُوءَةُ ؟ قال : « أَخْوَانُ اجْتَمَعَا ، فَإِنْ لَقِيََا قَهْرًا (٣) ، (وإن كان) حَارِسُهُمَا قَلِيلٌ ، وصاحبهما جليل ، محتاجان (٤) إلى صيانة ، مع نزاهةٍ وديانةٍ » . قال : فهل تحفظُ في ذلك شعراً ؟ قال : نعم ، أما سمعتَ قولَ مُرَّةَ بِنِ ذُهَلِ بْنِ شَيْبَانَ حيث يقول :

إِن السِّيَادَةَ وَالْمُرُوءَةَ عُمَلَقَا حَيْثُ السَّمَاءُ مِنَ السَّمَاءِ لِكِ الْأَعْرَلِ (٥)

وَإِذَا تَقَابَلِ مُجْرِيَانِ لِنَايَةِ عَثَرَ الْمُهْجِينِ وَأَسَامَتَهُ الْأَرْجُلِ (٦)

وَيَجِي الصَّرِيحُ مَعَ الْعِتَاقِ مُعَوِّدَا قَرَبَ الْجِيَادِ فَلَمْ يَجِيهِ الْأَفْكَلُ (٧)

في أبيات . فقال له ابن عباس : لو أن رجلاً ضرب آباطاً (٨) إبله ، مُشَرِّقًا وَمُغْرَبًا لِفَائِدَةِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ مَا عَنَّفْتُهُ ، إنا منك يا ابن صُوحَانَ لَعَلَى عِلْمٍ وَحَلْمٍ وَاسْتِنْبَاطٍ مَا قَدِ عَفَا (٩) من أخبار العرب ، فمن الحليم فيكم ؟ قال : « من ملك غضبته فلم يفعل ، وسُئِمَ إليه بحقٍّ أو باطلٍ ، فلم يقبل ، ووجد قاتل أبيه وأخيه ، فصفح ولم يقتل ، ذلك الحليم يا ابن عباس » . قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيراً ؟ قال : « ولا

[١] السودد بفتح الدال غير مهموز ، والسؤدد بضم الدال مهموزاً والسيادة والسرد .

[٢] شرعاً بسكون الراء وفتحها أى سواء . [٣] أى أئمتها قوتان عظيمتان لصاحبهما ، تقهران مايلقاه من الشدائد والصعاب وقوله « وإن كان » أى وإن كان ما القيا عظيمًا ، ولله زيادة من خطأ النسخ أو الطباع . [٤] فى الأصل « لحاحان » وهو تحريف . [٥] السما كان الأعرل والرامح : نجبان نيران ، وسمى أعزل لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب كالأعرل الذى لا سلاح له . كما كان مع الرامح . [٦] فرس هجين إذا لم يكن عتيقاً كريماً ، وأسامة : خذلته . [٧] لم يجهه الأفكل أى لم تصبه الرعدة « ويلاحظ أن فى هذا الشعر عيباً من عيوب القافية وهو الإقواء ، لأن حركة الروى فى البيت الأول كسر ، وفى الثانى والثالث ضم ، وقد وقع فى شعر النابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت ، وشمر بن أبى خازم » . [٨] آباط جمع إبط كمل . إبل : باطن المنكب . [٩] درس واحي .

قليلًا ، وإنما وصفت لك أقوامًا ، لا تجدم إلا خاشعين راهبين ، لله مُرِيدِينَ ،
يُنِيلُونَ ولا يَنَالُونَ ، فأما الآخِرُونَ فإِنَّهُمْ سَبَقَ جَهْلُهُمْ حَامَهُمْ ، ولا يَبَالِي أَحَدُهُمْ
(إِذَا ظَفِرَ بِبُعَيْتِهِ) حِينَ الْحَفِيظَةِ^(١) مَنْ كَانَ ، بعد أن يُدْرِكُ زَعْمَهُ ، وَيَقْضَى
بُعَيْتَهُ ، ولو وَتَرَهُ أَبُوهُ لَقَتَلَ أَبَاهُ ، أو أَخُوهُ لَقَتَلَ أَخَاهُ ، أما سَمِعْتَ إِلَى قَوْلِ رِيَّانَ
ابنِ عَمْرٍو بنِ رِيَّانَ ، وَذَلِكَ أَنَّ عَمْرًا أَبَاهُ قَتَلَهُ مَالِكُ بنِ كُومَةَ ، فَأَقَامَ رِيَّانُ زَمَانًا ثُمَّ
غَزَا مَالِكًا ، فَأَنَاهُ فِي مَائِي فَارِسٍ صَبَّاحًا ، وَهُوَ فِي أَرْبَعِينَ بَيْتًا ، فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ
أَصْحَابَهُ وَقَتَلَ عَمَّهُ فِيمَنْ قَتَلَ ، - وَيُقَالُ بَلْ كَانَ أَخَاهُ - وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ جَاوِرَهُمْ ،
فَقِيلَ لِرِيَّانَ فِي ذَلِكَ : قَتَلْتَ صَاحِبَنَا ، فَقَالَ :

فَلَوْ أُمِّي ثَقِفْتُ بِحَيْثُ كَانُوا لَبَلَّ ثِيَابَهَا عَلَقٌ صَبِيبٌ^(٢)
وَلَوْ كَانَتْ أُمِّيَّةً أُخْتُ عَمْرٍو بِهَذَا الْمَاءِ ، ظَلَّ لَهَا نَحِيبٌ
شَهَرَتْ السَّيْفَ فِي الْأَدْنَيْنِ مِنِّي وَلَمْ تَعْطِفْ أَوْاصِرِنَا قُلُوبٌ^(٣)

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَمَنْ الْفَارِسُ فِيمَكُم ؟ حُدِّ لِي حَدًّا أَسْمَعُهُ مِنْكَ ، فَإِنَّكَ تَضَعُ
الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا يَا بَنَ صَوْحَانَ ، قَالَ : « الْفَارِسُ مَنْ قَصُرَ أَجَلُهُ فِي نَفْسِهِ ،
وَضَعَمَ^(٤) عَلَى أَمَلِهِ بِضِرْسِهِ ، وَكَانَتْ الْحَرْبُ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْسِهِ ، ذَلِكَ الْفَارِسُ
إِذَا وَقَدَتْ^(٥) الْحُرُوبُ ، وَاشْتَدَّتْ بِالْأَنْفُسِ الْكُرُوبُ ، وَتَدَاعَوْا لِلنَّزَالِ ،
وَتَرَاخَفُوا لِلْقِتَالِ ، وَتَخَالَسُوا الْمُهْجَ^(٦) ، وَاقْتَحَمُوا بِالسُّيُوفِ اللَّجَجَ » ، قَالَ :

[١] الجمية والنصب . [٢] ثقفه كسمعه : صادفه ، والعلق : الدم أو الشديد الجرة ، وصبيب :
أى مصبوب . [٣] أو اصرج أصرة وهي القرابة وحبل صغير يشد به أسفل الحباء .
[٤] ضغفه كنع عضه . [٥] وقدت النار (كوعد) توقدت .
[٦] المهج جمع مهجة وهي الروح ، وتخالسوها تبادلوا اختلاسها واستلابها .

أحسنت والله يا بن صوحان ، إنك لسليلُ أقوامٍ كرامٍ ، خُطباءُ فُصحاءٍ ، ماورِثت
 هذا عن كلالَة^(١) ، زدني ، قال : « نعم ، الفارس كثير الحذر ، مُدير النَّظَر ،
 يلتفت بقلبه ، ولا يدير خَرَزَاتِ صُلْبِهِ^(٢) » . قال : أحسنت والله يا بن صوحان
 الوصف ، فهل في مثل هذه الصفة من شعر؟ قال : نعم ، لزهير بن جناب
 الكلابي^(٣) يرثي ابنه عمراً حيث يقول :

فَارِسٌ تُكَلَّلُ الصِّحَابَةُ مِنْهُ بِمُحْسَامٍ يَمُرُّ مَرَّ الْحَرِيقِ^(٤)
 لَا تَرَاهُ لَدَى الْوَعْغَى فِي مَجَالٍ يُغْفِلُ الضَّرْبَ لَأَ . وَلَا فِي مَضِيقٍ
 مَنْ يَرَاهُ يَخْلُهُ فِي الْحَرْبِ يَوْمًا أَنَّهُ أَخْرَقَ مُضَلُّ الطَّرِيقِ^(٥)

في أبيات ، فقال له ابن عباس : فأين أخواك منك يا بن صوحان ؟ صِفْهُمَا لِأَعْرِفَ
 وَرِثَتَهُمْ ، قال : أما زيد فكا قال أخو غنّي^(٦) .

فَتَى لَا يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِوَجْهِهِ (إِذَا نَالَ خَلَاتِ الْكِرَامِ) شُحُوبٌ^(٧)
 إِذَا مَا تَرَاهُ الرَّجَالُ تَحَفَّظُوا فَلَمْ يَنْطَقُوا الْعَوْرَاءَ وَهُوَ قَرِيبٌ^(٨)

[١] تقول العرب : لم يرثه كلالَة أى لم يرثه عن عرض بل عن قرب واستحماق ، قال الفرزدق :

ورثتم قناة الملك عسير كلالَة عن ابني مناف عدد شمس وهاشم

والكلالَة ما لم يكن من النسب لحا ، وبنو العم الأبعاد ، وحكى عن أعرابي أنه قال : مالي كثير ويرثي كلالَة
 متراخ نسبهم ، وكل وارت ليس بوالد للبيت ولا ولد له فهو كلالَة موروثه . [٢] أى فقرات ظهره .

[٣] شاعر جاهلي وهو أحد المعمرين . [٤] كلالَة : حفظه وحرسه .

[٥] الأخرق : الأحمق ، أما قوله في أول البيت « من يراه » فهو مثل : « ألم يأتيك والأنباء تنمى »
 ومثل : « كأن لم ترى قلى أسيرا يمانيا » . الخ ، وقد قال النحويون في ذلك إن لإثبات حرف العلة
 مع الجازم لغة ، وقيل ضرورة ، وقيل هو حرف إشباع ، والحرف الأصلي محذوف للجازم ، وعندى أنه
 ربما كان الأصل « من رآه » وعليه فلا محذور ، مع استقامة وزن البيت .

[٦] هو كعب بن سعد الغنوي (شاعر جاهلي) والأبيات المذكورة من قصيدة له يرثي بها
 أخاه أبا المغوار وأرلها :

تقول سليبي ما لجسمك شاحبا كأمك يحميك الطعام طيب

(انظرها في الأمالي ٢ : ١٥٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٩) .

[٧] خلات جمع حلة بالفتح وهي الحصلة ، وشعب لونه كجمع ونصر وكرم وعن شعوبا : تغير من هزال
 أو جوع أو سفر . [٨] العوراء : الكلمة القبيحة .

حَلِيفُ النَّدَى، يَدْعُو النَّدَى فَيُجِيبُهُ قَرِيبًا ، وَيَدْعُوهُ النَّدَى فَيُجِيبُ (١)
يَبِيْتُ النَّدَى (يَا أُمَّ عَمْرٍو) ضَجِيعَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْمُنْقِيَّاتِ حَلُوبٌ (٢)
كَأَنَّ يُيُوتَ الْحَىَّ (مَا لَمْ يَكُنْ بِهَا) بَسَابِسُ مَا يُبْلَفَى بِهِنَ غَرِيبٌ (٣)

في آيات ، كان والله يابن عباس ، عظيم المروءة (٤) ، شريف الأخوة ، جليل
الخطَر ، بعيد الأثر ، كَمِيش (٥) العُرْوَة ، أليف الذِّدْوَة (٦) ، سليم جوانح الصدر ،
قليل وسأوس الدهر ، ذاكراً لله طرْفِي النَّهَارِ وَزُرْفَاً (٧) مِنَ اللَّيْلِ ، الجوعُ وَالشَّبَعُ
عنده سِيَّانٍ ، لا يُنَافِسُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَقْلُ أَصْحَابِهِ مَنْ يُنَافِسُ فِيهَا ، يُطِيلُ
السُّكُوتَ ، ويحفظ الكلام ، وإن نطق نطق بعُقَامٍ (٨) ، يَهْرُبُ مِنْهُ الدُّعَارُ (٩)
الأشْرَارُ ، وَيَأْلَفُهُ الْأَحْرَارُ الْأَخْيَارُ . قال ابن عباس : « ما ظنك برجل من أهل
الجنة ، رحم الله زيدا ، فأين كان عبد الله منه ؟ » ، قال : « كَانَ عَبْدَ اللَّهِ سَيِّدًا
شَجَاعًا ، مُؤَلَّفًا (١٠) مُطَاعًا ، خَيْرُهُ وَسَاعٌ (١١) ، وَشَرُّهُ دُفَاعٌ ، قَلْبِي النَّحِيذَةُ (١٢) ،
أَحْوَذِي (١٣) الْغَرِيذَةُ ، لَا يُنْهَنِيهِ (١٤) مُنْهَنِيهِ عَمَّا أَرَادَهُ ، وَلَا يَرْكَبُ مِنَ الْأَمْرِ إِلَّا

[١] الندى : الجود . [٢] المنقيات : دوات البق (بالكسر) وهو الشحم ، ناقة منقية أى
سمينة . [٣] بسابس جمع بسبس كجعفر وهو القفر الحالى (وى الأصل بسائس وهو تصحيف) .
[٤] مسهل عن المروءة . [٥] يقال رجل كَمِيش الازار : أى مشر جاد ، ورجل كَمِيش : عزوم
ماض سريع فى أموره . [٦] الندوة والنادى والمتدى والندى : مجلس الموم ومتحدثهم ، وى
الأصل « البدوة » وأراء مصحفا ، أو هو فعلة من البدو وهو الظهور ، أى ذو مظهر حسن يؤلف
ولا يبعج . [٧] جمع زلفة بالضم وهى الطائفة من الليل . [٨] داء عقام : لا يبرأ ، أى نطق
بقوارص من الكلم جارحة مؤلمة لادواء لها . [٩] جمع داعر وصف من الدعارة بفتح الدال وكسرهما
وهى الحبث والنسق . [١٠] ألفتة وآلفتة : أسست به فهو مألوف ومؤلف .
[١١] على التشبيه بالفرس الوساع : وهو الجواد الواسع الخطو والذرع ، والدفاع : السيل العظيم ،
والشئ العظيم يدفع به مثله « وفرس دفاع كشداد . إذا تدافع جريه » . [١٢] القلب محض كل شئ ،
والنحيزة الطبيعة ، أى خالص الطبيعة صانها . [١٣] الأحوذى : الحقيف الحاذق والشمر للأمور
القاهر لها لا يشذ عليه شئ . [١٤] نهنيه كفه وزجره .

عَتَادَهُ ^(١) ، سِمَامُ عِدَاً ^(٢) ، وَبَاذِلُ قَرِيٍّ ^(٣) ، صَعْبُ الْمَقَادَةِ ، جَزَلُ الرَّفَادَةِ ^(٤) ،
أَخُو إِخْوَانَ ، وَفَتَى فِتْيَانَ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ الْبُرْجُمِيُّ عَامِرُ بْنُ سَنَانَ :

سِمَامُ عِدَاً ، بِالنَّبْلِ يَقْتُلُ مَنْ رَمَى وَبِالسَّيْفِ وَالرُّمُوحِ الرَّذَائِيَّ يَشْعَبُ ^(٥)
مَهِيْبٌ مُفِيدٌ لِلنَّوَالِ مَعُوْدٌ بِفِعْلِ النَّدَى وَالْمَكْرُمَاتِ مُجْرَبٌ

فِي آيَاتٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَنْتَ يَا بَنَ صُوحَانَ بَاقِرٌ ^(٦) عِلْمُ الْعَرَبِ .

(مروج الذهب ٢ : ٨٠)

١٣١ - صَعْصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ وَرَجُلٌ مِنْ بَنِي فِزَارَةَ

وَوَقَفَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فِزَارَةَ عَلَى صَعْصَعَةَ ، فَأَسْمَعَهُ كَلَامًا (مِنْهُ) :

« بَسَطْتَ لِسَانَكَ يَا بَنَ صُوحَانَ عَلَى النَّاسِ فَتَهَيَّبُوكَ ، أَمَا لَنْ شَدْتُ لِأَكُونَنَّ

لَكَ لِصَاقًا ^(٧) ، فَلَا تَنْطِقْ إِلَّا جَدَدْتُ ^(٨) لِسَانَكَ بِأَذْرَبٍ ^(٩) مِنْ ظُبَّةِ السَّيْفِ ،

بِعَضْبٍ قَوِيٍّ ، وَلِسَانٍ عَلِيٍّ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَكَ فِي ذَلِكَ حَلٌّ وَلَا تَرْحَالُ » فَقَالَ

صَعْصَعَةُ : « لَوْ أَجِدُ غَرَضًا ^(١٠) مِنْكَ لَرَمَيْتُ ، بَلْ أَرَى شَبَجًا ، وَلَا إِخَالَ مِثَالًا

إِلَّا كَسْرَابٍ ^(١١) بَقِيْعَةٍ ، يَحْسَبُهُ الظُّمَّانُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ،

[١] العتاد : العدة . [٢] سمام جمع سم مثلث السين ، والعدا بالكسر والضم اسم جمع عدو أى هو

للأعداء سم قاتل . [٣] قرى الصيف (كرمى) قرى : أصابه ، والقرى أيضا : ماقرى به الضيف .

[٤] رفته (كضربه) أعطاه ووصله ، والرفادة فى الأصل خرج كانت تخرجه قريش فى كل موسم من

أموالها فيصنع به طعام للحاج ، والمراد بها هنا العطية . [٥] الردينى نسبة إلى ردينة امرأة سمير ،

وكانا يقومان الرماح بخط حجر ، ويشعب : أى يبرق ويصدع . [٦] أصل البقر : الفتح والشق

والتوسعة ، وكان يقال ل محمد بن على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم محمد الباقر : لأنه بقى العلم

وعرف أصله واستنبط فرعه .

[٧] اللصاق : ما يلصق به ، والمعنى لأكونن لك ملاصقا ملازما . [٨] جد الشيء من باب ردّ :

قطعه . [٩] أذرب : أهدت من ذرب كفرح صار حديدا ماضيا ، والظبة : حده السيف .

[١٠] الغرض الهدف . [١١] السراب : ما يرى نصف النهار كأنه ماء ، والقيعة جمع فاع وهو أرض

سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، ويجمع أيضا على قيع (بالكسر) وقيعان وأقواع وأقوع

أَمَا لَوْ كُنْتَ كُفْتًا لَرَمَيْتُ حَصَائِكَ (١) بِأَذْرَبَ مِنْ ذَاقِ (٢) السَّنَانِ ، وَلرَشَقْتُكَ
بِنِبَالٍ ، تَرَدُّعُكَ عَنِ النَّضَالِ ، وَخَطَمْتُكَ بِخِطَامِ (٣) ، يَخْزِمُ مِنْكَ مَوْضِعَ الزَّمَامِ (٤) .
فَاتَّصَلَ الْكَلَامُ بِابْنِ عَبَّاسٍ ، فَاسْتَضْحَكَ (٥) مِنْ الْفَزَارِيِّ ، وَقَالَ : « أَمَا لَوْ كَلَّفَ
أَخُو فَزَارَةَ نَفْسَهُ نَقْلَ الصَّخُورِ مِنْ جَبَلِ شَمَامٍ (٦) إِلَى الْهَضَابِ ، لَكَانَ أَهْوَنَ
عَلَيْهِ مِنْ مَنَازَعَةِ أَخِي عَبْدِ الْقَيْسِ ، خَابَ أَبُوهُ ، مَا أَجْهَلَهُ ! يَسْتَجْهَلُ أَخَا عَبْدِ الْقَيْسِ
وَقَوَاهِ الْمَرِيَّةِ (٧) ! ثُمَّ تَمَثَّلَ :

صُبَّتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَنْصَبْ مِنْ أُمَّمٍ إِنَّ الشَّقَاءَ عَلَى الْأَشْقِيْنَ مَصْنُوبٌ (٨)

(مروج الذهب ٢ : ٨٢)

١٣٢ - رَجُلٌ مِنْ آلِ صُوحَانَ يَجِبُهُ (٩) عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَهُوَ يَخْطُبُ

وَخَطَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْعِلَظَةَ ، قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ آلِ

صُوحَانَ ، فَقَالَ : « مَهْلًا مَهْلًا يَا بَنِي مَرْوَانَ ، تَأْمُرُونَ وَلَا تَأْتُمُونَ ، وَتَنْهَوْنَ وَلَا

تُنْهَوْنَ ، وَتَعْمُزُونَ وَلَا تَعْمُزُونَ ، أَفَنَقْتَدِي بِسِيرَتِكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ، أَمْ نَطِيعُ أَمْرِكُمْ

بِالسَّنَتِكُمْ ؟ فَإِنْ قَتَمْتُمْ اقْتَدُوا بِسِيرَتِنَا ، فَأَنْتِي وَكَيْفَ ؟ وَمَا الْحِجَةُ ؟ وَمَا الْمَصِيرُ مِنْ

اللَّهِ ؟ أَفَنَقْتَدِي بِسِيرَةِ الظَّلَمَةِ الْفُسْقَةِ ، الْجَوْرَةِ الْخَوْنَةِ ، الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَالَ اللَّهِ

[١] الحصائل جمع حصيلة ، يقال حصل الشيء تحصيلًا ، والاسم الحصيلة ، قال لبيد :

وكل امرئٌ يوماً سيعلم غيبه إذا حصلت عند الإله الحصائل

والمعنى : لرميت ما حصلته من العلم والمعرفة . [٢] ذلق السنان والاسان كفتح : ذرب فهو ذلق

وأذلق ، وذاق السنان من إضافة الصفة إلى الموصوف . [٣] الخطام كل ما وضع في أنف البعير

ليقتاد به ، وخطمه بالخطام جهله على أنفه ، أو جرت أنفه ليضع عليه الخطام ، وخطمه بالكلام قهره ومنعه

حتى لا يبس . [٤] خزم البعير : جعل في جانب منخره الخزامة (ككتابة) والزمام ما يزم به .

[٥] استضحك الرجل وتضاحك بمعنى . [٦] جبل بالعالية . [٧] أى القوية ، يقال رجل

مريز أى قوى ذو مرة « والمرة بالكسر القوة » . [٨] الأمم : القرب .

[٩] جبهه كقطعه لقيه بما يكره .

دُولًا^(١)، وعبيده خَوْلًا^(٢)؟ وإن قلتُم اسمعوا نصيحتنا، وأطيعوا أمرنا، فكيف ينصح لغيره مَنْ يَغُشُّ نفسه؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته؟ وإن قلتُم خذوا الحكمة من حيث وجدتموها، واقبلوا العِظَةَ ممن سمعتموها، فعلام وليناكم أمرنا، وحكمتناكم في دماننا وأموالنا؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات، وأفصح بالعظات؟ فتخلّوا عنها^(٣)، وأطلقوا عقالها، وخلّوا سبيلها، يَنْتَدِبُ^(٤) إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين شرّدتموهم في البلاد، ومزقتموهم في كل واد، بل تثبتت في أيديكم لانقضاء المدة، وبلوغ المهلة، وعظم المحنة، إن لكل قائم قدرًا لا يعدوه، ويومًا لا يخطوه، وكتابًا بعده يتلوه: «لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ». ثم التمس الرجل فلم يوجد. (نهاية الأرب ٧ : ٢٤٩)

١٣٣ - وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان

قال معاوية لعقيل بن أبي طالب: «مَيِّزْ لِي أَصْحَابَ عَلِيٍّ، وابدأ بآل صوحان، فإنهم مخاريقُ الكلام^(٥)». قال: «أما صَعَصَعَةٌ فعظيم الشأن، عَضْبُ اللسان^(٦)، قائدُ فُرسان، قاتل أقران، يَرْتُقُ^(٧) مَا فُتِقَ، وَيَفْتُقُ مَا رُمِتِقَ، قليل النظير. وأما زيد وعبد الله، فإنهما

[١] جمع دولة بالضم، أى جعلوه متداولًا بينهم.

[٢] الحول ما أعطاك الله تعالى من النعم (محرّكة) والعبيد والاماء وغيرهم من الحاشية للواحد والجميع والذكر والأنثى، ويقال للواحد خائل. [٣] أى عن الحلاوة. [٤] انتدب إليه: أسرع.

[٥] مخاريق جمع مخراق بالكسر وهو السيف، والسيد، والمنصرف فى الأمور الذى لا يقع فى أمر إلا خرج منه (والثور البرى يسمى مخراقًا لأن الكلاب تطله فيقتل منها، وفلان مخراق حرب أى صاحب حروب يخف فيها). [٦] العضب: القاطع. [٧] الرنق ضد الفتق.

هران جاريان ، يصب فيهما الخُلجان^(١) ، وَيُنْكَثُ بهما البُلدان ، رجلا جِدِّ
لَا لَعِبَ مَعَهُ ، وَأَمَّا بنو صُوحان فكما قال الشاعر :

إِذَا نَزَلَ الْعَدُوَّ فَإِنِّ عِنْدِي أَسُودًا تَمْخِيسِ الْأَسَدِ النَّفُوسَا^(٢)

(مروج الذهب ٢ : ٧٥)

١٣٤ — وصية محمد الباقر^(٣) لعمر بن عبد العزيز

دخل أبو جعفر ، محمد الباقر ، بن عليّ زين العابدين ، بن الحسين عليهم السلام ،

على عمر بن عبد العزيز رضی الله عنه ، فقال : يا أبا جعفر ، أوصني ، قال :

« أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين وُلْدًا ، وأوسطهم أَخًا ، وكبيرهم أَبًا ،

فَارْحَمْ وَلَدَكَ ، وَصِلْ أَخَاكَ ، وَبِرَّ أَبَاكَ ، وَإِذَا صَنَعْتَ مَعْرُوفًا فَرَبَّهُ^(٤) .

(الأمال ٢ : ٣١٢)



[١] الخليج نهر في شق من النهر الأعظم . [٢] خلس الشيء كضرب خلسا استلبه .

[٣] توفي سنة ١١٣ هـ . [٤] أي أدبه ، يقال رب بالمكان وأربّ : ألام به ودام .

خطب الزبيريين وما يتصل بها^(١)

خطب عبد الله بن الزبير (قتل سنة ٧٣ هـ)

عبد الله بن الزبير ومعاوية

دخل الحسين بن عليّ رضي الله عنه يوماً على معاوية ، ومعه مولى له يقال له ذكوان ، وعند معاوية جماعة من قريش ، فيهم ابن الزبير ، فرحّب معاوية بالحسين ، وأجلسه على سريره ، وقال : ترى هذا القاعد (يعنى ابن الزبير) فإنه ليُذْرَكُ الحسد لبني عبد مناف^(٢) ، فقال ابن الزبير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن إن شئت أعلمتُك فضل الزبير على أيك أبي سفيان فعلتُ ، فتكلم ذكوان مولى الحسين بن عليّ ، فقال :

١٣٥ - مقال ذكوان

« يا ابن الزبير : إن مولاى ما يمنعهُ من الكلام إلا أن يكون طَلَّقَ اللسان ، رابطاً الجَنان ، فإن نَطَقَ نطق بعلم ، وإن صَمَتَ صمت بحلم ، غير أنه كَفَّ الكلام ، وسبق إلى السَّنام ، فأقرت بفضله الكرام ، وأنا الذى أقول :

فِيمَ الكلامِ لِسَابِقِ في غايةِ والناس بين مُقَصَّرٍ ومُبَلَّدٍ^(٣)
إن الذى يَجْرِي لِيُذْرِكُ شَأْوَهُ يُنمَى لِغَيْرِ مُسَوِّدٍ ومُسَدَّدٍ^(٤)

[١] تقدم لك في باب خطب بنى هاشم وشيعتهم ، خطب أمراء الكوفة من قبل ابن الزبير - انظر خطب عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعبد الله بن مطيع في ص ٥٧ - ٥٨ - ٦٢ - ٦٨ - ٧٤ - ٧٥ . [٢] عبد مناف جد يجمع بنى هاشم وبنى أمية . فالرسول عليه الصلاة والسلام هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ومعاوية هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وأما عبد الله بن الزبير فن بنى أسد أبوه الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي . [٣] بلد تبليدا : لم يتجه لشيء ، والفرس : لم يسبق ، والسعاية : لم تخطر . [٤] الشأو : الغاية ، وينمى : ينسب .

بل كيف يُدْرِك نورَ بَدْرِ ساطعٍ خَيْرِ الأَنامِ وَفَرَجِ آلِ مُحَمَّدٍ
فقال معاوية : صدق قولك يا ذكوان ، أكثر الله في موالى الكرام مثلك ، فقال
ابن الزبير : إن أبا عبد الله ^(١) سكت وتكلم مولاه ، ولو تكلم لأجناه ، أو
لكفّفنا عن جوابه إجلالا له ، ولا جواب لهذا العبد . قال ذكوان : هذا العبد
خير منك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَوَالِي القوم منهم » ، فأنا مولى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت ابن العوام بن خويلد ، فنحن أكرم ولأخ ،
وأحسن فعلا . قال ابن الزبير : إني لست أجيب هذا ، فهات ما عندك .

١٣٦ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« قاتلك الله يا ابن الزبير ! ما أعياك ^(٢) وأبغاك ! أتفخر بين يدي أمير المؤمنين
وأبي عبد الله ! إنك أنت المتعدى لَطَوْرِكَ ، الذي لا تعرف قدرك ، فقس شِبرَكَ
بِفِترِكَ ^(٣) ، ثم تعرّف كيف تقع بين عرّانين ^(٤) بنى عبد مناف ، أما والله لئن
دفعمت في بحور بنى هاشم وبنى عبد شمس ، لتقطعنك بأمواجها ، ثم لتوهين ^(٥)
بك في أجاجها ، فما بقاؤك في البحور إذا غمرتك ، وفي الأمواج إذا بهرتك ^(٦) ؟
هنالك تعرّف نفسك ، وتندم على ما كان من جرأتك ، وتسمى ^(٧) ما أصبحت

[١] كنية الحسين . [٢] ما أعجزك . [٣] الفتر : ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة .
[٤] جمع عرين بكسر العين ، وهو السيد الشريف ، (وفي الأصل : الأنف أو ما صلب من عظامه) .
[٥] أوهاه : أسقطه ، والأجاج : الملح المر . [٦] بهره بهرا (بانفتح) : غلبه .
[٧] مساء تسمية : قال له كيف أمسيت ، أو مساك الله بخير ، والمراد : وتودع ما كنت فيه من أمان
نادما أسفا عليه ، وربما كان الأصل « وتمنى » بجذف إحدى التاءين أى وتمنى ، أو الأصل « ويتمنى »
من تسمى إذا تقطع أى يحى ويندثر ما كنت فيه من أمان .

إليه من أمان ، وقد حِيلَ بين العَيْرِ وَالنَّزْوَانِ^(١) . فَأَطْرَقَ ابْنُ الزَّيْبِرِ مَلِيًّا ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، فَالْتَفَتَ إِلَى مَنْ حَوْلَهُ ، ثُمَّ قَالَ :

١٣٧ — مقال ابن الزبير

« أَسْأَلُكُمْ بِاللَّهِ : أَتَعْلَمُونَ أَنَّ أَبِي حَوَارِيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّ أَبَاهُ أَبُو سَفِيَانَ حَارِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ وَأَنَّ أُمِّي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَأُمُّهُ هِنْدُ آكَلَةُ الْأَكْبَادِ ؟ وَجَدَّتِي الصِّدِّيقِ ، وَجَدَهُ الْمَشْدُوحُ^(٢) بِيَدْرِ ، وَرَأْسَ الْكُفْرِ ، وَعَمَّتِي خَدِيجَةُ ذَاتِ الْخَطَرِ^(٣) وَالْحَسْبُ ، وَعَمَّتَهُ أُمُّ جَمِيلِ حَمَّالَةَ الْخَطَبِ ؟ وَجَدَّتِي صَفِيَّةُ^(٤) ، وَجَدَّتَهُ حَمَامَةُ^(٥) ؟

[١] البير : الحمار وغلب على الوحشى ، والنزوان : الثوب ، وهو مثل يضرب للثوى تخور قواه ، وأول من قله صخر بن عمرو أخو الحنساء ، وذلك أنه غزا بني أسد ، فاكتمح إبليس ، فجاءهم الصريح فركوا ، فالتقوا ، فظمن أبو ثور الأسدى صخرًا طعنة في جنبه ، وحوى منها فرض حولًا حتى مله أهله ، فسمع امرأة تقول لامرأته سلمى : كيف بملك ؟ فقالت : لا حتى يبرجى ، ولا ميت فينبى ، لقد لقينا منه الأمرين ، وفي رواية أخرى فرض زمانا حتى ملته امرأته ، وكان يكرمها ، فربها رجل وهى قائمة ، وكانت جميلة ، فقال لها : يباع الكفل ؟ فقالت : نعم عما قليل ، وكان ذلك يسمعه صخر ، فقال : أما والله لئن قدرت لأقدمنك قتل ، ثم قال لها : فاولبني السيف أنظر إليه ، هل تقله يدي ؟ فتاوتته ، فاذا هو لا يقله ، فقال :

أرى أم صخر لا تمل عيادتي وملت سليمانى مضجعى ومكانى
فأى امرئ ساوى بأى حليلة فلا طاش إلا فى شقا وهوان
أم بأمر الحرم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

فلما طال به البلاء ، وقد نثأت قطعة من جنبه فى موضع الطعنة ، قيل له : لو قطعتما لرجونا أن تبرأ ، فقال شأ نكم ، وأشفق عليه قوم فهو فأبى ، فأخذوا شفرة فقطعوها فمات .

[٢] هو حمد معاوية لأمه عتبة بن ربيعة قتله على يوم بدر ، والمشدوخ المكسور أى المقتول .

[٣] اقدر والمنزلة ، وهى السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية حمة أبيه ، وزوج الرسول عليه الصلاة

والسلام . [٤] هى صفية بنت عبد المطلب أم الزبير وعممة الرسول عليه الصلاة والسلام .

[٥] روى ابن أبى الحديد (م ١ : ص ١٥٧) قال :

« لما ارتحل ذقيل بن أبى طالب عن على عليه السلام أتى معاوية ، وكان فى مجلسه يوما وجلساء معاوية حوله ، فقال : يا أبى يزيد : أخبرنى عن عسكرى وعسكر أخيك ، فقد وردت عليهما ، قال : « أخبرك : مرتت والله بمسكرك أخى ، فإذا ليل كليل رسول الله صلى الله عليه وآله ، ونهار كهزار رسول الله صلى الله عليه وآله ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس فى القوم ، ما رأيت إلا مصليا ، ولا سمعت إلا فارثاً ، ومررت بمسكرك ، فاستقبلنى قوم من المناقبين ممن نقر برسول الله صلى الله عليه وآله ليلة

وزوج عمتي خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم ، وزوج عمته شر ولد آدم
أبو لهب ، سَيِّئِي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ؟ وخالتي عائشة أم المؤمنين ، وخالته أشقى
الأشقيين ؟ وأنا عبد الله ، وهو معاوية .

١٣٨ - مقال معاوية

قال له معاوية :

« وَيُحْكُ يَا بَنَ الزَّيْبِرِ ! كَيْفَ تَصِفُ نَفْسَكَ بِمَا وَصَفْتَهَا ، وَاللَّهِ مَا لَكَ فِي
الْقَدِيمِ مِنْ رِيَاةٍ ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ سِيَاسَةٍ ، وَلَقَدْ قُدْنَاكَ وَسُدْنَاكَ : قَدِيمًا
وَحَدِيثًا ، لَا تَسْتَطِيعُ لِدَلَاكَ إِنْكَارًا ، وَلَا عَنْهُ فِرَارًا ، وَإِنْ هُوَ لَأَهْلُ الْحُضُورِ لَيَعْلَمُونَ
أَنْ قَرِيشًا قَدْ اجْتَمَعَتْ يَوْمَ ^(١) الْفَجَّارِ عَلَى رِيَاةِ حَرْبِ بَنِ أُمَيَّةٍ ، وَأَنْ أَبَاكَ

العقبه » ثم قال : من هذا عن عيبك يا معاوية ؟ قال : هذا عمرو بن العاص ، قال : هذا الذي اختصم فيه
سنة نمر ، فغلب عليه جرار قريش ، فمن الآخر ؟ قال الصحاح بن قيس الفهري ، قال : أما والله لقد كان
أبوه جيد الأخذ لسب التبوس « وكان يسع نسب الفحول في الجاهلية ، والمسب كعذب : الكراء الذي
يؤخذ على ضراب الفحل ، أو ضرايه ، أو ماؤه ، وعسب الرجل كضرب أعطاه الكراء على الضراب ،
وفي الحديث : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن عسب الفحل فإن إطارة الفحل مندوب إليها » ، فمن هذا
الآخر ؟ قال أبو موسى الأشعري ، قال : هذا ابن السراقة ، ولما رأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه ،
علم أنه إن استجبره عن نفسه قال فيه سوء ، فأحب أن يسأله ليقول فيه ما يلمه من سوء ، فيذهب
بذلك غضب - أسأته ، قال : يا أبا يزيد ، فما تقول في ؟ قال : دعني من هذا ، قال : اتقولن ، قال :
أتعرف حمارة ؟ قال : ومن حمارة يا أبا يزيد ؟ قال : قد أخبرتك ، ثم قام فضي ، فأرسل معاوية إلى النسابة
فدعاه ، فقال : من حمارة ؟ قال : ولي الأمان ؟ قال : نعم ، قال : حمارة جدتك أم أبي سفيان ، كانت بنيا
في الجاهلية صاحبة راية ، فقال معاوية لجلسائه : قد ساويتكم وزدت عليكم . فلا تمضوا .

[١] حرب الفجار : هي حرب هاجت بين تريش وكنانة ، وبين هوازن (من قيس هيلان) وسبيها
أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق شكاظ في كل عام لطيفة (واللطيمة كصحيفة : المير
التي تحمل الطيب والبز للتجارة) لتباع له هناك ، ويبتري له بثمان ذلك آدم من آدم الطائف ، وكان يرسل
تلك اللطيمة في جوار رجل من أشراف العرب ، فلما جهز اللطيمة كان عنده جماعة من العرب فيهم البراض
ابن قيس - وهو من بني كنانة ، والبراض كشداد - وعروة الرحال بن عتبة - وهو من بني هوازن ،
والرحال كشداد أيضا - فقال : من يجيرها ؟ قال البراض : أنا أجيرها على بني كنانة يعني قومه ، فقال له
النعمان : ما أريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتامة ، فقال له عروة الرحال : أنا أجيرها لك على أهل

وأسرتك تحت رايته ، راضون بإمارته ، غير منكرين لفضله ، ولا طامعين في عزله ، إن أمرَ أطاعوا ، وإن قال أنصتوا ، فأنزل فينا القيادة ، وعزَّ الولاية ، حتى بعث الله عزَّ وجل محمدًا صلى الله عليه وسلم ، فانتخبه من خير خلقه ، من أسرتي لا أسرتك ، وبنى أبى لا بنى أيبك ، فجحدته قريش أشد الجحود ، وأنكرته أشد الإنكار ، وجاهدته أشد الجهاد ، إلا من عصم الله من قريش ، فما ساد قريشًا وقادهم إلاَّ أبوسفيان بن حرب ، فكانت الفتان تلتقيان ، ورئيسُ الهدى منا ، ورئيسُ الضلالة منا ، فمهديكم تحت راية مهدينا ، وضالككم تحت راية ضالنا ، فنحن الأرباب ، وأنتم الأذئاب ، حتى خلص الله أباسفيان بن حرب بفضله من عظيم شركه ، وعصمه بالإسلام ، من عبادة الأصنام ، فكان في الجاهلية عظيمًا شأنه ، وفي الإسلام معروفًا مكانه ، ولقد أعطى يوم الفتح ما لم يُعْطَ أحد من آباءك ، وإن مُنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى : من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، وكانت داره حرماً ، لدارك ولا دار أيبك ، وأما هند فكانت امرأة من قريش ، في الجاهلية عظيمة الخطر ، وفي الإسلام كريمة الخبر ، وأما جدك الصديق

الشيخ والقيصوم من أهل نجد وتبامة ، فقال البراض : أعلى بنى كنانة تحجيرها يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم فدفعها النعمان إلى عروة ، فخرج بها ، وتبعه البراض ، وتربص به وقتله ، فهاجت الحرب بين كنانة وهوازن ، وعاونت قريش كنانة ، وكان على كل قبيلة من قريش وكنانة سيدما ، والقائد العام للجبيح حرب بن أمية والد أبى سفيان ، وقد قتل في هذه الحرب العوام بن خويلد والد الزبير ، وقد حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وله من العمر أربع عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة ، وقيل عشرون ، والنجار بمعنى المفاجرة كالفنال بمعنى المقاتلة ، سميت قريش هذه الحرب نجارا ، لأنها كانت في الأشهر الحرم فقالوا : قد فجرنا إذ قاتلنا فيها أى فسقنا ، وقيل إنها لم تكن في الشهر الحرام ، وإنما سببها كان في الشهر الحرام ، وهو قتل البراض لعروة الرحال ، وهذا هو الفجار الرابع ، وهو الأكبر ، وكان قبله ثلاثة أجرة أخرى — انظر السيرة الحلبية ١ : ١٢٢ ، والمقد الفريد ٣ : ٩١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٦ ، وجمع الأوثال ٢ :

فتصديق عبد مناف سُمِّيَ صديقاً ، لا بتصديق عبد العزَّى ، وأما ما ذكرت من جدى المشدوخ ببدر ، فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه ، فلو برزت إليه أنت وأبوك ما بارزوكم ، ولا رَأَوْكُمْ لهم أكفاءً ، كما قد طلب ذلك غيركم ، فلم يقبلوهم ، حتى برز إليهم أكفأؤهم من بنى أبيهم ، فقضى الله مناياهم بأيديهم ، فنحن قَتَلْنَا ، ونحن قَتَلْنَا ، وما أنت وذاك ؟ وأما عمك أم المؤمنين فبنا شرفنا ، وسميت أم المؤمنين ، وخالتك عائشة مثل ذلك ، وأما صفية فهي أَدَّتْكَ من الظَّلِّ ، ولولا هي لكنتَ ضاحياً^(١) ، وأما ما ذكرت من ابن عمك وخال أهلك^(٢) سيد الشهداء ، فكذلك كانوا رحمهم الله ، ونفخهم وإرثهم لى دونك ، ولا نفرك فيهم ولا إرث بينك وبينهم . وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية ، فقد عامت قريش أئبنا أجود في الإِزْمِ^(٣) ، وأحزم في القدم ، وأمنع للأحرم ، لا والله ما أراك منتهياً حتى تروم من بنى عبد مناف مارام أبوك ، فقد طألهم الذُّحُولَ^(٤) ، وقدم إليهم الخيول ، وخذعتهم أم المؤمنين ، ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ مددتم على نساءكم السُّجُوفَ^(٥) ، وأبرزتم زوجته للْحُتُوفِ ، ومُقَارَعَةِ السُّيُوفِ ، فاما التقى الجمعان نكص أبوك هارباً ، فلم يُنْجِهْ ذلك أن طَحَنَهُ أبو الحسين بِكُلِّ كَلِّهِ طَحْنَ الحَصِيدِ^(٦) ، بأيدي العبيد ، وأما أنت فأفلت بعد أن

[١] ضحا كسى ورضى : أصابته الشمس ، والظل : العز والنعمة ، أى أن شرفهم جاء من مصاهرة العوام لبني هاشم ، وزواجه بصفية بنت عبد المطلب . [٢] ابن عمه : هو عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، وقد قتل يوم الدار ، وخال أبيه هو حمزة بن عبد المطلب ، وقتل يوم أحد . [٣] الأزمة (بالفتح ويحرك) الشدة ، وجمعها أزم (كشمس وعب) . [٤] جمع ذحل (بالفتح) وهو الثأر ، والعداوة ، والحقد : أى كشفهم بذلك . [٥] جمع سبغ (بالفتح ويكسر) الستر . [٦] الحصيد : الزرع المحصود .

خَمَشْتِكَ^(١) بِرَأْيِنَهُ ، ونالتك مخاليبه ، وإيم الله ليقومنك بنوعبد مناف بِثِقَافِهَا^(٢) ،
أولتُصْبِحَنَّ منها صباح أيبك بوادي السَّبَاعِ^(٣) ، وما كَانَ أبوك المذْهَنَ حَدَّهُ^(٤) ،
ولكنه كما قال الشاعر :

تناول سِرْحَانَ فريسةً ضَيْغَمٍ فقضقضه بالكفِّ منه وحطماً^(٥)

(العقد الفريد ٢ : ١١٣)

١٣٩ — عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال :

« يا أمير المؤمنين ، لا تَدَعَنَّ مَرْوَانَ يرمى جَاهِرَ قريش بمشاقصه^(٦) ،
ويضرب صفاتهم بِمِعْوَلِهِ ، أمّا والله لو لا مكانك ، لكان أخفَّ على رقابنا من فَرَّاشَةٍ ،
وأقلَّ في أنفسنا من خَشَاشَةٍ^(٧) ، وإيمُ الله لئن ملَّك أعنة خيل تنقاد له ، لَتَرَ كَبْنَ^(٨)
منه طبَقاً^(٩) تخافه . فقال معاوية : « إن يطلب مروان هذا الأمر ، فقد
طَمِعَ فيه من هو دونه ، وإن يتركه يتركه لمن فوقه ، وما أراكم بِمُنْتَهَيْنَ حتى
يبعث الله عليكم من لا يعطِفُ عليكم بقراية ، ولا يذُكُرُكم عند مُلِمَّةٍ ، يسؤمكم
خَسَفاً^(٩) ، ويسوقكم عَسَفاً^(١٠) » . فقال ابن الزبير : « إذن والله يُطلق عِقَالُ الحرب

[١] خمشه : خدشه . [٢] الثفاف : مانسوى به الرماح . [٣] مقتل أبيه الزبير .

[٤] حدّه : بأسه ، والمدمن : الغشوش ، من أدهن أى غش ، والمعنى أنه كان شديد البأس لم تشب

بسالته شائبة خور ولسكنه . . . الخ « وفي الأصل « المدمن خده » بالخاء وأراه مصحفاً » .

[٥] السرحان : الذئب ، والضيمع : الأسد ، وقضقضه فقضقض : كسره ودقه ، والفضقضة : صوت

كسر العظام . وفي الأصل نقضقضه بالفاء ، وهو تصحيف .

[٦] المشاقص جمع مشقص كثير وهو النصل الطويل أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش .

[٧] الخشاشة : واحدة الخشاش بتثنية الخاش ، وهي حشرات الأرض والمصافير ونحوها (وفي الأصل

خشاشة وهو تصحيف) . [٨] الطبقي : الحال ومنه قوله تعالى : « لَتَرَ كَبْنَ طَبَقاً عَن طَبَقِي »

[٩] أى يوليكم ذلاً . [١٠] العسف : الظلم ، وسلوك الطريق على غير هداية .

بكتائب تَمُور^(١) كَرَجَل الجراد ، حَافَأَتْهَا الأَسَلُ ، لها دوى كدوى الريح ، تتبع غِطْرِيْفًا^(٢) من قريش ، لم تكن أُمُّه رَاعِيَةً ثَلَّةً^(٣) . فقال معاوية : « أنا ابن هند ، أطلقت عِقَالَ الحرب ، فأكلتُ ذِرْوَةَ السَّنَامِ ، وَشَرِبْتُ عُنْفُوَانَ المَكْرَعِ^(٤) ، وليس للآكل بعدى إلا الفِلْدَةُ^(٥) ، ولا للشارب إلا الرُّنْقُ^(٦) . فسكت ابن الزبير . (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١١٥)

١٤٠ - عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص

قَدِمَ عبد الله بن الزبير على معاوية وافداً ، فَرَحَّبَ به وأدناه ، حتى أجلسه على سريره ، ثم قال : حاجتك أبا خَبِيبٍ^(٧) ؟ فسأله أشياء ، ثم قال له : سأل غير ما سألت قال :

« نعم ، المهاجرون والأنصار تَرُدُّ عليهم فَيَهْمُهم ، وتحفظ وصية نبيِّ الله فيهم ، تَقْبَلُ من مُحْسِنِهِم ، وتتجاوز عن مُسِيئِهِم » فقال معاوية : « هيهات هيهات ؟ لا والله ما تأمن النعجة الذئب وقد أكل أَلْيَتَهَا^(٨) . فقال ابن الزبير : « مهلا يا معاوية ، فإن الشاة لَتَدِرُ^(٩) للحالب ، وإن المذبة في يده ، وإن الرجل الأريب ليصانع ولده الذي خرج من صُلْبِهِ ، وما تدور الرخاء إلا بِقُطْبِهَا^(١٠) ، وَلَا تَصْلُحُ القوسُ إلا بِعَجْبِهَا^(١١) . » فقال : « يا أبا خَبِيبٍ ، لقد أجزرت الطرُوقَةَ قبل هبابِ الفَعْلِ^(١٢) ، هيهات ! وهي لا تَصْطَلِكُ لِحَيَاتِهَا اصْطِكَاكُ

[١] تمور : اضطرب . [٢] الفطريف : السيد الشريف .
[٣] الثلثة : جماعة الفم أو الكثرة منها . [٤] عنفوان الشيء : أوله أو أول بهجته ، والمكراع المورد ، مغل من كرع في الماء أو في الإثناء . [٥] الفلذة : القطعة من اللحم .
[٦] ماء رفق كعدل وكنف وجبل : كدر . [٧] هي كنية ابن الزبير كنى بابنه خبيب ، وكان أسن ولده ، وبكى أيضا أبا بكر . [٨] الألية : مراكب العجز من شحم ولحم . [٩] در اللبن وغيره من بابي صرب وقتل ، ودرت الناقة بلبنها أدركته . [١٠] قطب الرخا : ماتدور عليه ، والرخاء ممدود الرخا . [١١] العجب : مؤخر كل شيء . [١٢] ناقة طرُوقَة الفحل : بلفت أن يضرها الفحل ، وأجره رسنه : جمه يجره ، وهب الفحل من الإبل وغيرها هبابا وهيبا : أراد السفاد .

الْقُرُومِ السَّوَامِي (١) . فقال ابن الزبير : « الْعَطَنُ بَعْدَ الْعَلِّ (٢) ، وَالْعَلُّ بَعْدَ التَّهْلِ ، وَلَا بَدَّ لِلرَّحَاءِ مِنَ الثَّفَالِ (٣) » . ثم نهض ابن الزبير ، فَلَمَّا كَانَ الْعِشَاءَ أَخَذَتْ قَرِيشٌ مَجَالِسَهَا ، وَخَرَجَ مَعَاوِيَةَ عَلَى بَنِي أُمِيَّةَ ، فَوَجَدَ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ فِيهِمْ ، فَقَالَ : وَيَحْكُمُ يَا بَنِي أُمِيَّةَ ! أَفِيكُمْ مِنْ يَكْفِينِي ابْنَ الزَّبِيرِ ؟ فَقَالَ عَمْرُو : أَنَا أَكْفِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ : مَا أَظْنُكَ تَفْعَلُ قَالَ : « بَلَى ، وَاللَّهِ لِأَزْبِدَنَّ (٤) وَجْهَهُ ، وَلَأُخْرِسَنَّ لِسَانَهُ ، وَلَأُرْدِنَهُ أَلَيْنُ مِنْ خَمِيلَةٍ (٥) » . فَقَالَ : دُونَكَ فَاعْرِضْ لَهُ إِذَا دَخَلَ ، فَدَخَلَ ابْنُ الزَّبِيرِ - وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ كَلَامَ مَعَاوِيَةَ وَعَمْرُو - فَجَلَسَ نُصِبَ عَيْنِي عَمْرُو ، فَتَحَدَّثُوا سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ عَمْرُو :

وَإِنِّي لِنَارٍ مَا يُطَاقُ اصْطِلَاؤُهَا لَدَائِي كَلَامٌ مُعْضِلٌ مُتَّفَاقِمٌ (٦)

فَأَطْرَقَ ابْنَ الزَّبِيرِ سَاعَةً يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، وَقَالَ :

وَإِنِّي لِبَحْرٍ مَا يُسَامَى عِبَابُهُ مَتَى يَلْتَقَ بِحَرِي حَرُّ نَارِكَ تَحْمُدُ

فَقَالَ عَمْرُو : وَاللَّهِ يَا ابْنَ الزَّبِيرِ إِنَّكَ مَا عَلِمْتُ لَمُتَّجَلِبِبٍ جَلَّابِيبَ الْفِتْنَةِ ،

مُتَّازِرٍ بَوَصَائِلِ (٧) التِّيهِ ، تَعَاطَى الذَّرَى الشَّاهِقَةَ ، وَالْمَعَالِي الْبَاسِقَةَ ، وَمَا أَنْتَ

مِنْ قَرِيشٍ فِي لُبَابِ جَوْهَرِهَا ، وَلَا مُؤْتَقٍ (٨) حَسَبِهَا . فَقَالَ ابْنُ الزَّبِيرِ : « أَمَا

مَا ذَكَرْتَ مِنْ تَعَاطَى الذَّرَى ، فَإِنَّهُ طَالَ بِي إِلَيْهَا وَسَمَا ، مَا لَا يَطُولُ بِكَ مِثْلُهُ :

[١] تصطك : تضطرب . والقروم جمع قرم بالفتح وهو الفحل ، والسوامى جمع سام : وصف من سما

الفضل سماوة : تطاول على شؤله « والشوّل كركع جمع شائل وهي الناقة تشول بذنبها لا قاح » .

[٢] العطن : مبرك الابل حول الحوض ، والعل والعلل : الشرب الثاني ، والنهل : الشرب الأول .

[٣] الثفال : جلد أو نحوه يبسط تحت الرمح ليقع عليه الطحين . [٤] أى لأصيرنه أربد ، من

الربدة بالضم : وهي لون إلى الغبرة . [٥] الخميّة : القطيفة ، وفي الأصل : « ولأوردنه » وهو

تحريف . [٦] تفانم الأمر : عظم . [٧] الوصائل جمع وصيلة : وهي ثوب مخطط يعان .

[٨] آتقى الشيء إينافا : أعجبني ، فهو مؤتق وأتقى أى حسن معجب .

أنف حمي ، وقلب ذكي ، وصارم مشرفي ، في تليد فارع ^(١) ، وطريف مانع ،
 إذ قعد بك انتفاخ سحر ك ^(٢) ، ووجيب ^(٣) قلبك ، وأما ما ذكرت من أني
 لست من قريش في لباب جوهرها ، ومؤنق حسبها ، فقد حضرتني وإياك
 الأ كفاء ، العالمون بي وبك ، فاجعلهم بيني وبينك ، فقال القوم : قد أنصفك
 يا عمرو ، قال : قد فعلت ، فقال ابن الزبير : « أما إذ أمكنتني الله منك فلأزبدن
 وجهك ، ولأخرسن لسانك ، ولترجعن في هذه الليلة ، وكان الذي بين
 منكيبك مشدود إلى عروق أخذعيك ^(٤) ، ثم قال : أقسمت عليكم يا معاشر
 قريش ، أنا أفضل في دين الإسلام أم عمرو ؟ فقالوا : اللهم أنت ، قال : فأبي
 أفضل أم أبوه ؟ قالوا : أبوك حواري رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمته ،
 قال : فأبي أفضل أم أمه ؟ قالوا : أمك أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وذات
 النطاقين ، قال : فعمتي أفضل أم عمته ؟ قالوا : عمتك سأمي ابنة العوام ، صاحبة
 رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من عمته ، قال : نخالتي أفضل أم خالته ؟
 قالوا : خالتك عائشة أم المؤمنين ، قال : فجذتي أفضل أم جدته ؟ قالوا : جدتك
 صفية بنت عبد المطلب عممة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فجذتي أفضل
 أم جده ؟ قالوا : جدك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال :
 قَضَتِ الْعَطَارِفُ مِنْ قَرِيشٍ بَيْنَنَا فَاصْبِرْ لِفَضْلِ خِصَامِهَا وَقَضَائِهَا
 وَإِذَا جَرَيْتَ فَلَا تُجَارِ مُبْرَزًا بَدَّ الْجِيَادَ عَلَى احْتِفَالِ جِرَائِهَا ^(٥)

[١] فارع : عال . [٢] السحر وبمرك ويضم : الرئة ، وانتفخ سحره : عدا طوره وجاوز قدره .

[٣] حنقان واضطراب .

[٤] الأخدطان : عرقان في موضع الحجامة . [٥] برز تبريزا : فاق أصحابه وبدأ : فاق وغلب ،

واحتفل النوم : اجتمعوا ، والجراء والمجارات : مصدر جاري .

أَمَّا وَاللَّهِ يَا بَنَ الْعَاصِ ، لَوْ أَنَّ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا وَاجَهَنِي بِمِثْلِهِ ، لَقَصَّرتْ إِلَيْهِ مِن سَامِي
بَصْرِهِ ، وَاتْرَكَتَهُ يَتَلَجَّجُ لِسَانُهُ ، وَتَضَطَّرَمَ النَّارَ فِي جَوْفِهِ ، وَلَقَدْ اسْتَعَانَ مِنْكَ
بَغَيْرِ وَافٍ ، وَجَأَ إِلَى غَيْرِ كَافٍ . ثُمَّ قَامَ نَخْرَجُ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٣)

١٤١ — خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام

لَمَّا قَتَلَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي أَهْلِ مَكَّةَ ، وَعَظَّمَ
مَقْتَلَهُ ، وَعَابَ عَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ خَاصَّةً ، وَوَلَّامَ أَهْلَ الْعِرَاقِ عَامَّةً ، فَقَالَ بَعْدَ أَنْ
حَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

« إِنْ أَهْلَ الْعِرَاقِ غَدُرُوا فُجْرًا إِقْلِيلًا ، وَإِنْ أَهْلَ الْكُوفَةِ شَرَّارَ أَهْلِ الْعِرَاقِ ،
وَإِنَّهُمْ دَعَوْا حُسَيْنًا لِيَنْصُرُوهُ وَيُؤَلُّوهُ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ ثَارُوا إِلَيْهِ ، فَقَالُوا
لَهُ : إِمَّا أَنْ تَضَعَ يَدَكَ فِي أَيْدِينَا ، فَتَبْعَتَ بَكَ إِلَى ابْنِ زِيَادِ بْنِ سُمَيَّةَ سَلَمًا ، فَيَمْضِيَ
فِيكَ حُكْمُهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَحَارِبَ ، فَرَأَى وَاللَّهِ أَنَّهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ قَلِيلٌ فِي كَثِيرٍ -
وَإِنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُطْلِعْ عَلَى الْغَيْبِ أَحَدًا - أَنَّهُ مَقْتُولٌ ، وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ
الْمَيْتَةَ الْكَرِيمَةَ عَلَى الْحَيَاةِ الذَّمِيمَةَ ، فَرَحِمَ اللَّهُ حُسَيْنًا ، وَأَخْزَى قَاتِلَ حُسَيْنٍ ،
لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ مِنْ خِلَافِهِمْ إِيَّاهُ وَعِصْيَانِهِمْ مَا كَانَ فِي مِثْلِهِ وَعَظُ وَنَاهٍ عَنْهُمْ ،
وَلَكِنَّهُ مَا حَمَّ^(١) نَازِلٌ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا لَنْ يُدْفَعَ .

أَفَبَعْدَ الْحُسَيْنِ نَطْمِئُنُّ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، وَنُصَدِّقُ قَوْلَهُمْ ، وَتَقْبَلُ لَهُمْ عَهْدًا ؟
لَا ، وَلَا نَرَاهُمْ لِذَلِكَ أَهْلًا ، أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ قَتَلُوهُ ، طَوِيلًا بِاللَّيْلِ قِيَامُهُ ، كَثِيرًا فِي
النَّهَارِ صِيَامُهُ ، أَحَقُّ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْهُمْ ، وَأَوْلَى بِهِ فِي الدِّينِ وَالْفَضْلِ ، أَمَّا وَاللَّهِ

ما كَانَ يبدلُ بالقرآنِ الغِنَاءَ ، ولا بالبكاءِ من خشيةِ الله الحُدَاءَ ، ولا بالصيامِ شربَ الحرامِ ، ولا بالمجالسِ في حَلَقِ الذِكرِ الرِكْضَ في تَطَلُّبِ الصيدِ (يعرض يزيد) فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ^(١) .

فتار إليه أصحابه ، فقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك ، فإنه لم يبق أحد ، إذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر ، وقد كان يبايع الناس سرا ، ويظهر أنه عائد بالبيت . (تاريخ الطبري ٦ : ٢٧٣)

١٤٢ - مناظرة ابن الزبير للخوارج

اجتمعت الخوارج حين ثار عبد الله بن الزبير بمكة (سنة ٦٤) وسار إليه مسلم بن عقبة المرسي في جيش من أهل الشام ، بعد أن غزا المدينة ، وكان منه في وقعة الحرّة ما كان ، فقال لهم نافع بن الأزرق : اخرجوا بنا نأت البيت ، ونلق هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا ، فخرجوا حتى قدموا على عبد الله بن الزبير ، فسروا بمقدمهم وتبأهم أنه على رأيهم ، وأعطاهم الرضا من غير توقف ولا تفتيش ، فقاتلوا معه حتى مات يزيد بن معاوية ، وانصرف أهل الشام عن مكة .

ثم إن القوم لقي بعضهم بعضاً فقالوا : إن هذا الذي صنعتم أمس بغير رأي ولا صواب من الأمر ، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على رأيكم ، إنما

[١] أي شرا وخسرانا ، وكل شر عند العرب غي ، وكل خير رشاد ، وقيل هو على حذف مضاف أي جراء غي كقوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » ، والأثام الإثم أي يلقي جزاء إثمه (والأثام أيضا جزاء الإثم)

كَانَ أَمِيسَ يِقَاتِلُكُمْ هُوَ وَأَبُوهُ ، يِنَادِي بِالنَّارَاتِ عِثْمَانَ ، نَدَخَلَ إِلَيْهِ فَنَنْظُرُ مَا عِنْدَهُ
فَإِنْ قَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ ، وَبَرِيٌّ مِنْ عِثْمَانَ وَعَلِيٌّ ، وَكَفَّرَ أَبَاهُ وَطَلْحَةَ بَايَعْنَاهُ ، وَإِنْ
تَكُنِ الْآخِرَى ، ظَهَرَ لَنَا مَا عِنْدَهُ ، فَتَشَاغَلْنَا بِمَا يُجَدِّي عَلَيْنَا .

فَدَخَلُوا عَلَيَّ ابْنَ الزَّيْبِرِ وَهُوَ مُبْتَدِلٌ ، ^(١) وَأَصْحَابُهُ مَتَفَرِّقُونَ عَنْهُ ، فَقَالُوا : إِنَّا
جِئْنَاكَ لِتَجْبِرَنَا رَأْيِكَ ، فَإِنْ كُنْتَ عَلَى الصَّوَابِ بَايَعْنَاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى غَيْرِهِ
دَعَوْنَاكَ إِلَى الْحَقِّ ، مَا تَقُولُ فِي الشَّيْخَيْنِ ؟ قَالَ : خَيْرًا . قَالُوا : مَا تَقُولُ فِي عِثْمَانَ
الَّذِي أَحْمَى ^(٢) الْحِمَى ، وَآوَى الطَّرِيدَ ^(٣) ، وَأَظْهَرَ لِأَهْلِ مِصْرٍ شَيْئًا وَكَتَبَ
بِخِلَافِهِ ، وَأَوْطَأَ آلَ أَبِي مُعَيْطٍ ^(٤) رِقَابَ النَّاسِ ، وَآثَرَهُمُ بَنِيَّ الْمَسَامِينِ ، وَفِي
الَّذِي بَعْدَهُ ، الَّذِي حَكَّمَ فِي دِينِ اللَّهِ الرَّجَالَ ، وَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ غَيْرَ تَائِبٍ وَلَا نَادِمٍ ،
وَفِي أَبِيكَ وَصَاحِبِهِ ، وَقَدْ بَايَعَا عَلِيًّا وَهُوَ إِمَامٌ عَادِلٌ مَرْضِيٌّ لَمْ يَظْهَرِ مِنْهُ كُفْرٌ ،
ثُمَّ نَكَا بِعَرَضٍ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا ، وَأَخْرَجَا عَائِشَةَ تَقَاتِلَ ، وَقَدْ أَمَرَهَا اللَّهُ وَصَوَّاحِبَهَا
أَنْ يَقْرَأَ ^(٥) فِي بَيْوتِهِنَّ ، وَكَانَ لَكَ فِي ذَلِكَ مَا يَدْعُوكَ إِلَى التَّوْبَةِ ، فَإِنْ أَنْتَ
قُلْتَ كَمَا يَقُولُ فَلَكَ الزُّلْفَى ^(٦) عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّصْرُ عَلَى أَيْدِينَا ، وَنَسَأَلُ اللَّهَ لَكَ التَّوْفِيقَ ،
وَإِنْ أُيِّدْتَ إِلَّا نَصَرَ رَأْيِكَ الْأَوَّلَ ، وَتَصَوَّبَ أَبِيكَ وَصَاحِبِهِ ، وَالتَّحْقِيقَ بِعِثْمَانَ
وَالتَّوَلَّى فِي السَّنِينَ السَّتِّ الَّتِي أَحَلَّتْ دَمَهُ ، وَتَقَضَّتْ أَحْكَامَهُ ، وَأَفْسَدَتْ إِمَامَتَهُ ،
خَذَلَكَ اللَّهُ وَاتَّصَرَ مِنْكَ بِأَيْدِينَا ، فَقَالَ ابْنُ الزَّيْبِرِ : « إِنْ اللَّهُ أَمَرَ (وَهُوَ الْعَزَّةُ

[١] المبتدل لابس البذلة (بالكسر) أو المبتذلة وهي الثوب الخلق وما لا يصاب من الثياب .

[٢] أحمى المكان جعله حمى لا يقرب - انظر تفسير الحمى الجزء الأول ص ١٢٦ .

[٣] هو الحكم بن أبي العاص - انظر ص ٩٥ . [٤] ممن ولام عثمان الوليد بن عقبة بن أبي

معيط ولام الكوفة ، وهو أخو عثمان لأمه . [٥] من قرأ بالمكان يقر (بالكسر والفتح) قرأ

أى استقر . أصله يقرن حذف الأولى من الرءين وقلت حركتها إلى القاف .

[٦] الزلفة والزلى : التربة والمنزلة .

والقدرة) في مخاطبة أكفر الكافرين ، وأعتى العتاة ، بأرأف من هذا القول فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما : « أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ بِسَبِّ الْمَوْتَى ». فنهى عن سبّ أبى جهل من أجل عِكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ، والمقيم على الشرك ، والجادّ في المحاربة ، والمتبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنبًا ! وقد كان يُغنيكم عن هذا القول الذى سميت فيه طلحة وأبى أن تقولوا: « أتبرأ من الظالمين ؟ » فإن كانوا منهم دخلا فى غمار^(١) المسلمين ، وإن لم يكونا منهم لم تُحفظونى^(٢) بسبّ أبى وصاحبه ، وأنتم تعلمون أن الله جلّ وعزّ قال للمؤمن فى أبويه : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » ، وقال جلّ ثناؤه : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » وهذا الذى دعوتم إليه أمرٌ له ما بعده ، وليس يُقنعكم إلا التوقيف والتصريح^(٣) ، ولعمري إن ذلك لأخرى بقطع الحجج ، وأوضح لمنهاج الحق ، وأولى أن يعرف كل صاحبته من عدوه ، فرُوحوا^(٤) إلى من عشيتكم هذه ، أكشِف لكم ما أنا عليه إن شاء الله تعالى .

فلما كان العشي راحوا إليه ، نخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نجدة^(٥) . قال : هذا خروج منا بذي^(٦) لكم ، فجلس على رفيع من الأرض ، فحمد

[١] بالضم وينتج جماعتهم . [٢] تفضونى . [٣] تبين الأمر . [٤] الروح العشى ، وراح إلى القوم : ذهب إليهم رواحا . [٥] هو نجدة بن عامر الحننى من كبار زعمائهم . [٦] نابذه : كاشفه بالمداوة .

الله، وأثنى عليه، وصلى نبيه، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر، ثم ذكر عثمان في السنين الأوائل من خلافته، ثم وصلهن بالسنين التي أنكروا سيرته فيها، فجعلها كالماضية، وخبر أنه آوى الحكم بن أبي العاص بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر الحمى وما كان فيه من الصلاح، وأن القوم استعتبوه من أمور، وكان له أن يفعلها أولاً مُصيباً، ثم أعتبهم بعد ذلك محسناً، وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه، بعد أن ضمن لهم العتيبي^(١)، ثم كُتِبَ لهم ذلك الكتاب بقتلهم، فدفَعُوا الكتاب إليه، حلف بالله أنه لم يكتبه، ولم يأمر به، وقد أمر الله عزَّ وجلَّ بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله، ومكانه من الإمامة، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه^(٢)، وعثمان الرجل الذي لزمته يمين، لو حلف عليها لحلف على حق، فافتداها بمائة ألف ولم يحلف، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض». فعثمان أمير المؤمنين كصاحبيه، وأنا وليُّ وليِّه، وعدوُّ عدوِّه، وأبي وصاحبه صاحب رسول الله، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله عزَّ وجلَّ يوم أُحُد، لما قُطِعَتْ إصْبَعُ طَلْحَةَ: «سَبَقْتُهُ إِلَى الْجَنَّةِ»، وقال: «أَوْجَبَ طَلْحَةَ^(٣)»، وكان الصديق إذا ذكر يوم أُحُد قال: «ذاك يومٌ كله أَوْجُلُهُ لَطَلْحَةَ». والزبير حواريٌّ

[١] العتيبي: الرضا.

[٢] وذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام في غزوة الحديبية اخار عثمان بن عفان رسولا من قبله إلى قريش، يعلمهم بمقصده، وأنه أنى مكة معتمراً، فقالوا: إن محمداً: لا يدخلها علينا غزوة أبداً، ثم لأنهم حبسوه. فشاع عند المسلمين أنه قتل. فقال عليه الصلاة والسلام حينما سمع بذلك: لا تبرح حتى نأجزم الحرب. ودعا المسلمين إلى البيعة على التناك وبايعوه هناك تحت شجرة سميت بعد شجرة الرضوان.

[٣] الموجبة من الحسنات التي توجب الجنة. وأوجب: أنى بها.

رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته ، وقد ذكر أنهما في الجنة ، وقال جل وعز :
« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » . وما أخبرنا بعد
أنه سَخِطَ عليهم ، فإن يكن ما سَعَوْا فيه حقاً ، فأهل ذلك هُم ، وإن يكن زلة
ففي عفو الله تحييضها ، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبينهم صلى الله عليه وسلم ،
ومهما ذكرتموها فقد بدأتكم بأمر عائشة رضى الله عنها ، فإن أبى أن تكون
له أمماً نبذ اسم الإيمان عنه ، وقد قال الله جل ذكره ، وقوله الحق : « النَّبِيُّ أَوْلىٰ
بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُنفُسِهِمْ ، وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم
انصرفوا عنه . (الكامل للمبرد ٢ : ١٧٣ ، والقدر للزبيدي ١ : ٢١٢ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٥٥)

١٤٣ - أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير

وروى أبو الفرج الأصبهاني قال :

لما ظهر ابن الزبير بالحجاز ، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية ، وتشاغل
بنو أمية بالحرب بينهم ، في مَرَجٍ راهط وغيره ، دخل عليه أبو صخر الهذلي ، في
هُذَيْل ، وقد جاءوه ليقبضوا عطاءهم ، وكان عارفاً بهَوَاهِ في بني أمية ، فمنعه
عطاءه ، فقال : عَلَامَ تَمْنَعُنِي حَقَالِي ؟ وأنا امرؤٌ مُسْلِمٌ ما أحدثت في الإسلام
حَدَثًا ، ولا أخرجت من طاعةٍ يداً . قال : عليك بني أمية ، فاطلب عندهم
عَطَاءَكَ . قال :

« إِذْنِ أَجْدَمِ سِبَاطًا ^(١) أَكْفُهُمْ ، سَمْحَةً أَنْفُسُهُمْ ، بُدْلَاءَ لَأَمْوَالِهِمْ ،
وَهَائِينَ لِمُجْتَدِيهِمْ ^(٢) ، كَرِيمَةَ أَعْرَاقِهِمْ ، شَرِيفَةَ أَصُولِهِمْ ، زَاكِيَةَ فُرُوعِهِمْ ،

[١] رجل سبط اليمين : سخي (وسبط كشمس) .

[٢] المجتدي : طالب الجدوى وهي العطية .

قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم نَسَبَهُمْ وَسَبَّيَهُمْ ، ليسوا إذا نُسبوا بأذنان
ولا وشائظ^(١) ولا أتباع ، ولا هم في قريش كفقعة^(٢) القاع ، لهم السؤدد في
الجاهلية، والملك في الإسلام ، لا كمن لا يُعَدُّ في عيرها ولا تقيرها^(٣) ، ولا حَكَم
آبؤه في تقيرها ولا قطميرها^(٤) ، ليس من أحلافها^(٥) المطيبين ، ولا من
ساداتها المطعمين ، ولا من جودائها^(٦) الوهايين ، ولا من هاشمها المنتخبين ،
ولا عبد شمسها المسودين ، وكيف تقاتل الرءوس بالأذنان ، وأين النصل من
الجفن^(٧) ، والسنان من الزجج^(٨) ، والذئبابي^(٩) من القدامى^(١٠) وكيف يُفَضَّل
الشحيح على الجواد ، والسؤقة على الملك ، والجامع بُخلاً على المطعم فضلاً ؟ .

فغضب ابن الزبير ، حتى ارتعدت فرائصه^(١١) ، وعرق جبينه ، واهتز من
قرنه إلى قدمه ، وأمتقع لونه ، ثم قال له : يا ابن البوالة على عقبيها ، ويا جلف^(١٢) ،
يا جاهل ، أما والله لولا الحُرُمات الثلاث : حرمة الإسلام ، وحرمة الحرم ،
وحرمة الشهر الحرام ، لأخذت الذي فيه عينك ، ثم أمر به إلى سجن « عارم »

[١] وشائظ جمع وشيطة ، يقال : هم وشيطة في قومهم أي حشودهم ، وفي الأصل :
« وشائظ » وهو تصحيف . [٢] الفقع (بالفتح والكسر) البيضاء الرخوة من السكامة وجمعه
فقعة كمة ، والقاع : أرض سهلة مطبوءة ، قد انفرجت عنها الجبال والآكام . ويصرب النمل بالفقع في التل ،
لأنه لا عتق على من احتماه ، أو لأنه بوطاً بالأرجل . [٣] أخذاً من التل وهو « لا في العير ولا في
الغير » وأول من قاله أبو سفيان بن حرب ، يصرب للرجل : يحط أمره ، ويصغر قدره . وقد تقدم
شرحه . [٤] الغير : الكتلة في ظهر النواة ، والقطمير : القشرة الرقيقة بين النواة والنمرة .

[٥] الأحلاف في قريش ست قبائل : عبد الدار ، وكنة ، وجمح ، وسهم ، ومخزوم ، وعدي ،
لأنهم لما أراد بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي عبد الدار من الحجابة والسقاية ، وأبت عبد الدار ، عقد كل
قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتعادلوا ، فأخرجت عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعها لأحلافهم
وم أسد ، وزهرة ، وتيم عند الكعبة ، ففمسوا أيديهم فيها وتعاهدوا ، وتعاهدت بنو عبد الدار وحلفاؤها
حلفاً آخر مؤكداً فسموا الأحلاف ، وقوله المطيبين : نفس أيديهم في الطيب .

[٦] جوداء جمع جواد : وهو السخى ، ويجمع أيضاً على أجواد وأجاود . [٧] نهد السيف .

[٨] الحديدية في أسفل الرمح . [٩] الذئب . [١٠] أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح .

[١١] جمع فريضة وهي اللحمية بين الجنب والسكتف . [١٢] الجلف : الرجل الجاني .

فجُبِسَ به مدة ، ثم استوهبته هذيل ، ومن له من قریش خُثُولَةٌ في هذيل ، فأطلقه بعد سنة ، وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبداً .

فلما وليَ عبد الملك ، أمر له بما فاتَه من العطاء ، ومثله صِلَةٌ من ماله ، وكساه وحمله . (الاغانى ٢١ : ٩٤)

١٤٤ - خطبته وقد قدم عليه وفد العراق

قَدِمَ وفد من العراق على عبد الله بن الزبير ، فأَتَوْهُ في المسجد الحرام ، في يوم الجمعة ، فسأموا عليه ، فسألهم عن مُصْعَبِ أخيه ، وعن سيرته فيهم ، فقالوا : أحسنُ الناس سيرةً ، وأقضاه بحق ، وأعدله في حكم ، فصلى عبد الله بالناس الجمعة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

قد جرَّبوني ثم جرَّبوني من غلوتين ومن المئين^(١)

حتى إذا شابوا وشيَّبوني خلوا عِنائي ثم سيَّبوني^(٢)

أيها الناس : « إني قد سألت هذا الوفد من أهل العراق ، عن عاملهم مصعب ابن الزبير ، فأحسنوا الثناء عليه ، وذكروا عنه ما أحب ، ألا إن مصعباً أطبى^(٣) القلوب ، حتى ما تعدل به ، والأهواء حتى ما تحول عنه ، واستمال الألسن بثنائها ، والقلوب بنصحتها ، والنفوس بمحبتها ، فهو المحبوب في خاصته ، المحمود في عامته ، بما أطلق الله به لسانه من الخير ، وبسَطَ يده من البذل » . ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٢ ، والأمالى ١ : ٢٨٦)

١٤٥ - خطبته لما بلغه قتل مصعب

لما قتل عبدُ الملك بن مروان مُصْعَبَ بن الزبير (سنة ٧١ هـ) ، وانتهى

[١] الغلوة : العاية : وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ، ويقال هي قدر ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة .
[٢] تركوني . [٣] اطبى : استمال .

خبر مقتله إلى عبد الله بن الزبير ، أضرِبَ عن ذكره أياماً ، حتى تحدّث به إمامه مكة في الطريق ، ثم صعد المنبر فجلس عليه ملياً لا يتكلم ، والكأبة على وجهه ، وجبينه يرشح عرقاً ، فقال رجل من قريش لرجل إلى جانبه : ماله لا يتكلم ، أترأه يهاب المنطق ؟ فوالله إنه لليبب الخطباء . قال : اعلمه يريد أن يذكر مقتل مصعب سيد العرب ، فيشتد ذلك عليه وغير مألوم ، ثم تكلم فقال .

« الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، ومُلك الدنيا والآخرة ، يُؤثقي الملك من يشاء ، وَيَنْزِع الملك ممن يشاء ، وَيُعِزُّ من يشاء ، وَيُذِلُّ من يشاء ، أما بعد : فإنه لم يُعِزَّ اللهُ مَنْ كَانَ الْبَاطِلُ مَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ الْأَنَامُ طُرّاً ^(١) ، ولم يُذِلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ مُقَرِّدًا ضَعِيفًا ، ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق ، بلد العذر والشقاق ، فساءنا وسرنا ، أتانا أن مصعباً قتل رحمة الله عليه ومغفرتة ، فأما الذي أحزننا من ذلك ، فإن لفراق الحميم لذعة ولوعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى من بعد ذو الرأي والدين ، إلى جميل الصبر ، وكريم العزاء ، وأما الذي سرنا منه فإننا قد علمنا أن قتله شهادة له ، وأنه عز وجل جاعل لنا وله في ذلك الحيرة إن شاء الله تعالى .

أسلمه الطغمام ^(٢) ، الضم الآذان ، أهل العراق ، إسلام النعم المخطمة ^(٣) ، وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه ، فإن يُقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه ^(٤) ،

[١] جميعاً . [٢] الأوغاد . [٣] خطم البعير بالحطام : جعله على أنفه ، والحطام ككباب : ما وضع في أنف البعير ليقناده به .

[٤] بعد أن اعتزل الزبير بن العوام أصحاب الجمل ، انصرف إلى وادي السباع ، وقد تبعه عمرو بن جرموز وقتله في الصلاة ، ويعني بعمة عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، وقد استشهد يوم اليرموك ، وفي رواية « وابن عمه » ويعني به عبد الله بن عبد الرحمن بن العوام ، وقد قتل يوم الدار « انظر أسد الغابة

وكانوا الخييار الصالحين ، إنا والله لانموت حَتَفَ آنَافِنَا^(١) ، ولكن قَعَصَا^(٢) بالرماح ، وموتاً تحت ظِلَالِ السيف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتِلَ منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قطُّ ، أَلَا وَإِنَّمَا الدنْيَا عَارِيَّةٌ مِنَ الْمَلِكِ الْقَهْمَارِ الَّذِي لَا يَزُولُ سُلْطَانُهُ ، وَلَا يَبِيدُ مَلِكُهُ ، فَإِن تَقَبَّلَ الدنْيَا عَلَيَّ لَمْ أَخْذَهَا أَخْذَ الْأَشْرِ الْبَطْرِ^(٣) ، وَإِن تُدْبِرْ عَنِّي لَمْ أَبْكِ عَلَيْهَا بَكَاءَ الْخَرِقِ الْمَهِينِ^(٤) . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » ثم نزل .

(الأغانى ١٧ : ١٦٦ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٢٠ - م ٤ ص ٤٩٢ ، والعقد الفريد ٢ : ص ١٥٠ و ٢٦٨ ، وتاريخ الطبرى ٧ : ١٩٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٠ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٢٣)

١٤٦ - خطبة أخرى له

وقال الجاحظ : لما جاءه قتل أخيه مصعب ، قام خطيباً بعد خطبته الأولى ، فقال :

وأما أخوه فهو المنذر بن الزبير ، وذلك أن جيش يزيد بعد أن أوقع بأهل المدينة في وقعة الحرة كما قدمناه سار إلى مكة لنزو ابن الزبير ، فقال لأخيه المنذر: ما لهذا الأمر ولدع هؤلاء القوم غيرى وغيرك - وكان أخوه المنذر ممن شهد الحرة . ثم لحق به - مجرد إليهم أخاء في الناس ، فقاتلهم ساعة قتالا شديداً ، ثم إن رجلاً من أهل الشام دعا المنذر إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة خرت صاحبه لها ميتاً . وكان مقتله سنة ٦٤ هـ - تاريخ الطبرى ٧ : ١٤ - .

[١] الحنف : الموت ، ويقال مات حنف أنفه : أى على فراشه من غير قتل ، ولا ضرب ، ولا غرق ، ولا حرق ، وخسف الأنف لأنه أراد أن روحه تخرج من أنفه بقتل نفسه ، أو لأنهم كانوا يتخيلون أن المريض تخرج روحه من أنفه ، والجريح من جراحته . [٢] القعص : الموت الوحى (أى السريع كفى) ومات بعضاً : أصابته ضربة ، أو رمية ، فمات مكانه ، وفى الكامل ، وعيون الأخبار : « إنا والله ما نموت حبياً » وزاد الكامل « كهيئة آل أبي العاص » والحجج محررة : انتفاخ بطن البعير من أكل لحاء العرفج (كجعفر) ، وربما قتله ذلك ، يعرض يبنى مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم فى ملاذ الدنيا ، وأنهم يموتون بالثخمة . [٣] الأشر : البطر . [٤] من الحرق محررة وهو الدهش من خوف أو حياء ، أو أن يهت فأتاحا عينيه ينظر ، والمهين : الحقير ، ويروى : « بكاء الحرف المهتر » والحرف : من فسد عقله من الكبر ، والمهتر : من ذهب عقله من كبر ، أو مرض ، أو حزن ، من المهتر بالضم ، وقد أهتر فهو مهتر (بضم الميم وفتح التاء) : شاذ .

« إن مصعباً قَدَّمَ أَيْرَه ، وأخْرَ خَيْرَه ، وتشاغلَ بِنِكَاحِ فِلاَنَة وفِلاَنَة (١) ،
وتركَ حَلْبَة (٢) أهلَ الشَّامِ ، حتَّى غَشِيَتْه في داره ، ولئنْ هلكَ مُصْعَبُ إن في آلِ
الزبيرِ خَلْفًا منه » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٧ - خطبته وقد بلغه قتل عمرو والأشديق

وروى الجاحظ أيضاً أنه لما بلغه قتلُ عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد
الأشديق ، قام خطيباً فقال :

« إن أبا ذِبَّان (٣) ، قَتَلَ لَطِيمَ الشَّيْطَانِ (٤) ، كَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ
بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٨ - عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر ، في اليوم الذي قتل فيه ، وقد
رأى من الناس ما رأى من خِذْلَانِهِمْ ، فقال :

يا أمه : خَذَلَنِي النَّاسَ حَتَّى وُلِدِي (٥) وَأَهْلِي ، فَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ إِلَّا الْيَسِيرُ مِمَّنْ
لَيْسَ عِنْدَهُ مِنَ الدَّفْعِ أَكْثَرُ مِنْ صَبْرِ سَاعَةٍ ، وَالْقَوْمُ يُعْطُونَنِي مَا أُرِدْتُ مِنْ
الدُّنْيَا ، فَمَا رَأَيْكَ ؟ فَقَالَتْ : أَنْتِ وَاللَّهِ يَا بِنِي أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ

[١] كان تحته عقيقتا قريش عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين .

[٢] الحلبة : خيل تجتمع للسباق من كل أوب لانصرة . [٣] الذبان : الذباب ، والعرب تكنو
الأبخر « أبا ذباب » وبعضهم يكتبه « أبا ذبان » وقد علب ذلك على عبد الملك بن مروان ، لفساد كان في
فه ، وقيل لأن لثته كانت تدمى فيقع عليها الذباب . [٤] هو عمرو بن سعيد الأشديق ، سمي بذلك
لميل كان في فه ، فقيل له من أجله : « لطيم الشيطان » قال أوزير الكاتب ابن عبدون في مرثيته
المشهورة لدولة بني الأمطس بالأندلس التي مطلعها :

« الدهر ينجع بعد المين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور »

ولم تدع لأبي الذبان فاضيه ليس اللطيم لها عمرو بمتنصر

[٥] وكان قد خرج إلى الحجاج ابنه حمرة وخبيب فأخذها منه لأنفسهما أمانا .

على حق وإليه تدعو ، فامضِ له ، فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تمكّن من رقبتك يتلمّب بها غلمان بني أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ، وأهلكت من قُتل معك ، وإن قلتَ كنتُ على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفتُ ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ؟ القتلُ أحسن ، والله لَضَرْبَةٌ بالسيف في عزٍّ ، أحبُّ إلىَّ من ضربة بسوطٍ في ذلٍّ ، قال : إني أخاف إن قتلوني أن يُعْتَلُوا بي ، قالت : يا بني إن الشاة لا يضرها سنخها بعد ذبحها .

فدنا منها وقبل رأسها ، وقال : هذا والله رأيي ، والذي قتت به داعياً إلى يومي هذا ، ما ركنتُ إلى الدنيا ، ولا أحببتُ الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضبُ لله أن تُستحل حُرْمُهُ ، ولكنني أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتني بصيرةً مع بصيرتي ، فانظري يا أمه ، فإنني مقتول من يومي هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسأمي لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان مُنكر ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجر في حكم الله ، ولم يعُدِر في أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به ، بل أنكرته ، ولم يكن شيء آثرَ عندي من رضا ربي ، اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي - أنت أعلم بي - ولكن أقوله تعزيةً لأمي لتسلو عني ، فقالت أمه : إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً إن تقدمتي ، وإن تقدمتك ففي نفسي حرجٌ حتى أنظر إلام يصير أمرك . قال : يا أمه جزاك الله خيراً ! فلا تدعى الدعاء لي قبلُ وبعْدُ ، فقالت : لا أدعه أبداً ، فمن قُتل على باطل فقد قُتلت على حق ، ثم قالت : « اللهم ارحمه طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك النَّحِيب والظُّمأ في هواجر المدينة

ومكة ، وبرّه بأبيه وبى ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين . ثم ودّعها وخرج .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٢ ، والفجرى ١١١ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٧١ ، وبلاغات النساء ص ١٣٠)

١٤٩ — خطبته يوم قتله

وخرج من عندها فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس ، إن الموت قد تَفَشَّأَ كم سحابه ، وأحدقَ بكم رَبَابُهُ ^(١) ، واجتمع بعد تفرُّق ، وارجحنَّ بعد تَمَشُّق ^(٢) ، ورجس ^(٣) نحوكم رَعْدُهُ ، وهو مُفْرِغٌ عليكم وَدَقَّهُ ^(٤) ، وقائد إليكم البلايا ، تتبعها المنايا ، فاجعلوا السيوف لها غَرَضًا ، واستعينوا عليها بالصبر . » وتمثل بأبيات ، ثم اقتحم يقاتل وهو يقول :

قد جدَّ أصحابك ضربَ الأعناقِ وقامت الحربُ لها على ساقٍ ^(٥)

(العقد الفريد ٢ : ٢٧١)

١٥٠ — خطبة أخرى

وروى الطبرى قال :

« لما كان يوم الثلاثاء صَبِيحَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ وقد أخذ الحجاج على ابن الزبير بالأبواب ، صلى بأصحابه الفجر ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا آل الزبير : لو طِبَّتُمْ لى نفساً عن أنفسكم ، كننا أهل بيتٍ من العرب اصْطَلَمْنَا ^(٦) فى الله ، لم تُصَبْنَا زَبَاءً بَتَّةً ^(٧) ، أما بعد يا آل الزبير : فلا يرغبكم

[١] الرباب : السحاب الأبيض . [٢] ارجحن : مال من ثقله واهتز ، وتمشق ثوبه : تمزق .

[٣] رجست السماء : رعدت شديدا وتمحضت . [٤] الودق : المطر .

[٥] هو من مشطور السريع الموقوف . [٦] أى استؤصلنا . [٧] الزباء من الدوامى :

الشديدة ، ويقال لا أفعله ألبنة ، وبنة لكل أمر لارجمة فيه .

وقع السيوف ، فإنني لم أحضر موطنًا قط إلا ارتُثتُ^(١) فيه من القتل ، وما أجد من دواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقمها ، صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ، لا أعلم امرأ كسر سيفه ، واستبقى نفسه ، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل ، غَضُّوا أبصاركم عن البارقة^(٢) ، وليدشغل كل امرئ قرنه ، ولا يلهينكم السؤالُ عني ، ولا تقولن : أين عبد الله بن الزبير ، إلا من كان سائلاً عني فإنني في الرعيل^(٣) الأول :

أَبِي لَابِنِ سَأَمَى أَنَّهُ غَيْرُ خَالِدٍ مُلَاقِي الْمَنَايَا أَيُّ صَرَفٍ تَيْمَمًا
فَلَسْتُ بِمَبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسَبَّةٍ وَلَا مُرْتَقِيٍّ مِّنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سَأَمًا

احملوا على بركة الله . ثم قاتل حتى أُمخِن بالجراحات وقتل . (تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٤)

١٥١ — خطبة مصعب بن الزبير

بعث عبد الله بن الزبير أخاه مُصعبًا واليًا على البصرة سنة ٦٧ هـ ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طَسِيم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ » وأشار بيده نحو الشام « وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » وأشار بيده نحو الحجاز « وَنَمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » وأشار بيده نحو العراق .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، وتاريخ الطبري ٧ : ١٤٦)

[١] ارتث (مبنيا للمجهول) حمل من المعركة رثيثا أى جريحا وبه رمق .
[٢] البارقة : السيوف . [٣] الرعيل : القطعة من الخيل القليلة ، أو مقدمتها .

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية (توفى سنة ٦٠ هـ)

١٥٢ - خطبته بالمدينة عام الجماعة

قدم معاوية المدينة عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) فتلقاه رجال قريش ، فقالوا : الحمد لله الذي أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، فارد عليهم شيئاً حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإنني والله ما وليتها بحجة علمتها منكم ، ولا مسرة بولائتي ، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدةً ، ولقد رُضت^(١) لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سُنِّيَّات^(٢) عثمان ، فأبت عليّ ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ، ومشاركة جميلة ، فإن لم تجدوني خيركم ، فإنني خير لكم ولأية ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائلُ بلسانه ،

[١] من راض المهر إذا ذلّه . [٢] سنية مصغر سنة ، والمراد حكم عثمان .

فقد جعلت ذلك له دَبْرًا^(١) أذنى ، وتحت قدمي ، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله ، فاقبلوا مني بعضه ، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يُثري ، وإذا قل أغنى ، وإياكم والفتنة ، فإنها تُفسد المعيشة ، وتكدر النعمة . ثم نزل .
(العقد الفريد ٢ : ١٣٩)

١٥٣ - خطبة أخرى له بالمدينة

وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس ، إنا قدمنا عليكم ، وإنما قدمنا على صديق مستبشر ، أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون ، فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون ، ولست واسعاً كل الناس ، فإن كانت محمّدة ، فلا بد من مدمّة ، فلو ما هوناً إذا ذكر غفر ، وإياكم والتي إن أخفيت أو بقت ، وإن ذكرت أو ثقت » . ثم نزل .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٤ - خطبة له بالمدينة

وصعد منبر المدينة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أهل المدينة ، إني لست أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق ، يعيبون الشيء وهم فيه ، كل امرئ منهم شيعته نفسه ، فاقبلونا بما فينا ، فإن ما وراءنا شر لكم ، وإن معروف زماننا هذا مُنكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت ، ولو قد أتى فالرثق خير من الفثق ، وفي كلِّ بلاغٍ ، ولا مقام على الرزية » .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

[١] حمل كلامك دبر أذنه : لم يصغ إليه ، ولم يبرح عليه .

١٥٥ - خطبته حين ولي المغيرة بن شعبة الكوفة

ولما ولى معاوية المغيرة بن شعبة الكوفة في جمادى سنة ٤١ هـ دعاه ،

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

«أما بعد : فإن لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا^(١) ، وقد قال المتلمس :

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا وما عَلمَ الإنسانُ إلا لِيَعْلَمَا

وقد يُجْزَى^(٢) عنك الحكيمُ بغير التعليم ، وقد أردتُ إيصاءك بأشياء كثيرة ،

فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يُرضيني ، ويُسعد سلطانى ، وتصلح به رعتى ،

ولست تاركاً إيصاءك بخصلة : لا تتحَمَّ^(٣) عن شتمِ علىّ وذمه ، والترحمِ على

عثمان ، والاستغفار له ، والعيبِ على أصحابِ علىّ ، والإيصاء لهم ، وترك الاستماع

منهم ، وإيطراء شيعة عثمان رضوان الله عليه ، والإيدناء لهم ، والاستماع منهم .

فقال المغيرة : « قد جرّبتُ وجرّبتُ ، وعمّلتُ قبلك لغيرك ، فلم يُذمّمْ

بى دَفْعٌ ، ولا رَفْعٌ ، ولا وَضْعٌ ، فسَتَبَلُّوا^(٤) فتحمّد ، أو تذمّم . قال : « بل

تحمّد إن شاء الله . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٤١)

١٥٦ - خطبة له في يوم صائف

وخطب الجمعة في يوم صائفٍ شديد الحر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على

[١] من أمثال العرب المشهورة : « إن العصا قرعت لذي الحلم » وهو مثل يضرب لمن إذا نبه انتبه ، وأول من قرعت له العصا عاصم بن الطرب العدوانى ، وقيل هو قيس بن خالد ، وقيل ربيعة بن مخاشن ، وقيل عمرو بن حمزة الدوسى ، وقيل عمرو بن مالك . ذكروا أن عاصم بن الطرب كان أحد حكام العرب المشهورين ، لا تعدل بفهمه فهما ، ولا يحكمه حكماً ، فلما طعن في السن أنكروا من عقله شيئاً ، فقال لبيبة : إنه قد كبرت سنى ، وعرض لى سهو ، فإذا رأيتونى خرجت من كلامى ، وأخذت في غيره ، فافرعوا لى المجن بالعصا ، وقال المتلمس يريد : لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا البيت .

[٢] يجزى مسهل عن يجزى أى يفتى ، يقال : أجزأت عنك مجزأ فلان : أى أغنيت دنك مقناه .

[٣] احتسى وتحمى : امتنع . [٤] أى تختبر .

رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله عز وجل خلقكم فلم ينسكم ، ووعظكم فلم يهملكم ، فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . قوموا إلى صلاتكم . (العقد الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٧ - آخر خطبة له

صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته ، وقال :

« أيها الناس : إني من زرع قد استحصد^(١) ، وقد طالت عليكم إمرتي ، حتى مللتكم ومللتموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى ، وإنه لا يأتكم بعدى إلا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيراً منى ، وإنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، اللهم إني قد أحببت لقاءك ، فأحبب لقاءى » . ثم نزل ، فصار صعد المنبر حتى مات^(٢) . (الأمالى ٢ : ٣١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦)

١٥٨ - خطبته وقد حضرته الوفاة

ولما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : نفر من قريش يتباشرون بموتك ، فقال : ويحك ! ولم ؟ قال : لا أدري . قال فوالله ما لهم بعدى إلا الذى يسوءهم ، وأذن للناس فدخلوا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وأوجز ، ثم قال :

« أيها الناس : إنا قد أصبحنا فى دهر عنود^(٣) ، وزمن شديد^(٤) ، يُعدّ فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد فيه الظالم عُتُوًّا ، لا تنتفع بما عامناه ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة^(٥) حتى تحل بنا ، فالناس على أربعة أصناف : منهم من

[١] استحصد الزرع وأحصد : حان أن يحصد . [٢] سيرد عليك بقية خطبه بعد فى موضعها .

[٣] جائر . من عند من الطريق كنصر وسمع وكرم عنودا : إذا مال . [٤] وفى نهج البلاغة :

وزمن كنود وهو الكفور . [٥] الداهية التى تفرغ أى تصيب .

لا يمنع من الفساد في الأرض إلا مهانة نفسه، وكلال حده، ونضيض وفره،^(١) ومنهم المصلت^(٢) لسيفه، المجلب بخيله ورجله، المعلن بشره، قد أشرط^(٣) نفسه، وأوبق دينه، لحطام ينتهزه، أو مقنّب^(٤) يقوده، أو منبر يفرّعه^(٥)، ولبئس المتجرأن تراها لنفسك ثمنًا، وممالك عند الله عوضًا، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، قد طامن من شخصه، وقارب من خطؤه، وشمر من ثوبه، وزخرف نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة للمعصية، ومنهم من قد أقعده عن طلب الملك ضئولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصرت به الحال عن أمله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس الزهاد، وليس من ذلك في مراح ولا مغدّي، وبقى رجال غصّ أبصارهم ذكر المرجع، وأراق دموعهم خوف المحشر، فهم بين شريد نافر، وخائف منقمع^(٦)، وساكت مكعوم^(٧)، وداع مخلص، وموجع تكلان، قد أخلتهم التقيّة^(٨)، وشملتهم الذلّة، فهم بحراجاج^(٩)، أفواههم ضامزة^(١٠)، وقلوبهم قرحة، قد وعظوا حتى ملّوا، وقهروا حتى ذلّوا، وقتلوا حتى قَلّوا، فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من خثالة القرظ^(١١) وقراضة الجّامين، واتعضوا بمن كان قبلكم، قبل أن

[١] أى قلة ماله . [٢] أصلت السيف : سله . [٣] هيأها وأعدّها (من الشرط (محرّكة) وهو العلامة) أى هيأها للفساد في الأرض . وأوبقته : أهلكه . والحطام : المال . وأصله ما تكسر من اليبس . [٤] القنّب من الخيل : بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلثمائة . [٥] يعلوه . [٦] مقهور . [٧] من كعم البعير كنع : شدّ فاه لثلا بعض أو يأكل . وفي البيان والتبيين مكعوم من عكم الماع يعكمه شدّه بثوب . [٨] التقيّة : المداراة . [٩] الأجاج : الملح . [١٠] ساكنة من ضحز كنصر وضرب : سكت ولم يتكلم . والبعير أمسك جرتة في فيه ولم يجترّ . [١١] القرظ : ورق السلم أو ثمر السنط يدبغ به ، والجلم : مقرّاض يجزبه الصوف . والقراضة : ما يسقط منه عند الجز .

قال الجاحظ : « وفي هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب . منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب

مظ بكم من بعدكم، فرفضوها ذميمة فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم». .
البيان والتبيين ٢ : ٢٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤١ ، ونهج البلاغة ١ : ٤٠ ، وإيجاز القرآن ١٢٣

١٥٩ - وصيته لابنه يزيد

لما حضرت معاويةَ الوفاةَ ، ويزيدُ غائبٌ ، دعا معاويةَ مُسْلِمَ بن عُقْبَةَ
المُرِّيَّ ، والضَّحَّاكَ بن قيس الفِهْرِيَّ ، فقال : أبلغا عني يزيد وقولا له :
« يا بني ، إني قد كفتك الشَّدَّ والرزَّحَال ، ووطأت لك الأمور ، وذلت لك الأعداء ،
وأخضعت لك رِقَابَ العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحدٌ ، فانظر أهل الحجاز ،
فإنهم أصلك وَعِترَتك^(١) ، فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتمهده ، وانظر
أهل العراق ، فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل ، فإنَّ عَزَلَ عاملٍ ،
أهونُ عليك من سلِّ مائة ألف سيف ، ثم لا تدري علامَ أنت عليه منهم ؟ ثم
انظر أهل الشام ، فاجعلهم الشعار^(٢) دون الدثار ، فإن رآبك من عدوك رَيْبٌ ،
فازمهم^(٣) بهم ، فإن أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يُتَمِّمُوا
في غير بلادهم ، فيتأدبوا بغير أدبهم .

وإني لست أخاف عليك أن ينازعك هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش :
الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .

الذي من أجله دعا معاوية . ومنها أن هذا المذهب - في تصنيف الناس ، وفي الأخبار عنهم ، وعمام عليه
من القهر والإدلال ، ومن النقية والحواف - أشبه بكلام علي وبعثانيه ، وبجمله منه بحال معاوية . ومنها أنا لم
نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد ، وإنما نكتب
لكم ونخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم » .
ونسبها الفريز الرضي إلى الإمام علي ، وقال هي من كلامه الذي لا يشك فيه .

[١] عترة الرجل : عشيرته الأديون . [٢] الشعار : الثوب يلبس على شعر الجسد ، والدثار :
الذي يلبس فوق الشعار . [٣] الصمير العدو ، وهو للواحد والجمع ، والذكر والأنثى ، وقد يبنى
ويجمع ويؤنث .

فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وَقَدَه^(١) الورع ، وإذا لم يبق أحدٌ غيرُه بايعك ؛
وأما الحسين بن عليّ ، فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيكهُ الله بمن قَتَلَ أباه ،
وخذَل أخاه ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يُخرجوه ، فإن خرج وظفرت
به ، فاصفح عنه ، فإن له رَحِمًا^(٢) ماسّة ، وحقًا عظيمًا ، وقرابة من محمد صلوات الله
عليه وسلامه ؛ وأما ابن أبي بكر ، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم ،
ليست له همّةٌ إلا في النساء واللّهو ؛ وأما ابن الزبير ، فإنه خَبَّ ضَبَّ^(٣) ، فإن
ظفرت به فقطعهُ إرْبًا إرْبًا^(٤) . « أو قال » : وأما الذي يَجِثُمُ لك جُثُوم
الأسد ، ويراوذك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته قُرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ،
فإن هو وثب عليك ، فظفرت به فقطعهُ إرْبًا إرْبًا ، واحقن دماء قومك
ما استطعت .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٦ وتاريخ الطبري ٦ : ١٧٩ ، العقد الفريد ٢ : ١٤١ - ٢٤٩ ، البخري ص ١٠٢)

خطب يزيد بن معاوية (توفي سنة ٦٤ هـ)

١٦٠ - خطبته بعد موت معاوية

« الحمد لله الذي ما شاء صنع : من شاء أعطى ، ومن شاء منع ، ومن شاء
خفّض ، ومن شاء رفع . إن أمير المؤمنين كان حَبَلًا من حبال الله ، مدّه ما شاء
أن يمدّه ، ثم قطعهُ حين أراد أن يقطعه ، وكان دون من قَبَلَه ، وخيرًا ممن يأتي
بعده ، ولا أزكّيه عند ربه وقد صار إليه ، فإن يعفُ فبرحمته ، وإن يماقبهُ فبذنبه ،
وقد وَايَت بعده الأمر ، ولست أعتذر من جهل ، ولا أشتغل^(٥) بطلب علم ،

[١] وقده : صرعه وغلبه ، وتركه عديلا كأوقده . [٢] قرابة .

[٣] الظار تفسيرها في صفحة ١٣١ . [٤] أي تضوا عسوا .

[٥] في العقد الفريد : ولا آسى على طلب علم ، ولا أشتغل^(٥) بطلب علم .

وعلى رسلكم ، إذا كره الله شيئاً غيرَه ، وإذا أحب شيئاً يسره .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٢ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٨)

١٦١ - خطبة أخرى له

« الحمد لله أحمدَه وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله اصطفاه لوحيه ، واختاره لرسالته ، بكتاب فضله وأعزه وأكرمه ، ونصره وحفظه ، ضرب فيه الأمثال ، وحلل فيه الحلال ، وحرّم فيه الحرام ، وشرع فيه الدين إعداراً وإنذاراً ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ويكون بلاغاً لقوم عابدين ^(١) . أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم الذي ابتدأ الأمور بعلمه ، وإليه يصير معادها ، واقطاع مدتها ، وتصرّم دارها ، ثم إنى أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة ^(٢) ، حُفّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وأينعت بالفانى ، وتحببت بالعاجل ، لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجيعتها ، أكالة غوالة غرارة ، لا تبقى على حال ، ولا يبقى لها حال . ان تعدوا الدنيا إذا تناهت إلى أمنيّة أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله عزّ وجلّ : « وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً » نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزيع يومئذ آمين ، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعدة كتاب الله ، يقول الله : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ

وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ^(١) ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » . (النقد الفريد ٢ : ١٤٢)

١٦٢ - خطبة معاوية بن يزيد ^(٢) (توفي سنة ٦٤)

أمر معاوية بن يزيد بن معاوية بعد ولايته ، فنودي بالشأم : الصلاة جامعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فرغ إليه أبو بكر ، فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختروا له من أحببتهم ، فما كنت لأتزوّدّها ميتاً ، وما استمتعت بها حياً .
ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغيّب حتى مات ^(٣) .

(تاريخ الطبري ٧ : ٣٤ ، والنخري ص ١٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٧)

خطب عبد الملك بن مروان (توفي سنة ١٦ هـ)

١٦٣ - خطبته بمكة

خطب بمكة فقال في خطبته :

« أيها الناس : إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف (يريد عثمان بن عفان)

[١] أي عنتكم (مشقتكم) . [٢] استخلف في شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، ولم يلبث في الخلافة إلا ثلاثة أشهر وقبل أربعين يوماً . [٣] قيل دس إليه فسق سما ، وقال بعضهم طعن ، وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة وثمانية عشر يوماً وقيل ابن إحدى وعشرين سنة .

ولا بالخليفة المداهن (يريد معاوية بن أبي سفيان) ولا بالخليفة المأفون^(١)
(يريد يزيد بن معاوية) فن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا . ثم نزل^(٢) .
(المقدم الفريد ٢ : ١٤٢ و ٢٦٣)

١٦٤ - خطبة له موجزة

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس إن الله حدّ حدوداً ، وفرض فروضاً ، فما زلتُم تزدادون في
الذنب ، وتزدادون في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف » .

(المقدم الفريد ٢ : ٢٦٣)

١٦٥ - خطبته حين قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص^(٣)

« ارمؤا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، واجعلوا سلفكم لمن غبّر^(٤) منكم عظة ،
ولا تكونوا أغفلاً من حسن الاعتبار ، فتنزل بكم جائحة^(٥) السطّوات ، وتجوس

[١] المأمون : الضعيف الرأي والعقل . [٢] قال أبو إسحق الظناني : « أما والله لولا ناسك من
هذا المستضعف وسبك من هذا المداهن لكانت منها أبعاد من العيون (افتتح العين وتشدد الاء نحم أحم
مضى ، يتلو الزما) والله ما أخذتها بوراثه ، ولا ساقه ، ولا قرابة ، ولا بدعوى شورى ، ولا بوعية » .
[٣] وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، وانحاز السجاني بن قيس الفهري عن مروان بن
الحكم ، واستمال الناس ودعا إلى ابن الزبير ، انتقى مروان وعمرو بن سعيد الأشدق (وهو عمرو بن سعيد
ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) فقال الأشدق لمروان : دلّك فيما
أقوله لك ؟ فهو خير لي ولك ، فقال مروان : وما هو ؟ قال : أدعو الناس إليك وآخذها لك على أن
تكون لي من بعدك . فقال مروان : لا بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، مرض الأشدق بذلك ودعا الناس
إلى بيعة مروان فأجابوا ، وباع مروان بعده لخالد بن يزيد ، وعمرو بن سعيد بعد خالد ، ثم مات مروان وخلفه
ابنه عبد الملك ، ولما اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير بنفسه . قال له عمرو :
إنك تخرج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعدني هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك حاهدت معه ، وقد كان
من بلائي معه ما لم يحف عليك ، فأجعل لي هذا الأمر من بعدك ، ولم يحبه عبد الملك إلى شيء ، فلما كان
من دمشق على ثلاث مراحل أعلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، فرجع إلى دمشق وحاصرها حتى
صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده ففتح له ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتلته سنة ٦٩ .
[٤] بقي ، وأغفال جمع غفل كقفل . [٥] الجوح والاجتياح : الأهلاك والاستئصال .

خلالكم بوادرُ التَّقَمَات ، وتطأ رقابكم بِثِقَلِهَا العَتُوبَةُ ، فتجعلكم هَمْدًا ^(١) رُفَاتًا ،
وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتًا ، فإيأي من قول قائل ، وَرَشَقَةٌ جاهل ،
فإعما بيني وبينكم أن أسمع النَغْوَةَ ^(٢) ، فأصمّم تصميم الحُسَام المطرور ^(٣) ،
وأصول صِيَال الحَنِق الموتر ^(٤) ، وإنما هي المصاحفة والمكافخة ، بظُّبَات
السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصَّبَاح ، فتأب تأب ، وهَدِل
خائب ^(٥) ، والتوب مقبول ، والإحسان مبدول ، لمن عرف رُشْدَهُ ، وأبصر حفظه ،
فانظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، وليكن أهل الطاعة يدًا على أهل
الجهل من سفهائكم ، واستدعيوا النعمة التي ابتدأتكم برغيد عيشها ، ونفيس
زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخَفْض والدَّعَة ، وآجل الجزاء
والمثُوبَة ، عصمكم الله من الشيطان وقتنته ونزغته ^(٦) ، وأمدكم بحسن معونته
وحفظه ، انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعطياتكم ، غيرَ مقطوعةٍ عنكم ، ولا
مكدرَة عليكم . (صح الأعمى ١ : ٢١٨)

١٦٦ - خطبته لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير ^(٧)

لما قتل عبد الملك مُصْعَب بن الزبير سنة ٧١ هـ دخل الكوفة فصعد
المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

[١] الهامد : البالي من كل شيء ، والرفات : الحطام . [٢] الغوة والنغية : أول الخبر قبل أن
تسندته . [٣] المشحوذ ، من الطرّ وهو تحديد السكين وغيرها . [٤] صاحب الوتر وهو الثأر .
[٥] هدله يهدله كضربه : أرخاه ، وهدل المشفر كفرح : استرخى أي ضف الحائب وخاره ، وامله حائب
من الحوب بفتح الحاء وضما وهو الاثم . حاب بكذا أثم حوباً أي ضعف الأثيم المذنب .
[٦] نزع بينهم : أسد وأعرى .

[٧] نسب القلقشندي هذه الخطبة إلى معاوية وذكر أنه خطبها بصفين (صح الأعمى ١ : ٢١٥)
وعزاها القالي في الأمالي إلى عبد الملك بن مروان وهو ما ترجمه لما يدل عليه سياق الخطبة .

« أيها الناس إن الحرب صعبة مُرّة ، وإن السّلم آمنٌ ومسرّة ، وقد زبنتنا^(١) الحرب وزبناها ، ففرزناها وأفناها ، فنحن بنوها وهي أمنا . أيها الناس فاستقيموا على سبيل الهدى ، ودعّوا الأهواء المرذية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأوّابين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تردادون بعد الموعظة إلا شراً ، ولن نرداد بعد الإعذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبةً ، فمن شاء منكم أن يعود بعد مثلها فليعد ، فإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة الأنصاري :

من يَصِلَ نارى بلا ذنب ولا تِرة	يَصِلَ بنار كريمٍ غير غدار ^(٢)
أنا النذير لكم منى مجاهرة	كى لا الأم على نهى وإنذار
فإن عصيتم مَقالى اليوم فاعترفوا	أن سوف تلقون خزيًا ظاهر العار
لترجعن أحاديثا مُلعنة	لهو المقيم وهو المذبح السارى ^(٣)
من كان فى نفسه حوجاء يطلبها	عندى فإنى له رهنٌ بإصهار ^(٤)
أقيم عوجته إن كان ذا عوج	كما يقوم قِدَح النبعة البارى ^(٥)
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه	عندى ، وإنى لدراك بأوتار

(الأمالى ١ : ١٢)

[١] أى دفعتنا ودفعتها ، والزبن : الدفع ، ومنه اشتقاق الزبانية (جمع زبنة أو زبى بكسر الزاى وسكون الباء) لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار ومنه أيضا حرب زبون بفتح الزاى .
 [٢] الترة والوتر : الثأر . [٣] أدلج : سار من أول الليل فان سار من آخره فقد ادلج بالقتل والشديد والسارى : الذى يسير بالليل . [٤] الحوجاء : الحاجة . وقوله بإصهار : أى لا أستتر عنه ، ولا أمتنع فى الأماكن الحصينة من أسحر القوم : برزوا إلى الصحراء . [٥] العوج بالفتح فى كل ما كان منتصبا مثل الإنسان والمصا والعود وشبهه ، والعوج بالكسر : ما كان فى بساط أو أرض أو معاش أو دين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، والقِدَح : السهم قبل أن يراش وينصل جمعه فداح ، والنبعة واحدة النبع وهو شجر القسي والسهم .

١٦٧ - خطبته عام حججه

وحجج عبد الملك في بعض أعوامه ، فأمر للناس بالعطاء ، فخرجت بَدْرَة ^(١) مكتوب عليها من الصدقة ، فأبى أهل المدينة قبولها ، وقالوا : إنما كان عطاؤنا من الفء ، فقتل عبد الملك وهو على المنبر :

« يا معشر قريش ، مثلنا ومثلكم أن أخوين في الجاهلية خرجا مسافرين ، فزلا في ظل شجرة تحت صفاة ^(٢) ، فلما دنا الرّواح خرجت إليهما من تحت الصفاة حية تحمل ديناراً ، فألقته إليهما ، فقالا : إن هذا لمن كُنز ، فأقاما عليها ثلاثة أيام ، كل يوم تخرج إليهما ديناراً ، فقال أحدهما لصاحبه : إلى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألا نقتلها ونحفّر هذا الكنز فنأخذه ، فنهاه أخوه ، وقال : ماتدرى لعلك تعطب ولا تدرك المال ، فأبى عليه ، وأخذ فأسأ معة ، ورصد الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة ، جرحت رأسها ولم تقتلها ، فثارت الحية فقتلتها ، ورجعت إلى جحرها ، فقام أخوه ، فدفننه وأقام حتى إذا كان من الغد ، خرجت الحية معصوباً رأسها ، ليس معها شيء ، فقتال لها : ياهذه ، إني والله ما رضيت ما أصابك ، ولقد نهيت أخى عن ذلك ، فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضرينى ولا أضرك ، وترجعين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحية : لا ، قال : ولم ذلك ؟ قالت : إني لأعلم أن نفسك لا تطيب لى أبداً ، وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسي لا تطيب لك أبداً ، وأنا أذكر هذه الشجّة ^(٣) ، وأنشدهم شعر النابنة :

فقلت أرى قبراً تراه مُقابلي وضربةً فأس فوق رأسى فاغره

[١] البدره : كيس فيه ألف أو عدره آلاف درم أو سبعة آلاف دينار .

[٢] الصفاة : الحجر الصلب الضخم . [٣] راجع مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٦١ في اللؤلؤ :

« كيف أعادرك وهذا أثر فاسك » .

فيا معشر قريش وليكم عمر بن الخطاب ، فكان فظاً غليظاً مضيقاً عليكم ، فسيستم له وأطعتم ، ثم وليكم عثمان فكان سهلاً ، فعَدَّوْتُم عليه فقتلتموه ، وبعثنا عليكم « مساماً » ^(١) يوم الحرّة فقتلناكم ، فنحن نعلم يا معشر قريش أنكم لا تحبوننا أبداً ، وأنتم تذكرون يوم الحرّة ، ونحن لا نحبكم أبداً ونحن نذكر قتل عثمان .
(مروج الذهب ٢ : ١٢٩)

١٦٨ - خطبته وقد علم بخروج ابن الأشعث

ولما ورد إليه كتاب الحجاج ينبئُهُ بخروج ابن الأشعث ، خرج إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« إن أهل العراق طال عليهم عمرى ، فاستعجلوا قدّرى ، اللهم سلط عليهم سيوف أهل الشام ، حتى يبلغوا رضاك ، فإذا بلغوا رضاك ، لم يجاوزوا إلى سخطك » .
ثم نزل . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

١٦٩ وصيته لبعض أمرائه

وأوصى عبد الملك أميراً سيّره إلى أرض الروم ، فقال :
« أنت تاجر الله لمعباده ، فكن كالْمضاربِ الكَيْسِ الذى إن وجد ربحاً اتجّر ، وإلا تحفّظ برأس المال ، ولا تطلب النسيئة حتى تُحرز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك ، أشدّ حذراً من احتيال عدوك عليك » .
(العقد الفريد ١ : ٤١)

[١] هو مسلم بن عقبة المرّى صاحب وقعة الحرّة ، وذلك أن أهل المدينة كانوا كرهوا خلافة يزيد بن معاوية وخلصوه وحصروا من كان بها من بنى أمية وأخافوهم ، فوجه إليها مسلم بن عقبة فحاصرها من جهة الحرّة ، « موضع بظاهر المدينة » ودخلها ، ودعا الناس للبيعة على أنهم خول يزيد يحكم في ديارهم وأموالهم وأهلهم ما شاء ، وقد أباح المدينة ثلاثاً : قتل ، ونهب ، وسبي . قيل إن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ، ويقول لعالمها افتصت في وقعة الحرّة . « وكانت في ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ » .

١٧٠ - وصيته للشعبي

وروى المسعودى فى مروج الذهب قال :

ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، تأقت نفسه إلى محادثة الرجال والأشراف فى أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمناذمته غير الشعبى ، فلما حُمل إليه ونادمه ، قال له :

« يا شعبي ، لا تساعِدني على ما قُبِح ، ولا ترُدَّ على الخِطأ فى مجلسى ، ولا تكلفنى جوابَ التشميت ^(١) والتهنئة ، ولا جوابَ السؤال والتعزية ، ودع عنك (كيف أصبح الأمير ، وكيف أمسى) . وكلنى بقدر ما أستطعمك ، واجعل بدل المدح لى ، صوابَ الاستماع منى ، واعلم أن صوابَ الاستماع أكثر من صواب القول ، وإذا سمعتنى أتحدث ، فلا يفوتك منه شيء ، وأرِنى فهمك من طرفك وسمعتك ، ولا تُجهد نفسك فى نظر ^(٢) صوابى ، ولا تستدع بذلك الزيادة فى كلامى ، فإن أسوأ الناس حالا من استكدَّ الملوك بالباطل ، وإن أسوأ الناس حالا منهم من استخف بحقهم ، واعلم يا شعبي أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان ، ويُسقط حقَّ الحرمة ، فإن الصمت فى موضعه ، ربما كان أبلغ من النطق فى موضعه ، وعند أصابته وفرصته » . (مروج الذهب ٢ : ١٠٩)

١٧١ - وصيته لآخيه عبد العزيز بن مروان

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين ولاء مصر فقال :

« ابسط بِشرك ، وألن كنفك ، وآثر الرفق فى الأمور ، فإنه أبلغ بك ،

[١] التشميت : الداء للمطس . [٢] فى الأصل « فى نظرية صوابى » وأراء محرفا ، والنظر : الانتظار .

وانظر حاجبك ، فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يَقِفَنَّ أحد
بيابك إلا أعلمك مكانه ، لتكون أنت الذى تأذن له أو تُرُدّه ، وإذا خرجت إلى
مجلسك فابدأ بالسلام ، يأنسوا بك ، وتنبُت في قلوبهم محبتك ، وإذا انتهى إليك
مُشْكِل ، فاستظهر عليه بالمشاورة ، فإنها تفتح مغاليق ^(١) الأمور ، وإذا
سَخِطت على أحد فأخّر عقوبته ، فإنك على العتوبة بعد التوقف عنه ، أقدرُ منك
على رُدّها بعد إمضائها . (البخارى ١١٣)

١٧٢ — وصيته لولده عند وفاته

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكى عليه عند رأسه ، فقال :
« يا هذا أحنين الحمامة ؟ إذا أنا ميتٌ فشمّر واترر ، والبسْ جلدَ نمر ، وضع
سيفك على عاتقك ، فمن أبدى ذات نفسه لك ، فاضرب عنقه ، ومن سكت مات
بدائه ، ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا ، فقال : « إن طويلكِ لتقصير ، وإن كثيرك
لقليل ، وإن كنا منك لفي غرور » . ثم أقبل على جميع ولده فقال : « أوصيكم
بتقوى الله ، فإنها عصمة باقية ، وجُنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل في المعاد ،
وهي أحسن كهف ، وليعطفِ الكبير منكم على الصغير ، ويعرف الصغير حق
الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذِ بجميل الأمور ، وإياكم والبغى والتحاسد ،
فبهما هلك الملوك الماضون ، وذوو العز الماكين . يا بني : أخوكم مسلمة نابكم الذى
تقرءون ^(٢) عنه ، ومجنّكم ^(٣) الذى تستجئون به ، اصدرؤوا عن رأيه ، وأكرموا

[١] جمع مفلق بكسر الميم وهو ما يفلق به الباب . [٢] فرّ الدابة : كشف عن أسنانها لينظر

ما سنها . [٣] المجن : الترس .

الحجاج ، فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمر ، كونوا أولادا أبراراً ، وفى الحروب
أحراراً ، وللمعروف مناراً ، وعليكم السلام . (مروج الذهب ٢ : ١٥٤)

١٧٣ — خطبة للوليد بن عبد الملك بعد دفن أبيه (توفى سنة ٩٦ هـ)
لما رجع الوليد من دفن عبد الملك لم يدخل منزله حتى دخل المسجد ، ونادى

فى الناس : الصلاة جامعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس إنه لا مؤخر لما قدّم الله ، ولا مقدّم لما أخر الله ، وقد كان
من قضاء الله ، وسابق علمه ، وما كتب على أنبيائه ، وخملة عرشه من الموت
موتٌ ولىّ هذه الأمة ، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار ، للذى كان عليه
من الشدة على الأريب ، واللين على أهل الفضل والدين ، مع ما أقام من منار
الإسلام وأعلامه ، وحجّ هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشنّ الغارات على
أعداء الله ، فلم يكن فيها عاجزاً ، ولا وائياً ، ولا مفرطاً ، فعايكم أيها الناس
بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، فإن الشيطان مع الفذّ ، وهو من الجماعة أبعد ، واعلموا
أنه من أبدى لنا ذات نفسه ، ضربنا الذى فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه .»
ثم نزل . (العقد الفرید ٢ : ١٤٢ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

١٧٤ — خطبة لسليمان بن عبد الملك (توفى سنة ٩٩ هـ)

الحمد لله . ألا إن الدنيا دار غرور ، ومنزل باطل ، تُضحك باكياً ، وتُبكي
صاحكاً ، وتُخيف آمناً ، وتؤمن خائفاً ، وتُفقر مثرى ، وتُثري مُقتراً^(١) ، مَيْالَةً
غَرَارَةً ، لَعَابَةً بأهلها . عباد الله ، فاتخذوا كتاب الله إماماً ، وارتضوا به حكماً ،
واجعلوه لكم قائداً ، فإنه ناسخ لما كان قبله ، ولم ينسخه كتاب بعده ، واعلموا

[١] من أقت ، أى اشقر .

عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان ، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفّس ، ظلام الليل إذا عَسَسَ (١) .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٣ ، وعبون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٦)

خطب عمر بن عبد العزيز (توفي سنة ١٠١ هـ)

١٧٥ - أولى خطبه

قال المُتَّبِيّ : أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله :
« أيها الناس ، أصلحوا سرائركم ، تصلح لكم علائبتكم ، وأصلحوا آخرتكم ،
تصلح دنياكم ، وإن امرأ ليس بينه وبين آدم أب حى لمُعْرِق في الموت » .
(العقد الفريد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢١٧)

١٧٦ - خطبة أخرى

وروى المسعودى فى مروج الذهب ، أنه لما أفضى إليه الأمر ، كان أول
خطبة خطب الناس بها أن قال :
« أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت فروعها ، فما بقاء فرع بعد
أصله ؟ وإنما الناس فى هذه الدنيا أغراض (٢) تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نُصَب
المصائب ، مع كل جرعة شَرَق (٣) ، وفى كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة
إلا بفراق أخرى ، ولا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ منكم يوماً من عمره إلا بهَدْمٍ آخر من أجله » .
وأورد القالى فى الأمالى هذه الخطبة بصورة أطول ، وهى :
« ما الجزع مما لا بُدَّ منه ، وما الطمع فيما لا يُرْجَى ، وما الحيلة فيما سيزول ؟

[١] تنفّس المبيح : أسفر ، وعسس الليل : أقبل ظلامه (أو أدبر) . [٢] جمع غرض وهو الهدف وانضلت : تناضت وتبارت فى الرمي . [٣] شرق بريقه : غص .

وإنما الشيء من أصله ، فقد مَضَتْ قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ إنما الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نهب للمصائب ، مع كل جرعة شَرَق ، وفي كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمّر مُعَمَّر يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، وأتم أعوان الحتوف على أنفسكم ، فأين المهزَّب مما هو كائن ؟ وإنما تنقلب في قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم ، مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر خيبة الخائب فيه ، والسلام .

(مروج الذهب ٢ : ١٦٨ ، والأمالى ٢ : ١٠٢ ، وسيرة عمر بن العزيز لابن الجوزى ص ٢١٣)

١٧٧ - خطبة أخرى

وروى أنه لما دَفَنَ سليمان بن عبد الملك ، وخرج من قبره ، سَمِعَ للأرض رَجَّةً ، فتال : ما هذه ؟ فتَمِيلُ : هذه مَرَاكِبُ الخلافة يا أمير المؤمنين ، قُرِبَتْ إليك لتركبها ، فتال : مَالِي وَلَهَا ؟ نَحْوَهَا عَنِي ، قَرُبُوا إِلَيَّ بَعْلَتِي ، فقربت إليه فركبها ، وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة ، فقال : تَنَحَّ عَنِي ، مَالِي وَلَك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، فسار وسار معه الناس ، حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس ، فقال :

« أيها الناس : إني قد ابتليتُ بهذا الأمر عن غير رأيٍ كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم . »

فصاح الناس صيحةً واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك ، فَلَ أَمْرُنَا بِالْيَمْنِ وَالْبِرْكَه ، فلما رأى الأصوات قد هدأت ، ورضي به الناس جميعاً ،

حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلفت من كل شيء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا سرائرهم ، يصلاح الله الكريم علائبتكم ، وأكثروا ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادم اللذات ، وإن من لا يذكر من آباءه فيما بينه وبين آدم عليه السلام أباحياً لمعرق في الموت ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ، ولا في نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحداً باطلا ، ولا أمتع أحداً حقاً ، إني لست بخازن ، ولكني أضع حيث أمرت . أيها الناس : إنه قد كان قبلي ولاة تجترئون^(١) مودتهم ، بأن تدفعوا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٥٣ - ٢٠١ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٩)

١٧٨ - خطبة أخرى

وروى أنه لما ولي الخلافة صعد المنبر ، وكان أول خطبة خطبها : حمد الله

وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس ، وإلا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة

من لا يستطيع رفعها ، ويؤمننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدي

إليه ، ولا يفتان عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه .

فانتشع عنه الشعراء والخطباء ، وثبت الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل ، حتى يخالف قوله فعله .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٦)

١٧٩ - خطبة أخرى

وصعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب ، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرّم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إني لست بقاضٍ ، ولكني منفذ لله ، ولست بمتبّع ، ولكني متبّع ، ألا إنه ليس لأحد أن يُطاع في معصية الله عز وجل ، ألا إني لست بخيركم ، وإنما أنا رجل منكم ، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً . يا أيها الناس : إن أفضل العبادة أداء الفرائض ، واجتناب المحارم . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٥٦ ، وص ١٩٨ ، ولابن عبد الحكم ص ٢٨ ،

ومروج الذهب ٢ : ١٦٨)

١٨٠ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، إنكم ميتون ، ثم إنكم مبعوثون ، ثم إنكم محاسبون ، فلمعمرى لأن كنتم صادقين لقد قصّرتم ، وإن كنتم كاذبين لقد هلكتم . يا أيها الناس ، إنه من يقدر له رزق برأس جبل ، أو بحضيب أرض يأتيه ، فأجملوا في

الطلب . (إجاز القرآن ص ١٢٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٨١ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« إن الدنيا ليست بدار قرار ، دارٌ كَتَبَ اللهُ عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظَّمَنَ ، فكم عابِرٍ مُؤْتَقٍ عما قليلٍ يَخْرَبُ ، وكم مُقِيمٍ مُغْتَبِطٍ عما قليلٍ يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرِّحْلَةَ ، بأحسنِ ما يحضركم من النُّقْلَةِ : وَتَرَوْدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى . إنما الدنيا كَفَيْهِ ^(١) ظِلَالٌ قَلَصَ فَذَهَبَ ، بينا ابنُ آدمَ في الدنيا منافِسٌ ، وبها قَرِيرُ عَيْنٍ ، إذ دعاه اللهُ بِقَدَرِهِ ، وورماه يَوْمَ حَتْفِهِ ، فسلبه آثاره ودياره وديناه ، وصيرَ لقومٍ آخِرِينَ مَصَانِعَهُ وَمَغْنَاهُ ^(٢) ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضرُّ ، إنها تسر قليلا ، وتجرُّ حزنا طويلا .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٧ و ص ٢٢١)

١٨٢ - خطبة له يوم عيد

وخطب يوم عيد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله عزَّ وجلَّ ، ثم قال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي وَجَدْتُ هَذَا الْقَلْبَ لَا يَعْبُرُ عَنْهُ إِلَّا اللِّسَانُ ، وَلَعَمْرِي - وَإِنْ لِعَمْرِي مَنِي لِحَقًّا ^(٣) - لَوَدِدْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ عَبْدٌ ابْتُلِيَ بِسَعَةِ ، إِلَّا نَظَرَ قَطِيعًا مِنْ مَالِهِ ، يَجْعَلُهُ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ ، بِدَأْتِ أَنَا بِنَفْسِي وَأَهْلِي بَيْتِي ، ثُمَّ كَانَ النَّاسُ بَعْدُ » .

[١] الوء : ما كان شمسا فيفسخه الظل ، وقلص الظل كضرب : اقتبس . [٢] المصانع : المباني من القصور والحصون ، والمغنى : المنزل . [٣] العبر بالفتح والضم : الحياة ، والتزموا المفتوح في القسم خاصة تخفيفاً ، لكثرة استعماله فيه .

ثم كَانَ آخر كلمة تكلم بها حين نزل : « لولا سُنَّةٌ أَحْيَيْتُهَا ، أو بدعة أَمْثَلُهَا ،
لم أَبالِ أن لا أبقى في الدنيا إِلَّا فَوْاقًا ^(١) » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠١)

١٨٣ — خطبة له

وخطب فقال :

« أما بعد : أيها الناس ، فلا يَطْوَلَنَّ عَلَيْكُمُ الأَمَدُ ، ولا يَبْعُدَنَّ عَنْكُمُ يَوْمُ
القيامة ، فإن من زافت ^(٢) به منيئُهُ ، فقد قامت قيامته ، لا يَسْتَعْتَبُ من سَيِّئِهِ ،
ولا يَزِيدُ في حَسَنِهِ ، ألا لا سلامةَ لامرئٍ في خِلافِ السُّنَّةِ ، ولا طاعةَ لمخلوقٍ
في معصية الله ، ألا وإنكُم تَعُدُّونَ الهاربَ مِن ظُلمِ إمامه عاصياً ، ألا وإن أولاهما
بالمعصية الإمام الظالم ، ألا وإني أعالجُ أمراً لا يُعِينُ عليه إلا اللهُ ، قد فني عليه
الكبير ، وكبُرَ عليه الصغير ، وفصُحَ عليه الأعجمي ، وهاجر عليه الأعرابي ، حتى
حسبوه ديناً ، لا يَرَوْنَ الحقَّ غيرَه » . ثم قال : « إنه لحَيِّبٌ إلى أن أوفرَّ أموالكم
وأعراضكم إِلَّا بحَقِّهَا ، ولا قوَّةَ إِلَّا بالله » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٤٠ ، ولابن الجوزي ص ٢٠٤)

١٨٤ — خطبة أخرى ✓

وصعد ذات يوم المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنما يُرادُ الطيبُ للوَجَعِ الشديدِ ، ألا فلا وَجَعَ أشدُّ من
الجهل ، ولا داءٌ أخبثُ من الذنوب ، ولا خوفٌ أخوفُ من الموت » . ثم نزل .
(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠٧)

[١] الفواق كغراب ويفتح : ما بين الحليتين من اوقت أو ما بين فنتح يدك وقبضها على الضرع .

[٢] من زافت الامة : إذا نمرت جناحها وذنبها وسحبها على الأرض ، وفي رواية : « وافته »

١٨٥ - خطبة أخرى

وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا ^(١) ، والله ما كان لهم أن يُعْطُونَاهَا ، وما كان لنا أن نَقْبَلَهَا ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس على فيه دون الله محاسبٌ ، إلا وإني قد رَدَدْتُهَا ، وبدأت بنفسي وأهل بيتي » اقرأ يا مُزَاحِم - وكان مولاه -

وقد جيء قبل ذلك بسفط فيه تلك الكتب ، فقرأ مزاحم كتاباً منها ، ثم ناوله عمر ، وهو قاعد على المنبر وفي يده جَلم ^(٢) ، فجعل يقصّه ، واستأنف مزاحم كتاباً آخر فقرأه ، ثم دفعه إلى عمر فقصه ، فما زال حتى نُودي بصلاة الظهر .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٠٨)

١٨٦ - خطبة له

وكان يخطب فيقول :

« أيها الناس : من ألمّ بذنب فليستغفر الله عزّ وجلّ وليتُب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإن عاد فليستغفر وليتب ، فإنما هي خطايا مطوّقة في أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرارُ عليها . »

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٨)

١٨٧ - خطبة له

وخطب الناس بعد أن جمعهم فقال :

« إني لم أجمعكم لأمرٍ أحدثته ، ولكنني نظرت في أمر معادكم ، وما أنتم إليه صائرون ، فوجدت المصدّق به أحق ^(٣) ، والمكذّب به هالكاً . ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ص ٣٩)

[١] يريد آباءه وما ورثوه إياه . [٢] مقص . [٣] أي أحق بثواب الله ونعيم جنته .

١٨٨ - خطبة له

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لا تستصغروا الذنوب ، والتمسوا تمحيصَ ما سَلَفَ منها بالتوبة منها ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرِي لِلَّذِينَ كَرِهُوا عَزَّوَجَلَّ : «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَنْ يَكُنَّ لَهُ إِثْرٌ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» .
(المقد الفريد ٢ : ٢٧٩)

١٨٩ - خطبة له

وخطب فقال :

« إن لكل سَفَرٍ زَادًا لَا حَالَةَ ، فزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فرَغِبُوا وَرَهَبُوا ، وَلَا يَطْوُلَنَّ عَلَيْكُمُ الْأَمَدُ ، فَتَقْسُوا قُلُوبَكُمْ ، وَتَنْقَادُوا لِمَعْدُوكُمْ ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بُسِطَ أَمَلٌ مِنْ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ لَا يُصْبِحُ بَعْدَ إِمْسَاءِهِ ، وَلَا يُمْسِي بَعْدَ إِصْبَاحِهِ ، وَرَبَّمَا كَانَتْ بَيْنَ ذَلِكَ خَطَفَاتُ الْمَنَايَا ، فَكَمْ رَأَيْنَا وَرَأَيْتُمْ مَنْ كَانَ بِالدُّنْيَا مَغْتَرًا ، فَأَصْبَحَ فِي حَبَائِلِ خَطُوبِهَا وَمَنَايَاهَا أَسِيرًا ، وَإِنَّمَا تَقَرَّرَ عَيْنٌ^(١) مِنْ وَثْقٍ بِالنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا يَفْرَحُ مَنْ أَمِنَ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَأَمَّا مَنْ لَا يَبْرَأُ مِنْ كَلِمٍ إِلَّا أَصَابَهُ جَارِحٌ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى ، فَكَيْفَ يَفْرَحُ ؟ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ آمُرَكُمْ بِمَا أَنْهَى عَنْهُ نَفْسِي ، فَتَخَسَّرَ صَفْقَتِي ، وَتَظَهَرَ عَوْرَتِي ، وَتَبَدَّوْا مَسْكَتِي ، فِي يَوْمٍ يَبْدُو فِيهِ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ ، وَالْمَوَازِينُ مَنْصُوبَةٌ ، وَالْجَوَارِحُ نَاطِقَةٌ ، فَلَقَدْ عُيِّنَتْ بِأَمْرِ لَوْ عُيِّنَتْ

[١] قرت عينه : بردت واقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوفة إليه .

به النجوم لا تكدرت ، ولو عنيت به الجبال لذابت ، أو الأرض لا تقطرت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرون إلى إحداها ؟ » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٦)

١٩٠ - خطبة له

وروى أنه قال :

« من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح ديناه ، فقد أحسن صلته ، وأدى واجب حقه ، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم ، فاقبلوها ، وموعظة مُنْجِيَّة في العواقب ، فالزموها ، الرزق مقسوم ، فلن يعدو^(١) المؤمن ما قُسم له ، فأجبلوا في الطلب ، فإن في القنوع^(٢) سعة وبلغة ، وكفافاً ، إن أجل الدنيا في أعناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فكأن لم يكن ، وكلُّ أمواتٍ عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق^(٣) ، وبعد فراغه وقد ذاق الموت ، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ، وعالينتم تعجيل إخراجهم ، وقسمة ثرائهم ، ووجهه مفقود ، وذكره منسى ، وبابه مهجور ، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ^(٤) ، ولم يعمر الديار ، فاتقوا هول يوم لا يُحقر فيه مثقال ذرة في الموازين » .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٠٥)

١٩١ - خطبة له

وقال : « من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، ومن لم يعدد

[١] وفي رواية : « فلن يغدر » ، أغدره و زادته : تركه . [٢] الفروع : الرضا بالقسم (وهو أيضا السؤال والتذلل) . [٣] ساق المريض : شرع في نزع الروح . [٤] أي الملاحظة على وده .

كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومُعَوَّل المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه ، فأعاضه مما انتزع منه الصبر ، إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : « إِنَّمَا يُؤَوِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٤١ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢١٣)

١٩٢ - خطبة له

وحدث شبيب بن شيببة ، عن أبي عبد الملك قال : كنت من حرس الخلفاء قبل عمر ، فكنا نقوم لهم ، ونبدوهم بالسلام ، فخرج علينا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فى يوم عيد ، وعليه قيص كتان ، وعمامة على قلنسوة لاطئة^(١) ، فثلنا بين يديه ، وسامنا عليه . فقال : مَهْ أَنْتُمْ جَمَاعَةٌ وَأَنَا وَاحِدٌ ، السَّلَامُ عَلَيَّ ، وَالرَّدُّ عَلَيْكُمْ ، وَسَلِّمُ فَرَدَدْنَا ، وَقُرَّبْتُ لَهُ دَابَّتَهُ ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا ، وَمَشَى وَمَشِينَا ، حَتَّى صَعَدَ الْمَنْبَرَ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : « وَدِدْتُ أَنْ أَغْنِيَاءَ النَّاسِ اجْتَمَعُوا ، فَرَدُّوا عَلَى فَقَرَاءَتِهِمْ ، حَتَّى نَسْتَوِي نَحْنُ بِهِمْ ، وَأَكُونُ أَنَا أَوْلَهُمْ » ، ثُمَّ قَالَ : « مَالِي وَلِلدُّنْيَا ؟ أَمْ مَالِي وَلِهَا ؟ وَتَكَلَّمُ فَأَرْقُ : حَتَّى يَكْفَى النَّاسَ جَمِيعًا ، يَمِينًا وَشِمَالًا » ، ثُمَّ قَطَعَ كَلَامَهُ وَنَزَلَ ، فَدَنَا مِنْهُ رَجَاءُ ابْنِ حَيَّوَةَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَلَّمْتَ النَّاسَ بِمَا أَرْقَى قُلُوبَهُمْ وَأَبْكَاهُمْ ، ثُمَّ قَطَعْتَهُ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : يَارَجَاءُ إِنِّي أَكْرَهُ الْمِبَاهَاةَ » .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٣)

١٩٣ - آخر خطبة له

وخطب بمُخَاصِرَةٍ^(٢) خطبة لم يخطب بعدها حتى مات ! رحمه الله تعالى

[١] لاطئة : لازقة . [٢] مُخَاصِرَةٌ : بلد بالشَّام من عمل حلب .

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنكم لم تُخلَقوا عَبَثًا ، ولم تُتْرَكوا مُدَى ، وإن لكم مَعَادًا
يُحْكَمُ اللهُ فِيهِ بَيْنَكُمْ ، نَخَابُ وَخَسِرُ مِنْ خَرَجٍ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ،
وَحُرِّمَ الْجَنَّةَ الَّتِي عَزَّضَهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَانَ نَدَاءٌ لِمَنْ خَافَ
رَبَّهُ ، وَبَاعَ قَلِيلًا بكَثِيرٍ ، وَفَانِيًا بِيَاقٍ ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّكُمْ فِي أَسْلَابٍ ^(١) الْمَهَالِكِينَ ،
وَسَيُخَلِّفُهَا مِنْ بَعْدِكُمُ الْبَاقُونَ ، كَذَلِكَ حَتَّى تُرَدُّوا إِلَى خَيْرِ الْوَارِثِينَ ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ
تَشِيعُونَ غَادِيًا وَرَائِحًا إِلَى اللهِ ، قَدْ قَضَى نَجْبُهُ ^(٢) ، وَبَلَغَ أَجْلُهُ ، ثُمَّ تَغَيَّبُونَهُ فِي صَدْعٍ ^(٣)
مِنَ الْأَرْضِ ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ غَيْرَ مُؤَسَّدٍ وَلَا مُمَهَّدٍ ، قَدْ خَلَعَ الْأَسْبَابَ ، وَفَارَقَ
الْأَحْبَابَ ، وَوَاجَهَ الْحِسَابَ ، مَرْتَهِنًا بِعَمَلِهِ ، غَنِيًا عَمَّا تَرَكَ ، فَقِيرًا إِلَى مَا قَدَّمَ ،
وَإِيْمُ اللهُ إِنِّي لِأَقُولُ لَكُمْ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، وَمَا أَعْلَمُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنَ الذُّنُوبِ أَكْثَرَ مِمَّا
عِنْدِي ، فَاسْتَغْفِرُ اللهُ لِي وَلَكُمْ ، وَمَا تَبَلَّغْنَا عَنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ حَاجَةً ، يَتَسَعُّ لَهَا مَا عِنْدَنَا
إِلَّا سَدَدْنَاهَا ، وَلَا أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا وُجِدَتْ أَنْ يَدَهُ مَعَ يَدِي ، وَلُحْمَتِي ^(٤) الَّذِينَ يُلُونَنِي ،
حَتَّى يَسْتَوِيَ عَيْشُنَا وَعَيْشُكُمْ ، وَإِيْمُ اللهُ أَنِّي لَوَأْرَدْتُ غَيْرَ هَذَا مِنْ عَيْشٍ أَوْ غَضَارَةٍ ، ^(٥)
لَكَانَ اللِّسَانُ مَنِي نَاطِقًا ذَلُولًا ، عَالِمًا بِأَسْبَابِهِ ، لَكِنَّهُ مَضَى مِنَ اللهِ كِتَابَ نَاطِقٍ ،
وَسُنَّةَ عَادِلَةٍ ، دَلَّ فِيهَا عَلَى طَاعَتِهِ ، وَنَهَى فِيهَا عَنْ مَعْصِيَتِهِ » ، ثُمَّ بَكَى ، فَتَلَقَى
دَمُوعَ عَيْنِيهِ بِطَرْفِ رِدَائِهِ ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَلَمْ يُرَ عَلَى تِلْكَ الْأَعْوَادِ حَتَّى قَبِضَهُ اللهُ .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ ، وتاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وشرح

ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والأغانى ٨ : ١٥٢ ، وعبون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٦ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٢٢ ، ولان عبد الحكم ص ٤١ و ١٣٦)

[١] جمع سلب بالتحريك وهو ما يسلب . [٢] الحب : الأجل ، والحاجة ، والنذر .

[٣] شق . [٤] اللحمة : القرابة . [٥] الغضارة : النعمة ، والسمة ، والحصب .

١٩٤ - خطبة أخرى

وروى أن آخر خطبة خطبها رحمه الله : حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس : الحقوا ببلادكم ، فإني أنساكم عندي ، وأذكركم ببلادكم ، ألا
وإني قد استعملت عليكم رجالا ، لا أقولُ مُخَيَّارُكُمْ ، ولكنهم خير ممن هم شرٌّ
منهم ، ألا فمن ظلمه عامِلُهُ بِمَظْلَمَةٍ فَلَا إِذْنَ لَهُ عَلَيَّ ^(١) ، ألا وإني مَنَعْتُ نَفْسِي
وأهل بيتي هذا المالَ ، فَإِنْ صَنَعْتُمْ بِهِ عَلَيَّكُمْ إِنْ إِذْنَ لَضَنِينَ ، والله لولا أن
أَنْعَشَ ^(٢) سُنَّةً ، أو أسير بحق ، ما أحيت أن أعيش فُوقًا » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٠ ، ولابن عبد الحكم ص ٢٩)

١٩٥ - كلامه في مرضه الذي مات فيه

ودخل عليه مَسْئِمَةُ بن عبد الملك في المَرَضَةِ التي مات فيها ، فقال له : يا أمير
المؤمنين : « إِنَّكَ فَطَمْتَ أَفْوَاهَ وَلَدِكَ عَنْ هَذَا الْمَالِ ، وَتَرَكْتَهُمْ عَالَةً ^(٣) ، وَلَا
بَدَّ مِنْ شَيْءٍ يَصْلِحُهُمْ ، فَلَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ أَوْ إِلَى نُظَرَائِكَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ،
لَكَفَيْتُكَ مَثْوَتَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، فقال عمر : أجلسوني . فأجلسوه ، فقال :
« الْحَمْدُ لِلَّهِ ، أَبَاللَّهِ تَخَوَّفَنِي يَا مَسَامَةَ ! أَمَا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَنِّي فَطَمْتُ أَفْوَاهَ
وَلَدِي عَنْ هَذَا الْمَالِ ، وَتَرَكْتَهُمْ عَالَةً ، فَإِنِّي لَمْ أَمْنَعُهُمْ حَقًّا هَوْلَهُمْ ، وَلَمْ أُعْطِهِمْ
حَقًّا هَوْلَ لَغْوِهِمْ ؛ وَأَمَا مَا سَأَلْتَ مِنَ الْوَصَاةِ إِلَيْكَ ، أَوْ إِلَى نُظَرَائِكَ مِنْ أَهْلِ
بَيْتِي ، فَإِنْ وَصَيْتِي بِهِمْ إِلَى اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ، وَإِنَّمَا
بَنُو عَمْرٍ أَجْدُ رَجُلِينَ : رَجُلٌ اتَّقَى اللَّهَ ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ

[١] أي يدخل على بلا إذن ، لا يجوز بيني وبينه حاجب . [٢] نعشه كنعش وأنعشه : رضه .

[٣] قراء جمع عائل من حال يعيل عيلة (بفتح العين) أي افتقر .

حيث لا يَحْتَسِبُ ، ورجل غَيْرٌ وَفَجَّرَ ، فلا يكون عمرٌ أولَ من أعانه على ارتكابه ، ادعُوا لى بِنِيَّ ، فدَعَوْهم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً ، فجعل يصعدُ بصره فيهم ويصوبُ به ، حتى اغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال : « بنفسي فتيّة تركتهم ولا مالَ لهم ! يا بِنِيَّ : إني قد تركتكم من الله بخيرٍ ، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حقٌّ واجبٌ إن شاء الله ، يا بِنِيَّ مَيَّلْتُ ^(١) رأبي بين أن تفتقروا في الدنيا ، وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار ، قوموا يا بِنِيَّ عَصَمَكُم اللهُ ورزقكم . » قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ، ولا افتقر .

(العقد الفرید ٢ : ٢٨٠ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨٠)

١٩٦ - مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شوذبُ الخارجيِّ - واسمه بسطام ، من بني يشكر - فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولست أوّلى بذلك مني ، فهلمَّ إلىَّ أناظرك ، فإن كان الحقُّ بأيدينا ، دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يدك ، نظرنا في أمرك ، فكتب بسطام إلى عمر : قد أنصفت ، وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبني شيبان حَبَشِيًّا اسمه عاصم ، ورجلا من بني يشكر ، فقدمَا على عمر بِمُخَاصِرَةٍ ، فأخبر بِمَكَانِهِمَا ، فقال : فتشوهما لا يكن معهما حديد وأدخلوهما ، فلما دخلا قالوا : السلام عليك ثم جلسا ، فقال لهما عمر : أخبراني ، ما الذي أخرجكم مُخْرَجَكُم هذا ؟ وما نَقَمْتُم علينا ؟ فقال عاصم : ما تقمنا سيرتك ، إنك لتتحرى العدل والإحسان ،

[١] التميل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، تقول العرب : إني لأميل بين ذينك الأمرين ، وأمايل بينهما أيهما آتى .

فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس ومَشورة ، أم ابتزتم أمرهم ؟ فقال عمر : ماسألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ، وَعَهْدٌ إِلَى رَجُلٍ كَانَ قَبْلِي ، فَقَمْتُ وَلَمْ يَنْكُرْهُ عَلِيٌّ أَحَدٌ ، وَلَمْ يَكْرَهُهُ غَيْرُكُمْ ، وَأَنْتُمْ تَرَوْنَ الرِّضَا بِكُلِّ مَنْ عَدَلَ وَأَنْصَفَ ، مَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ ، فَاتْرَكُونِي ذَلِكَ الرَّجُلَ ، فَإِنْ خَالَفتَ الْحَقَّ وَرَغِبْتَ عَنْهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ ، فَقَالَا : بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَمْرٌ ، إِنْ أَنْتَ أَعْطَيْتَنَا ، فَنَحْنُ مِنْكَ وَأَنْتَ مِنَّا ، وَإِنْ مَنَعْتَنَا ، فَلَسْتَ مِنَّا وَلَسْنَا مِنْكَ ، فَقَالَ عُمَرُ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَا : رَأَيْتَ خَالَفتَ أَعْمَالَ أَهْلِ بَيْتِكَ ، وَسَمَيْتَهَا مَظَالِمًا ، وَسَلَكْتَ غَيْرَ سَبِيلِهِمْ ، فَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّكَ عَلَى هَدًى وَهُمْ عَلَى ضَلَالٍ ، فَالْعَنْتَهُمْ وَتَبَرَأْتَ مِنْهُمْ ، فَهَذَا الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَوْ يُفَرِّقُ ، فَتَكَلَّمْ عُمَرَ ، فَحَمَدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ لَمْ تَخْرُجُوا تَخْرُجُكُمْ هَذَا لَطْلُبُ دُنْيَا وَمَتَاعِهَا ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَرَدْتُمْ الْآخِرَةَ ، فَأَخْطَأْتُمْ سَبِيلَهَا ، إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَانًا ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهِمُ اقْتَدَى » . وَقَدْ سَمِيتَ أَعْمَالَهُمْ ظَالِمًا ، وَكُنِيَ بِذَلِكَ ذِمًّا وَنَقْصًا ، وَلَيْسَ لِعَنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ فَرِيضَةٌ لَا بَدَّ مِنْهَا ، فَإِنْ قَلْتُمْ إِنَّهَا فَرِيضَةٌ ، فَأَخْبِرْنِي مَتَى لَعَنْتَ فِرْعَوْنَ ؟ قَالَ : مَا أَذْكَرَ مَتَى لَعَنْتَهُ ، قَالَ : أَفَيْسَعُكَ أَنْ لَا تَلْعَنَ فِرْعَوْنَ وَهُوَ أَخْبَثُ الْخَلْقِ وَشَرُّهُمْ ، وَلَا يَسْمَعُنِي أَنْ لَا أَلْعَنَ أَهْلَ بَيْتِي وَهُمْ مَصْلُونٌ صَائِعُونَ . قَالَ : أَمَا هُمْ كَفَّارٌ بِظُلْمِهِمْ ؟ قَالَ : لَا ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ ، فَكَانَ مَنْ أَقْرَبَ بِهِ وَبِشْرَائِعِهِ قَبْلَ مِنْهُ ، فَإِنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَقِيمَ عَلَيْهِ الْحُدُ ، فَقَالَ الْخَارِجِيُّ : إِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا النَّاسَ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِمَا نَزَلَ مِنْ

عنده ، قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء قال عاصم : فأبرأ ممن خالف عملك ، ورُدَّ أحكامهم . قال عمر : أخبراني عن أبي بكر وعمر : أليس من أسلافكما ومن تتوليان . وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قال : اللهم نعم . قال : فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسبى الذراري ؟ قال : نعم . قال : فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر ، فردَّ تلك السبايا إلى عشائرها بفدية ؟ قال : نعم . قال : فهل برئ عمر من أبي بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قال : لا . قال : فأخبراني عن أهل النهروان ، أليسوا من صالحى أسلافكم ، ومن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قال : بلى . قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوأيديهم فلم يسفكوا دمًا ، ولم يُخيفوا آمنًا ، ولم يأخذوا مالا ؟ قال : نعم . قال : فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن قديك ، استعرضوا الناس يقتلونهم ، واقتوا عبد الله بن خبّاب بن الأرت : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صبّحوا حيًا من أحياء العرب فاستعرضوهم ، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال ، حتى جعلوا يلقون الصبيان في قدور الأقط^(١) ، وهي تفور ؟ قال : قد كان ذلك . قال : فهل برئ أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قال : لا . قال : فهل تبرءون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قال : لا . قال : أرايتم الدين واحدًا أم اثنين ؟ قال : بل واحدًا . قال : فهل يسعكم فيه شيء يعجز عنى ؟ قال : لا . قال : فكيف

[١] الأقط بفتح الهزرة وكسرهما : شئ ، يتخذ من الخبيض الغنى .

وسِعِمَ أَنْ تَوَلَّيْتُمْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وَتَوَلَّيْتُمْ أَحَدَهُمَا صَاحِبَهُ ، وَتَوَلَّيْتُمْ أَهْلَ الْبَصْرَةِ
وَأَهْلَ الْكُوفَةِ ، وَتَوَلَّيْتُمْ بَعْضَهُمْ بَعْضًا ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي أَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ ، فِي الدَّمَاءِ
وَالْفُرُوجِ وَالْأَمْوَالِ ، وَلَا يَسْعُنِي فِيمَا زَعَمْتُمْ إِلَّا لَعْنُ أَهْلِ بَيْتِي وَالتَّبَرُّؤُ مِنْهُمْ ؟
وَيُنَحِّكُم ! إِنَّكُمْ قَوْمٌ جَهَالٌ ، أَرَدْتُمْ أَمْرًا فَأَخْطَأْتُمُوهُ ، فَأَنْتُمْ تَرُدُّونَ عَلَى النَّاسِ مَا قَبِلَ
مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَأْمَنُ عِنْدَكُمْ مَنْ خَافَ عِنْدَهُ ، وَيَخَافُ
عِنْدَكُمْ مَنْ أَمِنَ عِنْدَهُ . قَالَا : مَا نَحْنُ كَذَلِكَ . قَالَ عُمَرُ : بَلْ سَوْفَ تُقَرِّونَ بِذَلِكَ
الْآنَ ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثَ إِلَى النَّاسِ وَهُمْ عِبَادَةُ
أَوْثَانٍ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى خَلْعِ الْأَوْثَانِ ، وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ،
فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ حَقَّنَ دَمَهُ ، وَأَحْرَزَ مَالَهُ ، وَوَجِبَتْ حُرْمَتُهُ ، وَكَانَتْ لَهُ أُسْوَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ ؟
قَالَا : نَعَمْ . قَالَ : أَفَلَسْتُمْ أَنْتُمْ تَتَلَقَّوْنَ مَنْ يَخْلَعُ الْأَوْثَانَ ، وَيَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ،
وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَتَسْتَحِلُّونَ دَمَهُ وَمَالَهُ ، وَتَلْقَوْنَ مَنْ تَرَكَ ذَلِكَ وَأَبَاهُ مِنَ الْيَهُودِ
وَالنَّصَارِيِّ وَسَائِرِ الْأَدْيَانِ ، فَيَأْمَنُ عِنْدَكُمْ وَتَحْرَمُونَ دَمَهُ ؟ فَقَالَ الْيَشْكُرِيُّ : أَرَأَيْتَ
رَجُلًا وَوَلِيَّ قَوْمًا وَأَمْوَالَهُمْ فَعَدَلَ فِيهَا ، ثُمَّ صَيَّرَهَا بَعْدَهُ إِلَى رَجُلٍ غَيْرِ مَأْمُونٍ ، أَتَرَاهُ
أَدَّى الْحَقَّ الَّذِي يَلْزِمُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ؟ أَوْ تَرَاهُ قَدْ سَلِمَ ؟ قَالَ عُمَرُ : لَا . قَالَ : أَفَتَسَلِّمُ هَذَا
الْأَمْرَ إِلَى يَزِيدٍ ^(١) مِنْ بَعْدِكَ ، وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَقُومُ فِيهِ بِالْحَقِّ ؟ قَالَ : إِنَّمَا وَلاهُ
غَيْرِي ، وَالْمُسْلِمُونَ أَوْلَى بِمَا يَكُونُ مِنْهُمْ فِيهِ بَعْدِي . قَالَ : أَقْتَرِي ذَلِكَ مِنْ صُنْعِ
مَنْ وَلاهُ حَقًّا ؟ فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ : أَنْظِرْ أُنِي ^(٢) ثَلَاثًا ، نَخْرُجُ مِنْ عِنْدِهِ ثُمَّ عَادَا
إِلَيْهِ ، فَقَالَ عَاصِمٌ : أَشْهَدُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ ، فَقَالَ عُمَرُ لِلْيَشْكُرِيِّ : مَا تَقُولُ أَنْتَ ؟

[١] هو يزيد بن عبد الملك ، وقد ولي الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز (سنة ١٠١ - سنة ١٠٥ هـ) .

[٢] أمهاني .

قال : ما أحسن ما وصفت ، ولكن لا أفئات على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجتهم . فأما حاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعطاء ، فتوفي بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر يقول : أهلكني أمر يزيد وخصيت فيه ، فاستغفر الله ، نخاف بنو أمية أن يُخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضعوا على عمر من سقاه سماً ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً ، حتى مرض ومات .

(الكامل لابن الأثير ٥ : ١٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧١ ، والمعقد المرید ١ : ٢١٦ ، وتاريخ الطبری ٨ : ١٣١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ ، ولان الجوزي ٧٧)

١٩٧ - تأيينه ابنه عبد الملك

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك ، وسوى عليه قبره بالأرض ، وجعلوا على قبره خشبتين من زيتون ، إحداهما عند رأسه ، والأخرى عند رجله ، استوى عمر قائماً ، وأحاط به الناس ، فقال :

« رحمك الله يا مَبْنِيَّ ، فقد كنت بَرًّا بأبيك ، والله ما زلتُ مذ وهبك الله لي بك مسروراً ، ولا والله ما كنتُ قطُّ أشدَّ سروراً بك ، ولا أَرَجَى لَحْظِي من الله فيك ، منذ وضعتك في الموضع الذي صيرك الله إليه ، فغفر الله لك ذنبك ، وجازاك بأحسنِ عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير ، من شاهد أو غائب ، رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٨٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٦٤)

١٩٨ - خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد^(١)

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولا
رغبة في الملك ، وما بي إطراء نفسي ، وإني لظالم لها إن لم يرحمني الله ، ولكن
خرجت غضبا لله ودينه ، داعياً إلى الله ، وإلى سنة نبيه ، لما هُدمت معالمُ
الهدى ، وأطفئ نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد^(٢) ، المستحل لكل
حرمة ، والراكب لكل بدعة ، الكافر بيوم الحساب ، وإنه لابن عمي في
النسب ، وكفيتي^(٣) في الحسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره ،
وسألته ألا يكلمني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أجنبي من أهل ولايتي ،
حتى أراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد ، بحوله وقوته ، لا بحولي وقوتي .
أيها الناس : إن لكم عليّ ألا أضع حجراً على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا
أكرى^(٤) نهراً ، ولا أكنز مالا ، ولا أعطيته زوجاً ، ولا ولداً ، ولا أثقله
من بلد إلى بلد ، حتى أسد فقر ذلك البلد وخصاصة^(٥) أهله ، فإن فضل فضل ،

[١] قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك اليلتين بقيتا من جادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، وكان قبل الخلافة
منهمكا في اللهو ، وشرب الخمر ، وانتهاك حرمة الله ، فلما أمست إليه الخلافة ، لم يزد إلا اغتاسا في
اللذات ، واستهتارا بالمعاصي ، ذلك إلى ما ارتكبه من إغصاب أكبر أهله ، والإساءة إليهم ، وتميرهم ، فاحتتموا
عليه مع أعيان رعيته ، وهاجموا عليه وقتلوه ، وكان المتولى لذلك يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد ولي
الخلافة بعده ، وتوفي هلال ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ . [٢] يشير إلى ما حدث من الوليد بن يزيد من أنه
استفتح فألقى المصحف نخرج « وَأُسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » ، فصبه غرضا للشباب
وأقبل يرميه حتى مزقه ، وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد فهأنذاك جبار عنيد

إذا لاقيت ربك يوم حشر فقل يارب مزقني الوليد

[٣] كفيته وكفؤه بضم الكاف وكفؤه بكسرهما : مثله . [٤] كرى النهر : استحدث حفره

[٥] الفقر والحاجة .

نقلته إلى البلد الذي يليه ، ولا أُجْرِمُ^(١) في بعوثكم ، فأفْتِنَكُمُ وَأَفْتِنَ أَهْلِيكُمْ ،
ولا أُغْلِقُ بابي دونكم ، فإِأْكُلْ قَوْثِكُمْ ضَعِيفِكُمْ ، ولا أَحْمِلْ على أَهْلِ جَزِيَّتِكُمْ
ما أُجْلِبُهُمْ به عن بلادهم ، وأَقْطَعْ به نَسْلَهُمْ ، ولكم على إِذْرَارِ الْعَطَاءِ في كل سنة ،
والرِزْقِ في كل شهر ، حتى يَسْتَوِيَ بكم الحَالُ ، فيكونَ أَفْضَلُكُمْ كَأَدْنَاهُمْ ، فإن
أنا وفيت لكم ، فعليكم السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ، وحسن المُوازَرَةِ والمِكَانِفَةِ^(٢) ، وإن لم أفِ
لكم ، فلكم أن تَخْلَعُونِي إِلا أَن تَسْتَتِيبُونِي ، فإن أنا تبت قبلتم مني ، وإن عرفتم
أحدًا يقوم مقامِي ، ممن يُعْرَفُ بِالصَّلاحِ ، يُعْطِيكُمْ من نفسه مثل الذي أعطيتكم ،
فأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من بايعه ، ودخل في طاعته .

أيها الناس : إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وأقول قولي هذا ،
وأستعصر الله العظيم لي ولكم .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٤ - ٢٩١ ، البيان والتبيين ٢ : ٦٩ ،
المعري ص ١٢٠)

١٩٩ لا وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاه

لما ولى يزيد بن معاوية سلم بن زياد بن أبيه على خراسان قال له :

« إن أباك كفى أخاه (يعني معاوية) عظيماً ، وقد استكفيتك صغيراً ، فلا

تسكن على عذر مني لك ، فقد اتكلت على كفاية منك ، وإياك مني قبل أن

أقول إياي منك ، فإن الظن إذا أخلف منك أخلف مني فيك ، وأنت في أدنى

حظك فاطلب أقصاه ، وقد أتعبك أبوك ، فلا تريحن نفسك ، وكن لنفسك

تكن لك ، واذكر في يومك أحاديث غديك تسعد إن شاء الله تعالى .

(البيان والتبيين ٢ : ٧٦)

[١] جمر الجيش : حبسهم في أرض العدو ولم يقفلهم . [٢] المعاونة .

خطبة عتبة بن أبي سفيان ^(١) (توفي سنة ٤٤ هـ)

٢٠٠ - خطبة له في تهدد أهل مصر

بلغ عُتْبَةُ بن أبي سفيان عن أهل مصر شيئاً فأغضبه ، فقام فيهم ، فقال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه :

« يا أهل مصر ، إياكم أن تكونوا للسيف حَصِيداً ^(٢) ، فإنَّ الله فيكم ذبيحاً لعثمان ، أرجو أن يوليني نُسكَه ، إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفرقة ، فأعطى كل ذي حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بحُطَّة ، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه ، نعمة من الله فيكم ، ونعمة ^(٣) منه عليكم ، وقد بلغنا عنكم نَجْمٌ ^(٤) قولٍ ، أظهره تقدّم عفو منا ، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة وإماتة الشنن ، فأطأكم لله وطأة ، لا رمق ^(٥) معها ، حتى تُنكروا مني ما كنتم تعرفون ، وتستخشِنوا ما كنتم تستلينون ، وأنا أشهد عليكم الذي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ، ^(٦) وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » . (العقد الفريد ٢ : ١٥٨)

٢٠١ - خطبة له في تقريرهم وتهديدهم

وخطب أيضاً وقد بلغه عن أهل مصر أمور فقال :

[١] ولاء أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص (وقدمت عمرو في شوال سنة ٤٣) وأقام عتبة واليا على مصر سنة واحدة وشهرا واحدا ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٤ (هكذا في كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وفي أسد الغابة في معرفة الصحابة : «أه توفى سنة ٤٤ وقيل سنة ٤٣» ، ولكني قرأت في تاريخ الطبري أن عتبة حج بالناس سنة ٤٦ ، وقال أيضا في حوادث سنة ٤٧ «واختلفوا فيمن حج بالناس في هذه السنة ، فقال الوافدي : أمام الحج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان وقال غيره : بل الذي حج في هذه السنة عتبسة بن أبي سفيان» . [٢] أصله الزرع المحصود .

[٣] هكذا في الأصل وقد يكون «ومنة» . [٤] من نجم الشيء إذا ظهر وطلع .

[٥] الرمي : بقية الحياة . [٦] بمسارقتها النظر إلى المحرم .

« يا حاملي الأم أنوفٍ رُكبت بين أعين، إنما قلّمت أظفارِي عنكم، ليلينِ
مَسَى إياكم، وسألتكم صلاحكم لكم، إذ كان فسادكم راجعاً عليكم، فأما
إذا أَيْتَمَ إلا الطعن على الأراء، والعُتب على السلف والخلفاء، فوالله لأقطعن
بطون السّيّاط على ظهوركم، فإن حسّمت مُسْتَشْرِي^(١) دانكم، وإلا فالسيف
من ورائكم، فكم من عظة لنا قد صمّت عنها آذانكم، وزجرّة منا قد محّبتها
قلوبكم، ولست أبخل عليكم بالعقوبة، إذا جدتم علينا بالمعصية، ولا مؤثراً
لكم من المراجعة إلى الحسنی، إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى » .

(صبح الأعشى ١ : ٢١٦ ، والقصد الفريد ٢ : ١٥٩ ، والأمالى ١ : ٢٤٥)

٢٠٢ - خطبة له فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية

واحتبست كتب معاوية حتى أرجف أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه

بسلامته ، فصعد عتبة المنبر ، والكتاب في يده فقال :

« يا أهل مصر : قد طالت معابتنا إياكم بأطراف الرماح وظبّات السيوف ،

حتى صرنا شجى^(٢) في لهواتكم ، ما نسيغنا حلوقكم ، وأقذاء^(٣) في أعينكم ، ما تطرف

عليها جفونكم ، أخين أشدت عُرَى الحق عليكم عقداً ، واسترخت عُتد الباطل

منكم حلاً ، أرجفتهم بالخليفة ، وأردتم توهين^(٤) السلطان ، وخضتم الحق إلى

الباطل ، وأقدم عهدكم به حديث ؟ فازبحوا أنفسكم إذ خسرتم دينكم ، فهذا كتاب

أمير المؤمنين بالخبر السار عنه ، والعهد القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على

[١] استشري الداء : دظم وتناقم . [٢] هو ما اعترض في الخلق من عظم أو نحوه ، واللاهوات

جمع لهاة وهي الاحمة المشرفة على الخلق ، وأساغ : ابتاعه . [٣] جمع قذى وهو ما يقع في العين

والشراب ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرف بيمينه : حرك جفنيها .

[٤] إضعاف .

أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا ما ظهر ، نكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً ، وإن أسررتهم شرّاً ، فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون ، وعلى الله تتوكل وبه نستعين . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٣ - خطبته فيهم وقد منعوا الخراج

وخطبهم وكانوا قد منعوا الخراج فقال :

« يا أهل مصر ، قد كنتم تعتذرون لبعض المنع منكم ، ببعض الجور عليكم ، فقد وليتكم من يقول ويفعل ، ويفعل ويقول ، فإن رددتم ترادكم^(١) بيده ، وإن استصعبتم ترادكم بسيفه ، ثم رجا في الآخرة ما أمّل في الأولى ، إن البيعة متتابعة ، فلنا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأئنا غدر فلا ذمة له عند صاحبه ، والله ما انطلقت بها ألسنتنا حتى عتمدت عليها قلوبنا ، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم ناجزاً بناجز^(٢) ، ومن حذر كمن بشر » فنادوه سمعاً وطاعة ، فناداهم عدلاً عدلاً . (العقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٤ - خطبته فيهم إذ طعنوا على الولاية

وقدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر أن قبلك قوماً يطعنون على الولاية ويعيبون السلف ، فخطبهم فقال :

« يا أهل مصر : خفّ على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم تأتونّه ، كالجمار يحمل أسفاراً أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها ، وإيم الله لا أداوى أدواءكم بالسيف ما صلحتم على السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتني

[١] يقان : ترادّ البيع : من الرد والفسخ ، ومراده : ردكم . [٢] الناجز والنجيز : الحاضر ، ومن أمثالهم : ناجزاً بناجز ، أى حاضراً بمحاضر ، كقولك يدا بيد ، وطاجلاً بماجل ، وقالوا أبيعك الساعة ناجزاً بناجز : أى معجلاً .

الدِّرَّةُ ، ولا أبطئ عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى ، فالزموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا ، وإياكم وقال ويقول ، قبل أن يقال فعل ويفعل ، وكونوا خير قوس سهماً بهذا اليوم الذي ما قبله عقاب ، ولا بعده عتاب .
(العقد الفريد ٢ : ١٦٠ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٢٩ ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة ٣ : ٣٦١)

٢٠٥ — خطبته بمكة

وحج عتبة سنة إحدى وأربعين ، والناس قريب عهدهم بالفتنة ، فصلى بمكة الجمعة ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا المقام الذي يُضَاعَفُ فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسيء فيه الوزر ، ونحن على طريق ما قصدنا له ، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع من دوننا ، ورب ممتن حثفه في أميئته ، فاقبلونا ما قبلنا العافية فيكم ، وقبلناها منكم ، وإياكم ولوا ، فإن لو أقدمت من كان قبلكم ، وإن تريح من بعدكم ، وأنا أسأل الله أن يعين كلاً على كل » .

فصاح به أعرابي : أيها الخليفة ، فقال : است به ولم تبعد ، فقال : يا أخاه ، فقال : سمعتُ فقل ، فقال : « تالله لأن تحسنوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسننا ، فإن كان الإحسان لكم دوننا ، فما أحقكم باستتمامه ، وإن كان منا فإنا أولاكم بمكافأتنا ، رجل من بني عامر بن صعصعة يلقاكم بالعمومة ، ويقرب إليكم بالخشولة ، وقد كثر عياله ^(١) ، ووطئه زمانه ، وبه فقر ، وفيه أجر ، وعنده شكر » فقال عتبة : « أستغفر الله منكم ، وأستعينه عليكم ، قد أمرنا لك بغناك ، فليت إسرعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك » .

(الأمالي ١ : ٢٤٠ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٩ - ٨١ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

[١] العيال جمع عيل كجيد : وهو من يلزم الاتفاق عليه .

٢٠٦ - خطبته في علقته التي مات فيها

ولما اشتكى شكاته التي مات فيها تحامل إلى المنبر ، فقال :

« يا أهل مصر لا غنى عن الرب ، ولا مهزب من ذنب ، إنه قد تقدمت
منى إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزر
منها ، فليتني لا أكون اخترت دنياى على معادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا
أستغفر الله منكم ، وأتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ،
ورجوت ما كنت أخاف اغتيالاً به ، وقد شقي من هلك بين رحمة الله وعفوه ،
والسلام عليكم سلام من لا ترؤنه عائداً إليكم » ، فلم يعد .

(النقد الفريد ٢ : ١٥٩)

٢٠٧ - وصيته لمؤدب ولده

وقال لعبد الصمد مؤدب ولده :

« ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنى إصلاح نفسك ، فإن أعينهم
معمودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت ،
وعلمهم كتاب الله ، ولا تُكْرِهِم عليه فيمَلُوهُ ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم
روِّهم من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى
يُحْكَمُوهُ ، فإن ازدحام الكلام في السمع مَضَلَّةٌ للفهم ، وتهدِّذهم بى ، وأدبهم
دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يَمَجَّلُ بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنبهم محادثة
النساء ، وروِّهم سيرَ الحكماء ، واستزدنى بزيادتك إياهم أزدك ، وإياك أن تتكل
على عذرمنى لك ، فقد اتكلتُ على كفاية منك ، وزد فى تأديبهم أزدك فى برى
إن شاء الله تعالى » . (البياد والتبيين ٢ : ٣٥ ، والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١ : ١٣٩)

٢٠٨ - وصية سعيد بن العاص^(١) لبنيه

لما وُلِدَ لسعيد بن العاص ابنه عمرو وترعرع^(٢) ، تفرّس فيه النجابة ، وكان يفضلهُ على ولده ، فجمع بنيه ، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلاً ، ولم يدعُ عمرًا معهم ، وقال :

« يا بنيّ ، قد عرفتم خبيرة الوالد بولده ، وإن أخاكم عمرًا ، لذوهمّةٍ واعدّةٍ ،^(٣) يسمو جدّه ، ويبعد صيته^(٤) ، وتشدّد شكيمته^(٥) ، وإني أمركم إن نزل بي من الموت ما لا محيص عنه ، أن تُظَاهِرُوهُ وتُوازِرُوهُ وتُعزِّزُوهُ ، فإنكم إن فعلتم ذلك يتألف بكم الكرام ، ويخسأ^(٦) عنكم اللئام ، ويُلدِّسكم عِزًّا لا تُنْهَجُهُ^(٧) الأيام . فتالوا جميعاً : « إنك تُؤثِّره علينا ، وتحاييه دوننا » فقال : « سأريكم ما ستره البغي عنكم » ، وصرفهم ، ثم أمهلهم حتى ظن أن قد ذهَبوا عما كان ، وراهق^(٨) عمرو والبلوغ ، واستدعاهم دون عمرو ، فلما حضروا قال : « يا بني ، ألم ترَوا إلى أخيكُم عمرو ؟ فإنه لا يزال يُلجِفُ^(٩) في مسألتى مالي ، فأحشُ عَيْلَهُ^(١٠)

[١] هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد تقدم لك أن عثمان استعمله على الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وولاه معاوية المدينة ، وكان يوليه إذا عزل مروان بن الحكم عن المدينة ويولي مروان إذا عزله ، ومات سنة ٥٧ وقيل سنة ٥٨ وقيل سنة ٥٩ هـ .

[٢] شب وانتقل عن حد الصفر . [٣] من قولهم شجرة واعدة إذا ظهر لرائيها أن قدحان لإثمارها ، وأرض واعدة إذا رعى خيرها من البيت ، وظهر لرائيها أن قد قرب لإمكان المرعي بها ، وفرس واعد : يمدك جريا بعد جرى ، وسحاب واعد كأنه وعد بالمطر ، وبوم واعد يعد بالحر أو بالبرد أردله .

[٤] الصيت (بالكسر) والصات والصوت (بالفتح) : الذكر الحسن . [٥] الشكيمة : الأيفة وفي اللجام : الحديد الممرضة في فم الفرس ، وهو مثل بصرت للفرامة في الأمور والمضاء فيها .

[٦] أي يبعد ويترد . من خسأ الكلب كنع طرده ، وخسأ هو بنفسه : بعد .

[٧] أي لا تبليه . أنهج اثوب ونهجه (كنعته) : أخاقه وأبلاه ، ونهج الثوب مثلثة الهـ ، وأنهج : بلى . [٨] راهق الفلام : قارب الحلم (بضمين) . [٩] يلج .

[١٠] العيل والميلة : الانتقار والفاتة ، وأحش أي أقطع وأمحو من حش الحشيش (كرد) : قطعه ، وحش فلانا : أصلح من حاله ، (وفي الأصل فأحسن بالنون أي أجعل فقره حسنا وأزيل قبحه بعطائي إياه والأول أحسن) .

لصغره ، وَأَحْسَبُهُ ^(١) بالشئء دون الشئء من مالى ، إلى أن اسْتَمْتَبْتُ أَنَّ أُمَّه
بِأَعْيَتِهِ ^(٢) على ذلك ، فزجرتها فلم تكفف ، وهذا تَحْرَجُهُ الآن من عندى ، جاء
يسألنى الصَّمَامَةَ ^(٣) ، كَأَنَّ لَا وَلَدَ لى غَيْرُهُ ، وَقَدْ عَزَمْتُ على أن أقسم مالى
فيكم دونه، لتعلم أُمَّه من يكيد ، فقالوا كلهم : يا أبانا هذا عملك بإيثارك له علينا،
وَإِخْتِصَاصِكَ إِيَّاهِ دُونَنا ، فقال : « يا بنى ، وَالله ما آثرته دونكم بشئء من مالى
قَطُّ ، وَلَا كَانَ ما قَلْتَهُ لَكُمْ إِلَّا اِخْتِلاَقًا تَسَاهَلْتُ فِيهِ ، لما أَمَّانته من صلاح
أمركم » ، ثم قال لهم : ادخلوا المِخْدَع ^(٤) ، فدخلوا المخدع ، ثم أرسل إلى عمرو
فأحضره ، فلما حضر قال :

« يَا بُنَى : إني عليك حَدِبٌ ^(٥) مشفق ، لصغر سنك ، وَنَفَاسَةٌ ^(٦) إخوتك
على مكانك منى ، وإني لا آمَنُ بَعْتَةَ الأجل ، ولى كَنزاً ادَّخَرْتَهُ لك دون إخوتك ،
وهأنا مُطْلَعٌ عليه ، فاكتم أمره . »

فقال : « يَا أَبَت ، طال تُحْمَرُك ، وَعَلَا أَمْرُك ، إني لأرجو أن يُحْسِنَ اللهُ

[١] حسبه (بالشديد) وأحسبه : أطعمه وسقاه حتى شبع وروى .

[٢] ساء الشئء : أظلمه على طلبه (ولا مانع أن يكون الأصل « أن أمه بادنته على ذلك ») .

[٣] الصمصامة : سيف عمرو بن معديكرب الريدى وكان قد صار إلى سعيد بن العاص ، وذلك أن خالد
ابن الوليد لما عزا بهى زبيد حين ارتدوا ، وكان خالد بن سعيد بن العاص « عم سعيد المذكور » من جملة
أمرائه ، أوقع بهم وأمر رجحانة أخت عمرو بن معديكرب ، فقداها خالد وأثابه عمرو الصمصامة ، ولم يزل
ذلك السيف عند آل سعيد بن العاص حتى اشتراه منهم الخليفة المهدي العباسى بمخمسين ألف درهم ، ووهبه
المهدي لابنه الهادى فدعا به بعد ماولى الحلاوة فوضعه بين يديه وأذن للشراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا
فى السيف شعرا ، فبذهم ابن ياهن البصرى ، فأعطاه الهادى السيف والجائزة ، ففرقها على الشعراء ،
وقال : دخلتم معى ، وحرهتم من أحلى ، وفى السيف عوض ، ثم بعث لى الهادى ، فاشترى منه السيف
بمخمسين ألفا ، ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى خلافة باعزا الركي ، وقتله به ، ومن عند باعزا اتقطع خبره .

« اقرأ خبر الصمصامة فى سرح الميوس ص ٣١٢ ، والأغانى ١٤ : ٢٦ ، وأنباء نجباء الأبناء ص ١٠٣
ومروج الذهب ٢ : ٢٦٢ . [٤] المخدع بضم الميم وكسرهما : الحراثة - بيت صغير يحرز فيه الشئء -

[٥] متعطف شقيق . [٦] نفس عليه بخير (كفرح) حسد ، ونفس عليه الشئء نفاسة : لم يره
أهله .

عنك الدفاع ، ويُطيل بك الإمتاع . فأما ما ذكرته من شأن الكنز ، فما يُعجبني أن أقطع دون إخوتي أمرا ، وأزرع في صدورهم غمرا^(١) .

فقال : « انصرف يا بني ، فإدراك أبوك ، فوالله مالي من كنز ، ولكنني أردت أن أبلو رأيك في إخوتك وبنى أهلك » ، فانطلق عمرو ، وخرج إخوته من المخدع ، فاعتذروا إلى أبيهم ، وأعطوه مَوْتَقَهُم على اتباع مشورته . (أبناء نجباء الأبناء من ١٠٠)

خطب عمرو بن سعيد الأشدق^(٢)

(قتل سنة ٦٩ هـ)

٢٠٩ - خطبة له بالمدينة

قدم عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق المدينة أميراً ، فخرج إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقعده عليه وَغَمَّضَ عَيْنَيْهِ وَعَلِيهِ جُبَّةٌ خَزْرَ قَرْمِزٍ^(٣) ، وَمُطْرَفٌ^(٤) خَزْرَ قَرْمِزٍ ، وعمامة خزقرمز ، فجعل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه إعجاباً بها ، ففتح عينيه ، فإذا الناس ينظرون إليه ، فقال :

« ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إليَّ أبصاركم ، كأنكم تريدون أن تضربونا بسيوفكم ؟ أغرَّكم أنكم فعلتم ما فعلتم فعفونا عنكم ؟ أما إنه لو أُبْذِثُمْ^(٥) بالأولى

[١] العر محرركة والغر بكسر الفين : الحند والضم .

[٢] لقب بالأشدق لفصاحته ، والأشدق في الأصل : من عظمت أشداته (جمع شدق بالكسر ويهتج وهو جانب الفم) مشتق من الشدق (بفتح السين وهو سمة الشدق) وكانوا يتشادقون في الكلام ويمتدحون في الخطيب سمة الفم والشدقين ، وقالوا خطيب أشدق : أي بليغ ، وقال شاعرهم في عمرو بن سعيد هذا :
أشادق حتى مال بالقول شدقه وكلَّ خطيب لا أبالك أشدق

وقال آخرون : بل كان أفقم مائل الذقن « والفقم بالتحريك : تقدم الثنايا العليا فلا تقع على السفلى » . وقد ولى لماوية مكة ولائنه يزيد مكة والمدينة ، وكان له الفضل في نيل مروان بن الحكم الخلافة ، وقد قدمنا لك خبر مقتله .

[٣] القرمز : صبغ أحمر . [٤] المطرف : رداء من خزّ مربع ذو أعلام .

[٥] الثواب : الجزاء .

ما كانت الثانية ، أغرَّكم أنكم قتلتم عثمان ، فوافقتم ثأثرنا^(١) منا رفيقاً ، قد فني غضبه وبقى حمله ، اغتتموا أنفُسكم ، فقدوا الله ملكناكم بالشباب المقتبل ، البعيد الأمل ، الطويل الأجل ، حين فرغ من الصغر ، ودخل في الكبر ، حلیم حديد^(٢) ، لين شديد ، رقيق كشيء ، رقيق عفيف ، حين اشتد عظمه ، واعتدل جسمه ، ورمى الدهر ببصره ، واستقبله بأشره ، فهو إن عَضَّ نَهَس^(٣) ، وإن سطا فَرَس^(٤) ، لا يُقَلِّقُ له الحصى ، ولا تُقَرِّعُ له العصا^(٥) ، ولا يمشی السُمهي^(٦) « فما بقي بعد ذلك إلا ثلاث سنين وثمانية أشهر ، حتى قصَّمه الله .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١٠ - خطبة له بمكة

واستعمل سعيد بن العاص - وهو وال على المدينة - ابنه عمرو بن سعيد واليا على مكة ، فلما قدم لم يلقه قرشي ولا أموي إلا أن يكون الحرث بن نوفل ، فلما لقيه قال له : يا حَارِ ، ما الذي منع قومك أن يلقوني كما لقيتني ؟ قال : ما منعهم من ذلك إلا ما استقبلتني به ، والله ما كنتني ، ولا أتممت اسمي ، وإنما أنهاك عن التشذُّر^(٧) على أكفائك ، فإن ذلك لا يرفمك عليهم ، ولا يضعهم لك ، قال : والله ما أسأت الموعظة ، ولا أتهمك على النصيحة ، وإن الذي رأيت مني لآخاق^(٨) ، فلما دخل مكة قام على المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] الثأثر : الآخذ بالتأثر ، ووافقتم أي وجدتم .

[٢] رجل حديد يكون في اللسان والفهم والغضب ، وحداً عليه : غضب .

[٣] نهس اللحم : أخذه بمقدم أسنانه وتنه . [٤] فرس فربسته : دق عقها .

[٥] يشير إلى المثل المشهور « إن العصا قرعت لذي الحلم » وقد سبق شرحه في ص ١٧٤ .

[٦] السهمي والسهمي : الباطل والكذب ، يقل : ذهب في السهمي أي في الباطل ، وجري فلان

السهمي أي جرى إلى غير أمر يعرفه . [٧] تشذر : توعد وتهدد وتغضب وتسرع إلى الأمر

والمراد هنا التكبر . [٨] الخلق البالي ، والمراد أنه لا يعود إليه .

« أما بعد ، معشر أهل مكة ، فإننا سكننا غبطة ، وخرجنا عنها رغبة ،
ولذلك كنا إذا رفعت لنا اللهوة ^(١) بعد اللهوة أخذنا أسنانها ، ونزلنا أعلاها ،
ثم شرح ^(٢) أمر بين أمرين ، فقتلنا وقتلنا ، فوالله ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى
شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحمًا ، وقرع العظم عظمًا ، فوالى رسول الله صلى
الله عليه وسلم برسالة الله إياه ، واختياره له ، ثم ولى أبو بكر إيسابته وفضله ، ثم
ولى عمر ، ثم أجيبات قداح نزعنا من شعاب ^(٣) جولة سعة ، ففاز بحظيها ^(٤)
أصلبها وأعتقها ، فكنا بعض قداحها ، ثم شرح أمر بين أمرين فقتلنا وقتلنا ، فوالله
ما نزعنا ولا نزع عنا ، حتى شرب الدم دماً ، وأكل اللحم لحمًا ، وقرع العظم
عظمًا ، وعاد الحرام حلالًا ، وأسكت كل ذى حس عن ضرب مهند ، عز كًا
عز كًا ، وعسفًا عسفًا ، وخزًا ونهسًا ، حتى طابوا عن حقنا نفسًا ، والله ما أعطوه
عن هواده ، ولا رضوا فيه بالقضاء ، أصبحوا يقولون : حقتنا غلبنا عليه ، فجزينا
هذا بهذا ، وهذا فى هذا . يأهل مكة : أنفسكم أنفسكم ، وسفهاكم سفهاكم ،
فإن معنى سوطًا ^(٥) نكالًا ، وسيفًا وبالًا ، وكل منصوب على أهله ، ثم نزل .
(العقد الفريد ٢ : ١٥٧)

٢١١ - ملاحاة الوليد بن عقبة معه فى مجلس معاوية

تلاحي ^(٦) الوليد بن عقبة ، وعمرو بن سعيد بن العاص فى مجلس معاوية ،
فتكلم الوليد فقال له عمرو : كذبت أو كذبت ^(٧) ، فقال له الوليد : اسكت
يا طليق اللسان ، منزوع الحياء ، ويا ألام أهل بيته ، فلعمرى لقد بلغ بك البخل

[١] اللهوة بالصم والفتح : العطية أو أفضل العطايا وأجرها . [٢] من الشرح بالتحريك : وهو
انشقاق الفوس ، قوس شريح : فيها شق ، والمراد حدث ومجم . [٣] الشامب جمع شعبة بالضم : وهى
ما بين النصين وطرف العصب ، يشير إلى أصحاب الشورى الستة . [٤] الحطى : ذو الخطوة أى
المكائة . [٥] أى سوما ذا نكال . وسيفًا ذا وبال . [٦] تنازع . [٧] كذب الرجل أخبر بالكذب .

الغاية الشائنة المذلة لأهلها ، فسادت خلائقك لبخلك ، فننعت الحقوق ، ولزمت العقوق ، فأنت غير مشيدِ البنيان ، ولا زفيح المكان ، فقال له عمرو : والله إن قريشاً لتعلم أني غير حلو المذاقة ، ولا لذيد الملاكَةِ (١) ، وإني لكالشجأ (٢) في الحلق ، ولقد علمت أني ساكن الليل ، داهية النهار ، لا أتبع الأفياء ، ولا أتمى إلى غير أبي ، ولا يُجهل حسبي ، حامٍ لحقائق الدمار (٣) ، غير هَيُوب عند الوعيد ، ولا خائف رِعْدِيد (٤) ، فإلمَّ تَعَيَّرَ بالبخل وقد جُبلت عليه ، فلعمري لقد أورثتك الضرورة لوَمَا ، والبخل فُحْشاً ، فقطعت رَحِمَكَ ، وجُرَّت في قضيتك ، وأضعت حق من وليت أمره ، فلست تُرْجى للعظام ، ولا تعرف بالمكارم ، ولا تستعف عن المحارم ، لم تقدر على التوقير ، ولم يُحكَم منك التديير ، فأفْجِم الوليد ، فقال معاوية : — وساءه ذلك — كُفَّالاً أبا لك ، لا يرتفع بك القول إلى ما لا تريد ، ثم أنشأ عمرو يقول :

وليدُ إذا ما كنتُ في القوم جالساً فكن ساكناً منك الوقارُ على بال
ولا يبدرن الدهر من فيك منطِق بلا نظر قد كان منك وإغفال (٥)

(الأملال ٢ : ٤٠) :

٢١٢ — خطبته حين غلب على دمشق

ولما غلب على دِمَشق ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنه لم يقم أحد من قريش قبلي على هذا المنبر ، إلا زعم أن له جنة ونارا ، يُدخِل الجنة من أطاعه ، والنار من عصاه ، وإني أخبركم أن الجنة

[١] اللوك : أهون المضع أو مضع صلب . [٢] ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه .
[٣] ما تجب حمايته . [٤] جان . [٥] يبدر : يفرط ويسبق .

والذارييد الله ، وأنه ليس إلى من ذلك شيء ، غير أن لكم على حُسنِ المؤاساة
والعطية . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٧٦)

٢١٣ - خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان

روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أيام
عبد الملك فقال : لقد هَمَّمتُ اليوم يا أخى أن أفكِّك بالوليد بن عبد الملك ، فقال
له خالد : بئس والله ما هَمَّمتَ به في ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ،
فما ذاك ؟ قال : إن خيلي مرَّتْ به فعبثَ بها وأصغَرَني ، فقال له خالد : أنا
أكفِّيك ، فدخل على عبد الملك ، والوليدُ عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن
الوليد ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، مرت به خيلُ ابن عمه عبد الله
ابن يزيد فعبثَ بها وأصغره ، وكان عبد الملك مُطرقاً فرفع رأسه وقال :
« إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَمَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ
يَفْعَلُونَ » فقال خالد : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا
فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ، فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا » . فقال عبد الملك : أفى عبد الله
تكلمنى ؟ والله لقد دخل أمسِ علىّ فما أقام لسانه لِحْنًا ، فقال خالد : أفعلى الوليد
تعول يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن ، فإن أخاه سليمان ،
فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن ، فإن أخاه خالد ، فالتفت الوليد إلى خالد ،
وقال له : اسكت وَيْحَكَ يا خالد ! فوالله ما تُعدُّ في العير ولا في النفير ، فقال
خالد : اسمع يا أمير المؤمنين : ثم التفت إلى الوليد فقال له : ويحك : فمن صاحب
العير والنفير غير جدِّي أبي سفيان صاحب العير ، وجدى غتبة صاحب النفير^(١) ؟

ولكن لوقلت : غَنِيَّاتٌ وَحُبَيْلَاتٌ وَالطَّائِفُ ، وَرَحِمَ اللهُ عُمَانَ لَقَلْنَا صَدَقْتَ^(١) .

(فرح ابن أبي الحديد م : ١ : ص ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٣٠٢ : وجمع الأمثال ٢ : ١١٥)

٢١٤ — خالد بن عبد الله بن أسيد^(٢) وعبد الملك بن مروان

جلس يوماً عبد الملك بن مروان ، وعند رأسه خالد بن عبد الله بن أسيد ، وعند رجله أمية بن عبد الله بن أسيد ، وأدخلت عليه الأموال التي جاءت من قِبَلِ الحجاج ، حتى وُضِعَتْ بين يديه ، فقال :

« هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة ، لاما فعل هذا ، (وأشار إلى خالد)

استعملته على العراق ، فاستعمل كل مُلِطٍ^(٣) فاسق ، فأذوا إليه العشرة واحداً ،

وأدى إلى من العشرة واحداً ، واستعملت هذا على خُرَاسان (وأشار إلى أمية^(٤))

فأهدى إلى بَرْدَوَيْنِ حَطِيمَيْنِ^(٥) ، فإن استعملتكم ضَيَّعْتُمْ ، وإن عزاتكم قَلَّمْ

استخف بنا ، وقطع أرحامنا »

فقال خالد بن عبد الله : « استعملتني على العراق ، وأهله رجلان : سامع

مطيع مُنَاصِح ، وعدو مُبْغِضٍ مُكَاشِحٍ^(٦) ، فأما السامع المطيع المناصح فإنا

جَزَيْنَاهُ ، ليزداد وُدًا إلى وده ؛ وأما المبغض المكاشح ، فإنا داريناه ضِغْنَهُ ،

[١] وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طرد الحكم بن أبي العاص « جدَّ عبد الملك »

إلى الطائف — انظر ص ٦٧ — أظلم بها ، فكان يرعي غنيمات اغتدما يشرب من لبنها ، ويأري إلى حيلة « مصفر حبله كفرصة رمي الكرمة » وقوله رحم الله عثمان : أي لرده إياه ، وقد أبي أبوبكر وعمر أن يرداه .

[٢] هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد ولاه عبد الملك بن مروان بعد نزل مصعب بن الزبير على البصرة وأعمالها سنة ٧١ هـ ، وهزله عنها سنة ٧٤ وولاها أخاه بشر بن مروان ، وكان على ولاية الكوفة ، فصارت ولايتها وولاية الكوفة إليه .

[٣] لَطَّحَهُ وَأَلَطَهُ : جعده . [٤] هو أمية بن عبد الله أخو خالد هذا ، ولاه عبد الملك على

خراسان ، حتى كانت سنة ٧٨ فعزله ، وجمع سلطانه للحجاج ، فبعث المهلب بن أبي صفرة إليها .

[٥] فرس حطم ككثف : إذا هزل وأسن فضعب وتهدم .

[٦] الكاشح : الذي يصمر لك البداوة ، كشح له بالبداوة وكاشحه بمعنى .

وَسَلَّمْنَا حِقْدَهُ ، وَكَثَّرْنَا لَكَ الْمَوْدَةَ فِي صَدُورِ رَعِيَّتِكَ ، وَإِنْ هَذَا جَبَى الْأَمْوَالِ ،
وَزَرَعَ لَكَ الْبَغْضَاءَ فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ ، فَيُوشِكُ أَنْ تَنْبُتَ الْبَغْضَاءُ فَلَا أَمْوَالَ
وَلَا رِجَالَ .

فَلَمَّا خَرَجَ ابْنُ الْأَشْعَثِ . قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : « هَذَا وَاللَّهِ مَا قَالَ خَالِدٌ » .

(القصد الفريد ٢ : ١١٧)

٢١٥ - نصيحة لعمر و بن عتبة بن أبي سفيان

وَرَأَى عَمْرُو بْنُ عُتْبَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ رَجُلًا يَشْتُمُ رَجُلًا ، وَآخِرُ يَسْمَعُ مِنْهُ

فَقَالَ لِلْمَسْتَمِعِ :

« نَزَّهَ سَمْعُكَ عَنِ اسْتِمَاعِ الْخِنَا ، كَمَا تَنَزَّهُ لِسَانُكَ عَنِ الْكَلَامِ بِهِ ، فَإِنَّ السَّامِعَ

شَرِيكَ الْقَائِلِ ، وَإِنَّمَا نَظَرَ إِلَى شَرِّ مَا فِي وَعَائِهِ فَأَفْرَغَهُ فِي وَعَائِكَ ، وَلَوْ رُدَّتْ كَلِمَةٌ

جَاهِلٌ فِي فِيهِ ، لَسَعِدَ رَأْيُهَا ، كَمَا شَقِيَ قَائِلُهَا » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

٢١٦ - تأديب معاوية لجلسائه

أَذِنَ مَعَاوِيَةَُ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - وَقَدْ وَافَى مَعَاوِيَةَُ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ -

فَقَدَّمَهُ عَلَيْهِ ، فَوَجَدَهُ (١) مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْعَثِ ، وَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ فَجَلَسَ بَيْنَ

مَعَاوِيَةَ وَالْأَحْنَفِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :

« إِنَّا وَاللَّهِ مَا أَذِنَّا لَكَ قَبْلَكَ ، إِلَّا لِيَجْلِسَ إِلَيْنَا دُونَكَ ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا

يَرْفَعُ نَفْسَهُ فَوْقَ قَدْرِهِ ، إِلَّا مِنْ ذِلَّةٍ يَجِدُهَا ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِعْلًا مَنْ أَحْسَنَ مِنْ

نَفْسِهِ ذِلًّا وَضَعَةً ، وَإِنَّا كَمَا نَمْلِكُ أُمُورَكُمْ ، نَمْلِكُ تَأْدِيبَكُمْ ، فَأُرِيدُوا مِنَّا مَا نُرِيدُهُ

مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ أَبْقَى لَكُمْ ، وَإِلَّا قَصَرْنَا كُمْ كُرْهًا ، فَسَكَانَ أَشَدُّ عَلَيْكُمْ وَأَعْنَفُ بِكُمْ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٢١٧ - كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه

ولما سقطت ثنيتًا معاوية لَفَّ وجهه بعمامة ، ثم خرج إلى الناس ، فقال :
« لئن ابتليتُ لقد ابتليَ الصالحون قبلي ، وإنى لأرجو أن أكون منهم .
ولئن عُوقبتُ لقد عوقب الخاطئون قبلي ، وما آمن أن أكون منهم . ولئن سقط
عُضوان مني ، لما بقيَ أكثرُ . ولو أتى على نفسي لما كان لي عليه خيارٌ تبارك
وتعالى ، فَرَحِمَ اللهُ عبداً دعا بالعافية ، فوالله لئن كان عَتَبَ عليَّ بعضُ خاصَّتكم ،
لقد كنتُ حَدِيباً^(١) على عامَّتكم » . (البيان والنبين ٣ : ٢٢١)

٢١٨ - تقرير عبد الملك بن مروان لأحد عماله

وروى الجاحظ قال .

« قال أبو الحسن : كان عبد الملك بن مروان شديدَ اليَقَظَةِ ، كثيرَ التعاهد
لؤلاته ، فبلغه أن عاملاً من عماله قَبِلَ هَدِيَّةً ، فأمر بإشخاصه إليه ، فلما دخل
عليه قال له : « أَقْبِلتَ هَدِيَّةً منذ ولَّيتك ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، بلادك
عامرة ، وخرَاجك موفور ، ورَعِيَّتكَ على أفضل حال » قال : « أَجِبْ فيما سألتك
عنه ، أَقْبِلتَ هَدِيَّةً منذ ولَّيتك ؟ » قال : نعم . قال : « لئن كنتَ قَبِلتَ ولم
تعوِّضَ إنك لَلَّئيم ، ولئن أنلتَ مُهْدِيكَ لا من مالك ، أو استكفيتَه ما لم يكن
يُسْتَكْفَاهُ ، إنك لجائرٌ خائنٌ ، ولئن كان مذهبك أن تعوِّضَ المُهْدِيَّ إليك من
مالك ، وقبِلتَ ما اتهمك به عند من استكفأك ، وبَسَطَ لسانَ قَائِمِكَ ، وأطمع
فيك أهلَ عمالك ، إنك لجاهلٌ ، وما فيمن أتى أمراً لم يَخْلُ فيه من دناءة ، أو
خيانة ، أو جهل ، مُصْطَنَعٌ ، نَحْيَاهُ عن عمله » . (البيان والنبين ٣ : ٢٣٠)

طلب معاوية البيعة ليزيد

لما كانت سنة ثلاث وخمسين ، أظهر معاوية عهداً مُقْتَعِلاً ، فقرأه على الناس فيه عقد الولاية ليزيد بعده ، فلم يزل يَرُوضُ الناس لبيعته سبع سنين ، ويشاور ، ويُعطى الأقراب ، ويُداني الأبعاد ، حتى استوثق له من أكثر الناس . فقال لعبد الله بن الزبير : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، إني أناديك ولا أناجيك ^(١) ، إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكر قبل التندم » فضحك معاوية وقال : « ثعلبٌ رَوَّاعٌ ! تعامت السجاعة ^(٢) عند الكبر ، فى دون ما سَجَعْتَ به على ابن أخيك ما يكفيك » .

ثم التفت إلى الأحنف بن قيس ، فقال : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » . قال : « نخافكم إن صدقناكم ، ونخافُ الله إن كذبنا » .

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يفدوا عليه ، فوفد عليه من كل مصر قوم ^(٣) ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حزم ، فخلا به معاوية ، وقال له : « ماترى فى بيعة يزيد ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحبُّ إلى رشدًا من نفسك سوى نفسى ، وإن يزيد أصبح غنياً فى المال ، وَسَطًا فى الحسب ، وإن الله سائلٌ كلِّ راعٍ عن رعيته ، فاتق الله ، وانظر من تولى أمرَ أمة محمد » فأخذ

[١] ناجيته : ساررتة . [٢] وفى العقد « السجاعة » وهو تصحيف ، ولم أجد « سجاعة » فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها هو « سجع » كشمس مصدر سجع كقطع ، وأرى أنها سجاعة ككتابة ، وقد ورد فى كلام المبرد : « فإن المختار كان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمر تكون . . . الخ » [٣] هكذا ورد فى العقد الفريد ، وفى مروج الذهب : أن وفود تلك الوفود كان سنة تسع وخمسين ، والمفهوم مما ورد فى الامامة والسياسة أن وفودها كان قبل سنة ٥٠ ، وفى حياة الحسن بن على رضى الله عنه كما يتبين لك مما سيرد بعد (وقد تولى الحسن سنة ٤٩ ، أو سنة ٥٠ أو سنة ٥١) .

معاويةَ بهزماً^(١) حتى تنفس الصعداء^(٢) ، وذلك في يوم شاتٍ ، ثم قال : « يا محمد : إنك امرؤ ناصح ، قلت برأيك ، ولم يكن عليك إلا ذاك . قال معاوية : إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم ، فابني أحبُّ إليَّ من أبناؤهم ، اخرج عني . »
 ثم دعا الضحاک بن قيس الفهريّ ، فقال له : « إذا جلست على المنبر ، وفرغت من بعض موعظتي وكلامي ، فاستأذني للقيام ، فإذا أذنت لك فاحمد الله تعالى . واذكر يزيد . وقل فيه الذي يَحِقُّ له من حسن الثناء عليه . ثم ادعني إلى توليته من بعدى . فإنني قد رأيت وأجمعتُ على توليته . فأسألُ الله في ذلك وفي غيره الحيرة^(٣) وحسن القضاء . ثم دعا عبد الرحمن بن عثمان الثَّقَفِيّ ، وعبد الله بن مسعدة الفزاريّ ، وثور بن معن السَّامِيّ ، وعبد الله بن عصام الأشعريّ ، فأمرهم أن يقوموا إذا فرغ الضحاک ، وأن يصدقوا قوله ، ويدعوه إلى يزيد .
 وجلس معاوية في أصحابه ، وأذن للوفود فدخلوا عليه ، فخطبهم ، فلما فرغ من بعض موعظته - وهؤلاء النَّفَرُ في المجلس قد قعدوا للكلام - قام الضحاک بن قيس فاستأذن فأذن له .

٢١٩ - خطبة الضحاک بن قيس الفهري

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به ، إنا قد بلونا^(٤) الجماعة والألفة ، فوجدناها أحقنَ للدماء ، وآمنَ للسُّبُل ، وخيراً في العاقبة والآجلة ، ولا خير لنا أن نُترك سُدِّي ، والأيام عُوَّج^(٥) رواجع ، والأَنْفُسُ يُغْدَى عليها وَيُرَاحُ ،

[١] البهر بالفتح : العجب . [٢] تنفس طويل . [٣] أى أسأله أن يختار لنا الأفضل ، خارته على غيره خيرة بكسر الحاء مع سكون الياء وفتحها : فضله وخار الله له في الأمر : جعل له فيه الخير .
 [٤] خبرنا . [٥] بمعنى رواجع جمع طائفة اسم فاعل من عاج إذا رجع أى أن الأيام تموج على الإنسان فنسلبه ما أعطى من الحياة وتمتع العيش .

والله يقول : « كَلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » . ولسنا ندرى ما يختلف به العَصْرَان (١) ، وأنت يا أمير المؤمنين ميت ، كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه ، نسأل الله تعالى بك المتاع ، وقد رأينا من دَعَا يزيد ابن أمير المؤمنين ، وحُسن مذهبه ، وقصد (٢) سيرته ، ويُمن تَقِيْبَتَه (٣) ، مع ما قسم الله له من المحبة في المسلمين ، والشبّه بأمر المؤمنين ، في عقله وسياسته وشيمته المرَضِيَّة ، مادعانا إلى الرضا به في أمورنا ، والقنوع به في الولاية علينا ، فلدَيُوْلَه أمير المؤمنين - أكرمهم الله - عهدَه ، وليجعله لنا ملجأ ومَفْرَجًا بعده ، نَأْوِي إليه إن كَانَ كَوْن (٤) ، فإنه ليس أحد أحقُّ بها منه ، فاعزم على ذلك ، عزم الله لك في رشدك ، ووقفك في أمورنا .

٢٢٠ - خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمانٍ مختلفةٍ أهواؤُه ، قد اَحْدَوْدَبَت علينا سِيَسَاؤُه (٥) ، واقْطَوَطَبَت (٦) علينا أَدْوَؤُه ، وأناخت علينا أنباؤُه ، ونحن نُشِير عليك بالرَّشَاد ، وندعوك إلى السَّدَاد ، وأنت يا أمير المؤمنين

[١] العصر : اليوم والليلة والعشى إلى احمرار الشمس والغداة . [٢] القصد : استقامة الطريق .

[٣] القيه : النفس ، وهي أيضا العقل ، والمشورة ، وفضا الرأي ، والطبيعة .

[٤] أي إن حدث حدث . [٥] السيساء : منتظم فقار الطاهر ، وحمله على سيساء الحق أي على

حده ، والعرب تضربه مثلا لشدة الأمر ، قال الشاعر :

لقد حملت قيس بن عيلان حربنا على يابس السيساء بدود الطاهر

يقول : حملناهم على مركب صعب كسياء الحمار ، أي حملناهم على مالا يثبت على مثله .

[٦] اقطوطب : انوعل من قطب ، وقطب القوم : اجتمعوا ، وقطب بين عينيه : جمع ، والمراد :

اجتمعت وتراكت علينا أدواؤه ، ولم أجد كلمة « اقطوطب » في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها « اقطوطي » أي قارب في مشيه إسراطا .

أَحَدُنَا نَظْرًا ، وَأَبْدُنَا ^(١) بَصْرًا ، وَيَزِيدُ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَرَفْنَا سِيرَتَهُ ، وَبَلَوْنَا
عَلَانِيَتَهُ ، وَرَضِينَا وَلايَتَهُ ، وَزَادَنَا بِذَلِكَ انْبِسَاطًا ، وَبِهِ اغْتِبَاطًا ^(٢) ، مَعَ مَا مَنَعَهُ
اللَّهُ مِنَ الشَّيْبَةِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَحَبَّةِ فِي الْمَسَامِينِ ، فَاعْزِمِ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا تَضِقْ
بِهِ ذَرْعًا ^(٣) ، فَاللَّهُ تَعَالَى يُقِيمُ بِهِ الْأَوْدَ ^(٤) ، وَيُرَدِّعُ بِهِ الْأَلْدَ ^(٥) ، وَيُؤْمِنُ بِهِ
السُّبُلُ ، وَيَجْمَعُ بِهِ الشَّمْلُ ، وَيُعْظِمُ بِهِ الْأَجْرُ ، وَيُحْسِنُ بِهِ الذُّخْرَ . « ثم جلس .

٢٢١ — خطبة ثور بن معن السلمي

فَقَامَ ثُورُ بْنُ مَعْنِ السَّامِيِّ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ أَدْنَا أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ ، صَاحِبُهُ مُشَاغِبٌ ^(٦) ،
وَظِلُّهُ ذَاهِبٌ ^(٧) ، مَكْتُوبٌ عَلَيْنَا فِيهِ الشَّقَاءُ وَالسَّعَادَةُ ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
مَيِّتٌ ، نَسَأَلُ اللَّهَ بِكَ الْمَتَاعَ ، وَيَزِيدُ ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَقْدَمُنَا شَرَفًا ، وَأَبْدُنَا
عُرْفًا ^(٨) ، وَقَدْ دَعَانَا إِلَى الرِّضَا بِهِ ، وَالْقَنُوعِ بِوَلَايَتِهِ ، وَالْحِرْصِ عَلَيْهِ ، وَالِاخْتِيَارِ لَهُ ،
مَا قَدْ عَرَفْنَا مِنْ صِدْقِ لِسَانِهِ وَوَفَائِهِ ، وَحُسْنِ بِلَائِهِ ، فَاجْعَلْهُ لَنَا بَعْدَكَ خَلْفًا ،
فَإِنَّهُ أَوْسَمُنَا كَنَفًا ^(٩) ، وَأَقْدَمُنَا سَلَفًا ، وَهُوَ رَثِقٌ لِمَا فَتِقَ ، وَزِمَامٌ لِمَا
شَمِتَ ^(١٠) ، وَنَكَالٌ لِمَنْ فَارَقَ وَنَافِقٌ ، وَسَلِيمٌ لِمَنْ وَاطَبَ . وَحَافِظٌ لِلْحَقِّ .
أَسْأَلُ اللَّهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلَ الْبَقَاءِ وَالسَّعَادَةِ ، وَالْخَيْرَةِ فِيمَا أَرَادَ ، وَالتَّوَطُّنَ
فِي الْبِلَادِ ، وَصَلَاحَ أَمْرِ جَمِيعِ الْعِبَادِ . « ثم جلس .

[١] لعله « وأنتنا » . [٢] سبط فلانا فانبسط : سره والاعتباط : المرة .

[٣] ضاق بالأمر ذرعا : ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصا . [٤] الاعوجاج .

[٥] الألد : الحصم الشحيح الذي لا يريغ إلى الحق .

[٦] صاحبه يعنى به معاوية ، أى يشاغبه المشاغبون ، اسم مفعول من الشغب : وهو تهيج الشر .

[٧] كناية عن دنو أجله . [٨] المعروف . [٩] الكنف : الظل والجانب .

[١٠] شمت الأمر ، كفرح شعنا : انتشر وتفرق .

٢٢٢ - خطبة عبد الله بن عصام الأشعري

فقام عبد الله بن عصام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إنا قد أصبحنا في دُنْيَا مُنْقَضِيَةٍ ،
وأهواءٍ منجذمة ^(١) ، نخاف حدّها ، وننتظر جدّها ، شديدٍ مُنْحَدَرُهَا ، كثيرٍ
وعزّها ، شائخةٍ مَرَّاقِبُهَا ^(٢) ، ثابتةٍ مراتبها ، صعبةٍ مراكبها ، فالموتُ يا أمير
المؤمنين وراءك ووراء العباد ، لا يخلد في الدنيا أحد ، ولا يَبْقَى لنا أمد ^(٣) ،
وأنت يا أمير المؤمنين مسئول عن رعيتك ، وماخوذ بولايتك ، وأنت أنظر
الجماعة ، وأعلى عيناً بحسُنِ الرأى لأهل الطاعة ، وقد هُدِيتَ ليزيدَ في أكمل
الأمور ، وأفضلها رأياً ، وأجمعها رِضاً ، فاقطع بيزيدِ قالة ^(٤) الكلام ، ونخوة ^(٥)
المبطل ، وشعثَ المنافق ، واكبت ^(٦) به الباذخ ^(٧) المعادي ، فإن ذلك ألمٌ
للشعث ، وأسهل للوعث ^(٨) ، فاعزم على ذلك ، ولا تترامى بك الظنون .

٢٢٣ - خطبة عبد الله بن مسعدة الفزاري

ثم قام عبد الله بن مسعدة الفزاري ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إن الله قد آثرك بخلافته ، واختصك
بكرامته ، وجعلك عِصْمَةً لأوليائه ، وذا نكايَةٍ لأعدائه ، فأصبحت بأَنُعمِهِ
جَدِلاً ، ولِمَا حَمَلَكَ مُحْتَمِلاً ، يكشف الله تعالى بك العمى ^(٩) ، وَيَهْدِي بك

[١] جذمه فانجذم : قطعه . [٢] المراقب : جمع مرقب (كجمعفر) المكان المشرف ، يقف
عليه الرقيب . [٣] الأمد : الغاية والمنتهى .
[٤] قالة : جمع قائل ، أو مصدر قال كالقول ، والقال ، والقيل . [٥] الكبر والعظمة .
[٦] كبتة : صرعه وأخزاه ، ورد العدو بغيظه ، وأذله . [٧] بذخ كفرح ونصر : تكبر وعلا ،
وشرف باذخ : حال . [٨] وعث الطريق من بابي تمب وقرب إداشق على السالك ، فهو وعث
(بسكون العين وكسرهما) . [٩] العمى هنا : ذهاب بصر القلب .

العِدَا ، ويزيدُ ابنُ أمير المؤمنين أحسنُ الناس برعيتك رأفةً ، وأحقُّهم بالخلافة بعدك ، قد ساسَ الأمورَ ، وأحكمته الدهورُ ، ليس بالصغير الفهية^(١) ، ولا بالكبير السفية ، قد احتجن^(٢) المكارم ، وارتجى لجل العظام ، وأشد الناس في العدو نكايَةً ، وأحسنهم صنماً في الولاية ، وأنت أغنى بأمرك ، وأحفظ لوصيتك ، وأحرزُ لنفسك ، أسأل الله لأمير المؤمنين العافية في غير جهدي^(٣) ، والنعمة في غير تغييرٍ .

٢٢٤ — خطبة عمرو بن سعيد الأشدق

فقال معاوية لعمر بن سعيد الأشدق : قم يا أبا أمية ، فقام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن يزيد بن معاوية أملٌ تأملونه ، وأجلٌ تأمنونه ، طويل الباع ، رَحْب الذراع ، إن استضفتُم إلى حامه وسِعِم ، وإن أحتجتم إلى رأيه أرشدكم ، وإن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم ، جَدَعٌ^(٤) قَارِحٌ^(٥) ، سُوْبَقٌ فُسْبَقٌ ، وَمُوجِدٌ فَمَجْدٌ ، وَقُورِعٌ ففاز سهمه ، فهو خَلَفٌ أمير المؤمنين ، ولا خَلَفَ منه . فقال له معاوية : اجلس أبا أمية . فلقد أوسعت وأحسنتم . »

قال معاوية : « أو كلُّكم قد أجمع على هذا رأيه ؟ » فقالوا : « كلُّنا قد

[١] الفهية والفة : البهي ، فبه كفرح هامة . [٢] احتجن المال : ضمه واحتواء .

[٣] المشقة . [٤] الجذع : الشاب الحدث .

[٥] أي شديد مجرب ، وهو في الأصل وصف للفرس ، قرح الفرس قروحا : إذا ألقى أقصى أسنانه (وله أربع أسنان يتحول من بعضها إلى بعض ، يكون جذبا — وذلك إذا كان في السنة الثانية — ثم ثنيا « بفتح فكسر مع تشديد الياء » — في السنة الثالثة — ثم رباعياً « بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء » — إذا سقطت رباعيته ، ونبت مكانها سن وذلك إذا استتم الرابعة — ثم قارحا — إذا سقطت السن التي تلي رباعيته ونبت مكانها ثاب ، وهو قارحه الذي صار به قارحا ، وليس بعد القروح سقوط سن ، ولا نبت سن ، وذلك إذا استتم الخامسة ودخل في السادسة) .

أجمع رأيه على ما ذكرنا « قال : « فأين الأحنف ؟ » فأجابه ، قال : « ألا تتكلم ؟ »
فقام الأحنف .

٢٢٥ — خطبة الأحنف بن قيس

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا في مُنْكَرِ زمانٍ قد
سَلَفَ ، ومعروفِ زمانٍ مُؤْتَنَفٍ ^(١) ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نِعَمَ الخَلَفِ ،
فإن تُوَلَّه عهدك ، فمن غير كِبَرٍ مُفْنٍ ، أو مَرَضٍ مُضِنٍ ، وقد حَلَبَتِ الدهور ^(٢) ،
وجرَّبتِ الأمورَ ، فأعرف من تُسَنِّدُ إليه عهدك ، ومن توليه الأمر من بعدك ،
واعصِ رأى من يأمرك ، ولا يقدر لك ، ويشير عليك ولا ينظر لك ، وأنت
أنظر للجماعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون
بهذا ، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن ^(٣) حيا .

٢٢٦ — خطبة الضحاك بن قيس

فغضب الضحاك بن قيس ، فقام الثانية ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النِّفاق ، من أهل العراق ، مُرُوءَتُهُمْ في
أنفسهم الشقاقُ ، وألْفَتُهُمْ في دينهم النِّفاقُ ، يَرَوْنَ الحق على أهوائهم ^(٤) ،
كأنما ينظرون بأقفأهم . اختالوا جهلا وبطراً . لا يرقبون من الله راقبةً ، ولا
يخافون وبأل عاقبةً ، اتخذوا إبليسَ لهم رَبًّا ، واتخذهم إبليسَ حِزْبًا ، فمن يُقاربوه

[١] مستأف . [٢] هكذا في مروج الذهب ، وفي الامامة والسياسة : « وقد حلبت الدهر أشطره »
وأصله من حلب شطرى الناقة (بفتح الشين) ولها شطران : قادمان وآخران (بكسر الحاء) والشطركل خلفين
من أخلافها ، والخلف (بكسر الحاء) لها كالضرع للبقرة ، وهو مثل يضرب للمجرب ، وأشطره بدل من
الدهر منصوب . [٣] هذا وما ورد في كلام الضحاك والأحنف بعد ، يدل على أن تلك الخطب كانت
في حياة الحسن بن علي كما أشرنا إليه قبل . [٤] أى على أغراضهم وميولهم .

لا يَسْرُوهُ . ومن يفارقوه لا يَضْرُوهُ . فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين في نحورهم ،
وكلامهم في صدورهم ، ما للحسن وذوى الحسن في سلطان الله الذى استخلفَ
به معاوية في أرضه ؟ هيهات لا تُورث الخِلافةُ عن كِلالة . ولا يحجُب غيرُ
الذِّكْرِ العَصَبَةَ . فوطنوا أنفسكم يا أهلَ العراق على المناصحة لإمامكم ، وكاتبِ
نبيكم ^(١) وَصِهْرِهِ ^(٢) ، يَسْلَمْ لَكُمْ العاجلُ ، وترَبِّحُوا من الآجلِ . » .

٢٢٧ — خطبة الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أمير المؤمنين : إنا قد فررنا ^(٣) عنك قريشاً ، فوجدناك أكرمها زناداً ،
وأشدها عقداً ، وأوفاهها عهداً ، وقد عامت أنك لم تفتح العراق عنوة ^(٤) ، ولم
تظهر عليها قمعاً ^(٥) ، ولكنك أعطيت الحسن بن عليٍّ من عهد الله ما قد
عامت ، ليكون له الأمر من بعدك ، فإن تَفِ فأنت أهلُ الوفاء ، وإن تغدر ^(٦)
تعلم والله أن وراء الحسن خيولاً جيداً ، وأذرعاً شداداً ، وسيوفاً حداداً ، إن
تدنُّ له شبراً من غدْر ، تجدُّ وراءه باعاً من نصر ، وإنك تعلم أن أهل العراق
ما أحبوك منذ أبغضوك ، ولا أبغضوا علياً وحسنًا منذ أحبواهما ، وما نزل عليهم
في ذلك خبر من السماء ، وإن السيوف التي شهروها عليك مع عليٍّ يوم صفين ،
لعلَّ عواتقهم ، والقلوب التي أبغضوك بها ، لبينَ جوانحهم ، وإيم الله إن الحسن
لأحبُّ إلى أهل العراق من عليٍّ . » .

[١] وكان معارية من كتاب الوحي . [٢] وكانت أخته أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي عليه

الصلاة والسلام .

[٣] فر الدابة : كشف عن أسنانها لينظر ما سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه .

[٤] فتح البلد عنوة أى قهراً . [٥] مات قمعاً : أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه .

[٦] غدرة وغدر به كعصر وضرب وسمع .

٢٢٨ - خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
«أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس مختلفين ، وكثير منهم منحرف ،
لا يدعون أحداً إلى رشاد ، ولا يُجيبون داعياً إلى سداد ، مجانبون لرأى الخلفاء ،
مخالفون لهم في السنة والقضاء ، وقد وقفت أيزيد في أحسن القضية ، وأرضاها
لِحَمَلِ الرعية ، فإذا خار الله لك فاعزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا
حِماً وعاماً ، وأوسعنا كنفاً ، وخيرنا سلفاً ، قد أحكمته التجارب ، وقصدت به
سُبل المذاهب ، فلا يصرفنك عن بيعته صارف ، ولا يقفن بك دونها واقف ،
ممن هو شاسع^(١) عاصي ، ينوص^(٢) للفتنة كل مناصي ، اسائه ملتوي ، وفي
صدره داء دوي ، إن قال فشره قائل ، وإن سكت فداؤه غائل^(٣) ، قد عرفنا من
هم أولئك ، وما هم عليه لك ، من المجانبة للتوفيق ، والتكاف للتفريق ، فاجل بييعته
عنا النعمة ، واجمع به شمل الأمة ، ولا تجد عنه إذ هديت له ، ولا تنبش عنه إذ
وُفقت له ، فإن ذلك الرأي لنا ولك ، والحق علينا وعليك . أسأل الله العون
وحسن العاقبة لنا ولك بمنه .»

٢٢٩ - خطبة معاوية

فقام معاوية ، فقال :

«أيها الناس : إن لإبليس من الناس إخواناً وخُلَافاً ، بهم يستعدُّ ، وإياهم
يستعين ، وعلى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعاً أوجفوا^(٤) وإن استغنى عنهم

[١] من شسع المنزل كنع : بد . [٢] ناص مناصا : تحرك . [٣] من غاله أي أهلكه .

[٤] أسرعوا ، وجف البير والفرس وجيفا : عدا ، وأوجفته : إذا أعدته ، قال تعالى :

«فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ» أي ما أعلمتم .

أرْجَفُوا^(١) ، ثُمَّ يُلْقِحُونَ^(٢) الْفِتْنَ بِالْفُجُورِ ، وَيَشَقُّونَ لَهَا حَطَبَ النِّفَاقِ ، عِيَابُونَ مَرْتَابُونَ ، إِنْ لَوَّوا عُرْوَةَ أَمْرٍ حَنَفُوا ، وَإِنْ دُعُوا إِلَى غِيٍّ أَسْرَفُوا ، وَلَيْسُوا أَوْلِيَّكَ بِمُنْتَهَيْنَ وَلَا بِمُقْلَعِينَ وَلَا مَتَّعِظِينَ ، حَتَّى تُصِيبَهُمْ صَوَاعِقُ^(٣) خَزْيٍ وَبَيْلٍ ، وَتَحُلُّ بِهِمْ قَوَارِعُ^(٤) أَمْرِ جَلِيلٍ ، تَجْتَثُّ^(٥) أَصُولَهُمْ كَأَجْتِنَاثِ أَصُولِ الْفُقَّعِ ، فَأَوْلَى لِأَوْلِيكَ ثُمَّ أَوْلَى ، فَإِنَا قَدْ قَدَّمْنَا وَأَنْذَرْنَا ، إِنْ أَغْنَى التَّقَدُّمُ شَيْئًا أَوْ نَفَعَ النُّذُرُ^(٦) .

٢٣٠ - خطبة يزيد بن المقنن

ثم قام يزيد بن المقنن ، فقال :

« أمير المؤمنين هذا - وأشار إلى معاوية - ، فإن هلك فهذا - وأشار إلى يزيد - ، فمن أبى فهذا - وأشار إلى سيفه » ، فقال معاوية : اجلس فإنك سيد الخطباء .

٢٣١ - خطبة الأحنف

ثم تكلم الأحنف بن قيس ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : أنت أعلما يزيد في إلهه ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فإن كنت تعامه لله رضا ولهذه الأمة ، فلاتشاور الناس فيه ،

[١] أرجف القوم : خاضوا في أخبار الفتن ونحوها ، قال تعالى : « وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » .

[٢] في الأصل « يلحقون » وهو تحريف ، وصوابه : « يلحقون » من ألقح الناقة والنحلة .

[٣] جمع صاعقة ، وهي الموت وكل عذاب مهلك . وأرض وبيلة : وخيمة المرتع . [٤] جمع قارعة ،

وهي الداهية الفاجئة . قال تعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » .

[٥] تقتلع ، والفقع بالفتح ويكسر : البيضاء الرخوة من الكدأة .

[٦] النذر الانذار . قال تعالى : « فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي » أي إنذارى ، وفي الإمامة

والسياسة عقب هذه الخطبة : « فدعا معاوية الضحاك فولاه الكوفة ، ودعا عبد الرحمن فولاه الجزيرة » .

وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ ، فَلَا تَزُوذُهُ الدُّنْيَا وَأَنْتِ صَائِرٌ إِلَى الْآخِرَةِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْآخِرَةِ إِلَّا مَا طَابَ ، وَاعْلَمْ أَنَّه لَا حِجَّةَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ قَدَّمْتَ يَزِيدَ عَلَى الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ، وَأَنْتِ تَعْلَمُ مَنْ هُمَا ، وَإِلَى مَا هُمَا ، وَإِنَّمَا عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ : « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قال صاحب العقد : فتنفرق الناس ، ولم يذكروا إلا كلام الأحنف ، ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية ، فقال رجل وقد دُعِيَ إِلَى الْبَيْعَةِ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَعَاوِيَةَ » . فقال له معاوية : « تَعُوذُ مِنْ شَرِّ نَفْسِكَ ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْكَ وَبَايِعْ » فقال : « إِنِّي أَبَايِعُ وَأَنَا كَارِهٌ لِلْبَيْعَةِ » ، فقال له معاوية : بايع أيها الرجل فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : « فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُهُوَ شَيْئًا وَيَجْمَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .
أما ابن قتيبة فيقول :

قالوا : فاستخار الله معاوية ، وأعرض عن ذكر البيعة ، حتى قدم المدينة سنة خمسين ، فتلقاه الناس ، فلما استقرَّ في منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء النفر ، فلما جلسوا تكلم معاوية فقال :

٢٣٢ — خطبة معاوية

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِحَمْدِهِ ، وَوَعَدَنَا عَلَيْهِ ثَوَابَهُ ، نَحْمَدُهُ كَثِيرًا ، كَمَا أَنْعَمَ عَلَيْنَا كَثِيرًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَمَا بَعْدُ : فَإِنِّي قَدْ كَبِرَ سِنِّي ، وَوَهَنَ عَظْمِي ، وَقَرُبَ أَجْلِي ، وَأَوْشَكَتُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُسْتَخْلَفَ عَلَيْكُمْ بَعْدِي يَزِيدُ ، وَرَأَيْتَهُ لَكُمْ

رِضًا ، وَأَنْتُمْ عِبَادَةٌ قَرِيشٌ وَخِيَارُهَا وَأَبْنَاءُ خِيَارِهَا ، وَلَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أُحْضِرَ حَسَنًا وَحُسَيْنًا إِلَّا أَنْهُمَا أَوْلَادُ أَبِيهِمَا ، عَلَى حُسْنِ رَأْيِي فِيهِمَا ، وَشَدِيدِ مَحَبَّتِي لَهُمَا ، فَرُدُّوا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ خَيْرًا ، يَرْحَمُكَ اللَّهُ .

٢٣٣ — خطبة عبد الله بن عباس

فتكلم عبد الله بن عباس فقال :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَلْهَمَنَا أَنْ نَحْمَدَهُ ، وَاسْتَوْجِبَ عَلَيْنَا الشُّكْرَ عَلَى آيَاتِهِ ، وَحُسْنِ بَلَاءِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ . أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ فَأَنْصِتْنَا . وَقُلْتَ فَسَمِعْنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، اخْتَارَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرِسَالَتِهِ ، وَاخْتَارَهُ لَوْحِيهِ ، وَشَرَّفَهُ عَلَى خَلْقِهِ ، فَأَشْرَفُ النَّاسِ مَنْ تَشَرَّفَ بِهِ ، وَأَوْلَاهُمْ بِالْأَمْرِ أَخْصَهُمْ بِهِ ، وَإِنَّمَا عَلَى الْأُمَّةِ التَّسْلِيمُ لِنَبِيِّهَا إِذْ اخْتَارَهُ اللَّهُ لَهَا ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا اخْتَارَ مُحَمَّدًا بَعَامَهُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِكُمْ . »

٢٣٤ — خطبة عبد الله بن جعفر

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ أَهْلَ الْحَمْدِ وَمُنْتَهَاهَا ، نَحْمَدُهُ عَلَى إِلهَامِنَا حَمْدَهُ ، وَنَرْغَبُ إِلَيْهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاحِدًا صَمَدًا ^(١) ، لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّ هَذِهِ الْخِلَافَةَ إِنْ أُخِذَ فِيهَا بِالْقُرْآنِ : فَ« أَوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » ، وَإِنْ أُخِذَ فِيهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ، فَأَوْلُو رَسُولِ اللَّهِ ، وَإِنْ أُخِذَ بِسُنَّةِ الشَّيْخَيْنِ أَبِي بَكْرٍ

[١] الصمد : السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج أى يقصد ، صمده من باب نصر : قصده .

وعمر، فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول؟ وإيم الله لو ولوه بعد نبيهم، لوضعوا الأمر موضعه، لحقه صدقه، ولأطيع الله، وعصى الشيطان، وما اختلف في الأمة سيفان، فاتق الله يا معاوية، فإنك قد صرت راعياً ونحناً رعية، فانظر لرعتك، فإنك مَسْتُول عنها غداً، وأما ما ذكرت من ابني عمي، وتركك أن تُحْضِرهما، فوالله ما أصبت الحق، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما، وإنك لتعلم أنهما معدن العلم والكرم، فقل أودع، وأستغفر الله لي ولكم».

٢٣٥ — خطبة عبد الله بن الزبير

فتكلم عبد الله بن الزبير فقال :

« الحمد لله الذي عرفنا دينه، وأكرمنا برسوله، أحمدته على ما أبلى وأولى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة، تتناولها بآثرها السنيّة، وأفعالها المرصيّة، مع شرف الآباء، وكرم الأبناء، فاتق الله يا معاوية، وأنصف من نفسك، فإن هذا عبد الله ابن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليّ خلف حسناً وحسيناً، وأنت تعلم من هما، وما هما، فاتق الله يا معاوية، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

٢٣٦ — خطبة عبد الله بن عمر (المتوفى سنة ٧٤ هـ)

فتكلم عبد الله بن عمر فقال :

« الحمد لله الذي أكرمنا بدينه، وشرّفنا بنبيه صلى الله عليه وسلم، أما بعد : فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية، ولا قيصرية، ولا كسروية، يتوارثها الأبناء

عن الآباء ، ولو كان كذلك كنتُ القائمَ بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى ، إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً ، وإنما هي في قريش خاصةً ، لِمَن كَانَ لها أهلاً ، ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم ، مَن كَانَ أتقى وأرضى ، فإن كنتَ تريدُ الفتيانَ من قريش ، فلعمري إن يزيد من فتيانها ، واعلم أنه لا يُعْنِي عنك من الله شيئاً .

٢٣٧ — خطبة معاوية

فتكلم معاوية فقال :

« قد قلتُ وقتم ، وإنه قد ذهبت الآباء وبقيت الأبناء ، فابني أحبُّ إليَّ من أبنائهم ، مع أن ابني إنْ قاوَلتموه ^(١) وجد مقالا ، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف ، لأنهم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى الناسُ أبا بكر وعمر ، من غير معَدِنِ الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بن عمرَ منها . فأما ابنا عمي هذان فليسا بخارجين من الرأي إن شاء الله . ثم أمر بالرحلة وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد ، ولم يقطع عنهم شيئاً من صلواتهم وأعطياتهم ^(٢) ، ثم انصرف راجعاً إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، فلم يعرض لها إلى سنة إحدى وخمسين .

* * *

قال ابن قتيبة : ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمة الله (سنة ٥١) إلا يسيراً حتى بايع ليزيد بالشام ، وكتب يبيعه إلى الآفاق ، وكان عامه على

[١] قائل : فاعل من القول ، كحادث وخاطب وكالم . [٢] أعطيات جمع أعطية وهو جمع عطاء .

المدينة مروان بن الحكم ، فكتب إليه بذلك وأمره أن يجمع مَنْ قَبْلَهُ مِنْ قَرِيشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ يَبَايَعُوا لِيَزِيدَ ، فَلَمَّا قَرَأَ كِتَابَ مَعَاوِيَةَ ابْنِ مِنْ ذَلِكَ وَأَبْتَهُ قَرِيشٍ ، وَكُتِبَ إِلَى مَعَاوِيَةَ : إِنْ قَوْمِكَ قَدْ أَبَوْا إِجَابَتِكَ إِلَى بَيْعَتِكَ ابْنِكَ ، فَأَرِنِي رَأْيَكَ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ بِأَمْرِهِ أَنْ يَعْتَزَلَ عَمَلَهُ ، وَيُنَبِّئَهُ أَنَّهُ قَدْ وَلَّى الْمَدِينَةَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ ، فَخَرَجَ مَرْوَانَ مُغَاضِبًا فِي أَهْلِ بَيْتِهِ وَأَخْوَالِهِ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ حَتَّى أَتَى دِمَشْقَ ، وَدَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْخِلاَفَةِ ، ثُمَّ قَالَ :

٢٣٨ — خطبة مروان بن الحكم

«إِنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ خَطَرُهُ ، لَا يُقَدَّرُ^(١) قَادِرٌ قَدْرُهُ ، خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ عِبَادًا ، جَعَلَهُمْ لِدَعَائِهِمْ دِينَهُ أَوْ تَادًا ، هُمْ رُقَبَاؤُهُ عَلَى الْبِلَادِ ، وَخُلَفَاؤُهُ عَلَى الْعِبَادِ ، أَسْفَرَ^(٢) بِهِمُ الظُّلْمَ ، وَأَلْفَ بِهِمُ الدِّينَ ، وَشَدَّدَ بِهِمُ الْيَقِينَ ، وَمَنَعَ بِهِمُ الظُّفْرَ ، وَوَضَعَ بِهِمْ مِنْ اسْتِكْبَارِهِ ، فَكَانَ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ خُلَفَائِنَا ، يَعْرِفُونَ ذَلِكَ فِي سَالِفِ زَمَانِنَا ، وَكَانُوا نَكُونُ لَهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ إِخْوَانًا ، وَعَلَى مَنْ خَالَفَ عَنْهَا أَعْوَانًا ، يُشَدُّ بِنَا الْعَضُدُ ، وَيُقَامُ بِنَا الْأَوْدُ ، وَنُسْتَشَارُ فِي الْقَضِيَّةِ ، وَنُسْتَأْجَرُ^(٣) فِي أَمْرِ الرِّعْيَةِ ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا الْيَوْمَ فِي أَمْوَالٍ مُسْتَحِيرَةٍ^(٤) ، ذَاتَ وَجْهِ مُسْتَدِيرَةٍ ، تَفْتَحُ بِأَزْمَةِ الضَّلَالِ ، وَتُحْلَسُ^(٥) بِأَسْوَأِ الرِّجَالِ ، يُؤْكَلُ جَزْوَرُهَا^(٦) ، وَتُتَمَقَّقُ أَحْلَامُهَا^(٧) ، فَمَا لَنَا

[١] قدره من بابي نصر وضرب وقدره تقديرا: عطيه ، قال تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ»

أى ما عطاوه حتى تعظييه . [٢] سفر الصبح وأسفر: أضاء وأشرق ، أو هو متد من سفرت الحرب أى ولت ، وسفرت المرأة كشفت عن وجهها ، فالعنى كشف بهم الظلم . [٣] الاستئجار المشاورة . [٤] فى الأصل «مستخيرة» أى مستحير صاحبها من استئجار الله فى أمره : طلب أن يجعل له فيه الخير ، وأرى أنها «مستخيرة» بالحاء أى مستحير صاحبها أى متحير ، من استحار إذا نظر إلى الشيء ، بعنى عليه ولم يمتد لسبيله ، ويؤيد هذا قوله بعد «ذات وجوه مستديرة» أى مستغلقة مبهمه ليست مسقيمة .

[٥] حلس البعير كضربه : غشاه بحلس (بكسر الحاء) وهو كساء على ظهر البعير تحت البرذعة « وفى الأصل » وتجلس بأسوأ الرجال « بجمعين وهو تصحيف » . [٦] الجزور : البعير أو خاص بالناقة المجزورة . [٧] امتق الفصيل ماى الضرع شربه كله ، والأحلاب جمع حلب (بفتحين) وهو اللبن المحلوب .

لا نَسْتَأْمَرُ فِي رِضَاعِهَا ، وَنَحْنُ فِطَامُهَا وَأَوْلَادُ فِطَامِهَا ، وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْلَا عَهْدُ مُوَكَّدَةٍ ، وَمَوَائِقُ مُعَقَّدَةٍ ^(١) ، لَأَقَمْتُ أَوَدَ وَوَلِيَّهَا ، فَأَقَمَ الْأَمْرَ يَا بَنَ أَبِي سَفْيَانَ ، وَاعْدَلْ عَنِ تَأْمِيرِكَ الصَّبِيَّانَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ فِي قَوْمِكَ نُظَرَآءَ ، وَأَنَّ لَهُمْ عَلَى مَنَاوَأَتِكَ وَزَرَآءَ .

فغضب معاوية من كلامه غضباً شديداً ، ثم كظم غيظه بحلمه ، وأخذ بيد مروان ، ثم قال :

٢٣٩ — خطبة معاوية

« إن الله قد جعل لكل شيء أصلاً ، وجعل لكل خير أهلاً ، ثم جعلك في الكرم منى محمداً ^(٢) ، والعزير منى والدأ ، اخترت من قُرُومٍ ^(٣) قادة ، ثم استللت سيّد سادة ، فأنت ابن ينابيع الكرم ، فمرّ حبّاً بك وأهلاً من ابن عم ، ذكرت خلفاء مفقودين ، شهداء صديقين ، كانوا كما نعت ، وكنت لهم كما ذكرت . وقد أصبحنا في أمور مستحيرة ، ذات وجوه مستديرة ، وبك والله يا بن العم نرجو استقامة أودها ، وذلولة ^(٤) صعوبتها ، وسفور ظلمتها ، حتى يتطأطأ ^(٥) جسيمها ، ويتركب بك عظيمها ، فأنت نظير أمير المؤمنين ، وعُدته في كل شديدة وعضده ، والثاني بعد ولي عهده ، فقد وليتكم قومك ، وأعظمت في الخراج سهمك ، وأنا مجيز وفدك ، ومحسن رفدك ^(٦) ، وعلى أمير المؤمنين غناك ، والنزول عند رضاك ^(٧) . »

[١] اسم مفعول من عقد بالتشديد مضعف عقد الحبل والبيع والعهد إذا شده .

[٢] المحمد : الأصل . [٣] جمع قرم بالفتح وهو السيد . [٤] هكذا في الأصل ، وفي كتب

اللغة : « اللد بالكسر والضم اللين وهو ضد الصعوبة ، ذلّ فهو ذلول ، يكون في الانسان والداية » .

[٥] طأطأ رأسه خفضه فتطأطأ . [٦] الرفد : العطاء والصلة .

[٧] قال المسعودي : « وجعله ولي عهد يزيد ورده إلى المدينة ، ثم إنه عزله عنها ، وولاهها الوليد بن

عتبة بن أبي سفيان ، ولم يف مروان بما جعل له من ولاية عهد يزيد » ، وقال ابن قتيبة : « فكان أول

مارزق ألف دينار في كل هلال ، وفرض له في أهل بيته مائة مائة » .

٢٤٠ - مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر

وروى أن مروان لما ورد عليه كتاب معاوية ، قرأه على أهل المدينة وقال :
« إن أمير المؤمنين قد كبر سنّه ، ودَقَّ عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر الله
تعالى ، فيدَع الناس كالغنم لاراعى لها ، وقد أحب أن يُعَلِّمَ عَلمًا ، ويُقيمَ إمامًا » ،
فقالوا: وَفَقَّ اللهُ أمير المؤمنين وسدَّده، لِيَفْعَلَ، فكتب بذلك إلى معاوية، فكتب
إليه أن سَمَّ يزيدَ ، فقرأ الكتاب عليهم وسمَّى يزيدَ ، وخطبهم فخصَّهم على الطاعة،
وحذَّهم الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد وقال : سنَّة أبي بكر الهادية المهدية ، فقام
عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال : « كذبت والله يا مروانُ ، وكذب معاوية معك ،
إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة ، وباع لرجل من بني عديّ رضى دينه وأماتته ،
واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا يكون ذلك ، لا تُحَدِّثُوا علينا سنَّة
الروم ، كلما مات هرقلُ قام مكانه هرقل » ، فقال مروان : « أيها الناس : إن
هذا المتكلم هو الذي أنزل الله فيه : « وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا ، أَتَعِدَانِي
أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ^(١) » ، فقال له عبد الرحمن :

[١] أخرج : أبث ، قال صاحب الأمالي : « فسمعت ذلك عائشة رضى الله عنها فقالت : ألأبن الصديق يقول هذا ؟ استروني فستروها ، فقالت : كذبت والله يا مروان إن ذلك لرجل معروف نسيه » ، وقال المنسرون في هذه الآية : « والمراد (بالذي قال) الجنس القائل ذلك القول ، وعن الحسن : هو في الكافر العاق لوالديه ، المكذب بالبعث ، وعن قتادة : بعث عبد سوء : عاق لوالديه ، فاجر لربه ، وقيل نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام ، فأفف بهما ، وقال : ابعثوا إلى حدعان بن عمرو ، وعثمان بن عمرو - وهما من أجداده - حتى أسألها عما يقول محمد ، ويشهد ببطلانه أن المراد بالذي قال جنس القائلين ذلك ، وأن قوله : « الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » هم أصحاب النار ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم ، وعن عائشة رضى الله عنها إنكار نزولها فيه ، وحين كتب معاوية إلى مروان أن يبايع الناس ليريد ، قال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرقلية ، أتبايعون لأبناكم ، فقال مروان : يا أيها الناس هو الذي قال الله فيه « وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ ... الآية » فسمعت عائشة فغضبت ، وقالت : « والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسمينته ، أما أنت يا مروان ، فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أباك وأنت في صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله » اهـ

«يا ابن الزرقاء^(١)، أفينا تناول القرآن؟» وتكلم الحسين بن عليّ، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وأنكروا بيعة يزيد، وتفرق الناس، فكتب مروان إلى معاوية بذلك.

قال ابن قتيبة: فقدم معاوية المدينة حاجباً، ثم أرسل إلى الحسين بن عليّ وعبد الله بن عباس فحضر، وابتدأ معاوية فتال:

٢٤١ — خطبة معاوية

«أما بعد: فالحمد لله وليّ النعم، ومُنزل النقم، وأشهد أن لا إله إلا الله، المتعالي عما يقول الملحّدون علواً كبيراً، وأن محمداً عبده المختصّ المبعوث إلى الجن والإنس كافةً، لينذِرهم بقرآن: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»، فأدّى عن الله، وصدّع^(٢) بأمره، وصبر على

(وقولها بعض كجبل ويروى كعتق وغراب أى قطعة منها).

وجاء في السيرة الحلبية (١: ٣٠٢): «عن الواقدي، استأذن الحكم بن أبي العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرف صوته، فقال: «أندنوا له لعله الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمن منهم — ونليل ما هم — دوو مكر وخديعة، يعطون الدنيا، وما لهم في الآخرة من خلاق»، وكان لا يولد لأحد ولد مالمديه إلا أنى به النبي صلى الله عليه وسلم، فأتى إليه بمروان لما ولد، فقال: «هو الوزغ بن الوزغ، للمعون بن للمعون» وعن جبير بن مطعم: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ الحكم بن أبي العاص، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وبل لأمتي مما في صلب هذا».

وجاء في أسد الغابة في ترجمته: «ذكره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، في هجائه لعبد الرحمن بن الحكم، فقال:

إن اللعين أبوك فارم عظامه إن ترم ترم مخلجاً مجنوناً

وقد روى في لعمري ونفيه أحاديث كثيرة لا حاجة إلى ذكرها، إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي صلى الله عليه وسلم، مع حلمه وإغصانه على ما يكره، ما فعل به ذلك إلا لأمر عظيم، وجاء في الفخرى ص ١٠٨ «ورويت أحاديث وأخبار في لعنة الحكم بن أبي العاص، ولعنة من في صلبه، وضعفها قوم».

[١] في الفخرى ص ١٠٨ «وكان من أراد ذم مروان وعييه يقول له «يا ابن الزرقاء» قالوا: وكانت

الزرقاء جدتهم من ذوات الرايات التي يستدل بها على بيوت البغايا في الجاهلية، فلذلك كانوا يذمون بها».

[٢] قوله تعالى: «فأصدع بما تؤمر» أى شقّ جماعاتهم بالتوحيد أو أجهز بالقرآن أو أظهر

أو احكم بالحق واصل بالأمر أو اقصد بما تؤمر أو افرق به بين الحق والباطل.

الأذى في جنبه ، حتى أوضح دين الله ، وأعزَّ أوليائه ، وقمع المشركين ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، فمضى صلوات الله عليه ، وقد ترك من الدنيا ما بُدِّل له ، واختار منها الترك لما سُخِّر له ، زهادةً واختياراً لله ، وأنفةً واقتداراً على الصبر ، وبغياً لما يدوم ويبقى ، وهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم خلفه رجلاً من محفوظان ، وثالثٌ مشكوك ، وبين ذلك خوَضٌ طالما عاجناه ، مشاهدةً ومكافأةً ، ومعاينةً وسماعاً ، وما أعلم منهُ فوق ماتعلمان ، وقد كان من أمر يزيد ما سبقتم إليه وإلى تجويزه ، وقد علم الله ما أحاول به من أمر الرعية ، من سدِّ الخلل ، ولمَّ الصدع ، بولاية يزيد ، بما أيقظ العين ، وأحمد الفعل ، هذا معنای في يزيد ، وفيكافضل القرابة ، وحِظوة العلم ، وكمال المروءة ، وقد أصبت من ذلك عند يزيد على المناظرة والمقابلة ، ما أعيانى مثله عندك ، وعند غيرك ، مع علمه بالسنة وقراءة القرآن ، والحلم الذي يرجح بالصم^(١) الصلاب ، وقد علمتما أن الرسول المحفوظ بعصمة الرسالة ، قدّم على الصديق والفاروق ، ومن دونهما من أكابر الصحابة ، وأوائل المهاجرين ، يوم غزوة ذات السلاسل^(٢) ، من لم يقارب

[١] الصم جمع أصم ، وهو الحجر الصلب المصمت .

[٢] غزوة ذات السلاسل وهي وراء وادي الفري من أرض بني عذرة : غزاهما سرية عمرو بن العاص سنة ثمان للهجرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه يستنفر العرب إلى الشام ، فلما كان على ماء بأرض حذام ، يقال له السلسل — وبذلك سميت تلك الغزوة غزوة ذات السلاسل — خاف فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمده ، فبعث إليه رسول الله أنا عبيدة بن الجراح والمهاجر بن الأوابين ، فيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبي عبيدة حين وجهه : لا تختلفا ، فخرج أبو عبيدة ، حتى إذا قدم عليه ، قال له عمرو : إنما جئت مدداً لي قال أبو عبيدة : لا ، ولكني على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت عليه — وكان أبو عبيدة رجلاً ليناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا — فقال له عمرو : بل أنت مدد لي ، فقال له أبو عبيدة : يا عمرو ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي لا تختلفا ، وإنك إن عصيتني أطعتك ، قال : فإني الأمير عليك ، وأنت مدد لي ، قال : فدوتك ، فصلى عمرو بالناس .

القوم ، ولم يماندْهم^(١) ، برتبةٍ في قرابةٍ موصولة ، ولا سُنَّة مذكورة ، فقادهم الرجل بأمره ، وجمع بهم صَلَاتهم ، وَحَفِظَ عليهم فيهم ، وقال ولم يُقَلِّ معه ، وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، فهلا بنى عبد المطلب ، فإننا وأنتم شَعْبًا تَفْعُ وَجِدًا ، ومازلت أرجو الإِنصاف في اجتماعكما ، فما يقول القائل إلا بِفَضْلِ قولكما ، فَرُدًّا على ذِي رَحِمٍ مُسْتَعِيبٍ ، ما يحمَد به البصيرة في عتابكما ، وأستغفر الله لي ولكما .

فتيسر ابن عباس للكلام ، ونصَّب يده للمخاطبة ، فأشار إليه الحسين وقال : على رسلك ، فأنا المراد ، ونصيب في التهمة أوفر ، فأمسك ابن عباس ، فقام الحسين :

٢٤٢ - خطبة الحسين

فحمد الله ، وصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « أما بعد يا معاوية ، فلن يُؤدِّيَ القائلُ - وإن أظنَّبَ - في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميعِ جزءِها ، قد فهمتُ ما ألبستَ^(٢) به الخلفَ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من إنجاز الصفة ، والتكُّب عن استبلاغ البيعة ، وهيهات هيهات يا معاوية ! فضح الصبحُ فحمة الدُّجى ، وبهرت^(٣) الشمسُ أنوارَ الشرج ، ولقد فضلتَ حتى أفرطت ، واستأثرتَ حتى أجنفتَ ، ومنعتَ حتى بخلتَ ، وجزتَ حتى جاوزتَ ، ما بذلتَ لذي حقٍّ من أُمَّ حقِّه بنصيبٍ ، حتى أخذ الشيطانُ حظَّه الأوفر ، ونصيبه الأَكمل ، وفهمت ما ذكرته عن يزيد ،

[١] المعاندة : المفارقة ، أي ولم يمتز عليهم برتبة .

[٢] ألبسه : غطاه . [٣] يقال بهر القمر كمنع : غلب ضوءه ضوء الكواكب ، والسرَج جمع

سراج ، وهو المصباح .

من اكتماله وسياسته لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصيف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تُخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، نخذ ليزيد فيما أخذ به من استقرائه^(١) الكلاب المتهارشة^(٢) عند التحارش، والجمام السبّاق لأترابهم^(٣)، والقينات^(٤) ذوات المعازيف، وضروب الملاهي، تجذّه ناصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية، فوالله ما برحت تقدّم باطلا في جور، وحنقاً في ظلم، حتى ملأت الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدّم على عمل محفوظ. في يوم مشهود، ولات حين مناص، ورأيتك عرّضت بنا بعد هذا الأمر، ومنعتنا عن آباءنا ثرائاً، ولقد - لعمر الله - أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة، وجئت لنا بما حججتم به القائم عند موت الرسول عليه الصلاة والسلام، فأذعن للحجة بذلك. وردّه الإيمان إلى النصف، فركبتم الأعايل، وفعلتم الأفاعيل، وقتلتم كان ويكون، حتى أتاك الأمر يامعاوية، من طريق كان قصدها لغيرك، فهناك^(٥)، فاعتبروا يا أولى الأبصار، وذكرت قيادة الرجل القوم بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأميره له، وقد كان ذلك، وأعمرو بن العاص يومئذ فضيلة، بصحبة الرسول وبيعت له، وما صار لعمر يومئذ حتى أنف القوم إمرته، وكرهوا تقديمه، وعدوا عليه أفعاله، فقال صلى الله عليه وسلم: «لا جرم^(٥) معشر المهاجرين، لا يعمل عليكم بعد اليوم غيري».

[١] استقرأ الأشياء: تتبع أفرادها. [٢] المتهارشة: تحريش بعضها على بعض.

[٣] جمع قينة: وهي الجارية المنية أو أعم، والمعارف الآلات التي يضرب بها كالمود، جمع معزف كبير.

[٤] مسهل من هنا، يقال هنا الطعام إذا ساع ولد، أي فهنيئاً لك ما نلت من الخلافة.

[٥] لا جرم: قال الفراء «هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا عمالة، فخرت على ذلك وكثرت حتى

فكيف يُحْتَجَّ بالمنسوخ من فعل الرسول ، في أوْ كَد الأحوال ، وأولاها بالمجتمع عليه من الصواب ؟ أم كيف صاحبت بصاحبٍ تابعاً ، وحوالك مَنْ لا يُؤْمَنُ في صحبته ، ولا يُعْتَمَدُ في دينه وقرابته ، وتتخطاهم إلى مُسْرِفٍ مَفْتُونٍ ؟ تريد أن تلبس الناسَ شُبُهَةً ، يَسْعُدُ بها الباقي في دنياه ، وَتَشْقَى بها في آخرتك ، إن هذا هو الخُسران المبين ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلِكُمْ .

فنظر معاوية إلى ابن عباس ، فقال : ما هذا يا ابن عباس ؟ وَلِمَا عِنْدَكَ أَذْهَى وَأَمْرٌ ! فقال ابن عباس : لعمرُ الله ، إنها لَدُرِّيَّةُ الرسولِ عليه الصلاة والسلام ، وأحد أصحاب الكِساء^(١) ، ومن البيت المُطَهَّر ، فالهُ عَمَّا تريد ، فإن لك في الناس مَفْنَعًا ، حتى يحكم الله بأمره ، وهو خير الحاكمين ، فقال معاوية : أَعُوذُ^(٢) الحليم التحلُّم ، وخيرُهُ التحلُّمُ عن الأهل . انصرفا في حفظ الله .
ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى عبد الله بن الزبير ، فجلسوا .

٢٤٣ — خطبة معاوية

فحمد الله ، وأثنى عليه معاوية ، ثم قال :

« يا عبد الله بن عمر : قد كنتَ تحدِّثنا أنك لا تحب أن تبيتَ ليلةً وليس في عنقك بيعةُ جماعةٍ ، وَأَنَّ لك الدنيا وما فيها . وإني أحذرك أن تشقَّ عَصَا المسامين ، وَتسمى في تفريق مَلَتَهُمْ^(٣) ، وَأَنْ تسفِك دماءهم ، وإن أمرَ يزيد قد كَانَ قَضَاءً من القضاء ، وليس للعباد خَيْرَةٌ من أمرهم ، وَقَدْ وَكَّدَ الناسُ

تحوط إلى معنى القسم ، وصارت بمنزلة حقا ، فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها عن القسم ، ألا ترام يقولون : « لا جرم لأبيك » . [١] انظر ص ٢٥ . [٢] أعود : أنعم ، والعائدة : المنفعة . [٣] اللأ : الجماعة .

يَعْتَمَهُمْ فِي أَعْنَاقِهِمْ . وَأَعْطَوْا عَلَى ذَلِكَ عُهُودَهُمْ وَمَوَائِقَهُمْ » . ثُمَّ سَكَتَ .

٢٤٤ - خطبة عبد الله بن عمر

فَتَكَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدُ : يَا مَعَاوِيَةَ ، لَقَدْ كَانَ قَبْلَكَ خَلَفَاءُ ، وَكَانَ لَهُمْ بَنُونَ ، لَيْسَ ابْنُكَ بِخَيْرٍ مِنْ أَبْنَائِهِمْ ، فَلَمْ يَرَوْا فِي أَبْنَائِهِمْ مَا رَأَيْتَ فِي ابْنِكَ ، فَلَمْ يُحَابُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ أَحَدًا ، وَلَكِنْ اخْتَارُوا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ حَيْثُ عَلِمُوهُمْ ، وَأَنْتَ تَحْذَرُنِي أَنْ أَشُقَّ عَصَا الْمَسَامِينِ ، وَأُفَرِّقَ مَلَأَهُمْ ، وَأَسْفِكَ دِمَاءَهُمْ ، وَلَمْ أَكُنْ لِأَفْعَلِ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَلَكِنْ إِنْ اسْتَقَامَ النَّاسُ ، فَسَادَ دَخْلُ فِي صَالِحِ مَا تَدْخُلُ فِيهِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ » .

فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، لَيْسَ عِنْدَكَ خِلَافٌ ، ثُمَّ قَالَ مَعَاوِيَةُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِي بَكْرٍ نَحْوَمَا قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : إِنَّكَ وَاللَّهِ لَوَدِدْنَا أَنْ نَكِلَكَ إِلَى اللَّهِ فِيمَا جَمَعْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ يَزِيدَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَجْعَلَنَّهَا سُورِي ، أَوْ لِأَعِيدَنَّهَا جَذَعَةً ، ثُمَّ قَامَ لِيُخْرِجَ ، فَتَعَلَّقَ مَعَاوِيَةُ بِطَرْفِ رِدَائِهِ ، ثُمَّ قَالَ : عَلَى رِسْلِكَ ، اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِ بِمَا شِئْتَ ، لَا تَظْهَرَنَّ لِأَهْلِ الشَّامِ ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ نَحْوَمَا قَالَ لِبْنِ عُمَرَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَنْتَ تَعْلَبُ رَوَافِعَ ، كَمَا أَخْرَجْتَ مِنْ جُحْرٍ أَنْجَحَرْتَ^(١) فِي آخِرِ ، أَنْتَ أَلْبَيْتَ^(٢) هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، وَأَخْرَجْتَهُمَا إِلَى مَا خَرَجَا إِلَيْهِ . فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : أَتُرِيدُ أَنْ تَبَايِعَ لِيَزِيدَ ؟ أَرَأَيْتَ إِنْ بَايَعَنَاهُ أَيُّكُمْ نَطِيعٌ ؟ أَنْطِيعُكَ أَمْ نَطِيعُهُ ، إِنْ كُنْتَ مَلَيْتَ الْخِلَافَةَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ، وَبَايِعْ لِيَزِيدَ ، فَنَحْنُ نَبَايِعُهُ ، فَكَثُرَ كَلَامُهُ وَكَلَامُ ابْنِ الزُّبَيْرِ ، حَتَّى قَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ

[١] أَى دَخَلْتُ ، جَعَرَ الضَّبَّ كَنَع : دَخَلَ الْجَعْر ، وَجَعَرَ فُلَانٌ الضَّبَّ : أَدْخَلَهُ فِيهِ ، فَانْجَعَرَ .

[٢] التَّأَلَيْبُ : التَّعْرِيفُ وَالْإِسَادُ .

في بعض كلامه : والله ما أراك إلا قاتلاً نفسك ، وآكأني بك قد تخبّطت في الجبال . ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادي أن ينادى في الناس ، أن يجتمعوا لأمر جامع . فاجتمع الناس في المسجد ، وقعد هؤلاء حول المنبر .

٢٤٥ - خطبة معاوية

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيدَ وفضله وقراءته للقرآن ، ثم قال :
« ي أهل المدينة ، لقد هممت ببيعة يزيد ، وما تركت قرية ولا مدرة ^(١) إلا بعثت إليها ببيعتته ، فبايع الناس جميعاً وسلموا ، وأخرت المدينة بيعته ، وقلت بيضته ^(٢) ، وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أبوا البيعة ، منهم من كان أجدر أن يصله . ووالله لو علمت مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعت له .
فقام الحسين فقال : « والله لقد تركت من هو خير منه أباً وأماً ونفساً !
فقال معاوية : « كأنك تريد نفسك ؟ » فقال الحسين : « نعم . أصلحك الله !
فتال معاوية : « إذن أخبرك ، أما قولك : خير منه أما ، فاعمرى أمك خير من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قريش ، لكان نساء قريش أفضلهن ، فكيف وهي ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم فاطمة في دينها وسابقتها ؟ فأملك لعمر الله خير من أمه ^(٣) ، وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ، ففرضي لأبيه على أيك » . فقال الحسين : « حسبيك جهلك . آثرت العاجل على الآجل » .
فقال معاوية : « وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً ، فيزيد والله خير لأمة محمد منك » . فقال الحسين : « هذا هو الإفك والزور ! يزيد شارب الخمر .

[١] المدرة : المدينة . [٢] جماعته وأصله . [٣] وأم يزيد هي ميسون بنت بحدل الكلبية .

ومشترى اللهو . خبر منى « فقال معاوية : « مهلاً عن شتم ابن عمك . فإنك لو
ذُكرت عنده بسوء لم يَشْتُمَكَ » ، ثم التفت معاوية إلى الناس . وقال :
« أيها الناس : قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف
أحدًا ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكانت بيعته بيعَةً هُدًى ، فعمل
بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، فعمل عمر
بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر
اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر ، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين ، فلذلك رأيت
أن أبايع ليزيد ، لما وقع الناس فيه من الاختلاف ، ونظراً لهم بعين الانصاف .

* *

وروى من طريق آخر : أن معاوية لما خرج إلى المدينة ودنا منها ، استقبله
أهلها ، فيهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسن بن علي ، وعبد الرحمن
ابن أبي بكر ؛ فأقبل على عبد الرحمن بن أبي بكر ، فسبّه وقال : « لا مرحباً بك
ولا أهلاً » ؛ فلما دخل الحسين عليه قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، بدنة^(١)
يترقق دمه والله مهريقه » ؛ فلما دخل ابن الزبير قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ،
ضب تلمعة ، مدخل رأسه تحت ذنبه » ؛ فلما دخل عبد الله بن عمر قال : « لا مرحباً
بك ولا أهلاً ، وسبّه » ، فقال : « إني لست بأهل لهذه المقالة » قال : « بلى ،
ولما هوشتها منها » ، فدخل معاوية المدينة وأقام بها ، وخرج هؤلاء الرهط
معتمرين ، فلما كان وقت الحج خرج معاوية حاجاً ، فأقبل بعضهم على بعض ،

[١] البدنة من الابل والبقر كالأضحية من الغنم تهدي إلى مكة ، للذكر والأنثى .

[٢] التلمعة : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها .

فقالوا : لعله قد ندم ، فأقبلوا يستقبلونه ، فاما دخل ابن عمر ، قال : « مرحباً بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق ، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة » ، وقال لابن أبي بكر : « مرحباً بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق ، هاتوا له دابة » ، وقال لابن الزبير : « مرحباً يا ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، هاتوا له دابة » ، وقال للحسين : « مرحباً يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب المسلمين ، قرّبوا لأبي عبد الله دابة ، وجعلت أظافهُ^(١) تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ، وَيُحَسِّنُ إِذْتَمَّهِمْ وَشَفَاعَتَهُمْ وَحَمَلَهُمْ عَلَى الدَّوَابِّ ، وَخَرَجَ حَتَّى آتَى مَكَّةَ ، فَقَضَى حَجَّهُ ، وَلَمَّا أَرَادَ الشَّخْوَصَ أَمْرَ بِأَثْقَالِهِ فَقَدَّمَتْ ، وَأَمَرَ بِالْمِنْبَرِ فَقَرَّبَ مِنَ الْكَعْبَةِ ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ، فَاجْتَمَعُوا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَنْ يَكَلِّمُهُ ؟ فَأَقْبَلُوا عَلَى الْحُسَيْنِ فَأَبَى ، فَقَالُوا لابن الزبير : هات ، فَأَنْتَ صَاحِبِنَا . قَالَ : عَلَى أَنْ تَعْطُونِي عَهْدَ اللَّهِ أَنْ لَا أَقُولَ شَيْئًا إِلَّا تَابَعْتُمُونِي عَلَيْهِ . قَالُوا : لَكَ ذَلِكَ ، فَأَخَذَ عَهْدَهُمْ رِجَالًا رِجَالًا ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَرَحَّبَ بِهِمْ ، وَقَالَ : قَدْ عَلِمْتُمْ نَظْرِي لَكُمْ ، وَتَعَطْفِي عَلَيْكُمْ ، وَصَلَّتِي أَرْحَامَكُمْ ، وَزَيْدَ أَخْوَاكُمْ وَابْنَ عَمِّكُمْ ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقْدِمَهُ بِاسْمِ الْخِلَافَةِ ، وَتَكُونُوا أَنْتُمْ تَأْمُرُونَ وَتَنْهَوْنَ ، فَسَكْتُوا ، فَقَالَ : أَجِيبُونِي ، فَسَكْتُوا ، فَقَالَ : أَجِيبُونِي ، فَسَكْتُوا ، فَقَالَ : لَابْنِ الزَّبِيرِ : هَاتِ فَأَنْتَ صَاحِبُهُمْ . قَالَ :

٢٤٦ - خطبة عبد الله بن الزبير

« نَحْيَرُكَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ ، أَيُّهَا أَخَذْتَ فِيهِ لَكَ رَغْبَةً ، وَفِيهَا خِيَارٌ ، إِنْ شَدَّتْ فَاصْنَعْ فِينَا مَا صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَبْضَةَ اللَّهِ وَلَمْ يَسْتَخْلَفْ

[١] الأظاف جمع لطفة بالتحريك وهي الهدية .

أحدًا ، فرأى المسامون أن يستخلفوا أبا بكر ، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فاصنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الأذنين من كان لها أهلا ، وإن شئت ، فما صنع عمر ، جعلها شورى في ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا .

فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير ، فقال معاوية : « إني أتقدم إليكم ، وقد أعذر من أنذر ، إني قائم فقائل مقالة ، فأياكم أن تعترضوا علي حتى أتمها ، فإن صدقت فعلي صدقي ، وإن كذبت فعلي كذبي ، وأقسم بالله لئن رد علي رجل منكم كلمة في مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمته ، حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يُبقي إلا عليها ، وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفهما ، فإن تكلم بكلمة يرد بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقى المنبر ، وحف به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً فقال :

٢٤٧ خطبة معاوية

قال بعد حمد الله ، والثناء عليه ، إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار^(١) ، قالوا إن حسيناً ، وابن أبي بكر ، وابن عمر ، وابن الزبير لم يبايعوا يزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسامين وخيارهم ، لا نُبرِمُ أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وساموا وأطاعوا « فقال أهل الشام : وما يعظم من أمر هؤلاء ؟ أيذن لنا فنضرب أعناقهم ،

[١] العوار : مثلة العيب .

لا نرضى حتى يبايعوا علانيةً ، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر ، وأحلى دماءهم عندهم ، أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا ، ثم قرّبت رواحله ، فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لا نبايع ، فلما دُعيتم وأرضيتم بايعتم . قالوا : لم نفعل . قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟ قالوا : خيفنا القتل وكأدكم بنا وكأدنا بكم .

(المقد الفريد ٢ : ٢٤٧ - ١٥٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٢١ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٩ ، والأمالى ٢ : ٧٣ ، وذيل الأمالى ص ١٧٧ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢١٠ ، والبيان والنتين ١ : ١٦٣ - ١٦٤)

تهنئة وتعزية

٢٤٨ - خطبة عبد الله بن همام السلولى

لما توفي معاوية واستخلف يزيد ابنه (سنة ٦٠) اجتمع الناس على بابه ، ولم يقدرُوا على الجمع بين تهنئة وتعزية ، حتى أتى عبد الله بن همام السلولى فدخّل عليه فقال :

« يا أمير المؤمنين ، آجرك الله على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فلقد رُزئت عظيمًا ، وأعطيت جسيمًا ، فاشكر الله على ما أُعطيت ، واصبر له على ما رُزيت ، فقد فُقدت خليفة الله ، ومُنحتَ خلافة الله ، ففارقت جليلًا ، ووُهبت جزيلاً ، إذ قضى معاوية نَحْبَه ، فغفر الله ذنبه ، ووُلّيت الرياسة ، فأعطيت السياسة ، فأوردك الله موارد السرور ، ووفّقك لصالح الأمور ، وأنشد :

فاصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقةٍ واشكر حِبَاءَ الذى بالملك أصفاكا^(١)

لا رُزءٌ أصبح في الأقوام نعامه كما رُزئت ، ولا عُقبى كعقباكا
أصبحت وإلى أمر الناس كلهم فأنت ترعاهم والله يرعاكما
وفي معاويةَ الباقي لنا خلفُ إذا نُعيتَ ، ولا نسمعُ بمنعاً كما (١)
» وعبد الله بن همام هو أول من فتح الباب في الجمع بين تهنئة وتعزية ، فولجّه
الناس ، كما روى من غير وجه .

(زهر الآداب ١ : ٦١ ، ونهاية الأرب ٥ : ٢١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤١ -
٣٥ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والبيان ٢ : ٦٦)

٢٤٩ - خطبة عطاء بن أبي صيفى الثقفى

وروى المسعودى أن يزيد بعد موت أبيه أذن للناس ، فدخلوا عليه لا يدرون
أيهنثونه أم يعزونه ، فقام عطاء بن أبي صيفى ، فقال :
« السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أصبحت وقد رُزئت
خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله ، ومُنحت هبة الله ، وقد قضى معاويةَ نحبّه ،
ففقر الله له ذنبه ، وأعطيت بعده الرياسة ، ووليت السياسة ، فأحتسب (٢) عند
الله أعظم الرزية ، وأحمدّه على أفضل العطية » .

(مروج الذهب ٢ : ٩٣ ، البيان والبيان ٢ : ١٠٢ ، تهذيب الكامل ١ : ١٦ ،
وصحح الأعتى ٩ : ٢٧٨ ، والمقد الفريد ٢ : ٣٥)

٢٥٠ - خطبة عبد الله بن مازن

ثم قام عبد الله بن مازن ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ؟ رُزئت خير الآباء ، وسُميت خير الأسماء ،
ومُنحت أفضل الأشياء ، فهناك الله بالعطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحت

[١] هو أبو لى معاوية بن يزيد . [٢] احتسب به أجراً عند الله : اعتدّه ينوى به وجه الله
(واحتسب ابنه إذا مات كبيراً ، فإن مات صغيراً قبل افتراطه) .

قريش مَفْجُوعَةً يَبْعُدُ سَاسَتَهَا ، مَسْرُورَةٌ بِمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهَا مِنَ الْخِلَافَةِ بِكَ ،
وَأَلْعُقَبِيَّ مِنْ بَعْدِهِ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

اللَّهُ أَعْطَاكَ الَّتِي لَا فَوْقَهَا وَقَدْ أَرَادَ الْمُلْحِدُونَ عَوَقَهَا
عَنْكَ فَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا سَوَقَهَا إِلَيْكَ ، حَتَّى قَلَدْتُوكَ طَوَقَهَا

ثم قام عبد الله بن همام فخطب خطبته السالفة . (مروج الذهب ٢ : ٩٣)

٢٥١ — خطبة غيلان بن مسلمة الثقفي

وروى الجاحظ : أنه لما توفي عبد الملك ، وجلس ابنة الوليد دخل عليه
الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فأقبل غيلان بن مسامة الثقفي ، فسلم
عليه ، ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، أصبحت قد رزئت خير الآباء ، وُسِّمْتِ خَيْرَ الْأَسْمَاءِ ،
وَأَعْطَيْتِ أَفْضَلَ الْأَشْيَاءِ ، فَعَظَّمَ اللَّهُ لَكَ عَلَى الرَّزِيَةِ الصَّبْرَ ، وَأَعْطَاكَ فِي ذَلِكَ
نَوَافِلَ ^(١) الْأَجْرِ ، وَأَعَانَكَ عَلَى حَسَنِ الْوَلَايَةِ وَالشُّكْرِ ، ثُمَّ قَضَى عَبْدَ الْمَلِكِ ^(٢)
بِخَيْرِ الْقَضِيَةِ ، وَأَنْزَلَهُ بِأَشْرَفِ الْمَنَازِلِ الْمَرْضِيَّةِ ، وَأَعَانَكَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَى الرَّعِيَةِ » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٠٣)



خطب ولاة الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أييه المتوفى سنة ٥٣

٢٥٢ - خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده

كان الإمام عليّ عليه السلام وليّ زياداً فارس - أو بعض أعمال فارس - فضبطها ضبطاً صالحاً ، وجبّ خراجها وحماها ، فلما قتل الإمام بقي زياد في عمله ، وخاف معاوية جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من ممالآته الحسن بن عليّ ، عليه السلام ، فكتب إليه يتهدده ^(١) ، فغضب زياد غضباً شديداً ، وجمع الناس ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، ثم قال :

« العجب من ابن آكلة الأكباد ^(٢) ، وقاتلة أسد الله ، ومُظهر الخلاف ، ومُسرّ النفاق ، ورئيس الأحزاب ، ومن أنفق ماله في إطفاء نور الله ، كتب إليّ يُرعد ويبرق ^(٣) عن سحابة جفل ^(٤) لا ماء فيها ، وعمّا قليل تصيرها الرياح قزعا ^(٥) ، والذي يدثنى عليّ ضعفه تهّدده قبل القدرة ، أفمن إشفاق عليّ تُنذر

[١] ومما ورد في كتابه إليه قوله : « أمس عبد ، واليوم أمير ! خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية ، وإذا أتاك كتابي هذا ، فخذ اللبس بالطاعة والبيعة ، وأسرع الإجابة ، فإنك إن فعلت فدمك حقت ، ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش ، ونلتك بأهون سمي ، وأقسم قسما مبرورا أن لا أوتى بك إلا في زمارة ، تسمى حافياً من أرض فارس إلى الشام ، حتى أقيماك في السوق ، وأبيعك عبداً ، وأردك إلى حيث كنت فيه وخرجت منه » . [٢] هي هند أم معاوية ، وذلك أنها بعد انتهاء غزوة أحد بقرت بطن حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخذت كبده لتأكلها ، فلا كتبها ثم أرسلتها ، وكان قد قتله وحشى مولى جبير بن مطعم ، دعاها سيده وقال له اخرج مع اللبس ، فإن أنت قتلت حمزة بعني طييمة فأنت حرّ . [٣] رعد الرجل وبرق (كنصر) وأرعد وأبرق : تهّدّد وتوعد . [٤] الجفل : السحاب هراق ماءه وهضى . [٥] النزع : قطع من السحاب رقيقة .

وَتُعَذِّرُ؟ كلا ، ولكن ذهب إلى غير مذهب ، وَقَمَعَ^(١) لمن رَوَى بين صواعق تِهَامَةَ^(٢) ، كيف أَرَهَبُهُ وَيَبْنِي وَيَبْنِي ابْنُ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَأَبْنُ ابْنِ عَمِّهِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؟ وَاللَّهُ لَوْ أَدْنَى لِي فِيهِ أَوْ نَدَبِي إِلَيْهِ ، لِأُرِيَنَّهُ الْكَوَاكِبَ نَهَارًا ، وَلَأَسْعِطَنَّهُ^(٣) مَاءَ الْخُرْدِ لِدُونِهِ ، الْكَلَامُ الْيَوْمَ ، وَالْجَمْعُ غَدًا ، وَالْمَشُورَةُ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ « ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٦٨ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٩٧)

٢٥٣ — خطبته وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه

وكتب إلى معاوية يردّ عليه ردّا شديد اللهجة^(٤) ، فغمّ ذلك معاوية وأحزنه ، وأوفد إليه المغيرة بن شعبه بكتاب يتلطّف به فيه ، ويستدنيه منه ، ويستلحقه بنسب أبيه أبي سفيان^(٥) ، وجعل المغيرة يترفق به ، وينصح له أن يصل حبله

[١] انقمعة صوت للعد ، وتحريك النوى الياس الصلب مع صوت ، ومه « مايقمع له بالشان » وسيأتي تفسيره في خطبة الحجاج . [٢] روى : ارتوى ، والمراد نشأ وترعرع بينها ، وعله (ربي) وذكروا أنه لما نصب الحجاج الخليفة لقتال عبد الله بن الزبير ، أظلمت سحابة فأرعدت وأرتق وأرسلت الصواعق ، ومرع الناس وأمسكوا عن القتال ، فقام بهيم الحجاج ، فقال : « أيها الناس لاهولكم هذا فإني أنا الحجاج بن يوسف ، وقد أصحرت لربي ، فلو ركبنا عظيمًا لحال بيننا وبينه ، ولكننا حبال تِهَامَةَ لم نزل الصواعق نزل بنا » . [٣] سعطه الدواء كعبه ونصره وأسعطه إياه : أدخله في أمه .

[٤] ونس كتابه إليه : « أما بعد ، بعد وصل إلى كتابك يا معاوية ، وهمت مامه ، فوجدتك كالمريق يمطيه الموح فيتثبث بالطحلب ، ويتعلق بأرجل الضفادع طمعاً في الحياة ، إنما يكفر العم ويستدعي النقم من حادّ الله ورسوله ، وسمى في الأرس فساداً . فأما سنك لي فلولا حلم ينهاني عنك ، وحوي أب أدعى سفيهاً لأثرت لك محازي لا يغسلها الماء . وأما تعبيرك لي بسمية ، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن جماعة وأما رعمك أمك تختطفني بأصمف ريش وتتناوأي بأهون سمي ، فهل رأيت بازيا يمرعه صغير القنابر ؟ أم هل سميت بدئ أكله خروف ؟ فامص الآن لطيتك ، واجهد جهدك ، فليست أنزل إلا بحيث تكره ، ولا أحتهد إلا فيما يسوءك ، وستعلم أيما الحاضع لصاحبه الظالم إليه والسلام » .

[٥] وكانت ديباجة كتابه إليه : « من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان » وبه يقول : « وحملاك سوء ظلك بي ، ونفضك لي على أن عقت قرابتي ، وقطعت رحمي ، وبقت نسي وحرمتي ، كأنت است أخى ، وليس صخر بن حرب أباك وأبي ا » وفي آخره يقول : « فإن أحببت جاني ووثقت بي ، فأمره بإمرة ، وإن كرهت جاني ، ولم تثق بقولي ، ففعل جميل ، لاعلى ولا لى والسلام » .

بجبله ، ولا يقطع رَحْمه ، فترثت زياد يومين أو ثلاثة يروى في أمره ، ثم جمع الناس ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس : ادفَعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبُوا إلى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرتُ في أمور الناس منذُ قتل عثمان ، وفكرتُ فيهم فوجدتهم كالأضاحي . في كل عيدٍ يُذبحون ، ولقد أفنى هذان اليومان : يوم الجمل وصِفِّين ما يُنِيف على مائة ألف ، كلُّهم يزعمُ أنه طالبُ حقٍّ ، وتابعُ إمامٍ ، وعلى بصيرةٍ من أمره ، فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتلُ والمقتولُ في الجنة ، كلاً : ليس كذلك ولكن أشكلَ الأمر ، والتبسَ على القوم ، وإني لخائفٌ أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لأمريَّ بِسَلَامَةٍ دينه ؟ وقد نظرتُ في أمر الناس ، فوجدتُ أحمداً العاقبتين العافيةً ، وسأعملُ في أموركم ما تحمدون عاقبته ومغيبته ، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله » ثم نزل .

وكتب إلى معاوية يستوثق منه ^(١) ، فأعطاه معاوية جميع ما سأله ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقر به وأدناه ، وأقره على ولايته ، ثم استعمله على العراق . (شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٦٩)

٢٥٤ - خطبته وقد استلحقه معاوية

ولما أراد معاوية استلحاق زياد ، وقد قدم عليه الشام ، جمع الناس وصعد المنبر ، وأصعد زياداً معه ، فأجلسه بين يديه على المرقة ^(٢) التي تحت مرقاته ،

[١] وفي كتابه يقول : « إن كنت كتبت كتابك هذا من عقد صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك براً فسزِع في قلبي مودة وقبولاً ، وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكراً وفسادية ، فإن النفس تأبى ما فيه العطب ، ولقد قت يوم قرأت كتابك مقاماً يعابُ به الخطيب المدرس ، فتركت من حضر ، لا أهل ورد ، ولا صدر ، كالمخبرين بمهمة ضل بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير » .

[٢] المرقة بفتح الميم وتكسر : الدرجة .

وحمد الله ، وأثني عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إني قد عرّفت نسبنا أهل البيت في زياد ، فمن كان عنده شهادة فليقيم بها » ، فقام ناس ، فشهدوا أنه ابن أبي سفيان ، وأنهم سمعوا ما أقرّ به قبل موته (١) ، فلما انقضى كلام معاوية ومنأشدته ، قام زياد وأنصت الناس ، فحمد الله ، وأثني عليه ، ثم قال :

[١] فقام أبو مریم السلولی — وكان خواراً في الجاهلية فقال : أشهد يا أمير المؤمنين أن أبا سفيان قدم علينا بالطائف ، فأثاني ، فاشتريت له لحماً وحمراً وطعاماً ، فلما أكل قال يا أبا مریم : أصب لي نبياً ، فخرحت فأثيت سمية ، فقلت لها : إن أبا سفيان من قد عرفت شره وجوده ، وقد أمرني أن أصيب له نبياً ، فهل لك ؟ فقالت : نعم يحيى ، الآن عبيد معه — وكان راعياً — فإذا تعشى ووضع رأسه أثيتته ، فرحمت إلى أبي سفيان فقلت لم أحد إلا جارية الحرث بن كلدة سمية ، يقال : اثني بها على ذفرها وقدرها ، فقال له زياد : مهلا يا أبا مریم ، إنما بعثت شاهداً ، ولم تبعث شاهداً ، فقال أبو مریم : لو كنتم أعفيتموني لكان أحب إليّ ، وإنما شهدت بما عاينت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها ، وأعافت الالب عليهما ، فلم ألبث أن خرج عليّ يسبح حبيبه ، فقلت : مه يا أبا سفيان ، يقال : ما أصبت مثلها يا أبا مریم لولا استترخاء من ثديها ، وذفر في إظيها » — والدور بالتحريك ويسكن : الثن ، والذفر بالتحريك : كل ریح ذكية من طيب أو تن ، أو يخلص رائحة الإبط للثنية — وكانت أمه سمية قد وهبها أبو الحبر بن عمرو السكندی للحارث بن كلدة — وكان طيباً يعالجه — فولدت له علي فراشه نافعاً ، ثم ولدت أبا بكره ، فأنكر لونه ، وقيل له إن جارينك بنى ، فأتى من أبي بكره ومن نافع ، وزوجها عبداً وكان لابته ، فولدت علي فراشه زيادا .

وذكروا أن عمر بن الخطاب كان قد بعث زيادا في إصلاح نساد واقع باليمن ، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يسمع بمثها ، وهو ثلام حدث ، وأبو سفيان حاضر ، وعليّ عليه السلام ، وعمرو ابن الناص ، فقال عمرو : لله أبو هذا الغلام لو كان قرشياً لساق العرب بمصاه ، فقال أبو سفيان : أما والله إنه لقرشي ، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك ، يقال : ومن أبوه ؟ قال : أنا والله وضعت في رحم أمه ، قال : فهلا تستلحقه ، قل : أخاف هذا العير الجالس أن يخرق علي إمامي » .

ومن كتاب لعليّ عليه السلام إلى زياد ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديمته باستلحاقه : « وقد كان من أبي سفيان في زمن عمر بن الخطاب فتنة من حديث النمس ، ونزغة من نزغات الشيطان لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث » فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد بها ورب الكعبة ، ولم تزل في نفسه حتى ادطاء معاوية ، وكان يقال له : زياد بن عبيد ، وزياد بن أبيه ، وزياد بن سمية ، وزياد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبي سفيان ، قال الطبري : « وفي سنة ٤٤ استلحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان فيما قيل » .

« أيها الناس : هذا أمرٌ لم أشهدْ أوَّلَه ، ولا عِلْمَ لِي بِآخِرِهِ ، وقد قال أمير المؤمنين ، ما بلغكم ، وشهدت الشهود بما سمعتم ، فالحمد لله الذي رفع مِنَّا ما وضع الناس ، وحفظ مِنَّا ما ضيَّعوا ، فأما عِيْدُهُ فَإِنَّمَا هُوَ وَالِدُ مَبْرُورٍ ، أَوْ رَيْبٍ^(١) مشكور» ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٧٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥١ ، ٣ : ٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٦ ، وذيل الأمل من ١٨٩)

٢٥٥ - خطبته حين ولي البصرة (وهي البتراء)

وقدم زياد البصرة « غرة جمادى الأولى سنة ٤٥ هـ » والياً لمعاوية ابن أبي سفيان ، وضم إليه خراسان وسجستان ، والفسق بالبصرة كثير فاشي ظاهر ، فخطب خطبةً بتراء لم يحمده الله فيها ، وقيل بل قال :

« الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمة وإكرامه . اللهم كما زدتنا نعمًا ، فآلهمنا شكرًا » أما بعدُ : فإن الجهالة الجهلاء^(٢) ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حَامَاؤُكُمْ^(٣) ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعدَّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمدي^(٤) الذي لا يزول ، أتكونون كمن طرقت^(٥) عينيه الدنيا ، وسدَّتْ مسامعهُ الشهواتُ ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدت الذي لم

[١] الريب هنا : روج الأم .

[٢] هذا الوصف تأكيد للبالغة ، ومثله : وتد واتد ، ومهج هامج ، ولبلة ليلاء ، ويوم أيوم (أي شديد ، أو آخر يوم في الشهر) . [٣] عقلاؤكم . [٤] الدائم . [٥] طرف عينه : أصابه بشيء فدمعت ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر ، وطرفه عنه كضربه : صرفه وردده .

تَسْبِقُوا إِلَيْهِ ، مِنْ تَرَكَكُمْ الضَّعِيفَ يُقَهَّرُ وَيؤْخَذُ مَالُهُ ، هَذِهِ الْمَوَاقِيرَ ^(١)
 المنصوبة ، والضعيفة المسلووبة في النهار المُبْصِر ، والعددُ غيرُ قليل ، ألم يكن
 منكم مُهَيَّأٌ ^(٢) ، تمنع الغوَاةَ عن دَلَجِ ^(٣) الليل ، وغارة النهار؟ قرَّبتم القَرَابَةَ ،
 وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وَتُغْضُونَ عَلَى الْمُخْتَلِسِ ، كلُّ أمرئٍ منكم
 يَذُبُّ ^(٤) عن سفيهه ، صَنِيعٌ من لا يخاف عاقبةً ، ولا يرجو معاداً ، ما أنتم
 بِالْحَمَاءِ ، ولقد اتبعم السفهاء ، فلم يزل بكم ما تَرَوْنَ من قيامكم دونهم ، حتى
 انتهكوا حُرْمَ ^(٥) الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم ، كُنُوسًا ^(٦) في مَكَائِسِ الرِّيبِ ،
 حرامٌ على الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، حتى أَسْوَيْهَا بِالْأَرْضِ هَدْمًا وَإِحْرَاقًا .
 إني رأيت آخرَ هذا الأمرِ لا يصُحُّ إلا بما صلُحَ به أوله ، لين في غير ضعف ،
 وشدة في غير عُنف ، وإني أقسم بالله لا أخذنَّ الوَلِيَّ ^(٧) بِالْمَوْلى ، والمُقيمَ بِالظَّاعِنِ ،
 والمُقبِلَ بِالْمُدْبِرِ ، والمطيعَ بِالْعَاصِي ، والصحيحَ منكم في نفسه بالسَّقيمِ ، حتى يَلْقَى
 الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخَاهُ ، فيقول : « أَنْجُ سَعْدٌ فَقَدْ هَلَكَ سَعِيدٌ ^(٨) » أو تستقيم لي

[١] جمع ماخور : وهو بيت الرية معرب أو عرز من محرت السفينة لتردد الناس إليه .
 [٢] جمع ناه ، وغوَاة جمع طاو . [٣] السير من أول الليل . وقد أدلجوا ، فإن ساروا من آخره
 فادلجوا بالتشديد . [٤] يدوم . [٥] جمع حرمة ، وهي ما لا يجمل انتهاكها ، روى الشعبي قال :
 « لما خطب زياد خلبته التراء بالصررة ونزل ، سمع تلك الميللة أصوات الناس يسبحون ، فقال :
 ما هذا ؟ قالوا : إن البلد مغمور ، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها العتيان الفساق ، ويقال لها : زدى
 ثلاثة أصوات ، فإن أجابك أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع ! » [٦] كنوس جمع كاس أى
 مستتر كعود وجلس جمع فاعد وجالس ، وأصله من كفس الطي كضرب : دخل في كفاسه (ككفتاب)
 وهو مستتره من الشجر ، ويجمع كاس أيضا على كفس (كركع) ومنه الجوارى الكفس (وهي الحفص)
 وهي الكراك السيارة ، أو النجوم الخمسة : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد . لأنها
 تكفس في المغرب كالظباء في الكفس (ككفت) ، أو هي كل النجوم لأنها تبدو ليلا وتغوى نهاراً (وخومها أنها
 تفتب كما يخفس الشيطان إذا ذكر الله عز وجل) ومكاس الريب : مكانها المستتر جمع مكفس كجلس .
 [٧] الولي : السيد ، والمولى هنا : العبد .
 [٨] سعد وسعيد هما ابنا صبة بن أدّ خرجا في طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سعد فردها وقتل سعيد ،
 فكان ضبة إذا رأى سوادا تحت الليل قال : سعد أم سعيد ؟ .

قَنَاتُكُمْ، إِنْ كَذِبَ الْمِنْبَرُ بِلِقَاءِ^(١) مشهورة ، فإذا تعلقتم على كذبة فقد حلت لكم معصيتي^(٢) ، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها^(٣) في ، واعلموا أن عندي أمثالها ، من ثقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه^(٤) ، فأبى ودأج الليل ، فأني لا أوتى بمذبح إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم^(٥) ، وإبى ودعوى الجاهلية^(٦) ، فأني لا أجد أحدا دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثا لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن ثقب بيتنا ثقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنناه حياً فيه ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم ، أكف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف^(٧) ما عليه عامتكم ، إلا ضربت عنقه ، وقد كانت بيني وبين أقوام إحن^(٨) ، فجعلت ذلك

[١] من اللق بالتحريك وهزارتماع التحجيل في الفرس إلى المحدثين (والجحيل : باس و قوائم الفرس) ، والفرس البلقاء مشهورة لتغيرها عما سواها بيلها . [٢] في الطبري « قال الشعبي : والله ما تعلمنا عليه بكذبة ، ولا وعدنا خيرا ولا شراً إلا أنه » . [٣] عدوها من عيوي ، واعتمره : طعن عليه . [٤] في الطبري : « وكان زياد أول من سد أمر السلطان ، وأكدم الملك معاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وحرر السيف ، وأخذ بالطننة ، وعاف على الشبهة ، ووجه الناس في سلطانه خوفاً شديداً ، حتى أمن الناس بعضهم بعضاً ، حتى كان الشيء سقط من الرجل أو المرأة ، ولا يعرض له أحد . حتى يأتيه صاحبه ، فأخذه ، وتبيت الرأس . ولا تعلق عليها لها ، وساس الناس سياسة لم يرمثها ، وهابه الناس هبة لم يهابوها أحداً قبله ، وكان يقول : « لو صاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه » . [٥] في الطبري : « استعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصن ، وأمهل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد إليه وصول الخبر إلى الكوفة ، وذن يؤخر العشاء حتى يكون آخر من يسلي ، ثم يسلي ، يأمر رجلاً يقرأ سورة البقرة ومثلها ، يرتل القرآن ، فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنساناً يبالغ الحربية (كجنيبة موضع بالبصرة يسمى البصيرة الصعري) ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ، ولا يرى إنساناً إلا قتله فأخذ ليلة أعرايا ، وأتى به زياد ، فقال : هل سمعت النداء ؟ قال : لا والله ، قدمت بحلوبة لي ، وعشيتي الليل ، فأظطرتهم إلى موضع ، فأقت لأصبح ، ولا علم لي بما كان من الأمير ، قال : أظنك والله صادقاً ، ولكن في فنك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه » . [٦] قولهم : يا فلان ، والفرس مناصرة العصبية . [٧] أي تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم . [٨] جمع إحنة ، وهي الحقد والضيئة .

دَبَّرَ أذْنِي ^(١) وَتَحْتَ قَدَمِي ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُحْسِنًا فَلْيَزِدْ إِحْسَانًا ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسِيئًا فَلْيَنْزِعْ عَنِ إِسَاءَتِهِ ، إِنِّي لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُمْ قَدْ قَتَلَ السُّلَّ مِنْ بَعْضِي لَمْ أَكْشِفْ لَهُ قِنَاعًا ، وَلَمْ أَهْتِكْ لَهُ سِتْرًا ، حَتَّى يُبْدِيَ لِي صَفْحَتَهُ ^(٢) ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ أَنَاظِرْهُ ، فَاسْتَأْنَفُوا أُمُورَكُمْ ، وَأَعِينُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، فَرُبَّ مُبْتَلِئٍ سَيُدْخِلُهُ اللَّهُ فِي سَيِّئَاتِهِ ، وَمَسْرُورٍ بِقُدُومِنَا سَيَبْتَلِيهِ .

— أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُمْ سَاسَةً ، وَعَنْكُمْ ذَادَةٌ ، نَسُوسِكُمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي أَعْطَانَا ، وَنَذُودُ عَنْكُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّذِي خَوَّلَنَا ^(٣) ، فَلَنَا عَلَيْكُمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحْبَبْنَا ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ فِيمَا وَلَيْنَا ، فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفِيئَنَا بِمَنَاصِحَتِكُمْ لَنَا ، وَاعْلَمُوا أَنِّي مَهْمَا قَصَّرْتُ عَنْهُ ، فَلَنْ أَقْصَرَ عَنْ ثَلَاثٍ : لَسْتُ مُحْتَجِبًا عَنْ طَالِبِ حَاجَةٍ مِنْكُمْ ، وَلَوْ أَتَانِي طَارِقًا بَلِيْلًا ، وَلَا حَابِسًا عَطَاءً وَلَا رِزْقًا عَنِ إِبَانِهِ ^(٤) ، وَلَا مُجْمَرًا ^(٥) لَكُمْ بَعَثًا ، فَادْعُوا اللَّهَ بِالصَّلَاحِ لِأَعْمَتِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ سَاسَتُكُمُ الْمُؤَدِّبُونَ لَكُمْ ، وَكَهَفَكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَأْوُونَ ، وَمَتَى يَصْلِحُوا تَصْلِحُوا ، وَلَا تُشْرِبُوا قُلُوبَكُمْ بِغَضَبِهِمْ ، فَيَشْتَدَّ لَذَلِكَ غَيْظُكُمْ ، وَيَطْوِلَ لَهُ حَزْنُكُمْ ، وَلَا تُدْرِكُوا لَهُ حَاجَتَكُمْ ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتُجِيبَ لَكُمْ فِيهِمْ لَكَانَ شَرًّا لَكُمْ . أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَعِينَنِي كُلًّا عَلَى كُلِّ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفِذْ فِيكُمْ الْأَمْرَ ، فَأَنْفِذُوهُ عَلَى أَذْلَالِهِ ^(٦) ، وَإِيْمُ اللَّهُ إِنْ لِي فِيكُمْ لَصَرْعَى كَثِيرَةٌ ، فَلْيَحْذَرِ كُلُّ أَمْرٍ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَرْعَايَ .

[١] أى خلف أذنى وقد اقتبسها من كلام معاوية كما مر بك .
[٢] أى يجاهرني بالعداوة . [٣] ملكنا ، والوء ما كان شمسا فينسخه الظل ، والحراج ، أى تدفع عنكم بطل الله ونعمته التى وهبنا أو ندفع عنكم بما صار فى أيدينا من أموال الحراج .
[٤] وقته وموعده . [٥] جمر الجهد : حبسهم فى أرض العدو ولم يقفلهم .
[٦] أى وحومه وطرقه جمع ذل بالكسر ، وذلك الطريق : محبته ، وأمور الله جارية على أذلالها أى مجاريا .

فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال : « أَشْهَدُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ لَقَدْ أُوتِيَتْ الْحِكْمَةُ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ » ، فقال له : « كَذَبْتَ . ذَاكَ نَبِيُّ اللَّهِ دَاوُدَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ »
 فقام الأحنف بن قيس ، فقال : « إِنَّمَا الشَّاءُ بَعْدَ الْبَلَاءِ ، وَالْحَمْدُ بَعْدَ الْعَطَاءِ ، وَإِنَّا لَنُؤْتِيهِ حَتَّى نَبْتَلِيَّ » ، فقال له زياد : صدقت ، فقام أبو بلال مرْدَاس (١)
 ابن أَدِيَّةٍ وَهُوَ يَهْمِسُ وَيَقُولُ : أَنبَأْنَا اللَّهُ بِغَيْرِ مَا قُلْتَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَابْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، الْأَتْرُورُ وَازِرَّةٌ وَزِرُّ أَخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى »
 وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ تَأْخُذُ الْبِرَّ بِالسَّقِيمِ ، وَالْمَطِيعَ بِالْعَاصِي ، وَالْمُقْبِلَ بِالْمُدْبِرِ ، فَسَمِعَهَا زِيَادٌ ، فَقَالَ : « إِنَّا لَا نَبْلُغُ مَا نُرِيدُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ حَتَّى نَخْوُضَ إِلَيْكُمْ الْبَاطِلَ خَوْضًا » .

(البيان والنبين ٢ : ٢٩ ، والعقد القربد ٢ : ١٥٠ ، وصحح الأعشى ١ : ٢١٦ ،
 وتاريخ الطبرى ٦ : ١٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٢٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد
 م ٤ : ص ٥٧ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤١ ، وديب الأمل ١٨٨)

٢٥٦ — خطبته بالكوفة وقد ضمت إليه

ولما مات المغيرة بن شُعْبَةَ أمير الكوفة سنة ٥٠ هـ ، ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، فكان أول من جُمِعَ له الكوفة والبصرة (٢) ، فاستخلف على البصرة ، وشخص إلى الكوفة فأتاها ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « إِنْ هَذَا الْأَمْرُ أَتَانِي وَأَنَا بِالْبَصْرَةِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَشْخَصَ إِلَيْكُمْ فِي الْفَيْنِ مِنْ شُرْطَةِ الْبَصْرَةِ ، ثُمَّ ذَكَرْتُ أَنْكُمْ أَهْلُ حَقِّ ، وَأَنْ حَقَّكُمْ طَالَمَا دَفَعَ الْبَاطِلُ ، فَأَتَيْتُكُمْ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ مِنِّي مَا وَضَعَ لِلنَّاسِ ، وَحَفِظَ مِنِّي مَا ضَيَّعُوا حَتَّى فَرَّغَ مِنَ الْخُطْبَةِ (٣) » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٣١)

[١] وهو من رؤساء الحوارج .

[٢] وكان يقيم ستة أشهر بالكوفة ، وستة أشهر بالبصرة . [٣] قال الطبرى : خصص على المنبر ، (أى رعى بالحسب ، وهى الحصى) جلس حتى أمسكوا ، ثم دعا قوما من خاصته ، وأمرهم ، فأخذوا أبواب

٢٥٧ - خطبة أخرى له بالكوفة

وروى الطبرى أيضاً قال :

« جُمِعَت الكوفة والبصرة لزياد بن أبى سفيان ، فأقبل حتى دخل القصر

بالكوفة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإننا قد جُرِّبنا وجرَّبنا ، وسُنِّنا وسأسننا السائسون ، فوجدنا

هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح أوله ، بالطاعة اللينة المشبهة سرها

بعلانياتها ، وغيب أهلها بشاهدهم ، وقلوبهم بألسنتهم ، ووجدنا الناس لا يصلحهم

إلا لين في غير ضعف ، وشدة في غير عُنف ، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا

أمضيته على أذلاله ، وليس من كذبة الشاهد عليها من الله والناس أكبر من

كذبة إمام على المنبر ، ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرَّظهم ، وذكر قتلته واعنهم .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٤٢)

٢٥٨ - خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة

وكان زياد قد ولى الكوفة عمرو بن الحرث ، ورجع إلى البصرة ، فبلغه

أن حُجْر بن عدى يجتمع إليه شيعة على ، ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ،

وأنهم حصَّبوا عمرو بن الحرث ، فشخص إلى الكوفة ، حتى دخلها ، فأتى

القصر ، ثم خرج فصعد المنبر ، وعليه قباء سُندُس ، ومُطْرَف خَزٍّ أخضر ، قد

فرَّق شعره ، وحجر جالس في المسجد حوله أصحابه أكثر ما كانوا ، فحمد الله ،

وأثنى عليه ، ثم قال :

المسجد ، ثم قال : يأخذ كل رجل منكم جليسه ، ولا يقولان لا أرى من جالسى ، ثم أس ، بكرسى فوضع له على باب المسجد ، فدعاهم أربعة أربعة ، يحلفون بالله ما منا من حصبك ، فن حاب خلاه ، ومن لم يحلف حبسه وعرله ، حتى صار إلى ثلاثين ، ويقال بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان .

« أما بعد : فَإِنَّ غَيْبَ الْبَغِيِّ وَالنَّغْيَ وَخَيْمٌ ، إِنَّ هُوَ لَأَمْ جَمُوعٌ ^(١) فَأَشِيرُوا ،
وَأَمِنُونِي فَاجْتَرُوا عَلَيَّ ، وَإِيْمُ اللَّهِ لَنْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِأَدَاوِيْنَكُمْ بِدَوَائِكُمْ ، وَقَالَ :
مَا أَنَا بِشَيْءٍ إِنْ لَمْ أَمْنَعْ بِأَحَاةٍ ^(٢) الْكُوفَةَ مِنْ حُجْرٍ ، وَأَدْعُهُ نَكَالًا لِمَنْ بَعْدَهُ ،
وَيَلُّ أُمَّكَ يَا حَجْرٌ ، سَقَطَ الْعَشَاءُ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ ^(٣) » . (تاريخ الطبري ٦ : ١٤٣)

٢٥٩ - خطبة أخرى له

وخطب زياد فقال :

« استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ ، فوالله لا يأتيني
شيخ بشابٍ قد استخفَّ به إلا أوجعته ، ولا يأتيني عالم بجاهل استخفَّ به إلا
نكلتُ به ، ولا يأتيني شريف بوضيع استخفَّ به إلا انتقمته له منه » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٣ ، والقصد الفريد ٢ : ١٥١ ، شرح ابن أبي عمير ٤ ص ٧٤)

٢٦٠ - خطبة أخرى

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس : لا يمنعكم سوء ما تعامون منا أن تلتفتوا بأحسن ما تسمعون
منا ، فإن الشاعر يقول :

اعمل بقولي وإن قصرتُ في عملي ينفعك قولي ولا يضرُّك تقصيري

٢٦١ - وصية لزياد

وروى الجاحظ عن عمرو بن عُبيد أنه قال : كتب عبد الملك بن مروان
وصية زياد بيده ، وأمر الناس بحفظها وتدبر معانيها وهي :

« إن الله عز وجل جعل لعباده عقولا ، عاقبهم بها على معصيته ، وأثابهم

[١] من جم الماء جوما : كثر واجتمع . [٢] الباحة : الساحة . [٣] هو مثل : وأصله أن
رجلا خرج يلتمس العشاء ، فوقع على ذئب فأكله ، يضرب و طلب الحاجة يؤدي بصاحبها إلى الف .

بها على طاعته ، فالناس بين مُحْسِنٍ بنعمة الله عليه ، ومُسِيءٍ بِخِذْلَانِ الله إياه ، والله
النعمةُ على المحسن ، والحجّةُ على المسيء ، فما أولى مَنْ تَمَّتْ عليه النعمةُ في نفسه
ورأى العِبْرَةَ في غيره ، بأن يضع الدنيا بحيثُ وضعها الله ، فيعطى ما عليه منها ،
ولا يتكثّر بما ليس له منها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من
لقاء الله ، فأحذركم الله الذي حذركم نفسه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخرته العَجَزَةُ ،
قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقديرون على توبة ، وليس لكم
منها أَوْبَةٌ ، وأنا أستخلف الله عليكم ، وأستخلفه منكم .

قال الجاحظ : وقد روى هذا الكلام عن الحجاج ، وزيادٌ أحق به منه .

(البيان والتبيين ١ : ٢٠٦)

٢٦٢ — ما كان يقوله لمن ولاه عملاً

وكان زياداً إذا ولى رجلاً عملاً قال له :

« خذ عهدك ، وسِرِّ إلى عمالك ، واعلم أنك مصروفٌ رأسَ سَدَّتِكَ ، وأنتك
تصير إلى أربعِ خِلال ، فاختر لنفسك . إنا إن وجدناك أميناً ضعيفاً ، استبدلنا
بك لضعفك ، وسلمتُك من مَعَرَّتِنَا أمانتُك ، وإن وجدناك قوياً خائناً استهنا
بقوتك ، وأوجعنا ظهرك ، وثقلنا غرْمك ، وإن جمعت علينا الجرْمين ، جمعنا
عليك المَضْرَتين ، وإن وجدناك أميناً قوياً ، زدنا في عمالك ، ورفعنا ذكرك ،
وكثرنا مالك ، وأوطأنا عقيبك » . (الأمل ٢ : ٨٢)

٢٦٣ — خطبة الضحّاح بن قيس الفهري بالكوفة ^(١) (قتل سنة ٦٤ هـ)

وخطب الضحّاح بن قيس الفهريّ على منبر الكوفة — وقد كان بلغه أن

[١] ولاه معاوية الكوفة سنة ٥٥ هـ إلى سنة ٥٨ هـ ثم جعله على شرطته ، ولما مات معاوية الثاني بايعه
أهل دمشق على أن يعلى بهم ، ويقم لهم أمرهم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ،

قوماً من أهلها يشتمون عثمان وَيَبْرءون منه ، فقال :

« بلغني أن رجلاً منكم ضللاً يشتمون أئمة الهدى ، ويميّبون أسلافنا الصالحين ، أما والذي ليس له نِدٌّ ولا شريك ، لئن لم تنتهوا عما يبلغني عنكم ، لأضعنَّ فيكم سيفَ زياد ، ثم لا تجدونني ضعيفَ السَّوْرة (١) ، ولا كليلَ الشِّفرة (٢) ، أما إني لصاحبكم الذي أغرتُ على بلادكم (٣) ، فكنتُ أولَ من غزاها في الإسلام ، وشرب من ماء الشَّعْلبِيَّةِ ومن شاطئِ الفُراتِ ، أعافب من شدتُ ، وأعفو عن شدت ، لقد ذعرتُ المُخَدَّرَاتِ في خُدُورهن ، وإن كانت المرأةُ ليبيكي أبناً فلا تُرهبُه ولا تُسكِّته إلا بذكر اسمي ، فاتقوا الله يا أهلَ العراق ، أنا الضحَّاك بن قيس ، أنا أبو أنيس ، أنا قاتلُ عمرو بن مُحمَّس . »

فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد ، فقال : « صدق الأمير ، وأحسن القول ! ما أعزَّفنا والله بما ذكرت ! ولقد لقيناك بعربيٍّ تدمُر فوجدناك شجاعاً مجرباً صبوراً (٤) ! » ثم جلس ، وقال : أيفخر علينا بما صنع ببلادنا أول ما قدم ؟

ويبعه من إظهار ذلك أن بي أمية كانوا يحصرته ، وكان يعمل في ذلك سرا ، ثم نشبت الحرب بينه وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودائرة الدائرة على جيش الصحاك وول منتصف دي الحجة سنة ٦٤ هـ .

[١] سورة السلطان : سطوته واعتداؤه . [٢] الشفرة : حد السيف ، وكليل : عر فاطم .

[٣] وكان ذلك سنة ٣٩ هـ ، دماه معاوية ، وقال : سر حتى تمر بناحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت ، فن وجدته من الأعراب في طاعة عليّ وأغر عليه ، وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً وأغر عليها فسرحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ، فأقبل الصحاك فنهب الأموال ، وقتل من لقي من الأعراب ومر بالثعلبية فأطار على مسالح عليّ وأخذ أمتعتهم ، ومضى حتى انتهى إلى النطفانة ، وأتى عمرو بن عميس ابن مسعود - وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود - وكان في خيل عليّ ، وأمامه أهله ، ودو يريد الحج ، فقتله وقتل ناساً من أصحابه ، فلما بلغ ذلك علياً سرح حجر بن عدى الكندي في أربعة آلاف ، فلم يزل مفداً في أثر الصحاك حتى لقيه بناحية تدمر فواقعه ، فاقتلوا ساعة ، فقتل من أصحاب الصحاك تسعة عشر رجلاً ، وقتل من أصحاب حجر رجلاً ، وحجز الليل بينهم ، بهرب الصحاك وأصحابه ، فلما أصبحوا لم يجدوا لهم أثراً - شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٧٨ - .

[٤] هذا القول تهكم به كما ترى .

وايمُ الله لأذْكَرَنَّه أبغضَ مواطنه إليه ، فسكت الضحاك قليلا ، وكأنه خزي واستحيا ، ثم قال : نعم ، كان ذلك اليوم بأخرة^(١) - بكلام ثقيل - ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥٥)

٢٦٤ - خطبته عند موت معاوية

ولما مات معاوية (سنة ٦٠ هـ) خرج الضحاك بن قيس الفهري - وكان صاحب شُرطته - حتى صعد المنبر ، وأكفان معاوية على يديه تلوح ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن معاوية كان عمودَ العرب ، وحدَّ العرب ، قطع الله عزَّ وجلَّ به الفتنة ، ومأكبه على العباد ، وفتح به البلاد ، ألا إنه قد مات ، فهذه أكفانُهُ ، فنحن مُدرِّجوه فيها ، ومُدْخِلوه قبره ، ومُخْلُون بينه وبين عمله . ثم هو في البرزخ^(٢) إلى يوم القيامة ، فمن كان منكم يريد أن يشهده فليحضره عند الأولى^(٣) » .
(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٢ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٥٠)

٢٦٥ - خطبة النعمان بن بشير بالكوفة^(٤) (قتل سنة ٦٤ هـ)

خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة ، فقال :

[١] يقال : جاء أخرة وبأخرة بالجرم : أى آخر كل شيء .
[٢] البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، من وقت الموت إلى البعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ .
[٣] وفى العقد « فمن أراد حضوره صلاة الطهر فليحضره » .
[٤] ولى الكوفة وحمص لمعاوية وبزيد ، وكان هراة معهما ، وميله لإنهما ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا الناس إلىبيعة عند الله بن الزبير بالنشأم ، وكان أول من حالف من أمراء الأجناد - وكان والياً على حمص - وانضم إلى الصحاك بن قيس الفهري ، وأمدته بحيش من أهل حمص عليه شرحبيل بن ذى الكلاع ونسبت الحرب بين الصحاك ، وبين مروان بن الحكم فى مرج راهط ، ودارت الدائرة على جيش الصحاك وقيل كما قدما ، فلما بلغ الخبر النعمان بن بشير خرج من حمص هاربا ليلا ومعه امرأته وولده ونقله ، فسار ليلته جمعا متعبراً لا يدري أين يأخذ ، فاتبعه خالد بن عدى الكلاعي فيمن خف معه من أهل حمص ، فلققه وقلة وامت رأسه إلى مروان ، وكان قتله فى ذى الحجة سنة ٦٤ هـ .

« يَأْهَلُ الْكُوفَةَ : إِنْى وَاللهَ مَا وَجَدْتِ مَثَلِي وَمِثْلَكُمْ إِلَّا الضَّبْعَ وَالثَّعْلَبَ ،
أْتِيَ الضَّبَّ فِي جُجْرِهِ ، فَقَالَا : أْبَا الْحِسْلِ (١) . قَالَ : أَجْبَيْتُكُمْ . قَالَا : جِئْنَاكَ
نَحْتَصِمُ . قَالَ : فِي بَيْتِهِ يُؤْتَى الْحَكَمَ . قَالَتِ الضَّبْعُ : فَتَحَتْ عَيْنِي . قَالَ : فِعْلًا
النِّسَاءُ فَعَلَتْ . قَالَتْ : فَلَقَطْتُ تُمْرَةً . قَالَ : حُلُوا اجْتَنِبْتِ . قَالَتْ : فَاخْتَطَفَهَا
ثُعَالَةٌ (٢) . قَالَ : لِنَفْسِهِ بَغَى الْخَيْرِ . قَالَتْ : فَطَمَتَهُ لَطْمَةً . قَالَ : حَقًّا قَضَيْتِ .
قَالَتْ : فَلَطَمَنِي أُخْرَى . قَالَ : كَانَ حَرًّا فَاتْتَصِرُ . قَالَتْ : فَافْضِ الْآنَ بَيْنَنَا . قَالَ :
حَدَّثْتُ حَدِيثَيْنِ امْرَأَةً ، فَإِنْ لَمْ تَفْهَمْ فَأَرْبَعَةٌ (٣) . »

(المعجم المرید ١ : ٢٦٩ - ٢ : ١٥٨ ، مجمع الأئمة للميداني ٢ : ١٣)

٢٦٦ - خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية

(قتل سنة ٦٧ هـ)

قدم عبيد الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد ، فجعل يتصدى منه
بخلوة ، ليدبر من رأيه ما كره أن يُشرك في علمه ، فاستأذن عليه بعد انصداع
الطلاب ، واشتغال الخاصة ، واقتراق العامة ، وهو يوم معاوية الذي كان يخلو
فيه بنفسه ، ففطن معاوية لما أراد ، فبعث إلى ابنه يزيد وإلى مروان بن الحكم
وإلى سعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحكم ، وعمرو بن العاص ، فلما أخذوا
مجالسهم أذن له ، فسلم ، ووقف واجماً يتصفح وجوه القوم ثم قال :

[١] أبو حسل وأبو حسيل : كنية الضب ، وفي مجمع الأئمة أن المتعاصمين : الأرنب والثعلب .
[٢] ثعالة : اسم الثعلب الذكر والأنثى . [٣] وقد ذهب أفعال السب كلها أمالاً ، قال الميداني في
شرح المثل الأخير (١ : ١٣٠) : « أى زد ، وأراد بالحدثين حديثاً واحداً تكرره مرتين ، فكأنك
حدثتها بحديثين ، والمعنى كرر لها الحديث لأنها أضعف فهما ، فإن لم تفهم فاجعلها أربعة ، وقال أبو
سعيد : فإن لم تفهم بعد الأربعة ، فالربعة (والربعة ككناسه : العصا) وبروى : فاربع « أمر من ربيع
دنع » أى كفى ، يضرب في سوء السمع والإجابة . »

« صَرِيحِ الْعُقُوقِ مُكَاتِمَةُ الْأَذْنَيْنِ ، لِأَخِيرِ فِي اخْتِصَاصٍ وَإِنْ وَقَرَ ،
 أَحْمَدُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ عَلَى الْآلَاءِ ^(١) ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى اللَّأْوَاءِ ^(٢) ، وَأَسْتَهْدِيهِ مِنْ عَمِّي
 مُجْهِدٍ ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى عَدُوِّ مُرْصِدٍ ^(٣) ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْمُنْقِذِ بِالْأَمِينِ
 الصَّادِقِ مِنْ شَفَا جُرْفِ هَارٍ ^(٤) ، وَمِنْ بَدِّ غَارٍ ^(٥) ، وَصَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَى الزَّكِيِّ نَبِيِّ
 الرَّحْمَةِ ، وَنَذِيرِ الْأُمَّةِ ، وَقَائِدِ الْهُدَى ، أَمَا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : فَقَدْ عَسَفَ بِنَاظِنٍ
 فَرَعٍ ^(٦) ، وَقَذَعٍ ^(٧) صَدَّعٍ ، حَتَّى طَمِعَ السَّحِيقُ ^(٨) ، وَيَتَسَّ الرِّفِيقُ ، وَدَبَّ
 الْوُشَاهُ بِمَوْتِ زِيَادٍ ، فَكَلَّهْمُ مُسْتَحْقِرٍ ^(٩) لِلْعِدَاوَةِ ، وَقَدْ قَلَّصَ الْآزْرَةَ ^(١٠) ، وَشَمَّرَ
 عَنْ عِطَافِهِ ^(١١) لِيَقُولَ : مَضَى زِيَادٌ بِمَا اسْتُلْحِقَ بِهِ ، وَدَلَّ عَلَى الْأَنَاءَةِ ^(١٢) مِنْ
 مُسْتَلْحِقِهِ ، فَلَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَلِمَ فِي دَعْتِهِ ^(١٣) ، وَأَسْلَمَ ^(١٤) زِيَادًا فِي ضَيْعَتِهِ ،
 فَكَانَ تَرَبًا ^(١٥) عَامَّتَهُ ، وَأَحَدَرَعِيَّتَهُ ، فَلَا تَشْخَصَ ^(١٦) إِلَيْهِ عَيْنُ نَازِرٍ ، وَلَا إِصْبَعُ

[١] العم . [٢] الشدة . [٣] ارضدت له : أعددت . [٤] الشبا : حرف كل شيء ،
 والجرف كعق وقفل ما تحرقه السيول وأكاته من الأرس ، وهار الجرف اصدع ولم يسقط فهو هار
 كقاش ، وهو مقلوب من هائر ، فإذا سقط فقد انهار وتهور . [٥] البد : السب ، والعارى :
 الملازم التامل ، من عرا السمن قابه لرق به وعطاه . [٦] فرع بين العزم وفرق بمعنى واحد ، أى
 أن هذا الظن فرق بيننا وبينك خافيتنا . [٧] هى فى الأصل « فرع » وأراها محرفة عن ودع وهى
 التى تناسب المقام . ودعه ودعا (بالسكون) رماه بالفحش وسوء العول كأودعه ، والذعج محرقة الحنا
 والفحش والغدر ، وصدع شقق وفرق أى أن مارمانا به الوساة لديك من سوء العول فرق بيننا وبينك .
 [٨] البعيد . [٩] فى الأصل هكذا بمعنى محقر ، أى محقر لما لمعادناه إيانا ، أو أنه لا يزال
 بمعادتنا لما تابنا من الضعف بموت زياد ، وربما كان « متحقر للعداوة » أى متوثب مستوفر أو « مسحفر
 للعداوة » من اسحفر إذا مضى مسرعا . [١٠] الأزرة والأزر بضمين جمع إزار وهو اللحية .
 [١١] العطاف : الرداء ، وجمعه عطف بضمين ، وأعطفه ، وكذا المظف بالكسر ، وهو مل إزار ،
 ومئزر ، ولحاف ، وملحف .

[١٢] فى الأصل « الأبيه » وأراه محرفا عن « الأناءة » وهى الحلم . [١٣] الدعة الحفض .

[١٤] أسله : خذله أى وليته ترك زيادا ضائع النسب مغمورا ولم يستلحقه .

[١٥] الترب : من ولد معك . أى فكان تربا لأحد عامة الناس ، ولم يكن تربا لك فلا يقدرك فدر

[١٦] أى فلا ترتفع .

مُشِير، وَلَا تَنْدَلِقِ^(١) عَلَيْهِ أَلْسُنُ كَلِمَتِهِ حَيًّا ، وَنَبَشْتَهُ مَيْتًا ، فَإِنْ تَكُنْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَائِدًا زِيَادًا بِأُولِ رُفَاتٍ ، وَدَعْوَةِ أَمْوَاتٍ ، فَقَدْ حَابَكَ زِيَادٌ بِجِدِّ هَصُورٍ ، وَعَزْمِ جَسُورٍ ، حَتَّى لَأَنْتَ شَكَاؤُ الشَّرْسِ ، وَذَلَّتْ صَعْبَةُ الْأَشُوسِ^(٢) ، وَبَدَّلَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَمِينَهُ وَيَسَارَهُ ، تَأْخُذُ بِهِمَا الْمَنِيْعَ ، وَتَقَهَّرُ بِهِمَا الْبَدِيْعَ ، حَتَّى مَضَى وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ، فَإِنْ يَكُنْ أَخَذَ بِحَقِّ أَنْزَلِهِ مَنَازِلَ الْأَقْرَبِينَ ، فَإِنْ لَنَا بَعْدَهُ مَا كَانَ لَهُ ، بِدَالَةِ الرَّحِمِ ، وَقِرَابَةِ الْحَمِيمِ ، فَهَلَا لَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَعْمَى الضَّرَاءِ^(٣) ، وَنُشْتَفُّ النُّضَارَ^(٤) ؟ وَلَكَ مِنْ خَيْرِنَا أَكْمَلُهُ ، وَعَلَيْكَ مِنْ حُوبِنَا^(٥) أَثْقَلُهُ ، وَقَدْ شَهِدَ الْقَوْمَ ، وَمَا سَاءَ نِي فَرَبِّهِمْ لِيُقَرَّرُوا حَقًّا ، وَيُرَدُّوا بَاطِلًا ، فَإِنْ لَلْحَقِّ مَنَارًا وَاضِحًا ، وَسَبِيلًا قَصْدًا^(٦) . فَقُلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَيِّ أَمْرٍ يَكُ شَيْءٌ ، فَهَلَا نَأْرِزُ^(٧) إِلَى غَيْرِ جُحْرِنَا ، وَلَا نَسْتَكْثِرُ بِغَيْرِ حَقِّنَا ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

٢٦٧ - رَدِّ مَعَاوِيَةَ عَلَى ابْنِ زِيَادٍ

فَنظَرَ مَعَاوِيَةَ فِي وَجْهِ الْقَوْمِ كَمَا لَمْتَعَجَبٌ ، فَتَصَفَّحَهُمْ بِلِحْظِهِ رَجُلًا رَجُلًا وَهُوَ يَبْتَسِمُ ، ثُمَّ أَتَجَّهُ تِلْقَاءَهُ ، وَعَقَدَ حُبُوتَهُ^(٨) ، وَحَسَرَ عَنِ يَدِهِ ، وَجَعَلَ يُومِيئُ بِهَا ، ثُمَّ قَالَ مَعَاوِيَةَ :

-
- [١] اندلق السيل : اندفع ، والسف اسلّ بلاسل أو شق جمع نخرج منه ، وكلته جرحته وآدته .
 [٢] وصف من السوس بالتحريك ، وهو النظر بمؤخر العين تكبرا ، أو تغيظا .
 [٣] الضراء : الشجر الملتف في الوادي ، يقال توارى الصيد منه في ضراء ، وفلان يمشى الضراء إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر . [٤] اشتف ما في الإماء : شربه كله ، والنصار : الذهب أو الفضة ، والمراد : تمنع منه ، ولا تمكن من أحده ، أي يحال بيننا وبين الولاية .
 [٥] الحوب بضم الحاء وفتحها : الإثم ، أي وهلك من آثامنا التي ارتكبناها في سبيل تأييد سلطانك اتقلها ، وفي بعض النسخ : « من جوابنا » أي من جوابنا حين يسألنا للمولى عما أتينا من أخذ الناس بالسف والإرهاق لتمكين ملكك [٦] القصد : استقامة الطريق .
 [٧] من أرزت الحية أي لاذت بجحرها ورجعت إليه . [٨] احتى بالثوب : اشتغل ، أو جمع بين بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوقة ، وحسر : كشف .

« الحمد لله على ما نحن فيه ، فكلُّ خيرٍ منه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، فكلُّ شيءٍ خاضعٌ له ، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله ، ذلك على نفسه بما بانَ عن عجزِ الخلق أن يأتوا بمثله ، فهو خاتمُ النبيين ، ومُصدِّقُ المرسلين ، وحجَّةُ ربِّ العالمين ، صلوات الله عليه وبركاته ، أما بعد : فرُبُّ خيرٍ مستور ، وشرٌّ مذكور ، وما هو إلاَّ السَّهمُ الأخببُ لمن طار به ، والحظُّ المرغِبُ لمن فاز به ، فيهما التفاضلُ وفيهما التغايبُ ، وقد صَفَقَتْ ^(١) يداي في أيبك صَفَقَةً ذى الخَلَّةِ من رواضعِ الفُصْلانِ ، عامِلَ اصطناعِي ^(٢) له بالكُفْرِ لما أوليته ، فما رهيتُ به إلا اتصل ^(٣) ، ولا اتضيتُهُ ^(٤) إلا غُلِقَ جَفْنُهُ ، ولزَّت ^(٥) لَسَعَتُهُ ، ولا قُلْتُ إلا عانَدَ ، ولا قمتُ إلا قعد ، حتى اختَرَمَهُ ^(٦) الموت ، وقد أُوْفِعَ بِخِشْرِهِ ^(٧) ، ودَلَّ على حِقْدِهِ ، وقد كنتُ رأيتُ في أيبك رأياً حَضَرَهُ الخَطَلُ ، والتبس به الزَّلَلُ ، فأخذ مني بِحِظِّ الغَفَاةِ ، وما أُرِيُّ نَفْسِي ، إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ ، فما بَرِحَتْ هَنَاتُ ^(٨) أيبك تَحْطِبُ في جبلِ القَطِيعَةِ ، حتى انتكثت ^(٩) المُبْرَمَ ، وأنحَلَّ عِقْدُ الودادِ ، فيالها تَوْبَةٌ تُؤْتِنَفُ ^(١٠) من حَوْبَةٍ أورتتُ ندما ، أسمعُ بها الهاتِفُ ، وشاعتُ للشامتِ ، فليهنأ ^(١١) الواشِمَ ما به احتقر ، وأراك تحمَدُ من أيبك جِدًّا

[١] صفق له بالبيع ، وصفت يده ، وعلى يده صففا وصفقه : صرب يده على يده ، وذلك عند وجوب

البيع ، والفصلان جمع فصيل : وهو ولد الباقة إذا فصل عن أمه ، والخَلَّة : الحاجة .

[٢] اصطنعه لنفسه : اختاره لخاصة أمر استكفاه لِيَا . [٣] انصل السهم : سقط لصله .

[٤] انتضى السف : استله ، والجفن : عمدة السيف . [٥] لزت : طعه .

[٦] أهلكه . [٧] الحتر : العدر والحديعة ، أو أوجع العدر ، وأوجع به : أهلكه .

[٨] أعماله وسبائنه جمع مه . [٩] انحل وانقص . [١٠] تؤتنب : تستأنب ، والحوبة :

الإثم والذنب . [١١] من ماء الطعام أى ساغ ولد ، والواشم فاعل من الوشم ، وشم يده إذا غرزاها

بإبرة ثم در عليها النيلج ، والمراد به هنا المعادى — والوشيمة : العداوة — أى فهيمتا لأعدائه الذبن حفروه

ونالوا من عرضه ، فهو أهل لما قيل فيه : « يرد معاوية بذلك على قول عبيد الله قبل : « ولا تتدلق عليه

أسن كلته حيا ، ونبشه ميتا » .

وجسورا^(١) هما أوقيا به على شرف التَّقَحُّمِ^(٢) ، وغَبَطِ النعمة ، فدَعَمَها فقد
أذكرتَنا منه مازهدنا فيك من بعده ، وبهما مشيتَ الضراء ، واشتفتَ النضار ،
فاذهب ، إليك ، فأنت نَجَلُ الدَّغَلِ^(٣) ، ونَثْرُ النَّغْلِ^(٤) ، والأجر شَرٌّ .

٢٦٨ - مقال يزيد بن معاوية

فقال يزيد : « يا أمير المؤمنين إن للشاهد غيرَ حكم الغائب ، وقد حضرَكَ
زياد ، وله مواطنٌ معدودةٌ بخير ، لا يُفْسِدُها التَّظَنِّي^(٥) ، ولا تَنْيِّرُها التُّهْم ، وأهلوه
أهلوك التحقوا بك ، وتوسَّطُوا شَأْنَكَ ، فسافرتَ به الرُّكبانُ ، وسمعتَ به أهل
البلدان ، حتى اعتقده الجاهلُ ، وشكَّ فيه العالمُ ، فلا تَتَحَجَّر^(٦) يا أمير المؤمنين
ما قد اتسم ، وكثرتَ فيه الشهاداتُ ، وأعانك عليه قوم آخرون . »

فانحرف معاوية إلى من معه ، فقال : هذا وَقَدْ^(٧) نفسه يبيعه ، وطعن في إمرته ،
يعلم ذلك كما أعامه ، يا للرجال من آل أبي سفيان ! لقد حَكَمُوا وبَدَّهم^(٨) يزيدُ
وحده ، ثم نظر إلى عبيد الله . فقال : يا بن أخى ، إني لأَعْرِفُ بك من أبيك ،
وكأني بك في غَمْرَةٍ لا يَخْطُوها^(٩) السابح ، فالزَمَ ابن عمك . فإن لِمَا قال حقًا ،
نخرجوا ولزم عبيد الله يزيدَ يَرِدُ مجلسه ، وَيَطَأُ عَقْبَهُ أياما ، حتى رَمَى به معاوية
إلى البصرة واليا عليها^(١٠) .

(العدد الفريد ٢ : ١٤٠)

[١] الجسور : الجسارة . [٢] تقحمت به دابته : نددت به وربما طوحت به في وهدة أو وقصت
به ، والفحمة كمرقة : الورطة والمهلكة ، والمراد التعرّص للهلاك .
[٣] الدخول والفساد . [٤] نمل الأدم نعلًا : فسد في الدباع ، والجرح فسد .
[٥] التظني : إعمال الظن ، وأصله الظنن . [٦] أي فلا تصيق ، محجر عليه : ضيق ، ونحجر
ما وسعه الله : حرّاه وضيقه ، وفي الحديث : « امرئ تحجرت واسعا » أي صيقت ما وسعه الله ، وفي
الأصل « فلا يتحجر » وهو تصحيف . [٧] في الأصل « وود » وأعله وقد ، يقال وقده أي عليه
وسكنه . [٨] فادهم . [٩] في الأصل « لا يحطرها » وأراه « لا يخطوها » .
[١٠] قال الطبري : « ولي معاوية عبيد الله بن زياد البصرة سنة ٥٥ هـ » .

٢٦٩ - وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه عند موته (١)

روى الطَّبْرِيُّ قال :

لما كَانَ الْمُهَلَّبُ بن أَبِي صُفْرَةَ بَزَاغُولَ من مَرَوِ الرُّوذِ (من خُرَاسَانَ) أصَابته الشَّوْصَةُ (٢) (وقوم يقولون الشَّوْكَة (٣)) فدعا حَبِيبًا ومن حضره من ولده ، ودعا بِسِهَامٍ فَحُزِمَتْ ، وقال : أترَوْنِكُمْ كَأَسْرِيهَا مجتمعةً ؟ قالوا : لا . قال : أفترَوْنِكُمْ كَأَسْرِيهَا متفرقةً ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة ، فأوصيكم بتقوى الله وِصْلَةَ الرَّحِمِ ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ تُنْسِي (٤) في الأجل ، وَتُثْرِي المَالَ ، وَتُكْثِرُ العَدَدَ ، وَأَنْهَاكُمْ عن القطيعة ، فَإِنَّ القَطِيعَةَ تُعْقِبُ النارَ ، وَتُورِثُ الذُّلَّةَ والقِلَّةَ ، تَبَاذَلُوا وَتَوَاصَلُوا تَحَابُّوا ، وَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ ولا تَخْتَلِفُوا ، وَتَبَارَثُوا تجتمع أموركم ، إن بني الأمِ يَخْتَلِفُونَ ، فكيف بيني العَلَاتِ (٥) ؟ وعليكم بالطاعة والجماعة ، ولتكن فعالكم أفضل من قولكم ، فَإِنِّي أَحِبُّ للرجل أن يكون لِعَمَلِهِ فضلٌ على لسانه ، وَاتَّقُوا الجوابَ ، وَزَاةَ اللِّسَانِ ، فَإِنَّ الرجلَ تَرِلُّ قَدَمُهُ فينتعش من زَلَّتْهُ ، وَيَزِلُّ لِسَانُهُ فيهِ سَلَكٌ ، اعْرِفُوا لمن يَغُشَاكُمْ حَقَّهُ ، فَكُنْ بِغُدُوِّ الرجلِ وَرَوَاجِهِ إِلَيْكُمْ تَذَكُّرَةً له ، وَآثِرُوا الجُودَ على البخلِ ، وَأَحْبِبُوا العَرَبَ ، وَاصْطَنِعُوا العَرَبَ ، فَإِنَّ الرجلَ من العَرَبِ تَعِدُهُ العِدَّةَ فيموتُ دونك ، فكيف الصنِيعَةُ عنده ؟ وعليكم في الحربِ بِالْأَنَاةِ وَالْمَكِيدَةِ ، فَإِنَّهَا أَنْفَعُ في الحربِ من الشجاعة ، وَإِذَا كَانَ اللِّقَاءُ نَزَلَ القِضَاءُ ، فَإِنَّ أَخْذَ رِجْلِ بِالْحِزْمِ فَظَهَرَ على عَدُوِّهِ . قيل : أئني الأمر من وجهه ،

[١] سترد خطبه إن شاء الله في باب « خطب الحوارج وما ينصل بها » وذكر الطبري أنه توفي

سنة ٨٢ هـ ، وابن خلكان أنه توفي سنة ٨٣ هـ ، وكان الحجاج قد ولاء بعد فراغه من حرب الأزارقة على خراسان ، فوردها واليا عليها سنة ٧٩ هـ ولم نزل واليا عليها حتى أدركته الوفاة هناك .

[٢] الشوصة بالفتح وقد تصم الشين : وحم في البطن . [٣] الشوكة : حمرة تعلق الجسد .

[٤] تؤخر وتطيل . [٥] بنو العلات : بنو أمهات شتى من رجل واحد .

ثم ظفر فحميد ، وإن لم يظفر بعد الأناة ، قيل : ما فرط ولا ضيع ، ولكن القضاء غالب ، وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السنن وأدب الصالحين ، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم ، وقد استخلفت عليكم يزيد ، وجمعت حبيبا على الجند ، حتى يقدم بهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيد « فقال له المفضل : لو لم تقدمه لقد مناه . (تاريخ الطبري ٨ : ١٦ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، والبيان والبيان ٢ : ٩٨)

*
* *

وعهد إلى ولده يزيد ، فكان من جملة ما قال له :

« يا بُنَيَّ ، استعقل الحاجب ، واستظرف الكاتب ، فإن حاجب الرجل وجهه ، وكاتبه لسانه » ، وكان يقول لبنيه : « يا بني أحسنُ ثيابكم ما كان على غيركم » ، ومن كلماته المأثورة قوله : « الحياة خيرٌ من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة ، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد ، لأحببت أن تكون لي أذنٌ أسمع بها ما يُقال في غداً إذا ميتٌ » ، وقوله : « عجبتُ لمن يشتري العبيد بماله ، ولا يشتري الأحرار بإفضاله » . (وفيات الأعيان ٢ : ١٤٦ ، وشرح العيون ١٣٧)

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

(المتوفى سنة ٩٥ هـ)

٢٧٠ - خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير (سنة ٧٣ هـ)

لما قتل الحجاج عبد الله بن الزبير ، ارتجت مكة بالبكاء ، فصعد المنبر ، فقال : « ألا إن ابن الزبير كان من أحبار^(١) هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة

[١] جمع حبر بفتح الحاء وكسرهما وهو العالم أو الصالح .

ونازع فيها ، وخلق طاعة الله ، واستكنَّ بحَرَمِ الله ، ولو كان شئٌ مانعاً للعصاة ، لمنع آدمَ حُرْمَةَ الجنة ، لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجهُ منها بِخَطِيئته ، وآدمُ على الله أكرمُ من ابن الزبير ، والجنةُ أعظمُ حُرْمَةً من الكعبة . (شرح العيون ص ١٢٢)

٢٧١ — خطبته حين ولي العراق (سنة ٧٥ هـ)

حدّث عبد الملك بن مُحمّر الليثي قال :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مَوَالِيه ، إذ أتى آتٍ ، فقال : هذا الحجاج قد قدّم أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَمِلاً بِعِمَامَةٍ قد غطّى بها أكثرَ وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً^(٢) قوساً ، يؤم المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قبَّحَ الله بنى أمية ، حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال مُحمّر بن ضابئ البرُّجُمي : أَلَا أَحْصِيهِ لَكُمْ ؟ فقالوا : أمهل حتى ننظر^(٣) ، فلما رأى عيون الناس إليه ، حَسَرَ اللثامَ عن فيه ونهض ، فقال :

« أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَنَائِيَا متى أضع العِمَامَةَ تعرفوني^(٤) »

[١] وبرى : أنه خرج يريد العراق واليا عليها في اثني عشر راكبا على الجائب ، حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار ، وبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر فقال : على بالناس ، لحسبوه وأصحابه خوارج فهموا به . [٢] تنكب قوسه : ألقاها على منكبه . [٣] قال ابن نباتة : « فلما سمعوا هذه الحطة — وكان بعضهم قد أخذ حصي أراد أن يحصبه به — تساقط من أيديهم حزنا ورجبا » . [٤] البيت لسجيم ابن وثيل الرباعي قاله الحجاج متمثلا ، وقوله « أنا ابن جلا » أي الواضح الأمر المتكشفه ، وقيل ابن جلا الصبح ، لأنه يجلو الظلمة ، وهو مثل يضرب المشهور المتعالم ، أي أنا الظاهر الذي لا يخفى ، وكل أحد يعرفني ، ولم ينون جلا لأنه أزداد الفعل ، فخكى على ما كان عليه قبل التسمية كقول الشاعر :

وَاللَّهِ مَا زِيدُ بِنَامٍ صَاحِبُهُ وَلَا يُخَالِطُ اللَّيَانَ جَانِبُهُ

ثم قال : يَأْهَلُ الْكُوفَةَ ، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَجْمَلُ الشَّرِّ بِحَمَلِهِ ، وَأَحْذَوْهُ بِنَعْلِهِ ، وَأَجْزِيهِ بِعَيْلِهِ ، وَإِنِّي لَأَرَى أَبْصَارًا طَامِحَةً ، وَأَعْنَاقًا مَتَطَاوِلَةً ، وَرءِ وَسَاءَ قَدْ أَيَّرَعَتْ وَحَانِ قِطَافُهَا ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهَا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الدَّمَاءِ بَيْنَ الْعِمَامَةِ وَاللَّحَى تَتَرَقَّرُ ،
ثم قال :

هذا أوزان الشَّدِّ فَاشْتَدَّى زَيْمٌ قد لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطْمٍ
ليس بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ ولا بِجَزَارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَصَمِّ (١)
ثم قال : قد لَفَّهَا اللَّيْلُ بِعَصَلِيَّ أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوَى
مُهَاجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَابِيَّ (٢)
ثم قال : قد شَمَّرْتُ عَنْ سَافِهَا فَشَدُّوا وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فِجْدُوا
وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرَّ عُرْدُ مِثْلُ ذِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدُّ
لَا بُدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدُّ (٣)

وتقديره أنا ابن الذي يقال له جلا الأمور وكشفها ، وقال بعضهم : ابن جلا - وان أحلى - رحل عينه ، قال في اللسان : « وكان ابن جلا هذا صاحب بيتك يطلع في العارات من ثنية الجبل على أهلها » والنايا جمع ثنية : وهي الطريق في الجبل ، أراد به أنه حلد يطلع الشياخا في ارتفاعها وصعوتها ، والعمامة : المعفر واليضة قال ثعلب : العمامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم . [١] الشعر لرويشد بن رميص العبدي والشد : العدو ، وزيم اسم درس أو ناقة ، وفيل اسم للحرب ، والحطم ، والحطمة : الراعي اللوم الماشية يهشم بعضها بعض ، ولا يبقى من السير شيئا ، وقد ضرب المثل برعاة الغنم في الحق فقل : « أحق من راعي ضأن ثمانين » قال الجاحظ في الديان والندبين ١ : ١٣٩ « فأما استحماق رعاة الغنم في الحلة فكيف يكون ذلك صوابا ؟ وقد رمي الغنم عدة من جلة الأنبياء عليهم السلام » والوصم : كل ما قطع عليه اللحم . [٢] العصلي : الشديد القوى ، والأروع : الذكي ، أو من يعجبك شجاعه ، والدو والذوية والذوية ويخفف : العلاة المنسعة التي تسمع لها دويًا بالليل « وإنما ذلك الدوى من أخفاف الإبل ، تنفسح أصواتها فيها ، وتقول جهلة الأعراب : إن ذلك عزيز الجى » أى خراج من كل غمء شديدة ، وهجر الرجل : خرج من البدو إلى المدن ، والأعرابي بطبيعته غر ساذج ليس في تجربته كأهل المدن . وسيرد عليك إن شاء الله في الجزء الثالث في خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة :

« إني لست أتأوتيا أعلم ، ولا بدوتيا أفهم » .

[٣] جدّبه الأمر : اشتد ، وعرد : أى شديد ، والبكر : الفقى من الإبل ، ولا بد من كذا : أى

إني والله يا أهل العراق ، وَمَعْدِنَ الشَّقَاقِ وَالزَّفَاقِ ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ ،
 مَا يَقْتَعِعُ لِي بِالشَّنَانِ ^(١) ، وَلَا يُعْمَزُ جَانِبِي كَتَغْمَازِ التَّيْنِ ، وَلَقَدْ فُرِّتُ ^(٢) عَنْ
 ذَكَاءٍ ، وَفُتِّشْتُ عَنْ تَجْرِبَةٍ ، وَجَرَيْتُ إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى ، وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
 - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ هـ - تَرَكْنَا تَهُ ^(٣) ، بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَعَجَّمَ ^(٤) عِيدَانَهَا ، فَوَجَدَنِي
 أَمْرَهَا عُودًا ، وَأَصْلِبَهَا مَكْسِرًا ^(٥) فَرَمَا كَمِ بِي ، لِأَنْكُمْ طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ ^(٦) فِي الْفِتَنِ ،
 وَاضْجَطَعْتُمْ فِي مَرَاقِدِ الضَّلَالِ ، وَسَنَنْتُمْ سُنَنَ الْغَىِّ ، أَمَا وَاللَّهِ لَأَلْحُو زُكْمُ ^(٧) لَحْوِ
 الْعَصَا ، وَلَا أَقْرَعْنِكُمْ قَرَعَ الْمَرْوَةِ ^(٨) ، وَلَا أَعْصِبَنَّكُمْ عَصَبَ السَّلْمَةِ ^(٩) ، وَلَا ضَرْبَكُمْ
 ضَرْبَ غَرَابِ الْإِبِلِ ^(١٠) ، فَإِنَّكُمْ لَكَأَهْلُ قَرْيَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا
 رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
 وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَعِدُّ إِلَّا وَفَيْتُ ، وَلَا أَهْمُّ إِلَّا
 أَمْضِيَتْ ، وَلَا أَخْلُقُ ^(١١) ، إِلَّا فَرَيْتُ ، فَإِيَايَ وَهَذِهِ الشُّفَعَاءُ ، وَالزَّرَّافَاتِ ^(١٢)
 وَالْجَمَاعَاتِ ، وَقَالَ وَقِيلَا ^(١٣) ، وَمَا تَقُولُ ؟ وَفِيمَ أَنْتُمْ وَذَلِكَ ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَتَسْتَقِيمُنَّ

[١] القمعة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشان جمع شنّ بالفتح :
 وهو العربة النالسة ، وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل على السير لتفزع فتسرع ، مثل يضرب لمن
 لا يروعه ما لا حقيقة له ، وقد تمثل به معاوية من قبله .

[٢] فر الدابة : فتح حكامها وكشف أسنانها ليظهر سننها ، وفرّ عن الأمر : بحث عنه .
 [٣] الكنانة جمع السهام ، وفي رواية : « كبّ كنانته » أي قلبها . [٤] عجم العود : عضه
 ليعرف صلابته من خوره . [٥] وفي رواية « وأصلبها عمردا » . [٦] أوسع إبصاعا : أسرع
 في سيره كوضع . [٧] لما العصا : قشرها ، وفي رواية : « لحو البود » .

[٨] المرو : حجارة بيض برّاقة توري النار . [٩] السلمة : شجر كثير الشوك . قال الجاحظ في
 البيان والتبيين « لأن الأشجار تعصب أغصانها ، ثم تحبّط بالعصى اسقوط الورق وهشميم العيدان »
 (٣ : ٢١) . [١٠] قال الجاحظ أيضا : (٣ : ٢٧) « وهي تضرب عند الحرب ، وعند الحلاط ،
 وعند الحوض أشد الصرب » وقال الحارث بن صخر :

بضرب يريل الهام عن سسكناته كما زيد عن ماء الحياض العرايب .

[١١] أخلق : أفدرّ ، وفريت : قطعت . [١٢] الشفعا جمع شفيح ، وكانوا يجتمعون إلى السلطان
 فيشفعون في أصحاب الجرائم ، ففهام عن ذلك ، والزرافات جمع زرافة بفتح الزاي وضمها : الجماعة من
 اللاس . [١٣] القول في الخير ، والقال ، والقال ، والقال في الشر .

على طريق الحق ، أولادَ عَنِّ لكل رجل منكم شُغلاً في جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم^(١) ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة^(٢) ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بمد أخذ عطاءه بثلاثة أيام إلا سَفَكَتُ دمه ، وَأَنْهَبْتُ^(٣) ماله ، وهدمت منزله .

(الكامل المبرد ١ : ١٨١ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٤ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ٧ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٨ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٢ ، ومعاهد التنصيص ١ : ١١٥ ، والكامل لابن الأثير ٤ : ١٥٦ ، وسرح العيون ١١٦)

✓ ٢٧٢ - خطبته وقد سمع تكبيراً في السوق

فلما كَانَ اليوم الثالث خرج من القصر ، فسَمِعَ تكبيراً في السوق ، فزاعه ذلك ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :
« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، يَا أَهْلَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، وَمَسَاوِيءِ الْأَخْلَاقِ ، وَوَنِي اللَّسْكِيمَةِ^(٤) ، وَعَبِيدَ الْعَصَا ، وَأَوْلَادَ الْإِمَاءِ ، وَالْفَقْعَ بِالْقَرَقَرِ^(٥) ، إني سمعت تكبيراً لا يُرَادُ اللهُ به ، وإنما يُرَادُ به الشيطانُ^(٦) أَلَا إِنَّهَا عَجَاجَةٌ تَحْتَهَا قَصْفٌ^(٧) ، وَإِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلِكُمْ مَا قَالَ عَمْرُو بْنُ بَرَّاقٍ الْهَمْدَانِيُّ :

وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ فإنا في ذا يا لهمدان ظالم !
مَتَى تَجْمَعُ الْقَلْبَ الذَّكِيَّ وَصَارِمًا وَأَنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبُكَ الْمَظَالِمُ

[١] أعطيات جمع أعطية ، وهي جمع عطاء . [٢] قائد الجيوش : الذي حارب الحوارج الأزارقة ، وقل شوكتهم ، وسيأتي . [٣] جعلته نهباً يفار عليه .
[٤] اللثيمة . [٥] القرقر : أرض مطمئنة لينة ، والفقع ويكسر : البيضاء الرخوة من الكدأة ، ويقال للذليل هو أذل من فقع بقرقر ، لأنه لا يمتنع على من اجتناه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل .
[٦] وفي رواية : « إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد الله به في الترهيب ، ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب » . [٧] العجاج : الفبار ، والقصف : شدة الريح .

أما والله لا تَقْرَعُ عَصًا عَصًا إِلَّا جَعَلْتُهَا كَأَمْسِ الذَّابِرِ^(١) .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٩ - ١ : ٢٠٩ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وإعجاز القرآن ١٢٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٢١٢ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩٠)

٢٧٣ - خطبته وقد قدم البصرة

وخطب لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويتوعددهم فقال :

« أيها الناس : من أعياه داوؤه ، فعندي دواؤه ، ومن استطال أجله ، فعلى أن أعجله ، ومن ثقل عليه رأسه . وضعتُ عنه ثقله ، ومن استطال ماضيه عمره ، قصرتُ عليه باقيه ، إن للشيطان طيفا ، وللشيطان سيفًا ، فمن سقمتُ سريره ، صحتُ عُقوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية ، لم تضيق عنه الهلكة ، ومن سبقته بادره فيه ، سبق بدنه بسفك دمه ، إني أنذرتُكم لا أنظر^(٢) ، وأحذرتُكم لا أعذر ، وأتوعدتُكم لا أعفو ، إني أفسدكم ترنيق^(٣) وولاتكم ، ومن استرخى لبيبه^(٤) ، ساء أدبه ، إن الحزم والعزم سلباني سوطي^(٥) ، وأبدلاني به سيفي ، فنأتمه في يدي ، ونجاده^(٦) في عُنقي ، وذبابه^(٧) قِلَادَةٌ لمن عصاني ، والله لا أمرُ أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذي يليه ، إلا ضربت عنقه .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٤٤ ، صبح الأعشى ١ : ٢٢٠ ، وشرح العيون ١٢٢)

[١] وفي رواية الطبري خاصة : « ألا يرمع رجل منكم على ظلمه ، ويحسن حقن دمه ، ويعبر موضع قدمه ، وأسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها ، وأدبا لما بعدها » - يرمع (كيمنع) يقف ويبتظر ، والطلع (كشمس) : الغمز في المشي ، ويقال : ارمع على ظلمك ، أي إلك ضعيف ، فاته عمالا تطيقه . [٢] أنظاره : أمهله .

[٣] الترنيق : الصمغ في الأمر (وفي البدن والبصر أيضا) . [٤] الالب : ما شد في صدر الذابة ليمنع استئثار الرجل ، والمراد أن الهوادة واللين تفسد أدب الرعية . [٥] هكذا في نهاية الأرب ، وفي صبح الأعشى : « سكنا في وسطى » والأول أصح ، أي أنه رأى من الحزم ، والعزم : المبالغة في استعمال الشدة ، والقوة في النأديب ، فطرح السرط ، واستبدل به ما هو أشد منه وهو السيف . [٦] النجاد : علاقه السيف . [٧] ذباب السيف : حده .

٢٧٤ - خطبته بعد وقعة دير الجماجم (١)

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم فقال :

« يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنكم ، نغاط اللحم والدم
وَالْعَصَبَ ، وَالْمَسَامِعَ وَالْأَطْرَافَ ، وَالْأَعْضَاءَ (٢) وَالشَّغَافَ (٣) ، ثم أفضى إلى
المِخَاخِ (٤) وَالْأَصْمَاخِ ، ثم ارتفع فعمشش ، ثم باض وفرّخ ، فَحَشَاكُمْ نَفَاقًا وَشِقَاقًا ،
وَأَشْعَرَكُمْ خِلَافًا ، اتخذتموه دليلاً تتبعونه ، وقائداً تُطِيعونه ، وَمُؤَامِرًا (٥)
تستشيرونه ، فكيف تنفعم تجربة ، أو تعظمم وقعة ، أو يحجزكم إسلام ، أو
ينفعمكم بيان ؟ أَلَسْتُمْ أَصْحَابِي بِالْأَهْوَازِ (٦) ؟ حيث رُمتم المكر ، وسعيتم بالغدر ،

[١] وقعة دير الجماجم : هي وقعة نشبت بين الحجاج وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قرب الكوفة سنة ٨٣ هـ هزم فيها ابن الأشعث ، وذلك أن عبيد الله بن أبي بكره عامل الحجاج على سجستان كان قد غزا رتبيل ملك الترك ، وأوغل في بلاده وأصبراً ، وهلك أكثرهم ، توجه الحجاج إلى رتبيل ابن الأشعث على رأس جيش عظيم لمحارته ، فسار إليه وامتلكت بعض بلاده ، وكان يرى أن يتدرج في الفتح ، وينتصمهم في كل عام مائة من أرسهم ، ولا يتوغل في بلادهم لكيلا يعرض جيشه للدمار والهلكة ، وكتب إلى الحجاج بذلك ، فأبى عليه الحجاج ، وكتب إليه يصغف رأيه ويأمره بأوغول في أرسهم وإلا عزله ، وكان من جراء ذلك أن بايع الجند ابن الأشعث على خلع الحجاج وقتاله ثم حلق عبد الملك بن مروان ، وسار ابن الأشعث بهم من سجستان إلى العراق ، وتجهز الحجاج للقائه ، فسار بأهل الشام حتى نزل تستر (مدينة بالأهواز) فانهزمت مقدمته ، فرجع إلى البصرة حتى نزل الزاوية (موضع قرب البصرة) ودارت رحى الحرب بين الفريقين فهزم أهل العراق أهل الشام . لجنا الحجاج على ركبتيه واتصق نحو شبر من سيفه ، واستمد للقاء الموت كريماً ، فقويت بذلك قلوب حنده واستبسلا حتى كان لهم النصر . وانهزم ابن الأشعث ، فأقبل نحو الكوفة ، حتى هزم مريعة منكرة بدير الجماجم وتبدد أمره ، وورث إلى فارس حتى نزل مدينة بست ، فسمع رتبيل بمقدمه وأرسله عنده وأكرمه ، فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يبعث إليه بابن الأشعث ويتوعدده إن لم يفعل ، وأراد رتبيل أن يرسله إليه ، فقتل ابن الأشعث نفسه بأن أتى نفسه من فوق قصر ، فمات فاحتز رتبيل رأسه ، وبعث به إلى الحجاج سنة ٨٥ هـ . [٢] في المقد الفريد (والأعضاء) .

[٣] الشغاف : غلاف القلب أو جنته .

[٤] رواية نهاية الأرب « المِخَاخ » وهو الوارد في كتب اللغة : مع يجمع على مِخَاخ ومِخَاخَة (كمنبة) ، أما سائر المصادر التي روت هذه الحطبة ، ورواها (الأَمْخَاخ) ، وهو ما لم أره في كتب اللغة . وقد روت جميع المصادر « الأصمخ » بهذا الص ، والذي في كتب اللغة : « الصمخ من الأذن الحرق الباطن الذي يفضى إلى الرأس جمع أصمخ وصمخ ، ومثل الصمخ الأصمخ كصمغور ، وجمه أصمخ ، فصواب الكلمة « الصمخ » أو « الأصمخ » .

[٥] أمره في كذا مؤامرة : شاوره . [٦] يعبر إلى وقعة « تستر » .

واستجمعتم للكفر ، وظننتم أن الله يَخْذُلُ دينه وخِلافته ، وأنا أرميكم بطرفي ، وأنتم تتسللون لُوِاذًا^(١) ، وتنهزمون سِرَاعًا؟ ثم يوم الزاوية ، وما يوم الزاوية ! بها كان فشلكم وتنازعكم وتحاذلكم ، وبرائة الله منكم ، ونكوص وليكم عنكم ، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها^(٢) ، لا يسأل المرء عن أخيه ، ولا يلوي^(٣) الشيخ على بنيه ، حتى عضتكم^(٤) السلاح ، وقصمتكم الرماح ، ثم يوم دَيْرِ الجاجم ، وما يوم دير الجاجم ! بها كانت المارك والملاحم^(٥) ، بضرب يُزِيلُ الهامَ^(٦) ، عن مَقِيلِهِ^(٧) ، وَيُذْهِلُ الخليل عن خليله ، يأهل العراق ، وَالْكَفَرَاتِ بِعَدِ الفَجَرَاتِ ، وَالْعَدَرَاتِ بِعَدِ الخَتَرَاتِ^(٨) ، وَالنَزَوَاتِ^(٩) بعد النزوات ، إِنْ بَعَثْتُمْ إِلَى ثغوركم غَلَّامًا^(١٠) وَخُتْمًا ، وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرْجَفْتُمْ ، وَإِنْ خِفْتُمْ نَافَقْتُمْ ، لَا تَذْكُرُونَ حَسَنَةً ، وَلَا تَشْكُرُونَ نِعْمَةً ، هل استخفكم ناكث ، أو استغفواكم غاوي ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم^(١١) خالع ، إلاتبعتموه وآويتموه ، ونصرتموه وزكيتموه؟ يأهل العراق ، هل شَغِبَ شاغب ، أو نَعَبَ ناعب ، أو زفر زافر ، إلا كتتم أتباعه وأنصاره؟ يأهل العراق : ألم تنهككم المواعظ ، ألم تَرْجُرْكم الوقائع؟ .

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر ، فقال : « يأهل الشام ، إنما أنا

[١] أي يلوذ بعضهم ببعض : لاوذ لوذا وملاوذة . [٢] أعطان جمع عطن كسب : مبرك الابل حول الحوض كالعطن ، ونوازع : أي متناقة . [٣] لا يلوي على أحد ، أي لا يقف ولا ينتظر . [٤] في نهاية الأرب « عضتكم » بالطاء ، عظنه الحرب كعضته بالصاد . [٥] جمع ملحمة وهي الوقمة العظيمة القتل . [٦] جمع هامة ، وهي الرأس . [٧] موضعه ، أي الأعناق ، قال الشاعر :
بضرب بالسيوف رهوس قوم أزلنا هامهن عن القيل
[٨] جمع خترة ، والخترة كشمس : العدر والحديعة أو أقبح العدر . [٩] جمع نروة من نرا نروانا أي ونب . [١٠] عل كنصر غلولا : خان . [١١] استعضده : سأله أن يعضده .

لكم كالظَّليم^(١) الراح عن فراخه ، يَنْفِي عنها المَدْر^(٢) ، ويباعد عنها الحجر ،
وَيُكَيِّثُهَا من المطر ، وَيَحْمِيهَا من الضَّبَابِ^(٣) ، ويحرسها من الذَّنَابِ ، يأهل
الشام ، أنتم الجِنَّة والرِّدَاءُ ، وأنتم العُدَّة والحذاء .

(البيان والتبيين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ ، والعقد المرید ٢ : ١٥٢ ، وشرح
ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، ومروج الذهب ٢ : ١٣٥)

٢٧٥ - خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام

وخطب فقال :

« يأهل الكوفة ، إن الفتنة تُلقَح بالنَّجْوَى^(٤) ، وتُنتَج بالشكوى ،
وتحصَد بالسيف ، أما والله إن أبغضتموني لا تضروني ، وإن أحببتموني لا تنفعوني ،
وما أنا بالمستوحشٍ لعداوتكم ، ولا المستريح إلى موَدَّتكم ، زعمتم أني ساحر ،
وقد قال الله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ » . وقد أفلحت ، وزعمتم أني أعلم
الاسم الأكبر ، فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون ؟ » .

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : « لَأَزْوَاجُكُمْ أَطِيبُ من المسك ،
ولأبناءؤكم آنسُ بالقلب من الولد ، وما أنتم إلا كما قال أخو بني ذُبْيَان :

إذا حاولتَ في أسد فجورا فإني لستُ منك ولست مني

هم دِرْعِي التي استلَّمت فيها إلى يوم النَّسَار وهم مِحْنِي^(٥)

ثم قال : « بل أنتم يأهل الشام كما قال الله سبحانه : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا
لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٥)

[١] ذكر النعام ، والراح أي المدافع من ريمه أي طعنه بالرمح . [٢] قطع الطين اليابس .

[٣] جمع ضب ، وهو حيوان كالوزغة والحرباء . [٤] النجوى : المسارة .

[٥] استلام : لبس الأئمة ، وهي الدرع ، النسار : ماء لبني طامر له يوم ، والمجن : النرس .

٢٧٦ - خطبة له بالبصرة

وخطب بالبصرة ، فقال :

قال الله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ » ، فهذه لله ، وفيها مَثُوبَةٌ ^(١) ،
وقال : « وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا » ، وهذه لعبد الله ، وخليفة الله ، وحبيب الله ، عبد الملك
ابن مروان ، أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد ، فأخذوا في باب
غيره ^(٢) ، لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ، ولو قتل ربيعة ومضر لكان لي حلالا .
« عذيري ^(٣) من أهل هذه الحُمَيْرَاء ، يرمى أحدهم بالحجر إلى السماء ويقول :
يكون إلى أن يقع هذا خير ^(٤) ، والله لأجعلنهم كالرَّسَمِ ^(٥) الدَّائِرِ ، وكالأمس الغابر ،
عذيري من عبد هُدَيْلٍ يقرأ القرآن كأنه رَجَزُ الأعراب ، أما والله لو أدركته
لضربت عنقه - يعني عبد الله بن مسعود ^(٦) - ، عذيري من سليمان بن داود ،
يقول لربه : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي »
كان والله - فيما علمت - عبداً حَسُوداً بخيلاً .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٣ ، والعقد المرید ٢ : ١٥٢)

٢٧٧ ✓ - خطبة أخرى له بالبصرة

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله كفانا مَثُوبَةَ الدنيا ، وأمرنا بطلب الآخرة ، فليتة كفانا مَثُوبَةَ
الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ، مالي أرى علماءكم يذهبون ، وجُهالكم لا يتعلمون ،

[١] ثواب . [٢] وفي مروج الذهب : « لو أمر الناس أن يدخلوا في هذا الشعب ، فدخلوا في
غيره » والذهب بالكسر : مسيل الماء في بطن الأرض ، والطريق في الجبل . [٣] العذير : العاذر
والنصير ، والحال التي تحاوها تمر عليها . [٤] وفي مروج الذهب : « يلقى أحدهم الحجر إلى الأرض
ويقول : إلى أن يبلغها يكون فرج الله » . [٥] الرسم : الاثر أو بقية ، والدائر : الدارس المحو .
[٦] هو من بني هذيل .

وَشِرَارِكُمْ لَا يَتُوبُونَ؟ مَا لِي أُرَاكُمْ تَحْرَصُونَ عَلَيَّ مَا كُفَيْتُمْ ، وَتَضَيِّعُونَ مَا بِهِ أُمِرْتُمْ؟
 إِنَّ الْعِلْمَ يُوْشِكُ أَنْ يُرْفَعَ ، وَرَفَعُهُ ذَهَابُ الْعُلَمَاءِ ، أَلَا وَإِنِّي أَعْلَمُ بِشِرَارِكُمْ مِنَ
 الْبَيْطَارِ بِالْفَرَسِ ، الَّذِينَ لَا يَقْرءُونَ الْقُرْآنَ إِلَّا هَجْرًا ^(١) ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا
 ذُبْرًا ^(٢) ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرْضٌ حَاضِرٌ ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، أَلَا وَإِنَّ
 الْآخِرَةَ ، أَجَلَ مُسْتَأْخِرٍ ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ ، أَلَا فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ مِنَ اللَّهِ عَلَى حَذَرٍ ،
 وَاعْمَلُوا أَنْتُمْ مُلَاقُوهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
 بِالْحُسْنَى ، أَلَا وَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ فِي الْجَنَّةِ ، أَلَا وَإِنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ بِحَذَافِيرِهِ فِي
 النَّارِ ، أَلَا وَإِنَّ مَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ،
 وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ^(٣) . (العقد الفريد ٢ : ١٥٣)

٢٧٨ - خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية

وخطب أهل العراق ، فقال :

«يأهل العراق : إني لم أجد دواءً أدوى لدائكم ، من هذه المغازي والبعوث ،
 لولا طيبُ ليلة الإياب ، وَفَرَحَةَ الْقَفْلِ ^(٤) ، فَإِنَّهَا تُعْقِبُ رَاحَةً ، وَإِنِّي لَا أُرِيدُ
 أَنْ أَرَى الْفَرَحَ عِنْدَكُمْ ، وَلَا الرَّاحَةَ بِكُمْ ، وَمَا أُرَاكُمْ إِلَّا كَارْهِينَ لِقَاتِي ، وَأَنَا
 وَاللَّهِ لَرُؤَيْتِكُمْ أَكْرَهُ ، وَلَوْلَا مَا أُرِيدُ مِنْ تَنْفِيذِ طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ ، مَا حَمَلْتُ
 نَفْسِي مَقَاسَاتِكُمْ ، وَالصَّبْرَ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْكُمْ ، وَاللَّهِ أَسْأَلُ حَسْنَ الْعَوْنِ عَلَيْكُمْ ،
 ثُمَّ نَزَلَ . (العقد الفريد ٢ : ١٥٣)

[١] أي هجرأله وتركها ، وبمعناه أنهم لا يقرءونه ، ولا يتلونونه . [٢] الدبر من كل شيء : عقبه
 ومؤخره ، أي ولا يأتون الصلاة إلا في آخر وقتها .
 [٣] وذكر صاحب العقد أيضاً هذه الخطبة من قوله : « أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرْضٌ حَاضِرٌ » إلى آخرها
 وعزاها إلى شداد بن أوس الطائي . انظر العقد الفريد ٢ : ١٥٨ .
 [٤] الرجوع .

٢٧٩ - خطبة أخرى

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يا أهل العراق ، بلغني أنكم تَرَوُونَ عن نبيكم أنه قال : « مَنْ مَلَكَ عَلَى عَشْرِ رِقَابٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، جِيءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُوبَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ ، حَتَّى يَفْكَهُ الْعَدْلُ ، أَوْ يُوبِقَهُ الْجَوْرُ » . وَإِيمُ اللَّهِ إِنِّي لِأَحَبُّ إِلَيْكُمْ أَنْ أُخْشَرََ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ مَغْلُوبًا ، مِنْ أَنْ أُخْشَرََ مَعَكُمْ مُطْلَقًا » . (النقد المرید ٣ : ١٧)

٢٨٠ - خطبته لما مات عبد الملك بن مروان

ولما مات عبد الملك بن مروان ، قام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إن الله تبارك وتعالى نعى نبيكم صلى الله عليه وسلم إلى نفسه فقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِيَّاهُمْ مَيِّتُونَ » ، وقال : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » . فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون ، منهم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان الشهيد المظلوم ، ثم تبعهم معاوية ، ثم وليكم البازل^(١) الذكركر ، الذي جربته الأمور ، وأحكمته التجارب ، مع الفقه وقراءة القرآن ، والمروءة الظاهرة ، واللين لأهل الحق ، وَالْوَطْءُ لِأَهْلِ الزَيْغِ ، فكان رابعاً من الولاية المهديين الراشدين ، فاختار الله له ما عنده ، وألحقه بهم ، وَعَهْدَ إِلَى شَبْهِهِ فِي الْعَقْلِ وَالْمَرْوَةِ وَالْحَزْمِ وَالْجَلْدِ وَالْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَخِلَافَتِهِ ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوهُ .

أيها الناس ، إياكم والزَّيْغَ ، فَإِنَّ الزَّيْغَ لَا يَحْقِيقُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، وَرَأَيْتُمْ سِيرَتِي فِيكُمْ ، وَعَرَفْتُمْ خِلَافَكُمْ وَطَيْبِيَكُمْ ، عَلَى مَعْرِفَتِي بِكُمْ ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنْ أَحَدًا أَقْوَى

[١] الرجل الكامل في تجربته .

عليكم منى ، أو أعرف بكم ، ما وليتكم ، فإياي وإياكم ، من تكلم قتلناه ، ومن سكت مات بدائه نغماً » ثم نزل . (العقد الفريد ٢ : ١٥٤)

٢٨١ - خطبته حين أراد الحج

وأراد الحجاج أن يحج ، فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق ، ثم خطب فقال :

« يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، إني أريد الحج ، وقد استخلفت عليكم ابني محمداً ، هذا وما كنتم له بأهل ، وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُقبلَ من مُحْسِنِهِمْ ، وأن يُتَجَاوَزَ عن مُسِيئِهِمْ ، وإني أمرته ألا يقبلَ من محسنكم ، ولا يتجاوز عن مسيئكم ، ألا وإنكم ستقولون بعدى مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى : ألا وإنكم ستقولون بعدى : لا أحسن الله له الصحابة ، ألا وإني مُعَجَّلٌ لكم الإجابة : لا أحسن الله الخِلافةَ عليكم » ثم نزل . (عبون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ١٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٤)

٢٨٢ - خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد في يوم واحد

قال صاحب العقد : فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالعشى أتاه برّيد من اليمن بوفاة محمد وأخيه ، ففرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظهر الحجاج وهيبض^(١) جناحُه ، ففرج فصعد المنبر ، ثم خطب الناس ، فقال :

« أيها الناس : محمدان في يوم واحد ! أما والله ما كنت أحبُّ أنهما معي في الحياة الدنيا ، لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة ، وإيمُّ الله ليوشكنَّ

[١] هاض العظم : كسره بعد الجبور .

الباقى منى ومنكم أن يَفْنَى ، والجديدُ أن يبلى ، والحى منى ومنكم أن يموت ، وأن تُدَال (١) الأرض مِنَّا كما أدلنا منها ، فتأكل من لحومنا ، وتشرب من دمائنا ، كما مشينا على ظهرها ، وأكلنا من ثمارها ، وشربنا من مائها ، ثم نكون كما قال الله تعالى : « وَتُفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٢) » ثم تمثل بهذين البيتين :

عَزَائِي نَبِيُّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مِيْتٍ وَحَسْبِي ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكِ
إِذَا مَا لَقِيْتُ اللَّهَ عَنِّي رَاضِيًا فَإِنْ سَرُورَ النَّفْسِ فِيمَا هُنَاكَ

(المقدم المرید ٢ : ١٥٤ - ٣ : ١٨ ، وشرح العيون ص ١٢٢)

٢٨٣ — خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته

ومرض الحجاج ففرح أهل العراق ، وأرجفوا بموته ، فلما بلغه تحامل حتى صعد المنبر فقال :

« إن طائفة من أهل العراق ، أهل الشقاق والنفاق ، تزغ (٣) الشيطان بينهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج فمه ؟ وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرنى إلا أموت ، وأنى الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رضىَ بالتخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس ، قال : أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ، قال : إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ، ولقد دعا الله العبد الصالح ، فقال : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » فأعطاه ذلك إلا البقاء ، فما

[١] أداله الله منه : نصره عليه . [٢] الصور : القرن ينفخ فيه ، وقيل إنه تمثيل لانبعث الموتى بانبعث الجيش إذا نفخ في البوق ، وقيل : هو جمع صورة مثل بسرة وبسر (والبسر بالضم : التمر قبل لارتطابه) أى نفخ في صور الموتى الأرواح ، وقرأ الحسن : « يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ » . والأجداث جمع حدث كسبب وهو التبر ، ونسل كضرب وانصر : أسرع .
[٣] تزغ : أسد وأغرى .

عسى أن يكون أيها الرجل ؟ وكلكم ذلك الرجل ، كأني والله بكل حيٍّ منكم ميتاً ، وبكل رطبٍ يابساً ، ونُقيلٍ في ثياب أكفانه إلى ثلاث أذرع طولاً ، في ذراع عرضاً ، وأكلت الأرض لحمه ، ومصّت صديده ، وانصرف الحبيب من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إن الذين يعقلون يعامون ما أقول » ، ثم نزل .
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٤ ، ٣ : ١٧ ، وشرح العيون ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٥)

خطبه الوعظية

وخطب الحجاج يوماً فقال :

« أيها الناس ، قد أصبحتم في أجلٍ منقُوص ، وعمل محفوظ ، رُبّ دائبٍ مُضيع ، وساعٍ اغيره ، والموتُ في أعناقكم ، والنارُ بين أيديكم ، والجنةُ أمامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما في أيديكم لما بين أيديكم ، فكأنَّ ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأنَّ الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ما ترّونه فإنه ذاهب ، هذه شمسُ عادٍ وثمودٍ وقرونٍ كثيرة بين ذلك ، هذه الشمس التي طلعت على التّبابعة والأكاسرة ، وخزائنها السائرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ، أين الملوك الأولون ، أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسبُ الله ، والصراطُ منصوب ، وجهنم ترّفر^(١) وتتوقّد ، وأهل الجنة ينعمون ، في روضةٍ يُحَبّرون^(٢) ، جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآياتِ ربّهم لم يخبروا عليها صماً وعمياناً . »

[١] زفرت النار كضرب : سمع لتوقدها صوت . [٢] أحبره : سره ، والجبور : السرور .

فكان الحسن البصرى رحمه الله يقول : « ألا تعجبون من هذا الفاجر ؟
يَرَقِي عَتَبَاتِ الْمُنْبَرِ ، فَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيُنْزَلُ فِيْفَتِكَ فَتَكُ الْجَبَّارِينَ ، يُوَافِقُ
اللَّهَ فِي قَوْلِهِ ، وَيُخَالِفُهُ فِي فِعْلِهِ » . (شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ١٥٠)

وقال مالك بن دينار؟ غَدَوْتُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، فَجَلَسْتُ قَرِيبًا مِنَ الْمُنْبَرِ ، فَصَعِدَ
الْحِجَابُ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمْرٌ وَحَاسَبَ نَفْسَهُ ، أَمْرٌ رَاقِبَ رَبِّهِ ، أَمْرٌ زَوَّرَ^(١) عَمَلَهُ ، أَمْرٌ فَكَّرَ
فِي مَا يَقْرَأُ غَدًا فِي صَحِيفَتِهِ ، وَيَرَاهُ فِي مِيزَانِهِ ، أَمْرٌ كَانَ عِنْدَ هَمِّهِ آمِرًا ، وَعِنْدَ
هَوَاهُ زَاجِرًا ، أَمْرٌ وَأَخَذَ بِعِنَانِ قَلْبِهِ ، كَمَا يَأْخُذُ الرَّجُلُ بِخِطَامِ جَمَلِهِ ، فَإِنْ قَادَهُ إِلَى
حَقِّ تَبِعِهِ ، وَإِنْ قَادَهُ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَفَّهَ ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا خُلِقْنَا لِلْفَنَاءِ ، وَإِنَّمَا
خُلِقْنَا لِلْبَقَاءِ ، وَإِنَّمَا نَنْتَقِلُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٥٢١ ، المقدم المرید ٢ : ١٥٢ ، البيان والتبيين ٢ : ٨٨ ،
شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠)

وخطب يوماً ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، أَقْدَعُوا^(٢) هَذِهِ الْأَنْفُسَ ، فَإِنَّهَا أَسْأَلُ^(٣) شَيْءًا إِذَا أُعْطِيَتْ ،
وَأَعْصَى^(٤) شَيْءًا إِذَا سُئِلَتْ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا جَعَلَ لِنَفْسِهِ خِطَامًا وَزِمَامًا ، فَقَادَهَا
بِخِطَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَعَظَفَهَا بِزِمَامِهَا عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنِ

[١] زَوَّرَهُ : حَسَنَهُ .

[٢] قَدَعَهُ كَمَعَهُ وَأَقْدَعَهُ : كَفَّهُ وَكَبَحَهُ . [٣] وَفِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، احْفَظُوا
فِرْوَجَكُمْ ، وَخَدُوا الْأَنْفُسَ بِسَمِيرِهَا ، فَإِنَّهَا أَسْوَكُ شَيْءٍ » وَأَسْوَكُ : أَضْعَفُ ، مِنْ سَاكِ
الرَّجْلِ سَوَاكًا : سَارٍ سِيرًا ضَعِيفًا . [٤] وَفِي رِوَايَةٍ « رَأَيْتُ شَيْءًا » وَهُوَ مُحْرِيفٌ .

مَحَارِمِ اللَّهِ ، أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ ^(١) .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠ ، وشرح العيون ١٢١ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ،
والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

وخطب فقال :

« اللَّهُمَّ ارِنِي النَّعْيَ غِيًّا فَأَجْتَنِبَهُ ، وَارِنِي الْهُدَى هُدًى فَأَتَّبِعَهُ ، وَلَا تَكِلْنِي
إِلَى نَفْسِي فَأُضِلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ، وَاللَّهُ مَا أَحِبُّ أَنْ مَاضَى مِنَ الدُّنْيَا لِي بِعِمَامَتِي
هَذِهِ ، وَلَمَّا بَقِيَ مِنْهَا أَشْبَهُ بِمَا مَضَى مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ » .

(العقد المرید ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتدين ٢ : ٦٩ ، ١ : ٢٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد
م ١ : ص ١٥٠ ، وشرح العيون ص ١٢٢)

ومن كلامه :

« إِنَّ امْرَأًا أَتَتْ عَلَيْهِ سَاعَةٌ مِنْ عَمْرِهِ ، لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا رَبَّهُ ، وَيَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ
مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَفْكُرُ فِي مَعَادِهِ ، لَجْدِيرٌ أَنْ يَطُولَ حَزْنُهُ ، وَيَتَضَاعَفَ أَسْفُهُ ، إِنْ
اللَّهُ كَتَبَ عَلَى الدُّنْيَا الْفَنَاءَ ، وَعَلَى الْآخِرَةِ الْبَقَاءَ ، فَلَا بَقَاءَ لِمَا كَتَبَ عَلَيْهِ الْفَنَاءَ ،
وَلَا فَنَاءَ لِمَا كَتَبَ عَلَيْهِ الْبَقَاءَ ، فَلَا يَغُرُّ نَعْمَ شَاهِدُ ^(٢) الدُّنْيَا ، عَنْ غَائِبِ الْآخِرَةِ ،
وَاقْتَهَرُوا طُولَ الْأَمَلِ ، بِقِصْرِ الْأَجْلِ ^(٣) » .

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨ ، و البيان والتبيين
٢ : ٩٩ ، شرح العيون ١٢١ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

[١] قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس يروون هذا الكلام عن عليّ عليه السلام » .

[٢] أي حاضرها . [٣] قال الشعبي : سمعت الحجاج يقول بكلام ما سبقه إليه أحد ، سمعته يقول :
« إن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء . . الخ » ، وروى الجاحظ عن أبي عبد الله الثقفي عن عمه قال
سمعت الحسن البصري يقول : لقد وقفتي كلمة سمعتها من الحجاج ، قلت : وإن كلام الحجاج ليقذك ؟ قال :
نعم ، سمعته على هذه الأعواد يقول : « إن امرأة ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لحرى أن
تطول عليها حسرتة » .

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي (قتل سنة ٩٦ هـ)

٢٨٩ - خطبته يحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو « طَخَارُسْتَان »

قدم قُتَيْبَةُ بن مُسْلِمِ الباهلي خُرَاسَانَ والياً عليها من قبل الحجاج (١) سنة ٨٦ هـ ، فلما تهيأ لغزو أُخْرُونَ وشُومَانَ - وهما من بلاد طَخَارُسْتَان (٢) - خطب الناس وحثهم على الجهاد ، فقال :

« إِنَّ اللَّهَ أَحَلَّكُمْ هَذَا الْمَحَلَّ لِيُعِزَّ دِينَهُ ، وَيَذِبَ بِكُمْ عَنِ الْحُرْمَاتِ ، وَيَزِيدَ بِكُمْ الْمَالَ اسْتِفَاضَةً ، وَالْعَدُوَّ وَقَمًا (٣) ، وَوَعَدَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ النَّصْرَ بِحَدِيثٍ صَادِقٍ ، وَكِتَابٍ نَاطِقٍ ، فَقَالَ : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » وَوَعَدَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ أَحْسَنَ النُّوَابِ ، وَأَعْظَمَ الذُّخْرِ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ (٤) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَمَّن قُتِلَ فِي سَبِيلِهِ أَنَّهُ حَيٌّ مَرْزُوقٌ ، فَقَالَ : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحيَاءٌ

[١] ولي قتيبة خراسان بعد يزيد بن المهلب ، وغزا بلاد ما وراء النهر ، وافتتح بخارى ، وسمرقند ، وخرارزم ، ووصل في فتوحه إلى كاشغر من بلاد الصين ، وقتل سنة ٩٦ هـ .

[٢] ناحية كبيرة شرق خراسان على نهر جيحون ، وقد ضبطها ابن خلكان هكذا - انظر وفيات الأعيان ١ : ٩٠ في ترجمة بشار بن برد - وضبطها ياقوت في معجم البلدان بفتح الطاء .

[٣] وقه : تهمه وأذله . [٤] مجاعة .

عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » فتنجزوا موعود ربكم ، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر ،
وأمضى ألم ، وإياكم والهويئني . (تاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

٢٩٠ - خطبته وقد تهباً لغزو بلاد السغد

ولما صالح قتيبة أهل خوارزم ، وسار إلى السغد^(١) سنة ٩٣ هـ خطب
الناس ، فقال :

« إن الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه مُمكنٌ ، وهذه
السغدُ شاغرةٌ^(٢) برجلها ، قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، ومنعونا ما كنا
صالحنا عليه طرخون ، وصنعوا به ما بلغكم ، وقال الله تعالى : « فَنَنْكَتَ
فَأِنَّمَا يَنْكُتُ عَلَى نَفْسِهِ » ، فسيروا على بركة الله ، فإنني أرجو أن يكون خوارزم
والسغد كالنضير^(٣) وقرينة^(٤) ، وقال الله تعالى : « وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا
قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا » . (تاريخ الطبري ٨ : ٨٥)

[١] وكان قتيبة حين فتح بخارى سنة ٩٠ هـ ، وأوقع بأهلها ، هابه أهل السغد « وهي بين نهري
سيحون وجيحون ، وكانت قصبتها سمرقند ، وهي بالسين ، وربما قلت بالصاد » وأره طرخون ملك
السغد ، وسأله الصلح على فدية يؤديها إليه ، فأجابه قتيبة إلى ما طاب وصالحه ، ثم نقضوا عهدهم .

[٢] شجر السكك كنع : رفع إحدى رجله ليبول . [٣] بنو النضير : حي من يهود خيبر ، وكان
بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد يأمن بها كل فريق الآخر ، ولكنهم لم يعوا بها حسداً
منهم ونغيأ ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه في ديارهم ، إذا ائتمر جماعة منهم على قتله
بأن يلقى عليه أحدهم صخرة من علو ، فاطلع عليه الصلاة والسلام على قصدهم ، فرجع ، ثم أرسل إليهم بأمرهم
بالجلاء ، لما تقدم منهم من الغدر ، فتهيئوا للرحيل ، فأرسل إليهم إخوانهم المدايقون يقولون : لا تخرجوا من
دياركم ونحن معكم ، فسار عليه الصلاة والسلام لقتالهم ، وتحصن بنو النضير في حصونهم ، وظلوا أنها
ما اتهم من الله ، فحاصروا ست ليال ، ثم أسر بقطع نخيلهم كي يسلموا ، فغذف الله في قلوبهم الرعب ،
فسألوه أن يجلبهم ويكف عن دماهم ، وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب ، ففعل ، وصار
اليهود يخرجون بيوتهم بأيديهم ، اثلا يسكنها المسلمون .

[٤] كان يهود بني قريظة يساكنون المسلمين في المدينة ، فانهزوا فرصة اشتغال المسلمين بصدّ جوع
الأحزاب - في غزوة الخندق - ونقضوا عهدهم معهم ، وذلك أن حي بن أخطب سيد بني النضير الذين

٢٩١ - خطبته وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة

وأتى قتيبة الشغد فحصرها شهراً ، وخاف أهلها طول الحصار ، فكتبوا إلى ملك الشاش وفرغانة ^(١) «إنا نحن دونكم فيما بينكم وبين العرب ، فإن وُصِلَ إلينا كُنتم أضعف وأذل ، فهما كان عندكم من قوة فابذلوها» ، فجمعوا جموعهم ، وولّوا عليهم ابناً لخاقان ^(٢) ، وساروا وقد أجمعوا أن يبثوا عسكر قتيبة ، ونمى ذلك إليه ، فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس ، وخطبهم فقال :

« إن عدوكم قد رأوا بلاءً ^(٣) الله عندهم ، وتأيدته إياكم في مزاحفتكم ومكائرتكم ^(٤) ، كل ذلك يُفْلِحُكُمْ ^(٥) الله عليهم ، فأجمعوا على أن يحتالوا غرّتكم وبياتكم ، واختاروا دهاقينهم ^(٦) وملوكهم ، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم ،

أجلوا عن ديارهم ، توجه إلى كعب بن أسد القرظي ، فحسن له نقض العهد ، ولم يزل به حتى أحابه ائتمال المسلمين ، فاشتدّ وحل المسلمين ، وزلزلوا لرلرالا شديداً ، وأرسل الله على الأعداء رجلاً بارداً في ليلة مظلمة وحبوداً لم يروها ، فأجمعوا أمرهم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح ، وكو الله المؤمنين شر الأحراب ، ولم يعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سار إلى بني قريظة ، فتحصنوا بمحسونهم ، وحاصرهم المسلمون حسماً وعشرين ليلة ، فلما صاقوا بالحصار ذرعاً ، طلبوا أن ينزلوا على منازل عليه بنو النضير ، من الجلاء بالأموال وترك السلاح ، فأنى الرسول إلا أن ينزلوا على ، حكمه ففعلوا ، فتواثبت الأوس فقالوا : يارسول الله ، إنهم كانوا موالينا دون الحرج ، وقد فعلت في موالى إخواننا بالأوس ما قد فعلت - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بي قريظة قد حاصر بي قينقاع ، وكانوا حلفاء الحرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله لإيام عبد الله بن أبي بن سلول فوهبهم له - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعشر الأوس : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذاك إلى سعد بن معاذ - وكان جريحاً من سهم أصيب به في غزوة الخندق - وأرسل من يأتي به ، فقال : إني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسّم الأموال ، وتسي النساء والذراري ، فقال عليه الصلاة والسلام : فقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد ، ثم أمر بتنفيذ الحكم ، فنفذ فيهم .

- [١] الشاش وفرغانة : كورتان وراء نهر سيحون متاخمتان للصين . [٢] خاقان : اسم لكل ملك من ملوك الترك ، وقد خفّوه على أنفسهم : أي رأسوه (بالتشديد) . [٣] أي نعمته . [٤] كثرهم فكثروهم : غالبهم فغلبهم . [٥] أي ينصرم عليهم ، ويظفرم بهم . [٦] جمع دهاقان بكسر الدال وضمها : زعيم فلاحي العجم ، ورئيس الاقليم . معرب .

وَقَدْ فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِدِينِهِ ، فَأَبْلُوا^(١) لِلَّهِ بِلَاءً حَسَنًا تَسْتَوْجِبُونَ بِهِ الثَّوَابَ ، مَعَ الذَّبِّ
عَنْ أَحْسَابِكُمْ . (تاريخ الطبري ٨ : ٨٧)

٢٩٢ - خطبه حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك

وقام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك^(٢) ، ودعا الناس إلى خلعه
فقال للناس :

« إني قد جمعتكم من عين التَّمْرِ^(٣) ، وَفَيْضِ الْبَحْرِ ، فَضَمَّمْتُ الْأَخَ إِلَى
أَخِيهِ ، وَالْوَلَدَ إِلَى أَبِيهِ ، وَقَسَمْتُ بَيْنَكُمْ فَيْئَكُمْ ، وَأَجْرِيَتْ عَلَيْكُمْ أَعْطِيَا تَكُم
غَيْرَ مُكَدَّرَةٍ وَلَا مُؤَخَّرَةٍ ، وَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْوُلَاةَ قَبْلِي ، أَتَاكُمْ أُمِّيَّةٌ^(٤) ، فَكُتِبَ إِلَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : إِنَّ خَرَّاجَ خِرَاسَانَ لَا يَقُومُ^(٥) بِمَطْبَخِي ، ثُمَّ جَاءَكُمْ أَبُو سَعِيدٍ^(٦)
فَدَوِّمَ^(٧) بِكُمْ ثَلَاثَ سِنِينَ ، لَا تَدْرُونَ أَفِي طَاعَةِ أَنْتُمْ أَمْ فِي مَعْصِيَةٍ ، لَمْ يُجِبْ فَيَّئًا ،
وَلَمْ يَنْكَأْ^(٨) عَدَا ، ثُمَّ جَاءَكُمْ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، يَزِيدُ ، فَلَئِمَّ تَبَارَى إِلَيْهِ الْفَسَاءُ ، وَإِنَّمَا
خَلَيْفَتُكُمْ يَزِيدُ بْنُ ثَرْوَانَ هَبْنَقَةَ الْقَيْسِيِّ^(٩) » فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ فغَضِبَ ، فَقَالَ :

- [١] الابلَاء : الإلغام والإحسان ، يقال : أبليت عنده بلاء حسباً ، وأبلاه الله بلاء حسناً ، وأبليته
معروفاً ، والمعنى : فاصدقوا القتال ، وقدموا معروفاً تبغون به ثواب الله .
- [٢] وسبب ذلك أن الوليد بن عبد الملك أراد أن يجعل ابنه عبدالعزير وليّ عهده ، ودس في ذلك إلى
الفرّاد والشمراء ، وبإيعاده على خلع سليمان الحجاج وقتيبة ، ثم مات الوليد وقام سليمان بن عبد الملك ، خافه
قتيبة وخشى أن يولى سليمان يزيد بن المهلب خراسان . [٣] بلد على الفرات قرب الكوفة .
- [٤] هو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، وكان عاملاً عليها
لعبد الملك بن مروان حتى كانت سنة ٧٨ فعزله وجمع سلطانه للحجاج ، فبعث المهلب إليها .
- [٥] في الأصل « لا يقيم » وهو تحريف أو « لا يقيم مطبخي » . [٦] أبو سعيد كنية للمهلب
ابن أبي صفرة . [٧] من دومت الكلاب أي أمنت في المسير ، وفي رواية أخرى « فدوخ بكم البلاد »
وستأني . [٨] نكأ العدو ونكاه نكاية : قتل وجرح .
- [٩] هو يزيد بن ثروان هبنقة ذو الودعات ، وبكى أبا ذؤنن أحد بني قيس بن ثعلبة ، يضرب به المثل في
الحق فيقال : « أحق من هبنقة » وله نوادر في الحق منها أنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخرف
وهو ذو لحية طويلة ، فسئل في ذلك ، فقال : لأعرف بها نفسي ، ولولا أضل ، فبات ذات ليلة ، وأخذ

« لا أعز الله من نصرتم ، والله لو اجتمعتم على عز ما كسرتم قرننها ، يا أهل السافلة ، ولا أقول أهل العالمة . يا أوباش ^(١) الصدقة ، جمعتم كما تجتمع إبل الصدقة من كل أوب ^(٢) . يا معشر بكر بن وائل ، يا أهل النّفخ ^(٣) والكذب والبخل ، بأي يوميتكم تفخرون : يوم حربكم ، أم بيوم سلمكم ؟ فوالله لأننا أعز منكم ، يا أصحاب مُسَيِّمَة . يا بني ذميم ، ولا أقول تميم . يا أهل الخور ^(٤) والقصف ^(٥) والعدر ، كنتم تسمون العدر في الجاهلية « كيسان ^(٦) » يا أصحاب سجّاح ^(٧) ، يا معشر عبد الفيس القساة ، تبداتم بأبر النخل ^(٨) أعنة الخيل . يا معشر الأزد ، تبدلتم بقلوس ^(٩) السفن ، أعنة الخيل والحصن ^(١٠) ، إن هذا لبدة في الإسلام ، والأعراب ، وما الأعراب ؟ لعنة الله على الأعراب ، يا كناسة المصّرين ، جمعتم من منابت الشّيح والقيصوم ^(١١) ، ومنابت القليل ^(١٢) ، تركبون البقر

أخوه فلاديه فتقلدها ، ولما أصبح ، ورأى الفلادة في عنق أخيه ، قال يا أحمى : أنت أنا ، فن أنا ؟ ومنها : أنه ضل له بعير ، فحل ينادى : من وجد نيري يهر له ، فقيل له فلم تشده ؟ قال : فأين حلاوة الوجدان ؟ ومنها : أنه اختصمت الظفاوة وبوراس في رجل ادعاه هؤلاء وهؤلاء ، ثم ولوا : رضينا بأول من يطلع علينا ، فبما هم كذلك إذ طلع عليهم هبقة ، فقصوا عليه قصتهم ، فقال : الحكم عندي في ذلك أن يذهب به إلى نهر العصرة ، فيلقى فيه ، فإن كان راسباً راسب فيه ، وإن كان طفاوياً طفا ، فقال الرجل : لا أريد أن أكون من أحد هذين الحيين .

وقول قتيبة : « إنما خليفتم هنتة » ذلك لأن هبقة كان يحس إلى السماء من إبله ، ويرعيا في الشب ، وينحى المهازيل ، فقيل له : وحك ما تصنع ؟ فقال : إنما أكرم ما أكرم الله ، وأهين ما أهان الله ، وكذلك كان سليمان يعطى الأغنياء ، ولا يعطى الفقراء ويقول : « أصلح ما أصلح الله ، وأفسد ما أفسد الله » — انظر مجمع الأمثال ١ : ١٤٦ ، والبيان والنبين ١ : ١٢٦ .

[١] الأوباش السافلة ، جمع وبش كسب . [٢] الطريق والجهة . [٣] الفجر والكبر . [٤] القصف . [٥] الأهو . [٦] كيسان ، علم للعدر . [٧] هي سجّاح بنت الحارث ادعـ البوة مد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجزيرة في بني تغلب .

[٨] أبر الرجل أبرا : أصلحه . [٩] القلوس جمع قلوس كشمس ، وهو جبل ضخم من ليف أو خوص أرفقيرهما من قلوس سفن البحر . [١٠] جمع حصان . [١١] من نبات البادية زهره مرّ جدا . [١٢] نبت له حب أسود حسن الشم .

والحمر في جزيرة ابن كاوان^(١) ، حتى إذا جمعتم كما يُجمع قزع الخريف^(٢) قلم : كيت وكيت ، أما والله إنى لأبئ أبيه^(٣) وأخو أخيه ، أما والله لأعصبنكم عصب السامة ، إن حوّل الصليان الزمزمة^(٤) ، يأهل خراسان ، هل تدرون من وإيكم ؟ وليكم يزيد بن ثروان ، كأنى بأمر مزجاء^(٥) ، وحكم قد جاءكم ، فغلبكم على فيكم وأطالكم ، إن هاهنا ناراً ، أرموها أرم معكم ، ارموا غرضكم الأقصى ، قد استخلف عليكم أبو نافع ذو الودعات ، إن الشام اب مكفور ، حتى متى ينبطح أهل الشام بأفئيتكم وظلال دياركم ؟ يأهل خراسان انسبونى تجدونى عراقى الأم ، عراقى الأب ، عراقى المولد ، عراقى الهوى والرأى والدين ، وقد أصبحتم اليوم فيما ترّون من الأمن والعافية ، قد فتح الله لكم البلاد ، وآمن سبلكم ، فالظئينة^(٦) تخرج من مرّو إلى بلخ بغير جوار ، فاحمدوا الله على النعمة ، وسألوه الشكر والمزيد » ثم نزل . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠٥)

وورد كلام قتيبة في هذا الصدد في العقد الفريد ، والبيان والتبيين في ثلاث خطب هذا نصها :

قام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] هي جزيرة في الخليج الفارسي بين عمان والبحرين . [٢] القزع : كل شيء يكون قطعاً متفرقة (ومنه قيل لقطع السحاب في السماء قزع) وخرت الثمار أخرفها كنصر : احتيتها ، والتمر مخروف وخريف ، وفي كلام سيدنا علي رضي الله عنه « كما يجمع قزع الخريف » . [٣] أي ابن أبي . [٤] الصليان : نبت من أفضل المرعي بخلي (يجز) للجيل التي لا تفارق الحى ، والزمزمة : صوت خفى لا يكاد يفهم ، بهى صوت الفرس (بالتحريك) إذا رآه ، وأصلها صوت الجوس عند أكلهم — يتراطنون على الأكل ، وهم صوت لا يستعملون لساناً ، ولا شفة ، لكنه صوت تديره في خياشيمها وحلوقها ، يفهم بعضها عن بعض — وهو مثل يضرب للرجل يحوم حول الشيء ولا يظهر مرآه ، والمعنى في المثل : أن ما تسمع من الأصوات والجلب ، لطاب ما يؤكل ويتمتع به ، قال الميداني : ويروى « حول الصليان الزمزمة » الصليان جمع صليب ، والزمزمة : صوت طابديها . [٥] هو مزجاء اللطى أى كثير الإزجاء لها ، زجاء وأزجاء : سائها ودفعها : والمراد أنه قاس ظلوم . [٦] الظئينة : المرأة مادامت في الهودج .

«أتدرون من ثُبَايعُونَ؟ إنما ثُبَايعُونَ يَزِيدُ بْنُ ثَرْوَانَ - يَعْنِي هَبْنَقَةَ الْقَيْسِي -
كَأَنِّي بِأَمِيرِ مِزْجَاءَ، وَحَكَمَ قَدْ أَتَاكُمْ، يَحْكُمُ فِي أَمْوَالِكُمْ وَدِمَائِكُمْ وَفِرْجِكُمْ
وَأَبْشَارِكُمْ^(١)، ثُمَّ قَالَ: الْأَعْرَابُ وَمَا الْأَعْرَابُ؟ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْأَعْرَابِ، جَمَعْتُمْ
كَمَا يَجْمَعُ قَرْعَ الْخَرِيفِ^(٢) مِنْ مَنَابِتِ الشَّيْحِ وَالْقَيْصُومِ، وَمَنَابِتِ الْقَلْقَلِ،
وَجَزِيرَةَ ابْنِ كَاوَانَ، تَرْكَبُونَ الْبَقْرَ، وَتَأْكُلُونَ الْهَيْبِدَ^(٣)، فَحَمَلْتُمْ عَلَى الْخَيْلِ،
وَأَلْبَسْتُمْ السِّلَاحَ، حَتَّى مَنَعَ اللَّهُ بِكُمْ الْبِلَادَ، وَأَفَاءَ بِكُمْ النَّيْءَ» قَالَوا: مَرْنَا
بَأَمْرِكَ. قَالَ: غُرُّوا غَيْرِي. (العقد الفريد ٢: ١٥٥، والبيان والتبيين ٢: ٦٧)

وخطب مرة أخرى، فقال:

«يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، أَلَسْتُ أَعْلَمُ النَّاسَ بِكُمْ؟ أَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ أَهْلِ الْعَالِيَةِ،
فَنَعَمَ الصَّدَقَةَ، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَاثِلٍ فَمَلِجَةٌ^(٤) بَطْرَاءَ، لَا تَجْمَعُ
رَجُلِيهَا، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ عَبْدُ الْقَيْسِ فَمَا ضَرَبَ الْعَيْرَ بِذَنْبِهِ، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ
الْأَزْدِ، فَمَلُوجٌ^(٥) خَلَقَ اللَّهُ وَأَنْبَاطُهُ^(٦)، وَإِيْمُ اللَّهِ لَوْ مَلَكَتُ أَمْرَ النَّاسِ لَنَقَشْتُ
أَيْدِيَهُمْ، وَأَمَا هَذَا الْحَيُّ مِنْ تَمِيمٍ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَسْمُونُ الْغَدَرَ فِي الْجَاهِلِيَةِ كَيْسَانَ»
(العقد الفريد ٢: ١٥٥، والبيان والتبيين ٢: ٦٧)

وخطب مرة أخرى، فقال:

«يَا أَهْلَ خِرَاسَانَ، قَدْ جَرَّبْتُمْ الْوَلَاةَ قَبْلِي، أَتَاكُمْ أُمِيَّةٌ، فَكَانَ كَأَسْمِهِ أُمِّيَّةَ
الرَّأْيِ، وَأُمِيَّةَ الدِّينِ، فَكُتِبَ إِلَى خَلِيفَتِهِ: إِنْ خَرَجَ خِرَاسَانَ وَسَجِسْتَانَ لَوْ كَانَ

[١] أبشار جمع شر وهو جمع بشرة وهي ظاهر الجلد . [٢] في العقد الفريد : « كما يجمع فرخ
الحريق » وفي البيان والتبيين والطبرى « قرع الخريف » والصواب ما ذكرنا .
[٣] المنظل . [٤] مؤنث العليج ، وهو حمار الوحش السمين أقوى ، وأمة بطراء : طويلة النظر
كشمس وهو ما بين شفرى الرحم . [٥] جمع هليج (بالسكر) وهو الرجل من كفار العجم .
[٦] جيل من الناس كانوا يزلون سواد العراق ثم استعمل في أخلاط الناس وعوامهم .

في مطبخه لم يتكفِه ، ثم أتاكم بعده أبو سعيد ، فدوَّخ بكم البلاد ، لا تدرون أفي طاعة الله أنتم أم في معصيته ، ثم لم يجب فيئا ، ولم ينكأ عدواً ، ثم أتاكم بنوه بعده ، مثل أطباء^(١) الكلبة ، منهم ابن الرحمة^(٢) ، حصان يضرب في عانة^(٣) ، ولقد كان أبوه يخافه على أمهات أولاده ، ثم أصبحتم وقد فتح الله عليكم البلاد ، وأمن لكم السبل ، حتى إن الظعينة لتخرج من مرو إلى سمرقند في غير جوار»
(العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

٢٩٦ - كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم^X

وخرجت خارجةً بخراسان ، فقبل لقتيبة بن مسلم : لو وجهت إليهم وكيع ابن أبي سود^(٤) ، قال : - وكان وكيع رجلاً عظيم الكبر ، في أنفه خنزروانة^(٥) ، وفي رأسه نورة^(٦) - وإنما أنفه في أسلوب^(٧) ، ومن عظم كبره اشتد عجبه ، ومن أعجب برأيه لم يشاور كفيئاً^(٨) ، ولم يؤامر نصيحاً ، ومن تفرّد بالنظر لم يكمل له الصواب ، ومن تبجح^(٩) بالانفراد ، وفخر بالاستبداد ، كان من الصواب

[١] جمع طبي كقفل والطبي : لدات الحف والطف كأيدي المرأة . [٢] يريد به يزيد بن المهلب .

[٣] العانة : الأذن ، والقطيع من حر الوحش ، والمراد بها النساء .

[٤] هو وكيع بن أبي سود التيمي ، أحد الأبطال البواسل ، كان مع قتيبة في فتح بخارى وأبلى في القتال

بلاء محموداً - انظر خبره في الطبري ٨ : ٦٨ - وولاه الناس أمرهم حين ثاروا بقتيبة وقتلوه .

[٥] الخنزوان ، والخنزوانة ، والخنزوانية : الكبر ، يقال : هو ذو خنزوانات .

[٦] العرة : الحيلة والكبر .

[٧] الأسلوب : الشموخ في الأنف ، ويقال : إن أنفه لو أسلوب إذا كان متكبراً ، قال الراجز :

أنوفهم ملفخر في أسلوب وشمر الأستاه في الجبوب

(وهو في معنى المثل للشهور : أنف في السماء واست في الماء ، والجبوب كصور : الأرض ، والأستاه

جمع سته كشمس وسبب وهو الاست ، وقوله : ملفخر أصله : من الفخر ، ونظيره قول جميل بثينة :

وما أنس ملأ شيا لا أنس قولها (وقد قربت نضوى) أمصر تريد ؟

أى من الأشياء ، وقول قطري بن العجاء :

غداة طفت علماء بكر بن وائل ومجنا صدور الحيل نحو تميم

أى على الماء) . [٨] الكفى : الكافي ، ويؤامر : يشاور . [٩] تبجح به : افتخر وتباهى .

بعيدا ، ومن الخِذْلان قريبا ، والخطأ مع الجماعة ، خير من الصواب مع الفرقة ،
 وإن كانت الجماعة لا تخطئ ، والفرقة لا تُصيب ، ومن تكبر على عدوه حقره ،
 وإذا حقره تهاون بأمره ، ومن تهاون بخصمه ، ووثق بفضل قوته قل احتراسه ،
 ومن قل احتراسه كثُر عثاره ، وما رأيت عظيم الكبر صاحب حرب ، إلا كان
 منكوبا ، فلا والله حتى يكون عدوه عنده ، وخصمه فيما تغلب عليه ، أسمع من
 قرَس ، وأبصر من عقاب ، وأهدى من قِطَاة ، وأحذر من عمق^(١) ، وأشد
 إقداً من الأسد ، وأوثب من الفهد ، وأحقد من جمل ، وأروغ من ثعلب ،
 وأغدر من ذئب ، وأسخر من لافظة^(٢) ، وأشح من صبي ، وأجمع من ذرّة^(٣) ،
 وأحرس من كلب ، وأصبر من ضب ، فإن النفس تسمح من العناية على قدر
 الحاجة ، وتحفظ على قدر الخوف ، وتطلب على قدر الطمع ، وتطمع على
 قدر السبب .

(جهرة الامثال ١ : ١١٧)

[١] العمق : نوع من العرمان ، وهو دولوبين : أبيض وأسود طويل اللب ، يشبه صوته العين
 والقف — ولدا سمى عمقا ، وقيل لأنه يعمق فراخه ، فيتركهم بلا طعام ، وجميع العرمان يفعل ذلك — وقد
 ضربوا به المثل في الخذر ، فقالوا : « أحذر من عمق » — انظر جهرة الأمثال — كما قالوا : « أحذر من
 غراب » وقالوا أيضا : « ألس من عمق » لأن في طعمه شدة الاختطاف لما يراه من الخلى — وقالوا :
 « أحق من عمق » لأنه كالنعامة التي تصيح بيضا وأفراخها ، وتشتمل ببس غيرها ، ولياها
 على هدبة بقوله :

كتاركة بصها بالعرء ومليسة ببس أخرى جناحا

— انظر حياة الحيوان الكبرى للدميري ٢ : ٢٠٩ ، وجمع الأمثال — .

[٢] رواه الميداني : « أسمع من لادظة » وقال : قد اختلفوا فيها فقال بعضهم : هي العنز التي تشلى
 للحلب — أشلى دابته : أراها الخجلة لتأنيه ، وأشلاها دعاها للحلب — فتعى لادظة بحرتها فرحا بالحلب ،
 وقال بعضهم : هي الحمامة لأنها تخرج ما في بطنها لفرخها ، وقال بعضهم : هي الديك ، لأنه يأخذ الحبة بمقاره
 فلا يأكلها ، ولكن ياقبها إلى الدجاجة ، والهاء فيها المبالغة هاهنا ، وقال بعضهم : هي الرمي لأنها تلفظ
 ما تطحنه أي تقذف ، وقال بعضهم : هي البحر لأنه يلفظ بالندرة ، قال الشاعر :

تجود تجرل قل السؤال وكفك أسمع من لادظة .

[٣] الدر : صغار النمل ، وفي كلام عمر بن عبد العزيز : فائل الله زيادا جمع لهم (أي لأهل الدراق)
 كما تجمع الدرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة » ، وقال الشاعر :

تجمع للوارث جمعا كما تجمع في قربتها الدر .

ومن كلماته البليغة قوله حين قدِم خُراسان :

« من كان في يديه شيء من مال عبد الله بن خازم ^(١) فَنَيْبُذْهُ ، وإن كان

في فيه فَلْيَلْفِظْهُ ، وإن كان في صدره فَلْيَنْفُثْهُ » فَعَجِبَ الناس من حسن

(البيان والدين ٢ : ٥٤)

ما فَصَّلَ وقسم .

٢٩٧ — خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس

لما دانت بلاد المغرب لموسى بن نُصَيْرٍ - وكان والياً عليها من قِبَل الوليد بن

عبد الملك - طَمَحَ بَصَرَهُ إلى فتح بلاد الأندلس ، فبعث مَوْلاهُ طارق بن زياد

على جيش جُله من البربر سنة ٩٢ هـ ، فَعَبَّرَ بهم البحر ، وَتَمَيَّ خَبْرَهُ إلى لُدْرِيْق

ملك القُوط ، فأقبل لمحاربتَه بجيش جَرَّارٍ ، وخاف طارق أن يستحوذ الرعب على جنده

لَقَلَّتْهم ، فأحرق السفن التي أَقَلَّتْهم ، حتى يقطع من قلوبهم كل أمل في العودة ،

وقام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثهم على الجهاد ، ورغبهم في

الشهادة ، فقال :

« أيها الناس ، أين المفرُّ؟ البحرُ من ورائكم ، والعدوُّ أمامكم ، وليس لكم

والله إلا الصِّدْقُ ^(٢) والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضعفُ من الأيتام

[١] وكان من أمره أنه لما مات يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، وثب أهل خراسان بمالهم

فأخرجهم ، وعلك كل قوم على ناحية ، ووقعت الفتنة ، وعلب عبد الله بن خازم على خراسان ، ثم كتب إليه

عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير - وقيل قبله - يدعوهُ إلى الدخول في طاعته على أن يطعمه

خراسان عشر سنين ، وأبى وحاف ألا يعطيه طائفة أبداً ، وكان ابن خازم يهانل بحير بن ورقاء الصرغبي

بأبرشهر ، وخليفته على مرو بكير بن وشاح ، وكتب عبد الملك إلى بكير بعهدهُ على خراسان ، ووعدهُ

ومناه ، فدعا إلى عبد الملك ، وأحابه أهل مرو ، وبلغ ابن خازم نخاف أن يأتيه بكير ، فيجتمع عليه أهل

مرو وأهل أبرشهر ، فترك بحيراً وأقبل إلى مرو ، فاتبعهُ بحير بلحقهُ ، ودارت بينهما الحرب فقتل ابن خازم

في المعركة - انظر تاريخ الطبري ٧ : ص ٤٤ ، وص ١٩٦ .

[٢] أي الصديق في القتال ، والصديق : الهدية ، يقال صدقته القتال .

في مَادِبٍ ^(١) اللثام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحته وأقواته مؤفورة ،
وأنتم لا وزر ^(٢) لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي
عدوكم ، وإن أمتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تُنجزوا لكم أمراً ، ذهبت
ريحكم ، وتموّصت القلوب من رغبها منكم الجزأة عليكم ، فادفعوا عن
أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم ، بمناجزة ^(٣) هذا الطاغية ، فقد ألفت
به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن ، إن سمحتم لأنفسكم
بالموت ، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ^(٤) ، ولا حملتكم على خطة أرخص
متاع فيها النفوس ، أربأ ^(٥) فيها بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق
قليلاً ، استمتعتم بالأرفه الألدّ طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فيما
حفظكم فيه أوفر من حظى .

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور ^(٦) الحسان ، من بنات
اليونان ، الرافلات ^(٧) في الدرّ والمرجان ، والحلل المنسوجة بالمعقبات ^(٨) ،
المقصورات ^(٩) في قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد
الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا ^(١٠) ، ورَضِيكم لملوك هذه الجزيرة
أضهاراً ^(١١) وأختاناً ^(١٢) ، ثقةً منه بارتياحكم للطعان ، وإسماحكم ^(١٣) بمجالدة

[١] جمع مآدبة بالفتح والضم وهي طعام صنع لدعوة أو عرس . [٢] لا ملجأ . [٣] أى مبارزته .

[٤] النجوة : ما ارتفع من الأرض . [٥] ربأ بنفسه : علاها وارتفع أى أتجى عن مشاركتكم .

[٦] جمع حوراء من الحور بالتحريك وهو شدة سواد العين وبياضها .

[٧] رفات : جرت ذيلها وتبحرت ، أو خطرت بيدها . [٨] الذهب . [٩] المخدرات : المخبوات

[١٠] جمع عزيب والعزيب والعزب والأعزب : من لازوجة له . [١١] جمع صهر ككل وهو زوج

بنت الرجل ، وزوج أخته . [١٢] جمع ختن كسبب ، وهو الصهر ، أو كل من كان من قبل المرأة

كلاب والاخ . [١٣] سمح وأسمح : جاد وكرم .

الأبطال والفُرسان ، ليكون حَظُّهُ منكم ثوابَ الله على إعلاءِ كَلِمَتِهِ ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مَنعَمُهَا خالصاً لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وَلِيُّ إِنْجَادِكُمْ على ما يكون لكم ذكراً في الدارين .
واعلموا أني أول محبب إلى ما دعوتكم إليه ، وَأَنِّي عند مُلتَقَى الجَمْعين ، حاملٌ بنفسى على طاعةِ القومِ لندريق ، فقاتله إن شاء الله ، فاحملوا معى ، فإن هلكتُ بعده ، فقد كُفيتُم أمره ، ولن يُعوزَكم بَطَلٌ عاقلٌ تُسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه ، فاخلفوني في عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المَهْمُ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخَذَلون .

(نفع الطيب ١ : ١١٢ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٣٥)

٢٩٨ - نص آخر لخطبة طارق

وروى ابن قُتَيْبَةَ هذه الخطبة في الإمامة والسياسة بصورة أخرى ، قال :
لما بلغ طارقاً دُؤُوَ لندريق ، قام في أصحابه ، فحمد الله ، ثم حض الناس على الجهاد ، وَرَغَّبَهُمْ في الشهادة ، وَبَسَطَ لَهُمْ في آمالهم ، ثم قال :
« أيها الناس : أين المفر؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، فليس ثمَّ والله إلا الصدقُ والصبر ، فإنهما لا يُغَلبان ، وهما جندان منصوران ، ولا تَضُرُّ معهما قِلَّةٌ ، ولا تنفع مع الخَوَرِ والكسَلِ والفَشَلِ ، والاختلافُ والعُجْبُ كَثْرَةٌ ، أيها الناس : ما فعلت من شىء فافعلوا مثله ، إن حملتُ فاحملوا ، وإن وقفتُ فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال ، ألا وإني عامدٌ إلى طاعتهم ، بحيث لا أتهيبه حتى أخالطه ، وأُقتل دونه ، فإن قُتِلتُ فلا تهنأوا^(١) ولا تحزنوا ،

وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . وَتَوَلَّوْا الذُّبُرَ لَعَدُوِّكُمْ ، فَتَبَدَّدُوا بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ ، وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَرْضَوْا بِالذَّنْبِ ، وَلَا تَعْطُوا بِأَيْدِيكُمْ ، وَارْغَبُوا فِي مَا مُجِّلَ لَكُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالرَّاحَةِ ، مِنَ الْمِهْنَةِ وَالذَّلَّةِ ، وَمَا قَدْ حُلَّ لَكُمْ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَفَلَّوْا ^(١) (وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَمُعِيذُكُمْ) تَبَوَّءُوا بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ ، وَسُوءَ الْحَدِيثِ غَدًا بَيْنَ مَنْ عَرَفَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا نَذْرٌ حَامِلٌ حَتَّى أَغْشَاهُ ، فَاحْمِلُوا بِحِمْلَتِي . (الإمامة والسياسة ٢ : ٥٣)

٢٩٩ — خطبة عثمان بن حيان المري بالمدينة

وولي الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المري المدينة سنة ٩٤ هـ ، وقد خطب على المنبر ، فقال بعد حمد الله :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَجَدْنَاكُمْ أَهْلَ غَشٍّ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ، وَقَدْ ضَوَى ^(٢) إِلَيْكُمْ مَنْ يَزِيدُكُمْ خَبَالًا : أَهْلُ الْعِرَاقِ ، هُمْ أَهْلُ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، هُمْ وَاللَّهِ عَشْرُ النِّفَاقِ ، وَيَبِيضَتُهُ الَّتِي تَفَلَّقَتْ عَنْهُ ، وَاللَّهُ مَا جَرَّبَتْ عِرَاقِيًّا قَطُّ إِلَّا وَجَدْتُ أَفْضَلَهُمْ عِنْدَ نَفْسِهِ ، الَّذِي يَقُولُ فِي آلِ أَبِي طَالِبٍ مَا يَقُولُ ، وَمَا هُمْ لَهُمْ بِشِيْعَةٍ ، وَإِنَّهُمْ لَأَعْدَاءُ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ ، وَلَكِنْ لِمَا يَرِيدُ اللَّهُ مِنْ سَفْكِ دِمَائِهِمْ ، فَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُوتِي بِأَحَدٍ آوَى أَحَدًا مِنْهُمْ أَوْ أَكْرَاهَ مَنْزِلًا ، أَوْ أَنْزَلَهُ ، إِلَّا هَدَمْتُ مَنْزِلَهُ ، وَأَنْزَلْتُ بِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ ^(٣) .

ثم إن البُلْدَانَ لَمَّا مَصَّرَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَهُوَ مُجْتَهِدٌ عَلَى مَا يَصْلِحُ رِعِيَّتَهُ ،

[١] إن تملبوا وتهرموا . [٢] ضوى كرمى : انضم ولجا ، والخبال : الفساد .

[٣] ولم يترك بالمدينة أحداً من أهل العراق تاجراً ، ولا غير تاجر ، وأسر بهم أن يخرجوا ، وحبس بعضهم وعاقبهم ، ثم بعث بهم في جوامع إلى الحجاج بن يوسف .

جعل يمر عليه من يريد الجهاد ، فيستشيره : الشأمُ أحبُّ إليك أم العراق ؟
فيقول : الشأمُ أحبُّ إليّ .

إني رأيت العراق ذاءً عُضالاً ، وبها فرّخ الشيطان ، والله لقد أعضلوا بي^(١) ،
وإني لأراني سافر قههم في البلدان ، ثم أقول : لو فرقتمهم لأفسدوا من دخلوا
عليه بجدلٍ وحجاجٍ ، وكيف ؟ ولم ؟ وسرعةٍ وجيف^(٢) في الفتنة ، فإذا خبروا
عند السيوف ، لم يُخبر منهم طائل^(٣) ، لم يصلحوا على عثمان . فلقى منهم
الأمريين^(٤) ، وكانوا أول الناس فتقَ هذا الفتق العظيم ، وتقصوا عرا
الإسلام عروةً عروةً ، وانغلوا^(٥) البلدان ، والله إني لأتقربُ إلى الله بكل ما
أفعل بهم ، لما أعرف من رأيهم ومذاهبهم ، ثم وليهم أمير المؤمنين معاوية ،
فدامجهم^(٦) فلم يصلحوا عليه ، ووليهم رجل الناس^(٧) جلدًا ، فبسط عليهم
السيف وأخافهم ، فاستقاموا له ، أحبوا أو كرهوا ، وذلك أنه خبرهم وعرفهم .
أيها الناس : إنا والله ما رأينا شعاراً قطُّ مثل الأمن ، ولا رأينا جلساً^(٨)
قط شراً من الخوف ، فالزموا الطاعة ، فإن عندي يأهل المدينة خيرةً من
الخلاف ، والله ما أتم بأصحاب قتال ، فكونوا من أحلاس بيوتكم ، وععضوا على
النواجذ ، فإني قد بعثت في مجالسكم من يسمع فيبلغني عنكم ، إنكم في فضول

[١] عضل به الأمر وأعضل : اشتد ، وأعضله أيضاً .

[٢] وجب يجف وحيفاً : اضطرب . والوجيف : ضرب من سير الخيل والابل .

[٣] الطائل والطائلة والطول : العضل والقررة . [٤] الامران : الفقر والهرم ، وهو كناية عن

اشتداد الامر . [٥] أفسدوا ، من نغل الاديم كفرح : فسد في الدباغ ، وأنته : أفسده .

[٦] المداججة مثل المداجاة وداجه عليه : وافقه . [٧] يريد الحاج بن يوسف .

[٨] المجلس : بساط البيت ، وكساء على ظهر البعير تحت رحله ، والمراد : مارأيا مركباً شراً من الخوف

وفلان جلس من أحلاس البيت : لاندى لا يبرح البيت .

كلامٍ غيرُهُ أَلْزَمُ لَكُمْ ، فَدَعُوا عَيْبَ الْوُلَاةِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا يُنْقَضُ شَيْئًا شَيْئًا
حتى تكون الفتنة ، وإن الفتنة من البلاء ، والفتن تذهب بالدين وبالمال والولد .
(تاريخ الطبري ٨ : ٩٢)

٣٠٠ - وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد (قتل سنة ١٠٢ هـ)

ولما ولى يزيد بن المهلب خراسان في عهد سليمان بن عبد الملك ، فتح
جُرْجَانَ^(١) وطَبْرَسْتَانَ^(٢) (سنة ٩٨) ، وقد أوصى ابنه مَخْلَدًا حين استخلفه
على جُرْجَانَ ، فقال :

« يَا بُنَيَّ ، إِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُكَ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ ، فَانظِرْ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْيَمِينِ ،
فَكَنْ لَهُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا كُنْتَ مُرْتَادَ الرِّجَالِ لِنَفْعِهِمْ فَرِشٌ وَأَصْطَنَعَ عِنْدَ الَّذِينَ بِهِمْ تَرْحِي^(٣)

وانظر هذا الحي من ربيعة ، فإنهم شيعتك وأنصارك ، فاقض حقوقهم ، وانظر
هذا الحي من تميم ، فامطرهم^(٤) ، ولا تُزَرِه^(٥) لهم ، ولا تُدْنِهِمْ فَيَطْمَعُوا ، ولا
تُقْصِهِمْ فَيَقْطَعُوا ، وانظر هذا الحي من قيس ، فإنهم أكفأ قومك في الجاهلية ،
ومُنَاصِفُوهم المنابر في الإسلام ، ورضاهم منك البشر .

يا بني : إن لأبيك صنائع فلا تُفْسِدْهَا ، فإنه كفى بالمرء نقصًا أن يهدم
ما بنى أبوه ، وإياك والدماء فإنها لا بقية معها ، وإياك وشتم الأعراس ، فإن
الحرَّ لا يُرضيه عن عرضه عوضٌ ، وإياك وضرب الأبخار ، فإنه عارٌ باقٍ ،

[١] في الجنوبي الشرقي من بحر قزوين . [٢] جنوبي بحر قزوين .

[٣] راش المههم يرشه : ألق عليه الريش ، وراش الصديق : أطعمه وسقاه وكساه وأصلح حاله
وقعه ، واصطنع عنده صنيعه : اتخذها ، والبيت لأبي دؤاد الأيادي . [٤] مطرتهم السماء : أصابتهم
بالمطر ، ومطرهم غير : أصابهم ، وما مطر منه خيراً - وبغير - : أي ما أصابه منه خير

[٥] الزمو : الكبر والذية ، زهى كفى ، وكذا : قليلة .

وَوَثْرَةٌ مَطْلُوبٌ ، وَاسْتَعْمِلْ عَلَى النَجْدَةِ وَالْفَضْلِ دُونَ الْهَوَى ، وَلَا تَعَزِلْ إِلَّا عَنِ عِجْزٍ أَوْ خِيَانَةٍ ، وَلَا يَمْنَعُكَ مِنْ اصْطِنَاعِ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ غَيْرَكَ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ ، فَإِنَّكَ إِنَّمَا تَصْطَنِعُ الرَّجَالَ لِفَضْلِهَا ، وَلِيَكُنْ صَدِيقُكَ عِنْدَ مَنْ يَكْفُتُكَ عَنْهُ ، أَحْمِلِ النَّاسَ عَلَى أَحْسَنِ أَدَبِكَ يَكْفُوكَ أَنْفُسَهُمْ ، وَإِذَا كَتَبْتَ كِتَابًا فَأَكْثِرِ النَّظَرَ فِيهِ ، وَلِيَكُنْ رَسُولُكَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ يَفْقَهُ عَنِّي وَعَنْكَ ، فَإِنَّ كِتَابَ الرَّجُلِ مَوْضِعُ عَقْلِهِ ، وَرَسُولُهُ مَوْضِعُ سِرِّهِ ، وَأَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ ، فَلَا بَدَّ لِلْمَوْدَعِ أَنْ يَسْكُتَ ، وَالْمَشِيْعُ أَنْ يَرْجِعَ ، وَمَا عَفَّ مِنَ الْمَنْطِقِ ، وَقَلَّ مِنَ الْخَطِيئَةِ أَحَبُّ إِلَى أَيْبِكَ ، وَكَذَلِكَ سَلَكَ هَذَا الْمَسَلَّكَ الْحَمُودُ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٥٥ ، وبلوغ الأرب ٣ : ١٧٣)

٣٠١ - نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيهِ

وقال عمر بن هبيرة^(١) يؤدّب بعض بنيهِ :

« لَا تَكُونَنَّ أَوَّلَ مُشِيرٍ ، وَإِيَّاكَ وَالْهَوَى وَالرَّأْيَ الْفَطِيرَ^(٢) ، وَتَجَنَّبِ ارْتِجَالَ الْكَلَامِ ، وَلَا تُشِرْ عَلَى مُسْتَبَدٍّ ، وَلَا عَلَى وَغْدٍ ، وَلَا عَلَى مَتَلَوْنٍ ، وَلَا عَلَى لَجُوجٍ ، وَخَفِ اللَّهَ فِي مُوَافَقَةِ هَوَى الْمُسْتَشِيرِ ، فَإِنَّ التَّمَّاسَ مُوَافِقَتَهُ لُؤْمٌ ، وَسُوءُ الْاسْتِمَاعِ مِنْهُ خِيَانَةٌ . »

وقال : « مِنْ كَثَرِ كَلَامِهِ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمِنْ سَاءِ خُلُقِهِ قَلَّ صَدِيقُهُ . »

(البيان والتبيين ٢ : ٩٨)

[١] هو عمر بن هبيرة الفزارى ، وكان عاملاً على الجريرة لعمر بن عبد العزيز ، وولى العراق (وأضيفت إليه خراسان) ليزيد بن عبد الملك . [٢] كل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير - والمعجب الفطير : ضد الخير أى الذى لم يختبر - « وكان عبد الله بن وهب الراسي أمير الحوارج يقول : نعوذ بالله من الرأى الدبرى - والدبرى بالتحريك وتسكن الباء : الذى يعرض من بعد وقوع الشيء - ولا تقل دبرى بضمين فإنه من لحن الحديثين »

خطب خالد بن عبد الله القسري^(١)

(توفي سنة ١٢٦ هـ)

٣٠٢ - خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة

خطب خالد بن عبد الله القسري بمكة ، فقال :

«يأيها الناس ، إنكم بأعظم بلاد الله حرمة ، وهي التي اختار الله من البلدان فوضع بها بيته ، ثم كتب على عباده حججه ، من استطاع إليه سبيلا ، أيها الناس : فعليكم بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، وإياكم والشبهات ، فإنني والله ما أوتى بأحد يظن على إمامه إلا صلّته في الحرم ، إن الله جعل الخلافة منه بالموضع الذي جعلها ، فسلموا وأطيعوا ، ولا تقولوا كَيْتَ وَكَيْتَ ، إنه لا رأى فيما كتب به الخليفة أو رآه إلا إمضاؤه ، واعلموا أنه بلغني أن قوماً من أهل الخِلاف يقدّمون عليكم ، ويُقيمون في بلادكم ، فأياكم أن تُنزِلُوا أحداً ممن تعلمون أنه زائع عن الجماعة ، فإنني لا أجد أحداً منهم في منزل أحد منكم إلا هدمت منزله ، فانظروا ممن تُنزِلون في منازلكم ، وعليكم بالجماعة والطاعة ، فإن الفرقة هو البلاء العظيم .
وَسَمِعَ يوماً يقول : « والله لو أعلم أن هذه الوحش التي تأمن في الحرم لو نطقت لم تُقرّ بالطاعة ، لأخرجتها من الحرم ، إنه لا يسكن حرم الله وأمنه مخالف للجماعة زار^(٢) عليهم » .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٠)

[١] ولاء الوليد بن عبد الملك مكة سنة ٨٩ هـ ، وولى العراقيين في عهد هشام بن عبد الملك ، وكانت أمه نصرانية ، قالوا وكان يتهم في دينه ، وهو من خطباء العرب الممدودين المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، توفي سنة ١٢٦ هـ . [٢] زرى عليه : عابه .

٣٠٣ - خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد

ومن غلّوه أنه خطب على منبر مكة ، فقال :

« أيها الناس ، أيهما أعظم ؟ أخليفة الرجل على أهله ، أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم تعلموا فضل الخليفة إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقى ربه ، فسقاه ملحاً أجاباً^(١) ، واستسقاه الخليفة فسقاه عذبا فُرَاتاً » يعني برأ حفرها الوليد ابن عبد الملك بالثنيّتين : ثنية طوى^(٢) ، وثنية الحجون ، فكان يُنقل ماؤها ، فيوضع في حوض من أدم إلى جنب زمزم ، ليعرف فضله على زمزم .

(تاريخ الطبري ٨ : ٦٧ ، وشرح العيون ص ٢٠٥)

٣٠٤ - خطبته بمكة في الحجاج

وصعد خالد المنبر في يوم الجمعة - وهو على مكة - فذكر الحجاج ، فحمد طاعته ، وأثنى عليه خيراً ، فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك ، يأمره فيه بشتم الحجاج ، ونشر عيوبه ، وإظهار البراءة منه ، فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن إبليس كان ملكاً من الملائكة ، وكان يُظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلاً ، وكان الله قد علم من غشه وخبثه ما خفي على ملائكته ، فلما أراد الله فضيخته أمره بالسجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يُخفيه عنهم ، فلمنوه ، وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلاً ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشه وخبثه على ما خفي علينا ، فلما أراد الله فضيحه

[١] ماء أجاج : ملح مرّ ، والفرات : الماء العذب جداً .

[٢] ذو طوى ثلاث الطاء وينون : موضع قرب مكة ، والحجون : جبل مشرف بمكة ، وفي شرح العيون

أنه قال : « قد جئكم بماء العاذبة ، لاتشبه ماء أم الحنافس » يعني زمزم .

أَجْرِي ذَلِكَ عَلَى يَدِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَعْنَةُ ، فَالْعَنُوهُ لَعْنَةُ اللَّهِ « ثم نزل .
(المقدم التمريد ٢ : ١٥٨ - ٣ : ١١)

٣٠٥ - خطبة له في الحث على مكارم الأخلاق

وقام على المنبر بواسطة ، فحمد الله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،
ثم قال :

« أيها الناس ، نَافِسُوا فِي الْمَكَارِمِ ، وَسَارِعُوا إِلَى الْمَغَانِمِ ، وَأَشْتَرُوا الْحَمْدَ
بِالْجُودِ ، وَلَا تَكْسِبُوا بِالْمَطْلِ ذِمًّا ، وَلَا تَعْتَدُوا بِالْمَعْرُوفِ مَا لَمْ تَعْمَلُوهُ ، وَمَهْمَا
يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ عِنْدَ أَحَدٍ نِعْمَةٌ فَلَمْ يَبْلُغْ شُكْرَهَا ، فَاللَّهُ أَحْسَنُ لَهَا جِزَاءً ،
وَأَجْزَلُ عَلَيْهَا عَطَاءً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ ، نِعْمَةٌ مِنْ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، فَلَا
تَمَلُّوا النَّعْمَ فَتَحْوِلُوهَا نِقْمًا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَفْضَلَ الْمَالِ مَا أَكْسَبَ أَجْرًا ، وَأَوْرَثَ
ذِكْرًا ، وَلَوْ رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ رَجُلًا رَأَيْتُمُوهُ حَسَنًا جَمِيلًا يَسُرُّ النَّاظِرِينَ ، وَلَوْ رَأَيْتُمُ
الْبَخْلَ رَجُلًا رَأَيْتُمُوهُ مُشَوِّهًا قَبِيحًا تَنْفِرُ عَنْهُ الْقُلُوبُ ، وَتُغْضِي عَنْهُ الْأَبْصَارُ .

أيها الناس ، إِنْ أَجْوَدَ النَّاسُ مَنْ أَعْطَى مَنْ لَا يَرْجُوهُ ، وَأَعْظَمَ النَّاسُ
عَفْوًا مَنْ عَفَا عَنْ قُدْرَةٍ ، وَأَوْصَلَ النَّاسُ مَنْ وَصَلَ مَنْ قَطَعَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَطِيبْ
حَرَّتَهُ ، لَمْ يَزَلْ^(١) نَبْتُهُ ، وَالْأَصُولُ عَنْ مَغَارِبِهَا تَنْمُو ، وَبِأَصُولِهَا تَسْمُو .
أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

(صح الأعمش ١ : ٢٢٣ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥ ، وشرح العيون ص ٢٠٥)

٣٠٦ - خطبة له يوم عيد

خطب فذكر الله وَجَلَّالَهُ ، ثم قال :

« كُنْتَ كَذَلِكَ مَا شِئْتَ أَنْ تَكُونَ ، لَا يَعْلَمُ كَيْفَ أَنْتَ إِلَّا أَنْتَ ، ثُمَّ

ارتأيت أن تَخْلُقَ الخَلْقَ ، فإذا جئتَ به من عجائب صنْعِكَ؟ والكبيرُ والصغيرُ
مِنْ خَلْقِكَ ، والظاهرُ والباطِنُ مِنْ ذَرِّكَ ، من صُنُوفِ أفواجِهِ (١) ، وأفراده
وأزواجه ، كيف أدججتَ (٢) قوائِمَ الذَّرَّةِ والبعوضةِ ، إلى ما هو أعظم من ذلك ،
من الأشباحِ ، التي امتزجت بالأرواحِ . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٦)

٣٠٧ - قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه

وكان خالد إذا تكلم يظن الناس أنه يصنع الكلام ، لعدوِّة لفظه ، وبلاغة
منطقه ، فيينا هو يخطب يوماً إذ سقطت جرادة على ثوبه ، فقال :
«سبحان من الجرادة من خلقه ، أدمج قوائِمها ، وطوقها جناحها ، ووَشَى (٣)
جلدها ، وسلطها على ما هو أعظم منها» .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٣)

٣٠٨ - خطبة يوسف بن عمر الثقفي (٤) (قتل سنة ١٢٧ هـ)

قام خطيباً ، فقال :

اتقوا الله عبادَ الله ، فكم من مؤمِّلٍ أملاً لا يَبْلُغُهُ ، وجامعٍ مالا لا يأكله ،
ومانعٍ عما سوف يتركه ، ولعله من باطلٍ جمعه ، ومن حقٍّ منعه ، أصابه حراماً ،
وأورثه عدوًّا ، فاحتمل إضره (٥) ، وباء بوزره ، وورد على ربه آسفاً لاهفاً ، قد
خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، والبيان والنبين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥)

[١] جمع فوج كشمس ، وهو الجماعة . [٢] من أدمج الحبل : أحكم قتله في رقة .
[٣] نقش ونعم وزين . [٤] هو ابن ابن عم الحجاج ، ولاء هشام بن عبد الملك اليميني سنة ١٠٦ هـ ،
ثم ولاء العراق سنة ١٢٠ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله القسري ، وقتل سنة ١٢٧ هـ .
[٥] الإضر : الذنب .

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرّة

٣٠٩ - خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري

وقد علم بقدوم جيش الشام إلى المدينة (قتل سنة ٦٣ هـ)

لما كره أهل المدينة خلافة يزيد بن معاوية ، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الأنصاري على خلفه ، ووثبوا على من كان بالمدينة من بني أمية وحصلهم وأخافوهم ، وجه إليهم يزيد جيشاً من أهل الشام بقيادة مسلم بن عقبة المرّي ، ونمى إليهم خبر مقدمه عليهم ، فجمعهم عبد الله بن حنظلة ، فقال : « تبايعوني على الموت ، وإلا فلا حاجة في بيعتكم » فبايعوه على الموت ، ثم صعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنما خرجتم غضباً لدينكم ، فأبُلُوا إلى الله بلاءً حسناً ، ليوجب لكم به الجنة ومغفرته ، ويُمَجِّلَ بكم رضوانه ، واستعدُّوا بأحسنِ عدَّتكم ، وتأهبُّوا بأكل أهبتكم ، فقد أُخْبِرْتِ بَأَنَّ الْقَوْمَ نَزَلُوا بِدِي خُشْبٍ^(١) ومعهم مروان بن الحكم ، والله إن شاء مُهْلِكُهُ بِنَقْضِهِ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢) . »

[١] ذو خشب : واد على مسيرة ليلة من المدينة . [٢] وذلك أن أهل المدينة كانوا قد أخرجوا مروان بن الحكم وكبراء بني أمية عن المدينة ، وحلفوا عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لننلقوا جيش يزيد ليردّونهم عنهم إن استطاعوا ، فان لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ، ولم يرجعوا معهم ، فحلفوا لهم على ذلك .

فتصايح الناس ، وجعلوا ينالون منه ويسبونه ، فقال لهم : « إن الشتم ليس بشيء ، نصدقهم اللقاء ، والله ما صدق قوم قط إلا نصروا » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم إنا بك واثقون ، وعليك متوكلون ، وإليك أجاننا ظهورنا » ثم نزل . (الامامة والسياسة ١ : ١٥٤)

٣١٠ - خطبة مسلم بن عقبة يثوب أهل الشام

وأقبل مسلم بجيشه إلى المدينة ، فحاصرها من جهة الحرّة^(١) ، ودعا أهلها إلى الطاعة ومراجعة الحق ، وأجلهم ثلاثاً فلم يُذعنوا لقوله ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وحملت خيل ابن حنظلة على أهل الشام فانكشفوا ، وقُتل صاحب رايتهم ، فأخذ مسلم الراية ، ونادى :

« يا أهل الشام ، أهدا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم ؟ وأن يعزوا به نصر إمامهم ؟ قبح الله قتالكم منذ اليوم ، ما أوجعه لقلبي ، وأغیظه لنفسي ! أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تُحرموا العطاء ، وأن تجمرُوا في أقاصي الثغور ، شدوا مع هذه الراية ، ترَّحَّح^(٢) الله وجوهكم إن لم تُعتبوا^(٣) » .
(تاريخ الطبری ٧ : ٩)

٣١١ - خطبة مسلم يحرضهم

ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو ابن حنظلة ورجاله حتى دنوا منه ، وأخذ مسلم يسير في أهل الشام ويحرضهم ، ويقول :

« يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا

[١] الحرّة : أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كبيرة . [٢] ترَّحَّح كفتح فرح : حزن ، وترَّحَّح تترجماً : أحزنه . [٣] أعتبه : أعطاه العتي (كقربى) وهي الرضا ، أى إن لم ترضوني بصدقكم القتال .

أَكْثَرِهَا عَدَدًا ، وَلَا أَوْسَعِيهَا بَلَدًا ، وَلَمْ يَخْصُصْكُمْ اللَّهُ بِالَّذِي خَصَّكُمْ بِهِ مِنَ
النَّصْرِ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَحُسْنِ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ أُمَّتِكُمْ ، إِلَّا بِطَاعَتِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ ، وَإِنْ هُوَ لَاءِ
الْقَوْمِ وَأَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ غَيْرُوا ، فَغَيَّرَ اللَّهُ بِهِمْ ، فَتَمَّوْا ^(١) عَلَى أَحْسَنِ مَا كُنْتُمْ
عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، يُتِمِّمِ اللَّهُ لَكُمْ أَحْسَنَ مَا يُنِيلِكُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالْفَلَجِ ^(٢) .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٢ - خطبة ابن حنظلة يحرّض أصحابه

وقام عبد الله بن حنظلة في أصحابه حين رآهم قد أقبلوا يمشون تحت
راياتهم ، فقال :

« يَا هُوَلَاءَ : إِنْ عَدُوَّكُمْ قَدْ أَصَابُوا وَجْهَ الْقِتَالِ الَّذِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ
بِهِ ، وَإِنِّي قَدْ ظَنَنْتُ أَلَّا تَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً ، حَتَّى يَفْصِلَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، إِمَّا
لَكُمْ وَإِمَّا عَلَيْكُمْ ، أَمَّا إِنْ كُنْتُمْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ وَدَارِ الْهَجْرَةِ ! وَاللَّهِ مَا أَظُنُّ رَبَّكُمْ
أَصْبَحَ عَنْ أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمَسَامِينِ بِأَرْضِي مِنْهُ عَنْكُمْ ، وَلَا عَلَى أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ
بُلْدَانِ الْعَرَبِ بِأَسْحَطَ مِنْهُ عَلَى هُوَلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ ، إِنْ لَكُلِّ امْرَأٍ مِنْكُمْ
مَيْتَةٌ هُوَ مَيْتٌ بِهَا ، وَاللَّهِ مَا مِنْ مَيْتَةٍ بِأَفْضَلَ مِنْ مَيْتَةِ الشَّهَادَةِ ، وَقَدْ سَأَلَهَا اللَّهُ
إِلَيْكُمْ ، فَاعْتَمِدُوا ، فَوَاللَّهِ مَا كَلَّمَا أَرَدْتُمُوهَا وَجَدْتُمُوهَا . »

ودارت الدائرة على أهل المدينة ، وقتل ابن حنظلة فيمن قتل ، ودخل مسلم
المدينة ^(٣) ، وكانت وقعة الحرّة في ذي الحجة سنة ٦٣ هـ .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠)

[١] تمّ على الأمر وتمّ عليه كضرب أى استمر عليه .

[٢] الفلج : الظفر والنصر . [٣] انظر ص ١٨٥ .

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

٣١٣ - خطبة عبید الله بن زياد بن أبيه

قام عبید الله بن زياد بن أبيه خطيباً بعد موت يزيد بن معاوية - وهو يومئذ أمير العراق - فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، انْسُبُونِي ، فوالله ما مهاجرٌ أبى إلا إليكم ، وما مولدي إلا فيكم ، وما أنا إلا رجل منكم ، ولقد وَايَتِكُمْ وما أَحْصَى ديوانُ مُقَاتِلَتِكُمْ إلا سبعين ألفَ مُقاتِل ، ولقد أَحْصَى اليومَ ديوانُ مُقَاتِلَتِكُمْ ثمانينَ ألفاً ، وما أَحْصَى ديوانُ عَمَّالِكُمْ إلا تسعينَ ألفاً ، ولقد أَحْصَى اليومَ مائةً وأربعينَ ألفاً ^(١) ، وما تركتُ لكم ذا ظِنَّةٍ ^(٢) أخافه عليكم ، إلا وهو في سِجْنِكُمْ هذا ، وإن أمير المؤمنين : يزيد بن معاوية قد تُوُفِّيَ ، وقد اختلف أهل الشام ، وأنتم اليوم أكثرُ الناس عدداً ، وأعرضه فناءً ، وأغناه عن الناس ، وأوسعُه بلاداً ، فاخترأوا لأنفسكم رجلاً ترتضونه لدينكم وجماعتكم ، يُجَاهِدُ عدوكم ، وَيُنْصِفُ مظلومكم من ظالمكم ، وَيَكْفِ سَفْهَاءَكُمْ ، وَيَجْنِي لَكُمْ فَيْئَكُمْ ، وَيَقْسِمُهُ فيما بينكم ، فأنا أول راضٍ من رَضِيتموه وتابِع ، فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترتضونه ، دخلتم فيما دخل فيه المسلمون ، وإن كرهتم ذلك كتتم على جَدِيلَتِكُمْ ^(٣) حتى تُعْطُوا حاجتكم ، فإياكم إلى أحد من أهل البلدان حاجةً ، وما يستغنى الناس عنكم . »

[١] وفي البيان والتبيين : « والله لقد وليكم أبى وما مقاتلتكم إلا أربعون ألفاً ، فبلغ بها ثمانين ألفاً وما ذريعتكم إلا ثمانون ألفاً ، وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف ، وأنتم أوسع الناس بلاداً ، وأكثر جنوداً وأبعد مقادراً ، وأغنى الناس عن الناس . . . الخ » . [٢] الطنة : التهمة .
[٣] الجديلة : الطريقة ، يقال : ما زال على جديلة واحدة ، أى على حال واحدة ، وطريقة واحدة .

فقامت خطباء أهل البصرة ، فقالوا : قد سمعنا مَقَالَتَكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، وَإِنَّا
وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ أَحَدًا أَقْوَى عَلَيْهَا مِنْكَ ، فَهَلُمَّ فَلَنْبَايَعُكَ ، فقال : لاحتاجة لى فى
ذلك ، فاختراروا لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كررّوا ذلك عليه ثلاث
مرات ، فلما أبوا بسَطَ يده فبايعوه .

فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أ كُفَّهُمْ بِالْحَيْطَانِ وَبَابِ الدَّارِ ،
ويقولون : ظن ابن مَرْجَانَةَ أَنَّا نُؤَيِّيه أَمْرَنَا فى الفُرْقَةِ ! وأقام عبيد الله أسيراً غيرَ
كثير ، حتى جعل سلطانه يَضْعُفُ ، ويأمر بالأمر فلا يُقْضَى ، وَيَرَى الرَّأْيَ
فَيُرَدُّ عَلَيْهِ ، ويأمر بحبس المخطئ فيَحَالُ بين أعوانه وبينه .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٥)

٣١٤ — خطبة أخرى له

وبلغته أن سَلَمَةَ بن ذُوَيْبٍ يدعو الناس إلى ابن الزبير ، فأمر فنُودى :
الصلاة جامعة ، فتجمع الناس ، فأنشأ عبيد الله يَقْضَى أول أمره وأمرهم ، وما قد
كان دعاهم إلى من يرتضونه ، فبايعه معهم ، وقال : « وَإِنِّكُمْ أَيْتِمٌ غَيْرِي ، وَإِنَّهُ
بَلَّغَنِي أَنَّكُمْ مَسْحَتُمْ أَكُفَّكُمْ بِالْحَيْطَانِ وَبَابِ الدَّارِ ، وَقَلْنِمَ مَا قَلْتُمْ ، وَإِنِّي أَمْرٌ
بِالْأَمْرِ فَلَا يُنْفَذُ ، وَيُرَدُّ عَلَى رَأْيِي ، وَتَحْوِيلُ الْقِبَائِلِ بَيْنَ أَعْوَانِي وَطَلِبَتِي ^(١) ، ثُمَّ
هَذَا سَلَمَةَ بن ذُوَيْبٍ يدعو إلى الخلافِ عليكم ، إرادة أن يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ ،
وَيَضْرِبَ بَعْضُكُمْ جِبَاهَةَ بَعْضٍ بِالسَّيْفِ » .

فقال الأحنف بن قيس والناس جميعاً : نحن نأتيك بِسَلَمَةَ ، فَأَتَوْهُ ، فَإِذَا

جَمْعُهُ قَدْ كَثُفَ ، وَإِذَا الْفَتْقُ قَدْ اتَّسَعَ عَلَى الرَّاتِقِ ، وَامْتَنَعَ عَلَيْهِمْ ، فَقَعَدُوا عَنْ
ابْنِ زِيَادٍ فَلَمْ يَأْتُوهُ .

وَرَوَى أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ : « يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاللَّهِ لَقَدْ لَبِسْنَا الْخَزَّ وَالْيُمْنَةَ ^(١)
وَاللَّيْنَ مِنَ الثِّيَابِ ، حَتَّى لَقَدْ أَجْمْنَا ^(٢) ذَلِكَ ، وَأَجْمْتُهُ جَلُودُنَا ، فَمَا بَنَا إِلَى أَنْ
نُعْقِبَهَا الْحَدِيدَ ؟ يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاللَّهِ لَوْ اجْتَمَعْتُمْ عَلَى ذَنْبٍ عَيْرٍ لَتَكْسِرُوهُ
مَا كَسَّرْتُمُوهُ » . (تَارِيحُ الطَّبَرِيِّ ٧ : ٢٠)

٣١٥ - خُطْبَةُ عَمْرٍو بْنِ حَرِيثٍ

وَلَمَّا بَايَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ - وَكَانَ خَلِيفَتَهُ عَلَى الْكُوفَةِ عَمْرٍو بْنُ
حُرَيْثٍ - بَعَثَ وَافِدَيْنِ مِنْ قِبَلِهِ إِلَى الْكُوفَةِ : عَمْرٍو بْنُ مِسْمَعٍ ، وَسَعْدُ بْنُ الْقَرَّحَاءِ ^(٣)
الْتِمِيمِيَّ ، لِيُعْلِمَ أَهْلَ الْكُوفَةِ مَا صَنَعَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ ، وَيَسْأَلَانِهِمُ الْبَيْعَةَ لِابْنِ زِيَادٍ ،
حَتَّى يَصْطَلِحَ النَّاسُ ، فَجَمَعَ النَّاسَ عَمْرٍو بْنُ حَرِيثٍ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

« إِنْ هَذِينَ الرَّجُلَيْنِ قَدْ أَتَيَاكُمْ مِنْ قِبَلِ أَمِيرِكُمْ ، يَدْعُوَانَكُمْ إِلَى أَمْرٍ يَجْمَعُ اللَّهُ
بِهِ كَلِمَتَكُمْ ، وَيُصْلِحُ بِهِ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، فَاسْمَعُوا مِنْهُمَا ، وَاقْبَلُوا عَنْهُمَا ، فَإِنَّهُمَا
بِرُّشْدٍ مَا أَتَيَاكُمْ » .

٣١٦ - خُطْبَةُ عَمْرٍو بْنِ مِسْمَعٍ

فَقَامَ عَمْرٍو بْنُ مِسْمَعٍ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَذَكَرَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، وَاجْتِمَاعَ
رَأْيِهِمْ عَلَى تَأْمِيرِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ ، حَتَّى يَرَى النَّاسَ رَأْيِهِمْ ، فِيمَنْ يُولُونَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ :

[١] اليمنة : برد يمي . [٢] أجمه : أراحه ، وأصله من أجم الفرس : تركه فلم يركبه ففعا من تعب ،
والجاء بالفتح : الراحة . [٣] القرهاء في الأصل : الروضة في وسطها نور أبيض .

« قد جئناكم لنجمع أمرنا وأمركم ، فيكونَ أميرنا وأميركم واحداً ، فإنما الكوفة من البصرة ، والبصرة من الكوفة » .

وقام ابن القرهاء ، فتكلم نحواً من كلام صاحبه ، فقام يزيد بن الحارث الشيباني فحَصَبَهُمَا أولَ الناس ، ثم حصبهما الناس بعدُ ، ثم قال : أنحن نبائع لابن مرّجانة؟ لا ولا كرامة ! ورجع الوفد إلى البصرة ، فأعلم الناس الخبر ، فقالوا : أهل الكوفة يخلعونه ، وأنتم تؤولونه وتبايعونه ؟ فوثب به الناس ، فاستجار بمسعود بن عمرو الأزدي فأجاره ومنعه ، ثم خرج إلى الشام في خُفارةٍ رجال من الأزدي وبكر بن وائل . (تاريخ الطبري ٧ : ٣٠)

٣١٧ - خطبة الأحنف بن قيس

واستخلف ابن زياد مسعود بن عمرو الأزدي على البصرة ، فقالت بنو تميم وقيس : لا نولى إلا رجلاً ترضاه جماعتنا ، فقال مسعود : قد استخلفني ، فلا أدع ذلك أبداً ، وبينما هو على المنبر يبائع من أتاه ، إذ رماه رجل من الخوارج فقتله ، فخرجت الأزدي إلى الخوارج ، فقتلوا منهم وجرّحوا ، وطردهم عن البصرة ، وجاءهم الناس ، فقالوا لهم : تعلمون أن بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو ؟ فبعثت الأزدي تسأل عن ذلك ، فإذا أناس منهم يقولونه ، فاجتمعت الأزدي عند ذلك ، وازدلفوا إلى بني تميم ، وخرجت مع بني تميم قيس ، وخرج مع الأزدي بكر بن وائل ، فالتقى القوم ، واقتتلوا أشد القتال ، فقتل من الفريقين قتلى كثيرة ، فقالت لهم بنو تميم : الله الله يا معشر الأزدي في دماننا ودمائكم ، بيننا وبينكم القرآن ، ومن شئتم من أهل الإسلام ، فإن كانت لكم علينا بيّنة أنا قتلنا صاحبكم ، فاختاروا أفضل رجل فينا ، فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن لكم بيّنة ، فإننا نحلف بالله ما قتلنا ولا أمرنا ، ولا نعلم لصاحبكم قاتلاً ، وإن لم تريدوا ذلك ، فنحن ندي صاحبكم بمائة ألف درهم ، فاصطلحوا ، فاتاهم الأحنف بن قيس ، فقال :

« يا معشر الأزد : أنتم جبرتنا في الدار ، وإخواننا عند القتال ، وقد أتيناكم في رحالكم ، لإطفاء حشيشتكم ^(١) ، وسَلَّ سَخِيمَتِكُمْ ^(٢) ، ولكم الحكمُ مُرْسَلًا ^(٣) ، فقولوا ، على أعلامنا وأموالنا ، فإنه لا يتعاضمنا ^(٤) ذهاب شيء من أموالنا كان فيه صلاح بيننا » ، فقالوا : أتدون صاحبنا عشر دياتٍ ؟ قال : هي لكم ، فانصرف الناس واصطلحوا ^(٥) .

وروى الجاحظ وابن عبد ربّه هذه الخطبة بصورة أخرى ، وهما هي ذى : قال بعد حمد الله والثناء عليه : « يا معشر الأزد وربيعة ، أنتم إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الصّهر ، وأشقاؤنا في النّسب ، وجيراننا في الدار ، ويدنا على العدو ، والله لأزدُ البصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة ، ولأزد الكوفة أحبُّ إلينا من تميم الشام ، فإن استشرف شنائكم ^(٦) ، وأبى حسدُ صدوركم ، ففي أموالنا ، وسعة أعلامنا ، انا ولكم سعة » .

(تاريخ الطبري ٨ : ٣١ ، والبيان والبيان ٢ : ٦٨ ، والقصد الفريد ٢ : ١٥٧)

٣١٨ — خطبة روح بن زنباع الجذامي بالمدينة ^(٧)

لما نَمَى هلاك يزيد بن معاوية إلى الحُصَيْن بن نُمَيْر - وهو على حرب ابن

[١] أى زركم الموقدة . من حش النار : أوقدها ، وهى فعيلة بمعنى مفعولة (وإن كانت لم ترد في كتب اللغة بهذا المعنى ، لكن القياس لا يمنعها ، والوارد : الحشيشة طاقة الكلاء) . [٢] السخيمة : الحقد . [٣] أى مطلقا كما تشاءون . [٤] تعاضمه : عظم عليه .

[٥] واجتمع أهل البصرة على أن يجعلوا عليهم منهم أميرا يصلى بهم حتى يجتمع الناس على امام ، جعلوا عبد الملك بن عبد الله بن طامر شهرا . ثم جعلوا عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وهو بيته - فصلى بهم شهرين ، ثم قدم عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر من قبل ابن الزبير ، فكث شهرا ، ثم قدم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المدروف باقباغ ، ثم مصعب بن الزبير ، أما أهل الكوفة فإنهم لما ردّوا وفد البصرة ولوا عليهم طامر بن مسعود القرشي ، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الأنصاري من قبل ابن الزبير كما تقدم . [٦] استشرف : انتصب ، أى زاد واستحکم ، والشنائن : البغض والكرهية .

[٧] هو روح بن زنباع سيد جذام - إحدى قبائل اليمن - وقد خلفه مسلم بن عقبة المرّمي ، على المدينة بعد فراغه من قتال أهلها - في وقعة الحرة - وشخصه إلى مكة لقتال ابن الزبير - وقد نزل الموت

الزبير بمكة - انصرف بجيشه إلى الشام ، فلما صاروا إلى المدينة ، جعل أهلها يَهْتَفُونَ^(١) بهم ، ويتوعدونهم ، ويذكرون قتلهم بالحربة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهيجها ، صعد رَوْح بن زُبَاع الجُدَامِيّ على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان في ذلك الجيش - فقال :

بمسل في الطريق ، وولى أمر الجيش الحسين بن نعيم - ولما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، دعا حسان ابن مالك بن مجدل الكلابي - وكان على فلسطين والأردن - روح بن زُبَاع فاستعلمه على فلسطين ، ونزل هو الأردن ، فوثب نائل بن قيس الجُدَامِيّ على روح ، واخرجه من فلسطين ، وبايع لابن الزبير . « الطبري ج ٧ : ص ١٣ و ٣٤ ، والأغاني ١٧ : ١١١ » ، وكان لروح اليد الطولى في ظفر مروان ابن الحكم بالخلافة ، قال صاحب العقد « ج ٢ : ص ٢٥٩ » لما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن ، وبايع أهل مصر أيضا ابن الزبير ، واستحلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الهجري على أهل الشام ، فلما رأى ذلك رحل بنى أمية وناس من أشرف الشام ووجههم منهم روح بن زُناح وغيره ، قال بعضهم لبعض : إن الملك كان فينا أهل الشام ، فانتقل عما إلى الحجار ، لا نرضى بذلك هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فيطر في هذا الأمر ؟ فقال : استحيروا الله ، وأتوا عمرو بن سعيد بن العاص ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فرأوه حدثا ، فأتوا خالد بن يزيد بن معاوية ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فرأوه حدثا حريصا على هذا الأمر ، فلما خرجوا من عنده فلوا : هذا حديث وأتوا مروان بن الحكم ، فقالوا : يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر ، فقال : استحيروا الله ، واسألوه أن يختار لأمة محمد صلى الله عليه وسلم خيرا وأعد لها ، فقال له روح بن زُبَاع : إن ممي أربع مائة من جذام ، فأنا أتمهم أن يقدموا في المسجد غدا ، وصر أنت انك عبد العزيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليك ، فإذا فعل ذلك تبادوا من حانب المسجد : صدقت صدقت ! فيطر الناس أن أمرهم واحد ، فلما اجتمع الناس قام عبد العزيز حمد الله وأثنى عليه ، ثم قل :

« ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان ، كبير قریش وسيدها ، والذي نفسى بيده لقد

شاب شعر ذراعيه من الكبر » فقال الجُدَامِيّون : صدقت صدقت ! فقال خالد بن يزيد : أمر دبر بليل ! وبايعوا مروان بن الحكم اه . ومن أجل ذلك كان روح أنيرا عند عبد الملك بن مروان « كما يقول المبرد في الكامل ٢ : ١٢٢ » ، ويقول ابن نباتة في سرح العيون ص ١١٣ : « وكان روح بمنزلة نائب عبد الملك » ويقول صاحب العقد : « وكان روح بن زُبَاع وزير عبد الملك » - ٢ : ٧٠ ، ٣ : ٦ - قال ابن طباطبا في الفجرى ص ١٣٦ : « والوزارة لم تتهد قواعدها ، وتقرر قوانينها إلا في دولة بى العباس ، وأما قبل ذلك ، فلم تكن مقننة القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، فلما ملك بئر العباس تقرر قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً ، وأول وزير ووزر لأول خليفة عباسى حفص بن سليمان أبو سلمة الحلال وزير السفاح » .

« يَأهل المدينة : ما هذا الإيعادُ ^(١) الذي توعِدُوننا ؟ إنا والله ما دعوناكم إلى « كَلْب » لمبايعة رجل منهم ، ولا إلى رجل من « بَلَقَيْن » ^(٢) ولا إلى رجل من « نَلَم » أو « جُذَام » ولا غيرهم من العرب ، ولكن دعوناكم إلى هذا الحَيِّ من قريش - يعنى بنى أمية - ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية ، وعلى طاعته قاتلناكم ، فَإَيَّانا تُوَعِدُونَ ؟ أَمَا والله إنا لَأَبْنَاءُ الطَّعْنِ والطَّاعُونَ ، وَفَضَلَاتُ المَوْتِ والمُنُونِ ، فاشْتَم ^(٣) ، ومضى القوم إلى الشام .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٨)

٣١٩ - خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة

ولما اجتمع الرأي على البيعة لمروان بن الحكم ، قام رَوْح بن زُبَاع ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيها الناس ، إنكم تَذْكُرُونَ عبد الله بن عُمر بن الخطاب ، وَصُحْبَتَهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَقَدَمَهُ في الإسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف ، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف ؛ وأما ما يذكركم الناس من عبد الله بن الزبير ، وَيَدْعُونَ إليه من أمره ، فهو والله كما يذكرون ، إنه لَأَبْنُ الزبير : حَوَارِيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَأَبْنُ أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقَيْنِ ، وهو بعدُ كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير

[١] يقال : وعده خيرا وبه ، ووعدته شرا وبه - ومن هذا قوله تعالى :

« النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ » فإذا أسقطوا الخير والشر ، قالوا في الخير وعد وفي الشر أُرُدد ، وقالوا أوعده خيرا وشرا بالألف أيضا ، وأدخلوا الباء مع الألف في الشر خاصة ، فقالوا أوعده بالسجن ونحوه . [٢] أصله بنو الدين كما قالوا : بلحارث في بني الحارث ، وبلعبر في بني العنبر . قال المبرد في الكامل ٢ : ١٨٣ « وكذلك كل اسم من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة ، فإنهم يجيزون معه حذف النون التي في قولك (بنو) اقرب مخرج النون من اللام ، وذلك قولك فلان من بلحارث وبلعبر وبلهجم » أي بنى الهجم كزبير .

[٣] وروى الجاحظ أن روحا خطب هذه الخطبة يدعو إلى بيعة يزيد بن معاوية ، وفي آخرها يقول : « وعندنا إن أجبتهم وأطعتم من المعونة والفائدة ما شئتم » .

منافق ، قد خلع خليفتين : يزيد وابنة معاوية بن يزيد ، وَسَفَكَ الدماء ، وشقَّ عَصَا المسلمين ، وليس صاحبَ أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم المنافقُ ؛ وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كَانَ في الإسلام صَدْعٌ قَطُّ ، إلا كَانَ مروان ممن يَشْعَبُ ^(١) ذلك الصَّدْعُ ، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ^(٢) ، والذي قاتل على بن أبي طالب يوم الجَمَل ، وإنا نرى للناس أن يُبايعوا الكبير ، ويستشَبُّوا ^(٣) الصغير - يعنى بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد ابن يزيد بن معاوية - .

فأجمع رأى الناس على البيعة لمروان . ثم لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمر و ابن سعيد بن العاص من بعد خالد . (تاريخ الطبرى ٧ : ٣٨)

٣٢٠ خطبة الغضبان بن القبعثرى يحض على قتل الحجاج

لما هلك بشر بن مروان ، وَوَلِيَ الحجاج العراق ، بلغ ذلك أهلَ العراق ، فقام الغضبان بن القبعثرى الشيباني بالمسجد الجامع بالكوفة خطيباً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل العراق ، ويا أهل الكوفة ، إن عبد الملك قد ولى عليكم من لا يَقْبَلُ من مُحْسِنِكُمْ ، ولا يتجاوز عن مُسِيئِكُمْ ، الظُّلْمَ النَّشُومَ ^(٤) الحَجَّاجَ ، أَلَا وَإِنْ لَكُمْ مِنْ عبد الملك منزلةً ، بما كَانَ منكم من خِذْلَانِ مُصْعَبٍ ^(٥)

[١] يصلح . [٢] يوم تسور الثوار عليه داره وقتلوه .

[٣] ينتظروه حتى يشب . [٤] الظلوم .

[٥] وذلك أن مصعب بن الزبير لما كان على العراق حج سنة ٧١ ، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ، ومعه وحوه أهل العراق ، وسأله أن يعطيهم ، فأبى وقضى يده ، فلما حرمهم ابن الزبير ما عنده فسدت قلوبهم ، فراسلوا عبد الملك بن مروان ، حتى خرج إلى مصعب وقاتله ، فما هو إلا أن التقوا حتى حولوا وجوههم ، وصاروا إلى عبد الملك ، ونفى مصعب في شردمة قليلة ، فجاءه هيبند الله بن ظبيان - وكان مع

وَقَتْلِهِ ، فاعترضوا هذا الخبيثَ في الطريق فاقتلوه ، فإن ذلك لا يُعَدُّ منكم
خَلْعًا ، فإنه متى يعلو على مَن مِّنْكُمْ ، وصدر سَرِيرِكُمْ ، وقاعةِ قَصْرِكُمْ ، ثم قتلتموه
عُدَّ خَلْعًا ، فأطيعوني وتغدَّوا به ، قبل أن يتعشَّى بكم .

فقال له أهل الكوفة : « جَبُنْتَ يا غَضْبَانُ ، بل ننتظر سيرته ، فإن رأينا
مُنْكَرًا غَيْرَ نَاهِ » قال : ستعلمون ، فلما قَدِمَ الحجاج الكوفة بلغته مقالته ، فأمر
به ، فأقام في حبسه ثلاث سنين . (مروج الذهب ٢ : ١٤٦)

فتنة ابن الأشعث

جهز الحجاج عشرين ألف رجل من أهل الكوفة ، وعشرين ألف رجل من أهل
البصرة ، لمحاربة رُتَيْلِ مَلِكِ التُّرْكِ^(١) ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن
قيس الكندي ، فخرج بهم حتى قَدِمَ سِجِسْتَانَ (سنة ٨٠ هـ) فجمع أهلها حين قَدِمَها
وخطبهم فقال .

٣٢١ ... خطبة ابن الأشعث بسجستان

صَعِدَ المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس ، إن الأمير الحجاج ولأني تُغْرِكُمْ ، وأمرني بجهاد عدوكم الذي

مصعب - فقال : أين الناس أيها الأمير ؟ فقال : قد غدرتم بأهل العراق ، فرفع عبيد الله السيف ليضرب
مصعبا ، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيعة ، فنش السيف في البيضة ، فجاء غلام لعبيد الله بن ظبيان
فضرب مصعبا بالسيف فقتله ، ثم جاء عبيد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، فلما نظر إلى رأس مصعب
خر ساجدا ، قال عبيد الله بن ظبيان - وكان من ذاك العرب - ما ندمت على شيء قط ندمي على عبد الملك
ابن مروان ، إذ أتيت به برأس مصعب ، فخر ساجدا ، أن لا أكون ضربت دنقه ، أو أكون قد قتلت ملكي
العرب في يوم واحد . [١] انظر ص ٢٧٩

استباح بلادكم ، وأباد خياركم ، فأياكم أن يتخلف منكم رجلٌ فيجِلّ بنفسه العقوبة ،
أخرجوا إلى مَسْكَرِكُمْ ، فمَسَكروا به مع الناس . (تاريخ الطهري ٨ : ٤)

* * *

٣٢٢ - خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج

فلما حاز من أرض رُبَيْلِ أرضاً عظيمةً ، وملا يديه من الغنائم والأسلاب ، حبس
الناس عن الوُغُولِ في أرضه ، وقال : نكتفي بما أصبناه العام من بلادهم ، حتى نجْمِيهَا ونعْرِفَهَا
ويجتري المسلمون على طرقها ، ثم نتعاطى في العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل ننتقمهم في
كل عام طائفة من أرضهم ، ثم لا نزال بلادهم حتى يهلكهم الله ، وكتب إلى الحجاج
بذلك ، فورد عليه كتاب الحجاج يضعف رأيه ، ويأمره بالوُغُولِ في أرضهم ، ويتهدده
بالعزل إن لم يفعل ، فدعا ابن الأشعث الناس إليه .

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إني لكم ناصح ، ولصلاحيكم مُحِبٌّ ، ولكم - في كل ما يُحِيط
بكم نفعُهُ - ناظرٌ ، وقد كان من رأيي فيما بينكم وبين عدوكم رأيٌ ، أَسْتَشَرْتُ فِيهِ
ذَوِي أَحْلَامِكُمْ ، وَأُولِي التَّجْرِيبَةِ لِلْحَرْبِ مِنْكُمْ ، فَرَضُوهُ لَكُمْ رَأْيًا ، وَرَأَوْهُ لَكُمْ فِي
العَاجِلِ وَالْآجِلِ صَلاَحًا ، وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَى أَمِيرِكُمُ الحِجَاجِ ، فِجَاءَ نِي مِنْهُ كِتَابٌ
يَعْجِزُنِي وَيُضَعِّفُنِي ، وَيَأْمُرُنِي بِتَعْجِيلِ الوُغُولِ بِكُمْ فِي أَرْضِ العَدُوِّ ، وَهِيَ البِلَادُ
الَّتِي هَلَكَ إِخْوَانُكُمْ فِيهَا بِالْأَمْسِ ، وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ ، أَمْضِي إِذَا مَضَيْتُمْ ، وَآبِي
إِذَا أُبَيْتُمْ » .

فثار إليه الناس ، فقالوا : لا ، بل نأبى على عدو الله ، ولا نسمع له ولا نطيع .

٣٢٣ - خطبة عامر بن واثلة الكِنَانِي

فقام عامر بن وَاثِلَةَ الْكِنَانِي - وكان أول متكلم يومئذ ، وكان شاعراً خطيباً - فقال بعد أن حمد الله ، وأثنى عليه :

« أما بعد : فَإِنَّ الْحِجَابَ وَاللَّهِ مَا يَرَى بِكُمْ إِلَّا مَا رَأَى الْقَائِلُ الْأَوَّلُ ، إِذْ قَالَ لِأَخِيهِ : « احْمِلْ عَبْدَكَ عَلَى الْفَرَسِ ، فَإِنْ هَلَكَ هَلَكَ ، وَإِنْ نَجَا فَكَأَنَّكَ » . إِنْ الْحِجَابَ وَاللَّهِ مَا يَبَالِي أَنْ يُخَاطِرَ بِكُمْ ، فَيَقْتَحِمَ بِلَادَكُمْ كَثِيرَةَ اللَّهْوَبِ (١) وَاللَّصُوبِ (٢) ، فَإِنْ ظَفَرْتُمْ فَغَنِمْتُمْ أَكْلَ الْبِلَادِ ، وَحَازَ الْمَالَ ، وَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي سُلْطَانِهِ ، وَإِنْ ظَفَرَ عَدُوَّكُمْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ الْأَعْدَاءُ الْبُغْضَاءُ الَّذِينَ لَا يَبَالِي عَنْتَهُمْ ، وَلَا يُبْقِي عَلَيْهِمْ ، اخْلَعُوا عَدُوَّ اللَّهِ الْحِجَابَ ، وَبَايَعُوا عَبْدَ الرَّحْمَنِ ، فَإِنِّي أَشْهَدُكُمْ أَنِّي أَوْلُ خَالِعٍ » .
فنادى الناس من كلِّ جانب : فعلنا فعلنا ، قد خلعنا عدوَّ الله .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨)

٣٢٤ - خطبة عبد المؤمن بن شُبَيْثِ بْنِ رَبِيعٍ

وقام عبد المؤمن بن شُبَيْثِ بْنِ رَبِيعٍ التَّمِيمِيُّ ثانياً ، فقال :
« عِبَادَ اللَّهِ ، إِنَّكُمْ إِنْ أَطَعْتُمْ الْحِجَابَ ، جَعَلَ هَذِهِ الْبِلَادَ بِلَادَكُمْ مَا بَقِيْتُمْ ، وَجَمْرَكُمْ تَجْمِيرَ فِرْعَوْنَ الْجَنُودَ ، فَإِنَّهُ بِلَانِي أَنَّهُ أَوْلُ مِنْ جَمْرِ الْبَعُوثِ ، وَلَنْ تَعَايِنُوا الْأَحِبَّةَ فِيمَا أَرَى أَوْ يَمُوتَ أَكْثَرُكُمْ ، بَايَعُوا أَمِيرَكُمْ ، وَانصَرَفُوا إِلَى عَدُوِّكُمْ ، فَانفَوْهُ عَنْ بِلَادِكُمْ » ، فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه . (تاريخ الطبري ٨ : ٨)

[١] اللهوب جمع لهب كحمل ، وهو مهواة ما بين كل جبلين ، أو الصدع في الجبل ، أو الشعب الصغير فيه (والشعب كحمل : الطريق في الجبل) . [٢] جمع لصب كحمل أيضاً ، وهو الشعب الصغير في الجبل أضيق من الهب وأوسع من الشعب .

٣٢٥ - خطبة ابن الأشعث بالمربد

ولما كانت الحرب بينه وبين الحجاج بالمربد^(١) خطب الناس ، فقال :
« أيها الناس : إنه لم يبقَ من عدوِّكم إلا كما يبقَى من ذنَبِ الوَزْغَةِ^(٢)
تضرب به يميناً وشمالاً ، فما تلبث إلا أن تموت^(٣) . »

(البيان والبيان ٢ : ٨٧ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢١)

٣٢٦ - خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق

ولما نزل ابن الأشعث بدير الجاجم ، واجتمع أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، وأهل
الثغور والمسالح^(٤) بدير الجاجم والقراء من أهل المصرين ، واجتمعوا جميعاً على حرب
الحجاج - جمعهم عليه بفضهم وكرهيتهم له - وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ، ممن يأخذ
العطاء ، ومعهم مثلهم من مواليهم ، واشتد القتال بين الفريقين ، بعث عبد الملك بن مروان
ابنه عبد الله وأخاه محمداً ، وأمرهما أن يعرضاً على أهل العراق نزع الحجاج عنهم ، وأن
يجرى عليهم أعطياتهم ، كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أى بلد من العراق
شاء ، يكون عليه والياً ما دام حياً ، وكان عبد الملك والياً ، فعرضاً ذلك على أهل العراق ،
فقالوا : نرجع العشيّة ، فاجتمعوا عند ابن الأشعث ، فلم يبق قائد ، ولا رأس قوم ، ولا
فارس إلا أتاه .

فحمد الله ابن الأشعث ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فقد أعطيتم أمراً ، انتهزكم اليوم إياه فرصةً ، ولا آمن أن
يكون على ذى الرأي غداً حسرةً ، وإنكم اليوم على النصف ، وإن كانوا اعتدوا
بالزاوية ، فأنتم تعتدون عليهم بيوم تستر ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم ، وأنتم أعزاه

[١] موضع بالبصرة . [٢] الوزغة : سم أبرص سميت بها لظفتها وسرعة حركتها .

[٣] قال الجاحظ : فرّ به رجل من بنى أشير فقال : « وح الله هذا ورأيه ، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس

ويعدم الأضاليل ، ويمنيهم الباطل » وناس كثير يرون أن ابن الأشعث هو الحسن دون المشيرى .

[٤] جمع مسلحة بالفتح وهي الثغر .

أقوياء ، والقوم لكم هائبون ، وأنتم لهم منتقِصُونَ ، فلا والله لازتم عليهم أجرِ ناء ، ولازتم عندهم أعزاء ، إن أنتم قبلتم أبداً ما بقيتم .

فوثب الناس من كلِّ جانب ، فقالوا : إن الله قد أهلكهم ، فأصبحوا في الأزل^(١) والضنك والمجاعة والقلة والدلة ، ونحن ذوو العدد الكثير ، والسعر الرفيع ، والمادة القريبة ، لا والله لا تقبل ، فأعادوا خلع عبد الملك ثانية ، وكان ما كان مما أسلفنا لك ذكره . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥)

٣٢٧ - عامر الشعبي والحجاج

وكان عامر الشعبي^(٢) ممن خرج مع ابن الأشعث ؛ فلما أتى الحجاج بأمرى الجماجم ، أتى فيهم بالشعبي مؤثماً - وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج في أمرى الجماجم أن يعرضهم على السيف ، فمن أقر منهم بالكفر في خروجهم علينا فيخلى سبيله ، ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه - قال الشعبي : فلما جئت باب القصر لقيتني يزيد بن أبي مسلم كاتبه ، فقال : إنا لله يا شعبي الما بين دفتيك من العلم ، وليس اليوم بيوم شفاعة . قلت له : فما المخرج ؟ قال : يؤ^(٣) للأمير بالشرك والنفاق على نفسك ، وبالحرى أن تنجو ، ثم لقيتني محمد بن الحجاج ، فقال لي مثل مقالة يزيد ، فلما دخلت على الحجاج قال لي : وأنت يا شعبي ممن ألب علينا مع ابن الأشعث ؟ أشهد على نفسك بالكفر . قلت : « أصلح الله الأمير ، نبأ بنا المنزل^(٤) ، وأجدب بنا الجناب ، وأستحلَسنا^(٥) الخوف ،

[١] الضيق والشدة . [٢] هو أبو عمرو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) الشعبي (نسبة إلى شعب وهو بطن من همدان) وهو كوفي تسمى جليل القدر وافر العلم ، توفى سنة ١٠٥ هـ ، وكانت أمه من سبي جلولا . [٣] ارجع . [٤] نبأ . نزل به : لم يرافقه . [٥] أي لم يفارقنا .

واكتحلنا السهر ، وضاق المسلك ، وخبطتنا فتنة لم تكن فيها بررة أتقياء ، ولا
نجرة أقوياء » قال : صدقت والله ما برزتم بخروجكم علينا ولا قويتم ، خلوا
سبيل الشيخ . (مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، والعقد الفريد ١ : ١٥١ - ٣ : ١٢)

٣٢٨ - أيوب بن القرية والحجاج

وكان الحجاج قد بعث أيوب بن القرية^(١) رسولا إلى ابن الأشعث ، حين
خلع الطاعة بسجستان ، فلما دخل عليه ، قال له : لتقومن خطيبا ، ولتخلعن
عبد الملك ، ولتسبن الحجاج ، أو لأضربن عنقك ، قال : أيها الأمير ، إنما أنا
رسول ! قال : هو ما أقول لك ، فقام وخطب وخلع عبد الملك ، وشتم الحجاج ،
وأقام هنالك ، فلما انصرف ابن الأشعث مهزوما ، كتب الحجاج إلى عماله
بالري وأصبهان وما يليهما ، يأمرهم ألا يمر بهم أحد من قبل ابن الأشعث إلا
بعثوا به أسيرا إليه ، وأخذ ابن القرية فيمن أخذ .

فلما أدخل على الحجاج ، قال : أخبرني عما أسألك ؟ قال : سألني عما شئت ،
قال : أخبرني عن أهل العراق ، قال : أعلم الناس بحق وباطل ، قال : فأهل
الحجاز ، قال : أسرع الناس إلى فتنة ، وأعجزهم فيها ، قال : فأهل الشام ، قال :
أطوع الناس لخلفائهم ، قال : فأهل مصر ، قال : عبيد لمن غلب ، قال : فأهل
البحرين ، قال : نبط^(٢) استعربوا ، قال : فأهل عمان ، قال : عرب استنبطوا ،
قال : فأهل الموصل ، قال : أشجع فرسان ، وأقتل للأقران ، قال : فأهل اليمن ،
قال : أهل سمع وطاعة ، ولزوم للجماعة ، قال : فأهل اليمامة ، قال : أهل جفاء ،

[١] هو أبو سليمان أيوب بن زيد الهلالي ، والقرية جدته ، وكان أعرابيا أميا معدودا من جملة خطباء

العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة . [٢] النبط : جيل من الناس ، كانوا ينزلون سواد العراق .

واختلاف أهواء ، وأصبرُ عند اللقاء ، قال : فأهل فارس ، قال : أهل بأسٍ شديد ،
 وشَرٌّ عَتِيد ، ورِيف^(١) كبير ، وقِرْيَى يسير ، قال : أخبرني عن العرب ، قال :
 سَلَنِي ، قال : قريش ، قال : أعظمها أحلاماً ، وأكرمها مقاماً ، قال : فبنو عامر
 ابن صعصعة ، قال : أطولها رِمَاحاً ، وأكرمها صَبَاحاً ، قال : فبنو سُلَيْم ، قال :
 أعظمها مجالِسَ ، وأكرمها مَحَابِسَ^(٢) ، قال : فَثَقِيف ، قال : أكرمها جُدُوداً ،
 وأكثرها وُفُوداً ، قال : فبنو زُبَيْد ، قال : أكرمها للرَّايَات ، وأدركها لِلتَّرات^(٣) ،
 قال : فَقُضَاعَةَ ، قال : أعظمها أخطاراً ، وأكرمها نِجاراً^(٤) ، وأبعدها آثاراً ،
 قال : فالأنصار ، قال : أثبتها مقاما ، وأحسنها إسلاماً ، وأكرمها أيّاماً ، قال :
 فَتَمِيم ، قال : أظهرها جَلداً ، وأثراها عَدَداً ، قال : فبِكُرْبِن وائل ، قال : أثبتها
 صفوفاً ، وأحدّها سيوفاً ، قال : فعبد القَيْس ، قال : أسبقها إلى الغايات ،
 وأصبرُها تحت الرّايَات ، قال : فبنو أسد ، قال : أهل عَدَدٍ وَجَلَدٍ ، وَعُسْرٍ
 وَنَسْكَدٍ ، قال : فَلَنْحَم ، قال : مُلُوكٌ ، وفيهم نُوكٌ^(٥) ، قال : فَجُدَام ، قال :
 يُوقِدُونَ الحربَ وَيَسْعَرُونَها^(٦) ، وَيُلْقِحُونها ثم يَمْرُونها^(٧) ، قال : فبنو الحارث
 قال : رُعَاةٌ لِلقَدِيم ، وَحَمَاةٌ عَنِ الحَرِيم ، قال : فَعَمَكٌ ، قال : لُيُوثٌ جَاهِدَةٌ ، فِي
 قُلُوبٍ فَاسِدَةٍ ، قال : فَتَغْلِب ، قال : يَصْدُقُونَ - إِذَا لَقُوا - ضَرْباً ، وَيَسْعَرُونَ
 لِلأَعْدَاءِ حرباً ، قال : فَفَعَسَان ، قال : أكرمُ العربِ أحساباً ، وأثبتُها أنساباً ، قال :
 فأى العرب في الجاهلية كانت أَمْنَعُ من أن تُضَامَ ؟ قال قريش ، كانوا أهل

[١] الريف : أرض فيها زرع وخصب . [٢] المحابس جمع محبس كقعد وهو النجاعة .
 [٣] الزرات جمع ترة : وهي التار . [٤] النجار : الأصل . [٥] النوك بالضم والفتح : الحقي .
 [٦] سحر الحرب كنع ، وأسعرها : أوقدها . [٧] مري الناقة كرمي : مسح ضردها لتدير .

وَكَتَحَلْنَا السَّهْرَ ، وَضَاقَ الْمَسَلَكُ ، وَخَبَطْنَا فِتْنَةً لَمْ نَكُنْ فِيهَا بَرَرَةً أَتْقِيَاءَ ، وَلَا
كَجَرَّةِ أَقْوِيَاءَ » قال : صدقت والله ما بررتهم بخروجكم علينا ولا قويتهم ، خلوا
سبيل الشيخ . (مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، والعقد الفريد ١ : ١٥١ - ٣ : ١٢)

٣٢٨ - أيوب بن القرية والحجاج

وكان الحجاج قد بعث أيوب بن القرية^(١) رسولا إلى ابن الأشعث ، حين
خلع الطاعة بسجستان ، فلما دخل عليه ، قال له : لتقومن خطيبا ، ولتخلعن
عبد الملك ، ولتسبن الحجاج ، أولأضربن عنقك ، قال : أيها الأمير ، إنما أنا
رسول ! قال : هو ما أقول لك ، فقام وخطب وخلع عبد الملك ، وشتم الحجاج ،
وأقام هنالك ، فلما انصرف ابن الأشعث مهزوما ، كتب الحجاج إلى عماله
بالرمي وأضبهان وما يليهما ، يأمرهم ألا يمر بهم أحد من قبل ابن الأشعث إلا
بعثوا به أسيرا إليه ، وأخذ ابن القرية فيمن أخذ .

فلما أدخل على الحجاج ، قال : أخبرني عما أسألك ؟ قال : سألني عما شئت ،
قال : أخبرني عن أهل العراق ، قال : أعلم الناس بحق وباطل ، قال : فأهل
الحجاز ، قال : أسرع الناس إلى فتنة ، وأنجزهم فيها ، قال : فأهل الشام ، قال :
أطوع الناس لخلفائهم ، قال : فأهل مصر ، قال : عبيد لمن غلب ، قال : فأهل
البحرين ، قال : نبط^(٢) استعربوا ، قال : فأهل عمان ، قال : عرب استنبطوا ،
قال : فأهل الموصل ، قال : أشجع فرسان ، وأقتل للأقران ، قال : فأهل اليمن ،
قال : أهل سمع وطاعة ، ولزوم للجماعة ، قال : فأهل اليمامة ، قال : أهل جفاء ،

[١] هو أبو سليمان أيوب بن زيد الهلالي ، والقرية جدته ، وكان أعرابيا أميا معدودا من جملة خطباء

العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة . [٢] النبط : جيل من الناس ، كانوا ينزلون سواد العراق .

واختلاف أهواء ، وأصبرُ عند اللقاء ، قال : فأهل فارس ، قال : أهل بأسٍ شديد ،
 وشَرٌّ عَتِيد ، وريِّف ^(١) كبير ، وقرى يسير ، قال : أخبرني عن العرب ، قال :
 سلني ، قال : قريش ، قال : أعظمها أخلاما ، وأكرمها مقاما ، قال : فبنو عامر
 ابن صعصعة ، قال : أطولها رماحا ، وأكرمها صباحا ، قال : فبنو سليم ، قال :
 أعظمها مجالس ، وأكرمها محابس ^(٢) ، قال : فثقيف ، قال : أكرمها جدودا ،
 وأكثرها وفودا ، قال : فبنو زبيد ، قال : أكرمها للرايات ، وأدرَكها للترات ^(٣) ،
 قال : فقضاعا ، قال : أعظمها أخطارا ، وأكرمها نجارا ^(٤) ، وأبعدها آثارا ،
 قال : فالأنصار ، قال : أثبتها مقاما ، وأحسنها إسلاما ، وأكرمها أياما ، قال :
 فتميم ، قال : أظهرها جلدا ، وأثراها عددا ، قال : فبكر بن وائل ، قال : أثبتها
 صفوفا ، وأحدّها سيوفا ، قال : فعبد القيس ، قال : أسبقها إلى الغايات ،
 وأصبرها تحت الرايات ، قال : فبنو أسد ، قال : أهل عدد وجلد ، وعُسر
 ونسكد ، قال : فلخم ، قال : ملوك ، وفيهم نوك ^(٥) ، قال : فجذام ، قال :
 يوقدون الحرب ويسعرونها ^(٦) ، ويلقحونها ثم يمزونها ^(٧) ، قال : فبنو الحارث
 قال : رعاة للقديم ، ومجاة عن الحرّيم ، قال : فعمك ، قال : لثيوت جاهدة ، في
 قلوب فاسدة ، قال : فتغلب ، قال : يصدقون - إذا لقوا - ضربا ، ويسعرون
 للأعداء حربا ، قال : ففيسان ، قال : أكرم العرب أحسابا ، وأثبتها أنسابا ، قال :
 فأى العرب في الجاهلية كانت أمتع من أن تُضام ؟ قال قريش ، كانوا أهل

[١] الريف : أرض فيها زرع وخصب . [٢] المحابس جمع عبس كقعد وهو الشجاعة .
 [٣] الزرات جمع ترة : وهي التار . [٤] النجار : الأصل . [٥] النوك بالضم والفتح : الحق .
 [٦] سحر الحرب كنع ، وأسعرها : أوقدها . [٧] مري الناقة كرمي : مسح ضردها لتبذر .

رَهْوَةٌ^(١) لَا يُسْتَطَاعُ ارْتِقَاؤُهَا ، وَهَضْبَةٌ لَا يُرَامُ انْتِزَاؤُهَا^(٢) ، فِي بَلَدَةِ حَمَى اللَّهِ ذِمَارِهَا ، وَمَنْعُ جَارِهَا ، قَالَ : فَأَخْبَرَنِي عَنْ مَأْثَرِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، قَالَ : كَانَتْ الْعَرَبُ تَقُولُ : حَمِيرَ أَرْبَابِ الْمُلْكِ ، وَكِنْدَةَ لُبَابِ الْمَلُوكِ ، وَمَذْحِجَ أَهْلِ الطَّمَانِ ، وَهَمْدَانَ أَحْلَاسِ^(٣) الْخَيْلِ ، وَالْأَزْدَ آسَادِ النَّاسِ ، قَالَ : فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْأَرْضَيْنِ ، قَالَ : سَلْنِي ، قَالَ : الْهِنْدُ ، قَالَ : بِحَرِّهَا دُرٌّ ، وَجِبَالُهَا يَا قُوتُ ، وَشَجَرُهَا عُودٌ ، وَوَرَقُهَا عِطْرٌ ، وَأَهْلُهَا طَغَامٌ ، كَقَطْعِ الْحَمَامِ^(٤) ، قَالَ : فَخُرَّاسَانُ ، قَالَ : مَاؤُهَا جَامِدٌ ، وَعُدُوهَا جَاحِدٌ ، قَالَ : فَعُمَّانُ ، قَالَ : حَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَصَيْدُهَا عَتِيدٌ ، قَالَ : فَالْبَحْرَيْنِ ، قَالَ : كُنَّاسَةٌ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ ، قَالَ : فَالْيَمَنِ ، قَالَ : أَصْلُ الْعَرَبِ ، وَأَهْلُ الْبَيْوتَاتِ وَالْحَسَبِ ، قَالَ : فَمَكَّةُ ، قَالَ : رَجَالُهَا عِلْمَاءُ جُفَاءً ، وَنِسَاؤُهَا كِسَاءُ عُرَاةٍ ، قَالَ : فَالْمَدِينَةُ ، قَالَ : رَسَخَ الْعِلْمُ فِيهَا ، وَظَهَرَ مِنْهَا ، قَالَ : فَالْبَصْرَةَ ، قَالَ : شِتَاؤُهَا جَلِيدٌ ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَمَاؤُهَا مِلْحٌ ، وَحَرْبُهَا صُلْحٌ ، قَالَ : فَالْكُوفَةَ ، قَالَ : ارْتَفَعَتْ عَنِ حَرِّ الْبَحْرِ ، وَسَفَلَتْ عَنِ بَرْدِ الشَّامِ ، فَطَابَ لَيْلُهَا ، وَكَثُرَ خَيْرُهَا ، قَالَ : فَوَأَسْطُ ، قَالَ : جَنَّةٌ ، بَيْنَ حَمَاةٍ وَكَنْةٍ ، قَالَ : وَمَا حَمَاتُهَا وَكَنْتُهَا^(٥) ؟ قَالَ : الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ يُحْسِدَانِهَا ، وَمَا ضَرَّهَا ، وَدَجَلَةَ وَالزَّابِ^(٦) يَتَجَارِيَانِ بِإِفَاضَةٍ الْخَيْرِ عَلَيْهَا ، قَالَ : فَالشَّامُ ، قَالَ : عَرُوسٌ ، بَيْنَ نِسْوَةِ جُلُوسٍ ، قَالَ : تَمَكَلَتْكَ أُمَّكَ يَا بَنَ الْقَرِيَّةِ ، لَوْلَا اتِّبَاعُكَ لِأَهْلِ الْعِرَاقِ ! وَقَدْ كُنْتَ أَنْهَاكَ عَنْهُمْ أَنْ تَتَّبِعَهُمْ ، فَتَأْخُذَ مِنْ تَفَاقِهِمْ ، ثُمَّ دَعَا بِالسَّيْفِ ، وَأَوْمَأَ إِلَى السَّيْفِ أَنْ أَمْسِكْ ،

[١] الرهوة : المكان المرتفع (والمنخفض أيضاً ، ضد) . [٢] أي اعتلاؤها نزانوا ونزوا وما : وثب ، وانترى : افعل من النزو ، وفي حديث وائل بن حجر : « إن هذا انترى على أرضي فأخذها » [٣] كناية عن إدامتهم ركوبها . [٤] الطغام : أوغاد الناس ورجال الطير ، والقطع بالكسر : اسم ما قطع من الشيء ، ويقال : ثوب قطع وأقطع أي مقطوع ، أو هو قطع بالضم جمع قطع . [٥] الكنة : امرأة الابن أو الأخ . [٦] الزاب الأسفل ، والزاب الأعلى : نهيران يصبان في دجلة

فقال ابن القُرَيْبِيَّةِ : ثلاث كلمات أصلح الله الأمير كأنهن رَكْبٌ وُقُوفٌ ، يَكْنَى مَثَلًا بَعْدِي ، قال : هات ، قال : لكل جَوَادٌ كَبُوتَةٌ ، ولكل صَارِمٌ نَبُوتَةٌ ، ولكل حلِيمٌ هَفُوتَةٌ ، قال الحجاج : ليس هذا وقتَ المزاح ، يا غلام أَوْجِبْ جَرْحَهُ ، فَضْرِبْ عُنُقَهُ .

وقيل إنه لما أراد قتله قال له : العرب تزعم أن لكل شيء آفة ، قال : صدقت العرب ، أصلح الله الأمير ، قال : فما آفة الحلم ؟ قال : الغضب ، قال : فما آفة العقل ؟ قال : العُجْبُ ، قال : فما آفة العلم ؟ قال : النسيان ، قال : فما آفة السخاء ؟ قال : المَنُّ عند البلاء^(١) ، قال : فما آفة الكرام ؟ قال : مجاورة اللئام ، قال : فما آفة الشجاعة ؟ قال : البغى ، قال : فما آفة العبادة ؟ قال : القُتْرَةُ ، قال : فما آفة الذهن ؟ قال : حديث النَّفْسِ ، قال : فما آفة الحديث ؟ قال : الكذب ، قال : فما آفة المال ؟ قال : سوء التدبير ، قال : فما آفة الكامل من الرجال ؟ قال : العُدْمُ ، قال : فما آفة الحجاج بن يوسف ؟ قال : أصلح الله الأمير ، لَا آفَةَ لِمَنْ كَرُمَ حَسَبُهُ ، وطاب نسبه ، وزكا فرغه ، قال : امتلأت شِقَاقًا ، وأظهرت نِفَاقًا ، اضربوا عنقه ، فلما رآه قتيلاً ندم ، وكان قتله سنة ٨٤ هـ .

* * *

وفي رواية أخرى أنه لما دخل على الحجاج ، قال له : يا ابن القُرَيْبِيَّةِ ، ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : « أصلح الله الأمير ، ثلاثة حروف ، كأنهن رَكْبٌ وُقُوفٌ ، دنيا وآخرة ومعروف ، قال : اخرج مما قلت ، قال : « أفعل ، أما الدنيا فإلّا حاضر ، يأكل منه البرُّ والفاجر ، وأما الآخرة فيزان عادل ، ومشهدٌ ليس فيه باطل ،

[١] الإيلاء : الإيعام والإحسان ، بلوت الرجل ، وأبليت عنده بلاء حساً ، وأبلاه الله بلاء حسناً .

وأما المعروف فإن كان على اعترفت ، وإن كان لي اعترفت^(١) قال : أما لي
فاعترف بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أقلني عثرتي ، وأسغني
ريقي ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، ولل سيف من نبوة ، وللحليم من هفوة ؟^(٢)
قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ، ألسنت القائل برستقباد : تغدوا الجدوى قبل
أن يتعشاكم ؟ قال : فأرخني فإني أجد حرها ، قال : قدّمه يا حرسى فاضرب
عنقه ، فلما نظر إليه يتشحط^(٣) في دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القرية ، حتى
نسمع من كلامه ! ثم أمر به فأخرج فرمى به^(٤) .

(وفيات الأعيان ١ : ٨٣ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٩ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٢٧)

٣٢٩ - كلمة لابن القرية

وقال ابن القرية : « الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ؛ فالعاقل :
الدين شريعته ؛ والحليم طبيعته ، والرأي الحسن سجيته ، إن سئل أجاب ، وإن
نطق أصاب ، وإن سمع العلم وعى ، وإن حدث روى ؛ وأما الأحمق : فإن
تكلم مجمل ، وإن حدث وهل^(٥) ، وإن استنزل عن رأيه نزل ، فإن حمل على
القبیح حمل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمته خانك ، وإن حدّته شأنك ، وإن وثقت
به لم يرعك ، وإن استكتمتم لم يكتم ، وإن علم لم يعلم ، وإن حدث لم يفهم ،
وإن فقه لم يفقه » .

(زهر الآداب ٢ : ٨٦)

[١] أي وأعطيت الناس منه . [٢] وفي رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع
إلا له هبوة » والمبوة : النبرة . [٣] يضطرب .
[٤] وروى أبو الفرج الإصبهاني أنه قيل : « ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبي العقب
صاحب قصيدة الملاحم ، وابن الفرية ، ومجنون بن طامر » - انظر الأغانى ج ١ ص ١٦٣ .
[٥] ضعف وفرع .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٠ - أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد

أن يؤمن يزيد بن المهلب (١)

لما فرَّ يزيدُ بنُ المهلب من سِجْنِ الحِجَاجِ وعذابه (سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متعوِّذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقَسِّمُ أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فلما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسي فِدَاؤُكَ ، لَا تُخْفِرُ (٢) ذِمَّةَ أَبِي ، وَأَنْتَ أَحَقُّ مَنْ مَنَعَهَا ، وَلَا تَقْطَعْ مَنَارِجَاءَ مَنْ رَجَا السَّلَامَةَ فِي جَوَارِنَا ، لِمَكَانِنَا مِنْكَ ، وَلَا تُذِلَّ مَنْ رَجَا الْعِزَّ فِي الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْنَا لِعِزَّنَا بِكَ » . (تاريخ الطبري ٨ : ٧٣)

[١] وخبر ذلك أن الحجاج كان وقد على عبد الملك ، فر في مصره بدير فتره ، فقيل له : إن في هذا الدير شيخاً من أهل الكتب عالماً ، فدعا به وسأله : أتعلم ما إلى ، من يليه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فرق في نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لذلك سواء ، وكان يكرمه لما يرى فيه من النجابة ، وبخشي منه ، وكان قد ولاء خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٢ ، فكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ، ويتهوهم بأهم زبيريته الهوى ، وبخوفه غدرهم ، وما زال به حتى أجابه إلى ما سأله ، دعاه يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم ، وفي سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد وإخوته وعذبهم وأغروهم ، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يفيظه ذلك ، فقيل له : إنه رمى بنشابة ، فثبت نصلها في ساقه ، فهو لا يمشي شيئاً إلا صاح ، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه (أي تعمر شديداً) فلما نعل به ذلك صاح - وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج - فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلتها ، ثم إن يزيد وإخوته أعمالوا الحيلة في الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خابوا ما الله ، وهربوا مني ، ولحقوا بسليمان ، واستفتح سليمان أخاه الوليد ، وما زال به حتى شفاه فيه ، فلما ولى الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولى يزيد أمر العراق ، ثم ولاء خراسان سنة ٩٧ . [٢] خفر به كضرب ، وأخفره : نقض جهده وغدره .

وأما المعروف فإن كان على اعترفت ، وإن كان لي اعترفت^(١) قال : أما لي
فاعترف بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أقلني عثرتي ، وأسغني
ريقي ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، وللسيف من نبوة ، وللحليم من هفوة ؟^(٢) »
قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ، ألسنت القائل برستقاباذ : تمدوا الجدى قبل
أن يتعشاكم ؟ قال : فأرخني فإني أجد حرها ، قال : قدده يا حرسى فاضرب
عنقه ، فلما نظر إليه يتشحط^(٣) في دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القرية ، حتى
نسمع من كلامه ! ثم أمر به فأخرج فرمى به^(٤) .

(وفيات الأعيان ١ : ٨٣ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٩ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٢٧)

٣٢٩ — كلمة لابن القرية

وقال ابن القرية : « الناس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر ؛ فالعاقل :
الدين شريعته ؛ والحليم طبيعته ، والرأي الحسن سجيته ، إن سئل أجاب ، وإن
نطق أصاب ، وإن سمع العلم وعى ، وإن حدث روى ؛ وأما الأحمق : فإن
تكلم مجمل ، وإن حدث وهل^(٥) ، وإن استنزل عن رأيه نزل ، فإن حمل على
القبیح حمل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمته خانك ، وإن حدته شأنك ، وإن وثقت
به لم يرعك ، وإن استكتم لم يكتم ، وإن علم لم يعلم ، وإن حدث لم يفهم ،
وإن فقه لم يفقه » .

(زهر الآداب ٢ : ٨٦)

[١] أى وأعطيت الناس منه . [٢] وفي رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع
إلا له هبوة » والمهوبة : النبوة . [٣] يضطرب .
[٤] وروى أبو الفرج الإصبهاني أنه قيل : « ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبي العقب
صاحب قصيدة الملاحم ، وابن الفرية ، ومجنون بنى طامر » — انظر الأظاني ج ١ ص ١٦٣ .
[٥] ضعف وفرع .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٠ - أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد

أن يؤمن يزيد بن المهلب (١)

لما فرَّ يزيدُ بنُ المهلب من سجن الحجاج وعذابه (سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متعوّذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقسِم أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فلما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسي فداؤك ، لا تُخفِر (٢) ذمّة أبي ، وأنت أحق من منعها ، ولا تقطع منارجاء من رجاء السلامة في جوارنا ، لمكاننا منك ، ولا تُذل من رجاء العز في الانقطاع إلينا لعزنا بك » . (تاريخ الطبري ٨ : ٧٣)

[١] وخبر ذلك أن الحجاج كان ومد على عبد الملك ، فرى مصرفه بدير فزله ، فقيل له : إن في هذا الدير شيخاً من أهل الكتب علماً ، ودعا به وسأله : أتعلم ما إلى ، من يليه بمدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فرقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لذلك سواء ، وكان يكرهه لما يرى فيه من النجاسة ، وبجشى منه ، وكان قد ولاء خراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٢ ، فكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ، ويتهمهم بأهم زبيريّة الهوى ، وبخوفه غدوم ، وما زال به حتى أجابه إلى ما سأل ، فعزل يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم ، وفي سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد وإخوته وعذبهم وأغرمهم ، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقيل له : إنه رمى بنشابة ، فنبت فصلها في ساقه ، فهو لا يمسه شيء إلا صاح ، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه (أي تعمر شديداً) فلما فعل به ذلك صاح - وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج - فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلعتها ، ثم إن يزيد وإخوته أعملوا الحيلة في الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجبرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خانوا مال الله ، وهربوا مني ، ولحقوا بسليمان ، واستشفع سليمان أخاه الوليد ، وما زال به حتى شفاه فيه ، فلما ولى الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولى يزيد أسر المراق ، ثم ولاء خراسان سنة ٩٧ . [٢] خفر به كضرب ، وأخفره : نقض دمه وغدره .

٣٣١ - خطبة يزيد بين يدي الوليد

وتكلم يزيد ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« يا أمير المؤمنين ، إنَّ بلاءكم عندنا أحسنُ البلاء ، فمن ينس ذلك فلننا ناسيه ، ومن يكفر فلننا كافر به ، وقد كان من بلائنا أهل البيت في طاعتكم ، والطعن في أعين أعدائكم ، في المواطنِ العظام ، في المشارق والمغرب ، ما إنَّ المنَّة علينا فيها عظيمة . »

فأمنه الوليد وكف عنه . (تاريخ الطبري ٨ : ٧٤)

٣٣٢ - خطبة مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي

عمر بن عبد العزيز

ولما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب^(١) ، أقبل ابنه مخلد من خراسان ، ودخل على الخليفة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

[١] وسبب ذلك : أن يزيد بن المهلب لما فتح جرجان وطبرستان سنة ٩٨ ، كتب بانفتح إلى سليمان ابن عبد الملك ، وفي كتابه يقول : « وقد صار عندي من حرس ما أفاء الله على المسلمين ، بعد أن صار لي كل ذي حق حقه من الوء والعينة ، ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله » وقد قال له كاتبه المعيرة بن أبي ترادة : لا تكتب بتسمية ما ، فإياك من ذلك بين أمرين ، إما استكراه فأمرك بحمله ، وإما سحت نفسه لك به وسوء عكك فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شيء إلا استقله ، فكأنني بك قد استفرقت ما سميت ، ولم يقع منه موقماً ، ويبقى المال الذي سميت محلاً عنهم عليك في دواوينهم ، فإن ولي وال بعده أخذك به ، وإن ولي من يتعامل عليك لم يرص منك بأضعافه ، ولا تمس كتابك ، ولكن اكتب بالفتح ، وسله المدوم ، فتشاهه بما أحببت مشافهة ونقصر ، فإياك أن تقصر عما أحببت أخرى من أن تكثر ، فأبي يزيد ، وأمضى الكتاب ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز (سنة ٩٩) - وكان عمر يبعث يزيد وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء حياجرة ولا أحب مثلهم - دعا يزيد وسأله عن تلك الاموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال : كنت من سليمان بالمكان الذي تد رأيت ، وإنا كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به (والتسميع : إزالة الجول بنشر الذكر) ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني بشيء سمعت به ، ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجدي وأمرك إلا حبسك ، فاق الله ، وأد ما قتلك ، فإنها حقوق المسلمين ، ولا يسعى تركها ، ولم يزل يزيد في حبسه ، حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يعمل للهرب مخافة يزيد بن عبد الملك ، لأنه كان قد عذب أصحابه آل أبي

« إن الله يا أمير المؤمنين صنع لهذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، عَلَامَ تَحْبِسُ هذا الشيخ ؟ أنا أتحمّل ما عليه ، فَصَالِحِنِي على ما إياه تسأل » فقال عمر : لا ، إلا أن تحمل جميع ما نسأله إياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك يَبْنَةُ نَخْدِهَا ، وإن لم تكن يَبْنَةُ فَصَدَّقْ مقالة يزيد ، وإلا فاستخافه ، فإن لم يفعل فصالحه ، فقال له عمر : ما أجد إلا أَخَذَهُ بجميع المال .
(تاريخ الطبري ٨ : ١٣٢)

٣٣٣ - خطبة يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال

وقد سير يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد بن عبد الملك
ومسألة بن عبد الملك لقتاله

قام في أصحابه فخرّضهم ورجبهم في القتال ، فكان فيما قال :
« إن هؤلاء القوم لن يردّهم عن غيِّهم إلا الطعن في عيونهم ، والضربُ
بالمشرفية^(١) على هامهم ، ثم قال : إنه قد ذُكر لي أن هذه الجرادة الصفراء
- يعني مسألة بن عبد الملك ، وعافر ناقة عمود^(٢) - يعني العباس بن الوليد -

عقيل (إذ كانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أختي الحجاج بن يوسف عدو يزيد بن عبد الملك ، فولدت له ابنة الوليد) وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهد الله أن لا يملكه الله من يزيد بن المهلب ، ليقطن منه طابقا (بفتح الباء وكسرها أي عصوا) نخشى ذلك نهرت من السجن سنة ١٠١ ، ومات عمر وأفضت الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك ولحق ابن المهلب بالبصرة ، فملب عليها ، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها (وهو عدو بن أوطاة الفزاري) حنسه وخلع يزيد ، فسير إليه الخليفة العباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومسألة بن عبد الملك لحربه فقتل ابن المهلب في أثناء المعركة سنة ١٠٢ هـ .

[١] المشرفية سوف منسوبة إلى مشارف الشام ، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، والمهام جمع هامة وهي الرأس .

[٢] هو قدار (كسجاع) بن سالف ، ويلقب بأحمر ، قال زهير في وصف الحرب :

فَتَمْتَسِجُ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشْأَمَ كُلِّهِمْ
كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَفْطِمُ

(قال الأصمعي : أخطأ زهير في هذا ، لأن عافر الناقة ليس من عاد ، وإنما هو من عمود ، وقال المبرد : لا غلط ، ، لأن عمود يقال لهم عاد الآخرة ، ويقال لهم عاد الأولى) ويضرب به المثل في التثؤم ،

(وكان العباس أزرق^(١) أحمر، كانت أمه رومية) والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه، حتى كلمته فيه، فأقره على نسبه، فبلغني أنه ليس هههما إلا التماسي في الأرض، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعاً، وليس إلا أنا، ما برحت العرصة^(٢) حتى تكون لي أولهم»، قالوا: نخاف أن تعيننا^(٣) كما عتانا عبد الرحمن بن محمد^(٤)، قال: إن عبد الرحمن فضح الذمار^(٥) وفضح حسبه، وهل كان يعدو أجله؟»، ثم نزل . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥٢)

٣٣٤ — خطبة أخرى له

ورويت له خطبة أخرى في هذا الغرض، وهاكها:

عن خالد بن صفوان قال: خطبنا يزيد بن المهلب بواسط، حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

«أيها الناس: إني أسمع قول الرعاع، قد جاء العباس، قد جاء مسامة، قد جاء أهل الشام! وما أهل الشام إلا تسعة أسياف، منها سبعة معي، واثان علي، وما مسامة إلا جرادة صفراء، وأما العباس فنسطوس^(٦) بن نسطوس،

ويقال: «أشأم من أحر عاد» لأن الله أهلك بقله ثمود، وذلك أنهم قالوا لبيهم صالح حين دعاهم إلى الإيمان: يا صالح إن كنت صادراً فأطهر لنا من هذه الصخرة ناقة، وصفوها له، فأخرجها الله بإذنه من الصخرة (إنا نرسل الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر). فآمن بعضهم عند ظهور هذه الآية، ثم قال لهم: (هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم، فعقروها فأصبحوا نادمين، فأخذهم العذاب). (والشرب: النصيب من الماء).

[١] أي أزرق العينين . [٢] العرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء .

[٣] عناه: أعبه . [٤] هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث السالف الذكر .

[٥] ما يلزمك حفظه وحايته . [٦] هو في المقدم، ومروج الذهب بالباء، وفي البيان والتبيين

بالنون، وليس من ألقاب العربية، وأقول: هو إما علم رومي، فهو يشير إلى أصل العباس بن الوليد لأنه

أَتَاكُمْ فِي بَرَابِرَةٍ^(١) وَصَقَالِبَةٍ ، وَجَرَامِقَةٍ^(٢) وَجَرَاجِمَةٍ ، وَأَقْبَاطٍ وَأَنْبَاطٍ^(٣) ،
وَأَخْلَاطٍ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّمَا أَقْبَلُ إِلَيْكُمْ الْفَلَاحُونَ وَالْأَوْبَاشُ كَأَشْلَاءَ^(٤) اللَّحْمِ ،
وَاللَّهُ مَا لَقُوا قَطُّ حَدًّا كَحَدِّكُمْ ، وَلَا حديدًا كَحديدِكُمْ ، أَعِيرُونِي سِوَا عِدِّكُمْ سَاعَةً
مِنْ نَهَارٍ تَصْفِقُونَ^(٥) بِهَا خِرَاطِيمَهُمْ ، فَإِنَّمَا هِيَ غُدُوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ
بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

(البيان والتبيين ١ : ١٦٠ ، المقد العريد ٢ : ١٥٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٧)

٢٣٥ — خطبة أخرى له

وقال مُقَاتِلُ : سمعت يزيد بن المهلب يخطب بواسط ، فقال :
« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، يَا أَهْلَ السَّبْقِ وَالسَّبَاقِ ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، إِنْ أَهْلَ
الشَّامِ فِي أَفْوَاهِهِمْ لُقْمَةٌ دَسِيمَةٌ ، قَدْ رَتَبَتْ^(٦) لَهَا الْأَشْدَاقُ ، وَقَامُوا لَهَا عَلَى سَاقٍ ،
وَهُمْ غَيْرُ تَارِكِيهَا لَكُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْجِدَالِ ، فَالْبَسُوا لَهُمْ جُلُودَ النَّمُورِ^(٧) . »

(البيان والتبيين ١ : ٢١٨)

٢٣٦ — خطبة الحسن البصرى يثبب الناس عن يزيد بن المهلب

وكان مروان بن المهلب وهو بالبصرة ، يحث الناس على حرب أهل الشام ،
ويسرّحهم إلى يزيد ، وكان الحسن البصرى يثببب الناس عنه ، وكان يقول
في تلك الأيام :

كانت أمه رومية ، أو محرف عن « نسطورى بن نسطورى » أى نصرانى نسطورى من الساطرة
لإحدى فرق المسيحية نسبة إلى نسطوريوس صاحب الذهب ، وكان أسقفاً بانفسطيطية . تولى حول
سنة ٤٥٠ م . [١] البرابرة : جيل بالمغرب ، والصقالبة : جيل ببلادهم تناخم بلاد الحرر « شمالى بحر
الجزر ، وهو بحر قروين » أى جنوبى روسيا . [٢] الجرامقة : قوم من العجم صاروا بالموصل فى أوائل
الإسلام ، والجراجمة : قوم من العجم بالجزيرة ، أو نبط الشام . [٣] أنباط جمع نبط كجبل
وقد تقدم . [٤] أشلاء جمع شلو كحمل ، وهو العضو ، وكل مسلوخ أكل منه شئ ، وبقيت
منه بقية . [٥] صفقه بالسيف : ضربه ، والخراطيم جمع خرطوم ، وهو الأنف .
[٦] رتبت : أى ثبتت ولم تتحرك « وذلك لامتلاء الأفواه » . [٧] أى تنكروا لهم ،
واستعدوا لمناضلتهم .

« أيها الناس : الزموا رِحالكم ، وكفوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دُنيا زائلة ، وطمع فيها يسير ، ليس لأهلها بياق ، وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براصٍ ، إنه لم يكن فتنةً إلا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التيه والخيلاء ، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي ، والمعروف التقي ، فمن كان منكم خفياً فليلزم الحق ، وليحبس نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكفاه والله بمعرفة الله إياه بالخير شرفاً ، وكفى له به من الدنيا خلفاً ، ومن كان منكم معروفًا شريفًا ، فترك ما يتنافس فيه نظراؤه من الدنيا - إرادة الله بذلك - فواهاً لهذا ، ما أسعده وأرشدته ، وأعظم أجره ، واهدَى سبيله ! فهذا غدا - يعني يوم القيامة - القريرُ عيناً ، الكريمُ عند الله مآباً . » (تاريخ الطبري ٨ : ١٥٣)

٣٣٧ - خطبة مروان بن المهلب

فلما بلغ ذلك مروان بن المهلب ، قام خطيباً كما يقوم ، فأمر الناس بالجد والاحتشاد ، ثم قال لهم :

« لقد بلغني أن هذا الشيخ الضالّ المرأى - ولم يُسمه - يثبط الناس ، والله لو أن جاره نزع من خصّ داره قصبه ، لظالّ يرعف^(١) أنفه ، أينكر علينا ، وعلى أهل مصرنا ، أن نطلب خيرنا ، وأن نُنكر مظلمتنا ؟ أما والله ليكفنّ عن ذكرنا ، وعن جمعه إلينا سُقاط^(٢) الأبلّة ، وعُلوج فراتِ البصرة ، قوما ليسوا من أنفسنا ، ولا ممن جرت عليه النعمة من أحدٍ منا ، أو لأُنحَيْنَ عليه مبرداً خشناً . »

[١] رَعَف : خرج من أنفه الدم . [٢] جمع ساقط وهو اللثيم في حسبه ونفسه ، والأبلة : موضع بالبصرة .

فلما بلغ ذلك الحسن ، قال : والله ما أكرهه أن يُكرمني الله بهوانه ، فقال
ناس من أصحابه : لو أردك ثم شئت لمنعناك ، فقال لهم : قد خالفتكم إذن إلى ما
مانهيتكم عنه ، أمرُّكم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غيري ، وأدعوكم إلى أن يقتل
بعضكم بعضاً دوني ؟ فبلغ ذلك مروان بن المهلب ، فاشتد عليهم وأخافهم ،
وطلبهم حتى تفرقوا ، ولم يدع الحسن كلامه ذلك ، وكف عنه مروان .

(تاريخ الطبري ٨ : ٥١٣)

خطب الأحنف بن قيس التميمي^(١)

٣٣٨ - الأحنف ومعاوية

كان الأحنف بن قيس ، قد شهد مع الإمام عليّ ، كرم الله وجهه ، وقعة
صفين ، فلما استقر الأمر لمعاوية ، دخل عليه يوماً ، فقال له معاوية : « والله
يا أحنف ما أذكرك يوم صفين إلا كانت حزازة^(٢) في قلبي إلى يوم القيامة » ،
فقال له الأحنف :

« يا أمير المؤمنين لم ترُّدُّ الأءور على أعقابها ؟ أما والله إن القلوب التي
أبغضناك بها لبين جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن

[١] هو أبو بجر الضحاك بن قيس سيد بني تميم ، والضروب به التل في الحلم ، وهو من سادات
التابعين ، أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصعبه ، وشهد بعض فتوح خراسان في زمن عمر
وعثمان رضي الله عنهما ، وشهد مع علي رضي الله عنه وقعة صفين ، ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين ،
وبقي إلى زمن مصعب بن الزبير ، فخرج معه إلى الكوفة ، فمات بها سنة ٦٧ هـ (وقيل له الأحنف ، لأنه
كان أحنف الرجل - مائلها - يطأ على وحشيتها) . [٢] الحزازة : وجم في القلب من غيظ ونحوه .

مَدَدَتْ بِشِبْرٍ مِنْ غَدْرٍ، لَمْ تُدَنَّ بَاعًا مِنْ خَيْرٍ^(١)، وَلَئِنْ شَدَّتْ لَتَسْتَصْفِينَّ كَدْرَ قُلُوبِنَا بِصَفْوِ حَامِكِ»، قَالَ مَعَاوِيَةَ: فَإِنِّي أَفْعَلُ.

ثُمَّ قَامَ وَخَرَجَ، وَكَانَتْ أُخْتُ مَعَاوِيَةَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ تَسْمَعُ كَلَامَهُ، فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَتَهَدَّدُ وَيَتَوَعَّدُ؟ قَالَ: هَذَا الَّذِي إِذَا غَضِبَ، غَضِبَ لِعُضْبِهِ مِائَةَ أَلْفٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، لَا يَدْرُونَ فِيمَ غَضِبَ.

(وفيات الأعيان لابن خلكان ١: ٢٣٠، ونهاية الأرب ٧: ٢٣٧، والعقد الفريد ٢: ١١٨)

٣٣٩ - الأحنف ومعاوية أيضا

جَلَسَ مَعَاوِيَةَ يَوْمًا، وَعِنْدَهُ وَجُوهُ النَّاسِ، وَفِيهِمُ الْأَحْنَفُ، فَدَخَلَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَقَامَ خَطِيبًا، فَكَانَ آخِرَ كَلَامِهِ أَنْ لَعَنَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَاطْرَقَ النَّاسُ، وَتَكَلَّمَ الْأَحْنَفُ، فَقَالَ:

«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّ هَذَا الْقَائِلَ مَا قَالَ آتِفًا، لَوْ عَلِمَ أَنَّ رِضَاكَ فِي لَعْنِ الْمُرْسَلِينَ لِلْعَنَنَّهُمْ، فَاتَى اللَّهَ، وَدَعَى عَلِيًّا، فَقَدَّ لَتَى اللَّهَ، وَأَفْرَدَ فِي حُفْرَتِهِ، وَخَلَا بِعَمَلِهِ، وَكَانَ وَاللَّهِ - مَا عَلِمْنَا - الْمُبْرَزَ بِشِقِّهِ^(٢)، الطَّاهِرَ فِي خُلُقِهِ: الْمَيْمُونِ النَّقِيَّةِ^(٣) الْعَظِيمِ الْمَصِيبَةِ».

قَالَ مَعَاوِيَةَ: «يَا أَحْنَفُ، لَقَدْ أَغْضَيْتَ الْعَيْنَ عَلَى الْقَدَى، وَقُلْتَ بِنِيرٍ مَا تَرَى، وَإِيْمُ اللَّهِ لَتَضَعَنَّ الْمَنْبِرَ فَلَتَلْعَنَنَّهُ طَائِعًا أَوْ كَارِهًا»، فَقَالَ الْأَحْنَفُ: «إِنْ تُعْظِمْنِي فَهُوَ خَيْرٌ، وَإِنْ تَجْبِرْنِي عَلَى ذَلِكَ، فَوَاللَّهِ لَا تَجْرِي بِهِ شَفَتَايَ»، فَقَالَ مَعَاوِيَةَ: قُمْ فَاصْعَدْ. قَالَ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَا نُصِيفَنَّكَ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ»، قَالَ

[١] الباع: قدر مد اليدين، والحر: أفتح الصدر.

[٢] الشق الجانب، ورواية العقد «المبرز سيفه» وبرز تبريزا فاق أصحابه فضلا أو شجاعة.

[٣] النقيبة: النفس.

معاوية : « وما أنت قائلٌ إن أنصفتني ؟ » ، قال : « أصعدُ فأحمد الله ، وأثنى عليه ، وأصلى على نبيه ، ثم أقول :

« أيها الناس : إن معاوية أمرني أن ألعن عليا ، ألا وإن عليا ومعاوية اختلفا واقتتلا ، وادّعى كل واحد أنه مبغى عليه ، وعلى فنته ، فإذا دعوتُ فأمنوا رحمكم الله ! » ثم أقول : « اللهم العن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه ، والفئة الباغية على المبغى عليها ، اللهم العنهم لعنا كبيرا ، آمنوا ، رحمكم الله » ، يا معاوية ، لا أزيد على هذا ، ولا أنقص منه حرفا ، ولو كان فيه ذهابُ نفسى .

فقال معاوية : « إذن نُعفبك يا أبا بحر . »

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١١٨)

٣٤٠ . قوله في مدح الولد

ودخل الأحنف على معاوية ، ويزيدُ بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجابا به ، فقال : يا أبا بحر ما تقول في الولد ؟ فعلم ما أراد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، هم عمادُ ظهورنا ، وثمرَ قلوبنا ، وقررة^(١) أعيننا ، بهم نصول على أعدائنا ، وهم الخلفُ منا لمن بعدنا ، فكن لهم أرضا ذليلة ، وسما ظلميلة ، إن سألك فأعطيهم ، وإن استعتبوك^(٢) فأعيتهم ، لا تمنعهم رِفْدك^(٣) ، فيمَلُوا قُرْبَكَ ، ويكرهوا حياتك ، ويستبطنوا وفاتك . »

فقال : لله دَرَكُ يا أبا بحر ! هم كما وصفت . (الأمل ٢ : ٤٣)

[١] قرَّت عينه : بردت ، وانقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوفة إليه .

[٢] استعتبه : طلب إليه العتي (أى الرضا) وأعتبه : أعطاه العتي .

[٣] الرُفْد : العطاء .

٣٤١ — شفاعته لدى مصعب بن الزبير

وأتى مصعب بن الزبير يكلمه في قوم حبسهم ، فقال : « أصلح الله الأمير ، إن كانوا حُبِسُوا في باطل ، فالحق يُخْرِجُهُم ، وإن كانوا حُبِسُوا في حق ، فالفو يَسَعُهُمْ » ، فغلام^(١) .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٨)

٣٤٢ — نصيحته لقومه

وقال بخراسان : « يا بني تميم تحابُّوا تجتمع كلمتكم ، وتباذَلوا تعتدلُ أموركم ، وابدءوا بجهاد بطونكم وفروجكم ، يصلح لكم دينكم ، ولا تغفلوا^(٢) يسلم لكم جهادكم » .
(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٦)

٣٤٣ — خطبته في قوم كانوا عنده

وحدَّث رجل من بني تميم قال : حضرت مجلس الأحنف بن قيس ، وعنده قوم مجتمعون في أمر لهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« إن الكرم يمنع الحرم^(٣) ، ما أقرب النعمة من أهل البغي ، لا خير في لذة تعقبُ ندما ، لن يهلك من قصد^(٤) ، ولن يفتقر من زهد ، رب هزل قد عاد جدًّا ، من أمن الزمان خانه ، ومن تعظم عليه أهانه ، دعوا المزاح ، فإنه يؤرث^(٥) الضغائن ، وخير القول ما صدقه الفعل ، احتملوا لمن أدل^(٦) عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر إليكم ، أطع أخاك وإن عصاك ، وصله وإن جفاك ، أنصف من نفسك قبل أن يُنصف منك ، وإياكم ومشاورة النساء ، واعلم

[١] وى وفيات الأعيان لابن حلكان ١ : ٢٤٤ ، أن هذا القول للشبي ، كالم به عمر بن هبيرة الغزاري أمير العراق . [٢] أى لا تخونوا .
[٣] الحرم جمع حرمة بالضم : وهى ما لا يجل انتهاكه . [٤] القصد والاقتصاد : ضد الافراط .
[٥] التارث : إيقاد النار . [٦] تدل .

أن كُفِرَ النعمة لؤم ، وَصُحِبَةَ الجاهل شؤم ، ومن الكرم الوفاء بالذم ، ما أقبح القطيعةَ بعد الصلّة ، والجفاء بعد اللطّف ^(١) ، والعداوة بعد الودّ ! لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل ، واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به مَثواك ^(٢) ، فأنفق في حقّ ، ولا تكونن خازناً لعيرك ، وإذا كان الغدرُ في الناس موجوداً ، فالثقة بكل أحد تجز ، اعرف الحق لمن عرّفه لك ، واعلم أن قطيعةَ الجاهل تعدل صلّة العاقل . (الأماي ٢ : ٢٢)

٣٤٤ - كلمات حكيمة للأحنف

قال : « في ثلاث خصال ما أقولهن إلا ليعتبر مُعتبر : مادخلت بين اثنين قَطُّ حتى يُدخِلاني بينهما ، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء - يعني الملوك - ما لم أذع إليه ، وما حللت حُبوتي ^(٣) إلى ما يقوم الناس إليه . وقال : « ألا أدلكم على المَحْمَدة بلا مرزئة ^(٤) ؟ الخلق السَّجِيح ^(٥) والكف عن القبيح ، ألا أخبركم بأذوا الداء ؟ الخلقُ الدنيّ ، واللسانُ البديّ » ، وقال : « ما خان شريف . ولا كذب عاقل ، ولا اغتاب مؤمن . » وقال : « ما ادخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء ، أفضل من اصطناع معروف عند ذوى الأحساب والآداب » ، وقال : « كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئاً عُرِفَ به . » وسمع رجلاً يقول : ما أبالي أمُدحت أم ذممت . فقال له : « لقد استرحت من حيثُ تعيب الكرام » ، وقال : « جنبوا مجلسنا ذِكر الطعام والنساء ، فأني لا بغض الرجل يكون وصافاً لفرجه و بطنه

[١] اللطف : اسم من اللطف بالصم . [٢] آخرتك . [٣] احتبى الرجل : جمع بين طهره وساقيه بعمامة ونحوها ، والاسم : الحبوة بالفتح ويضم . [٤] رزأه مرزئة : أصاب منه خيراً ، والشئ قصه ، أى دون أن تغرموا في سبيلها مالا . [٥] اللب السهل .

وإن المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيهِ . وكان يقول : إذا عَجِبَ الناس من حِلْمِهِ : « إني لأجد ما تجِدون ولكني صَبور » . وكان يقول : « وجدت الحلم أنصَرَ لي من الرجال » . وقال : « الكذوب لاحتيلة له ، والحسود لراحة له ، والبخيل لامروءة له ، والممول لوفاء له ، ولا يسود سيئ الأخلاق ، ومن المروءة إذا كان الرجل بخيلاً أن يكتُم ذلك ويتجَمَّل » . وقال : « أربعٌ من كُنَّ فيه كان كاملاً ، ومن تعلق بِخِصْلَةٍ منهن كان من صالحِ قومه : دينٌ يُرشدُهُ ، أو عقلٌ يُسدِّدُهُ ، أو حسَبٌ يَصُونُهُ ، أو حياءٌ يَقْنَاهُ ^(١) » . وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمنٌ يحسُدُهُ ، ومنافقٌ يُبغضُهُ ، وكافرٌ يجاهدُهُ ، وشيطانٌ يفتِنُهُ ؛ وأربعٌ ليس أقل منهن : اليقين ، والعدل ، ودرهمٌ حلال ، وأخٌ في الله » . وقال : « لأن أذعَى من بعيد ، أحب إليّ من أن أقصَى من قريب » . وكان يقول : « إياك وصدَرَ المجلس ، وإن صدَرَك صاحبه ، فإنه مجلسٌ قُلعةٌ ^(٢) » . وقال : « من لم يصبر على كلمة سمع كلمات » . وقال : « رب غيظ تجرّعتُهُ تخافة ما هو أشد منه » . وقال : « من كثُرَ كلامه كثُرَ سقَطُه ، ومن طال صمته كثرت سلامته » . وقال : « ثلاث لا أناةَ فيهن عندي » . قيل : « وما هنّ يا أبا بحر؟ » . قال : « المبادرة بالعمل الصالح ، وإخراج ميتك ، وأن تُسكبَّ الكفءَ أَيْمَكَ ^(٣) » . وكان يقول : « لأفَعَى تَحَكُّكٌ في ناحية بيتي ، أحب إليّ من أَيْمٍ رددتُ عنها كَفْتًا » . (وفيات الأعيان ١ : ٢٣١ ، وجمع الأمثال للبيداني ١ : ١٤٨ ، والأمال ٢٣٦ : ١ ، والبيان والتبيين ٢ : ص ٣٧ ، ٥٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥)

[١] قى الحياء كرمى ورمى : لزمه كأتى . [٢] مجلس قلعة : يحتاج صاحبه إلى أن يقوم مرّة بعد مرّة . [٣] الأيم : من لا زوج لها بكرا ، أو نيبا . قال الجاحظ : وكان يقال : « ما بعد الصواب إلا الخطاء ، وما بعد منعهن من الأكلفاء ، إلا بذهن للسفلة والعوغاء » .

٣٤٥ - صفية بنت هشام المنقرية تؤبن الأحنف

وروى أنه لما حُمِلت جِنَازة الأحنف، وَدُلِّيَ في قبره، أَقبلت ابنة عمه صَفِيَّة بنت هشام المِنْقَرِيَّة على نَجِيب لها مُخْتَصِرَةٌ^(١)، فوقفَت على قبره، فقالت :
« لِّلَّهِ دَرَكٌ مِنْ مَجْنٍ^(٢) في جُنِّن، وَمُدْرَجٌ^(٣) في كَفَنٍ ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! نسأل الله الذي جَمَعَنَا بِمَوْتِكَ، وابتَلانا بِفَقْدِكَ، أن يُوسِعَ لك في قبرك، وأن يَغْفِرَ لك يوم حَشْرِكَ، وأن يجعلَ سبيلَ الخَيْرِ سبيلَكَ، ودليلَ الرِشَادِ دليلَكَ، ثم أَقبلت بوجهها على الناس، فقالت : « مَعَشَرَ النَّاسِ، إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ في بِلَادِهِ، شُهُودٌ على عِبَادِهِ، وَإِنَّا قَائِلُونَ حَقًّا، وَمُثْنُونَ صِدْقًا، وهو أَهلُ الحُسْنِ التَّنَاءِ، وَطَيِّبِ الدُّعَاءِ، أما والذي كُنْتُ مِنْ أَجَلِهِ في عِدَّةٍ، وَمِنَ المِضْمَارِ^(٤) إلى غَايَةٍ، وَمِنَ الحَيَاةِ إلى نِهَايَةٍ، الذي رَفَعَ عَمَلَكَ، عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِكَ، لَقَدْ عِشْتُ حَمِيدًا مَوْدُودًا، وَلَقَدْ مُتُّ قَقِيدًا سَعِيدًا، وَإِنْ كُنْتُ لِعَظِيمِ السَّلْمِ، فَاضِلَ الحِلْمِ، صَحيحَ الأَدِيمِ^(٥)، مَنِيْعَ الحَرِيمِ، وَارِيَّ الزَّيْنَادِ، رَفِيْعَ العِمَادِ، وَإِنْ كُنْتُ في المَحَافِلِ لِشَرِيفًا، وَعَلَى الأَرَامِلِ لِعَظُوفًا، وَفي العَشِيرَةِ مُسَوِّدًا، وَإِلَى الخُلَفَاءِ مُوَفِّدًا، وَلَقَدْ كَانُوا لِقَوْلِكَ مُسْتَمْعِينَ، وَلِرَأْيِكَ مُتَّبِعِينَ » ثم انصرفت .

(ذيل الأملی ص ٢٨ ، وبلاغات النساء ص ٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

[١] الحبيب : الجمل السريع الخفيف في السير القوي ، واختصر : أمسك المحصرة ، « والمحصرة ككنيسة : عصا يسكها الحطيب يثير بها إذا خطب » ، وتخصر بالقضيب أيضا : أمسك
وفي رواية الجاحظ : « وقامت مرعاة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس وهي على راحلة فقالت . . . » ، وفي رواية أبي علي الفالي : « جاءت امرأة من قومه من بني مفر عليها قبول من النساء ، فوقفت على قبره فقالت . . . » - وانقبول بالفتح ويضم : الحسن - .
[٢] من أجنبته إذا ستره ، والجانب جمع جنة كقبة وهي الوقاية ، والمانن كسبب : القبر والكفن .
[٣] مطوى . [٤] في الأملی : « ومن الضمان » ، وفي بلاغات النساء : « ومن الضمار » وأرى أن صوابه « ومن الضمار » نقوله بعد : « إلى غاية » . [٥] الأديم : الجلد ، والمراد صحيح العرض .

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

٣٤٦ - وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وافداً لأهل البصرة ، ودخل معه النمر بن قُطْبَةَ ، وعلى النمر عباءة قَطَوَانِيَّة (١) ، وعلى الأحنف مِذْرَعَةٌ (٢) صوف وشَمْلَةٌ (٣) ، فاما مثلاً بين يدي معاوية اقتَحَمَتَهُمَا (٤) عَيْنُهُ ، فقال النمر : يا أمير المؤمنين إن العباءة لانكأتمك ، وإنما يكأتمك من فيها ، فأوَمَأَ إليه لجلس ، ثم أقبل على الأحنف ، فقال : ثم مه ؟ فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أهلُ البصرة عدد يسير ، وَعَظْمُ كَسِيرٍ ، مع تتابع من المَحُول (٥) ، واتصالٍ من الذُّحُول (٦) ، فأكثُرَ فيها قد أطرق ، والمُقِلُّ قد أملق ، وبلغ منه المَخْنَق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنْعِشَ الفقير ، ويَجْبُرَ الكَسِير ، ويسهِّلَ العَسِير ، ويصفح عن الذُّحُول ، ويُدَاوِي المَحُول ، ويأمر بالعطاء ، ليكشفِ البلاء ، ويُزِيلَ الأواء (٧) ، وإن السيدَ من يعم ولا يخص ، ومن يدعو الجفلى (٨) ولا يدعو النفرى ، إن أحسن إليه شكر ، وإن أسىء إليه غفر ،

[١] نسبة إلى قطوان : موضع بالكوفة منه الأكسية . [٢] المدرعة : ثوب ولا يكون إلا

من صوف . [٣] الشملة : كساء دون القطيفة يشتمل به . [٤] ازدرتها .

[٥] جمع محل كشمس وهو القحط والجذب . [٦] جمع ذحل كشمس أيضاً وهو الثأر .

[٧] الشدة . [٨] الدعوة العامة ، والنقرى : الدعوة الخاصة .

ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عماداً ، يدفع عنهم الملمات ، ويكشف عنهم
المعضلات ، فقال له معاوية : ها هنا يا أبا بجر ، ثم تلا : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي
لَحْنِ الْقَوْلِ ^(١) » . (زمر الآداب ١ : ٥٧)

٣٤٧ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم الأحنف

ولما قدم وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف ، خرج الآذن ،
فقال : إن أمير المؤمنين يعزّم عليكم ألاّ يتكلم أحد إلا لنفسه ، فاما وصلوا إليه
قال الأحنف :

« لولا عزمة أمير المؤمنين لأخبرته أن دافة ^(٢) دفت ، ونازلة نزلت ، ونايبة
نابت ، ونايبة نبئت ، وكلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه » ، فقال :

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٣)

وفد أهل العراق على معاوية ومعهم زياد وفيهم الأحنف

وفد أهل العراق على معاوية ، ومعهم زياد بن أبيه ، وفيهم الأحنف بن قيس ،
فقال زياد :

٣٤٨ - خطبة زياد

« يا أمير المؤمنين : أشخصت إليك أقواماً الرغبة ، وأفعدت عنك آخرين
العدر ، فقد جعل الله تعالى في سعة فضلك ما يُجبرُ به المتخلف ، ويُكافأ به
الشاخص » .

[١] أى فى معناه وخوام . [٢] الدافة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد ، يقال : دفت
علينا من بنى فلان دافة ، والدافة أيضاً ، قوم من الأعراب يريدون مصر ، والدافة : الجيش يدعون نحو
العدو أى يدبون .

٣٤٩ - خطبة معاوية

فقال معاوية : « مَرَّ حَبَابًا بِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ، أَمَا وَاللَّهِ لئن فَرَّقْتُ بَيْنَكُمْ الدَّعْوَةَ ، لَقَدْ جَمَعْتُكُمْ الرَّحِيمَ ، إِنْ اللَّهُ اخْتَارَكُمْ مِنَ النَّاسِ لِيخْتَارَنَا مِنْكُمْ ، ثُمَّ حَفِظَ عَلَيْكُمْ نَسَبَكُمْ ، بَأَنْ تَخَيَّرَ لَكُمْ بِلَادًا يُجْتَازُ عَلَيْهَا الْمَنَازِلُ ، حَتَّى صَفَّأَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا تُصَفَّى الْفِضَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ خَبَثِهَا ، فَصُونُوا أَخْلَاقَكُمْ ، وَلَا تُدْتَسُوا أَنْسَابَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ ، فَإِنَّ الْحَسَنَ مِنْكُمْ أَحْسَنُ لِقَرَبِكُمْ مِنْهُ ، وَالْقَبِيحُ مِنْكُمْ أَقْبَحُ لِبَعْدِكُمْ عَنْهُ » .

٣٥٠ - خطبة الأحنف بن قيس

فقال الأحنف : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْدَمُ مِنْكُمْ قَائِلًا جَزِيلًا ^(١) ، وَرَأْيَا أَصِيلًا ، وَوَعْدًا جَمِيلًا ، وَإِنْ أَخَاكَ زِيَادًا لَمْ تَبِعْ آثَارَكَ فِينَا ، فَتَسْتَمْتِعُ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ وَالْمَأْمُورِ ، فَإِنَّكُمْ كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ - فَإِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الْمُدَّاحِينَ فُصُولَ الْقَوْلِ - :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطَى إِلَّا وَشِيحُهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ ^(٢)
(زهر الآداب ١ : ٥٨)

٣٥١ - وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة

قدم وفد العراق على معاوية ، وفيهم دغفل ^(٣) ، فقال له معاوية : يَا دَغْفَلُ أَخْبِرْنِي عَنْ ابْنِي نِزَارٍ : رِبِيعَةٌ وَمُضَرٌّ ، أَيُّهُمَا كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مُضَرٌّ بِنِزَارٍ كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً . قَالَ مَعَاوِيَةُ : وَأَيُّ مُضَرٍّ كَانَ أَعَزَّ ؟ قَالَ : بَنُو النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ ، كَانُوا أَكْثَرَ الْعَرَبِ أَمْجَادًا ، وَأَرْفَعَهُمْ عَمَادًا ،

[١] الجزل : العاقل الأصيل الرأي . [٢] الخطى : الريح نسبة إلى الخط : مرفأ السفن بالبحرين تنسب إليه الرماح لأنها تباع به لا أنه منبتها ، والوشيح : شجر الرماح جمع وشيعة .
[٣] هو دغفل بن حنظلة النسابة من بني شيبان .

وأعظمهم رماداً . قال : فأى بنى كِنانة كان بعدهم أعزّ ؟ قال : بنو مالك بن كِنانة ، كانوا يملّون من سآمتهم ، ويكفّون من أآواهم ، ويصدّقون من عاداهم . قال : فمن بعدهم ؟ قال : بنو الحرث بن عبد مناة بن كِنانة ، كانوا أعزّ بنبيه وأمنعهم ، وأجودهم وأنفعهم . قال : ثم من بعدهم ؟ قال : بنو بكر بن عبد مناة ، كان بأسهم رهوباً ، وعدوهم منكوباً ، وثأرهم مطلوباً . قال : فأخبرني عن مالك بن عبد مناة بن كِنانة ، وعن مِرّة وعامر ابني عبد مناة . قال : كانوا أشرفاً كراماً ، وليس للقوم أكفاء ولا تُنظراء . قال : فأخبرني عن بنى أسد . قال : كانوا يُطعمون السديف ^(١) ، ويكرهون الضيوف ، ويضربون في الزحوف ^(٢) ، قال : فأخبرني عن هذيل ، قال : كانوا قليلاً أكياس ^(٣) ، أهل منعة وبأس ، ينتصفون من الناس ، قال : فأخبرني عن بنى ضبة ، قال : كانوا ججرة من ججرات العرب الأربع ^(٤) ، لا يُضطَلّ بنارهم ، ولا يُفأتون بشارهم ، قال : فأخبرني عن مُزينة ، قال : كانوا في الجاهلية أهل منعة ، وفي الإسلام أهل دعة . قال : فأخبرني عن تميم ، قال : كانوا أعزّ العرب قديماً ، وأكثرها عظيماً ، وأمنعها حريماً ، قال : فأخبرني عن قيس . قال : كانوا لا يفرحون إذا أُديلوا ^(٥) ، ولا يجزعون إذا ابتلوا ، ولا يبخلون إذا سُئلوا ، قال : فأخبرني عن أشرافهم في الجاهلية ، قال : غطفان ابن سعد ، وعامر بن صعصعة وسُلَيم بن منصور ؛ فأما غطفان فكانوا كراماً

[١] شحم السنام . [٢] مصدر زحف أو جمع زحف كشمس وهو الجيش يزحفون إلى العدو .
[٣] جمع كيس وهو الماقل . [٤] قال صاحب العقد : « ججرات العرب ، هم بنو نمير بن عامر بن صعصعة ، وبنو الحرث بن كعب ، وبنو ضبة بن أد بن طابخة ، وبنو عيس بن بغيض ، وإنما قيل لهذه القبائل ججرات ، لأنها تحممت في أنفسها ، ولم يدخلوا معهم غيرهم ، والتجدير : التجميع ، ومنه قيل : ججرة العتبة لاجتماع الحصى فيها ، ومنه قيل : لا تحمروا المسلمين فتقتلهم ، وتفتنوا نساءهم ، يعني لا تجمعوهم في الغازی . الخ » — العقد ٢ : ٥٧ . [٥] أداله الله من عدوه : نصره عليه .

سَادَةٌ ، وللخَيْسِ^(١) قَادَةٌ ، وعن البَيْضِ ذَادَةٌ^(٢) ؛ وأما بنو عامر فكثيرٌ سَادَتُهُمْ ،
مَخْشِيَةٌ سَطَوَتُهُمْ ، ظاهرةٌ نَجَدَتُهُمْ ؛ وأما بنو سُليم فكان يُدْرَكُونَ الثَّارَ ،
ويعنُونَ الجَارَ ، وَيُعْظَمُونَ^(٣) النَّارَ ، قال : فأخبرني عن قومك بكر بن
وائل واصدقني ، قال : كانوا أهلَ عَزِّ قَاهِرٍ ، وشرفِ ظَاهِرٍ ، ومجدِ فَاحِرٍ ، قال :
فأخبرني عن إخوتهم تَغْلِبِ ، قال : كانوا أُسُودًا تُرْهَبِ ، وَسِمَامًا^(٤) لا تُقْرَبِ ،
وأبطالًا لا تُكْذِبِ ، قال : فأخبرني كم أُدِيلُوا عَلَيْكُمْ فِي قَتْلِكُمْ كُلِّيًّا ؟ قال : أربعين
سنة ، لانْتَصَفَ مِنْهُمْ فِي مَوْطِنِ نَلْقَاهُمْ فِيهِ ، حتى كَانَ يَوْمَ التَّحَالِيقِ ، يومَ الحَرْثِ
ابنِ عُبَادٍ بعدَ قِتْلَةِ ابْنِهِ مُجَيَّرِ ، وَكَانَ أَرْسَلَهُ فِي الصَّلَاحِ بَيْنَ الْقَوْمِ ، فَتَتَلَهُ مُهْلَهْلِ ،
وقال : بُوُشَيْعِ^(٥) نَعْلِ كَلِيبِ ، فقال الغلام : إن رَضِيتَ بهذا بنو بكر رَضِيتُ ،
فبلغ الحَرْثَ ، فقال : نِعَمَ القَتِيلِ قَتِيلًا إنْ أَصْلَحَ اللهُ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبِ وَبَاءَ بِكَلِيبِ ،
فَقِيلَ لَهُ : إِنَّمَا قَالَ مُهْلَهْلٌ مَا قَالَ (الكَلِمَةُ^(٦)) ، فَتَشْمَرُ الحَرْثَ لِالحَرْبِ ، وَأَمْرُنَا
بِحَلْقِ رءِ وَسْنَا أَجْمَعِينَ ، وهو يَوْمُ التَّحَالِيقِ ، وله خَبْرٌ طَوِيلٌ ، وَقَالَ :

قَرَّبًا مَرَبَطَ النِّعَامَةَ مَنِ لَمِحَتْ حَرْبٌ وَائِلٍ عَنِ حِيَالِ^(٧)
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا - عِلْمَ اللَّأْسَةِ - وَإِنِّي بِحَرْهَا اليَوْمَ صَالِي
قَرَّبًا مَرَبَطَ النِّعَامَةَ مَنِ إِنْ بِيَعِ الكِرَامِ بِالشَّيْءِ غَالِي

فَأَدْرِنَا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ ، فلم نزل منهم ممتنعين إلى يومنا هذا . قال : فمن ذهب يذكر

[١] الخيس : الجيش . سمي بذلك لأنه حمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ، والمؤخرة .

[٢] البيضة : حوزة كل شيء وساحة القوم ، وبيضة الدار : وسطها : [٣] كناية عن الكرم .

[٤] جمع سم مثلك السين . [٥] الشيع : سير يشد به النمل .

[٦] هي قوله (بُوُشَيْعِ نَعْلِ كَلِيبِ) . [٧] النعامة : اسم فرسه ، واقمحت الناقة ، قبل اللقاح

وحالت حيوالا لم تنفح سنة ، أو سنتين ، أو سنوات .

ذلك اليوم؟ قال: الحرث بن عباد، أسرمه لهما في ذلك اليوم، وقال له: ذلني على مهلهل بن ربيعة، قال: مالي إن دلتك عليه؟ قال: أطلقك، قال: على الوفاء؟ قال: نعم، قال له: أنا مهلهل، قال: ويحك! ذلني على كفء كريم، قال: امرؤ القيس^(١)، وأشار بيده إليه عن قرب، فأطلقه الحرث، وانطلق إلى امرئ القيس فقتله، وبكر كلها صبرت وأبليت فحسن بلاؤها، إلا ما كان من ابني لجيم: حذيفة ومجمل، ويشكر بن بكر، فإن سعد بن مالك بن ضبيعة جد طرفة بن العبد، هجاه في ذلك اليوم، فقال:

إِنَّ لُجَيْمًا عَجَزَتْ كُلُّهَا أَنْ يُرْفِدُونِي فَارِسًا وَاحِدًا^(٢)
وَيَشْكُرُ الْعَامَ عَلَى خَيْرِهَا لَمْ يَسْمَعْ النَّاسَ لَهُمْ حَامِدًا^(٣)

وقال فيهم أيضاً:

يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ الَّتِي وَضَعْتَ أَرَاهِطًا فَاسْتَرَا حُوا^(٤)
إِنَّا وَإِخْوَتَنَا غَدًا كَشْمُودِ حَجْرٍ يَوْمَ طَا حُوا^(٥)
بِالْمَشْرِفِيَّةِ لَا تَقِيرَ وَلَا تُبَاحُ وَلَنْ تُبَاحُوا^(٦)
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحُ^(٧)

فقال معاوية: أنت والله يا دغفل أعلم الناس قاطبة بأخبار العرب.

(ذيل الأمل ٢٦)

[١] هو امرؤ القيس بن أمان النخلي . [٢] الإرقاد: الإغاة والإعطاء .

[٣] الحتر: الدر أو أقبه . [٤] أراهط جمع الجمع لهط . [٥] الحجر: واد بين المدينة والشام: مساكن قوم صالح . [٦] مشارف الشام: فرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السيوف المشرفية، وفي ذيل الأمل «ولا نباح ولن نباحوا» بالنون وقد أصلحته «ولن تباحوا» بالتاء على الالتفات من التكلم إلى الخطاب، أي ولن تباحوا يا قوم مادنا لكم حماة، وقال مصحح الأمل:

«ولن تباحوا» كما في الأصل، ولعل هنا تحريماً، ووجه الكلام «كن بباح» .

[٧] قولهم لا براح كقولهم لا ريب، ويجوز رفعه لتكون لا بمنزلة ليس .

٣٥٢ - دغفل وجماعة من الانصار

ووقف جماعة من الأنصار على دَغْفَل بعد ما كَفَّ ، فسأموا عليه ، فقال :
مَنْ الْقَوْمُ ؟ قالوا : سَادَةُ الْيَمِينِ ، فقال : « أَمِنْ أَهْلِ مَجْدِهَا الْقَدِيمِ ، وَشَرَفِهَا
الْعَمِيمِ ، كَيْنِدَةَ ؟ » ، قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ الطَّوَالِ قَصَبًا ، الْمُحَصَّنُونَ نَسَبًا ،
بنو عبد المَدَانِ ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ أَقْوَدُهَا لِلزُّخُوفِ ، وَأَخْرَقُهَا
لِلصَّفُوفِ ، وَأَضْرِبُهَا بِالسِّيُوفِ ، رَهْطُ عَمْرُوبِ بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ ؟ » قالوا : لا ،
قال : « فَأَنْتُمْ أَحْضَرُهَا قِرَاءَةً ^(١) ، وَأَطْيَبُهَا فِنَاءً ، وَأَشَدُّهَا لِقَاءً ، رَهْطُ حَاتِمِ بْنِ
عبد الله ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ الْغَارِسُونَ لِلنَّخْلِ ، وَالْمَطْعَمُونَ فِي الْمَحَلِّ ^(٢) ،
وَالْقَائِلُونَ بِالْعَدْلِ ، الْأَنْصَارُ ؟ » قالوا : نعم . (الأملال ٢ : ٢٨٧)

٣٥٣ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه : خَبَرُونِي عَنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ
العرب ، فِيهِمْ أَشَدُّ النَّاسِ ، وَأَسْخَى النَّاسِ ، وَأَخْطَبُ النَّاسِ ، وَأَطْوَعُ النَّاسِ فِي
قُوَّةِهِ ، وَأَحْلَمَ النَّاسِ ، وَأَحْضَرَهُمْ جَوَابًا .

قالوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ فِي
قُرَيْشٍ ، قال : لا ، قالوا : فِي فِئَةِ جَمِيْرٍ وَبَلُو كَهَا ، قال : لا ، قالوا : فِي فِئَةِ مُضَرَ ، قال :
لا ، قال مَصْقَلَةُ بْنُ رُقِيَّةِ الْعَبْدِيِّ : فَهِيَ إِذْنٌ فِي رِبِيعَةَ ، وَنَحْنُ هُمْ ، قال : نعم ،
قال جُلَسَاؤُهُ : مَا نَعْرِفُ هَذَا فِي عَبْدِ الْقَيْسِ إِلَّا أَنْ تَخْبِرَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
قال : نعم .

[١] قرى الصيف كرمى قرى بالكسر ، والفصر : وقراء بالفتح والمد : أضافه .

[٢] المحل : الجذب والشدة .

أَمَّا أَشَدُّ النَّاسِ ، فَحَكِيمٌ بْنُ جَبَلٍ ، كَانَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَطَّعَتْ سَاقَهُ ، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ ، حَتَّى مَرَّ بِهِ الَّذِي قَطَعَهَا ، فَرَمَاهَا بِهَا جَدْلَهُ^(١) عَنِ دَابَّتِهِ ، ثُمَّ جَثَا إِلَيْهِ فَقَتَلَهُ وَاتَّكَأَ عَلَيْهِ ، فَرَّ بِهِ النَّاسُ ، فَقَالُوا لَهُ : يَا حَكِيمُ ، مَنْ قَطَعَ سَاقَكَ ؟ قَالَ : وَسَادِي^(٢) هَذَا ، وَأَنْشَأُ يَقُولُ :

يَا سَاقُ لَا تُرَاعِي^(٣) إِنَّ مَعِيَ ذِرَاعِي أُحْمِي بِهَا كُرَاعِي

وَأَمَّا أَسْحَى النَّاسِ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُورٍ ، اسْتَعْمَلَهُ مَعَاوِيَةَ عَلَى السُّنْدِ ، فَسَارَ إِلَيْهَا فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْجُنْدِ ، وَكَانَتْ تَوْقَدُ مَعَهُ نَارَ حَيْثُمَا سَارَ ، فَيُطْعِمُ النَّاسَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ أَبْصَرَ نَارًا ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، اعْتَلَّ^(٤) بَعْضُ أَصْحَابِنَا ، فَاشْتَهَى خَبِيصًا^(٥) ، فَعَمَلْنَا لَهُ ، فَأَمَرَ خَبَّازَهُ أَلَّا يُطْعِمَ النَّاسَ إِلَّا الْخَبِيصَ ، حَتَّى صَاحُوا وَقَالُوا : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ . رُدُّنَا إِلَى الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ ، فَسَمَّيَ مُطْعِمِ الْخَبِيصِ .

وَأَمَّا أَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، فَالْجَارُودُ بْنُ بَشْرِ بْنِ الْعَلَاءِ ، فَإِنَّهُ لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَارْتَدَّتْ الْعَرَبُ ، خَطَبَ قَوْمَهُ ، فَقَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ مَاتَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، فَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ ، فَمَنْ ذَهَبَ لَهُ فِي هَذِهِ الرَّدَّةِ دِينَارٌ أَوْ دَرَاهِمٌ أَوْ بَعِيرٌ أَوْ شَاةٌ ، فَلَهُ عَلَيَّ مِثْلَاهُ »

فَمَا خَالَفَهُ مِنْهُمْ رَجُلٌ .

وَأَمَّا أَحْضَرُ النَّاسِ جَوَابًا ، فَصَعَصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ ، دَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ فِي وَفْدٍ

[١] جدله : صرعه على الجدالة (كس-حابة) وهي الأرض . [٢] الوساد : المتكأ ، والنخدة

كالوسادة ويثك . [٣] لا تراعي : لا تفزعني ، والكراعي : جماعة الخيل .

[٤] اعتل : اتقى الدقيق بخلط بالعسل ، والخبيسة : أخص منه ، وخبص الخلواء كضرب ، وخبصها :

بالتشديد خلطها وعملها .

أهل العراق ، فقال معاوية : مَرَحَبًا بِكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، قَدِمْتُمْ أَرْضَ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةَ ،
مِنْهَا الْمَنْشَرُ ، وَإِلَيْهَا الْمَحْشَرُ ، قَدِمْتُمْ عَلَى خَيْرِ أُمِيرٍ يَبْرَأُ كَبِيرِكُمْ ، وَيَرْحَمُ صَغِيرِكُمْ ،
وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ وَلَدُ أَبِي سَفْيَانَ لَكَانُوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فَأَشَارَ النَّاسَ إِلَى
صَعْصَعَةِ قَتَامٍ :

فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أَمَا قَوْلِكَ يَا مَعَاوِيَةَ : إِنَّا قَدِمْنَا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ، فَلَعَمْرِي ، مَا الْأَرْضُ
تَقَدَّسَ النَّاسَ ، وَلَا يَقَدَّسَ النَّاسَ إِلَّا أَعْمَالُهُمْ ، وَأَمَا قَوْلِكَ : مِنْهَا الْمَنْشَرُ ، وَإِلَيْهَا
الْمَحْشَرُ ، فَلَعَمْرِي ، مَا يَنْفَعُ قَرِيبُهَا ، وَلَا يَضُرُّ بُعْدُهَا مُؤْمِنًا ، وَأَمَا قَوْلِكَ : لَوْ أَنَّ
النَّاسَ كُلَّهُمْ وَلَدُ أَبِي سَفْيَانَ لَكَانُوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فَقَدْ وَلَدَهُمْ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَفْيَانَ
آدَمُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَهُمْ الْحَلِيمُ وَالسَّفِيهِ ، وَالْجَاهِلُ وَالْعَالِمُ » .

وأما أحلم الناس ، فإن ولد عبد القيس قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِصَدَقَاتِهِمْ وَفِيهِمُ الْأَشْجُ^(١) ، فَفَرَّقَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ أَوْلَى
عَطَاءَ فَرَّقَهُ فِي أَصْحَابِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَشْجُ ادْنُ مِنِّي ، فَدَنَا مِنْهُ ، فَقَالَ : « إِنَّ فِيكَ
خَلَّتَيْنِ يَجِبُهُمَا اللَّهُ : الْأَنَاةُ وَالْحَلْمُ » وَكَفَى بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاهِدًا ،
وَيُقَالُ : إِنَّ الْأَشْجُ لَمْ يَغْضَبْ قَطُّ^(٢) . (القد الفرید ٢ : ٥٦)

٣٥٤ - وفود العرب ومعاوية

عن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان ، قال :
عَقِمَتِ النِّسَاءُ أَنْ يَلِدْنَ مِثْلَ عَمِّي ! شَهِدْتَهُ يَوْمًا ، وَقَدْ قَدِمَتِ عَلَيْهِ وَفُودُ

[١] هو عبد الله بن عوف الأشج . [٢] هذا المقال يزيد على العنوان الذي عنوته به ، وقد أردت

من ذلك استيفاء حديث عبد الملك .

العرب ، فتمضى حوائجهم ، وأحسنَ جوائزهم ، فلما دخلوا عليه ليشكروه ، سبقهم إلى الشكر ، فقال لهم :

« جزاكم الله يا معشرَ العرب عن قريش أفضلَ الجزاء ، بتقدّمكم إياهم في الحرب ، وتقديكم لهم في السلم ، وحقنكم دماءهم بسفكها منكم ، أما والله لا يؤثر عليكم غيركم منهم حازمٌ كريم ، ولا يرغبُ عنكم منهم إلا عاجزٌ لثيم ، شجرةٌ قامت على ساق ، فتفرّعَ أعلاها ، واجتمعَ أصلها ، عضدَ الله من عضدّها ، فيالها كلمةٌ لو اجتمعت ! وأيدٍ لو اتلفت ! ولكن كيف بإصلاح ما يريد الله إفساده ؟ » .
(العقد الفريد ٢ : ٤١)

٣٥٥ - وفود عبد العزيز بن زُرارة على معاوية

وفد عبد العزيز ^(١) بن زُرارة على معاوية ، وهو سيد أهل الكوفة ، فلما أذن له وقف بين يديه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين : لم أزلُ أهُزُّ ذوائبَ ^(٢) الرّحال إليك ، إذ لم أجدِ مُعوّلاً إلا عليك ، أمتطى الليل بعد النهار ، وأسم ^(٣) المَجَاهِلَ بالآثار ، يقودني إليك أمل ، وتسوقني بلوى ، والمجتهد يُعَدَّر ، وإذ بلغتكَ فقَطَّني ^(٤) » ، فقال معاوية :
أحططُ عن راحلتك رَحَلَهَا .

وروى الجاحظ هذا القول بصورة أخرى ، فقال :

« ولما وصل عبد العزيز بن زُرارة إلى معاوية قال : « يا أمير المؤمنين ، لم

[١] في صبح الأعشى « عبد المزى » وفي الامالى : « قل رجل لعبد الملك بن مروان . . . الخ » .

[٢] جمع ذؤابة : وهي الجلدة المعلقة على آخرة الرجل ، وفي صبح الأعشى « ذوائب الرجاء » .

[٣] وسمه بسمة : علمه بعلامة . [٤] خسي .

أزل أستدلك بالمعروف عليك ، وأمتطي النهار إليك ، فإذا ألوى ^(١) بي الليل ،
فَقَبَضَ البَصْرَ ، وَعَقَى الأَثَرَ ، أقام بدني ، وسافر أملئ ، والنفس تلوم ، والاجتهاد
يَعْدِرُ ، وإذ بلغتك فَقَطَّنِي .

وخرج عبد العزيز بن زرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة ^(٢) ، فهلك
هناك ، فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك ، فقال معاوية لزرارة : أتاني اليوم نعي
سيد شباب العرب ، قال زرارة : يا أمير المؤمنين هو ابني أو ابنتك ؟ قال : بل
ابنتك ، قال : للموت ما تلد الوالدة .

(المقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، والبيان والنبين ٢ : ٣٧ ، والأملئ ١ : ٢٠١)

٣٥٦ - وفود زيد بن منية على معاوية

قدم زيد بن منية على معاوية من البصرة ، (وهو أخو يعلى بن منية ^(٣)
صاحب جمل عائشة ، ومتولى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة ، وكان عتبة بن
أبي سفيان قد تزوج ابنة يعلى بن منية) ، فاما دخل على معاوية شكاً إليه ديناً
لزمه ، فقال : يا كعب ، أعطه ثلاثين ألفاً ، فاما ولي قال : وليوم الجمل ثلاثين
ألفاً أخرى ، ثم قال له : الحق بصهرك ، (يعني عتبة ، وكان يومئذ عامل مصر)
فقدّم عليه مصر ، فقال :

« إني سرت إليك شهرين أخوضُ فيهما المتألف ، ألبس أردية الليل مرة ،

[١] المراد جن علي ، وأحدثت بي ظلمته ، يقال : ألوى به : ذهب به ، وألوت به العقاء : طارت
به ، وألوى بما في الإياء : استأثر به .

[٢] الصائفة : غزوة الروم ، لأنهم كانوا يفزون صيفا لمكان البرد والثلج .

[٣] في صبح الأعشى والعقد « منه » بالباء وهو تصحيف والصواب « منية » وهو اسم أمه ، واسم
أبيه أمية ، والتصحيح من تاريخ الكامل لابن الأثير . وكان يعلى عاملاً لعثمان رضي الله عنه على اليمن ، فلما
ولى علي رضي الله عنه الخلافة عزله ، وولى على اليمن عبيد الله بن عباس ، فانصرف يعلى إلى مكة ومعه
مال كثير ، وانضم إلى السيدة عائشة رضي الله عنها في قتال علي في وئمة الجمل .

وَأخُوْضُ فِي لُجَجِ السَّرَابِ^(١) أُخْرَى ، مُوقِرًا^(٢) مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِكَ ، وَهَارِبًا مِنْ دَهْرِ فَطَمٍ^(٣) ، وَدِينِ لَزِمٍ^(٤) ، بَعْدَ غِنَى جَدَّعْنَا بِهِ أَنْوْفَ الحَاسِدِينَ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا إِلَيْكَ مَهْرَبًا ، وَعَلَيْكَ مَعْوَلًا ، فَقَالَ عْتَبَةُ : « مَرْحَبًا بِكَ وَأَهْلًا ، إِنْ الدَّهْرُ أَطَارَكُمْ غِنَى ، وَخَلَطَكُمْ بِنَا ، ثُمَّ اسْتَرَدَّ مَا أَمَكْنَهُ أَخْذُهُ ، وَقَدْ أَبْقَى لَكُمْ مِنْهَا مَا لِالضِّيْقَةِ^(٥) مَعَهُ ، وَأَنَا وَاضِعٌ يَدِي وَيَدَكَ بِيَدِكَ اللهُ » ، فَأَعْطَاهُ سَتِينَ أَلْفًا كَمَا أَعْطَاهُ مَعَاوِيَةَ . (العقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧)

٣٥٧ - وفود ضرار بن حمزة الصدائي على معاوية

دَخَلَ ضِرَارُ بْنُ حَمَزَةَ الصَّدَائِيَّ^(٦) (وَكَانَ مِنْ خَوَاصِّ عَلَى كَرَمِ اللهِ وَجْهَهُ) عَلَى مَعَاوِيَةَ وَافِدًا ، فَقَالَ لَهُ : يَا ضِرَارُ ، صِفْ لِي عَلِيًّا ، قَالَ : أَعْفَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : لَتَصِفَنَّهُ ، قَالَ : « أَمَا إِذَا لَا بُدَّ مِنْ وَصْفِهِ ، فَكَانَ وَاللَّهِ بَعِيدَ الْمَدَى^(٧) ، شَدِيدَ الْقُوَى ، يَقُولُ فَضْلًا ، وَيَحْكُمُ عَدْلًا ، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَتَنْطِقُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيهِ ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، وَيَسْتَأْنَسُ بِاللَّيْلِ وَوَحْشَتِهِ ، وَكَانَ وَاللَّهِ غَزِيرَ الْعَبْرَةِ ، طَوِيلَ الْفِكْرَةِ ، يُقَلِّبُ كَفَّهُ ، وَيَخَاطِبُ نَفْسَهُ ، يُعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا قَصُرَ ، وَمِنَ الطَّعَامِ مَا خَشِنَ ، كَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا ، يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ ، وَيُنَبِّئُنَا إِذَا اسْتَنْبَأْنَاهُ ، وَنَحْنُ مَعَ تَقْرِيْبِهِ إِيَّانَا ، وَقُرْبِهِ مِنَّا ، لَا نَكَادُ نَكَلَّهُ لِهَيْبَتِهِ ، وَلَا نَبْتَدُّهُ لِعِظَمَتِهِ ، يُعْظَمُ أَهْلُ الدِّينِ ، وَيُحِبُّ الْمَسَاكِينَ ،

[١] السراب : ما تراه نصف النهار كأنه ماء .

[٢] موقر . من الوقر بالكسر وهو الحمل الثقيل أو أعم ، وأوقر الدابة إيقاراً .

[٣] فطم . يروي بالفاء والفاء ، فطمه وقطمه : قطعه ، وصبط في صبح الأعشى بالفاء ، وبالطاء المكسورة

وصف من قطم كفرح : اشهى اللحم أو غيره . [٤] وفي صبح الأعشى : « ودين لزم » وأزم

كضرب وفرح : عض بالقم كله شديداً . [٥] الضيقة : الفقر وسوء الحال ، وفتح .

[٦] صداء كفراب : حى بالين . [٧] الغاية .

لا يطمع القَوِيُّ في باطله ، ولا يَيْئِس الضعيف من عدله ، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سُدُوْلَهُ ^(١) ، وغارت نجومُه ، وقد مثل في مخراجه قابضاً على لحيته ، يتماثل تَمَلُّمَ السَّلِيمِ ^(٢) ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يادنيا غرّى غيرى ، ألي تعرّضتِ ، أم إلى تشوّقتِ ؟ هيهات هيهات ! قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك ^(٣) حقيق ، آه من قلة الزّاد ، وبعُد السفر ، ووحشة الطريق ! « فبكى معاوية ، وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحداً في حجرها . (الأمل : ٢ : ١٤٩ ، وشرح الذهب ٢ : ٤٧ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٢٧٦ ، وزهر الآداب ١ : ٤٧)

الوافدات على معاوية

٣٥٨ — وفود سودة بنت عمارة على معاوية

وفدت سودة ابنة عمارة بن الأشتر الهمدانية ، على معاوية بن أبي سفيان ، فاستأذنت عليه ، فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلّمت ، فقال لها : كيف أنتِ يا بنة الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال لها : أنت القائلة لأخيك يوم صفين ؟ :

شمرّ كفعل أبيك يا بن عمارة يوم الطّعان ومُلْتَقَى الأقران
وأنصر عليّاً والحسينَ ورهطه واقصِدْ لهنْدٍ وابنها بهوانِ
إنّ الإمامَ أخو النبيِّ محمدٍ علم الهدى ومنازة الإيمان

[١] السدول جمع سدك بالضم والكسر : وهو الستر . [٢] السليم : اللدوغ ، وسمى بذلك تفاؤلاً له بالسلامة ، كما تسمى البيداء مفارة : تفاؤلاً بالفوز . [٣] الخطر : القدر .

فَقَدَّ الْجِيُوشَ وَسِرَّ أَمَامَ لِيُوَائِهِ قُدُّمًا بِأَبْيَضَ صَارِمٍ وَسِنَانٍ (١)

قالت : إى والله ، ما مثلى من رَغِبَ عن الحق ، أو اعتذر بالكذب ، قال لها : فإسحلك على ذلك ؟ قالت : حُبُّ عَلَىَّ عليه السلام ، واتباع الحق ، قال : فوالله ما أرى عليك من أثر علىٍّ شيئاً ، قالت : أنشدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضى ، وتذكار ما قد نسي ، قال : هيهات ! ما مثل مقام أخيك يُنسى ، وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وأخيك ، قالت : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، ما كان أخى خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَهُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ (٢)

قال : صدقت ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الرأس ومُتِرَ الذنَبُ ، وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيت منه ، قال : قد فعلت ، فقولى حاجتك ، قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيِّداً ، ولأمورهم مُتَقادماً ، والله سألتك عن أمرنا ، وما اقترض عليك من حَقِّنا ، ولا تزال تُقدم علينا من يَنْهَضُ بِعِزِّكَ ، وَيَبْسُطُ سَاطِئَكَ ، فيحصِدنا حِصَادَ السُّذْبِلِ ، ويدوسنا دِياسَ (٣) البقر ، وَيَسُومُنَا (٤) الخَسِيْسَةَ ، وَيَسْلُبُنَا الْجَلِيلَةَ ، هذا ابن أُرطاة (٥) قَدِمَ بِلَادِي ، وقتل

[١] القدم : الشجاع ، وى بلاغات النساء : « فقه الحنوف وسر أمام لوائه » .

[٢] العلم : الجبل . [٣] الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل . [٤] يكفنا .

[٥] هو بسر بن أُرطاة ، وقيل ابن أبي أُرطاة ، وكان معاوية في أيام علىٍّ سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة علىٍّ ويأخذ البيعة له ، فسار إلى المدينة ، ففعل بها أفعالا شنيعة ، وسار إلى اليمن ، وكان عليها عبيد الله ابن العباس من قبل علىٍّ ، فهرب عبيد الله فزلها بسر وذبح عبد الرحمن ، وقثم ابني عبيد الله وهما صعبران بين يدي أمهما عائشة بنت عبد المطلب ، فأصابها من ذلك حزن عظيم ، فأنشأت تقول :

يا من أحس بني اللذين هما كالدريين تشظى عنهما الصدق

يا من أحس بني اللذين هما سمى وقلبي ، فقلبي اليريم مختطف

يا من أحس بني اللذين هما منح العظام ، فحنى اليوم مزددهف

رجالى، وأخذ مالى، ولولا الطاعة لكان فينا عزٌّ ومنعة، فإمّا عزلته عنا فشكرناك، وإمّا لا، فعرفناك، فقال معاوية: إياي تهديدٌ بقومك؟ والله لقد هممت أن احملك على قتب^(١) أشرس فأردك إليه، يُنفذُ فيك حكمه، فأطرقت تبكى، ثم أنشأت تقول:

صَلَّى الْإِلَٰهَ عَلَى رُوحٍ تَضَمَّنَهُ قَبْرٌ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَدْلُ مَدْفُونًا
قَدْ خَالَفَ الْحَقَّ لَا يَبْغِي بِهِ مَمْنًا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونًا

قال: ومن ذلك؟ قالت: على بن أبي طالب، رحمه الله تعالى، قال: وما صنع بك حتى صار عندك كذلك؟ قالت: أتيتُه يوما في رجل ولأه صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغت^(٢) والسّمين، فوجدته قائما يُصَلِّي، فانقتل من الصلاة، ثم قال برأفةٍ وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء، فقال: اللهم إنك أنت الشاهد علىّ وعليهم، إني لم أمرهم بظلم خلقك، ولا تركِ حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب، فكتب فيها:

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : قَدْ جَاءَ ثَكْمُ يَدْنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا
الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، ^(٣) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْمُوا ^(٤)
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ، إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاحْتَفِظْ بِمَا فِي يَدِكَ مِنْ عَمَلِنَا ، حَتَّى يَأْتِيَ
مَنْ يَقْبِضُهُ مِنْكَ وَالسَّلَامَ . »

فأخذته منه والله ما خزّمه بخزّام، ولا ختمه بختّام^(٥) فقراءته، فقال معاوية:

[١] القتب: الإيكاف الصغير على قدر سنام البير، والمراد به هنا البعير لوصفه بالأشرس ففيه مجاز أو الأشرس: الحشن الغليظ. [٢] الغت: المهزول. [٣] القسط: العدل. [٤] دثا يعثو عثوا: أفسد. [٥] الخزام جمع خزامة بالكسر، وهي في الأصل: حلقة تجمل في أحد جانبي منخري البعير، وخزامة الرمل: سير رقيق يحرم بين الشراكين، الختام: الطين يحتم به على الشيء، (والخاتم: ما يوضع على الطيبة).

اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : ألي خاصة ، أم لقومي عامة ؟ قال : وما أنتِ وغيركِ ؟ قالت : هي والله إذن الفحشاء واللوم ، إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وإلا يسعني ما يسع قومي ، قال : هيهات ! لمظكم^(١) ابن أبي طالب الجرأة على السلطان ، فبطيئاً ما تفتطمون ، وغرركم قوله :

فلو كنتُ بواباً على باب جنةٍ لقلتُ لهمدان أَدْخُلُوا بِسَلَامٍ
وقوله : ناديتُ همدانَ والأبوابَ مُعَلَّقةً ومثلُ همدان سَتَى فتحة الباب^(٢)
كالهندِ واني لم تُفَلِّ مَضارِبُهُ وَجَهُ جَمِيلٍ وَقَلْبٌ غَيْرُ وَجَابٍ^(٣)
اكتبوا لها ولقومها . (العقد المرید ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٣٥)

٣٥٩ - وفود أم سنان بنت خيشمة على معاوية

حبس مروان بن الحكم ، وهو والي المدينة ، في خلافة معاوية ، غلاماً من بنى ليث في جناية جناها ، فأتمته جدة الغلام ، وهي أم سنان بنت خيشمة^(٤) المذحجية ، فكأتمته في الغلام فأغاظ لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانتسبت فعرفها ، فقال لها : مَرَّحِبَا بك يا بنت خيشمة ، ما أقدمك أرضنا ، وقد عهدتُك تشتميننا^(٥) ، وَتَحْضِينِ علينا عدونا ؟ قالت : إن لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة ، وأعلاماً ظاهرة ، وأحلاماً وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا

[١] التلظ : الذوق ، وأن يحرك الانسان لسانه في فمه بعد الأكل ، يتبع به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيمسح به شفتيه ، واسم ما بقي في الفم اللماظة بالضم ، ويقال : لمط فلانا (بالتشديد) لماظة : أي شيئاً يتلطفه ، ولمطه من حقه شيئاً : أعطاه (والمامة تبدل الظاء ضادا) .

[٢] سناء تسنية : سهله وفتحته . [٣] سيف هندواني بكسر الهاء ، ويجوز ضمها لإتباطا للدال منسوب إلى الهند ، ووجاب من وجب القلب وجيباً إذا خفق .

[٤] في صبح الأعشى « جشمية » ، وهو تحريف ، وتحريره : ما ذكرنا .

[٥] وفي بلاغات النساء : « تشتمين قربي » أي تبغضين .

يَسْفَهُونَ بَعْدَ حِلْمٍ ، وَلَا يَنْتَقِمُونَ بَعْدَ عَفْوٍ ، وَإِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِاتِّبَاعِ مَا سَنَّ آبَاؤُهُ
لَأَنْتَ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، نَحْنُ كَذَلِكَ ، فَكَيْفَ قَوْلُكَ ؟

عَزَبَ الرُّقَادُ ، فَفُلَّتِي لَا تَرَقُدُ وَاللَّيْلُ يُصَدِّرُ بِالْهَمُومِ وَيُورِدُ^(١)

بِآلِ مَذْحِجٍ ، لِأَمَقَامٍ ، فَشَمَّرُوا إِنَّ الْعَدُوَّ لِآلِ أَحْمَدَ يَقْصِدُ

هَذَا عَلَيَّ كَالْهَلَالِ تَحْفُهُ وَسَطَّ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْعَدُ^(٢)

خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ إِنَّ يَهْدِكُمْ بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا

مَا زَالَ مُذْ شَهِدَ الْحُرُوبَ مُظْفَرًا وَالنَّصْرُ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يُفْقَدُ

قالت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلفاً بعده ، فقال
رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهي القائلة :

إِذَا هَلَكْتَ أبا الحسين فلم تزل بالحق تُعْرِفُ هَادِيًا مَهْدِيًا

فأذهب ، عليك صلاة ربك مادعت فوق الغصون حمامة قُمْرِيَا^(٣)

قد كنت بعد محمد خلفاً كما أوصى إليك بنا ، فكنت وفيًا

واليوم لا خائف يؤمل بعده هيهات نأمل بعده إنسيًا

قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق ، وقول صدق ، ولئن تحقق فيك ما ظننا ،
لحظك الأوفر ، والله ما أورثك الشئان^(٤) في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ،
فأدحض مقاتلهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تردد من الله قرباً ،
ومن المؤمنين حُباً ، قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : يا سبحان الله ، والله

[١] عزب : بعد .

[٢] سعود النجوم عشرة : سعد بلع (بضم ففتح) وسعد الأخبية ، وسعد الذابح ، وسعد السعود ،
وهذه الأربعة من منازل القمر ، وسعد ناشرة ، وسعد الملك ، وسعد البهام ككتاب ، وسعد الهما ،
كشجاع ، وسعد البارح ، وسعد مطر ، وهذه الستة ليست من المنازل .

[٣] ضرب من الحمام والجمع قارى . [٤] البغض .

مامثلك من مدح باطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ،
وضميرِ قلوبنا ، كأن والله على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك .
قال : مِمَّن ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص . قال : وبم
استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسعة حملك ، وكريم عفوك ، قال : وإنيهما
يظمعان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأي على مثل ما كنت عليه لعثمان
ابن عفان رحمه الله تعالى ^(١) . قال : والله لقد قاربت ، فما حاجتك ؟ قالت :
يا أمير المؤمنين إن مروان تَبَنَّىكَ ^(٢) بالمدينة تَبَنَّىكَ من لا يريد منها البراح ، لا يحكم
بعدل ، ولا يقضي بسنة ، يتتبع عثرات المسامين ، ويكشف عورات المؤمنين ،
حبس ابن ابني ، فأتيته ، فقال : كَيْت وكَيْت ، فألقمته أخشن من الحجر ، وألقمته
أمر من الصبر ، ثم رجعت إلى نفسي باللائمة ، وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى
من هو أولى بالعضو منه ، فأتيته يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً ، وعليه
مُعَدِيًا ^(٣) ، قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا
لها بإطلاقه . قالت : يا أمير المؤمنين ، وأني لى بالرجعة ، وقد نفذ زادي ،
وكلت راحتي ؟ فأمر لها براحلة موطأة ، وخمسة آلاف درهم .

(العقد الفريد ١ : ١٣١ ، وصح الأعمش ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

٣٦٠ - وفود بكاره الهلالية على معاوية

استأذنت بكاره الهلالية على معاوية بن أبي سفيان ، فأذن لها وهو يومئذ
بالمدينة ، فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسنت ، وعشى ^(٤) بصرها ، وضعفت
قوتها ، ترعش بين خادمين لها ، فسلمت وجلست فرد عليها معاوية السلام ،

[١] تريد أنهما يأملان الخلافة بعدك كما كنت تأملها بعد عثمان . [٢] تبك به : أقام .

[٣] أعداء عليه : نصره ، وأطاعه ، وقواه . [٤] ضعف .

وقال : كيف أنت يا خالة ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال غَيْرِكِ الدهرُ ،
قالت : كذلك هو ذو غَيْرِ (١) ، من عاش كبير ، ومن مات قُبِرَ ، قال عمرو بن
العاص : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يازيدُ دونك فاحترف من دارنا سيفاً حُساماً في الترابِ دفينا
قد كنتُ أذخِرُهُ ليومِ كريهةٍ فاليومِ أُبْرِزُهُ الزمانِ مَصُونَا

قال مروان : وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابنَ هندٍ للخلافةِ مالكا ! هيهات ، ذاك - وإن أراد - بَعِيدُ
مَتَيْتِكَ نَفْسِكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالَةٍ أغراك عمرو للشُّقَا وَسَعِيدُ

قال سعيد بن العاص هي والله القائلة :

قد كنتُ أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابرِ من أُمِيَّةَ خاطبا
فَاللَّهُ أَخْرَ مُدَّتِي فَتَطَاوَلَتْ حتى رأيت من الزمانِ عجائبا
في كلِّ يومٍ للزمانِ خَطِيبُهُمْ بين الجميعِ لآلِ أَحْمَدَ عَابَا

ثم سكت القوم ، فقالت بكاره : نبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني (٢) ،
فقصُرَ مِحْجَبِي ، وكثُرَ عَجْبِي ، وَعَشِي بَصْرِي ، وَأَنَا وَاللَّهِ قَائِلَةٌ مَا قَالُوا ، لا أدفعُ
ذلك بتكذيب ، وما خفي عليك مني أكثر ، فامضِ لشأنك ، فلا خيرَ في
العيش بعد أمير المؤمنين ، فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك ،
اذكري حاجتك ، قالت : أما الآن فلا .

وقيل : إنه قد قضى حوائجها وردّها إلى بلدها .

(العقد الفريد ١ : ١٣٠ ، وبلاغات النساء ص ٣٩)

[١] ذو أحداث . [٢] تناوبتي وتداولتني ، والمجن : المصا المعطوفة الرأس .

٣٦١ - وفود أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية

دخلت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبير ،
فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً يا عمّة ، فكيف كنت بعدنا ؟ فقالت :
« يابن أخي ، لقد كفرت يد النعمة ، وأسأت لابن عمك الصّحبة ، وتسميت
بغير اسمك ، وأخذت غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آبائك ، ولا
سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتعس
الله منكم الجُدود^(١) ، وأضرع^(٢) منكم الخُدود ، وردّ الحق إلى أهله ، ولو كره
المشركون ، وكانت كلتنا هي العليا ، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور ،
فوليتم علينا من بعده - وتحتجون بقرايتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر - فكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل في آل فرعون ،
وكان على بن أبي طالب رحمة الله بعد نبينا صلى الله عليه وسلم بمنزلة هرون من
موسى^(٣) ، فغايبتنا الجنة ، وغايتكم النار » .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة ، وأقصري من
قولك ، وغضّي من طرفك ، قالت : ومن أنت ، لا أمّ لك ؟ قال : عمرو بن
العاص ، قالت : يابن الأحناء^(٤) النابغة تتكلم ، وأمك كانت أشهر امرأة تغنى

[١] جمع حد وهو الخط . [٢] أدلّ ، وى بلاغات النساء « وأصغر » .

[٣] ورواية بلاغات النساء : « فكما أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ، وانصيبوا وقدرًا ، حتى
قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، مغمورا ذنبه ، مردوعا درجته ، شريفا عند الله مرضيا ، فصرنا أهل
البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون ، يدبجون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد
المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : « يابن أمّ إنّ القوم استضعفوني ،

وكادوا يقتلوني » ولم يجمع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شمل ، ولم يسهل لنا وعمر .

[٤] رجل الخن وأمة الحناء : لم يحننا ، ولحن السماء ، وغيره كفرح : أنتن ، والجوزة فسدت ، ومن

بمكة ، وآخذهن لأجرة ! اذبح على ظلمك ، واعن بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش في الباب من حسبها ، ولا كريم منصبها ، ولقد ادعاك خمسة ^(١) نفر من قريش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أتاني ، فانظروا أشبههم به ، فألحقوه به ، فغلب عليك شبه العاص بن وائل ، فلحقت به ، ولقد رأيت أمك أيام مني بمكة مع كل عبد عاهر ^(٢) ، فأتم بهم ، فإنك بهم أشبه . فقال مروان : كفى أيتها العجوز ، وأقصرى لما جئت له ، ساخ ! بصرک مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهدتك ، فقالت : وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تتكلم ؟ فوالله لآنت إلى سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم ، وإنك لشبهه في زرقه عينيك ، ومحره شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمامته ^(٣) ، ولقد رأيت الحكم ماذا ^(٤) القامة ، ظاهر الأمة ^(٥) ، سبط ^(٦) الشعر ، وما بينكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المقرب ^(٧) ، فاسأل أمك تخبرك بشأن أبيك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جرأ على هؤلاء غيرك ، وإن أمك للاقالة يوم أحد في قتل حمزة رحمة الله عليه :

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سمر ^(٨)
ما كان عن عتبة لي من صبر أبي وعمي وأخي وصهري ^(٩)

شتم العرب « ابن اللخاء » كأنهم يقولون يا دنيء الأصل ، أو يا كئيم الأم ، والنايفة أم عمرو ، وقد تقدمت — انظر ص ١٩ . [١] وفي بلاغات النساء « ستة » . [٢] فاجر .
[٣] الدمامة : الفجج . [٤] ممتدا . [٥] الأيمة بالكسر ويفهم : الشأن والنعمة والهيبة .
[٦] طويله . [٧] الأتان : الحمار ، والمقرب التي قرب ولادها (فيكون بطنها كبيرا) .
[٨] السمر بالفتح مصدر سمر الحرب أي أوقدها ، وبالفهم : الجنون . [٩] قتلوا أربعتهم يوم بدر : أبوها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس — قيل اشترك في قتله علي ، وحمزة ، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب — وعمها شيبه بن ربيعة — قتله حمزة — وأخوها الوايد بن عتبة — قتله علي — وابن زوجها حنظلة بن أبي سفيان — وليست هند أمه ، قيل اشترك في قتله حمزة ، وعلي ، وزيد بن حارثة — .

شَفَيْتَ (وَحْشِيٌّ) غَلِيلَ صَدْرِي شَفَيْتَ نَفْسِي وَقَضَيْتَ نَذْرِي ^(١)
فَشُكْرُ وَحْشِيٍّ عَلَيَّ دَهْرِي حَتَّى تَرِمَّ أَعْظَمِي فِي قَبْرِي ^(٢)

فأجبتها :

يا بنت جَبَّارٍ عَظِيمِ الكُفْرِ خَزَيْتِ فِي بَدْرِ وَغَيْرِ بَدْرِ
صَبَّحَكَ اللهُ قُبَيْلَ الفَجْرِ بِالْمَهاشِمِيِّينَ الطَّوَالِ الزُّهْرِ ^(٣)
بِكلِ قِطَاعِ حُسَامٍ يَفْرِي حَمزَةُ لَبْنِي ، وَعَلِيٌّ صَقْرِي

فقال معاوية لمروان وعمرو : ويلكما ! أتما عرّضتُماني لها ، وأسمة ثمانى ما أكره ، ثم قال لها : يا عمة أقصدي قصدا حاجتك ، ودعي عنك أساطير النساء ، قالت : تأمر لي بألني دينار ، وألني دينار ، وألني دينار ، قال : ما تصنعين يا عمة بألني دينار ؟ قالت : أشتري بها عينا خزخازة ^(٤) في أرض خوّارة ^(٥) ، تكون لولد الحارث بن عبد المطلب ، قال : نعم الموضع وضعتها ، فما تصنعين بألني دينار ؟ قالت : أزوّجُ بها فتيان عبد المطلب من أكفأهم ، قال : نعم الموضع وضعتها ، فما تصنعين بألني دينار ؟ قالت : أستعين بها على غسر المدينة ، وزيارة بيت الله الحرام ، قال : نعم الموضع وضعتها ، هي لك نعم وكرامة ^(٦) ، ثم قال : أما والله لو كان عليّ ما أمر لك بها ، قالت : صدقت ، إن عليّا أدّى الأمانة ، وعمل بأمر الله ، وأخذ به ، وأنت ضيعت أمانتك ، وخنت الله في ماله ، فأعطيت مال الله من لا يستحقه ، وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها ويديها ، فلم تأخذ بها ،

[١] وحشي غلام حبيب بن مطعم قاتل حمزة يوم أحد . [٢] رمّ العظم كضرب وأرمّ : بنى فهو رميم

[٣] الزهر : الحسان البيض الوجوه . [٤] المرحار : الماء الجاري ، أى دين ماء جارية .

[٥] المراد أرض سهلة تصلح للزراعة ، من قولهم : خوّار العنان ، أى سهل المعطف ، كثير الجرى .

[٦] يقال : نعم عين ونعمة ونعام ونعيم بفتحهن ، ونعمى ونعامى ونعام ونعم ونعمة بضمهن ، ونعمة

ونعام بكسرهما : أى أعمل ذلك لإنعاما لبيتك وإكراما .

ودعانا (أى على) إلى أخذ حقنا ، الذى فَرَضَ اللهُ لنا ، فَشَغِلْ بِحَرْبِكَ عَنْ وَضْعِ
 الْأُمُورِ مَوَاضِعَهَا ، وَمَا سَأَلْتُكَ مِنْ مَالِكَ شَيْئًا فَتَمَنَّ بِهَ ، إِنَّمَا سَأَلْتُكَ مِنْ حَقِّنا ،
 وَلَا نَرَى أَخْذَ شَيْءٍ غَيْرِ حَقِّنا ، أَتَذْكَرُ عَلِيًّا ؟ فَضَّ اللهُ فَالِكَ (١) ، وَأَجْهَدُ بِلَاءَكَ ،
 ثُمَّ عَلَا بِكَأُوهَا وَجَعَلَتْ تَنْدُبَ عَلِيًّا ، فَأَمْرُهَا بِسِتَّةِ آلَافِ دِينَارٍ ، وَقَالَ لَهَا :
 يَا عَمَّةُ ، أَنْفَقِي هَذِهِ فِيمَا تَحِبِّينَ ، فَإِذَا احْتَجَجْتِ فَأَكْتُبِي إِلَى ابْنِ أَخِيكَ يُحْسِنُ
 صَفَدَكَ (٢) وَمَعُونَتِكَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ . (المقدّم القربى ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٣٢)

٣٦٢ - أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها ، فدخلت عليه وعليها
 ثلاثة دروع (٣) (بُرُودٍ) تَسَجَّبُهَا ذِرَاعًا ، قَدْ لَأَثَتْ (٤) عَلَى رَأْسِهَا كَوْرًا
 كَالْمَنْسَفِ ، فَسَأَمَتْ وَجَلَسَتْ ، فَقَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ صَفْوَانَ ؟
 قَالَتْ : بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ قَالَتْ : ضَعُفْتُ بَعْدَ جَلْدٍ ،
 وَكَسَلْتُ بَعْدَ نَشَاطٍ ، قَالَ : شَتَّانَ بَيْنَكَ الْيَوْمَ وَحِينَ تَقُولِينَ :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْحٍ	عَضَبَ الْمَهْزَةَ لَيْسَ بِالْحَوَارِ (٥)
أَسْرَجَ جَوَادِكَ مُسْرِعًا وَمُسَمَّرًا	لِلْحَرْبِ نَيْرَ مُعَرِّدٍ لِفِرَارِ (٦)
أَجِبِ الْإِمَامَ وَذُبْ تَحْتَ لَوَاهِ	وَأَلِقِ الْعَدُوَّ بِصَارِمٍ بَتَّارِ
يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَعِيدَةً	فَأَذُبُّ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْفُجَّارِ

قَالَتْ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ ، وَمِثْلُكَ مِنْ عَفَا ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : « عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ ،

[١] تدعو عليه أى نذر الله أسنالك . [٢] الصفد : العطاء .

[٣] درع المرأة قيصها (مذكر) ودرع الحديد مؤنث وقد يذكر .

[٤] اللوث عصب العمامة ، والكور لوث العمامة وإدارتها ، والمنسف ما ينفض به الحب : شئ طويل

منصوب الصدر ، أعلاه مرتفع . [٥] العصب : السيف القاطع ، والحوار من خار : إذا ضعف وكل .

[٦] عرّد تعريداً ، وعرّد كسمع : هرب .

وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ» قَالَ : هيهات ، أما والله لو عاد لعُدتِ ، ولكنه
اخْتَرِمَ^(١) منك ، قالت : أجل ، والله إني لعلی بيّنة من ربي ، وَهُدَى من أمرى ،
قال : كيف كَانَ قولك حين قتل ؟ قالت : أنسيتُهُ ، قال بعض جلسائه : هو والله
حين تقول :

يا للرجال لعظم هَوَلٍ مصيبة فدَحَتِ ، فليس مُصَابِهَا بالحائل^(٢)
الشمس كآسفةٌ لفقْدِ إمامنا خير الخلائق والإمامِ العادل
ياخيرَ مَنْ رَكِبَ المَطِيَّ وَمَنْ مَشَى فوق الترابِ لمحتَفٍ أو ناعِلِ
حاشا النبيَّ . لقد هَدَدتْ قُوءَاءِنا فالحق أصبح خاضعاً للباطل^(٣)

فقال معاوية : قاتلك الله ! فتركتِ مقالا لقائل ، اذ كرى حاجتك ، قالت :
أما الآن فلا ، وقامت فعمّرت ، فقالت : تَعِسَ شَانِيُ عَلِيٍّ^(٤) ، فقال : زَعَمْتِ أَنْ
لَا ، قالت : هو كما علمت ، فلما كَانَ من الغد بعث إليها بجائزة . وقال : إذا
ضيعتُ الحلمَ فمن يحفظه ؟ (صح الأعرابي ١ : ٢٦١ ، بلاغات النساء ص ٧٨)

٣٦٣ — دارمية الحجونية ومعاوية

وَحَجَّ معاوية سَنَةً من سِنِيهِ ، فسأل عن امرأة من بنى كِنانة كانت تنزل
بالحجون^(٥) ، يقال لها دَارِمِيَّةُ الحَجُونِيَّةُ ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر
بسلامتها ، فبعث إليها فجىء بها ، فقال : ما حالُكِ يا بِنْتَةَ حَامٍ ؟ فقالت : است
لِحَامٍ إِنْ عِبْتَنِي ، إنما أنا امرأة من بنى كِنانة ، ثمّت من بنى أبيك ، قال :
صدقْتِ ، أتدرين لِمَ بعثتُ إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيبَ إلا اللهُ ، قال : بعثت

[١] هلك . [٢] المتحوّل : المتغير . [٣] جمع القوة قوى ، وإنما قلت قواء بالمد للضرورة .
[٤] أى مبعوضه . [٥] الحجون : جبل بمحلة مكة .

إِيكَ لِأَسْأَلُكَ : عَلَامَ أَحْبَبْتِ عَلِيًّا وَأَبْغَضْتِي ، وَوَالِيَّتِهِ وَعَادِيَّتِي ؟ قَالَتْ : أَوْ
تُعَفِّينِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : لَا أُعْفِيكَ ، قَالَتْ : « أَمَا إِذَا أُبَيَّتْ فَإِنِّي أَحْبَبْتُ
عَلِيًّا عَلَى عَدْلِهِ فِي الرَّعِيَّةِ ، وَقَسَمَهُ بِالسُّوِيَّةِ ، وَأَبْغَضْتُكَ عَلَى قِتَالِ مَنْ هُوَ أَوْلَى
مَنْكَ بِالْأَمْرِ ، وَطَلَبْتُكَ ^(١) مَا لَيْسَ لَكَ بِحَقِّ ، وَوَالَيْتُ عَلِيًّا عَلَى مَا عَقَدَ لَهُ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوِلَايَةِ ^(٢) ، وَعَلَى حُبِّهِ الْمَسَاكِينَ ، وَإِعْظَامِهِ
لِأَهْلِ الدِّينِ ، وَعَادِيَّتِكَ عَلَى سَفْكَكَ الدَّمَاءِ ، وَشَقِّكَ الْعَصَا ، وَجَوْرِكَ فِي الْقَضَاءِ ،
وَحُكْمِكَ بِالْهَوَى » .

قَالَ : فَلِذَلِكَ انْتَفَخَ بَطْنُكَ ، وَعَظُمَ ثَدْيَاكَ ، وَرَبَّتْ عَجِيْزَتُكَ ، قَالَتْ : يَا هَذَا
بِهَنْدٍ ^(٣) وَاللَّهِ كَانَ يُضْرَبُ الْمَثَلُ فِي ذَلِكَ لِأَبِي ، قَالَ مَعَاوِيَةُ : يَا هَذِهِ اِرْبَعِي ^(٤) ،
فَإِنَّا لَمْ نَقْلُ إِلَّا خَيْرًا ، إِنَّهُ إِذَا انْتَفَخَ بَطْنُ الْمَرْأَةِ تَمَّ خَلْقُ وَلَدِهَا ، وَإِذَا عَظُمَ ثَدْيَاهَا
تَرَوَى ^(٥) رَضِيْعَهَا ، وَإِذَا عَظُمَتْ عَجِيْزَتُهَا رَزُنَ مَجْلِسُهَا ، فَرَجَعَتْ وَسَكَنَتْ ،
فَقَالَ لَهَا : يَا هَذِهِ هَلْ رَأَيْتِ عَلِيًّا ؟ قَالَتْ : إِي وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهُ ، قَالَ : فَكَيْفَ
رَأَيْتِهِ ؟ قَالَتْ : رَأَيْتُهُ وَاللَّهِ لَمْ يَفْتِنَنِي الْمَلِكُ الَّذِي فَتَنَكَ ، وَلَمْ تَشْغَلْهُ النِّعْمَةُ الَّتِي شَغَلَتْكَ ،
قَالَ : فَهَلْ سَمِعْتِ كَلَامَهُ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ وَاللَّهِ فَكَانَ يَجْلُو الْقُلُوبَ مِنَ الْعَمَى ، كَمَا
يَجْلُو الزَّيْتُ الطُّسْتُ مِنَ الصَّدَأِ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، فَهَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ ؟ قَالَتْ :
أَوْ تَفْعَلْ إِذَا سَأَلْتُكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : تَعْطِينِي مِائَةَ نَاقَةٍ حَمْرَاءَ فِيهَا فُخْلُهَا ،
وَرَاعِيهَا ، قَالَ : تَصْنَعِينَ بِهَا مَاذَا ؟ قَالَتْ : أَغْذُو بِالْبَانِهَا الصِّغَارَ ، وَأَسْتَحْيِي بِهَا
الْكِبَارَ ، وَأُكْتَسِبُ بِهَا الْمَكَارِمَ ، وَأُصْلِحُ بِهَا بَيْنَ الْعَشَائِرِ ، قَالَ : فَإِنِ اعْطَيْتِكَ

[١] الطلبة : الطلب . [٢] تشير إلى قوله : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

[٣] هي أمه هند بنت عتبة . [٤] ربيع : وقف وانتظر وتحبس . [٥] ارتوى .

ذلك ، فهل أحلّ عندك محلّ عليّ بن أبي طالب ؟ قالت : ماء ولا كصداء^(١) ،
ومرعى ولا كالسعدان^(٢) ، وفتى ولا كالك^(٣) ، سبحان الله أودونه ، فأنشأ
معاوية يقول :

إذا لم أعذ بالحلم مني عليكم فمن ذا الذي بعدى يؤمّل للحلم
خذيها هنيئاً ، واذكري فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم
ثم قال : أما والله لو كان عليّ حياً ما أعطاك منها شيئاً ، قالت : لا والله ولا وبرة
واحدة من مال المسلمين (الهدالريدي : ١ : ١٣٢ ، وصح الأعمش : ١ : ٢٥٩ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

٣٦٤ - شداد بن أوس ومعاوية

وأمر معاوية شداد بن أوس الطائي أن يتنقّص عليّاً ، فقام فقال :
« الحمد لله الذي افترض طاعته على عباده ، وجعل رضاه عند أهل التقوى
آثر من رضا خلقه ، على ذلك مضى أولهم ، وعليه يمضي آخرهم ، أيها الناس :

[١] صداء : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . ويروى عن ابنة ماني بن قبيصة : أنه لما قتل
لقيط بن زرارة (من دارم) تزوجها رجل من أهلها ، وكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات
مرة : ما استحدثت من لقيط ؟ قالت : كل أموره حس ، ولكني أحدثك أنه خرج إلى الصيد مرة وقد
اتقى بي ، فرجع إليّ ، وغميصه اضح من دماء صيد ، والمسك يصوع من أعطافه ، ورائحة الشراب من
فيه ، فصنيت ضمة ، وشميت شمة ، ولبنتي مائة ، ففعل روحها مثل ذلك ثم صمها ، وقال لها : أين أنا
من لقيط ؟ قالت : ماء ولا كصداء .

[٢] السعدان : بنت ذو شوك ، وهو من أصل مراعي الابل ، ولا نحسن على نبت حسننا عليه ،
وأول من قال ذلك الحسناء بنت عمرو بن الشريد ، وذلك أنها أقبلت من الموسم ، فوجدت الناس مجتمعين
على هند بنت عتبة بن ربيعة ، ففرحت عنها وهي تاشدهم مرأتى في أهل بيتها ، فلما دنت منها قالت : على من
تبكين ؟ قالت : أبكي سادة مضوا ، قالت : فأشدبني مض ما قلت ، فأشدتها ، فقالت الحسناء : مرعى
ولا كالسعدان ، ثم أشدتها ما رنت به أخواها صحرا . وقيل إن المثل لامرأة من طيء كان تزوجها امرؤ
القيس بن حجر الكندي ، وكان مفرحاً كما (بتح الرأء تبعصه الذاء) فقال لها : أين أنا من زوجك الأول ؟
فقلت : مرعى ولا كالسعدان . [٣] قاله متم بن نويرة في أخيه مالك لما قتل في الردة . والأمثال الثلاثة
تضرب للشيء يفضل على أفرانه .

إن الآخرة وعدٌ صادقٍ ، يَحْكُمُ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ ، وَإِنِ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، وَإِنِ السَّمَاعُ الْمَطْبُوعُ لِلَّهِ لَا حُجَّةَ عَلَيْهِ ، وَإِنِ السَّمَاعُ الْعَاصِيَّ لِلَّهِ لَا حُجَّةَ لَهُ ، وَإِنِ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ صَلَاحًا عَمِلَ عَلَيْهِمْ صَلَاحًاوَهُمْ ، وَقَضَى بَيْنَهُمْ فَتَاهًاوَهُمْ ، وَمَلَكَ الْمَالَ مُمَحِّدًاوَهُمْ ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِمْ شَرًّا ، عَمِلَ عَلَيْهِمْ سُفَاهًاوَهُمْ ، وَقَضَى فِيهِمْ جَهْلًاوَهُمْ ، وَمَلَكَ الْمَالَ بُمُخْلًاوَهُمْ ، وَإِنِ مِنْ صَلَاحِ الْوَلَاةِ أَنْ يَصْلُحَ قُرْنَاوَهَا ، وَنَصَحَ لَكَ يَامَعَاوِيَةُ مَنْ أَسَخَطَكَ بِالْحَقِّ ، وَغَشَّكَ مَنْ أَرْضَاكَ بِالْبَاطِلِ .

قال : اجلس رحمك الله قد أمرنا لك بمال ، قال : « إِنْ كَانَ مِنْ مَالِكَ الَّذِي تَعَهَّدْتَ جَمْعَهُ مَخَافَةَ تَبِعْتَهُ ، فَأَصْبَتْهُ حِلَالًا ، وَأَنْفَقْتَهُ إِفْضَالًا ، فَنَعَمٌ ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا شَارَكَكَ فِيهِ الْمَسَامُونَ ، فَاحْتَجَجْتَهُ ^(١) دُونَهُمْ فَأَصْبَتْهُ اقْتِرَافًا ، وَأَنْفَقْتَهُ إِسْرَافًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : « إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

☆ ☆

وروى أن معاوية قال له : « يا شداد ، أنا أفضلُ ، أم علي ؟ وأينا أحبُّ إليك ؟ » ، فقال : « عليٌّ أقدمُ هِجْرَةً ، وَأَكْثَرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْخَيْرِ سَابِقَةً ، وَأَشْجَعُ مِنْكَ قَلْبًا ، وَأَسْلَمُ مِنْكَ نَفْسًا ، وَأَمَّا الْحُبُّ ، فَقَدْ مَضَى عَلِيٌّ ، فَأَنْتَ الْيَوْمَ عِنْدَ النَّاسِ أَرْجَى مِنْهُ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢١١)

٣٦٥ — معاوية ورجل من أهل سبأ

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : « مَا كَانَ أَجْهَلَ قَوْمِكَ ، حِينَ مَلَكَوْا عَلَيْهِمْ امْرَأَةً » ، فقال : « بَلْ قَوْمِكَ أَجْهَلُ ، قَالُوا حِينَ دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحَقِّ ، وَأَرَاهُمُ الْبَيْنَاتِ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ

[١] احتجن المال : ضمه واحتواه .

فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنزِلْنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ» ، أَلَا قَالُوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَهْدِنَا لَهُ ! » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٣٦٦ — حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان

سأل معاوية بعد الاستقامة ^(١) عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان فقال له :

كيف علمك بقومك ؟ قال : كعلمي بنفسي ، قال : ما تقول في مُرَاد ؟ قال :

مُدْرِكُ الْأَوْتَارِ ^(٢) ، وَحَمَاةُ الذَّمَارِ ، وَمُحْرِزُوُ الْحِطَّارِ ، قال : فما تقول في النَّجَعِ ؟

قال : مَا نِعْمُ السَّرْبِ ^(٣) ، وَمُسْتَعْرُوُ الْحَرْبِ ، وَكَاشِفُوُ الْكَرْبِ ، قال : وما تقول

في بنى الحَرِثِ بنِ كَعْبٍ ؟ قال : فَرَّاجُوُ اللَّكَاكِ ^(٤) ، وَفُرْسَانُ الْعِرَاكِ ، وَلِزَازُ

الضُّكَاكِ ، تَرَكَ تَرَكَ ، قال : فما تقول في سَعْدِ الْعَشِيرَةِ ؟ قال : مَا نِعْمُ الضَّيْمِ ،

وَبَانُو الرِّيمِ ^(٥) وَشَافُوُ الْغَيْمِ ، قال : ما تقول في جُعْفِيٍّ ؟ قال : فُرْسَانُ الصَّبَاحِ ^(٦) ،

وَمُعَلِمُوُ الرَّمَاكِ ، وَمُبَارِزُوُ الرِّيَّاحِ ، قال : ما تقول في بنى زَيْدٍ ^(٧) ؟ قال : كَمَاةُ

أَنْجَادٍ ، سَادَاتُ أَحْمَادٍ ، وَوُقْرَةٌ ^(٨) عِنْدَ الدِّيَادِ ، صُبْرَةٌ عِنْدَ الطَّرَادِ ، قال : ما تقول في

جَنْبٍ ؟ قال : كُفَاةُ يَمْنَعُونَ عَنِ الْحَرِيمِ ، وَيَفْرَجُونَ عَنِ الْكُظِيمِ ^(٩) ، قال : فما

[١] أى بعد استقامة الأمر له : عام الجماعة . [٢] جمع وتر : وهو الثَّارُ ، والذَّمَارُ : ما يلزمك

حفظه وحمايته ، والحِطَّارُ جمع خطر بالتحريك : وهو السبق يتراهن عليه .

[٣] السرب : ما رمي من المال . [٤] اللكالك : الرحام ، ومثلها الضكك ، وله كرده : شدة

وألقه ، والراز ككتاب : خشبة يلز بها الباب ، وهلاز راز العظام : أى يلز بها ويقرن ليدلها ، ومنه

قول لبيد :

إنا إذا التقت الحامع لم يزل مما لراز عظيمه حشامها

وترك : اسم فعل بمعنى اترك ، والأمر هنا للتعظيم ، أى دع هؤلاء ولا تتحدث بشأنهم ، فأنهم فى أسنى

مكان . [٥] الريم : الدرجة والعصل والزيادة ، والعيم : العطش . [٦] الغارة .

[٧] ضبط فى الأمالى بفتح الراءى ، وهو خطأ ، زيد كريبير : بطن من منجح ، رهط عمرو بن

مديكرب ، وكأمية بلد باليمن ، وكاة جمع كى : وهو الشجاع أو لاس السلاح ، والأنجاد جمع نجد كشمهم

وكتف ورجل : الشجاع الماضى فيها يعجز غيره . [٨] وتر جمع وقور ، وصبر جمع صبور ، والذباد

والنود : الدمع . [٩] الكظيم والمكطوم : المكروب .

تقول في صداء؟ قال : سِمامُ الأعداء ، وَمَسَاعِيرُ الهَيَّجَاءِ^(١) ، قال : فما تقول في رهَاء؟ قال : مُيَنِّهِنُون^(٢) عادية الفوارس ، وَيَرِدُونَ الموتَ وَرَدَ الخَوَامِسِ^(٣) ، قال : أنت أعلم بقومك . (الأمل ١ : ١٦٠)

٣٦٧ — حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية

دخل الخيار بن أوفى النهدي على معاوية ، فقال له : يا خيار كيف تجددك ، وما صنع بك الدهر؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، صدع الدهر قناتي ، وأثككتني لداتي^(٤) ، وأوهى عمادي ، وشيَّب سوادى ، وأسرع في تِلَادِي^(٥) ، ولقد عشتُ زمناً أُصِبي الكعاب^(٦) ، وأُسِرَّ الأصحاب ، وأُجيد الضراب^(٧) ، فبان ذلك عني ، ودنا الموت مني ، وأنشأ يقول :

كأني شتيمٌ بأسلُ القلبِ خادِرُ ^(٨)	غَبَرْتُ زَمَانًا يَرَهَبُ القِرْنَ جَانِي
وَيُكْرِمُنِي قِرْنِي وَجَارِي المَجَاوِرُ	يَخَافُ عَدُوِّي صَوَاتِي وَبِهَانِي
كَأَنِّي غُصْنٌ نَاعِمِ النَّبْتِ نَاضِرُ ^(٩)	وَتُصِيبِي الكِعَابَ لِمَتِي وَشِمَائِلِي
كَأَنِّي قَنَاةٌ أَطْرَتْهَا المَاطِرُ ^(١٠)	فَبَانَ شِجَابِي ، وَاعْتَرَتْنِي رَثِيَّةٌ
لَدَى المَشْيِ قَرْمٌ قَيْدُهُ مُتَقَاصِرُ ^(١١)	أَدِبٌ إِذَا رُمْتُ القِيَامَ كَأَنِّي
لَهُ سَائِقٌ يَسْعَى بِذَاكَ وَنَاطِرُ	وَقَصُرَ القَتَى شَيْبٌ وَمَوْتٌ كِلَاهِمَا
رَهِينٌ أُمُورٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَادِرُ	وَكَيفَ يَلْدُ العَيْشُ مَنْ لَيْسَ زَائِلًا

[١] الهيجاء : الحرب ، وهو مسعر حرب (كدرهم) أي موقد نارها . [٢] يكفون .

[٣] الجس بالكسر : أي ترمي الإبل ثلاثة أيام ، وترد الرابع ، وهي لابل خوامس .

[٤] اللدة : من ولد معك . [٥] التلاد : المال القديم . [٦] كعب ثدى الجارية : نهدي ،

وهي كعب وكعاب . [٧] ضرب الفحل صرابا : نكح . [٨] الفرون : كفوئك في الشجاعة أو

حام ، والشتيم : الأسد العابس ، والحدر : أجة الأسد . ومنه أسد خادر . [٩] اللمة : الشعر المجاوز

شحمة الأذن . [١٠] الرثية : وجع المماصل واليدين والرجلين . والأطر والتأطير : عطف الشيء ،

وتأطر الريح : تلى واعوج . [١١] القرم : الفحل .

فقال معاوية : أحسنت القول ! واعلم أن لها مصادر، فنسأل الله أن يجعلنا من
الصادرين بخير، فقد أوردنا أنفسنا مواردَ تَرغِب إلى الله أن يُصدرنا عنها وهو راضٍ .
(الأمل ٢ : ٩٤)

٣٦٨ — حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية

قال معاوية اعرابة بن أوس بن حارثة الأنصاري : بأى شئ سُدَّت قَوْمك
يا عرابة ؟ قال : أخبرك يا معاوية بأنى كنت لهم كما كان حاتم لقومه . قال :
وكيف كان ؟ فأنشدته :

وأصبحتُ في أمرِ العَشيرةِ كلِّها كَذِي الحِلْمِ يُرَضَى ما يقول ويُعرَف
وذاك لأنى لا أعادى سَرَاتهم ولا عن أخى ضَرَّاءَهم أتَنكفُ^(١)
وإني لأعطي سائلي ، ولربِّما أَكَلَّفُ ما لا أستطيع فأَكَلَّفُ
وإني لمذمومٌ إذا قيل : حاتم نبا نَبوَةً ، إن الكَرِيم يُعَنِّفُ
ووالله إني لأعفو عن سفيهم ، وأحلمُ عن جاهلهم ، وأسعى في حوائجهم ، وأعطي
سائلهم ، فمن فعل فعلى فهو مثلى ، ومن فعل أحسن من فعلى فهو أفضل منى ،
ومن قَصَّر عن فعلى فأنا خير منه ، فقال معاوية : لقد صدق الشَّماخ حيث
يقول فيك :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ماراية رُفِعَت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمين
(الأمل ١ : ٢٧٧)

٣٦٩ — سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية

دخل سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه على معاوية ، وابنه يزيد إلى

[١] أى أمتنم منه وآنف .

جانبه ، فقال له : « ائتمنك أبى واصطنعك ، حتى بلغك باصطناعه إياك المدى الذى لا يُجَارَى ، والغاية التى لا تُسَامَى ، فاجازيت أبى بالآله ، حتى قدمت هذا على » ، وجعلت له الأمر دونى - وأوماً إلى يزيد - والله لأبى خير من أبيه ، وأبى خير من أمه ، ولأنا خير منه » ، فقال معاوية : « أمّا ما ذكرت يا بن أخى من تواتر آلائكم على » ، وتظاهر نعمائكم لى ، فقد كان ذلك ، ووجب على المكافأة والمجازاة ، وكان شكرى إياه أن طلبتُ بدمه ، حتى كابدتُ أهوال البلاء ، وغشيتُ عساكر المنايا ، إلى أن شُفيتُ حَزَازاتُ الصدور ، وتجلتُ تلك الأمور ، واستُ لنفسى باللائم فى التشمير ، ولا الزارى ^(١) عليها فى التقصير ، وذكرت أن أباك خير من أبى هذا - وأشار بيده إلى يزيد - فصدقت ، لعمر الله لعثمان خير من معاوية ، أكرم كريماً ، وأفضل قديماً ، وأقرب إلى محمد صلى الله عليه وسلم رحماً ، وذكرت أن أمك خير من أمه ، فلعمري إن امرأة من قریش خير من امرأة من بنى كلب ، وذكرت أنك خير من يزيد ، فوالله يا بن أخى ما يسرنى أن العُوطة ^(٢) عليها رجال مثلُ يزيد .

فقال له يزيد : مه يا أمير المؤمنين ، ابنُ أخيك استعمل الدالة عليك ، واستعتبك لنفسه ، واستزاد منك فزده ، وأجمل له فى ردك ، وأجمل على نفسك ، وولّه خراسان بشفاعتى ، وأعنه بما يُظهر به مؤروثه ، فولاه معاوية خراسان ، وأجازه بمائة ألف درهم ، فكان ذلك أعجب ما ظهر من حلم يزيد .

(صبح الأعشى ١ : ٢٥٦ . والإمامة والسياسة ١ : ١٣٩)

٣٧٠ - مصقلة بن هبيرة ومعاوية

مرض معاوية مرضاً شديداً ، فأرجف به مصقلة بن هبيرة ، وساعده قوم

[١] زرى عليه : طابه . [٢] مدينة دمشق أو كورتها .

على ذلك ، ثم تمائل^(١) ، وهم في إرجافهم ، فحمل زياد مصقلة إلى معاوية ، وكتب إليه أنه يجمع مرقاقا من مرقاق العراق ، فيرجفون بأمر المؤمنين ، وقد حملته إليه ليرى رأيه فيه ، فقدم مصقلة ، وجلس معاوية للناس ، فلما دخل عليه ، قال : ادن مني ، فدنا منه ، فأخذ بيده فجذبه فسقط مصقلة ، فقال معاوية :

أَبَقِيَ الْحَوَادِثُ مِنْ خَلِيْلِكَ مِثْلَ جَنْدَلَةِ الْمَرَّاجِمِ^(٢)

صُلْبًا إِذَا خَارَ الرَّجَاءُ لُ أَبْلٌ مَمْتَنِعِ الشُّكَاثِمِ^(٣)

قد رامني الأعداء قبلك فامتنعت من المظالم

فقال مصقلة : « يا أمير المؤمنين ، قد أبقى الله منك ما هو أعظم من ذلك بطشاً وجِلماً راجحاً ، وَكَلَّاءٌ وَمَرَعَى لِأَوْلِيَاءِكَ ، وَسَمًّا نَاقِعًا لِأَعْدَائِكَ ، كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ فَكَانَ أَبُوكَ سَيِّدَ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَصْبَحَ النَّاسُ مَسَامِينَ وَأَنْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ » وقام ، فوصله معاوية ، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة ، فقيل له : كيف تركت معاوية ؟ فقال : زعمتم أنه كبير وضعف ، والله لقد غمزني غمزة كاد يمحطمني ، وجذبني جذبة كاد يكسر عضواً مني .

(زهر الآداب ١ : ٥٧ ، والأمالى ٢ : ٣١٥)

٣٧١ - روح بن زنباع ومعاوية

وَوَلَّى مُعَاوِيَةَ رَوْحَ بْنَ زَنْبَاعٍ ، فَعَتَبَ عَلَيْهِ فِي جَنَابَةٍ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِالْقُدُومِ ، فَلَمَّا قَدِمَ أَمَرَ بِضَرْبِهِ بِالسِّيَاطِ ، فَلَمَّا أَقِيمَ لِيُضْرَبَ قَالَ : « نَشَدْتُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَهْدِمَ مِنِّي رَكْنًا أَنْتَ بَنَيْتَهُ ، وَأَنْ تَضَعَ مِنِّي خَسِيْسَةً أَنْتَ رَفَعْتَهَا

[١] تمائل الليل : قارب البرء . [٢] الجندل : الحجارة ، والواحدة جندلة .

[٣] الأبل : الممتنع ، والألد : الجدل ، والشكاثم جمع شكيمة : وهي من اللجام الحديدية المعترضة في فم

الفرس ، وفلان شديد الشكيمة : أنف أبي لايقاد .

أَوْ تُشْمِتِ بِي عَدْوَا أَنْتِ وَقْتَهُ ^(١) ، وَأَسْأَلُكَ بِاللَّهِ إِلَّا آتَى حَلْمُكَ وَعَفْوُكَ دُونَ
إِفْسَادِ صِنَائِعِكَ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : إِذَا اللَّهُ سَنَى عَقْدَ أَمْرٍ تَدَسَّرَا ، خَلُّوا سَبِيلَهُ .
(الأُمَالِي ٢ : ٢٥٩ ، وَزَهْرُ الْآدَابِ ٢ : ١٩٤)

٣٧٢ - مَخَاصِمَةُ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَامْرَأَتِهِ بَيْنَ يَدَيِ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ
جَرَى بَيْنَ أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ كَلَامٌ ، فِي ابْنِ كَانَ لَهَا مِنْهُ ، وَأَرَادَ
أَخْذَهُ مِنْهَا ، فَسَارَ إِلَى زِيَادٍ وَهُوَ وَالِي الْبَصْرَةِ .

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، هَذَا ابْنِي ، كَانَ بَطْنِي وَعِجَاءُهُ ، وَحِجْرِي
فِنَاءُهُ ، وَتَدْنِي سِقَاءُهُ ^(٢) ، أَكَلُوهُ ^(٣) إِذَا نَامَ ، وَأَحْفَظْهُ إِذَا قَامَ ، فَلَمْ أَزَلْ
بِذَلِكَ سَبْعَةَ أَعْوَامَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَوْفَى فِصَالَهُ ^(٤) ، وَكَمَلْتُ خِصَالَهُ ، وَاسْتَوَكَمْتُ ^(٥)
أَوْصَالَهُ ، وَأَمَلْتُ نَفْعَهُ ، وَرَجَوْتُ دَفْعَهُ ، أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنِّي كَرِهًا ^(٦) ، فَأَدِنِي ^(٧)
أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، فَقَدَرَامَ قَهْرِي ، وَأَرَادَ قَسْرِي ^(٨) . »

فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : « أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، هَذَا ابْنِي حَمَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَهُ ، وَوَضَعْتَهُ
قَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ ، وَأَنَا أَقُومُ عَلَيْهِ فِي أَدْبِهِ ، وَأَنْظُرُ فِي أَوْدِهِ ، وَأَمْنُجُهُ عِلْمِي ، وَأُلْهِمُهُ
حِلْمِي ، حَتَّى يَكْمُلَ عَقْلُهُ ، وَيَسْتَحْكِمَ قَتْلَهُ . »

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : « صَدَقَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، حَمَلَهُ خِفًّا ^(٩) ، وَحَمَلْتُهُ ثِقَلًا ، وَوَضَعْتَهُ
شَهْوَةً ، وَوَضَعْتَهُ كَرِهًا . »

فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ : ارْدُدْ عَلَيَّ الْمَرْأَةَ وَلِدَهَا ، فَهِيَ أَحَقُّ بِكَ مِنْكَ ، وَدَعْنِي مِنْ

[١] وقته : قهره وأذله . وفي زهر الآداب : « كبتته » . [٢] السقاء : جلد السحلة يكون
للعاء واللبن . [٣] أرحاه . [٤] فطامه . [٥] اشتدت ومنف . [٦] الإباء والمشقة
بالفتح والضم ، أو بالفتح ما أكرهك غيرك عليه ، وبالضم ما أكرهت نفسك عليه .
[٧] آدام على فلان : أهداه وأطانه . [٨] الإكرام . [٩] الحف : الحفيف .

سجعتك . أو قال : « إنها امرأة عاقلة يا أبا الأسود ، فادفع ابنها إليها ، فأخلق
أن تحسن أدبه » . (الأمل ٢ : ١٤ ، وأمل السيد المرتضى ١ : ٢١٤)

٣٧٣ — صورة أخرى

وروى أحمد بن أبي طاهر طيفور هذا الخبر بصورة أطول وهاكها :
قال أبو محمد القشيري : كان أبو الأسود الدؤلي من أكبر الناس عند معاوية بن
أبي سفيان ، وأقربهم مجلساً ، وكان لا ينطق إلا بعقل ، ولا يتكلم إلا بعد فهم ، فيينا هو
ذات يوم جالس ، وعنده وجوه قريش وأشرف العرب ، إذ أقبلت امرأة أبي الأسود
الدؤلي ، حتى حاذت معاوية ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله
وبركاته ؛ إن الله جعلك خليفة في البلاد ، ورفيقاً على العباد ، يُستسقى بك المطر ،
ويُستنبت بك الشجر ، وتؤلف بك الأهواء ، ويأمن بك الخائف ، ويُرذع
بك الجانف ^(١) ، فأنت الخليفة المصطفى ، والإمام المرتضى ، فاسأل الله لك النعمة
في غير تغيير ، والعافية من غير تعذير ^(٢) . قد أجزاني إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ
ضاق عليّ فيه المنهج ، وتفاقم عليّ منه المخرج ، لأمر كرهت عاره ^(٣) ، لما
خشيت إظهاره ، فليُنصفني أمير المؤمنين من الخصم ، فإني أعوذ بعقوته ^(٤)
من العار الويل ، والأمر الجليل ، الذي يشتد على الحرائر ، ذوات البعول
الأجائر ^(٥) ، فقال لها معاوية : ومن بعلك هذا الذي تصفين من أمره المنكر ،
ومن فعله المشهر ^(٦) ؟ فقالت : هو أبو الأسود الدؤلي ، فالتفت إليه فقال : يا أبا

[١] المائل : الجائر . [٢] أي من غير نقص ، من عذر في الأمر تعذيراً : إذا قصر ولم يجتهد
(أو من غير تشويه من عذر الشيء : لطفه بالمعذرة كفرحة) . [٣] تكفى بذلك عن طلاقها .
[٤] العقوة : ماحول الدار . [٥] البعول والبعولة جمع بعول وهو الزوج ، والأجائر جمع أجور ،
أفعل تفضيل من جار . [٦] شهره كنعته ، وشهره بالمشديد : أظهره في شناعة .

الأَسود: ما تقول هذه المرأة؟ فقال أبو الأَسود: هي تقول من الحق بعضاً، ولن يستطيع أحدٌ عليها نقضاً؛ أما ما ذكرت من طلاقها فهو حق، وأنا مُخبر أمير المؤمنين عنه بالصدق، والله يا أمير المؤمنين ما طَلَّقْتُها عن رِيبةٍ ظهرت، ولا لأى هفوةٍ حضرت، واكنى كرهت شمائلها، فقطعتُ عنى جبائلها، فقال معاوية: وأى شمائلها يا أبا الأَسود كرهت؟ قال: يا أمير المؤمنين: إنك مهيبٌها على بجواب عتيد^(١)، ولسان شديد، فقال معاوية: لأبدلك من محاورتها، فاردد عليها قولها عند مراجعتها، فقال أبو الأَسود: «يا أمير المؤمنين، إنها كثيرة الصخب، دائمة الذرب^(٢)، مِهينة للأهل، مؤذية للبعل، مُسيئة إلى الجار، مُظهرة للعار، إن رأيت خيراً كتمته، وإن رأيت شراً أذاعته»، فقالت: «والله لولا مكان أمير المؤمنين، وحضور من حضره من المسامين، لرددتُ عليك بوادِر كلامك، بنوافذ أقرعُ بها كلَّ سِهامك^(٣)، وإن كان لا يجمل بالمرأة الحرة أن تشتم بَعلاً، ولا أن تُظهر لأحدٍ جهلاً، فقال معاوية: عَزَمْتُ عليك لِمَا أَجَبْتِهِ، فقالت: «يا أمير المؤمنين، ما عَلِمْتُهُ إِلا سَتُولا جَهُولاً، مُلِحّاً بِخَيْلا^(٤)، إن قال فشرُّ قائل، وإن سكت فذو دَغَائِلِ^(٥)، لَيْتُ حِينَ يَأْمَنُ، وثعلب حين يخاف، شحيح حين يُضَافُ^(٦)،

[١] حاصر مهبياً . [٢] الصخب: شدة الصوت، والذرب: حدة اللسان وبداءته .

[٣] البوادِر جمع بادرة، وهي ما يبدو من حدتك في الغضب من قول أو فعل، بنوافذ أى بمهيج نافذة ماضية، وكل السيف وغيره فهو كلّ وكليل: لم يقطع .

[٤] وكان أبو الأَسود معروفاً بالبعل، ومن طريف ما يروى عنه أن رجلاً قال له: «أنت والله ظرف لفظ، وظرف علم، ووعاء حلم، غير أنك بخيل» فقال: «وما خير ظرف لا يمسك ما فيه؟» وسلم عليه أتراني يوماً، فقال أبو الأَسود: كلمة بقولة، يقال له: أتأذن في الدخول؟ قال: وراءك أوسع لك، قال: فهل عندك شيء؟ قال: نعم، قال: أطمعني، قال: عيالي أحق منك، ول: ما رأيت أأم منك! قال: نسيت نفسك . «أمالي الرافعي ١: ٢١٤» . [٥] دغائل: جمع دثيلة كسفينة والدغيلة والدغل بالتحريك: دخل في الأمر مضد . [٦] ضافه يضيفه: نزل عليه ضيفاً .

إن ذكر الجود انقَمَعَ^(١) ، لِمَا يَعْرِفُ مِنْ قِصْرِ رِشَائِهِ^(٢) ، وَلَوْ لَمْ آبَاءُهُ ، ضَيْفُهُ جَائِعٌ ، وَجَارُهُ ضَائِعٌ ، لَا يَحْفَظُ جَارًا ، وَلَا يَحْمِي ذِمَارًا ، وَلَا يُدْرِكُ نَارًا ، أَكْرَمَ النَّاسِ عَلَيْهِ مِنْ أَهَانِهِ ، وَأَهْوَنَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَكْرَمِهِ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : سَبِحَانَ اللَّهِ لِمَا تَأْتِي بِهِ هَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنَ السَّجْعِ ! فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهَا مُطَلِّقَةٌ ، وَمَنْ أَكْثَرُ كَلَامًا مِنْ مَطَائِقَةٍ ؟ فَقَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : إِذَا كَانَ رَوَاحًا^(٣) فَتَعَالَى أَفْصِلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِالْقَضَاءِ .

فَلَمَّا كَانَ الرَّوَاحُ جَاءَتْ وَمَعَهَا ابْنُهَا قَدْ احْتَضَنْتَهُ ، فَلَمَّا رَأَاهَا أَبُو الْأَسْوَدِ قَامَ إِلَيْهَا لِيَنْزِعَ ابْنَهُ مِنْهَا ، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : يَا أَبَا الْأَسْوَدِ ، لَا تُعْجِلِ الْمَرْأَةَ أَنْ تَنْطِقَ بِحُجَّتِهَا ، قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَا أَحَقُّ بِحَمْلِ ابْنِي مِنْهَا ، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : يَا أَبَا الْأَسْوَدِ دَعِّهَا تَقِلْ ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، حَمَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَهُ ، وَوَضَعْتُهُ قَبْلَ أَنْ تَضَعَهُ » ، فَقَالَتْ : « صَدَقَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : حَمَلَهُ خِفًا ، وَحَمَلْتُهُ ثِقَلًا ، وَوَضَعَهُ شَهْوَةً وَوَضَعْتَهُ كَرْهًا ، إِنْ بَطْنِي لَوِعَاؤُهُ ، وَإِنْ ثَدْيِي لَسِقَاؤُهُ ، وَإِنْ حِجْرِي لَفِنَاؤُهُ » ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : سَبِحَانَ اللَّهِ لِمَا تَأْتِينَ بِهِ ! فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ : إِنَّهَا تَقُولُ الْأَيَّاتَ مِنَ الشَّعْرِ فَتَجِيدُهَا ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : إِنَّهَا قَدْ غَلَبَتْكَ فِي الْكَلَامِ ، فَتَكَلَّفَ لَهَا أَيَّاتًا لَعَلَّكَ تَغْلِبُهَا ، فَأَنْشَأَ أَبُو الْأَسْوَدِ يَقُولُ :

مَرَّحَبًا بِالتِّي تَجُورُ عَلَيْنَا ثُمَّ سَهْلًا بِالحَامِلِ المَحْمُولِ
أَغْلَقْتُ بِابْنِهَا عَلِيًّا وَقَالَتْ : إِنْ خَيْرَ النِّسَاءِ ذَاتُ البُعُولِ
شَغَلْتُ نَفْسَهَا عَلِيًّا قَرَاغًا هَلْ سَمِعْتُمْ بِالفَارِغِ المَشْغُولِ ؟

[١] انقَمَعَ : دَخَلَ الْبَيْتَ مُسْتَحْفِيًّا . [٢] الرِّشَاءُ فِي الْأَصْلِ : الْحَبْلُ .

[٣] أَيُّ إِذَا كَانَ الْوَقْتُ رَوَاحًا ، وَالرَّوَاحُ : الْعَثَى .

فأجابته وهي تقول :

ليس من قال بالصَّوَابِ وبالْحَقِّ كَمَنْ جَارَ عَنِ مَنَارِ السَّبِيلِ
كَانَ تَدْنِي سِقَاءَهُ حِينَ يُضْعِي ثُمَّ حَجْرِي فَنَاوُهُ بِالْأَصِيلِ
لستُ أُنْبِئُ بِوَاحِدِي يَا بَنَ حَرْبٍ بَدَلًا مَا عَلِمْتُهُ وَالْخَلِيلِ^(١)
فأجابها معاوية :

ليس مَنْ غَدَاهُ حِينًا صَغِيرًا وَسَقَاهُ مِنْ تَدْنِي بِخَذُولِ
هِيَ أَوْلَى بِهِ وَأَقْرَبُ رُحْمًا مِنْ أَيْبِهِ بِالْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ^(٢)
أُمُّهُ مَا حَنَّتْ عَلَيْهِ وَقَامَتْ هِيَ أَوْلَى بِحَمَلِ هَذَا الضَّئِيلِ^(٣)

فقضى لها معاوية عليه ، واحتملت ابنها وانصرفت . (بلاغات النساء ص ٥٣)

٣٧٤ — وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير

لما قَدِمَ الأحنف في وجوه أهل البصرة ، إلى عبد الله بن الزبير ، تكلم
أبو حاضر الأسيديّ - وكان خطيباً جميلاً - فقال له عبد الله بن الزبير : اسكت
فوالله لو دِدْتُ أَنْ لِي بِكُلِّ عَشْرَةِ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، صَرَفَ
الدينار بالدرهم ، قال : « يا أمير المؤمنين : إن لنا ولك مثلاً ، أفتأذن في ذكره ؟ »
قال : نعم ، قال : « ممثلنا ومثلك ومثل أهل الشام قول الأعشى حيث يقول :
عُلَّقَتْهَا عَرَضًا وَعُلَّقَتْ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلَّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ^(٤) »
أحبك أهل العراق ، وأحببت أهل الشام ، وأحب أهل الشام عبد الملك
ابن مروان » (البيان والنبين ١ : ١٦٤)

[١] أي أقسم بخليل الله وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . [٢] الرحم : الرحمة والبرقة والنعطف .
[٣] في الأصل : « أم ما حنت عليه . . . » وهو تحريف ، إذ يختل وزن البيت .
[٤] علقت فلان امرأة (بالبناء للمجهول . مشدداً) : أحبها .

٣٧٥ - كلام خطيب الأزدي بين يدي عبد الملك بن مروان

بعث الحجاج خطباء من الأحماس^(١) إلى عبد الملك بن مروان ، فتكلموا ،

فلما انتهى الكلام إلى خطيب الأزدي ، قام فقال :

« قد علمت العرب أنا حتى فعل ، ولسنا بحى مقال ، وأنا نجزى بفعلنا

عند أحسن قولهم ، إن السيف لتعرف أ كفننا ، وإن الموت ليدستعذب أرواحنا ،

وقد علمت الحرب الزبون ، أنا نقرع جاحها ، ونحلب صراها^(٢) » ثم جلس^(٣) .

(الأمل ٢ : ٢٥٩)

٣٧٦ - سؤال عبد الملك للحجاج وما أجاب به

ودخل العجاج^(٤) على عبد الملك بن مروان ، فقال : يا عجاج بلغني أنك

لا تقدر على الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، من قدر على تشييد الأبنية ،

أمكنه إخراج الأخبية ، قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزاً يمنعنا من

أن نُظلم ، وإن لنا حملاً يمنعنا من أن نُظلم ، فعلام الهجاء ؟ فقال : لكلماتك

أشعر من شعرك ! فأنى لك عز يمنعك من أن تُظلم ؟ قال : الأدب البارع ،

والفهم الناصع ، قال : فما الحلم الذي يمنعك من أن تُظلم ؟ قال : الأدب

[١] الحس كفضل : الأمانة الصلبة جمع أحس ، واتق به قريش ، وكسانة ، وجديلة ، ومن تابعهم في

الجمالية جمعهم في دينهم ، أو لانتباؤهم بالحساء وهي الكعبة ، وأحاس العرب : من أمهاتهم من قريش ،

وكانوا يتشددون في دينهم ، وكانوا شجعان العرب لا يطاقون . [٢] الصرى : بقية اللبن .

[٣] وفي رواية الجاحظ : « قالوا : ولما قدمت خطباء نزار عند معاوية ، فذهبت في الحطب كل

مذهب ، قام صبرة بن شيخان فقال : « يا أمير المؤمنين : إنا حتى فعال ، واسنا حتى مقال ، ونحن نبلغ

بمعاننا أكثر من مقال غيرنا (البيان والتبيين ١ : ١٦٤) ، وروى المبرد في الكامل هذا القول عن

صبرة أيضاً - انظر تهذيب الكامل ١ : ١٦ - ، وقد تقدم لك أن صبرة بن شيخان من الأزدي - انظر

الجزء الأول ص ٢٠٧ . [٤] هو العجاج بن ربيعة راجز مجيد مشهور مات سنة ٩٠ هـ .

المُسْتَطَرَفُ ، والطَّبِيعُ التَّالِدُ ، قال : يا عجاج لقد أصبحتَ حكيماً . قال : وما
يعنى وأنا نَجِيٌّ^(١) أمير المؤمنين ؟ . (الأمل ٢ : ٤٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٤)

٣٧٧ - وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان

لما ولى الحجاج بن يوسف الحَرَمَيْنِ بعد قتله ابن الزبير ، استخَصَّ إبراهيم
ابن محمد بن طلحة ، فقرَّبه وعظَّم منزلته ، فلم تزل تلك حاله عنده ، حتى خرج
إلى عبد الملك بن مروان ، فخرج معه مُعَادِلًا ، لا يقصِّر له في برِّ وإعظام ، حتى
حضر به عبد الملك ، فلما دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام ، إلا أن قال له :
« قَدِمْتُ عليك أمير المؤمنين برجل الحجاز ، لم أدع له بها نظيراً في الفضل
والأدب ، والمروءة ، وحسن المذهب ، مع قرابة الرَّحِمِ ، ووجوب الحق ،
وعظَم قدر الأبوة ، وما بلوتُ منه في الطاعة والنصيحة ، وحُسن المؤازرة . وهو
إبراهيم بن محمد بن طلحة ، وقد أحضرته بابك ، لِيَسْهَلُ عليه إذك ، وتعرف له
ماعرَفَتك » . فقال : أذكرتنا رَحِمًا قريبة ، وحقًا واجبًا ، يا غلامُ : ائذن لإبراهيم
ابن محمد بن طلحة ، فلما دخل عليه أدناه عبد الملك ، حتى أجلسه على فراشه ، ثم
قال له : يا ابن طلحة ، إن أبا محمد (الحجاج) ذكرنا ما لم نزل نعرفك به من الفضل
والأدب ، والمروءة ، وحسن المذهب ، مع قرابة الرحم ، ووجوب الحق ، وعظَم
قدر الأبوة ، وما بلاءه منك في الطاعة والنصيحة ، وحسن المؤازرة ، فلا تدعَنَّ
حاجةً في خاصَّة نفسك وعامتك إلا ذكرتها . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أول
الحوائج ، وأحقُّ ما قدَّم بين يدي الأمور ، ما كان لله فيه رِضًا ، ولحق نبيه صلى

الله عليه وسلم أداء ، ولك فيه ولجماعة المسلمين نصيحة ، وعندى نصيحة لا أجد
 بدءاً من ذكرها ، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا خالٍ ، فأخلىنى يا أمير المؤمنين ترد
 عليك نصيحتى ، قال : أدونَ أبى محمد ؟ قال : نعم ، دون أبى محمد ، قال عبد الملك :
 للحجاج قم ، فلما خَطَرَ ف^(١) السَّترَ أقبل على إبراهيم ، فقال : يا بن طلحة قل
 نصيحتك ، قال : بالله يا أمير المؤمنين لقد عهدت إلى الحجاج فى تَغَطُّرُسه
 وتَعَجُّرُفه ، وَبُعْده من الحق ، وَقُرْبُه من الباطل ، فوليته الحرمين ، وهما ما هما
 وبهما منَ بهما من المهاجرين والأَنْصارِ ، والمَوَالِي الأَخيارِ ، يسومُهم الحَسَفُ^(٢) ،
 ويحكم فيهم بغير السنَّة ، بعد الذى كان من سَفَكِ دماءهم ، وما انتَهيك من حُرْمَتهم ،
 وَيَطَوُّهم بِطَعامِ أهل الشام ، وَرَعاعٍ لآ رَوِيَّةَ لهم فى إقامة حق ، ولا فى إراحة
 باطل ، ثم تظن أن ذلك ينجيك من عذاب الله ؟ فكيف بك إذا جئتك محمد صلى
 الله عليه وسلم غداً للخصومة بين يدي الله تعالى ؟ أما والله إنك لن تنجو هناك
 إلا بِحُجَّةٍ تَضْمَنُ لك النجاة ، فارْبِعْ على نفسك أو دَعْ ، وكان عبد الملك مُتَكَبِّراً ،
 فاستوى جالساً ، وقال : كذبتَ وَمِنْتِ^(٣) فيما جئت به ! ولقد ظن بك الحجاج
 ظناً لم نجده فيك ، وقد يُظن الخيرُ بغير أهله ، قم فأنت المائِن الحاسد ! قال :
 فقامت والله ما أبصر شيئاً ، فلما خطرَ السَّترَ لحِقنى لاحق ، فقال للحاجب :
 امنع هذا من الخروج ، وأذن للحجاج ، فدخل فلبث مَلِيًّا ، ولا أشكُ أنهما فى
 أمرى ، ثم خرج الإذن لى ، فدخلت ، فلما كشف لى السَّترَ ، إذا أنا بالحجاج
 خارج ، فاعتنقنى ، وقبل ما بين عينيَّ ، وقال : أما إذا جرى الله المتواخيئين خيراً

[١] المراد أرخى من خطر ف جلد المرأة إذا استرخى . [٢] يوليهم الدال .

[٣] مان مينا : كذب .

بفضل تواصلهما ، فجزاك الله عنى أفضل الجزاء ، فوالله لئن سلمتُ لك لأرفعنَّ ناظريك ، ولأُعَلِّينَّ كعبك ، ولأُتَبِعَنَّ الرجالُ غبارَ قدمَيْك ، قال : فقلت في نفسي إنه ليسخرَ بي ، فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أدنانى مجلسى الأول ، ثم قال : يا بن طلحة : هل أعلمت الحجاج بما جرى أو شارك أحد في نصيحتك ؟ فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحداً أظهرَ يداً عندى من الحجاج ، ولو كنت محايياً أحداً بدىنى لكان هو ، ولكنى آثرتُ الله ورسوله والمسلمين ، قال : قد علمت أنك لم ترد الدنيا ، ولو أردتها لكانت لك في الحجاج ، ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عزلته عن الحرمين : لما كرهت من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما : استقلالاً لهما ، ووليته العراقيين وما هنالك من الأمور ، التي لا يُدَحِّضُها إلا مثله ، وإعماقت له ذلك ليؤدى ما يلزمه من ذمامك ، فإنك غير ذام لصحبته مع يدك عنده ، فخرجت مع الحجاج ، وأكرمنى أضعاف إكرامه .

(العقد الفريد ١ : ١٢١ ، وشرح البيهقوى ص ١١٩)

٣٧٨ — قدوم الحجاج مع أشرف المصرين على عبد الملك

لما فرغ الحجاج من دير الجماجم ، وقدم على عبد الملك ومعه أشرف أهل المصرين - البصرة والكوفة - أدخلهم عليه ، فبينما هم عنده إذ تذاكروا البلدان ، فقال محمد بن عمير بن عطار : « أصلح الله الأمير ، إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وحرَّها وعمَّقها ^(١) ، وسفلت عن الشام ووبأها ، وجاورها الفرات ، فعذب ماؤها ، وطاب ثمرها » ، فقال خالد بن صفوان الأهمى : « أصلح الله الأمير ، نحن أوسعُ منهم برِّيَّةً ، وأسرعُ منهم في السريَّة ^(٢) ، وأكثرُ منهم

[١] العمق : ركوب التمدى الأرض ، أرض عميقة كفرحة : ذات ندى وتقل ، أو قريبة من المياه ، وفي الأصل : « وعمقها » وهو تصحيف . [٢] السرية : من خسة أفسس إلى نثمائة ، أو أربعمائة ، والمراد في النهوض للقتال .

قندا^(١)، وعاجاً، وساجاً،^(٢) وناساً^(٣)، ماؤناصفو، وخيرُنا عَفُو، لا يخرج من عندنا إلا قائدوسائق وناعق^(٤)»، فقال الحجاج: «أصلح الله أمير المؤمنين! إني بالبلدين خير، وقد وطئتهما جميعاً»، فقال له: قل فأنت عندنا مُصَدِّق، فقال: «أما البصرة فمعجوزُ شَمَطَاء، دَفْرَاء، بَحْرَاء، أُوتيت من كل حَلِي وزينة؛ وأما الكوفة، فشابة حسناء جميلة، لا حَلِي لها ولا زينة». فقال عبد الملك: فضلت الكوفة على البصرة. (مروج الذهب ٢: ١٤٨)

* * *

وروى الجاحظ قال:

قال خالد بن صفوان^(٥) - وَسُئِلَ عن الكوفة والبصرة - : «نحن مَنَابِثُنا قَصَب، وأنهارنا عَجَب، وسماؤنا رُطَب^(٦)، وأرضنا ذهب». وقال الأحنف: «نحن أبعد منكم سَرِيَّة، وأعظم منكم تَجْرِيَّة^(٧)، وأكثر منكم ذُرِّيَّة، وأغذى منكم بَرِّيَّة». وقال أبو بكر الهذلي: «نحن أكثر منكم ساجاً، وعاجاً، ودِيباجاً، وخرابجاً، ونهراً عَجَّاجاً^(٨)». (البيان والتبيين ٢: ٤٦)

[١] الهند: غسل قصب الكر. [٢] الساج: خشب أسود رزين يحمل من الهند، ولا تكاد الأرض تبليه، وهو يشبه الأبنوس. [٣] في الأصل: «وباسا» بالياء، وأراه بالنون. [٤] يريد بالسائق: الأمير، وبالناعق: الحطيب. [٥] أي يصف البصرة، وكذا ما بعده. [٦] السماء: كل ماعلاك، يشير إلى كثرة النخيل في مشان البصرة، «مشان كسحاب: قرية قريبة منها»، وأن التمر لكثرتة ووفرتة يظلمهم. [٧] تاجر كنصر تجراً وتجارة: البحر، وأرى أن «تجارية» مصدر صناعي لتجر يريد أن أهل البصرة أعظم وأطول باطا من أهل الكوفة في التجارة - لأن البصرة ثغر على الخليج الفارسي، فهي متصلة ببلاد الهند والشرق - . [٨] العجاج: العياح من كل ذي صوت.

٣٧٩ - وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة

لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة : صاحب الأزارقة . بعث إلى مالك بن بشير ، فقال له : إني مؤفدك إلى الحجاج ، فسر ، فإنما هو رجل مثلك ، وبعث إليه بجائزة فردها ، وقال : إنما الجائزة بعد الاستحقاق ، وتوجه فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : مُلك وبشارة ! كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمّلت ، وأمن من خاف ، قال : كيف هو لجنده ؟ قال : والد رءوف ، قال : فكيف رضاهم عنه ؟ قال : وسعهم بالفضل ، وأقنعهم بالعدل ، قال : فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بجِدِّنا فنطمع فيهم ، ويلقوننا بجِدِّهم فيطمعون فينا ، قال : كذلك الجد إذا لقي الجد . قال : فما حال قطري ؟ قال : كأدنا ببعض ما كدناه . قال : فما منعكم من اتباعه ؟ قال : رأينا المقام من ورأئه خيراً من اتباعه ، قال : فأخبرني عن ولد المهلب ، قال : أعباء القتال بالليل ، حُجاة السرح^(١) بالنهار ، قال : أيهم أفضل ؟ قال ذلك إلى أيهم ، قال : لتقولن ، قال : هم كحلقة مضروبة لا يُعرف طرفاها ، قال : أقسمت عليك هل رَوَّأت^(٢) في هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع الله على غيبه أحداً ، فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

(المقد الفريد ١ : ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨)

٣٨٠ - وفود كعب الأشقري على الحجاج

أوفد المهلب بن أبي صفرة كعب بن معدان الأشقري - ومعه مروة بن تليد الأزدي - إلى الحجاج بعد هزيمة الأزارقة ، وقتل أميرهم عبد ربه الصغير ، فلما دخلا عليه بدّر كعب ، فأنشده قصيدته التي مطلعها :

[١] السرح و الأصل : الدال السام . [٢] رَوَّأت في الأمر : نظر فيه وتعبه ، ولم يعجل بجواب .

يا حَفْصُ: إني عَدَانِي عنكم السَّفَرُ وقد سَهَرْتُ فَأَذَى عَيْنِي السَّهَرُ
 فقال له الحجاج: أشاعر أم خطيب؟ قال: كلاهما، ثم أقبل عليه، فقال له:
 أخبرني عن بني المهلب، قال: «المُغِيرَةَ فارُسُهُم وسيِّدُهُم، نار ذاكِية^(١)،
 وصَعْدَةُ^(٢) عالية، وكَفَى يزيدَ فارساً شجاعاً، لِيث غابِ، وبحر جَمَّ عُبَابِ،
 وَجَوَادُهُم وَسَخِيهِم قَبِيصَةٌ، لِيث المَغَارِ^(٣)، وحامِي النِّمَارِ، ولا يَسْتَحِي الشُّجَاعُ
 أن يَفِرَّ من مُدْرِكِ، فكيف لا يفر من الموت الحاضر، والأسد الخادر؟ وعبدُ
 الملك سمّ نافع، وسيف قاطع، وحيبُ الموتُ الزُّعَافِ، إِمَا هو طَوْدُ^(٤)
 شامخ، ونخر باذخ، وأبو عَيْنَةَ البَطَلِ الهُمَامِ، والسيف الحَسَامِ، وكفالك بالمفضِّلِ
 نَجْدَةٌ، لِيث هَدَّارِ، وبحر مَوَّارِ^(٥)، ومحمدُ لِيثُ غابِ، وحُسامُ ضِرَابِ، قال:
 فكيف كانوا فيكم؟ قال: كانوا حُمَاةَ السَّرْحِ نهاراً، فإذا أَلِيلُوا^(٦) ففُرْسَانِ البِيَاتِ،
 قال: فأَيُّهُمْ كَانَ أَنجِدُ؟ قال: كانوا كَالْحَلَقَةِ المَفْرَغَةِ: لا يُدْرِي أَيْنَ طَرَفُهَا، قال:
 فكيف كَانَ لَكُمْ المَهْلَبُ وكنتم له؟ قال: كَانَ لنا منه شَفَقَةُ الوالدِ، وله منا بَرُّ
 الولدِ، قال: فكيف جماعة الناس؟ قال: على أحسن حال: أدركوا ما رَجَوْا،
 وأمِنُوا مما خافوا، وأرضاهم العَدَلُ، وأغناهم النِّقْلُ^(٧)، قال: فكيف كنتم أنتم
 وعدوكم؟ قال: كنا إِذا أَخَذْنَا عَفْوَنَا، وَإِذا أَخَذُوا يَدِيْنَا مِنْهُمْ، وَإِذا اجْتَهَدُوا
 واجتهدنا طَمِعْنَا فِيهِمْ، فقال الحجاج: إن العاقبة للمتقين، قال: كيف أفلتكم
 قطري؟ قال: كدناه ببيعض ما كادنا به، فصرنا منه إلى الذي نحب، قال: فهلا
 اتبعتموه؟ قال: كَانَ الحَدُّ عندنا آثَرُ مِنَ الفَلِّ^(٨)، قال: أَكُنْتُ أَعَدَدْتُ لِي

[١] ذك النار: اشتد لهبها. [٢] الصعدة: القناة المستوية تبت كذلك. [٣] أثار على
 الدوارة وإغارة ومغاراً. [٤] الطود: الجبل، وباذخ: عال. [٥] مار: ماج واضطرب.
 [٦] أليلوا وألأوا: دخلوا في الليل. [٧] الغنيمة والهبة. [٨] الهزيمة.

هذا الجواب؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال : هكذا تكون والله الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيث وجهك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وحمله على فرس ، وأوفده على عبد الملك بن مروان ، فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

(الكامل المبرد ٢ : ٢٣٢ ، والأغانى ١٣ : ٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٩٣)

٣٨١ — سليك بن سلكة والحجاج

دخل على الحجاج سليك بن سلكة^(١) ، فقال :

« أصلح الله الأمير ! أعزني سمعك ، واغضض عني بصرك ، واكفف عني حزبك ، فإن سمعت خطأ أو زللاً فدونك والعقوبة ، فقال : قل ، فقال : عصى عاص من عرض العشيرة ، فحلق على اسمي ، وهدمت دارى ، وحرمت عطائى ، قال . هيهات ، أما سمعت قول الشاعر :

جانيك من يجني عليك وربما
ورب ماخوذ بذنبي عشيره
تعدى الصحاح مبارك الجرب^(٢)
ومجا المقاريف صاحب الذنب

قال أصلح الله الأمير ، سمعت الله قال غير هذا ، قال : وما ذاك ؟ قال : قال : « يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا ، فنخذ أحدا منا مكانه ، إنا نراك من المحسنين ، قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذن أظالمون » .

[١] هو غير سليك بن سلكة الذى صرب به المثل في العدو ، فقيل : « أعدى من السليك » ، فإن سليكا العداء جاهلي ، (وهو سايك بن عمرو التيمي ، والسلكة أمه ، وهي أمة سوداء ، وكان أحد صعاليك العرب ولصوصهم العدائين الذين لا يلحقون ، ولا تتعلق بهم الخيل إذا عدوا ، وهم : السليك بن السلكة ، والشنفرى ، وتأبط شرأ ، وعمرو بن براق ، ونفيل بن براق) ، قال صاحب القاموس في مادة غرب : « وأغربة العرب سودانهم ، والأغربة في الجاهلية : عنقرة ، وخفاف بن ندبة ، وأبو عمير ابن الجباب ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبي معيط ، إلا أنه مخضرم قد ولي في الإسلام ... الخ » ، وقال ابن نباتة في سرح العيون « وهو جاهلي قديم » — انظر ترجمته في سرح اليون ص ٨٠ والأغانى ١٨ : ١٢٣ .

[٢] في الأصل « جانيك من يجني عليك وقد » على أن العروض حذاء كالضرب وهو صحيح ، ولكني رأيت العروض في البيت الذى يليه تامة ، فوضعت « وربما » بدل « وقد » للمشاكلة بين العروضين .

قال الحجاج : عليّ يزيد بن أبي مسلم^(١) ، فأُتِيَ به فقتل بين يديه ، فقال :
افكك لهذا عن اسمه ، واصكك^(٢) له بغطائه ، وابن له منزله ، ومر مناديا
ينادي في الناس ، صدق الله ، وكذب الشاعر . (العقد الفريد ٣ : ٦)

٣٨٢ - جامع المحاربي والحجاج

شكا الحجاج سوء طاعة أهل العراق ، وتنقّم مذهبهم ، وتسخط طريقتهم ،
فقال له جامع المحاربي - وكان شيخاً صالحاً خطيباً لسيناً - : « أما إنهم لو أحبوك
لأطاعوك ، على أنهم ما شئتوك لنسبك ، ولا لبلدك ، ولا لذات نفسك ، فدع
ما يبعدهم منك ، إلى ما يقربهم إليك ، والتيس العافية ممن دونك ، تُعْطَاهَا ممن فوقك ،
وليكن إيقاعك بعد وعيدك ، ووعيدك بعد وعدك . قال الحجاج : « إني والله
ما أرى أن أردّ بنى اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف » ، فقال : « أيها الأمير ، إن
السيف إذا لاقى السيّف ذهب الخيَار » ، فقال الحجاج : « الخيَارُ يومئذ لله » ،
قال : « أجل ، ولكن لا تدري لمن يجعله الله » ، فغضب الحجاج وقال :
« يا هَنَاءُ^(٣) إنك من محارب » ، فقال جامع :

وللحَرْبِ سُمِينَا ، وَكَانَ مُحَارِبًا إِذَا مَا الْقَنَا أَمْسَى مِنَ الطَّمَنِ أَحْمَرَا
فقال الحجاج : « والله لَهَمَمْتُ أَنْ أَخْلَعَ لِسَانَكَ ، فَأَضْرِبَ بِهِ وَجْهَكَ » ، فقال
جامع : « إِنْ صَدَقْنَاكَ أَغْضَبْنَاكَ ، وَإِنْ غَشَشْنَاكَ أَغْضَبْنَا اللَّهَ ، فَغَضَبُ الْأَمِيرِ
أَهْوَنُ عَلَيْنَا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ » قال : أجل ، وَسَكُنْ ، وَشَغِلِ الْحِجَّاجَ بِبَعْضِ الْأَمْرِ ،

[١] كتاب الحجاج . [٢] صكك له كقتل : كتب له صكا ، وهو الكتاب الذي يكتب في
المعاملات : (الشيك) . [٣] هن : كلمة يكي بها عن اسم الإنسان ، فإذا ناديت مذكراً بغير التصريح
باسمه قلت : ياهن أقبل ، وقد تزايد الألف والهاء في آخره في النداء خاصة ، فيقال ياهناه أقبل ، أي
مافلان ، وهذه الهاء تصير تاء في الوصل ، وتضم على تقدير أنها آخر الاسم وتكسر لاجتماع الساكنين .

فانسِلْ جامع ، فرَّ بين صفوف خيل الشام ، حتى جاوز إلى خيل أهل العراق - وكان الحجاج لا يَخْلِطُهُمْ - فأبصر كَبْكَبَةً^(١) فيها جماعةٌ من بكر العراق ، وتيمم العراق ، وأزد العراق ، وقيس العراق ، فلما رأوه أُشْرَأُثُوا إليه ، وبلغهم خروجه ، فقالوا له : ما عندك ؟ دافع الله لنا عن نفسك ، فقال : وَيُحْكِم ! عُثُوهُ بالخلع كما يَمْتَكِم بالعداوة ، وَدَعُوا التعادى ما عاداكم ، فإذا ظفرتم به تراجعتم وتماقبتهم ، أيها التميميَّ : هو أعدى لك من الأزدى ، وأيها القيسيَّ : هو أعدى لك من التغلبيَّ ، وهل ظفرت بمن ناوأه منكم إلا بمن بقي معه منكم ؟ » وهرب جامع من قوره ذلك إلى الشام ، فاستجار بزُفَر بن الحارث .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥١ - ١ : ١٥٢ ،
وعيون الأخبار م ٢ ص : ٢١٢ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٣٠)

٣٨٣ - ليلي الأخيلية والحجاج

عَنْ مَوْلَى لَعْنَبَسَةَ بن سعيد بن العاصي قال :

كنت أدخل مع عَنبَسَةَ بن سعيد بن العاصي إذا دخل على الحجاج ، فدخل يوماً ، فدخلت إليهما ، وليس عند الحجاج أحد إلا عنبسة ، فأقعدني ، فجاء الحجاج بِطَبَقٍ فيه رُطَب ، فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءني به ، ثم جىء بطبق آخر ، حتى كثرت الأطباق ، وجعل لا يأتون بشيء إلا جاءني منه بشيء ، حتى ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهما ، ثم جاء الحاجبُ فقال : امرأة بالباب ، فقال له الحجاج : أدخلها ، فدخلت ، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه ، حتى ظننت أن ذقته قد أصاب الأرض ، فجاءت حتى قعدت بين يديه ، فنظرتُ فإذا امرأةٌ قد أسنت ، حَسَنَةَ الخَلْق ، ومعها جاريتان لها ، وإذا هي لَيْلَى الأخيلية ، فسألها

[١] الككبكة : الجماعة .

الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له ، فقال لها : يا ليلى ، ما أتى بك ؟ فقالت :
 « إِيخلافُ النُّجُومِ ^(١) ، وِقْلَةُ الغُيُومِ ، وكَلَبُ ^(٢) البَرْدِ ، وشِدَّةُ الجَهْدِ ، وكنت
 لنا بعد الله الرَّفْدُ ^(٣) » ، فقال لها : صِفي لنا الفِجَاجَ ^(٤) ، فقالت : « الفِجَاجُ
 مُنْبَرَةٌ ، والأرضُ مُقَشَعِرَةٌ ، وَالْمَبْرُكُ ^(٥) مُعْتَلٌّ ، وذو العِيَالِ مُخْتَلٌّ ^(٦) ، والمهَالِكُ
 للْقُلِّ ^(٧) ، والناسُ مُسْنِتُونَ ^(٨) ، رَحْمَةُ اللهِ يَرْجُونَ ، أصابتنا سِنُونُ مُجْحِفَةٌ ^(٩)
 مُبْلِطَةٌ ، لم تَدَعِ لنا هَبْعًا ^(١٠) ولا رُبْعًا ، ولا عَافِطَةً ولا نَافِطَةً ^(١١) ، أَذْهَبَتْ
 الأموالُ ، ومزقت الرجالُ ، وأهلكت العِيَالِ » ، ثم قالت : إني قلت في الأمير
 قولاً ، قال : ها تِى ، فأنشأت تقول :

أَحْجَاجٌ لَا يُفْلَلُ سِلاخُكُ ، إِنها أَلْمَنايا بِكَفِّ اللهِ حَيْثُ تَرَّاهَا ^(١٢)
 أَحْجَاجٌ لَا تُعْطَى العُصاةُ مُناهُمُ ولا اللهُ يُعْطَى للعُصاةِ مُناها
 إِذا هَبَطَ الحِجَاجُ أرضاً مَرِيضَةً تَتَّبِعُ أَقْصى دَأِها فَشَفاها
 شفاها من الداءِ العُضالِ الذي بها غلامٌ إِذا هَزَّ القِناةَ سقاها
 سقاها فَرَوَّاهَا بِشُرْبِ سِجَالِهِ دماءُ رِجالٍ حَيْثُ مالَ حَساها ^(١٣)

[١] أى أخلفت الجيوم التى يكون بها المطر ، فلم تأت بمطر . [٢] كلب البرد : شدته ، وأصل الكلب : السعار (بالضم) الذى يهيب الكلاب والذئباب . [٣] الرفد (بالفتح) : المعونة ، مصدر رفده كضربه : أعانه وأعطاه ، وبالكسر : العطاء والملة . [٤] الفجاج جمع وجع : بالفتح ، وهو الطريق الواسع بين جبلين . [٥] أرادت به الإبل الباركة فيه . [٦] محتل : محتاج من الحلة بالفتح وهى الحاجة . [٧] للقل : أى هالك من أجل القلة . [٨] أى مقحطون ، والسنة القحط . [٩] مجحفة : قاشرة ، ومبليطة : ملزقة بالبلاط ، والبلاط : الأرض المساء ، والحجارة التى تفرش فى الدار ، وأبلىط الرجل فهو مبلىط : إذا لُزق بالأرض . [١٠] الهبع : الفصيل ينتج فى الصيف (فى آخر النتاج) والريع : الفصيل ينتج فى الربيع (وهو أول النتاج) . [١١] العافطة : الضائنة (النعجة) ، من العطف ، وهو الضرب ، عطف كضرب : ضربت ، وهى عافطة ، والعطف أيضاً : شير الضأن ، تنثر بأنوفها كما ينثر الحمار ، والنافطة العنز ، من النطف ، نطفت الذئب كضرب نثرت بأنفها ، أو عطست ، وهى نافطة ، أو لانها تنطف ببولها أى تدفمه دفماً ، أو النافطة لإتباع للعافطة ، أو العافطة الامة الراعية ، والنافطة الشاة . [١٢] السلاح مذكر ويؤنث كما فى هذا البيت . [١٣] السجال جمع سجيل كشمس وهو الدلو العظيم .

إِذَا سَمِعَ الْحِجَابُ رِزًّا كَتِيبَةً ۖ أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النُّزُولِ قِرَاهَا (١)
 أَعَدَّ لَهَا مَسْمُومَةً فَارِسِيَّةً ۖ بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلُبُونَ صَرَاحًا (٢)
 فَمَا وَوَلَدَ الْأَبْكَارُ وَالْعُونَُ مِثْلَهُ ۖ يَبْحَرُ وَلَا أَرْضٍ يَجِفُّ ثَرَاهَا (٣)

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قَاتَلَهَا اللَّهُ ! والله ما أصاب صِفَتِي شاعرٌ منذ دخلتُ العراقَ غيرها ، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد ، فقال : والله إني لأَعِدُّ للأمر عسى أن لا يكون أبداً ، ثم التفت إليها فقال : حَسْبُكَ ! قالت : إني قد قلتُ أكثر من هذا ، قال : حسبك ، وَيَحْمَكُ ! حسبك ، ثم قال يا غلام ، اذهب إلى فلان فقل له : اقطع لسانها ، فذهب بها ، فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، فأمر بإحضار الحجاج ، فالتفت إليه ، فقالت : تَكَلِّتُكَ أُمَّكَ ! أما سمعتَ ما قال ؟ إنما أمرُك أن تقطع لسانى بالصلة ، فبعث إليه يستثبته ، فاستشاط الحجاج غضباً ، وهمّ بقطع لسانه ، وقال : ارزُدْها ، فلما دخلت عليه ، قالت : كَادَ وَأَمَانَةَ اللَّهِ يَقْطَعُ مِقْوَلِي ! ثم أنشأت تقول :

حَجَّاجُ أَنْتَ الَّذِي مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ ۖ إِلَّا الْخَلِيفَةُ وَالْمَسْتَغْفَرُ الصَّمَدُ (٤)
 حَجَّاجُ أَنْتَ شِهَابُ الْحَرْبِ إِنْ لَقِحتُ ۖ وَأَنْتَ لِلنَّاسِ نُورٌ فِي الدُّجَى يَقْدُ (٥)
 ثم أقبل الحجاج على جلسائه ، فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ، إلا أنا لم نَرَ قَطُّ أَفْصَحَ لِسَانًا ، ولا أَحْسَنَ مَحَاوِرَةً ، ولا أَمْلَحَ وَجْهًا ، ولا أَرْضَنَ شعراً منها ، فقال : هذه ليلي الأَخيلية ، التي ماتت تُوْبَةً الخَفَاجِيَّ من حُبِّهَا ، ثم

[١] الرز: الصوت تسمعه من بعيد. [٢] الصرى : بقية اللبن. [٣] العون جمع حوان كسحاب، وهي التي كان لها زوج. [٤] الصمد : الذي يصمد أى يقصد فى قضاء الحاجج .
 [٥] لفعت : أصله من لفعت الناقة أى قبلت اللقاح ، والشهاب : شعلة من نار ساطعة ، ويقد يتوقد

التفت إليها فقال : أنشدينا يا ليلي بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أيها الأمير هو الذي يقول :

وهل تبكين ليلى إذا متُّ قبلها
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها
وأغبط من ليلى بما لا أناله
ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
لسأمت تسليم البشاشة أوزقا
إليها صدى من جانب القبر صائح^(١)
وقام على قبرى النساء النوايح ؟
وجاد لها دمع من العين سافح^(٢)
بلى ، كل ما قررت به العين طامح^(٣)
على ، ودوني جندل وصفاح^(٤)
إليها صدى من جانب القبر صائح^(٥)

فقال : زيدنا من شعره يا ليلي ، قالت : هو الذي يقول :

حمامة بطن الواديين ترنمي
أيدي لنا ، لا زال ريشك ناعما
وكنت إذا ما زرت ليلى تبرعت
وقد رابني منها صدود رأيت
وأشرف بالقور اليفاع اعلني
يقول رجال : لا يضيرك نأيها
بلى ، قد يضير العين أن تكثر البكا
وقد زعمت ليلى بانى فاجر
سقاك من العر الغوادي مطيرها^(٦)
ولا زلت في خضراء غص نضيرها
فقد رابني منها الغداة سفورها
وإعراضها عن حاجتي وبسورها^(٧)
أرى نار ليلى أويراني بصيرها^(٨)
بلى ، كل ما شفت النفوس يضيرها
ويمنع منها نوحها وسرورها
لنفسى ثقاها ، أو عليها فجورها

[١] سافح : منصب . [٢] الجندل : الحجارة ، والصفائح : حجارة القبر العراس .
[٣] زقا : صاح ، والصدى - وهوالهامة - طائر يخرج من رأس المقتول ، تزعم الاعراب أن روح القتيل تخرج ، فتصير هامة إذا لم يدرك بثأره ، فيصيح على قبره : اسقوني اسقوني حتى يثأر به ، وهذا مثل يراد به تحريض ولى القتيل على طلب دمه ، فجمله جهالة الأعراب حقيقة . [٤] الغوادي جمع غاوية : وهي السحابة تنشأ غدوة . [٥] بسر كدخل : عبس وكالج . [٦] القور جمع قارة : وهي الجبل الصغير المنقطع عن الجبال ، واليفاع : الل .

فقال الحجاج : يا ليلى ، ما الذى رآه من سُفورك ؟ فقالت : أياها الأمير ، كان
مِئِمَّ بنى كثيراً ، فأرسل إلى يوماً : إني آتيتك ، وفَطِن الحى ، فأرصدوا له ، فلما
أتانى سَفَرْتُ عن وجهى ، فعلم أن ذلك لِشَرِّ ، فلم يزد على التسليم والرجوع ،
فقال : لله درك ! فهل رأيت منه شيئاً تكرهينه ؟ فقالت : لا والله الذى أسأله
أن يُصَلِّحك ، إنه قال مرة قولاً ظننت أنه قد خضع لبعض الأمر ، فأنشأت أقول :

وذى حاجةٍ قلنا له لا تَبْحُ بها فليس إليها ما حَيَّيتَ سبيلُ
أنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونَه وأنت لِأخرى صاحبٌ وخليطُ

فلا والله الذى أسأله أن يصلحك ، ما رأيت منه شيئاً ، حتى فرَّق الموت بيني
وبينه ، قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن خرج فى غَزَاة له ، فأوصى ابن عم له ،
إذا أتيتَ الحاضرَ من بنى عُبادةٍ فنادِ بأعلى صوتك :

عفا الله عنها ، هل أبيتنَّ ليلَةً من الدهر لا يسرى إلى خيالها ؟

وأنا أقول :

وعنه عفا ربِّي وأحسنَ حاله فعزَّت علينا حاجةٌ لا ينالها

قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن مات ، فأتانا نعيه ، فقال : أنشدنا بعض
مراثيك فيه ، فأنشدت :

لِتَبِّكَ العَذَارَى من خَفَاةِ نِسْوَةٍ بماءِ شُثُونِ العَبْرَةِ المتحدِّرِ^(١)

قال لها : فأنشدنا ، فأنشدته :

[١] الشثون جمع شأن : وهو مجرى الدمع إلى العين ، وكتب مصحح الأمالى قال : « قوله المتحدِّر ،
كذا فى النسخ ، وكتب بهامش بعضها امله المتحادر بالألف قبل الدال ، لتستقيم القافية ، وفى هامش بعض
النسخ بعد البيت الآتى :

فنى لا تخطاه الرفاق ، ولا يرى لقدر عيالا دون جار مجاور » اه

كَأَنَّ فِي الْفِتْيَانِ تَوْبَةً لَمْ يُنْبِخْ قَلَائِصَ يَفْحَصْنَ الْحَصَى بِالْكَرَّاكِيرِ^(١)
فلما فرغت من القصيدة ، قال مُحْصِنُ الْفَقْعَمِيِّ : - وكان من جلساء الحجاج -
مَنْ الَّذِي تَقُولُ هَذِهِ هَذَا فِيهِ ؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لِأُظَنُّهَا كَاذِبَةٌ ، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَتْ :
أَيُّهَا الْأَمِيرُ إِنَّ هَذَا الْقَائِلَ لَوْ رَأَى تَوْبَةَ لِسِرِّهِ أَنْ لَا تَكُونَ فِي دَارِهِ عَذْرَاءَ إِلَّا هِيَ
حَامِلٌ مِنْهُ ، فَقَالَ الْحَجَّاجُ : هَذَا وَأَيُّكَ الْجَوَابُ ، وَقَدْ كُنْتَ عَنْهُ غَنِيًّا ، ثُمَّ قَالَ
لَهَا : سَلِي يَا لَيْلَى تُعْطَى ، قَالَتْ : أَعْطِي ، فَمَثَلِكِ أَعْطَى فَأَحْسَنَ ، قَالَ : لَكَ
عَشْرُونَ ، قَالَتْ : زِدْ فَمَثَلِكِ زَادَ فَأَجْمَلَ ، قَالَ : لَكَ أَرْبَعُونَ ، قَالَتْ : زِدْ ، فَمَثَلِكِ
زَادَ فَأَكْمَلَ ، قَالَ : لَكَ ثَمَانُونَ ، قَالَتْ : زِدْ ، فَمَثَلِكِ زَادَ فَتَمَّمَ ، قَالَ : لَكَ مِائَةٌ ،
وَاعْلَمِي أَنَّهَا غَنِمَتْ ، قَالَتْ : مَعَاذَ اللَّهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، أَنْتَ أَجْوَدُ جُودًا ، وَأَعْجَدُ مَجْدًا ،
وَأَرْوَى زَنْدًا ، مَنْ أَنْ تَجْعَلَهَا غَنَمًا ، قَالَ : فَمَا هِيَ ؟ وَيَحْكُ يَا لَيْلَى ؟ قَالَتْ : مِائَةٌ
مِنَ الْإِبِلِ بَرَحَاتِهَا ، فَأَمَرَ لَهَا بِهَا ، ثُمَّ قَالَ : أَلَاكِ حَاجَةٌ بَعْدَهَا ؟ قَالَتْ : تَدْفَعُ إِلَيَّ
النَّابِغَةَ الْجَعْدَى ، قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ ، وَقَدْ كَانَتْ تَهْجُوهُ وَيَهْجُوهَا ، فَبَلَغَ النَّابِغَةَ
ذَلِكَ ، فَخَرَجَ هَارِبًا عَائِدًا بَعْدَ الْمَلِكِ ، فَاتَّبَعَتْهُ إِلَى الشَّامِ ، فَهَرَبَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ
بِخُرَاسَانَ ، فَاتَّبَعَتْهُ عَلَى الْبَرِيدِ بَكْتَابِ الْحَجَّاجِ إِلَى قُتَيْبَةَ ، فَمَاتَتْ بِقَوْمَسَ^(٢) ،
وَيُقَالُ بِحُلُوانٍ .

(الأملی ١ : ٨٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٦٥)

٣٨٤ - الغضبان بن القبعثري والحجاج

ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك ، يأمره أن يبعث إليه بثلاثين جارية ،
عشرًا من النجائب ، وعشرًا من قعد النكاح ، وعشرًا من ذوات الأحلام ، فلما

[١] الفلائس جمع قلوب كصبور ، وهي الناقة الشابة ، أو الباقية على السير ، يفحص : يقابن ، من
فحص المطر التراب قلبه ، وفحص انقضا التراب : اتخذ فيه أخوصا وهو مجشمه ، والكرراكر جمع كركرة
بالكسر : وهي زور البير . [٢] قومس : صنع كبير بين خراسان وبلاد الجبل .

نظر إلى الكتاب لم يدري ما وصفه من الجوارى ، فعرضه على أصحابه فلم يعرفوه ، فقال له بعضهم : أصلح الله الأمير ، ينبغي أن يعرف هذا من كان في أوليته بدويًا ، فله معرفة أهل البدو ، ثم غزا فله معرفة أهل الغزو ، ثم شرب الشراب ، فله بداء أهل الشراب ، قال : وأين هذا ؟ قيل : في حبسك ، قال : ومن هو ؟ قيل الغضبان الشيباني ، فأحضر فلما مثل بين يديه ، قال : أنت القائل لأهل الكوفة يتغدّون بي قبل أن أتعشى بهم^(١) ؟ قال : أصلح الله الأمير ، ما نفعتم من قالها ، ولا ضرت من فلت فيه ، قال : إن أمير المؤمنين كتب إلى كتاباً لم أدر ما فيه ، فهل عندك شيء منه ؟ قال : يُقرأ على ، فقرأ عليه ، فقال : هذا بين ، قال : وما هو ؟ قال : « أمّا النّجّية من النساء : فالتى عظمت هامتها ، وطال عنقها ، وبعد ما بين منكبّيها وئديها ، واتسعت راحتها ، وتحنّنت ركبها ، فهذه إذا جاءت بالولد جاءت به كالليث ؛ وأما قعد النكاح ، فهن ذوات الأعجاز ، منكسرات الثدي ، كثيرات اللحم يقرب بعضهن من بعض ، فأولئك يشفين القرم ، ويروين الظمان ؛ وأما ذوات الأحلام ، فبنات خمس وثلاثين إلى الأربعين^(٢) .

قال الحجاج : أخبرني بشر النساء ، قال : أصلح الله الأمير : شرهن الصغيرة الثقب^(٤) ، الحديدة الركب^(٥) ، السريعة الوثبة ، الواسطة^(٥) في نساء الحى ، التى إذا غضبت غضب لها مائة ، وإذا سميت كلمة قالت لا والله لا أنتهى حتى أقرها

[١] انظر خطبته في ص ٣٢٠ . [٢] القرم محرّكة : شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل في الشرق إلى الحبيب . [٣] هنا سطر أسقطناه ، ولينظره في الأصل من شاء . [٤] الوجه . [٥] وسطهم (كوعد) : جلس وسطهم ، كتوسطهم .

قَرَارَهَا ، التي في بطنها جارية ، ويتبعها جارية ، وفي حجرها جارية ، قال الحجاج :
 على هذه لعنة الله ، ثم قال : وَيَحْك ، فأخبرني بخير النساء ، قال : خيرهن القريبةُ
 القائمة من السماء ، الكثيرة الأخدم من الأرض ، الودود الولود ، التي في بطنها غلام ،
 وفي حجرها غلام ، ويتبعها غلام ، قال : ويحك فأخبرني بشر الرجال ، قال : شرم
 السنوط ^(١) الربوط ، المحمود في حرم الحى ، الذى إذا سقط لإحداهن دلو في
 بئر ، انحط عليه حتى يُخرجه ، فهن يجزيه الخير ، ويقلن عاقى الله فلاناً ، قال :
 على هذا لعنة الله ، فأخبرني بخير الرجال ؟ قال : خيرهم الذى يقول فيه الشماخ التغلبى :
 فتى ليس بالراضى بأذنى معيشة ولا فى بيوت الحى بالمتواج ^(٢)
 فتى يملأ الشيزى ويروى سنانه ويضرب فى رأس الكعبي المدجج ^(٣)
 فقال له : حسبك ، كم حبسنا عطاءك ؟ قال : ثلاث سنين ، فأمر له بها
 وخلق سبيله . (مروج الذهب ٢ : ١٤٧)

٣٨٥ — ابن القرية يعدد مساوى المزاح

وقال الحجاج بن يوسف لابن القرية : ما زالت الحكماء تكره المزاح وتنهى
 عنه ، فقال : « المزاح من أدنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب : المزاح أوله
 فرح وآخره ترح ، المزاح نقائص السفهاء كالشعر نقائص الشعراء ، والمزاح
 يؤغر صدر الصديق ، وينقر الرفيق ، والمزاح يُبدي السرائر ، لأنه يُظهر المعابر ،
 والمزاح يُسقط الأروءة ، ويُبدي الخنا ، لم يجر المزاح خيراً وكثيراً ماجراً شراً ،

[١] السنوط : الذى لاشعرى وجهه ألبنة « الكوسح » كجفر ، وفى الأصل « السبوط » بالياء ،
 ولم أجده فى كتب اللغة ، وإنما الذى فيها من هذه المادة : « أسبط بالأرض : لصق » فالوصف منه
 « مسبط » ومعناه على هذا : الكسل المتقاعد عن السعى ، والربوط ، يريد به الملازم لبيته الذى لا يخرج
 منه للتصرف والعمل كأنه قد ربط نفسه فيه . [٢] الداخل .
 [٣] الشيزى : خشب أسود تتخذ منه الفصاع ، يكى عن كرمه ، والمدجج : الشاك فى السلاح .

الغالبُ بالمزاح وإثره ، والمغلوب به ثأر ، والمزاح يجلبُ الشتمَ صغيره ، والحربَ كبيره ، وليس بعد الحرب إلا عفوه بعد قدرة ، فقال الحجاج : « حسبك ، الموت خير من عفوه معه قدرة » . (زهر الآداب ٢ : ٨٥)

٣٨٦ - يزيد بن أبي مسلم وسليمان بن عبد الملك

لَمَّا وَلى سليمان بن عبد الملك ، أتى يزيد بن أبي مسلم : مؤلى الحجاج ، فى جامعته^(١) ، وكان رجلاً دميماً تقطع حِممه^(٢) العين ، فلما رآه سليمان قال : لعن الله امرأً أجرك رَسَنك^(٣) ، وَوَلَّى مثلك ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنك رأيتنى والأمر عنى مُدبر ، ولو رأيتنى والأمر على مُقبِل ، لاستعظمت من أمرى ما استصغرت ، ولا استجللت ما استحققت » ، فقال له سليمان : « أين ترى الحجاج ، أيهوى فى النار ، أم قد استقر فى قعرها ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين . لا تقل هذا ، إن الحجاج قمع لكم الأعداء ، وَوَطَأَ لكم المنابر ، وزرع لكم الهيبة فى قلوب الناس ، وبعده فإنه يأتى يوم القيامة عن عيين أيبك . وشمال أخيك الوليد ، فضعه من النار حيث شئت » ، فصاح سليمان : اخرج إلى لعنة الله ، ثم التفت إلى جلسائه ، فقال :

[١] الجامعة : القيد . [٢] تردده . [٣] الرسن : الجبل ، وأجره رسنه : تركه يصنع ماشاء ، يعنى الحجاج ، وكان سليمان يكتب إلى الحجاج وأيام أخيه الوليد بن عبد الملك كتباً فلا ينظر له فيها ، حقد عليه ، وكتب إليه كتاباً شديد اللهجة ، وفيه يقول « وايم الله لئن أ مكى الله منك لأدوسنك دوسة تلين منها فرائسك ، ولأحعلنسك شريدا فى الجبال ، تلوذ بأطراف الشمال » ويقول : « فرويدك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كانت بى وبك مسدة أعلق بها » فرد عليه الحجاج بكتاب يقول فيه : « ولعمرى إنك لصى حديث السن تعذر بقلة عقلك ، وحدثنا سنك ، ويرقب فيك غيرك » ويقول : « جمعت أموراً دلاك فيها الشيطان على أسوأ أمرك ، فكان الجفاء من خليقتك ، والحق من طبيعتك ، وأقبل الشيطان بك وأدبر . . . الخ » انظر العقد الفريد ج ٣ ص ١٦ ، وقد مات الحجاج قبل أن يتولى سليمان الخلافة بسنة .

قَبَّحَهُ اللهُ مَا كَانَ أَحْسَنَ تَرْتِيبَهُ لِنَفْسِهِ وَلصَاحِبِهِ ، وَلقد أَحْسَنَ المِكَافَأَةَ ،
أَطْلَقُوا سَبِيلَهُ . (أمالي السيد المرعشي ١ : ٢١٥ ، والعقد الفريد ١ : ١٥٠ ،

ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٠)

٣٨٧ - وفود العراق على سليمان بن عبد الملك

وقدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استخلف ، فأمرهم بشتم
الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : « إن عدو الله الحجاج كان عبدا زبّابا ^(١) ،

[١] بائع زبيب ، قيل إنه كان يبيع الزبيب بالطائف ، وذكروا أنه كان أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه
بالطائف - ويسمى كليباً - وفيه يقول الشاعر .

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر ؟
رغيف له فلك دائر وآخر كالقمر الأزهر

« يشير إلى خبز المعلمين ، فإنه مختلف في الصفر والكبر على قدر بيوت الصبيان » ويقول آخر :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبيد إبياد
زمان هو العبد القمير بدله يروح صبيان القرى ويفادي

« راحهم وروّحهم : ذهب إليهم رواحاً » ، ثم صار دباظاً كما يدل على ذلك هجاء كعب الأشقرى له ،
وذلك أن المهلب بن أبي صفرة لما أطال قتال الأزارقة ، كتب إليه الحجاج يستبطفه ويضعفه ويحجّره في
تأخير مناجرتهم ، فقال المهلب لرسوله : « قل له : إن السامد يرى ما لا يرى العائب ، فإن كنت نصبتني
لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى ، فإن أمكنتني الفرصة انتهزتها ، وإن لم تمكني فأنا أدبر ذلك
بما يصلحه ، وإن أردت مني أن أعمل برأيك وأنت غائب ، فإن كان صواباً فلك ، وإن كان خطأ فعلى ،
فابعت من رأيت مكاني » وقام كعب الأشقرى إلى المهلب ، فأشده بحضرة رسول الحجاج أبياتا منها :

إن ابن يوسف عرّاه من غزوكم خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ضاقت عليه رحبية الأقطار
ورأى معاودة الدباغ غنيمة أزمان كان محالف الإقتار

فبدت أبياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإيشخاص كعب الأشقرى إليه ، فأعلم المهلب كعباً بذلك ،
وأوفده إلى عبد الملك من ليلته ، وكتب إليه يستوهبه منه فقدم كعب على عبد الملك واستنشدته ، فأعجبه
مأسمع منه ، فأوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقسم عليه أن يعفو عنه ، فلما دخل عليه قال : إيه يا كعب ،
« ورأى معاودة الدباغ غنيمة » ، فقال له : أيها الأمير ، والله لقد وددت في بعض ما شاهدته في تلك
الحروب وأزماتها ، وما يوردناه المهلب من خطرهما ، أن أنجو منها ، وأكون حجّاماً ، أو حائكاً ، فقال
له الحجاج : أولى لك ، لولا قسم أمير المؤمنين لما نفمك ما أسمع ، فالحق بصاحبك ، وبعض الرواة ينسك
هذا القول ، ويقول : هذه من أكاذيب الشعراء ، - انظر الأغاني ج ١٣ ص ٥٧ ، وسرح العيون
ص ١١٢ ، والعقد الفريد ٣ : ٦ - .

قَنُورِ بْنِ قَنُورٍ^(١) ، لا نَسَبَ لَهُ فِي الْعَرَبِ » قَالَ سَلِيمَانُ : أَيَّ شَتْمٍ هَذَا !
 إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الْحِجَابُ كَتَبَ إِلَيَّ : « إِنَّمَا أَنْتِ نَقْطَةٌ مِنْ مِدَادٍ ، فَإِنْ رَأَيْتِ
 فِيَّ مَا رَأَى أَبُوكَ وَأَخُوكَ كُنْتَ لَكَ كَمَا كُنْتَ لهُمَا ، وَإِلَّا فَأَنَا الْحِجَابُ وَأَنْتِ
 النَّقْطَةُ ، فَإِنْ شِئْتَ مَحَوْتِكِ ، وَإِنْ شِئْتَ أَثْبَتُكِ » فَالْعَنُوهُ لَعْنَةُ اللَّهِ ، فَأَقْبَلِ
 النَّاسَ يَلْعَنُونَهُ ، فَقَامَ ابْنُ أَبِي بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا نَحْبِرُكَ عَنْ عَدُوِّ اللَّهِ بِعِلْمٍ » قَالَ : هَاتِي ، قَالَ : « كَانَ عَدُوَّ اللَّهِ
 يَتَزَيَّنُ تَزْيِينَ الْمُؤْمِسَةِ^(٢) ، وَيَصْعَدُ الْمُنْبِرَ فَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْأَخْيَارِ ، فَإِذَا نَزَلَ عَمِلَ
 عَمَلِ الْفِرَاعِنَةِ ، وَأَكْذَبُ فِي حَدِيثِهِ مِنَ الدَّجَالِ » ، فَقَالَ سَلِيمَانُ لِرَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ :
 « هَذَا وَأَبْيُكَ الشَّتْمُ ، لَا مَا تَأْتِي بِهِ السَّفِيلَةُ^(٣) » . (البيان والتبيين ١ : ٢١١)

٣٨٨ — كَلَامُ أَبِي حَازِمٍ لِسَلِيمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ

حَجَّ سَلِيمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ لِلزِّيَارَةِ بَعَثَ إِلَى أَبِي حَازِمٍ
 الْأَعْرَجِ ، وَعِنْدَهُ ابْنُ شِهَابٍ ، فَلَمَّا دَخَلَ قَالَ : تَكَلَّمْ يَا أَبَا حَازِمٍ . قَالَ : فِيمَ
 أَتَكَلَّمُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : فِي الْمَخْرَجِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ . قَالَ : يَسِيرُ إِنْ أَنْتِ
 فَعَلْتَهُ . قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : لَا تَأْخُذِ الْأَشْيَاءَ إِلَّا مِنْ حِلِّهَا ، وَلَا تَضَعُهَا إِلَّا فِي
 أَهْلِهَا . قَالَ : وَمَنْ يَقْوَى عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَ : مَنْ قَلَّدَهُ اللَّهُ مِنْ أَمْرِ الرِّعْيَةِ مَا قَلَّدَكَ ،
 قَالَ : عَظَنِي أَبُو حَازِمٍ . قَالَ : اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَمْ يَصِرْ إِلَيْكَ إِلَّا بِمَوْتِ مَنْ كَانَ
 قَبْلَكَ ، وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ يَدَيْكَ بِمِثْلِ مَا صَارَ إِلَيْكَ . قَالَ : يَا أَبَا حَازِمٍ أَشْرَعِي^(٤) ، قَالَ
 إِنَّمَا أَنْتِ سَوْقٌ ، فَمَا نَفَقَ^(٥) عِنْدَكَ مُجْمَلٌ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، فَاخْتَرِيهُمَا شِئْتَ .

[١] القنور : الشرس الصعب من كل شيء وكسئور : العبد . [٢] امرأة مومس ومومسة :
 فاجرة ، أو مجاهرة بالفجور « من المومس كوعد : وهو احتكاك الشيء بالشيء حتى ينجرد ، وأومست :
 أمكنت من المومس » . [٣] سفلة الناس كسفلة وفرحة : أسافلهم وغواظهم . [٤] راج .

قال : مالك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيتني فتننتني ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي ما أخافك عليه . قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطاني منها قبِلتُ ، وما منعتني منها رضيتُ .

(العقد الفريد ١ : ٣٠٦ ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٢)

٣٨٩ - أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضاً

ودخل عليه أبو حازم الأعرج ، فقال يا أبا حازم : ما لنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم عمّرتُم دنياكم ، وأخرتُم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النُّقْلة من العُمُرَان إلى الخراب ، قال : فأخبرني ، كيف القدوم على الله ؟ قال : أما المُحْسِن فكالغائب يأتي أهله مسروراً ، وأما المسيء فكالعبد الآبق ^(١) يأتي مولاه محزوناً ، قال : فأى الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ، قال : فأى القول أعدل ؟ قال : كلمة حق عند من تخاف وترجو ، قال : فأى الناس أعقل ؟ قال : من عمل بطاعة الله ، قال : فأى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخرتَه بدنيا غيره ، قال : عِظْني وأوجز ، قال : يا أمير المؤمنين ، نزه ربك ، وعظّمه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ، فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال له بعض جلسائه : أسرفتَ ومحك على أمير المؤمنين ، فقال له أبو حازم : أسكت فإن الله عز وجل أخذ الميثاق على العلماء ليبيدنه للناس ولا يكتُمونه ، ثم خرج فلما صار إلى منزله بعث إليه سليمان بجمال ، فردّه وقال للرسول : قل له : والله يا أمير المؤمنين ما أرضاه لك ، فكيف أرضاه لنفسى ؟ (مروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٤٧)

[١] الآبق : الخراب .

٣٩٠ - وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، قدم عليه وفود أهل كل بلد ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فأشرب منهم غلام للكلام ، فقال عمر : مهلاً يا غلام ، ليتكلم من هو أسنُّ منك ، فقال الغلام : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لا فِظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استجاد له الحليّة ، ولو كان التقدم بالسنّ لكان في هذه الأمة من هو أحقّ بمجلسك منك ، فقال عمر : صدقت ، تكلم ، فهذا السّحر الحلال ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التهئة لا وفد المرزئة (١) ، قدمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذي منّ بك علينا ، لم يُخرجنا إليك رغبةً ولا رهبةً ، لأننا قد أمنا في أيامك ما خفنا ، وأدركنا ما طلبنا ، فقال : عطفنا يا غلام وأوجز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناساً غرّم حِلْمُ الله عنهم ، وطولُ أملهم ، وحسنُ ثناء الناس عليهم ، فلا يفرّك حِلْمُ الله عنك ، وطولُ أملاك ، وحسنُ ثناء الناس عليك ، فتزِلْ قَدَمُكَ ، فنظر عمر في سن الغلام ، فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة (٢) ، فأنشأ عمر يقول :

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علمَ عنده صغيره إذا التفّت عليه المحافل

(مروج الذهب ٢ : ١٦٩ ، وزهر الآداب ١ : ٩)

٣٩١ - خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنته

وعزى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهنأه بالخلافة ، فقال :

[١] رزاه ماله كجمل وعلم : أصاب منه شيئاً ، ورزاه مرزئة : أصاب منه خيرا ، أى لساناً وافدين لاعباء . [٢] وفي زهر الآداب : « فسأل عمر عن سن الغلام فقيل عشر سنين » .

« الحمد لله الذى منَّ على الخلق بك ، والحمد لله الذى جعل موتكم رحمة .
وخلافكم عِصمة ، ومصائبكم أسوةً ، وجعلكم قدوة » . (زمر الآداب ٣ : ٣٤٧)

٣٩٢ - خطبة عبد الله بن الأهم

دخل عبد الله بن الأهم على عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - تعالى مع العامة ،
فلم يفجأ عمر إلا وهو ماثل بين يديه يتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد ، فإن الله خلق الخلق ، غنياً عن طاعتهم ، آمناً من معصيتهم ،
والناس يومئذ في المنازل والرأى مختلفون ، والعرب بشر تلك المنازل ، أهل الوبر
وأهل المدر ، تُحتاز دونهم طيبات الدنيا ورفاغة^(١) عيشتها ، مبيتهم في النار ،
وحيثهم أعمى ، مع ما لا يُحصى من المرغوب عنه ، والمزهود فيه ، فإما أراد الله أن
ينشر فيهم رحمته ، بعث إليهم رسولا منهم « عزيرٌ علميه ما عنتم حريصٌ
عليكم بالمومنين رءوفٌ رحيمٌ » ، فلم يمنعهم ذلك أن جرحوه في جسمه ،
ولقبوه في اسمه^(٢) ، ومعه كتاب من الله لا يرحل إلا بأمره ولا ينزل إلا بإذنه ،
واضطروه إلى بطن غار ، فلما أمر بالعزيمة أسفر لأمر الله لونه ، فأفلاج^(٣) الله
حجته ، وأعلى كلمته ، وأظهر دعوته ، ففارق الدنيا تقياً تقياً ، صلى الله تعالى عليه
وسلم ، ثم قام بعده أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فسلك سنته وأخذ مسيله ،
وارتدت العرب فلم يقبل منهم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا الذى
كان قابلاً منهم ، فانتضى السيوف من أعمادها ، وأوقد النيران من شعلها ، ثم
ركب بأهل الحق أهل الباطل ، فلم يبرح يفصل أوصالهم ، ويسقى الأرض
دماً هم ، حتى أدخلهم فى الذى خرجوا منه ، وقرّهم بالذى نفرّوا منه ، وقد كان

[١] الرفاغة والرفاغية : سمة العيش والخصب . [٢] فوصفوه بأنه ساحر ، وكذاب ، وكاهن ،

وشامر . [٣] نصر .

أصاب من مال الله بَكْرًا^(١) يرتوى عليه ، وحبشية تُرَضِّع ولدًا له ، فرأى ذلك غُصَّةً عند موته في حلقه ، فأدَّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وَبَرِيءٌ إِلَيْهِمْ مِنْهُ ، وفارق الدنيا نقيًا تقيًا ، على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنه ، ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فصَّرَّ الْأَمْصَارَ ، وخلط الشدة باللين ، فحسَّر عن ذراعيه ، وشمَّر عن ساقيه ، وأعدَّ للأمور أقرانها^(٢) ، وللحرب آلتها ، فلما أصابه قِنٌّ^(٣) المغيرة بن شعبة ، أمر ابن عباس يسأل الناس : هل يُدْبِتُونَ قَاتِلَهُ ؟ فاما قيل له قِنٌّ المغيرة ، استهل^(٤) بحمد الله أن لا يكون أصابه ذو حق في الفء ، فيستحلَّ دمه بما استحلَّ من حقه ، وقد كان أصاب من مال الله بضعا وثمانين ألفًا ، فكسر بها رباعه^(٥) ، وكره بها كفالة أهله وولده ، فأدَّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وفارق الدنيا نقيًا تقيًا على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنهما ، ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلْمٍ^(٦) ، ثم إنك يا عمر ابن الدنيا ، ولدتك ملوكها ، وألقتك ثديها ، فاما وليتها ألقيتها حيث ألقاها الله ، فالحمد لله الذى جلا بك حَوْبَتَهَا^(٧) ، وكشف بك كُرْبَتَهَا ، امضِ ولا تلتفت ، فإنه لا يَدِلُّ على الحقِّ شىء ، ولا يعزُّ على الباطل شىء ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين والمؤمنات ، ولما أن قال : « ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلْمٍ » سكت الناس كلهم إلا هشامًا فإنه قال : « كذبت » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٩ . والمعقد الفريد ٢ : ١٤٣ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٩ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٣٦) .

[١] الفتى من الإبل . [٢] أسبابها التى تقاد بها ، جمع قرن كسبب وهو الجبل يجمع به البعيران .
 [٣] القن : عبد ملك هو وأبوه ، أو الذى ولد عندك ولا تستطيع إخراجه عنك .
 [٤] صاح . [٥] الرباع جمع ربع كشمس وهو الدار . [٦] جمع ظالم : وهو المتهم والمائل ، وأصله من ظلم البعير كنع : غمزى مشيه . [٧] الموبة : الهمة والحاجة .

٣٩٣ - مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز

قام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز، فقال :
« إنما الدنيا سوقٌ من الأسواق ، فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم ،
وكم من قوم قد غرهم مثلُ الذي أصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم ،
فخرجوا من الدنيا مرملين ^(١) ، لم يأخذوا لما أحبوا من الآخرة عُدَّةً ، ولا لما
كرهوا جُنَّةً ، واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم ،
فانظر الذي تحب أن يكون معك إذا قدمت ، فقدمه بين يديك حتى تخرج
إليه ، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت ، فابتغ به البَدَل ، حيث
يجوز البَدَل ، ولا تذهبن إلى سِلعة قد بارت على غيرك ، ترجو جوازها عنك ،
يا أمير المؤمنين ، افتح الأبواب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، ورُدِّ الظالم .
(عيون الاحبار م ٢ ص ٣٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٣٤)

٣٩٤ - وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك

وفد أهل الحجاز من قريش على هشام بن عبد الملك بن مروان ، وفيهم محمد
ابن أبي الجهم ^(٢) بن حذيفة العدوي ، وكان أعظمهم قدرًا ، وأكبرهم سنًا ،
وأفضلهم رأيًا وحلمًا ، فقام متوكئًا على عصا ، فقال :

أصلح الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قريش قد قالت فيك فأطنبت ،
وأثنت عليك فأحسنت ، ووالله ما بلغ قائلهم قدرك ، ولا أحصى مُثنيهم
فضلك ، أفتأذن لي في الكلام ؟ قال : تكلم ، قال : أفاؤجز أم أطنب ؟ قال :
بل أوجز ، قال : « تولاك الله أمير المؤمنين بالحسنى ، وزينك بالتقوى ، وجمع لك

[١] أرمل : نقد زاده وافقر . [٢] في الأمل « اسمعيل بن أد ، الحمد » .

خير الآخرة والاولى ، إن لى حوائج أفأذكرها؟ قال : هاتها ، قال : كبرت سني ، وضعفت قواي ، واشتدت حاجتي ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسرى ، وَيَنْفِي فَقْرِي » ، قال : يا بن أبي الجهم ، وما الذى يجبر كسرك ، وينفي فقرك؟ قال : ألف دينار ، وألف دينار ، وألف دينار ، فأطرق هشام طويلاً ، ثم قال : هيهات يا بن أبي الجهم ، بيتُ المال لا يحتمل ما سألت ! فقال : أما إن الأمر لواحد ، ولكن الله آثرك لمجلسك ، فإن تُعطينا فحقتنا أدت ، وإن تمنعنا نسأل الذى بيده ما حوت ، إن الله جعل العطاء محبةً ، والمنع مبغضةً ، ولأن أحببك أحب إلى من أن أبغضك ، قال : فألف دينار لماذا؟ قال : أفضى بها ديناً قد حم^(١) قضاؤه ، وقد حنى^(٢) حملي ، وأرهتني^(٣) أهله ، قال : نعم المسلك أسلكتها ، ديناً قضيت ، وأمانة أدت ، وألف دينار لماذا؟ قال : أزوج بها من أدرك من ولدى ، فأشد بهم عضدى ، ويكثر بهم عددى ، ولا بأس أغضضت طرفاً ، وحصنت فرجاً ، وأمرت^(٤) نسلاً ، وألف دينار لماذا؟ قال : اشتري بها أرضاً يعيش بها ولدى ، وأستعين بفضلها على نوائب دهرى ، وتكون ذخراً لمن بعدى ، قال : ولا بأس ، أردت ذخراً ، ورجوت أجراً ، ووصلت رجماً ، قد أمرنا لك بما سألت ، قال : فالحمودُ الله على ذلك ، وجزاك الله يا أمير المؤمنين والرحم خيراً ، وخرج ، فقال هشام : تالله ما رأيت رجلاً أطف في سؤال ، ولا أرفق في مقال ، من هذا ، هكذا فليكن القرشى ، وإنا لنعرف الحق إذا نزل ، ونكره الإسراف والبخل ، وما نُعطى تبذيراً ، ولا نمنع تقثيراً ، وما نحن إلا خزان الله فى بلاده ، وأمناؤه على عباده ، فإن أذن أعطينا ، وإذا

[١] حم الأمر : قضى وقدر . [٢] أتقلنى .

[٣] الإرهاق : أن تحمل الإنسان على مالا يطيقه . [٤] كثرت .

منع أَيْبُنَا ، ولو كَانَ كل قائل يَصْدُق ، وكل سائل يَسْتَحَق ، مَا جَبَّهْنَا ^(١) قَائِلًا ، وَلَا رَدَدْنَا سَائِلًا ، فَنَسَأَلُ الَّذِي يِيده مَا اسْتَحْفَظْنَا أَنْ يُجْرِيه على أَيَدِينَا ، فَإِنَّه يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ^(٢) ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ، فَقَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَقَدْ تَكَلَّمْتَ فَأَبْلَغْتَ ، وَمَا بَلَغَ فِي كَلَامِهِ مَا قَصَصْتَ ، فَقَالَ : إِنَّه مُبْتَدَى ، وَلَيْسَ الْمُبْتَدَى كَالْمُبْتَدَى .

(صبح الأعشى ١ : ٢٦٤ ، والأمالى ١ : ١٤٧ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٨٥)

٣٩٥ — مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام

قال خالد بن صفوان : وفدت على هشام فوجدته قد بدأ يشرب الدُّهْنَ ، وذلك في عام بَاكَرٍ وَسَمِيهِ ، وَتَتَابَعُ وَآيُهُ ^(٣) ، وَأَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ، فَهِيَ كَالزَّرَابِيِّ ^(٤) الْمَبْثُوثَةِ ، وَالْقِبَاطِيِّ ^(٥) الْمَشُورَةِ ، وَرَأَاهَا كَالْكَافُورِ ، لَوْ وُضِعَتْ بِهِ بَعْضَةُ ^(٦) لَمْ تُتْرَبْ ^(٧) ، وَقَدْ ضُرِبَتْ لَهُ سُرَادِقَاتُ حَبْرٍ ^(٨) ، بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ يَوْسُفُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْيَمِينِ ، تَتْلَأُ كَالْعِقْيَانِ ^(٩) ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ أَزَلْ وَاقِفًا ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيَّ كَالْمُسْتَنْطِقِ لِي ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْكَ نِعْمَهُ ، وَوَدَّعَ عَنْكَ نِقَمَهُ ، وَجَعَلَ مَا قَلَّدَكَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ رُشْدًا ، وَعَاقِبَةً مَا يَثُولُ إِلَيْهِ تَحْمَدًا ، وَأَخْلَصَهُ لَكَ بِالنَّيِّ ، وَكَثَّرَهُ لَكَ بِالنِّمَاءِ ، وَلَا كَدَّرَ عَلَيْكَ مِنْهُ مَا صَفَا ، وَلَا خَالَطَ سُرُورَهُ بِالرَّدَى ، فَلَقَدْ أَصْبَحْتَ لِلْمُؤْمِنِينَ ثِقَةً وَمُسْتَرَاحًا ،

[١] حبه كمنه : اغيه بما يكره . [٢] يقبض ويضيق . [٣] الوسمى : مطر الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض ، والولى : المطر بعد الوسمى . [٤] جمع زربي بالكسر ويضم : التمارق والبسط ، أو كل ما بسط واتسكى عليه (والتمارق : الوسائد الصغيرة) . [٥] قاطي يضم الأول مع تشديد الآخر ، وقباطي بفتح الأول مع تخفيف الآخر جمع قبطية بالغم على ثير قياس ، وقد تكسر : ثياب كتان بيض رفاق كانت تعمل في مصر . [٦] البضعة وقد تكسر : انقطعة من اللحم . [٧] أنزبه وتربه جعل عليه التراب . [٨] حبر جمع حبرة كغنية : ضرب من برود اليمن . [٩] العقيان : الذهب .

إليك يتمصدون في مظالمهم ، ويفزعون في أمورهم ، هذا مقام زين الله به ذكري ، وأطاب به نشري^(١) ، إذ أراني وجه أمير المؤمنين ، ولا أرى لمقامي هذا شيئاً هو أفضل من أن أنبه أمير المؤمنين لفضل نعمة الله عليه ، ليحمد الله على ما أعطاه ، ولا شيء أحضر من حديث سلف لملك من ملوك العجم ، إن أذن لي فيه حديثه به ، قال : هات ، قلت : « كان رجل من ملوك الأعاجم ، جمع له فتاء^(٢) السن ، وصحة الطباع ، وسعة الملك ، وكثرة المال ، وذلك بالحوزرق ، فأشرف يوماً ، فنظر ما حوله ، فقال لمن حضره : هل عامتم أحداً أوتي مثل الذي أوتيت ؟ فقال رجل من بقايا حملة الحجّة : إن أذنت لي تكلمت . فقال : قل ، فقال : رأيت ما جمع لك ، أشيء هو لك ، لم يزل ولا يزول ، أم هو شيء كان لمن قبلك زال عنه ، وصار إليك ، وكذلك يزول عنك ؟ قال : لا . بل شيء كان لمن قبلي ، فزال عنه ، وصار إليّ ، وكذلك يزول عني ، قال : فسمرت بشيء ، تذهب أدته ، وتبقى تبعته ، تكون فيه قليلاً ، وترتهن به طويلاً ؟ فبكي وقال : أين المهرب ؟ قال : إلى أحد أمرين : إما أن تُقيم في ملكك ، فتعمل فيه بطاعة ربك ، وإما أن تُلقني عليك أمساحاً^(٣) ، ثم تلحق بجبل ، تعبد فيه ربك ، حتى يأتي عليك أجلك ، قال : فإلى إذا أنا فعلت ذلك ؟ قال : حياة لا تموت ، وشباب لا يهرم ، وصحة لا تسقم ، وملك جديد لا يبلى ، قال : فإذا كان السحر فافرع على بابي ، فإني مختار أحد الرأيين ، فإن اخترت ما أنا فيه ، كنت وزيراً لا يُعصى ، وإن اخترت فلوات الأرض وقفر البلاد ، كنت رقيقاً لا يخالف ، فقرع عليه عند السحربابه ، فإذا هو قد وضع تاجه ، وخلع أطماره ، ولبس أمساحه ، وتهياً

[١] النشر : الرائحة الطيبة . [٢] الفتاء كساء : الشاب .

[٣] الأمساح جمع مسح كحل وهو الكساء من شعر كتوب الرهبان .

للسياحة ، فلزما والله الجبل ، حتى أتاهما أجلهما » ، وأنشده قول عدي بن زيد :

وتفكر رب الخورنق إذ أصبح يوماً وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير^(١)
فارعوى قلبه ، فقال : وما غبطة حتى إلى الممات يصير؟^(٢)

فبكى هشام وقام ودخل ، فقال لى حاجبه : لقد كسبت نفسك شراً ، دعاك
أمير المؤمنين لتحديثه وتلميته ، وقد عرفت علته ، فما زدت على أن نعت إليه
نفسه ، فأقت أياماً أتوقع الشر ، ثم أتانى حاجبه ، فقال : قد أمر لك بجائزة ،
وأذن لك فى الانصراف . (بيون الأخبار م ٢ : ص ٣٤١ ، الأغانى ٢ : ٣٣)

٣٩٦ - خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لشيبة بن عقال - وعنده جرير والفرزدق والأخطل ،
وهو يومئذ أمير - ألا تخبرنى عن هؤلاء الذين قد مزقوا أعراضهم ، وهتكوا
أستارهم ، وأغرّوا بين عشائهم ، فى غير خير ولا بر ولا نفع ، أيهم أشعر؟ فقال
شيبة : « أما جرير فيغرف من بحر ، وأما الفرزدق فينجت من صخر ، وأما
الأخطل فيجيد المدح والفخر » ، فقال هشام : ما فسرت لنا شيئاً نحصله ، فقال :
ما عندى غير ما قلت . فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يا ابن الأهتم ، فقال :

« أما أعظمهم نخراً ، وأبعدهم ذكراً ، وأحسنهم عُذراً ، وأسيرهم مثلاً ،
وأقلهم غزلاً ، وأحلام عِللاً ، الطامى إذا زخر ، والحامى إذا زار^(٣) ، والسامى
إذا خطر ، الذى إن هدر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل

[١] معرضاً : من أعرض الشيء إذا ظهر وبرز . [٢] الغبطة : المرة .

[٣] وفى رواية زهر الآداب : « إذا زعر » .

العنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم قوتاً ، الذى إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ، فالأخطل ؛ وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكهم لعدوه سترأ ، الأغر الأبلق ، الذى إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يُلحق ، فجرير ، وكلهم ذكى الفؤاد ، رفيع العماد ، وارى الزناد .

فقال له مسامة بن عبد الملك : ماسمعنا بمثلك يا خالد فى الأولين ، ولا رأينا فى الآخريين ، وأشهد أنك أحسنهم وصفاً ، وألينهم عطفاً ، وأعفهم مقالا ، وأكرمهم فعالا .

فقال خالد : « أتم الله عليكم نعمته ، وأجزل لديكم قيسمه ، وأنس بكم الغربية ، وفرج بكم الكربة ، وأنت والله ما علمت أيها الأمير كريم الغراس ، عالم بالناس ، جواد فى المخل^(١) ، بسام فى البذل ، حلیم عند الطيش ، فى ذروة قريش ، ولباب عبد شمس ، ويومك خير من أمس .

فضحك هشام وقال : « ما رأيت كتخلصك يابن صفوان فى مدح هؤلاء ووصفهم ، حتى أرضيتهم جميعاً ، وسأمت منهم .

(الأغانى ٧ : ٦٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٣)

٣٩٧ - خالد بن صفوان وبلال بن أبى بردة

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي : كان بلال بن أبى بردة^(٢) جليداً حين أبتلى ، أحضره يوسف بن عمر فى قيوده ، لبعض الأمر ، وهم بالحيرة ، فقام خالد بن صفوان ، فقال ليوسف : « أيها الأمير ، إن عدو الله بلالاً ضربنى وحبسنى ، ولم أفارق جماعة ، ولا خلعت يداً من طاعة » ، ثم التفت إلى بلال

[١] المخط والجذب . [٢] هو بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعري .

فقال : « الحمد لله الذى أزال سلطانك ، وهدأ أركانك ، وأزال جمالك ، وغير حالك ، فوالله لقد كنتَ شديدَ الحِجابِ ، مستخفياً بالشريف ، مُظهِراً للعصبيَّة (١) » .

فقال بلال : « يا خالد ، إنما استطلتَ على بثلاث ، هن معك على ، الأميرُ مُقبِلُ عليك ، وهو عنى مُعرِضٌ ؛ وأنت مُطلقٌ ، وأنا مأسورٌ ؛ وأنت فى طينتك وأنا غريبٌ » ، فأخمه .

وكان سبب ضرب بلالٍ خالداً فى ولايته ، أن بلالاً مرَّ بخالد فى مَوْكِبٍ عظيمٍ ، فقال خالد : سحابةٌ صيفٌ عن قليلٍ تَقَشَّعُ (٢) ، فسمعه بلالٌ ، فقال : والله لا تَقَشَّعُ أو يصيبك منها شؤبوب (٣) برِدٍ ، وأمر بضربه وحبسه .

(زهر الآداب ٣ : ١٩٠)

٣٩٨ — خطبة الكميث بن زيد بن بين يدي هشام يستعطفه

روى صاحب العقد قال :

كَانَ الْكُمَيْتُ بْنُ زَيْدِ الْأَسَدِيِّ يَمْدَحُ بَنِي هَاشِمٍ وَيَعْرِضُ بَيْنِي أُمِيَّةَ ، فَطَلَبَهُ هِشَامٌ ، فَهَرَبَ مِنْهُ عَشْرِينَ سَنَةً (٤) ، لَا يَسْتَقِرُّ بِهِ الْقَرَارُ ، مِنْ خَوْفِ هِشَامٍ ، وَكَانَ مَسْأَمَةَ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لَهُ عَلَى هِشَامٍ حَاجَةٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقْضِيهَا لَهُ ، وَلَا يَرُدُّهُ فِيهَا ، فَلَمَّا خَرَجَ مَسْأَمَةُ يَوْمًا إِلَى بَعْضِ صُيُودِهِ ، أَتَى النَّاسُ يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ ، وَأَتَاهُ الْكُمَيْتُ ابْنُ زَيْدٍ فِيمَنْ أَتَى ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، أَمَا بَعْدُ :
قِفْ بِالْدِيَارِ وَوُقُوفِ زَائِرٍ وَتَأَنَّ ، إِنَّكَ غَيْرُ صَاغِرٍ (٥)

[١] وكان أصلاً من العرب اليمانيين . [٢] تنكسف وتنفرك . [٣] التؤبوب : الدفوة من المطر .

[٤] يلاحظ أن مدة خلافة هشام كانت عشرين سنة من سنة ١٠٥ — إلى سنة ١٢٥ هـ .

[٥] صاغر : ذليل .

حتى انتهى إلى قوله :

يَا مَسْلَمَ بْنَ ابْنِ الْوَلِيدِ لَيْتَ إِنْ شِئْتَ نَاشِرٌ^(١)
عَلِقَتْ جِبَالِي مِنْ حَبَا لِكَ ذِمَّةَ الْجَارِ الْمَجَاوِرِ
فَالآنَ صِرْتُ إِلَى أُمَّيَّةَ، وَالْأُمُورُ إِلَى الْمَصَايِرِ
وَالآنَ كُنْتُ بِهَ الْمَصِيبِ كَمُهْتَدٍ، بِالْأَمْسِ حَاطِرٌ

فقال مسامة : سبحان الله ! من هذا الهندكي^(٢) الجَلْحَابُ^(٣) ، الذي أقبل من
أخريات الناس ، فبدأ بالسلام ، ثم أمّا بعدُ ، ثم الشعر ؟ قيل له : هذا الكميت
ابن زيد ، فأعجب به لفصاحته وبلاغته ، فسأله مسامة عن خبره ، وما كان فيه
طول غيبته ، فذكر له سُخْطُ أمير المؤمنين عليه ، فضمن له مسامة أمانه ،
وتوجه به حتى أدخله على هشام - وهشام لا يعرفه - فقال الكميت : السلام
عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، الحمد لله ، قال هشام : نعم ،
الحمد لله ، ما هذا ؟ قال الكميت : مبتدئ الحمد ومبتدعه ، الذي خصّ بالحمد نفسه ،
وأمر به ملائكته ، جعله فاتحة كتابه ، ومنتهى شكره ، وكلام أهل جنّته ،
أحمده حمد من علم يقيناً ، وأبصر مُسْتَبِينًا ، وأشهد له بما شهد به لنفسه
« قَائِمًا بِالْقِسْطِ^(٤) » وَحَدَّه لِاشْرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ الْعَرَبِيِّ ،
ورسوله الأُمِّيُّ ، أرسله والناس في هفوات خيرة ، وَمُدْلِهِمَاتِ ظُلْمَةٍ ، عند
استمرار أبطه^(٥) الضلال ، فبلغ عن الله ما أمر به ، ونصح لأمته ، وجاهد في
سبيله ، وعبّد ربه ، حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

[١] نشره وأشره : أحياء . [٢] رحل هندكي : من أهل الهند ، (وهو هنا على التثنية) .
[٣] الجَلْحَابُ : الشيخ الكبير ، والضمخ الأجلح ، (والاجلح : الذي انحصر الشعر عن جانبي رأسه) .
[٤] العدل . [٥] الابهة : العظمة والهجبة والكبر .

ثم إني يا أمير المؤمنين ، تَهتُ في حَيْرَةٍ ، وحررتُ في سَكْرَةٍ ، اذْلَامٌ (١) بي خطرُها ، وأهاب (٢) بي داعيها ، وأجاني غاويها ، فاقطو وطيتُ (٣) إلى الضلالة ، وتسكمتُ (٤) في الظلمة والجهالة ، جائر أعن الحق ، قائلاً بغير صدق ، فهذا مقامُ العائذِ (٥) ، ومنطقُ التائب ، ومبصيرُ الهدى بعد طول العمى ، يا أمير المؤمنين كم من عائرٍ أقلتُم عثرته ، ومجتريمٍ (٦) عفوتُم عن جرؤهم .

فقال له هشام - وأيقن أنه الكميت - ويحك ! من سن لك العواية ، وأهاب بك في العماية (٧) ؟ قال : الذي أخرج أبي آدم من الجنة : فنسي ولم يجذ له عزماً ، وأمير المؤمنين كريح رحمة أثارَت سحاباً متفرقاً ، فلذقتُ (٨) بعضه إلى بعض ، حتى التحم ، فاستحك هذرٌ (٩) رَعْدُه ، وتلألؤُ برقه ، فنزل الأرضَ فرويتُ ، واخضلتُ (١٠) واخضرتُ ، وأسقيتُ ، فروى ظمآنُها ، وامتلأ عطشَانُها ، فكذلك نعدك أنت يا أمير المؤمنين ، أضاء الله بك الظلمة الداجية (١١) بعد العموس (١٢) فيها ، وحقن بك دماء قوم أشعرَ خوفك قلوبهم (١٣) ، فهم يكون لما يعلمون من حزمك وبصيرتك ، وقد علموا أنك الحرب وابن الحرب إذا احمرتِ الحدقُ ، وعَضَّتِ المغاويرُ (١٤) بالهام ، عزَّ بأصك ، واستربط جأشك (١٥) ،

- [١] اذلامٌ الليل : ادلم أي اسود وأظلم ، وفي الأصل « اذلامٌ » وهو تصحيف .
- [٢] أي دعاني ، وفي الأصل « وأهب » وهو تحريم ، (ويقال أيضاً هبت به أي دعوته لينزو) .
- [٣] اقطوطي : قارب في مشيه إسراعاً . [٤] تسكع : مشى مشياً متعسفاً لا يدرى أين يأخذ من بلاد الله ، وتخير . [٥] اللاجئ : المستجير . [٦] حرم بلان وأحرم واجترم : أذنب .
- [٧] العماية : الفواية . [٨] من لفق الثوب كضرب : صم شقة إلى أخرى نخطهما .
- [٩] من هدر البعير كضرب هدرأ وهديراً : صوت ، وفي الأصل « هدار » وهو تحريم .
- [١٠] ابتلت . [١١] المظلمة . [١٢] في الأصل : « العموس » بالعين ، وهو تحريف ، والصواب : « العموس » من صمس ككرم وفرح عماسة وعموساً : اشتد واسود وأظلم .
- [١٣] أشعر الحوف والمهم قلبي : لثق به ، وكل ما ألقته بشيء : أشعرته به . [١٤] المغر ككبير ، وبهاء ، وككتابة : زرد من الدرع يلبس تحت القلنوة ، أو حلق يتقنع بها المسلح .
- [١٥] أي صار رابطاً من ربط جأشه رباطة (بالكسر) اشتد قلبه .

مِسْعَارٌ^(١) هَتَّانٌ ، وَكَافٌ بَصِيرٌ بِالْأَعْدَاءِ ، مُغْرِي الخليل بالنكراء^(٢) ، مستغني برأيه عن رأى ذوى الألباب ، برأى أريب ، وَجِلْمٌ مصيب ، فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء ، وتَمَّ عليه النعماء ، ودفع به الأعداء ، فرضى عنه هشام ، وأمر له بجائزة .

وروى صاحب الأغاني خطبة الكميت^(٣) فقال :

[١] فلان مسر حرب ومسعار : أى موقد نار الحرب ، ومطر هتان : هطال ، ووكاف كذلك ، وهما كناية عن الجود . [٢] النكراء : الأمر الشديد .
[٣] وكان سبب غضب هشام على الكميت : أن حكيم بن عباس السكبي كان ولما بهجاء مضر والكميت مضرى — فكانت شعراء مصر تهجوه ويحيمهم ، وكان الكميت يقول هو والله أشد منكم فالوا فأجب الرجل ، قال إن خالد بن عبد الله القسرى — والى العراق وهو عيسى — محسن إلى ، فلا أقدر أن أرد عليه ، فالوا فاسمع بأذنك مايقول فى بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ، وأنشدوه ذلك فحوى الكميت لمشيرته ، فقال قصيدته المدهمة ، وبلغ ذلك خالداً ، فقال والله لأقتلنه ، ثم اشترى ثلاثين حارية بأعلى ثمن ، وعيرهن نباية فى حسن الوجوه والكمال والأدب ، فرواهن الهاشميات — وهى قصائد فالها الكميت فى مدح بى هاشم ، وكان معروفاً بالثشيع لهم مشهوراً بذلك ، وتهد هذه القصائد من جيد شعره ومختاره وهى مطبوعة مشهورة — ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك ، فاشتراهن جميعاً ، فلما أس بهن استنظهن ، فرأى فصاحة وأدبا ، فاستقرأهن انقرآن فقرآن ، واستنشدهن الشعر ، فأنددنه قصائد الكميت الهاشميات ، فقال: ويلكن! من فائل هذا الشعر ؟ قال الكميت بن زبد الأسدى ، قال وى أى بلد هو ؟ قال: فى العراق ثم والكوفة ، مكنت إلى خالد عامه بالعراق: ابعت إلى رأس الكميت ، فبعث إليه خالد فى الليل ، فأخذنه وأودنه السجن ، وعزم لينفدن أمر الحليفة به ، وأعمل الكميت الحيلة فى الفرار، فبعث إلى زوجته حبي (بضم) ففتح الباء المشددة) فلما دخلت عليه لبس ثيابها ، وتنفق ثيابها ، وأقامها مكانه ، وخرج متنكراً ، وظل مسوارياً مدة، حتى إذا أيقن أن الطلب قد خف عنه ، خرج ليلاً فى جماعة من بى أسد، وما زال سير حتى بلغ الشام ، واستجار بمسلة بن هشام ، فأجاره واحتال له فى عفو الحليفة عنه ، فقال له إن معاوية بن هشام مات قريباً ، وقد حرع عليه جزاً شديداً ، فإذا كان الليل فاصرب روافك على قبره ، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك فى الرواق ، فإذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيابك ، ويقولوا : هذا استجار بقبر أئبنا ، ونحن أحق من أجاره ، فأصبح هشام على عادته متظلماً من قصره إلى القبر ، فقال : من هذا ؟ فقالوا : لعله مستجير بالقبر ، فقال : يجار من كان إلا الكميت فإنه لا جوار له فقيل : فإنه الكميت ، قال : محضر أعنف إحضار ، فلما دعى به ربط السببان ثيابهم بثيابه ، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر ، وهم يقولون : يأمر المؤمنين استجار بقبر أئبنا ، وقد مات ومات حظه من الدنيا ، فأجعله هبة له ولنا ، ولا تفضحننا فيما استجار به ، وبكى هشام حتى انتحب ، ثم أقبل على الكميت ، فقال له : يا كميته : أت القائل كذا وكذا مما أوردته فى هاشمياته ؟ فقال : لا والله ، ولا أنا من أن الحجاز وحشية ، ثم خطب بين يديه يستعطفه ، فعفا عنه وأجازه ، وتوفى الكميت سنة ١٢٦ هـ .

« حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : « أما بعد : فإنى كنت أتدهدى ^(١) فى غمرة ، وأعموم فى بحر غواية ، أخنى على خطلها ، واستفزنى وهلمها ^(٢) ، فتحيرت فى الضلالة ، وتسكمت فى الجهالة ، مهرعا عن الحق ، جاراً عن القصد ، أقول الباطل ضلالا ، وأفوه بالبهتان وبالا ، وهذا مقام العائذ ، مبصر الهدى ، ورافض العماية ، فاغسل عنى يا أمير المؤمنين الحوبة ^(٣) بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجريمة ^(٤) ، ثم قال :

كم قال قائلكم لعماء لك ، عند عثرته لعائز ^(٥)
وغفرتهم لذوى الذنوب من الأكبـر والأصاغر
أبني أمية : إنكم أهل الوسائل والأوامر
ثقتي لكل مائة وعشيرتي دون العشائر
أنتم معاديت للخلافة كآبراً من بعد كآبر
بالسمة المتتابعين خلائفاً وبخير عاشر ^(٦)
وإلى القيامة لا ترا لـ إشافيع منكم وواتر

ثم قطع الإنشاد ، وعاد إلى خطبته فقال : « إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته ^(٧) ، ومناط المنتجعين بحبله ، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين ، فضلاً عن استشاطه غضبه بجهل الجاهلين ، فقال له : ويلك يا كميته ! من زين لك الغواية ، ودلاك فى العماية ؟ قال ! الذى أخرج أبانا من الجنة ، وأنساه

[١] دهدى الحبر فدهدى : دحرجه ، كدهدهه ، والغرة : الانهماك فى الباطل ، والشدة .

[٢] الوهل : الضعف والفرع . [٣] الحوبة : الإثم . [٤] الجريمة ككامة : الجريمة .

[٥] يقال للعائز : لعمالك ، وهو دعاء له بأن ينتمش . [٦] هشام بن عبد الملك هو عاشر خلفاء .

[٧] الصبحة : الجمال ، صبح ككرم فهو صبيح .

العهد ، فلم يجد له عزماً « فرضى عنه ، وأمر له بجائزة .

(المقدم الفريد ١ : ١٥٤ ، والأطاني ١٥ : ١١٣)

٣٩٩ - مخاصمة عدى بن أرطاة لامرأته عند شريح القاضي

دخل عدى بن أرطاة على شريح^(١) القاضي يخاصم امرأة له ، فقال :

السلام عليكم ، قال : وعليكم ، قال : استمع منى ، قال : قل أسمع ، قال : إني

رجل من أهل الشام ، قال : من مكان سحيق ، قال : وإني قدِمْتُ إلى بلدكم

هذا ، قال : خير مقدّم ، قال : وإني تزوجت امرأة ، قال : بالرِّفاء^(٢) والبنين ،

قال : وإنها ولدت غلاماً ، قال : ليِّهِنَّكَ الفارسُ ، قال : وقد كنتُ شرطتُ لها

صداقها ، قال : الشرط أملكُ ، قال : وقد أردت الخروج بها إلى بلدى ، قال :

الرجل أحقُّ بأهله ، قال : فاقضِ بيننا . قال : قد فعلت ، قال : فعلى مَنْ حكمتَ ؟

قال : على ابن أمك ، قال : بشهادة مَنْ ؟ قال بشهادة ابن أختِ خالتك .

(البيان والنبين ٣ : ٢٣٤ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٢٤)

٤٠٠ - كلمة لعمر بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان

وقد تشاحَّ بنو هاشم ، وبنو أمية في ميراث بينهم

عن سُفيان بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان قال : وقع ميراث بين بنى هاشم

وبنى أمية ، تشاحُّوا فيه ، وتضايقوا ، فلما تفرقوا أقبل علينا أبونا عمرو ، فقال :

« يا بني : إن لقريشَ دَرَجَاتٍ تَرِلُّ عنها أقدامُ الرجال ، وأفعالاً تخشع لها

[١] هو أبو أمية شريح بن الحارث الكندي ، كان من كبار التابعين ، وأدرك الجاهلية ، واستقضاءه

عمر بن الخطاب على الكوفة ، وقد أقام قاضياً خمساً وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بأقضاء ، ذا فطنة وذكاء ، ومعرفة ، وعتل ، وإصابة ، توفى سنة ٨٧ هـ ، وهو ابن مائة سنة ، وقيل ابن مائة وعشرين .

[٢] أى بالالتئام وجمع الشمل ، رفاً الثرب كنع : لأم خرقة ، وضم بهضه إلى بعض .

رَقَابُ الْأَمْوَالِ ، وَغَايَاتِ تَقْصُرُ عَنْهَا الْجِيَادُ الْمُسَوِّمَةُ ^(١) ، وَالسُّنَا تَكِلُ عَنْهَا الشَّفَارَ الْمَشْحُودَةَ ، وَلَوْ اخْتَلَفَتِ الدُّنْيَا مَا تَرِينَتْ إِلَّا بِهِمْ ، وَلَوْ كَانَتْ لَهُمْ ضَاقَتْ بِسَمَةِ اخْتِلَافِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّهُ لِيُخَيَّلُ إِلَى أَنَّ مِنْهُمْ نَاسًا تَخَلَّقُوا بِاخْتِلَاقِ الْعَوَامِّ ، فَصَارَ لَهُمْ رِفْقٌ فِي اللُّؤْمِ ، وَخَرَقٌ ^(٢) فِي الْحَرِصِ ، وَلَوْ أَمَكَّنَهُمْ لِقَا سُمُو الطَّيْرِ فِي أَرْزَاقِهَا ، إِنْ خَافُوا مَكْرُوهَهَا تَعَجَّلُوا لَهُ الْفَقْرَ ، وَإِنْ مُجَّلتَ لَهُمْ نِعْمَةٌ أَخْرَوْا عَلَيْهَا الشُّكْرَ ، أَوْلَيْتُكَ أَنْضَاءَ ^(٣) الْفِكْرِ ، وَعَجْزَةَ حَمَلَةِ الشُّكْرِ .

(الأُمَالِي ٢ : ٢٣٨ ، وَالْمَقْدُ الْفَرِيدُ ٢ : ٤٠)

٤٠١ — رَجُلٌ يَمْدَحُ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِي

وَقَالَ رَجُلٌ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِي : « وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَبْذُلُ مَا جَلَّ ، وَتَجْبُرُ مَا انْقَلَبَ ، وَتُكْثِرُ مَا قَلَّ ، فَفَضْلُكَ بَدِيعٌ ، وَرَأْيُكَ جَمِيعٌ ، تَحْفَظُ مَا شَدَّ ، وَتُوَلِّفُ مَا نَدَّ » . (زَهْرُ الْأَدَابِ ٣ : ١٦٧)

خَطْبُ الْخَوَارِجِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا

٤٠٢ — خُطْبَةُ حَيَّانَ بْنِ ظَبْيَانَ السُّلَمِيِّ

رَوَى ابْنُ جُرَيْرٍ الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ قَالَ :

كَانَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السُّلَمِيُّ يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ — وَكَانَ مِمَّنْ ارْتَمَتْ ^(٤) يَوْمَ النَّهْرَوَانَ ، فَعَفَا عَنْهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي الْأَرْبَعِمِائَةِ الَّذِينَ كَانُوا عَفَا عَنْهُمْ ، مِنْ

[١] الْحَيْلُ الْمُسَوِّمَةُ : الْمُرْسَلَةُ وَعَلَيْهَا رِكَابُنَا ، أَوْ الْمَعْلَمَةُ ، أَيْ الَّتِي جَعَلَ عَلَيْهَا سَوْمَةً (بِالضَّمِّ) أَيْ سِمَةً وَعِلَامَةً ، أَوْ الْمُرْهِيَةَ . [٢] كَقَفْلٍ وَسَبَبٌ : ضِدُّ الرِّفْقِ ، وَأَنْ لَا يَحْسُنَ الرَّجُلُ الْعَمَلَ وَالنَّصْرَ فِي الْأُمُورِ . [٣] جَمْعُ أَنْضُو كَمَا لَوْ هُوَ الْمَهْرُولُ . [٤] ارْتَمَتْ : حَمَلَ مِنَ الْمَرْكَةِ رَثِيئًا ، أَيْ جَرِيحًا وَبِهِ رَمَقٌ .

المرتثين يوم النهر - فكان في أهله وعشيرته : فلبث شهراً أو نحوه ، ثم إنه خرج إلى الرمي ، في رجال كانوا يرون ذلك الرأي ، فلم يزالوا مقيمين بالرعى حتى بلغهم قتل عليّ كرم الله وجهه ، فدعا أصحابه أولئك ، وكانوا بضعة عشر رجلاً ، فأتوه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الإخوان من المسلمين : إنه قد بلغني أن أخاكم ابن ملجم أخا مراد قعد لقتل عليّ بن أبي طالب عند أغباش^(١) الصبح ، مُقابل السدة^(٢) التي في المسجد مسجد الجماعة ، فلم يبرح راكداً ينتظر خروجه ، حتى خرج عليه حين أقام المقيم الصلاة : صلاة الصبح ، فشدّ عليه ، فضرب رأسه بالسيف ، فلم يبق إلا ليلتين حتى مات . »

فقام سالم بن ربيعة العبسي : لا يقطع الله يميناً علّت قذالاه^(٣) بالسيف ، فأخذ القوم يحمدون الله على قتله عليه السلام ، ورضى الله عنه ولا رضى عنهم ولا رحمهم ، ثم إن حيان بن ظبيان قال لأصحابه :

« إنه والله ما يبقى على الدهر باقٍ ، وما يلبث الليالي والأيام ، والسّنون والشهورُ على ابن آدم ، حتى تُدبِقهُ الموت ، فيفارق الإخوان الصالحين ، ويدع الدنيا التي لا يبكي عليها إلا العجزة ، ولم تزل ضارّةً لمن كانت له همّاً وشجناً^(٤) ، فانصرفوا بنا رَحِمَكُم اللهُ إلى مِصْرِنَا ، فلنأتِ إخواننا ، فلندعُهم إلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإلى جهاد الأحزاب ، فإنه لا عُدْرَ لنا في القعود ، وولاتنا ظالمةٌ ، وسنة الهدى متروكة ، ونأرنا^(٥) الذين قتلوا إخواننا في المجالس آمنون ، فإن يُظفرنا الله بهم نَعْمِدُ بَعْدُ إلى التي هي أهدى وأرضى وأقوم ، وَيَسْنِي

[١] أغباش جمع غبش بالتحريك : وهو ظلمة آخر الليل . [٢] السدة : باب الدار ، وهي هنا ما يبقى من الطاق السودود . [٣] القنال : جماع مؤخر الرأس . [٤] الشجن : الهم والحزن . [٥] الثأر : قاتل حميك .

اللهُ بذلكِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنْ نُقْتَلُ فَإِنَّ فِي مَفَارِقَةِ الظَّالِمِينَ رَاحَةً لَنَا ،
وَلَنَا بِأَسْلَافِنَا أُسُوءَةً .

فَقَالُوا لَهُ : كُلُّنَا قَائِلٌ بِمَا ذَكَرْتَ ، وَحَامِدٌ رَأَيْكَ الَّذِي رَأَيْتَ ، فَرِدْ بِنَا الْمِصْرَ ،
فَإِنَّا مَعَكَ رَاضُونَ بِهَذَاكَ وَأَمْرِكَ ، فَخَرَجَ وَخَرَجُوا مَعَهُ مَقْبِلِينَ إِلَى الْكُوفَةِ ، حَتَّى
نَزَلَهَا ، فَلَمْ يَزَلْ بِهَا حَتَّى قَدِمَ مَعَاوِيَةَ ، وَبَعَثَ الْمَغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ وَالْيَأْسَرَ عَلَى الْكُوفَةِ .
(تاريخ الطبري ٦ : ٩٩)

اتِّمَارُ الْخَوَارِجِ

ثُمَّ إِنَّ الْخَوَارِجَ فِي أَيَّامِ الْمَغِيرَةَ فَرَعُوا إِلَى ثَلَاثَةِ نَفَرٍ مِنْهُمْ : الْمُسْتَوْرِدَ بْنَ عُلْفَةَ التَّمِيمِيَّ ،
وَحَيَّانَ بْنَ ظَبْيَانَ السَّمِّيَّ ، وَمُعَاذَ بْنَ جُوَيْنَ بْنَ حُصَيْنِ الطَّائِيَّ ، فَاجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ حَيَّانِ
ابْنِ ظَبْيَانَ ، فَتَشَاوَرُوا فِيمَنْ يُؤْتُونَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ لَهُمُ الْمُسْتَوْرِدُ :

٤٠٣ - مَقَالُ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ عُلْفَةَ

« يَا أَيُّهَا الْمَسَامُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ ، أَرَأَيْتُمْ مَا تَحْبِثُونَ ، وَعَزَلْتُمْ عَنْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ ،
وَلَوْ أَنَّ عَلَيْكُمْ مَنْ أَحْبَبْتُمْ ، فَوَالَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ (١) وَمَا تُحْبِثُ الصُّدُورُ ،
مَا أَبَالِي مَنْ كَانَ الْوَالِيَّ عَلَيَّ مِنْكُمْ ، وَمَا شَرَفَ الدُّنْيَا نَزِيدٌ ، وَمَا إِلَى الْبَقَاءِ فِيهَا مِنْ
سَبِيلٍ ، وَمَا نَزِيدٌ إِلَّا الْخُلُودَ فِي دَارِ الْخُلُودِ » .

٤٠٤ - مَقَالُ حَيَّانِ بْنِ ظَبْيَانَ

فَقَالَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ : « أَمَا أَنَا فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهَا ، وَأَنَا بِكَ وَبِكُلِّ امْرَأٍ
مِنْ إِخْوَانِي رَاضٍ ، فَانظُرُوا مَنْ شِئْتُمْ مِنْكُمْ فَسَمُّوهُ ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَبَايِعُهُ » .

[١] بِمَسَارِقَتِهَا النَّظْرَ إِلَى الْمَحْرَمِ .

٤٠٥ - مقال معاذ بن جوين

فقال لهم معاذ بن جوين : « إذا قلتما أنما هذا ، وأنما سيدا المسلمين ، وذوآ أنسابهم ، في صلاحكما ودينكما وقدركما ، فمن يرأس المسلمين ؟ وليس كلكم يصلح لهذا الأمر ، وإنما ينبغي أن يلبى على المسلمين - إذا كانوا سواء في الفضل - أبصرهم بالحرب ، وأفقههم في الدين ، وأشدّهم اضطلاعاً^(١) بما حمّل ، وأنما بحمد الله ممن يرضى لهذا الأمر ، فليتولّه أحدكما . »

قالا : فتولّه أنت : فقد رضيناك ، فأنت - والحمد لله - الكامل في دينك ورأيك ، فقال لهما : أنما أسنّ منى ، فليتولّه أحدكما ، فقال حينئذ جماعة من حضر : قد رضينا بكم أيها الثلاثة ، فولّوا أيكم أحببتم ، وكانت خاتمة ذلك النقاش أن بايعوا المستورد ، واتعدوا أن يتجهّزوا ويتيسّروا ويستعدّوا ، ثم يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٠٠)

٤٠٦ - خطبة المغيرة بن شعبة أمير الكوفة

يحذر أهلها من إيواء الخوارج ونصرتهم

وَنَمَى إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ الْخَوَارِجَ خَارِجَةٌ عَلَيْهِ ، فَقَامَ فِي النَّاسِ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد علمتم أيها الناس أنى لم أزل أحبّ لجماعتكم العافية ، وأكفّ عنكم الأذى ، وإنى والله لقد خشيتُ أن يكون ذلك أدبَ سوءٍ لسُفّهائكم ، فأما العلماء الأتقياء فلا ، وإيمُ الله لقد خشيتُ أن لا أجد بُدّاً من أن يُعصّب الحليم

التقى ، بذنب السفية الجاهل ، فكفؤوا أيها الناس سفهاءكم ، قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد ذكر لي أن رجلاً منكم يريدون أن يظهرُوا في المصر بالشقاق والخلاف ، وأيمُّ الله لا يخرجون في حيٍّ من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدئهم ، وجعلتهم نكالا لمن بعدهم ، فنظر قومٌ لأنفسهم قبل الندم ، فقد قت هذا المقام إرادة الحجَّة والإعذار .

ثم نزل ، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم ، ثم قال لهم : « إنه قد كان من الأمر ما قد عامتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ، فليكن في كلِّ امرئ من الرؤساء قومه ، وإلا فوالذي لا إله غيره لأنحوأنَّ عما كتتم تعرفون ، إلى ما تنكرون ، وعما تحبون إلى ما تكرهون ، فلا يلمُّ لأئمِّ إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر . »

نخرجت الرؤساء إلى عشائرهم ، فناشدوهم الله والإسلام إلا دلوهم على من يرون أنه يريد أن يهيج فتنة ، أو يفارق جماعة ، وجاء صعصعة بن صوحان ، فقام في عبد القيس ، فقال :

٤٠٧ - خطبة صعصعة بن صوحان

يا معشر عباد الله : إن الله - وله الحمدُ كثيراً - لما قسم الفضلَ بين المسامين خصَّكم منه بأحسن القسم ، فأجبتكم إلى دين الله ، الذي اختاره الله لنفسه ، وارتضاه للملائكة ورُسُلُه ، ثم أقمتم عليه حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف الناس بعده ، فثبتت طائفةٌ ، وارتدت طائفةٌ ، وأذهنت طائفةٌ ، وتربصت طائفةٌ ، فلزمت دين الله إيماناً به وبرسوله ، وقانلتهم المرتدين ، حتى قام الدين ، وأهلك الله الظالمين ، فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء ، وعلى

كل حال، حتى اختلفت الأمة بينها، فقالت طائفة : نريد طلحة والزبير وعائشة،
وقالت طائفة : نريد أهل المغرب^(١)، وقالت طائفة : نريد عبد الله بن وهب
الراسبي : راسب الأزد، وقتلتم : أنتم لا نريد إلا أهل البيت، الذين ابتدأنا الله
من قبلهم بالكرامة، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً، فلم ترالوا على الحق لازمين له،
آخذين به، حتى أهلك الله بكم، وبمن كان على مثل هداكم ورأيكم، الناكثين
يوم الجمل، والمارقين يوم النهر، (وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان
كان حينئذ سلطانهم)، ولا قوم أعدى لله ولكم، ولأهل بيت نبيكم، وجماعة
المسامين، من هذه المارقة الخاطئة، الذين فارقوا إمامنا^(٢)، واستحلوا دماءنا،
وشهدوا علينا بالكفر، فإياكم أن تؤثؤوهم في دؤركم، أو تكتموا عليهم، فإنه ليس
ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم، وقد والله
ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحي، وأنا باحث عن ذلك وسائل، فإن كان
حكي لي ذلك حقاً، تقربت إلى الله تعالى بدمائهم، فإن دماءهم حلال، ثم
قال : يا معشر عبد القيس : إن ولاتنا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم، فلا
تجعلوا لهم عليكم سبيلاً، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى أمثالكم .

وأقبل أصحاب المستورد يأتونه، فليس منهم رجل إلا يُخبره بما قام به
الغيرة بن شعبة في الناس، وبما جاءهم رؤسائهم وقاموا فيهم، وقالوا له : اخرج
بنا فوالله ما نأمن أن نؤخذ في عشائرننا، نخرج بهم من الكوفة، ووجه الغيرة
لقتالهم معقل بن قيس الرياحي، فلما علم المستورد بمسير معقل إليه جمع أصحابه .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٠٦)

[١] أي معاوية، وكان والياً على الشام، وهي بالنسبة للعراق في المغرب .

[٢] أي علياً عليه السلام .

٤٠٨ - خطبة المستورد

فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هذا الخرف معقل بن قيس قد وُجِّه إليكم ، وهو من السَّبِيَّة^(١) المفترين الكاذبين ، وهو لله ولكم عدو ، فأشيروا على برأيكم . فقال له بعضهم : والله ما خرجنا نريد إلا الله ، وجهاد من عادى الله ، وقد جاءونا فأين نذهب عنهم ؟ بل نقيم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقالت طائفة أخرى : بل نعتزل ونتذخى ، ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء .

فقال : « يا معشر المسلمين : إني والله ما خرجت ألتمس الدنيا ، ولا ذكرها ، ولا نخرها ، ولا البقاء ، وما أحبُّ أنْهَا لي بحذاقيرها ، وأضعاف ما يُتَنَافَس فيه منها ، بقِبَال^(٢) تَعْلَى ، وما خرجت إلا التماس الشهادة ، وأن يَهْدِيَنِي اللهُ إلى الكرامة ، بهوان بعض أهل الضلالة ، وإني قد نظرت فيما استشرتكم فيه ، فرأيت أن لا أُقيم لهم حتى يَقْدَمُوا عَلَيَّ ، وهم حامون متوافرون ، ولكن رأيت أن أسير حتى أُمَعِن ، فإنهم إذا بلغهم ذلك خرجوا في طلبنا ، فتقطعوا وتبددوا ، فعلى تلك الحال ينبغي لنا قتالهم ، فاخرجوا بنا على اسم الله عز وجل . »

فخرجوا فمضوا على شاطئ دجلة ، فعبروه ومضوا في أرض جُوخَى ، حتى

[١] السبئية : أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى من صنعاء أسلم زمن عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالهم ، وغلا في عليّ ، وزعم أنه نبي . ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قوما من غواة الكوفة ، وأتى قوم منهم إلى عليّ ، فقالوا له : أنت هو ، قال : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله ، فاستعظم الأمر ، وأمر بنار ، فأججت في حفرتين ، وأحرقتهما بها ، فجعلوا يقولون وهم يرمون في النار : الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله ، ثم إن علياً خاف من إحراق الباقيين منهم شماتة أهل الشام ، وخاف اختلاف أصحابه عليه ، فبنى ابن سبأ إلى ساباط المدائن ، فلما باذنه مقتل عليّ قال : لو أتيتمونا بدماعه سبعين مرة ما صدقنا موته ، وزعم أن المقتول لم يكن علياً ، وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة عليّ ، وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، ومن ابن سبأ انتسبت أصناف الغلاة . [٢] قبال العمل : زمام بين الأصبع الوسطى والتي تليها .

بلغوا المذار فأقاموا فيها ، وأقبل معقل بن قيس ، فأقام بالمدائن ثلاثاً ، ثم جمع أصحابه ، فقال : (تاريخ الطبري ٦ : ١١٠)

٤٠٩ — خطبة معقل بن قيس

« إن هؤلاء المارقة الضلال إنما خرجوا فذهبوا على وجوههم ، إرادة أن تتمجلوا في آثامهم ، فتقطعوا وتتبددوا ، ولا تلحقوا بهم إلا وقد تعبتهم ونصبتهم^(١) ، وإنه ليس شيء يدخل عليكم من ذلك إلا وقد يدخل عليهم مثله » ، نخرج في آثامهم حتى لحقهم بالمذار مقيمين .

ودارت بينهما رحى الحرب بشدة ، ودعا المستورد معقلاً للمبارزة فتبارزا ، وطعنه المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره ، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفه أم الدماغ ، فوقع ميتاً ، وقتل معقل ، وشده أصحابه على الخوارج ، فما لبثوا أن قتلوه . (تاريخ الطبري ٦ : ١١١)

٤١٠ — كلمات حكيمة للمستورد

كان المستورد يقول : إذا أفضيتُ بسري إلى صديق فأفشاه لم أئله ، لأنني كنت أولى بحفظه ، ويقول : لا تُفش إلى أحدٍ سرّاً ، وإن كان مخلصاً ، إلا على جبهة المشاورة ، ويقول : كن أحرص على حفظ سرِّ صاحبك ، منك على حتمن دمك ، ويقول : أول ما يدلُّ عليه عائبُ الناس معرفته بالعيوب ، ولا يعيب إلا معيباً ، ويقول : المال غير باقٍ عليك ، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك ، ويقول : بذلُ المال في حقه استدعاءً للمزيد من الجواد^(٢) ، وكان يُكثِر أن يقول : لو ملكتُ الأرض بحذافيرها ، ثم دُعيت إلى أن أمتفيد بها خطيئة ما فعلت .

(الكامل للبرد ٢ : ١٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٥٣)

[١] تعبتهم . [٢] أي من المولى الكريم جل وعلا .

اثمار الخوارج ثمانية

٤١١ - خطبة حيان بن ظبيان

فلما كانت سنة ٥٨ هـ ، جمع حيان بن ظبيان السلمي أصحابه إليه ، ثم إنه حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال لهم :

« أما بعد ، فإن الله عز وجل كتب علينا الجهاد ، فَمِنَّا مَنْ قَضَى نَجْبَهُ ^(١) ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَظِرُ ، وأولئك الأبرارُ الفائزون بفضلهم ، ومن يكن مِنَّا مَنْ ينتظر ، فهو من سَلَفِنَا القاصين نحبهم ، السابقين بإحسان ، فمن كان منكم يريد الله وثوابه ، فليَسْلُكْ سبيلَ أصحابه وإخوانه ، يُؤْتِهِ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ، وَاللَّهُ مَعَ الْمُحْسِنِينَ . »

٤١٢ - خطبة معاذ بن جوين

قال معاذ بن جوين الطائي : « يَأْهَلُ الإِسْلَامِ : إنا والله لو علمنا أننا إذا تركنا جهادَ الظلمة ، وإنكارَ الجور ، كَانَ لنا به عند الله عُذْرٌ ، لكان تركه أيسرَ علينا ، وأخفَ من ركوبه ، ولكننا قد علمنا واستيقننا أنه لا عُذْرَ لنا ، وقد جعل لنا القلوب والأسماع ، حتى نُنْكِرَ الظلم ، ونغيّرَ الجور ، ونجاهدَ الظالمين . »

ثم قال : ابسط يدك نبايعك ، فبايعه ، وبايعه القوم ، فضربوا على يد حيان فبايعوه ، وذلك في إمارة عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفي ^(٢) .



ثم إن القوم اجتمعوا بعد ذلك بأيام إلى منزل معاذ بن جوين ، فقال لهم

[١] النعب : الأجل والنذر . [٢] وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان .

حيان : عبادَ الله ، أشيروا برأيكم ، أين تأمرونني أن أخرج ؟ فقال مُعَاذ : إني أرى أن تسير بنا إلى حُلوان^(١) حتى نزلها ، فإنها كُورَة بين السهل والخيّل ، وبين المِصر والشَّعر - يعني بالشَّعر الرّبيّ - فمن كان يرى رأينا من أهل المِصر والشَّعر والجبال والسَّواد^(٢) لحق بنا .

٤١٣ - رد حيان بن ظبيان

فقال له حيان : « عَدُوُّكَ مُعَاجِلُكَ قبل اجتماع الناس إليك ، لعمري لا يتركونكم حتى يجتمعوا إليكم ، ولكن قد رأيت أن أخرج معكم في جانب الكوفة والسَّبَخَة ، أو زُرارة^(٣) والحيرة ، ثم نقاتلهم حتى نلحق برنا ، فإني والله لقد علمت أنكم لا تقدرُون - وأتم دون المائة رجل - أن تهزِموا عدوكم ، ولا أن يشتد نكايتكم فيهم ، ولكن متى علم الله أنكم قد أجهدتم أنفسكم في جهاد عدوه وعدوكم ، كان لكم به العذرُ ، وخرجتم من الأثم » قالوا : رأينا رأيك .

٤١٤ - مقال عتريس بن عرقوب

فقال لهم عتريس بن عرقوب : ولكن لا أرى رأى جماعتكم ، فانظروا في رأي لكم ، إني لا إخالكم تجهلون معرفتي بالحرب ، وتجربتي للأموار ، فقالوا له : أجل ، أنت كما ذكرت ، فما رأيك ؟ قال : ما أرى أن تخرجوا على الناس بالمِصر ، إنكم قليل في كثير ، والله ما تريدون على أن تُحزِرَ زوم^(٤) أنفسكم ، وتُقرِّوا أعينهم بقتلكم ، وليس هكذا تكون المكايدة ، إذ آثرتم أن تخرجوا على قومكم ، فكيدوا عدوكم ما يرضيهم » قالوا : فما الرأى ؟ قال : تسيرون إلى الكورة التي

[١] بلد بفارس . [٢] أي سواد العراق . [٣] حملة بالكوفة . [٤] أي تملكونهم .

أشار بنزولها مُعَاذِ بْنِ جُوَيْنٍ ، يَعْنِي حُلُوَانَ ، أَوْ تَسِيرُونَ بِنَا إِلَى عَيْنِ التَّمْرِ ، فَتَقِيمُ بِهَا ، فَإِذَا سَمِعَ بِنَا إِخْوَانِنَا أَتَوْنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَأَوْبٌ ^(١) »

٤١٥ — رد حيان

فَقَالَ لَهُ حِيَانُ : « إِنَّكَ وَاللَّهِ لَوْ سِرْتِ بِنَا أَنْتَ وَجَمِيعِ أَصْحَابِكَ نَحْوَ أَحَدِ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ ، مَا أَطْمَأْنَنْتُمْ بِهِ حَتَّى يَلْحَقَ بِكُمْ خَيْوَلُ أَهْلِ الْمِصْرِ ، فَأَنْتِ تَشْفُونَ أَنْفُسَكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ مَا عِدَّتُكُمْ بِالْكَثِيرَةِ ، الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَطْمَعُوا مَعَهَا بِالنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا عَلَى الظَّالِمِينَ الْمُعْتَدِينَ ، فَاخْرَجُوا بِجَانِبٍ مِنْ مِصْرِكُمْ هَذَا ، فَقَاتِلُوا عَنْ أَمْرِ اللَّهِ مَنْ خَالَفَ طَاعَةَ اللَّهِ ، وَلَا تَرَبَّصُوا وَلَا تَنْتَظِرُوا ، فَإِنَّكُمْ إِنَّمَا تَبَادِرُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَتُخْرَجُونَ أَنْفُسَكُمْ بِذَلِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ » . قَالُوا : أَمَا إِذَا كَانَ لَا بَدَأَ لَنَا ، فَإِنَّا لَنْ نَخَالَفَكَ ، فَاخْرَجْ حَيْثُ أَحْبَبْتَ .

٤١٦ — خطبة حيان

ثُمَّ إِنَّ أَصْحَابَ حِيَانَ بْنِ ظَبْيَانَ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : « يَا قَوْمَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَمَعَكُمْ لِحَيْرٍ ، وَعَلَى خَيْرٍ ، وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، مَا سُرَّرتْ بِشَيْءٍ قَطُّ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ مَا أَسَاءتُمْ ، سُرُورِي لِمُخْرِجِي هَذَا عَلَى الظُّلْمَةِ الْأُمَّةِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ الدُّنْيَا بِحِذَائِهَا لِي ، وَأَنَّ اللَّهَ حَرَمَنِي فِي مُخْرِجِي هَذَا الشَّهَادَةَ ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ نُخْرَجَ حَتَّى نَنْزِلَ جَانِبَ دَارِ جَرِيرٍ ، فَإِذَا خَرَجَ إِلَيْكُمْ الْأَحْزَابُ نَاجِزْتُمُوهُمْ » .

فَقَالَ عَتْرِيْسُ بْنُ عُرْقُوبٍ : أَمَّا أَنْ نَقَاتَلَهُمْ فِي جَوْفِ الْمِصْرِ ، فَإِنَّهُ يَقَاتِلُنَا الرِّجَالُ ، وَتَصَعَّدَ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانَ وَالْإِمَاءَ فَيَرْمُونَنَا بِالْحِجَارَةِ ، فَقَالَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْهُمْ : انزِلُوا بِنَا إِذْنَ مِنْ وَرَاءِ الْمِصْرِ الْجِسْرَ - وَهُوَ مَوْضِعُ زُرَّارَةَ ، وَإِنَّمَا بَنِيَتْ

[١] الأرب : الطريق والجهة .

زرارة بعد ذلك إلا أياتاً يسيرة كانت منها قبل ذلك - فقال لهم معاذ بن جوين:
لا . بل سيروا بنا فلننزل بانقياً^(١) ، فما أسرع ما يأتكم عدوكم ، فإذا كان ذلك
استقبلنا القوم بوجوهنا ، وجعلنا البيوت في ظهورها ، فقاتلناهم من وجه واحد ،
نخرجوا ، فبُعِثَ إليهم جيشٌ ، فقتلوا جميعاً . (تاريخ الطبري ٦ : ١٧٢)

٤١٧ - خطبة مسلم بن عبيدس

حين خرج لقتال الأزارقة

لما ملك نافع بن الأزرق - زعيم الأزارقة^(٢) - بلاد الأهواز ، وفشا عماله
في السواد ، ارتاع لذلك أهل البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس ، فشكوا
ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان ، وسيرتهم ماترى ، فقال
الأحنف : إن فعلهم في مصركم إن ظفروا به كفعلهم في سوادكم ، فخذوا في
جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه عشرة آلاف ، فأتى عبد الله بن الحرث بن نوفل^(٣)
أمير البصرة ، فسأله أن يؤمر عليهم ، فاختر لهم مسلم بن عبيدس ، وكان ديناً
شجاعاً ، فأمره عليهم وشيعه .

فأما نفذ من جسر البصرة أقبل على الناس فقال : «إني ما خرجت لامتيار^(٤)»

[١] بانقيا : ناحية من نواحي الكوفة .

[٢] قدما لك في « مناظرة عبد الله بن الزبير للخوارج » أن الخوارج كانوا قد مضوا إلى مكة
سنة ٦٤ ليمنعوا الحرم من جيش يزيد ، وناصروا ابن الزبير ، وقاتلوا معه ، ثم ناظروه ، فلم يرقهم ما سمعوا
منه ، فتفرقوا عنه ، وصارت طائفة كبيرة منهم إلى البصرة ، ونابعوا نافع بن الأزرق الحنفي ، وسموه أمير
المؤمنين ، وخرج بهم إلى الأهواز ، فغلبوا عليها وعلى ما وراءها من أرض فارس وكرمان ، ونسبوا
إليه ف قيل لهم : الأزارقة ، وهذه العرقه من أشد فرق الخوارج بأسا ، وأصلها عوداً ، وأكثرها عدداً
وأحفلها حوادث وأبناء .

[٣] اطر هامش ص ٢٠٣ . [٤] أي الجلب ، وأصله من امتار لأهله : جلب لهم الميرة
بالكسر وهي الطعام .

ذهب ولا فضة ، وإني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فساوراءهم إلا سيوفهم
ورماحهم ، فمن كان شأنه الجهادَ فلينهض ، ومن أحب الحياة فليرجع .
فأما صاروا « بِدُولَابٍ » خرج إليهم نافع ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل في
المعركة ابن عبيس وابن الأزرق سنة ٦٥ هـ . (الكامل للبرد ٢ : ١٨٠)

خطب المهلب بن أبي صفرة

٤١٨ - خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة

وكان المهلب بن أبي صفرة - وهو على قتال الأزارقة - يأمر أصحابه بالتحرز
ويخوفهم البيات ، وإن بعد منهم العدو ، ويقول : « احذروا أن تُسكادوا كما
تَكيدون ، ولا تقولوا هزَمنا وغلبنا . فإن القوم خائفون وجِلون ، والضرورة
تفتح باب الحيلة ، ثم قام فيهم خطيباً فقال : « يا أيها الناس ، إنكم قد عرفتم
مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قَدَرُوا عليكم فتنوكم في دينكم ، وسفكوا
دماءكم فقاتلوهم على ما قاتل عليه أولههم علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فقد
لَقِيهم قبلكم الصابر المحتسب مُسَلِّم بن عُيَيْس ، والعَجَل المفرط عثمان بن
عبيد الله ^(١) ، والمعصي المخالف حارثة بن بدر ، فقتلوا جميعاً وقتلوا ، فالقوهم بجد

[١] هو أخو عمر بن عبيد الله بن معمر الذي ولاه ابن الزبير البصرة (تولاهما بعد عبد الله بن الحرث
ابن نوفل) ، وولى عثمان محاربة الأزارقة بعد مسلم بن عبيس ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً ، فلما دبروا
إليهم دحيلة نرض إليهم الخوارج - وذلك قبيل الظهر - فقال عثمان بن عبيد الله حارثة بن بدر : أما
الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة : حسبك بهؤلاء ، فقال : لا جرم ، والله لا أتدنى حتى أمأجرم ،
فقال له حارثة : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتسلف ، فأبقى على نفسك وجندك ، فقال : أيتم أهل المراق إلا
جنباً ، وأنت يا حارثة ما علمك بالحرب ؟ أنت والله بغير هذا أعلم (يعرض له بالشراب) فغضب حارثة فاعتزل
وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قليلاً ، وانهمز الناس ، وولى حريمهم بعده
حارثة بن بدر فهزموه أيضاً ، فهرب يركض حتى أتى دحيلة ، فركب سفينة هو وجماعة من أصحابه ، وأقام

وحدّ ، فإنما هم مهنتكم ^(١) وعارٌ عليكم ، وتقصُّ في أحسابكم وأديانكم
أن يغلبكم هؤلاء على فيثكم ، ويطنّوا حرّيعكم .

(الكامل للبرد ٢ : ١٨٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٥)

٤١٩ - خطبة أخرى له في جنده

وخطب أصحابه ، وقد مال الخوارج بأجمعهم على العسكر ، وانهمز الناس

بسؤلأف فقال :

« والله ما بكم من قلة ، وما ذهب عنكم إلا أهلُ الجبن والضعف ، والطمّع
والطمّيع ^(٢) ، فإن يمتسككم قرح ^(٣) فقدّ مسّ القوم قرحٌ مثله ، فسيروا إلى

عدوكم على بركة الله . (الكامل للبرد ٢ : ١٩١ ، وشرح ابن أبي م ١ : ص ٣٨٦)

٤٢٠ - نص آخر

وروى الطبري خطبة المهلب في أصحابه يوم هزموا فقال :

ثم إن الخوارج شدت على الناس بأجمعها شدّة منكرة ، فأجفل الناس ،
وانصاعوا ^(٤) منهزمين ، لا تلوي ^(٥) أمّ على ولد ، حتى بلغ البصرة هزيمة الناس ،
وخافوا السبأ ^(٦) ، وأسرع المهلب حتى سبقهم إلى مكان يفاع ^(٧) ، في جانب عن
سننّ المنهزمين ، ثم إنه نادى الناس : إلىّ إلىّ عباد الله ، فتاب إليه جماعة من

رجل من بني تميم ، وعليه سلاحه ، والخوارج وراءه ، فصاح به : يا حارث ليس مثلي ضيع ، فقال للملاح :
قرب ، فقرب إلى جرف ، فطفر بسلاحه في السفينة ، فساخت بالقوم جميعاً ، فماتوا عرقاً ، وتوجه الخوارج
نحو البصرة ، فضج الناس ، وخافوهم خوفاً شديداً ، واختاروا لقتالهم المهلب بن أبي صفرة ، فولاه القبايع
(وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي والى البصرة من قبل ابن الزبير بعد عمر بن عبيد الله) .

[١] جمع ما هن ، وهو العبد والحادم . [٢] الشين والعيب .

[٣] القرح ويضم عض السلاح ونحوه مما يخرج بالبدن ، أو بالفتح : الآثار ، وبالضم : الألم .

[٤] انصاع : انقل راجعاً مسرطاً . [٥] مرّ لا يلو على أحد : أي لا يقف ولا ينتظر .

[٦] السبي . [٧] يفاع : ما ارتفع من الأرض .

قومه ، فاجتمع إليه منهم نحو من ثلاثة آلاف ، فلما نظر إلى من قد اجتمع رضى جماعتهم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الله ربنا يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فيُهزَمون ، ويُنزَل النصر على الجمع اليسير فيَظهَرُونَ ، ولعمري ما بكم الآن من قلة ، إني لجماعتكم لراضٍ ، وإني لآتئم أهل الصبر ، وفُرسان أهل المِصر ، وما أحبُّ أن أحداً ممن انهزم معكم ، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خَبالاً ^(١) ، عَزَمْتُ على كل امرئٍ منكم لما أخذ عشرة أحجار ^(٢) ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم ، فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم ، فوالله إني لأرجو ألا ترجع إليهم خيلهم ، حتى تستبيحوا عسكرهم ، وتقتلوا أميرهم » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٨٨)

٤٢١ - خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة

ولما كتب إليه مُصعب بن الزبير أن أقدم على ، واستخلف ابنك المغيرة ، جمع الناس فقال لهم : « إني قد استخلفت عليكم المغيرة ، وهو أبو صغيركم : رِقَّةٌ ورحمة ، وابنٌ كبيركم : طاعةٌ وبرٌّ وتبجيلاً ، وأخو مثله : مؤاساةٌ ومناصحةٌ ، فلتَحْسُنْ له طاعتكم ، وليلنْ له جانبكم ، فوالله ما أردت صواباً قط إلا سَبَقَنِي إليه » ، ثم مضى إلى مصعب .

(الكامل للبرد ٢ : ١٩٨ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٩)

٤٢٢ - خطبة الزبير بن علي في الأزارقة

وكان نافع بن الأزرق قبل قتله استخلف عبيد الله بن بشير بن الماحوز

[١] فسادا . [٢] وفي الكامل للبرد : وقال المهلب لأصحابه : أعدوا مخالي فيها حجارة ، وارموا بها في وقت الغفلة ، فإنها تصد الفارس ، وتصرع الراجل ، وقال رجل من الخوارج :
أنا ما بأحـجار ليقتلنا بها وهل تقتل الأبطال وبمحك بالحر ؟

السليطي ، وقتل ابن الماحوز يوم سِليّ وسِلبري^(١) ، فاجتمعت الخوارج بأرّجان ، فبايعوا الزبير بن عليّ السليطي ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضعفاً بيننا ، فقال لهم : اجتمعوا .

فحمّد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال : « إن البلاء للمؤمنين تمحيصٌ وأجرٌ ، وهو على الكافرين عقوبة وخزى ، وإن يُصَبَّ منكم أمير المؤمنين ، فما صار إليه خيرٌ مما خلفَ ، وقد أصبتم منهم مسلم بن عبيس ، وربيعة الأجدم^(٢) ، والحجاج بن باب ، وحاتمة بن بدر ، وأشجيتهم المهلب ، وقتلتم أخاه المَعَارِك^(٣) ، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين : « إِنَّ يَمَسَّنْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » ، فيوم سِليّ كان لكم بلاء ، وتمحيصاً ، ويوم سُولاف^(٤) كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تُغْلَبُنَّ على الشكر في حينه ، والصبر في وقته ، وثِقُوا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والعاقبَةُ للمتقين » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ م : ص ٣٨٨)

[١] مجموع اللفظين موضع واحد بالاهواز قرب جند بسابور ، وقعت فيها وقعة بين الخوارج والمهلب ، وقتل فيها ابن الماحوز رئيس الخوارج ، وفي ذلك يقول رجل منهم :

سلي وسلبري مصارع فتية كرام وجرحي لم توسد خذودها

[٢] كان مسلم بن عبيس تقدم إلى أصحابه « يوم دولاب » فقال : إن أصبت فأمرم الرياح بن عمرو الاجدم ، فلما أصيب ابن عبيس أخذ الرياح الراية ، فلم يزل يقاتلهم نيفاً وعشرين يوماً حتى قتل ، ثم أخذها الحجاج بن باب الخيري ، فلم يزل يقاتلهم زهاء شهر حتى قتل أيضاً ، البقي هو ، وعمران بن الحارث الراسي فاختلفا ضربين ، فسقطا ميتين .

[٣] وكان ابن الماحوز وجه بعض جيشه إلى نهر تيرى ، وبها المَعَارِك بن أبي صفرة ، اقتلوه وصلبوه ، فنمى الخيل إلى المهلب ، فوجه ابنه المفيرة ، فدخل نهر تيرى ، فاستنزله ودفنه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه . [٤] وفي ذلك اليوم يقول رجل من الخوارج :

وكأن تركنا يوم سولاف منهم أسارى وقتلى في الجحيم مصيرها

٤٣٣ - خطبة عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار

وانحط الزبير بن عليّ على أصفهان^(١) ، فحصر بها عتاب بن ورقاء الرياحي سبعة أشهر ، وعتابٌ يحاربه في بعضهن ، فلما طال به الحصار ، وأصابه الجهد الشديد ، دعا أصحابه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس ما تنتظرون وقد أصابكم من الجهد ما قد ترون ؟

فوالله إن^(٢) بقي مع هذا الحصار إلا أن يموت أحدكم على فراشه ، فيجىء أخوه فيدفنه إن استطاع ، وبالحرى أن يضمف عن ذلك ، ثم يموت هو ، فلا يجد من يدفنه ولا يصلي عليه ، فاتقوا الله ، فوالله ما أتم بالقليل الذين تهون شوكتهم على عدوهم ، وإن فيكم لفرسان أهل مصر ، وإنكم لصلحاء من أتم منه ، ولقد حاربتموهم مراراً فانتصفتهم منهم ، أخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم ، وبكم حياة وقوة ، قبل أن لا يستطيع رجل منكم أن يتشى إلى عدوه من الجهد ، وقبل أن لا يستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لو جاءته ، فقاتل رجلاً عن نفسه وصبر وصدق ، فوالله إني لأرجو إن صدقتموهم أن يظفركم الله بهم ، وأن يظهوركم عليهم . »

فلما أصبح الغد صلى بهم الصبح ، ثم خرج إلى الخوارج ، وهم غارثون ، فلم يشعروا بهم حتى غشوهم ، فقاتلوهم بجده لم ير الخوارج منهم مثله ، فمقرّوا منهم خلقاً ، وقتلوا رئيسهم الزبير بن عليّ ، وانهزمت الخوارج .

ثم أدار الخوارج أمرهم بينهم ، فولّوا عليهم قطريّ بن الفجاءة المازنيّ وبايعوه .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٦٦ ، والكمال للبرد ٢ : ٢٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٩١)

[١] أصبهان : بفتح الهمزة والباء ، وقد كسر همزتها ، وقد نبدل باؤها فاء .

[٢] إن هنا نافية .

٤٢٤ — نصيحة عرهم العدوى لخالد بن عبدالله

ولما بعث خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد^(١) أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة^(٢) ، قام إليه عرهم أخو بني العدوية ، فقال :
« أصلح الله الأمير ، إن هذا الحى من تميم تَطِطُ^(٣) بقريش منهم رَحِمٌ دَاسَةٌ مَاسَةٌ ، وإن الأزارقة ذؤبان العرب وسباعها ، وليس صاحبهم إلا المباكر المُنَاكِر ، المُجَرَّب^(٤) ، الذى أَرْضَعَتْهُ الحَرْبُ بِلَبَانِهَا ، وَجَرَّسَتْهُ^(٥) وَضَرَّسَتْهُ ، وذلك أخو الأزدي المهلب بن أبي صُفْرَةَ ، والله إن غَنَّاكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ سَمِينِهِ ، ولكنى أخاف عَدَوَاتِ الدهر وغدره ، وليس المُجَرَّبُ كَمَنْ لَا يُعْتَلَمُ ، ولا الناصح المشفق ، كالغاشِّ المُتَهَمِ » ، قال له خالد : اسكت ، ما أنت وذا ؟ .
وقد هزمت الأزارقة عبد العزيز ، وأخذوا امرأته^(٦) وَفَرَّ عَنْهَا . (ذيل الأمل من ٣٣)

[١] كان والى البصرة وأعمالها من قبل عبد الملك بن مروان من سنة ٧١ إلى سنة ٧٤ (انظر من ٢٢٠) .
[٢] قال أبو العباس المبرد فى الكامل (٢ : ٢٠٧) : « ومضى قطرى إلى كerman ، فأصرف خالد إلى البصرة ، فأقام قطرى بكرمان أشهراً ، ثم عمد لعارس ، وخرج خالد إلى الاهوار ، وندب لئاس رجلاً فحملوا يطلبون المهلب ، فقال خالد : « ذهب المهلب بحط هذا المصر ، لئى قد وليت أخى قتال الأزارقة » فولى أخاه عبد العزيز ، واستحلف المهلب على الاهواز فى ثلاثمائة ، ومضى عبد العزيز فى ثلاثين ألفاً ، فحمل صد العزيز يقول فى طريقه : « يزعم أهل البصرة أن هذا الاسر لا يتم إلا بالمهلب وسيمامون ! » إلى أن قال : فهاضمهم عبد العزيز ، فواقفوه ساعة ، ثم انهزموا عنه مكيدة ، فاتبعهم ، فقال له الناس : لا تتبعهم فإننا على غير تعبية فأبى ، فلم يزل فى آثارهم حتى اقتحموا ناقة ، فاقنعمها وراءهم ، والناس ينهونه وبأبى وكان لهم فى اطن العقبة كمين ، فلما صاروا وراءهم خرج عليهم السكينة ، وانحاز عبد العزيز ، وانبعهم الخوارج يقتلونهم كيف شاؤوا .

[٣] أصله من أطّ الرجل أطيطاً : صوت . [٤] من حرب السنان : حدده .

[٥] التجريس : التحكيم والتحرية ، وضرسته الحرب تضريساً : حربته وأحكمته أيضاً .

[٦] وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود ، فسبى الخوارج النساء يومئذ وكانت أم حفص ممن سببن ، قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد (٢ : ٧٥) : « فأقاموها فى السوق حاسرة بادية الخاسن ، فاعترضوها وقلبوها ، وكانت من أكل الناس كلاً وحسناً ، فتزايدت فيها العرب ، والموالى ، حتى بلغها تسعين ألفاً ، فأقبل رجل من الخوارج من عبد القيس من خلفها ، فضرب عنقها ، فأخذوه ورفعوه إلى قطرى بن الفجاءة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا استهلك تسعين ألفاً من بيت

٤٣٥ — خطبة قطري بن الفجاءة^(١)

وصعد قطري بن الفجاءة منبر الأزارقة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإني أحذركم الدنيا ، فإنها خلوة خضيرة^(٢) ، حفت^(٣)
بالشبهوات ، وراقت^(٤) بالقليل ، وتحببت بالعاجلة^(٥) ، وحليت^(٦) بالآمال ،
وتزيّنت بالغرور ، لاتدوم حبرتها^(٧) ، ولا تؤمن فجعتها ، غرارة ضرارة ،
خوانة غدّارة ، وحائلة^(٨) زائلة ، ونافذة^(٩) بأثدة ، أكالة غوالة^(١٠) ، بدالة
نقالة ، لاتعدو إذا هي تناهت إلى أمنيّة أهل الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن
تكون كما قال الله تعالى : « كماء أنزلناه من السماء ، فاختلفت به نبات الأرض ،

المال ، وقتل أمة من إمام المؤمنين ، فقال له : ماتقول ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت هؤلاء قد
تازعوا عليها ، حتى ارتفعت الأصوات ، واحمرت الحدق ، فلم يبق إلا الخط بالسيرف ، فرأيت أن تسعين
ألمأ في جنب ماخشيت من الفة بين المسلمين هبة ، فقال قطري : حلوا عنه ، عين من عيون
الله أصابتها » اه .

[١] أورد الشريف الرضى رحمه الله هذه الخطبة في نوح البلاة ، وعراها إلى الإمام على كرم الله
وجهه ، وكذلك الغضائى فى دستور معالم الحكم ، وقال ابن أبى الحديد فى شرحه (م ٢ : ص ٢٤٢) :
« وهذه الخطبة دكرها شيخنا أبو عثمان الجاحظ فى البيان والنبين ، ورواها لقطري بن الفجاءة ،
والناس يروونها لأمير المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها فى كتاب الموقى لأبى عيد الله المرزبانى ، مروية
لأمير المؤمنين عليه السلام ، وهى بكلام أمير المؤمنين أشبه ، وليس يبعد عندى أن يكون قطري قد خطب
بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأصاره ، وقد
لقى قطري أكثرهم » .

[٢] أى ناضرة ، من حضر الزرع كفرح ، فهو أخضر وخضر ، وهو من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم — انظر خطبته فى الجزء الأول ص ٥٥ : [٣] أى أطافت بها الشهوات .

[٤] أحببت أهلها بمناع قليل ليس بدائم . [٥] أى وتحببت إليهم باللذة العاجلة ، (والفسس مولعة
بجب العاجل) . [٦] حليت المرأة فهى حال وحالية كتحتل « وفى رواية : وتعلمت » .

[٧] الخبرة : السرور ، وفى رواية : « لاتقوم نضرتها » ، لاتقوم : لانتبت ، والنضرة : النعمة
والغنى والحسن . [٨] أى متحولة متغيرة من حال يحول ، وفى رواية « خاتلة » أى خادعة .
[٩] أى هالكة فانية من نقد يفقد كفرح . [١٠] أى مهلكة من عاله ينوله .

فَأَصْبَحَ هَشِيماً^(١) تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ، مع أن
 امرأاً لم يكن منها في حَبْرَةٍ ، إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بَعْدَهَا عَبْرَةٌ ، ولم يَلْتَقَ من سَرَّأُهَا بَطْنًا ،
 إِلَّا مَنْحَتَهُ من ضَرَّأُهَا ظَهْرًا^(٢) ، ولم تَطْلُغْ غَيْثَةً^(٣) رِخَاءً ، إِلَّا هَطَلَتْ^(٤) عليه مِرْنَةٌ
 بِلَاءً ، وَحَرَى إِذَا أَصْبَحَتْ له مَنْتَصِرَةً ، أن تُنْسِيَ له خَاذِلَةً مُتَنَكِّرَةً ، وإن جَانِبُ
 منها اعْدُوذِبَ وَاحْلُوذَى^(٥) ، أَمْرٌ عليه منها جَانِبٌ وَأَوْبَى^(٦) ، وإن آتت امرأً
 من غَضَارَتِهَا^(٧) وَرَفَاهَتِهَا نِعْمًا ، أَرْهَقَتْهُ من نَوَائِبِهَا تَعَبًا ، ولم يُنْسِ امرؤٌ منها
 في جَنَاحِ أَمْنٍ ، إِلَّا أَصْبَحَ منها على قَوَادِمِ^(٨) خَوْفٍ ، غَرَّارَةٌ ، غُرُورٌ مَا فِيهَا ،
 فَانِيَةٌ ، فَإِنِ مَا عَلَيْهَا ، لِأَخِيرِ فِي شَيْءٍ مِنْ زَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى ، من أَوَّلِهَا منها اسْتَكْرَمَ
 مِمَّا يُؤْتَمِنُهُ ، وَمِنْ اسْتَكْرَمَ مِنْهُ اسْتَكْرَمَ مِمَّا يُؤْبِقُهُ^(٩) ، وَيُطِيلُ حُزْنَهُ ، وَيُبْسِكِي
 عَيْنِيهِ ، كَمِ وَائِقٍ بِهَا قَدْ جَمَعَتْهُ ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَعَتْهُ^(١٠) ، وَذِي
 اخْتِيَالٍ^(١١) فِيهَا قَدْ خَدَعَتْهُ ، وَكَمِ مِنْ ذِي أُبْهَةِ فِيهَا قَدْ صَيَّرَتْهُ حَقِيرًا ، وَذِي نَحْوَةِ

- [١] الهشيم : ماتهم وتخطم ، وتذروه : أى نظيره . [٢] كسى بالبطن والظاهر عن إفاها عليه وإدارها عنه لأن الملاق لك بالصدر ملاق بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمعطيك ظهره مدبر عنك .
 [٣] طله السحاب يطله : إذا أمطره مطراً قليلاً ، وربما كانت « غيثة » مصحفة عن « غيبة » والغيبة
 بفتح الغين : المطرة غير الكثيرة ، وى رواية « ديمة » والديمة بالكسر : مطر يدوم فى سكون بلا
 رعد وبرق . [٤] هطلت السماء بكلس هطلا : تابع مطرها ، وى رواية : « هتنت » هتنت السماء
 بكلس أيضاً هتناً : انصبت ، أو هو فوق الهطل ، والمرنة : السحابة أو ذات الماء .
 [٥] أى صار عدبا حلوا . [٦] أمر : صار مرا ، وأوى : مسهل عن أوبأ ، أى صار ويثا ،
 وبثت الأرض كعرج وكرم وعى ، وأوبأت : صارت كثيرة الوباء ، وهو الطاعون أو كل مرض عام .
 [٧] النصارى : العمة والسعة والحصب ، وأرهمته : حمله على مالا يطيقه ، وى رواية : « لا ينال امرؤ
 من غضارتها رعا » والرغب بالتحريك ماترغب فيه ، وى رواية : « فإن آتت امرأ من غصوننا ورقا » ،
 وى رواية : « وإن لبس امرؤ من غصارتها ورفاهيتها عمأ ، أرهمته من نوائبها غما » .
 [٨] القوادم : أربع أو عشر ريشات فى مقدم الجناح ، الواحدة قادمة ، وخس الحوف بالقوادم لأنها
 مقاديم الريش ، والراكب عليها بعرض سقوط قريب . [٩] يهلكه . [١٠] وى رواية : « وذى
 حكم ننته إليها قد صرعه » . [١١] الاختيال : الكبر والمعجب ، والأبهة : الغلظة ، والبهجة
 والكبر والنحوة .

قد رَدَّتْهُ ذَلِيلًا ، وَكَمْ مِنْ ذِي تَاجٍ قَدْ كَبَّتْهُ ^(١) لِلدِّينِ وَالْفَمِّ ، سُلْطَانَهَا دُؤُولٌ ،
وَعَيْشَهَا رَتْقٌ ^(٢) ، وَعَذْبُهَا أَجَاجٌ ، وَخُلُوهَا صَبْرٌ ، وَغِدَاؤُهَا سِمَامٌ ، وَأَسْبَابُهَا ^(٣)
رِمَامٌ ، وَقِطَافُهَا سَلَعٌ ^(٤) ، حَيْثُهَا بَعْرَاضُ مَوْتٍ ، وَصَحِيحُهَا بَعْرَاضُ سُقْمٍ ، وَمَنْعِيهَا
بَعْرَاضُ اهْتِضَامٍ ، مَلِيكُهَا مَسْلُوبٌ ، وَعَزِيزُهَا مَغْلُوبٌ ، وَسَلِيمُهَا مَنْكُوبٌ ،
وَجَامِعُهَا مَحْرُوبٌ ^(٥) ، مَعَ أَنْ وَرَاءَ ذَلِكَ سَكْرَاتُ الْمَوْتِ ، وَهَوُولَ الْمُطَّلَعِ ،
وَالْوَقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الْحَاكِمِ الْعَدْلِ « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ
الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » .

أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنٍ مِنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَوْضَحَ مِنْكُمْ آثَارًا ، وَأَعَدَّ
عَدِيدًا ، وَأَكْثَفَ جُنُودًا ، وَأَعْتَدَ عَتَادًا ^(٦) ، وَأَطْوَلَ عِمَادًا ؟ تَعْبُدُوا ^(٧) لِلدُّنْيَا
أَيَّ تَعْبُدُوا ! وَآثُرُوهَا أَيَّ إِثَارٍ ! وَظَنَعُوا عَنْهَا بِالْكَرْهِ وَالصَّغَارِ ! فَهَلْ بَلَغْتُمْ أَنَّ الدُّنْيَا
سَمَّحَتْ لَهُمْ نَفْسًا بِفِدْيَةٍ ، أَوْ أَغْنَتْ عَنْهُمْ فِيمَا قَدْ أَهْلَكْتَهُمْ بِخَطْبٍ ^(٨) ؟ بَلْ قَدْ
أَرْهَقْتَهُمْ بِالْفَوَادِحِ ^(٩) ، وَضَعُضَعْتَهُمْ بِالنَّوَابِ ، وَعَقَّرْتَهُمْ بِالْمَصَائِبِ ^(١٠) ، وَقَدْ

[١] صرخته وقلبه . [٢] رنق الماء كفرح وصر : كدر ، فهو رنق كعدل وكتب وجبل ،
وأجاج : ملح مر ، وسام جمع سم مثلث السين . [٣] أسباب جمع سبب : وهـ الجبل ، ورمام :
بالية ، حل أرمام ، ورمام : أى بال . [٤] السلع : شجر مر ، أو سم ، أو صرب من الصبر ، أو
بقلة خبيثة الطعم . [٥] مسلوب ، من حره حرما كمله طلباً : سلب ماله فهو محروب وحرير ، وفي
رواية : « وجارها محروب » . [٦] العتاد : العدة ، وقد عتد ككرم عتاداً فهو عتيد : أى حاصر
مهاً ممداً ، وفي رواية : « وأشد عتوداً » من عند عن الطرين كنصر وسمع وكرم عتوداً : أى مالك ،
وفي رواية : « وأشد عتوداً » . [٧] أى استعبدتهم الدنيا ، تعبدوه : اتخذوه عبداً .

[٨] أى بشان وأسر . [٩] الفوادح : النوائب المثقلة ، من فدحه الدين إذا أنقله ، وفي رواية :
« الفوادح » والفوادح جمع فادح : وهو أكل يقع في الشجر والأسنان ، وفي رواية : « وأوهقتهم »
أى جعلتهم في الوهق بفتح الهاء وتسكينها : وهو حبل كالطول .

[١٠] وفي رواية : « وعقرتهم بالفجائع » وفي رواية : « وعقرتهم المناحر ، ووظفهم بالماسم » ،
عقرتهم للمناخر : ألصقت أنوفهم بالعقر (كسبب وسكن) وهو الزناز ، والمناخر جمع منجر بفتح الميم
والهاء ، وبكسرهما ، وبضمهما ، وكلمة : الأناب ، والماسم جمع منسم كجلس وهو خب البعير .

رَأَيْتُمْ تَنْكُرُهَا لِمَنْ دَانَ^(١) لَهَا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا ، حِينَ ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ ، إِلَى آخِرِ الْمُسْنَدِ^(٢) ، هَلْ زُوِّدْتَهُمْ إِلَّا السَّغَبَ^(٣) ، وَأَحْلَتَهُمْ إِلَّا الضَّنْكَ ، أَوْ نَوَّرَتْ لَهُمْ إِلَّا الظُّلْمَةَ ، أَوْ أَعَقَبْتَهُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ ؟ أَفَهَذِهِ تُؤْتِرُونَ ، أَمْ عَلَى هَذِهِ تَحْرِصُونَ ، أَمْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُونَ ؟ يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ، فَبُئِستِ الدَّارُ لِمَنْ لَمْ يَتَّهَمْهَا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا عَلَى وَجَلٍ مِنْهَا .

فَاعَاهُوا - وَأَنْتُمْ تَعَاهُونَ - أَنْكُمْ تَارْكُوهَا لِأَبَدٍ ، فَإِنَّمَا هِيَ كَمَا وَصَفَهَا اللَّهُ بِاللَّعِيبِ وَاللَّهُو ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « أَتَدْبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ^(٤) آيَةً تَعْبَثُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ » ، وَاتَعَطَّوْا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالُوا : « مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » ، مُجَلُّوْا إِلَى قُبُورِهِمْ فَلَا يُدْعَوْنَ رُكْبَانًا ، وَانزَلُوا الْأَجْدَاثَ فَلَا يُدْعَوْنَ^(٥) ضَيْفَانًا ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الضَّرِيحِ أَكْنَانٌ^(٦) ، وَمِنَ النَّرَابِ أَكْفَانٌ ، وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ ، فَهَمَّ جِيرةً لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا ، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا ، وَلَا يَبَالُونَ مَنْدَبَةً^(٧) ، إِنْ أَخْصَبُوا^(٨) لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ قَحِطُوا^(٩) لَمْ

[١] أَى خَصَعَ لَهَا وَدَلَّ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « لِمَنْ رَادَهَا » أَى طَلَبَهَا ، رَادَهُ رُودًا ، وَأَخْلَدَ إِلَيْهَا : مَالَ .
 [٢] الْمُسْنَدُ : الْأَمْرُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « إِلَى آخِرِ الْأَمَدِ » . [٣] الْجُوعُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « الشَّقَاءُ » وَالصِّقَ : الصِّقَ . [٤] نَزَلَ فِي عَادٍ قَوْمِ هُودٍ ، الرِّيحُ : الْمَرْتَمَعُ مِنَ الْأَرْضِ ، آيَةٌ : أَى أَبْنِيَةٌ وَقُصُورًا يَفْتَخِرُونَ بِهَا ، وَيَعْبَثُونَ بِالْفُقَرَاءِ ، وَيَتَطَاوَلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِهَا ، وَالْمَصَانِعُ : الْمَبَانِي مِنَ الْقُصُورِ وَالْحِصُونِ . [٥] وَفِي رِوَايَةٍ : « فَلَا يَرْعُونَ » أَى فَلَا يَرْتَعُونَ أَحَدًا .
 [٦] الْأَكْنَانُ جَمْعُ كَنٍّ بِالْكَسْرِ : وَهُوَ وَفَاءُ كُلِّ شَيْءٍ وَسِتْرُهُ ، وَالضَّرِيحُ : الْقَبْرُ أَوْ النَّقِ وَسَطُهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الصَّفِيحِ أَجْنَانٌ » ، وَالْأَجْنَانُ جَمْعُ حَبْنٍ كَسِبَ وَهُوَ : الْقَبْرُ ، وَالصَّفِيحُ : الْحِجَارَةُ الْعَرَاضُ ، وَالرُّفَاتُ : الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ . [٧] الْمَنْدَبَةُ : الدَّبُّ عَلَى الْمَيْتِ . [٨] وَفِي رِوَايَةٍ : « إِنْ حِيدُوا » مِنْ جَادَمِ الْعَيْثِ إِذَا أَمْطَرُوا . [٩] قَحِطَ النَّاسُ كَسَمْعٍ ، وَقَحِطُوا وَأَنْحَطُوا مَبْنِيينَ لِلْمَجْهُولِ (قَلِيلَتَانِ) ، وَبِكُلِّ رُوي .

يَقْنَطُوا ، جَمَعَ وَهُمْ آحَادٌ ، وَجِيرةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ ، مَتْنَاءُ وَنَ لَا يَزُورُونَ وَلَا يُزَارُونَ ،
 حُمَلَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَانُهُمْ ، وَجُهْلَاءٌ قَدْ مَاتَتْ أَحْقَادُهُمْ ، لَا يُخْشَى فِجْمُهُمْ ، وَلَا
 يُرْجَى دَفْعُهُمْ ، وَكَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « قَتَلْتَ مَسَاكِينَهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ
 إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » ، اسْتَبَدَلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنًا ، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا ،
 وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً ، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً ، فَفَارَقَوْهَا كَمَا دَخَلُوهَا ، حُفَاةً عُرَاهُ فُرَادَى ، غَيْرَ
 أَنْ ظَعَنُوا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ ، وَإِلَى خُلُودِ الْأَبَدِ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : « كَلَّا
 بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » ، فَاحْذَرُوا مَا حَذَرَكَمُ
 اللَّهُ ، وَاتَّقُوا بِمَوَاعِظِهِ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِهِ ، عَصَمْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَرَزَقْنَا
 وَإِيَّاكُمْ آدَاءَ حَقِّهِ » . (البيان والتبيين ١ : ٦٣ ، وَصَبْحُ الْأَعْمَى ١ : ٢٢٣ ، وَالْمَقْدَالْفَرِيدُ

٢ : ١٦٠ ، عِيُونُ الْأَخْبَارِ م ٢ : ص ٢٥٠ ، وَنَهْيَةُ الْأَرْبِ ٧ :
 ٢٥٠ ، وَنَهْجُ الْبَلَاغَةِ ١ : ١٢٢ ، دَسْتُورُ مَمَالِمِ الْحَكْمِ ص ٥١)

٤٣٦ — خُطْبَةُ عَبْدِ رَبِّهِ الصَّغِيرِ

وَمَا دَبَّتْ عِقَابُ الْخِلَافِ بَيْنَ الْأَزَارِقَةِ ، وَلَعِبَتْ بِهِمُ يَدُ الشَّقَاقِ ، خَلَعُوا
 قَطْرِيَّ بْنَ الْفَجَاءَةِ ، وَوَلَّوْا عَبْدَ رَبِّهِ الصَّغِيرَ ، فَانْفَصَلَ إِلَى عَبْدِ رَبِّهِ أَكْثَرَ مِنْ (١)
 الشَّطْرِ ، وَنَشِبَتْ الْحَرْبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَهْلَبِ ، فَأَجَلَّتْ الْوَقْعَةُ عَنْهُ قَتِيلًا ، وَقَدْ جَمَعَ
 أَصْحَابَهُ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي قَتَلَ فِي صَبِيحَتِهَا ، فَقَالَ :

« يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ : إِنْ قَطَرِيًّا وَعَبِيدَةَ (٢) هَرَبَا طَلَبَ الْبَقَاءَ ، وَلَا سَبِيلَ
 إِلَيْهِ ، فَالْقُوا عَدُوَّكُمْ ، فَإِنْ غَلَبَكُمْ عَلَى الْحَيَاةِ ، فَلَا يَغْلِبُنَّكُمْ عَلَى الْمَوْتِ ، فَتَلَقَّوْا

[١] أَمَا قَطْرِيٌّ فَقَدْ ارْتَحَلَ وَمِنْ مَعَهُ إِلَى طَبْرِسْتَانَ ، فَوَجَّهَ الْحِجَابَ إِلَيْهِ حَيْثُ أَعْلَى سَسْفِيَانَ بْنَ الْأَبْرَدِ

فَقَاتَلُوهُ ، وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، وَقَتَلَ سَنَةَ ٧٨ هـ ، وَبَقِيَتْهُ أَنْتَهَتْ حُرُوبَ الْأَزَارِقَةِ .

[٢] هُوَ عَبِيدَةُ بْنُ هَلَالِ الْبَشْكَرِيِّ مِنْ كِبْرَاءِ الْأَزَارِقَةِ .

الرماح بنحوركم ، والسيوف بوجهكم ، وهبوا أنفسكم لله في الدنيا ، يهبها لكم في الآخرة » . (الكامل المبرد ٢ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٥)

٤٢٧ — خطبة صالح بن مسرّح^(١)

وروى الطبري في تاريخه قال :

كان صالح بن مسرّح يرى رأى الصُفْرِيَّة^(٢) ، وكان رجلاً ناسكاً مُحْبِتاً^(٣) ، مصفرّ الوجه ، صاحب عبادة ، وكان بداراً^(٤) وأرض الموصل والجزيرة ، له أصحاب يُقرئهم القرآن ، ويفقههم ويقصّ عليهم ، وكان قصصه :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، اللَّهُمَّ إِنَّا لَا نَعْدِلُ بِكَ ، وَلَا نَحْفِدُ^(٥) إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَمَنْكَ النِّفْعُ وَالضَّرُّ ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ الَّذِي اصْطَفَيْتَهُ ، وَرَسُولُكَ الَّذِي اخْتَرْتَهُ وَارْتَضَيْتَهُ لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِكَ ، وَنُصِيحَةِ عِبَادِكَ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ الرِّسَالَةَ ، وَنُصِّحَ لِلأُمَّةِ ، وَدَعَا إِلَى الْحَقِّ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ ، وَنَصَرَ الدِّينَ ، وَجَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالرَّغْبَةِ فِي الآخِرَةِ ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَفِرَاقِ الْفَاسِقِينَ ، وَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا تَرْغَبُ الْعَبْدُ

[١] هو صالح بن مسرّح أحد بني امرئ القيس ، وهو زعيم فرقة من الخوارج الصفرية ، تسمى : « الصالحية » نسبة إليه ، وقد خرج على بني أمية سنة ٧٦ هـ ، فبعث إليه محمد بن مروان أمير الجزيرة جيشاً بقيادة عدى بن عدى بن عميرة ، فهزمه صالح ونزل عسكره وحوى ما به ، وبعث محمد بن مروان إليهم جيشاً آخر فقاتلهم ، فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصل ، فسرح إليهم الحاج جيشاً يقوده الحارث ابن عميرة فخاريم ، وقتل في المعركة صالح . [٢] الصفرية : فرقة من الفرق الرئيسية للخوارج ، وم أصحاب زياد بن الأصم ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار ، وقيل لأنهم نهكهم العبادة ، أو لخلوهم من الدين ، وليس هذا موضع تفصيل عقائدهم . [٣] أخبت لله : خضع وتواضع . [٤] دارا : بلد بين نصيبين وماردين من أرض الجزيرة . [٥] حقد كفر ب : خف وأسرع .

فما عند الله ، وتفرغ بدنه لطاعة الله ، وإن كثرة ذكر الموت تُخيف العبد من ربه ، حتى يجأر^(١) إليه ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين ، قال الله في كتابه : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » ، وإن حب المؤمنين للسبب الذي يُنال به كرامة الله ورحمته وجنته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين ، ألا إن من نعمة الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، فعلمهم الكتاب والحكمة وزكاهم وطهرهم ، وفقهم في دينهم ، وكان بالمؤمنين رءوفاً رحيماً ، حتى قبضه الله ، صلوات الله عليه ، ثم ولي الأمر من بعده التقى الصديق ، على الرضا من المساميين ، فاقتدى بهديه ، واستن بسنته ، حتى لحق بالله رحمه الله ، واستخلف عمر فولاه الله أمر هذه الرعية ، فعمل بكتاب الله ، وأحيا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يحنق في الحق على جرته^(٢) ، ولم يخف في الله لومة لائم ، حتى لحق به رحمة الله عليه ، وولى من بعده عثمان ، فاستأثر بالنبي ، وعطل الحدود ، وجار في الحكم ، واستذل المؤمن ، وعزز المجرم ، فسار إليه المسلمون فقتلوه ، فبرئ الله منه ورسوله وصالح المؤمنين ، وولي أمر الناس من بعده علي بن أبي طالب ، فلم يذنب أن حكم في أمر الله الرجال ، وشك في أهل الضلال ، وركن^(٣) وأذهن ، فنحن من علي وأشياعه برأوا ، فتيسروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة ، وأئمة الضلال الظالمة ، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، واللحاق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين

[١] جأر إليه كنع : رفع صوته بالدعاء ، وتضرع واستغاث . [٢] أحنق الصلب : لرق بالبطن ، والجرّة : ما يخرج البعير من جوفه ويصمعه ، كنى بذلك عن عدم إضماره الحقد والدغل . [٣] ركن إليه : مال .

باعوا الدنيا بالآخرة ، وأنفقوا أموالهم التماسَ رضوان الله في العاقبة ، ولا تجزَعوا من القتل في الله ، فإن القتل أيسرُ من الموت ، والموت نازل بكم - غيرَ ما ترَجُمُ الظنون - ففرِّقْ بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم ، وإن اشتدَّ لذلك كرهُكم وجَزَعُكم ، أَلْأفبِيعُوا اللهَ أنْفُسَكم طائعين وأموالكم ، تدخلوا الجنة آمين ، وَتَعَاتِقُوا الحُورَ العِين ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الناكرين ، الذين يَهْدُونَ بالحق وبه يَعْدِلُونَ » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٢٨ - خطبة أخرى له

وروى الطبرى أيضاً قال :

« بينا أصحابُ صالحٍ يختلفون إليه ، إذ قال لهم ذاتَ يوم : « ما أذرى ما تنتظرون ؟ وحتى متى أنتم مُقيمون ؟ هذا الجور قد فَشَا ، وهذا العَدْلُ قد عَفَا ، ولا ترداد هذه الوِلاية على الناس إلا غُلُوءًا وَعُتُوءًا ، وتباعداً عن الحق ، وَجُرْأَةً على الرب ، فاستعدُّوا ، وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكارِ الباطل والدعاء إلى الحق ، مثلَ الذى تريدون ، فيأتوكم فلتتقى ، وننظر فيما نحن صانعون ، وفى أى وقت إن خرجنا نحن خارجون » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٩)

٤٢٩ - خطبة أخرى

وقال لأصحابه ليلة خرج : « اتقوا الله عبادَ الله ، ولا تَعَجَّلُوا إلى قتالِ أحدٍ من الناس إلا أن يكونوا قومًا يريدونكم وَيَنْصِبُونَ^(١) لكم ، فإنكم إنما خرجتم غضبًا لله ، حيث انشهرت محارمُه ، وَعَصَى فى الأرض ، فسُفِكَتِ الدماء بغير

حِلْمِهَا ، وَأَخَذَتِ الْأَمْوَالَ بِغَيْرِ حَقِّهَا ، فَلَا تَعْيَبُوا عَلَى قَوْمِ أَعْمَالِكُمْ تَعْمَلُوا بِهَا ، فَإِنَّ كُلَّ مَا أَنْتُمْ عَامِلُونَ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مَسْتَوْلُونَ ، وَإِنْ عَظَمَكُمْ رَجَالَةٌ ، وَهَذِهِ دَوَابُّ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ فِي هَذَا الرَّسْتِاقِ (١) ، فَاذْهَبُوا بِهَا فَشُدُّوا عَلَيْهَا ، فَاحْمِلُوا أَرْجُلَكُمْ ، وَتَقَوُّوا بِهَا عَلَى عَدُوِّكُمْ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٠)

٤٣٠ — خطبة زائدة بن قدامة

وَخَلَّفَ عَلَى رِيَاةِ الْخَوَارِجِ الصُّفْرِيَّةِ بَعْدَ مَقْتَلِ صَالِحِ بْنِ مُسَرِّحٍ أَحَدُ أَصْحَابِهِ ، وَهُوَ شَيْبِيبُ بْنُ يَزِيدَ الشَّيْبَانِيُّ ، فَكَتَبَ الْحِجَابُ لِقِتَالِهِ الْكُتَّابَ ، وَكَانَ أَمِيرَهَا فِي بَعْضِ الْوَقَعَاتِ زَائِدَةُ بْنُ قُدَامَةَ ، وَجَاءَ شَيْبِيبٌ حَتَّى وَقَفَ مُقَابِلَ الْقَوْمِ ، فَخَرَجَ زَائِدَةُ يَسِيرِينَ الْمِيْمَةَ وَالْمَيْسِرَةَ ، يَحْرَضُ النَّاسَ وَيَقُولُ :

« عِبَادَ اللَّهِ ، إِنَّكُمْ الطَّيِّبُونَ الْكَثِيرُونَ ، وَقَدْ نَزَلَ بِكُمْ الْخَبِيثُونَ الْقَلِيلُونَ ، فَاصْبِرُوا جُعِلَتْ لَكُمْ الْفِدَاءُ ، إِنَّهَا تَحْمَلْتَانِ أَوْثَالَاتٍ ، ثُمَّ هُوَ النَّصْرُ لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ ، أَلَا تَرَوْنَهُمْ وَاللَّهِ لَا يَكُونُونَ مِائَتِي رَجُلٍ ؟ إِنَّمَا هُمْ أَكْلَةُ رَأْسٍ ، وَهُمْ السُّرَّاقُ الْمُرَّاقُ ، إِنَّمَا جَاءَ وَكُمْ لِيُهَرِّقُوا دِمَاءَكُمْ ، وَيَأْخُذُوا فِيئِكُمْ ، فَلَا يَكُونُوا عَلَى أَخْذِهِ ، أَقْوَى مِنْكُمْ عَلَى مَنْعِهِ ، وَهُمْ قَلِيلٌ وَأَنْتُمْ كَثِيرٌ ، وَهُمْ أَهْلُ فُرْقَةٍ ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ جَمَاعَةٍ ، غَضُّوا الْأَبْصَارَ ، وَاسْتَقْبَلُوهُمْ بِالْأَسِنَّةِ ، وَلَا تَحْمِلُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى أَمْرَكُمْ » ، فَمَا بَرِحَ يَقَاتِلُهُمْ مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ ، حَتَّى قَتَلَ . (تاريخ الطبري ٧ : ٢٣٥ ، شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٥)

٤٣١ — خطبة الحجاج بن يوسف

وَلَمَّا هَزَمَ شَيْبِيبُ الْجَيْشَ الَّذِي كَانَ الْحِجَابُ وَجَّهَهُ إِلَيْهِ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

[١] الرستاق . يستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم ، (معرب) .

ابن محمد بن الأشعث ، أقبل نحو المدائن ، وبلغ ذلك الحجاج ، فقام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله لَتُقَاتِلُنَّ عن بلادكم وعن فيئكم ، أو لَأُبْعَثَنَّ إلى قوم هم أطوع وأسمع ، وأصبر على اللأواء والنيظ منكم ، فيقاتلون عدوكم ، ويأكلون فيئكم - يعني جند الشام - . »

فقام إليه الناس من كل جانب ، فقالوا : نحن نقاتلهم ، وأُعتب الأمير ، فليئد بنا الأمير إليهم ، فإننا حيث سره .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٨)

٤٣٢ - خطبة أخرى للحجاج

وبعث الحجاج إلى عتّاب بن ورقاء ليأتيه - وكان مع المهلب - ووجهه في جيش لقتال شبيب ، وخطب الناس حين وجهه فقال :

« يا أهل الكوفة اخرجوا مع عتّاب بن ورقاء بأجمعكم ، لا أرخص لأحد من الناس في الإقامة ، إلا رجلاً قد وليناه من أعمالنا ، ألا إن للصابر المجاهد الكرامة والأثرة ، ألا وإن للنّا كلّ الهارب الهوان والجفوة ، والذي لا إله غيره ، لئن فعلتم في هذا الموطن ، كفعلكم في الموطن التي كانت ، لأولينكم كنفاً خشناً ، ولأعزّ كنكم بكلّ كلّ ثقيل » ، ثم نزل .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٥)

٤٣٣ - خطبة شبيب بن يزيد الشيباني

وعرض شبيب أصحابه بالمدائن فكانوا ألف رجل ، فخطبهم ، فحمد الله ،

وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر المسلمين : إن الله قد كان ينصركم عليهم وأنتم مائة ومائتان ،
وأكثر من ذلك قليلاً ، وأنتص منه قليلاً ، وأنتم اليوم مئتون ومئتون ، ألا إني
مُصَلِّي الظهر ، ثم سأثر بكم إن شاء الله . »

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٩)

٤٣٤ — خطبة عتاب بن ورقاء

ولما تواقف الفريقان للقتال ، جعل عتاب يسير فيما بين الميمنة إلى اليسرة ،
يمرّ بأهل راية راية ، فيحثهم على تقوى الله ويأمرهم بالصبر ، ويقص عليهم
قَصَصاً كثيراً منه قوله :

« يا أهل الإسلام : إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء ، وليس الله
لأحد من خلقه بأحمد منه للصابرين ، ألا تَرَوْنَ أنه يقول : « وَأَصْبِرُوا إِنَّ
اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ، فمن حَمِدَ اللهُ فَعَلَهُ فَمَا أَعْظَمَ دَرَجَتَهُ ، وليس الله لأحدٍ
أَمَقَّتْ مِنْهُ لأهل البغي ، ألا تَرَوْنَ أن عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه ؟
لَا يَـوْنُ إِلَّا أن ذلك لهم قُرْبَةً عند الله ، فهم شِرَارُ أهل الأرض ، وكِلَابُ
أهل النار . »

فلم يجبه أحد ، فقال : أين القُصَّاصُ يَقْصُونَ على الناس ويحرضونهم ؟ فلم
يتكلم أحد ، فقال : أين من يَروى شعر عنترة فيحرك الناس ؟ فلم يجبه أحد ، ولا
رد عليه كلمة ، فقال : إنا لله ! والله لكأنني بكم وقد قرّرتم عن عتاب بن ورقاء ،
وتركتموه تسنى في استهـ الرياح ، وحمل عليه شبيب فتفرّق عنه كثير من أصحابه
وخذّلوه ، وثبت في عصابة قليلة صبرت معه ، وقاتل حتى قتل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٢٠)

٤٣٥ - خطبة الحجاج

ولما رأى الحجاج نَجْزَ أهل الكوفة عن قتال شبيب في مواطن كثيرة ، في كلِّها يقتل أمراءهم ، ويفل جنودهم ، كتب إلى عبد الملك يستعده ، فبعث إليه سُفيان بن الأبرد الكلبي ، في أربعة آلاف ، وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي من مذحج ، في ألفين ، ودخلا فيمن معهما من أهل الشام الكوفة ، فشدوا للحجاج ظهره ، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة ، فقام على منبرها ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا أهل الكوفة ، فلا أعزَّ اللهُ من أراد بكم العزَّ ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا ، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، الحقوا بالحيرة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ولا تقاتلوا معنا ، إلا من كان لنا عاملاً ، ومن لم يكن شهيد قتال عتَّاب بن ورقاء ^(١) . »

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٢٠)

٤٣٦ - خطبة عبد الله بن يحيى الإياضي ^(٢)

لما استولى عبد الله بن يحيى الكندي على بلاد اليمن سنة ١٢٩ ، خطب

[١] ولم تن همة شبيب عن القتال ، وقد هاجم الكوفة ودخلها ، ونهض الحجاج لمدافعته ، فشنت جموعه ، فاصرف عن الكوفة ، وأتبعه الحجاج جيشاً عليه سُفيان بن الأبرد ، فالتقى على جسر دجيل ، وحمل بينهما وطيس القتال ، حتى جن الليل ، فقال شبيب لأصحابه : اعبروا مفاصل المسلمين ، فإذا أصبحنا باكرناهم ، فعبروا أمامه ، وزل حافر فرسه عن حرف السفينة ، سقط والماء ، وكان هلاكه سنة ٥٧٧ .

[٢] هو عبد الله بن يحيى الكندي ، كان من حضرموت ، وكان مجتهداً عابداً من رؤساء الخوارج الإياضية (والإياضية : فرقة من فرق الخوارج الرئيسية تنسب إلى زعيمها عبد الله بن إياض - بكسر الهمزة -) وقد خرج ابن يحيى باليمن في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، إذ رأى جوراً ظاهراً وعسفاً شديداً ، وسيرة في الناس قبيحة ، فقال لأصحابه : إنه لا يحل لنا المقام على ما ترى ، ولا الصبر عليه ، وكتب إلى جماعة من الإياضية بالبصرة وغيرها يشاورهم في الخروج ، فوافقوه ، وشخص إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي ، وبلج بن عقبة المسعودي في رجال من الإياضية ، فغرضوه على الخروج ، وكثر

الناس ، فحمد الله جلَّ وعزَّ ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،
ووعظ وذكر وحذر ، ثم قال :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما ،
الإسلام ديننا ، ومحمدٌ نبيُّنا ، والكعبةُ قبلتنا ، والقرآنُ إمامنا ، رضينا بالحلال
حلالا ، لا نبغى به بدِلا ، ولا نشترى به تمنا قليلا ، وحرّمنا الحرام ونبذناه
وراء ظهورنا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وإلى الله المشتكى ، وعليه المعوّل ،
من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شكَّ
في أنه كافر فهو كافر ، ندعوكم إلى فرائضِ يَبِّتاتٍ ، وآياتِ مُحْكَماتٍ ، وآثارِ
مُقْتَدَى بها ، ونشهد أن الله صادق فيما وَعَدَ ، عَدْلٌ فيما حَكَمَ ، وندعو إلى توحيد
الرب ، واليقين بالوعيد والوَعْدِ ، وأداء الفرائضِ ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن
المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والعداوة لأعداء الله .

أيها الناس : إن من رحمة الله أن جعل في كلّ فترة بقايا من أهل العلم ،
يَدْعُونَ من ضلَّ عن الهدى ، ويصبرون على الألم في جنب الله تعالى ، يُقْتَلُونَ
على الحق في سالف الدهور شُهَدَاءَ ، فما نَسِيَهُمْ رَبُّهُمْ ، وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ،
أوصيكم بتقوى الله ، وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به ، فأبلموا الله بلاء
حسنا في أمره وذكره ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

(الأغانى ٢٠ : ٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٥٥)

جمعه . وسموه طالب الحق ، وتوجه إلى صنعاء سنة ١٢٩ (وكان عامل مروان على صنعاء القائم بن عمر)
فجرت بينه وبين ابن يحيى حروب ومناوشات كانت الصرة فيها لابن يحيى ، فدخل صنعاء ، وأحرز ما فيها
من الخزائن والأموال .

خطب أبي حمزة الشاربي

٤٣٧ - خطبته حين دخل المدينة

ولما دخل أبو حمزة المدينة ^(١) سنة ١٣٠ ، رقى المنبر ، فحمد الله ، وأثنى

عليه ، وقال :

« يا أهل المدينة : سألناكم عن وُلاتكم هؤلاء ، فأسأتم - لعمرُ الله - فيهم القول ، قاتم والله ما فيهم الذي يعلم ، أخذوا المال من غير حِلِّه ، فوضعوه في غير حَقِّه ، وجاروا في الحكم ، فحكموا بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بفتننا ، فجعلوه دُولَةً بين الأغنياء منهم ، وجعلوا مَقاسِمَنَا وحُقُوقَنَا في مهور النساء ، وفُرُوجِ الإماء ^(٢) ،

[١] بعد أن استولى عبد الله بن يحيى على اليمن سنة ١٢٩ ، أقام بصنعاء أشهراً يحسن السيرة في الناس ويلين جانبه لهم ، ويكف الأذى عنهم ، وكثر جمعه ، وأنته الشراة من كل جانب (والشراة كقضاء جمع شاركوا وهم الخوارج ، من شرى يشري كرمى أى باع ، سموا بذلك لقولهم : شربنا أسننا في طاعة الله أى نعمنا وربهنا ، أخذاً من قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ » أو لقولهم : شربنا الآخرة بالدنيا ، أى اشتربناها) فلما كان وقت الحج وجه ابن يحيى أبا حمزة « وهو المختار بن عوف الأردى ثم السلمي من أهل البصرة » إلى مكة ، فأقل إليها يوم الثروبة « وهو ثامن ذى الحجة » وعليها وعلى المدينة عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، فكره عبد الواحد قتالهم ، ثم خلى مكة لهم ، فدخلها أبو حمزة بغير قتال ، ومعنى عبد الواحد إلى المدينة ، جهر جشاً لقتالهم أمر عليه عبد العزيز ابن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فسار حتى نزل قديداً « وقديد كزبير » وبلغ أبا حمزة لإقبال أهل المدينة إليه ، فاستخلف على مكة ، وشخص إليهم ، وبعث إليهم يسألهم أن يكفوا عنهم ، ويقول لهم : خلوا سبيلنا إلى الشام لفسير إلى من ظلمكم ، وحار في الحكم عليكم ، ولا نجعلوا حدنا بكم ، فإننا لا نريد قتالكم ، فشتهم أهل المدينة ، وقالوا يا أعداء الله : أمحن نعليكم وتدعكم تفسدون في الأرض ؟ فقال الخوارج يا أعداء الله : أمحن نفسد في الأرض ؟ إنما خرجنا لنكف أهل الفساد ، ونقاتل من قاتلنا ، واستأثر باليء ، فانظروا لأنفسكم ، واخاعوا من لم يجعل الله له طاعة ، فإنه لا طاعة لمن عدى الله ، فادخلوا في السلم ، وعادوا أهل الحق ، فأبوا عليهم ، ونشب القتال بينهم ، فهزمهم أبو حمزة هزيمة لم يبق بعدها منهم باقية ، وقد بلغت قتلى قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً ، منهم من قريش أربعة وأخسون ، ودخل أبو حمزة المدينة ثلاث عشرة بقية من صفر سنة ١٣٠ هـ ، وهرب عبد الواحد بن سليمان إلى الشام [٢] وفي رواية : « وسألناكم : هل يقتلون بالطن ؟ فقلتم : نعم ، وسألناكم : هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام ؟ فقلتم نعم » .

فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم ، وجاروا في الحكم ، فحكموا بغير ما أنزل الله ، نؤاخذهم الله أن يتدنحوا عنا وعنكم ، ليختار المسامون لأنفسهم ، فقلتم : لا يفعلون ، فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم نقاتلهم ، فإن نظهر نحن وأنتم ، نأت بمن يُقيم فينا وفيكم كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فقلتم : لا تقوى على ذلك ، فقلنا لكم : نخلوا بيننا وبينهم ، فإن نظفر نعدل في أحكامكم ، ونحملكم على سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، ونقسيم فينتهم بينكم ، فأبيتهم وقاتلتمونا دونهم ، فقاتلناكم وقتلناكم ، فأبعدكم الله وأسحقكم .
(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٧ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨ ،
والعقد الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٣٨ - خطبة أخرى له

وروى أنه لما دخل المدينة قام فخطب ، فقال في خطبته :
« يا أهل المدينة مررتُ بكم في زمن الأحول هشام بن عبد الملك ، وقد أصابتكم عاهة بشاركم ، وكتبتم إليه تسألونه أن يضع خراجكم عنكم ، فكتب إليكم بوضعه عن قوم من ذوى اليسار منكم ، فزاد الغنى غنى ، وزاد الفقير فقراً ، فقلتم : جزاك الله خيراً ، فلا جزاكم الله خيراً ، ولا جزاه خيراً » .
(ربح الطبري ٩ : ١٠٨ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨)

٤٣٩ - خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيرون أصحابه (١)

وبلغ أبا حمزة أن أهل المدينة يعيرون أصحابه ، لحداثة أسنانهم ، وخفة أحلامهم ، فصعد المنبر ، وعليه كساء غليظ ، وهو متنكب قوساً عربية ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وآله ، ثم قال :

[١] روى الجاحظ أن هذه الخطبة كانت بركة ، وذكر أن اسم أبي حمزة « يحيى بن المختار » .

« يا أهل المدينة ، قد بلغتني مقاتلتكم لأصحابي ، ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلة عقولكم ، لأحسنتُ أدبكم ، وَيُنْحِكُمْ ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكتابُ ، وَبَيَّنَّ له فيه السننُ ، وَشُرِّعَ له فيه الشرائعُ ، وَبَيَّنَّ له فيه ما يأتي وما يَدْرُ ، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ، ولا يُخْجِمُ إلا عن أمر الله ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم ، وقد أدى الذي عليه ، وَعَلَّمَ المسامِين مَعَالِمَ دينهم ، ولم يدعهم من أمرهم في شُبْهَةٍ ، وولَّى أبا بكر صلواتهم ، فولاه المسامون أمر دينهم ، حين ولّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر دينهم ، فعمل بالكتاب والسنة ، وقابل أهل الرِّدَّةِ ، وشمَّرَ في أمر الله ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمةُ الله عليه ومغفرته ، ثم ولي بعده عمر بن الخطاب فسار بسيرة صاحبه ، وعمل بالكتاب والسنة ، وجنَّد الأجناد ، ومَصَّرَ الأمصار ، وجَبَى النَّيْءَ ، وفَرَضَ الأَعْطِيَةَ ، وشمَّرَ عن ساقه ، وحَسَّرَ عن ذراعه ، وجَلَدَ في الحُرِّ ثمانين ، وجمع الناس في شهر رمضان ^(١) ، وغزا العدو في بلادهم ، وفتح المدائن والحصون ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمةُ الله عليه ورضوانه ومغفرته ، ثم ولي من بعده عثمان بن عفان ، فسار ست سنين بسيرة صاحبيه - وكان دونهما - ثم سار في الست الأواخر بما أَحْبَطَ به الأوائِلَ ، واضطرب جبل الدين بعدها ، فطلبها ^(٢) كل امرئ لنفسه ، وأسَرَّ كل رجل منهم سريرةً أبداها الله عنه ، حتى مضوا على ذلك ، ثم ولي علي بن أبي طالب ، فلم يبلغ من الحق قَصْداً ، ولم يرفع له مناراً ، ثم مضى لسبيله .

[١] أي لصلاة القيام ، وفي رواية : « وقام في شهر رمضان » .

[٢] أي الحلافة ، يشير إلى تطلع طلحة والزبير إليها ، وطمع معارية فيها .

ثم ولي معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن لعينه^(١) ، وجلف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مؤلف طليق ، فسفك الدم الحرام ، واتخذ عباد الله خوفاً^(٢) ، ومال الله دُولاً^(٣) ، وبغى دينه عوجاً ودغلاً^(٤) ، وأحلّ الفرج الحرام ، وعمل بما يشتهي ، حتى مضى لسبيله ، فالعنوه لعنه الله ، ثم ولي بعده ابنه يزيد ، يزيد الخُمور ، ويزيد الصقور ، ويزيد الفهود ، ويزيد الصيود ، ويزيد القروود^(٥) ، الفاسق في بطنه ،

[١] انظر ص ١٧ و ١٨ . [٢] عبيداً . [٣] جمع دولة بالضم أى مداولا بين عشيرته دون سائر المسلمين . [٤] الدغل : العساد كالدغل .

[٥] روى المسعودى فى مروج الذهب - ج ٢ : ص ٩٤ - قال :

« وكان يزيد صاحب طرب ، وجوارح ، وكلاب ، وقروود ، ومهود ، ومادمة على الشراب ، وجلس ذات يوم على شرابه ، وعن عينه ابن زياد - وذلك بعد قتل الحسين - وأقبل على ساقيه ، فقال :

اسمى شربة روى مشاشى ثم صل فاسق منانها ابن زياد
صاحب السرّ والأمانة عندى واتسديد معى وجهادى

« والمشاش كعرب : النفس والطبيعة » ، ثم أمر المغنبي فعموا ، وعاب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الصوق ، وفى أيامه طهر العناء بككة والمدينة ، واستعملت الملاهي ، وأظهر الناس شرب الشراب ، وكان له قرد يكى بأبى قيس ، يحصره مجلس منادمتيه ، وي طرح له متكأ ، وكان قرداً خبيثاً ، وكان يحمله على أنان وحشية ، قد ربيصت وذلك لذلك بسرج ولجام ، ويساق بها الخيل يوم الخلة ، خاء فى بعض الأيام سابقاً فنناول القسبة ، ودخل الحرة قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشهتر (مخطط) وعلى رأسه قلنسوة من الحرر ذات ألوان بشقائق (أى مصممة بمثل الشقائق) وعلى الأذن سرج من الحرير الأحمر مقوش ملمع بأنواع من الألوان . فقال فى ذلك بعض شعراء الشام فى ذلك اليوم :

تمسك أبى قيس بفصل عانها فليس عليها إن سقطت صان
ألا من رأى القرد الذى سبقت به حياء أمير المؤمنين أنان 1

وروى ابن طباطبا فى الفخرى ص ٤٩ قال : « كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلها بالصيد لايزال لاهياً به ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه » الجلال بالكسر جمع جل بالضم والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به « ويهر لكل كلب عبداً يخدمه ، قيل أن عبيد الله بن زياد أخذ من بعض أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار جناية وجعلها فى خزائن بيت المال ، ورحل ذلك الرجل من الكوفة ، وقصد دمشق ليشكو حاله إلى يزيد ، وكانت دمشق فى تلك الأيام فيها سرير الملك - فلما وصل إلى ظاهر دمشق ، سأل عن يزيد فعرفوه أنه فى الصيد ، فكره أن يدخل دمشق ، وليس يزيد حاضراً فيها ، ف ضرب مخيمه ظاهر المدينة ، وأقام به ينتظر عود يزيد من الصيد ، وبينما هو فى بعض الأيام جالس فى خيمته ، لم يشعر إلا بكابة قد دخلت عليه ، وفى قوائمها الأساور من الذهب ، وعليها جل يساوى مبالغاً

المأبون^(١) في فرجه ، نخالف القرآن ، واتبع الكهَّان ، ونادم القرد ، وعمل بما يشهيه ، حتى مضى على ذلك لعنه الله ، وفعل به وفعل ، ثم ولي مروان بن الحكم ، طريده لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وابن لعينه ، فاسق في بطنه وفرجه ، فالعنوه والعنوا آباءه .

ثم تداولها بنو مروان بعده ، أهل بيت اللعنة ، طرداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وقوم من الطلقاء ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله أكلاً ، ولعبوا بدين الله لعباً ، واتخذوا عباد الله عبيداً ، يورث ذلك الأكبر منهم الأصغر ، فيألفها أمة ! ما أضعفها وأضعفها ! والحمد لله رب العالمين ، ثم مضوا على ذلك من سيء أعمالهم ، واستخفافهم بكتاب الله تعالى ، قد نبذوه وراء ظهورهم ، لعنهم الله ، فالعنوهم كما يستحقون ، وقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز ، فبلغ ولم يكذب ، وعجز عن الذي أظهره حتى مضى لسبيله - ولم يذكره بخير ولا شر -

ثم ولي يزيد بن عبد الملك ، غلام ضعيف سفيه ، غير مأمون على شيء من أمور المساميين ، لم يبلغ أشده^(٢) ، ولم يؤنس رُشدُه ، وقد قال الله عز وجل :

كبيراً ، وقد بلغ منها العطش والتعب ، وكادت تموت ، فعلم أنها يزيد وأنها قد شذت منه ، فقام إليها وقدم لها ماء وتمهدها بنفسه ، فما شعر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل ، وعليه زيّ الملوك ، وقد علتة غبرة ، فقام إليه وسلم عليه ، فقال له ، رأيت كلبة عابرة بهذا الموضع ؟ فقال : نعم يا ولانا ، ها هي في الحية ، قد شربت ماء واستراحت ، وقد كانت على غاية من العطش والتعب ، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الحيمة ، ونظر إلى الكلبة وقد استراحت ، فحذب بجملها ليخرج ، فشكا الرجل إليه حاله وعرفه ما أخذ منه ابن زياد ، فطلب دواة وكتب إليه برد ماله وخلعة سنية ، وأخذ الكلبة وخرج ، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ، ولم يدخل دمشق .

[١] أبته بشيء كعصر وضرب : اتهمه ، فهو مأبون ، بخير أو شر ، فإن أطلقت فقلت مأبون فهو للشر والأبنة كعقدة : العيب . [٢] بلغ أشده أى قوته ، وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة ، وقد

« فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ^(١) » ، فأمر أمة محمد في أحكامها وفروجها ودمائها أعظم عند الله من مال اليتيم ، وإن كان عند الله عظيما ، غلام مأبون في بطنه وفرجه ، يشرب الحرام ، ويأكل الحرام ، ويلبس الحرام ، يلبس بُرْدَتَيْنِ قَدْ حِيكَتَا لَهُ ، وَقُوْمَتَا عَلَى أَهْلِهِمَا بِأَلْفِ دِينَارٍ ، وَأَكْثَرُ وَأَقْل ، قَدْ أَخَذَتْ ^(٢) مِنْ غَيْرِ حِلِّهَا ، وَصُرِفَتْ فِي غَيْرِ وَجْهِهَا ، بَعْدَ أَنْ ضُرِبَتْ فِيهَا الْأَبْشَارُ ^(٣) ، وَحُلِقَتْ فِيهَا الْأَشْعَارُ ، وَهَتَكَتْ فِيهَا الْأَسْتَارُ ، وَاسْتُحِجِلَّ مَا لَمْ يُحِجَلْ اللهُ لِعَبْدٍ صَالِحٍ ، وَلَا لِنَبِيِّ مُرْسَلٍ ، ثُمَّ يُجَاسُ حَبَابَةٌ عَنْ يَمِينِهِ ، وَسَلَامَةٌ عَنْ شِمَالِهِ ، تَغْنِيَانِهِ بِمَزَامِيرِ الشَّيْطَانِ ، وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ الصُّرَاحَ الْحَرَمَةَ نَصَا بَعِينَهَا ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ مِنْهُ مَا خَذَهَا ، وَخَالَطَتْ رُوحَهُ وَلَحْمَهُ وَدَمَهُ . وَغَابَتْ سَوْرَتُهَا عَلَى عَقْلِهِ ، مَزَّقَ حُلَّتِيهِ ، ثُمَّ التَفَّتْ إِلَيْهِمَا فَمَتَال : أَتَأْذِنَانِ لِي أَنْ أُطِيرَ ^(٤) ؟ نَعَمْ ، فَطَرُّ إِلَى لِعِنَةِ اللهِ ،

اختلف المؤرخين في مقدار سنّ يزيد ، فقيل إنه تولى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل ان سبع وثلاثين ، وكانت ولايته أربع سنين وشهرا ، والمراد أنه لم يبلغ أشده لصفه وعكوفه على اللذات والشهوات .

[١] الآية الكريمة في الدنأى ، وأولها : « وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ

آنَسْتُمْ . . . » . [٢] أى الدنأير . [٣] فيها : أى فى نحصيلها ، والأشأر جمع شر وهو

جمع بشرة : ظاهر الجلد ، والمراد صرب الناس فى حياة الأموال .

[٤] ذكر ذلك ابن طاطا فى البحرى ص ١١٧ قال : « كان يزيد بن عبد الملك خليف بنى أمية شعم

بجارتين اسم إحداهما سلامة ، والأخرى حبابة ، فقطع معهما زمانه ، قالوا : فعت يوما حابة :

بين التراقى واللهاة حرارة ما تظمن ولا يسوع فتبرد

فأهوى يزيد ليطير ، فقالت يا أمير المؤمنين : لا يك حابة ، فقال : والله لأطيرن ، قالت : على من تدع

الأمّة ؟ قال : عليك وقيل بدها ، نخرج بعس خدمه وهو يقول : « سححت عيك فا أسحكتك » وروى

أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى « ج ١٣ ص ١٤٨ » قال : « كانت حبابة مولدة من مولدات المدينة ، حلوة

جيلة اوجه طريفة حسنة العناء ، وقد قال يزيد بن عبد الملك : ما تقرعيني بما أرتيت من الخلافة حتى أشترى

سلامة وحبابة ، فأرسل فاشترى له ، فلما اجتمعنا عنده قال : أنا الآن كما قال القائل :

فألقت عصاما واستقرّ بها النوى كما قرّ عينا بالأياب المسامر

وذكروا أن مسلمة بن عبد الملك أقبل على يزيد يلومه فى الإلحاح على العناء والشراب ، وقال له : إلك

وحريق ناره ، وأليم عذابه ، طره إلى حيث لا يردك الله .

ثم ذكر بنى أمية وأعمالهم وسيرهم فقال : « أصابوا إمرة ضائعة ، وقوماً طغاماً جهّالاً ، لا يقومون لله بحقّ ، ولا يفرّقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم ، فلكوا الأمر ، وتساطّوا فيه تسلط رُبويّة ، بطشهم بطش الجبارة ، يحكمون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويأخذون بالظنّة ، ويعطّلون الحدود بالشفاعات ، ويأمنون الخوّنة ، ويقصّون ذوى الأمانة ، ويأخذون الفريضة من غير موضعها ، ويضعونها في غير أهلها ، وقد بين الله أهلها ، فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ

وايت بمقب عمر بن عبد العزيز وعدله ، وقد تشاعت بهذه الأمة عن النظر في الأمور ، والوفود بابك ، وأصحاب التلامات سيحرون ، وأنت عاقل عنهم ، فقل : صدقت والله وأعتبه ، وهم بترك الشراب ، ولم يدخل على حياجه أياماً ، فمست حياجه إلى الأحوص أن يقول أبياتا في ذلك ، وقالت له : إن رددته عن رأيه ، فلك ألف دينار ، فقال :

ألا لآتاه اليوم أت يتبلدا فقد علب الخزوت أن يتحلدا
بكيت الصبا جهدى من شاء لامي ومن شاء آسى و البكاء وأسعدا
وإنى وإن فندت في طلب الغنى لأعلم أنى لست في الحب أوحدا
إذا أت لم تمشق ولم تدر ما الهوى فكان حجرا من يابس الصخر سلدا
فما العيش إلا ما تلذّ وتشتوى وإن لام فيه ذو الشنان ومدا

وماكث يريد جمعة لارى حياجه ، ولا بدعو بها ، فلما كان يوم الجمعة ، قالت لبعض جواربها : إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلمبى ، فلما أراد الخروج أعلمتها ، فنلقته والعود في يدها ، فمئت البيت الأول ، ففطى وجهه ، وقال : مه لا تفعلى ، ثم عت : فما العيش إلا ما تلذّ وتشتوى : فمدل إليها ، وقال : صدقت والله فمع الله من لامنى فيك ، يا اعلام مر مسلة أن يصلى بالناس ، وأقام ممها يشرب ونغنيه ، وعاود ما كان فيه ، ثم قال لها : من يقول هذا الشعر ؟ قالت : الأحوص ، فأحضره ثم أنشده قصيدة مدحه فيها ، فقال له : ارفع حوائحك ، فكتب إليه في نحو أربعين ألف درهم من دين وغيره ، فأمر له بها . انظر أيضا تاريخ الطبرى ٨ : ١٧٩ ، ومروج الذهب ج ٢ : ص ١٧٥ ، ومما ذكره المسعودى : أن حياجه اعتلت فأقام يزيد أياما لا يطهر للناس ، ثم مات ، فأقام أياما لا يدونها حتى جيئف فقبل له : إن الناس يتحدثون بمجزعك وإن الخلافة تجل عن ذلك ، ودفنها وأقام على قبرها ، فقال :

فإن نسل عنك النفس أو تدع الهوى فبالياس تسلو النفس لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياما ولائلا ومات .

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ، وَالنَّارِ مِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ^(١) ، فأقبل صِنْفٌ تاسع ليس منها ، فأخذ كلُّها ، تلکم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ، فالعنوم لعنهم الله .

وأما إخواننا من هذه الشيعة - وليسوا بإخواننا في الدين ، لكنى سمعت الله عزَّ وجلَّ قال في كتابه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » - فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ، لا يرجعون إلى نظري نافذ في القرآن ، ولا عقل بالغ في الفقه ، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب ، قد قلّدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم المصبية لحزب لزموه ، وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم ، غيًّا كان أو رشدًا ، ضلالةً أو هدى ، ينتظرون الدؤل في رجعة الموتى ^(٢) ، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ، ويدعون علم الغيب لمخلوق ، لا يعلم أحدهم ما في بيته ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه ، أو يحويه جسمه ، ينقمون المعاصي على أهلها ، ويعملون

[١] الصدقات : الزكاة ، العاميين عليها : الساعين في تحصيلها وجمعها ، والمؤلفة قلوبهم : الذين أسلموا وديتهم صعيقة في الاسلام ، فتستألف قلوبهم ، وفي الرقاب : أى وفي فك رقاب المكاتبين ، فيما ونون بشيء منها ، والمارمين : أى المدينين لأنفسهم في غير مصيبة ، ومن غير إسراف إذا لم يكن لهم وفاء .

[٢] كان بعض الشيعة يعتقدون في أنهم الذين ماتوا ، أنهم أحياء لم يموتوا ، إلا أنهم غائبون عن أعين الناس ، فالشيعة الكيسانية يقولون أن محمد بن المنفية رضى الله عنه لم يموت ، وإنما في جبل رضوى (بالحجاز) بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تحريان بماء وعسل ، وأنه يعود بعد النية فيملا الأرض عدلا كما كانت جورا ، وفيه يقول كثير من أبيات :

غيب ولا يرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء

— انظر الملل والنحل للشهرستاني ١ : ١٥٥ والفصل لابن حزم ٥ : ١٣٧ والفرق بين الفرق ص ٢٨ والاثنا عشرية « وهى إحدى فرقتى الشيعة الامامية ، سموا بذلك لوقوعهم عند الامام الثانى عشر وهو محمد ابن الحسن العسكري ، ويلقبونه بالمهدى المنتظر » يزعمون أنه دخل في سرداب بسر من رأى ، وغاب هناك ، وأنه يخرج في آخر الزمان فيملا الأرض عدلا وهم ينتظرونه - ويسمونه المنتظر لذلك - ويقفون وكل ليلة بعد صلاة المغرب يباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا ، فيهتفون باسمه ، ويدعونه للخروج ، حتى تشبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجعون الأمر إلى الليلة الآتية - انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ - .

إذا ولّوا بها ، يُصِرُّون على الفتنة ولا يعرفون المخرج منها ، جُفَاءً في دينهم ، قليلة عتولهم ^(١) ، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم ، وزعموا أن موالاتهم لهم تُغنيهم عن الأعمال الصالحة ، وتُنجيهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنِّي يُؤفِّكون ^(٢) .

فأى هؤلاء الفرق يأهل المدينة تتبعون ، أم بأى مذاهبهم تقتدون ؟ وقد بلغني أنكم تَنقِصون أصحابي ! قلت لهم شباب أحداث ، وأعراب جُفَاء ، ويحكم يأهل المدينة ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون في الخير إلا شباباً أحداثاً ؟ أما والله إنى لعالم بتأبؤكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم . شبابٌ والله مُسكتهلون ^(٣) في شبابهم ، غَضِيضَةٌ عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء ^(٤) عبادة ، وأطلاحٌ سَهَرٌ ^(٥) ، باعوا أنفُساً تموت غداً ، بأنفس لا تموت أبداً ، قد نظر الله إليهم في جَوْف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرَّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شهق شهقة ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض رُكَبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كلال ^(٦) الليل بكلال النهار ، مُصْفَرَّة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك في جنب الله ، مؤفون بعهد الله ، مُنجزون لوعده الله ، حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فُوتت ^(٧) ،

[١] وفي البيان والتبيين « جفأة عن القرآن ، أنواع كهان » . [٢] أفكته عنه كضرب : صرفه

وقلب رأيه . [٣] أى قد أحرزوا رزاة الكهول وسداد رأيهم .

[٤] جمع نضوكامل وهو المهزول . [٥] جمع طلاح وهو كمنضو وزنا ومعنى .

[٦] الكلال : النعب والإعياء . [٧] فُوتت السهم : جعل له دوقا (بالضم) وهو موضع الوتر

من السهم ، أى أعدت للرمى .

ورماحهم وقد أشرعت^(١) ، وسيوفهم وقد انثضيت^(٢) ، وبرقت الكتيبة
ورعدت بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا
بوعيد الله لوعيد الكتيبة ، ولقوا شبا^(٣) الأستة ، وشائك السهام ، وظبات
السيوف بنحورهم ، ووجوههم وصدورهم ، فضى الشاب منهم قُدما ، حتى
اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، واخترضت محاسن وجهه بالدماء ، وعُفّر^(٤)
جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير السماء ، وتمزقته سباع الأرض ، فطوبى لهم
وحسن مأب ، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى بها صاحبها في جوف
الليل من خوف الله ، وكم من يد قد أيدت عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها
صاحبها راکماً وساجداً ، وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق^(٥) ، قد فُلق بعمد
الحديد ، ثم بكى ، وقال : آه ، آه على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ،
وأدخل أرواحهم الجنان » . (الأغانى ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٩ ،
والبيان والتبيين ٢ : ٦١ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٤٠ - خطبة أخرى

ورقى المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أوصيكم بتقوى الله وطاعته ، والعمل بكتابه . وسنة نبيه صلى الله عليه
وسلم ، وصلة الرّحم ، وتعظيم ما صغرت الجبارة من حق الله ، وتصغير
ما عظمت من الباطل ، وإماتة ما أحيوا من الجور ، وإحياء ما أماتوا من الحقوق ،
وأن يُطاع الله ، وَيُعصى العباد في طاعته ، فالطاعة لله ولأهل طاعة الله ، ولا
طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ندعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ، والقسم

[١] سدّت . [٢] استلت . [٣] جمع شباة : وهي حد كل شيء ، والطبات جمع ظبة ،
وهي حد السيف . [٤] أصابه العفر : وهو التراب . [٥] كريم .

بالسَّوِيَّةِ ، والعدلِ في الرعية ، ووضع الأَخماسِ في مواضعها التي أمر الله ^(١) بها ، تعلمون يا أهل المدينة أننا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أَشْرًا وَلَا بَطْرًا ، وَلَا عَبَثًا ، وَلَا لَهْوًا ، وَلَا لدولة مُلْك نريد أن نخوض فيه ، وَلَا لثأر قديم نيل منا ، ولكننا لما رأينا مصاييحَ الحقِّ قد أطفِئَتْ ، ومعالِمِ العدلِ قد عُطِّلتْ ، وكثُرَ الادِّعاءُ في الدين ، وَعَمِلَ بالهوى ، وَعُذِّفَ القائلُ بالحقِّ ، وَقُتِلَ القائمُ بالقِسْطِ ، ضاقت علينا الأرضُ بما رَحِبَتْ ، وسمعنا داعيًّا ^(٢) يدعو إلى طاعة الرحمن ، وَحُكْمِ القرآنِ ، فَأَجَبْنَا داعِيَ اللهِ ، وَمَنْ لَا يَجِبُ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ ^(٣) فِي الْأَرْضِ ، فَأَقْبَلْنَا من قبائلِ شَتَّى ، النفرُ ^(٤) منا على بعير واحد ، عليه زادهم وأنفسهم ، يتعاورون لِخَافَا وَاحِدًا ، قليلون مُستضعفون في الأرض ، فَأَوانا اللهَ وأيدنا بنصره ، وأصبحنا واللهِ جميعًا بنعمته إخوانًا ، وَعَلَى الدينِ أعوانًا ، ثم لقينا رجالكم بقُدَيْدٍ ، فدعَوْنَاهم إلى طاعة الرحمن ، وحكم القرآنِ ، ودعَوْنَاهم إلى طاعة الشيطانِ ، وحكم مروانِ وآلِ مروانِ ، فشتانَ لعمرُ الله ما بين النغيِّ والرشدِ ! ثم أقبلوا يُهْرَعُونَ وَيَرْفُونَ ^(٥) ، قد ضرب الشيطانُ بِجِرَانِهِ ^(٦) ، وغلت بدمائهم مَرَاجِلُهُ ، وَصَدَّقَ عَلَيْهِمُ إبليسُ ظَنَّهُ ، وأقبل أنصار الله عصائبَ وكتائبَ ، بكل مُهَنْدِ ذِي رَوْتِقٍ ، فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المُبْطَلُونَ .

وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ تَنْصَرُوا مَرْوَانَ وَآلَ مَرْوَانَ يُسْحِطِكُمْ ^(٧) اللَّهُ بِعَذَابٍ

[١] قال الله تعالى : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » . [٢] يريد عبد الله بن يحيى الكندي .

[٣] أي لا يعجز الله بالهرب منه فيفوته . [٤] النفر : جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة .

[٥] زف الظلم وغيره كضرب زفا وزفياً وزفوفاً وأزف : أسرع .

[٦] جران البعير : مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره أي استولى عليهم . [٧] أسحطه : استأصله .

من عنده أو بأيدينا ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ إِنْ أَوْلَيْتُمْ خَيْرَ أَوْلٍ ، وَآخِرَكُمْ شَرٌّ آخِرٍ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ : النَّاسُ مِنَّا وَنَحْنُ مِنْهُمْ ، إِلَّا مُشْرِكًا عَابِدَ وَثَنٍ ، أَوْ كَافِرًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَوْ إِمَامًا جَائِرًا أَوْ شَادَا عَلَى عَضُدِهِ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَّفَ نَفْسًا فَوْقَ طَاقَتِهَا ، أَوْ سَأَلَهَا مَا لَمْ يُؤْتِهَا ، فَهُوَ لِلَّهِ عَدُوٌّ وَلَنَا حَرْبٌ ^(١) . (تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨ ، الأغانى ٢٠ : ١٠٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٥٨ ، والقصد المرید ٢ : ١٦١)

٤٤١ - خطبة له في سب أهل المدينة و تقرير عنهم

وخطب بالمدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ : مَا لِي رَأَيْتَ رَسْمَ الدِّينِ فِيكُمْ بَاقِيًا ، وَأَثَارَهُ دَارِسَةً ، لَا تَقْبَلُونَ عِظَتَهُ ، وَلَا تَفْقَهُونَ مِنْ أَهْلِهِ حُجَّةً ، قَدْ بَلَيْتَ فِيكُمْ جِدَّتَهُ ، وَانْطَمَسَتْ عَنْكُمْ سُنَّتُهُ ، تَرَوْنَ مَعْرُوفَهُ مُنْكَرًا ، وَالْمُنْكَرَ مِنْ غَيْرِهِ مَعْرُوفًا ، إِذَا انْكَشَفَتْ لَكُمْ الْعِبَرُ ، وَأَوْضَحَتْ لَكُمْ النُّذُرَ ^(٢) ، تَحْمِيَتْ عَنْهَا أَبْصَارُكُمْ ، وَصَمَّتْ عَنْهَا أَسْمَاعُكُمْ ، سَاهِينَ فِي غَمْرَةٍ ، لَاهِينَ فِي غَفْلَةٍ ، تَنْبَسِطُ قُلُوبُكُمْ لِلْبَاطِلِ إِذَا نُشِرَ ، وَتَنْقَبِضُ عَنِ الْحَقِّ إِذَا ذُكِرَ ، مُسْتَوْحِشَةٌ مِنَ الْعِلْمِ ، مُسْتَأْنَسَةٌ بِالْجَهْلِ ، كَلِمًا وَقَعَتْ عَلَيْهَا مَوْعِظَةٌ زَادَتْهَا عَنِ الْحَقِّ نُفُورًا ، تَحْمَلُونَ قُلُوبًا فِي صُدُورِكُمْ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ ، أَوْ لَمْ تَلْمِزْ لِكِتَابِ اللَّهِ الَّذِي لَوْ أَنْزَلَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَّصِدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ ، مَا تُعْنِي

[١] روى أنه قال عقب ذلك : « يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ أَخْبَرُونِي عَنْ ثَمَانِيَةِ أَسْمَاءٍ فَرَّصَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَلَى الْعَرَبِ ، عَلَى حَبِّهِ لِلضَّعِيفِ ، لِحُبِّهِ تَأْسَعُ ، لَيْسَ لَهُ مِنْهَا وَلَا سَهْمٌ وَاحِدٌ ، فَأَخَذَ جَمِيعَهَا لِنَفْسِهِ مَكَابِرًا عَرَبًا لِرَبِّهِ ، مَا يَقُولُونَ فِيهِ وَفِيمَنْ عَاوَنَهُ عَلَى فِعْلِهِ ؟ يَأْهَلُ الْمَدِينَةَ بَلْغَى أَنْتُمْ تَنْتَقِصُونَ أَصْحَابِي . . . الخ » وقد حذفته هنا لوروده في الخطبة السالفة . [٢] النذر : جمع نذير وهو النذر .

عنكم صحة أبدانكم إذا سقيمت قلوبكم ، إن الله قد جعل لكل شيء سبباً غالباً
ينقاد له ، ويطيع أمره ، وجعل القلوبَ غالباً على الأبدان ، فإذا مالت القلوب
مَيْلاً ، كانت الأبدان لها تبعاً ، وإن القلوب لا تلين أهلها إلا بصحتها ، ولا
يصححها إلا المعرفةُ بالله ، وقوةُ النية ، ونفاذُ البصيرة ، ولو استشعرت تقوى
الله قلوبكم ، لاستعملت في طاعة الله أبدانكم ، يأهل المدينة : داركم دارُ
الهجرة ، ومثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نبت به داره ، وضاق به
قَرَارُه ، وآذاه الأعداء ، وتجهمت ^(١) له ، فنقله الله إليكم ، بل إلى قوم لعمرى لم
يكونوا أمثالكم ، متوازنين مع الحق على الباطل ، مختارين الآجل على العاجل ،
يصبرون للضراء رجاء ثوابها ، فنصروا الله ، وجاهدوا في سبيله ، وآووا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ونصروه ، واتبعوا النورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ، وآثروا الله على
أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ^(٢) . قال الله تعالى لأمثالهم ولن أهتدى
بهدهم : « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، وأنتم أبناؤهم
ومن بقى من خلفهم ، تتركون أن تقتدوا بهم ، أوتأخذوا بسنتهم ، تُعنى القلوب ،
صُمَّ الآذان ، اتبعتم الهوى ، فأرداكم عن الهدى وأسهاكم ، فلا موعظُ
القرآن ترجركم فنزدجرون ، ولا تعظكم فتعتبرون ، ولا توظكم فتستيقظون ،
لبئس الخلف أنتم من قوم مضوا قبلكم ، ما سرتهم بسيرتهم ، ولا حفظتم
وصيتهم ، ولا احتذيتهم مثالهم ، لو شقت عنهم قبورهم ، فعرضت عليهم أعمالكم ،
لعجبوا كيف صُرف العذاب عنكم ! » .

(الأغانى ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٥٨)

[١] تحببه وتعهم له : استقبله بوجه كريه . [٢] الخصاصة : الفقر

وجاء في رواية العقد الفريد :

« يأهل المدينة : أولكم خيرٌ أول ، وآخركم شر آخر ، إنكم أطعتم قُرَاءكم وفقهاءكم فاخْتَأَنُوكُمْ^(١) عن كتابٍ غيرِ ذِي عِوَج ، بتأويل الجاهلين ، وانتحال المُبْطِلِينَ ، فأصبحتم عن الحق ناكبين^(٢) ، أمواتا غيرَ أَحْيَاءٍ وَمَا تَشْعُرُونَ ، يأهل المدينة : يا أبناء المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ما أصحَّ أصلكم ، وأسقمَ فرَعُكم ! كَانِ آبَاؤُكُمْ أَهْلَ اليقين ، وأهل المعرفة بالدين ، والبصائر النافذة ، والقلوب الواعية ، وأنتم أهل الضلالة والجهالة ، استعبدتكم الدنيا فأذلتكم ، والأمانى فأضلتكم ، فتح الله لكم بابَ الدين فسَدَدْتُمُوهُ ، وأغلق عنكم بابَ الدنيا ففتحتُمُوهُ ، سِرَاعٌ إِلَى الفِتْنَةِ ، بِطَائِفٍ عَنِ السُّنَّةِ ، عُمِّيَ عَنِ البرهان ، صُمِّمَ عَنِ العِرْفَانِ ، عَيِيدَ الطَّمَعِ ، خُلَفَاءَ الجَزَعِ ، نِعِمَّ مَا وَرَثْتُمْ آبَاؤُكُمْ لَوْ حَفِظْتُمُوهُ ، وبئس ما تورثون أبناءكم إن تمسكوا به ، نصر الله آباءكم على الحق ، وخذلكم على الباطل ، كَانَ عِدَدُ آبَائِكُمْ قَلِيلًا طَيِّبًا ، وَعِدَدُكُمْ كَثِيرًا خَبِيثًا ، اتبعتم الهوى ، فَأَرَدَاكُمْ ، واللَّهُوُ فَأَسْهَأَكُمْ ، ومواعظُ القرآن تزجركم فلا تردجِرُونَ ، وتعبركم^(٣) فلا تعبرون . »

(العقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٤٢ - خطبة أخرى

وخطب فقال : « أما بعد ، فإنك في نائبي فِتْنَةٌ^(٤) ، وقائد ضلالة ، قد طال بثُومها ، واشتدَّ عليك نُغْمُومُهَا ، وتلوَّنتَ^(٥) مَصَائِدُ عَدُوِّ اللَّهِ فِيهَا ، وما

[١] خاتوكم . [٢] أى عادلين عنه منصرفين . [٣] المراد : تمطكم ، من العبرة ، ولم أجده في كتب اللغة بهذا المعنى ، وإنما الذى فيها : « عبر الدرهم : وزنها » .
[٤] من إضافة الصفة الموصوف أى فى فتنة ناشئة ، أى حية شابة .
[٥] تعددت وصارت ذات أوان أى نصب العود لنا المصايد ، ودبر المكاييد للإيقاع بنا .

نَصَبَ مِنَ الشَّرْكَ لِأَهْلِ الْغَفْلَةِ عَمَّا فِي عَوَاقِبِهَا ^(١) ، فَلَنْ يَهْدَّ عَمُودَهَا ، وَلَنْ يَنْزِعَ أوتَادَهَا ، إِلَّا الَّذِي بِيَدِهِ مُلْكُ الْأَشْيَاءِ ، وَهُوَ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، أَلَا وَإِنَّ لِلَّهِ بَقَايَا مِنْ عِبَادِهِ لَمْ يَتَحَيَّرُوا فِي ظُلْمَتِهَا ، وَلَمْ يُشَايِعُوا أَهْلَهَا عَلَى شُبُهَاتِهَا ، مَصَابِيحُ النُّورِ فِي أَفْوَاهِهِمْ تَرَهُو ، وَأَلْسِنَتُهُمْ بِحُجَجِ الْكِتَابِ تَنْطِقُ ، رَكَبُوا مَنَهْجَ السَّبِيلِ ، وَقَامُوا عَلَى الْعَلَمِ ^(٢) الْأَعْظَمِ ، هُمْ خُصَمَاءُ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِهِمْ يُصْلِحُ اللَّهُ الْبِلَادَ ، وَيُدْفَعُ عَنِ الْعِبَادِ ، فَطُوبَى لَهُمْ وَلِلْمُسْتَصْبِحِينَ ^(٣) بِنُورِهِمْ ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنا مِنْهُمْ ^(٤) . (العقد الفريد ٢ : ١٦٢)

٤٤٣ — خطبته حين خرج من المدينة

وخطب حين خرج من المدينة ، لقتال جيش مروان ^(٥) فقال :
« يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : إِنَّا خَارِجُونَ لِحَرْبِ مَرْوَانَ ، فَإِنْ نَظَّهَرْنَا نَعْدِلُ فِي أَحْكَامِكُمْ ، وَنَحْمِلُكُمْ عَلَى سَنَةِ نَبِيِّكُمْ ، وَنَقْسِمُ بِبَنِيكُمْ فِيئَتِكُمْ ، وَإِنْ يَكُنْ مَا تَمَنَّوْنَ لَنَا : فَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .
(تاريخ الطبري ٩ : ١١٠ ، والأغانى ٢٠ : ١١٠ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٦١)

[١] أى ولسنا منهم . [٢] العلم : الجبل ، والمراد أنهم لا يستحقون في دعوتهم .

[٣] أى المستصيبين . [٤] ذكر الجاحظ هذه الحطبة ، وقال : ذهب عنى إسنادها ، وهى لأبي حمزة كما فى العقد الفريد .

[٥] وذلك أن مروان بن محمد جهز جيشاً من أهل الشام ، واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية ، وأمره أن يعصى فيقاتلهم ، فإن هو ظفر بهم مضى حتى يبلغ اليمن ، ويقال عبد الله بن يحيى ، فسار إليهم ، وخرج أبو حمزة للقائه ، فقاتلهم ابن عطية حتى قتلهم ، وقتل أبا حمزة ، وبعث برأسه إلى مروان ، وصلبه هو وكبار أصحابه (سنة ١٣٠) ولم يزالوا مصلبين حتى أفضى الأمر إلى بنى العباس ، ثم سار ابن عطية إلى اليمن ، فقاتل عبد الله بن يحيى وقتله ، وبعث برأسه إلى مروان .

٤٤٤ - عمران بن حطان والحجاج

ولما ظفر الحجاج بعمران^(١) بن حطان الشَّارِي . قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ، فقال عمران : لبئس ما أدَّبك أهلُك يا حجاج ! كيف أمِنتَ أنْ أجيبَكَ بمثل ما لقيتَنِي به ؟ أبعَدَ الموتِ منزلةً أصانَعك عليها ؟ فأطرق الحجاج أستحياءً وقال : خلُّوا عنه ، فخرج إلى أصحابه ، فقالوا : والله ما أطلقَكَ إلا اللهُ ، فارجع إلى حربِه معنا ، فقال : هيهات ! غلَّ يَدًا مُطلِقُها ، وأسَرَّ رِقبةً مُعتِقُها .
(زهر الآداب ٣ : ١٧٨)

الخطب الوعظية والوصايا

٤٤٥ - خطبة سحبان بن زفر الوائلي^(٢) (توفي سنة ٤٥٤ هـ)

خطب فقال :

« إن الدنيا دارٌ بلاغ ، والآخرة دار قرّار ، أيها الناس : تخذوا من دار

[١] كان رأس التمد من الحوارج الصمرية وخطيبهم وشاعرهم .

[٢] هو سحبان بن زفر الوائلي ، وقد ضرب به المثل في العصاحة والبيان ، فتميل : « أخطب من سحبان وائل » ومع ذلك لم يؤثر عنه إلا هذه الخطبة الموحدة ، على أنها تعزى إلى الامام عليّ - انظر نهج البلاغة ١ : ٢٦٠ - وذكر المبرد في الكامل عن الأصمعي أن أعرابيا خطبها بالبادية - تهذيب الكامل ١ : ٢٨ - وكذا ذكر أبو علي القالي - في الأمالي ١ : ٢٥٨ - وابن عبد ربه - في المقد الفريد ٢ : ١٦٤ - وأبو العضل الميداني - في مجمع الأمل ١ : ٣١٨ ، وابن قتيبة في عيون الاخبار م ٢ : ٢٥٣ - والحصري - في زهر الآداب ٢ : ٤ - قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس على أن هذا الكلام لأبي المؤمنين علي عليه السلام ، ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه ، فأورده كما يورد الناس كلام غيرهم » - م ٣ : ص ٢ - .

وقد روى ابن نباتة في سرح العميون أنه قدم على معاوية وفد من خراسان ، فيهم سعيد بن عثمان ابن عفان ، فطلب سحبان فلم يوجد في منزله ، فاقترض من ناحية اقتضابا ، وأدخل عليه ، فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ، ما تمنع ، ولا سئل ، ولا توقف ، ولا ابتداء في معنى ، فخرج منه ، وقد بقي عليه منه شيء ، فما زالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ، فأشار إليه سحبان أن لا تقطع كلامي فقال معاوية : الصلاة ، قال : هي أمامك : نحن في صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال سحبان : « والعجم والجن والإنس » اه ، واهل هذه الإطالة هي التي عافت الرواة عن حفظ ما يقول .

مَمَّرْكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ ،
وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ ، فَفِيهَا حَيَاتُكُمْ وَلِغَيْرِهَا ،
خُلِقْتُمْ ، إِنْ الرَّجُلُ إِذَا هَلَكَ ، قَالَ النَّاسُ : مَا تَرَكَ ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ اللَّهُ ؟
قَدَّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ ، وَلَا تَخْلَفُوا كُفْلًا عَلَيْكُمْ .

(سرح العيون ص ٩٥)

٤٤٦ - خطبة معاوية

وخطب معاوية بدمشق ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : سَافِرُوا بِأَبْصَارِكُمْ فِي كَرِّ الْجَدِيدِينَ ^(١) ، ثُمَّ ارْجِعُوا هِيَ كَلِيلَةٌ
عَنْ بُلُوغِ الْأَمَلِ ، فَإِنَّ الْمَاضِيَ عِظَةٌ لِلْبَاقِي ، وَلَا تَجْعَلُوا الْغُرُورَ سَبِيلَ الْعِجْزِ عَنِ
الْجِدِّ ، فَتَنْقَطِعَ حُجَّتُكُمْ فِي وَاقِفِ اللَّهِ سَائِلِكُمْ فِيهِ ، وَمَحَاسِبُكُمْ فِي مَا أَسْلَفْتُمْ ،
أَيُّهَا النَّاسُ : أَمْسِ شَاهِدٌ فَاخْذَرُوهُ ، وَالْيَوْمَ مُؤَدَّبٌ فَاعْرِفُوهُ ، وَغَدًا رَسُولٌ
فَأَكْرِمُوهُ .

(مواسم الأدب ٢ : ١١٦)

٤٤٧ - خطبة عبد الملك بن مروان

وخطب عبد الملك بن مروان ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : اْعْمَلُوا لِلَّهِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً ، فَإِنَّكُمْ نَبَاتُ نِعْمَتِهِ ، وَحَصِيدُ
نِقْمَتِهِ ، وَلَا تَغْرَسْ لَكُمْ الْآمَالَ ، إِلَّا مَا تَجْتَنِيهِ الْآجَالُ ، وَأَنْزِلُوا الرِّغْبَةَ فِيمَا يورث
الْعَطَبَ ، فَكُلْ مَا تَرْرَعُهُ الْعَاجِلَةُ ، تَقْلَعُهُ الْآجِلَةُ ، وَاحْذَرُوا الْجَدِيدِينَ ، فَهَمَا
يَكْرَهُانَ عَلَيْكُمْ ، إِنْ عُمَّتِي مِنْ بَيْتِي لِحُوقِ بَعْنِ مَضَى ، وَعَلَى أَثَرِ مَنْ سَلَفَ ،
يَمْضِي مَنْ خَلَفَ ، فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

(مواسم الأدب ٢ : ١١٨)

٤٤٨ - خطبة لعمر بن عبد العزيز^(١)

قال أبو العباس المبرد : حَدَّثْتُ فِي بَعْضِ الْأَسَانِيدِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ

قَالَ فِي خُطْبَةٍ لَهُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا الدُّنْيَا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ ، وَأَجَلٌ مُنْتَقِصٌ ، وَبِلَاغٌ إِلَى دَارٍ
غَيْرِهَا ، وَسَيْرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَيْسَ فِيهِ تَعْرِيجٌ ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا فَكَّرَ فِي أَمْرِهِ ، وَنَصَحَ
لِنَفْسِهِ ، وَرَاقِبَ رَبَّهُ ، وَاسْتَقَالَ ذَنْبَهُ ، وَنَوَّرَ قَلْبَهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ أَبَا كُمْ قَدْ أُخْرِجَ
مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ، وَإِنْ رَبَّكُمْ وَعَدَّ عَلَى التَّوْبَةِ ، فَلَيَكُنْ أَحَدُكُمْ مِنْ ذَنْبِهِ
عَلَى وَجَلٍ ، وَمَنْ رَبَّهُ عَلَى أَمَلٍ » . (تهذيب الكامل ١ : ٢٧)

كلام الحسن البصرى (المتوفى سنة ١١٠ هـ)

٤٤٩ - خطبة له

قال الحسن البصرى رحمه الله^(٢) :

« يَا بَنَ آدَمَ : بِيَعْ دُنْيَاكَ بِآخِرَتِكَ تَرَبِّحُهُمَا جَمِيعًا ، وَلَا تَبِيعْ آخِرَتَكَ
بِدُنْيَاكَ فَتَخْسِرَ هَا جَمِيعًا ، يَا بَنَ آدَمَ : إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ فِي الْخَيْرِ فَنَافِسْتَهُمْ فِيهِ ، وَإِذَا
رَأَيْتَهُمْ فِي الشَّرِّ فَلَا تَغْبِطَهُمْ عَلَيْهِ ، الشَّوَاءُ^(٣) هَاهُنَا قَلِيلٌ ، وَالْبَقَاءُ هُنَاكَ طَوِيلٌ ،
أُمَّتُكُمْ آخِرُ الْأُمَمِ ، وَأَنْتُمْ آخِرُ أُمَّتِكُمْ ، وَقَدْ أُسْرِعَ بِخِيَارِكُمْ ، فَإِذَا تَنْتَظِرُونَ ؟

[١] هذه الخطبة مختلف في قائلها أيضا ، فقد عزاها المبرد إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كما ترى وروى البيهقي في مجمع الأمثال (٢ : ٢٧٧) الشطر الأول منها ، وعزاها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد أوردته في الجزء الأول ص ٢٧٠ .

[٢] هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصرى ، من سادات التابعين ، وأورع العباد والمتسكين وإمام أهل العلم والرأى في عصره ، وأستاذ واصل بن عطاء شيخ المعتزلة . [٣] الإقامة .

المعاينة؟ فكأن قد . هيهات هيهات ! ذهبت الدنيا بحاليها^(١) ، وبقيت الأعمال
 قلائد في أعناق بني آدم . فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! أما إنه والله
 لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تسوقون
 الناس والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحقه آخركم ، من رأى
 محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم فقد رآه غادياً راثماً ، لم يضع لينة على لينة ، ولا
 قصبه على قصبه ، رُفِعَ له عِلْمٌ فشمَّرَ إليه^(٢) ، فالوَحَاءُ الوَحَاءُ^(٣) ، وَالنَّجَاءُ النِّجَاءُ ،
 غلامٌ تعرَّجون؟ أُنْتِمْ وَرَبُّ الكعبة ! قد أُسْرِعَ بخياركم : وأنتم كل يوم
 ترذُلون^(٤) ، فإذا تنتظرون؟ إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه الصلاة
 والسلام على عِلْمٍ منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وكان
 صَفْوَتَهُ من خلقه ، ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا مَوْضِعاً ينظر إليه
 أهلُ الأرض^(٥) ، وآتاه منها قُوْتاً وبلغةً ، ثم قال : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي
 رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » . فرغب أقوام عن عيشه ، وسخطوا ما رضى له
 ربُّه ، فأبعدهم الله وأسحقهم^(٦) .

يا بن آدم : طأ الأرض بقدمك ، فإنها عن قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل
 في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك . رحم الله رجلاً نظر فتفكر ،
 وتفكر فاعتبر ، وأبصر فصبر ، فقد أبصر أقوام ولم يصبروا ، فذهب الجزع
 بقلوبهم ، ولم يُدْرِكُوا ما طلبوا ، ولم يَرْجِعُوا إلى ما فارقوا .

[١] أى بزمنها الحالى ، من حليت المرأة كرضى هى حال وحالية : لبست الحلى ، والمعنى ذهبت بزخرفها
 الذى تزيفت به للناس فأصلتهم وأغوتهم ، وهى فى نسخة : « بحال بالها » وفى أخرى : « بحال بالها » .
 وهو تحريف . [٢] وفى نسخة : « سما إليه » . [٣] الوحا ويمد : العجلة والإسراع .
 [٤] أى تصيرون أردالا جمع رذل وهو اللون الحسيس .
 [٥] أى مَوْضِعاً سامياً . [٦] أى أبعدهم ، وفى نسخة : « وسحقهم » أى أهلكهم

يا بن آدم : اذكر قوله : « وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ ^(١) فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ، اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا » . عدلَ والله عليك من جعلك حسيبَ نفسك ، خذوا صفا الدنيا ، وذروا كدرها ، فليس الصفو ما عاد كدرا ، ولا الكدر ما عاد صفوا ، دعوا ما يُريكم إلى ما لا يريكم ، ظهر الجفاء وقلت العلماء ، وعفت ^(٢) السنة ، وشاعت البدعة ، لقد صحبتُ أقواما ما كانت صحبتهم إلا فُرّة العين ، وجلاء الصدور ، ولقد رأيت أقواما كانوا - من حسنانهم أن تُردّ عليهم - أشفق ^(٣) منكم - من سيئاتكم أن تُعذبوا عليها - ، وكانوا فيما أحلّ الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرّم الله عليكم منها ، مالى أسمع حسيبًا ، ولا أرى أنيسًا ، ذهب الناس وبقى النّسناس ^(٤) ، لو تكاشفتُم ما تدافنتُم ، تهاديتم الأطباق ، ولم تتهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : « رَحِمَ اللهُ أَمْرًا أَهْدَى إِلَيْنَا مَسَاوِينَا » أعدوا الجواب ، فإنكم مسئولون ، المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكنه أخذ من قبلِ ربّه ، إن هذا الحق قد جهّد أهله ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عرّف فضله ، ورجا عافيته ، فمن حمد الدنيا ذمّ الآخرة ، وليس يكره لقاء الله إلا مُقيمٌ على سُخطه .

[١] أى عمله يحمله في عنقه ، والتعبير به لما كانوا يقيمون ويقشاهون بالطائر السائح والبارح ، استعيرت لما هو سبب الخير والشر . [٢] بحيث . [٣] أخوف . [٤] في حديث أبي هريرة رضى الله عنه : « ذهب الناس وبقى النّسناس » قيل : فما النّسناس ؟ قال : « الذين يتشبهون بالناس ، وليسوا من الناس » ولهم في تفسير الفسّاس كلام كثير منه : أنهم خلق على صورة الناس خالفوم في أشياء ، وليسوا بهم .

يا بن آدم : الإيـمان ليس بالتحلى ولا بالتمنى ، ولكنه ما وقـر في القلوب ،
وصدقـه العمل .

(البيان والتبيين ٣ : ٦٨ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٣٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٦٩)

٤٥٠ - خطبة أخرى

وكان إذا قرأ : « أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ ^(١) » قال :

« عَمَّ أَلْهَأَكُم ؟ عن دار الخلود ، وَجَنَّةٍ لَا تَبِيدُ ^(٢) ، هذا والله فَضَّحَ الْقَوْمَ ،
وَهَتَكَ السَّتْرَ ، وَأَبْدَى الْعَوَارِ ^(٣) ، تُنْفِقُ مِثْلَ دِينِكَ فِي شَهْوَاتِكَ سَرَفًا ، وَتَمْنَعُ فِي
حَقِّ اللَّهِ دِرْهَمًا ! سَتَعْلَمُ يَا أَلْكَع ^(٤) ، النَّاسُ ثَلَاثَةٌ : مُؤْمِنٌ ، وَكَافِرٌ ، وَمُنَافِقٌ ؛
فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ : فَقَدْ أَجْلَهُ الْخَوْفُ ، وَقَوْمَهُ ذِكْرُ الْعَرَضِ ؛ وَأَمَّا الْكَافِرُ : فَقَدْ قَمَعَهُ
السَّيْفُ ، وَشَرَّدَهُ الْخَوْفُ ، فَأَذَعَنَ بِالْجِزْيَةِ ، وَسَمَّحَ بِالضَّرْبَةِ ؛ وَأَمَّا الْمُنَافِقُ : فَفِي
الْحُجْرَاتِ وَالطَّرِيقَاتِ ، يُسِرُّونَ غَيْرَ مَا يُعْلِنُونَ . وَيُضْمِرُونَ غَيْرَ مَا يُظْهِرُونَ ،
فَاعْتَبَرُوا إِنْكَارَهُمْ رَبَّهُمْ ، بِأَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ ، وَيَلِّكَ ؟ قَتَلْتَ وَايَهُ ، ثُمَّ تَمَنَّى عَلَيْهِ
جَنَّتَهُ ؟ » . (البيان والتبيين ٣ : ٦٩)

٤٥١ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا خَلَا بِكِتَابِ اللَّهِ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ نَفْسَهُ ، فَإِنْ
وَأَفَقَهُ حَمْدَ رَبِّهِ ، وَسَأَلَهُ الزِّيَادَةَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَإِنْ خَالَفَهُ أَعْتَبَ وَأَنَابَ ، وَرَاجَعَ مِنْ
قَرِيبٍ ، رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا وَعَظَّ أَخَاهُ وَأَهْلَهُ فَقَالَ : « يَا أَهْلِي : صَلَاتِكُمْ صَلَاتِكُمْ ،
زَكَاتِكُمْ زَكَاتِكُمْ ، جِيرَانِكُمْ جِيرَانِكُمْ ، إِخْوَانِكُمْ إِخْوَانِكُمْ ، مَسَاكِينِكُمْ مَسَاكِينِكُمْ »

[١] النباهى بالكثرة . [٢] لا تنفى . [٣] العوار مثلث العين : العيب .

[٤] الكع : اللئيم والأحمق .

مسا كينكم ، لعل الله يرحمكم ، فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبد من عباده ، فقال : « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » يابن آدم : كيف تكون مسلماً ولم يسلم منك جارك ، وكيف تكون مؤمناً ولم يأمّنك الناس ؟ » (البيان والتبيين ٣ : ٦٩)

٤٥٢ - خطبة أخرى

وكان يقول : « لا يستحق أحد حقيقة الإيمان ، حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه ، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم ، حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيباً إلا وجد في نفسه عيباً آخر ينبغي له أن يصلحه ، فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره ، وإنك ناظر إلى عمالك بوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئاً من الخير وإن صغر ، فإنك إذا رأيت سرك مكانه ، ولا تحقرن شيئاً من الشر وإن صغر ، فإنك إذا رأيت ساءك مكانه » . (البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٣ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رحم الله عبداً كسب طيباً ، وأنفق قصداً ، وقدم فضلاً ، وجّهوا هذه الفضول ^(١) حيث وجهها الله ، وضعوها حيث أمر الله ، فإن من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بلاغهم ، ويؤثرون بالفضل ، ألا إن هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها ، فلا والله ما وجد ذولب فيها قرحاً ، فأياكم وهذه السبل المتفرقة ، التي جماعها الضلالة ، وميعادها النار ، أدركت من صدر هذه الأمة قوماً كانوا إذا جنّهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفتشون خدودهم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكك

[١] جمع فضل وهو الزيادة من المال وغيره .

رقابهم ، إذا عملوا الحسنة سررتهم ، وسألوا الله أن يتقبلها منهم ، وإذا عملوا سيئة ساءت لهم ، وسألوا الله أن يغيرها لهم ، يابن آدم : إن كان لا يُغنيك ما يكفيك ، فليس ها هنا شيء يُغنيك ، وإن كان يُغنيك ما يكفيك ، فالقليل من الدنيا يكفيك ، يابن آدم : لا تعمل شيئاً من الحق رياءً ، ولا تتركه حياءً . (البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٤ — خطبة أخرى

وكان يقول : « إن العلماء كانوا قد استغنوا بعامهم عن أهل الدنيا ، وكانوا يقضون بعامهم على أهل الدنيا ، ما لا يقضي أهل الدنيا بدنياهم فيها ، وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم لأهل العلم رغبةً ، في عامهم ، فأصبح اليوم أهل العلم يبذلون عامهم لأهل الدنيا رغبةً في دنياهم ، فرغب أهل الدنيا بدنياهم عنهم ، وزهدوا في عامهم ، لما رأوا من سوء موضعه عندهم » ، وكان يقول : « لا أذهب إلى من يُوارى عنى غناه ، ويُبدي لى فقره ، ويُغلق دونى بابه ، ويعننى ما عنده ، وأدع من يفتح لى بابه ، ويُبدي لى غناه ، ويدعونى إلى ما عنده » .

(البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٥ — خطبة أخرى

وكان يقول : « يابن آدم ، لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر ، مؤمن مُهْتَمٌّ ، وعاجِ اغْتَمٌّ ، وأعرابي لافِقُه له ، ومنافق مكذَّب ، ودنياويٌّ^(١) مُتْرَفٌ ، نَعَقَ بهم ناعق فاتبعوه ، قرأش نارٍ^(٢) ، وذبان طمع ، والذي نفسُ الحسنِ بيده ، ما أصبح في هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً حزيناً ، وليس لمؤمن راحةٌ دون لقاء الله ، الناس ما داموا في عافية

[١] نسبة إلى دنيا . [٢] أى هم كالفراس يتهاوت على النار يحسبها نائمة له ، فتحرقه .

مستورون ، فإذا نزل بلاءهم صاروا إلى حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ،
والمنافق إلى نفاقه ، أي قوم : إن نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم ، فسارعوا
إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ، ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ
من نفسه ، وكانت المحاسبة من همته » . (البيان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٥٦ — خطبة أخرى

وقال في يوم فطر - وقد رأى الناس وهيئاتهم - : « إن الله تبارك وتعالى
جعل رمضان مضماراً لخلقه ، يستبِقون فيه بطاعته إلى مرصاته ، فسبق أقوام
ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فالعجب من الضاحك اللاعب ، في اليوم الذي
يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه المبطّلون ، أما والله أن لو كشف الغطاء ، لشغل
محسن بإحسانه ، ومُسيء بإساءته ، عن ترجيل^(١) شمر ، أو تجديد ثوب » .
(البيان والتبيين ٣ : ٧١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٣)

٤٥٧ — مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة

لما ولي عُمر بن هُبَيْرَة الفَزَارِي العِراق - وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك -
استدعى الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، والشَّعْبِيّ ، سنة ثلاث ومائة ، فقال
لهم : إن يزيد خليفة الله ، استخلفه على عبادته ، وأخذ عليهم الميثاق بطاعته ، وأخذ
عَهْدَنَا بالسمع والطاعة ، وقد ولّاني ما ترون ، فيكتب إلى بالأمر من أمره ،
أعرف في تنفيذ الهلكة ، فأخاف إن أطعته غضب الله ، وإن عصيته لم آمن
سَطوته ، فما ترون ؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقيّة ، وكان ابن هُبيرة
لا يستشفي دون أن يسمع قول الحسن ، فقال : قل ما عندك يا أبا سعيد ، فقال :

[١] وفي رواية الكامل للبرد : « ترطيل » بالطاء ، والترطيل : تليين الشعر بالدهن وتكثيره
وإرخاؤه وإرساله .

« يابن هبيرة : خَفِ اللهُ في يزيد ولا تَحَفْ يزيدَ في اللهُ ، إن اللهُ يَمْنَعُكَ من يزيد ، وإن يزيد لا يَمْنَعُكَ من اللهُ ، وأوشك أن يبعث إليك مَلَكًا ، فَيُرِيكَ عن سريرك ، ويخرجك من سَعَةِ قَصْرِكَ ، إلى ضيقِ قَبْرِكَ ، ثم لا يُنَجِّبِكَ إلا عَمَلُكَ ، يابن هبيرة : إن تَعَصَى اللهُ ، فإنما جعل اللهُ هذا السلطانَ ناصرًا لدينِ اللهِ وعبادِهِ ، فلا تَرَكِبَنَّ دينَ اللهِ وعبادِهِ بسلطانِ اللهِ ، فإنه لاطاعةُ لِمَخْلُوقٍ في معصيةِ الخالقِ » .

وفي رواية أخرى قال : « أقول والله إنه يُوشِكُ أن ينزل بك مَلَكٌ من ملائكةِ اللهِ فَظًّا غليظًا ، لا يَعْصِي اللهُ ما أمرُهُ ، فيخرجك من سَعَةِ قَصْرِكَ ، إلى ضيقِ قَبْرِكَ ، فلا يُغْنِي عنك ابن عبد الملك شيئًا ، وإني لأرجو أن اللهُ عزَّ وجلَّ سيَعْصِمُكَ من يزيد ، وإن يزيد لا يَمْنَعُكَ من اللهُ ، فاتقِ اللهُ أيها الأمير ، فإنك لا تأمن أن ينظر اللهُ إليك ، وأنت على أقبح ما تكون عليه من طاعةِ يزيد ، نظرةً يَمَقُّتُكَ بها ، فيُغْلِقُ عنك بابَ الرَّحْمَةِ ، واعلم أني أخوِّفُكَ ما خوِّفُكَ اللهُ سبحانه حين يقول : « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ » وَإِذَا كُنْتَ مَعَ اللهِ عزَّ وجلَّ في طاعتهِ كَفَاكَ بَوَائِقَ ^(١) يزيد ، وإن كنت مع يزيد على معصيةِ اللهِ وكَلَّمَكَ اللهُ إلى يزيد حين لا يُغْنِي عنك شيئًا » .

فبكى عمر بن هبيرة بكاءً شديدًا ، ثم أجازهم ، وأضعف جائزة الحسن ، فقال الشعبي لابن سيرين : سَفَسَفْنَا ^(٢) له فَسَفَسَفَ لَنَا .

(وفيات الأعيان ١ : ١٢٨ ، الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٢ ، مروج الذهب ٢ : ١٧٨ ، عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٤٣ ، شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٥٩ ، أمالي السيد المرتضى ١ : ١١٠)

٤٥٨ — مقام الحسن عند النضر بن عمرو

وأحضر النضر بن عمرو - وكان واليًا على البصرة - الحسن البصرى يومًا ، فقال :

[١] جمع بائنة وهي الداهية . [٢] سفسف عمله : لم يبالغ في إحكامه .

يا أبا سعيد إن الله عز وجل : خلق الدنيا وما فيها من ريشها (١) ، وبهجتها ، وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ، وقال عز من قائل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ، فقال الحسن : « أيها الرجل : اتق الله في نفسك ، وإياك والأمانى التي ترجعت (٢) فيها فتهلك ، إن أحداً لم يُعْطَ خيراً من خير الدنيا ، ولا من خير الآخرة بأمنيته ، وإنما هي داران ، من عمل في هذه أدرك تلك ، ونال في هذه ما قُدِّر له منها ، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعاً ، إن الله سبحانه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لنفسه ، وبعثه برسالته ورحمته ، وجعله رسولا إلى كافة خلفه ، وأنزل عليه كتاباً مهيئاً ، وحدّ له في الدنيا حدوداً ، وجعل له فيها أجلاً ، ثم قال عز وجل : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهتدى بهديه ، وأن نسلك طريقته ، ونعمل بسنته ، فما بلغنا إليه بفضله ورحمته ، وما قصرنا عنه فعلينا أن نستعين ونستغفر ، فذلك باب مخرَجنا ، فأما الأمانى فلا خير فيها ، ولا في أحدٍ من أهلها »

فقال النضر : والله يا أبا سعيد إنا على ما فينا لنحب ربنا ، فقال الحسن :

« لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأُنزل الله

تعالى عليه : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ » . فجعل

سبحانه أتباعه صلى الله عليه وسلم علماً للمحبة ، وأكذب من خالف ذلك ، فاتق

[١] الرياش : اللباس الفاخر والمذل والحصب والمعاش . [٢] أى ملت إليها ، من ترجعت به الأرجوحة : مالت .

الله أيها الرجل في نفسك ، وإيمُ الله لقد رأيتُ أقواماً كانوا قبلك في مكانك ،
يَعْلُونَ المنابرَ ، وتهتَزُّ لهم المراكبُ ، وَيَجْرُونَ الذيولَ بَطْرًا ورياءَ الناسِ ،
يبنون المَدَرَ (١) ، وَيُوَثِّرُونَ الأَثَرَ (٢) ، ويتنافسون في الثيابِ ، أُخْرِجُوا من
سلطانهم ، وسُلبوا ما جَمَعُوا من دنياهم ، وَقَدِمُوا على ربهم ، ونزلوا على أعمالهم ،
فالويلُ لهم يومَ التغابنِ (٣) ، ويا ويحهم - يَوْمَ يَفِرُّ المُرءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ
وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٠)

٤٥٩ - مقام آخر له عند النضر

ودخل عليه يوماً آخر فقال :

« أيها الأمير أيدك الله ، إن أخاك من نصحك في دينك ، وَبَصْرَكَ عيوبك ،
وهذاك إلى مَرَشِدِكَ ، وإن عدوك من غررك ومناك ، أيها الأمير اتق الله فإنك
أصبحت مخالفاً للقوم في الهدى والسيرة ، والعلائية والسريرة ، وأنت مع ذلك
تتمنى الأمانى ، وَتَرَجَّعُ في طلب العذر ، والناس أصالحك الله طالبان ، فطالب
دنيا ، وطالب آخرة ، وإيم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح ، وتعب الآخر
واخترم (٤) ، فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطلب الفانى ، وتترك الباقي ، فتكون من
النادمين ، واعلم أن حكياً قال :

أين الملوكُ التي عن حظها غفَلتُ حتى سقاها بكأس الموت ساقيا

[١] المدر : قطع الطين اليابسة ، والمراد يبنون القصور .

[٢] استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة واستبد بها ، والاسم : الأثرة بالتحريك ، والأثرة
بالضم والكسر ، والجمع أثر كفرصة وفرص . [٣] غبنه و البيع يفبته ، والتغابن : أن يفبن بعض
القوم بعضاً ، وسمى يوم القيامة يوم التغابن ، لأن أهل الجنة تفبن أهل النار بأخذ منازلهم و
الجنة لو آمنوا . [٤] هلك .

نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكور^(١) ، ومن الضَّلالة بعد الهدى ، لقد حَدَّثت
أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كَانَ يقول : « كفى بالمرء خيانةً أن يكون
للخَوَنة أميناً ، وعلى أعمالهم معينا » . (الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥١)

٤٦٠ - مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط
وروى أن الحجاج بنى داراً بواسِط^(٢) ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما
دخلها قال :

« الحمد لله : إن الملوك ليرَوْن لأنفسهم عزاً ، وإنا آتَرى فيهم كل يوم عِبراً ،
يَعْمِد أحدهم إلى قصر فيشيِّده ، وإلى فرش فينجِّده^(٣) ، وإلى ملابس ومراكب
فيحسِّنها ، ثم يحْفُ به ذبابُ طَمَع ، وفراشُ نار ، وأصحاب سوء ، فيقول : أنظروا
ما صنعتُ ! فقد رأينا أيها المغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أمّا أهل
السموات فقد مقتوك ، وأمّا أهل الأرض فتمد لعنوك ، بنيت دار الفناء ، وخرَّبت
دار البقاء ، وغرَّرت في دار الغرور ، لتَدِلَّ في دار الجُبور ، ثم خرج وهو يقول :
إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ، لِيَبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتُمونه » .

و بلغ الحجاج ما قال ، فاشتدَّ غضبه ، وجمع أهل الشام ، فقال : يأهل
الشام أيشتمنى عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تُنكرون ! ثم أمر
بإحضاره فجاء وهو يحرك شفثيه بما لم يُسَمِع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال :
يا أبا سعيد ، أمّا كَانَ لإمارتي عليك حقّ حين قلت ما قلت ؟ فقال : يرحمك الله

[١] الحور : القصان ، والكور : الزيادة ، وهو حديث شريف : « نعوذ بالله من الحور بعد الكور »
أى من القصان بعد الزيادة ، وقيل : من فساد أمورنا بعد صلاحها ، وأصله من كور الدامة وهو
لغها وجمعها . [٢] واسط : مدينة بالعراق من الجنوب بين دجلة والفرات ، بناها الحجاج ومات بها .
[٣] التنجيد : الترين ، والنجاد : الذي يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما .

أيها الأمير، إن من خَوَّفَكَ حتى تبلغَ أَمْنَكَ أرفقُ بك وأحبُّ فيك ممن أَمَّنَكَ حتى تبلغَ الخوفَ ، وما أردتُ الذي سبق إلى وهمك ، والأمران بيدك : العفو والعقوبة ، فافعلِ الأوَّلَى بك ، وعلى الله فتوكل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاستحيا الحجاج منه ، واعتذر إليه وأكرمه وحبَّاه .

وفي رواية أخرى : « فلما دخل ، قال له الحجاج : ها هنا ، فأجلسه قريباً منه ، وقال : ما تقول في عليّ وعثمان ؟ قال : أقول قول من هو خيرٌ مني عند من هو شرٌّ منك ، قال فرعون لموسى : « فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ؟ قال : عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » عِلْمُ عليّ وعثمان عند الله . أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا بغالية^(١) وغلَّف بها لحيته ، فلما خرج تبعه الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه ؟ قال : قلتُ : « يا عُدَّتِي عند كُرْبَتِي ، ويا صاحبي عند شِدَّتِي ، ويا وليَّ نعمتي ، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقني مودَّته ، واصرف عني أذاه » ، ففعل ربي عز وجل .

(الحسن البصري لابن الجوري ص ٥٣ ، والمبىة والأمل لابن يحيى المرتضى ص ١٤ ،

وأمانى السيد المرتضى ١ : ١١٢)

٤٦١ - صفة الإمام العادل^(٢)

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد^(٣) كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة^(٤) كل مظلوم ،

[١] طيب . [٢] أوردت هذا الكتاب هنا ، والكتابين التاليين له لانتظامها في سلك الوصايا .

[٣] هداية ورشاد . [٤] اسم من الإنصاف .

ومَفزَع كل ملهوف ، والإمام العَدْلُ يا أمير المؤمنين كالرَاعِي الشفِيق على إبله ،
الرفِيق الذي يرتاد لها أطيبَ المرعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها
من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقرّ (١) ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين
كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صِغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في
حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ،
البرّة الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعته كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره ،
وتسكن بسكونه ، تُرضعه تارةً ، وتقطّعه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغنم
بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يربّي
صغيرهم ، ويعون كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ،
تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو
القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويُرِيهم ،
وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله كعبداً تمنه
سيده ، واستحفظه ماله وعباله ، فبدّد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفرّق
ماله ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ،
فكيف إذا أتاها من يلبسها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا
قتلهم من يقتصّ لهم ؟ واذكري يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وفلةَ أشياعك
عنده ، وأنصارك عليه ، فتزوّد له ، ولما بعده من الفزع الأكبر ، واعلم يا أمير
المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك
أحبّاءك ، يُسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزوّد له ما يصحبك يومَ يقرّ المرء

مِنْ أُخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، وَاذْكَرِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا مُبْعَثٍ مَا فِي الْقُبُورِ ، وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، فَالْأَسْرَارُ ظَاهِرَةٌ ، وَالْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، فَالآنَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ فِي مَهَلٍ ، قَبْلَ حُلُولِ الْأَجْلِ ، وَاتَّقِطَاعَ الْأَمَلِ ، لَا تَحْكَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِحُكْمِ الْجَاهِلِينَ ، وَلَا تَسْلُكْ بِهِمْ سَبِيلَ الظَّالِمِينَ ، وَلَا تَسَلِّطْ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَلَى الْمُسْتَضْعَفِينَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا^(١) وَلَا ذِمَّةً ، فَتَبُوءُ بِأَوْزَارِكَ ، وَأَوْزَارٍ مَعَ أَوْزَارِكَ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكَ ، وَأَثْقَالَ مَعَ أَثْقَالِكَ ، وَلَا يَغْرَتُكَ الَّذِينَ يَتَنَعَّمُونَ بِمَا فِيهِ بؤْسُكَ ، وَيَأْكُلُونَ الطَّيِّبَاتِ فِي دُنْيَاهُمْ بِإِذْهَابِ طَيِّبَانِكَ فِي آخِرَتِكَ ، لَا تَنْظُرْ إِلَى قَدْرَتِكَ الْيَوْمَ ، وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى قَدْرَتِكَ غَدًا ، وَأَنْتَ مَأْسُورٌ فِي حَبَائِلِ الْمَوْتِ ، وَمَوْقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ فِي مَجْمَعٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَقَدْ عَنَتِ^(٢) الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، إِنْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ لَمْ أَبْلُغْ بَعْضَتِي مَا بَلَّغَهُ أَوْلُو النُّهْيِ مِنْ قَبْلِي ، فَلَمْ آلُكَ^(٣) شَفَقَةً وَنُصْحًا ، فَأَنْزِلْ كِتَابِي إِلَيْكَ كَمَا دَاوَى حَبِيبِهِ ، يَسْقِيهِ الْأَدْوِيَةَ الْكَرِيهَةَ ، لِمَا يَرْجُوهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالصَّحَّةِ ، وَالسَّلَامِ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ .

(العقد الفريد ١ : ١٢ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٦)

٤٦٢ - موعظته لعمر بن عبد العزيز

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز رحمهما الله : اكتب إلي يا أبا سعيد بموعظة فأوجز ، فكتب إليه :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فكأن الذي كان لم يكن ، وكان الذي هو

كأنّ قد نزل ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الصبر ، وإن أذاقك تعجيل مرارته ، فلنعم
ما أعقبك من طيب حلاوته ، وحسن عاقبته ، وأن الهوى ، وإن أذاقك طعم
حلاوته ، فلبئس ما أعقبك من مرارته ، وسوء عاقبته ، واعلم يا أمير المؤمنين أن
الفائز من حرص على السلامة في دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فأدخل الجنة .

(الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٤)

٤٦٣ - موعظته لعمر بن عبد العزيز أيضا

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز : اكتب إلى يا أبا سعيد بدم الدنيا ،
فكتب إليه :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فإن الدنيا دار ظعن^(١) وانتقال ، وليست بدار
إقامة على حال ، وإنما أنزل إليها آدم عقوبةً ، فاحذرّها فإن الراغب فيها تارك ،
والغنى فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها ، إنها إذا اختبرها اللبيب
الحاذق ، وجدها تُذل من أعزها ، وتفرّق من جمعها ، فهي كالسمّ يأكله من
لا يعرفه ، ويرغب فيه من يجهله ، وفيه والله حنّفه ، فكن فيها يا أمير المؤمنين
كالمداوى جراحه ، يحتمى قليلا ، مخافة ما يكره طويلا ، الصبر على لاؤها^(٢) ،
أيسر من احتمال بلائها ، واللييب من حذرّها ، ولم يغتر بزينتها ، فإنها غدارة
ختالة^(٣) خداعة ، قد تعرضت بآمالها ، وتزينت لخطاياها ، فهي كالعروس ،
العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة^(٤) ، وهي ، والذي بعث محمداً بالحق ،
لأزواجها قاتلة ، فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها ، واحذر عثرتها ، فالرّخاء فيها
موصول بالشدة والبلاء ، والبقاء مؤدّى إلى الهلكة والفناء .

[١] ارتحال . [٢] شدتها . [٣] خداعة . [٤] من الوله بالتحريك وهو ذهاب العقل
من شدة الوجد .

وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ أَمَانِيَّهَا كَاذِبَةٌ ، وَآمَالُهَا بَاطِلَةٌ ، وَصَفْوُهَا كَدْرٌ ،
وَعَيْشُهَا نَكْدٌ ، وَتَارِكُهَا مُوَفَّقٌ ، وَالْمَتَمَسِّكُ بِهَا هَالِكٌ غَرِيقٌ ، وَالْفَطْنُ اللَّيْبُ
مَنْ خَافَ مَا خَوَّفَهُ اللَّهُ ، وَحَذِرَ مَا حَذَّرَهُ ، وَقَدَّرَ مِنْ دَارِ الْفَنَاءِ إِلَى دَارِ الْبَقَاءِ ،
فَعِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيهِ الْيَقِينُ ، الدُّنْيَا وَاللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ دَارَ عَقُوبَةٍ ، لَهَا يَجْمَعُ مِنْ
لَا عَقْلَ لَهُ ، وَبِهَا يَفْتَرُّ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ ، وَالْحَازِمُ اللَّيْبُ مَنْ كَانَ فِيهَا كَالْمَدَاوِي
جِرَاحِهِ ، يَصْبِرُ عَلَى مَرَارَةِ الدَّوَاءِ ، لِمَا يَرْجُو مِنَ الْعَافِيَةِ ، وَيَخَافُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ
الدَّارِ ، وَالدُّنْيَا وَآيْمُ اللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حُلْمٌ ، وَالْآخِرَةُ يَقْظَةٌ ، وَالْمَتَوَسُّطُ بَيْنَهُمَا
الْمَوْتُ ، وَالْعِبَادُ فِي أَضْغَاثِ أَحْلَامٍ ، وَإِنِّي قَائِلٌ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَالَ الْحَكِيمُ :

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَاِنِّي لَا إِخْلَاكَ تَاجِيَا «

وَلَمَّا وَصَلَ كِتَابَهُ إِلَى عَمْرِ ، بَكَى وَانْتَحَبَ حَتَّى رَحِمَهُ مِنْ كَانَ عِنْدَهُ ، وَقَالَ : يَرْحَمُ
اللَّهُ الْحَسَنَ ، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَوْقِظُنَا مِنَ الرَّقْدَةِ ، وَيُنَبِّئُنَا مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَاللَّهُ هُوَ مِنْ
مُشْفِقِي مَا أَنْصَحَهُ ! وَوَاعِظِي مَا أَسْأَلَهُ وَأَفْصَحَهُ !

(الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ لِأَبْنِ الْجَوْزِيِّ ص ٥٤ ، وَسِيرَةُ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِأَبْنِ الْجَوْزِيِّ ص ١٢١)

٤٦٤ — كَلِمَاتُ حِكْمَةٍ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ

وَقَالَ : احْذَرِ مَنْ نَقَلَ إِلَيْكَ حَدِيثَ غَيْرِكَ ، فَإِنَّهُ سَيَنْقُلُ إِلَى غَيْرِكَ حَدِيثَكَ .
أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّكُمْ لَا تَنَالُونَ مَا تَحْبُونَ إِلَّا بِتَرْكِ مَا تَشْتَهُونَ ، وَلَا تُدْرِكُونَ
مَا تَأْمَلُونَ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ . الصَّبْرُ صَبْرَانُ : صَبْرٌ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ ، وَصَبْرٌ
عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، فَمَنْ قَدَّرَ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ نَالَ أَفْضَلَ الصَّبْرِينَ . أَفْضَلُ الْجِهَادِ جِهَادُ
الْهُوَى . لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَجْمَعُ عِلْمَ الْعُلَمَاءِ وَحِكْمَةَ الْحُكَمَاءِ ، وَيَجْرِي فِي الْحَقِّ مَجْرَى
السُّفَهَاءِ . مَنْ خَافَ اللَّهَ أَخَافَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَنْ خَافَ النَّاسَ

أخافه الله من كل شيء . لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه : الموت ، والمرض ، والفقر ، وإنه بعد ذلك لو تائب . احذروا العابد الجاهل ، والعالم الفاسق ، فإن فيهما فتنة لكل مفتون . ترك الخطيئة أهون من معالجة التوبة . لا تكن شاة الراعى أعقل منك ، تجرها الصيحة ، وتطردها الإشارة . المؤمن تلقاه الزمان بعد الزمان ، بأمر واحد ، ووجه واحد ، ونصيحة واحدة ، وإنما يتبدل المنافق ليستأكل كل قوم . المؤمن صدق قوله فعله ، وسره علانيته ، ومشهده مغيبه . لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت الفكرة من عمله ، والذكر من شأنه ، والمحاسبة من همته ، ولا يزال بشر ما استعمل التسوية ، واتبع الهوى ، وأكثر الغفلة ، ورجح في الأمانى . الحق مرة لا يصبر عليه إلا من عرف حسن العافية ، ومن رجا الثواب خاف العقاب . حادثوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الذئور^(١) ، واقدعوا^(٢) هذه النفوس ، فإنها طلعة^(٣) ، وإنكم إلا تزعوها^(٤) تنزع بكم إلى شر غاية . يابن آدم : نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل يحمذك ، وإن أسأت إليه ارتحل يذمك ، وكذلك ليلاك . إنما أنت أيها الإنسان عدد ، فإذا مضى لك يوم فقد مضى بعضك . وقيل له يا أبا سعيد : من أشد الناس ضراخاً يوم القيامة ؟ فقال : رجل رزق نعمة فاستعان بها على معصية الله . وكان يقول : لوقت الليل حتى ينحني ظهرك ، وصمت النهار حتى يسقم جسمك ، لم ينفعك ذلك إلا بورع صادق . وسمع

[١] ذئور القلوب : اتحاء الذكر منها . [٢] كفوها واكبحوها .

[٣] مس طلعة : تكثر التطلع إلى الشيء ، وفي رواية : « فإنها طامحة » .

[٤] وزعه كوضع : كفه ، وفي رواية : « تمنعوا » .

رجلا يُكثر الكلام ، فقال : يابن أخى أمسيك عليك لسانك ، فقد قيل : ماشيء
أحقّ بسجّين من لسان . وكان يقول : لو لم يكن من شؤم الشراب إلا أنه جاء
إلى أحب خلق الله إلى الله فأفسده ، لكان ينبغي للعاقل أن يتركه (يعنى العقل)
ويقول : ما أطال أحد الأمل إلا أساء العمل ، وما أساء العمل إلا ذلّ
وقال : «يا عجباً لقوم قد أمروا بالزاد ، وأوذِنوا بالرحيل ، وأقام أولهم على آخرهم ،
فليت شعرى ! ما الذى ينتظرون ؟ وقال : اجعل الدنيا كالقنطرة : تجوز عليها ، ولا
تعمرها ، وقال : ليس العجب ممن عطّب كيف عطّب ، إنما العجب ممن نجا
كيف نجا » ، وقال : « من أخلاق المؤمن قوة في دين ، وحرص على العلم ،
وقناعة في فقر ، ورحمة للمجهود ، وإعطاء في حق ، وبرّ في استقامة ، وفقه في
يقين ، وكسب في حلال . »

(الحسن البصرى لابن الجوزى في مواضع متفرقة ، والبيان والتبيين ٣ : ٧٦ - ٨٣ ، أمالى السيد المرتضى
١ : ١١٠ - ١١١ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ١ : ١٧٨ ، ٢ : ٢٠٥)

٤٦٥ — خطبة واصل بن عطاء ^(١) المنزوعة الراء

الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذى علا في دُنُوّه ، ودنا في
عُلُوّه ، فلا يحويه زمان ، ولا يُحيط به مكان ، ولا يثُوده ^(٢) حِفْظُ ما خلق ، ولم
يخلقه على مثالٍ سبق ، بل أنشأه ابتداء ، وَعَدَّله اصطناعا ، فأحسن كل شىء

[١] هو أبو حذيفة واصل بن عطاء شيخ المعرلين ، وأحد الأئمة المتكاملين ، وكان يلثغ بالراء ، فيجعلها
عينا ، فاستطاع بهارته أن يخلص منها كلامه ، خطب يوما عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق
سنة ١٢٦ شبيب بن شيبه ، وخالد بن صفوان ، والفصل بن عيسى ، ثم قفاهم واصل ، فارتحل هذه الخطبة
وعراها من حرف الراء ، وأبدع في القول :

ففضل عبد الله خطبة واصل وصوغف في قسم الصلوات له الشكذ

(والشكذ بالضم:المطاء) وتوفى واصل سنة ١٣١ هـ . [٢] يثقله ، آده أودا (كنصر) بلغ منه المجهود .

خَلَقَهُ ، وَتَمَّ مَشِيئَتَهُ ، وَأَوْضَحَ حِكْمَتَهُ ، فَدَلَّ عَلَى أُلُوهِيَّتِهِ ، فَسَبَّحَانَهُ لَأَمْعَقِّبِ (١)
لِحُكْمِهِ ، وَلَا دَافِعَ لِقَضَائِهِ ، تَوَاضَعُ كُلُّ شَيْءٍ لِعِظَمَتِهِ ، وَذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لِسُلْطَانِهِ ،
وَوَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ فَضْلُهُ ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَأَشْهَدُ
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، إِلَهًا تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، وَعَظُمَتْ آيَاتُهُ ، وَعَلَا عَنْ صِفَاتِ
كُلِّ مَخْلُوقٍ ، وَتَنَزَّهَ عَنْ شَبِيهِ كُلِّ مَصْنُوعٍ ، فَلَا تَبْلُغُهُ الْأَوْهَامُ ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ
الْعُقُولُ وَلَا الْأَفْهَامُ ، يُعَصَى فَيُحْلَمُ ، وَيُدْعَى فَيَسْمَعُ ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادِهِ ،
وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ، وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ، وَأَشْهَدُ شَهَادَةَ حَقٍّ ، وَقَوْلَ صَدَقَ ،
بِإِخْلَاصِ نِيَّةٍ ، وَصِحَّةِ طَوِيلَةٍ ، أَنْ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدَهُ وَنَبِيَّهُ ، وَخَالَصْتَهُ (٢)
وَصَفِيَّهُ ، ابْتَعَثَهُ إِلَى خَلْقِهِ بِالْبَيِّنَةِ وَالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، فَبَلَغَ مَا أُلْكْتَهُ (٣) ، وَنَصَحَ
لَأُمَّتِهِ ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا تَأْخُذُهُ فِي الْحَقِّ لَوْمَةٌ لَأُمَّمٍ ، وَلَا يَصُدُّهُ عَنْهُ زَعْمُ
زَاعِمٍ ، مَاضِيًا عَلَى سُنَّتِهِ ، مُؤَفِّيًا عَلَى قَصْدِهِ ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ ، فَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ،
وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ وَأَزْكَى ، وَأْتَمَّ وَأَنْمَى ، وَأَجَلَ وَأَعْلَى صَلَاتِهِ عَلَى صَفْوَةِ
أَنْبِيَائِهِ ، وَخَالَصَةِ مَلَائِكَتِهِ ، وَأَضَاعَفَ ذَلِكَ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ .

أَوْصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ مَعَ نَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ ، وَالْمَجَانِبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ ،
وَأَحْضُكُمْ عَلَى مَا يُدْنِيكُمْ مِنْهُ ، وَيُزِيلُكُمْ لَدَيْهِ ، فَإِنْ تَقْوَى اللَّهُ أَفْضَلُ زَادَ ، وَأَحْسَنُ
عَاقِبَةٌ فِي مَعَادٍ ، وَلَا تُلْهِمِيَنَّكُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَرِيئَتِهَا وَخُدْعُهَا ، وَفَوَاتِنَ لَذَائِهَا ، وَشَهْوَاتِ
آمَالِهَا ، فَإِنَّهَا مَتَاعٌ قَلِيلٌ ، وَمُدَّةٌ إِلَى حِينٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهَا يَرْوُلُ ، فَكَيْفَ عَاطِيكُمْ
مَنْ أَعَاجَبِيهَا ، وَكَمْ نَصَبَتْ لَكُمْ مِنْ حِبَائِلِهَا ، وَأَهْلَكَتْ مِنْ جَنَحِ إِلَيْهَا ، وَاعْتَمَدَ

[١] لَارَادَ لَهُ . [٢] هَذَا الشَّيْءُ خَاصَّةٌ لَكَ : أَيْ خَاصَّةٌ .

[٣] الْمَأْلُكَةُ : بَضْمُ اللَّامِ وَتَفْتِيحُ : الرَّسَالَةُ .

عليها ! أذاقتهم خلواً ، ومزجت لهم سمماً ، أين الملوك الذين بنوا المدائن ، وشيدوا
المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاتفوا الحجاب ، وأعدّوا الجياد ، وملكوا البلاد ،
واستخدسوا التلاد ، قبضتهم بمخملها ^(١) ، وطحتهم بكلكلها ^(٢) ، وعضّتهم
بأنيابها ، وعاضّتهم من السّعة ضيقاً ، ومن العزّة ذللاً ، ومن الحياة فناءً ، فسكنوا
اللحود ، وآكلهم الدّود ، وأصبحوا لآ ترى إلامسا كينهم ، ولا تجد إلامعالمهم ،
ولا تحسّ منهم من أحد ، ولا تسمع لهم نبساً ، فتزودوا عافاكم الله ، فإن أفضل
الزاد التقوى ، واتقوا الله يا أولي الألباب لعلمكم تفليحون ، جعلنا الله وإياكم ممن
ينتفع بمواعظه ، ويعمل لحظّه وسعادته ، وممن يستمع القول فيتبع أحسنه ،
أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب . إن أحسن قصص
المؤمنين ، وأبلغ مواعظ المتقين ، كتاب الله ، الزّكية آياته ، الواضحة بيناته ، فإذا
تلى عليكم فأنصتوا له ، واسمعوا لعلمكم تفليحون ، أعوذ بالله القوي ، من الشيطان
الغوّي ، إن الله هو السميع العليم ، قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ،
ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، ثم قال :

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، والوحي المبين ، وأعازنا وإياكم من
العذاب الأليم ، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم . (مفتاح الأفسار ص ٢٧٠)

٤٦٦ — وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية

وقال عبد الملك بن مروان : « يا بني أمية : ابدلوا نداكم ، وكفوا أذاكم ،
واعفوا إذا قدرتم ، ولا تبخلوا إذا سئلتكم ، فإن خير المال ما أفاد حمداً ، أو نقي

[١] أحمل : شقان على البعير يحمل فيهما العديلان ، والمراد احتوت عليهم .

[٢] الكلكل : الصدر .

ذما ، ولا يقولنَّ أحدُكم : ابدأ بمن تَعْمَلُ ، فإنما الناس عِيَالُ الله ، قد تكفَّلَ اللهُ بأرزاقهم ، فمن وَسَّعَ أَخْلَفَ اللهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ ضَيَّقَ ضَيَّقَ اللهُ عَلَيْهِ .

(الأمالي ٢ : ٢٢)

٤٦٧ — وصية عبد الله بن شداد لابنه ^(١)

لما حضرت عبد الله بن شدّاد الوفاة ، دعا ابناً له يقال له محمد ، فقال :
« يا بُنَيَّ ، إني أرى داعيَ الموت لا يُقْلَعُ ، وأرى من مَضَى لا يرجع ،
ومن بقي فإليه يَنزِعُ ^(٢) ، وإني مُوصِيكَ بوصية فاحفظها ، عليك بتقوى الله
العظيم ، وإيكن أولى الأمور بك شُكْرُ اللهِ ، وَحُسْنُ النية في السِّرِّ وَالْعَلانية ،
فإن الشُّكْرَ يَزِدُّ ، وَالتقوى خيرُ زاد ، وَكُنْ كما قال الحُطَيْبَةُ :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا وَعِنْدَ اللهِ لِلْآتِقِ مَزِيدٌ
وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبٌ وَلَكِنَّ الَّذِي يَعْضِي بَعِيدٌ

ثم قال : أيُّ بُنَيَّ ، لا ترهَدَنَّ في معروف ، فإن الدهر ذو صُرُوف ، وَالأيام ذات
نوائب ، على الشاهد وَالغائب ، فكم من راغِبٍ أصبح مطلوباً ما لديه ، واعلم أن
الزمان ذو ألوان ، وَمَنْ يَصْحَبَ الزمان يرَ الهوان ، وَكُنْ أَيُّ بُنَيَّ كما قال
أبو الأسود الدؤلي :

وَعُدَّ مِنَ الرَّحْمَنِ فَضْلاً وَنِعْمَةً عَلَيْكَ ، إِذَا مَا جَاءَ لِلْعُرْفِ طَالِبٌ ^(٣)
وَإِنْ أَمراً لَا يُرْتَجَى الْخَيْرُ عِنْدَهُ يَكُنْ هَيْبَةً ثِقْلاً عَلَى مَنْ يَصَاحِبُ

[١] هو عبد الله بن شداد بن الهادي ، واسمه أسامة الليثي ، خرج مع القراء في فتنة ابن الأشعث
على الحجاج ، قيل : إنه غرق بدجيل ، وقيل : هلك هو وعبد الرحمن بن أبي ليلى في الجاهم ، اقتحم بهما
فرسهما الماء فذهبا . [٢] يشناق . [٣] العرف : المعروف .

فلا تمنعنَ ذا حاجةٍ جاء طالباً فإنك لاتدري متى أنت راغبٌ
 رأيتُ التوا هذا الزمانِ بأهله وبينهم فيه تكونُ النوائِبُ^(١)

ثم قال : أى بنى ، كن جواداً بالمال فى موضع الحق ، بخيلاً بالأسرار عن جميع
 الخلق ، فإن أحمدَ جود المرء الإنفاقُ فى وجه البرِّ ، وإن أحمدَ بُخل الحرِّ الضنُّ^(٢)
 بمكتوم السرِّ ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصارى :

أجودُ بمكنون التلاد ، وإنى بسرِّك عمن سألنى أضنينُ^(٣)
 إذا جاوز الإثنين سرِّ فإنه بنثٌ ، وتكثير الحديثِ قينُ^(٤)
 وعندى له يوماً إذا ما ائتمنتى مكانُ بسوادِ الفؤادِ مكينُ^(٥)

ثم قال : أى بنى ، وإن غلبت يوماً على المال ، فلا تدع الحيلة على حال ، فإن
 الكريم يَحْتال ، والدنى عيال^(٦) ، وكن أحسنَ ما تكون فى الظاهر حالاً ، أقلُّ^(٧)
 ما تكون فى الباطن مالا ، فإن الكريم من كرمت طبيعته ، وظهرت عند
 الإنفاد^(٧) نيمته ، وكن كما قال ابن خذاق العبدي^(٨) :

وجدتُ أبى قد أورثه أبوه خيلاً قد تعدُّ من المعالى^(٩)
 فأكرم ما تكون على نفسى إذا ما قلَّ فى الأزمانِ مالى
 فتَحسُنُ سيرتى وأصونُ عِرْضى ويجمُلُ عند أهل الرأى حالى

[١] التوا أصله التواء قصره لضرورة الشعر ، التوى به الزمان : اعوج .

[٢] الصن بالكسر والصنائة بالفتح : البخل .

[٣] سال يسال من باب خاف لغة فى سأل المهورز ، وليس مسهلاً للوزن كما ظن بعضهم .

[٤] نث الحديث : أفتاء ، وقين : جدير ، وقطع همزة الاثنين للضرورة .

[٥] سواد الفؤاد ، وسويداؤه ، وسواده ، وأسوده : حبته . [٦] العيال جمع عيل بكيد :

وهو من يلزم الإنفاق عليه ، ويكون اسماً للواحد (كما استعمله هنا) . [٧] الفقر .

[٨] هو يزيد بن خذاق شاعر قديم . [٩] بنقل حركة الهمزة من أورثه إلى الدال من قد .

وإن نلتُ الغنى لم أغلُ فيه ولم أخضُصن بِجَفَوَتِي المَوَالِي^(١)
ثم قال : أى بنى ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ،
فإنك إن أمضيتها حياً لها^(٢) ، رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب
العاقل ، هو الفطن المتعافل ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وما من شيمتى شتمُ ابنِ عمى وما أنا مُخلفٌ من يرْتَجِبِنِي
وَكَلِمَةً حاسِدٍ فى غيرِ جُرْمٍ سمعتُ فقلتُ مَرى فانفُذِنِي^(٣)
فما بُوها عَلَى ولم تَسُوْنِي ولم يَمَرَق لها يوما جَبِينِي
وذو اللَوْنين يلقانى طَلِيقاً وليس إذا تَغَيَّب يَأْتَلِينِي^(٤)
سمعتُ بِعَيْبِهِ فصفحتُ عنه مُحَافِظَةً عَلَى حَسْبِي وَدِينِي

ثم قال : أى بنى ، لا تُواخِ امرأً حتى تعاشره ، وتفقد موارده ومصادره ،
فإذا استطعت العشرة ، ورضيت الخبرة^(٥) ، فواخه على إقالة العثرة ، والمواساة
فى العُسرَة ، وكن كما قال المقنّع الكِنْدِي :

أَبْلُ الرجال إذا أردت إِياءَهُم وَتَوَسَّمَنَّ فَمِأَلَهُم وَتَفَقَّدِ
فإذا ظفرت بذي اللَّبابَةِ وَالشَّقَى فَبِهِ اليَدَيْنِ (قَرِيرَعَيْنِ) فاشدُدِ^(٦)
وإذا رأيت (ولا محالة) زَلَّةً فعلى أخيك بِفَضْلِ حَمَلِكِ فارزُدِ

ثم قال : أى بنى ، إذا أحببت فلا تُفْرِط ، وإذا أبغضت فلا تُشْطِط^(٧) ، فإنه
قد كان يقال : أَحْبَبُ حَبِيبِكَ هَوْنًا مَّا ، عَسَى أن يكون بَغِيضَكَ يَوْمًا مَّا ،

[١] الموالى جمع مولى وهو هنا القريب . [٢] قعد حيا له وبجيا له : بازائه ، أى إن تركتها
تجرى فى مجراها . [٣] نفذم : جازم . [٤] اثنتى : قصر ، أى لا يقصر فى نهش عرضى .
[٥] الخبر والخبرة بكسر الخاء فيهما ، ويضمان : العلم بالشئ ، كالاختبار .
[٦] لب من باب تعب ، وفى لغة كقرب مع الفتح فى المضارع لبابة : أى صار ذا لب بالضم
وهو العقل . [٧] شط فى حكمه وأشط : جار .

وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَّا ، عسى أن يكون حبيبك يومًا مَّا ، وكن كما قال هُدْبَةُ
ابن الخَشْرَمِ العُدْرِي :

وكن معقلًا للحلمِ واصْفَحْ عن الخَذَا فَإِنَّكَ رَأَيْتَ مَا حَيَّيْتَ وَسَامِعُ (١)

وَأَحْبِبْ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعُ (٢)

وَأَبْغِضْ إِذَا أَبْغَضْتَ بُغْضًا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعُ

وعليك بصُحبة الأخيار، وصدق الحديث، وإياك وصحبة الأشرار، فإنه عار،
وكن كما قال الشاعر :

أَنْحَبِ الْأَخْيَارَ وَارْغَبْ فِيهِمْ رُبَّ مَنْ صَاحِبَتَهُ مِثْلُ الْجَرَبِ

وَدَعِ النَّاسَ فَلَا تَشْتُمُهُمْ وَإِذَا شَانَمْتَ فَاشْتِمِ ذَا حَسَبِ

إِنَّ مَنْ شَانَمَ وَغَدَا كَالَّذِي يَشْتَرِي الصُّفْرَ بِأَعْيَانِ الذَّهَبِ (٣)

وَاصْدُقِ النَّاسَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ وَدَعِ النَّاسَ فَمَنْ شَاءَ كَذَبِ

(الأمل : ٢ : ٢٠٤ ، والبيان والنبين ٢ : ٥٧ ، ١٣٨)

٤٦٨ — وصية أسماء بن خارِجَةَ لابنته (٤)

زَوْجِ أَسْمَاءَ بِنِ خَارِجَةَ الْفَزَارِيَّ بِنْتَهُ هِنْدًا مِنْ الْحِجَاجِ بْنِ يَوْسُفَ ، فَمَا
كَانَتْ لَيْلَةً أَرَادَ الْبِنَاءَ بِهَا ، قَالَ لَهَا أَسْمَاءُ : « يَا بِنْتِي ، إِنْ الْأَمَهَاتِ يُوَدَّبْنَ الْبِنَاتِ ،
وَإِنْ أُمَّكَ هَلَكْتَ وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ ، فَعَلَيْكَ بِأَطْيَبِ الطَّيِّبِ الْمَاءِ ، وَأَحْسَنِ
الْحُسْنِ الْكُحْلِ ، وَإِيَّاكِ وَكَثْرَةَ الْمَعَاتِبَةِ ، فَإِنَّهَا قَطِيعَةٌ لِلوُدِّ ، وَإِيَّاكِ وَالغَيْرَةَ ،
فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ الطَّلَاقِ ، وَكُونِي لَزُوجِكَ أُمَّةً ، يَكُنْ لَكَ عَبْدًا ، وَاعْلَمِي أَنِّي
الْقَائِلُ لَأُمَّكَ :

[١] العقل : اللجأ ، والحا : الفحش . [٢] نزع عن الشيء : انهمى عنه .

[٣] الصفر كقفل ، وكسر الصاد لغة : النحاس . [٤] أورد الجاحظ هذه الوصية بصورة أوز ،

وذكر أنها وصية عبد الله بن جعفر لابنته .

خذي العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيحِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ^(١)
وَلَا تَنْقُرِي نَقْرَةَ الدُّفِّ مَرَّةً فَإِنَّكَ لَا تَدْرِينَ كَيْفَ الْمَغِيبُ
فَإِنِّي وَجَدْتُ الْحَبَّ فِي الصَّدْرِ وَالْأَذَى إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبَثِ الْحَبُّ يَذْهَبُ
(الأغانى ١٨ : ١٢٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٥)

٤٦٩ - رجل ينصح لهشام بن عبد الملك

وخرج الزُّهْرِيُّ يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : ما رأيتُ
كاليوم ، ولا سمعتُ كأربعِ كلمات ، تكلمَ بهن رجلٌ عند هشام ، دخلَ عليه فقال :
« يا أمير المؤمنين ، احفظ عني أربعَ كلمات ، فيهن صلاحُ مُلْكِكَ ،
وَاستقامةُ رِعْيَتِكَ » . قال : وما هنَّ ؟ قال : « لَا تَعِدْ عِدَّةً لَا تَمُتُ مِنْ نَفْسِكَ
بِإِنجَازِهَا ، وَلَا يَغُرُّكَ الْمُرَّةُ تَقَى وَإِنْ كَانَ سَهْلًا ، إِذَا كَانَ الْمُنْجَدِرُ وَعَرًّا ، وَاعْلَمْ
أَنَّ لِلْأَعْمَالِ جَزَاءً ، فَاتَّقِ الْعَوَاقِبَ ، وَأَنَّ لِلْأُمُورِ بَغْتَاتٍ ، فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ » .
قال عيسى بن دأب : فحدثتُ بهذا الحديث المهدى ، وَفِي يَدِهِ لِقْمَةٌ قَدْ
رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ ، فَأَمْسَكَهَا ، وَقَالَ : وَيْحَكَ ! أَعِدْ عَلَيَّ ، فَتَلَّتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
أَسِغْ^(٢) لِقْمَتَكَ ، فَقَالَ : حَدِيثُكَ أَعْجَبُ إِلَيَّ . (زهر الآداب ٣ : ١٨٠)

٤٧٠ - وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب^(٣) رسالة إلى الكتاب يوصيهم فيها ، قال :
« أَمَا بَعْدُ حَفِظْكُمْ اللَّهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ ، وَحَاطْكُمْ وَوَفَّقْكُمْ وَأَرْشِدْكُمْ ،
فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ،
وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمَكْرُمِينَ أَصْنَافًا ، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً ، وَصَرَّفَهُمْ فِي

[١] السورة : الحدة . [٢] ابتلع . [٣] هو عبد الحميد بن يحيى العامري ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، قتله السفاح سنة ١٣٢ هـ .

صنوف الصناعات ، وَضُرُوبِ المحاولات ، إلى أسباب معاشهم ، وأبواب أرزاقهم ،
فجعلكم معشرَ الكُتَّابِ في أشرف الجهات ، أهلَ الأدبِ وَالرُّوِيَةِ وَالْعِلْمِ وَالرِّوَايَةِ ،
بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يُصْلِحُ اللهُ للخلق
سلطانهم ، وتعمُرُ بلادهم ، لا يستغني الملكُ عنكم ، ولا يوجد كَافٍ إلا منكم ،
فوقمكم من الملوك مَوْقعَ أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يُبْصِرُونَ ،
وَألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يَبْطِشُونَ ، فأمتعكم اللهُ بما خصكم
من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه ^(١) من النعمة عليكم .

وليس أحدٌ أحوجَ إلى اجتماعِ خِلالِ الخيرِ المحمودِ ، وخصالِ الفضلِ المذكورةِ
المعدودةِ ، منكم أيها الكُتَّابُ ، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن
الكتاب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثقُ به في مُهِمَّاتِ أموره ،
أن يكون حليماً في موضعِ الحِلْمِ ، فهِيماً في موضعِ الحُكْمِ ، مقداماً في موضعِ
الإقدامِ ، مُحْجَماً في موضعِ الإحجامِ ، مؤثراً للعَفَافِ ، والعدلِ والإِنصَافِ ،
كثُوماً للأسرارِ ، وَفِيّاً عندَ الشدائدِ ، عالماً بما يأتي من النوازلِ ، يضعُ الأمورَ
مواضعَها ، وَالطَّوَارِقَ أما كتبها ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكّمه ،
فإن لم يُحْكِمْه ، أخذ منه بمقدار يكتب به ، يعرف بغيره عقله ، وحسن أدبه ،
وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدُرُ عنه قبل صدوره ، فيعدُّ
لكل أمر عُدَّتَهُ وَعَتَادَهُ ^(٢) ، ويهيئُ لكل وجهٍ هيئته وعادته ، فتنافسوا يا معشر
الكتاب ، في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله
عزَّ وجلَّ والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقافٌ ^(٣) ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخطَّ ،

[١] أسبغته . [٢] العتاد : العدة . [٣] الثقاف في الأصل : ما سوى به الرماح .

فإنه حليةُ كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب
والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُمينٌ لكم على ما تسمو إليه هممكم ، ولا
تضيّعوا النظر في الحساب ، فإنه قوامُ كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن
المطامع سنيها^(١) ، ودنييها ، وسفساف^(٢) الأمور ومحاقرها ، فإنها مذلّة للرقاب ،
مفسدة للكتاب ، ونزّهوا صناعتكم عن الدنئات ، وأزبّوا^(٣) بأنفسكم عن
السعاية والنميمة ، وما فيه أهل الجهالات ، وإياكم والكبر والصلف والمظمة ،
فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابوا في الله عز وجلّ في صناعتكم ، وتواصوا
عليها بالذي هو أليقُ بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم .

وإن نبأ الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه ، حتى يرجع إليه حاله ،
ويثوب^(٤) إليه أمره ، وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه ،
فزوروه وعظّموه وشاوروه ، واستظهروا^(٥) بفضل تجربته ، وقدم معرفته ،
وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه ، أحفظ منه
على ولده وأخيه ، فإن عرّضت في الشغل مّمدة ، فلا يُضيفها إلا إلى صاحبه ،
وإن عرّضت مّدمة ، فليحملها هو من دونه ، وليحذر السقطة والزلة ، والملل
عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكتاب ، أسرع منه إلى الفراء ، وهو لكم
أفسد منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل ، يبذل له من نفسه ما يجب له
عليه من حقه ، فواجبٌ عليه أن يمتدّد له من وفائه ، وشكره ، واحتماله وصبره ،

[١] رفيها . [٢] الردىء من كل شيء . [٣] ربأ : تلا وارفع .

[٤] يرجع . [٥] تقروا .

ونصيحته ، وكتمان سره ، وتدبير أمره ، ماهو جزاء لحقه ، ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه ، والاضطرار إلى ماله .

فاستشعروا ذلکم - وفقکم الله من أنفسکم - في حالة الرخاء والشدة ، والحِرمَانِ والمواساة والإحسان ، والسَّراءِ والضَّرَّاءِ ، فَنِعَمَتِ الشَّيْمَةُ هذه لمن وُسمَ بها : من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فَإِذَا وُئِيَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ ، أَوْ صُيِّرَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ خَلْقِ اللَّهِ وَعِيَالِهِ أَمْرٌ ، فليراقب الله عز وجل ، وليؤثِّرْ طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقاً ، وللمظلوم مُنْصِيفاً ، فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحْبَبُهُمْ إِلَيْهِ أَرْقَهُهُمْ بَعِيَالَهُ ، ثُمَّ لِيَكُنْ بِالْعَدْلِ حَاكِمًا ، وللأشراف مُكْرِمًا ، وللنَّيِّءِ مَوْفِرًا ، وللبلاد عَامِرًا ، وللرعية متأنفًا ، وعن إيدائهم متخلفًا ، وليكن في مجلسه متواضعًا حليماً ، وفي سَجَلَاتِ خِرَاجِهِ واستقضاء حقوقه رَفِيقًا ، وَإِذَا صَحِبَ أَحَدَكُمْ رَجُلًا فليختبر خلائقَهُ ، فَإِذَا عَرَفَ حَسَنَهَا وَقَبِيحَهَا ، أعانه على ما يوافقُه من الحَسَنِ ، واحتال لَصَرْفِهِ عَمَّا يَهْوَاهُ مِنَ الْقَبِيحِ ، بِالطَّفِ حِيلَةً ، وَأَجْمَلَ وَسِيلَةً ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها ، التمس معرفة أخلاقها ، فَإِنَّ كَانَتْ رَمُوحًا ^(١) لَمْ يَهَيِّجْهَا إِذَا رَكِبَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ شَبُوبًا ^(٢) اتَّقَاهَا مِنْ قَبْلِ يَدَيْهَا ، وَإِنْ خَافَ مِنْهَا شُرُودًا تَوَقَّاهَا مِنْ نَاحِيَةِ رَأْسِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ حَرُونًا قَمَعَ بَرْفِقِ هَوَاهَا فِي طَرِيقِهَا ، فَإِنْ اسْتَمَرَّتْ عَطَفَهَا يَسِيرًا ، فَيَسَلَسَ لَهُ قِيَادُهَا ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يُحَاوِرُهُ مِنَ النَّاسِ وَيُنَاطِرُهُ ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه

[١] رعه الفرس كنع : رفسه . [٢] شب الفرس كضرب وانصر : رفع يديه .

وَمُدَارَاتِهِ وَتَقْوِيمَ أَوْدِهِ ، مِنْ سَائِسِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي لَا تُحِيرُ^(١) جَوَابًا ، وَلَا تَعْرِفُ صَوَابًا ، وَلَا تَفْهَمُ خَطَابًا ، إِلَّا بِقَدْرِ مَا يُصَيِّرُهَا إِلَيْهِ صَاحِبُهَا الرَّكْبَ عَلَيْهَا ، أَلَا فَاْمَعِينُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فِي النَّظَرِ ، وَأَعْمَلُوا فِيهِ مَا أَمَكْنَكُمْ مِنَ الرُّوْيَةِ وَالْفِكْرِ ، تَأْمَنُوا بِإِذْنِ اللَّهِ مَنْ صَحَبْتُمُوهُ النَّبُوَّةَ ، وَالِاسْتِثْقَالَ وَالْجَفْوَةَ ، وَيَصِيرُ^(٢) مِنْكُمْ إِلَى الْمَوَافَقَةِ ، وَتَصَيِّرُوا مِنْهُ إِلَى الْمَوَاخَاةِ وَالشَّفَقَةِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَلَا يَجَاوِزَنَّ الرَّجُلُ مِنْكُمْ - فِي هَيْئَةِ مَجْلِسِهِ ، وَمَلْبَسِهِ ، وَمَرْكَبِهِ ، وَمَطْعَمِهِ ، وَمَشْرَبِهِ ، وَبِنَائِهِ^(٣) وَخَدَمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَنُونِ أَمْرِهِ - قَدْرَ حَقِّهِ ، فَإِنَّكُمْ - مَعَ مَا فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ شَرَفِ صَنَعْتِكُمْ - خَدَمَةٌ لَا تُحْمَلُونَ فِي خَدَمَتِكُمْ عَلَى التَّقْصِيرِ ، وَحَفْظَةِ لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَفْعَالُ التَّضْيِيعِ وَالتَّبْذِيرِ ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى عَفَافِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتَهُ لَكُمْ ، وَقَصَصْتَهُ عَلَيْكُمْ ، وَاحْذَرُوا مَتَالِفَ السَّرْفِ ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ ، فَإِنَّهُمَا يُمَقْبَانِ الْفَقْرَ ، وَيُذِلَّانِ الرَّقَابَ ، وَيَفْضَحَانِ أَهْلَهُمَا ، وَلَا سِيَّامَا الْكِتَابَ ، وَأَرْبَابَ الْآدَابِ ، وَلِلْأُمُورِ أَشْبَاهَ ، وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ ، فَاسْتَدِلُّوا عَلَى مُؤْتَنَفِ^(٤) أَعْمَالِكُمْ ، بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجْرِبَتِكُمْ ، ثُمَّ اسْلُكُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّدْيِيرِ أَوْضَحَهَا مَحَجَّةً ، وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً ، وَأَحْمَدَهَا عَاقِبَةً .

واعلموا أن للتدبير آفةً مُتَلَفَةً ، وَهِيَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ عَنِ الْإِنْفَازِ عَمَلِهِ وَرُؤْيَتِهِ ، فَلْيَقْصِدِ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي مَجْلِسِهِ قَصْدَ الْكِفَايَةِ مِنْ مَنْطِقَتِهِ ، وَلْيُوجِزْ فِي ابْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ ، وَلْيَأْخُذْ بِمَجَامِعِ حُجَجِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَصَاحِحَةٌ لِفِعْلِهِ ، وَمَدْفَعَةٌ

[١] لا ترد . [٢] تأمنوا ، مجزوم في جواب الأمر ، أو بعبارة أخرى جواب لشرط محذوف مع فعل الشرط أي إن تعملوا تأموا ، ومن ثم يجوز في « ويصير » ثلاثة أوجه الجزم ، والنصب والرفع كما هو مشهور . نقول بضمهم : « ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناصح » مردود . [٣] بنى على أهل ، وبها بناء ، وابتنى : زفها . [٤] مبتدأ

للتشاغل عن إكثاره ، وَلِيَضْرَعَ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ تَوْفِيْقِهِ ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْديده ،
مخافة وقوعه في الغلط المُضِرِّ ببدنه وعقله وأدبه ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا ، أَوْ قَالَ
قائل : إِنْ الَّذِي بَرَزَ مِنْ جَمِيلِ صِنْعَتِهِ ، وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حَيْلَتِهِ ،
وَحَسَنِ تَدْبِيرِهِ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ بظنه أو مقالته إِلَى أَنْ يَكِلَهُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ ،
فِيصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ غَيْرُ خَافٍ .

وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرَ بِالْأُمُورِ ، وَأَحْمَلُ لِعِبَاءِ التَّدْبِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي
صِنَاعَتِهِ ، وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ ، فَإِنْ أَعْقَلَ الرَّجُلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَبَابِ مِنْ رَحَى
بِالْعُجْبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، وَرَأَى أَنْ صَاحِبَهُ أَعْقَلَ مِنْهُ ، وَأَحْمَدُ فِي طَرِيقَتِهِ ، وَعَلَى كُلِّ
وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَعْرِفَ فَضْلَ نِعْمِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ ، وَلَا
تَرْكِيَّةٍ لِنَفْسِهِ ، وَلَا تَكَاثُرٍ عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ ، وَحَمْدُ اللَّهِ
وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ ، وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ ، وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ .
وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ : « مَنْ يَلْزِمِ النَّصِيْحَةَ (١) يَلْزِمَهُ
الْعَمَلُ » وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِزِّ
وَجَلِّ ؛ فَالذَّكَرُ جَعَلْتَهُ آخِرَهُ ، وَتَمَمْتَهُ بِهِ ، تَوَلَّأْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطَّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ ،
بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عَالِمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ، فَإِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَيَدُهُ ، وَالسَّلَامُ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(صبح الأعشى ١ : ٨٥)



[١] في نسخة : « الصحة » ، وذكر الجاحظ في البيان والتبيين (٢ : ٤٦) أن هذا القول من كلام الأحنف السائر في أيدي الناس .

الصراع بين الاموية والعباسية

٤٧١ - خطبة قحطبة بن شبيب الطائي (١)

لما دخل أبو مسلم الخراساني زعيم الدعوة العباسية مدينة مرو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سيار - أمير خراسان من قبل مروان بن محمد الأموي - ثم سار إلى نباتة بن حنظلة : عامل جرجان (٢) ، فوجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب في جيش لقتاله (٣) ، وقدم قحطبة ، فنزل بإزاء نباتة ، وأهل الشام في عدة لم ير الناس مثلها ، فلما رآهم أهل خراسان هابوهم ، حتى تكلموا بذلك وأظهروه ، وبلغ قحطبة ، فقام فيهم خطيباً ، فقال :

« يا أهل خراسان : هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا يُنصرون على عدوهم ، لعدلهم وحسن سيرتهم ، حتى بدّلوا وظاموا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم ، وسلط عليهم أذلّ أمة ، كانت في الأرض عندهم ، فغلبوهم على بلادهم ، واستنكحو نساءهم ، واسترقّوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويوفون بالعهد ، وينصرون المظلوم ، ثم بدّلوا وغيرُوا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البرِّ والتقوى من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

[١] هو أحد القباء الاثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ١٠٣ ، أو ١٠٤ ، وكان قدم على أبي مسلم خراسان منصرفاً من عند إبراهيم الامام ، ومعه لواؤه الذي عقده له إبراهيم .

[٢] من قبل يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق . [٣] وكان قحطبة قبل ذلك قد تعبأ لقتال تميم ابن نصر بن سيار ثم زحف إليه فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وقتل تميم بن نصر في المعركة ، وقتل معه مقتلة عظيمة واستبيح عسكرهم ، ثم توجه إلى نيسابور ، وكان نصر بن سيار نزل بها ، فبلّغه ذلك ، فارتحل هارباً ، وتفرق عن أصحابه ، فسار إلى نباتة بن حنظلة بمرجان ، ونزل في آخر أمره ساوة بين همدان والري ، مات بها كذا .

فسلّطكم عليهم ، لينتقم منهم بكم ، ليكونوا أشد عقوبةً ، لأنكم طلبتموهم بالنار ، وقد عهد إلى الإمام ^(١) أنكم تلقونهم في مثل هذه العِدَّة ، فينصرمكم الله عز وجل عليهم ، فتَهْزَمونهم وتقتلونهم .

وقد قرئ على قحطبة كتابُ أبي مسلم : « من أبي مسلم إلى قحطبة ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فناهضُ عدوك ، فإن الله عز وجل ناصرُك ، فإذا ظَهَرْتَ عليهم ، فأثخن في القتل » ، فاتقوا في مستهلّ ذي الحِجَّة سنة ١٣٠ هـ في يوم الجمعة ، فقال قحطبة :

٤٧٢ - خطبة أخرى له

« يا أهل خراسان : إن هذا يوم قد فضّله الله تبارك وتعالى على سائر الأيام ، والعمل فيه مضاعفٌ ، وهذا شهر عظيم ، فيه عيد من أعظم أعيادكم عند الله عز وجل ، وقد أخبرنا الإمام أنكم تُنصرون في هذا اليوم من هذا الشهر على عدوكم ، فالقوه بجِدِّ واحتسابٍ ، فإن الله مع الصابرين » ثم ناهضهم فاقتتلوا وصبر بعضهم لبعض ، فانهزم أهل الشام ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وقتل نباتة ، وبعث قحطبة برأسه ورأس ابنه حَيَّة إلى أبي مسلم . (تاريخ الطبري ٩ : ١٠٦)

[١] هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عاص ، وكان نصر بن سيار حين أظهر أبو مسلم الدعوة العباسية في خراسان وقويت شوكته . كتب إلى مروان يعلّمه بحال أبي مسلم ومن معه ، وأن الذي تدعو الدعاة إليه هو إبراهيم الإمام ، فأرسل مروان إلى عامل البلقاء (في أطراف الشام) أن يسير إلى الحيمة (كهيئة) حيث يقيم إبراهيم فيشده وثاقاً ، فحمل إلى مروان فحبسه في حرّان ثم قتله في سجنه ، ولما قبض على إبراهيم الإمام حاف أخواه السفاح والنصور وجماعة من أقاربهم ، فهربوا إلى الكوفة ، فأخلى لهم أبو سلمة الخلال داراً بالكوفة ، وكتب أمرهم حتى وصل أبو مسلم بالجنود من خراسان إلى الكوفة ، ودخل على بني العباس ، وسلم على السفاح بالخلافة ، وبيع بها سنة ١٣٢ هـ .

تمة في خطب الحجاج

٤٧٣ - خطبته بعد قتل ابن الزبير

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متأملاً ، فخط اللثام عنه ثم قال :

« مَوْجُ لَيْلِ التَّطْمِ ، وَانْجَلَى بَضْوَاءُ صُبْحِهِ ، يَا أَهْلَ الْحِجَازِ ، كَيْفَ رَأَيْتُمُونِي ؟
أَلَمْ أَكْشِفْ ظُلْمَةَ الْجَوْرِ ، وَطُخِيَةَ ^(١) الْبَاطِلِ بِنُورِ الْحَقِّ ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ وَطَّئْتُكُمْ الْحِجَاجَ
وَطَاءَةَ مُشْفِقٍ ، وَعَطَفَةَ رَحِمٍ ، وَوَصَّلَ قَرَابَةَ ، فَأَيُّكُمْ أَنْ تَزِلُّوا عَنْ سَنَنِ أَقْنَانِكُمْ
عَلَيْهِ ، فَأَقْطَعَ عَنْكُمْ مَا وَصَلْتُهُ لَكُمْ ، بِالصَّارِمِ الْبِتَّارِ ، وَأَقِيمُوا مِنْ أَوْدِكُمْ مَا يَقِيمُ
الْمُتَّقِفُ ^(٢) مِنْ أَوْدِ الْقَنَازَةِ بِالنَّارِ » ، ثم نزل وهو يقول :

أخو الحرب إن عضت به الحربُ عضها وإن شمّرت عن ساقها الحربُ شمّرا
(مواسم الأدب ٢ : ١٢٣)

انتهى الجزء الثاني ، ويليه : الجزء الثالث ، وأوله : الباب الرابع في خطب ووصايا
العصر العباسي الأول

[١] الطخية : الظلمة ، ويثك . [٢] مقوم الرماح والأود : الاعوجاج .

سقط من هامش ص ٢٤ ما يأتي :

جاء في مقال الحسن بن علي رضي الله عنهما للمغيرة بن شعبة ص ٢٤ : « وإن حد الله في الزنا لثابت
عليك ، ولقد درأ عمر عنك حقا الله سائلا عنه » وخبر ذلك أن المغيرة بن شعبة كان عاملا على البصرة لعمر
ابن الخطاب رضي الله عنه ، فاتمه أبو بكر - أخو زياد - هو وافر معه بأنه زنى بأمة جميل بنت الأرقم ،
وكتبوا بذلك إلى عمر ، فمزل المغيرة وولى مكانه أبا موسى الأشعري - وكان ذلك سنة ١٧ هـ - وارتحل
المغيرة وأبو بكر ومن معه حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المغيرة ، وقد أقسم بين يدي عمر أنه ما أتى
إلا أمر أنه ، وكان الشهود عليه : أبو بكر ، وشبل بن معبد البجلي ، ونافع بن كعدة ، وزيادا ، فبدأ عمر
بأبي بكر ، فشهد عليه أنه زنى بأمة جميل ، وشهد شبل ونافع بتلك ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ،
إذ سأله هل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها فتعاه ، وأمر بالثلاثة فجلدوا الحد ، وقرأ :

« فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ » فقال المغيرة : اشفني من الأعبد

فقال : أسكت ، أسكت الله نأمتك ، أما والله لو تمت الشهادة لرجتك بأحجارك .

- اقرأ القصة في تاريخ الطبري ٤ : ٢٠٧ - .

فهرس

الجزء الثاني

من جمهرة خطب العرب

الباب الثالث

الخطب والوصايا في العصر الأموي

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطب بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها		١
خطب الحسن بن علي رضي الله عنه		
خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه	١	١
تعبئة الجيوش لقتال معاوية		٢
خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد	٢	٢
مقال عدى بن حاتم	٣	٣
خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية	٤	٤
خطبته يبرر مصالحته لمعاوية	٥	٥
« في الصلح بينه وبين معاوية	٦	٥
خطبة له بعد الصلح	٧	٦
« لمعاوية في أهل الكوفة	٨	٧
رد الحسن بن علي على معاوية حين نال منه ومن أبيه	٩	٨
خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح	١٠	٨

خطبة الحسن يرد على مستنكرى الصلح	١١	١٠
» له في عهد خلافته	١٢	١٠
» أخرى له	١٣	١٢

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد
ابن عقبة ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ،
بحضرة معاوية

مقال عمرو بن العاص	١٤	١٤
» الوليد بن عقبة بن أبي معيط	١٥	١٥
» عتبة بن أبي سفيان	١٦	١٥
» المغيرة بن شعبة	١٧	١٥
رد الحسن بن عليّ عليهم	١٨	١٦
رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن رضى الله عنهما	١٩	٢٥

مقتل الحسين بن عليّ رضى الله عنه

تأنيه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة

نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما	٢٠	٢٨
---	----	----

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكرى	٢١	٢٩
» النعمان بن بشير	٢٢	٣٠
» عبيد الله بن زياد	٢٣	٣٠
» أخرى له	٢٤	٣٢

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة
رقم
الخطبة

خطبة كثير بن شهاب	٢٥	٣٢
« عبيد الله بن زياد	٢٦	٣٣
خروج الحسين رضى الله عنه إلى الكوفة		
نصيحة ابن عباس له	٢٧	٣٤
« أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له	٢٨	٣٧
خطبة للحسين رضى الله عنه	٢٩	٣٨
« أخرى له	٣٠	٣٨
« » «	٣١	٣٩
« زهير بن القين البجلي	٣٢	٣٩
« للحسين أيضاً	٣٣	٤٠
خطبته ليلة قتله	٣٤	٤١
رد أهل بيته عليه	٣٥	٤٢
« أصحابه	٣٦	٤٢
خطبته غداة يوم قتله	٣٧	٤٣
دعاؤه وقد صبحته الخيل	٣٨	٤٣
خطبته وقد دنا منه القوم	٣٩	٤٤
خطبة أخرى	٤٠	٤٤
« زهير بن القين	٤١	٤٦
« الحرّ بن يزيد	٤٢	٤٨
طلب التوابين بدم الحسين رضى الله عنه		
خطبة المسيب بن نجبة الفزارى	٤٣	٥٠

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة .
رقم
الخطبة

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة .	رقم الخطبة
خطبة رفاعة بن شداد	٤٤	٥١
» سليمان بن صرد	٤٥	٥٢
» خالد بن سعد بن نفيل	٤٦	٥٣
» سعد بن حذيفة بن اليمان	٤٧	٥٤
» عبد الله بن الحنظل الطائي	٤٨	٥٤
» عبيد الله بن عبد الله المرسي	٤٩	٥٥
» عبد الله بن يزيد الأنصاري	٥٠	٥٧
» إبراهيم بن محمد بن طلحة	٥١	٥٨
رد المسيب بن نجبة	٥٢	٥٨
رد عبد الله بن وال التيمي	٥٣	٥٩
خطبة سليمان بن صرد	٥٤	٦٠
» صخير بن حذيفة بن هلال	٥٥	٦٠
ما أشار به عبد الله بن سعد	٥٦	٦١
رأى ابن صرد	٥٧	٦١
خطبة عبد الله بن يزيد	٥٨	٦٢
» سليمان بن صرد	٥٩	٦٢
» أخرى له	٦٠	٦٣
» »	٦١	٦٤
» عبد الملك بن مروان	٦٢	٦٥
طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي بدم الحسين		٦٦
رضى الله عنه		
خطبته حين قدم الكوفة	٦٣	٦٦
ما كان يردده على زائريه في سجنه	٦٤	٦٧

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة	٦٥	٦٨
رد السائب بن مالك	٦٦	٦٩
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٦٧	٦٩
» أخرى له	٦٨	٧٠
» محمد بن الحنفية	٦٩	٧١
» المختار	٧٠	٧١
» عبد الرحمن بن شريح	٧١	٧٢
» المختار في دار إبراهيم بن الأشتر	٧٢	٧٣
» يزيد بن أنس الأسدي	٧٣	٧٤
» عبد الله بن مطيع	٧٤	٧٤
تحريض ابن الأشتر أصحابه	٧٥	٧٥
خطبة ابن مطيع وهو محصور	٧٦	٧٥
» المختار بعد هرب ابن مطيع	٧٧	٧٦
» » وقد استنصره ابن الحنفية	٧٨	٧٧
» » وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد	٧٩	٧٩
خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير	٨٠	٨٠
خطبة محمد بن الحنفية يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام	٨١	٨١
عبد الله بن عباس ومعاوية	٨٢	٨٣
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية	٨٣	٨٦
» ابن عباس	٨٤	٨٧

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٧ ٨٥ مقال معاوية لابن عباس

٨٨ ٨٦ » ابن عباس

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٩ ٨٧ مقال معاوية لبني هاشم

٨٩ ٨٨ » ابن عباس

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٩٠ ٨٩ مقال معاوية

٩١ ٩٠ » ابن عباس

٩١ ٩١ عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٩٢ ٩٢ عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

مخاصمة بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

٩٣ ٩٣ جواب ابن عباس

٩٣ ٩٤ مقال عمرو بن العاص

٩٣ ٩٥ جواب ابن عباس

٩٤ ٩٦ مقال مروان بن الحكم

٩٥ ٩٧ جواب ابن عباس

٩٦ ٩٨ مقال زياد

٩٦ ٩٩ جواب ابن عباس

٩٧ ١٠٠ مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

٩٧ ١٠١ جواب ابن عباس

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

٩٨ ١٠٢ مقال المغيرة بن شعبة

٩٨ ١٠٣ جواب ابن عباس

٩٩ ١٠٤ مقال يزيد بن معاوية

٩٩ ١٠٥ جواب ابن عباس

١٠٠ ١٠٦ مقال معاوية

١٠٠ ١٠٧ جواب ابن عباس

عبد الله بن عباس ، وعمرو بن العاص

١٠١ ١٠٨ مقال ابن عباس

١٠٢ ١٠٩ رد ابن العاص

١٠٣ ١١٠ عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضاً

١٠٤ ١١١ مفاخرة عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

١٠٩ ١١٢ مقال ابن الزبير

١١٠ ١١٣ « » عباس

١١٠ ١١٤ خطبة عبدالله بن عباس يرد على ابن الزبير وقد عاب بنى هاشم

١١٣ ١١٥ « ابن الزبير يتنقص ابن عباس

١١٤ ١١٦ رد ابن عباس عليه

١١٧ ١١٧ عبد الله بن جعفر ، وعمرو بن العاص

١١٩ ١١٨ الحسن بن علي ، وعمرو بن العاص

١٢٠ ١١٩ الحسن بن علي ، ومروان بن الحكم

١٢١ ١٢٠ عقيل بن أبي طالب ومعاوية

١٢٤ ١٢١ خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة بعد مقتل الحسين عليهم السلام

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة السيدة زينب بنت عليّ عليهما السلام بين يدي يزيد	١٢٦	١٢٢
رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام	١٢٩	١٢٣
عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص في مجلس معاوية	١٣٠	١٢٤
عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية	١٣٤	١٢٥
قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية		
مقال معاوية	١٣٥	١٢٦
رد قيس بن سعد	١٣٥	١٢٧
<hr/>		
معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء	١٣٦	١٢٨
صعصعة بن صوحان ومعاوية	١٣٧	١٢٩
» » » وعبد الله بن عباس	١٣٩	١٣٠
» » » ورجل من بني فزارة	١٤٤	١٣١
رجل من آل صوحان يحبه عبد الملك بن مروان وهو يخطب	١٤٥	١٣٢
وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان	١٤٦	١٣٣
وصية محمد الباقر لعمر بن عبد العزيز	١٤٧	١٣٤

خطب الزبيريين وما يتصل بها

خطب عبد الله بن الزبير

عبد الله بن الزبير ومعاوية

مقال ذكوان مولى الحسين	١٤٨	١٣٥
» معاوية	١٤٩	١٣٦
» ابن الزبير	١٥٠	١٣٧
» معاوية	١٥١	١٣٨
عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً	١٥٤	١٣٩

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة
رقم
الخطبة

عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص	١٤٠	١٥٥
خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام	١٤١	١٥٨
مناظرة ابن الزبير للخوارج	١٤٢	١٥٩
أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير	١٤٣	١٦٣
خطبته وقد قدم عليه أهل العراق	١٤٤	١٦٥
» لما بلغه قتل مصعب	١٤٥	١٦٥
خطبة أخرى له	١٤٦	١٦٧
خطبته وقد بلغه قتل عمر والأشقر	١٤٧	١٦٨
عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر	١٤٨	١٦٨
خطبته يوم قتله	١٤٩	١٧٠
خطبة أخرى	١٥٠	١٧٠
» مصعب بن الزبير	١٥١	١٧١

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية

خطبته بالمدينة عام الجماعة	١٥٢	١٧٢
خطبة أخرى له بالمدينة	١٥٣	١٧٣
» له بالمدينة	١٥٤	١٧٣
خطبته حين ولي المغيرة بن شعبة الكوفة	١٥٥	١٧٤
خطبة له في يوم صائف	١٥٦	١٧٤
آخر خطبة له	١٥٧	١٧٥
خطبته وقد حضرته الوفاة	١٥٨	١٧٥

١٧٧ ١٥٩ وصيته لابنه يزيد

خطب يزيد بن معاوية

١٧٨ ١٦٠ خطبته بعد موت معاوية

١٧٩ ١٦١ خطبة أخرى له

١٨٠ ١٦٢ » معاوية بن يزيد

خطب عبد الملك بن مروان

١٨٠ ١٦٣ خطبته بمكة

١٨١ ١٦٤ خطبة له موجزة

١٨١ ١٦٥ خطبته حين قتل عمرو الأشدق بن سعيد بن العاص

١٨٢ ١٦٦ » لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير

١٨٤ ١٦٧ » عام حجه

١٨٥ ١٦٨ » وقد علم بخروج ابن الأشعث

١٨٥ ١٦٩ وصيته لبعض أمرائه

١٨٦ ١٧٠ » للشعبى

١٨٦ ١٧١ » لأخيه عبد العزيز بن مروان

١٨٧ ١٧٢ ✕ » لولده عند وفاته

١٨٨ ١٧٣ خطبة للوليد بن عبد الملك *

١٨٨ ١٧٤ » لسليمان بن عبد الملك *

خطب عمر بن عبد العزيز

١٨٩ ١٧٥ أولى خطبه

١٨٩ ١٧٦ خطبة أخرى

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة أخرى	١٧٧	١٩٠
» »	١٧٨	١٩١
» »	١٧٩	١٩٢
» »	١٨٠	١٩٢
» »	١٨١	١٩٣
» له يوم عيد	١٨٢	١٩٣
» أخرى	١٨٣	١٩٤
» »	١٨٤	١٩٤
» »	١٨٥	١٩٥
» »	١٨٦	١٩٥
» »	١٨٧	١٩٥
» »	١٨٨	١٩٦
» »	١٨٩	١٩٦
» »	١٩٠	١٩٧
» »	١٩١	١٩٧
» »	١٩٢	١٩٨
آخر خطبة له	١٩٣	١٩٨
نص آخر	١٩٤	٢٠٠
كلامه في مرضه الذي مات فيه	١٩٥	٢٠٠
مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج	١٩٦	٢٠١
تأيينه ابنه عبد الملك	١٩٧	٢٠٥
خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد	١٩٨	٢٠٦

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
وصية يزيد بن معاوية لاسلم بن زياد حين ولاء	٢٠٧	١٩٩
✓ خطب عتبة بن أبي سفيان		
خطبة له في تهدد أهل مصر	٢٠٨	٢٠٠
» » في تقرعهم وتهددهم	٢٠٨	٢٠١
» » فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية	٢٠٩	٢٠٢
خطبته فيهم وقد منعوا الخراج	٢١٠	٢٠٣
» فيهم إذ طعنوا على الولاية	٢١٠	٢٠٤
» بمكة	٢١١	٢٠٥
» في علته التي مات فيها	٢١٢	٢٠٦
وصيته لمؤدب ولده	٢١٢	٢٠٧
وصية سعيد بن العاص لبنيه	٢١٣	٢٠٨
✓ خطب عمرو بن سعيد الأشدق		
خطبة له بالمدينة	٢١٥	٢٠٩
» بمكة	٢١٦	٢١٠
ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية	٢١٧	٢١١
خطبته حين غلب على دمشق	٢١٨	٢١٢
خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان	٢١٩	٢١٣
خالد بن عبد الله بن أسيد وعبد الملك بن مروان	٢٢٠	٢١٤
نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان	٢٢١	٢١٥
تأديب معاوية لجلسائه	٢٢١	٢١٦
كلام معاوية وقد سقطت أذنيه	٢٢٢	٢١٧

٢٢٢	٢١٨	تقريع عبد الملك بن مروان لأحد عماله
		طلب معاوية البيعة ليزيد
٢٢٤	٢١٩	خطبة الضحاك بن قيس الفهري
٢٢٥	٢٢٠	» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي
٢٢٦	٢٢١	» ثور بن معن السلمي
٢٢٧	٢٢٢	» عبد الله بن عصام الأشعري
٢٢٧	٢٢٣	» عبد الله بن مسعدة الفزاري
٢٢٨	٢٢٤	» عمرو بن سعيد الأشدق
٢٢٩	٢٢٥	» الأحنف بن قيس
٢٢٩	٢٢٦	» الضحاك بن قيس
٢٣٠	٢٢٧	» الأحنف بن قيس
٢٣١	٢٢٨	» عبد الرحمن بن عثمان الثقفي
٢٣١	٢٢٩	» معاوية
٢٣٢	٢٣٠	» يزيد بن المقنع
٢٣٢	٢٣١	» الأحنف
٢٣٣	٢٣٢	» معاوية
٢٣٤	٢٣٣	» عبد الله بن عباس
٢٣٤	٢٣٤	» عبد الله بن جعفر
٢٣٥	٢٣٥	» عبد الله بن الزبير
٢٣٥	٢٣٦	» عبد الله بن عمر
٢٣٦	٢٣٧	» معاوية

خطبة مروان بن الحكم	٢٣٨	٢٣٧
» معاوية	٢٣٩	٢٣٨
مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر	٢٤٠	٢٣٩
خطبة معاوية	٢٤١	٢٤٠
» الحسين	٢٤٢	٢٤٢
» معاوية	٢٤٣	٢٤٤
» عبد الله بن عمر	٢٤٤	٢٤٥
» معاوية	٢٤٥	٢٤٦
» عبد الله بن الزبير	٢٤٦	٢٤٨
» معاوية	٢٤٧	٢٤٩

تهنئة وتعزية

خطبة عبد الله بن همام السلولى	٢٤٨	٢٥٠
» عطاء بن أبي صيفى الثقفى	٢٤٩	٢٥١
» عبد الله بن مازن	٢٥٠	٢٥١
» غيلان بن مسلمة الثقفى	٢٥١	٢٥٢

خطب ولاة الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه

خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده	٢٥٢	٢٥٣
» وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبه يستقدمه	٢٥٣	٢٥٤
» وقد استلحقه معاوية	٢٥٤	٢٥٥
» حين ولى البصرة (وهى البتراء)	٢٥٥	٢٥٧
» بالكوفة وقد ضمت إليه	٢٥٦	٢٦١

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

خطبة أخرى له بالكوفة	٢٥٧	٢٦٢
خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة	٢٥٨	٢٦٢
خطبة أخرى له	٢٥٩	٢٦٣
» »	٢٦٠	٢٦٣
وصية لزياد	٢٦١	٢٦٣
ما كان يقوله لمن ولاء عملا	٢٦٢	٢٦٤
خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة	٢٦٣	٢٦٤
خطبته عند موت معاوية	٢٦٤	٢٦٦
خطبة النعمان بن بشير بالكوفة	٢٦٥	٢٦٦
» عبید الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية	٢٦٦	٢٦٧
رد معاوية على ابن زياد	٢٦٧	٢٦٩
مقال يزيد بن معاوية	٢٦٨	٢٧١
وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه	٢٦٩	٢٧٢

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير	٢٧٠	٢٧٣
» حين ولي العراق	٢٧١	٢٧٤
» وقد سمع تكبيراً في السوق	٢٧٢	٢٧٧
» وقد قدم البصرة	٢٧٣	٢٧٨
خطبته بعد وقعة دير الجماجم	٢٧٤	٢٧٩
خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام	٢٧٥	٢٨١
» له بالبصرة	٢٧٦	٢٨٢
» أخرى له بالبصرة	٢٧٧	٢٨٢

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٢٨٣	٢٧٨	خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية
٢٨٤	٢٧٩	خطبة أخرى
٢٨٤	٢٨٠	خطبته لما مات عبد الملك بن مروان
٢٨٥	٢٨١	« حين أراد الحج
٢٨٥	٢٨٢	« لما أصيب بولده وأخيه محمد في يوم واحد
٢٨٦	٢٨٣	« وقد أرجف أهل العراق بموته
٢٨٧	٢٨٤	خطبة له في الوعظ
٢٨٨	٢٨٥	« أخرى
٢٨٨	٢٨٦	« »
٢٨٩	٢٨٧	« »
٢٨٩	٢٨٨	« »
خطب قتيبة بن مسلم الباهلي		
٢٩٠	٢٨٩	خطبته يحث على الجهاد وقد تهيأ لغزو طخارستان
٢٩١	٢٩٠	« وقد تهيأ لغزو بلاد السغد
٢٩٢	٢٩١	« وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة
٢٩٣	٢٩٢	« حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك
٢٩٥	٢٩٣	خطبة أخرى
٢٩٦	٢٩٤	« »
٢٩٦	٢٩٥	« »
٢٩٧	٢٩٦	كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم
٢٩٩	٢٩٧	خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس
٣٠١	٢٩٨	نص آخر لخطبة طارق

خطبة عثمان بن حيان المرّى	٢٩٩	٣٠٢
وصية يزيد بن الملب لابنه مخلد	٣٠٠	٣٠٤
نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيه	٣٠١	٣٠٥
✓ خطب خالد بن عبد الله القسرى		
خطبته بمكة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة	٣٠٢	٣٠٦
خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد	٣٠٣	٣٠٧
خطبته بمكة في الحجاج	٣٠٤	٣٠٧
» في الحث على مكارم الأخلاق	٣٠٥	٣٠٨
» يوم عيد	٣٠٦	٣٠٨
قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه	٣٠٧	٣٠٩
خطبة يوسف بن عمر الثقفي	٣٠٨	٣٠٩

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرة

خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصارى	٣٠٩	٣١٠
» مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام	٣١٠	٣١١
» مسلم يحرضهم	٣١١	٣١١
» ابن حنظلة يحرض أصحابه	٣١٢	٣١٢

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه	٣١٣	٣١٣
» أخرى له	٣١٤	٣١٤
» عمرو بن حريث	٣١٥	٣١٥
» عمرو بن مسيع	٣١٦	٣١٥

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة
رقم
الخطبة

خطبة الأحنف بن قيس	٣١٧	٣١٦
» روح بن زنباع الجذامي بالمدينة	٣١٨	٣١٧
خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة	٣١٩	٣١٩
خطبة الغضبان بن القبعثري يحض على قتل الحجاج	٣٢٠	٣٢٠
فتنة ابن الأشعث		
خطبة ابن الأشعث بسجستان	٣٢١	٣٢١
خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج	٣٢٢	٣٢٢
خطبة عامر بن وائلة الكنانى	٣٢٣	٣٢٣
» عبد المؤمن بن شد بن ربيع	٣٢٤	٣٢٣
» ابن الأشعث بالمربد	٣٢٥	٣٢٤
خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق	٣٢٦	٣٢٤
عامر الشعبي والحجاج	٣٢٧	٣٢٥
أيوب بن القرية والحجاج	٣٢٨	٣٢٦
كلمة لابن القرية	٣٢٩	٣٣٠

فتنة يزيد بن المهلب

خطبة أيوب بن سليمان بن عبد الملك	٣٣٠	٣٣١
» يزيد بين يدي الوليد	٣٣١	٣٣٢
» مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي عمر بن عبد العزيز	٣٣٢	٣٣٢
» يزيد بن المهلب يجرى أصحابه على القتال	٣٣٣	٣٣٣
» أخرى له	٣٣٤	٣٣٤
» » »	٣٣٥	٣٣٥
» الحسن البصرى يثبط الناس عن يزيد بن المهلب	٣٣٦	٣٣٥
» مروان بن المهلب	٣٣٧	٣٣٦

خطب الأحنف بن قيس التيمي

الأحنف ومعاوية	٣٣٨	٣٣٧
» » أيضا	٣٣٩	٣٣٨
قوله في مدح الولد	٣٤٠	٣٣٩
شفاعته لدى مصعب بن الزبير	٣٤١	٣٤٠
نصيحته لقومه	٣٤٢	٣٤٠
خطبته في قوم كانوا عنده	٣٤٣	٣٤٠
كلمات حكيمة للأحنف	٣٤٤	٣٤١
صفية بنت هشام المنقرية تؤمن بالأحنف	٣٤٥	٣٤٣

خطب الوفود

وما ألقى بمحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية	٣٤٦	٣٤٤
وقد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف	٣٤٧	٣٤٥
خطبة زياد	٣٤٨	٣٤٥
» معاوية	٣٤٩	٣٤٦
» الأحنف بن قيس	٣٥٠	٣٤٦
وقد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة	٣٥١	٣٤٦
دغفل وجماعة من الأنصار	٣٥٢	٣٥٠
وقد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان	٣٥٣	٣٥٠
وفود العرب ومعاوية	٣٥٤	٣٥٢
» عبد العزيز بن زرارة على معاوية	٣٥٥	٣٥٣

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
وفود زيد بن منية على معاوية	٣٥٦	٣٥٤
« ضرار بن حمزة الصدائي على معاوية	٣٥٧	٣٥٥
الوافدات على معاوية		
وفود سودة بنت عمارة على معاوية	٣٥٨	٣٥٦
« أم سنان بنت خيشمة على معاوية	٣٥٩	٣٥٩
« بكارة الهلالية على معاوية	٣٦٠	٣٦١
« أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية	٣٦١	٣٦٣
أم البراء بنت صفوان ومعاوية	٣٦٢	٣٦٦
دارمية الحجونية ومعاوية	٣٦٣	٣٦٧
شداد بن أوس ومعاوية	٣٦٤	٣٦٩
معاوية ورجل من أهل سبأ	٣٦٥	٣٧٠
حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان	٣٦٦	٣٧١
حديث الخيار بن أوفى النهدي مع معاوية	٣٦٧	٣٧٢
حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية	٣٦٨	٣٧٣
سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية	٣٦٩	٣٧٣
مصقلة بن هبيرة ومعاوية	٣٧٠	٣٧٤
روح بن زنباع ومعاوية	٣٧١	٣٧٥
مخاصمة أبي الأسود الدؤلي وامراته بين يدي زياد بن أبيه	٣٧٢	٣٧٦
صورة أخرى	٣٧٣	٣٧٧
وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير	٣٧٤	٣٨٠
كلام خطيب الأزدي بين يدي عبد الملك بن مروان	٣٧٥	٣٨١
سؤال عبد الملك للعجاج وما أجابه به	٣٧٦	٣٨١
وفود العجاج بإبراهيم بن محمد بن طاحنة على عبد الملك بن مروان	٣٧٧	٣٨٢

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
قدوم الحجاج مع أشرف المصريين على عبد الملك	٣٧٨	٣٨٤
وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة	٣٧٩	٣٨٦
« كعب الأشقرى على الحجاج	٣٨٠	٣٨٦
سليمان بن سلكة والحجاج	٣٨١	٣٨٨
جامع المحاربي والحجاج	٣٨٢	٣٨٩
ليلي الأخيلية والحجاج	٣٨٣	٣٩٠
الغضبان بن القبعثرى والحجاج	٣٨٤	٣٩٥
ابن القرنة يعدد مساوي المراح	٣٨٥	٣٩٧
يزيد بن مسلم وسليمان بن عبد الملك	٣٨٦	٣٩٨
وفود العراق على سليمان بن عبد الملك	٣٨٧	٣٩٩
كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك	٣٨٨	٤٠٠
أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضا	٣٨٩	٤٠١
وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز	٣٩٠	٤٠٢
خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنئه	٣٩١	٤٠٢
خطبة عبد الله بن الأهم	٣٩٢	٤٠٣
مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز	٣٩٣	٤٠٥
وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك	٣٩٤	٤٠٥
مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام	٣٩٥	٤٠٧
خالد بن صفوان يصف جريرا والفرزدق والأخطل	٣٩٦	٤٠٩
خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة	٣٩٧	٤١٠
خطبة الكميث بن زيد بين يدي هشام يستعطفه	٣٩٨	٤١١
مخاصمة عدى بن أرطاة لامراته عند شريح القاضي	٣٩٩	٤١٦
كلمة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان	٤٠٠	٤١٦
رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري	٤٠١	٤١٧

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطب الخوارج وما يتصل بها	٤١٧	٤١٧
خطبة حيان بن ظبيان السلمي	٤٠٢	٤١٧
اثمار الخوارج		٤١٩
مقال المستورد بن علفة	٤٠٣	٤١٩
« حيان بن ظبيان »	٤٠٤	٤١٩
« معاذ بن جوين »	٤٠٥	٤٢٠
خطبة المغيرة بن شعبة	٤٠٦	٤٢٠
« صعصعة بن صوحان »	٤٠٧	٤٢١
« المستورد بن علفة »	٤٠٨	٤٢٣
« معقل بن قيس الرياحي »	٤٠٩	٤٢٤
كلمات حكيمة للمستورد	٤١٠	٤٢٤
اثمار الخوارج ثانية		٤٢٥
خطبة حيان بن ظبيان	٤١١	٤٢٥
« معاذ بن جوين »	٤١٢	٤٢٥
رد حيان بن ظبيان	٤١٣	٤٢٦
مقال عتريس بن عرقوب	٤١٤	٤٢٦
رد حيان	٤١٥	٤٢٧
خطبة حيان	٤١٦	٤٢٧
« مسلم بن عبيس حين خرج لقتال الأزارقة »	٤١٧	٤٢٨
خطب المهلب بن أبي صفرة		
خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة	٤١٨	٤٢٩
خطبة أخرى له في جنده	٤١٩	٤٣٠

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

نص آخر	٤٢٠	٤٣٠
خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة	٤٢١	٤٣١
خطبة الزبير بن علي في الأزارقة	٤٢٢	٤٣١
« عتاب بن ورقاء ارياحي وقد طال عليه الحصار	٤٢٣	٤٣٣
نصيحة عرهم العدوي لخالد بن عبد الله	٤٢٤	٤٣٤
خطبة قطري بن الفجاءة	٤٢٥	٤٣٥
« عبد ربه الصغير	٤٢٦	٤٣٩
« صالح بن مسرح	٤٢٧	٤٤٠
« أخرى له	٤٢٨	٤٤٢
« »	٤٢٩	٤٤٢
« زائدة بن قدامة	٤٣٠	٤٤٣
« الحجاج بن يوسف	٤٣١	٤٤٣
« أخرى للحجاج	٤٣٢	٤٤٤
« شبيب بن يزيد الشيباني	٤٣٣	٤٤٤
« عتاب بن ورقاء	٤٣٤	٤٤٥
« الحجاج	٤٣٥	٤٤٦
« عبد الله بن يحيى الإباضي	٤٣٦	٤٤٦

خطب أبي حمزة الشاري

خطبته حين دخل المدينة	٤٣٧	٤٤٨
خطبة أخرى له	٤٣٨	٤٤٩
خطبته وقد باغته أن أهل المدينة يعيبون أصحابه	٤٣٩	٤٤٩
خطبة أخرى	٤٤٠	٤٥٧
خطبته في سب أهل المدينة وتقريرهم	٤٤١	٤٥٩

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

٤٦١ ٤٤٢ خطبة أخرى

٤٦٢ ٤٤٣ خطبته حين خرج من المدينة

٤٦٣ ٤٤٤ عمران بن حطان والحجاج

الخطب الوعظية والوصايا

٤٦٣ ٤٤٥ خطبة سحبان بن زفر الوائلي

٤٦٤ ٤٤٦ » معاوية

٤٦٤ ٤٤٧ » عبد الملك بن مروان

٤٦٥ ٤٤٨ » لعمر بن عبد العزيز

كلام الحسن البصرى

٤٦٥ ٤٤٩ خطبة له

٤٦٨ ٤٥٠ » أخرى

٤٦٨ ٤٥١ » »

٤٦٩ ٤٥٢ » »

٤٦٩ ٤٥٣ » »

٤٧٠ ٤٥٤ » »

٤٧٠ ٤٥٥ » »

٤٧١ ٤٥٦ » »

٤٧١ ٤٥٧ مقام الحسن البصرى عند عمر بن هبيرة

٤٧٢ ٤٥٨ مقام الحسن البصرى عند النضر بن عمرو

٤٧٤ ٤٥٩ مقام آخر له عند النضر

٤٧٥ ٤٦٠ مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التى بناها بواسط

٤٧٦ ٤٦١ صفة الامام العادل

٤٧٨ ٤٦٢ موعظته لعمر بن عبد العزيز

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

٤٧٩	٤٦٣	موعظة لعمر بن عبد العزيز أيضاً
٤٨٠	٤٦٤	كلمات حكيمة للحسن المصرى
٤٨٢	٤٦٥	خطبة واصل بن عطاء
٤٨٤	٤٦٦	وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية
٤٨٥	٤٦٧	« عبد الله بن شداد لابنه
٤٨٨	٤٦٨	« أسماء بن خارجة لابنته
٤٨٩	٤٦٩	رجل ينصح لهشام بن عبد الملك
٤٨٩	٤٧٠	وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

الصراع بين الأموية والعباسية

٤٩٥	٤٧١	خطبة قطبة بن شبيب الطائى
٤٩٦	٤٧٢	« أخرى له

تتمة فى خطب الحجاج

٤٩٧	٤٧٣	خطبته بعد قتل ابن الزبير
-----	-----	--------------------------



فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

أيوب بن القرية ٣٢٦ - ٣٣٠ - ٣٩٧

- ب -

بكاره الملالية ٣٦١

بلال بن أنى برده ٤٠٠

- ث -

ثور بن معن السلمى ٢٢٦

- ج -

جامع الحاربي ٣٨٩

- ح -

الحجاج بن يوسف الثقفى ٢٧٣ - ٢٧٤ -

٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨١ - ٢٨٢ -

٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٧ -

٢٨٨ - ٢٨٩ - ٣٨٥ - ٤٤٣ - ٤٤٤ -

٤٤٦ - ٤٩٧

الحربن يزيد ٤٨

الحسن البصرى ٣٣٥ - ٤٦٥ - ٤٦٨ -

٤٦٩ - ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٤ -

٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨٠ -

- ا -

إبراهيم بن الأشتر ص ٧٥

إبراهيم بن محمد بن طلحة ٥٨ - ٣٨٢

أبو الأسود الدؤلى ٣٧٦

أبو بكر الهذلى ٣٨٥

أبو حازم الأعرح ٤٠٠ - ٤٠١

أبو حاضر الأسيدى ٣٨٠

أبو حمزة الشارى ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥٠ -

٤٥٧ - ٤٥٩ - ٤٦١ - ٤٦٢

أبو صخر الهذلى ١٦٣

الأحنف بن قيس ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٣١٦ -

٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤١ -

٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٨٥

أروى بنت الحارث بن عبد المطلب ٣٦٣

أسماء بن خارجه ٤٨٨

أم البراء بنت صفوان ٣٦٦

أم سنان بنت خيثمة ٣٥٩

السيدة أم كلثوم بنت على رضى الله عنها ١٢٤

أيوب بن سليمان بن عبد الملك ٣٣١

روح بن زنباع ٣١٧ - ٣١٩ - ٣٧٥

- ز -

زائدة بن قدامة ٤٤٣

الزبير بن عليّ ٤٣١

زهير بن القين البجلي ٣٩ - ٤٦

زياد بن أبيه ٩٦ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥

٢٥٧ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - ٣٤٥

زيد بن منية ٣٥٤

السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها ١٢٦

- س -

السائب بن مالك ٦٩

سحبان بن زفر ٤٦٣

سعد بن حذيفة بن اليمان ٥٤

سعيد بن العاص ٢١٣

سعيد بن عثمان بن عفان ٣٧٣

سليك بن السلكة ٣٨٨

سليمان بن صرد ٨ - ٥٢ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢

٦٣ - ٦٤

سليمان بن عبد الملك ١٨٨

سودة بنت عمارة ٣٥٦

- ش -

شبيب بن يزيد الشيباني ٤٤٤

شداد بن أوس الطائي ٣٦٩

الحسن بن عليّ رضي الله عنه ١ - ٢ -

٤ - ٥ - ٦ - ٨ - ١٠ - ١٢ - ١٦ -

١١٩ - ١٢٠

الحسين بن عليّ رضي الله عنه ٣٨ - ٣٩ -

٤٠ - ٤١ - ٤٣ - ٤٤ - ١٢٩ - ٢٤٢

حيان بن ظبيان ٤١٧ - ٤١٩ - ٤٢٥ -

٤٢٦ - ٤٢٧

- خ -

خالد بن سعد بن نفيل ٥٣

خالد بن صفوان ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٤٠٢ -

٤٠٧ - ٤٠٩ - ٤١٠

خالد بن عبد الله بن أسيد ٢٢٠

خالد بن عبد الله القسري ٣٠٦ - ٣٠٧ -

٣٠٨ - ٣٠٩

خالد بن يزيد ٢١٩

الخيار بن أوفى النهدي ٣٧٢

- د -

دارمية الحجونية ٣٦٧

دغفل بن حنظلة ٣٤٦ - ٣٥٠ -

- ذ -

ذكوان ١٤٨

- ر -

رفاعة بن شداد ٥١

شرح القاضي ٤١٦

- ص -

صالح بن مسرح ٤٤٠ - ٤٤٢

صخير بن حذيفة بن هلال ٦٠

صمصمة بن صوحان ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٩ -

١٤٤ - ٣٥٠ - ٤٢١

صفية بنت هشام المنقرية ٣٤٣

- ض -

الضحك بن قيس ٢٢٤ - ٢٢٩ - ٢٦٤ - ٢٦٦

ضرار بن حمزة الصدائي ٣٥٥

- ط -

طارق بن زياد ٢٩٩ - ٣٠١

- ع -

عابس بن أبي شبيب ٢٩

عاصم الشعبي ٣٢٥

عاصم بن وائلة الكنانى ٣٢٣

عبد الحميد بن يحيى ٤٨٩

عبد ربه الصغير ٤٣٩

عبد الرحمن بن أبي بكر ٢٣٩

عبد الرحمن بن أم الحكم ٩٧

عبد الرحمن بن شريح ٦٩ - ٧٠ - ٧٢

عبد الرحمن بن عثمان ٢٢٥ - ٢٣١

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ٣٢١ -

٣٢٢ - ٣٢٤

عبد العزيز بن زرارة ٣٥٣

عبد العزيز بن مروان ٣١٨

عبد الله بن الأهم ٤٠٣

عبد الله بن جعفر ١١٧ - ٢٣٤

عبد الله بن الحنظل ٥٤

عبد الله بن حنظلة الأنصارى ٣١٠ - ٣١٢

عبد الله بن الزبير ١٠٤ - ١٠٩ - ١١٣ -

١٥٠ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٨ - ١٥٩ -

١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٧٠ -

٢٣٥ - ٢٤٨

عبد الله بن سعد ٦١

عبد الله بن شداد ٤٨٥

عبد الله بن عباس ٣٤ - ٨٣ - ٨٧ - ٨٨ -

٨٩ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٥ - ٩٦ -

٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٣ -

١٠٤ - ١١٠ - ١١٤ - ٢٣٤

عبد الله بن عبد الحجر ٣٧١

عبد الله بن عصام ٢٢٧

عبد الله بن عمر ٢٣٥ - ٢٤٥

عبد الله بن الكواء ١٣٦

عبد الله بن مازن ٢٥١

عبد الله بن مسعدة ٢٢٧

عقيل بن أبي طالب ١٢١
عمر بن عبد الرحمن ٣٧
عمر بن عبد العزيز ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١
١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦
١٩٧ - ١٩٨ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٥ - ٢٦٥
عمر بن هبيرة ٣٠٥
عمر بن حريث ٣١٥
عمر بن سعيد الأشدق
٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢٢٨
عمر بن العاص ١٤ - ٩٣ - ١٠٢
١٠٣ - ١٣٠ - ١٥٥
عمر بن عتبة بن أبي سفيان ٢٢١ - ٤١٦
عمر بن مسمع ٤١٥
عمران بن حطان ٤٦٣
- غ -
الغضبان بن القبعثري ٣٢٠ - ٣٩٥
غيلان بن مسالمة الثقفي ٢٥٢
- ق -
قتيبة بن مسلم ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٢
٢٩٣ - ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٩٧
قطبة بن شبيب الطائي ٤٩٥ - ٤٩٦
قطري بن الفجاءة ٤٣٥
قيس بن سعد بن عبادة ١٣٥

عبد الله بن مطيع ٦٨ - ٧٤ - ٧٥
عبد الله بن هاشم ١٣٠ - ١٣٤
عبد الله بن همام السلولي ٢٥٠
عبد الله بن وال التيمي ٥٩
عبد الله بن يحيى الاباضي ٤٤٦
عبد الله بن يزيد الأنصاري ٥٧ - ٦٢
عبد المؤمن بن شبت بن رمي ٣٢٣
عبد الملك بن مروان ٦٥ - ١٨٠ - ١٨١
١٨٢ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧
٢٢٢ - ٤٦٤ - ٤٨٤
عبيد الله بن زياد بن أبيه ٣١ - ٣٢
٣٣ - ٢٦٧ - ٣١٣ - ٣١٤
عبيد الله بن عبد الله المرسي ٥٥
عتاب بن ورفاء الرياحي ٤٣٣ - ٤٤٥
عتبة بن أبي سفيان ١٥ - ٢٠٨ - ٢٠٩
٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢
عتريس بن عرقوب ٤٢٦
عثمان بن حيان المرسي ٣٠٢
العجاج بن روبة ٣٨١
عدى بن حاتم ٣
عرابة بن أوس بن حارثة ٣٧٣
عرهم العدوي ٤٣٤
عطاء بن أبي صيفي ٢٥١

مصقلة بن هبيرة ٣٧٤

معاذ بن جوين ٤٢٠ - ٤٢٥

معاوية بن أبي سفيان ٧ - ٨٦ - ٨٧ -

٨٩ - ٩٠ - ١٠٠ - ١٣٥ - ١٤٩ -

١٥١ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٧٢ - ١٧٣ -

١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٧ - ٢٢١ - ٢٢٢ -

٢٣١ - ٢٣٣ - ٢٣٦ - ٢٣٨ - ٢٤٠ -

٢٤٤ - ٢٤٦ - ٢٤٩ - ٢٦٩ - ٣٤٦ -

٣٥٢ - ٤٦٤

معاوية بن يزيد ١٨٠

معقل بن قيس ٤٢٤

المغيرة بن شعبة ١٥ - ٩٨ - ٤٢٠

المهلب بن أبي صفرة ٢٧٢ - ٤٢٩ -

٤٣٠ - ٤٣١

- ن -

النعمان بن بشير ٣٠ - ٢٦٦

- و -

واصل بن عطاء ٤٨٢

الوليد بن عبد الملك ١٨٨

الوليد بن عقبة ١٥ - ٢١٧

- ي -

يزيد بن أبي مسلم ٣٩٨

يزيد بن أنس الأسدي ٧٤

- ك -

كثير بن شهاب ٣٢

كعب بن معدان الأشقري ٣٨٦

الكهيت بن زيد الأسدي ٤١١

- ل -

ليلي الأخيلية ٣٩٠

- م -

مالك بن بشير ٣٨٦

محمد بن أبي الجهم العدوي ٤٠٥

محمد الباقر ١٤٧

محمد بن الحنفية ٢٥ - ٢٨ - ٧١ - ٨١

محمد بن عمير بن عطار ٣٨٤

محمد بن كعب القرظي ٤٠٥

المختار بن أبي عبيد الثقفي ٦٦ - ٦٧ -

٧١ - ٧٣ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٩ - ٨٠

مخلد بن يزيد بن المهلب ٣٣٢

مروان بن الحكم ٩٤ - ٢٣٧ - ٢٣٩

مروان بن المهلب ٣٣٦

المستورد بن علفة ٤١٩ - ٤٢٣

مسلم بن عبيس ٤٢٨

مسلم بن عقبة ٣١١

المسيب بن نجبة ٥٠ - ٥٨

مصعب بن الزبير ١٧١

٣٣٥ - ٣٣٤

يزيد بن الوليد ٢٠٦

يوسف بن عمر الثقفي ٣٠٩

تم فهرس أعلام الخطباء

يزيد بن معاوية ٩٩ - ١٧٨ - ١٧٩

٢٧١ - ٢٠٧

يزيد بن المقنن ٢٣٢

يزيد بن المهلب ٣٠٤ - ٣٣٢ - ٣٣٣



لجزم الخط العربي

في عصور العرب في الزاهرة

الجزء الثالث

العصر العباسي الأول

ويليه ذيل الجهة

تأليف

أحمد زكي صفوت

أستاذ اللغة العربية بدار العلوم

الطبعة الأولى

حقوق الطبع والنقل محفوظة

شركة مطبعة مطبوعات البان الجبل والادب

١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م / رقم ٤٩٤

تقدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم وفقنتني إلى إتمام ما بدأت ، فلك الشكر والمنة في البدء
والنهاية ، وأصلى وأسلم على خاتم رسلك ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .
وبعد : فهذا ثالث الأجزاء من « جمهرة خطب العرب » في خطب
العصر العباسي الأول ، وهو على نسق سابقه ضبطا وتحريرا ، وشرحا وتعليقا ،
ويليه ذيل الجمهرة ، في خمسة أبواب من الخطب :

الباب الأول : في خطب الأندلسيين والمغاربية .

« الثاني : في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها .

« الثالث : في ثر الأعراب .

« الرابع : في خطب النكاح .

« الخامس : في خطب من أرتج عليهم ، ونوادير طريفة لبعض الخطباء .

وبذا تم ما قصدت إلى جمعه في هذا المؤلف ، وإني أبتهل إلى المولى القدير

أن يحقق ما رجوته من استفادة قارئيه به ، وأن يسدد خطانا جميعا إلى سبيل

أحمد زكي صفوت

الرشاد ، إنه الكبير المتعال

ذى القعدة سنة ١٣٥٢ هـ

حرب بالقاهرة في مارس سنة ١٩٣٤ م

فهرس

مآخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبي عليّ القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبي الفرج الأصبهانى : « التاسع
- صبح الأعشى : لأبي العباس القلقشندى : « الأول - التاسع
- نهاية الأرب : اشهاب الدين النويرى : « السادس
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبي العباس المبرد : الجزء الأول
- العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبي إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
- شرح نهج البلاغة : لابن أبي الحديد : المجلد الأول - الثانى
- أمالى السيد المرتضى : « الأول - الرابع
- مجمع الأمثال : لأبي الفضل الميدانى : « الأول
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « التاسع - العاشر
- تاريخ الكامل : لابن الأثير : « السادس
- مروج الذهب : للمسعودى : « الثانى
- وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول - الثانى

مواسم الأدب: للسيد جعفر البيهقي العلوي : الجزء الثاني

الصناعتين : لأبي هلال العسكري

مقدمة ابن خلدون

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى



الباب الرابع

الخطبة والبوصايا

في

العصر العباسي الأول

١ - خطبة أبي العباس السفاح وقد بويع بالخلافة
(توفي سنة ١٣٦ هـ)

صعد أبو العباس^(١) السفّاح المنبر حين بويع له بالخلافة، فقام في أعلاه،
وصعد عمه داود بن علي فقام دونه، وتكلم أبو العباس، فقال :
« الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تَكْرِمَةً ، وَشَرَفَهُ وَعَظَمَهُ ، واختاره
لنا وأيده بنا ، وجعلنا أهله وَكَهْفَهُ^(٢) وَحِصْنَهُ ، والقُوَّام به ، والذابّين عنه ،
والناصرين له ، وألزمنا كلمة التَّقْوَى ، وجعلنا أحقّ بها وأهلها ، وخصنا

[١] هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أول الحفّاء العباسيين ، بويع بالخلافة
سنة ١٣٢ هـ . [٢] الكهف : الوزر والملحأ .

بِرَحْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَرَابَتِهِ ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ آبَائِهِ ، وَأَنْبَتْنَا مِنْ شَجَرَتِهِ ، وَاشْتَقْنَا مِنْ نَبْعَتِهِ (١) ، جَعَلَهُ مِنْ أَنْفُسِنَا عَزِيزاً عَلَيْهِ مَا عَنِتْنَا (٢) ، حَرِيصاً عَلَيْنَا ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَوْحاً رَحِيماً ، وَوَضَعْنَا مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلَهُ بِالْمَوْضِعِ الرَّفِيعِ ، وَأَنْزَلَ بِذَلِكَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ كِتَاباً يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ (٣) أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » ، وَقَالَ : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » ، وَقَالَ : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » ، وَقَالَ : « مَا أَفَاءَ (٤) اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَاللَّهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى » ، وَقَالَ : « وَأَعْلَمُوا إِنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى فَأَعْمَهُمْ جَلْ ثَنَاءٌ فَضَّلْنَا ، وَأَوْجِبَ عَلَيْهِمْ حَقَّقْنَا وَمَوَدَّتْنَا ، وَأَجْزَلَ مِنَ النَّفْسِ (٥) وَالْغَنِيمَةَ نَصِيبَنَا ، تَكْرِمَةً لَنَا ، وَفَضْلاً عَلَيْنَا ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

وَزَعَمَتِ السَّبْيِيَّةُ الضَّلَالُ أَنْ غَيْرَنَا (٦) أَحَقُّ بِالرِّيَاسَةِ وَالْخِلَافَةِ مِنَّا ، فَشَاهَتِ (٧)

وُجُوهُهُمْ ! بِمَ وَلِمَ أَيُّهَا النَّاسُ ؟ وَبِنَا هَدَى اللَّهُ النَّاسَ بَعْدَ ضَلَالَتِهِمْ ، وَبَصَّرَهُمْ بَعْدَ جَهَالَتِهِمْ ، وَأَنْقَذَهُمْ بَعْدَ هَلَاكَتِهِمْ ، وَأَظْهَرَ بِنَا الْحَقَّ ، وَأَذْهَبَ بِنَا الْبَاطِلَ ، وَأَصْلَحَ بِنَا مِنْهُمْ مَا كَانَ فَاسِداً ، وَرَفَعَ بِنَا الْخَسِيسَةَ ، وَأَتَمَّ بِنَا التَّقِيصَةَ ، وَجَمَعَ الْفُرْقَةَ ، حَتَّى عَادَ النَّاسُ بَعْدَ الْعِدَاوَةِ أَهْلَ تَعَاطُفٍ وَبِرٍّ ، وَمَوَاسَاةٍ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَإِخْوَاناً عَلَى سُورٍ مُتَقَابِلِينَ فِي آخِرَتِهِمْ ، فَفَتَحَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنةً وَمِنحةً لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ قَامَ بِذَلِكَ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ أَصْحَابُهُ ، وَأَتْرَمَ شُورَى

[١] النجى و الأصل : شجر للفسى والسام . [٢] العت بالتحريك : دخول المشقة على الإنسان .
[٣] القدر ، وكل ما استغفر من العمل . [٤] ما أطاده عليه أى صيره له .
[٥] الغنيمة . [٦] يريد العلويين . [٧] شاه وجهه شوها بالفتح : قبح .

بينهم ، فحَوَّوا مَوَارِيثَ الأُمِّ ، فَعَدَلُوا فِيهَا ، وَوَضَعُوا مَوَاضِعَهَا ، وَأَعْطَوْهَا أَهْلَهَا ،
وَخَرَجُوا خِمَاصًا ^(١) مِنْهَا ، ثُمَّ وَثَبَ بَنُو حَرْبٍ وَمَرْوَانٌ فَابْتَزُّوْهَا وَتَدَاوَلُوهَا بَيْنَهُمْ ،
فَجَارُوا فِيهَا ، وَاسْتَأْثَرُوا بِهَا ، وَظَلَمُوا أَهْلَهَا ، فَأَمَلِي ^(٢) اللهُ لَهُمْ حِينًا حَتَّى آسَفُوهُ ^(٣) ،
فَلَمَّا آسَفُوهُ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِأَيْدِينَا ، وَرَدَّ عَلَيْنَا حَقَّنَا ، وَتَدَارَكَ بِنَا أَمْتَنَا ، وَوَلِيَ نَصْرَنَا
وَالْقِيَامَ بِأَمْرِنَا ، لِيَمُنَّ بِنَا عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الأَرْضِ ، وَخَتَمَ بِنَا كَمَا افْتَتَحَ بِنَا ،
وَإِنِّي لِأَرْجُو أَلَّا يَأْتِيَكُمُ الجَوْرُ مِنْ حَيْثُ أَنْتُمْ الحَيْرُ ، وَلَا الفَسَادُ مِنْ حَيْثُ جَاءَكُمْ
الصَّلَاحُ ، وَمَا تَوْفِيقُنَا أَهْلَ البَيْتِ إِلَّا بِاللهِ .

يَأْهَلُ الكَوْفَةَ ، أَنْتُمْ مَحَلٌّ مَحَبَّتِنَا ، وَمَنْزِلٌ مَرَدَّتِنَا . أَنْتُمْ الَّذِينَ لَمْ تَتَنَبَّرُوا عَن
ذَلِكَ ، وَلَمْ يَتَنَبَّرُوا عَن ذَلِكَ تَحَامُلُ أَهْلِ الجَوْرِ عَائِيكُمْ . حَتَّى أَدْرَكْتُمْ زَمَانَنَا ، وَأَنْتُمْ
اللهُ بِدَوْلَتِنَا ، فَأَنْتُمْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِنَا ، وَأَكْرَهُهُمْ عَلَيْنَا ، وَفَدَّ زِدْتِكُمْ فِي أُعْطَايَاتِكُمْ
مِائَةَ دَرْهَمٍ ، فَاسْتَعْدُوا ، فَأَنَا السَّفَّاحُ المُبِيحُ ، وَالنَّائِرُ المُبِيرُ ^(٤) ،
وَكَانَ مَوْعُوكَا فَاشْتَدَّ بِهِ الوَعَكُ ^(٥) ، فَجَلَسَ عَلَى المَنْبَرِ . وَصَعِدَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ ،
فَقَامَ دُونَهُ عَلَى مَرَّاقِي ^(٦) المَنْبَرِ ، فَقَالَ :

(تاريخ الطبرى ٩ : ١٢٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ٢ : ص ٢١٣)

٢ - خطبة داود بن عليّ

« الحمد لله ، سُكْرًا سُكْرًا سُكْرًا ، الَّذِي أَهْلَكَ عَدُونَا ، وَأَصَارَ إِلَيْنَا مِرَائِنَا
مَنْ نَبِينَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَيُّهَا النَّاسُ : الآنَ أَقْشَعَتْ ^(٧) حَنَادِسُ الدُّنْيَا ،

[١] حيا عا جمع حيس من حمس الطن مثلثة المم أى خلا ، وانحمتة : الخاعة ، وهو جمعان بالصم ،
وحيس المشا ضامر البطن . [٢] أمهلهم . [٣] أعصوه . [٤] أناره : أهلكه .
[٥] الوعك : أدى الحمى ووجعها ، وألم من شدة الهم . [٦] جمع مرفاة ففتح الميم وكسرهما .
[٧] قشعت الريح السحاب : كشفته كأشعته وأشع واشعع وقشع ، والحنادس جمع حندس بكسر الحاء
والدال ، وهو الظلمة .

وانكشف غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمس من مطلعها ،
 وبزغ القمر من مبرزه ، وأخذ القوسَ باريها ، وعاد السهم إلى النزعة^(١) . ورجع
 الحق إلى نصابه^(٢) ، في أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة بكم والمطف عليكم .
 أيها الناس : إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لِنُكْثِرَ لُجَيْنًا ، ولا
 عِقْيَانًا^(٣) ، ولا تحفِرَ نَهْرًا ، ولا نبني قصرًا ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم
 حقنا ، والغضبُ لبني عمنا ، وما كَرَّتنا^(٤) من أموركم ، وبهظنا من شئونكم ،
 ولقد كانت أموركم تُرْمِضُنَا^(٥) ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية
 فيكم ، وخرقهم بكم ، واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيثكم وصدقاتكم ومغانمكم
 عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس
 رحمة الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في المائة منكم
 والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تَبًّا تَبًّا لبني حرب بن أمية وبني
 مروان ، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدارَ الفانية على الدار
 الباقية ، فركبوا الآثام ، وظلموا الأثام ، واتهكوا المحارم ، وغشوا الجرائم ،
 وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسنتهم في البلاد ، التي بها استلذوا تسربل الأوزار ،
 وتجلَّب الأصار^(٦) ، ومرحوا في أعنة المعاصي ، ورَكضوا في ميادين النقي ،
 جهلا باستدراج الله ، وأمنًا لمكر الله ، فاتهم بأسئ الله بيئاتًا وهم نائمون ، فأصبحوا
 أحاديث ، ومزقوا كل ممزق ، فبُعداً للقوم الظالمين ، وأدالنا^(٧) الله من مروان ،

[١] جمع نازع وهو الرامي شد الوتر إليه ليضع فيه السهم ، وصار الأمر إلى النزعة أي قام بإصلاحه
 أهل الأنفة ، وعاد السهم إلى النزعة : رجع الحق إلى أهله . [٢] أصله . [٣] ذمياً .
 [٤] كرهه الغم كضرب وصر : اشتد عليه كما كرهه . [٥] أرمسه : أوجسه وأحرقه ،
 أرومض الحر القوم : اشتد عليهم فأذام . [٦] جمع لاصركمبل وهو الذنب . [٧] نصرنا عليه .

وقد غرّه بالله الغرور ، أرسل لعدو الله في عنانه ، حتى عثر في فضل خطامه ،
فظن عدو الله أن لن تقدر عليه ، فنادى حزبه ، وجمع مكائده ، ورمى بكتائبه ،
فوجد أمامه ووراءه ، وعن يمينه وشماله ، من مكر الله وبأسه ونقمة ، ما أمت
باطله ، ومحق ضلاله ، وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ، ورد إلينا
حقنا وإرثنا .

أيها الناس ، إن أمير المؤمنين - نصره الله نصراً عزيزاً - إنما عاد إلى المنبر
بعد الصلاة ، أنه كره^(١) أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام
الكلام ، بعد أن أسخّفر^(٢) فيه شدة الوعك ، وادعوا الله لأمر المؤمنين بالعافية ،
فقد أبدلكم الله بمرؤس عدو الرحمن ، وخليفة الشيطان . المنع للسفلة الذين
أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، بإبدال الدين ، وانتهاك حريم المسامين ،
الشاب^(٣) المتكهل المنمهل ، المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار ، الذين أصلحوا
الأرض بعد فسادها بمعالم الهدى ، وناهج التقوى « - فمع الناس له بالدعاء -
ثم قال :

« ي أهل الكوفة : إنا والله ما زلنا مظلومين مهقورين على حقنا ، حتى أتاح
الله لنا شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج^(٤) بهم حجتنا ، وأظهر
بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوقون ، فأظهر فيكم
الخليفة من هاشم ويص به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم
السلطان وعز الإسلام ، ومن عليكم بإمام منحة العدالة ، وأعطاه حسن الأيالة^(٥) ،

[١] أي لأنه كره . [٢] اسخّفر الحطيت : اتسع في كلامه . [٣] كاتب سببه حين ولي
الخلافة ٢٨ سنة إذ ولد سنة ١٠٤ هـ . [٤] نصر . [٥] آل الملك رعيته إيلالا : سامهم ،
وآل على القوم إيلالا وإيالة : ولي .

نخذوا ما آتاكم الله بشكر، والزموا طاعتنا، ولا تُخَدَعُوا عن أنفسكم، فإن الأمر أمركم، فإن لكل أهل بيت مصراً، وإنكم مصرنا، ألا وإنه ماصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد - وأشار بيده إلى أبي العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا، حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣)

٣ - خطبة داود بن علي وقد ارتج على السفاح

وروى أنه لما قام أبو العباس في أول خلافته على المنبر، قام بوجه كورقة المصحف . فاستحيا فلم يتكلم، فنهض داود بن علي حتى صعد المنبر، فقال المنصور: فقلت في نفسي: شيخنا وكبيرنا ويدعو إلى نفسه، فلا يختلف عليه اثنان، فاتضيت سيفي . وغطيته بنوبي^(١)، وقلت: إن فعل ناجزته، فلما رقي عتبا استقبل الناس بوجهه دون أبي العباس، ثم قال: «أيها الناس، إن أمير المؤمنين يكره أن ينفدم فواه فعله، ولأثر الفِعال أجدي عليكم من تشقيق^(٢) المقال، وحسبكم بكتاب الله مُتمثلاً^(٣) فيكم، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خليفة عليكم، والله - كما برّأ لا أريد به إلا الله - ما قام هذا المقام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق به من علي بن أبي طالب، وأمير المؤمنين هذا، فليظن ظانكم، وليهمس هامسكم» قال أبو جعفر: ثم نزل، وسمت^(٤) سيفي .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣ ، ومواهب الأدب ٢ : ١١٤)

[١] في عيون الأخبار: «وعظيت ثوبي» وهو تحريف . [٢] شق الكلام: أخرجه أحسن مخرج .
[٣] إمتثل طريقته: تبعها فلم يعدها . [٤] شام سيفه يشبهه: غمده (واستله أيضاً: ضد) .

٤ - خطبة أخرى له

وروى السيد المرتضى في أماليه قال :

أراد أبو العباس السفاح يوماً أن يتكلم بأمر من الأمور بعد ما أفضت الخلافة إليه - وكان فيه حياة مُفْرِط - فأرْتَجَّ عليه ، فقال داود بن عليّ بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ، إن أمير المؤمنين الذي قلده الله سياسة رعيته ، عُقِلَ من لسانه ، عند ما يُعْهَد من بيانه ، ولكل مرتقٍ بُهْرٌ^(١) ، حتى تنفسه العادات ، فأبشروا بنعمة الله في صلاح دينكم ، ورعد عيشتكم » . (أمالي السيد المرتضى : ١٦)

ه - خطبة أخرى للسفاح بالكوفة

وخطب السفاح في الجمعة الثانية بالكوفة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » والله لا أعِدكم شيئاً إلا وفيت بالوعد والوعد ، ولأعملن اللين حتى لا تنفع إلا الشدة ، ولأُغْمِدَنَّ السيف إلا في إقامة حد ، أو بلوغ حق ، ولأعطيَنَّكم حتى أرى العظيمة ضياعاً ، إن أهل بيت اللعنة والشجرة^(٢) الملعونة في القرآن ، كانوا أكم أعداء ، لا يرجعون معكم من حالة إلا إلى ما هو أشد منها ، ولا يبلي عليكم منهم والٍ إلا تمنيتم من كان قبله ، وإن كان لا خير في جميعهم ، ممنعوكم الصلاة في أوقاتها ، وطالبوكم بأدائها في غير وقتها ، وأخذوا المُقْبِلَ بالمُدْبِرِ^(٣) ، والجار بالجار ، وسلطوا شراركم على خياركم ، فقد محق الله جورهم ، وأزهق باطلهم ، بأهل بيت نبيكم ، فما تؤخر لكم عطاء ، ولا

[١] البهر : انقطاع النفس من الإعياء . [٢] هي شجرة الرقوم التي تيب في أصله الحميم ، جعلها

الله فسة للمشركين إذ قالوا : إن النار تحرق الشجر فكيف تنفته .

[٣] انظر قول زياد بن أبيه في خطبة البراء الجزء الثاني ص ٢٥٧ .

نضيق لأحد منكم حقا ، ولا تُجمركم في بعث ، ولا نخطر بكم في قتال ، ولا نبذلكم دون أنفسنا ، والله على ما تقول وكيلٌ بالوفاء والاجتهاد ، وعليكم بالسمع والطاعة»

ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣)

٦ - خطبة السفاح بالشام حين قتل مروان

ولما قتل مروان بن محمد - آخر خلفاء بني أمية - خطب السفاح ، فقال :
« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ،
جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ » نكص بكم يأهل الشام آل حرب وآل مروان ،
يتسكعون^(١) بكم الظلم ، ويتهورون بكم مداحض^(٢) الزلّاق ، يطئون بكم حرّم
الله^(٣) وحرّم رسوله^(٤) ، ماذا يقول زعماءكم غداً ؟ يقولون : « رَبَّنَا هُوَ لَأَءِضَلُّونَا
فَأَتَيْتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ » إذن يقول الله عز وجل : « لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ
لَا تَعْلَمُونَ » أما أمير المؤمنين فقد اتنف^(٥) بكم التوبة ، واغفر لكم الزلة ،
وبسط لكم الإقالة^(٦) ، وعاد بفضله على نقصكم ، وبجمله على جهلكم ، فليفرخ
رؤعكم^(٧) ، ولتطمئن به داركم ، وليقطع مصارع أوائلكم ، « قَتَلْتَ يَوْمَهُمْ
خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا » (العقد الفريد ٢ : ١٤٥)

٧ - خطبة عيسى بن علي حين قتل مروان

وخطب عيسى بن علي - عم السفاح - لما قتل مروان ، فقال :

[١] تسكع : مشى مشياً متصفاً . [٢] جمع مدحضة : وهي المرة . [٣] يشير إلى ما كان من
مقاتلة الحجاج عبد الله بن الزبير بمكة ، ورميه الكعبة بالمنحنيق في عهد عبد الملك بن مروان .
[٤] يشير إلى وقعة الحرة وما أحدثه جيش مسلم بن عقبة المري بالمدينة على عهد يزيد بن معاوية .
[٥] استأنهه وابتدأ . [٦] أمال عثرته : دفعه من سقوطه . [٧] الروع بالصم القلب ، أو
موضع الفزع منه ، والروع بالفتح : الفزع ، وأفرخت البيضة : خرج الفرج منها ، أي ليخرج الروع
عن روعكم ولتهدهوا وتطمئنا .

« الحمد لله الذي لا يفوته من طلب ، ولا يُعجزه من هرب ، خدعت والله الأشقر نفسه ، إذ ظن أن الله مُمهله ، وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ مِثْمِ ثورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، فحتى متى ، وإلى متى ؟ أما والله لقد كرهتهم العيدان ^(١) التي اقترعوها ، وأمسكت السماء دَرَّها ^(٢) ، والأرض رِيَعَهَا ^(٣) ، وقَحَلَ الضَّرْع ^(٤) ، وجفز الفَنِيْق ^(٥) ، وَأَسْمَلَ ^(٦) جِلْبَابُ الدين ، وأبطلت الحدود ، وأهدرت الدماء ، وكان ربك بالمرصاد ، قَدَمَدَمَ ^(٧) عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ، ومَلَكْنَا الله أمرَكُم عبادَ الله ، لينظر كيف تعملون ، فالشكر الشكر ، فإنه من دواعي الزيد ، أعاذنا الله وإياكم من مُضِلَّاتِ الأهواء ، وبتغيات الفتن ، فَأِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ » . (شرح ابن أبي الحديد ٢ : ص ٢١٣ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٥)

٨ خطبة داود بن علي بمكة ^(٨)

وخطب داود بن علي الناس بمكة في أول موسم ملكه بنو العباس ، فقال : « شكراً شكرياً ، إنا والله ما خرجنا لنحفر فيكم نهراً ، ولا لبنى فيكم قصراً ، أظنَّ عدوَّ الله أن لن نقدر عليه ، أن رُوخِي ^(٩) له من خطامه ، حتى عثرفي فضل زمامه ؟ فالآن حيث أخذ القوس باريها ، وعادت التَّيْلُ إلى النَّزْعَةِ ، ورجع الملك في نصابه من أهل بيت النبوة والرحمة - والله لقد كنا نتوجع لكم ونحن

[١] أي أعواد المنابر ، واقترعوها : أي علوها . [٢] مطرها . [٣] الريح : النماء والريادة . [٤] قحل : يبس جلده على عظمه . [٥] الصيق : العجل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله ولا يركب ، والجر : كشمس السرعة في المشي ، ولم تدر كتب الآلة صط فعله ، وحاه في اللسان : « الحفر : سرعة المشي يمانية ، حكاه ابن دريد ، قال : ولا أدري ما صحتها » ، وفي رواية مواسم الأدب : « وحمل فنيق الشرك » . [٦] أسمل الثوب وسمل ، كدخل وكرم : أخلق . [٧] دمدم القوم ، ودمدم عليهم : طحنهم وأهلكهم ، فسوَّاهَا : أي الدممة ، أي عمهم بها فلم يفلت منهم أحد . [٨] ولاء أبو العباس الكوفة وسوادها ، ثم ولاء المدينة ومكة واليمن واليمامة سنة ١٣٢ وولاه إمارة الحاج في هذه السنة ، ومات بالمدينة في ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ (الطبري ج ٩ ص ١٤٧) . [٩] أي لأن روخي له ، ظن أن لن نقدر عليه .

في قُرُشْنَا - أَمِنْ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ^(١)، لَكُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ ، لَكُمْ ذِمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَكُمْ ذِمَّةُ الْعَبَّاسِ ، لَا وَرَبَّ هَذِهِ الْبَنِيَّةِ - وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى الْكَعْبَةِ - لَا تَهَيِّجُ مِنْكُمْ أَحَدًا . (تهذيب الكامل ١ : ١٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٠ ، وابن أبي الحديد ٢ : ٢١٣ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

٩ - خطبته بالمدينة

قال : « أيها الناس : حَتَّامَ يَهْتِفُ بِكُمْ صَرِيحُكُمْ^(٢) ؟ أَمَا أَنْ لِرِاقِدِكُمْ أَنْ يَهُبَّ مِنْ نَوْمِهِ ؟ كَلَّا بَلْ رَانَ^(٣) عَنِ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، أَغْرَمَ كَمِ الْإِهْمَالِ حَتَّى حَسِبْتُمُوهُ الْإِهْمَالَ ؟ هِيَاتِ مِنْكُمْ وَكَيْفَ بِكُمْ ، وَالسُّوْطُ كُنْفِي ، وَالسَّيْفُ مُشَهَّرٌ^(٤) ! حَتَّى يُبِيدَ قَبِيلَةً فَقَبِيلَةً وَيَعْضُ كُلُّ مُتَّقِفٍ بِالْهَامِ^(٥) وَيُقَمِّنُ رَبَّاتِ الْخُدُورِ حَرَّاسِرًا يَمَسْحُنَ عُرُضَ ذَوَائِبِ الْإَيْتَامِ^(٦) (العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

١٠ - خطبة أخرى له^(٧)

وخطب فقال : « أحرز لسان رأسه ، اتمعظ امرؤ بغيره ، اعتبر عاقل قبل أن يُعتبر به ، فأمسك الفضل من قوله ، وقدم الفضل من عمله » ثم أخذ بقائم

[١] الجراء : المعجم لأن المال على ألوانهم البياض والخرقة .
[٢] الصريح : المستعيب (والمعيب أيضا) . [٣] حلب . [٤] شهر سيفه كبح ، وشهره بالقشيد : انتصاه فومه على الناس . [٥] تنقف الرماح : تسويتها . [٦] قوله ويقمن : أي الرماح ، والصمير يعود على (كل متقف) . [٧] هذه الخطبة أوردتها ابن قتيبة ، وعزاها إلى داود بن علي ، ونسبها صاحب المقدم إلى المصور ، وأنه قالها لما قتل الأيوبيين (راجع القديج ٢ : ص ١٤٥) .

ونصها كما أوردتها : « أحرزَ لسانَ رأسه ، انتبه امرؤ لحطه ، نظر امرؤ في يومه لغده ، فشى القصد ، وقال الفضل ، وجانب الهجر » ، ثم أخذ بقائم سيفه ، فقال :

« أيها الناس : إن بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، فليعتبر عبد قبل أن يُعتبر به ، فإنما بعد الوعيد الاقطاع ، وإنما يفتري الكذيب الذين لا يؤمنون بآيات الله »
والهجر : الفج من الكلام ..

سيفه ، فقال : « إن بكم داء هذا دواؤه ، وأنا زعيم لكم بشفاؤه ، وما بعد الوعيد إلا الإيقاع » . (عيون الأحبار م ٢ : ص ٢٥٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

١١ - خطبته وقد بلغه أن قوماً أظهروا شكاة بني العباس

وبلغه أن قوماً أظهروا شكاة بني العباس ، فافترع المنبر ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

«أَعْدَرًا يَا أَهْلَ الْخَيْرِ^(١) وَالتبديل؟ أَلَمْ يَرَدْ عَمَّ الْفَتْحُ الْمَبِينِ^(٢) ، عن الخوض في ذم أمير المؤمنين؟ كلا والله حتى تحملوا أوزاركم وأوزار الذين كانوا من قبلكم ، كيف قامت شفاهكم بالشكوى لأمر المؤمنين؟ بعد أن حانت آجالكم فأرجأها ، وانبعثت دماؤكم فحققتها ، لالآن يا منابت الدمن ، مشيتم الضراء^(٣) ، ودببتم الخمر^(٤) ، أما ومحمد والعباس إن عذتم لليل ما بدأتم ، لأحصدنكم بظبات السيوف ، ثم يُعْنِي رَبُّنَا عَنْكُمْ ، ونستبدل بكم ، ثم لا يكونوا أمثالكم .

مهلا ياروايا^(٥) الإرجاف ، وأبناء النفاق ، عن الخوض فيما كفتيم ، والتخضى إلى ما حذرتهم ، قبل أن تلتف نفوس ، ويقل عدد ، ويدل عز ، وما أنتم وتلك؟ ألم تجدوا ما وعد ربكم حقاً من إراث المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها؟ بلى والحجر والحجر^(٦) ، ولكنه حسد مضمَر ، وحسك^(٧) في الصدور ، فرغماً للمعاطس^(٨) ، وبعداً للقوم الظالمين^(٩) » . (مواسم الأدب ٢ : ١١٤)

[١] الختر : العدر ، أر أفحجه . [٢] في الأصل « أَلَمْ يَرَدْ عَمَّ الْفَتْحُ الْمَبِينِ » عن الخوض في ذم أمير المؤمنين ، وهو تحريف . [٣] الضراء : الشجر المنتف في الوادي ، يقال : توارى الصيد منه في صراء ، وفلان يمشى الصراء : إذا مشى مستحياً فيما توارى من الشجر . [٤] في الأصل « ودببتم الخمر » وهو تحريف ، وصوابه ما ذكرنا ، والخمر بالتحريك : كل ما وارك من شجر أو بناء أو غيره ، وجر كهرج : توارى ، ومن أمثالهم : « يدب له الصراء ، ويمشى له الحجر » وهو مثل يصرب للرجل يحتمل صاحبه . [٥] الروايات جمع راوية : وهي المزايدة فيما الماء . [٦] الحجر : حجر الكعبة ، وهو ما حواه الحطيم المدار بالكعبة من جانب الشمال . [٧] الحسك : الحقد والعداوة . [٨] المعاطس جمع معطر ، كجاس ومقعد وهو الأرب ، والرعم : الدل . [٩] وروى صاحب المعتمد

١٢ - خطبته وقد أرتج عليه

وخطب داود بن علي ، فحمد الله جل وعز ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قال : أما بعد ، امتنع عليه الكلام ، ثم قال :
« أما بعد ، فقد يجِدُ المُعْسِر ، وَيُعْسِرُ المُوسِر ، وَيُقِلُّ الحَدِيد ، وَيَقْطَع الكَلِيل ، وَإِنَّمَا الكلام بعد الإخام ، كالأشراق بعد الإظلام ، وقد يعزُب البيان ، وَيُعَقِّم الصواب ، وإعما اللسان ، مُضْغَةٌ من الإنسان ، يَفْتُرُ بِفُتُورِهِ إِذَا نَكَل ، وَيُثَوِّبُ بِإِبْسَاطِهِ إِذَا رَتَجَلَ ، أَلَا وَإِنَّا لَا نَنطِق بِطَرًّا ، وَلَا نَسْكُتُ حَصْرًا ، بل نسكت مُعْتَبِرِينَ ، وَنَنطِق مُرْشِدِينَ ، وَنَحْنُ بَعْدُ أَمْرَاءُ القَوْل ، فِينَا وَشَجَّتْ ^(١) أَعْرَاقُهُ ، وَعَلَيْنَا عَطَفَتْ أَغْصَانُهُ ، وَلِنَا تَهْدَلَتْ ثَمَرَتُهُ ، فَتَخَيَّرَ مِنْهُ مَا أَخْلَوَى وَعَذَّبَ ، وَنَطَّرِحَ مِنْهُ مَا أَلْوَحَ وَخَبَّثَ ، وَمَنْ بَعْدَ مَقَامِنَا هَذَا مَقَامٌ ، وَبَعْدَ أَيَامِنَا أَيَامٌ ، يُعْرَفُ فِيهَا فَضْلُ البَيَانِ ، وَفَصْلُ الخُطَابِ ، وَاللَّهُ أَفْضَلُ مُسْتَعَانَ » ثم نزل ^(٢) .

(كتاب الصواعيق ص ٢١ ، وأمالى السيد المرتضى ٤ : ١٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٥)

بعض هذه الخطبة وعراها إلى أبي حمزة المصور ، فقال : « حطب المنصور حين خروجه إلى الشام فقال :

سِنَّسِنَةٌ أَعْرَفَهَا مِنْ أَخْزَمِ مَنْ يَلْقَى أَبْطَالَ الرِّجَالِ يُكَلِّمُ

مهلا مهلا روايا الإرجاف ، وكهوف الفواق . . . إلى آخر الخطبة » ، راجع العقد المرید ٢ : ١٤٥ -
والشفشة : الطميه والمادة ، وهو مثل لأنى أخزم الطائي ، وكان له ابن يقال له أخزم ، وكان طاماً ، مات وترك بنين ، فوثبوا يوماً على جدم أبي أخزم فأدموه فقال :

إِنْ بِي صِرْجُونِي بِالدَّمِ شَفْشَةَ أَعْرَفَهَا مِنْ أَخْزَمِ

أَي إِنْ هَؤُلَاءِ أَشْبَهُوا أَبَايَ فِي العُقُوقِ : يَصْرَبُ فِي قَرَبِ الشَّيْبَةِ ، وَيَكَلِّمُ : يَمْرَحُ .

[١] وشحت العروق والأعصاب كوعد وشحا ووشحياً : اشتبكت ، والواشجة : الرحم المشتبكة .

[٢] يهروى المصرى فى زهر الآداب بعض هذا القول وعراها إلى عبد الملك بن صالح ، وروى السيد

المرتضى فى أماليه قال :

« صعد أبو العباس السفاح المنبر ، فأرتج عليه فقال : « أيها الناس ، إن اللسان ، بهبضة

١٣ - خطبة صالح بن علي

وخطب صالح بن علي^(١) عم السفاح ، فقال :

يا أعضاء النفاق ، وعُبد الضلالة ، أغرَّكم لين أساسي ، وطولُ إيناسي ؟
حتى ظن جاهلكم أن ذلك لفلولِ حدِّ ، وفتورِ جدِّ ، وخورِ قنائة^(٢) ، كذَّبتِ
الظنونُ ، إنها العِترَةُ بَعْضُهَا من بعض ، فإذا قد استوليتم العافية ، فعندي فِطام
وفِكاك ، وسيف يقدُّ الهامَ ، وإني أقول :

أغرَّكم أني بأكرمِ شيمةٍ رفيقٌ ، وأنِّي بالفواحشِ أخرقٌ ؟
وهيلى إذا لم يُجزَّ أحسنَ سعيه تكلمُّ نوماهَ بفيها فتنطقُ
لعمري لقد فاحشنتني فغلبتني هنيئاً مريئاً أنت بالفحشِ أرفقُ

(المقدم المرند ٢ : ١٤٦)

١٤ - خطبة سديف بن ميمون

وروى صاحب المقدم قال :

لما قدِمَ العَمْرُ بن يزيد بن عبد الملك على أبي العباس السَّفَّاحِ في ثمانين

من الإنسان ، يكِلُّ إذا كَلَّ ، وينفسيح بانفساحه إذا فسَّح ، ونحن أمراء الكلام ، منا
تفرعت فروعه ، وعلينا تهدلت غصونه ، ألا وإنا لا نتكلم هذرا ، ولا نسكت إلا
معتبرين » ثم نزل ، فبلغ ذلك أبا جعفر ، فقال : « الله هو ! لو خطب بمثل ما اعتذر ،
لكان من أخطب الناس » ، وهذا الكلام يروى لداود بن علي^٣ « اه .

والبصعة بفتح الباء وقد تكسر : القمامة من اللحم ، والهدر بالتحريك : سقط الكلام ، وسكون الدال
مصدر هذر في منطقه كصرب وصر .

[١] هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وقد ولاء السفاح مصر سنة ١٣٢ ثم فلسطين ،
ثم ولاء مصر ثانية سنة ١٣٦ ، حتى قدم الخبر بموت السفاح في ذي الحجة سنة ١٣٦ ، فأقره المنصور على
عمل مصر ثم خرج إلى فلسطين ، ومات وهو حامل حمص بقنسرين . [٢] ضعف .

رجلا من بنى أمية ، ووضعت لهم الكراسي ، ووضعت لهم مآرق^(١) ، وأجلسوا عليها ، وأجلس العمر مع نفسه في المصلى ، ثم أذن لشييعته فدخلوا ودخل فيهم سديف بن ميمون^(٢) ، وكان متوشحاً سيفاً ، متنكباً قوساً ، وكان طويلاً آدم^(٣) ، فقام خطيباً .

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيزعم الضلال بما حبّطت^(٤) أعمالهم أن غير آل محمد أولى بالخلافة ؟ فلم وبم أيها الناس ؟ لكم الفضل بالصحابة ، دون حقّ ذوى القرابة ، الشركاء في النسب ، الأكفأ في الحسب ، الحاصّة في الحياة ، الوفاة^(٥) عند الوفاة ، مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم في الأولى جائعكم ، فكم قصّم الله بهم من جبّار باغ ، وفاسق ظالم ، لم يُسمع بمثل العباس ، لم تخضع له أمة بواجب حق ، أبورسول الله صلى الله عليه وسلم بعدأبيه ، وجلدة ما بين عينيه^(٦) ، أمينته ليلة العقبة^(٧) ، ورسوله إلى أهل مكة ، وحاميه يوم حنين^(٨) ، لا يرُدُّ له رأياً ، ولا يخالف له فتماً ، إنكم والله معاشر قريش ما اخترتم لأنفسكم من حيث ما اختاره الله لكم ، تيمّني^(٩) مرّة ، وعدوى^(١٠) مرة ، وكنتم بين ظهراني قوم فد آثروا العاجل على الآجل ، والفاني على الباقي ،

[١] نمارق جمع نمركة كقنفذة : وهي الوسادة الصغيرة . [٢] مولى أبي العباس السفاح .
 [٣] وصف من الأدمة ، وهي كالسمرة ورناء ومعى . [٤] فسدت . [٥] الوفاة جمع واف .
 [٦] خطب الوايد بن عبد الملك قال : « إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : « إن الحاج جلدته ما بين عيني » ألا وإنه جلدته وحمي كله » - البيان والتبيين ١ : ١٦٠ و ٣ : ٢١ - .
 [٧] يوم مبايعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً معهم امرأتان وليس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عمه العباس - وهو على دين قومه - ولكنه رأى أن يحصر أسر ابن أخيه ليتوثق له . [٨] كان العباس ممن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين ، حين انبزم المسلمون أول الموتة ، وكان آحداً بلجام سلته . [٩] يريد أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى . [١٠] يريد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو من عدى بن كعب بن لؤى .

وَجَعَلُوا الصَّدَقَاتِ، فِي الشَّهَوَاتِ، وَالنِّعَى، فِي اللذاتِ وَالغِنَاءِ، وَالْمَغَانِمِ، فِي الْحَارِمِ،
إِذَا ذُكِرُوا بِاللَّهِ لَمْ يَذْكُرُوا، وَإِذَا قُدِّمُوا بِالْحَقِّ أَذْبَرُوا، فَذَلِكَ زَمَانُهُمْ، وَبِذَلِكَ
كَانَ يَعْمَلُ شَيْطَانُهُمْ^(١) . (العقد المرید ٢ : ٣٠١)

١٥ خطبة أبي مسلم الخراساني

وروى ابن أبي الحديد قال :

وخطب أبو مسلم بالمدينة في السنة التي حج فيها في خلافة السفاح^(٢)، فقال :
« الحمد لله الذي حمد نفسه ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحى إلى محمد
رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك ما أوحى . واختاره من خلقه ، نفسه من
أنفسهم ، وبيته من بيوتهم ، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي حفظه بعلمه ،
وأشهد ملائكته على حقه . قوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » ، ثم جعل الحق بعد محمد صلى الله عليه وآله في أهل
بيته ، فصبر من صبر منهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله على اللاأواء^(٣)
والشدة ، وأغضى على الاستبداد والآثره ، ثم إن فوهما من أهل بيت الرسول
صلى الله عليه وآله ، جاهدوا على ملة نبيه وسنته بعد عصر من الزمان ، من
عمل بطاعة الشيطان ، وعداوة الرحمن ، بين ظهرانى قوم آثروا العاجل على
الآجل ، والفانى على الباقي ، إن رتق جور فتقوه ، أوفتق حق رتقوه ، أهل مخمور
ومآخور ، وطناير^(٤) ومزامير ، إن ذكروا لم يذكروا ، أو قدموا إلى الحق
أذبروا ، وجعلوا الصدقات ، في الشبهات ، والمغانم ، في الحارم ، والنيء ، في

[١] فقر هذه الخطبة مروية في خطبة أبي مسلم الخراساني الآتية بعدها ، ولكني آثرت إيرادها للإيضاح
جميعاً كما وردت . [٢] وذلك في سنة ١٣٦ هـ . [٣] الشدة
[٤] الطناير : جمع طنبور كعصفور ، وهو الذي يلعب به

الفتى ، هكذا كان زمانهم ، وبه كان يعمل سلطانهم ، وزعموا أن غير آل محمد أولى بالأمر منهم ، فلمَ وبِمَ أيها الناس ؟ ألكم الفضل بالصَّحابة ، دون ذوى القرابة ، الشركاء فى النسب ، وَالْوَرَثَةَ فى السَّلْبِ ^(١) ، مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم فى الجذب جائِعكم ، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة فطً ، وما زلتم بعد نبهه تختارون تَيْمِيًّا مرة ، وَعَدَوِيًّا مرة ، وَأَمْوِيًّا مرة ، وَأَسَدِيًّا ^(٢) مرة ، وَسُفْيَانِيًّا مرة ، وَمَرْوَانِيًّا مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته ^(٣) ، يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عَنُوةً ، وأنتم صاغِرُونَ ، ألا إن

[١] مايسلب ، والمراد وراثته فى الخلافة . [٢] هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن حويلد بن أسد . [٣] مال ابن أبى الحديد : « يسمى نفسه لأنه لم يكن معلوم النسب ، وقد اختلف فيه أهو مولى أم عربى » وقال ابن حلكان فى (وفيات الأعيان ١ : ٢٨٠) فى ترجمة : « أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم وقيل عثمان الحراسانى القائم بالدعوة العاسية ، وقيل هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سدوس بن حودون من ولد بزرجهر بن البحتكان العارسى ، وقد اختلف الناس فى سبه ، فقيل إنه من العرب ، وقيل لاه من الدحم ، وقيل من الأكراد ، وفى ذلك يقول أبو دلامة :

أبا محرم ما غير الله أمة على عده حتى يغيرها العبد
أبى دولة المنصور حاولت غدرة ألا إن أهل القدر أبأوك الكرد

وقال ابن طباطبا فى الفخرى ص ١٢٣ : « أما نسبه فعليه اختلاف كثير ، فقيل : هو حر من ولد بزرجهر ، وأنه ولد بأصفهان ، ونشأ بالكوفة ، فاقبل إبراهيم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس فغير اسمه وكناه بأبى مسلم ، وثقه وفقه ، حتى كان منه ما كان . وقيل هو عد ثقل فى الرق ، حتى وصل إلى إبراهيم الإمام ، فلما رآه أعجبه سمته ودنقه ، فأباعه من مولاه وثقه وهتمه ، وصار يرسله إلى شيعته وأصحاب دعوته بحراسان ، وما زال على ذلك حتى كان من الأمر ما كان .

وأما هو فإنه لما قويت شوكته ادعى أنه ابن سليط بن عبد الله بن عباس ، وكان لعبد الله بن عباس حارية فوق عليها مرة ، ثم اعتزلها مدة ، فاستنكحها عبدا فوطئها ، فولدت منه علاما سمته سليطا ، ثم ألصقته بسد الله بن عباس ، وأبكره عبد الله ولم يعترف به ، ونشأ سليط ، وهو أكره الخلق إلى عبد الله بن عباس ، فلما مات عبد الله نازع سليط وراثته فى ميراثه ، وأجبت ذلك بنى أمية ليعضوا من على بن عبد الله ابن عباس ، فأطابوه وأوصوا قاصى دمشق فى اللاطن ، فقال إليه فى الحكم وحكم له بالميراث ، فأدعى أبو مسلم حين قويت شوكته أنه من ولد سليط هذا .

وذكر ابن خلكان أن المنصور قال له قبل قتله ، وقد عدّ له مساوى وقعت منه : « تزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس ! لقد ارتقيت لا أم لك مرتقى صعبا ! » .

آل محمد أئمة الهدى ، وَمَنَارُ سَبِيلِ التَّقَى ، القادة الذّادة السّادة ، بنوعم رسول
لله صلى الله عليه وسلم ، وَمُنَزَّلِ جَبْرِيْلٍ بِالتَّنْزِيلِ ، كم قصّم الله بهم من جبّار طائغ ،
فاسق باغ ، شَيّد الله بهم الهدى ، وَجَلَّى بهم العَمَى ، لم يُسمع بمثل العباس ،
كيف لا تخضع له الأمم لِوَجِبِ حَقِّ الحُرْمَةِ ؟ أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم
مد أبيه ، وإحدى يديه ، وَجِلْدَةَ بَيْنِ عَيْنَيْهِ ، أَمِينَهُ يَوْمَ العَقَبَةِ ، وَنَاصِرُهُ بِمَكَّةَ (١) ،
رسوله إلى أهلها ، وَحَامِيَهُ يَوْمَ حُنَيْنٍ ، عند ملتقى الفَتَيْنِ ، لا يخالف له رسماً ،
لا يَعْصِي له حكماً ، الشافع يوم نيق العُقَاب (٢) ، إلى رسول الله صلى الله عليه
آله في الأحزاب ، ها إن في هذا أيها الناس لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَبْصَارِ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٥)

١٦ - خالد بن صفوان وأخوال السفاح .

روى الجاحظ قال :

كَانَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ الأَهْتَمِيُّ مِنْ سُمَارِ أَبِي العَبَّاسِ السَّفَّاحِ ، وَأَهْلُ المَنْزِلَةِ
عِنْدَهُ ، فَفَخَّرَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ بَلْحَارِثِ (٣) ، وَأَكْثَرُوا فِي القَوْلِ ، فَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ :
لِمَ لَا تَتَكَلَّمُ يَا خَالِدُ ؟ فَقَالَ : « أَخْوَالِ (٤) أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَعَصَبَتَهُ » قَالَ : « فَأَنْتُمْ
أَعْمَامُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَعَصَبَتَهُ » قَالَ خَالِدٌ : « وَمَا عَسَى أَنْ أَقُولَ لِقَوْمٍ ، كَانُوا بَيْنَ
نَاسِجِ بُرْدٍ ، وَدَابِغِ جِلْدٍ ، وَسَائِسِ قِرْدٍ ، وَرَاكِبِ عَرْدٍ (٥) ، دَلٌّ عَلَيْهِمُ

[١] يشير إلى ما كان من جيش العباس في عروة أحد ، وذلك أن جيش المشركين خرج من مكة لمحاربة الرسول
صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا مقابل المدينة ، وبلغ الخبر الرسول من كتاب بعث به إليه عمه العباس الذي
لم يخرج معهم في هذه الحرب محتجاً بما أصابه يوم بدر ، وكان بمكة يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
أخبار المشركين (وقيل إنه كان قد أسلم قبل الهجرة ، وكان يكتم إسلامه) .

[٢] موضع بين مكة والمدينة . وذلك أن العباس شمع فيه يوم فتح مكة في أبي سفيان ، وفي أهل مكة
دعوا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم .

[٣] انظر الجزء الثاني ص ٣١٩ . [٤] كانت أم السفاح من بني الحارث ، وهي ريطة بنت عبيد الله
ابن عبد الله بن عبد المدان بن الديان الحارثي ، ولذا كان يقال له ابن الحارثية . [٥] العرد : الحمار .

هُدْهُ^(١) ، وَغَرَّتْهُمُ فَاةٌ^(٢) ، وَمَلَكَتْهُمُ امْرَأَةٌ^(٣) ؟ . (البيان والتبيين ١ : ١٨٤)

* * *

وروى الحضري في زهر الآداب قال :

« دخل خالد بن صفوان على أبي المباس السفاح ، وعنده أخواله من بني الحارث ابن كعب ، فقال : ما تقول في أخوالي ؟ فقال : « هم هامة^(٤) الشرف ، وعرينين^(٥) الكرم ، وغرس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت في غيرهم من قومهم ، لأنهم أطولهم لِمًا^(٦) ، وأكرم شيئا ، وأطيبهم طعما^(٧) ، وأوفاهم ذمما ، وأبعدم همما ، الجمرة في الحرب ، والرّفد^(٨) في الجذب ، والرأس في كل خطب ، وغيرهم بمنزلة العجب^(٩) » .

فقال : وصفت أبا صفوان فأحسنت ، فزاد أخواله في الفخر ، فغضب

[١] يشير إلى حديث الهمد مع سليمان عليه السلام في قوله تعالى : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ، لِأَعَذَّبْنَاهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحْنَاهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ، فَكَتَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِيطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَاءَ بِنْيَابٍ يَقِينٍ ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . . . الآيات » .

[٢] يشير إلى ما يزعمه المؤرخون من أن سيل العرم الذي خرب اليمن كان سببه قرض الجرذ لسد مأرب - انظر الجزء الأول ص ٣٤٣ . [٣] هي بلقيس (بالكسر) ملكة سبأ .

[٤] الهامة : وأس كل شيء . [٥] العرينين : الأنف ، أو ما صلب من عظمه ، ومن كل شيء . أوله .

[٦] في الأصل « أمما » وأراء محرفا ، وصوابه « لِمًا » واللهم جمع لمة بالكسر ، وهي الصخر الجاوز

شحمة الأذن . [٧] الطعم : الطعام . [٨] الرّفد : العطاء والعلة . [٩] العجب : أصل

الذنب ، وهو مؤخر كل شيء . و

أبو العباس لأعمامه ، فقال : افخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين ، قال : وأنت من أعمامه ، قال :

« كيف أفاخر قوماً بين ناسج بُرْد ، وسائس قِرْد ، ودابغ جِلْد ، وراكب عَرْد ، دلّ عليهم هُدْهد ، وغرّ قههم جُرْد ، وملكتهم امرأة ؟ » ، فأشرق وجه أبي العباس . (زهر الآداب ٣ : ١٣٠ ، ٣٤٦)

١٧ — خالد بن صفوان ورجل من بني عبد الدار

وفاخر خالد بن صفوان رجلاً من بني عبد الدار الذين يسكنون اليمامة ، فقال له العبدريّ : من أنت ؟ قال : أنا خالد بن صفوان بن الأهتم ، فقال له العبدريّ : أنت خالد « كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ^(١) » وأنت ابن صفوان ، وقال الله تعالى : « كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ ^(٢) » ، وأنت ابن الأهتم ، والصحيح خير من الأهتم ^(٣) ، فقال له خالد بن صفوان : يا أخا بني عبد الدار ، أتتكلم ؟ وقد هَشَمَتِكَ هاشم ، وأمَّتكَ ^(٤) بنو أمية ، وخزمتك بنو مخزوم ، وجمحتك بنو جمح ^(٥) ؟ فأنت عبْد دارهم ^(٦) تفتح إذا دخلوا ، وتُغلق إذا خرجوا ، فقام العبدريّ محموراً . (أمالي السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٢)

[١] وتعام الآية الكريمة : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » .

[٢] صفوان جمع صفوانة : وهي الحجر الصلد الضخم كالصفواء والصفاء ، والآية الكريمة :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءُ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ، فَتَرَكَهُ صَلْدًا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » .

[٣] هم كفرح : انكسرت ثناياه من أصولها فهو أهتم . [٤] قادتك . [٥] انظر الجزء الثاني ص ٩٠ . [٦] وكات المجابة في بني عبد الدار ، انظر الجزء الثاني ص ٩٠ أيضا

١٨ - خالد بن صفوان يرثي صديقاله

وقال الجاحظ : قيل لرجل - أراه خالد بن صفوان ^(١) - مات صديق لك ، فقال :
« رحمة الله عليه ، لقد كان يملأ العينَ جمالا ، والأذنَ بيانًا ، ولقد كان يُرْجَى
فلا يَخْشَى ، ويُعْشَى فلا يَعْشَى ، ويُعْطَى فلا يُعْطَى ، قليلاً لدَى الشرِّ حضوره ،
سليماً للصديق ضميره » . (البيان والديين ٣ : ٢٣١ ، والأمالى ٢ : ١٧٤)

١٩ - خالد بن صفوان يمدح رجلا

وذكر خالد رجلا ، فقال :
« كان والله بديع المنطق ، دَلِقَ ^(٢) الجُرْأَة ، جَزَلَ الألفاظ ، عربى اللسان ،
ثابت العقدة ، رقيق الحواشى ، خفيف الشفتين ، بليل الريق ، رَحَبَ الشرف ،
قليل الحركات ، خفيّ الإشارات ، حُلُوَ الشمائل ، حَسَنَ الطلاوة ^(٣) ، حَيِّياً جَرِيئاً ،
قَثُولا صَمُوتاً ، يَفُلُّ الحَزَّ ^(٤) ويُصِيبُ المفاصِلَ ، لم يكن بالمعذّر ^(٥) فى منطِقته ،
ولا بالزَمِينِ ^(٦) فى مُرُوءته ، ولا بالخرِقِ ^(٧) فى خليقته ، متبوعاً غير تابع ،
: كأنه عَلمٌ فى رأسه نار : » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

٢٠ - كلمات بليغة لخالد بن صفوان

وقال خالد بن صفوان لبعض الوُلاة : « قَدِمْتَ فَأَعْطَيْتَ كُلاًّ بِقِسْطِهِ

[١] ورواية القالى : عن الأصمى قال خالد بن صفوان لفق بين يديه : رحم الله أباك . . . الخ .
[٢] مأخوذ من : « سيف دلق » أى سهل الخروج من نحمده ، ويقال : اندلق السيل أى اندفع ،
واندلق العيب : أى شق جفنه فخرج منه . [٣] الطلاوة مثناة : القبول . [٤] الحز : القطع .
[٥] عذّر فى الأمر تعذيراً ، إذا قصر ولم يجتهد . [٦] أى العيب ، والزمانة كسحابة : الهامة ،
زمن كفرح فهو زمن وزمين . [٧] الخرق الذى لا يحسن العمل والتصرف فى الأمور

من وجهك وكرامتك ^(١) ، حتى كأنك من كلِّ أحد ، وحتى كأنك لست من أحد . (الأمالى ١ : ٢١٦ ، ، وزهر الآداب ٣ : ٣٤٧ ، ١٦٧)

وقال شبيب بن شيبَةَ لخالد بن صفوان : « مَنْ أَحَبَّ إِخْوَانَكَ إِلَيْكَ ؟ »
قال : « مَنْ سَدَّ خَلِّي ، وغفر زَلِّي ، وقَبِلَ عَلَيَّ » . (الأمالى ١ : ١٩٨)
وذكر شبيب عنده مرة ، فقال : « ليس له صديق في السر ، ولا عدوٌّ في العلانية » . قال الجاحظ : « وهذا كلام ليس يعرف قدره إلا الراسخون في هذه الصناعة » . (البيان والتبيين ١ : ١٨٤ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

وقال خالد : « ما الإنسانُ ، لولا اللسانُ ، إلا صورةٌ ممثلةٌ ، أو بهيمةٌ مُهمَّلةٌ » ،
وفال : « أتقوا مجانيقَ ^(٢) الضعفاء » يريد الدعاء (البيان والتبيين ١ : ١٩٠)
وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان ، فقال : « يُنْشِقُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ مِثْلَ الْخَرْدَلِ ، وَيُفْرِغُ عَلَيْهِ مِثْلَ الْمِرْجَلِ ، وَيَرْمِيهِ بِمِثْلِ الْجَنْدَلِ ، ثُمَّ يَقُولُ : إِنَّمَا كُنْتُ أَمْزَحُ ! » . (زهر الآداب ٢ : ٨٥)

٢١ - عمارة بن حمزة والسفاح

وقال عمارة بن حمزة لأبي العباس السفاح - وقد أمر له بجوائز نفيسة وكسوة وصلة ، وأذننى مجلسه :

« وَصَلِّكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَرَكَ ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَرَدْنَا شُكْرَكَ عَلَى كُنْهِ ^(٣) صِلَتِكَ ، إِنْ الشُّكْرَ لَيْقُصَّرُ عَنْ نِعْمَتِكَ ، كَمَا قُصِّرْنَا عَنْ مَنَزَاتِكَ ، ثُمَّ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى جَعَلَ لَكَ فَضْلاً عَلَيْنَا ، بِالتَّقْصِيرِ مِنَّا ، وَلَمْ تَحْرِمْنَا الزِّيَادَةَ مِنْكَ لِتَنْقُصَ ^(٤) شُكْرُنَا . »
(زهر الآداب ٣ : ٣٤٦)

[١] وفي رواية زهر الآداب : « من نظرك ومجلسك في صوتك وعدلك » .

[٢] جمع منجنيق بفتح الميم وكسرهما : آلة ترمى بها الحجارة . [٣] كنه الشيء : حقيقته .

[٤] في الأصناف : « أكنه » .

خطب أبي جعفر المنصور (توفي سنة ١٥٨ هـ)

٢٢ - خطبته بمكة

خطب أبو جعفر المنصور بمكة ، فقال :

« أيها الناس : إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ، وتسديده وتأيدته ، وحارسته على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحني فتحنى لإعطائكم ، وقسم أرزاقكم ، فإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني ، فارغبوا إلى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعلمكم به إذ يقول : «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » أن يوفقني للرشاد والصواب ، وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم . »

(العقد الفريد ٢ : ١٤٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥١ ، تاريخ الطبري ٩ : ٣١٠)

٢٣ - خطبته بمكة بعد بناء بغداد

وحج بعد بناء بغداد ، فقام خطيباً بمكة ، فكان مما حفظ من كلامه (١) :

« وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ (٢) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ، أَمْرٌ مُبْرَمٌ ، وَقَوْلٌ عَدْلٌ ، وَقَضَاءٌ فَضْلٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَفْلَجَ (٣) حُجَّتَهُ ، وَبُعَدَّ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْكَعْبَةَ غَرَضًا ، وَالنَّيَّءَ إِرْثًا ، وَجَعَلُوا

[١] عز صاحب العقد هذه الخطبة إلى سليمان بن علي (الطرح ٢ ص ١٤٥) ، وكذا صاحب
موسم الأدب (الطرح ٢ : ص ١١٥) . [٢] قيل المراد بالزبور جنس الكتب المنزلة ؛ وبالذکر
الوح المحفوظ . [٣] نصر .

الْقُرْآنَ عِضِينَ^(١) ، لَقَدْ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ، فَكَمْ تَرَى مِنْ بَرٍّ مُعْتَلَّةٍ^(٢) ، وَقَصْرِ مَشِيدٍ ، أَمَلَهُمُ اللَّهُ حَتَّىٰ بَدَّلُوا السَّنَةَ ، وَاضْطَهَدُوا الْعِتْرَةَ^(٣) ، وَعَنْدُوا^(٤) وَاعْتَدَوْا وَاسْتَكْبَرُوا ، وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، ثُمَّ أَخَذَهُمْ فَهَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا؟^(٥) .

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١١ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢)

٢٤ — خطبته بمدينة السلام

وخطب بمدينة السلام « بغداد » ، فقال :

« يا عباد الله ، لا تظالموا ، فإنها مظلمة يوم القيامة ، والله لولا يدهم خاطئة ، وظلم ظالم ، لمشيت بين أظهركم في أسواقكم ، ولو علمت مكان من هو أحق بهذا الأمر مني لأتيته حتى أدفعه إليه » . (تاريخ الطبري ٩ : ٥١٠)

٢٥ — خطبته وقد أخذ عبد الله بن حسن وأهل بيته

ولما أخذ عبد الله بن حسن^(٦) وإخوته ، والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته ، صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

[١] المضة : الفرقة والقطعة والجمع عضون ، وجعل المشركون القرآن عضيون أي فرقا : فرقوا فيه القول ، فجملوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا ، فهم قد (عضوه) بالشديد أعضاء ، أي جزءوه أجزاء ، وهو يريد هنا الأمويين يشير إلى أنهم عطلوا بعض أوامر القرآن بما أتوه من الأعمال ، من رمى الكعبة ، واضطهاد أهل البيت الخ . [٢] متروكة لا يستقى منها لهلاك أهلها ، ومشيد : مرفوع ، أو مطلى بالشيد (بالكسر) وهو ما طلى به الحائط من جص ونحوه ، أي معطل خال من ساكنيه أيضا . [٣] العترة : نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأذنون . [٤] عند (مثلث النون) عن الطريق : مال . [٥] الصوت الخي . [٦] هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد حمله المنصور هو وأهل بيته ، من المدينة إلى العراق سنة ١٤٤ هـ ، وأقام في غيايات السجون حتى ماتوا بسجن الكوفة ، وكان يتخوف أن يغالبه على الخلافة محمد بن عبد الله هذا (وهو محمد الملقب بالنفس اللوكية) وقد خرج عليه بالمدينة فوجه المنصور جيشا لقتاله فقتل سنة ١٤٥ هـ ، وخرج أخوه إبراهيم على المنصور بالبصرة فقتل أيضا في هذه السنة .

« يَـأَهِلْ خُرَاسَانَ : أَتُمُّ شِيعَتَنَا وَأَنْصَارَنَا ، وَأَهْلَ دَوْلَتَنَا ، وَلَوْ بَايَعْتُمْ غَيْرَنَا لَمْ تَبَايَعُوا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنَّا ، وَإِنْ أَهْلُ بَيْتِي هُوَ لَاءٌ مِنْ وَلَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، تَرَكَنَا مِثْلَ اللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْخِلَافَةُ ، فَلَمْ نَعْرِضْ لَهُمْ فِيهَا بِقَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ ، فَقَامَ فِيهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَتَلَطَّخَ ، وَحَكَّمَ عَلَيْهِ الْحَكَمِينَ ، فَافْتَرَقَتْ عَنْهُ الْأُمَّةُ ، وَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الْكَلِمَةُ ، ثُمَّ وَثِبَتْ عَلَيْهِ شِيعَتُهُ وَأَنْصَارُهُ وَأَصْحَابُهُ ، وَبِطَانَتُهُ وَثِقَاتُهُ فَقَتَلُوهُ ، ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ فِيهَا بَرَجُلٌ ، قَدْ عُرِضَتْ عَلَيْهِ الْأَمْوَالُ فَقَبِلَهَا ، فَدَسَّ إِلَيْهِ مَعَاوِيَةُ : إِنِّي أَجْعَلُكَ وَلِيًّا وَعَهْدِي مِنْ بَعْدِي ، نَخْدَعُهُ فَنَسْلُخُ لَهُ مِمَّا كَانَ فِيهِ ، وَسَلَّمَهُ إِلَيْهِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى النِّسَاءِ يَتَزَوَّجُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَاحِدَةً فَيَطْلُقُهَا غَدًا ، فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ ، ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ ، نَخْدَعُهُ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَأَهْلُ الْكُوفَةِ ، أَهْلُ الشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ ، وَالْإِغْرَاقِ فِي الْفِتَنِ ، أَهْلُ هَذِهِ الْمَدْرَةِ السُّودَاءِ - وَأَشَارَ إِلَى الْكُوفَةِ - فَوَاللَّهِ مَا هِيَ بِمَحْرَبٍ فَأَحَارَبَهَا وَلَا مَسِيْلَمٍ فَاسَالِمَهَا ، فَرَقَّ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ، نَخْدَعُوهُ وَأَسْلَمُوهُ حَتَّى قَتَلُوا ، ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ ، نَخْدَعُهُ أَهْلُ الْكُوفَةِ وَغَرَّوهُ ، فَلَمَّا أَخْرَجُوهُ ^(١) وَأَظْهَرُوهُ أَسْلَمُوهُ ، وَقَدْ كَانَ أَتَى مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ ^(٢) ، فَنَاشَدَهُ فِي الْخُرُوجِ ، وَسَأَلَهُ أَلَّا يَقْبَلَ أَقَاوِيلَ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّا نَجِدُ فِي بَعْضِ عِلْمِنَا أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ بَيْتِنَا يُصَلَّبُ بِالْكَوْفَةِ ، وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَكُونَ ذَلِكَ الْمَصْلُوبَ ، وَنَاشَدَهُ عَمِّي دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَحَذَّرَهُ غَدْرَ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، فَلَمْ يَقْبَلْ وَتَمَّ ^(٣) عَلَى خُرُوجِهِ ، فَقُتِلَ وَصَلَّبَ بِالْكُنَاسَةِ ^(٤) ، ثُمَّ وَثِبَ عَلَيْنَا بَنُو أُمَيَّةَ ، فَأَمَاتُوا شَرَفَنَا ،

[١] وقد يخرج في خلافة هشام بن عبد الملك ، فقاتله يوسف بن عمر الثقفي والي العراق ، وقتل وصلب

سنة ١٢١ هـ . [٢] يريد أباه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

[٣] تم على الأمر : استمر عليه . [٤] موضع بقرب الكوفة .

وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا تِرةٌ^(١) يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم ، وبسبب خروجهم عليهم ، فنفونا من البلاد ، فصرنا مرة بالطائف . ومرة بالشام ، ومرة بالشراة^(٢) ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا ، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ، ودمغ بحكم أهل الباطل ، وأظهر حقنا ، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه ، فقر الحق مقره ، وأظهر مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فاما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها ، وحكمه العادل لنا ، وثبوا علينا ظامًا وحسدًا منهم لنا ، وبنينا لما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا به من خلافته ، وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم :

جَهْلًا عَلَى وَجْبِنَا عَنْ عَدُوهُمْ لَبِئْسَتِ الْخَلَّتَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ

فإني والله يأهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة ، بلغني عنهم بعض السقم والتعرم^(٣) ، وقد دسست لهم رجالا ، فقلت : قم يا فلان ، قم يا فلان ، نخذ معك من المال كذا ، وحدوت لهم مثالا يعملون عليه ، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة ، فدسوا إليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ، ولا صغير ولا كبير ، إلا بايعهم بيعة استحلت بها دمائهم وأموالهم ، وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي ، وطلبهم الفتنة ، والتماسهم الخروج على ، فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين » ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية

[١] نأر . [٢] موضع بين دمشق والمدينة (الكرك الآن) .

[٣] الأصار فيه : تعرته : تعرقه ونزع ما عليه من اللحم .

« وَحِيلَ يَنَّهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ » . (تاريخ الطبري ٩ : ٣١٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٤١)

٢٦ - خطبته حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن

ولما خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله ، شنَّ^(١) المنصور عليه درعه ، وتقلد سيفه ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم قال :

مَالِي أَكْفَكِفُ عَنْ سَعْدِي وَتَشْتُمُنِي؟ وَلَوْ شَتَمْتُ بَنِي سَعْدٍ لَقَدْ سَكَنُوا
جَهْلًا عَلَيْنَا وَجُبْنَا عَنْ عَدُوهُمْ لَبَدَّسْتَ الْخَلْتَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ
أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ عَجَزُوا عَمَّا قَنَابَهُ ، فَمَا عَضَدُوا الْكَافِي ، وَمَا شَكَرُوا الْمُنْعِمَ ، فَإِذَا
حَاولُوا أَشْرَبَ رَثَقًا عَلَى غَصَصٍ ، وَأَيَّدَتْ مِنْهُمْ عَلَى مَضَضٍ ، كَلَّا وَاللَّهِ لَا أَصِلُ ذَا
رَحِمٍ حَاولَ قَطِيعَتِهَا ، وَلَئِنْ لَمْ يَرَضْ بِالْعَفْوِ لِيَطْلُبَنَّ مَا لَمْ يَوْجِدْ عِنْدِي ، فَلْيُبْقِ ذُو
نَفْسٍ عَلَى نَفْسِهِ ، قَبْلَ أَنْ تَمُتِي ، فَلَا يُبْكِي عَلَيْهِ » . (مواسم الأدب ٢ : ١١٩)

٢٧ - خطبته وقد قتل أبا مسلم الخراساني

وخطب بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراساني^(٢) ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ . لَا تَخْرُجُوا مِنْ أُنْسِ الطَّاعَةِ إِلَى وَخْشَةِ الْمَعْصِيَةِ ، وَلَا تُسِرُّوا
غَشَّ الْأُمَّةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُسِرَّ أَحَدٌ قَطُّ مَنكَرَةً إِلَّا ظَهَرَتْ فِي آثَارِيهِ ، وَفَلَّتَاتِ
لِسَانِهِ ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ ، وَأَبْدَاهَا اللَّهُ لِإِمَامِهِ ، بِإِعْزَازِ دِينِهِ ، وَإِعْلَاءِ حَقِّهِ ، إِنْ

[١] شنَّ عليه درعه : صببها . [٢] قتل أبو مسلم سنة ١٣٧ ، وذلك أن المنصور كان قد أرسله
لحرب عمه عبد الله بن عليّ - وكان قد خرج عليه بالشأم كما سيأتي - فلما ظفر أبو مسلم ، وغنم جميع
ما كان في حوزة عبد الله ، وانهمز عبد الله إلى البصرة ، أرسل المنصور بعض خدمه للحفاظ على ما في
المسكر من الأموال ، فنصب أبو مسلم ، وقال : أمين على الدماء ، خائن في الأموال ، وشتم المنصور ، وعزم
على الخلاف ، وأن يتوجه إلى خراسان ، فجعل المنصور يطلعه به حتى استقدمه إليه وقتله

لَنْ نَبْخَسَكُمْ حَقُوقَكُمْ ، وَلَنْ نَبْخَسَ الدِّينَ حَقَّهُ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ مِنْ نَارِ عَنَا عُرْوَةَ
هَذَا الْقَمِيصِ أَجْزَرْنَا خَبِيٍّ هَذَا الْغِمْدِ ، وَإِنْ أَبَامَسَلْمَ بَايَعَنَا وَبَايَعَ النَّاسَ لَنَا ، عَلَى
أَنَّهُ مِنْ نَكْتِ بِنَا فَقَدْ أَبَاحَ دَمَهُ ، ثُمَّ نَكْتِ بِنَا ، فَحَكَمْنَا عَلَيْهِ لِأَنفُسِنَا حُكْمَهُ
عَلَى غَيْرِهِ لَنَا ، وَلَمْ تَمْنَعْنَا رِيعَاةَ الْحَقِّ لَهُ ، مِنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ عَلَيْهِ .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢١٣ ، وجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، ومواسم الأدب ٢ : ١٢٠)

٢٨ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، لَا تَنْفَرُوا أَطْرَافَ النِّعْمَةِ بِقَلَّةِ الشُّكْرِ ، فَتَحُلَّ بِكُمْ النَّقْمَةُ ،
وَلَا تَسْتُرُوا غِيْشَ الْأُمَّةِ ، فَإِنْ أَحَدًا لَا يَسْتَرُ مُنْكَرًا إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ ،
وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ ، وَطَوَالِعِ نَظْرِهِ ، وَإِنَّا لَا نَجْهَلُ حَقُوقَكُمْ مَا عَرَفْتُمْ حَقًّا ، وَلَا نَنْسَى
الْإِحْسَانَ إِلَيْكُمْ مَا ذَكَرْتُمْ فَضْلَنَا ، وَمَنْ نَارَ عَنَا هَذَا الْقَمِيصَ أَوْ طَأْنَا أُمَّ رَأْسِهِ
خَبِيٍّ^(١) هَذَا الْغِمْدِ ، وَالسَّلَامُ » . (مواسم الأدب ٢ : ١٢٠)

٢٩ - قوله وقد قوطع في خطبته

وخطب يوم الجمعة ، فقال :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمَدُهُ ، وَأَسْتَعِينُهُ ، وَأُؤْمِنُ بِهِ ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ : أَيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا اللَّهَ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ ، فَقَالَ :
أَذْكَرُكَ مِنْ ذَكَرْتَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَطَعَ الْخُطْبَةَ ، ثُمَّ قَالَ : « سَمِعًا سَمِعًا
لِمَنْ فَهَمَ عَنِ اللَّهِ ، وَذَكَرَّ بِهِ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ جَبَّارًا عَنِيدًا ، وَأَنْ تَأْخُذَنِي
الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ، لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذْنًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ، وَأَنْتَ أَيُّهَا الْقَائِلُ ، فَوَاللَّهِ

[١] الحبة : ما خبي .

ما أردت بها وجه الله ، ولكنك حاولت أن يقال : قام فقال ، فعُوقِبَ فصَبِرْتُ وأهونَ بها ! ويلك لو همتُ ^(١) ! فاهْتَبِلْهَا ^(٢) إذ غفرتُ ، وإياك وإياكم معشرَ الناسِ أختها ، فإن الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت ، فرُدوا الأمر إلى أهله ، تُوردوه موارِدَه ، وتُصدِرُوهُ مصادِرَه » ثم عاد في خطبته ، فكأنه يقرؤها من كفه ، فقال ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١١ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٥ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٦ ،
والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٦٢)

٣٠ - المنصور يصف خلفاء بني أمية

واجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه ، منهم عيسى بن موسى والعباس بن محمد وغيرهما ، فتذاكروا خلفاء بني أمية ، والسبب الذي به سلبوا عزهم ، فقال المنصور :

« كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ جَبَّارًا لَا يُبَالِي مَا صَنَعَ ، وَكَانَ الْوَلِيدُ لَحْمَانًا مَجْنُونًا ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ هِمَّتُهُ بَطْنُهُ وَقَرْجُهُ ، وَكَانَ عُمَرُ أَعْوَرَ بَيْنَ عُمَيَّانَ ، وَكَانَ هِشَامُ رَجُلَ الْقَوْمِ ، وَلَمْ يَزَلْ بِنَوَامِيَةِ ضَابِطِينَ لِمَا مُهَّدَ لَهُمْ مِنَ السُّلْطَانِ ، يَحْوِطُونَهُ وَيَصُونُونَهُ وَيَحْفَظُونَهُ ، وَيَحْرُسُونَ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْهُ ، مَعَ تَسْتَنُّهُمْ مَعَالِيَ الْأُمُورِ ، وَرَفَضِهِمْ أَدَانِيَّهَا ، حَتَّى أَفْضَى أَمْرَهُمْ إِلَى أَحْدَاثٍ مُتْرَفِينَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ ، فَنَمِطُوا ^(٣) النِّعْمَةَ ، وَلَمْ يَشْكُرُوا الْعَافِيَةَ ، وَأَسَاءُوا الرِّعَايَةَ ، فَابْتَدَأَتِ النَّقْمَةُ مِنْهُمْ ، بِاسْتِدْرَاجِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ ، آمِنِينَ مَكْرَهُ ، مُطَّرِحِينَ صِيَانَةَ الْخِلَافَةِ ، مُسْتَخْفَيْنَ بِحَقِّ الرِّيَاسَةِ ، ضَعِيفِينَ عَنِ رِسْمِ السِّيَاسَةِ ، فَسَلِبَهُمُ اللَّهُ الْعِزَّةَ ، وَأَلْبَسَهُمُ الذُّلَّةَ ، وَأَزَالَ عَنْهُمْ النِّعْمَةَ .

(شرح ابن أبي المديد م ١ : ص ٢١٥)

[١] أى لو همت بمقابلك . [٢] اغتنمها . [٣] غطت النعمة : بطرما وحمرها .

٣١ - المنصور يصف عبد الرحمن الداخل

وقال المنصور يوماً لأصحابه : أخبروني عن صقر قريش ، مَنْ هو ؟ قالوا :
أمير المؤمنين ، الذي راضَ^(١) المَلِكَ ، وسَكَنَ الزلازل ، وحَسَمَ الأدواء ، وأباد
الأعداء ، قال : ما صنعتُم شيئاً ، قالوا : فعاوية ، قال : ولا هذا ، قالوا : فعبد الملك
ابن مروان ، قال : ولا هذا ، قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن بن
معاوية^(٢) ، الذي عَبَرَ البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلدًا أعجميًا مُفْرَدًا ، فصَرَّ
الأمصار ، وَجَنَّدَ الأجناد ، ودوّن الدواوين ، وأقام مُلْكًا بعد انقطاعه ، بحسن
تدييره ، وشدة شكيمته ، إن معاوية نهض بِمَرْكَبٍ حَمَلَهُ عَلَيْهِ عُمرُ وعثمان ،
وذللًا لَهُ صَعْبَهُ ، وعبد الملك بِبَيْعَةٍ تَقَدَّمَ لَهُ عَقْدُهَا ، وأمير المؤمنين بِطَلْبِ غَيْرِهِ
واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مُؤَيَّدٌ بِرَأْيِهِ ، مستصحب لعزمه .
(العقد الفريد ٢ : ٣٠٢)

وصايا المنصور لابنه المهدي

٣٢ - وصية له

قال المنصور لابنه المهدي : « يَا مُبْنِيَّ لَا تُبْرِمَ أَمْرًا حَتَّى تَفَكَّرَ فِيهِ ، فَإِنْ
فِكْرَةُ الْعَاقِلِ مِرَاتُهُ ، تُرِيهِ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا
التَّقْوَى ، وَالسُّلْطَانَ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الطَّاعَةُ ، وَالرَّعِيَّةَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا الْعَدْلُ ، وَأَوَّلَى
النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ ، وَأَنْتَقِصُ النَّاسَ عَقْلًا مَنْ ظَلَمَ مِنْ هُوَ دُونَهُ .
(نهاية الأرب ٦ : ٤١ ، والعقد الفريد ١ : ١٤)

[١] ذال . [٢] هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل
مؤسس دولة بني أمية بالأندلس وسيأتي .

٣٣ - وصية أخرى له

ووصاه فقال له : «إني لم أدع شيئاً إلا قد تقدمت إليك فيه ، وسأوصيك
بخصال والله ما أظنك تفعل واحدة منها - وكان له سقط فيه دفاتر علمه ، وعليه
قُل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحداً ، يَصُرُّ مفاتحه في كُمِّ قيصه - فقال
للمهدى : انظر هذا السقط فاحتفظ به ، فإن فيه علم آباءك ما كان وما هو كائن
إلى يوم القيامة ، فإن أحزنتك أمره فانظر في الدِّقتر الأكبر ، فإن أصبت فيه ما تريد ،
وإلا فالثاني والثالث حتى بلغ سبعة ، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فإنك
واجدٌ فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة فإياك أن تستبدل بها ،
فإنها بيتك وعزك ، قد جمعتُ لك فيها من الأموال ، ما إن كُسر عليك الخراج
عشر سنين ، كان عندك كفاية لأرزاق الجنود والنفقات ، وعطاء الذرية ، ومصلحة
السنور ، فاحتفظ بها فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً ، وما أظنك
تفعل ، وأوصيك بأهل بيتك ، أن تُظهر كرامتهم وتُقدمهم ، وتُكثر الإحسان
إليهم ، وتعظم أمرهم ، وتُوطئ الناس أعقابهم ، وتوليهم المنابر ، فإن عزك عزم ،
وذكرهم لك ، وما أظنك تفعل ، وانظر مواليك فأحسن إليهم ، وقربهم ،
واستكثر منهم ، فإنهم مادّتك لشدة إن نزلت بك ، وما أظنك تفعل ،
وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في
دولتك ، ودماءهم دونك ، ومن لا يخرج محبتك من قلوبهم ، أن تُحسن إليهم ،
وتجاوز عن مُسيئتهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلّف من مات منهم في
أهله وولده ، وما أظنك تفعل ، وإياك أن تبني مدينة الشرقية ، فإنك لا تُتم
بناءها ، وما أظنك تفعل ، وإياك أن تستعين برجال من بني سلم ، وأظنك

ستفعل ، وإياك أن تُدْخِلِ النساءِ في مَشُورَتِكَ في أمرِكَ ، وأظنك ستفعل .
(تاريخ الطبري ٩ : ٣١٩)

٣٤ - وصية أخرى له

ووصى المهدي أيضاً ، فقال : « اتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى ، يجعل لك فيما كَرَبَكَ وَحَزَنَكَ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقَكَ السَّلَامَةَ وَحَسَنَ الْعَاقِبَةَ مِنْ حَيْثُ لَا تَحْتَسِبُ ، احفظ يا بنى محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته ، يحفظ الله عليك أمورَكَ ، وإياك والدمَ الحرامَ ، فإنه حُوبٌ ^(١) عند الله عظيم ، وعار في الدنيا لازم مقيم ، والزم الحلالَ ، فإن فيه ثوابك في الآجل ، وصلاحك في العاجل ، وأقم الحدود ، ولا تَعْتَدِ فيها فتبور ^(٢) ، فإن الله لو علم أن شيئاً أصْلَحَ لدينه ، وأزجرَ عَن معاصيه من الحدود ، لأمرَ به في كتابه ، واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فساداً ، مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم ، فقال : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ، فالسلطان يابى حبلُ الله المتين ، وَعُرْوَتُهُ الْوُثْقَى ، ودين الله القيم ، فاحفظه وَحُطَّهُ ، وحصنه وَذُبَّ عنه ، وأوقع بالملحدين فيه ، واقمع المارقين منه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم ، وَالْمَثَلَاتِ ^(٣) بهم ، ولا تجاوز ما أمر الله به في مُحْكَمِ الْقُرْآنِ ، واحكم بالعدل ولا تُشْطِطْ ، فإن ذلك أقطع للشغب ، وأحسم للعدو ، وأنجح في

الدواء ، وَعَفَّ عن النَّقْيِ ، فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك ، وافتتح عملك
بصلة الرَّحِيمِ وِبرِّ القَرَابَةِ ، وإياك وَالْأَثَرَةَ ، والتبذير لأموال الرعية ، وَاشْحَنَ (١)
الشمور ، وَاضْبِطِ الأطراف ، وَأَمِّنِ السُّبُلَ ، وَخُصِّ الواسِطَةَ (٢) ، وَوَسِّعِ المعاش ،
وَسَكِّنِ العامة ، وَأَدْخِلِ المرافق عليهم ، وَأَصْرِفِ المكاره عنهم ، وَأَعِدِّ الأموال
وَاحْزُنْهَا ، وإياك والتبذير ، فَإِنَّ النَوَائِبَ غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ،
وهي من شيمِ الزمان ، وَأَعِدِّ الرجال والكُرَاعَ (٣) والجند ما استطعت ، وإياك
وتأخير عمل اليوم إلى غد ، فتتدارك عليك الأمور وتضيع ، جِدِّ في إحكام الأمور
النازلات لأوقاتها أَوْلا فأولا ، وَاجتهد وشمِّر فيها ، وَأَعِدِّ رجالا بالليل لمعرفة
ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وباشر الأمور بنفسك
وَلَا تَضَجِرْ ، وَلَا تَكْسَلْ ، وَلَا تَفْشَلْ ، وَاسْتَعْمَلِ حَسْنَ الظنِّ بربك ، وَأَسِيءُ
الظنِّ بعمالك وَكُتَّابِكَ ، وَخُذْ نَفْسَكَ بالتيقظ ، وَتَفَقَّدْ مَنْ يَبِيْتُ عَلَى بَابِكَ ،
وَسَهِّلْ إِذْنَكَ للناس ، وَانظُرْ فِي أَمْرِ النَّزَاعِ إِلَيْكَ ، وَوَكِّلْ بِهِمْ عَيْنًا غير نائمة ،
وَنَفْسًا غير لاهية ، وَلَا تَنْتَمِّ فَإِنَّ أَبَاكَ لَمْ يَنْتَمِ مِنْذُ وَلِيَّ الخِلافةِ ، وَلَا دَخَلَ عَيْنُهُ
غَمُضٌ إِلَّا وَقَلْبُهُ مُسْتَيْقِظٌ ، هذه وَصِيَّتِي إِلَيْكَ ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ .

(تاريخ الطبري ٩ : ٣٢٠)

٣٥ - خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور

لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب
بالنفس الزكية (٤) على المنصور ، قام على منبر المدينة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ،
ثم قال :

[١] أى املاًها بالدافعة . [٢] التوسطة . [٣] الكراع : اسم يجمع الخيل .
[٤] كان بنو هاشم - الطالبيون والعباسيون - قد اجتمعوا أخريات العصر الأموي ، وتذاكروا بالمهم

« أيها الناس : إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي جعفر من بنائه القبة الخضراء ، التي بناها معاندةً لله في ملكه ، وتصغيره الكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعونَ حين قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . وإن أحقَّ الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين ، والأَنْصارِ المُواسين ، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك ، وحرّموا حلالك ، وعَمِلوا بغير كتابك ، وغيرُوا عهدَ نبيك صلى الله عليه وسلم ، وآمنوا من أخفت ، وأخافوا من آمنت ، فأحصهم عدداً ، وأقتلهم بدداً ^(١) ، ولا تُبقِ على الأرض منهم أحداً » . (ذيل الأمل من ١٢١)

٣٦ - وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي لابنه محمد (أو إبراهيم)

ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابنه محمداً النفس الزكية (أو إبراهيم) ، فقال :

« أَي بُنَيَّ ، إِنِّي مُؤَدِّحٌ حَقَّ اللَّهِ فِي تَأْدِيكَ ، فَأَدِّ إِلَيَّ حَقَّ اللَّهِ فِي الْاسْتِمَاعِ مِنِّي ،

وما هم عليه من الاصطهاد ، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب ، واتفقوا على أن يدعوا الناس لهم سرا ، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نايه ، فاتفقوا على مبايعة النفس الزكية ، وكان من سادات بني هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلما ، وشاء القدر أن يعمر العباسيون بالخلافة ، فوليا السماع ثم المنصور ، ولم يكن للمنصور هم منذ تبوأ عرشها سوى طلب النفس الزكية ليقتله ، وأغرام بذلك أن الناس كانوا شديدي الميل إليه ، وكانوا يمتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة ، فطلبه المنصور هو وأخاه إبراهيم من أبيهما عبد الله بن الحسن ، فقال : لا علم لي هما - وكانا قد تغيبا خوفا منه - فلما أطل عليه ، قال : كم تطول ؟ والله لو كانا تحت قدمي ، لما رفعتهما عنهما ، سبحان الله ! آتيك بولدي لتقتلها ! فقبص عليه ، وعلى أهله من بني الحسن وحبسهم في سجن الكوفة حتى ماتوا فيه كما تقدم ، ولم يزل النفس الزكية متفرقا منذ أفضت الدولة إلى بني العباس خوفا منهم على نفسه ، فلما علم بما جرى لوالده واقومه ظهر بالمدينة وأظهر أمره ، وتبته أعيان المدينة ، ثم غلب عليها ، وعزل عنها أميرها ، ورتب عليها طاملا وقاضيا ، فوجه المنصور لقتاله جيشاً بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فكانت الغلبة لعسكر المنصور ، وقتل النفس الزكية ، وحمل رأسه إلى المنصور سنة ١٤٥ هـ . [١] متبددين : متفرقين .

أى بنى كُفّ الأذى ، وارفض البذا^(١) ، واستعين على الكلام بطول الفكر ،
فى المواطن التى تدعوك فيها تقسك إلى الكلام ، فإن للقول ساطات يضر فيها
الخطأ ، ولا ينفع فيها الصواب ، واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً ، كما
تحذر مشورة العاقل إذا كان فاشاً ، لأنه يُرْديك بمشورته ، واعلم يا بنى أن رأيك
إذا احتجت إليه وجدته ناصحاً ، ووجدت هواك يقظاناً ، فإياك أن تستبدّ برأيك ،
فإنه حينئذ هواك ، ولا تفعل فِعلاً إلا وأنت على يقين أن ما قبله لا تُرْديك ، وأن
تبيته لا تجنى عليك . (زمر الآداب ١ : ٩٢ ، والبيان والبيان ١ : ١٨٠ ، ٢ : ٨٨)

٣٧ - قول عبد الله بن الحسن وقد قتل ابنه محمد

ولما قتل المنصور ابنه محمداً - وكان عبد الله فى السجن - بعث برأسه إليه
مع الربيع حاجبه ، فوضع بين يديه ، فقال :
رَحِمَكَ اللهُ أبا القاسم ، فقد كنت من « الَّذِينَ يُوقُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا
يَتَّقُونَ الْمِيثَاقَ ، وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ،
وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » ، ثم عتل :

فَى كَانَ يَحْمِيهِ عَنِ النَّارِ سَيْفُهُ وَيَكْفِيهِ سَوَاءَاتِ الْأُمُورِ اجْتِنَابُهَا

ثم التفت إلى الربيع ، فقال له : « قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا مدة ، ومن
نسيمك مثلها ، والموعِدُ اللهُ تعالى » قال الربيع : فما رأيتُ المنصور قطُّ
أكثرَ انكساراً منه حين أبلغته الرسالة . (زمر الآداب ١ : ٩٥)

٣٨ - امرأة محمد بن عبد الله والمنصور

ولما قتل المنصور محمد بن عبد الله ، اعترضته امرأة معها صبيان ، فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، أنا امرأة محمد بن عبد الله ، وهذان ابناهُ ، أَيْتَمَهُمَا سَيْفُكَ ، وَأَضْرَعَهُمَا ^(١) خَوْفُكَ ، فَنَاشَدْتُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَصْعَرَ لِهَما خَدَّكَ ، فَيُنَايَ عَنْهُمَا رِفْدُكَ ، أَوْ لِيَتَعَطِّفَكَ عَلَيْهِمَا شَوْابِكُ النِّسْبِ ، وَأَوَاصِرُ ^(٢) الرَّحِيمِ » .

فالتفت إلى الربيع ، فقال : أَرَدْتُ عَلَيْهِمَا ضِيَاعَ أَبِيهِمَا ، ثُمَّ قَالَ : كَذَا وَاللَّهِ أَحَبُّ أَنْ تَكُونَ نِسَاءَ بَنِي هَاشِمٍ . (زهر الآداب ١ : ٩٦)

٣٩ - جعفر الصادق والمنصور

وَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَمَّا ظَهَرَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِ الْمَنْصُورِ وَنَصْرِ مُحَمَّدٍ ، فَلَمَّا ظَفِرَ الْمَنْصُورُ أَحْضَرَ جَعْفَرَ الصَّادِقَ ^(٣) بْنَ مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ ، فَقَالَ لَهُ : قَدْ رَأَيْتَ إِطْبَاقَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عَلَى حَرْبِي ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أُبْعَثَ إِلَيْهِمْ مِنْ يَمْعُورٍ ^(٤) عِيُونَهُمْ ، وَيَجْمُرُ ^(٥) نَخْلَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ سَلِمَانَ أُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وَإِنْ أَيُّوبَ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ ، وَإِنْ يُوسُفَ قَدَّرَ فَفَقَّرَ ، فَاقْتَدِ بِأَيِّهِمْ شِئْتَ ، وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ مِنْ نَسْلِ الَّذِينَ يَعْفُونَ وَيَصْفَحُونَ » ، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ : « إِنْ أَحَدًا لَا يَعْلَمُنَا الْحِلْمَ ، وَلَا يَعْرِفُنَا الْعِلْمَ ، وَإِنَّمَا قَلَّتْ هَمَمَتُ ، وَلَمْ تَرْنِي فَعَلْتُ ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنْ قَدَرْتِي عَلَيْهِمْ تَمْنَعُنِي مِنَ الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِمْ » . (زهر الآداب ١ : ٩٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

[١] أذلها . [٢] أواصر جمع آصرة ، والآصرة : جبل صنير يشد به أسفل الحباء (وهي أيضاً الرحم والقرابة) . [٣] هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين عليه السلام وتوفي سنة ١٤٨ . [٤] في الأصل « ينور » وأراه محرفاً ، وقد أصلحته « يمور » يقال : يمور البئر أي طمها ، وسد عيونها التي ينبع منها الماء . [٥] جمر الحل : قطع جواره .

لما حج المنصور مرّ بالمدينة ، فقال للربيع الحاجب : علىّ جعفر بن محمد ، قتلنى الله إن لم أقتله ، فطُلب به ، ثم أُلح عليه ، فحضر ، فلما كُشِف الستري عنه وبينه ، ومثّل بين يديه ، همّس جعفر بِشَفَتَيْهِ ، ثم تقرب وسلّم ، فقال : « لاسلّم الله عليك يا عدوّ الله ، تعمل على الغوائل في ملكي ؟ قتلنى الله إن لم أقتلك » . قال : « يا أمير المؤمنين ، إن سليمان صلى الله على محمد وعليه أُعطيَ فشكر ، وإن أيوب ابْتُلِيَ فصَبَرَ ، وإن يوسف ظُلم فَعَفَرَ ، وأنت على إرثٍ منهم ، وأحقُّ من تأسى بهم » ، فنكس أبو جعفر رأسه مَلِيًّا ، وجعفر واقف ، ثم رفع رأسه ، وقال : « إلىّ أبا عبد الله فأنت القريب القربة ، وذو الرحم الواشجة ^(١) ، السليم الناحية ، القليل الغائلة » ، ثم صاحفه يمينه ، وعانقه بشماله ، وأجلسه معه على فراشه ، وانحرف له عن بعضه ، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله ، ثم قال : يا ربيع ، عَجَلْ لأبي عبد الله كِسوته وجأثرته وإذنه . (العقد الفريد ١ : ١٤٥)

٤ . - صفح المنصور عن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ولما داهن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب في شأن إبراهيم بن عبد الله ^(٢) ، وصار إلى المنصور ، أمر الربيع بخلع سواده ، والوقوف به على رأس اليمانية في المقصورة يوم الجمعة ، ثم قال : قل لهم :

« يقول لكم أمير المؤمنين قد عرّفتم ما كان من إحساني إليه ، وحسن بلائي ، وقديم نعمتي عليه ، والذي حاول من الفتنة ، ورام من البغي ، وأراد من شقّ العصا ، ومعاونة الأعداء ، وإراقة الدماء ، وإنه قد استحق بهذا من

[١] القرية : المشبكة . [٢] هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، أخو النفس الزكية ، وقد خرج على المنصور بالبصرة ، فوجه إليه المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى بعد رجوعه من قتال النفس الزكية قتاله وقتل إبراهيم في المعركة سنة ١٤٥ هـ .

فعله ، أليم العقاب ، وعظيم العذاب ، وقد رأى أمير المؤمنين إتمام بلائه الجليل لديه ، وَرَبِّ^(١) نَعْمَانَهُ السَّابِقَةَ عنده ، لما يتعرفه أمير المؤمنين من حسن عائدة الله عليه ، وما يومئله من الخير العاجل والآجل ، عند العفو عمن ظلم ، والصفح عمن أساء ، وقد وهب أمير المؤمنين مُسِيئَهُمْ لِخُسْنِهِمْ ، وغادِروهم لَوَفِيَّتِهِمْ .
(البيان والتبيين ٣ : ١٨٥)

٤١ — استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور

ولما انهزم عبد الله بن علي^(٢) من الشام ، قَدِمَ على المنصور وقد منهم ، فقام عِدَّةٌ منهم ، فتكلموا ، ثم قام الحارث بن عبد الرحمن النيفاري ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنا لسنا وقد مباحاة ، وإنما نحن وقد تَوَبْنَا ، وإنا ابتُلينا بفتنة استخفَّتْ كَرِيمَنَا ، واستفزَّتْ حَلِيمَنَا ، ونحن بما قَدَّمْنَا مُعْتَرِفُونَ ، ومما سَلَفَ مِنَّا مُعْتَذِرُونَ ، فَإِنْ تُعَاقِبْنَا فَمَا أَجْرَمْنَا ، وَإِنْ تَعَفُّ عَنَّا فَبِفَضْلِكَ عَلَيْنَا ، فاصفح عنا إذ ملكت ، وامتن إذ قدَّرت ، وَأَحْسِنْ إذ ظفرت ، فطالما أحسنت إلى من أساء مِنَّا » ، فقال المنصور : قد فعلت ، ثم قال للحريبي : هذا خطيبهم ، وأمر برد ضياعه عليه بالغوطة^(٣) .

(العقد المرید ١ : ١٤٤ ، وتاريخ الطبری ٩ : ٣٠٧ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

[١] رب الشيء : جمعه وزاده ، ورب الصبي : ربه حتى أدرك .

[٢] هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس عم المنصور ، وكان قد خرج عليه بالشام ، وقال : إن السفاح قال لي إن ظهرت على مروان الجعدي — وكان السفاح أرسله لقتال مروان بالشام — فأنت ولي العهد بعدي ، وشهد له جماعة بذلك . فأرسل المنصور أبا مسلم الحراساني لمحاربه فهزموه ، وهرب عبد الله إلى البصرة ، ونزل على أخيه سليمان بن علي ، فشفع فيه سليمان إلى المنصور فأمنه ، فلما جاء إليه بجسسه ومات في حبسه ، وقيل إنه بنى له بيتا ، وجعل في أساسه ملحا ، ثم أجرى الماء فيه ، وسقط البيت عليه فمات .

٤٢ - استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور أيضا

وقال عثمان بن خُزَيم للمنصور ، حين عفا عن أهل الشام في إجلائهم^(١) مع عبد الله بن عليّ عمه : « يا أمير المؤمنين ، لقد أعطيت فشكرت ، وابتليت فصبرت ، وقدّرت عفوت » .

وقال آخر : « يا أمير المؤمنين ، الانتقام عدلٌ ، والتجاوُز فضل ، والمتفضل قد جاوز حدَّ المنصف ، فنحن نُعيد أمير المؤمنين بالله أن يرَضَى لنفسه بأوكس^(٢) النسيبَيْن ، دون أن يبلغ أرفع الدرَجَتَيْن » .

وقال آخر : « من انتقم فقد شقَّ غيظَ نفسه ، وأخذ أقصى حقه ، وإذا انتقمتَ فقد انتقصتَ^(٣) ، وإذا عفوت تطوّلت^(٤) ، ومن أخذ حقه ، وشقَّ غيظَه ، لم يجب شكرُه ، ولم يُذكر في العالمين فضله ، وكظَم النغيظ حِلْمٌ ، والحِلْم صَبْرٌ ، والتشقى طَرْف من العَجْز^(٥) ، ومن رَضِيَ ألا يكون بين حاله وبين حال الظالم إلا ستر رقيق ، وحجابٌ ضعيف ، لم يجزم في تفضيل الحلم ، وفي الاستيثاق من ترك دواعي الظلم ، ولم تر أهل النُهي ، والمنسويين إلى الحِجَابِ والتُّقَى ، مدحوا الحُكَّام بشدة العقاب ، وقد ذكروهم بحسن الصَّفْح ، وبكثرة الاغتفار ، وشدة التغافل ، وبعْدُ فالمعاقب مستعدّ^(٦) لعداوة أواباء المذنب ، والعاقي مستدعٍ لشكرهم ، آمِنٌ من مكافأتهم^(٧) أيام قُدْرَتهم ، ولأنَّ يُثَنِّي عليك باتساع الصدر ، خير من أن يُثَنِّي عليك بضيق الصدر^(٨) ، على أن إقالتك عشرة عباد الله ،

[١] في الأصل « إجلائهم » وهو تحريف ، والصواب « إجلائهم » أي في فتنتهم وهياجهم من الجلبة بالتحريك وهي الصياح . [٢] من الوكس كورد : وهو النقصان .

[٣] أي انقص حقاك بخروجها عليك ، فحق لك الانتقام منا لأخذ حقاك .

[٤] تطوّل عليه : امتنّ وتفضل . [٥] وفي زهر الآداب : « من الجزع » .

[٦] وفي زهر الآداب : « مستودع » . [٧] مجازاتهم .

[٨] وفي زهر الآداب : « خير من أن توصف بضيقه » .

مُوجِبٌ لِإِقَالَتِكَ عَثْرَتِكَ مِنْ رَبِّ عِبَادِ اللَّهِ ، وَعَفْوِكَ عَنْهُمْ مَوْصُولٌ بِعَفْوِ اللَّهِ عَنْكَ ، وَعِقَابِكَ لَهُمْ مَوْصُولٌ بِعِقَابِ اللَّهِ لَكَ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

٤٣ — أبو جعفر المنصور والربيع

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة : دعا المنصور بالربيع (١) ، فقال : سألني ما تريد ، فقد سكت حتى نطقت ، وخففت حتى ثقلت ، وقللت حتى أكثرت ، فقال : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا أَرْهَبُ بِخُلُوكِ ، وَلَا أَسْتَقْصِرُ مَعْمُوكَ ، وَلَا أَسْتَصْغِرُ فَضْلَكَ ، وَلَا أَعْتَمُّ مَالِكَ ، وَإِنْ يَوْمِي بِفَضْلِكَ عَلَيَّ أَحْسَنُ مِنْ أَمْسِي ، وَغَدِكَ فِي تَأْمِيلِي أَحْسَنُ مِنْ يَوْمِي ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يَشْكُرَكَ مِثْلِي بِغَيْرِ الْخِدْمَةِ وَالْمَنَاصِحَةِ لَمَا سَبَقَنِي لَدَيْكَ أَحَدٌ » قال : صدقت ، علمي بهذا منك أَحَلَّكَ هَذَا الْمَحَلَّ ، فَسَلَّنِي مَا شِئْتَ ، قَالَ : أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْرُبَ عَبْدَكَ « الْفَضْلَ » (٢) وَتُوَثِّرَهُ وَتُحِبَّهُ ، قَالَ : يَا رَبِّيعَ ، إِنْ الْحُبَّ لَيْسَ بِمَالٍ يُوْهَبُ ، وَلَا رَتْبَةً تُبَدَّلُ ، وَإِنَّمَا تُؤَكِّدُهُ الْأَسْبَابُ ، قَالَ : فَاجْعَلْ لِي طَرِيقًا إِلَيْهِ ، بِالْتَفْضِيلِ عَلَيْهِ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، وَقَدْ وَصَلْتُهُ بِأَلْفِ دَرَاهِمٍ ، وَلَمْ أَصِلْ بِهَا أَحَدًا غَيْرَ عُمَّومَتِي ، لَتَعْلَمَ مَالَهُ عِنْدِي ، فَيَكُونُ مِنْهُ مَا يَسْتَدْعِي بِهِ مَحَبَّتِي ، قَالَ : فَكَيْفَ سَأَلْتَ لَهُ الْمَحَبَّةَ يَا رَبِّيعَ ؟ قَالَ : لِأَنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ ، وَمِغْلَاقُ كُلِّ شَرٍّ ، تُسْتَرَّبُ بِهَا عِنْدَكَ عِيُوبُهُ ، وَتَصِيرُ حَسَنَاتٍ ذُنُوبُهُ ، قَالَ : صَدَقْتَ .

(زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

[١] هو أبو الفضل الربيع بن يونس ، وزير المنصور ، وكان مهيباً فصيحاً كافياً حازماً فطناً ، ولم يزل وزيراً للمنصور إلى أن مات المنصور . وقام الربيع بأخذ البيعة المهدي ، ثم سعى به أعداؤه إلى الهادي ، فقتله سنة ١٧٠ هـ . [٢] هو ابنه الفضل بن الربيع ، وقد وزير للرشيد بعد البرامكة ، ولابنه الأمين كما سيأتي .

٤٤ — مقام عمرو بن عبيد بين يدي المنصور

دخل عمرو^(١) بن عُبيد على المنصور بعد ما بايع للمهدى ، فقال له : يا أبا عثمان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ، أراك قد وطّدت له الأمور ، وهى تصير إليه ، وأنت عنه مستول ، فاستعبر المنصور ، وقال له : عِظْنِي يا عمرو ، قال : « يا أمير المؤمنين : إن الله أعطاك الدنيا بأمرها ، فاشتر نفسك منها ببعضها ، وإن هذا الذى فى يديك ، لو بقى فى يد غيرك ، لم يصل إليك ، فأحذر ليلةً تَمَخَّضُ عن يوم لا ليلة بعده » ، فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع : يا عمرو غممت أمير المؤمنين ، فقال عمرو : إن هذا صعبك عشرين سنةً ، لم يرَ لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً ، وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه ، قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلت لك ، خاتمي فى يدك ، فتعال وأصحابك فاكفني ، قال عمرو : « أدعنا بعدلك ، تسخ أنفسنا بعونك ، يبابك ألف مظلمة ، أردد منها شيئاً نعلم أنك صادق » .

(مروج الذهب ٢ : ٢٤٣ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٧ ، ووفيات الأعيان ١ : ٣٨٤ ، والعقد الفريد ١ : ٣٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٤٨)

٤٥ — مقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور

بينما المنصور يطوف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يَحُولُ بين الحق وأهله من الطمع ، فخرج المنصور ، فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى الرجل ركعتين ، واستلم الركن ، وأقبل مع الرسول ، فسلم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ما الذى سمعتك تذكر من ظهور البغى والفساد فى الأرض ؟ وما الذى يَحُولُ بين الحق

[١] من كبار أئمة المعتزلة توفى سنة ١٤٤

وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حَشَوْتُ مَسَامِعِي مَا أَرْمَضَنِي ^(١) ، قال : يا أمير المؤمنين إن أَمَّنْتَنِي عَلَى نَفْسِي ، أَنْبَأْتُكَ بِالْأُمُورِ مِنْ أَصُولِهَا ، وَإِلَّا احْتَجَزْتُ مِنْكَ ، وَاقْتَصَرْتُ عَلَى نَفْسِي ، فَفِيهَا لِي شَاغِلٌ ، فقال : أَنْتِ آمِنٌ عَلَى نَفْسِكَ فَقُلْ ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الذي دخله الطمع ، حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغى والفساد لَأَنْتِ ، قال : ويحك ، وكيف يدخلني الطمع ، والصِّفْرَاءُ وَالْبَيْضَاءُ ^(٢) فِي قَبْضَتِي ، وَالْحُلُوفُ وَالْحَامِضُ عِنْدِي ؟ قال : وهل دخل أحدًا من الطمع ما دخلك ؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسامين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حِجَابًا مِنَ الْجِصِّ وَالْآجُرِّ ، وَأَبْوَابًا مِنَ الْحَدِيدِ ، وَحِجَابَةً مَعَهُمُ السِّلَاحُ ، ثُمَّ سَجَّنتَ نَفْسَكَ فِيهَا عَنْهُمْ ، وَبَعَثْتَ عُمَّالَكَ فِي جِبَايَةِ الْأَمْوَالِ وَجَمَعَهَا ، وَقَوَّيْتَهُمْ بِالرِّجَالِ وَالسِّلَاحِ وَالْكُرَاعِ ، وَأَمَرْتَ بِالْأَنْدِجَانِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْكَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، نَفَرٌ سَمَّيْتَهُمْ ، وَلَمْ تَأْمُرْ بِإِيصَالِ الْمَظْلُومِ وَلَا الْمَلْهُوفِ ، وَلَا الْجَائِعِ الْعَارِي ، وَلَا الضَّعِيفِ الْفَقِيرِ ، وَلَا أَحَدًا إِلَّا وَهْلَهُ فِي هَذَا الْمَالِ حَقٌّ ، فَلَمَّا رَأَى هَؤُلَاءِ النَّفَرَ الَّذِينَ اسْتَخْلَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ ، وَأَثَرْتَهُمْ عَلَى رِعْيَتِكَ ، وَأَمَرْتَ أَلَّا يُحْجَبُوا عَنْكَ ، تَجَنَّبِي الْأَمْوَالِ وَتَجَمَّعَهَا وَلَا تَقْسِمَهَا ، قَالُوا : هَذَا قَدْ خَانَ اللَّهُ ، فَمَا بَالُنَا لَا نَخُونُهُ وَقَدْ سَجَّجْنَا لَنَا نَفْسَهُ ؟ فَأَتَمَّرُوا بِالْأَنْدِجَانِ إِلَيْكَ مِنْ عِلْمِ أَخْبَارِ النَّاسِ شَيْءٌ ، إِلَّا مَا أَرَادُوا ، وَلَا يَخْرُجُ لَكَ عَامِلٌ ، فَيُخَالِفُ أَمْرَهُمْ إِلَّا قَصَبُوهُ ^(٣) عِنْدَكَ وَنَفَوْهُ ، حَتَّى تَسْقُطَ مَنْزِلَتُهُ ، وَيَصْغُرُ قَدْرُهُ ، فَلَمَّا انْتَشَرَ ذَلِكَ عَنْكَ وَعَنْهُمْ ، أَعْظَمَهُمُ النَّاسُ وَهَابُوهُمْ ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَانَعَهُمْ عُمَّالَكَ بِالْهُدَايَا وَالْأَمْوَالِ ، لِيَقْوُوا بِهَا عَلَى ظَلْمِ رِعْيَتِكَ ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ذُوو الْقُدْرَةِ وَالثَّرْوَةِ مِنْ

[١] أوجعني وآلمني . [٢] الصفرَاء والبيضاء : الدنانير والدرام .

[٣] قابوه وشتموه ، وفي العقد الفردي : « خوتنوه » .

رعيتك ، لينالوا به ظلم من دونهم ، فامتلات بلادُ الله بالطمع بغيًا وفسادًا ، وضار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك ، وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حيلَ بينه وبين دخول مدينتك ، فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك ، وجَدَكَ قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجالا ينظر في مظالمهم ، فإن جاءك ذلك الرجل ، فبلغ بطانتك خبره ، سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته إليك ، فإن المتظلم منه له بهم حرمة ، فأجابهم خوفًا منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ، ويلوذ به ، ويشكو ويستغيث ، وهو يدفعه ويمتل عليه ، فإذا أجهد وأخرج وظهرت ، صرّخ بين يديك ، فضرب ضربًا مبرحًا ليكون نكالًا لغيره ، وأنت تنظر فلا تُشكر ، فما بقاء الإسلام على هذا ؟ وقد كنتُ يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرة ، وقد أصيب ملكها بسمنه ، فبكي يومًا بكاء شديدًا ، فحته جلساؤه على الصبر ، فقال : أما إنى لست أبكى للبلية النازلة بي ، ولكنى أبكى لمظلوم بالباب يصرّخ ، ولا أسمع صوته ، ثم قال : أما إذ ذهب سمى ، فإن بصرى لم يذهب ، نادوا في الناس ألا يلبس ثوبًا أحمر إلا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفي نهاره ، وينظر هل يرى مظلومًا ؟ فهذا يا أمير المؤمنين مُشرك بالله ، غلبت رأفته بالمشركين شح نفسه ، وأنت مؤمن بالله ، ثم من أهل بيت نبيه ، لا تغلب رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ؟ فإن كنت إنما تجمع المال لولدك ، فقد أراك الله عبرًا في الطفل ، يسقط من بطن أمه ، وماله على الأرض مالٌ ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال لله يلطف بذلك الطفل ، حتى تعظم رغبة الناس إليه ، واست بالذي تعطى ، بل الله يعطى من يشاء ما شاء ، وإن قلت إنما أجمع المال لتعديد

السلطان ، فقد أراك الله عبراً في بني أمية ، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع ، حتى أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلتَ إنما أجمع لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلةٌ ، لا تُدرك إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين ، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟ قال المنصور : لا ، قال : فكيف تصنع بالملك الذي خوَّلكَ مُلكَ الدنيا ، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ؟ ولكن بالخلود في العذاب الأليم ، قد رأى ما قد عُقدَ عليه قلبك ، وعمَلته جوارحك ، ونظر إليه بصرك ، واجترحتَه ^(١) يداك ، ومشَتَ إليه رجلاك ، هل يُغنى عنك ما شححت عليه من مُلك الدنيا إذا انتزعه من يدك ، ودعاك إلى الحساب ؟ فبكى المنصور وقال : يا ليتني لم أُخلَق ، ويحك ! فكيف أحتال لنفسي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن للناس أعلاماً يَفزَعون إليهم في دينهم ، ويرضون بهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم في أمرك يسدّوك ، قال : قد بعثت إليهم فهربوا مني ، قال : خافوا أن تحملهم على طريقتك ، ولكن افتح بابك ، وسهل حجابك ، وانصر المظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ النية والصدقات مما حل وطاب ، واقسمه بالحق والعدل على أهله ، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويُسعدوك على صلاح الأمة ، وجاء المؤذنون ، فسلموا عليه ، فصلى وعاد إلى مجلسه ، وطلب الرجل فلم يوجد .

(عمون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٣ ، والعقد الفريد ١ : ٣٠٤)

٤٦ — مقام الأوزاعي بين يدي المنصور

قال الأوزاعي ^(٢) : دخلت على المنصور ، فقال لي : ما الذي بطأ بك عنى ؟

[١] اكتسبته . [٢] هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، إمام أهل الشام ، ولم يكن بها أعلم منه ولد ببلدك سنة ٨٨ هـ ، وتوفى سنة ١٥٧ ببيروت ، والأوزاعي : نسبة إلى أوزاع ، وهي بطن من ذى

قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذى تريد منى ؟ فقال : الاقتباس منك ، قلت : أنظر ما تقول ، فإن « مكحولاً ^(١) » حدثني عن عطية بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من بَلَغَهُ عن الله نصيحة في دينه ، فهي رحمة من الله سِيَقَتْ إليه ، فإن قَبِلَهَا من الله بِشُكْرٍ ، وإِلَّا كَانَتْ حُجَّةً من الله عليه ، ليزداد إثمًا ، ويزداد الله عليه غَضَبًا ، وإن بَلَغَهُ شَيْءٌ من الحق فرضى ، فله الرضا ، وإن سَخِطَ فله السُّخْطُ ، ومن كرهه فقد كَرِهَ اللهُ ، لأن الله هو الحق المبين » فلا تَجْهَلَنَّ ، قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمع ، قال الأوزاعي : فسل على الربيع السيف ، وقال : تقول لأمر المؤمنين هذا ؟ فأنهه المنصوو وقال : أمسيك ، ثم كلمه الأوزاعي ، وكان في كلامه أن قال :

« إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به ، والله ساء لك عن صغيرها وكبيرها ، وفتيلها وتقيرها ^(٢) ، ولقد حدثني عروة بن رُوَيْم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مامن راجع يبيت فامشا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرًا ، ولما استطاع من عوراتهم ساترًا ، وبالقسط فيما بينهم قائمًا ، لا يتخوف مُحْسِنُهُمْ منه رَهَقًا ^(٣) ، ولا مُسِيئُهُمْ عُدْوَانًا ، فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ، ويردع عنه المنافقين ، فاتاه جبريل فقال : « يا محمد ، ماهذه الجريدة بيدك !

الكلاع من العين ، وقيل : بطن من همدان ، وقيل الأوزاع : قرية بدمشق ، ولم يكن عبد الرحمن منهم ، وإنما نزل فيهم ، فنسب إليهم ، وهو من سبي اليمن .

[١] هو مكحول بن عبد الله الشامي ، معلم الأوزاعي ، وكان من سبي كابل ، وقع إلى سعيد بن العاص ، فوجهه لامرأة من هذيل فأعتقته ، قال الزهري : العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة ، والشعي بالكوفة ، والحسن البصرى بالبصرة ، ومكحول بالشام ، ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا ، وسمع أنس ابن مالك وغيره ، وكان مقامه بدمشق ، وتوفى سنة ١١٨ هـ .

[٢] الفتيل : السحاة التى فى شق النواة ، والتقىر : القرعة التى فى ظهر النواة . [٣] ظلماً .

أَقْدِفْهَا لَا تَمَلَأْ قُلُوبَهُمْ رُغْبًا» ، فكيف من سفك دماءهم ، وشقق أبشارهم ،
وأَنْهَبَ^(١) أموالهم؟ يا أمير المؤمنين : إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، دعا
إلى القصاص من نفسه بِمُخَدَّشٍ مُخَدَّشَةٍ أَعْرَابِيَا لَمْ يَتَعَمَّدَهُ ، فَهَبَطَ جَبْرِيْلُ ، فَقَالَ :
« يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْكَ جَبَّارًا تَكْسِرُ قُرُونِ أُمَّتِكَ » واعلم أن كل ما في يدك
لَا يَعْدِلُ شَرْبَةَ مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ ، وَلَا تَمْرَةَ مِنْ ثَمَارِهَا ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لِقَابُ^(٢) قَوْسٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، أَوْ قُدَّةُ^(٣) خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا
بِأَسْرَهَا » إن الدنيا تنقطع ويَزُولُ نعيمها ، ولو بقي الملك لِمَنْ قَبْلَكَ لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ
يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار عُلقَ بين السماء والأرض لآذاهم ،
فكيف من يتقمَّصه؟ ولر أن ذنوبا^(٤) من صديد أهل النار صُبَّ على ماء الأرض
لآجَنَّهُ^(٥) ، فكيف بمن يتجرَّعه؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وُضِعَتْ على
جبل لذاب ، فكيف من سُلِكَ^(٦) فيها ، وَيُرَدُّ فَضْلُهَا على عاتقه؟ وقد قال عمر
ابن الخطاب : « لَا يَقْوَمُ أَمْرَ النَّاسِ إِلَّا حَصِيفُ^(٧) الْعُقْدَةِ ، بَعِيدِ الْغِرَّةِ^(٨)
لَا يَطَّلِعُ النَّاسُ مِنْهُ عَلَى عَوْرَةٍ ، وَلَا يُحْنِقُ فِي الْحَقِّ عَلَى جِرَّةِ^(٩) ، وَلَا تَأْخُذُهُ
فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَأْمٌ » .

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يظْلِفُ^(١٠) نفسه وعمَّاله ، فذلك له أجرُ
المجاهد في سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويُدُّ الله بالرحمة على رأسه
تُرْفَرَفُ ، وأمير رَتَعَ ورَتَعَ عمَّاله ، فذاك يحْمِلُ أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير

[١] جعلها نهباً يعار عليه . [٢] القاب : ما بين المقبض والسية (وسية القوس كعدة : ما عطف
من طرفيها) . [٣] ريش السهم . [٤] الذنوب : الدلو . [٥] جله آجنا أى متغير
الطعم واللون . [٦] قيد . [٧] حصف الرجل ككرم : استحكم عقله فهو حصيف ، وأحصف
الجبل : أحكم فتلته . [٨] الغفلة . [٩] أحنق : حقد حقدا لا ينحل ، وأحنق الصلب : لرق
بالبطاخ ، والجرة ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، والمراد أنه لا يضر المقدم والحنق . [١٠] يكف .

يَظْلِفُ نَفْسَهُ، وَيَرْتَعُ عَمَالَهُ، فَذَاكَ الَّذِي بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ، وَأَمِيرَ يَرْتَعُ وَيَظْلِفُ
عُمَالَهُ، فَذَاكَ شَرَّ الْأَكْيَاسِ .

واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم ، عُرض على السموات
والأرض والجبال ، فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهُ ، وَأَشْفَقْنَ مِنْهُ ، وقد جاء عن جدك في
تفسير قول الله عز وجل : « لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » أن
الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ، وقال : فما ظنكم بالكلام وما عمَلتُهُ الأيدي ؟
فأعيدك بالله أن يُخَيَّلَ إليك أن قرابتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تنفع مع
المخالفة لأمره ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ مُحَمَّدٍ ،
وَيَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، اسْتَوْهَبَا أَنْفُسَكُمَا مِنَ اللَّهِ ، إِنْ لَمْ تُغْنِيَا عَنْكُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ،
وَكَانَ جَدُّكَ الْأَكْبَرُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَارَةً ، فَقَالَ : « أَيْ
عَمٍّ ، نَفْسٌ تُحْيِيهَا ، خَيْرُكَ مِنْ إِمَارَةٍ لَا تُحْصِيهَا » نَظَرًا لِعَمِّهِ ، وَشَفَقَةً
عَلَيْهِ أَنْ يَلِيَّ فِيَجُورُ عَنْ سُنَّتِهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ لَهُ نَفْعًا ، وَلَا عَنْهُ
دَفْعًا ، هَذِهِ نَفْسِي حَتَّى إِنْ قَبِلْتَهَا فَلِنَفْسِكَ تَمَلَّتْ ، وَإِنْ رَدَدْتَهَا فَنَفْسِكَ
بَجَسْتِ ، وَاللَّهُ الْمُوفِقُ لِلْخَيْرِ وَالْمَعِينُ عَلَيْهِ ، قَالَ : بَلَى ، تَقَبَّلَهَا وَنَشَكَرَ عَلَيْهَا ،
وَبِاللَّهِ نَسْتَعِينُ . (القدر الفريد ١ : ٣٠٠ ، وعبود الأخبار م ٢ : ص ٣٣٨)

٤٧ - نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة للمنصور

ودخل يزيد بن عمر بن هبيرة^(١) على أمير المؤمنين المنصور ، فقال : يا أمير
المؤمنين : توسع توسعاً قُرَشِيًّا ، وَلَا تَضِيقْ ضَيْقًا حِجَازِيًّا .

[١] ولي قنسرين للوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وجمع له مروان بن محمد ولاية البصرة والكوفة ، وكان
آخر من جمع له العراق من الولاة ، ولما استظهرت عليه جيوش خراسان ، وهزمت عسكره لحق بمدينة

ويروى أنه دخل يوماً ، فقال له المنصور حدثنا ، فقال : « يا أمير المؤمنين : إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عدلها ، وجنبوهم مرارة جورها ، فوالله يا أمير المؤمنين ، لقد محضت^(١) لك النصيحة » ثم نهض فنهض معه سبعمائة من قيس ، فأثأره^(٢) المنصور بصره ، ثم قال : لا يعز مملكته يكون فيه مثل هذا ! . (تهذيب الكامل ١ : ٢٨)

٤٨ — معن بن زائدة والمنصور

ودخل معن^(٣) بن زائدة الشيباني على أبي جعفر المنصور وقد أسن ، فقارب في خطوه ، فقال له المنصور : لقد كبرت سنك يامعن ، قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك تلجلد ، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإن فيك لبقية ، قال : هي لك يا أمير المؤمنين ، قال : فأئ الدولتين أحب إليك ، هذه أم دولة بني أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين ، إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلى .

(البيان والنبين ٣ : ٢٢٩ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٠٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦١)

واسط ، فتحصن بها ، ولما بويع السفاح بالخلافة وجه أحماء أبا جعفر المنصور لقتله ، فحصره بواسط شهوراً ، ثم أمنه وادنتح البلد صلحا ، ثم قتله .

[١] أخلصت . [٢] أثأره البصر : أتبعه إياه ، وحدد إليه النظر .

[٣] كان جوادا شجاعا جزيل العطاء كثير المعروف ، وكان في أيام بني أمية متنقلا في الولايات ، منقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفراري أمير العراقيين ، فلما انتقلت الدولة إلى بني العباس ، وحاصر المنصور يزيد بمدينة واسط كما قدمنا ، أبلى يومئذ من مع يزيد بلاء حسنا ، فلما قتل يزيد خاف معن من أبي جعفر المنصور ، فاستتر عنه مدة ، ولم يزل مستترا حتى كان يوم الهاشمية ، وذلك أن جماعة من أهل خراسان ثاروا على المنصور ، وجرت مقنلة عظيمة بينهم وبين أصحاب المنصور بالهاشمية — وهي مدينة بناها السفاح بالقرب من الكوفة — وكان معن متواريا بالقرب منهم ، فخرج متنكرا ممثلا ، وتقدم إلى القوم ، وقاتل قدام المنصور قتالا أبان فيه عن نجدة وشهامة وفرقهم ، فلما أخرج عن المنصور ، قال له : من أنت ويحك ؟ فقال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة ، فأمنه المنصور وأكرمه ، وصار من حواصده ، وولى سجستان في أواخر أمره ، فلما كانت سنة ١٥١ اندس قوم من الخوارج بين صناع كانوا يعملون في داره بمدينة بست ، فقتلوه وهو يحتجم ، وتبعهم ابن أخيه يزيد بن مزيد بن زائدة ، فقتلهم بأسرم .

٤٩ - معن بن زائدة وأحد زواره

ودخل رجل على معن بن زائدة ، فقال : ما هذه الغيبة ؟ فقال : « أيها الأمير ، ما غابَ عن العين مَنْ يذكُرُه القلبُ ، وما زال شوقى إلى الأمير شديداً ، وهو دونَ ما يجبُ لهُ ، وذكُرى لهُ كثيراً وهو دون قدره ، ولكن جفوة الحُجَّاب ، وَقَلَّةُ بِشْرِ الْعِلْمَانِ ، منعانى من الإكثار » ، فأمر بتسهيل حجابهِ ، وأجزل صلته . (زهر الآداب ٣ : ١٦١)

٥٠ - المنصور وأحد الأعراب

ودخل أعرابى على المنصور فتكلم ، فأعجب بكلامه ، فقال له : سل حاجتك ، فقال : يُبقيك الله ، ويَزِيدُ فى سلطانك ، فقال : سل حاجتك ، فليس فى كل وقت تؤمَرُ بذلك ، قال : « ولمَ يا أمير المؤمنين ، فوالله ما أستقصِرُ عمرك ، ولا أخافُ بُخْلَكَ ، ولا أغتمُ مالك ، وإن سوءالك لشرف ، وإن عطاءك لزَيْن ، وما بامرئٍ بَدَلٌ وجهه إليك تقصُّ ولا شَيْنٌ » . فأحسن جائزته وأكرمه . (الصاعتين ص ٤٠ ، العقد الفريد ١ : ١٣٩)

٥١ - أعرابية تعزى المنصور وتهنته

وروى القلقشندى قال : تعرَّضت أعرابية للمنصور فى طريق مكة بعد وفاة أبى العباس السَّفَّاح ، فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، احتسب الصبر ، وقَدِّم الشكر ، فقد أجزل الله لك الثواب ، فى الحالين ، وأعظم عليك المنَّة فى الحادِثين ، سَلَبَكَ خليفة الله ، وأفادك بخِلافة الله ، فسَلِّم فيما سَلَبَكَ ، واشكُر فيما مَنَحَكَ ، وتجاوزَ اللهُ عن أمير المؤمنين ، وخارَ لك فيما مَلَّكَك من أمرى الدنيا والدين »

وروى الجاحظ قال : عَزَّتْ امرأةُ المنصور عن أبي العباس مَقْدَمَهُ من مكة ، قالت : « أعظم الله أجرك ، فلا مصيبة أجلك من مصيبتك ، ولا عوض أعظم من خلافتك » . (صبح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥٥)

٥٢ — خطبة محمد بن سليمان ^(١) يوم الجمعة

(وكان لا يغيرها)

الحمد لله ، أحمدُه وأستعينه وأستغفره ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، من يعتصم بالله ورسوله ، فقد اعتصم بانعزوة الوثقى ، وسعد في الأولى والآخرة ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ، وخسر خسراناً مبيهاً ، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يُطِيعه وَيُطِيع رسوله ، ويتبع رضوانه ، ويتجنب سُخطه ، فإنما نحن له وبه ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحتمكم على طاعة الله ، وأرضى لكم ما عند الله ، فإن تقوى الله أفضل ما تحاثّ الناس عليه ، وتداعوا إليه ، وتواصوا به ، فاتقوا الله ما استطعتم ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . (البيان والتبيين ٢ : ٦٥)

٥٣ — وصية مسلم بن قتيبة

وقال مسلم بن قتيبة ^(٢) : « لا تطلبن حاجتك إلى واحد من ثلاثة : لا تطلبها

[١] هو محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان عامل البصرة في خلافة أبي جعفر المنصور وتوفي سنة ١٧٣ في خلافة الرشيد .

[٢] استشاره المنصور في قتل أبي مسلم ، فقال : ما ترى في أمره ؟ قال : « لو كان فيهما آلهة

إلا الله لفسدتا » فقال : حسبك يا بن قتيبة ، لقد أودعتها أدنا واعية (وفيات الأعيان ١ : ٢٨٢) .

إلى الكذاب ، فإنه يُقَرَّبُها وهي بعيدة ، ويبعدُها وهي قريبة ؛ ولا تطلبها إلى الأحمق ، فإنه يريد أن ينفعك ، وهو يضرُّك ؛ ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم مأْكَلَةٌ ، فإنه يجعل حاجتك وقاءً لحاجته . (الأماك ٢ : ١٩٠)

٥٤ - خطبة المهدي (توفي سنة ١٦٩ هـ)

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ، ورضى به من خلقه ، أحمدَه على آلائه ^(١) ، وأمجده لبلائه ^(٢) ، وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه توكل راضٍ بقضائه ، وصابر لبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده المصطفى ، ونبيه المُجْتَبَى ^(٣) ، ورسوله إلى خلقه ، وأمينه على وحيه ، أرسله بعد انقطاع الرجاء ، وطُمُوس ^(٤) العِلْمِ ، واقتراب من الساعة ، إلى أمة جاهلية ، غتلفة أُمِّيَّة ، أهل عداوة وتضاغن ، وفرقة وتباين ، قد استهوئتهم شياطينهم ، وغلب عليهم قُرَناؤهم ^(٥) ، فاستشعروا الردى ، وسلكوا العمى ، يبشر من أطاعة بالجنة وكريم ثوابها ، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها ، « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن يَدِنَةٍ ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن يَدِنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة ، وأحسكم على إجلال عظمته ، وتوقير كبريائه وقدرته ، والانتهاى إلى ما يقرب من رحمته ، وينجى من سخطه ، ويُنال به مالهديه ، من كريم الثواب ، وجزيل المآب ، فاجتنبوا ما خوَّفكم الله من شديد العقاب ، وأليم العذاب ، ووعيد الحساب ، يوم توقفون بين يدي الجبار ، وتعرضون فيه على النار « يَوْمَ لَا تَكَلِّمُ

[١] نفسه ، والفرد إلى كحل وشمس ، وألوكشمس ، وألى كعصا وإلى كرنا .

[٢] البلاء : يكون منحة ، ويكون محنة . [٣] المختار . [٤] الدروس والاعاء .

[٥] القرين : المصاحب ، والشيطان : القرون بالإنسان لا يفارقه .

نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ؛ يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ
 وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ؛ يَوْمَ لَا يُجْزَى نَفْسٌ
 عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ، وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ؛
 يَوْمَ لَا يُجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
 حَقٌّ ، فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، فَإِنَّ الدُّنْيَا
 دَارُ غُرُورٍ ، وِبَلَاءٍ وَشُرُورٍ ، وَاَضْمَحْلَالٍ وَزَوَالٍ ، وَتَقَلُّبٍ وَانْتِقَالٍ ، قَدْ أَفْنَتَ
 مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَهِيَ عَائِدَةٌ عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ ، مَنْ رَكَنَ إِلَيْهَا صَرََعَتْهُ ،
 وَمَنْ وَثِقَ بِهَا خَانَتْهُ ، وَمَنْ أَمَلَهَا ^(١) كَذَبَتْهُ ، وَمَنْ رَجَاها خَدَلَتْهُ ، عِزُّهَا ذُلٌّ ،
 وَغِنَاها فَقْرٌ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ تَرَكَها ، وَالشَّقِيُّ فِيها مِنْ آثَرها ، وَالْمَغْبُوتُ فِيها مِنْ بَاعِ
 حِظِّهِ مِنْ دَارِ آخِرَتِهِ بِها ، فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ ، وَالتَّوْبَةُ مَقْبُولَةٌ ، وَالرَّحْمَةُ مَبْسُوطَةٌ ،
 وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الزَّكِيَّةِ ^(٢) ، فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ، قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ بِالْكَظْمِ ^(٣) ،
 وَتَنْدَمُوا فَلَا تَنْالُونَ النَّدَمَ ، فِي يَوْمِ حَسْرَةٍ وَتَأْسُفٍ ، وَكَأَبَةٍ وَتَلَهْفٍ ، يَوْمَ لَيْسَ
 كَالْأَيَّامِ ، وَمَوْقِفُ صَنْتِكَ الْمَقَامَ ، إِنْ أَحْسَنَ الْحَدِيثَ وَأَبْلَغَ الْمَوْعِظَةَ كِتَابَ اللَّهِ ،
 يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ
 تُرْحَمُونَ » أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَلْهَاكُمْ
 التَّسْكَاتُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ - إِلَى آخِرِ السُّورَةِ - أَوْصِيكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِمَا أَوْصَاكُمْ اللَّهُ
 بِهِ ، وَأَنَّها كَمِ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، وَأَرْضَى لَكُمْ طَاعَةَ اللَّهِ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ »

(المقدم الفريد ٢ : ١٤٦)

[١] أملة أملا وأمله بالتخفيف والنشيد . [٢] زكاي زكو : نما وصلح .

[٣] الكظم : الحلق أو القم ، أو مخرج للنفس ، أى قبل الموت .

مشاورة المهدي لأهل بيته

في حرب خراسان

روى ابن عبد ربه قال :

« هذا ما تراجع فيه المهدي ووزراؤه ، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان ، أيام تحاملت عليهم العمال وأغنفت ، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكائنة ، على أن نكثوا ببيعتهم ، وتقصوا موثقتهم ، وطردهوا العمال ، والتوا بما عليهم من الخراج ، وحمل المهدي ما يجب من مصلحتهم ، ويكره من عنتهم ، على أن أقال عثرتهم ، واغتفر زلتهم ، واحتمل دأبتهم ، تطوؤاً بالفضل ، واتساعاً بالعفو ، وأخذاً بالحجة ، ورفقاً بالسياسة ، ولذلك لم يزل مذكراً لله أعباء الخلافة ، وقلده أمور الرعية ، رفيقاً بدار سلطانه ، بصيراً بأهل زمانه ، باسطاً للمعدلة في رعيته ، تسكناً إلى كنفه ، وتأنساً بعفوه ، وتثق بحلمه ، فإذا وقعت الأفضية اللازمة ، والحقوق الواجبة ، فليس عنده هواده ، ولا إغضاء ، ولا مداهنة ، أثره للحق ، وقياماً بالعدل ، وأخذاً بالحزم ، فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه ، والثقة بعفوه ، أن كسروا الخراج ، وطردهوا العمال ، وسألوا ما ليس لهم من الحق ، ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار ، وخصومة بإقرار ، وتنصلاً باعتلال ، فلما انتهى ذلك إلى المهدي ، خرج إلى مجلس خلأته ، وبعث إلى نفر من لحمته^(١) ووزرائه ، فأعلمهم الحال ، واستنصحهم للرعية ، ثم أمر الموالى^(٢) بالابتداء ، وقال للعباس^(٣) بن محمد : أي عم تعقب قولنا ، وكن حكماً بيننا ، وأرسل إلى

[١] اللحة : القرابة . [٢] جمع مولى ، وهو هنا القريب كابن العم ونحوه .

[٣] هو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبو المنصور .

ولديه موسى وهرون ، فأحضرهما الأمر ، وشاركهما في الرأي ، وأمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم ، وإثبات مقالاتهم في كتاب .

٥٥ - مقال سلام صاحب المظالم

فقال سلام صاحب المظالم :

« أيها المهدي : إن في كل أمر غايةً ، ولكل قوم صناعةً ، استفرغت رأيهم ، واستفرقت أشغالهم ، واستنفدت أعمارهم ، وذهبوا بها ، وذهبت بهم ، وعرفوا بها ، وعرفت بهم ، ولهذا الأمور التي جعلتنا فيها غايةً ، وطلبت معونتنا عليها أقوام من أبناء الحرب وساسة الأمور ، وقادة الجنود ، وقرسان الهزاهز^(١) ، وإخوان التجارب ، وأبطال الوقائع ، الذين رشحتهم سجالها^(٢) ، وفيأتهم ظلالها ، وعصتتهم شدائدُها ، وقرمتهم^(٣) نواجذُها ، فلو عجمت ما قبلهم ، وكشفت ما عندهم ، لو جدت نظائرَ تؤيد أمرك ، وتجارِبَ توافق نظرك ، وأحاديثَ تقوى قلبك ، فأما نحن معاشرَ عمالك ، وأصحابَ دواوينك ، فحسن بنا ، وكثير منا أن نقوم بثقل ما حملتنا من عملك ، واستودعتنا من أمانتك ، وشغلتنا به من إمضاء عدلك ، وإنفاذ حكمك ، وإظهار حقتك » .

فأجابه المهدي : « إن في كل قوم حكمةً ، ولكل زمان سياسةً ، وفي كل حال تدبير ، يُبطل الآخر الأول ، ونحن أعلم بزماننا ، وتدبير سلطاننا » .

قال نعم : أيها المهدي : أنت متسع الرأي ، وثيق العقدة ، قوي المنة^(٤) ، بليغ الفطنة ، معصوم النية ، محذور الروية ، مؤيد البديهة ، موفق العزيمة ،

[١] الهزهزة والهزاهز : تحريك البلايا والحروب الناس . [٢] جمع سجل كشمس ، وهو الدلو العظيمة مملوءة . [٣] قرم الطعام : أكله ، والنواجذ : أقمى الأرضين . [٤] القوة .

مَعَانِ بِالظَّفَرِ ، مَهْدِيٌّ إِلَى الْخَيْرِ ، إِنْ هَمَّتَ فِي عَزْمِكَ مَوَاقِعُ الظَّنِّ ، وَإِنْ
اجْتَمَعَتْ صَدَعٌ فَعَلَّكَ مَلْتَبِسُ الشُّكِّ ، فَاعْزِمِ يَهْدِي اللهُ إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ ، وَقُلْ
يُنْطِقُ اللهُ بِالْحَقِّ لِسَانَكَ ، فَإِنْ جُنُودُكَ جَمَّةٌ ، وَخَزَائِنُكَ عَامِرَةٌ ، وَنَفْسُكَ سَخِيَّةٌ ،
وَأَمْرُكَ نَافِذٌ .

فَأَجَابَهُ الْمَهْدِيُّ : « الْمَشَاوِرَةُ وَالْمَنَاظِرَةُ بِأَبَا رَحْمَةٍ ، وَمِفْتَاحَا بَرَكَاتٍ ، لَا يَهْنِكُ
عَلَيْهِمَا رَأْيٌ ، وَلَا يَتَفَيَّلُ ^(١) مَعَهُمَا حَزْمٌ ، فَأَشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ ، وَقُولُوا بِمَا يَخْضُرُكُمْ ،
فَإِنِّي مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَتَوْفِيقُ اللهِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ » .

٥٦ - مقال الربيع بن يونس ^(٢)

وقال الربيع :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ : إِنْ تَصَارَيْفَ وَجْهِ الرَّأْيِ كَثِيرَةٌ ، وَإِنْ الْإِشَارَةُ بِيَعِضِ
مَعَارِيضِ الْقَوْلِ يَسِيرَةٌ ، وَلَكِنْ خِرَاسَانُ أَرْضٍ بَعِيدَةِ الْمَسَافَةِ ، مُتَرَاخِيَةِ الشُّقَّةِ ^(٣) ،
مُتَفَارِقَةِ السُّبُلِ ، فَإِذَا ارْتَأَيْتَ مِنْ مُحْكَمِ التَّدْيِيرِ ، وَمُبْرَمِ التَّقْدِيرِ ، وَأَبَابِ الصَّوَابِ ،
رَأْيًا قَدْ أَحْكَمَهُ نَظْرُكَ ، وَقَلْبَهُ تَدْيِيرُكَ ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَذْهَبٌ طَاعِنٌ ، وَلَا دُونَهُ
مَعْلَقٌ لِحُصُومَةِ عَائِبٍ ، ثُمَّ خَبَّتِ الْبُرْدُ ^(٤) بِهِ ، وَانطَوَّتِ الرَّسُلُ عَلَيْهِ ، كَأَنَّ
بِالْحَرَى أَنْ لَا يَصِلَ إِلَيْهِمْ مُحْكَمُهُ ، إِلَّا وَقَدْ حَدِثَ مِنْهُمْ مَا يَنْقُضُهُ ، فَمَا أَيْسَرُ أَنْ
تَرْجِعَ إِلَيْكَ الرِّسْلَ ، وَتَرِدَ عَلَيْكَ الْكُتُبَ ، بِحَقَائِقِ أَخْبَارِهِمْ ، وَشَوَارِدِ آثَارِهِمْ ،
وَمَصَادِرِ أُمُورِهِمْ ، فَتُحَدِّثُ رَأْيًا غَيْرَهُ ، وَتَبْتَدِعُ تَدْيِيرًا سِوَاهُ ، وَقَدْ انْفَرَجَتْ
الْحَلَقُ ، وَتَحَلَّلَتِ الْعُقَدُ ، وَاسْتَرَخَى الْحِقَابُ ^(٥) ، وَامْتَدَّ الزَّمَانُ ، ثُمَّ لَعَلِمَ مَوْقِعَ الْآخِرَةِ

[١] قَالَ تَرَأْيُهُ وَتَمِيلُ : أَخْطَأَ وَضَعَفَ . [٢] وَزَرَ لِأَبِي حَمْفَرِ النَّصُورِ وَقَتْلِهِ الْهَادِي سَنَةَ ١٧٠ هـ .

[٣] الْبَعْدُ وَالسَّفَرُ الْبَعِيدُ . [٤] جَمْعُ بَرِيدٍ : وَهُوَ الرَّسُولُ ، وَخَبَّتْ : أَسْرَعَتْ .

[٥] الْحِقَابُ : مَا تَمُدُّهُ الْمَرْءُ فِي وَسْطِهَا .

كمصدر الأولى ، ولكن الرأى أيها المهدي وفقك الله ، أن تصرف إجابة النظر ،
وتقليب الفكر فيما جمعنا له ، واستشرتنا فيه من التدبير لحر بهم ، والحيل في
أمرهم ، إلى الطلب لرجل ذى دين فاضل ، وعقل كامل ، وورع واسع ، ليس
موصوفاً بهوى في سواك ، ولا متهماً في أثره عليك ، ولا ظنيناً^(١) على دخلة^(٢)
مكروهة ، ولا منسوباً إلى بدعة محذورة ، فيقدح في ملكك ، ويريض^(٣)
الأمور لغيرك ، ثم تُسند إليه أمورهم ، وتفوض إليه حربهم ، وتأمره في عهدك
ووصيتك إياه ، بلزوم أمرك ما تزمه الحزم ، وخلاف نهيك إذا خالفه الرأى ،
عند استحالة الأمور ، واشتداد الأحوال التى يُنقض أمر الغائب عنها ، ويثبت
رأى الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك ، فوائب أمرهم من قريب ، وسقط عنه
ما يأتى من بعيد ، تمت الحيلة ، وقويت المكيدة ، ونفذ العمل ، وأحد النظر
إن شاء الله .

٥٧ - مقال الفضل بن العباس

قال الفضل بن العباس :

« أيها المهدي ، إن ولى الأمور ، وسائس الحروب ، ربما نحى جنوده ،
وفرق أمواله في غير ماضيق أمر حزبه^(٤) ، ولا ضغطة حال اضطرته ، فيقعد
عند الحاجة إليها ، وبعد التفرقة لها ، عديماً منها ، فاقداً لها ، لا يثق بقوة ، ولا
يصول بمدة ، ولا يفزع إلى ثقة ، فالرأى لك أيها المهدي وفقك الله ، أن تُعني
خرائنك من الإيفاق للأموال ، وجنودك من مكابدة الأسفار ، ومقارعة

[١] متهما . [٢] دخلة الرجل مثله ، ودخيلته : نيته ومذهبه .

[٣] فى كتب اللغة : راضه وروضه : خاله ، وأراض الأرض جعلها ، يراضا . [٤] اشتد عليه .

الأخطار، وتغريير القتال ، ولا تُسرِعْ للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون ، والمطاء
لما يسألون ، فيفسد عليك أدبهم ، وتجري من رعتك غيرهم ، ولكن اغزم
بالحيلة ، وقاتلهم بالمكيدة ، وصارعهم باللين ، وخاتلمهم ^(١) بالرفق ، وأبرق ^(٢)
لهم بالقول ، وأرعد نحوم بالفعل ، وابتعت البعوث ، وجند الجنود ، وكتب
الكتائب ، واعقد الألوية ، وانصب الرايات ، وأظهر أنك موجه إليهم الجيوش
مع أحنق قوادك عليهم ، وأسوئهم أثراً فيهم ، ثم ادسُس الرسل ، وابثث
الكتب ، وضع بعضهم على طبع من وعدك ، وبعضاً على خوف من وعيدك ،
وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم ، واغرس أشجار التنافس بينهم ،
حتى تملأ القلوب من الوحشة ، وتنطوي الصدور على البغضة ، ويدخل كلا
من كل الحذر والهيبة ، فإن مرّام الظفر بالغيلة ، والقتال بالحيلة ، والمناسبة ^(٣)
بالكتب ، والمكيدة بالرسل ، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب ،
القوى الموقع من النفوس ، المعقود بالحجج ، الموصول بالحيل ، المبني على اللين
الذي يستميل القلوب ، ويسترق العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ،
ويستدعي المواتاة ^(٤) ، أنقذ من القتال بظبات السيوف ، وأسنة الرماح . كما
أن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل ، ويفرق كلمة عدوه بالمكيدة ،
أحكم عملاً ، وألطف منظرًا ، وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك إلا
بالقتال ، والإتلاف للأموال ، والتغريير والخطار ^(٥) ، وليعلم المهدي أنه إن وجه
لقتالهم رجلا لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة ، تخرج عن حال شديدة ، وتقدم

[١] خادعهم . [٢] رعد وبرق ، وأرعد وأبرق : تهدد وتوعد .

[٣] ناصبه الحرب والعداوة : ألقها . [٤] المواقفة . [٥] الخطارة .

على أسفارٍ ضيقة ، وأموال متفرقة ، وقواد غَشَشَة ، إن ائتمنهم استنفدوا ماله ،
وإن استنصحهم كانوا عليه لاله .

قال المهدي : « هذا رأى قد أسفر نُوره ، وأبرق ضوءه ، وتمثل صوابه
للعيون ، وتجسّد حقه في القلوب ، ولكن فوق كلّ ذى علم عليم » . ثم نظر إلى
ابنه عليّ ، فقال : ما تقول ؟

٥٨ — مقال عليّ بن المهدي

قال عليّ بن المهدي :

« أيها المهدي : إن أهل خراسان لم يَخْلَعُوا عن طاعتك ، ولم يَنْصِبُوا من
دونك أحداً ، يَقْدَحُ في تغيير ملكك ، وَيُريضُ الأمور لفساد دولتك ،
ولو فعلوا لكان الخطبَ أيسرَ ، والشأن أصغرَ ، والحال أدلّ ، لأن الله مع حقه
الذي لا يخذله ، وعند موّعه الذي لا يُخْلِفُه ، ولكنهم قوم من رعيتك ، وطائفة
من شيعتك ، الذين جعلك الله عليهم والياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ،
طلبوا حقاً ، وسألوا إنصافاً ، فإن أجبتَ إلى دعوتهم ، ونفّست عنهم قبل أن
يتلاحم منهم حال ، ويحدث من عندهم فتق ، أطعت أمر الرب ، وأطفأت
ثائرة الحرب ، ووفّرت خزائن المال ، وطرحت تغرير القتال ، وحمل الناس
محمّل ذلك على طبيعة جودك ، وسجيّة حلامك ، وإسجاح^(١) خليقتك ، ومعدّلة
نظرك ، فأمنت أن تُنسب إلى ضعف ، وأن يكون ذلك فيما بقي دُرْبَة ، وإن
منعتهم ما طلبوا ، ولم تُجِبْهم إلى ما سألوا ، اعتدلت بك وبهم الحال ،
وساويتهم في ميّدان الخطاب ، فما أربُّ المهدي أن يعمد إلى طائفة من رعيته ،

مقرّين بمملكته ، مُذعنين بطاعته ، لا يُخْرِجون أنفسهم عن قدرته ، ولا يُبرثونها من عبوديته ، فيملكهم أنفسهم ، ويخلع نفسه عنهم ، ويقف على الحيل معهم ، ثم يجازيهم السوء في حدّ المقارعة ، ومضمار المخاطرة ، أيريد المهدي - وفقه الله - الأموال ؟ فلمعري لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإتفاق أكثر منها مما يطلب منهم ، وأضعاف ما يدعى قبيلهم ، ولو نالها ، فَحُمِلت إليه ، وَوُضِعَت بخرائطها ^(١) بين يديه ، ثم تجافى لهم عنها ، وطال عليهم بها ، لكان مما إليه يُنسَب ، وبه يُعرَف ، من الجود الذي طبعه الله عليه ، وجعل قرّة عينه ، ونهمة ^(٢) نفسه فيه ، فإن قال المهدي : هذا رأئى مستقيم سديد ، في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا ، وتحامل وولاتنا ؛ فأما الجنود الذين نقضوا موثيق العهود ، وأنطقوا لسان الإرجاف ، وفتحوا باب المعصية ، وكسروا قيّد الفتنة ، فقد ينبغى لهم أن أجعلهم نكالا لنيرهم ، وعِظة لسوام ، فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد ، مُقرّنين ^(٣) في الأصفاد ^(٤) ، ثم اتسع لِحَقْنِ دماثهم عفوّه ، ولا إقالة عثرتهم صَفْحُهُ ، واستبقام لما هم فيه من حربته ، أو لمن يلازمهم من عدوه ، لَمَا كَانَ بِدَعَا من رأيه ، ولا مستنكراً من نظره ، لقد علمت العربُ أنه أعظم الخلفاء والملوك عفوّاً ، وأشدّها وقماً ، وأصدقها صولة ، وأنه لا يتعاضمه ^(٥) عفوّاً ، ولا يتكأء دُهُ ^(٦) صفحاً ، وإن عظم الذنبُ ، وجَل الخَطْبُ ، فالرأى للمهدي وفقه الله تعالى أن يَحُل عُقدة الغيظ ، بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم ، وأن يذكر أولى حالاتهم ، وَضِيعة عيالاتهم ، بِرأبهم ، وتوسّماً لهم ، فإنهم إخوان دولته ،

[١] جمع خريظة وهي وطاء من آدم وغيره يشرح على ما فيه . [٢] التوبة : الحاجة وبلوغ العهدة في الشيء . [٣] مقيدين . [٤] الأصفاد : القيود : جمع صغد كسب . [٥] تماظمه الأمر : عظم عليه . [٦] تكأءه الأمر : شق عليه .

وأركان دعوته ، وأساس حقه الذين بعزتهم يصول ، وبُحُجَّتْهم يقول ، وإنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مَسَاخِطِه ، وتعرّضوا له من معاصيه ، وانطوا فيه عن إجابته ، ومثله في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم ، أو نُقِل من حاله لهم ، أو تغير من نعمته بهم ، كمثل رجلين أخوين متناصرين متوازيين ، أصاب أحدهما خبيلٌ عارض ، ولهُوَ حادث ، فنهض إلى أخيه بالأذى ، وتحامل عليه بالمكروه ، فلم يزد أخوه إلا رِقَّةً له ، ولطفاً به ، واحتيالاً لمداواة مرضه ، ومراجعة حاله ، عطفاً عليه ، وبراً به ، ومَرَحْمَةً له .

فقال المهدي : أما عليّ فقد نوى سَمَت اللّيان^(١) ، وَفَضَّ القلوبِ في أهل خراسان ، ولكلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرًّا ، فقال : ماترى يا أبا محمد يعنى موسى ابنه (الهادي) .

٥٩ - مقال موسى بن المهدي

فقال موسى :

« أيها المهدي : لَا تَسْكُنْ إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم ، وأنت ترى الدماء تسيل من خَلَلِ فعلهم ، الحائِ من القوم ينادى بِمَضْمَرَةٍ شر ، وَخَفِيَّةٍ حِقْد ، قد جعلوا المعاذيرَ عليها سِتْرًا ، واتخذوا العِللَ من دونها حجابًا ، رجاء أن يدافعوا الأيامَ بالتأخير ، والأُمُورَ بالتطويل ، فيكسِرُوا حَيْلَ المهدي فيهم ، ويُفْنُوا جنودَه عنهم ، حتى يتلاحم أمرهم ، وتتلاحق مادّتهم ، وتستفحل حربهم ، وتستمر الأمور بهم ، والمهدي من قولهم في حالِ غِرَّةٍ ، ولِبَاسِ أَمَنَةٍ ، قد قَتَرَ لها ، وَأَنَسَ بها ، وسكن إليها ، ولولا ما اجتمعت به قلوبهم ، وَبَرَدَتْ عليه جلودهم من المناصبَةِ بالقتال ، والإضرار للقراع ، عن داعية ضلال ، أو شيطان

[١] الليان : اللابنة . مصدر لاین ، والنبت : الطريق .

فساد ، لَزَهَبُوا عواقب أخبار الوُلاة ، وَغِيبَ سكون الأمور ، فليشدُّ المهدي وفقه الله أزره^(١) لهم ، ويكتب كتابه نحوهم ، وليضع الأمر على أشد ما يحضره فيهم ، وليوقن أنه لا يعطيهم خُطة يريد بها صلاحهم ، إلا كانت دُرْبَة إلى فسادهم ، وقوة على معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم ، وسبباً لفساد مَنْ بِحَضْرَتِهِ من الجنود ، ومن بيابه من الوفود الذين إن أقرَّمهم ، وتلك العادة ، وأجرهم على ذلك الأرب ، لم يبرح في فتقٍ حادث ، وخلافٍ حاضر ، لا يصلح عليه دين ، ولا تستقيم به دنيا ، وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدُرْبَة ، لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المُفرِطة ، والمثونة الشديدة ، والرأي للمهدي وفقه الله أن لا يُقبل عثرتهم ، ولا يقبل معذرتهم ، حتى تطأهم الجيوش ، وتأخذهم السيوف ، ويستحجرو^(٢) . ثم القتل ، ويُحدِّق بهم الموت ، ويحيط بهم البلاء ، وَيُطَبِّق عليهم الذل ، فإن فعل المهدي بهم ذلك ، كان مَقْطَعَة لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمة لكل بادرةٍ شرٍّ منهم ، واحتمالُ المهدي في مَثُونَة غزوتهم هذه ، تضع عنه غزواتٍ كثيرة ، ونفقاتٍ عظيمة .

فقال المهدي : « قد قال القوم ، فاحكم يا أبا الفضل » .

٦٠ - مقال العباس بن محمد

فقال العباس بن محمد :

« أيها المهدي : أما الموالى فأخذوا بفروع الرأي ، وسلكوا جنّبات الصواب ، وتعدّوا أموراً قصّر بنظرهم عنها ، أنه لم تأت تجارِبُهُم عليها ، وأما الفضل فأشار بالاموال أن لا تُنْفَق ، والجنود ألا تُفَرَّق ، وبأن لا يُعْطَى القوم ما طلبوا ، ولا

يُبْذَلُ لَهُمْ مَسْأَلُوا ، وَجَاءَ بِأَمْرِ يَبِينُ ذَلِكَ اسْتِصْفَارًا لَأَمْرِهِمْ ، وَاسْتِهَانَةً بِحَرْبِهِمْ ،
وَإِنَّمَا يَهَيِّجُ جَسِيَّاتِ الْأُمُورِ صَغَارُهَا .

وَأَمَّا عَلِيٌّ ، فَأَشَارَ بِاللَّيْنِ وَإِفْرَاطِ الرَّفْقِ ، وَإِذَا جَرَّدَ الْوَالِي لِمَنْ غَمَطَ أَمْرَهُ ،
وَسَفَهُ حَقَّهُ ، اللَّيْنُ بَحْتًا ، وَالْخَيْرُ مُحْضًا ، لَمْ يَخْلِطْهُمَا بِشِدَّةٍ تَعْطِفُ الْقُلُوبَ عَنْ لَيْنِهِ ،
وَلَا بِشَرٍّ يَحْبِسُهُمْ إِلَى خَيْرِهِ ، فَقَدْ مَلَّكَهُمُ الْخَلْعَ لِعِزِّهِمْ ، وَوَسَّعَ لَهُمُ الْفُرْجَةَ
لِقَتْنِي أَعْنَاقِهِمْ ، فَإِنْ أَجَابُوا دَعْوَتَهُ ، وَقَبِلُوا لَيْنَهُ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ اضْطَرَّهُمْ وَلَا شِدَّةٍ ،
فَنَزْوَةٌ ^(١) فِي رءِ وَسْهُمْ ، يَسْتَدْعُونَ بِهَا الْبَلَاءَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَيَسْتَصْرَخُونَ بِهَا
رَأْيَ الْمَهْدَى فِيهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلُوا دَعْوَتَهُ ، وَيَسْرِعُوا لِإِجَابَتِهِ بِاللَّيْنِ الْمَحْضِ ،
وَالْخَيْرِ الصَّراحِ ، فَذَلِكَ مَا عَلَيْهِ الظَّنُّ بِهِمْ ، وَالرَّأْيُ فِيهِمْ ، وَمَا قَدْ يَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ
مِنْ مِثْلِهِمْ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْجَنَّةَ ، وَجَعَلَ فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الْمَقِيمَ ، وَالْمَلِكَ
الْكَبِيرَ ، مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَلَا تُذَكِّرُكَ الْفِكْرَ ، وَلَا تَعْلَمُهُ نَفْسٌ ، ثُمَّ دَعَا
النَّاسَ إِلَيْهَا ، وَرَغَّبَهُمْ فِيهَا ، فَلَوْلَا أَنَّهُ خَلَقَ نَارًا جَعَلَهَا لَهُمْ رَحْمَةً يَسُوقُهُمْ بِهَا إِلَى
الْجَنَّةِ ، لَمَا أَجَابُوا وَلَا قَبِلُوا .

وَأَمَّا مُوسَى ، فَأَشَارَ بِأَنْ يُعْصَبُوا بِشِدَّةٍ لَالَيْنَ فِيهَا ، وَأَنْ يُرْمَوْا بِشَرٍّ لِاخْتِيارِ
مَعَهُ ، وَإِذَا اضْمَرَ الْوَالِي لِمَنْ فَارَقَ طَاعَتَهُ ، وَخَالَفَ جَمَاعَتَهُ ، الْخَوْفَ مُفْرَدًا ، وَالشَّرَّ
مَجْرَدًا ، لَيْسَ مَعَهُمَا طَمَعٌ ، وَلَا لَيْنٌ يُثْنِيهِمْ ، اشْتَدَّتْ الْأُمُورُ بِهِمْ ، وَانْتَضَعَتْ
الْحَالُ مِنْهُمْ إِلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ ، إِمَّا أَنْ تَدْخُلَهُمُ الْحَمِيَّةُ مِنَ الشَّدَّةِ ، وَالْأَنْفَةُ مِنَ الذَّلَّةِ ،
وَالْامْتِعَاضُ مِنَ الْقَهْرِ ، فَيَدْعُوهُمْ ذَلِكَ إِلَى التَّمَادِي فِي الْخِلَافِ ، وَالِاسْتِبْسَالِ فِي
الْقِتَالِ ، وَالِاسْتِسْلَامِ لِلْمَوْتِ ، وَإِمَّا أَنْ يَنْقَادُوا بِالْكَرْهِ ، وَيُذْعَنُوا بِالْقَهْرِ عَلَى

بِغِيْضَةٍ لَازِمَةٍ ، وَعِدَاوَةٍ بَاقِيَةٍ ، ثُوْرَثِ النِّفَاقِ ، وَتُعْقِبِ الشَّقَاقِ ، فَإِذَا أَمَكَّتْهُمْ فِرْصَةٌ ، أَوْ ثَابَتَ ^(١) لَهُمْ قَدْرَةٌ ، أَوْ قَوِيَتْ لَهُمْ حَالٌ ، عَادَ أَمْرُهُمْ إِلَى أَصْعَبِ وَأَغْلَظِ وَأَشَدِّ مِمَّا كَانَ .

وَقَالَ فِي قَوْلِ أَبِي الْفَضْلِ : أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، أَكْفَى دَلِيلٍ ، وَأَوْضَحَ بَرَهَانَ ، وَأَيِّنَ خَبْرٍ بَأَنَّ قَدْ أَجْمَعَ رَأْيَهُ ، وَحَزَمَ نَظْرَهُ عَلَى الْإِرْشَادِ بِبِعْتَةِ الْجِيُوشِ إِلَيْهِمْ ، وَتَوَجِيهِ الْبِعُوْثِ نَحْوَهُمْ ، مَعَ إِعْطَائِهِمْ مَا سَأَلُوا مِنَ الْحَقِّ ، وَإِجَابَتِهِمْ إِلَى مَا سَأَلُوهُ مِنَ الْعَدْلِ .
قَالَ الْمَهْدِيُّ : ذَلِكَ رَأَى .

٦١ - مَقَالُ هَرُونَ بْنِ الْمَهْدِيِّ

قَالَ هَرُونَ :

« خَلَطْتَ الْشِدَّةَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ بِاللَّيْنِ ، فَصَارَتْ الشِدَّةُ أَمْرًا فِطَامًا لِمَا تَكْرَهُ ، وَعَادَ اللَّيْنُ أَهْمَدِيَّ قَائِدًا إِلَى مَا تَحِبُّ ، وَلكِنْ أَرَى غَيْرَ ذَلِكَ » .
قَالَ الْمَهْدِيُّ : « لَقَدْ قَلَّتْ قَوْلًا بَدِيحًا ، وَخَالَفْتَ فِيهِ أَهْلَ بَيْتِكَ جَمِيْعًا ، وَالْمَرْءُ مُؤْتَمِنٌ بِمَا قَالَ ، وَظَنِيْنٌ بِمَا أَدَّعَى ، حَتَّى يَأْتِيَ بَيِّنَةٌ عَادِلَةٌ ، وَحُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ ، فَاخْرُجْ عَمَّا قَلَّتْ » قَالَ هَرُونَ : « أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنْ الْحَرْبُ خُدْعَةٌ ^(٢) ، وَالْأَعَاجِمُ قَوْمٌ مَكْرَةٌ ، وَرَبْمَا اعْتَدَلْتَ الْحَالَ بِهِمْ ، وَاتَّفَقْتَ الْأَهْوَاءَ مِنْهُمْ ، فَكَانَ بَاطِنُ مَا يُسْرُونَ عَلَى ظَاهِرِ مَا يُعْلِنُونَ ، وَرَبْمَا اقْتَرَقْتَ الْحَالَانِ ، وَخَالَفَ الْقَلْبَ اللَّسَانَ ، فَانطَوَى الْقَلْبُ عَلَى مَحْجُوْبَةٍ تُبْطِنُ ، وَاسْتَسْرَّ بِمَدْخَوْلَةٍ لَا تَعْلَنُ ، وَالطَّيِّيبُ الرَّفِيْقُ بِطَبِّهِ ، الْبَصِيْرُ بِأَمْرِهِ ، الْعَالِمُ بِمُقَدَّمِ يَدِهِ ، وَمَوْضِعِ مَيْسَمِهِ ^(٣) لَا يَتَعَجَّلُ الدَّوَاءَ ، حَتَّى يَقَعَ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّاءِ ، فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ « وَفَقَهُ اللَّهُ » أَنْ يَقِرَّ ^(٤) بِبَاطِنِ أَمْرِهِمْ قَرَّ

[١] رجعت . [٢] خدعة بسكون الدال وتثنية الحاء ، وبضم الحاء وفتح الدال ، أى تنقض بخدعة .

[٣] الميسم : المكواة . [٤] فر الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف سنها .

المُسِنَّة ، ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء ، بمتابعة الكتب ، ومظاهرة الرسل ،
وموالاة العيون ، حتى تُهتَكَ حُجُبُ عيونهم ، وتكشف أغطية أمورهم ، فإن
انفجرت الحال وأفضت الأمور به إلى تغيير حال ، أو داعية ضلال اشتملت
الأهواء عليه ، وانقاد الرجال إليه ، وامتدت الأعناق نحوه بدين يعتقدونه ، وإثم
يستحلونه ، عَصَبَهُمْ بِشَدَّةٍ لَا لَيْنَ فِيهَا ، ورماهم بعقوبة لا عَفْوَ معها ، وإن
انفجرت العيون ، واهتضرت الستور ، ورُفِعَتِ الحُجُبُ ، والحال فيهم مَرِيعة ^(١) ،
والأمور بهم معتدلة ، في أرزاق يطلبونها ، وأعمال يُنكرونها ، وظلّاماتٍ
يدعونها ، وحقوقٍ يسألونها ، بما تَتَّبَعَتْ سابقتهم ، ودالة مناصحتهم ، فالرأي للمهدى
- وَفَقَهُ اللَّهُ - أن يتسع لهم بما طلبوا ، ويتجافى لهم عما كرهوا ، وَيَشْعَبُ ^(٢) من
أمرهم ما صدعوا ، وَيَرْتُقُ من فَتَقِهِمْ ما قطعوا ، ويولّى عليهم من أحبوا ،
ويداوى بذلك مرض قلوبهم ، وفساد أمورهم ، فإنما المهدى وأمته ، وسواد
أهل مملكته ، بمنزلة الطبيب الرفيق ، والوالد الشفيق ، والراعى المجرب الذى
يحتال لِمَرَابِضِ غنمه ، وَضَوَالَ رعيته ، حتى يُبْرِئَ المريضة من داء علتها ، ويردّ
الصحيحة إلى أنس جماعتها ، ثم إن خراسان بخاصة الذين لهم دالة محمولة ، ومائة
مقبولة ، ووسيلة معروفة ، وحقوق واجبة ، لأنهم أيدي دولته ، وسيوف دعوته ،
وأنصار حقه ، وأعوان عدله ، فليس من شأن المهدى الاضطغان عليهم ، ولا
المؤاخذة لهم ، ولا التوغر ^(٣) بهم ، ولا المكافأة بإساءتهم ، لأن مبادرة حسم
الأمور ضعيفة قبل أن تقوى ، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ ،

[١] مرع الوادى ككرم مراعاة : أخصب بكنزة السكلا فهو مرع .

[٢] يشعب . [٣] توغر الرجل : تشعد .

أحزمُ في الرأي ، وأصح في التدبير ، من التأخير لها ، والتهاون بها ، حتى يلتئم قليلاً بكثيرها ، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها .

قال المهدي : « ما زال هرون يقع وَقَع الحيا ^(١) ، حتى خرج خروج القَدَح من الماء ، وانسَلَّ انسلال السيف فيما ادعى ، فدعُوا ما سبق موسى فيه أنه هو الرأي ، وثنى بعده هرون ، ولكن مَن لَأَعْنَةُ الخيل وسياسة الحرب ، وقيادة الناس ، إن أمعن بهم اللجاج ، وأفرطت بهم الدَّالَّةُ ؟ » .

٦٢ — مقال صالح بن علي ^(٢)

قال صالح :

« لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِرَاسَةٍ رأيك ، وبعضَ لَحَظَاتِ نظرك ، وليس ينفضُ عنك من بيوتات العرب ، ورجالاتِ العجم ، ذودين فاضل ، ورأى كامل ، وتدبير قوى ، تقلده حربك ، وتستودعه جندك ، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ، وَيَضْطَلِعُ بالأعباء الثقيلة ، وأنت بحمد الله ميمون النَّقِيبَةِ ^(٣) ، مبارك العزيمة ، تخبُور التجارب ، محمود العواقب ، معصوم العزم ، فليس يقع اختيارك ، ولا يقف نظرك على أحد تُوليه أمرك ، وتُسند إليه ثَمَرَك ، إلا أراك الله ما تحب ، وجمع لك منه ما تريد . »

قال المهدي : « إني لأرجو ذلك لتقديم عادة الله فيه ، وحسن معوته عليه ، ولكن أحب الموافقة على الرأي ، والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم . »

٦٣ — مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أهل خراسان أيها المهدي قومٌ ذوو عِزَّةٍ وَمَنَعَةٍ ، وشياطينٌ خَدَعَةٌ ،

[١] للطر . [٢] هو صالح بن علي بن عبدالله بن عباس . [٣] الفس والطبيعة .

زروع الحمية فيهم نابتة ، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة ، فالروية عنهم عازبة ،
والعجلة فيهم حاضرة ، تسبق سيولهم مطرهم ، وسيوفهم عدلهم ، لأنهم بين
سيفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم ، وبين رؤساء لا يلجمون إلا بشدة ،
ولا يقطمون إلا بالمر ، وإن ولي المهدي عليهم وضعاً لم تنقذ له العظماء ، وإن
ولي أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء ، وإن آخر المهدي أمرهم ، ودافع حربهم ،
حتى يُصيب نفسه من حشمه ومواليه أو بنى عمه أو بنى أبيه ناصحاً ، يتفق عليه
أمرهم ، وثقةً تجتمع له أملاؤهم^(١) ، بلا أنفة تلزمهم ، ولا حمية تدخلهم ، ولا
مصيبة تنفرهم ، تنفست الأيام بهم ، وتراخت الحال بأمرهم ، فدخل بذلك من
الفساد الكبير ، والضياع العظيم ، ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد ،
ولا يستصلحه وإن جهد ، إلا بعد دهر طويل ، وشر كبير ، وليس المهدي وفقه
الله فاطماً عاداتهم ، ولا قارِعاً صفاتهم^(٢) ، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ، ولا
عدل^(٣) في ذلك بهما ، أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك ، ويد ممتلئة لعينك ،
وصخرة لا تُرغزع ، وبهمة^(٤) لا تُثنى ، وبازل^(٥) لا يُفزع صوت الجللج ،
نقى العرض ، تزيه النفس ، جليل الخطر^(٦) ، اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما
نحو الآخرة بهمته ، وجعل العرض الأقصى لعينه نصباً ، والعرض الأدنى لقدمه
موطئاً ، فليس يقبل عملاً ، ولا يتعدى أملاً ، وهو رأس مواليك ، وأنصح
بنى أبيك ، رجل قد غدّى بلطيف كرامتك ، ونبتت في ظل دولتك ، ونشأ على

[١] جمع ملاء كسبب وهو الجماعة . [٢] الصفاة : الحجر الصلد الضخم . [٣] العدل : الظير .

[٤] البهمة : الصخرة ، والشجاع الذى لا يهتدى من أين يؤتى . [٥] البازل : الجمل فى السنة

الناسعة ، والرجل الكامل فى تجربته . [٦] انقدر .

قوائم أدبك ، فإن قلّدتَه أمرهم ، وحمّلتَه ثِقَلَمهم ، وأسندتَ إليه ثغرهم ، كان
قُفلاً فتحه أمرُك ، وباباً أغلقه نهْيُك ، فجعل العدل عليه وعليهم أميراً ، والإنصاف
بينه وبينهم حاكماً ، وإذا أحكم المنصفه ، ومملك العدله ، فأعطاهم ما لهم ، وأخذ
منهم ما عليهم ، غرس لك في الذي بين صدورهم ، وأسكن لك في السؤيّداء ،
داخل قلوبهم ، طاعة راسخة المروق ، باسقة الفروع ، متماثلة في حواشي عوامهم ،
متمكنة من قلوب خواصهم ، فلا يبقى فيهم ريبٌ إلا نفوه ، ولا يلزمهم حقٌ إلا
أدوه ، وهذا أحدهما ، والآخر عودٌ من غيضتك ^(١) ، ونبعة من أرومتك ، فتى
السن ، كهل الحلم ، راجح العقل ، محمود الصرامة ، مأمون الخلاف ، يجرّد فيهم
سيفه ، وييسّط عليهم خيره ، بقدر ما يستحقون ، وعلى حسب ما يستوجبون ، وهو
فلان ، أيها المهدي ، فسّطه أعزك الله عليهم ، ووجهه بالجيوش إليهم ، ولا تمنعك
ضراعة ^(٢) سنّه ، وحادثة مؤلّده ، فإن الحلم والثقة مع الحداثة ، خير من الشك
والجهل مع الكهولة ، وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختصم
به ، من مكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير ،
وصرامة الأنفس ، كفراخ عتاق الطير ، المُحكّمة لأخذ الصيد بلا تدرّيب ،
والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب ، فالحلم والعلم ، والعزم والحزم ، والجود والتؤدّة ،
والرفق ، ثابت في صدوركم ، مزروع في قلوبكم ، مُستحكّم لكم ، متكاملٌ
عندكم ، بطبائع لازمة ، وغرائز ثابتة .

٦٤ - مقال معاوية بن عبد الله

قال معاوية بن عبد الله :

[١] البيضة : الأجة ومجتمع الشجر في مفيض ماء . [٢] المراد حداثة .

« أفتاء^(١) أهل بيتك أيها المهدي في الحِلْمِ على ما ذكر، وأهل خراسان في حال عزٍّ على ما وُصِفَ، ولكن إن وُلِّي المهدي عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود، ولا بنبية الصوت في الحروب، ولا بطويل التجربة للأمور، ولا بمعروف السياسة للجيوش، والهَيِّبَةِ في الأعداء، دخل ذلك أمران عظيمان، وَخَطَرَانِ مَهُولَانِ، أحدهما أن الأعداء يفتمزونها منه، ويحتقرونها فيه، ويحتثرون بها عليه، في النهوض به، والمقارعة له، والخلاف عليه، قبل ما حين الاختبار لأمره، والتكشف لحاله، والعلم بطباعه؛ والأمر الآخر أن الجنود التي يقود، والجيوش التي يسوس، إذا لم يختبروا منه البأس والنَّجْدَةَ، ولم يعرفوه بالصوت^(٢) والهَيِّبَةَ، انكسرت شجاعتهم، وماتت نَجْدَتُهُمْ، واستأخرت طاعتهم، إلى حين اختبارهم، ووقوع معرفتهم، وربما وقع البوارُ قبل الاختبار، وبياب المهدي - وَفَقَّهُ اللهُ - رجل مَهِيْبٌ، نبيه، حَنِيْكَ،^(٣) صَيِّتٌ، له نسبٌ زاكٌ، وصوتٌ عالٌ، قد قاد الجيوشَ وساس الحروبَ، وتألَّفَ أهلَ خراسانَ، واجتمعوا عليه عليه بالِمَقَّةِ، ووثقوا به كل الثَّقة، فلو ولَّاه المهدي أمرهم، لكفاه الله شرهم . قال المهدي: « جانبَتَ قَصْدَ الرَّمِيَّةِ، وَأَيَّنْتَ إِلا عَصَبِيَّةً، إِذ رَأَى الحَدَثَ من أهل بيتنا، كراي عشرة حُلَمَاءَ من غيرنا، ولكن أين تركتم ولي العهد؟ » . قالوا: « لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيهه جده، ونسيجَ وحده^(٤)، ومن الدين وأهله، بحيث يقصُرُ القول عن أدنى فضله، ولكن وجدنا الله عز وجل حَجَبَ عن خلقه، وسَتَرَدونَ عبادَه، عِلْمَ ما تختلف به الأيام، ومعرفة ما تجرى

[١] جمع فتى كيتيم وأيتام . [٢] الصوت والصفات والصيت : الذكر الحسن . [٣] محتك . [٤] هو نسيج وحده : لا نظير له منفرد بمخال محمودة لا يشركه فيها غيره ، كما أن الثوب النفيس لا يتسج على منواله غيره ، أي لا يشركه فيه وبين غيره في السدى .

عليه المقاديرُ من حوادث الأمور ، ورَيْبُ المنون ^(١) الْمُخْتَرِمَةُ لِحَوَالِي القرون ، وَمَوَاضِي الملوك ، فِكْرِهِنا شُسُوعَه ^(٢) عن مَحَلَّةِ الملك ، ودار السلطان ، ومقرَّ الإمامة والولاية ، وموضع المدائن والحزائن ، ومستقرَّ الجنود ، وَمَعْدِنِ الجُود ، وَتَجْمَعِ الأموال ، التي جعلها الله قُطْبًا لِمَدَارِ الملك ، ومِصِيدَةً لقلوب الناس ، وَمَثَابَةً لِإِخْوَانِ الطمع ، وثُؤَارِ الفتن ، ودواعي البِدْع ، وفُرْسَانِ الضلال ، وأبناء الموت ، وقلنا إن وَجَّهَ المهدي وليَّ عَهْدِهِ ، فحدث في جيوشه وجنوده ، ما قد حدث بِجُنُودِ الرسل من قبله ، لم يستطع المهدي أن يُمَقِّبَهُم بغيره ، إلا أن ينهَضَ إليهم بنفسه ، وهذا خَطَرٌ عَظِيمٌ ، وهول شديد ، إن تنفَّست الأيام بمقامه ، واستدارت الحال بِإِمَامِهِ ، حتى يقع عِوَضٌ لا يُسْتَغْنَى عنه ، أو يَحْدُثُ أمرٌ لا بُدَّ منه ، صار ما بعده مما هو أعظم هَوْلًا ، وأجل خَطَرًا ، له تَبَعًا ، وبه متصلاً .

٦٥ - مقال المهدي

قال المهدي :

« الْخَطْبُ أَيْسَرُ مما تذهبون إليه ، وعلى غير ما تصفون الأمرَ عليه ، نحن أهل البيت نجرى من أسباب القضايا ، ومواقع الأمور ، على سابقٍ من العلم ، ومحتومٍ من الأمر ، قد أنبأت به الكتبُ ، وَتَنَبَّأت عليه الرسلُ ، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا ، وتكامل بحذافيره ^(٣) عندنا ، فيه ندبٌ ، وعلى الله تتوكل ، إنه لا بُدَّ لوليِّ عَهْدِي ، ووليِّ عَهْدِ عَقْبِي بعدي ، أن يقود إلى خراسان البعوثَ ، ويتوجه نحوها بالجنود ؛ أما الأول فإنه يُقَدِّم إليهم رسله ، ويُعْمَلُ فيهم حِيَلَهُ ،

[١] النوى المنية (مؤنث) والمخرمة : المهلكة ، والحوالي جمع خالية وهي الماضية .

[٢] شمع كنع شسما وشسوطا : يمد فهو شاسع وشسوع .

[٣] جمع حذفور كصفورٍ أو حنقار كقرطاس وهو الجاذب .

ثم يخرج نَشِيطًا إِلَيْهِمْ ، حَنِقًا عَلَيْهِمْ ، يريد أن لا يدعَ أحداً من إخوان الفتن ، ودواعي البدع ، وفُرسان الضلال ، إلا توطأه بحرَّ القتل ، وألبسه قِنَاعَ القَهْر ، وقلَّده طوقَ الذل ، ولا أحداً من الذين عملوا في قصِّ جَنَاحِ الفتنَةِ ، وإخمادِ نارِ البدعة ، ونُصرةِ وِلاَةِ الحق ، إلا أجرى عليهم دِيَمَ فضلِهِ ، وجداولَ نَهْلِهِ ، فإذا خرج مُزْمِعًا بِهِ ، مُجْمِعًا عَلَيْهِ ، لم يَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَأْتِيَهُ أَنْ قَدِ عَمَلَتْ حِيلُهُ ، وَكَدَحَتْ كِتَبُهُ ، وَنَفَذَتْ مَكَايِدَهُ ، فَهَدَّاتُ نَافِرَةُ الْقُلُوبِ ، وَوَقَعَتْ طَائِرَةُ الْأَهْوَاءِ ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْمُخْتَلِفُونَ بِالرِّضَا ، فِيمِيلُ نَظْرًا لَهُمْ ، وَبِرًّا بِهِمْ ، وَتَعَطَّفًا عَلَيْهِمْ ، إِلَى عَدُوِّ قَدِ أَخَافَ سَبِيلَهُمْ ، وَفَطَعَ طَرِيقَهُمْ ، وَمَنَعَ حِجَابَهُمْ بِيَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَسَلَبَ تِجَارَتَهُمْ رِزْقَ اللَّهِ الْحَلَالِ ؛ وَأَمَّا الْآخِرُ فَإِنَّهُ يُوَجِّهُ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تَعْتَقِدُ لَهُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ بِإِعْطَاءِ مَا يُطْلَبُونَ ، وَبَدَلِ مَا يُسْأَلُونَ ، فَإِذَا سَمَّحَتْ الْفِرْقُ بِقِرَابَاتِهَا لَهُ ، وَجَنَحَ أَهْلُ النُّوَاحِي بِأَعْنَاقِهِمْ نَحْوَهُ ، فَأَصْنَعَتْ إِلَيْهِ الْأَفْتَدَةَ ، وَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْكَلِمَةُ ، وَقَدِمَتْ عَلَيْهِ الْوَفُودُ ، قَصَدَ لِأَوَّلِ نَاحِيَةٍ بَحَثَتْ^(١) بِطَاعَتِهَا ، وَأَلْقَتْ بِأَزِمَّتِهَا ، فَأَلْبَسَهَا جَنَاحَ نِعْمَتِهِ ، وَأَنْزَلَهَا ظِلَّ كَرَامَتِهِ ، وَخَصَّهَا بِعَظِيمِ حِبَابِهِ^(٢) ، ثُمَّ عَمَّ الْجَمَاعَةَ بِالْمُعْدِلَةِ ، وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ ، فَلَا تَبْقَى فِيهِمْ نَاحِيَةٌ دَانِيَةٌ ، وَلَا فِرْقَةٌ قَاصِيَةٌ ، إِلَّا دَخَلَتْ عَلَيْهَا بَرَكَتُهُ ، وَوَصَلَتْ إِلَيْهَا مَنَفَعَتُهُ ، فَأَغْنَى فَقِيرَهَا ، وَجَبَّرَ كَسِيرَهَا ، وَرَفَعَ وَضِعَهَا ، وَزَادَ رَفِيعَهَا ، مَا خَلَا نَاحِيَتَيْنِ ، نَاحِيَةً يَغْلِبُ عَلَيْهَا الشَّقَاءُ ، وَتَسْتَمِيلُهُمُ الْأَهْوَاءُ ، فَتَسْتَخْفِ بِدَعْوَتِهِ ، وَتُثْبِطُ عَنْ إِبَابَتِهِ ، وَتَتَنَاقَلُ عَنْ حَقِّهِ ، فَتَكُونُ آخِرَ مَنْ يَبْعَثُ ، وَأَبْطَأَ مَنْ يُوَجِّهُ ، فَيُصْطَلِي عَلَيْهَا مَوْجِدَةٌ ، وَيَبْتَغِي لَهَا عِلَّةً ، لَا يَلْبَثُ يَجِدُ^(٣) بِحَقِّ يَلْزَمُهُمْ ، وَأَمْرٍ يَجِبُ عَلَيْهِمْ ؟ فَتَسْتَلْحِمُهُمْ

[١] ينجم بالحق بجوعاً : أقربه وخضع له . [٢] عطائه . [٣] يعضب .

الجيش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحرق بهم القتل ، ويحيط بهم الأشر ، ويفنيهم
التبغ ، حتى يُخرب البلاد ، ويؤتم الأولاد ، وناحية لا يبسط لهم أماناً ، ولا يقبل
لهم عهداً ، ولا يعمل لهم ذمة ، لأنهم أول من فتح باب الفرقة ، وتدرع جلاب
الفتنة ، وربض في شق العصا ، ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوادهم ، ويطلب
هزأهم ، في أجج البحار ، وقُلل الجبال ، وجميل^(١) الأودية ، وبتون الأرض ،
تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً ، حتى يدع الديار خراباً ، والنساء أيتام ، وهذا أمر
لا نعرف له في كتبنا وقتاً ، ولا نصحح منه غير ما قلنا تفسيراً ؛ وأما موسى ولى
عهدي ، فهذا أوان توجّهه إلى خراسان ، وحلوله بجزجان ، وما قضى الله له من
الشخص إليها ، والمقام فيها ، خير للمسلمين مغبة ، وله بإذن الله عاقبة من المقام
بحيث يُغمر في لجج بحورنا ، ومدافع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ، فيتصاغر عظيم
فضله ، ويتذأب^(٢) مشرق نوره ، ويتقلل كثير ما هو كائن منه ، فمن يصحبه
من الوزراء ، ويختار له من الناس ؟ .

٦٦ - مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أيها المهدي : إن ولى عهدك أصبح لأمتك ، وأهل ملتك ، علماً قد تثنت
نحوه أعناقها ، ومدت سمته أبصارها . وقد كان اقرب داره منك ، ومحل
جواره لك ، عطل^(٣) الحال ، غفل الأمر ، واسع العذر . فأما إذا انفرد بنفسه .
وخلا بنظره . وصار إلى تدييره . فإن من شأن العامة أن تتفقّد مخارج رأيه .

[١] الجميل : بطن السيل . [٢] يضطرب .

[٣] عطل (كفرح) من المال والأدب خلا فهو عطل كقفل بوعتق .

وَتَسْتَنْصِتْ لِمَوَاقِعِ آثَارِهِ ، وَتَسْأَلُ عَنِ حَوَادِثِ أَحْوَالِهِ ، فِي بَرِّهِ وَرَحْمَتِهِ
وَإِقْسَاطِهِ ^(١) وَمَعَدَلَتِهِ ، وَتَدِيرُهُ وَسِيَاسَتَهُ ، وَوِزْرَانَهُ وَأَصْحَابَهُ . ثُمَّ يَكُونُ مَا سَبَقَ
إِلَيْهِمْ أَغْلِبَ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَأَمْلَكَ الْأُمُورَ بِهِمْ ، وَأَلْزَمَهَا لِقُلُوبِهِمْ ، وَأَشَدَّهَا
اسْتِمَالَةً لِرَأْيِهِمْ ، وَعَظْفًا لِأَهْوَاءِهِمْ . فَلَا يَفْتَأُ الْمَهْدِيُّ - وَفَقَهُ اللَّهِ - نَازِرًا لَهُ فِيمَا يَقْوَى
عَمْدَ مَمْلَكَتِهِ ، وَيَسُدُّ أَرْكَانَ وَلَايَتِهِ ، وَيَسْتَجْمَعُ رِضَا أُمَّتِهِ بِأَمْرٍ هُوَ أَزِينُ لِحَالِهِ .
وَأَظْهَرُ لِحَمَالِهِ ، وَأَفْضَلُ مَغَبَّةً لِأَمْرِهِ ، وَأَجَلُ مَوْقِعًا فِي قُلُوبِ رَعِيَّتِهِ ، وَأَحْمَدُ حَالًا
فِي نَفُوسِ أَهْلِ مِلَّتِهِ . وَلَا أَدْفَعُ مَعَ ذَلِكَ بِاسْتِجْمَاعِ الْأَهْوَاءِ لَهُ . وَأَبْلَغُ فِي
اسْتِعْطَافِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ ، مِنْ مَرَّحِمَةٍ تَظْهَرُ مِنْ فِعْلِهِ . وَمَعْدَلَةٌ تَنْتَشِرُ عَنْ أَثَرِهِ .
وَمَحَبَةٌ لِلْخَيْرِ وَأَهْلِهِ ، وَأَنْ يَخْتَارَ الْمَهْدِيُّ - وَفَقَهُ اللَّهُ - مِنْ خِيَارِ أَهْلِ كُلِّ بَلَدَةٍ .
وَفَقَهَاءِ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَقْوَامًا تَسْكُنُ الْعَامَّةُ إِلَيْهِمْ إِذَا ذُكِرُوا ، وَتَأْنَسُ الرِّعِيَّةُ بِهِمْ
إِذَا وُصِفُوا . ثُمَّ تَسَهَّلَ لَهُمْ عِمَارَةُ سُبُلِ الْإِحْسَانِ ، وَفَتَحَ بَابَ الْمَعْرُوفِ . كَمَا قَدْ
كَانَ فُتِحَ لَهُ ، وَسُهِّلَ عَلَيْهِ .

قال المهدي : صدقتَ ونصحتَ . ثم بعث في ابنه موسى ، فقال :

٦٧ - مقال المهدي

« أَيُّ مُبْنِيٍّ . إِنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ لَسَمْتِ وَجْهِهِ الْعَامَّةِ نُصْبًا ، وَلِثْنِيٍّ أَعْطَافِ
الرِّعِيَّةِ غَايَةً ، فَحَسَنُتُكَ شَامِلَةٌ . وَإِسَاءَتُكَ نَائِيَةٌ ، وَأَمْرُكَ ظَاهِرٌ ، فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ
وِطَاعَتِهِ . فَاحْتَمِلِ مَسْخَطَ النَّاسِ فِيهِمَا ، وَلَا تَطْلُبْ رِضَاهُمَا بِخِلَافِهِمَا ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ . كَأَفِيكَ مَنْ أَسْخَطَهُ عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَاهُ . وَلَيْسَ بِكَافِيكَ مَنْ يُسْخِطُهُ
عَلَيْكَ إِثَارُكَ رِضَا مَنْ سِوَاهُ . ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ زَمَانٍ قَتْرَةٌ مِنْ رِيسَلِهِ .

وبقايا من صفوة خلقه ، وخبايا لنصرة حقه ، يمدد حبل الإسلام بدعواهم ،
ويشيّد أركان الدين بنصرتهم ، ويتخذ لأولياء دينه أنصاراً ، وعلى إقامة عدله
أعواناً . يسدّون الخلل ، ويقيمون الميل ، ويدفعون عن الأرض الفساد ، وأن
أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا ، وسيوف دعوتنا ، الذين نستدفع المكاره
بطاعتهم ، ونستصرف نزول العظام بمناصحتهم . ونُدافع ريب الزمان بعزائمهم ،
ونُرأحم ركن الدهر ببصائرهم ، وهم عماد الأرض إذا أرجف كنفها ، وخوف
الأعداء إذا برزت صفحتها ، وحُصون الرعية إذا تضايقت الحال بها ، قدمضت
لهم وقائع صادقات ، ومواطن صالحات ، أخذت نيران الفتن ، وقسمت دواعي
البدع . وأذلت رقاب الجبارين ، ولم ينفكوا كذلك ماجروا مع ريح دولتنا ،
وأقاموا في ظل دعوتنا ، واعتصموا بحبل طاعتنا ، التي أعزّ الله بها ذلتهم ، ورفع
بها ضعتهم ، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرض ، وملوكاً على رقاب العالمين ،
بعد لباس الذل ، وقناع الخوف ، وإطباق البلاء ، ومخالفة الأسي ، وجهّد البأس
والضرّ . فظاهر عليهم لباس كرامتك ، وأنزلهم في حدائق نعمتك ، ثم اعرف
لهم حق طاعتهم ، ووسيلة دالتهم ، ومائة سابقتهم ، وحرمة مناصحتهم ،
بالإحسان إليهم ، والتوسعة عليهم ، والإثابة لمحسنهم ، والإقالة لمسيئهم .

أى بنى ، ثم عليك العامة . فاستدع رضاها بالعدل عليها ، واستجلب مودتها
بالإنصاف لها ، وتحسّن بذلك لربك ، وتوثق به في عين رعيتك ، وأجعل أعمال
العذر وولاية الحجج مُقدّمة بين يدي عمالك ، ونصّفة منك لرعيتك ، وذلك أن
تأمر قاضي كل بلد ، وخيار أهل كل مصر ، أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه
أمرهم ، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم ، فإن أحسنُهم ، وإن أساء عُذرت .

هؤلاء عمال العذر، وولاية الحجج، فلا يسقطن عليك ما في ذلك إذا انتشر في الآفاق، وسبق إلى الأسماع من انعقاد السنة المرجفين، وكبت قلوب الحاسدين، وإطفاء نيران الحروب، وسلامة عواقب الأمور، ولا ينفكن في ظل كرامتك نازلا، وبعرا حبلك متعلقا، رجلا ن: أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب، وأعلام بيوتات الشرف، له أدب فاضل، وحلم راجح، ودين صحيح، والآخر له دين غير مغموز، وموضع غير مدخول، بصير بتقليب الكلام، وتصريف الرأي، وأنحاء العرب، ووضع الكتب، عالم بمجالات الحروب، وتصاريف الخطوب، يضع آدابا نافعة، وآثارا باقية، من محاسنك وتحسين أمرك، وتحلية ذكرك، فتستشيره في حربك، ومدخله في أمرك، فرجل أصبته كذلك، فهو يأوي إلى محلتى، ويرعى في خضرة جنانى، ولاتدع أن تختار لك من فقهاء البلدان، وخيار الأمصار، أقواما يكونون جيرانك وسمارك، وأهل مشاورتك فيما تُورد، وأصحاب مناظرتك فيما تُصدر، فسر على بركة الله، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلا يهدي إلى الصواب قلبك، وهاديا ينطق بالخير لسانك .

وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد (١)

(العقد الفريد ١ : ٥٧)

[١] ملاحظة: أقول: وهذا يتنافى ما ورد في التاريخ: إذ المعروف أن المهدي توفى في المحرم سنة ١٦٩ وأعقبه الهادي، الذي توفى في ربيع الأول سنة ١٧٠، فكيف يكون تاريخ كتابة هذه المشاورة هو ربيع الآخر سنة ١٧٠ أى بعد وفاة المهدي والهادي، مع أنه ذكرى سياق خبرها أن المهدي أمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم، وإنبات مقالاتهم في كتاب، أى أنها كتبت في المجلس الذى حدثت فيه المشاورة. والوارد في التاريخ أيضا أن الهادي خرج إلى جرجان سنة ١٦٦ و ١٦٧ (راجع تاريخ الطبرى ج ١٠ ص ٧ - ٨) اللهم إلا أن يقال إنها كتبت في مجلس المشاورة، وبقيت محفوظة لدى كاتبها، حتى نشرت للناس في ربيع الآخر سنة ١٧٠ أى أن ذلك التاريخ هو تاريخ كتابتها لإعلانها للجمهور، على أسا تشكك فيها من وجهة أخرى، وذلك لما نراه عليها من مسحة الكتابة الفنية المنسقة .

٦٨ - ابن عتبة يعزى المهدي ويهنئه

لما توفى المنصور دخل ابن عتبة^(١) مع الخطباء على المهديّ ، فسلم فقال :
« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك الله لأmir المؤمنين فيما
خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فما مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عظمي
أفضل من وراثته مقام أمير المؤمنين ، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ،
وأحتسب عند الله أفضل الرزية » . (البيان والنبين ٢ : ١٠٣ ، والقدر الفريد ٢ : ٣٥)

٦٩ - يعقوب بن داود يستعطف المهدي

لما سخط المهدي على وزيره يعقوب بن داود^(٢) أحضره ، فقال : يا يعقوب ، قال :
لبيك يا أمير المؤمنين ، تلبية مكروب لوجدتك ، شريقي بغصتكم ، قال : « ألم أرفع
قدرك وأنت خامل ، وأسير ذكرك وأنت هامل ، وألبسك من نعم الله تعالى
ونعمي ما لم أجذ عندك طاقة لحمله ، ولا قياما بشكره ؟ فكيف رأيت الله تعالى
أظهر^(٣) عليك ، وردّ كيدك إليك ! » .

قال : « يا أمير المؤمنين ، إن كنت قلت هذا بتيقن وعلم فإني معترف ، وإن
كان بسعاية الباعين ، ونمائم المعاندين ، فأنت أعلم بأكثرها ، وأنا حائذ
بكرمك ، وعميم شرفك » .

[١] وفي القدر الفريد « أبو العيناء المحدث » .

[٢] وكان المهدي قد فوض إليه الأمور كلها ، وسلم إليه الدواوين ، وقدمه على جميع الناس ، ثم سخط
عليه . وسبب ذلك أنه دفع إليه رجلا من العلويين ، وقال له : أحب أن تكفيني أمره ، فلما صار العلوي في
يده ، قال له : يا يعقوب تلق الله بدمي ، وأنا ابن علي بن أبي طالب ، وابن فاطمة رضي الله عنها ، وليس
لي إليك ذنب ؟ فرق له ، وخلى سبيله ، ونمى الخبر إلى المهدي ، فأرسل في طلب العلوي حتى ظهر به ،
واستدعى يعقوب ، فقال : ما فعلت بالعلوي ؟ قال : قد أراح الله منه أمير المؤمنين ، قال : مات ؟ قال :
نعم ، فاستحلقت ، خلف له ، فأخرج إليه العلوي ، فلم يمر جوابا ، فأمر بجمسه في بئر مظلمة ، وما زال
محبوسا حتى عفا عنه الرشيد وتوفى سنة ١٨٦ هـ . [٣] أي أظن عليك .

فقال : لولا الحنث^(١) في دمك لألبستك قميصاً لا تشد عليه أزراراً ، ثم أمر به إلى السجن ، فتولى وهو يقول : «الوفاء يا أمير المؤمنين كرم ، والمودة رحيم ، وما على العفو ندم ، وأنت بالعفو جدير ، وبالمحاسن خَلِيق » ، فأقام في السجن إلى أن أخرجه الرشيد . (زهر الآداب ٣ : ٢٠٧)

٧٠ - رجل من أهل خراسان يخطب بحضرة المهدي

وقدّم على المهدي رجل من أهل خراسان ، فقال : « أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، إناقوم نأيناً عن العرب ، وشغلتنا الحروبُ عن الخطب ، وأمير المؤمنين يعلم طاعتنا ، وما فيه مصلحتنا ، فيكتفي منا باليسير عن الكثير ، ويقتصر على ما في الضمير ، دون التفسير » ، فقال المهدي : أنت أخطب من سمعته .
(الصناعتين ص ٤٠)

٧١ - مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي

دخل صالح بن عبد الجليل على المهدي ، فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال : تكلم ، فقال :

« إنه لما سهّل علينا ما توعدّ على غيرنا من الوصول إليك ، قننا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي ، عند انقطاع عُذر الكِتمان ، ولاسيما حين اتّسمتَ بميسم التواضع ، ووعدتَ الله وَحَمَلَةَ كِتَابِهِ إِثْرَ الحَقِّ على ما سِوَاهُ ، فجمَعنا وإياك مشهداً من مشاهد التّحْيِصِ ، لِيَتِمَّ مُؤَدِّيْنَا على موعود الأداء عنهم ، وقابلنا على موعود القَبُولِ ، أو يزيدنا تحييصُ الله إيانا في اختلاف السر والعلانية ، وَيُحَلِّينَا حِلِيَةَ

[١] في الأصل « الحسب » وأرى أنها معرفة من « الحنث » وهو الذنب العظيم والإثم .

الكذابين ، فقد كَانَ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : « من حَجَّبَ الله عنه العِلْمَ ، عَذَّبَهُ على الجهل ، وَأَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا مَنْ أَقْبَلَ إليه العِلْمَ وَأَدْبَرَ عنه ، ومن أَهْدَى اللهُ إليه علمًا فلم يَعْمَلْ به ، فقد رَغِبَ عن هَدْيَةِ الله وقَصَّرَ بها ، فاقْبَلَ ما أَهْدَى اللهُ إليك من ألسنتنا ، قبولَ تحقيقِ وَعَمَلِ ، لا قبولَ سُمْعَةٍ ورياء ، فإنه لا يَعْدَمُك منا إعلامٌ لِمَا تَجْهَلُ ، أو مُوَاطَاةٌ على ما تَعْلَمُ ، أو تذكيرٌ لك من غفلةٍ ، فقد وَطَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ نبيه عليه الصلاة والسلام على نزولها ، تعزيةً عما فات ، وَتَحْصِينًا من التمادى ، ودلالةً على المخرج ، فقال : « وَإِذَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » فَأَطْلِعِ اللهُ على قلبك ، بما ينورُ اللهُ به القلوبَ ، من إيثار الحق ، وَمَنَابِذَةِ الأَهْوَاءِ فَإِنَّكَ إن لم تفعل ذلك ، يُرْ أترك وَأَمْرُ اللهُ عليك فيه ، وَلَا حول ولا قوة إلا بالله .

(العقد الفريد ١ : ٣٠٣ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٨١)

٧٢ — عظة شيبب بن شيبب للمهدى

وَقَالَ شَيْبِبُ بْنُ شَيْبَةَ ^(١) للمهدى : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إن الله إِذْ قَسَمَ الأقسامَ فى الدنيا ، جعل لك أسنانها وَأَعْلَاهَا ، فلا ترضَ لنفسك من الآخرة ، إلا مِثْلَ ما رضى لك به من الدنيا ، فأوصيك بتقوى الله ، فعليكم نَزَلَتْ ، ومنكم أُخِذَتْ ، وَإِلَيْكُمْ تُرَدُّ » . (العقد الفريد ١ : ٣٠٧)

٧٣ — خطبته فى تعزية المهدي بابنته

لما ماتت الباتوقة بنت المهدي ، جَزِعَ عليها جزعًا لم يُسْمَعْ بمثله ، فجلس للناس يعزونه ، وَأَمْرًا أَلَّا يُحْجَبَ عنه أحد ، فأكثر الناس فى التعازى ،

[١] هو شيبب بن شيبب بن عبد الله بن عمرو بن الأتم الميمى وهو ابن عم خالد بن صفوان .

وَاجْتَهَدُوا فِي الْبَلَاغَةِ ، وَفِي النَّاسِ مَنْ يَنْتَقِدُ هَذَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، فَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا تَعْزِيَةَ أُوجَزَ ، وَلَا أَبْلَغَ ، مِنْ تَعْزِيَةِ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ ، فَإِنَّهُ قَالَ :

« أَعْطَاكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا رُزِئْتَ أَجْرًا ، وَأَعَقَبَكَ صَبْرًا ، وَلَا أَجْهَدَ اللَّهُ بِلَاءَكَ بِنِقْمَةٍ ، وَلَا تَنْزِعَ مِنْكَ نِعْمَةً ، ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكَ مِنْهَا ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَهَا مِنْكَ ، وَأَحَقُّ مَا صُبِرَ عَلَيْهِ مَا لَسَبِيلَ إِلَى رَدِّهِ ^(١) » .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢١)

٧٤ — خطبة أخرى له في مدح الخليفة

قِيلَ لِبَعْضِ الْخُلَفَاءِ إِنْ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ يَسْتَعْمَلُ الْكَلَامَ وَيَسْتَعِدُّ لَهُ ، فَلَوْ أَمَرْتَهُ أَنْ يَصْعَدَ الْمُنْبَرِ فَمَا لَرَجُوتَ أَنْ يَفْتَضِحَ ، فَأَمَرَ رَسُولًا فَاخُذْ بِيَدِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلَمْ يَفَارِقْهُ حَتَّى صَعِدَ الْمُنْبَرِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقَّ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَلَا إِنْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَشْبَاهًا أَرْبَعَةً : الْأَسَدَ الْخَادِرَ ^(٢) ، وَالْبَحْرَ الزَّاخِرَ ، وَالْقَمَرَ الْبَاهِرَ ، وَالرِّيْعَ النَّاضِرَ ؛ فَأَمَّا الْأَسَدُ الْخَادِرُ : فَأَشْبَهَ مِنْهُ صَوْلَتَهُ وَمَضَاءَهُ ؛ وَأَمَّا الْبَحْرُ الزَّاخِرُ : فَأَشْبَهَ مِنْهُ جُودَهُ وَعِطَاءَهُ ؛ وَأَمَّا الْقَمَرُ الْبَاهِرُ : فَأَشْبَهَ مِنْهُ نُورَهُ وَضِيَاءَهُ ؛ وَأَمَّا الرِّيْعُ النَّاضِرُ : فَأَشْبَهَ مِنْهُ مَحْسَنَهُ وَبِهَاءَهُ ، ثُمَّ نَزَلَ وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

وَمَوْقِفٍ مِثْلَ حَدِّ السِّيفِ قَتُّهُ بِهِ أَحْمِي الذَّمَّارَ وَتَرْمِينِي بِهِ الْحَدَقُ ^(٣)
فَبَا زَلِقْتُ ، وَمَا أَلْقَيْتُ كَاذِبَةً إِذَا الرِّجَالُ عَلَى أَمْثَالِهِ زَلِقُوا

(العقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، ١ : ١٣٨ ، زهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

[١] روى صاحب العقد أن شيبيا عزي بهذا المقال المنصور على أخيه أبي العباس (العقد الفريد ٢: ٣٥).
[٢] الحدير : أجة الأسد ومنه يقال أسد خادر ، وأخدر الأسد لزم الأجة . وأحدر العين الأسد : ستره فهو مخدر بكسر الهمزة وفتحها . [٣] الذمار : ما تجب حمايته .

٧٥ - كلمات لشيب بن شيبه

وقال شيب : « اطلب الأدب ، فإنه دليل على المروءة ، وزيادة في العقل ، وصاحب في العزبة ، وصلة في المجلس » .

وقال للمهدى يوماً : « أراك الله في بنيك ، ما أرى أباك فيك ، وأرى الله

بنيك فيك ، ما أراك في أيك » . (البيان والتبيين ١ : ١٩٠)

وخرج من دار الخلافة يوماً ، فقال له قائل : كيف رأيت الناس ؟ قال :

« رأيت الداخل راجياً ، والخارج راضياً » .

(البيان والتبيين ١ : ١٩٠ ، وزهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٧٦ - خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب

يوم ولي الرشيد الخلافة

روى الطبرى قال : لما كانت الليلة التي توفي فيها موسى الهادى ، أخرج

هرثة بن أعين هرون الرشيد ليلاً ، فأقعدته للخلافة ، فدعا هرون يحيى بن خالد

ابن برمك - وكان محبوباً - وقد كان عزم موسى على قتله ، وقتل هرون الرشيد

في تلك الليلة^(١) ، فحضر يحيى ، وتقلد الوزارة ، ووجه إلى يوسف بن القاسم بن

صبيح الكاتب ، فأحضره وأمره بإنشاء الكتب ، فلما كان غداة تلك الليلة

وحضر القواد ، قام يوسف بن القاسم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد

صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله بمنته ولطفه ، منّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافة ،

[١] وكان الهادى يريد أن يجعل الخلافة في ابنه جعفر ، ويخلع أخاه هرون . وسمى إلى الهادى يحيى

ابن خالد ، وقيل له إنه ليس عليك من هرون خلاف ، وإنما يفسده يحيى بن خالد ، فأغضب ذلك موسى

الهادى على يحيى وأمر بحبسه .

وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَإِيَّاكُمْ أَهْلَ الطَّاعَةِ مِنْ أَنْصَارِ الدَّوْلَةِ وَأَعْوَانَ الدَّعْوَةِ ، مِنْ نِعْمِهِ
الَّتِي لَا تَحْصَى بِالْعَدَدِ ، وَلَا تَنْقُضِي مَدَى الْأَبَدِ ، وَأَيَادِيهِ التَّامَةَ ، أَنْ جَمَعَ الْفَتْحُ ،
وَأَعْلَى أَمْرِكُمْ ، وَشَدَّ عَضُدَكُمْ ، وَأَوْهَنَ عَدُوَكُمْ ، وَأَظْهَرَ كَلِمَةَ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ أَوْلَى
بِهَا وَأَهْلُهَا ، فَأَعَزَّكُمْ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ، فَكُنْتُمْ أَنْصَارَ دِينِ اللَّهِ الْمُرْتَضَى ،
وَالذَّابِّينَ بِسَيْفِهِ الْمُنْتَضَى ، عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبِكُمْ اسْتَنْقَذَهُمْ
مِنْ أَيْدِي الظُّلْمَةِ أُمَّةَ الْجَوْرِ ، وَالنَّاقِضِينَ عَهْدَ اللَّهِ ، وَالسَّافِكِينَ الدَّمَ الْحَرَامَ ،
وَالْأَكْلِينَ الْفِيءَ وَالْمُسْتَأْثِرِينَ بِهِ ، فَاذْكُرُوا مَا أَعْطَاكُمْ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ ،
وَاحذَرُوا أَنْ تَغْيُرُوا فِيغْيُرَ بِكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ جَلٌّ وَعَزٌّ اسْتَأْثَرَ بِخَلِيفَتِهِ مُوسَى الْهَادِي
الْإِمَامَ ، فَقَبِضَهُ إِلَيْهِ ، وَوَلَّى بَعْدَهُ رَشِيدًا مَرْضِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِكُمْ رَجَاءً وَفَاءً رَحِيمًا ،
مِنْ مُحْسِنِكُمْ قَبُولًا ، وَعَلَى مَسِيئِكُمْ بِالْعَفْوِ عَطُوفًا ، وَهُوَ أَمْتَعُهُ اللَّهُ بِالنِّعْمَةِ ، وَحَفِظَ
لَهُ مَا اسْتَرْعَاهُ إِيَّاهُ مِنْ أَمْرِ الْأُمَّةِ ، وَتَوَلَّاهُ بِمَا تَوَلَّى بِهِ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ ،
يَعِدُّكُمْ مِنْ نَفْسِهِ الرَّأْفَةَ بِكُمْ ، وَالرَّحْمَةَ لَكُمْ ، وَقَسَمَ أَعْطِيَاتِكُمْ فِيكُمْ عِنْدَ اسْتِحْقَاقِكُمْ ،
وَيَبْذُلُ لَكُمْ مِنَ الْجَائِزَةِ ، مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْخُلَفَاءِ ، مِمَّا فِي بَيْوتِ الْمَالِ مَا يَنْوِبُ عَنْ
رِزْقِ كَذَا وَكَذَا شَهْرًا ، غَيْرَ مُقَاضٍ لَكُمْ بِذَلِكَ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أَعْطِيَاتِكُمْ ،
وَحَامِلًا بَاقِيَ ذَلِكَ لِلدَّفْعِ عَنْ حَرِيمِكُمْ ، وَمَا لَعَلَّ أَنْ يَحْدُثَ فِي النُّوَاحِي وَالْأَقْطَارِ
مِنَ الْعُصَاةِ الْمَارِقِينَ ، إِلَى بَيْوتِ الْأَمْوَالِ ، حَتَّى تَعُودَ الْأَمْوَالُ إِلَى جِهَامِهَا ^(١)
وَكَثْرَتِهَا ، وَالْحَالِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا ، فَاحْمَدُوا اللَّهَ وَجَدُّوا شُكْرًا يُوجِبُ لَكُمْ
الْمَزِيدَ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْكُمْ ، بِمَا جَدَّدَ لَكُمْ مِنْ رَأْيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَفَضَّلَ بِهِ
عَلَيْكُمْ ، أَيَّدَهُ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ ، وَارْتَبُوا إِلَى اللَّهِ لَهُ فِي الْبَقَاءِ ، وَلَكُمْ بِهِ فِي إِدَامَةِ النِّعْمَاءِ ،

لعلكم ترحمون ، وأعطوا صَفْقَةَ أيمانكم ، وقوموا إلى بيعتكم ، حاطكم الله وحاء
عليكم ، وأصلح بكم وعلى أيديكم ، وتولاكم وِلَايَةَ عِبَادِهِ الصالحين .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٤٨)

٧٧ - خطبة هرون الرشيد (توفى سنة ١٩٣ هـ)

« الحمد لله نعمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ،
ونؤمن به حقا ، وتوكل عليه ، مفرّضين إليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه على قترّة من الرسل ،
ودُرُوسٍ ^(١) من العلم ، وإدبارٍ من الدنيا ، وإقبالٍ من الآخرة ، بشيراً بالنعيم
المقيم ، ونذيراً بين يدي عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله ،
فأدى عن الله وعده ووعيده ، حتى أتاه اليقين ، فعلى النبي من الله صلاة
ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيئات ، وتضعيف
الحسنات ، وفوزاً بالجنة ، ونجاةً من النار ، وأحذركم يوماً تشخص ^(١) فيه
الأبصار ، وتعلن فيه الأسرار ، يوم البعث ، ويوم التناب ^(٢) ، ويوم التلاق ،
ويوم التناد ، يوم لا يُسْتَعْتَبُ من سيئة ، ولا يُزْدَادُ من حسنة ، يوم الآزفة ^(٣) .
إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينٍ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ .
يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ^(٤) وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَأَتَقُوا يَوْمَما تُرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ
ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

[١] «دروس : اعاء . [١] شخص بصره كنع : فتح عينيه ، وجعل لا يطرف .

[٢] يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن أهل الجنة تنبئ فيه أهل النار بأخذ منازلهم في الجنة لو آمنوا .

[٣] القيامة ، من أذف كفرح : دنا وقرب . [٤] بمسارقتها النظر إلى الحرم .

عباد الله : إنكم لم تُخْلَقُوا عبثاً ، ولن تُتْرَكَوا سُدًى ، حصّنوا إيمانكم بالأمانة ،
ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ، ولا صلاة لمن لا
زكاة له » . إنكم سَفَرٌ^(١) مجتازون ، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار
بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالأمانة ،
فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهذا للمؤمنين .
قال الله عز وجل وقوله الحق : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ
يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » ، وقال : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
ثُمَّ اهْتَدَى » وإياكم والأمانى ، فقد غرّت وأرذت^(٢) ، وأوبقت كثيراً ، حتى
أكذبتهم منايهم ، فتناوشوا^(٣) التوبة من مكان بعيد ، وحيل بينهم وبين ما
يشتنون ، فأخبركم ربكم عن المثلات فيهم ، وصرّف الآيات ، وضرب الأمثال ،
فرغّب بالوعد ، وقدم إليكم الوعيد ، وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالي جيلاً جديلاً ،
وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر ، باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ، ومن
بين أظهركم ، لا تدفعون عنهم ، ولا تحولون دونهم ، فزالت عنهم الدنيا ،
وانقطعت بهم الأسباب ، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب ،
« لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » ، إن أحسن
الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ؛ يقول الله عز وجل « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ
فَأَسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه

[١] جاعة المسافرين . [٢] أهلكت وكنا أوبقت . [٣] تناولوا

هو السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ . وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . آمُرُكُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . (العقد الفريد ٢ : ١٤٧)

٧٨ - وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين

ووصى الرشيد مؤدب ولده الأمين ، فقال :

« يَا أَحْمَرُ^(٢) ، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مَهْجَةً نفسه ، وَثَمَرَةَ قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطةً ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعت أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، ورواه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتمٌ فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه ، فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته ، فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » . (مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٢)

٧٩ - خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي (قتل سنة ١٨٧ هـ)

وهاجت العصبية بالشأم بين أهلها في عهد الرشيد (سنة ١٨٠ هـ) وتفانم مرها ، فاغتم لذلك الرشيد ، وعقد لجعفر بن يحيى على الشأم ، وقال له : إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا ، فقال له جعفر : بل أفيك بنفسى ، فشخص في جلة القواد الكراع والسلاح ، فاتام فأصلح بينهم ، وقتل زواقيلم^(٢) والمتلصصة منهم ، ولم يدع بها رحماً ولا فرساً ، فعادوا إلى الأمن والطمأنينة ، وأطفأ تلك النائرة .

[١] هو علي بن المبارك الأحر صاحب الكسائي ، وكان يؤدب الأمين ، وكان مشهوراً بالنحو واتساع لفظه ، ومات سنة ٢٠٦ ، أو سنة ٢٠٧ . انظر ترجمته في «نزهة الألبا في طبقات الأدبا» ص ١٢٥ .

[٢] الزواقيل : الصوص .

فلما قَدِمَ على الرشيد دخل عليه، فقبَّل يديه وَرجليه، ثم مَثَلَ بين يديه، فقال :
 « الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آانسَ وَحشيتي ، وَأجاب دعوتي ، وَرحِمَ
 تَصَرُّعِي ، وَأنسا^(١) في أَجلى ، حتى أرانى وَجه سيدي ، وَأكرمنى بقُرْبِهِ ، وَامتَنَّ
 علىَّ بتقبيل يده ، وَردَّنى إلى خدمته ، فوالله إن كنتُ لأذكر غَيْبَتِي عنه ،
 وَتَخَرُّجِي وَالمقادير التي أزعجتني ، فأعلمُ أنها كانت بمعاصي لِحَقَّتِي ، وَخطايا أحاطت
 بِي ، وَلوطال مُقامي عنك يا أمير المؤمنين - جعلني الله فداك - لِحَفْتُ أن يذهب
 عقلي ، إِشفاقاً على قُرْبِكَ ، وَأَسَفاً على فراقك ، وَأَن يعَجَلَ بِي عن إيدانك
 الاشتياقُ إلى رؤيتك ، وَالحمد لله الذي عصمني في حال الغيبة ، وَأمتعني بالعافية ،
 وَعَرَّفَنِي الإجابة ، وَمَسَّكَنِي بالطاعة ، وَحال بيني وبين استعمال المعصية ، فلم
 أشخصنُ إلا عن رأيك ، وَلَمْ أقدمُ إلا عن إيدانك وَأمرِك ، وَلَمْ يحترِمني أَجَلٌ
 دونك ، وَالله يا أمير المؤمنين - فلا أعظم من اليمين بالله - لقد عاينتُ ما لو
 تُعرض لى الدنيا كلها ، لاخترتُ عليها قُرْبِكَ ، وَلَمَّا رأيتها عَوْضاً من
 المُقام معك »

ثم قال له بعقب هذا الكلام في هذا المقام :

« إن الله يا أمير المؤمنين لم يزل يُبَلِّغُكَ^(٢) في خلافتك ، بِتَدْرِ ما يعلم من
 نيتك ، وَيُريكَ في رعيته ، غايةَ أمنيته ، فَيُصَلِّحُ لك جماعتهم ، وَيُجمع
 ألفتهم ، وَيَلْمُ شَعَثَهُمْ ، حِفْظاً لك فيهم ، وَرحمة لهم ، وإنما هذا للتمسك
 بطاعتك ، وَالاعتصام بحبل مَرْضَاتِكَ ، وَالله المحمودُ على ذلك وهو مُسْتَحِقُّهُ ،
 وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهلَ كَوْرِ الشَّامِ وهم منقادون لأمرِك ، نادمون على

ما فرط من معصيتهم لك ، متمسكون بجنبك ، نازلون على حُكْمِكَ ، طالبون لعفوك ، واثقون بحلمك ، مؤملون فضلك ، آمنون بادرتك ، حالهم في اتلافهم كحالهم كانت في اختلافهم ، وحالهم في ألفتهم كحالهم كانت في امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم ، وتعمده^(١) لهم ، سابق لمعذرتهم ، وصلة أمير المؤمنين لهم ، وعطفه عليهم ، متقدم عنده لمسألتهم ، وإيم الله يا أمير المؤمنين لئن كنت قد شخّصت عنهم ، وقد أخذ الله شرارهم ، وأطفأ نارهم ، ونقى مُراقهم^(٢) ، وأصلح دهماءهم^(٣) ، وأولاني الجليل فيهم ، ورزقني الانتصار منهم ، فإذ ذلك كله : إلا يبركتك ويمنك ويريحك^(٤) ، ودوام دَوْلَتِكَ السعيدة الميمونة الدائمة ، وتخوفهم منك ، ورجائهم لك ، والله يا أمير المؤمنين ما تقدمت إليهم إلا بوصيتك ، وما عاملتهم إلا بأمرك ، ولا سيرت فيهم إلا على حد ما مثلته لي ورسمته ، ووقفني عليه ، ووالله ما انقادوا إلا لِدَعْوَتِكَ ، وتوحد^(٥) الله بالصنع لك ، وتخوفهم من سطوتك ، وما كان الذي كان مني ، وإن كنت قد بذلت جهدي ، وبلغت مجهودي ، قاضيا بعض حَقِّكَ عليّ ، بل ما ازدادت نعمتك عليّ عظما ، إلا ازددت عن شكرك عجزاً وضعفا ، وما خلق الله أحداً من رعيته ، أبعد من أن يُطْمِع نفسه في قضاء حَقِّكَ مني ، وما ذلك إلا أن أكون باذلاً مُهْجَتِي في طاعتك ، وكل ما يقرب إليّ موافقتك ، ولكنني أعرف من أيديك عندي ما لا أعرف مثلها عند غيري ، فكيف بشكري ! وقد أصبحت واحد أهل دهرى ، فيما صنعته فيّ وبني ؟ أم كيف بشكري ! وإنما أقوى على شكرك يا كرامك

[١] تمدد الله برحمته : عمره بها . [٢] جمع مارق : وهو الخارج الحائد .

[٣] الدهماء : جماعة الناس . [٤] قوتك .

[٥] توحدته الله تعالى بصمته : عصمه ولم يكله إلى غيره .

إيأى ؟ ، وكيف بشكري ! ولو جعل الله شكري في إحصاء ما أوليتنى ، لم يأتِ على ذلك عدّى ؟ وكيف بشكري ! وأنت كهفى دون كل كهف لى ؟ وكيف بشكري ! وأنت لا ترضى لى ما أرضاه لى ؟ وكيف بشكري ! وأنت تجدد من نعمتك عندى ما يستغرق كل ما سلف عندك لى ؟ أم كيف بشكري ! وأنت تُدسِنى ما تقدم من إحسانك إلى ، بما تُجدّده لى ؟ أم كيف بشكري ! وأنت تقدّمنى بطوك على جميع أكفائى ؟ أم كيف بشكري ! وأنت وائى ؟ أم كيف بشكري ! وأنت المكرم لى ؟ وأنا أسأل الله الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاقٍ له - إذ كان الشكر مقصراً عن بلوغ تأدية بعضه ، بل دون شقّص^(١) من عشر عشيره - أن يهولّى مكافأتك عنى ، بما هو أوسع له وأقدر عليه ، وأن يقضى عنى حقك ، وجيل مننتك ، فإن ذلك بيده ، وهو القادر عليه .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ٦٦)

٨٠ - استعطاف أم جعفر بن يحيى للرشيد

روى صاحب العقد قال :

« كانت أم جعفر بن يحيى^(٢) - وهى فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة - أرضعت الرشيد مع جعفر ، لأنه كان ربّى فى حجّرها ، وغذّى برسلها^(٣) ، لأن أمه ماتت عن مهّده ، فكان الرشيد يشاورها مظهرًا لإكرامها ، والتبرك برأيها ، وكان آلى وهو فى كفافاتها أن لا يحجّبها ، ولا استشفّعتّه لأحد إلا

[١] الشقص : السهم والنصيب ، والعشير : جزء من عشرة كالمشار والعشر .

[٢] كان البرامكة قد استأثروا بشئون الدولة وأموالها ، وغلبوا الرشيد على سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى ملكه ، ولم يبق له من الخلافة إلا رسمها وصورتها - وحديثهم فى ذلك طويل ، ليس هاها موضعه - فمزم على نكبتهم ، حتى انتهب فرصة رجوعه معهم من الحج سنة ١٨٧ ، فقتل جعفرًا ليلا فى طريقه ، وقبض على يحيى وابنه الفضل وبقية البرامكة ، وحبسهم فى سجن الرنادقة إلى أن ماتوا فيه . ، واستصنى أموالهم وضياعهم . [٣] الرسل : اللب .

شفعها ، وآلت عليه أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذونا لها ، ولا شفعت لأحدٍ مقترف ذنباً ، فكم أسير فككت ، ومُبهَم عنده فتحت ، ومستغلق منه فرجت ، واحتجب الرشيد بعد قدومه ^(١) ، فطلبت الإذن عليه من دار الباقونة ، ومثت ^(٢) بوسائلها إليه ، فلم يأذن لها ، ولا أمر بشيء فيها ، فلما طال ذلك بها خرجت كاشفةً وجهها ، واضعةً لثامها ، محتفية ^(٣) في مشيها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب ، فقال : ظُر ^(٤) أمير المؤمنين بالباب ، في حالة تقلب شماتة الحاسد ، إلى شفقة أم الواحد . فقال الرشيد : ويحك يا عبد الملك ! أو ساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين حافية . قال : أدخلها يا عبد الملك ، فرب كبد غذتها ، وكربة فرجتها ، وعوزة سترتها ، فدخلت فلما نظر الرشيد إليها داخلة محتفية ، قام محتفياً حتى تلقاها بين عمدة المجلس ، وأكب على تقبيل رأسها ، ومواضع ثديها ، ثم أجلسها معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أيعذو علينا الزمان ، ويحفونا خوفاً لك الأعوان ، ويحردك ^(٥) بنا البهتان ، وقد ريبتك في حجرى ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى ؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ، قالت : ظنرك يحيى ، وأبوك بعد أيبك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين ، من نصيحته ، وإشفاقه عليه ، وتعرضه للحنف في شأن موسى أخيه ^(٦) ، قال لها : يا أم الرشيد ، أمره

[١] أى من الحج . [٢] توسلت . [٣] احتق : مشى حافياً .

[٤] الطثر : العاطفة على ولد غيرها ، المرصعة له ، فى الناس وغيرهم ، للذكر وللأنثى .

[٥] يفضبك . [٦] قدمنا أن الهادى كان قد اعترم خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد ، واستخلاف ابنه جعفر ، وقد سمي إلى الهادى يحيى بن خالد ، وأنه يفسد عليه أخاه الرشيد ، حبسه وتم بقتله ، ويروى أنه قال للهادى فى خلع الرشيد لما كلفه فيه : « يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكت الأيمان ، هانت عليهم أمانتهم ، وإن تركتهم على بيعة أخيك ، ثم بايعت لجعفر من بعده كان

سَبَقَ ، وقضاء حُمٍّ^(١) ، وغضب من الله تَفَدَّ ، قالت : يا أمير المؤمنين « يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ^(٢) » قال : صدقتِ فهذا مما لم يَمْحُوهُ اللهُ ، فقالت : الغيب محجوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطرق الرشيد ملياً ، ثم قال :

(وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميم لا تنفع^(٣))

فقالت بغير روية : ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين ، وقد قال الأول^(٤) وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل : « وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . فأطرق هرون ملياً ، ثم قال : يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكذ إليه بوجه آخر الدهر تقبلُ
فقالت يا أمير المؤمنين وأقول :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتنى عيّنك فانظر أئى كفّ تبدلُ^(٥)

ذلك أوكد لبعته « فقال : صدقت ونصحت ، ولى في هذا تدبير ، ولما أمر بحبسه رفع إليه يحيى رقعة . إن عندي نصيحة ، فدا به ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخلى ، وأخلاه ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان الأمر — أسأل الله ألا نبلغه ، وأن يقدمنا قبله — أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر ، وهو لم يبلغ الحلم ، ويرضون به لصلاتهم وحجهم وعزوم ؟ قال : والله ما أظن ذلك ، قال : يا أمير المؤمنين ، أفأنتم أن يسموا إليها أهلك ، وجلتهم مثل فلان وفلان ، ويطمع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أبيك ؟ فقال له : نهيتنى يا يحيى » وقال له : لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ؟ أما كان ينبغي أن تمقده له ؟ فكيف بأن تحله عنه ، وقد عقده المهدي له ؟ ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر وبلغ الله به ، أتيت به بالرشيد تفلح نفسه ، وكان أول من يبایعه ويعطيه صفقة يده ، قيل فقبل الهادى قوله ورأيه وأسر باطلاقه . [١] حمّ : قدر . [٢] أم الكتاب : أصله ، أو اللوح المحفوظ .

[٣] التمام جمع تميمه : وهى العوذة التى تعلق على الصبي دفعا للعين ، أو الارض والبيت لأبى ، ذؤيب الهذلى .

[٤] هو الأخطل . [٥] هذا البيت والذي قبله من قصيدة لمن بن أوس المزنى مطلعها :

لمرك ما أدرى ، ولانى لأوجل على أيننا تعدو المنية أول ؟ .

قال هرون : رضيت ، قالت : فتهبُ لى يا أمير المؤمنين ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك شيئاً لله ، لم يُوجدْهُ ^(١) الله لِفَقْدِهِ » فأكبَّ هرون ملياً ، ثم رفع رأسه يقول : « لِيهِ الْأُمُورُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » قالت يا أمير المؤمنين : « وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » ، واذكر يا أمير المؤمنين أَلَيْتَكَ ^(٢) ما استشفعتُ إلا شفّعتنى . قال : واذكرى يا أم الرشيد أَلَيْتَكَ أَنْ لَا شَفَعْتَ لِمُقْتَرِفٍ ذَنْبًا ، فلما رآته صرّح بمنعها ، ولاذ ^(٣) عن مطلبها ، أخرجت حُقًّا من زُمُرُودَ ^(٤) خضراء ، فوضعتَه بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عنه قُفْلًا من ذهب ، فأخرجت منه خَفَضَتَهُ ^(٥) وذوائبه وثناياه ، قد غمست جميع ذلك فى المسك ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ، وبما صارمى من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحىي عبدك ، فأخذ هرون ذلك فليّمه ، ثم استعبر وبكى بكاءً شديدًا ، وبكى أهل المجلس ، ومرّ البشير إلى يحيى ، وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه ، فلما أفاق رى جميع ذلك فى الحق ، وقال لها : لِحَسَنٍ مَا حَفِظْتَ الْوَدِيمَةَ ، قالت : وأهلٌ للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين ، فسكت وأقبل الحق ، ودفعه إليها ، وقال : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا » قالت : والله يقول : « وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » ، ويقول : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ » ، ثم قال : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : أو ما أقسمت لى به ألا تحجبنى ولا تتمتهنى ^(٦) ؟ قال : أحب يا أم الرشيد

[١] أى يحزنه . [٢] الآية : القسم . [٣] أى لم يجبه . [٤] الرمرد والزمرد بالذال والذال . [٥] خفض الجارية كضرب خفضا ، وهو كالحنان للسلام ، وقيل : خفض الصبي خفته ، فاستعمل فى الرجل ، والأعراف أن الحفض للرأى والحنان للصبي ، يقال للجارية خفضت ، والغلام ختن . [٦] امتنه : ابتذله .

أن نشتريه محكمة فيه . قالت : أنصفت يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت غير مستقيمة لك ، ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عمن لم يُسَخِّطْكَ ، قال : يا أم الرشيد أما لي عليك من الحق مثل الذي لهم ؟ قالت : بلى يا أمير المؤمنين ، أنت أعزُّ عليّ ، وهم أحبُّ إليّ . قال : فتحكمتي في تمنية بغيرهم ، قالت : بلى قد وهبتك ، وجعلتك في حلٍ منه ، وقامت عنه ، وبقى مَبْهُوتًا مَائِحِرًا^(١) لفظة .

(العقد الفرید ٣ : ٢٣)

٨١ - خطبة يزيد بن مزيد الشيباني

لما رضى الرشيد عن يزيد بن مزيد^(٢) أذن له بالدخول عليه ، فلما مثل بين يديه قال : « يا أمير المؤمنين ، الحمد لله الذي سهَّل لي سبيل الكرامة بلقائك ، وردَّ عليّ النعمة بوجه الرضا منك ، وكشف عني ضبابة الكرب بإفضالك ، وجزاك الله يا أمير المؤمنين في حال سُخْطِكَ جزاء المحسنين المراقبين ، وفي حال رضاك جزاء المنعمين الممتنين المتطولين ، فقد جعلك الله - وله الحمد - تَبَيَّنْتُ^(٣) تحرجاً عند الغضب ، وتمنَّيْتُ تَطَوُّلاً بالنعم ، وتستبقي المعروف عند الصنائع^(٤) تفضلاً بالعفو . »

(العقد الفرید ١ : ١٤١ ، وتاريخ الطبري ١٠ : ١١٧ وزهر الآداب ٢ : ٢٨٧)

[١] يحير : يرد . [٢] وذلك أن الوايد بن طريف الشاري خرج في عهد الرشيد بالجزيرة ، واشتدت شوكته ، وكثر تبعه سنة ١٧٩ ، فوجه إليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني ، فجعل يحاطله ويتأكراه ، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد ، فأغروا به الرشيد ، وقالوا : إنما يتجاق عنه للرحم (لأنه شيباني مثله) وإلأنشوكة الوليد يسيرة وهو يواعد ، وينتظر ما يكون من أمره ، فوجه إليه الرشيد كتاب منضوب ، يقول فيه : « لو وجهت بأحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن متعصب ، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناخرة الوليد ، ليوجهن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين » ثم حمل يزيد على الوايد وقتله وبعث برأسه إلى الرشيد ، فلما انصرف يزيد بالطرف ، حجج برأى البرامكة ، وأظهر الرشيد السخط عليه ، فقال : وحق أمير المؤمنين لأصيفن وأشتون على فرسى أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك فأذن له فدخل ، فلما رآه الرشيد ضحك وسر ، وأقبسل يصيح مرحباً بالأعرابي ، حتى دخل وأجلس وأكرم وعرف بلاؤه وبقائه صمدره (راجع أخباره في الأغاني ١١ : ٨ ، وابن خلكان ٢ : ٢٨٣ ، والطبري ١٠ : ٦٥) .

[٣] وفي رواية الطبري « تنيب » . [٤] وفي الطبري : « وتمفو عن السوء » .

٨٢ - خطبة عبد الملك بن صالح^(١) (توفي سنة ١٩٦ هـ)

أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم : « أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟ » يَأْهَلِ الشَّامَ ، إِنْ اللَّهُ وَصَفَ إِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ ، وَأَشْبَاهَكُمْ فِي الْأَجْسَامِ ، فَخَذَرْتُمْ نَبِيَّهَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَأَخَذَرْتُمْ ، قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنْتُمْ يَوْمًا كُونَ ؟ » فقاتلكم الله أَنْتُمْ تُصْرَفُونَ ؟ جُثَّتْ مَائِلَةٌ ، وَقُلُوبٌ طَائِرَةٌ ، تَشْبُونَ^(٢) الْفِتْنَ ، وَتَوْلُونَ الدُّبْرَ ، إِلَّا عَنْ حَرَمِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ دَرِيئَتِكُمْ^(٣) ، وَحَرَمَ رَسُولِهِ ، فَإِنَّهُ مَغْزَاكُمْ ، أَمَا وَحُرْمَةُ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ لَتَنْفِرُنَّ خِيفًا وَثِقَالًا ، أَوْ لَا تُوسِعَنَّكُمْ إِرْغَامًا وَنَكَالًا .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

٨٣ - عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد ويهنئه

ودخل عبد الملك بن صالح دار الرشيد ، فقال له الحاجب : إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بآبن له ، ووُلد له آخر ، فلما دخل عليه قال : « سَرَّكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا سَاءَكَ ، وَلَا سَاءَكَ فِيمَا سَرَّكَ ، وَجَعَلَ هَذِهِ بِهَذِهِ ، مَثُوبَةٌ عَلَى الصَّبْرِ ، وَجَزَاءٌ عَلَى الشُّكْرِ » .

(العقد الفريد ٢ : ٣٥)

٨٤ - غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح

وَنَصَبَ^(٤) لَهُ ابْنَهُ « عَبْدُ الرَّحْمَنِ » وَكَاتِبَهُ « قَمَامَةَ » فَسَعِيَ بِهِ إِلَى الرَّشِيدِ . وَقَالَ لَهُ : إِنَّهُ يَطْلُبُ الْخِلَافَةَ ، وَيَطْمَعُ فِيهَا ، فَأَخَذَهُ وَحَبَسَهُ عِنْدَ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ وَذَكَرُوا أَنَّهُ أَدْخَلَ عَلَى الرَّشِيدِ حِينَ سَخِطَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : أَكُفْرُ

[١] هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، ولى للرشيد بلاد الجزيرة والشام وغيرها

[٢] تشبون . [٣] الدبر . الحلقة يتلمظ الطعن والرمى عليها . [٤] طاداه .

بالنعمه ، وَجُحوداً لَجَلِيلِ المِنَّةِ والتَّكْرِيمَةِ ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ، لقد بُؤِثْتُ^(١) إذن بالندم ، وتعرَّضْتُ لاستحلال النِّقَمِ ، وما ذاك إلا بغيُّ حاسدٍ ، نافَسَنِي فيكَ مودةَ القِرابَةِ ، وتقديمِ الوِلايَةِ ، إنك يا أمير المؤمنين خليفةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في أمته ، وأمينه على عِترته ، لك عليها فرضُ الطاعةِ وأداءِ النصيحةِ ، ولها عليك العدلُ في حُكْمِها ، والتثبُّتُ في حَادِثِها ، والغُفرانُ لذنوبِها » ، فقال له الرشيد : « أتَضَعُ لِي من لسانك ، وترفعُ لِي من جَنانك ؟ هذا كَأَتْبُكُ قِمامةً ، يُخْبِرُ بِغَلَّتْكَ ، وفسادِ نيتك ، فاشمَعْ كلامه » ، فقال عبد الملك : « أعطاك ما ليس في عَقْدِهِ^(٢) ، ولعله لا يقدر أن يَعُضَّهَنِي^(٣) ولا يَبْهَتَنِي بما لم يَعْرِفَهُ مِنِّي » ، وَأُخْضِرَ قِمامةً ، فقال له الرشيد : تكلم غير هائبٍ ولا خائفٍ ، قال : « أقول إنه عازم على الغدر بك والخِلافِ عليك » ، فقال عبد الملك : أهو كذلك يا قِمامة ؟ قال قِمامة : نعم ، لقد أردتَ خَتْلَ^(٤) أمير المؤمنين ، فقال عبد الملك : « كيف لا يكذبُ عليَّ من خلفي ، وهو يَبْهَتَنِي في وجهي » ؟ فقال له الرشيد : « وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بِعُتُوكَ ، وفسادِ نيتك ، ولو أردتُ أن أحتجَّ عليك بِحُجَّةٍ لم أجدُ أعدلَ من هذين لك ، فِيمَ تَدْفَعُهُما عنك ؟ » ، فقال عبد الملك : « هو مأمورٌ ، أو عاقٌّ مجبورٌ ، فإن كان مأموراً : فمَعذُورٌ ، وإن كان عاقًّا : ففاجرٌ كفورٌ ، أخبر الله عزَّ وجلَّ بِمِداوتهِ ، وحذَّرَ منه بقوله : « إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » ، فنهض الرشيد وهو يقول : « أمَّا أمْرُكُ فقد وَضَحَ ، ولكني لا أَعْجَلُ حتى أعلم الذي يُرِضِي الله فيكَ ، فإنه الحُكْمُ بيني

[١] رجعت . [٢] أى ما يعتقده . [٣] عضه كنع : كذب ونم ، وعضه فلانا : بهته وقال فيه ما لم يكن . [٤] ختله : خدعه .

وبينك» ، فقال عبد الملك : « رضيت بالله حَكَمًا ، وبأمر المؤمنين حاكماً
فإني أعلم أنه يُؤثر كتاب الله على هواه ، وأمر الله على رضاه . »

* * *

فلما كان بعد ذلك جلس مجلساً آخر ، فسلم لما دخل ، فلم يردّ عليه ، فقال
عبد الملك : ليس هذا يوماً أحتج فيه ، ولا أجاذب منازعاً وخصماً . قال : ولم ؟
قال : لأن أوله جرى على غير السنة ، فأنا أخاف آخره ، قال : وما ذاك ؟ قال :
لم تردّ على السلام ، أنصيف نصفة العوام ، قال : السلام عليكم اقتداء بالسنة ،
وإيثاراً للعدل ، واستعمالاً للتحية ، ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال :
وهو يخاطب بكلامه عبد الملك :

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

ثم قال : « أما والله لكأني أنظر إلى شؤوبوبها^(١) قد جمع ، وعارضها^(٢) قد لمع ،
وكأني بالوعيد قد أوزى ناراً تسطع ، فأقلع عن برّاجم^(٣) بلا معاصم ، ورءوس
بلا غلاصم^(٤) فهلا مهلاً ، فبي والله سهل لكم الوعر ، وصفاً لكم الكدر ،
وألت إليكم الأمور أئداء^(٥) أزمتها ، فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط
باليد ، لبوط^(٦) بالرجل . » فقال عبد الملك : « اتق الله يا أمير المؤمنين فيما ولأك ،
وفي رعيته التي استرعاك ، ولا تجعل الكفر مكان الشكر ، ولا العقاب موضع

[١] الشؤوب : الدفمة من المطر ، وجمع : سال واصب .

[٢] العارض : السحاب المتعرض في الأفق ، والضير للفتنة المفهومة من سياق الحديث .

[٣] جمع برجة كقنفذة : وهي مفاصل الأصابع ، أو ظهر القصب من الأصابع ، والمعاصم جمع معصم
كقبر وهو موضع السوار أو اليد . [٤] جمع عاصمة بالفتح وهي رأس الخلقوم وهو الموضع الثاني في

الخلق . [٥] أثناء الشيء ومثانيه طاقاته ، واحدها ثى كحمل ومثناة بفتح الميم وكسرهما .

[٦] لبط به الأرض ضرب ، ولبط البير كضرب : لبط بيده وهو يبدد .

الثواب ، فقد نَخَلْتُ لكَ النصيحةَ ، وَمَحَضْتُ^(١) لكَ الطاعةَ ، وَشَدَدْتُ أَوَاخِي^(٢) مَلِكًا بِأَثْقَلِ مَنْ رُكِنِي يَأْمَلُ^(٣) ، وَتَرَكْتُ عَدُوَّكَ مُشْتَغَلًا^(٤) ، فَاللَّهُ اللَّهُ فِي ذِي رَحْمِكَ أَنْ تَقْطَعَهُ - بَعْدَ أَنْ بَلَّغْتَهُ^(٥) - بِظَنِّي أَفْصَحَ الْكِتَابُ لِي بِعَضِّهِ^(٦) ، أَوْ بِبَيْغِي بَاغٍ يَنْهَسُ^(٧) اللَّحْمَ ، وَيَبَالِغُ^(٨) الدَّمَ ، فَقَدْ وَاللَّهِ سَهَّلْتَ لِكَ الْوَعُورَ ، وَذَلَّلْتَ لِكَ الْأُمُورَ ، وَجَمَعْتَ عَلَى طَاعَتِكَ الْقُلُوبَ فِي الصُّدُورِ ، فَكَمْ مِنْ لَيْلٍ تَمَامٌ^(٩) فِيكَ كَأَبْدَتِهِ ، وَمَقَامٌ ضَيْقٌ لِكَ قُمَّتُهُ ، كُنْتَ فِيهِ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي جَعْفَرِ بْنِ كَلَابٍ :

ومقامٍ ضيِّقٍ فرَجَّتُهُ
بيناني ولساني وجدَلُ
لو يقوم الفيلُ أو فيَّاله
زلَّ عن مثل مقامي وزحل^(١٠)

فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : « أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا الْإِبْقَاءُ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ لَضَرَبْتَ عُنُقَكَ » .
وَلَمْ يَزَلْ عَبْدُ الْمَلِكِ مَحْبُوسًا حَتَّى تُؤَوِّفِي الرَّشِيدَ ، فَأَطْلَقَهُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ وَعَقَدَ لَهُ عَلَى الشَّامِ^(١١) .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٨٩ ، والعقد الفريد ١ : ١٤٣ ،
والكمال لابن الأثير ٦ : ٧٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٣)

[١] أَخْلَصْتُ . [٢] جَمْعُ آخِيَةٍ وَتَشَدُّدٌ : عُرْوَةٌ تَرْبُطُ إِلَى وَتَدْمُقُ وَتَشَدُّ فِيهَا الدَّابَّةُ ، وَأَخِيَةٌ لِدَّابَّةٍ تَأَخِيَةٌ : صَنَعَتْ لَهَا آخِيَةً وَرَبَطَتْهَا بِهَا . [٣] يَلْمُ أَوْ أَلْمَمَ أَوْ يَرْمُرُ : مِيقَاتُ الْيَمِينِ : جَبَلٌ عَلَى مَرَحَلَتَيْنِ مِنْ مَكَّةَ . [٤] وَفِي رِوَايَةِ الْعَقْدِ : « وَتَرَكْتُ عَدُوَّكَ سَبِيلًا تَتَعَاوَرُهُ الْأَقْدَامُ » .
[٥] بَلَّتْ فَلَانًا : لَزِمَتْهُ . [٦] الْعَضُّ بِسُكُونِ الضَّادِ وَفَتْحِهَا : الْكُذْبُ وَالنَّمِيمَةُ . [٧] نَهَسَ اللَّحْمَ كَنَعَ وَسَمِعَ : أَخَذَهُ بِمَقْدَمِ أَسْنَانِهِ وَنَفَعَهُ . [٨] وَلَغَ الْكَلْبُ فِي الْإِنَاءِ وَمِنْهُ وَبِهِ يَلْغُ كَيْبُ وَيَالِغُ : شَرِبَ مَا فِيهِ بِأَطْرَافِ لِسَانِهِ ، أَوْ أَدْخَلَ لِسَانَهُ فِيهِ فَحَرَكَهُ . [٩] لَيْلُ التَّمَامِ أَطْوَلُ لَيَالِي الشِّتَاءِ .
[١٠] زَحَلَ عَنْ مَقَامِهِ : زَالَ كَتَرَحُولٍ . [١١] وَقَدْ جَمَلَ لِلْأَمِينِ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ : لِئِنَّ قَتْلَ وَهُوَ حَيٌّ ، لَا يُعْطَى الْمَأْمُونُ طَاعَةَ أَبَدًا ، فَاتَّ قَبْلَ قَتْلِ الْأَمِينِ ، فَدُفِنَ فِي دَارٍ مِنْ دُورِ الْإِمَارَةِ ، فَلَمَّا خَرَجَ الْمَأْمُونُ يَرِيدُ الرُّومَ أُرْسِلَ إِلَى ابْنِ لَهُ : حَوْلَ أَبِيكَ نَهْنِ دَارِي ، فَتَبَشَّتْ عِظَامُهُ وَحَوَّلَتْ .

٨٥ - قوله بعد خروجه من السجن

ولما خرج من السجن وذكر الرشيد وفعله به قال :
« والله إن الملك لشيء ما نويته ، ولا تمنيتُهُ ، ولا نصبتُ له ولا أردته ،
ولو أردته لكان إلى أسرع من الماء إلى الحدور^(١) ، ومن النار إلى ييس العرفج^(٢) ،
وإني لما خوذ بما لم أجن ، ومستول عما لا أعرف ، ولكنه حين رآني للملك قينا^(٣) ،
وللخلفة خطيرا^(٤) ، ورأى لي يداً تناولها إذا مدت ، وتبلغها إذا بسطت ، ونفساً
تكمل لخصالها ، وتستحقها بفعالها ، وإن كنت لم أختَر تلك الخصال ، ولم
أصطنع تلك الفعال ، ولم أترشح لها في السر ، ولا أشرت إليها في الجهر ، وراها
تحنُّ إلى حنين الوالدة الواهية ، وتميلُ إلى ميل الهلوك^(٥) ، وخاف أن ترغَب إلى
خير مرغَب ، وتزِع إلى أخصب منزع ، عاقبني عقاب من سهر في طلبها ،
وجهد في التماسها ، فإن كان إنما حبسني على أني أصلح لها وتصلح لي ، وأليقُ
بها وتليق بي ، فليس ذلك بذنبٍ جنيته فأتوب منه ، ولا تناولتُ له فأخطأ
نفسى عنه ، وإن زعم أنه لا صرَف لعقابه ، ولا نجاة من عذابه ، إلا بأن أخرج
له من جد العلم والحلم والحزم ، فكما لا يستطيع المضياع أن يكون مصلحا ، كذلك
لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلا ، وسواء عليه أعاقبني على علمي وحلمي ، أم
عاقبني نسبي وسني ، وسواء عليه عاقبني على جمالي ، أم عاقبني على محبة الناس لي ،
ولو أردتها لأعجلته عن التفكير ، وشغلته عن التدبير ، ولما كان فيها من الخطب
إلا اليسير » .
(العقد الفريد ١ : ١٤٣)

[١] المكان المنحدر . [٢] شجر . [٣] جديرا . [٤] عظيم الضر .
[٥] العاجرة المتساقطة على الرجال .

١٦ - وصية عبد الملك بن صالح لابنه

أوصى عبد الملك بن صالح ابنه له فقال :

« أَيْ بَنِي أَحْلَمَ ، فَإِنْ مِنْ حَلْمٍ سَادَ ، وَمَنْ تَفَهَّمْ أزدَادَ ، وَأَتَّقِ أَهْلَ الْخَيْرِ فَإِنْ لِقَاءَهُمْ عِمَارَةٌ لِلْقُلُوبِ ، وَلَا تَجْمَعْ بِكَ مَطِيَّةَ اللَّجَاجِ ، وَفِيكَ مَنْ أَعْتَبَكَ ^(١) ، وَالصَّاحِبُ الْمُنَاسِبُ لَكَ ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَكْرُوهِ يَعْصِمُ الْقَلْبَ ، الْمِزَاحُ يورث الضَّغَائِنَ ، وَحَسَنُ التَّدْيِيرِ مَعَ الْكِفَافِ ، خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ مَعَ الْإِسْرَافِ ، وَالْاِقْتِصَادُ يُثَمَّرُ ^(٢) الْقَلِيلُ ، وَالْإِسْرَافُ يُبِيرُ ^(٣) الْكَثِيرَ ، وَنِعْمَ الْحَظُّ الْقِنَاعَةُ ، وَشَرُّ مَا صَحِبَ الْمَرْءَ الْحَسَدُ ، وَمَا كُلُّ عَوْرَةٍ تُصَابُ ، وَرَبِّمَا أَبْصَرَ الْعَمِيَّ تُرْشِدَهُ ، وَأَخْطَأَ الْبَصِيرَ قَصْدَهُ ، وَالْيَاسُ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ ، وَالْعِفَّةُ مَعَ الْحِرْفَةِ ^(٤) خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ ، أَرْفُقْ فِي الطَّلَبِ ، وَأَجْمَلْ فِي الْمَكْسَبِ ، فَإِنَّهُ رَبُّ طَلَبٍ ، قَدْ جَرَّ إِلَى حَرْبٍ ^(٥) ، لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمُنْجِحٍ ^(٦) ، وَلَا كُلُّ مُلِحٍّ بِمُحْتَاجٍ ، وَالْمَغْبُوبُونَ مِنْ عُيُنِ نَصِيْبِهِ مِنَ اللَّهِ ، عَاتِبٌ مِنْ رَجَوْتِ عُتْبَاهِ ، وَفَاكِهٌ مِنْ أُمْنِتِ بِلَوَاهِ ، لَا تَكُنْ مِضْحَاكًا مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ ، وَلَا مَشَاءً إِلَى غَيْرِ أَرْبٍ ، وَمَنْ نَأَى عَنِ الْحَقِّ أَضَاقَ مَذْهَبَهُ ، وَمَنْ اِقْتَصَرَ عَلَى حَالِهِ ، كَانَ أَنْعَمَ لِبَالِهِ ، لَا يَكْبُرُنَ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مِنْ ظَالِمِكَ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا سَعَى فِي مَضْرَتِهِ وَنَفْعِكَ ، وَعَوْدُ نَفْسِكَ السَّمَاحِ ، وَتَخْيِيرُهَا مِنْ كُلِّ خُلُقٍ أَحْسَنَهُ ، فَإِنْ الْخَيْرُ عَادَةٌ ، وَالشَّرُّ لِحَاجَةٌ ، وَالصُّدُودُ آيَةُ الْمَقْتِ ، وَالتَّعَلُّلُ آيَةُ الْبَخْلِ ، وَمَنِ الْفِقْهُ كِتْمَانُ السَّرِّ ، وَلِقَاحُ الْمَعْرِفَةِ دِرَاسَةُ الْعِلْمِ ، وَطَوْلُ التَّجَارِبِ زِيَادَةٌ فِي الْعَقْلِ ، وَالْقِنَاعَةُ رَاحَةٌ الْأَبْدَانِ ، وَالشَّرْفُ التَّقْوَى ، وَالْبَلَاغَةُ مَعْرِفَةُ رَثَقِ الْكَلَامِ وَفَتْقِهِ ، بِالْعَقْلِ تُسْتَخْرَجُ الْحِكْمَةُ ، وَبِالْحِلْمِ

[١] أعتبه : أعطاه العني أي الرضا . [٢] ينسى ويكثر . [٣] يهلك .

[٤] الحرمان . [٥] حربه حربا كطلبه : سلب ماله . [٦] أنجح : صار ذا نصح .

يستخرج غَوْرَ العقل ، ومن شَمَّرَ في الأمور ، ركب البحور ، شر القول ما تَقَضَّ بعضُه بعضا ، وَمَنْ سَعَى بالنميمة حَذِرَه البعيد ، وَمَقَّتَه القريب . من أطال النظر بإرادةٍ تامَّةٍ أدرك الغاية ، ومن تواني في نفسه ضاع ، من أسرف في الأمور انتشرت عليه ، ومن اقتصد اجتمعت له ، واللَّجَاجَةُ تورث الضياع للأموال ، غِبُّ الأَدبِ أحمد من ابتدائه ، مُبَادِرَةُ الفهم تورث النسيان ، سوء الاستماع يُعَقِّبُ العيَّ ، لَا تُحَدِّثُ من لَا يُقْبَلُ بوجهه عليك ، وَلَا تُنصِتُ لمن لَا يَنْمِي (١) بحديثه إليك ، البلادة للرجل هُجْنَةٌ ، قَلَّ مَالِكٌ إِلَّا اسْتَأْثَرَ ، وَقَلَّ عَاجِزٌ إِلَّا تَأَخَّرَ ، الإحجام عن الأمور يُورث العجزَ ، والإقدام عليها يورث اجتلاب الحظ ، سوء الطُعْمَةِ (٢) يُفْسِدُ العِرْضَ ، وَيُخْلِقُ الوجه ، وَيَمَحِّقُ الدين ، الهيبة قرين الحرمان ، والجسارة قرين الظفر ، وَفِيكَ من أنصفك ، وأخوك من عاتبك ، وشريكك من وَفَى لك ، وَصَفِيكَ من آثرَكَ ، أعدى الأعداء العقوقُ ، اتباع الشهوة يُورث الندامة ، وَفَوَتْ الفُرْصَةَ يورث الحسرة ، جميع أركان الأدب التأنى للرفق ، أَكْرِمَ نَفْسِكَ عن كل دنيَّةٍ ، وإن ساقتك إلى الرغائب ، فإنك لا تجدي تبذُلَ من دينك ونفسك عِوَضًا ، لا تساعد (٣) النساءَ فَيَمْلَأَنَّكَ ، واستبقِ من نفسك بقيَّةً ، فإنهن أن يرين أنك ذو اقتدار ، خيرٌ من أن يطلعن منك على انكسار ، لا تملك المرأة الشفاعةَ لغيرها ، فتميلَ من شفعت لها عليك معها ، أي بنى ، إني قد اخترت لك الوصية ، ومَحَضَّتْكَ النصيحة ، وأدبت الحق إلى الله في تأديبك ، فلا تُغْفَلَنَّ الأخذَ بأحسنها ، والعملَ بيها ، والله موفِّقك .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٢)

[١] نعى الحديث ونجاء بالشديد : رفعه . [٢] "طعمة : وجه المكسب . [٣] لعلها « لاقعام

٨٧ - وصية أخرى له

عن يزيد بن عقّال قال :

وَصَّى عبد الملك بن صالح ابنه وهو أمير سَرِيَّة ، ونحن ببلاد الروم فقال له :
« أنت تاجرُ الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس ، الذي إن وجد ربحاً
تَجَرَ ، وإلاً احتفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن
من احتيالك على عدوك ، أشدَّ خوفاً من احتيال عدوك عليك ^(١) .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٤)

٨٨ - كلمات حكيمة لابن السماك

وقال محمد بن صبح - المعروف بابن السَّمَاك ^(٢) - :

« خيرُ الإخوان أقلُّهم مصانعةً في النصيحة ، وخير الأعمال أحلاها عاقبةً ،
وخير الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرفُ السلطان ما لم يخالطه البَطْرُ ،
وأغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيراً ، وخير الإخوان من لم يخاصم ، وخير
الأخلاق أعونها على الورع ، وإنما يُخْتَبَرُ ذلَّ الرجال عند الفاقة والحاجة » .

(رهر الآداب ٢ : ٢٠٥)

٨٩ - ابن السماك والرشيد

وذكر محمد بن هرون عن أبيه قال : حضرت الرشيد ، وقال له الفضل
ابن الربيع : يا أمير المؤمنين قد أحضرتُ ابن السَّمَاك كما أمرتني ، قال : أدخله ،

[١] أوردت هذه الوصية في الجزء الثاني ص ١٨٥ معزوة إلى عبد الملك بن مروان كما أوردتها صاحب
العقد ، ويؤيد ذلك ما رواه الطبري - ج ٨ : ٣٧ - إذ يقول : « وفي سنة ٨٤ كانت عروة عبد الله بن
عبد الملك بن مروان الروم ، دتمت فيها المصيبة - كسفية - » وعراها الجاحظ إلى عبد الملك بن صالح كما نرى
في هذه الرواية . [٢] كان راهداً عابداً حسن الكلام صاحب مواظب ، وهو كوفي قدم بفسداد زمن
الرشيد ، فسكت بها مدة ، ثم رجع إلى الكوفة فمات بها سنة ١٨٣ هـ .

فدخل ، فقال له : عِظْنِي ، قال : يا أمير المؤمنين : اتَّقِ اللَّهَ وَحَدَّه لِشَرِيكَ لَهُ ،
واعلم أنك واقِفٌ غدًا بين يدي الله ربِّك ، ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين ،
لا تالفةَ لهما : جنة أو نار ، فبكى هرون حتى اخضَلَّتْ (١) لحيته ، فأقبل الفضل
على ابن السماك ، فقال : سبحان الله ! وهل يتخالجُ أحدًا شكٌّ في أن أمير المؤمنين
مصروف إلى الجنة إن شاء الله ؟ لقيامه بحق الله ، وعدِّله في عباده ، وفضله ،
فلم يَحْفَلِ بذلك ابن السماك من قوله ، ولم يلتفت إليه ، وأقبل على أمير المؤمنين ،
فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا - يعني الفضل بن الربيع - ليس والله معك ولا
عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى هرون حتى أشفقنا عليه ،
وأفحم الفضل بن الربيع ، فلم ينطق بحرف حتى خرجنا .

قال : ودخل ابن السماك على الرشيد يوماً ، فبينما هو عنده إذا استسقى ماء ،
فأتى بِقُلَّةٍ من ماء ، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها ، قال له ابن السماك : على
رِسْلِكَ (٢) يا أمير المؤمنين ، بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو
مُنِمْتَ هذه الشَّرْبَةَ ، بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ، قال : اشرب
هناك الله ، فلما شربها ، قال له : أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
لو مُنِعْتَ خروجها من بدنك ، بماذا كنت تشتريها ، قال : بجميع ملكي ،
قال ابن السماك : إن مُلْكًا قيمته شربةُ ماءٍ لَجِدِيرٌ أَلَّا يُنَاقَسَ فيه ، فبكى هرون ،
فأشار الفضل بن الربيع إلى ابن السماك بالانصراف ، فانصرف .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١١٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٤٩)

الفتنة بين الأمين والمأمون

وفد الأمين إلى المأمون

لما عزم محمد الأمين على خلع أخيه عبد الله المأمون من ولاية العهد^(١) ، كتب إليه كتاباً يستقدمه ، ويحبّب أن يكون بقربه - وكان المأمون على خراسان - ودفع الكتاب إلى العباس بن موسى ، وإلى عيسى بن جعفر ، وإلى محمد بن عيسى بن نهيك ، وإلى صالح صاحب المصلى ، وأمرهم أن يتوجهوا به إلى المأمون ، وألاً يدعوا وجهاً من اللين والرفق إلا بلغوه ، وسهّلوا الأمر عليه ، (وذلك سنة ١٩٤ هـ) فتوجهوا بكتابه ، فاما وصلوا إلى المأمون أذن لهم ، فدفعوا إليه الكتاب ، ثم تكلم العباس بن موسى :

٩٠ - خطبة العباس بن موسى

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الأمير : إن أخاك قد تحمّل من الخلافة ثِقلاً عظيماً ، ومن النظر في أمور الناس عبئاً جليلاً ، وقد صدقت نيته في الخير ، فأعوزّه الوزراء والأعوان والكفأة على المدل ، وقليل ما يأنس بأهل بيته ، وأنت أخوه وشقيقه ، وقد فزع إليك في أموره ، وأملك للموازرة والمكاثفة^(٢) ،

[١] ذكروا أن الفضل بن الربيع وزير الأمين ، كان قد خاف المأمون ، لما فعله عند موت الرشيد بطوس من إحضار جميع ما كان في عسكره إلى الأمين ، بعد أن كان الرشيد قد أشهد به للمأمون ، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوماً وهو حي لم يبق عليه ، حسن للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى - ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا عزمه - واتفق مع الفصل جماعة على ذلك ، قال الأمين إلى أقوالهم ، ثم إنه استشار عقلاء أصحابه ، فنهوه عن ذلك وحذروه طاقبة البغي ونكت اليهود ، وقالوا له : لا تخرى الفواد على الكت للأيمان وعلى الخلع يخلعوك ، فلم يلتفت إليهم ، ومال إلى رأى الفضل بن الربيع ، وشرع في خلع المأمون باستدعائه إلى بغداد ، فلم ينخبيج وكتب يمتدر . [٢] المعاونة .

ولسنا نستبطنك في برِّه ، اتهاماً لنضرك له ، ولا نحضنك على طاعة ، تخوفاً لخلافك عليه ، وفي قدومك عليه أنس عظيم ، وصلاح لدولته وسلطانته ، فأجِبْ أيها الأمير دعوة أخيك ، وآثر طاعته ، وأَعِنه على ما استعانك عليه في أمره ، فإن في ذلك قضاء الحق ، وصِلَةَ الرحم ، وصلاح الدولة ، وَعَزَّ الخلافة ، عزم الله للأمير على الرشيد في أموره ، وجعل له الخيرة والصلاح في عواقب رأيه .

٩١ - خطبة عيسى بن جعفر

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر ، فقال :

« إن الإكثار على الأمير - الله ، الله - في القول خُرْقٌ ، والافتصار في تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصير ، وقد غاب الأمير - أكرمه الله - عن أمير المؤمنين ، ولم يستغن عن قربه من شهيد غيره من أهل بيته ، ولا يجد عنده غنى ، ولا يجد منه خلفاً ، ولا عَوْضاً ، والأمير أولى مَنْ بَرَّ أخاه ، وأطاع إمامه ، فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أمير المؤمنين بما هو أَرْضَى وأقرب من موافقة أمير المؤمنين ومحبته ، فإن القدوم عليه فضلٌ وحظ عظيم ، والإبطاء عنه وَكَفٌ^(١) في الدين ، وضرر ومكروه على المسلمين . »

٩٢ - خطبة محمد بن عيسى بن نهيك

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك ، فقال :

« أيها الأمير إنا لا نريدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين ، ولا نشحد نيتك بالأساطير والخُطَب فيما يلزمك من النظر والعناية بأمور المسلمين ، وقد أعوز أمير المؤمنين الكفاة والنصحاء بِحَضْرته ،

[١] الوكف : الليل والجور والعيب والإثم .

وَتَنَاوَلْكَ قَزَعًا إِلَيْكَ فِي الْمَعُونَةِ وَالتَّقْوِيَةِ لَهُ عَلَى أَمْرِهِ ، فَإِنْ تُجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
فِي مَا دَعَاكَ إِلَيْهِ ، فَنِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ يَتَلَفَى بِهَا رَعِيَّتَكَ وَأَهْلَ بَيْتِكَ ، وَإِنْ تَقَعُدْ يُعْزِئُ اللَّهُ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ ، وَلَنْ يَضْعَهُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْبِرِّ بِكَ ، وَالاعْتِمَادِ عَلَى
طَاعَتِكَ وَنَصِيحَتِكَ .

٩٣ - خطبة صالح صاحب المصلي

وتكلم صالح صاحب المصلي ، فقال :

« أَيُّهَا الْأَمِيرُ : إِنَّ الْخِلَافَةَ ثَقِيلَةٌ ، وَالْأَعْوَانُ قَلِيلٌ ، وَمَنْ يَكِيدُ هَذِهِ الدَّوْلَةَ ،
وَيَنْطَوِي عَلَى غَشَمِهَا ، وَالْمَعَانِدَةُ لِأَوْلِيَائِهَا ، مِنْ أَهْلِ الْخِلَافِ وَالْمَعْصِيَةِ كَثِيرٌ ،
وَأَنْتَ أَخُو أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَشَقِيْقَهُ ، وَصَلَاحُ الْأُمُورِ وَفَسَادُهَا رَاجِعٌ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِ ،
إِذْ أَنْتَ وَلِيُّ عَهْدِهِ ، وَالْمُشَارِكُ فِي سُلْطَانِهِ وَوَلَايَتِهِ ، وَقَدْ تَنَاوَلْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
بِكِتَابِهِ ، وَوَثِقَ بِمَعَاوَنَتِكَ عَلَى مَا اسْتَعَانَكَ عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِ ، وَفِي إِجَابَتِكَ إِيَّاهُ إِلَى
الْقُدُومِ عَلَيْهِ صَلَاحٌ عَظِيمٌ فِي الْخِلَافَةِ ، وَأَنْسُ وَسُكُونُ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَالذَّمَّةِ ، وَفَقَّ
اللَّهُ الْأَمِيرَ فِي أُمُورِهِ ، وَقَضَى لَهُ بِالذِّي هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ وَأَنْفَعُ لَهُ » .

٩٤ - خطبة المأمون

فحمد الله المأمونُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« قَدْ عَرَّفْتُمُونِي مِنْ حَقِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - أَكْرَمَهُ اللَّهُ - مَا لَا أَنْكِرُهُ ،
وَدَعَوْتُمُونِي مِنَ الْمَوَازِرَةِ وَالْمَعُونَةِ إِلَى مَا أَوْثَرَهُ وَلَا أَدْفَعُهُ ، وَأَنَا لَطَاعَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
مُقَدَّمٌ ، وَالْمَسَارَعَةُ إِلَى مَاسِرِّهِ وَوَافَقَهُ حَرِيصٌ ، وَفِي الرِّوَايَةِ تَبْيَانُ الرَّأْيِ ، وَفِي
إِعْمَالِ الرَّأْيِ نُصْحُ الْإِعْتِمَادِ ، وَالْأَمْرُ الَّذِي دَعَانِي إِلَيْهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرٌ لَا أَتَأَخَّرُ

عنه تَبْطُطًا ومدافعةً ، ولا أتقدّم عليه اعتسافًا وَهَجَلَةً ، وأنا في ثَمَرٍ (١) من ثَمُور المسلمين ، كَلِبٌ عدوّه ، شديدٌ شوكته ، وإن أهملتُ أمره لم آمن دخول الضرر والمكروه على الجنود والرعية ، وإن أقمت عليه لم آمن قوت ما أحب من معونة أمير المؤمنين وموازرتة وإيثار طاعته ، فانصرِفُوا حتى أنظرَ في أمري ، ويصحّ الرأي فيما أعتزمُ عليه من مسيرى إن شاء الله .

ثم بعث معهم بكتاب إلى الأمين ، يسأله أن يُعْفِيَهُ من الشخوص إليه ، وأن يُقِرَّهُ على عمله ، إذ يرى أن ذلك أعظم غناؤه على المسلمين .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٤٦)

٩٥ - وصية السيدة زبيدة لعلى بن عيسى بن ماهان

وَنَعَى الشريين الأخوين ، واستطار شرره ، وبعث الأمين جيشًا كثيفًا بقيادة على بن عيسى بن ماهان لحرب المأمون ، وأعد المأمون للقائه جيشًا بقيادة طاهر بن الحسين ، فلما أراد على الشخوص إلى خراسان ، ركب إلى باب السيدة زُبَدة (٢) والدة الأمين فودّعها ، فقالت له :

« يا على ، إن أمير المؤمنين ، وإن كان ولدى ، إليه تناهت شفقتى ، وعليه تكامل حذرى ، فإنى على عبد الله مُنْعَطِفَةٌ مُشْفِقَةٌ لما يَحْدُثُ عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابني مَلِكٌ نَافِسٌ أخاه فى سلطانه ، وَغَارَاهُ (٣) على ما فى يده ، والكريم يؤكل لحمه ، وَيُمِيتُهُ غيره ، فاعْرِفْ لعبد الله حقّ والده وأخوته ، ولا تَجِبْهُ (٤) بالكلام ، فإنك لست نظيره ، ولا تَقْتَسِرُهُ (٥) اقتسار العبيد ، ولا تُرْهِنُهُ (٦)

[١] الثمر : موضع الحافة من فروج البلدان . [٢] هي السيدة زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور .

[٣] فى الأصل : « ظاره » وأراء محرّفا عن « ظراه » ، فارينه مغارة وغراء : لاجبته .

[٤] جبهه كنهه : لقيه بما يكره . [٥] قسره واقترسه : قهره .

[٦] أرهنه : أضغفه ، وفى الفخرى : « ولا تؤمنه » وأرهنه : أضغفه أيضا ، والغل : ألفيد .

بقيد ولا غلّ ، ولا تمنع منه جارية ولا خادماً ، ولا تعنف عليه في السير ، ولا تساور في المسير ، ولا تركب قبله ، ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفّه عليك فلا تراذه .

ثم دفعت إليه قيلاً من فضّة ، وقالت : إن صار في يدك فقيده بهذا القيد ، فقال لها : سأقبل أمرك ، وأعمل في ذلك بطاعتك .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٤٩ ، والفخرى ص ١٩٥)

٩٦ - وصية الأمين لابن ماهان

وخرج علي بن عيسى بن ماهان من بغداد (في ٧ من شعبان سنة ١٩٥ هـ) وخرج معه الأمين يشيعه ، وأقبل يوصيه ، فقال :

« أمتنع جُندك من العبث بالرعية ، والغارة على أهل القرى ، وقطع الشجر ، وانتهاك النساء ، وولّ الرىّ يحيى بن علي^(١) ، واضمّم إليه جنداً كثيفاً ، ومُره ليدفع إلى جنده أرزاقهم مما يحيى من خراجها ، وولّ كل كورة ترحل عنها رجلاً من أصحابك ، ومن خرج إليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهره إكرامه ، وأحسن جائزته ، ولا تعاقب أخاً بأخيه ، وضع عن أهل خراسان ربع الخراج ، ولا تأمن أحداً رماك بسهم ، أو طعن في أصحابك برمح ، ولا تأذن لعبد الله في المقام أكثر من ثلاثة أيام ، من اليوم الذي تظهر فيه عليه ، فإذا أشخصته ، فليكن مع أوثق أصحابك عندك ، فإن غره الشيطان فناصبك ، فاحرص على أن تأسره أسراً ، وإن هرب منك إلى بعض كور خراسان ، فتولّ إليه المسير بنفسك ، أفهمت كل أوصيك به ؟ »

[١] هو يحيى بن علي بن عيسى بن ماهان .

قال : نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ، قال : سر على بركة الله وعونه .
(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٥٠)

٩٧ - استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين

وخرج ابن ماهان ، فلما جاز حُلُوانَ ، لَقِيَتْهُ القوافل من خُرَاسان ، فكان يسألها عن الأخبار ، فيقال له : إن طاهراً مقيم بالرِّىِّ ، يَعْرِضُ أصحابه ، وَيَرْمِي^(١) آله ، فيضحك ثم يقول :

« وما طاهر؟ فوالله ما هو إلا شوكة من أغصاني ، أو شرارة من نارى ، وما مثلُ طاهر يتولى على الجيوش ، ويلقى الحروب » ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : « والله ما بينكم وبين أن ينقص انقصاف الشجر من الريح العاصف ، إلا أن يبلغه عُبُورُنا عَقَبَةَ^(٢) هَمْدَانَ ، فَإِنَّ السَّخَالَ^(٣) لا تقوى على نِطَاح الكِبَاشِ ، والثعالب لا صبرَ لها على لقاء الأسد ، فَإِنَّ يُقِمُّ طاهر بموضعه يكن أول معرَضٍ لِظَبَاتٍ^(٤) السيوف وأسنَّة الرماح » .

وسار حتى صار فى أول بلاد الرِّىِّ ، وأتاه صاحب مقدّمته وقال : « لو كنتَ - أبقى الله الأمير - أذكيتَ العيون ، وبعثت الطلائع ، وارتدّت موضعاً تُعَسِّكِرُ فيه ، وتتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به ، كان ذلك أبلغَ فى الرأى ، وَأَنَسَ للجند » .

قال : « لا ، ليس مثلُ طاهر يُسْتَعَدُّ له بالمكاید والتحفّظ ، إن حال طاهر تُؤوِّلُ إلى أحد أمرين ، إما أن يتحصن بالرِّىِّ ، فَيَبْهَتُهُ^(٥) أهلها ، فيكفونامثوثته ،

[١] يصلح . [٢] العتبة : مرق صعب من الجبال . [٣] السخال جمع سحلة بالفتح : وهو ولد الغم ذكراً أو أُنثى . [٤] الظبات جمع ظبة وهي حد السيف . [٥] يهته كنهه : أخذه بغتة ، قال تعالى : « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » ، وفى مروج الذهب : « فيثب به » .

أَوْ يُخَلِّبُهَا وَيُدْبِرُ رَاجِعًا لَوْ قَرُبَتْ خِيولُنَا وَعَسَا كَرْنَا مِنْهُ «
وأناه يحيى بن عليّ ، فقال : « اجمع متفرّق العسكر ، واحذر على جندك
البيات ، ولا تسرح الخيل إلا ومعها كَثْفٌ ^(١) من القوم ، فإن العساكر
لا تُسَاسُ بالتواني ، والحروب لا تدبّر بالاغترار ، والثقة أن تحتريز ، ولا تقل :
المحارب لي طاهر ، فالشرارة الخفية ربما صارت ضراماً ^(٢) ، والثامة من السيل
ربما اغترّب بها وثهون ، فصارت بجرأ عظيماً ، وقد قرّبت عساكرنا من طاهر ،
فلو كان رأيه الهرب لم يتأخر إلى يومه هذا . »

قال : اسكت ، فإن طاهراً ليس في هذا الموضع الذي ترى ، وإنما يتحفظ
الرجال إذا لقيت أقرانها ، وتستعدّ إذا كان المناوي ^(٣) لها أكفاءها ونظراءها .
(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٩٩)

٩٨ - حزم طاهر وقوة عزمه

وعسكر طاهر على خمسة فراسخ من الرّي ، وأناه محمد بن العلاء ، فقال :
« أيها الأمير ، إن جندك قد هابوا هذا الجيش ، وامتلات قلوبهم خوفاً ورعباً
منه ^(٤) ، فلو أقتت بمكانك ، ودافعت القتال إلى أن يشامهم ^(٥) أصحابك ،
ويأنسوا بهم ، ويعرفوا وجه المأخذ في قتالهم » ، فقال :

« لا ، إني لا أوتى من قلة تجربة وحزم ، إن أصحابي قليل ، والقوم عظيم
سوادهم ، كثير عددهم ، فإن دافعت القتال ، وأخرت المناجزة ، لم آمن أن
يطلّعوا على قلتنا وعورتنا ، وأن يستميلوا من معي برغبة أو رهبة ، فينفر عني

[١] الكثف : الجماعة . [٢] الضرام : اشتعال النار في الحلقاء وغيرها ، ودقاق الخطب الذي
يسرع اشتعال النار فيه . [٣] المعادي .

[٤] وكانت عدة عسكر ابن ماهان حسين ألفاً ، وذكر بعض أهل بغداد أنهم لم يروا عسكراً كان أكثر
رجالاً ، وأفره كراخاً ، وأظهر سلاحاً ، وأم عدة ، وأكل هيئة من عسكره ، وروى أن طاهراً كان في
أقل من أربعة آلاف . [٥] شاماً وتشاماً : شم أحدهما الآخر ، والمعنى اقترباً .

أكثر أصحابي ، ويخذلني أهل الحِفاظ والصبر ، ولكن ألفت الرجال بالرجال ،
والجَم^(١) الخيل بالخيال ، وأعتد على الطاعة والوفاء ، وأصبر صَبْرَ مُحْتَسِبٍ للخير ،
حريصٍ على الفوز بفضل الشهادة ، فإن يَرْزُقَ اللهُ الظفر والفأج^(٢) ، فذلك
الذي نريد ونرجو ، وإن تكن الأخرى فلست أول من قاتل فقتل ، وماعند الله
أجزل وأفضل . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٥١)

٩٩ - طاهر يشد عزيمة جنده

وكتب طاهر بن الحسين كتابته ، وَكَرَدَسَ كَرَادِيْسَهُ^(٣) ، وسوى صفوفه ،
وجعل يمرّ بقائد قائد ، وجماعة جماعة ، فيقول :

« يا أولياء الله ، وأهل الوفاء والشكر ، إنكم لستم كهؤلاء الذين ترون من
أهل التُّكْتِ والغدر ، إن هؤلاء ضيَعُوا مَا حَفِظْتُمْ ، وصَغَرُوا مَا عَظَّمْتُمْ ، ونكثوا
الأيمان التي رَعَيْتُمْ ، وإنما يطلبون الباطل ، ويقاتلون على الغدر والجهل ، أصحاب
سَلْبٍ وَنَهَبٍ ، فلو قد غَضَضْتُمْ الأَبْصَارَ ، وَأَثْبَتُمْ الأَقْدَامَ ، قد أنجز الله وعده ،
وفتح عليكم أبواب عزّه ونصره ، فَجَالِدُوا طَوَاعِيْتَ^(٤) الفتنه ، وَيَمَاسِيْبِ النَّارِ
عن دينكم ، ودافعوا بحقكم باطلهم ، فإنما هي ساعة واحدة ، حتى يحكم الله بينكم
وهو خير الحاكمين . »

ونشب القتال بين الفريقين ، ودارت الدائرة على جيش ابن ماهان وَقُتِلَ^(٥) .

[١] أي أقرن الخيل بالخيال ، من قولهم : ألحمت الحرب فالتحمت ، والملحم نغم الميم وبفتح الحاء : الملصق
بالقوم ، ولاحم الشيء بالشيء : ألصقه به . [٢] العوز والظفر . [٣] الكراديس جمع كردوسة
بالضم ، وهي القطعة المغليمة من الخيل ، وكردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة .

[٤] الطواعيت جمع طاعوت : وهو الشيطان وكل رأس ضلال ، واليماسيب جمع يسوب : وهو الرئيس
الكبير . [٥] روى أن نبي على بن عيسى ورد إلى الأمين وهو على الشط يصيد السمك ، فقال للذي
أخبره : ويحك دعني ، فإن كوثرا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئا بسد - وكان كوثرا خادما
خصياله وكان يحبه -

ووجه الأمين بعد ذلك لحرب طاهر جيشاً بقيادة عبد الرحمن بن جبلة ،
فهزم وقتل أيضاً . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٢)

١٠٠ - وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين

ونذب أسد بن يزيد بن يزيد لقتال طاهر

وبعث الفضل بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة إلى أسد بن يزيد
ابن يزيد ، قال : فأتيته ، فاما دخلت عليه وجدته قاعداً في صحن داره ، وفي يده
رُقعة قد قرأها ، واحمرت عيناه ، واشتد غضبه ، وهو يقول :
« ينام نوم الظربان ^(١) ، وينتبه انتباه الذئب ، همته بطنه ، ولذته فرجه ،
لا يفكر في زوال نعمته ، ولا يروى في إمضاء رأى ولا مكيدة ، قد ألهاه كأسه ،
وشغله قدحُه ، فهو يجري في لهوه ، والأيام تُسرع ^(٢) في هلاكه ، قد شمر
عبدُ الله له عن ساقه ، وفوق له أصيب ^(٣) أسهمه ، يرميه على بعد الدار بالحتف
النافذ ، والموت القاصد ^(٤) ، قد عبي له المنايا على مُتون الخيل ، وناط ^(٥) له البلاء
في أسنة الرماح ، وشفار السيوف » .

ثم استرجع وتمثل بأبيات للبعيث ^(٦) ، ثم التفت إلى فقال :

« يا أبا الحارث ، إنا وإياك لنجری إلى غاية ، إن قصرنا عنها ذمنا ، وإن
اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ، وإنما نحن شعب من أصل ، إن قوى قوينا ، وإن

[١] الظربان : دوية فوق حرو الكلب منننة الريح كثيرة الفسو ، يضرب بها المثل فيقال : « أوسى من
ظربان » . [٢] في الأصل « تسرع » وأراه محرفاً . [٣] أصيب : أفل من صاب السهم يصيب
صيباً : أى أصاب ، وسهم صيوب كصبور . [٤] انقاصد أى الكاسر ، من القصد بالفتح : وهو
الكسر بأى وجه كان ، أو بالنصف ، كالتقسيد ، يقال قصد الخمة وقصدها : كسرهما وفصلها فتقصدت .
[٥] خلق . [٦] هو خداس بن بشر الجاشعي ، أحد شعراء الدولة الأموية ، وكان يهاجى جريراً .

ضَعُفَ ضَعْفُنَا ، إِنْ هَذَا قَدْ أَلْتِ بِيَدِهِ إِقَاءَ الْأُمَّةِ الْوَكْفَاءَ ^(١) ، يَشَاوِرُ النِّسَاءَ ،
وَيَعْتَمِدُ عَلَى الرُّؤْيَا ، وَقَدْ أَمَكَّنَ أَهْلَ اللَّهِوِ وَالْخُسَارَةَ مِنْ سَمْعِهِ ، فَهَمَّ يَعْدُونَهُ
الظَّفَرَ ، وَيَعْنُونَهُ عُقْبَ ^(٢) الْأَيَّامِ ، وَالْهَلَاكَ أَسْرَعَ إِلَيْهِ مِنَ السَّيْلِ إِلَى قِيَمَانَ ^(٣)
الرَّمْلِ ، وَقَدْ خَشَيْتُ وَاللَّهِ أَنْ تَهْلِكَ بِهَلَاكِهَ ، وَنَعَطَبَ بِعَطَبِهِ .

وَأَنْتَ فَارِسُ الْعَرَبِ وَابْنُ فَارِسِهَا ، وَقَدْ قَزَحَ إِلَيْكَ فِي لِقَاءِ هَذَا الرَّجُلِ
(طَاهِر) ، وَأَطَمَّهُ فِيمَا قَبْلَكَ أَمْرَانِ ؛ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَصِدْقُ طَاعَتِكَ ، وَفَضْلُ
نَصِيحَتِكَ ؛ وَالثَّانِي يُؤْمِنُ تَقْيِيمَتِكَ ^(٤) ، وَشِدَّةُ بَأْسِكَ ، وَقَدْ أَمَرَنِي بِإِزَاحَةِ عِلَّتِكَ ،
وَبَسْطِ يَدِكَ فِيمَا أَحْبَبْتَ ، غَيْرَ أَنْ الْاِقْتِصَادَ رَأْسَ النِّصِيحَةِ ، وَمِفْتَاحَ الْيُؤْمِنِ
وَالْبَرَكَاتِ ، فَأَنْجِزْ حَوَائِجِي ، وَعَجِّلْ الْمُبَادَرَةَ إِلَى عَدُوِّكَ ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤَلِّيكَ
اللَّهُ شَرَفَ الْفَتْحِ ، وَيَلْمُ بِكَ شَعَثَ هَذِهِ الْخِلَافَةِ وَالِدَوْلَةِ .

فَأَجَابَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ طَلَبَ مَطَالِبَ لَمْ تَرْمُقْ فِي عَيْنِ الْأَمِينِ
فَمَغْضِبٍ عَلَيْهِ ، وَأَمَرَ بِسَجْنِهِ . (تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ ١٠ : ١٥٨ ، وَزَهْرُ الْأَدَابِ ٢ : ١٥٨)

١٠١ - وَصِيَّةُ الْأَمِينِ لِأَحْمَدَ بْنِ مَزِيدٍ

ثُمَّ نَدَبَ عَمَّهُ أَحْمَدَ بْنَ مَزِيدٍ ، فَلَمَّا أَرَادَ الشَّخْصُ دَخَلَ عَلَى الْأَمِينِ ، فَقَالَ :
أَوْصِنِي أَكْرَمَ اللَّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ :
« أَوْصِيكَ بِخِصَالِ عِدَّةٍ ، إِيَّاكَ وَالْبَغْيَ فَإِنَّهُ عِقَالٌ ^(٥) النَّصْرَ ، وَلَا تَقْدِمْ
رِجَالًا إِلَّا بِاسْتِخَارَةٍ ، وَلَا تَشْهَرْ سَيْفًا إِلَّا بَعْدَ إِعْذَارٍ ، وَمَهْمَا قَدَّرْتَ عَلَيْهِ بِاللَّيْنِ ،

[١] وَصَفَ مِنَ الْوَكْفِ بِالْتَحْرِيكِ : وَهُوَ الْإِيْثْمُ وَالْعَيْبُ وَالنَّقْصُ ، وَكَفَّ كَفْرَحَ إِذَا أَيْتَمَّ ، رَوَى رِوَايَةَ
الطَّبْرِيِّ « الْوَكْمَاءُ » بِالْعَيْنِ ، وَهِيَ الْمَقَامُ . [٢] الْعُقْبُ كَقَفْلٍ وَعَقَى : الْمَاقِبَةُ .
[٣] الْقِيَمَانُ جَمْعُ قَاعٍ : وَهُوَ أَرْضٌ مَطْمَئِنَةٌ سَهْلَةٌ قَدْ انْفَرَجَتْ عَنْهَا الْجِبَالُ وَالْأَكَامُ .
[٤] النِّقْيَةُ : النَّفْسُ وَالطَّبِيعَةُ . [٥] الْعِقَالُ فِي الْأَوَّلِ : الْحَمْلُ الَّذِي تَفِيدُ بِهِ الدَّابَّةُ .

فلا تتعدّه إلى الخرق والشَّرَه، وأحسِن صحَابَةَ مَنْ معك من الجند ، وطالِعْنِي بأخبارك في كل يوم ، ولا تخاطرِ بنفسك طلبَ الزُّلْفَةِ (١) عندي ، ولا تستقها فيما تخوفُ رجوعه علىّ ، وكن لعبد الله أخاً مصافياً ، وقريناً برّاً ، وأحسِن مجامعته ، وصحبته ومعاشرته ، ولا تخذله إن استنصرك ، ولا تبطئ عنه إذا استصرخك ، ولتكن أيديكما (٢) واحدةً ، وكلمتكما متفقةً .

وتوجه أحمد بن مزيد في عشرين ألفاً من الأعراب ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً من الأبناء ، حتى نزلا خانقين - قريباً من خلوان - ولم يزل طاهر بحتال في وقوع الاختلاف والشغب بينهم ، حتى اختلفوا ، وانتقض أمرهم ، وقاتل بعضهم بعضاً ، فأخلوا خانقين ورجعوا عنها ، دون أن يلقوا طاهراً .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٩)

١٠٢ - مقال عبد الملك بن صالح للأمين

وكان عبد الملك بن صالح يشكر الأمين تخليّة سبيله ، ويوجب بذلك على نفسه طاعته ونصيحته ، فاما قوى طاهر ، واستعلى أمره ، وهزم من هزم من قواد الأمين وجيوشه ، دخل عبد الملك على الأمين ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إني أرى الناس قد طمعوا فيك ، وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلت سماحتك ، فإن تممت على أمرك أفسدتهم وأبطرتهم ، وإن كففت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضببتهم ، وليس تملك الجنود بالإمسك ، ولا يبقى ثبوت الأموال على الإنفاق والسرف ، ومع هذا فإن جندك قد رعبتهم الهزائم ونهكتهم ، وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وامتلات

[١] الزلفة والزلى : القرية . [٢] أي أنت وعبد الله بن حميد بن قحطية .

قلوبهم هيبَةً لعدوم ، وَنُكُولاً^(١) عن لقاءهم ومناهضتهم ، فإن سيرتهم إلى طاهر ، غَلَبَ بقليل مَنْ معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته ضعف نصابهم ونياتهم ، وأهل الشام قوم قد ضَرَّستهم^(٢) الحروب ، وأدَّبَتهم الشدائد ، وَجَلَّتْهم منقادٌ إلى ، مسابغٍ إلى طاعتي ، فإن وَجَّهني أميرُ المؤمنين اتخذتُ له منهم جنداً يعظم نِكَايَتهم في عدوه ، ويؤيِّد الله بهم أولياءه وأهل طاعته .

فقال الأمين : « فَإني مؤليك أمرهم ، ومقويك بما سألت من مال وَعُدَّة ، فمَجَّلْ الشخوصَ إلى ما هنالك ، فاعمل عملاً يظهر أثره ، وَيُحْمَدَ بركته ، برأيك ونظرك فيه إن شاء الله » ، فولاه الشام والجزيرة .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦١ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٠٣)

١٠٣ - الشغب في جيش عبد الملك بن صالح

وسار عبد الملك بن صالح ، فلما قَدِمَ الرِّقَّةَ^(٣) ، كتب إلى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة ، فلم يبق أحد ممن يُرْجَى ، ويذكَرُ بأسه وَغَنَاؤُه إلا وَعَدَه ، وبسط له في أملة وأمنيته ، فقدموا عليه رئيساً بعد رئيس ، وجماعة بعد جماعة ، فكان لا يدخل عليه أحد إلا أجازه ، وخلع عليه وحمله ، فأتاه أهل الشام ، الزَّوَاقيل والأعراب من كل فج ، وَاجْتَمَعُوا عنده حتى كَثُرُوا ، بَيَّنَدَ أنه شبت نار الفتنة بين جند أهل خراسان وبين الزَّوَاقيل^(٤) ، وَأَفْضَى الأمر إلى تلاحمهم واقتتالهم ، ثم قام رجل من أهل حِمص ، فقال :

[١] جينا وخوفا . [٢] جربتهم وأحكمتهم .

[٣] بلد على العرات . [٤] وسببها أن بعض جند أهل خراسان نظر إلى دابة كانت قد أخذت منه في إحدى الوقعات تحت بعض الزواقيل ، فتعلق بها ، فجرى الأمر بينهما إلى أن اختلفا ، واجتمعت جماعة من الزواقيل والجند فتلاحموا ، وأطان كل فريق منهم صاحبو ، ثم اتسع نطاق الفتنة فاندثقت وحدة الجيش .

« يأهل حمص ، الهَرَبُ أهونُ من العَطَبِ ، والموت أهون من الذل ،
إنكم بعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد التلة ، والعزة
بعد الذلة ، ألا وفي الشروقتين ، وإلى حومة الموت أنختم ، إن المنايا في شوارب
المسوذة^(١) وقلانسهم ، النفير النفير^(٢) قبل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمر
الجليل ، ويفوت المطلب ، ويعسر المذهب ، ويبعد العمل ، ويقرب الأجل .
وقام رجل من كلب ، فقال :

« يا معشر كلب ، إنها الراية السوداء ، والله ما ولت ولا عدلت ، ولا ذل
نصرها ، ولا ضعف وليها ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في
رقابكم ، وآثار أسنتهم في صدوركم ، اعتزلوا الشرق قبل أن يعظم ، وتخطوه قبل
أن يضطرم ، شأمكم ، داركم داركم ، الموت الفلستيني خير من العيش الجزري ،
ألا وإني راجع فمن أراد الانصراف فليصرف معي » .
ثم سار وسار معه عامة أهل الشام ، وأقبلت الزواويل حتى أضرمو ما كان
مجمع من الأعلاف بالنار ، (وكان ذلك سنة ١٩٦ هـ) .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٢)

١٠٤ - خطبة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان

يدعو إلى خلع الأمين

ومات عبد الملك بن صالح بالرقّة ، وكان معه الحسين بن علي بن عيسى
ابن ماهان ، فأقل الجند من الجزيرة إلى بغداد ، فتلقاه أهلها بالتكرمة والتعظيم ،
وضربوا له القباب ، واستقبله القواد والرؤساء والأشراف ، ثم اجتمع إليه الناس
فقام فيهم فقال :

[١] كانت الجيوش الحراسية التي تقابل الأمويين في سبيل نصر الدعوة العباسية يحملون الرايات السود
فسدوا من أجل ذلك المسوذة . [٢] نفر إلى الأمر كضرب نفيرا : أسرع إليه .

« يا معشر الأبناء ، إن خلافة الله لا تُجَاوَزُ بِالْبَطْرِ ، وَنِعْمَهُ لَا تَسْتَصْحَبُ
بِالتَّجْبُرِ وَالتَّكْبُرِ ، وَإِنْ مُحَمَّدًا يُرِيدُ أَنْ يُوْتَعَ (١) أَدْيَانِكُمْ ، وَيُنَكِّثَ بَيْنَكُمْ ، وَيَفْرُقَ
جَمْعَكُمْ ، وَيَنْقُلَ عِزَّكُمْ إِلَى غَيْرِكُمْ ، وَهُوَ صَاحِبُ الزَّوَاقِيلِ بِالْأَمْسِ ، وَبِاللَّهِ إِنْ
طَالَتْ بِهِ مَدَّةٌ ، وَرَاجَعَهُ مِنْ أَمْرِهِ قُوَّةٌ ، لِيَرْجِعَنَّ وَبِالْذَلِكَ عَلَيْكُمْ ، وَلِيُعْرِفَنَّ
ضُرْرَهُ وَمَكْرُوهَهُ فِي دَوَائِكُمْ وَدَعْوَتِكُمْ ، فَاقْطَعُوا أَثْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَقْطَعَ آثَرَكُمْ ، وَضَعُوا
عِزَّهُ قَبْلَ أَنْ يَضَعَ عِزَّكُمْ ، فَوَاللَّهِ لَا يَنْصُرُهُ مِنْكُمْ نَاصِرٌ إِلَّا خُذِلَ ، وَلَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ
إِلَّا قُتِلَ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ لِأَحَدٍ هَوَادَةٌ ، وَلَا يَرِاقِبُ عَلَى الاسْتِخْفَافِ بِعُيُودِهِ ،
وَالْحِنْتُ بِأَيْمَانِهِ . »

وخلع الحسين بن علي محمد الأمين وحبسه (٢) ، وأخذ البيعة لعبد الله المأمون .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٣)

١٠٥ - خطبة محمد بن أبي خالد

في فض الناس عن اتباع الحسين بن علي بن عيسى

فلما أصبح الناس من الغد ، طلبوا من الحسين بن علي الأرزاق ، وماج

الناس بعضهم في بعض ، وقام محمد بن أبي خالد ، فقال :

« أيها الناس ، والله ما أدري ، بأي سبب يتأمر الحسين بن علي علينا ،

ويتولى هذا الأمر دوننا ؟ ما هو بأكبرنا سينا ، ولا أكرمنا حسبا ، ولا أعظمتنا

منزلة ، وإن فينا من لا يرضى بالدينية ، ولا يُقاد بالمخادعة ، وإني أولكم ،

تقض عهدته ، وأظهر التغيير عليه ، والإنكار لفعله ، فمن كان رأيه رأبي ،

فليعتزل معي . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٤)

[١] أوتع ديته بالإثم : أسده ، وأرتفه الله : أملكه .

[٢] وكان حبس الحسين محمد الأمين في قصر أبي جعفر يومين .

١٠٦ - إطلاق الأمين من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة

وقام أسد الحرّبيّ ، فقال : « يا معشر الحرّبية ، هذا يومٌ له ما بعده ، إنكم قد نمتُم وطلّ نومكم ، وتأخرتم فقدم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوامٌ بذِكر خلع محمد وأسرّه ، فاذهبوا بذِكر فكّه وإطلاقه » .

فأقبل شيخ كبير من أبناء الكفاية على فرس ، فصاح بالناس : اسكتوا ،

فسكتوا ، فقال :

« أيها الناس ، هل تعتدّون على محمد بقطع منه لأرزاكم ؟ قالوا : لا ، قال :

فهل قصّر بأحد منكم ، أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علمنا ، قال : فهل

عزّل أحداً من قوادكم ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ، قال : فما بالكم

خذلتموه ، وأعتتم عدوّه على اضطهاده وأسرّه ؟ أما والله ما قتل قومٌ خليفتهم

قطّ ، إلا سلّط الله عليهم السيف القاتل ، والحتف الجاريف ، انهضوا إلى خليفتم

وادفعوا عنه ، وقاتلوا من أراد خلعهُ والفتك به » .

فنهضوا معه وقاتلوا الحسين بن عليّ وأصحابه قتالا شديداً ، وأكثروا في

أصحابه الجراح ، وأسروا الحسين ، ودخل أسد الحرّبي على محمد فكسر قيوده ،

وأقعده في مجلس الخلافة .

وأتى الأمين بالحسين بن عليّ ، فلامه على خلافه وقال له : ألم أقدم أبك

على الناس ، وأولّه أعنة الخيل ، وأملاً يده من الأموال ، وأشرف أقداركم في

أهل خراسان ، وأرفع منازلكم على غيركم من القواد ؟ قال : بلى ، قال : فما الذي

استحققتُ به منك أن تخلع طاعتي ، وتؤلّب الناس عليّ ، وتندبهم إلى رقتالي ؟

قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين ، وحسن الظن بصفحة وتفضله ، قال : فإن أمير المؤمنين ، قد فعل ذلك بك ، وولأك الطلب بئارك ، ومن قُتِل من أهل بيتك ، ثم دعا له بخِلمة ، فخلعها عليه ، وحمله على مراكب ، وأمره بالمسير إلى خُلوَان ، وخرج الحسين ، فهرب في نَفَر من خدمه ومواليه ، فنَادى محمد في الناس ، فركبوا في طلبه فأدركوه وقتلوه . (تاريخ الطبري : ١٠ : ١٦٤)

١٠٧ - خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين

وقام داود بن عيسى^(١) والى مكة والمدينة - وكان خطيباً فصيحاً جهوري الصوت - يدعو إلى خلع الأمين ومبايعة المأمون ، فقال :

« الحمد لله مالِك الملك ، يُؤْتِي الملكَ من يشاء ، وَيَنْزِع الملكَ ممن يشاء ، وَيُعِزُّ من يشاء ، وَيُذِلُّ من يشاء ، بيده الخيرُ ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قائماً بالقِسْط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالدين ، وختم به النبيين ، وجعله رحمةً للعالمين ، صلى الله عليه في الأولين والآخرين .

[١] هو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان الأمين حين أفضت الخلافة إليه بعث به والياً على مكة والمدينة ، فأقام والياً عليهما حتى دخلت سنة ١٩٦ ، فكتب الأمين إلى داود بن عيسى يأمره بمحلب عبد الله المأمون ، والبيعة لابنه موسى ، وبعث إلى الكتائب الذين كان الرشيد كتبهما وعلقهما في الكعبة ، وأخذهما ، فلما فعل ذلك جمع داود حجة الكعبة والقرشيين والفقهاء ، ومن كان شهد على ما في الكتائب من اليهود - وكان داود أحدم - فقال داود : قد علمت ما أخذ علينا وعليكم الرشيد من العهد واليثاق ، عند بيت الله الحرام ، حين بايعنا لابنيه لتكوين مع المظلوم منهما على الظلم ، ومع المبني عليه على الباغي ، ومع المغدور به على الغادر ، فقد رأينا ورأيتم أن محمداً (الأمين) قد بدأ بالظلم والبنى والعدر على أخويه عبد الله المأمون ، والقاسم المؤتمن ، وخلعهما ، وبايع لابنه الطفل رضيع صغير لم يعظم ، واستخرج العرطين من الكعبة عاصياً ، فخرقهما بالنار ، وقد رأيت خلعه ، وأن أبايع لعبد الله المأمون بالخلافة ، إذ كان مظلوماً مبيأً عليه ، فقال له أهل مكة : رأينا تبع لرأيك ، ونحن خالموه معك ، فجمع الناس ، وخطبهم هذه الخطبة .

أما بعد ، يأهل مكة ، فأنتم الأصل والفرع ، والعشيرة والأُسرة ، والشركاء في النعمة ، إلى بلدكم يَفِدُ وَفَدَ اللهُ ^(١) ، وإلى قبيلتكم يَأْتُمُّ المسامون ، وقد عَلِمْتُمْ ما أخذ عليكم الرشيد هرون ، رحمة الله عليه وصلاته ، حين بايع لابنيه محمد وعبد الله بين أظهركم من العهد والميثاق ، لتَنْصُرُنَّ المظلومَ منهُما على الظالم ، والمبغى عليه على الباغي ، والمغدورَ به على الغادر ، ألا وقد علمتم وعلمنا أن محمد ابن هرون قد بدأ بالظلم والبنى والغدر ، وخالف الشروط التي أعطاهَا من نفسه في بطن البيت الحرام ، وقد حَلَّ لنا ولكم خَلْعُهُ من الخلافة وتصييرها إلى المظلوم المبغى عليه ، المغدور به ، ألا وإني أشهدكم أنني قد خلعت محمد بن هرون من الخلافة ، كما خلعت قَلَنْسُوتِي هذه من رأسي - وخلعت قَلَنْسُوتَهُ عن رأسه ، فرمى بها إلى بعض الخدم تحته ، وكانت من بُرُودِ حَبْرَةَ ^(٢) مسلسلة حمراء ، وأتى بقلنسوة سوداء هاشمية فلبسها - ثم قال : قد بايعت لعبد الله المأمون أمير المؤمنين بالخلافة ، ألا فقوموا إلى البيعة لخليفكم » ، فصعد جماعة من الوجوه إليه إلى المنبر رجل فرجل ، فبايعه لعبد الله المأمون بالخلافة وخلع محمداً .

(تاريخ الطبرى ١٠ : ١٧٠)

١٠٨ - خطبة الأمين وقد تولى الأمر عنه

ولما رأى الأمين الأمر قد تولى عنه ، وأنصاره يتسللون فيخرجون إلى طاهر ، أمر بإحضار كل من كان معه في المدينة من القواد والجنود ، فأشرف عليهم وقال :

[١] أى لتأدية فريضة الحج . [٢] برود حبرة : صرب من البرود اليمانية ، يقال : برود حبرة مثل عنبة على الوصف والإضافة ، وبرود حبرة ، وليس حبرة موضعاً أو شيئاً معلوماً ، إنما هو وصى كقولك : ثوب قرمز ، والقرمز : صبغه

« الحمد لله الذى يرفع ويضع ، وَيُعْطِي وَيَمْنَع ، وَيَقْبِضُ وَيَسْطُط ، وإليه المصير ، أحمده على نوائب الزمان ، وَخِذْلَانِ الأَعْوَان ، وتشتت الرجال ، وذهاب الأموال ، وَخُلُولِ النوائب ، وتوفد المصائب ، حمداً يَدْخُرُ لِي به أجزل الجزاء ، وَيَرْفِدُنِي ^(١) أحسن العزاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كما شَهِدَ لِنَفْسِهِ ، وشهدت له ملائكتُهُ ، وأن محمداً عبده الأمين ، ورسوله إلى المسامنين صلى الله عليه وسلم ، آمينَ رَبِّ العالمين .

أما بعد : يا معشر الأبناء ، وأهل السَّبْقِ إلى الهدى ، فقد علمتم غفلى كانت أيامَ الفضلِ بنِ الربيعِ وزيرِ عليٍّ ومشير ، فسادت ^(٢) به الأيامُ بما لَزِمَنِي به من الندامة في الخاصة والعامة ، إلى أن نبهتموني فانتبهتُ ، واستعتموني في جميع ما كرهتم من نفسى وفيكم ، فبذلتُ لكم ما حواه مُلْكِي ، ونالته مقدرتى ، مما جَمَعْتُهُ وَوَرِثْتُهُ عن آباؤى ، فقودت ^(٣) من لم يجز ، واستكفيتُ من لم يكف ، واجتهدت - عِلْمَ اللَّهِ - في طلب رضاكم بكلِّ ما قَدَرْتُ عليه ، واجتهدتم - عِلْمَ اللَّهِ - في مَسَاءِ تى في كلِّ ما قَدَرْتُمْ عليه ، من ذلك توجيهى إليكم على ابن عيسى شيخكم وكبيركم ، وأهل الرأفة بكم ، والتحنُّنِ عليكم ، فكان منكم ما يطول ذِكْرُهُ ، فغفرتُ الذنوبَ ، وأحسننتُ واحتملتُ ، وعزيتُ نفسى عند معرفتى بشذوذ الظفر ، وحرصى على مُقَامِكُمْ مَسْلُحَةً ^(٤) بِخُلُوفِ مع ابن كبير صاحب دعوتكم ، وَمَنْ عَلَى يَدَيْ أَيْهِ ^(٥) كَانَ نَحْرُكُمْ ، وبه تمت طاعتكم : عبد الله بن حميد ابن قَحْطَبَةَ ، فصرتم من التائب عليه إلى ما لا طاقة له به ، ولا صبرَ عليه ، يقودكم

[١] رفته وأرفده : أعطاه . [٢] طاولته وأمهله . [٣] أى اتخذته قائداً .

[٤] المسلحة : القوم ذوو سلاح . [٥] معنى جدَّ عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وهو قحطبة ابن شبيب الطائى ، أحد الدعاة العباسية والقواد الذين قاتلوا الجيوش الأموية - انظر الجزء الثانى

رجل منكم وأنتم عشرون ألفاً إلى عامين ، وعلى سيدكم متوثبين ، مع سعيد الفرد ، سامعين له مطيعين ، ثم وثبتم مع الحسين عليّ ، فخلعتموني وشتمتموني ، وانتهبتموني وحبستموني وقيدتموني ، وأشياء منعتموني من ذكرها ، حقد قلوبكم ، وتلصق^(١) طاعتكم أكبر وأكبر ، فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ، ورضي بقدره ، والسلام .

وكانت عاقبة أمره أن قتل سنة ١٩٨ هـ وحمل رأسه إلى المأمون بخراسان .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٠٥ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٠٥)

١٠٩ — استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون

وقال المأمون للفضل بن الربيع^(٢) لما ظفر به : « يا فضل ، أكان من حقي عليك وحقّ أبائي ونعمهم عند أيك وعندك أن تثلبني^(٣) وتسبني وتحرّض علي دمي ؟ أتحبّ أن أ فعل بك ما فعلته بي ؟ »

فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن عُذري يُحَقِّدك إذا كان واضحاً جميلاً ، فكيف إذا حَفَّتْهُ^(٤) العيوبُ ، وقَبَّحَتْهُ الذنوبُ ، فلا يضيقُ عني من عفوك ما وسعَ غيري منك ، فأنت كما قال الشاعر^(٥) فيك :

صَفُوحٌ عن الأجرام حتى كأنه من العفولم يَعْرِف من الناس مُجْرَما
وليس يُبالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يَغْشَ بالكُرْه مُسْأِما

(زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

[١] مسهل عن تلكؤ . [٢] توفى سنة ٢٠٨ . [٣] ثلبه كضربه : لأمه وعابه .

[٤] هكذا في الأصل ، وربما كان « أخفته » لقوله قبل : « إذا كان واضحاً » .

[٥] هو الحسن بن رجا بن أبي الضحاك .

١١٠ - خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين

ودخل طاهر بن الحسين بغداد يوم الجمعة بعد قتل الأمين ، فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة ، وقد حضره من بني هاشم والقواد وغيرهم جماعة كثيرة قال :

« الحمد لله مالك الملك ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُسْذِينَ ، وَلَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ، إِنْ ظَهَرَ غَلْبَتُنَا لَمْ يَكُنْ مِنْ أَيْدِينَا وَلَا كَيْدِنَا ، بَلْ اخْتَارَ اللَّهُ لِلْخَلِيفَةِ ، إِذْ جَعَلَهَا عِمَادًا لِدِينِهِ ، وَقَوَامًا لِعِبَادِهِ ، وَضَبَطَ الْأَطْرَافَ ، وَسَدَّ الثُّغُورَ ، وَإِعْدَادِ الْعُدَّةَ ، وَجَمَعَ الْفَيْءَ ، وَإِنْفَازِ الْحُكْمِ ، وَنَشَرَ الْعَدْلَ ، وَإِحْيَاءِ السُّنَّةِ ، بَعْدَ إِذْ بَالَ الْبَطَالَاتِ ، وَالتَّلَذُّ بِمُوبِقِ الشَّهَوَاتِ ، وَالْمُخْلِدُ إِلَى الدُّنْيَا مُسْتَحْسِنٌ لِدَاعِي غُرُورِهَا ، مُحْتَلِبٌ دِرَّةً ^(١) نِعْمَتِهَا ، أَلْفٌ لَزَهْرَةٍ رَوْضَتِهَا ، كَلِيفٌ بَرُونِقٍ بَهْجَتِهَا ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ وِفَاءِ مَوْعُودِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا لِمَنْ بَقِيَ عَلَيْهِ ، وَمَا أَحَلَّ بِهِ مِنْ بَأْسِهِ وَتَقَمَّتِهِ ، لَمَّا نَكَبَ ^(٢) عَنْ عَهْدِهِ ، وَارْتَكَبَ مَعْصِيَتَهُ ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ ، وَغَيَّرَهُ نَاهِيَةً ، وَعَظَمْتَ مُؤَدَّبَةً ، فَتَمَسَّكُوا بِدَقَائِقِ عِصْمِ ^(٣) الطَّاعَةِ ، وَاسْتَلْكَوْا مَنَاجِي سَبِيلِ الْجَمَاعَةِ ، وَاحذَرُوا مِصَارِعَ أَهْلِ الْخِلَافِ وَالْمَعْصِيَةِ ، الَّذِينَ قَدَحُوا زِنَادَ الْفِتْنَةِ ، وَصَدَّعُوا شَعْبَ الْأُلْفَةِ ، فَأَغْقَبَهُمُ اللَّهُ خَسَارَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » . (تاريخ الطبري ١٠ : ٢٠٦ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٥)

[١] الدرّة : اللبّ . [٢] عدل .

[٣] جم عصام ككتاب ، وعصام القرية : رباطها وسيرها الذي تحمل به .

خطب المأمون (توفى سنة ٢١٨ هـ)

١١١ - خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد

خطب الناس بمرّوحين ورد عليه نعي الرشيد ، فقال :
« إن ثمرة الصبر الأجر ، وثمره الجزع الوزر ، والتسليم لأمر الله عزّ وجلّ
فائدة جليلة ، وتجارة مربية ، فالموت حوضٌ مورود ، وكأس مشروب ، وقد
أتى على خليفتم ما أتى على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ،
فما كان إلا عبداً دعي فأجاب ، وأمر فاطاع ، وقد سدّ أمير المؤمنين ثلمه ، وقام
مقامه ، وفي أعناقكم من العهد ما قد عرفتم ، فأحسنوا العزاء على إمامكم الماضي ،
واغتبطوا بالنعماء والوفاء في خليفتم الباقي ، يأهل الدنيا : الموت نازل ، والأجل
طالب ، وأمس واعظ ، واليوم مغتتم ، وغدّ منتظر » .

١١٢ - خطبته وقد سلم الناس عليه بالخلافة

ولما بلغه بخراسان قتل أخيه ، وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، صعد
المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :
« أيها الناس : إني جعلتُ لله على نفسي ، إن أسترعاني أموركم أن أطيعه
فيكم ، ولا أسفك دماً عمداً لا شحله حدوده ، وتسفك فرائضه ، ولا آخذ لأحد
مالاً ، ولا أثاناً ، ولا نخلة^(١) تحرّم عليّ ، ولا أحكمم بهوأي ، في غضبي ولا
رضاي ، إلا ما كان في الله وله ، جعلتُ كله لله عهداً مؤكّداً ، وميثاقاً مشدّداً ،

[١] نخلة : أعطاء والاسم النخلة .

إني أفي رغبة في زيادته إياي في نعمتي ، ورهبة من مسألته إياي عن حقه وخلقه ، فإن غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلاً ، وللنكال معرضاً ، وأعوذ بالله من سخطه ، وأرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته .

١١٣ - خطبته يوم الجمعة

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ، أحمده وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده ، والتنجز لوعده ، والخوف لوعيده ، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه ، وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد جدُّ بكم ، واستعدُّوا للموت فقد أظلمكم ، وكونوا قوماً صيخ بهم فانتبهوا ، وعلِّموا أن الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا ، فإن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، وإن غاية تنقُصها اللحظة ، وتهدمها الساعة الواحدة ، لجديرة بقصر المدة ، وإن غائباً يحدوه^(١) الجديدان : الليل والنهار حرياً بسرعة الأوبة ، وإن قادماً يحلّ بالفوز أو بالشقوة مستحق لأفضل المدة ، فاتق عبد ربّه ، ونصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به ، يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوفها ، حتى تهجم عليه

منيته أغفل ما يكونُ عنها ، فيالها حسرةً على ذى غفلة ، أن يكون عمره عليه حجة ، أو تؤدّيه أيامه إلى شقوة ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تُبطره نعمة ، ولا تقصّر به عن طاعته غفلة ، ولا تحلّ به بعد الموت فزعة . إنه سميع الدعاء ، ويده الخير ، وإنه فعّال لما يريد .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٤ — خطبته يوم الأضحى

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشريفه ، وعظم حرمةً ، ووفق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله ، وفدى فيه من الذبح نبيه ، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ، ومتقدم الأيام المعدودات من التفر^(١) ، يوم حرام ، من أيام عظام ، في شهر حرام ، يوم الحج الأكبر ، يوم دعا الله إلى مشهده ، ونزل القرآن بتعظيمه ، قال الله جل وعز : « وَادِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوكِ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا ، وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ ، وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُشَلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ^(٢) » فتقربوا إلى الله في

[١] يوم التفر : اليوم الذي ينفر فيه الناس من مي ، وهو بعد يوم القر (ويوم القر بالفتح : اليوم الذي بعد يوم الحر ، لأن الناس يقرّون في منازلهم) .

[٢] رحالا : أى مشاة ، جمع راجل كقيام وقيام ، وعلى كل ضامر : أى وركبانا على كل ضامر ، أى بعير مهزول ، يأتين : أى الضواصر ، صفة لضامر حملا على المعنى ، من كل فج عميق : أى طريق بعيد ، ليشهدوا منافع لهم : دينية ودنيوية ، في أيام معلومة : هي عشر ذى الحجة ، وقيل : أيام النجر ، من

هذا اليوم بذبائحكم ، وعظّموا شعائر الله ، واجعلوها من طيب أموالكم ، وبصحة التقوى من قلوبكم ، فإنه يقول : « لَنْ يَنَالَ اللهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ »^(١) ، ثم التكبير والتحميد والصلاة على النبي والوصية بالتقوى ، ثم قال بعد ذكر الجنة والنار : عظّم قدر الدارين ، وارتفع جزاء العمّلين^(٢) ، وطالت مدة الفريقين ، الله الله ، فوالله إنه الجِدُّ لا اللَّعِبُ ، وإنه الحق لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث ، والميزان والحساب والقصاص والصراف ، ثم العقاب والثواب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز ، ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله في الجنة ، والشر كله في النار .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٤ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٥ — خطبته يوم الفطر

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم عيد وسنة ، وابتهاال ورغبة ، يوم ختم الله به صيام شهر رمضان ، وافتتح به حج بيته الحرام ، فجعله خاتمة الشهر ، وأول أيام شهور الحج ، وجعله معقباً لفروض صومكم ، ومُتَنَفِّلاً قيامكم ، أحلّ فيه الطعام لكم ، وحرّم فيه الصيام عليكم ، فاطلبوا إلى الله حوائجكم ، واستغفروه لتفريطكم ، فإنه يقال : « لا كبير مع استغفار ، ولا صغير مع إصرار » ، ثم التكبير والتحميد ، وذكر النبي عليه الصلاة والسلام ، والوصية بالتقوى ، ثم قال : فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم ، ولم يختصر^(٣) الشك فيه أحداً منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تستقال بعده عشرة ، ولا تحظر قبله توبة ، واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه ، ولا شيء بعده

بهيمة الأدمام : الأيل والبقر والغنم التي تنحر للضحايا ، ثم ليقتضوا قنهم : أي يزيلوا أوساخهم وشعثهم من نحو قس الأظفار ، وحلق العانة ، وغير ذلك . [١] أي يرفع إليه منكم العمل الصالح .
[٢] أي عمل الخير وعمل البر . [٣] يحضر .

إِلا فَوْقَهُ ، وَلا يُعِينُ عَلَى جَزَعِهِ وَغَلْزِهِ^(١) وَكَرْبِهِ ، وَلا يُعِينُ عَلَى الْقَبْرِ وَظُلْمَتِهِ ، وَضِيْقِهِ وَوَحْشَتِهِ ، وَهَوْلِ مَطْلَعِهِ وَمَسْأَلَةِ مَلَائِكَتِهِ ، إِلا الْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، فَمَنْ زَلَّتْ عِنْدَ الْمَوْتِ قَدَمُهُ ، فَقَدْ ظَهَرَتْ نِدَامَتُهُ ، وَفَاتَتْهُ اسْتِقَالَتُهُ ، وَدَعَا مِنَ الرَّجْعَةِ إِلَى مَا لا يُجَابُ إِلَيْهِ ، وَبَدَلَ مِنَ الْفِدْيَةِ مَا لا يُقْبَلُ مِنْهُ ، فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ ، وَكُونُوا قَوْمًا سَأَلُوا الرَّجْعَةَ فَأَعْطَوْهَا ، إِذْ مِنْهَا الَّذِينَ طَلَبُوهَا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ يَتَمَنَّى الْمَقْدَمُونَ قَبْلَكُمْ إِلا هَذَا الْمَهْلَ الْمَبْسُوطَ لَكُمْ ، وَاحْذَرُوا مَا حَذَرَكَمُ اللَّهُ ، وَاتَّقُوا الْيَوْمَ الَّذِي يَجْمَعُكُمْ اللَّهُ فِيهِ لَوْضِعِ مَوَازِينِكُمْ ، وَنَشْرِ صُحُفِكُمْ الْحَافِظَةَ لِأَعْمَالِكُمْ ، فَلْيَنْظُرْ عَبْدٌ مَا يَضَعُ فِي مِيزَانِهِ مِمَّا يَثْقُلُ بِهِ ، وَمَا يُعْلَى^(٢) فِي صَحِيفَتِهِ الْحَافِظَةَ لِمَا عَلَيْهِ وَهُوَ ، فَقَدْ حَكَى اللَّهُ لَكُمْ مَا قَالَ الْمَفْرَطُونَ عِنْدَهَا ، إِذْ طَالَ إِعْرَاضُهُمْ عَنْهَا ، قَالَ : « وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ، مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » ، وَقَالَ : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقَسِطَ^(٣) لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَاحِسِبِينَ » ، وَلَسْتَ أَنْهَاكُمْ عَنِ الدُّنْيَا بِأَعْظَمِ مِمَّا نَهَيْتُمْكَمُ الدُّنْيَا عَنْ نَفْسِهَا ، فَإِنَّ كُلَّ مَا بِهَا يَنْهَى عَنْهَا ، وَكُلَّ مَا فِيهَا يَدْعُو إِلَى غَيْرِهَا ، وَأَعْظَمُ مِمَّا رَأَتْهُ أَعْيُنُكُمْ مِنْ عَجَائِبِهَا ذَمُّ كِتَابِ اللَّهِ لَهَا ، وَنَهَى اللَّهِ عَنْهَا ، فَإِنَّهُ يَقُولُ : « فَلَا تَغْرُبْكُمْ أَلْحِياءُ الدُّنْيَا ، وَلا يَغْرُبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، وَقَالَ : « إِنَّمَا الْحَياءُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ . . . الْآيَةُ » ، فَاتَّقِعُوا بِمَعْرِفَتِكُمْ بِهَا ، وَبِإِخْبَارِ اللَّهِ عَنْهَا ،

[١] العزل : ما يصيب المريض عند حشرحة الموت من رعدة واضطراب . [٢] يعلى

[٣] القسط : العدل ، مصدر وصف به المبالغة أو ذوات القسط .

واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها ، وجانبوا خدائِعها ، وآثروا طاعة الله فيها ، فأدرَكوا الجنة بما تركوا منها .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٥ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٦ - خطبة ابن طباطبا العلوى

وخطب محمد ^(١) بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبًا بن الحسن ابن الحسن بن عليّ بن أبي طالب ، حين انتهب قائدُ جيوشه أبو السرايا السرىّ ابن منصور قصرَ العباس بن موسى بن عيسى ، فقال :

« أما بعدُ : فإنه لا يزال يَبْلغنى أن القائل منكم يقول : إن بنى العباس فينا لنا ، نخوضُ في دمائهم ، وَتَرْتَعُ في أموالهم ، وَيُقْبَلُ قولنا فيهم ، وَتُصَدَّقُ دعوانا عليهم ، حُكْمٌ بلا عِلْمٍ ، وَعَزْمٌ بلا رَوِيَّةٍ ! عَجَبًا لمن يُطَلِّقُ بذلك لسانه ، ويحدّث به نفسه ! أ بكتاب الله تعالى حَكَمَ ، أم لِسِنَّةِ نبيه صلى الله عليه وسلم أَتَبِعَ ؟ أ في مَيْلِي ^(٢) معه طَمِعَ ، أم بَسَطَ يدي له بالجود أَمَلَ ؟ هيهات ! فازدو الحق بما نَوَى ، وأخطأ ذو الباطل بما تَمَنَّى ، حَقُّ كل ذى حقٍّ في يده ، وكل

[١] خرج بالكوفة امشر خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٩ هـ يدعو إلى الرضى من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة ، وكان القيم بأمره في تدبير الحرب ، وقيادة جيوشه أبا السرايا السرى بن منصور وكان سبب خروجه صرف المأمون طاهر بن الحسين عما كان إليه من أعمال البلدان التي افتتحتها ، وتوجيهه إلى ذلك الحسن بن سهل ، ولما فعل ذلك تحدث الناس بالعراق أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون ، وأنه قد أنزله قصرًا حجبته فيه عن أهل بيته ، ووجوه قواده من الحاصّة والمامة ، وأنه يبرم الأمور على هواه ، ويستبدّ بالرأى دونه ، فعصب لذلك بالعراق من كان بها من بنى هاشم ، ووجوه الناس ، وأنقوا من غلبة الفضل على المأمون ، واجتروا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتن في الأمصار ، فكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا المذكور ، فوجه إليه الحسن بن سهل زهير بن المسيب في عشرة آلاف فواقمهم فهزموه واستباحوا عسكره ، فلما كان من غد اليوم الذي كانت فيه الوقعة (وذلك يوم الخميس ليلة خلت من رجب سنة ١٩٩) مات ابن طباطبا فجأة ، فذكر أن أبا السرايا سمع ، وذلك أن ابن طباطبا لما أحرز ماني عسكر زهير منعه أبا السرايا ، وحظره عليه ، وكان الناس له مطيعين ، فعلم أبو السرايا أنه لا أمر له معه فسه « . و [٢] في الأصل : « أى مثلج » وهو تعريف ، والصواب ما ذكرته .

مُدَّعٍ عَلَى حِجَّتِهِ ، وَيَلُ لِمَنْ اغْتَصَبَ حَقًّا ، وَاَدْعَى بَاطِلًا ، أَفْلَحَ مَنْ رَضِيَ بِحُكْمِ اللَّهِ ، وَخَافَ مِنْ أَرْغَمِ الْحَقُّ أَنْفَهُ ، الْعَدْلُ أَوْلَى بِالْأَثَرَةِ وَإِنْ رَغِمَ الْجَاهِلُونَ ، حُقُّ لِمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ أَنْ يَجْتَنِبَ الْمُنْكَرَ ، وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَ الْعَدْلِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى مَرَارَةِ الْحَقِّ ، كُلُّ نَفْسٍ تَسْمُو إِلَى هِمَّتِهَا ، وَنِعْمَ الصَّاحِبُ الْقِنَاعَةَ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ أَكْرَمَ الْعِبَادَةَ الْوَرَعَ ، وَأَفْضَلَ الزَّادَ التَّقْوَى ، وَاعْمَلُوا فِي دُنْيَاكُمْ ، وَتَرَوُّدُوا لِآخِرَتِكُمْ ، اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَتَوْتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْمَعْصِيَةَ وَحِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّهُمَا يَمَحَقَانِ الدِّينَ ، وَيُورِثَانِ النِّفَاقَ ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، يَصْلُحْ لَكُمْ دِينُكُمْ ، وَتَحْسُنِ الْمَقَالَةَ فِيكُمْ . الْحَقُّ أَوْلَجٌ ، وَالسَّبِيلُ مَنْهَجٌ ، وَالْبَاطِلُ لَجَلَجٌ ^(١) ، وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ ، وَلِكُلِّ فِي الْحَقِّ سَعَةٌ ، مِنْ حَارَبْنَا حَارَبْنَا ، وَمَنْ سَاَلَنَا سَاَلَنَا ، وَالنَّاسُ جَمِيعًا آمِنُونَ إِلَّا رَجُلًا نَصَبَ لِنَا نَفْسَهُ ، وَأَعَانَ عَلَيْنَا بِمَالِهِ ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ : وَرَجُلٌ قَالَ فِينَا يَتَنَاوَلُ مِنْ أَعْرَاضِنَا : لَقُلْتُ ، وَكُنْفِي ، حَسْبُ كُلِّ امْرَأٍ مَا يَصْنَعُهُ ، وَسَيُكْفِي الظَّالِمُونَ »
(مواسم الأدب ٢ : ١١٣)

١١٧ — استعطاف إبراهيم بن المهدي المأمون

لَمَّا ظَفِرَ الْمَأْمُونُ بِعَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ ^(٢) أَمَرَ بِإِدْخَالِهِ عَلَيْهِ ، فَجِيءَ بِإِبْرَاهِيمَ يَحْجُلٌ ^(٣) فِي قِيُودِهِ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ : لَا سَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَلَا حَفِظَكَ ، وَلَا رَعَاكَ ، وَلَا كَلَّكَ ^(٤)

[١] أبلج : أي واضح بين ، والمنهج : الطريق الواضح ، والباطل للجع : أي يتردد فيه صاحبه ، ملا يصيب مخرجا . [٢] كان المأمون قد عهد بالخلافة لعلی الرضا بن موسى الكاظم ، فلما سمع العباسيون ببغداد (وكان المأمون بمرور حاضرة خراسان) ما فعله المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي ، أنكروا منه ذلك ، وحلوه من الخلافة ، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي سنة ٢٩١ هـ ، ولما علم المأمون بذلك جد في المسير إلى بغداد ، وهرب عمه إبراهيم وتواري .
[٣] حجل اللقيد كضرب ونصر : رفع رجلا ، وتريت في مشيه على رجله . [٤] كلاه : حرسه .

يا إبراهيم ، فقال له إبراهيم : على رسلك^(١) يا أمير المؤمنين ، ولى^(٢) النار محكم
في القصاص ، والمعفو أقرب للتقوى ، ومن مد له الاعتذار في الأمل ، هجمت
به الأناة على التلّف^(٣) وقد أصبح ذنبي فوق كل ذنب ، كما أن عفوك فوق
كل^(٤) عفو ، فإن تماقبت فبحقك ، وإن تعف فبفضلك » ، ثم قال :

ذنبى إليك عظيمٌ وأنت أعظمُ منه
فخذ بحقك أو لا فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن فى فعالى من الكرام فكنته

فأطرق المأمون ملياً ، ثم رفع رأسه فقال : إني سأورت أبا إسحق^(٥) والعباس
في قتلك فأشارا على به ، قال : فما قلت لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت لهما :
بدأنا له بإحسان ، ونحن نستأمره فيه ، فإن غير الله يغير ما به ، قال : أما أن يكونا
قد نصحاك فى عظيم قدر الملك ، وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعلا ، ولكن
أبيت أن تستجاب النصر إلا من حيث عودك الله ، ثم استعبر باكيًا ، فقال له
المأمون : ما يُيكيك ؟ قال : جَدَلًا ، إذ كان ذنبي إلى من هذه صفة في الإنعام ،
ثم قال : يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جرئى يبلغ سفك دمي ، فلم أمير المؤمنين
وتفضله يُبلغاني عفوّه ، ولى بعدها شفاعة الإقرار بالذنب ، وحرمة الأب
بعد الأب ، قال المأمون : « القدرة تذهب الحفيظة^(٦) ، والندم توبة ، وعفو
الله بينهما ، وهو أكبر ما يحاول ، يا إبراهيم : لقد حببت إلى العفو ، حتى خفت

[١] المهل والتؤدة . [٢] صاحبه . [٣] وفي رواية : « ومن تناوله الاعتذار بما مد له من أسباب الرضاء ، أمن طادية الدهر » . [٤] وفي رواية : « وقد أصبحت فوق كل ذى ذنب ، كما أصبح كل ذى عفو دونك » ، وفي أخرى : « وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك » . [٥] أبو إسحق هو المنعم أخو المأمون ، والعباس هو ابن المأمون . [٦] الحفيظة : العصب ، وفي رواية الأغانى أن هذه الجملة من قول إبراهيم بن المهدي .

أن لا أوجرَ عليه ، أما لو عَلمَ الناس مالنا في العفو من اللذة ، لتقربوا إلينا
بالجنايات ، لا تثيريب^(١) عليك ، يَغفر الله لك ، ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ
الصفح عن زلتك ، لبلغك ما أملت حسن توصلك ، ولطيف تنصلك » ، ثم
أمر بردَ ماله وضياعه ، فقال :

رَدَدْتَ مَالِي ، وَلَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ بِهِ وَقَبَّلَ رَدَّكَ مَالِي قَدْ حَقَنْتَ دَمِي
فَأُتُّ مِنْكَ - وَمَا كَأَفْأَثُهَا - بِيَدِي هُمَا الْحَيَاتَانِ مِنْ وَفْرِ وَمِنْ عَدَمِ^(٢)
وَقَامَ أَمُّكَ بِي فَاحْتَجَّ عِنْدَكَ لِي مَقَامَ شَاهِدِ عَدْلٍ غَيْرِ مُتَّهَمِ
فَلَوْ بَدَلْتُ دَمِي أَبْنِي رِضَاكَ بِهِ وَالْمَالِ ، حَتَّى أَسْأَلَ النَّعْلَ مِنْ قَدَمِي
مَا كَانَ ذَاكَ سِرْوِي عَاوِيَةَ رَجَعْتُهُ إِلَيْكَ ، لَوْ لَمْ تَهَبَّهَا كُنْتَ لَمْ تُتْلَمْ
(الأغاني ٩ : ٥٧ ، والعقد المربد ١ : ١٤٢ ، والأمالى ١ : ٢٠٢ ، وزهر الآداب ٣ : ١٩١)

١١٨ - إبراهيم بن المهدي وبختيشوع الطيب

تنازع إبراهيم بن المهدي هو وبختيشوع الطيب بين يدي أحمد بن أبي دؤاد
القاضي ، في مجلس الحكم ، في عقار بناحية السواد^(٣) ، فزرى عليه^(٤) ابن المهدي ،
وأغلظ له بين يدي أحمد بن أبي دؤاد ، فأحفظه^(٥) ذلك ، فقال : « يا إبراهيم
إذا نازعت أحداً في مجلس الحكم ، فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً ، ولا
أشرت إليه بيد ، وليكن قصدك أمماً^(٦) ، وطريقك نهجاً^(٧) ، ويرحك ساكنة ،
وكلامك معتدلاً ، ووف مجالس الحكومة حقوقها ، من التوقير والتعظيم
والاستكانة والتوجه إلى الواجب ، فإن ذلك أشبه بك ، وأشكل لمذهبك في

[١] لا لوم . [٢] اليد : النعمة .

[٣] سواد العراق ، والعقار : كل ملك ثابت له أصل كالدار والبخل ، وجمع عقارات .

[٤] عابه . [٥] أغضبه . [٦] الأمم : القصد الوسط . [٧] واضحاً .

مُخْتَدِكِ^(١) ، وَعَظِيمَ خَطَرِكَ^(٢) ، وَلَا تَعْجَلْ ، قَرُبَ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثًا^(٣) ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الزَّلَلِ ، وَخَطَلَ الْقَوْلَ وَالْعَمَلَ ، وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ^(٤) .

قال إبراهيم : « أصلحك الله أمرت بسداد ، وحضضت على رشاد ، ولست بمائدٍ إلى ما يثلم^(٥) مُرُوءتي عندك ، ويُسقطني من عينك ، ويُخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، فهأنأ معتذراً إليك من هذه البادرة ، اعتذاراً مُقَرَّبَ بذنبه ، باخِيعٍ بِجُرْمِهِ^(٥) ، فَإِنَّ الْعَضْبَ لَا يَزَالُ يَسْتَفْزِئُنِي بِمَوَادِّهِ ، فِيرِدُنِي مِثْلَكَ بِحِلْمِهِ ، وَتِلْكَ عَادَةُ اللَّهِ عِنْدَنَا مِنْكَ ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَقَدْ وَهَبْتَ حَقِّي مِنْ هَذَا الْعَقَارِ لِبُخْتِيشُوعَ ، فَلَيْتَ ذَلِكَ الْيَوْمَ يَعُولُ^(٦) بِأَرْشِ^(٧) الْجُنَايَةِ ، وَلَمْ يَتَلَفْ مَالٌ أَفَادَ مَوْعِظَةً ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ » .

(المقدم الفردي ١ : ٢٧ ، وزمر الآداب ١ : ٣٣٢)

١١٩ - استعطاف إسحاق بن العباس المأمون

وقال المأمون لإسحاق بن العباس : « لَا تَحْسَبْنِي أَغْفَلْتُ إِجْلَابَكَ مَعَ ابْنِ الْمَهْدِيِّ ، وَتَأْيِيدَكَ لِرَأْيِهِ ، وَإِيقَادَكَ لِنَارِهِ ، قَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَرَجِي أَمْسُ مِنْ أَرْحَامِهِمْ ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِأَخَوْتِهِ : « لَا تَثْرِيْبَ^(٨) عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَقُّ وَارِثٍ لِهَذِهِ الْمِنَةِ ، وَتُمَثِّلُ^(٩) لِحِلَالِ الْعَفْوِ وَالْفَضْلِ » .

قال : هيهات ! تلك أجرام جاهلية ، عفا عنها الإسلام ، وجُرْمُكَ جرم في إسلامك ، وفي دار خلافتك . قال : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاللَّهِ لِلْمُسْلِمِ أَحَقُّ بِإِقَالَةِ

[١] أضلك . [٢] قدرك . [٣] إطاء . [٤] يميب ويغيب . [٥] تمر .

[٦] يزيد ويرجع . [٧] الأرض : الدية .

[٨] لا لوم . [٩] امتثل طريقته : تبعها فلم يبدعها .

الغفرة، وغفران الزلة من الكافر، هذا كتاب الله بيني وبينك، يقول الله تعالى :
 « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ
 لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ
 النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » فهي للناس يا أمير المؤمنين سُنَّةٌ دخل فيها
 المسلم والكافر، والشريف والمشروف « قال : صدقت ، اجلس ، وَرِيَتْ بِكَ
 زِنَادِي ، وَلَا بَرِحْتُ أَرَى مِنْ أَهْلِكَ أَمْثَالَكَ .

(العقد الفريد ١ : ١٤٢ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٣)

١٢٠ - أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخلها

لما دخل المأمون بغداد ، تلقاه وجوه أهلها ، فقال له رجل منهم : « يا أمير
 المؤمنين ، بارك الله لك في مَقْدَمِكَ ، وزاد في نعمتك ، وشكرك عن رعيتك ،
 تقدمت مَنْ قَبْلَكَ ، وَأَتَعَبْتَ مَنْ بَعْدَكَ ^(١) ، وَأَيَسَّتْ أَنْ يُعَايَنَ مِثْلَكَ ، أما فيما
 مضى فلا نعرفه ، وأما فيما بقي فلا نرجوه ، فنحن جميعاً ندعوك ، ونثنى
 عليك ، خَصِبَ لَنَا جَنَابُكَ ، وَعَذِبَ ثَوَابُكَ ، وَحَسُنْتَ نَظْرَتُكَ ، وَكَرُمْتَ
 مَقْدَرَتَكَ ، جَبَرْتَ الْفَقِيرَ ، وَفَكَكْتَ الْأَسِيرَ ، فَإِنَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا
 قَالَ الْأَوَّلُ :

ما زلتَ في البَدَلِ والنَّوَالِ وإِطْلَاقِ لِعَانٍ بِجُرْمِهِ غَلِقِ ^(٢)

حتى تَمُنِّي الْبِرَاءَ أَنَّهُمْ عِنْدَكَ أَسْرَى فِي الْقَيْدِ وَالْحَلَقِ ^(٣)

(العقد الفريد ١ : ١٣٧)

[١] إذ أنه يجهد أن يلحق بك فلا يستطيع . [٢] العاني : الأسير ، والعلق : أهله مع غلق
 الرهن إذا استعقه الرهن ، وذلك إذا لم يتمكنك في الوقت المشروط . [٣] البراء ككرام جمع برى .

١٢١ - أحد أهل الكوفة يمدح المأمون

وقدم وفد من الكوفة إلى بغداد ، فوقفوا للمأمون فأعرض عنهم ، فقال شيخ منهم : « يا أمير المؤمنين ، يدك أحقُّ يدٍ بتقبيل ، لعلوها في المكارم ، وبعدها من المآثم ، وأنت يوسفي العفو في قلة التثريب ، من أرادك بسوء جعله الله حصيد سيفك ، وطريد خوفك ، وذليل دولتك » ، فقال يا عمرو : نعم الخطيب خطيبهم ، افض حوائجهم . (مروج الذهب ٢ : ٣١٩)

١٢٢ - محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدي المأمون

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبض ضياعهم ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، محمد بن عبد الملك بين يديك ، ربيب دولتك ، وسليل نعمتك ، وغصن من أغصان دوحتك ^(١) ، أتأذن في الكلام ؟ قال : نعم ، قال : « أستمنح الله حياة ديننا ودياننا ، ورعاية أدياننا وأقسانا ببقائك ، ونسأله أن يزيد في عمرك من أعمارنا ، وفي أثرك من آثارنا ، ويقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، هذا مقام المائد بفضلك ، الهارب إلى كنفك وظلك ، الفقير إلى رحمتك وعدلك » ، ثم تكلم في حاجته ، فقضاها . (العقد الفريد ١ : ١٤٦)

١٢٣ - الحسن بن سهل يمدح المأمون

وقال الحسن بن سهل ^(٢) يوماً للمأمون :

« الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك ، ومسني ما أعطاك ، إذ قسم لك الخلافة ، وهب لك معها الحجة ، ومكنك بالسلطان ، وحلأه لك بالعدل ،

[١] الدوحة : الشجرة المطيعة .

[٢] وذر للمأمون بمد أخيه الفضل بن سهل ، وتزوج تامون ابنته بوران ، وتوفى سنة ٢٣٦ هـ .

وأيدك بالظفر ، وَشَفَعَهُ لَكَ بِالْعَفْوِ ، وَأَوْجِبَ لَكَ السَّعَادَةَ ، وَقَرَنَهَا بِالسِّيَادَةِ ، فَمَنْ فُسِّحَ (١) لَهُ فِي مِثْلِ عَطِيَّةِ اللَّهِ لَكَ ؟ أَمْ مَنْ أَلْبَسَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ زِينَةِ الْمَوَاهِبِ مَا أَلْبَسَكَ ؟ أَمْ مَنْ تَرَادَفَتْ نِعْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ تَرَادُفَهَا عَلَيْكَ ؟ أَمْ هَلْ حَاوَلَهَا أَحَدٌ وَارْتَبَطَهَا بِمِثْلِ مَحَاوَلَتِكَ ؟ أَمْ أَى حَاجَةٍ بَقِيَتْ لِرَعِيَّتِكَ لَمْ يَجِدُوهَا عِنْدَكَ ؟ أَمْ أَى قِيَمٍ لِلإِسْلَامِ انْتَهَى إِلَى عِنَايَتِكَ وَدَرَجَتِكَ ؟ تَعَالَى اللَّهُ تَعَالَى ، مَا أَعْظَمَ مَا خَصَّ الْقَرْنَ الَّذِي أَنْتَ نَاصِرُهُ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ ! أَى نِعْمَةٍ طَبَّقَتْ (٢) الْأَرْضَ بِكَ إِنْ أَدَّى شُكْرَهَا إِلَى بَارئِهَا وَالْمُنْعَمِ عَلَى الْعِبَادِ بِهَا ؟ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَاءَ فِي فَلَكِهَا ضِيَاءً يَسْتَنِيرُ بِهَا جَمِيعَ الْخَلَائِقِ ، فَكُلُّ جَوْهَرٍ زَاهٍ حَسَنُهُ وَنُورُهُ ، فَهَلْ لَبَسَتْهُ زِينَتُهُ إِلَّا بِمَا اتَّصَلُ بِهِ مِنْ نُورِكَ ؟ وَكَذَلِكَ كُلُّ وَليٍّ مِنْ أَوْلِيَائِكَ ، سَعِدَ بِأَفْعَالِهِ فِي دَوْلَتِكَ ، وَحَسُنَتْ صَنَائِعُهُ عِنْدَ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّمَا نَالَهَا بِمَا أَيْدَتْهُ مِنْ رَأْيِكَ وَتَدْيِيرِكَ ، وَأَسْعَدَتْهُ مِنْ حَسَنِكَ وَتَقْوِيمِكَ . (زهر الآداب ٣ : ٢٠٠)

١٢٤ - يحيى بن أكرم يمدح المأمون

وقال المأمون ليحيى بن أكرم (٣) : صف لى حالى عند الناس ، فقال :
 « يا أمير المؤمنين ، قد انتقادت لك الأمور بأزممتها ، وملكتك الأمة فُضُولَ
 أَعْنَتِهَا ، بِالرَّغْبَةِ إِلَيْكَ ، وَالْمَحَبَةِ لَكَ ، وَالرَّفْقِ مِنْكَ ، وَالْعِيَاذِ بِكَ ، بِعَدْلِكَ فِيهِمْ ،
 وَمِنْكَ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى لَقَدْ أَنْسَيْتَهُمْ سَلْفَكَ ، وَأَيَسْتَهُمْ مِنْ خَلْفِكَ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ
 الَّذِي جَمَعَنَا بِكَ بَعْدَ التَّقَاطُعِ ، وَرَفَعَنَا فِي دَوْلَتِكَ بَعْدَ التَّوَاضُعِ » .

[١] أى وسع . [٢] ملأت وعت ، والاستفهام للتعظيم .

[٣] من ولد أكرم بن صبيو التميمي ، وكان فقيها عالما بالفقه بصيراً بالأحكام ، وقد غلب على المأمون ، حتى لم يتقدمه أحد عنده من الناس جميعاً ، وقلده قضاء القضاة ، وتدير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطاوعة يحيى بن أكرم ، وتوفى سنة ٢٤٦ هـ ، وعمره ٨٣ سنة .

فقال : يا يحيى ، أتحبيراً أم ارتجالاً ؟ قال : قلت : وهل يمتنع فيك وصف ، أو يتعذر على مادحك قول ، أو يُفحَم فيك شاعر ، أو يتلجلج فيك خطيب ؟

(الصناعتين ص ٤٠)

١٢٥ — أحد بنى هاشم والمأمون

أذنب رجل من بنى هاشم ذنباً ، فَعَنَفَهُ المأمون ، فقال :

« يا أمير المؤمنين من كانت له مثلُ ذَاتِي ، وَلَبِسَ ثوبَ حُرْمَتِي ، وَمَتَّ

بِمِثْلِ قِرَابَتِي ، غَفِرَ له فوق زَلَّتِي » فَأعْجَبَ المأمونَ كَلَامَهُ وصفح عنه .

(الأمل ٢ : ١٣٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٢٦ — رجل يتظلم إلى المأمون

وتظلمَ رجل إلى المأمون من عامل له فقال :

« يا أمير المؤمنين ، ما تَرَكَ لِي فِضَّةً إِلَّا فُضَّهَا ، ولا ذَهَبًا إِلَّا ذَهَبَ به ،

ولا غَلَّةً إِلَّا غَلَّمَهَا ^(١) ، ولا ضِيعةً إِلَّا أضاعها ، ولا عِلْقًا ^(٢) إِلَّا عَلِقَهُ ، ولا عَرَضًا

إلا عَرَضَ له ، ولا ماشيةً إِلَّا أمتشها ^(٣) ، ولا جليلاً إِلَّا أجلاه ، ولا دقيقاً

إلا دَقَّه » ، فَعَجِبَ من فصاحته وقضى حاجته . (زهر الآداب ٢ : ١٣٧)

١٢٧ — عمرو بن سعيد والمأمون

وقال عمرو بن سعيد بن سلم : كانت عليّ نوبةٌ نُوبها في حَرَسِ المأمون ،

فكنت في نوبتي ليلةً ، نخرج متفقداً من حضر ، فعرفته ولم يعرفني ، فقال :

من أنت ؟ قلت : عمرو ، عمرك الله ، ابن سعيد ، أسعدك الله ، ابن سلم ، سلمك

[١] المراد احتازها ، والأصل فيه غله : أى وضع ي عنقه أو يده النلّ (بالضم) وهو الفيد .

[٢] العلق : النيس من كل شيء ، وعلقه ، وعلق به كفرح أحبه ، أو هو « علقه » مشدداً مبنياً

للسجول ، علق امرأة : أى أحبا . [٣] امتش ما فر الضرع : أخذ جميعه .

الله ، فقال : أنت تَكَلَّوْنَا منذ الليلة ؟ قلت : الله يكلؤك قبلي ، وَهُوَ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فقال المأمون :

إِنْ أَخَاكَ الصَّدَقَ مَنْ يَسْمَعُ مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
وَمَنْ إِذَا صَرَفَ الزَّمَانَ صَدَعَكَ بَدَّدَ شَمْلَ نَفْسِهِ لِيَجْمَعَكَ

(زهر الآداب ٢ : ١٣٧)

١٢٨ — الحسن بن رجاء والمأمون

ودخل المأمون بعض الدواوين ، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم ، فقال :
مَنْ أَنْتَ يَا غَلَامَ ؟ فقال :

« أَنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، النَّاشِئُ فِي دَوْلَتِكَ ، الْمُتَقَلِّبُ فِي نِعْمَتِكَ ، الْمُؤَمِّلُ
لِخِدْمَتِكَ ، خَادِمُكَ وَابْنُ خَادِمِكَ : الْحَسَنُ بْنُ رَجَاءٍ » ، فقال : أَحْسَنْتَ يَا غَلَامَ ،
وَبِالْإِحْسَانِ فِي الْبَدِيهَةِ تَفَاوَضْتَ الْعُقُولُ ، وَأَمْرٌ بَرَفَعَ مَرْتَبَتَهُ .

(زهر الآداب ٢ : ١٧٣)

١٢٩ — سعيد بن مسلم والمأمون

وقال سعيد بن مسلم بن قُتَيْبَةَ لِامُؤْمِنِينَ :

« لَوْلَمْ أَشْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى إِلَّا عَلَى حُسْنِ مَا أَبْلَانِي مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ
قَصْدِهِ إِلَى بَحْدِيثِهِ ، وَإِشَارَتِهِ إِلَى بَطْرَفِهِ ، لَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ أَعْظَمُ الرَّفْعَةِ ،
وَأَرْفَعُ مَا تُوجِبُهُ الْحُرْمَةُ » .

فقال : « يَفْعَلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ ، لِأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَجِدُ عِنْدَكَ مِنْ
حُسْنِ الْإِفْهَامِ إِذَا حَدَّثْتَ ، وَحُسْنِ الْفَهْمِ إِذَا حُدِّثْتَ ، مَا لَمْ يَجِدْهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِمَّنْ

مضى ، ولا يظنُّ أنه يجدُّ عند أحدٍ من بقي ، فإنك لتستقصى حديثي ، وتقف عند مقاطع كلامي ، وتُخبر بما كنتُ أغفلته منه . (زمر الآداب ١ : ١٧٣)

١٣٠ - أبو زهمان يعظ سعيد بن مسلم

وقال سعيد بن مسلم : « كنت والياً بأزمينية ، فغَبَرُ^(١) أبو زهمان العَلَانِيَّ على بابي أياماً ، فلما وصل إلى مثل بين يدي قائماً بين السَّمَاطِينِ^(٢) وقال :

« والله إنني لأعرف أقواماً لو علموا أن سفَّ التراب يُقيم من أود^(٣) أصلابهم ، ل جعلوه مُسَكَّةً^(٤) لازماً فيهم ، إشاراً للتنزه عن عيشٍ رقيقِ الحواشي ، أما والله إنني لبعيد الوثبة ، بطي ، العطفة ، إنه والله ما يثني عليك إلا مثل ما يصرِّفني عنك ، ولأن أكون مُقلاً مقرباً ، أحبُّ إلى من أن أكون مُكثراً مُبعداً ، والله ما نسأل عملاً لا نضبطه ، ولا مالاً إلا نحن أكثر منه ، وهذا الأمر الذي صار إليك في يدك ، كان في يد غيرك ، فأمسوا والله حديثاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فتجَبَّبْ إلى عباد الله بحسن البشر ، ولين الجانب ، فإن حُبَّ عباد الله موصول بحُبِّ الله ، وبنضهم موصول ببغض الله ، لأنهم شهداء الله على خلقه ، ورُقباؤه على من اعوجَّ عن سبيله . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٥)

١٣١ - وصية طاهر بن الحسين

لابنه عبد الله لما ولَّاه المأمون الرِّقَّةَ ومصر وما بينهما^(٥) سنة ٢٠٦ هـ

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ومزايله سُخْطِهِ وحفظِ رِعيتك ، والزَّم ما ألبسك الله من

[١] مكث . [٢] السَّمَاطَان من الناس : الجانبان ، يقال : معنى بين السَّمَاطِين .

[٣] اعوجج . [٤] المسكة : ما عسك الأبدان من الغذاء والشراب ، أو ما يبلغ به منهما .

[٥] أثبتنا هذا الكتاب هنا لأنه في عداد الوصايا .

العافية بالذكر لمعادك ، وما أنت صائر إليه ، وموقوف عليه ، ومستول عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله ، وينجيك يوم القيامة من عذابه ، وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وأزملك العدل عليهم ، والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والذب^(١) عنهم ، والدفع عن حريمهم وبيئتهم^(٢) ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسبيلهم^(٣) ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك ، وموقفك عليه ، ومسائلك عنه ، ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ، ففرغ لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورؤيتك ، ولا يذْهَلْكَ^(٤) عنه ذاهل ، ولا يَشْغَلْكَ^(٥) عنه شاغل ، فإنه رأس أمرك ، وملاك شأنك ، وأول ما يوقفك الله به لرشدك ، وليكن أول ما تلزم به نفسك ، وتنسب إليه فعالك ، المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها على سننها ، في إسباغ^(٦) الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها ، وترتّل^(٧) في قراءتك ، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولتصدق فيها لربك نيتك ، واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وأدأب عليها فإنها كما قال الله : تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمثابرة على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة^(٨) الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله في كتابه

[١] الدفع . [٢] البيضة : حوزة كل شيء .

[٣] وفي مقدمة ابن خلدون : لسربهم ، والسرب : النفس . [٤] ذهلت عن الشيء (كفتح) غفلت وقد يتعدى بنفسه . فيقال ذهاتنه ، والأكثر أن يتعدى بالهزيمة ، فيقال : أذهلني فلان عن الشيء .

[٥] شغله من باب فتح وأشمله لمة جيدة أو قليلة أو رديئة . [٦] أسبغ الوضوء : وفي كل عضو حقه .

[٧] تمهل ولا تمجل . [٨] استخار الله : طلب منه الحيرة .

من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، واثتمام ما جاءت به الآثارُ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بما يحق لله عليك ، ولا تَمَلْ عن العدل فيما أحببت أو كرهت ، لقريب من الناس أو بعيد ، وآثرِ الفقهَ وأهله ، والدينَ وَحَمَلته ، وكتاب الله والعاملين به ، فإن أفضل ما تزيّن به المرء الفقه في دين الله ، والطلب له ، والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله ، فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد له ، والآمر به ، والناهي عن المعاصي والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفةً بالله عزّ وجلّ ، وإجلالا له ، ودَرَكَاً للدرجات العُلا في المعاد ، مع ما في ظهوره للناس من التوقير لأمرك ، والهيبَة لسلطانك ، والأنسَة بك ، والثقة بعدك ، وعليك بالاعتقاد في الأمور كلها ، فليس شيء أيقن نفعاً ، ولا أحضر أمناً ، ولا أجمع فضلاً من القصد ، والقصد داعية إلى الرشd ، والرشd دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة ، وقوام الدين والسنن الهادية بالاعتقاد ، فأثره في دنياك كلها ، ولا تقصّر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ، ومعالم الرشd ، فلا غاية للاستكثار من البرّ والسعى له ، إذا كان يُطلب به وجه الله ومرّضاته ، ومرافقة أوليائه في دار كرامته ، واعلم أن القصد في شأن الدنيا يُورث العزّ ويحصّن من الذنوب ، وإنك لن تحوُط^(١) نفسك ومن يليك ، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه ، فأته واهتد به تتمّ أمورك ، وتردّ مقدرتك ، وتصلح خاصتك وعامتك ، وأحسن الظن بالله عزّ وجلّ تستقم لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها ، تستدّم به النعمة عليك ، ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره ،

فإن إيقاع النهم بالبرآء، والظنون السيئة بهم مأثم، واجعل من شأنك حُسنَ
الظن بأصحابك، واطرد عنك سوء الظن بهم، وارفضه فيهم، يُعينك ذلك على
اصطناعهم^(١) ورياضتهم، ولا يجدنَّ عدو الله الشيطانُ في أمرِك مَفْخَرًا، فإنه
إنما يكتفى بالقليل من وَهْنِكَ^(٢)، فَيُدْخِلُ عَلَيْكَ مِنَ النِّمِّ فِي سُوءِ الظَّنِّ
مَا يَنْغْصُكَ لَدَاذَةِ عَيْشِكَ، وَاَعْلَمُ أَنَّكَ تَجِدُ بِحُسْنِ الظَّنِّ قُوَّةً وَرَاحَةً، وَتُكْفَى
بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِفَايَتَهُ مِنْ أُمُورِكَ، وَتَدْعُو بِهِ النَّاسَ إِلَى مَحَبَّتِكَ، وَالِاسْتِقَامَةِ
فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا لَكَ، وَلَا يَمْنَعُكَ حُسْنُ الظَّنِّ بِأَصْحَابِكَ وَالرَّأْفَةُ بِرِعَيْتِكَ، أَنْ
تَسْتَعْمَلَ الْمَسْأَلَةَ وَالْبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ، وَالْمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ، وَالْحَيَاطَةَ
لِلرَّعِيَّةِ، وَالنَّظَرَ فِيهَا يُقِيمُهَا وَيُصْلِحُهَا، بَلْ لَتَكُنِ الْمُبَاشَرَةُ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ،
وَالْحَيَاطَةُ لِلرَّعِيَّةِ، وَالنَّظَرُ فِي حَوَائِجِهِمْ وَحَمَلُ مَثُونَاتِهِمْ، آثَرَ عِنْدَكَ مِمَّا سِوَى
ذَلِكَ، فَإِنَّهُ أَفْؤَمٌ لِلدِّينِ، وَأَحْيَا لِلسَّنَةِ، وَأَخْلِصْ نِيَّتَكَ فِي جَمِيعِ هَذَا، وَتَفَرَّدْ
بِتَقْوِيمِ نَفْسِكَ تَفَرَّدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَسْتَوِلٌ عَمَّا صَنَعَ، وَمَجْزِيٌّ بِمَا أَحْسَنَ،
وَمَا خُوذَ بِمَا أَسَاءَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الدِّينَ حِرْزًا وَعِزًّا، وَرَفَعَ مَنْ اتَّبَعَهُ وَعَزَّزَهُ،
فَاسْلُكْ بَيْنَ تَسْوِسِهِ وَتَرْعَاهُ نَهْجَ الدِّينِ وَطَرِيقَةَ الْهُدَى، وَأَقِمْ حُدُودَ اللَّهِ فِي أَصْحَابِ
الْجَرَائِمِ عَلَى قَدْرِ مَنَازِلِهِمْ وَمَا اسْتَحَقُّوه، وَلَا تَعَطَّلْ ذَلِكَ وَلَا تَهَيَّأَنَّ بِهِ، وَلَا
تَوَخَّرْ عِقُوبَةَ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ، فَإِنَّ فِي تَفْرِيطِكَ فِي ذَلِكَ لَمَّا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حُسْنَ
ظَنِّكَ، وَاعْزِمِ عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ بِالسَّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ، وَجَانِبِ الشُّبُهَةِ وَالْبِدْعَاتِ،
يَسَلِّمْ لَكَ دِينِكَ، وَتَقِمْ لَكَ مَرءَ وَتَكَ، وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا فَفِّ بِهِ، وَإِذَا وَعَدْتَ

[١] اصطنعتك لنفسى : اخترتك لخاصة أمر استكملك إياه .

[٢] الوهن بسكون الهاء وفتحها : الضعف .

الخير فَأَنْجِزْهُ ، واقبل الحسنة وادفع بها ، وَأَغْمِضْ عن عيب كل ذى عيب من رعبتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وَأَبْغِضْ أهله ، وَأَقْصِ أهلَ النِّمِية ، فإن أول فساد أمرك فى عاجل الأمور وآجلها تقرب الكذب والجُرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمها ، لأن النميمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم لطبيعتها أمر ، وأحبّ أهل الصدق والصلاح ، وأعزّ الأشراف بالحق ، وواصل الضعفاء ، وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله وعزة أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعبتك ، وأنعم بالعدل فى سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى ، واملك نفسك عند الغضب ، وآثر الوقار والحلم ، وإياك والحدة والطيش والنورور فيما أنت بسبيله ، وإياك أن تقول : إني مُسَلِّطُ أفعل ما أشاء ، فإن ذلك سريع بك إلى نقص الرأى ، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له ، وأخلص لله النية فيه واليقين به ، واعلم أن الملك لله ، يُعْطِيهِ من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ولن تجد تغير النعمة وحلول النعمة إلى أحد ، أسرع منه إلى حَمَلَةِ النعمة من أصحاب السلطان ، والمبسوط لهم فى الدولة ، إذا كفروا بنعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخايرك وكنوزك التى تدخر وتكدر البر والتقوى والمعدلة ، واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفقد لأموالهم والحفظ لدمهم^(١) والإفائة للمهوفهم ، واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت فى الخزائن لا تُشْمِر ، وإذا

[١] الدعاء : جماعة الناس « وى المقدمة : والحفظ لدمائهم » .

كَانَتْ فِي إِصْلَاحِ الرَّعِيَّةِ وَإِعْطَاءِ حَقُوقِهِمْ ، وَكَفِّ الْمَثُونَةَ عَنْهُمْ ، نَمَّتْ وَرَبَّتْ
وَصَلَحَتْ بِهِ الْعَامَّةُ ، وَتَزِينَتْ بِهِ الْوَلَاةُ ، وَطَابَ بِهِ الزَّمَانُ ، وَاعْتَقَدَ فِيهِ الْعِزُّ
وَالْمَنْعَةُ ، فَلَئِنْ كُنَّ خَزَائِنُكَ تَفْرِيقَ الْأَمْوَالِ فِي عِمَارَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَوَفَّرَ
مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكَ حَقُوقَهُمْ ، وَأَوْفَى رِعْيَتِكَ مِنْ ذَلِكَ حِصَصَهُمْ ،
وَتَعَهَّدَ مَا يُصْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَايِشَهُمْ ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَّرْتَ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ ،
وَاسْتَوْجِبْتَ الْمَزِيدَ مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَتْ بِذَلِكَ عَلَى جَبَايَةِ خِرَاجِكَ ، وَجَمْعِ أَمْوَالِ
رِعْيَتِكَ وَعَمَلِكَ أَقْدَرُ ، وَكَانَ الْجَمْعُ لِمَا شَمِلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسْلَسَ
لِطَاعَتِهِمْ ، وَأَطِيبَ نَفْسًا لِكُلِّ مَا أَرَدْتَ ، فَاجْهَدْ نَفْسَكَ فِيمَا حَدَدْتَ لَكَ فِي
هَذَا الْبَابِ ، وَلْتَعْظُمَ حِسْبَتُكَ فِيهِ ، فَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ مَا أُنْفَقَ فِي سَبِيلِ حَقِّهِ ،
وَاعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ شُكْرَهُمْ وَأَثْبَهُمْ عَلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُنْسِيكَ الدُّنْيَا وَغُرُورَهَا
هُوْلَ الْآخِرَةِ ، فَتَتَهَاوَنَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ التَّهَآوَنَ يُوجِبُ التَّفْرِيطَ ، وَالتَّفْرِيطَ
يُورِثُ الْبَوَارَ ، وَلَيْكُنْ عَمَلُكَ لِلَّهِ وَفِيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَارْجُ الثَّوَابَ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ
أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَظْهَرَ لَدَيْكَ فَضْلَهُ ، فَاعْتَصِمِ بِالشُّكْرِ ، وَعَلَيْهِ
فَاعْتَمِدْ ، يَزِدُّكَ اللَّهُ خَيْرًا وَإِحْسَانًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يُشِيبُ بِقَدْرِ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ ، وَسِيرَةَ
الْمُحْسِنِينَ ، وَقَضَى الْحَقَّ فِيمَا حَمَلَ مِنَ النِّعَمِ ، وَأَلْبَسَ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالْكَرَامَةِ ، وَلَا
تَحْقِرَنَّ ذَنْبًا ، وَلَا تَمَالُنَّ حَاسِدًا ، وَلَا تَرْحَمَنَّ فَاجِرًا ، وَلَا تَصِلَنَّ كُفُورًا ، وَلَا
تَدَاهِنَنَّ عَدُوًّا ، وَلَا تَصَدَّقَنَّ نَمَامًا ، وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا ، وَلَا تَوَالِنَنَّ فَاسِقًا ، وَلَا
تَتَّبِعَنَّ غَاوِيًّا ، وَلَا تَحْمَدَنَّ مُرَائِيًّا ، وَلَا تَحْقِرَنَّ إِنْسَانًا ، وَلَا تَرُدَّنَّ سَائِلًا فَقِيرًا ، وَلَا
تَجْبِينَ ^(١) بَاطِلًا ، وَلَا تَلَا حِظْنَ مَضْحَكًا ، وَلَا تُخْلِفَنَّ وَعْدًا ، وَلَا تَرْهُوْنَ نَفْرًا ،

[١] وفي المقدمة : « ولا تحسن باطلا » .

ولا تُظهِرَنَّ غضباً ، ولا تأتين بَدَخاً ^(١) ، ولا تمشين مَرَحاً ، ولا تركبن سَفَهًا ^(٢) ، ولا تقرّطن في طلب الآخرة ، ولا ترفع للنمام عيناً ، ولا تُغمِضن عن الظالم رهبة منه أو مخافة ، ولا تطلبن ثواب الآخرة بالدنيا ، وأكثرن مشاوره الفقهاء ، واستعملن نفسك بالحلم ، وخذن عن أهل التجارب ، وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تُدخِلن في مشورتك أهل الدقة ^(٣) والبخل ، ولا تسمعن لهم قولاً ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شيء أسرع فساداً لما استقبلت في أمر رعيتك من الشح ، واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلاً ، فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك ، بالكف عن أموالهم وترك الجور عنهم ، ويدوم صفاء أوليائك لك ، بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم ، فاجتنب الشح ، واعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه ، وأن العاصي بمنزلة خزي ، وهو قول الله عز وجل : « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، فسهل طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظاً ونصيباً ، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فأعدده لنفسك خُلُقاً ، وارض به عملاً ومذهباً ، وتفقد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبتهم ، وأذر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم في معاشهم ، ليذهب بذلك الله فاقهم ، ويقوم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانسراحاً ، وحسب ذى سلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله ، وحَيِّطته ^(٤) وإنصافه ، وعنايته وشفقته ، وبره

[١] البذخ : الكبر . [٢] وفي المقدمة : « ولا تركبن سفياً » .

[٣] وفي المقدمة : « أهل الرّفة » . [٤] في المهمة : « وعطيته » .

وتوسعته ، فزایل مكرورة أحد البابين باستشعار تكلمة الباب الآخر ، ولزوم العمل به ، تلقَ إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً ، واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذي يعتدل عليه الأحوال في الأرض ، وإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتأمين السبل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدّي حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ، ويقوم الدين ، وتجري السنن والشرائع ، وعلى مجاريها يتنجز الحق والعدل في القضاء ، واشتد في أمر الله ، وتورع عن النطْف (١) ، وامض لإقامة الحدود ، وأفلل العجلة ، وابتعد من الضجر والقلق ، واقنع بالقسم ، ولتسكن ريحك ، ويقرب جدك ، وانتفع بتجربتك ، وانتبه في صمتك ، وأسدد (٢) في منطقتك ، وأنصف الخصم ، وقف عند الشبهة ، وأبلغ في الحجة ، ولا يأخذك في أحد من رعيته محاباةً ولا محاماة (٣) ولا لوم لأثم ، وثبت وتأن وراقب ، وانظر وتدبر ، وتفكر واعتبر ، وتواضع لربك ، وارف (٤) بجميع الرعية ، وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن إلى سفك دم (فإن الدماء من الله بمكان عظيم) انتهت كلها بغير حقها ، وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للاسلام عزاً ورفعة ، ولأهله سعة ومنعة ، ولعدوه وعدوهم كبتاً (٥) وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاديتهم ذلاً وصغاراً ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه ، ولا عن غني لغناه ، ولا عن كاتب لك ، ولا أحد من خاصتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال

[١] النطف : اليب والشر والفساد . [٢] سدّ يسدّ كضرب : صار سديداً .

[٣] في المقدمة : « ولا محاماة » . [٤] من باب كرم وقطع وطرب .

[٥] كبتته : صرعه وأخزاه ، وردّ العدو بشيظه وأذله .

له ، ولا تَكَلَّفْنِ أَمْرًا فِيهِ شَطَطٌ ، واحمل الناس كلهم عَلَى مَرٍّ الْحَقِّ ، فَإِنْ ذَلِكَ أَجْمَعٌ لِأَلْفَتِهِمْ ، وَأَلْزِمِ لِرِضَا الْعَامَةِ ، واعلم أَنَّكَ جُعِلْتَ بِوِلَايَتِكَ خَازِنًا وَحَافِظًا وَرَاعِيًا ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ أَهْلُ عَمَلِكَ رَعِيَّتِكَ ، لِأَنَّكَ رَاعِيَهُمْ وَقِيَمَهُمْ ، تَأْخُذُ مِنْهُمْ مَا أُعْطَوْكَ مِنْ عَفْوَهِمْ وَمَقْدَرَتِهِمْ ، وَتَنْفِقُهُ فِي قِيَامِ أَمْرِهِمْ وَصِلَاحِهِمْ وَتَقْوِيمِ أَوْدَعِهِمْ ، فَاسْتَعْمَلْ عَلَيْهِمْ فِي كَوْرِ عَمَلِكَ ذَوِي الرَّأْيِ وَالتَّجْدِيرِ وَالتَّجْرِبَةِ وَالتَّجْبُرَةِ بِالْعَمَلِ ، وَالعِلْمِ بِالسِّيَاسَةِ وَالعِفَافِ ، وَوَسَّعْ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ ، فَإِنْ ذَلِكَ مِنَ الْحَقُوقِ اللَّازِمَةِ لَكَ فِيمَا تَقْلُدُ وَأَسْنِدَ إِلَيْكَ ، وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُ شَاغِلٌ ، وَلَا يَصْرِفَنَّكَ عَنْهُ صَارِفٌ ، فَإِنَّكَ مَتَى آثَرْتَهُ وَقَمْتِ فِيهِ بِالْوَاجِبِ ، اسْتَدْعَيْتَ بِهِ زِيَادَةَ النِّعْمَةِ مِنْ رَبِّكَ وَحَسَنَ الْأَحْدُوثَةِ فِي عَمَلِكَ ، وَاحْتَرَزْتَ النَّصِيحَةَ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَأَعْنَيْتَ عَلَى الصِّلَاحِ ، فَدَرَّرْتَ الْخَيْرَاتِ بِيَدِكَ ، وَفَشَتِ الْعِمَارَةَ بِنَاحِيَّتِكَ ، وَظَهَرَ الْخِصْبُ فِي كَوْرِكَ ، فَكَثُرَ خَرَاجُكَ ، وَتَوَفَّرَتْ أَمْوَالُكَ ، وَقَوِيَتْ بِذَلِكَ عَلَى ارْتِبَاطِ جَنْدِكَ ، وَإِرْضَاءِ الْعَامَةِ بِإِفَاضَةِ الْعَطَاءِ فِيهِمْ مِنْ نَفْسِكَ ، وَكَانَتْ مَحْمُودِ السِّيَاسَةِ ، مَرْضِيٍّ الْعَدَلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ عَدُوِّكَ ، وَكَانَتْ فِي أَمْوَالِكَ كُلِّهَا ذَا عَدَلٍ وَقُوَّةٍ وَآلَةٍ وَعُدَّةٍ ، فَنَافِسٌ فِي هَذَا وَلَا تَقْدَمُ عَلَيْهِ شَيْئًا ، تَحْمَدُ مَغْنَمَةَ أَمْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَاجْعَلْ فِي كُلِّ كَوْرَةٍ مِنْ عَمَلِكَ أَمِينًا يُخْبِرُكَ أَخْبَارَ عَمَالِكَ ، وَيَكْتُبُ إِلَيْكَ بِسِيرَتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، حَتَّى كَأَنَّكَ مَعَ كُلِّ حَامِلٍ فِي عَمَلِهِ ، مُعَايِنٌ لِأَمْرِهِ كُلِّهِ ، وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمُرَهُ بِأَمْرٍ ، فَانظُرْ فِي عَوَاقِبِ مَا أَرَدْتَ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنْ رَأَيْتَ السَّلَامَةَ فِيهِ وَالعَافِيَةَ ، وَرَجُوتَ فِيهِ حَسَنَ الدِّفَاعِ وَالنَّصِيحِ وَالصَّنْعِ فَأَمُضِهِ ، وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عَنْهُ ، وَرَاجِعْ أَهْلَ الْبَصَرِ وَالعِلْمِ ، ثُمَّ خُذْ فِيهِ عُدَّتَهُ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ فِي أَمْرٍ مِنْ أَمْرِهِ قَدْ وَاتَاهُ عَلَى مَا يَهْوَى فَقَوَّاهُ ^(١) ذَلِكَ وَأَعْجِبَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي عَوَاقِبِهِ

أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت ، وباشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك ، وافرغ من عمل يومك ، ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تُلهيك عن عمل يومك الذي أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فشغلك ذلك حتى تُعرض عنه ، فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبدنك ، وأحكمت أمور سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طويتهم ، وتهذيب مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مئونتهم ، وأصلح حالهم ، حتى لا يجدوا خللتهم ^(١) مساً ، وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظالمته إليك ، والمحقر الذي لا علم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أحنى مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يُصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتامهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال ، اقتداءً بأمر المؤمنين - أعزه الله - في العطف عليهم والصلة لهم ، ليُصلح الله بذلك عيشتهم ، ويرزقك به بركةً وزيادة ، وأجر للأضراء من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية ^(٢) على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تُؤويهم ، وقواماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ، ما لم يؤد ذلك إلى سرف في بيت المال ، واعلم أن الناس

إذا أعطوا حقوقهم وأفضلَ أمانيتهم ، لم يُرضِهِم ذلك ، ولم تُطِيبْ أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى وِلاتهم ، طمعاً في نيل الزيادة وفضلِ الرفق منهم ، وربما بَرِمَ^(١) المتصفح لأموار الناس ، لكثرة ما يرد عليه ، وَيَشغَلُ فكره وذهنه منها ما يناله به مؤونة ومشقة ، وليس من يرغب في العدل ، وَيَعرف محاسن أموره في العاجل ، وفضلَ ثواب الآجل ، كالذي يستقبل ما يقربه إلى الله ، ويلتمس رحمة به ، وأكثر الإذن للناس عليك ، وَأبرز لهم وجهك ، وسكن لهم أحراسك ، واخفِض لهم جَنَاحك ، وأظهر لهم بِشرك ، وَلين لهم في المسألة والمنطق ، واعطِف عليهم بجدك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعطِ بسماحةٍ وطيب نفس ، والتمس الصنعة والأجر غيرَ مكدر ولا مئان ، فإن العطية على ذلك تجارة مرتجة إن شاء الله ، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة ، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله ، واعرف ما تجمع عمالك من الأموال ، وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ، ولا تُثَقِّقِ إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها ، وليكن أكرم دُخلائك وخاصتك عليك ، مَنْ إذا رأى عيباً فيك لم يمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سر ، وإعلامك ما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ، ومظاهريك لك . وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابتك ، فوقت لكل رجل منهم في كل يوم

وقتاً يدخل عليك فيه ، بكتبه ومؤامرتة وما عنده من حوائج عمالك ، وأمر
كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك
وعقلك ، وكرّر النظر إليه والتدبير له ، فما كان موافقاً للحزم والحق
فأمضيه ، واستخِر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبيت فيه
والمسألة عنه ، ولا تمنّ على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من
أحدهم إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف
إلا على ذلك ، وتفهم كتابي إليك ، وأكثر النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله
على جميع أمورك واستخِره ، فإن الله مع الصالح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك
وأفضل رعيتك ، ما كان لله رضا ، ولدينه نظاماً ، ولأهله عزاً وتمكيناً ، وللذمة
والملة عدلاً وصلاً ، وأنا أسأل الله أن يصلح عونك وتوفيقك ورؤسك
وكلاءك ، وأن ينزل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك ،
حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وأوفرهم حظاً ، وأسناهم ذكراً وأمرأ ، وأن
يهلك عدوك ومن ناواك وبنى عليك ، ويرزقك من رعيتك العافية ، ويحجز
الشیطان عنك ووساوسه ، حتى يستعلى أمرك بالعز والقوة والتوفيق ، إنه
قريب مجيب .

وذكروا أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد ، تنازعه الناس
وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرئ عليه ، فقال :
ما بنى أبو الطيب (يعني طاهراً) شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى
والسياسة ، وإصلاح الملك والرعية ، وحفظ البيضة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم

الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم ، وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٥٨ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٣٣٩)

١٣٢ - خطبة عبد الله بن طاهر

خطب عبد الله بن طاهر الناس ، وقد تيسر لقتال الخوارج ^(١) فقال :
« إنكم فئة الله ، المجاهدون عن حقه ، الذائبون عن دينه ، الذائبون عن محارمه ،
الداعون إلى ما أمر به ، من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاية أمره ، الذين جعلهم
رعاة الدين ، ونظام ^(٢) المسلمين ، فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه ،
وأهل معصيته ، الذين أشيروا ^(٣) وتمردوا ، وشقوا العصا ، وفارقوا الجماعة ، ومرقوا
من الدين ، وسموا في الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « إن تنصروا
الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، فليكن الصبر ممقلاًم الذي إليه تلجئون ^(٤) ،
وعدتكم التي بها تستظهرون ، فإنه الوزر المنيع ، الذي دلتم الله عليه ، والجنة ^(٥)
الحصينة التي أمركم الله بلباسها ، غصوا أبصاركم ، وأخفتوا أصواتكم في مصافكم ،
وأمضوا قدماً على بصائرهم ، فارغين إلى ذكر الله ، والاستعانة به كما أمركم الله ،

[١] الوارد في كتاب « الفرق بين المرق » أن الأمر بعث طاهر بن الحسين لقتال حمزة بن أكرك
- هكذا فيه ، وفي الملل والنحل حمزة بن أدرك بالدال - وهو زعيم فرقة الجزية لإحدى فرق الخوارج
العجاردة ، وقد عاث في سجستان وخراسان ومكران وقوهستان وكرمان ، وهزم الجيوش الكثيرة ،
وكان ظهوره في أيام هرون الرشيد سنة ١٧٩ ، وبقي الناس في فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة
المأمون ، فلما تمكن المأمون من الخلافة كتب إليه كتاباً استدعاه فيه إلى طاعته ، فما ازداد إلا هتواً ،
فبعث لقتاله طاهر بن الحسين ، فدارت بينه وبين حمزة حروب قتل فيها من العريقين مقدار ثلاثين ألفاً ،
أكثرهم من أتباع حمزة ، وانزح حمزة إلى كرمان ، ثم استدعى المأمون طاهراً من خراسان ، فطع فيها
حمزة ، وأقبل بجيشه من كرمان ، فخرج إليه عبد الرحمن النيسابوري في عشرين ألفاً فهزموه ، وقتلوا
الألوف من أصحابه ، وانفلت منهم حمزة جريحاً ، ومات في هزيمته - انظر ص ٧٩ - .

[٢] النظام : السلك ينظم فيه ، وملاك الأمر . [٣] بطروا .

[٤] اللجأ والمعتم ، وكذا الوزر . [٥] كل ما بقي .

فإنه يقول: « إِذَا لَقَيْتُمْ فِئَةً فَأُتْبِتُوا وَادُّكُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »
أيدكم الله بعز الصبر، وولايكم بالحياة والنصر. (العنكبوت ٢ : ١٥٥)

١٣٣ - العباس بن المأمون والمعتصم (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ)

قال العباس بن المأمون: لما أفضت الخلافة إلى المعتصم دخلت، فقال:
هذا مجلس كنت أكرهه الناس لجلوسى فيه، فقلت: « يا أمير المؤمنين، أنت
تعفو عما تيقنته، فكيف تعاقب على ما توهمت؟ »، فقال: لو أردت عقابك،
لتركت عتابك. (زهر الآداب ٣ : ٩١)

١٣٤ - استعطاف تميم بن جميل للمعتصم

كان تميم بن جميل السدوسي قد خرج بشاطىء الفرات، واجتمع إليه كثير
من الأعراب، فعظم أمره، وبعد ذكره، فكتب المعتصم إلى مالك بن طوق
في النهوض إليه، فبدد جمعه، فظفر به، فحمله مؤثقا إلى المعتصم، قال أحمد بن
أبي دؤاد: ما رأينا رجلا عين الموت، فما هاله، ولا أذهله عما كان يجب عليه
أن يفعله إلا تميم بن جميل، فإنه أوفى به الرسول باب أمير المؤمنين المعتصم، في
يوم الموكب، حين يجلس للعامة، ودخل عليه، فاما مثل بين يديه، دعا بالنطع^(١)
والسيف فأخضرا، فجعل تميم بن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئا، وجعل
المعتصم يصعد النظر فيه ويصوبه، وكان جسيما وسيما^(٢)، ورأى أن يستنطقه
لينظر أين جناؤه ولسانه من منظره، فقال: يا تميم إن كان لك عذر فأنت به،
أو حجة فأدل بها، فقال: أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فأني أقول:

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ،

[١] النطع كحل وشمس وسبب ونب: هياط من الأديم. [٢] جيلا

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءِ مَهِينٍ « جَبَّرَ بِكَ صَدْعَ الدِّينِ ، وَلَمْ بِكَ شَعَثَ
المسلمين ، وأوضح بك سُبُلَ الحَقِّ ، وَأَتَّخَذَ بِكَ شِهَابَ الباطلِ ، يا أمير المؤمنين
إن الذنوب تُحْرِسُ الألسنة الفصيحة ، وَتُعَيِّبُ الأفتدة السحيحة ، ولقد عَظُمَت
الجريرة ، وانقطعت الحجَّة ، وَكَبُرَ الذَّنْبُ ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو
انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما مني ، وأسرعهما إلي ، أو لاهما بامتنانك ،
وأشبههما بخلافتك ، ثم أنشأ يقول :

سَأَرَى المَوْتَ بَيْنَ السِّيفِ والنَّطْعِ كَأَمْنًا يلاحظني مِنْ حَيْثُما أَتَلَفْتُ
وَأَكْبَرُ ضَنْيَ أَنْكَ اليَوْمِ قَاتِلِي وأى أَمْرِي مِمَّا قَضَى اللهُ يُفْلِتُ؟
وَمَنْ ذَا الَّذِي يُدْلِي بِعُذْرٍ وَحُجَّةٍ وسبغُ المنايا بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُصَلَّتُ؟^(١)
يَعْرِضُهُ عَلَى الأَوْسِ بْنِ تَعْلِبٍ مَوْقِفُ يُسَلِّ عَلَى السِّيفِ فِيهِ وَأَسْكُتُ
وَمَا جَزَعِي مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّ المَوْتَ شَيْءٌ مُوقَّتُ
وَلَكِنْ خَلْفِي صِدْيِقَةٌ قَدْ تَرَكَتْهُمْ وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَتَفَتَّتُ
كَأَنِّي أَرَاهُمْ حِينَ أُنْعَى إِلَيْهِمْ وَقَدْ تَحَمَّشُوا تِلْكَ الوُجُوهَ وَصَوَّتُوا^(٢)
فَإِنْ عَشْتُ عَاشُوا خَافِضِينَ بِغِيْطَةٍ أَذُودُ الرَّدَى عَنْهُمْ وَإِنْ مِتَّ مَوَّتُوا^(٣)
فَكَمْ قَائِلٍ لَا يُبْعِدُ اللهُ رُوحَهُ وَآخَرَ جَذَلَانٍ يُسْرُ وَيَشْمَتُ
فَتَبَسُّمِ المَعْتَصِمِ وَقَالَ : « كَادَ وَاللَّهِ يَا تَعِيمُ أَنْ يَسْبِقَ السِّيفُ العَدْلَ »^(٤) ، أَذْهَبُ

[١] مسلول . [٢] خش وجهه كنصر وضرب خدشه ولطمه وضربه . [٣] كثر فيهم الموت .
[٤] العذل كشمس وسبب : اللوم ، وهو مثل ، وأول من قاله ضبة بن أد بن طابخة ، وكان له ابنان
يقال لأحدهما سعد ، وللآخر سعيد ، فنفرت إبل لضبة تحت الليل ، فوجه ابنيه في طلبها فترقا ، فوجدها
سعد فردّها ، ومضى سعيد في طلبها ، فلقى الحرث بن كعب ، وكان على الغلام بردان ، فسأله الحرث إياها
فأبى عليه فقتله وأخذ برديه ، فكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادا . قال : أسعد أم سعيد ؟
فكث ضبة بدلك ماشاء الله أن يمكث ، ثم إنه حجَّ فوالى عطاء ، فلقى بها الحرث بن كعب ، ورأى عليه

فقد غفرت لك الصبوة^(١) ، وَوَهَبْتُكَ لِلصَّبِيَّةِ » ، ثم أمر بفك قيوده وخلع عليه ، وعقد له بشاطئ الفرات . (المقد الفريد ١ : ١٤٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٣٥ — بين يدي سليمان بن وهب وزير المهدي بالله

ولما ولي المهدي بالله^(٢) بن الواثق بن المعتصم سليمان بن وهب وزارته ، قام إليه رجل من ذوى حُرْمته ، فقال : « أعز الله الوزير ، أنا خادمك ، المؤمل لدولتك ، السعيد بأيامك ، المنطوي القلب على ودك ، المنشور اللسان بمدحك ، المُرْتَهَن بِشُكْرِ نِعْمَتِكَ » . (زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

١٣٦ — أحمد بن أبي دواد والواثق (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ)

دخل أحمد بن أبي دواد^(٣) على الواثق فقال : ما زال اليوم قومٌ في ثَلْبِكَ ونقصك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لِكُلِّ أَمْرِي مِنْهُمْ مَا أُكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ^(٤) مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، والله وليُّ جَزَائِهِ ، وعقابُ أمير المؤمنين من ورأيه ، وما ذلَّ يا أمير المؤمنين من أنت ناصرُهُ ، وما ضاق من كنت جاراً له ، فما قلتَ لهم يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت يا أبا عبد الله :

بردى ابنه سعيد فعرّفهما ، فقال له : هل أنت بخبري ما هذان البردان اللذان عليك ؟ دل بلي : لقيت غلاماً ، وهما عليه فسأته إياهما ، فأبى عليّ فقتلته ، وأخذت برديه هذين ، فقال ضبة : سيعك هذا ؟ قال نعم ، فقال : فأعطينه أنظر إليه فإني أظنه صارما ، فأعطاء الحرت سيفه ، فلما أخذه من يده هرهه وقال : الحديث ذو شجون ، ثم ضربه به حتى قتله ، فقيل له يا ضبة : أفى الشهر الحرام ؟ فقال : سبق السيف العذل . [١] جهلة الفتوة . [٢] تولى الخلافة سنة ٢٥٥ إلى سنة ٢٥٦ هـ .

[٣] هو القاضي أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد من كبار أئمة المعتزلة ، ونصراء الاعترال ، كان مقرباً من المأمون أنيرا عنده ، ولما ولي المعتصم الخلافة جعله قاضي القضاة ، وعزل يحيى بن أكثم ، وخص به أحمد ، حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهراً إلا برأيه ، ولما مات المعتصم ، وتولى بعده ابنه الواثق بالله حسنت حال ابن أبي دواد عنده ، ثم فلج في أول خلافة المتوكل ، فقلد ولده محمداً القضاء مكانه ، وتوفى سنة ٢٤٠ هـ . [٤] أى معظمه ، وفي قراءة « كبره » بضم الكاف .

وَسَقَى إِلَى عَيْبِ عَزَّةٍ مَشْرُودًا جَعَلَ الْإِلَهَ خَدُودَهُنِ نِعْمًا لَهَا

(رعر الآداب ٣ : ٢٠٨ ، والقصد المراد ١ : ١٤١)

١٣٧ - ابن أبي دواد والوائق أيضاً

وقال الواثق يوماً لابن أبي دواد نضجراً بكثرة حوائجه : قد أحليت بيوت الأموال بطلبك تلك الأثدين بك ، والمتوسلين إليك ، فقال :

« يا أمة المؤمنين ، تأنح شكرها متصله بك ، وذخاؤها موصوله لك ، ومالي من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بجلود المدح » ، فقال « والله لا مسمعناك ما يريد في عشقتك ، ويقوى في همتك فينا ولما » ، وأمر فأخرج له خمسة وثلاثين ألف درهم .

(رعر الآداب ٢ : ٣١٠)

١٣٨ - ابن أبي دواد وابن الزيات

وكان بين القاضي أحمد بن أبي دواد وبين الوزير محمد بن عبد الملك الزيات منافسة وشحاء ، حتى منع الوزير شخصاً كان يصحب القاضي ، ويختص بقضاء حوائجه ، من التردد إليه ، فبلغ ذلك القاضي ، فجاء إلى الوزير فقال له :

« والله ما أحييتك مسكراً بك من قلة ، ولا متعزراً بك من ذلة ، ولكن أمة المؤمنين رتبك مرتبه أوجبته لملك . فإن لقيناك فله ، وإن تأخرنا عنك فلك » (٢)

(وفيات الأعيان ١ : ٢٥)

[١] ورد بعضهم ، وللواثق من بعده ، ثم ذكره المتوكل كما سيأتي .

[٢] وكان الواثق قد أمر ألا يرى أحد من الناس ابن الزيات ، إلا قام له ، فكان ابن أبي داود إذا

رآه قام واداه في القلة يصلي .

١٣٩ - الجاحظ وابن أبي دواد

وكان الجاحظ مختصاً بمحمد بن عبد الملك الزيات ، منحرفاً عن أحمد بن أبي دواد ، فلما نكس ابن الزيات ^(١) ، حيل الجاحظ مفيداً من البصرة ، وفي عنقه سلسله ، وعليه قيض سمل ^(٢) ، فلما دخل على القاضي أحمد قال له : « والله ما أعلمك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصيغة ، معدناً للساوي ، وما فتنني باستصلاحك لك ، ولكن الأيام لا تُصلح منك ، لفساد طويبتك ، ورداءة دخيلتك ، وسوء اختيارك ، وغالب طباعك » .

فقال الجاحظ . « خفضْ عليك - أيْذك الله - فوالله لأن يكون لك الأمر على ، خيرٌ من أن يكون لي عليك ، ولأن أسيءَ وتُحسِن ، أحسنُ في الأُحدوثه عليك ، من أن أحسن وتسيء ، ولأن تعفُو عني في حال قدرتك ، أحمل بك من الانتقام مني » .

فقال أحمد : والله ما علمتُك إلا كثير ترويق الكلام ، خلّ عنه الغُلّ

والقيد ، وأحسن إليه ، وصدّره في المجلس

(رهر الآداب ٢ : ١٠٦ ، والنية والأمل ص ٣٩)

[١] كان في زمن التوكل من ابن الزيات شيء كثير ، وذلك أنه لما مات الواثق (وهو أحو التوكل) . أشار ابن الزيات بتولية ولد الواثق ، وأشار ابن أبي داود بحماية التوكل ، وقام في ذلك وقعد حتى عممه بيده وألسه الردة ، وقتله بين عينيّه ، وكان التوكل في أيام الواثق مدخل على ابن الزيات في جهمه وبعلط له في الكلام - يتقرّب بذلك إلى الواثق - فخذ التوكل ذلك عليه ، فلما ولي الخلافة ، أمهله أربعين يوماً حتى يطمش إليه ، ثم قص عليه وسجنه ، واستصحب أمواله ، وكان ابن الزيات إنان وراته قد اتحد نوراً من حديد ، وأطراف مساميره إلى داخل ، وهي قائمة مثل رءوس المسالّة ، يمدد فيه من يستحقون العقوبة وكان إذا قال أحدهم أرحمى أيها الورر . قال له : الرحمة حور في الطبيعة ، فلما اعتقله التوكل أمر بإدخاله في الثور ، وقيدته بحمسة عشر رطلا من الحديد ، وقال : يا أمير المؤمنين أرحمى ، فقال له : الرحمة حور ، الطيعة ، وتقي في العذاب أربعين يوماً حتى مات سنة ٢٣٣ هـ .

[٢] السمل : الخلق من الثياب .

١٤٠ - أبو العيّناء وابن أبي دؤاد

وقال أبو العيّناء لابن أبي دؤاد : إن قوماً من أهل البصرة قدّموا إلى
«سُرْمَنَ رَأَى» يَدَا عَلِيٍّ ، فقال : «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» ، فقلت : إن لهم مكرًا ،
فقال : «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» ، فقلت : إنهم كثير ، قال :
«كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» .
(زهر الآداب ٢ : ٣١٠ ، والقند الريد ١ : ١٤١)

تم الجزء الثالث

ويليه

ذيل الجمهرة



فهرس

الجزء الثالث

من جمهرة خطب العرب

الباب الرابع

الخطب والوصايا في العصر العباسي الأول

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة أبي العباس السفاح وقد توبع بالخلافة	١	١
» داود بن عليّ	٢	٣
» داود بن عليّ وقد أرتج على السفاح	٣	٦
» أخرى له	٤	٧
» » للسفاح بالكوفة	٥	٧
» » السفاح بالشام حين قتل مروان	٦	٨
» » » عيسى بن عليّ	٧	٨
» داود بن عليّ بمكة	٨	٩
خطبته بالمدينة	٩	١٠
خطبة أخرى له	١٠	١٠
خطبته وقد بلغه أن قوما أظهروا شكاة بني العباس	١١	١١
» وقد أرتج عليه	١٢	١٢
خطبة صالح بن عليّ	١٣	١٣
» سديف بن ميمون	١٤	١٣
» أبي مسلم الحراساني	١٥	١٥

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة
رقم
الخطبة

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خالد بن صفوان وأحوال السفاح	١٦	١٧
« » « ورجل من بني عبد الدار	١٧	١٩
« » « يرثي صديقاً له	١٨	٢٠
« » « يمدح رجلاً	١٩	٢٠
كلمات بليغة لخالد بن صفوان	٢٠	٢٠
عمارة بن حمزة والسفاح	٢١	٢١
خطب أبي جعفر المنصور		٢٢
خطبته بمكة	٢٢	٢٢
« » بعد بناء ببغداد	٢٣	٢٢
« » ببغداد	٢٤	٢٣
« » وقد أخذ عبد الله بن الحسن وأهل بيته	٢٥	٢٣
« » حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن	٢٦	٢٦
« » وقد قتل أبا مسلم الخراساني	٢٧	٢٦
خطبة أخرى	٢٨	٢٧
قوله وقد قوطع في خطبته	٢٩	٢٧
المنصور يصف خلفاء بني أمية	٣٠	٢٨
« » عبد الرحمن الداخل	٣١	٢٩
وصايا المنصور لابنه المهدي		٢٩
وصية له	٣٢	٢٩
« » أخرى له	٣٣	٣٠
« » «	٣٤	٣١
خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور	٣٥	٣٢

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي لابنه	٣٣	٣٦
قوله وقد قتل ابنه محمد	٣٤	٣٧
امرأة محمد بن عبد الله والمنصور	٣٤	٣٨
جعفر الصادق والمنصور	٣٥	٣٩
صفح المنصور عن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب	٣٦	٤٠
استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور	٣٧	٤١
» » » المنصور أيضاً	٣٨	٤٢
أبو جعفر المنصور والربيع	٣٩	٤٣
مقام عمرو بن عبيد بين يدي المنصور	٤٠	٤٤
» رجل من الزهاد » » »	٤٠	٤٥
» الأوزاعي بين يدي المنصور	٤٣	٤٦
نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة المنصور	٤٦	٤٧
معن بن زائدة والمنصور	٤٧	٤٨
» » » وأحد زوّاره	٤٨	٤٩
المنصور وأحد الأعراب	٤٨	٥٠
أعراية تعزى المنصور وتهنئه	٤٨	٥١
خطبة محمد بن سليمان	٤٩	٥٢
وصية مسلم بن قتيبة	٤٩	٥٣
خطبة المهدي	٥٠	٥٤

مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان ٥٢

مقال سلام صاحب المظالم ٥٣

» الربيع بن يونس ٥٤

» الفضل بن العباس ٥٥

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
مقال طليّ بن المهدي	٥٧	٥٨
« موسى بن المهدي	٥٩	٥٩
« العباس بن محمد	٦٠	٦٠
« هرون بن المهدي	٦٢	٦١
« صالح بن طليّ	٦٤	٦٢
« محمد بن الليث	٦٤	٦٣
« معاوية بن عبد الله	٦٦	٦٤
« المهدي	٦٨	٦٥
« محمد بن الليث	٧٠	٦٦
« المهدي	٧١	٦٧
ابن عتبة يعزى المهدي ويهنئه	٧٤	٦٨
يعقوب بن داود يستعطف المهدي	٧٤	٦٩
رجل من أهل خراسان يخطب بحضرة المهدي	٧٥	٧٠
مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي	٧٥	٧١
عظة شبيب بن شيبه للمهدي	٧٦	٧٢
خطبته في تعزية المهدي بابنته	٧٦	٧٣
خطبة أخرى له في مدح الخليفة	٧٧	٧٤
كلمات لشبيب بن شيبه	٧٨	٧٥
خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب يوم ولي الرشيد الخلافة	٧٨	٧٦
خطبة هرون الرشيد	٨٠	٧٧
وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين	٨٢	٧٨
خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي	٨٢	٧٩
استعطاف أم جعفر بن يحيى للرشيد	٨٥	٨٠

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة يزيد بن يزيد الشيباني	٨١	٨٩
« عبد الملك بن صالح	٨٢	٩٠
عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد ويهنته	٨٣	٩٠
غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح	٨٤	٩٠
قوله بعد خروجه من السجن	٨٥	٩٤
وصية عبد الملك بن صالح لابنه	٨٦	٩٥
« أخرى له	٨٧	٩٧
كلمات حكيمة لابن السماك	٨٨	٩٧
ابن السماك ولرشيد	٨٩	٩٧
الفتنة بين الأمين والمأمون		٩٩
وقد الأمين إلى المأمون		
خطبة العباس بن موسى	٩٠	٩٩
« عيسى بن جعفر	٩١	١٠٠
« محمد بن عيسى بن نهبك	٩٢	١٠٠
« صالح صاحب المصلى	٩٣	١٠١
« المأمون	٩٤	١٠١
وصية السيدة زبيدة لعلي بن عيسى بن ماهان	٩٥	١٠٢
« الأمين لابن ماهان	٩٦	١٠٣
استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين	٩٧	١٠٤
حزم طاهر وقوة عزمه	٩٨	١٠٥
طاهر يشد عزيمة جنده	٩٩	١٠٦
وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين	١٠٠	١٠٧
وصية الأمين لأحمد بن يزيد	١٠١	١٠٨

الخطبة أو الوصية

رقم
الخطبة

رقم الخطبة	رقم	الخطبة أو الوصية
١٠٩	١٠٢	مقال عبد الملك بن صالح للأمين
١١٠	١٠٣	الشغب في جيش عبد الملك بن صالح
١١١	١٠٤	خطبة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان يدعو إلى خلع الأمين
١١٢	١٠٥	« محمد بن أبي خالد
١١٣	١٠٦	إطلاق الأمين من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة
١١٤	١٠٧	خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين
١١٥	١٠٨	« الأمين وقد تولى الأمر عنه
١١٧	١٠٩	استعطاف الفضل بن الربيع للأمين
١١٨	١١٠	خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين
١١٩		خطب المأمون
١١٩	١١١	خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد
١١٩	١١٢	« وقد سلم الناس عليه بالخلافة
١٢٠	١١٣	« يوم الجمعة
١٢١	١١٤	« يوم الأضحى
١٢٢	١١٥	« يوم الفطر
١٢٤	١١٦	خطبة ابن طباطبا العاوي
١٢٥	١١٧	استعطاف إبراهيم بن المهدي المأمون
١٢٧	١١٨	إبراهيم بن المهدي وبختيشوع الطيب
١٢٨	١١٩	استعطاف إسحاق بن العباس المأمون
١٢٩	١٢٠	أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخلها
١٣٠	١٢١	أحد أهل الكوفة يمدح المأمون
١٣٠	١٢٢	محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدي المأمون

الخطبة أو الوصية

رقم
الصفحة

رقم
الخطبة

الحسن بن سهل يمدح المأمون	١٢٣	١٣٠
يحيى بن أكثم يمدح المأمون	١٢٤	١٣١
أحد بنى هاشم والمأمون	١٢٥	١٣٢
رجل يتظلم إلى المأمون	١٢٦	١٣٢
عمرو بن سعيد والمأمون	١٢٧	١٣٢
الحسن بن رجاء والمأمون	١٢٨	١٣٣
سعيد بن مسلم والمأمون	١٢٩	١٣٣
أوزمان يعط سعيد بن مسلم	١٣٠	١٣٤
وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما	١٣١	١٣٤
خطبة عبد الله بن طاهر	١٣٢	١٤٦
العباس بن المأمون والمعتصم	١٣٣	١٤٧
استعطاف تميم بن جميل للمعتصم	١٣٤	١٤٧
بين يدي سليمان بن وهب وزير المهدي بالله	١٣٥	١٤٩
أحمد بن أبي دواد والوائق	١٣٦	١٤٩
ابن أبي دواد والوائق أيضاً	١٣٧	١٥٠
ابن أبي دواد وابن الزيات	١٣٨	١٥٠
الجاحظ وابن أبي دواد	١٣٩	١٥١
أبو العيناء وابن أبي دواد	١٤٠	١٥٢

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

ح	أ
الحارث بن عبد الرحمن ٣٧	إبراهيم بن المهدي ١٢٥ - ١٢٧
الحسن بن رجاء ١٣٣	ابن السماك ٩٧
الحسن بن سهل ١٣٠	ابن طباطبا العلوي ١٢٤
الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ١١	ابن عتبة ٧٤
خ	أبو جعفر للنصور ٢٢ - ٢٣ - ٢٦
خالد بن صفوان ١٧ - ١٩ - ٢٠	٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٦
د	أبوزمان العلوي ١٣٤
داود بن علي	أبو العباس السفاح ١ - ٧ - ٨
٣ - ٦ - ٧ - ٩ - ١٠ - ١١ - ٢	أبو مسلم الخراساني ١٥
داود بن عيسى ١١٤	أحمد بن أبي دواد ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥٢
ر	إسحاق بن العباس ١٢٨
الربيع بن يونس ٣٩ - ٥٤	أم جعفر بن يحيى ٨٥
ز	الأمين ١٠٣ - ١٠٨ - ١١٥
السيدة زبيدة ١٠٢	الأوزاعي ٤٣
س	ت
سديف بن ميمون ١٣	تميم بن جميل ١٤٧
سعید بن مسلم ١٣٣	ج
سلام (صاحب المظالم) ٥٣	الجاحظ ١٥١
ش	جعفر الصادق ٣٥
شبيب بن شيبه ٧٦ - ٧٧ - ٧٨	جعفر بن يحيى البرمكي ٨٢

الفضل بن العباس ٥٥

- م -

المأمون ١٠١ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢

محمد بن أبي خالد ١١٢

محمد بن سليمان ٤٩

محمد بن عبد الملك بن صالح ١٣٠

محمد بن عيسى بن نهيك ١٠٠

محمد بن الليث ٦٤ - ٧٠

مسلم بن قتيبة ٤٩

معاوية بن عبد الله ٦٦

معن بن زائدة ٤٧

المهدي ٥٠ - ٦٨ - ٧١

- ن -

النفس الزكية ٣٢

- ه -

المهادي ٥٩

هرون الرشيد ٦٢ - ٨٠ - ٨٢

- ي -

يحيى بن أكثم ١٣١

يزيد بن عمر بن هبيرة ٤٦

يزيد بن مزيد الشيباني ٨٩

يعقوب بن داود ٧٤

يوسف بن القاسم بن صبيح ٧٨

تم فهرس أعلام الخطباء

- ص -

صالح (صاحب المصلى) ١٠١

صالح بن عبد الجليل ٧٥

صالح بن علي ١٣ - ٦٤

- ط -

طاهر بن الحسين

١٠٥ - ١٠٦ - ١١٨ - ١٣٤

- ع -

العباس بن المأمون ١٤٧

العباس بن محمد ٦٠

العباس بن موسى ٩٩

عبد الله بن الحسن ٣٣ - ٣٤

عبد الله بن طاهر ١٤٦

عبد الملك بن صالح

٩٠ - ٩١ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٧ - ١٠٩

عثمان بن خزيم ٣٨

علي بن عيسى بن ماهان ١٠٤

علي بن المهدي ٥٧

عمارة بن حمزة ٢١

عمرو بن سعيد ١٣٢

عمرو بن عبيد ٤٠

عيسى بن جعفر ١٠٠

عيسى بن علي ٨

- ف -

الفضل بن الربيع ١٠٧ - ١١٧

جدول الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
وأرْمض	أروْمض	٩٢١	٤
لِأُولِي	لَاوِلِي	٨	١٧
ثَقَلْت	ثَقَلْت	٧	٣٩
(تَحْذِف)	إِنْ	١٠	٤٣
الْمَنْصُور	الْمَنْصُور	٨	٤٤
سَجَّالَهَا	سَجَّالَهَا	٩	٥٣
الْخَطْبُ	الْخَطْبُ	١٠	٥٧
م.م.	م.	١٠	٦٠
بِالْمَعْدِلَةِ	بِالْمَعْدِلَةِ	١٤	٦٩
حُسْنُهُ	مَحْسَنُهُ	١٨	٧٧
الرَّشْدُ	الرَّشِيدُ	٥	١٠٠
كُلُّ مَا أُوصِيكَ	كُلُّ أُوصِيكَ	١٩	١٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِجَمْعِ خَطَبِ الْعَرَبِ

فِي عَصُورِ الْعَرَبِ الزَّاهِرَةِ

ويحوى خمسة أبواب :

- الباب الأول : في خطب الأندلسيين والمغاربية
- « الثاني : في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها
- « الثالث : في نثر الأعراب
- « الرابع : في خطب النكاح
- « الخامس : في خطب من أرتج عليهم ونوادير طريفة
لبعض الخطباء .

فهرس المآخذ

- نفح الطيب ، للمقرى : الجزء الأول - الثانى - الرابع
- مطمح الأنفس ، للفتح بن خاقان :
- المعجب ، فى تلخيص أخبار المغرب ، :
لمحي الدين بن علىّ المراكشى
- الإحاطة : فى أخبار غرناطة ، للسان :
الدين بن الخطيب :
- الأمالى : لأبى علىّ القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « الثالث عشر - السابع عشر
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : « الأول
- نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « السابع
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول
- العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
- أمالى السيد المرتضى : « الرابع
- مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول - الثانى
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « السابع - الثامن
- مروج الذهب : للسعودى : الجزء الثانى

- : الصناعتين ، لأبي هلال العسكري
 - : بلاغات النساء : لابن أبي طاهر طيفور
 - : سرح العيون : لابن نباتة المصرى
 - : سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن الجوزى
 - مواسم الأدب للسيد جعفر البيتى العلوى : الجزء الثانى
 - بلوغ الأرب : للسيد محمود شكرى الألوسى : « الثالث
 - مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح
-



الباب الأول

في

خطب الأندلسيين والمغاربة

١ - خطبة عبد الرحمن الداخل (المتوفى سنة ١٧١ هـ)

يوم حربه مع يوسف الفهري صاحب الأندلس

لما اشتد الكرب بين يدي عبد الرحمن الداخل^(١) ، يوم حربه مع يوسف

الفهري^(٢) صاحب الأندلس ، ورأى شدة مُقاساة أصحابه قال :

« هذا اليوم هو أسُّ ما مِئِنَى عليه ، إِمَّا ذلَّ الدهر ، وإِمَّا عزَّ الدهر ،

فاصبرُوا ساعةً فيما لا تشتهون ، تَرَبَّحُوا بها بقيةَ أعماركم فيما تشتهون . » .

ولما أنحى أصحابه على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قرطبة قال :

[١] هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل ، وذلك أنه لما أصاب دولتهم بالمعرق ما أصابها ، وتبع السفاح من بقي من بني أمية بالقتل والإهلاك ، فرّ عبد الرحمن إلى الأندلس ، واستطاع بهيمته أن يؤسس هناك دولة أورثها دقبه حقة من الدهر ، وهي دولة بني أمية في المغرب من سنة ١٣٨ إلى سنة ٤٢٢ هـ ، وكانت طاصة ملكها قرطبة ، وهي مدينة على نهر الوادي الكبير.

[٢] يوسف الفهري هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع باني القيروان ، وأمير معاوية على أفريقية والمغرب ، وكانت ولاية يوسف الفهري الأندلس سنة ١٢٩ فدان له تسع سنين وتسعة أشهر ، وعنه انتقل سلطانها إلى بني أمية .

« لا تستأصلوا شأفة ^(١) أعداء ترجون صداقتهم ، واستبقوهم لأشدَّ عداوةً منهم »
- يشير إلى استبقائهم ، ليُستعان بهم على أعداء الدين - . (نوح الطيب ٢ : ٧٠)

٢ - عبد الرحمن الداخل ورجل من جند قنسرين

ولما أذعن يوسف صاحب الأندلس لعبد الرحمن ، واستقر ملكه ، استحضر الوفود إلى قرطبة ، فاثالوا ^(٢) عليه ، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام ، في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم ، بكلامٍ سرهم ، وطيب نفوسهم .
وفي بعض مجالسهم هذه مثل بين يديه رجل من جند قنسرين ^(٣) يستجديه ، فقال له :

« يا بن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فرزت ، وبك عذت ، من زمن ظلوم ، ودهرٍ غشوم ، قلل المال ، وكثر العيال ، وشعث ^(٤) الحال ، فصير إلى نذاك المآل ، وأنت وليّ الحمد والمجد ، والمرجوّ للرّفد ^(٥) » .
فقال له عبد الرحمن مسرعاً :

« قد سمعنا مقاتلتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعودتك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك ، فلا تعودنّ ولا سواك لمثله ، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة ، والإلحاف في الطلبة ^(٦) ، وإذا ألمّ بك خطبٌ ، أو حزّ بك ^(٧) أمرٌ ، فارفعه إلينا في رُقعة لا تعدوك ، كما نستُر عليك خلتك ، ونكفُّ شمات العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالِكِك ومالِكِنا - عزَّ وجهه - بإخلاص الدعاء ، وصدق النية » .

[١] الشأفة : قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب ، أو إذا قطعت مات صاحبها ، والأصل ، واستأصل الله شأفته : أذهب كما تذهب تلك القرحة ، أو معناه أزاله من أصله .

[٢] اثال : انصب ، أى تابعوا وتوافدوا عليه . [٣] بالشام .

[٤] شعث الأمر : نصره وفرقه . [٥] الرّفد : العطاء والصلة .

[٦] الطلبة : الطلب . [٧] أى اشتدَّ عليك ، والحلّة : الحاجة .

وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يتعجبون من حسن منطقته ، وبراعة أدبه ، وكفّ فيما بعدُ ذوو الحاجات عن مقابلته بها شفاهاً في مجلسه .

(فتح الطيب ٢ : ٦٨)

٣ - عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنئه بفتح سرقسطة

ولما فتح عبد الرحمن الداخل سَرَقُسْطَةَ^(١) ، وَحَصَلَ في يده نائراًها الحسين الأنصاري ، وانتهى نصره فيها إلى غايةِ أَمَلِهِ ، أَقْبَلَ خواصه يهنئونه ، فجرى بينهم أحدٌ من لا يُؤْتَبَهُ به من الجند ، فهتأه بصوت عال ، فقال له عبد الرحمن : « وَاللَّهِ لَوْلَا أَن هَذَا الْيَوْمَ يَوْمٌ أَسْبَغَ عَلَيَّ فِيهِ النِّعْمَةَ مَنْ هُوَ فَوْقِي ، فَأَوْجَبَ عَلَيَّ ذَلِكَ أَن أُنْعِمَ فِيهِ عَلَيَّ مَنْ هُوَ دُونِي ، لِأَصْلِيَّتِكَ مَا تَعَرَّضْتَ لَهُ مِنْ سُوءِ النَّكَالِ ، مَنْ تَكُونُ ؟ حَتَّى تُقْبَلَ مُهْنَتًا رَافِعًا صَوْتِكَ ، غَيْرَ مُتَلَجِّجٍ وَلَا مُتَهَيِّبٍ لِمَكَانِ الْإِمَارَةِ ، وَلَا عَارِفٍ بِقِيَمَتِهَا ، حَتَّى كَأَنَّكَ تَخَاطَبُ أَبَاكَ أَوْ أَخَاكَ ! وَإِنَّ جَهْلَكَ لِيَحْمِلَكَ عَلَى الْعَوْدِ لِمَثَلِهَا ، فَلَا تَجِدُ مِثْلَ هَذَا الشَّافِعِ فِي مِثْلِهَا مِنْ عَقُوبَةٍ . » فقال : « وَلَعَلَّ فَتُوحَاتِ الْأَمِيرِ يَقْتَرِنُ اتِّصَالُهَا بِاتِّصَالِ جَهْلِي وَذُنُوبِي ، فَتَشْفَعَ لِي مَتَى آتَيْتَ بِمِثْلِ هَذِهِ الزَّلَّةِ ، لَا أَعِدُ مِنْهُ لَلَّهِ تَعَالَى . »

فتهلل وجه الأمير ، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نبهونا على أنفسكم إذا لم تجحدوا من ينهنا عليها ، ورفع مرتبته وزاد في عطائه . (فتح الطيب ٢ : ٧٠)

٤ - تأديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر

كَانَ الْمَنْذَرُ بْنُ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَوْسَطِ^(٢) سَيِّئُ الْخُلُقِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ ، كَثِيرُ الْإِصْغَاءِ إِلَى أَقْوَالِ الْوُشَاةِ ، مُفْرِطُ التَّقَلُّقِ مِمَّا يَقَالُ فِي جَانِبِهِ ، مَعَاقِبًا عَلَى

[١] مدينة على نهر إبرة . [٢] هو عبد الرحمن الأوسط (الثاني) ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٢٣٨ هـ .

ذلك من يقدر على معاقبته ، مكثر التشكى ممن لا يقدر عليه لوالده الأمير عبد الرحمن ، فطال ذلك على الأمير ، فأمر ثقةً من ثقاته أن يبني بجبل منقطع عن العمران بناءً يُسكن فيه ابنه ، والأيدع أحداً من أصحابه يزوره ، فلما استقر المنذر في ذلك المكان ، وبقى وحده ، ونظر إلى ما سئله من الملك ، ضجرو وقال للثقة : عسى أن يصلني غلمانى وأصحابى آانسُ بهم ! فقال له : إن الأمير أمر ألا يصلك أحد ، وأن تبقى وحدك ، لتستريح مما يرفع لك أصحابك من الوشاية ، فعلم أن الأمير قصد بذلك محنته وتأديبه ، فكتب إليه يشكو استيحاشه^(١) بمكانه ، فلما وقف الأمير على رقعته ، وعلم أن الأدب بلغ به حقه استدعاه ، فقال له :

« وصلت رقعتك ، تشكو ما أصابك من توحش الانفراد ، في ذلك الموضع ، وترغب أن تأنس بخوَلك^(٢) وعبيدك وأصحابك ، وإن كان لك ذنب يترتب عليه أن تطول سُكنائك في ذلك المكان ، وما فعلت ذلك عقاباً لك ، وإنما رأيناك تُكثر الضجّر والتشكى من القال والْقِيل ، فأردنا راحتك بأن نحجُب عنك سماعَ كلامٍ من يرفع لك وَيَنِمّ ، حتى تستريح منهم » .
فقال له : « سماعُ ما كنت أضجّرُ منه ، أخفُّ علىَّ من التوحد والتوحش ، والتخلّى مما أنا فيه من الرفاهية والأمر والنهي » .

فقال له : « فَإِذْ قد عَرَفْتَ وتَأدَّبْتَ ، فارجع إلى ما اعتدته ، وَعَوِّلْ على أن تسمع كأنك لم تسمع ، وترى كأنك لم تَرَ ، وقد قال النبي صلى الله

[١] وس الكتاب : « لاني قد توحشت في هذا الموضع توحشا ما عليه من مزيد ، وهدمت فيه من كنت آس إليه ، وأصبحت مسلوب العز ، فقيد الأمر والنهي ، فإن كان ذلك عقاباً لذنب كبير ارتكبته ، وعلمه مولاي ولم أعلمه ، فإني صابر على تأديبه ، ضارع إليه في عفوه وصفحته .

وإني أمير المؤمنين وفعله كالدهر، لا طار بما فعل الدهر»

[٢] الحول : مثال الخدم والحشم وزنا وبعثي .

عليه وسلم : « لو تكاشفتُم ما تدافتم » ، واعلم أنك أقربُ الناسِ إلىَّ ، وأحبُّهم فيَّ ، وبعد هذا فما يخلو صدرك في وقت من الأوقات عن إنكارِ عليَّ ، وسُخْط لما أفعله في جانبك ، أو جانب غيرك ، مما لو أطلعني الله تعالى عليه لساءني ، لكن الحمد لله الذي حَفِظَ ما بين القلوب ، بِسِرِّ بعضها عن بعض ، فيما يجول فيها ، وإنك لندو هِمَّةٍ ومطمَح ، ومن يكن هكذا يَصْبِرُ وَيُنْفِضُ وَيَحْمِلُ ، وَيُبَدِّلُ بالعقابِ الثوابَ ، ويصيِّرُ الأعداءَ من قبيل الأَصْحَابِ ، ويصبرُ من الشخصِ على ما يسوء ، فقد يَرَى منه بعد ذلك ما يَسُرُّ ، ولقد يَخْفُ على اليومِ مَنْ قاسيتُ من فعله وقوله ما لو قطعتم عضواً عضواً لِمَا ارتكبه مني ، ما شفيتُ منهم غيظي ، ولكن رأيت الإغضاء والاحتمال ، لا سيما عند الاقتدار أولى ، ونظرت إلى جميع مَنْ حولي مِمَّنْ يُحْسِنُ وَيُسِيءُ ، فوجدت القلوب متقاربةً بعضها من بعض ، ونظرت إلى المسيءِ يعود محسناً ، والمحسنِ يعود مسيئاً ، وصرتُ أندم على من سَبَقَ له مني عقاب ، ولا أندم على من سَبَقَ له مني ثواب ؛ فالزَمَ يا بني معالي الأمور ، وإنَّ جَماعها في التفاضل ، ومن لا يتفاضل لا يسلم له صاحب ، ولا يُقَرَّبُ منه جانبٌ ، ولا ينال ما تترقى إليه همتُه ، ولا يظفر بأمله ، ولا يجد مُميناً حين يَحْتَاجُ إليه .

فقبل المنزريده وانصرف ، ولم يزل يأخذ نفسه بما أوصاه والده ، حتى تخلَّق بالخلق الجميل ، وبلغ ما أوصاه به أبوه ، ورُفِعَ قدره . (فتح الطيب ٢ : ٣٢٧)

ه - عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضا

وقال له أبوه يوماً : إن فيك أنتيها مُفْرِطاً ، فقال له : حَقُّ لفرع أنت أصله أن يعلو ، فقال له : يا بني ، إن العيون تَمُجُّ التَّيَّاهَ ، والقلوب تنفِرُ عنه ، فقال :

يا أبا ، لى من العزّ والنسب وعلو المكان والسلطان ما يَجِلُّ^(١) عن ذلك ، وإنى لم أر العيون إلا مُقبلةً علىّ ، ولا الأسماع إلا مُصغيةً إلىّ ، وإن لهذا السلطان رَوْناً يُريقه التبذل ، وعلوًا يخفضه الانبساط ، ولا يصونه ويشرفه إلا التّيه والاتقباض^(٢) ، وإن هؤلاء الأندال ، لهم ميزان يسبرون^(٣) به الرجل منا ، فإن رأوه راجحاً ، عرفوا له قدر رجاحته ، وإن رأوه ناقصاً عاملوه بنقصه ، وصيروا تواضعه صغراً ، وتخفضه خسةً ، فقال له أبوه : لله أنت ! فابق وما رأيت .
(نفع الطيب ٢ : ٣٢٩)

٦ — يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه

ومدح بعض الشعراء يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط ، فأمر له بمال جزيل ، فلما كان مثل ذلك الوقت ، جاءه بمدحٍ آخر ، فقال أحد خدام يعقوب : هذا اللئيم له دينٌ عندنا يقتضيه ! فقال الأمير :

« يا هذا ، إن كان الله تعالى خلقك مجبولاً على كرهه ربّ الصنائع ، فاجرٍ على ما جُبِلت عليه في نفسك ، ولا تكن كالأجرب يُعدى غيره ، وإن هذا رجل قصّدتنا قبل ، فكان منا ما أشير^(٤) به ، وجمله على العودة ، وقد ظن فينا خيراً ، فلا تخيب ظنّه ، والحديث أبداً يحفظ القديم ، وقد جاءنا على جهة التهئة بالعمر ، ونحن نسأل الله تعالى أن يُطيل عمرنا ، حتى يكثر ترداده ، ويُدِّيم نعمنا حتى

[١] في الأصل : « يحمل » ، وأرى صوابه : « يحل » .

[٢] جرى في ذلك على سنن أنى مسلم الحراسانى ، وكان يقول لقواده إذا أخرجهم : « لا تكلموا

الناس الا رمزاً ، ولا تلحظوهم الا شزرا ، لتمتلى صدورهم من هيبتمكم » - انظر العقد الفريد ٢ : ٢٩٩ -

[٣] السبر : امتحان غور الجرح . [٤] أشر : مرج .

نجد ما تُنعم به عليه ، ويحفظ علينا مُرُوءتنا ، حتى يعيننا على التجمّل معه ، ولا يُبلينا بجليس مثلك ، يقبض أيدينا عن إسداء الأيادي .

وأمر للشاعر بما كان أمر له به قبل ، وأوصاه بالعود عند حلول ذلك الأوان

ما دام العمر . (فتح الطيب ٢ : ٢٣٠)

٧ — وفاة الوزير ابن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز

واعذاره عنه لدى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط

كان الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم صديقاً للوزير هاشم بن عبد العزيز، ثابته على مودته ، فلما قضى الله على هاشم بالأسر ، أجرى السلطان محمد بن عبد الرحمن الأموي^(١) ذكره في جماعة من خدامه ، والوليد حاضر ، فنسبه إلى الطيش

والمجلة والاستبداد برأيه ، فلم يكن فيهم من اعتذر عنه غير الوليد ، فقال :

« أصلح الله تعالى الأمير ، إنه لم يكن على هاشم التخير في الأمور ، ولا

الخروج عن المقدور ، بل قد استعمل جهده ، واستفرغ نصحه ، وقضى حق

الإقدام ، ولم يكن ملاك النصر بيده ، فذله من وثيق به ، ونكل عنه من كان

معه ، فلم يُرحز قدمه عن موطن حفاظه ، حتى ملك مقبلاً غير مُذير ، مثلياً

غير فشيل ، فجوزى خيراً عن نفسه وسلطانة ، فإنه لا طريق للملام عليه ، وليس

عليه ما جتته الحرب العنوشوم ، وأيضاً فإنه ما قصد أن يجود بنفسه لإرضاء الأمير ،

واجتناباً لسخطه ، فإذا كان ما اعتمد فيه الرضا جالب التقصير ، فذلك معدود

في سوء الحظ .

[١] هو الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، حكم الأندلس من سنة ٢٣٨ الى سنة ٢٧٣ هـ ، وكان غزاه لأهل الشرك والخلاف ، وربما أوغل في بلاد العدو ستة أشهر أو أكثر يحرق وينسف ، وله في العدو وقعة وادي سليط ، وهي من أمهات الوقائع لم يعرف مثلها في الأندلس قبلها .

فأعجب الأمير كلامه ، وشكر له وفاءه ، وأقصر عن تنفيذ هاشم ، وسمى
في تخليصه . (فتح الطيب ٢ . ٢٣٠)

٨ - خطبة منذر بن سعيد البلوطي^(١) (المتوفى سنة ٣٥٥ هـ)

في الاحتفال بقدم رسل ملك الروم

روى المؤرخون أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله^(٢) ، بلغ من عزّة
الملك ، ورفعة السلطان بالأندلس ، أن كانت ملوك الروم والإفرنجية تزدلف إليه ،
تطلب مهادنته ، وتهدى إليه أنفس الذخائر ، ومن جملتهم قسطنطين بن ليون
صاحب القسطنطينية ، فقد رغب في موادعته ، وبعث إليه سنة ٣٣٨ هـ
وفداً من قبله بهدية له ، فتأهب الناصر لورودهم ، واحتفل بقدمهم احتفالاً
رائعاً ، أحب أن يقوم فيه الخطباء والشعراء بين يديه ، لتذكّر جلالة ملكه ،
وعظيم سلطانه ، وتصف ما تهباً من توطيد الخلافة في دولته ، وتقدم إلى الأمير
الحكم ابنه ووليّ عهده ، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، فأمر الحكم
صنيعة الفقيه محمد بن عبد البرّ بالتأهب لذلك ، وكان يدعى من القدرة على تأليف
الكلام ما ليس في وسع غيره ، وحضر المجلس السلطاني ، فلما قام يحاول التكلم ،
بهّره هولّ المقام ، وأبّهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لفظه ، بل غشي عليه وسقط

[١] ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وتوفى سنة ٣٥٥ هـ ، وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حاذقاً فيه ، شديد العارضة
حاضر الجواب عتيده ، ثاب الحجة ، ولى بقرطبة قضاء الجماعة - المعبر عنه في المشرق بقضاء القضاة -
لعبد الرحمن الناصر ، ثم لابنه الحكم المستنصر ، ستة عشر عاماً من سنة ٣٢٩ إلى سنة ٣٥٥ هـ ، لم يحفظ
عليه فيها جور في قضية ، ولا قسم بغير سوية ، ولا ميل لهوى .

[٢] هو عبد الرحمن الثالث ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني ابن الحكم بن هشام بن
عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٣٠٠ هـ إلى سنة ٣٥٠ هـ ، وهو أول من تسمى من أمراء بني
أمية بالأندلس بأمر المؤمنين عندما التاك أمر الخلافة بالشرق ، وغلب موالى الترك على بني العباس ، وبلغه
أن المفترق قتل مولاة مؤنس المظفر سنة ٣١٧ هـ .

إلى الأرض ، فقيل لأبي عليّ القالي - صاحب الأمالي ، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق - : قم فارع هذا الوهي^(١) ، فقام فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع به القول ، فوقف ساكتاً متفكراً في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد البلوطي - وكان ممن حضر في زُمرَة الفقهاء - قام من ذاته بدرجة من مِرقاته ، فوصل افتتاح أبي عليّ لأول خطبته بكلام كَانَ يَسُحُه سَحًّا ، كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة ، فقال :

« أما بعد حمد الله ، والثناء عليه ، وَالتَّمْدَادُ لآلَائِهِ ، والشكر لِنِعْمَائِهِ ، والصلاة والسلام على محمد صَفِيهِ وخاتم أنبيائه ، فإن لكل حَادِثَةٍ مَقَامًا ، ولكل مقام مقال ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، وإني قد قمتُ في مقام كريم ، بين يَدَي مَلِكٍ عَظِيمٍ ، فَأَصْنَعُوا^(٢) إِلَى مَعْشَرِ الْمَلَأِ بِأَسْمَاعِكُمْ ، وَأَتَقِنُوا عَنِّي^(٣) بِأَفْئِدَتِكُمْ ، إن من الحق أن يقال لِلْمُحِقِّ صِدْقَتَ ، وَلِلْمُبْطِلِ كَذَبَتَ ، وإن الجليلَ تَعَالَى فِي سَمَائِهِ ، وَتَقَدَّسَ فِي صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ ، أَمْرَ كَلِيمَةِ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ ، أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم ، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وَإِنِّي أَذْكَرُكُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ عِنْدَكُمْ ، وَتَلَاْفِيهِ لَكُمْ بِخِلاْفَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، الَّتِي لَمْتُ شَعَثَكُمْ ، وَأَمَنْتُ سِرْبَكُمْ^(٤) ، ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقواكم ، وَمُسْتَذَلِّينَ فَنَصْرَكُمْ ، وَوَلَّاهُ اللَّهُ رِعَايَتَكُمْ ، وَأَسْنَدَ

[١] الوهي : الشق في الشيء . [٢] الذي في كتب اللغة : « أصنى إليه سمعه : أماله ، وأصنى

إليه : مالٍ بهمه نحوه » ولعل زيادة الباء في « بأسماعكم » من النسخ لا من الخطيب .

[٣] هكذا في نصح الطيب ، وفي مطبع الأنس : « ومنوا عليّ بأفئدتكم » .

[٤] السرب : النفس .

إليه إمامتكم ، أيام ضَرَبَتِ الْفِتْنَةُ سُرَادِقَهَا عَلَى الْآفَاقِ ، وَأَحَاطَتْ بِكُمْ شُعَلُ النِّفَاقِ ،
حَتَّى صِرْتُمْ فِي مِثْلِ حَدَقَةِ الْبَعِيرِ ، مِنْ ضَيْقِ الْحَالِ ، وَنَكَدِ الْعَيْشِ وَالتَّغْيِيرِ ،
فَاسْتَبَدَلْتُمْ بِخِلَافَتِهِ مِنَ الشَّدَةِ الرِّخَاءَ ^(١) ، وَاتَّقَلْتُمْ بِبِعْنِ سِيَاسَتِهِ إِلَى تَهْيِيدِ كَنْفِ
العافية بعد استيطان البلاء .

أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ مَعَاشِرَ الْمَلَأَ ، أَلَمْ تَكُنِ الدَّمَاءُ مَسْفُوكَةً فَخَقَّنَهَا ، وَالسُّبُلُ مَخُوفَةً
فَأَمَّنَهَا ، وَالْأَمْوَالُ مَتَهَبَةً فَأَحْرَزَهَا وَحَصَّنَهَا ؟ أَلَمْ تَكُنِ الْبِلَادُ خِرَابًا فَعَمَّرَهَا ،
وَتَغُورُ الْمُسْلِمِينَ مُهْتَضِمَةً فَمَاهَا وَنَصَرَهَا ؟ فَاذْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِخِلَافَتِهِ ،
وَتَلَا فِيهِ جَمْعَ كَلِمَتِكُمْ بَعْدَ افْتِرَاقِهَا بِإِمَامَتِهِ ، حَتَّى أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْكُمْ غَيْظَكُمْ ، وَشَقَى
صَدُورَكُمْ ، وَصِرْتُمْ يَدًا عَلَى عَدُوِّكُمْ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ بِأَسْكُمْ بَيْنَكُمْ .

فَأَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ ، أَلَمْ تَكُنِ خِلَافَتُهُ قُفْلَ الْفِتْنَةِ بَعْدَ انْطِلَاقِهَا مِنْ عِقَالِهَا ؟ أَلَمْ
يَتَلَاَفَ صَلَاحَ الْأُمُورِ بِنَفْسِهِ بَعْدَ اضْطِرَابِ أَحْوَالِهَا ؟ وَلَمْ يَكِلْ ذَلِكَ إِلَى الْقَوَادِ
وَالْأَجْنَادِ ، حَتَّى بَاشَرَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْمُهْجَةِ وَالْأَوْلَادِ ، وَاعْتَزَلَ النِّسْوَانَ ، وَهَجَرَ
الْأَوْطَانَ ، وَرَفَضَ الدَّعَةَ ، وَهِيَ مَحْبُوبَةٌ ، وَتَرَكَ الرُّكُونَ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَهِيَ مَطْلُوبَةٌ ،
بِطَوِيَّةٍ صَحِيحَةٍ ، وَعَزِيمَةٍ صَرِيحَةٍ ، وَبَصِيرَةٍ ثَابِتَةٍ ، نَافِذَةٌ ثَاقِبَةٌ ، وَرِيحٌ هَابَةٌ
غَالِبَةٌ ، وَنُصْرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاقِعَةٌ وَاجِبَةٌ ، وَسُلْطَانٌ قَاهِرٌ ، وَجِدٌّ ظَاهِرٌ ، وَسَيْفٌ
مَنْصُورٌ ، تَحْتَ عَدْلِ مَشْهُورٍ ، مَتَحَمَّلًا لِلنَّصَبِ ، مُسْتَقِلًا لِمَا نَالَ فِي جَانِبِ اللَّهِ
مِنَ التَّعَبِ ، حَتَّى لَانَتْ الْأَحْوَالُ بَعْدَ شِدَّتِهَا ، وَانْكَسَرَتْ شَوْكَةُ الْفِتْنَةِ عِنْدَ
حِدَّتِهَا ، وَلَمْ يَبْقَ لَهَا غَارِبٌ إِلَّا جَبَّهُ ^(٢) ، وَلَا نَجْمٌ ^(٣) لِأَهْلِهَا قَرْنٌ إِلَّا جَدَّهُ ،

[١] في الأصل « فاستبدتم بخلافته من الشدة بالرخاء » والصواب ما ذكرنا :

[٢] الغارب : الكاهل ، أو ما بين السنام والفتق ، وجته : قطعه .

[٣] في الأصل : « نجم » وهو تحريف ، والصواب « نجم » أي ظهر وطلع ، وجده : قطعه .

فأصبحتم بنعمة الله إخواننا ، و بِلَمِّ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعوانا ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقبصين والأذنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد سحيق^(١) ، لأخذ حبل^(٢) بينه وبينكم جملَةً وتفصيلاً ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإن يخلف الله وعده ، ولهذا الأمر ما بعده ، وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أحوال باطنة خافية ، دليلها قائم ، وجفنها غير قائم « وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَهَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا » ، وليس في تصديق ما وعدَّ الله ارتياب ، ولكل نبيٍّ مستقرٌّ ، ولكل أجلٍ كتابٌ ، فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه المزيد من نعمائه ، فقد أصبحتم بين^(٣) خلافة أمير المؤمنين - أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد - أحسن الناس حالاً ، وأنعمهم بالآ ، وأعزهم قراراً ، وأمنعهم داراً ، وأكثرهم جمعاً ، وأجلهم صنماً ، لا شهاجون ولا تذاذون ، وأتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفكم وابن عمّ نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإن من نزع يده من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومَرَّق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

[١] سحيق : نريد . [٢] أى معاودة بينه وبينكم . [٣] هكذا في فتح الطيب ، ومطوح الأنفس ، ولعل صوابه : « أصبحتم بخلافة أمير المؤمنين » .

وقد علمتم أن في التعلق بِمَعْصَمَتِهَا ، والتمسك بِعُرْوَتِهَا ، حفظَ الأموال ، وَحَقَّنَ الدماء ، وَصَلَحَ الخَاصَّةَ وَالذَّهْمَاءَ ^(١) ، وَأَنْ بَدَاوِمَ ^(٢) الطَّاعَةِ تُقَامُ الحُدُودُ ، وَتُوفَّى العُهُودُ ، وَبِهَا وَصِلَتِ الأَرْحَامُ ، وَوَضَحَتِ الأَحْكَامُ ، وَبِهَا سَدَّ اللهُ الخَلَلَ ، وَأَمَّنَ السَّبِيلَ ، وَوَطَّأَ الأَكْنَافَ ، وَرَفَعَ الاختلافَ ، وَبِهَا طَابَ لَكُمْ القَرَارُ ، وَاطْمَأْنَنَ بِكُمْ الدَّارُ ، فَاعْتَصِمُوا بِمَا أَمَرَكُمْ اللهُ بِالاعتصامِ بِهِ ، فَإِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ » ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَحَاطَ بِكُمْ فِي جَزِيرَتِكُمْ هَذِهِ مِنْ ضُرُوبِ المَشْرِكِينَ ، وَصَنُوفِ المُلْحِدِينَ السَّاعِينَ فِي شِقِّ عَصَاكُمْ ، وَتَفْرِيقِ مَلَيْتِكُمْ ، الآخِذِينَ فِي مَخَاذِلِ دِينِكُمْ ، وَهَتَّكَ حَرِيمِكُمْ ، وَتَوَهِينِ دَعْوَةِ نَبِيِّكُمْ ، صَلَوَاتِ اللهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ ، وَعَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَالمُرْسَلِينَ ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَخْتَمُ بِالحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، مُسْتَغْفِرًا اللهُ العَفُورَ الرَّحِيمَ ، فَهُوَ خَيْرُ الغَافِرِينَ .

وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدهم تعجباً منه ، فولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ، ثم توفى محمد بن عيسى القاضي ، فولاه قضاء الجماعة بقرطبة ، وأقره على الصلاة بالزهراء . (نهج الطيب ١ : ١٧٢ ، ومطمح الأفسس ص ٤٣)

٩ - خطبة أخرى له

وخطب منذر بن سعيد يوماً - وأراد التواضع - فكان من فصول خطبته ، أن قال :

« حتى متى ، وإلى متى ، أعظ ولا أتعظ ، وأزجر ولا أنزجر ؟ أدلّ الطريق

[١] الدهماء : جماعة الناس . [٢] في الأصل : « بقوام » ، وأظنه : « بدوام » .

إلى المستدئين ، وأبقي مقياً مع الحائرین ! كلا ، إن هذا هو البلاء المبين ! إن
هي إلا فتنتك تُضِلُّ بها مَنْ تَشَاءُ ، وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ، اللهم فرغني لما خلقتني له ، ولا تشغلني بما
تكفلت لي به ، ولا تحرمني وأنا أسألك ، ولا تعذبني وأنا أستغفرك ،
يا أرحم الراحمين » . (نفع الطيب ١ : ٢٢٢)

١٠ - أحد حساد الرمادي الشاعر والمنصور بن أبي عامر

(المتوفى سنة ٣٩٤ هـ)

وقال المنصور بن أبي عامر المَعَاظِرِيُّ (١) يوماً لأبي عمر يوسف الرمادي
الشاعر : كيف ترى حالك معي ؟ فقال : « فوق قدرى ، ودونَ قدرك (٢) » ،
فأطرق المنصور كالغضبان ، فَأَنْسَلَ الرماديّ وخرج وقد نَدِمَ على ما بَدَرَ منه ،
وجعل يقول : أَخْطَأْتُ ! لا والله ، ما يُفْلِحُ مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كَانَ
ضَرَّنِي لو قلت له : إني بلغتُ السماء ، وتمنطقتُ بالجوزاء ! وأنشد :
متى يأتِ هذا الموتُ لا يُلْفِ حَاجَةً لِنَفْسِي إلا قد قَضَيْتُ قضاءها
وكان في المجلس من يحسده على مكانه من المنصور ، فوجد فُرْصَةً فقال :

[١] هو المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الواليد بن يزيد بن عبد الملك
المعافري . دخل جده عبد الملك الأندلس مع طارق ، وكان عطيماً في قومه ، وله في الفتح أثر ، وكان
الحكم بن الناصر قد استوزر ابن أبي عامر ، وفوض إليه أموره ، وترقت حاله عنده ، ثم توفي الحكم
سنة ٣٦٦ هـ ، وولى بعده ابنه هشام ، وكانت سنة تسع سنين ، فحدث ابن أبي عامر نفسه بالتقلب عليه
لصغر سنه ، وتم له ما أمل ، فتقلب عليه ، وترجع على سرير الملك ، وأمر أن يجيأ بتحية الملوك ، وتسمى
بالحاحب المنصور ، ونهدت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء
للخليفة ، ولم يبق لهشام من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء له على المنابر ، وكتابة اسمه في السكة والطرر ،
وهلك المنصور أعظم ما كان ملكاً سنة ٣٩٤ هـ لسبع وعشرين سنة من ملكه .

[٢] يريد « ودون ما ينبغي أن يعطيه مثلك مثلي » .

« وَصَلَ اللَّهُ لِمَوْلَانَا الظَّفَرَ وَالسَّعْدَ ، إِنْ هَذَا الصَّنْفُ صَنَفٌ زُورٌ وَهَذَيَانٌ ،
لَا يَشْكُرُونَ نِعْمَةً ، وَلَا يَرْعَوْنَ إِلَّا ^(١) وَلَا ذِمَّةً ، كَلَابُ مَنْ غَلَبَ ، وَأَصْحَابُ مَنْ
أَخْصَبَ ، وَأَعْدَاءُ مَنْ أَجْدَبَ ، وَحَسْبُكَ مِنْهُمْ أَنْ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَقُولُ فِيهِمْ :
« وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ
مَا لَا يَفْعَلُونَ » وَالْإِبْتِعَادُ مِنْهُمْ أَوْلَى مِنَ الْإِقْتِرَابِ ، وَقَدْ قِيلَ فِيهِمْ : مَا ظَنُّكَ
بِقَوْمٍ ، الصَّدَقُ يُسْتَحْسَنُ إِلَّا مِنْهُمْ ؟ » .

* * *

فرقع المنصور رأسه - وكان مُحَايِي أهل الأدب والشعر - وقد اسودَّ وجهه ،
وظهر فيه الغضب المُفْرِطُ ، ثم قال :

« مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُشِيرُونَ فِي شَيْءٍ لَمْ يُسْتَشَارُوا فِيهِ ، وَيَسِيئُونَ الْأَدَبَ بِالْحُكْمِ
فِيمَا لَا يَدْرُونَ ، أَيْرُضِي أَمْ يُسْخِطُ ؟ وَأَنْتِ أَيُّهَا الْمُبْتَعِثُ لِلشَّرِّ دُونَ أَنْ يُبْعَثَ ،
قَدْ عَلِمْنَا غَرَضَكَ فِي أَهْلِ الْأَدَبِ وَالشُّعْرَاءِ ، وَحَسَدُكَ لَهُمْ ، لِأَنَّ النَّاسَ كَمَا
قَالَ الْقَائِلُ :

مَنْ رَأَى النَّاسَ لَهُ فَضْلٌ - لَأَ عَلَيْهِمْ حَسَدُوهُ

وَعَرَفْنَا غَرَضَكَ فِي هَذَا الرَّجُلِ خَاصَّةً ، وَلِسْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ نَبْلُغُ أَحَدًا غَرَضَهُ فِي
أَحَدٍ ، وَلَوْ بَلَّغْنَاكُمْ بَلَّغْنَا فِي جَانِبِكُمْ ، وَإِنَّكَ ضَرَبْتَ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ ^(٢) ، وَأَخْطَأْتَ
وَجْهَ الصَّوَابِ ، فَزِدْتَ بِذَلِكَ احْتِقَارًا وَصَغَارًا ، وَإِنِّي مَا أَطْرَقْتُ مِنْ كَلَامِ الرَّمَادِيِّ
إِنْكَارًا عَلَيْهِ ، بَلْ رَأَيْتُ كَلَامًا يَجِلُّ عَنِ الْأَقْدَارِ الْجَمِيلَةِ ، وَتَعَجَّبْتُ مِنْ تَهْدِيهِ لَهُ

[١] الإِلَّةُ : العَهْدُ .

[٢] مَنْ أَمْثَالَ الْعَرَبِ : « تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ » وَهُوَ مِثْلُ يَضْرِبُ لِمَنْ طَمَعُ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ .

بسرعة ، واستنباطه له على قلة من الإحسان الناصر ، ما لا يستنبطه غيره بالكثير ،
والله لو حكمته في بيوت الأموال ، لرأيت أنها لا ترجع ما تكلم به قلبه ذرةً ،
وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخص ، قبل أن يؤخذ معه فيه ، ولا
تحكموا علينا في أوليائنا ، ولو أبصرتم منا التغيير عليهم ، فإننا لا نتغير عليهم
بغضاً لهم ، وانحرافاً عنهم ، بل تأديباً وإنكاراً ، فإننا من نريد إبعاده لم نُظهر له
التغير ، بل نبذناه مرة واحدة ، فإن التغيير إنما يكون لمن يُراد استبقاؤه ، ولو
كنت مائل السمع لكل أحد منكم في صاحبه ، لتفرقتم أيدي سباً (١) ،
وجؤنبت أنا مجانبة الأجر ، وإني قد أطلعتكم على ما في ضميري ، فلا تعدلوا
عن مرصاتي ، فتجنبوا سُخطي بما جئتموه على أنفسكم .

* * *

ثم أمر أن يُردَّ الرمادي ، وقال له : أعِدْ عليّ كلامك ، فارتاع ، فقال :
الأمرُ على خلاف ما قدرت ، الثوابُ أولى بكلامك من العقاب ، فسكن
لتأنيسه ، وأعاد ما تكلم به .

فقال المنصور : « بلغنا أن النعمان بن المنذر حشاً فَمَ النابتة بالذر ، لكلام
استملحة منه ، وقد أمرنا لك بما لا يقصُر عن ذلك ، ما هو أنوّه وأحسن حائدةً ،
وكتب له بمالٍ وخِلاصٍ وموضع يعيش منه ، ثم رد رأسه إلى التكلم في شأن
الرمادي - وقد كان يغوص في الأرض لو وجد ، لشدة ما حلَّ به مما رأى وسمع -

[١] من أمثالهم أيضاً : « ذهبوا أيدي سباً ، وتفرقوا أيدي سباً ، وأيادي سباً » ، واليد : الطريق
أي فرقتم طرقهم التي سلكوها كما تفرق أهل سباً في مذاهب مختلفة . ضرب التلبيح ، لأنه لما غرق مكانهم ،
وذهبت جناتهم ، تبددوا في البلاد - انظر القصة في الجزء الأول صفحة ٣٤٥ - وقد بنوا أيدي سباً ،
وأيدي سباً على السكون لكونه مركباً تركيب خمسة عشر .

وقال : « وَالْمَجَبُّ مِنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ : الْإِبْتِعَادُ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَوْلَى مِنَ الْإِقْتِرَابِ ، نَعَمْ ، ذَلِكَ لِمَنْ لَيْسَ لَهُ مَفَاخِرٌ ، يُرِيدُ تَحْلِيدَهَا ، وَلَا أَيَادٍ يُرِغِبُ فِي نَشْرِهَا ، فَأَيْنَ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ :

عَلَى مُكْثَرِيهِمْ رَزَقٌ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّاحَةُ وَالْبَدَلُ^(١) وَأَيْنَ الَّذِي قِيلَ فِيهِ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو ذُلْفٍ بَيْنَ مَبْدَاهِ وَمُحْتَضَرِهِ
فَإِذَا وُلِّيَ أَبُو ذُلْفٍ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ^(٢)

أَمَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ أَكْرَمُ مَنْ قِيلَ فِيهِ هَذَا الْقَوْلُ ؟ بَلَى ، وَلَكِنْ مُصْحَبَةُ الشُّعْرَاءِ وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ ، أَحْيَيْتُ غَابِرَ ذِكْرَاهُمْ ، وَخَصَّصْتَهُمْ بِمَفَاخِرِ عَصْرِهِمْ ، وَغَيْرِهِمْ لَمْ تَحْلُدِ الْأَمْدَاحُ^(٣) مَا يَرْتَمُهُمْ ، فَدَثَّرَ ذِكْرَهُمْ ، وَدَرَسَ نَفْرَهُمْ .

(نقح الطيب ٢ : ٢٢٦)

١١ — ابن اللبابة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح

لما مات المعتصم بن صمادح^(٤) ملك المريّة ركب البحر ابنه ووليّ عهده الواثق عز الدولة ، وفارق الملك كما أوصاه والده المعتصم .

[١] البيت لرهير بن أبي سلمي من قصيدة في مدح آل هرم بن سنان .

[٢] البيتان لعليّ بن جبلة الأنباري الملقب بالكوك من قصيدة قالها في مدح أبي داف اقام بن عيسى العجلي — وكان حواداً ممدحاً — وفيها يقول :

كل من في الأرض من عرب بين يديه إلى حضره

مستعير منه مكرمة يكتسبها يوم مفتخره

وهذا البيتان الأخيران أحفظا عليه الأمان ، فطلبه حتى ظفر به ، فسئل لسانه من قماه ، ويقال : بل هرب ولم يزل متوارياً منه حتى مات ، قال صاحب الأعاني : « وهذا هو الصحيح من القوائين ، والآخر شاذ » .

[٣] لم أجد هذا الجمع في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها : « المدحة بالكسر والمدح والأمدوحة بالضم : ما يمدح به ، والجمع مدح كعب ومدائح وأمدائح » .

[٤] هو أحد ملوك الطوائف بالأندلس ، وكان صاحب المريّة « بلد بالأندلس على الساحل الجنوبي » ، وكان منافساً للمعتد بن عباد صاحب إشبيلية ، فاوثنا له ، وقد سعى به لدى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين

قال أبو بكر بن اللبّانة الشاعر: ما علمتُ حقيقةَ جَوْرِ الدهر، حتى اجتمعت
بِجِجَاية^(١) مع عزّ الدولة بن المعتصم، فإنني رأيت منه خيراً من يُجْتَمَعُ به، كأنه
لم يخلقه الله تعالى إلا المُلْكِ والرياسة، وإحياء الفضائل، ونظرت إلى همته تَنِمُّ
من تحت مُخْوَلِه، كما يَنِمُّ فِرِيدُ^(٢) السيف وَكَرْمُهُ من تحت الصّدأ، مع حفظه
لفنون الأدب والتواريخ، وحسن استماعه وإسماعه ورقّة طباعه، ولطافة ذهنه،
ولقد ذكرته لأحد من صحبته من الأدباء في ذلك المكان، ووصفته بهذه
الصفات، فتشوّق إلى الاجتماع به، وَرَغِبَ إلىّ في أن أستأذنه في ذلك، فلما
أعلمت عزّ الدولة قال:

« يا أبا بكر، إنك لتعلم أنا اليوم في مُخْوَلِ وَصِيقٍ، لا يتسع لنا معهما، ولا
يحمل بنا الاجتماعُ مع أحد، لا سيّما مع ذي أدب ونباهة، يلقانا بين الرحمة،
ويزورنا بمنّة التفضل في زيارتنا، ونكابِدُ من أَلْفَاظِ تَوْجِعِهِ، وألحاظِ تَفْجِيعِهِ،
ما يحدّد لنا همّاً قد بَلِي، وَيُخَيِّبُ كدّاً قد فَنِي، ومالنا قدرة على أن نجود عليه
بما يَرْضَى عن همّنا، فدَعْنَا كأننا في قبر، تدرّع لسهام الدهر، بدرع الصبر،
وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاط اللحم بالدم، وامتزجت امتزاج الماء بالخر،
فكأننا لم نكشِفِ حالنا لسوانا، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا، فلا نحمل غيرك بحملك.»
قال ابن اللبّانة: فلا والله سمى بلاغة لا تصدُرُ إلا عن سدّاد، ونفسٍ أبية
متمكنة من أعنة البيان، وانصرفت متمثلاً:

وأفسد ما بينهما، وكان ابن عباد قد استنصر ابن تاشفين لصدّ غارة الإسبان، فعبّر بجيشه من مراکش
إلى الأندلس، وأبلى بلاء حسناً في قتالهم حتى دارت عليهم الدائرة في وقعة الزلاقة، ثم مال على ملوك
الطوائف، فاكسح دولهم، ودانت له الأندلس. [١] بجاية: بلد بالمغرب على ساحل بلاد الجزائر.
[٢] جوهرية.

لسانُ الفتى نصفٌ، وَنِصْفُ فَوَّادِهِ فلم يبقَ إِلَّا صُورَةُ اللحمِ والدمِ
وَكَأَنَّ تَرَى مِنْ صَامَتٍ لَكَ مُعْجِبٍ زيادتهُ أو نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ^(١)
(نفع الطيب ٢ : ٢٢٨)

١٢ - دفاع ابن الفخار عن القاضي الوحيدى

بحضرة ابن تاشفين

لما تألب بنو حسون على القاضي أبى محمد عبد الله الوحيدى قاضى مالقة^(٢) ،
انبرى للدفاع عنه العالم الأصولى أبو عبد الله بن الفخار ، فقصده إلى حضرة
الإمامة « مرّاكش » ، وقام فى مجلس أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، وقد
غصّ بأربابه ، فقال :

« إنه لمقام كريم ، نبدأ فيه بحمد الله على الدنو منه ، ونصلّى على خيرة أنبيائه ،
محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحّابته نجوم الليل البهيم^(٣) ،
أما بعد ، فإننا نحمد الله الذى اصطفاك للمؤمنين أميراً ، وجعلك للدين الحنيفيّ
نصيراً وظهيراً ، ونفزع إليك مما دهمنا^(٤) فى حماك ، ونبث إليك ما لحقنا من
الضيم ، ونحن تحت ظلّ غلاك ، ويأبى الله أن يذهم من احتضى بأمر المسلمين ،
ويصّاب بضمّ من أدرع بحصنه الحصين ، شكوى قت بها بين يديك ، فى
حق أمرك الذى عضده^(٥) مؤيّدته ، لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقّده ، وإن
قاضيك ابن الوحيدى الذى قدّمته فى مالقة للأحكام ، ورضيت بعدله فيمن بها

[١] البيتان لزهير بن أبى سلمى من مملقته . [٢] بلد بالأندلس على الساحل الجنوبى .

[٣] الأسود . [٤] دهمه كسمع ومنع : غشبه .

[٥] عضده كنصره : أصاب عضده ، والمراد بمؤيده بنو حسون ، والمعنى : إن بنى حسون - وكانوا
أحق بتأييد أمرك وتوطيده - قد أدهنوه وأدهموا بتمرضهم لأحكام القاضى ، والظعن فيها ، أو معنى
عضده : نصره ، فالمراد بمؤيده القاضى الوحيدى ، والمعنى على ذلك ، إن القاضى القائم بأمرك يدأب على
نصره ، وتثبيت دعاته ، باتهاجه طريق الحق فى حكمه ، ولو غضب من جراء ذلك فريق من الرعية .

من الخِصَّة والعوام ، لم يزل يَدُلُّ على حسن اختيارك بحُسن سيرته ، وَيُرْضِي اللهَ تعالى وَيُرْضِي الناسَ بظاهره وسريته ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، وَلَا دَرَيْنَا له موقف خِزْي ، ولم يزل جارياً على ما يُرْضِي اللهَ تعالى ويرضيك ورضينا ، إلى أن تعرضت بنو حِشُون للطعن في أحكامه ، والهدَّ من أعلامه ، ولم يعلموا أن اهتضام المقدَّم ، راجع على المقدَّم ، بل جَمَحُوا في لجأهم ، فَعَمُوا وَصَمُوا ، وفعلوا وأمضوا ما به هَمُّوا ، وإلى السُّحْبِ يَرْفَعُ الكَفَّ من قد جَفَّ عنه مَسِيلٌ عينٍ ونهر .

فلا سمعه بلاغة أعقبت نصره ونصر صاحبه . (فتح الطيب ٢ : ٢٤٠)

١٣ — موعظة ابن أبي رندقة الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ

للأفضل بن أمير الجيوش

دخل ابن أبي رندقة الطرطوشي^(١) مرة على الأفضل^(٢) بن أمير الجيوش

فوعظه ، وقال له :

« إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك ، إنما صار إليك بموت من كان

قبلك ، وهو خارج عن يدك ، بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فإن الله عز وجل سألك عن النقيير والقمطير والفتيل^(٣) ، واعلم أن الله

[١] هو الفقيه العالم أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب المهري الطرطوشي (بضم الطاءين ، وقد تفتح الطاء الأولى ، نسبة إلى طرطوشة من بلاد الأندلس) ويعرف بابن أبي رندقة وكان زاهداً طابداً متورطاً متقللاً من الدنيا قوَّالاً للحق ، رحل إلى المشرق ، ودخل بغداد والبصرة ، وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وكان الأفضل بن أمير الجيوش يكرهه ، فلما ولي بعده المأمون بن البطاحي أكرم الطرطوشي إكراماً كثيراً ، وله ألف الشيخ « سراج الملوك » وتوفى بالاسكندرية سنة ٥٢٠ هـ .

[٢] هو الوزير الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش المشهور ، وكان أبوه بدر الجمالي حاكم عكا ، فأرسل إليه الخليفة الفاطمي المستنصر يسأله القدوم إلى مصر لإصلاح أحوالها المضطربة إذ ذاك ، فقدم إليها ، وتولى شئونها ، وأقام معوجها ، وصارت له فيها الكلمة النافذة ، ثم لابنه الأفضل .

[٣] النقيير : النقرة التي في ظهر النواة ، والقمطير : القشرة الرقيقة التي بين النواة والتمر ، والفتيل : ما يكون في شق النواة .

عز وجل آتى سليمان بن داود ملك الدنيا بحدافيرها ، فسخر له الإنس والجِن والشياطين والطير والوحوش والبهائم ، وسخر له الريح تجرى بأمره رُخاءً (١) حيث أصاب ، ورفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال عز من قائل : « هَذَا عَطَاؤُنَا فَأَمَنْتُمْ (٢) أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، فما عد ذلك نعمة كما عدّتموها ، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله عز وجل فقال : « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ، لِيَبْلُوَنِي (٣) أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » ، فافتتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم . (نفع الطيب ١ : ٢٦٣)

١٤ - خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين (المتوفى سنة ٥٣٤ هـ)

استدعى محمد بن عبد الله بن تومرت (٤) مؤسس دولة الموحدين أصحابه ، قبل موته بأيام يسيرة ، وقد أراد أن يستخلف عليهم عبد المؤمن بن علي ، فاما حضروا بين يديه قام :

[١] الرخاء : الريح اللينة . [٢] أى فأعط منه من شئت . [٣] بلاه : اختبره .
[٤] هو محمد بن عبد الله بن نومرت من جبل السوس في أقصى بلاد المغرب ، ولد سنة ٤٨٥ هـ ، ورحل إلى المشرق سنة ٥٠١ هـ في طلب العلم ، وانتهى إلى بغداد ، وقيل لأنه اتقى أبا حامد العزالي ، ثم رحل إلى المغرب ، وفامت دعوته في أوّل الأمر في صورة أمر بالمعروف ، ناه عن المنكر ، فاتمه بعض القوم ، وخرج هو وأصحابه إلى السوس ، وشرع في التدريس والدعاء إلى الخير ، وما زال يستميل القلوب حتى كثرت شيعته ، ثم جعل يذكر المهدي ويشوق إليه ، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه ، فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ، ادّعى ذلك لنفسه ، وتسمى بالمهدي ، ورفع نسيبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وادّعى إنه من نسل الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وصرّح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدي المعصوم ، وروى في ذلك أحاديث كثيرة حتى استقرّ عندهم أنه المهدي ، فبايموه على ذلك ، ولما كانت سنة ٥١٧ هـ جهز جيشاً عظيماً - وكانت مراکش تحت إمرة المرابطين - فقال : اقتصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، فادعوم إلى إمامة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم ، فإن أجابوكم فهم إخوانكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم ، وأمر على الجيش عبد المؤمن بن علي ، فخرجوا إلى مراکش فلقبهم المرابطون

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم ، ويدكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم ، والعزيمة في أمرهم ، وأن أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لائم ، وذكر من حدّ عمر رضى الله عنه ابنة في الحجر ، وتصيبيه على الحق ، في أشباه هذه الفصول ، ثم قال :

فانقرضت هذه العصابة ، نظر الله وجوهها ، وشكر لها سميتها ، وجزاها خيراً عن أمة نبيها ، وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران ، والعالم متجاهلاً مداهناً ، فلم ينتفع العلماء بعلمهم ، بل قصدوا به الملوك ، واجتلبوا به الدنيا ، وأمالوا وجوه الناس إليهم ، في أشباه لهذا القول ، إلى هلمّ جراً .

ثم إن الله سبحانه - وله الحمد - منّ عليكم - أيها الطائفة - بتأييده ، وخصّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده ، وقبض ^(١) لكم من ^(٢) ألفاكم ضللاً لا تهتدون ، وعمياً لا تبصرون ، لا تعرفون معروفًا ، ولا تشكرون منكرًا ، قد فشت فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل ، وزين لكم الشيطان أضاليل وثرّهات ^(٣) ، أنزّه لسانى عن النطق بها ، وأرَبأ ^(٤) بلفظى عن

قريباً منها بجيش ضخم أميرم الزبير بن على بن يوسف بن تاشفين ، فدعوم إلى ما أمرم به ابن تومرت فردوا عليهم أسوأ ردّ ، ثم التفت العثمان ، فانهزم أصحاب ابن تومرت وقتل منهم خلق كثير ، فلما رجع القوم إلى ابن تومرت جعل يهون عليهم أمر الهزيمة ، ويقرّر في نفوسهم أن قتلام شهداء ، لأنهم ذابون من دين الله ، فزادهم ذلك بصيرة في أمرم ، وحرصاً على لقاء عدوّم ، وجعلوا يشنون الغارات على نواحي حراكش ويقتلون ويسون ولا يقون غلى أحد من قدروا عليه ، وكثر الداخلون في طاعتهم ، ولم يزل أصحابه ظاهرين ، وأحوال المرابطين تختلّ ، وانتقاض دولتهم يترايد ، إلى أن توى ابن تومرت سنة ٥٣٤ هـ بعد أن أسس الأمور ، وأحكم التدبير ، وقام بأمر الموحدين من بعده عبد المؤمن بن على . وقد استوثق له الأمر بموت على بن يوسف بن تاشفين ملك المرابطين سنة ٥٣٧ هـ .

[١] أتاح لكم وسبب وهياً . [٢] يعنى نفسه . [٣] جمع ترمة : وهى الباطل .

[٤] ارتفع

ذكرها ، فهذا كم الله به بعد الضلالة ، وبَصَّرَكُم بعد العَمَى ، وجمعكم بعد الفُرقة ،
وأعزَّكم بعد الذلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين (١) ، وسيُورثكم أرضهم
وديارهم ، ذلك بما كَسَبَتْه أيديهم ، وأضرته قلوبهم ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .
فجدِّدوا لله سبحانه خالصَ نيَّاتِكُمْ ، وأرؤوه من الشكر قولاً وفعلاً ما يُزَكِّي
به سعيكم ، ويتقبَّل أعمالكم ، وينشر أمركم ، واحذروا الفُرقةَ واختلاف الكلمة ،
وَشَتَات الآراء ، وكونوا يداً واحدةً على عدوكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، هابكم
الناس ، وأسرعوا إلى طاعتكم ، وكثُر أتباعكم ، وأظهر الله الحقَّ على أيديكم ، وإلَّا
تفعلوا شَمَلَكُم الذلَّ ، وَعَمَّكُم الصَّغار (٢) ، واحتقرتكم العامة ، فتخطفتكم الخاصةُ ،
وعليكم في جميع أموركم بِمَنْزَجِ الرَّأْفَةِ بِالْعَلِيظَةِ ، واللين بالعُنْفِ ، واعلموا مع هذا
أنه لا يصلح أمرٌ آخر هذه الأمة ، إلا على الذي صلح عليه أمر أولها .
وقد اخترنا لكم رجلاً منكم ، وجعلناه أميراً عليكم ، هذا بعد أن بلَّوناه (٣) في
جميع أحواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سيرته وعلا نيَّته ،
فأيناه في ذلك كله ثبَّتاً (٤) في دينه ، متبصِّراً في أمره ، وإني لأرجو أن لا يُخْلِفَ
الظن فيه ، وهذا المشار إليه هو : « عبد المؤمن » ، فاسمعوا له وأطيعوا
مادام سامعاً مطيعاً لرَبِّه ، فإن بَدَّل أو نكص على عَقْبِهِ ، أو ارتاب في أمره ،
ففي الموحِّدين - أعزَّهم الله - بركةٌ وخير كثير ، والأمر أمر الله يقلده من شاء
من عباده .

فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت .

(المعجب ، في تاريخ أخبار المغرب ص ١٠٨)

١٥ - مقال لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ)
في الحضّ على الجهاد

وقال لسان الدين بن الخطيب ^(١) في الحضّ على الجهاد ^(٢) .

« أيها الناس - رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى - :

إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دَهَمَ العدوُّ - قَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى - سَاحَتَهُمْ ،
ورام الكفرُ - خَذَلَهُ اللهُ تَعَالَى - استباحَتَهُمْ ، وَزَحَقَتِ أَحْزَابُ الطُّوَاعِيتِ
إليهم ، وَمَدَّ الصَّلِيبُ ذِرَاعَيْهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَيْدِيكُمْ - بِعِزَّةِ اللهِ تَعَالَى - أَقْوَى ، وَأَنْتُمْ
المؤمنون أهلُ البرِّ والتقوى ، وهو دينكم فانصُرُوهُ ، وَجِوَارُكُمْ القريب فلا
تُخْفِرُوهُ ^(٣) ، وسبيل الرشد قد وَضَحَ فلتبصروه ، الجهادَ الجهادَ فقد تعيّن ،
الجارَ الجارَ فقد قرّر الشَّرْعُ حَقَّهُ وَبَيَّنَّ ، اللهُ اللهُ في الإسلام ، اللهُ اللهُ في أُمَّةِ
محمد عليه الصلاة والسلام ، اللهُ اللهُ في المساجد المعمورة بذكر الله ، اللهُ اللهُ في
وطن الجهاد في سبيل الله ، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكّد عهد الله

[١] هو لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المشهور بابن الخطيب خاتمة أدباء الأندلس ، ولد بقرناطة سنة ٧١٣ هـ ، وكان أول أمره في عداد كتاب السلطان أبي الحجاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر ، ثم اصطفاه وجعله وزيره ، وفوّس إليه شئون مملكته ، ولما مات أبو الحجاج ، وخلفه ابنه محمد أقربه على الوزارة ، ثم وثب إسماعيل أخو السلطان على ملكه ، فاضطرّ أن يبادره إلى المغرب مع وزيره لسان الدين ، فلما تحسنت الأحوال عاد محمد إلى ملكه ، وبقى مدة كتب له فيها ابن زمرك أحد تلاميذ لسان الدين ، ثم عاد لسان الدين إلى قرناطة ، وحلّ مكانه من سلطانه ، فأهلب ذلك نار الحسد في ابن زمرك وأبصاره ، فسعوا به إليه حتى أحفظوه عليه ، فهرب إلى المغرب - وكان في حوزة بني مرين ، وهم من البربر . حكموا المغرب بعد الموحدين من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٨٩٠ هـ - فأكرمه سلطان المغرب عبد العزيز ، وخطب ابن الأحمر في أهله وولده ، فبعثهم إليه إلى أن مات (عبد العزيز) ، وثار أحد أمراء بني مرين على ابن عبد العزيز ، وساعده ملك بني الأحمر بشرط تسليمه ابن الخطيب ، وتمّ له أمره ، وقبض عليه ، وسجن بفاس ، ونوظر في كلماته في كتابه « الحجة » وأفتى الفقهاء بقتله ، فدمسّ عليه من خنقه في سجنه سنة ٧٧٦ هـ .

[٢] وكان سلطانه محمد بن أبي الحجاج أسفروه إلى ملوك بني مرين يستنجدم على الإسبان .

[٣] أخفروه : غدر به ونقض عهده .

وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة ، أعانكم الله تعالى عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير ، يصل الله تعالى لكم جميل العوائد ، صلوا رحم الكلمة (١) ، واسؤوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة ، كتاب الله بين أيديكم ، وألسنة الآيات تُناديكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله سبحانه يقول فيه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ » ، ومما صح عنه قوله : « من أغبرت قدماءه في سبيل الله حرهما الله على النار » ، « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم » ، « من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا » ، أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت ، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده ، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده :

ماذا يكون جوابكم لنبيكم وطريق هذا العذر غير ممهد
 إن قال : لم فرطتمو في أممي وتركتموهم للعدو المعتدى ؟
 تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

اللهم اعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بُت لنا الحمية في البلاد ، اللهم دافع عن الحرم والضعيف والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائك ، بأحبائك وأوليائك ، يا خير الناصرين ، اللهم أفرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

(نفع الطيب ٤ : ٣)

١٦ - ماخاطب به لسان الدين تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني
وخاطب لسان الدين بن الخطيب تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني
لما قصد لها عقب ما شرع في جواره ، فقال :

« السلام عليك ثم السلام ، أيها المولى الهمام ، الذى عرف فضله الإسلام ،
وأوجبت حقه العلماء الأعلام ، وَخَفَقَتْ بِعِزِّ نَصْرِهِ الأعلام ، وتنافست في
إنفاذ أمره ونهيه السيوف والأقلام ، السلام عليك أيها المولى الذى قَسَمَ زمانه
بين حكمِ فَصْلِ ، وإمضاء نَصْلِ ، وإحراز خَصْلِ ^(١) ، وعبادة قامت من اليقين
على أصل ، السلام عليك يا مقرر الصدقات الجارية ، ومُشْبِعِ البطون الجائعة ،
وكأسي الظهور العارية ، وقادح زناد العزائم الوارية ، ومكتب الكتائب الفازية ،
في سبيل الله تعالى والسرايا ^(٢) السارية ، السلام عليك يا حُجَّةَ الصبر والتسليم ،
ومتلقى أمر الله تعالى بالخلق المرضي والقلب السليم ، ومفوض الأمر في الشدائد
إلى السميع العليم ، وَمُعْمِلِ البنان الطاهر في اكتاب الذكر الحكيم ، كَرَّمَ
الله تعالى تَرْبَتَكَ وَقَدَّسَهَا ، وطيب رُوحَكَ الزَكِيَّةَ وَأَنَسَهَا ، فلقد كنت للدهر
جَمَّالاً ، وللإسلام ثَمَّالاً ^(٣) ، وللمستجير مُجِيراً ، وللمظلوم ولياً ونصيراً ، لقد كنت
للمحارب صَدْرًا ، وفي المواكب بَدْرًا ، وللمواهب بَحْرًا ، وعلى العباد والبلاد
ظِلًّا ظليلاً وَسِيراً ، لقد فرَّعت ^(٤) أعلامُ عِزِّكَ الثنايا ، وأجزأت همتك لملوك
الأرض الهدايا ، كأنك لم تعرِّض الجنود ، ولم تنشر البنود ^(٥) ، ولم تبسط العدل

[١] الحصل : العلبة في الضال . [٢] السرايا جمع سرية وهي من خمسة أنفس إلى ثمانية

أو أربعمائة . [٣] الثمال : النيات الذى يقوم بأمر قومه .

[٤] فرعت : علت ، والثنايا : جمع ننية كهدية ، وهي العتبة ، أو الجبل ، أو الطريقة فيه .

[٥] البنود جمع بند كشمس : وهو العلم الكبير .

المحدود ، ولم تُوجد الجود ، ولم تزين الرُكع السُّجود ، فتوسّدت الثرى ، وأطلت الكرى ، وشربت الكأس التي يشربها الورى ، وأصبحت ضارع^(١) الخدّ ، كليل الخدّ ، سالكاً سنن الأب والجدّ ، لم تجذ بعد انصرام أجلك ، إلا صالح عملك ، ولا صحبت لقبرك ، إلا رابح تجرك^(٢) ، وما أسلفت من رضاك وصبرك ، فنسأل الله تعالى أن يؤنس اغترابك ، ويجود بسحاب الرحمة تُرابك ، وينفك بصدق اليقين ، ويجعلك من الأئمة المتقين ، ويُعلي درجتك في عليين^(٣) ، ويجعلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين .

وَلِيَهْنِكَ أَنْ صَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكَكَ مِنْ بَعْدِكَ ، إِلَى نَيْرِ سَعْدِكَ ، وَبَارِقِ رَعْدِكَ ، وَمُنْجِزِ وَعْدِكَ ، أَرْضَى وَلَدِكَ ، وَرَيْحَانَةَ خَلْدِكَ^(٤) ، وَشِقَّةَ^(٥) نَفْسِكَ ، وَالسَّرْحَةَ الْمُبَارَكَةَ مِنْ غَرْسِكَ ، وَنُورِ شَمْسِكَ ، وَهَوَّضِ عَمَلِكَ الْبَرِّ إِلَى رَمْسِكَ ، فَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ دَعْوَاتِكَ ، فِي خَلَوَاتِكَ ، وَأَعْقَابِ صَلَوَاتِكَ ، فَكَامِتُكَ وَالْمِنَّةُ لِلَّهِ تَعَالَى بَافِيَةً ، وَحَسَنَتِكَ إِلَى مَحَلِّ الْقَبُولِ رَاقِيَةً ، يَرَعَى بِكَ الْوَسِيلَةَ ، وَيَتَمَّمُ مَقَاصِدَكَ الْجَمِيلَةَ ، أَعَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِبِرَّةِ رِضَاكَ عَلَى مَا قَلَدَهُ ، وَعَمَرَ بِتَقْوَاهُ يَوْمَهُ وَغَدَهُ ، وَأَبْعَدَ فِي السَّعْدِ أَمَدَهُ ، وَأَطْلَقَ بِالْخَيْرِ يَدَهُ ، وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ أَنْصَارَهُ وَالْأَقْدَارَ عُدَدَهُ . وَإِنِّي أَيُّهَا الْمَوْلَى الْكَرِيمُ ، الْبَرُّ الرَّحِيمُ ، لَمَّا اشْتَرَانِي ، وَرَاشَنِي^(٦) وَبَرَّانِي ، وَتَعَبَّدَنِي بِإِحْسَانِهِ ، وَاسْتَعْمَلَ فِي اسْتِخْلَاصِي خَطَّ بَنَانِهِ ، وَوَصِيَّةَ لِسَانِهِ ، لَمْ أَجِدْ مَكْفَأَةً إِلَّا التَّقَرُّبَ إِلَيْكَ وَإِلَيْهِ بِرِثَائِكَ ، وَإِغْرَاءَ لِسَانِي بِتَخْلِيدِ عَلَيَّائِكَ ، وَتَعْفِيرِ

[١] ذليل . [٢] تمر تجراً وتجارة .

[٣] اسم لأعلى الجنة ، أو هو كتاب جامع لأعمال الخير . [٤] الخلد : النفس والقلب ،

[٥] الشقة : نصف الشيء إذا شق ، والسرحة : الشجرة العظيمة .

[٦] راش السهم : ألق على الريش ، وراش الصديق : أطعمه وسقاه وكساه وأصلح حاله .

الوَجْنَةَ فِي حَرَمِكَ ، وَالإِشَادَةَ بِعَدِّ الْمَمَاتِ بِمَجْدِكَ وَكَرَمِكَ ، فَفَتَحْتَ الْبَابَ فِي هَذَا الْغَرَضِ ، إِلَى الْقِيَامِ بِحَقِّكَ الْمَفْتَرَضِ ، الَّذِي لَوْلَاهُ لَاتَّصَلَّتِ الْغَفْلَةُ عَنْ أَدَائِهِ وَتَعَادَتِ ، فَمَا يَبْسُتُ الْأَلْسُنُ وَلَا كَادَتْ ، مَتَحِيْزًا بِالسَّبْقِ ، إِلَى أَدَاءِ هَذَا الْحَقِّ ، بَادِئًا بِزِيَارَةِ قَبْرِكَ الَّذِي هُوَ رِحْلَةُ الْغَرْبِ ، مَا نَوَيْتَهُ مِنْ رِحْلَةِ الشَّرْقِ ، وَمَا أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَأَقَطْتَهُ أَثْرَ مَوَاقِعِ الْإِسْتِحْسَانِ ، وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالتَّنْوِيهِ وَالْإِحْسَانِ ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَجْعَلُهُ عَمَلًا مَقْبُولًا ، وَيَبْلُغُ فِيهِ مِنَ الْقَبُولِ مَأْمُولًا ، وَيَتَنَمَّدُ مِنْ ضَاجِعَتِهِ مِنْ سَلَفِكَ الْكِرَامِ بِالْمَغْفِرَةِ الصَّيْبَةِ ، وَالتَّحِيَّاتِ الطَّيِّبَةِ ، فَتَعْمُ الْمُلُوكُ الْكِبَارَ ، وَالْخُلَفَاءُ الْأَبْرَارَ ، وَالْأَعْمَةَ الْأَخْيَارَ ، الَّذِينَ كَرُمَتْ مِنْهُمْ السَّيْرُ وَحَسُنَتْ الْأَخْبَارُ ، وَسَعِدَ بِعَزَمَاتِهِمُ الْجِهَادِيَّةِ الْمُؤْمِنُونَ وَشَقِيَ الْكُفَّارُ ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى عَوْدًا وَبَدَأًا عَلَى الرَّسُولِ الَّذِي اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ فَهُوَ الْمَصْطَفَى الْمُخْتَارُ ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ هُمْ السَّادَةُ الْأَبْرَارُ ، وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا . (نصح الطيب ٤ : ١٣٥)

١٧ - وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده

« الحمد لله الذي لا يُرْوَعُهُ الْجِمَامُ الْمَرْقُوبُ ، إِذَا شِيمَ ^(١) نَجْمُهُ الْمُثْقُوبُ ، وَلَا يَبْتَغِيهِ الْأَجَلُ الْمَكْتُوبُ ، وَلَا يَفْجُوهُ الْفِرَاقُ الْمَعْتُوبُ ، مُلْهِمِ الْهُدَى الَّذِي تَطْمَئِنُّ بِهِ الْقُلُوبُ ، وَمَوْضِعِ السَّبِيلِ الْمَطْلُوبِ ، وَجَاعِلِ النَّصِيحَةِ الصَّرِيحَةِ مِنْ قِسْمِ الْوَجُوبِ ، لَا سِيَّمَا لِلْوَالِيِّ الْمَحْبُوبِ ، وَالْوَالِدِ الْمَنْسُوبِ ، الْقَائِلِ فِي الْكِتَابِ الْمُعْجِزِ الْأَسْلُوبِ : « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ^(٢) » ، « وَوَصَّى بِهَا

[١] من شام البرق : نظر إليه أين يقصد ، وأين يعطر . [٢] وتتمام الآية الكريمة :

« إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ

آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . »

إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ^(١) ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ،
 أكرم من زُرْتُ على نُورِهِ جُيُوبُ الغيوب ، وأشرف من خُلِعَتْ عليه حُلَلُ
 المهابة والمِصْمَةِ ، فلا تَقْتَحِمُهُ^(٢) العيونُ ، ولا تَصِيْمُهُ العيوبُ ، والرضا عن آله
 وأصحابه المثابرين على لسان^(٣) الاستقامة بالهَوَى المغلوب ، والأمل المسلوب ،
 والافتداء الموصِّل المرغوب ، والعزّ والأمن من اللُّغُوب^(٤) ، وبعد : فإني لما
 علاني المَشِيب بِقِمَّتِهِ^(٥) ، وقادني الكِبَر بِرُمَّتِهِ^(٦) ، وأدَّ كَرَّتُ الشباب بعد
 أُمَّتِهِ^(٧) ، أسِفْتُ لِمَا أضعْتُ ، وَنَدِمْتُ بعد الفِطَام على ما رَضَعْتُ ، وتأكدت
 وجوبُ نصحي لمن لزمني رَعِيَّتُهُ ، وتعلق بعيني سَعِيَّتُهُ ، وأمليت أن تتعدى إلى
 ثمرة استقامته وأنا رهين قوات ، وفي بَرَزَخِ أموات ، ويأمن العثور في الطريق
 التي اقتضت عثاري ، إن سلك - وعسى ألا يكون ذلك - على آثاري ، فقلت
 أخاطب الثلاثة الولد ، وثمرات الخلد^(٨) بعد الضراعة إلى الله تعالى في توفيقهم ،
 وإيضاح طريقهم ، وَجَمَعَ تفريقهم ، وأن يميني على منهم بحسن الخلف ،
 والتلافي من قبيل التلّف ، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدى السلف ، فهو وليّ
 ذلك ، والهادي إلى خير المسالك : اعلموا هداكم الله تعالى الذي بأنواره تهتدي

[١] وتعام الآية الكريمة : « إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَوَصَّى بِهَا
 إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » .

[٢] تردديه وتحتفره ، ووصفه : طابه . [٣] اللسان : الرسالة .

[٤] اللغوب : أشد الإعياء . [٥] النمة : أعلى كل شيء .

[٦] الرمة بالضم ويكسر : قطعة من جبل .

[٧] الأمة هنا : الحين ، اقتبسه من قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ »

[٨] الخلد : القلب والفس .

الضلال ، و بِرِضاهُ تُرْفَعُ الأَغْلالُ ، وبِالْتِماسِ قُرْبِهِ يَحْصِلُ الكَمالُ ، إذا ذَهَبَ المالُ ، وأَخْلَقَتِ الآمالُ ، وتَبَرَّأتُ من يَمِينِها الشَّمالُ ، أنى مُودِّعِكُمْ وإن سَأَلْتَنِي الرَّدَى ، وَمُفَارِقِكُمْ وإن طال المَدَى ، وما عَدَا جِما بَدَا ، فكيف وأدواتُ السَّفَرِ تُجْمَعُ ، ومنادى الرِّحيلِ يُسْمَعُ ، ولا أَقلُّ لِلحَبيبِ المودِّعِ ، من وصيةِ مُحْتَضِرٍ ، وَعَجالةِ مَقْتَصِرٍ ، وَرَتيمةٍ ^(١) تُعقَدُ في خِئْصَرٍ ، ونصيحةٍ تكونُ نَشيدَةً ^(٢) وَاجِ مُبْصِرٍ ، تَكفُلُ لِكُمْ بِحَسَنِ العواقبِ من بَعْدِي ، وتوضِّحُ لِكُمْ مِنَ الشَّفقةِ وَالحنوِّ قَصْدِي ، حَسبًا تَضَمَّنَ وَعَدُّ اللهُ مِنْ قَبْلِ وَعَدِي ، فَهِيَ أَرَبُكُمْ الَّذِي لا يَتَغَيَّرُ وَقْفُهُ ، ولا يَنالُكُمْ المَكْرُوهُ ما رَفَّ عَلَيْكُمْ سَقْفُهُ ، وكَأَنِّي بِشبابِكُمْ قَدِ شاخَ ، وَبِراحِلِكُمْ قَدِ أَناخَ ، وَبِناشِطِكُمْ قَدِ كَسيلُ ، واستبدلِ الصَّابَ ^(٣) مِنَ المَسَلِ ، وَنُصُولِ ^(٤) الشَّيبِ تروِّعِ بِأَسَلِ ، لا بِلِ السَّامِ ^(٥) مِنْ كُلِّ حَدَبٍ قَدِ نَسَلِ ، وَالْمَعادُ اللَّحْدُ ولا نَسَلُ ، فبالأَمْسِ كَتَمَ فِراخِ حِجْرٍ ^(٦) ، وَالْيومِ أَبْناهُ عَسْكَرِ حِجْرٍ ، وَغداً شِيوخِ مَضِيعَةٍ وَهَجْرٍ ، وَالقَبورُ فَاغْرَةٌ ^(٧) ، وَالنَّفوسُ عَنِ المألُوفاتِ صاغرَةٌ ، وَالدُنْيا بِأَهلِها ساخرَةٌ ، وَالأوْلَى تَعَقُّبُها الآخِرَةُ ، وَالْحازِمُ مِنْ لَمْ يَتَّعِظَ بِهِ فِي أَمْرٍ ، وَقالَ : « يَيْدِي لا يَيْدِ عَمْرُو ^(٧) » ، فاقْتَنَوْها مِنْ وَصِيَّةٍ ،

[١] الرتيمة : خيط يقعد في الإصبع للتذكير .

[٢] الصاب : هسارة شجر مر . [٣] الصول جمع نصل : وهو جديدة الرمح والسيف ، والأسل : الرماح . [٤] السام : الموت ، والحذب : ما ارتفع من الأرض ، ونسل كضرب : أسرع والمعاد : المرجع . [٥] أى كالفراخ في حجر أمها وحضنها ، والحجر : الكثير من كل شيء ، وحيش حجر : كثير جدا . [٦] أى فائحة أفواهاها للوقى .

[٧] هو مثل قاتله الزباء ملكة الجزيرة ، وذلك أنها كانت دعت جذيمة الأبرش ملك ما على شاطئ الفرات إلى زواجها ، فلما استقرت عندها قتله نارا بأبيها - وكان جذيمة قد قتله - فاحتال مولاه قصير للنار منها ، فجذع أنفه وأثر آثاراً بطهره ، ثم خرج إلى الزباء ، وأظهر أن عمرو بن هدي - ابن أخت جذيمة - فعل ذلك به ، وأنه زعم أنه مكر بخاله جذيمة وغره من الزباء ، فلما استرسلت إليه ووثقت به ، زين لها

وَمَرَامٍ^(١) فِي النَّصْحِ قَصِيَّةٌ ، وَخُصُّوا بِهَا أَوْلَادَكُمْ إِذَا عَقَلُوا ، لِيَجِدُوا زَادَهَا إِذَا
 اتَّقَلُّوا ، وَحَسَنِي وَحَسْبِكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ هَمَلًا ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ
 أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَا رَضِيَ الدُّنْيَا مَنْزِلًا ، وَلَا لَطْفَ بِنِ أَصْبَحَ عَنْ فِتْنَةِ الْخَيْرِ مُنْعَزِلًا ،
 وَلِتُلَقِّنُوا تَلْقِينًا ، وَتَعَامُوا عِلْمًا يَقِينًا ، أَنْكُمْ لَنْ تَجِدُوا بَعْدَ أَنْ أَنْفَرِدَ بَدَنِي ،
 وَيَفْتَرِشَ التُّرَابَ جَنبِي ، وَيَسُحَّ انْسِكَابِي ، وَتَهْرُوِلِ عَنِ الْمَصْلَى رِكَابِي ، أَحْرَصَ
 مَنِي عَلَى سَعَادَةٍ إِلَيْكُمْ تُجَلِّبُ ، أَوْ غَايَةِ كَمَالٍ بِسَبَبِكُمْ تُرْتَادُ وَتُطَلَّبُ ، حَتَّى لَا يَكُونَ
 فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا أَوْرَفٌ^(٢) مِنْكُمْ ظِلًّا ، وَلَا أَشْرَفُ مَحَلًّا ، وَلَا أَغْبَطُ نَهْلًا وَعَلًّا^(٣) ،
 وَأَقْلُ مَا يُوْجِبُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُصَيِّخُوا^(٤) إِلَى قَوْلِي الْآذَانَ ، وَتَسْتَاهِجُوا صُبْحَ
 نُصْحِي فَقَدِ بَانَ ، وَسَأُعِيدُ عَلَيْكُمْ وَصِيَّةَ لُقْمَانَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ :
 « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكََ أَظْلَمُ
 عَظِيمٌ » - « يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ
 عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ، وَلَا تُصَعِّرْ^(٥) خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا

أن تبعته إلى العراق ليحمل إليها من طرائفها وثيابها وطيبها ، وأنها ستصيب في ذلك أربابا عظاما ، فأذنت
 له وقدم العراق ، وأتى الحيرة متنكرا ، وزوده عمرو بصوف البر والأمتعة ، ورجع إلى الرباء ، فأعجبها
 ما رأت وسرّها ، وازدادت به ثقة ، وجهرته ثابسة ، فسار حتى قدم على عمرو فجهزه وعاد إليها ، ثم عاد
 الثالثة وجمع ثقات من رجال عمرو ، وحملهم في الغرائر على الجمال ، وسار إلى الزباء ، ودخلت الإبل المدينة
 - وكانت الزباء قد حذرت عمرا ، واتخذت نفقا إلى حصن لها في داخل مدينتها ، وقالت : إن جأني أمر
 دخلت النفق إلى حصن - ودلّ قصير عمرا على باب النفق ، فلما خرجت الرجال من الغرائر صاحوا بأهل
 المدينة ووصعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق ، وأبكت الرباء تريد النفق ، فأبصرت عمرا معرفته
 بالصورة التي صورت لها - فصبت خاتمها وكان فيه السم ، وقالت : « بيدى لا بيد عمرو » فدهبت متلا ،
 وتلقاها عمرو بجللها بالسيب وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها ، وانكفأ راجعا إلى العراق .

[١] مرام : جمع مرعى ، وقصية : بعيدة .

[٢] ورف الظل : اتسع وطال وامتد . [٣] النهل : الشرب الأول ، والعلّ والعلل : الشرب

الثاني أو الشرب بعد الشرب تبا . [٤] أصاح له : استمع . [٥] صعر خده : أماله كبرا .

تَمْسُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ،
وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » ، وأعيد وصية
خليل الله وإسرائيل ، حُكْمٌ (١) مَا تَضَمَّنَهُ حُكْمٌ تَنْزِيلُهُ : « يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَقَ
لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » والدين الذي ارتضاه واصطفاه ،
وأكمله ووفاه ، وقرره مُصْطَفَاهُ ، من قبل أن يتوفاه ، إذا أُعْمِلَ فِيهِ اتِّقَادٌ ،
فهو عمل واعتقاد ، وكلاهما مُقَرَّرٌ ، ومستمدٌّ من عقل أو نقل محرر ، والعقل
متقدِّمٌ ، وبنائوه مع رَفْضِ أَخِيهِ مَتَهْدَمٌ ، فالله واحد أحد ، فَرَدَّ صَمَدٌ (٢) ،
ليس له والد ولا ولد ، تنزّه عن الزمان والمكان ، وَسَبَقَ وجودُهُ وجودَ الْأَكْوَانِ ،
خالِقُ الخلق وما يعملون ، الذي لَا يُسْأَلُ عن شيءٍ وهم يُسْأَلُونَ ، الحَيُّ العليم المدبِّرُ
القدير ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ، أرسل الرسل رحمةً لتدعو الناس
إلى النجاة من الشقاء ، وتوجّه الحُجَّةَ فِي مَصِيرِهِمْ إِلَى دارالبقاء ، مؤيِّدَةً بالمعجزات
التي لَا تَنْصِفُ أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواترِها دعوى الانتفاء ، ثم
ختم ديوانهم بنبيِّ مِلَّتِنَا المرعية المَعْمَلِ ، الشاهدة على المِلَلِ ، فتلخّصت الطاعة ،
وَتَعَيَّنَتِ الأَمْرَةُ المُطَاعَةَ ، ولم يَبْقَ بعده إلا ارتقَابُ الساعَةِ ، ثم إن الله تعالى قَبَضَهُ
إِذْ كَانَ بَشَرًا ، وترك دينه يَضُمُّ من الأُمَّة نَشْرًا (٣) ، فمن تَبِعَهُ لِحَقِّ بِهِ ، ومن تركه
نُوطٌ (٤) عنه في مَنْسَبِهِ ، وكانت نجاته على قدر سببه ، رُوي عنه عليه الصلاة
والسلام أنه قال : « تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَمْ تَضِلُّوا بَعْدِي ، كِتَابَ اللَّهِ
وَسُنَّتِي » ، فَمَضُوا عليهما بالنواجذ (٥) .

[١] إسرائيل : يعقوب عليه السلام ، والحكم : الحكمة ، وهو يدل من وصية .

[٢] الصمد : السيد ، لأنه يصمد أي يقصد في قضاء الحوائج . [٣] النسر : المنتشر ، ومنه :

« اللهم اضمم لغيري » . [٤] أي أبعد عنه وطرده ، يقال ناطت الدار : أي بعدت .

[٥] أقصى الأضراس .

فاعملوا يا بني بوصية من ناصح جاهد ، وَمُشْفِقٍ شَفِيقَةٍ وَالِدٍ ، واستشعروا حُبَّهُ الَّذِي تَوَافَرَتْ دَوَاعِيهِ ، وَعَوُوا مَرَّاشِدَ هَدْيِهِ ، فَيَا فَوْزَ وَاعِيهِ ! وَصِلُوا السَّبَبَ بِسَبَبِهِ ، وَآمِنُوا بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ ، مُجْمَلًا أَوْ مُفَصَّلًا عَلَى حَسَبِهِ ، وَأَوْجِبُوا التَّجَلَّةَ لِصَحْبِهِ ، الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِصَحْبَتِهِ ، وَاجْعَلُوا مَحَبَّتَكُمْ إِيَّاهُمْ مِنْ تَوَابِعِ مَحَبَّتِهِ ، وَاشْمَلُوهُمْ بِالتَّوْقِيرِ ، وَفَضِّلُوا مِنْهُمْ أَوْلَى الْفَضْلِ الشَّهِيرِ ، وَتَبَرَّءُوا مِنْ الْعَصْبِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَدْعِكُمْ إِلَيْهَا دَاعٍ ، وَلَا تَعِ الشَّاجِرَ بَيْنَهُمْ أَذُنُ وَايٍ ، فَهُوَ عِنْوَانُ السَّدَادِ ، وَعِلَامَةُ سَلَامَةِ الْإِعْتِقَادِ ، ثُمَّ اسْحَبُوا فَضْلَ تَعْظِيمِهِمْ عَلَى فَقْهَاءِ الْمِلَّةِ ، وَأَتَمَّتْهَا الْحِلَّةُ (١) ، فَهِيَ صَقْلَةٌ نُصُولُهُمْ ، وَفُرُوعٌ نَاشِئَةٌ مِنْ أَصُولِهِمْ ، وَوَرَثَتُهُمْ وَوَرِثَةُ رَسُولِهِمْ ، وَاعْلَمُوا أَنِّي قَطَعْتُ فِي الْبَحْثِ زَمَانِي ، وَجَعَلْتُ النُّظْرَ شَانِي ، مِنْذُ بَرَانِي اللَّهُ تَعَالَى وَأَنْشَانِي ، مَعَ نُبُلٍ (٢) يَعْتَرِفُ بِهِ الشَّانِي ، وَإِدْرَاكِ يَسْلَمُهُ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِي ، فَلَمْ أَجِدْ خَابِطَ وَرَقٍ ، وَلَا مَصِيبَ عَرَقٍ ، وَلَا نَازِعَ خِطَامٍ ، وَلَا مَتَكَلِّفَ فِطَامٍ ، وَلَا مَقْتَحِمَ بَحْرِ طَامٍ ، إِلَّا وَغَايَتُهُ الَّتِي يَقْصِدُهَا قَدْ نَضَّتْهَا الشَّرِيعَةُ وَسَبَقَتْهَا ، وَفَرَعَتْ (٣) ثَنِيَّتَهَا وَارْتَقَتْهَا ، فَعَلَيْكُمْ بِالتَّزَامِ جَادَّتْهَا (٤) السَّابِلَةُ ، وَمَصَاحِبَةُ رَفَقَتْهَا الْكَمَالَةُ ، وَالْإِهْتِدَاءُ بِأَقْمَارِهَا غَيْرُ الْآفَلَةِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ ، وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : « وَمَنْ يَدْتَعِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَإِنَّهُ يُقْبَلُ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ، وَقَدْ عَلَتْ شَرَائِمُهُ ، وَرَاعَ الشُّكُوكَ رَائِعُهُ ، فَلَا تَسْتَنْزِلِكُمْ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ ، وَابْذُلُوا دُونَهُ النُّفُوسَ فِعْلَ الْمُهْتَدِينَ ، فَلَنْ يَنْفَعَ مَتَاعٌ بَعْدَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ أَبَدَ الْآبِدِينَ ، وَلَا يَضُرُّ مَفْقُودٌ مَعَ الْفَوْزِ بِالسَّعَادَةِ وَاللَّهُ أَصْدَقُ الْوَاعِدِينَ ،

[١] جمع جليل . [٢] النبل : الذكاء والنجابة ، والشان : البغض .

[٣] فرعه : علاه ، والثنية : العقبة ، أو الجبل أو الطريقة به أو إليه .

[٤] الجادة : الطريق الواضح ، والسابلة مع الطرق : السلوك .

ومتاع الحياة الدنيا أحسن ما وُورث الأُولاد عن الوالدين ، اللهم قد بلغتُ فأنت خير الشاهدين ، فاحذروا المعاطيبَ التي توجب في الشقاء الخلود ، وتستدعي شؤنة الوجوه وَنَضَجَ الجلود ، واستعيذوا برضا الله من سُخْطِهِ ، وازبئوا بنفوسكم عن غَمَطِهِ ، وارفعوا آمالكم عن القنوع بِمُرُورِ قَدِ خَدَعِ أسلافكم ، ولا تحمدوا على جيفة المرَض الزائل ائتلافكم ، واقنعوا منه بما تيسر ، ولا تأسؤا^(١) على ما فات وتمذر ، فإنما هي دُجْنَةٌ^(٢) ينسخها الصَّبَاح ، وَصَفْقَةُ يتعاقبها الخَسَار أو الرِّبَاح ، ودونكم عقيدة الإيْمَان فَشُدُّوا بالنواجذ عليها ، وَكَفِّكِفُوا الشُّبْهَةَ أَنْ تَدْتُوَ إِلَيْهَا ، واعلموا أن الإِخْلَالَ بشيء من ذلك خَرَقٌ لا يَرْفُوهُ^(٣) عمل ، وكل ما سوى الراعى هَمَلٌ ، وما بعدَ الرَّأْسِ في صلاح الجسم أمل ، وتمسكوا بكتاب الله تعالى حِفْظًا وَتِلَاوَةً ، واجعلوا حِمْلَهُ على حِمْلِ التَّكْلِيفِ عِلاوَةً ، وتفكروا في آياته ومعانيه ، وامتلئوا بأوامره ونواهيه ، ولا تتألولوه ولا تفلأوا فيه ، وأشربوا قلوبكم حُبًّا من أنزل على قلبه ، وأكثروا من بواعث حُبِّهِ ، وصونوا شعائرَ الله صونَ المحترِم ، واحفظوا القواعد التي يبنى عليها الإسلام حتى لا ينخرم ، اللهُ اللهُ في الصلاة ذريعة التَّجَلُّة ، وخاصة المِلَّة ، وحاقنة الدم ، وَغِنَى المستأجرِ المستخدم ، وأمَّ العبادة ، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة ، والناهية عن الفحشاء والمنكر ، إن عَرَضَ الشيطانُ عَرَضَها ، ووطأ للنفس الأُمارة سماءها وأرضها ، والوسيلة إلى بَلِّ الجوانحِ بِرُودِ الذِّكْرِ ، وإيصال نُحْفَةِ اللهِ إلى مَرِيضِ الفكر ، وضامنة حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسالمة من الفجار ، والواسمة

[١] ولا تحزنوا . [٢] الدجنة : الطلعة .

[٣] رفاً الثوب كنع : لأم خرقة ، وضمّ بعضه إلى بعض .

بِسْمَةِ السَّلَامَةِ ، وَالشَّاهِدَةَ لِلْعَبْدِ بَرَفَعِ الْمَلَامَةَ ، وَغَسُولٌ ^(١) الطَّبْعُ إِذَا شَانَهُ طَبَعَ ،
 وَالْخَيْرَ الَّذِي كُلُّهُ مَسَاوَاهُ لَهُ تَبَعَ ، فَاصْبِرُوا النَّفْسَ عَلَى وِظَائِفِهَا ، بَيْنَ بَدْءٍ وَإِعَادَةٍ ،
 فَالْخَيْرُ عَادَةٌ ، وَلَا تَفْضَلُوا عَلَيْهَا الْأَشْغَالَ الْبَدَنِيَّةَ ، وَتَوَثَّرُوا عَلَى الْعَلِيَّةِ الدُّنْيَا ،
 فَإِنَّ أَوْقَاتَهَا الْمَعِينَةُ بِالْإِنْفِلَاتِ تَنْبَسُ ^(٢) ، وَالْفَلَكَ بِهَا مِنْ أَجْلِكُمْ لَا يُحْبَسُ ،
 وَإِذَا قُورِنَتْ بِالشَّوَاغِلِ فَلَهَا الْجَاهُ الْأَصِيلُ ، وَالْحُكْمُ الَّذِي لَا يَغْيِرُهُ الْغُدُوُّ
 وَلَا الْأَصِيلُ ، وَالْوِظَائِفُ بَعْدَ أَدَائِهَا لَا تَقُوتُ ، وَأَيْنَ حَقٌّ مِنْ يَمُوتُ مِنْ حَقِّ
 الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ؟ وَأَحْكُمُوا أَوْضَاعَهَا إِذَا أَقْتَمْتُمُوهَا ، وَأَتَّبِعُوا النُّوَافِلَ
 مَا أَطَقْتُمُوهَا ، فَبِالِإِتِّقَانِ تَفَاضَلَتِ الْأَعْمَالُ ، وَبِالْمُرَاعَاةِ اسْتَحَقَّتِ الْكَمَالَ ، وَلَا
 شُكْرَ مَعَ الْإِهْمَالِ ، وَلَا رِبْحَ مَعَ إِضَاعَةِ رَأْسِ الْمَالِ ، وَذَلِكَ أَحْرَى بِإِقَامَةِ
 الْفَرَضِ ، وَأَدْعَى إِلَى مَسَاعِدَةِ الْبَعْضِ الْبَعْضَ .

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب مؤصل ، وشرط لمشرطه محصل ،
 فاستوفوها ، والأعضاء نظفوها ، ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها ،
 وَالْحُجُولَ وَالْفُرْرَ ^(٣) فَأَطِيلُوهَا ، وَالنِّيَّاتِ فِي كُلِّ ذَلِكَ فَلَا تُهْمِلُوهَا ، فَالْبِنَاءُ
 بِأَسَاسِهِ ، وَالسَّيْفُ بِرِاسِهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذِهِ الْوِظِيْفَةَ مِنْ صَلَاةٍ وَطُهُورٍ ، وَذَكَرَ
 مَجْهُورٌ وَغَيْرُ مَجْهُورٍ ، تَسْتَعْرِقُ الْأَوْقَاتَ ، وَتَنَازِعُ شَيْئَ الْخَوَاطِرِ الْمَفْتَرِقَاتِ ،

[١] الْغَسُولُ كَصَبُورٍ وَتَنُورٍ : الْمَاءُ يَمْتَسِلُ بِهِ ، وَفِي الْأَصْلِ « غَسُولٌ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ ، وَالطَّبْعُ :
 الشَّيْنُ وَالْعَيْبُ . [٢] أَيْ تَذَهَبُ وَتَضْيَعُ ، يُقَالُ : انْبَسَّ الرَّجُلُ إِذَا ذَهَبَ ، وَفِي الْأَصْلِ « تَبَسَّ »
 وَأَرَاهُ مَحْرَمًا .

[٣] الْحُجُولُ جَمْعُ حُجْلٍ بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ : وَهُوَ الْحَلْحَالُ ، وَالرَّادِيهَا هُنَا الْأَطْرَافُ ، وَبِاطَائِهَا
 اسْتِيْعَابُ غَسَلِهَا ، وَالْفُرْرُ جَمْعُ غُرَّةٍ بِالضَّمِّ وَهِيَ الْوَجْهُ ، وَالرَّادِيهَا بِتَطْوِيلِهَا فِي الْوُضُوءِ : غَسَلَ مَقْدَمَ الرَّأْسِ
 مَعَ الْوَجْهِ ، وَغَسَلَ صَفْحَةَ الْعُنُقِ ، وَجَمَلَةُ الْمَعْنَى : أَنَّهُ يَأْمُرُ بِإِسْبَاغِ الْوُضُوءِ ، وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ :
 « أُمَّتِي الْغُرُّ الْمُحَجَّجُونَ » وَالْفُرُّ جَمْعُ الْأَغْرَةِ مِنَ الْبَرَّةِ ، وَهِيَ بِيَاضٌ فِي جِهَةِ الْمَرْسِ مَوْقِ الدَّرَمِ ،
 يُقَالُ : فَرَسٌ أَغْرٌ وَغُرٌّ ، وَالْمُحَجَّلُ : الْفَرَسُ الَّذِي يَرْتَفِعُ الْبِيَاضُ فِي قَوَائِمِهِ فِي مَوْضِعِ الْقَيْدِ ، أَيْ بِيَضُ
 مَوَاضِعِ الْوُضُوءِ مِنَ الْوَجْهِ وَالْأَيْدِي وَالْأَقْدَامِ ، اسْتِعَارَ أَثْرَ الْوُضُوءِ فِي الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ مِنَ الْبِيَاضِ
 الَّذِي يَكُونُ فِي وَجْهِ الْفَرَسِ وَبَيْدِهِ وَرِجْلَيْهِ .

فلا يضبطها إلا مَنْ ضَبَطَ نَفْسَهُ بِعِقَالٍ ، واستعاضَ صَدَأَهُ بِصِقَالٍ ^(١) ، وإن تراخى قَهَقَرَ ^(٢) الباعُ ، وَسَرَقَتْهُ الطَّبَاعُ ، وكان لما سواها أضيَع ، فشَمِلَ الضِّياع . والزكاة أختها الحبيبة ، وَلِدَتْهَا القُرْبِيَّةُ ، مفتاح السعادة بالعرَض الزائل ، وشكران المستول على الضدِّ من درجة السائل ، وحق الله تعالى في مال من أغناه ، لمن أجهده في المعاش وعَنَاه ^(٣) ، من غير استحقاق مَلء يده وإخلاء يد أخيه ، ولا عِلَّةَ إلا القَدْر الذي يُخْفِيهِ ، وما لم ينله حظَّ الله تعالى فلا خَيْرَ فيه ، فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها ، في اختيار عَرَضِهَا وتِاجِهَا ، واستحيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بَدَل ، وخالفوا الشيطان كلما عَدَل ، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تَمْلِكُون ، ولا تدرون أين تسلكون ، فوهب وأقدر ، وأورد بِفَضْلِهِ وَأَصْدَرَ ، ليرتَّب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل ، فابتغوا إليه الوسيلة بماله ، واغتنموا رضاه ببعض نواله . وصيام رمضان عبادة السرِّ المقرَّبة إلى الله زُلْفَى ، المحفوظة ^(٤) لمن يعلم السرَّ وأخفى ، مؤكِّدة بصيام الجوارح عن الآثام ، والقيام بمرِّ القيام ، والاجتهاد وإيثار الشهاد ، على المهاد ، وإن وَسِعَ الاعتكافُ فهو من سُنَنِهِ المَرَعِيَّةِ ، ولو احقه الشرعية ، فبذلك تَحَسَّنَ الوجوه ، وتحصل من الرِّقَّة على ما ترجوه ، وتذهب قسوة الطباع ، ويمتد في مَيِّدان الوسائل الباع ، والحج مع الاستطاعة الركن الواجب ، والقرض على العين لا يحجبه الحاجب ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما فرض عن ربه وسنَّه ، وقال : « ليس له جزاء عند الله إلا

[١] صواب العبارة « واستعاض بصدئه صقالا » يقال : استبدل الشيء بغيره إذا أخذ مكانه (ومنه ترى أن الباء داخلة على المتروك) واعتاضه منه واستعاضه (والباء كمن) .
[٢] قهقر وقهقرى : رجع القهقرى . [٣] أُنْبِئْ . [٤] الخالصة .

الجنة » ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوة عليه ، وغنى لديه ، فكونوا ممن يسمع تقيره ويطيعه ، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه . هذه مُعْدُ الاسلام وفروضه ، ونقود مهزه وَعُرُوضه ، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين ، وعلى من يُذاويكم ^(١) ظاهرين ، وتَلَقَّوا الله لامبداين ولا مغيين ، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين .

واعلموا أن بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب ، وتَجَلَّى محاسنها من بعد الانتقاب ^(٢) ، فعليكم بالعلم النافع دليلا بين يدي السامع ، فالعلم مفتاح هذا الباب ، والموصل إلى اللباب ، والله عز وجل يقول : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ » والعلم وسيلة النفوس الشريفة ، إلى المطالب المنيفة ، وشرطه الخشية لله تعالى والخيفة ، وخاصةً المَلَأِ الأعلى ، وصفة الله في كتبه التي تتلى ، والسبيل في الآخرة إلى السعادة ، وفي الدنيا إلى النحلة ^(٣) عادة ، والأذخر الذي قليله يشفع ، وكثيره ينفع ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ، ولا يبتزه الدهر إذا نال ، ولا يستأثر به البحر إذا هال ، من لم ينله فهو ذليل ، وإن كثرت آماله ، وقليل ، وإن جم ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وَتَحَطَّى حسابكم ، فالتسوه لبنيتكم ، واستدر كوا منه ما خرج عن أيديكم ، وانحلوم على جمعه ودَرْسه ، واجعلوا طباعهم تُرَى لِفَرْسه ، واستسهلوا ما ينالهم من تعبٍ مِنْ جَرَاه ^(٤) ، وَسَمَرَ يهجر له الجفن كراه ، تَعْقِدُوا لهم ولاية عز لا تُعزَل ، وَتُحِلُّوهم وثابة رفعة لا يُحَطَّ فارعها ولا يُسْتَنْزَل ، واختاروا العلوم التي يتعقبها الوقت ، فلا ينالها

[١] يماذيكم ، وظاهرين : ظالين . [٢] أى بعد الاختفاء ، من انتقلت المرأة ليست القناب .
[٣] نحلة : أعطاء ، والاسم النحلة . [٤] يقال : فعلت ذلك من جراه ومن جراهه بالتشديد ويخففان ، ومن جبرته : أى من أجله ، والهكرى : النوم .

في غيرِه (١) المقت ، وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نَجَمَ بِمَنَابِتِهَا المَرِيعَةُ (٢) ،
من علوم لسان لا تستغرق الأعمارَ فصولها ، ولا يضايق ثمراتِ المَعَادِ حصولها ،
فإنها هي آلات لغير ، وأسباب إلى خير منها وخير ، فمن كان قابلاً للازدياد ،
وَأَلْفَى فهمه ذا انقياد ، فليخصَّ تجويد القرآن بتقديمه ، ثم حِفْظ الحديث ومعرفة
صحيحه من سَقِيمه ، ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المِنَّة ، المَهْدِي
كنوز الكتاب والسُنَّة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجِلَّة ، والتدرج في
طرق النظر بصحيح الأدلَّة ، وهذه هي الغاية القصوى في المِلَّة ، ومن قصر
إدراكه عن هذا المرعى ، وتقاعدَ عن التي هي أسمى ، فَلْيَرَوِ الحديثَ بعد تجويد
الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ، وإياكم والعلوم
القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرها لا يُفيد إلا تشكيكاً ، ورأيًا
ركيكاً ، ولا يُثمر في العاجلة إلا اقتحامَ العيون ، وتطريقَ الظنون ، وتطويق
الاحتقار، وَسِمَةَ الصَّغَارِ، وخمول الأقدار ، والخسْف من بعد الإبدار ، وجادة
الشريعة أعرق في الاعتدال ، وأوفق من قطع العمر في الجدال ، هذا ابن
رُشد (٣) قاضي المصر ومُفتيه ، وهلمسُ الرشد ومُوليه ، عادت عليه بالسَّخطة

[١] غير الدهر : أحداثه المغيرة ، والضمير فيه يعود على الوقت . [٢] الخصبه .

[٣] هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، أعظم فلاسفة الأندلس وأطبائها ، ولد سنة ٥٢٠ هـ
ودرس علوم الدين والفلسفة والطب ، واتصل بيوسف بن عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وشرح له فلسفة
أرسطو ، وقد ولاء قضاء لإشبيلية ، ثم استداه إلى مراکش ، وجعله طبيبه الخاص ، ثم جعله قاضي القضاة
بقرطبة ، ولما ولي بعده ابنه المنصور بالله علت مكانة ابن رشد عنده ، فأثار ذلك حسد خصومه ، فكادوا
له عند السلطان واتهموه أنه يجحد القرآن ، وينشط الفلسفة وعلوم الأوائل بدلا من علوم الدين ، وينصر
مذهب القدماء في القول بالوهمية بعض الكواكب ، فعزله المنصور من قضاء قرطبة ، ثم عفا عنه ،
واستداه إلى مراکش ، ولم يطل مقامه بها ، فمات سنة ٥٩٥ هـ ، وقد ترجم أكثر كتبه إلى اللغات
الأجنبية ، وعليها عول الأوربيون في نهضتهم الحديثة .

الشيعة ، وهو إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورط في ازدحامها ، ولا تخطوا جامكم ^(١) بجامها ، إلا ما كان من حساب ومِساحة ، وما يعود بِجِدْوَى فلاحه ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وما سوى ذلك فمحجور ، وَضَرَم ^(٢) مَسْجُور ، وممقوت مهجور ، وَأَمُرُوا بالمعروف أمراً رقيقاً ، وانتهوا عن المنكر نهياً حَرِيّاً بالاعتدال حَقِيقاً ، وَأَغْبَطُوا مَنْ كَانَ مِنْ سِنَةِ الْعَفْلةِ مُفِيقاً ، واجتنبوا ما تُنْهَوْنَ عنه حتى لا تسلكوا منه طريقاً ، وأطيعوا أمر من ولّاه الله تعالى من أموركم أمراً ، ولا تقربوا من الفِتْنَةِ جَمِراً ، ولا تُدْخِلُوا في الخلاف زيدياً ولا عمرياً ، وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين ، وَأَهْمَّ مَا أَضْرَى ^(٣) عليه الآباءُ ألسنة البنين ، وأكرم منسوب إلى مذهبه ، ومن أكثر من شيء عُرِفَ به ، وإياكم والكذب ، فهو العورة التي لا تُؤَارَى ، وَالسَّوْءَةَ التي لا يُرْتَابُ في عارها ولا يُتَمَارَى ، وأقل عقوبات الكذاب ، بين يديّ مَا أَعَدَّ اللهُ له من العذاب ، أن لا يُقْبَلَ صِدْقُهُ إِذَا صَدَقَ ، ولا يعول عليه إن كان بالحق نطق ، وعليكم بالأمانة فالخيانة لوم ، وفي وجه الديانة كُلوْمٌ ^(٤) ، ومن الشريعة التي لا يُعْذَرُ بجهلها ، أداء الأمانات إلى أهلها ، وحافظوا على الْحِشْمَةِ وَالصِّيَانَةِ ، ولا تَجْزُوا مَنْ أَقْرَضَكُمْ دِينَ الْخِيَانَةِ ، ولا توجدوا للغدر قبولا ، ولا تُقْرِئُوا عَلَيْهِ طَبْعاً مَجْبُولاً ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولاً ، ولا تستأثروا بِكَنْزٍ وَلَا خَزَنٍ ، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في سهل ولا حزن ، ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ فِي كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ ، والله الله أن تُعِينُوا فِي سَفْكِ الدَّمَاءِ

[١] الجام : إناء من فضة . [٢] جمع ضرمة بالتحريك وهي الجرة والبار ، وسجر التور : أحام

[٣] ضرى بالشئ ، كتب : اعتاده وأولع به ، ويعدى بالهمز والتصغير ، فيقال : أصرته وضرته :

أى أغرته به . [٤] الكلوم جمع كام بالفتح وهو الجرح .

ولو بالإشارة أو الكلام ، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ، واعلموا أن الإنسان في
 فُسْحَة ممتدَّة ، وَسُئِلَ اللهُ تعالى غير مُنْسَدَّة ، ما لم يَقْبِذِ إلى الله تعالى بأمانه ،
 وَيَمَسَّ الدَّمَّ الحرام بيده أو لسانه ، قال الله تعالى في كتابه : الَّذِي هَدَىٰ بِهِ
 سَنًّا قَوِيًّا ، وَجَلَّىٰ مِنَ الجَهْلِ والضلال لِيلا بِهِيَا : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا
 فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ، وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا » ،
 واجتناب الزنا وما تعلق به ، مِنْ أَخْلَاقٍ مَنْ كَرُمَتْ طِبَاعُهُ ، وامتد في سبيل
 السعادة بأعنه ، لو لم تتلق نورَ الله الذي لم يهدِ شعاعه ، فاللَّحْلَالُ لم تَضِيقْ عن
 الشهوات أنواعه ، ولا عُدِمَ إقناعه ، ومن غَلَبَتْ غَرَائِزُ جهله ، فليُنظَرُ : هل
 يجب أن يُزَنَىٰ بأهله ؟ والله قد أعدَّ للزاني عذابًا وبيلا ، وقال : « وَلَا تَقْرَبُوا
 الزَّنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا » ، والحرام الكبار ، ومفتاح الجرائم
 والجرائر^(١) ، والله لم يجعله في الحياة شرطًا ، والمحرم قد أغنى عنه باللحلال
 الذي سَوَّغَ وأعطى ، وقد تركها في الجاهلية أقوامٌ لم يرضوا لعقولهم بالفساد ،
 ولا لنفوسهم بالمضرة في مَرَضَةِ الأجساد ، والله تعالى قد جعلها رَجَسًا محرَّمًا
 على العباد ، وَقَرَّبَتْهَا بالأنصاب والأزلام في مُبَايَنَةِ السَّدَادِ^(٢) ، ولا
 تَقْرَبُوا الرِّبَا ، فإنه من مَنَاهِي الدين ، والله تعالى يقول : « وَذَرُوا مَا بَقِيَ
 مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . وقال : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْرَبٍ مِنَ اللهِ
 وَرَسُولِهِ » في الكتاب المبين ، ولا تأكلوا مالَ أحدٍ بغير حقٍّ يُبيحه ، واترعوا

[١] الجرائم جمع جريرة : وهي الجريمة .

[٢] يشير إلى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ

رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

الطَّعْمُ^(١) عن ذلك حتى تذهب ريحُه ، والتمسوا الحلال يَسْتَعْنِي فِيهِ أَحَدُكُمْ عَلَى قَدَمِهِ ، وَلَا يَكِيلُ خِيَارَهُ إِلَّا لِلثَّقَةِ مِنْ خَدَمِهِ ، وَلَا تَلَجَّثُوا إِلَى الْمُتَشَابِهِ إِلَّا عِنْدَ عَدَمِهِ ، فَهُوَ فِي السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَصْلٌ مُشْرُوطٌ ، وَالْمَحَافِظُ عَلَيْهِ مَغْبُوطٌ ، وَإِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ ، فَالظَّالِمُ مَمْقُوتٌ بِكُلِّ لِسَانٍ ، مُجَاهِرٌ اللَّهُ تَعَالَى بِصَرِيحِ الْعِصْيَانِ ، « وَالظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » كما ورد في الصَّحَاحِ الْحِيسَانِ ، وَالنِّمِةُ فَسَادٌ وَشَتَاتٌ ، لَا يَبْقَى عَلَيْهِ مُتَاتٌ^(٢) ، وَفِي الْحَدِيثِ : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ^(٣) » وَاطَّرِحُوا الْحَسَدَ ، فَمَا سَادَ حَسُودٌ ، وَإِيَّاكُمْ الْغَيْبَةَ : فَبَابِ الْخَيْرِ مَعَهَا مَسْدُودٌ ، وَالْبَخْلُ ، فَمَارُئِي الْبَخِيلَ وَهُوَ مَوْدُودٌ ، وَإِيَّاكُمْ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ ، فَوَاقِعُ الْخِزْيِ لَا تُسْتَقَالُ عَثْرَاتُهَا ، وَمَظَنِّاتُ الْفَضَائِحِ لَا تُؤْمَنُ نَعْمَرَاتُهَا ، وَتَفْقَدُوا أَنْفُسَكُمْ مَعَ السَّاعَاتِ ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ فِي الطَّرُوقَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَرِقُّوا عَلَى ذَوِي الزَّمَانَاتِ^(٤) وَالْعَاهَاتِ ، وَتَاجِرُوا مَعَ اللَّهِ بِالصَّدَقَةِ يُرَبِّحُكُمْ فِي الْبِضَاعَاتِ ، وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَحَدَّهُ فِي الشَّدَائِدِ ، وَاذْكُرُوا الْمَسَاكِينَ إِذَا نَصَبْتُمْ الْمَوَائِدَ ، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْيَسِيرِ مِنْ مَالِهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ الْمُحْتَاطُ لِعِيَالِهِ ، وَارْعَوْا حَقُوقَ الْجَارِ ، وَاذْكُرُوا مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ ، وَتَعَاهَدُوا أَوْلَى الْأَرْحَامِ ، وَالْوَشَائِحِ^(٥) الْبَادِيَةَ الْإِلْتِحَامَ ، وَاحْذَرُوا شَهَادَةَ الزُّورِ : فَإِنَّهَا تَقْطَعُ الظُّهْرَ ، وَتُفْسِدُ السِّرَّ وَالْجَهْرَ ، وَالرِّشَاءَ ، فَإِنَّهَا تَحْطُّ الْأَقْدَارَ ، وَتَسْتَدْعِي الْمَذَلَّةَ وَالصَّغَارَ ، وَلَا تَسَاحَوْا فِي لُعْبَةِ قَمَرٍ^(٦) ، وَلَا تَشَارِكُوا أَهْلَ الْبَطَالَةِ فِي أَمْرِ ، وَصُونُوا الْمَوَاعِيدَ مِنَ الْإِخْلَافِ ، وَالْأَيْمَانَ مِنْ حِنْثِ الْأَوْغَادِ وَالْأَجْلَافِ ، وَحَقُوقَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْإِزْدِرَاءِ

[١] الطعم : الشهوة . [٢] المتات : ما يمت به أي يتوسل . [٣] القتات : النمام .
[٤] الرمان : العاهة .
[٥] الوشائح جمع وشيعة : وهي اشتباك الهراة . [٦] قمره : قلبه في لعب القمار .

والاعتساف، ولا تلهجُوا بِالْأَمَالِ الْعِجَافِ^(١) ولا تَكَلَّفُوا بِالْكَهَانَةِ وَالْإِرْجَافَ،
 واجعلوا العمر بين معاشٍ ومعاد ، وخصوصيةً وابتعاد ، واعلموا أن الله سبحانه
 بِالْمِرْصَادِ، وأن الخلق بين زرعٍ وحصاد، وأقلوا بغير الحالة الباقية الهمومَ ، واحذروا
 القواطعَ عن السعادة كما تُحذِرُ السُّمومَ ، واعلموا أن الخير أو الشرف في الدنيا مُحَالٌ
 أن يدوم ، وقابلوا بالصبر أذيةَ المؤذنين ، ولا تعارضوا مقالاتِ الظالمين ، فالله لمن
 بُغِيَ عليه خيرُ الناصرين ، ولا تستعظموا حوادث الأيام كلما نزلت ، ولا تضحجوا
 للأمراض إذا أعضلت ، فكلُّ مُنْقَرِضٍ حقير ، وكلُّ مُنْقَضٍ وإن طال قصير ،
 وانتظروا الفرجَ ، وانتشقوا من جناب الله تعالى الأرجَ^(٢) ، وأوسعوا بالرجاءِ
 الجوانحَ ، واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فَطُوبَى لِمَنْ عَبَدَ إِلَيْهِ جَانِحٌ ، وتضرعوا
 إلى الله تعالى بالدعاء ، وأجثوا إليه في البأساء والضراء ، وقابلوا نعم الله تعالى
 بالشكر الذي يقيده به الشارد ، وَيَعْتَذِبُ الْوَارِدَ ، وَأَسْهَمُوا^(٣) منها للمساكين
 وأفضلوا عليهم ، وعينوا الحُظُوظَ منها لديهم ؛ فمن الآثار: « ياعائشة أحسنى جوار
 نِعَمِ اللَّهِ ، فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم » ، ولا تطغوا في النعم وتقصروا
 عن شكرها ، وتغلبكم^(٤) الجهالة بسكرها ، وتوهموا أن سعيكم جلبها ، وجددكم
 حَلَبَهَا ، فالله خير الرازقين ، والعاقة للمتقين ، ولا فعل إلا لله إذا نُظِرَ بعين
 اليقين ، والله الله لا تنسوا الفضلَ بينكم ، ولا تُذهبوا بذهابه زينكم ، وليتزم
 كل منكم لأخيه ، ما يشتد به توأخيه ، بما أمكنه من إخلاصٍ وبرٍّ ، ومراعاةٍ
 في علانيةٍ وسرٍّ ، وللإنسان مزية لا تُجْهَلُ ، وحق لا يُهْمَلُ ، وأظهروا التعاضد

[١] العجاف جمع عجفاء : وهي المهرولة . [٢] الأرج : تومج ربح الطيب .

[٣] أسهم له : أعطاه سهماً . [٤] في الأصل : « وتغلبكم » ، وأراء محرفاً عن « وتغلبكم » .

والتناصر ، وَصَلُوا التَّعَاهِدَ وَالتَّزَاوَرَ ، تُرْغِمُوا بِذَلِكَ الأَعْدَاءَ ، وَتَسْتَكْتَرُوا الأَوْدَاءَ ،
وَلَا تَتَنَافَسُوا فِي الحِظُوظِ السَّخِيفَةِ ، وَلَا تَتَهَارَشُوا تَهَارُشَ السَّبَاعِ عَلَى الجِيفَةِ ،
وَاعْلَمُوا أَنَّ المَعْرُوفَ يَكْتَدِرُ بِالأَمْتِنَانِ ، وَطَاعَةَ النِّسَاءِ شَرٌّ مَا أَفْسَدَ بَيْنَ الإِخْوَانِ ،
فَإِذَا أَسَدَيْتُمْ مَعْرُوفًا فَلَا تَذْكُرُوهُ ، وَإِذَا بَرَزْتُمْ فَاسْتَرُوهُ ، وَإِذَا أَعْظَمَ النِّسَاءُ
أَمْرًا فَاحْقِرُوهُ ، وَاللَّهُ اللهُ لَا تَنْسُوا مُقَارَضَةَ سَجَلِي (١) ، وَبَرُّوا أَهْلَ مَوَدَّتِي مِنْ
أَجْلِي ، وَمَنْ رُزِقَ مِنْكُمْ مَالًا بِهَذَا الوَطَنِ القَلْبِ المَهَادِ ، الَّذِي لَا يَصْلِحُ لِغَيْرِ الجِهَادِ ،
فَلَا يَسْتَهْلِكُهُ أَجْمَعُ فِي العَقَارِ ، فَيَصْبِحُ عُرْضَةً لِمَذَاةٍ وَالأَحْتِقَارِ ، وَسَاعِيًا لِنَفْسِهِ
- إِنْ تَغَلَّبَ العَدُوُّ عَلَى بِلَدِهِ - فِي الأَفْتِضَاحِ وَالأَفْتِقَارِ ، وَمَعُوقًا عَنِ الأَنْتِقَالِ ،
أَمَامَ الثُّوبِ الثَّقَالِ ، وَإِذَا كَانَ رِزْقُ العَبْدِ عَلَى المَوْلَى ، فَالأَجْمَالُ فِي الطَّلَبِ أَوْلَى ،
وَازْهَدُوا وَجَهَدَكُمُ فِي مَصَاحِبَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا ، نَغِيرُهَا لَا يَقُومُ بِشَرِّهَا ، وَنَفْعُهَا لَا يَقُومُ
بِضَرِّهَا ، وَأَعْقَابُ مَنْ تَقَدَّمَ شَاهِدَةً ، وَالتَّوَارِيخُ لِهَذِهِ الدَّعْوَى عَاصِدَةٌ ، وَمَنْ
بُئِيَ بِهَا مِنْكُمْ فَلْيَسْتَظْهِرْ بِسَعَةِ الأَحْتِمَالِ ، وَالتَّقَلُّلِ مِنَ المَالِ ، وَالأِيحْذَرُ مُعَادَاةَ
الرِّجَالِ ، وَمَزَلَّاتِ الأِدْلَالِ ، وَفَسَادِ الخِيَالِ ، وَمُدَاخَلَةِ الأَعْيَالِ ، وَإِفْشَاءِ السَّرِّ ،
وَسُكْرِ الأَغْتِرَارِ ، فَإِنَّهُ دَابُّ العِرِّ ، وَليَصُنِّ الدِّيَانَةَ ، وَيُؤَثِّرِ الصِّمْتَ وَيَلْزِمُ
الأَمَانَةَ ، وَيَمِيزُ مِنَ رِضَا اللهِ عَلَى أَوْضَاحِ الطَّرِيقِ ، وَمَهْمَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ قَصَدَ
أَقْرَبَهُمَا إِلَى الحَقِّ ، وَلِيَقِفْ فِي التَّمَاسِ أَسْبَابَ الجَلَالِ دُونَ الكَمَالِ غَيْرِ النِّقْصَانِ ،
وَالزَّعَازِعُ تَسَالِمُ اللِّدْنِ (٢) اللطيف من الأغصان ، وَإِيَاكُمْ وَطَلَبَ الوَلَايَاتِ رَغْبَةً
وَاسْتِجْلَابًا ، وَاسْتَظْهَارًا عَلَى الخُطُوبِ وَغِلَابًا ، فَذَلِكَ ضَرَرٌ بِالمُرُوءَاتِ وَالأَقْدَارِ ،
دَاعٍ إِلَى الفُضِيحَةِ وَالعَارِ ، وَمَنْ أُمْتَحِنَ بِهَا مِنْكُمْ اخْتِيَارًا ، أَوْ جُبِرَ عَلَيْهِ إِكْرَاهًا

[١] السجل : النصب . والمعنى : إنكم مدينون لي بما قدمت لكم من معروفى ، فلا تسوا أن تردوه
لي بأكرام من أودت . [٢] اللدن اللين .

وإيثاراً ، فليتلق وظائفها بسعة صدره ، ويبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره ، فالولايات فتنة ومحنة ، وأسر وإحنة ، وهي بين إخطاء سعادة ، وإخلال بعبادة ، وتوقع عزل ، وإدالة^(١) بإزاء بيع جدّ بهزل ، ومزلة قدم ، واستتباع ندم ، ومآل العمر كله موت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد ، جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه ، وممن لا ينقطع بسببه عملُ أيّيه ، هذه - أسعدكم الله - وصيتي التي أصدرتها ، وتجارتني التي لربكم أدرتها ، فتلقوها بالقبول لنصحها ، والاهتداء بضوء صباحها ، وبقدر ما أمضيت من فروعها ، واستغشيت من دروعها ، اقتنيت من المناقب الفاخرة ، وحصلت على سعادة الدنيا والآخرة ، وبقدر ما أضعت لآلها النفيسة القيم ، استكثرتم من بواعث الندم ، ومهما سئتم إطالتها ، واستغزرت مقالتها ، فاعلموا أن تقوى الله فذلك^(٢) الحساب ، وضابط هذا الباب ، كان الله خليفتي عليكم في كل حال ، فالدنيا مناخ ارتحال ، وتأميل الإقامة فرض مُحال ، فالموعد للالتقاء ، دار البقاء ، جعل الله من وراء خُطته النجاة ، وتفق بضائرها المزجاة^(٣) ، بلطائفه المرتجاة ، والسلام عليكم من حبيبكم المودع ، والله سبحانه يُلثمه^(٤) حيث شاء من شمل متصدع ، والدكم محمد بن عبد الله بن الخطيب ورحمة الله وبركاته . (نفع الطيب ٤ : ٤١٩)

١٨ - خطبة وعظية له

وصدر عنه على لسان واعظ :

« الحمد لله الولي الحميد ، المبدئ المعيد ، البعيد في قرّبه من العبيد ، القريب

[١] للإدالة : الغلبة . [٢] فذلك حسابه كدحرج : أنباء وفرغ منه ، مخترعة من قوله إذا أجل حسابه : فذلك كذا وكذا . [٣] بصاعة مرجاة : رديئة أو قليلة يردّها ويدفعها من رآها رغبة عنها ، وثق السلة تفيقاً : ردّها . [٤] لأم الجرح والصدع كقطع والأوه : سدّه .

في بعده وهو أقرب من حَبْلِ الْوَرِيدِ ^(١) ، مُجْبِي رُبُوعِ الْعَارِفِينَ بِتَحِيَّاتِ حَيَاةِ التَّوْحِيدِ ، وَمُغْنِي نَفُوسِ الزَّاهِدِينَ بِكُنُوزِ احْتِقَارِ الْاِقْتِقَارِ إِلَى الْعَرَضِ الزَّهِيدِ ، وَمُخَلِّصِ خَوَاطِرِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ سَجُونِ دُجُونِ ^(٢) التَّقْيِيدِ ، إِلَى قُسْحِ التَّجْرِيدِ ، نَحْمَدُهُ وَلَهُ الْحَمْدُ الْمُنْتَظِمَةُ دُرَرُهُ فِي سُلُوكِ الدَّوَامِ ، وَسُمُوطِ ^(٣) التَّأْيِيدِ ، حَمْدًا مِنْ نَزَرِهِ أَحْكَامَ وَحَدَانِيَّتِهِ ، وَأَعْلَامَ فَرْدَانِيَّتِهِ ، عَنْ مَرَابِطِ التَّقْيِيدِ ، وَمَخَابِطِ الطَّبْعِ الْبَلِيدِ ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا مِنْ افْتِتَاحِ بِشْكُرِهِ أَبْوَابِ الْمَزِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ شَهَادَةً تَنْخَطِي بِهَا مَعَالِمَ الْخَلْقِ ، إِلَى حَضْرَةِ الْحَقِّ ، عَلَى كَبِدِ التَّفَرِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ قِلَادَةَ الْجِيدِ الْمَجِيدِ ، وَهَلَالَ الْعِيدِ ، وَقَدْ لَكَ الْحِسَابَ وَبَيْتَ الْقَصِيدِ ، الْمَخْصُوصَ بِمَنْشُورِ الْإِدْلَالِ ^(٤) ، وَإِقْطَاعِ الْكَمَالِ ، بَيْنَ مَقَامِ الْمُرَادِ وَمَقَامِ الْمُرِيدِ ، الَّذِي جَعَلَهُ السَّبَبَ الْأَوْصَلَ فِي نَجَاةِ النَّاجِي وَسَعَادَةِ السَّعِيدِ ، وَخَاطِبَ الْخَلَائِقِ عَلَى لِسَانِهِ الصَّادِقِ بِمُحِبَّتِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، فَكَانَ مِمَّا أَوْحَى بِهِ إِلَيْهِ ، وَأَنْزَلَ الْمَلَكَ بِهِ عَلَيْهِ ، مِنْ الذِّكْرِ الْحَمِيدِ ، لِيَأْخُذَ بِالْحُجَزِ ^(٥) وَالْأَطْوَاقِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدًا ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ، وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ، وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ، لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا

[١] عرق في العنق. [٢] أى ظلام التقييد ، والدجون جمع دجن بالفتح : وهو لباس الغيم الأرض وأقطار السماء. [٣] سموط جمع سمط بالكسر : وهو خيط النظم. [٤] أدل عليه : وثق بمحبته . [٥] المحرز جمع حجرة كفرصة : وهي مقعد الإزار ، ومن السراويل موضع التكة .

فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة
تقوم ببعض حقه الأکید ، وَتَسْرَى إِلَى تَرْبَتِهِ الزُّكِّيَّةِ مِنْ ظُهُورِ الْمَوَاجِدِ الْجَائِيَةِ
عَلَى الْبَرِيدِ :

قعدتُ لتذكيرٍ ، ولو كنتُ منصفاً لذكرتُ نفسي فهي أحوجُّ للذكرى
إذا لم يكن منى لنفسي واعظاً فيا ليت شعري كيف أفعل في الأخرى ؟
آه ، أيُّ وعظ بعد وعظ الله تعالى يا أحبابنا يُسْمَعُ ، وفي ماذا - وقد تبين الرُّشْدُ
من النِّىِّ - يُطْمَعُ؟ يا من يُعْطَى وَيَمْنَعُ ، إذا لم تُقِمِ الصَّنِيعَةَ فإِذَا نَصَنَعَ ؟ أَجْمَعْنَا
بِقُلُوبِنَا يَا مَنْ يُفَرِّقُ وَيَجْمَعُ ، وَآيِنَ حَدِيدَهَا بِنَارِ خَشْيَتِكَ ، فقد استعاذ نبيك
صلى الله عليه وسلم مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ عَيْنٍ لَا تَدْمَعُ : اعلموا رحمكم الله أن
الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من الأقوال والأحوال ، ومن الجماد والحيوان ، وما
أملأه المَلَوَانُ (١) ، فإن الحق نور لا يضره أن صدر من الحامل ، ولا يقصر
بمحموله احتقار الحامل ، وأنتم تدرّون أنكم في أطوار سفر لا تستقر لها دون
الغاية رحلة ، ولا تتأثى معها إقامة ولا مهلة ، من الأصلاب إلى الأرحام إلى
الوجود ، إلى القبور إلى النشور إلى إحدى دارى البقاء ، أفى الله شك ؟ فلو
أبصرتم مسافراً في البرية يبنى ويفرش ، ويمهد ويعرش ، ألم تكونوا تضحكون
من جهله ، وتمعجبون من ركاكة عقله ؟ ووالله ما أموالكم ولا أولادكم ،
وشواغلكم عن الله ، التي فيها اجتهادكم ، إلا بقاء سفر (٢) في قفر ، أو إعراس في
ليلة نمر (٣) ، كأنكم بها مطرحة تعبر فيها المواشى ، وتنبو العيون عن خبرها

[١] اللواتى : الليل والنهار .

[٢] السفر : جماعة المسافرين . [٣] أعرس القوم وعرسوا : نزلوا في آخر الليل للاستراحة ،

ونمر الحاج من منى كضرب نمرأ ونفورا . انظر ج ٣ ص ١٢١ .

المتلاشى « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » ما بعد
 المَقِيلِ إِلَّا الرَّحِيلَ ، ولا بعد الرحيل إِلَّا المنزِلُ الكَرِيمَ ، أو المنزل الوَيْلِ ، وإِنَّمَا
 تَسْتَقْبِلُونَ أَهْوَالَ ، سَكَرَاتُ الْمَوْتِ بَوَاكِرُ حَسَابِهَا ، وَعَتَبُ أَبْوَابِهَا ، فلو
 كَشَفَ الْغَطَاءَ عَنْ ذَرَّةٍ مِنْهَا ، لَذَهَبَتِ الْعُقُولُ وَطَاشَتِ الْأَلْبَابُ ، وما كَلَّ
 حَقِيقَةً يَشْرَحُهَا الْكَلَامُ ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ
 الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، أفلا أعددتُم لهذه الوِزْطَةِ حِيلَةً ، وأظهرتم
 للاهتمام بها مَخِيلَةً^(١) ؟ أتعويلا على عفوه مع المقاطعة ؟ وهو القائل في مقام
 التهديد : « إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » ، أأمنًا من مكره مع المنابذة ؟ « وَلَا يَأْمَنُ
 مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » أطمعًا في رحمته مع المخالفة ؟ وهو يقول :
 « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » ، أَمْشَاقَةٌ وَمَعَانِدَةٌ ؟ « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ
 شَدِيدُ الْعِقَابِ » ، أشكًا في الله ؟ فعمالوا نُعَيْدَ الْحِسَابِ ، وَتَقَرَّرَ الْعَقْدُ ، وَتَتَّصِفُ
 بدعوة الحقِّ (أَوْ غَيْرَهَا) من اليوم ، يُفْقَدُ عَقْدُ الْعَقَائِدِ عِنْدَ التَّسَاهُلِ بِالْوَعِيدِ^(٢) ،
 فالعاصي يُدْمِي الْأَصْبَعَ الْوَجِيعَةَ ، والعارف يَضْمَدُ لَهَا مَبْدَأَ الْعَصَبِ .

هكذا هكذا يكون التعامى هكذا هكذا يكون الغرور

« يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » وما عدا
 مما بدا ، ورسولكم الحريص عليكم الرءوف الرحيم يقول لكم : « الْكَيْسُ
 من دان نفسه ، وَعَمِلَ لما بعد الموت ؛ والأحمق من أتبع نفسه هواها ، وتمنى
 على الله الأمانى » ، فَعَلَامَ بعد هذا المعوّل ، وماذا يتأوّل ؟ اتقوا الله تعالى في

[١] الخيلة الظن . [٢] أى أن المرء إذا لم يحسب لوعيد الله حسابا ، واسنزل في اقتراح المعاصى
 والموبقات ، أفضى به ذلك إلى زلزلة العقيدة ، ولو أنه كان خالص الإيمان لارعوى عما نهى عنه .

نفوسكم وَأَنْصَحُوهَا ، وَاغْتَنِمُوا قُرْصَ الْحَيَاةِ وَارْتَجُوهَا ، « أَنْ تَقُولَ نَفْسُ
يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ، وَإِنْ كُنْتُ لِمَنْ السَّخِرِينَ » ، وتنادى
أخرى : « هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » ، وتستنثت أخرى : « يَا لَيْتَنَا تَرَدُّ
فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » ، وتقول أخرى : « رَبِّ أَرْجِعُونِي » ، فَرَحِمَ
الله من نظر لنفسه ، قبل غُرُوبِ شمسِهِ ، وَقَدَّمَ لِنَعْدِهِ مِنْ أَمْسِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْحَيَاةَ
تَجْرُؤُ إِلَى الْمَوْتِ ، وَالنَّفْلَةَ تَقُودُ إِلَى الْفَوْتِ ، وَالصَّحَّةَ مَرَكَبَ الْأَلْمِ ، وَالشَّبِيهَةَ
سَفِينَةَ تَقْطَعُ إِلَى سَاحِلِ الْمَهْرَمِ .

وإن شاء قال بعد الخطبة :

« إخواني ، ما هذا التواني ؟ وَالْكَلْفُ بِالْوَجُودِ الْفَانِي ، عَنِ الدَّائِمِ الْبَاقِي ،
وَالدَّهْرُ يَقْطَعُ الْأَمَانِي ، وَهَادِمٌ لِلذَّاتِ قَدْ شَرَعَ فِي تَقْضِ الْمَبَانِي ، الْأَ مَعْتَبَرِي
عَالَمِ هَذِهِ الْمَعَانِي ، الْأَ مَرْتَحِلِ عَنِ مَعَانِي هَذِهِ الْمَعَانِي (١) ؟

أَلَا أُذُنٌ تُصْنِي إِلَيَّ سَمِيعَةً أَحَدَّثَهَا بِالصِّدْقِ مَا صَنَعَ الْمَوْتُ
مَدَدْتُ لَكُمْ صَوْتِي فَأَوَاهِ حَسْرَةً عَلَى مَا بَدَأَ مِنْكُمْ فَلَمْ يُسْمَعْ الصَّوْتُ
هُوَ الْقَدَرُ الْآتِي عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ فَتُوبُوا سِرًّا قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْفَوْتُ

يَا كَلِفًا بِمَا لَا يَدُومُ ، يَا مَفْتُونًا بِغُرُورِ الْوَجُودِ الْمَعْدُومِ ، يَا صَرِيحَ جِدَارِ الْأَجْلِ
الْمَهْدُومِ ، يَا مُشْتَفِلًا بَيْنِيَانِ الطَّرُوقِ قَدْ ظَهَرَ الْمُنَاخُ وَقَرُبَ الْقُدُومُ ، يَا غَرِيقًا فِي
فِي بَحَارِ الْأَمْلِ مَا عَسَاكَ تَعُومُ ، يَا مُعَلَّلَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَلَمَعَ السَّرَابِ (٢) ،
لَا بَدَأَ أَنْ تَهْجُرَ الْمَشْرُوبَ وَتَتْرَكَ الْمَطْعُومَ ، دَخَلَ سَارِقُ الْأَجْلِ بَيْتَ عَمْرِكَ ،
فَسَلَبَ النِّشَاطَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ ، وَطَوَى الْبَسَاطَ وَأَنْتَ تُكْرَبُ (٣) ، وَاقْتَلَعَ جَوَاهِرَ

[١] للمعاني جمع معنى وهو المنزل .

[٢] السراب : ما يرى وسط النهار كأنه ماء . [٣] كرهه النعم كنصر : اشتد عليه .

الجوارح ، وقد وقع بك النهب ، ولم يَبْقَ إلا أن يجعل الوسادة على أنفك ويقعد .
لو خُفِّفَ الوجدُ عني دعوتُ طالبِ ثارى

« كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا » ، كيف التَّراخى والفوتُ مع الأنفاس يُنتظر ،
كيف الأمان وهاجم الموت لا يُبْقِي ولا يَدْر ، كيف الركون إلى الطمع الفاضح
وقد صحَّ الخبر ؟ من فكَّر في كَرْبِ الحُمار^(١) تنغَّصت عنده لذةُ النبيذ ، من
أحسَّ بلفظ^(٢) الحريق فوق جدَّاره ، لم يُصنَعِ بصوته لِنعمة العود ، من تيقَّنَ
بذلَّ العزلة ، هان عليه ترك الولاية .

ما قامَ خيرُك يا زمانُ بشره أولى لنا ما قلَّ منك وما كفى
أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه: أن ضعَ يدك على متنِ ثور ،
فبَعَدَ ما حادَّته من شعره تعيش سنين ، فقال : يارب وبعْد ذلك ؟ قال :
تموت ، قال : يارب فالآن .

رأى الأمرَ يُفْضَى إلى آخرِ فصيرَ آخره أوْلاً
إذا شعرت نفسك بالميل إلى شيء فأعرض عليها غصّة فراقه « لِيَهْلِكَ مَنْ
هَلَكَ عَنْ يَبْتَةِ ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ يَبْتَةِ » فالمفروح به هو المحزون عليه ، أين
الأحباب مرؤوا ؟ فياليت شعري أين استقروا ؟ استكانوا والله واضطروا ،
واستغاثوا من سبقتك^(٣) بأولياهم ففرؤوا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضرؤوا ، فالمنازل
من بعدهم خالية خاوية ، والعروش ذابلة زاوية ، والعظام من بعد التفاصيل
متشابهة متساوية ، والمساكن تنذب في أطلالها الذئبُ العاوية .

[١] الحمار : صداع الحمر وأذاها . [٢] أى برميهِ . [٣] هكذا في الأصل ، وكان يمكن أن
يقول : « واستغاث من سبقتك بأولياهم » إلا أن يخرج على أن « من » مبتدأ مؤخر كما في قوله تعالى :
« ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » وقوله : « وَأَسْرُوا النَّجْوى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أو « من »

صَحْتُ بِالرَّبْعِ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ يَمُضِي الْغَرِيبُ؟
وَيَجْتَنِبُ الدَّارَ قَبْرُ جَدِيدٍ مِنْهُ يَسْتَسْقِي الْمَكَانُ الْجَدِيدُ
غَاخَ قَلْبِي فِيهِ عِنْدَ التَّاجِي قُلْتُ : هَذَا الْقَبْرِ فِيهِ الْحَيْبُ^(١)
لَا تَسْأَلُ عَنِ رَجْعَتِي كَيْفَ كَانَتْ إِنَّ يَوْمَ الْبَيْنِ يَوْمَ عَصِيبُ
بِاقْتِرَابِ الْمَوْتِ عَلَّتْ نَفْسِي بَعْدَ إِلْفِي ، كُلُّ آتٍ قَرِيبُ

أين الممّر الخالد ، أين الولد أين الوالد ، أين الطارف أين التالد ، أين المجادل أين المُجَالِدِ؟ هَلْ تَحْسِبُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا؟^(٢) وجوه علاهْنُ التَّرى ، وصحائفُ تَفَضُّ ، وأعمال على الله تُعْرَضُ ، بِحَثِّ الزُّهَّادِ وَالْعُبَّادِ ، وَالْعَارِفُونَ وَالْأَوْتَادِ ، وَالْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ يُهْدَى بِهِمُ الْعِبَادِ ، عَنْ سَبَبِ الشَّقَاءِ الَّذِي لَا سَعَادَةَ بِعَدِهِ ، فَلَمْ يَجِدُوا إِلَّا الْبَعْدَ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى ، وَسَبَبِهِ حُبُّ الدُّنْيَا ، « لَنْ تَجْتَمِعَ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ » .

هَجَرْتُ حَبَائِي مِنْ أَجْلِ لَيْلِي فَمَا لِي بَعْدَ لَيْلِي مِنْ حَيْبٍ
وَمَاذَا أُرْتَجِي مِنْ وَصْلِ لَيْلِي سَتَجْزِي بِالْقَطِيعَةِ عَنْ قَرِيبٍ

وقالوا : ما أوردَ النفسَ الموارِدَ ، وَفَتَحَ عَلَيْهَا بَابَ الْحَتْفِ إِلَّا الْأَمَلَ ، كَمَا قَوْمَتَهَا مِثَاقِ الْخُدُودِ ، فَتَحَ لَهَا أَرْكَانَ الرُّخَصِ . كَمَا عَقَدَتِ صَوْمَ الْعَزِيمَةِ ، أَهْدَاهَا طُرْفَ الْغُرُورِ فِي أَطْبَاقِ « حَتَّى وَإِذَا وَلَكِنْ وَرُبَّمَا » فَأَفْرَطَ الْقَلْبُ فِي تَقْلِيلِهَا حَتَّى أَفْطَرَ :

مَا أَوْبَقَ الْأَنْفَسَ إِلَّا الْأَمَلُ وَهُوَ غُرُورٌ مَا عَلَيْهِ عَمَلُ
يَفْرَضُ مِنْهُ الشَّخْصُ وَهَمَّامَالُهُ حَالٌ ، وَلَا مَاضٍ ، وَلَا مُسْتَقْبَلُ

[١] لحه وألحه والتمحه : إذا أبصره بنظر خفيف . [٢] الرکز : الصوت الحوق .

ما فوق وَجِهِ الْأَرْضِ نَفْسٌ حَيَّةٌ ۖ
لَوْ أَنَّهُمْ مِنْ غَيْرِهَا قَدْ كُونُوا
مَا نَمَّ إِلَّا لُقْمٌ ۖ قَدْ هَيَّئَتْ
وَالْوَعْدِ حَقٌّ، وَالْوَرَى فِي غَفْلَةٍ
أَيْنَ الَّذِينَ شَيَّدُوا وَاغْتَرَسُوا
أَيْنَ ذُوو الرِّاحَاتِ زَادَتْ حَسْرَةً
لَمْ تَدْفَعِ الْأَحْبَابُ عَنْهُمْ غَيْرَ أَنَّ
اللَّهَ فِي نَفْسِكَ أَوْلَى مِنْ لَه
لَا تَتْرَكْنَهَا فِي عَمَى وَحَيْرَةٍ
حَقَّرَهَا الْفَانِي، وَحَاوَلَ زُهْدَهَا
وَفِيذَ إِلَى اللَّهِ بِهَا مَضْطَرَةً
هُوَ الْفَنَاءُ، وَالْبَقَاءُ بِعَدِهِ
يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ وَيَا حَسْرَتَهَا

إِلَّا قَدْ انْقَضَ عَلَيْهَا الْأَجَلُ ۖ
لَا مَمْتَلَأَ السَّهْلُ بِهِمْ وَالْجَبَلُ
لِلْمَوْتِ، وَهُوَ الْأَكْلُ الْمُسْتَعْجِلُ
قَدْ خُودِعُوا بِعَاجِلٍ وَضَلُّوا
وَهَيَّدُوا وَاقْتَرَسُوا وَظَلَمُوا؟
إِذْ جُنِبُوا إِلَى الثَّرَى وَانْتَقَلُوا^(١)
بَكَوْا عَلَى فِرَاقِهِمْ وَأَعْوَلُوا
ذَخِرَتْ نَضْحًا وَعَتَابًا يُقْبَلُ^(٢)
عَنْ هَوْلٍ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا تَغْفُلُ
وَشَوَّهَهَا إِلَى الَّذِي تَسْتَقْبِلُ
حَتَّى تَرَى السَّيْرَ عَلَيْهَا يَسْهَلُ^(٣)
وَاللَّهُ عَنْ حِكْمَتِهِ لَا يُسْأَلُ
يَوْمَ يُؤَنَّفِي النَّاسُ مَا قَدْ عَمِلُوا

يَا طَرْدُ^(٤) الخالفة، أنكم مُدْرَكُونَ فَاسْتَبِقُوا بَابَ التَّوْبَةِ، فَإِنَّ رَبَّ تِلْكَ الدَّارِ يُجِيرُ وَلَا
يُجَارُ عَلَيْهِ « فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا هَدَاكُمْ »، يَا طُفَيْلِيَّةَ الْهَمَّةَ، دُسُّوا
أَنْفُسَكُمْ بِزُمرِ التَّائِبِينَ، وَقَدْ دُعُوا إِلَى اللَّهِ دَعْوَةَ الْحَبِيبِ، فَإِنَّ لَمْ يَكُنْ أَكْلٌ فَلَا
أَقْلٌ مِنْ طَيْبِ الْوَلِيَّةِ، قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: إِذَا عَقَدَ التَّائِبُونَ الصَّلْحَ مَعَ اللَّهِ
تَعَالَى، انْتَشَرَتْ رَعَايَا الطَّاعَةِ فِي عِمَالَةِ الْأَعْمَالِ، « وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا

[١] جنبه : دفعه . [٢] أى اتقى الله فى نفسك التى هى أولى . . . الخ .

[٣] فد : أسر من وفد أى اقدم . [٤] الطريدة : ما طردت من صيد أو غيره .

وَوَضِعَ الْكِتَابُ « معانى هذا المجلس والله نَسِيمٌ سَحَرٍ ، إذا أَسْتَنَشَقَهُ مَخْمُورِ
الْغَفْلَةِ أَفَاقِ ، سَعُوطٌ ^(١) هذا الوعظ يَنْقُضُ ^(٢) إِنْ شَاءَ اللَّهُ زَكْمَةَ الْبَطَالَةِ ، إِنْ
الَّذِي أَنْزَلَ الدَّاءَ أَنْزَلَ الدَّوَاءَ ، إِكْسِيرٌ ^(٣) هذا الكتاب يلقب بحكمة جابر ^(٤) ،
القلوب المنكسرة عين من كان له قلب « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى
يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » إلهى دُنَا من حَيْرَةٍ يَضِلُّ فِيهَا - إِلَّا إِنْ هَدَيْتَ - الدليل ،
وَأَجْرِنَا مِنْ غَمْرَةٍ ^(٥) وكيف - إِلَّا بِإِغَاثَتِكَ - السبيل ، نفوسٌ صَدِيقٌ مِنْ مَرٍّ
الأزمان منها الصَّقِيلُ ، وَنَبَأًا يَجْنُوبُهَا عَنِ الْحَقِّ الْمَقِيلُ ، وَأَذَانٌ أَنْهَضَهَا الْقَوْلُ
الثقيل ، وَعَثَرَاتٌ لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا أَنْتَ يَا مَقِيلَ الْعَثَرَاتِ يَا مَقِيلَ ، أَنْتَ حَسْبُنَا
ونعم ^(٦) الوكيل . (فحح الطيب ٤ : ٨٥)

١٩ - وصية موسى بن سعيد العنسى ^(٧) لابنه

قال أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى :

لما أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة ، أول وصولي إلى

[١] في الأصل « سوط » وأراه محرفاً عن « سعوط » كما يدل عليه سياق الكلام ، والسعوط : الدواء
يسبب في الأنف . [٢] في الأصل « يبيض » وأراه « ينقض » أى يذهب .
[٣] الإكسير : الكيمياء .

[٤] يريد جابر بن حيان . قال ابن الفطحي في تاريخ الحكماء في ترجمته : « هو جابر بن حيان الصوفي
الكوفي ، وكان متقدماً في العلوم الطبيعية ، وفي صناعة الكيمياء . . الخ » وذكره ابن زيدون في
رسالته الهزلية ، فقال : « وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء » قال ابن نباتة في سرح اليون :
« وأما جابر بن حيان المذكور فلا أعرف له ترجمة صحيحة في كتاب يتمد عليه ، وهذا دليل على قول
أكثر الناس إنه اسم موضوع وضعه المصنفون في هذا الفن ، وزعموا أنه كان في زمن جعفر الصادق ،
وأنه إذا قال في كتبه : قال لي سيدي ، وسمعت من سيدي ، فإنه يرمى به جعفر الصادق » وقد قدمنا لك
أن جعفر الصادق توفي سنة ١٤٨ هـ .

[٥] الغمرة : الشدة . [٦] أورد المقرئ في فحح الطيب لسان الدين عقب ذلك كلاماً آخر في الوعظ
وهو على نمط ما أوردناه لك فافطره هناك إن شئت .

[٧] هو الكاتب الشهير أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى ، من سلالة
عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه ، وقد نوه به ابن هود ملك الأندلس ، وولاه الجزيرة الخضراء ، وهو

الإسكندرية ، رأى أبي أن يكتب لى وصية أجعلها إماماً فى الغربية ، فبقي فيها أياماً إلى أن كتبتها عنه ، وهى هذه :

أودِعْكَ الرَّحْمَنَ فِي غُرْبَتِكَ مَرَّتَقِبًا رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِكَ
وما اختيارى كان طَوْعَ النَّوَى لكننى أَجْرِي عَلَى بُغْيَتِكَ^(١)
فلا تُطِلْ حَبْلَ النَّوَى ، إننى واللهِ أَشْتاقُ إلى طَلْعَتِكَ
من كان مفتوناً بأبنائه فإننى أَمَعَنْتُ فى خِبرَتِكَ
فاختصرِ التوديعَ أَخْذاً ، فما لى ناظِرُهُ يَقْوَى عَلَى فُرْقَتِكَ
واجعلِ وَصَاتِي نُصْبَ عَيْنٍ ، ولا تَبْرَحْ مَدَى الأَيامِ مِنْ فِكْرَتِكَ
خُلَاصَةَ العَمْرِ الَّتِي حُنَّكَتْ فى ساعَةٍ زُفَّتْ إلى فِطْنَتِكَ^(٢)
فللتجاريبِ أُمُورٌ إذا طالَعَتْها تَشْحَدُ مِنْ غَفْلَتِكَ
فلا تَتَمَّ عَنْ وَغِيهَا ساعَةً فإنها عَوْنٌ إلى يَقْظَتِكَ^(٣)
وكلُّ ما كابدته فى النَّوَى إياك أن يكسِرَ مِنْ هِمَّتِكَ
فليس يُدْرَى أصلُ ذى غُرْبَةٍ وإنما تُعْرِفُ مِنْ شِيمَتِكَ

من رحل من علماء الأندلس إلى المشرق ، وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٤٠ هـ ص ٦٧ طاما . وكان أبوه محمد وزيراً جليلاً بعيد الصيت ، على الذكر ، رفيع المهمة ، كثير الأموال ، وكان ذا خطوة لدى الموحدين ، وولى لهم أعمالاً كثيرة بمراكش وإشبيلية وقرنطة ، واتصلت ولايته على أعمال قرنطة ، وكان من شيوخها وأعيانها .

وكان جده عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بنى سعيد تحت طاعة على بن يوسف بن تاشفين ملك البربر ، إلى أن استبد بها سنة ٥٣٩ .

وابنه أبو الحسن على هو متهم كتاب : « المغرب فى أخبار المغرب » ، وكان السبب فى تأليفه هو جده عبد الملك بن سعيد ، ثم تلمه ابنه محمد بن عبد الملك ، ثم تم ما بقى منه ابنه موسى بن محمد ، ثم أربى على الجميع فى إتمامه على بن موسى ، وقد ذكر فى خطبته أنه بدى فيه من سنة ٥٣٠ هـ ، ومنتهاه إلى غرة سنة ٦٤١ هـ ، وكان مولد أبي الحسن بقرنطة سنة ٦١٠ هـ ، ووفاته بتونس سنة ٦٨٥ هـ [١] النوى : البعد . [٢] حنكت : أجهكت . [٣] اليقظة بالتحريك وسكنه للشعر .

وكل ما يُفْضِي إِمْدِرٍ فلا
 ولا تجالِسَ مَنْ فشا جهلهُ
 ولا تجادلِ أبدأ حاسداً
 وامنِ الهَوَيْنِي مظهرًا عفةً
 أفسِ التحياتِ إلى أهلها
 وأنطقِ بحيثُ العيُّ مستقبِحُ
 ولا تزلِ مُجْتَمِعًا طالبًا
 وكما أبصرتها أمكنت
 ورجِ على رزقك من بابهِ
 وأياسُ من الودِّ لدى حاسدِ
 ووفِّرِ الجهدَ ، فنَّ قسدهُ
 ووفِّ كلاً حقهُ ، ولكن
 ولا تكنِ تحقيرُ ذا رتبةٍ
 وحيثما خيمتَ فاقصِدِ إلى
 وللرزايا وثبتهُ ، ماها
 ولا تقُلْ : (أسلم لي وحدثني)
 والتزمِ الأحوالَ وزناً ولا
 وتجعلِ العقلَ محكماً ، وخذ
 واعتبرِ الناسَ بالفاظهمِ

تجعله في العربة من إزبتك^(١)
 وأقصِدِ لمن يرغبُ في صنعتك
 فإنه أذعى إلى هيتك
 وأبعِ رضا الأعينِ عن هيتك
 ونبهِ الناسَ على رمتك
 واصمتِ بحيثِ الخيرُ في سكتك
 من دهرِك الفرصةَ في وثبتك
 ثبِ واثقاً بالله في مكنتك^(٢)
 وأقصِدِ له ما عشت في بكرتك
 ضدِّ ، ونافسهُ على خطتك^(٣)
 قصدك لا تعتبهُ في بفضتك
 تكسرُ عند الفخر من حدتك
 فإنه أنفعُ في غرتك
 مُصْحَبَةٌ من ترجوه في نصرتك
 إلا الذي تذخرُ من عدتك
 فقد تقاسي الذلَّ في وحدتك
 ترجعِ إلى ما قام في شهوتك
 كلاً بما يظهرُ في نقدتك
 وأصحبِ أخيراً رغبتُ في مُصْحَبَتِكَ

[١] الإربة : الحاجة . [٢] المكنة بفتح فسكس : التمكن والقدرة ، وسكنه للشعر .
 [٣] في الأصل « وأس من الودِّ . . . » وقد أصلحته « وإياس » وبه يستقيم المعنى .

بعد اختبارٍ منك يَقْضِي بما
 كم من صَدِيقٍ مُظْهِرٍ نَصْحَهُ
 إياك أن تَقْرَبَهُ ، إنه
 وَأَقْنَعُ إذا ما لم تجد مَطْمَئِنًا
 وَأَنْتُمْ نَمُو النبت قد زارَهُ
 وإن نَبَا دهرٍ فَوَطَّن له
 فكل ذى أمرٍ له دولةٌ
 ولا تُضَيِّعُ زَمَانًا مُمَكِّنًا
 والشَّرَّ مَهْمَا أَسْطَعْتَ لَا تَأْتِيهِ
 يَحْسُنُ فِي الْآخِذِ مِنْ خِلْطَتِكَ^(١)
 وَفِكْرُهُ وَقَفُّ عَلَى عَثْرَتِكَ
 عَوْنٌ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى كَرْبَتِكَ
 وَأَطْمَعُ إِذَا أُنْعِشْتَ مِنْ عُسْرَتِكَ
 غِيبُ النَّدَى ، واسمٌ إِلَى قَدْرَتِكَ
 جَأَشَكَ ، وانظُرُهُ إِلَى مُدَّتِكَ
 فَوَفَّ مَا وَاوَاكَ فِي دَوْلَتِكَ
 تَذَكَّارُهُ يُذَكِّي لَطْفِي حَسْرَتِكَ
 فَإِنَّهُ حَوَزَ عَلَى مُهْجَتِكَ^(٢)

* * *

يا بُنَيَّ الذي لا ناصح له مثلي ، ولا منصوح لي مثله ، قد قدمت لك في هذا
 النظم ما إن أخطرتَه بخاطرك في كل أوان ، رجوت لك حسن العافية إن شاء
 الله تعالى ، وإن أخفَّ منه للحفظ ، وأعلَقَ بالفكر ، وأحقَّ بالتقدم قول الأول :

١ يَزِينُ الْغَرِيبَ إِذَا مَا اغْتَرَبَ ثلاثٌ ، فمنهن : حُسْنُ الْأَدَبِ
 وَثَانِيَةٌ : حُسْنُ أَخْلَافِهِ وثالثَةٌ : اجْتِنَابُ الرَّيْبِ

وإذا اعتبرت هذه الثلاثة ، ولزمتها في العربة ، رأيتها جامعة نافعة ، لا يَلْحَقُكَ
 إن شاء الله مع استعمالها نَدَمٌ ، ولا يفارقك بِرٌّ ولا كَرَمٌ ، والله دَرُّ الْقَائِلِ :
 يُعَدُّ رَفِيعَ الْقَوْمِ مَنْ كَانَ عَاقِلًا وإن لم يكن في قومه بحسيبٍ

[١] الخلطة مثل العشرة وزنا ومعنى ، والخلطة بالعم : اسم من الاختلاط ، مثل الفرقة من الافتراق .
 [٢] حازه حوزا : جمعه وضمه وامتلكه كاحتازه احتياراً ، والمعنى : ألك إن أتيت الشر استحوذ على
 نفسك وتملكك .

إِذَا حَلَّ أَرْضًا عَاشَ فِيهَا بِعَقْلِهِ وَمَا عَاقِلٌ فِي بَلَدَةٍ بِغَرِيبٍ
وَمَا قَصَّرَ الْقَائِلُ حَيْثُ قَالَ :

وَاصْبِرْ عَلَى خُلُقٍ مِنْ تَعَاشِرُهُ وَدَارِهِ ، فَالْيَيْبُ مَنْ دَارَى
وَاتَّخَذَ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَكَنًا وَمَثَلَ الْأَرْضَ كُلَّهَا دَارًا

وَأَصْغَرَ يَا بُنَيَّ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ يَتِيمَةُ الدَّهْرِ^(١) ، وَسَلِّمَ الْكِرْمَ وَالصَّبْرَ :

وَلَوْ أَنَّ أَوْطَانَ الدِّيَارِ نَبَتَ بِكُمْ لَسَكَنْتُمْ الْأَخْلَاقَ وَالْآدَابَ^(٢)

إِذْ حُسْنُ الْخُلُقِ أَكْرَمُ نَزِيلٍ ، وَالْأَدَبُ أَرْحَبُ مَنْزِلٍ ، وَلَتَكُنْ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ
فِي أَدِيبٍ مَتَغَرَّبَ : « وَكَانَ كَلِمًا طَرَأَ^(٣) عَلَى مَلِكٍ ، فَكَأَنَّهُ مَعَهُ وُلْدٌ ، وَإِلَيْهِ قَصَدَ ،

غَيْرَ مُسْتَرِيبٍ بِدَهْرِهِ ، وَلَا مُنْكَرٍ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ » ، وَإِذَا دَعَاكَ قَلْبُكَ إِلَى
صِحْبَةٍ مَنْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ هَوَاهُ^(٤) ، فَاجْعَلِ التَّكْلِفَ لَهُ سُلْمًا ، وَهُبُّ فِي رَوْضِ

أَخْلَاقِهِ هَبُوبَ النَّسِيمِ ، وَحُلِّ بِطَرْفِهِ حُلُولَ الْوَسَنِ^(٥) ، وَانزِلْ بِقَلْبِهِ نَزُولَ الْمَسْرَةِ ،
حَتَّى يَتِمَّكَ لَكَ وَدَادُهُ ، وَيَخْلُصَ فَيْكَ اعْتِقَادُهُ ، وَطَهَّرَ مِنَ الْوَقُوعِ فِيهِ لِسَانَكَ ،

وَأَغْلِقْ سَمْعَكَ ، وَلَا تُرَخِّصْ فِي جَانِبِهِ لِحْسُودَ لَكَ مِنْهُ ، يَرِيدُ إِبْعَادَكَ عَنْهُ لِمَنْفَعَتِهِ ،
أَوْ حِسُودَ لَهُ يَغَارُ لِتَجْمُلَهُ بِصَحْبَتِكَ ، وَمَعَ هَذَا فَلَا تَمْتَرْ بِطُولِ صِحْبَتِهِ ، وَلَا تَتَمَهَّدْ

بِدَوَامِ رَقَدَتِهِ ، فَقَدْ يَنْبِهُهُ الزَّمَانُ ، وَيُغَيِّرُ مِنْهُ الْقَلْبَ وَاللِّسَانَ ، وَلِذَا قِيلَ : « إِذَا
أَحْبَبْتَ فَأَحْبِبْ هَوْنًا مَّا ، فِي الْمُمْكِنِ أَنْ يَنْقَلِبَ الصَّدِيقُ عَدُوًّا ، وَالْعَدُوُّ صَدِيقًا »

وَإِنَّمَا الْعَاقِلُ مَنْ جَعَلَ عَقْلَهُ مَعْيَارًا ، وَكَانَ كَالْمَرْأَةِ يَلْتَقِي كُلَّ وَجْهِ بِمِثَالِهِ ، وَجَعَلَ
نُصَبَ نَازِرِهِ قَوْلَ أَبِي الطَّيِّبِ :

[١] يَتِيمٌ : حُرَّةٌ بِتِيمَةٍ : أَي لَانظِيرَ لَهَا ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُفْرَدٌ يَمُرُّ نَظِيرُهُ فَهُوَ يَتِيمٌ .

[٢] نَبَا بِهِ مَنْزِلُهُ : إِذَا لَمْ يُوَاقِفْهُ . [٣] طَرَأَ عَلَيْهِمْ كَنَعٌ : أَتَاهُمْ مِنْ مَكَانٍ ، أَوْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْهُ لِحَاجَةٍ .

[٤] الضَّمِيرُ فِيهِ يَمُودُ عَلَى « قَلْبِكَ » . [٥] الْوَسْنُ : النَّعَاسُ .

ولما صار ودّ الناس خبيّاً جزيتُ على ابتسام بابتسام^(١)

وفي أمثال العامة : « من سَبَقك بيوم فقد سبقك بعقل » ، فاحْتَذِ بِأَمْثَلَةٍ مِنْ جَرَبٍ ، واستمعِ إلى ما خَلَدَ المَاضُونَ بعد جَهْدِهِمْ وَتَعَبِهِمْ مِنَ الأَقْوَالِ ، فإنها خُلاصةُ عَمْرِهِمْ ، وَزُبْدَةُ تِجَارِهِمْ ، وَلَا تَتَكَلَّمْ عَلَى عَقْلِكَ ، فَإِنَّ النَظَرَ فِيمَا تَعَبَ فِيهِ النَّاسُ طَوِيلَ أَعْمَارِهِمْ ، وَابْتَاعُوهُ غَالِيًا بِتِجَارِهِمْ ، يُرَبِّحُ بِحِكْمِكَ وَيَقَعُ عَلَيْكَ رَخِيصًا ، وَإِنْ رَأَيْتَ مَنْ لَهُ مُرُوءَةٌ وَعَقْلٌ وَتَجْرِبَةٌ ، فَاسْتَفِدْ مِنْهُ ، وَلَا تَضِيعْ قَوْلَهُ وَلَا فِعْلَهُ ، فَإِنَّ فِيمَا تَلَقَاهُ تَلْقِيحًا لِعَقْلِكَ ، وَحِثًّا لَكَ وَاهْتِدَاءً .

وإياك أن تعمل بهذا البيت في كلِّ موضع : وَالْحُرُّ يُخَدَعُ بِالسَّكَّامِ الطَّيِّبِ : فقد قال أحدهم : ما قيل أضرُّ من هذا البيت على أهل التجمل ، وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسنُ بك أن تتبعه حتى تتدبره ، فَإِنَّ كَانَ مُوَافِقًا لِعَقْلِكَ ، مُصْلِحًا لِحَالِكَ ، فَارَاجِ ذَلِكَ عِنْدَكَ ، وَإِلَّا فَانْبِذْهُ نَبْذَ النِّوَاةِ ، فَلَيْسَ لِكُلِّ أَحَدٍ يُتَبَسَّمُ ، وَلَا كِلِ شَخْصٍ يُكَلَّمُ ، وَلَا الْجُودُ مِمَّا يَعْمُ بِهِ ، وَلَا حُسْنُ الظَّنِّ وَطِيبُ النَّفْسِ مِمَّا يِعَامَلُ بِهِ كُلِّ أَحَدٍ ، وَلِلَّهِ دَرٌّ الْقَائِلُ :

وَمَالِي لَا أُوْفِي الْبَرِيَّةَ قِسْطَهَا عَلَى قَدْرِ مَا يُعْطَى وَعَقْلِي مِيزَانُ

وإياك أن تُعْطِيَ مِنْ نَفْسِكَ إِلَّا بِقَدَرٍ : فَلَا تَعَامَلِ الدُّونَ بِمَعَامِلَةِ الكِفِّ ، وَلَا الكِفِّ بِمَعَامِلَةِ الأَعْلَى ، وَلَا تَضِيعْ عَمْرَكَ فِيمَنْ يِعَامَلُكَ بِالمَطَامِعِ ، وَيُثْبِتُكَ عَلَى مِصْلِحَةٍ حَاضِرَةٍ عَاجِلَةٍ ، بِغَائِبَةِ آجِلَةٍ ، وَاسْمِعْ قَوْلَ الأَوَّلِ :

وَبِعِ آجِلًا مِنْكَ بِالعَاجِلِ : وَأَقْلِلْ مِنْ زِيَارَةِ النَّاسِ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَلَا تَجْفَهُهُمْ بِالْجَمَلَةِ ، وَلَكِنْ يَكُونُ ذَلِكَ بِحَيْثُ لَا يَلْحَقُ مِنْهُ مَلَلٌ وَلَا ضَجَرٌ وَلَا جَفَاءٌ ،

ولا تقل أيضاً: أقعدُ في كِسْرِيَّتِي ، ولا أرى أحداً ، وأستريح من الناس ، فإن ذلك كسل داخ إلى الذل والمهانة ، وإذا علم عدوك أو صديق منك ذلك ، عاملك بحسبه ، فزدراك الصديق ، وجسّر عليك العدو ، وإياك أن يفرك صاحب عن أن تدّخر غيره للزمان ، وتطيعه في عداوة سواء ، ففي الممكن أن يتغير عليك ، فتطلب إعانة غيره عليه ، أو استغناء عنه ، فلا تجد ذخيرة قدّمتها ، وكان هو في أوسع حال ، وأعلى رأي ، بما دبره بحيلته في انقطاعك عن غيره ، فلو اتفق لك أن تصحب من كل صناعة وكل رياسة ، من يكون لك عدوّ ، لكان ذلك أوّل وأصوب ، وسلني فإني خير ، طال - والله - ما صحبتُ الشخص أكثرَ عمرى ، لأعتمد على سواء ، ولأعتدّ إلا إياه ، منخدعا بسرايه ، موثوقاً في حبال خطابيه ، إلى أن لا يحصل لي منه غير العَضِّ على البنان ، وقول : لو كان ولو كان ! ولا يحملتك أيضاً هذا القول أن تظنه في كلّ أحد ، وتمجّل المكافأة ، وليكن حسن الظن بمقدار ما ، واصبر بمقدار ما ، والفطن لا تخفى عليه تخاييل الأحوال ، وفي الوجوه دلالات وعلامات ، وأصغر إلى القائل :

ليس ذا وجهٍ من يضيف ولا يقف - رى ولا يدفع الأذى عن حريم^(١)
فن يكن له وجه مثل هذا الوجه قولٌ وجهك عنه قبلةً ترضاها ، ولتحرص
جهدك على أن لا تصحب أو تخدم إلا ربّ حشمةٍ ونعمة ، ومن نشأ في
رفاهية ومروءة ، فإنك تنام معه في مهاد العافية ، وإن الجياد على أعراقها^(٢)
تجرى ، وأهل الأحساب والمروءات يتركون منافعهم متى كانت عليهم فيها

[١] ضافه يضيفه : نزل به ضيفاً ، وقرى الضيف كرمى : أحس إليه .

[٢] الأعراق جمع عرق بالكسر وهو الأصل .

وَصَمَّةٌ ، وقد قيل في مجلس عبد الملك بن مروان : أَشْرِبَ مُضْعَبَ الْحَمْرِ ؟ فقال عبد الملك - وهو عدو له محارب له على الملك - : لو عَلِمَ مُضْعَبُ أَنَّ الْمَاءَ يُفْسِدُ مُرْوَةَته ما شربه ؛ وَالْفَضْلُ مَا شَهَدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ .

يابني ، وقد عامت أن الدنيا دار مفارقة وتغيير ، وقد قيل : « أَصْحَبُ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ » ، فتى فارقت أحداً فعلى حُسْنِي فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي : هَلْ أَنْتَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ ؟ فَذَلِكَ قَالَ الْأَوَّلُ :

« ولما مضى سلم بكيت على سلم ، وإياك والبيت السائر :

وكننت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا

واحرص على ما جمع قول القائل : « ثلاثة تُبْقِي لَكَ الْوَدَّ فِي صَدْرِ أَخِيكَ : أَنْ تَبْدَأَ بِالسَّلَامِ ، وَتَوْسِعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ » ، واحذر كل ما بينه لك القائل : « كل ما تغرسه تجنيه إلا ابن آدم ، فإنك إذا غرسته يقلعك » وقول الآخر : « ابن آدم يتمسكن حتى يتمكن » وفول الآخر : « ابن آدم ذئب مع الضعف ، أسد مع القوة » .

وإياك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تطيل اختباره ، فيحكى أن ابن المقفع

خطب من الخليل صحبته ، فجأوبه : « إن الصحبة رِقٌّ ، ولا أضع رِقِّي في يدك حتى أعرف كيف ملكك^(١) » ، وأستمل^(٢) من عين من تعاشره ، وتفقد في فلتات الألسن وصفحات الأوجه ، ولا يحملك الحياء على السكوت عما

[١] ملكة بالتحريك ، وملكاً مثلث الميم ، ومملكة مثلث اللام : احتواه قادراً على الاستعداد به .

[٢] من استملته الكتاب : سأله أن يمليه على ، والمعنى : استرشد وتبين من نظرات عينه ، أحبب

لك هو أم هو .

يضرك أن لا تبينه ، فإن الكلام سلاح السلم ، وبالأين يُعزف ألم الجرح ،
واجعل لكل أمر أخذت فيه غاية تجعلها نهاية لك .

وَأَكْذُ مَا أُوصِيكَ بِهِ أَنْ تَطْرَحَ الْأَفْكَارَ ، وَتَسَلِّمَ لِلْأَقْدَارِ .

وَاقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِمِيشِهِ نَفْعَةً

إذ الأفكار تجلب الموم ، وتضاعف النوم ، وملازمة القُطوب ، عُنوان
المصائب والخطوب ، يستريب به الصاحب ، ويشمت العدو المُجانب ، ولا
تضه بالوساوس إلا نفسك ، لأنك تنصر بها الدهر عليك ، والله درّ القائل :

إِذَا مَا كُنْتَ لِلْأَحْزَانِ عَوْنًا عَلَيْكَ مَعَ الزَّمَانِ فَمَنْ تَلُومُ ؟

مع أنه لا يرد عليك الفائت الحزن ، ولا يعوى بطول عتبك الزمن ، ولقد
شاهدت بفرناطة شخصاً قد ألفت الموم ، وعشقت الموم ، من صغره إلى
كبره ، لا تراه أبداً خلياً من فكره ، حتى لُقّب بصدر الموم ، ومن أعجب ما
رأيت منه أنه يتكبد في الشدة ، ولا يتعل بأن يكون بعدها فرج ، ويتكبد في
الرخاء خوفاً من أن لا يدوم .

وَيُنْشِدُ : تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ ، وَيُنْشِدُ : وَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ الْمُتَطَاوِلُ .

وله من الحكايات في هذا الشأن عجائب ، ومثل هذا عُمره نخسور يعرضياً .
ومتى رفعت الزمان إلى قوم يذمّون من العلم ما تُحسِنُه حسداً لك ، وقصداً
لتصغير قدرك عندك ، وتزهداً لك فيه ، فلا يحميك ذلك على أن تهمد في علمك ،
وتزكّن إلى العلم الذي مدحوه ، فتكون مثل الغراب الذي أحجبه مشي الحجة^(١)

[١] الجبل بالتحريك : طائر على قدر الحمام كالقفا أحمر المقار والرجلين ، والواحدة حجلة ، واسم جمه
حجلى بكسر فسكون ففتح ولا نظير له سوى ظربي (ومفرده ظربان بفتح فسكون وهو دويبة منقنة الريح)

فَرَامُ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ فَصَعَّبَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَشِيهِ فَنَسِيَهُ ، فَبَقِيَ مُخْبِلًا
الْمَشَى ، كَمَا قِيلَ :

إِنْ الْغَرَابُ (وَكَانَ يَمْشِي مَشِيَّةً فِيمَا مَضَى مِنْ سَالِفِ الْأَجْيَالِ)^(١)
حَسَدًا لِقَطَا ، وَأَرَادَ يَمْشِي مَشِيهَا فَأَصَابَهُ ضَرْبٌ مِنَ الْعُقَالِ^(٢)
فَأُضِلَّ مَشِيَّتَهُ ، وَأَخْطَأَ مَشِيهَا فَلِذَلِكَ سَمَّوْهُ أَبَا مِرْقَالٍ^(٣)

وَلَا يُفْسِدُ خَاطِرُكَ مَنْ جَعَلَ يَدْمُ الزَّمَانَ وَأَهْلَهُ ، وَيَقُولُ : « مَا بَقِيَ فِي الدُّنْيَا
كَرِيمٌ وَلَا فَاضِلٌ ، وَلَا مَكَانٌ يُرْتَاخُ فِيهِ » ، فَإِنَّ الَّذِينَ تَرَاهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ،
أَكْثَرُ مَا يَكُونُونَ مِمَّنْ صَحِبَهُ الْحِرْمَانُ ، وَاسْتَحَقَّتْ طَلْعَتَهُ لِلْهَوَانِ ، وَأَبْرَمُوا^(٤)
عَلَى النَّاسِ بِالسُّؤَالِ فَمَقْتُوهُمْ ، وَعَجَزُوا عَنْ طَلْبِ الْأُمُورِ مِنْ وَجُوهِهَا ، فَاسْتَرَا حُوا
إِلَى الْوُقُوعِ فِي النَّاسِ ، وَإِقَامَةِ الْأَعْذَارِ لِأَنْفُسِهِمْ بِقَطْعِ أَسْبَابِهِمْ ، وَتَعْذِيرِ أُمُورِهِمْ ،
وَلَا تُزِلُّ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مِنْ فِكْرِكَ :

إِنْ إِذَا مَا نِلْتَ عِزًّا فَأَخُو الْعِزِّ يَلِينُ
فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

وَقَوْلِ الْآخِرِ :

تِهَ وَارْتَفِعْ إِنْ قِيلَ أَقْتَرُ ، وَانْخَفِضْ إِنْ قِيلَ أَثْرَى^(٥)
كَالْغَصَنِ يَسْفُلُ مَا أَكْتَمَى تَمَرًّا ، وَيَعْلُو مَا تَعَرَّى

[١] هَذَا الْبَيْتُ لَيْسَ مُثَبَّتًا فِي الْأَصْلِ ، وَقَدْ أوردَهُ الدَّمِيرِيُّ مَعَ الْبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ فِي حَيَاةِ الْحَيَوَانَ
الْكَبِيرِ ٢ : ٢٤٤ . [٢] الْعُقَالُ : دَاءٌ فِي رِجْلِ الدَّابَّةِ إِذَا مَشَى ظَلَعَ سَاعَةً ثُمَّ انْبَسَطَ .
[٣] مِنْ أَرْقَاتِ الدَّابَّةِ إِذَا أَسْرَعَتْ . [٤] أوردَ الْفِعْلَ لِأَزْمَا وَهُوَ مُتَعَدٌّ ، حَاءٌ فِي كِتَابِ اللُّغَةِ :
« أَبْرَمَهُ فَبْرَمَ كَفْرَحَ وَتَبْرَمَ : أَوْلَهُ فَلَّ » . [٥] أَقْتَرُ : انْقَطَرَ .

لا قول الآخر :

والشرُّ أَخْبَثُ مَا أُوعِيَتْ مِنْ زَادِ الْخَيْرِ يَبْتَقِي وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ
واعتقد في الناس ما قاله القائل :

وَمَنْ يَلْتَقِ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ
وقريب منه قول القائل :

بِقَدْرِ الصُّعُودِ يَكُونُ الْمَهْبُوطُ
وَكُنْ فِي مَكَانٍ إِذَا مَا سَقَطَتْ

وَتَحَفَّظُ بِمَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُ الْآخَرِ :

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذِمَّتِهِ
ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ

ولله درّ القائل :

مَا كُلُّ مَا فَوْقَ الْبَسِيطَةِ كَافِيًا
فَإِذَا قَنِعْتَ فَكُلَّ شَيْءٍ كَافِيًا

والأمثال يَضْرِبُهَا لِنَدَى اللَّبِّ الْحَكِيمِ ، وَذُو الْبَصْرِ يَمْشِي عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ،
وَالْفِطْنُ يَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ ، وَيَسْتَدَلُّ بِالْيَسِيرِ ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ ،

لَا رَبَّ سِوَاهُ . (فتح الطيب ١ : ٤٩٣)

٢٠ - خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف (توفي سنة ٧٢٨ هـ)

وخطب أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات ^(١) خطبة ألغيت الألف من

حروفها على كثرة ترددها في الكلام ، وهي :

[١] هو أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الخطيب المتصوف ، من أهل بلش مائة ولد سنة ٦٤٩ هـ ،
وتوفى سنة ٧٢٨ هـ . قال فيه لسان الدين بن الخطيب : « كان يفتح مجالسه أكثر الأحيان بخطب غريبة ،
يطبق بها مفاسل الأغراض التي يشرع فيها ، وينظم الشعر دائماً في مراجعته ومخاطبته وإجازته من غير
تأن ولا روية ، حتى اعتاده ملكة ، واستعمل في السفارات بين الملوك لسحق السخام ، وإصلاح الأمور ،
فكانوا يوجبون حقه ، ويكسبون بركته ودعاه » وله تصانيف كثيرة ذكرها ابن الخطيب .

« حِدَّتْ رَبِّي جَلَّ مِنْ كَرِيمٍ مَحْمُودٍ ، وَشَكَرْتُهُ عَزَّ مِنْ عَظِيمٍ مَعْبُودٍ ، وَنَزَّهْتُهُ عَنْ جَهْلٍ كُلِّ مُلْحِدٍ كَفُورٍ ، وَقَدَّسْتُهُ عَنْ قَوْلِ كُلِّ مُفْسِدٍ غَرُورٍ . كَبِيرٌ لَوْ تَقَوَّمَ فِي فَهْمٍ لِحُدِّ^(١) ، قَدِيرٌ لَوْ تَصَوَّرَ فِي رَسْمٍ لِحُدِّ^(٢) ، لَوْ عَرَّتَهُ^(٣) فِكْرَةٌ تَصَوَّرَ لِتَصَوَّرٍ ، وَلَوْ حَدَّتْهُ فِكْرَةٌ لَتَقَدَّرَ^(٤) ، وَلَوْ فَهَمَّتْ لَهُ كَيْفِيَّةٌ لِبَطَالِ قِدْمِهِ ، وَلَوْ عَلِمَتْ لَهُ كَيْفِيَّةٌ لِحَصَلِ عَدَمِهِ ، وَلَوْ حُصِرَ فِي ظَرْفٍ لَقُطِعَ بِتَجَسُّمِهِ ، وَلَوْ قَهَرَ وَصَفَ لَصُدِعَ^(٥) بِتَقْسُّمِهِ ، وَلَوْ فُرِضَ لَهُ شَبَحٌ لَرَهِقَهُ^(٦) كَيْفٌ . عَظِيمٌ مِنْ غَيْرِ تَرْكِيْبٍ قُطِرَ ، عَلِيمٌ مِنْ غَيْرِ تَرْتِيْبٍ فِكْرٍ ، مَوْجُودٌ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ يُنْسِكُهُ ، مَعْبُودٌ مِنْ غَيْرِ وَهْمٍ يُدْرِكُهُ ، كَرِيمٌ مِنْ غَيْرِ عَوْضٍ يُلْحَقُهُ ، حَكِيمٌ مِنْ غَيْرِ عَرَضٍ يُلْحَقُهُ^(٧) ، قَوِيٌّ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ يَجْمَعُهُ ، عَلِيٌّ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ يَرْفَعُهُ ، لَوْ وُجِدَ لَهُ جِنْسٌ لَعُورِضَ فِي قِيَوْمِيَّتِهِ^(٨) ، وَلَوْ ثَبَّتَ لَهُ حِسٌّ لَنُوزِعَ فِي دَيْمِيَّتِهِ^(٩) .

ومنها : تقدَّسَ وعزَّ فعلُهُ ، وتنزَّهَ عزَّ اسمُهُ وفضلهُ ، جلَّ قاهرٌ فدرتهُ ، وعزَّ باهرٌ عزَّتهُ ، وعظمتُ صِفَتُهُ ، وكثرتُ مِنِّيَّةُ ، فتَقَّ وَرَتَقَ ، وَصَوَّرَ وَخَلَقَ ، وَقَطَعَ وَوَصَلَ ، وَأَصَرَ وَخَذَلَ ، حَمِدْتُهُ حَمْدًا مِنْ عَرَفَ رَبَّهُ ، وَرَهَبَ ذَنْبَهُ ، وَصَفَّتْ حَقِيقَةُ يَقِينِهِ قَلْبَهُ ، وَزَكَتْ^(١٠) بِصِيْرَةِ دِينِهِ لُبَّهُ ، رَبَطَ سِلْكَ سَلْوَكِهِ

[١] أى لعرف ، من الحد : وهو التعريف . [٢] من التحديد ، أى لصارت له ذات محدودة ، ولو أنه قال : « قديم » بدل « قدير » لناسب أن يقول بعده : « لجد » بالجيم المفتوحة أى لصار جديداً حادثاً . [٣] عرته : أى اعترته وتناوته ، وفى الأصل « عدته » بالدال وأراه محرماً ، وتصوّر أى تمثل فى صورة ، يقال : صورته فتصور . [٤] لتقدر : أى صار له قدر مجسم ، وفى الأصل « لتقدر » وأراه محرماً . [٥] صدع به : جهر . [٦] رهقه : غشيه ولحقه .

[٧] يلحقه الأول : أى يناله وبأخذه ، ويلحقه الثانى بمعنى يتصف به .

[٨] القيوم : من أسمائه تعالى ، أى الذى لا يند له . [٩] الديمومة : الدوام .

[١٠] زكت : طهرت .

وَشَدَّ^(١)، وَهَدَمَ صَرَحَ عَتُوَّهُ وَهَدَّ، وَحَرَسَ مَعَقِلَ عَقْلِهِ وَحَدَّ، وَطَرَدَ غُرُورَ غِرَّتِهِ^(٢) وَرَذَلَهُ،^(٣) عِلْمٌ عِلْمٌ تَحْقِيقٌ فَهَذَا نَحْوُهُ، تُقَرَّرُ لَهُ عِزٌّ وَجَلٌّ بِثَبُوتِ رَبِّهِ وَوَقْدَمِهِ، وَنَعْتَقِدُ صَدُورَ كُلِّ جَوْهَرٍ وَعَرَضٍ عَنِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ، وَنَشْهَدُ بِتَبْلِيغِ مُحَمَّدٍ صَلَّى رَبُّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، رَسُولَهُ وَخَيْرِ خَلْقِهِ، وَنُعَلِّنُ بِنَهْوضِهِ فِي تَبْيِينِ فِرْضِهِ، وَتَبْلِيغِ شَرْعِهِ، ضَرْبَ قُبَّةِ شَرْعِهِ فَنَسَخَتْ كُلَّ شَرْعٍ، وَجَدَّدَتْ عِزِّمَتَهُ فَقَمَعَ عَدُوَّهُ خَيْرَ قَمَعٍ، قَوْمَ كُلِّ مَقَوْمٍ بِقَوِيمِ سُنَّتِهِ، وَكَرِيمِ هَدْيِهِ، وَبَيْنَ لِقَوْمِهِ كَيْفَ يَرَكُنُونَ^(٤)، فَفَازُوا بِقَصْدِهِ وَسَدِيدِ سَعْيِهِ، بِشَرِّ مُطِيعَةٍ فَظْفَرِ بَرَحْمَتِهِ، وَحَذَرِ حَاصِيَتِهِ فَشَقِيَّ بِنِقْمَتِهِ .

وبعد : فقد نصحتكم لو كنتم تعقلون ، وهديتكم لو كنتم تعلمون ، بُصِّرْتُمْ لو كنتم تُبْصِرُونَ ، وَذُكِّرْتُمْ لو كنتم تَذْكُرُونَ ، ظَهَرَتْ لَكُمْ حَقِيقَةُ نَشْرِكِكُمْ ، وَبَرَزَتْ لَكُمْ حَقِيقَةُ حَشْرِكِكُمْ ، فَكَمْ تَرَكَضُونَ فِي طَلْقِ^(٥) غَفْلَتِكُمْ ، وَتَنْقُلُونَ عَنِ يَوْمِ بَعْتِكُمْ ، وَالْمَوْتِ عَلَيْكُمْ سَيْفٌ مُسَلُولٌ ، وَحُكْمٌ عِزْمٌ غَيْرٌ مَعْلُولٌ ، فَكَيْفَ بِكُمْ يَوْمَ يُؤْخَذُ كُلُّ بَدَنِيَّةٍ ، وَيُنْخَبَرُ بِجَمِيعِ كَسْبِهِ ، وَيَفْرَقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَحْبِهِ ، وَيَعْدَمُ نُصْرَةَ حِزْبِهِ ، وَيَسْتَنْغِلُ بِهِمَّةً وَكَرْبَةً ، عَنِ صَدِيقِهِ وَتَرِيْبِهِ ، وَتُنَشَّرُ لَهُ رُقْعَةٌ ، وَتَمَيَّنَ لَهُ بُقْعَةٌ ؟ فَرَبِحَ عَبْدٌ نَظَرَ وَهُوَ فِي مَهَلٍ لِنَفْسِهِ ، وَتَرَسَّلَ فِي رَضِيٍّ عَمَلٍ جَنَّةٍ لِحُلُولِ رَمْسِهِ^(٦) ، وَكَتَرَصَنَمَ شَهْوَتِهِ ، لِيَقْرَأَ فِي بُحْبُوحَةٍ^(٧) قُدْسِهِ .

[١] في الأصل « وشيد » وأراه عرقاً عن « شد » إذ هي التي تلام قولها « وربط » .

[٢] الغرة : العلة . [٣] رذله وأرذله : عدّه رذلاً .

[٤] ركن إلى الشيء ركونا : مال إليه واطمأن ، أي بين لهم كيف يركنون إلى الحق والصواب ،

وقد كانوا من قلة يسهون في ضلالتهم ويخبطون .

[٥] يقال : جرى الفرس طلقاً أو طلقين : أي شوطاً أو شوطين . [٦] الرمس : القبر .

[٧] بحبوحة المكان : وسطه .

ومنها : فَتَنَّبَهُ - وَيَحْكُ - من سِنَتِكَ ونومك ، وتفكر فيمن هلك من مُحِبَّتِكَ وقومك ، هَتَفَ بهم مَنْ تَعَلَّمَ ، وَشَبَّ عليهم منه حَرَقٌ ^(١) مُظْلِمٌ ، نَخَرَبَتْ بِصِيحَتِهِ ربوعَهُمْ ، وتفرقت لهوله جُوعُهُمْ ، وذلك عزيزهم ، وَخَسِيٌّ رَفِيعُهُمْ ، وَصَمٌّ سَمِيعُهُمْ ، نَخَرَجَ كل منهم عن قصره ، وَرُمِيَ غيرَ مُوسَدٍ في قبره ، فَهُمُ بين سعيد في رَوْضَةٍ مُقَرَّبٍ ، وبين شَقِيٍّ في حُفْرَةٍ مَعْدَبٍ ، فنستوهبُ منه عزَّ وجلَّ عِصْمَةً من كلِّ خَطِيئَةٍ ، وَخُصُوصِيَّةً تَبْقَى من كلِّ نفسٍ جَرِيئَةٍ .

(الإحاطة ، في أخبار غرناطة ١ : ١٥٤)

٢١ - خطبة القاضي عياض التي ضمنها سور القرآن

وخطب القاضي أبو الفضل عياض ^(٢) خطبة ضمنها سور القرآن ، فقال :

« الحمد لله الذي افْتَتَحَ بالحمد كلامه ، وَبَيَّنَّ في سورة البقرة أحكامه ، وَمَدَّ في آلِ عِمْرَانَ والنساءِ مائدةَ الأَنْعَامِ لِيُتِمَّ إِنْعَامَهُ ، وجعل في الأعرافِ أنفَالَ تَوْبَةِ يُونُسَ وألرِ كِتَابِ أُحْكِمَتِ آيَاتُهُ ، بمجاورة يوسف الصِّدِّيقِ في دار الكرامة ، وَسَبَّحَ الرعدُ بحمده ، وجعل النارَ بَرْدًا وسلامًا على إبراهيم ، لِيُؤْمِنَ أَهْلُ الْحِجْرِ ^(٣) أَنَّهُ إِذَا أَتَى أَمْرُ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ فَلَا كَهْفَ وَلَا مَلْجَأَ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا يُظَاهَمُونَ قَوْلَامَهُ ، وجعل في حروف كَهْيَعَصَ سِرًّا مَكْنُونًا ، قَدَّمَ بسببه طه صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ، لِيُظْهَرَ إِجْلَالَهُ وَإِعْظَامَهُ ، وَأَوْضَحَ الْأَمْرَ حَتَّى حَبَّجَ الْمُؤْمِنُونَ

[١] الحرق : الذار ولهبها .

[٢] هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض ولد سنة ٤٧٦ هـ ، بسبته - بلد براكش على الساحل الشمالي - ودخل الأندلس طالباً للعلم ، فأخذ بقرطبة عن جماعة ، وجمع من الحديث كثيراً ، وكان له به كبير عناية ، وكان إمام وقته فيه ، وفي الجوز واللغة ، واستقصى ببلده سبته ، ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة ، وتوفي براكش سنة ٥٤٤ هـ ، قال المقرئ بعد أن أورد هذه الخطبة : « وفي نفسى من نسبتها له شيء ، لأن نفس القاضي في البلاغة أعلى من هذه الخطبة ، والله تعالى أعلم » .

[٣] واد بين المدينة والشام ، وهو منازل عمود .

بَنُورِ الْفُرْقَانِ ، وَالشُّعْرَاءِ صَارُوا كَالنَّمْلِ ذُلًّا وَصَغَارًا لِعِظَمَتِهِ ، وَظَهَرَتْ قَصَصُ الْعَنْكَبُوتِ فَأَمَّنَ بِهِ الرُّومُ ، وَأَيَقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ الْحَيِّ الْقَيُّومِ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى زَيْنِ مَنْ وَافَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَوْضَحَ لِقَمَانُ الْحِكْمَةَ بِالْأَمْرِ بِالسُّجُودِ لِرَبِّ الْأَحْزَابِ ، فَسَبَّأَ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ أَهْلَ الطَّاغُوتِ ، وَأَكْسَبَهُمْ ذُلًّا وَخِزْيًا وَحَسْرَةً وَنَدَامَةً ، وَأَمَدَّ يُسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَأْيِيدِ الصَّافَّاتِ (١) ، فَصَادَ الزُّمَرُ يَوْمَ بَدْرِهِ ، وَأَوْقَعَ بِهِمْ مَا أَوْقَعَ صِنَادِيدَهُمْ فِي الْقَلْبِ (٢) مَكْدُوسٌ وَمَكْبُوبٌ ، حِينَ سَأَلَتْ بِهِمُ النَّمَامَةُ (٣) ، وَغَفَرَ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ لِلْبَدْرِيِّينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ حِينَ فُصِّلَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، فَذَلَّ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ وَأَيْسَرَ مِنَ السَّلَامَةِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ أَمْرَهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ، وَشَغَلَهُمْ زُخْرُفُ الْآخِرَةِ عَنِ ذُخَانِ الدُّنْيَا ، فَجَثُّوا أَمَامَ الْأَخْقَافِ (٤) لِقِتَالِ أَعْدَاءِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ وَخَلْفَهُ وَأَمَامَهُ ، فَأَعْطَوْا الْفَتْحَ وَبُوتُوا حُجْرَاتِ الْجِنَانِ ، وَحِينَ تَلَّوْا : قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، وَتَدَبَّرُوا جَوَابَ قَسَمِ النَّارِيَّاتِ (٥) وَالطُّورِ ، لَاحَ لَهُمْ نَجْمُ الْحَقِيقَةِ ، وَانْشَقَّ لَهُمْ قَمَرُ الْيَقِينِ ، فَنَافَرُوا السَّامَةَ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَمَّنُّهُمْ الرَّحْمَنُ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ، وَاعْتَرَفَ بِالضَّعْفِ لَهُمُ الْحَدِيدُ ، وَهَزَمَ الْمَجَادِلُونَ ، وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، يُخْرِبُونَ يُبْتِغِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، حِينَ نَافَرُوا السَّلَامَةَ .

أَحْمَدُهُ حَمْدًا مِنْ أَمْتَحَنَتِهِ صَفُوفُ الْجَمُوعِ فِي نَفَقِ التَّغَابُنِ ، فَطَلَّقَ الْحُرْمَاتِ حِينَ اعْتَبَرَ الْمَلِكُ وَعَامَهُ ، وَقَدْ سَمِعَ صَرِيْفَ الْقَلَمِ وَكَأَنَّهُ بِالْحَاقَّةِ (٦) وَالْمَعَارِجِ يَمِينَهُ

[١] الملائكة تصف نفوسها للعبادة . [٢] القلب : البئر .

[٣] سألت لغاتهم : خفت منازلهم منهم ، أو تفرقت كلمتهم ، أو ذهب مزيم .

[٤] واد باليمن به منازل عاد . [٥] الناريات : الرياح تندرو التراب وغيره .

[٦] الحاققة : الحاققة .

وَسَمَّاهُ وَخَلْفَهُ وَأَمَامَهُ ، وَقَدْ نَاحَ نُوْحُ الْجِنِّ فَتَزَمَّلَ ^(١) وَتَدَثَّرَ فَرَقًا مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَنْسَ بِمُرْسَلَاتِ النَّبَأِ ، فَزَرَعَ الْعُبُوسَ مِنْ تَحْتِ كُورِ الْعِمَامَةِ ، وَظَهَرَ لَهُ بِالْإِنْقِطَارِ التَّطْفِيفُ ، فَانْشَقَّتْ بُرُوجُ الطَّارِقِ بِتَسْبِيحِ الْمَلِكِ الْأَعْلَى وَغَشِيَتْهُ الشَّهَامَةُ ، فَوَرَبَّ الْفَجْرِ وَالْبَلَدِ وَالشَّمْسِ وَاللَّيْلِ وَالضُّحَى ، لَقَدْ انْشَرَحَتْ صُدُورُ الْمُتَّقِينَ ، حِينَ تَلَوْا سُورَةَ التِّينِ ، وَعَلِقَ الْإِيمَانَ بِقُلُوبِهِمْ ، فَكَلَّ عَلَى قَدَرِ مَقَامِهِ يُبِينُ ، وَلَمْ يَكُونُوا بِعَنْفَكَيْنِ دَهْرَهُمْ ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَصِيَامَهُ وَقِيَامَهُ ، إِذَا ذَكَرُوا الزَّائِلَةَ رَكَبُوا الْعَادِيَاتِ ^(٢) لِيَطْفُقُوا نُورَ الْقَارِعَةِ ، وَلَمْ يُلْهِمِهِمُ التَّكَاثُرَ حِينَ تَلَوْا سُورَةَ الْعَصْرِ وَالْهُمَزَةَ ، وَتَمَثَّلُوا بِأَصْحَابِ الْفِيلِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ، وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ، أَرَأَيْتَهُمْ كَيْفَ جَعَلُوا عَلَى رءِ وَسْهُمْ مِنَ الْكُورِ عِمَامَةً ؟ فَالْكُوْثِرُ ^(٣) مَكْتُوبٌ لَهُمْ ، وَالْكَافِرُونَ خُذِلُوا ، وَهُمْ نُصِرُوا ، وَعَدِلَ بِهِمْ عَنْ لَهَبِ الطَّامَةِ ، وَبِسُورَةِ الْإِخْلَاصِ قَرُّوا وَسَعِدُوا ، وَبِرَبِّ الْفَلَقِ ^(٤) وَالنَّاسِ ، اسْتَعَاذُوا فَأُعِيدُوا مِنْ كُلِّ حُزْنٍ وَهُمْ وَغَمٍّ وَنَدَامَةٍ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، شَهَادَةٌ تُنَالُ بِهَا مَنَازِلُ الْكِرَامَةِ ، صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَا غَرَّدَتْ فِي الْأَيْكِ حَمَامَةٌ . (نَفْحِ الطَّيْبِ ٤ : ٣٩١)

٢٢ - خطبة سعيد بن أحمد المقرئ التي ضمنها سور القرآن

وخطب سعيد بن أحمد المقرئ ^(٥) خطبة على هذا النمط نصها :

« الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة، ليصطفى من آل عمران

[١] تزل بئيا به : تلف بها ، وكذا تدثر .

[٢] الخيل تعدو في الغزو ، والقارعة التي تفرع القلوب بأهوالها .

[٣] الكوثر : نهر في الجنة . [٤] الفلق : الصبح .

[٥] هو سعيد بن أحمد المقرئ عم أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب .

رجالاً ونساءً، وفضلهم تفضيلاً، ومدة ماأئدة لإنعامه ورزقه، يعرِف أعراف أنفالِ كرمه وحقه على أهل التوبة، وجعل ليونسَ في بطن الحوت سبيلاً، ونجى هوداً من كربه وحزنه، كما خلص يوسف من جُبّه وسجنه، وسبّح الرعدُ بحمده ومِئنه، واتخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً، الذي جعل في حجرِ الحجرِ من النحل شراباً نوع باختلاف ألوانه، وأوحى إليه بخفي لطفه سبحانه، واتخذ منه كهفاً قد شيّد بنيانه، وأرسل رُوحه إلى مريم فتمثل لها تمثيلاً، وفضل طه على جميع الأنبياء، فأتى بالحج والكتاب المكنون، حيث دما إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون، إذ جعل نور الفرقان دليلاً، وصدق محمداً صلى الله عليه وسلم الذي عجزت الشعراء في صدق نعته، وشهدت النملُ بصدق بعثه، ويين قصص الأنبياء في مدة مكثه، ونسج العنكبوت عليه في الغار ستراً مسدولاً، ومثلت قلوب الروم رُعباً من هيئته، وتعلم لقمان الحكمة من حكته، وهدى أهل السجدة للإيمان بدعوته، وهزَم الأحزاب وسبام وأخذهم أخذاً ويلاً، فلَقَّبَهُ فاطِرُ السموات والأرض يساً، كما نفذ حكمة في الصافات، ويين صن صدقه بإظهار المعجزات، وفرق زمر المشركين، وصبر على أقوالهم وهجرهم هجراً جيلاً، فغفر له غافر الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وفصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم شورى بينهم، وزخرف منار الإسلام، وخفي دخان الشرك، وخرت المشركون جاثية، كما أندر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلاً، وأذل الذين كفروا بشدة القتال، وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز، وحجر الحُجرات الحريز، وبق القدرة قتل الحراصون^(١) تقتيلاً، كلم موسى على جبل

الطُّور ، فارتقى نجم محمد صلى الله عليه وسلم ، فاقتربت بطاعته مبادئ السرور ، وأوقع الرحمن واقعة الصبح على بساط النور ، فتعجب الحديد من قوته ، وكثرة المجادلة في أمته ، إلى أن أُعيد في الحشر بأحسن مَقِيلاً ، امتحنه في صفِّ الأنبياء وصلى بهم إماماً ، وفي تلك الجمعة مُائتِ قلوبُ المنافقين من التغابن خُسراً وإرغاماً ، فطلق وحرّم ، تبارك الذي أعطاه المُلك ، وعلم بالقلم ، ورتل القرآن ترتيلاً ، وعن علم الحاقّة كم سأل سائل فسأل الإيمان ، ودعا به نوح فنجاه الله تعالى من الطوفان ، وأتت إليه طائفة الجن يستمعون القرآن ، فأُنزل عليه : « يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا » ، فكم من مُدَثِّرِ يوم القيامة شفقةً على الإنسان إذا أرسل مُرْسَلاتِ الدمع ، فعمّ يتساءلون أهل الكتاب ، وما تقبل من نازعات المشركين إذا عبس عليهم مالك وتولّاهم بالعذاب ، وَكُوِّرَتِ الشَّمْسُ وانفطرت السماء ، وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ، فَوَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ إذا انشقت السماء بالغمام ، وَطُوِيَتْ ذَاتُ الْبُرُوجِ ، وَطَرَقَ طَارِقُ الصُّورِ بالنفخ للقيام ، وعزّ اسم ربك الأعلى لغاشية الفجر ، فيومئذ لا بلد ولا شمس ولا ليل طويلاً ، فَطُوبَىٰ لِلْمُصَلِّينَ الضحى عند انشراح صدورهم ، إذا عاينوا التين والزيتون وأشجار الجنة ، فسجدوا بِأَقْرَأِ اسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ هَذَا النَّعِيمَ الأكبر لأهل هذه الدار ما أحيوا ليلة القدر ، وتبتلوا تبتيلاً ، ولم يكن للذين كفروا من أهل الكتاب من أهل الزلزلة من صديق ولا حميم ، وتسوقهم كالعاديات إلى سواء^(١) الجحيم ، وزلزلت بهم قارعة العقاب ، وقيل لهم : أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، هذا عصر العقاب الأيم ، وَحُشِرَ الهُمَزَةُ وأصحاب الفيل إلى النار فلا يظلمون فتية ، وقالت قریش ما أمنت من

هول الحشر، رأيت الذى يكذبُ بالدين كيف طُرد عن الكوثر؟ وسيبى الكافرون إلى النار، وجاء نصر الله والفتح، فثبتت يداً أبى لهب: إذ لا يجد إلى سورة الإخلاص سبيلاً، فنعوذ برب الفلق من شر ما خلق، ونعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى فسق، وتوب إليه وتوكل عليه وكفى بالله وكيلاً». (فتح الطيب ٤ : ٣٩٢)

٢٣ - خطبة الكفعمى التى ضمنها سور القرآن أيضا

وخطب الكفعمى ^(١) خطبة على هذا النمط أيضا نصها :

« الحمد لله الذى شرف النبي العربى بالسبع المثانى وخواتيم البقرة، من بين الأنام، وفضل آل عمران على الرجال والنساء، بما وهب لهم من مائدة الأنعام، ومنحهم بأعراف الأتقال، وكتب لهم براءة من الآنام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذى نبجى يونس وهودا ويوسف من قومهم، برعد الانتقام، وغذى إبراهيم فى الحجر بلعاب النحل ذات الإسرار، فضاهى كهف مريم عليها السلام، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى هو طه الأنبياء، وحج المؤمنين، ونور فرقان الملك العلام، فاشعراء والنمل بفضلته ثمخبر، ولقصص العنكبوت الروم تذكراً، ولقمان فى سجدته يشكراً، والأحزاب كأيدى سبأ تقهر، وفاطريس لصافاته ينصر، وصاد مقله زمرة تنظر الأعلام، قال خم يقتال فتحه فى حجرات قافه قد ظهرت، وذاريات طوره ونجمه وقره قد عطرت، وبالرحمن واقعة حديده يوم المجادلة قد نصرت، وأبصار معانديه فى الحشر يوم

[١] قال صاحب فتح الطيب فى ترجمته : « هو إبراهيم بن على بن حس بن محمد بن صالح نسبة إلى كفر عتمة قرية من قرى أعمال نجد كما تقول فى النسبة لكى بن همدان بن عبد رى، ولك حسن كيفا : حصكى» .

الامتحان حَسَرَتْ (١) ، وَصَفَّ جمعته فأثر إذ أجساد المنافقين بالتغابن استعرت ،
وله الطلاق والتحرير وَمَقَامَ الْمَلِكِ والقلم ، فزاهيك به من مقام ، وفي الحاقة ،
أَعْلَى اللهُ لَهُ المَعَارِجِ نوح المطهر ، وخصه من بين الإنس والجن بِبَيِّئَاتِهَا الْمُزْمَلُ ،
وَبَيِّئَاتِهَا الْمُدْتَرُّ ، وَشَفَعَهُ فِي الْقِيَامَةِ إِذَا دَمَوْعَ الْإِنْسَانِ مُرْسَلَاتٍ كَالْمَاءِ الْمُتَفَجِّرِ ،
وَوَجْهَهُ عِنْدَ نَبِيِّ النَّازِعَاتِ وَقَدْ عَبَسَ الْوَجْهَ كَالْهَلَالِ الْمُتَوَوِّرِ ، وَيَوْمَ التَّكْوِينِ
وَالْإِنْفِطَارِ وَهَلَاكِ الْمَطْفِقِينَ وَانْشِقَاقِ ذَاتِ الْبُرُوجِ بِشَفَاعَتِهِ غَيْرِ مُتَضَجِّرِ ، وَقَدْ
حُرِسَتْ لِمَوْلِدِهِ السَّمَاءُ بِالطَّارِقِ الْأَعْلَى ، وَتَمَّتْ غَاشِيَةَ الْعَذَابِ إِلَى الْفَجْرِ عَلَى الْمَرْدَةِ
اللثام ، فَهُوَ الْبَلَدُ الْأَمِينُ وَشَمْسُ اللَّيْلِ وَالضُّحَى الْمَخْصُوصُ بِإِنْشِرَاحِ الصُّدْرِ ،
وَالْمَفْضَلُ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ، الْمُسْتَخْرَجُ مِنْ أَمْشَاجِ (٢) الْعَلَقِ ، الطَّاهِرُ الْعَلِيُّ الْقَدْرُ ،
شَجَاعُ الْبَرِيَّةِ يَوْمَ الزَّلْزَالِ ، إِذْ عَادِيَاتِ الْقَارِعَةِ تَدُوسُ أَهْلَ التَّكَاثُرِ وَمَشْرُكِي الْعَصْرِ ،
أَهْلَكَ اللهُ بِهِ الْهُمَزَةَ وَأَصْحَابَ الْفِيلِ إِذْ مَكَرُوا وَبَقْرِيشَ وَلَمْ يَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَلَمْ
يَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ، الْمَخْصُوصُ بِالْدِينِ الْحَنِيفِيِّ وَالْكَوْثَرِ السَّلْسَالِ ، وَالْمَوْئِدُ عَلَى أَهْلِ
الْجَحْدِ بِالنَّصْرِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَا تَبَيَّنَتْ يَدَا مُؤَادِيهِ ، وَنَعِمَ بِالتَّوْحِيدِ
مُؤَالِيهِ ، وَمَا أَفْصَحَ فَلَقُ الصَّبْحِ بَيْنَ النَّاسِ وَامْتَدَّ الظَّلَامُ .

(نفع الطيب ٤ : ٣٩٥)



[١] حسر البصر كضرب : كلٌّ فهو حسير . [٢] مشح بينهما كضرب : خلط ، والنبيء مشيح ،
والجمع أمشاج كتييم وأيتام .

الباب الثاني

في

خطب ووصايا مجهول عصرها أوقائلها

١ - خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة

لما ولي أبو بكر بن عبد الله المدينة^(١) وطال مكثه عليها ، كان يبلغه عن قوم من أهلها أنهم ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإسعاف من آخرين لهم على ذلك ، فأمر أهل البيوتات ووجوه الناس في يوم جمعة أن يقربوا من المنبر ، فلما فرغ من خطبة الجمعة قال :

« أيها الناس : إني قائل قولاً ، فمن وعاه وأداه فعلى الله جزاؤه ، ومن لم

[١] لا أعرف صاحب هذا الاسم والياً على المدينة ، وإنما الذي قرأته في تاريخ الطبري أن أبا بكر بن عبد الله بن عمرو بن حزم الأنصاري ولي المدينة من سنة ٩٦ إلى سنة ١٠٠ في خلافة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز « انظر تاريخ الطبري ، الجزء الثامن ، حوادث السنين من ٩٦ إلى ١٠٠ » وذكر أيضاً القلقشندي في صبح الأعشى « ج ٤ : ص ٢٩٦ » أن أبا بكر بن عبد الله ولي المدينة أيام سليمان بن عبد الملك ، والظاهر أنه صاحب هذه الخطبة ، وإني لأستأس في ذلك بقوله : « وطال مكثه عليها » فقد تولاهما خمس سنين ، وبالفرض الذي قيلت فيه الخطبة ، وأنت تذكر ما كان في العهد الأموي من اتساع دائرة الاختلاف الحزبي ، والنضال السياسي البعيد المدى ، وربما كان « عبد الله » اسماً آخر لأبيه عبد الله ، تسمى به تواضعاً ، وكان ذلك من عادة السلف الصالح رضوان الله عليهم كثيراً ، انظر مثلاً كتاب عمر في صلح أهل إيليا « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان » . (الطبري ٤ : ١٥٩) .

يَعَهُ فَلَا يَمَعُدُّ مِنْ ذِمَامِهَا ^(١) إِنْ قَصَّرْتُمْ عَنْ تَفْصِيلِهِ ، فَلَنْ تَعْجِزُوا عَنْ تَحْصِيلِهِ ، فَأَرْغُوهُ أَبْصَارَكُمْ ، وَأَوْعُوهُ أَسْمَاعَكُمْ ، وَأَشْمِرُوهُ ^(٢) قُلُوبَكُمْ ، فَاَلْمَوْعِظَةُ حَيَاةٌ ، وَالْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ « وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ ^(٣) السَّبِيلِ » ، « وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » فَاتُوا الْهَدَى تَهْتَدُوا ، وَاجْتَنِبُوا النَّعَى تَرْشُدُوا ، « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، وَاللَّهُ جَلٌّ ثَنَاؤُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، أَمْرُكُمْ بِالْجَمَاعَةِ ، وَرَضِيهَا لَكُمْ ، وَنَهَاكُمْ عَنِ الْفُرْقَةِ ، وَسَخَطَهَا مِنْكُمْ ، فِ « أَلْتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ^(٤) وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا ^(٥) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » ، جَعَلْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ تَبِعَ رِضْوَانَهُ ، وَتَجَنَّبَ سُخْطَهُ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ .

وَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالدِّينِ ، وَاخْتَارَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَابًا عَلَى الْحَقِّ ، وَوَزَّرَهُ دُونَ الْخَلْقِ ، اخْتَصَمَهُمْ بِهِ ، وَاتَّخَبَهُمْ لَهُ ، فَصَدَّقُوهُ وَنَصَرُوهُ ، وَعَزَّرُوهُ ^(٦) وَوَقَّرُوهُ ، فَلَمْ يُقَدِّمُوا إِلَّا بِأَمْرِهِ ، وَلَمْ يُحْجِبُوا إِلَّا عَنِ رَأْيِهِ ، وَكَانُوا أَعْوَانَهُ بِمَعْدِهِ ، وَخُلَفَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَوَصَفَهُمْ فَأَحْسَنَ صِفَتَهُمْ ، وَذَكَرَهُمْ فَأَثْنَى عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ - وَقَوْلُهُ الْحَقُّ - : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ

[١] أَى فَلَا يَخْرُجُ عَنْ حَرَمَتِهَا ، وَتَأْنِيثُ الضَّمِيرِ فِي « ذِمَامِهَا » بِإِعْتِبَارِ الْمَوْعِظَةِ أَوْ الْمَقَالَةِ .

[٢] أَى الزَّفْعُ بِهِ . [٣] الْقَصْدُ : اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقِ ، أَى بَيَانُ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ الْمَوْصِلِ إِلَى الْحَقِّ .

[٤] النِّقَاةُ : التَّقْوَى ، وَجَمْعُهَا تَقَى كَرَطِبَةٌ وَرَطْبٌ ، وَأَصْلُهَا وَقِيَةٌ قَلْبٌ وَأَوَّاهَا الْمَضْمُومَةُ تَاءً ، كَمَا فِي تَوْذُوعِ

وَتَعْجَمَةٍ ، وَالْبَاءُ أَلْفًا . [٥] الشِّفَا : حَرْفٌ كُلُّ شَيْءٍ .

[٦] التَّمْزِيرُ : التَّفْخِيمُ وَالتَّعْظِيمُ « وَهُوَ أَيْضًا أَشَدُّ الضَّرْبِ . ضِدُّ » .

وَرِضْوَانًا ، سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ،
 وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ ^(١) ، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى
 عَلَى سُوقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ، لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ، « فَمَنْ غَاظَهُ كَفَرَ
 وَخَابَ ، وَفَجَّرَ وَخَسِرَ ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ
 أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنْصُرُونَ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ، وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْتُونَ
 عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ^(٢) ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ ، وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ
 سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ
 رَحِيمٌ » فَمَنْ خَالَفَ شَرِيطَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ لَهُمْ ، وَأَمْرَهُ إِيَّاهُمْ فِيهِمْ ، فَلَا حَقَّ لَهُ فِي النَّبِيِّ
 وَلَا سَهْمَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ ، فِي آيٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ .

فَرَقَتْ مَارِقَةً مِنَ الدِّينِ ، وَفَارَقُوا الْمَسْلُومِينَ ، وَجَعَلُوهُمْ عِضِينَ ^(٣) ، وَتَشَعَّبُوا
 أَحْزَابًا ، أَشَابَاتٍ وَأَوْشَابًا ^(٤) ، نَخَالَفُوا كِتَابَ اللَّهِ فِيهِمْ ، وَثَنَاءَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَذْوَا
 رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ ، نَخَابُوا وَخَسَرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ « ذَلِكَ هُوَ
 الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » . « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَتْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زِينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ

[١] أى ذلك مثلمهم فى الكتاب ، والشطء : فراخ الزرع ، فأزره أى فقواه ، فاستوى على سوقه :
 أى قام على أصوله وسيقانه . [٢] يؤثرون : يفضلون ويقدمون ، والخصاصة : الحاجة والفقير .
 [٣] جمع عضة كعدة : وهى الفرقة والقطعة . [٤] أشابات جمع أشابة : وهى الأخلاط ، وأشبه
 كفره : خلطه ، والأوشاب جمع وشب كحمل ، والأوباش جمع وبش كسبب : الأخلاط والسفلة .

وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ؟ « مالى أرى عيوننا خُزراً ^(١) ، ورقابنا صُغراً ^(٢) ، وبطوننا يُجراً ^(٣) ، شَجَا لا يُسِيغُه الماء ^(٤) ، وداء لا يُشرب فيه الدواء ، « أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُتْسِرِّفِينَ ؟ » كلا والله ، بل هو الهناء ^(٥) والطلاء ، حتى يظهر العُذر ، وَيَبُوح السَّرُّ ، وَيَضْحَح الغَيْبُ ، وَيُسْوَس الجُنُبُ ^(٦) ، فإنكم لم تُخْلَقُوا عَبَثًا ، ولم تُتْرَكُوا سُدىً ، وَيُحْكَمُ إِنْى لست أتأويًا ^(٧) أَعْلَمُ ، ولا بدويًا أَفْهَمُ ، قد حَلَبْتُمْ أَشْطُرًا ^(٨) ، وَقَلَبْتُمْ أَبْطُنًا وأظهرًا ، فعرفت أنحاءكم وأهواءكم ، وعلمت أن قوماً أظهروا الإسلام بالأسنتهم ، وأسروا الكفر فى قلوبهم ، فضربوا بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض ، وولّدوا الروايات فيهم ، وَضَرَبُوا الأمثالَ ، ووجدوا على ذلك من أهل الجهل من أبناءهم أعوانًا يَأْذَنُونَ ^(٩) لهم ، وَيُصْنَعُونَ إليهم ، مَهْلًا مَهْلًا قبل وقوع القوارع ^(١٠) ، وطولِ الروائع ، هذا لهذا ومع هذا ^(١١) ، فلست أعتنِش ^(١٢) آئبًا ولا تائبًا ، « عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » ،

[١] جمع خزراء مؤنث أخزر وصف من الحزر بالتحريك ، وهو الطرقي أحد الشقيين .

[٢] الصعر بالتحريك ميل فى الوجه ، أو فى أحد الشقيين ، أو داء فى البعير يلوى عنقه منه ، صعر كفرح فهو أصعر .

[٣] بجر بطنه كفرح أيضاً فهو أبجر : عظم ، والجم بجر كحمر .

[٤] الشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه ، لا يسيفه : أى لا يجعله سائماً سهلاً المدخل فى الحلق .

[٥] الهناء : الفطران ، يريد أنه يمالجهم كما تطفى الإبل الحربي بالفطران لمداواتها .

[٦] باح السرت : ظهر ، وباح بصره : أظهره ، ووضع يصح وانضح واحد ، ويسوس : أى يروض

ويذل ، مضاعف ساسه يسوسه . يقال : سوست له أمراً إذا روضته وذلته ، والجنب : الصعب الذى لا ينقاد .

[٧] الأتأوى : الغريب عن القوم . [٨] اقتبسه من المثل المشهور : « حلب الدهر أشطره » وللأفة شطران ، قادمان وآخران ، فكل خالفين شطر بفتح الشين - والحلب للأنفة كالضرع للبقرة - وأشطره منصوب على البدل ، فكأنه قال : حلب أشطر الدهر ، والمعنى : اختبر الدهر وعرف

خيريه وشره . [٩] أذن له وإليه كفرح : استمع . [١٠] القوارع جمع فارعة : وهى الداهية الفاجئة ، والروائع جمع رائعة ، وهى المفزعة . [١١] أى هذا الذى أتهددكم به من القوارع والروائع ، لهذا الذى تخوضون فيه ، ومقرون به . [١٢] اعتنشه : ظاهه .

فَأَسْرُوا خَيْرًا وَأَظْهَرُوا ، وَأَجْهَرُوا بِهِ وَأَخْلَصُوا ، فَطالما مَشَيْتُمْ الْقَهْقَرَى
 نَا كِصِينَ ، وَلَيَعْلَمُ مَنْ أَدْبَرُوا أَصْرًا أَنَّهُا . وَعِظَةُ بَيْنَ يَدَيِ تِقْمَةٍ ، وَلَسْتُ أَدْعُوكُمْ
 إِلَى أَهْوَاءِ تُتَّبَعُ ، وَلَا إِلَى رَأْيٍ يُتَّبَعُ ، إِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِيِّ ، الَّتِي
 فِيهَا خَيْرُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، فَمَنْ أَجَابَ فَإِلَى رَشْدِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعِنَ قَصْدِهِ ، فَهَلُمَّ
 إِلَى الشَّرَائِعِ الْجَدَائِعِ ^(١) ، وَلَا تُوتَلُوا عَنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَسْتَبَدِّلُوا الَّذِي هُوَ
 أُذُنِي ^(٢) بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ « بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » .

إِيَّاكُمْ وَبُنْيَاتِ ^(٣) الطَّرِيقِ ، فَعِنْدَهَا التَّرْنِيقُ وَالرَّهَقُ ^(٤) ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَادَةِ ،
 فَهِيَ أَسَدٌ ^(٥) وَأَوْزُدٌ ، وَدَعَا الْأَمَانِيَّ فَقَدَّارُذَتْ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ
 إِلَّا مَسَعَى ، وَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ، وَ « لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَتِكُمْ » ^(٦)
 بِعَذَابٍ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى « . رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ،
 وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٥٦ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٢٠)

[١] الذي في كتب اللغة : « جداء كسحاب وقطام : السنة الشديدة تجدد بالمال وتذهب به » وهذه
 الكلمة هي التي يسوغ أن تجمع على جدائع ، ولكنها لا تناسب المقام هنا ، فلعل الأصل « الجوادع »
 جمع جادعة : وهي الفاطمة ، يريد المصراع الصحيحة الحقة لأنها تقطع الباطل وترهقه كأنه يقول : انبوا
 الحطة الحاسمة ، أو الجدائع جمع جدوع كمجوز صيغة مبالغة من جادعة ، وفي التعليق على نهاية الأرب
 « ولعله الجوامع : أي التي تجمع الناس على اتباعها ، كما يدل عليه ما بعده » .

[٢] أي أخس وأدون قدرا ، وأصل الدنو : القرب في المكان استعير للخسة كما استعير البعد للشرف
 والرفعة ، أو هو مسهل عن أدنا من الدناءة ، وقد قرئ في الآية الكريمة : « أَنْتَبَدِلُونَ الَّذِي
 هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » . [٣] بنيات الطريق : الترهات (جمع ترمة كقبرة وهي الطريق

الصغيرة المنشعبة من الجادة ، أي اسلكوا الطريق العام طريق الجماعة ، ولا تعرجوا في سواه .
 [٤] الترنيق : الضعف في الأمر « وفي البصر والبدن أيضا » ، والرهق : السفه والحق والحفة ،
 وركوب المرء والظلم ، وغشيان الحرام . [٥] أفل ، من السداد . [٦] أسحته : استأصله .

٢ - وصية أعمى من الأزدي لشاب يقوده

عن هشام بن محمد بن السائب عن أبيه قال : رأيت ببِيشة^(١) رجلاً من أزدي السراة أعمى ، يقوده شاب جميل ، وهو يقول له : « يا سُمَيَّ ، لا يَغُرُّكَ أَنْ فَسَّحَ الشَّبَابُ خَطْوَكَ ، وَخَلَّى سَرَّكَ ، وَأَرْفَعَهُ وَرَدَّكَ^(٢) ، فَكَأَنَّكَ بِالْكَبَرِ قَدْ أَرَبَ ظَوْفَكَ ، وَأَثْقَلَ أَوْقَكَ ، وَأَوْهَنَ طَوْقَكَ^(٣) ، وَأَتَمَّبَ سَوْقَكَ ، فَهَدَجْتَ بَعْدَ الِهْمَلِجَةِ ، وَدَجَجْتَ بَعْدَ الدَّعْلِجَةِ^(٤) ، نَخَذُ مِنْ أَيَّامِ التَّرْفِيهِ لِأَيَّامِ الْإِنْزَعَاكِ ، وَمِنْ سَاعَاتِ الْمُهْمَلَةِ لِسَاعَةِ الْإِعْجَالِ^(٥) ، يَا بَنَ أَخِي : إِنْ اغْتَرَّكَ بِالشَّبَابِ ، كَالْتِذَاذِكِ بِسَمَادِيرِ^(٦) الْأَحْلَامِ ، ثُمَّ تَنْقِشِعْ ، فَلَا تَتَمَسَّكَ مِنْهَا إِلَّا بِالْحَسْرَةِ عَلَيْهَا ، ثُمَّ تُعَرِّى رَاحِلَةَ الصَّبَا ، وَتَشْرَبُ سَلْوَةً^(٧) عَنِ الْهَوَى ، وَاعْلَمْ أَنَّ أَغْنَى النَّاسِ يَوْمَ الْفَقْرِ مِنْ قَدَمِ ذَخِيرَةٍ ، وَأَشَدَّهُمْ اغْتِبَاطًا يَوْمَ الْحَسْرَةِ مِنْ أَحْسَنِ سَرِيرَةٍ .

(الأمل : ٢ : ٣١٦)

٣ - وصية رجل لآخر وقد أراد سفراً

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلاً يوصي آخر وأراد سفراً ، فقال :

[١] بيشة : واد بطريق اليمامة . [٢] السرب : الطريق والوجه ، ورفعت الإبل كنعج : وردت الماء متى شاءت ، وقد أرنهتها ورفهتها بالتشديد . [٣] أرب العقد : شدة ، والأربة بالضم : العقدة ، وظاف البير يظوفه : إذا داني بين قيديه ، والقينان بفتح القاف موضعاً القيد من الوظيف ، والأوق : النقل ، والظوق : الوسع والطاقاة . [٤] الهدجان تكفقان وغراب : مشية الشيخ ، هديج كضرب ، والهملجة : سرعة في المشي ، وديج كضرب دجيجاً ، سريراً صعيماً ، والدعلجة : ضرب من المشي ، والتردد في الذهاب والمجيء ، والدحرجة . [٥] رفه عيشه ككرم فهو رفيه ورافه : مستريح متنعم ، وأرفهه الله ورفهه ترفيهاً ، ومن ساطات الهملة أي الدنيا المهملة : أي التي ستهملها وتقادرها ، وربما كانت « الهملة » [٦] السمادير : ما يترامى للإنسان في نومه من الأباطيل ، وما يترامى السكران في سكره . [٧] السلوة : اسم بمعنى السلوان . قال الأصمعي : يقول الرجل لصاحبه : « سقيني سلوة (بالفتح) وسلوانا (بالضم) » أي طيبت نفسي عك ، وذكروا أيضاً أن السلوة والسلوانة : خرزة شفافة تدفن في الرمل فتسود فيبحث عنها ، ويسقاها الإنسان فتسليه .

« آثِرْ بِمَمْلَكَ مَعَادَكَ ، وَلَا تَدْعُ لَشَهْوَتِكَ رَشَادَكَ ، وَلِيَكُنْ عَقْلُكَ وَزِيرَكَ
الَّذِي يَدْعُوكَ إِلَى الْهُدَى ، وَيَقْصِيكَ مِنَ الرَّدَى ، أَلْجِمِ هَوَاكَ عَنِ الْفَوَاحِشِ ،
وَأَطْلِقْهُ فِي الْمَكَارِمِ ، فَإِنَّكَ تَبْرُهُ بِذَلِكَ سَلَفَكَ ، وَتَشِيدُ شَرَفَكَ » .

(الامالي ١ : ٢٠٠)

٤ - وصية رجل لابنه وقد أراد التزوج

وقال بعضهم لولده وقد أراد التزوج :

« يَا بَنِي : لَا تَخِذْهَا حَنَانَةً ، وَلَا أَنْانَةً ، وَلَا مَنَانَةً ^(١) ، وَلَا عُشْبَةَ الدَّارِ ^(٢) ،

وَلَا كُبَّةَ الْقَفَا ^(٣) » . (الأمال ٢ : ٢٦٠)

٥ - وصية بعض العلماء لابنه

وأوصى بعض العلماء ابنه فقال :

« أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَلَيْسَعِكَ يَبْتُكَ ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَابْكْ

عَلَى خَطِيئَتِكَ » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

٦ - وصية لبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء :

« لَا يَكُونَنَّ مِنْكَ الْمُحَدِّثُ وَلَا يُنْصَتُ لَهُ ، وَالِدَاخِلُ فِي سِرِّ اثْنَيْنِ لَمْ يُدْخِلَاهُ ،

[١] الحنانة : التي لها ولد من سواها فهي تحن عليهم ، والأنانة : التي مات عنها زوجها ، فهي إذا رأت الزوج الثاني أنت ، وقالت : رحم الله فلانا ، لزوجها الأول ، والنانة : التي لها مال ، فهي تمن على زوجها ، كلها أهوى إلى شيء من مالها . [٢] عشبة الدار : يريد المبهجة ، وعشبة الدار : التي تنبت في دمنة الدار ، وحولها عشب في يابس الأرض ، فهي أنعم منه وأضعف ، لأنها غدتها الدمعة ، وذلك (أي العشب) أطيب للأكل رطباً وبيساً ، لأنه نبت في أرض طيبة ، وهذه نبتت في دمنة ، فهي منتنة رطبة ، وإذا يبست صارت حتاتاً (بالضم) وذهب قفها في الدمعة فلم يمكن جمعه ، وذلك يجمع قفه لأنه في أرض طيبة (والقف بالضم : ما يبس من البقل ، وسقط على الأرض في موضع نباته) .

[٣] كبة القفا : هي التي يأتي زوجها أو ابنا القوم ، فإذا انصرف من عندهم ، قال رجل من جنباء

.. .. من أمه أو أمه أمر .

ولا آتى الدعوة لم يُدعَ إليها، ولا الجالسُ المجلسَ لا يستحقُّه، ولا الطالبُ الفضل من أيدي اللئام، ولا المتعرِّضُ للخير من عند عدوِّه، ولا المتحمِّق في الدَّالة^(١) .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٨)

٧ - وصية أخرى

وقال بعض الحكماء :

« إياك والمجلة ، فإن العرب كانت تَكْنِيها « أمّ الندامة » لأن صاحبها يقول قبل أن يَعْلَمَ ، وَيُجِيب قبل أن يَفْهَمَ ، وَيَعْزِم قبل أن يَفْكُرَ ، وَيَقْطَع قبل أن يُقَدِّرَ ، وَيَحْمَد قبل أن يُجَرِّبَ ، وَيَذُمَّ قبل أن يَخْبُرَ ، ولن يصحب هذه الصِّفَةَ أَحَدٌ إِلَّا صَحِبَ الندامة ، واعتزل السلامة » . (زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

٨ - وصية أخرى

وقال ابن دُرَيْد : أوصى بعض الحكماء رجلاً ، فقال :

« آمُرُكَ بمجاهدة هواك ، فإنه يقال : إن الهوى مِفْتَاحُ السيئات ، وخصيم الحسنات ، وكل أهوائك لك عدو ، وأهواها^(٢) هوى يكتُمك في نفسه ، وأعداها هوى يمثّل لك الإثمَ في صورة التقوى ، ولن تفصلَ بين هذه الخصوم إذا تناظرت لديك إلا بحزم لا يشوبه وهنٌ ، وصِدْقٍ لا يطمعُ فيه تكذيبٌ ، ومضاهٍ لا يقاربه التثبُّطُ^(٣) ، وصَبْرٍ لا يفتاله جَزَعٌ ، وَنِيَّةٍ لا يتقسمها التضييعُ »

(زهر الآداب ٣ : ١٢٩)

[١] الدالة : ما تدلّ به على حميمك .

[٢] أى وأشدّها . [٣] التوقف والإبطاء .

٩ - عظة لبعض الحكماء

عن الأصمعي قال : بلغني أن بعض الحكماء كان يقول :

« إني لأعظكم ، وإني لكثير الذنوب مُسْرِفٍ على نفسي ، غيرُ حامد لها ، ولا حاملها على المكروه في طاعة الله عزَّ وجل ، قد بَلَوْتَهَا فلم أجدها شكراً في الرِّخاء ، ولا صَبْرًا على البلاء ، ولو أن المرءَ لَا يَعِظُ أَخَاهُ حَتَّى يُنْحَكِمَ أَمْرَ نَفْسِهِ ، لَتُرِكَ الْأَمْرُ بِالْخَيْرِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَكِنْ عَادَتِ الْإِخْوَانُ حَيَاةً لِلْقُلُوبِ ، وَجِلَاءً لِلنَّفُوسِ ، وَتَذَكِيرٌ مِنَ النِّسْيَانِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا سُرُورٌ وَأَحْزَانٌ ، وَإِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ ، وَآخِرُ حَيَاتِهَا الْمَوْتُ ، فَكَمْ مِنْ مُسْتَقْبِلٍ يَوْمًا لَا يَسْتَكْمِلُهُ ، وَمُتَنْظِرٍ غَدًا لَا يَبْلُغُهُ ، وَلَوْ تَنْظُرُونَ إِلَى الْأَجَلِ وَمَسِيرِهِ ، لَأَبْنَضْتُمْ الْأَمَلَ وَغَرُّوْرَهُ . »
(الأمال ٢ : ٥٧)

١٠ - نصيحة لبعض الحكماء

وَحَذَّرَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ صَدِيقًا لَهُ صَحْبَهُ رَجُلًا فَقَالَ :

« اخذر فلانًا ، فإنه كثير المسألة ، حسن البحث ، لطيف الاستدراج ، يحفظ أول كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخرت بما قدمت ، فلا تُظهِرَنَّ لَهُ الْمَخَافَةَ ، فَيَرَى أَنَّكَ قَدْ تَحَرَّزْتَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ يَقْظَةِ الْفِطْنَةِ إِظْهَارَ الْغَفْلَةِ مَعَ شِدَّةِ الْحَذَرِ ، فَبِائِهِ مِبَايَةِ الْأَمْنِ ، وَتَحْفَظْ مِنْهُ تَحْفَظْ الْخَائِفَ ، فَإِنَّ الْبَحْثَ يُظْهِرُ الْخَفِيَّ الْبَاطِنَ ، وَيُبْدِي الْمُسْتَكْرِينَ الْكَامِنَ . » (زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١١ - كلمات شتى لبعض الحكماء

عن الأصمعي قال : قال بعض الحكماء :

« من كانت فيه سبع خصال لم يعدم سبعا : من كان جوادا لم يعدم الشرف

ومن كان ذا وفاء لم يعدم المِقة ، ومن كان صدوقاً لم يعدم القبول ، ومن كان شكوراً لم يعدم الزيادة ، ومن كان ذا رعاية للحقوق لم يعدم الشؤدد ، ومن كان منصفاً لم يعدم العافية ، ومن كان متواضعاً لم يعدم الكرامة .

(الأمل ٢ : ٢٩)

وقيل لبعض الحكماء : كيف ترى الدهر ؟ قال : يُخلق الأبدان ، ويُجدد الآمال ، ويُقرب الآجال ، قيل له : فما حال أهله ؟ قال : من ظفر به نصيب ، ومن فاته حزن ، قيل : فأى الأصحاب أبر ؟ قال : العمل الصالح ، قيل : فأيهم أضر ؟ قال : النفس والهوى ، قيل : فقيم المخرج ، قال : في قطع الراحة وبذل المجهود .

(الأمل ٢ : ٥٩)

وأخبر عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلاً يقول :

« الحسد ماحق الحسَنات ، والزُّهو جالبٌ لِمَقْتِ اللَّهِ ومقت الصالحين ، والعُجب صارفٌ عن الازدياد من العلم ، داع إلى التخمُّط ^(١) والجهل ، والبخلُ أذمُّ الأخلاق ، وأجلبُها لسوء الأُحدوثة » .

(الأمل ١ : ٢٠٠)

وقال : قال بعض العرب :

« أولى الناس بالفضل أعوذهم بفضله ، وأعونُ الأشياء على تذكِية العقل

التعلم ، وأدلى الأشياء على عقل العاقل حسن التدبير » .

(الأمل ١ : ٢١٧)

وقال الأصمعي : العرب تقول :

« لا ثناء مع الكبر ، ولا صديق لذي الحسد ، ولا شرف لسيئ الأدب .

قال : وكان يقال : « شرُّ خِصال الملوك الجُبْن عن الأعداء ، والبسوة على

(الأمل ١ : ٢٠١)

الضعفاء ، والبخلُ عند الإِعطاء » .

[١] تخمط : تكبر وغضب .

وقال أبو عليّ القالى : وأملى علينا أبو عبد الله قال : من كلام العرب ووصاياها :
« جالس أهل العلم ، فإن جهلت علموك ، وإن زللت قوّموك ، وإن أخطأت
لم يُفندوك ^(١) ، وإن صحبت زانوك ، وإن غبت تفقدوك ، ولا تجالس أهل
الجهل ، فإنك إن جهلت عتفوك ، وإن زللت لم يقوّموك ، وإن أخطأت لم
يثبتوك » . (الأمال ٢ : ٧٢)

١٢ - رجل من العرب والحجاج

سأل الحجاج رجلا من العرب عن عشيرته قال : أى عشيرتك أفضل ؟
قال : أتقاهم لله ، بالرغبة فى الآخرة ، والزهد فى الدنيا ، قال : فأيهم أسود ؟
قال : أرزئهم حلما حين يُستجهل ، وأسخام حين يُسأل ، قال : فأيهم أدهى ؟
قال : من كتم سرّه ممن أحب ، مخافة أن يُشاره يوما ، قال : فأيهم أكيس ؟
قال : من يُصلح ماله ويقتصد فى معيشته ، قال : فأيهم أرفق ، قال : من يعطى
بشر وجهه أصدقاءه ، ويتلطف فى مسأله ، ويتعاهد حقوق إخوانه ، فى إجابة
دعواتهم ، وعبادة مرّضاهم ، والتسليم عليهم ، والمشى مع جنازهم ، والنصح لهم
بالغيّب ، قال : فأيهم أفطن ؟ قال : من عرّف ما يوافق الرجال من الحديث
حين يجالسهم ، قال : فأيهم أصلب ؟ قال : من اشتدت عارضته ^(٢) فى اليقين ،
وحزم فى التوكل ، ومنع جاره من الظلم . (مجمع الأمثال ٢ : ١٧٨)

١٣ - أحد الوافدين على عمر بن عبد العزيز

ووفد وافد على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقال له : كيف تركت
الناس ؟ قال :

[١] فنده : ضف رأيه وخطاه . [٢] العارضة . المجلد والصرامة واللسن .

« تركت غنيهم موفوراً ، وفقيرهم محبوراً ، وظالمهم مقهوراً ، ومظلومهم منصوراً » ، فقال : « الحمد لله ، لو لم تتم واحدة من هذه الخصال إلا بعضو من أعضائي ، لكان يسيراً » . (الأمل ٢ : ٣٩)

١٤ - كاتب وأمير

ودخل بعض الكتاب على أمير بعد نكبة نابتة ، فرأى من الأمير بعض الازدراء ، فقال له :

« لا يَضَعْنِي عِنْدَكَ حُمُولُ النَّبُوَّةِ ، وَزَوَالُ الثَّرْوَةِ ، فَإِنَّ السِّيفَ الْعَتِيقَ إِذَا مَسَّهُ كَثِيرُ الصَّدْدِ اسْتَفْنَى بِقَلِيلِ الْجِلَاءِ ، حَتَّى يَعُودَ حَدُّهُ ، وَيُظْهِرُ فِرْنِدُهُ ، وَلَمْ أَصِفْ نَفْسِي مُعْجَبًا ، لَكِنْ شُكْرًا ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَنَا أَشْرَفُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا نَفَرَ » . فَجَهَرَ بِالشُّكْرِ ، وَتَرَكَ الاسْتِطَالَةَ بِالْكَبَرِ » .

(زهر الآداب ٣ : ٩١)

١٥ - وصف الهلباجة

من أمثال العرب : « أعجز من هلباجة » وهو النُّوم الكسلان العُطل^(١) الجافي ، وقد سار في وصف الهلباجة فصل لبعض الأعراب المتفصِّحين ، وفصل آخر لبعض الحضريين ، فأما وصف الأعرابي ، فقد سئل ابن أبي كبشة بن الأقبَعَثَرِيّ عنه فقال : « الهلباجة : الضعيف العاجز ، الأخرق الأحمق ، الجِلْف^(٢) الكسلان ، الساقط لا معنى فيه ، ولا غناء^(٣) عنده ، ولا كفاية معه ، ولا عمل لديه » .

[١] عطل كفرح : عظم بدنه ، ومن المال والأدب : خلا فهو عطل كقفل وعنق .

[٢] الجافي . [٣] لاغناء : لا كفاية

وأما وصف الحضري فإن بعض بُلغاء الأمصار سئل عن الهلباجة فقال :
 « هو الذي لَا يَرْعَوِي لِمَعْدَلِ العاذل ، ولا يُصْنَعِي إلى وعظ الواعظ ، ينظر
 بعين حَسُود ، وَيُعْرِضُ إِعْرَاضَ حَقُود ، إِنْ سَأَلَ الحَلْفَ ^(١) ، وَإِنْ سُئِلَ سوْفَ ،
 وَإِنْ حَدَّثَ حَلْفَ ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِنْ زَجَرَ عَنَّفَ ، وَإِنْ قَدَّرَ عَسَفَ ^(٢) ،
 وَإِنْ احْتَمَلَ أَسَفَ ^(٣) ، وَإِنْ اسْتَعْنَى بَطِرَ ، وَإِنْ افْتَقَرَ قَنَطَ ، وَإِنْ فَرِحَ أَشِرَ ^(٤) ،
 وَإِنْ حَزَنَ يَثْسَ ، وَإِنْ ضَمِكَ زَارَ ، وَإِنْ بَكَى جَارَ ^(٥) ، وَإِنْ حَكَمَ جَارَ ، وَإِنْ
 قَدَّمْتَهُ تَأَخَّرَ ، وَإِنْ أَخَّرْتَهُ تَقَدَّمَ ، وَإِنْ أَعْطَاكَ مَنَّ عَلَيْكَ ، وَإِنْ أَعْطَيْتَهُ لَمْ
 يَشْكُرْكَ ، وَإِنْ أَسْرَرْتَ إِلَيْهِ خَانَكَ ، وَإِنْ أَسْرَرَ إِلَيْكَ اتَّهَمَكَ ، وَإِنْ صَارَ فَوْقَكَ
 قَهَرَكَ ، وَإِنْ صَارَ دُونَكَ حَسَدَكَ ، وَإِنْ وَثِقْتَ بِهِ خَانَكَ ، وَإِنْ انْبَسَطْتَ إِلَيْهِ
 شَانَكَ ، وَإِنْ أَكْرَمْتَهُ أَهَانَكَ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهُ الصَّدِيقَ سَلَّاهُ ، وَإِنْ حَضَرَ
 قَلَّاهُ ^(٦) ، وَإِنْ فَاتَمَحَهُ لَمْ يُجِبْهِ ، وَإِنْ أَمْسَكَ عَنْهُ لَمْ يَبْدَأْهُ ، وَإِنْ بَدَأَ بِالوَدِّ هَجَرَ ،
 وَإِنْ بَدَأَ بِالْبِرِّ جَفَا ، وَإِنْ تَكَلَّمَ فَضَحَهُ أَلْمَى ، وَإِنْ عَمِلَ قَصَرَ بِهِ الْجَهْلُ ، وَإِنْ
 أَوْثَمِنَ غَدَرَ ، وَإِنْ أَجَارَ أَخْفَرَ ^(٧) ، وَإِنْ طَاهَدَ نَكَثَ ، وَإِنْ حَلَفَ حَنَيْثَ ،
 لَا يَصْدُرُ عَنْهُ الأَمَلُ إِلَّا بِخَيْبَةٍ ، وَلَا يَضْطَرُّ إِلَيْهِ حُرٌّ إِلَّا بِمِخْنَةٍ . »

قال خلف الأحمر : سألت أعرابياً عن الهلباجة ، فقال : « هو الأحمق
 الضنغم القدم ^(٨) الأكل الذي والذي . . . ثم جعل يلتقاني بعد ذلك ، ويزيد

[١] الخ . [٢] ظلم . [٣] من أسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه ، أى لم يستطع
 النهوض بما حمل . [٤] أشر : مرح . [٥] صاح واستغاث . [٦] أبغضه وكرمه غاية الكراهة .
 [٧] أخفزه وخفر به : قضى مهده وغدره . [٨] القدم : العي عن الكلام في نمل ورخاوة ،
 وقلة فهم ، والغلظ : الأحمق الجاني .

في التفسير كل مرة شيئاً ، ثم قال لي بعد حين - وأراد الخروج - هو الذي جمع كل شرّ . (مجمع الأمثال ١ : ٢٣٦)

١٦ - بعض البلغاء يصف رجلاً

ووصف بعض البلغاء رجلاً فقال :

« إنه بَسِيطٌ^(١) الكف ، رَحْبُ الصدر ، مُوَطَّأُ الأَ كَنَافِ ، سَهْلُ الخَلْقِ ، كَرِيمُ الطَّبَاعِ ، غَيْثٌ مُغَوِّثٌ^(٢) ، وَبِحَرْمَةِ زَخُورِ ، نَحْوُكَ السِّنِّ ، بِشِيرِ الوَجْهِ ، بَادِي القَبُولِ^(٣) غَيْرِ عَبُوسٍ ، يَسْتَقْبَلُكَ بِطَلَاةٍ ، وَيَحْيِيكَ بِبِشْرِ ، وَيَسْتَدْبِرُكَ بِكْرَمِ غَيْثٍ ، وَجَمِيلِ بِشْرِ ، تُبْهِجُكَ طَلَاةُ ، وَيَرْضِيكَ بِشْرُهُ ، ضَحَّاكٌ عَلَيَّ مَاثِدْتُهُ ، عَيْدٌ لَضَيْفَانِهِ ، غَيْرُ مَلَا حِظٍ لِأَكِيلِهِ ، بَطِينٌ^(٤) مِنَ العَقْلِ ، خَمِيصٌ^(٥) مِنَ الجَهْلِ ، رَاجِحُ الحِلْمِ ، ثَاقِبُ الرَّأْيِ ، طَيِّبُ الخَلْقِ ، مُحْصَنُ الضَّرِيبةِ^(٦) ، مِعْطَاةٌ غَيْرُ سَأَلٍ ، كَأْسٍ^(٧) مِنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ ، عَارٍ مِنْ كُلِّ مَلَأْمَةٍ ، إِنْ سئِلَ بَدَلٍ ، وَإِنْ قَالَ فَعَلَ » . (زهر الآداب ٢ : ٢٠٥)

١٧ - خمس جوار من العرب يصفن خيل آبائهن

عن ابن الكلبي عن أبيه قال :

اجتمع خمسُ جَوَارٍ مِنَ العَرَبِ ، فَقلن : هَأمُنُّ نَصِيفِ خَيْلِ آبَائِنَا

فَقَالَتِ الأُولَى :

« فَرَسٌ أُبَى وَرَدَّةٌ ، وَمَا وَرَدَةٌ ؟ ذَاتُ كَفَلٍ مُزَخَلَقٌ ، وَمَتْنٌ أُخْلَقٌ ،

[١] أى مبسوط الكف سخى . [٢] غوث تغريثاً : قال واغوثاه .

[٣] القبول بالفتح وقد يضم : الحسن . [٤] أى ممتلئ وأصله : عظيم البطن .

[٥] خميص : خال ، وأصله : الجائع . [٦] الضريبة : الطيعة ، ومحصن : عفا

[٧] أى مكسو .

وَجَوْفُ أَخْوَقٍ^(١) ، وَنَفْسُ مَرُوحٍ ، وَعَيْنُ طَرُوحٍ ، وَرِجْلُ ضَرُوحٍ ، وَيَدُ سَبُوحٍ^(٢) ، بُدَاهَتُهَا إِهْذَابٌ ، وَعَقَبُهَا غِلَابٌ^(٣) .

وقالت الثانية :

« فرسُ أَبِي اللَّعَّابِ ، وَمَا اللَّعَّابُ ؟ غَبِيَّةٌ سَحَابٌ ، وَاضْطِرَامٌ غَابٍ ، مُتْرَصٌ الْأَوْصَالِ ، أَشْمُ الْقَدَّالِ ، مُلَا حَكُ الْمَحَالِ^(٤) ، فَارِسُهُ مُجِيدٌ ، وَصَيْدُهُ عَتِيدٌ ، إِنْ أَقْبَلَ فِظْبِي مَعَّاجٌ ، وَإِنْ أَدْبَرَ فَظَلِيمٌ هَدَّاجٌ ، وَإِنْ أَحْضَرَ فَعَلِيجٌ هَرَّاجٌ^(٥) . »

وقالت الثالثة :

« فرسُ أَبِي حُدَمَةَ ، وَمَا حُدَمَةَ ؟ إِنْ أَقْبَلَتْ فَقَنَاةٌ مُقَوِّمَةٌ ، وَإِنْ أَدْبَرَتْ فَأُثْفِيَّةٌ مُلَمَلَةٌ ، وَإِنْ أَعْرَصَتْ فَذَيْبَةٌ مُعْجِرِمَةٌ^(٦) ، أَرْسَاغُهَا مُتْرَصَةٌ ، وَفُصُوصُهَا مُمَحَّصَةٌ ، جَرِيَّتُهَا انْتِرَارٌ ، وَتَقَرِّيَّتُهَا انكِدَارٌ^(٧) . »

[١] الزحلق : الملس الذي كأنه زحلوقة (بالضم) وهي آثار تزلج الصبيان من فوق إلى أسفل ، والأخلق : الأملس ، وأخوق : واسع . [٢] مروح : كثيرة المرح ، طروح بعيدة موقع النظر ، ضروح : دفوع ، يريد أنها تضرح الحماراة برجلها إذا عدت ، سبوح : كأنها تسبح في عدوها من سرعتها . [٣] بداهتها : جاءتها ، والبداهة والبديهة واحد ، والإهذاب : السرعة ، والعقب : جرى بعد جرى ، وغلاب مصدر ، غالبته مغالبة وغلابا ، كأنها تغالب الجري . [٤] الغيبة : الدفعة من المطر ، والغاب جمع غابة وهي الأجرة ، مترس : محكم ، أتروست الشيء : أحكمته أتم : مرتفع ، القذال : مفرد العذار (والعذار من اللجام ككتاب : ماسال على خد الفرس) ، ملاحك مداخل (يفتح الحاء) كأنه دوخل بعضه في بعض ، والمحال جمع محالة : وهي فغار الظهر (كسحاب جمع فقارة) وذكر الأصمعي أنه رأى فغار فرس ميت ، فإذا ثلاث فقر من عظم واحد ، وكذا تكون العراب فيما ذكروا . [٥] مجيد : صاحب جواد ، عتيد : حاضر ، معج في سيره ومعج : إذا أسرع ، والمهدج كشمس : المسمى الرويد ويكون السريع ، والعليج : حمار الوحش السمين القوي ، وهرج الفرس كضرب : إذا كان كثير الجري . [٦] حذمة : فحلة من الحذم وهو السرعة أو القطع ، فقناة مقومة تريد أنها دقيقة القدم ، وهو مدح في الإناث ، والأثفية : الحجر توضع عليه القدر ، مللمة : مجتمعة ، تريد أنها مدورة المؤخر ، لأن الأثافي تختار مدورة ، معجرفة بكسر الراء اسم فاعل من المعجرفة ، وهي لإسراع في مقابلة خطو . قال الشاعر :

أَمَا إِذَا يَحْدُو فَتَحْلِبُ جَرِيَّةٌ أَوْ ذَيْبٌ عَادِيَةٌ يَعْجِرِمُ عَجْرِمَةٌ

ويقال ناقة معجرفة بفتح الراء : أي شديدة . [٧] بمحصة : قليلة اللحم قليلة الشعر ، محس الجلد

وقالت الرابعة :

« فرسُ أبي خَيْفَق ، وما خَيْفَق ؟ ذاتُ ناهِقٍ مُعْرَق ، وَشِدْقُ أَشْدَق ،
وأديمٌ مُمَلَّقٌ ^(١) ، لها خَلْقٌ أَشْدَف ، وَدَسِيعٌ مُنْفَنَف ، وَتَلِيلٌ مُسَيَّفٌ ^(٢) ،
وَنَابَةٌ زُلُوجٌ ، خَيْفَانَةٌ رَهُوجٌ ، تَقْرِيئُهَا إِهْمَاجٌ ، وَخَضْرُهَا ارْتِمَاجٌ ^(٣) . »

وقالت الخامسة :

« فرسُ أبي هُذُلُولٍ ، وما هُذُلُولٌ ؟ طَرِيدُهُ مَحْبُولٌ ، وَطَالِبُهُ مَشْكُولٌ ،
رَقِيقٌ الْمَلَاغِمِ ، أَمِينُ الْمَعَاقِمِ ^(٤) ، عَيْبَلُ الْمَخْرَمِ ، مَخْدٌ مِرْجَمٌ ^(٥) ، مُنِيْفُ الْحَارِكِ ،
أَشْمُ السَّنَابِكِ ، مَجْدُولُ الْخَصَائِلِ ، سَبِطُ الْفَلَائِلِ ^(٦) ، غَوْجُ التَّلِيلِ ، صَاصَالُ
الصَّهِيلِ ، أَدِيمُهُ صَافٍ ، وَسَدِيدِيَّةُ صَافٍ ^(٧) ، وَعَفْوُهُ كَافٍ . (الأملئ ١ : ١٩٠)

كفرح ، إذا سقط شعره واملاس ، انثرار : انصباب ، كأنه يثره ثراً ، والتقريب : ضرب من العدو
أو أن يرفع يديه معاً ويضعهما معاً ، وانكدر : أسرع وانقص ، وانكدر عليه القوم : انصبوا .

[١] خيفق : فيعل من الحفق كشمس : وهو السرعة ، الناهقان : العطمان الشاخصان في خدى الفرس
معرق : تليل اللحم ، أشدق : واسع الشدق ، معلق : مملس . [٢] الأشدق : العظيم الشخص ،
والشدق محركة : الشخص ، الدسيع . مغرز العنق في السكاهل ، منفنق : واسع ، من المنفق كجعفر :
وهو الهواء بين السماء والأرض ، التليل : العنق ، مسيف : كأنه سيف .

[٣] زلوج : سريعة ، الزليج والرجان بالتحريك : السرعة ، الحيفانة : الجراة التي فيها تقط سود
تخالق سائر لونها ، وإنما قيل للفرس : خيفانة لسرعتها لأن الجراة إذا ظهر فيها تلك القطة كان أسرع
لطيرانها ، رهوج : كثيرة الرهيج ، (والرهج بالتحريك : الغبار) أهج الفرس إهماحا : إذا اجتهد في
عدوه ، والحضر : ارتفاع الفرس في عدوه ، الارتعاج : كثرة البرق وتتابعه .

[٤] محبول : في حباله ، مشكول : موثق في شكال (الشكال ككتاب : الحبل شدّه به قوائم الدابة)
الملاغم من الإنسان : ماحول الفم ، أرادت هاهنا الجحافل (والجحافل جمع جحفة بالفتح بمنزلة الشفة للخيل
والبغال والحير) والمعاقم : المفاصل . [٥] عبل : عليظ ، والحرم موضع الحرام ، مخد : يخذ الأرض
أى يجعل فيها أخاديد (والأخاديد : الشقوق جمع أخدود) ، مرجم : يرمم الحجر بالحجر ، أو يرمم
الأرض بحوافره . [٦] منيف : مرتفع ، والحارك : منبت أدنى العرف إلى الظهر الذي يأخذ به من
يركبه ، والسنايك : أطراف الحوافر جمع سبك كقنفذ ، مجدول : مفتول ، الحصائل جمع خصيلة : وهي
كل قطعة من اللحم مستطيلة أو مجتممة ، الفليل : الشعر المجتمع ، ويقال للقطعة من الشعر : الفليلة ،
سببط : مسترسل . [٧] الغوج : اللين المعطف ، والصلصلة صوت الحديد ، وكل صوت حاد ،
والسبيب : شعر الناصية ، ضاف : سابع .

١٨ - رجل من العرب يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

سئل رجل من العرب عن مطر كان بعد جَدْب فقال :

«نشأ حملا^(١) سُدًّا متقاذِفَ الأحضان ، مُحمَوِيَّ الأركان ، لَمَاعِ الأقراب ،
مُكفَهَرِ الرِّباب ، تَحِيْنٍ رُعودُه حينَ اضطراب ، وَتُرُفُجِرِ زَجْرَةَ اللُّيُوثِ الغِضَاب ،
لبوارِقِه التَّهابُ ، وَلِرِوَاعِدِه اضطراب ، فجَاحَفَت^(٢) صدورُه الشَّعَاف ، وركبت
أهْجَازُه القِفافَ ، ثم ألقى أعباءه ، وَحَطَّ أثقاله ، فتألَّق وأصعق^(٣) ، وانبجس
وانبَعَق ، ثم أُنْجِمَ فانطلق ، فغادر النِّهَاء^(٤) مُترَعَةً ، وَالغَيْطَانَ مُمرَعَةً ، حَبَاء
للبلاد ، ورزقا للعباد .» (بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٠)



[١] الحمل : السحاب الكثير الماء ، والسد : الذي قد سدَّ الأذق ، احموى : اسودَّ ، والأقراب جمع قرب كقفل وعنق وهو الحاصرة ، والرباب : السحاب الأبيض . [٢] جاحفه : زاحه وداناه ، والشعاف جمع شعبة كرقبة : وهي رأس الجبل ، والقفاف جمع قفّ بالضم وهو ما علظ من الأرض وارتفع لم يبلغ أن يكون جبلا . [٣] صعقتهم السماء وأصعقتهم : ألقت عليهم صاعقة ، وانبجس : انفجر بالماء وانبعق السحاب : انبعج بالمطر واندفع ، والانبعاق : أن يندفع عليك الشيء فجأة وأنت لا تشع ، وأنجمت السماء : أسرع مطرها . [٤] النهاء جمع نهى بالكسر والفتح : الغدير ، ومترعة : مملوءة ، والغيطان جمع فائط : وهو المطمئن الواسع من الأرض ، ممرعة : مخصبة ، حباء : عطاء .

الباب الثالث

في

نثر الأعراب

قولهم في الوعظ والتوصية

١ - مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك

قام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك ، فقال :

« إني مُكَلِّمك يا أمير المؤمنين بكلامٍ فيه بعض الغِلْظَةِ ، فاحتمِله إن كرهته ، فإن وراءه ما تُحِبُّه إن قبلته » ، قال : هاتِ يا أعرابي : إنا نجد بسعة الاحتمال على من لا نرجو نُصْحَه ، ولا نأمن غِشَّه ، وأرجو أن تكون الناصحَ جَيِّبًا ، المأمونَ غَيِّبًا ، قال : « يا أمير المؤمنين أما إذ أمنت بادرَةَ غضبك ، فإني سأُطْلِقُ لسانِي بما خَرِسَتْ عنه الألسُنُ من عِظَتِكَ ، تأديةً لحقِّ الله وحقِّ أمانتِكَ . إنه قد اكتنَّفَكَ رجالٌ أساءوا الاختيارَ لأنفسهم ، فابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حربٌ للأخرة ، سلِّمٌ للدنيا ، فلا تأمنهم على ما أئتمنتك الله عليه ، فإنهم

لا يألونك^(١) خَبَالًا ، والأمانة تضييماً ، والأمة عَسْفًا وَخَسْفًا^(٢) ، وأنت
مستول عما اجترحو^(٣) ، وليسوا مستولين عما اجترحتَ ، فلا تُصلح دنياهم
بفساد آخرتك ، فإن أخسر الناس صَفْقَةً يوم القيامة ، وأعظمهم غَبْنًا من باع
آخرته بدنياه غيره « قال سليمان : « أما أنت يا أعرابي ، فقد سللت لسانك ،
وهو أقطع سيفيك » ، فقال : « أجل يا أمير المؤمنين لك لاعليك » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٧ ، والعقد الفريد ١ : ٣٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ ،
وزهر الآداب ١ : ٢٧٧)

٢ - أعرابي يعظ هشام بن عبد الملك

ودخل أعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له : عِظْنِي يَا أعرابي ، فقال :
« كفى بالقرآن واعظًا ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ،
بسم الله الرحمن الرحيم : « وَيَلُّ لِلْمُطَفِّفِينَ^(٤) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ
يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ
لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ، ثم قال : « يا أمير المؤمنين ،
هذا جزاء من يُطَفِّفُ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ ، فَاظْنِكْ بِنِ أَخْذِهِ كُلَّهُ^(٥) ؟ » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٤)

٣ - خطبة أعرابي^(٦)

وولّى جعفر بن سليمان^(٧) أعرابياً بعض مياهمهم^(٨) فخطبهم يوم الجمعة فقال :

[١] ألا يأتو : قصر وأبطأ ، والحبال : الساد . [٢] العسف : الظلم ، والخسف : الذل .

[٣] اكتسبوا ، وفي رواية : « اجتموا » .

[٤] طفف : نفس المكيال . [٥] وروى صاحب العقد أيضاً هذه العظة (ج ١ ص ٣٠٦)

وذكر أنها لابن السماك وعط بها الرشيد .

[٦] قدمنا في الجزء الثاني ص ٤٦٣ أن هذه الخطبة متنازع فيها ، فهي ترمز تارة إلى الإمام علي
كرم الله وجهه ، وأخرى إلى سحبان وائل ، وثالثة إلى أعرابي . [٧] هو ابن عم أبي جعفر
المنصور ، وكان والياً له على المدينة سنة ١٤٦ - ١٥٠ هـ . [٨] في مجمع الأمثال : « عن الأصمعي
قال : حدثني شيخ من أهل العلم قال : شهدت الجمعة بالضرية « ضرية كفتية : قرية بين البصرة ومكة »

« الحمد لله رب العالمين ، والعاقة للمتقين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، أما بعد : فإن الدنيا دارُ بَلاغٍ ^(١) ، والآخرة دارُ قرار ، نخذوا بِمَقَرِّكُمْ مِنْ مَمَرِّكُمْ ، وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ ، فَفِيهَا حَيَاتِكُمْ ، وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ ، الْيَوْمَ عَمَلٌ بِحَسَابٍ ، وَغَدًا حَسَابٌ بِعَمَلٍ ، إِنْ الرَّجُلُ إِذَا هَلَكَ ، قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : مَا قَدَّمَ ؟ فَاللَّهُ آبَاؤُكُمْ ! قَدَّمُوا بَعْضًا ، يَكُونُ لَكُمْ قَرَضًا ، وَلَا تَخْلَفُوا كُفْلًا ، يَكُونُ عَلَيْكُمْ كَفْلًا ^(٢) ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلِكُمْ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَالْمُصَلَّى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ ، وَالْمَدْعُوُّ لَهُ الْخَلِيفَةُ ، ثُمَّ إِمَامُكُمْ جَعْفَرُ بْنُ سَلْيَانَ ، قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ » .

(الأمل ١ : ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٢ : ١٦٤ ، وتهذيب الكامل ١ : ٢٨ ،
ومجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، وعيون الأخبار ٢ : ص ٢٥٣ وزهر الآداب ٢ : ٤)

٤ - خطبة أخرى

وخطب أعرابي فقال :

« الحمد لله الحميد المستحمد ، وصلى الله على النبي محمد . أما بعد : فإن التعمق في ارتجال الخطب لممكن ، والكلام لا ينثنى حتى ينثنى عنه ، والله تبارك وتعالى لا يُدْرِكُ وَاصْفُ كُنْهَ صِفْتِهِ ، وَلَا يَبْلُغُ خَطِيبٌ مُنْتَهَى مِدْحَتِهِ ، لَهُ الْحَمْدُ كَمَا مَدَحَ نَفْسَهُ ، فَانْهَضُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ » ثم نزل فصلي . (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

وأما رجل من الأعراب ، فخرج وخطب ، وافت ثيابه على رأسه ، ويده قوس فقال وأورد هذه الخطبة « ، وفي الكامل للبرد : « قال الأصمعي فيما بلغني خطبنا أعرابي بالبادية فحمد الله . . . » . [١] وفي رواية الميداني ، وعيون الأخبار « بلاء » وفي رواية العقد « دار ممر والآخرة دار مقر » [٢] الكل : الثقل .

ه - خطبة أخرى

وخطب أعرابي قومه فقال :

« الحمد لله ، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى جميع الأنبياء ، ما أقبح بمثلي

أن ينهى عن أمرٍ ويرتكبه ، ويأمر بشيءٍ ويحتنبه ، وقد قال الأول :

وَدَعَّ مَا لُمْتَ صَاحِبَهُ عَلَيْهِ فَذَمَّ أَنْ يَلُومَكَ مَنْ تَلُومُ

أَلْهَمْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ تَقْوَاهُ ، وَالْعَمَلُ بِرِضَاهُ . (القدر الفريد ٢ : ١٦٤)

٦ - أعرابية توصي ابنها وقد أراد السفر

قال أبان بن تغلب - وكان عابداً من عبّاد أهل البصرة توفى سنة ١٤١ هـ -

شَهِدْتُ أَعْرَابِيَةً وَهِيَ تُوصِي وَلِدًا لَهَا يَرِيدُ سَفَرًا وَهِيَ تَقُولُ لَهُ :

« أَيُّ مُبْنَى اجْلِسْ أَمْنَحْكَ وَصِيَّتِي ، وَبِاللَّهِ تَوْفِيقُكَ ، فَإِنَّ الْوَصِيَّةَ أَجْدَى ^(١)

عَلَيْكَ مِنْ كَثِيرِ عَقْلِكَ ، أَيُّ مُبْنَى : إِيَّاكَ وَالنَّمِيمَةَ فَإِنَّهَا تَرِيعُ الضَّعِيفَةَ ، وَتَفَرِّقُ

بَيْنَ الْمُحِبِّينَ ، وَإِيَّاكَ وَالتَّعْرُضَ لِلْعِيُوبِ فَتُتَّخَذَ غَرَضًا ^(٢) ، وَخَلِيقٌ أَنْ لَا يَثْبُتَ

الغرضُ على كثرة السَّهَامِ ، وَقَلِمَا اعْتَوْرَتْ ^(٣) السَّهَامُ غَرَضًا إِلَّا كَلَّمَتْهُ ^(٤) حَتَّى

يَهَيَّ ^(٥) مَا اشْتَدَّ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَإِيَّاكَ وَالْجُودَ بِدِينِكَ ، وَالْبُخْلَ بِمَالِكَ ، وَإِذَا هَزَزْتَ

فَاهْزُزْ كَرِيمًا يَلِينُ لَهْزَتِكَ ، وَلَا تَهْزُزْ اللِّثِيمَ فَإِنَّهُ صَخْرَةٌ لَا يَنْفَجِرُ مَاؤُهَا ، وَمَثَلُ

لِنَفْسِكَ مِثَالٌ مَا اسْتَحْسَنْتَ مِنْ غَيْرِكَ فَاعْمَلْ بِهِ ، وَمَا اسْتَقْبَحْتَ مِنْ غَيْرِكَ

فَاجْتَنِبْهُ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ لَا يَرَى عَيْبَ نَفْسِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ مَوَدَّتُهُ بِشَرِّهِ ، وَخَالَفَ ذَلِكَ

مِنْهُ فَعَلَهُ ، كَأَنَّ صَدِيقَهُ مِنْهُ عَلَى مِثْلِ الرِّيحِ فِي تَصْرِفِهَا » ثُمَّ أَمْسَكَتْ ، فَدَنُوتُ

[١] أضع [٢] هدفا . [٣] تداولك . [٤] جرحته وحطته .

منها ، فقلت : بالله يا أعرابية ، إلا زِدْتِه في الوصية ، فقالت : أو قد أعجبتك كلام
العرب يا عراقى ؟ قلت : نعم ، قالت : والغدُرُ أقبیح ما تعامل به الناس بينهم ،
ومن جمع الحِلْم والسَخَاء فقد أجاد الحُلَّة^(١) : رِيْطَتِهَا وَسِرِّبَالُهَا .
(الأملی ٢ : ٨١ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٥ ، وبلاغات النساء ص ٥٧ ، والبيان والبيان ٣ : ٢٢١)

٧ - أعرابية توصي ابنها

وقالت أعرابية لابنها :

« يا بُنَيَّ ، إن سؤَالَكَ النَّاسَ ما في أيديهم من أشدَّ الافتقار إليهم ، ومن
افتقرتَ إليه هُنْتَ عليه ، ولا تزال تُحْفَظُ وتُكْرَمُ ، حتى تَسْأَلَ وتَرْغِبُ ،
فإذا أَلَحَّتْ عليك الحاجةُ ، ولزِمَكَ سوءُ الحالِ ، فاجعل سؤَالَكَ إلى من إليه
حاجةُ السائلِ والمستولِ ، فإنه يُعْطَى السائلِ » . (المعقد الفريد ٢ : ٨٥)

٨ - أعرابي يوصي ابنه

ووصى أعرابي ابنه فقال :

« ابْدُلْ المودَّةَ الصادقةَ تستفدْ إخوانًا ، وتتخذْ أعوانًا ، فإن العداوة موجودة
عَتِيْدَةٌ ، والصدقة مُسْتَعْرِزَةٌ^(٢) بعيدة ، جنبْ كرامتَكَ اللئامَ ، فإنهم إن أحسنتَ
إليهم لم يشكروا ، وإن نزلتْ شديدة لم يصبروا » . (الأملی ١ : ٢٠١)

٩ - أعرابي ينصح لابنه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« لا يَغْرُبُ نَكْ ما ترى من خَفْضِ العيشِ ، ولين الرِّياشِ^(٣) ، واكن فانظر

إلى سوء الظَّنِّ ، وسوء المُنْقَلَبِ » . (الأملی ٢ : ٥٩)

[١] الحلة لا تكون إلا من ثوبين إزار ورداء ، والريطة : الملاعة كلها نسج واحد وقطعة واحدة

والسربال : القميص . [٢] مستعززة : منقبضة شديدة : [٣] الماصب والمعاش .

١٠ - أعرابي ينصح لابنه

وقال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« كن للعاقل المذبر أرجى منك للأحمق المُقبِل » ، ثم أنشد :

عَدُوُّكَ ذُو الْحِلْمِ أَتَى عَلَيْكَ وَأَرَعَى مِنَ الْوَامِقِ الْأَحْمَقِ^(١)

(ذيل الأملال ص ٣٤)

١١ - أعرابي ينصح لأخيه

ونصح أعرابي لأخيه ، فقال :

« اعلم أن الناصح لك ، المشفق عليك ، مَنْ طالع لك ما وراء العواقب
برؤيته ونظره ، وَمَثَلُكَ الْأَحْوَالِ الْمَخُوفَةَ عَلَيْكَ ، وَخَلَطَ الْوَعْرَ بِالسَّهْلِ مِنْ
كَلَامِهِ وَمَشُورَتِهِ ، لِيَكُونَ خَوْفُكَ كِفَاءً^(٢) وَجَانِكَ ، وَشَكَرَكَ إِزَاءَ النِّعْمَةِ عَلَيْكَ ،
وَأَنْ النَّاشِئَ لَكَ ، وَالْحَاطِبَ^(٣) عَلَيْكَ ، مَنْ مَدَّ لَكَ فِي الْإِغْتِرَارِ ، وَوَطَأَ لَكَ مِهَادَ^(٤)
الظُّلْمِ ، تَابِعًا لِمَرْضَاتِكَ ، مِنْقَادًا لِهَوَاكَ » . (الأملال ١ : ١٩٨)

١٢ - أعرابي يعظ أخاه

ووعظ أعرابي أخاه له أفسد ماله في الشراب ، فقال :

« لَا الدَّهْرُ يَعْظُكَ ، وَلَا الْأَيَّامُ تُنْذِرُكَ ، وَلَا الشَّيْبُ يَزْجُرُكَ ، وَالسَّاعَاتُ
تَحْصِي عَلَيْكَ ، وَالْأَنْفَاسُ تُعَدُّ مِنْكَ ، وَالْمَنَائِمُ تُقَادُ إِلَيْكَ ، أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ ،
أَعْوَدُهَا بِالْمَضَرَّةِ عَلَيْكَ » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٥ ، والأملال ١ : ١٩٨ ، وزهر الآداب ٣ : ١١٥)

[١] الوامق : الحب . [٢] مكافئاً .

[٣] الحاطب : الحمار . [٤] المهاد : الفراش .

١٣ - أعرابي يعظ صاحبه

وقال أعرابي لصاحبه :

« والله لئن هَمَّجَت ^(١) إلى الباطل ، إنك لَقَطُوفٌ ^(٢) عن الحق ، ولئن أبطأت لَيْسُرَ عَنِّ بكَ ، وقد خسر أقوام وهم يظنون أنهم رابحون ، فلا تغرنك الدنيا ، فإن الآخرة من ورائك » . (البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٦)

١٤ - أعرابي يعظ أخاه

وقال أعرابي لأخيه :

« يا أخى : أنت طالب ومطلوب ، يَطْلُبُكَ ما لا تَقْوُوه ، وتطلب ما قد كُفِيَتْه ، فكأن ما غاب عنك ، قد كُشِفَ لك ، وما أنت فيه فد تُقِلَّتْ عنه ، فامهد ^(٣) لنفسك ، وأعد ذلك ، وخذ في جهازك » . (العقد الفريد ٢ : ٨٤)

١٥ - أعرابي يعظ رجلا

وقال أعرابي لرجل :

« أى أخى : إن يَسَّارَ النفسِ أفضلُ من يسار المال ، فإن لم تُرزق غنى فلا تُحْرِمْ تقوى ، فَرُبَّ شَبَعَانَ من النعم ، عُرْيَانٌ من الكرم ، واعلم أن المؤمن على خير : تُرَحِّبُ به الأرض ، وتستبشِّرُ به السماء ، ولن يُسَاءَ إليه في بطنها وقد أحسنَ على ظهرها » . (العقد الفريد ٢ : ٨٥)

[١] من هملح البرذون : مشى مشية سهلة في سرعة .

[٢] من قطفت الدابة كنصر وضرب : ضاق مشيا ، فهي قطوف .

[٣] أى مهد وأعد .

١٦ - أعرابي يعظ رجلا

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يعظ رجلا وهو يقول :

« وَيُحَكِّكُ ! إِنْ فُلَانًا وَإِنْ ضَحِكُ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ يَضْحَكُ مِنْكَ ، وَلَئِنْ أَظْهَرَ الشَّفِيقَةَ عَلَيْكَ ، إِنْ عَقَّارَبَهُ لَتَسْرِي إِلَيْكَ ، فَإِنْ لَمْ تَتَّخِذْهُ عَدُوًّا فِي عِلَانِيَتِكَ ، فَلَا تَجْعَلْهُ صَدِيقًا فِي سِرِّيَتِكَ » . (زمر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٧ - أعرابي يعظ رجلا

وسمع أعرابي رجلا يقع في السلطان ، فقال :

« إِنَّكَ غُفْلٌ لَمْ تَسْمَعْ التَّجَارِبُ ، وَفِي النَّصِيحِ لَسَعُ الْعُقَّارِبُ ، كَأَنِّي بِالضَّاحِكِ إِلَيْكَ ، وَهُوَ بِالكَ عَلَيْكَ » . (زمر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٨ - كلام أعرابي لابن عمه

وشاور أعرابي ابن عمه له ، فأشار عليه برأى ، فقال :

« قَدْ قَلَّتْ بِمَا يَقُولُ بِهِ النَّاصِحُ الشَّفِيقُ الَّذِي يَخْلُطُ خُلُوكَ كَلَامِهِ بِمُرَّةٍ ، وَحَزَنَتَهُ بِسَهْلِهِ ، وَيَحْرُكُ الْإِشْفَاقُ مِنْهُ مَا هُوَ سَاكِنٌ مِنْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ وَعَيْتُ النَّصِيحَ مِنْهُ وَقَبَلْتَهُ ، إِذْ كَانَ مَصْدَرُهُ مِنْ عِنْدِ مَنْ لَأَشَكُّ فِي مَوَدَّتِهِ ، وَصَافِي غَيْبِهِ ، وَمَا زَلَّتْ بِحَمْدِ اللَّهِ إِلَى الْخَيْرِ مَتَّهِجًا وَاضِحًا ، وَطَرِيقًا مَهَيَّبًا (١) » .

(الأمل ٢ : ٨٢)



١٩ - كلمات حكيمة للأعراب

قيل لأعرابي : مَالِكَ لَا تَشْرَبِ التَّبِيذَ ؟ قَالَ : « لثَلَاثِ خِلَالٍ فِيهِ : لِأَنَّهُ مُتَلَفٌ لِلْمَالِ ، مُذْهَبٌ لِلْعَقْلِ ، مُسْقِطٌ لِلْمَرْوَةِ » .

وقال أعرابي : « الدِراهِمُ مِيَّاسِيمٌ^(١) ، تَسِيمٌ حَمْدًا وَذَمًّا ، فَمَنْ حَبَسَهَا كَانَ لَهَا ، وَمَنْ أَنْفَقَهَا كَانَتْ لَهُ ، وَمَا كُلُّ مَنْ أُعْطِيَ مَالًا أُعْطِيَ حَمْدًا ، وَلَا كُلُّ عَدِيمٍ ذَمِيمٌ » .
وقال أعرابي لأخ له : « يَا أَخِي إِنَّ مَالِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ كُنْتَ لَهُ ، وَإِنْ لَمْ تُفْنِهِ أَفْنَاكَ ، فَكُلُّهُ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَكَ » .

وقال أعرابي : « إِنْ الْمَوْفِقُ مَنْ تَرَكَ أَرْفَقَ الْحَالَاتِ بِهِ ، لِأَصْلَحِهَا لِدِينِهِ ، نَظْرًا لِنَفْسِهِ ، إِذَا لَمْ تَنْظُرْ نَفْسُهُ لَهَا » .

وقال أعرابي : « إِنْ اللَّهُ مُخْلِيفٌ مَا أَتَلَفَ النَّاسُ ، وَالدهرُ مُتَلِفٌ مَا أَخْلَفُوا ، وَكَمْ مِنْ مَيِّتَةٍ عَلَيْهَا طَلَبَ الْحَيَاةَ ، وَكَمْ مِنْ حَيَاةٍ سَبَبَتْهَا التَّعَرُّضُ لِلْمَوْتِ » .
وقال أعرابي : « إِنْ الْآمَالَ قَطَعْتَ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ ، كَالسَّرَابِ غَرَّ مَنْ رَأَاهُ ، وَأَخْلَفَ مِنْ رَجَاهُ » .

وقال أعرابي لصاحب له : « أَصْحَبٌ مِنْ يَتَنَاسَى مَعْرُوفَهُ عَلَيْكَ ، وَيَتَذَكَّرُ حَقُوقَكَ عَلَيْهِ » .

وقال أعرابي : « لَا تَسْأَلْ مَنْ يَفِرُّ مِنْ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَلَكِنْ سَلْ مَنْ أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى » .

[١] مياسم جمع ميسم بالكسر : وهو المكواة .

وقال أعرابي : « ما بقاء عُمرٍ تقطعه الساعات ، وسلامةُ بدنٍ مُعرَّضٍ للآفاتِ ؟ ولقد عجبتُ من المؤمنِ كيف يكره الموتَ ؟ وهو ينقله إلى الثواب الذي أحياءه ليله ، وأظمأ له نهاره . »

وذكر أهلُ السلطان عند أعرابي فقال : « أما والله لئن عَزُوا في الدنيا بالجور ، لقد ذَلُّوا في الآخرة بالعدل ، ولقد رضُوا بقليلٍ فإن ، عِوَصًا عن كثيرٍ باقٍ ، وإنما نزلَ القدمُ حيث لا ينفخ الندم . »

وقال أعرابي : « من كانت مطيته الليل والنهار ، سارا به وإن لم يسِرْ ، وبلغنا به وإن لم يبلغ . »

وقال أعرابي : « الزهادة في الدنيا مفتاح الرغبة في الآخرة ، والزهادة في الآخرة مفتاح الرغبة في الدنيا . »

وقيل لأعرابي وقد مرض : إنك تموت ! قال : « وإذا مِتُّ فإلى أين يذهب بي ؟ » قالوا : « إلى الله تعالى » ، قال : « فما كراحتي أن يذهب بي إلى من لم أرا الخير إلا منه ؟ »

وقال أعرابي : « من خاف الموتَ بادر الموتَ ، ومن لم يُنحَّ النفسَ عن الشهوات ، أسرع به إلى المهلكات ، والجنة والنار أمامك . »

وقال أعرابي : « خيرٌ لك من الحياة ما إذا فقدته أبغضت له الحياة ، وشرٌّ من الموت ما إذا نزل بك أحبت له الموت . »

وقيل لأعرابي : من أحقُّ الناس بالرحمة ؟ قال : « الكريمُ يُسلط عليه اللئيمُ ، والعاقلُ يُسلط عليه الجاهل . »

وقيل له : أيُّ الداعين أحقُّ بالإجابة ؟ قال : المظلوم ، وقيل له : فأى الناس أغنى عن الناس ؟ قال : « من أفرد الله بحاجته » .

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « إذا أشكل عليك أمران ، فانظر أيهما أقرب من هواك فخالفه ، فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى » .
وقال أعرابي : « الشرُّ عاجله لذيد ، وآجله وخيم » .

وقال أعرابي : « من ولد الخير أنتج له فراخاً تطير بأجنحة السرور ، ومن غرس الشر أنبت له نباتاً مرّاً مذاقه ، وقُضبانُه الغيظُ ، وثمرته الندم » .

وقال أعرابي : « من كساه الحياء ثوبه ، خفي على الناس عيبه » وقال : « بئس الزاد، التعمدّى على العباد » ، وقال : « التلطّف بالحيلة، أنفع من الوسيلة » ، وقال : « من ثقل على صديقه ، خفّ على عدوّه ، ومن أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه ما لا يعلمون » .

وقال أعرابي : « أعجزُ الناس مَنْ قَصَرَ في طلب الإخوان ، وأعجز منه من ضيّع من ظفّر به منهم » .

وقال أعرابي لابنه : « لا يسرك أن تغلب بالشرِّ ، فإن الغالب بالشرِّ هو المغلوب » .

وقال أعرابي لأخ له : « قد نهيتك أن تُريق ماء وجهك عند من لاماء في وجهه ، فإن حطّك من عطيتّه السؤال » .

وقال أعرابي : « إن حبّ الخير خير وإن عجزت عنه المقدرة ، وبنغض الشرِّ خير وإن فعلت أكثره » .

وقال أعرابي : « والله لولا أن المروءة تَقِيلُ تَحْمِلُهَا ^(١) ، شديدة مؤنثها ، ماترك اللثام للكرام شيئا » .

واحتضِر أعرابي ، فقال له بنوه : عِظْنَا يَا أَبَتِ ، فقال : « عاشروا الناس معاشرةً ، إن غبتم حَنُوا إليكم ، وإن متمم بَكُوا عليكم » .

ودخل أعرابي على بعض الملوك في شَمْلَةٍ ^(٢) شعر ، فلما رآه أعرض عنه ، فقال له : « إن الشَمْلَةَ لا تكلمك ، وإنما يكلمك مَنْ هو فيها » .

وقال أعرابي : « رُبَّ رجل سِرُّه منشور على لسانه ، وآخر قد التحف عليه قلبه التحافَ الجَنَاحِ على الخَوَافِ » .

وقيل لأعرابي : كيف كتمانك للسرِّ؟ قال : « ما جوفى له إلا قَبْرٌ » .

ومرَّ أعرابيان برجل صلبه بعض الخلفاء ، فقال أحدهما : أُنْبِتَتْهُ الطاعةُ ، وَحَصَدَتْهُ المعصيةُ ، وقال الآخر : « من طَلَّقَ الدنيا فالآخرة صاحِبته ، ومن فارق الحق فأنجذع راحلته » .

وقال أعرابي : « إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ، ودوامَ عهده ، فانظر إلى حينه إلى أوطانه ، وشوقه إلى إخوانه ، وبكائه على ما مضى من زمانه » .

وقال أعرابي : « إذا كان الرأى عند من لا يُقْبَلُ منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ، والمال عند من لا ينفقه ، ضاعت الأمور » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٥ - ٨٧)

وقال أعرابي : « إن الدنيا تنطق بغير لسان ، فتخبر عما يكون بما قد كان » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٠)

وقال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول : « غَفَلْنَا ولم يَغْفُلِ الدهرُ عنا ، فلم

[١] الحمل في الأصل : شقان على البعير يحمل فيهما العديلان . [٢] كساء دون انعطيفة يشتمل به .

تَمِظُ بغيرنا ، حتى وُعِظَ غيرُنَا بنا ، فقد أدركت السعادة مَنْ تَنَبَّهَ ، وأدركت الشقاوة من غفل ، وكفى بالتجربة واعظاً . (زهر الآداب ٢ : ٥)

وقال أعرابي لرجل : « اشكرُ للمنعِمِ عليك ، وَأَنعِمِ على الشاكر لك ، تستوجب من ربك زيادته ، ومن أخيك مُناصحتَه » . (زهر الآداب ٢ : ٦)
وتذاكر قوم صِلَةَ الرَّحِمِ ، وأعرابيٌّ جالس ، فقال : « مَنْسَأَةٌ ^(١) في العمر ، مَرَضَاءَةٌ للربِّ ، حَبَّةٌ في الأهل » . (الأمل ١ : ٢١٧)

وقال أعرابي : « لا أعرف ضُرًّا أوَصَلَ إلى نِباطِ القلبِ ، من الحاجة إلى من لم تَثِقْ بِإسعافه ، ولا تَأْمَنَ رَدَّهُ ، وَأَكْلَمُ المصائبِ فَقَدُ خَلِيلٍ لا عِوَضَ منه » .
وقيل لأعرابي : أى شىء أمتع ؟ فقال : « مُمَازِحَةُ المُحِبِّ ، ومحادثة الصديق ، وأمانى تقطع بها أيامك » .

وقال أعرابي : « من لم يرضَ عن صديقه إلا بإيثاره على نفسه ، دام سَخَطُه ، ومن عاتب على كل ذنب كثر عدوّه ، ومن لم يؤاخِ من الإخوان إلا مَنْ لا عيبَ فيه قَلَّ صَدِيقُه » . (الأمل ١ : ٢١٨)

عن عبدالرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي ما تقول في المرء ؟ قال : « ما عسى أن أقول في شىء يفسد الصداقة القديمة ، وَيَحُلُّ العُقْدَةَ الوثيقة ، أقلُّ ما فيه أن يكون دُرْبَةً للمغالبة ، والمغالبةُ من أمتنِ أسبابِ الفتنة » . (الأمل ١ : ٢٥٨)
عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « لا يوجد العَجُولُ محموداً ، ولا الفَضُولُ مَسْروراً ، ولا المَلُولُ ذا إخوان ، ولا الحُرُّ حريصاً ، ولا الشرُّ غنياً » .

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « سُنْ عَقْلَكَ بِالْحَلْمِ ، وَثُرْوَتَكَ بِالْعَفَافِ ،
وَنَجْدَتَكَ بِمَجَانِبَةِ الْخَيْلَاءِ ، وَخَلَّتْكَ ^(١) بِالْإِجْمَالِ فِي الطَّلَبِ » . (الأمل : ٢ : ٣٢)
وقال : سمعت أعرابياً يقول : « أَقْبِحُ أَعْمَالَ الْمُقْتَدِرِينَ الْإِتْقَامَ ، وَمَا اسْتَنْبَطَ
الصَّوَابُ بِمِثْلِ الْمَشَاوِرَةِ ، وَلَا حُصِّلَتِ النِّعَمُ بِمِثْلِ الْمَوَاسَاةِ ، وَلَا اكْتَسَبَتِ
البِقْضَاءُ بِمِثْلِ الْكِبَرِ » . (الأمل : ٢ : ٣٢ ، وزمر الآداب : ٢ : ٣)

✓ وقال أعرابي : « خَيْرُ الْإِخْوَانِ مَنْ يُنِيلُ عُرْفًا ، أَوْ يَدْفَعُ ضُرًّا » .
(الأمل : ٢ : ٤١)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « الْعَاقِلُ حَقِيقٌ أَنْ
يُسَخِّي بِنَفْسِهِ عَنِ الدُّنْيَا ، لَعَلَّهُ أَنْ لَا يِنَالُ أَحَدٌ فِيهَا شَيْئًا إِلَّا قَلَّ إِمْتَاعُهُ بِهِ ، أَوْ
كَثُرَ عَنَاؤُهُ فِيهِ ، وَاشْتَدَّتْ مَرَزِيَّتُهُ ^(٢) عَلَيْهِ عِنْدَ فِرَاقِهِ ، وَعَظُمَتِ التَّبِعَةُ
فِيهِ بَعْدَهُ » . (الأمل : ٢ : ٤١)

وقال أعرابي : « خَصَلْتَانِ مِنَ الْكِرْمِ : إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ ،
وَمَوَاسَاةُ الْإِخْوَانِ » . (الأمل : ٢ : ٧٣)

وقال أعرابي : « مَا غُبِنْتُ قَطُّ حَتَّى يُغْبِنَ قَوْمِي » ، قيل : وكيف ذلك ؟
قال : « لَا أَفْعَلُ شَيْئًا حَتَّى أَشَاوِرَهُمْ » . (البيان والتبيين : ٢ : ١٦١)

وقال أعرابي لرجل مَطَّلَهُ فِي حَاجَةٍ : « إِنْ مِثْلَ الظَّفْرِ بِالحَاجَةِ تَعَجِيلُ اليَأْسِ مِنْهَا ،
إِذَا عَسُرَ قَضَاؤُهَا ، وَإِنْ الطَّلَبُ وَإِنْ قَلَّ ، أَعْظَمُ قَدْرًا مِنَ الحَاجَةِ وَإِنْ عَظُمَتِ ،
والمَطْلُ مِنْ غَيْرِ عُسْرِ آفَةُ الجُودِ » . (البيان والتبيين : ٣ : ٢٢١)

وقال أعرابي : « وَعَدُّ الْكَرِيمِ تَقْدُّ وَتَعَجِيلُ ، وَعَدُّ اللَّيْمِ مَطْلٌ وَتَعْمِيلُ »
(البيان والتبيين : ٣ : ٢٣١)

وقال أعرابي : « اعتذارٌ من منع ، أنجملُ من وعدٍ تمطول . »

(الأمل ٢ : ١٩٨)

وقال أعرابي : « عوّد لسانك الخيرَ ، تسلّم من أهل الشرِّ . »

(ذيل الأمل ص ٢٩)

وقال أعرابي : « خرجت ليلة حين انحدرت أيدي النجوم ، وشالت^(١)

أرجلها ، فازلت أصدع الليل حتى انصدع الفجر ، فإذا بجارية كأنها علم

فجعلت أغازلها ، فقالت : يا هذا ، أمالك ناهٍ من كرم ، إن لم يكن لك زاجرٌ من

عقل ؟ قال : والله ما يراني إلا الكواكب ! قالت : فأين مكوكبها ؟ . »

(العقد الفريد ٢ : ٩٤ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥١ ، وزهر الآداب ٢ : ٦)

أجوبة الأعراب

٢٠ - مجاوبة أعرابي للحجاج

خرج الحجاج ذات يوم فأصْحَرَ^(٢) ، وحضر غداؤه ، فقال : اطلبوا من

يتغدّى معي ، فطلبوا ، فإذا أعرابي في شملة : فأْتِيَ به ، فقال السلام عليكم ،

قال : هَلُمَّ أيها الأعرابي ، قال : قد دعاني من هو أكرم منك فأجبتُه ، قال :

ومن هو ؟ قال : دعاني الله ربّي إلى الصوم ، فأنا صائم ، قال : وصومٌ في مثل هذا

اليوم الحارّ ؟ قال : صمت ليومٍ هو أحرُّ منه ، قال : فأفطر اليومَ وصمَّ غداً ،

قال : وَيَضْمَن لِي الأمير أني أعيش إلى غد ؟ قال : ليس ذاك إليه ، قال : فكيف

تسألني عاجلاً بأجلٍ ، ليس إليه سبيل ؟ قال : إنه طعام طيب ، قال : والله

[١] ارتفعت : من شالت الناقة بذنبا وأشالته : رفعته ، وشال هو .

[٢] أصحر : برز في الصحراء .

ما طيبه خبأزك ولا طبأخك ، قال : فمن طيبه ؟ قال : العافية ، قال الحجاج :
تالله إن رأيت كاليوم ! أخرجوه عنى . (البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤ ، والقدا نريد ٢ : ٨٧)

٢١ - مساءلة الحجاج أعرابيا فصيحاً

وقال الحجاج لأعرابي كلمه فوجده فصيحاً: كيف تركت الناس وراءك؟ فقال:
« تركتهم - أصلح الله الأمير - حين تفرقوا في النيطان ، وأخذوا النيران ،
وتشكت النساء ، وعرض الشاء ، ومات الكلب » ، فقال الحجاج لجلسائه :
أخصباً نعت أم جدباً ؟ قالوا : بل جدباً ، قال : بل خصباً ، قوله : تفرقوا في
النيطان^(١) ، معناه : أنها أعشبت ، فإبلهم وغنمهم ترعى ، وأخذوا النيران ، معناه :
استغنوا باللبن عن أن يشتروا لحوم إبلهم وغنمهم ويأكلوها ، وتشكت النساء
أعضادهن ، من كثرة ما يمتخضن^(٢) الألبان ، وعرض الشاء : استن^(٣) من كثرة
العشب والمرعى ، ومات الكلب : لم تمت أغنامهم وإبلهم فياً كل جيفها .
(ذيل الأملى ص ٨٧)

٢٢ - مجاوبة أعرابي لعبد الملك بن مروان

ودخل أعرابي على عبد الملك بن مروان ، فقال له : يا أعرابي صف الحمر ، فقال :
شمول^(٤) إذا شجبت ، وفي الكأس مزة^(٥) لها في عظام الشارين ديب^(٤)
تريك القذى من دونها وهي دونه لوجه أخيها في الإناء قطوب^(٥)

[١] جمع فائط : وهو اللطين الواسع من الأرض . [٢] مخص اللبن من بذب قطع ونصر وضرب
أخذ زبده . [٣] استن : سمن ، سن الإبل كنصر : إذا رطما فأصمها .
[٤] الشمول : الحمر أو الباردة منها ، لأنها تشعل برمجها الناس ، أو لأن لها عصفة كعصفة الشمال ،
وشج الفرااب : مزجه . [٥] القذى : ما يقع في الشراب ، قطب كضرب قطباً وقطوباً : زوى ما بين
عينيه وكلع ، وأخوما : هو نبيذ الزبيب ، والمعنى : أن الشارين يفضلون عليه فيشربونها دونه ، فهو
يقطب من أجل ذلك ، وفي أخيها يقول الشاعر :

فقال : ويحك يا أعرابي ! لقد اتهمك عندي حُسْنُ صفتك لها ، قال : « يا أمير المؤمنين ، واتهمك عندي معرفتك بحسن صفتي لها » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢١٥)

٢٣ - مجاوبة أعرابي لخالد بن عبد الله القسري

وخطب خالد بن عبد الله القسري فقال :

« يا أهل البادية : ما أحسن بلدكم ، وأغلظ معاشكم ، وأجنى أخلاقكم ، لا تشهدون الجمعة ، ولا تجالسون عالماً » ، فقام إليه رجل منهم دميم ، فقال : « أمّا ما ذكرت من خشونة بلدنا ، وغلظ طعامنا ، فهو كذلك ، ولكنكم معشر أهل الحضر ، فيكم ثلاث خصال ، هي شرٌّ من كل ما ذكرت » ، قال له خالد : وما هي ؟ قال : « تنقبون الدور ، وتنبشون القبور ، وتنكحون الذكور » ، قال : « قبّحك الله ، وقبّح ماجئت به » . (العقد الفريد ٢ : ١٢٧)

٢٤ - أجوبة شتى

وقدّم أعرابي إلى السلطان ، فقال له : قل الحق ، وإلا أوجعتك ضرباً ، قال له : « وأنت فأعمل به ، فوالله ما أوعدك الله على تركه ، أعظم مما تُوعِدُنِي به » .

ونظر عثمان إلى أعرابي في شملة ، فأثر العينين ، مُشْرِفِ الحاجبين ، نائِبِ الجبّهة ، فقال له : أين ربك ؟ قال : بِالْمِرْصَادِ !

وقيل لأعرابي : إنك تُحسِنُ الشّارة ^(١) ، قال : « ذلك عُنوان نعمة

الله عندي » .

دع الجر يفسر بها الفواة فإنني رأيت أحاما مقنياً بكانها
فإلا يكنها أو تكنه فإنه أخوها غدته أمه بلبانها

[١] الشارة : اللباس والهيئة والزينة .

وقيل لأعرابي : « كيف أنت في دينك ؟ قال : أخرقه بالمعاصي وأرقعه بالاستغفار » .

وسئل أعرابي عن القَدَر فقال : « الناظر في قدر الله كالناظر في عين الشمس ، يَعْرِفُ ضَوْءَها ، ولا يقف على حدودها » .

وسئل آخر عن القدر ، فقال : « علم اختصمت فيه العقول ، وتقاول فيه المختلفون ، وَحَقٌّ علينا أن يرد إلينا ما التبس علينا من حكمه ، إلى ما سبق علينا من علمه » . (القدر الفريد ٢ : ٨٦ - ٨٧)

وقيل لأعرابي : من أَبْلَغُ الناس ؟ قال : « أحسنهم لفظاً وأسرعهم بديهة » .

وقيل لأعرابي : مالك لا تُطِيلُ الهجاء ؟ قال : « يكفيك من القِلادة ما أحاط بِالْمُنْقِ » .

وقال معاوية لأعرابية : هل من قَرِيٍّ ؟ قالت : نعم ، قال : وما هو ؟ قالت : « خُبْزٌ خَمِيرٌ ، ولبنٌ فَطِيرٌ ، وماءٌ نَمِيرٌ ^(١) » .

وقيل لأعرابي : فيم كنتم ؟ قال : « كنا بين قِدرٍ تفور ، وكأسٍ تدور ، وحديث لا يَحْجُور ^(٢) » .

وقيل لأعرابي : ما أعددت للبرد ؟ قال : « شدة الرعدة ، وَقُرْفُصَاءُ القِمْدَةِ ، وَذَرَبُ المِعْدَةِ ^(٣) » .

وقيل لأعرابي : « مالك من الولد ؟ قال : قليلٌ خبيث ، قيل له : ما معناه ؟

[١] الخمر : الذي اختر ، وماء نمير : ناعم ، عذبا كان أو غير عذب .

[٢] أى - لا ينقص ، وربما كان لايجور بالجم . [٣] القرفصاء : أن يجلس على أليته ، ويلصق

مخذيته ببطنه ، ويحتمى يديه يضعهما على ساقيه ، أو يجلس على ركبتيه منكباً ، ويلصق بطنه بفخذيه ،

ويتأبط كفيه ، والنرب : الحدة ، والمعدة ككلمة وكسرة .

قال : « إنه لا أقل من واحد ، ولا أخبث من أنثى »

وقيل لأعرابي - وقد أدخل ناقته في السوق ليبيعها - صف لنا ناقتك ، قال :
ما طلبت عليها قطُّ إلا أدركتُ ، ولا طلبتُ إلا فُتُّ ، قيل له : فلم تبيعها ؟
قال : لقول الشاعر :

وقد تُخْرِجُ الحاجاتُ يأمَّ عامرٍ كرائمَ من ربِّ بهنِّ ضنينِ
وقيل لأعرابي : ما عندكم في البادية طيب ؟ قال : « مُحرُّ الوحش لا تحتاج
إلى بيطار » .

وقيل لشريح القاضي : هل كلك أحد قطُّ فلم تُطِقْ له جواباً ؟ قال : ما أعلمه
إلا أن يكون أعرابياً ، خاصم عندي وهو يشير يديه ، فقلت له : أمسك ، فإن
لسانك أطول من يدك ، قال : « أسامري أنت لا تمس ؟ (١) » .

(العقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقيل لأعرابي : أي الألوان أحسن ؟ قال : « قصورٌ بيضٌ ، في
حدائقٍ خضرٍ » .

[١] يشير إلى قوله تعالى : « قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ، قَالَ بَعُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ،
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنَ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ، قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ
فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَأَمْسَأَنَّ » .

والسامري : هو موسى بن ظفر السامري نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها : السامرة ، وكان
من قوم يعبدون البقر ، وقع في مصر ، فدخل في بني إسرائيل ، وآمن بموسى ، وكان مسافراً لا يزال في قلبه
عبادة البقر ، فلما ذهب موسى لمجاة ربه فتن بني إسرائيل ، وكانوا حين خرجوا من مصر حملوا معهم من
حلي القبط التي أخذوها منهم رهائن على ما يقرضونهم من المال - فاتخذ لهم منها عجلاً جسداً له غوار . . .
إلى آخر ما هو معروف في القصة ، من أثر الرسول : أي من أثر حافر الرسول وهو جبل ، والأثر :
التراب الذي تحت حابره ، والمساس : مصدر ماس ، وهو نقي أريد به النهي ، أي لا تمسني ولا أمسك .

وقيل لآخر : أى الألوان أحسن ؟ قال : « بَيْضَةٌ ^(١) » ، فى رَوْضَةٌ ، عن
غَيْبِ سَارِيَّةٍ ، وَالشَّمْسِ مُكَبَّدَةٌ . (القدر المرید ٢ : ٩٦)

وخطب أعرابى إلى قوم فقالوا : ما تبذل من الصداق ؟ وارتفع السَّجْفُ ^(٢)
فرأى شيئاً كرهه فقال : « والله ما عندى نقد ، وإنى لأكره أن يكون
على دين » . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٠٠)

وقيل لأعرابية مات ابنها : « ما أحسن عزاءك عن ابنك ! » ، قالت :
« إن مصيبتى آمنتنى من المصائب بعده » .

وقال محمد بن حرب الهلالى : قلت لأعرابى : « إنى لك لوأدٌ » ، قال :
« وإن لك من قلبى لرأئداً » . (البيان والتبيين ١ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٢)

وقال الأصمى : رأيت أعرابياً أمامه شاةٌ ، فقلت : لمن هذه الشاة ؟ قال :
« هى لله عندى » . (القدر المرید ٢ : ٨٦ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٠٩)

قولهم فى الاستمناح والاستجداء

٢٥ - أعرابى يجتدى عتبه بن أبى سفيان

اعترض أعرابى لعتبة بن أبى سفيان ، وهو على مكة ، فقال : أيها الخليفة ،
فقال : لستُ به ، ولم تُبْعِدْ ، قال : يا أخاه ، قال : أَسَمَعْتَ فقل ، قال :

« شيخ من بنى حامر يتقرب إليك بالعمومة ، ويمتص بالخشولة ، ويشكو
إليك كثرة العيال ، ووطأة الزمان ، وشدة فقر ، وترادف ضرر ، وعندك ما يسعه

[١] البَيْضَةُ : ساحة القوم ومجتمعهم ، والسارية : السحابة تسمى ليلاً ، وكبدت الشمس السماء : صارت

فى كبدتها أى وسطها ، وفى الأصل « مكيدة » بالياء وهو تصحيف .

[٢] السجف بالفتح والكسر : الستر .

وَيَصْرِفُ عَنْهُ بؤْسَهُ ، قال : « أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْكَ ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَيْكَ ، قَدْ أَمَرْتُ لَكَ بِغِنَاكَ ، فَلَيْتَ إِسْرَاعَنَا إِلَيْكَ ، يَقُومُ بِإِبْطَائِنَا عَنْكَ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١)

٢٦ — أعرابي يجتدي عمر بن عبد العزيز

وَأَتَى أَعْرَابِي عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَقَالَ :

« رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ ، سَاقَتْهُ إِلَيْكَ الْحَاجَةُ ، وَبَلَغَتْ بِهِ الْغَايَةَ ، وَاللَّهُ سَائِلُكَ عَنْ مَقَامِي غَدًا » ، فَقَالَ عُمَرُ : « وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ كَلِمَةً أَبْلَغُ مِنْ قَائِلٍ ، وَلَا أَوْعِظُ لِمَقُولٍ لَهُ مِنْهَا » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٣ ، والأمالى ٢ : ١٧٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١)

٢٧ — خطبة أعرابي بين يدي هشام بن عبد الملك

وَكَانَتْ الْأَعْرَابُ تَنْتَجِعُ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بِالْخُطْبِ كُلِّ عَامٍ ، فَتَقْدَمُ إِلَيْهِمُ الْحَاجِبُ بِأَمْرِهِمُ بِالْإِيْجَازِ ، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ الْعَطَاءَ مَحَبَّةً ، وَالْمَنْعَ مَبْغِضَةً ،

فَلَأَنْ نَحْبَبَكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُبَغِضَكَ ^(١) » ، فَأَعْطَاهُ وَأَجْزَلَ لَهُ . (العقد الفريد ٢ : ٨٣)

٢٨ — مقام أعرابي بين يدي هشام

وقام أعرابي بين يدي هشام فقال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَتَتْ عَلَى النَّاسِ ثَلَاثُ سِنِينَ ، أُمًّا الْأُولَى : فَلَحَّتِ ^(٢)

اللَّحْمَ ، وَأُمَّا الثَّانِيَةَ : فَأَكَلْتُ الشَّحْمَ ، وَأُمَّا الثَّلَاثَةَ : فَهَاضَتْ ^(٣) الْعَظْمَ ، وَعِنْدَكُمْ

[١] يروى هذا لحمد بن أبي الجهم العدوي ، قاله في حضرة هشام أيضاً . انظر الجزء الثاني ص ٤٠٦ .

[٢] من لحا الشجرة : أخذ لحاءها (بالكسر) وهو قشرها . [٣] هاض العظم : كسره بعد

الجبور وهو مبيض ، وفي رواية : « وعام أتى العظم » أي وصل إلى نقيه (بالكسر) وهو مخ العظم .

فُضُولُ أَمْوَالٍ ، فَإِنْ كَانَتْ لَلَّهِ فَانْقَسَمُوا بَيْنَ عِبَادِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ فَفِيمَ تَحْتَظَرُ (١) عَنْهُمْ ؟ وَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ فَتَصَدَّقُوا عَلَيْهِمْ بِهَا ، إِنْ اللَّهُ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ » ، قَالَ هِشَامُ : هَلْ مِنْ حَاجَةٍ غَيْرِ هَذِهِ يَا أَعْرَابِي ؟ قَالَ : « مَا ضَرَبْتُ إِلَيْكَ أَكْبَادَ الْإِبِلِ ، أَدْرِعُ الْهَجِيرَ ، وَأَخْوِضُ الدُّجَى خُلَاصًا دُونَ حَامٍ » ، فَأَمَرَ هِشَامُ بِمَالٍ ، فَقَسَّمَهُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَأَمَرَ لِلْأَعْرَابِيِّ بِمَالٍ ، فَقَالَ : « أَكُلُ الْمُسْلِمِينَ لَهُ مِثْلُ هَذَا ؟ » قَالُوا : « لَا ، وَلَا يَقُومُ بِذَلِكَ بَيْتُ مَالِ الْمُسْلِمِينَ » ، قَالَ : « فَلَاحِجَةٌ لِي فِيمَا يَبْعَثُ لِأُمَّةِ النَّاسِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٨ والمقد الفريد ٢ : ٨٢)

٢٩ — أَعْرَابِيٌّ يَسْتَجِدِي عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ

وَقَالَ الْعُتْبِيُّ : وَقَفَ أَعْرَابِيٌّ بِيَابِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ فَقَالَ :

« يَا أَهْلَ الْفَضَارَةِ (٢) ، حَقِيبَ (٣) السَّحَابِ ، وَانْقَشَعَ الرَّيَابُ ، وَاسْتَأْسَدَتِ الذُّنَابُ ، وَرُذِمَ الثَّمَدُ (٤) ، وَقَلَّ الْحَفْدُ (٥) ، وَمَاتَ الْوَلَدُ ، وَكُنْتُ كَثِيرَ الْعُقَاةِ (٦) ، صَنِيبَ (٧) السَّقَاةِ ، عَظِيمَ الدَّلَاةِ (٨) لِاتِّصَالِ الزَّمَانِ ، وَغَفَلَ (٩) الْحَدِثَانِ ، حَتَّى حَلَّالٍ (١٠) ، وَعَدَدُ وَمَالٍ ، فَتَفَرَّقْنَا أَيْدِي سَبَا (١١) ، بَيْنَ فَقْدِ الْأَبْنَاءِ وَالْآبَاءِ ،

[١] تعجب وتمتع . [٢] الفضارة : العمة والسمة والحصب ، وفي الأصل : « الفضارة » وهو تحريف — والفضارة الذلة والمقمة — . [٣] حقب المطر وغيره : احتبس ، والرياب : السحاب الأبيض . [٤] الثمد كشمس وسبب : الماء الليل لامادة له . [٥] الحفد : الأعوان جمع حافد . [٦] العفاة جمع طاف : وهو الوارد والضيف ، وكل طالب فضل أو رزق . [٧] وصف من الصنوب بالتحريك وهو شدة الصوت ، والسقاة جمع ساق كقاض ، وفي الأصل « صحب السماء » وأراه محرفا . [٨] في الأصل : « عظيم الزلات » وأراه محرفا عن « الدلاة » ، والدلاة كفضارة جمع دال كقاض ، وهو النازع في الدلو المستقي به الماء من البئر . يقال : أدليت الدلو ودليتها : إذا أرسلتها في البئر . ودلوها أدوها فأنا دال : إذا أخرجتها . [٩] الغفل بالتحريك : الغفلة ، والحديثان : نوب الدمر وحوادثه ، وفي الأصل : « ولا أعقل الحديثان » وأراه محرفا ، وربما كان الأصل « ولا يغفل الحديثان » بتكرير لام الجر . [١٠] الحلة بالكسر : القوم الازلون ، والجمع حلال وحلل ككتاب وعنب ، وتطلق الحلة على البيوت مجازاً تسمية للمحل باسم الحال ، وهي مائة بيت فما فوقها . [١١] يقال : ذهبوا أيدي سبا ، وتفرقوا أيدي سبا ، أي تبددوا ، شبهوا بأهل سبا لما

وكنت حَسَنَ الشَّارَةِ^(١) ، خَصِيبَ الدَّارَةِ^(٢) ، سليم الجارة^(٣) ، وَكَانَ مَحَلِّي
حَمِي ، وقومى أُسَى^(٤) ، وعزى جَدًّا^(٥) ، قَضَى اللهُ - ولأرجعَانِ لما قَضَى - بِسَوَافٍ^(٦)
المال ، وَشَتَاتِ الرِّجَالِ ، وتغيُّرِ الحَالِ ، فَأَعِينُوا مَنْ شَخَّصَهُ شَاهِدُهُ ، وَإِسَانُهُ
وَإِفِدُهُ ، وَفَقْرُهُ سَائِقُهُ وَقَائِدُهُ . (زهر الآداب ٣ : ٢٠٧)

٣٠ - أعرابية تستجدي عبد الله بن أبي بكر

ودخلت أعرابية على عبد الله بن أبي بكر بالبصرة ، فوقفت بين
السماطين^(٧) فقالت :

« أصلح الله الأمير وأمتع به ، حَدَرْنَا إِلَيْكَ سَنَةً اشْتَدَّ بِلَاؤُهَا ، وانكشف
غِطَاؤُهَا ، أَقْوَدُ صَبِيَّةً صَغَارًا ، وَآخِرِينَ كِبَارًا ، فِي بِلْدَةِ شَاسِعَةٍ ، تَخْفِضُنَا خَافِضَةً ،
وَتَرْفَعُنَا رَافِعَةً ، لِمِائَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ ، بَرَّيْنِ عَظْمِي ، وَأَذْهَبَيْنِ لِحْمِي ، وَتَرَكْتَنِي
وَالِهَةً ، أَذُورُ بِالْحَضِيضِ ، وَقَدْ ضَاقَ بِي الْبَلْدُ الْعَرِيضُ ، فَسَأَلْتُ فِي أَحْيَاءِ
العرب : مَنْ الكَامِلَةُ فِضَائِلُهُ ، الْمُعْطَى سَائِلُهُ ، الْمَكْنِيُّ نَائِلُهُ ؟ فَدَلَّيْتُ عَلَيْكَ
- أصلحك الله تعالى - وَأَنَا امْرَأَةٌ مِنْ هَوَازِنَ ، قَدِمَاتِ الْوَالِدِ ، وَغَابِ الرَّافِدِ ،

مزقهم الله في الأرض كل ممزق ، فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة ، واليد : الطريق . يقال : أخذ
القوم يد بجر ، فقيل للقوم إذا تفرقوا في جهات مختلفة : ذهبوا أيدي سبأ : أي فرقهم طرقهم التي
سلكوها كما تفرق أهل سبأ في مدهاب شتى ، والعرب لا تهمز سبأ في هذا الموضع ، لأنه كثر في كلامهم
فاستثقلوا فيه الهمزة ، وإن كان أصله مهموزاً ، وقد بنوا أيدي سبأ ، وأيادي سبأ على السكون لكونه
مركباً تركيب حمسة عشر .

[١] النارة : الهيبة واللباس والريثة والجمال . [٢] الدارة : الدار .

[٣] الجارة ، من معانيها : الزوجة . [٤] الأسي جمع أسوة : وهي القدوة .

[٥] الجدا : العطية ، والمطر الذي لا يعرف أقصاه . [٦] السواف بالضم ويفتح : مرض الإبل ،

وسواف المال يسوف ويساف : هلك ، أو وقع فيه السواف .

[٧] السماطان من الناس : الجانبان .

وأنت بعد الله غيائي ، ومُنْتَهَى أَمَلِي ، فافعل بي إحدى ثلاثِ خِصال : إما أن
تَرُدَّنِي إلى بَلَدِي ، أو تُحْسِنَ صَفْدِي ^(١) ، أو تَقِيمَ أَوْدِي ، فقال : بل أجمعهن
لك ، فلم يزل ينجري عليها كما يُجْرِي على عياله حتى ماتت .
(زمر الآداب ٣ : ٣٠٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :
قال الأصمعي : وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضى
الله تعالى عنهما فقالت :

« إني أتيت من أرضٍ شاسعة ، تَخْفِضُنِي خافضة ، وترفعني رافعة ، في
بَوَادِي بَرَيْنٍ لَحِي ، وَهِيضِن ^(٢) عَظْمِي ، وتركتني وَالِهَةً ، قد ضاق بي البلد ،
بعد الأهل وَالْوَالِدَ ، وكثرة من العَدَدِ ، لَأَقْرَابَةَ تُؤَوِّبِنِي ، ولا عشيرة تَحْمِينِي ،
فسألت أحياء العرب ، مَنْ المَرْتَجِي سَيِّبُهُ ^(٣) ، المأمون عَيْبُهُ ، الكثيرُ نَائِلُهُ ،
المَكْنِي سَائِلُهُ ، فَدَلَلْتُ عَلَيْكَ ، وأنا امرأة من هَوَازِنَ ، فقدت الولد والوالد ،
فاصنع في أمرى واحدة من ثلاث : إما أن تُحْسِنَ صَفْدِي ، وإما أن تَقِيمَ أَوْدِي ،
وإما أن تَرُدَّنِي إلى بَلَدِي » ، قال : بل أجمعهن لك ، ففعل ذلك بها .

(العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣١ - أعرابي يستجدي خالد بن عبد الله القسري

ودخل أعرابي على خالد بن عبد الله القسري ، فقال :

« أصلح الله الأمير : شيخٌ كبيرٌ ، حَدَّثَهُ إِلَيْكَ بَارِيَةُ الْعِظَامِ ^(٤) ، وَمُورَثَةٌ

[١] الصند . العطاء . [٢] هاض العظم : كسره بعد الجبور . [٣] السيب العطاء .
[٤] حدته : ساقته ، وبارية العظام : نوى السكبات التي تبرى العظام ، مورثة : مهيبة ، من التارث ،
ومو إيقاد النار .

الأسقام ، ومُطَوَّلَة الأعوام ، فذهبت أمواله ، وَذُعْذِعَتْ^(١) آباله ، وَتَغَيَّرَتْ أحواله ، فَإِنْ رَأَى الأميرُ أَنْ يَجْبُرَهُ بفضله ، وَيَنْعَشُهُ بِسَجَلِهِ^(٢) ، وَيُرَدَّهُ إِلَى أهله ! » فقال : كل ذلك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم . (الأمل ٢ : ٤٩)

٣٢ — أعرابي يستجدي معن بن زائدة

وقدِمَ أعرابي من بني كِنانة على معن بن زائدة وهو باليمن فقال :

« إني والله ما أعرف سبباً بعد الإسلام وَالرَّحِمِ ، أفوى من رِحْلَة مثلى من أهل السنِّ والحَسَبِ إليك من بلاده ، بلا سبب ولا وسيلة ، إلا دعاءك إلى المكارم ، ورغبتك في المعروف ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَضَعْنِي من نفسك بحيثُ وضَعْتُ نفسي من رجائك فافعل » فوصله وأحسن إليه . (المقدم الفرد ٢ : ٨٠)

٣٣ — خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام

عن أبي زيد قال : بينا أنا في المسجد الحرام إذ وقف علينا أعرابي فقال :

« يا مسلمون ، إِنَّ الحمد لله ، والصلاة على نبيه ، إني امرؤ من أهل هذا المِلْطَاطِ الشَّرْقِيِّ المُوَاصِيِ أَسِيافِ تِهَامَةَ^(٣) ، عَكَفْتُ عَلَى سِنُونِ مُحْشٍ^(٤) ، فَاجْتَبَيْتِ الدُّرَى ، وَهَشَمْتَ العُرَى^(٥) ، وَجَمَشْتَ النِّجْمَ ، وَأَفْجَحْتَ الأَبْهَمَ^(٦) ،

[١] ذُعْذِعَتْ : فرقت ، وآبال جمع إبل . [٢] السجل والاصل : الدلو العظيمة مملوءة .

[٣] المِلْطَاطُ : كل شفير نهر أو واد ، والمواصي والمواصل واحد ، يقال : تواصي النبت : إذا اتصل بفضله ببعض ، وأسياف جمع سيف بالكسر : وهو سائل البحر . [٤] عَكَفْتُ : أقامت ، والسنون الجذوب ، ومحش جمع محوش كصبور ، وهي التي تمحش (بضم الحاء) الكلاً أي تحرقه .

[٥] اجْتَبَيْتِ : قطعت واستأصلت ، وهشمت : كسرت ، والبرى جمع عروة ، والعروة : القطة من الشجر لا يزال باقياً على الجذب ترطاه أموالهم . [٦] جمشت : احتلقت ، والجم : ما نحم ولم يستقل على ساق ، وأفجحت : أي جمعتها عجائبا ، والهجي : السبي الغناء المهزول .

وَهَمَّتِ الشَّحْمَ ، وَالتَّحَبَّتِ اللَّحْمَ ، وَأَحْجَبَتِ الْعَظْمَ ^(١) ، وفادرت التراب مَوْرًا ،
والماء غَوْرًا ، والناسَ أَوْزَاعًا ^(٢) ، وَالتَّبَطَّ قُعَاعًا ، وَالضَّهْلُ جُزَاعًا ، وَالْمَقَامَ
جَمْعًا ^(٣) ، يُصَبِّحُنَا الْمَاوِي ، وَيَطْرُقُنَا الْمَاوِي ^(٤) ، نَخْرَجْتُ لَا أَتَلْفَعُ بِوَصِيدَةٍ ،
وَلَا أَتَقَوِّتُ هَيْبِدَةً ^(٥) ، فَالْبَخَصَاتُ وَقِعَةٌ ، وَالرُّكْبَاتُ زَاعَةٌ ، وَالْأَطْرَافُ
قَفْعَةٌ ^(٦) ، وَالْجِسْمُ مُسْلَمٌ ، وَالنَّظَرُ مُدْزِهِمٌ ^(٧) ، أَعْشُو فَاغْطَشُ ، وَأَضْحَى
فَأَخْفَشُ ^(٨) ، أَسهل ظالما ، وَأُحْزِنُ رَاكِمًا ^(٩) فهل من أمرٍ مَمَيِّزٍ ^(١٠) ، أوداع
بخير ؟ وقاكم الله سَطَوَةَ الْقَادِرِ ، وَمَلَكَ الْكَاهِرِ ^(١١) ، وسوء الموارد ، وَفُضُوحَ
الْمَصَادِرِ ، قال : فأعطيته ديناراً وكتبت كلامه ، واستفسرته ما لم أعرفه .

(الأمالي ١ : ١١٣)

٣٤ — خطبة الأعرابي السائل في المسجد الجامع بالبصرة

وروى الجاحظ قال :

قال أبو الحسن : سمعت أعرابياً في المسجد الجامع بالبصرة بعد العصر سنة

- [١] همت : أذبت ، والعرب تقول : « همك ما همك » أي أدابك ما أذكرك ، والتحبت اللحم : أوى عرقته من العظم ، وأحجبت العظم : أوى عودته فصيخته كاللجن . [٢] مار موراً : اضطرب وماج ، والغور : الغائر ، أوزاع : فرق . [٣] التبط : الماء الذي يستخرج من البئر أول ما تحفر ، والقاع الماء الملح المر : والضهل : القليل من الماء ، والجزاع : أشد المياه حرارة ، والجمعاع : المكان الذي لا يطمئن من قدم عليه . [٤] الهاوي : الجراد ، والماوي : الدثب . [٥] التلغ : الاشتمال ، والوصيدة : كل نسيجة ، والهيبد : حب الخنظل يعالج - حتى يطيب فيحتبز . [٦] البخصات جمع بخصه ، وهي لحم باطن القدم ، ووقعة : من قولهم : وقع الرجل كفرح إذا اشتكى لحم باطن قدمه ، وراعة : متشققة ، وقعة ومقعة واحد : وهي التي قد تقبضت ويبست . [٧] المسلم : الضائر المتغير ، والمدرم : الضعيف البصر الذي قد ضعف بصره من جوع أو مرض . [٨] أعشو : أنظر : فأغطش : أصير غطشاً (بكسر الطاء) والغطش محركة : ضعف في البصر ، وضحي للشمس كفرح وسعى : برز لها ، والعمش بالتجريك : ضعف البصر خلقة ، أو فساد في الجفون بلا وجع أو أن يبصر بالليل دون النهار . [٩] أسهل ظالماً : أي إذا مشيت في السهول ظلمت ، وظلح كنع : عمر في مشيه ، وأحزن راكماً : أي إذا علوت الحزن ركمت أي كبوت لوجهي . [١٠] المير : العطية ، من قولهم : مارم يبرم ميراً . [١١] الكاهر والقاهر : واحد ، وقد قرأ بعضهم : « فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَكْهَرْ » .

ثلاث وخمسين ومائة ، وهو يقول :

« أما بعد : فإننا أبناء سبيل ، وأنضاء^(١) طريق ، وفل^(٢) سنة ، تصدقوا

علينا ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت ، أما والله
إننا لنقوم هذا المقام ، وفي الصدر حزازة^(٣) ، وفي القلب غصّة .

(البيان والتبيين ٢ : ٤٦)

٣٥ - صورة أخرى

وروى أبو عليّ القالي هذه الخطبة بصورة أخرى ، وهما كما :

عن يونس قال : وقف أعرابي في المسجد الجامع في البصرة فقال :

« قلّ الثيل^(٤) ، ونقص الكيل^(٥) ، وعجفت^(٦) الخيل ، والله ما أصبحنا ننفخ

في وضح^(٧) ، وما لنا في الديوان وشمة^(٨) ، وإنا لعميال^(٩) جربة^(١٠) ، فهل من

معين ، أعانه الله ، يعين ابن سبيل ، ونضو طريق ، وفل سنة ؟ فلا قليل من

الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت . (الأمل ٢ : ١٩٧)

٣٦ - صورة أخرى

ورواها صاحب العقدة فقال : وقف أعرابي على حلقة يونس فقال :

« الحمد لله ، وأعوذ بالله ، أن أذكر به وأنساه ، إنا أناس قدمنا المدينة

ثلاثون رجلاً لا ندفن ميتاً ولا نتحول من منزل وإن كرهناه ، فرحم الله عبداً

[١] أنضاء جمع نضو كقرد وهو المهزول ، أي قد هزلنا وأصنانا سلوك الطريق .

[٢] السنة : الجذب والفحط ، وقوم فل : منهزمون ، والجمع فلول وأفلال ، أي هزلنا الفحط .

[٣] الحزازة : وجع في القلب من غيظ ونحوه . [٤] هزلت . [٥] الوضح : اللبن ، سمي

وضحاً لبياضه . [٦] الوشمة : مثل الوشم في الذراع ، يريد الخط .

[٧] الجربة : الكثير ، أو العيال يأكلون ولا ينفعون .

تصدق على ابن سبيل ، ونضو طريق ، وَقَلَّ سَنَةٌ ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت ، يقول الله عز وجل : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » إن الله لا يستقرض من عوزٍ ، ولكن ليبلُو خيار عباده .
(القمد الفريد ٢ : ٨٢)

٣٧ - أعرابي يستجدي

وقال المدائني : سمعت أعرابياً يسأل وهو يقول :
« رحم الله امرأ لم تمنح أذناه كلامي ، وَقَدَّمْ لِنَفْسِهِ مَمَّا ذَاكَ ^(١) من سوء مقامي ، فإن البلاد مُجْدِبَةٌ ، والدار مُضَيِّعَةٌ ، والحال سيئة ^(٢) ، والحياء زاجر ينهى عن كلامكم ، والمُذْمُومُ عَازِرٌ يَحْمِلُنِي عَلَى إِخْبَارِكُمْ ، والدعاة إحدى الصَّدَقَتَيْنِ ، فرحم الله امرأ أمرَ بِمَيْمِرٍ ^(٣) ، أودعا بخير » ، فقال له بعض القوم : يَمْنُ الرجل ؟ فقال : « يَمْنٌ لا تنفعم معرفته ، ولا تضرر كم جهالته ، ذلك الاكتساب ، يمنع من عز الانتساب » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢١٧ ، والقمد الفريد ٢ : ٨١ ، والأمال ١ : ١٣٨)

٣٨ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : أصابت الأعراب أعوام جَذْبَةٌ وشدة وَجْهٌ ، فدخلت طائفة منهم البصرة وبين أيديهم أعرابي وهو يقول :
« أيها الناس ، إخوانكم في الدين ، وشركاؤكم في الإسلام ، حَابِرٌ وَسَبِيلٌ ، وَأَفْلالٌ بُوْثُسٌ ، وَصَرَعي جَدْبٌ ، تنابعت علينا سِنُونٌ ثَلَاثَةٌ ، غَبَرَتِ ^(٤) النَّهْمُ ،

[١] العاقبة والمعاد والعياذ : الالتجاء . [٢] وفي الأمال « والحاء مسفة » أي مجيعة .
[٣] ماز عياله ميراً : جلب لهم الميرة (بالكسر) وهي الطمام ، وفي القمد : « فرحم الله امرأ يمير ، وداعياً يمير » . [٤] غبره لطفه بالغبار ، أو هي « غبرت » بالياء .

وأهلكك النعم ، فأكأننا ما بقي من جلودها فوق عظامها ، فلم نزل نعلل بذلك أنفسنا ، ونغنى بالغيث قلوبنا ، حتى عاد مَحْنًا عِظَامًا ، وعاد إشراقنا ظلامًا ، وأقبلنا إليكم يَصْرَعنا الوعر ، وَيَكِيننا ^(١) السهل ، وهذه آثار مصائبنا لأئحة في سماتنا ، فرحم الله متصدقًا من كثير ، ومواسيًا من قليل ، فلقد عظمت الحاجة ، وكسف البال ، وبلغ المجهود ، والله يَجْزِي المتصدقين .

٣٩ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : كنت في حلقة بالبصرة إذ وقف علينا أعرابي سائلًا ، فقال : « أيها الناس ، إن الفقريهتك الحجاب ، وَيُرْز الكماب ^(٢) ، وقد حملتنا سِنُو المصائب ، وَنَكَبات الدهور ، على مَرَّ كَبِها الوعر ، فواسوا أبا أيتام ، وَنِضُو زمان ، وَطَرِيدَ فاقَةٍ ، وَطَرِيحَ هَدَكَّة ، رحمك الله » .

٤٠ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : وقف أعرابي علينا فقال : « يا قوم : تتابعت علينا سِنُون بتغير وانتقاص ، فاتركت لنا هُبَمًا ولا رُبَمًا ^(٣) ، ولا عافِطَةً ولا نَافِطَةً ^(٤) ، ولا نَاعِيَةً ولا رَاعِيَةً ، فأماتت الزرع ، وقتلت الضرع ، وعندكم من مال الله فضلُ نعمة ، فأعينوني من عطية ما آتاكم الله ، وارحموا أبا أيتام ، وَنِضُو زمان ، فلقد خَلَفْتُ أقوامًا يمرضون ولا يكفنون

[١] أي يسترنا . [٢] جارية كصاب : نهد ثديها .

[٣] الهيج : الفصيل يفتح في آخر النتاج ، والربع : الفصيل ينتج في الربيع ، وهو أول النتاج .

[٤] العافطة : النعجة ، من العفظ ، وهو الضرط ، عفت كضرب : ضربت فهي عافطة ، والعفظ

أيضاً : ثير الضأن تنثر بأنوفها كما ينثر الحمار ، والنافطة : العنز ، من النفظ ، نطبت العنز كضرب : نثرت بأنفها أو عطست فهي نافطة ، أو لأنها تفظ بيولها : أي تدفعه دفعاً ، أو النافطة لإنباع للعافطة ، أو

العافطة : الأمة الراعية ، والنافطة : الشاة .

ميتهم ، ولا ينتقلون من منزل وإن كرهوه ، ولقد مشيتُ حتى اتعلتُ الدماء ،
وَجُعْتُ حتى أكلتُ التُّرى .

٤١ - أعرابية تستجدي

وقال الأصمى : وقفت أعرابية فقالت :

« يا قوم سنّة جرّدت ، وأيدٍ جُذت ، وحال جهّدت ^(١) ، فهل من فاعلٍ
لخير ، وأميرٍ يميّر ؟ رَحِمَ اللهُ من رَحِم ، فأقرضَ من لا يظلم .

(القمد الفريد ٢ : ٨٠ - ٨٤)

٤٢ أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي بقوم فقال :

« أشكو إليكم أيها الملائماتنا ، كلّح في وجهه ، وأناخ على بكملكله ، بمد
نعمة من المال ، وثروة من المال ، وغبطة من الحال ، اعتورتني جدّأئده ^(٢) ، بقبل
مصائبه ، عن قسيّ نوابه ، فاستركألى ناغية ^(٣) أجتدي ضرعها ، ولا راغية
ارتجى نفعها ، فهل فيكم من ميينٍ على صرّفه ، أو مُعدٍ ^(٤) على حتفه ؟ ، فرد
القوم عليه ، ولم يُدِيلوه شيئاً ، فأنشأ يقول :

قد ضاع من يأكل من أمثالكم جوداً ، وليس الجودُ من فِعالكم
لا بارك الله لكم في مالكم ولا أزاح السوء عن عيالكم
فالفقر خيرٌ من صلاح حالكم

[١] جهده المرض كبح : مره .

[٢] سنة جداء : علة مجذبة ، والجداء من كل حلوبة : القامحة اللبن من عيب ، والجدوة :

انقلية اللبن من غير عيب ، والجمع جدائد وحداد . [٣] الناغية : القاعة من الثناء بالضم ، وهي صوت
الغم ، والراغية : الناقة ، من الرضاء ، وهو صوت الإبل .

[٤] مُعدٍ : أعداءه عليه : نصره وأطانه وقواه .

٤٣ - أعرابي يستجدي

وَسَمِعَ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ وَهُوَ يَقُولُ :
« يَا قَوْمَ تَصَدَّقُوا عَلَيَّ شَيْخَ مُعِيلٍ ، وَعَابِرَ سَبِيلٍ ، شَهِدَ لَهُ ظَاهِرُهُ ، وَسَمِعَ
شِكْوَاهُ خَالِقُهُ ، بَدَنُهُ مَطْلُوبٌ ، وَثُوبُهُ مَسْلُوبٌ » ، فَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ :
رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَعْدِ فِي دِيَّةٍ لَزِمْتَنِي ، قَالَ : فَمَنْ هِيَ ؟ قَالَ : مِائَةٌ بَعِيرٍ ، قَالَ :
ذُونَكُمَا فِي بَطْنِ الْوَادِي . (المقد الفريد ٢ : ٨٢ - ٨٣)

٤٤ - أعرابي يستجدي

وَوَقَفَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَوْمٍ فَقَالَ :
« إِنَّا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - أَبْنَاءُ سَبِيلٍ ، وَأَنْضَاءُ طَرِيقٍ وَقَاسِيَةٌ (١) ، رَحِمَ اللَّهُ
أَمْرًا أُعْطِيَ مِنْ سَعَةٍ ، وَوَأَسَى مِنْ كَفَافٍ » .
فَأَعْطَاهُ رَجُلٌ دَرَاهِمًا فَقَالَ : « آجَرَكَ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْتَلِيكَ » .

٤٥ - أعرابي يستجدي

وَوَقَفَ أَعْرَابِيٌّ بِقَوْمٍ فَقَالَ :
« يَا قَوْمَ : تَتَابَعْتِ عَلَيْنَا سِنُونََ جَمَادٍ (٢) شِدَادًا ، لَمْ يَكُنْ لِلسَّمَاءِ فِيهَا رَجْعٌ (٣) ،
وَلَا لِلْأَرْضِ فِيهَا صَدْعٌ (٤) ، فَنَضَبَ الْعِدُّ (٥) ، وَنَشَفَ الْوَشَلُ ، وَأُنْحَلَّ الْخِضْبُ ،

[١] أى وحال قاسية ، وربما كان الأصل « وفل سنة » . [٢] الجاد : السنة التى لامطر فيها .
[٣] الرجوع : المطر ، لعوده كل حين . [٤] أى اشتقاق عن النبات ، اقتبس من الآية الكريمة :
« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » .

[٥] العد : الماء الجارى الذى له مادة لا تنقطع كماء العين ، ونضب الماء : غار ، والوشل : الماء القليل
يتحلب من جبل أو صخرة ، ولا يتصل قطره ، ونشف الماء فى الأرض : ذهب « ونشف الخوض الماء
شربه » وأعمل : أجذب .

وَكَلَّحَ الْجَذْبَ ، وَشَفَّ^(١) الْمَالَ ، وَكَسَفَ الْبَالَ ، وَشَطَفَ الْمَعَاشَ ، وَذَهَبَ
الرِّيَاشُ ، وَطَرَحَتْنِي الْأَيَّامُ إِلَيْكُمْ غَرِيبَ الدَّارِ ، نَائِيَّ الْمَحَلِّ ، لَيْسَ لِي مَالٌ أَرْجِعُ
إِلَيْهِ ، وَلَا عَشِيرَةٌ أَحَقُّ بِهَا ، فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً رَحِمَ اغْتِرَابِي ، وَجَعَلَ الْمَعْرُوفَ
جَوَابِي . (العقد الفريد ٢ : ٨٠)

٤٦ — أعرابية تستجدى

وخرج المهدي يطوف بعد هدأة^(٢) من الليل ، فَسَمِعَ أعرابية من جانب
المسجد ، وهي تقول :

« قوم متظلمون ، نبت^(٣) عنهم العيونُ ، وَقَدَحْتَهُمُ الدِّيُونَ ، وَعَضَّتْهُمْ
السَّنُونُ ، بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، وكثر عيالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء
طريق ، وصية الله وَوَصِيَّةُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فهل من امرئ يجير ؟
كَلَّاهُ اللَّهُ فِي سَفَرِهِ ، وَخَلَّفَهُ فِي أَهْلِهِ . »

فأمر نَصِيرًا الخادم ، فدفع إليها خمسمائة درهم .

(العقد الفريد ٢ : ٨٠ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

٤٧ — أعرابي يستجدى

ووقف أعرابي في شهر رمضان على قوم فقال :

« يا قوم : لقد ختمت هذه الفريضة على أفواهنا من صُبْحِ أَمْسٍ ، ومعى

بنتان لي ، والله ما علمتهما تحللتا بحلال ، فهل رجل كريم يرحم اليوم مقامنا ،
فيرد حُشاشتنا^(٤) ؟ منعه الله أن يقوم مقامه ، فإنه مقام ذل ومار وصرغار . »

[١] شَفَّ : رَقَّ ، وَالشَّظْفُ بِالْتَحْرِيكِ : يَبْسُ الْعَيْشَ وَشِدَّتَهُ ، وَالرِّيَاشُ : الْمَالُ وَالْحَصْبُ وَالْمَعَاشُ

[٢] أَيْ حَبْنُ هِدَايَةِ اللَّيْلِ ، أَوْ هُوَ أَوَّلُ اللَّيْلِ إِلَى ثَلَاثَةِ .

[٣] انْتَحَمَتْهُمْ وَأَزْدَرَتْهُمْ ، وَفَدَحْتَهُمْ : أَهْلَقْتَهُمْ .

[٤] الْحَشَاشَةُ : بَقِيَّةُ الرُّوحِ فِي الْمَرِيضِ ، وَالصَّرَارُ : الذَّلُّ .

فاقترق القوم ولم يعطوه شيئاً ، فالتفت إليهم حتى تأملهم جميعاً ، ثم قال :
« أَشَدُّ وَاللَّهِ عَلَيَّ مِنْ سُوءِ حَالِي وَفَاقَتِي ، تَوْهَمِي فِيكُمْ الْمَوَاسَاةَ ، أَنْتَعَلُوا الطَّرِيقَ ،
لَا صَحْبَكُمْ اللَّهُ ! » . (القمد العريد ٢ : ٨٢)

٤٨ - أعرابي يستجدي

وقام أعرابي ليسأل فقال :
« أَيْنَ الْوَجُوهُ الصُّبَّاحِ ^(١) ، وَالْعُقُولُ الصُّحَّاحِ ، وَالْأَلْسُنُ الْفِصَّاحِ ،
وَالْأَنْسَابُ الصُّرَّاحِ ^(٢) ، وَالْمَكَارِمُ الرِّبَّاحِ ، وَالصُّدُورُ الْفِصَّاحِ ؟ تُعِيدُنِي مِنْ
مَقَامِي هَذَا » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٣٢)

٤٩ - أعرابي يستجدي

ودعا أعرابي في طريق مكة ، فقال :
« هَلْ مِنْ عَائِدٍ بِفَضْلٍ ، أَوْ مُؤَاسٍ مِنْ كِفَافٍ ؟ ^(٣) » ، فَأَمْسِكَ عَنْهُ
فَقَالَ : « اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنَا إِلَى أَنْفُسِنَا فَنَعْجِزَ ، وَلَا إِلَى النَّاسِ فَنَضِيعَ » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤)

٥٠ - أعرابي يستجدي

وقف أعرابي فسأل قوماً فقالوا له : عليك بالصَّيَارِفَةِ ، قَالَ : هُنَاكَ وَاللَّهِ
قَرَارَةُ اللَّوْمِ ! (البيان والتبيين ٢ : ٤٨)

٥١ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ناساً فقال : « جَعَلَ اللَّهُ حَظَّكُمْ فِي الْخَيْرِ ، وَلَا جَعَلَ حَظَّ
السَّائِلِ مِنْكُمْ عِذْرَةَ ^(٤) صَادِقَةً » . (البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

[١] جمع صبيحة وهي الجميلة من الصبابة كفضاحة أي الجمال . [٢] جمع صريحة وهي المحضة الخالصة
[٣] الكفاف من الرزق : ما كسب عن الناس وأغنى . [٤] العذرة : اسم من العذر

٥٢ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ، فقال له صبي من جوف الدار : « بُورِكَ فيكَ ، فقال :
قَبَّحَ اللهُ هذا الفَمَ ، لقد تعلمَ الشرَّ صغيراً » . (البيان والتبيين ٣ : ١٣٦)

٥٣ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي على قوم فنموه ، فقال :
« اللهم اشغَلْنَا بِذِكْرِكَ ، وأَعِدْنَا مِنْ سُخْطِكَ ، وأولِجْنَا إِلَى عَفْوِكَ ، فقد
صَنَعَ خَلْقَكَ بِرِزْقِكَ ، فلا تَشغَلْنَا بِمَا عِنْدَهُمْ عَنْ طَلَبِ مَا عِنْدَكَ ، وآتِنَا مِنَ
الدُّنْيَا القُنْعَانَ » ، وإن كَانَ كَثِيرَهَا يُسْخِطُكَ ، فلا خَيْرَ فِيمَا يُسْخِطُكَ » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

٥٤ - أعرابي يستجدي

وقال أبو الحسن : وقف علينا أعرابي فقال :
« أخ في كتاب الله ، وجار في بلاد الله ، وطالبٌ خيرٍ من رزق الله ، فهل
فيكم من مُواسٍ في الله ؟ » .
وسأل أعرابي رجلاً ، فاعتلَّ عليه فقال : « إن كنت كاذباً ، فجعلك
الله صادقاً » . (العقد الفريد ٢ : ٨٤)

٥٥ - أعرابي يسأل رجلاً حاجة له

أتى أعرابي رجلاً (لم تكن بينه وبينه حُرْمَةٌ) في حاجة له ، فقال :
« إني امتطيتُ إليك الرجاء ، وَسِرَّتْ عَلَى الأملِ ، ووقَدْتُ بالشكرِ ،
وتوسَّلتُ بحسن الظنِّ ، فحقَّقَ الأملِ ، وَأَحْسِنِ المَثُوبَةَ ، وأَكْرِمِ القَصْدَ ، وأتِمِّ
الوَدَّ ، وَعَجِّلِ المُرَادَ » . (العقد الفريد ٢ : ٨٢ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

قولهم في بكاء الموتي

٥٦ - أعرابية تبكى ابنها

وَحَجَّتْ أَعْرَابِيَّةٌ وَمَعَهَا ابْنٌ لَهَا فَأَصِيبَتْ بِهِ ، فَلَمَّا دُفِنَ قَامَتْ عَلَى قَبْرِهِ وَهِيَ
وَجَعَةٌ فَقَالَتْ :

« وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ لَقَدْ غَذَوْتُكَ رَضِيْعًا ، وَفَقَدْتُكَ سَرِيْعًا ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ
الْحَالِيْنَ مَدَّةٌ أَتَدُّ بِعَيْشِكَ فِيهَا ، فَأَصْبَحْتَ بَعْدَ النَّضَارَةِ وَالْعَضَارَةِ ^(١) ، وَرَوْتُكَ
الْحَيَاةَ ، وَالتَّنَسُّمَ فِي طَيْبِ رَوَائِحِهَا ، تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى جَسَدًا هَامِدًا ، وَرُفَاتًا
سَحِيْقًا ، وَصَعِيْدًا جُرُزًا ^(٢) .

أَيُّ بَنِي لَقَدْ سَحَبْتَ الدُّنْيَا عَلَيْكَ أَذْيَالَ الْفَنَاءِ ، وَأَسْكَنْتَكَ دَارَ الْبَلِيِّ ،
وَرَمْتَنِي بِعَدِّكَ نَكْبَةَ الرَّدَى ، أَيُّ بَنِي لَقَدْ أَسْفَرَ لِي عَنْ وَجْهِ الدُّنْيَا صَبَاحُ دَاجٍ
ظِلَامُهُ ^(٣) ، ثُمَّ قَالَتْ :

أَيُّ رَبِّ ، وَمِنْكَ الْعَدْلُ ، وَمِنْ خَلْقِكَ الْجَوْرُ ، وَهَبْتَهُ لِي قُرَّةَ عَيْنٍ ، فَلَمْ
تَمْتَعْنِي بِهِ كَثِيْرًا ، بَلْ سَلَبْتَنِيهِ وَشِيْكَأ ^(٤) ، ثُمَّ أَمَرْتَنِي بِالصَّبْرِ ، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهِ
الْأَجْرَ ، فَصَدَّقْتُ وَعْدَكَ ، وَرَضِيْتُ قَضَاءَكَ ، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ تَرَحَّمْ عَلَى مَنْ
أَسْتَوْدَعْتُهُ الرَّذْمَ ^(٥) ، وَوَسَّدْتُهُ الثَّرَى ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ غُرْبَتَهُ ، وَآئِسْ وَحْشَتَهُ ،
وَأَسْتُرْ عَوْرَتَهُ ، يَوْمَ تَنْكَشِفُ الْهَنَاتُ ^(٦) وَالسُّوْءَاتُ .

[١] النضارة : العمة والحسن والنعى ، والنضارة أيضاً : النعمة والسعة والحصب :

[٢] أطباق جمع طبق : وهو وجه الأرض ، والرفات : الحطام ، وسحيقاً : مسحوقاً ، والصميد :

التراب ، أو وجه الأرض ، وأرض جرز : لانتبت ، أو أكل نباتها ، أو لم يصبها مطر .

[٣] أسفر الصبح وسفر كضرب : أضاء وأشرق ، داج : قال الأصمعي : دجا الليل ، لأنما هو ألبس

كل شيء ، وليس هو من الظلمة ، قال : ومه قولهم : دجا الإسلام أي قوى ، وألبس كل شيء .

[٤] سريماً . [٥] الردم : السد ، وما يسقط من الجدار المتهدم . [٦] السيئات .

فلما أرادت الرجوع إلى أهلها وقفت على قبره فقالت :
 أى بنى : إني قد تروّدت لسفري ، فليت شعري ، ماذا لك إبعُد طريقك ،
 ويومِ معادِك ! اللهم إني أسألك له الرضا برضاى عنه ، ثم قالت :
 استودعتك من استودعتك في أحشائي جنيئاً ، وأثكل الوالدات !
 ما أمض^(١) حرارة قلوبهن ، وأقلق مضاجعهن ، وأطول ليلهن ، وأقصر
 نهارهن ، وأقل أنسهن ، وأشدّ وحشتهن ، وأبعدهن من السرور ، وأقربهن
 من الأحزان .

فلم تزل تقول هذا ونحوه ، حتى أبكت كل من سمعها ، وحمدت الله عز
 وجل ، واسترجعت وصلت ركعات عند قبره وانطلقت . (زمر الآداب ٢ : ٧)

٥٧ — حديث امرأة سكنت البادية قريباً من قبور أهلها

وروى أبو علي القالي : عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« دَفَعْتُ يوماً في تلهشي بالبادية إلى وادٍ خلاء لا أنيس به إلا يئْتُ مُعْتَنِزٌ^(٢) ،
 بفيناؤه أعزُّ ، وقد ظمِئْتُ فيمَمَّتْهُ ، فسَلِمْتُ فإذا عجوزٌ قد برزت ، كأنها نعامَةٌ
 رَاحِمٌ^(٣) ، فقلت : هل من ماء ؟ فقالت : أو لَبَنٌ ، فقلت : ما كانت بُغيتي إلا
 الماء ، فإذا يسَّرَ اللهُ اللَّبَنُ فإني إليه فقير ، فقامت إلى قَعْبٍ^(٤) فأفرغت فيه ماءً ،
 ونظَّفت غَسَلَهُ ، ثم جاءت إلى الأعزُّ ، فتغَبَّرْتِهِنَّ^(٥) حتى احتلبت قُرَابَ^(٦)

[١] مضه الشيء : بلغ من قلبه الحزن به كما مضه .

[٢] منفرد . [٣] الراخم : التي تحضن بيضها ، أرحت الدجاجة على بيضها ورخته ، ورحمت عليه

فهي مرخم ولاخم . [٤] القعب : قدح إلى الصفر ، ويصبه به الماء .

[٥] أي احتلبت الغبر (كقفل) : وهي بقية اللبن في المرع ، وجمعه أعبار .

[٦] قراب وقريب واحد ، مثل كبار وكبير وجسام وجسيم .

مِلءِ القَعْبِ ، ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وطففت مُمَّاكَلَتَهُ ^(١) ، كأنها نَمَامَةٌ
بيضاء ، ثم ناولتني إياه ، فشربت حتى تَجَبَّيْتُ ^(٢) رِيًّا واطمأننت ، فقلت :
إني أراك معتزلةً في هذا الوادي الموحش ، وَالْحِلَّةُ ^(٣) منك قريب ، فلو
انضمتِ إلى جنابهم فَأَنِسْتِ بهم ! فقالت :

« يابن أخى ، إني لَأَنَسُ بِالوَحْشَةِ ، وأستريح إلى الوَحْدَةِ ، ويطمئن قلبي
إلى هذا الوادي الموحش ، فأذكر مَنْ عَهَدْتُ ، فكأني أخطب أعيانهم ،
وَأَتْرَأَى أشباحهم ^(٤) ، وَتَتَخَيَّلُ لِي أَنَدِيَّةُ رِجَالِهِمْ ، وَمَلَاعِبُ وَلَدَانِهِمْ ،
وَمُنْدَى ^(٥) أموالهم ، والله يابن أخى لقد رأيت هذا الوادي بِشِعِ اللَّدِيدِينَ ^(٦)
بأهل أذواح وقباب ، وَنَمَمٍ كَالهَضَابِ ، وخيل كَالذَّنَابِ ، وقتيان كالرماح ،
يبارون الرياح ، وَيَحْمُونَ الصَّبَاحَ ^(٧) ، فأحال عليهم الجلاء قَمًّا بِغِرْفَةٍ ^(٨) ،
فأصبحتِ الآثَارُ دَارِسَةً ، وَالْمَحَالُ طَامِسَةً ، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به »
ثم قالت : ارم بعينك في هذا الملاء المتباطن ^(٩) ، فنظرتُ فإذا قبورٌ نحو
أربعين أو خمسين ، فقالت : ألا ترى تلك الأجدات ؟ قلت نعم ، قالت :
ما انطوت إلا على أخٍ أو ابن أخٍ ، أو عمٍّ أو ابن عمٍّ ، فأصبحوا قد أَلْمَأَتْ ^(١٠)
عليهم الأرضُ ، وأنا أترقب ما غلهم ، انصرف راشداً رَحِمَكَ اللهُ . (الأمالى ٢ : ٧)

[١] الثمالة : الرغبة « وهي مثلثة الراء » . [٢] امتلأت . [٣] الحلة : جماعة بيوت الناس
والجمع حلال ككتاب . [٤] أشخاصهم جمع شبح كشمس وسبب .
[٥] التندية : أن يورد الرجل لبله ، ثم يرهاها ، ثم يوردها ، ثم يرهاها ، والمندى : المكان الذي
يندى فيه المأل . [٦] بشع : ملآن ، اللديدان : الجانبان ، والدوحة : الشجرة العظيمة .
[٧] الصباح جمع صبيحة : وهي الجميلة من الصبابة كسحابة : الجمال .
[٨] قم البيت قما : كفسه « والمقامة : الكنيسة ، والقمامة : الكناسة » والغرفة الواحدة من
المغرف : وهي ضرب من الشجر . [٩] الملا : القضاء ، والمتباطن : المتظامن .
[١٠] أى احتوت عليهم ، وغلهم : أهلكهم .

٥٨ - حديث امرأة مات ابنها بين يديها

عن عبد الرحمن عن عمه قال : دخلتُ على امرأة من العرب بأعلى الأرض في خيائها لها ، وبين يديها بُنْيُ لها ، قد نزل به الموت ، فقامت إليه فأغمضته وعصبتته وسجته (١) ، ثم قالت :

« يا بن أخي ، قلت : ماتشائين ؟ قالت : ما أحقّ من ألبسِ النعمة ، وأطيلت له النظرة (٢) ، أن لا يدعَ التوثق من نفسه ، قبل حلِّ عُقدته (٣) ، والحلولِ بِمَقْوَتِهِ (٤) ، وَالْمَحَالَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ » ، قال : وما يَقْطُرُ من عينها قطرةً صبراً واحتساباً ، ثم نظرت إليه فقالت : والله ما كَانَ مَالِكٌ لِبَطْنِكَ ، ولا أَمْرُكَ لِعِرْسِكَ (٥) ، ثم أنشدت تقول :

رَجِيبُ الذَّرَاعِ بِالَّتِي لَا تَشِيدُهُ
وَإِنْ كَانَتْ الْفَحْشَاءُ ضَاقَ بِهَا ذَرْعًا (٦)

(الأمل : ٢ : ٢٨٢ ، والبيان والتبيين : ٣ : ٢٣١)

قولهم في الشكوى

٥٩ - أعرابي يشكو حاله

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« قَدِمَ عَلَيْنَا الْبَصْرَةَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، فَقَصَدْتَهُ فَوَجَدْتَهُ يَتَخَضَّبُ لِحَيْتِهِ ، فَقَالَ : مَا حَاجَتُكَ ؟ فَقُلْتُ : بَلَّغْنِي مَا خَصَّكَ اللَّهُ بِهِ ، فَجِئْتُكَ أَقْبَسَ مِنْ عَمَلِكَ ، فَقَالَ : أَتَيْتَنِي وَأَنَا أَخْضِبُ ، وَإِنْ الْخِضَابُ لِمَنْ عِلَامَاتُ الْكَبِيرِ ، وَطَالَ وَاللَّهِ مَا غَدَوْتُ عَلَى صَيْدِ الْوَحُوشِ ، وَمَنْشَيْتُ أَمَامَ الْجِيُوشِ ،

[١] تبيجية الميت : تغطيته ، [٢] النظرة : الإمهال . [٣] كناية عن الموت .

[٤] المقوّة : الهلة ، أي بغيره . [٥] الررس : امرأة الرجل .

[٦] ضاق بالأمر فرحاً : ضغف طاقته ، ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً .

واختَلتُ بالرِّداءِ ، وَهُوتُ^(١) بالنِّساءِ ، وَقَرَّيتُ الضَّيفَ ، وأرويتُ السَّيفَ ،
وَشربتُ الرِّاحَ ، ونادمتُ الجَحْجَاحَ^(٢) ، فاليومُ قد حَنَانِي الكَبِيرَ ، وَضَعَفُ
مَنِي البَصْرِ ، وجاءَ بعدَ الصَّفوَ الكَدْرَ ، ثمَّ قبضَ على لحيتهِ ، وأنشأ يقولُ :
شَيْبٌ تُغَيِّبُهُ كَيْمَا تَفْرُ بِهِ كَبَيْعِكَ الثَّوْبَ مَطْوِيًّا عَلَى حَرَقِ
قد كنتُ كَالْمُضْنِ تَرْتاحُ الرِّيحُ لَهُ فَصِرْتُ عُوْدًا بِلأَمَاءِ وَلَا وَرَقِ
صَبْرًا عَلَى الدَّهْرِ ، إنَّ الدَّهْرَ ذُو غَيْرٍ وَأَهْلُهُ مِنْهُ بَيْنَ الصَّفْوِ وَالرَّنَقِ^(٣)
(الأما ل : ٢ : ٩٤)

٦٠ - كَلِمَاتُ شَتَى فِي الشُّكْوَى

قيل لأعرابية أُصِيبَتْ بِابْنِهَا : ما أَحْسَنَ عَزَاءِكَ ! قالتُ : « إنَّ فَقْدِي إِيَّاهُ
أَمَّنِّي كُلَّ فَقْدٍ سِوَاهُ ، وإنَّ مَصِيبَتِي بِهِ هَوَّنتُ عَلَيَّ المِصَائِبَ بَعْدَهُ » ، ثمَّ
أنشأت تقولُ :

مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلْيَمُتْ فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحْذِرُ
لَيْتَ المَنَازِلَ وَالذُّيَا رَ حَفَاؤُهُ وَمَقَابِرُ



وقيل لأعرابي : كيف حزنك على ولدك ؟ قال : « ما تركَ هُمُّ الغَدَاءِ وَالْمِشَاءِ
لِي حُزْنًا » .



وقيل لأعرابي : ما أنحلَّ جِسْمُكَ ؟ قال : « سِوَى الغَدَاءِ ، وَجُدُوبَةِ المَرْعَى ،
واختلافِ المِهُومِ فِي صَدْرِي » ، ثمَّ أنشأ يقولُ :

المهم ما لم يُتَمَّضِ لِسَبِيلِهِ دَاوِدَ تَضَمَّنَهُ الضَّلُوعُ عَظِيمُ
ولربما استيأستُ ثم أقول : لا إن الذي ضمّن النجاحَ كريمُ

وقيل لأعرابي قد أخذ به السنُّ : كيف أصبحتَ ؟ قال : « أصبحتُ
تقيّدني الشَّعْرَةَ ، وَأَعَثُرُ فِي البَعْرَةِ ، قد أقام الدهر صمري ، بعد أن أقتُصَّعَرَه .

وقال أعرابي : « لقد كنتُ أنكرُ البيضاء ، فصيرتُ أنكرُ السوداء ،
فياخير مبدول ، وياشرَّ بدَل ! » .

وذكر أعرابي منزلاً بآدَ أهله فقال : « مَنْزِلُ وَاللهِ رَحَلت عنه رَبَاتُ
الْحُدُورِ ، وَأقامت فيه رَوَاحِلُ^(١) القُدُورِ ، وقد اكتسى بالنبات كأنما ألبس
الحُمَّلَ ، وكان أهله يَمْفُون^(٢) فيه آثارَ الرياح ، وأصبحت الريح تَعْفُو آثارهم ،
فالمهد قريب ، والمُلتقى بعيد » .

وذكر أعرابي قوماً تغيرت أحوالهم فقال : « أَعْيُنُ وَاللهِ كُحِلت بِالْعَبْرَةِ
بعد الحَبْرَةِ^(٣) ، وَأَنْفُسُ لَبِسَت الحزن بعد السرور » .

وذكر أعرابي قوماً تغيرت حالهم فقال : « كَانُوا وَاللهِ فِي عَيْشٍ رَقِيقِ
الحواشي ، فطواه الدهر بعد سَمَةِ ، حتى لَبِسُوا أيديهم من القُرِّ^(٤) ، ولم أرَ صاحباً

[١] الرراحل جمع واحدة : وهي في الأصل : الناقة الصالحة لأن ترحل ، والمراد هنا الحوامل التي تحمل
القُدور ، أي الأثافي . [٢] عفا المنزل : درس ، وعفته الريح ، يتعدى ويلزم ، وبإيها عدا ،
ودفته الريح أيضاً بالتشديد للبالغة . [٣] الحبرة : السرور . [٤] القرّ مثلك الغاف : البرد .

أَغْرَمَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَا ظَالِمًا أُغْشِمَ^(١) مِنَ الْمَوْتِ ، وَمَنْ عَصَفَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
أَرْذِيَاهُ^(٢) ، وَمَنْ وَكَلَّ بِهِ الْمَوْتَ أَفْنَاهُ .



ووقف أعرابي على دار قد باد أهلها فقال : « دَارُهُ وَاللَّهِ مُعْتَصِرَةٌ لِلدَّوْعِ ،
حَطَّتْ بِهَا السَّحَابُ أَثْقَالَهَا ، وَجَرَّتْ يِهَا الرِّيَّاحُ أَذْيَالَهَا » .



وذكر أعرابي رجلاً تغيرت حاله فقال : « طُوِيَتْ صَحِيفَتُهُ ، وَذَهَبَ رِزْقُهُ ،
فَالْبَلَاءُ مُسْرِعٌ إِلَيْهِ ، وَالْعَيْشُ عَنْهُ قَابِضٌ كَفَيْهِ » .



وذكر أعرابي رجلاً ضاق عيشه بعد سعة فقال : « كَانَ وَاللَّهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ
مَمْدُودٍ ، فَقَدِحَتْ عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ زَنْدٌ غَيْرُ كَابِيَةٍ^(٣) » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ - ٨٠)



وذكر أعرابي مصيبة نالته ، فقال : « مُصِيبَةٌ وَاللَّهِ تَرَكْتُ سُودَ الرَّءِوسِ
بِيضًا ، وَبِيضَ الْوُجُوهِ سُودًا ، وَهُوَ أَنْتِ الْمَصَائِبَ بَعْدَهَا » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٥)



وذكر أعرابي قطيعة بعض إخوانه فقال : « صَفَرْتُ عِيَابُ^(٤) الْوُدِّ بَيْنِي
وَبَيْنَهُ بَعْدَ امْتِلَائِهَا ، وَأَقْفَرْتُ وَجُوهُ كَانَتْ بِمِائِهَا ، فَأَذْبَرْتُ مَا كَانَ مُقْبَلًا ،
وَأَقْبَلْتُ مَا كَانَ مَدْبَرًا » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)

[١] أظلم . [٢] أهلكاه . [٣] الزند : العود الذي يقدح به النار وكبا الزند : لم يخرج ناره ، وفي الأصل « زند عين كابية » وهو تحريف .
[٤] صفرت : خلت ، وعياب جمع عيبة بالفتح : ما يجعل فيه الثياب .

❖
وقيل لأعرابي : ما أذهبَ شبابك ؟ قال : « من طال أمدُّه ، وكثر ولده ،
ودفَّ عَدَدُه ، وذَهَبَ جِلْدُه ، ذهبَ شبابُه » .

(المقد الفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥٧)

❖
وسئل أعرابي عن سَفَرٍ أَكْدَى^(١) فيه ، فقال : « ما غَنِمْنَا إِلَّا ما قَصَرْنَا في
صَلَاتِنَا ، فَأَما ما أَكَلْتَهُ المَواجِرِ^(٢) ، وَلَقِيْتَهُ مِنا الأَباعِرُ ، فَأَمَرْتُ اسْتخْفَفْنَاهُ لِمَا
أُمَّلْنَاهُ » .

❖
وقالت امرأة من الأعراب : « أصبحنا ما يرقد لنا فرس ، وما ينام لنا حرس » .
(البيان والتبيين ٢ : ٨٢)

❖
وقال أعرابي : « مضى لنا سَلَفٌ أهل تَوَاضُلٍ ، اعتقدوا^(٣) مِنِّنا ، واتخذوا
الأيادي ذخيرةً لمن بعدهم ، يَرَوْنَ اصْطِناعَ المَعروفِ عليهم فَرَضًا لازِمًا ، وإظهارَ
البرِّ واجبًا ، ثم جاء الزمان بينينَ ، اتخذوا مِنْتَهُم بضاعَةَ ، وَبَرَّهم مَرابِحَةَ^(٤) ، وأيادِيَهُم
تجارةً ، واصْطِناعَ المَعروفِ مُقارِضَةً ، كَنَقْدٍ ، خُذْ مِنِّي وَهاتِ » .

❖
وقيل لأعرابي في مرضه : ما تشكى ؟ قال : « تمام العِدَّةِ ، وانقضاء المدة » .

❖
ونظر أعرابي إلى رجل يشكو ما هو فيه من الضيق والضرِّ فقال : « يا هذا :
أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ؟ » . (المقد الفريد ٢ : ٨٥)

[١] أصلُ من « حمر فأكدى » أى صادف الكدية - والكدية كفرصة : الأرض الغليظة ،
والصفة العظيمة الشديدة . [٢] المواجر جمع هاجرة ، وهى شدة الحرِّ
[٣] من اعتقد مالا : اقتناه . [٤] رابحه على السلعة : أعطاه ربحاً



ووصف أعرابي الدنيا فقال : « هي رَنَقَةٌ ^(١) المشارب ، حَجَّة المصائب ، لا تُتَمَّعك الدهرَ بصاحب » .



وقال أعرابي : « حَسْبُكَ من فساد الدنيا أنك ترى أُسْنِمَةً ^(٢) تُوضَع ، وأخفافاً تُرْفَع ، والخير يُطَلَب عند غير أهله ، والفقير قد حلَّ غير محلّه » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٦)



وقيل لأعرابي : كيف ابْنُكَ - وَكَانَ به عاقباً - قال : « عذابٌ لا يقاومه الصَّبْرُ ، وفائدة لا يجب فيها الشكر ، فليتني قد استودعته القبر » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٧)



عن الأصمعي قال : قيل لأعرابي قَدِمَ الحَضْرَةَ ^(٣) ، ما أَقْدَمَكَ ؟ قال :
« الحَيْن ^(٤) ، الذي يُغَطِّي العَيْن » . (الأمل ١ : ٢٠٢)



وأصيب أعرابي بابن له ، فقال وقد قيل له أَصْبِر : « أَعْلَى الله أَتَجَلَّد ، أم في مصيبتى أَتَبَلَّد ؟ والله لِلْجَزَع من أمره أَحَبُّ إلىَّ الآن من الصبر ، لأن الجزع استكانة ، والصبر قساوة ، ولئن لم أَجْزَع من النقص لم أَفْرَح بالمزيد » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)



وقيل لأعرابي : لِمَ لا تَضْرِب في الأرض ؟ فقال : « يمنعني من ذلك ، طِفْل بَارِكٌ ، وإِصِّ سافِكٌ ، ثم إني لست بعد ذلك واثقاً بِنُجْح طَلِبتِي ، ولا معتقداً

[١] كدرة . [٢] جمع سام ، والمراد ما كان عالياً .

[٣] الحضرة : خلاف البادية كالحفر بالتحريك . [٤] الهلاك .

قضاء حاجتى ، ولا راجياً عطف قرابتى ، لأنى أقدم على قوم أطعام الشيطان ،
واستالمهم السلطان ، وساعدتم الزمان ، وأسكروهم حدائثة الأسنان .

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

وقال بعض الأعراب : « نالنا وشى^(١) ، وخلفه ولى^(٢) ، فالأرض كأنها
وشى^(٣) عبقرى^(٤) ، ثم أتتنا غيوم جراد ، بمنجل حواد^(٥) ، فخربت البلاد ،
وأهلك العباد ، فسبحان من يهلك القوى الأَكول ، بالضعيف المأكول .

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

٦١ - قولهم فى العتاب والاعتذار

عاب أعرابى أباه فقال : « يا أبت ، إن عظيم حَقك على لا يذهب صغير
حقى عليك ، والذي تَمَّتْ به^(١) إلى ، أمتٌ بمثله إليك ، ولستُ أزعَمُ أنا سواها ،
ولكنى أقول : لا يحِلُّ لك الاعتداء .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، وزهر الآداب ٣ : ١٠٠)

وقال أعرابى لصديق استبطأه فلأَمَه : « كَانتْ بى إِيكَ زَلَّةٌ يَمْنَعُنِي مِنْ
ذِكْرِهَا مَا أَمَلْتُ مِنْ تَجَاوُزِكَ عَنْهَا ، وَلَيْسَ أَعْتَذِرُ إِيكَ مِنْهَا إِلَّا بِالْإِقْلَاعِ عَنْهَا .

وقال آخر لابن عم له : « والله ما أعرف تقصيراً فأقلع ، ولا ذنباً فأعتب ،
ولست أقول إنك كذبت ، ولا إننى أذنبت . » (زهر الآداب ٣ : ١٦٣)

[١] الوسمى : مطر الريح الأول ، والولى : المطر الذى يأتى بعد المطر .

[٢] الوشى : نقش الثوب ، والعبقرى : المنقطع النظير ، نسبة إلى عبقر ، موضع تزعم العرب أنه من

أرض الجن ، ثم نسبوا إليه كل شئ تمجبوا من حدقه ، أو جودة صنعه .

[٣] المنجل جمع منجل كبير : حديدة يقضب بها الزرع ، وحواد جمع حادة : أى قاطعة ، وفى الأصل

« حراد » وأراه محرفاً . [٤] تتوسل .

❖❖❖
وقال آخر لابن عمّ له : « سأتخطى ذنبك إلى عُذرك ، وإن كنتُ من
أحدهما على يقين ، ومن الآخر على شكّ ، ولكن ليتمّ المعروف مني إليك ،
وتقوم الحُجّة لي عليك » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٤ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٥)

❖❖❖
وعَدَلت أعرابية أباهما في الجُود وإتلاف ماله ، فقالت : « حبسُ المال ،
أنفع للعِيال ، مِنْ بَدَلِ الوجه في السؤال ، فقد قلَّ النوال ، وكثر البُخَال ، وقد
أتلّفت الطارف والتلاد ، وبقيت تطلبُ ما في أيدي العباد ، ومن لم يحفظ
ما ينفعه ، أوشك أن يسعى فيما يضرّه » . (زهر الآداب ٣ : ٣٤٦)

٦٢ - قولهم في المدح

دخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « رأيتني فيما أتعاطى من مدحك ،
كالخبر عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر ، الذي لا يخفى على الناظر ،
وأيقنت أني حيثُ انتهى بن القول ، منسوبٌ إلى العجز ، مُقصر عن الغاية ،
فانصرفت عن الثناء عليك ، إلى الدعاء لك ، ووَكَلتُ الإخبار عنك ، إلى علم
الناس بك » . (الأمل ٢ : ٧٣)

❖❖❖
وأثنى أعرابي على رجل فقال : « إن خيرك لَسَرِيحٌ (١) ، وإن منعك لمَرِيحٌ ،
وإن رِفْدَكَ لَرَبِيحٌ » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٥)

❖❖❖
عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً من بني كلاب يذكّر رجلاً

[١] أي عطاء بلا مطل ولا إبطاء ، ومرح : أي من كدّ الطلب .

فقال : « كَانَ وَاللَّهِ الْفَهْمُ مِنْهُ ذَا أَذْنَيْنِ ، وَالْجَوَابُ ذَا لِسَانَيْنِ ، لَمْ أَرِ أَحَدًا كَانَ أَرْتَقَ لِحْلَلِ رَأْيٍ مِنْهُ ، وَلَا أَبْعَدَ مَسَافَةَ رَوِيَّةٍ ، وَمُرَادَ^(١) طَرْفٍ ، إِنَّمَا يَرْمِي بِهَيْمَتِهِ حَيْثُ أَشَارَ إِلَيْهِ الْكِرْمُ ، وَمَا زَالَ وَاللَّهِ يَتَحَسَّى مَرَارَةَ أَخْلَاقِ الْإِخْوَانِ ، وَيَسْقِيهِمْ عُذُوبَةَ أَخْلَاقِهِ » (الأمالي ١٦ : ٢ ، والعقد الفريد ٨٩ : ٢ ، وزهر الآداب ٣ : ٢)

وقال : سمعت أعرابياً ذكر رجلاً فقال : « كَانَ وَاللَّهِ لِلْإِخَاءِ وَصُولًا ، وَلِلْمَالِ بَدُولًا ، وَكَانَ الْوَفَاءَ بِهِمَا عَلَيْهِ كَفِيلًا ، وَمَنْ فَاضَلَهُ كَانَ مَفْضُولًا » .

(الأمالي ١ : ١١٦ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩)

ووصف أعرابي رجلاً فقال : « ذَاكَ وَاللَّهِ مِمَّنْ يَنْفَعُ سِلْمُهُ ، وَيُتَوَاصَفُ حِلْمُهُ ، وَلَا يُسْتَمْرَأُ^(٢) ظُلْمُهُ ، إِنْ قَالَ فَعَل ، وَإِنْ وَلِيَ عَدْل » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

وذكر أعرابي قوماً فقال : « أَدَّبَتْهُمُ الْحِكْمَةُ ، وَأَحْكَمَتْهُمُ التَّجَارِبُ ، وَلَمْ تَقْرُرْهُمُ السَّلَامَةُ الْمَنْطُويَّةَ عَلَى الْهَلَاكَةِ ، وَجَانَبُوا التَّسْوِيفَ الَّذِي بِهِ قَطَعَ النَّاسُ مَسَافَةَ آجَالِهِمْ ، فَذَاتَ أَلْسِنَتِهِمْ بِالْوَعْدِ ، وَانْبَسَطَتْ أَيْدِيهِمْ بِالْإِنْجَازِ ، فَأَحْسَنُوا الْمَقَالَ ، وَشَفَعُوهُ بِالْفِعَالِ » .

(الأمالي ٢ : ٢٣ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : وصفت أعرابية زوجها بمكارم الأخلاق عند أمها ، فقالت : « يَا أُمَّةُ ، مِنْ نَشَرَ ثَوْبَ الثَّنَاءِ ، فَقَدْ أَدَّى وَاجِبَ الْجَزَاءِ ، وَفِي

[١] زياد الإبل : اختلافها في الرمي مقبلة ومدبرة ، والموضع مراد ومستراد .

[٢] لا يستطاب ، من استمرأ الطعام : وجده مريضاً أي منيئاً حميد اللبنة .

كِتْمَانِ الشُّكْرِ جُجُودٌ لِمَا وَجِبَ مِنَ الْحَقِّ ، وَدُخُولٌ فِي كُفْرِ النَّعْمِ » ، فَقَالَتْ لَهَا أُمُّهَا : « أَيُّ بُنْيَةٍ : أَطَبَّتِ الثَّنَاءَ ، وَقَتَّ بِالْجُزَاءِ ، وَلَمْ تَدْعِ لِلذَّمِّ مَوْضِعًا ، إِنِّي وَجَدْتُ مَنْ عَقَلَ ، لَمْ يَعْجَلْ بِذَمِّ وَلَا ثَنَاءٍ إِلَّا بَعْدَ اخْتِبَارٍ » ، فَقَالَتْ : « يَا أُمَّهُ ، مَا مَدَحْتُ حَتَّى اخْتَبَرْتُ ، وَلَا وَصَفْتُ حَتَّى عَرَفْتُ » .
(الأملی ١ : ٢٢٥)



ووصف بعض الأعراب أميراً فقال : « إذا أوعِدَ آخَرَ ، وَإِذَا وَعَدَ نَجَّجِلْ ، وَعَيْدُهُ عَفْوٌ ، وَوَعْدُهُ إِجْجَازٌ » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢١٧)



ونعت أعرابي رجلاً فقال : « كَانَ الْأَلْسُنُ وَالْقُلُوبُ رِيضَتَ لَهُ ، فَمَا تَنْعَقِدِ إِلَّا عَلَى وَدِّهِ ، وَلَا تَنْطِقُ إِلَّا بِحَمْدِهِ » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)



وذكر رجل عند أعرابي فوقع فيه قوم فقال : « أَمَا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَا كَلْمَ لَكُمْ لَمَّا دُومَ ، وَأَعْطَاكُمْ لِلْمَغْرُومِ ^(١) ، وَأَكْسَبَكُمْ لِلْمَعْدُومِ ، وَأَعْطَفَكُمْ عَلَى الْمَحْرُومِ »
(الأملی ٢ : ١٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٣)



وأعطى رجل أعرابياً فأكثر له ، فقال له الأعرابي : « إِنْ كُنْتَ جَاوَزْتَ قَدْرِي عِنْدَ نَفْسِي ، فَقَدْ بَلَغْتَ أَمَلِي فِيكَ » .
(الأملی ٢ : ٥٠)



ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كَانَ وَاللَّهِ يُعْنَى ^(٢) فِي طَلَبِ الْمَكَارِمِ ، غَيْرَ ضَالٍّ فِي مَعَارِجِ طَرَفِهَا ، وَلَا مُتَشَاغِلٍ عَنْهَا بِغَيْرِهَا » .
(الأملی ٢ : ٥٠ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٩)

[١] أي للدال المغروم ، فن لزمه غرم حمله عه . [٢] أي يتعب وينصب .

ودخل أعرابي على رجل من الولاة فقال : « أصلح الله الأمير : اجعلني زماماً من أزممتك يُجَرِّبُهَا الأعداء ، فَإِنِّي مِسْعَرُ حَرْبٍ ^(١) ، وَرَكَّابُ نُجْبٍ ، شديد على الأعداء ، لِيُنَّ عَلَى الأصدقاء ، منطوى الحَصِيلَةَ ^(٢) ، قليل الثَّمِيلَةَ ، غِرَارِ النَّوْمِ ، قد غَدَّتْنِي الحرب بأفوايقها ^(٣) ، وَحَلَبْتُ الدهرَ أَشْطُرَهُ ، ولا تمنعك مني الدَّمَامَةُ ^(٤) ، فَإِن من تحتها شهامة » .

(المقدم الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨٠)

✱✱
ومدح أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله فسيح الأدب ، مستخكم السبب ، من أي أقطاره أتيتَه ، تتنى عليه بكرم فِعَالٍ ، وَحُسْنِ مَقَالٍ » .

(زهر الآداب ٢ : ٦ ، والمقدم الفريد ٢ : ٨٩)

✱✱
ومدح أعرابي رجلاً فقال « كَانَ وَاللَّهِ يَغْسِيلُ مِنَ العَارِ وجوهًا مُسْوَدَّةً ، ويفتح من الرأى عيونًا مُنْسَدَّةً » . (المقدم الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

✱✱
وذكر أعرابي قوماً عباداً فقال : « تَرَكُوا وَاللَّهِ النِّعَمَ لِيَتَنَعَّمُوا ، لَهُمْ عِبْرَاتٌ متدافقة ، وَزَقَرَاتٌ متتابعة ، لا ترام إِلَّا في وجهٍ وجيهٍ عند الله » .

✱✱
وذكر أعرابي قوماً فقال : « مَا رَأَيْتُ أَسْرَعَ إِلَى دَائِعِ بَلِيلٍ ، عَلَى فَرَسٍ حَسِيبٍ ، وَجَمَلِ نَجِيبٍ ^(٥) ، ثُمَّ لَا يَنْتَظِرُ الأَوَّلُ السَّابِقُ ، الأَخْرَ اللَّاحِقُ » .

[١] أي موقدها ، والنجب جمع نجيب . [٢] حصل الشيء تحصيلاً : جمعه ، والاسم الحصيعة ، والمعنى مكتم السر ، والثميلة في الأصل : ما يبقى في بطن الدابة من العلف والماء ، وما يدخره الإنسان من طعام أو غيره ، وفي حديث عبد الملك قال الحجاج : « أما بعد فقد ولتكم العرازين ، فسر إليها منطوى الثميلة » والمعنى فسر إليها مخفاً ، والغرار : القليل من النوم . [٣] الأفاويق جمع أفواق ، وهو جمع فيعة بالكسر ، والفيعة : اسم اللبن يجتمع في الفروع بين الحلبتين . [٤] الدمامة : قبح المنظر . [٥] النجيب : الجمل السريع الخفيف في السير .

وذكر أعرابي قوماً فقال : « جعلوا أموالهم مناديلَ أعراضهم ، فالخير بهم زائد ، والمعروف لهم شاهد ، يُعْطُونَهَا بِطِيبَةِ أَنْفُسِهِمْ إِذَا طُلِبَتْ إِلَيْهِمْ ، ويباشرون المعروف بإشراق الوجوه إذا بُغِيَ لَدَيْهِمْ .

وذكر أعرابي قوماً فقال : « والله ما أنالوا شيئاً بأطراف أناملهم إلا وطينناه بأخماس^(١) أقدامنا ، وإن أقصى همهم لَأَذْنِي فِعَالِنَا » .

وذكر أعرابي أميراً فقال : « إِذَا وَلِيَ لَمْ يُطَاقِبْ بَيْنَ جُفُونِهِ^(٢) ، وَأَرْسَلَ الْعُيُونَ عَلَى عِيُونِهِ ، فَهُوَ غَائِبٌ عَنْهُمْ ، شَاهِدٌ مَعَهُمْ ، فَالْحَسَنُ رَاجٍ ، وَالْمُسِيءُ خَائِفٌ » .

وذكر أعرابي رجلاً يبراعة المنطق فقال : « كَانَ وَاللَّهِ بَارِعَ الْمَنْطِقِ ، جَزَلَ الْأَلْفَافِ ، عَرَبِيَّ اللِّسَانِ ، فَصِيحَ الْبَيَانِ ، رَقِيقَ حَوَاشِي الْكَلَامِ ، بَلِيلَ الرِّيقِ ، قَلِيلَ الْحَرَكَاتِ ، سَاكِنَ الْإِشَارَاتِ » .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « رَأَيْتَ لَهُ حِلْمًا وَأَنَاةً ، يُحَدِّثُكَ الْحَدِيثَ عَلَى مَقَاطِعِهِ ، وَيُنْشِدُ الشَّعْرَ عَلَى مَدَارِجِهِ^(٣) ، فَلَا تَسْمَعُ لَهُ لَحْنًا وَلَا إِحَالَةَ^(٤) » .

وذكر أعرابي قوماً فقال : « آلت^(٥) سَيُوفُهُمْ أَلَّا تَقْضِيَ دَيْنًا عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَضِيعَ حَقًّا لَهُمْ ، فَمَا أَخَذَ مِنْهُمْ مَرْدُودٌ إِلَيْهِمْ ، وَمَا أَخَذُوا مَتْرُوكٌ لَهُمْ » .

[١] جمع أحص كأحمر ، وهو من باطن القدم ما لم يصب الأرض .

[٢] أي لم ينم عن شئون رعيته ، والعيون : الجراسيس .

[٣] مدارج جمع مدرج ومدرجة : المذهب والمسلك . [٤] أحال الكلام إحالة : إذا أفسده ، والحال

من الكلام : ما عدل به عن وجهه ، وأحال : أتى بالحال وتكلم به . [٥] حلفت

✱

ومدح أعرابي رجلا فقال : « مارأيت عينا قطُ أخرق لِظُلْمَةِ الليل من عينه ،
وَلَحْظَةً أشبهَ بلهبِ النار من لَحْظَتِهِ ، له هِرْزَةٌ كهِرْزَةِ السيف إذا طَرِبَ ، وَجُرْأَةٌ
كجرأة الليث إذا غَضِبَ » .

✱

ومدح أعرابي رجلا فقال : « كانت ظُلْمَةٌ ليله كضوء نهاره ، آمراً بارتياح ،
وناهياً عن فساد ، لِحَيْبِ السوء غير منقاد » .

✱

وذكر أعرابي رجلا فقال : « اشترى والله عِرْضَه من الأذى ، فلو كانت
الدنيا له فأنفقها ، لرأى بَعْدَها عليه حُقُوقًا ، وكان مِنْهَا جَأً لِلأُمُورِ المُشْكِلَةِ إذا
تناجز الناسُ بِاللأَمَّةِ » .

✱

وذكر أعرابي رجلا فقال : « يُفَوِّقُ ^(١) الكلمةَ على المعنى ، فتمرُّقُ مُرُوقِ
السهم من الرميَّةِ ، فما أصاب قتل ، وما أخطأ أشوى ^(٢) ، وما غَطَّعَطَ ^(٣) له
سهمٌ منذ تحرك لسانه في فيه » .

✱

وذكر أعرابي أخاه فقال : « كَانَ والله رَكُوبًا لِلأهوال ، غير أَلُوفٍ
لِلحِجَالِ ^(٤) ، إذا أُرْعِدَ ^(٥) لقوم من غير قُرٍّ ، يهين نفساً كريمة على قومها ، غير
مُبْقِيَةٍ لَعْدٍ ما في يومها » .

[١] يسدّد ويصوب ، والرمية : ما يرمى . [٢] أشواه أصاب شواه ، والشوى كصا : اليدان
والرجلان والأطراف وقحف الرأس وما كان غير مقتل . [٣] الغططة : حكاية صوت القدر في الغليان
وما أشبهها وقد يكون الأصل « وما غطط » أى ما اضطرب من الغططة وهى اضطراب موج البحر
: [٤] الحجال جمع حجلة بالتحريك : القبة وموضع يزين بالثياب والستور للعروس ، والمراد النساء .
[٥] أرعد : أخذته رعدة .

❖❖
ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كَانَ وَاللَّهِ مِنْ شَجَرٍ لَا يُخْلِفُ ثَمَرَهُ ، وَمَنْ
بَحَرَ لَا يُخَافُ كَدْرَهُ » .

❖❖
وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذَاكَ وَاللَّهِ فَتَى رَمَاهُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ نَاشِئًا ، فَأَحْسَنَ
لُبْسَهُ ، وَزَيْنَ بِهِ نَفْسَهُ » .

❖❖
ومدح أعرابي رجلاً فقال : « يُحِمُّ أُذُنِيهِ عَنِ اسْتِمَاعِ الْخَنَاءِ ، وَيُخْرِسُ
لِسَانَهُ عَنِ التَّكَلُّمِ بِهِ ، فَهُوَ الْمَاءُ الشَّرِيبُ ^(١) ، وَالْمِصْقَعُ الْخَطِيبُ » .

❖❖
وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذَاكَ رَجُلٌ سَبَقَ إِلَى مَعْرُوفِهِ قَبْلَ طَلْبِي إِلَيْهِ ،
فَالعَرِضُ وَافِرٌ ، وَالوَجْهُ بِمَاءِهِ ، وَمَا اسْتَقِيلَ ^(٢) بِنِعْمَةٍ إِلَّا أَقْفَلَنِي بِأُخْرَى » .

❖❖
وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذَاكَ رَضِيعُ الْجُودِ وَالْمَفْطُومُ بِهِ ، عَقِيمٌ عَنِ
الْفَحْشَاءِ ، مُعْتَصِمٌ بِالتَّقْوَى ، إِذَا حَذَفَتْ ^(٣) الْأَلْسُنُ عَنِ الرَّأْيِ ، حَذَفَ
بِالصَّوَابِ ، كَمَا يَحْذِفُ الْأَرْنَبُ ، فَإِنْ طَالَتِ الْغَايَةُ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ دُونِهَا نِهَايَةً ،
تَمَهَّلَ أَمَامَ الْقَوْمِ سَابِقًا » .

❖❖
وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إِنْ جَلِيسُهُ لِطِيبِ عِشْرَتِهِ أَطْرَبُ مِنَ الْإِبِلِ
عَلَى الْحُدَاءِ ، وَالِثْمَلُ عَلَى الْغِنَاءِ » .

[١] الشريب والشراب : ما يشرب ، المصقع : البليغ أو العالى الصوت أو من لا يرتج عليه في كلامه ولا يتتبع . [٢] أى وما أحل ، وأقفلنى : أرجمى وردنى . [٣] حذفت : رمت .

✠
وذكر أعرابي رجلا فقال : « كَانَ لَهُ عِلْمٌ لَا يَخَالُطُهُ جَهْلٌ ، وَصَدَقَ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ ، كَأَنَّهُ الْوَيْلُ عِنْدَ الْمَحَلِّ (١) » .

✠
وذكر أعرابي رجلا فقال : « مَا رَأَيْتُ أُعْشِقَ لِلْمَعْرُوفِ مِنْهُ ، وَمَا رَأَيْتُ الْمُنْكَرَ أَبْغَضَ لِأَحَدٍ بَغْضَهُ لَهُ » .

✠
وقدم أعرابي البادية وقد نال من بني بَرَمَك ، فقبل له كيف رأيتهم ؟ قال :
« رَأَيْتَهُمْ وَقَدْ أَنْسَتَ بِهِمُ النِّعْمَةُ ، كَأَنَّهَا مِنْ ثِيَابِهِمْ » .

✠
وذكر أعرابي رجلا فقال : « مَا زَالَ يَبْنِي الْمَجْدَ ، وَيَشْتَرِي الْحَمْدَ ، حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ الْجَهْدُ » .

✠
ودخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « إِنْ جَهَلَا أَنْ يَقُولَ الْمَادِحَ بِمُخْلَافِ مَا يَعْرِفُ مِنَ الْمَدُوحِ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أُعْشِقَ لِلْمَكَارِمِ فِي زَمَانِ اللَّؤْمِ مِنْكَ ، وَأَنْشُدُ :

مَالِي أَرَى أَبْوَابَهُمْ مَهْجُورَةً ؟ وَكَأَنَّ بَابَكَ تَجْمَعُ الْأَسْوَاقِ
حَابُوكَ أَمْ هَابُوكَ أَمْ شَامُوا النَّدَى بِيَدَيْكَ فَاجْتَمَعُوا مِنَ الْآفَاقِ
إِنِّي رَأَيْتُكَ لِلْمَكَارِمِ حَاشِقًا وَالْمَكْرُمَاتِ قَلِيلَةً الْعُشَاقِ

(القدر المرید ٢ : ٨٨ - ٩٠)



وضل أعرابي الطريق ليلا ، فلما طلع القمر اهتدى ، فرفع رأسه إليه فقال :
ما أدري ما أقول ؟ أ أقول : رَفَعَكَ اللهُ ؟ فقد رَفَعَكَ ، أم أقول : نَوَّرَكَ اللهُ ؟ فقد
نَوَّرَكَ ، أم أقول : حَسَّنَكَ اللهُ ؟ فقد حَسَّنَكَ ، أم أقول : عَمَّرَكَ اللهُ ؟ فقد
عَمَّرَكَ ، ولكني أقول : جعلني اللهُ فِدَاكَ . (العقد الفريد ٢ : ٩٧)



وذكر أعرابي قومه فقال : « كَانُوا وَاللَّهِ إِذَا اصْطَفُوا تَحْتَ الْقَتَامِ ^(١) ،
خَطَرَتْ بَيْنَهُمِ السَّهَامُ ، بِوُفُودِ الْحِمَامِ ، وَإِذَا تَصَاغُوا بِالسِّيُوفِ فَفَرَّتْ ^(٢) الْمَنَايَا
أَفْوَاهَهَا ، فَرُبَّ يَوْمٍ عَارِمٍ ^(٣) قَدْ أَحْسَنُوا أَدَبَهُ ، وَحَرْبٍ عَبُوسٍ قَدْ صَاحَكَتْهَا
أَسِنَّتُهُمْ ، وَخَطَبٍ شَتْنٍ ^(٤) قَدْ ذَلَّلُوا مَنَاكِبَهُ ، وَيَوْمٍ عَمَّاسٍ ^(٥) قَدْ كَشَفُوا ظُلْمَتَهُ
بِالصَّبْرِ حَتَّى يَنْجَلِي ، إِنَّمَا كَانُوا الْبَحْرَ الَّذِي لَا يُنْكَشُ ^(٦) غِمَارُهُ ، وَلَا يُنْتَهَنُهُ
تِيَارُهُ » . (الأمل ١ : ١٣٩ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٨ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)



ووصف أعرابي رجلا فقال : « هُوَ أَطْهَرُ مِنَ الْمَاءِ ، وَأَرْقُ طَبَاعًا مِنَ الْهَوَاءِ ،
وَأَمْضَى مِنَ السَّيْلِ ، وَأَهْدَى مِنَ النَّجْمِ » . (زهر الآداب ٢ : ٣)

[١] القتام : الغبار ، والحمام : الموت ، ورواية العقد : « كَانُوا إِذَا اصْطَفُوا سَفَرَتْ بَيْنَهُمِ السَّهَامُ »
— سفر بين القوم كضرب ونصر : أصلح — . [٢] ففرت : فتحت .
[٣] العرامة بالفتح والعرام بالضم : الشراسة والأذى ، هرم كنعن وضرب وكرم وعلم .
[٤] شتن : شديد .مقاق . [٥] العماس من اللبالي : المظلم الشديد ، وأمر لا يقام له ولا يبتدى لوجهه .
[٦] لا ينكش : لا يبرز ، والغمار جمع غمر كشمس : وهو الماء الكثير ، ونهته : كفه وزجره . وفي
رواية العقد : « إِنَّمَا قَرَى الْبَحْرَ مَا أَلْقَمْتَهُ التَّمَمِ » ، ورواية زهر الآداب : « إِذَا اصْطَفُوا سَفَرَتْ بَيْنَهُمِ
السَّهَامُ ، وَإِذَا تَصَاغُوا بِالسِّيُوفِ فَفَرَّتْ فَهَ الْحِمَامُ »



ووصف أعرابي قومه فقال : أَيُوثُ حَرْبٍ ، وَغِيُوثُ جَدْبٍ ، إِنْ قَاتَلُوا
أَبْلَوْا ، وَإِنْ بَدَلُوا أَغْنَوْا . (زمر الآداب ٢ : ٤)



وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « إِذَا ثَبَتَتِ الْأَصُولُ فِي الْقُلُوبِ ،
نَطَقَتِ الْأَلْسُنُ بِالْفُرُوعِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبِي لَكَ شَاكِرٌ ، وَلِسَانِي ذَاكِرٌ ، وَمُحَالٌ
أَنْ يَظْهَرَ الْوُدَّ الْمُسْتَقِيمَ ، مِنْ الْفَوَادِ السَّقِيمِ » . (زمر الآداب ٣ : ١٦٥)



وسئل أعرابي عن قومه فقال : « يَقْتُلُونَ الْفَقْرَ ، عِنْدَ شِدَّةِ الْقُرْبِ (١) ،
وَأَرْوَاحِ (٢) الشِّتَاءِ ، وَهَبُوبِ الْجَرِيَاءِ (٣) ، بِأَسْنِمَةِ الْجَزُورِ ، وَمُتْرَحَاتِ (٤)
الْقُدُورِ ، تَحْسُنُ وَجُوهَهُمْ عِنْدَ طَلَبِ الْمَعْرُوفِ ، وَتَعْبِسُ عِنْدَ لَمَعَانِ السِّيُوفِ » .



ووصف أعرابي قوماً فقال : « لِهَمِّ جُودِ كِرَامٍ اتَّسَعَتْ أَحْوَالُهَا ، وَبَأْسِ
لِيُوثٍ تَتَّبَعُهَا أَشْبَالُهَا ، وَهَمِّ مَلُوكٍ انْفَسَحَتْ آمَالُهَا ، وَفَرِّ صِيمِ آبَاءِ
شَرَفَتْ أَحْوَالُهَا » . (زمر الآداب ٣ : ١٦٧)



[١] القرّ بتقليت الالف : البرد . [٢] جمع ربح كريح . [٣] ربح الصمّال أو بردما .
[٤] جمع مترعة : وهي الملوعة .

٦٣ - قولهم في الدم

وذكر أعرابي قوماً فقال : « أولئك سلخيت أبقاؤهم بالهجاء ، ودُبغت وجوههم باللؤم ، لبأسهم في الدنيا الملامة ، وزادهم إلى الآخرة الندامة » .

وذكر أعرابي قوماً فقال : « لهم بيوتٌ تُدخل حَبِوًّا ، إلى غير نَمَارِقٍ (١) ولا وسائدَ ، فُصِحُ الألسُنُ برَدِّ السائل ، جِعَادُ الأَكْفِ عن النَّائِلِ (٢) » .

وقال أعرابي : « لقد صَغَرَ فلاناً في عيني عِظَمَ الدنيا في عينه ، وكأنا يرى السائلَ إذا أتاه ، مَلَكَ الموتِ إذا رآه » .

وسئل أعرابي عن رجل فقال : « ما ظنكم بِسِكِّيرٍ لا يُفِيقُ ، يَتَّهِمُ الصديقَ ، وَيَعَصِي الشفيقَ ، لا يكون في موضع إلا حَرُمْتَ فيه الصلاة ، ولو أَفَلتَ كلمةً سوءً لم تَصِرْ إلا إليه ، ولو نزلت لعنةٌ من السماء لم تقع إلا عليه » .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إن فلاناً لِيُعْدِي بِإِثْمِهِ ، مَنْ تَسَمَّى بِاسْمِهِ ، ولئن خيبتني فلربَّ باقيةٍ قد ضاعت في طلب رجل كريم » .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « تَعُدُّوْا إليه مَرَاكِبُ الضلالة ، فترجع من

[١] النمارق جمع نمرقة (بالضم) : وهي الوسادة الصغيرة . [٢] النائل : الطاء ، وهو جمع اليدين أو الأنازل (كشمس) : أي بجذل ، وقد جمعوا جمع الشعر على جمع ككتاب كما في اللسان ، فليكن هذا مثله ، وقد جاء في الأصل « جمع » بدون ألف ، وأراه محرفاً ، إذ لا يجمع جمع (بالفتح) على جمع بضم فسكون ، ولا على جمع بضمين .

عنده يبذور الآثام ، مُعَدِّمٌ مما تحب ، مُكَثِّرٌ مما تكرهه ، وصاحب السوء
قطعة من النار .



وقال أعرابي لرجل : « أنت والله ممن إذا سأل الحلف ، وإذا سُئِلَ سوِّف ،
وإذا حَدَّثَ حَلَف ، وإذا وعد أخلف ، تنظر نظر حَسُود ، وتُعْرِضُ
إِعْرَاضَ حَقُود . »



وسافر أعرابي إلى رجل فخرمه ، فقال لَمَّا سُئِلَ عن سفره : « مارَبِحْنَا في
سفرنا إلا ما قَصَرْنَا من صلَاتِنَا ، فأما الذي لَقِينَا من الهَوَاجِرِ (١) ، وَلَقِيْتِ مِنَّا
مِنَ الْأَبَاعِرِ ، فَعُقُوبَةٌ لَنَا فِيمَا أَفْسَدْنَا من حسن ظننا » ، ثم أنشأ يقول :
رَجَعْنَا سَالِمِينَ كَمَا خَرَجْنَا وَمَا خَابَتْ مَرِيَّةٌ سَالِمِينَ



وذكر أعرابي رجلا فقال : « كَانَ إِذَا رَأَى قَرَبًا من حَاجِبٍ حَاجِبًا ،
فَأَقُولُ لَهُ : لَا تَقْبِجْ وَجْهَكَ إِلَى قَبِجِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَتَيْتَكَ لَطْمِيعِ رَاغِبًا ،
وَلَا لُخُوفِ رَاهِبًا . »



وذم أعرابي رجلا فقال : « عَبَدَ الْفَعَالَ ، حُرَّ الْمَقَالَ ، عَظِيمَ الرِّوَاقِ ،
دَنِيءَ الْأَخْلَاقِ ، الدَّهْرُ يَرْفَعُهُ ، وَنَفْسُهُ تَضَعُهُ . »



وقال أعرابي : « دَخَلْتُ الْبَصْرَةَ ، فَرَأَيْتُ ثِيَابَ أَحْرَارٍ عَلَى أَجْسَادِ عَبِيدِ ،

[١] الهواجر جمع هاجرة : وهي شدة الحر .

إقبال حظههم إديار حظه الكرام ، شجره أصوله عند فروعه ، شغلهم عن المعروف
رغبتهم في المنكر .



وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذاك ثمّ المجالس ، أعيناً ما يكون عند جلسائه ،
أبلغ ما يكون عند نفسه » .



وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذلك إلى من يداوى عقله من الجهل ، أحوج
منه إلى من يداوى عقله من المرض ، إنه لا مرض أوجع من قلة عقل » .



وذكر أعرابي رجلاً لم يدرك بثأره فقال : « كيف يدرك بثأره من في صدره
من البلغم حشو مرقة ، لو دقت بوجهه الحجارة لرضها (١) ، ولو خلا
بالكعبة لسرقها » .



وذكر أعرابي رجلاً فقال : « تسهر والله زوجته جوعاً إذا سهر الناس
شبعاً ، ثم لا يخاف مع ذلك عاجل عار ، ولا آجل نار ، كالبهيمة أكلت
ما جمعت ، ونكحت ما وجدت » .



وسمع أعرابي رجلاً يزعم فقال : « ويحك ! إنما يستجاب لمؤمن أو
مظلوم ، ولست بواحد منهما ، وأراك يخفّ عليك ثقل الذنوب ، فيحسن عندك
مقايح العيوب » .

✱

وذكر أعرابي رجلاً بضعف فقال : « سيء الروية ، قليل التقيّة ، كثير السعاية ، ضعيف النكايّة » .

✱

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « عليه كل يوم من فعله شاهدٌ بفسقه ، وشهاداتُ الأفعال ، أعدل من شهادات الرجال » .

✱

وذكر أعرابي رجلاً بذلّة فقال : « عاش خاملاً ، ومات مؤثوراً » .

✱

وقال أعرابي لرجل شريف البيت ، دنى الهمة : « ما أحوجك أن يكون عرضك لمن يصونه ، فتكون فوق ما أنت دونه » .

✱

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إن حدّته يُسابقك إلى ذلك الحديث ، وإن سكت عنه أخذ في الترمات^(١) » .

✱

وذكر أعرابي رجلاً راكباً هواه فقال : « والله هو أقصد إلى ما يهواه ، من الطرقي إلى المياه ، أفقره ذلك أو أغناه » .

✱

وقال أعرابي : « ليت فلاناً أقالني من حسن ظني به ، فأختم بصواب إذ بدأت بخطأ ، ولكن من لم تُحكّمه التجارب ، أسرع بالمدح إلى من يستوجب الذم ، وبالذم إلى من يستوجب المدح » .

[١] الترمات جمع ترمة : وهي الباطل .

وقال أعرابي لرجل : « هل أنت إلا أنت لم تتغير ؟ ولو كنت من حديد
مُحَمَّى ووَضِعْتَ على عَيْنٍ لم تَدُبْ » .

وقال أعرابي لأخيه : « قد كنتُ نهيتك أن تدنُسَ عِرْضَكَ بمرض فلان ،
وأعلمك أنه سمينُ المال ، مهزول المعروف ، من المرزوقين فجأة ، قصيرُ عمر
الغنى ، طويل عمر الفقر » .

وقال أعرابي : « لا ترك الله مُخَاً في سُلَامَى ^(١) ناقةٍ حملتني إليك ، وللدَّاعِي
عليها أحقُّ بالدعاء عليه ، إذ كلَّفها المسيرَ إليك » .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « لا يُؤنِسُ جاراً ، ولا يُؤهِلُ داراً ،
ولا يَبْعَثُ ناراً » .

وذكر أعرابي امرأة قبيحة فقال : « تُرْخِي ذيلها على عُرْقُوبِي نعامةٍ ،
وتُسَدِّلُ خمارها على وجه كالجِمالَةِ ^(٢) » .

وقال أعرابي لامرأة : « والله إنك لمُشْرِفة الأذنين ، جاحِظَة العينين ، ذات
خلق متضائل ، يُعْجِبُكَ الباطل ، إن شَبِعْتَ بَطْرَتِ ، وإن جُعْتَ صَحْبَتِ ^(٣) ،
وإن رأيتِ حسناً دَفَنْتِهِ ، وإن رأيتِ سيئاً أذَعْتِهِ ، تَكْرَمِينَ من حَقْرِكَ ،
وتَحْقِرِينَ من أكرمكِ » . (المقدم الفريد ٢ : ٩٠ - ٩٣)

[١] السلايات : عظام الأصابع . [٢] الجمالة : خرقة ينزل بها القدر

[٣] الصخب : شدة الصوت .

وسأل أعرابي رجلا فخرمه ، فقال له أخوه : « نزلت وألله بوادٍ غير مَمْطُورٍ ،
وأُتيتَ رجلا بك غير مسرور ، فلم تُدْرِكْ ما سألتَ ، ولا نلتَ ما أملتَ ،
فازتَ حِلَّ بِنْدَمٍ ، أو أقيم على عَدَمٍ » . (العقد الفريد ٢ : ٩٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٥)

ودخلت أعرابية على محمدونة بنت المهدي ، فلما خرجت سئلت فقالت :
« والله لقد رأيتها فما رأيت طائلا ، كأن بطنها قرية ، كأن نذيتها دُبَّة ، كأن
استها رُقعة ^(١) ، كأن وجهها وجهُ ديكٍ قد نفَسَ ^(٢) عَفْرِيَّتَهُ يقاتل ديكًا » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٢ ، والأمال ٢ : ١٥٦)

وذم أعرابي رجلا فقال : « أفسدَ آخِرَتَهُ بِصَلاحِ دُنْيَاهُ ، ففارق ما أصلح
غيرَ راجعٍ إليه ، وقَدِمَ على ما أفسدَ غيرَ منتقلٍ عنه ، ولو صدقَ رجلٌ نفسه
ما كذَّبته ، ولو ألقى زِمَامَهُ أوطأه راحِلَتَهُ » . (زهر الآداب ٢ : ٦)

قال الأصمعي : سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصمه : « والله لو صوِّرَ الجهل
لأظلمَ معه النهارُ ، ولو صوِّرَ العقلُ لأضاءَ معه الليلُ ، وإنك من أفضلهما لمُعَدِمٍ ،
تخفِ اللهُ واعلم أن من ورائك حَكْمٌ لا يحتاج المدعى عنده إلى إحضار يَتْنَةٍ » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٣)

وقال أعرابي يعيب قوما : « هم أقلُّ الناسِ ذُنُوبًا إلى أعدائهم ، وأكثرهم
جُرْمًا إلى أصدقائهم ، يصومون عن المعروف ، ويفطرون على الفحشاء » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٩٠)

ووصف أعرابي رجلاً فقال : « صَغِيرُ الْقَدْرِ ، قَصِيرُ الشَّبْرِ ^(١) ، ضَيْقُ الصدر ، لثِيمُ النَّجْرِ ^(٢) ، عَظِيمُ الْكِبَرِ ، كَثِيرُ الْفَخْرِ » .
(البيان والتبيين ١ : ١٥٧ ، والمقدّم الفريد ٢ : ٩١)

وذكر أعرابي أميراً فقال : « يَقْضِي بِالْمَشْوَةِ ، وَيَطِيلُ النِّشْوَةَ ، وَيَقْبَلُ الرِّشْوَةَ ^(٣) » .
(البيان والتبيين ٢ : ٥٠ ، والمقدّم الفريد ٢ : ٩١)

وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أعرابياً يقول : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأُمَّ أَوْفَى » ، قال : « وَمَنْ أُمُّ أَوْفَى ؟ » ، قال : « امْرَأَتِي ، وَإِنِّهَا لِحَمَقَاءِ مِرْغَامَةٍ ^(٤) ، أَكُولُ قَامَةً ^(٥) ، لَا تَبْقَى لَهَا حَامَةٌ ^(٦) ، غَيْرَ أَنَّهَا حَسَنَاءٌ فَلَا تُفْرَكُ ^(٧) ، وَأُمُّ غُلَامَانِ فَلَا تُتْرَكُ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول : « وَاللَّهِ إِنْ شُرِبَكَ لَأَشْتَفَا ^(٨) ، وَإِنْ ضِجِّعْتِكَ لَأَنْجِمَا ^(٩) ، وَإِنْ شِمَلْتِكَ لَأَلْتَفَا ، وَإِنَّكَ لَتَشْبَعُ لَيْلَةَ تُضَافُ ، وَتَنَامُ لَيْلَةَ تَخَافُ » ،

[١] الشبر : القدّ . [٢] النجر : الأصل . [٣] المشوة والنشوة والرشوة بتثنية الفاء في الثلاثة ، المشوة : ركوب الأمر على غير بيان ، والنشوة : السكر ، والرشوة : الجمل والبرطيل « بكسر الباء » . [٤] المرغامة : الغضبية لبعلمها . [٥] قامة : اسم فاعل ، من قمّ : أى أكل ما على الجوان كاقتمه ، وقه : كنسه . [٦] الحامة : الحاصة . [٧] فرك زوجته وفركته كسمع ، وكنصر شاذ : أبفضته ، ورجل مفرك بالتشديد تبغضه النساء وامرأة مفركة : يبغضها الرجال . [٨] اشتفّ ما في الإيذاء : شربه كله . [٩] الانجماف : الانصراف .

فقال لها: «والله إنك لَكَرْوَاءُ السَّاقِينِ^(١)، قَعَوَاءُ الْفَخِذِينَ^(٢)، مَقَاءُ الرُّفَيْنِ^(٣)، مَفَاضَةَ الْكَشْحَيْنِ^(٤) ضَيْفِكَ جَائِعٌ، وَشَرِّكَ شَائِعٌ». (الأمالي ١ : ١٠٤)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : مرّ أعرابي برجل يكنى أبا الفمر - وكان ضخماً جسيماً ، وكان بواباً لبعض الملوك - فقال : أعين الفقير الحسير ، فقال : ما ألحف سائلكم ، وأكثرت جائعكم ، أراحنا الله منكم ، فقال له الأعرابي : « لو فرّق قوتُ جسمك في جسوم عشرة منا ، لكفانا طعامك في يومٍ شهراً ، وإنك لعظيم السرّطة^(٥) ، شديد الضّرطة ، لو ذرّيت بحبقتك يئدر^(٦) ، لكفته ريح الجزياء^(٧) ». (الأمالي ١ : ٢٢٦)

٦٤ - قولهم في الغزل

سئل أعرابي عن امرأة فقال : « هي أرقّ من الهواء ، وأطيب من الماء ، وأحسن من النعماء ، وأبعد من السماء ». (الأمالي ١ : ٢٠١ ، والمقد الفريد ٢ : ٩٤)

وذكر أعرابي امرأة فقال : « لها جلد من لؤلؤ ، مع رائحة المنسك ، وفي كل عضو منها شمس طالعة » .

وذكر أعرابي امرأة فقال : « كاد الغزال أن يكونها ، لولا ما تمّ منها وما نقص منه » .

[١] الكرواء : الديقة الساقين .

[٢] القعواء : الديقة ، أو الديقة الفخذين ، وقيل : هي المتباعدة ما بين الفخذين (كالنجواء) .

[٣] الرفن : أصل الرفن ، والمقاء : الديقة الفخذين ، أو الطويلة من المقي بالتحريك وهو الطول .

[٤] المفاضة : المسترخية ، والكشعان : الحاصرتان . [٥] البلعة من سرطه كنصر وفرح : ابتلعه

[٦] اليبدة : الضرطة ، والييدر : الموضع الذي تداس فيه الجيوب ، والجزياء : ريح الشمال الباردة .

وذكر أعرابي نِسْوَةَ خرجن متنزهاتٍ فقال : « وجوهٌ كالدنانير ، وأعناق
كأعناق اليعافير^(١) ، وأوساطٌ كأوساط الزناير ، أقبلن إلينا بحُجُولٍ^(٢) تحفِقُ ،
وأوشحةٌ تُمَلِّقُ ، وكم أسيرٍ لهن وكم مُطَلِّقٍ » .



ووصف أعرابي امرأة حسناء فقال : « تَبَسِّمُ عن خَمَشٍ^(٣) اللثاتِ ،
كأَقاحِي النبات ، فالسعيد من ذاقه ، والشقي من راقه » .



وذكر أعرابي امرأة فقال : « هي الشِّقْمُ الذي لا بُرءَ منه ، والبرء الذي
لا سقم معه ، وهي أقرب من الحشأ ، وأبعد من السَّما » .



ووصف أعرابي امرأة فقال : « بيضاء جَعْدَةٌ^(٤) لا يَمَسُّ الثوبُ منها
إلا مُشاشَةً^(٥) كتفيتها ، وَحَلْمَةٌ ثديها ، ورضنِي ركبتيها ، ورائفتِي
اليتيها ، وأنشد :

أَبَتِ الرَّوَادِفُ وَالثَّدْيُ لِقَمَصِهَا مَسَّ البَطُونُ وَأَنْ تَمَسَّ ظَهوراً
وَإِذَا الرِّيحُ مَعَ العَشِيِّ تَنَاحَتْ نَهَنَ حاسِدَةٌ وَهَجَنَ غَيُوراً

[١] اليعافير جمع يعفور : وهو ولد البقرة الوحشية . [٢] الحجول جمع حجل بالكسر والفتح :
وهو الخللخال ، والأوشحة جمع وشاح بالضم والكسر : أديم عريض يرصع بالجواهر ، تشده المرأة بين
طاقها وكشحيها . [٣] خدش ، والأقاحي جمع أقحوان بالضم : وهو نبت طيب الريح حواليه ورق
أبيض ، ووسطه أصفر ، وراقه : أعجبه .

[٤] الجعد من الشعر خلاف السبط ، أو التقصير منه ، ورجل جعد الشعر والأنثى جعدة ، والجعد أيضاً
الدمج الخلق المجتمع يعضه الى بعض ، والجعد اذا ذهب به مذهب المدح فله معنيان مستحجان : أحدهما أن
يكون معصوب الجوارح شديد الأسر والخلق ذير مسترخ ولا مضطرب ، والثاني أن يكون شعره جعدا غير
سبط لأن سبوطه الشعر هي الغالبة على شعور المعجم من الروم والفرس ، وجعدودة الشعر هي الغالبة على
شعور العرب . [٥] المشاشة : رأس العظم ، والرضف : عظام في الركبة كالأصابع المضمومة قد أخذ
بعضها بعضاً ، والرائقة : أسفل الألية عند القيام .

✽

وذكر أعرابي امرأة فقال : « تلك شمس باهت بها الأرضُ شمس - سماؤها ،
وليس لي شفيح في اقتضائها ^(١) ، وإن نفسي لكثوم لداؤها ، ولكنها تقيض
عند امتلائها » .

✽

وقال أعرابي في امرأة ودعها للمسير : « والله ما رأيت دمة ترقرق من
عين يأميد ^(٢) على ديباجة خد ، أحسن من عبرة أمطرتها عينها ، فأعشت
بها قلبي » .

✽

وقال أعرابي : « إن لي قلباً مرُوعاً ^(٣) ، وعينا دمُوعاً ، فإذا يصنع كل
واحد منهما بصاحبه ، مع أن داءهما دواؤهما ، وسقمهما شفاؤهما ؟ » .

✽

وقال أعرابي : « ما أشدَّ جَوَلَةَ الرأى عند الهوى ، وفِطَامَ النفس عن الصِّبا !
ولقد تقطعت كبدي ! لَوُمُ الماذلين للماشقين قِرْطَةَ في آذانهم ، ولَوَاعَاتِ الحب
نيرانٌ في أبدانهم ، مع دموع على المغاني ^(٤) ، كغروب السَّوانِي » .

✽

وذكر أعرابي امرأة فقال : « لقد نَعِمْتَ عَيْنٌ نظرت إليها ، وشقِي قلب
تَجَجَّعَ عليها ، ولقد كنت أزورها عند أهلها ، فَيُرْحَبُ بي طَرْفُهَا ، ويتجهمني
لسانها » قيل له فما بلغ من حُبِّك لها ؟ قال : « إني ذا كِرِّ لها وبينى وبينها
عَدْوَةُ الطائر ، فأجد لذكورها ريحَ المسك » .

[١] القضي دینه وتمامه بمعنى . [٢] الأعمد : الكحل ، والديباجة : الحد . [٣] مفرطاً .
[٤] المغاني جمع مغنى : وهو المنزل ، والغروب جمع غرب كشمس : وهو اللؤلؤ العظيمة ، والسواني جمع
سانية : وهي النافذة يسقى عليها ، والغرب وأداته .

وقال أعرابي : « ألهوى هوان ، ولكن غلِطَ باسمه ، وإنما يعرف من يقول ، من أبتكته المنازك والطلول » .

وذكر أعرابي امرأة فقال : « إن لساني لندكرها لندلول ، وإن حببها لقلبي لقتول ، وإن قصير الليل بها ليطول » .

ووصف أعرابي نساء ببلاغة وجمال فقال : « كلامهن أقتل من النبل ، وأوقع بالقلب من الوبل بالمحل ، فروعهن أحسن من فروع النخل » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٣ - ٩٥)

وقال أعرابي : « دخلت البصرة ، فرأيت أعيناً دُعجاً^(١) ، وحوَاجِبَ زُجَّاء ، يَسْحَبْنَ الشَّيَاب ، وَيَسْلُبْنَ الألباب » (العقد الفريد ٢ : ٩٣ ، وزهر الآداب ٣ : ١٧)

وذكر أعرابي نساء فقال : « ظمائن^(٢) في سَوَافِهِنَّ طُولٌ ، غير قبيحات العُطُول^(٣) ، إذا مشين أسبلن الذيول ، وإن ركبن أثقلن الحمول^(٤) » .
(زهر الآداب ٣ : ١٧)

وقال أعرابي : « لقد رأيت بالبصرة بُروداً كأنها صُبغت بأنوار الربيع ، فهي ترُوع^(٥) ، واللابس لها أروع » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٦)

[١] دُعجاء جمع دُعجاء ، وصف من الدعج بالتحريك : وهو سواد العين مع سميتها . وزجاء جمع زجاء من الزجج بالتحريك أيضاً : وهو دقة الحاجبين و طول .

[٢] ظمائن جمع ظمينة : والظمينة في الأصل وصف المرأة في هودجها ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت في بيتها لأنها تصير مظعونة ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة لأن زوجها يظعن بها ، والسوالف جمع سالفه : وهي ناحية مقدم العنق من لدن معاق القُرط الى قرة الترقوة . [٣] مطلت المرأة كفرح عطلا بالتحريك وعطولا : إذا لم يكن عليها حلي . [٤] الحمول : الهوادج ، أو الإبل عليها الهوادج جمع حمل بالكسر ويفتح . [٥] تعجب .

وقال أعرابي : « شيعنا الحى وفيهم أدوية السقام^(١) ، فقَرَأَنَ بِالْحَدَقِ
السَّلَامَ ، وَخَرِسْتَ الألسن عن الكلام . » (الأمل ٢ : ٥٠)

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت : « لَامُتَّعَ الهوى بملكه ، ولا مَلَّى^(٢)
بسلطانه ، وَقَبَّضَ الله يده ، وأوهنَ عَضُدَهُ ، فإنه جائرٌ لا يُنصِفُ في حكم ، أعمى
لا ينطق بعدل ، ولا يُقَصِّرُ في ظلم ، ولا يرعوى لذم ، ولا ينقاد لحق ، ولا يُبْتِغِي
على عقل وفهم ، لو مَلَكَ الهوى وَأَطِيع ، لَرَدَّ الأُمُورَ على أدبارها ، والدنيا على أعقابها »

وسئل أعرابي عن الهوى فقال : « هوداء تُدَاوِي به النفوس الصَّحاح ،
وَتَسَلُّ منه الأرواح ، وهو سُقْمٌ مُكْتَمٌ ، وَحَمِيمٌ^(٣) مُضْطَرِمٌ ، فالقلوب له
مُنْضِجَةٌ ، والعيون ساكبة . » (زهر الآداب ٣ : ١٨)

ووصف أعرابي امرأة يحبها فقال : « هي زينة الحُضُورِ ، وباب من أبواب
السرور ، وَلَدِ كَرُّها في المنيب ، والبعدِ عن الرقيب ، أشهى إلينا من كل ولد
وَنَسِيبٍ ، وبها عُرِفَ فضلُ الحُورِ العِينِ ، واشتِيقَ بها إليهن يومَ الدِّينِ . »
(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

ووصف أعرابي نساء فقال :
« يَلْتَمِسُنَ على السَّبائِكِ^(٤) ، وَيَتَشِحْنَ على النَّيَّازِكِ^(٥) ، وَيَأْتِرْنَ

[١] أى الهويات الداوية لسقام .

[٢] ملاء الله حبيبه تلمية : متعه به وأطاشه منه طويلا . [٣] الحميم : الماء الحار . وفي الأصل :

« وحى » وأراءه محرفا عن حميم ، ويناسبه قوله بعد : « والعيون ساكبة » .

[٤] اللتام على الفم ، واللفام على طرف الأنف ، تلتمت المرأة وتلفت ، والسبائك هنا الأسنان شبيها

ليأضا بالسبائك . [٥] النيازك جمع نيزك كجعفر : وهو الرمح القصير .

على العوانك^(١) ، وَيَرْتَفِقْنَ على الأرائك^(٢) ، ويتهادين على الدرانيك^(٣) ،
ابتسامهن وميض^(٤) ، عن وليع كالإغريض^(٥) ، وهن إلى الصبا صور^(٦) ، وعن
الحنانور^(٧) . « (الأمال ١ : ٤٤ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨)

قولهم في الوصف

٦٥ - أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سئل أعرابي عن مطر فقال :

« استقلُّ سُدُّم مع انتشار الطفل^(١) ، فشَصَا وَأَحْزَالَ^(٢) ، ثم اكْفَهَرَّت
أَرْجَاؤُهُ ، وَاحْمَوَّتْ أَرْحَاؤُهُ ، وَابْذَعَرَّتْ فَوَارِقُهُ^(٣) ، وَتَضَاخَكَّتْ بَوَارِقُهُ ،
وَاسْتَطَارَ وَادِقُهُ ، وَأَرْتَقَّتْ جُوبُهُ ، وَأَرْتَمَنَ هَيْدَبُهُ^(٤) ، وَحَشَكَّتْ أَخْلَافُهُ ،
وَاسْتَقَلَّتْ أَرْدَافُهُ ، وَانْتَشَرَتْ أَكْنَافُهُ^(٥) ، فالرعد مُرْتَجِسٌ ، والبرق مُخْتَلِسٌ ،

[١] العوانك جمع طابك : وهو رمل منعقد يشق فيه البعير لا يقدر على السير .

[٢] الأرائك جمع أريكة وهي السرر أو الفرش ، وارتفق : ارتدى على مرفق يده ، أو على الخد .

[٣] يتهادين : يمشين مشياً ضعيفاً ، والدرانيك : الطنافس جمع درنوك كصفور ، ودرنك كزرج .

[٤] الوميض : اللعان الحني ، والوليع : الطلع ، كأنه نظم اللؤلؤ في شدة بياضه . قال الشاعر يصف

نفر امرأة : وتبسم عن نير كالوليع ، والإغريض : الطلع حين ينشق عنه كافوره ، والبرد (بتحريك الراء) .

[٥] صور : مواثيل ، ومنه قيل للمائل العق أصور ، ونور : ما فرات من الريبة جمع نوار كسحاب .

[٦] استقل : ارتفع ، والسد : السحاب الذي يسد الأفق ، والطفل : العشى إلى حد المغرب .

[٧] شصا ارتفع ، واحزأل مثله . [٨] المكهفر من السحاب : الذي يركب بعضه بعضا ،

وأرجاؤه : نواحيه جمع رجاكمصا ، واحمومت : اسودت ، وأرحاؤه : أوساطه ، جمع رجاكمصا ، وابدعرت

تفرقت ، والفوارق جمع فارق ، وهو السحاب الذي ينقطع من معظم السحاب ، وأصله في الإبل ، يقال

ناقة فارق : وهي التي تندعن الإبل عند نتاجها .

[٩] استطار : انتشر ، والودق الذي يكون فيه الودق (كشمس) وهو المطر العظيم القطر ، وارتقت

التأمت ، وجوبه : فرجه ، وارتمن : استرخى ، والهيدب : الذي يتدلى ويدنو من الأرض مثل هديب القطيفة .

[١٠] حشكت : امتلأت ، والأخلاف جمع خاف كحمل ، وهو للناقة كالضرع للبقرة ، أردافه : ما أخيره

والأكناف : الواحي .

والماء مُنْبَجِسٌ ^(١) ، فَأُتْرِعَ النُّدْرَ ، وَانْتَبَثَ الوُجْرُ ^(٢) ، وَخَلَطَ الأَوْعَالَ
بِالأَجَالِ ، وَقَرَنَ الصَّيرَانَ بِالرَّئَالِ ^(٣) ، فَلأودية هدير ، وللشَّراجِ خَرِيرٌ ، وللتَّلَاعِ
زفيرٌ ^(٤) ، وَحَطَّ النَّبْعَ وَالْعُتْمَ ، من القُلَلِ الشَّمِّ ، إلى القِيَعَانِ الصَّخْمِ ^(٥) ، فلم
يَبْقَ في القُلَلِ إلا مُعَصِمٌ مُجْرَثِمٌ ، أوداحِضٌ مُجْرَجَمٌ ^(٦) ، وذلك من فضل رب
العالمين ، على عباده المُذْنِبِينَ . (الأمل : ١ : ١٧٣)

٦٦ - أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال: سمعت أعرابياً من غنيّ يذكر مطراً أصاب ^(٧) بلادهم في
غيبٍ جَدَّبَ فقال :

« تدارك رَبُّكَ خَلْقَهُ ، وقد كَلَبَتِ الأَمْحَالُ ، وتقاصرت الآمالُ ، وَعَكَفَ
الياسُ ، وَكُظِمَتِ الأَنْفَاسُ ، وَأَصْبَحَ الماشِي مُضْمِراً ^(٨) ، وَالمُتْرِبُ مُعَدِماً ،

[١] مرتجس : مصوّت من الرّحس كحمل وهو الصوت ، مختلس : كأنه يختلس البعير لشدة إبعاده ،
منبجس : منفجر .

[٢] أترع : ملأً والنذر جمع غدير ، والوَجْر جمع وجار ككتاب وسحاب وهو جعر الضبع والمثلب ،
وانتبت : أخرج نبيتها وهو تراب البثر والقبر ، أي أنه لشدة هدم الوجر حتى أخرج ما بداخلها من التراب .
[٣] الأوطال جمع وعل ، (كشمس وكتف ودئل) : التيس الجبلي ، والأجال جمع أجل كحمل وهو
القطيع من البقر أي أنه لشدة جمع بين الوحول - وهي تسكن الجبال - وبين البقر - وهي تسكن القيعان
والرمال ، والصيران جمع صوار كشجاع ، وصيار ككتاب وهو القطيع من البقر ، والرئال جمع رأل كشمس
فرخ النعام ، فالرئال تسكن الجلد (بالتحريك وهي الأرض الصلبة للمستوية المنن) والصيران تسكن الرمال
والقيعان ، فقرن بينهما .

[٤] هدير : أي صوت كهدير الابل ، الفراج جمع شرج كشمس وهو ميل الماء من الحرة الى السهل
والتلّاع : مساليل الماء من الجبال حتى ينصب في الوادي . [٥] النبع : شجر يتخذ منه القسي ينبت في
الجبال ، والعتم : الزيتون الجبلي كقفل وعنتى ، والقُلَل : أعلى الجبال جمع قلة كفرصة ، والشم : المرتفعة
جمع شماء ، والقيعان جمع قاع : وهي أرض سهلة مطمّنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، والصخم : التي تلوها
حرة جمع أصخم . [٦] المعصم : الذي قد تمسك بالجبال وامتنع فيها (ويقال للرجل الذي يمسك بحرف فرسه
خوف السقوط : معصم) مجرثم : متقبض ، الداخض : الذي يقمص برجليه عند الموت ، والمجرجم : المصروع .
[٧] صاب : جاد ، وكلبت : اشتدت ، والأمحال جمع محل كشمس وهو الفحط ، وعكف : أقام .

[٨] الماشي : صاحب الماشية ، معنى الرجل وأمشى : كثرت ماشيته ، والمصرم : المقارب المال القل ،

وَجُفِيَتْ الحَلَالِيلَ ، وَأَمْثِهِنْتَ العَقَائِلَ ، فَأَنْشَأَ سَجَابِيَا رُكَّامًا^(١) ، كَنَهْوَرًا سَجَامًا ،
بُرُوقَهُ مَتَأَلِّقَةً ، وَرُعُودَهُ مُتَقَعِّمَةً ، فَسَحَّ سَاجِيًا^(٢) رَاكِدًا ، ثَلَاثًا غَيْرَ ذِي فُوقٍ ،
ثُمَّ أَمْرَ رَبِّكَ الشَّمَالَ ، فَطَحَّرْتَ^(٣) رُكَّامَهُ ، وَفَرَّقْتَ جَهَامَهُ ، فَاَنْقَشَعَ مَحْمُودًا ،
وَقَدْ أَحْيَا وَأَغْنَى ، وَجَادَ فَأَرْوَى ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُكْتَبُ نِعْمَتُهُ ، وَلَا تَنْقَدُ
قِسْمَتُهُ ، وَلَا يَخِيْبُ سَائِلُهُ ، وَلَا يَنْزُرُ^(٤) نَائِلُهُ . (الأمل : ١ : ١٧٦)

٦٧ - أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال : « سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن مطر
صَابَ بلادهم فقال :

« نَشَأَ عَارِضًا^(٥) ، فَطَلَعَ نَاهِيضًا ، ثُمَّ ابْتَسَمَ وَامِيضًا ، فَأَعَسَّ فِي الْأَقْطَارِ
فَأَسْجَاهَا ، وَامْتَدَّ فِي الْآفَاقِ فَنَغَطَّاهَا ، ثُمَّ ارْتَجَزَ^(٦) فَهَمَّهِمْ ، ثُمَّ دَوَى فَأَظْلَمَ ،

والترب الغي الذي له المال مثل التراب كثرة ، يقال : أترب الرجل إذا كثرت ماله (وقل أيضاً . ضد)
وترب كفرح إذا انتفر كأنه لصق بالتراب ، وامتهنت : استخدمت واعتملت ، والمقائل جمع عقيلة ، وأنشأ
أحدث ، والشء : السحاب أول ما يخرج .

[١] الركام : التراكم ، والكنهور من السحاب قطع كأنها الجبال ، أو التراكم منه ، واحدته كنهورة ،
وسجّام : صباب ، ومتألقة : لامعة ، ومتقائمة : مصوتة .

[٢] سحّ : صب ، ساجياً : ساكماً ، راكداً : ثابتاً ، والفواق : أن يصب صبة ثم يسكن ، ثم يصب
أخرى ثم يسكن مأخوذ من فواق اللاقة وهو ما بين الحابتين ، كأنه يحلب حلبة ثم يسكن ، ثم يحلب أخرى
ثم يسكن . [٣] طحرت : أذهبت وأعدت ، والمهام : السحاب الذي قد هراق مائه ، تكنت : تحصى .
[٤] يرر : يقل ، ومنه قيل : امرأة نزور : إذا كانت قليلة الولد .

[٥] العارض : السحاب المترض في الأفق ، وومض البرق كوعد : لمع خفيفاً ، ولم أهد في كتب اللدة
«أعسّ» وإنما الذي فيها «عسس السحاب : دنا من الأرض» وأسعاها : عطاها ، وفي الأصل «أسعاها»
بإاء وهو تصحيف . [٦] ارتجز الردد : صات ، وارتجز السحاب : تحرك بطيئاً لكثرة مائه ،
رهمهم الردد : إذا سمعت له دوياء والهمهمة : كل صوت معه بهج ، وأركت : أتى بالرك (بفتح الراء وبكسر)
وهو المطر القليل أزهر فوق الدث ، والدث بالفتح : المطر الضعيف ، والبغشة بالفتح : العارة الضعيفة
وقد غشت السماء كعب ، والغش : المطر الضعيف وهو فوق الراد ، طشت السماء كنصر وضرب .

فَأَرْكَ وَدَثَّ ، وَبَشَّ وَطَشَّ ، ثُمَّ قَطَّقَطَ (١) فَأَفْرَطَ ، ثُمَّ دَيْمَ فَأَنْمَطَ ، ثُمَّ رَكَدَ فَأَنْجَمَ ، ثُمَّ وَبَلَ فَسَجَمَ ، وَجَادَ فَأَنَمَ ، فَكَمَسَ الرَّبَا (٢) ، وَأَفْرَطَ الزُّبَى ، سَبَمًا تَبَاعًا ، مَا يَرِيدُ اتَّقْشَاعًا ، حَتَّى إِذَا ارْتَوَتْ الْحُزُونُ (٣) ، وَتَضَحَّضَتْ الْمُتُونُ ، سَاقَةُ رَبُّكَ إِلَى حَيْثُ شَاءَ ، كَمَا جَلِبَهُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ . (بولغ الأرب ٣ : ٢٤٩)

٦٨ - ثلاثة غلبة من الأعراب يصفون مطرا

، الأصمى قال : مررت بِغِلْمَةٍ مِنَ الْأَعْرَابِ يَتِمَّ قَلُونَ (٤) فِي غَدِيرٍ ، فَقُلْتُ لَهُمْ : أَيُّكُمْ يَصِفُ لِي النَّيْثَ وَأَعْطِيهِ دِرْهَمًا ؟ فخرجوا إليَّ فقالوا : كلنا ، وم ثلاثة ، فقلت لهم : صِفُوا ، فَأَيُّكُمْ ارْتَضَيْتَ وَصَفَهُ أَعْطَيْتَهُ الدَّرْهَمَ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ :

« عَنْ لَنَا قَارِضٍ قَصْرًا (٥) ، تَسْوِقُهُ الصَّبَا ، وَتَحْدُوهُ الْجَنُوبُ ، يَجْبُو حَبْوُ الْمُعْتَنِكَ (٦) ، حَتَّى إِذَا اِزْأَلَمَتْ (٧) صَدُورُهُ ، وَاتَّعَلَّتْ خُصُورُهُ ، وَرَجَّعَ هَدِيرُهُ ، وَصَعَقَ زَيْبِرُهُ ، وَاسْتَقَلَّ نَشَاصُهُ (٨) ، وَتَلَامَّ خَصَاصُهُ ، وَارْتَمَجَ

[١] العطف بالكسر : المطر المتتابع العظيم القطر ، وقد قطعت السماء ، والدَّيْمَةُ بالكسر : مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق ، أو يدوم أيما ، وقد ديمت السماء ، أنمط : قام ولارم ، وأنجمت السماء : أسرع مطرها وحام ، والوبل : المطر الشديد الضخم القطر ، وقد وبلت السماء كوهده : أمطرت ، وسجم كدخل : سال والصب . [٢] قس الربا : كسر وضرب : غوصها ، وأفراطها : ملامها حتى قاست ، والزى جمع زية كفرصة ، وهي الراية لا يلوها الماء ، وحفرة تحفر لصيد الأسد (وهو الراد هنا) سميت بذلك لأنهم كانوا يحفرونها في موضع حال .

[٣] الحزون جمع حرل كشمس وهو الغليظ من الأرض ، والمتون جمع متن كشمس : وهو ما صلب من الأرض وارتفع ، والتضحضح والتضحضح : الماء القليل ، وقيل هو ما لا يخرق فيه ، وقيل هو الماء إلى الكمين أو إلى أنصاف السوق - وفي لغة هذيل الكثير - وقد تضحضح للماء ، والتضحضح أيضاً جرى السراب ، تضحضح إذا تفرق .

[٤] يتقاطون في الماء . [٥] عرض ، والدمر : المشى ، والصباء ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار . [٦] عك الرمل كنصر : تمدد وارتفع فلم يكن فيه طريق ، ورملة طائفة : فيها تمدد لا يمدد البير على المشى فيها إلا أن يجبو ، واعتك البير واستنك : جبا في المانك فلم يمدد على السير وقال رؤبة : أوديت إن لم تجب حيو الممتك .

[٧] ازلامت : ارتفعت ، والحصور جمع خصر : وهو وسط الإنسان ، والرجيع : ترديد الصوت في الحلق . [٨] النشاص ككتاب وسحاب : السحاب الرميح ، أو المرتفع بعضه فوق بعض وخصاصه :

ارتعاضه ، وأوفدت سِقَابَهُ ^(١) ، وامتدت أطنابُهُ ، تدارك وَذْقُهُ ، وتَأْتَقُ بَرَقَهُ ،
 وَحَفَزَتْ تَوَالِيَهُ ^(٢) ، وَأَنْسَفَحَتْ عَزَائِيَهُ ، فغادر التَّرى عَمِدًا ^(٣) ، وَالْعَزَازَ تَمِيدًا ،
 وَالْحُتَّ عِقْدًا ^(٤) ، وَالضَّحَاضِحَ مُتَوَاصِيَةً ، وَالشَّعَابَ مُتَدَاعِيَةً .
 وقال الآخر : « تَرَاءَتِ الْمَخَائِلُ ^(٥) مِنَ الْأَقْطَارِ ، تَحْنُ حَنِينِ الْعِشَارِ ،
 وَتَتْرَامِي بِشُهْبِ النَّارِ ، قَوَاعِدُهَا مِتْلَاحِكَةٌ ^(٦) ، وَبَوَاسِقُهَا مِتْضَاحِكَةٌ ، وَأَرْجَاؤُهَا
 مِتْقَازِفَةٌ ، وَأَعْجَازُهَا مُتْرَادِفَةٌ ، وَأَرْحَاؤُهَا مُتْرَاصِفَةٌ ، فَوَصَلَتْ الْغَرْبَ بِالشَّرْقِ ،
 وَالْوَبْلَ بِالْوَدْقِ ، سَحَّادَرًا كَا ^(٧) ، مِتْتَابِعًا لَكَا كَا ، فَضَحَضَحَتْ الْجَفَاجِفَ ^(٨) ،
 وَأَنْهَرَتْ الصِّفَافِصِفَ ، وَحَوَّضَتْ الْأَصَالِفَ ، ثُمَّ أَفْلَعَتْ مَحْمُودَةَ الْآثَارِ ،
 مَوْمُوقَةَ الْخِيَارِ » .

فرجه ، وأصله الفرج بين الأثافي والثقب الصغير وكل خلل أو خرق في باب ومنخل وبرقع ونحوه، وارتفع : ارتعد ، وارتعمس : تلوى وانتفض ، وارتعمس الرمح : اشتد اهتزازُه .
 [١] أوفدت : أشرفت ، والسقاب جمع سقب كشمس وهو عمود الجباب ، والأطباب جمع طب كسقى وهو جبل طويل يشد به الوتد . [٢] حفزه كضربه : دفعه من خلفه ، والتوالى : الأعجاز والمآخير ، والعرالى بكسر اللام وفتحها جمع عزلاء : وهي مصب الماء من الراوية ونحوها ، واسفحت : اصبت ، من سفع الدم أراقه . [٣] عمد الترى كفرح : بلله المطر حتى إذا قبضت عليه تعقد لدوته ، والعزاز : الأرض الصلبة مكان ثمد : ندم من التأد بالتحريك وهو الديو . [٤] الحث : الياس الحشن من الرمل ، والعقد ككف وجبل : ماتعقد من الرمل وتراكم ، والضحاضح كجففر والضحضاح : الماء اليسير ، متواصية : متواصلة ، والشعاب جمع شعبة كفرصة : وهي السيل في الرمل ، وماعظم من سواقى الأودية ، وصدع في الحل يأوى إليه المطر . [٥] مخايل جمع مخيلة « بصم الميم وكسر الحاء » والمخيلة والمخيلة « بتشديد الياء المكسورة » السحابة التي تحسبها مطرة ، والعشار جمع عشاء كفساء : وهي الناقة التي مضى لحملها شجرة أشهر أرتمانية ، أو هي كالفساء من النساء ، والشهب جمع شهاب ككتاب : وهو شعلة من نار ساطعة .
 [٦] قواعدها : أسافلها ، وأصله من قواعد البيت : أى أساسه ، متلاحكة : أى قد اشتدت التماسها ، والمتلاحكة : الناقة الشديدة الحلق ، وبواسقها : أعاليها جمع باسقة ، من بسق : أى طال وارتفع ، وبتضاحكة : أى يضحك فيها برقعها ، متقاذفة : أى يقذف بعضها بعضا بالمطر ، وأرحاؤها : أوساطها ، متراصفة : متراكمة قد رصف بعضها فوق بعض . [٧] أى صيا متتابعا ، وراكا كات : تمازجا من السكالك ككتاب وهو لرحام .
 [٨] الجفاجف جمع جفجف كجففر : وهي الأرض المرتفعة ليست بالغليظة ، وضحضحتها : حطت فيها ضحاضح ، والصفاصف جمع صفصف كجففر : وهو المستوى من الأرض ، وأنهر الماء : أساله ، والأصلف والصلعاء : ما صلب من الأرض ، والجمع أصالف ، وحوضت جعلت فيها حياضا .

فقال الثالث : والله ما خلتها بلغ خمساً ، فقال : هلمَّ الدرهمَ أصيفه لك ، فقلت : لا ، أو تقول كما قالوا ، قال : لا بُدَّ لِيَهُمَا ^(١) وَصَفًا ، ولأَوْقِفَهُمَا رَصْفًا ، فقلت : هاتِ لله أبوك ، فقال : « بينما الحاضرُ بين الباس والإِبلاس ، قد غمَّهم الإشفاق ، رهبة الإملاق ، وقد جفَّت الأنواء ^(٢) ، ورفرف البلاء ، واستولى القنوط على القلوب ، وكثُر الاستغفار من الذنوب ، ارتاح ربك لعباده ، فأنشأ سحاباً مُستَجْهِراً ^(٣) كَنَهْوَرًا مُعْنَوَنِيكًا مُخْلَوِيكًا ، ثم استقل وأخزألٌ ، فصار كآلسماء دون السماء ، وكالارض المدحوة ^(٤) في لوح الهواء ، فأحسبَ الشهول ، وأتأقَ الهجول ، وأحيا الرجاء ، وأمات الضراء ، وذلك من فضل رب العالمين . »
قال : فملا والله اليافعُ صدرى ، فأعطيت كل واحدٍ درهما ، وكتبت كلامهم .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٢)

٦٩ - أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال : سألت أعرابيا عن مطر صابهم بعد جذب فقال :
« ارتاح لنا ربك بعد ما استولى على الظنون ، وخامر القلبَ القنوطُ ، فأنشأ بنوءَ الجببة ^(٥) قزعةً كالفرس من قبل العيين ، فأخزألت عند ترجل النهار ،

[١] بدءه : فاته وقلبه ، والناصر : ساكن الحضر ، والباس : العذاب والشدة ، والإِبلاس : النعير واليأس ، والاشفاق : الحوف ، والإملاق : الفاقة . [٢] الأنواء جمع نوء : وهو في الأصل سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله في ساعته من المشرق ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحروالبرد إليها . [٣] مستجهرأ : لم أجد هذه الكلمة في كتب اللغة ، وربما كان الأصل : « مستهراً » من استهر العيء إذا السع ، والمهلوك : الشديد السواد ، وقد تقدم معنى اعتك واستعتك ، واعتوك أفعول من هذه المادة ، ولم أحده في كتب اللغة . [٤] البسوطه ، واللوح : الهواء وأحسبها : أرواها ، من أحسبه إذا أطعمه وسقاه حتى شبع وروى ، وأتأق : ملأ ، والمحول جمع هجل كشمس : وهو المطنبي من الأرض ، واليافع واليافع : الشاب .
[٥] الجببة : منزل للقمر ، قرعة : قطعة من الحجاب ، والفرس : انترس ، والعين : القبلة ، وترجل النهار : ارتفع .

لَا زَمِيمَ السِّرَارِ^(١) ، حتى إِذَا نَهَضَتْ فِي الأفق طالعةً ، أمر مسخَّرها الجنوبَ
فَتَسَمَّتْ لها ، فانتشرت أَحضانها ، وَأُحْمَوَّتْ أركانها ، وَبَسَقَ عَنانها^(٢) ،
وَكَفَهَرَتْ رَحَاهَا ، وَانْبَعَجَتْ كُلاهَا ، وَذَمَّرَتْ أُخْرَاهَا أَوْلَاهَا ، ثم استطارت
عَقَائِقُهَا ، وَتَقَمَّقَعَتْ صَوَاعِقُهَا ، ثم ارْتَمَعَتْ^(٣) جوانبها ، وتداعت سَوَا كِبُهَا ،
وَدَرَّتْ حَوَالِبُهَا ، فَكَانَتْ الأَرْضُ طَبَقًا^(٤) ، سَحَّ فَهَضَبَ ، وَعَمَّ فَأَحْسَبَ ،
فَعَلَّ القِيَمَانَ ، وَضَحَّضَحَ الغَيْطَانَ ، وَجَوَّخَ الأَضْوَجَ^(٥) ، وَأَتْرَعَ الشَّرَاجَ ،
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ كِفَاءَ إِسَاءَتِنَا إِحْسَانًا ، وَجَزَاءَ ظَلَمِنَا غُفْرَانًا .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٣)

٧٠ - أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً من بني عامر بن لؤي بن
صَعَصَعَةَ يصف مطراً فقال :

« نَشَأَ عِنْدَ القَصْرِ ، بِنَوَى الغَفْرِ^(٦) ، حَبِيْبًا عَارِضًا ، ضاحِكًا وَامِضًا ،
فَكَلًّا وَلَا^(٧) ، ما كان ، حتى شَجِيتَ به أَقْطَارُ المِوَاءِ ، واحتجبت به السماء ،

[١] الإيزيم : ليلة من ليالي الحاق - والحاق ممشة : ثلاث ليال من آخر النهر ، والسرار :
آخر ليلة من الشهر ، وأحضانها جمع حضان كحمل : وهو حان الشيء وناحيته ، وأحومت : اسودت .
[٢] بسق : ارتفع ، والعنان : السحاب ، رحاها : وسطها ، وانبعج : انشقت ، والكلية من
السحاب : أسفله - ومن المزايدة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، وذمرت : حضت - والتذاخر :
التحاض على المتال ، عقائقها : بروقها المشبهة للعقائق .
[٣] ارتمن المطر : ثبت وجد . [٤] غيث طبق : عام واسع يطبق الأرض ، وهصب كضرب :
مطر . [٥] جَوَّخَ السيل الوادي : إذا كسر جبذيه واقتلع أحرافه ، وفي الأصل «خوخ» وهو تصحيف
والأضواج جمع ضوَج كشمس : وهو منمطب الوادي ، والشراج جمع شرج كشمس أيضاً : وهو مسيل
الماء من المرة (ينتج الماء) إلى السيل .
[٦] الغسر : العشى ، والغفر : منزل للقمر ، والحبي : السحاب يشرف من الأفق على الأرض ، أو الذي
بعمسه فوق بعض . [٧] قال في اللسان : « والعرب إذا أرادوا تقليد مدة فعل أو ظهور شيء خفي
قالوا : كان فعله كلاً ، وربما كرروا فقالوا كلاً ولا ، قال الشاعر : يكون زول القوم فيها كلاً ولا : » ،
والشجا : ما اعترض في الخلق من نظم ونحوه ، وتد شجي به كرضي .

ثم أطرق^(١) ، فاكفهر^(٢) ، وتراكم فأذلم^(٣) ، وبسق فازلام^(٤) ، ثم حدث به الريح ،
فخن^(٥) ، فالبرق مرتعج^(٦) ، والرعد متبوج^(٧) ، والخرج متبعج^(٨) ، فأنجم ثلاثا ،
متحيراً ههنا^(٩) ، أخلاؤه حاشكة^(١٠) ، ودفعه متواشكة^(١١) ، وسوامه متعاركة^(١٢) ، ثم
ودع منجماً^(١٣) ، وأقلع^(١٤) منهنما ، محمود البلاء ، مترع^(١٥) النهار ، مشكور النعماء ،
بطول^(١٦) ذي الكبرياء . (بوع الأرب ٣ : ٢٥٤)

٧١ - أعرابي يصف مطرا

عن أبي عبيدة قال : خرج النعمان في بعض أيامه في عقب سماء ، فلقى
أعرابياً على ناقة ، فأمر فأثى به ، قال : كيف تركت الأرض وراءك ، فقال :
« فيح رُحاب^(١) ، منها السهول ومنها الصّعب ، منشوطة يجبالها ، حاملة
لأثقالها » ، قال إنما سألتك عن السماء ! قال :
« مُطلة^(٢) مستقلة^(٣) ، على غير سقاب ولا أطناب ، يختلف عصراها ،
ويتعاقب سراجها ، قال : ليس عن هذا أسألك ! قال : فسئل ما بدالك ، قال :
هل صاب الأرض غيثٌ ؟ قال :
« نعم : أنعمت^(٤) السماء في أرضنا ثلاثاً رهواً ، فثرت وأرزغت^(٥) ،

[١] هو من أطرقت الإبل : تبع بعضها بعضاً ، واذلم : اسود .

[٢] التبوج : الصباح ، والخرج : السحاب أول ما ينشأ ، متبعج : متندق .

[٣] الهنات : الريح ، حاشكة : كثيرة الماء ، متواشكة : يسارع بعضها بعضاً ، والسوام : الإبل الراحية .

[٤] أمم المطر وغيره : أقلع ، ومنهما : أي سألتا نحو تهامة ، والنهار جمع نهي بالكسر والفتح وهو الدير .

[٥] أي بفعله وقدرته .

[٦] فيح جمع فيحاء : واسعة ، وكذا رحاب ، منشوطة : مشدودة ، من نشط الجبل كنصر عقده

(وأشطه : حله) . [٧] مطلة : مرتفعة ، وكذا مستقلة ، والسقاب جمع سقب كشمس : وهو عمود الخباء ،

والعصران : اللين والهان ، وسراجها : الشمس والقمر . [٨] أي دامت ولازمت ، والرهو : السكون

والثرة من العيون : الغزيرة كالثرارة ، وقد ثرت هي ، والرؤفة بالتحريك : الوحل ، وأرزغ المطر الأرض

بها ولم تسل ، ورسم المطر : كثر وثرى الأرض حتى تبله يد الحافر عنه إلى إرسافه .

وَرَسَّغَتْ ، ثم خرجتُ من أرض قومي أقرؤها ^(١) ، فإذا هي مُتَوَاصِيَةٌ ، لا خَطِيئَةَ بَيْنَهَا ، حتى هبَّتْ بِمِشَارٍ ، فتداعى السحابُ من الأقطار ، فجاءنا بالسيل الحرَّار ، فعفا ^(٢) الآثار ، وملاً الجِفَارَ ، وقوَّراً على الأشجار ، فأججَرَ الحُضَارَ ، ومنع الشِفَارَ ، ثم أفلحَ عن نفع وإضرار ، فلما اتلَّابَّت ^(٣) لى القِيَعَانَ ، ووضَّحَتِ السُّبُلَ فى الغِيْطَانَ ، وفات العَنَانَ ، من أقطار الأَعْنَانِ ، فلم أجد وَزَراً إلا الغِيْرَانَ ، ففات وجر الضبُّع ، فنادتُ السهولَ كالبحار ، تتلاطم بالتيار ، والحُزُونَ متلفعةً بالغمَاءِ ^(٤) ، والوحوشَ مقذوفةً على الأرجاء ، فزالَت أظا السماء ، وأخوض الماء ، حتى وَطِئْتُ أرضكم . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٧)

٧٢ - أعرابي يصف مطرا

عن أبي عبيدة قال : وقف أعرابي على قوم من الحاجِّ قتال : « يا قومي بدا شأنى ، والذى أَلْفَجَنِي ^(٥) إلى مسألتكم ، إن الغيث كان قد قوى عناً ، ثم تَكَرَّفَ فأالسحابُ ، وشَصَا الرَّبَابُ ، وأذَلَّهُمْ سَيْقَهُ ^(٦) ، فارتجس رَيْقَهُ ، وقلنا : هذا عامٌ باكرٍ الوَسْمِيُّ ^(٧) ، محمود السَّمِيُّ ، ثم هبَّت له الشَّمالُ ، فأحزَّالَّت طَخَارِيرُهُ ^(٨) ، وتقرَّعَ كَرِفَتُهُ متباشراً ، ثم تتابع لَمَعَانُ البرق ، حيث

- [١] أتبعها ، والخطيئة : الأرض لم تنظر بين ممطورتين ، أو التي مطر بعضها ، وعشار : موضع .
 [٢] محاما وطمسها ، والجفار جمع جفر كشمس : البثر التي لم تطو ، وقورها : قطع من وسطها خرقة مستديرا ، وأجر ، من أجر الضب : أى أدخله فى حجرة ، والحضار جمع حاضر وهو المقيم فى الحضرة ، والسفار جمع سافر وهو المسافر لافعل له . [٣] استقامت ، والعنان : السحاب ، والأعنان من السماء : نواحيها ، ولوزر الملجأ ، والغيران جمع غار : وهو الكهف فى الجبل ، والوحار بالكسر والفتح : جحر الضب وغيرها . [٤] الغناء : البالى من ورق الشجر المخالط لزبد السيل .
 [٥] ألجأنى ، وقوى المطر : احتبس ، وتكرفاً : تراكم ، وشصا : ارتفع ، والرباب : السحاب الأبيض .
 [٦] ادلهم : اسودت ، والسبق : السحاب لاما فيه ، والرقيق : تردد الماء على وجه الأرض .
 [٧] الوسمى : مطر الريح الأول ، سمي بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات ، والسمى جمع سماء : وهو المطر أو المطرة الجيدة . [٨] الطخارير جمع طخروور كصغور بالحاء والحاء : اللطخ من السحاب ، والكرفى : السحاب المرتفع التراكم ، وتقرَّع : تفرَّق واتشع ، وشام البرق : نظر إليه أين يقصد .

تَشِيْمُهُ الْأَبْصَارَ ، وَتَجْدُهُ النَّظَارَ ، وَمَرَّتِ (١) الْجَنُوبُ مَاءَهُ ، فَقَوَّضَ الْحَيُّ مُزْلِمَيْنِ
نَحْوَهُ ، فَسَرَّحْنَا الْمَالَ فِيهِ وَكَانَ وَجِيحًا وَخِيًّا ، فَأَسَافَ الْمَالَ ، وَأَضْفَ الْحَالَ ، فَرَحِمَ
اللَّهُ امْرَأَ جَادٍ بِمَيْرٍ ، أَوْدَلَ عَلَى خَيْرٍ . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٨)

٧٣ - أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

قال أبو حبيب - وكان أعرابياً من بني ربيعة بن مالك - : « لقد رأيتنا في
أرضٍ عَجْفَاءٍ (٢) ، وزمانٍ أَعْجَفَ ، وشجرٍ أَعْصَمَ ، في قُفٍّ غَلِيظٍ ، فبينما نحن
كذلك ، إذ أنشأ الله تعالى من السماء غيثاً مُسْتَكْفِئاً (٣) نَشْوَهُ ، مُسْبِلَةً عَزَّالِيَهُ ،
صَنِخَامًا فَطْرُهُ ، جَوْدًا صَوَّبَهُ زَاكِيًّا ، أنزله الله تعالى رزقاً لنا ، فَعَيْشَ بِهِ أَمْوَالَنَا ،
وَوَصَلَ بِهِ طَرَقَنَا ، وَأَصَابَنَا وَإِنَّا لَبِنَوَاطَةٌ (٤) بَعِيدَةُ الْأَرْجَاءِ ، فَاهْرَمَعَ طَرُّهَا ،
حَتَّى رَأَيْتُنَا وَمَا نَرَى غَيْرَ السَّمَاءِ وَالْمَاءِ ، وَضَهَوَاتِ الطَّلْحِ (٥) ، وَضَرَبَ السَّيْلُ
النَّجَافَ ، وَمَلَأَ الْأُودِيَةَ فَزَعَبَهَا ، فَمَا لَبَيْتُنَا إِلَّا عَشْرًا ، حَتَّى رَأَيْتَهَا رَوْضَةً تَنْدَى .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٩)

[١] هو من مري الناقة كرمي : مسح ضرعها لتدر ، مزلمين : ماضين مرتحين إليه ، وأساف المال :
أهلكه ، والسواف كجبان وشجاع : الموت في الناس والمال ، ساف سواً أي هلك ، وأسافه الله ، ويقال
أيضاً أساف الرجل : وقع في ماله السواف أي الموت ، وأضف من الضف كسبب وهو الضيق والفتنة ،
أصاهم من العيش صف أي شدة .

[٢] ليس بها نبات ، وأصله من العجف بالتحريك وهو الهزال ، وأعصم : يابس ، وأصله من العسم
بالتحريك وهو يبس في مفصل الرسغ تعرج منه اليد والقدم ، والقف : ما غلظ من الأرض وارتمح ، لم
يبلغ أن يكون جيلاً ، وأنشأ الله السحاب : رفعه . [٣] مستكفياً : مستديراً كالكمة ، (والكفة
بالكسر ويضم كل مستدير) ، وصوبه : مطره . [٤] النوطة : الأرض يكثر بها الطلح (والطلح :
شجر عظام) والموضع المرتفع عن الماء ، أو ليس بواد ولا تلة بل بين ذلك ، واهرمع : كثر وأسرع .
[٥] الضهوة : بركة الماء ، والجفاف جمع نجف بالتحريك وبهاء : مكان لا يعلوه الماء ، أو هي أرض
مستدرة مشرفة على ما حولها ، وزعبا : ملاءها .

٧٤ - أعرابي يصف مطرا

ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك فقال :

« أصابتك سماء في وجهك يا أعرابي » ؟ قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، غير أنها سحابة طحناء وطفاء ^(١) ، كأن هوائها الدلاء ، مُرَجِحَةٌ النواحي ، موصولة بالآكام ، تكاد تمس هام الرجال ، كثير زجلها ^(٢) ، قاصفة رعدتها ، خاطف ^(٣) برقها ، حثيث ودقها ، بطيء ، سيرها ، مُتَمَنِّجِرٌ قَطْرُهَا ، مظلم نوؤها ، قد لجئت الوحش إلى أوطانها ، تبحث عن أصولها بأظلافها ، متجمعة بعد شتاتها ، فلولا اعتصامنا يا أمير المؤمنين ببعض الشجر ، وتعلقنا بقمم الجبال ، لكنا جفء ^(٤) في بعض الأودية ، ولقم الطريق ، فأطال الله للأمة بقاءك ، ونسألها في أجلك ببركتك ، وعاد الله بك على رعيتك ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد .
فقال سليمان : « لعمري أيبك لئن كانت بديهة لقد أحسنت ، وإن كانت محبرة لقد أجدت » ، قال : بل محبرة مهذورة يا أمير المؤمنين ، قال : « يا غلام أعطه ، فوالله لصدقه أعجب إلينا من صيفته » . (العقد الفريد ٢ : ٩٦)

٧٥ - أعرابية تصف مطرا

عن الأصمعي قال : « كان شيخ من الأعراب في خبائه ، وابنة له بالفناء ^(٥) ، إذ سمع رعدا فقال : ماترين يا بنية ؟ قالت : أراها حواء قرحاء ^(٦) ، كأنها أقراب

[١] سحابة وطاء : مسترخية لكثرة ماؤها ، أو هي الدائمة السح الحثينة ، هواديا : أوائلها ومقدمها ، مرجحة : ثقيلة مهتزة . [٢] ازجل : الجلبة ورفع الصوت ، متمنجر : سائل منصبي ، ولجأ إليه كنع وفرح ، وأظلاف جمع ظلف بالكسر وهو للبرة والشاة والطبي وشبهها كالقدم لنا ، والفتن جمع فنة ، وهي قة الجبل . [٣] زدت هذه الكلمة كي يستقيم بها الكلام والظاهر أنها سقيت من الأصل في الطبع . [٤] الجماء : الزبد ، واقم الطريق : معظمه أو وسطه ، حوى الأشمل : « انعم » وهو تحريف .

[٥] الفناء : ما اتسع أمام الدار . [٦] حواء : وصف من الحوة بالضم وهي حمرة الى السواد ،

أتان قراء ، ثم سمع راعدة أخرى فقال : كيف ترينها ؟ قالت : أراها جمة
الترجاف^(١) ، متساقطة الأكناف ، تتألق بالبرق الولاف ، قال : هل مني المعرفة ،
إنني^(٢) نوبيا . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٥١)

٧٦ - أعرابية تصف مطراً

عن الأصمعي قال : كان أعرابي ضرير تقوده ابنته ، وهي ترعى غنيمات لها ،
فرأت سحاباً فقالت : يا أبت جاءتك السماء ، فقال : كيف ترينها ، قالت :
كأنها فرس دهماء^(٣) تجرّ جلالها ، قال : ارعى غنيماتك ، فرعت ملياً ، ثم قالت :
يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها ؟ قالت : كأنها عين جل طريف^(٤) ،
قال : ارعى غنيماتك ، فرعت ملياً ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف
ترينها ؟ قالت : سطحت وبيضت ، قال : أدخل غنيماتك ، قال : فجاءت السماء
بشيء شطاً^(٥) له الزرع وأينع ، وخضر ونضّر . (بلوغ الأرب ٣ : ٢٦٠)

٧٧ - أعرابي يصف أرضاً

ووصف أعرابي أرضاً أحدها فقال :

« خلع شيخها ، وأبقل رمثها ، وخضب عرّفجها^(٦) ، وأتسق نبثها ،
واخضرت قره يائها ، وأخوصت بطنانها^(٧) ، وأحلست أكامها ، واعتم

والفرحة بالضم : في وجه الفرس دون المرأة ، والوصف منه أقرح وقرحاء ، والأقرب جمع قرب كقفل
وعنق : وهو الخاصرة ، والفرسة بالضم : بياض فيه ككرة ، حمار أقر ، وأتان قراء .

[١] كثيرة الاضطراب ، الولاف : المتتابع ، من ولف البرق كوعد ولفاً وولافاً بالكسر : تتابع .

[٢] النوى : الحفير حول الجباء يمنع السيل ، وانتأيته حملته .

[٣] سوداء ، والجلال جمع جل بالضم والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به .

[٤] الجمل ينتقل من مرعى إلى مرعى . [٥] شطاً الزرع : أخرج شطاً ، أي فراخه .

[٦] خلع الشيع : أورق (والخالغ من العضاء : الذي لا يسقط ورقة أبداً ، والعضاء ككتاب : كل شجر

له شوك) والرمث : مرعى للإبل ، وشجر يشبه الفضا ، والرفج : شجر سهلي ، وخضب الشجر كضرب

وسمع وعى : اخضر . [٧] القربان : مجرى الماء من الربو إلى الرياض جمع قرى كقنى ، وأخوص

نَبْتُ جَرَاثِمِهَا^(١) ، وَأَجْرَتْ بَقْلَتِهَا وَذَرَقَتِهَا وَخُبَازَتِهَا^(٢) ، وَأَحْوَرَّتْ خَوَاصِرُ
إِبِلِهَا ، وَشَكَرَتْ حَلُوبَتِهَا ، وَسَمِنَتْ قَتُوبَتِهَا^(٣) ، وَعَمِدَتِ رَاهَا ، وَعَقَدَتْ تَنَاهِيَهَا ،
وَأَمَاهَتْ ثَمَارَهَا ، وَوَثِقَ النَّاسُ بِصَارَتِهَا^(٤) . (البيان والتبيين ٢ : ٧٧)

٧٨ — رائد يصف أرضاً جذبة

قال أبو المجيب : وصف رائدُ أرضاً جذبةً فقال :

« أَغْبَرَّتْ جَادَتِهَا^(٥) ، وَذَرَعَ مَرْتَمَهَا ، وَقَضِمَ شَجْرُهَا ، وَرَقَّتْ كَرِشِهَا ،
وَخَوَّرَ عَظْمَهَا ، وَالتقى سَرْحَاهَا^(٦) ، وَتَمَيَّزَ^(٧) أَهْلُهَا ، وَدَخَلَ قُلُوبَهُمُ الْوَهْلُ ،
وَأَمَوَالَهُمُ الْهَزْلُ » . (البيان والتبيين ٢ : ٧٧)

العرفج : نفطر بورق ، وأخوصت النخلة : أخرجت الحوص ، والبطنان جمع باطن وهو العارض من الأرض
أى المعائن منها . [١] أحلس البت : غطى الأرض بكثرتة ، وأحلس الأرض نهى محلسة : صار
البات عليها كالحلس كثرة — الحلس كحلم كساء على ظهر البعير — والجراثيم جمع حرثومة بالضم ، وجرثومة
الشيء : أصله ، واعتم : أى كأه ليس عمامة . [٢] أجزت البقلة : صارت لها حراء — وحراء ككتاب
جمع حروو بالثلاث وهو صغير كل شيء — والذرة واحدة الدرق وهو نبات مثل الكرات الجبلى الدقاق فى
رأسه حب حلو يؤكل رطباً تحبه الرطاة يأتون به أهلهم ، والحبارة والحيازي : النبت المعروف .

[٣] احورَّت : ايضت وذلك من الشد على خواصرها لئلا تحببط (والحببط بالتحريك : انفاخ بطنها من
مرعى ترعاه) والحلومة : المحلوبة ، وشكرت الناقة : امتلأ ضرعها ، والدابة : سميت ، والقطوبة : الابل
التي تقبها (وأقنت الناقة : شد عليها القتب (بالتحريك) وهو إكاف صغير على قدر سنام البعير) .

[٤] عمد النرى : بله المطر حتى إذا قبضت عليه تعقد لدوته ، والتناهى جمع تنهية : وهى مستقر السيل
حيث ينتهى الماء من الوادى ، وعقدت تناهيها : أن يمرّ السيل مقبلاً حتى إذا انتهى مشتهاء دار بالأبطح
حتى يلتقى طرفا السيل ، وأمَاهت ثمارها : أى كثر ماؤها ، والصائرة : المطر والكلأ .

[٥] الجادة : الطريق إلى الماء ، وذرع المرتع : بعد عن الماء ، وقضم شجرها : تكسر ، يقال :
سيف قضم كفروح : أى طال عليه الدهر فتكسر حده ، وقضم السن : انصدع وتثلج ، وإذا لم يكن للجمال
مرعى إلا الشجر وحده رقت أكراشه . [٦] يعنى أنه إذا أكل كل سارح مايليه ، التقيا عند الماء .

[٧] نفرّتوا فى طلب الكلأ ، والوهل : الفزع ، والهرل : موت مواشى الرجل .

٧٩ - رائد يصف أرضاً

عن محمد بن كُناسة قال : أخبرني بعض فصحاء أعراب طيبي^(١) قال :
« بعث قوم رائداً ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : عُشْبٌ وَتَمَاشِيْبٌ^(٢) ، وَكَمَاءٌ^(٣)
مُتَفَرِّقَةٌ شَيْبٌ ، تَقْلَعُهَا بِأَخْفَافِهَا النَّيْبُ^(٤) » ، قالوا : لم تصنع شيئاً ، هذا
كذب ! فأرسلوا آخر ، فقالوا : ما وراءك ؟ قال : « عُشْبٌ نَادٌ مَادٌ ، مَوَلِيٌّ^(٥)
وَعَهْدٌ ، مِتْدَارِكٌ جَعْدٌ^(٦) ، كَأَخْفَازِ نِسَاءِ بَنِي سَعْدِ ، تَشْبَعُ مِنْهُ النَّيْبُ وَهِيَ تُعَدُّ^(٧) .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٩)

٨٠ - رائد يصف أرضاً

وبعث رجل أولاده يرتادون في خِصْبٍ ، فقال أحدهم : « رأيتُ بَقْلًا ،
وماءً غَيِّلاً^(١) ، يسيل سَيِّلاً ، وخُوصَه تَمِيلُ مَيْلاً ، يحسبها الرائد ليلاً » ، وقال
الثاني : « رأيت دِيْعَةً على دِيْعَةٍ ، في عهدها غير قديمة ، وَكَلَّأْتُ شَبَعٌ مِنْهُ النَّابِ
قبل القطيعة » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٩)



وروي هذا الوصف عن ابن الكلبي بصورة أخرى قال :

« خطب هند بنته الخُصْبُ الإيادية ثلاثة نفر من قومها ، وارتضت أنسابهم

[١] العشب : الكلاً الرطب ، والتماشيب : القطع المتفرقة منه . [٢] اليب جمع ناب : وهو
الناقة المسنة . [٣] جاء في اللسان : « قال الأصمعي : قيل لبعض العرب : أصب لنا موضعاً أي اطلب
فقال رائدكم : وجدت مكاناً ثدياً مئداً (بفتح فكسر) وقال زيد بن كثوة : بثوا رائداً بجاء وقال : عشب
نَادٌ مَادٌ (بفتح فسكون) كَأَهْ أُسُوقِ بَنِي سَعْدِ » وثبت النبات كفتح : ندى فهو نَدٌ ، ومَادٌ كفتح امتزج
وتروى وجرى فيه الماء وتنم ولان ، والمَادُ : الناعم من كل شيء ، والمولى : الذى أصابه الولى
(والولى : المطر الذى يأتي بعد المطر) ، والمهد : أول مطر الوسمى (والوسمى : أول مطر الربيع) .

[٤] من قولهم : زيد جعد : أي متراكب مجتمع قد صار بعضه فوق بعض .

[٥] يعني أن العشب قد طال وتم ، والنيب تشبع منه وهي تعد ، لأنها تتناوله وهي قائمة لا تبرح مكانها
ولا تطأ رأسها . [٦] الفيل : الماء الذى يجرى بين الشجر

وَجَاهِلِهِمْ ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَسْبُرَ عَقُولَهُمْ ، فَقَالَتْ لَهُمْ : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَرْتَادُوا لِي مَرْعَى ، فَلَمَّا أَتَوْهَا قَالَتْ لِأَحَدِهِمْ : مَا رَأَيْتَ ؟ قَالَ : رَأَيْتَ بَقْلًا وَبُقَيْلًا ، وَمَاءً غَدَقًا ^(١) سَيْلًا ، يَحْسِبُهُ الْجَاهِلُ أَيْلًا ، قَالَتْ : أَمْرَعْتَ ^(٢) ، قَالَ الْآخَرُ : رَأَيْتَ دَيْمَةً بِمَدْدِيْمَةٍ ، عَلَى عَهَادٍ غَيْرِ قَدِيْمَةٍ ، فَالِنَابُ تَشْبَعُ قَبْلَ الْفَطِيْمَةِ ، قَالَ الثَّلَاثُ : رَأَيْتَ غَيْثًا ثَمَدًا مَعَدًا ^(٣) ، مُتْرَاكًا جَمْعَدًا ، كَأَنْخَاذِ نِسَاءِ بَنِي سَعْدِ ، تَشْبَعُ مِنْهُ النَّيْبُ وَهِيَ ثَمَدٌ » . (بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٦)

٨١ - أعرابي يصف أرضه وماله

عن أبي عمرو بن العلاء قال : لقيت أعرابيا بمكة فقلت له ، ممن أنت ؟ قال : أسديّ ، قلت : ومن أيهم ؟ قال : نهديّ ، قلت : من أي البلاد ؟ قال : من عَمَّانَ ، قلت : فأنتي لك هذه الفصاحة ؟ قال : « إِنَّا سَكَنَّا قُطْرًا لَا نَسْمَعُ فِيهِ نَاجِحَةَ التِّيَّارِ ^(٤) » ، قلت : صف لي أرضك ، قال : « سَيْفٌ أَفِيحٌ ، وَفَضَاءٌ صَحَّاحٌ ، وَجَبَلٌ صَرْدَحٌ ، وَرَمْلٌ أَصْبَحٌ ^(٥) » ، قلت : فما مالك ؟ قال : النخل ، قلت : فأين أنت من الإبل ؟ قال : « إِنْ النُّخْلُ حَمَلَهَا غِذَاءً ، وَسَعَفُهَا ^(٦) ضِيَاءً ، وَجَذَعُهَا بِنَاءً ، وَكَرْبُهَا صِلَاءً ، وَلِيْفِهَا رِشَاءً ، وَخَوْصُهَا وِعَاءٌ ، وَقَرَوُهَا إِنَاءٌ » . (ذيل الأمل ص ١٧)

[١] الغدق : الماء الكثير . [٢] أمرعه : أصابه مريماً تكتصيب وزنا ومعنى .

[٣] الغيث : المطر والكلاء ، وقيل : الأصل المطر ثم سمي ما يبت به غيثاً ، والمراد هنا الثاني ، وبقل

ثمد معد : غض رطب رخص .

[٤] الناجحة : الصوت ، والتيار : الموج . [٥] السيف : ساحل البحر ، وساحل الوادي ، أو

لكل ساحل سيف ، أو إنما يقال ذلك لسيف عمان ، وأفيح : واسع ، والصحاح : ما استوى من

الأرض ، والصدح : الصلب ، والأصبح : الذي يعلو بياضه حمرة . [٦] السعف : جريد النخل أو

ورقه ، والكرب : أصول السعف الغلاط العراض ، والرشاء : الحبل ، والفرو : أسفل النخلة ينقر

فينتد فيه - أي يتخذ فيه النبيذ -

٨٢ - أعرابي يصف بلدا

وذكر أعرابي بلداً فقال: « بلد كالأثرس، ماتمشى فيه الرياح إلا عابرات سبيل،

ولا يمرّ فيه السّفْر إلا بأدْلٍ دليل » . (العقد الفريد ٢ : ٨٠)

وقال أعرابي: « صررت ببلد ألقى به الصيْف^(١) بقاعه ، فأظهر غديراً يقصُر

الطَّرْفُ عن أرجائه ، وقد نَفَتِ الرِّيحُ القَدَى عن مأته ، فكأنه سلاسل دِرْع

ذاتِ قُضُول^(٢) » . (العقد الفريد ٢ : ٩٦)

وسئل أعرابي عن مسافة ما بين بلدين فقال: « مُهر ليلة ، وأديم^(٣) يوم » .

وقال آخر: « سواد ليلة ، أو بياض يوم » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥١ والعقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقال آخر: « إن المسافر ومَتَاعَهُ لَعَلَى قَلَتِ^(٤) إلا ما وَقَى اللهُ » .

(العقد الفريد ٢ : ٥٢)

٨٣ - أعرابي يصف أشد البرد

سئل أعرابي ف قيل له : ما أشدُّ البرد ؟ قال : « رِيحٌ جَرِيْبَاءُ ، في طَلِّ تَهْمَاءُ ،

غِبِّ سَمَاءُ^(٥) » . (البيان والتبيين ١ : ١٦٣)

٨٤ - أعرابي يصف إبلا

وقال : سمعت أعرابياً يصف إبلاً فقال :

« إنها لَعِظَامُ الحَنَاجِرِ ، سِبَاطُ المَشَافِرِ ، كُومٌ بهَازِرٍ^(٦) ، نُكْدٌ خَنَاجِرٍ^(٧) ،

[١] السيف كسيد ويخفف : المطر يحيى . في الصيف أو بعد الربيع كالصبي .

[٢] جمع فضل : وهو الزيادة . [٣] أديم الهمزة : طامته أو بياضه . [٤] القلت : الهلاك .

[٥] الجريباء : ربح الشمال المردة ، أو الرمح بين الجنوب والعباء والعواء : السحاب المرتفع ، أو

الكثيف ، أو المطر ، و غب سماء : أى عقب مطر . [٦] الحنجرة والحنجور كهمفور : الحلقة ،

وجمه حناجر ، والشائر جمع مشركنبر : وهو البعير كالشفة للإنسان ، والكوم : العظام الأسنمة جمع أكوام

وكوماء ، والبهازر جمع بهزرة : كبندقة ، وهى العطيمة من البوق .

[٧] الكد : الفزيرات اللبن من الإبل (والتي لا ابن لها أيضا ضد) ، والحناجر : الفزيرات اللبن

أَجَافُهَا رِغَابٌ^(١) ، وَأَعْطَانَهَا رِحَابٌ^(٢) ، تُنْتَعُ مِنَ الْبَهْمِ^(٣) ، وَتُبَدَّلُ لِلجُمَمِ « .
(الأملی ١ : ٥٢)

٨٥ - أعرابي يصف ناقة

ووصف أعرابي ناقة فقال : « إِذَا أَحْكَلَّتْ عَيْنُهَا ، وَأَلَّتْ^(٣) أُذُنُهَا ،
وَسَجَّحَ^(٤) خَدَّهَا ، وَهَدَلَ^(٥) مِشْفَرَهَا ، وَاسْتَدَارَتْ جُجْمَتُهَا ، فَهِيَ الْكَرِيمَةُ » .
(الأملی ١ : ٢١٧)

٨٦ - أعرابي يصف خيلا

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « خَرَجْتَ عَلَيْنَا خَيْلٌ مُسْتَطِيرَةٌ
النَّقْعُ^(٦) ، كَأَنَّ هَوَادِيَهَا^(٧) أَعْلَامٌ ، وَأَذَانُهَا أَطْرَافُ أَقْلَامٍ ، وَفُرْسَانُهَا أُسُودُ
آجَامٍ » .

٨٧ - أعرابي يصف خيلا

وذكر أعرابي خيلا فقال : « وَاللَّهِ مَا أُنْحَدَرْتُ فِي وَادٍ إِلَّا مَلَأَتْ بَطْنَهُ ،
وَلَا رَكِبْتُ بَطْنَ جَبَلٍ إِلَّا أَشْهَلَتْ حَزَنَهُ » . (العقد الفريد ٢ : ٩٥)

٨٨ - أعرابي يصف خيلا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يصف خيلا فقال : « سَبَّاطُ
الْخَصَائِلِ^(٨) ، ظِمَاءُ الْمَفَاصِلِ ، شِدَادُ الْأَبَاجِلِ^(٩) ، قُبُّ الْأَيَاطِلِ ، كِرَامُ
النَّوَاجِلِ^(١٠) » . (الأملی ١ : ٥٢)

جمع خنجر كجعفر وبهاء وخنجورة بالضم . [١] رغاب : واسعة ، وأعطانها : باركها عند الماء جمع
عطن كسبب . [٢] البهم جمع بهمة كفرصة : وهو الشجاع الذي لا يدرى من أين يؤتى ، من شدة
بأسه ، والجمل جمع جمة كقبة ، وهم القوم يسألون في الديات .

[٣] ألّ البعير : نصب أذنيه وحددهما . [٤] سجج : سهل وحسن . [٥] هدل : استرخى .
[٦] الغبار . [٧] أرائلها . [٨] الخصائل جمع خصيلة : وهي كل قطعة من اللحم مستطيلة أو
مجمتعة ، وقيل : هي ما نماز من لحم العنز بعضه من بعض ، وسباط جمع سبط ، ككتف وشمس ، رجل
سبط الجسم إذا كان حسن القد والاستواء ، وظماء : ضمير . [٩] الأباجل جمع أبجل : وهو عرق
غليظ في الرجل أو في اليد ، يريد أنها شداد القوائم . [١٠] الأياطل جمع أياطل : وهو الخاصرة ،

٨٩ - أعرابي يصف فرسا

ووصف بعض الأعراب فرساً فقال : « قد انتهى ضُمُوره ، وَذَبَلُ قَرِيرُهُ ^(١) ،
وظهر حَصِيرُهُ ^(٢) ، وتفلقت غُرُوره ^(٣) ، واسترخت شاكِمته ^(٤) ، يُقبل بزور
الأسد ، وَيُذبر بِمَجْزِ الذئب » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٣٣ ، والأمال ٢ : ٢٥٦)

٩٠ - أعرابي يصف خاتماً

وقال أعرابي يصف خاتماً : « شَفَّ ^(٥) تقديرُ حَلَقته ، وَدُورُ كرسى فِضته ،
وَأَحكم تركيبه ، وَأَتقن تدبيره ، فبه يتم المَلِك ، وينفُذ الأمر ، وَيَكْرُم الكِتَابُ ،
وَيَشْرُف المكتوب إليه » . (العقد الفريد ٢ : ٩٧)

٩١ - أعرابي يصف أطيب الطعام

وقال عبد الملك لأعرابي : « ما أطيبُ الطعام ؟ » ، فقال : « بَكْرَةٌ
سَنِمة ^(٦) ، مُعْتَبَطَةٌ غير ضَمِنَةٍ ، في قُدُورٍ رَذِمة ^(٧) ، بِشِفَارٍ خَدِمة ^(٨) ، في غداة
شِبِمة ^(٩) » ، فقال عبد الملك : وَأَيِّك لقد أُطِيتَ ^(١٠) .
(البيان والتبيين ١ : ١٦٣)

قَبَّ جمع أقب ، وصف من القب كسب وهو دقة الحصر وضور البطن ، والواحد جمع ناجلة ، من
نجلته : أى ولدته . [١] الفرير : موضع الحجسة من معرفة الفرس .
[٢] الحصير : عرق يمتدّ معترضاً على جنب الدابة إلى ناحية بطنها ، أو لمة كذلك .
[٣] الفرور : الفضون التي في جلده ، واحدها فرٌّ بالفتح . [٤] الشاكلة من الفرس : الجلد بين
عرض الحاصرة والثفنة - والثفنة كفرحة : الركبة - . [٥] رقّ .
[٦] البكرة : الفتية من الإبل ، والسنة : العظيمة السنام ، ونمله كفرح ، عبط الذبيحة كفرح
واعبطها : نحرها من غير علة وهي سمينة فتية ، والضمنة : الزمنة والمبتلاة في حسدها من الرحمة كفرصة
وهي المرض . [٧] رذمت القصعة كفرح فهي رذمة وردوم كصبور : امتلأت وتصبت جوانبها .
[٨] شعار جمع شفرة « بالفتح » : وهي السكين العظيم ، وخذمه كفربه : قطعه ، وسيف خذم
ككتف وصبور ومعظم : قاطع . [٩] الذداة : البكرة « بالضم » أو ما بين صلاة الفجر وطلوع
الشمس ، وشبمة : باردة ، وفعلها كفرح . [١٠] أطاب الشيء وأطيبه : وجده طيباً .

٩٢ - أعرابي يصف السويق

وعاب رجل السَّوَيْقَ^(١) بِحَضْرَةِ أَعْرَابِي ، فَقَالَ : « لَا تَعْبِهِ ، فَإِنَّهُ عُدَّةُ الْمَسَافِرِ ،
وِطْعَامُ الْعَجْلَانِ ، وَغِذَاءُ الْمُبَكَّرِ ، وَبُلْغَةُ^(٢) الْمَرِيضِ ، وَيَسْرُو^(٣) فَوَادَ الْحَزِينِ ،
وَيَرُدُّ مِنْ نَفْسِ الْمَحْدُودِ^(٤) ، وَجَيِّدٌ فِي التَّسْمِينِ ، وَمَنْعُوتٌ فِي الطَّبِّ ، وَقَفَّارُهُ^(٥)
يَجْلُو الْبَانِغَمَ ، وَمَلْتَوْتُهُ يُصَفِّي الدَّمَّ ، وَإِنْ شَتَّتَ كَانَ شَرَابًا ، وَإِنْ شَتَّتَ كَانَ طَعَامًا ،
وَإِنْ شَتَّتَ فَتَرِيدًا ، وَإِنْ شَتَّتَ نَخْبِيصًا^(٦) » . (الأملال ٢ : ١٩٧)

٩٣ - أعرابي يصف الجمال

وَقِيلَ لِأَعْرَابِي مَا الْجَمَالُ ؟ قَالَ : « طُولُ الْقَامَةِ ، وَضَخْمُ^(٧) الْهَامَةِ ، وَرُحْبُ^(٨)
الشَّدْقِ ، وَبُعْدُ الصَّوْتِ » ، وَسُئِلَ آخَرُ : مَا الْجَمَالُ ؟ قَالَ : « غُمُورُ الْعَيْنَيْنِ ،
وَإِشْرَافُ الْحَاجِبَيْنِ ، وَرُحْبُ الشَّدْقَيْنِ » (البيان والتبيين ١ : ٦٧)

٩٤ - أبو المخش يصف ابنه

وَسَأَلَ جَعْفَرُ بْنُ سَلِيمَانَ أَبَا الْمَخْشِ عَنْ ابْنِهِ الْمَخْشِ^(٩) - وَكَانَ جَزَعٌ عَلَيْهِ
جَزَعًا شَدِيدًا - قَالَ : صَفَّ لِي الْمَخْشُ ، فَقَالَ : « كَانَ أَشَدَّ خُرْطُمَانِيَا^(١٠) ،
سَائِلًا لَهَا بَهْ ، كَأَنَّمَا يَنْظُرُ مِنْ قَلْتَيْنِ^(١١) ، كَانَ تَرَقُّوتَهُ بُوَانٌ ، أَوْ خَالِفَةٌ ،

[١] السويق : ما يعمل من الحنطة والشعير . [٢] ما يبلغ به . [٣] يسرو : يكشف ما عليه .
[٤] المحدود : الذي قد حدث أي قد ضرب الحد . [٥] القفار : الذي لم يلبث بشيء من آدم ،
لازيت ولا سمن ولا لبن . يقال طعام قفار . [٦] الحبيص : نقي الدقيق يخلط بالمسل .
[٧] ضخم ككرم ضخماً وضخامة فهو ضخيم . [٨] رحب ككرم وسمع رحبا بالضم ورحابة فهو
رحب بالفتح . [٩] المخش في الأصل : الجريء على العمل في الليل .
[١٠] أشدق : واسع الشدقين ، خرطامياً : طويلاً . [١١] الفت : الثقرة في الجبل .

كَأَنَّ مَنكِبَهُ كِرْكِرَةٌ جَلِي تَقَالِ (١) ، فَقَالَ اللَّهُ عَيْنِي إِنْ كُنْتُ رَأَيْتُ قَبْلَهُ أَدْر

بَعْدَهُ مِثْلَهُ . (البیان والبیّن ١ : ٦٧)

٩٥ - أعرابي يصف بنيه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي بِحَمِي الرَّبْدَةِ : أَلَاكَ بَثُونٌ ؟
قال : نعم ، وَخَالِقِيهِمْ لَمْ تَقُمْ عَنْ مَثَلِهِمْ مُنْجِبَةٌ ، فقلت : صِفْهُمْ لِي ، فقال :
« جَهْمٌ ! وَمَا جَهْمٌ ؟ يُنْضِي الْوَهْمَ ، وَيَصُدُّ الدَّهْمَ (٢) ، وَيَقْرِي الصَّفُوفَ ،
وَيُعَلُّ السِّيُوفَ (٣) » ، قلت : ثُمَّ مَنْ ؟ قال : « غَشَمْتُمْ ! وَمَا غَشَمْتُمْ ؟ مَالُهُ
مُقَسَّمٌ ، وَقِرْنُهُ مُجْرَجَمٌ (٤) ، جِذْلُ حِكَاكِ (٥) ، وَمِذْرَةُ لِكَاكِ (٦) » ، قلت : ثُمَّ
مَنْ ؟ قال : « عَشْرَبٌ ! وَمَا عَشْرَبٌ ؟ لَيْتُ مُحْرَبٌ ، وَسِمَامٌ مُقَشَّبٌ (٧) ، ذِكْرُهُ
بَاهِرٌ ، وَخَصْمُهُ حَاثِرٌ ، وَفِنَاؤُهُ رُحَابٌ (٨) ، وَدَاعِيُهُ مُجَابٌ » ، قلت : صف لي
نفسك ، فقال : « لَيْتُ أَبُو رِيَابِلٍ (٩) ، رَكَابٌ مَعَاضِلٌ ، عَسَافٌ (١٠) بَجَاهِلٍ ،
حَمَالٌ أَعْبَاءٌ ، نَهَاضٌ يَبْزُلَاءُ (١١) » . (الأمالي ١ : ٥٣)

[١] البوان : عمود الخباء ، والحالفة : عمود من أعمدة البيت في مؤخره ، والكركرة : رمي زور
البحر ، وبير شمال : بطنه .

[٢] ينضي : يزل ، والوم : الضخم العظيم من الإبل ، والدم : العدد الكثير .

[٣] يقرى : يفتح ، ويسل : أى يوردها السماء ثانية ، مأخوذ من الطل في الشرب .

[٤] المجرم : المصروع . [٥] الجدل : أصل الشجرة ، وذلك أن الإبل الجرب تحتك به فتجد

له لثة ، والمعنى أنه من يستشقى به في الأمور بمنزلة ذلك الجمل الذي تلتقى به الإبل .

[٦] المذرة : لسان الثوم ، والقكام عنهم ، والدافع عنهم ، يقال : دوفته عن ودواته : أى دفعته ،

واللكاك : الزحام . [٧] الحرب : المفضب الذى قد اشتد غضبه واحداً ، وحربت السكين : إذا

أحدته ، ومغشبت : مخلوط . [٨] باهر : غالب ، ورحاب : متسع .

[٩] ريابل جمع ريبال بالكسر يهز ولا يهز : وهو الأسد ، والمعاضل : الدوامى .

[١٠] العساف : الذى يركب الطريق على غير هداية ، والأعباء : الأعمال .

[١١] البزلاء : الرأى الجيد الذى يزل (بضم الزاى) عن السواب : أى يفتح عنه .

٩٦ - أعرابي يصف أخويه

عن العُتبيّ قال : أخبرني أعرابي عن إخوة ثلاثة ، قال : قلت لأحدهم : أخبرني عن أخيك زيد فقال : « أزيدٍ إنيهِ ^(١) ؟ والله ما رأيتُ أحداً أسكنَ قَوْراً ، ولا أبعدَ غوراً ، ولا آخذَ لِدَنبٍ حُجَّةً قد تقدّم رأسُها من زيد » ، فقلت : أخبرني عن أخيك زائد ، قال : « كآن والله شديدَ المُقدمة ، ليّن المَطْفَةَ ، ما يُرضيه أقلُّ مما يُسخطه ، فقلت : فأخبرني عن نفسك ، فقال : « والله إن أفضلَ ما فيّ لمعرفتي بفضلهما ، وإني مع ذلك كغير منتشرٍ ^(٢) الرأى ، ولا مَحْدُول العَزم » . (الأمالى ٢ : ١٤)

قولهم في الدعاء

٩٧ - دعاء أعرابي

قال أبو حاتم : أُملي علينا أعرابيّ يقال له مرثد :
« اللهم اغفر لي ، وأجلدُ بارد ، والنفسُ رَطْبَةٌ ، واللسانُ منطلق ، والصحفُ منشورة ، والأقلامُ جارية ، والتوبةُ مقبولة ، والأنفسُ مَرِيحَةٌ ^(٣) ، والتضرّعُ مرجوٌّ ، قبل أنِ الفراق ، وَحَشَكِ النفسِ ^(٤) ، وَعَلَزِ الصدرِ ^(٥) ، وَتَزِيلِ الأوصالِ ^(٦) ، وَنُصُولِ الشعرِ ، واحتياف ^(٧) التراب ، وقبل أن لا أقدر على استنفارك حينَ يَفنى العمل ، ويحضرُ الأجل ، وينقطع الأمل .

[١] قال أبو عليّ القالي : « هذه الزيادة تلحق في الاستفهام في آخر الكلمة إذا أنكرت أن يكون رأى المتكلم على ما ذكر ، أو يكون على خلاف ما ذكر » انظر هذا البحث في الأمالى ٢ : ١٥ .
[٢] أي مفرقة . [٣] مرح كفرح : أشر وبطر ونشط واختال وتبختر فهو مرح ومرّيج .
[٤] الحشك : شدة النزاع . [٥] العلز : قلق وخفة وهلع يصيب المريض والمحتضر .
[٦] تزيك وتزابلت : تفرقت ، والأوصال : الفاصل . [٧] الاحتياف : انتعال من الحيف وهو الجور ، والمراد أكل تراب القبر الجثة ، والذي في كتب اللغة « التحيف » تحيفت الشيء : إذا تقصته من حافظه .

أَعْنَى عَلَى الْمَوْتِ وَكُرْبَتِهِ ، وَعَلَى الْقَبْرِ وَغَمَّتِهِ ^(١) ، وَعَلَى الْمِيزَانِ وَخِفَّتِهِ ، وَعَلَى الصَّرَاطِ وَزَلَّتِهِ ، وَعَلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَرَوْعَتِهِ ، اغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً عَزَمًا ، لَا تَنَادِرِ ذَنْبًا ، وَلَا تَدْعَ كَرْبًا ، اغْفِرْ لِي جَمِيعَ مَا اقْرَضْتَ عَلَيَّ وَلَمْ أُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، اغْفِرْ لِي جَمِيعَ مَا ثَبَّتُ إِلَيْكَ مِنْهُ ثُمَّ عُدْتُ فِيهِ .

يَا رَبِّ تَظَاهَرْتُ ^(٢) عَلَيَّ مِنْكَ النِّعَمُ ، وَتَدَارَكْتَ عِنْدَكَ مِنِّي الذُّنُوبُ ، فَالْحَمْدُ عَلَى النِّعَمِ الَّتِي تَظَاهَرْتُ ، وَاسْتَغْفِرُكَ لِلذُّنُوبِ الَّتِي تَدَارَكْتُ ، وَأَمْسَيْتَ عَن عَذَابِي غَنِيًّا ، وَأَصْبَحْتُ إِلَى رَحْمَتِكَ فَقِيرًا .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ نَجَاحَ الْأَمَلِ ، عِنْدَ انْقِطَاعِ الْأَجَلِ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَيْرَ عَمَلِي مَا وُلِيَ أَجَلِي ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ الَّذِينَ إِذَا أُعْطِيَتْهُمْ شَكَرُوا ، وَإِذَا ابْتَلَيْتَهُمْ صَبَرُوا ، وَإِذَا أذْكَرْتَهُمْ ذَكَرُوا ، وَاجْعَلْ لِي قَلْبًا تَوَّابًا أَوْ أَبًا ، لَا فَاجِرًا وَلَا مُرْتَابًا ، اجْعَلْنِي مِنَ الَّذِينَ إِذَا أَحْسَنُوا زَادُوا ، وَإِذَا أَسَاءُوا اسْتَغْفَرُوا .

اللَّهُمَّ لَا تَحْقُقْ عَلَيَّ الْعَذَابَ ^(٣) ، وَلَا تَقْطَعْ بِي الْأَسْبَابَ ، وَاحْفَظْنِي فِي كُلِّ مَا تَحِيطُ بِهِ شَفَقَتِي ، وَتَأْتِي مِنْ وَرَائِهِ سَبْحَتِي ^(٤) ، وَتَعَجَّرَ عَنْهُ قُوَّتِي ، أَدْعُوكَ دَعَاءَ ضَعِيفٍ عَمَلُهُ ، مَتَظَاهِرَةٍ ذُنُوبُهُ ، ضَنِينٍ عَلَى نَفْسِهِ ، دَعَاءَ مَنْ بَدَأَهُ ضَعِيفٌ ، وَمُنْتَهُ ^(٥) حَاجِزَةٌ ، قَدْ انْتَهَتْ عُدَّتُهُ ، وَخَلَقْتَ ^(٦) جِدَّتُهُ ، وَتَمَّ ظِمُّوهُ ، اللَّهُمَّ

[١] فعلة من غم الشيء : أى غطاء فانغم ، أو غم «غمته» بالفهم : أى بلائه وكرب عذابه .

[٢] من تظاهروا إذا تعادوا : أى تابعت . [٣] يشير إلى قوله تعالى : « أَفَنُ خَقَّ عَلَيْهِ

كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » . [٤] فعلة من السبح : وهو القلب والانتشار

في الأرض ، والإبادة في السير ، والتصرف في العاش . [٥] المنة : اقوة .

[٦] خلق الثوب كنصر وكرم وسمع : بلى ، والظلم : ما بين الصريتين والوردين .

لَا تُخَيِّئَنِي وَأَنَا أَرْجُوكَ ، وَلَا تَعَذِّبْنِي وَأَنَا أَدْعُوكَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى طَوْلِ النَّسِيئَةِ ^(١) ،
 وَحَسَنِ التَّبَاعَةِ ^(٢) ، وَتَشَنُّجِ العُرُوقِ ، وَإِسَاغَةِ الرِّيقِ ، وَتَأْخِرِ الشَّدَائِدِ ، وَالْحَمْدُ
 لِلَّهِ عَلَى حِلْمِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ ، وَعَلَى عَفْوِهِ بَعْدَ قُدْرَتِهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُودِي ^(٣)
 قَتِيلَهُ ، وَلَا يُخَيِّبُ سَأْلَهُ ، وَلَا يُرَدُّ رِسْوَلُهُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ
 الْفَقْرِ إِلَّا إِلَيْكَ ، وَمِنَ الذُّكْرِ إِلَّا لَكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أَقُولَ زُورًا ، أَوْ أَغْشَى
 مُجُورًا ، أَوْ أَكُونَ بِكَ مَفْرُورًا ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شِمَاتَةِ الأَعْدَاءِ ، وَعُضَالِ الدَّاءِ ،
 وَخِيْبَةِ الرِّجَاءِ ، وَزَوَالِ النِّعْمَةِ » . (المقدّم فرید : ٧٧ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٢٤ - ١٣٧ - ١٣٨)

٩٨ - دعاء أعرابي

ودعا أعرابي وهو يطوف بالكعبة فقال :

«إِلَهِي مَنْ أَوْلَى بِالتَّقْصِيرِ وَالزَّلَلِ مِنِّي وَأَنْتَ خَلَقْتَنِي ؟ وَمَنْ أَوْلَى بِالعَفْوِ مِنِّي
 عَنِّي وَعِلْمِكَ بِي مَاضٍ ، وَقَضَائِكَ بِي مُحِيطٌ ؟ أَطْعَمْتَكِ بِقَوْتِكَ وَالْمِنَّةَ لَكَ ، وَعَصَيْتِكَ
 بِعِلْمِكَ ، فَاسْأَلُكَ يَا إِلَهِي - بِوَجُوبِ رَحْمَتِكَ وَانْقِطَاعِ حُجَّتِي ، وَافْتِقَارِي إِلَيْكَ
 وَغِنَاكَ عَنِّي - أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي .

إِلَهِي لَمْ أَحْسِنْ حَتَّى أُعْطَيْتَنِي ، فَتَجَاوَزْ عَنِ الذُّنُوبِ الَّتِي كَتَبْتَ عَلَيَّ ، اللَّهُمَّ
 إِنَّا أَطْعَمْنَاكَ فِي أَحَبِّ الأَشْيَاءِ إِلَيْكَ : شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، وَحَدَّكَ لِشَرِيكَ
 لَكَ ، وَلَمْ نَعْصِكَ فِي أَبْغَضِ الأَشْيَاءِ إِلَيْكَ : الشَّرْكَ بِكَ ، فَاغْفِرْ لِي مَا بَيْنَ ذَلِكَ .

[١] الإمهال والتأخير . [٢] التباعة مثل التبعة بفتح فكسر . قال الشاعر :

أكلت حنيفة ربيها زمن النقمم والجماعه

لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة

« لأنهم كانوا قد اتخذوا إلهًا من حيس فيبدوه زمانًا ، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه » - وللهيب كشمس :

تم يخلط بالسمن واللبن الخبيض فيمجن شديدًا ، ثم يندر منه نواه .

[٣] ودى القتل كومي : أعطى ديته ، والسول مخفف عن سؤل : وهو ماسأته .

اللهم إنك آنسُ المؤمنِينَ لأوليائك ، وأحضرهم للمتوكلين عليك ، إلهي
أنت شاهدُهم وغائبُهم ، والمطلع على ضمائرهم ، وسرّي لك مكشوف ، وأنا
إليك ملهوف ، إذا أوحشتني الغربةُ آنسني ذكرك ، وإذا أكببت عليّ
الغمومُ ، لجأتُ إلى الاستجارة بك ، علماً بأن أزمة الأمور كلها بيدك ، ومصدرها
عن قضائك ، فأقبلني ^(١) إليك مغفوراً لي ، معصوماً بطاعتك بقية عمري ،
يا أرحم الراحمين .

٩٩ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : حَجَّجت فرأيت أعرابياً يطوف بالكعبة ويقول :
ياخير موفودٍ سعى إليه الوُفدُ ^(٢) ، قد ضَعُفت قوتي ، وذهبت مُنتى ، وأتيت
إليك بذنوب لا تغسلها الأنهار ، ولا تحمِلها البحار ، أستجير برضائك من
سُخْطك ، وبمفوك من عقوبتك ، ثم التفت فقال : « أيها المشفقون ، ارحموا
من سَمَلته الخطايا ، وَغَمَرته البلايا ، ارحموا من قطع البلاد ، وخلف ما ملك
من التلاد ، ارحموا من وَبَّخته الذنوب ، وظَهَرَت منه العيوب ، ارحموا أسيرَ ضُرِّ ،
وطريدِ فقر ، أسألكم بالذي أتممت الرغبة إليه ، إلا ما سألتكم الله أن يهب لي
عظيم جُرمي » ، ثم وضع في حلقة بالباب خده وقال : ضَرَع خدي لك ، وَذَلَّ
مقامي بين يديك ، ثم أنشأ يقول :

عظيمُ الذنبِ مكروبٍ من الخيراتِ مسلوبٍ
وفدُ أضحيتُ ذا فقرٍ وما عندك مطلوبٍ

١٠٠ - دعاء أعرابي

وسمى أعرابي بعرفات عشية عرفة وهو يقول :

« اللهم إن هذه عشية من عشايا محبتك ، وأحد أيام زلفتك ^(١) ، يأمل فيها من لجأ إليك من خلقك أن لا يُشرك بك شيئاً ، بكل لسان فيها يُدعى ، ولكل خير فيها يُرجى ، أتتك العصاة من البلد السحيق ^(٢) ، ودعتك العناة ^(٣) من شعب المضيق ، رجاء ما لا خلف له من وعدك ، ولا انقطاع له من جزيل عطائك ، أبدت لك وجوهها المصونة ، صابرة على وهج السائم ^(٤) ، وبرد الليالي ، ترجو بذلك رضوانك ، يا غفار ، يا مُستزاداً من نعمه ، ومُستعاضاً من نِقَمه ، ارحم صوت حزين دعاك بزفير وشهيق . »

ثم بسط كلتا يديه إلى السماء وقال : « اللهم إن كنت بسطت يدي إليك داعياً ، فطالما كَفَيْتَنِي ساهياً ، بنعمتك التي تظاهرت على عند الغفلة ، فلا أياس بها عند التوبة ، لا تقطع رجائي منك لما قدّمت من اقرار ^(٥) آثامك ، وإن كنت لا أصل إليك إلا بك ، فهب لي يا ربّ الصلاح في الولد ، والأمن في البلد ، والعافية في الجسد ، وعافني من شرّ الحسد ، ومن شرّ الدهر

النكد ^(٦) . (المقدم الفريد ٢ : ٧٧ ، والأمالى ٢ : ٣٢٣)

[١] الزلفة : القربة . [٢] البعيد . [٣] العناة جمع عان من عنا : أى دلّ وخضع ، وفي رواية الأمالى : « أتتك الضواصر من الفج العميق ، وجابت إليك المهارق من شعب المضيق » والضواصر الأبل الممزولة ، والمهارق جمع مهرق (بضم الميم وفتح الراء) : الصحراء اللساء .

[٤] السائم جمع سموم كصبور : وهى الريح الحارة تكون غالباً بالنهار ، وفي رواية الأمالى : « على لفع السائم ، وبرد ليل التمام » - وليل التمام (ككتاب) وليل تمامى : أطول ليل الشتاء - وفي رواية الأمالى : « نعمتك تظاهرها على عند الغفلة ، فكيف أياس منها عند الرجعة » - وأصل الغفل

(بالتحريك) : الرجوع من السفر ، ويطلق على الابتداء في السفر كما هنا تفاؤلاً بالرجوع - .

[٥] اقرار الذنب : آثامه وفضله .

[٦] يقال : رجل نكد ككثف وسبب وشمس وأنكد : شؤم عسر .

١٠١ - دعاء أعرابي

ودعا أعرابي فقال : « يَا عِمَادَ مَنْ لَا عِمَادَ لَهُ ، وَيَا رُكْنَ مَنْ لَا رُكْنَ لَهُ ،
وَيَا مُجْبِرَ الضَّعْفَى ^(١) ، وَيَا مُنْقِذَ الْهَلَاكِي ، وَيَا عَظِيمَ الرَّجَاءِ ، أَنْتَ الَّذِي سَبَّحَ لَكَ
سَوَادُ اللَّيْلِ ، وَيَبَاضُ النَّهَارُ ، وَضَوْءُ الْقَمَرِ ، وَشُعَاعُ الشَّمْسِ ، وَخَفِيفُ الشَّجَرِ ،
وَدَبْوَى الْمَاءِ ^(٢) ، يَا مُحْسِنَ ، يَا مُجْمِلَ ، يَا مُفْضِلَ ، لَا أَسْأَلُكَ الْخَيْرَ بِخَيْرِهِمْ عِنْدَكَ ،
وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ ، فَاجْعَلِ الْعَافِيَةَ لِي شِعَارًا وَدِدْنَارًا ^(٣) ، وَجَنَّةَ دُونَ كُلِّ بَلَاءٍ »

١٠٢ - دعاء أعرابي

وقال الأصمى : سمعت أعرابيا في فلاة من الأرض ، وهو يقول في دعائه :
« اللَّهُمَّ إِنْ اسْتَفْهَرْتُ إِيَّاكَ مَعَ كَثْرَةِ ذُنُوبِي لِلْوَيْمِ ، وَإِنْ تَرَكْتُ الْاسْتِغْفَارَ مَعَ
مَعْرِفَتِي بِسَعَةِ رَحْمَتِكَ لِعَجْزِ ، إِلَهِي كَمْ تَحَبَّبْتَ إِلَيَّ بِنِعْمَتِكَ ، وَأَنْتَ غَنِيٌّ عَنِّي ، وَكَمْ
أَتَبَغَّضْتُ إِلَيْكَ بِذُنُوبِي ، وَأَنَا فَقِيرٌ إِلَيْكَ ، سَبِّحَانَ مَنْ إِذَا تَوَعَّدَ عَفَا ، وَإِذَا وَعَدَ وَفَى »

١٠٣ - دعاء أعرابي

قال : وسمعت أعرابيا يقول في دعائه : « اللَّهُمَّ إِنْ ذُنُوبِي إِلَيْكَ لَا تَضُرُّكَ ،
وَإِنْ رَحْمَتُكَ إِيَّاي لَا تَنْقُصُكَ ، فَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَضُرُّكَ ، وَهَبْ لِي مَا لَا يَنْقُصُكَ » .

١٠٤ - دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابيا وهو يقول في دعائه : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَمَلِ
الْخَائِفِينَ ، وَخَوْفِ الْعَامِلِينَ ، حَتَّى أَتَنَعَّمَ بِتَرِكِ النِّعَمِ ^(٤) طَمَعًا فِيمَا وَعَدْتِ ،
وَخَوْفًا مِمَّا أَوْعَدْتِ ، اللَّهُمَّ أَعِذْنِي مِنْ سَطَوَاتِكَ ، وَأَجِرْنِي مِنْ نِقَمَاتِكَ ، سَبَقَتْ
لِي ذُنُوبٌ ، وَأَنْتَ تَغْفِرُ لِمَنْ يُحُوبُ ^(٥) ، إِلَيْكَ بِكَ أَتَوَسَّلُ ، وَمَنْكَ إِلَيْكَ أَفِرُّ » .

[١] الضعيف جمع ضعيف . [٢] المعنى : أن هذه الكائنات تدعو لتأمل فيها إلى تسبيحه جل شأنه

[٣] الشعار : ما يلبس على شعر الجسد ، والدنار : ما يلبس فوق الشعار ، والجنة : الوقاية .

[٤] أى فى الدنيا . [٥] حب محبوب : أتم .

١٠٥ - دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « اللهم إن قوما آمنوا بك بالسنتهم ، ليَحْقِنُوا دماءهم ، فأدركوا ما أمَلُوا ، وقد آمنَّا بك بقلوبنا ، لِتُجِيرَنَا مِنْ عَذَابِكَ ، فأدرك منا ما أمَلناهُ . »

١٠٦ - دعاء أعرابي

قال : ورأيت أعرابياً متعلقاً بأستار الكعبة ، رافعاً يديه إلى السماء ، وهو يقول : « ربِّ أترك معدَّبنا ، وتوحيدك في قلوبنا ؟ وما إخالك تفعل ! ولئن فعلت لتَجْمَعُنَا مع قوم طالما أبغضناهم لك . »

١٠٧ - دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابياً يقول في صلاته : « الحمد لله حمداً لا يبلى جديده ، ولا يُحْصَى عَدِيدُهُ (١) ، ولا يُبْلَغُ حَدُودُهُ ، اللهم اجعل الموت خيراً من منتظره ، واجعل القبر خيراً من نعمره ، واجعل ما بعده خيراً لنا منه ، اللهم إن عيني قد أغرَّ ورفقتا دموعاً من خشيتك ، فاغفر الزلة ، وَعُدِّ بِحَامِك ، على جهلٍ من لم يَرَجُ غيرك . »

١٠٨ - دعاء أعرابي

وقال : رأيت أعرابياً أخذ بحلقتي باب الكعبة وهو يقول : « ساؤلك عند بابك ، ذهبَت أيامه ، وبقيت آثامه ، وانقطعت شهوته ، وبقيت تباغته ، فارض عنه ، وإن لم ترض عنه فاعف عنه غير راض . »

١٠٩ - دعاء أعرابي

قال : ودعا أعرابي عند الكعبة فقال : « اللهم إنه لا شرف إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، فأعطني ما أستعين به على شرف الدنيا والآخرة . »

١١٠ - دعاء أعرابي

عن طاووس قال : « بينا أنا بمكة إذ دفت إلى الحجاج بن يوسف ، فتى لي وساداً جلست ، فيينا نحن نتحدث إذ سمعتُ صوت أعرابي في الوادي رافعاً صوته بالتلبية ، فقال الحجاج : على بالملسي ، فأتي به فقال : من الرجل ؟ قال : من أفتاء الناس ^(١) ، قال : ليس عن هذا سألتك ، قال : نعم سألتني ، قال : من أي البلدان أنت ؟ قال : من أهل اليمن ، قال له الحجاج : فكيف خلقت محمد ابن يوسف - يعني أخاه ، وكان حاملاً على اليمن - قال : خلقتُه عظيماً جسيماً ، خراً جاً ولأجاً ، قال : ليس عن هذا سألتك ، قال : نعم سألتني ، قال : كيف خلقت سيرته في الناس ؟ قال : خلقتُه ظلوماً غشوماً ^(٢) ، حاصياً للخالق ، مُطِيعاً للمخلوق ، فازور ^(٣) من ذلك الحجاج ، وقال : ما أقدمتك لهذا ، وقد تعلم مكاتبة مني ! فقال له الأعرابي : أقراه بمكانة منك أعز مني بمكاتبة من الله تبارك وتعالى ، وأنا وافدٌ بيته ، وقاضي دينه ، ومصدق نبيه صلى الله عليه وسلم ؟ فوجم ^(٤) لها الحجاج ، ولم يُجِر له جواباً ^(٥) ، حتى خرج الرجل بلا إذن .

قال طاووس : فتبعته حتى أتى الملتزم فتعلق بأستار الكعبة ، فقال : بك أعوذ ، وإليك الأوذ ، فاجعل لي في اللهم إلى جوارك ، والرضا بضمائك ، مندوحة ^(٦) ، عن منع الباخلين ، وغنى عما في أيدي المستأثرين ، اللهم عذِّ بفرجك القريب ، ومعروفك القديم ، ومادتك الحسنة .

قال طاووس : ثم اختفى في الناس ، فألقيته بعرفات قائماً على قدميه وهو

[١] يقال « مؤ من أفتاء الناس » إذا لم يعلم من هو ، واحده فتوكامل أو فنا كصا .

[٢] ظلوماً . [٣] ازور : اعرف ومال ، أي غضب منه . [٤] وجم : سكت على غيظ .

[٥] أي لم يردده . [٦] أي منسا .

يقول : « اللهم إن كنت لم تقبل حجتي ونصبي ^(١) وتعمي ، فلا تحرمني أجر المصاب على مصيبتيه ، فلا أعلم مصيبة أعظم ممن ورد حوضك ، وانصرف محروماً من وجه رغبتك » .

١١١ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً يطوف بالكعبة وهو يقول :

« إلهي عَجَّتْ ^(٢) إليك الأصواتُ ، بضروبٍ من اللغات ، يسألونك الحاجات ، وحاجتي إليك إلهي أن تذكرني على طول البكاء ، إذا نسيتني أهل الدنيا ، اللهم هب لي حَقك ، وأرض عني خالقك ، اللهم لا تُعَيِّنِي في طلب ما لم تقدِّره لي ، وما قدَّرته لي فيسره لي » .

١١٢ - دعاء أعرابي

قال : ودعت أعرابية لابن لها وجهته إلى حاجة فقالت : « كَانَ اللهُ صَاحِبَ كِ فِي أَمْرِكَ ، وَخَلِيفَتِكَ فِي أَهْلِكَ ، وَوَلِيَّ نَجْحِ طَلِبَتِكَ ^(٣) ، امضِ مُصَاحِبًا مَكْلُومًا ^(٤) ، لَا أَشَمْتُ اللهُ بِكَ عَدُوًّا ، وَلَا أَرَى مُجِيئِكَ فِيكَ سَوْءًا » .

(المقد الفريد ٢ : ٧٦ - ٧٩)

١١٣ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : خرجت أعرابية إلى منى فقَطَعُ بها الطريقُ فقالت :

« يارب : أعطيت وأخذت ، وأنعمت وسلبت ، وكلُّ ذلك منك عدل وفضل ، والذي عَظُمَ على الخلائق أمرُك ، لا بَسَطْتُ أساني بمسألة أحدٍ غيرك ، ولا بَدَلْتُ رغبتِي إلا إليك ، يَا قُرَّةَ أَعْيُنِ السَّائِلِينَ : اَغْنِنِي بِجُودِ مَنْكَ أَتَبْحِجُ ^(٥) فِي

[١] في الأصل « ونسي » وأراء محرِّفا عن « نصي » ، ويؤيده قوله بعد « وتعمي » .

[٢] عَجَّ يَمِجُّ بِكسْرِ الْعَيْنِ وَفَتْحِهَا : صَاحَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ .

[٣] النَجْحُ : النَجَاحُ ، وَالطَّلِبَةُ : مَا طَلَبْتَهُ . [٤] مِنْ كَلَاهُ كَنَهُهُ : حَرَسَهُ .

[٥] تَبْحِجُ : تَمَكَّنُ فِي الْقَامِ وَالْحُلُولِ ، وَتَبْحِجُ الدَّارُ : تَوْسَطُهَا ، وَالْفَرَادِيسُ جَمْعُ فَرْدُوسٍ :

وهو البستان .

قَرَادِيسِ نِعْمَتِهِ ، وَأَتَقَلَّبَ فِي رِوَاقِ نَضْرَتِهِ ^(١) ، اَتَحَمَّلَنِي مِنَ الرَّجْلَةِ ^(٢) ، وَأَغْنَيْتَنِي
مِنَ الْعَيْلَةِ ، وَاسْتَدِلَّ عَلَيَّ سِتْرَكَ الَّذِي لَا تَخْرِقُهُ الرِّيحُ ، وَلَا تُزِيلُهُ الرِّيحُ ، إِنَّكَ
صَمِيعُ الدُّعَاءِ » . (البيان والتبيين ٢ : ٧٨ ، والعقد الفريد ٣ : ١٣٨)

١١٤ - أدعية شتى

ومات ابن لأعرابي فقال : « اللهم إني وهبتُ له ما قَصَّرَ فيه من برِّي ،
فَهَبْ لِي ما قَصَّرَ فيه من طاعتك ، فإنك أجود وأكرم » .
(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٨)



ووقف أعرابي في بعض المواسم فقال : « اللهم إن لك عَلَيَّ حَقَّوًا فَتَصَدَّقْ
بِهَاعَلَيَّ ، وَلِلنَّاسِ تَبِعَاتٍ قَبْلِي فَتَحَمَّلْهَا عَنِّي ، وَقَدْ أَوْجِبْتَ لِكُلِّ ضَيْفٍ قَرِيًّا ^(٣) ،
وَأَنَا ضَيْفُكَ اللَّيْلَةَ ، فَاجْعَلْ قَرَايَ فِيهَا الْجَنَّةَ » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٨)



وقال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ :
« اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي خَيْرَ مَا عِنْدَكَ لِشَرِّ مَا عِنْدِي ، وَإِنْ لَمْ تَتَقَبَّلْ تَعْبِي وَنَصَبِي ،
فَلَا تَحْرِمْنِي أَجْرَ الْمُصَابِ عَلَى مَصِيبَتِهِ » . (زمر الآداب ٣ : ١٦٣)



وقال الأصمعي : سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ لِرَجُلٍ : « أَطْعَمَكَ اللَّهُ الَّذِي أَطْعَمْتَنِي
لَهُ ، فَقَدْ أَحْيَيْتَنِي بِقَتْلِ جُوعِي ، وَدَفَعْتَ عَنِّي سُوءَ ظَنِّي ، فَحَفِظَكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
جَنْبٍ ، وَفَرَّجَ عَنكَ كُلَّ كَرْبٍ ، وَغَفَرَ لَكَ كُلَّ ذَنْبٍ » (العقد الفريد ٢ : ٨٤)

[١] في الأصل « راووق » وهو المصفاة ، وأراء محرفاً عن « رواق » وهو المسطاط ، والنضرة :
النعمة والنفي . [٢] رجل كفرح فهو راجل ورجلان : إذا لم يكن له ظهر يركبه ، والرجلة بالفتح
ويكسر : شدة المشي ، والعيلة : الفقر .

[٣] قرى الضيف كرمي ، قرى : أحسن إليه ، والقرى أيضا : ما قرى به الضيف .

عن الأصمعي قال : رأيت أعرابيا يصلي وهو يقول : « أسألك الغفيرة ^(١) ،
والناقة الغزيرة ، والشرف في العشيرة ، فإنها عليك يسيرة » . (الأمل ٢ : ٢٣)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابيا يدعو لرجل فقال : « جَنَّبِكَ
الله الأمرين ^(٢) ، وكفأك شرَّ الأجوافين ^(٣) ، وأذأك البردين ^(٤) » .
(الأمل ٢ : ٧٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٧)

ودعا أعرابي فقال : « اللهم إني أسألك البقاء ، والنماء ، وطيب الإتياء ^(٥) ،
وَحَطَّ الأعداء ، ورفع الأولياء » . (البيان والتبيين ١ : ١٦٣)

وقال أعرابي : « اللهم لا تُنزلني ماء سَوء ، فأكون امرأ سَوء » وقال
أعرابي : « اللهم قيني عَمَّراتِ الكرام » . (البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

وهب رجل لأعرابي شيئا فقال : « جعل الله للمعروف إليك سبيلا ،
وللخير عليك دليلا ، وجعل عندك رِفدا ^(٦) جَزِيلا ، وأبقاك بقاء طويلا ،
وأبلاك ^(٧) بلاء جميلا » .

وقال الأصمعي : سمعت أعرابيا يدعو وهو يقول : « اللهم ارزقني مالا
أَكْبِت ^(٨) به الأعداء ، وَبْنين أصول بهم على الأقوياء » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

[١] الغفيرة : المغفرة . [٢] الأسمان : الفقر والهرم ، أو الجوع والعري . [٣] الأ-وفان :
البطن والفرج . [٤] البردان : برد العين وبرد العافية . [٥] الإتياء : الرزق ، من أنت الشجرة
أتوا وإتياء : طلع ثمرها ، أو بدأ صلاحها ، أو كثرت حملها . [٦] الرِفد : انعطاف والصلح .
[٧] الإِبلاء : الإيتمام والإحسان ، أبليت عنده بلاء حسنا ، وأبلاه الله بلاء حسنا .
[٨] أكبته : صرعه وأدله ، ورد العدو بغيظه .

❖
ودعت أعرابية على رجل فقالت : « أمكن الله منك عدوا حسودا ،
وَجَمْعُ بكَ صَدِيقًا وَذُودًا ، وَسَلَطَ عَلَيْكَ مَهْمَا يُضْنِيكَ ، وَجَارًا يُؤْذِيكَ » .
(العقد الفريد ٢ : ٩١)

❖
ودعا أعرابي فقال : « أعوذ بك من الفَوَاقِرِ ^(١) والبواقِر ، ومن جارِ السوء ،
في دارِ المَقَامَةِ وَالظَّمَنِ ، وَمَا يَنْكُسُ رَأْسَ المرءِ ، وَيُغْرِي بِهِ لثَامَ الناسِ » .
❖
وقال أعرابي : « أعوذ بك من سَقَمٍ ، وعداوة ذِي رَحِمٍ وَدَعْوَاهِ ، ومن
فاجِرٍ وَجَدَّوَاهِ ^(٢) ، وعمل لا ترضاه » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٣٦)

❖
ودعت أعرابية لرجل فقالت : « كَبَتَ اللهُ كُلَّ عَدُوْلِكَ إِلَّا نَفْسَكَ » .
ودعا أعرابي فقال : « اللهم هب لي حَقَّكَ ، وأرض عني خَلْقَكَ » .
وقال أعرابي : « اللهم إنك أمرتنا أن نَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمْنَا ، وقد ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا
فَاعْفُ عَنَا » .
(البيان والتبيين ٣ : ١٣٧)

❖
وقال أعرابي : « منحك الله مِئْحةً لِبِستِ بِجَدَّاءِ ، ولا نَكَدَاءِ ، ولا
ذاتِ دَاءِ » .

وقال أعرابي : « اللهم إنك حَبَسْتَ عَنَا قَطَرَ السَّمَاءِ ، فَذَابَ الشَّحْمُ ،
وَذَهَبَ اللَّحْمُ ، وَرَقَّ العَظْمُ ، فَارْحَمِ أُنِينَ الآئَةِ ، وَحَنِينَ الحَانَةِ ، اللهم ارحم
تَحِيرَهَا فِي مَرَاتِعِهَا ، وَأُنْدِنَهَا فِي مَرَابِضِهَا » .

[١] الفواقِر جمع فاقرة : وهي الداهية ، والبواقِر جمع باقرة : وهي الفتنة الصاعدة للألفة الشاقة للمصا .

[٢] الجدوى : العطية .

وحجج أعرابي فقال : « اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرججه ، وإن كان نائياً فقرّبه ، وإن كان قريباً فيسّره » .
(البيان والتبيين ٣ : ١٣٨)

ومات ولد لرجل من الأعراب فصلى عليه ، فقال : « اللهم إن كنت تعلم أنه كريم الجدّين ، سهّل الخدين ، فاغفر له وإلا فلا » . (الأمل ١ : ٢٠٢)

وقالت أعرابية لرجل : « رماك الله بليلة لاأخت لها » أى لا تعيش بعدها . (الأمل ١ : ٢١٧)

ودعا أعرابي فقال : « اللهم إني أعوذ بك أن أفترق في غناك ، أو أضلّ في هداك ، أو أذلّ في عزك ، أو أضامّ في سلطانك ، أو أضطهدّ والأمر إليك » . (زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

وقال الأصمعي : سمعت أعرابية تقول : « اللهم ارزقني عمّل الخائفين ، وخوف العاملين ، حتى أنعم بترك التنعم ، رجاء لما وعدت ، وخوفاً مما أوعدت » .
وقال آخر : « اللهم من أراد بنا سوءاً فأحطه به كإحاطة القلائد ، بأعناق الولائد ^(١) ، وأرسخه على هامته كرسوخ السجّيل ^(٢) ، على هام أصحاب الفيل » .
(زهر الآداب ٣ : ٣٤٦)

[١] الولائد جمع وليدة : وهي الصبية . [٢] السجّيل : طين مطبوخ ، يشير إلى قوله تعالى : « وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ » وأبابل أى جماعات .

١١٥ - نوادر وملح لبعض الأعراب

غزا أعرابي مع النبي صلى الله عليه وسلم فقتل له : ما رأيت مع رسول الله في غزاتك هذه ؟ قال : وَضَعْنَا نِصْفَ الصَّلَاةِ (١) ، وأرجو في الغزاة الأخرى أن يضع النصف الباقي .

وَدَخَلَ أَعْرَابِي الْمَسْجِدَ ، وَالنَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا ، فَقَامَ يَصَلِّي ، فَلَمَّا قَرَعَهُ ، قَالَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمَحَمَّدًا ، وَلَا تَرْحَمَ مَعَنَا أَحَدًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : لَقَدْ تَحَجَّرَتْ (٢) وَاسِعًا يَا أَعْرَابِي .

وَخَرَجَ الْحِجَابُ مَتَصِيدًا بِالْمَدِينَةِ ، فَوَقَفَ عَلَى أَعْرَابِي يَرْعَى إِبْلَاءَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَعْرَابِي ، كَيْفَ رَأَيْتَ سِيرَةَ أَمِيرِكُمُ الْحِجَابِ ؟ قَالَ لَهُ الْأَعْرَابِي : غَشُومٌ ظَلُومٌ ، لَا حَيَاءَ لَهُ ، فَقَالَ : فَلِمَ لَا تَشْكُوهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ ؟ قَالَ : فَأُظْلِمُ وَأُغْشَمُ ! فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَحَاطَتْ بِهِ الْخَيْلُ ، فَأَوْمَأَ الْحِجَابُ إِلَى الْأَعْرَابِي ، فَأَخَذَ وَجْهَهُ ، فَلَمَّا صَارَمَهُ ، قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا لَهُ : الْحِجَابُ ، فَحَرَّكَ دَابَّتَهُ حَتَّى صَارَ بِالْقَرْبِ مِنْهُ ، ثُمَّ نَادَاهُ يَا حِجَابُ ، قَالَ : مَا تَشَاءُ يَا أَعْرَابِي ؟ قَالَ : السِّرُّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَكْتُومًا ، فَضَحِكَ الْحِجَابُ ، وَأَمَرَ بِتَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ .

وَخَرَجَ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَاحُ مَتَنَزِّهًا بِالْأَنْبَارِ ، فَأَمِينٌ فِي نَزْهَتِهِ ، وَانْتَبَذَ مِنْ

[١] يسي صلاة القصر . [٢] أي ضيقك ما وسعه الله وخصمت به نفسك دون غيرك .

أصحابه ، فوافى خبياء لأعرابي ، فقال له الأعرابي : ممن الرجل ؟ قال : من كِنانة ، قال : من أى كِنانة ؟ قال : من أبغض كِنانة إلى كِنانة ، قال : فأنت إذن من قريش ؟ قال : نعم ، قال : فمن أى قريش ؟ قال : من أبغض قريش إلى قريش ، قال : فأنت إذن من ولد عبد المطلب ؟ قال : نعم ، قال : فمن أى ولد عبد المطلب ؟ قال : من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب ، قال : فأنت إذن أمير المؤمنين ، السلام عليك يا أمير المؤمنين ، ووثب إليه ، فاستحسن ما رأى منه ، وأمر له بجائزة .

وولى يوسف بن عمر الثقة فى صاحب العراق أعرابياً على عمل له ، فأصاب عليه خيانة فعزله ، فلما قدم عليه ، قال له : يا عِدوّ الله ، أكلت مال الله ، قال الأعرابي : فقال مَنْ آكلُ إذا لم آكلُ مالَ الله ؟ لقد راوَدتُ إبليس أن يُعطينى فلساً واحداً فما فعل ، فضحك منه وخرلى سبيله .

وأخذ الحجاج أعرابياً لصاً بالمدينة فأمر بضربه ، فلما قرعه بسوط قال : يارب شُكراً ، حتى ضربه سبعمائة سوط ، فلقية أشعب ، فقال له : تَدْرِى لِمَ ضربك الحجاج سبعمائة سوط ؟ قال : لماذا ؟ قال : لكثرة شكرك ، إن الله تعالى يقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ، قال : وهذا فى القرآن ؟ قال : نعم ، فقال الأعرابي :

يا رب لا شكراً فلا تزدني أسأتُ فى شكرى فاعفُ عنى

، باعدِ ثوابَ الشاكرين منى

✽

ونزل عبد الله بن جعفر إلى خيمة أعرابية ولها دجاجة ، وقد دجنت (١) عندها ، فذبحتها وجاءت بها إليه ، فقالت يا أبا جعفر : هذه دجاجة لي كنت أذجنها وأعلفها من قوتي ، وألمسها في آناه الليل ، فكأنما ألمس بنتي زلت عن كبدى ، فنذرتُ لله أن أدفنها في أكرم بقعة تكون ، فلم أجد تلك البقعة المباركة إلا بطنك ، فأردت أن أدفنها فيه ، فضحك عبد الله بن جعفر ، وأمر لها بخمسة درم .

✽

وسُمِعَ أعرابي وهو يقول في الطواف : « اللهم اغفر لأمى » ، فقيل له : مالك لا تذكر أباك ؟ قال : أبى رجل يحتال لنفسه ، وأما أمى فبائسة ضعيفة .

✽

وقال أبو زيد : رأيت أعرابياً كأن أنفه كوز ، من عظمه ، فرآنا نضحك منه ، فقال : ما يضحككم ؟ فوالله لقد كنت في قوم ، ما كنت فيهم إلا أفطساً .

✽

وجيء بأعراب إلى السلطان ومعه كتاب قد كتب فيه قصته ، وهو يقول : « هاؤم أقرءوا كتابية » ، فقيل له يقال هذا يوم القيامة ، قال : « هذا والله شر من يوم القيامة ، إن يوم القيامة يؤتى بحسنات وسيئاتي ، وأتم جثم بسيئاتي وتركتم حسناتي » .

✽

واشترى أعرابي غلاماً فقيل للبائع : هل فيه من عيب ؟ قال : لا ، إلا أنه

[١] دجن الحمام والشاة وغيرهما كنصر : ألفت البيوت .

يبول في الفراش ، قال : هذا ليس بعيب ، إن وجد فراشاً فَلْيَبِلْ فيه »

ومرّ أعرابي بقوم وهو ينشد ابناً له ، فقالوا له : صِفْهُ ، قال : كأنه دُنَيْنِيرٌ ، قالوا : لم نره ، ثم لم يلبث القوم أن أقبل الأعرابي ، وعلى عنقه جُعل (١) ، فقالوا : هذا الذي قلت فيه دُنَيْنِيرٌ ؟ قال : « الْقَرَئِي (٢) في عين أمها حسناء » .

وقيل لأعرابي : ما يمنعك أن تغزو ؟ قال : والله إني لأُبِضُ الموت على فراشي ، فكيف أن أمضى إليه رَكُضًا ؟ .

وخرج أعرابي إلى الحج مع أصحاب له ، فلما كان ببعض الطريق راجعاً يريد أهله ، لقيه ابن عمّ له ، فسأله عن أهله ومنزله ، فقال : اعلم أنك لما خرجت ، وكانت لك ثلاثة أيام ، وقع في بيتك الحريق ، فرفع الأعرابي يديه إلى السماء ، وقال : ما أحسنَ هذا يارب ! تأمرنا بعمارة بيتك أنت ، وتخرّب بيوتنا ! .

وخرجت أعرابية إلى الحج ، فلما كانت في بعض الطريق عطّبت راحتها ، فرفعت يديها إلى السماء ، وقالت : « ياربّ أخرجتنى من بيتي إلى بيتك ، فلا بيتي ولا بيتك ! » .

وعرّضت السجون بعد هلاك الحجاج ، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً ، لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب ، وفيهم أعرابي ، أخذ يبول في أصل مدينة واسط ، فكان فيمن أطلق ، فأنشأ يقول :

[١] الجمل : الحرباء .

[٢] القرني : دويبة من خشاش الأرض فوق الحنفاء إذا مسها أحد تقبضت فصارت مثل الكرة

إذا ما خرجنا من مدينة واسطٍ خَرِينَا وَبُلْنَا لَا نَخَافُ عِقَابَا

ونظر أعرابي إلى قوم يلتمسون هلال شهر رمضان فقال : « والله لئن آثرتموه لَتُمْسِكُنَّ مِنْهُ بِذُنَابِي »^(١) عيش أغبر .

ونظر أعرابي إلى رجل سمين فقال : « أرى عليك قَطِيفَةً مِنْ نَسِجِ أُضْرَاسِكِ » .

وقال أعرابي : « اللهم إني أسألك مِيتَةً كَمِيتَةِ أَبِي خَارِجَةَ ، أَكَلْتُ بِدَجًا^(٢) ، وَشَرِبْتُ مِشْعَلًا^(٣) ، وَنَامْتُ فِي الشَّمْسِ ، فَاتَّ دَقَانَ شَبْعَانَ وَرِيَانَ » .

وقيل لأبي المِخْشِ الأعرابي : أَيْسُرُكَ أَنْتَ خَلِيفَةٌ ، وَأَنْ أُمَّتَكَ حُرَّةٌ ؟ قال : لا والله ما يسرني ، قيل له : ولم ؟ قال : « لأنها كانت تذهب الأمة ، وتضيع الأمة » .

وحضر أعرابي سُفْرَةَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَجَعَلَ يَمْرُؤًا إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الْحَاجِبُ : مِمَّا يَلِيكَ فَكُلْ يَا أَعْرَابِي ، فَقَالَ : مَنْ أَجْدَبُ اتَّجَعُ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى سُلَيْمَانَ ، وَقَالَ لِلْحَاجِبِ : إِذَا خَرَجَ عَنَا فَلَا يَعْذُ إِلَيْنَا .

وشهد بعد هذا سُفْرَتَهُ أَعْرَابِي آخَرَ ، فَمَرَّ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ أَيْضًا ، فَقَالَ لَهُ الْحَاجِبُ : مِمَّا يَلِيكَ فَكُلْ يَا أَعْرَابِي ، قَالَ : مَنْ أَخْصَبُ تَخَيَّرْ ، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ ، فَقَرَّبَهُ وَأَكْرَمَهُ وَقَضَى حَوَائِجَهُ .

[١] الذنابي : التنب . [٢] البذج : ولد الضأن .

[٣] المشعل : هيء من جلود له أربع قوائم ينبذ فيه ، وحرب مشعلا أي حرب ما فيه .

وحضر أعرابي سفرة سليمان بن عبد الملك ، فلما أتى بالفألوذج ، جعل يُسرع فيه ، فقال سليمان : أتدرى ما تأكل يا أعرابي ؟ فقال : بلى يا أمير المؤمنين إني لأجد ريقاً هنيئاً ، وَمُزْدَرَدًا^(١) لِينًا ، وأظنه الصراط المستقيم الذى ذكره الله فى كتابه ، فضحك سليمان وقال : أزيدك منه يا أعرابي ؟ فإنهم يذكرون أنه يزيد فى الدِّماغ ، قال : كَذَّبوك يا أمير المؤمنين ، لو كان كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل ! .



وحضر سفرة سليمان أعرابي ، فنظر إلى شعرة فى لقمة الأعرابي ، فقال : أرى شعرة فى لقمته يا أعرابي ، قال : وإنك لتراعينى مُرَاعاةً من يُبْصِرِ الشعرة فى لقمته ! وَاللَّهِ لاَ وَاكَلْتِكَ أَبَدًا ، فقال : استرها يا أعرابي ، فإنها زلة ، ولا أعود لمثلها .



وقال الأصمعى : قلت لأعرابي : أَتَهْمِرُ^(٢) إسرائيل ؟ قال : إني إذن لرجل سوء ، قلت له : أَفْتَجِرُ فِلَسْطِينَ ؟ قال : إني إذا لَقَوِي .



وسمع أعرابي إماماً يقرأ : « وَلا تُنْكِحُوا^(٣) الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا » - قرأها بفتح التاء - فقال : ولا إن آمنوا أيضاً لم نَنكحهم ، فقليل له إنه يلحن وليس هكذا يُقرأ ، فقال : « أَخْرُوه قَبْحَهُ اللهُ ! لا تجعلوه إماماً ، فإنه يُحِلِّ ما حرّم الله » . (المعقد الفريد ٢ : ١٠٠ - ١٠٥)

وخطب أعرابي فلما أعجبه بعضُ الأمر عن التصدير بالتحميد ، والاستفتاح بالتمجيد ، قال : « أما بعد ، بغير مَلالٍ لذكر الله ، ولا إيثارٍ غيره عليه ، فإننا نقول كذا ، ونسأل كذا » فراراً من أن تكون خطبته بترأء وشوْهاً (١) .
(البيان والتبيين ٢ : ٢ ، ١ ، ٢ : ٢١٥)

ودفعوا إلى أعرابيةٍ عِلْكَاً (٢) لِمُضْغِهِ ، فلم تفعل ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : « ما فيه إلا تَعَبُ الأضراسِ وخَيْبَةُ الحَنْجَرَةِ » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

وقيل لأعرابي : عند مَنْ تحب أن يكون طعامك ؟ قال : « عند أم صبي راضع ، أو ابن سبيل شاسع ، أو كبير جائع ، أو ذى رحم قاطع » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٩)

وقال أعرابي :

« لولا ثلاث هُنَّ عيشُ الدهرِ الماء ، والنوم ، وأم تمهرو ،
لما خَشِيتُ من مَضِيقِ القبرِ » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٠١)

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ سورة براءة فقال : « ينبغي أن يكون هذا آخر القرآن » ، قيل له : ولم ؟ قال : « رأيت عهداً تُنْبَذُ » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٦٩)

[١] وكانوا يسمون الخطبة التي لم يتدعى صاحبها بالتحميد ، ويستفتح كلامه بالتمجيد « البترأء » ويسمون

التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة تلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « الشوهاة » .

[٢] الملك : اللبان (بالضم) .



وسمع أعرابي رجلا يقرأ : « وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُوسٍ ، تَجْرِي
بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرًا^(١) » ، قالها بفتح الكاف ، فقال الأعرابي :
« لا يكون » ، فقرأها عليه بضم الكاف وكسر الفاء ، فقال الأعرابي : « يكون »
(البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)



[١] ذات الألواح والدر : مع السفينة ، والدر ما تشدّ به الألواح من المسامير وغيرها جمع دسار
ككتاب ، بأعيننا : برأى منا أي محفوظة ، وقد قرئ " كفر بالبناء للفاعل ، أي للكافرين ، أفرقوا

الباب الرابع

في

خطب النكاح

١ - خطبة قريش في الجاهلية

روى الجاحظ قال :

كانت خُطبة قريش في الجاهلية - يعني خُطبة النساء :

« باسمك اللهم ، ذُكِرَتْ " فلانة ، وفلانٌ بها مشغوفٌ ، باسمك اللهم ،

لك ما سألتَ ولنا ما أعطيتَ » .

٢ - خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في زواج السيدة فاطمة

« الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المرهوب من عذابه ، المرغوب

فيما عنده ، النافذ أمره في سمائه وأرضه ، الذي خلق الخلق بقدرته ، وميزم

بأحكامه ، وأعزّم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد ، صلى الله عليه ، ثم إن الله تعالى

[١] ذكر فلان فلانة ذكرا (بفتح فسكون) : خطبها أو تعرض لخطبتها .

جعل المصاهرة نَسَبًا لَاحِقًا ، وأمرًا مُفْتَرَضًا ، وَوَشَّحَ ^(١) به الأرحام ، وألزمه الأنام ، قال تبارك اسمه ، وتعالى ذكره : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا » ، فأمر الله يجرى إلى قضائه ، ولكل قضاءٍ قَدَرٌ ، ولكل قَدَرٍ أَجَلٌ « يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » . ثم إن ربي أمرني أن أزوجه فاطمة من علي بن أبي طالب ، وقد زوجتها إياه على أربعمئة مثقال فضة ، إن رضى بذلك علي .

٣ - خطبة الإمام علي كرم الله وجهه

وخطب الإمام علي كرم الله وجهه حين تزوج بالسيدة فاطمة رضى الله عنها فقال :

« الحمد لله الذي قرَّبَ من حامديه ، ودنا من سائليه ، ووعد بالجنة من يتَّقيه ، وقَطَعَ بالنار عدد من يعصيه ، أحمده بجميع محامده وأياديه ، وأشكره شكرَ مَنْ يعلم أنه خالقه وباريه ، ومصوره ومُنشيه ، وممته ومُحْيِيه ، ومقرِّبه ومنجيه ، ومُثَبِّهٌ ومجازيه ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله صلاة تُزلفه وتُدنيه ، وتمزّه وتُعلميه ، وتشرِّفه وتجتديه .

أما بعد : فإن اجتماعنا مما قدَّره الله تعالى ورضيه ، والنكاح ما أمر الله به وأذن فيه ، وهذا محمد صلى الله عليه وسلم قد زوجني فاطمة ابنته على صداق أربعمئة درهم وثمانين درهماً ، ورضيت به فأسألوه ، وكفى بالله شهيداً .

[١] وشجت العروق والأغصان كوعد : اشتبكت والتفت وتداخلك ، ورحم واشجة ووشيجة : لشبكة متصلة ، وقد وشجها الله توشيجاً ، وفي الأصل : « وشبح به الأرحام » وأراء محرِّفاً .

٤ - خطبة عتبة بن أبي سفيان

خطب عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان إلى عتبة بن أبي سفيان ابنته ، فأقعدته على نخذه ، وكان حديثاً فقال :

« أقرب قُريبٍ ، خَطَبَ أَحَبَّ حبيبٍ ، لا أستطيع له رَدًّا ، ولا أجد من إسعافه بُدًّا ، قد زوَّجْتُكها وأنت أعزُّ عليَّ منها ، وهي ألصقُ بقلبي منك ، فأكرِّمها يعذبُ عليَّ لسانِي ذِكْرُك ، ولا تُهِنِّها فيصغُرَ عندي قَدْرُك ، وقد قرَّبتك مع قُربك ، فلا تُبَعِدْ قلبي من قلبك » .

٥ - خطبة شبيب بن شيبه

وقال العُتبيّ : زوَّجَ شبيب بن شيبه ابنه بنتَ سِوَارٍ^(١) القاضى ، فقلنا : اليوم يعبُّ عبَّابه^(٢) ، فلما اجتمعوا تكلم فقال :

« الحمد لله ، وصلى الله على رسول الله ، أما بعد : فإن المعرفة منا ومنكم ، بنا وبكم^(٣) ، تمنعنا من الإكثار ، وإن فلاناً ذكّر فلانة » .

٦ - خطبة الحسن البصرى

وكان الحسن البصرى يقول فى خطبة النكاح ، بعد الحمد لله والثناء عليه :

« أما بعد ، فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحامَ المنقطعة ، والأنسابَ المتفرقة ، وجعل ذلك فى سنة من دينه ، ومنهاج واضح من أمره ، وقد خطب إليكم فلان ، وعليه من الله نعمةٌ ، وهو يبذل من الصّدّاق كذا ، فاستخيروا الله ، ورُدُّوا خيراً ، يرحمكم الله » .

[١] هو سوار بن عبد الله من قضاة البصرة وخطبائها - انظر البيان واللتبيين ١ : ١٦١ - وقرأ فى أمالى السيد المرتضى ٤ : ٢٢ حديثاً غريباً للجاحظ عنه فى وقاره وضبطه من نفسه وملاكه من حركته - [٢] لأنّ والذى العروسين خطبان . [٣] أى المعرفة منا بكم ، والمعرفة منكم بنا .

٧ - خطبة ابن الفقير

وقال العتبي : حضرت ابن الفقير خطب على نفسه امرأة من باهلة فقال :
« وما حسنٌ أن يمدح المرء نفسه : ولكن أخلاقاً تدمُّ وتمدح
إن فلانة ذُكرت لي » .

٨ - خطبة عمر بن عبد العزيز

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز :
« قد زوجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة » ، قال : « جزاك الله يا أمير المؤمنين
خيراً ، فقد أجزلت العطية ، وكفيت المسألة » .

٩ - خطبة أخرى له

وحدث محمد بن عبيد الله القرشي عن أبي المقدم قال :
كانت قريش تستحسن من الخاطب الإطالة ، ومن المخطوب إليه التقصير^(١) ،
فشهدت محمد بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان خطب إلى عمر بن عبد العزيز
أخته أم عمر بنت عبد العزيز ، فتكلم محمد بن الوليد بكلام جاز الحفظ ، فقال عمر :
« الحمد لله ذي الكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد : فإن
الرغبة منك دعوتك إلينا ، والرغبة فيك أجابتك منا ، وقد أحسن بك ظناً من
أودعك كرميته ، واختارك ولم يختتر عليك ، وقد زوجتكها على كتاب الله :
إمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان » .

[١] وكذلك روى الجاحظ في البيان والتبيين (١ : ٦٤) قال : « والسنة في خطبة للنكاح أن يطيل
لخاطب ، ويقصر الجيب » والمصري في زهر الآداب (٢ : ٣١) قال الأصمعي : « كانوا يستحبون من
لخاطب إلى الرجل حرمة الإطالة ، لتدل على الرغبة ، ومن المخطوب إليه الإيجاز ليدل على الإجابة » .

١٠ - خطبة بلال

وخطب بلال إلى قوم من خثعم لنفسه ولأخيه ، فحَمِدَ الله وأثنى عليه ،
ثم قال :

« أنا بلال وهذا أخى ، كنا ضالين فهدانا الله ، عبدين فأعتقنا الله ،
فقيرين فأغنانا الله ، فإن تزوجونا فالحمد لله ، وإن تردونا فالمستعانُ اللهُ » .

١١ - خطبة خالد بن صفوان

وزوج خالد بن صفوان مولاة من أمته ، فقال له العبد : لو دعوت الناس
وخطبت ! قال : أذعهم أنت ، فدعاهم العبد ، فلما اجتمعوا ، تكلم خالد بن
صفوان ، فقال :

« أما بعد : فإن الله أعظم وأجل من أن يُذكَر في نكاح هذين الكليين ،
وأنا أشهدكم أنى زوجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية » .

١٢ - خطبة أعرابي

وخطب الفضل الرقاشي إلى قوم من بني تميم فخطب لنفسه ، فلما فرغ قام
أعرابي منهم فقال :

« تَوَسَّلْتَ بِحُرْمَةٍ ، وَأَوْلَيْتَ بِحَقٍّ ، وَاسْتَنْدَتَ إِلَى خَيْرٍ ، وَدَعَوْتَ إِلَى سُئَةٍ ،
فَقَرَّضْتُكَ مَقْبُولٌ ، وَمَا سَأَلْتَ مَبْذُولٌ ، وَحَاجَّتْكَ مَقْضِيَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى » .

قال الفضل : لو كان الأعرابي حمد الله في أوَّل كلامه ، وصلى على النبي صلى الله

عليه وسلم لفضحني يومئذ .

١٣ - خطبة المأمون

وقال يحيى بن أكثم: أراد المأمون أن يزوج ابنته من علي بن موسى الرضا ، فقال : يا يحيى تكلم ، فأجلتته أن أقول : « أنكحت » ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت الحاكم الأكبر ، والإمام الأعظم ، وأنت أوّلَى بالكلام ، فقال : « الحمد لله الذي تصاغرت الأمور بمشيئته ، ولا إله إلا هو إقراراً بربوبيته ، وصلى الله على محمد عند ذكره ، أما بعد : فإن الله قد جعل النكاح ديناً ، ورضيه حكماً ، وأنزله وحيّاً ، ليكون سبب المناسبة ، ألا وإني قد زوجت ابنة المأمون من علي بن موسى ، وأمهرتها أربعمائة درهم ، اقتداءً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهاءً إلى ما درج إليه السلف ، والحمد لله رب العالمين » .



وخطب رجل إلى قوم ، فأتى بمن يخطب له ، فاستفتح بحمد الله ، وأطال ، وصلى على النبي عليه الصلاة والسلام ، وأطال ، ثم ذكر البدء وخلق السموات والأرض ، واقتصر ذكر القرون ، حتى ضجر من حضر ، والتفت إلى الخاطب ، فقال : ما أسمك أعزك الله ؟ فقال : والله قد أنسيتُ اسمي من طول خطبتك ، وهي طالقٌ إن تزوجتها بهذه الخطبة ، فضحك القوم ، وعقدوا في مجلس آخر .

(مفتاح الأفكار ص ٦٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١٢٠ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦٣ ،

وسيرة عمر بن عبدالعزيز لابن الجوزي ص ٢٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٥ ، ٢١٧ -

٢ : ٥٠ : ١٣٠ - ٣ : ٢٢١ ، وزهر الآداب ٢ : ٣٠ ، ٣١)

الباب الخامس

في

خطب من أرتج عليهم

ونوادر طريفة لبعض الخطباء

روى الجاحظ قال : صعدَ عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه المنبر ، فأرتج

عليه ، فقال :

« إن أبا بكر وعمر كانا يُعِدّان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل ، أحوجُّ

منكم إلى إمام خطيب » .

❦

وروى ابن عبد ربه قال : أول خطبة خطبها عثمان بن عفان أرتج عليه ، فقال :

« أيها الناس : إن أوّل كل مرّكبي صعب ، وإن أعشّن تأتكم الخطبُ على

وجهها ، وسيجعل الله بعد عُسري يسرا إن شاء الله » .

❦

ولما قدّم يزيد بن أبي سُفيان الشام واليا عليها لأبي بكر ، خطب الناس فأرتج

عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فعاد إلى الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فقال :

« يَا أَهْلَ الشَّامِ ، عسى الله أن يجعل من بعد عُسْرٍ يُسْرًا ، ومن بَعْدِ عِيٍّ يَانًا ، وأنتم إلى إمامٍ فاعل (١) ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٍ (٢) » ، ثم نزل ، فبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه .



وكان يزيد بن المهلب ولى ثابتَ قُطْنَةَ (٣) بعض قرى خُرَاسَانَ (٤) ، فلما صَعِدَ المنبر يوم الجمعة ، قال : الحمد لله ، ثم أرتج عليه ، فنزل وهو يقول :

فَالَا أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيْبًا فَإِنِّي بسيفي إِذَا جَدَّ الْوَعْيَ لَخَطِيْبُ

فَقِيلَ لَهُ : « لَوْ قَتَمَهَا فَوْقَ الْمَنْبَرِ ، لَكُنْتَ أَخْطَبَ النَّاسِ » .



وخطب معاوية بن أبي سفيان لما ولى ، فَخَصِرَ فَقَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي كُنْتُ أَعَدَدْتُ مَقَالًا أَقُومُ بِهِ فِيكُمْ ، فَخُجِبْتُ عَنْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَحْوُلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، كَمَا قَالَ فِي كِتَابِهِ (٥) ، وَأَنْتُمْ إِلَى إِمَامٍ عَدَلٍ ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ خَطِيْبٍ ، وَإِنِّي أَمْرُكُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، وَأَنْهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلكُمْ » .

[١] في عيون الأخبار : « إمام عادل » . [٢] وفي أمالي السيد المرتضى أن هذا القول يروى لعثمان بن عفان ، وفي روايتها : « إمام فمّال » و « إمام قوآل » بصيغة المبالغة ، وفي الأغانى أنه يروى لثابت قطننة ، وفيه : « أمير ممال » و « أمير قوآل » .

[٣] هو ثابت بن كعب ، ولقب قطننة لأن سهماً أصابه في إحدى عينيه ، فذهب بها في بعض حروب الترك ، فكان يحمل عليها قطننة ، وهو شاعر فارس شجاع من شعراء الدولة الأموية ، وكان في صحابة يزيد بن المهلب ، وكان يوليه أعمالاً من أعمال الثغور ، فيحمد فيها مكانه لكفايته وشجاعته ، وقد مال إلى قول المرجئة ، وله قصيدة في الإرجاء ، انظر ترجمته في الأغانى ج ١٣ ص ٤٧ .

[٤] وفي رواية : أنه خطب على منبر سجستان ، وفي رواية الطبرى : « نخطب الناس فخصر فقال : من يطع الله ورسوله فقد ضل » وأرتج عليه فلم ينطق بكلمة ، فلما نزل عن المنبر قال البيت المذكور .

[٥] الآية الكريمة : « وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْوُلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ » .

##

وَصَعِدَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ يَوْمًا الْمَنْبِرَ بِالْبَصْرَةِ لِيَخْطُبَ فَارْتَجَحَ عَلَيْهِ ،
فَقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ : أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّ هَذَا الْكَلَامَ يَجِيءُ أَحْيَانًا ، وَيَعَزُّبُ أَحْيَانًا ،
فَيَسِيحُ عِنْدَ مَجِيئِهِ سَيْبُهُ ^(١) ، وَيَعَزُّ عِنْدَ عَزْوِهِ طَلَبُهُ ، وَلَرَبَّمَا كُوبِرَ فَأَبَى ^(٢) ،
وَعَوَّلَجَ فَنَأَى ، فَالْتَأَى ^(٣) لِمَجِيئِهِ ، خَيْرٌ مِنَ التَّمَاعِطِ لِأَيِّهِ ، وَتَرَكَهُ عِنْدَ تَنْكُرِهِ ،
أَفْضَلَ مِنْ طَلَبِهِ عِنْدَ تَعَذُّرِهِ ، وَقَدْ يَخْتَلِجُ ^(٤) مِنَ الْجَرِيءِ جَنَانُهُ ، وَيَنْقَطِعُ مِنَ
الذَّرْبِ ^(٥) لِسَانُهُ ، فَلَا يُبْطِرُهُ ذَلِكَ وَلَا يَكْسِرُهُ ، وَسَاعُودٌ فَأَقُولُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ،
ثُمَّ نَزَلَ ، فَارْتَجَحَ حَصْرًا أَبْلَغَ مِنْهُ .

##

وصعد أبو العنابس منبراً من منابر الطائف ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
أما بعد ، فأرتجح عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟ قالوا : لا ،
قال : فما ينفعني ما أريد أن أقول لكم ، ثم نزل ؛ فلما كان في الجمعة الثانية ،
وصعد المنبر وقال : أما بعد ، أرتجح عليه ، فقال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟
قالوا : نعم ، قال : فما حاجتكم إلي أن أقول لكم ما علمتكم ؟ ثم نزل ؛ فلما كانت
الجمعة الثالثة ، قال : أَمَا بَعْدُ : فأرتجح عليه ، قال : أتدرون ما أريد أن أقول لكم ؟
قالوا : بعضنا يدرى ، وبعضنا لا يدرى ، قال : فليُخبرِ الذي يدرى منكم الذي
لا يدرى ، ثم نزل .

[١] السيب : العطاء ، وفي رواية : « فيتسبب عند مجيئه سيبه » .

[٢] وفي رواية : « فسا » أى اشتدّ وصعب . [٣] تأتي له : ترفق ، وفي رواية :

« فالتأى » بالنون . [٤] يضطرب .

[٥] الحاد اللسان ، وفي رواية : « ويرتجح على البلغ لسانه » ، وفي أخرى : « وقد يرتجح على
اللسن لسانه ، ولا ينظره القول إذا اتسع ، ولا يتيسر إذا امتنع ، ومن لم تمكن له الخطوة ، غطيق أن
تمنّ له النبوة » وفي أخرى : « وقد يعاصى على الذرب لسانه ، ثم لا يكابر القول إذا امتنع ، ولا يردّ
إذا اتسع ، وأولى الناس من حذر على النبوة ، ولم يؤاخذ على الكبوة ، من عرف ميدانه ، اشتهر إحسانه
وسأعود وأقول » .



وولى اليمامة رجل من بنى هاشم يعرف بالدندان ، فلما صعد المنبر ارتج عليه ، فقال :

« حَيَّاَ اللهُ هَذِهِ الْوَجُوهَ ، وَجَعَلَنِي فِدَاءَهَا ، إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ طَائِفِي بِاللَّيْلِ أَنْ لَا يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَتَانِي بِهِ ، وَإِنْ كُنْتُ أَنَا هُوَ » ، ثم نزل .



وخطب عبد الله بن عامر ^(١) بالبصرة في يوم أضحى ، فأرتج عليه ، فكث ساعة ، ثم قال :

« وَاللَّهِ لَا أَجْمَعُ عَلَيْكُمْ عِيًّا وَوَلُؤْمًا ، مَنْ أَخَذَ شَاةً مِنَ الشُّوقِ فَهِيَ لَهُ ، وَتَمَّتْهَا عَلَيَّ » .



قال الجاحظ : ولما حصر عبد الله بن عامر على منبر البصرة ، شقَّ ذلك عليه ، فقال له زياد : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّكَ إِنْ أَقَمْتَ عَامَّةً مَنْ تَرَى ، أَصَابَهُ أَكْثَرُ مِمَّا أَصَابَكَ » .



وكان سعيد بن جندل الكلبي على قنسرين ^(٢) ، فوثب عليه زفر بن الحارث ، فأخرجه منها ، وباع لابن الزبير ^(٣) ، فلما قعد زفر على المنبر قال : « الحمد لله الذي أقعدني مقعد الغادر الفاجر » ، وحصر ، فضحك الناس من قوله .

[١] انظر هامش الجزء الأول ص ١٨٠ . [٢] كورة بالشام . [٣] انظر هامش الجزء

✱

وصعد عدي بن أرطاة^(١) المنبر، فلما رأى جماعة الناس حصر فقال: « الحمد لله الذي يطعم هؤلاء ويستقيمهم » .

✱

وصعد رزح بن حاتم المنبر، فلما رآهم شفقوا^(٢) أبصارهم، وفتحوا أسماعهم نحوه، حصر فقال: « نكسوا رؤوسكم، وغضوا أبصاركم، فإن المنبر مرة كبت صعب، وإذا يسر الله فتح قفل يسر » .

✱

وكان عبد ربه اليشكري حاملاً لعيسى بن موسى^(٣) على المدائن، فصعد المنبر، فحمد الله وأرتج عليه، فسكت ثم قال: « والله إني لأكون في بيتي فتجىء على لساني ألف كلمة، فإذا قتت على أعوادكم هذه جاء الشيطان فحأها من صدري، ولقد كنت وما في الأيام يوم أحب إلى من يوم الجمعة، فصرت وما في الأيام يوم أبغض إلى من يوم الجمعة، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه » .

✱

وأرتج على معن بن زائدة، فضرب المنبر برجله، ثم قال: « فتى حرؤوب، لا فتى منابر » .

✱

وحدث عيسى بن عمر قال:

خطب أمير مرة فانقطع فحجل، فبعث إلى قوم من القبائل عابوا ذلك وأنفهم^(٤)، وفيهم يربوعي جند، فقال: اخطبوا، فقام واحد فرأى في الخطبة،

[١] كان حامل يزيد بن عبد الملك على البصرة .

[٢] شفقته كضربه وعلقه شفقونا : نظر إليه بمؤخر عينيه ، أو رفع طرفه ناظرا إليه كالمتعجب أو كالكاره .

[٣] هو عيسى بن موسى ابن أخي المصور وكان أمير الكوفة . [٤] لفهم : جههم .

حتى إذا بلغ « أما بعد » قال : أما بعد ، أما بعد ، ولم يدّر ما يقول ، ثم قال : فإن امرأتى طالق ثلاثاً ، لم أريد أن أجمع^(١) اليوم فمنعتنى ، وخطب آخر ، فلما بلغ « أما بعد » بقي ونظر ، فإذا إنسان ينظر إليه ، فقال : لعنك الله ! ترى ما أنا فيه ، وتلمحني ببصرك أيضاً ! وقال أحدهم : رأيت القراقير^(٢) من السفن تجرى بيني وبين الناس ، وصعد اليربوعي نخطب فقال : « أما بعد » فوالله ما أدرى ما أقول ، ولا فيم أقتموني ، أقول ماذا ؟ » فقال بعضهم : قل في الزيت ، فقال : « الزيت مبارك^(٣) ، فكلوا منه وادّهنوا » .

قال : فهو قول الشطار^(٤) اليوم ، إذا قيل : لم فعلت ذا ؟ فقل في شأن الزيت ، وفي حال الزيت .



وروى الجاحظ أنه قيل لرجل من الوجوه : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما صعد حصروا وقال : « الحمد لله الذي يرزق هؤلاء » وبقى ساكناً فأنزلوه ، وصعد آخر ، فلما استوى قائماً ، وقابل بوجهه وجوه الناس ، وقعت عينه على صلعة^(٥) رجل فقال : « اللهم العن هذه الصلعة » .

[١] جمع الناس بالتشديد : أي شهدوا الجمعة ، كما يقال : عيّدوا : أي شهدوا العيد .

[٢] القراقير جمع قرقر كمصفور : وهي السفينة أو الطويلة أو العظيمة .

[٣] يشير إلى الآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ، ولو لم تمسسه نار ، نور على نور » .

[٤] الشطار جمع شاطر : وهو من أعيان أهله خبثاً ، والمراد به هنا أهل الدنارة والمحباب الوادر

✽

وقيل لوازع اليشكريّ : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما رأى جمع الناس قال : « لولا أن امرأتى لعننا الله حملتني على إتيان الجمعة اليوم ما جمعتُ ، وأنا أُشهدُكم أنها مني طالق ثلاثا » .

✽

وَدُعِيَ أَيُوبُ بْنُ الْقِرِّيَّةِ لِكَلَامِ ، فَاحْتَبَسَ الْقَوْلَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : « قَدْ طَالَ السَّمَرُ ، وَسَقَطَ الْقَمَرُ ، وَاشْتَدَّ الْمَطَرُ ، فإِذَا يُدْتَنَظَرُ ؟ » فَأَجَابَهُ فَتَى مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ فَقَالَ : « قَدْ طَالَ الْأَرْقُ ، وَسَقَطَ الشَّفَقُ ، وَكَثُرَ اللَّتَقُ ^(١) ، فَلْيَنْطِقْ مِنْ نَطَقِ »

✽

وجاء في أمالي السيد المرتضى :

روى أن بعض خلفاء بني العباس - وأظنه الرشيد - صعد المنبر ليخطب ، فسقطت على وجهه ذبابة ، فطردها ، فرجعت ، فحصر وأرتج عليه ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ ^(٢) مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ثم نزل ، فاستحسن ذلك منه .

✽

وروى أن رجلا صعد المنبر أيام يزيد بن معاوية ، وكان واليا على قوم فقال لهم : « أيها الناس : إني إن لم أكن فارسا طبيا ^(٣) بهذا القرآن ، فإن معي من أشعار العرب ما أرجو أن يكون خلفا منه ، وما أساء القائل أخو البراجم حيث قال :

[١] لئلا يؤمنوا كفرح : ركعت ريمه وكثرنداه . [٢] وكانوا يطلون أصنامهم بالطيب والزعفران ، ويطلقون عليها الأبواب ، فيدخل الذباب من الكوى فيأكله . [٣] ماهرا حاذقا .

وما عاجلاتُ الطير يُدنين للفتى رَشَادًا ، ولا من رَيْثِهِن ينجِبُ ^(١)
 وَرُبَّ أُمُورٍ لَا تَضِيرُكَ ضَيْرَةٌ وَلِلْقَلْبِ مِنْ مَخْشَاتِهِن وَجِيبُ ^(٢)
 ولا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُوطِنُ نَفْسَهُ على نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنُوبُ
 وفي الشكِّ تَفْرِيطٌ وفي الحزمِ قُوَّةٌ وَيُخْطِئُ الْفَتَى فِي حَدْسِهِ وَيُصِيبُ ^(٣)

فقال رجل من كلب : إن هذا المنبر لم يُنصَّب للشعر ، بل ليُحمد الله تعالى ،
 وَيُصَلَّى على النبي وآله عليهم الصلاة والسلام ، وللقرآن ، فقال : أما لو أنشدتكم
 شعر رجل من كلب لسرَّكم ، فكتب إلى يزيد بذلك فعزله ، وقال : قد كنت
 أراك جاهلاً أحمق ، ولم أحسب أن الحمق يبلغ بك إلى هذا المبلغ ، فقال له :
 أحمق مني مَنْ وَلَا نِي !



وخطب عتَّاب بن ورقاء ^(٤) فحث على الجهاد فقال : هذا كما قال الله تعالى

في كتابه :

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وعلى الغايات جرُّ الذُّيُولِ ^(٥)

[١] كانت العرب تدين بالطير السائح ، وهو ما ولاك ميامنه ، وأن يمرّ من مياسرك إلى ميامنك ،
 وتنشأ بالبارح ، وهو ما ولاك مياسره ، وأن يمرّ من ميامنك إلى مياسرك ، وذلك لأنه لا يمكنك رميه إلا
 بأن تنحرف له ، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير ، فيعتمدها ، وعاجلات الطير هي أن يخرج الإنسان من
 منزله إذا أراد أن يزجر الطير ، فاسرّ به أوّل ما يبصر فهو عاجلات الطير ، وإن أبطأت عنه وانظرها
 فقد رأت أي أبطأت ، والأول عندهم محمود ، والثاني مذموم .

[٢] خشية خشية ومخشاة : خافه ، ووجب القاب وجيباً : خفق واضطرب . [٣] الحدس : الظن
 والتخمين ، والأبيات لضاني بن الحارث البرجمي (انظر زهر الآداب ٢ : ٨٨) .

[٤] انظر الجزء الثاني ص ٤٣٣ و ٤٤٥ [٥] البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وذلك أن مصعب بن الزبير
 قد أن قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي دما امرأته - وهي بنت العمان بن بشير - إلى البراءة من المختار ،
 فأبت فقتلها ، فقال في ذلك ابن أبي ربيعة :

إن من أعظم الكبائر عندي قتل حسناء عادة عطبول

وخطب يوماً فقال : هذا كما قال الله تبارك وتعالى : « إنما يتفاضل الناس بأعمالهم ، وكل ما هو آتٍ قريبٌ » قالوا له : « إن هذا ليس من كتاب الله » قال : « ما ظننتُ إلا أنه من كتاب الله » .

وخطب وكيع بن أبي سُودٍ^(١) بخراسان فقال : « إن الله خلق السموات والأرض في ستة أشهر » فقبل له : « إنها ستة أيام » فقال : « وأبيك لقد قُلتها وإني لأستقلها ! » .

وصعد المنبر فقال : « إن ربيعة لم تزل غَضَابًا على الله مذ بعت نبيّه من مُضَرَ ، ألا وإن ربيعة قومٌ كُشِفَ^(٢) ، فإذا رأيتموهم فاطمِنُوا الخيل في مناخِرِها ، فإن فرسًا لم يُطَمِّن في مَنخَرِه إلا كان أشدَّ على فارسه من عدوّه^(٣) » .

وضربت بنو مازن الحُتَاتِ بن يزيد المُجَاشِعِيِّ ، فجاءت جماعة منهم ، فيهم غالبُ أبو الفرزدق فقال : « يا قوم كونوا كما قال الله : لا يعجزِ القوم إذا تعاونوا » .

وخطب عدى بن زياد الإياديّ ، فقال : « أقول لكم كما قال العبد الصالح لقومه : « مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ^(٤) » ، قالوا

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جرّ الذبول

« والمعطبول كمصفور : المرأة الفتية الجميلة المتلثة الطويلة العنق » . [١] انظر الجزء الثاني ص ٢٩٧

[٢] كشف جمع أكشف : وهو من ينزّم في الحرب ، ومن لا ترس معه في الحرب ، ومن لا بيضة على رأسه . [٣] وروى الطبري أن عبد الله بن خازم قال ذلك القول لأصحابه بخراسان ، قال لهم : « إذا

لقيم الخيل فاطمِنوها في مناخِرِها ، فإنه لن يطمن فرس في منخَرِه إلا أدبر أو رمى بصاحبه » . (الطبري

٧ : ٤٦) . [٤] الآية الكريمة : « قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أَرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى . . . »

له: « ليس هذا من قول عبد صالح ، إنما هو من قول فرعون » ، قال : « من قاله فقد أحسن » .

وروى الطبرى أن عبد الله بن الزبير كان ولي أخاه عبيدة على المدينة، ثم نزع عنها ، وكان سبب عزله إياه أنه خطب الناس ، فقال لهم : قد رأيتم ما صنِع (١) بقوم في ناقة قيمتها خمسمائة درهم ، فسمى مقوم الناقة ، وبلغ ذلك ابن الزبير فقال : إن هذا لهو التكلف .

وروى الجاحظ وابن عبد ربه هذا الخبر فقالا : خطب والى اليمامة (٢) ، فقال : « إن الله لا يُقَارُ (٣) عباده على المعاصي ، وقد أهلك الله أمة عظيمة في ناقة ما كانت تساوي مائتي درهم » ، فسمى مقوم ناقة الله .

وخطب قبيصة ، وهو خليفة أبيه (٤) على خراسان ، وأتاه كتابه ، فقال : « هذا كتاب الأمير ، وهو والله أهل لأن أطيعه ، وهو أبى وأكبر منى » .

ودعى مُصعب بن حيان ليخطب في نكاح فخير فقال : لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله ، فقالت أم الجارية : تجل الله موتك ، ألهذا دعوناك؟ .

وخطب أمير المؤمنين الموالى - وهكذا لقبه - خطبة نكاح فخير ، فقال : « اللهم إنا نحمدك ونستعينك ولا نُشْرِكُ بك » .

[١] يشير إلى عمود قوم صالح عليه السلام - انظر هامش الجزء الثانى ص ٢٢٣ .

[٢] لعلها المدينة . [٣] أى لا يقرتم .



وخطب قُتَيْبَةُ بن مُسْلِمٍ على منبر خُرَّاسَانَ ، فسقط القضيب من يده ،
فتفائل له عدوه بالشرِّ ، واغتمَّ صديقه ، فعرف ذلك قتيبة ، فأخذه وقال :
« ليس الأمر على ما ظن العدو ، وخاف الصديق ^(١) ، ولكنه كما قال الشاعر » :
فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقْرَبَهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرُ ^(٢)



وتكلم صَعَصَعَةٌ عند معاوية فَعَرَّقَ ، فقال معاوية : بَهْرَكَ ^(٣) القول ! فقال
صعصعة : إن الجياد نَضَّاحَةٌ بالماء .



وشخص يزيد بن عمر بن هُبَيْرَةَ إلى هشام بن عبد الملك ، فتكلم فقال هشام :
ما مات من خلف مثل هذا ! فقال الأبرش الكلبى : ليس هناك ، أَمَا تَرَاهُ يَرَشِّحُ
جبينه لِضَيْقِ صدره ! قال يزيد : مَالِدَكَ رَشِّحَ ، ولكن لجوسيك في هذا الموضع .



وقال عبيد الله بن زياد : « نِعْمَ الشَّيْءُ الإِمَارَةُ ، لولا قَعْقَعَةُ البريد ،
والتشرُّفُ لِلخُطْبِ » .



وقيل لعبد الملك بن مروان : مَجَلِّ عَلَيْكَ المشيبُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فقال :
كَيْفَ لَا يَمَجَلُّ عَلَىَّ ، وَأَنَا أَعْرِضُ عَقْلِي عَلَى النَّاسِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ؟
« أَوْ قَالَ : شَيْبِنِي صَعُودَ الْمَنَابِرِ وَالخَوْفِ مِنَ اللَّحْنِ » .

(المقد الفريد ٢ : ١٦٢ - ١٦٣ و ٣ : ٢٥٦ ، و عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ و ٢٥٦ و
٢٥٩ ، و أمالي السيد المرتضى ٤ : ١٩ - ٢٢ ، و الأمانى ١٣ : ٤٧ ، ١٧ : ١١١ ، و تاريخ الطبرى
ج ٧ : ص ٩٠ ، ج ٨ : ١٨٨ ، و البيان والتبيين ١ : ٧٤ ، ١٦٣ ، ١٨٦ - ٢ : ١٢٢ ، ١٢٦ ،
١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، و الأمالى ١ : ١١١ ، و تهذيب الكامل ١ : ١٧ ، و سرح العيون
ص ١٢٥ ، ٢٠٥ ، و الصناعتين ص ٢١)

[١] وفي رواية : « كما ساء الصديق ، و سرَّ العدو » . [٢] النوى : الغربة البعيدة .

بدء الخطب وختامها

قال ابن قتيبة في عيون الأخبار :

تبعته خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدت أوائل أكثرها :
« الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ،
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل
له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ،
ووجدت في بعضها : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحكام على طاعته » ،
ووجدت كل خطبة مفتاحها الحمد ، إلا خطبة العيد ، فإن مفتاحها التكبير .
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣١)

وروى ابن عبد ربه في العقد قال :

وكان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته :
« اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم ألقاك » .
وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته : « اللهم
لا تدعنى فى عمرة ، ولا تأخذنى على غرّة ، ولا تجعلنى من الغافلين » .
وكان عبد الملك بن مروان يقول فى آخر خطبته : « اللهم إن ذنوبى قد
عظمت وجلت أن تُحصى ، وهى صغيرة فى جنب عفوك فاعف عني » .
(العقد الفريد ٢ : ١٣٣ ، ١٤٢)

تم بحمد الله

جدول الخطأ والصواب

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
ولى	ولى	١١	١٦٧
يقولون	يقولون	٤	١٧٩
البرء	البرء	١٥	١٩١
الموصل إلى المرغوب	الموصل المرغوب	٥	١٩٣
ولى	ولى	١٣	١٩٣
تتلى	تتلى	١١	٢٠١
الازدراء	الازدراء	١٨	٢٠٥
بضائعا	بضائعا	١٣	٢٠٨
شديد	شديد	١١	٢١١
يضيف	يضيف	١٥	٢٢٢
يداً	يداً	١٣	٢٣٥
غفلنا	غفلنا	٢٠	٢٦٤
أذابت	أذبت	١	٢٧٨
الردى	الردى	١٠	٢٨٧
شربك	شربك	١٤	٣١٣
وتسل	وتسل	١٠	٣١٨
صاب	أصاب	٧	٣٢٠
كالترس	كالترس	١	٣٣٤
التي	لتي	٦	٣٤٠

الصواب	الخطأ	سطر	صفحة
وتشنج	وتشنج	٢	٣٤١
الذلّ	الذلّ	٥	٣٤١

تم الكتاب بحسن توفيقه وعونه تعالى

وسيتبعه إن شاء الله كتاب

جمهرة رسائل العرب

في عصور العربية الزاهرة

فهرس ذيل الجمهرة

الباب الأول

في خطب الأندلسيين والمغاربة

رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية
١٦٦	خطبة عبد الرحمن الداخل يوم حربه مع يوسف الفهري
١٦٧	عبد الرحمن الداخل ورجل من جند قنسرين
١٦٨	عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنئه بفتح سرقسطة
١٦٨	تأديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر
١٧٠	عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضاً
١٧١	يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه
١٧٢	وفاء الوزير ابن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز
١٧٣	خطبة منذر بن سعيد البلوطي في الاحتفال بقدوم رسل ملك الروم
١٧٧	خطبة أخرى له
١٧٨	أحد حساد الرمادي الشاعر والمنصور بن أبي عامر
١٨١	ابن اللبابة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح
١٨٣	دفاع ابن الفخار عن القاضي الوحيدى بحضرة ابن تاشفين
١٨٤	موعظة ابن أبي رندقة الطرطوشي للأفضل بن أمير الجيوش
١٨٥	خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين
١٨٨	مقال لسان الدين بن الخطيب في الحضي على الجهاد
١٩٠	ما خاطب به لسان الدين تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني
١٩٢	وصية لسان الدين لأولاده

وصية موسى بن سعيد العنسى لابنه	٢١٦
خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف	٢٢٦
» القاضى عياض التى ضمنها سور القرآن	٢٢٩
» سعيد بن أحمد المقرئ التى ضمنها سور القرآن	٢٣١
» الكفعمى التى ضمنها سور القرآن أيضاً	٢٣٤

الباب الثانى

فى خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

خطبة أبى بكر بن عبد الله بالمدينة	٢٣٦
وصية أعمى من الأزدي لشاب يقوده	٢٤١
» رجل لآخر وقد أراد سفراً	٢٤١
» » لابنه وقد أراد التزوج	٢٤٢
» بعض العلماء لابنه	٢٤٢
» لبعض الحكماء	٢٤٢
» أخرى	٢٤٣
» »	٢٤٣
عظة لبعض الحكماء	٢٤٤
» نصيحة »	٢٤٤
كلمات شتى لبعض الحكماء	٢٤٤
رجل من العرب والحجاج	٢٤٦
أحد الوافدين على عمر بن عبد العزيز	٢٤٦
كاتب وأمير	٢٤٧

وصف الملبأة	٢٤٧
بعض البلقاء يصف رجلا	٢٤٩
خمس جوار من العرب يصفن خيل آبائهن	٢٤٩
رجل من العرب يصف مطراً	٢٥٢

الباب الثالث في نثر الأعراب

قولهم في الوعظ والتوصية	٢٥٣
مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك	٢٥٣
أعرابي يعظ هشام بن عبد الملك	٢٥٤
خطبة أعرابي	٢٥٤
» أخرى	٢٥٥
» »	٢٥٦
أعرابية توصي ابنها وقد أراد السفر	٢٥٦
أعرابية توصي ابنها	٢٥٧
أعرابي يوصي ابنه	٢٥٧
» ينصح لابنه	٢٥٧
» » »	٢٥٨
» » لأخيه	٢٥٨
» يعط أخاه	٢٥٨
» » صاحبه	٢٥٩
» » أخاه	٢٥٩
» » رجلا	٢٥٩

أعرابي يعظ رجلا	٢٦٠
أعرابي يعظ رجلا	٢٦٠
كلام أعرابي لابن عمه	٢٦٠
كلمات حكيمه الأعراب	٢٦١
أجوبة الأعراب	٢٦١
مجاوبة أعرابي للحجاج	٢٦٧
مساءلة الحجاج أعرابياً فصيحاً	٢٦٨
مجاوبة أعرابي لعبد الملك بن مروان	٢٦٨
مجاوبة أعرابي لخالد بن عبد الله القسرى	٢٦٩
أجوبة شتى	٢٦٩
قولهم فى الاستمناح والاستجداء	٢٧٢
أعرابي يجتدى عتبة بن أبى سفيان	٢٧٢
أعرابي يجتدى عمر بن عبد العزيز	٢٧٣
خطبة أعرابي بين يدى هشام بن عبد الملك	٢٧٣
مقام أعرابي بين يدى هشام	٢٧٣
أعرابي يستجدى عبيد الله بن زياد	٢٧٤
أعرابية تستجدى عبد الله بن أبى بكره	٢٧٥
أعرابي يستجدى خالد بن عبد الله القسرى	٢٧٦
» » معن بن زائدة	٢٧٧
خطبة الأعرابي السائل فى المسجد الحرام	٢٧٧

صورة أخرى	٢٧٩
أعرابي يستجدي	٢٨٠
» »	٢٨٠
» »	٢٨١
» »	٢٨١
أعرابية تستجدي	٢٨٢
أعرابي يستجدي	٢٨٢
» »	٢٨٣
» »	٢٨٣
» »	٢٨٣
أعرابية تستجدي	٢٨٤
أعرابي يستجدي	٢٨٤
» »	٢٨٥
» »	٢٨٥
» »	٢٨٥
» »	٢٨٥
» »	٢٨٦
» »	٢٨٦
» »	٢٨٦
» »	٢٨٦
يسأل رجلا حاجة له	٢٨٦
قولهم في بكاء الموتى	٢٨٦
أعرابية تبكي ابنها	٢٨٧

٢٨٨	حديث امرأة سكنت البادية قريباً من قبور أهلها
٢٩٠	حديث امرأة مات ابنها بين يديها
٢٩٠	قولهم في الشكوى
٢٩٠	أعرابي يشكو حاله
٢٩١	كلمات شتى في الشكوى
٢٩٦	قولهم في العتاب والاعتذار
٢٩٧	قولهم في المرح
٣٠٧	قولهم في الذم
٣١٤	قولهم في الغزل
٣١٩	قولهم في الوصف
٣١٩	أعرابي يصف مطراً
٣٢٠	» » مطراً
٣٢١	» » مطراً
٣٢٢	ثلاثة غلمة من الأعراب يصفون مطراً
٣٢٤	أعرابي يصف مطراً
٣٢٥	» » »
٣٢٦	» » »
٣٢٧	» » »
٣٢٨	» » »
٣٢٩	» » »

أعرابي يصف مطراً	٣٢٩
» » »	٣٣٠
» » أرضاً	٣٣٠
رائد يصف أرضاً جديدة	٣٣١
» » »	٣٣٢
» » »	٣٣٢
أعرابي يصف أرضه وما	٣٣٣
بلداً	» » ٣٣٤
أشد البرد	» » ٣٣٤
إبلا	» » ٣٣٤
ناقة	» » ٣٣٥
خيلاً	» » ٣٣٥
» » »	٣٣٥
» » »	٣٣٥
» » »	٣٣٥
فرساً	» » ٣٣٦
خاتماً	» » ٣٣٦
أطيب الطعام	» » ٣٣٦
السويق	» » ٣٣٧
الجمال	» » ٣٣٧
أبو الخش يصف ابنه	٣٣٧
أعرابي يصف بنيه	٣٣٨
أعرابي يصف أخويه	٣٣٩

٣٣٩ قولهم في الدعاء

٣٣٩ دعاء أعرابي

» » ٣٤١

» » ٣٤٢

» » ٣٤٣

» » ٣٤٤

» » ٣٤٤

» » ٣٤٤

» » ٣٤٤

» » ٣٤٥

» » ٣٤٥

» » ٣٤٥

» » ٣٤٥

» » ٣٤٥

» » ٣٤٦

» » ٣٤٧

» » ٣٤٧

» » ٣٤٧

٣٤٨ أدعية شتى

٣٥٢ نواذر وملح لبعض الأعراب

الباب الرابع في خطب النكاح

خطبة قریش فی الجاهلیة	٣٦٠
» النبی صلی الله علیه وسلم فی زواج السیدة فاطمة	٣٦٠
» الامام علی کرم الله وجهه	٣٦١
» عتبة بن أبی سفیان	٣٦٢
» شیبب بن شیبة	٣٦٢
» الحسن البصری	٣٦٢
» ابن الفقیر	٣٦٣
» عمر بن عبد العزیز	٣٦٣
» أخرى له	٣٦٣
» بلال	٣٦٤
» خالد بن صفوان	٣٦٤
» أعرابی	٣٦٤
» المأمون	٣٦٥

الباب الخامس

فی خطب من أرتج علیهم ونوادر طریفة لبعض الخطباء	٣٦٦
بدء الخطب وختامها	٣٧٧